

مقدمات في أقوال وأعمال القلوب

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرّجبي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

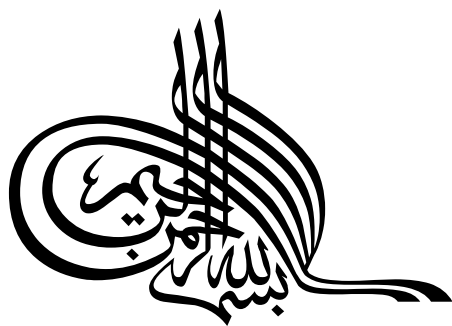
الكتاب رقم (١)

مقدمان في أقوال وأعمال القلب

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة الموسوعة.....
٩	مقدمات في أقوال وأعمال القلب.....
١٢	قول القلب وعمله.....
١٦	أهمية عمل القلب.....
٢٠	هل القلب هو محل العقل ؟.....
٢٤	لقبول المحل لابد من تفريغه من ضده.....
٢٨	أقسام القلوب.....
٢٩	الأول: القلب السليم:.....
٣١	الثاني: القلب الميت:.....
٣٣	الثالث: القلب المريض:.....
٣٩	حركات القلب بحسب قوته وضعفه.....
٤٦	الطريق إلى سعادة القلب.....
٤٨	القلب الطاهر:.....
٥٠	علامات صحة القلب وسعاده.....
٥٦	أمراض القلب.....
٦٥	أسباب مرض القلب.....
٧٠	المفسد الثاني من مفسدات القلب:.....

٧١	المفسد الثالث من مفسدات القلب:
٧٢	المفسد الرابع من مفسدات القلب:
٧٢	المفسد الخامس:
٧٤	السبب السادس من مفسدات القلب:
٧٤	السبب السابع من مفسدات القلوب:
٧٦	علاج أمراض القلوب
٩١	وقفه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بالله أبدأ، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وإياه أحمد، وإليه أتوجه، فنعم المولى ونعم الرب ونعم الإله، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرها ليوم لقيائه، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم في المبدأ والمنتهى، وإليه ربنا المنتهى.

اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وعليك الثناء الحسن كله، أوله وآخره، علانيته وسره، أحق من ذكر، وأحق من شكر، وأحق من حمد، وأحق من عُد. عز وجل وتقدس وتعالى عن النظر وعن الند وعن الشريك، اللهم لك الحمد لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، خلقتنا ولم نك شيئًا، ورزقتنا من غير حول منا ولا قوة، وجعلتنا من خير أمة، وخصصتنا بأعظم نبي، وأنزلت إلينا خير كتاب، وهديتنا للإسلام والإيمان. اللهم قد عجزنا عن إحصاء نعمك فكيف بشكرها؟! فلك الحمد والشكر.

وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله، وخيرته من خلقه، وصفوته من أوليائه، له المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، والوسيلة العالية، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهدى به من الضلالة، وأنقذ به من الهلكة، وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ وَنَصَحَ الْأُمَّةَ وَعَبَدَكَ
حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينَ، اللَّهُمَّ فَاجِزْهُ عَنَا خَيْرَ مَا جَزَيْتَ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، اللَّهُمَّ وَامْلَأْ
قُلُوبَنَا مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَ سُنَّتِهِ، وَالثَّبَاتَ عَلَى شَرْعَتِهِ، وَالْمَوْتَ عَلَى مِلَّتِهِ،
وَالثَّبَاتَ عِنْدَ السُّؤَالِ عَلَى حُجَّتِهِ، وَالْحِشْرَ تَحْتَ لَوَائِهِ وَفِي زِمْرَتِهِ، وَالرِّيَّ مِنْ
حَوْضِهِ، وَأَسْعِدْنَا بِشِفَاعَتِهِ، وَأَدْخِلْنَا مَعَهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِكَ وَمُنْتِكَ وَكَرَمِكَ
وَجُودِكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا كَرِيمُ يَا وَهَّابُ، يَا رَازِقُ يَا
رَازِقُ يَا رَبَّنَا يَا اللَّهُ!

أَخِي فِي اللَّهِ، إِنَّ أَعْظَمَ الْأَعْضَاءِ خَطَرًا وَأَشَدَّهَا أَهْمِيَّةً، وَأَنْفَعَهَا إِنْ صَلَحَ،
وَأَضَرَّهَا إِنْ فَسَدَ، هُوَ الْقَلْبُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ^(١) عَنِ النَّعْمَانَ
بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ
صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». فَحَقِيقٌ بِكُلِّ
نَاصِحٍ لِنَفْسِهِ بِصِيرٍ بِغَايَةِ خَلْقِهِ، مَرِيدٍ لِحَسَنِ مَعَادِهِ وَحَشْرِهِ، أَنْ يُؤَلِّيَ هَذِهِ
الْمَضْغَةَ غَايَةَ الْأَهْمِيَّةِ، وَأَنْ يَجْرُسَهَا وَيَرَاقِبَهَا وَيَغْذِيهَا وَيَنْقِيهَا؛ حَتَّى تَصْفُو وَتَرْكَو
وَتَكُونَ مَضْغَةً مَرْضِيَّةً، فَهِيَ مَحَلُّ نَظَرِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَمِنْهَا وَإِلَيْهَا مَبْدَأُ وَمُنْتَهَى
الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ سَلِيمًا مُؤْمِنًا خَالِصًا، لَذَا فَلَمَّا كَانَ لِهَذَا
الْقَلْبِ مِنْ أَهْمِيَّةٍ وَخَطَرٍ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْلُو لِنَفْسِي وَإِخْوَتِي بَعْضَ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ،
عَسَى أَنْ يَصَحَّ الْقَلْبُ بَعْدَ السَّقَمِ، وَيَتُوبَ بَعْدَ اللَّمَمِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكِي وَهُوَ
الْمُسْتَعَانُ وَالْمُسْتَعَاذُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

(١) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وسمّيت هذه الموسوعة: (تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب)، كتبت فيها عن أعمال القلب، وأدخلت فيه بعض أقواله كاليقين والثقة بالله لأهميتها في صلاحه، وتأثيره المباشر على أعماله، إضافة إلى بعض ثمرات تلك الأقوال والأعمال القلبية كالحياة والسكينة والطمأنينة، وبما أنّ الكتاب ضخم وصفحاته بالألوف فاخترت بعد استشارة ربي تبارك وتعالى أن أجعل أبوابه كُتباً مستقلةً مُشيّدة لتفاصيل مبانيه، جامعة لشوارد معانيه، سائلاً ربي السداد والتوفيق والهدى والإخلاص، إنه خير مسؤول وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله وسلّم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الدميحي

١٤٣١/٦/٢١

aldumaiji@Gmail.com

مقدمات في أقوال وأعمال القلب

تعريف القلب:

قال الأزهري رَحِمَهُ اللهُ في معجم تهذيب اللغة: «قال الليث: القلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. قال الفراء: يقول لمن كان له عقل. قال: هذا جائز في العربية»^(١).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ في معجم مقاييس اللغة: «القاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على خالص الشيء وشريفه، والآخر على ردّ الشيء من جهة إلى جهة، فالأول: القلب: قلب الإنسان وغيره، سميّ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأرفعه قلبه»^(٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ في الصحاح: «القلب: الفؤاد، وقد يُعبر به عن العقل»^(٣).

وقال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ في لسان العرب: «القلب: الفؤاد، والجمع: أَقْلُبٌ وَقُلُوبٌ، وكأن القلب أخص من الفؤاد في الاستعمال. وقال بعضهم:

(١) (ص ٢٦-٣٠).

(٢) (ص ٨٢٨).

(٣) (١/ ١٨٢).

سمي القلب قلباً لتقلبه، وأنشد:

ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يصرف بالإنسان أطواراً
وقال الفيروز آبادي رَحِمَهُ اللهُ في القاموس المحيط: «القلب: الفؤاد، أو
أخص منه، والعقل، ومحض الشيء»^(١).

قلت: إذن فقد أعاد علماء اللغة معنى القلب إلى: الفؤاد أو مضغة منه
والعقل وخالص الشيء ومحضه. فحسباً هو المضغة ومعنى هو العقل أو
خالص الشيء، وقد يكون من خصائص الروح وإليه أميل، والله أعلم.

وقد يعبر بالفؤاد والصدر عن القلب، قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره
لآية البقرة: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]: فيه دليل على فضل القلب على
جميع الجوارح، والقلب للإنسان وغيره، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه،
فالقلب موضع الفكر، وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أَقْلِبُهُ قلباً إذا رددته
على بداءته، وقلبت الإناء: رددته على وجهه، ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا
العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه، ولتردها عليه، كما قيل:

ما سمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلبٍ وتحويل
... إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: الفائدة السادسة: القلب قد يعبر عنه بالفؤاد

والصدر، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ

نَشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿[الشرح: ١] يعني في الموضعين، وقد يعبر به عن العقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عقل؛ لأن القلب هو محل العقل في قول الأكثرين، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد»^(١).



(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٨٩).

قول القلب وعمله

أهل السنة والجماعة يدخلون الأعمال في مسمى الإيمان وهذا بإجماعهم^(١) وهو الحق الذي لا مرية فيه.

ويجعلون القسمة رباعية فيقولون: إن الإيمان قول القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تبع للباطن لازم له، متى صالح صالح الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابد: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه...»^(٢).

إذن فالقول قولان والعمل عملان، فالقول الأول: قول القلب، وهو إقراره وتصديقه بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

والقول الثاني: هو قول اللسان، أي: نطقه، كالشهادتين.

(١) وقد شذ عن ذلك بعض الأكابر، ولكن شذوذه مردود مسبوق بالإجماع المنعقد قبله.

(٢) الإيمان الكبير من مجموع الفتاوى (١٨٧ / ٧).

وأما العمالان: فعمل القلب؛ كالمحبة والرجاء والخوف والتوكل ونحو ذلك. وفرقها عن قول القلب أن قول القلب فيه سكون وقرار، أما الأعمال ففيها حركة وانبعاث، والله أعلم.

والعمل الثاني: هو أعمال الجوارح كالصلاة والحج والجهاد ونحوها.

فالإيمان يشمل هذا كله يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها، وهي شعب وأجزاء، منها ما يزول الإيمان بزوالها كالإيمان بالله وملائكته، أو الشهادتين مع القدرة عليهما، أو محبة الله تعالى أو رسوله ﷺ، أو جنس العمل.

ومنها ما لا يزول الإيمان بزوالها لكن ينقص ويضعف كإمالة الأذى عن الطريق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين: تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا: قول القلب. قال الجنيد بن محمد: التوحيد: قول القلب. والتوكل: عمل القلب، فلا بد فيه قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان.

ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في

الحديث الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»^{(١)(٢)}.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علماً وحالاً هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان.

فالدين أول ما يُبنى من أصوله ويكمل من فروعِهِ، كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية، والقصص والوعد والوعيد، ثم أنزل بالمدينة لما صار له قوّة فروعِهِ الظاهرة من الجمعة والجماعة... فأصوله تمد فروعِهِ وتثبتها، وفروعِهِ تكمل أصوله وتحفظها، فإذا وقع نقص ظاهر فإنما يقع ابتداء من جهة فروعِهِ، لهذا قال ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة»^(٣). وروي عنه أنه قال: «أول ما يرفع الحكم بالأمانة»^(٤) والحكم هو عمل الأمراء وولاية الأمور...»^(٥).

ولا يعني هذا أن القلب هو المحرك الوحيد للجوارح، بل قد يكون العكس، فأعمال الجوارح لها أثر مباشر في صلاح القلب وفساده. قال شيخ

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه (ص ٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨٦ / ٧).

(٣) الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٢٨)، والضياء في المختارة (١ / ٤٩٥)، وصححه الألباني بشواهد الكثرة في الصحيحة (٣١٩ / ٤).

(٤) أحمد (٥ / ٢٥١)، وذكره الوادعي في الصحيح المسند (٤٩٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٦٥ / ١٠).

الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «والعمل له أثر في القلب من نفع وضرر وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحيها عدل لها، وفسادها ظلم لها.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]،
وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

قال بعض السلف: إن للحسنة لنورًا في القلب، وقوة في البدن، وضياءً في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق»^(١).



(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٩٨).

أهمية عمل القلب

شأن القلب عظيم جدًّا فهو موضع نظر الله تعالى من العبد، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

والمؤسف غفلة بعض الفضلاء عنها، ولا أقصد من انحرف اعتقادًا أو سلوكًا كالمتكلمين أو الصوفية، بل من معشر أهل السنة والجماعة المتبعين لسلف أمتهم الصالح، فكيف يغفلون عن منبع السعادة والفلاح، وهو صلاح القلب؟!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ معلقًا على حديث النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢): فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرمات، واتقائه للشر بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان قلبه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله تعالى، ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه؛ صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات؛ حذرًا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدًا، قد استولى عليه اتباع الهوى، وطلب ما يحبه ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه.

وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده^(١)، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك قلبًا سليمًا»^(٢). فالقلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشيته وخشية ما يباعد منه، وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه»^(٣). والمراد باستقامة القلب أن يكون ممتلئًا من محبة الله تعالى ومحبة طاعته وكراهة معصيته.

وقال الحسن لرجل: داو قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح

(١) من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أحمد (١٧١١٤)، والطبراني في الكبير (٧ / ٣٣٥، ٣٣٦) بسند جَوْدَه الألباني في الصحيحة (٣٢٢٨).

(٣) أحمد (١٣٠٤٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦ / ٨٢٢).

قلوبهم^(١). يعني أن مراده منهم ومطلوبه صلاح قلوبهم، فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته، ومحبه وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، ويمتلى من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى لا إله إلا الله، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تأله وتعرفه وتحبه وتخشاه هو إله واحد لا شريك له، ولو كان في السموات والأرض إله يؤله سوى الله لفسدت بذلك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فعلم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها كلها لله، وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته...»^(٢).

وللإمام ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ كَلامٌ نفيس في الفوائد حيث قال: «أَنزَهُ الموجدات^(٣) وأطهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدرًا وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله، ولذلك صلح لاستوائه عليه. وكل ما كان أقرب إلى العرش؛ كان أنور وأنزه وأشرف مما بُعد عنه، ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها؛ لقربها من العرش؛ إذ هو سقفها.

(١) ذكره في جامع العلوم (١ / ٧٣) وذكره الغزالي في الإحياء (٥ / ١٢٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٧٣).

(٣) لو قال (المخلوقات) لكان أليق، والله أعلم.

وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق. ولهذا كان أسفل سافلين شرّ الأمكنة وأضيقتها وأبعدها من كل خير.

وخلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفة ومحبة وإرادته، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبة وإرادته، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. فهذا من المثل الأعلى، وهو مستو على قلب المؤمن؛ فهو عرشه.

وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها عن كل دنس وخبث؛ لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها، فضاقت وأظلم وبعد من كماله وفلاحه، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب هو عرش الرحمن؛ ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير، وقلب هو عرش الشيطان؛ فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهَمُّ، فهو حزين على ما مضى، مهموم بما يُستقبل، مهموم في الحال»^(١).



(١) الفوائد (ص ٣٨).

هل القلب هو محل العقل؟

تقدم معنا قول الإمام القرطبي: «القلب هو محل العقل عند الأكثرين»^(١)، فالمسألة مطروقة قديماً، واختلف الناس فيها على أقوال ثلاثة:

القول الأول:

أن محل العقل هو الدماغ فقط، وما القلب إلا آلة لضخ الدم في جسم الآدمي، لذا فالإنسان يعتبر ميتاً بموت الدماغ، حتى ولو كان القلب ينبض بمساعدة الآلات ونحوها، وهذا هو قول المعتزلة وبعض من تبعهم من الفقهاء، وبه يقول الفلاسفة وغالب الأطباء^(٢)، ونقل ذلك عن الإمام أحمد^(٣). وقد وجّه قوله شيخ الإسلام بأن هذا القول على أن القلب هو باطن الإنسان مطلقاً^(٤).

القول الثاني:

وبه قال كثير من العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة، وهو قول كثير من المفسرين، ووافقهم بعض الأطباء: أن محل العقل هو القلب.

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٨٩).

(٢) عبادة القلب، د. عبد الرحمن المحمود (ص ٥).

(٣) المنطق من مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

(٤) المنطق من مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

ومن أدلتهم: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فنسب العمى إلى القلوب، وأوضح أن القلوب في الصدور.

ومن السنة: حديث رسول الله ﷺ: «أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١) فسمّاها مضغّة، والمضغّة هي قطعة من اللحم، وفيه إشارة واضحة إلى القلب الذي في الصدر.

كذلك حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٢)، وحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «تَعْرِضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا...»^(٣). وكحادثه شق صدره ﷺ^(٤)، ونحوها من الأحاديث^(٥).

القول الثالث:

أن العقل له تعلق بالقلب والدماغ جميعًا، فمبدأ الفكر والنظر في الدماغ،

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤١)، وابن ماجه (٣٨٣٤) وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم (١٤٤).

(٤) رواه مسلم (٧٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) وانظر رسالة: عبادة القلب للمحمود (ص ٩).

ومبدأ الإرادة في القلب، وبه قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، قال: «وأما قوله: أين مسكن العقل فيه؟

فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]. وقيل لابن عباس: بماذا نلت العلم؟ قال: «بلسان سؤال وقلب عقول»^(١). لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية التي في الجانب الأيسر من البدن، التي جوفها علقة سوداء، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد».

وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً، فإن قلب الشيء باطنه، كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك، ومنه سُمِّيَ القلب قلباً لأنه أخرج قلبه وهو باطنه، وعلى هذا فإن أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه أيضاً، ولهذا قيل: إن العقل في الدماغ كما يقوله كثير من الأطباء، ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة من أصحابه: إن أصل العقل في القلب، فإذا كمل انتهى إلى الدماغ.

والتحقيق أن الروح التي هي النفس لها تعلق بهذا وهذا، وما يتصف من

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٣٣٠)، ورويت عن علي رضي الله عنه وعن دغفل النسابة. (المعجم الكبير للطبراني ٤٢٠١).

العقل به يتعلق بهذا وهذا، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب.

والعقل يراد به العلم، ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد، فلا بد أن يكون القلب متصوراً، فيكون منه هذا وهذا، ويتبدئ ذلك من الدماغ وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح»^(١).

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «ما يعلمه الإنسان من حق وباطل فإنه يقوم بقلبه ويحل بروحه المنفوخة فيه، المتصلة بالقلب الذي هو المضغة الصنوبرية الشكل، وقد قيل: إنه يقوم بجميع الجسد، وليس لبعض ذلك مكان من الجسد يتميز به عن مكان آخر باتفاق الناس؛ وإنما الروح هي التي يعبر عن محلها الأول بالقلب تارة، وتسميها الفلاسفة النفس الناطقة، وهي الحاملة لجميع الاعتقادات، فتنور قلوب المؤمنين وأرواحهم بالمعارف الإلهية، وتظلم قلوب الكافرين بالعقائد الفاسدة، كما ضرب الله مثل المؤمن والكافر في سورة النور»^(٢).



(١) المنطق من مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٩٠، ١٩١).

لقبول المحل لابد من تفریغه من ضده

فلا اجتماع للضدين ولا رفع لكليهما، بل لابد من وجود أحدهما ورفع الآخر المضاد، وكما قيل: التخلية قبل التحلية^(١)، وهذا باب عظيم من أبواب الفقه في الدين وهو لباب البراءة من الشرك والكفر بالطاغوت أولاً، ثم الشهادة بالتوحيد ثانياً، وهذا مجتمع في كلمة التوحيد؛ لا إله إلا الله، وفي التنزيل من قول إبراهيم خليل الرحمن: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٣٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿[الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِإِلَهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٧] ونحو ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفریغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات.

فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة؛ لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبة موضع، فكما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع؛ لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه، إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة؛ لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها.

فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به

(١) وفي صحة هذه العبارة نقاش.

لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته ووجهه والشوق إلى لقائه؛ إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته؛ إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته؛ فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع؛ لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه.

وسرُّ ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا صغى إلى غير حديث الله؛ لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله؛ لم يبق فيه ميل إلى محبته، فإذا نطق القلب بغير ذكره؛ لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان.

ولهذا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»^(١)، فبين أن الجوف يمتلئ بالشعر.

فكذلك يمتلئ بالشُّبه، والشكوك، والخيالات، والتقديرَات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات، والمضحكات، والحكايات ونحوها.

وإذا امتلأ القلب بذلك؛ جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته، فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولاً، فتعدته وجاوزته إلى محلِّ سواه؛ كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها ولا منفذ لها فيه؛ فإنه لا يقبلها ولا تلج فيه، لكن تمر مجتازة لا مستوطنة.

(١) متفق عليه، البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذلك قيل:

نَزَّهَ فؤادك من سوانا تلقنا فجنابنا حلُّ لكل مُنَزَّه
والصبر طَلَّسُمٌ لكنز وصالنا من حلَّ ذا الطَّلَّسُم فاز بكنزه^(١)

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موطن آخر^(٢): «والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب، يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله.

فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأما إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه، كما قال بعضهم^(٣):

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنَا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إناءه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة؛ لأن كل شراب فمسكر ولا بد، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر؟! وكيف يوضع شراب التسليم الذي هو أعلى أشربة المحبين في إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى؟! ولا يفيق من

(١) الفوائد (ص ٤٣).

(٢) نقلًا عن إحسان سلوك العبد المملوك، للشيخ عبد الكريم الحميد (ص ١١٣) وانظره في: (طريق الهجرتين) (١ / ٣٨).

(٣) وهو مجنون ليلي.

سكره ولا يستفيق، ولو فارق هذا السكر القلب لطار بأجنحة الشوق إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضي المسكين بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن، صفقة خاسر مغبون، فسيعلم أي حظ أضاع إذا فاز المحبون وخسر المبطلون.



أقسام القلوب

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قول المسيح عليه السلام للحواريين: إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين.

وذكر أن أرواح المؤمنين وقلوبهم ولدت بهدي النبي ﷺ ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغبي، إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهد دقائق آخر وأمرًا لم يكن لها به شعور قبله، قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١].

ثم قال: «والمقصود أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة: قلب لا يولد ولم يأن له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغبي والجهل والضلال.

وقلب قد وُلِدَ وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرت عينه بالله، وقرت عيون به وقلوب، وأنست بقربه الأرواح، وذكّرت رؤيته بالله، فاطمأن بالله وسكن إليه وعكف بهمته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى، لا يَقَرُّ بشيء غير الله ولا يسكن لشيء سواه، ولا يطمئن بغيره، يجد من كل شيء سوى الله عوضًا، ولا يجد من الله عوضًا أبدًا.

فذكره حياة قلبه، ورضاه غاية مطلبه، ومحبته قُوته، ومعرفته أنسه، عدوّه

من جذب قلبه عن الله وإن كان القريب المصافيا، ووليه من رده إلى الله وجمع قلبه عليه وإن كان البعيد المناويا.

فهذان قلبان متباينان غاية التباين، وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحًا ومساءً، قد أصبح على فضاء التجريد، وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد، تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقربًا إلى مَنْ السعادة كلها بقربه، والحظّ كل الحظّ في طاعته وحبّه، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبّه وإيقافه وتعويقه، فهو بين الداعيين تارة وتارة، قد قطع عقبات وآفات، وبقي عليه مفاوز وفَلَوَات»^(١).

إذن فالقلوب ثلاثة: سليم صحيح، وقاسٍ ميت، ومريض سقيم.

الأول: القلب السليم:

فالقلب الأول هو القلب السليم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ^(٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي خالص متجرد من الشرك لا تشوبه شائبة من شرك، أو نفاق، أو رياء^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «السليم هو السالم، والقلب السليم هو الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

(١) المصدر السابق، إحسان السلوك (ص ١١٣).

(٢) أهمية أعمال القلوب للدكتور سفر الحوالي (ص ٣).

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سَلِمَ أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجه ما، بل خلصت عبوديته لله تعالى، إرادةً ومحبةً، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباراً، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والافتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله، دِقّه وجِلّه، هو ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة، ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلةٍ وإن صغرَتْ إلا يُنشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة للرسول ﷺ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة^(١). فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت النجاة له النجاة والسعادة^(٢).

الثاني: القلب الميت:

والقلب الثاني: هو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبد بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته وإرادته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حباً، وخوفاً ورجاءً ورضاً، وسخطاً، وتعظيماً، وذلاً، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهو أثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائسه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور، يُنادى إلى الله والدار الآخرة

(١) لو قال «الاتباع» لكان أولى من المتابعة وكلاهما صحيح، فهي ألصق معنى بالاستئناس والالتساء والاهتداء، وقد جاء بها القرآن العزيز ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وللمتابعة معانٍ آخر غير مراد المصنف، أما الاتباع فليس سوى محض الاقتداء به.

(٢) إغاثة اللفهان - بتصرف - (ص ٤٣).

من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يُصمُّه عما سوى الباطل ويُعميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلي:

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قربت ليلي أحبَّ وقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سُمٌّ، ومجالسته هلاك»^(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وصف الله قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرَّين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار.

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النمل: ٢٢]، وقال في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْفُتَيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال في الموت: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال في الرَّين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال في الضيق: ﴿وَمَنْ يُرِدْ

(١) إغاثة اللفهان (ص ٤٤).

أَن يُضِلَّهُ، يَجْعَلَ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴿[الأنعام: ١٢٥]﴾، وقال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]»^(١).

الثالث: القلب المريض:

فالقلب المريض له حياة وبه علة، فله مادتان تمدّه هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منها، ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة؛ ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين؛ داعٍ يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعو إلى العاجلة، وهو إنما يجب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول: حي مخبت لين واع.

والثاني: يابس ميت.

والثالث: مريض، فإما إلى السلامة أوفى، وإما إلى العطب أولى.

وقد جمع الله تعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا

(١) تفسير القرطبي (ص ١٦٨).

يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ عَائِلَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

فجعل الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا، فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه؛ وهو المطمئن إليه، الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به، ليتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما لئبسه وقساوة وعدم التأتي لما يراد منه؛ كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العينين، والعين التي لا تبصر شيئا، وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال، ووقوعها على السداد، فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة:

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له. والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه، التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته، التحق بالسليم.

والشيطان يلقي الألفاظ في الأسماع والشُّبه والشُّكوك في القلوب فتنة لهذين القلبين وقوة للقلب السليم الحي.

قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأَيُّ قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مبرادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً؛ إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»^(١).

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا، بعرض عيدان الحصيرة - وهي طاقاتها - شيئًا فشيئًا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلب إذا عُرِضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب السفنج الماء، فتُنَكَّتْ فيه نكتة سوداء، فلا يزال يُشرب كل فتنة تعرض عليه، حتى يسودّ وينتكس، وهو معنى قوله: «الكوز مجخيًا» أي: مكبوبًا منكوسًا، فإذا سود وانتكس، عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك والعطب:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، وربما استحکم فيه هذا المرض، حتى يعتقد المعروف منكراً، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والحق باطلاً، والباطل حقًا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه

له.

(١) رواه مسلم (١٤٤).

وقلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردّها، فزاد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة، والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد.

وقد قسم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمي، وقلب مُتَدَّةٌ مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فأيهما غلب كان الحكم له».

فقلوبه: «قلب أجرد» أي: متجرد مما سوى الله تعالى ورسوله ﷺ، فقد تجرد وسَلِمَ مما سوى الحق، وفيه «سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

فقلبه أجرد^(١) لسلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وفيه سراج

(١) في القاموس: الجرد: فضاء لا نبات فيه (ص ٢٦٥).

يزهر فهو مشرق مستنير بنور العلم والإيمان.

وأشار بـ«القلب الأغلف»: إلى قلب الكافر، والأغلف هو الذي يلف عليه غلاف^(١) كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وغلف جمع أغلف وهو الداخل في غلافه، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم؛ عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله؛ فهي أكنة على القلوب، وَوَقَّرَ في الأسماح، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤٥] وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦]، فإذا ذُكِرَ لهذه القلوب تجريد التوحيد، وتجريد المتابعة؛ ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بـ«القلب المنكوس» - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]، أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة؛ فهذا شرُّ القلوب وأخبثها؛ فإنه يعتقد الباطل حقًا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بـ«القلب الذي فيه مادتان» إلى القلب الذي يتمكن فيه الإيمان، ولم يُزهر فيه سراجُه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله ﷺ،

(١) في القاموس: قلب أغلف: كأنها غُشي غلافًا فهو لا يعي (ص ١٢٧٢).

بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب، وإليه يرجع (١).



(١) إغاثة اللفهان - بتصرف - (١ / ٤٥)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠ / ٤٥٢).

حركات القلب بحسب قوته وضعفه

وقد يدبُّ المرض إلى القلب في غفلة من حارسه. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وأعظم المعاقبة ألا يحس المعاقبُ بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حالة، لا يفوز بطاعة.

وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسُّون بها، ومعظمها من قِبَل طلبهم للرياسة، فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهّد منافق أو مرء. فأول عقوباتهم؛ إعراضهم عن الحق شغلاً بالخلق، ومن خفيّ عقوباتهم، سلب حلاوة المناجاة، ولذة التعبُّد، إلا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانياتهم بل أحلى، وهمهم عند الثريا بل أعلى، إن عُرِفوا تنكروا، وإن رُئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلواتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء»^(١).

إذن فالقلوب أنواع، والقلب الواحد له صفات وربما اختلطت فيه بعض المتناقضات فصارت الغلبة لأقواها نفوذاً إلى سويدائه.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالى (١٩).

فالقلب له حياة وموت، وصحة وسقم، وسلامة ومرض، ووصول وانقطاع، وقسوة ولين، وطهارة وخبث، ونور وظلمة، وسعة وضيق، وقوة وضعف.

قال شيخ الإسلام في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣-٥٤]: «جعل الله القلوب ثلاثة أقسام:

قاسية، وذات مرض، ومؤمنة مخبئة؛ وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً، وإذعاناً، أو لا تكون يابسة جامدة.

فالأول: هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرسم فيه العلم؛ لأن ذلك يستدعي محلاً ليناً قابلاً.

والثاني: لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال. فالثاني فيه مرض، والأول هو القوي اللين.

وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلاً، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش، أو تبطش بعنف، فذلك مثل القلب القاسي، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها، فذلك مثل القلب الذي فيه مرض، أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم، فبالرحمة

خرج عن القسوة، وبالعلم خرج عن المرض، فإن المرض من الشكوك والشبهات.

ولهذا وصف من عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤] دليل على أن العلم يدل على الإيمان، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الإيمان، بل معهم العلم والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٦] (١).

وكما أن للقلب ليناً وقسوة فله نور وظلمة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن الله تعالى ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور، ومثل أعمال الكفار بالظلمة، ولغض البصر اختصاص بالنور. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فذلك «الران» الذي ذكر الله ﷻ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» (٢). وفي الصحيح أنه قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة» (٣)، والغين

(١) الإكليل في التشابه والتأويل ضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٠-٢٧٢) بتصرف يسير.

(٢) أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي وصححه (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٦٦).

(٣) مسلم (١٥١٥).

حجاب رقيق أرق من الغيم، فأخبر أنه يستغفر الله استغفارًا يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينًا.

وقال حذيفة: «إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء، فكلما ازداد العبد إيمانًا ازداد قلبه بياضًا، فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقًا، وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء، فكلما ازداد العبد نفاقًا ازداد قلبه سوادًا، فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدًا».

وقال ﷺ: «إن النور إذا دخل القلب انشرح وانفسح» قيل: فهل لذلك من علامة يا رسول الله؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

قلت - أي شيخ الإسلام -: وقد قرن الله تعالى في كتابه في غير موضع بين أهل الهدى والضلال، وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، وقال في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآية [البقرة: ١٧]، وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]. وقال: ﴿كَتَبْنَا نَزْلَهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ

(١) الحاكم (٤/ ٣١١) وتبعه الذهبي بقوله: فيه عدي بن الفضل، وهو ساقط. قلت: ومعناه صحيح.

أُظْلِمَتِ إِلَى النُّورِ ﴿ [إبراهيم: ١] والآيات في هذا كثيرة.

وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَاْمَنِهِمْ﴾ [التحریم: ٨] فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة، كما ذكره في سورة النور عقيب أمره بغض البصر»^(١).

كذلك فللقلب سعته وضيقه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «شبه الله تعالى الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ [الرعد: ١٧] فقلب كبير يسع علماً عظيماً كوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً، وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علماً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها.

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغناء ونحوه مما يمر عليه السيل، فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً، يمر عليه متراكباً، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض، فيقذف الوادي ذلك الغناء إلى جَنْبَتَيْهِ حتى لا يبقى منه شيء، ويبقى الماء الذي تحت الغناء يسقي الله تعالى به الأرض، فيُحيي به البلاد والعباد، والشجر والدواب، والغناء يذهب جُفَاءً يُجْفَى، ويُطرح على شفير الوادي.

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٢٨٢ - ٢٨٥) بتصرف.

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله من السماء في القلوب، فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غشاء الشهوات وزيد الشبهات الباطلة، فطفأ في أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب، وهو أصله ومستقره، كما قال النبي ﷺ: «نزل الإيمان في جذر قلوب الرجال»^(١).

فلا يزال ذلك الغشاء والزبد يذهب جفاءً، ويزول شيئاً فشيئاً، حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب، يردُّه الناس فيشربون ويسقون ويزرعون^(٢).

والقلب له صلاح وفساد وقوة وضعف، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والقلب له قوتان: العلم والقصد، كما أن للبدن الحس والحركة الإرادية، فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت، فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود وهي أن يكون مقراً لربه مريداً له فيكون هو منتهى قصده وإرادته، وذلك هو العبادة؛ إذ العبادة: كمال الحب بكمال الذل، فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وإرادته لله تعالى كان فاسداً؛ إما بأن يكون معرضاً عن الله تعالى وعن ذكره غافلاً عن ذلك مع تكذيب أو بدون تكذيب، أو بأن يكون له فكر وشعور ولكن قصده وإرادته غيره، لكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب إلى إرادة الله ومحبه وعبادته. وإلا

(١) متفق عليه بلفظ «الأمانة» بدل «الإيمان»: البخاري (٦٤٩٧، ٧٠٨٦، ٧٢٧٦)،

ومسلم (١٤٣). عن محقق الوابل الصيب الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن قائد..

(٢) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم رحمه الله (ص ١٣٣، ١٣٤).

فمتى قوي علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿[النجم: ٢٩، ٣٠] فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضاً عن ذكر الله، ولم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا.

وهذه حال من فسد قلبه، ولم يذكر ربه، ولم يُنب إليه، فيريد وجهه ويخلص له الدين. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا؛ فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وأما المؤمن فأكبر همه هو الله وإليه انتهى علمه وذكره، وهذا باب واسع عظيم»^(١).



(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٦٤، ١٦٥).

الطريق إلى سعادة القلب

السعادة ذلك المعنى الذي اتفق جميع البشر وأجمعوا على البحث عنه والتنقيب والتكلف ودخول المهالك والمخاطر وإنفاق طائل الأموال ونفيس الأوقات والأعمار لتحصيله، ومع هذا كله فالقليل منهم قد عثر عليه، وهؤلاء القلة كلّ منهم له من هذا حظ ونصيب على قدر منحة الله تعالى له، فمنهم المقل ومنهم المستكثر، ومهم من لاحت له أنوارها وشام برقها وشم عيرها، ومنهم من خالطت أنفاسه وامتزجت بدمه وعصبه، فصار في جنة ونعيم، وهو لا يزال مع دار الابتلاء والامتحان، فحلاوة الإيمان ولذيق المناجاة وطرب القلب وأنسه بربه تعالى وتقدس شيء لا تحيط به العبارة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في بيان حال ذلك القلب الموفق المهتدي: «أصل كل خير وسعادة للعبد - بل لكل حي ناطق -: كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحيائه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة، فكلما قويت حياته قويت هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت هذه الصفات، وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه؛ انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حُسن الحسَن بنوره، وأثره بحياته، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ

نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿ [الشورى: ٥٢] فحياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه»^(١).

وحياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون القلب مدرّكاً للحق مريداً له، مؤثراً له على غيره، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لما كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل.

فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وأثر عليه غيره فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه. وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان من القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل؛ وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به؛ وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(٢)، فالحارث: الكاسب العامل، والهمام: المريد؛ فإن النفس متحركة بالإرادة، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتُردّه، تصوّرت الباطل وطلبتّه وأرادته. ولا بد..

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٢-٦٦) باختصار.

(٢) أبو داود (٤١٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٠٤).

كذلك فلا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه»^(١).

القلب الطاهر:

«شرع لنا رسول الله ﷺ أن نقول عقيب الوضوء: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»^(٢)، فطهارة القلب بالتوحيد والتوبة وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته.

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، فهو لاء لم يرد الله أن يطهر قلوبهم؛ فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم، تعوضوا بالسمع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني. وقال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه: «لو طهرت قلوبكم، ما شبعتم من كلام الله عز وجل»^(٣)، فالقلب الطاهر بكمال حياته ونوره وتخلّصه من الأدران

(١) إغاثة اللفهان (١/ ٦٧-٧٠) باختصار.

(٢) مسلم (٢٣٤).

(٣) الزهد للإمام أحمد (١/ ١٢٨)، وفضائل الصحابة له (٧٧٥).

والخبائث لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل لم تحصل لها الطهارة»^(١).



(١) الإغاثة (١/ ١١٨، ١١٩) بتصرف.

علامات صحة القلب وسعاده

«لو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظ الدنيا وملذاتها ومشتهياتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه، والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرّة عين، بل إذا كان القلب خالياً من ذلك؛ عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد، فيصير معذباً بنفس ما كان مُنعماً به من جهتين: من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له، فالمحجوب الحاصل فات والمحجوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات وجد الراحة الكبرى والسعادة الدائمة. فأنفع الأغذية لصحة القلب: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضاً أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أبنائها وأهلها، جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ويعدو إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدّ نفسك من أهل القبور»^(١).

(١) ابن ماجه (٤١١٤)، وصححه الألباني عدا قوله: (وعدّ نفسك...). الروض النضير (٥٧٤)، وانظر: صحيح الجامع (٤٥٧٩).

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا وننعم

وكلما صح القلب من مرضه؛ ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير
من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل أثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من
أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه، حتى ينب
إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا
فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه
يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله
يخاف، فذكره قُوته وغذاؤه، ومحبه والشوق إلى حياته ونعيمه ولذته وسروره،
والالتفات إلى غيره دأؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه
واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن في
القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير
الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو
دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر
روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين
المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله
أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو يكن له جزاءٌ إلا نفس وجوده لكفى به
جزاءً، وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

كما قيل:

وَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَظَّهُ الْبَعْدُ وَالْقَلَى وَمَنْ فِيهِ يَكْفِيهِ أَنِّي أَفُوتُهُ

قال بعض العبّاد: «مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته».

وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برويته ومشاهدته».

وقال أبو الحسين الوراق: «حياة القلب: في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني في الحياة مع الله تعالى، لا غير».

لهذا كان الفوت عند العالمين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟!

وقال آخر: «من قرّت عينه بالله تعالى، قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله، تقطع قلبه على الدنيا حسرات».

وقال يحيى بن معاذ: «من سُرَّ بخدمة الله سُرَّت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرّت عينه بالله قرّت عيون كل أحد بالنظر إليه».

ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته،

ولا يأنس بغيره إلا بمن يَدُلُّه عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فات وِرْدُهُ وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله النفيس.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همّه وغمّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحتته ونعيمه، وقرّت عينه وسرور قلبه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: ما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من العبادات كما عرفه أهل القلوب الحية والهمم العالية^(١).

ومن علامات صحة القلب: أن يكون همُّه واحداً، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحّ بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بهاله.

ومن علامات صحته: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه، والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منّة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله تعالى.

فهذه ستة مشاهد لا يشهدا إلا القلب الحي السليم.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همّه كله في الله، وحبّه كله له،

(١) مجموع الفتاوى (١٦ / ٥١٢).

وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه.

الخلوة به أثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قرّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره؛ تلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصفة العبودية، فتصير العبودية صفة وذوقاً لا تكلفاً، فيأتي بها تودّداً وتحبباً وتقرباً، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله مع الفارق العظيم.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهى، أحس من قلبه ناطقاً ينطق: لبيك وسعديك إني سامع مطيع ممتثل، ولك علي المنّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قدرٌ، وجد من قلبه ناطقاً يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تُصبرني، ولا قوة لي إن لم تُحملني وتقوّني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مُذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليّته عليه، فإن أصابه ما يكره قال: رحمةٌ أُهديت إلي، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يجب قال: شرٌّ صُرف عني.

وكم رُمْتُ أُمْرًا خَرْتُ لِي فِي انْصِرَافِهِ وَمَا زِلْتُ بِي مَنْيَ أَبْرَ وَأَرْحَمَا
فَكُلُّ مَا مَسَّهُ بِهِ مِنَ السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ اهْتَدَى بِهِ طَرِيقًا إِلَيْهِ، وَانْفَتَحَ لَهُ مِنْهُ
بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَيْهِ، كَمَا قِيلَ:

مَا مَسَّنِي قَدْرٌ بَكْرُهُ أَوْ رَضًا إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقًا
أَمْضِيَ الْقَضَاءَ عَلَى الرِّضَا مِنْي بِهِ إِنِّي وَجَدْتُكَ فِي الْبَلَاءِ رَفِيقًا
وَلِلَّهِ هَاتِيكَ الْقُلُوبَ، وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّمَائِرِ، وَمَاذَا أُودِعَتْهُ مِنَ
الْكُنُوزِ وَالذِّخَائِرِ، وَلِلَّهِ طَيْبُ أَسْرَارِهَا، وَلَا سِيَّامَ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ.
سَيَبْدُو لَكَ طَيْبٌ وَنُورٌ وَبَهْجَةٌ وَحَسَنُ ثَنَاءٍ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ
تَاللَّهِ لَقَدْ رُفِعَ لَهَا عِلْمٌ عَظِيمٌ؛ فَشَمَرَتْ إِلَيْهِ، وَاسْتَبَانَ لَهَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
فَاسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ، وَدَعَاها مَا دُونَ مَطْلُوبِهَا الْأَعْلَى؛ فَلَمْ تَسْتَجِبْ لَهُ، وَاخْتَارَتْهُ
عَلَى مَا سِوَاهُ، وَآثَرَتْ مَا لَدَيْهِ»^(١).



(١) إغاثة اللفهان (١/ ١٣٩-١٤٩) بطوله لنفاسته وجلالته مع تصرف يسير.

أمراض القلب

إن هذه المضغة الصغيرة عليها مدار الدين، ونهاية الابتلاء، وفيها ميدان الصراع مع العدو الخفي الماكر الخبيث، وهي محل نظر الرب سبحانه، وهي شديدة النزاهة، فأقل شائبة تחדش صفاءها، وهي صندوق حفظ كنوز المؤمن ونفيس ذخائره، لهذا أجلب الخبيث بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، وكر عليها، ولا زال بجنوده من الإنس والجان، وألقى فيها أحابيله وحيله، ولكم أتلّف على العباد من أزوادهم التي خزنوها تلك القلوب، ولكم سرق من نفيس أعمالهم فحبطت بعدما كانت زكية نقية، وكم استغفل حاجب القلب فدخل سويداءه في صورة ناصح مشفق يطوي على غش وخديعة لسرقة أثمن ما يملكه ذلك الإنسان المسكين ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١]، كررها الله تعالى في كتابه في ثلاث آيات تنبيهاً لكل ناصح لنفسه حازم لأمره حتى يأخذ عدته ويتأهب بدرعه وقوسه ونبله، ويستمد من مولاه مدده ولطفه وحمايته.

وشأن القلب عجيب مدهش، فربما مر في ساعات قليلة بأطواره الثلاثة صحةً أو سقماً أو موتاً، والموفق من وفقه مولاه، وكان أكثر دعائه ﷺ كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١).

(١) الترمذي وحسنه (٣٥٢٢)، وانظر: صحيح ظلال الجنة (٢٢٣)، وصحيح الجامع

والقلوب تمرض وتعتل وتسقم كالأبدان بل أشد وأنكى، قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

والله رحيم لطيف، فلم يترك عبده يصارع عدوه وحده، بل أمدّه بأمداد وألطف، منها الملائكة؛ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشیطان رأيت أعجب العجائب؛ فهذا يلم به مرة، وهذا يلم به مرة، فإذا أَلَمَّ به الملك حدث من لَمَّتْه الانفساح والانشراح والنور والرحمة والإخلاص والإنابة ومحبة الله وقصر الأمل، فلو دامت له هذه الحالة لكان في أهنأ عيش وألذّه وأطيبه، ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من الضيق والظلمة والهَمّ والغم والخوف والسخط على المقدور والشك في الحق، والحرص على الدنيا، وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله عز وجل:

فمنهم من تكون لمة الملك أغلب عليه من لمة الشيطان وأقوى، فإذا أَلَمَّ به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى محو تلك اللمة، ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها،

(٤٨٠١). وعند أبي شيبه في المصنف (٩/ ٤٢٠٠): «يا مثبت القلوب» من حديث

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهو دائم بين اللّمتين، يدال له مرة، ويدال عليه مرة أخرى، والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه من لمة الملك وأقوى، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها، فيموت القلب، فلا يُحسّ بما ناله الشيطان مع أنه في غاية العذاب، والألم والضيق والحصر، ولكن سُكّر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك المؤلم.

فإذا كُشف عنه بعض غطاءه أدرك سوء حاله، وعلم ما هو فيه، فإن استمر له كُشفُ الغطاء عاد الأمر كما كان، حتى يكشف له وقت المفارقة، فتظهر حينئذ تلك الآلام والغموم والهموم والأحزان، وهي لم تتجدد له، وإنما كانت كامنة فيه، توارى بها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً، وتجدد له أضعافه^(١).

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً؛ فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادُ بِالْشَّرِّ، وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِيعَادُ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]^(٢)، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: اللَّمَّةُ

(١) التبيان في أيمان القرآن (٦٣١-٦٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٨)، والعلل الكبير (٦٥٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥)، وابن حبان في الصحيح (٩٩٧) وغيرهم، واختلف في وقفه ورفعهِ =

هي الهمّة والخطرة تقع في القلب.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لعبارة الهروي رَحِمَهُ اللهُ في منزلة الإنابة وهي «الاستقصاء في رؤية علل الخدمة» فقال: «وذلك هو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظًا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه. وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله! ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله! ولا يميّز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها. فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب؛ فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرّق بين أولياء الله وأعدائه، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنّة، وعلل خفية لو استقصى

وصوّب محقق التبيان الشيخ عبد الله البطاطي وقفه، وهو قول أبي زرعة وغيره.

في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعانوها لوقعوا فيما هو أشد منها من اليأس والقنوط والاستحسار وترك العمل وخمود العزم وفتور الهمة»^(١).

وقال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مَبِينًا مَرَضُ القلب: «مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فُسِّرَ به قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وتارة يُفَسَّرُ بشهوة الزنا كما فُسِّرَ به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والمرض في الجملة يُضْعَفُ المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي، والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده.

ومرض القلب أَلَمٌ يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب، قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿[التوبة: ١٤، ١٥]، فشفائهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال: فلان شفى غيظه^(٢)، ونحو ذلك، فهذا شفاء من الغم

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤، ١٥).

(٢) كما روي عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا الآخرة لكان غير ما ترون. حلية الأولياء (٥٧/٨).

والغیظ والحزن، وكل هذه آلام تحصل في النفس.

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، قال النبي ﷺ: «هَلَّا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(١)، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه، حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاءه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفاءه، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوّت مرضه وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه. قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] لأن ذلك أورث شبهة عندهم، والقاسية قلوبهم لیبسها، فأولئك قلوبهم ضيقة بالمرض، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان، فصار فتنة لهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١]، لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصلاح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات، وكذلك: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرّضت له المرأة

(١) أبو داود (١/ ٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٢).

لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه»^(١).

وقال في موضع آخر: «ما ذكر الله تعالى من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعمها».

ومرض القلوب نوعان: الأول: فساد الحس، والثاني: فساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية، وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب، فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب؛ ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم، فسبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك، وإنما هو نتيجته وثمرته ومقصوده وغايته، فالمرض فيه ألم لا بد منه، وإن كان قد يسكن أحياناً لمعارض راجح، فالمقتضى له قائم يهيج بأدنى سبب، فلا بد في المرض من وجود سبب الألم، وإنما يزول الألم بوجود المعارض الراجح.

ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيتان، وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم، فذاك شيء آخر، فكما أن الضرير إذا أبصر وجد من

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٣ - ٩٥).

الراحة والعافية والسرور أمراً عظيماً؛ فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصى إلا الله، وإنما الغرض هنا تشبيه أحد المرضى بالآخر، فطب الأديان يحتذي حذو طب الأبدان»^(١).

وقال طبيب القلوب الرباني وشيخ الإسلام الثاني ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي ذكر حقيقة مرض القلب: «قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى، والغي مرض شفاؤه الرشد، وقد نزه الله تعالى نبيه ﷺ عن هذين الداءين؛ فقال: ﴿وَالنَّجْرُ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، ووصف رسوله خلفاءه بضدهما فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(٢)، وجعل كلامه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة وشفاء تاماً لما في الصدور»^(٣).

وقال: «كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٣٩-١٤٣) باختصار.

(٢) رواه الترمذي وحسنه في السنن (٣٦٦٣-٣٨٠١، ١٨٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣)، وأطال الشيخ علي بن حسن الحلبي النفس في بيان صحته في تحقيقه وتخريجه للإغاثة (١ / ٥٢).

(٣) الإغاثة (١ / ٥٢).

يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن تتعذر عليها النظر، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها. ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له؛ من المعرفة بالله تعالى ومحبه والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة»^(١).



(١) طب القلوب (٤٥).

أسباب مرض القلب

خلق الله تعالى خلقه وبثهم في هذا الكون الفسيح وجعل لهذا الكون نظامًا وسنًا ونواميس تحكم دورته وفق الحكمة الإلهية والعدل الرباني والرحمة الرحمانية، وجعل هذه السنن بنوعها الشرعية والكونية شاملة عامة لا يتخلف عنها أحد، إلا من شاء الله تعالى من عباده أو ما شاءه من مخلوقاته على مقتضى حكمته ورحمته سبحانه وبحمده.

ومرض القلب لا ينفك عن تلك النواميس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، والقلوب بين أصابع من أصابعه سبحانه يقلبها كيف يشاء، ولا أحد أحب إليه العذر منه تعالى لذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجج والبراهين، ولا يهلك عليه إلا هالك.

ومرض القلب هو مقدمة موته وبريد نعيه ورسول وفاته إن لم يتداركه الله تعالى ببرء وشفاء وعافية.

وقد جعل الله تعالى لهذا المرض أسبابًا كما جعل لأمراض البدن أسبابًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به إدراكه وحركته

الطبيعية؛ فإما أن يذهب إدراكه بالكلية؛ كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كمن يدرك الحلو مرًا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا.

وأما فساد حركته الطبيعية؛ فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة؛ فيحصل له الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، وسبب هذا إما فساد في الكمية أو الكيفية، فالأول: إما لنقص في المادة فيحتاج إلى زيادتها، أو العكس. والثاني: إما بزيادة الحرارة أو البرودة، أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوى بمقتضى ذلك.

ومدار الصحة على حفظ القوة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة، وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاءً ورحمة؛ فحفظ القوة كأمره تعالى المسافر والمريض أن يفطر في رمضان، والحمية عن المؤذي كحमितه تعالى عبده المريض الذي يضره الماء إلى التيمم، واستفراغ المادة الفاسدة، كإباحته تعالى للمحرم الذي يتأذى من هوام رأسه أن يحلقه ويفدي.

إذا عرف هذا؛ فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته؛ وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذي الضار؛ وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له؛ وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئة.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا

يرى الحق حقاً أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب، لهذا يُفسر المرض تارة بالشك وهو مرض بالشبهة وتارة بشهوة الزنا وهو مرض الشهوة.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح، من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك؛ كذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء؛ من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة؛ فإذا حصل للمريض مثل سبب مرض زاد مرضه، وضعفت قوته، وتراعى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك؛ بأن يحصل له ما يقوّي قوّته، ويزيل مرضه^(١).

وقد ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ خمس مفسدات للقلب، إذا علمها الموفق وحرس قلبه منها، ونقّاه من عوالقها، وصفّاه من علائقها فهو الطبيب الموفق حقاً، قال رحمة الله تعالى عليه: «وأما مفسدات القلب الكبرى فهي خمسة^(٢)، وهي كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله تعالى، والشبع، والمنام، فتذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميّز به كل واحد منها^(٣).

(١) الإغاثة (١/ ٥٦) باختصار.

(٢) ذكرها صاحب متن المنازل وكلامه هذا في سياق بسطه لها.

(٣) سألخصها هنا، ومن أراد نصها فهي في المدارج (٢/ ٣٩).

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه وآفات النفس والعمل وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه، وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه - إن لم تصمه وتبكمه - وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته، وتفتّر عزيمته، وتوقف همّته، وتنكسه إلى ورائه.

ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام، فهي عاقبة له عن نيل كماله، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له، فإنه لا نعيم ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عاقبة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة؛ فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم، فيتشتت ويشغل بهم ويضيع مصالحه ويشغل بهم عنها، وينقسم فكره بين أودية مطالبهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة، هذا، وكم جلبت خلطة

الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بليّة! وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضرّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد!

والضابط النافع في أمر الخلطة؛ أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، ومن لم يمكنه اعتزالهم، فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكنه أذى يعقبه عزٌّ ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن الله رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوّي قلبه، ولا يلذ إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك؛ بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، فليحاربه وليستعن بالله تعالى، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن عجز عن ذلك فليسلّ قلبه منهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملاء الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقّه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ

إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها إن شاء الله تعالى، ولا ينال هذا إلا بعدة صادقة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله عز وجل.

المفسد الثاني من مفسدات القلب:

ركوبه بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المني رأس أموال المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان وخيالات المحال، فلا تنال أمواج الأمانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب بركابه كما تتلاعب الكلاب بالحيقة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيصة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية^(١)، بل اعتاضت عنها بالأمانى الذهنية، وكل بحسب حاله، من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيتمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها والتد بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال، إذا استيقظ فإذا يده والحصير!

وصاحب المهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله تعالى ويدنيه من جواره، فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة، وأمانى أولئك خدع وغرر.

(١) أي خارج الذهن من المحسوسات أو المعنويات وليست مجرد أفكار وخيالات ذهنية.

المفسد الثالث من مفسدات القلب :

التعلق بغير الله تبارك وتعالى، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره، والتفاتة إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمّله ممن تعلق به وصل، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كممثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها التعلق بغير الله تعالى، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قُهر بباطل، أو مذمومًا منصورًا كالذي قُهر وتسلط بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرک المتعلق بغير الله قسمه أَرَدًا الأقسام الأربعة لا محمود ولا منصور. وكما قال بعض السلف: من عرف الناس استراح، أي إنهم لا يملكون ضرًا ولا نفعًا.

المفسد الرابع من مفسدات القلب:

الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات، وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه إما قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعة، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقويت عليه مواد الشهوة وتوسعت مجاري الشيطان، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخر كثيراً، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لآبد فاعلاً؛ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(١).

المفسد الخامس:

كثرة النوم؛ فإنه يميم القلب، ويثقل البدن، ويضيع العمر، ويورث كثرة الغفلة. ومنه المكروه جداً، ومنه الضار غير النافع للبدن، وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أنفع وأحمد من آخره، ونوم وسط النهار

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٨١) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٣٩).

أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره، لاسيما نوم العصر، ونوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير في ذلك الوقت للسالكين مزية عظيمة، حتى لو ساروا طوال ليلهم لم يسمحوا بالعودة عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم وحلول البركة.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص أورث عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات؛ فمدافعته وهجره وقلته مورثة لآفات أخرى عظام؛ من سوء المزاج وبيسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضاً متلفة، وما قام الوجود إلا بالعدل، والله المستعان^(١).

هذه خمسة أسباب تفسد القلب وتمرضه وتُقسّيه، وقد ألحق بها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فضول النظر وفضول الكلام^(٢) فصارت سبعة مفسدات.

(١) المدارج (٢/ ٤٩-٣٩) باختصار.

(٢) الفوائد (١٨٢).

السبب السادس من مفسدات القلب :

فضول النظر، ففضوله يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غص بصره أورثه الله حلاوة إيمان يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»^(١)، فالحوادث العظام إنما هي من فضول النظر، فكم نظرة أوقعت في قلب صاحبها البلبل والحسرات.

السبب السابع من مفسدات القلوب :

فضول الكلام، وهي تفتح على العبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمسك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(٢).

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن؛ فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، أما العين واللسان فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يقولون: ما شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان.

(١) مجمع الزوائد (١٢٩٤٦)، ورواه الطبراني، وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف، وذكره الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١١٩٤) وقال: ضعيف جداً.

(٢) أحمد (٣٢٦ / ٢) وصححه الألباني بمجموع طرقه، الصحيحة (١١٢٢) (٨٤٣٢).

ولما توفي رجل من الأنصار، فقال بعض الصحابة: طوبى له، فقال ﷺ:
 «فما يدريك لعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»^(١).



(١) الترمذي (٢٣١٦)، ورجاله ثقات، إلا أن الأعمش لم يسمع من أنس، ولكن له شاهد من حديث كعب بن عجرة رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصحبة (١١٠) بسند جيد. وانظر: تنبيه القارئ (١/١٦٠).

علاج أمراض القلوب

القرآن الكريم متضمن لجميع أدوية أمراض القلوب:

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، بهذا وصف الله جل وعز كتابه، فهو الشفاء التام والبريق الناجع لكل مرض نفسي روحاني أو جسدي جشائي، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والقرآن شفاء لما في الصدور، فمن كان في قلبه أمراض الشبهات والشهوات؛ ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقومه كما يغتذي البدن بما ينمي ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن»^(١).

وحتى يكون العلاج ناجحاً فلا بد من وضعه على داء القلب بثقة ويقين

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٩٥، ٩٦).

وإيمان، واعتقاد أنه المخاطب بهذا القرآن قبل غيره، «وقد كتب سلمان إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أما بعد: فقد بلغني أنك قعدت طبيباً فإياك أن تقتل، والله أنزل كتابه شفاءً لما في الصدور، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون، وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم.

فمرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وكما يكون الجسد خارجاً عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيهِ الجسم بلا قول الطبيب ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما يصلحه وينفعه، وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة، لكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره أو يعجل الهلاك، فكذلك بنو آدم جهال ظلموا أنفسهم: يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو الأصلح له، فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات، إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم.

والتقوى هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال لضرار فلا يكون صاحبه من المتقين.

والصحة تحفظ بالمثل، وإزالة المرض بالضد، في مرض الجسم الطبيعي ومرض القلب النفساني الديني الشرعي. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] (١).

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم، ولا بد لهذا الفطرة والخلقة - وهي صحة الخلقة - من قوة وغذاء يمدّها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً، ولهذا كان من تمام الدين بالفطرة المكملّة بالشرعة المنزلة، وهي مأدبة الله تعالى، كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود: «كل مؤدب يُحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن» (٢)، ومثله كما أنزل الله من السماء كما جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة، والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته ممرضون للقلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور.

وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من

(١) متفق عليه.

(٢) البيهقي في الشعب (١٨٥٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٤٧).

الآلام التي يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة، كما قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر بها خطاياها»^(١)، وذلك تحقيق لقول الله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ومن لم يطهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤوب صحيحًا؛ وإلا احتاج أن يطهر منها في الآخرة فيعذبه الله، كالذي اجتمعت فيه أخلاطه، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه، فتجتمع حتى يكون هلاكه بها، ولهذا جاء في الأثر: «إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟»، وقال النبي ﷺ: «المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها»^{(٢)(٣)}.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «جماع أمراض القلب هي الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين؛ ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل؛ فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أكمل الوجوه وأحسنها، وأفصحها بيانًا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٣-١٤٨) باختصار.

فمن رزقه الله ذلك؛ أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عده من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم، بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وهي ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها فهي لحم جمل غث، على رأس جبل وعمر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن العظيم أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً، وليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد.

أما هؤلاء فآخر أمر المتكلمين منهم الشك، وآخر أمر المتصوفة الشطح، والقرآن يوصلك إلى بر اليقين في أعلى مطالب العباد فهو شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. هذا في شفاؤه لمرض الشبهات.

أما شفاؤه لمرض الشهوات؛ فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة؛ بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم فيما ينفعه في معاشه ومعهده، ويرغب عما يضره فيصير محباً للرشد، مبغضاً للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، ويزكو ويكمل^(١).

(١) إغاثة اللهفان (٩٩/١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «كان من دعائه رَحِمَهُ اللهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا»^(١)، فالقلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله تعالى وخشيته، وخشية ما يبعد عنه، وفي مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ»^(٢)، والمراد باستقامة إيمانه؛ استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئًا من محبة الله تعالى، ومحبة طاعته، وكراهة معصيته.

وقال الحسن لرجل: «داو قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم»، يعني أن مراده منهم ومطلوبه صلاح قلوبهم، فلا صلاح للقلوب حتى يستقر فيها معرفة الله تعالى وعظمته ومحبهه وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، ويمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد وهو معنى لا إله إلا الله، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تعرفه وتألهه وتعبه وتخشاه هو إله واحد لا شريك له، ولو كان في السموات والأرض إله يؤله سوى الله لفسدت بذلك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فعلم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معًا حتى تكون حركات أهلها كلها لله، وحركة الجسد تابعة لحركة القلب

(١) أحمد (١٧١٣٣)، الطبراني في الكبير (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٩٠).

(٢) أحمد (١٣٠٤٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١).

وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركات القلب»^(١).

«وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا تَدْبِيرَهُ وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مَجْرَدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فُهُمْ وَلَا تَدْبِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقها، وعلى طرقاتها، وأسبابها، وغاياتها، وثمراتها، ومآلات أهلها، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وترى صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم وتُريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (٧٣، ٧٤).

عليه، وقواطع الطريق وآفاتهما، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة، ودركات أهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى؛ ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها، ومطالعتها، فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل، كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

وإذا غفل المرء عن تدبر آي القرآن سهل على الشيطان الإيقاع به، وجذب قلبه إليه بالجواذب الشيطانية لما غفل حارسه عن الجواذب القرآنية الإيمانية، والشيطان يلم بالقلب لما له هناك من جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات وإرادات، فإن كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجد موطنًا ومقرًا، فتبقى الأذكار والدعوات والتعوذات التي يأتي بها

الإنسان حديث نفس، لا تدفع سلطان الشيطان لأن مركبه صفة لازمة، فإذا قلع العبد تلك الصفات من قلبه، وعمل على التطهر منها، بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولّات من غير استقرار، وذلك يضعفه ويقوّي لمة الملك، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات، فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثلاً مطابقاً؛ فمثله مثل كلب جائع، شديد الجوع، وبينك وبينه لحم، وهو يتأملك فيراك لا تقاومه وهو قد اقترب منك، فأنت تزجره وتصيح عليه، وهو يأبى إلا الهجوم عليك، والغارة على ما بين يديك.

فالأذكار بمنزلة الصياح عليه، والزجر له، ولكن معلومه ومُرادَه عندك، وقد قوّيته عليك، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له - وقد تأملك فراك أقوى منه - فإنك تزجره فينزجر، وتصيح عليه فيذهب. وكذلك القلب الخالي عن قُوت الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مَرَكَبُهُ وموطنه فيقع الذكر في حواشيها وجوانبها، ولا يقوى على إخراج العدو.

ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل الحال وانظر؛ هل تخرج الصلاة وأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالى، وتقيمه بين يديه مقبلاً بكلية عليه، أم لا؟ فالله المستعان.

وههنا نكتة^(١) ينبغي التفطن لها، وهي أن القلوب ممتلئة بالأخلاق

(١) أي فائدة دقيقة.

الرديئة، والعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط، كما يثير الدواء أخلاط البدن، فإن كان قبل الدواء وبعده حميةً نفع ذلك الدواء، وقلع الداء أو أكثره، وإلا لم يكن قبله ولا بعده حمية لم يزد الدواء على إثارته، وإن أزال منه شيئاً ما، فمدار الأمرين على شيئين؛ الحمية واستعمال الأدوية.

وأول ما يطرق القلب «الخطرة» فإن دفعها استراح مما بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت «وسوسة» فكان دفعها أصعب، فإن بادر ودفعها، وإلا قويت فصارت «شهوة»، فإن عاجلها وإلا صارت «إرادة»، فإن عاجلها وإلا صارت «عزيمة»^(١)، ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها، واقترب بها الفعل ولا بد، وما يقدر عليه من مقدماته. وحينئذ ينتقل العلاج من مقدماته إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح»^(٢).

وكتب رَحِمَهُ اللهُ كَلامًا نَفِيسًا فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ عَجِيبِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]: «ثم انزل إلى الصدر ترى معدن العلم، والحلم والوقار والسكينة، والبر وأضدادها، فتجد صدور العلية تغلي بالبر، والخير والعلم، والإحسان، وصدور السفلة تغلي بالفجور، والشر، والإساءة، والحسد، والمكر.

(١) وفي سياق آخر قال: فإن لم يدفعها وإلا صارت «عادة». وله رَحِمَهُ اللهُ ترتيب جميل

آخر وهو [خطرة ثم فكرة ثم شهوة ثم عزيمة ثم فعل ثم عادة].

(٢) التبيان في أيمان القرآن لابن القيم رحمه الله تعالى (٦٣٣-٦٣٦).

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب؛ تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته، يأمر وينهى ويولي ويعزل، وقد حَفَّ به الأمراء والوزراء والجنود وكلُّهم في خدمته، إن استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا، وإن صحَّ صحوا، وإن فسد فسدوا، فعليه المعوّل.

وهو محل نظر الرب تعالى، ومحل معرفته، ومحبة، وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضى به وعنه، والعبودية عليه أولاً، وعلى رعيته وجنده تبعاً.

فأشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المحب له، فهو محل الإيمان والعرفان، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا، وهو الإيمان والعقل.

وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي من آثاره، ومع هذا فهو بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل^(١) فسبحان مقلب القلوب، ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أحمد (٣/ ١٢٢ و ٢٥٧)، البخاري في الأدب المفرد (٦٨٣)، الترمذي وحسنه (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٢٧).

ويطلق القلب على معنيين: أحدهما: أمر حسي، وهو العضو اللحمي. والثاني: أمر معنوي وهو لطيفة، ربانية رحمانية وروحانية، لها بهذا العضو تعلق واختصاص وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية.

وللقلب جندان: جند يرى بالأبصار، وجند يرى بالبصائر. فأما جنده المشاهدة: فالأعضاء الظاهرة والباطنة، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم، وإذا أمر اليد بالبطش بطشت، وكذا جميع الأعضاء وقد ذُلت له تذليلاً.

ولما خلق الله القلب للسفر إلى الله تعالى والدار الآخرة، وجُعل في هذا العالم ليتزود منه؛ افتقر إلى المركب والزاد لسفره، فأعين بالأعضاء والقوى لتجلب له ما يوافقه وتدفع عنه ما يضره، فافتقر إلى جنديين: باطن، وهو الإرادة والشهوة والقوى، وظاهر وهو الأعضاء، فخلق في القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه، وخلقت له الأعضاء التي هي آلة الإرادة. واحتاج لدفع المضار إلى جنديين: باطن؛ وهو الغضب الذي يدفع المهلكات، وينتقم من الأعداء، وظاهر؛ وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه، كالأسلحة للمقاتل. ولا يتم له ذلك إلا بمعرفته ما يجلب وما يدفع، فأعين بجند من العلم يكشف له حقائق ما ينفعه ويضره.

ولما سُلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان؛ أُعين بجند من الملائكة، وجعل له محلاً من الحلال يُنفذ فيه شهواته، وجعل بإزائه أعداء ينفذ فيهم غضبه، فما ابتلي بصفة من الصفات إلا وجُعل له مصرف ومحل ينفذها فيه؛

فلقوة الحسد المنافسة في فعل الخير؛ ولقوة الكبر التكبر على أعداء الله وإهانتهم، ولقوة الحرص، الحرص على ما ينفع^(١)، ولقوة الشهوة؛ التزوج بأربع والتسري بما شاء، ولحب المال؛ إنفاقه في مرضاته، ولحب الجاه؛ إقامة دين الله ونصر المظلوم وقمع أعداء الله، ولحب اللعب واللهو؛ لهوه مع امرأته وقوسه وسهمه وترسه.. وكل ما أعان على الحق فهو من الحق، وكل ما أعان على الباطل فهو من الباطل والضلال.

وهكذا جميع القوى التي رُكِّبت فيه، فلا يطلب منه إزالتها بل تصرف في مجاريها من محلّ إلى محلّ، فالله تعالى قد ركبها فيه لمصلحة اقتضتها حكمته، ومن تأمل هذا الموضوع، علم شد الحاجة إليه وعظيم الانتفاع به.

وجماع الطرق والأبواب التي يُصاب منها القلب وجنوده أربعة، فمن ضبطها وعدّها وأصلح مجاريها؛ ضُبِطت وحفظت جوارحه، وهي: الحرص، والشهوة، والغضب، والحسد. فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الخير والشر، وكما هي طرق إلى العذاب السرمدى فهي طرق إلى النعيم الأبدى.

فآدم عليه السلام أبو البشر؛ أُخرج من الجنة بالحرص، ثم أدخل إليها بالحرص، ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني.

وأبو الجن^(٢) أُخرج منها بالحسد، ثم لم يُوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها.

(١) حديث «أحرص على ما ينفعك» في مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٦٦٤).

(٢) قال شيخ الإسلام: «وجميع الجن ولد إبليس» المجموع (٧/١٥).

أما الغضب فهو غُولُ العقل، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفتريسه الشيطان عند غضبه وشهوته.

فإذا كان حرصه على ما ينفعه، وحسده منافسةً في الخير، وغضبه لله وعلى أعداء الله، وشهوته مستعملة في المباح؛ كان ذلك عوناً له على ما أمر به، ولم تضره هذه الأربعة، بل ينتفع بها أعظم الانتفاع»^(١).

ومن أنفع العلاج للقلب: الذكر والاستغفار والتوبة «ووسواس الشيطان يغشي القلب كطيف الخيال فينسيه ما معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق فيقع في الباطل، فإن كان من المتقين؛ كان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلَدِّينَ أَتَقَوُّ إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب، وقد يكون لطيفاً، وقد يكون كثيفاً، إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه من إِبْصَارِ الحق، قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب نُكِّت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢).

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب، هذا جزاء على الذنب، والغين ألطف من ذلك كما في الحديث الصحيح «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر

(١) التبيان في أيمان القرآن لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (٦٢٣-٦٣١) باختصار.

(٢) الترمذي (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٦٦).

الله في اليوم سبعين مرة»^(١)، فالشيطان يلقي في النفس الشر والملك يلقي الخير، وفي الصحيح^(٢) أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم» وفي رواية «فلا يأمرني إلا بخير» أي استسلم وانقاد»^(٣) والله تعالى أعلم.



(١) مسلم (٤١).

(٢) مسلم (٢٨١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٢٢/١٧ - ٥٢٣).

وقفة

يا معاشر العلماء، قد كتبتم ودرستم، ثم إن طلبكم العلم فلسستم في بيت العمل ثم لو ناقشكم الإخلاص لأفلسستم.

شجرة الإخلاص أصلها ثابت، لا يضرها زرع ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ ك﴾ [النحل: ٢٧]، وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة ﴿وَقَفُوهُمْ﴾ [الصفات: ٢٤].
كم من متشبه بالمخلصين في تخشعه ولباسه، وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقه. واأسفَى ما أكثر الزور!

أما الخيام فإنها كخيامهم
ليس كل مستدير يكون هلالاً، لا لا، وما كلُّ من أوفى إلى العزّ ناله.

ودون العلى ضربٌ يدُمِّي النواصيا

ريح المخلصين عطريّة القبول، والمرائي سموميّ النسيم، نفاق المنافقين
صيرّ المسجد خراباً، ﴿لَا نَقْمُ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، وإخلاص المخلصين
رفع قدر الوسخ، «رب أشعث أغبر»^(١).

أيها المرائي، قلب من ترائيه بيد من تعصيه، لا يُنقش على الدرهم الزائف
اسم الملك فما يتبهرج الشحم بالورم.

(١) مسلم (٢٨٥٤).

فما كلُّ دارٍ أقفرت دائرة الحمى ولا كلُّ بيضاء الترائب زينبُ
 ذهب أهل التحقيق، وبقيت بنيات الطريق، خلت البقاع من الأحباب،
 وتبدلت العمارَةُ بالخراب؛ يا ديار الأحباب عندك خبر! المخلص يهرج على
 الخلق بستر الحال، وببهرجته يصحّ النقد.

كان أيوب السخيتاني إذا وعظ فرّق، فرّق قلبه من الرياء، فيمسح وجهه
 ويقول: ما أشد الزكام، وكان يُحيي الليل كله، فإذا كان عند الصباح رفع صوته
 كأنه قام تلك الساعة.

هل مدلجٌ عنده من مُبكرٍ خبرٌ وكيف يعلم حال الرائح الغادي
 كان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل غطاءه.
 وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يصلي اضطجع على فراشه.
 مرض ابنُ أدهم فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء، لئلا يتشبه
 بالشاكين، هذه والله بهرجة أصحّ من نقدك.

رحل - والله - أولئك السادة، وبقي قرناء الرياء والوسادة.

ذمّ النازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام^(١)

بسم الله

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

صدر من هذه الموسوعة:

(١) مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣) حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢) الإخلاص والتوحيد	(١٤) الثقة بالله تعالى
(٣) العبودية	(١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
(٤) الصدق والتّصديق	(١٦) الاستغناء بالله تعالى
(٥) محبة الله تعالى	(١٧) التعلُّق بالله تعالى
(٦) الشّوقُ إلى الله تعالى	(١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
(٧) الأنسُ بالله تعالى	(١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
(٨) الإرادة	(٢٠) سلامة الصّدر
(٩) العزم	(٢١) العفاف
(١٠) الرّجاء	(٢٢) الصّبر
(١١) الرّغبة	(٢٣) الرّضا
(١٢) التّوكّلُ على الله تعالى	(٢٤)

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(٢)

موسوعة تعظيم علامر الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الإخلاص والتوحيد



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الزبيبي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

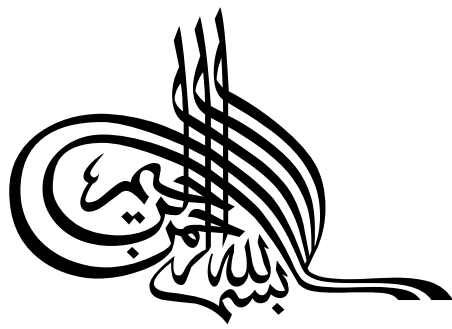
الكتاب رقم (٢)

التوحيد والإخلاص

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

التعريف.....	٧
الكلام في حديث «إنما الأعمال بالنيات»	١٢
لا غنى للعبد عن التوحيد والإخلاص	١٨
اقتضاء القول للعمل	٢٨
الإخلاص التام.....	٣٧
وسائل تحقيق التوحيد والإخلاص	٤٥
أولاً: قطع الطمع في الخلق:	٤٥
ثانياً: التخلص من رؤية العمل	٤٧
ثالثاً: التخلص من طلب العوض على العمل:	٥٠
رابعاً: التخلص من رضاه بعمله وسكونه إليه:	٥٠
خامساً: تذكر ما عند الله من المعية والجزاء:	٥٢
سادساً: العناية والرعاية لأعمال القلب تفقهاً وسلوكاً	٥٤
سابعاً: الدعاء والالتجاء والضراعة والابتهال بين يدي الله تعالى	٧٢
ثامناً: استصحاب اطلاع الله تعالى على السر	٧٤
تاسعاً: تأمل سير وأخبار المخلصين	٧٤
عاشراً: الخوف والوجل والإشفاق من آفات الإخلاص	٧٥

٩٤ إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا

١٢٦..... صفات المنافقين

١٢٩..... وقفة تأمل



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الأوّل فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء. أحمده سبحانه وأشكره وأثني عليه الخير كله ولا أكفره، اللهم لك الحمد على نعمة الخلق والرزق والإنسانية وأن جعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وخصصتنا بهذا الدين القويم والكتاب المبين والمنهاج المستقيم، اللهم اهدنا صراطك المستقيم، وأجرنا من شرّ أنفسنا والشياطين، سبحانه لا نحصي- ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأنت على كل شيء قدير.

أما بعد، فإنّ أصل الأصول وأساس الأركان ومبدأ الدين ومنتهاه هو توحيد الله رب العالمين وإخلاص الوجه للحي الدائم القيوم ذي الجلال والجمال والكمال والإكرام. وإنّ أمراً هذا شأنه حقيق بكلّ مكلف أن يجعله في المرصد الأعلى لغاياته، والمحلّ الأسمى لأوليّاته، والحتّم اللازم لاهتماماته، ولا غرو فهو مفتاح الجنة، ولا عجب فهو الدين كلّ الدين.

وهذا الكتاب لبيان ما يسره الله وفتح به من أمر التوحيد والإخلاص، جعلنا الله جميعاً من أهل تحقيقهما والفوز بمرضاة الله تعالى والزلفى لديه. سائلاً ربي المدد والمعونة والتوفيق، هو حسبي ومُعتمدي ووليّي وكيلي، ونعم

المولى ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمي محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الدميحي

١٤٣٦/٨/١

aldumaiji@Gmail.com

التعريف

الإخلاص في اللغة: قال الأزهري: «قال الليث: الإخلاص هو التوحيد لله خالصاً، ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص. والتخليص التنحية من كل منشب»^(١).

وقال ابن فارس «خلص»: «الخاء واللام والصاد أصل واحد مطّرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خلّصته من كذا، وخلّص هو»^(٢).

وقال الجوهري: «خلّص الشيء يخلص خلوصاً؛ أي صار خالصاً، والإخلاص في الطاعة؛ ترك الرياء»^(٣).

وقال ابن منظور: «خلّص الشيء؛ بالفتح يخلص خلوصاً وخلّصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، وأخلصه وخلّصه وأخلص لله دينه: أمحضه. وأخلص الشيء اختاره، وقرئ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] و«المخلصين». قال ثعلب: يعني بالمخلصين الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وبالمخلصين الذين أخلصهم الله عز وجل. وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، والتخليص: التنجية من كل منشب، والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء،

(١) معجم تهذيب اللغة (١٠٨٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣٠٩).

(٣) الصحاح (٣/ ٨٧١).

وخلص إليه الشيء أي وصل»^(١).

وقال الفيروز آبادي: «خَلَصَ خُلُوصًا، وخَالِصَةً: صار خَالِصًا. وأخلص لله: ترك الرياء، أما التوحيد فمعناه قريب من الإخلاص»^(٢).

قال الأزهري: «الْوَحْدَةُ: الانفراد. والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد ذو الوجدانية والتوحد، والواحد في صفة الله معناه أنه لا ثاني له، ويجوز أن يُنعت الشيء بأنه واحد، فأما أحدٌ فلا يوصف به غير الله لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه^(٣)، ويقال: أَحَدْتُ الله ووحْدَتُهُ وهو الأحد الواحد، وأما قول الناس: توحيد الله بالأمر وبتفرد، فإنه وإن كان صحيحًا في العربية فإني لا أحب أن أَلْفِظ بلفظ في حق الله لم يصف به نفسه في التنزيل أو السنة»^(٤).

وقال ابن فارس: «الواو والحاء والdal أصل واحد يدل على

(١) لسان العرب (٣/ ١٧٦).

(٢) القاموس المحيط (٥٠٧).

(٣) لعله يقصد الوصف المستغرق (الوصف المطلق) أو التسمي به، أما مطلق الوصف فلا بأس به؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ...﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، أو لعله قصد منع الإشارة لشخص بأنه أحد، فلا يقال: فلان أحد، لكن يقال: فلان واحد.

(٤) معجم تهذيب اللغة (٤/ ٣٨٤٤-٣٨٤٧).

الانفراد»^(١).

وقال الجوهرى: «الوحدة: الانفراد»^(٢).

وقال ابن منظور: «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الواحد الأحد، ذو الوجدانية والتوحد» وكذلك تعريف الفيروزآبادي^(٣).

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده»^(٤).

قلت: وبين الإخلاص والتوحيد عموم وخصوص؛ فإن افترقا دل كل منهما على الآخر، وإن اجتمعا تعلق لفظ التوحيد بأصل الإيمان والديانة، وتعلق لفظ الإخلاص بإفراد العبادة على التفصيل، والله أعلم.

وقد قسم العلماء التوحيد لأقسام اصطلاحية تسهياً لإفهامها، فمنهم من قسم التوحيد لقسمين: الأول: توحيد المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد الطلب والقصد، وهو توحيد الألوهية والعبادة^(٥)، ومنهم من يقسمه لثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، وهو

(١) المعجم (١٠٤٥).

(٢) الصحاح (٢/ ٤٧٧)، وانظر: المفردات (١٥٦).

(٣) اللسان (٩/ ٢٣٦).

(٤) القاموس (١٨٥٣).

(٥) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١٥).

التوحيد الذي أقرّ به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم يُدخلهم في الإسلام، وقاتلهم رسول الله ﷺ واستحلّ دماءهم وأموالهم ﴿وَمَنْ يُدْبِرْ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

الثاني: توحيد الألوهية^(١): وهو إفراد الله تعالى بأفعال العباد كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرغبة، وهو التوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] أي إفراد الله عز وجل بالعبادة. وهو التوحيد الذي من أجله خلق الخلق، وأنزلت الكتب، وبعثت الرسل، وقامت سوق الجنة والنار، وجردت سيوف الملة نصرة له وقرعاً لمناكفيه.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، والسكوت عما سكوت عنه الله ورسوله، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل^(٢).

قال شيخ الإسلام: «ودين الإسلام مبني على أصليين: على أن يُعبد الله

(١) ويسمى توحيد الإلهية والعبادة والعبودية. فالألوهية نسبة إلى توحيد الله وحقه، والعبودية نسبة إلى فعل العبد وإيمانه.

(٢) انظر: مجموعة التوحيد لابن تيمية (٧، ٨)، فتاوى العثيمين (٢ / ١١٢).

وحده ولا يُشرك به شيء، وعلى أن يُعبد الله بما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ، وهذان هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(١).

وقال: «لا يتتفع بشفاعة النبي ﷺ إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محباً له ومعظماً إياه لم تنقذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ﷺ، ولهذا فإن أبا طالب وغيره ممن يحبونه ولم يقرّوا بالتوحيد الذي جاء به لم يكن ليخرج من النار بشفاعته ولا بغيرها، ودليل ذلك قوله ﷺ جواباً عمّن سأله: أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال عليه الصلاة والسلام: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، وقد اختار ﷺ الشفاعة وجعلها خاصة بمن مات لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

وقد ذكر أيضاً رحمه الله تعالى: أن إخلاص الدين هو الذي لا يقبل الله تعالى سواه، وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه^(٣).

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لابن تيمية (١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى باختصار وتصرف (١٥٣، ١٥٤) عن موسوعة نضرة النعيم (٤/ ٣٠٨).

(٣) التحفة العراقية في أعمال القلوب (٥٨).

الكلام في حديث «إنما الأعمال بالنيات»

في الصحيحين عن يحيى بن سعيد الأنصاري^(١) عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية - وفي رواية بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وهو حديث عظيم جليل القدر قد حوى جملة فوائد لا غنى لمسلم عنها.

قال الحافظ ابن مهدي رحمه الله تعالى: «من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث». وقال: «لو صُنِّفَتْ كتاباً لبدأت في كل باب منه بهذا الحديث» فهو حديث عظيم عليه مدار الإسلام والإيمان مع بضعة أحاديث آخر^(٢).

(١) ورواه عن يحيى بن سعيد أئمة الإسلام، يقال: إنه رواه عنه نحو من مئتي عالم مثل مالك والثوري وابن عيينة وحماد، وهو حديث صحيح متفق على صحته تلقته الأمة بالقبول والتصديق مع أنه من غرائب الصحيح. مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٤٧).

(٢) وقد اختلف في عدّها على عشرة أقوال، أمثلها أنها ثلاثة: «إنما الأعمال بالنيات» رواه الشيخان، «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» أخرجه الترمذي وابن ماجه، «الحلال بين والحرام بين» رواه الشيخان، ومنهم من زاد عليها «وازهد في الدنيا يحبك الله» رواه أبو داود والدارقطني. وقد نظمها أبو الحسن المعروف فقال:

ومن جلالته أن رسول الله ﷺ قد خطب به فقال: «يا أيها الناس إنما الأعمال بالنية»^(١)، وخطب به عمر أيضًا على منبر رسول الله ﷺ، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه»^(٢). كذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وغيره: «إنه ثلث العلم»^(٣).

قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللهُ: «وسببه كما قال البيهقي وغيره أن كسب العبد بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنه يكون عبادة بانفرادها، بخلاف القسمين الآخرين، ولهذا كانت «نية المؤمن خير من عمله»^(٤)، ولأن القول والعمل يدخلهما الفساد بالرياء ونحوه بخلاف النية.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: يدخل هذا الحديث في ثلاثين بابًا من الإرادات والنيات.

=

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ماله ليس يعينك واعملن بنية
وانظر تفصيل الأقوال في: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام للحافظ ابن الملقن (١/)
١٥٣)، وفي جامع العلوم والحكم لابن رجب (٥).

(١) البخاري (١/ ١٠).

(٢) معرفة السنن للبيهقي (١/ ١٩١).

(٣) فتح الباري (١/ ١١).

(٤) الديلمي في مسند الفردوس، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٢٨) بإسنادين ضعيفين.

وقال أبو عبيد: ليس شيء من أخبار النبي ﷺ حديثاً أجمع وأغنى وأكثر فائدة وأبلغ من هذا الحديث (١).

وقال ابن دحية: لم أجد فيما أرويه من الدينيات أنفع من قوله: «إنما الأعمال بالنيات» إذ مدار العلم عليه، وهو نور يسعى بين يديه (٢).

والضابط لحصول النية: أنه متى قصد بالعمل امتثال أمر الشرع، وبتركه الانتهاء بنهي الشرع؛ كانت حاصلة مثاباً عليها وإلا فلا، وإن لم يقصد ذلك كان عملاً بهيمياً، ولهذا قال السلف: الأعمال البهيمية ما عملت بغير نية.

وقال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي في أربعينه: هذا الحديث أصل كبير في صحة الأعمال الدينية، وأنها موقوفة على خلوص النية، وهي بالإضافة إلى الأفعال والأقوال بمنزلة الأرواح للأشباح، والأعمال كالأجسام الموات والنية الصالحة لها كالحياة، فمتى لم يقصد العامل بعمله وجه الله دون ما سواه كان سعيه خائباً وأمله كاذباً، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]... والإخلاص يرجع إلى الكتاب والسنة، أما الكتاب فكل آية تضمنت مدح الإخلاص وذم الرياء نحو ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿كَأَلَيْكَ يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾

(١) فتح الباري (١ / ١١).

(٢) الإعلام لابن الملحق (١ / ١٥٨ - ١٦٠).

[البقرة: ٢٦٤].

وأما السنة فقولہ علیہ الصلاۃ والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١)، وقولہ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»^(٢)، وقولہ: «إذا أنفق الرجل على أهله وهو يحتسبها فهي له صدقة»، وقولہ فی حدیث سعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»^(٣).

ولما عزم مالك رَحِمَهُ اللهُ عَلَى تصنيف الموطأ كتب بعض من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقليل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأُتي بذلك فنظر فيه ثم نبذه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع من هذا إلا ما أريد به وجه الله^(٤). قال الفضل بن محمد بن حرب: فكأنما أُلقيت تلك الكتب في الآبار وما سمع بشيء منها بعد ذلك يُذكر^(٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والنية^(٦) محلها القلب باتفاق العلماء، فإن

(١) مسلم (٤/ ٢٥٦٤).

(٢) متفق عليه البخاري (٢٧٨٣). و مسلم (١٣٥٣).

(٣) متفق عليه البخاري (٥٦). و مسلم (٤٤٠٩).

(٤) التمهيد لابن عبد البر (١/ ٨٦) عن محقق الإعلام.

(٥) الإعلام لابن الملقن (١/ ١٦٢-١٦٥) باختصار. وقد ذكر رحمه الله اثنتين وثلاثين

فائدة من هذا الحديث الجليل.

(٦) النية لها إطلاقان: الأول: إرادة وجه الله وحده لا شريك له بالعمل، وهذا هو

نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم.

والنية تتبع العلم، فمن علم ما يريد فعله فلا بد أن ينويه ضرورة، ولو كُلف العباد أن يعملوا عملاً بغير نية كلفوا ما لا يطيقون، فإن كل أحد إذا أراد أن يعمل عملاً مشروعاً أو غير مشروع فعلمه سابق إلى قلبه وذلك هو النية، وإذا علم الإنسان أنه يريد الطهارة والصلاة والصوم فلا بد أن ينويه إذا علمه ضرورة، وإنما يتصور عدم النية إذا لم يعلم ما يريد، مثل من نسي - الجنابة واغتسل للنظافة أو للتبرد، أو من يريد أن يعلم غيره الوضوء ولم يرد أن يتوضأ لنفسه، ومن عرف هذا تبين له أن النية مع العلم في غاية اليسر - لا تحتاج إلى وسوسة وآصار وأغلال، ولهذا قال بعض العلماء: الوسوسة إنما تحصل للعبد من جهل بالشرع أو خبل بالعقل»^(١).

وقال: «وقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يبين العمل الباطن، وأن التقرب إلى الله يكون بالإخلاص في الدين لله، كما قال الفضيل في قوله تعالى: ﴿يَبْلُغُكُمْ أَتُكْمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، قال: فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل،

الإخلاص. الثاني: تمييز العبادة عن غيرها.

قال شيخ الإسلام: «ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين: فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل، وعبادة من عبادة، أو يريدون بها تمييز معبود عن معبود ومعمول له عن معمول له» المجموع (١٨ / ٢٥٦).

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٨ / ٢٦٢، ٢٦٣) باختصار.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر استحباب، وألا يشرك العبد بعبادة ربه أحداً؛ وهو إخلاص الدين لله^(١)، وكذلك قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، فإن إسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله، والإحسان هو إحسان العمل لله، وهو فعل ما أمر به فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الاستهانة بالآمر به، والاستهانة بنفس العمل، والاستهانة بما وعده الله من الثواب، فإن أخلص العبد دينه لله، وأحسن العمل له كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢).



(١) لذلك يشترط العلماء لقبول العمل إضافة للشرطين الإخلاص والمتابعة شرطاً ثالثاً وهو الإيمان المصحح لبقية أفراد العبادة. ومن الشروط كذلك الموافقة على الإيمان. نسأل الله حسن الخاتمة بمنه وكرمه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٥٠، ٢٥١).

لا غنى للعبد عن التوحيد والإخلاص

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وأما النية التي هي إخلاص الدين لله فقد تكلم الناس في حدّها وحدّ الإخلاص، كقول بعضهم: المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يجب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله»^(١).

وقال الفضل بن زياد: سألت أبا عبد الله - يعني الإمام أحمد - عن النية في العمل، قلت: كيف النية؟ قال: «يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس». وحدث يزيد بن هارون بحديث عمر: «الأعمال بالنيات» وأحمد جالس فقال أحمد ليزيد: «يا أبا خالد هذا الخناق».

والنية في القرآن يعبر عنها كثيراً بالإرادات كقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨].

وفي السنة وكلام السلف تأكيد شديد على شأن الإخلاص والنية كقوله

(١) السابق (١٨ / ٢٦٠).

عَنْ اللَّهِ: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقلاً فله ما نوى»^(١)، وما روي عنه: «يحشر الناس على نياتهم»^(٢)، وقوله في حديث الخسف بالجيش: «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، ويبعثهم الله على نياتهم»^(٣)، وقوله: «من كانت همه الدنيا فرّق الله شمله - وفي لفظ: أمره - وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).

وقال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: تعلّموا النية فإنها أبلغ من العمل.

وقال زيد الشامي رَحِمَهُ اللَّهُ: إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب^(٥)، انو في كل شيء تريد الخير حتى خروجك إلى الكناسة^(٦).

(١) رواه أحمد والنسائي من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٩٢٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣١٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٢٣٠).

(٣) رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهذا لفظه من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٥) لذلك قيل: عادات العلماء عبادات، وعبادات العامة عادات.

(٦) أي: بيت الخلاء.

الإخلاص والتوحيد

وقال داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيراً وإن لم تنصب. وقال: والبر همة التقى ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أهله.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي.

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللهُ: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

وقيل لنافع بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: ألا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت حتى أنوي، قال: ففكر هنيهة ثم قال: امض.

وقال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: ربّ عمل صغير تعظمه النية، وربّ عمل كبير تصغره النية^(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وفي حديث «إنما الأعمال بالنيات» ذكر ﷺ أن الأعمال بحسب النيات، وحظ العامل من عمله نيته من خير أو شر، وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء، وذكر بعد ذلك مثلاً من الأمثال والأعمال التي صورتها واحدة ويختلف صلاحها وفسادها

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٩، ١٠).

باختلاف النيات، وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال»^(١).

وقال السندي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «وإنما لكل امرئ ما نوى» أي ليس للفاعل من عمله إلا نيته أو منويه، أي الذي يرجع إليه العمل نفعاً أو ضرراً هي النية، فإن العمل بحسبها يحسب خيراً أو شراً، ويجزئ المرء على العمل بحسبها ثواباً أو عقاباً، ويكون العمل تارة حسناً وتارة قبيحاً بسببها، ويتعدد الجزاء بتعددتها»^(٢).

وقال مكحول رَحِمَهُ اللهُ في شأن الإخلاص والتجريد: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه.

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس والرياء.

وقال يوسف بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله^(٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ

(١) السابق (ص ١١).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (١ / ٦٣).

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩٣-٩٦).

الإخلاص والتوحيد

عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿﴾ [الكهف: ١١٠]: «وهذان ركننا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ» (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه» (٢).

وفي قصة إسلام عكرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما ركب البحر هارباً من رسول الله ﷺ فهاج البحر وأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلاجدنه عفواً كريماً. فجاء فأسلم (٣).

وتأمل أخي - أحسن الله إليك - في فضل الإخلاص حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربّه فيه، ويصلُ به رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد

(١) تفسير ابن كثير (١٦ / ١١٤).

(٢) الفوائد (٦٧)، وانظر: موسوعة نضرة النعيم (٢ / ١٣٩).

(٣) النسائي (٧ / ١٠٥)، وصححه الألباني (٣٧٩١).

رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء»^(١)، ويشهد لذلك حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تَصِبْهَا»^(٢).

وتأمل حديث البطاقة^(٣) وحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة^(٤) وتفكر في مغزى التكرار والتأكيد على الإخلاص في قوله ﷺ: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يَخْرُجْهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(٥)، ومثله حديث الخروج للصلاة: «ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يَنْهَازُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ»^(٦)، وفي حديث عتبان المشهور لم يذكر ﷺ وسيلة لالتقاء النار سوى الإخلاص في كلمة التوحيد «لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح (٢٣٢٥).

(٢) مسلم (١٩٠٨)، وفي حديث معاذ مرفوعاً: «وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ» أبو داود (٥٤١) وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي وحسنه (٢٣٦٩).

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) متفق عليه.

لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرّم عليه النار»^(١).

ولما خرج ﷺ في غزاة قال لأصحابه: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»، وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»^(٢)، فلما صدقوا النية وحبسهم العذر أُجروا كالعاملين، فالحمد لله على فضله وإحسانه.

ومن رحمته تعالى أنه لم يجعل الهم بالسيئات كالهم بالحسنات، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»^(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْبَعِينَ^(٤) معلقاً على هذا الحديث العظيم: «فانظر يا أخي وفقنا الله وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأمل هذه الألفاظ،

(١) البخاري (٦٤٢٣) وبقية شروط لا إله إلا الله التي استقرّأها العلماء تنتظم في هذا الشرط، فإذا حضر الإخلاص حضرت وإن غاب لم تنفع.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الأربعين النووية، الحديث (٣٧). ولعل القبول الذي وضعه الله لمؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ عائد إلى حسن نيته وصدق قوله.

وقوله: «عنده» إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء بها. وقال في السيئة التي همّ بها ثم تركها: «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكدّها بـ«كاملة»، «وهمّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» فأكدّ تقليلها بواحدة، ولم يؤكدها بكاملة، فلله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه، وبالله التوفيق.

وقد ذكر الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في الإحياء^(١) كلامًا نفيسًا نلخص مهماته، قال: «قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تمّ عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وقال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن: إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل

(١) وهو كتاب عظيم حافل لو أنه اجتنب الأحاديث الموضوعة والأخبار المكذوبة وشطحات الصوفية والمتفلسفة وغرائب الاستنتاجات التي قد يؤدي بعضها إلى اليأس. وللعمامة يغني عنه (مختصر منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي، الذي اختصر به منهاج القاصدين لابن الجوزي الذي اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي.

النار في النار بالنيات.

واعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل. فالعلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. ولا بد أن ينفرد الباعث دون غيره وأن يكون متجردًا خالصًا عن مشاركة غيره وممازجته. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦]. وقال ﷺ: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله...»^(١).

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، لذلك كان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من

(١) رواه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني، تخريج كتاب السنة (١٠٨٥).

خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس. وقال أيوب السخيتاني: تخلص العمل على العمل أشد عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صُفِّي له، ومن خلط خلط عليه. وقيل: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص.

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشعر به غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصقّى المخلص: إخلاصاً. قال تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ قَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من اللبن والقرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراف، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الإلهية^(١)، والشرك منه خفي وجلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصد والنيات^(٢).



(١) كذلك الربوبية والأسماء والصفات.

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٢/ ١٦٦٨-١٦٨٤) باختصار.

اقتضاء القول للعمل

التوحيد والإخلاص لا بد لهما من مجاهدة دائمة وحراسة يقظة لشدة نزاهتهما ولتاثرهما المباشر بأدنى خدش أو ظلمة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرأة الصافية جدًا أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه: منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال.

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيغترّ به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوجه العظيم الكثير توحيده، فيظهر من تأثيره ما لم يظهر في التوحيد الكثير.

وأيضًا فإن المحل الصافي جدًا يظهر لصاحبه مما يُدنّسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه، فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به.

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها، بخلاف القوة الضعيفة.

وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكبيرة والغامرة للسيئات يُسامح بما لا يُسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن، كما قيل:
وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح
وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يُحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها^(١).

ومن عظمة التوحيد أن كلمته ترجح بالسموات والأرضين، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهنَّ لا إله إلا الله»^(٢)، وعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ «أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: أمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع

(١) الفوائد، ابن القيم (٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) رواه ابن حبان (٦٢١٨) والحاكم وصححه، وجوَّده ابن باز في الفوائد العلمية (٣٦٠/٢).

لو وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله»^(١).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: «وذلك لما اشتملت عليه لا إله إلا الله من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة ورأس الدين، فمن قال بإخلاص ويقين عمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك؛ فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٢) «ومعنى لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا إله واحد هو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فصح أن معنى الإله هو المعبود. لهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «قولوا لا إله إلا الله»^(٣) قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ الْهَاءَ وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله حق، وأن إلهية ما سواه من أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره»^(٤).

(١) رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٩٤).

(٣) رواه أحمد (١٥٤٤٨) وصححه الألباني في الإرواء (٨٣٤).

(٤) السابق (٧٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كحديث عتبان أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(١)، وحديث معاذ أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار»، قال: يا رسول الله، ألا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلموا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثراً^(٢).

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم على النار، ومنها حديث عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٣)، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»^(٤)، وأحسن ما قيل في معناه^(٥) ما قاله شيخ الإسلام

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه. ومعنى تأثراً: أي خوفاً من حقوق الإثم به لكتمه العلم.

(٣) متفق عليه. ومعنى «كلمته»: أي خلقه بكلمته: كن. ومعنى «وروح منه» أي أنه روح من الأرواح المخلوقة، لكن نسبه إليه لشرفه كبيت الله وعين الله وناقة الله.

(٤) رواه مسلم.

(٥) انظر: تيسير العزيز الحميد (٧٢-٩٠)، الفتاوى العراقية، ابن تيمية (٢/ ٥٨٤) (٢/ ١٠٦٤-١٠٨٣).

وغيره: «إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه، غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن محمداً رسول الله.

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يُخشى عليه أن يفتن عند الموت فيُحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالباً من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»^(١)، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث،

(١) رواه أحمد من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد رواه الشيخان.

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذه التوبة وهذا الإخلاص وهذه المحبة وهذا اليقين أمور لا تترك له ذنباً إلا يُمحي كما يُمحي الليل بالنهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك؛ فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصرًا على ذلك؛ فإنه يستوجب النار وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكن أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك.

بخلاف المخلص المستيقن؛ فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرًا على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة تضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين

مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قول لا إله إلا الله فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهو لاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، ويقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر- بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل، واستحل الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا بلسانه ما ليس في قلبه، وبفعل ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال شرًا وعمل شرًا لم يُقبل منه.

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه.

والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على سيئاتهم، ثم ضعف لذلك

صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام.

وبالجملة فلا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضى- لذلك، ولكن المقتضى- لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ولهذا لما قيل للحسن: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة. قال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه لمن سألته: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك وإلا لم يفتح. ويدل على ذلك أن الله تعالى رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة وكذلك النبي ﷺ كما في الصحيحين عن أبي أيوب أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(١)، وعن بشر- بن الخصاصية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ لأبأيعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة. فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: «فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذا؟» قلت: يا رسول

(١) متفق عليه.

الله: أبايعك عليهن كلهن^(١). والأحاديث في هذا الباب كثيرة».



(١) رواه أحمد، ووثق رجاله الأرنؤوط في تخريج المسند (٢١٩٥٢).

الإخلاص التام

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن المشغول بالحق يفرّ من الخلق، ومتى فرغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق فصار يعمل لهم ومن أجلهم، ويهتم بالرياء ولا يعلم.

ومن رأى الخلق عبدهم وهو لا يعلم، أما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد عن الخلق، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بُعدهم عنه.

وقد رأينا من يرئى ولا يدري فيمتنع من المشيء في السوق ومن زيارة الإخوان ومن أن يشتري شيئاً بنفسه. وتوهمه نفسه أنه يكره مخالطة السوق، وهذا يرئى جاهاً بين العامة، إذ لو خالطهم لامتُحي جاهه، وبطل تقبيل يده. وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار. وأبلغ من هذا أن نبينا ﷺ كان يشتري الشيء ويحمله، وخرج علي بن أبي طالب يوماً وهو أمير المؤمنين فاشترى ثوباً. وقد كان طلحة بن مطرف قارئ أهل الكوفة فلما كثر الناس عليه مشى إلى الأعمش فقرأ عليه فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحة.

وهذا والله الكبريت الأحمر، والإكسير، والمعاملة مع الله هكذا تكون.

فأما ضد هذه الحال فحالة عابد للخلق مليء بمظهره، وقد عم هذا جمهور الخلق، حاشا السلف.

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب»^(١)
 هذا، واعلم - رحماني الله وإياك - أن عبادة السر - من أعظم وسائل الثبات،
 وقد كان السلف يستحبون للمرء أن تكون له خبيئة من عمل صالح لا يطلع
 عليها إلا الله، وبعض الناس يظن أن الخبيئة لا بد أن تكون عن قوام دنيا
 كإطعام الطعام وكفالة الأرملة والأيتام ونحوه، وهذا قصور، فلا شك أن
 هذه من أبواب أعمال السر - بين العبد وربّه، ولكن كل عمل صالح كتمته عن
 الخلق فهو خبيئة لك، ولو بالذكر والصلاة والمناجاة ونحو ذلك. وهذه
 الأعمال الخالصة التي صنعت لوجه الله تعالى هي أعظم الذخائر يوم تبلى
 السرائر.

قال ابن رجب: «عبادة الخلوات من وسائل الثبات على الإيمان حتى
 الممات، ومعاصي الخلوات من أعظم أسباب الانتكاسات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب
 الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في
 ذلك النور قوة وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في
 قلبه كالنجم الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر
 كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٢٨٨، ٢٨٩).

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً ومعرفةً وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه.

وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئاً، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقتها، فسواء إيمانه قد حرسه بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته وولّى الباب ظهره»^(١).

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «إن كل آية في القرآن هي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهذا جزاء توحيده،

(١) المدارج (١/ ٥٧٧- ٥٧٩).

الإخلاص والتوحيد

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقُرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ توحيد ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

ولذلك شهد الله لنفسه بالتوحيد وشهد له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله، قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]، فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود به. وقد تضمنت هذه الآية الكريمة مراتب الشهادة الأربعة: العلم والتكلم به وإعلام غيره بما شهد به والالتزام بمضمونها والأمر به^(١).

وقال شيخ الإسلام: «توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانتة في القرآن كثير جداً، بل هو قلب الإيمان، وأول الإسلام وآخره، كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم (٤/ ٤٣١-٤٤٤).

الله»^(١)، وقال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله وجبت له الجنة»^{(٢)(٣)}، وهو قلب الدين والإيمان وسائر أعمال الجوارح له، كما في قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(٤).

هذا ومن بركات التوحيد أن من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب^(٥)، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في عرض الأمم على النبي ﷺ «فنظرت فإذا سواد عظيم، فقل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب»، لم أخبر بصفتهم فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»^(٦)، قال عبد الرحمن بن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد: «تحقيق التوحيد قدر زائد عن ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين: واجب ومندوب، فالواجب تخليصه من شوائب الشرك والمعاصي، فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدر فيه وتنقص ثوابه. والمندوب هو تحقيق المقربين الذين تركوا ما به بأس

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد (٢٢٣٨٤)، وأبو داود (٣١١٦)، وفيه صالح بن أبي عريب روى عنه جمع ووثقه ابن حبان، وحسنه النووي في المجموع (١١٠/٥).

(٣) فأول دخول الإسلام بها، والرحيل من هذه الدنيا بها.

(٤) متفق عليه.

(٥) مجموع الفتاوى (١/٧٠).

(٦) متفق عليه.

حذرًا مما به بأس، وحقيقته: انجذاب الروح إلى الله فلا يكون في قلبه شيء لغيره.

وقال الله تعالى مثنيًا على خليفه إبراهيم عليه السلام الذي كمل مراتب الإخلاص والتوحيد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] قال الإمام المجدد في الكلام على هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين^(١).

وقال شيخ الإسلام: «القرآن كله مملوء من تحقيق التوحيد والدعوة إليه، وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به. ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله، وأن تثبت ألوهية الله في قلبك وتنفي ألوهية ما سواه، وهذا كثير في القرآن، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليماً»^(٢).

قال ابن الجوزي في شأن الإخلاص: «يا معاشر العلماء! قد كتبتم

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٠، ١٠١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣٤٧/٥ - ٣٤٩) باختصار.

ودرستم، ثم إن طلبكم العلمُ فلستم في بيت العمل، ثم لو ناقشكم الإخلاص لأفلستم.

شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعزع، ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ ك﴾ [النحل: ٢٧]، وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة ﴿وَقَفُوهُمْ﴾ [الصفات: ٢٤].

ريح المخلصين عطرية القبول، والمرائي سموميّ النسيم، نفاق المنافقين صيرّ المسجد ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ «رب أشعث أغبر»^(١).

«أيها المرائي! قلبٌ من ترائيه بيد من تعصيه يا أسفى! ذهب أهل التحقيق وبقيت بنات الطريق، خلت البقاع من الأحباب، وتبدّلت العمارة بالخراب، يا ديار الأحباب عندك خبر! المخلص يُبهرج^(٢) على الخلق بستر الحال، وببهرجته صحّ النقد.

كان في ثوب أيوب السختياني بعض الطول لستر الحال^(٣) وكان إذا وعظ فرّق، فرّق قلبه من الرياء فيمسح وجهه ويقول: ما أشد الزكام! وكان يحیی الليل كله، فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

(١) رواه مسلم.

(٢) البهرج: الذهب والجواهر المزيفة.

(٣) لعل له تأويلاً بإسباله، وإن كان شرف الغاية لا يبرر حرمة الوسيلة، والمعنى الذي قصده نفيس جداً.

وكان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل رجل غطّاه.
وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يصلي اضطجع على فراشه.
مرّض إبراهيم بن أدهم فجعل عند رأسه ما يأكل الأصحاء لئلا يتشبه
بالشاكين، هذه والله بهرجة أصح من النقد.
قُرى على أحمد بن حنبل أن طاووساً كان يكره الأئنين، فما أن مات.
تفيض نفوس بأوصائها وتكتم عوآدها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها^(١) إلى غير أحبابها^(٢)



(١) في الأصل (هواها) ولكنه لا يليق بهذا المقام إجلالاً لله تعالى.

(٢) المدهش، ابن الجوزي (٢/ ٥٨٤-٥٨٧) باختصار.

وسائل تحقيق التوحيد والإخلاص

المعوّل كله على توفيق الله تعالى لعبده ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾
[الكهف: ١٧]، ومن الوسائل المعينة على تحقيق الإخلاص والتوحيد:

أولاً : قطع الطمع في الخلق :

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوث. فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهّل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبید الله خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يُؤتي العبدَ منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضرر- ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زينٌ وذمي شينٌ. فقال: «ذلك الله عز وجل»^(١). فازهد في

(١) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٣٢٦٧).

مدح من لا يزينك مدحُه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه.

ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له. فإن رضي عمله وراه خالصاً لفت القلوب إليه، وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه.

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك نيته؛ لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له. ومن ضرورة الإخلاص: ألا يقصد التفات القلوب إليه، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك.

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة وإن لم يطلعوا عليها، فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح وإن لم يشاهد منه ذلك. وأما من يقصد رؤية الخلق بعمل فقد مضى العمل ضائعاً؛ لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق؛ لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل وذهب العمر. فليترك الله

(١) الفوائد، ابن القيم (٢١٩، ٢٢٠).

العبد وليقصد من ينفعه قصده، ولا يتشاغل بمدح الناس»^(١).

ثانياً: التخلص من رؤية الله -جل- حتى يبرأ من الإعجاب بنفسه وعمله،
فالعجب محبط للعمل ومفسد للقلب وباب للمقت.

قال ابن القيم: «الذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته سنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهذا ينفعه شهود الجبر^(٢)، وأنه آلة محضة وأن فعله كحركات الأشجار وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، وأنه لو خُلِّيَ ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء البتة، فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه، فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله، وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) ليس مراد المصنف إقرار الجبرية على عقيدتهم الضالة، بل قصد التنبيه على أن العبد إزاء فعل الطاعات عليه أن يستحضر- مشيئة الله تعالى، وأن طاعته لم تكن لولا توفيق الله، وهذا نافع في مشهد الطاعات لأنه طارد للعجب. أما المعاصي فلا، بل عليه أن يتذكر ذنبه وخطيئته، وحتى في الطاعة عليه أن يتذكر نقصه وتقصيره.

الإخلاص والتوحيد

تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنتته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرويته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعارف»^(٢) من صغرت حسناته في عينيه وعظمت

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٦-٣١٨).

(٢) قال الراغب: «المعرفة والعرفان هي في اللغة إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويضادها الإنكار. يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد، لما كانت معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم المتوصل إليه بتفكير». (المفردات للراغب الأصفهاني: ٤٣١).

قلت: ولا يلزم من قولنا: العلم بالله إدراك ذاته، بل إدراك ما عَلَّمْنَا مما عَلَّمْنَا سبحانه بالوحي. ولفظ العارف لا أعلم أن السلف اصطلاحوا عليه بل الجادة على اسم العابد، والذين استخدموه كاصطلاح كاشف أرادوا به العابد العالم بالله وإن لم يكن عالماً بشريعته، أي أنه مخلص صادق متوكل قد اجتمع قلبه على صدق التوجه والمحبة لربه. وقد بَوَّب البخاري رحمه الله على قول النبي ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ» بقوله: المعرفة فعل القلب لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقد ورد هذا الحديث من رواية الأصيلي بلفظ: «أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ» (الفتح ٨٩/١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «لا يوصف بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة، فالعارف

ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس.

هو من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملته، ثم أخلص له قصده ونيته، ثم جرد للدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ولم يُشبهها بآراء الرجال وأذواقهم ومواقفهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة، إذ سمي به غيره على الدعوى والاستيعاب (المدارج ٣/٣٣٧-٣٣٨) باختصار عن شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله (٨٨) عبد العزيز مصطفى.

قلت: إن صح الخبر فهو أصل في التسمية وقد استعمله ابن تيمية كثيراً (وقد صححه الزرقاني كما في مختصر المقاصد الحسنة (١٦٥) كذلك محمد جار الله الصعدي في النوافح العطرة (٥٧) بلفظ: «أنا أعلمكم بالله وأعرفكم»). وإن لم يصح ولم يشهد له غيره فالأولى ترك ذلك والاعتياض عنه بالمسمى الشرعي الذي لا شبهة فيه وهو العابد أو العالم بالله. وقد يكون سبب تعلّق المتصوفة بهذا المصطلح أنه دخيل من قبل قدماء المتصوفة الغنوصية الآسيوية أو الفلسفة الإغريقية ثم تلبست لبوس الصلاح، فهي تشير - عند كثير منهم - إلى معرفة خفية أو كشف لدني وتحصل عندهم عن طريق الرياضة والجوع والخلوة والتأمل لا عن طريق تعلم القرآن والسنة، وقدماء أولئك يقدّسون المعرفة من حيث هي معرفة مطلقة لا من حيث الآثار أو المآلات. وبالجملّة فالعدول عن هذا المسمى (العارف) أروح وأحسن ما لم يثبت في ذلك حديث، نعم إنه مجرد مصطلح ولا مشاخة وخطبها يسير، ولكن حراسة قوالب الشعيرة بمفردات اللغة ومسميات الشرع أولى وأسلم وأنجح وأفلح. وبالله التوفيق.

الإخلاص والتوحيد

ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت حسناته عنده وصغرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذي يليق بعزته ويصلح له من العبودية أمر آخر، وكلما استكثر منها استقلَّها واستصغرها، لأنه كلما استكثر منها فُتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر جميع أعماله ولو كانت أعمال الثقلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دلٌّ على أنه محجوب عن الله عالم به وبما ينبغي له.

وبحسب هذه المعرفة، ومعرفة بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه لمشاهدته الحق ومستحقه، وتقصيره في القيام به وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه^(١).

ثالثاً: التخلص من طلب العوض على العمل: فيعلم أنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيدته عوضاً ولا أجره، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسان إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة؛ إذ الأجرة إنما يستحقها الحر أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا.

رابعاً: التخلص من رضاه بعمله وسكونه إليه: وذلك بأمرين:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان، فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قلَّ،

(١) إحسان السلوك (١٨٩، ١٩٠).

وللنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»^(١)، فإذا كان هذا التفات طَرَفِهِ أو لَحْظِهِ، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟! وهذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية. وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه ألا ينصرف إلا عن يمينه»^(٢) فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد، فما الظن بما فوقه؟! وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيهها حقاً وأن يرضى بها لربه، فالعالم بربه لا يرضى بشيء من عمله له، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله^(٣) يحول بينه وبين الرضى بعمله، والرضى عن نفسه.

قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور، وكان بعض السلف يصلي الصلاة الطويلة ثم يقبض على لحيته ويقول لنفسه:

(١) البخاري (٧٥١).

(٢) متفق عليه.

(٣) أي مع مشاهدته لتقصيره ونقصه وذنبه.

يا مأوى كل سوء، وهل رضىك لله طرفة عين؟!

فالعابد الصالح ينجل من عمله ويشد حياؤه من ربه، إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال ﷺ: «هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه»^(١)، وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق الذي يراه الناس؛ حياء من الله عز وجل. فالمؤمن جمع إحساناً في مخافة وسوء ظن بنفسه، والمغرور حسن الظن بنفسه مع إساءته»^(٢).

خامساً: تذكر ما عند الله من المعية والجزاء: فلا ينال ما عند الله من الرضى والنعيم إلا بتوحيده والإخلاص له. والحياة الحقيقية والسعادة الأبدية والكفاية التامة مع الإخلاص لرب البرية سبحانه.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شأنه الله.

قال ابن القيم معلقاً على كلام عمر رضى الله عنه: هذا شقيق كلام النبوة، وهو جدير أن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن الإنفاق منهما نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع.

(١) أحمد (١٥٩ / ٦)، الترمذي (٣١٧٤) وصححه الألباني.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣١٦ - ٣٢١) بتصرف يسير.

فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر- وفصله. فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه عمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإن الله سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السموات والأرض والجال لكفاه الله مؤنتها وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة أو في اثنين منها أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر، وإن نُصر- نصراً عارضاً فلا عاقبة له، وهو مذموم مخذول وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تُضمن له النصر، فإن الله إنما ضمن النصر لمن جاهد في سبيله وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه وهواه فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر- إلا الحق، وإن كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محققاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة.

وإذا قام العبد لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً

عليه مفوضاً إليه بريئاً من الحول والقوة إلا به؛ فله من الخذلان وضعف
النصرة بحسب ما قام به من ذلك. ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله
لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه منصور ولو توالى عليه زمر الأعداء.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «من أسخط الناس برضى الله عز وجل
كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وَكَلَهُ إِلَى النَّاسِ»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا أخلص العبد اجتنابه ربه فأحيا قلبه، وجذبه
إليه، بخلاف القلب الذي لم يخلص، فإن فيه طلباً وإرادة، تارة إلى الرئاسة فترضيه
الكلمة ولو كانت باطلاً، وتغيظه ولو كانت حقاً، وتارة إلى الدرهم والدينار
وأمثال ذلك، فيتخذ إلهه هواه.

ومن لم يكن مخلصاً لله بحيث يكون أحب إليه مما سواه وإلا استعبده
الكائنات واستولت على قلبه الشياطين، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب
إن لم يكن حنيفاً وإلا كان مشركاً ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]،
وإذا ذاق طعم الإخلاص انقهر له هواه بلا علاج»^(٢)، وسيأتي في فصل الفرح
بالله مزيد تفصيل إن شاء الله تعالى.

سادساً: العناية والرعاية لأعمال القلب تفقهاً وسلوكاً^(٣): فالعمل الصالح فرع

(١) إحسان السلوك (١٨١-١٨٣).

(٢) السابق (١٨٣، ١٨٤).

(٣) من أجل ذلك رُفِّمَ هذا الكتاب، سائلاً ربي السداد والتوفيق والهدى.

عن العلم به، ومن أجل الأعمال الصالحة أعمال القلب، ومن أجلها الإخلاص، بل هو زبدتها وإكسیرها وغايتها، فلعمر الله هو حقیق بأن تنفی فيه الأعمار وتبذل لنيله الدنيا وما فيها.

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه وليس ينال الفوز إلا المشمر
وأخلص لدين الله صدرًا ونيةً فإن الذي تخفيه يومًا سيظهر

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اجعل عملك تابعًا للعلم، موافقًا له، مؤتمًا به، تسير بسيره، وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته، نازلًا منازلَه، مرتويًا من موارده، ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدًا به فعلاً وتركًا وطلبًا وهربًا، ناظرًا إلى ترتيب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا، ومع ذلك فتسير أنت بقلبك مشاهدًا للحكم القضائي الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات والحركات والسكنات، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة وتفرّد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته، فتكون قائمًا بالأمر والنهي فعلاً وتركًا، وبالقضاء والقدر إيمانًا وشهودًا وحقيقة، فتنظر إلى الحقيقة وتقوم بالشریعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿[الإنسان: ٢٩، ٣٠].

فترك العمل يسير سیر العلم مشهد: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وسير

صاحبه مشاهدًا للحكم مشهد: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] (١).

وقال: «الإخلاص» عدم انقسام المطلوب، و«الصدق» عدم انقسام الطلب، فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة. فهذه الأركان الثلاثة (الإخلاص والصدق والمتابعة) هي أركان السير وأصول الطريق التي من لم يَبْنِ عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المَقْعَد والمَقِيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح، كلما مشت خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيّد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يُجَارَى في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم» (٢).

وقال: «فإن الجهالة متى خالطت العبودية أوردتها العبد غير موردها، ووضعها في غير موضعها وفعل أفعالاً يعتقد أنها صلاح وهي إفساد لعبوديته. فالعبادة (٣) ما لم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها غير العلم بها نفسها كانت في

(١) المدارج (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) السابق (٢/ ٣٢٤) بتصرف يسير.

(٣) في الأصل (الخدمة) ويراد بها العبادة. والظاهر أنها دخيلة على المعنى الشرعي من بعض نساك الأعاجم كأمثال (المعرفة) ويقصد بها العلم، و(العارف) ويقصد به =

مظنة أن تبعد صاحبها وإن كان مراده بها التقرب، ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها. فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة، فلا بد من علم خاص بالله وأمره، ومحبة تامة له، ومعرفة بالنفس وما فيها، كما أنه يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس، وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم - مثلاً - وتمرن عليه فألفته النفس وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء، فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية وإنما هي تقاضي العادة^(١).

(العابد المحقق) ونحو تلك الكلمات والمسميات. وإن كان لفظ المعرفة ليس كغيره لوروده في القرآن الكريم ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٨٣]، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وعليه فالأمر فيها واسع إن شاء الله، وإن كان مرتبتها أقل من مرتبة العلم فالله تعالى وصف نفسه بالعلم وليس المعرفة. والأولى استخدام اللفظ الشرعي (العبادة) لأنها تقتضي المحبة مع العمل، وهذا ما لا يتأتى في لفظ (الخدمة)، كما أن المحافظة على لغة الصحابة النقية المنضبطة محتتم، فحراسة الشريعة في اللغة والاصطلاحات العربية الأولى مسلك مهم لسد الباب أمام سيل الكلمات والعبارات (الهجينة المعربة) التي جعلها بعض الناس بديلاً عن جزالة العربية العرباء التي هي وعاء الوحي ولسان القرآن. قال شيخ الإسلام: «من أعظم أسباب الغلط في فهم الكتاب والسنة أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث، فيريد أن يفسر كلام الله بمصطلحه» مجموع الفتاوى (١٢/ ١٠٦).

(١) كذلك الصلاة ونحوها من العبادات إذا ألفتها النفس.

وعلاوة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر. منه وأتم مصلحة لم تؤثرها إثارها لما اعتادته وألفته، كما حكى عن بعض الصالحين قال: حجبت كذا وكذا حجة على التجريد^(١)، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي. في الحاجات كان يحظ نفسي. وإرادتها؛ إذ لو كانت نفسي. فانية^(٢) لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

(١) التجريد هو الإخلاص.

(٢) وهذا من اصطلاحات المتصوفة المحدثه التي لم ترد عن السلف الصالح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والفناء يراد به ثلاثة أمور: الأول: أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر به، فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وهذا هو الفناء الشرعي الذي جاءت به الرسل. الثاني: وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره، بحيث يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله، ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبيناً، وكذلك من جعله من لوازم الطريق فهو مخطئ، بل هو من عوارض الطريق التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

الثالث: هو الفناء عن وجود سوى، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد». مجموع الفتاوى (٣/ ١١٨، ١١٩) باختصار.

ولابد من تقييد الحال بالعلم كما قال الجنيد بن محمد رَحِمَهُ اللهُ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في طريقنا هذا؛ لأن طريقنا وعملنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ^(١).

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: «قد انكشفت لأرباب القلوب ببصيرة الإيثار وأنوار القرآن أنه لا وجود للسعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سوء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصيل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

والنية هي الإرادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال أو في المآل. فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو

(١) المدارج (٢/ ٣٢٧-٣٢٩) باختصار.

الإخلاص والتوحيد

الباعث، والغرض الباعث هو المقصود المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد، بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فهذه أربعة أقسام، فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً:

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع؛ فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع، فإنه عرف السبع وعرفه ضاراً فانبعث إلى الهرب ورغب فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نية الفرار من السبع لا نية في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة، ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

الثاني: أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافياً للحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقربته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قربته لكان يقضيها بمجرد الفقر. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام، وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حميماً، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتماعاً جميعاً فأقدم على الفعل. وكان الباعث

الثاني رفيق الأول، فلنسمّ هذا «مرافقة البواعث».

الثالث: ألا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به أحدهما. ومثاله في غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير، وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب في غير وجه بر لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسمّ هذا الجنس «مشاركة».

الرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل^(١) ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس: أن يعاون الضعيف القوي على حمل ما لو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهّل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا: أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علّة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية، ولنسمّ هذا الجنس

(١) وهذا أخفاها وهو بحر لا ساحل له، وكم للشيطان فيه من نصيب، والله المستعان.

«المعاونة».

وبالجملة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقًا أو شريكًا أو معينًا. والعمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه، لذلك قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(١).

واعلم أن نية المؤمن خير من عمله^(٢)، ومعنى ذلك أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، والمقصود: أن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملا نية من الجملة خيرهما.

أما سبب كونها خيرًا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود.

فمن قال: الخبز خير من الفاكهة فإنما يعني أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدًا وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها

(١) متفق عليه.

(٢) وفيه حديث مرفوع «نية المؤمن خير من عمله» أخرجه الطبراني بسندين ضعيفين.

بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط، ولن يتنعم بقاء الله إلا من مات محباً لله عالمًا بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع العلم بالضرورة، وعلى قدر التفرغ من شواغل الدنيا يتفرغ القلب للذكر والفكر. وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما، وإذا حصل أصل الميل فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها.

فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل، واشتغل بالعلم أو تربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر - عليه النزوع، وإن خالف مقتضى - ميله ضعف ميله وانكسر - وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمر عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداءً وخالف مقتضى - ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زجراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر - بسبب وينقمع وينمحي.

وهكذا في جميع الصفات؛ الخيرات تراد بها الآخرة، والشرور تراد بها الدنيا لا الآخرة مما نُهي عنه، وميل النفس للخيرات الآخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر^(١)، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح؛ لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ويؤثر كل منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحه تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز أو بهجوم أمر مخيف تأثرت به الأعضاء وارتعدت به الفرائض وتغير اللون، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع^(٢).

فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ الْجَسَدِ»^(٣)، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وهي صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب

(١) ولا يمنع ذلك من الضرب في الأرض ونفع الناس بشرط أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه. بل الدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس وإعانتهم هو من أهم وظائف العبادات لتعدي نفعها، وعلى المعلم والداعية وصاحب البر ألا يغفل عن تركية نفسه والخلوة بها والتفتيش والتدقيق في خطرات النفس ورغباتها وإراداتها ومحاسبتها، فرأس مالك هي نفسك فلا تهملها بالغفلة عنها بسبب نفع الناس.

(٢) وانظر الكلام عن ذلك في مقدمة أعمال القلب في شرح حديث النعمان بن بشير رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ».

(٣) متفق عليه.

لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. وأعمال الجوارح تعود القلب على إرادة الخير وتؤكد فيه الميل إليه حتى يتطبع به.

وهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإن من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً؛ لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوباً لم ينتشر. من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، كذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول بهم بأغراض الدنيا لم ينتشر. من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه، فكان وجود ذلك كعدمه، لذلك فالعبادة بغير نية باطلة. وقريب من أثرها العبادة بغفلة، فإذا قصد بالعبادة رياءً أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاد شراً فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها^(١) حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا، فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له

(١) ويسمونها علماء النفس (التعزيز) أي تعزيز الصفة حتى ترسخ في القلب وتنطبع في النفس.

حسنة»^(١) لأن همَّ القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيد لها تأكيداً^(٢) فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذرها إثارة لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق، ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى ههنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إن بالمدينة قوماً ما سرتهم مسيرة ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم الأجر، حبسهم المرض»^(٣)، لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع أحاديث فضل النية.

هذا وحقيقة النية كما ذكرنا ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً، ومن أراد الرياء محضاً فحاله واضح، نعوذ بالله منه. وأما من انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا

(١) متفق عليه.

(٢) بل وأجرًا «فإن همَّ بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات...»، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فدل هذا على أن عمل الجوارح مقصود كذلك وإن كان تابعاً لعمل القلب، ويشهد لهذا كذلك حديث «ذهب أهل الدثور بالأجور» رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم (١٩١١).

الباعث باعث آخر من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثاله: أن يصوم ليتنفع بالحماية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو يتبرم من أهله وولده، أو ليغزو ويمارس الحرب ويتعلم أسبابها ويقدر بها على تهيئة العساكر وجربها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص من كرب الصمت وينفج بلذة الحديث، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو روى الحديث ليُعرف بعلو الإسناد، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو غير ذلك.

فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ونحوها حتى صار العمل عليه أخف بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه»^(١).

وبالجملة فالخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، فعلاج الإخلاص كسر- حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذا ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٩٨٥).

يتعب الإنسان منها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورًا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكى بعضهم أنه صلى ثلاثين سنة في الصف الأول ثم تأخر يومًا لعذر فاعتزته خجلة من الناس حين رأوه في الصف الثاني، قال: فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف كان مسرقي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر.

وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى. وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء؛ فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليه ويقول: غرضكم نشر دين الله، وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطان ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسره الله من نصرته الدين، وإذا ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظًا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه تعالى هذا المهم بغيره، والشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وليت شعري لو اغتم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتصدي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للإمامة أكان غمه محمودًا أم مذمومًا؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذمومًا؛ لأن انقياده للحق إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكلفه بمصالح الخلق

مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟! فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق لعله ينجو ويفلح.

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات. وقال سهل رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحرركاته لله تعالى خاصة. وقيل له: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

أما حكم العمل المشوب الذي خالط الإخلاص فيه شيء من حظوظ النفس، فقد اختلف الناس في ذلك هل يقتضي ثواباً أم عقاباً أم لا يقتضي. من ذلك شيئاً أصلاً؟ وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له^(١)، وليس تخلو الأخبار من

(١) كما في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، وللنسائي من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد حسن: «أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً

تعارض فيه^(١)، والذي يتقدح لي فيه - والعلم عند الله تعالى -: أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي - تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع بل مُضِرٌّ ومُفْضٍ للعقاب.

وإن كان قصد التقرب أغلب فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، فلا ينبغي أن يضع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، فمِثْقَالُ الذرة من الخير أو الشر. لا ينفك تأثيرها على القلب في إنارته أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو إبعاده، ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. أما الأحاديث التي تذكر حبوط عمله فهي محمولة على من لم يرد بذلك إلا الدنيا، أو تساوى في قلبه قصد الدنيا وقصد الآخرة فتساقطا.

والإخلاص عزيز والإنسان فيه على خطر عظيم وما أكثر الآفات! لذلك

وابتغي به وجهه» (عن محقق الإحياء).

(١) أي بحسب فهم بعض الناس، وإلا فيستحيل تعارضها تعارضاً تاماً مع صحتها وصراحتها.

قال سفيان: لا أعتد بما ظهر من عملي^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما الاستقصاء في رؤية علل الأعمال فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل من أغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون خالصة لله وأن تصل إليه. وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر. البتة وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد ولا نور، ثم بين القلب وبين الرب مسافة وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر وإعجاب وإدلال ورؤية عمل ونسيان المنة وغير

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٢/ ١٦٦٦-١٦٩١) باختصار وتصريف. ويرى بعض أهل العلم ومنهم العثيمين رَحِمَهُمُ اللهُ أن إرادة الدنيا والرياء إن كانت في أصل العمل فإنها تبطله كمن صلى لأجل الناس، أما إن عرض له خاطر الرياء أثناء العمل فدافعه وجاهدته فعمله صحيح وهو مأجور على مجاهدته، أما إن لم يدافعه بل استراح إليه واطمأن فقد يصل به إلى البطلان. وسيأتي مزيد بسط إن شاء الله تعالى.

ذلك» (١).

سابعاً: الدعاء والالتجاء والضراعة والابتهال بين يدي الله تعالى ليهبه الإخلاص ويخلصه من شبكة الشرك، وأن يلح بالدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم» (٢)، ويأتي بسط ذلك في بابي الافتقار واللجأ إلى الله تعالى إن شاء الله (٣).

(١) إحسان السلوك (١٨٥، ١٨٦) باختصار.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٩) وصححه الألباني من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هناك مسائل يُظن أنها من الرياء وهي ليست منه:

١. إذا حمدك الناس على الخير بدون قصد منك، لأن هذه عاجل بشرى المؤمن، بشرط ألا يطلب الثناء.

٢. رجل رأى العابدين فنشط للعبادة لرؤية من هو أنشط منه، فهذا ليس رياءً لأنه قصد بذلك وجه الله.

٣. تحسين وتجميل الثياب والنعل وطيب المظهر والرائحة، فالله جميل يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده.

٤. كتم الذنوب وعدم التحدث بها. فنحن مطالبون شرعاً بالستر، فكتم الذنوب ليس رياءً بل هو مما يحبه الله.

٥. اكتساب شهرة بغير طلبها، فليس من الرياء أن يشتهر المرء، ولكن الشهرة يمكن أن توقع في الرياء.

٦. إطالة الركوع ليدرك المسبوق الركعة احتساباً للأجر.

٧. وعظ الناس وتذكيرهم وتعليمهم.

٨. ترك المزاح والضحك ممن يقتدى به مخافة أن يفتن الجاهل.

٩. إظهار الفرائض التي شرعت مجهورة.
١٠. طلب الإمارة والرئاسة للدعوة إلى الله وإقامة دينه.
١١. إعطاء الهبة بقصد الإثابة عليها، أو قصد دفع الشر عن نفسه.
١٢. إظهار الفرائض حتى لا يذم من الناس إذا كان قصده خالصاً لله بفعل العبادة.
١٣. الخوف من ذم الناس لكونه عاجل عقوبة الله له.
١٤. فعل العبادة خالصة مع الاستعانة بها على طلب الرزق.
١٥. قول المرء: إني صائم لمن شاتمته.
١٦. الصوم لتحصيل مقصد شرعي كالعفة ولين القلب ونحو ذلك.
١٧. تخفيف الصلاة رحمة بالمؤمنين.
١٨. التزيّن والتجمل لحضور العبادة ولقاء الناس.
١٩. سجود الشكر والسجود أثناء القراءة عند قراءة السجديات بين الناس، وفعل الأوراد المشروعة التي يفعلها الإنسان دائماً.
٢٠. تقصير الثوب، وجعله فوق الكعنين إظهاراً للستة.
٢١. إغاطة الأعداء بفعل العبادات مع الإخلاص فيها.
٢٢. القيام للزائر لفضله.
٢٣. التورية لمن أحدث في صلاته بوضع يده على أنفه إذا انصرف إليها للناس برعافه.
٢٤. المبارزة في الجهاد.
٢٥. إلانة المنكب في الصلاة فينقاد لأخيه إذا طلب منه الاستواء ولا يتكبر.
٢٦. سؤال الله تعالى بالعمل الصالح لتفريج الكرب وإجابة الدعوات.
٢٧. التبكير بالذهاب للجمعة والجماعة ونحو ذلك.
٢٨. تخفيف الصلاة إذا جلس بجانبه رجل يريده.

ثامناً: استصحاب اطلاع الله تعالى على السر ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]،
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، **﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾** [البقرة: ١٩٧]،
﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ويأتي مزيد إن شاء الله تعالى في باب المراقبة.

تاسعاً: تأمل سير وأخبار المخلصين من لدن الأنبياء عليهم السلام إلى سائر أولياء الله تعالى، فالنفس نزاعة إلى التشبه بمن تراه أكمل منها، والأمثلة في الأمة كثيرة بحمد الله تعالى.

ومن ذلك أن علي بن الحسين رحمه الله كان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع

وللتفصيل ينظر: الإخلاص حقيقته ونواقضه، عبد الله بن عيسى الأحدي (١٩٨-٢١٣).

ومن علامات الإخلاص:

١. الحماس للعمل للدين.
٢. أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.
٣. المبادرة للعمل واحتساب الأجر.
٤. الصبر والتحمل وعدم التشكي.
٥. الحرص على إخفاء العمل.
٦. إتقان العمل.
٧. الإكثار من العمل في السر.. (سلسلة أعمال القلوب ٣٤، ٣٥). وانظر: القول المفيد، باب الرياء.

المساكين والأرامل، وكانوا لا يعلمون من أين كان معاشهم؟ فلما مات علموا به لما فقدوه وكانوا زهاء مئة بيت في المدينة، ولما غسلوه رأوا بظهره آثار حمل الطعام على ظهره كل ليلة.

أما داود بن أبي هند فقد صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، فكان يحمل غذاءه ويتصدق به على المساكين، ثم يرجع العشيّة فيتعشى مع أهله، لذلك فقد كان السلف يتواصون بأن يكون لأحدهم خبيئة من عمل صالح لا يعلم به إلا الله. وقال محمد بن واسع: إن كان الرجل لبيكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به. وقال الحسن البصري: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام.

وكان أيوب السخيتاني ربما حدث الحديث فيرق في مجلسه فجاءته عبرة فجعل يمتخط ويقول ما أشد الزكام. والأمثلة كثيرة عبر قرون الإسلام بحمد الله تعالى.

عاشراً: الخوف والوجل والإشفاق من آفات الإخلاص وأعظمها الشرك بالله

تعالى (١).

(١) وسيأتي مزيد بيان في باب الخوف من الله تعالى إن شاء الله تعالى.

وفي حاشية القول المفيد: «من علاج الرياء: ١. التبعد بالأسماء والصفات وتحقيق التوحيد. ٢. أن يعلم أنه عبد محض لا يستحق لخدمة سيده شيئاً، إنما يعطيه سيده تفضلاً لا معاوضة. ٣. مشاهدته لمنّة الله وتوفيقه. ٤. مطالعة عيوبه وتقصيره. ٥. خوف مقت الله تعالى. ٦. الإكثار من عبادات السر. ٧. تذكر الموت. ٨. معرفة الرياء =

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويكفي في ذلك قول نبي الله صلوات الله وسلامه عليه: «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل أتاه الله العلم، فيقول الله تعالى: ما صنعت فيما علمت؟ فيقول: يا رب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان عالم، ألا فقد قيل ذلك. ورجل أتاه الله مالا، فيقول الله تعالى: لقد أنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب كنت أتصدق آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان جواد، ألا قد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله تعالى، فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: يا رب أمرت بالجهاد

ومداخله وخفاياه. ٩. النظر في عاقبة الرياء. ١٠. الدعاء. ١١. مصاحبة أهل الإخلاص».

وهناك بحث قيم بعنوان: الإخلاص حقيقته ونواقضه لعبد الله بن عيسى الأحمدى (رسالة ماجستير).

فقاتلت حتى قُتلت. فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك» قال أبو هريرة: ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أبا هريرة، أولئك أول خلق تُسعر نار جهنم بهم يوم القيامة»^(١).

وعن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢)، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء»^(٣)، لذلك فحتى تبرأ من الشرك كله عليك بتحقيق وتصحيح شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) ولا بد أن تعرف قدرها وعظمتها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيق بمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً، فيكون تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله هو أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٢) عَمَّا

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٤٢٠٢).

(٢) رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن غريب. ورواه أحمد (٤٦٦ / ٣)، وحسنه الألباني والأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال غير واحد من السلف: هو عن قول: لا إله إلا الله^(١)، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتكم المرسلين؟^(٢) فالسؤال عن (ماذا كانوا يعبدون) هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن (ماذا أجابوا المرسلين) سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تشني عليه الخناصر، ويعصّ عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يؤخذ على فضله، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه يُطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره، ولا رب سواه^(٣).

قلت: وهذا من أنفس الكلم وأنصح، فله دره من خبير بالقلوب. أيضًا فما أراد الله من أحب العلو والظهور، وكم من خامل سالم وظاهر مذكور به. وقال رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على كلام الهروي رَحِمَهُ اللهُ في منازل السائرين قوله: «أصحاب السر. هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر»: قد يريد به حديث سعد بن

(١) تفسير الطبري (١٤ / ١٣٩-١٤١).

(٢) تفسير الطبري (١٤ / ١٤١).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم (٢ / ٦٤٤، ٦٤٥).

أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال له ابنه: أنت ههنا والناس يتنازعون الإمارة. فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(١)، كذلك قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»^(٢)، وقوله في الحديث الآخر - وقد مر به رجل - فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: هذا حري إن شفع أن يُشَفَّعَ، وإن خطب أن ينكح، وإن قال أن يُسمع لقوله. ثم مر به آخر فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: هذا حري إن شفع ألا يُشَفَّعَ، وإن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يُسمع لقوله. فقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»^{(٣)(٤)}.

فتحقيق كلمة التوحيد ونفي ضدها يكون في الباطن أولاً، ولها بركة لا تحصرها العبارة.

قال ابن القيم: «لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستقصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزّها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما

(١) مسلم (٢٩٦٥).

(٢) مسلم (٢٦٢٢).

(٣) البخاري (٥٠٩١).

(٤) المدارج (٣/٧١٣).

كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه، والمصير إليه، فوجّه العبد وجهه بكلّيته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم له وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلايته، فقال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره، والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرّها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الدنيا وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نأياً آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان»^(١).

فلله ما أعظمها من كلمة، وما أكبر جرم من نقضها ولم يرفع بها رأساً! نعوذ بالله من الشرك كله دقه وجله أوله وآخره صغيره وكبيره.

(١) الفوائد، ابن القيم (٧٧، ٧٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ^(١): «اعلم رحمك الله أن الشريك بالله أعظم ذنب عَصِي - الله به، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الصحيحين أنه ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٢)، والند: المثل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فمن جعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة، فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود، الذي تأله القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون إلهًا؟! قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فالله سبحانه هو المستحق أن يعبد لذاته، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فذكر الألف واللام التي تقتضي - الاستغراق لجميع المحامد، فدل على أن الحمد كله لله، ثم حصره بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهذا تفصيل لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته من المحبة والخوف والرجاء والأمر

(١) وهي من أجمل وأتم ما كتب في مقدمات التوحيد وتلقيه وتأسيسه، ونفي ضده ونقضه.

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الإخلاص والتوحيد

والنهي. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم؛ لأن الرب سبحانه هو المالك، وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء.

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى، قال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] فلا يرى نفعاً ولا ضرراً ولا حركة ولا سكوناً ولا قبضاً ولا بسطاً ولا خفصاً ولا رفعاً إلا والله سبحانه فاعله وخالقه وقابضه وباسطه ورافعه وخافضه، فهذا الشهود هو سرّ الكلمات الكونية وهو علم صفة الربوبية، والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفات.

فالتحقيق بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء يكون عنه كشف علم الإلهية. والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية، وهو علم التدبير الساري في الأكوان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فإذا تحقق العبد لهذا المشهد، ووقفه لذلك، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين، فإن جميع مشاهد الرحمة واللفظ والكرم والجمال داخل في مشهد الربوبية.

ولهذا قيل: إن هذه الآية جمعت أسرار القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء كما ذكرنا، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم، وترك الاختيار،

وجميع العبوديات داخله في ذلك.

فإذا تقرر هذا؛ فالشرك إن كان شركاً يكفر به صاحبه. وهو نوعان: شرك في الإلهية وشرك في الربوبية.

فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله نداً، أي مثلاً في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى في شأنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال عن لسانهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال النبي ﷺ لحصين: «كم تعبد؟» قال: ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء. قال: «ألا تسلم فأعلمك كلمات» فأسلم، فقال النبي ﷺ: «قل: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي»^(١).

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿قُلْ

(١) الترمذي (٣٤٨٣) بلفظ: «وأعذني من شر نفسي» وقال: حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٩٨).

لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٥]﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم كما ذكرنا، اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئًا من دون الله^(١) كما يحب الله تعالى فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٦ - ٩٨]﴾ وكذا من خاف أحدًا كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك.

وأما النوع الثاني: فالشرك في الربوبية، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو الرافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته.

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فليُنظر إلى المعطي الأول مثلاً، فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(٢)، لأن النعم كلها لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالله سبحانه هو المعطي على

(١) من دون: أي من غير. وفيها الإشارة إلى نقص الغير.

(٢) أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٨٢ / ٥) وصححه النووي في رياض الصالحين.

الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي هو الذي أعطاه وحرّك قلبه لعطاء غيره، فهو الأول والآخر.

ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١)، فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله، ولا يضر غيره، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية.

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم، وأراح الناس من لومه وذمه إياهم، وتجرد التوحيد في قلبه، فقوي إيمانه وانشرح صدره وتنور قلبه، ومن توكل على الله فهو حسبه. ولهذا قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: من عرف الناس استراح. يريد والله أعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرّون.

وأما الشرك الخفي: فهو الذي لا يكاد أحد يسلم منه مثل أن يحب مع الله غيره، فإن كانت محبته لله مثل حب الأنبياء والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة؛ لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فليس الكلام

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في هذا.

إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى؛ إذ لو كملت محبته لم يجب سواه، ولا يرد علينا الباب الأول؛ لأن ذلك داخل في محبته، وهذا الميزان، فكلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلّت، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت، وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه، قال: ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء وغيره، فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد يسلم منه إلا من عصمه الله تعالى، روي أن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل^(١).

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها: الإخلاص لله عز وجل، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى متابعة الأمر والنهي^(٢).

وقد بوب الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد باب: قول الله تعالى:

(١) ويأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١ / ٨٨ - ٩٤) باختصار وتصرف.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وذكر فيه قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتك، وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص^(١)، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها (فلان) هذا كله به شرك^(٢).

قال الشارح: «إن هذه الأمور من الشرك خفية على الناس، لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي، فكيف إذا كان على صفة؟ فكيف إذا كانت سوداء؟ فكيف إذا كانت في ليلة مظلمة؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام، وعسر- التخلص منه، ولهذا جاء في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفر لك لما لا

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب التوحيد: «حالات (لولا) أربع:

١. الكمال: لولا الله. ٢. الجواز: لولا الله ثم فلان. ٣. الشرك الأصغر: لولا الله

وفلان. ٤. الشرك الأكبر: لولا الله وفلان (على جهة التعظيم)».

(٢) رواه ابن أبي حاتم بسند جيد كما ذكره الشارح سليمان آل الشيخ.

نعلمه»^(١)، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنْ أَحَدَكُمْ لِيُشْرِكَ حَتَّى يَشْرِكَ بِكَلْبِهِ، يَقُولُ: لَوْلَاهُ لَسَرَقْنَا اللَّيْلَةَ»^{(٢)(٣)}.

وقال الحافظ ابن رجب في تعليقه على حديث: «مَا ذُبُّوا جَائِعَان»^(٤): «وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ يَقْدُم الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عِنْدَ النَّاسِ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ، وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ أَبْوَابِ الرِّيَاءِ».

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْإِحْيَاءِ: «وَمَنْ الرِّيَاءُ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ الْعَمَلَ خَالِصًا لِلَّهِ وَلَا يَرِيدُ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَيْهِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يُحِبُّ أَنْ يَبْدَأَهُ النَّاسُ بِالسَّلَامِ، وَيَهْشُوا لَهُ، وَيَقْضُوا حَوَائِجَهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ ثَقُلَ هَذَا عَلَى قَلْبِهِ كَأَنَّهُ يَتَقَاضَى الْأَحْتِرَامُ مَعَ الطَّاعَةِ الَّتِي أَخْفَاهَا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: «فَكَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَمَا تَفْرُدُ بِالْإِلَهِيَّةِ يُجِبُّ أَنْ يَفْرُدَ بِالْعِبَادِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِصُ مِنَ الرِّيَاءِ الْمَقِيدِ بِالسَّنَةِ»^(٥).

(١) رواه أحمد والطبراني وله شواهد، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٣٦): حسن لغيره.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٥٨٦-٥٨٨) باختصار.

(٤) الترمذي (٢٣٦٧) وقال: حسن صحيح.

(٥) عن تيسير العزيز الحميد (٥٢٥).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «واعلم أن العمل لغير الله أقسام، فتارة يكون رياءً محضاً، فلا يراد به سوى مراعاة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك وصف الكفار بالرياء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه. ومنها حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها عليه ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتغي به وجهه»^(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك

(١) أبو داود والنسائي بسند جيد.

معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء؛ مثل أخذ أجره للخدمة أو الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية. فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم، فإن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم»^{(٢)(٣)}.

وتعقبه الشيخ سليمان آل الشيخ بقوله: «هذا لا يدل على أنهم غزوا لأجلها، فلا يدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلبس غرضاً». قال^(٤): «وقد ذكرنا في ما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا.

قلت^(٥): ظاهر حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له» فأعاد عليه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «لا أجر له»^(٦)، وهذا يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجر الخدمة أو أخذ الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن

(١) مسلم.

(٢) مسلم.

(٣) السابق (٥٢٨، ٥٢٩) باختصار.

(٤) أي ابن رجب.

(٥) أي سليمان آل الشيخ.

(٦) أبو داود.

يكون معنى يريد الجهاد، أي يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد، إنما نوى عرض الدنيا»^(١).

وقال ابن رجب: «وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره. وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس^(٢) كأنه خرج لِدِينِهِ، فإن أعطي شيئاً أخذه. وكذا روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم إن أعطي درهماً غزاً، وإن لم يعط درهماً لم يغز، فلا خير في ذلك.

قلت: وهذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة، بحيث تكون هي الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه^(٣) كالذي يلتبس الأجر والذكر، فهذا الأجر له. وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لا يبالي به، سواء حصل أم لم يحصل، كالذي أجمع على الغزو أعطي أم لم يعط فهذا لا يضره، ونحوه التجارة في الحج كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

(١) وهذا خلاف الظاهر.

(٢) مسألة: هل يعيد العمل الذي رآى فيه؟ قال شيخ الإسلام: أما المندوبات فحسن أن يعيد، أما الفرائض فلا لأنه من الوسوسة.

(٣) كما مر من كلام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحاً أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره^(١). وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل مرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج؛ فأما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية.

أما إذا كان العمل خالصاً ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي هذا المعنى جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^{(٢)(٣)}.

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى. قال: الشرك الخفي»^(٤)، يقوم الرجل فيصلّي فيزين صلاته لما يرى من

(١) وانظر: أضواء البيان للشنقيطي (٩/ ٣٠٩).

(٢) رواه مسلم.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٥٢٨-٥٣١).

(٤) فالدجال زمنه محدد، أما الرياء ففي كل أزمان الأمة.

نظر رجل^(١).

قال الغزالي: «وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يتلى به العلماء والعباد، والمشمرون على ساق الجدل لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلب الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العلم والعمل، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحبت مدحهم، وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل، فأصاب النفس في ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله وعبادته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول الناقدة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يسقط من رؤوس الصديقين حب الرئاسة»^(٢).



(١) رواه أحمد بسند حسن.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ١١٣٣).

إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا

وهناك آفة للإخلاص شبيهة بالرياء وليست منه، وهي إرادة الإنسان بعمله الدنيا^(١)، فالرياء لطلب الجاه. أما إرادة الدنيا فالعمل خالص لله ولكن بلا إرادة ثواب الآخرة، بل استعجل صاحبه ثواب الدنيا، وقد يدخل فيه الرياء من باب العموم والخصوص فيكون الرياء أخص، بأنه لا إخلاص فيه أصلاً لا وجه الله ولا الدار الآخرة. وهذا أعم بكونه يشمل كل ما لم تُردّ به الآخرة. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] أي من أراد بأعماله بالصالحات الحياة الدنيا دون الآخرة. وقد قال الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ في معنى الآية ما ملخصه: «ذكر عن السلف^(٢) من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه:

(١) وقد بوب إمام الدعوة الإصلاحية رَحِمَهُ اللهُ في كتاب التوحيد باباً بهذا المسمى بعد باب الرياء.

(٢) انظر: طبقات المكلفين، ابن القيم.

النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله، من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همّة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، فهو الذي ذكره مجاهد في الآية أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيتته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياسته، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد^(١) كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لأنهم عملوا

(١) كالمعلم للقرآن الكريم والعلوم الشرعية، والمؤذن والإمام والمصلي التراويح بالناس والمحتسب والقاضي والغازي الذين لو توقف راتبهم ورزقهم لتركوا ذلك العمل لأنه غايتهم. ولكن إذا كان قصدهم الكفاية بالرزق والانشغال والتفرغ لتلك العبادة فلا يدخلون في الوعد إن شاء الله، كذلك من كانت إرادتهم تبعاً للعبادة لا دافعاً ومقيماً لها، وإن كان الإخلاص أن يعافيه الله من ذلك الاستشراف كله.

لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين الناس، ولا يحصل لهم طائل. والنوع الأول أعقل من هؤلاء؛ لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر- العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً لله وحده لكنه على عمل يكفره كفرةً يخرجهم من الإسلام؛ كاليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة^(١)، ومثل كثير من الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية^(٢).

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في القول المفيد: «فإن قيل: هل يدخل في الوعيد من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بعلمهم؟ فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً. فنقول لهم: أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على

(١) ابتغاء وجه الله: أخلصوا في ذلك العمل. والدار الآخرة: أي لم يريدوا عاجل الدنيا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٣٦، ٥٣٧) وتلخيصها كالتالي:

١. من أراد حفظ دنياه بعبادته.

٢. المرائي.

٣. من أراد التوصل بالعبادة لحظ دنياء، فلو لم تحصل دنياء لترك ذلك العمل.

٤. من أراد الله والدار الآخرة لكنه على عمل آخر مخرجه من الإسلام.

الشهادات. والناس لا يستطيعون الوصول لمنفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانيًا: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، فيدخلها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة فإنها لا تهمه.

ثالثًا: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين؛ حسنى الدنيا وحسنى الآخرة فلا شيء عليه، إلا أن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فرغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب. فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص؟ أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقًا، فلم يقصد مراعاة الناس، بل قصد أمرًا ماديًا، فأخلاه ليس كاملاً لأن فيه شركًا، ولكن ليس كشرك الرياء، يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، بل أراد شيئًا دنيئًا غيره»^(١).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في التمهيد: «الأعمال التي يعملها العبد ويستحضر فيها ثواب الدنيا على قسمين:

الأول: أن يكون العمل الذي عمله، واستحضر فيه ثواب الدنيا وأراده، ولم يرد ثواب الآخرة، لم يرغب الشرع فيه بذكر ثواب الدنيا، مثل الصلاة والصيام ونحو ذلك من الأعمال والطاعات، فهذا لا يجوز له أن يريد به الدنيا، ولو أراد به الدنيا فإنه مشرك ذلك الشرك.

(١) القول المفيد، العثيمين (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧).

الثاني: أعمال رتب الشارع عليها ثواباً في الدنيا، ورغب فيها بذكر ثواب لها في الدنيا مثل صلة الرحم، وبر الوالدين ونحو ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من سره^(١) أن ييسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٢).

فهذا النوع إذا استحضر- في عمله حين يعمل ذلك العمل ذلك الثواب الدنيوي وأخلص لله في العمل، ولم يستحضر- الثواب الأخروي؛ فإنه داخل في الوعيد^(٣)، فهو من أنواع هذا الشرك. وإن استحضر- الثواب الدنيوي والثواب الأخروي معاً، أي له رغبة فيما عند الله في الآخرة، ويطمع في الجنة ويهرب من النار، واستحضر- ثواب هذا العمل في الدنيا فإنه لا بأس بذلك؛ لأن الشرع ما رغب فيه بذكر الثواب في الدنيا إلا لأجل الحُصّ عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٤)، فمن قتل حربياً في الجهاد لكي يحصل على

(١) قلت: وهذه الكلمة «من سره» كافية في إباحة ما ترتب على هذا السرور من ميل القلب نحو هذا الثواب الدنيوي التابع لإرادة الآخرة، وإن كان دون درجة المخلصين المقربين.

(٢) رواه أحمد بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله متفق عليه من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وبعض أهل العلم لم يدخله في الوعيد بحجة أن الشارع هو من أذن بتلك الإرادة المتمحضة للدنيا. وهذا القول فيه نظر، فالشارع أذن بميل القلب من جهة المشاركة لا من جهة التمحيز، بدليل أن كل عمل عليه ثواب دنيوي، رتب عليه أجور أخروية كذلك.

(٤) رواه أحمد من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه شعيب الأرنؤوط.

السلب ولكن قصده من الجهاد الرغبة فيما عند الله جل وعلا، مخلصاً لوجه الله، لكن أتى هذا من زيادة الترغيب له، ولم يقتصر. على هذا الغرض الدنيوي بل قلبه معلق أيضاً بالآخرة، فهذا النوع لا بأس به، ولا يدخل في النوع الأول مما ذكره السلف في هذه الآية.

النوع الثاني: أن يعمل العمل الصالح لأجل المال، مثل أن يدرس ويتعلم العلم الشرعي لأجل الوظيفة فقط، وليس في همه رفع الجهالة عن نفسه، ومعرفة العبد بأمر ربه ونهيه والرغبة في الآخرة، فهذا داخل في ذلك، أو حفظ القرآن ليكون إماماً في المسجد ويكون له الرزق الذي يأتي من بيت المال، فغرضه من هذا العمل إنما هو المال، فهذا لم يعمل العمل صالحاً إنما عمل العمل الذي في ظاهره أنه صالح، ولكن في باطنه قد أراد به الدنيا.

النوع الثالث: أهل الرياء، الذين يعملون لأجل الرياء.

النوع الرابع: الذين يعملون العمل ومعهم ناقض من نواقض الإسلام. وهنا إشكال أورده بعض أهل العلم في الآية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، فهي في الكفار الأصليين أو من قام به مكفر، فكيف تكون هذه الأنواع المذكورة لمسلمين من ضمنها؟

والجواب: أن السلف أدخلوا أصنافاً من المسلمين في هذه الآية، وهي من آيات الوعيد، فمن أراد الدنيا بكل عمل وليس معه الإيمان والإسلام المصحح لأصل أعماله فهو مخلص في النار، أما من كان معه أصل الإيمان وأصل الإسلام

الذي يصح به عمله فهذا قد يحبط العمل، بل يحبط عمله الذي أشرك فيه وأراد به الدنيا، وما عداه لا يحبط»^(١).

ويرى بعض أهل العلم أن إرادة ثواب الدنيا فقط بالعمل الصالح الذي رتب عليه الشارع ثواباً دنيوياً جائزة، وأنه لا يؤخذ بذلك لكنه يحرم من ثواب الآخرة، بحجة أن الشارع هو من أباح له تلك الإرادة بالتوجيه لثوابها الدنيوي. قلت: وفي هذا نظر، من أمور:

الأول: عمومات أدلة النهي عن إرادة الدنيا وزيتها بأعمال الآخرة.

الثاني: الأمور التي أذن الشرع بميل القلب فيها لثواب الدنيا إنما هي من جهة التبعية والمشاركة الأقل لإرادة الآخرة وليست من جهة التمحيض والاستقلال، بدليل أن كل عمل رتب الشرع عليه ثواباً دنيوياً فقد رتب عليه أجوراً أخروية كذلك، وهي أعظم، فإرادة الآخرة هي المحرك الأصلي، أما الدنيا فهي مرغّب تابع.

الثالث: بما أن إخلاص العمل لله تعالى حتم في كل عبادة ولم يستثن من ذلك شيء، فكذلك إخلاص إرادة الآخرة إلا ما استثنى على سبيل الشريك الأقل والتبعية من باب الحض والحث.

رابعاً: الإذن المستثنى مما أصله المنع مقدر بأدنى قدر ممكن، وهو هنا في

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ (٤٠٦-٤٠٩) بتصرف يسير. وانظر: عدة الصابرين، ابن القيم (٢٧٠-٢٧٤)؛ حيث يرى أن هذه الآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد.

التشريك الأدنى والتبعية فيقدر بقدرها ولا يتجاوزها من جهتين:

الأولى: أن تكون الإرادة تابعة للآخرة بحيث تكون إرادة الآخرة هي الغالبة.

الثانية: ألا يتجاوز الأمور التي ذكرها الشرع إلى أمور أخرى، فلا قياس هنا. خامساً: أن هذا القول أخذ بالاحتياط، والاحتياط المعتبر محمود، خاصة في مسائل التوحيد وأصول الدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فإن إرادة الدنيا قاذحة في إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب»^(١).

قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الحميلة، إن أُعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «فسأه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء وخبر، وهو قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»،

(١) عدة الصابرين، ابن القيم (٤٠٥).

(٢) رواه البخاري.

وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبَدَ المال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو صورة، أو نحو ذلك من أهواء النفس، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هورق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

الأول: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون الحال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن تستعبده فيكون هلوغاً.

الثاني: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي ألا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من شعب العبادة لغير

الله^(١)، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار...»، فهو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطها إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويجب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيوان^(٢).

وقد عقد الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ فَصُولاً في ذم الجاه والرياء، ألخص مهماتها:

قال في بيان فضيلة الخمول: «قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»^(٣)، وقال: «ألا أدلكم على أهل الجنة؛ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره»^(٤). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب^(٥)، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

(١) لاحظ شدة ارتباط أعمال القلوب ببعضها، فيقوى مجموعها بقوة أفرادها، كذلك العكس؛ ويضعف بضد ذينك، كما أن منها شعباً كباراً بمنزلة الأصول والينابيع لغيرها، فيكون ارتباطها بالصلاح أحتم. والله المستعان.

(٢) عن تيسير العزيز الحميد (٥٤٠، ٥٤١) باختصار.

(٣) مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) متفق عليه، من حديث حارثة بن وهب.

(٥) لعله قصد ألا يتكلف العبد في تزيين ثيابه.

وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء، أصحاب قوت وعناء.

وقال الفضيل: إن قدرت على ألا تُعرف فافعل، وما عليك ألا تعرف، وما عليك ألا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى.

أما المحمود من الجاه والشهرة وانتشار الصيت فهو ما شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وقال أيوب السخيتاني: والله ما صدق الله عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه.

وكان خالد بن معدان إذا كثرت حلقاته قام مخافة الشهرة.

وعن أبي العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام.

ورأى طلحة قومًا يمشون معه نحوًا من عشرة، فقال: ذباب طمع وفراش نار.

وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي. خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يومًا من منزله فأتبعه ناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني؟! فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً.

وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجل قلما تلبث عليه قلوب الحمقى.
وخرج يوماً فأتبعه قوم، فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا
من قلب المؤمن؟

وصحب رجل ابن محيريز في سفر، فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن
استطعت أن تعرف ولا تُعرف، وتمشي - ولا يمشى إليك، وتُسأل ولا تُسأل
فافعل.

وقال الثوري: كانوا^(١) يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب
الردئية^(٢)، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً.

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب
بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل
فساد.

فإن قلت: فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة
العلم؟ وكيف فاتتهم فضيلة الخمول؟

فاعلم أن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من غير تكلف من العبد
فليس بمذموم. نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف
إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به ألا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به

(١) أي السلف.

(٢) وهذا ملحظ نفيس، فقد تكون الشهرة بإظهار الزهادة والورع.

فيضعف معهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى حتى يكون سبباً لنجاتهم فيثاب على ذلك.

وقد ذم الله تعالى حب الجاه فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فجمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي من الإرادتين جميعاً. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زيتها. وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم»^(١).

واعلم أن الجاه والمال هما ركنتا الدنيا. ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها. ومعنى الجاه: ملك القلوب^(٢) المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليها ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على استغلال قلوب الناس ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه، وكما أن الأموال تكتسب بأنواع الحرف والصناعات،

(١) البيهقي في الشعب (٩٧٨٦) وهو صحيح بشواهده عند الطبراني وأبي يعلى وغيرهما.

(٢) أي يكون ذا سلطان عليها محبة أو حاجة أو تعظيماً.

فكذلك تكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات.

فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، ولا يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويدعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال القلب، وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها.

وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعييد، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم^(١) وملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم؛ لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه، ولو خُلّي ورأيه انسلّ عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً، وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع! مع الفرح بالعبودية والطاعة له! فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير.

(١) وهي عبودية وملك بحسبها، أي أجزاء من شعبها، فهي مطلق العبودية والملك لا العبودية المطلقة والملك المطلق، ومبالغة المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ فِي التَّوَصُّيفِ من أجل أن يصل لقاع الصفة حتى يجتثها بعروقها من القلب حتى ولو مع ندرة بعض الأمثلة والأوصاف. وقد أطلت النقل في آفة الجاه لغفلة كثير من الصالحين عن الحذر منها وتساهلهم في مبادئها.

فإذا: معنى الجاه هو: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحببه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة، فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة والسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب: اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص، إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال أو قوة بدن، أو شيء مما يعتقد الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلب فتكون سبباً لقيام الجاه.

واعلم أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، فأنت تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانها، إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا ملابس ولا منكح، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب، وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه، بل حب الجاه مترجح على حب المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر. من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم

أو الزاهد الذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، أما الرجل الخسيس إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ذلك.

الثاني: أن المال معرض للبلوى والتلف، أما خزائن القلوب فمحروسة بأنفسها.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير تعب، بخلاف المال.

وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جمع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثاً، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بهال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة^(١).

وهذا الحب الذي لا تنفك عنه القلوب له سببان: أحدهما جلي تدركه الكافة، والآخر خفي وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن

(١) إلا إذا كان بحق؛ فإنهم شهداء الله في أرضه.

أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف؛ لأن الشفيق بسوء ظنّ مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، عن طريق الاستعانة بجاهه الذي في قلوب الناس لأخذ أموالهم.

وأما السبب الثاني: وهو الأقوى؛ لأن الروح أمر رباني، وصفه تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وللقلب ميل إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء، وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء، والإنسان بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض المشايخ: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُ﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنه لا يجد له مجالاً، وهو كما قال^(١)، فإن العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فتحب أن تستولي على كل الأشياء الموجودة معها، ومطلوب القلوب الكمال، والكمال بالعلم والقدرة.

(١) وفيه نظر كبير، ولا أظنه يصح، ويكفي في ذلك الأنبياء فإن بواطنهم طاهرة قطعاً من هذه الرغبة الكامنة وهم غير محتاجين لمجاهدتها وكتبها.

هذا والجاه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يتتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، كذلك حبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، كذلك أستاذه لإرشاده وتعليمه والعناية به، كذلك سلطانه لحمايته فليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما، إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء^(١)؛ لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته، ويود لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فكل ما يُراد للتوصل به للمحجوب، فالمحجوب هو المقصود المتوصل إليه، فحبه لأجل التوصل به إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبه لعينه وذاته فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية.

واعلم أن من غلب عليه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق،

(١) دورة مياه (بيت الخلاء).

مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءات بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضارين، فحب الجاه من المهلكات، وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الحياة - وهو كمال القدرة على قلوب الناس - فذلك إن صفا وسلم فأخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك له الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن عرف ذلك صغر الجاه في عينه، وهذا لا يكون إلا لمن ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات»، فانظر كيف من نظره نحو المستقبل، وقدّرته كائنًا واقعًا، وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: «أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل»^(١).

(١) فالحسن نقله إلى آخر لحظات الدنيا واستقبال الآخرة، وعمر نقله إلى أولى ساعات الآخرة، وهذا من فقههما رحمهما الله تعالى. وكما كتب أحدهم لأخيه: «أما بعد،

فهؤلاء لاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا، وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، لذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وأما العلاج من حيث العمل: فبأن يقطع الطمع عن الناس بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، وينظر في أحوال السلف في ذلك وإيثارهم للخمول على الجاه ورغبتهم في الله والدار الآخرة.

وهل هنا أمر مهم، وهو أن كثيراً من الناس هلكوا بخوف مذمة الناس أو بحب مدحهم، فصارت حركاتهم موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، وعلاج حب المدح أن تراجع عقلك، وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحني بها هل أنا متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها، فهي إما صفة تستحق المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية؛ لأن الفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح لها بل بوجودها.

فتذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة. والسلام» وهذا من أبلغ النصيح وأوجزه.

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي ألا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخط الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا^(١). وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خالٍ منها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: ما أكثر العطر الذي في أحشائه، وهذا في غاية الجهل والسفه.

أما كراهية الذم فعلاجه أن تعلم أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون صادقاً، وقصد النصح والشفقة، أو أن يكون صادقاً ولكن قصد الإيذاء، وإما أن يكون كاذباً.

فإذا كان صادقاً وقصد النصح فلا ينبغي أن تذهمه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تتقلد مثته، فإنه من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تنقيه، أما اغتنامك بذلك فهذا في غاية الجهل.

(١) والصحيح أن الأمر ليس بهذه السوداوية، بل لا بأس بشيء من الفرح الديني استعانة به على الطاعة، وقد حُبِّت الطيبات للمؤمنين وسيدهم ﷺ يقول: «حُبِّبْ إِيَّيْكَ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءَ وَالطِّيبَ» رواه النسائي (٣٩٣٩) وصححه الألباني. ومن المستقر أن الفرح يتبع الحب.

والمقصود أن على المؤمن أن يعطي كل دار قدرها وأن يحسن سياسة نفسه بالحكمة والعلم والرفق والحزم مع كون الآخرة هي محور حياة المؤمن وأولوياته واهتماماته، ووضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى.

أما إن كان قصده الإيذاء فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكره إن كنت غافلاً عنه، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته، وكل ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدت منه، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتحت لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة، وأما ما قصد العدو من التعنت فهي جناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو منه؟

أما إذا افتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي ألا تكره ذلك ولا تشتغل بدمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستر الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلع على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه.

الثاني: أن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله؟

الثالث: أن تعلم أن المسكين قد جنى على دينه، وأهلك نفسه بافتراءه، وتعرض لعقاب الله الأليم والسقوط من عين الله تعالى، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه، فُتُشِمَتْ به الشيطان، وتقول: اللهم أهلكه. بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما دعا رسول الله ﷺ

لقومه بعد أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد^(١).

وفي طريقة الكشف عن الرياء وتمييزه عن الإخلاص عند رؤية الناس العمل - لشدة خفائه - فعليك أن تتمثل نفسك وبينك وبين الناس حجاب بحيث لا يعلمون بك، فإن نشطت نفسك للعبادة فهذا إخلاص، وإلا فرياء^(٢).

ومن نعم الله على عبده أن يوفقه للعبادة ثم يوفقه لإحسانها، ومن إحسانها تجريدها لوجه الله، وإخفاؤها عن خلقه إلا ما شرع الجهر به. قال شيخ الإسلام: «إن أعظم النعم نعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد. وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار! لهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر. مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحد.

والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل، وما وهب الله من محبته

(١) وكان الإمام أحمد يعفو ويصفح ويسامح ويقول: ما ينفعك أن يعذب الله أحداً بسببك.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ١١٣٣-١١٥٢) باختصار وتصرف.

والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمبتدئ^(١) السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقْتدى به ويؤتم به؛ لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله^(٢).

هذا وإن من آفات الإخلاص بل من نواقضه الشرك الأكبر، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاحها ورام فلاحها أن يتحرز منه غاية التحرز، وأن يجعل همه الأعظم تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك.

ومن نظر إلى حال المسلمين اليوم فَطَرَ قلبه الأسى مما يراه من واقع المنتسبة للإسلام الذين جرف الكثير منهم الشيطان إلى غيابات الشرك وأحوال الوثنية^(٣)، فلا نفك نرى كل يوم دعاة على أبواب جهنم يزينون للأمة دين أبي جهل وأبي لهب ويزهدونهم في ملة محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، تحت ستار شبه أوهى من بيت العنكبوت^(٤)، تقاذفتها أمم الجهل والخرافة، وجددها

(١) في الأصل: المهتدي ولعله تصحيف.

(٢) الفتاوى (١٨/١٥).

(٣) انظر: دمة على التوحيد، حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة، وهو رصد لحال الناس مع القبور وغلوهم فيها. من إصدار المنتدى الإسلامي.

(٤) انظر: كشف الشبهات، محمد بن عبد الوهاب، تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، الصنعاني، إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان، ابن القيم، وغيرها.

الإخلاص والتوحيد

الرجيم في نفوس كثير من العامة والخاصة^(١)، مع أن نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد بين البيان التام وبلغ البلاغ الوافي وسدّ الذرائع الموصلة للشرك، ولكن ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ويكفي في التخويف من الشرك أن المرء لو وافى يوم القيامة بأعمال كأعمال النبيين والمرسلين ثم كان معه شرك أكبر لحبط عمله وصار هباءً منثوراً، وخلد صاحبه في النار أبداً. عياداً بوجه الله تعالى، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]. فالتوحيد هو رأس الشكر.

والنار مثوى المشركين قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومن الشرك الأكبر اتخاذ الوسائط من الموتى أو الجن ونحوهم، ودعاء القبور، والاستعانة بأهلها، ويا لله كم من مشرك قد خرج من ربقة الإسلام والإيمان وهو معدود من المسلمين، وما ثم إلا توفيق الله تعالى أو النار. فاللهم سلم سلم؛ قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أنواع الشرك: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فضلاً عما من استغاث به، وسأله قضاء حاجاته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع

(١) وقذف في قلوبهم شبه الأولين؛ فتوسلوا بالموتى بزعم أنهم وسائط، وهذا عين دين المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ونستغفر لهم، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة وقضاء الحوائج والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فغيروا دين الله وعادوا أهل التوحيد، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل مكان وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] (١).

كذلك فليحذر من بقية نواقض التوحيد وهوادم الإخلاص كالكفر الأكبر ومنه كفر الجحود وكفر التكذيب وكفر الإباء والاستكبار وكفر النفاق وكفر الإعراض، وليحرس ألفاظه وأفعاله بل وخطراته، قبل أن تزل قدم بعد ثبوتها، فيندم ولات حين مندم، ويريد الخلاص ولات حين مناص!

ثم عليه مرة أخرى أن يخاف من النفاق ويهرب منه أشد من فرار المرعوب من السبع الضاري، فالمنافق نفاقاً اعتقادياً في الدرك الأسفل من النار، قال جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) المدارج (١/ ٦٠٤، ٦٠٥) باختصار.

١٤٥]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به؛ فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

والأكبر منه يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم القرآن، وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالياته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ وكم من علم له قد طمسوه؟ وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟ وكم ضربوا بمعاول الشُّبه في أصول غراسه ليقلعوها؟ فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون بذلك أنهم مصلحون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألستهم السنة المسلمين وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ آمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلّى الله جل جلاله، وقد كُشف عن ساق ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله وتفصيله وجهله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا حذيفة نشدتك بالله، هل سمّاني رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أخبر بعدك أحداً^(١). وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم من أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل^(٢).

وعن الحسن البصري قال: ما أمانة إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن.

وذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

(١) كنز العمال (١٣ / ٣٤٤).

(٢) البخاري تعليقا، الفتح (١ / ٣٥).

زَرُعُ النِّفَاقِ يَنْبِتُ عَلَى سَاقَتَيْنِ: سَاقِيَةِ الْكَذِبِ، وَسَاقِيَةِ الرِّيَاءِ. وَمَخْرَجُهُمَا مِنْ عَيْنِيهِ: عَيْنُ ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ، وَعَيْنُ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ. فَإِذَا تَمَّتْ هَذِهِ الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعُ اسْتَحْكَمَ نَبَاتُ النِّفَاقِ وَبَنِيَانُهُ، وَلَكِنَّهُ بِمَدَارِجِ السَّيُولِ عَلَى شَفَا جَرَفِ هَارٍ، فَإِذَا شَاهَدُوا سَيْلَ الْحَقَائِقِ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ، وَكُشِفَ الْمُسْتُورُ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحَصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، تَبَيَّنَ حَيْثُذُ لِمَنْ كَانَتْ بِضَاعَتُهُ النِّفَاقُ أَنَّ حَوَاصِلَهُ الَّتِي حَصَّلَهَا كَانَتْ كَالسَّرَابِ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، إذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية. فهذه والله أمارات النفاق، فاحذروا أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية:

إِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَوْفُوا، وَإِنْ وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِنْ قَالُوا لَمْ يَنْصِفُوا، وَإِنْ دُعُوا إِلَى الطَّاعَةِ وَقَفُوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالرَّسُولُ صَدَفُوا، وَإِذَا دَعَتْهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا وَانْصَرَفُوا. فَذَرَهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَانِ، وَالْخِزْيِ وَالْخُسْرَانِ، فَلَا تَثِقْ بِعُهُودِهِمْ، وَلَا تَطْمَئِنْ إِلَى وَعُودِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ، وَهُمْ لَمَّا سِوَاهَا مُخَالِفُونَ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا

أَلَلَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥-٧٧]﴾^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءِ آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]: «الصَّيْبُ: هو المطر الذي يُصوب من السماء، أي ينزل منها بسرعة، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك ذلك منه، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا خطر لها، فلم يمنعهم منها مما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والمثالات التي حذر الله بها من خالف أمره، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كجهاد الأعداء والصبر على اللأواء، وكان حظ المنافق من ذلك الصَّيْب سحابة ورعوده وبروقه فقط، ولم يعلم ما وراءه فاستوحش بما أنس به المؤمنون، وارتاب بما اطمأن به العالمون، وشك فيما تيقنه المبصرون.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة وظنون كاذبة، جالت فيها وصالت، وقامت فيها وقعدت، واتسع فيها مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء، والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم والمكثرين لسوادهم عددًا، وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرًا.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (١/ ٦٠٧-٦٢٥) باختصار.

ولعموم البلية بهم، وضرر القلوب بكلامهم، هتك الله أستارهم في كتابه غاية اهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم، ولم يزل عز وجل يقول: ﴿وَمِنْهُمْ...﴾ ﴿وَمِنْهُمْ...﴾ ﴿وَمِنْهُمْ...﴾ حتى انكشف أمرهم وبانت حقائقهم، وظهرت أسرارهم^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في بيان طبقات المكلفين: «الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهرُوا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنُوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء هم المنافقون وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخفّ، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق. وبليّة المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، لهذا قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وفي هذا إثبات أولوية العداوة وأحقيتها لهم.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، وهم قد كفروا عن علم ومعرفة لمخالطتهم المسلمين، لهذا قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال فيهم: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال في الكفار: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر - ثم عمي، وعرف ثم

(١) الوابل الصيب، ابن القيم (١٢٨-١٣٠) باختصار.

تجاهل، وأقرّ ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشدّ كفرًا وأخبث قلبًا،
وأعتى على الله ورسله، فاستحقّ الدرك الأسفل من النار.



صفات المنافقين

من تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل؛ فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك، وبالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، والطغيان، واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى، والحيرة، والكسل عن عبادته، والرياء، وقلة ذكره، والتردد وهو التذبذب بين المؤمنين والكفار، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً، وبالكذب وبغاية الجبن، وعدم الفقه في الدين، وعدم العلم، وبالبخل، وعدم الإيمان بالله وباليوم الآخرة، والريب، وبأنهم مضرّة على المؤمنين لا يحصل لهم بصحتهم إلا الشر. من الخبال، والإسراع بينهم بالشر- وإلقاء الفتنة، وكراحتهم لظهور أمر الله ومجيء الحق، وحزنهم بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، والفرح بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراحتهم الإنفاق في مرضاة الله وسيله، وبغيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا، وإن منعوها سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه، وبقصدهم إرضاء المخلوقين دون رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، ويتحيلون على تعطيل فرائض الله بأنواع الحيل، وأنهم رجس والرجس من كل شيء أخبثه وأقذره، وبأنهم فاسقون وبأنهم يؤوون من حارب الله ورسوله، ويتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم،

ويتربصون بالمسلمين الدوائر، وإذا عرضت عليهم التوبة والاستغفار أبوهمما وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها.

ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعاً، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء.

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس وقليل ما هم! وليس على الأديان أضرّ من هذا الضرب من الناس، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طريق الهدى، وسلخوا بهم سبل الردى، ووعدوهم ومنّوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنّوهم الويل والثبور! فكم لهم من قتل ولكن في سبيل الشيطان، وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان، وأسير لا يرجى له الخلاص، وفارّ من الله لا إليه، وهيئات، لات حين مناص!

فهم والله قطّاع الطريق حقاً، فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذاراً منهم حذاراً، وهم الجزّارون، ألسنتهم شِفَارُ البلايا، ففراراً منهم فراراً.

قد جعلوا على أبواب جهنم دعاةً إليها، فبُعْدًا للمستجيين! ونصبوا شباكهم حوالها على ما حَفَّت به الشهوات، فويل للمغتربين! نصبوا الشباك، ومدّوا الأشرار، وأذن مؤذّنهم بأشبه الأنعام: حي على الهلاك، حي على التباب!

فاستبقوا يُهرعون إليه، فأوردتهم حياض العذاب لا الموارد العذاب»^(١) عياداً
بالله تعالى.

وبعد: فحقيق بكل مؤمن أن يملأ قلبه إخلاصاً وتوحيداً، وأن يسلك إليهما
كل سبيل، ضارع إلى ربه أن يأخذ بقلبه ويده لصراط المنعم عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم رحماك رحماك.



(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٨٧٨-٨٩٢) باختصار.

وقفة تأمل

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

«لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها، لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزّها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقّق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجّه العبد وجهه بكلّيّته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمّه عليه، فاستسلم له وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرّه وعلايته فقال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلّص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلّها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرّها علانيّتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه لكنه شهد بقلب مشحون

بالشهوات وحبّ الدنيا وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الخطوط والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان»^(١).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الفوائد، ابن القيم (٧٧، ٧٨).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(٣)

موسوعة تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

العبودية



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

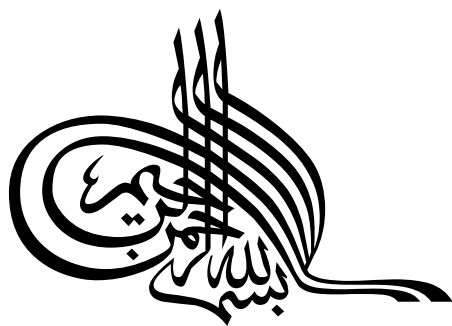
الكتاب رقم (٣)

العبودية

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١١	فضلها ومكانتها وضرورة الخلق إليها وتحقيقها
٢٤	أركان العبودية وشروطها ومدارها
٢٥	مراتب العبودية
٢٧	أقسام الناس في العبادة
٣٤	أفضل العبادات
٤١	آفات العبودية وعلاجها
٤٧	وقفة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله المعبود الحق، والإله العظيم، والربّ الكبير، أحقُّ من عبْدٍ وأشكُرُّ من أُطِيعَ، خلقنا ولم نَكُ شيئاً، وزرّقنا ولا نستحق شيئاً. وعدنا رضوانه وجنته ومدده ومعونته إن أحسنّا عبوديّته وأصلحنا ديننا له واهتدينا صراطه المستقيم، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

إنَّ العبودية هي قطب الدين ورحاه، ومبدؤه ومنتهاه، فالإسلام عبادة، والإيمان عبادة، والإحسان عبادة، فالعبودية هي إحسان النية والقول والعمل لله. وهذه حروف مما يسره الله تعالى من مسائل العبودية لله تبارك وتعالى، جعلنا الله جميعاً من أهل تحقيقها لوجهه الكريم، والصلاة والسلام والبركة على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الدميحي

١٤٣٦/١٠/١٠

aldumaiji@Gmail.com

التعريف

العبودية غاية الخلق وعلة الإيجاد وميزان المحبة وبرهان التقوى، ويرتفع المؤمن عند ربه بحسب تحقيقه لهذه الغاية العظمى وسلوكه ذلك الطريق العظيم الشريف الذي هو عبادة الله جل وعلا.

العبودية في اللغة: قال الأزهرى: «العبادة هي الطاعة مع الخضوع. يقال: طريق مُعبَّد، إذا كان مذللاً بكثرة الوطء»^(١). وقال ابن فارس: «العين والباء والذال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ»^(٢). ومن الباب: البعير المعبد، أي المهنوء بالقطران لأن ذلك يذله ويخفض منه، قال طرفة:

إلى أن تحامنني العشيرة كلها وأفردتُ إفراد البعير المعبد^(٣)

وقال الجوهري: «العبد خلاف الحرّ، تقول: عبد بين العبودة والعبودية. وأصل العبودية الذل والخضوع. والتعبيد: التذليل، والمُعبد: السفينة المقيّرة، قال بشر في سفينة ركبها:

(١) معجم التهذيب (٣/ ٢٣٠٢).

(٢) قال: والأصل الآخر من بابه: العبدّة، وهي القوة والصلابة، يقال: هذا ثوب له عبدة، إذا كان صفيقاً قوياً، ومنه علقمة بن عبدة.

قلت: ولعل جزم شمر المشهور (عبدة) من هذا الباب.

(٣) معجم المقاييس (٧٠١، ٧٠٢).

العبودية

مَعْبُودَةُ السَّقَائِفِ ذَاتُ دُسْرِ مَضْبَرَةٌ جَوَانِبُهَا رِدَاحٌ^(١)

وقال ابن منظور: العبد: الإنسان حرّاً كان أو رقيقاً لأنه مربوب لباريه جل وعز. يقال: تعبدت فلاناً أي اتخذته عبداً. وفي التنزيل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. والتعبد: التمسك، والعبادة: الطاعة. وقيل: الطاعة مع الخضوع^(٢).

وقال الراغب الأصفهاني: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل^(٣)، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، لهذا قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبد يُقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتیاعه، نحو ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. والثالث: عبد بالعبادة، والناس في هذا ضربان: عبد لله مخلصاً، وهو المقصود بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ﴾

(١) الصحاح (٢/ ٤٣٨).

(٢) اللسان (٦/ ٤٨، ٥٢).

(٣) وهذا غير ظاهر.

[الفرقان: ١]. وعبدٌ للدنيا وأغراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار»^(١).

وجمع العبد الذي هو مسترق (عبيد)، وجمع العبد الذي هو عابد (عباد)، فالعبيد إذا أضيف إلى الله فهو أعم من العباد. لهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، فنبه إلى أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك»^(٢).

أما اصطلاحاً: فقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن العبادة، فقال: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»^(٣).

قلت: وهذا هو أجمع تعريف للعبادة.

قال شيخ الإسلام: «الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد للكفار

(١) البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتقديم عبد الدينار.

(٢) المفردات (٣٢٢، ٣٢٣)، وانظر: القاموس المحيط (١١٠١).

(٣) العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣). وقيل: هي فعل المأمورات وترك المحظورات. وقال المقرئ: «واعلم أن للعبادة أربع قواعد هي: التحقق بما يجب الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقاً هم أصحابه. تجريد التوحيد المفيد» (ص ٨٢)، ولاحظ أنه لم يفرق بين العبادة والعبودية وهو الصواب إن شاء الله.

العبودية

١٠

والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين والبهائم، والدعاء، والذكر وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله والإجابة إليه، وإخلاص الدين لله، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا، والتوكل والرجاء والخوف، ذلك هي من العبادة لله»^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلک العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان^(٢)



(١) العبودية (ص ٢٥)، ورسالة العبودية من ضمن مجموع الفتاوى (١٠ / ١٤٩ -

٢٣٢).

(٢) الدر النضيد للشيخ سليمان الحمدان (ص ٩).

فضلها ومكانتها وضرورة الخلق إليها وتحقيقها

قال شيخ الإسلام: «العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، والتي خلق الخلق لها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل الرسل. كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وجعل ذلك لازماً إلى الموت كما قال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وبذلك وصف ملائكته، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]، وقال في وصف الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١).

العبودية

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله، فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. فالدين كله داخل في العبادة.

وفي حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان قال في آخر الحديث: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»^(١) فجعل هذا كله من الدين.

والدين يتضمن الخضوع والذل، يقال: دَنَتْهُ فَدَان، أي ذلّته فذلّ. ويقال: يَدِينُ^(٢) الله، وَيَدِينُ لله، أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته، والخضوع له.

والعبادة أصلٌ معناها الذل أيضًا، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. فإن آخر مراتب المحبة التَّيْمُ^(٣)، يقال: تيم الله أي: عبد الله، فالمُتَيَّم: المُعَبَّد لمحبوبه.

ومن خَضَعَ لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع

(١) متفق عليه.

(٢) بفتح الياء، أما ضمها فغاية سوء الأدب مع رب العزة سبحانه؛ لأنه من الإدانة وهي الاتهام.

(٣) انظر: روضة المحبين، ابن القيم (ص ١٦).

له لم يكن له عابداً، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله. وكل ما أحب لغير الله فمحبه فاسدة، وكل ما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله ورسوله، والإرضاء لله ولرسوله ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، والإيتاء لله ورسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]. أما العبادة وما ينال من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا تكون إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] فالإيتاء لله والرسول، وأما الحسب - وهو الكافي^(١) - فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»^(٢).

(١) ومن الأخطاء الشائعة قول بعضهم للآخر: أنا محسوبك، كذلك توكلت عليك ونحو ذلك؛ لأنها من أفراد العبادة، ولو قال: أعتمد عليك بعد الله لجاز، أما لفظ التوكل فيتضمن التعلق التام.

(٢) العبودية، ابن تيمية (٣٨٠٢٤) باختصار. وانظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٥).

العبودية

وقال: «والعبادة أصلها القصد والإرادة، والعبادة إذا أفردت دخل فيها التوكل ونحوه، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيماً لها، وهكذا كما ذكرنا في لفظ الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات، والتوكل من ذلك، وقد قال في موضع آخر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ومثل هذا كثيراً ما يجيء في القرآن، أي تنوع دلالة اللفظ في عمومته وخصوصه بحسب الأفراد والاقتران، كلفظ المعروف والمنكر، ولفظ الفقراء والمساكين، إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرق، لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عموم وخصوص؛ فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشيته وحده ونحو هذا كله يدخل في توحيد الله، قال تعالى في المحبة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده، كذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٨] فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده.

والمقصود أن قول القائل: لا إله إلا الله فيه أفراد الإلهية لله وحده، وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً، فالمشركون كانوا يقولون بأن الله رب كل

شيء، لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى، فلا يخصونه بالإلهية. وتخصيصه بالإلهية يوجب ألا يعبد إلا إياه، وألا يسأل غيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه، لكن في أمور لا يجبها الله بل يكرهها وينهى عنها، فهذا وإن كان مخلصاً له في سؤاله والتوكل عليه، لكن ليس هو مخلصاً في عبادته وطاعته، وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فهم يعانون على هذه الأمور، وهذا نصيبهم من العاجلة، أما العاقبة فسيئة.

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله ولكن لا يحققون التوكل والاستعانة به، فهو لاء يتابعون على حسن نيتهم وطاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه؛ إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد منهم بالضعف والجزع إن لم يحصل مراده وبالإعجاب إن حصل.

وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانتة بالله، بل يعبد غيره ويستعين بغيره، وهؤلاء المشركون من الوجهين.

أما القسم الرابع فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا إلا إياه ولم يتوكلوا إلا عليه^(١).

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٦-٢٧٨) بتصرف، وسيأتي بسط هذه المسألة في باب التوكل إن شاء الله، ونبهنا عليها هنا لتعلقها بالعبودية. وانظر: العبودية (٨٥-٩١).

وقال: «كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

ومن توهم أن المخلوق يخرج بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم، ففي القرآن وصف أكابر الخلق بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك، وكل رسول ابتداءً دعوته بالدعاء إلى عبادة الله، وبين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات، وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٧].

والعبودية في الحقيقة: هي رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده. لهذا يقال:

العبدُ حرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال القائل:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حُرًّا

ويروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي يئس منه لا يطلبه، ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيراً إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك.

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرره قويت عبوديته له، وحرَّيْتُهُ مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكَذَلِكَ طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له. وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق؛ بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على سادته وكبرائه، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم، مدبراً لهم، متصرفاً بهم. فالعاقِل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر. فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة، ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه تزوجها أو مالکها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن. فإن من استعبد بدنه واستترق وأسر، لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في

العبودية

الخلاص، وإما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقاً مستعبداً، متيماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق، لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات. ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»^(١).

والعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، لهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد. وأوصى خواص أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً، فكان السوط يسقط من أحدهم ولا يقول لأحد ناولني إياه. وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقول النبي ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٢)، ومنه

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد (١/ ٢٩٣) بسند حسن.

قول الخليل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ومن تعلق قلبه بامرأة مباحة له صار فيه من العبودية لها بحسب ذلك، أما من استعبد قلبه صورة محرمة - امرأة أو صبي - فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب. ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألد ولا أطيب.

والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحسوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروه. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه^(١)؛ انقهر له هواه بلا علاج^(٢).

(١) فلا بد من قوة الإخلاص ولا يكفي مجرد ذوقه.

(٢) وسيأتي التفصيل في آخر الفصل في علاج الآفات بمشيئة الله، وفي علاج تعلق الصور فصل خاص في باب المحبة بمشيئة الله تعالى.

العبودية

وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض؛ قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرضوهم ويخافهم، فيذل لهم الأموال والولايات ويعفو عما يجترحونه، ليطيعوه ويعينوه، فهو في الحقيقة عبد مطيع لهم، وإن كان في الظاهر رئيساً مطاعاً. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عباد الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير حق؛ كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترققه؛ مستعبد للآخر.

وهكذا أيضاً طالب المال؛ بأن ذلك يستعبده ويسترققه، وحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاته المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب وبُغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طَلَبَ القلب فعل المحبوبات، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة. فالمحبون للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة. فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم، دل ذلك على ضعف محبته لله. ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبا لله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

(١) لاحظ ارتباط العبودية بجميع أقوال وأعمال القلب والجوارح، ولكنها في أعمال

إذا تبين هذا؛ فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حبًّا وفضله عما سواه.

والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:

من جهة العبادة، وهي العلة الغائية^(١)، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يُسرّ، ولا يطيع ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أُعِين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهي ويريده، ولم يحصل له عبادة لله، فلن يحصل إلا على الألم

التعلق (الحب - الخوف - الرجاء) أشد ارتباطاً، كذلك الحال بالنسبة للافتقار والإخلاص.

(١) التي من أجلها خلق الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أو الفاعلة، ويقال لها: الفاعلية: أي عدم قدرته على العبادة إلا إذا يسر الله له أسبابها وهي التوكل والاستعانة، كما ذكرها المصنف، وجمعها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهي الغائية ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي الفاعلة.

العبودية

والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يُحبه لأجله، لا يُحبه شيئاً لذاته إلا الله.

فمتى لم يحصل على هذا، لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان - بل من الألم والحسرة والعذاب - بحسب ذلك. ولو سعى في هذا المطلوب، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله؛ لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إله لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه. ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه، كان عبداً لما أحبه وعبداً لما رجاه، بِحَسَبِ حَبِّهِ ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحداً لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه فإنما أحبه لله، ولم يَرْجُ قط إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصّل ما حصّل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربُّه ومليكه وخالقه ومسخره وهو مفتقر إليه. كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قُسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرفها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم؛ أتمهم عبودية لله من هذا الوجه، وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه،

وهو أن يستسلم العبدُ لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوق، وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك، والشرك غالب على النصارى والكفر غالب على اليهود. ولما كان الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله؛ كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين»^(١).



(١) العبودية (٩١-١٣٤) باختصار.

أركان العبودية وشروطها ومدارها

قال ابن القيم: «العبادة تجمع أصليين: غاية الحب، وغاية الذل والخضوع»^(١).

أما شروطها: فالإيمان المصحح للأعمال، ثم الإخلاص، ثم المتابعة.

قال شيخ الإسلام: «كل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، إلا ما جمع الوصفين؛ أن يكون لله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله، وتحقيق هذين الشرطين هو مقتضى الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، ففي الأولى لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية أن محمداً ﷺ هو المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره وقد بين لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة»^(٢).

أما مدار العبودية فعلى خمس عشرة قاعدة. قال ابن القيم: «العبادة مدارها على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية. وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح. والأحكام^(٣) التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهنّ لكل واحد من القلب واللسان والجوارح»^(٤).

(١) المدارج (١ / ٨٥). وانظر ما تقدم عن شيخ الإسلام في الركنين.

(٢) العبودية (١٧٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣ / ١٢٤).

(٣) وهي الأحكام التكليفية عند الأصوليين.

(٤) انظر تفصيلها في المدارج (١ / ٢١٩ وما بعدها).

مراتب العبودية

قال الدكتور عبد الرحمن المحمود في بيان مراتب العبودية:

«المرتبة الأولى: عبودية مشتركة بين الخلق مؤمنهم وكافرهم، ألا وهي عبودية الحاجة والفقر إلى الله تعالى، فأهل السموات والأرض جميعاً فقراء إليه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وأي ملحد مهما كانت طريقته في الإلحاد إذا مسه الضرر مساً قوياً رفع بصره إلى السماء ونادى: يا الله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية. وهو ذل اختياري يقوم به العبد، وبه يميز بين المؤمنين والكفار.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة، فإن المحب ذليل لمن يحبه، وعلى قدر محبة القلب لله يكون ذله له، والذل لله تعالى هو أعلى مراتب الشرف.

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية. فإذا وقع في جناية توجه إلى ربه منكسراً مستكيناً مستغفراً تائباً»^(١).

أما التقسيم المشهور للعبادة فهو تقسيمها لقسمين:

الأول: عبودية عامة، بمعنى أن العبد مخلوق مربوب مملوك محتاج لربه.

والثاني: عبودية خاصة، وهو من تذلل لربه وخضع لمولاه ودان بالدين

(١) عبادة القلب، د. عبد الرحمن المحمود (٢٧-٢٥) باختصار.

الذي رضيهِ الله.

قال شيخ الإسلام: «العبد يراد به المُعَبَّد الذي عبَّده الله فذلله ودبَّره وصرَّفه. وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله، الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكنهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر. فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن^(١)، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومدبر أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو. سواءً اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواءً علموا بذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، واعترفوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له مستكبراً على ربه ولا يقر ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه»^(٢).

(١) ومن جميل ما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله أنه سُئل عن القدر فقال:

وما شئتُ إن لم تشأَ لم يكن	وما شئتُ كان وإن لم أشأَ
ففي العلم يجري الفتى والمسن	خلقت العباد على ما علمت
وهذا أعنت وذا لم تُعن	على ذا منت وهذا خذلت
ومنهم قبيح ومنهم حسن	فمنهم شقي ومنهم سعيد

(٢) العبودية (٣٨، ٣٩)، وانظر مزيد تفصيل: الفتاوى (١٥٠-١٦٠).

أقسام الناس في العبادة

قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره أن أكثر السالكين سلكوا بجدهم واجتهادهم غير متبهرين إلى المقصود: وإذا كان عدم الانتباه إلى المقصود والغاية من العبادة يحدث لأكثر الجادين فكيف إذا يكون غيرهم؟

قال: «وأضرب لك في هذا مثلاً حسناً جداً، وهو أن قومًا قدموا من بلاد بعيدة، عليهم أثر النعيم والبهجة، والملابس السنية، والهيئة العجيبة، فعجب لهم الناس، فسألوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادنا من أحسن البلاد، وأجمعها لسائر النعيم، وأرخاها، وأكثرها مياهاً، وأصحها هواءً، وأعظمها اعتدالاً، وأكثرها فاكهة، وأهلها كذلك أحسن الناس صوراً وأبشاراً.

ومع هذا فملكها لا يناله الوصف جمالاً وكمالاً، وإحساناً وعلماً وحلماً، وجوداً، ورحمة للرعية وقرباً منهم، وله الهيبة والسطوة على سائر ملوك الأطراف، فلا يطمع أحد في مقاومته ومحاربته، فأهل بلده في أمان من عدوهم لا يحلّ الخوف بساحتهم.

ومع هذا فله أوقات يبرز فيها لرعيته، ويسهل لهم الدخول عليه، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، فإذا وقعت أبصارهم عليه تلاشى عندهم كل ما هم فيه من النعيم واضمحل، حتى لا يلتفتون إلى شيء منه. فإذا أقبل على واحد منهم أقبل عليه سائر أهل المملكة بالتعظيم والإجلال.

ونحن رسله إلى أهل البلاد، ندعوهم إلى حضرته، وهذه كتبه إلى الناس،

العبودية

ومعنا من الشهود ما يزيل الظن بنا، ويدفع التهمة عنا بالكذب عليه، فلما سمع الناس ذلك، وشاهدوا أحوال الرسل، انقسموا أقسامًا؛ فطائفة قالت: لا نفارق أوطاننا، ولا نخرج من ديارنا، ولا نتجشم مشقة السفر البعيد، ونترك ما ألفناه من عيشنا ومنازلنا، ومفارقة آبائنا وأبنائنا وإخواننا لأمر وُعدنا به في غير هذه البلاد، ونحن لا نقدر على تحصيل ما نحن فيه إلا بعد الجهد والمشقة، فكيف نتقل عنه؟

فهذه الطائفة غلب عليها داعي الحسّ والطبع على داعي العقل والرشد.

والطائفة الثانية: لما رأت حال الرسل وما هم فيه من البهجة وحسن الحال، وعلموا صدقهم؛ تاهبوا للسير إلى بلاد الملك، فأخذوا في المسير، فعارضهم أهلوهم وأصحابهم وعشائرتهم من القاعدين. وعارضهم إلفهم مساكنهم ودورهم وبساتينهم، فجعلوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى. فإذا تذكروا طيب بلاد الملك، وما فيها من سلوة العيش، تقدموا نحوها. وإذا عارضهم ما ألفوا من ظلال بلادهم وعيشها وصحبة أهلها؛ تأخروا عن المسير والتفتوا إليهم، فهم دائماً بين الداعين والجاذبين، إلى أن يغلب أحدهما ويقوى على الآخر فيصرون إليه.

والطائفة الثالثة: ركبت ظهور عزائمها، ورأت أن بلاد الملك أولى بها فوطّنت أنفسها على قصدها، ولم يشنها لوم اللوام، لكن في سيرها بطء بحسب ضعف ما كشف لهم من أحوال تلك البلاد وحال الملك.

والطائفة الرابعة: جدّت في المسير وواصلته، فسارت سيرًا حثيثًا، فهم كما

قيل:

وركبُ سَرَوًا والليلُ مُرَخٍ سدولَه
حدَّوْا عَزَمَاتٍ ضاعت الأرض بينها
فصار سُرَاهُمْ في ظهور العزائم
تُريهم نجومُ الليلِ ما يطلبونَه
فهُؤُلاءِ همهمهم مصروفة إلى السير، وقواهم موقوفة عليه، من غير تشية منهم
إلى المقصود الأعظم والغاية العليا.

الطائفة الخامسة: أخذوا في الجد في المسير، وهمتهم متعلقة بالغاية، فهم في
سيرهم ناظرون إلى المقصود بالمسير، فكأنهم يشاهدونه من بُعد وهو يدعوهم إلى
نفسه وإلى بلاده، فهم عاملون على هذا الشاهد الذي قام بقلوبهم.

وعمل كل أحد منهم على قدر شاهده، فمن شاهد المقصود بالعمل في علمه
كان ناصحاً فيه وإخلاصه وتحسينه، وبذل الجهد فيه أتم ممن لم يشاهده ولم
يلاحظه، ولم يجد مسَّ التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهد بذلك،
فمن عمل عملاً لملك بحضرته وهو يشاهده ليس كحال من عمل في غيبته وبُعده
عنه» (١).

وقال ﷺ: «فمن شهد مشهد علو الله على خلقه، وفوقيته لعباده،
واستواءه على عرشه، كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق،
وتعبَّد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صمَدٌ يفرح القلب إليه، مناجياً له،

(١) مدارج السالكين، عن إحسان سلوك العبد المملوك (١٢٢-١٢٦).

مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر أن كلمه وعمله صاعد إليه، معروض عليه، مع أوفى خاصته وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك.

ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء، والتولية والعزل، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاء وإرساله، وتقلب الدول، ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه. فمراسمه نافذة فيها كما يشاء ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فمن أعطى هذا المشهد حقّه معرفة وعبودية استغنى به^(١).

وقال ﷺ: «وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله عز وجل في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، فكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا اللوامة ولا الأمارة. فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل. وأما من جهة العلم والمعرفة، فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته في ذلك يقع

(١) السابق (١٢٧، ١٢٨).

الانحراف، ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها.

وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، وهو طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكنه يستدعي رسوخاً في هذا العلم، ومعرفة تامة به، وإقداماً على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله. وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظمين عندهم، فهم لإحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم، ولم يتجاوزوها إلى غيرها، فصارت حجاباً وأيّ حجاب!

فمن فتح الله بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل؛ فقد أوتي خيراً كثيراً، ولا يُخاف عليه إلا من ضعف همته، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همّة عالية، فذاك السابق حقاً، واحد الناس في زمانه، لا يُلحق شأوه ولا يُشَقَّ غباره، فشتان ما بين من يتلقى أحواله واردة عن الأسماء والصفات. وبين من يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم، أو عن مجرد ذوقه ووجدته، إذا استحسن شيئاً قال: هذا هو الحق.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجيب، وفتحه عجب، صاحبه قد سبق السُّعاة، وهو مستلقٍ على فراشه، غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه، ولا مشرّد عن سكنه ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وليس العجب من سائر في ليله ونهاره، وهو في السرى لم يبرح مكانه، وإنما العجب من ساكن لا يرى عليه أثر السفر، وقد قطع المراحل

العبودية

والمفاوز! فسائر قد ركبتة نفسه، فهو حاملها سائر بها يعاقبها وتعاقبه، ويجرّها وتهرب منه، ويخطو بها خطوة إلى أمامه فتجذبه خطوتين إلى ورائه، فهو معها في جهد وكدّ، وهي معه كذلك. وسائر قد ركب نفسه، وملك عنانها، فهو يسوقها كيف شاء وأنّى شاء، لا تلتوي عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه، بل هي معه كالأسير الضعيف بيد مالكة وأسرّه، وكالدابة الريّضة المنقادة في يد سائسها وراكبها، فهي منقادة معه حيث قادها، فإن رام التقدّم حمزت به وأسرعت، فتسير به وهو ساكن على ظهرها.

فشتان ما بين المسافرين! فتأمل هذا المثل فإنه مطابق لحال السائرين، والله يختص برحمته من يشاء»^(١).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «قد سمعت بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل على طريق السلامة والمحبة واللطف، فعاملهم كذلك؛ لأن طبعهم لا يحتمل غير ذلك. واحدهم يقسم على ربه فيجيبه، وهناك أعلى من هؤلاء، يسألون فلا يُجابون، وهم بالمنع راضون. ليس لأحدهم انبساط، بل قيدهم الخوف، ونكس رءوسهم الحذر، ولم يروا ألسنتهم أهلاً للانبساط^(٢)، فغاية آمالهم العفو. فإذا انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ، فقال: مثلك لا يُجاب، وربما قال: لعل المصلحة في منعي. وهؤلاء الرجال حقاً

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم (١/٤٦٨ - ٤٧١).

(٢) والتوسط أن تحسن الظن بربك، وتسيء الظن بنفسك، وهذه حال السابقين الأولين.

والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب^(١)، فإن لم يجب تدمر في باطنه كأنه يطلب أجره عمله، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته، وإنما العبد حقاً من يرضى ما يفعله الخالق^(٢)، فإذا سأل فأجيب رأى ذلك فضلاً، وإن منع رأى تصرف مالك فلم يجبل في قلبه اعتراض^(٣).



(١) ولا يمنع هذا من «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» أحمد والترمذي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٩٦) لأنه يعود على نفسه بالملام، ويقول: إنما أُتيتُ من قبلك، فللدعاء موانع ومحبطات، والخنجل الوجل هو من يعتني بها هرباً وفرقاً. كذلك فالإجابة هنا هي إجابة بالمعنى العام من تعجيل مراده، أو تأخيرها، أو دفع السوء عنه بقدر دعائه، أو حفظه له أجراً في الآخرة.

(٢) ويسأله من فضله ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وسيأتي مزيد في باب حسن الظن، إن شاء الله تعالى.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٣٢١).

أفضل العبادات

قال ابن القيم في بيان أفضل العبادات: «قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فكلّ أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادات وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقّها على النفوس وأصعبها (١).

(١) وهذا غير مسلمّ لهم. قال شيخ الإسلام: «قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة؛ ليس بمستقيم على الإطلاق، فالأجر على قدر الطاعة، فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر، كما يسر الله على أهل الإسلام الكلمتين، وهما أفضل الأعمال، ولذلك قال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» متفق عليه. ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته؛ لكان صحيحاً، فأما كونه مشقة فليس هو سبباً لفضل العلم ورجحانه. ولكن قد يكون العمل الفاضل شاقاً، ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة؛ كمن كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر؛ يكون أجره أعظم من القريب. فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة =

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبّد. وقالوا: الأجر على قدر المشقة، ورووا حديثاً لا أصل له: «أفضل الأعمال أحْمَزُهَا»^(١)، أي: أصعبها وأشقها، وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها التجرد، والزهد في الدنيا، والتقليل منها غاية الإمكان، ثم هؤلاء قسيمان:

فعوامهم: ظنّوا أن هذا غاية، فشمروا إليه، وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة^(٢)، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

=

مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب. هذا في شرعنا الذي رُفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه من حرج. الفتاوى (١٠ / ٦٢٠ - ٦٢٢) باختصار، عن هامش كتاب طب القلوب (٢٤٥)، (٢٤٦).

قلت: وهذا المعنى يوجه حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَجْرُكَ عَلَى قَدَرِ نَصَبِكَ». البخاري (١٦٩٥) ومن هذا الباب حديث جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعاً: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» مسلم (٢٧٢٦).

(١) في مسنده من لا يعرف. وانظر: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٠٠ / ١)، وقال ابن القيم في شرح المنازل: لا أصل له.

(٢) وهو باطل قطعاً.

وخواصهم: رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله سبحانه وجمع الهمة عليه، وتفرغ القلب لمحبتة والإنابة إليه، فرأوا أن أفضل العبادات في جمعية القلب على الله سبحانه، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له^(١).

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدّد، فرأوا خدمة الفقراء ومساعدتهم بالمال والجاء، فتصدّوا له وعملوا عليه، واحتجوا بحديث: «الخلق كلهم عيال الله^(٢)، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله»^(٣)، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفع متعدّد إلى الغير، واحتجوا بقوله ﷺ: «لعلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ»^(٤)»^(٥). وقوله عليه الصلاة والسلام: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^(٦)، واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله مادام نفعه الذي نسب إليه،

(١) وسيأتي بسط ذلك في باب العزلة إن شاء الله تعالى.

(٢) أي إن الله يعولهم ويرزقهم.

(٣) قال في مجمع الزوائد (٨ / ١٩١): فيه يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك. عن طب القلوب (٢٤٧).

(٤) حُمْر: بتسكين الميم، جمع حمراء وهي أنفس أموال العرب. أما حُمْر بضم الميم فجمع حمار.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم (٢٦٧٤).

واحتجوا بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبعثوا بالخلوات والانتقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين همُّوا بالانتقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب تعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته^(١).

فأفضل العبادات في وقت الجهاد؛ الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل؛ الإقبال على تعليمه والاشتغال به، والأفضل في أوقات السَّحَر؛ الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار، والأفضل في أوقات الأذان؛ ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس؛ الجدّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء أو البدن أو المال؛

(١) وهو الصواب.

العبودية

الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أوراده وخلوته.

والأفضل في وقت قراءة القرآن؛ جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة؛ الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر، دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة؛ الإكثار من التعبّد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

والأفضل في العشر الأخيرة من رمضان؛ لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدّي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته؛ عيادته وحضور جنازته وتشيعه وتقديم ذلك على خلواتك وجمعيتك^(١).

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك؛ أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، كما في الحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على

(١) ولابن قدامة المقدسي رسالة لطيفة في وظائف المؤمن في اليوم واللييلة.

أذاهم^(١)، والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال؛ إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعب المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعب المقيد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه حتى يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعب المطلق ليس له غرض في تعبده بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رُفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم، وإن رأيت العباد رأيتهم معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها من العبادات، بل هو على مراد ربه عز وجل

(١) رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١)، وفي الصحيحة (٩٣٩).

العبودية

ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًا، القائمُ بها صدقًا، مَلْبَسُهُ ما تهيأ، ومَأْكَلُهُ ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حُرٌّ مجرّد، دائر مع الأمر حيث دار، يَدِينُ بدين الأمر أنى توجّهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلّت مضاربه، يَأْنَسُ به كُلُّ مُحِقٍّ، ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلُّها منفعة حتى شوكتها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله، وبالله، ومع الله، قوَّامًا له، ما أغربه بين الناس! وما أشدّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته به وسكونه إليه! والله المستعان، وعليه التكلان»^(١).



(١) مدارج السالكين، ابن القيم (١/ ٨٥-٩٠) عن: طب القلوب (٢٤٥-٢٥١).

آفات العبودية وعلاجها

أعظمها: التعلق بغير الله تعالى، وهذا أساس البلاء وذريعة الخذلان. وعلاج ذلك بتحقيق التوحيد والإخلاص.

قال شيخ الإسلام: قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عنه عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، كذلك الصلاة، قال تعالى: ﴿لَا تَكُ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله. وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، أما اندفاع الشر عنه فهو مقصوده لغيره على سبيل التبع.

كذلك تزكية النفس: والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلمّا عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل. ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ① وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ② وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٣٠].

العبودية

[٢١]. فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أذكى للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك.

ومن آفاتهما: طلب الرئاسة والعلو في الأرض: فقلب رقيق لمن يعينه عليها، وهكذا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه. والعلاج أن يعلم أن هذه الأمور نوعان:

الأول: ما يحتاج العبد إليه، كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه وسكنه ومنكحه، ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون هلوًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠، ٢١] (١).

الثاني: ما لا يحتاج العبد إليه (٢)، فهذا لا ينبغي أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها، وربما صار معتمدا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

(١، ٢) وجماعه الزهد، وهو ترك ما لا ينفع في الآخرة، وسيأتي في باب مستقل إن شاء الله تعالى.

ومن آفاتهما: الكبر والتعاضم، وقد ثبت في الصحيح^(١) عن النبي ﷺ أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، كما أن النار لا يُخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلاً للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية. كما ثبت في الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبت»، فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار، ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير، وكذلك يستحب في الأمكنة العالية كالصفا والمروة، وإذا علا الإنسان شرفاً، أو ركب دابة، ونحو ذلك، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساسٌ يتحرك بالإرادة، وقد ثبت^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام»، فالحارث: الكاسر الفاعل، والهمام: فعالٌ من الهمم، والهمم أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائمة، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل

(١) مسلم (٩١).

(٢) مسلم (٢٦٢٠).

(٣) رواه ابن وهب في جامعه مرسلًا، وله شاهد عند أحمد وأبي داود، وقد صححه ابن تيمية كما ترى، وحكم عليه الألباني وشعيب الأرناؤوط بأنه مرسل صحيح.

العبودية

استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب، إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله، كالشمس والقمر والقبور وغير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبداً لغير الله، فيكون مشركاً، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله وكان مشركاً، قال تعالى: ﴿وَفَرَعُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَمَنُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، ووصفه بالشرك في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك، ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه.

ومن الآفات: الشرك، وهو أعظم الذنوب، وهو غالب على النفوس، وقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من ديب النمل؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟ قل: اللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(١)، وكان عمر يقول في

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤/ ٧١٦).

دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وكثيرًا ما يخالط النفوس شهوة خفية تفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دينها له. كما قال شداد بن أوس: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية^(١). وقيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

ومن آفاتهما: الحرص، وقد قال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلتا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(٢)، فبين أن الحرص على المال والشرف في إفساد الدين لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم. وذلك بين؛ فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له؛ لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبودية غيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله،

(١) قال علي حسن عبد الحميد في تحقيق العبودية (١٧٧، ١٧٨): وقد صح هذا مرفوعًا. ورواه البيهقي في الزهد (ص ٣١٩) وذكر الطرق. وقوله: «يا نعايا العرب» يريد أن العرب قد هلكت.

(٢) أحمد (٤٥٦/٣)، والترمذي (٢٤٨٢) وقال: حسن صحيح.

خائفًا منه راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]»^(١)، فالسعيد حقًا هو من حقق العبودية اعتقادًا وقولًا وعملاً. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) العبودية (١٢٠-١٨٠) باختصار وتصرف.

وقفة

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

«العزلة حمية البدن، والمناجاة قوت القلب، ومن أنس بمولاه استوحش من سواه.

يا منتهى وحشتي وأنسي كُنْ لي إن لم أكن لنفسي
أطمعني في غدٍ نجاتي حلمك عن سيئات أمسي
خلق القلب طاهراً في الأصل، فلما خالطته شهوات الحس تكدر، وفي العزلة يرسب الكدر.

الحيوان المميز على ثلاثة أقسام:

فالملائكة خلقت من صفاء لا كدر فيه، والشياطين من كدر لا صفاء فيه،
والبشريُّ مركبٌ من الضدين، فالعجبُ أن تقوى عند التقوى.
مُدْ عزم عمر على طلاق الهوى، أحدَّ أهله عن زينة الدنيا. قال للمشركين
قبل خروجه مهاجراً: ها أنا، على عزم على الهجرة، فمن أراد أن يلقاني فليلقني في
بطن هذا الوادي.

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي

لما ولي عمر بن عبد العزيز خير النساء، فقال: من شاءت فتلقم، ومن شاءت
فلتذهب، فإنه قد جاء أمر شغلني عنكن.

العبودية

للعزائم رجال ليسوا في ثيابنا، وطَّنا على الموت فحصلت الحياة.

إذا ما جررتُ الرُّمَحَ لم يثنني أبُّ مُلِحٌّ ولا أمُّ تصيحُ ورائي
وشيعني قلبٌ إذا ما أمرُّهُ أطاع بعزمٍ لا يروغُ ورائي

يا مختار القدر! اعرف قدر قدرك. يا خزانة الودائع! يا وعاء البدائع! يا من
غُدِّي بلبان البرِّ، وقُلِّبَ بأيدي الأيادي، يا زرعاً تهملُ عليه سحب الألفاف،
الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورٌ وأنت المعنى، وصدفٌ وأنت الدرُّ.

ويحك! لو عرفت قدر نفسك ما أهتتها بالمعاصي، أبعد إبليس لأجلك إذ لم
يسجد لك، فالعجب منك كيف صالحته وعصيت ربك؟!

يا جوهرة بمضيعة! يا لُقطة تُداسُ، كم في السماوات من ملك يسبِّح ما لهم
مرتبة ﴿نُتَجَفَى﴾ [السجدة: ١٦] وما لهم مقام «وخلوف»^(١)، أنين المذنبين أوفى
من تسييحهم، سبحان من اختارك على الكل^(٢) وجادل عنك الملائكة قبل
وجودك ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٣٠]. خلق سبعة أبحر واستقرض منك دمعة، له
ملك السماوات والأرض، واستقرض منك حبة.

لو كان في قلبك محبة لبان أثرها في جسدك «عجب ربنا من رجل ثار على
وطائه ولحافه إلى صلاته»^(٣). تلمَّح معنى «ثار» ولم يقل: قام؛ لأن القيام قد يقع

(١) قال ﷺ: «وخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» متفق عليه.

(٢) يقصد الجنس لا الأفراد.

(٣) رواه أحمد في المسند.

بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلا بالإسراع حذرًا من فائت.

إذا هزّنا الشوق اضطربنا لهزّه على شُعْبِ الرَّحْلِ اضطرابَ الأرقامِ

قال سفيان الثوري: بت عند الحجاج بن الفرافصة إحدى عشرة ليلة، فما أكل ولا شرب ولا نام»^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ

(١) لعله يقصد حاله في الليل دون النهار.

(٢) المدهش، ابن الجوزي (٥١٢-٥١٤) باختصار.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	الإخلاص والتوحيد	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الصدق مع الله تعالى

تأليفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

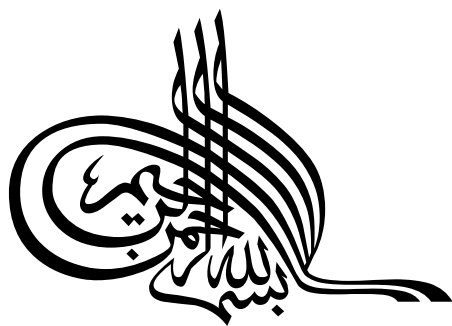
الكتاب رقم (٤)

الصدق مع الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١٠	أقسام الصدق
١١	متعلقات الصدق
١٣	مراتب الصدق
٢١	مكانة الصدق وفضله
٣٨	دواعي الصدق
٤٠	حذر السلف من الكذب



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، والحمد لله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، والحمد لله أرسل رسوله بالصدق وصدقهم وصدقهم، وأداهم على من خالف أمره وكذب بالصدق لما جاءه. وتبارك الذي أمر بالصدق في النية والقول والعمل، وبصُحبة أهل الصدق إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أما بعد: فهذه حروف مما يسره الله تعالى في بيان صدق القلب مع الله تعالى، وما يترتب عليه من أمور طيبة وآثارٍ صالحة ودين مستقيم، جعلنا الله جميعاً من الصديقين ووالدينا والمسلمين، آمين إله الحق. وصلى الله وسلم وبارك على من جاء بالصدق وصدق به وعلى آله وصحبه أجمعين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٦ / ١٢ / ٧

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الصدقية هي المرتبة التالية للنبوة والسابقة للشهادة، ومعراجها الموصل هو رسوخ الصدق في القلب وإضاءة نوره على اللسان وظهور حلاوة ثماره على الجوارح.

«الصدق والتصديق والصدقية اشتقاقها واحد وهو الصدق، والصدق: ضد الكذب» قاله الأزهرى^(١).

وقال ابن فارس: «الصاد والذال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء، قولاً وغيره. ومن ذلك الصدق: خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له، وهو باطل؛ وأصل هذا من قولهم شيء صدق أي صلب، ورمح صدق، ويقال: صدقوهم القتال، وفي خلاف ذلك: كذبوهم. والصدق: الملازم للصدق»^(٢). وقال الجوهرى: «الصدق الدائم التصديق، ويكون الذي يُصدق قوله بالعمل»^(٣). وقال الراغب: «الصدق والكذب أصلهما في القول ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً كان أو غيره. ولا يكونان في القصد الأول إلا في القول. ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام، ولذلك قال تعالى:

(١) معجم التهذيب (٢/ ١٩٩٠).

(٢) معجم المقاييس (٥٦٥).

(٣) الصحاح (٤/ ١٢٤٢).

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وقد يكونان بالعَرَض في غيره من أنواع الكلام، والصدق مطابقة القول الضمير والمُخْبِر عنه معًا، ومتى تأخر شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًا، بل إما ألا يوصف بالصدق^(١)، وإما أن يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين مختلفين، كقول كافر إذا قال من غير اعتقاد: محمد رسول الله، فإن هذا يصح أن يقال: صدق لكون المخبر عنه كذلك. ويصح أن يقال: كذب، لمخالفة قوله ضميره، وبالوجه الثاني إكذاب الله تعالى المنافقين حيث قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

والصِّدِّيق: من كثر منه الصدق^(٢)، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

(١) وهذا ممتنع شرعًا، كما في حديث التَّائِبِ.

(٢) قال شيخ الإسلام: «يُقَالُ: فلان صادق للهجة؛ إذا تحرى الصدق، وإن كان قليل العلم بما جاءت به الأنبياء، وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُدَح بكونه صدِّق الأنبياء، وليس بمجرد كونه صادقًا، وتصديقه للنبي ﷺ هو صدق خاص، فالمدح بهذا التصديق - الذي هو صدق خاص - نوع، والمدح بنفس كونه صادقًا نوع آخر. فكل صدِّيق صادق، وليس كل صادق صدِّيقًا». منهاج السنة (٤/ ٢٦٦).

[مريم: ٤١]، وقال: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال: ﴿مَنْ أَلْنَيْتَنَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ﴾ [النساء: ٦٩]، فالصديقون: هم قوم دون الأنبياء في
الفضيلة.

وقد يُستعمل الصدق والكذب في كل ما يحقُّ ويحصل في الاعتقاد، نحو
صدق ظني وكذب، ويستعملان في أفعال الجوارح، فيقال: صدق في القتال إذا
وفى حقه وفعل ما يجب وكما يجب، وكذب في القتال إذا كان بخلاف ذلك. وقال
تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي حققوا العهد بما
أظهروه من أفعالهم. وقال: ﴿لَيْسَ لَ الصِّدِّيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، أي
يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله تنبيهاً أنه لا يكفي الاعتراف بالحق دون
تحريه بالفعل، وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي سأل
الله أن يجعله صالحاً بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن ذلك الثناء كذباً، بل
يكون كما قال الشاعر:

إذا نحن أثينا عليك بصالحٍ فأنْتَ الذي نشي وفوق الذي نشي»^(١)

وقال الفيروز آبادي: «الصَّدُقُ: الشدة، ومصدق الشيء: ما يصدقه»^(٢).



(١) المفردات (٢٨٠، ٢٨١).

(٢) القاموس (٩٧٠).

أقسام الصدق

أقسامه ثلاثة:

الأول: الصدق في الأقوال: وهو استواء اللسان على الأقوال؛ كاستواء السنبلة على ساقها.

الثاني: الصدق في الأعمال: وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة؛ كاستواء الرأس على الجسد.

الثالث: الصدق في الأحوال: وهو استواء القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الجهد والوسع، وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه، وقيامها به، تكون صدّيقته، ولذلك كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه ذروة سنام الصدّيقية، وسُمّي الصدّيق على الإطلاق، والصدّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق^(١).



(١) مدارج السالكين (٣/ ٧، ٨) بتصرف يسير.

متعلقات الصدق

وهي خمسة أشياء ذكرت في القرآن العزيز: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الخمسة: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

الأول والثاني: مدخل الصدق ومخرجه: وهو أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته، متصلاً بالظفر بالبُغية وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر. أما مخرج الصدق فكمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله، والله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب؛ فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك. يريد: ألا يكون مخرج صدق.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

الثالث: لسان الصدق: وهو الثناء الحسن الصادق ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، واللسان يراد به ثلاثة معانٍ: هذا، واللغة، والجراحة نفسها.

الرابع: قدم الصدق، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقد فسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه، وما يقدمون عليه يوم القيامة؛ فالمؤمن قدم الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدم على الجنة التي هي جزاء ذلك، فالثلاثة قدم صدق.

الخامس: مقعد الصدق: وهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

ووصف ذلك كله ^(١) بالصدق مستلزم لثبوت واستقراره، وأنه حق، ودوام نفعه وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته سبيل إليه ولا مدخل ^(٢).

(١) المدخل والمخرج واللسان والقدم والمقعد للصدق.

(٢) المدارج (٣/ ١٢٠٨) بتصرف.

مراتب الصدق

هي مراتب، أولها الصدق وأعلاها الصديقية. قال ابن القيم رحمه الله: «أعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل»^(١). قلت: وصدق رحمه الله، فالله تعالى جعل مرتبة الصديق بعد النبي مباشرة وفوق الشهيد ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق؛ لأنه بالغ في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات. وبيان ذلك:

الصدق الأول: صدق اللسان، وذلك لا يكون إلا في الأخبار، أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، ويدخل فيه الوفاء بالوعد والعهد، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأطهرها.

وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق، ولهذا الصدق كما لان:

(١) المدارج (٣/ ٨).

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: في المعاريض مندوحة^(١) عن الكذب، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الناس على خلاف ما هو علم في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان ونحوهم. وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء والتحرز من اطلاعهم على الأسرار، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصِدْقُهُ فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين^(٢)، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفْهِمًا غير ما هو عليه؛ لأن الصدق ما أريد لذاته، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه^(٣).

(١) أي مخرج ومفر. والمعارض وتسمى التورية: هي الإخبار عن الشيء بما يوهم السامع أن المراد غيره، كمن قال عند الحاجة: إن فلانًا ليس هنا، ويشير إلى كفه أو جيبه، ويفهم مخاطبه أنه ليس في داره، ونحو ذلك. وهذا باب واسع من مجازات اللغة.

(٢) أي إن هذا لا ينقص من مرتبته في الصدق البتة، أما إن كان حاجة نفسه فهذا مع جوازه إلا أنه ليس المقام الكامل للصدقية.

(٣) كما استعمله النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر حين قال للأعرابي: «نحن من ماء» الروض الأنف (٩٣/٥). أما توريته للعجوز بأن الجنة لا يدخلها عجوز، أو للأعرابي حين قال: «إنا حاملوك على ولد الناقة» رواه أحمد (١٣٨١٧) والترمذي (١٩٩١)، فهذا ونحوه من باب مباسطته لأصحابه وإدخال السرور عليهم لأنه أخبرهم في نفس المجلس بمراده، ولم يترتب على ذلك عمل مستقبل لهم. فهذا لون =

الكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي ينادي فيها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فإن قلبه إذا كان منصرفاً عن الله تعالى، مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله:

والتورية لغرض النفس لون آخر.

أما حديث جواز الكذب في ثلاث وهي الحرب، والإصلاح بين اثنين، وبين الزوجين (متفق عليه)، فرأى بعض أهل العلم إجراءه على المعارض، ومنهم الغزالي رحمته الله. ويرى آخرون ومنهم ابن باز رحمه الله في تعليقه على إغاثة اللفهان جواز الكذب فيه صراحة بشرطين: ١. المصلحة. ٢. عدم الضرر على السامع. وهذا ظاهر الحديث. والاحتياط والورع حمله على الوجه الأول لأن أعظم هذه الثلاثة هي الحرب، مع ذلك فقد كان عليه السلام يستخدم فيها المعارض كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره» متفق عليه، أي حينما يريد السفر جنوباً يظهر السؤال عن أحوال جهة الشمال ونحوها ليوهم عدوه أنه ليس بقاصد إليه في الغزو حتى يأخذه على غرة، وإذا جازت المعارض لم يجز الإقسام عليها فيما يظهر لحديث: «يمينك على ما يصدقك به صاحبك» رواه مسلم (١٦٥١)، والله أعلم. أورد ابن القيم في إغاثة اللفهان أمثلة عديدة على استعمال السلف للمعارض.

فإن كانت المعارض لغير حاجة ولا مصلحة راجحة فقد ذهب النووي لكراهتها (الأذكار ٢٨٠) وأفتى شيخ الإسلام بحرمتها كما في الاختيارات (٥٦٣). ولا شك أن استبراء العرض مأمور به شرعاً فإذا اطلع الناس على خلاف ما فهموه من الكلام فهذا مدعاة لأن يتهموه بالكذب الذي هو أخص صفات المنافقين، لذلك فينبغي أن لا يتجاوز بالمعارض الحاجة وأن تكون بحدود ضيقة، والله أعلم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهو منكب على الدنيا ولم يتصف بحقيقة عبوديته لله تعالى، ونحو ذلك.

الصدق الثاني: في النية والإرادة. ويرجع ذلك إلى الإخلاص؛ وهو ألا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل^(١) صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا.

الصدق الثالث: صدق العزم. فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعة، أو بشرطه، وإن لقيت عدوًا في سبيل الله قاتلته ولم أبال إن قُتلت، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة صادقة جازمة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هنا عبارة عن التمام والقوة.

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه، ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين المؤمنين من لو خُيّر بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصديق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن

(١) لو قال نقص كان أولى، ولعله راعى كمال الصدق والإخلاص، ويشهد لهذا ما ذكره في الصدق الثالث حين قال: فكان الصدق هنا عبارة عن التمام والقوة.

وهاجت الشهوات؛ انحلت العزيمة وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] كما فعل أنس بن النضر في أحد ومصعب بن عمير وغيرهما.

وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود، فقالا: إن رزقنا الله مالا لتصدقن، فبخلوا به، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿التوبة: ٧٥، ٧٧﴾، فجعل العزم عهدًا، وجعل الخلف فيه كذبًا، والوفاء به صدقًا، وهذا الصدق أشد من الثالث؛ لأن النفس قد تكع عن الوفاء بالعزم بعد أن سخت به، لذلك استثنى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسؤل لي نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن؛ لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم.

الصدق الخامس: في الأعمال. وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا مخالف لترك الرياء؛ لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك. ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن

إِعْرَابًا هُوَ فِيهِ كَاذِبٌ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَمْشِي الرَّجُلُ عَلَى هَيْئَةِ السَّكُونِ وَالْوَقَارِ وَلَيْسَ بَاطِنُهُ مَوْصُوفًا بِذَلِكَ الْوَقَارِ، فَهَذَا غَيْرُ صَادِقٍ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْتَفِتًا إِلَى الْخَلْقِ وَلَا مُرَائِيًّا إِيَاهُمْ، وَلَا يَنْجُو مِنْ هَذَا إِلَّا بِاسْتِوَاءِ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ بِأَنْ يَكُونَ بَاطِنُهُ مِثْلَ ظَاهِرِهِ^(١)، أَوْ خَيْرًا مِنْ ظَاهِرِهِ، وَأَنْشُدُوا:

إِذَا السِّرُّ وَالْإِعْلَانُ فِي الْمُؤْمَنِ اسْتَوَى فَقَدْ عَزَّ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الشَّنَا
وَإِنْ خَالَفَ الْإِعْلَانُ سِرًّا فَمَالَهُ عَلَى سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى الْكَدِّ وَالْعَنَا
فَمَا خَالَصَ الدِّينَارُ فِي السُّوقِ نَافِقٌ وَمَغْشُوشُهُ الْمَرْدُودُ لَا يَقْتَضِي الْمُنَى
وَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ: مَنْ يَدْلِنِي عَلَى بَكَّاءٍ بِاللَّيْلِ، بَسَّامٍ بِالنَّهَارِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ: كَانَ الْحَسَنُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ كَانَ مِنْ أَعْمَلِ النَّاسِ بِهِ، وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ كَانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ، وَلَمْ أَرِ أَحَدًا قَطُّ أَشْبَهَ سَرِيرَةً بِعَلَانِيَةٍ مِنْهُ. إِذَنْ فَمَسَاوَاةُ السِّرِّ لِلْعَلَانِيَةِ أَحَدُ أَنْوَاعِ الصَّدَقِ.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزّها؛ الصدق في مقامات

الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب، وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مبادٍ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من قال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمِّيَ صاحبه صادقًا فيه، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال:

(١) كما قيل: إذا كانت السريرة خيرًا من العلانية فهو الفضل، وإن استوتا فهو العدل، وإن كانت العلانية خيرًا من السريرة فهو الوزر والجور.

هذا خوف صادق، وشهوة صادقة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق، أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفر كيف يصفرُّ لونه، وترتعد فرائضه ويتنغص عليه عيشه، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل الأنس بالوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. كما قيل: لم أر مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها. فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منها حظه بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه. فالعلم بالله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز جداً.

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض هذه الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدثتني نفسي ما هي قائلة،

وما هو مَقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق. فقال ابن المسيب: ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه الصلاة والسلام. فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز، ولم يبلغوا هذا المبلغ والله المستعان^(١).



(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ١٦٩٣-١٦٩٨) باختصار وتصرف.

مكانة الصدق وفضله

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ووصف الله تعالى التنزيل بالصدق ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] وجعل للصادقين موعداً للسؤال ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨] ووصف وعده بالصدق: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾ [الذاريات: ٥] ووصف أهل البر بالصدق فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ووصف المتقين بخمس صفات، منها: الصدق، فقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ومن آخر ما نزل من القرآن المائدة، وقد قال في خواتيمها: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقد مدحت الملائكة والأنبياء بالصدق ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤] ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ

وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿[يس: ٥٢]. والآيات في هذا الباب كثيرة.

أما من السنة فقد مدح نبينا صلوات الله وسلامه هذه الخصلة وأعلى من شأن أهلها فقال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة؛ اصدقوا إذا حدثتم...»^(١). وقال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً»^(٢)، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٣)، وقال في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة: «فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه...»^(٤)، وقال: «دع ما يربيك إلى ما لا يربيك»^(٥)،

(١) الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وأخرجه أحمد (٥ / ٢٣٣).

(٢) دل على أن الصديقية لا تكون إلا بعد رسوخ الصدق في النفس وتحريره وتعاهده حتى يكون سجية وخلقاً.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه وهذا لفظ البخاري، أما مسلم فأورده بدون لفظ الصدق، والصدق هنا بمعنى الإخلاص، وبينهما عموم وخصوص، والصدق والإخلاص مع تقاربهما إلا أن الصدق هو الفرقان بين الإيثار والنفاق، أما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك. وانظر: ظاهرة الإرجاء (٤٣٨).

(٥) يروى بفتح الياء وضمها، وأصله من الارتباب وهو الشك.

فإن الصدق طُمأنينة، والكذب ريبة»^(١).

وفي حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأله هرقل: فبماذا يأمركم؟ - يعني رسول الله ﷺ - قال أبو سفيان: «قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة...»^(٢)، لذا فمن بدايات دعوته عليه الصلاة والسلام الأمر بهذا الخلق الجليل الجميل، بل من صفاته وصفات كل الأنبياء الصدق، قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث»^(٣)، وقالت له قريش في قصة نداءهم وهو على الصفا: «ما جربنا عليك إلا صدقاً»^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام مبيناً أن مرتبة الصديقية مستلزمة لخصال أخرى نبيلة كعفاف اللسان: «ولا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً»^(٥)، وقال في شأن الدعاء الصادق: «من طلب

(١) الترمذي (٢٥١٨) واللفظ له. وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٢٧ / ٨) بسند صحيحه محقق جامع الأصول. عن موسوعة نضرة النعيم. وقد استفدت منهم كثيراً في هذا الكتاب، سواءً جمعهم الآيات والأحاديث والآثار والنقول في مكان واحد أو في تخريج الأحاديث، فلهم الشكر بعد الله تعالى. وأوصي كل خطيب أو محاضر أو باحث أن يقتني تلك الموسوعة النفيسة فإنها من ذخائر العلم المحقق.

(٢) متفق عليه.

(٣) البخاري (الفتح ٨ / ٤٧٧٠).

(٤) متفق عليه.

(٥) مسلم (٢٥٩٧).

الشهادة صادقاً، أُعطيها، ولو لم تصبه»^(١)، وقال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»^(٢).

وقد امثل الصحابة الأظهر هذا الخلق الرفيع، وامتزجت أجزاءه بنفوسهم، وفي قصة الثلاثة الذين خلفوا فوائد جمة وثمرات جليلة لهذه الشيمة النبيلة^(٣)، قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأله رسول الله ﷺ عن تخلفه: «يا رسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه»^(٤)، إني لأرجو فيه عُقبى الله^(٥)، والله ما كان لي من عذر. والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك»، ثم كانت العاقبة؛ توبة الله عليه بقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ حتى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨، ١١٩]. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من حديث

(١) مسلم (١٩٠٨).

(٢) مسلم (١٩٠٩).

(٣) وانظر كتاب (لله درك يا كعب!).

(٤) أي تغضب علي من أجله.

(٥) أي العاقبة الحسنة من الله، وتلمح ثلج اليقين على فؤاده القريح.

رسول الله ﷺ» (١).

قال ابن القيم في تعليقه على خبر كعب: «ومن الفوائد: عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]» (٢).

وتأمل قصة ذلك الأعرابي ذي القلب الطاهر وثمره صدقه مع الله تعالى حين جاء لنبي الله ﷺ فأمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك. فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه. فلما كانت غزوة خيبر، وغنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاءوه دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قَسَمَ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ. فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قال: ما على هذا تبعتك، ولكنني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِصَدَقِكَ»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتِيَ به النبي ﷺ يُحْمَلُ قد أصابه سهم حيث أشار. فقال النبي ﷺ: «أَهْوْ هُو؟» قالوا: نعم. قال: «صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَقَهُ»، ثم كفنه النبي ﷺ، فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته

(١) متفق عليه.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٥٩٠).

«اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، فقتل شهيدًا، أنا شهيدٌ على ذلك»^(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كانت له عند الناس ثلاث وجبت له عليهم ثلاث، من إذا حدثهم صدقهم، وإذا اتّمنوه لم يخنهم، وإذا وعدهم وفى لهم، وجب له عليهم أن تحبه قلوبهم، وتنطق بالثناء عليه ألسنتهم، وتظهر له معونتهم»^(٢).

وقال جعفر الصادق: «الصدق هو المجاهدة، وألا تختار على الله غيره، كما لم يختَر عليك غيرك، قال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَنكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]»^(٣).

وقال الجنيد: «حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب»^(٤). قلت: أي فيما يظهر لغير البصير. وقال يوسف بن أسباط: «لأن أبيت ليلة أعاملُ الله بالصدق أحبُّ إلي من أن أضرب بسيفي في سبيل الله». وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرّك، فإنه ينفعك. ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك، فإنه يضرّك»^(٥).

وقال ابن القيم: «قال شيخنا -أي ابن تيمية-: والصدّيق أكمل من المحدث؛

(١) النسائي (١٩٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤١٥).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٢٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٩٨).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٠).

(٥) السابق (٢/ ٢٩٠).

لأنه استغنى بكمال صديقيته عن التحدث والإلهام والكشف. فإنه قد سلّم قلبه كله وسرّه وظاهره وباطنه للرسول ﷺ، فإن وافقه قبله، وإلا رده. قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدثني قلبي عن ربي، فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه أو عن ربه؟ فإذا قال: عن ربي كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به. وهذا كذب»^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله في كلامه على منزلة الصدق: «وهي منزلة القوم العظمى التي منها تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُردَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكّ الأحوال»^(٢) والحامل على

(١) التفسير القيم، ابن القيم (١/ ٣٥).

(٢) قال السهروردي في عوارف المعارف في الفرق بين الحال والمقام: «فالحال سمي حالاً لتحوّله، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره» (٢١٢٧). ملحق بإحياء العلوم. وقصد الإمام ابن القيم رحمه الله بهذا اللفظ مجموع أقوال وأعمال القلب والجوارح، والله أعلم. والخلل عند كثير من المتصوفة أنهم أحالوا الحال على الذوق والوجد لا العلم والوحي.

قال ابن القيم: «وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين هو إحالة الحال على العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به وقبول حكمه، فإن وافقه العلم وإلا كان حالاً فاسداً، منحرفاً عن أحوال الصادقين بحسب بُعدِه عن العلم، فالعلم حاكم

اقتحام الأهوال، والباب الذي منه دخل الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤] والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب؛ فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر^(١).

وقال ﷺ في مراتب المكلفين في الدار الآخرة، وطبقاتهم^(٢) فيها بعد ذكره لأولي العزم من الرسل ثم بقية الرسل ثم الأنبياء، قال: «الطبقة الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بُعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية.

والحال محكوم عليه، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد، وغايته الانسلاخ من العلم والدين، كما جرى ذلك لمن جرى له، والله المستعان». المدارج (٣٨/٣).

(١) مدارج السالكين (٣/ ٧٠٥) باختصار.

(٢) وهم ثمان عشرة طبقة ذكرها في طريق المهجرتين، أما ابن حزم فذكر عشر طبقات فقط.

ولهذا قرنهم الله تعالى في كتابه بالأنبياء فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية تلي درجة النبوة، وهؤلاء هم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول ﷺ وأمتة، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] ومرتبة الصديقية فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين؛ هنا وفي سورة النساء. وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»^(١). ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ودرجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان لهم مثل أجره ما دام ذلك جارياً في

(١) البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس رضي الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأمة على آباد الدهور^(١)، وصح عنه عليه السلام أنه قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(٢)، وقال: «إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلّون على معلّم الناس الخير»^(٣)، وقال: «إن العلماء ورثة الأنبياء»^(٤).

والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وقد ذكرنا مئتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد^(٥).

فيا لها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجّلها وأسناها، أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة تملئ فيها الحسنات كل وقت^(٦)، وأعمال الخير مهداة

(١) العلماء بالله وبدين الله والعاملون بما علموا هم داخلون دخولاً أولاً في الصديقية، ولكن لا يعني ذلك إخراج العوام الذين صلحت أعمالهم وخلصت نياتهم وصدقوا الله في دينهم.

(٢) مسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) الترمذي (٢٦٨٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. والطبراني (٧٩١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/١٨٣٨).

(٤) أحمد (٢١٧١٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٦٨٢)، واختلف في صحة سنده، وقد صححه ابن حبان والحاكم، وضعفه الترمذي والبيهقي وابن عبد البر.

(٥) وللعلم باب مستقل يأتي إن شاء الله تعالى.

(٦) وقت توفي ابن القيم رحمته الله سنة (٧٥١) أي أن كتبه لها قرابة السبع مئة سنة وهي تُهدي له الحسنات، ولا نزكاه على الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إليه من حيث لا يحتسب. تلك والله المكارم والغنائم! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويستبق السابقون إليها، وتوفّر عليها الأوقات، وتتوجه نحوها الطلبات»^(١).

وقال الشيخ عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى: «منزلة الصديقية منزلة لا يبلغها إلا القليل النادر من الناس، ولم يشتهر بذلك إلا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والسبب في ذلك القصة المعروفة»^(٢).

وفي شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣): «والصديقية تجيء عن محض التصديق، أي: أن يصدق ما أخبر به من قبل الله جل وعلا ورسوله ﷺ، فلا يُسمى صديقاً ولا يرتقي مرتبة الصديقية إلا إذا صدّق تصديقاً محضاً بكل ما أتاه من الله جل وعلا ومن رسول الله ﷺ، ولسان حاله يقول: آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ، وأروع الأمثلة على تحقيق الصديقية أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد حقق معانيها ظاهراً وباطناً. فأول مراتبها التي حققها: التصديق بكل ما جاء عن

(١) طريق المهجرتين (٢/ ٧٦٤-٧٧١) باختصار.

(٢) شرح المحرر في الحديث، د. عبد الكريم الخضير (١٩/ ٦٣) ومراده حديث الإسراء وخبر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه.

(٣) للشيخ محمد حسن عبد الغفار.

الله وعن رسوله ﷺ، والثانية: أن يصدق قوله فعله. والثالثة: أن يصدق ظاهره باطنه. والرابعة والخامسة: التصديق بموعد الله في الدنيا والآخرة.

وقد حقق الصديق تلك المراتب بقوله لمن جاءه من قريش يخبرونه بما قاله لهم رسول الله ﷺ ليلة الإسراء: إن كان قال ذلك فقد صدق، والله إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك؛ أصدقه في خبر السماء. وفي صلح الحديبية كانت صديقيته حاضرة، وهذه الحادثة تبين لك أن مرتبة الصديقية أعلى من مرتبة الإلهام، فيبينها مفاوز، واعتبر ذلك بحال أبي بكر الصديق وعمر المحدث الملهم.

فقد قال أبو بكر لعمر لما راجعه في أمر صلح الحديبية فيكشف له أو يعينه؛ فقال له الصديق عين ما قاله رسول الله ﷺ لفظاً ومعنى، وحين مات نبي الله صلوات الله وسلامه عليه قام الصديق قومته المسددة، وفاء الناس بعد خطبته إلى الحق، وأخذوا الآية من فيه كأنها سمعوها لأول مرة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وفي خبر الحث على الصدقة حينما تصدق بكل ماله، وأجاب رسول الله ﷺ حينما سأله: «ماذا أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. وحينما ارتدت العرب، ودخل الخوف أهل المدينة أنفذ جيش أسامة، وقال لمن راجعه: والله لو جرّت الكلاب أمهات المؤمنين لأنفذت جيش أسامة»^(١).

(١) شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة، محمد حسن عبد الغفار (٢٩ / ٣)، وانظره كذلك

وقد ذكر شيخ الإسلام فضل الصدق من عشرة أوجه وهي:

الأول: أن الإنسان حي ناطق، فالوصف المقوم له الفاصل له عن غيره من الدواب هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر، وإنشاء. والخبر صحته بالصدق، وفساده بالكذب، فالكافر أسوأ حالاً من البهيمة^(١).

الثاني: أن الصفة المميزة بين النبي والمنتبئ هي الصدق والكذب؛ فإن محمداً رسول الله الصادق الأمين، ومسيلمة الكذاب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣].

الثالث: أن الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق، فإن أساس النفاق الذي بُني عليه الكذب، وعلى كل خلق يُطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٢).

الرابع: أن الصدق هو أصل البر، والكذب أصل الفجور. قال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر...» الحديث^(٣).

في: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (٥ / ٢٨).

(١) لأن البهائم لا تكذب.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الخامس: أن الصادق تنزل عليه الملائكة، والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۖ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۚ﴾ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣﴾.

السادس: أن الفارق بين الصديقين والشهداء والصالحين، وبين المتشبه بهم من المرائين والمسمعين والملبسين هو الصدق والكذب.

السابع: أنه مقرون بالإخلاص الذي هو أصل الدين. قال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ﴾ (٣٠) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿[الحج: ٣٠، ٣١]، ولهذا قال ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله مرتين»، وقرأ هذه الآية (١). وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراف بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (٢).

الثامن: أنه ركن الشهادة الخاصة عند الحكام، وركن الشهادة العامة في جميع الأمور، وركن الإقرار الذي هو شهادة المرء على نفسه، وركن الأحاديث والأخبار التي بها يقوم الإسلام، بل هي ركن النبوة والرسالة، التي هي واسطة بين الله وبين خلقه، وركن الفتيا التي هي إخبار المفتي بحكم الله، وركن المعاملات، وركن الرؤيا التي قال فيها ﷺ: «أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً» (٣)،

(١) الترمذي (٢٩٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٠٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) الترمذي (٢٢٧٠)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

والتي يؤتمن فيها الرجل على ما رأى.

التاسع: أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق^(١).

العاشر: أن المشايخ العارفين اتفقوا على أن أساس الطريق إلى الله هو

الصدق والإخلاص كما جمع الله بينهما في قوله: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٢) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿[الحج: ٣٠، ٣١] (٢).

وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في شأن الصدق: «صدق اللهجة: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورُجحان العقل، ورسول المودة مع الخلق، وسعادة الجماعة، وصيانة الديانة، ولهذا كان فرض عين، فيا خيبة من فرط فيه، ومن فعل فقد مس نفسه وعلمه بأذى.

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: تعلم الصدق قبل أن تتكلم العلم.

وقال وكيع رحمه الله: هذه الصنعة^(٣) لا يرتفع فيها إلا صادق.

والصدق: إلقاء الكلام على وجه مطابق للواقع والاعتقاد، فالصدق من طريق واحد. أما نقيضه الكذب فضررب وألوان، ومسالك وأودية يجمعها ثلاثة:

(١) وقد مرّ هذا في الثالث، وعليه فهي تسعة.

(٢) فالصدق تضمنته الآية الأولى، والإخلاص الثانية. الفتاوى (٢٠ / ٧٤.٧٨).

(٣) أي طلب العلم.

١- كذب المتملّق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملّق لمن يعرفه فاسقاً أو مبتدعاً فيصفه بالاستقامة.

٢- كذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع، كالمنافق ينطق بما يقوله أهل السنة والهداية.

٣- كذب الغبيّ: بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد، كمن يعتقد صلاح صوفي مبتدع فيصفه بالولاية.

فالزم الجادّة «الصدق» فلا تضغط على عكّد اللسان، ولا تضم شفّيتك، ولا تفتح فاك ناطقاً إلا على حروف تُعبّر عن إحساسك الصادق في الباطن؛ كالحب والبغض، أو إحساسك في الظاهر، كالذي تدركه الحواس الخمس.

واحذر أن تحوم حولك الظنون، فتخونك العزيمة في صدق اللهجة، فتُسجّل في قائمة الكذابين. وطريق الضمانة لهذا، إذا نازعتك نفسك بكلام غير صادق فيه؛ أن تقهرها بذكر منزلة الصدق وشرفه، ورذيلة الكذب ودركه، وأن الكاذب عن قريب ينكشف، واستعن بالله ولا تعجزن.

ولا تفتح لنفسك سابلة المعارض في غير ما حصره الشرع. فيا طالب العلم! احذر أن تمرق من الصدق إلى المعارض فالكذب، وأسوأ مرامي هذا المروق؛ الكذب في العلم لداء منافسة الأقران، وطيران السمعة في الآفاق. ومن تطلع إلى سمعة فوق منزلته؛ فليعلم أن في المرصاد رجالاً يحملون بصائر نافذة، وأقلاماً نافذة، فيزنون السُّمعة بالأثر، فتتم تعريتك على ثلاثة معان: فقد الثقة في

القلوب، وذهاب عملك وانحسار القبول، وألا تُصدّق ولو صدقت. وبالجملّة؛ فمن يحترف زخرف القول، فهو أخو الساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى»^(١).



(١) حلية طالب العلم، بكر بن عبد الله أبو زيد، بشرح العلامة العثيمين رحمهما الله (١٤٣-١٣٦) بتصرف يسير.

دواعي الصدق

قال الشيخ المنجد حفظه الله تعالى في دواعي الصدق:

«أولاً: العقل السليم: فإن العقل الصحيح يدفع إلى الصدق.

ثانياً: الشرع المؤكد: فالصدق واجب والكذب حرام.

ثالثاً: المروءة. فهي خلق مانع من الأخلاق المشينة كالكذب.

رابعاً: حب الاشتهار بالصدق.

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به إن اللسان لما عودت معتاداً»^(١)

هذا وبعض أهل العلم يسمي أموراً ويصفها بالصدق المذموم، ويمثلون على ذلك بصدق المغتاب، والنمام، والواشي الذي يسعى لضرر الناس، وتصديق الكهنة والعرافين، وأمراء السوء^(٢). وفي هذا نظر؛ فالصدق خير كله، وهذه

(١) دروس الشيخ محمد المنجد المفرغة (٢٠ / ٢٨٤).

(٢) كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعيزك يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي، فمن غشى أبوابهم فصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الخوض»، أما حديث تصديق الكهنة والعرافين فهو قوله عليه الصلاة والسلام: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدق به فقد كفر بما أنزل على محمد» رواه أهل السنن وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٤٧).

الأمر المذكور إنما حرّمت لعلّ أخرى غير الصدق، فالغية للأذى والاعتداء، كذلك النميمة والوشاية، أما تصديق الأمراء الكذبة فالظاهر أن المقصود مدهنتهم في باطلهم مع علم المداهن بكذبهم، فهو من تصديق الظاهر المخالف لحقيقة الأمر، فهو كذب في الحقيقة وإن سُمي تصديقاً في الظاهر، أما تصديق الكهان فالمراد إقرارهم على دجلهم بعلمهم الغيب، أو حتى مجرد تصديق تلك الأحوال والأخبار الشيطانية، فهو من تصديق الشياطين المخالف للصدق في حقيقة الأمر. والله أعلم، والعبرة بالحقائق والمعاني لا الألفاظ والمباني. والله أعلم.



حذر السلف من الكذب

حضرت الوفاة عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: إنه كان خطب إلي ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني إليه شبه الوعد، وأخاف أن ألقى الله بثلاث النفاق^(١)، أشهدكم أني زوجته.

ولما خرج البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطلب الحديث من رجل فرآه يشير إلى دابته برداء كأن فيه شعيراً وليس فيه شيء؛ رجع، وقال: لا آخذ الحديث عمن يكذب على البهائم.

وقال الأحنف: ما كذبت من يوم أسلمت إلا مرة واحدة بل كان السلف يتورعون فيها ويدققون، ولما لقي الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعض أصحابه فقال: كيف حال أولادك؟ فقال الرجل: يقبلون يديك. فقال الإمام أحمد: لا تكذب. وكان بعضهم ينهى بعضاً عنه، وقال أحدهم لولده: يا بني! احذر الكذب، فإنه شر كل لحم العصفور، من أكل منه شيئاً لم يصبر عنه. وقال آخر: من استحل رضاع الكذب عسر عليه الفطام^(٢).

ويكفي في الكذب أنه شعار المنافقين ودثار الجبناء وآخية الخذلان. جعلنا الله من أهل ذكره وشكره وحسن عبادته، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

(١) لذكره في الحديث ثالث ثلاثة مع الكذب والخيانة.

(٢) السابق (٢٨٤ / ٣٤، ٣٥).

وقفة تأمل

قال تاج الواعظين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله تعالى:

«يا من أيام عمره في حياته معدودة! وجسمه بعد مماته مع دودة!

رَأَيْتَكَ فِي النِّقْصَانِ مُذْ أَنْتَ فِي الْمَهْدِ تَقَرَّبُكَ السَّاعَاتُ مِنْ سَاعَةِ الْلَحْدِ
سَتَضْحَكُ سَنٌ بَعْدَ عَيْنٍ تَعَصَّرَتْ عَلَيْكَ، وَإِنْ قَالَتْ: بَكَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ
أَتَطْمَحُ أَنْ يُشْجَى لِفَقْدِكَ فَاقْدُ لَعَلَّ سُرُورَ الْفَاقِدِينَ مَعَ الْفَقْدِ

يا من عمره يمضي بالساعة والساعة، يا كثير التفريط في قليل البضاعة، يا شديد الإسراف، يا قوي الإضاعة. كأني بك عن قليل تُرمى في جوف قاعة، مسلوباً لباس القدرة وبأس الاستطاعة، وجاء منكرو نكير في أفضع الفطاعة، وأمسيّت تجني ثمار هذي الزراعة، وتمنيت لو قدرت على لحظة لطاعة، وقلت: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] يا متخلفاً عن أقرانه قد آن أن تلحق الجماعة.

يَا سَاهِيًّا لَاهِيًّا عَمَّا يَرَادُ بِهِ أَنْ الرِّحِيلَ وَمَا قَدِمْتَ مِنْ زَادِ
تَرْجُو الْبَقَاءَ صَحِيحًا سَالِمًا أَبَدًا هِيَ هَاتِ أَنْتَ غَدًا فَيَمْنُ غَدًا غَادِ

مركب الحياة تجري في بحر البدن برّحاء الأنفاس، ولا بد من عاصفٍ قاصفٍ تفككه وتغرق الركاب.

حَكَمَ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
جُبِلْتَ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ

يا لُقَمَ الآجال! أما تسمعون صريفَ^(١) أنياب الصروف؟ كم غافلٍ وأكفانهُ
عند القصَّار ولينُ قبره قد ضُرب.

يا سُخنةَ عينٍ^(٢) قرَّرتَ بالغرور، يا خرابَ قلبٍ عُمِّرَ بالمني، العمرُ زاد في
بادية، يؤخذ منه، ولا يُطرح فيه.

يا من أجله يذوب ذوبان الثلج! توانيك أبرد. كان بعض من يبيع الثلج
ينادي: ارحموا من يذوب رأس ماله.

يا مؤخرًا توبته حتى شاب، خرج وقت الاختيار، قد أمهل المتقاضي، البدار
البدار فنقَّاضَ البدنِ قد عرقَبَ^(٣) الأساس.

ولم يبق من أيام جمعٍ إلى منىً إلى موقف التجمير غير أمانى
بادر بالتوبة من هفواتك قبل فواتك، فالمنيا بالنفوس فواتك.

أعجب خلائق الخلائق، محسنٌ في ليل شبابه، فلما لاح الفجرُ فَجَّر!

يا هذا! عقلك يَحُثُّكَ على التوبة وهواك يمنع، والحرب بينهما، فلو جهزت
جيش العزم فرَّ العدو. تنوي قيام الليل فتنام! تحضر مجالس الذكر فلا تبكي! ثم
تقول: ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] عصيتَ بالنهار؛

(١) الصريف: صوت ناب البعير. ويسمى عند العامة ضريس، والصروف من الدهر:
نوائبه ودواهييه.

(٢) سخنة عين: ضد قرها، أي تعاستها وشقاؤها.

(٣) عرقب الدابة: قطع عرقوبها.

فنمت بالليل^(١)، أكلت الحرام؛ فأظلم القلب، فلما فُتح باب الوصول للمقبولين؛ طُردت.

أين أنت من أقوام كُشفت عن أبصار بصائرهم أغطية الجهل؟ فلاح لهم الجادة، فجَدُّوا في السلوك.

كان مسروق يصلي حتى تتورم قدماه، فتقعد امرأته تبكي مما تراه يصنع بنفسه.

أُحْصِرَ القَوْمُ فِي سَبِيلِ الْمَحَبَّةِ^(٢) فَأَقْعَدْتَهُمْ عَنْ كُلِّ مَطْلُوبٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

في البداءة إنفاق البدن، وفي المتوسط إنفاق النفس، فإذا نزل ضيف المحبة تناول القلب، فأملق المنفق^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) لما شكى بعض أصحاب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثقل قيام الليل، قال: قيدتكم خطاياكم.

(٢) مع الخوف والرجاء.

(٣) المدهش، ابن الجوزي (٢/ ٥٣٠-٥٣٣) باختصار.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

حبة الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

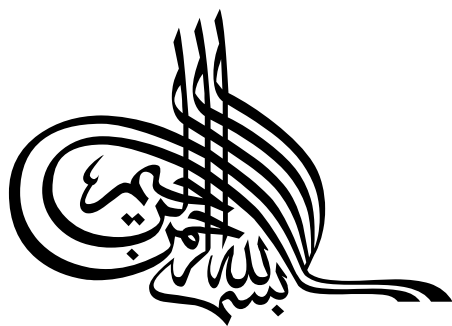
الكتاب رقم (٥)

محبةُ الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

مقدمة	٥
التعريف	٩
أنواع المحبة	١٥
أنواع المحبة (بحسب المحبوبين)	١٥
أنواعها بحسب ما يحب لنفسه أو لغيره	١٦
مراتب المحبة	٢١
القلب يتحرك بالمحبة	٢٦
منزلة المحبة وفضلها ومكانتها	٢٨
الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى في قلب العبد	٥٢
أحدهما: محبة تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنعم	٥٢
الثاني: باب الأسماء والصفات	٥٦
علامات محبة الله تعالى لعبده	٧١
الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى	٧٥
صفة صلاة النبي ﷺ	١٦١
علامات محبة العبد لله عز وجل	١٧٦
١. حب لقاء الله تعالى:	١٨٠
٢. إثثار محاب الله تعالى على كل شيء	١٨٥

٣. أنسُهُ بالخلوة برَّبِّه ومناجاته ١٩١
٤. كثرة ذكر المحبوب ١٩٦
٥. محبة كلام الله تعالى ٢٠٣
٦. التَّعَمُّ بطاعة الله سبحانه وتعالى ٢٠٦
٧. التَّأْسُف والحزن على ما فات من طاعة الله وذكره ٢١١
٨. عدم الأسف على الفائت مما سوى الله تعالى ٢١٢
٩. أن يستقلَّ ما يعملُه لمحَبوبه تعالى وتقدَّس ٢١٣
١٠. الهيبة والتعظيم لله تعالى ٢١٤
١١. الصبر على المكاره في ذات الله تعالى ٢٢١
١٢. الدَّلَّةُ للمؤمنين ٢٢٢
١٣. العزة على الكافرين ٢٢٤
١٤. الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال ٢٢٥
١٥. ألا تأخذه في الله لومة لائم ٢٢٥
١٦. الأُنس بالله والرضا به ٢٢٩
١٧. محبة أحبابه، وأحبهم إليه خليله وكليمه محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ٢٣٠
- دواعي محبة النبي ﷺ ٢٤٠
- أسباب زيادة محبة النبي ﷺ ٢٤٧
- مظاهر محبة الرسول ﷺ ٢٥٥



٢٦١.....	عوارض وآفات في طريق المحبة الحقّ
٣٣٩.....	علامات العشق
٣٤٣.....	ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى
٣٤٥.....	أسباب الهوى
٣٥٥.....	علاج الهوى ومنه العشق
٣٦٣.....	من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه
٣٦٥.....	العفاف والكتمان
٣٦٧.....	وقفه تأمل



مُقَدِّمَةٌ

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُكُوفٌ مِنَ الذُّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فله الحمد كله، أوله وآخره، علانيته وسره، وله الحمد على كل حال. جعل محبته سرَّ سعادة خلقه، ولُبَّاب دين أوليائه، فشعارهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وشارهم: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وغايتهم: إحسان الدين لله، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أما بعد؛ فإنَّ المحبَّة هي محرِّك القلب، فحيثما اتَّجهت تبعها، وحيث ظعنَتْ لحقها، وأتَى كانت فهو معها. وكل شيء يُحب لغيره إلا الله تعالى فيُحبُّ لذاته تبارك وتعالى وتقدَّس، ومن أحب غير الله عُدَّ به، وليس الأمر فقط أن تُحبَّ الله، فكلُّ مجبُولٍ على حبِّ من إليه أحسن، إنَّما عظمة الأمر أن يحبك الله جل جلاله وتقدَّست أسماؤه وصفاته وأن ينظّمك في سلك أحبابه وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وكلُّ المحابِّ منقطعة إلا محبة الله وما تفرَّع منها من محابِّه سبحانه وبحمده.

وهذه حروف رقمتها بتيسير الله تعالى بُغية تبيان شيء من معاني محبة الله تعالى ولوازمها وفضائلها وأحكامها وغاياتها وما إلى ذلك.. سائلًا ربي البر الرحيم الجواد الكريم لطفه وتوفيقه وإعانتته وحفظه، هو وليي في الدنيا والآخرة،

محبة الله تعالى



هو حسبي ونعم الوكيل، ولا إله إلا هو، صلى الله وسلم وبارك على نبيه
ومصطفاه محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٧ / ٢ / ٥

aldumaiji@gmail.com

التعريف

هذا الباب هو لبَابُ التوحيد على الحقيقة، فلا إيمان إلا بمحبة ولا عبادة إلا بمحبة، بل ولا حياة إلا بمحبة، وحيث وجدت المحبة الصحيحة الراسخة في قلب العبد لربه تعالى فلا تَسَلُّ عن نعيمه وأنسه وراحته وحسن تعبده لربه تعالى.

المراد بها: قال ابن فارس في مادة حَبَّ: «الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثبات - وهو المراد هنا - والآخر الحَبَّة من الشيء ذي الحَبِّ، والثالث وصف القصر.

أما اللزوم فالحَبُّ والمحبة، اشتقاقه من أَحَبَّ إذا لزمه، والمُحِبُّ: البعير الذي يَحْسِرُ فيلزم مكانه، قال:

جَبَّتْ نساء العالمين بالسبب فهُنَّ بَعْدُ كُلُّهُنَّ كَالْمُحِبِّ
ويقال: الْمُحِبُّ بالفتح أَيضًا. ويقال: أَحَبَّ البعير، إذا قام، قالوا: الإحباب من الإبل مثل الحِران في الدواب، قال الفقعي:

ضَرَبَ بعير السوء إِذْ أَحَبَّ

أي: وقف»^(١). وقال الأزهري: «حَبَّةُ القلب: هي العلقة السوداء التي تكون داخل القلب، يُقال: أصابت فلانة حَبَّةً^(٢) قلب فلان: إذا شَغَفَ قَلْبُهُ

(١) معجم المقاييس (٢٣١).

(٢) أما الحَبَّة بكسر الحاء فكل نبت له حب فاسم الحب منه الحَبَّة. قاله الأصمعي

حُبُّهَا. وَالْحُبُّ: نقيض البغض، تقول: أحببت الشيء فأنا مُحِبٌّ وهو مُحَبٌّ ومحبوب. قال الفراء: حبيته لغة^(١). وقال الراغب: «الحُبُّ: مَنْ فَرَطَ حُبَّهُ، والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا. وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة، كمحبة الرجل للمرأة، ومنه: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]، ومحبة للنفع، كمحبة شيء يُتَنَفَّعُ به، ومنه: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم، وربما فسرت بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] وليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الإرادة، فكل محبة إرادة وليس كل إرادة محبة، وَحَبَابُكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا: أي غاية محبتك لذلك^(٢).

وقال الفيروزآبادي: الحُبُّ: «الودادُ كالْحَبَابِ، والحِبِّ، بكسرهما، والمحبةُ والحَبَابِ بالضم^(٣). والمحبةُ والمحبةُ والمحبةُ: مدينة النبي ﷺ^(٤).

(معجم التهذيب ١ / ٧١٦). قلت: ومنه قوله ﷺ: «كما تنبت الحبة في حميل السيل» رواه البخاري.

(١) معجم التهذيب (١ / ٧١٦، ٧١٧).

(٢) المفردات (١١٢، ١١٣).

(٣) قال الأصمعي: الحَبَابُ، بالضم: الحية، وإنما قيل الحَبَابُ: اسم شيطان؛ لأن الحية يقال لها شيطان. ويقال للحبيب حَبَاب. قاله ابن السكيت (معجم التهذيب ١ / ٧١٧).

(٤) القاموس (٣٣٠، ٣٣١).

ويلاحظ من التعاريف السابقة أن كل واحد نظر إلى جهة معينة من المعنى أو إلى شق من الاشتقاق، وهي أجمع مما ذكره^(١).

(١) وقد ذكر أبو عثمان الجاحظ كلاماً جميلاً في المعاني العامة للمحبة بين المسلمين، فقال: «ينبغي لمُحِبِّ الكمال أن يعوّد نفسه محبة الناس، والتودد إليهم، والتحنن عليهم، والرأفة والرحمة لهم، فإن الناس قَبِيلٌ واحد متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحليّة القوة العقلية في جميعهم. وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً. والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة لو لم تقدمهم الأهواء التي تُحِبُّ لصاحبها التروّس فتقوده إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المستضعف، واستصغار الفقير، وحسد الغني، وبُغض ذي الفضل، فتتسبّب من أجل هذه الأسباب العداوات، وتتأكد البغضاء بينهم. فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة، صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً...» باختصار وتصرف عن (تهذيب الأخلاق) للجاحظ.

وقال الراغب في (الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٣٦٤): «المحبة والعدل من أسباب نظام أمور الناس، ولو تحابّ الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبة، يُستعمل حيث لا توجد المحبة. ولذلك عظم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبة بين أهل الملّة، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي محبة في القلوب، تنبيهاً على أن ذلك أجلب للعقائد».

قلت: وهذه لفظة نفيسة للدعاة إلى الله تعالى، وهي أفضل من المهابة - التي منشؤها الخوف لا التعظيم -؛ لأن طاعة المحبة من الداخل، وطاعة الرهبة من الخارج. وهي تزول بزوال سببها، وكل قوم إذا تحابّوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا

قال ابن القيم رحمته الله: «لا تحد المحبة بحد أو ضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدّها^(١) وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها، وشواهداها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة، وهذه المادة. المحبة. تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

الثاني: العلو والظهور، ومنه حَبَبُ الماء وحَبَابِه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعير وأحَبَّ، إذا برك ولم يقم.

الرابع: اللب، ومنه حَبَّةُ القلب للُبِّه وداخله، ومنه الحَبَّةُ لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حَبُّ الماء، للوعاء الذي يُحفظ فيه ويمسكه.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان

تعاونوا عملوا، وإذا عملوا عَمَّروا، وإذا عَمَّروا عُمِّروا ووُفِّقوا وبورك لهم.

(١) حدّها أي تعريفها.

إرادات القلب للمحجوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحجوب، وثبوت إرادة القلب للمحجوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبةً لله، وهو قلبه، ولا اجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبة. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة؛ الحاء التي هي من أقصى الحلق، والباء الشفوية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلق صاحبها بالمحجوب.

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله ثلاثين حدًّا للمحبة، وقال في آخرها:

الثلاثون- وهو من أجمع ما قيل فيها- قال أبو بكر الكتّاني: جرت مسألة في المحبة^(١) بمكة أعزّها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيئته، وصفاء شربته من كأس وُدّه، وانكشف له الجبّار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله والله ومع الله. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد^(٢).

(١) أي الشرعية.

(٢) المدارج (٣/ ٤٣٦-٤٤٨) باختصار. وفي طريق المهجرتين (٢/ ٦٧٤): «وقال أبو عمرو الزجاجي: سألت الجنيد عن المحبة. فقال: تريد الإشارة؟ قلت: لا. قال: تريد الدعوى؟ قلت: لا. قال: فأيش تريد؟ قلت: عين المحبة. فقال: أن تحب ما يحب الله في عباده وتكره ما يكره الله في عباده».

وقال بعد ذكره لكثير من الحدود: «وكلُّ هـدِ تعنُّ. ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أو ضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها، وأما ذكر الحدود والتعريفات؛ فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعُدم الاستعجام، فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعضهم: إن كل لفظ يعبر به عن الشيء فلا بد أن يكون ألطف وأرق منه. والمحبة ألطف وأرق من كل ما يعبر به عنها»^(١).

قال الغزالي: «وقيل في المحبة: هي قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح، وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه. وإذا أحبه أقبل عليه. وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه، لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة»^(٢).



(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٧٤)، وانظر: روضة المحبين (٢٤-٢٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٦٤، ١٦٦٥).

أنواع المحبة

أنواع المحبة (بحسب المحبوبين) :

للمحبة بحسب من نجهم ثلاثة أنواع:

الأول: محبة الله تعالى، وهي أن تهَبَ كُلَّكُ لمن أحببت، فلا يبقى لك منه شيء. والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبسًا على مرضاته ومحابته. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك فتأخذه منه له (١).

الثاني: محبة الرسول ﷺ؛ وهي دليل الإيمان الصادق، مصداقًا لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين» (٢)، وليس هذا الحب مجرد عاطفة جوفاء، وإنما هو حب حقيقي نابع من القلب ومن العقل معًا، ودليل صدق ذلك هو اتباع المصطفى ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه، فالمحب مطيع لمن أحبه (٣).

ولعمر الله لو أنفق المرء عمره من حين تمييزه إلى وفاته لهجًا بالصلاة والسلام على الحبيب ﷺ ما وفى معشار حقه عليه، ولو عقلنا لعرفنا فضله وحقه

(١) انظر: تهذيب المدارج (٥١٢)، وسيأتي تفصيل ذلك في فضيلة المحبة ومكانتها ومنزلتها.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر: المدارج (٢٢ / ٣).

ولأحببناه حبًّا ليس حب الزاعمين صلوات الله وسلامه عليه^(١).

الثالث: محبة الخلق، ولهذه المحبة أنواع عديدة، أفضلها محبة المؤمن لأخيه في الله تعالى، أي حبًّا خالصًا لا منفعة من ورائه.

قال ابن حزم في شأن هذه المحبة: «إن المحبة ضروب؛ فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يُمنحه الإنسان، ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين بسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا اتصال النفوس»^(٢).

أنواعها بحسب ما يحب لنفسه أو لغيره:

«والمحسوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره. والمحبوب لغيره لا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحب لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يُحب^(٣) فإنما محبته تبع لمحبة الرب تعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

(١) وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في محبته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(٢) طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي (٦٣) عن نضرة النعيم (٨ / ٣٣٢٩).

(٣) أي محبة شرعية.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والتي لا تنفع، بل قد تضر.

فاعلم أنه لا يُحب لذاته إلا مَنْ كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يُبغض ويُكره لمنافاته محبته ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها، فما كان أشد منافاة لمحبته كان أشد كراهةً من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها.

فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته، ومولاته ومعاداته، فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محبته ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة.

والمحجوب لغيره قسمان أيضاً:

أحدهما: ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله. والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى محبته، كشرب الدواء الكريه. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالأول والثالث قد اجتمع فيهما داعي الفعل أو الترك من وجهين، وبقي

القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان، وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منهما وهو العاجل. والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين. وهو إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، وهلهنا محل الابتلاء شرعاً وقدراً. فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت: حي على الفلاح، عند الصباح يحمد القوم السرى^(١)، وفي الممات يحمد العبد التقي، فإذا اشتد ظلام ليل المحبة، وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول: يا نفس اصبري.

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول»^(٢)

أنواعها بحسب النفع والضر:

«وهما نوعان: محبة نافعة، ومحبة ضارة. ويتفرع من كل نوع ثلاثة أنواع: فأضحت ستة أنواع، فيتفرع من المحبة النافعة: محبة الله تعالى، والمحبة في الله، ومحبة كل ما يعين على طاعة الله تعالى، واجتناب معصيته.

ويتفرع من المحبة الضارة: المحبة مع الله تعالى، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق، فمحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودّة، وأصل الإيمان والتوحيد. والنوعان الآخران تبع لها. والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها، ومحبة الصور

(١) السرى: هو السفر بليل. وأول من قاله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الداء والدواء، ابن القيم (٤٥٤) باختصار يسير.

المحرمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص، كانت محبته بعشق الصور أشد، وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشد توحيداً؛ كان أبعد من عشق الصور، ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها، وبخاصة يوسف الصديق بإخلاصه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنى^(١). وقد قرئت (المخلصين) بكسر اللام وهي المراد هنا^(٢).

أنواعها بحسب الخصوصية والاشتراك:

«وهي نوعان^(٣): الأول: محبة خاصة لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبدُ بها غيره كان شركاً لا يغفره الله تعالى، فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره. فهذه المحبة لا يجوز تعلّقها بغير الله أصلاً، وهي التي سوى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي يحبونهم كما يحبون الله، أما الذين آمنوا فأخلصوا حبهم لله.

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٥٣، ٨٥٤).

(٢) وانظر السابق (١/ ١٣٣).

(٣) أي المحبة المشروعة.

الثاني: المحبة المشتركة، وهي ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعة مشتركة، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضًا، ومحببة الإخوة بعضهم بعضًا.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شرًا في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يجب الحلواء، والعسل، والذراع، والشراب الحلو البارد، ويجب نساءه وأصحابه» (١).



(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٦٤١-٦٤٣) بتصرف.

مراتب المحبة

أولها: العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: الإرادة؛ وهي ميل القلب إلى المحبوب وطلبه له.

الثالثة: الصبابة؛ وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه
كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام؛ وهو الحب اللازم للقلب الذي لا يفارقه، بل يلزمه
كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سُمي عذاب النار غرامًا؛ للزومه لأهله وعدم
مفارقتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: الوداد، وهو صفو المحبة وخالصها ولُبُّها، والودود من أسماء
الرب تعالى. وفيه قولان؛ أحدهما: أنه المودود. والثاني: أنه الوادُّ لعباده^(١).

السادسة: الشغف؛ أي وصول الحب إلى شغاف القلب أي: غشاءه، فإذا
وصل إليه باشر القلب، كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾
[يوسف: ٣٠].

السابعة: العشق؛ وهو الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه^(٢).

(١) وكلاهما حق.

(٢) والعشق نصفان؛ نصف وهم وخيال، ونصف شهوة. لذلك فعند النكاح يزول الأمران
=

الثامنة: التَّيُّمُ: وهو التعبد والتذلل. يقال: تَيَّمَهُ الحُبُّ أَي ذَلَّلَهُ وَعَبَّدَهُ، وَتَيَّمُ اللَّهُ: عَبْدَ اللَّهِ.

التاسعة: التَّعَبُّدُ؛ وهو فوق التَّيُّمِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي قَدْ مَلَكَ الْمَحْبُوبَ رَقَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ الْبَتَّةَ، بَلْ كُلُّهُ عَبْدٌ لِمَحْبُوبِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْعِبُودِيَّةِ، وَمَنْ كَمَلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَمَلَ مَرْتَبَتُهَا^(١). وَلَمَّا كَمَلَ سَيِّدٌ وَلَدَ آدَمَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ؛ الْإِسْرَاءِ، وَالِدَعْوَةِ، وَالتَّحْدِي^(٢)، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى الْخَلَائِقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُمْ إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشِّفَاعَةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدُ غُفَرِ اللَّهِ لَهُ مَا تَقْدُمُ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأْخُرُ»^(٣)، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ - قَدَسَ^(٤) اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ بِتَكْمِيلِ عِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكَمَالِ مَغْفَرَتِهِ لَهُ.

العاشرة: مَرْتَبَةُ الْخُلَّةِ؛ وَقَدْ انْفَرَدَ بِهَا الْخَلِيلَانِ إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا

وَتَبَقِيَ الْمَوَدَّةُ وَتَنَمَّوْا مَعَ حَسَنِ الْعَشْرَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ «لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَايِينَ مِثْلَ التَّزْوِيجِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٨٤٧). وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٦٢٤). وَكَمَا قِيلَ: الْحُبُّ إِذَا نَكَحَ فَسَدَ؛ لِأَنَّهُ بِالنِّكَاحِ يَضْمَحَلُ الْوَهْمُ وَالْخَيَالُ؛ وَتَذْهَبُ الشَّهْوَةُ بِاسْتِفْرَاغِهَا.

(١) انظر: العبودية، شيخ الإسلام (٣٤).

(٢) وقد مر في باب العبودية تفصيل ذلك.

(٣) متفق عليه.

(٤) أي طهره من الذنوب، والمراد: غفر الله له.

وسلم^(١)، كما صح عنه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»^(٢) وقال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»^(٣). والحديثان يبطلان قول من قال: الخلّة لإبراهيم والمحبة لمحمد. والخلّة: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب^(٤)، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سُمّي الخليلُ خليلاً

وهذا هو السرّ الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمره فؤاده، وفلذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه؛ فأمر بذبحه ليخرج المزاحم من قلبه، فلمّا وطّن نفسه^(٥) على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، فهو بلاء ومحنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم

(١) أي من جهة الله تعالى. وقد أعطي صلوات الله وسلامه عليه الخلّة والكلام ولم يجتمعا لغيره.

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

(٣) متفق عليه.

(٤) وتقييدات الخلّة إنما هي في المخلوقين، أما خلّة الرحمن جل جلاله فنشبتها بلا كيف.

(٥) لذا كان شيخ الإسلام يقول: إن الإرادة الجازمة لها حكم العمل والترك في الثواب والعقاب. ويأتي في باب الإرادة إن شاء الله تعالى.

﴿يَتَابَرِهِيْمُ﴾ (١٠٤) قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا^(١) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿[الصفات: ١٠٤، ١٠٥]، فما كل أحد يجيب داعيها، ولا كل عين قريرة بها. وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين^(٢)، وسائر أهل اليمين في أطرافها. فما كل عين بالحبيب قريرة ولا كل من نودي يجيب المناذيا ومن لا يجيب داعي هُداك فخله يُجِبْ كُلُّ مَنْ أَضْحَى إِلَى الْغِي دَاعِيَا^(٣) وقال شيخ الإسلام بعد ذكره لحديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ قَالَ: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ»^(٤). «وفيه؛ أنه قال ذلك قبل موته بأيام، وذلك من تمام رسالته، فإن ذلك تمام تحقيق مخالته لله، التي أصلها محبة الله تعالى للعبد، ومحبة العبد لله؛ خلافاً للجهمية^(٥) وفي

(١) أي عملت عمل المصدق.

(٢) حديث القبضتين أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد، وصححه ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٢) وله ألفاظ وطرق مختلفة.

(٣) المدارج (٣/ ٤٦٥ - ٤٧١) باختصار. وانظر تفصيلها وغيرها في: روضة المحبين (٥٤-٢٥).

(٤) مسلم (٥٣٢).

(٥) وقال في درء تعارض العقل والنقل: «والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل، فلا يكون أحد مؤمناً حتى يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، وأن يعبد الله مخلصاً له الدين. فهذا الذي ذكره في (مقامات العارفين) هو أول قدم يضعه المؤمن في الإيمان، ولا يكون مؤمناً من لم يتصف بهذا. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وعلمائها على

ذلك تحقيق توحيد الله، وألا يعبدوا إلا إياه، وردُّ على أشباه المشركين.

والخُلَّةُ: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبونه. ولهذا لم يكن له ﷺ خليلٌ، إذ الخُلَّةُ لا تحتل الشراكة، بخلاف أصل الحب؛ فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا»^(١)، وسأله عمرو بن العاص: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة». قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»^(٢) وأمثال ذلك كثير.

أما الخُلَّةُ فخاصة، وقول بعض الناس: إن محمدًا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلَّة؛ قول ضعيف؛ فإن محمدًا أيضًا خليل الله، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة المستفيضة. وما يُروى أن العباس يُحشر بين حبيب و خليل وأمثال ذلك؛ فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها^(٣).

أن الله يُحب لذاته، لم يَنَازِع في ذلك إلا طائفة من أهل الكلام والرأي، الذين سلكوا مسلك الجهمية في بعض أمورهم، فقالوا: إنه لا يُحِبُّ ولا يُحِبُّ. (٦ / ٦٢).

(١) البخاري (٣٧٣٥) بدون «وأحب من يحبهما» فهي في الحسن والحسين عند الترمذي وحسنه (٧٦٩) وضعفه الذهبي. وله شاهد في المسند (٤٤٦ / ٢) من طريقين بسند حسن. (ملخصًا من هامش العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد).

(٢) متفق عليه.

(٣) رسالة العبودية، ابن تيمية (١٥١-١٥٥)، وانظرها في: الفتاوى (١٠ / ٢٠٢-٢٠٤)، وانظر: الداء والدواء لابن القيم (٤٤٦، ٤٤٧).

القلب يتحرك بالمحبة

قال شيخ الإسلام: «المحبة هي أصل كل عمل ديني، والخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]»^(١).

وقال ابن القيم: «العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، لكنه يترك أضعفها محبة لأقواهما محبة، وخاصية العقل إشار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب. فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه، وإما لضعف النفس وعجز في القلب لا يطاوعه لإيثار الأصلح له مع علمه بأنه الأصلح. فأصل الشر ضعف الإدراك، وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.

(١) الفتاوى (١٠ / ٦١، ٦٢).

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق أو باطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله، وتزاحم هذه المحبة؛ فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا وشرًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب. وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب. فلا تصح الموالاتة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۖ﴾ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ٧٥، ٧٧﴾. فلم تصح لخليل الله الموالاتة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا ببراء، ولا ولاء لله إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي علتها الفاعلية والغائية. وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية، والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له، والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الآخرين، وهي تابعة للإرادة والمحبة، فصارت الحركات الثلاث تابعة للإرادة والمحبة»^(١).

(١) الداء والدواء (٤٤٧-٤٦٦) باختصار. وانظر: روضة المحبين (١٤٦)، وإغاثة اللهفان (٨٢٤-٨٣٧).

منزلة المحبة وفضلها ومكانتها

محبة الله تعالى هي أصل الأصول، والدين كله قائم عليها، ومن لا محبة له لا دين له ولا توحيد ولا توفيق ولا هدى له.

قال شيخ الإسلام: محبة الله تعالى من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كذلك محبة رسوله ﷺ، كما أن التصديق بهذا الواجب أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين؛ فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة؛ إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله لا يقبل إلا ما أريد به وجهه، وأول من تسعر بهم النار هم القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي.

وإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء به المطلوب مسمى العبادة كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته.

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، لهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة فيما يختص به سبحانه

من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى.

ثم إنه بين أن محبته أصل الدين، فكمال الدين بكمالها، ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»^(١)، وقد ثبت أن أفضل ما تطوَّع به العبد هو الجهاد في سبيل الله، والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤]. فالمحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه، وهو موافق له في كل أموره»^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله في منزلة المحبة: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: منزلة المحبة، وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرْمِها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقدّه فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني

بمجموع طرقه في الصحيحة (١١٢٢).

(٢) الفتاوى (١٠/٤٨-٥٨) باختصار.

أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخلها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم الساعة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراً هم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيهاً، إن كنت ذا همّة فقد	حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم	إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملاً
ولا تنظر الأطلال من دونهم، فإن	نظرت إلى الأطلال عُدنَ حوائلاً
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعدٍ	ودعه، فإن الشوق يكفيك حاملاً
وخذ منهم زاداً إليهم وسرّ على	طريق الهدى والفقر تصبح واصلاً

وأحيي بذكراهم سُراك إذا وَنَتْ ركائبك، فالذكرى تعيدك عاملاً
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها: أمامك وِرْدُ الوصل، فابغِ المناهلا
وخذ قبساً من نورهم ثم سرِّ به فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وحَيَّ على جنات عدنٍ بقربهم منازلك الأولى بها كنت نازلاً
ولكن سباك الكاشحون، لأجل ذا وقفت على الأطلال تبكي المنازلا
فدعها رسوماً دارسات فما بها مقيل، فجاوزها، فليست منازل
وخذْ يمنةً عنها على المنهج الذي عليه سرى وفد المحبة أهلاً
وقل: ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقاء الكدُّ يصبح زائلاً
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلاً

أول نقدةٍ من أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟
تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد
أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس^(١)،
فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت
السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يُعطى
الناس بدعواهم لادعى الخليُّ حُرقة الشَّجِيِّ، فتنوّع المدعون في الشهود، فقل: لا
تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

(١) وهذا من التوسع في العبارة، إلا إن كان قصد الكمال أو مقاربتة عند موجب بذل النفس فحق.

[آل عمران: ٣١] فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيئة بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقليل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلّموا إلى بيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع؛ عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فأروا من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيّل ولا نستقيّل.

فلما تم العقد وسلموا المبيع؛ قيل لهم: مُذْ صَارَتْ نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

إذا عُرسَت شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدره المنتهى^(١).

«ومن أنكر المحبة^(٢)، فقد أنكر حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة

(١) المدارج (٣/ ٤٢٩-٤٣٥) باختصار يسير.

(٢) وهم الجهمية ومن وافقهم.

النفوس، وقررة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُربت دونهم عن الله حُجُبٌ على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه، ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثارهم وأوزارهم.

ولو بطلت مسألة الحب لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله تعالى، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له، لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذكلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تأله القلوب، أي تحبه وتذل له. وأصل التأله التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، فالمحبة هي حقيقة العبودية، وكل أعمال القلب تعود إليها^(١).

«ومحبة الله سبحانه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه؛ أصل الدين، وأصل أعماله وإراداته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أصل علوم الدين كلها.

ومحبته تعالى، بل كونه أحبَّ إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق؛ من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجلّ قواعده. ومن أحب معه مخلوقاً مثلما

(١) السابق (٣/ ٤٥٧-٤٦٣) باختصار وانتخاب.

يُحِبُّهُ، فهو من الشرك الذي لا يُغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل، قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون رسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبتُه تبع لمحبة الله؛ فما الظن بمحبته سبحانه؟! وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد.

وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء؛ فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلال ومخافة. فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يُخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدله وقسطه. وكذلك المحبة؛ فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله، فهي عذاب للمحب ووبال عليه، وما يحصل بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم. هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك؛ إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه، وما هو أحبُّ إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن؛ فإنه لا شيء أحبُّ إلى

القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحيتها، فمحبتة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية؛ أحلى ولا ألد ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة. كما أخبر بعضهم عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمرّ بالقلب أوقات يهترّ فيها طرباً بأنسه بالله، وحبّه له.

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ووجد هذه الأمور وذوقها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى. فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك؛ لم يمكنه أن يقدم عليه حباً لغيره، ولا أنسا به، وكلما ازداد حباً؛ ازداد عبودية وذلاً، وخضوعاً ورقاً له، وحريةً من رق غيره.

فالقلب لا يفلح، ولا يصلح، ولا يتنعم، ولا يتهج، ولا يلتذ، ولا يطمئن، ولا يسكن؛ إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه. ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات؛ لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً، حتى يظفر بما خلق له، وهيم له، من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطلوبه، فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه. كما أن فيه فقراً ذاتياً إليه من حيث هو ربّه وخالقه ورازقه ومدبره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه؛ خرج منه تألهه لما سواه، وعبوديته له.

فأصبح حُرّاً عَزَّةً وصِيَانَةً على وجهه أنواره وضيأوه

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحسّ به؛ لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به. وقوة ذلك وضعفه، وزيادته ونقصانه؛ هو بحسب قوة الإيمان وضعفه، وزيادته ونقصانه.

ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله؛ لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب؛ بحسب ما فاتته من ذلك.

وإذا عُرف هذا فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون

تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه، وتوارت، أو نقصت، أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملة؛ لما قدّم عليها لذة وشهوة، لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١)، فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه؛ يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يشعته وينقصه، ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصاً لله منيباً إليه، مطمئناً بذكره، مشتاقاً إلى لقائه؛ قلبه منصرف عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها، ويرى استبداله بها عما هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجواهر النفيس، ويبيع الذهب بأعقاب الجزر، ويبيع المسك بالرجيع، فالذنب يُعدم لعدم المقتضى له تارة، لا اشتغال القلب بها هو أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، ومن خوف فوات محبوب هو أحب إليه منه.

فالأول: حال من حصل له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعم به؛ ما عوّض قلبه عن ميله إلى الذنوب.

والثاني: حال من عنده داع وإرادة لها، وعنده إيمان وتصديق بوعد الله تعالى ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيما هو أكره إليه، وأشق عليه.

فالأول للنفوس المطمئنة، والثاني لأجل الجهاد والصبر. وهاتان النفسان هما

(١) متفق عليه.

المخصوصتان بالسعادة والفلاح. قال تعالى في النفس الأولى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وقال في الثانية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فالنفوس ثلاثة: نفس مطمئنة إلى ربها، وهي أشرف النفوس وأزكاها، ونفس مجاهدة صابرة، ونفس مفتونة بالشهوات والهوى، وهي النفس الشقية، التي حظها الألم والعذاب، والبعد عن الله والحجاب» (١).

إن للمحبة منزلة سامية في القرآن العظيم، ومكاناً منيفاً في السنة المطهرة. قال تعالى في شأنها وشأن أهلها: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وتأمل إلقاء المحبة، وكيف يكون وقعه؟ وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَشَدَّ أُمْتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَىٰ بِأَهْلِهِ

(١) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، ابن القيم (٢/ ٩٣٠-٩٣٥) باختصار. وانظر

وماله»^(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته^(٢) ملكاً. فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تُرَبُّها^(٣)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»^(٤).

وسأل رجلٌ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت»^(٥)، ونهى عن لعن المجلود في الشراب بقوله: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ^(٦) أنه يحب الله ورسوله»^(٧)، وكان عنده رجلٌ، فمر به رجلٌ، فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: «أَعْلَمْتُهُ» قال: لا. قال: «أَعْلَمْتُهُ» فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. قال: أحبك الله الذي أحببني له^(٨).

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٠٠)، والحاكم (١ / ٣٤٠) واللفظ له وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) ترَبُّها: أي تقوم بإصلاحها وإنائها.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٦) الأظهر أن (ما) موصولة، بمعنى: الذي علمته يحب الله ورسوله.

(٧) البخاري، الفتح (٦٧٨٠).

(٨) أبو داود (٥١٢٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٩٦٥).

وقال: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه» يعني القرآن^(١). وقال: «إن الله عز وجل حييٌ ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»^(٢)، وسأله أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي أنت يا رسول الله، أي الكلام أحب إلى الله؟ فقال: «ما اصطفاه الله لملائكته، سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده»^(٣)، وقال لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(٤)، وقال: «إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه»^(٥).

وقال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل، ثم يُنادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه. فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(٦)، وقال ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد

(١) الحاكم (٤٤١/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد (٢٢٤/٤)، وأبو داود (٤٠١٢)، وصححه الألباني (٧٥٨/٢).

(٣) الترمذي (٣٥٩٣) واللفظ له. والحاكم (٥٠١/١) وصححه. ووافقه الذهبي.

(٤) مسلم (١٧).

(٥) الحاكم (٢٠٨/٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٦) متفق عليه.

آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُجِبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(١).

(١) البخاري، الفتح (١١ / ٦٥٠٢). والمعنى أن العبد إذا كان ولياً لله تعالى فإن الله يحفظه ويسدده ويوفقه، حتى لا يسمع إلا ما يرضي مولاه، ولا يبصر إلا ما يرضيه ولا يبطش إلا في مراضيه، ولا يمشي إلا لمراضيه، وليس هذا من الحلول في شيء، تعالى ربنا وتقديس، فالأحاديث يفسر بعضها بعضاً، وقد جاء في الرواية الأخرى في البخاري: «فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي» وهذا يدل على تأييد الله تعالى لوليه بالحفظ والتسديد، ويوفقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وخص هذه الجوارح الأربع - والله أعلم - لأن غالب مساعي الإنسان إنما تكون بها. أما التردد فقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن معناه في هذا الحديث. فأجاب: «هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد ردّ هذا الكلام طائفة وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إن الله يعامله معاملة المتردد.

والتحقيق: أن كلام رسول الله حق، وليس أحد أعلم بالله من رسوله ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بياناً منه، فإذا كان كذلك؛ كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم، وأسوئهم أدباً، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يُصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن

المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور، لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ثم هذا باطل؛ فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يُحب من وجه، ويكره من وجه. كما قيل:

الشيب كُره وكره أن أفارقه فاعجب لشيء على البغضاء محبوب
وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب. وفي الصحيح: «حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره»، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في الحديث، فإنه قال: «لا يزال عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوباً للحق محباً له، يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها، ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق؛ فأحبه الحق لفعل محبوب من الجانبين، بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بد منه، فالرب يريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مراداً للحق من وجه، مكروهاً له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وإن كان لا بد من ترجيح أحد الجانبين؛ كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن

وقال ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي»^(١)؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٢). وقال ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٣).

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتبازلين فيّ»^(٤).

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين»^(٥).

وعن سفيان بن عيينة قال: سمعت مُسَاوِرَ الْوَرَّاقِ يحلف بالله عز وجل ما

الذي يحبه ويكره مساءته، كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته».

الفتاوى (١٨ / ١٢٩ - ١٣١). وانظر كلام الحافظ ابن حجر في الفتح في شرحه لهذا الحديث، وللحافظ ابن رجب رسالة مستقلة في شرحه. كذلك للعلامة العثيمين كلام نافع فيه وفي أمثاله في الفتاوى والقواعد المثلى.

(١) أي بعظمتي وطاعتي لا لأجل الدنيا وحظوظها.

(٢) مسلم (٢٥٦٦).

(٣) متفق عليه. واللفظ للبخاري.

(٤) رواه مالك في الموطأ بسند صحيح (٢ / ٩٥٣)، والحاكم (٤ / ١٦٩) ووافقه الذهبي.

(٥) متفق عليه. وانظر: موسوعة نضرة النعيم (٨ / ٣٣٣٨ - ٣٣٥٣).

كنت أقول لرجل: إني أحبك في الله فأمنعه شيئاً من الدنيا^(١).

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «إنك إذا أحببت الشخص لله، كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصوّرتَه في قلبك، تصوّرت محبوب الحق فأحبّيته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وآله والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله. فالمحسوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحبة لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحسوب لله يُجذب إلى الله»^(٢).

وقال: «فالرب يُحب أن يُحبَّ، ومن لوازم ذلك؛ أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به، والعبد يحب ما يحتاج إليه ويتنفع به، ومن لوازم ذلك؛ محبته لعبادة الله، فمن عبَدَ الله وأحسن إلى الناس، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله»^(٣).

وقال: «وأما قوله صلى الله عليه وآله: «المرء مع من أحب»^(٤)، فهو من أصح الأحاديث، وقال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يحشرنني الله معهم، وإن لم أعمل مثل

(١) كتاب الإخوان (٢٠٤).

(٢) الفتاوى (١٠ / ٦٠٨).

(٣) الفتاوى (١ / ٥٤).

(٤) متفق عليه.

أعمالهم. وكذلك: «أوثق عرى الإسلام: الحب في الله، والبغض في الله»^(١)، لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله، ومن يحبه الله. فيحب أنبياء الله كلهم لأن الله يحبهم، ويجب كل من يعلم أنه مات على الإيمان والتقوى، فإن هؤلاء أولياء الله، والله يحبهم»^(٢).

وقال ابن القيم رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: «فالمؤمنون أشد حُباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، وهذا مقتضى عقد الإيمان الذي لا يتم إلا به. وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بُدِّ كدقائق العلم والمسائل التي يختص بها بعض الناس دون بعض، بل هذه أفرض مسألة على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها. فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علماً وحالاً وعملاً لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنها سرُّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبى ذلك الجاحدون، وقصر عن علمه الجاهلون»^(٣).

وقال رحمته الله: «وها هنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

(١) رواه أحمد (١٨٧٢٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٠٩).

(٢) الفتاوى (٣١٣ / ١٨).

(٣) عن إحسان السلوك (١٤٤، ١٤٥).

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه، وجماله، وأنه أولى بإيثار الحب من كل ما سواه.

الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى؛ كانت لذة المحب أكمل، فلذة من اشتدظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهوي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عُرف هذا؛ فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تُذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً وأجلّ منها. فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتُحمد اللذة إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة، لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها. قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢] [٧٣، ٧٢].

وإذا عُرف هذا؛ فأعظم الأسباب التي تُحصّل هذه اللذة هو أعظم لذات

الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله، ومحبة الله هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمّه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح. وهذا أمر لا يصدّق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام^(١).

وقال شيخ الإسلام: «محبة المؤمنين لربهم أمر موجود في القلوب والفطر، شهد به الكتاب والسنة واستفاض عن سلف الأمة وأهل الصفوة، واتفق عليه أهل المعرفة بالله.

وقد ثبت أن التذاذ المؤمنين يوم القيامة بالنظر إلى الله أعظم لذة في الجنة. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويُجْرِنَا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب

(١) الداء والدواء (٥٤٠-٥٤٦) باختصار.

فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه. وهو الزيادة»^(١). وهذا يبين أن اللذة الحاصلة بالنظر إليه أعظم من كل لذة في الجنة، والإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله وذكر محامده وآلائه وعبادته من اللذة ما لا يجده بشيء آخر.

وقال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢)، وفي الحديث: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»^(٣)، وكل سلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله تعالى هو المستحق أن يُحَبَّ، وليس شيء أحق بأن يحب من الله سبحانه، بل لا يصلح أن يحب غيره إلا لأجله، وكل ما يحبه المؤمن من طعام وشراب ولباس وغير ذلك لا ينبغي أن يفعله إلا ليستعين به على عبادته سبحانه المتضمنة للمحبة، فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته، وخلق فيهم الشهوات ليتناولوا بها ما يستعينون به على عبادته، ومن لم يعبد الله فإنه فاسد هالك، والله لا يغفر أن يشرك به فيُعبد معه غيره، فكيف بمن عطل عبادته فلم يعبد البتة كفرعون وأمثاله؟

وهؤلاء الذين أنكروا محبته من أهل الكلام لو رجعوا إلى فطرتهم التي فُطروا عليها، واعتبروا أحوال قلوبهم عند عبادته؛ لوجدوا في قلوبهم من محبته ما لا يُعْبَرُ عن قدره. ونظرهم في العلم به وبصفاته وذكره من محبته، وإلا فما لا يُحِبُّ لا

(١) مسلم (١٨١).

(٢) سنن أبي داود (٤/٤٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦/٢٨٤).

(٣) سنن الترمذي (٥/١٩٤) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وحسنه الألباني.

تحرص النفوس على ذكره إلا لتعلق حاجتها به. ولهذا يقال: من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

والمؤمن يجد نفسه محتاجة إلى الله في تحصيل مطالبه، ويجد في قلبه محبة لله غير هذا، فهو محتاج لله من جهة أنه ربه، ومن جهة أنه إلهه، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلا بد أن يكون العبد عابداً لله، ولا بد أن يكون مستعيناً به، ولهذا كان هذا فرضاً على كل مسلم أن يقوله في صلاته^(١).

وقال الغزالي رحمه الله: «المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها»^(٢).

وقال ابن القيم: «المقصود من الخلق والأمر إنما هو المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة، وإفراد الرب تعالى بها.

فهي أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله، وجميع

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٥ / ٣٨٨ - ٣٩٤) باختصار، وفيها مناقشات لأرباب

الفلسفة والكلام الذين انحرفوا في فهم صفة المحبة بجهتيها.

(٢) إحياء علوم الدين (٢ / ١٥٩٤).

الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحسينها من الشوائب والعلل.

فهي قطب رحي السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام، ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد؛ فالكتاب هادٍ إليها، ودالٌّ عليها، ومفصلٌ لها، والحديد لمن خرج عنها، وأشرك فيها مع الله غيره.

ولأجلها خلقت الجنة والنار؛ فالجنة دارٌ أهلها الذين أخلصوها لله وحده، فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره، وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لأهتهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧، ٩٨]. وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله في أفعاله وصفاته، وإنما كانت التسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية فقط، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه المسألة هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله.

فحقيق بمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الحجر: ٩٢، ٩٣] قال غير واحد من السلف: هي عن قول: لا إله إلا الله. وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يُسأل أحدٌ قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنها الأولون والآخرين؛ ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتهم المرسلين؟^(١) فالسؤال عما إذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عما إذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها؛ هل سلكوها، وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه؛ حقيق أن تثنى عليه الخناصر، ويُعَصَّ عليه بالنواجذ، ويُقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضله، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنما يطلب على الفضلة، والله الموفق لا إله غيره، ولا ربَّ سواه»^(٢).



(١) تفسير الطبري (١٤ / ١٤١).

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢ / ٦٤٢-٦٤٥) بتصرف يسير.

الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى في قلب العبد

قال ابن القيم: «لا ريب أن المحبة درجات متفاوتة، بعضها أكمل من بعض، وكل درجة خاصّة بالنسبة إلى ما تحتها، عامّة بالنسبة إلى ما فوقها، فليس انقسامها إلى خاص وعام انقسامًا حقيقيًا متميزًا بفصل يميّز أحد النوعين عن الآخر، وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها، وتنقسم بذلك إلى قسمين:

أحدهما: محبة تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنعم:

فإن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلًا عن أنواعه أو أفراده.

ويكفي أن بعض أنواعه نعمة النفس، التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة^(١)؛ فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة عليك في كل يوم بهذا المقدار، فما الظنُّ بما فوق ذلك وأعظم منه؟ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا

(١) بحساب الشهيق والزفير كلّ منهما بنفس، ومع اعتبار أن كل ثانية لنفس، فمجموع الأنفاس في اليوم والليلة (٨٦٤٠٠) نفس، وفي الشهر (٢,٥٩٢,٠٠٠) نفس، وهذا تقريبي والحمد لله على نعمه وإحسانه.

نِعْمَةً اللَّهُ لَا تُحْصَوها ﴿ [النحل: ١٨]، هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها تُوازن النعم في الكثرة. والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً^(١) والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢] فهو سبحانه منعم على عباده بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه، فإنه سبحانه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه. وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلاً عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظام»، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٢)، وفي بعض الآثار: يقول الله تعالى: «ابن آدم، خيري إليك نازل، وشركي إلي صاعد. كم أتجَبَّ إليك بالنعم، وأنا غني عنك! وكم تتبغَّض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي! ولا يزال الملك الكريم يعرج إليّ منك بعمل قبيح»^(٣).

ولو لم يكن من تحببه إلى عباده وإحسانه إليهم وبره بهم إلا أنه سبحانه خلق

(١) وسيأتي المزيد في باب التفكير بإذن الله تعالى.

(٢) متفق عليه. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣١) عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول... وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٤٣) عن مالك بن دينار بمثله. وحكم عليه الألباني بالوضع، كما في السلسلة الضعيفة (٣٢٨٧).

لهم ما في السموات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أهّلهم وكرّمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها إلى عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها محابها وأثبت مكانها حسنة، وإن بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقُراب^(١) الأرض خطايا، ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئاً، لأتاه بقُرابها مغفرة^(٢).

وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب، فوفقهم لفعالها، ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله، فوفقهم لفعله، وكفر عنهم سيئاتهم به. وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، هو أمدهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إياها، ورتب عليهم جزاءها. فمنه السبب، ومنه الجزاء، ومنه التوفيق، ومنه العطاء أولاً وآخرًا. وهم محلّ إحسانه فقط، ليس منهم شيء، إنما الفضل كله والنعمة كلها والإحسان كله منه أولاً وآخرًا. أعطى عبده ماله، وقال: تقرب بهذا إليّ أقبله منك. فالعبد له، والمال له، والثواب منه، فهو المعطي أولاً وآخرًا.

فكيف لا يُحِبُّ من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحي العبد أن يصرف شيئاً من

(١) أي ما يقارب امتلاءها.

(٢) قول المصنف: «وإذا بلغت ذنوب أحدهم...» حديث أخرجه الترمذي عن أنس بلفظ المخاطب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصححه ابن القيم في هداية الحيارى (٢٣٦) وبنحوه عند أحمد (٢١٣٢١) وصححه الأرناؤوط.

محبتة إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه سبحانه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمل، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة. وهو الذي ألهمه إياها، ووفقه لها، وأعانه عليها. وملاً سبحانه سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين، والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلى هذه العناية، وهذا الإحسان وهذا التحنن والتعطف والتحبب إلى العباد، واللفظ التام بهم.

ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه؛ ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم^(١) ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم أن يسأل الله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأل الله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة. ويدعوهم سبحانه إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أوليائه، وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، قال بعض السلف^(٢): انظروا إلى كرمه، كيف

(١) حديث النزول الإلهي للسماء الدنيا ثابت في الصحيحين. ولشيخ الإسلام مصنف في ذلك. وانظر ما كتبه ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤٦٤-٤٧٠).

(٢) هو الحسن البصري رحمته الله.

عذبوا أوليائه، وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة.

فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته سبحانه، فإن نعمه على عباده مشهورة لهم، يتقلبون فيها عدد الأنفاس واللحظات. ومطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء تبعث المحبة، وكلما سافر القلب بفكره فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها، فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظرًا؛ ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه.

الثاني: باب الأسماء والصفات:

والله سبحانه دعا عباده إليه من الباب الأول، حتى إذا دخلوا منه دُعوا من الباب الآخر وهو باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه عَلمٌ ازداد شوقًا ومحبةً وظمًا.

فإذا انضم داعي الإنعام والإحسان إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدّها نقصًا، وأبعدها من كل خير. فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانًا منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه، وهو الذي لا يُحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يُحصى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه. وإذا كان الكمال محبوبًا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو

المحسوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه.

وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة، فإن أسماءه كلها حسنى، وهي مشتقة من صفاته، وأفعاله دالة عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وعلى كل ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه - سبحانه وتعالى - بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه. وأوامره كلها مصلحة تستوجب الحمد والثناء والمحبة عليها، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل؛ فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعده، أو نعموا ففضله، وهو الكريم الواسع

ولا يتصور بشر هذا المقام حق تصوره، فضلاً عن أن يوفيه حقه، فأعرف خلقه به وأحبهم له يقول: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله؟ فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعته، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم، وإلا فلو شاهدوه، ورأوا جلاله وكماله وجماله سبحانه لكان لهم في

(١) مسلم (٤٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

حبه شأن آخر.

وإنما تفاوتت مراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم له أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله صلوات الله وسلامه عليهم أعظم الناس حباً له، والخليان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة به أشد له حباً من غيره.

وهل خلق الله الخلق إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له؟ وهل هيئ الإنسان إلا لها؟ كما قيل:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الحمل

وهل في الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه؟ فكل ما سوى الله باطل، ومحبة الباطل كلها باطل، ومحبته سبحانه هي الحق التي لا تزول ولا تبطل، كما لا يزول متعلقها ولا يفنى. ولا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله جل جلاله، فيجب ألا يكون بين محبته تعالى ومحبة غيره من الموجودات نسبة، لهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

ومن الأسباب القوية لمحبة الله تعالى؛ مجاهدة النفس على العبادة حتى تصل إلى التلذذ بها والفرح بأدائها.

قال ابن القيم: «وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة أكمل، لهذا قال

(١) طريق المهجرتين (٢/ ٦٨٤-٦٩٤) باختصار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وقال: «يَا بِلَالُ أَرَحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢)، وقال بعض السلف: إني أدخل في الصلاة، فأحمل همّ خروجي منها، ويضيق صدري إذا عرفت أنني خارج منها.

وقال آخر: إني لأفرح بالليل حين يُقبل، لما يلدّ به عيشي، وتقر به عيني من مناجاة من أحب.

وقال آخر: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة.

وهذه اللذة والتنعم إنما تحصل بالمصابرة على التكرّهِ والتعب أولاً، فإذا صبر وصدق في صبره أفضى به إلى هذه اللذة.

قال أبو زيد: سُقت نفسي إلى الله وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انساقَت إليه وهي تضحك.

ولا يزال السالك غُرْضة الآفات والفتور والانتكاس حتى يصل إلى هذه الحال. فحينئذ يصير نعيمه في سيره، ولذته في اجتهاده، وعذابه في فتوره ووقوفه.

(١) أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٤٠). واختلف في وصله وإرساله، فصححه موصولاً الحاكم، وقوّاه الذهبي، وجوّده العراقي، وحسنه ابن حجر، ورجح الدارقطني إرساله. عن تحقيق طريق المهجرتين (١ / ٨١).

(٢) أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، واختلف في وصله وإرساله، وأشار الدارقطني والخطيب إلى أن إرساله أصح. علل الدارقطني (٤ / ١٢٠ - ١٢٢)، وتاريخ بغداد (١٠ / ٤٤٣) عن تحقيق طريق المهجرتين (١ / ٨١).

فيرى أشد الأشياء عليه ضياع شيء من وقته ووقوفه عن سيره، ولا سبيل إلى هذا إلا بالحب المزعج»^(١).

وقال: «كلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب. وهذا باب جليل. قال شيخنا^(٢): والصواب: أن يقال: إدراك الملائم سبب اللذة، وإدراك المنافي سبب الألم. وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقت ألماً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة. وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها، كما قال جل ذكره: ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يوسف: ٥٦، ٥٧]، وقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والله سبحانه خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]^(٤)، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم»

(١) طريق الهجرتين (٢/٦٩٧ - ٦٩٩) باختصار.

(٢) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) وانظر: كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم رحمه الله، فلم يسبق ولم يلحق بمثله في باب وصف الجنة والتشويق لها.

أي غير ما اطلعتم عليه^(١).

وأقسام اللذات ثلاثة: اللذة الأولى: لذة جثمانية، وهي لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم، وليست في نفسها كمالاً، إنما تكون كمالاً إذا تضمّنت إعانة على اللذة العظمى.

أما اللذة الثانية فهي: اللذة الوهمية: وهي لذة الرئاسة والتعظيم والفخر والاستطالة، وليست هذه في الحقيقة بلذة لأنها توجب المفسد والمضار والآلام الأعظم منها.

أما الثالثة: فهي اللذة العقلية الروحانية: كلذة العلم والمعرفة والاتصاف بصفات الكمال، وهي لذة النفوس الفاضلة الشريفة العلوية، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله وعبادته ومحبته وتوحيده والرضا به؛ فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة، نسبها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا^(٢).

قال ابن تيمية: «وكل مراد محبوب لذاته، ولا معنى لكونه مراداً محبوباً لذاته إلا أن ذاته غاية مطلب الطالبين، ويفرق بين من يكون قد عرف الله معرفة أحبه لأجلها، وبين من سمع مدح أهل المعرفة، فاشتاق إلى كونه منهم، لما في ذلك من الشرف، فإن هذا في الحقيقة إنما مراده تعظيم نفسه، وجعل المعرفة طريقاً إليها،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) روضة المحبين، ابن القيم (١٤١-١٥٢) باختصار.

وكذلك كل من أراد الله لأمر من الأمور، كما حُكي أن أبا حامد^(١) بلغه أن من أخلص لله أربعين يومًا تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. قال: فأخلصت أربعين يومًا فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، ولم تخلص لله. وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب، فمن قصد أن يخلص لله لينال شيئًا من ذلك فهو لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى، وإنما يريد الله ابتداء من ذاق حلاوة محبته وذكره.

وفطر العباد مجبولة على محبته، لكن منهم من فسدت فطرته، قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا لِحَاقٍ﴾ [الرؤم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»^(٢).

ومن الأسباب كذلك: تأمل فوائد محبة الله تعالى في العاقبة الآجلة وفي الحاضرة العاجلة، ومن ذلك التسلي عن المصائب، قال ابن القيم: «إن المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يُصاب بها دونه، فإذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاتته،

(١) وهو الغزالي رحمه الله.

(٢) درء التعارض (٦/ ٦٥-٦٧) باختصار.

ولا يحزن على ما ناله، فإنه يرى في محبوبه عوضاً عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضاً منه أصلاً، فكل مصيبة هينة إذا أبقت عليه محبوبه، ولهذا لما خرجت تلك المرأة الأنصارية يوم أحد تنظر ما فعل رسول الله ﷺ مرّت بأبيها وأخيها مقتولين، تقف عندهما، وجاوزتهما تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ ف قيل لها: ها هو ذا حيّ، فلما نظرت إليه قالت: ما أبالي، إذا سلمت هلك من هلك^(١).

ولو لم يكن في المحبة من الفوائد إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها شرفاً، فإن المصائب لازمة للعبد لا محيد له عنها، ولا يمكن دفعها وحملها بمثل المحبة. وهكذا مصائب الموت وما بعده إنما تسهل وتهون بالمحبة. وكذلك مصائب يوم القيامة، وأعظم المصائب مصيبة النار، ولا يدفعها إلا محبة الله وحده، ومتابعة رسول الله ﷺ. فالمحبة أصل كل خير في الدنيا والآخرة كما قيل: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة. فإن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»^(٢)، فهم مع الله تعالى^(٣)، وقال آخر: من قرّت عينه بالله؛ قرّت به كل عين. ومن لم تقرّ عينه بالله؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى: «اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها:

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦)، وروي أنها قالت: كل مصاب بعدك جلل. وجلل من الأضداد، والمراد هنا يسير وهين.

(٢) متفق عليه. من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٦٩٠-٦٩٤) باختصار. وانظر: المدارج (٣/ ٤٨٣-٤٩٤).

القدوم على الله تعالى وإدراك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على المحبوب بعد طول شوق! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد، من غير منغص ولا مكدر، ومن غير رقيب ولا مزاحم، ومن غير خوف من انقطاع. إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وقوة الحب تحصل بسببين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء، لا يتسع للخلّ مثلاً ما لم يخرج منه الماء ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. وكمال الحب: أن يحب الله عز وجل بكل قلبه. وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلب مشغولة بغيره. فبقدر ما يشتغل بغير الله^(١) ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخلّ المصبوب فيه، وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وهو معنى قولك: لا إله إلا الله. أي لا معبود ولا محبوب سواه، لذلك قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»^(٢). ومعنى الإخلاص: أن يخلص قلبه لله، فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها

(١) وأوامر الله من متعلقات حب الله تعالى، والمثال الكامل هو النبي ﷺ.

(٢) رواه البزار عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٣)، وانظر:

الصحيحة (٣٧٠ / ٥).

مانعة له من مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن، وتدوم على المحبوب. فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا، وسبيل قلع حبها من القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانتقاد إليهما بزمam الخوف والرجاء، حتى يكتسب بذلك أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، حتى يتسع بعد ذلك لمعرفة الله وحبه.

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وهذا يكون بعد تخلية القلب من حب الدنيا»^(١).

«هذا والمحـب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه، فإن الملام على ذلك كثير، وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل، وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله، ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية^(٢) الذين يفعلون ما يبغض الله ورسوله، ويصبرون على الملام في ذلك»^(٣).

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦١٧-١٦١٩) باختصار وتصرف.

(٢) هم من يتعمدون إظهار أمور غير مرغوبة في الملبس أو المأكل أو الهيئة يلومهم الناس عليها سترًا للحال عنهم.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦١).

ومن نفيس كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله: «من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله؛ فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى . وحب الرسول صلى الله عليه وسلم والعلماء والأتقياء محمود؛ لأنه من حب الله تعالى، فمحبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل.

هذا ومحبة الله أسباب: الأول: أن حب الإنسان نفسه وبقائه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه ونقصانه وقواطع كماله هي جبلّة كلّ حي، ولا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكماله من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته.

وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا الحي القيوم الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإذا عرف العبد ذلك أحبه، فإن المحبة ثمرة المعرفة، فتعدم بانعدامها، وتضعف بضعفها، وتقوى بقوّتها، لذلك قال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!

ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه، فلم يعرفه حق معرفته، وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه فيها البهائم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة^(١)، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

الثاني: هو حبه من أحسن إليه، فواساه بـماله، ولاطفه بكلامه، وأمدّه بمعونته، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه، وقام بدفع شر الأشرار عنه، وجلب الخير له، فإنه محبوبه لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي ألا يجب إلا الله تعالى، فهو المحسن فقط، ونعمه لا تحصى، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والإحسان كله من الله، فمن أنعم عليك بجميع خزائنه، ومكّنك منها لتصرف فيها كيف تشاء، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته؟

الثالث: هو حُبُّك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه، وهذا موجود في الطبائع، فإذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قُطرٍ بعيد من الأرض، وبلغك خبر ملك آخر فاسق شرير في قُطرٍ آخر؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأول وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر

(١) وهذا سر تفضيل صالحى البشر على الملائكة، فجمعوا خير الملائكة الروحاني مع الانعتاق من أسر الشهوات الجثامي.

الثاني، فهذا يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي ألا يحب غيره أصلاً إلا من تعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق، فهو سبحانه من خلقهم ثم كملهم بالأعضاء والأسباب التي من ضروراتهم كالقلب والكبد والرأس، ثم رفّهم ونعمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة كالعين واليد والرجل، ثم جمّلهم بالمزايا والزوائد التي هي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم كاستقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلون العينين ونحو ذلك.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفاكهة. ومثال الزوائد والمزايا: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة.

وهذه الأقسام الثلاثة (إيجاد دافع الضرورة والحاجة والتكميل) موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل كل صنف من المخلوقات من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذا هو المحسن، فكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته وفضله؛ فالحب بهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى^(١).

الرابع: هو حب الجميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال.

(١) والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ومحبة المحسن المخلوق تابعة لمحبة المحسن الحقيقي الذي تفضل بذلك، ثم شرع شكر ذلك المخلوق ومجازاة إحسانه كما في الحديث: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه» - رواه أبو داود (٥١٠٩) وغيره بسند صحيح - حتى يتمحض الحب والشكر والحمد له سبحانه وبحمده.

والجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، فالأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب، ولا يشاركون فيه إلا من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهد: حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه. نعم يُدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه^(١)، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب الرسول ﷺ أو الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم^(٢)، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلما كان

(١) وفي الآخرة يتم النعيم وتكمل السعادة للمؤمن برؤية ربه تعالى وسماع كلامه والخلود في محض فضله وإنعامه. نسأله سبحانه ذلك ولوالدينا والمؤمنين.

(٢) أي في الابتداء، وإلا فحسن الصورة والفعل لهما أثرهما التابع لحسن الصفات، وكل ذلك تابع لمحبة الله تعالى.

أعظم رتبة وأجل منزلة كانت المقدرة عليه^(١) أجل رتبة وأشرف قدرًا. وأجل المعلومات هو الله تعالى^(٢)، فلا جرم أن أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى^(٣)، وكذلك ما يقرب إليه ويختص به، فشرفه على قدر تعلّقه به^(٤).

قال الحسن رحمته الله: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا^(٥).

-
- (١) كتوفيق الله لعبده بتحييب العلم والعبادة إليه، وإعانتة عليهما.
- (٢) وهو أعرف المعارف، ويُذكر أن سيبويه رؤي في المنام فذكر أن الله غفر له بسبب كلمة كتبها في كتابه وهي أن الله هو أعرف المعارف، أي فلا يحتاج لتعريف عند من صَفَتْ فطرته وسلم عقله وزكى ذوقه.
- (٣) فشرف العلم على قدر شرف المعلوم، لذا فعلم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى هو أشرف وأعلى وأسمى وأزكى العلوم على الإطلاق. قال الشيخ ابن سعدي رحمته الله: «المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وتعبده بها لله؛ لا يحصل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورُوحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمّل من الموحدين».
- قلت: وقد أولى الشيخان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم هذا العلم أوفر العناية، وسمت همتاهما إلى تحقيقه وتعليمه والتصنيف فيه وبنائه في القلوب ودفع الغش وكشف الشبه عنه.

(٤) الإحياء (٢/ ١٦٠١-١٦٠٤) بتصرف واختصار.

(٥) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٩٦٩).

علامات محبة الله تعالى لعبده

وهي أمور تدل على استصفاء ذلك العبد وحب الله له، وإن كانت ليست مطردة لكنها غالبية، خاصة مع حسن العمل والمعتقد.

والله سبحانه وبحمده يُحِبُّ وَيُحِبُّ كما ثبت في الكتاب والسنة وإجماع صدر الأمة قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤]، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١)، وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه

(١) البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومَرَّ الكلام قريباً عن شيء من فوائده.

أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١).

وفي حديث أمير السريّة الذي كان يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحب»^(٢)، وكذلك في السنّة مثل قول: «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «إن الله يحب كذا وكذا» كقوله: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»^(٣)، و«أحب الأعمال إلى الله الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور»^(٤)، و«أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه»^(٥)، وكما قال السلف: ليس الشأن أن تُحب ولكن الشأن أن تُحبَّ. نسأل الله الكريم من فضله وإنعامه^(٦).

ومن علامات محبة الله تعالى لعبده المؤمن:

١- حسن التدبير له، فيريه من أول نشأته على الخير ومحبته، ويوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، ويسدّ ظاهره وباطنه، ويجعل همومه همًّا واحدًا، بحيث تشغله محبته وما يقرب إليه عن كل شيء.

(١) متفق عليه. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه. عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) وانظر: المدارج (٣/ ٤٥٧-٤٦٢).

٢. الرفق بالعبد، وتدرجه في اللطف والحسن والإحسان.

٣. وضع القبول له في الأرض، فتحبه قلوب الصالحين وتشني عليه ألسنتهم، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فيبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(١).

٤. الابتلاء، لِحَطِّ الخطيئة ورفع الدرجة وتمحيص النفس وتركيتها، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد: ٣١] أي يتحقق علمنا في عالم الشهادة. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(٢).

والابتلاء على قدر الإيمان واليقين والمحبة، قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابةً اشتد بلاءه، وإن كان في دينه

(١) متفق عليه. البخاري (٧٤٨٥)، مسلم (٢٦٣٧).

(٢) الترمذي (٢٣٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يديّ. فقلت: يا رسول الله! ما أشدّها عليك! قال: «إنا كذلك، يضعفُ لنا البلاء، ويضعفُ لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله! أي الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: يا رسول الله، ثم من؟ قال: «الصالحون، إن كان أحدهم ليتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها»^(٢)، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»^(٣).

٥. شرح القلب بالإيمان، وسكينة النفس بالذكر والقرآن.

٦. الموت على عمل صالح. كما قال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً غسله» قالوا: وما غسله؟ قال: «يوفق له عملاً صالحاً بين يدي أجله حتى يرضى عنه جيرانه أو من حوله»^{(٤)(٥)}.

(١) الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) قال الفيروز: حواه يحويه واحتواه واحتوى عليه: جمعه وأحرزه. والتحوية: القبض، والانقباض كالتحوي. القاموس (٤٤٣). قلت: وتشديد الواو دليل المبالغة في إحرازها وحفظها لعدم غيرها وحاجته لها سترًا ودفعًا.

(٣) ابن ماجه (٤٠٢٤) وصححه البوصيري في المصباح (١٨٨/٤) كذلك الألباني.

(٤) أحمد (٤/٢٠٠) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧).

(٥) ملخص بزيادات وتصرف عن (أعمال القلوب) محمد المنجد (٢٣٥، ٢٣٦).

الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى

من أحبه الله فقد حاز الخير بحذافيره، وفاز بالسعادة الأبدية، وأفلح الفلاح كله، وليس الأمر أن تُحب الله، ولكن الأمر أن يحبك الله كما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ولسبيل محبة الله سابلة، وللدعوة إليها قلوب قابلة، ولمن سلك ووصل فواها!

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشرة أسباب جالبة لمحبة الله تعالى (١)، وهي:

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم من إنزال القرآن. وأن يشغل قلبه بالتأمل في الآي ويملاً فؤاده من معانيها، فلا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله تعالى من

(١) انظرها في المدارج (٣/ ٤٤٨ - ٤٥٠)، وقد شرحها الشيخ عبد العزيز مصطفى . شرحاً ماتعاً في رسالة أسماها (شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله تعالى). وانظر: (أعمال القلوب) للمنجد (٢٤٤ - ٢٥٣) وقد اقتبست من بعضها في شرح هذه الأسباب.

قراءة كلامه وتعظيمه وإجلاله وتدبره والعيش بالروح في رياضته، ولا أسعد للروح الطاهرة من تلاوته، والتغني به، وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»^(١)، وقال: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٢).

وروي عنه: «لله أشدُّ أذنًا»^(٣) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قيته»^(٤)، وقد مرَّ ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزمارة من مزمار آل داود»^(٥). وروي أنه قال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك»، فقال: لو علمت أنك تسمع لحبّرت لك تحبيرًا^(٦)، أي: لحسنته لك تحسينًا. وكان عمر رضي الله عنه يقول له: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون^(٧).

(١) البخاري (٧٥٢٧).

(٢) أبو داود (١٤٥٥) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤).

(٣) أذنًا: أي استماعًا.

(٤) أحمد (٦/١٩، ٢٠)، وابن ماجه (١٣٤٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٣٣).

(٥) متفق عليه. البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٢٣٥، ٢٣٦).

(٦) الخطيب في تاريخ بغداد (٨/٢٩٨)، وأبو يعلى والطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري وثقه ابن حبان وضعفه جماعة.

(٧) الفتاوى (٨٠/١٠).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ»^(١).

ولا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله تعالى من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير والاعتبار^(٢)؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والشكر والصبر واليقين، وسائر أحوال العبد وأعماله الظاهرة والباطنة. قال الحسن: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً! فالتفكر بالقرآن وفي القرآن أصل صلاح القلب، والعمل من ثمراته، وصلاح الباطن موجب لصلاح الظاهر، وصلاح الظاهر علامة على صلاح الباطن.

وقال ابن الجوزي: «ينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه»^(٣).

وقال الحسن: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) وسيأتي في أبواب التفكير والتذكر والاعتبار إن شاء الله عز وجل.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤٦).

يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»^(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله»^(٢).

والتدبر هو المقصود من القراءة؛ وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية فليرددها^(٣)، فقد روى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه أقام ليلة بآية يردها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقام تميم الداري بآية حتى الصباح، كذلك الربيع بن خثيم، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تردد الآيات وتبكي عندها.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾^(٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر: ٢٩، ٣٠]: «فالتجارة التي لن تبور هي الثواب الذي لا بد من حصوله»^(٤).

وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: «فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي (٢٨).

(٢) الطبراني في الكبير (٨٦٥٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٥/٧): رجاله ثقات.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٥٣١ / ٦).

اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»^(١).

٢- التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض؛ لأنها توصل إلى درجة المحبة، كما جاء في الحديث الرباني: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(٢).

فتضمن هذا الحديث الإلهي القدسي حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، ثم التقرب إليه بالنوافل. ومن أحس في نفسه تقصيراً في الفرائض فليبادر بإصلاحها بدون الفتور في النوافل، ومن اشتغل بالنوافل دون الفرائض فقد ضلّ، فالفرائض أصل والنوافل فرع لها، وما من فريضة إلا ولها عبادات نافلة من جنسها رحمة من الله بعباده ليَجبروا نقصهم ويرفعوا درجاتهم.

قال ابن حجر رحمته الله: «جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب، كالهديّة والتحفة، بخلاف من يؤدي ما عليه من خراج، أو يقضي ما عليه من دين... وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل: جبر الفرائض، كما

(١) الفوائد (٣) باختصار.

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

صح في الحديث: «انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل فريضته...»^(١) الحديث بمعناه، فتبين أن المراد بالتقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض، لا من أخل بها»^(٢).

وقال ابن رجب رحمه الله: «أولياء الله المقربون قسمان:

أحدهما: من تقرب إلى الله بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها على عباده. وأهل هذا القسم هم المقتصدون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]، وهم أصحاب اليمين الذين قال فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]. فأداء الفرائض أفضل الأعمال^(٣)، كما قال عمر رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل.

الثاني: من تقرب إلى الله تعالى بعد أداء الفرائض بالنوافل، وهم أهل درجة

(١) الترمذي (٤١٣) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١) / (١٣٠).

(٢) الفتح (١١ / ٣٥١).

(٣) وفي الحديث: «اتق المحارم تكن أعبد الناس» رواه الترمذي (٢ / ٥٠) وأحمد (٢ / ٣١٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠)، وكما قال سهل بن عبد الله: أعمال البر يطيقها البرُّ والفاجر، ولكن لا يصبر عن المحارم إلا صديق.

السابقين المقربين^(١).. لأنهم تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع. وذلك يوجب للعبد محبة الله، فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والخطوة عنده^(٢).

٣- دوام ذكر الله تعالى على كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وفي الحديث الإلهي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٣).

وكل العبادات قد قيدت بقدر إلا الذكر فلم يقدر، بل قد أوصى بالزيادة منه والإكثار؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [٤١، ٤٢]، وحينما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فبابٌ نتمسك به

(١) وهم من يشربون التسنيم صرْفاً بيننا يمزج للأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُم مِّن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨] والباء للتضمين. نسأل الله الكريم من فضله.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٠) باختصار.

(٣) أحمد (٤/ ١١٨، ١٩٠)، وابن ماجه (٣٧٩٣) وغيرهما، وصححه الألباني (٣٠٦٠).

جامع. فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(١). فلاحظ اختياره لكلمة (لا يزال) وهي المفيدة للاستمرارية والدوام، وقد كان ﷺ يوصي بذكر الله تعالى بمقاله وبحاله، كما حدثت عنه الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يذكر الله على كل أحيانه^(٢).

والذكر أنواع عديدة منقسمة على القلب واللسان والجوارح، ولكل قسم أصناف وألوان، قد جعل الله كلاً منها غذاءً للروح ودواءً وبلسمًا وسلوةً وفرحًا، وأنموذجًا لنعيم في الجنة التي يُلهم أهلها التسبيح كما نُلهم النفس استرواحًا ولذة وفرحًا.

٤- إيثار محبته على محبتك عند غلبات الهوى، والتسليم إلى محبته وإن صعب المرتقى.

وهذه عزيزة نفيسة، وهي بحق برهان الصدق في الامتحان، والنجاح في الابتلاء، فالقلب لا يقدم محبة شيء على غيره إلا لتمكنه من نياطه ووحشته لفقده، وعند المزاحمة يتبين الصادق من المدعي، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إيثار رضى الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته^(٣) ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها لنبينا

(١) الترمذي (٣٣٧٢) وصححه عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٢٥٦١).

(٢) أحمد (٢٧٨/٦)، ومسلم (١/١٩٤) وسيأتي مزيد في باب الذكر إن شاء الله تعالى.

(٣) وسيأتي مزيد في باب الإيثار إن شاء الله تعالى.

محمد ﷺ، فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالى، وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إثارة رضاه لومة لائم^(١).

وقال السفاريني: «لا شك أن في مخالفة النفوس لهواها اعتزازها وقوتها ومنعتها من الشيطان وجنوده، وعدم ذلها، فلما قمع هوى نفسه بمقموعة المتابعة، وضربها بسياط الاقتداء، وصرفها بزمام التقوى؛ حصل له العز والامتناع والقوة والارتفاع بحسن الاتباع ومخالفة الابتداع»^(٢).

وقيل للحسن: يا أبا سعيد! أي الجهاد أفضل؟ قال: جهاد هواك.

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتتهت ولم ينهها تاقته إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار للذي دعت إليه من حلاوة عاطل

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]: «إنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدي ربه سبحانه، فيخاف فيتركها»^(٣).

وبالجملة؛ فيثار مراضي رب العزة سبحانه عند لجلجة النفس بشهوتها وحبس فورتها بالتقوى وكسر جماحها بالورع هو برهان المحبين.

(١) المدارج (٢/ ٢٩٩) باختصار.

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد السفاريني (٢/ ٤٥٥).

(٣) تفسير الألوسي (٣٠/ ٤٦).

ومن أفضل الإيثار؛ الإيثار بالنفس والمال جهاداً في سبيل الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل لمحبهه الكاملة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]» (١).

وعلاوة إيثار محاب الله تعالى وجماعه شيئان:

الأول: فعل ما يحبه الله، ولو كانت النفس له كارهة.

الثاني: ترك ما يكرهه الله ولو كانت النفس له محبة مشتاقة.

وهي قنطرة بعدها النعيم المقيم.

قال ابن القيم: «ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وأنفع وأخير وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها لله، فتورثه هذه المجاهدة محبة الله والوصول إلى

المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبر، وهي محبة الله عز وجل»^(١)، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة^(٢).

والإيمان بالأسماء والصفات ضروري فطري عقلي شرعي، فمن آمن بها وأثبتها على حقيقتها من غير تمثيل ونزه الله تعالى عما لا يليق به بلا تعطيل فهو الموفق المستقيم، أما من تلوث بشوائب البدع وأصول أهل الكلام والمنطق والفلسفة من أهل التجهم أو الاعتزال أو الماتريدية أو الأشاعرة وأشباههم من أهل الزيغ والابتداع فقد خرج صدره وضاعت نفسه، واضطربت أفكاره، وتناقضت علومه. وأنى بالانسجام بين العلوم والعقول والأرواح إلا بالتسليم التام للوحي الشريف، فرسول الله ﷺ هو أعلم الخلق وهو أفصحهم وهو أنصحهم^(٣)، ومن اجتمعت فيه هذه الثلاث فالحق معه حيث دار، فالسعيد من اتبعه واستقام على طريقته وسنته، والشقي من خالف جادته، وتنكب محجته.

فالرسل عليهم السلام قد بُعثوا بثلاث مهام عظام ووظائف كبار تدور كلها

(١) الفوائد، ابن القيم (١ / ١١٠).

(٢) وسيأتي مزيد بسط في باب العلم إن شاء الله تعالى.

(٣) الفتاوى (٥ / ٤٧٧).

على التوحيد^(١):

الوظيفة الأولى: الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا لا يتم إلا بعد تعريف العباد بالمعبود سبحانه، وتفرد صفات الجلال وأسماء الكمال.

الوظيفة الثانية: بيان الطريق الموصلة إليه سبحانه، وهذا يكون ببيان التكاليف التي تجيء بها الشرائع من أمر ونهي، ووعد ووعد، ليخلص العبد لربه عبادته.

الوظيفة الثالثة: بيان حال المكلفين بعد حط رحالهم في الآخرة، حيث يفترقون بعدها إما إلى دار النعيم المقيم؛ الجنة، أو دار الشقاء المقيم؛ النار^(٢).

وهذه الوظائف الثلاث التي جاءت من أجلها الرسل، وجدت من أعداء الرسل - من شياطين الجن والإنس - ثلاث طوائف، قعدت كل طائفة منهم على رأس طريق تصد عنه:

الطائفة الأولى: معطلة الصفات والملحدون في الأسماء، قعدوا على رأس الطريق المعرفة بالله، حتى يحولوا بين الرسل وأتباعهم، وبين تعريف الخلق بربهم ومعبودهم المعرفة الصحيحة والعلم الحق.

الطائفة الثانية: قعدت على رأس الطريق الموصلة إلى الله، والمقتضية الامتثال للأمر واجتناب النهي، وهؤلاء هم أهل التبديل والتحريف والتغيير، من

(١) انظر: شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله (٨٩-٩٧).

(٢) انظر: شرح العقيد الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٨٩، ٩٠)، المدارج (٣/ ٣٤٨).

أصحاب الآراء الفاسدة والسياسات الباطلة والأذواق المنحرفة والعادات والتقاليد البالية^(١) لِيَحُولُوا بين الخلق وبين السير على الطريق المستقيم؛ طريق الشريعة الكاملة الشاملة.

الطائفة الثالثة: قعدت على رأس الطريق الهادية إلى العمل للجنة، والناحية عن العمل بعمل أهل النار، وهؤلاء القاعدون هم أهل الشهوات المفتونون بها. وأخطر هذه الطوائف: الطائفة الأولى الصادة عن معرفة الله، أولئك الذين ينكرون صفات الرب المعبود، فلا يثبتون له ما أثبتته لنفسه من صفات الكمال والجمال والجلال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٢٢] وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ [فصلت: ٢٢، ٢٣] فما أتى كافرٌ ولا عاصٍ إلا من قَبْلِ سوء ظنه بربه في صفاته أو غفلته عن ذلك.

ومن أجل أن يتلافى العبد الظنون والاعتقادات الفاسدة؛ فلا بد له من سلوك سبل المعرفة بالله تعالى، لكي يعبد على بصيرة وهدى، وله لذلك طريقان: الأول أصل والثاني متفرع منه محكوم به:

(١) المخالفة للشريعة.

الأول: الوقوف عند ما جاء في نصوص الوحي من صفات الله وأسمائه، فيثبتها كما جاءت، ولا يفسد معرفته لله بتأويلها أو تعطيلها أو تحريفها^(١)، فهو عندما يؤمن بصفات الله الثابتة بالوحي فإنه سيعرف منها أن لربه صفات الكمال والجلال كلها، وسيجد أنه لا مجال لمتحك ولا متمحل في تأويلها أو صرفها عن المراد بها.

(١) التأويل الممنوع: صرف اللفظ عن ظاهره بلا موجب، والتعطيل: إنكار الاسم أو الصفة أو نفي حقيقة الصفة، فإن كان مع التعطيل إثبات معنى آخر فهو التأويل وحقيقته التحريف، وإن كان بدون إثبات معنى آخر فهو التفويض وهو أخبث من التأويل؛ لأن أصحابه يلتزمون نفي المعنى الشرعي ويتهمون الوحي بالعجمة، وأنه في الصفات مجرد حروف بلا معنى معقول. والمؤسف أن بعض من ترك التأويل انتهى أمره إلى التفويض. والتحريف جامع لذلك، ويخصه بعضهم بتغيير اللفظ. وقد صارت قاعدة الإمام مالك ميزاناً عند أهل السنة في الأسماء والصفات، وهي القاعدة المالكية المشهورة حيث قال بعدما سئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم» - أي معقول المعنى ومعلوم المراد - «والكيف مجهول» - أي تفويض العلم بكيفية الصفة لأن الكلام عن الصفات كالكلام في الذات يحذى فيه حذوه ويجرى فيه بمثاله - «والإيمان به واجب» - لأن هذه الصفة قد ثبتت في الكتاب والسنة، فمن موجبات الإيمان بالله تعالى الإيمان بها فتثبت بلا تمثيل ونزعه بلا تعطيل. «والسؤال عنه بدعة»، أي السؤال عن الكيفية وليس السؤال عن المعنى، فإنه من العلم الشريف ومعرفة معانيه سبيل للتفكير والتذكر وترسيخ الإيمان بالملك الديان سبحانه وبحمده. واعتبر سائر الصفات على هذا المثال البديع، فإذا ثبتت الصفة في أحد الوحيين؛ الكتاب والسنة، فالصفة معلومة وكيفها مجهول والسؤال عن كيفها بدعة والإيمان بها واجب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فهذه الآية واضحة في إثبات مجيء الله للفصل بين العباد يوم القيامة^(١)، وكذلك دل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] على إثبات صفة الكلام لله سبحانه، وأنه سبحانه كلم بعض عباده من النبيين كلامًا أخص من الوحي العام الذي أوحاه لسائر النبيين، كذلك حديث الرؤية في الصحيحين: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا»^(٢). ففي هذا الحديث الجليل بيان وإيضاح لإثبات الرؤية واحترازات واضحة تبطل التأويل والتحريف، بحيث لا يرتاب في المعنى المراد إلا مُغالٍ أو مغالط.

فباب الأسماء والصفات واضح وفهمه عند أهل السنة والجماعة مستقيم ومنسجم مع الوحي والعقل والروح والفطرة، أما من ألحد فيها^(٣) بشبه

(١) انظر: تفسير الطبري (٨ / ٩٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٤)، مسلم (٦٣٣) واللفظ للبخاري.

(٣) الإلحاد في الأسماء متضمن للإلحاد في الصفات. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحسن الأسماء متضمن لحسن معانيها وهي الصفات المشتقة منها. قال ابن القيم: «الإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما تدل عليه مادة اللحد، ومنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر الذي مال =

عن الوسط، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل».

قلت: فالمائل عن الحق إلى الباطل: ملحد، والمائل عن الباطل إلى الحق: حنيف.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه أنواع:

١- أن يُسمي الأصنام بها؛ كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً.

٢- تسمية الله تعالى بما لا يليق بجلاله وعظمته؛ كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

٣- وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك.

٤- تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لأهنتهم، وهؤلاء سلبوا الأسماء كمالها وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في الإلحاد؛ فمنهم الغالي والمتوسط والمتلوث، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

٥- تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله علواً كبيراً، وهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه.

قلت: قد نقضت آية الشورى ضلالتهم، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

المعطلة^(١) أو الممثلة فقد هرب من الشرّ، وفي الشرّ وقع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى لما سئل عن آية الصفات، وأحاديث

السلف الصالح أهل السنة والجماعة؛ إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل. فالجملة الأولى نقض لمذهب الممثلة المشبهة، والجملة الثانية نقض لمذهب المعطلة المحرفة، ومع جمعها بناء وإثبات مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة؛ إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل. فالمعطلة والممثلة جمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته من ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يحددوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت له لا لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات. ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خالياً من التعطيل، فالمشبه يعبد صنماً، والمعطّل يعبد عدماً. وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء. باختصار وتصرف عن تيسير العزيز الحميد (٦٤٥-٦٤٧).

(١) قال ابن القيم في المقدمة التي بين يدي قصيدته النونية: «المشبه يعبد صنماً، والمعطّل يعبد عدماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً صمداً. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْحَقِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»، وقال: «قلب المعطل متعلق بالعدم فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم الذي قد نحت بالتصوير، والموحد قلبه متعلق بمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

الصفات، وهي الفتوى المشهورة الموسومة بالفتوى الحموية الكبرى^(١) - وسأكتفي بسوق مقدمتها -: «الحمد لله رب العالمين. قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره؛ فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه، وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر الله أنه أكمل له ولأئمة دينهم، وأتم عليهم نعمته. مُحالٌ مع هذا وغيره: أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهاً، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإن معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته

(١) وقد كتبها سنة ٦٩٨ جوابًا لسؤال من حماة، وهي رسالة متوسطة الطول لكنها غزيرة العلم ولا غنى لطالب علم عنها بعد الله تعالى، وكان الإمام ابن باز رحمه الله تعالى يقول - وقد علق عليها مرارًا -: لأهميتها ينبغي أن تقرأ أكثر من مئة مرة.

القلوب، وحصلته النفوس، وأدرسته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولاً؟! ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراء،

وقال: «تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١)، وقال فيما صح عنه أيضًا: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»^(٢). وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا»^(٣). وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه»^(٤).

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بالسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين^(٥)، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه

(١) أحمد (٤/١٢٦)، ابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٤)، وتكلم بعضهم في زيادة المحجة.

(٢) مسلم (٤٦).

(٣) أحمد (٥/١٥٣، ١٦٢).

(٤) البخاري (٣١٩٢).

(٥) ولما قال ابن فورك - من أئمة الأشاعرة - لمحمود بن سبكتين - فاتح الهند وكاسر أصنامها -: يلزمك القول بالسفل إذا أثبت العلو! فقال محمود: لا يلزمني من أقوالك شيء؛ لأنه في القرآن والله أعلم به.

غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام؟! ثم إذا كان قد وقع ذلك منه^(١)، فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصرها في هذا الباب، زائدين فيه أو ناقصين عنه^(٢).

(١) على سبيل التنزل.

(٢) وهذه الحجة من أعظم الحجج البديهية المنطقية على الإطلاق في رد البدع والمحدثات في الدين، فعلى بساطتها إلا أنها جامعة مانعة؛ فنقول: هل كانت هذه البدعة المعينة - سواء في الاعتقاد أو القول أو العمل - معلومة للنبي ﷺ أم لا؟ فإن كان الجواب بالإيجاب، فأين الدليل على ذلك؟ وإن كان الجواب بالنفي فهو إقرار بأن هذه البدعة ليست من دين محمد ﷺ.

فإن قال: علمها ولم بينها. قيل له: إن كانت من الدين فأنت تتهم رسول الله ﷺ بالتقصير في البلاغ، فالله تعالى يقول: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] وقد صح عنه أنه بلغ البلاغ التام الكامل الوافي في قوله: «تركتمكم على البيضاء ليلها كنهارها» (أحمد ٤ / ١٢٦) بسند صحيح. وقد أقره الله على ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فالدين تام وقد بلغ رسول الله ﷺ البلاغ المبين وأقام الحجة الكاملة وبين المحجة الآمنة.

لذلك لما قيل في المناظرة في موضوع القول بخلق القرآن، بين يدي المتوكل رحمه الله: أمر وسع رسول الله ﷺ وصحابته ألا يحملوا الناس عليه، فلا وسع الله لمن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ، فنهض المتوكل واضطجع وهو يردد: لا وسع الله على من

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة. القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. كانوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين؛ لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق. وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه، ومعرفة الحق فيه - أكبر مقاصده، وأعظم مطالبه، أعني بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته.

وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر. وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي - الذي هو من أقوى المقتضيات - أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم. هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدهم إعراضاً عن الله، وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله تعالى؛ فكيف يقع في أولئك؟

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائلية؛ فهذا لا يعتقده مسلم، ولا عاقل عرف حال القوم.

ثم الكلام في هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى

لم يسعه ما وسع رسول الله.. يرددها ويضع المروحة على وجهه ويرفعها حتى أصبح، ثم أمر بإقامة السنة وهي أن القرآن كلام الله وهتك البدعة وكسرها. رحمه الله تعالى.

وأضعافها^(١)، يعرف ذلك من طلبه وتبعه.

ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السابقين، كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف^(٢)، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم^(٣)!

فإن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد

(١) وقد سطر رحمه الله المؤلفات العديدة والفتاوى الكثيرة في بيانه كالواسطية وهذه الرسالة الحموية والتدمرية ونقض التأسيس والعقل والنقل وما تناثر في مجموع الفتاوى وبخاصة المجلد الخامس والسادس وغيرها، كذلك تلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة ومدارج السالكين والنونية وغيرها.

(٢) للحافظ ابن رجب رسالة نفيسة بعنوان: فضل علم السلف على علم الخلف.

(٣) وانظر بسط ذلك ونقض هذه الجملة في: درء التعارض (٥/ ٣٧٨-٣٨٠). ومما ينبه عليه أن في الطبعة المتداولة - طبعة الشيخ ابن قاسم - زيادة على شكل جملة اعتراضية وفيها: (وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحاً) قال العثيمين رحمهم الله في تعليقه عليها: قد رجعت إلى أصل المخطوطة فلم أجد هذه العبارة، فلعلها مقحمة في متن الحموية. وعلق ابن باز رحمهم الله على ذلك بقوله: هذا الأقرب، فهي كلمة خبيثة حاشا شيخ الإسلام قولها، ولا نجد لها مساعاً. قلت: وكذلك قد نفى وجود هذه الزيادة في الأصل محقق النسخة المطبوعة، فليتنبه.

الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأُميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة؛ التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلّوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف - فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع^(١)، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه^(٢).

(١) أي القرآن والسنة.

(٢) فسفسطوا في العقليات، وقرمطوا في النقليات.

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين؛ كانت النتيجة استجهاال السابقين الأولين واستبلاهمهم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة. كيف يكون هؤلاء المتأخرون، لاسيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين^(١) الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول^(٢):

(١) هو محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

(٢) هو محمد بن عمر الرازي، ذكرها في كتابه (أقسام اللذات). ونقل الشيخ العلامة عبد الرحمن المعلمي في (القائد إلى صحيح العقائد) (ص ٧٤) عن (لسان الميزان ٤ / ٤٢٩) في ترجمة الفخر الرازي: «أوصى بوصية تدل على أنه حسن اعتقاده» وهذه الوصية في ترجمته من كتاب (عيون الأنباء ٢ / ٢٦-٢٨) قال مؤلف الكتاب: «أُمِّلِي في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني.. وهذه نسخة الوصية: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواصل بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق... ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدت في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات. وما ذاك إلا العلم بأن العقول =

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيّرت طرُفي بين تلك المعالم
 فلم أر إلا واضعًا كف حائرٍ على ذقن أو قارعًا سن نادم
 وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنّفوه من كتبهم،
 كقول بعض رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقالٌ وأكثر سعي العالمين ضلالٌ
 وأرواحنا في وحشة من جُسمنا وحاصل دنيانا أذى ووبالٌ
 ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
 لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي غليلًا، ولا
 تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى
 الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في
 النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]،
 ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ.

البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضائق العميقة، والمناهج الخفية... وكل ما
 ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد
 فهو كما هو، والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين... وأقول: ديني متابعة محمد
 سيد المرسلين وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما...
 باختصار.

ويقول الآخر منهم^(١): لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام

(١) هو أبو المعالي الجويني، من كبار منظري الأشاعرة. وقد قال الكلام الأنف عند موته وفي رواية: على عقيدة عجائز نيسابور، وقال كذلك: يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. (قطف الجنى الداني شرح مقدمة أبي زيد القيرواني) للعلامة عبد المحسن العبادي (ص ٣٢)، وقد نقل حفظه الله نقولاً أخرى نذكرها للفائدة:

قال شمس الدين الخسر وشاهي - وكان من أجل تلاميذ فخر الدين الرازي - لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكنني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد! والله ما أدري ما أعتقد! وبكى حتى اخضل لحيته. ولابن أبي الحديد - الفاضل المشهور بالعراق -:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوّة البشر
وقال الخونجي عند موته: ما عرفت ممّ حصّلته شيئاً سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً!
وقال آخر: أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء.

(قلت: وسبب ذلك خفاء مذهب السلف عليهم، فيظنون أنه التفويض، وإلا فلو

علموا حقيقته وتفصيله لما كان لهم أن يترددوا).

وقال ابن أبي العز شارح الطحاوية: وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرّ بما أقرّوا به، ويعرض عن الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم - إذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

وكان أبو محمد الجويني - والد إمام الحرمين - في حيرة واضطراب في صفات الله عز وجل، ثم صار إلى مذهب السلف، وألّف رسالة نُصِحَ لبعض مشايخه من الأشاعرة، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٧٤-١٨٧).

وقال الغزالي في الإحياء (٩١، ٩٢) محذراً من مزلق علم الكلام: أما مضرته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم... وأما منفعتها، فقد يُظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخطيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف... فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الدور في أمور جليّة تكاد تفهم قبل التعمق في صفة الكلام.

وقال ابن أبي العز معلقاً على كلام الغزالي: وكلام مثله في ذلك حجة بالغة (شرح الطحاوية: ٢٣٨). ثم نقل عن ابن رشد الحفيد - وهو أعلم الناس بالفلسفة والمنطق - في كتابه (تهافت التهافت): ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يُعتد به؟! وكذلك الآمدي واقفٌ في المسائل الكبار وحائر فيها. كذلك الغزالي انتهى آخر أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عنها وأقبل على حديث النبي ﷺ،

وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أُمي. اهـ.

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكًا عند الموت أصحاب الكلام^(١).

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر؛ لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على

فمات وصحيح البخاري على صدره.

وانظر كلامًا ماتعًا للعلامة العلمي في تحليله لشخصية أبي حامد الغزالي في كتابه النفيس (القائد إلى تصحيح العقائد: ٧٠-٧٥).

(١) وقال رحمه الله في (نقض المنطق): ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونهم. أي المنطق. ويذمون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا: أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا. (الفتاوى ١٠/٧).

وقال أيضًا في وصف المنطق: لحم جمل غث، على رأس جبل وعمر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، (وفي نسخة: ولا سمين فينتقل) لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد، مع ذلك ففيه من الأخطاء والضلالات ما لا يحصر.

وقال أيضًا شيخ الإسلام رحمه الله: ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يقابله على ما اعتمده في هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها. نقله الصفدي. الغيث المسجم (١/ ٧٩).

عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحبوبون، المفضولون، المنقوصون، المسبوقون، الحيارى المتهوكون؛ أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى، ومصابيح الدُّجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة!

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة - لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟!

أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركون، وضلال اليهود والنصارى والصابئين، وأشكالهم وأشباههم؛ أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان»^{(١)؟}!

(١) الحموية الكبرى، ضمن الفتاوى (٥ / ١٢٠٥). ولضرورة المؤمن للفقهاء في أسماء الله تعالى وصفاته فسأسوق بعض الفوائد والقواعد من كتب أهل العلم باختصار واقتصار:

١- منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة: اتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

٢- أهل السنة والجماعة وسط بين فرق الضلال كما أن الأمة وسط بين أمم الضلال.

- ٣- عقيدة أهل السنة والجماعة موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.
- ٤- السلف الصالح يثبتون صفات الله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته مع تنزيهه عن مماثلة المخلوقات، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، فهم مثبتة للمعاني مفوضة للكيفيات وليسوا مؤولة محرقة ولا مفوضة مجهولة.
- ٥- كل من الممثلة والمعطلة جمعوا بين التمثيل والتعطيل، فالمعطلة لم يعطلوا الصفات إلا بعد أن تصوروا في أذهانهم أن ظاهر الآيات والأحاديث يلزم التمثيل، فمثّلوا أولاً ثم عطّلوا ثانياً. أما الممثلة فقد عطّلوا صفات الله اللاتئة به ومثّلوه بخلقه، وكلاهما ضلالتان.
- ٦- رجع كثير من أئمة الكلام إلى مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات. وقد مر ذكر أمثلة وافية.
- ٧- أكثر أئمة الإسلام وسوادهم الأعظم على مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات؛ لأنه الفطرة، فإذا سمع العامي آيات الصفات فهم منها المراد مع تنزيه ربه تعالى، وهذا محض مذهب السلف، أما من تلوّث بالتعلم على يد مبتدع فلا نسبة له في جماهير العامة المؤمنة.
- ٨- عقيدة الأئمة الأربعة في هذا الباب الشريف هي عقيدة أهل السنة والجماعة، فالإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد عقيدتهم هي عقيدة السلف من الصحابة ومن سار على نهجهم.
- أما المشتغلون بالتفقه على مذاهبهم من بعدهم فمنهم من هو على عقيدة السلف ومنهم من ابتدع، فمن هو على عقيدة السلف على سبيل المثال من الأحناف أبو جعفر الطحاوي صاحب عقيدة أهل السنة والجماعة، وشارح هذه العقيدة علي ابن أبي العز الحنفي، ومن الشافعية عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني مؤلف كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث، والذهبي صاحب كتاب العلو، وابن كثير

صاحب التفسير، ومن المالكية عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة، وأبو عمر الطلمنكي وأبو عمر بن عبد البر مؤلف التمهيد، ومن الحنابلة ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب. وغير هؤلاء كثير من المذاهب الأربعة وخارجها بحمد الله تعالى. (قطف الجنى الداني ١١-٢٩) للعباد. وهي جديرة بالقراءة، كما ذكر مؤلفات في العقيدة كتبها العلماء في هذا الباب وهي ملخصة عن القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى للعثيمين رحمهم الله.

فمنها. وسيكون تسلسل العناصر مبنياً على ما سبق :-

٩. أسماء الله كلها حسنى، أي بالغة في الحسن غايته.

١٠. أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف. أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

١١. أسماء الله تعالى إذا دلت على وصف متعدّد، تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك: «السميع» يتضمن إثبات السمع اسماً لله تعالى، وإثبات السمع صفة له،

وإثبات حكمه ومقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى.

وإن دلت على وصف غير متعدّد تضمنت أمرين:

أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

مثال ذلك: «الحي» يتضمن إثبات الحي اسماً لله تعالى، وإثبات الحياة صفة له.

١٢. دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام.

مثال ذلك: «الخالق» يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على

الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

١٣. أسماء الله تعالى توقيفية، لا مجال للعقل فيها، فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزداد فيها ولا ينقص ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

١٤. أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين بدليل: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك» رواه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩)، أما حديث «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» متفق عليه. فليس فيه سردها، إنما هي زيادة من الرواة (ومعنى إحصائها: حفظها ومعرفة معانيها والتعبد بمقتضاها).

١٥. الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها. وقد سبق..

ومن القواعد في صفات الله تعالى:

١٦. صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

١٧. باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة (أو أكثر) ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا تنتهي لها، كما أن أقواله لا تنتهي لها. فنصف الله تعالى بالصفات الواردة على الوجه الوارد ولا نسميه بها، فلا نقول: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش ونحوها، وإن كنا نخير بذلك عنه ونصفه به.

١٨. صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية. فالثبوتية: ما أثبتته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، كالحياة والعلم والقدرة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا والوجه واليدين والفرح والضحك والغضب ونحو ذلك. وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وأما الصفات

السلبية: فهي ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب ونحوها. فيجب نفيها مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل؛ وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده، لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال. مثاله: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

١٩- الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية لأنها أدل على الكمال.

٢٠- الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية، وفعلية.

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، كالعلم والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة. ومنها الصفات الخبرية (أي علمت بالنص دون العقل) كالوجه، واليدين، والعينين.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالأستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فباعتبار أصله صفة ذاتية لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء.

وكل صفة تعلق بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها.

٢١- صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها، فلا يثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته، ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة

٦- مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى

محبه.

أوجه:

الأول: التصريح بالصفة كالعزة والقوة والرحمة واليدين والفرح ونحوها.
الثاني: تضمن الاسم لها، مثل: الغفور متضمن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع ونحو ذلك.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين ونحو ذلك.

ومن القواعد في أدلة الأسماء والصفات:

- ٢٢- الأدلة التي تثبت بها أسماء الله وصفاته هي الكتاب والسنة لا غير.
- ٢٣- الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها.
- ٢٤- ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار المعنى، ومجهولة لنا باعتبار الكيفية.

٢٥- ظاهر النصوص هو ما يتبادر إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه من الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق، ومعنى آخر في سياق آخر، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه.

أخيراً: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فلا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله وحده لا شريك له، فهو المستحق للحب والحمد والشكر والعبادة. وتأمل قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝٣٢﴾ (٣٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣﴾ (٣٣) ﴿وَأَتَنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢، ٣٤)، والنتيجة للمؤمن المتدبر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

والتفكر في النعم يفضي إلى حب مسديها، فأول نعمة لله على العبد أن خلقه ولم يك شيئاً. وإذا أردت أن تعرف قدر نعمة فتأمل عدمها. كما قال أبو الطيب: والضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء فإذا تخيلت أنك معدوم عرفت قدر خلق الله لك.

ثم بعد أن خلقتك لم يجعلك من صنف النبات أو الجبال أو الحيوان البهيم، فلو شاء لخلقك شجرة أو جبلاً أو حشرة أو كلباً، أو حتى جنياً! ولكنه اصطفاك وجعلك من العنصر الكريم وهو الآدمي ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أنزلك في السلالات البشرية، ثم بعث

إليك الرسل وأنزل لك الكتب، ووعدك برضاه والجنة إن أطعته.

ثم لما اختارك آدمياً من أصناف خلقه أكرمك بجوهرة نفيسة هي العقل، ولو شاء لختم على عقلك بالبله والجنون. ثم لما اصطفاك بالعقل هداك لدينه المرتضى، ولو شاء لطبعك كافراً، ثم لما هداك للملة اصطفاك بأن جعلك من هذه الأمة المحمدية وهي خير أمة أخرجت للناس، وبعث إليك خير المرسلين، وجعل له من الكرامات والشفاعات ما لا يحيط به الفكر، إكراماً له وفلاحاً لأمته، وأنزل إليك خير كتبه وهو القرآن العظيم المجيد الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثم ركب فيك القوى الحوية والإدراكية والنفسانية والروحانية والجسدية فحيثما وليت شطر نعمة عاد بصرك خاشعاً منيباً محبباً مخبتاً جذلاً، قد نثر مولاك في أنحائك المنن، وأسبغ بين جوانحك العطايا، وأترع كأس حظك بالمنح.

تأمل أصلك الترابي^(١) وكيف ركبْتَ طبقاً عن طبق، فحفظتك يد القدرة

(١) أثبت العلم الحديث أن عناصر جسد آدمي هي بذاتها عناصر تكوين التراب، فهو مكوّن من كربون وأكسجين وأيدروجين وفسفور وكبريت وآزوت وكالسيوم وبوتاسيوم وصوديوم وكلور ومغنيسيوم وحديد ومنجنيز ونحاس ويود وفلورين وكوبالت وزنك وسليكون والمنيوم.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. وعندما تنتهي حياته بعد الانتشار، فإنه يعود تراباً، فيتحلل إلى نفس العناصر كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] (عن =

الربانية، وصنعتك العناية الإلهية متنقلاً من صلب إلى صلب، نازلاً من ظهر إلى ظهر، ومن جيل إلى جيل، ومن قرن إلى قرن، وأنت تتردد بين أصلاب الرجال زماناً بعد زمان وطوراً بعد طور، حتى أذن الحكيم العليم وشاء البارئ المصور أن تشرق شمس وجودك في هذا الزمان، فاختارك من مليارات غيرك من ماء أبيك^(١) واصطفاك لتلتحم ببقية جسدك من بويضة أمك، حتى تستقر آمناً وادعاً يُجري لك رزقك صباحاً ومساءً، محفوظاً بحفظ مولاك لك، مكلوفاً بعنايته، مستوراً بستره، حتى إذا تهيأت لحرث الأرض، واشتقت لسلوك السابلة، فتح لك المصاريع، ورفق بك حتى تنزل عن طبقك الوديع لتركب طبق الابتلاء.

ثم أحنى لك قلب والدتك، وصبَّ على قلبها الرحمة بك، والعطف عليك، والمحبة لك. ثم قلب اللطيف البر سبحانه غذاءك الدموي في رحم أمك إلى لبن سائغ مُغذٍّ نافع، فنبتت عليه أطرافك، واغتذت به خلاياك، وطوراً بعد طور، ويوماً بعد يوم، يُنضج عقلك وجسدك، حتى إذا بلغت التكاليف أقام عليك الحجج والبراهين، وأعذر إليك كل الإعذار، فركب عقلك وقدر زند فهمك، وأقام شواهد التوحيد والعبودية أمامك، ثم لطف بك فيسر لك العبادة، وهون عليك المسير، ودعمك بالطفاه، وساق إليك مدده، وحبّيك لمخلوقاته الزاكية السامية ملائكته، فسخرها لك داعية مستغفرة، ومدافعة ساهرة، وبسط لك

شرح الأسباب العشرة/ (١١٠).

(١) يذكر أن الدفقة الواحدة الطبيعية من الرجل تحوي قرابة ستة مليارات حيوان منوي!

العلم به بأن جعله في دفتر مسطور مكتوب في خزانة فطرتك.

فإذا رأيت الأثر تذكرت المسير، وإذا تأملت الأفلاك نطقت بحمد اللطيف الخبير، ثم ضاعف لك المثوبة فجعل الحسنه بعشر، إلى أضعاف كثيرة، بل جعل لهم بها حسنة كاملة، ووضع عليك حلمه، وأسبل عليك ستره، وقرب إليك أقرب من جبل الوريد بعلمه وإحاطته ولطفه وحفظه، وفتح لك باب التوبة، ودعاك إليها وناداك، فإن أجبتة ودعوته لبأك، فما تزال له في كل لحظة منن وألطف عليك ترى، إن وقفت تريد إحصاءها لم توف منها شيئاً، وكيفيك عن إحصائها شكر مسديها وحمدته ومحبتة ورجاؤه وخوفه، وتقواه وعبادته حسب الطاقة والوسع، اللهم لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، لك الحمد كله وأوله وآخره، علانيته وسره، حق أنت أن تُحمد وأنت للحمد أهل، بل ليس له أهل سواك يا حميد.

٧- وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في

التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

فالله تعالى يحب القلب المنكسر المنطرح على عتبة خشيته ورهبته ومحبتة وهيبته. وكلما ازداد إيمان المرء وغزرت علومه بالله ذاق من ذلك الانكسار اللذيذ على روحه وقلبه بحسبه، فلا أسعد للقلب من انكساره بين يدي من يعلم أن الخير بحذافيره عنده، والتوفيق بحذافيره ملكه، والفلاح بحذافيره بأمره، وأضدادها كذلك فيحب ربه، ويرهبه، ويرجوه ويخافه، ويهابه ويأمنه، ويطمئن

إليه بسكون روح وسعادة قلب، ثم يتذكر قدر نفسه وتفريطها وتضييعها وعدم قيامها بحق العبودية فتضطرب جوانحه، وتجزع روحه، وتفيض مدامعه، ويلهج لسانه بالتوبة والاستغفار، والذل والانكسار، ولا يزال قلبه يراوح بين الهيبة والرغبة والخشوع والخشية، فينا هو كذلك إذ حلت عليه الطمأنينة، ونزلت عليه السكينة، وغشيتة الرحمة، فانغمس القلب الكسير في بحر الرجاء والحب وحسن الظن بمن مقاليد الأمور بيده، وأزمنة المصائر بأمره، فعاد القلب طرباً مسروراً، فرحاً جذلاً، فهو يتقلب في أطوار عمره بين هيبة من سيده وخشية ووجل، وبين رجاء وحسن ظن وثقة بفضله وإجابة دعوته ويقين بصفات رحمته وعفوه ومغفرته، وبين حب وشوق يكاد يطير بروحه خارج جسده، شوقاً للقاء ربه وحباً فيه، فهو بين نظر لنفسه متذكر تقصيرها وبين نظر لرحمة ربه معلقاً أسبابه إليها، وبين نظر في جمال وجلال ربه وإلهه ومولاه، فيكاد يغيب بهذا المشهد بقلبه عن الموجود خارجه، فيتذوق نعيم الجنة قبل أوان الحساب ويستحل طعم الإيمان وهو في دار العمل.

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله الزكي: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً...»^(١)، وقوله السني: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»^(٢) وهو الفرح المحمود الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وهي جنة الدنيا

(١) مسلم (٣٤).

(٢) متفق عليه.

على الحقيقة، التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي العتبة لجنة الخلد ونعيم الأبد.

وهذه الكسرة التي تسبق الفرح لا بد لقلب المؤمن منها، فهي تطير وساوس العجب وتهدم مشيدات الكبر في القلب، فلا يزال الموفق خافض الطرف لربه غاض البصر حياءً منه وإشفاقاً من ذنبه، وهيبة وجلالاً له، وهي ما عناها أحد السلف حين سئل: أيسجد القلب؟ قال: نعم. يسجد سجدة لا يقوم منها إلا يوم القيامة. أي حين يعطى منشور السعادة كتاباً بيمينه، ويشر على رؤوس الأشهاد: لقد سعد فلان بن فلان سعادة لا شقاء بعدها. وكسرة القلب تقطع شهوة الحرام من نياطه، فهو معها كالمنجل مع النبات المتسلق على كريم الأشجار، فكلما برز غصن قطعه حتى تأخذ شجرة الإيثار في قلبه حظها من كل خير.

ولا بد للقلب من هذه الكسرة ضرورة، فهي سوط السائق لنفسه الأمانة حتى تصير لوامة، ثم تكمل بأن تدخل نادي النفوس المطمئنة، وهذا محتاج لطول مراس وحزم في السير، ولبصيرة وحكمة وعلم في السلوك، حتى لا تهلك الراحلة، فيكون كالمنبت لا ظهراً أبقي ولا طريقاً قطع.

لهذا قال الإمام ابن القيم عليه شآبيب الرحمة والرضوان ما معناه: القلب في سيره إلى الله تعالى كالطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فإن قطع الرأس هلك الطائر، وإن كسر الجناح سقط فصار عرضة لكل صائد وكاسر، والرجاء حادٍ والخوف سائق. ولا بد منهما جميعاً مع المحبة حتى يصل السالك بغيته. نسألك اللهم بوجهك الكريم رضوانك والجنة، ونعوذ به من سخطك

والنار، ووالدينا والمسلمين.

هذا ولنينا ﷺ وللـسلف في كسرة القلوب والخشوع والحياء والهيبة أمر عظيم، فـنينا صلوات الله وسلامه عليه كان يبكي من خشية الله، ويكثر الاستغفار، ويسمع لصدره في صلاته أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان أخشى الخلق لله، وأعلمهم به. وكان أبو بكر أسيفاً، فإذا صلى وقرأ القرآن بكى وأبكى، وكان على خدي عمر خطان أسودان من البكاء، وكان يسمع الآية فيمرض حتى يعاد، وكان عثمان من أشد الناس حياء من الله، حتى إن الملائكة لتستحي منه لحيائه من الله تعالى، وكان علي كثير الحزن دائم التواضع، كذلك الأصحاب رضوان الله عليهم. وكان ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع أو حائط.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاته قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لففي المسجد يصلي فما التفت. وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا.

قلت: وهذا الخشوع في الصلاة من آثار الخشوع في سائر الأوقات، فأعمال القلب يرفد بعضها بعضاً، وقرح الفؤاد الكسير لربه يجعل العمر محراب عبادة، فللناس شأن وللموفق شأن.

«وكان علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا توضأ اصفر لونه، فقليل له: ما هذا الذي

يعتادك عند الوضوء؟ قال: أتدرون بين يدي من أقوم»^(١)؟ والآخر لما أراد أن يلبي تلثم وبكى، فسئل، فقال: أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! ^(٢).

٨- الخلوة بالله عز وجل وقت نزوله إلى السماء الدنيا، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

قال الله عز وجل مشيئاً على أهل القيام: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ^(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[السجدة: ١٦، ١٧].

إن لإحياء الليل بالصلاة والدعاء والاستغفار والتلاوة شأنًا لا يعرفه إلا الموفقون ممن ألهموه، وله حلاوة لا يصفها إلا من ذاق شهدا بلسان قلبه وروحه، ولكن حالنا عن ذلك بعيد والله المستعان. ولقد كتب الأوائل والأواخر في هذا الموضوع العظيم لجلالته وأهميته وضرورة العبد له إذا أراد سلوك سابلة القانتين ^(٣).

(١) مختصر منهاج القاصدين (٢٦).

(٢) وسيأتي مزيد في باب الخشوع إن شاء الله تعالى.

(٣) وسألخص بعض تلك المعاني ووسائل حصولها من كتابي (رهبان الليل) لسيد بن حسين العفاني، و(كيف نتحمس لقيام الليل) لمحمد بن صالح آل عبد الله، =

وصلاة الليل معينة على الإخلاص. قال قتادة: كان يقال: ما سهر الليل منافق^(١). وهي سبيل لجمعية القلب على الله ولم شمله. قال الرافعي: إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك^(٢).

سيبدو لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبدو السرائر وهي سبب لعلو الهمة، وسمو الإرادة، قال ابن القيم: مثل القلب، مثل الطائر، كلما علا؛ بُعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات^(٣)، وكما قال أحد الصالحين موصياً: دقائق الليل غالية، فلا ترخصوها بالغفلة. وهي سبب لتزكية النفوس، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] فقد أقسم الله تعالى أحد عشر قسمًا متتاليًا ما وردت في القرآن إلا في هذا الموطن أن الفلاح في تزكية النفوس^(٤).

ولا بد من علو همة لنيل المنى، وإتباع الجسد في سبيل الفلاح كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الراحة للرجال غفلة، وأتعبُ الناس من جَلَّتْ مطالبه. وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. قال

ومؤلفات أخرى سأشير لها في الهامش إن شاء الله تعالى.

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٣٨).

(٢) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٤٤).

(٣) الجواب الكافي (٧٠).

(٤) رهبان الليل، العفاني (٣٦).

الزجاج: بات الرجل يبيت؛ إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم^(١).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُرْمَلُ﴾ (١) ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٣) ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (٤) ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (٦) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (٧) ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٨]، قال الطبري: قال ابن عباس: لما نزلت أول المزمل، كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة.

قال الشنقيطي رحمه الله: لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، ويسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل^(٢)، وقد أمر الله بترتيل كلامه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾: بينه تبينًا. وقرأ عليه علقمة - وكان حسن الصوت - فقال: رتل فذاك أبي وأمي، فإنه زين القرآن. وعن مجاهد: ترسل فيه ترسيلاً^(٣). وقال القرطبي: أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه على مهل وبيان مع تدبر المعاني^(٤). وقال الحافظ ابن حجر: أي اقرأه مترسلاً بتبيين الحروف وإشباع الحركات.

(١) تفسير القرطبي (٧ / ٤٧٨٧).

(٢) تنمة أضواء البيان، عطية محمد سالم (٦١٣).

(٣) مختصر قيام الليل للمقرئ.

(٤) القرطبي (١٠ / ٦٨٢٩).

وروى مسلم من حديث حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أن النبي ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها»^(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نشر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سُلِقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، قال الحسن: العمل به. وقال كذلك: ثقيلاً في الميزان يوم القيامة. وقال قتادة: تثقل والله فرائضه وحدوده. وقيل: ثقل الوحي^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن جرير: كل ساعة من ساعات الليل ناشئة، ونقلها عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وبعضهم حفظها بما بعد العشاء وبعضهم بما قبله^(٤)، وبعضهم خصه بما كان قياماً من نوم.

(١) الفتح (٣/ ٢٨).

(٢) عن محاسن التأويل (١٦/ ٥٩٥٩).

(٣) مختصر قيام الليل (١٠) بتصرف. وكلام ابن عباس: «نشأ: قام بالحبشية» البخاري (٣/ ٢٧) والجمهور على أنه ليس في القرآن شيء بغير العربية، وقالوا: ما ورد من ذلك فهو من توافق اللغتين. قلت: والحبشية لها جذور لغوية شبيهة بالعربية القديمة، بل بعض لغاتها عربية سامية في الأصل.

(٤) السابق (١٤، ١٥).

وقوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ قال ابن عباس: أدنى أن تفهموا القرآن. وقال قتادة: أثبت في الخير، وأبلغ في الحفظ.

والمعنى: أشد مواطأة للسان على القلب لصفاء الذهن من الصوارف المشغلات.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم كما قاله قتادة ومجاهد^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال ابن جرير: ومن الليل فاسهر به بعد نومة يا محمد بالقرآن، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة الليل^(٢). ومعنى نافلة: أي زيادة، وقيل: إنها كانت واجبة عليه ﷺ^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من أحب أن يهون عليه طول الوقوف يوم القيامة

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٢٢٧).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٤١).

(٣) ينظر: فتح الباري (٣/ ٦).

فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة^(١).

وقال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]. قال القرطبي: السيماء: العلامة، أي لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر. وقال الحسن: إذا رأيتهم تحسبهم مرضى وما هم بمرضى. وقال سفيان: يصلون بالليل، فإذا أصبحوا رأوا ذلك في وجوههم. وقال الضحاك: هي الصفرة. وقال عكرمة: هو السهر يُرى في وجوههم^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَسَبِّحْهُ وَأَذْبَرِ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] قال ابن جرير: هي الصلاة بالليل من أي وقت صلى^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] قال القرطبي: يعني التطوع بالليل، قاله ابن حبيب، وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة^(٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، قال محمد ابن نصر: قال عبد الله - أي ابن مسعود -: إذا فرغت من المكتوبة فانصب في قيام الليل^(٥).

(١) جامع البيان (٢٣ / ٢٠٠).

(٢) القرطبي (٦١١٣، ٦١١٤).

(٣) جامع البيان (٢٦ / ١٨٠).

(٤) القرطبي (٦٩٤١).

(٥) مختصر قيام الليل (٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] وعن نافع أن ابن عمر كان يحيي الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع هل أسحرنا؟ فيقول: لا. فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، قعد يستغفر ويدعو حتى يصبح^(١). وقال ابن زيد: السَّحَر هو سدس الليل الأخير^(٢).

وقال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم استغفروا^(٣).

قال شيخ الإسلام: ما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع في غيرها من العبادات، كما عرفه أهل القلوب الحية، والهمم العالية^(٤).

وامنع جفونك أن تذوق مناماً	واذر الدموع على الخدود سجاماً
واعلم بأنك ميت ومحاسب	يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه	فرضي بهم واختصهم خدماً ^(٥)
قوم إذا جنّ الظلام عليهم	باتوا هنالك سجداً وقياماً

(١) الطبري (٦ / ٢٦٤).

(٢) القرطبي (٢ / ١٢٨٠).

(٣) رهبان الليل، العفاني (١ / ١٣٣).

(٤) الفتاوى (١٦ / ٥١٢).

(٥) لا أعلم لتسمية العابد بالخادم أصلاً في الشريعة، وقد وجدت في تراجم أهل الكتاب لكتابهم المحرف استخدامهم لهذا اللفظ. فالأولى إبدال هذا اللفظ (الخادم - الخدمة) بـ (العابد - العبادة) أو (المطيع - الطاعة) ونحو ذلك.

خمس البطون من التعفف ضمراً لا يعرفون سوى الحلال طعاماً
وقال صلى الله عليه وسلم في قصة رؤيا ابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من
الليل»^(١).

قال مسلم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يعقد الشيطان على قافية رأس
أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضربُ على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن
استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت
عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي: الحكمة في الاختصار على الثلاث أن
أغلب ما يكون انتباه الإنسان في السحر، فإن اتفق له أن يرجع إلى النوم ثلاث
مرات لم تنقضي النومة الثالثة إلا وقد ذهب الليل^(٣). وقال النووي في قوله:
«طيب النفس»: معناه لسروره بما وفقه الله الكريم من الطاعة، ووعد به من
ثوابه، مع ما يبارك له في نفسه وتصرفه في كل أموره، مع ما زال عنه من عقد
الشيطان وتثييطه^(٤).

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) الفتح (٣/ ٢٦).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٤٣٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(١).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتنة! ماذا أنزل من الخزائن! من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا رَبِّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»^(٢). وأصحاب الحُجَر هن أزواجه ﷺ. وفي الحديث إيقاظ الرجل أهله للعبادة والصلاة. وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ طرقة فاطمة ليلة فقال: «ألا تصليان؟»^(٣)، وكل هذا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢].

وعن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكننت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «أيها الناس! أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٤).

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام،

(١) رواه مسلم.

(٢) البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٤٢).

وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»^(١). وفي حديث اختصاص الملائة الأعلى: «والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيَفْطُرُ يَوْمًا»^(٣). قَالَ الْحَافِظُ: وَإِنَّمَا صَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ أَحَبَّ مِنْ أَجْلِ الْأَخْذِ بِالرَّفْقِ لِلنَّفْسِ الَّتِي يَخْشَى مِنْهَا السَّامَةُ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» وَاللَّهُ يَحِبُّ أَنْ يَدِيمَ فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ^(٤).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ فِي اللَّيْلِ لِسَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»^(٥).

(١) ابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٥٤).

(٢) أحمد والترمذي وقال: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد صححه الإمام أحمد وابن رجب وجمع طرقه في «اختيار الأولى»، وكان آخر الأمرين من الألباني القول بصحته كما في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٥).

(٣) متفق عليه.

(٤) الفتح (٣/ ٢٢).

(٥) مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»^(١). وفي رواية: «فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»^(٢). وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه، ثم يبسط يديه فيقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»^(٣).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»^(٤).

قوله: «قبلكم» قال المناوي: أي هي عادة قديمة واطب عليها الكمال السابقون، واجتهدوا في إحراز فضلها. وقوله: «وقربة إلى الله تعالى»: نكّر القربة إيذاناً بأن لها شأنًا، وأتى بالجملة ولم يعطف قربة على دأب الصالحين لتدل باستقلالها على مزيد تقريب.

قال ابن الحاج: وفي القيام من الفوائد: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه فضيلة الصدقة في آخر الليل لأنها أخفى عن العيون وأدعى للإخلاص، وأوفق للوقت المبارك حال النزول الإلهي.

(٤) الترمذي والحاكم وقال: على شرط البخاري. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨).

العاصف الورق الجاف من الشجرة، وينور القبر، ويحسن الوجه، ويذهب الكسل وينشط البدن، وترى الملائكة موضعه من السماء كما يتراءى الكوكب الدري لنا من السماء^(١)، وقد أثبت الطب الحديث فوائد قيام الليل الصحية سواء على القلب أو الرئتين أو الجهاز العصبي أو العضلي أو الهضمي أو العظمي^(٢).

وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّه استغناؤه عما في أيدي الناس»^(٤).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(٥). قال المنذري في الترغيب: والمراد بالحسد هنا: الغبطة، وهي تمنى مثل ما للمُغْبَط، وهذا لا بأس به، وله نيته، فإن تمنى زوالها عنه فذلك حرام، وهو

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٣٥١).

(٢) انظر: رهبان الليل (١ / ١٧٥-١٧٧).

(٣) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠١٢).

(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٩٠٣).

(٥) متفق عليه.

الحسد المذموم.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصَّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَامُ: أَيُّ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتَهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفَعْنِي فِيهِ. يَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتَهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ ثَارَ عَنْ وَطْأَتِهِ وَلَحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَجِبِّهِ^(٢) إِلَى صَلَاتِهِ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: يَا مَلَأْتُكَ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوُطْأَتِهِ مِنْ بَيْنِ جِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيَّ عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي...»^(٣).

وتأمل قوله: «ثار» وما فيها من العزيمة وعلو الهمة، ولم يقل «قام».

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، وَيُضْحِكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ؛ الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِتْنَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا أَنْ يُقَاتَلَ، وَإِذَا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ وَيَكْفِيَهُ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا كَيْفَ صَبَرْتُ بِنَفْسِهِ. وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي، وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ. وَالَّذِي إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ، فَسَهَرُوا،

(١) أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) وفي لفظ أحمد: حَبِّهِ.

(٣) أحمد وأبو يعلى والطبراني وابن حبان وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٢٦).

ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء»^(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عُقْدٌ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة. فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه، ويسألني، ما سألتني عبدي هذا فهو له»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»^(٣).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كتاب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»^(٤).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ذكرتُ القيام، فقال بعضهم: إن رسول الله

(١) الطبراني في الكبير وحسنه، كذلك حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٥).

(٢) أحمد وابن حبان واللفظ له. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٧).

(٣) أحمد وأبو داود. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٨٨).

(٤) أبو داود والحاكم عن أبي سعيد وأبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٠٦).

عَنْ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نصفه، ربه، فُواق حلب ناقة، فواق حلب شاة»^(١). والفواق: هو وقت ما بين الحلبتين حتى يعود حليب جديد إلى الضرع.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين»^(٢).

وقال ﷺ: «من قرأ بمئة آية في ليلة كُتِبَ له قنوت ليلة»^(٣).

وعن فضالة بن عبيد وتميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قَالَ: «من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار من الأجر، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة، يقول ربك عز وجل: اقرأ وارق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول الله عز وجل للعبد: اقْبُضْ، فيقول العبد بيده: يا رب! أنت أعلم. يقول: بهذه الخلد، وبهذه النعيم»^(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه، أو قال: أذنيه»^(٥).

(١) أبو يعلى. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٣).

(٢) أبو داود وابن خزيمة، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٢).

(٣) أحمد والنسائي عن تميم، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٤).

(٤) ابن خزيمة والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٣).

(٥) متفق عليه.

وعن عبد الله بن قيس قال: قالت عائشة: «لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً»^(١).

وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سألت رسول الله ﷺ: أي قيام الليل أفضل؟ قال: «جوف الليل الغابر، أو نصف الليل، وقليل فاعله»^(٢).

وقد كان لنبينا ﷺ هدي جميل في القيام. فمن ذلك قوله ﷺ: «إن أخوا لكم لا يقول الرفث»^(٣) يعني ابن رواحة القائل:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقعُ
بيت يحافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وكان يأمر ويُرغب في النوم على طهارة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات طاهراً بات في شِعَارِهِ»^(٤) ملك، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان، فإنه بات طاهراً»^(٥).

(١) أبو داود وابن خزيمة، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أحمد. وقال الساعاتي في الفتح الرباني: سنده جيد (٤ / ٢٣٥).

(٣) البخاري في كتاب التهجد.

(٤) الشعار: الملابس التي تلي الجسد مباشرة (ملابس داخلية)، أما الدثار فهي الخارجية، وفي الصحيح: «الأنصار شعار والناس دثار».

(٥) ابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ٣٤٥).

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرِ طَاهِرًا فَيَتَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(١).
وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «طَهَرُوا هَذِهِ الْأَجْسَادَ، طَهَّرَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَبِيتُ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ مَعَهُ فِي شِعَارِهِ مَلَكٌ، لَا يَتَقَلَّبُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ، فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا»^(٢).
وَإِذَا صَدَقَتِ النِّيَّةُ تَمَّ الْأَجْرُ بِحَمْدِ اللَّهِ، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ، وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يَصْلِي مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ»^(٣). فَإِنْ فَاتَتْهُ مِنَ اللَّيْلِ قِضَاهَا فِي الضُّحَى شَفَعًا.

وَمِنْ هُدْيِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَذْكَارُ النَّوْمِ، وَالنَّوْمُ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ، وَوَضْعُ الْكَفِّ الْيَمْنِي تَحْتَ الْخَدِّ الْأَيْمَنِ، وَالنَّوْمُ عَلَى فِرَاشٍ خَشَنٍ، وَيَذْكُرُ رَبَّهُ إِذَا تَضَوَّرَ^(٤) فِي مَنَامِهِ، وَحِينَ يَقُومُ مِنَ النَّوْمِ، فَإِذَا قَامَ شَاَصَ فَاهُ بِالسَّوَاكِ^(٥)، وَمَسَحَ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَذَكَرَ اللَّهَ وَقَرَأَ الْعَشْرَ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. ثُمَّ تَطَهَّرَ الطَّهَارَةَ التَّامَةَ، وَنَصَبَ قَدَمَيْهِ لِرَبِّهِ وَصَلَى مَا كُتِبَ لَهُ.

(١) أَبُو دَاوُدَ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ (١/ ٣٤٥).

(٢) الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ (١/ ٣٤٥).

(٣) النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَه. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ (١/ ٣٤٦).

(٤) تَضَوَّرَ: تَلَوَّى وَتَقَلَّبَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَالْمُرَادُ انْقِلَابَ عَلَى شِقِّهِ الْآخَرِ، وَهَذَا مِنْ جَمْعِيَّتِهِ عَلَى الذِّكْرِ، فَيَذْكُرُ رَبَّهُ عِنْدَ أَدْنَى أَدْنَى انْتِبَاهِهِ.

(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أما وقت قيامه ﷺ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصلياً إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه»^(١).

وعن مسروق قال: سألت عائشة عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان يحب الدائم» قال: قلت: أي حين كان يصلي؟ فقالت: «كان إذا سمع الصارخ قام فصلى»^(٢)، والصارخ الديك، وغالباً يكون صراخه في منتصف الليل. وقال ابن عباس: نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان ﷺ ينام أول الليل ويحيي آخره»^(٣). وكان أحياناً يصلي بين المغرب والعشاء، وهي الناشئة عند بعضهم، فعن عبيد مولى رسول الله ﷺ «أن النبي ﷺ كان يصلي بين المغرب والعشاء»^(٤). أما عدد ركعاته بالليل ﷺ فكانت غالباً بين الإحدى عشرة ركعة والثلاث عشرة ركعة^(٥). وقال لمن سألته عن صلاة الليل: «مثنى مثنى»^(٦).

(١) النسائي، وصححه الألباني والأرنؤوط. مشكاة المصابيح (٨٦).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) أحمد والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٣٨).

(٥) وانظر تفصيل ذلك والجمع بين الأحاديث: شرح النووي لصحيح مسلم (٣٨٨)

باب صلاة الليل والوتر. وانظر: رهبان الليل (١/ ٢١٣-٢١٨).

(٦) متفق عليه.

وقال القاضي عياض: لا خلاف أنه ليس في ذلك حد لا يزداد عليه ولا ينقص منه، وأن صلاة الليل من الطاعات التي كلما زاد فيها زاد الأجر^(١).

أما الكيفيات التي صلى بها رسول الله ﷺ صلاة الليل والوتر فقد فصلها الألباني رحمه الله تعالى كالتالي:

- ١- يصلي ثلاث عشرة ركعة، يفتتحها بركعتين خفيفتين^(٢).
- ٢- يصلي ثلاث عشرة ركعة، منها ثمانية يسلم بعد كل ركعتين، ثم يوتر بخمس لا يجلس ولا يسلم إلا في الخامسة.
- ٣- يصلي إحدى عشرة ركعة، يسلم بعد كل ركعتين، ثم يوتر بواحدة.
- ٤- يصلي إحدى عشرة ركعة، أربعاً بتسليمة واحدة، ثم أربعاً مثلها، ثم ثلاثاً^(٣).

(١) المنهاج للنووي (٣٨٨).

(٢) ويرجح الألباني أن الركعتين الخفيفتين في أول قيام الليل هي سنة العشاء. ويكون على ذلك أنه يقوم بعدما ينام. وليس هذا بظاهر والله أعلم.

(٣) واستدل بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتفق عليه: «ما كان رسول الله ﷺ يزيّد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسلم عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسلم عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً». قال النووي في قولها: «يصلي أربعاً»: «وهذا لبيان الجواز، وإلا فالأفضل التسليم من كل ركعتين، وهو المشهور من فعل الرسول ﷺ، وأمره بالصلاة مثني مثني» اهـ.

قلت: ونازع بعضهم في ذلك وقال: إن معنى قولها: «يصلي أربعاً» أي إنه يطيل

٥- يصلي إحدى عشرة ركعة، منها ثمان ركعات لا يقعد فيها إلا في الثامنة، يتشهد ويصلي على النبي ﷺ، ثم يقوم ولا يسلم، ثم يوتر بركعة، ثم يسلم، ثم يصلي ركعتين وهو جالس^(١).

٦- يصلي تسع ركعات، منها ست ركعات لا يقعد إلا في السادسة منها، يتشهد ويصلي على النبي ﷺ، ثم يقوم ولا يسلم، ثم يوتر بركعة، ثم يسلم، ثم يصلي ركعتين وهو جالس^(٢).

الاثنتين ثم يسلم ثم يقوم فيطيل الاثنتين، ثم يستريح، ثم يقوم لمثل ذلك، فكانت الراحة هي الفاصل بين الأربع والأربع، وبهذا يلتئم مع أمره بالصلاة مثنى مثنى. قلت: وهو الأحوط.

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد» رواه مسلم.
(٢) ملخص عن صلاة التراويح للألباني (٨٧. ٩٤).

وفي المسند بسند حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، يقرأ فيهما ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٥/ ٢٦٠). وفيه عن عائشة وأم سلمة بنحوه. قال ابن القيم في الزاد بعد ذكرها: وقد أشكل هذا على كثير من الناس فظنوه معارضا لقوله ﷺ: «اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وترا» (مسلم ٧٥١). وأنكر مالك هاتين الركعتين، وقال أحمد: لا أفعله، ولا أ منع من فعله.

والصواب أن يقال: إن هاتين الركعتين تجريان مجرى السنة، وتكمل الوتر، فإن الوتر عبادة مستقلة، ولا سيما إن قيل بوجوبه، فتجري الركعتان بعده مجرى سنة المغرب من المغرب، فإنها وتر النهار، والركعتان بعدها تكميل لها، فكذاك

ثم قال الألباني رحمه الله بعد تفصيل ما سبق: هذه هي الكيفيات التي كان رسول الله ﷺ يصلي بها صلاة الليل والوتر، ويمكن أن يُزاد عليها أنواع أخرى، وذلك بأن ينقص من كل نوع من الكيفيات المذكورة سابقاً ما شاء من الركعات، وحتى يجوز له أن يقتصر على ركعة واحدة، لقوله ﷺ: «فمن شاء فليوتر بخمس، ومن شاء فليوتر بثلاث، ومن شاء بواحدة».

وكان ﷺ يطيل صلاة الليل، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء. قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه^(١).

وقال ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت»^(٢).

الركعتان بعد وتر الليل. اهـ.

قلت: وسبب توقف بعض أهل العلم فيه أنه ليس بقوة الأحاديث القولية أو العملية في قيام الليل، فمن قال به؛ فلأنه قد صحَّ سنده لديه، وراه مكملًا لغيره، ولا مضارة بينهما. ومن توقف أو أنكر فلأن الحديث لم يصح لديه، أو أنه رأى الجمع عن طريق إلحاق الركعتين بالفجر، فيجعلهما السنة القبلية، ويكدر على ذلك أنه صلاها جالسًا، وبعد الوتر مباشرة، ولو كانت للفجر لذكر الرواة ذلك، وأحاديث ذكر سنة الفجر لم تذكر وصلها بالوتر. فالأظهر - والله أعلم - العمل بها أحيانًا لصحة سندها، وتركها أحيانًا لعدم ذكر غالب الرواة لها.

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديث حذيفة لما صلى معه أنه قرأ بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وجد^(٢) رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئاً فلما أصبح قيل: يا رسول الله، إن أثر الوجع عليك لبين. قال: «إني على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال»^(٣).

وكان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث^(٤).

(١) والمائدة أو الأنعام. شك شعبة. رواه أبو داود، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٠٠).

(٢) أي وجد الألم والتعب أو المرض. وليس هو الوجد الصوفي بحال!
(٣) أخرجه الحاكم وقال: على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. قلت: وقد صح أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام بالقرآن كله في ركعة. قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد اختبرت ذلك فصليت العشاء ليلة، ثم قمت بالقرآن في ركعة وختمته حين اقترب الفجر. ذكره تلميذه الشيخ علي الشبل.

(٤) كما في حديث عائشة عند ابن سعد (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٤٢). ويرى بعضهم أن الزمن الفاضل والمكان الفاضل يختلف فيه الحال، ورجح ذلك ابن رجب، وقال ابن باز: بل هو على عمومته، فلا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث. وهذا على سبيل الأفضلية مع جواز قراءته في أقل من يوم كما كان الشافعي يختم القرآن في رمضان مرتين في كل يوم وليلة. وكان جدي محمد الدميحي رَحِمَهُ اللَّهُ في شبابه يختم في رمضان كل يوم وليلة ختمتين. وهذه المسألة مبنية على أفضلية كثرة الحروف أم عمق التدبر، والأظهر أن الثانية أولى ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

وكان عليه السلام يرتل القرآن ترتيباً كما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]. قال ابن عباس: بينه تبيناً.

كما في حديث حفصة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقرأ بالسورة حتى تكون أطول من أطول منها» (١).

وحديث أم سلمة رضي الله عنها حيث نعتت قراءته بأنها مفسرة حرفاً حرفاً (٢).

وكان يمد قراءته مدّاً، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «كان يمدُّ مدّاً» (٣).

وكان يقف على رؤوس الآي. كما روت أم سلمة أنه «كان يُقَطِّعُ قراءته آية

آية، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ثم يقف» (٤).

وقد سار على هديه صحابته وأتباعه، قال علقمة: صليت مع ابن مسعود من

أول الليل إلى انصرافه من الفجر، فكان يرتل ولا يرتجع، ويسمع من في المسجد.

وقرأ علقمة على عبد الله رضي الله عنه وكان حسن الصوت فكأنه عَجَل. قال: رتّل

فذاك أبي وأمي فإنه زَيْنُ القرآن. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تهذّوا القرآن كهذ

الشعر، ولا تنثروه كثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن

مُبَرِّكٌ لِيَذْبَرُوا عَائِيَّتِهِ ۖ [ص: ٢٩] هذا إذا تساوى الزمان.

(١) مسلم.

(٢) الترمذي والنسائي. وصححه الألباني في المشكاة (١٢١٠).

(٣) البخاري.

(٤) أحمد والترمذي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٧٦).

هم أحدكم آخر السورة.

وعن أبي مليكة: سافرت مع ابن عباس من مكة إلى المدينة وهم يسرون إليها، وينزلون بالليل، فكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم نصف الليل، فيقرأ القرآن حرفاً حرفاً. ثم حكى قراءته، قال: ثم يبكي حتى نسمع له نحيباً.

وكان محمد بن سيرين يحب الترتيل في القرآن ويقول: هذه الأصوات التي تقرأونها محدثة. وقيل لمجاهد: رجل يعجل في القراءة، وآخر يترسل. قال: إن أحب الناس إلى الله أعقلهم عنه. وقال مجاهد وطاووس: كانوا يستحبون إذا قام الرجل من الليل أن يمد صوته بالآية من القرآن^(١).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرْجِعُ صوته أحياناً بالقراءة، فعن أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ، وأنا نائمة على فراشي يرجع القرآن»^(٢).

قال الحافظ: الترجيع: هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله التردد. وترجيع الصوت: ترديده في الحلق. وقال: والذي يظهر أن في الترجيع قدراً زائداً على الترتيل، وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: معنى الترجيع: تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقال المناوي: وذلك ينشأ غالباً عن أريحية وانبساط^(٣).

(١) مختصر قيام الليل (٥٦، ٥٧).

(٢) أحمد وأهل السنن بسند صحيح.

(٣) رهبان الليل (١/ ٢٣٨).

وقال القاضي عياض: أجمع العلماء على تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها^(١).
وفي حديث عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق على صحته: «قرأ النبي ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته، فرجع في قراءته. قال معاوية: لولا أني أخاف أن يجتمع الناس علي لحكيت لكم قراءته. وقد حكى عبد الله بن مغفل ترجيعه عليه الصلاة والسلام بمد الصوت في القراءة، نحو: آآ. قال ابن الأثير: وهذا حصل منه والله أعلم يوم الفتح لأنه كان راكباً فحدث الترجيع في القراءة.
وكان ﷺ بأبي هو وأمي ونفسي وولدي ييكي في صلاته، فعن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، وفي صدره أزيز المرجل من البكاء»^(٢). وحدثت عنه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قام ليلة من الليالي فقال: «يا عائشة! ذريني أتعبد لربي» قالت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل ييكي حتى بَلَ حجره، ثم بكى، فلم يزل ييكي حتى بَلَ الأرض. وجاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه ييكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»^(٣).

(١) المنهاج للنووي (٢/ ٤٤٨).

(٢) أبو داود والترمذي بسند صحيح.

(٣) رواه أبو الشيخ وابن حبان وصححه الألباني.

وكان ﷺ يسرّ بالقراءة في صلاة الليل تارة ويجهر بها تارة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سُئِلَتْ: كيف كانت قراءة النبي ﷺ بالليل أيجهر أم يسر؟ قالت: كل ذلك قد كان يفعل، ربما أسرّ بالقراءة وربما جهر^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانت قراءة النبي ﷺ ربما يسمعه من في الحجرة، وهو في البيت»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت قراءة النبي ﷺ بالليل يرفع طوراً ويخفض طوراً»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به»^(٤). قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: جاءت أحاديث بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل من في حق من يخاف، فإن لم يخف فالجهر أفضل بشرط ألا يؤدي غيره من مُصَلٍّ أو نائم أو غيرهما.

وكان من هديه السؤال والتعوذ والتسبيح في القراءة كما مرّ في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وربما قام بآية واحدة، كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام النبي ﷺ

(١) الترمذي والنسائي والحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أبو داود والترمذي واللفظ له، وصححه الألباني في مختصر الشئائل (٢٧٥).

(٣) أبو داود والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٣).

(٤) متفق عليه.

حتى أصبح بآية، والآية ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] (١) (٢).

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الصلاة كلاماً نفيساً أنقله بطوله مع شيء من الاختصار: «قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة الركوع والسجود والأذكار، وقد علق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته الخشوع لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً، وكلما ازداد طمأنينة ازداد خشوعاً، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل، فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويج تحلة القسم، ويقولون: يكفيننا أدنى ما يقع عليه الاسم، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم فتعرضها على الرب جل جلاله، بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم. فليس من عمَدٍ إلى أفضل ما يقدر عليه فيزيّنه ويحسنه ما استطاع، ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه، كمن يعمد إلى أسقط ما

(١) أحمد والنسائي والحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الأرناؤوط في تعليقه على الزاد (١/ ٣٣١).

(٢) وانظر: زاد المعاد (١/ ٣٢٢، ٣٤١)، والصلاة لابن القيم رحمه الله.

عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع. وليس من كانت الصلاة ربيع قلبه، وحياة روحه، وقرّة عينه، وجلاء حزنه، وذهاب همّه وغمّه، ومفرّجاً له إليه في نوائبه ونوازله، كمن هي سحت لقلبه، وقيد لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه، فهي كبيرة على هذا، وقرّة عين وراحة لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥)

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿البقرة: ٤٥، ٤٦﴾ فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبته فيهم، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله. قال الإمام أحمد: «إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبته في الإسلام على قدر رغبته في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله، واحذر أن تلقى الله تعالى ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك» (١).

وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة، كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مخبت خاشع له، قريب منه، سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فارتفع في رياض معاني القرآن، وخلط فيه بشاشة

الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوّها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همّه على الله، وقرّت عينه به، وأحسّ بقربه من الله قريباً لا نظير له، ففرّغ قلبه له، وأقبل عليه بكلّيته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه، فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه وإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول.

وهلّ هنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات، تحصل لمن تفقّه قلبه في معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعاً من صلاته ومحلاً منه، فإذا انتصب قائماً بين يدي الرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: الله أكبر؛ شاهد كبريائه، وإذا قال: سبحانه اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك^(١)، شاهد بقلبه ربّاً منزهاً عن كل عيب، سالماً من كل نقص، محموداً بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه، فلا يذكر على قليل إلا كثره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا على آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا رده خاسراً داحراً، وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان هذا شأن اسمه الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المسمّى أعلى وأجل، ومعنى: تعالى جدك: أي ارتفعت عظمتك، وجلّت فوق كل عظمة وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُ

(١) مسلم (٢٩٩) موقوفاً على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ [الجن: ٣] فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها، غير المعطل لحقائقها.

وإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، وباعده عن قربه، ليكون أسوأ حالاً. فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله: «حمدني عبدي» فإذا قال: الرحمن الرحيم، انتظر الجواب بقوله: «أثنى علي عبدي» فإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «مجدني عبدي»^(١). فيا لذة قلبه، وسرور نفسه بقول ربه: «عبدي» ثلاث مرات! فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدني عبدي، وأثنى علي عبدي، ومجدني عبدي.

ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنی، وهي: الله، والرب، والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهاً معبوداً موجوداً مخوفاً، لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ﴾ [الروم: ٢٦].

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وشاهد من ذكر اسمه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قيومًا قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه، وتفرد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ جل جلاله، ربًّا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحببًا إليهم بصنوف النعم، وأوسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته إلى كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضًا برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته، فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منهم،

فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد هذا الاسم؛ شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقام به بين يدي ربه، وأهله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكاً قاهراً قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز. فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً، لعزته تعنو الوجوه وتسجد.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففيها سرّ الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلّ الوسائل، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مئة كتاب، وأربعة كتب، جمع معانيها في أربع، وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيها في المفصل^(١)، وجمع معانيها في الفاتحة، وجمع معانيها في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يُعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه: الله والرب

(١) الأرجح أنه من سورة (ق) إلى سورة الناس.

والرحمن تطابقاً لأجل المطالب من عبادته وإعانتة وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الداعي ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها البتة، فإنه محتاج إليه في كل نفس وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله، ولما كان العبد مفتقراً في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره، من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثلما حصل له في الماضي، وأمور هو خال من اعتقاد فيها فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل والصواب فيها فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فرضى الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة^(١).

ثم بين أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم،

(١) فللهداية ثلاث مراتب: العلم ثم العمل ثم الثبات عليه حتى الموافقة، وكلها مجتمعة

في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون الضالين، وهم الذين عبدوا الله بغير علم. فالطائفتان اشتركتا في القول على الله في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسيل المنعم عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علمًا وعملاً.

فلما فرغ من هذا الشاء والدعاء والتوجيه، شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين^(١) يكون كاختم له وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة، كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله، وعبودية اليدين، وشعار الانتقال من ركن إلى ركن.

ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه، واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده، وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جل جلاله، ولهذا نهى عن قراءة القرآن في الركوع والسجود^(٢)؛ لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض، ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيتئتهما، فشرع للراكن أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، فأفضل ما يقول الراكن على الإطلاق: سبحان ربي العظيم، فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعين المبلغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال: «اجعلوها في ركوعكم»^(٣)، وأبطل كثير من أهل

(١) ومعنى «آمين»: أي اللهم استجب.

(٢) كما في مسلم (١/ ٣٤٨).

(٣) أحمد (٤/ ١٥٥)، أبو داود (١/ ٣٨٥) وفي سنده مقال.

العلم صلاة من تركها عمداً وأوجب سجود السهو على من سها عنها^(١)، وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث والسنن، وسر الركوع تعظيم الرب جل جلاله بالقلب والقالب والقول، ولهذا قال ﷺ: «وأما الركوع فعظموا فيه الرب»^(٢).

ثم يرفع رأسه عائداً إلى أكمل هيئاته، وجعل شعار هذا الركن حمداً لله والثناء عليه وتحميده، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: «ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»^(٣). أي قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب تبارك وتعالى بعد ذلك مما يشاؤه، فحمده قد ملأ كل موجود، وملأ ما سيوجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «أهل»^(٤) الثناء والمجد، فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة من الحمد والثناء والمجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «أحق ما قال العبد» تقريراً لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد. ثم أتبع ذلك بالاعتراف والعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد «وكلنا لك عبد» ثم عقب ذلك قوله: «لا مانع لما

(١) ولا يقوم غيره من الأذكار مقامه، ومال إليه شيخ الإسلام، كذلك (سبحان ربي

الأعلى) في السجود.

(٢) مسلم (١/٢٠٧).

(٣) متفق عليه.

(٤) وتصح بالضم والفتح.

أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك»^(١). ويقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضًا، فيقوله في هذين الموضعين اعترافًا بتوحيده، وأن النعم كلها منه، وهذا يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطى لم يطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع لم يطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يدين من كرامته جدود^(٢) بني آدم وحظوظهم من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده التقرب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

ثم ختم ذلك بقوله: «اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»^(٣)، كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصلاة بالاستغفار^(٤) وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء من حمده وتمجيده والثناء عليه، والاعتراف له بالعبودية، والتوحيد، والتنصل إليه من الذنوب والخطايا، فهو ذكر مقصود، في ركن

(١) مسلم (١/ ١٩٤).

(٢) الجد: الحظ والغنى.

(٣) متفق عليه.

(٤) النسائي (١/ ١٦٧) بسند صحيح.

مقصود، ليس بدون الركوع والسجود.

ثم يكبر ويخر الله ساجداً غير رافع يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود كما ينحط الوجه، فهما ينحطان لعبوديتهما، فأغنى ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود، لأنهما يرفعان معه كما يوضعان معه، وشرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية.

والسجود سر الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتم الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد^(١)، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة، ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديراً بالألا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو ترك لطبعه ودواعي نفسه لتكبر وأثر، وخرج عن أصله الذي خرج منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما! وأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفطرته، وخشوعاً له، وتذلاً بين يديه، وانكساراً له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه. وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى، وخشوعاً له، وتذلاً لعظمته، واستكانة لعزته،

(١) مسلم (١/ ٣٥٠).

وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، ورده إليها، ووعدته بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه وأصله وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها، وميتًا في بطنها، وجعلت له طهورًا ومسجدًا.

فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعقر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا، وإلقاء باليدين، وقال مسروق لسعيد بن جبير: ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في هذا التراب. وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قاصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين^(١).

ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين^(٢)، ومن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلاه بأديم وجهه، واعتماده على الأرض، بحيث ينالها ثقل رأسه، وارتفاع أسافله عن أعاليه، فهذا من تمام السجود، ومن كماله أن يكون على هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحظه من الخضوع، فيجافي بطنه عن فخذه، وفخذه عن ساقه، ويجافي عضديه عن جنبه، ولا يفرشهما على الأرض ليستقل كل عضو منه بالعبودية. ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت، فلي

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم (١/٣٥٥).

النار^(١).

لذلك أثنى الله على الذين يخرون سجداً عند سماع كلامه، وذم من لا يقع ساجداً عنده، ولذلك كان قول من أوجبه قوياً في الدليل.

ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان، وقربه من الله بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرق العبودية، متضمنة لأقسامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه^(٢)، وكان السجود أفضل أركانها الفعلية وسرّها الذي شرعت لأجله، وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «سبحان ربي الأعلى» فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم يرد عن النبي ﷺ أمره في السجود بغيره حيث قال: «اجعلوها في سجودكم»^(٣)، وكان وصف الرب بالعلو في هذه الحالة في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط إلى السفلى على وجهه، فذكر علو ربه في حال سقوطه. وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه ونزه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه.

ثم لما شرع السجود بوصف التكرار لم يكن بدّ من الفصل بين السجدين، ففصل بينهما بركن مقصود، شرع فيه من الدعاء ما يناسبه ويليق به، وهو سؤال

(١) مسلم (١/٨٧).

(٢) الترمذي (١٠١/١٠) بسند صحيح.

(٣) أحمد (٤/١٥٥)، أبو داود (٨٦٩)، ابن ماجه (٣٨٧/١)، وسنده ضعيف.

العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق^(١)، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة، ودفع شر الدنيا والآخرة، فالرحمة تحصل الخير، والمغفرة تقي الشر، والهداية توصل إلى هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قوام البدن من الطعام والشراب، وما به قوام الروح والقلب من العلم والإيمان. وجعل جلوس الفصل محلاً لهذا الدعاء لما تقدمه من طلب رحمة الله، والثناء عليه، والخضوع له، فكان هذا وسيلة للداعي ومقدمة بين يدي حاجته.

فهذا الركن مقصود كذلك الدعاء فيه، فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة، فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد ثم أتى بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه، ثم عاد إلى الحمد والثناء، ثم كمل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة، بقي سؤال حاجته واعتذاره، فشرع له أن يتمثل في الخدمة فيقعد قعود العبد الذليل، جاثياً على ركبتيه كهيئة الملقى نفسه بين يدي سيده راغباً راهباً معتذراً إليه، مستعداً إليه على نفسه الأمانة بالسوء، ثم شرع له تكرير هذه العبودية مرة بعد مرة إلى إتمام الأربع^(٢).

كما شرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة لأنه أبلغ في حصول المقصود، وأدعى إلى الاستكانة والخضوع، فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها

(١) أبو داود (٣٧٧ / ١) بسند حسن. كذلك أهل السنن إلا النسائي، بلفظ: «اللهم اغفر لي، وارحمي، واهدني، واجبرني، وعافني، وارزقني، وارفعني» وعند أبي داود «رب اغفر لي، رب اغفر لي».

(٢) أي في الصلاة الرباعية.

وتكبيرها، شُرِعَ له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المنخشف المتذلل المستكين، جاثياً على ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها، وعوضاً عن تحية المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه، فإن الناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يتحبون بها إليهم، فلما جاء الإسلام أُمرُوا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله، فالتحية هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات من كل ما سواه، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه.

وكذلك قوله: «**والصلوات**» فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله عز وجل، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به. وكذلك قوله: «**والطيبات**» فهي صفة الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيب وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماءه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، فكله طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتية إليه.

قال عنها ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»^(١)، ولا يجاوره من عباده إلى الطيبون، كما يقال لأهل الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

[الزمر: ٧٣]، وقد أحكم سبحانه شرعه وقدره أن الطيبين للطيبات، فإذا كان سبحانه هو الطيب على الإطلاق، فالكلمات الطيبات والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات، كلها له سبحانه، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيبة إلا له.

ولما كان السلام من أنواع التحية، وكان المسلم داعياً لمن يحيه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطلب منه السلام، لا يُطلب له السلام، فإنه السلام ومنه السلام؛ شرع أن يطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته، وارتضاهم لنفسه، وشرع أن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة في هذه التحية.

ثم ختمت هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام، فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين تشبيهاً لها بجلسة الفصل بين السجدين، وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين بنشاط وقوة، بخلاف ما إذا والى بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثني مثني^(١) وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

(١) حديث «صلاة الليل مثني مثني» متفق عليه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب، يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمته هذه النعمة على يده، فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته ثم بالثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل له: تخير من الدعاء أحبه إليك، فذاك هو الحق الذي عليك، وهذا هو الحق الذي لك^(١)، وشرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه تكميلاً لقرّة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يصلي عليه وعلى آله كما صلى على إبراهيم وآله، والأنبياء كلهم بعد إبراهيم من آله، ولذلك كان المطلوب لرسول الله ﷺ صلاة مثل الصلاة على إبراهيم وعلى جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصلاة^(٢) أكمل ما يصلى على رسول الله ﷺ بها وأفضل.

فإذا أتى المصلي بها أمر أن يستعيز بالله من مجامع الشر كله، فإن الشر إما عذاب في الآخرة وإما سببه، فليس الشر إلا العذاب وأسبابه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه الفتنة، وهي نوعان: كبرى وصغرى، فالكبرى: فتنة الدجال، وفتنة الممات، والصغرى: فتنة الحياة التي يمكن

(١) منة من الله تعالى وفضلاً كما وضحه المصنف رَحِمَهُ اللهُ فِي مواطن عدداً:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ففضله وهو الكريم الواسع

(٢) وتسمى الصلاة الإبراهيمية، ولها صيغ في الصحيحين.

تداركها بالتوبة، بخلاف فتنة الملمات وفتنة الدجال، فإن المفتون فيهما لا يتداركهما.

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام، وأنفع للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي ﷺ كلها كانت في الصلاة من أولها إلى آخرها. فكان يدعو في الاستفتاح أنواعاً من الدعاء، وفي الركوع، وبعد رفع رأسه منه، وفي السجود. وبين السجدين، وفي التشهد قبل التسليم.

وعلم الصديق دعاء يدعو به في صلاته^(١) وعلم الحسن بن علي دعاء يدعو به في قنوت الوتر^(٢)، وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع^(٣)، وسر ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يديه ربه، فسؤاله في هذا الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه، وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ فقال: «جوف الليل الآخر، وأدبار الصلوات المكتوبة»^(٤)، ودبر الصلاة جزؤها الأخير كدبر الحيوان ودبر الحائط،

(١) متفق عليه من حديث أبي بكر قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

(٢) أبو داود (٢/٦١٩)، والنسائي (٣/٢٧٥)، وابن ماجه (١٠/٣٧٢)، وصححه سننه أحمد شاكر. والدعاء هو «اللهم اهديني فيمن هديت...».

(٣) متفق عليه. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع» لفظ البخاري.

(٤) الترمذي (٥/٥٢٦)، والنسائي (١٠٨/٥١) بسند صحيح.

وقد يُراد دبرها بعد انقضائها بقرينة تدل عليه^(١)، كقوله: «يسبحون الله ويحمدونه ويكبرونه دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»^(٢)، فهنا دبرها بعد الفراغ منها.

ثم ختمت بالتسليم، وجعل تحليلاً لها يخرج به المصلي منها، كما يخرج بتحليل الحج منه، وجعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه، فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام، وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مصلٍّ وإن كان منفرداً، فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة، وكما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريماً لها، فتحريمها تكبير الرب تعالى، الجامع لإثبات كل كمال له، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده، وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها. فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون «الله أكبر»، وأي تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد، وهذا التحليل المتضمن للإحسان إلى إخوانه المؤمنين، فانفتحت بالإخلاص، وتمت بالإحسان»^(٣).

(١) فإن عذمت القرينة عدنا للأصل وهو آخر الصلاة قبل التسليم، ومن ذلك الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» أبو داود (٣٩ / ٥) وهو اختيار شيخ الإسلام.

(٢) متفق عليه.

(٣) الصلاة وحكم تاركها، ابن القيم (١٤٦-١٥٩) باختصار.

صفة صلاة النبي ﷺ

قال الإمام ابن باز رحمه الله تعالى: «هذه كلمات موجزة في بيان صفة صلاة النبي ﷺ، أردت تقديمها إلى كل مسلم ومسلمة؛ ليجتهد كل من يطلع عليها في التأسّي به ﷺ في ذلك لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

وإلى القارئ بيان ذلك:

١- يسبغ الوضوء، وهو أن يتوضأ كما أمره الله، عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، وقول النبي ﷺ: «لا تقبل صلاة بغير طهور»^(٢)، وقوله ﷺ للذي أساء صلاته: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء...»^(٣).

٢- يتوجه المصلي إلى القبلة، وهي الكعبة، أينما كان بجميع بدنه، قاصداً بقلبه فعل الصلاة التي يريد بها من فريضة أو نافلة، ولا ينطق بلسانه بالنية؛ لأن النطق باللسان غير مشروع لكون النبي ﷺ لم ينطق بالنية ولا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويجعل له ستره يصلي إليها إن كان إماماً أو منفرداً، واستقبال القبلة شرط في

(١) البخاري (١٢٢٥).

(٢) مسلم (٣٢٩).

(٣) البخاري (٥٧٨٢).

الصلاة إلا في مسائل مستثناة معلومة موضحة في كتب أهل العلم.

٣- يكبر تكبيرة الإحرام قائلاً: «الله أكبر»، ناظرًا ببصره إلى محل سجوده.

٤- يرفع يديه عند التكبير إلى حذو منكبيه، أو إلى حيال أذنيه.

٥- يضع يديه على صدره، اليمنى على كفه اليسرى لثبوت ذلك عن النبي

ﷺ (١).

٦- يُسنّ أن يقرأ دعاء الاستفتاح وهو: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد» (٢). وإن شاء قال بدلاً من ذلك: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» (٣). وإن أتى بغيرهما من الاستفتاحات الثابتة عن النبي ﷺ فلا بأس (٤). والأفضل أن يفعل هذا تارة، وهذا تارة؛ لأن ذلك أكمل في الاتباع. ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ويقرأ سورة الفاتحة،

(١) النسائي (٨٨٩) وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ٦٨، ٦٩).

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٢٩٩) موقوفًا على عمر. وله حكم الرفع فليس مما يقال من جهة الرأي، وعمر قد علّمه الناس. قاله ابن باز رحمه الله.

(٤) من أمثال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً» (مسلم ١/

٥٣٤)، و«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل...» (مسلم ١/ ٥٣٤)، و«الله

أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً...» (أبو داود ١/ ٢٠٣).

لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١).

٧- يركع مكبراً، رافعاً يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه، جاعلاً رأسه حيال ظهره، واضعاً يديه على ركبتيه، مفرقاً أصابعه. ويطمئن في ركوعه، ويقول: «سبحان ربي العظيم»، والأفضل أن يكررها ثلاثاً أو أكثر، ويستحب أن يقول مع ذلك: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»^(٢).

٨- يرفع رأسه من الركوع رافعاً يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه قائلاً: «سمع الله لمن حمده»^(٣)، إن كان إماماً أو منفرداً، ويقول حال قيامه: «ربنا ولك الحمد، حمداً كثيراً، طيباً مباركاً فيه»^(٤)، «ملء السموات، وملء الأرض، وملء بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»^(٥)، أما إن كان مأموماً فإنه يقول عند الرفع: «ربنا ولك الحمد» إلى آخر ما تقدم.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه. ومما ورد كذلك «سبح قدوس، رب الملائكة والروح» (مسلم ١ / ٣٥٣)، و«اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ونفسي وعظمي وعصبي [وما استقلت قدمي]» (مسلم ١ / ٥٣٤)، وما بين المعقوفين لفظ ابن خزيمة (٦٠٧)، و«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» (أبو داود ١ / ٢٣٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٢ / ٢٨٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٢ / ٢٨٤).

(٥) مسلم (١ / ٣٤٦) بزيادة «أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

ويستحب أن يضع كل منهما - أي الإمام والمأموم - يديه على صدره كما فعل في قيامه قبل الركوع لثبوت ما يدل على ذلك عن النبي ﷺ من حديث وائل بن حجر وسهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١).

٩- يسجد مكبراً، واضعاً ركبتيه قبل يديه إذا تيسر له ذلك، فإن شق عليه قدّم يديه قبل ركبتيه (٢) مستقبلاً بأصابع رجليه ويديه القبلة، ضامّاً أصابع يديه،

(١) حديث سهل «كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراع اليسرى في الصلاة» (البخاري ٧٤٠)، أما حديث وائل فعند ابن خزيمة وصححه، وفي الباب أحاديث أخر. وقد حقق ابن باز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه المسألة باستقصاء في فتاويه (١١/ ١٤٣-١٣١) وتتبع الأدلة وردّ على المخالفين بأسلوب غاية في الأدب وحفظ حقوق المخالف، تحقيق بأن يفرد له دراسة في كيفية اختلاف الكبار. ومن جميل ما قاله: فلا ينبغي لأحد من المسلمين أن يتخذ من الخلاف في هذه المسألة وأشباهها وسيلة إلى النزاع والتهاجر والفرقة، فإن ذلك لا يجوز للمسلمين (١١/ ١٤١).

(٢) قال ابن باز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السنة للمصلي إذا هوى للسجود أن يضع ركبتيه قبل يديه إذا استطاع ذلك في أصحّ قول العلماء، وهو قول الجمهور، لحديث وائل بن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما جاء في معناه من الأحاديث. وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو في الحقيقة لا يخالف ذلك بل يوافقه؛ لأن النبي ﷺ نهى فيه المصلي عن بروك كبروك البعير. ومعلوم أنه من قدّم يديه فقد شابه البعير. أما قوله في آخره: «وليضع ركبتيه»، فالأقرب أن ذلك انقلاب وقع في الحديث على بعض الرواة، وصوابه: «وليضع ركبتيه قبل يديه»، وبذلك تجتمع الأحاديث، ويوافق آخر الحديث المذكور أوله، ويزول عنها التعارض، وقد نبه عليها ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه (زاد المعاد): «أما العاجز عن تقديم الركبتين لمرض أو كبر سن فلا حرج عليه في تقديم يديه...» =

ويسجد على أعضائه السبعة: الجبهة مع الأنف، واليدين، والركبتين، وبطن أصابع الرجلين. ويقول: «سبحان ربي الأعلى» ويكرر ذلك ثلاثاً^(١) أو أكثر، ويستحب أن يقول مع ذلك: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»^(٢)، ويكثر من الدعاء لقوله ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»^(٣)، ويسأل ربه من خير الدنيا والآخرة، سواء كانت الصلاة فرضاً أو نفلاً، ويُجافي عضديه عن جنبيه، وبطنه عن فخذه، وفخذه عن ساقه، ويرفع ذراعه عن الأرض، لقول النبي ﷺ:

(الفتاوى ١١ / ١٥٩). وقد ذكر الحافظ ابن القيم عشرة أوجه لترجيح الحكم بانقلاب هذه الرواية. زاد المعاد (١ / ٢٢٢ - ٢٣٢).

(١) مسلم (١ / ٣٤٦).

(٢) أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١ / ٨٣)، ومما ورد كذلك: «سبح قدوس، رب الملائكة والروح» مسلم (١ / ٥٣٣)، و«اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» مسلم (١ / ٥٣٤). و«سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء والعظمة» أبو داود (١ / ٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١ / ١٦٦)، و«اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلايته وسره» مسلم (١ / ٣٥٠)، و«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» مسلم (١ / ٣٥٢).

(٣) مسلم (٧٣٨).

«اعتدلوا في السجود، ولا ييسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب»^(١).

١٠- يرفع رأسه مكبراً، ويفرش قدمه اليسرى ويجلس عليها، وينصب رجله اليمنى، ويضع يديه على فخذه وركبتيه ويقول: «رب اغفر لي، وارحمي، واهدني، وارزقي، وعافني، واجبرني»^(٢).

١١- يسجد السجدة الثانية مكبراً، ويفعل فيها كما فعل في السجدة الأولى.

١٢- يرفع رأسه مكبراً، ويجلس جلسة خفيفة كالجلسة بين السجدين، وتسمى جلسة الاستراحة، وهي مستحبة، وإن تركها فلا حرج، وليس فيها ذكر ولا دعاء، ثم ينهض قائماً إلى الركعة الثانية معتمداً على ركبتيه إن تيسر ذلك، وإن شق عليه اعتمد على الأرض، ثم يقرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن بعد الفاتحة، ثم يفعل كما فعل في الركعة الأولى.

١٣- إذا كانت الصلاة ثنائية أي ركعتين كصلاة الفجر والجمعة والعيد، جلس بعد رفعه من السجدة الثانية ناصباً رجله اليمنى، مفترشاً رجله اليسرى، واضعاً يده اليمنى على فخذه اليمنى، قابضاً أصابعه كلها إلا السبابة فيشير بها إلى التوحيد، وإن قبض الخنصر والبنصر من يده، وحلق إبهامها مع الوسطى، وأشار بالسبابة فحسن، لثبوت الصفتين عن النبي ﷺ، والأفضل أن يفعل هذا تارة،

(١) متفق عليه.

(٢) في مسلم (١/ ٣٥٢) بلفظ: «رب اغفر لي، رب اغفر لي» وعند أبي داود وابن ماجه: «اللهم اغفر لي، وارحمي، واهدني، واجبرني، وعافني، وارزقي، وارفعني» صحيح ابن ماجه للألباني (١/ ١٤٨).

وهذا تارة، ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى وركبته، ثم يقرأ التشهد في هذا الجلوس وهو «التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(١)، ثم يقول: «اللهم صل^(٢) على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٣). ويستعين بالله من أربع فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»^(٤). ثم يدعو بما شاء من خير الدنيا

(١) متفق عليه.

(٢) يجدر التنبيه على خطأ من يكتبها بالياء «صلي» لأنها ياء المؤنثة المخاطبة، وهذا في غاية سوء الأدب.

(٣) وهناك صيغ أخرى مثل: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (البخاري مع الفتح ٦ / ٤٠٨)، كذلك: «اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» متفق عليه واللفظ لمسلم (١ / ٣٠٦).

(٤) متفق عليه، ولفظ مسلم «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال» (١ / ٤١٢) وله صيغ أخرى.

والآخرة، وإذا دعا لوالديه أو غيرهما من المسلمين فلا بأس، سواء كانت الصلاة فريضة أو نافلة لعموم قول النبي ﷺ: «ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو»^(١)، وفي لفظ آخر: «ثم ليتخير بعد من المسألة ما شاء»^(٢)، وهذا يعم جميع ما ينفع العبد في الدنيا والآخرة، ثم يسلم عن يمينه وشماله قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله»^(٣).

وقد كان الصحابة عليهم الرضوان عبّاداً ليل وأسدّ نهار، فقد صلّى علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ صلاة الفجر، فلما سلّم انفتل عن يمينه، ثم مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح، قلب يده فقال: لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صُفْراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراو حون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذُكر الله مادوا كما تميد الشجر في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

وكان أبو بكر رجلاً أسيفاً^(٤)، فإذا صلى بكى وله نسيج، وكان عمر يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته فلا يزال يصلي إلى الفجر، كما ذكره ابن كثير عنه،

(١) أبو داود (٨٢٥)، النسائي (١٢٨١).

(٢) مسلم (٦٠٩).

(٣) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ (١١ / ١٧-١٧) وقد

اقتصرت على بعضها، وهي مطبوعة في رسالة مستقلة.

(٤) أي رقيقاً، قريب الدمعة.

وكان في وجهه خطآن أسودان مثل الشراك من البكاء. أما عثمان فقد قرأ القرآن كله في ركعة يجعلها وتره^(١).

وبعد: فهناك وسائل تعين المؤمن على الوصول لدرجة القائمين الساجدين، فإلى شيء منها^(٢):

الإخلاص، واستشعار محبة الله تعالى للقائمين، واستشعار قيام النبي ﷺ، وأن من كمال اتباعه قيام الليل، وقراءة فضائل القيام، وسير المتهجدين، وبذل الأسباب المعنوية للقيام من الخشية والحب والرجاء ونحوها، والحسنة من الدعاء، والنوم المبكر، وتطبيق سنن النوم مثل الطهارة والذكر والنوم على الشق الأيمن، وتخفيف العشاء، والتواصي عليه مع غيرك، وتربية النفس على كبح الهوى، ونفض الكسل، إلى غير ذلك من الأسباب.

٩- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم كما يتقى أطياب التمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعرفت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

(١) الطحاوي والبيهقي (٣ / ٢٥) وصححه الأرناؤوط والشاويش في تحقيق شرح السنة (٤ / ٩٩)، وقد ذكر العفاني في رهبان الليل عشرات الأمثلة العالية السامية من الصحابة ومن بعدهم ودأبهم في قيام الليل، ووصاياهم به.

(٢) ينظر: كيف نتحمس لقيام الليل، محمد آل عبد الله.

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴿[الكهف: ٢٨]﴾، وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، ووجبت محبتي للمتجالسين فيّ، ووجبت محبتي للمتزاورين فيّ»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته»^(٢) ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي. قال: هل لك من نعمة تربّها عليه»^(٣)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه»^(٤). وفي هذا فضل الزائر على المزور.

وقال عليه الصلاة والسلام: «أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله، وتبغض في الله»^(٥). وقال عليه الصلاة والسلام: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(٦)، وقال ﷺ: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، بمكانهم من الله عز وجل» قالوا: يا رسول الله! من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن

(١) أحمد (٤/ ٣٨٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٣/ ١٣٩٥).

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربها: أي تنمّيها وتصلحها.

(٤) مسلم (٤/ ١٩٨٨).

(٥) الطبراني في الكبير (١١٥٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٨).

(٦) أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٤٦).

الناس. ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] (١).

«أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفك فيضرك، وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه، فلا خير في صحبته. وأما الفاسق، فلأنه لا يخاف الله، ومن هو هكذا لم تؤمن غائلته، ولا يوثق به. وأما المبتدع، فيخاف من صحبته بسراية بدعته، وأما الحريص على الدنيا، فإنه يبعد عن طلب النجاة في الآخرة ويقطع عنها.

ومن اجتمعت فيه تلك الخصال، فإن صحبته لا ينتفع بها في الدنيا فحسب، بل يرتفع بها في الآخرة. وعلى هذا يحمل كلام السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة» (٢).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوان الصدق، تعيش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدَّة في البلاء. وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحيئك ما يقلبك منه. واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرِّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى» (٣). وقال: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله، لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس يتتقى فيها طيب الكلام كما يتتقى

(١) الترمذي (٢٣٩١)، وأبو داود (٣٥٢٧)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٠١٢).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٩١، ٩٢).

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٣٠).

جيد التمر، أو أن أسير في سبيل الله عز وجل»^(١).

وقال إبراهيم الخوَّاص: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»^(٢).

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله فضيلة الصمت إلا من خير، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من صمت نجا»^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٤).

وقال يونس بن عبيد: «ما رأيت أحداً لسانه منه على بال، إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله»^(٥). وقال يحيى بن أبي كثير: «ما صلح منطق رجل؛ إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط؛ إلا عرفت ذلك في سائر عمله»^(٦).

وقال رجل لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(٧).

(١) حلية الأولياء (١ / ٥١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي (٤٦).

(٣) أحمد (٢ / ١٥٩)، والترمذي (٢٥٠٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٦).

(٤) متفق عليه.

(٥) حلية الأولياء (٣ / ٦٨).

(٦) جامع العلوم والحكم (١ / ٣٣٦).

(٧) الترمذي (٢٤٠٨)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦١).

١٠. مبادعة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل:

لأن الرُّوحَ في حياة القلب، والهلكة في شتاته وضياع جمعيته على ربه ومولاه، فلا بد من العناية بسلامته، وحياطته من الآفات، وحمايته من المكدرات ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٨٨، ٨٩] وكان من دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا» (١).

قال شيخ الإسلام: «القلب السليم هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله» (٢).

وقال ابن القيم: «إنما يباعد من الله كل طريق يوصل إلى باب من تلك الأبواب الثلاثة:

باب شبهة أورثت شكًا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ورضاه، وباب غضب يورث العدوان على خلق الله» (٣).

فالشبهات طريق لمخالفة الاعتقاد، والشهوات طريق لمخالفة الجوارح، والغضب - مع الحسد - طريق لمخالفة الطباع. ومن هذه الأبواب الثلاثة، تلج كل الذنوب والمعاصي المفسدة للقلوب، وهي ترجع في أصولها إلى ثلاثة:

(١) أحمد (٤٠ / ١٢٣)، والترمذي (٤٠٠٤)، والنسائي في كتاب السهو (٦١).

(٢) الفتاوى (٢١٩).

(٣) الفوائد (٥٨).

الأول: تعلق القلب بغير الله، وغايته الشرك، ودعاء غير الله.

الثاني: طاعة النفس في الغضب. غير المشروع. وغايته القتل.

الثالث: طاعة النفس في شهوة الجسد، وغايته الزنى.

وقد جمع الله تعالى هذه الثلاثة في سلك واحد، ونزّه عباده عنها فقال:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] كما جمعت في الحديث لما

سأل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله

ندًا وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك» قال:

ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).

لذلك قال الإمام أحمد: أعظم الذنوب بعد الشرك: قتل النفس التي حرم

الله، والزنى.

ولكل ذنب أثره المباشر على القلب إمراضًا أو إماتة!

رأيت الذنوب تميمت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وأصول الخطايا ثلاثة: الكبر والحرص والحسد. فبالكبر لعن إبليس، وطرده

من رحمة الله، وهو أول ذنب عصي الله به في العالم المشهود، وبالحرص طرد آدم

(١) متفق عليه.

عليه السلام وحواء من الجنة، فهو دافع المعصية الأولى حين أكل من الشجرة، وبالحسد قتل قابيل هايل. فالحازم العاقل هو من يتفقد هذه الثلاثة في قلبه، ويتوكل على ربه في إزالتها وإبدالها بأضدادها.



علامات محبة العبد لله عز وجل

المحبة ليست بالدعاوى والظاهر، بل بالحقائق والمخابر، وأعز أمر هو تحقيق هذه المحبة على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتباع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو برهان الاتباع، ومهر المحبة، وباب التقوى، ومنشور الولاية، وعلى قدر الاستقامة على ذلك يكون صدق الدعاوى.

والدعاوى إذا لم يكن لها بينات، أصحابها أدياء والمحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى! وما أعز المعنى! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس، مهما ادّعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار منها على القلب واللسان والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار^(١).

وقبل بيان العلامات يحسن بنا ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول:
«النفوس ثلاثة، الأولى: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٢).

واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قُوَّتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو دأؤها.

الثانية: نفس سبعة غضبية، فمحببتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض، والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك، وشغفها به.

الثالثة: نفس حيوانية شهوانية، فمحببتها منصرفة إلى المأكَل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد، كما قال تعالى في أول القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّبُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأى نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته، ومالت إليه، ولم تُصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم. وكل قسم من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على ما سواه غبنٌ وفوات حظ.

فالنفس السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبة طَبْعِيَّة، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم. فالملائكة أولياء هذا النوع في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿فصلت: ٣٠، ٣١﴾.

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح والإرشاد والتثيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إن زلّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة، ووليّه ومعلمه ومثبتّه ومُسكّن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره^(١)، فإن قصده عدوّ له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

أما النفوس السبعية الغضبية، فالشياطين أولياء لهذا النوع، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليُّهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مَنِينَهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ

(١) الشعار: ما تحت الدثار من اللباس، وهو ما يلي الجسد.

خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿النساء: ١١٩-١٢١﴾.

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طبيعية، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، فالشياطين تتولاهم بضد ما تتولى الملائكة لمن ناسبهم، فتؤزهم إلى المعاصي أژًا، وتزعجهم إليها إزعاجًا لا يستقرون معه، ويزينون لهم القبائح ويخففونها على قلوبهم، ويحلونها في نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات، ويشبطونهم عنها، ويقبّحونها في أعينهم، ويُلْقُونَ على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم. يبيتون معهم حيث باتوا، ويقلون معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلِيَّانَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنُ الْقُرَيْنُ ﴿[الزخرف: ٣٦-٣٨].

أما النوع الثالث؛ فهم أشباه الحيوان، ونفوسهم أرضية سفلية، لا تبالي بغير شهواتها، ولا تريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة؛ فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه

ومراد، فمن تلك العلامات تعرف من أي هذه الأقسام هو»^(١).

فمن العلامات الدالة على محبة العبد لربه تعالى:

١- حب لقاء الله تعالى:

فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، قال النبي

ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(٢).

«فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائماً، والموعد الذي بينهما للقاء، ولا ينسى

موعد لقاء حبيبهِ ولو نُشِرَ بالمناشير، وما هو موعد اللقاء؟

هناك ثلاثة مواعيد: الأول: الموت، والثاني: يوم القيامة، والثالث: اللقاء في

الجنة، والنظر إلى وجه الكريم الجميل الجليل سبحانه.

وليس معنى هذا أن العبد يريد الموت الآن، أو يتمناه ويدعو على نفسه به إلا

على سبيل الشوق لله تعالى، فالحديث الناهي عن تمني الموت مقيد بالضرر النازل

به فبقي ما عداه على الإباحة، والمراد أن المؤمن إذا نزل به الموت أحب نزوله

واستبشر به؛ لأنه سيفضي به إلى لقاء ربه تعالى، ويكون بقربه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]، وكما

قال ﷺ عند نزول الموت به: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»^(٣)، وكما استبشر كثير

(١) روضة المحبين، ابن القيم (٢٣٢-٢٣٤).

(٢) متفق عليه.

(٣) أحمد (٢٦٣٩٠) وسنده حسن، فقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث فانتهى

من السلف من الصحابة ومن بعدهم عند الموت.

ولما علم الله سبحانه شوق عباده المحبين له، المطيعين المتبعين لرسوله ﷺ؛ ضرب لهم موعداً بينه وبينهم هو الموت، فقال جل وعز: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] (١).

«ولا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه، وإذا علم أنه لا وصول له إلا بالارتحال عن هذه الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارٍّ منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه لمستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الموت: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود. فقدم حب لقاء الله على السجود» (٢).

«وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال

التدليس، وبقية رجاله رجال الشيخين غير يعقوب بن عتبة - وهو الثقفي - وهو من رجال السنن عن الترمذي، وهو من الثقات.

(١) أعمال القلوب، المنجد (٢٣٧، ٢٣٨) بتصرف.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٢).

الصالحة، والرجاء والخوف وهذا يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنك لا تنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحُبُّ قربه تبعٌ لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعتزلة: ما من ذلك كله شيء! فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُربت دونهم ودون الله حجب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته! وحسبُ ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله عز وجل، ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال أحبابه وأوليأؤه: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه.

وهنا لطيفة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما كان ﷺ

يدعو: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرَّاد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه، وهو حديث جليل عظيم القدر، غزير المعاني^(٢).

ولو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن «الإله» هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلًّا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذلُّ له. وأصل التأله: التعبد،

(١) النسائي (٣/ ٥٤) عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٢٣٧).

(٢) وقد أفرد له الحافظ ابن رجب شرحًا في رسالة مستقلة، مطبوعة ضمن مجموع رسائله.

والتعبد هو آخر مراتب الحب، يُقال: عبّده الحب وتيمّمه، إذا ملكه وذله لمحجوبه، فالمحبة حقيقة العبودية (١).

قال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، وما قضى وطره من شيئين: بكأؤه على نفسه، وشوقه إلى ربه.

وكان أبو عبيدة الخوّاص يمشي في الطريق ويصيح: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه.

لولا التعلّل بالرجاء لقطّعتُ	نفسُ المحبِّ صباغةً وتشوقاً
ولقد يكاد يذوب منه قلبه	مما يُقاسي حسرةً وتحرّقاً
حتى إذا رَوْحُ الرجاء أصابهُ	سَكَنَ الحريقُ إذا تعلّلَ باللقا

والنعيم بأمرين: الشوق إلى لقاء الله في الدنيا، ولذة النظر إلى وجهه الكريم الجميل في الجنة.

لها أحاديثُ من ذكراك تشغلّها	عن الشراب وتلهيها عن الزادِ
لها بوجهك نور تستضيء به	ومن حديثك في أعقابها حادِ
إذا اشتكت من كلال السير أوعدّها	رَوْحُ اللقاء فتقوى عند ميعادِ (٢)

(١) وقد مرّ تفصيل ذلك.

(٢) المدارج (٢٣/٣ - ٢٥) بتصرف.

٢- إيثار محاب الله تعالى على كل شيء؛

«قال رب العزة سبحانه في آية الامتحان: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وتسمى كذلك آية المحبة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادّعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة؛ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. وقال بعض السلف: ادّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة؛ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. فقله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فلما لم تحصل المتابعة؛ فليست محبتكم له حاصلة، ومحبه لكم متفية»^(١).

فبرهان المحبة صدق الاتباع وإحسان المعتقد والعمل. فلا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما^(٢)، وحينما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. قال له: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال عمر: فأنت والله أحب إلي من كل شيء، حتى من نفسي. قال: «الآن يا عمر»^(٣). إذن فمن العلامات ألا يقدم العبد شيئاً على الله تعالى، وتقديم رسول الله ﷺ إنما تبع لتقديم الله تعالى.

(١) المدارج (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) متفق عليه، وسيأتي إن شاء الله.

(٣) البخاري (٦٦٣٢).

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١). وهذه يستلزم تقديمه مطلقاً على كل من ذكرهم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣].

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

فالمحب الصادق يؤثر ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويحتب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله، ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات، كما يطلب المحب مزيد القرب من محبوبه، وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ومن بقي مستقراً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل المحب الصادق يترك هوى نفسه كما قال بعضهم في بعض شؤون الدنيا:

أريدُ وصاله ويريدُ هجري فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

بل الحب إذا غلب قمع الهوى، فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، قال سهل: علامة الحب إثارة على نفسك، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيباً، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. وهو كما قال؛ لأن محبته لله تعالى سبب

(١) متفق عليه.

لمحبة الله له، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وإذا أحبه الله؛ تولاه ونصره على أعدائه.

وإذا تولاه أمراً دون الورى طراً تولاه العظيم الشأن وإنما عدوه شيطانه ونفسه وشهواته، فلا يخذه الله، ولا يكله إلى هواه وشهواته، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي «فإن قلت: هل العصيان يضاد أصل المحبة؟ فالجواب: أنه يضاد كمالها، ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض، ويحب الصحة ويأكل مما يضره مع علمه بأنه يضره! وذلك لا يدل على حبه لنفسه. ولكن الإرادة قد تضعف، والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه قصة الرجل الذي كان يُجلد في الخمر على عهد رسول الله ﷺ، فلعله رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله» (١)(٢).

«والمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين.

(١) البخاري.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٣، ١٦٣٤).

وزُهدُ هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض.

فالزهد خمسة أقسام: زهد في الدنيا، وزهد في النفس، وزهد في الجاه والرياسة، وزهد فيما سوى المحبوب، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب، وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محبوباً لله، فليس الشأن أن تُحبَّ الله، ولكن الشأن أن يُحبَّك الله. والطاعة للمحبوب عنوان محبته.

والمحبِّ الصادق يبذل في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال: أحدها: بذله ذلك تكلفاً ومشقة، وهذا في أول الأمر، فإذا قويت المحبة؛ بذله رضاء وطوعاً، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤلاً وضراعة كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه ليبذل نفسه دون محبوبه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون رسول الله ﷺ بنفوسهم حتى يصرَّعوا حوله^(١).

(١) ومن لامية أبي طالب الشهيرة التي قالها في حصار الشعب:

كذبتُم لعمر الله بُزَى محمداً	ولما نطاعن دونه ونناضل
ونُسلِمُهُ حتى نصرَّع حوله	ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قومٌ في الحديد إليكم	نُهوِض الرِّوايا تحت ذات الصلاصل

ولي فؤادٌ إلا لَجَّ (١) الغرامُ به هام اشتياقًا إلى لقياء مُعَذِّبه
يفديك بالنفس صَبٌّ لو يكونُ له أعزُّ من نفسه شيءٌ فذاك به

ومن أثر محبوبة بنفسه فهو بهاله أشد إشارًا، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَى

وإنما لعمر الله إن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكفِّي فتى مثل الشهاب سُميدع أخي ثقة حامي الحقيقة باسل
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاكُ من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمدٍ وإخوته دأب المحب المواصل
فمن مثله في الناس أي مؤملٍ إذا قاسه الحكماء عند التفاضل
حليم رشيد عادلٌ غير طائش يوالي إلها ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجيء بسببةٍ تُجرُّ على أشياخنا في المحافل
لكنّا اتبعناه على كل حالةٍ من الدهر جدًّا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذبٌ لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ في أرومةٍ تقصر عنها سورة المتطاول
حَدَبْتُ بنفسِي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

قال ابن كثير: لهي أفحل من المعلقات.

وانظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله ابن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله (١٣١-١٣٣)، والبيت الأول في الأصل: «كذبتم وبيت الله...».

(١) لَجَّ لجأًا ولجاجة: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

يَا الْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿[الأحزاب: ٦]﴾ وَلَا يَتَمَّ لَهُمْ مَقَامُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَكُونَ
الرَّسُولُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَضْلًا عَنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَبَائِهِمْ.

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله، فكيف بمحبته سبحانه؟!

وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً، وإن وجد
في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه،
فحملته محبة غرضه على أن يبذل فيه نفسه وماله، وليست محبته لذلك المحبوب
لذاته بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مثل، ولحبته مثل، وأما محبة الله فليس لها
مثل ولا للمحبوب مثل. ولهذا حكّم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسوله ﷺ في أنفسهم
وأموالهم، فقالوا: هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين
يديك لو استعرضت بنا البحر لخُضناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك
وعن شمالك. قال قيس بن صرمة الأنصاري:

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً	يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مَوَاتِيَا
فلما أتانا واستقرت به النوى	وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
بذلنا له الأموال من حلّ مالنا	وأنفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالتَّاسِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ	جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره	وَأَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

فالمحب وصفه الإيثار، والمدّعي طبعه الاستئثار.

والمحب الصادق يهجر كل سبب يقصيه ويبعده عن محبوبه، ويرتاح لكل

سبب يُدنيه منه، ويستحمده عند. وقديماً قيل:

ويرتاح^(١) للمعروف في طلب العُلى لتحمد يوماً عند ليلي شمائله^(٢)

ومن أثر مراضي الله فهو المحب حقاً، قال سهل بن عبد الله رحمته الله: أعمال البر يطيقها البر والفاجر، ولا يصبر عن المعاصي إلا صديق.

وقال ابن حزم رحمته الله ملمحاً إلى هذا المعنى من موافقة مراد المحبوب وإيثاره على مقتضى الطبيعة المحبة الغالبة: «فترى المحب الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال، كالحرباء مع الشمس»^(٣)، «ومنها أن يجود ببذل كل ما يقدر عليه مما كان يمتنع به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له، والمسعي في حظه، كل ذلك ليُبدي محاسنه، ويرغب في نفسه، فكم بخيل جاد، وقطوب تطلّق، وجبان تشجّع، وغليظ الطبع تظرف، وجاهل تأدّب، وتفلّ^(٤) ترين»^(٥).

٣- أنسه بالخلوة بربه ومناجاته بالدعاء والاستغفار والذكر وتلاوة كلامه،
فيفرح بالخلوة، والبعد عن مشتتات جمعية القلب، ويغتئم هدأة الليل وسكونه

(١) والمشهور: ويمتزّ.

(٢) روضة المحبين، ابن القيم (٢٣٧-٢٥٤) باختصار واقتصار.

(٣) رسائل ابن حزم (١/ ١٠٤)، وهذا الموضع من طوق الحمامة له (١/ ١١١).

(٤) التفل: الذي لم يتطيب ولم يتزين.

(٥) السابق (١/ ١٠٥).

وانقضاء الشواغل؛ فيصف قدميه للصلاة ويكثر من التلاوة والتدبر والتفكير والاستغفار والدعاء واللجأ والضراعة، وعلى قدر المحبة يكون الفرح بالخلوة والأنس بالله تعالى فيها، وتفتح له أبواب التوفيق، وتنزل عليه ألطاف الرحمن وهباته، ويتنعم بحلاوة الأنس والقرب والخصوصية إذ حرمها أكثر العباد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكم من السلف من كان لا يزعجه إلا طلوع الفجر لقطعه تلك الحلاوة الخاصة في ذلك الزمان الخاص من جوف الليل الآخر والسحر. والله المستعان^(١).

قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطَّيِّبَ وَالنِّسَاءَ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢). قال ابن القيم معلقاً: «فُقُرَّةُ الْعَيْنِ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ، فَجَعَلَ النَّسَاءَ وَالطَّيِّبَ مِمَّا يُحِبُّهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ الْعَيْنِ الَّتِي يَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ بِالْوُصُولِ إِلَيْهَا وَمَحْضُ لَذَّتِهِ وَفَرَحِهِ وَسُرُورِهِ وَبَهْجَتِهِ؛ إِنَّمَا هُوَ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ صَلَوةٌ بِاللَّهِ، وَحُضُورٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمُنَاجَاةٌ لَهُ، وَاقْتِرَابٌ مِنْهُ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ؟ وَكَيْفَ تَقَرَّرُ عَيْنُ الْمَحَبِّ بِسِوَاهَا؟ وَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِصَلَاتِهِ فِي الدُّنْيَا؛ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِقُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلَّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ، تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ.

فُقُرَّةُ عَيْنِ الْمَحَبِّ وَلَذَّتُهُ وَنَعِيمُ رُوحِهِ فِي طَاعَةِ مَحْبُوبِهِ، بِخِلَافِ الْمَطِيعِ كَرِهًا،

(١) وسيأتي المزيد في الباب الأخير، باب الفرح والسرور بالله عز وجل وبفضله ورحمته، إن شاء الله تعالى.

(٢) أحمد (١١٨٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

المتحمّل للطاعة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذلّ القهر ما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره، بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوه قوتاً ونعيماً ولذة وسروراً، فجواذب قلبه ودواعيه منساقه إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً، كجريان الماء في منحدره^(١)، وهذا يصل إليه العبد شيئاً فشيئاً حتى يغمر إيمانه حكم طبعه فتكون نفسه مطمئنة، وهذا أرفع من صاحب النفس اللوامة، التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه، وتلوم وتتردد هل تفعله أم لا؟^(٢) وبالمجاهدة يترقى العبد في مراقبي العبودية والأنس برب العالمين.

قال ثابت البناني: كابدت نفسي في قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذت به عشرين سنة أخرى^(٣). وقال الآخر: ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سقتها إليه وهي تضحك، أي من الفرح والأنس والسرور.

«إذا صدق حبه لربه ومعبوده، وثبت على جادة المحبين الصادقين، فلا شيء أحلى له من خلوته وتفردّه، فهو يحب الخلوة بمحبوبه، ويكره من يدخل بينهما غاية الكراهة، ولهذا السرّ - والله أعلم - أمر النبي ﷺ برّد المارّ بين يدي المصلي، حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدري ما عليه من الإثم لكان وقوفه أربعين خيراً له من مروره بين يديه^(٤). ولا يجد ألم المرور وشدته إلا قلب حاضر بين يدي

(١) عن أعمال القلوب، المنجد (٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) الفتاوى (١٠ / ٦٣٢).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم (٢ / ٣٢١).

(٤) متفق عليه من حديث أبي جهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المار

محبوبه، فمرور المار بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبوب ومحبوبه. وهذا أمر الحاكم فيه الذوق، فلا ينكره إلا من لم يذق»^(١).

وأيضاً فإن المحب يستأنس بذكر محبوبه، وكونه في قلبه لا يفارقه، فهو أنيسه وجليسه، لا يستأنس بسواه، فهو مستوحش ممن يشغله عنه.

«وحدثني تقي الدين بن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء، وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد، سمعته يتمثل بقول الشاعر^(٢):

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك القلب بالسر خالياً

فخلوة المحب بمحبوبه هي غاية أمنيته، فإن ظفر بها وإلا خلا به في سره، وأوحشه ذلك من الأغيار، وكان قيس بن الملوح إذا رأى إنساناً هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلي وحديثها؛ فيأنس به ويسكن إليه^(٣).

بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه.

(١) روضة المحبين (٢٥١).

(٢) وهو مجنون ليلي، قيس بن الملوح.

(٣) مع الفارق العظيم، فله المثل الأعلى، ولكن هذا شاهد لحال بعض المحبين من أهل الدنيا، وقانون المحبة مبسوط على قلوب المحبين، فيتفقون في كثير من ظواهره، وإن كانت حقائقه بينهم أبعد مما بين السماء والأرض، وهذا فقه عزيز، ومن لم يضبطه لم يحسن أن يخوض فيه.

وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاه:
﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠].

إذا لم تكن فيكنَّ سعدى فلا أرى لكنَّ وجوهاً أو أغيب في لحدي^(١)
إذن فعلامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة به،
وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة، ويعوق عن لذة المناجاة إلا إن
كان ذلك الصارف بأمر الشارع الحكيم فيدور حينها معه حيث دار، فيقضي المراد
ثم يعود إلى خلوته وله حنين كحنين الإبل إلى أولادها والطيور إلى أعشاشها بل
أشد وأسمى.

وقد انتهت لذة المناجاة ببعضهم حين كان في صلاته، ووقع الحريق في داره
أن لم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم
يشعر بذلك، وإذا غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه،
يدفع بها جميع الهموم، بل ربما استغرق الأنس والمحبة قلبه حتى لا يعي أمور
الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً، فإنه يكلم الناس بلسانه، وأنسه في الباطن بذكر
ربه، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا
بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال: هشت إليه، واستأنست به.

وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يسأم من حديث حبيبه^(٢).

(١) روضة المحبين (٢٥١، ٢٥٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٥، ١٦٣٦).

«وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لسواك فيه بقية فيها يُقسّم فكره ويسوس»^(١)

وقال ذو النون: «لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة؛ لأنه إذا خلا لم ير غير الله تعالى، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله»^(٢).

٤- كثرة ذكر المحبوب:

«فالمحب الصادق مولعٌ بذكر مولاه»^(٣) لا يفتر لسانه، ولا يخلو منه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فكثرة ذكر المحبوب، واللّهج^(٤) بذكره وحديثه بالقلب واللسان برهان المحبة الصادقة. لهذا أمر الله سبحانه وتعالى بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فالذكر ملاذهم تحت قعقعات السيوف وصكّ القنا وطعن السهام. والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة

(١) المدارج (٣/ ٤٨٢).

(٢) طبقات الصوفية (١/ ٢٥).

(٣) وسيأتي البسط في باب الذكر إن شاء الله تعالى.

(٤) اللّهج: الولع بالشيء، والمثابرة عليه.

الأعداء. كما قال قائلهم:

ذكَرْتُكَ وَالْخَطِيئُ^(١) يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مِنْهُ الْمُثَقَّفَةُ^(٢) السُّمُرُ

وقال عنتره:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بُئِرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ^(٣)
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السِّیُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ^(٤)

وفي بعض الآثار الإلهية: «إِنْ عَبْدِي كُلِّ عَبْدِي؛ الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُلَاقٍ
قَرْنَهُ»^(٥)، فعلامة المحبة الصادقة؛ ذكر المحبوب عند الرَّغْبِ والرَّهَبِ. وقال
بعض المحبين في محبته:

يُذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالَّذِي أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ
وَمِنَ الذِّكْرِ الدَّالُّ عَلَى صَدَقِ الْمَحَبَّةِ؛ سَبْقُ ذِكْرِ الْمَحْبُوبِ إِلَى قَلْبِ الْمَحِبِّ

(١) الخطيئ: الرمح المصنوع في الخط. موضع باليامة..

(٢) المثقفة: الرماح المسوأة.

(٣) أشطان: حبال. لبان: صدر. الأدهم: الحصان المائل للسواد، وهو حصان عنتره.

(٤) وهذا من أعذب النسيب على الإطلاق، والبيت الثاني أدرجته من الديوان.

(٥) الترمذي (٥ / ٥٧٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٥٠)، وقال ابن القيم

في المدارج (٢ / ٧٨): سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد به، ويقول: المحبون
يفتخرون بذكر من يحبون في هذه الحال.

ولسانه عند أول يقظةٍ من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه^(١)، كما قال قائلهم:

آخِرُ شَيْءٍ أَنْتِ فِي كُلِّ هَجْعَةٍ وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتِ وَقْتُ هُبُوبِي؟^(٢)

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم، فإن ذكره بالقوة في نفس المحب، ولكن لضيق المحل به يرد عليه ما يُغَيِّب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان. وأعلى أنواع ذكر الحبيب؛ أن يحبس المحب لسانه على ذكره، ثم يحبس قلبه على لسانه، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره^(٣).

وكما أن الذكر من نتائج الحب، فالحب أيضًا من نتائج الذكر، فكل منهما يُثمر الآخر، وزرع المحبة إنما يُسقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة^(٤).

«والمحبة تُوجب سَفَرَ القلب نحو المحبوب دائماً. والمُحِبُّ في وطنه قاطن، وتوجب مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد، وتجافيه عن مضجعه ومفارقه إياه وهو فيه راقد، وفراغه بكله لمحبوبه وهو مشغول في الظاهر بغيره، كما قال

(١) وهذا من حِكَمِ أذكار النوم والاستيقاظ.

(٢) الهجعة: النوم. والهجوع: النوم الخفيف. والهبوب: الاستيقاظ والانتباه. عن تحقيق الروضة للشيخ بشير محمد عيون. وغالب توضيح غريب اللغة في اقتباساتي من الروضة منه.

(٣) وفي مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» (٤/ ١٥٩).

(٤) روضة المحبين (٢٣٥-٢٣٧).

بعضهم:

وأديمُ نحو مُحَدَّثِي لِيَرَى أن قد عقلتُ، وعندكم عقلي

وقال بعضهم لشيخه^(١): أيسجد القلب بين يدي الله؟ فقال: نعم، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة. فهذه سجدة متصلة بقيامه وعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه. وكذلك يكون جسده في موضعه، وقلبه قد قَطَعَ المراحل مُسارِعًا إلى حبيبه. فإذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حُبُّه وشوقه، فيهرُّه المضجع إلى سكن، كما قال تعالى في حق المحبين: ﴿نَتَجَاوَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فلما تجافت قلوبهم عن المضاجع؛ جافت الجنوب عنها واستخدمتها، وأمرت فأطاعتها. وقال القائل^(٢):
نهارى نهارُ الناس، حتى إذا بدا لي الليلُ هزَّني إليك المضاجعُ
وبالجملة؛ فقلب المحب دائمًا في سفر لا ينقضي نحو محبوبه، كلما قطع مرحلة ومنزلة تبدت له أخرى، كما قيل: إذا قطعنَ علمًا بداَ عَلمٌ^(٣).

فهو مسافرٌ وهو بين أهله، وظاعنٌ وهو في داره، وغريبٌ وهو بين إخوانه وعشيرته، يرى كلَّ أحدٍ عنده، ولا يرى نفسه عند أحد. فقوَّةُ تعلق المحب بمحبوبه توجب له ألا يستقر قلبه دون الوصول إليه. وكلَّما هدأت حركاته،

(١) والشيخ هو سهل بن عبد الله التستري رحمته الله.

(٢) وهو ابن الدمينه.

(٣) من أرجوزة لجرير.

وقلّت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه، وقوي سيره إلى محبوبه.

ومحكّ هذا الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه، وتفرّغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه. فإنه إذا استيقظ ورُدَّتْ إليه روحه؛ رُدَّ معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم، ولكن كان قد خالط روحه وقلبه، فلما رُدَّتْ إليه الروح أسرع من الطّرفِ رُدَّ إليه ذكر محبوبه متصلاً بها، مصاحباً لها، فورد عليه قبل كل وارد، وهجم عليه قبل كل طارق، فإذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محلّ ممتلئ بمحبة ما يحبه، فوردت على ساحته من ظاهرها.

فإذا قضى وطره منها قضاءه لمصاحبتة لما في قلبه من الحب، فإنه قد لزمه كملازمة الغريم لغريمه، لذلك يُسمى «غراماً» وهو الحب اللازم الذي لا يفارق^(١) فسمع بمحبوبه، وأبصر به، وبطش به، ومشى به، فصار محبوبه في وجوده في محل سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

هذا مثل محبوبه في وجوده، وهو غير متحدّ به، بل هو قائم بذاته مباين له.

(١) مع إجلال الرب سبحانه، فليس في ذلك إقرار لمسمى الغرام - بمعناه الشائع - في محبة العبد لربه عز وجل، لكن مراد ابن القيم رحمته الله وصف المحبة باللزوم وعدم المفارقة.

وهذا المعنى مفهوم بين الناس، لا ينكره منهم إلا غليظ الحجاب، أو قليل العلم، ضعيف العقل، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره، فيظن أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتحدت به أو حلّت فيه. فينشأ من قسوة الأول وكثافته وغِلَظِ حجابهِ، ومن قِلّة علم الثاني ومعرفته، وضعف تمييزه، ضلالُ الحلول والاتحاد، وضلال الإنكار والتعطيل والحرمان، ويخرجُ من بين فرثٍ هذا ودمٍ هذا لبنُ الفطرة الأولى، خالصًا سائغًا للشاربين.

الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محكّ الأحوال، وميزان الإيمان، بها يُوزن إيمانُ الرجل، ويتحقّق حاله ومقامه ومقدار قربهِ من الله ونصيبهِ منه، فإنها محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقرّ لعين المحب، ولا ألذّ لقلبه، ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبًّا، فإنه لا شيء أثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه على محبوبه، وقد أقبل محبوبه عليه. وكان قبل ذلك مُعذَّبًا بمقاساة الأغيار، ومواصلة الخلق، والاشتغال بهم. فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وأوى عنده، واطمأن بذكره، وقرّت عينه بالمشول بين يديه ومناجاته. فلا شيء أهمّ إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغمّ حتى تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح. كما قال النبي ﷺ لبلال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(١)، ولم يقل:

(١) أحمد (٢٣٠٨٨)، أبو داود (٤٩٨٥)، ورجح الدارقطني إرساله دون وصله. العلل

أرحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون^(١).

فالصلاة قرّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفراغ البطال همّها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقارين شأن! يشكون إلى الله سوء صنيعهم بهم إذا ائتموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان من فاضل بين النفوس، وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة فمن كانت قرّة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه وأنعم عنده منها، وبودّه أن لو قطع عمره بها غير مشغل بغيرها، وإنما يسلي نفسه إذا فارقتها بأنه سيعود إليها عن قرب، فهو دائماً يثوب إليها، ولا يقضي منها وطراً. فلا يزن العبد إيمانه ومحبه لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير مائل.

الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبته الأعظم عنده، لهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعارهم كما مرّ.

والسرّ في هذا - والله أعلم - أن عند معاينة الشدائد والأهوال؛ يشتد خوف

(١) سبق الكلام عن علاقة الصلاة بالمحبة، ولكن ههنا وقفات عميقة ولفات هامة فيما سطره الإمام رحمه الله، فأحببت ألا أحرمك منها. ولا يحسن نقلها عن هذا الموضع لعلاقتها به.

القلب من فوات أحب الأشياء إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكرُ المحبوب الذي يفوت بفوات حياته، ولهذا - والله أعلم - كثيراً ما يعرض للعبد عند موته لهجُة بما يحبه وكثرةُ ذكره له، وربما خرجت روحه وهو يلهج به، وعند الموت تنقطع الشواغل، وتتعطّل الحواس، فيظهر ما في القلب، ويقوى سلطانه، فيدرك ما فيه من غير حاجب ولا مداراة، والحكايات في هذا كثيرة جداً في من يموت وهو يلهج بدينه، بل بفسقه أحياناً وفجوره. أما من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبه في حال حياته فإنه يجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله. ولأجل هذا كان جديراً بالعقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتته شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره، وحسن عبادته»^(١).

٥- محبة كلام الله تعالى:

«فالإقبال على حديث المحبوب وإلقاء سمعه كله إليه من براهين المحبة، بحيث يُفرغُ حديثه سمعه وقلبه، وإن ظهر منه إقبال لغيره فهو إقبالٌ مستعار، يستبين فيه التكلف لمن يرمقه، كما قيل:

وأديمُ حَظَّ مُحَدَّثِي لِيَرَى أن قد فهمتُ وعندكم عقلي

فإن أعوزه حديثه بنفسه، فأحبُّ شيء إليه الحديث عنه، ولا سيما إذا حدث

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٣ - ٦٧٠) باختصار.

بكلامه، فإنه يقيمه مقام خطابه، كما قال القائل: المحبون لا شيء ألدّ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم، وفيه غاية مطلوبهم. لهذا لم يكن شيء ألدّ لأهل المحبة من سماع القرآن، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحبُّ أن أسمع من غيري» فقرأتُ عليه من أول سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك الآن» فرفعت رأسي، فإذا عيناه تذرفان^(١).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا. فيقرأ أبو موسى وربّما بكى عمر.

ومرّ رسول الله ﷺ بأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي من الليل فأعجبه قراءته، فوقف واستمع لها، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «لقد مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فوقفْتُ واستمعت لقراءتك» فقال: لو أعلم أنك كنت تسمعه لحبّرتَه لك تحبيراً^(٢).

والله سبحانه هو الذي تكلم بالقرآن^(٣) يأذنُ ويستمعُ للقارئ الحسن

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، والتحبير: تزيين الصوت وتجميل القراءة.

(٣) قال شيخ الإسلام: «إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل

الصوت من محبته لسماع كلامه منه، كما قال ﷺ: «لله أشدُّ أذناً إلى القارئ الحسن الصوت من صاحب القينة إلى قيته»^(١) والأذن - بفتح الهمزة والذال - مصدر أذن يأذنه: إذا استمع، قال الشاعر:

أيُّها القلبُ تعلَّلْ بَدَدَنْ^(٢) إن قلبي في سماع وأذن

صوت الرب، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغاً عنه، لا مسموعاً منه، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا، الكلام كلام البارئ، والصوت صوت القارئ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» [أبو داود (٤٧٣٤) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤)، وعلقه البخاري]. وقال الإمام أحمد في قول النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» [البخاري (٧٥٢٧)] قال: يزيّنه ويحسنه بصوته، كما قال: «زينوا القرآن بأصواتكم».

فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة؛ أنا نقرأ القرآن بأصواتنا والقرآن كلام الله كلّ لفظه ومعناه، سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد ﷺ، وسمعه محمد منه، وبلغه محمد إلى الخلق، والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض، ويسمعه بعضهم من بعض». (الفتاوى ٩٨ / ١٢).

(١) أحمد (١٩ / ٦)، ابن ماجه (١٣٤٠)، الحاكم (٥٧١ / ١)، البيهقي (٢٣٠ / ١٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٣٣).

(٢) الدّدن: اللهو واللعب.

وقال ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١)، وقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٢) وفيه معنيان:

أحدهما: يجعله له مكان الغناء لأصحابه، من محبته له ولهجه به، كما يحب صاحب الغناء غناؤه.

الثاني: أنه يُزَيِّنُهُ بصوته ويحسنه ما استطاع، كما يُزَيِّنُ الْمُتَغَنِّي غناؤه بصوته، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عُشَّاق المردان والنَّسوان^(٣).

٦- التَّعَمُّرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«فليس للمُحِبِّ فرحة ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه، فتنجلي همومه وغمومه به، وتعود إن فارقه أو فارق أمره وما يجب.

يزورُ فتنجلي عني همومي لأن جلاء حزني في يديه
ويمضي بالحسرة حين يمضي لأن حوالتني فيها عليه
ويُسَرُّ بما يُحِبُّه محبوبه كائنًا ما كان وإن كرهته نفسه، فيكون عنده بمنزلة
الدواء الكريه، يكرهه طبعًا ويحبُّه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحب مع محبوبه،

(١) أبو داود (٤٧٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤) وسبق.

(٢) البخاري (٧٥٢٧).

(٣) روضة المحبين (٢٣٨-٢٤٠) باختصار. وسبق الكلام على أهمية تلاوة كتاب الله وضرورته للمؤمن.

يسرُّ بها يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه، وأما من كان واقفاً مع ما تشتهيهِ نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبةٌ معلولة، حتى يُسرَّ بها ساءةٌ وسرُّه من مراضي محبوبه. وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض، فالحبيب لذاته^(١) أولى بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهوى^(٢) بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
وأهتني فأهنت نفسي جاهداً ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذية حباً لذكرك فليكني اللوم

وقريب من هذا البيت الأخير قول الآخر:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرْتُ ببالكِ

وقريب من هذا قول أحمد بن الحسين^(٣):

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

(١) وهو الله عز وجل. قال شيخ الإسلام: «كل شيء يُحبُّ لغيره إلا الله فإنه يُحبُّ لذاته». الفتاوى (١٠ / ١٩٥).

(٢) وهذا من باب ضرب المثال في بحر المحبة، وإلا فالله تعالى لا يوصف بذلك، سبحانه وبحمده، كما أن المصنف رحمه الله قد أوردها في سياق حب المخلوق لمخلوق مثله، وفي الأبيات معانٍ عميقة.

(٣) هو أبو الطيب المتنبي.

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا جُرِحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ

وَلَعَمْرُ اللَّهِ^(١) أَكْثَرَ هَذِهِ دَعَاوَى لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَالصَّادِقُ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ عِلْمِهِ

(١) اللام ليست من حروف القسم على الراجح، فلا تكون قسمًا إلا إن كانت من الله أو بالله. لذلك يستخدم هذا المؤكّد مع المخلوقين فنقول: لعمرى أو لعمرك ونحو هذا، وهو جائز إذ ليس فيه قسمٌ والإحتياط تركه تورعاً. إذن فهناك فرق بين عبارة (لعمر الله) وبين (لعمرى أو لعمرك ونحوهما).

قال الموفق بن قدامة رحمته الله: «إن قال: لعمر الله، فهي يمين موجبة للكفارة... وإن قال: لعمرى، أو لعمرك، أو عمري، فليس بيمين في قول أكثرهم» (المغني ١٣/ ٤٥٧).

وذكر ابن القيم في كتابه (التيبان في أقسام القرآن) (ص ٤٢٨) أن أكثر المفسرين من السلف والخلف، بل لا يعرف عن السلف نزاع فيه أن «لعمرك» في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] أن هذا قسم من الله بحياة رسوله صلّى الله عليه وآله، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.

وعمر بفتح العين وضمّها واحد، وهو هنا قسم بحياة مخصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهل أن يقسم به لمزيتته على كل عمر من أعمار بني آدم. اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره لآية الحجر: «كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى؛ لأن معناه: وحياتي.

وقال النخعي: يكره للرجل أن يقول: لعمرى؛ لأنه حلف بحياة نفسه».

قلت: فالأحوط إذن تركها تورعاً حتى وإن لم يكن معها حرف من حروف القسم؛ لأن الأسلوب شبيهه بأسلوب القسم.

وإرادته، لا عن حاله وصفته، ولقد أحسن القائل (١):

رَضُوا بِالْأَمَانِي وَابْتُلُوا بِحُظُوظِهِمْ وَخَاضُوا بِحَارِ الْحُبِّ دَعْوَى وَمَا ابْتُلُوا
فَهُمْ فِي السُّرَى لَمْ يَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِهِمْ وَمَا ظَعَنُوا فِي السَّيْرِ عَنْهُ وَقَدْ كَلُّوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله، فإنه خاض بحار الحب وما ابتلت فيه له قدم، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غطاءه، وطلب الرسل له لقدومه على ربه، فقال وصدق (٢):

إِنْ كَانَ مِنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةٌ ظَفَرْتُ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا فَالْيَوْمَ أَحَسَبْتُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ

وهذه حال كل من أحب مع الله شيئاً سواه، فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بد، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً مخدوعاً بأمنية ظفرت نفسه بها مدة حياته، ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَا كَرِهًا فَنَتَّبِعَهُمْ مِثْلَ مَا تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، فالأسباب التي تقطعت هي الوصل والعلائق والموادات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله، وهي التي يقدم إليها سبحانه فيجعلها هباءً منثوراً، فكل محبة لغير الله فهي عذاب

(١) هو ابن الفارض.

(٢) لأنه كان حلولياً زنديقاً، أي ابن الفارض.

على صاحبها وحسرة عليه، إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر. كما قال:

سَيَقِي لَكُمْ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحِشَا سَرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ
وقال آخر:

إِذَا تَصَدَّعَ شَمْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُمْ فَلِلْمُحِبِّينَ شَمْلٌ غَيْرُ مَنْصَدَعٍ
وَإِنْ تَقَطَّعَ حَبْلُ الْوَصْلِ يَوْمئِذٍ فَلِلْمُحِبِّينَ حَبْلٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ^(١)

وقال عليه السلام: «لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٢). وفي لفظ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار»^(٣) فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث:

الأولى: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من سواهما، وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمناً بدونها.

الثانية: أن يحب العبد لا يحبه إلا الله، وهذا من لوازم الأولى.

(١) روضة المحبين (٢٤٨-٢٥١).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الثالثة: أن يكون إلقاؤه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر^(١).

فالتنعم بالطاعة هو من براهين المحبة الصادقة، كما قال الجنيد: «علامة المحب؛ دوام النشاط بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالباً قَهَرَ لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل؛ ترك الكسل في طاعته، وإن كان أحب إليه من المال؛ ترك المال في حبه»^(٢) ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ [الإنسان: ٨]، وبالطبع فلكل عابد شرّة وفترة كما قال ﷺ: «لكل عابد شرّة، ولكل شرّة فترة، فإما إلى سُنّة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سُنّة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»^(٣)، والشرّة هي النشاط والرغبة، وضدها الفترة. إذن فالفتور من جِبَلات النفس ولكن فتور الموفقين لا يخرجهم عن السنة والطاعة إلى البدعة والهلكة.

٧- التأسف والحزن على ما فات من أمانة الله وذكره:

فالمحب الصادق يتأسف ويشتد عليه ضياع شيء من وقته وعُمْرِه في غير مرضاة الله تعالى، فإذا فات وِرْدُهُ من الصلاة أو التلاوة أو الذكر أو التفكير أو

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٧٥٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١ / ١٦٣٦).

(٣) أحمد من حديث عبد الله بن عمرو (٩ / ١١) (٦٤٧٧) وصححه شعيب الأرناؤوط.

العبادة وَجَدَ لفوات ذلك أَلَمًا أعظم من تألُّم الحريص على ماله من فوات ماله وضياعه وتلفه، وبادر إلى قضائه في أقرب فرصة، كما كان يفعل سيد العابدين صلوات الله وسلامه عليه. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبتته»^(١)، وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة»^(٢).

وبكى أحد السابقين لما فاتته صلاة الصبح مع الجماعة، وقال: لو مات ابني لعزاني الناس، ووالله لفوت الجماعة أشد علي!

والله سبحانه وتعالى قد جعل الليل والنهار خلفه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، قال ابن عباس والحسن وقتادة: «يعني خلفاً وعوضاً، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاتته عمله في أحدهما قضاه في الآخر»^(٣).

٨ - عدم الأسف على الفائت مما سوى الله تعالى :

فمن وجد الله فماذا فقد؟! ومن فقد الله فماذا وجد؟! فالمحب لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن

(١) أي داوم عليه.

(٢) مسلم (٧٤٦) وانظر: أعمال القلوب، المنجد (٢٤٤).

(٣) مختصر تفسير البغوي، د/ عبد الله الزيد (٦٧٢).

ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعتاب^(١) والتوبة. «قال أحد العارفين: إن لله عبداً أحبّوه واطمأنوا إليه، فذهب عنهم التأسف على الفأث، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم.

وحقّ المحب إذا رجع من غفلته في لحظة أن يُقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب، وتكون هفوته سبباً لتجدّد ذكره وصفاء قلبه ودمعة عينه»^(٢). وقال ذو النون: «من علامات المحب لله؛ ترك كل ما شغل عن الله عز وجل حتى يكون الشغل كله بالله وحده»^(٣).

٩- أن يستقلّ ما يعمل له لمحبوبه تعالى وتقدس :

فيستقلّ العابد المحب لربه عز وجل جميع أعماله الصالحة، ولا يراها شيئاً، ولا يرى عمله مهما كثر وعظم وشقّ إلا بعين النقص والازدراء، فمهما بلغ عمله فهو لا يصلح قرباناً لإلهه ومعبوده، فهو دائم الاستغفار من تقصيره في أداء الحقوق، وعجزه عن الإتيان بها على الوجه الذي يليق بالله تعالى، وكلّما ازداد حبّاً لله وعلماً به ازداد معرفة بحقه فاستقلّ عمله أكثر. كما قال تعالى في وصف هؤلاء المحبين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]،

(١) الاستعتاب: طلب رفع ثمرة الذنب وهو العذاب. وهذا أحد معاني «لك العتبي حتى ترضى». الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥)، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة. ولتدليسه ضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢).

(٢) الإحياء (١/ ١٦٣٦) باختصار.

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (١/ ٧٣).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويُصَلُّون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»^(١)، لهذا شُرِعَ الاستغفار في ختام العبادات كالصلاة وصيام رمضان والحج ونحو ذلك. والله سبحانه شكور يقبل القليل ويجزي الجزيل، سبحانه وبحمده لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

١٠- الهيبة والتعظيم لله تعالى:

«فالمحب يخاف ويهاب»^(٢) ويتضاءل تحت هيبة الجلال والعظمة، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام^(٣) المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض. فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب^(٤)، وأشد منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو

(١) الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

(٢) الهيبة: هي نتيجة للحب مع الخشية.

(٣) المقامات على المشهور هي مراحل قلبية روحية يمر بها المرء في سيره إلى الله تعالى، وقد اصطلح بعضهم على ذلك لغرض الإيضاح للمتعلمين فقط، ومثلها القواعد الفقهية والحديثية واللغوية ونحوها، وإن كانت هذه أخص.

(٤) لأنه أبعد في الطرد، والمراد احتجاب المعارف والعلوم النافعة الخاصة بصفات الله تعالى عن قلب العبد.

الذي شَيَّب سيِّد المحبين ﷺ إذ سمع قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّلْثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]^(١)، وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من أَلِفَ القُرْبَ وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين يُشَيِّبُ سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحنّ إلى القرب من أَلِفَ البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يُمكن من بساط القرب.

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فدرجات القرب لا حصر لها، وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(٢)، فينبغي للمحب أن يحذر من

(١) هذا اختيار الغزالي رحمه الله، ويرى غيره أن الآية هي ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، والحديث عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! لقد شبت. قال: «شيتني هود، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» رواه الترمذي وغيره، وقال: حسن غريب، وقد اختلف في تصحيحه وتضعيفه، ومن ضعفه فقد حكم عليه بالاضطراب للاختلاف على أبي إسحاق السبيعي، وقد أطل الكلام فيه الدارقطني في العلل (٣/ ١٩٣-٢١١)، وقد صححه الألباني في الصحيحة (٩٥٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٧٥) (٧٠٣٣) والغين: الغطاء الخفيف. قال أبو عبيد: «يعني أنه يتغشى القلب ما يلبسه، قال: كأنه يعني من السهو. وكذلك كل شيء يغشاه شيء حتى يلبسه فقد غين عليه. يقال: غينت السماء غيناً، وهو إطباق الغيم السماء، وأنشد:

كَأَنِّي بَيْنَ خَافِيَتِي عِقَابٍ أَصَابَ حَمَامَةً فِي يَوْمِ غَيْنٍ

=

المكر الخفي الذي يسلبه مراتب القرب من الله تعالى بسبب ركونه إلى ما سواه، ولا يقدر على ذلك - بتوفيق الله - إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم يخاف المحب من السلو عنه، فإن المحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد، والسلو قد يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فهذه التقلبات لها أسباب خفية سهاوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، فقد يُمكر بالعبد ويُستدرج بإخفاء ما ورد عليه من السلو والغفلة فيتثقل القلب من حب الله إلى حب غيره من حطام الدنيا التي لا تعين على حبه، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدمة السلو، وضيق الصدر بالبر، وانقباضه عن دوام الذكر، وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها.

فليحذر المؤمن من أسباب هذه الأعراض فقد توصله إلى المقت عياداً بالله تعالى، وليلزم الخوف مما يبعده عن الله تعالى، وليحذر الركون إلى غيره بصفاء المراقبة، فإن من أحب شيئاً خاف لا محالة من فقدته^(١).

كما أن عليه أن يتسم بالحكمة في رياضة نفسه وقيادة قلبه ﴿وَمَنْ يُؤْتَ

كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي (١ / ١١٤٨). وقال النووي: «الغيم والغين بمعنى - أي بمعنى واحد - والمراد هنا ما يتغشى القلب، قال القاضي - أي عياض -: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عدّ ذلك ذنباً. صلوات الله وسلامه عليه» (المنهاج ١٧ / ٢٣).

(١) الإحياء (١ / ١٦٣٨) بتصرف.

أَلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿البقرة: ٢٦٩﴾ فيروّح عن نفسه بالمباحات ساعة وساعة، فالنفس تكلّ وتنصب إذا لم تُعطَ حظها من الراحة والانبساط، وقد نبه رسول الله ﷺ عبد الله ابن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما أراد أن يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله بقوله: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر». قال: قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم صيام داود عليه السلام، وهو أفضل الصيام» قال: فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك. فقال النبي ﷺ: «لا أفضل من ذلك» وفي رواية: «فصم يومًا وأفطر يومين» قال: إني أطيق أفضل من ذلك. فقال النبي ﷺ: «فصم يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيام داود وهو عدل الصيام»، وفي رواية: «فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ونفّهت نفسك»^(١). وفي رواية: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا»، وفي رواية: «ولا يفرّ إذا لاقى»^(٢). وفي رواية: قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لأن أكون قبلت الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي^(٣). وفي رواية: «فاقرأه في كل سبع، ولا تزدد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًا،

(١) نَفَّهَتْ: كلّت وتعبت. هجمت: غارت، ودخلت في موضعها، وضعف بصرها.

(٢) متفق عليه، والألفاظ للبخاري. فلا يضعفه الصيام والقيام عن الجهاد في سبيل الله

تعالى.

(٣) مسلم (١١٥٩).

ولزورك^(١) عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا» قال: فشددت فشدد علي، قال: وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمر» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت، وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ^(٢).

قال ذلك لأنه كبر وشقت عليه المحافظة على ما التزم ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ، فكان ربما سرد أيام الصيام ثم سرد أيام الفطر يُحصىها. ومن فقه سلمان رضي الله عنه أنه أرشد أبا الدرداء لمثل ذلك، إذ النفس كالراحلة إن غفل عنها صاحبها وترك حبلها على غاربها تركت الطريق ورتعت في الربيع، وإن شدّها وجوعها وأتعبها أهلكها، كالمُنْبَت لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقي^(٣)، وسأل رهط من الصحابة أزواج النبي ﷺ عن عبادته، فلما أخبروا، كأنهم تقالوها - أي اعتبروها قليلة - ثم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٤).

وبالجملة؛ فالمؤمن خبير نفسه، وطيب قلبه، فإن راضه بالذكر والفكر

(١) أي: أضيافك.

(٢) مسلم (١١٥٩).

(٣) ويروى في ذلك حديث ضعيف كما في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٥ / ٥٠١).

(٤) متفق عليه.

والعبادة، فليجعل لنفسه فسحة على قدر بلغتها، فلا يرخي لها الزمام حتى لا تغفل ولا يشده حتى لا تنكسر وتنقطع.

وذكر أبو نعيم رحمته الله في الحلية في ترجمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن طلاب العلم لما ازدحموا عليه حتى ضاق بهم الطريق، رتبهم في التقديم على حسب مطالبهم، ولم يراع في ذلك سابقاً، فنأى بالطالين للقرآن وحروفه، فإذا فرغوا دعا من طلب تفسير القرآن فجعلهم في المرتبة الثانية، فإذا فرغوا دعا من طلب فقه الحلال والحرام فجعلهم في الثالثة، فإذا فرغوا دعا من طلب الفرائض وما أشبهها، فإذا فرغوا دعا من طلب العربية والشعر والغريب من الكلام فجعلهم في الخامسة، وكان الصحابة يروحون القلوب ساعة فساعة.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إني لأستجم نفسي بالباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملأها. والباطل هو اللهو المباح. وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة وقال: حمضونا^(١)، فيأخذ في أحاديث العرب، ثم يعود فيفعل ذلك مراراً.

قال الغزالي: «قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه البعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف؛ أحب الله تعالى فقرّبه

(١) وربما قال: أحمضوا. كما نقله عنه ابن إسحاق. والإحماض مأخوذ من إحماض الإبل، أي ميلها إلى رعي نبات الحمض بعد أن تمتلئ من الربيع.

ومكّنه وعلمه^(١)، فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو من محبة^(٢).

وقال ابن القيم: «ومن علامات المحبة وشواهدا؛ إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه، ورمية بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحدّ النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض، قال تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله ﷺ في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً، ولا طمح متجاوزاً إلى ما هو رائيته ومقبل عليه كالمُتَشَارِفِ^(٣) إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتدّ نهى النبي ﷺ للمصلي أن يزغ بصره إلى السماء، وتوعّدهم على ذلك بخطر أبصارهم. إذ هذا من كمال الأدب مع مَنْ المصلي واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس، مطرقاً إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه، لم يكن فرق بين النظر إلى

(١) كما قال مكحول رَحِمَهُ اللهُ: من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد. وسيأتي بسط ذلك في باب الرجاء بإذن الله.

(٢) الإحياء (١/ ١٦٣٩).

(٣) المتشارف: المتشوّف إلى الشيء والمتطلع إليه. ومنه قوله ﷺ لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وما آتاك الله من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ له ولا سائل فخذ، وما لا فلا تتبعه نفسك» أحمد (١/ ٤٨٩)، وأصله في الصحيحين.

فوق أو إلى أسفل^(١)، ومتى استحكم الحب والذل صارت عبودية، فيصير قلب المحب مُعبِّدًا لمحبوبه^(٢).

فالموفق من عبد ربه على المحبة والهيبة والتعظيم والإجلال، لا من شطح به الشوق والإدلال أو القنوط واليأس^(٣).

١١- الصبر على المكاره في ذات الله تعالى:

فمن علامات محبة العبد لربه عز وجل أن يكون صابرًا على المكاره، «والصبر من آكد المنازل في طريق المحبين وألزمها للمحبة. وهم أحوج إلى منزلة الصبر من كل منزلة. فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذا لبّ الموضوع والقصد والفائدة التي لأجلها كان الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها به، وبه يُعلم صحيح المحبة من معدومها، وصادقها من كاذبها، فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحة المحبة، ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادّعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاهرة انخلعوا عن الحقيقة ولم يثبت إلا الصابرون. فلو لا تحمّل المشاق وتجشّم المكاهرة بالصبر ما ثبتت صحة الدعوى، وقد تبين أن أعظم الناس

(١) وقد طرد الخبيث بشر المريسي قوله في نفى علو الله تعالى حتى قال في سجوده: سبحان ربي الأسفل. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(٢) الروضة. ابن القيم (٢٣٥، ٢٥٣).

(٣) وسيأتي المزيد في باب الخشية إن شاء الله.

محبة لله أشدهم صبراً، وهذا ما وصف الله به أوليائه وخاصته، فقال عن عبده أيوب عليه السلام لما ابتلاه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، فهذه العلاقة بين الصبر والمحبة ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن الصبر لا يكون إلا بالله، فيصبر لله، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] (١) (٢).

«والمحب مع صبره في ذات المحبوب إلا أنه لا يصبر عنه، والصادق من ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحب، وأما الصبر عنه فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره.

والصبر يُحمد في المواطنِ كُلِّها وَعَنِ الْحَبِيبِ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

فمن صبر عن محبوبه؛ أدى به صبره إلى فوات مطلوبه، قال أحد المحبين:

مَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ! وَأَمَّا عَلَى أَلَا أَرَى وَجْهَكَ يَوْمًا فَلَا
لَوْ أَنَّ يَوْمًا مِنْكَ أَوْ سَاعَةً تُبَاعُ بِالدُّنْيَا إِذْنٌ مَا غَلَا» (٣)

١٢- الدِّلَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ:

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ

(١) أعمال القلوب، المنجد (٢٤٠، ٢٤١).

(٢) وللصبر باب خاص إن شاء الله تعالى.

(٣) روضة المحبين (٢٣٨).

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ
لَوْمَةً لَآئِمَةً ﴿٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]، فقد ذكر الله هؤلاء المحبين الصادقين الذين يحبهم
ويحبونه أربع علامات:

أحدها: الذل للمؤمنين. قيل: معناه: أرقاء، رُحماء، مشفقين عليهم، عاطفين
عليهم. فلما ضَمَّنَ «أذلة» هذا المعنى عدَّاهُ بأداة «على»^(١)، قال عطاء: للمؤمنين

(١) التضمين بابٌ شريف من أبواب علوم القرآن العظيم، فمن فصاحة القرآن أن
تضمن الكلمة عدة معانٍ في مبنى واحد، وهذا من ألطف الإيجاز وأفخم الإعجاز،
فالتضمين يجمع بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي أفادته التعدية. ولهذا
أمثلة عديدة في التنزيل، ومن ذلك ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٠] أي أنهى إليه
الوسوسة، كقوله: حدث إليه وأسر إليه. كذلك ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧]، فالنصر هنا مضمَّن معنى الإنجاء والتخليص، كذلك
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٥] ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، فالحفظ
لا يتعدى بعلى، ولكن لما ضمنت التعدية للمعمول الثاني استقامت. والمعنى: أنهم
حافظون فروجهم عن كل شيء إلا عن أزواجهم. كذلك ﴿أَفْتَمَرْتُهُ عَلَىٰ مَا رِئَىٰ﴾
[النجم: ١٢] فعُدِّي بعلى لتضمينه معنى المغالبة. كذلك ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أَمْطَرْتَ مِنْهَا السَّوْءَ﴾ [الفرقان: ٤٠] فجاء فعل (أتوا) مضمناً معنى مروا فعُدِّي
بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها. كذلك
﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ [الشعراء: ١١١] فعُدِّي بالإيمان باللام لتضمنه معنى الإقرار
إضافة إلى التصديق. كذلك ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران:

كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه هي العلامة الثانية من علامات المحبة في آية المائدة وهي:

١٣- العزة على الكافرين:

كما قال جل شأنه في مدح أحبائه الذين يحبهم ويحبونه: ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ لأن الكافرين أعداؤه وبُغضاؤه، فحقهم المقت والعداوة والبراءة، والعزة عليهم بإذلالهم والترفع عليهم. أما العلامة الثالثة في وصفهم فهي:

١٧٦ [فضمّن يساعد معنى يقعون، فعدها بفي. كذلك ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥] فضمّن حقيق معنى حريص فجاءت التعديّة بعلی. وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] فضمّن يشرب معنى يروى فعديت الكلمة بالباء. كذلك ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] فضمّنت خلوا معنى ذهبوا فعديت بإلى. كذلك ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣] ضمّن معنى أنابوا فعدي بحرفه. كذلك ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥] أي أنزل، فعدي بعلی. كذلك ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي أحله له. كذلك ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] تضمن معنى الإنابة والرجوع. كذلك ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٩] ضمن معنى الزوال. كذلك ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ضمن معنى سائل... وغير ذلك كثير في التنزيل العزيز.

١٤- الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال:

وذلك تحقيق دعوى المحبة^(١) فقد قال جل وعز: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم ذكر الوصف الرابع من أوصافهم وهو:

١٥- ألا تأخذه في الله لومة لائم:

كما قال رب العزة سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقيّة يجد السبيل بها إليه اللوم
فالمحب يغضب لله تعالى ويغار إذا انتهكت محارمه، أو تركت حقوقه؛ فالجهاد كله نابع من هذه الغضبة والغيرة، فأقوى العباد لله محبة هم أعظمهم غيرة على حرّمات الله، فمحبوبهم جل وعز لا يرضى بها، وفي سيرة نبي الله ﷺ وأصحابه وأتباعه آثار كثيرة من هذا الباب، فمنها أنه خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر.. فكأنما يُفَقَّأ في وجهه حب الرمان من الغضب^(٢)، وغضب لما سُكِّي إليه من يطيل بالناس الصلاة^(٣)، وهتك قرام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما فيه

(١) المدارج (٣/ ٤٥٦)، وسيأتي الكلام عن الجهاد في أبواب الغضب لله والشجاعة إن شاء الله تعالى.

(٢) المسند (٢/ ١٧٨)، ابن ماجه (٨٥) بسند صحيح، وقال الألباني: حسن صحيح. المشكاة (٩٨).

(٣) البخاري (٩٠).

من التماثيل. قالت: فلما رآه هتكه وتلوّن وجهه^(١)، وغضب لما كلمه أسامة في شأن المخزومية^(٢)، ولما رأى نخامة في قبلة المسجد شقّ عليه حتى رُئي في وجهه^(٣)، وبوّب البخاري رحمه الله في صحيحه: باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

وقال أبو معمر القطيعي: لما أحضرنا إلى دار السلطان أيام المحنة - أي امتحان الناس بالقول بخلق القرآن - وكان أحمد بن حنبل قد أحضر، فلما رأى الناس يجيئون - أي يوافقون السلطان على ضلاله وباطله - وكان رجلاً لئناً فانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، وذهب ذلك اللين. فقلت: إنه قد غضب لله، فقلت: أبشر. وحديثه عن أبي سلمة قال: كان من أصحاب رسول الله ﷺ من إذا أُريد على شيء من أمر دينه رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون^(٤). وفي الأدب المفرد بسند حسن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزّقين^(٥) ولا متماوتين^(٦)، وكانوا يتناشدون الشعر

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) سير أعلام النبلاء (١١ / ٢٣٨)، والحماليق: جمع حملاق العين، وهو ما يسوده الكحل من باطن أجفانها، وهو كناية عن فتح العينين والنظر بحدّة وغضب.

(٥) متحزّقين: منقبضين ومجتمعين، من الانقباض إلى النفس وعدم الانبساط للناس.

(٦) متماوتين: يقال: تماوت الرجل: إذا أظهر من نفسه التخافت والتضاعف.

في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريد أحد منهم عن شيء من أمر الله، دارت حاليق عينيه كأنه مجنون (١).

وعن بكر بن عبيد الله قال: كان أصحابه - أي رسول الله ﷺ - يتبادحون (٢) بالبطين، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال (٣).

وقال ابن القيم رحمه الله في شأن الغيرة للمحبوب وعليه: «ومن علامات المحبة وشواهداها، الغيرة لمحبوبه وعلى محبوبه، فالغيرة له: أن يكره ما يكره، ويغار إذا عصى محبوبه وانتَهك حقه وضَّيع أمره، فهذه غيرة المحب حقاً، والدين كله تحت هذه الغيرة. فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أتعجبون من غيرة سعد؛ لأننا أغيرُ منه، والله أغيرُ مني» (٤)، فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين، فكذب من ادَّعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حُرمة محبوبه، ويسعى في أذاه وسخطه، ويستتهين بحقه، ويستخف بأمره، وهو لا يغار لذلك. بل قلبه بارد، فكيف يصحَّ لعبد أن يدَّعي محبة الله وهو لا يغار لمحاميه إذا انتهكت، ولا لحقوقه إذا ضيَّعت؟! وأقلُّ الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار

(١) صحيح الأدب المفرد للألباني (١ / ٢١٩).

(٢) يتبادحون: أي يترامون.

(٣) الأدب المفرد (٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١ / ٧٢١).

(٤) متفق عليه.

لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة، بل ترحل منه الدين، وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك، فإن خلت من القلب؛ لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرة منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبته الجهاد، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لَدُنْهُ لِيُخْبِرَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُخْبِرَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُخْبِرَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُخْبِرَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأما الغيرة على المحبوب فإنما تُحمد حيث يُحمد الاختصاص بالمحبوب، ويُذم الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً، كغيرة الإنسان على زوجته وأمه والشيء الذي يختص به هو، فيغار من تعرض غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختص بالخلق ولا تُتصور في حق الخالق، بل المحب لربه يحب أن الناس كلهم يحبونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه، ولا شيء أقر لعبده من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولما لم يميز كثير من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تخبيط قبيح، وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور، وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه! وربما سكته إن أمكنه! ويقول: غيرة الحب تحملني على هذا! وإنما ذلك حسدٌ وبغي وعدوان ونوع معادة لله،

ومراغمة لطريق رسله، أخرجوها في قالب الغيرة، وشبهوا محبة الله تعالى بمحبة الصور من المخلوقين»^(١)!

١٦- الأنس بالله والرضا به^(٢):

«قال أبو تراب النخشي:

لا تُخْدَعَنَّ فللحييب دلائل	ولديه من تُخْفِ الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه	وسروره في كلّ ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر إكرام وبرّ عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألحّ العاذل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً	متحفظاً من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ: مُتَمِّمًا :-

ومن الدلائل حُزْنُهُ ونحيبُهُ	جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرًا	نحو الجهاد وكلّ فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى	من دار ذلّ والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيًا	أن قد رآه على قبيح فعائل

(١) روضة المحبين (٢٤٦). ثم عقد ابن القيم في هذا الكتاب بابًا مانعًا نافعًا في الغيرة وأقسامها ومتى تحمد ومتى تدم. مع أمثلة وافرة، وهو الباب الثاني والعشرون (٢٦٤-٢٨٢).

(٢) ولكل منهما باب مستقل إن شاء الله تعالى.

ومن الدلائل أن تراه مسلماً كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً بملكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكهُ بين الوري والقلبُ محزون كقلب الثاقل^(١)

١٧- محبة أحبائه، وأحبهم إليه خليله وكليمه محمد صلوات الله وسلامه عليه

وعلى آله وأصحابه :

فمن براهين محبة الله تعالى محبة من يحب، وما يحب، وأحب الخلق إليه نبينا محمد ﷺ صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، الشاهد المبشر النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، خير من وطئ الثرى وركب الدرى وتسّم المراكب العلى، خير خلق الله، وأكرمهم على الله، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد الذي آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وهو خطيب الأنبياء إذا وفدوا على ربهم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وهو صاحب المقام المحمود يوم القيامة الذي يغبطه عليه الأولون والآخرين، وهو خاتم المرسلين، وأفضل خلق الله أجمعين، أرسله الله بأفضل شريعة إلى خير أمة أخرجت للناس، وأنزل عليه أفضل كتبه، وجعله مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه، الذي هدى الله به الخلق وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد، وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وطريق الجنة وطريق النار، وهو الذي قسم الله به عباده إلى شقي وسعيد، فالسعيد من آمن به وأطاعه، والشقي من

(١) الإحياء (١/ ١٦٤١، ١٦٤٢).

كذبته وعصاه، وعلّق بطاعته النجاة والسعادة، فلا سبب ينجو به العبد من عذاب الله وينال السعادة في الدنيا والآخرة ممن بلغت دعوته وقامت عليه الحجة برسالته إلا من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه.

«قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقد بين الله تعالى ما يستحقه عبده الكريم ونبيه العظيم من الحقوق فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفتح: ٨، ٩]، فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول^(١) والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده.

وجعل الله المحبة له ولرسوله كذلك الإرضاء فقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ

(١) هذا قول شيخ الإسلام، ولا يمنع أن تكون كلها لله ورسوله خلا التسبيح، فالتعزير بنصر دينه والتوقير قد ثبت في القرآن ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، ولعله أولى ما دام اللفظ يحتمل.

كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿[التوبة: ٦٢] فالرسول علينا أن نحبه وعلينا أن نرضيه، كذلك الطاعة ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]»^(١).

فمن أحب الله أحب دينه وأحب رسوله ﷺ وأحب آله وأصحابه وأتباعه. وقد استفاض في الصحاح عنه ﷺ من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»^(٢)، وفي رواية لما سُئِلَ: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم- أي ولما يعمل بأعمالهم- فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٣)، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم، وإن لم أعمل عملهم.

قال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث حق، فإن كون المحب معه أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريباً من ذلك كان معه بحسب ذلك. وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحسوب في محابته، وإذا كان المحب قادراً عليه، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة»^(٤).

(١) منهاج السنة، ابن تيمية (٢/ ٤٤٤-٤٤٧) باختصار.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الفتاوى (١٠/ ٧٥٢).

«فمحنة المحبوب تستلزم حب كل ما يتعلق من مراضيه، كما قال الأول:

أَحَبُّ بَنِي الْعَوَّامِ طُرًّا لِحُبِّهَا وَمَنْ أَجْلَهَا أَحَبَّتْ أَوْهَا كَلْبَا

وقال الآخر:

يَشْتَاقُ وَادِيهَا وَلَوْ لَا حُبُّكُمْ مَا شَاقَهُ وَادٍ زَهَتْ أَزْهَارُهُ

وقال آخر:

فِيَا سَاكِنِي أَكْنَافَ طَيِّبَةٍ كُلُّكُمْ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ

وكان أنس رضي الله عنه يحب الدُّبَاءَ كثيراً لما رأى النبي ﷺ يتبعها من جوانب

القصعة (١).

ومن عجيب أمر المحبة الاتفاق بين المحب والمحبوب، لاسيما إذا كانت المحبة محبة مُشَاكَلَةٍ ومناسبة، فكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه، ويتحرك بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب بعينه اتفاقاً، فانظر إلى قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الحديبية لما قال له: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية (٢) في ديننا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولستُ أعصيه» فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوفُ به؟ فقال: «قلت لك إنك تأتيه العام؟» قال: لا. قال: «فإنك

(١) متفق عليه، والدُّبَاءُ: القَرَع.

(٢) الدنية: النقيصة والخضوع.

آتيه ومُطَوِّفٌ به»، ثم جاء أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له: يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال له: إنه رسول الله، وهو ناصره، وليس يعصيه. قال: ألم يكن يحدثنا أنا نأتي البيت فنطوِّفُ به؟ قال: أقال لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به^(١).

(١) البخاري (١٦٩٤) وانظر: جامع الأصول (٦١٠٨) ثم قال ابن القيم: «هكذا وقع في صحيح البخاري، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أبا بكر أولاً فقال له ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ بعده فقال له مثل ما قال أبو بكر. قال السهيلي: وهذا هو الأولى، ويُشبه أن يكون المحفوظ، فإنه لا يُظن بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون رسول الله يقول له قولاً فلا يرضى به، حتى يأتي أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك والشبهة عنده لم تنزل فيعيدها عليه، ولا يُظن ذلك بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم: ولعمري لقد نزع أبو القاسم - أي السهيلي - بذنوب صحيح - أي دلو سليم - ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري. وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن. وأما ما نسب إلى عمر فقد أجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه في ذلك كما تقدم له أمثالها، فإنه كان يقول القول فينزل به القرآن. والثاني أن المقام كان مقام محنة وابتلاء عَجَزَ عنه صبر أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم، والثاني هو الحق. وهو من السعي المغفور لا المشكور لعمر والصحابة الذين أغضبوا رسول الله بتأخيرهم عن حلق رؤوسهم، فغفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله، وعَدَرَهم الله سبحانه لقوة الوارد وضعفهم عن حمله، حتى لم يحمله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوته وشدة، واحتمله رسول الله ﷺ وأبو بكر، وكان جوابهما من مشكاة واحدة. ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكوني الأمري الذي حكم له به،

فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفاً بحرف، من غير تواطؤ ولا تشاعر، بل موافقة محبٍّ لمحبوب، وهذا الذي قد جرى للصديق من أحسن الموافقة^(١)، وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه^(٢)، وهذا بحسب تعلّق الهمة به، وتوجه القلب إليه، واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما في المرض والصحة، والفرح والحزن، والخلق، فإن كانت بينهما تشابه في الخلق الظاهر فهو الغاية في الاتفاق^(٣).

وقال ذو النون المصري مبيّنًا ضرورة محبة النبي ﷺ ومتابعته لمن ادعى محبة الله تعالى: «من علامات المحبة متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه»^(٤).

ورضي به، وأقر به، ودخل تحته طوعاً وانقياداً - وهو الفتح الذي فتح الله له - أثابه عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطاً مستقيماً، ونصر الله له نصراً عزيزاً». روضة المحبين (٢٥٥-٢٥٧) باختصار.

- (١) وقد كتب شيخ الإسلام طائفة حسنة من أخبار أبي بكر الصديق وحبه وفدائه للنبي ﷺ في منهاج أهل السنة، وخاصة في المجلد الخامس منه.
- (٢) وقد عاينت من ذلك شواهد بين من أعرفهم - رحمهم الله -.
- (٣) روضة المحبين (٢٥٧).
- (٤) تاريخ دمشق (١٧ / ٤٢٧)، وانظر: الرسالة القشيرية (١ / ٧) كذلك: جلاء العينين بمحاكمة الأحمدين (١ / ١٦٦).

وحبّ النبي ﷺ من معاهد الشهادتين، فشهادة أن محمداً رسول الله متضمنة لمحبه صلوات الله وسلامه عليه.

قال النووي رحمه الله ملخصاً كلام القاضي عياض رحمه الله: «وبالجملة فأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة كحب الصالحين والعلماء، وأهل الفضل مطلقاً، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه.

وهذه المعاني كلها موجودة في النبي ﷺ لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ودوام النعم والإبعاد عن الجحيم»^(١).

قال شيخ الإسلام: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبه تبع لحبه، فإن الرسول ﷺ إنما يُحب لأجل الله، ويُطاع لأجل الله، ويُتبع لأجل الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (٢/ ٢١٤) عن محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبد الرؤوف محمد عثمان (٣٨) وهو كتاب قيم في هذا الباب، وقد نقلت عنه بعضاً مما يأتي.

يُحِبُّكُمْ اللَّهُ ﴿[آل عمران: ٣١]﴾^(١).

«وعلى ذلك فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى، فمن أحب الله أحب رسوله ﷺ، وكذلك سائر رسله، ومحبة الرسول تبع لمحبة من أرسله.

ولأجل هذا جاء حب الرسول ﷺ مقترناً بحب الله عز وجل في أكثر النصوص الشرعية، كقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»^(٢). وهذا الارتباط بين المحبتين ارتباط شرعي لا ينفك، فمن زعم أنه يحب الله ولم يحب رسوله ﷺ أو العكس فكلامه باطل واعتقاده فاسد»^(٣).

قال القاضي عياض في كلامه على آية التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]: «فكفى بهذا حرصاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، استحقاقه لها ﷺ، إذ قرع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾»

(١) الفتاوى (١٠ / ٦٤٩).

(٢) البخاري (١٠ / ١).

(٣) محبة الرسول ﷺ، عبد الرؤوف محمد عثمان (٤١).

ثم فسّقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله»^(١).

وتأمل حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما فيه من غزير العلم والإيمان؛ فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر ابن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فقال له عمر: فإنه الآن والله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فقال النبي ﷺ: «الآن يَا عُمَرُ»^(٢). فهذا الحديث يبيّن أنه لا يبلغ المسلم حقيقة الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه.

قال الخطابي: «حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جُبِلَتْ عليه». وعلق على ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: فعلى هذا؛ فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يَا عُمَرُ» أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب»^(٣).

(١) الشفاء، القاضي عياض (٢/ ١٨)، وانظر: تفسير المنار (١٠/ ٢٢٥-٢٤٢) ففيه كلام متين في هذا الباب.

(٢) البخاري (٨/ ١٦١).

(٣) الفتح (١١/ ٥٢٨).

إذن فلم يكن حصول تقديم محبته ﷺ عند عمر على نفسه أمراً جديداً، وإنما الجديد لديه هو إدراكه لتلك المحبة والتفاتته إليها، وفي هذا الحديث إشارة إلى فضيلة التفكر. فالتفكر سبيل للوصول إلى هذه المحبة التامة، فإذا تفكر المسلم في النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ، وأنه سبب نجاته في الدنيا والآخرة، وأيقن قلبه بذلك عظمت في قلبه محبة الحبيب ﷺ وقدمه على ما سواه من المخلوقين»^(١).

وقال ابن رجب رحمه الله: «محبة رسول الله على درجتين:

إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاز عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة. فهذا القدر لا بد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

الدرجة الثانية: فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأهله، وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بسيرته وأيامه، واهتزاز القلب من محبته، وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه وإيثاره

(١) محبة الرسول ﷺ، عبد الرؤوف عثمان (٤٧-٤٩) باختصار.

على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء منها باليسير منها، ورغبته في الآخرة»^(١).

دواعي محبة النبي ﷺ:

فإن قلت: ما الدواعي لمحبة ﷺ؟ فالجواب: إنها كثيرة، ومنها^(٢):

١- أن حب المسلم للرسول ﷺ تابع لحبه لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وهل الاتباع إلا محبة؟ ولو لم يرد في فضله إلا هذه الآية لكفاه صلوات ربي وسلامه عليه.

٢- أن الله تعالى أحبه واختاره من خلقه واصطفاه، فحب ما يحبه الله من لوازم محبته عز وجل.

كما في حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قَرِيشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشَ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٣). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بَنِيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، ابن رجب (٣٤، ٣٥) عن السابق (٤٩).

(٢) محبة الرسول ﷺ (٥٢، ٦١) بتصرف وزيادة واختصار.

(٣) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون به ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة^(١) وأنا خاتم النبيين^(٢). وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»^(٣).

وشواهد حب الله تعالى لنبیه محمد ﷺ كثيرة جداً ومنها:

أ- اختياره واصطفاه لمقام النبوة والرسالة، والله لن يختار لهذا الأمر إلا أحبه وأرضاهم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ب- تشریفه بإنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

ج- إكرامه ﷺ بشرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، وغفران ما تقدم وما تأخر من ذنبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ② ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ③ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

(١) وانظر سلسلة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ ففيها شواهد كثيرة من كتب أهل الكتاب على هذا الحديث العظيم، واصطفاء الله تعالى لنبیه محمد ﷺ بختم الأنبياء والرسل.

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

وفي حديث الشفاعة يحيل عيسى عليه السلام الخلق على نبينا ﷺ فيأتونه ويقولون: «يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم النبيين، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك...»^(١).

قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَغَرَّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مِنْ نَوْرِ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَٰهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(٢)

د- تكريمه بصلاة الله وملائكته عليه في الملأ الأعلى:

قال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو العالية: «صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء»^(٣).

ووالذي نفسي بيده لو أفنى أحدنا عمره من حين تمييزه إلى وفاته مصلياً مسلماً على نبيه ما وقي عشر معشار حقه، صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه بأبي هو وأمي ونفسي وولدي.

(١) متفق عليه.

(٢) معالم التنزيل، البغوي (٨ / ٤٦٤)، وانظر: ديوان حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤٧).

(٣) البخاري (٤٧٩٦).

هـ- تشریفه بمقامي الخلة والكلام، فقد جمعها له سبحانه وتعالى:

كما في حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً...»^(١). وكلمه سبحانه في المعراج حينما فرض عليه الصلوات الخمس كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الإسراء والمعراج الطويل وفيه: «فأوحى إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة... فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة...»^(٢).

٣. كمال رأفته ورحمته وشفقته على أمته، وحرصه على هدايتها وإنقاذها من الهلكة. حتى كادت نفسه أن تذهب أسفاً على قومه ألا يكونوا مؤمنين. قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] فقد كان يريد هداية الخلق من الثقلين، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا

(١) مسلم (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) متفق عليه. والإسراء والمعراج كان يقظة لا مناماً، بروحه وجسده ﷺ كما قرره أئمة السنة. انظر: زاد المعاد (١/ ٩٩).

(٣) أي يشق عليه ويؤلمه ما يشق عليكم لكمال شفقته بكم.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَزَّلْتُكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية. وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»^(١).

فلا إله إلا الله ما أكمل شفقتة ورحمته ورأفته بأُمَّته! وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأُمَّتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أُمَّتي لا يشرك بالله شيئاً»^(٢). كذلك حديث الشفاعة العظيم وفيه: «فأنطلق فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الشاء عليه شيئاً لم يفتحني على أحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفعُ تُشفع. فأرفع رأسي فأقول: أُمّتي يا رب، أُمّتي يا رب، أُمّتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء

(١) مسلم (١/ ١٩١).

(٢) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»^(١). فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا النبي الكريم والرسول العظيم ما دام الزمان.

وإذا قرأت سيرته تبين لك مدى حرصه ورأفته ورحمته بهذه الأمة المرحومة فلك الحمد يا ربنا على أن جعلتنا من أتباعه، اللهم ارزقنا التوفيق لما تحب وترضى والاستئنان بسنته والتأسي بهديه، وأعدنا من كل ما يزيغنا عن صراطه أو يعيقنا عن سنته يا حي قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

وفي رواية: يذكر شفاعته فيمن كان في قلبه شعيرة من إيمان، فيشفع، ثم يعود فيشفع لمن كان في قلبه مثقال ذرة أو خردل من إيمان فيشفع، ثم يعود فيشفع فيمن كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حب خردل من إيمان فيشفع ويخرجهم من النار. وفي كل مرة يسجد ويحمد - ثم يعود فيشفع ويقول: «يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله»^(٢)، وفي رواية: «حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن»^(٣).

٤. كمال نصحه لأئمة وهدايته لها وإحسانه إليها:

وقد زكاه ربه وشهد له بذلك فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤] وأخبر أن الاستجابة لرسوله حياة، فقال سبحانه وبحمده: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ولم يمت حتى تركنا على البيضاء وقال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١). ولم يمت حتى أكمل الله تعالى به الدين فأنزل عليه في عرفة في حجة الوداع آية المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٥- ما خصه الله تعالى به من كريم السجايا وجميل الخصال خلقًا وخلقًا دون غيره من البشر.

ويكفيه وصف ربه تعالى له بقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]^(٢).

(١) أحمد (٤/ ١٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٩) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث عظيم جليل، وقد أطال النفس في شرحه الحافظ ابن رجب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جامع العلوم والحكم.

(٢) أحمد (٤١/ ١٤٨) (٢٥٣٤١) وهو حديث صحيح، وفيه المبارك بن فضالة، يدلّس تدليس التسوية، إلا أن ما رواه عن الحسن يحتج به على ما قال أحمد. وهذا منها، =

أسباب زيادة محبة النبي ﷺ:

بكل تأكيد هي تزيد مع زيادة الإيمان في القلب، فالقلب المملوء بالتقوى واليقين والإخبات لرب العالمين هو مملوء كذلك بحبه وحب من يحبه وبخاصة نبيه الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وكلما تذكر القلب ذلك النبي العظيم أو ورد به طيف من ذكره لهج مباشرة بالصلاة والسلام عليه، وربما فرّ القلب ورعشت العين فأباحت دمعها.

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بَلَلَهُ القطرُ^(١)

بل ربما اضطرب عند سماع اسمه فجأة كما قيل:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فَهَيَّجَ أشجان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائرًا كان في صدري

مع الفارق الشاهق!

فمن الأسباب:

١. تذكر الرسول ﷺ وأحواله وأخباره وكل شأنه:

فللمعرفة ارتباط وثيق بالحب، «ودواعي الحب من المحبوب جماله، إما

وبقية رجاله من رجال الشيخين، وانظر: الحاكم (٢/ ٤٩٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١). وقد أفاض أهل العلم في التصنيف في شأله الجميلة وأخلاقه الجليلة ودلائل نبوته الباهرة كالترمذي والبيهقي وغيرهما.

(١) لأبي صخر الهذلي، وقيل: لغيره.

الظاهر أو الباطن أو هما معاً، وقد اجتمعاً في الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، فأول دواعي الحب: النظر إما بالعين أو بالقلب، والثاني: الاستحسان، والثالث: الفكر في المنظور وحديث النفس به»^(١).

فمن أراد غرس حب النبي ﷺ في أعماق قلبه كي تنمو شجرة المحبة حتى يكون أصلها ثابتاً وفرعها في السماء فليقرأ سيرته، وليبحث فيها عما يلائم طبعه من جوانب الجمال البشري الكامل في رسول الهدى ﷺ، فقد أكمل الله تعالى خَلْقَهُ وَخُلُقَهُ، وعلى قدر نبل المطالع لسيرته يرتفع معه الإعجاب والحب، فلا تكتف بقراءة كتاب ولا كتابين في السيرة النبوية الشريفة، بل إن استطعت أن تلخص أحد المطولات فيها فافعل، فذلك عقار مجرب لترسيخ أحواله وأخباره في خلفية الذاكرة وأعماق الوجدان والمشاعر.

يزور فتنجلي عني هُمومي لأن جلاء حُزني في يديه
ويمضي بالمسرة حين يمضي لأن حوالتني فيها عليه

قال ابن القيم: «وحدثني شيخنا»^(٢) قال: ابتدأتني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك؛ أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ قال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد

(١) روضة المحبين (٨٦).

(٢) إذا أطلق شيخه فالمراد ابن تيمية رحمه الله.

راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا، أو كما قال.

فمحببة صفات الكمال من أنفع المحبة وأعلاها، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها محبوباً، كما قيل:

أنت القتلُ بكل من أَحْبَبْتَهُ فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي^(١)

ومحبة رسول الله ﷺ أجل من الهوى ومراتبه، ولكن من باب ضرب المثل للحب الجامع.

٢. كثرة الصلاة والسلام عليه:

ولهذه أثر عجيب في سقي شجرة المحبة، يعرفه من ذاقه، وقد سمعت الشيخ أبا بكر الجزائري رحمه الله ليلة يقول: إني لأصلي على رسول الله ﷺ في اليوم والليلة ثلاثة آلاف مرة، فإذا كان ليلة الجمعة ويومها صليت عليه سبعة آلاف مرة.

ويروى أن محمد الحامد الحموي رحمه الله أنه كان يصلي على رسول الله ﷺ في اليوم ألف مرة لا تفوت أبداً، وفاتته مرة حينما كان مريضاً فقضاها في الليل، ثم لفظ أنفاسه مع آخر واحدة منها، رحمه الله تعالى. ومراد العلماء من هذه الأعداد التنظيم وضبط النفس بالذكر لا التعبد بالعدد المذكور، لذا فالأفضل أن يزيد أحياناً عن ورده حتى لا تشوبه شائبة التعبد بالعدد.

(١) روضة المحبين (٦٨، ٦٩).

ويكفي في فضل ذلك أمر الله تعالى عباده به في محكم التنزيل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذا أمر بدأ الله تعالى فيه بنفسه وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، ثم آية عباده المحظيين بأنسه وأمرهم بالصلاة عليه والتسليم. وقال عليه الصلاة والبركات والتسليم: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا»^(١)، وقال ﷺ: «والبخيل من ذكرك عندك فلم يصل علي»^(٢)، وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك»، قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفي همك ويغفر ذنبك»^(٣).

ومعنى كم أجعل لك من صلاتي؟ قال ابن القيم: «وسئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تفسير هذا الحديث فقال: كان لأبي دعاء يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه ربعة صلاة عليه ﷺ. فذكر الحديث - إلى أن قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ أي: أجعل دعائي كله صلاة عليك؟ قال: «إذن تكفي همك ويغفر لك ذنبك» لأنه من صلى على النبي ﷺ صلاة، صلى الله عليه بها

(١) رواه مسلم (١/ ٢٨٨).

(٢) الترمذي (٣٥٤٦) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) أحمد (١٣٦/ ٥)، الترمذي (٢٤٥٧) ويميل ابن باز إلى تضعيفه (مجموع فتاوى ابن باز ٨/ ٣١٣).

عشرًا، ومن صَلَّى الله عليه كفاه همّهم، وغفر له ذنبه. هذا معنى كلامه»^(١) والصلاة هي الدعاء.

وفي كفيات الصلاة عليه قال ابن باز رحمته الله: «من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما سُئِلَ عن كيفية الصلاة عليه، قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد»^(٢). وفي لفظ آخر قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٣)، وفي لفظ عنه أنه قال لهم لما أخبرهم بكيفية الصلاة قال: «والسلام كما عَلَّمْتُمْ»^(٤)، يشير بذلك إلى ما علّمهم إياه في التحيات، وهو قوله: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وفي آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لهم: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٥).

وهذه الكيفيات المذكورة هي أصح ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في

(١) جلاء الأفهام، ابن القيم (٣٤) وهذا من نفيس الفقه.

(٢) مسلم (٤٠٥).

(٣) متفق عليه، وتامه: «اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» واللفظ لمسلم (١/ ٣٠٦).

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

كيفية الصلاة عليه، وهي كافية عما أحدثه الناس من أنواع الصلاة والسلام عليه ﷺ، وهي أفضل مما أحدثوا^(١).

وقال ﷺ: «أكثرُوا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: كيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أُرِمت. أي بليت؟ قال: «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «رَغِمَ أنف رجل ذكُرْتُ عنده فلم يُصل علي»^(٤)، وقال ﷺ: «ما من أحد يسلم علي إلا ردّ الله علي روحي حتى أرُدّ عليه السلام»^(٥)، وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يُمجّد الله تعالى، ولم يصلّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عَجَلْ هذا» ثم دعاه فقال له - أو لغيره -: «إذا صلي أحدكم فليبدأ بتحميد ربّه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بعدُ بما

(١) فتاوى ابن باز (٨/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) أحمد (٨/ ٤) (١٦٢٦٢)، وأبو داود (١٠٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢)، وشعيب الأرنؤوط.

(٣) الترمذي وحسنه (٤٨٤).

(٤) الترمذي وحسنه (٣٥٤٥)، والمعنى: دعاء عليه بأن يوضع أنفه في الرّغام وهو التراب.

(٥) أبو داود (٢٠٤١).

شاء» (١).

٣. الاشتغال بهديه وسنته قولاً وعملاً، باطنًا وظاهرًا:

لذلك كان أهل الحديث لهم حظ وافر من محبته لاشتغالهم بسنته قولاً وعملاً، وكلما ازدادت المحبة دق الاتفاق طردًا وعكسًا.

٤. تأمل عظيم نعمة الله تعالى ببعثته ورسالته صلوات الله وسلامه عليه:

قال شوقي (٢):

وَلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ	وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ
وَعَلَيْهِ مِنْ نَوْرِ النُّبُوَّةِ رَوْنَقُ	وَمِنْ الْخَلِيلِ وَهْدِيهِ سِيَاءُ
يَوْمُ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ	وَمَسَاؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَاءُ
زَانَتْكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ	يُغْرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكَرْمَاءُ
فَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمَقْدَرًا	لَا يَسْتَهِنُ بِعَفْوِكَ الْجَهْلَاءُ
وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ	هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرَّحْمَاءُ
وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّهَا هِيَ غَضَبُهُ	فِي الْحَقِّ لَا ضَعْفٌ وَلَا بَغْضَاءُ
وَإِذَا رَضِيَْتَ فَذَاكَ فِي مَرْضَاتِهِ	وَرَضَى الْكَثِيرُ تَحْلُمٌ وَرِيَاءُ

(١) أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني والأرنؤوط والأعظمي.

(٢) مع احتواء القصيدة الأصلية على ما لا يجوز من الغلو فيه ﷺ، لذا لم أورد منها إلا ما سلم من المحاذير شرعًا.

وإذا خطبت فللمنابر هزة
وإذا حميت الماء لم يورد ولو
وإذا ملكت النفس قمت ببرها
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسماً
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
الذكر آية ربك الكبرى التي
صدر البيان له إذا التقت اللغى
لما تشى في الحجاز حكمه
أزرى بمنطق أهله وبيانهم
حسدوا فقالوا شاعر أو ساحر
أما حديثك في العقول فمشرع
لما دعوت الناس لبى عاقل
أبوا الخروج إليك من أوهامهم
ومن العقول جداول وجلامد
صلى عليك الله ما صحب الدجى

تعرؤ الندي وللقلوب بكاء
أن القياصر والملوك ظماء
ولو أن ما ملكت يداك الشاء
في بُردك الأصحاب والخلطاء
فجميع عهدك ذمة ووفاء
فيها لباغي المعجزات غناء
وتقدم البلغاء والفصحاء
فصت عكاظ به وقام حراء
وحي يقصر دونه البلغاء
ومن الحسود يكون الاستهزاء
والعلم والحكم الغوالي الماء
وأصم منك الجاهلين نداء
والناس في أوهامهم سجناء
ومن النفوس حرائر وإماء
حادٍ وحنّت بالفلا وجناء

مظاهر محبة الرسول ﷺ:

١. طاعته ﷺ واتباعه (١).

٢. تعظيمه وتوقيره والأدب معه بلا غلو ولا جفاء. كما قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن جرير في آية الفتح: «معنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال» (٢).

وقال شيخ الإسلام: «التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه. والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج به عن حدِّ الوقار» (٣).

«وقد أجمع العلماء على وجوب قتل من سبَّ الرسول ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصاً في نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرض به، أو شبَّهه بشيء على

(١) انظر: محبة الرسول ﷺ (٦٥-٩٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٢٦ / ٧٥).

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية (٤٢٢).

طريق السب له، والإضرار عليه، أو التحقير لشأنه.

فحكم من أتى بذلك أن يقتل بلا استتابة؛ لأنه آذى رسول الله ﷺ بما يستوجب إهدار دمه إن كان مسلماً، ونقض عهده وقتله إن كان ذمياً»^(١).

ومن نصر الرسول ﷺ: نصر دينه، والذب عن شريعته، ودفع كيد الكائدين وطعن الطاعنين في سنته وشريعته وسيرته، وإظهار دينه وإشهاره والدعوة إليه والجهاد لإظهاره وإعلائه على ما سواه.

ومن نصر الرسول ﷺ: نصر الداعين إلى شريعته وتكثير سوادهم وإعانتهم والتواصي معهم بالحق والصبر.

٣. كثرة تذكره وتمني رؤيته والشوق إلى لقائه والاجتماع به:

فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، ولا يكون ذلك إلا إذا شغلت المحبة قلب المحب وفكره.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشد أمتي لي حُباً؛ ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله»^(٢).

ولما قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون:

(١) ينظر: الشفاء، القاضي عياض (٢/ ٢١٤)، الصارم المسلول، ابن تيمية (٤١٨)،

(٤١٩) عن محبة الرسول ﷺ (٨٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢١٧٨).

غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه (١)

ولما احتضر بلال نادته امرأته: واويلاه. وهو يقول: وافرحاه، غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه (٢)، فمزج مرارة الموت بحلاوة الشوق إلى رسول الله ﷺ ومن تقدم من أصحابه رضوان الله عليهم.

وكان خالد بن معدان الكلاعي - وهو من أعلام التابعين وخيار الصالحين وقد أدرك سبعين صحابياً - لا يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك. حتى يغلبه النوم (٣).

٤- محبة آل بيته وزوجاته وقرابته وصحابته ﷺ:

وقد أوصانا في أهل بيته خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «أذكركم الله في أهل بيتي» (٤)، وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته (٥).

(١) أحمد (٤ / ١٠٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢ / ٥٠).

(٢) تهذيب تاريخ دمشق (٣ / ٣١٧).

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٩٠). فالنهي عن تمني الموت خاص بمن أصابه الضر، لا بمن اشتاق للآخرة، والله أعلم.

(٤) مسلم (٤ / ١٨٧٣).

(٥) البخاري (٥ / ٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال ابن القيم رحمه الله: «كل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

فهذه المحبة التي تُلطّف الروح، وتُخفّف أُنْقَال التكاليف، وتُسَخّي البخيل، وتشجّع الجبان، وتصفّي الذهن، وتروّض النفس، وتطيّب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة. وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء، كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سَيَقِي لَكُمْ فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحِشَا سَرِيرَةٌ حُبٌّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ^(١)

وهذه هي المحبة التي تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبة كلام الله، فإنه من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله؛ فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه

(١) للأحوص الأنصاري.

أعظم من التذاذِ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحبَّ شيءٍ إليه، قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبنا لما شبعَت من كلام الله»^(١).

فلمحبِّي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجدَه وطربَه ونشوته في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه^(٢)، وتعلّقه بمحبة سماع الشيطان. والمغرور يعتقد أنه على شيء!

ففي محبة الله وكلامه ورسوله أضعاف أضعاف الفوائد والمنافع، بل لا حُبَّ على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يُعِنْ عليه ويشوّق المحب إليه»^(٣).

وقال شيخ الإسلام: «ومحبة الرسول ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، وكذلك محبة صحابته

(١) عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (٦٧٨)، والحلية لأبي نعيم (٢٧٢ / ٧).

(٢) أي المحبة الواجبة دون أصل المحبة، فالعصيان لا ينافي أصل المحبة. كما في حديث نبيه ﷺ عن لعن شارب الخمر، وعلل ذلك بقوله: «لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله» البخاري (٦٧٨٠)، فأصل المحبة موجود لكنها ناقصة بدليل تخلف لزمها وهو كمال الاتباع والاستقامة.

(٣) الداء والدواء، ابن القيم (٥٤٨، ٥٤٩) باختصار.

وقرأته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»^(١)، وقال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»^(٢)، وقال علي رضي الله عنه: «إنه لعهد النبي الأمي إلى أنه لا يُجْبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»^(٣)، وفي السنن أن النبي ﷺ قال للعباس: «والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرايتي»^(٤) يعني بني هاشم»^(٥).



(١) متفق عليه.

(٢) مسلم (١/ ٨٦).

(٣) مسلم (١/ ٦٠) (١٥٢) وهو مما أعلها الدارقطني في التتبع (ص ٤٢٧) لأنه من طريق عدي بن ثابت وهو شيعي، وهذا الحديث مما يوافق بدعته، لذلك لم يخرج به البخاري. وقد صححه الألباني في المشكاة (٦٠٧٩) والأرنؤوط.

(٤) الحاكم (٤/ ٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٢٥).

(٥) الفتاوى (١٠/ ٦٥) باختصار.

عوارض وآفات في طريق المحبة الحق

المحبة الحقيقية الصادقة هي المبنية على تصوّر سليم واعتقاد صحيح، وهي التي تثمر التعبد المستقيم والقلب السليم والقول الزكي والفعل القويم، لذا فلا بد من مراعاة المنهج الصحيح والصراط المستقيم في السير والرحلة إلى الله والدار الآخرة، وهو طريق مزدحم بالتحديات والعراقيل الحائلة بين المسافر وغايته وهذه بعض الآفات التي قد تعترض المؤمن، فمن الخير له أن يعلمها ويلمّ بها كي يكون على حيلة وحذر ومراقبة وانتباه، فالحازم الفطن والكيس اللقن هو من أعدّ العدة وجّهز الزاد ووفقه ربّه وأسبل عليه ألطافه وأسبغ عليه نعمه الدينية من التوفيق والهداية والتثبيت والتيسير حتى يلقاه وهو عنه راضٍ. نسأل الله الكريم من فضله ونعوذ به من سخطه. فمن الآفات:

١- الإعراض عن مصدر التلقي السليم المستقيم وهو الوحي الرباني كتاباً

وسنة:

وهذا السبب هو أصل الضلالة ومنه انبثقت السُّبل الشيطانية التي تنكبت جادة الحق^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «اعلم أولاً أن كل حال وذوق ووجد وشهود لا

(١) الكلام عن مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة كثير، وسنقصر الكلام حول موضوع السلوك لعلاقته المباشرة مع المحبة، وليعتبر النبيه به على ما شابهه.

يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل؛ فهو من عبث النفس وحظوظها... وليس من الإنصاف ردّ العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير، وكم قد ضل وأضل مُحكِّمُ الحال على العلم! بل الواجب تحكيم العلم على الحال، ورد الحال إليه، فما زكّاه شاهد العلم فهو المقبول، وما جرحه شاهد العلم فهو المردود. وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كُلُّهُمْ يوصون بذلك، ويخبرون أن كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل» (١).

وقال أيضًا: «كل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول ﷺ فهو شيطاني كائنًا من كان» (٢).

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى معلقًا على كلام رويم «كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق»... قال: «وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، وكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تليسه عليهم إلى أن تمكّن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تليسه عليهم أنه صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل،

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٧٠٦)، وانظر (٢/ ٥٤٧)، والمدارج (٢/ ٢٨٨).

(٢) الروح (٢/ ٧٧٣).

فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود ترك الدنيا في الجملة؛ فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خُلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع. وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنّفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون^(١) فهذبوا مذهب التصوّف، وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة^(٢) والسماع^(٣) والوجد، والرقص، والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مازال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بَعْدُهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادّعى عشق الحق والهيمكان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر

(١) تتبع الدكتور عمر فروخ أطوار التصوف وقسمها إلى نهاية القرن العاشر إلى خمسة أدوار. التصوف في الإسلام، عمر فروخ (٥٩-٩٣) مع التنبيه إلى بعض الأخطاء العقديّة في الكتاب، فلعل الدكتور يراجعها على مذهب السلف لأنه كتاب رائد في مجاله، هدايا الله جميعاً سبيل الموفقين.

(٢) وهي الخرقة، ولها قانون واجب ومستحب عند أهل الطريقة.

(٣) أي سماع الأبيات المرققة أو المطربة.

والبدعة.

ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمنهم من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد!

وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سُنَنًا. وجاء أبو عبد الرحمن السُّلَمي فصنّف لهم (كتاب السنن) وجمع لهم (حقائق التفسير)، فذكر عنهم فيه العجب من تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم، فالعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم^(١) في القرآن!

وقال محمد بن يوسف القطان: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة، وكان يضع للصوفية الأحاديث.

وصنّف لهم أبو نصر السَّرَّاج (مُع الصوفية) ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله.

وصنف لهم أبو طالب المكي (قوت القلوب) فذكر فيه الأحاديث الباطلة والاعتقاد الفاسد.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم (الحلية) وذكر في حدود التصوّف أشياء قبيحة.

وصنّف لهم القشيري (الرسالة) فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء

(١) أي تساهلهم في تفسيره بلا قواعد شرعية مرعية إنما هي الأذواق ومستحسنات التجارب والنظر الذي لا يخلو من قصور وجهالة.

والبقاء والقبض والبسط، ونحو ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيره أعجب منه!

وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم (صفوة التصوف) فذكر لهم فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنّف لهم (الإحياء) على طريقة القوم، وملاؤه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلّم في علم المكاشفة^(١)، وخرج عن قانون الفقه.

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودوّنوها، وقد سمّوها بالعلم الباطن^(٢).

وقد سئل أحمد بن حنبل عن الوسواس والخطرات، فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون. وحينما سمع كلام الحارث المحاسبي قال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم.

(١) قال شيخ الإسلام في رده على تقرير الغزالي للمكاشفة وتقديمها على السمع الذي قرره في: (الإحياء ١ / ١٠٤): هذا لا يُستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنما يدرك ذلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة، وهذان أصلاّن للإلحاد، فإن كل ذي مكاشفة؛ إن لم يزنها بالكتاب والسنة وإلا دخل في الضلالات» درء التعارض (٥ / ٣٤٨) عن هامش تحقيق تلبس إبليس، د/أحمد المزيّد (٣ / ٩٦٥).

(٢) انظر مناقشة ذلك: من قضايا التصوف، د/الجليند (٤٧)، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس إدريس (١ / ٨٩ - ٩٨).

وقال أبو زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. فقيل له: في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة.

وقد كان أوائل الصوفية يقرّون بأن التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبس الشيطان عليهم لقلة العلم.

فقد قال الجنيد: قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين؛ الكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يُرفع في الهواء؛ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود.

وقال سري السقطي: من ادّعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط. وقال الجنيد - شيخ الطائفة -: مذهبنا هذا مُقيّد بالأصول: الكتاب والسنة، وقال أيضاً: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه. لا يُقتدى به.

وقال أبو بكر الشقاق: من ضيّع حدود الأمر والنهي في الظاهر؛ حُرّم مشاهدة القلب في الباطن.

وقال أبو الحسين النوري لبعض أصحابه: من رأته يدّعي مع الله حالة تُخرجه عن حدّ علم شرعي فلا تقربنه، ومن رأته مدّعيًا حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه.

وقال الجريري: أمرنا هذا كله مجموع على فضل واحد، وهو أن تُلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهره قائماً.

وقال أبو حفص النيسابوري: من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدّه في ديوان الرجال» (١)(٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله: المهتدون من مشايخ العبّاد والزهاد يوصون باتباع العلم المشروع، كما أن أهل الاستقامة من العلماء يوصون بعلمهم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العبّاد والزهاد (٣).

وقال الذهبي رحمه الله: «إذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أن إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلّ فيه، فإن جُبنت منه فاهرب، وإلا فاصصره، وابرّك على صدره، واقرأ عليه آية الكرسي، واخنقه» (٤).

وقال يونس بن عبد الأعلى الصوفي: «قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته. قال: قصر، لو رأيت يمشي

(١) تلبس إبليس، ابن الجوزي (٩٤٢-٩٩٦) باختصار.

(٢) وانظر موقف ابن الجوزي من الصوفية، صالح المقوشي (٢٦٩-٣١٥) في بيان جهود بعض شيوخ الصوفية في رد أتباعهم إلى الكتاب والسنة.

(٣) الاستقامة، ابن تيمية (١ / ١٠٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٧٢).

في الهواء لما قبلته»^(١). وقال الشافعي رحمته الله: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تصدّقه حتى تعلموا متابعتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: وفي الدجال الأكبر أعظم العبر، فمهما أُعطي الممخرقون فلن يأتوا بمثل مخاريقه، فهل نصدق الدجال؟! اللهم غفر!

وقد قال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يُرفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة^(٢).

ويُحكى أن الجنيد لما قام يصلي من الليل انشق بين يديه الجدار عن سحابة فوقها كرسي عليه رجل وضيء وقال: يا أحمد أنا ربك قد أسقطت عنك الصلاة! فبصق عليه، وقال: اخسأ يا شيطان أعوذ بالله منك، إنا لن نرى ربنا حتى نموت، فذهب الشيطان، فلو لم يكن عنده علم لهلك.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٠ / ٢٣)، وانظر: تليس إبليس (٣٤).

(٢) الحلية، أبو نعيم (١٠ / ٤٠)، وعلى ذلك جرى المتقدمون من أرباب الزهد والتعبد كالفضيل، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، وسهل بن عبد الله، والدارامي، وحاتم الأصم وغيرهم، ولهم كلام وافر في التحذير من الزيغ عن طريق الكتاب والسنة، وأنه مهما زين الذوق فلا قبول له ما لم تقبله الشريعة. وانظر شواهد من ذلك في الاستقامة لشيخ الإسلام (٢ / ٨١، ٥٩٥، ٦٥٠)، والمدارج لابن القيم (٢ / ٣٤٨). ومجلد السلوك من الفتاوى لشيخ الإسلام وهو العاشر، وكذلك التصوف وهو المجلد الحادي عشر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله؛ أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحياناً، أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو يُنفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاءه وقضى حاجته، أو يُخبر الناس بما سُرّق لهم، أو بهال غائب لهم، أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها وليٌّ لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء؛ لم يُعْتَرَّ به حتى تُنظر متابعتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله، فقد يكون عدواً لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشرّكين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه وليٌّ لله! بل يُعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويُعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة»^(١).

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية (١٦٨، ١٦٩).

وقال أيضًا في رده على البكري^(١): «وحتتهم أن طائفة من الناس استغاثوا بحبي أو ميت، فأروه قد أتى في الهواء، وقضى بعض تلك الحوائج، وأخبر ببعض ما سئل عنه، وهذا كثير واقع في المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين والكواكب والأوثان، فإن الشياطين كثيرًا ما تتمثل لهم فيرونها قد تخاطب أحدهم ولا يراها. ولو ذكرت ما أعلم من الوقائع الموجودة في زماننا هذا لطال المقام، وكلما كان القوم أعظم جهلاً وضلالاً، كانت هذه الأحوال الشيطانية عندهم أكثر»^(٢).

إن تحرير مصدر التلقي للمؤمن في باب المحبة وغيرها من أمور الدين كافة ضرورة لا غنى له عنها، وبحمد الله فلم يتركنا الله هملاً، بل هدانا بكتاب مبين ونبي كريم، لم يمت حتى تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال عز وجل: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى

(١) ويسمى كتابه كذلك (الاستغاثة) وهو نفيس جداً، وموضوعه هدم صروح المشركين وهتك شبههم بتزيينهم أنواعاً من الشرك في اتخاذ الوسائط والشفعاء مما لم يأذن به الله، وفي نفس الباب كتاب تلميذه ابن عبد الهادي في الصارم المنكي، وللألباني كتاب كذلك في التوسل، رحم الله الجميع.

(٢) الاستغاثة (الرد على البكري) ابن تيمية (٢ / ٤٨٠) عن مجانبه أهل الثبور، عبد الغني الراجحي (١ / ٢١٠)، وانظر: الفتاوى (١١ / ٢٩٩ وما بعدها).

اللَّهُ وَالرَّسُولُ إِنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿[النساء: ٥٩]﴾ وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً» (١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتزكية النفوس مسلّم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً وبياناً، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].»

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكّى نفسه بالرياضة والمشاهدة والخلوة التي لم يجرى بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرف الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان» (٢).

وإذا كان عامة من ضل في باب الاعتقاد بسبب الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ، فكذلك الضلال في باب السلوك، إنما كان ناشئاً في الجملة بسبب

(١) أحمد (٥/١٥٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/٣١٥) عن رسالة معالم في السلوك وتزكية النفوس، د/عبد العزيز آل عبد اللطيف. وسألخص بعض مهماتها في هذه الصفحات.

الإعراض عن نصوص الوحيين، كما هو ظاهر في متأخري الصوفية وأرباب الطرق المحدث^(١)، قال تعالى: ﴿قَالَ أَهَيِّطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۖ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۖ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل به؛ ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة... ثم تلا هذه الآية^(٢).

بل إن البدع في باب السلوك أكثر من البدع الاعتقادية^(٣). ثم زاد الأمر بأرباب الطرق الصوفية^(٤) فسمّوا ما أحدثوه من البدع «حقيقة»، فطريق الحقيقة

(١) انظر: العقل والنقل، ابن تيمية (١ / ٥٤، ١٦٦، ٢٠٩)، الفتاوى (٣ / ٣١٤)، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١ / ٨ وما بعدها).

(٢) المستدرک (٢ / ٣٨١) ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: الفتاوى (١٩ / ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يتميز شيخ الإسلام بتوخي الإنصاف مع كل من حاورهم أو نكفهم أو نقدهم، ومن أكثر من نقدهم المتصوفة، وقد قال في شأنهم منصفًا: «قد تنازع الناس في الصوفية والتصوف، فطائفة ذموا وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم

عندهم هو السلوك الذي لا يتقيّد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، بل قدّموا أذواقهم ومواجيدهم وكشوفاتهم الباطلة على نصوص الوحيين^(١). قال شيخ الإسلام: «من عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان، وهذا حال الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقاً»^(٢).

وقال ابن القيم: «وعامة من تزندق من السالكين فلا عراضه عن دواعي

بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره. كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية». الفتاوى (١١ / ١٨، ١٩).

(١) معالم في السلوك، آل عبد اللطيف (١٨، ١٩).

(٢) الاستقامة (١ / ٢).

العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب. فهذه فتنته، والفتنة به شديدة»^(١).

وليس هذا فحسب، بل أوغلوا في الانحراف والإعراض عن هدي الله تعالى، حتى قال قائلهم: حدثني قلبي عن ربي. وقال الآخر: أنتم تأخذون علمكم من حي يموت (أي نصوص الوحي)، ونحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت (أي عن طريق الإلهام والذوق والكشف الزائف)! وقال آخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل! وقال الآخر: إذا رأيت الصوفي يشغل بأخبرنا وحدثنا فاغسل يدك منه!

فلما أعرض هؤلاء عن الطريقة النبوية السلفية^(٢) تلاعب بهم الشيطان، فأوقعهم في الإفراط والتفريط، فتراهم أصحاب تشدد وتنطع، وغلو في التعب، ورهبانية محدثة، ثم في المقابل تجدهم أهل سماع بدعي وطرب ورقص وتصفيق وغناء، ومصاحبة للأحداث والمردان وعشق الصور المحرمة!

قال شيخ الإسلام: «ولقد حدثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رآه قد جمع الناس على مثل هذا الاجتماع (رقص وغناء): يا شيخ! إن كان

(١) المدارج (١/ ١٥٨).

(٢) نعم، فكل مسلم سلفي، بمعنى أن يعبد الله على ما كان عليه السلف، وقدوتهم وإمامهم هو النبي ﷺ، فيصلي كما يصلي نبيه ويحج كما يحج ويدور مع أمره ونهيه حيث دار امتثالاً ومع خبره مصداقاً، فهذا هو السلفي المستقيم والمسلم القويم. وقد بسط ذلك في كتاب: (ولا تنازعوا فتفشلوا).

هذا هو طريق الجنة، فأين طريق النار»^(١)!

وقد يتلى المؤمن بيئة منحلّة ومجتمع فاسد، وليس عنده من العلم والعزم والقدرة ما يؤهله للطريقة السنيّة المرضية والإسلام الخالص الصافي من أكدار البدع ولوثات الإحداث وغلبة الجهل، فهنا يُقال له كما قال شيخ الإسلام: «وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضّة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علماً وعملاً، فإذا لم يحصل النور الصافي، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصافٍ وإلا بقي الإنسان في الظلمة؛ فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية»^(٢).

٢- الاضطراب بين الإفراط والغلو وبين التفريط والتقصير مع الزهد في الوسطية^(٣):

فالتقوى وسط بين الغلو والجفاء، والمحبة ليست بمعزل عن ذلك.

وأهل الإسلام وسط بين الأمم وكذلك أهل السنة وسط بين الفرق الغالية والمقصرة، وكما أنهم وسط في باب الاعتقاد فهم كذلك وسط في باب السلوك بين

(١) الاستقامة (١ / ٣١٧)؛ لأنه رأى مجتمع شهوة ونشوة وطرب وغفلة، فنطقت فطرته وأعرب عقله ومنطقه.

(٢) الفتاوى (١٠ / ٣٦٤)، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢ / ٦١٦-٦١٩).

(٣) معالم في السلوك (٢٣-٤٥) باختصار وتصرف.

طرفي الإفراط والتفريط، فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه. قال الشاطبي: «فإذا نظرت إلى كلفة شرعية فتأملها، تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة أمر واقع أو متوقع في الطرف الآخر. فطرف التشديد وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزهد، يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص، يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك؛ رأيت التوسط لائئحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه»^(١).

وهناك بعض أمثلة توسط أهل السنة في السلوك:

أ- أهل السنة والجماعة وسط في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، والمرجئة كالأشاعرة والماتريدية وعموم الكلائية.

ب- أهل السنة والجماعة وسط في باب الإخلاص بين المرائين والملامية. فالمرءون يعملون لأجل رؤية الناس، والملامية يفعلون ما يلامون عليه في الظاهر حتى يتحقق لهم الإخلاص والمحبة في الباطن^(٢).

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي (٢/ ١٦٣-١٦٨).

(٢) ويقال لهم كذلك الملامية، وأهل الملامية، ومن أقطابهم الغزالي، فقد ذكر في الإحياء تزيين ذلك وحض عليه. وانظر: تلبس إبليس (٤١٠)، الفتاوى (٣٥/ ١٦٤)،

جـ- أهل السنة والجماعة وسط بين المشتغلين بالعبادات القلبية فقط - كبعض المتصوفة - وبين المشتغلين بالعبادات الظاهرة فحسب، مثل بعض الفقهاء، فقام أهل السنة بالعبادة ظاهراً وباطناً. وهذه هي الاستقامة.

د- أهل السنة وسط بين من يريد من الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا يريد منه.

فأهل السنة يريدون الله تعالى ويريدون ثوابه، فهم خواص خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩]، وأما الذين يريدون من الله ولا يريدون الله، فهؤلاء ليس في قلوبهم غير إرادة نعيم الجنة المخلوق، كحال أكثر المتكلمين المنكرين رؤية الله تعالى وكلامه والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة، وهم عبيد الأجرة المحض، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدس، ومنهم من يصريح بأن إرادة الله تعالى محال^(١)! وأما الذين يريدون الله ولا يريدون منه كحال كثير من الصوفية.

ومنشأ اشتباه واضطراب كلا الفريقين أنهم ظنوا أن الجنة هي التمتع بالنعيم المخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس^(٢)، ثم صاروا فريقين؛ أحدهما: أنكروا

المدارج (٣/ ١٧٧).

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ٨٢).

(٢) وقد ردد هذا كثيراً الغزالي في الإحياء، وبنى عليه أموراً عديدة غريبة.

رؤية المؤمنين لربهم كالتكلمين من المعتزلة والجهمية ونحوهم. والفريق الثاني: أثبتوا الرؤية، لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة^(١)، فأسقطوا حرمة اسم الجنة^(٢)^(٣).

هـ- أهل السنة وسط بين أهل الفجور والفواحش، وبين أصحاب الرهبانية والخرج.

و- أهل السنة وفقوا لهداية النصوص لفظاً ومعنى، دون من يتكلم في المعاني الشرعية الصحيحة بألفاظ غير شرعية ككثير من المتكلمة والمتصوفة، ودون من يوافق النصوص في اللفظ دون المعنى كالباطنية، ودون من يخالف النصوص الشرعية لفظاً ومعنى كالملاحدة والكفار^(٤).

قال ابن تيمية: «الألفاظ الشرعية لها حرمة، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبتته، وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر به، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر»^(٥).

(١) ولا شك أن خطأهم أهون من خطأ من أنكر الرؤية أصلاً.

(٢) وهذا ما فتح الباب على مصراعيه عليهم حتى سقط كثير منهم في سوء الأدب مع الله تعالى والقول بالعشق الإلهي وعدم إرادة الجنة والإدلال الممجوج مع الله تعالى ونحو ذلك.

(٣) الفتاوى (١٠ / ٦٩٤ - ٧٠٠)، المدارج (٢ / ٨٢، ٨٣).

(٤) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان حسن (٢ / ٦٩٢).

(٥) الفتاوى (١١ / ٢٥).

«والموقف الصحيح من الألفاظ المحدثثة المجملة التي تحتل حَقّاً أو باطلاً: التفصيل، فلا بد من الاستفسار عن مراد المتكلم بها، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول ﷺ أقرب به، وإلا أنكر»^(١)، مع مراعاة التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية.

«والمؤمن الكيسُ يُوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة، أو عصوا فيه الله ورسوله»^(٢).

ز - أهل السنة يراعون أحوال المكلفين بدون مثالية لا تُنال أو سلبية غير مرضية:

كما قال ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»^(٣)، قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: «سَدُّوا» معناه: اقصدوا السداد، أي الصواب، وقوله: «وقاربوا» أي: لا تُفَرِّطُوا فتُجْهِدُوا أنفسكم في العبادة، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الهلاك فتتركوا العمل فتُفَرِّطُوا»^(٤).

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يسوس الناس بهذه الحكمة والواقعية

(١) الفتاوى (١٢ / ١١٤).

(٢) الفتاوى (١١ / ٢٩).

(٣) البخاري (٦٤٦٣).

(٤) الفتح (١١ / ٢٩٧).

والعملية، فقد قال لابنه عبد الملك الذي ألحَّ عليه بتطبيق كل ما يراه من العدل فوراً: «يا بني، إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أُحيي الأمر من العدل فأوخره حتى أُخرج معه طمعاً من الدنيا، فإذا نفروا من هذه سكنوا لهذه» (١).

وقال معاصره الحسن البصري رحمه الله (٢): «إن هذا الدين واصل، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلف نفسه ما لا يطيق، أو شك أن يُسيب ذلك كله، حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف، وكلف نفسه ما تطيق (٣) كان أكيس، وأمنعها من هذا العدو. وكان يقال: شر السير الحقة» (٤).

ومن حكمة أبي حازم - سلمة بن دينار - رحمه الله أنه أوصى رجلاً شكى له

(١) الزهد للإمام أحمد (٣٠٠).

(٢) قال ابن الجوزي: «ولقد سبرت السلف كلهم، فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أر أكثر من ثلاثة: أولهم الحسن البصري، وثانيهم سفيان الثوري، وثالثهم أحمد بن حنبل، وما أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب» صيد الخاطر (٧١).

(٣) لاحظ فقهه رحمه الله، فليس التيسير المطلق، ولكن سياسة النفس على قدر طاقتها وجهدها دون الغاية حتى لا تمل وتكل.

(٤) الزهد لابن المبارك (٤٦٨) والحققة: المتعب من السير.

حب الدنيا: «اعلم يا ابن أخي أن هذا الشيء ما أعاتب نفسي على حب شيء حببه الله تعالى إلي؛ لأن الله عز وجل قد حَبَّبَ هذه الدنيا إلينا^(١)، ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا، ألا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئاً من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئاً من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك؛ لا يضرنا حبنا إياها»^(٢).

وسئل الإمام مالك رحمه الله عن طلب العلم فقال: «حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه»^(٣)، أي ابدأ بتعلمه والزم العمل به.

وههنا أمر مهم لكل سالك ناسك، وهو ألا يوغل في ملاحظة الخطرات والوساوس، فقد يكون مردود ذلك إحباطاً وقنوطاً ونكولاً عن العمل. قال ابن القيم: «فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه!!

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَاع تمنع وصول العمل إلى القلب... ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قُطَاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر، وإعجاب، ورؤية العمل، ونسيان المنّة، وعلل خفية لو استقصى في

(١) قال عليه الصلاة والسلام: «حب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) الحلية، أبو نعيم (٣/ ٢٤٤).

(٣) حلية الأولياء (٦/ ٣١٩).

طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعابوها لوقعوا فيها هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسان، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة، ولهذا لما ظهرت «رعاية»^(١) أبي عبد الله الحارث المحاسبي، واشتغل بها العبّاد؛ عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة، والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبّ النفوس، فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا^(٢) (٣).

وقال أيضًا: «وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عن هذه المسألة - تهذيب الأخلاق وترويضها، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها، فقال - في جملة كلامه -: النفس مثل الباطوس - وهو جُبُّ القدر - كلّما نبشت ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوّزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلّما نبشت شيئًا ظهر غيره^(٤).

(١) يعني كتاب (الرعاية لحقوق الله).

(٢) المدارج (١/ ٤٣٩) باختصار.

(٣) فقد يضعف المتعبد الجاهل أمام الخوف من الرياء حتى ينكل عن العمل! ويشهد لهذا ما ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء (٣/ ٣١٩) أن الإنسان كان يجتاز البصرة عند الصبح - أي قبيله وهو وقت السحر - فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتابًا في دقائق الرياء، فتركوا ذلك، وترك الناس الرغبة فيه. فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنّف!

(٤) بل ربما قتله، فقد تختلجه شبهة أو تحكمه حيرة أو يكسر ظهره قنوط.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثَلُ آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط. ولتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك.. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنى على قائله^(١).

ولا يعني هذا التزهيد في مراقبة الخطرات وحراستها، بل هي من الأهمية بمكان، ولكن المقصود عدم المبالغة في دقائقها ووساوسها لأن أعمال النفس كأعماق البحار لا يلحق قعره، وإنما يكفي ما قرب تناوله. ومن لطيف كلام ابن القيم في ذلك في معرض كلامه على النظر: «والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع»^(٢)، لذا فحراسة الخطرات مطلب شرعي نفيس لأنها تفضي إلى ما بعدها.

كذلك فقدرات الناس تتفاوت في تحمّل العلم أو العمل، وقد يسر الله كلاً لما خلق له، وحينما كتب أحد العباد إلى الإمام مالك يحضّه على الانفراد والعمل، كتب له مالك: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجل فُتِحَ له في الصلاة، ولم يُفْتَحَ له في الصوم، وآخر فُتِحَ له في الصدقة ولم يُفْتَحَ له في الصوم،

(١) المدارج (٢/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) الجواب الكافي (١/ ١٠٦).

وآخر فُتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بها فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرٍّ»^(١).

ولما سُئل شيخ الإسلام عن الأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل، هل يبدأ بالزهد أو بالعلم؟ أم يجمع بين ذلك حسب طاقته؟ أجاب إجابة منهجية جامعة مانعة فقال: «الناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدّم ما كان أَرْضَىٰ لِلَّهِ وهو عليه أقدر^(٢)، فقد يكون على المفضل أقدر منه على الفاضل^(٣)، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقاً إذا كان متعذراً في حقه أو متعسراً يفوته ما هو أفضل له وأنفع، كمن يقرأ القرآن فيتدبره ويتنفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه، ولا يتنفع منها بعمل، أو يتنفع بالذكر أعظم مما يتنفع بالقراءة، فأَيُّ عمل كان له أنفع ولله أطوع فهو أفضل في حقه من تكلف عمل لا

(١) سير أعلام النبلاء (٨ / ١١٤).

(٢) وهذا قيد مهم.

(٣) أي من الإيمان والأجر والرضوان.

يأتي به على وجهه، بل على وجه ناقص، ويفوته ما هو أنفع له»^(١).

وقال أيضًا في توضيح ذلك: «الأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات، كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء.

وتارة يختلف باختلاف الأوقات، كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر، كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

وتارة باختلاف الأمكنة، كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة، فالجهاد للرجال أفضل من الحج، وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها، بخلاف الأئمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها.

(١) الفتاوى (٧/ ٦٥١، ٦٥٢)، وانظر (٢٤/ ٢٤٦)، وطريق الهجرتين (١٧٨)، والمدارج (٣/ ١٧)، والفوائد (٣٨)، والمجموع للنووي (١/ ٣٨). وستأتي بعض المسائل المتعلقة بذلك في باب الحكمة إن شاء الله.

وتارة يختلف باختلاف قدرة العبد وعجزه، فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس، ويتبعون أهواءهم.

فإن من الناس من يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبته له، ولكونه أنفع لقلبه، وأطوع لربه، يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس، ويأمرهم بمثل ذلك^(١) والله بعث محمدًا ﷺ بالكتاب والحكمة، وجعله رحمة للعباد، وهديًا لهم، يأمر كل إنسان بما هو أصلح له، فعلى المسلم أن يكون ناصحًا للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له.

وبهذا يتبين أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية كالصلاة والصيام أفضل له.

والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ^(٢).

٣. القول بالفناء والاتحاد:

ولا يكاد يخلو مصنف في التصوف من ذكر الفناء في باب المحبة والترغيب

(١) ومن أمثلة ذلك من يأمر كل من استقام بطلب العلم، أو مداومة الصيام أو القيام، أو الصدقة، أو الجهاد ونحو ذلك.

(٢) الفتاوى (١٠/٤٢٧ - ٤٢٩).

فيه وأنه من الغايات للصوفي، ثم يجميلون الخطاب، وييهمون الإشارة، ويُلغزون المراد، وبعضهم يصرح بعقيدة وحدة الوجود وهي وثنية خالصة وإلحادية صرفة، وقد وفدت للأمة المسلمة من ديانات الهند الوثنية. وأكثرهم يصرّح بإنكار هذه الضلالة وهي النوع الثالث للفناء لكنهم يجعلون الغاية النوع الثاني وهذا باطل. فللفناء أنواع ثلاثة كما قرره شيخ الإسلام رحمته الله - مع إنكاره لهذا اللفظ المجمل البدعي :-

«الأول: هو الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره، وهو المراد بالإرادة الدينية، أي المراد المحبوب المرضي، وكمال العبد ألا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَراده الله ورضيه وأحبه، ولا يحب إلا ما أحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا معنى قولهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، قالوا: هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد، وهذا المعنى وإن سُمّي فناء أو لم يسمّ، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره.

الثاني: الفناء عن شهود السّوى، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بحيث يكون الواحد منهم عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره. فإذا قوي على صاحب الفناء هذا؛ فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، حتى

يفنى عن ذكر المخلوقات ويشهد ربه تعالى. وإذا قوي هذا الوارد ضَعُفَ المحب حتى يضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه!

وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء، فضلاً عما فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة. وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان، فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو أن يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه في التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يُغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير، ووزارة بن أوفى قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه^(١)، كما يُحكى نحو ذلك عن مثل أبي زيد البسطامي، وأبي الحسن النوري، وأبي بكر الشبلي بخلاف أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمْل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور

(١) كقول بعضهم: سبحاني، أو أنا الحق، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو ذلك. تعالى الله وتقدس.

على ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مُدَبَّرَةٌ بمشيئته، بل مستجيبة له قانتة له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً ومُجِدّاً لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة وحده لا شريك له.

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكُمُل من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السموات، وعان ما هنالك من الآيات، وأُوحِيَ إليه ما أُوحِيَ من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغيي صلى الله عليهما وسلم.

النوع الثالث مما قد يُسمّى فناء: هو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد، الواقعين في الحلول والاتحاد^(١).

(١) الفتاوى (١٠ / ٢١٨ - ٢٢٢) باختصار. وانظر (١٠ / ٥٩، ٦٠). وقال كذلك في التفريق بين الفناء الأول والثاني: «الفناء الأول: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص. الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب. فالأول فناء عن الإرادة، والثاني فناء عن الشهادة، والأول فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، والثاني فناء عن العلم بالغير والنظر إليه. والفناء الثاني فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبراً لعباده، أمراً بشرائعه أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.

=

وقال ابن القيم: «وكان سيد المحبين وإمامهم وأعظمهم حباً ﷺ في الذروة العليا من المحبة، وهو مراعى لجزئيات الأمر وجزئيات الأمة، مثل سماعه بكاء الصبي في الصلاة فيخففها لأجله^(١)، ومثل التفاته في صلاته إلى الشعب الذي بعث منه العين يتعرف له أمر العدو^(٢)، هذا وهو في أعلى درجات المحبة.

ولهذا رأى ما رأى ليلة الإسراء، وهو ثابت الجأش، حاضر القلب، لم يفن عن تلقي خطاب ربه وأوامره، ومراجعته في أمر الصلاة مراراً، ولا ريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع النبيين، فإن موسى خَرَّ صَعْقاً وهو في مقامه في الأرض لما تجلَّى ربه للجبل^(٣)، والنبي ﷺ قطع تلك المسافات، وخرق تلك الحجب، ورأى ما رأى، وما زاغ بصره وما طغى، ولا اضطرب فؤاده ولا صعق، فصلوات الله وسلامه عليه، ولا

أما الثالث: فهو الفناء عن وجود السوى، بمعنى: أنه يرى أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبياني والتلمساني والقونوي ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات، وهذا كفر وضلال. فتدبر هذا التقسيم، فإنه بيان الصراط المستقيم (الفتاوى ١٠ / ٣٣٧-٣٤٣) باختصار. وانظر: منهاج السنة، ابن تيمية (٥ / ٣٥٥-٣٥٩)، وانظر: مدارج السالكين، ابن القيم (٢ / ٦١٨-٦٢٠).

(١) متفق عليه.

(٢) أبو داود (٢٥٠١) وابن خزيمة (٤٨٧) وصححه.

(٣) وبعد ذلك لم يصعق فيما هو ظاهر القرآن من كلام الله تعالى له وإعطائه الألواح.

ريب أن الوراثة المحمدية أكمل من الوراثة الموسوية»^(١).

٤. عدم التفريق بين محبة مراد المحبوب الكوني القدرى وبين مراده الشرعى

الدينى:

فالإرادة الدينية الشرعية يلزم من المحب أن يحبها كالأمر بالصلاة والذكر ونحو ذلك. بخلاف الإرادة الكونية القدرية، فقد تكون بغیضة إلى الله تعالى كالکفر والظلم والفسق - مع أن له حكماً إيجابها - مع ذلك فالمحب الصادق هو من يجب ما يحبه الله ويغض ما يیغضه، ويكون هذا ميزانه.

وللتوضیح نضرب أربعة أمثلة توضیح المراد:

١. إسلام أبى بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٢. كفر أبى بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وحاشاه..

٣. إسلام أبى جهل.

٤. كفر أبى جهل.

فالمثال الأول وهو إسلام الصديق قد قدره الله خلقاً وكوناً ورضیه شرعاً وديناً، فأراد ذلك كوناً وأراد ذلك ديناً.

والمثال الثانى - وهو العکس - لم يرد الله كوناً وقدرًا ولم يرد ديناً وشرعاً.

والمثال الثالث وهو إسلام أبى جهل، فالله تعالى لم يرد قدرًا وكوناً وخلقاً

(١) طريق المهجرتين، ابن القيم (٢/ ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٣٤-٧٣٩).

وإن كان قد أراده ديناً وشرعاً، فأبو جهل داخل في عموم المخاطبين بالإسلام لكن غلبت عليه الشقوة.

والمثال الرابع وهو العكس، فقد أراده الله كوناً ولم يرده شرعاً وديناً.

وعليه فالإرادة الدينية الشرعية مستلزمة لرضا الله تعالى ومحبته، وعليه فالمؤمن يحبها دوماً سواء وافقت القدر والخلق أم لم توافق.

أما الإرادة الكونية القدرية - وتسمى المشيئة - فغير مستلزمة للمحبة، فقد يحبها الله تعالى إن وافقت الإرادة الشرعية الدينية، وقد لا يحبها - إن خالفها - والعبد المؤمن يدور مع حب الله حيث دار.

قال ابن القيم: «وإنما كانت موافقة المحبوب دليلاً على محبته لأن من أحب حبيباً فلا بد أن يحب ما يحبه ويغض ما ييغضه، وإلا لم يكن محباً له محبة صادقة.

ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للحب، وهي أن موافقة المحبوب في مراده ليس المعنى بها مراده الخلق الكوني، فإن كل الكون مراده، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية. فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته لم يكن له عدو أصلاً^(١)، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أوليائه وأحبابه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ

(١) وبهذا يظهر ضلال الجبرية.

تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥، ٣٦]، فأنكر سبحانه على من سوى بين المسلمين والمجرمين، وبين المطيعين والمفسدين، مع أن الكلّ تحت المراء الكوني والمشئة العامة.

وسمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «قال لي بعض شيوخ هؤلاء: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراده، فأبي شيء أبغض منه؟ قال: فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قومًا ولعنهم ومقتهم وعاداهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون موالياً للمحبوب موافقاً له، أو مخالفاً معادياً له؟ قال: فكأنما ألقم حجراً» (١).

ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظوراً يزعم أنه مطيع لله فيه (٢)، ويقول: أنا مطيع لإرادته (٣).

وقال أيضاً في بيان فساد من ظن أن المحبة يلزم منها الموافقة في الإرادة الكونية مثل الشرعية: «وصعد رجل يوماً على سطح دار له، فأشرف على غلام له

(١) وانظر: الفتاوى (١٠ / ٢١٠، ٤٨٦).

(٢) وهذه المسألة تواردها الرضا والمحبة وبينهما تقارب وتشابه، وسأذكر هنا ما يخص المحبة، وأترك ما يخص الرضا في باب إن شاء الله.

(٣) طريق الهجرتين (٢ / ٦٥٧، ٦٥٨).

يَفْجُرُ بجارية، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعنا حتى فعلنا ذلك. فقال: لَعَلُّمَكَ بالقضاء والقدر أحب إلي من كل شيء، أنت حرّ لوجه الله!

ورأى آخر رجلاً آخر يفجر بامرأته، فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة، وهي تقول: القضاء والقدر. فقال: يا عدوّ الله أتزين وتعتدين بمثل هذا؟ فقالت: أوّه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباد! فتنبّه ورمى السوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولاك لضللت!

ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره. فقال: الخيرة فيما قضى الله! فلُقب بـ«الخيرة فيما قضى الله» وكان إذا دُعي به غضب!

وقيل لبعض هؤلاء: أليس الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] فقال: دعنا من هذا، رضىه وأحبه وأراد، وما أفسدنا غيره^(١)!

وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه^(٢) فقال: إلى متى هذا اللوم؟ ولو خُلّي لسجد، ولكن مُنِع. وأخذ يقيم عذره، فقال له بعض الحاضرين: تَبّاً لك سائر اليوم،

(١) تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتأمل جناية هذا المذهب الخبيث على الأمة.

(٢) أي إبليس، والسنة الاستعاذة منه لا لعنه.

أَتَذُبُّ عَنِ الشَّيْطَانِ، وَتَلُومُ الرَّحْمَنَ؟

ثم ذكر أمثلة أخرى شنيعة لهؤلاء الضلال ثم قال:

فيقال: الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقًا، الذين ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا نزهوه عما يليق به، وبغضوه إلى عبادته، وبغضوهم إليه سبحانه، وأساءوا الثناء عليه جهدهم وطاقاتهم.

وهؤلاء خصماء الله حقًا الذين جاء فيهم الحديث: «يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ خَصْمَاءُ اللَّهِ؟ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ»^(١).

قال شيخ الإسلام في تائيته:

وَيُدْعَى خَصْمُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعِشَرِ الْقَدَرِيَّةِ
سِوَاءَ نَفْوِهِ أَوْ سَعْوِ لِيَخَاصِمُوهُ بِهِ اللَّهُ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ^(٢)

وسمعه يقول: القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: الأولى: نفاته، وهم القدرية المجوسية^(٣).

والثانية: المعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾

(١) اللالكائي (١٢٣٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: الفتاوى (٢٤٦ / ٨) وهي طويلة وكتبها ردًا على مشكك في القدر.

(٣) لأنهم اعتقدوا أن العباد يخلقون أفعالهم، فبذلك يكون للكون خالقين، فأشبهوا المجوس. تعالى الله عن قولهم.

[الأنعام: ١٤٨] وهم القدرية المشركية^(١).

والثالثة: المخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبلسية^(٢) وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر، فقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] ولم يعترف بالذنب ويؤء به كما اعترف به آدم. فمن أقر بالذنب، وباء به، ونزه ربه، فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برأ نفسه، واحتج على ربه بالقدر، فقد أشبه إبليس^(٣).

نعوذ بالله من عقائد الضلال، ونسأله سبحانه التوفيق للهدى والاستقامة.

والشاهد مما مضى أن على المؤمن أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله تعالى، ويفرق بين الإرادة الشرعية الدينية المستلزمة للمحبة، وبين الإرادة الكونية القدرية غير المستلزمة لها.

٥. المحبة المجردة من الخوف والرجاء:

إذا تجردت المحبة من الخوف والرجاء دخلها الإدلال والانبساط الزائد، ودَحْضُ الحال في مزالق سوء الأدب مع الجناب الإلهي والهيبة الربانية.

(١) مشركية لأن حجتهم هي حجة المشركين حينما يلقون في جهنم عياداً بالله.

(٢) لشبههم إبليس في خصومته لرب العالمين في قصة امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام.

(٣) طريق الهجرتين (١/ ١٨٠-١٨٦) باختصار. وانظر: الفتاوى (٨/ ٢٥٦-٢٦١، ٣٨٧، ٤٤٤، ٤٤٧).

والمحبة والخوف والرجاء لا بد من اجتماعها في القلب، فكلُّ منها مكملٌ، ومُكَمَّلٌ، ولكلُّ منها منزلة في القلب، فإما عامرٌ أو خراب، وقد شبه ابن القيم رحمه الله القلب في سيره إلى الله تعالى بالطائر الذي رأسه المحبة وجناحاه الخوف والرجاء، فإن قطع الرأس هلك الطائر، وإن كسر أحد الجناحين سقط الطائر وكان عرضة لكل صائد وكاسر. وقال قبله مكحول رحمه الله: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق^(١)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ^(٢)، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري^(٣)، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

قال شيخ الإسلام: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا

(١) لأن غايتهم الانحلال من الشريعة والقول بالاتحاد.

(٢) والإرجاء تأخير العمل عن مسمى الإيمان والقول بأن الإيمان هو التصديق فقط، وهو مذهب خبيث ودعاية فسق للناس، وانظر كتاب (ويكون الدين كله لله) ففيه بيان لحيث مذهبي الإرجاء والخروج.

(٣) نسبة إلى الخوارج أهل حروراء، وهم يكفرون مرتكب الكبيرة، ويقولون إن: الإيمان كتلة واحدة لا يزيد ولا ينقص، وهو مذهب رديء مدمر.

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢١٨﴾، ورحمته اسم جامع لكل خير. وعذابه: اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار، وأما الدنيا فدار امتزاج.

فالرجاء وإن تعلّق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله، كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ألم يثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة وينجيننا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»^(١) وهو الزيادة.

ومن هنا يتبيّن زوال الاشتباه في قول من قال: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك، فإن هذا القائل ظنّ هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو من يقر بها، ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله، وهذا باطل.

والتحقيق: أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبر به النصوص، وكذلك فأهل النار محجوبون عن ربهم.

(١) مسلم (١/١٦٣).

وأما عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلاً فهذا ممتنع، وإن تخيَّله بعض الغالطين من النساك، وظنَّ أن كمال العبد ألا تبقى له إرادة أصلاً! فذاك لأنه تكلم في حال الفناء^(١)، والفاني - الذي يشتغل بمحبوبه - له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها، فوجود المحبة والإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر. فلما لم يشعروا بها^(٢) ظنَّوا انتفاءها وهو غلط، فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عند حب وبغض وإرادة، ولهذا قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(٣)، فكل إنسان له حرث وهو العمل، وله هم وهو أصل الإرادة، ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة ما يدعوه إلى طاعته، ومن إجلاله، والحياء منه ما ينهيه عن معصيته، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه، أي هو لم يعصه ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه يمنعه من معصيته.

فالراجي الخائف إذا تعلَّق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه، والتنعم بتجليه له، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب.

ومن وجد حلاوة محبة الله؛ وجدها أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء، كما في الحديث: «إن أهل الجنة يُلهمون

(١) وتقدم قريباً الكلام عليه.

(٢) أي الإرادة.

(٣) أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٣٥).

التسبيح كما يُلهمون النفس»^(١)، وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته»^(٢).

وقال أيضًا: «كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيز من النار، ولما سأله بعض أصحابه عما يقول في صلاته قال: إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: «حوها نُدندن»^(٣).

وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري، ومن قال: لو أدخلني النار لكنت راضيًا، فهو عزم منه على الرضا، والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون الذي قال:

وليس لي في سواك حظٌ فكيفما شئت فامتحنني

فابتُني بعسر البول، فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب^(٤). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

(١) مسلم (٤/ ٢١٨٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦١-٦٤) باختصار. وانظر: درء التعارض (٦/ ٦٨، ٦٩).

(٣) أبو داود (٧٩٢)، ابن ماجه (٩١)، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات (٩١٠).

(٤) وقد احتبس بوله أربعة عشر يومًا، فكان يتلوى كما تتلوى الحية يمينًا وشمالًا، فلما أطلق بوله قال: رب قد تبت إليك. ويأتي بسط ذلك في باب الرضا إن شاء الله. وانظر: الفتاوى (١٠/ ٦٩٠-٧٠٠).

وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿[آل عمران: ١٤٣]﴾^(١).

(١) الفتاوى (١٠ / ٢٤١)، وقال بعد ذلك: «وبعض من تكلم في علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر، وأن من شَهِدَ القَدْرَ فشَهِدَ توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن (المخلوق)، وبقي من لم يزل (الخالق) يخرج عن هذه الأمور، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعاً؛ أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور ألا يكون حساساً محبباً لما يلائمه، مبغضاً لما ينافره، ومن قال إن الحي يستوي عنده جميع المقدورات؛ فهو أحد رجلين؛ إما أنه لا يتصور ما يقول، بل هو جاهل، وإما أنه مكابر معاند. ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله - سواء سَمِيَ اصطلاحاً أو محوّاً أو فناءً أو غشياً أو ضعفاً - فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها.

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل في مقام الجمع والفناء، فلا يشهد فرقاً؛ فإنه غلط، بل لا بد من الفرق فإنه أمر ضروري. لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبيعي، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه.

ولهذا لما وقعت هذه المسألة (أي الجمع والفرق وشهود القدر) بين الجنيد وأصحابه؛ ذكر لهم «الفرق الثاني» وهو: أن يفرق بين المأمور والمحذور، وبين ما يحبه الله وما يكرهه، مع شهوده للقدر الجامع. فيشهد الفرق في القدر الجامع. ومن لم يفرق بين المأمور والمحذور خرج عن دين الإسلام.

وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية، وإن خرجوا عنه، كانوا كفاراً من شر الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق. ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد، بل يفرقون من وجه دون وجه،

=

٦. الأذكار البدعية بزعم المحبة:

ولنأخذ في ذلك مثلاً يُعبّر عما سواه، فعند بعضهم أن «لا إله إلا الله» هو ذكر العامة، و«الله، الله» هو ذكر الخاصة، و«هو، هو» ذكر خاصة الخاصة!

أما العامة والعوام في اصطلاح هؤلاء فهم كل الأمة من العلماء والعامة الذين لم يصلوا إلى «الحقيقة»^(١) - والتي هي في حقيقتها تمرّد على الشريعة ومروق من الإسلام - فوصل الحال بمن استجرتهم الشياطين إلى أن جعلوا أعظم وأجلّ الأذكار على الإطلاق ذكراً للعامة دون الخاصة! وهو الذكر الذي قال فيه سيد خاصة الخاصة وصفوة الصفوة رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٢)، وقال ﷺ: «قال موسى: يا رب علّمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهنّ غيري والأرضين السبع في كفّة، ولا إله إلا الله

فيطيعون الله ورسوله تارة، ويعصون الله ورسوله تارة، كالعصاة من أهل القبلة».

الفتاوى (١٠ / ٢٤٢، ٢٤٣).

(١) بل أسقط بعضهم التكاليف الشرعية لمن زعم أنه وصلها، ويشبهون بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وما علموا أن اليقين هنا هو الموت، وسيد العباد صلوات الله وسلامه عليه قد عبد ربه حقّ العبادة حتى توفاه الله تعالى.

(٢) الترمذي (٣٥٨٥) بسند صحيح.

في كفة لمآلت بهنّ لا إله إلا الله»^(١). وفي حديث وصية نوح عليه السلام لابنه: «ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهنّ لا إله إلا الله»^(٢). فالكلمة التي من أجل تحقيقها خلق الله الخلق، وقام سوق الجنة والنار، ونُشرت دواوين التكليف، وأنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وجردت سيوف الجهاد لإقامتها؛ هي عند هؤلاء ذكر عامة. وهذا أسلوب تزهد فيها، وما أعدى الجهل على أصحابه!

إذن فهذا الذكر العظيم والتوحيد الخالص هو عند هؤلاء من أذكار العوام، أما الخاصة، وخاصة الخاصة عندهم كابن عربي وابن سبعين والتلمساني فيترفعون عن هذا الذكر وهذه الصيغة!

أما ذكر الخاصة عندهم فهو تكرار اسم الله مفردًا «الله، الله»^(٣)، وأما ذكر خاصة الخاصة عندهم، فهو تكرار ضمير الغيبة «هو، هو» فيستغني عن التهليل العظيم بتقليد نباح الكلاب! وربما اقتصر بعضهم على الآهات (آه، آه) بكيفية خاصة، بأن يتمايل مع الذكر. العابث. يمّنة ويسرة.

وأما العامي منهم فعندما يذكر الله بالتهليل «لا إله إلا الله» فإن له قانونًا ودستورًا يلتزمه، فيتمايل يمينًا وشمالًا بـ«لا» يمينًا، ويرجع بـ«إله»، فيتوسط. ثم

(١) ابن حبان (٢٣٢٤)، والحاكم وصحّحه (٥٢٨ / ١) ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد، وصحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢١٩ / ١) وصحيح الترغيب والترهيب (١٥٣٠).

(٣) وللأسف فقد شاطت هذه البدعة في الأمة، فما أعظم أمانة المصلحين!

يختم بـ«إلا الله» على اليسار. يبدأ بالتمايل بعد الاستئذان من الشيخ - الميت - أولاً، ويستمد منه المدد قائلاً: دستور يا أستاذ! مدد يا سيدي! ثم يستأذن سلسلة الطريقة التي ينتسب إليها من قادية أو تيجانية أو رفاعية أو نقشبندية أو ميرغنية ونحوها فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم (١).

وبعد أن يجأر بأسمائهم هكذا معتقداً أنهم يسمعون، ويأذنون له بقلوبهم، وبعد أن يتلطح بهذه الوثنية يستقبل هذا الذكر (٢)، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

فهذا مثال على تحبط من يزعم المحبة بلا برهان، فالمحبة عبادة والعبادة لا بد فيها من شرطين؛ الإخلاص والمتابعة، والذكر قسمان: ماثور وغير ماثور، فالماثور هو خير الأذكار على الإطلاق، أما غير الماثور مما اخترعه الناس ففيه الجائز الذي يتفق مع أصول الشريعة والمبادئ الربانية، وفيه المحرم، وهو ما

-
- (١) هذا قانون لدى كثير منهم، ولا يلزم منه التزام جميع المتصوفة به. وكم من صوفي حريص على السنة هارب من البدعة حتى وإن راج عليه الانتساب لطريقة مبتدعة.
- (٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية (مفهوم الذكر عند الصوفية) (١٢ / ٢٨٠).

خالف ذلك. ومن عَظُمَ الوحي في قلبه لم يلتفت لسواه مما زيتته النفوس.

٧. سوء الأدب مع الله جل جلاله:

هناك فرق بين الإدلال^(١) والتملق في الداعي المحب، وبين سوء الأدب، وخرق حجاب الهيبة والجلال للملك العلام. وبعض المتعبدة سلكوا طريق الحب دون إجلال وخشية ورهبة فوقعوا في شناعات، والله تعالى يقول: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قال شيخ الإسلام: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً

(١) هناك فرق بين الإدلال والتألي:

فالإدلال: انبساط في الحب مع رفع شيء من حجاب الهيبة، كقول موسى الكليم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فطلب منه ما لا يُطلب في العادة، وكقول بعض الصالحين: اللهم إن كان لي عندك في الجنة منزلة فأرينها في الدنيا، وكالإقسام على الله لمن وثق بعمله وأحسن الظن بربه كفعل البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونحو ذلك، فالمحبة لها سلطانها على القلوب والأحوال بشرط أن لا تخرج عن الأدب. أما التألي فهو التحكّم، أو الحكم على عباد الله من دون الله، وهذا هلكة وأمنٌ من مكر الله، كقول ذلك الرجل لما عصاه أخوه وأصر على المنكر: «والله لا يغفر الله لك» فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عمله» (مسلم ٤/٢٠٢)، قال أبو هريرة بعد ما روى هذا الحديث: قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته. والتألي: الحلف. والألوية على وزن غنية: اليمين. فهي يمين خاصة.

من أمور الجهل بالدين؛ إما من تعدّي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً فأنا منه بريء! فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء! وقال بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد! وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر^(١) وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدري ما يقول. والسكر هو لذة مع عدم تمييز، ولهذا كان بين هؤلاء إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم، ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول ﷺ وسنته وطاعته، بل قد جعل محبة الله

(١) سكر السماع البدعي وليس الخمر. والغناء يعصف بالأرواح ما لا تفعله الراح!

ومحبة رسوله الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدعون المحبة^(١)؟!

وقال أيضًا: «ومما ينبغي التفطن له؛ أنه لا يجوز أن يُظن في باب محبة الله تعالى ما يُظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني والهجر والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك، مما قد يغلط فيه طوائف من الناس حتى يتمثلوا في حبه بجنس ما يتمثلون في حب من يصدُّ ويقطع بغير ذنب، أو يبعد من يتقرب إليه»^(٢).

«ولا يجوز وصف الله تعالى بالعشق لا منه ولا به؛ لأن العشق حب مع شهوة، بل يُقرن العشق كثيرًا بالفعل المحرم؛ إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي، ويقترن به النظر المحرم واللمس المحرم وغير ذلك من الأفعال المحرمة»^(٣).

ومن سوء الأدب مع الله تعالى الغيرة على الله، كما تفعله الملامتية، الذين يكتمون حب الله تعالى ويظهرون أشياء تدل على خلاف ذلك طلبًا للإخلاص

(١) الفتاوى (١٠ / ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) الفتاوى (١٠ / ٨٦).

(٣) انظر: الفتاوى (١٠ / ١٣١).

من جهة وغيره على الله تعالى حتى لا يعلم الناس بحبهم له، بل وبعضهم لا يرضى بأن يحبه أحد سواه، وهذا من أسوأ الجهل^(١). قال ابن القيم رحمه الله: «وهذه الآفة قد ابتلي بها كثير من السالكين الذين هم في الحقيقة قُطَاع الطريق على السالكين إلى الله، وسوّلت لهم أنفسهم أن هذه غيرة منهم على محبوبهم أن يُحبه مثل هذه النفوس المتلوّنة بحب الدنيا. وغرّتهم أنفسهم ومنتهم أنهم يغارون على الله، ويحولون بين تلك النفوس وبين محبته؛ فغاروا وأغاروا، ونهبوا، واستلبوا!

وهذه الطريقة عند المحبين المخلصين أولياء الله الداعين إلى الله عداوةً لله في الحقيقة، ومعاونة للشيطان، وقعود على طريق الله المستقيم الذي خلق عباده لأجله، وأمرهم به، فالحذر من هؤلاء القُطَاع اللصوص، حَمَلْ أَهْلَ المحبة على المبالغة في كتمانها، وإظهار التخليّ منها بأسباب يُلامون عليها ظاهراً، وقلوبهم معمورة بالمحبة، مأهولة بها.

وهذا الذي ظنّوه غيراً هو من تلبس الشيطان، وخداعه لهم، ومكره بهم، وإنما هو حسد حَمَلَهُمْ على أن تعدّوه، وصالوا به، وسمّوه غيراً!

وإنما غيرة المحبين لله أن يغار أحدهم لمحارم الله إذا انتهكت، فيغار لله لا على الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»^(٢)، فغيرة المحب هي الموافقة لغيرة محبوبه، وهي أن يغار مما

(١) وقد تقدم الكلام على شيء من تفاصيل الغيرة.

(٢) متفق عليه.

يغار منه المحبوب، وأما إذا كان المحبوب يحب من يحبه، وهذا يغار ممن يحبه؛ فهو في الحقيقة ساع في خلاف مراد محبوبه. وفي إعدام ما يحبه محبوبه، فأين هذا من الغيرة المحبوبة لله؟! وإنما هذه غيرة من أخيه المسلم كيف خصّه الله بعطائه، وألبسه ثوب نعمائه، فهي غيرة منه لا غيرة على الله، فإن الله لا يُغار عليه، بل يُغار له»^(١).

٨ السماع البدعي «سماع المكاء والتصدية»:

وهو الاجتماع على الغناء وقد يصحبه دف وموسيقى بقصد ترقيق القلوب، وقد فصل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ذلك، كذلك ابن القيم وابن رجب رحمهما الله تعالى.

قال ابن تيمية: «أصل هذه المسألة - مسألة السماع - أن يفرق بين السماع الذي يُتفع به في الدين، وبين ما يُرخص فيه رفعاً للخرج، بين سماع المتقربين وبين سماع المتلعين.

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، وزكاة نفوسهم؛ فهو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة. قال تعالى

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٧٧، ٦٧٨)، وانظر لتفصيل الغيرة المحمودة من المذمومة وأقسام كل منهما: روضة المحبين (٢٦٤ وما بعدها)، مدارج السالكين (٣/ ٥-١٤).

لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٠٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وبهذا السماع أمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وعلى أهله أثنى كما قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وكما أثنى على هذا السماع، ذم المعرضين عن هذا السماع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَلَئِن مُّسْتَكْبِرًا كَانُوا لَا يَسْمَعُهَا كَانُوا فِي أُذُنَيْهِ وَقَرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر، والعشاءين وغير ذلك. وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. وكما في قراءة ابن مسعود على رسول الله ﷺ.

وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية، يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقتشعار الجلد، وهذا مذكور في القرآن. وهذه الصفات موجودة في الصحابة، ثم وجدت بعدهم آثار ثلاثة: الاضطراب والصراخ، والإغماء، والموت في التابعين.

وبالجملة؛ فهذا السماع هو أصل الإيمان، فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين ليلبغهم رسالات ربهم، فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقي.

وأما سماع المكاء والتصدية، وهو التصفيق بالأيدي، والمكاء مثل الصغير ونحوه؛ فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد، والتصويت بالفم قربة ودينًا، ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه قط، ومن قال إن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه

(١) ثم قال: «والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي في «مسألة السماع» وفي «صفة التصوف» أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قد لسعت حيّة الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقتي
وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية: ما أحسن لهوكم! فقال له: مهلاً يا معاوية! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب. فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن.
وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه أنه لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا، وخرقوا ثيابهم، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال: يا محمد، إن ربك ليطلب نصيبه من هذه الخرق! فأخذ منها خرقة وعلقها بالعرش، وأن ذلك هو زبي الفقراء.

وهذا وأمثاله إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم ومعرفة الإسلام والإيمان، وهو يشبه رواية من روى أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين، وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان الله معه كنا معه، وأن الله أخبر أهل الصفة بسرّ وكان قد أمر رسول الله ﷺ بكتانته، ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين مع فرط جهلهم بدين الإسلام، فيبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها، تارة يسقطون التوسط بالرسول، وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقاً، فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى، فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً.

وبالجملة؛ فقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ لم يشرع لصاحبي أمتهم وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة، مع ضرب بالكف، أو ضرب بالقضيب، أو الدف. كما لم يُبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة، لا في باطن الأمر، ولا في ظاهره، ولا لعامي ولا لخاصي، ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح. وأما الرجال في عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف، ولا يصفق بكف، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «التصفيق للنساء والتسييح للرجال»^(١)، كذلك «لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»^(٢).

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء، كان السلف يسمّون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً، ويسمّون الرجال المغنّين مخانيث، وهذا مشهور من كلامهم.

وبالجملة؛ فمسألة السماع قد تكلم فيها كثير من المتأخرين، هل هو محظور؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب، والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب، والتحزين على فوات

الفتاوى (١١ / ٥٦٣، ٥٦٤).

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري (٥٨٨٥).

المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن!

ولهذا يوجد في من اعتاده واغتنى به أنه لا يحن إلى القرآن، ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب.

فإذا عُرف هذا؛ فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة، لا بالحجاز، ولا بالشام، ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاة والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المئة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: خَلَّفْتُ بَبْغَدَادَ شَيْئًا أَحَدَثَهُ الزَّانِقَةُ، يَسْمُونَهُ التَّغْيِيرَ، وَيَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ. وقال يزيد بن هارون: مَا يُغَيِّرُ إِلَّا الْفَاسِقَ، وَمَتَى كَانَ التَّغْيِيرُ؟! وَسُئِلَ عَنْهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، فَقَالَ: أَكْرَهُهُ، هُوَ مُحَدَّثٌ. قِيلَ: أَنْجَلِسْ مَعَهُمْ؟ قَالَ: لَا. وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَئِمَّةِ الدِّينِ كَرَهُوهُ، وَأَكْبَرُ الشُّيُوخِ الصَّالِحِينَ لَمْ يَحْضُرُوهُ، فَلَمْ يَحْضُرْهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهْمَ، وَلَا الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضَ، وَلَا مَعْرُوفُ الْكَرْخِيِّ، وَلَا أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِيُّ، وَلَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِيِّ، وَالسَّرِيُّ السَّقَطِيُّ وَأَمْثَلُهُمْ، وَالَّذِينَ حَضَرُوهُ مِنَ الشُّيُوخِ الْمَحْمُودِينَ تَرَكُوهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ،

وأعيان المشايخ عابوا أهلهم، كما فعل ذلك عبد القادر، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشايخ^(١).

وما ذكره الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ من أنه من إحداه الزنادقة، كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة؛ كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا وأمثالهم. وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام، الذي لا يقبل الله

(١) وقال: «وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر أعمارهم، كالجنيد فإنه حضره وهو شاب، وتركه في آخر عمره، وكان يقول: من تكلف السماع فُتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد، ولا اعتماد للجلوس له.

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل، فإن الأبيات التي فيها ذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتتيم والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب السنون، ومحب المردان، فقد يكون فيه منفعة إذا هيَّج القاطن، وأثار الساكن، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله، لكن فيه مضرّة راجحة على منفعته كما في الخمر والميسر، فلهذا لم تأت به الشريعة، فالشريعة لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة، وأما ما تكون مفسدته غالبية على مصلحته؛ فهو بمنزلة من يأخذ درهمًا بدينار، أو يسرق خمسة دراهم ويتصدق منها بدرهمين، وذلك أنه يهيج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضرّ آثارها، ويفتن النفس ويغذيها فتعتاض به عن سماع القرآن». (الفتاوى: ١١/٥٩٣ - ٥٩٤) باختصار.

من أحد ديناً غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ، فهؤلاء ليس فيهم من يُرغَّب في ذلك، ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن، والإيمان، والهدى، والصدق والرشاد، والنور، والفلاح، وأهل المعرفة والعلم، واليقين والإخلاص، والمحبة لله، والتوكل عليه، والخشية له، والإنابة إليه.

ولكن حضره أقوام من أهل الإرادة، ومن له نصيب من المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظناً منهم أنه حق موافق، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علماً وحالاً، وقولاً وعملاً، ومعرفة وذوقاً وخبرة، لا يستقل بها أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال عبدالله بن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿[الأنعام: ١٥٣]﴾ (١).

وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقاً، ورضي عمن اتبعهم بإحسان، قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد، فوجد قلبه خير قلوب العباد، فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد (٢)، فما رآه المؤمنون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح.

وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستتاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم (٣).

(١) أحمد (١ / ٤٣٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٤٨).

(٢) أي بعد النبيين، أو أنه عنى هذه الأمة، وقد ترك القيد لوضوحه عند السامع فكان هذا إيجازاً محموداً.

(٣) مما تميز به ابن أم عبد (عبد الله بن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلماته المنهجية ووصاياه العميقة، في قالب جزل رصين، وقد كان يدافع الفتن عن الأمة قدر طاقته، وقد نفذ بعلمه الغزير وبركة اتباعه وحسن نيته معدن الحكمة بفراصة لا تكاد تخطئ واستقرائه لمستقبل لم ولن يشهده، ومن تأمل وصاياه، وخاصة ما كان منها تحذيراً أو

ومن كان له خبرة بحقائق الدين، وأحوال القلوب ومعارفها، وأذواقها، ومواجيدها؛ عَرَفَ أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه، فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل بالنفوس فعل حميا الكؤوس.

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر، فيجدون لذة بلا تمييز، كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدّهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة أعظم مما يصدّهم الخمر! ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر! حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مسّ يد، بل بما يقترن بهم من الشياطين، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية، بحيث تنزل عليهم الشياطين في تلك الحال، ويتكلمون على ألسنتهم كما يتكلم الجنّي على لسان المصروع، إما بكلام من جنس كلام الأعاجم الذين لا يفقه كلامهم، كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربيًا لا يحسن أن يتكلم بذلك^(١)، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم. وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى.

تفجعًا وجد صدقية ذلك، كيف لا، وقد أخذ سبعين سورة من فم النبي ﷺ مباشرة؟! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

(١) وقد جيء للشيخ ابن باز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفتاة من البادية قد تلبسها جنّي، فإذا قرأ عليها الشيخ نطق الجنّي على لسانها بلغة الهنود ولا يحسن العربية، كما أن الفتاة لا تحسن من الهندية شيئًا!

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط، فإن الشياطين تلبس أحدهم بحيث يسقط إحساس بدنه، حتى إن المصروع يضرب ضرباً عظيماً، وهو لا يحسّ بذلك، ولا يؤثر في جلده، فكذلك هؤلاء تتلبسهم الشياطين، وتدخل بهم النار، وقد تطير بهم في الهواء، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله كما يلبس الشيطان المصروع. وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه، وكذلك يفعل هؤلاء المتوهلون والمتسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي، وعند سماع المكاء والتصديّة، منهم من يصعد في الهواء، ويقف على زج الرمح، ويدخل النار، ويأخذ الحديد المحمي بالنار ثم يضعه على بدنه، وأنواع من هذا الجنس.

ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة، ولا عند الذكر، ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

قال النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١). وقد ثبت أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف تنزلت الملائكة لسماعها كالظلة فيها السرج^(٢).

(١) مسلم (٣٨).

(٢) متفق عليه. والظلة: السحابة.

ولهذا كان المكاء والتصديّة يدعو إلى الفواحش والظلم، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر، والسلف يسمّونه «تغيراً» لأنّ التغير هو الضرب بالقضيب^(١) على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الإنسان، إما بالتصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وإما بالضرب بقضيب على فخذ وجلد، وإما بالضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف وطبل، كناقوس النصارى، والنفخ في صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب فلا ريب في ضلّالته وجهالته^(٢).

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعة أن آلات اللهو كلها حرام، فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره «أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون في أمته من يستحل الحرّ والحرير والخمر والمعازف، وذكر أنهم يمسحون قردة وخنازير»^(٣). والمعازف: هي الملاهي كما ذكر ذلك أهل اللغة، جمع معزفة، وهي الآلة التي يعزف بها أي يصوت بها^(٤).

وقال أيضاً: «القلب إذا تعود سماع القصائد والأبيات والتذبحها؛ حصل له

(١) القضيب: عود قوي مرن مستو يضرب به على الجلد أو الطبل ونحو ذلك.

(٢) وقال: «أما السماع المشتمل على منكرات الدين، فمن عدّه من القربات استتيب فإن تاب وإلا قتل، وإن كان متأولاً جاهلاً بين له خطأ تأويله». الفتاوى (١١ / ٥٣٥).

(٣) البخاري (٥٥٩٠).

(٤) الفتاوى (١١ / ٥٨٦.٥٥٧) باختصار، وانظر (١٠ / ٧٦.٨١).

نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع القرآن»^(١).

وقال: «النفس لا بد لها من شيء في الغالب ترنم به، فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر»^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى^(٣): «حصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح؛ احتاج إلى أن يعتاظ عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه وخبث نقص من حياته وقوته وسروره بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

فلذا كان تعلّق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه، ولذلك يؤدي آثار ما يتعلّق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر، ولهذا ربّما غشي على الإنسان إذا سمع كلاماً يسره أو يسوءه، أو صوتاً لذيذاً طيباً مطرباً مناسباً، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر، وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به صاحبه باشتغاله بغيره ولمباينة ظاهره لباطنه في ذلك

(١) الفتاوى (١١ / ٥٣٢).

(٢) السابق (١١ / ٥٣٣).

(٣) في معرض مقارنته بين نعمة السمع ونعمة البصر.

الوقت ، فإذا حصل له نوع تجرّد ورياضة ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثر، فكلّما تجرّدت الروح والقلب وانقطعتا عن علائق البدن كان حظّهما من ذلك السماع أوفى وتأثرهما به أقوى.

فإذا كان المسموع معنىً شريفاً بصوت لذيذ؛ حصل للقلب حظّه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتمّ ابتهاج على حسب إدراكه له، وللروح حظّها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه فابتهجت به فتضاعف اللذة، ويتم الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس.

وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم إلا عند سماع كلام الله، فإذا تجرّدت الروح وكانت مستعدة، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيب صوت القارئ، كاد القلب يُفارق هذا العالم ويلجّ عالمًا آخر، ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره البتة، وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه! وحرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة فهي من قبل الصوت المشترك لا من قبل المعنى الخاص، وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عياناً وسماع كلامه منه.

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة، فمن امتلأ قلبه من محبة الله وسمع كلام محبوبه فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر.

والناس على ثلاثة أقسام:

الأول: من اتصفت نفسه بصفات قلبه فصارت نفسه قلباً محضاً^(١)، فغلبت عليه المعرفة والمحبة والعقل فاستنارت نفسه بنور القلب، واطمأنت إلى ربها وقرّت عينها بعبوديته، وصار نعيمها في حبه وقربه، فهذا حظّ من السماع مثل أو قريب من حظ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه، ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها، وحياته التي بها قوامه.

وإلى هذا المعنى قصد أرباب سماع القصائد والأبيات ولكن أخطأوا الطريق وأخذوا عن الدرب شمالاً ووراء.

الثاني: من اتصف قلبه بصفات نفسه بحيث صار قلبه نفساً محضة^(٢) فغلبت عليه آفات الشهوات، فهذا حظّ من السماع كحظّ البهائم ولا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

الثالث: من له منزلة بين المنزلتين، وقلب باق على فطرته الأولى^(٣) ولكن ما تصرف في نفسه تصرفاً أحالها إليه وأزال به رسومها، وجلا عنه ظلمتها، ولا قويت النفس على القلب بإحالتها إليها، ولا تصرفت فيه تصرفاً أزالته عنه نوره وصحته وفطرته، فبين القلب والنفس منازل ووقائع، والحرب بينهما دؤل وسجال، تدال النفس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

(١) وهي النفس المطمئنة.

(٢) وهي النفس الأمارة.

(٣) وهي النفس اللوامة. وكثيراً ما يذكر شيعي الإسلام ابن تيمية وابن القيم النفوس الثلاث في قوالب شتى وسياقات متعددة.

فهذا حظُّه من السماع، حظُّه بين الحظَّين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإن صادفه وقت دولة القلب؛ كان حظُّه منه قويًّا، وإن صادفه وقت دولة النفس؛ كان ضعيفًا^(١)، ومن ههنا يقع التفاوت بين الناس في الفقه عن الله والفهم عنه والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذا الحال عند سماعه يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة، ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه حتى تضع الحرب أوزارها، وربما صادفه في حال السماع واردٌ حقٌّ، أو ظفر بمعنى بديع لا يقدر فكره على صيده في كل وقت، فيغيب به، ويستغرق فيه عما يأتي بعده، فيعجز عن صيد تلك المعاني، ويدهشه ازدحامها فيبقى قلبه باهتًا^(٢)، كما يُحكى أن بعض العرب أرسل صائدًا له على صيد، فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فوقف باهتًا ينظر يمينًا وشمالاً ولم يصطد شيئاً فقال:

تكاثر الطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيدُ

فوظيفته في مثل هذا الحال، أن يفنى عن وارده^(٣) ويعلق قلبه بالمتكلم وكأنه يسمع كلامه منه، ويجعل قلبه نهرًا لجريان معانيه ويفرِّغه من سوى فهم المراد،

(١) وانظر مقدمة أعمال القلوب من هذا الكتاب.

(٢) أي مبهورًا منبهراً مشتتاً لقوة الوارد وضعفه عن حمله جملةً.

(٣) أي لا يشتغل بالمعاني المبهرة الطارئة على فهمه ولُبِّه كلاً على حدة، بل يعطي كل وارد حظُّه مع إتمام حظِّ غيره، وهذا عزيز جداً، والله المستعان.

وينصب إليه انصباباً يتلقى فيه معانيه كتلقي المحب للأحباب القادمين عليه، لا يشغله حبيب منهم عن حبيب، بل يعطي كل قادم حقه، وكتلقي الضيوف والزوار، وهذا إنما يكون مع سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور، فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق واللفظ والإحسان لا يغنى عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل، بل يسمع الخطاب الثاني مستصحباً لحكم الخطاب الأول، ويمزج هذا بهذا ويسير بهما ومعهما جميعاً، عاكفاً بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سيرٌ في الله^(١)، وهو نوع أعلى وأرفع من مجرد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه بل يُدرج سيره، فإن سير القلب في معاني أسمائه وتوحيده ومعرفته، ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة^(٢) واشتد تعلقه به؛ لم تحجبه معاني المسموع وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك، وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا البتة^(٣) والله المستعان^(٤).

وقال ﷺ في كشف مكيدة الشيطان ومصيده التي صاد بها بعض الناس

(١) أي العكوف بالقلب وتأمل معاني صفات الله وتدبر كلامه أثناء قراءته أو سماعه للقرآن.

(٢) وهي العلم مع الدربة إذا تمكنا في الفؤاد.

(٣) كما في مسند الترمذي عن علي - والأظهر وقفه - في القرآن «ولا يشيع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه» المسند (١٠٢٥٦)، الترمذي (١ / ١٨٨).

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٦. ٣١١) تحقيق الفقي، باختصار.

عن طريق السماع الشيطاني: «ومن مكاييد عدو الله ومصايدته التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين؛ سماع المكاء والتصديّة والغناء بالآلات المحرمة التي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو الذي كاد به الشيطان النفوس المبطلّة وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشُّبّه الباطلة على حسنه؛ فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا، فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا ولا كتمايل النشوان وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرايت تكسر المخانيث والنسوان؟ وقد خالط خمائرُ النفوس ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس^(١).

فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزّق، وأثواب تشقّق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزّهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برّجِله وخيله، وخزّ في صدورهم وخزّا، وأزّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسيط الديار، فيا رحمة للسقوف والأرض من ذلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالدين، يزعمون أنهم خواصّ الإسلام وقد قضوا حياتهم لذة وطربًا،

(١) أي الخمر الصرفة.

واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن.

لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواجع الشوق زنداً، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه؛ تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران شوقه فاشتعلت.

فيا أيها المفتون والبائع حظّه من الله بنصيبه من الشيطان، صفقة خاسر مغبون؛ هلاً كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيّات عند قراءة السور والآيات؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكلة، والجنسيّة علّة الضمّ قدراً وشرعاً، والمشاكلّة سبب الميل عقلاً وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب لولا التعلّق من الشيطان بأقوى سبب؟ ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خلافاً؟ ﴿أَفَتَخَذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أُولَٰئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

ولقد أحسن القائل:

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة	لكنه إطراق ساه لا هي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن	فمتى رأيت عبادة بملاهي؟

ثَقُلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا
 سَمِعُوا لَهُ رَعْدًا وَبَرْقًا إِذْ حُورِي
 وَرَأَوْهُ أَكْثَمَ قَاطِعٍ لِلنَّفْسِ عَنْ
 وَأَتَى السَّمَاعُ مُوَافِقًا أَغْرَاضَهَا
 أَيْنَ الْمُسَاعِدُ لِلْهَوَى مِنْ قَاطِعٍ
 إِنْ لَمْ يَكُنْ خَمْرُ الْجَسُومِ فَإِنَّهُ
 فَانْظُرْ إِلَى النِّشْوَانِ عِنْدَ شِرَابِهِ
 وَانْظُرْ إِلَى تَمْزِيقِ ذَا أَثْوَابِهِ
 وَاحْكَمْ فَأَيُّ الْخَمْرَتَيْنِ أَحَقُّ
 تَقْيِيدُهُ بِأَمْرٍ وَنَوَاهِي
 زَجْرًا وَتَخْوِيفًا بِفَعْلٍ مِنْهَا
 شَهَوَاتِهَا يَا ذَبْحَهَا الْمُنْتَاهِي!
 فَلَأَجَلْ ذَاكَ غَدَا عَظِيمِ الْجَاهِ
 أَسْبَابُهُ عِنْدَ الْجَهُولِ السَّاهِي
 خَمْرُ الْعُقُولِ مِمَّا تُثَلُّ وَمُضَاهِي
 وَانْظُرْ إِلَى النِّشْوَانِ عِنْدَ مَلَاهِي
 مِنْ بَعْدِ تَمْزِيقِ الْفُؤَادِ الْإِلَاهِي
 بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّائِيهِ عِنْدَ اللَّهِ»^(١)

ثم ذكر ﷺ أدلة تحريم الغناء وكذلك المزامير من القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأئمة المسلمين^(٢)، وقد أفرد ﷺ مصنفًا مستقلًا في السماع.

٩. ظن أنه لا يضر مع المحبة ذنب:

قال شيخ الإسلام: «وُجِدَ فِي الْمُسْتَأَخِرِينَ مِنْ انْبِسْطٍ فِي دَعْوَى الْمَحَبَةِ حَتَّى أُخْرِجَهُ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرِّعُونَةِ وَالِدَعْوَى الَّتِي تَنَافِي الْعِبُودِيَّةَ، وَتَدْخُلُ الْعَبْدَ فِي نَوْعٍ مِنَ الرِّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا تَصْلَحُ إِلَّا لِلَّهِ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ دَعَاوَى تَتَجَاوَزُ حُدُودَ

(١) إغاثة اللفهان، ابن القيم (١/ ٢٢٤-٢٢٦) باختصار، وانظر: المدارج (١/ ٤٨٧-

٥٠٧).

(٢) السابق (١/ ٢٢٧ وما بعدها).

الأنبياء والمرسلين، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء والمرسلين. وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ.

وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بيتهها الرسل، وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، وإذا ضعف العقل، وقل العلم بالدين، وفي النفس محبة؛ انبسطت النفس بحمقها في ذلك كما ينسبط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا مُحِبُّ فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: ﴿مَنْ أَبْتَغَى اللَّهَ وَآخِزْتَهُ﴾ [المائدة: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِشُرِّمَنْ خَلَقَ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]، فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوه، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها، ولم يتب منها؛ فإن الله يبغض منه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير؛ إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها؛ كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه، وعدم مداومته منه بصحة مزاجه.

ولو تدبر الأحق ما قص الله في كتابه من قصص أنبيائه، وما جرى لهم من التوبة والاستغفار، وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير

بحسب أحوالهم؛ عَلِمَ بعضُ ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقامًا، فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفًا بمصلحته ولا مريدًا لها، بل يعمل بمقتضى الحب. وإن كان جهلاً وظلمًا. كان ذلك سببًا لبغض المحبوب له، ونفوره عنه، بل لعقوبته»^(١).

١٠. عدم التفريق بين محبة الله، والمحبة لله، والمحبة مع الله:

محبة الله تعالى أجلى من أن تعرّف، وكل حي يُحسُّها ويشعر بها مع اختلاف مقدارها في القلوب، وكل شيء يُحِبُّ لغيره إلا الله سبحانه وتعالى فإنه يُحِبُّ لذاته سبحانه وبحمده، كما قال شيخ الإسلام رحمته الله، فهذه المحبة واضحة جلية.

أما المحبة لله فهي محبة ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال والاعتقادات والكائنات من الملائكة والبشر والجن والحيوان والطير والجماد والأوقات والأمكنة وغيرها، فكل ما أحبه الله أو أعان على حبه فهو محبوب شرعًا.

أما المحبة مع الله فهي محبة المشركين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «من أحب أولياء المتقين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فمحبة هؤلاء من أوثق عرى الإيمان، وأعظم حسنات المتقين.

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله أثابه الله على

ما يحبه الله ورسوله، وإن لم يعلم حقيقة باطنه، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله، وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

أما من أحب شخصاً لهواه، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتأكله به، أو بعصية فيه، ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله، بل هذه محبة لهوى النفس، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان، وما أكثر من يدعي حب مشايخ الله، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي أحبهم لأجله، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير.

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله؟ وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول الله ﷺ وسبيل الله؟ وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب الله^(١)!

(١) وقال: «من طلب أن يُحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً، بل عليه أن يأخذ بما يعلم، فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتخذون أندادًا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حُبًّا لله، وأهل الإيمان يحبون ذلك؛ لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله، ومن أحب الله أحب من يحبه، فمحبوب المحبوب محبوب، ومحبوب الله يحب الله، فمن أحب الله فيحبه من أحب الله.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به، ولهذا كان وسط الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والحب لغير الله كحب النصارى للمسيح، وحب اليهود لموسى، وحب الرافضة لعلي، وحب الغلاة لشييوخهم وأئمتهم.

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله؛ أن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ مخلصًا لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى (١٧) الَّذِي يُوَقَى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار، لأنه كان مشركًا عاملاً لغير الله.

وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ولا من غيره، بل آمن به

وعلى هذا؛ من أحب شيخًا مخالفًا للشريعة كان معه، فإذا دخل الشيخ النار كان معه». (الفتاوى ١١ / ٥١٩).

وأحبه وكلاه وأعانه بنفسه وماله متقرباً بذلك إلى الله، وطالباً الأجر من الله، ورسوله يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعدته ووعدته، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى والمشرىكين ودينهم، ويتبع أهل التوحيد والإيمان، ويخرج عن مشابهة المشركين وعبدية الصليبان»^(١).

وقال أيضاً في إيضاح حقيقة حب أبي طالب: «وأبو طالب وإن كان عالماً بأن محمداً رسول الله، وهو محب له، فلم تكن محبته له لمحبه الله، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه، فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرياسة، فأصل محبته هو الرياسة، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين وقت الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه، وكان دينه أحب إليه من ابن أخيه، فلم يقرّ بهما، فلو كان يحبه لأنه رسول الله، كما كان يحبه أبو بكر، وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً، فكان حبه حباً مع الله لا حباً لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ﷺ ومؤازرته؛ لأنه لم يعمل لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه»^(٢).

وقال: «والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد

(١) الفتاوى (١١ / ٥١٩ - ٥٣٠) باختصار.

(٢) الفتاوى العراقية، ابن تيمية (٢ / ٥٩٦) وهذا ملخص نفيس جداً.

والإخلاص يحبون غير الله لله، والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لأهنتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يُذكر فيها في حق الله تعالى وما يختص به ويليق به من أنواعها، ولا يصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوهما، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة.

وقد تذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة؛ المحبة مع الله، التي يُسوَّى فيها المُحب بين محبته لله ومحبته للنند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودّة؛ محبة الله وحده، ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، والمحبة المذمومة الشريكة هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

(١) السابق (٢/ ٦٥٨).

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم، ومعبود كليهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة؛ دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فالقرآن في شأن النوعين»^(١).

١١. محبة غير الله تعالى، وغير ما أحب الله تعالى:

قال شيخ الإسلام في كلام عال القدر جليل المعنى: «إن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألد ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منياً إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، إذ المحب يخاف زوال مطلوبه، وحصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبة إلا بين خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ومن لم يكن خالصاً لله، عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً؛ وإلا

(١) الداء والدواء، ابن القيم (٤٦٣، ٤٦٤).

استعبده الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إذا لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه، وإلا كان مشركاً، قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الَّذِي فِي الْقَيْمِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين، أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم، قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿[الأنبياء: ٧٢، ٧٣]، وقال في فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿[القصص: ٤١، ٤٢]»^(١)، فأصل الشرور محبة غير الله تعالى وغير ما يحبه الله تعالى.

١٢. الهوى والعشق:

وبينهما عموم وخصوص والعشق أخص، وميدانها واحد وهو تعلق القلب

(١) الفتاوى (١٠ / ٢١٥-٢١٧) باختصار.

بالشيء، فإن كان ثَمَّ شهوة فأخص به العشق، فكل عشق هوى ولا عكس.

قال الليث: «الهوى هوى الضمير»^(١). وقال ابن فارس: «الهاء والواو والياء أصل صحيح يدل على خُلُوٍّ وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سُمِّيَ لخلوّه، قالوا: وكلّ خال هواء، قال الله تعالى: ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي خالية لا تعي شيئاً، يقال: هوى أي سقط، والهاوية جهنم لأن الكافر يسقط فيها، والهويّ ذهابٌ في انحدار، والهوي في الارتفاع^(٢)، أما الهوى: هوى النفس، وهو من المعنيين جميعاً^(٣) لأنه خالٍ من كل خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي، قال الله تعالى في وصف نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]»^(٤).

وقال الراغب: «الهوى ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»^(٥).

أما العشق - عندي - فهو إسراف المحبة التي خالطتها شهوة.

وقال ابن فارس: «العين والشين والقاف أصل صحيح يدل على تجاوز حد

(١) معجم التهذيب (٤/ ٣٨١٥).

(٢) لمعرفة الاشتقاقات أثر كبير في سلامة تدبر القرآن الكريم.

(٣) أي الخلو والسقوط.

(٤) معجم المقاييس (١٠١٨).

(٥) المفردات (٥٢٤).

المحبة»^(١). وقال ابن منظور: «العشق فرط الحب، وقيل: هو عجب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته. وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: أيهما أحمد؟ فقال: الحب؛ لأن العشق فيه إفراط، وسُمي العاشق عاشقاً لأنه يذبُّ من شدة الهوى كما تذبُّ العَشَقَةُ إذا قُطعت»^(٢)، وزاد الفيروز آبادي: «وقد يكون عن عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب، أو بمرض وسواسي يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور»^(٣).

هذا والعشق شطران وهمٌ وشهوة، لذا فما وجد للعاشق كالنكاح لإذهاب ذلك، وإلا أضناه الوهم وأحرقتة الشهوة^(٤).



(١) معجم المقاييس (٧٤٧).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٦٧).

(٣) القاموس (١١٦٢) بتصرف يسير.

(٤) وانظر تفصيل ذلك في كتابي (وقد يجمع الله الشئتين).

علامات العشق

للعلامة ابن حزم رحمته الله كلام لطيف حول علامات العشق في طوق الحمامة^(١)، نذكر بعض مهماته على سبيل الاختصار، قال: «ومن علامات العشق^(٢) وشواهد الظاهرة لكل بصر: الانبساط الكثير الزائد في المكان الضيق، والتضايق في المكان الواسع^(٣)، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالالتكاء، وتعتمد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقي المحبوب في الإناء، وتحري المكان الذي يقابله فيه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة، والأسباب المحركة، والخواطر المهيجة. والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت^(٤).

قدرة من الله عز وجل تضل فيه الأوهام، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد

(١) انظر: طوق الحمامة (١/ ١٠٦) وما بعدها.

(٢) أما علامات محبة الله تعالى فقد سبق بيانها.

(٣) كما قال مجنون ليلى:

تكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت يوماً عليّ تضيق

(٤) وهذا معنى عميق، وهو أحد عجائب النفوس الإنسانية، ولا غرو أن يقع عليه مثل هذا الغواص الفهامة.

فَعَلَ فِعْلَ النَّارِ، وَنَجِدَ الْفَرْحَ إِذَا أَفْرَطَ قَتْلَ، وَالْغَمَّ إِذَا أَفْرَطَ قَتْلَ، وَالضَّحْكَ إِذَا كَثُرَ وَاشْتَدَّ أَسَالُ الدَّمْعِ مِنَ الْعَيْنَيْنِ، وَهَذَا فِي الْعَالَمِ كَثِيرٌ، فَنَجِدُ الْمُحِبِّينَ إِذَا تَكَافَا فِي الْمَحَبَّةِ وَتَأَكَّدَتْ بَيْنَهُمَا تَأَكَّدًا شَدِيدًا كَثُرَ تَهَاجَرُهُمَا بَغَيْرِ مَعْنَى، وَتَضَادَّهُمَا فِي الْقَوْلِ تَعَمَّدًا، وَخُرُوجَ بَعْضِهِمَا عَلَى بَعْضٍ فِي كُلِّ يَسِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَتَّبَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَفْظَةَ تَقَعُ مِنْ صَاحِبِهِ وَتَأَوَّلَهَا عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا! كُلُّ هَذَا تَجَرُّبَةٌ لِيَبْدُو مَا يَعْتَقِدُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومحاربة التشاجر سرعة الرضى^(١)، فإنك بينما ترى المحبَّين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدِّره يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبدًا، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة! هكذا في الوقت الواحد مرارًا.

وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجنك شك ولا يدخلنك ريب البتة ولا تتمار في أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف^(٢)، ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة. وهذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودة

(١) وهذا قيد مهم، ولعل تصور هذا يحل كثيرًا من مشكلات الأزواج.

(٢) قريب من ذلك حال كثير مع صاحبتة عزة، قال:

هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ لعزّة من أعراضنا ما استحلّت
أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلّت

وائتلاف صحيح، وقد رأيت كثيرًا.

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب^(١)، ويستلذ الكلام في أخباره، ويجعلها هُجَّيراه^(٢) ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهنهه عن ذلك تخوّف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر، و«حُبَّكَ الشيء يُعمي ويُصم»^(٣)، فلو أمكن المحب ألا يكون حديث في مكان إلا ذكر ما يحبه لما تعداه^(٤).

ويعرض للصادق في المودة أن يتدبّر في الطعام وهو له مُشْتَهٍ، فما هو إلا وقت ما يحتاج له ذكر من يحب صار الطعام غصّة في الحلق وشجى في المريء، وهكذا في الماء^(٥)، وفي الحديث فإنه يفتاحه مبتهجًا فتعرض له خطرة من

(١) كما قال المجنون:

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلي طائرًا كان في صدري

(٢) أي ديدنه ودوام حاله.

(٣) وهو حديث شريف، عند أبي داود مرفوعًا (١١٦) وأحمد (١٩٤ / ٥).

(٤) قال قيس ليلى:

وإني لأستغشي وما بي نعسة لعلّ خيالاً منك يلقي خيالها

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالسّرّ خالها

ولشرف معنى هذين البيتين فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ربما خرج من العمران

حتى إذا خلا في البيداء؛ رفع بصره إلى السماء وأنشدهما. وشتان بين الغرضين

والحيين!

(٥) كما قال الطغرّائي:

=

خطرات الفكر فيمن يحب فيتغير حاله إلى ذلك.

ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقه ولا جليله، وتبعه لحركاته ولعمري لقد ترى البليد يصير ذكياً، والغافل فطناً.. من العلامات كذلك نحول الجسم والسهر الطويل، والقلق عند انتظار من يحب، والجزع الشديد عند إعراض المحبوب، والبكاء، ومحبة أهل المحبوب»^(١).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله علامات أخرى للعشق وللحب، منها: «إغضاء الطرف عند نظر المحبوب إليه، والانقياد لأمره، وقلة صبره عنه، والإقبال على حديثه، ومحبة داره، والإسراع في السير إليه، وانجلاء الهموم برؤيته، والبهت والروعة عند مصادفته، والغيرة عليه، والسرور بما يُسرّه، وحب الوحدة والأنس بالخلوة، وتردد الأنفاس وتصاعدها بسببه، وهجر ما يُقصي عنه»^(٢).



إني لأذكركم وقد بلغ الظما منّي فأشرق بالزلال البارد

(١) طوق الحمامة (١/١١٤).

(٢) وقد سبق الحديث عنها. وانظر: روضة المحبين (٢٣٢-٢٥٥).

ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى

قال ابن القيم: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث له لما يُريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، كما أن الغضب لا يُذم مطلقاً ولا يحمد مطلقاً، وإنما يُذم المُفْرِطُ من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار.

ولما كان الغالب على مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المتنفع به، أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر؛ لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، لذلك حَرَصَ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمّه، وكذلك في السنة لم يجئ لا مذموماً، إلا ما جاء منه مقيداً كقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(١).

وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يُؤْمَنُ. وقال الشعبي: «وسمّي هوى لأنه يهوي

(١) رواه الطبراني والبخاري، وقال النووي في أربعينه: هذا حديث صحيح رواه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، وضعفه الألباني لضعف نعيم بن حماد. وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/٥٥٣).

بصاحبه في النار»^(١)، ومُطلَقُهُ يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وأجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه عن ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهي عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تورث ندمًا، فكلُّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب.

ولما امتُحن المكلفُ بالهوى دون البهائم، وكان كل وقت تحدثُ عليه حوادثٌ جُعِلَ فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدين، وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحكمين وأن ينقاد لحكمهما.

وليعلم اللبيب أن مُدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه! لهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطلبه به العادة، ولو زال عنه رَيْنُ^(٢) الهوى لَعَلِمَ أنه قد شقي من حيث قَدَّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظن الفرح، وألِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبَّة، ولا هو تخلص مما وقع فيه»^(٣).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١ / ١٤٧).

(٢) الران والرین: ما غطى على القلب وركبه وتلبَّسه من القسوة والغفلة للذنب بعد

الذنب، وفي التنزيل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(٣) روضة المحبين (٤١٣، ٤١٤) باختصار.

أسباب الهوى

لللهوى أسباب ودوافع على الناصح لنفسه معرفتها حتى يحسم مادتها قدر طاقته، ومنها:

١. عدم تعويد النفس على ضبط هواها منذ الصغر:

فالنفس كالعود الغصّ، ولا يزيدها كرور الأيام ومرور الليالي إلا ييوسّة على ما عودت عليه.

٢. العجز وترك مجاهدة النفس، أو الضعف في المجاهدة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والنفس كالدابة الحرورن الجموع فلا بد لها من حسن سياسة تجمع بين الحزم واللين.

٣. ضعف الصبر:

وما خسر ابن آدم خيرى الدارين بعد خذلان الله إلا من جهة ضعف صبره، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال علي رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد» ثم رفع رأسه وقال: «ألا إنه لا

إيمان لمن لا صبر له» (١).

٤. ضعف اليقين:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فبالصبر تدفع الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]» (٢).

٥. محبة الدنيا والركون إليها مع نسيان الآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَلْثَارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

٦. قلة العلم بالله عز وجل:

فقلّة المعرفة بالله تورث الغفلة والقسوة، وعلى قدر العلم النافع بالله وبأسماؤه وصفاته وأفعاله يكون الإيمان والخشية واليقين، وبضد ذلك تكون أضدادها، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا (٨/٢٤) وحسنه سليم الهلال في تحقيقه لعدة الصابرين،

ص ١٥٦.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٢٠).

الْفَيْكَمَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّتُ يَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[الزمر: ٦٧].

٧. قلة وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ففي مخالفة الشريعة يكون البلاء، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وأسلوب الحصر يدل على أن من يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر فليس من المفلحين، ومع التواصي والتعاون والتناصح يندحر سلطان الهوى لسلطان الهدى بإذن الله تعالى، والله المستعان.

٨. ضعف الاتباع لرسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

٩. مجالسة أهل الأهواء والبدع والتلقي عنهم:

فمن شؤم مجالستهم التلوث بقدر بدعهم ومحدثاتهم وأهوائهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]. قال الشوكاني رحمه الله في تفسيرها: «في هذه الآية موعظة عظيمة لمن يسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله»^(١). وقال الحسن وابن سيرين رحمهما الله: «لا تجالسوا

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٨).

أهل الأهواء. أي البدع. ولا تجادلوه، ولا تسمعوا منهم»^(١). والكلام في هذا له مقام آخر بإذن الله تعالى .

١٠. الرغبة عن مصادر التلقي لأهل السنة والجماعة:

وهذا لازم لما قبله ونتيجة له، وهل تضمن في من ترك الوحيين بفهم سلف الأمة هدى وتوفيقاً؟!

١١. الجهل بعواقب الهوى ومفاسده:

ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] فالفساد بحذافيره في اتباع الهوى، ومن ذلك الفساد:

أ. القدح في كمال الإيمان، فالذنوب موجبة لنقصه وبعضها موجب لنقضه.

ب. القدح في كمال التوحيد، فالتوحيد الكامل لا يبقى معه هوى، قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال شيخ الإسلام: «فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيبٌ ممن اتخذ إلهه هواه فصار فيه شرك منعه من الاستغفار»^(٢).

ج. القدح في كمال المتابعة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٢).

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿[النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

د- اتباع الهوى مخالف للمقصد الشرعي من الشريعة. قال الشاطبي رحمه الله: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً»^(١).

هـ- اتباع الهوى سبب للمعاصي والبدع، فإنه لما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] فالضلال في مخالفته.

و- اتباع الهوى يضل عن الحق، ويبعد عن الصواب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥].

ز- اتباع الهوى يمرض القلب ويفسد الرأي. قال الجنيد رحمه الله: «علل القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن»^(٢).

ح- أنه سبيل إلى النفاق. قال الحسن وقتادة في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] قالوا: «هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركب»^(٣).

(١) الموافقات (٢/ ٢٨٩).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٥/ ١٥٠).

ط . أنه سبب للفرقة بين المسلمين . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجَعَ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴿ [هود: ١١٨، ١١٩] ، قال عكرمة رَحِمَهُ اللهُ : « لا يزالون مختلفين في الهوى » (١) .

ي . أنه سبب للحرمان من الجنة . عياداً بوجه الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ [النازعات: ٤٠، ٤١] (٢) . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : « ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يُقدَّر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره .

الثاني : عذاب قلبه بمعشوقه ، فإن من أحب شيئاً غير الله عُدَّ به .

فما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ	وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه بائساً في كل حين	مخافة فرقة أو لاشتياق
فيكي إن نأوا شوقاً إليهم	ويكي إن دنوا حذر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق	وتسخن عينه عند التلاق

(١) تفسير الطبري (١٢ / ١٤٢) .

(٢) باختصار وتصرف عن الإخلاص حقيقته ونواقضه ، عبد الله الأحدي (٢ / ٤٠١) - (٤١٦) .

والعشق وإن استعذبه العاشق، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه، يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه فقلبه:

كعصفورة في كفّ طفلٍ يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعبُ
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخليّ عيش المسيّب المطلق كما
قيل:

طليقُ برأي العين وهو أسيرُ عليلٌ على قطب الهلاك يدورُ
وميتٌ يرى في صورة الحيّ غادياً وليس له حتى النشور نشورُ
أخو غمرات ضاع فيهنّ قلبه فليس له حتى الممات حضورُ

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالحهما من عشق الصور.

أما مصالح الدين فإنها منوطة بلمّ شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثاً وتشتيتاً له. وأما مصالح الدنيا فتابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الهشيم.

السادس: أنه إذا تمكّن من القلب واستحكم أفسد الذهن، وأحدث

الوسواس، وربما التحق صاحبه بالمجانين^(١)، وربما أربى عليهم كما قيل:

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم الحب أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها إما إفساداً معنوياً أو صورياً.

أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسناً من معشوقه كما في المسند مرفوعاً: «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيَصِم»^(٢)، فيُعْمِي العين عن رؤية مساوئ المحبوب ويصم الأذن عن الإصغاء إلى العذل فيه، والرغبات تستر العيوب حتى إذا زالت الرغبة زالت معها غشاوتها على العين كما قيل:

هوَيْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فلما انجلتُ قطعْتُ نفسي ألومُهَا
وأما إفساده للحواس ظاهراً فإنه يُمرض القلب ويُنْهَكُهُ، وربما أدَّى إلى تلفه، كما هو معروف في أخبار من قتلهم العشق.

وقد رُفِعَ إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وهو بعرفة - شابٌّ قد اصفرَّ ونَحَلَ حتى عاد عظماً بلا لحم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيد بالله من العشق عامّة يومه.

(١) انظرها مفصلة في كتاب (وقد يجمع الله الشيتين).

(٢) أحمد (٥ / ١٩٤) والأصح وقفه على أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانظر: البخاري (١٠٧ / ٢).

الثامن: بالعشق تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية فتعطل تلك القوى فيحدث بتعطّلها من الآفات ما يعزّ دواؤه أو يتعذّر، كما قيل:

الحبُّ أول ما يكون لحاجة تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا خاض الفتى لجُجِ الهوى جاءت أمور لا تُطاق كِبَارُ

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه همّ وشغل قلبٍ وسقم، وآخره عطب وقتل إن لم تدركه عناية الله، كما قيل:

وعش خاليًا فالحبُّ أوله عنا وأوسطه سقم وآخره قتلُ
وقال آخر:

تولّع بالعشق حتى عَشِقَ فلما استقلّ به لم يُطِقْ
رأى جُنة ظنّها موجةً فلما تمكّن منها غرقَ

والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: يداك أوكّتا وفوك نفخ^(١).

وقال أيضًا رحمه الله: «والله سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاها عن امرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجها وكانوا مشركين، وحكاها عن اللوطية وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

(١) الداء والدواء (٤٩٢-٤٩٩) باختصار.

وأخبر سبحانه أنه يصرف عن الإخلاص فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد أخبر سبحانه أن سلطان الشيطان إنما هو على ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله، ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد، ولهذا ترى كثيراً منهم عبداً لذلك المعشوق! فلو خير بين رضاه ورضا الله: لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه عليه، وإن قام في الصلاة فلسانه يناجي ربه وقلبه يناجي معشوقه^(١).

ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حُباً لله^(٢).



(١) وتأمل قول قيس صاحب ليلي، واستعد بالله من غدرات الهوى ولدغات العشق:

أراني إذا صليتُ يَمُمْتُ نحوها بوجهي وإن كان المصلّي ورائي
وما بي إشراكٌ ولكنَّ حُبَّها كعود الشجى أعياء الطبيب المداويا

(٢) إغاثة اللفهان (٢/ ٨٦٩، ٨٧٠) باختصار.

علاج الهوى ومنه العشق

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في آخر كتابه روضة المحبين خمسين وسيلة
لعلاج الهوى، وهي على سبيل الإجمال:

- ١- عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها.
- ٢- جرعة صبر يصبر على مرارتها تلك الساعة.
- ٣- قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة النافعة، والشجاعة كلها صبر ساعة.
- ٤- النظر في حسن عاقبة الصبر.
- ٥- النظر في عاقبة الهوى وآلامه وعذاباته. كما قال أحد الأعراب وقد تنحّى عن امرأة أراد منها ربيّة: إن امرأً باع جنة عرضها السموات والأرض بفترٍ بين رجلك لقليل البصر بالمساحة.
- ٦- إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى، ثم في قلوب عباده.
- ٧- إثارة لذّة العفاف وعزته وحلاوته على لذّة المعصية.
- ٨- فرحه بغلبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمه وهمه.
- ٩- التفكير في أنه لم يخلق للهوى بل لمخالفة الهوى.
- ١٠- ألا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإذا سلب

العقل والعلم والعزيمة فالبهيمة أحسن منه حالاً ومالاً.

١١- أن يسير بقلبه في عواقب الهوى وإخراجه من قصور الفضائل إلى زبائل الرذائل.

١٢- أن يتصور انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر.

١٣- أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يُنزل نفسه تلك المنزلة.

١٤- أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا أَعْجَبَتْ أَحَدَكُمْ امْرَأَةٌ فَلْيَذْكُرْ مَنَاتْنَهَا. وقال المتنبي:

لو فكّر العاشق في منتهى حُسْنِ الذي يسببه لم يسببه

١٥- أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى.

١٦- أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه وبين نيل اللذة المطلوبة.

١٧- أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه.

١٨- أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده.

١٩- أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل عليه إلا من جهة هواه.

٢٠- أن يعلم أن الله تعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله. قال

تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره كثيرة.

٢١- أن يعلم أن الله تعالى شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَشَئِلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحُمُر تارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿[المائدة: ٥٠، ٥١].

٢٢- أن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً. قال تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

٢٣- أن متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

٢٤- أن الهوى خطار^(١) جهنم المحيط بها حولها، قال ﷺ: «حُقَّتِ الجنة بالمكاره وحُقَّتِ النار بالشهوات»^(٢).

٢٥- يُخشى على من اتبع هواه أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر.

٢٦- أن اتباع الهوى من المهلكات، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات،

(١) الخطار: كل شيء حيز بين شيئين كحائط وبستان.

(٢) متفق عليه.

وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مُطاع، وهوى متَّبِعٌ، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى»^(١).

٢٧. أن مخالفة الهوى تورث العبد قوّة في بدنه وقلبه ولسانه.

٢٨. أن أغزر الناس مروءة أشدّهم مخالفةً لهواه.

٢٩. أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأيهما قوي على صاحبه طرده.

٣٠. أن الهوى داء ومخالفته دواؤه.

٣١. أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه. ولما سئل الحسن: أي الجهاد أعظم؟ قال: جهادك هواك^(٢)، وقال شيخنا -أي ابن تيمية-: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم.

٣٢. أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين. ولهذا أوصى بعض السلف من تردد بين أمرين أن يختار أبعدهما عن هواه.

(١) صحيح بطرقه. رواه البزار (٨٠)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥) وغيرهما، وصححه

الألباني، وانظر: الصحيحة (١٨٠٢).

(٢) ولما سئل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الغزو قال: ابدأ بنفسك فاغزها.

٣٣. أن الهوى تخليط ومخالفته حَمِيَّةٌ.

٣٤. أن اتباع الهوى يغلق على العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفَّقه لكان كذا وكذا، وقد سدَّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل رحمته الله: من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق. وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدِّين واللذات تُعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
فقلت: دع أحدهما تنل الآخر.

٣٥. أن من نصر هواه فسد عقله ورأيه؛ لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه وهذا شأنه سبحانه في كل من خانته في أمر من الأمور فإنه يفسده عليه.

قال المعتصم: يا فلان إذا نُصر الهوى ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد. فقال الشيخ: هكذا من خان الله ورسوله في مسائل العلم.

٣٦. أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسَّع عليها في قبره ومعاده. وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

٣٧. أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين كما صرَّ قلبه في الدنيا عن مراقبتهم.

٣٨. أن اتباع الهوى يحلّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقويها.

٣٩. أن مثل راكب الهوى كممثل راكب فرس حديدٍ صعب جموح لا لجام له، فيوشك أن يصصره فرسه في خلال جريه أو يسير به إلى هلاكه. قال بعضهم: أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهكالات.

٤٠. أن التوحيد واتباع الهوى متضادان. قال المطوّعي: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة، وتأمل قول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٣٢) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل هم أضل سبيلاً [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

٤١. أن مخالفة الهوى مطردةٌ للداء عن القلب والبدن.

٤٢. أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى.

٤٣. أن الله تعالى قد جعل في العبد هوىً وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر.

٤٤. أن الله تعالى جعل القلب ملك الجوارح ومعدن معرفته ومحبه وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدّتين، فالحق والزهد والهدى سلطان، وأعدائه الملائكة، وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل

سلطان، وأعوانه الشياطين، وجنده وعُدَّتْه أتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناصيتها، فهي تخامر على القلب، وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه.

٤٥- أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشتمته به، وساء صديقه ووليّه، وهذا بعينه هو جهْدُ البلاء، ودَرْكُ الشقاء، وسوءُ القضاء، وشِئْنَةُ الأعداء.

٤٦- أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء، كما قيل:

مَارَبْتُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَشِيبِ عَذَابًا^(١)
ومن ملك شهوته في حال شببته أعزّه الله في حال كهولته.

٤٧- أن الهوى رِقٌّ في القلب، وغُلٌّ في العنق، وقيدٌ في الرِّجْلِ، ومتى خالف هواه عتق من الأسر. قال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلَاءِ علامةٌ أن لا يرى لك عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويَجوعُ

(١) وروي:

مَارَبْتُ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَمَاتِ عَذَابًا

٤٨. أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره.

٤٩. أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا والآخرة.

٥٠. أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا

ظله^(١) وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى.

فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن

يجعل هوانا تبعاً لما يحبه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير^(٢).



(١) الحديث متفق عليه.

(٢) روضة المحبين (٤١٤-٤٢٧) باختصار.

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

الله شكور حميد لا يخيب معاملته ولا يغبن مُرضيه، قال ابن القيم رحمه الله:
«من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوّضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على متنها متى أراد.
ولما ترك المهاجرون ديارهم وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعضهم الله أن فتح عليهم الدنيا، وملّكهم شرق الأرض وغربها.

ولو اتقى السارق وترك السرقة لآتاه الله مثله حلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً لله لأثابه الله بركوبه، أو ركوب ما هو خير منه حلالاً^(١).

«وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا

(١) روضة المحبين (٣٩٣) باختصار.

يضيع ما تحمّل العبد لأجله.

وكل من خرج عن شيء منه لله حفظه الله عليه، أو أعضاه ما هو أجلُّ منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدان طير خضر، جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي لقناديل معلقة بالعرش^(١). ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم^(٢).



(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) روضة المحبين (٤٠٤ - ٤٠٥).

العفاف والكتمان

العفاف دين، وحفظ العرض فضيلة، وكتمان البلاء عبادة، و«العاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه فالواجب عليه فيه مدافعتة بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا أو شرعًا.

فإن عجز عن ذلك، وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاه - فعليه كتمان ذلك وألا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبّب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنه يعرض المعشوق بتهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلى مصدّق ومكذب، وأكثر الناس يصدّق في هذا الباب بأدنى شبهة. وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو فلانة كذبه واحد، وصدّقه تسعمئة وتسعة وتسعون!

فإن استعان عليه بمن يستميله إليه تعدّى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة ديوثًا ظالمًا. وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائي فما الظن بالديوث الواسطة في الوصلة المحرمة؟ وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه فكيف بمن يسعى في التفريق بينه وبين امرأته وأمتة حتى يتصل بها؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الدّيثة لا يرون ذلك ذنبًا!

ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحقّ العبد باقٍ، له المطالبة به يوم القيامة، فإن ظلم الوالد بإفساد فلذة كبده وهو

أعزُّ عليه من نفسه، وظلم الزوج بإفساد حبيته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه. فيا له من ظلم أعظم إثماً من فعل الفاحشة!

فإن كان ذلك حقاً لغازٍ في سبيل الله وقَفَ له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل له: «خذ من حسناته ما شئت» كما أخبر بذلك النبي ﷺ، ثم قال النبي ﷺ: «فما ظنكم»^(١)؟ أي فما تظنون يُبقي له من حسناته؟

فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً أو ذا رحم تعدد الظلم وصار ظلماً مؤكداً بقطيعة الرحم وأذى الجار و«لا يدخل الجنة قاطع رحم»^(٢) ولا «من لا يأمن جاره بوائقه»^(٣).

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن، إما بسحر أو نحوه، ضمَّ إلى الشرك والظلم كفر السحر. فإن لم يفعلْ هو ورضي به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيد من الكفر»^(٤).

والله أسأل أن ينظمننا جميعاً ووالدينا والمسلمين في سلك من يحبهم ويحبونه، إنَّ ربي سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد عدد ما خلق وذراً وبراً.

(١) مسلم (١٨٩٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٤٦).

(٤) الداء والدواء (٤٤٩-٥٠٥) باختصار.

وقفة تأمل

قال ابن حزم الأندلسي رحمته الله:

«فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله؛ رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والتكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلة إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء».

فإن سالك هذا الطريق إن فاتته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاتته فاتته كل شيء. وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهناً الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعاده، وبالله التوفيق»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (١٣-١٦) باختصار ابن القيم لها في الداء والدواء (٤٥٠).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الشوق إلى لقاء الله تعالى

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

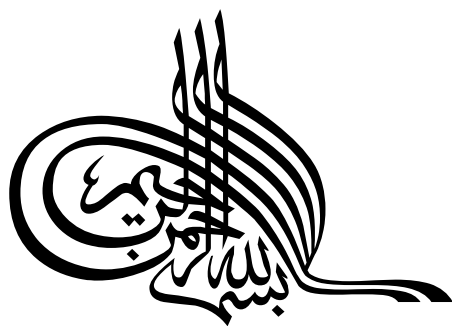
الكتاب رقم (٦)

الشوقُ إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١١	مرتبة الشوق ومنزلته
٢٥	وقفه تأمل: مُثير الأشواق إلى بلاد الأشواق



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله اشتاقت له قلوب أوليائه، وهشت لذكره أرواح أصفياه، وبشت لجلاله وجماله أفئدة خلائقه، خلق فسوى، وقدر فهدى، ويسر من شاء ليسرى، عم الخلق فضله ونواله، وأسبغ عليهم كرمه ونعمائه، ووعدهم بالمزيد مما لا يحيط به إدراكهم ولا تقترب منه معارفهم، وكفى بالوعد بالنظر إلى وجهه حادياً لا يُملّ، ومناراً لم يزل، وأكرم به من مشوق مُقل، كيف لا وهو الجميل الأجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] نَصَرَتْ لِمَا إِلَيْهِ نَظَرَتْ.

أما بعد؛ فهذه حروف يسرها الله تعالى في بيان شيء مما جاء به الوحي ونطقت به الشريعة في أمر الشوق إلى الله تعالى حذاً وفضلاً ودلالات ووسائل تحصيل وموانع ونحو ذلك مما اقتضاه المقام ويسره الملك العلام. سائلاً ربي معونته وتوفيقه وعصمته وحفظه. اللهم إني أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٧ / ٥ / ٧

aldumaiji@gmail.com

التعريف

لهذا الكتاب تعلق مباشر بكتاب المحبة، بل هو كالثمرة له، لذلك سنضرب الصفح عن بعض فروعه لذكرها في المحبة.

أما حدُّ الشوق فقد قال ابن فارس: «الشين والواو والقاف يدلُّ على تعلق الشيء بالشيء». يُقال شُقتُ الطُّنب، أي الوتد، واسم ذلك الخيط الشياق، والشَّوق مثل النَّوط، ثم اشتق من ذلك الشَّوق، وهو نزاع النفس إلى الشيء، ويقال: شاقني يشوقني، وذلك لا يكون إلا عن علق حُبٍّ^(١).

وقال الأزهري: «قال الليث: الشوق يقال منه: شاقني حُبُّها، وذكرها يشوقني أي يهيج شوقي، وقد اشتاق اشتياقًا، وعن ابن الأعرابي: الشوق حركة الهوى»^(٢).

وقال ابن منظور: «الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء، والجمع أشواق، والشَّوْقُ: العُشاق، ويقال شاقني الشيء، فهو شائق وأنا مُشَوِّقٌ»^(٣).

إذن فالشوق تَوَقُّان النفس إلى الشيء، فكلما أحبَّت تحصيله ازداد شوقها إليه. والشوق قد يكون لمتع الحس وقد يكون للروح، وقد يكون لهما معًا، وأعلى

(١) معجم المقاييس (٥٢١).

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ١٩٤٩).

(٣) لسان العرب (٥/ ٢٣١)، وانظر: القاموس المحيط (٩٤٩).

الشوق هو الشوق إلى لقاء الله تعالى.

وقال الغزالي في الإحياء في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى: «اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق؛ إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوبه، ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى.

وكل محبوب يشواق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يشواق إليه؛ فإن الشوق طلبٌ وتشوّفٌ إلى أمر، والموجود لا يُطلب^(١). بيان ذلك أن

(١) قال ابن القيم: «وقالت طائفة: بل يزيد الشوق بالقرب والوصول ولا يزول؛ لأنه كان قبل الوصول على الخبر والعلم، وبعده قد صار على العيان والشهود. ولهذا قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام»
المدارج (٥١٤/٣).

قلت: وكلام الغزالي أوجه. ولابن القيم تفصيل نافع في هذه المسألة فقد ذكر في كتابه طريق المهجرتين الخلاف ثم قال: «وفصل الخطاب في المسألة أن المحب إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه، فإذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلقًا ببلقائه، وخلفه شوقٌ أعظم منه وأبلغ إلى ما يزيد قربَهُ والحظوة عنده. وأما إذا قدر أنه لقيه ثم احتجب عنه ازداد شوقه إلى لقاء آخر، ولا يزال يحصل له الشوق كلما حُجب عنه، فهذا لا ينقطع شوقه أبدًا، فهو إذا رآه بَلَّ شوقَهُ برؤيته، وإذا زال عنه الطرف عاوده الشوق، كما قيل:

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرف مشتاقًا
وإنما الشأن في دوام الشوق حال الوصول واللقاء.

الشوق لا يُتصوّر إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يُدرك من وجه، فأما ما لا يُدرك أصلاً فلا يُشتاق إليه، فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يُتصور أن يشتاق إليه^(١)، والشوق يكون من وجهين:

أحدهما: من غاب عنه محبوبه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية.

والثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى سائر محاسنه، فيشتاق لرؤية تلك المحاسن، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم بجمال ومحاسن ما لم يره، فيبقى في شوق لكشف ما لم يره قط.

والوجهان جميعاً متصوّران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين. والشوق الأول يسكن في الدار الآخرة إذا رأى المؤمن وجه ربه ولقيه، أما الشوق الثاني فلا ينتهي حتى في الآخرة؛ إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال؛ لأن ذلك لا نهاية له.

فاعلم أن الشوق نوعان: شوق إلى اللقاء، فهذا يزول باللقاء، وشوق في حال اللقاء، وهو تعلّق الروح بالمحبوب تعلّقاً لا ينقطع أبداً، فلا تزال الروح مشتاقة إلى مزيد هذا التعلق وقوّته اشتياقاً لا يهدأ». طريق الهجرتين (٢/٧٢٥-٧٢٦).

(١) لذلك فقد تعرّف الله جل جلاله إلى عباده، وبيّن وأظهر كثيراً من صفات جلاله ونعوت جماله وأخبار كماله ليعظم في نفوسهم الشوق إلى لقائه، فيقطعوا مفاوز الدنيا على رواحل الشوق والمحبة.

ولا يزال العبد عالمًا بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن
قط شوقه، فلا يزال يجد شوقًا لذيذًا لا يظهر فيه ألم، ولا يبعد أن تكون ألطاف
الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية. فلا يزال النعيم واللذة متزايدًا أبد الآباد،
وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم
يحصل»^(١).



(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٢٤-١٦٢٦) باختصار وتصرف يسير.

مرتبة الشوق ومنزلته

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأكثر مثبتي الرؤية يشتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق، كما في الحديث الذي في النسائي^(١) وغيره عن النبي ﷺ: «اللَّهُم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللَّهُم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبزرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللَّهُم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»، وفي صحيح مسلم^(٢) وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»^(٣).

(١) رواه النسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني. وانظر: صحيح الكلم الطيب (١٠٥).

(٢) (١١٢/١).

(٣) ورواه أحمد وأحمد وابن خزيمة وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١).

وكلما كان الشيء أحب، كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق، كما رُوي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه... وكلامهم في ذلك كثير»^(١).

ولقد شهدت والدي رحمه الله يوم الجمعة قبل وفاته بأسبوع ورفع يديه اللتين أنحلها المرض ودعا بلسان أنهكه السقم وحمد الله تعالى بمحامد عظيمة وصلى على رسول الله ﷺ صلاة جميلة طويلة ثم دعا بجوامع دعاء له ولوالديه ولأهله وللمسلمين ثم أَلَصَّ بهذه الدعوة الجليلة: اللهم قد اشتقت للقائك، اللهم قد اشتقت للقائك.. ثم رحل إلى ربه بعد جمعة^(٢) رحمه الله تعالى.

وقال ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة الشوق. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم، أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي، فقد أَجَلْتُ له أَجْلاً يكون عن قريب، فإنه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب، وفيه لطيفة أخرى، وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء. لولا التعلُّل بالرجاء لَقُطِّعَتْ نَفْسُ المحب صَبَابَةً وَتَشَوَّقًا

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل، ابن تيمية (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، وانظر: الاستقامة (٢/ ٩٩)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٤٠٣)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٦٩٧).

(٢) توفي رحمه الله ليلة السبت (١٥/٦/١٤٢٨) في الرياض ودفن في حوقان في الخرمة حسب وصيته.

ولقد يكاد يذوب منه قلبُهُ مما يقاسي حَسْرَةً وتَحَرُّقًا
حتى إذا رَوَّحَ الرجاء أصابه سكن الحريقُ إذا تعلَّلَ باللقا

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك» قال بعضهم: كان النبي ﷺ دائم الشوق إلى لقاء الله، لم يكن شوقه إلى لقائه قط، ولكن الشوق مئة جزء، تسعة وتسعون له، وجزء مقسوم على الأمة، فأراد ﷺ أن يكون ذلك الجزء مضافاً إلى ما له من الشوق الذي يختص به^(١).

والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها، فإنه سَفَرُ القلب إلى المحبوب في كل حال. والمحبة أعلى منه؛ لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

وللشوق علامات، قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت، مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما أُلقي في الجُبِّ لم يقل «توفني»، ولما أُدخل السجن لم يقل «توفني»، ولما تمَّ له الأمر والأمن والنعمة قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

والشوق إلى الله عز وجل لا ينافي الشوق إلى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة قربه تعالى، ورؤيته وسماع كلامه ورضاه.

(١) المراد التقريب لا القطع بتلك النسبة، فهي مفتقرة إلى دليل. وانظر: طريق الهجرتين (٢/ ٧٢١، ٧٢٢).

وقد يقوى الشوق ويتجرد عن الصبر فيسمى قلقاً، وقد يكره خلطة الخلق لما في ذلك من التنافر بين حاله وخلطتهم، وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: كان في بداية أمره يخرج أحياناً إلى الصحراء يخلو عن الناس، لقوة ما يرد عليه، فتبعته يوماً فلما أصحر تنفس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر^(١):

وأخرج من بين البيوت لعلني أُحدّث عنك النفس بالسرّ خالياً
وصاحب هذا الحال إن لم يردّه الله سبحانه إلى الخلق بثبيت وقوة، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم، وربما التذّبّ بالموت لرجاء اللقاء بربه كما يلتذ المسافر بتذكر قدومه على أهله وأحابه.

ولا يصح لأحدٍ في الدنيا مقام المشاهدة أبداً، وإنما غاية ما يصل إليه العبد الشواهد، ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلى مشاهدة الحق سبحانه، وإنما وصوله إلى شواهد الحق، ومن زعم غير ذلك فلغلبة الوهم عليه، وحسن ظنه بترهات القوم وتخيلاتهم، ولله در الشبلي حين سئل عن المشاهدة، فقال: من أين لنا مشاهدة الحق؟ لنا شاهد الحق. وهذا من أحسن كلامه وأبينه. وأراد بشاهد الحق: ما يغلب على القلوب الصادقة العارفة الصافية من ذكره ومحبه وإجلاله وتعظيمه وتوقيره، بحيث يكون ذلك حاضراً فيها، مشهوداً لها، غير غائب عنها.

ولا ريب أن القلوب تشاهد أنواراً بحسب استعدادها، تقوى تارة،

(١) وهو مجنون ليل في قصيدته المؤنسة، وهي أجمل قصائد النسب.

وتضعف أخرى، ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف، وصفاء البواطن والأسرار، لا أنها أنوار الذات المقدسة، فإن الجبل لم يثبت للسير من ذلك النور حتى تدكدك، وخرّ الكليم صعباً مع عدم تجلّيه له، فما الظن بغيره؟!

فإياك ثم إياك وتُرّهات القوم وخيالاتهم وأوهامهم، فإنها عند العارفين أعظم من حجاب النفس؛ لأن المحجوب بالنفس معترف أنه في ذلك الحجاب، وصاحب هذه الخيالات والأوهام يرى أن الحقيقة قد تجلّت له أنوارها، ولا يقرّ لنا بهذا إلا عارفٌ قد أشرق إلى باطنه نور السنة المحمدية، فرأى ما الناس فيه، وما أعز ذلك في الدنيا، وما أغربه بين الخلق! والله المستعان.

فالصادقون في أنوار معارفهم وعباداتهم وأحوالهم ليس إلا، وأنوار ذات الرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله. وهذا الموضع من مقاطع الطريق، والله كم زلّت فيه أقدام! وضلّت فيه أفهام! وصارت فيه أوهام! ونجا منه صادق البصيرة، تام المعرفة، علمه متصل بمشكاة النبوة، وبالله التوفيق»^(١).

وقال أيضاً: «وهل يجوز إطلاق الشوق على الله تعالى؟ فالصواب أن يقال: إن إطلاق اللفظ متوقف على السمع، ولم يرد به^(٢) فلا ينبغي إطلاقه، وهذا كلفظ العشق أيضاً، فإنه لما لم يرد به سمع فإنه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه، واللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأجلُّ شأنًا، وهو لفظ المحبة، فإنه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلّها وأعلاها.

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥١٦-٥٣٥) باختصار. وانظر: روضة المحبين (١١٢).

(٢) وردت آثار لكنها لا تصح.

أما مسألة هل يطلق على العبد أنه يشفق إلى الله وإلى لقائه؟ فهذا غير ممتنع، كما في حديث عمار مرفوعاً: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقاءك»^(١)، فهذا فيه إشارة لذة النظر إلى وجهه الكريم، وشوق أحبابه إليه وإلى لقائه، فإن حقيقة الشوق إليه هو الشوق إلى لقائه»^(٢).

وقال أيضاً: «محبة الله سبحانه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه: أصل الدين، وأصل أعماله وإراداته، كما أن معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله: أصل علوم الدين كلها.

وليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحبّه له.

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

(١) رواه أحمد والنسائي بسند صحيح، وقد تقدم.

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٧١٦-٧٢١) باختصار.

وَوَجَدُ هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرف بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حباً لغيره، ولا أنسا به، وكلما ازداد حباً؛ ازداد عبودية وذللاً وخضوعاً ورقاً له، وحرية عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً، حتى يظفر بما خلق له وهبى له من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقراً ذاتياً إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه؛ خرج منه تأله لما سواه، وعبوديته له:

فأصبح حُرّاً عَزَّةً وصيانةً على وجهه أنواره وضيائه

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يُحس به، لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به،

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصه هو بحسب قوة الإيثار وضعفه وزيادته ونقصانه.

والعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية مستترة عنه متوارية، أو ناقصة، أو ذاهبة، فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قَدَّم عليها لذَّة وشهوة لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١)، لهذا تجد العبد إذا كان مخلصاً لله منيباً مطمئناً بذكره مشتاقاً إلى لقاءه؛ قلبه منصرفاً عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها»^(٢).

وفي عوارف المعارف^(٣): «قال أبو عثمان: الشوق ثمرة المحبة، فمن أحب الله اشتاق إلى لقاءه. وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]: تقربة للمشتاقين، معناه: إني أعلم أن شوقكم إلي غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاقون إليه.

(١) متفق عليه.

(٢) إغاثة اللفهان، ابن القيم (٢/ ٩٣٠-٩٣٣) باختصار.

(٣) لأبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي رحمه الله، وهو غير السهروردي الزنديق المقتول، وكتابه عمدة عند المتصوفة، وقد قسمه إلى ثلاثة وستين باباً موضحاً الآداب والأحوال والمقامات ونحو ذلك، ولا يخلو من شطحات عقدية واعتماد على أحاديث موضوعة وضعيفة.

وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقاً إلى ربه، ورجاءً للقاءه والنظر إليه.

وعندي أن الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت، والله تعالى يكشف أهل وده بعطايا يجدونها علماً ويطلبونها ذوقاً^(١)، فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقاً، وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى، كما قال الجليل سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فمن كانت حياته لله، منحه الكريم لذّة المناجاة والمحبة، فتمتلئ عينه ويكشف بالمنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق^(٢).

وأسند الطبري رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] «عن الربيع في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَحِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] قال: حدثني من لقي أصحاب النبي ﷺ أنه قربه حتى سمع صريف القلم، فقال عند ذلك من الشوق: ﴿رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

(١) فالعلم مكانه العقل والبصيرة، أما الذوق فهو شعور قلبي تذوقه الروح، والمراد شوقهم لحق اليقين بعد علم اليقين. وسيأتي بسط الكلام في المكاشفات والكرامات في كتاب الاستقامة إن شاء الله تعالى.

(٢) عوارف المعارف (٢١٤٦) بذيل إحياء علوم الدين، بتصرف يسير.

وبسنده عن أبي بكر الهذلي قال: لما تخلف موسى عليه السلام بعد الثلاثين، حتى سمع كلام الله؛ اشتاق إلى النظر إليه فقال: «رب أرني أنظر إليك قال: لن تراني، وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليَّ في الدنيا، من نظر إليَّ مات. قال: إلهي، سمعت منطلقك واشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموت، أحبَّ إليَّ من أعيش ولا أراك. قال: فانظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني»^(١).

وفي تفسير السمعاني عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال عند قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: «هاج به الشوق فسأل الرؤية»^(٢).

وقال الشعراوي رحمه الله عند قول الله تعالى: ﴿فَأَجْعَلْ أَعْيُنَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: «تهوي تدل على السقوط من حائق، أي من مكان مرتفع شاهق، وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها، ولذلك نجد الكلفَ بالحج المحب والمتعلق به؛ تشتاق روحه إلى الحج، وعلينا أن نفرق بين «يَهْوَى» أي يحب الذهاب، و«يَهْوِي» أي يذهب بالاندفاع، فالإنسان إذا سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول: سأتوقف عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه، ولذلك قال الحق: ﴿فَأَجْعَلْ أَعْيُنَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وهذا دليل

(١) تفسير الطبري (٦/٦٤).

(٢) تفسير السمعاني (٢/٢١٢).

على أن الهويّ ليس من صنعة الجسم، ولكنه من صنعة الأفتدة»^(١).

وقال عبد الرحمن السعدي رحمته الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]: «هذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كلّ على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها، والمنمّي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها.

فيالله لو قدّر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم، وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيثار، دائم مستمر، فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهدًا في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟!

وإلا فلو تيقّن العبد ذلك حق اليقين، وباشر الإيثار به بشاشة قلبه؛ لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات^(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فيعلم عمل كل عامل، ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء»^(٣).

(١) تفسير الشعراوي (ص ٢٣٦١)، الباب (٩٧).

(٢) وتأمل رابطة الشوق بالرجاء، فهو مشتاق لما يريجه مما يجب.

(٣) تفسير السعدي (١١٦).

وقال ابن الجوزي رحمه الله مجرياً مراكب الشوق للآخرة: «كانت الجنة إقطاعاً، فحلَّ الإقطاع بجناية لقمة، فلما غسل آدم الجناية رُدَّ عليه الإقطاع، ولولا لطفُ ﴿فَلَقَى﴾ [البقرة: ٣٧] لقتله الأسف.

يا من جرى عليه ما جرى على أبيه، اسلك طريقه من البكاء، اكتب قصة الندم بمداد الدموع، وابعثها مع ريح الزفرات، لعل الجواب يصل برفع الجوى^(١):

كيف لا أبكي على عيشٍ مضى بعثُ عمري بحقير الثمن
انتبه لنفسك يا من كلما تحرك تعرقل، فيك جوهرية السباق، ولكن تحتاج إلى رائض، قلبك محبوسٌ في سجن طبعك، مقيّد بقيود جهلك، فإن ترنمَ حادٍ تنفسَ مشتاقٌ إلى الوطن، فالبس لآمة^(٢) عزمك، وسر بجند جدك، لعلك تُخلص هذا المسلم من أيدي الفراعنة.

أبالغور تشتاق تلك النجودا رميت بقلبك مرمى بعيدا
فؤادُ أسيرٍ لا يُقتدى وجفنٌ قليل البكا ليس يُودى
لك الحديثُ يا معرض، أنت المراد يا غافل، يا مُستلذاً برَد العيش تذكر حُرقة الفرقة، يا من يُسلمُه موكلان إلى موكلين؛ ما لانبساطك وجهٌ، إنها تملي عليهما رسالةً إلى ربك، وما أراك تملُّ فُبَح ما تُملي!

(١) الجوى: الحُرقة وشدة الوجد.

(٢) الآمة: عدة القتال.

أين الذي نصبوا الآخرة بين أعينهم فنَصَبُوا^(١)، وندَبُوا أنفسهم لمحو السيئات وندَبُوا^(٢).

كان داود الطائي ينادي بالليل: هُمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهموم، وحالَفَ بيني وبين السَّهاد^(٣)، وشوقي إلى النظر إليك حال بيني وبين اللذات.

كانوا يتراسلون بالمواعظ لتقع المساعدة على اليقظة، كصياح الحارس بالحارس: يا نيام السَّحور.

كان ثابت البناني يستوحش لفقد التعبُّد بعد موته فيقول: يا رب إن كنت أذنت لأحدٍ أن يُصلي في قبره فائذن لي.

وكان يزيد الرقاشي يقول في بكائه: يا يزيدُ من يبكي بعدك عنك؟ من يترضى ربك لك؟

لما علم المحبُّون أن الموت يقطع التبعيدات كرهوه لتدوم العبادة. جاء ملك الموت إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقبضه فلطم عينه^(٤)، فإذا قامت القيامة بادر إلى العرش^(٥) طالت غيبته فاستعجل استعجال مشوق.

(١) نصبوا الأولى: جعلوا ووضعوا. والثانية: تعبوا.

(٢) ندبوا الأولى: من الندب وهو الدعاء. والثانية: من الندبة وهو البكاء.

(٣) السهاد: السهر والأرق.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فلما جاءه صَكُّهُ ففقا عينه...».

(٥) البخاري (٢٢٣٤) عن أبي هريرة مرفوعاً: «فأكون أول من يُفريق، فإذا موسى باطش جانب العرش...».

كانوا يحبّون أماكن الذكر ومواطن الخلوة، والمؤمن ألوف للمعاهد^(١).

وإن أعظم مشوّق لله والدار الآخرة هو تدبر القرآن العظيم؛ ففيه وصف الجليل الجميل سبحانه، وذكر آلائه ونعمه وآياته، وهو المعين الثرّ لزيادة الإيمان واستقرار اليقين وإنشراح الصدر وسعادة القلب وهناء الحياة والمهمات، ومن داوم على قراءته وتدبره وتفهمه والعمل به فلا تسل عن سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) المدهش لابن الجوزي (٥٠٥/٢-٥٠٩) باختصار. وانظر منتخباته في كتابي (المدهشات).

وقفه تأمل

مُثير الأَشواق إلى بلاد الأَشواق

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفْجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» رواه البخاري^(١).

وله^(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ! قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»، أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَأَحْمَدُ بَزِيادَةَ: «وَأَلَانَ الْكَلَامَ»^(٣).

(١) البخاري (٧٤٢٣).

(٢) البخاري (٣٢٥٦).

(٣) المسند (٦٦١٥) وقال الأرْنَؤوط: حسن لغيره. وحسنه الألباني في صحيح الموارد (٥٣٣).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ خِيَمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجْوُفَةٍ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» متفق عليه^(١).

وفي صحيح مسلم^(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ، لَا يَتَغَوِّطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى طُولِ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ سِتُونَ ذِرَاعًا»، وفي رواية: «لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يَسْبِّحُونَ اللَّهَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا» وفي رواية: «وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ».

وله^(٣) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَغَوِّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ» قالوا: فَمَا بِالْطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمَسْكِ، يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ».

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ أَحَدُهُمْ (يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ) لِيُعْطَى قُوَّةُ مِئَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْجَمَاعِ وَالشَّهْوَةِ، تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرَشْحِ الْمَسْكِ فَيَضْمُرُ

(١) البخاري (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨) واللفظ له.

(٢) مسلم (٢٨٣٤).

(٣) مسلم (٢٨٣٥).

بطنه» أخرجه أحمد والنسائي، ورواه الطبراني بإسناد صحيح^(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِقَابِ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعِ قَدَمٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنْصَيْفُهَا (يعني الخمار) خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» رواه البخاري^(٢).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلُّ جُمُعَةٍ، فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزِدَادُونَ حَسَنًا وَجَمَالًا» رواه مسلم^(٣).

وله عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» [الأعراف: ٤٣] ^(٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى

(١) النسائي (١١٤٧٨) وأحمد (١٩٣١٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٧).

(٢) البخاري (٦٥٦٨).

(٣) مسلم (٢٨٣٣).

(٤) مسلم (٢٨٣٧).

قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] (١).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يَرِيدُ أَنْ يَنْجِزْكُمْوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يَثْقُلْ مَوَازِينُنَا، وَيَبْيِضْ وَجُوهُنَا، وَيَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ، وَيَزْحَرْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا لَأَقَرَّ لَأَعْيُنِهِمْ مِنْهُ» رواه مسلم (٢).

وله من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٣).

اللَّهُم ارزقنا الخلد في جناتك، وأحِلَّ علينا فيها رضوانك، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة (٤).

بِسْمِ اللَّهِ

(١) البخاري (٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) مسلم (١٨١).

(٣) مسلم (٢٨٢٩).

(٤) مجالس شهر رمضان، العلامة محمد بن صالح العثيمين (١٧٧-١٧٤).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الأنس بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

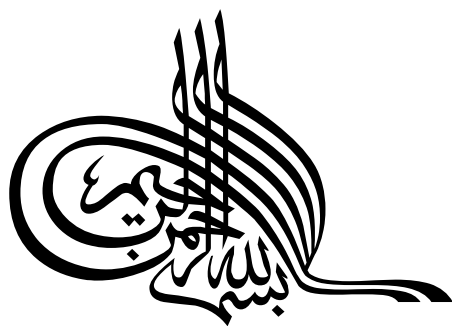
الكتاب رقم (٧)

الأنسُ بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
٩	مكانته وفضله وثمراته والطريق إلى تحصيله
٤٠	وقفه تأمل



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله أَنَسَ به من عَرَفَه، وفاز بمناجاته من وَفَّقَه، وأفلح بِقُرْبِهِ من أَرْزَلَه، ﴿وَمَا يَكْمُرُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، الدنيا موحشةٌ بدون ذكره، مظلمةٌ خلا من عبادته، خرابٌ إلا من دينه، هو أَنَسُ مَنْ ذَكَرَه، وَجِيبُ مَنْ دَعَاه، وَحَبِيبُ مَنْ عَبَدَه، وَمَغِيثُ مَنْ رَفَعَ إِلَيْهِ كُرْبَتَه، وَجُجَيْرُ مَنْ لَجَأَ لِحِمَاه، اللَّهُم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

أما بعد؛ فَإِنَّ الأَنَسَ بالله تعالى جَنَّةُ الدنيا والدين، ومستراحُ الأولياء والصالحين، وجائزةُ الله تعالى لِمُؤْمِنِيهِ في دار الفانين. وهذه حروف مما فتح الله تعالى بها على عبده الفقير إليه، سائلُهُ سبحانه وبحمده المعونة والتسديد والهدى والتوفيق، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٧ / ٩ / ١٤

aldumaiji@gmail.com

التعريف

إن كان في الدنيا جنة فهي جنة الأنس بالله تعالى، وحلاوة قربه، ولذة مناجاته، وعلى هذه الثمرة كانت قلوب السابقين تغتذي، ولتحصيل المزيد منها كانت مُهَجُّهُمْ بضياؤها تهتدي، وأرواحهم على عتبات رضوان ربهم قرايين تفتدي. فيذوقون بألسنة قلوبهم شهداً للأرواح مصفى، وتبتهج نفوسهم بسعادة من نعيم الجنة، وهي ما عبّر عنها بحلاوة الإيمان، أما تعريفها:

ففي معجم المقاييس في مادة أنس: «الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش. والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه، والعرب تقول: كيف ابن إنسك؟ إذا سأله عن نفسه»^(١)، وفي معجم التهذيب: «قال ابن الأعرابي: أنستُ بفلان، أي فرحت به، وفي كلام العرب: إذا جاء الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي»^(٢).

وفي لسان العرب: «والأنس والاستئناس هو التأنس، وقد أنستُ بفلان.

(١) معجم المقاييس لابن فارس (٧٦).

(٢) معجم التهذيب للأزهري (٢١٦)، وبعضهم يجعل ضم الهمزة لحديث النساء ومؤانستهن أي الغزل، وأن المراد بما كان على خلاف الوحشة أن تكسر الهمزة فتقول: إنسا، وقد رجح ابن منظور خلاف ذلك وقال: إن الأكثر على ضمها. قلت: وهو جادة أهل اللغة الآن، وبما أن الضم ليس بدخيل ولا مولد، وحيث إنه المعمول به عند الناس فقد اخترته. وبالله التوفيق.

والأنسُ ضدّ الوحشة، وقد جاء فيه الكسر قليلاً^(١)، وفي القاموس: «الأنسُ بالضم وبالتحريك، والأنسة محرّكة: ضد الوحشة، وقد أنسَ به مثلثة النون، وآنسَهُ ضد أوَحَشَهُ، وما بالدار من أنيس: أي من أحد»^(٢).



(١) لسان العرب لابن منظور (٢٤١، ٢٤٢).

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٧٩، ٨٠).

مكائنه وفضله وثمراته والطريق إلى تحصيله

قال ابن القيم رحمه الله: «حياة أهل السعادة والفلاح في الدنيا أطيب الحياة، كذلك في البرزخ، ولهم في الآخرة أفضل الثواب. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في البرزخ والآخرة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

فهذه أربعة مواضع ذكر الله فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاءً في الدنيا وجزاءً في الآخرة.

ولو لم يكن إلا ما يُجَازَى به المحسن من انشراح صدره، وانفساح قلبه، وسروره، ولذته بمعاملة ربه عز وجل، وطاعته، وذكره، ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربه سبحانه أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

والإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضى به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللَّهَجُ بذكره، والفرح والسرور بمعرفته، ثواب عاجل، وَجَنَّةٌ حاضرة، وعيشٌ لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة». وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي بي^(١)؟ أنا جَنَّتِي وبستاني في صدري، أين رَحَتَ فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة^(٢) وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدَلْ عندي شكر هذه النعمة»^(٣).

وكان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٤) ما شاء الله، وقال لي مرة: «المحبوس من حُبَسَ قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أَسْرَهُ هواه». ولما أُدْخِلَ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

-
- (١) حين حبسوه في القلعة حتى مات فيها رَحِمَهُ اللهُ. وانظر: الفتاوى (٢٥٩/٣).
- (٢) شهادة كلمة الحق عند سلطان جائر، وشهادة قتله ظلمًا. وانظر: العقود الدرية، كذلك الجامع لسيرة شيخ الإسلام ففيهما من حسن السيرة ما يهول ويعجب.
- (٣) أي نعمة الأنس والمناجاة وحلاوة الذكر بلا شواغل وعلائق وقواطع وعوائق.
- (٤) وهو دعاء مأثور عن النبي صلوات الله وسلامه عليه وقد وصَّى به معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو من أجمع الأدعية وأوفاهها.

وَعَلِمَ اللهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطِيبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ الْعَيْشِ، وَخِلَافِ الرِّفَاحِيَةِ وَالنَّعِيمِ، بَلْ ضِدِّهَا، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْإِرْجَافِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَطِيبَ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَشْرَحَهُمْ صَدْرًا، وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا، وَأَسْرَهُمْ نَفْسًا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ.

وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الْخَوْفُ، وَسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ، وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ، أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، وَنَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَيَنْقَلِبُ انْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطَمَآنِينَةً.

فَسَبِّحَانَ مِنْ أَشْهَدِ عِبَادِهِ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا مَا اسْتَفْرَغَ قَوَاهِمَ لَطْلِبِهَا وَالْمَسَابِقَةَ إِلَيْهَا.

فَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْرِفَتُهُ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَالسَّكُونُ إِلَيْهِ، وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَيْهِ، وَإِفْرَادُهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْمَعَامَلَةِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَوَلِيُّ عَلَى هُمُومِ الْعَبْدِ وَعِزِّمَاتِهِ وَإِرَادَتِهِ، هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَالنَّعِيمُ الَّذِي لَا يَشْبَهُهُ نَعِيمٌ، وَهُوَ قَرَّةُ عَيْنِ الْمُحِبِّينَ، وَحَيَاةُ الْعَارِفِينَ.

وَإِنَّمَا تَقَرَّرَ أَعْيُنُ النَّاسِ عَلَى حَسَبِ قَرَّةِ أَعْيُنِهِمْ بِاللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ؛ فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلَّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّرْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ.

وَإِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَأَمَّا مَيِّتُ الْقَلْبِ فَيُوحِشُكَ، فَاسْتَأْنِسْ بِغَيْبَتِهِ مَا أَمَكْنُكَ، فَإِنَّهُ لَا يُوحِشُكَ إِلَّا حُضُورُهُ عِنْدَكَ، فَإِذَا ابْتَلَيْتَ بِهِ فَأَعْطَهُ ظَاهِرَكَ، وَتَرَحَّلَ عَنْهُ بِقَلْبِكَ وَفَارَقَهُ بِسَرِّكَ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِهِ عَمَّا هُوَ أَوْلَى بِكَ.

واعلم أن الحسرة كلّ الحسرة الاشتغال بمن لا يُجدي عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظّك من الله عز وجل، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشتات قلبك عليك، وضعف عزيمتك، وتفرّق همك.

فإن بُليت بهذا - ولا بد لك منه - فعامل الله تعالى فيه، واحتسب عليه ما أمكن، وتقرّب إلى الله بمرضاته فيه، واجتهد أن تأخذه معك وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبى فلا تقف معه، بل اركب الدرب ودعّه، فإنه قاطع طريق، ولو كان من كان، فانج بقلبك، وضمن بيومك وليلتك، ولا تغرب عليك الشمس قبل وجود المنزلة فتؤخذ، أو يطلع الفجر وأنت في المنزلة فيسير الرفاق فتصبح وحدك، وأنّى لك بلحاقهم^(١)!

هذا وأعظم طرق تحصيل الأنس بالله تعالى هو حسن المعتقد أولاً ودوام الذكر ثانياً، وأعظم الذكر القرآن تلاوة وسماعاً وتدبراً، ثم الأذكار المادحة المشنية على الله تعالى كالتهليل والتسبيح والتحميد ونحوها، ثم الأدعية والأوراد.

كذلك فمن أسباب حصوله تعظيم قدر الصلاة، حتى تكون صلاة المرء كصلاة المقربين فتكون روحه وريحانه، ويجتمع للعبد فيها ما لا يجتمع فيما سواها من العبادات، كذلك فعل الصالحات عموماً، كالصدقة والصيام وتحصيل العلم النافع والعمل به.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الأنس

(١) الوابل الصيب، ابن القيم (١٠٩-١١٢) باختصار يسير.

بالله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللف، يوجب قرب من الرب سبحانه وتعالى، وقربه منه يوجب له الأنس، والأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

والقرب يوجب الأنس والهبة والمحبة، والمحبة الصادق العامل على مرضاة الله يكون غذاء قلبه بالسماع القرآني، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأصحها أحوالاً، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهو يستأنس بالذكر وأعلاه القرآن طلباً للاستئناس بالمذكور سبحانه، ويحصل للأذهان الصافية من السماع القرآني معانٍ وإشارات، ومعارف وعلوم تتغذى به القلوب المشرقة بنور الأنس، فيجد بها ولها لذة روحانية يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح، وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام، فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية.

وللتغذي بالسماع سرّ لطيف، نذكره للطف موضعه، وهو الذي أوقع كثيراً من السالكين في إثارة سماع الآيات لما رأى فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمه، فلو جئت بألف آية وألف خبر لما أعطاك شطراً من إصغائه.

اعلم أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعاً من الطعام والشراب الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداد وقبوله. والثاني: غذاء روحاني، خارج عن الطعام والشراب من السرور

والفرح والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماوياً علوياً، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وغذاء يصل إليه منها.

فله ارتباط بحاسة اللمس ويصل إليه منها غذاء، وكذلك حاسة الشم، وكذلك حاسة الذوق، وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يُقرن إلا بهما أو بأحدهما. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وهذا كثير جداً في القرآن، فتأثر القلب بالسمع والبصر أشد من تأثره بغيرهما.

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملهويزات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية، ورجحت طائفة البصر لكمال مدركها، وامتناع الكذب فيه^(١). وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله بين الطائفتين حكماً حسناً فقال: المدرك بحاسة السمع أعم وأشمل، والمدرك بحاسة البصر أتم وأكمل، فللسمع: العموم والشمول، والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب،

(١) أما اليوم فلا، بل حتى قديماً كسحر الأعين، وهو كما قال من تقديم السمع على البصر، وقس ذلك على من فقد إحداهما.

والحسي والمعنوي، وللبصر: التهام والكمال.

إذا عرف هذا فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها، فمن الناس من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية، ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام بل جعلهم أضلّ، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولهذا نفى الله سبحانه عن الكفار السمع والبصر والعقول؛ إما لعدم انتفاعهم بها فنزلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى إسماع قلوبهم وأبصارهم وإدراكها، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور.

هذا وحصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه خُبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

وقد يكون المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به القلب لاشتغاله بغيره، فإذا حصل له نوع تجرد ورياضة ظهرت قوته، وكلما تجردت الروح والقلب وانقطعتا^(١) عن علائق البدن كان حظهما من ذلك السماع أوفر، وتأثرهما

(١) لو ذكرهما بصيغة التذكير لكان أفصح، فالروح والقلب مذكران، وقد تؤنث الروح.

به أقوى.

فإن كان المسموع معنىً شريفاً بصوت لذيذ؛ حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له، وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونعمته وحسنه، فابتهجت به، فتضاعف اللذة، ويتم الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح، وعلى الجليس. وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم إلا عند سماع كلام الله؛ فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيب صوت القارئ، كاد القلب يفارق هذا العالم، ويلج عالمًا آخر، ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره البتة، وذلك رقيقة من حال أهل الجنة، فيا له من غذاء ما أصلحه وأنفعه.

وحرام على قلب تربى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة فهو من قبل الصوت المشترك، لا من قبل المعنى الخاص.

وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله ومحبوبهم سبحانه وتعالى عياناً، وسماع كلامه منه.

وأكمل السماع؛ سماعٌ من يسمع بالله ما هو مسموع من الله وهو كلامه، وهو سماع المحبين المحبوبين، كما في الحديث الذي في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته

كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبى يُبصر، وبى يبطش، وبى يمشي»^(١).

والقلب يتأثر بالسمع بحسب ما فيه من المحبة، فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه فله من سماعه هذا شأن، ولغيره شأن آخر»^(٢).

وفي عوارف المعارف: «وسئل الجنيد عن الأنس فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وسئل ذو النون عنه فقال: هو انبساط المحب إلى المحبوب. وقيل: معناه قول الخليل عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقول موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وروي أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز: ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه، فإن لله عبادة استأنسوا بالله، وكانوا في وحدتهم أشد استئناساً من الناس في كثرتهم، وأوحش ما يكون أنس ما يكونون، وأنس ما يكون أوحش ما يكونون. وقالت رابعة^(٣): كل مطيع مستأنس، وأنشدت:

(١) جزء من الحديث القدسي «من عادى لي ولياً» رواه البخاري بدون قوله: «فبي يسمع، وبى يبصر...»، وهذه الزيادة ضعيفة، وقد رواها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٦٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٣٤-٢٤٤) باختصار.

(٣) وهي من العابدات الصالحات، وروي عنها أقوال منكرة ولا أظنها تصح. وليت من يتفرغ لجرد الأقاويل المنكرة المنسوبة لكثير من المشاهير وينخلها نخلًا، حتى

ولقد جعلتُك في الفؤاد مُحَدَّثِي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلوس مؤانسٌ وحيبٌ قلبي في الفؤاد أنيسي

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد
قلَّ عمله وعمي قلبه وضيع عمره» (١).

وقال أبو حامد رحمه الله: «الأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة
الجمال، حتى إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر
الزوال؛ عظم نعيمه ولذته» (٢).

ومعنى كلامه رحمه الله أن المؤمن إذا استأنس بربه وخلا بمناجاته وتفكر في
آلائه وتذكر أسماؤه وتأمل صفاته فإن ذلك يملأ قلبه نعيمًا وسرورًا وفرحًا بحيث
لا يريد أن يخرج من هذا الحال الإيماني، فهو في رقيقة من رقائق الجنة لا يريد بها

ينصح لهم وللأمة من بعدهم.

(١) عوارف المعارف (٢١٤٧)، وانظر: إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٤٢).

(٢) الإحياء (٤/ ١٦٤٢)، وقد نبه رحمه الله إلى أن بعض الناس قد يذكر مع غلبه أنسه
أقوالاً غير مرتضاه، ولكنها قد تحتل ممن أقيم مقام الأنس، وأنّى ذلك إلا بنور
العلم وشعاع الوحي.

ثم قال: ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف
على الكفر (٢/ ١٦٤٣). قلت: ولا شك أن الأولى ترك ذلك الحمى بالكلية، فمقام
المحبة والأنس لا بد أن يلجم بلجام الهيبة والتعظيم والوجل حتى يستقيم المؤمن.
ومن ليس له في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ غنية؛ فليس له فيما سواهما غنية.

بدلاً من الدنيا وما فيها.

هذا ولا يمنع الأنس بالله وحلاوة مناجاته من مخالطة الناس في الخير والإحسان، فأعظم الناس أنساً بالله تعالى هو نبينا محمد ﷺ، مع ذلك فلم يمنعه ذلك من مخالطة الناس واستصلاحهم والإحسان إليهم، بل قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(١) وسيأتي بسط ذلك في كتاب الذلة إن شاء الله تعالى.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «لما خرج موسى بأهله من مدينة مَدْيَنَ، انطلق طَلَّقَ الطلق بزوجته، فما زال يُكادح المكادح فلم تُورِ^(٢)، لأن عروس نار الطور لما هَمَّت بالتجلى، نُوديت النيران بلسان الغيرة من المشاركة: غُضِّي، فقام على أقدام التحير، فهتف به أنيس ﴿ءَانَسُ﴾ [القصص: ٢٩] فَأَنَسَ:

يا حارِ^(٣) إن الرُّكْبَ قد حارُوا فاذهب تحسَّسْ لمن النارُ
تبدو وتخبو إن خَبَتْ وقفوا وإن ضَاءَتْ لهم ساروا

فشمرَ موسى عن ساق القصد وساق، فلما أتى النادي ﴿نُودِيَ﴾ [طه: ١١]،
فحين ذاق لذة التكليم جرح قلبه نصلُ الشوق، فلم يداوهِ إلا طيبُ ﴿وَوَعَدْنَا﴾
[الأعراف: ١٤٢].

(١) البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨) بسند صحيح.

(٢) فلم تور: أي فلم تشتعل.

(٣) يا حار: ترخيم حارث، وهذا في النداء، وهو للرباعي فما فوقه خاصة.

ليالينا بذي الأثلاثِ عودي ليُورق في رُبى الأثلاثِ عودي
 فإن نسيم ذاك الشيخ أذكى لديّ من انتشاقى نشر عودِ
 وإن حديثكم في القلب أحلى وأطيبُ نعمةً من صوت عودِ^(١)

ولما تمّ ميقات ربه، وأحضر لحظيرة القدس، فنسي الإنسان بما آتس من
 الأنس^(٢).

هذا ومن وسائل تحقيق الأنس بالله تعالى التوبة النصوح وإكثار الصالحات
 وتذكر الآخرة، «فيا مشغولاً بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله، مَنْ خَطَرَ ذكر الرحيل
 بباله قنع بالبلُغ ولم يُباله.

مألك للحادثات نهبٌ أو للذي حازَه وراثَة
 أو لك أن تتخذَه ذخراً فلا تكن أعجز الثلاثة

لا بد والله من العبور إلى منزل القبور، يسفي عليك الصبا والدُّبور، وأنت

(١) الأثلاث: جمع أثلة وهي شجر كبار. والشيخ من نبات جزيرة العرب وورده عبق
 الرائحة. ومعنى أذكى: أي أقوى وأجمل رائحة. والنشر هو الرائحة الذكية.
 والغرض من ذكر مثل هذه الآيات ذكر المعنى الكُلِّي للشوق والأنس لتحريك
 القلوب إلى الشوق الحقيقي والأنس الكامل، وإلا فالله ليس كمثله شيء، وله المثل
 الأعلى سبحانه وبحمده. وهذا الأسلوب مستعمل بكثرة في كتب المواعظ وهو جيد
 لمن يحسنه، شريطة ألا يطغى ولا يزيد ولا يصرف عن الوحي، فهو من مُلح القوم
 لا متينه، وبعضُ الملح معينة على المتين الأصيل، وقد مرّ معنا.

(٢) المدهش (١/ ١٩٧، ١٩٨) باختصار.

تحت الأرض تبور، آه من طول الثبور بعد طيب الحبور.

لقد بان للكل أن الدنيا غرور، وتيقنوا أن تزوير الأمل للخلد زور،
وتفصلت أعضاؤهم ولا تفصيل لحم الجزور، ودكت بهم الأرض ولا كما دكَّ
الطور، وبانت حساباتهم وفيها قصور.

فإذا انقضت بعده تلك العصور، ونُفخ في الصور، وخرجت أطيّار الأرواح
من أعجب الوكور، وباتت الأرض تموجُ والسماء تمور، ولقي الكفور نارًا تلتهبُ
وتفور.

ويحك إن الدنيا تَغَرُّ ولا بد لك منها، فخذ قدر الحاجة على حذر، أما ترى
الطائر كيف يختلس قوته؟

هذا العصفور يألف الناس فلا يسكن دارًا لا أهل بها، وهو مع هذا الأنس
شديد الحذر ممن جاور.

هذا الخُطَّافُ^(١) يقطع البحر لطلب الأنس بالإنس، ثم يتخذ وكره في
أحصن الأماكن بالبيت، ولا يحمله الأنس بهم على ترك الحذر منهم، بل يُعطي
الأنس حقه والحزم حقه.

أما عرفت أدب الشرع في تناول المطعم، ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث
نفس.

شَرُّه الحرص يُعبئ بلاغم البلادة، ولا يقدر على الحمية إلا من تلمح العافية

(١) ويسمى السنونو والرقيعي.

في العاقبة، شُغل العقل النظر في العواقب، فأما الهوى فإيثاره لذة قليلة تُعقب ندامة طويلة، فملبَسٌ في قضاياه.

المؤمن بين حربٍ ومحراب، وكلاهما مفتقر إلى جمع الهمم، طريق المتقين تفتقر إلى رواحل، وإبلُ عزائمكم كُلُّها كَالٌّ، إنما يصلح للملِك قلب فارغ ممن سواه.

وقلبك خانٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ يفارقه ركبٌ وينزله ركبٌ في كل يوم ترهنُ قلبك على ثمن شهوة، فيستعمله المرتهن، فقد أخلَق، أنت توقد نار التوبة في المجلس في الحلفاء^(١) فإذا أردت منها قبساً بعد خروجك لم تجد، تبكي ساعة الحضور على الخيانة والمسروق في جييك!

يا مظهرًا من الخير ما ليس فيه لا تبع ما ليس عندك، كم هناك عن نظرة وتعلم أنه بالحضرة، أفلا تراقب المناظر برد الناظر، وكأنك لا تعرف أن الحاضر حاضر!

وا عجبًا لك! تُعدُّ التسييح بسبحة، فهلاً جعلت للمعاصي أخرى؟! يا من يختار الظلام على الضوء! الذباب أعلى همّة منك، متى أظلم البيت خرج الذباب إلى الضوء، أما ترى الطفل في القِمَاط^(٢) يناغي المصباح؟

يا هذا! إن كنت محبًّا فحبيبك معك في كل حال^(٣) حتى عند الموت، وفي

(١) الحلفاء: نبت في الماء طويل، ويكثر في المستنقعات.

(٢) القِمَاط: اللفافة على الوليد والرضيع.

(٣) بسمعه وبصره وإحاطته وولايته ونصره وتسديده للصالحين.

بطن اللحد.

يا حبّذا العرعر النجديّ والبانُ ودارُ قومٍ بأكنافِ الحمى بانُوا
وأطيبُ الأرض ما للقلبِ فيه هوى سَمُّ الخياطِ مع الأحبابِ ميدانُ
إذا أقفرَ قلبُك من ساكنِ المحبةِ والأنسِ، فتحتِ النفسُ بابًا لعناكبِ الغفلة،
فنسجت في زواياه من لُعابِ الأملِ طاقاتِ المنى.
اللَّهُمَّ أجِرِ القلوبَ من جُورِ النفوسِ، يا سلطانَ القلبِ نشكوا إليك
النازلة» (١).

ألا إن للأنس ثمارًا حلوة، وينايع عذبة، يتذوقها المؤمن بلسان قلبه، ويُشبعُ
بها بطن روحه، فلا كانت الدنيا إذا لم يكن أنسٌ بالله تعالى.
ومن وسائل تحصيل الأنس بالله تعالى الذكر الدائم، ورطوبة اللسان بذلك،
ولهجه لربه بدعاء الثناء والمسألة، وصرفُ طاقات الجوارح في مرضي ربه الكريم
الوهاب، بالصلاة بعد الصلاة، والقرآن تلاوة وتدبرًا، وبالصدقة، وبالصيام، وبما
أطاق من الباقيات الصالحات، فولاية الله مهرها عسفُ النفوس على مرضيه.
وما من رجلٍ حسنت صلاته إلا واستأنس به كل شيء، والرجل يكون نائمًا
فيحركه من نومه لطفٌ من ربه فيقوم للصلاة متبهاً من غير تنبيه من الخلائق.
وفي قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

(١) المدهش (٢/ ٥٦٦-٥٦٩) باختصار وتصرف.

[الجمعة: ٤]، «قال أبو علي الجوزجاني: ذلك الفضل هو الأنس بالله، إذا وجدوا نعمة الأنس نسوا كلَّ نعمةٍ دونه، ووجدوه نعمةً فوق كل نعمة؛ لأن ربهم نعمهم في معرفته»^(١)، وهذا لبابُ الفضل، فالهداية للعلم النافع والتوفيق للعمل الصالح الذي يورث الأنس بالله هو لعمر الحق من أعظم النعيم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨] قال الشعراوي رحمه الله: «وهكذا يُمكن أن تُذهب عنك أيّ ضيق بأن تُسبح الله. وإذا ما جافاك البشر أو ضايقتك الخلق، فاعلم أنك قادر على الأنس بالله عن طريق التسبيح، ولن تجد أرحم منه سبحانه، ولذلك قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفافات: ١٤٣، ١٤٤]، ولذلك إذا ضاق صدرك بالأسباب فاذهب إلى المسبِّب»^(٢).

«وقيل لسباع الموصلي: يا أبا محمد، أي شيء أفضى بهم إلى الزهد؟ قال: الأنس بالله»^(٣).

مَحَلُّ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بَرُوضَةٌ سَمَاوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا حُجُبُ الرَّبِّ
مَعْسُكْرُهَا فِيهَا وَمَجْنَى ثَمَارِهَا تَنْسِمُ رُوحَ الْأَنْسِ بِاللَّهِ مِنْ قُرْبٍ^(٤)

(١) تفسير السلمي (٢/ ٣٢٧).

(٢) تفسير الشعراوي (٤٨٣٥) سورة الحجر، آية (٩٨).

(٣) المجالسة وجواهر العلم؛ لأبي بكر الدينوري (٥/ ٢٤٥).

(٤) السابق (٧/ ١٣٩).

«وقال الخوَّاص: لا يُطْمَع في لين القلب مع فضول الكلام، ولا يُطْمَع في حب الله مع حبِّ المال والشرف، ولا يُطْمَع في الأُنس بالله مع الأُنس بالمخلوقين»^(١).

«وقال ذو النون في صفة المؤمن: إن الله صفوةٌ من عباده، فقليل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟ قال: إذا خَلَعَ العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة. فقليل له: فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد؟ فقال: إذا رأيته صابراً شاكراً ذاكراً. فقليل له: فما علامة إعراض الله عن العبد؟ فقال: إذا رأيته ساهياً لاهياً معرضاً عن ذكر الله عز وجل، فذاك حين يعرض الله عنه. فقليل له: يا أبا الفيض، فما علامة الأُنس بالله؟ قال: إذا رأيته يوحشك من خلقه فإنه يؤنسك من نفسه، وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك من نفسه»^(٢).

«وقال يحيى بن معاذ الرازي: إذا أحب القلب الخلوة، أوصله حب الخلوة إلى الأُنس بالله، ومن أنس بالله استوحش من غيره، وأنشد:

- (١) شعب الإيمان، البيهقي (٢/ ٣٢). ولاحظ أن اختيارنا لبعض أقوال مَنْ يسمون بأهل الطريق هو عبارة عن انتخاب لما رأيناه من حكم صافية وتجارب نافعة، مع عدم تسليمنا بكل ما ينسب إليهم، والحكمة ضالة المؤمن، وهم لهم نصيب كبير من الوصايا الحسنة والحكم المُحكّمة، ومعلوم أن من تجرّد وتعلّق بالله وحاول جهده سلوك السنة أن الله يفتح عليه من ألطافه جزاء حسن معاملته، حتى وإن كان لديه قصور في نواحٍ أُخرى، وهل مِنّا إلا ناقص يروم الكمال؟! (٢) الزهد الكبير، البيهقي (١/ ٧٦).

سَلِّمْ عَلَى الْخَلْقِ وَارْحَلْ نَحْوَ مَوْلَاكَ وَاهْجِرْ عَلَى الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ دُنْيَاكَ
عَسَاكَ فِي الْحَشْرِ تُعْطَى مَا تَوَمَّلُهُ وَيَكْرُمُ اللَّهُ ذُو الْأَلَاءِ مَثْوَاكَ
وَقَالَ: الصَّبْرُ عَلَى الْخُلُوعِ مِنْ عِلَامَةِ الْإِخْلَاصِ. وَقَالَ: أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أُسْرَاءُ
نِعَمِهِ، وَأَصْفِيَائِهِ رَهَائِنُ كَرَمِهِ، وَأَحْبَاؤُهُ عِبِيدُ مَنْنِهِ، فَهَمُّ أُسْرَاءٍ نَعَمٍ لَا يُطْلَقُونَ،
وَرَهَائِنُ كَرَمٍ لَا يُفَكُّونَ، وَعِبِيدُ مَنْنٍ لَا يُطْلَقُونَ»^(١).

(١) طبقات الأولياء، ابن أبي الدنيا (١ / ٥٥)، وليحيى بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقوال رائقة
عميقة جليلة، منها قوله: توحيدٌ هدم ما قبله من الشرك، إني لأرجو أن يهدم ما بعده
من ذنوب.

وقال: العارف يخرج من الدنيا ولا يقضي وطره من شيتين: بكاءه على نفسه، وثناؤه
على ربه.

وقال في جملة دعائه: إلهي، قد قلت: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:
٤٤] إلهي هذا رفئك بمن يقول: أنا إله، فكيف بمن يقول: أنت إله؟!
وقال: جميع الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم عمرك فيها
مع قليل نصيبك فيها؟!

وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك منه يهابك الخلق.
وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا
تغمه، وإن لم تمدحه فلا تدمه.

وقال: من لم ينظر إلى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.
وقال: كيف يكون زاهدًا من لا ورع له؟ تورّع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك.
وقال: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه.

قلت: ولا شك أن الخلوة والعزلة مما يُعين على السير الصحيح؛ لذلك شرع الله للمؤمن عزلة كل ليلة يناجي فيها ربه في قيام الليل، بل وفي الصلوات الخمس حين ينزل بروحه مناجياً الله في صلواته، ثم شرع الله له في كل سنة عشرة أيام يعتكف فيها منعزلاً عن الخلائق متعلقاً بربه لهجاً بذكره مُلِظاً بدعائه، مُلِحاً باستغاثته واسترحامه واستغفاره.

ولا يزال العبد في حاجة لمثل هذه حتى يحصل الأنس بربه تعالى فيزهد عما سواه. وتأمل قول ابن القيم رحمه الله: «إن في القلب وحشة لا يذهبها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقة - وهي غاية الفقر - لا يُذهبها إلا صدق اللجوء إليه، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تذهب تلك الفاقة أبداً»^(١).

وهل أعظم من الأنس بصحبة القرآن الكريم وهي الصحبة التي تدخلك باب الملك سبحانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس» قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: «هم أهل القرآن أهل الله وخاصته»^(٢)، وعلى مقدار تحقيق مقومات أهل القرآن الكريم تلاوة وتدبراً وتأديباً وتعلماً وتعليماً وعملاً يكون مقدار دخول العبد في أهلية الله وخاصته.

وقال: حقيقة المحبة ما لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبر. توفي رحمه الله سنة (٢٥٨هـ).

(١) المدارج (١٥٦/٣).

(٢) ابن ماجه، المقدمة (٢١٥)، وانظر: شذرات الذهب، دراسات في البلاغة القرآنية،

محمود توفيق محمد سعد (١/١٠٧).

أما العزلة التامة عن الخلق فهي ليست من الإسلام في شيء خلا أزمة الفتن، وعند خوف المرء على دينه أو نفسه، فرهبانية الإسلام هي الجهاد في سبيل الله، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض»^(١).

أما من انفرد عن الخلق بالكلية وانحاز إلى قُلُلِ الجبال وآثر التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل دون سبب آخر ملجئ فقد سلك هدياً ليس بهدي النبي ﷺ، بل هو هدي الرهبان الذين ابتدعوا الرهبانية في دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]. وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ.

«فإذا سجد الليل ودجى، خلا العابد الصالح بوليه وربّه وسيدّه يناجيه ويضرع إليه، وقد يستثقله في بداية أمره ثم يكون عين سعادته، كما قيل: إن قيام الليل من أثقل شيء على النفس، ولا سيما بعد النوم، وإنما يصير خفيفاً بالاعتیاد والمداومة والصبر على المشقة والمجاهدة في أول الأمر، ثم بعد ذلك ينفث باب الأنس بالله تعالى وحلاوة المناجاة له، ولذة الخلوة به عز وجل، وعند ذلك لا يشبع الإنسان من القيام فضلاً عن أن يستثقله أو يكسل عنه، كما وقع ذلك للصالحين من عباد الله حتى قال قائلهم: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه

(١) رواه أحمد (٨٢ / ٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٥٥).

بالليل إنهم لفي عيشٍ طيبٍ. وقال آخر: منذ أربعين سنة ما غمّني إلا طلوع الفجر، وقال آخر: أهل الليل في ليلهم ألدّ من أهل اللّهُو في لهوهم»^(١).

وسئل العلامة المربي محمد بن محمد المختار الشنقيطي عمن كان يجد الأنس بالله تعالى وبذكره ثم فقدّه. فقال: «هذه فتنة أصابتك، وبليّة نزلت بك، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فُتّب إليه واستغفره، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، فمن كان على استقامة وهداية وصلاح ثم سلب شيئاً منها فبسبب ذنوبه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فُتّب وأنّب إلى الله، وأعدّ لهذه الفتنة كثرة الاستغفار والبكاء والندم، ولعل الله إذا نظر إلى دمة من عينك وخشوع من قلبك وندم من نفسك، أن يُبلّغك منازل التي كنت فيها، فلربما فقد الإنسان حلاوة المناجاة ولذة العبادة من صيام وقيام، فتقطع قلبه على تلك الساعات، ولهفت نفسه على تلك اللحظات المباركات، فكتب الله له الأجرين: أجر العمل الصالح بتلّفه وتأمّله، وأجر صبره على الفتنة التي هو فيها»^(٢).

وقال: «كلّما كان الإنسان بعيداً عن الخلطة كان أنس بالله عز وجل، ومن كان أنسه بالناس أعظم من أنسه بالله فلا خير فيه، إنما يكون الأنس بالله جل جلاله، وسرور العبد بالناس لا يكون شيئاً أمام سروره بالله عز وجل، وإذا

(١) حاشية إعانة الطالبين، الدميّاطي (١/ ٢٦٧).

(٢) شرح زاد المستقنع، الشنقيطي (١٩/ ٢٩).

أحس الإنسان بالأنس بالله عز وجل فإنه يُقبل على الله بكلّيته»^(١).

وقال في الرضا بمرّ القضاء: «وانظر إلى كل بلاء ينزل بك، فبمجرد ما تنزل المصيبة تتلقاها بنفس مطمئنة، وخاطرٍ راضٍ غير منكسر لحقّ الله جلّ جلاله، وتتلقاها بمحبة وإقبال على الله عز وجل، فتجد كل يوم يمر بك، وكل ساعة، بل كل لحظة تمر بك وأنت في أنس ولذة، وقد كان بعض العلماء يحب مثل هذه المقامات التي فيها قربٌ من الله عز وجل، ولذلك تجد في أيام المرض من حلاوة ذكر الله ما لا تجده أيام العافية، وتجد في أيام الضر والنكبات من الأنس بالله ما لا تجده في أيام الصحة والعافية»^(٢).

وقال أويس القرني رحمته الله: «ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره»^(٣).

وحلاوة الأنس بالله لا تحصل إلا بالاشتغال بذكره ودوام عبادته، والبعد عن القواطع والشواغل التي تقسي القلب وتحول بينه وبين التفكير في آلاء الله، والتذكر لنعمائه، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن للإيمان حلاوة وطعمًا كما في قوله: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما

(١) السابق (١١٠/٨) باب الاعتكاف.

(٢) السابق (١٣٤/٦).

(٣) منهاج القاصدين، المقدسي (٤٨/٢).

يكره أن يُقذف في النار»^(١). وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً»^(٢)، وأخبر أن عينه تقرّ بالعبادة ويرتاح بها بدنه فقال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣)، قال شيخ الإسلام: «كان النبي ﷺ يقول: «حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة» هكذا لفظ الحديث، ولم يقل: «حبب إلي ثلاث»؛ فإن المحبب إليه من الدنيا اثنان وجعلت قرّة عينه في الصلاة، فهي أعظم من دينك، ولم يجعلها من الدنيا»^(٤).

وقال ﷺ: «أرحنا يا بلال بالصلاة»^(٥)، فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه يجد في الصلاة لذة قلبه وسروره وابتهاجه وغاية فرحه وراحة بدنه، حيث ينقطع عن الخلّاتق ويُقبل بقلبه وقالبه على ربه، ويلتذ بذكره ومناجاته، ويتقلّب في العبادات من حال إلى حال، يجد في كلّ منها الأُنس بالعبادة، ولم يكن ﷺ يؤثر الخلوة والانفراد على الدوام بل يخالط الناس ويعلمهم ويفيدهم ويُحسن إليهم، وليس في كون الصلاة قرّة عينه ما يدل على أحوال المتصوّفة والطّرقية وأذواقهم ومواجيدهم.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم (٣٤).

(٣) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٥).

(٤) الصفدية (٢/٢٧٢).

(٥) رواه أبو داود (٤٩٨٦) وصححه الألباني.

«وليس من شرط الأنس بالذكر والصلاة والدعاء والانفراد والعزلة وترك الجمع والجماعات، بل حلاوة العبادات يحس بها كل من أحضر قلبه حال أدائها، وأعرض عن كل ما يشغل القلب عن الإقبال على التدبر من أوهام ووساوس وحديث نفس، فتفريغ القلب من ذلك سهل يسير على من يسره الله عليه، فهؤلاء هم الذين يوليهم الله عنايته ولطفه، ومن آثار ذلك حمايتهم وحفظهم عن القواطع والعلائق والعوائق وعصمتهم من كبائر الإثم والفواحش، وحمايتهم من الشهوات الزائدة التي تُعيق سيرهم إلى ربهم، ويكون من آثار لطفه سبحانه بأوليائه هؤلاء توفيقهم وتسديدهم في الأقوال والأعمال والإقبال بقلوبهم على الطاعات والاستكثار من الصالحات، وهذه سيرة الصحابة رضوان الله عليهم ومن سار على نهجهم الذين عمروا أوقاتهم بالتعلم والتفهم والعمل والتطبيق، وهم مع ذلك لم ينقطعوا عن الشهوات المباحة أسوةً بنبيهم ﷺ الذي قال: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم وأتزوج النساء، فمن يرغب عن سنتي فليس مني» (١)(٢).

هذا والأنس بالله منحة شريفة سنية لا تدركها العبارة ولا يحوطها كلام، «وكتب عامر بن عبد الله إلى بعض إخوانه: آتسك الله بنفسه. وأنشدوا:

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحوال محتال
الأنسون عباد كلهم نجب وكلهم صفوة لله عيال

(١) متفق عليه.

(٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية (٩/ ١٧٥، ١٧٦).

وعن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: «هشّت إليه وأنست به». وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة»^(١).

وذكر الشيخ إبراهيم الغياني رحمه الله في بيانه لمحنة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتحزّب أعدائه عليه، من علماء السوء وأمراء السوء في مصر حتى أرادوا

(١) قوت القلوب، أبو طالب المكي (٢/ ١٠٤) وبعضهم يتوسع وينبسط مع الأنس حتى يُسيء الأدب مع الله تعالى وهو يظن أن هذا من الإدلال ولم يعلم أنه من الخذلان، لذلك فلا بد من حفظ مقام الهيبة والتعظيم والإجلال وإلا زلت الأقدام، كما نُقل عن شيخ الطائفة قوله في وصفهم: «وفي هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه. (قلت: ومن أين له هذا العلم؟! وجوابهم: الذوق والكشف! وكم وقع أخيارٌ من دَخَصَ هذين البابين اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان) ثم قال: ويقول العبد: بحقي عليك وبجاهي عندك، ويقول: بحبك لي، قال: وهؤلاء هم المدّلون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالى، وهم جلساء الله تعالى! قد رفع الحشمة بينه وبينهم (قلت: ومن أين لكم هذا؟) وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هي عند العامة (أي أهل الشريعة) كفر بالله.

قلت: وقد نقل عنهم في ذلك عشرات الأخبار والأقوال التي يقف شعر رأس المؤمن عند ورودها على سمعه مسبّحاً ربه عما يقول الجاهلون. ثم قال مبيناً سبب تلك الأقوال المنكرة: لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم جاهاً ومنزلة (قلت: وهل هذه إلا حجة يهود!) وقد نقل ذلك عنه صاحب قوت القلوب (٢/ ١٢٦).

لذلك فمن تبع ذوقه القاصر واستبصر بكشفه المخادع ورغب عن نور الوحي إلى ذينك الوهمين فلا تسل عن ضلاله. والله المستعان.

تفسيره للإسكندرية بعيداً عن أصحابه أملاً في أن يُقتل هناك أو يؤذى أو يُنسى، «وجاءه المشايخ التدمرة وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم - أي على بدعتهم - وهم عاملون على قتلِكَ أو نفيكَ أو حبسِكَ، فقال لهم: إنا إن قُلتُ كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني^(١)، وإن حبسوني كان لي معبداً، وأنا مثل الغنمة^(٢) كيفما تقلّبت تقلّبت على صوف...

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب. وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً، وأشرت إلى المحبوسين، كأن وجهه شمعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي فقال: باسم الله. فبقوا يودّعون ويبيكون.. وركب على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور

(١) وهذا من إحسانه الظن بربه عز وجل، وليس من التألّي.

(٢) الغنمة: واحدة الغنم وهي لفظة مولّدة وليست فصيحة، وتطلق الغنم على الضأن والماعز إلا أنها بالثانية ألصق، ومفردها ليس من لفظها، وهو الشاة، وتطلق على واحدة الماعز والضأن.

ولعل كلامه قد روي بالمعنى دون حقيقة اللفظ، أو أن الياء قد سقطت من غنيمة، فالغنيمة جمع وهذا سائغ في اللغة. فإن شيخ الإسلام إمام في اللغة، وبحر لا تكدره الدلاء. قال ابن منظور: الغنم: الشاء، لا واحد له من لفظه (اللسان ٦ / ٦٨٦)، وقال الفيروز: «الغنم: الشاء، لا واحد لها من لفظها، الواحدة شاة، وهو اسم مؤنث للجنس، يقع على الذكور والإناث، وعليها جميعاً». القاموس (١٢٨١).

شيءٌ لو قُسمَ على أهل الشام ومصر لفضل منهم. ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أدّيت عُشرَ هذه النعمة التي أنا فيها»^(١)!

ولما حبس المرة السابعة والأخيرة التي فاضت فيها روحه قال في آخر أيامه كما ذكر الحافظ ابن رجب رحمته الله: «وقد فتح الله علي في هذا الحصن»^(٢) في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»^(٣). ثم إنه منع من الكتابة، ولم يُترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر^(٤).

ثم نقل تلميذه ابن القيم رحمهما الله قوله: «سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

(١) فصل في تكسير الأحجار، إبراهيم الغياني عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (١٤٨).
(١٥٠) باختصار.

(٢) وقد حُبس فيه ويسمى القلعة، ولا زالت آثاره باقية عند الجامع الأموي في دمشق.

(٣) على أن العلماء كانوا يتعجبون من استحضاره وحسن استدلاله بالقرآن وغزارة ما يدل به في المسائل.

(٤) وقد ختم القرآن في بضعة أشهر إحدى وثمانين ختمة، في كل ثلاثة أيام ختمة، وكانت آخر آية قرأها خاتمة القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. رحمته الله وجمعنا به ووالدنا في الجنة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جئتني وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسبوا لي فيه من الخير. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله^(١).

وقال مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربّه، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وتلا: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

قال شيخنا. أي ابن القيم: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نُصرة النعيم على وجهه، وكُنّا إذا اشتد بنا الخوف^(٢) وساءت بنا الظنون، وضائق بنا الأرض أتيناها، فما

(١) أي كثيرًا.

(٢) وقد سجن ابن القيم في ذات الله تعالى مع شيخه في القلعة وضرب وطيف به في دمشق على حمار منكسًا بسبب نصره لفتيا شيخه في تحريم إنشاء السفر لزيارة القبور، وهو الحق كما في حديث: «لا تُشد الرحال...» في الصحيحين. وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في بيان مناقب شيخ الإسلام: ولو لم يكن من مناقب ابن تيمية =

هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة^(١)، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوْحِها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها^(٢).

وسئل بعضهم: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله؟ فقال: إذا صفى الود وخلصت المعاملة. قيل: فمتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم في الطاعة، قيل فمتى تخلص المعاملة؟ قال: إذا كان الهمّ همًّا واحدًا. قيل: فبم يُستعان على ذلك؟ قال: بالتحري في المكسب، فكل حلالاً وارقد حيث شئت.

قلت: يكفي في تحري الحلال وإطابة المطعم إجابة الدعوة كما قال ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم

إلا تلميذه ابن القيم لكفاه.

(١) والله إسحاق بن أبي بكر إذ قال في شيخه ابن تيمية:

عليّ بأدواء النفوسِ يسوسُها بحكمته فعَل الطيب المجرب
حليمٌ كريمٌ مشفقٌ بيد أنَّهُ إذا لم يُطعْ في الله يَغْضَبُ
ريبُ المعالي يافعُ الجود والندى وإظهار دينِ الله أربحُ مكسبِ

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب رحمه الله، عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (٤٨٠-٤٨٢) باختصار.

ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»^(١).

وقال بعض السلف: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألد ما فيها، قيل: ما ألد ما فيها؟ قال: الأنس بالله، والتلذذ بخطابه والوقوف بين يديه. وكما قال ذو النون المصري: «الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع»^(٢).
ومن سبل تحصيل الأنس بالله عز وجل عمارة الدين باتباع السنة وترك البدعة، كما قال بعض السلف: «ما ابتدع أحد بدعة إلا خرجت حلاوة الحديث من قلبه»^(٣).

ومن طرق تحصيل الأنس بالله تعالى التعبد بأسماء الله وصفاته تدبراً وتفهماً وإحصاءً، وهذا من أعظم الأمور في لمّ شعث القلب وجمعيته على الله تعالى والأنس به سبحانه وبحمده، فتأمل معيته وقربه ومحبه وإنعامه ولطفه وجماله وألوهيته وكرمه وبره ورأفته وإحسانه ونحو ذلك يثمر الأنس به سبحانه.

وأختم حروف الأنس بالله بأن أهمس في أذن القارئ الحبيب فأقول: إذا رُمت الأنس الآن فصل صلاة خاشعة، وأطل سجودك، فكلما أطلته فتحت

(١) مسلم (١٠١٥).

(٢) شعب الإيمان، البيهقي (١/ ٣٧٥).

(٣) نقله شيخ الإسلام في العقل والنقل (٥/ ٢١٧).

عليك من الألفاف والنعم ما تود معها ألا ترفع رأسك، خاصة إذا صليت تلك الصلاة وأنت مستعدُّ لها بقلبك وقالبك. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.



وقفة تأمل

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«إذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله.

وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهة تمنع كمال التصديق، فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا وشرًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب.

فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحيين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥.٧٧] فلم تصح لخليل الله الموالاة والخلّة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا ببراء، ولا ولاء لله إلا بالبراءة من كل معبود سواه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿٣٦﴾﴾ [المتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦.٢٨] أي جعل هذه

الموالاتة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض. وهي كلمة لا إله إلا الله.

وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسست الملة ونُصبت القبلة، وجُردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلّق بسببه.

وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان. وهي العمود الحامل للفرض والسنة، و«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١).

ورُوح هذه الكلمة وسرّها: أفراد الربّ جل ثناؤه، وتقديست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جدّه، ولا إله غيره؛ بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرغبة، فلا يُحِبُّ سواه، وكل ما يُحِبُّ غيره فإنما يُحِبُّ تبعاً لمحبتة وكونه وسيلة إلى زيادة محبتة، ولا يُخَاف سواه، ولا يُرْجى سواه، ولا يُتَوَكَّل إلا عليه، ولا يُرْغَب إلا إليه، ولا يُرْهَب إلا منه، ولا

(١) أحمد (٥ / ٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

يُحْلَفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْذَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُنَابَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَغَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسْمِهِ، وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ أَلَا يُعْبَدُ إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

ولهذا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ^(١)، وَمَحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] فَيَكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فِي قَلْبِهِ وَقَالِبِهِ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ تَكُونُ شَهَادَتُهُ مِيتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً إِذَا نُبِّهَتْ انْتَبَهَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجَعَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ.

وَهِيَ فِي الْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ فِي الْبَدَنِ، فَرُوحٌ مِيتَةٌ، وَرُوحٌ مَرِيضَةٌ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبَ، وَرُوحٌ إِلَى الْحَيَاةِ أَقْرَبَ، وَرُوحٌ صَحِيحَةٌ قَائِمَةٌ بِمَصَالِحِ الْبَدَنِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَتْ رُوحَهُ لَهَا رَوْحًا»^(٢).

فَحَيَاةُ الرُّوحِ بِحَيَاةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِيهَا، كَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِوُجُودِ الرُّوحِ فِيهِ. وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا، فَمَنْ عَاشَ

(١) كما في البخاري في كتاب العلم (١٢٨)، ومسلم في الإيمان (٣٢).

(٢) ابن ماجه (٣٧٩٥)، النسائي في عمل اليوم والليلة (١١٠١)، وابن حبان (٢٠٥)

على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنّة المأوى، وعيشه أطيب عيش. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿[النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح والرضا به وعنه؛ مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا؛ كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد. ومن حُرِمَ هذه الجنة؛ فهو لتلك أشدّ حرماناً، والأبرار في النعيم، وإن اشتدّ بهم العيش، وضافت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فأَي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أَمْرٌ من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتٍ هُوَ الْقَوُّزُ الْعَظِيمُ ﴿[يونس: ٦٢-٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلباً. وهذه جنة عاجلة مثل الجنة الآجلة. قال النبي ﷺ: «إذا

مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حَلَقُ الذِّكْرِ»^(١).
ومن هذا قوله: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢)، ومن هذا قوله،
وقد سأله عن وصاله في الصوم، فقال: «إني لست كهيتكم، إني أظلُّ عند ربي
يطعمني ويسقيني»^(٣)، فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام
الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمرٌ يختصُّ به، لا يشركه فيه
غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوضٌ يقوم مقامه، وينوب منابه،
كما قيل:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزادِ
لها بوجهك نور تستضيءُ به ومن حديثك في أعقابها حادِ
إذا شكَّت من كلالِ السَّيرِ أو عِدْها رَوْحُ اللقاء فتحيًا عند ميعادِ^(٤)

بِحَمْدِ اللَّهِ

(١) أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٥١٠)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وضعفه الألباني كما في الضعيفة (٣/ ٢٩١).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الداء والدواء (٤٥٥-٤٦٠)، والأبيات الرائقة الأخيرة لإدريس بن أبي حفصة.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقارُ إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوقُ إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاءُ إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُسُ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصامُ بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكلُ على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الإرادة



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

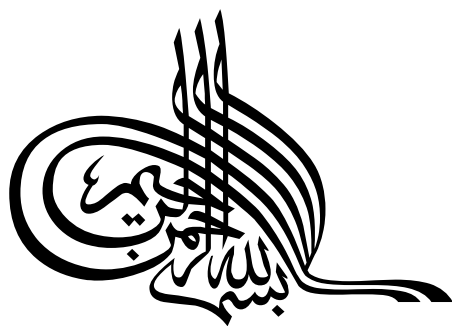
الكتاب رقم (٨)

الإرادة

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
٩	فضيلة إرادة الخير
٤١	مراتب الإرادة
٦٦	جوزيات في الإرادة
٧٤	قوة الإرادة
٨٢	موعظة بليغة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الحميد الكريم، العليم العظيم، من استهدى به هداه، ومن لجأ إليه وقاه، ومن لاذ به أغناه، ومن اعتصم به أنجاه، ومن ذكره أعطاه، ومن وحّده أفلحه وأفازه وأرضاه، ومن حقّق توحيدَه ووحد لوجهه إرادته يسّر له الشديد وألان له الحديد وأعطاه مراده والمزيد وأراد ما يريد. لا إله إلا هو ولا رب للعالمين سواه، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

أما بعد؛ إنّ الإرادة - فاعلم - هي سلّم الفلاح بتوفيق الله، ومعراج الفوز بأمر الله، ودرج النجاح بلطف الله، على قدرها - بإذن الله - يكون تحصيل المرغوب والنجاة من المرهوب، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وقد رقمت هذه الأحرف بتيسير ربي لبيان شيء من معانيها ودلائلها وأحوالها ونتائجها وغاياتها وطرق تقويتها وعوائقها، والله أسأل التوفيق والتسديد والمعونة والقبول، وصلى الله على محمد وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٧ / ١٢ / ٥

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الإرادة تطلق ويراد بها أحياناً الإخلاص، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وتطلق ويراد بها التصميم وقوة السير، وهو مرادنا هنا مع الأول، فالمقصود بهذا الكتاب قوة الإرادة القلبية في ابتغاء وجه الله تعالى بالأعمال الصالحة.

فالإرادة: هي الرغبة المدفوعة بشيء من العزيمة على إدراك المطلوب، وكذلك تطلق على محض النية.

«وأصل كلمة الإرادة من رَوَدَ بمعنى المشيئة والطلب والاختيار.

والرَّوْدُ: المهلة في الشيء. وقالوا: رويداً: أي مهلاً.

والإرادة في الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه يفعل أو لا يفعل. وقد يُستعمل مرّة في المبدأ، وهو نزوع النفس إلى الشيء، وتارة في المنتهى، وهو الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل. وقد تكون بحسب القوة التسخيرية والحسيّة، وقد تكون بمعنى القوة الاختيارية. والإرادة قد تكون مَحَبَّةً وغير محبة»^(١).

(١) الصحاح (٤٧٨/٢)، لسان العرب (٣/١٧٧١ - ١٧٧٤)، المصباح المنير (٢٤٥)، وانظر: نضرة النعيم (٣١٩٦/٨).

وقال الجرجاني: «الإرادة صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجه دون وجه، ولا تتعلق إلا بمعدوم، فإنها صفة تخصّص أمراً بحصوله ووجوده»^(١).



(١) التعريفات للجرجاني (١٥).

فضيلة إرادة الخير

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الإرادة. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ تُدْرِكُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩]»^(١).

وقال: «وكل حركة فأصلها الحب والإرادة، فلا بد من محبوب مراد لنفسه، وكل حي له إرادة وعمل بحسبه، وكل متحرك له غاية يتحرك إليها، ولا صلاح له إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه؛ هو الله وحده، كما لا وجود له إلا بكون الله وحده هو ربه وخالقه، فوجوده بالله وحده، وكما له أن يكون لله وحده، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ فَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل: لعُدمتا؛ إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيا على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكونا صالحتين إلا أن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له، فإن صلاح الأعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها، فكل عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وإرادته.

(١) المدارج (٣/ ١٦٩).

وتقسيم الأعمال إلى صالح وفاسد؛ هو باعتبارها في ذاتها تارة، وباعتبار مقاصدها ونياتها تارة. وأما تقسيم المحبة والإرادة إلى نافعة وضارة؛ فهو باعتبار متعلّقها ومحبوبها ومرادها، فإن كان المحبوب والمراد هو الذي لا ينبغي أن يُحبّ لذاته ويُراد لذاته إلا هو، وهو المحبوب الأعلى، الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون هو وحده محبوبه ومراده وغاية مطلوبه. كانت محبته نافعة له، وإن كان محبوبه ومراده ونهاية مطلوبه غيره. كانت محبته ضارة وعذاباً وشقاءً^(١).

وقال: «لما كان في القلب قوتان؛ قوّة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوّة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر عليه غيره فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه.

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ١-٣] فأقسم الله تعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة على أن كل أحد في خسر؛ إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوّته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كماله في نفسه،

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٤٥، ٨٤٦) باختصار.

ثم كَمَل نفسه بوصيته له بذلك وأمره إياه به، وبِمَلَاكٍ ذلك وهو الصبر. لهذا قال الشافعي رحمته الله: لو فكّر الناس في سورة العصر لكفتهم. وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان من القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه؛ وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث وهَمَّام بالطبع، كما قال عليه السلام: «أصدق الأسماء حارث وهَمَّام»^(١)، فالحارث: الكاسب العامل، والهَمَّام: المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون متصوّرًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتُرِدّه، تصوّرت الباطل وطلبتة وأرادته ولا بد. لذلك فلا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه وأحب إليه من كل ما سواه»^(٢).

وقال شيخ الإسلام: «ولا تكمل النفس إلا بالكمال في القوتين، الأولى: العلم والشعور، والثانية: قوة الإرادة والمحبة.

فالكمال لا يحصل إلا بالعلم والقدرة والإرادة التي أصلها المحبة، وحيث

(١) المسند (٤ / ٣٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٠).

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٦٧-٧٠) باختصار.

كان الإنسان يلتذ بالعلم، فلا بد أن تكون هناك محبة لما يلتذ به، فتارة يكون المعلوم محبوبًا يلتذ بعلمه وذكره كما يلتذ المؤمنون بمعرفة الله وذكره، بل ويلتذ بذكر الأنبياء والصالحين، ولهذا يقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بما يحصل في النفوس من الحركة إلى محبة الخير والرغبة فيه والفرح به. والسرور واللذة والأمور الكلية تحب النفس معرفتها لما فيها من الإحاطة التي توصلها إلى معرفة المعينات، وتارة يكون بالعلم الذي يدفع من الشبه ما تعارض محبوبه، وإما أن يكون محتاجًا إلى العلم بذلك لأنه يتوصل إلى جلب منفعة ودفع مضرة، وهذا كثير مشهور»^(١).

وقال: «السعادة أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم، كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحًا فلم ينفجر لي شيء، فقال: يا بني أنت أخلصت للحكمة ولم يكن الله هو مرادك، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحيث تنفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. ولهذا تقول العامة: قيمة كل امرئ ما يحسن»^(٢).

(١) الصفدية، ابن تيمية (٢/ ٢٦٩) بتصرف يسير.

(٢) نقلت عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (جامع بيان العلم وفضله) (٢١)، ثم قال ابن عبد البر معلقًا عليها: «ويقال: إن قول علي: قيمة كل امرئ ما يحسن» لم يسبقه إليه أحد، وقالوا: ليس كلمة أحص على طلب العلم منها».

قلت: مراد شيخ الإسلام بنسبة ذلك للعامة أنهم ينظرون إلى المظاهر الحالية للبشر، فنبه إلى ضرورة النظر للهمم والغايات، وكلا العبارتين في الغاية من النفع لمن =

والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب»^(١).

وقال: «جماع الصلاح للآدميين هو طاعة الله ورسوله، وهو فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم، والفساد بالعكس، والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم، ويكون ذلك غاية الغايات، ونهاية النهايات.

ولهذا كان كل عمل يُعمل لغير الله لا ينفع صاحبه بل قد يضره، وكانت أعمال الذين كفروا ﴿كَرَّمَا دَأَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. والإنسان حارث وهمام، والهمام هو الذي يكثر الهم الذي هو أول الإرادة، فالإنسان متحرك بالإرادة، وكل مريد لابد له من مراد، والذي يجب أن يكون هو المراد المقصود بالحركات هو الله، فصلاح النفوس وسعادتها وكمالها في ذلك، وهكذا العالم العلوي أيضًا»^(٢)، «وسبب ذلك أن الخير إنما هو بمعرفة الحق واتباعه في العلم والعمل جميعاً، صلاح القول والعمل: العلم والإرادة. والعلم أصل العمل وأصل الإرادة والمحبة وغير ذلك، وهو مستلزم له ما لم يحصل معارض مانع، فالعلم بالحق يوجب اتباعه إلا لمعارض راجح؛ مثل اتباع الهوى بالاستكبار ونحوه، كحال الذين قال الله فيهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ

تأملهما وعمل بهما. وبالله التوفيق.

(١) النبوات، ابن تيمية (١ / ٩٠) باختصار.

(٢) العقل والنقل (١٩٦/٥).

الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿[الأعراف: ١٤٦].

وقال: ﴿وَحَاحِدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِءَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ولهذا قال: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وغير ذلك.

فإن أصل الفطرة التي فطرَ الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق اتبعته وأحبته؛ إذ الحق نوعان: حق موجود، فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب، وحق مقصود، وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه.

وإذا كان كذلك فصالح بني آدم الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان:

أحدهما: الجهل المضاد للعلم فيكون ضلالاً.

والثاني: اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس، فيكونون غواة مغضوباً عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالنَّجْوَىٰ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي،

(١) فنفى عن نبيه الضلال المضاد للعلم، والغواية المضادة للرشاد.

تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١)، فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال، وبهما يصلح العلم والعمل جميعاً، ويصير الإنسان عالمًا عادلاً، لا جاهلاً ظالمًا.

وهم في الصلاح على ضربين: تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به، فهذا هو الذي يُدعى بالحكمة، وهو الذي يتذكر، وهو الذي يحدث له القرآن ذكرًا. والثاني: أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، فهذا يُدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله: ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣]. وقد قال في السورة في قصة فرعون: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٧) ﴿قُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩]، فجمع بين بين التزكي والهدى والخشية، كما جمع بين العلم والخشية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وفي قوله: ﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦) ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٦٧) وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر، والذكر الذي يحدثه القرآن، ومن الخشية المانعة من اتباع

(١) الطبراني في مسند الشاميين (ص ١٣٦)، وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٩).

الهوى سبب إصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى، وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم.

وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى، وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعاً، ولهذا كان فسادُهُ بانتفاء كل منهما. فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير مهتدٍ، وإذا انتفى اتّباعه كان غاوياً مغضوباً عليه.

فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة، وبين الضلال والشقاوة، بين حسنة الدنيا والآخرة، وسيئة الدنيا والآخرة، ويفرق بين العلم النافع والعمل الصالح، بين العلم الطيب والعمل الصالح، كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغى: اتباع الظن وما تهوى الأنفس، والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض، وقد يتخلف أحدهما عند المعارض الراجح.

فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعاذة؛ كان الذم والنهي لكل منهما من الضلال والغى؛ لأن كل واحد منهما صار مكروهاً مطلوب العدم، لاسيما وهو مستلزم للآخر، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما، وقد يطلب كل منهما^(١) وقد يحمد أحدهما وقد يحمد كل منهما؛ لأن كلاً منهما خير ومطلوب محمود، وهو سبب لحصول الآخر، لكن كمال الصلاح يكون

(١) أي العلم وإرادة الخير، والمقصود أن الضلال والغى يُمنعان ابتداءً. أما العلم وإرادة الخير فيتدرج في طلبها إن رأى المصلح الحاجة لذلك. وهذه لفظة تربوية من هذا الإمام المربي، وكذلك في إصلاح النفس بطلب ما ينفعها من مولاتها.

بوجودهما جميعاً، وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ولم يعارضه معارض.

والداعي للخلق الأمر لهم^(١) يسلك بذلك طريق الرفق واللين، فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه، وهو سبب للآخر، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعاً، فقد يثقل عليه ذلك، والأمر ببناء والنهي هدم، وبالأمر يحصل العافية بتناول الأدوية، والنهي من باب الحمية، والبناء والعافية تأتي شيئاً بعد شيء، وأما الهدم فهو أعجل، والحمية أعم، وإن كان قد يحصل فيهما ترتيباً أيضاً، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر.

فقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة، وجاء بصيغة (لعل) تسهلاً للأمر ورفقاً وبياناً؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود، فلا يطلبان جميعاً في الابتداء، ولهذا قالوا: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها»^(٢)، لاسيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرهما، مثل الصدق فإنه أصل كل خير، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن

(١) وحتى مع نفسه.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٢).

الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾ ^(٣٣) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ^(٣٤) [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ^(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُتَكَبِّرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ^(٨) [الجاثية: ٧، ٨]، ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال: يا بني أمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي، ولا أمرك الساعة بغيرها؛ التزم الصدق وإياك والكذب. وتوعدده على الكذب بوعيد شديد، فلما التزم الصدق دعاه إلى بقية الخير، ونهاه عما كان عليه، فإن الفاجر لا حد له في الكذب»^(٢).

«والعبد له قوّة الشعور والإحساس والإدراك، وقوّة الإرادة والحركة، وإحدهما أصل الثانية مستلزمة لها، والثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها. فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل، وبالثانية يحب العلم النافع الملائم له، ويبغض الضار المنافي له.

والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة. فما كان حقاً موجوداً صدقت به الفطرة، وما كان حقاً

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، وعند مسلم مختصراً.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٥ / ٢٣٩-٢٤٧) باختصار.

نافعاً عرفته الفطرة فأحبته واطمأنت إليه، وذلك هو المعروف، وما كان باطلاً معدوماً كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فأنكرته، قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والإنسان لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته، ولكن قد يكون ذلك الرجاء مبنياً على اعتقاد باطل، إما في نفس المقصود فلا يكون نافعاً ولا ضاراً، وإما في الوسيلة، فلا تكون طريقاً إليه، وهذا جهل.

وقد يعلم أن هذا الشيء يضره ويفعله، ويعلم أنه ينفعه ويتركه؛ لأن ذلك العلم عارضه ما في نفسه من طلب لذة أخرى أو دفع ألم آخر، جاهلاً ظالماً، حيث قدّم هذا على ذاك. ولهذا قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]. فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله، فإذا كذب بالحق فلم يصدق به، ولم يرجُ الخير فيقصده ويعمل له؛ كان خاسراً بترك تصديق الحق وطلب الخير، فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير؟! فكيف إذا صدّق بالباطل وأراد الشر؟! الشّر؟!

فذكر عبد الله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان، فلمّة الملك تصديق بالحق، وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد، ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر، وهو ما كان من جنس إرادة الشر، وظن

وجوده إما مع رجائه إن كان مع هوى نفس، وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها، وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر^(١).

فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك، ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أوليائه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمُ﴾ [الأنفال: ٤٨]، والشيطان وسواس خناس، إذا ذكر العبد ربه خنس، فإذا غفل عن ذكره وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سبباً ومبدأً لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب. ومن ذكر الله تعالى: تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم، كما قال معاذ بن جبل: ومذاكرته تسبيح^(٢).

«والهدى أربعة أقسام:

أحدها: الهداية إلى مصالح الدنيا، وهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم، وبين المؤمن والكافر.

الثاني: الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين سواء

(١) ولكل منهما كتاب يأتي إن شاء الله تعالى.

(٢) الفتاوى (٤/ ٣٢-٣٤) باختصار.

آمنوا أو كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذا مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

يبين أن الهدى الذي أثبتته هو البيان والدعاء، والأمر والنهي، والتعليم وما يتبع ذلك، ليس هو الهدى الذي نفاه، وهذا هو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله.

الثالث: الهدى الذي هو جَعْلُ الهدى في القلوب^(١).

(١) ثم قال: «وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد، وبعضهم يقول: هو خلق القدرة على الإيمان، كالتوفيق عندهم ونحو ذلك، وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة. وأما من قال إنها استطاعتان:

إحدهما: قبل الفعل، وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ». وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى، وهي الاستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها، كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة. وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعًا، فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعًا.

الرابع: الهدى في الآخرة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

والثانية: المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، وهي المنفية عن من لم يفعل في مثل قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وهذا هو الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له، ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه.

وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»، فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فقد جمع الحديث - أي الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» تنزيهه عن الظلم الذي يجوز عليه بعض المثبتة، وبيان أنه هو الذي يهدي عباده، ردًا على القدرية، فأخبر هناك بعدله الذي ينكره بعض المثبتة، وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية، وإن كان كل منها قصده تعظيمًا لا يعرف ما اشتمل عليه قوله». (الفتاوى ١٨ / ١٧٢-١٧٤) باختصار يسير.

وبفهم هذا التقسيم يتضح الفرق كذلك بين الإرادتين الشرعية التي تلازمها المحبة، ولا يلزم وقوعها، كالأمر بالصلاة، والكونية التي يلازمها الخلق والوقوع ولا يلزم محبة الله لها، ككفر أبي جهل ونحوه، فهي واقعة قدرًا غير مرضية شرعًا.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ
 الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿الحج: ٢٣، ٢٤﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
 النَّعِيمِ ﴿يونس: ٩﴾، فقله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ كقله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]
 على أحد القولين في الآية، وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا، كما أن ضلال
 الآخرة جزاء ضلال الدنيا، وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق
 النار، كما قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ ﴿الصفات: ٢٢، ٢٣﴾، فالجزء أبداً من جنس العمل كما
 قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في
 السماء»^(١)، وقال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى
 الجنة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره
 الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(٢)، وقال:
 «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»^(٣).

(١) أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي
 داود (٩٣٣ / ٣)، وهذا الحديث مشهور بأنه مسلسل بالأولية.

(٢) أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٧).

(٣) أحمد من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقال: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة.

ولهذا أيضًا يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر، ولهذا قيل: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ إلى قوله: ﴿مُستَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦، ٦٨].

ومن هذا الباب قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة، كما قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وهذا باب واسع^(١).

«والإرادة هي الفارقة بين أهل الجنة وأهل النار، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا

(١) الفتاوى (١٨ / ١٧١-١٧٧) باختصار.

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] ونظائره كثيرة»^(١).

وقال ابن المقفع في الأدب الصغير: «كان يقال: إن الله قد يأمر بالشيء ويتلى بثقله، وينهى عن الشيء ويتلى بشهوته، فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته، ولا تترك من الشر إلا ما كرهته، فقد أطلعت الشيطان على عورتك، وأمكنته من رمتك، فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من الشر فيحببه إليك.

ولكن ينبغي عليك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يُستثقل منه، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يجب منه»^(٢).

(١) الفتاوى (١٠ / ٣٤٦، ٣٤٧)، وانظر: الفتاوى العراقية (٢ / ٦٧٥-٦٨١).

(٢) الأدب الصغير، عبد الله بن المقفع (٥٠)، وفي هذه الرسالة الصغيرة من ذكر المعاد وأدلة الربوبية ونحو ذلك ما ينفي عنه تهمة الزندقة التي وُصِمَ بها، بل وقتل شر قتلة، حيث أُوكل إلى أحد أعدائه فكان يقطع جسده قطعة قطعة ويرمي بكل قطعة في تنور من نار أمامه، نعوذ بالله من قلب لا يرحم. وحتى لو ثبتت عليه التهمة ولم تجد الاستتابة فالقتل بالسيف، «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة» رواه مسلم (١٩٥٥). أما ما سواها مما فيه عذاب أو امتهان فلا يجوز إلا على سبيل القصاص. والله المستعان. وكم من غرض سياسي وصل له عن طريق شعار ديني، وواقعنا المعاصر شاهد ناطق =

وقال ابن القيم رحمه الله مبيناً تفاوت الناس في الإرادة والهمة: «من الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي تعبد بسلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاداً لمعاده، ورأس ماله لماله، فمتى فتر عنه أو قصر فيه رأى أنه قد غبن وخسر. ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أظلم عليه وقته، وضاق صدره. ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فُتح له في هذا، وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه تلاوة القرآن. ومنهم من يكون طريقه الصوم. ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتبار. ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمّة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات.

ومنهم الجامع الفذُّ، السالك إلى الله في كل وارد، الواصل إليه من كل

بذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] نعوذ بالله من مضلات الفتن.

طريق، فهو قد جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه، يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك، إن كان علمٌ وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صفّ المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان وجدته في زمرة المحسنين، أو مراقبة ومحبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها. لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت، وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر. قد سلّمت إليه المبيع منتظراً منه تسليم الثمن. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

فهو العبد السالك إلى ربه، النافذ إليه حقيقة. ومعنى النفوذ إليه؛ أن يتصل به قلبه ويتعلق به تعلق المحب التام المحبة لمحبوبه، فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا الله وأمره وطلب التقرب إليه. فإذا سلك العبد هذا الطريق؛ عطف عليه ربّه فقرّبه واصطفاه، وأخذ بقلبه إليه، وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولّى تربيته أحسن وأبلغ مما يُربّي الوالد الشفيق وكده؛ فإنه سبحانه القيوم والمقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه، وآثره على ما سواه، ورضي به من الناس حبيباً وربّاً، ووكيلاً وناصرًا ومعيناً وهادياً؟! فلو كشف الغطاء عن ألطافه به، وبرّه وصنعه

له، من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم؛ لذاب قلبه حبًّا له وشوقًا إليه، وتقطع شكرًا له، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات، والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم. وإلا فأى قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبه، ثم يركن إلى غيره، ويسكن إلى سواه؟! هذا ما لا يكون أبدًا.

ومن ذاق شيئًا من ذلك، وعرف طريقًا موصلًا إلى الله، ثم تركها، وأقبل على إراداته وراحاته وشهوات ولذاته، وقع في آبار المعاصي^(١)، وأودع قلبه سجون المضايق، وعذب في حياته عذابًا لم يُعذبه أحد من العالمين. فحياته عجز وغم وحزن، وموته كمد وحسرة، ومعاده أسف وندامة. قد فرط عليه أمره، وشئت عليه شمله، وأحضرت نفسه الغموم والأحزان. فلا لذة الجاهلين، ولا راحة العارفين، يستغيث فلا يُعاث، ويشتكى فلا يُشكى. قد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة، وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته مقبلة، قد أبدل بأنسه وحشة، وبغزه ذلًا، وبغناه فقرًا، وبجمعيته تشننًا.

وأبعدوه فلم يظفر بقرهم وأبدلوه مكان الأنس إيجاشًا

ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله، ثم تركها ناكبًا عنها، مُكبًّا على وجهه، فأبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، وأقبل ثم أدبر، ودُعي فما أجاب، وفتح له فوّل ظهره الباب، قد ترك طريق مولاه، وأقبل بكليته على هواه. فلو نال بعض حظوظه،

(١) وهذا جدير بالتأمل والتدبر والتفكير، فرحمك اللهم رحماك.

وتلذذ براحاته وشهوات؛ فهو مقيد القلب عن انطلاقه في فسيح التوحيد، وميادين الأنس، ورياض المحبة، وموائد القرب.

قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين، وحصل في عداد الهالكين. فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده، وإعراض الكون عنه - إذ أعرض ربّه - حائل بينه وبين مراده. قبرٌ يمشي على وجه الأرض، فروحته في وحشة في جسمه، وقلبه في ملالٍ من حياته. يتمنى الموت ويشتهيّه، ولو كان فيه ما فيه، حتى إذا جاء الموت على تلك الحال - والعياذ بالله - فلا تسأل عما يحلّ به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب الأليم بينه وبين مولاه الحق، وإحراقه بنار البعد عن قربهِ والإعراض عنه، وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيته!

فلو توهم العبد المسكين هذه الحال، وصورتها له نفسه، وأرته إيّاها على حقيقتها؛ لتقطع والله قلبه، ولم يلتذ بطعام ولا شراب، ولخرج إلى الصّعدات^(١) يجار إلى الله، ويستغيث به، ويستعته في زمن الاستعتاب. هذا مع أنه إذا أثر شهواته ولذاته الفانية التي هي كخيال طيف أو مزنة صيف نُغصت عليه لذّتها أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها أقدر ما كان عليها!

وتلك سنة الله في خلقه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

(١) الصعدات: الطرق أو البراري والصحاري. وفي الترمذي من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله» (٢٤١٤).

وهذا هو غِبُّ إِعراضه وإِثارة شهوته على مرضاة ربه، فيعَوِّق القدرة عليه أسباب مراده فيخسر الأمرين جميعًا. فيكون معذبًا في الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب ما لم يُقسم له، وإن قُسم له منه شيء فحشوه الخوف والحزن والنكد والألم، فهم لا ينقطع، وحسرة لا تنقضي، وحرص لا ينفد، وذُل لا ينتهي، وطمع لا يُقْلَع!

هذا في هذه الدار، أما في البرزخ فأضعاف أضعاف ذلك، قد حيل بينه وبين ما يشتهي، وفاته ما كان يتمناه من قرب ربه وكرامته ونيل ثوابه، وأحضر جميع غمومه وأحزانه. أما في دار الجزاء فسجن أمثاله من المبعدين المطرودين، فواغوثاه ثم واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين.

فمن أَعرض عن الله بالكلية أَعرض الله عنه بالكلية، ومن أَعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وأعماله، وقارنهُ سوء الحال وفساده في دينه وماله، فإن الرب إذا أَعرض عن جهة دارت بها النحوس، وأظلمت أرجاؤها وكسفت أنوارها، وظهر عليها وحشة الإِعراض، وصارت مأوى للشياطين، وهدفًا للشُرور، ومصبًا للبلاء.

فالمحروم كل المحروم من عرف طريقًا إليه، ثم أَعرض عنها، أو وجد بارقةً من حبه ثم سلبها، لم ينفذ إلى ربه منها، خصوصًا إذا مال بتلك الإرادة إلى شيء من اللذات، أو انصرف بجملته إلى تحصيل الأعراض والشهوات، عاكفًا على ذلك ليله ونهاره وغدوّه ورواحه، هابطًا من الأوج الأعلى إلى الحضيض الأدنى.

قد مضت عليه برهةٌ من أوقاته، وكان همّه الله، وبغيته قربه ورضاه وإِثارة

على كل ما سواه، على ذلك يصبح ويمسي، ويظل ويضحى، وكان الله في تلك الحال وليّه؛ لأنه وليُّ من تولّاه، وحيب من أحبه ووالاه. فأصبح في سجن الهوى ثاوياً، وفي أسر العدو مقيماً، وفي بئر المعصية ساقطاً، وفي أودية الحيرة والتفرقة هائماً، معرضاً عن المطالب العالية إلى الأغراض الخسيسة الفانية. كان قلبه يجول حول العرش، فأصبح محبوساً في أسفل الحش.

فأصبح كالبازي المنتف ريشه يرى حشرات كلّما طار طائر
وقد كان دهرًا في الرياض منعمًا على كل ما يهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة إذا هو مقصوص الجناحين حاسر

فيا من ذاق شيئاً من معرفة ربه ومحبته، ثم أعرض عنها، واستبدل بغيرها منها، يا عجباً له بأي شيء تعوّض؟! وكيف قرّ قراره، فما طلب الرجوع إلى أحبته وما تعرّض؟! وكيف اتخذ سوى أحبّته سكناً، وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله موطنًا؟! أم كيف طأوعه قلبه على الاضطبار، ووافقه على مساكنة الأغيار؟!!

فيا معرضاً عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم، ويا بائعاً سعادته العظمى بالعذاب الأليم، ويا مُسَخَّطاً من حياتك وراحتك وفوزك في رضاه، وطالباً رضا من سعادتك في إرضاء سواه، إنما هي لذة فانية، وشهوة منقضية، تذهب لذائها وتبقى تبعاتها، فرح ساعة لا شهر، وغمُّ سنة بل دهر، طعام لذيد مسموم، أوله لذة وآخره هلاك، فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القز؛ يسدّ على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطب. فيندم حين لا تنفع الندامة، ويستقيل حين لا تُقبل الاستقالة.

فطوبى لمن أقبل على الله بكلية، وعكف عليه بإرادته ومحبة، فإن الله يُقبل عليه بتوليه ومحبة وعطفه ورحمته. وإن الله سبحانه إذا أقبل على عبد استنارت جهاته، وأشرقت ساحتها، وتنوّرت ظلماتها، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال، وتوجّه إليه أهل الملائ الأعلى بالمحبة والموالات لأنهم تبع لمولاهم، فإذا أحبّ عبدًا أحبّوه، وإذا والى وليًا والوه «إذا أحب الله العبد نادى: يا جبريل إني أحبّ فلانًا فأحبه، فينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبّوه. فيحبّه أهل السماء ثم يحبه أهل الأرض، فيوضع له القبول بينهم»^(١) ويجعل الله قلوب أوليائه تفدّ إليه بالود والمحبة والرحمة، وناهيك بمن يتوجه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته، ويُقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظه الملائ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ونذكر هنا قاعدة شريفة، وهي أن السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوّة علمية، وقوّة عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصد بها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوّة العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به

(١) متفق عليه.

من الأحجار والشوك وغيره. ويصير بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضلّ عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافرين، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعائر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلة. فكلما قطع مرحلة استعدّ لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل؛ فهانت عليه مشقة السفر. وكلما شكّت نفسه من كلال السير ومواصلة الشدّ والرحل وعدّها قرب التلاقي وبرّد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمّة، فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإذا صبرت وواصلت الشرى وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقّتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين!

فإن استصعبت عليه، فيذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدّمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت

في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراؤها في الطلب فلا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختار أيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديا وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديا ودليلا، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشته انفرادها في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظّه من القرب والكرامة مختصّ به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟!

وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهتئونه بالسلام والوصول إليهم، فيا قرّة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٦٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿[يس: ٢٦، ٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع، ودرن النفس، وبطء سيرها، فكلمّا أدمن السير وواظب عليه غدّوا ورواحا وسَحَرًا قُرب من المنزل، وتلطّفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، وظهرت عليه همّة المسافرين وسيماهم، فتبدّلت وحشته أنسا، وكثافته لطافة، ودرنه طهارة.

فمن الناس من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفا في القوة العملية، يُبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك

الجهال في التخلف، وفارقهم في العلم. وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، فلا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقضي هذه القوة السير والسلوك، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأحوال والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداءً هذا من جهله، وداءً الأول من فساد إرادته وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه، لا يدري من يعبد، ولا بماذا يعبد، فتارةً يعبد بذوقه ووجد، وتارةً يعبد بعادة قومه وأصحابه من لبس معين، أو كشف رأس، أو حلق لحية، ونحوها. وتارةً يعبد بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس لها أصل في الدين. وتارةً يعبد بما تحبه نفسه وتهواه كائنًا ما كان. وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عمي عن ربهم وعن شريعته ودينه.

فمن كانت له هاتان القوتان واستقام سيره إلى الله تعالى، رُجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته. فإن القواطع كثيرة، شأنها شديد، لا يخلص من حبالها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورةً بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد.

والوقت - كما قيل - سيفٌ، فإن قطعته وإلا قطعك، فإذا كان السير ضعيفاً، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والداخلية كثيرةً شديدة، فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمته منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع. والله ولي التوفيق»^(١).

ويبين الإمام ابن القيم رحمه الله أن آفة الإرادة العجز، وأن العبد إذا وُفق للتغلب على عجزه فقد وُفق أيما توفيق. قال رحمه الله في بيان هدي رسول الله ﷺ: «ومن ذلك نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: لو أني فعلت كذا وكذا، وقال: «إن (لو) تفتح عمل الشيطان»، وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة وهو أن يقول: «قدر الله وما شاء فعل»^(٢)، وذلك لأن قوله: لو كنتُ فعلتُ كذا وكذا لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعتُ فيه، كلامٌ لا يجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره، وغير مستقيل عثرته بـ«لو»، فعليه ألا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز، ويجب الكَيْسَ ويأمر به، والكَيْسُ: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عَجَزَ عما ينفعه، وصار إلى الأماني الباطلة بـ«لو» يفتح عليه عمل الشيطان، فإن بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل

(١) طريق المهجرتين (١/٣٨٦.٤٠٢) باختصار يسير، وانظر: مفتاح دار السعادة (١/٤٦).

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

شر، ويصدر عنهما الهم والحزن والجبن والبخل وضلّع الدين وغلبة الرجال، فمصدرها كلها العجز والكسل، وعنوانها «لو»، فالتمني من أعجز الناس وأفلسهم، فإن التمني رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كل شر.

وأصل المعاصي كلها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها؛ فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ من أصول الشر وفروعه، ومبادئه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثمان خصال، كل خصلتين منها قرينتان، والنبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان، فإن تخلف كمال العبد وصلاحه عنه إما أن يكون لعدم قدرته عليه فهو عجز، أو يكون قادرًا عليه لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير، وحصول كل شر، ومن ذلك تعطيله النفع ببدنه وهو الجبن، وعن النفع بماله وهو البخل، ثم ينشأ له بذلك غلبتان، غلبة بحق: وهي غلبة الدين، وغلبة بباطل: وهي غلبة الرجال. وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل.

ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١) فهذا قال: حسبي الله ونعم الوكيل، بعد عجزه عن الكيس الذي لو قام به لقضى له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي

(١) أبو داود (٣٦٢٧) وفي سننه سيف الشامي لم يوثقه غير ابن حبان والعجلي. وقد حسّنه ابن حجر وصححه أحمد شاكر وضعّفه الألباني والأرنؤوط.

يكون بها كيساً ثم غلبه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل لكنت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها ولم يعجز بتركها، ثم غلبه أعداؤه وألقوه في النار، قال في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل^(١)، واستقرت في مظانها، فأثرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها، وكذلك رسول الله ﷺ في أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فجعل التوكل بعد التقوى التي هي قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها^(٢).

(١) قلت: ولعل موطن هذه الكلمة يكون قبل وأثناء العمل؛ لأنها من أعظم أسباب النجاح فيه، ففيها تفويض تام لمن بيده مقاليد الأمور، فإن أفلح فليحمد الله، وإن كانت الأخرى. والله فيها حكم وقد تكون خيراً للعبد. فليسترجع وليحمد. فالحسبة قريية من الحوقلة وكلاهما قبل وأثناء العمل. أما الحمد والاسترجاع فبعده. فإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام قالاهما قبل وأثناء العمل لا بعده. وتأمل الحديث: «إِذَا غَلِبَكَ أَمْرٌ لَا زَلَّ مَصَاوِلُهُ لَمْ تَفْرَغْ مِنْهُ».

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٥٦-٣٦٣) باختصار. وللتوكل كتاب خاص يأتي إن شاء الله.

«ومما ينبغي الاعتناء به علماً ومعرفة وقصدًا وإرادة: العلم بأن كل إنسان، بل كل حيوان، إنما يسعى فيما يُحْصَلُ له اللذة والنعيم وطيب العيش، ويندفع به عنه أضداد ذلك، وهذا مطلوب صحيح يتضمن ستة أمور:

أحدها: معرفة الشيء النافع للعبد، الملائم له، الذي بحصوله تتم فرحته وفرحه وسروره وطيب عيشه.

الثاني: معرفة الطريق الموصلة لذلك.

الثالث: سلوك تلك الطريق.

الرابع: معرفة الضار المؤذي المنافر الذي ينكّد عليه حياته.

الخامس: معرفة الطريق التي إذا سلكها أفضت به إلى ذلك.

السادس: تجنب سلوكها.

فهذه ستة أمور لا تتم لذة العبد وسروره وفرحه وصلاح حاله إلا باستكمالها، وما نقص منها عاد بسوء حاله وتنكيد حياته.

وكل عاقل يسعى في هذه الأمور، لكن أكثر الناس غَلَطَ في تحصيل هذا المطلوب المحبوب النافع؛ إما في عدم تصوّره ومعرفته، وإما في عدم معرفته الطريق الموصلة إليه، فهذان غلطان سببهما الجهل، ويُتخلّص منهما بالعلم.

وقد يحصل له العلم بالمطلوب، والعلم بطريقه، لكن في قلبه إرادات وشهوات تحول بينه وبين قصد هذا المطلوب النافع، وسلوك طريقه، فكلما أراد ذلك اعترضته تلك الشهوات والإرادات، وحالت بينه وبينه، وهو لا يمكنه تركها وتقديم هذا المطلوب عليها إلا بأحد أمرين: إما حب مُتعلِّق، وإما فَرْقٌ مُزعج.

فيكون الله ورسوله والدار الآخرة والجنة ونعيمها أحب إليه من هذه الشهوات، ويعلم أنه لا يمكنه الجمع بينهما، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، وإما أن يحصل له علم ما يترتب على إثارة هذه الشهوات من المخاوف والآلام التي ألمها أشد من ألم فوات هذه الشهوات وأبقى. فإذا تمكّن من قلبه هذان العلمان أنتجا له إثارة ما ينبغي إثارة، وتقديمه على ما سواه، فإن خاصية العقل: إثارة أعلى المحبوبين على أدناهما، واحتمال أدنى المكروهين ليتخلص به من أعلاهما.

وبهذا الأصل تعرف عقول البشر، وتميز بين العاقل وغيره، ويظهر تفاوتهم في العقول. فأين عقل من أثر لذة عاجلة، منفصلة منكدة، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيف تمتع به في المنام، على لذة هي من أعظم اللذات، وفرحة ومسرة هي من أعظم المسرات، دائمة لا تزول ولا تفنى ولا تنقطع؛ فباعها بهذه اللذة الفانية المضمحلة التي حُشيت بالآلام، وإنما حصلت بالآلام، وعاقبتها بالآلام؟ فلو قايست العقل بين لذتها وألمها، ومضرتها ومنفعتها، لاستحى من نفسه وعقله. كيف يسعى في طلبها! ويضيع زمانه اشتغالا بها! فضلاً عن إثارة على «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١)^(٢).



(١) متفق عليه.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (٢٥ - ٢٦).

مراتب الإرادة

للإرادة مراتب ودرجات ومنازل، فالرغبة مع قليل همّ ليست كمن أراد إرادة جازمة لا يكاد الفعل يتخلف عنها، وبينهما درجات. وقد تكلم عنها تقي الدين ابن تيمية كثيراً^(١). ومن أجمع كلامه ما أجاب به سائلاً سأله عمن عزم على فعل محرم كالزنا والسرقة وشرب الخمر عزمًا جازمًا فعجز عن فعله، إما بموت أو غيره، هل يآثم بمجرد العزم أم لا^(٢)؟

فأجاب ما ملخصه: بأن هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصوّر لها، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين: أحدهما: عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها، التي هي مورد الكلام.

والثاني: عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقّها؛ ولهذا كثر اضطراب الناس كثيرًا في هذا الباب، حتى يجد الناظر أنهم يدّعون إجماعات متناقضة في الظاهر.

فينبغي أن يُعلم أن كل واحد من صفات الحي التي هي العلم والقدرة والإرادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره ما لا يضبطه العباد؛ كالشك ثم الظن ثم العلم ثم اليقين ومراتبه، وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك، ولهذا كان الصواب عند جماهير أهل السنة أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان،

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ٦٥٢)، (١٠/ ٧٦٩.٧٢٠).

(٢) كذلك الحال بالنسبة للطاعات، وقد انتظمها الإمام في جواب واحد.

بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي؛ كالألوان والطعوم والروائح.

فنقول أولاً: الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها، إذا كانت القدرة حاصلة، فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة؛ وجب وجود الفعل، لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم، ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل؛ لم تكن الإرادة جازمة، وهو إرادات الخلق لما يقدر على من الأفعال ولم يفعلوه، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف متفاوتاً كثيراً، لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً.

وهذه المسألة إنما كثر فيها النزاع؛ لأنهم قدّروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل، وهذا لا يكون. وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيء في الحال، والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل، بل لابد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل، وهي الإرادة الجازمة.

والإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام، له ثواب الفاعل التام، وعقاب الفاعل التام الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب أو يعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو إلى ضلالة، والسانُّ سنةً حسنة، وسنة سيئة.

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة هو طالب مريد كامل الطلب والإرادة لما

دعا إليه، لكن قدرته بالدعاء والأمر، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول، ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١] فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة، وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب، وما يجعل للكفار بهم من الغيظ، وما ينالونه من العدو.

وقال: ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم به عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باسروها بأنفسهم؛ وهي الإنفاق، وقطع المسافة، فلهذا قال فيها: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فإن هذه نفسها عمل صالح، وإرادتهم في الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح.

وكذلك الداعي إلى الهدى والضلالة، لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه؛ كان بمنزلة العامل الكائن، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه؛ للهادي مثل أجور المهتدين،

وللمضل مثل أوزار الضالين، وكذلك السانّ لسنة حسنة وسنة سيئة، فإن السنة هي ما رسم للتحري، فإن السانّ كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

أيضاً فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل، وإن لم يكن إماماً وداعياً، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦]، فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز، ولم ينفِ المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز، بل يقال: دليل الخطاب يقتضي مساواته إياه^(١). ولفظ الآية صريح، استثنى أولي الضرر من نفى المساواة، فالاستثناء هنا هو من النفي، وذلك يقتضي أن أولي الضرر قد يساوون القاعدين، وإن لم يساووهم في الجميع^(٢).

(١) ويرى بعض أهل العلم أن المساواة تكون في أصل الأجر المترتب على العمل ولا تدخل فيه المضاعفات، وفي هذا نظر؛ فعلى المستثني الدليل وفضل الله واسع، ولولا أن نبي الله ﷺ قد نص على أن الحيض من نقصان دين المرأة لقليل بإلحاقها بهؤلاء.

(٢) لعله يقصد أن أولي الضرر ليسوا على مرتبة واحدة، بل منهم من ليس له همّة في الجهاد حتى مع زوال الضرر الملازم فيكون كالقاعدين، فالعبرة بما في قلوبهم. أو أن قصده أن القاعدين من أولي الضرر يساوون للمجاهدين حتى وإن لم يعملوا جميع عملهم، وهو الأظهر.

ويوافقه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر»^(١). فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسهم إلا العذر هو مثل من معهم في هذه الغزوة، ومعلوم أن الذي معه في الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواباً يمتاز على قدر نيته، فكذلك القاعدون الذي لم يحبسهم إلا العذر.

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»^(٢). فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملاً ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر؛ ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة، لا لضعف النية وفتورها، فكان له من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة ما للعامل، والمسافر وإن كان قادراً مع مشقة، كذلك بعض المرضى، إلا أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، ونحو ذلك، فليس المعتبر في الشرع القدرة التي يمكن وجود الفعل بها على أي وجه كان، بل لابد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة، بل أو مكافية.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

ومن هذا الباب ما ثبت عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من جهّز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا»^(١)، وقوله: «من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء»^(٢)، فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، فإذا بذل هذا بدنه، وهذا ماله، مع وجود الإرادة الجازمة في كل منهما، كان كل منهما مجاهداً بإرادته الجازمة، ومبلغ قدرته، وكذلك لا بد للغازي من خليفة في الأهل، فإذا خلفه في أهله بخير فهو أيضاً غاز. وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك، ولا بد فيه من العشاء الذي يتم به الصوم، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة له كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئاً»^(٣)، وكذلك قوله في حديث أبي موسى: «الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملاً موفراً طيبة به نفسه أحد المتصدقين» أخرجاه^(٤). وذلك أن إعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به موفراً طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإرادة الجازمة الموافقة لإرادة الأمر، وقد فعل مقدوره وهو الامتثال، فكان أحد المتصدقين.

(١) متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيهقي في الشعب (٣٨٢٦).

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن هذا الباب حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد وابن ماجه عن النبي ﷺ قال: «إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل به بطاعة الله، فقال رجل: لو أن لي مثل فلان لعملت بعمله، فهما في الأجر سواء»^(١)، وقد رواه الترمذي مطوّلاً^(٢)، وقال: حسن صحيح، فهذا التساوي مع الأجر والوزر هو حكاية حال من قال ذلك وكان صادقاً فيه، وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل، لا لفوات القدرة؛ فلهذا استويا في الثواب والعقاب.

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال: لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل، إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم، لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون، وليس كل من عزم على شيء عزمًا جازمًا قبل القدرة عليه وعدم الصوارف عن الفعل تبقى له تلك

(١) أحمد (٢٩ / ٥٦٢)، الترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥ / ١)، وصحيح الترمذي (٥ / ٣٢٥).

(٢) (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٢٨٧)، ولفظه: «إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان؛ فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل منه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً؛ فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء».

الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وكما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وكما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٦].

وحديث أبي كبشة في النيات^(١) مثل حديث البطاقة في الكلمات. وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «أن رجلاً من أمة النبي ﷺ يُنشر له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مدى البصر، ويقال له: هل تنكر من هذا شيئاً؟ هل ظلمتك؟ فيقول: لا يا رب. فيقال: لا ظلم عليك اليوم، فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد، فتوضع في كفة والسجلات في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»^(٢)، فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً.

ومثل هذا حديث المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها^(٣)، فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك. ومثله قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم

(١) وقد مرّ قريباً «إننا الدنيا لأربعة».

(٢) أحمد (٦٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٥)، وصححه شعيب الأرناؤوط والألباني في الصحيحة (٢٥٦٣).

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة»^(١).

وبهذا يتبين أن الأحاديث التي بها التفريق بين الهام والعامل وأمثالها، إنما هي فيما دون الإرادة الجازمة التي لا بد أن يقترن بها الفعل، كما في الصحيحين عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك؛ فمن همّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات»^(٢)، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، فإن همّ بها وعملها، كتبها الله له عنده سيئة واحدة»^(٣). فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل، ولهذا قال: «فعلها»، «فلم يعملها»، ومن أمكنه الفعل فلم يفعل لم تكن

(١) الموطأ (١٧٨١) برواية الليثي، وأحمد (٤٦٩ / ٣)، والترمذي (٢٣١٩)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٨٦).

(٢) وفي رواية متفق عليها بزيادة: «إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة».

(٣) متفق عليه. وقد ضمّنه الإمام النووي رحمه الله أربعين، وقال بعد إيراده: «فانظر يا أخي. وفقنا الله وإياك. إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأمل هذه الألفاظ، وقوله: «عنده» إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء بها. وقال في السيئة التي همّ بها ثم تركها: «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكد بها «كاملة»، وإن عملها كتبها سيئة واحدة، فأكد تقليلها بـ «واحدة»، ولم يؤكد بها «كاملة» فله الحمد والمنة سبحانه لا نحصي ثناء عليه».

إرادته جازمة؛ فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل وموجبة له، ولا ريب أن الهم والعزم والإرادة ونحو ذلك قد يكون جازماً لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم.

فهذا القسم الثاني يفرّق فيه بين المرید والفاعل، بل يفرق بين إرادة وإرادة، إذ الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد، فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وأما الهامّ بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر في الحديث الصحيح، وسواء سُمي همّة إرادة أو عزماً أو لم يسم، فمتى كان قادراً على الفعل وهمّ به وعزم عليه ولم يفعل مع القدرة فليست إرادته جازمة، وهذا موافق لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به»^(١)، فإن ما همّ به العبد من الأمور التي يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جازمة، فتلك مما لم يكتبها الله عليه، ومن حكى الإجماع كابن عبد البر وغيره في هذه المسألة على هذا الحديث، فهو صحيح بهذا الاعتبار.

وهذا الهامّ بالسيئة؛ فإما أن يتركها لخشية الله وخوفه، أو يتركها لغير ذلك، فإن تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به في الحديث، وكما قد جاء في الحديث الآخر: «اكتبوها له حسنة، فإنها تركها من أجلي»^(٢)، أو

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، ولفظ البخاري (٧٥٠١): «وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة».

قال: «من جرائي». وأما إن تركها لغير ذلك فلم تكتب عليه سيئة؛ كما جاء في الحديث الآخر «فإن لم يعملها لم تكتب عليه» وهذا تتفق معاني الأحاديث^(١).

وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة، فإن الله لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها، ولا يجزى الإنسان في الآخرة إلا بما عملت نفسه. وأما أئمة الضلال الذين عليهم مثل أوزار من أضلوه ونحوهم، فقد بينا أنهم إنما عوقبوا لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من الفعل بقوله في حديث أبي كبشة: «فهما في الوزر سواء» وقوله: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه»^(٢)، فإذا وجدت الإرادة الجازمة والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام.

والهامُّ بالسيئة التي لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة، وفاعل السيئة التي تمضي لا يجزى بها إلا سيئة واحدة، كما شهد به النص، وبهذا يظهر قول الأئمة؛ حيث قال الإمام أحمد: الهُمَّ هَمَّان: هُمَّ خطرات، وهُمَّ إصرار. فهم الخطرات يكون من القادر، فإنه لو كان همه إصرارًا جازمًا وهو قادر لوقع الفعل.

ومن هذا الباب هم يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَءَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأما هم المرأة التي راودته فقد قيل

(١) ينظر: البخاري (٦٤٩١)، مسلم (٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧)، أحمد (١/ ٢٢٧، ٢٤٢، ٢/

٣١٧)، الترمذي (٣٠٧٣).

(٢) مسلم (١٦).

إنه كان همّ إصرار لأنها فعلت مقدورها، وكذلك ما ذكره عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَوْفَاءُ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤] فهذا الهمّ المذكور عنهم همّ مذموم، كما ذمّهم الله عليه، ومثله يُذمُّ وإن لم يكن جازماً، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل؛ لحديث أبي كبشة، ولما في الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» فقيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١). وفي لفظ: «إنه أراد قتل صاحبه»، فهذه الإرادة هي الحرص، وهي الإرادة الجازمة، وقد وجد معها المقدور وهو القتال، لكن عجز عن القتل، وليس هذا من الهمّ الذي لا يكتب، ولا يقال إنه استحق ذلك بمجرد قوله: «لو أن لي ما لفلان لعملت مثل ما عمل»، فإنّ تمنّي الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلّم، بل لابد من أمر آخر، وهو لم يذكر أنه يعاقب على كلامه، إنما ذكر أنها في الوزر سواء!

وعلى هذا فقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل» لا ينافي العقوبة على الإرادة الجازمة التي لابد أن يقترب بها الفعل، فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترب بها المقدور من الفعل، وإلا فمتى لم يقترب بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة، فالمريد للزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترب بها من الفعل ما يقدر عليه، ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية مثل تقرب السارق إلى مكان المسروق، ومثل نظر

(١) متفق عليه.

الزاني واستماعه إلى المزني بها وتكلمه معها، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك، فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقدور، بل مقدمات الفعل توجد دون الإرادة الجازمة عليه، كما قال النبي ﷺ: «والعينان تزنيان وزناهما النظر، واللسان يزني وزناه النطق، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١)، وكذلك حديث أبي بكرة المتفق عليه: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» فإنه أراد ذلك إرادة جازمة، فعل معها مقدوره منعه منها من قتل صاحبه العجز، وليست مجرد هم، ولا مجرد عزم على فعل مستقبل، فاستحق حينئذ النار.

والإرادة التامة لا بد أن يأتي معها بالمقدور أو بعضه، وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك مع القدرة، مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا من اللمس والنظر والقبلة، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى، ولهذا قال: «والقلب يتمنى ويشتهي» أي يتمنى الوطء ويشتهي، ولم يقل «يريد» ومجرد الشهوة والتمني ليست إرادة جازمة، ولا يستلزم وجود الفعل، فلا يعاقب على ذلك، إنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة، والإرادة الجازمة التي يصدقها الفرج.

ومن هذا أيضاً حديث ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له؛ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [هود: ١١٤]، فقال الرجل: ألي هذه؟

(١) متفق عليه.

فقال: «لن عمل بها من أمتي»^(١)، فمثل هذا الرجل وأمثاله لابد في الغالب أن يهيم بما هو أكبر من ذلك، لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة، فاقترن بها فعل القبلة بالمقدرة، أما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة، وقد تكون جازمة لكن لم يكن قادرًا، والأشبه في الذي نزلت فيه الآية أنه كان متمكنًا لكنه لم يفعل.

فتفريق أحمد وغيره بين همّ الخطرات وهو الإصرار الذي هو عليه الجواب، فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته، وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصرّ، ولهذا قال ابن المبارك: المصرّ الذي يشرب الخمر اليوم، ثم لا يشربها إلى شهر، وفي رواية إلى ثلاثين سنة، ومن نيته أنه إذا قدر على شربها شربها.

وقد يكون مصرًّا إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت، كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره، فليس هذا بتائب مطلقًا، ولكنه تارك الفعل في شهر رمضان، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله، واجتناب محارمه في ذلك الوقت، ولكنه ليس من التائبين الذي يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة، ولا هو مصرّ مطلقًا، وأما الذي وصفه ابن المبارك فهو مصرّ إذا كان من نيته العود إلى شربها.

وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي أنه حكى الإجماع على أن الناي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له، فهذا الإجماع صحيح مع القدرة^(٢)، فإن الناي

(١) متفق عليه.

(٢) أي أنه قادر على الفعل لكنه لم يفعل.

للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما النايي الجازم الآتي بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا، وقال في آية هود: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَبَطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وأن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادته للآخرة قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها؛ فالثواب إنما هو على العمل المأمور به، لا كل سعي، ولا بد مع ذلك من الإيثار.

ومنه قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَكَ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمْتِعْكَ وَأُسرِّحْكَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَلَئِنْ كُنْتَ تُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩]. فهذا نظير تلك الآية التي في سورة هود، وهذا يطابق قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» إلا أنه قال: «فإنه أراد قتل

صاحبه» أو «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» فذكر الحرص والإرادة على القتل، وهذا لا بد أن يقترن به فعل، وليس هذا مما دخل في حديث العفو «إن الله عفا لأمتي ما حدثت به أنفسها»^(١).

ومما يُبنى على هذا مسألة توبة العاجز عن الفعل، كتوبة المَجْبُوب عن الزنا، وتوبة الأَقْطَع عن السرقة، ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء؛ لأن إرادة العاجز مترتب عليها الثواب والعقاب، وأن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مبادعة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه؛ كالتائب القادر عليها سواء، فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل، كإصرار العاجز عن كمال الفعل.

وحديث النفس ليس إرادة جازمة، ولهذا لم يَجِئ في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب، إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولاً وفعلاً.

ومن هذا الباب ما استفاض عنه ﷺ في الصحاح من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»^(٢)، وفي رواية سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. أي ولما يعمل بأعمالهم. فقال: «المرء مع

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

من أحب»^(١)، قال أنس: «فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم، وإن لم أعمل عملهم»، وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريباً من ذلك، كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة؛ كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحسوب في محابته إذا كان المحب قادراً عليها، فحيث تأخرت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة^(٢).

وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالتضاد، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] والموادة من أعمال القلوب.

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حادّ الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم الذم والعقاب؛ لأجل عدم الإيمان، فإن ما ناقض الإيمان كالشك والإعراض وردة القلب وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الدين ورسوله، فاستحق تاركه الذم والعقاب. وأعظم الواجبات إيمان القلب، فما ناقض استلزم الذم

(١) متفق عليه.

(٢) وهذا من أحسن التفاسير لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].

الإرادة

والعقاب لتركه هذا الواجب، بخلاف ما استحق من الذم لكونه منهيًا عنه كالفواحش والظلم، فإن هذا هو الذي يتكلم في الهم به وقصده، إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان، وإن كان يناقض كماله، بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة تتضمن شيئين:

أحدهما: نهيهما عن الذنوب.

والثاني: تضمنها ذكر الله، وهو أكبر الأمرين^(١)، فما فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر.

والمقصود هنا: أن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته، ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٢).

وأصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا إنما هو اتخاذهم أندادًا يحبونهم كحب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ومن كان حبه لله، وبغضه لله، لا يجب

(١) وهذا تفسير منه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

(٢) أحمد (٣/ ٤٣٨ - ٤٤٠)، أبو داود في السنة (٤٦٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فهذه حال السابقين من أولياء الله، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبني يبصر، وبني يبطش، وبني يمشي، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»^(١)، فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض، أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه، وصار أحدهم يدرك بالله، ويتحرك بالله، بحيث إن الله يجيب مسألته، ويعيذه مما استعاذ منه.

وقد مدح الله تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط، والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ - ٢١]، وقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله: ﴿قُلْ

(١) البخاري (٦٥٠٢).

بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴿ [يونس: ٥٨]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿ [القصص: ٧٦]، وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿ [الحجر: ٥٦]، وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿ [الفلق: ٥]، وقال: ﴿وَلَا يَحْدُونِ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴿ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴿ [الأحزاب: ٣٢]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ [يونس: ٥٧].

ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين؛ يحمد ويدم على ما شاء من مساعي القلوب وأعمالها مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا»، وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»^(١)، وقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢). بل قول القلب وعمله هو الأصل؛ مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترب إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة، وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو حسنة وسيئة بنفسه، وهو ما يتعلق بأصول الإيمان من

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم (١٤٧).

التصديق والتكذيب والحب والبغض وتوابع ذلك، فيحصل بها الثواب والعقاب وإن لم يظهر على الجوارح.

وثانيها: ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل، وهو السيئة المقدورة.

وثالثها: ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة.

فالقسمان الثاني والثالث مظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان مثل المعاصي الطبيعية؛ مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، دخل الجنة وإن زنا وإن سرق وإن شرب الخمر»^(١)، وكما شهد النبي ﷺ للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به، فلعنه رجل فقال: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»^(٢).

ولهذا قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به». والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد ﷺ المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدر في الإيمان، فأما ما نافي الإيمان؛ فذلك لا يتناوله لفظ الحديث^(٣)؛ لأنه إذا

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري (٦٧٨٠).

(٣) علماً بأن الوسواس العارضة لا تعارض الإيمان.

نافى الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد ﷺ في الحقيقة، ويكون بمنزلة المنافقين فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله، وهذا فرقٌ بين يدل عليه الحديث، وبه تأتلف الأدلة الشرعية، وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، كما دل عليه الكتاب والسنة، فمن صحَّ إيمانه عُفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس، كما يُخرجون من النار، بخلاف من ليس معه الإيمان؛ فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه، ولهذا جاء «نية المؤمن خير من عمله»^(١)، هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتابه الأمثال من مراسيل ثابت البناني.

فإن النية يُثاب عليها المؤمن بمجرد ما، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير^(٢)، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلاً، ولهذا قال بعض السلف: قوّة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوّة المنافق في بدنه، وضعفه في قلبه.

وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]،

(١) الطبراني في الكبير (٥٩٤٢)، والهيتمي في المجمع (١/ ٦١، ١٠٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٨٩) مع الشكر لمخرج أحاديث مجموع الفتاوى الشيخ مروان كجك، جزاه الله خيراً.

(٢) وتأمل عظيم فضل الله في ذلك، ولا يسبقنك إلى الله أحد، ولو بنيتك الجازمة للخير، وهذا الباب يفتح لك من أجور البر ما لا يُحصى.

وهذه الآية وإن كان قد قال طائفة من السلف إنها منسوخة كما روى البخاري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - وهو ابن عمر - أنها نسخت، فالنسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين، يريدون به رفع الدلالة مطلقاً وإن كان تخصيصاً للعام أو تقييداً للمطلق وغير ذلك كما هو معروف في عرفهم، وحقيقة الأمر أن قوله سبحانه ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لم يدل على المؤاخذه بذلك، بل دل على المحاسبة به، ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب.

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعاً لأصل الإيمان، وما كان منافياً له، ويفرق بين ما كان مقدوراً عليه فلم يفعل، وبين ما لم يترك إلا للعجز عنه، فهذان الفرقان هما فصل هذه المواضع المشتبهة.

ثم هنا مسائل كثيرة فيما يجتمع في القلب من الإرادات المتعارضة، كالاتقادات المتعارضة، وإرادة الشيء وضده؛ مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها، ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر إذا قارنه بغض ذلك والتعوذ منه، كما شكوا أصحاب رسول الله ﷺ إليه فقالوا: إن أحداً يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يختر من السماء إلى الأرض؛ أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «أوقد وجدتموه؟» فقالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان. الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(١)، فهنا لما اقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان، وهو خالصه ومحضه؛ لأن المنافق والكافر

(١) أحمد (١/ ٢٣٥)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وصححه الألباني في تخريجه للإيمان لابن تيمية (١/ ١٠٢)، وانظر: صحيح الظلال (٦٥٨).

لا يجد هذا البغض وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك، بل إن كان في الكفر البسيط، وهو الإعراض عما جاء به الرسول، وترك الإيمان به. وإن لم يعتقد تكذيبه. فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك؛ إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه، فإذا لم يكن بغير ما يقتضي الإيمان؛ لم يحتاج إلى معارض يدفعه، وإن كان في الكفر المركب. وهو التكذيب. فالكفر فوق الوسوسة، وليس معه إيمان يكره به ذلك.

ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا ﴾ [الأنعام: ١٧]. فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض، وجعل القلوب كالأودية منها الكبير ومنها الصغير، كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء؛ فسقى الناس وشربوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

والمثل الآخر: ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع، من معادن الذهب والفضة

(١) متفق عليه.

والحديد ونحوه، وأخبر أن السيل يحتمل زَبْدًا رابيًا، ومما يوقدون عليه في النار زبد مثله، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الراي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع في قلوب المؤمنين من الشك والشبهات في العقائد والإرادات الفاسدة، كما شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفوه القلب؛ فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمَكُّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤]، إلى قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه؛ ازداد إيمانًا ويقينًا، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله؛ ازداد صلاحًا وبرًا وتقوى»^(١).



(١) الفتاوى (١٠ / ٧٢٠. ٧٦٩) باختصار. وهذا المجلد العاشر من الفتاوى حري بإدمان مطالعته وتكرار تفهمه، وقد عنونه الشيخ ابن قاسم بعلم السلوك.

جوزيات في الإرادة

ولتاج الواعظين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله تأملات ماتعة ومفيدة في أحوال النفس الإنسانية ونزاع العقل مع شهواتها وطيشها، من ذلك قوله:

«تأملت حرص النفس على ما منعت منه، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع، ورأيت في الشرب الأول أن آدم عليه السلام لما نُهي عن الشجرة؛ حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها. وفي الأمثال: المرء حريص على ما مُنِعَ، وتَوَّاق إلى ما لم ينل. ويقال: لو أمر الناس بالجوع لصبروا، ولو نُهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه! وقالوا: ما نُهينا عنه إلا لشيء. وقد قيل: أحب شيء إلى الإنسان ما مُنِعَا.

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين: أحدهما: أن النفس لا تصبر على الحصر، فانه يكفي حصرها في صورة البدن، فإذا حصرت في المعنى بمنع زاد طيشها. ولهذا لو قعد الإنسان في بيته شهراً لم يصعب عليه، ولو قيل له: لا تخرج من بيتك يوماً طال عليه!

والثاني: أنها يشق عليها الدخول تحت حكم، ولهذا تستلذ الحرام، ولا تكاد تستطيب المباح^(١)، ولذلك يسهل عليها التعبُّد على ما ترى، وتؤثره على ما لا

(١) ويروى عن أحد الشعراء المُجَّان وكان كفيفاً واعد جارية لفاحشة في مكان وزمان،

يؤثر» (١)(٢).

«وتأمل أمرًا عجيبًا، وأصلاً ظريفاً، وهو انهيار الابتلاء على المؤمن، وعرض صور اللذات عليه مع قدرته على نيلها، وخصوصاً ما كان في غير كلفة من تحصيله كمحبوب وموافق في خلوة حصينة. فقلت: سبحان الله، وهنا يبين أثر الإيمان، لا في صلاة ركعتين.

والله ما صعد يوسف عليه السلام ولا سعد إلا في مثل ذلك المقام، فبالله عليكم يا إخواني، تأملوا حاله لو كان وافق هواه من كان يكون؟

وقيسوا بين تلك الحالة، وحالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم زنوا بميزان العقل عُقبى تلك الخطيئة، وثمرة هذا الصبر، واجعلوا فهم الحال عُدَّةً لكم عند كل مشتبهى.

وإن اللذات لتعرض على المؤمن، فمتى لقيها في صف حربه وقد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هُزم.

وكأني أرى الواقع في بعض أشراكها، ولسان الحال يقول له: قف مكانك، أنت وما اخترت لنفسك!

=

وكانت الجارية صديقة لزوجته فأخبرتها عنه، فذهبت زوجته للميعاد ولم تتكلم حتى قضى وطره منها، فلما انتهى صاحت به: أفعلتها يا فلان؟ فأجابها بكل فسق: أهى أنت؟ ألا ما أَلَذَّكَ حراماً! نعوذ بالله من المنكر والفحشاء.

(١) وهذا أحد أسباب الإحداث في الدين لرغبتهم كسر قيود الشريعة.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٤٧).

فغاية أمره الندم والبكاء، فإن أَمِنَ إخراجَه من تلك الهوّة لم يخرج إلا مدهوناً بالخدوش، وكم من شخص زلّت قدمه فما ارتفعت بعدها! ومن تأمل ذلّة إخوة يوسف يوم قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨] عرف شؤم الزل، ومن تدبّر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيه من الفروق، وليس من رَقَعَ وخاط كمن ثوبه صحيح^(١)، ورب عَظُم هيض لم ينجبر، فإن انجبر فعلى وَهْي.

فتيقظوا إخواني لعرض المشتبهات والمشتبهات على النفوس، واستوثقوا من جُرم الخيل، وانتبهوا للغيم إذا تراكم بالصعود إلى التلعة، فربما مرّ الوادي فراح بالركب^(٢).

وقال: «قدرت في بعض الأيام على شهوة للنفس هي عندها أحلى من الماء الزلال في فم الصادي. وقال التأويل: ما ههنا مانع، ولا معوّق إلا نوع ورع. وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز، فترددت بين الأمرين؛ فمنعت النفس عن ذلك^(٣).

فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية من غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعي؟ فقلت لها: يا نفس والله ما من سبيل إلى ما تودّين ولا ما دونه؟

(١) ورب توبة يعود صاحبها خيراً منه قبل الذنب، ولكن أتى بالتوبة الصادقة النصوح

إلا بتوفيق العزيز الجليل؟!

(٢) صيد الخاطر (١٣٠، ١٣١).

(٣) قال ابن القيم: «ومن أعظم أسباب محبة الله تعالى تقديم محابّ الله تعالى على محابّ النفس، خاصة عند غلبات الهوى» المدارج (١٨/٣).

فتململت فصحت بها: كم وافقتك في مراد ذهبت لذته، وبقي التأسف على فعله؟! فقدري بلوغ الغرض من هذا المراد، أليس الندم يبقى في مجال اللذة أضعاف زمانها؟^(١) فقالت: وكيف أصنع؟ فقلت:

صبرتُ ولا والله ما بي جلادةٌ على الحب لكني صبرتُ على الرغم

وها أنذا أنتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل، وقد تركت ما في هذه الوجهة البيضاء، أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر فأسطره فيه إن شاء الله تعالى. فإنه قد يُعَجَّل جزاء الصبر وقد يؤخّره، فإن عجل سطرته، وإن أخرّ فما أشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه، فإنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

والله إني ما تركته إلا لله تعالى، ويكفيني تركه ذخيرة، حتى لو قيل لي: أتذكر يوماً أثرت الله على هواك؟ قلت: يوم كذا وكذا.

فافتخري أيتها النفس بتوفيق من وفّقك، فكم قد خذل سواك! واحذري أن تُخذلي في مثلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان هذا في سنة إحدى وستين وخمسمئة، فلما دخلت سنة خمسة وستين^(٢) عوّضتُ خيراً من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره.

(١) وقد توفي رحمه الله سنة ٥٩٧ فذهبت مرارة الصبر وبقيت لذة الأجر إن شاء الله. وإنا

به للاحقون والله المستعان.

(٢) أي بعد نحو أربع سنوات.

فقلت: هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه في الدنيا، ولأجر الآخرة خير والحمد لله»^(١).

«ونازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع، وقد جعلت تنصب لي التأويلات وتدفع الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة، فلجأت إلى الله في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلت على القراءة، وكان درسي^(٢) قد بلغ إلى سورة يوسف فافتتحتها، وذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ما أقرأ، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] انتبهت لها، وكأني خوطبتُ بها، فأفقتُ من تلك السكره، فقلت: يا نفس أفهمتي؟!»^(٣).

«وأكثر ما يوقع العاصي في الفتن مقاربتها، وقلّ من يسلم عند المقاربة، لأنه كتقديم نارٍ إلى حلفاء.

ثم لو ميّز العاقل بين قضاء وطره لحظة، وانقضاء باقي العمر حسرة على قضاء ذلك الوطر؛ لما قرب منه ولو أعطي الدنيا، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك.

آه كم معصية مضت في ساعتها كأنها لم تكن، ثم بقيت آثارها، وأقلّها ما لا

(١) صيد الخاطر (٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) أي ورده اليومي من القراءة.

(٣) السابق (٢١٠).

يبرح من المرارة والندم.

والطريق الأعظم في الحذر ألا يتعرض لسبب فتنة، ولا يقاربه، فمن فهم هذا وبالع في الاحتراز، كان إلى السلامة أقرب»^(١).

وقال: «إخواني، الدنيا غرارة غدارة، خداعة مكاراة، تُظنُّ مقيمة وهي سيّارة، ومُصالحَةٌ وقد شنت الغارة.

كأنك بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقي وعطف، تنبّه لنفسك يابن النطف، فقد حاذى الرامي الهدف.

ما للعيون قد أخلقت أنوارها؟ وكثر نظرها إلى الحرام فقل بكأؤها، وما للقلوب المريضة قد عزّ شفاؤها؟ هبّت والله دبورُ الذنوب، فتركت الأجسام بلا قلوب!

أين الفهم والتأمل؟ إن لم يكن جميلٌ فليكن تجملٌ، يا هذا، الدنيا وراءك، والأخرى أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة، إنما يعجب بالدنيا من لا فهم له، كما أن أضغاث الأحلام بُشرى النائم، لُعبُ خيال يحسبها الطفل حقيقة، وأما العاقل فيعلم ما وراء الستر.

كُلَّ الشرِّ في الشرِّه، واللذة خناق من عسل، ومن تبصّر تصبّر.

الحزم مطية النّجح، الطمع مركب التلف، التواني أبو الفقر، البطالة أم الخسران، التفريط أخو الندم، الكسل ابن عم الحسرة، وما يحصل برّد العيش إلا

(١) السابق (٢١٣).

بحرّ التعب، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدّ، على قدر الاجتهاد تعلو الرتب.

يا بعيداً عن المجاهدة، قد اقتسم الرعيل الأول النفل^(١)، أما ترى أسلاب
الهوى كيف يبيعها أربابها في سوق الافتخار بالنض^(٢) ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَفَى لَمْ أَخُنْهُ
يَالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]»^(٣).

«يا هذا، من اجتهد وجدَّ وجدَّ، ليس من سهر كمن رقد، والفضائل تحتاج
إلى وثبة أسد.

خَاطِرُ فَايَمَّا عَيْشَةً حُرَّةً يُرْغِدها العزُّ وإِذَا الحِمَامُ
زاحم على باب العلى واجتهد لا بد أن تدخل بين الزحام
من طلب الغاية خَطُوا على ظهر الهوينى رام صعب المرام

يا هذا، أوقد مصباح الفكر في بيت العلم تُلح لك الأعلام، ومن سدَّ ثغور
الهوى بجند الجد ملأ عين راحته يوم الطمأنينة، من دقَّ صراطُ ورعه عن
الشبهات، عَرَضَ الصراطُ له يوم الجواز. لله درُّ أقوام تأملوا الوجود ففهموا
المقصود، فالناس في رقادهم، وهم في جمع زادهم، والخلائق في غرورهم،
وعيونهم إلى قبورهم.

قال الإمام أحمد: لقد رأيت قوماً صالحين، رأيت عبد الله بن إدريس وعليه

(١) النفل: الغنيمة.

(٢) النض: القليل.

(٣) المدهش، ابن الجوزي (١/ ٢٩٧-٣٠٠) باختصار.

جُبَّةٌ من لُبود^(١) قد أتت عليها سنون، ورأيت أبا داود الجفري وعليه جُبَّةٌ مخرقة
قد خرج منها القطن وهو يصلي فيترنح من الجوع، ورأيت أيوب النجار وقد
خرج من كل ما يملكه، وكان في المسجد شاب مصفرّ يقال له: العوفي، يقوم من
أول الليل إلى الصباح يبكي.

إذا ما الخيامُ البيضُ لاحتْ لدى منى فعرّجْ فإنّنا بعدها بقليلِ
وكان حسان بن أبي سنان يحضر مجلس مالك بن دينار، فيبكي حتى يبلى ما
بين يديه، ولا يُسمع له صوت.

أجابَ دمعي وما الداعي سوى طللٍ دعاهُ فلبّاهُ قبل الركب والإبلِ
ظللْتُ بين أوصيحي أكفّفهُ فظلَّ يسفحُ بين العُذر والعَذلِ
وما صباةٌ مشتاقٍ على أملٍ من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملٍ

دموع المحبين عذراء في صحاري الشوق، يا كثيف الطمع، يبضّ الحمام
يُفرّق من صوت الرعد، ولا حسّ له، أُميئت أنت وهذه الصواعق حولك^(٢)؟



(١) لبود: جمع لبْد: كساء من شعر أو صوف.

(٢) السابق (٢/ ٤٧١-٤٧٣) باختصار.

قوة الإرادة

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: «المكارم راجعة إلى قوة الإرادة وكبح زمام النفس عن الإسامة في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالاً، أو عما يورث نقصاناً، فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلّم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر، ومما يؤثر عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشجاعة صبر ساعة. وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْكَلَابِيُّ يعتذر عن انهزام قومه:

سقيناهم كاساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبراً

وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر^(١)، فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحسي الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحداً من جنسها لا تراه ويفوقها في الخلقة، وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها»^(٢).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «وجملة القول: أن أعظم مزايا البشر في قوة الإرادة، فلولها^(٣) لكان الإنسان كالحیوان الأعجم عبد الطبيعة، ولذلك كانت

(١) وللصبر كتاب مستقل إن شاء الله تعالى.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٩) الطبعة التونسية.

(٣) بعد الله تعالى.

المرادة احتيالا لتمويل الإرادة، وجعلها خاضعة للمراود، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى، وفوق ذلك عناية الله تعالى، فتأمل وتدبر^(١).

وقال الشيخ عبد الله الغنيان في تعليقه على حديث النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»^(٢): «المقصود بالقوة هنا هي قوة الإرادة وفعل السبب، فهو قوي في إرادته مبادرٌ إلى ما أمر به، بدون توانٍ ولا فتور. هذا هو القوي الذي يحبه الله؛ لأنه قوي في إرادته وفي عمله الذي أمر به، ويعلم أنه عبدٌ مأمور يجب عليه أن يمتثل ويبادر»^(٣).

وها هنا ملحظ من دقائق الحكمة الشرعية المتعاضدة مع الحكمة الكونية، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ابتلى كل طائفة من عباده بجنس غريزتها وهواها المركوز فيها، فاختبرها الله شرعاً بما يوافق واقعها كوناً، فمن حباه الله بالقدرات العقلية الحادة القوية ابتلاه سبحانه وامتحنه بالاستسلام والانقياد والخضوع للوحي، والعمل بما فيه، إذ العمل شاقٌّ على أمثال هذه النفوس، ومن آتاه الله قوة

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٣).

(٢) مسلم (٢٦٦٤) فائدة: في الحديث لفظ «قدر الله» قال العلامة ابن باز رحمه الله: «قَدَرُ الله وما شاء فعل» وبعضهم ضبطها «قَدَّر الله وما شاء فعل» أي: قَدَّر الشيء الواقع، والمعنى الأول أظهر، أي أن هذا الواقع هو قدر الله، أي مقدور الله وما شاء فعل». شرح كتاب التوحيد (ص ٢٥٠).

قلت: وهو اختيار العلامة العثيمين كذلك، رحمهما الله تعالى.

(٣) شرح فتح المجيد، عبد الله الغنيان، الدرس (١٣٢) (ص ١٠).

الإرادة اختبره سبحانه وتعالى باتباع البرهان والحجة وعدم المغالاة في الرهبة تحقيقاً للذة روحية غريزية، إذ حبس النفس عن الاسترسال في الروحانيات فوق ما أمر الله به شاق على أمثال هذه النفوس.

فابتلى الله الأذكياء وأصحاب العقول بحمل النفس إلى العبودية، وابتلى الروحانية وأصحاب العبادة بحبس التعبد على هدي الرسول ﷺ واقتصاده وسننه، وقد وقع التنبيه لذلك في خاتمة الفاتحة بمثالي ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿الضَّالِّينَ﴾، فأبلغ دلالة عن طريق ضرب المثال^(١).

(١) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، مآلات الخطاب المدني (١٦٣/٥٧)، جمع وإعداد علي الشحود. وقال الشيخ إبراهيم السكران بعد ما ذكر ما بعاليه: ومن تأمل هذه الإشكالية الفلسفية، واتجاهات الناس فيها نظرياً وعملياً؛ انكشف له سر ذلك الزهد العميق لدى غلاة المدنية في قيمة (التفقه في الوحي) في مقابل الشغف والتفاني في الاطلاع على العلوم المدنية وتعظيم أصحابها، بل جعل فقه الشريعة أدنى المراتب باعتباره لا يدري أموراً معقولة ولا مدنية، وإنما قصاره أن يدرس تفاصيل الأمور العملية، كما قال الإمام ابن تيمية في الصنفية: «وأما العلم النظري فجعلوه هو الغاية بناء على أن كمال النفس في العلم، فرأوا الفقه هو العلم العملي، فجعلوه في أدنى المراتب».

وقال الشيخ في سبب ذلك وأصله تحت فصل: تنظيم الذهنيات: غلاة المدنية يُعظمون المعاني الذهنية القائمة على النظر والفكر والرأي وعويص المعاني ودقائق المفاهيم ونحوها ويفتحون لها الصوالين الفكرية والاستضافات الثقافية، ويتحدثون كثيراً عن لذة المعرفة ويجعلونها معياراً للناس والأفراد، وينزلونهم في الفضل بحسب براعتهم

فيها.

أما المعاني السلوكية القائمة على تركية النفوس، وتطهير إراداتها، ونهيها عن الهوى ودقائق معاملتها مع الله سبحانه وتعالى، والطريق إلى عبوديته، وأعمال القلوب ومقامات الإيمان ومدارج التعبد ونحو ذلك؛ فينظرون إليها باعتبارها قيمة شخصية ولا يطربهم الحديث عنها والتنافس في تحقيقها، ولا يعجبهم إقحامها في المجالس!

وما ذاك إلا لأن القوم أصحاب نظر لا أصحاب عمل، وأصحاب ذهنيات لا أصحاب إرادات، فمنزلة العقل عندهم مقدمة على منزلة القلب، بل لا منزلة للقلب بجانب العقل أصلاً، لذلك فالمعظم وصاحب الجاه عندهم هو صاحب المعارف النظرية والذهنية والعقلية، ومن يملك القدرات الفكرية الدنيوية والإمكانات الفلسفية، وأما ذلك الشخص التقي، الذي حباه الله بالعلم به سبحانه وتعالى، وقوة الإرادة بالانكباب على عبوديته، والاستعلاء على داعي الهوى والغريزة فينظرون إليه كشخص بسيط ساذج ويسمون في كثير من الأحيان «درويشاً» استخفافاً به، وزهداً في حاله، وأحياناً يفسرون إقباله على العبادة بسبب فشله في المعارف الفكرية لديهم!

وأصل هذه الحالة تعود إلى إشكالية فلسفية طرحت منذ أيام الفلسفة اليونانية، ولا زالت حية كفلسفة ضمنية، وإن كانت غير معلنة في شكل نظري منظم، وهذه الإشكالية الفلسفية يلخصها التساؤل التالي: بماذا يكون كمال النفس الإنسانية؟

والواقع أن الفلسفة اليونانية القديمة قد قدمت إجابة مبكرة على هذه الإشكالية لحّصتها في عبارتها الدارجة وهي أن كمال النفس الإنسانية يكون بالعلم بالمجهولات والإحاطة بالمعقولات. والفلاسفة المتقدمون يتكلمون كثيراً عن أقسام اللذات وجعلها ثلاثة أقسام، وذكر منها: اللذة العقلية، وتلك القاعدة الفلسفية في أن كمال النفس يكون بالعلم بالمجهولات تلقاها فلاسفة الإسلام المتقدمين كالفارابي وابن سينا ومن بعدهم

عن الفلسفة اليونانية، وتناقلوها مسلّمين بها، وبنوا عليها ما بعدها. وقد ناقش المحققون من علماء الشريعة هذه الفلسفة على ضوء الوحي الإلهي، وكشفوا تعارض هذه الفلسفة مع المنظور القرآني لكمال النفس الإنسانية؛ حيث بُنيت هذه الرؤية الفلسفية على أساسين: أولهما: أن الكمال بمجرد العلم، وثانيهما: أن أكمل العلوم هي المعارف العقلية والمدنية.

وهذان الأساسان باطلان مصادمان لأصول الوحي؛ فأما الأساس الأول: فإن الكمال في القرآن ليس بمجرد العلم، ولكن بالعمل بالعلم، وأما الأساس الثاني: فإن أكمل العلوم ليس المعارف العقلية والمدنية، وإنما العلوم الدينية بما تتضمنه من العلم بالله وكتابه والمعاد ونحو ذلك من المعاني والمضامين الراقية السامية. ويتلخص الرد على هذه الفلسفة كلها بآية واحدة من كتاب الله تعالى وهي قوله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فهذه الآية تضمنت جملتين، أولهما بينت أشرف العلوم وهو العلم بالالوهية الحقة، وثانيهما بيّنت أشرف الأعمال وهو العبودية.

وهذه الفكرة الفلسفية كان لها آثار ضخمة في بنية الفلسفة القديمة والحديثة، بل تكاد أن تجدها كالنواة المضمرة في كثير من الأطروحات المعاصرة، ولذلك قال ابن تيمية في درء التعارض: ونفس المقدمة الهائلة التي جعلوها غاية مطلوبهم وهو أن كمال النفس في كمال العلم بالمعقولات، مقدمة باطلة. وقال: وضلالهم من وجوه: منها: ظنّهم أن الكمال في مجرد العلم، والثاني: ظنّهم أن ما حصل لهم علم، والثالث: ظنّهم أن ذلك العلم هو الذي يكمل النفس، وكل من هذه المقدمات كاذبة. ثم أجاب في الصفدية (٢ / ٢٦) عن كمال النفس الإنسانية بقوله: فنفس عبادة الله وحده ومحبته وتعظيمه، هو من أعظم كمال النفس وسعادتها، لا أن سعادتها في مجرد

وقال الميداني: «للإرادة مستويات ثلاثة:

١. مستوى أدنى، وهو الذي يُراد من لفظ الإرادة عند الإطلاق.
 ٢. مستوى أوسط، وقد استعمل في الدلالة عليه أيضًا لفظ العقل.
 ٣. مستوى أعلى، ويمثل الإرادة القوية الحازمة الجازمة، التي تواجه العقبات بالثبات والصمود، وهذا من شأنه أن ينهض بالإنسان إلى معالي الأمور، ويوصله إلى مراتب الصابرين المحسنين المجاهدين، وأن يجعله في تنفيذ ما يريد من أهل العزم.
- ولقوة الإرادة أو العزم درجات أيضًا، إذ متفاوت أولو العزم فيما بينهم، وقد يصل ذلك في درجاته العليا إلى تنفيذ المراد حتى لو اقترن به أشد الصعوبات وأعظم الآلام.
- إن قوة الإرادة تمثل المرتبة العليا في سلم مستويات توجّه النفس إلى الأعمال الإرادية، ويسبقها درجات خمس هي:
١. توجّه النفس نحو الشيء المراد.
 ٢. الرغبة في حصول هذا الشيء.
 ٣. الهمّ بالتنفيذ.
 ٤. الإرادة الجازمة.

٥. تعقل الشيء المراد.

٦. العزم أو الإرادة القوية»^(١).

وقد أحسن حبيب الطائي - أبو تمام - إذ قال:

أعاذلتي ما أخشن الليل مركباً وأخشنُ منه في الملمات راكبه
ذريني وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه

ونظر معاوية إلى عسكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوم صفين فقال: من طلب عظيمًا
خاطر بعظيمته. وأشار إلى رأسه^(٢).

ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلَّه أن ينال
منه حاجته مخافة ما لعلَّه يُوقَّاهُ فليس ببالغ جسيمًا، وإن الرجل ذا المروءة ليكون
حامل الذكر خافض المنزل، فتأبى مروءته إلا أن يستعلي ويرتفع، كالشعلة من
النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا^(٣).

فيا ذا الهمة العالية، والعزة القعساء، البدار البدار في العمل لدار القرار قبل
فوائت الأعمار.

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً

(١) الأخلاق الإسلامية، الميداني (٢/ ١٢٨) (١/ ١١٤-١١٦)، عن نظرة النعيم (٨/ ٣١٩٦، ٣١٩٧).

(٢) العقد الفريد (٣/ ١٨).

(٣) السابق، عن النضرة (٨/ ٣٢٠٢).

ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً
وإذا تم للعبد علمٌ مرشد وإرادة صلبة فلا تسلك عن سعادته وفلاحه بتوفيق
الله تعالى له، وما نال أهل المراتب تيك الرتب إلا بعون الله لهم بالعلم والعمل،
والعلم مكنون في جوهر العقل، والعمل مبثوث في زوايا الإرادة، والله ولي
التوفيق وهو ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].



موعظة بليغة

أخي في الله، تدبّر القرآن المجيد، فقد دلّك على الأمر الرشيد، وأحضر قلبك لفهم الوعد والوعيد، والزم طاعة ربك، فهذا شأن العبيد، واحذر من غضبه فكم قصم من جبار عنيد ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

أين من بنى وشاد وطوّل، وتأمر على الناس وساد في الأوّل، وظنّ جهلاً منه أنه لا يتحوّل! هيهات، عاد الزمان عليهم سالباً فسقوا إذ فسقوا كأساً على إهلاكهم عوّل ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْحَلَقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

فيا من أنذره يومه وأمسه، وحادثه بالعبر قمره وشمسه، واستلب منه ولده وأخوه وعرضه وهو يسعى إلى الخطايا مشمراً وقد دنا رمسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

أما علمت أنك مسؤول عن الزمان، مشهود عليك يوم تنطق الأركان، محفوظ عليك ما فعلت في زمن الإمكان، محاسب على خطوات القدم وكلمات اللسان ﴿إِذْ يَنْتَقَى الْمَتَلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

فيا من يرى العبر بعينه، ويسمع المواعظ بأذنيه، والنذير قد وصل إليه، وكلماته تُحصى عليه ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فكأنك بالموت وقد اختطفك اختطاف البرق، ولم تقدر على دفعه عنك بمُلك الغرب والشرق، وندمت على تفريطك بعد اتساع الخرق، وتأسفت على

ترك الأولى، والأخرى أحقُّ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

ثم ترحلت من القصور إلى القبور على حائل العيدان والظهور، وبقيت وحيداً على ممرِّ العصور كالأسير محصور ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

فحيثُ أَعَادَ الأجسام مَنْ صَنَعَهَا، وضمَّ شتاتها بقدرته وجمعها، ونادى بنفخة الصور فأسمعها ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

فيهرب منك الأخ وينسى إخوانك، ويُعرض عنك الصديق ويرفض ولاءك، ويتجافاك الحبيب المعاشرُ صباحك ومساءك، وتلقى من الهول كلما أزعجك وساءك، فتنسى أولادك وتنسى نساءك ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وتجري دموع الأسف وابلاً ورذاذاً، وتنقطع الأكباد من الحسرات أفلاذاً، ويهبُّ لهيب النار على الفجار لا يجد العاصي ملجأً ولا ملاذاً ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣].

فيجازي العبد بفعله ولا يُظلم، ويتحسر الغافل على ما جنى ويندم، وتسيل الدموع على الأجفان كأنها جرت عن دمٍ أو عندم، ويأمرُ المولى بأخذ العصاة ويتقدم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَقَارِ عِتِيدٍ﴾ [ق: ٢٤].

وتقوم الزبانية إلى الفجار وتتبادر، وتسوقهم سوقاً عنيفاً والدمع يتحادر،

وتثبُّ النار على الفجار وثوب الليث إذا غضب وشاجر، فيذلُّ عند زفيرها كُلُّ من عَزَّ وفاخر ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦].

ويُنصب الصراط في أصعب الأماكن، وتنزعج لوضع الميزان القلوب السواكن، ويقع الخصام بين البائع والمبتاع في أعجب الأماكن ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فيقول الحق وفصلُ الأمر كله إليه، وانتصار المظلوم من الظالم عليه ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

أما أنذركم فيما مضى من الأيام؟! أما حذركم عواقب المعاصي والآثام؟! أما أمركم بتجنب الإجرام؟! أما أمركم بأخذ الحلال واجتناب الحرام؟! أما وعدكم بهذا اليوم في سالف الأيام؟! ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

فيا لهذا القول المهول، الذي يحار فيه العاقل والجهول، وتشخص الأبصار وتذهب العقول ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

فذلك يوم تُبور المنافقين، وسرورِ الموافقين، وسلامة الصادقين وفوز السابقين، والنار قد انطبقت على الفاسقين ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

فيا عشرة العاصين لقد صعب تلافيها، ويا حيرة المخلصين لقد تكامل صافيتها، إذا دخلوا جنة أشرق ظاهرها واستنار خافيتها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

فانظر يا عبد الله فَرَّقَ ما بين الفريقين بحضور قلب، واستَلَبَ زمن الصحة
 بفعل الخير أَيَّا سَلَبَ، فاللذات تَفْنَى ويبقى العار والثلب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى
 لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] (١).

بِسْمِ اللَّهِ

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان للشيخ إبراهيم بن عبيد آل
 عبد المحسن (٤٦٣-٤٦٦) بتصرف يسير.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

العزم



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

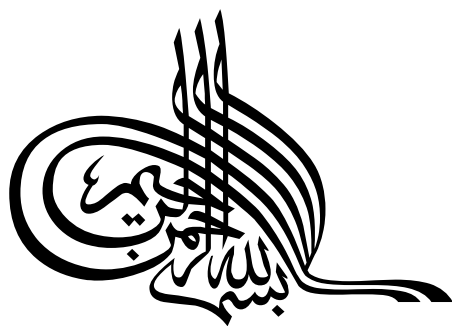
الكتاب رقم (٩)

العزم

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١١	فضل العزم على الخير وصفات أهله
٣٢	وقفه تدبر



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا - وله الحمد - خير أمة، وبعث نبينا رسولا مينا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على ما أنعم علينا بنعم لا نحصيها ولا نقوم بشكرها، اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، فيا ربنا لا تجعل مصيبتنا في ديننا إله الحق، واجعلنا من أهل العزم والعبادة والصلاة والقرآن والذكر والإحسان. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه. أما بعد؛ فهذه رسالة في العزم وأهميته وطرق تحصيله وعوائقه ونحو ذلك مما يحتاج إليه، أسأل الله تعالى العون والسداد والإخلاص والتوفيق، إن ربي رحيم ودود.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ٢ / ٩

aldumaiji@gmail.com

التعريف

من رام سفرًا بعيد المفاوز فلا بد له من أهبة تامة واستعداد وافر وصحة عزيمة متوقّدة، وسفر الآخرة حقيقٌ بشد عزائم القلوب لبلوغ جنات النعيم والفوز برضوان رب العالمين والنجاة من غضبه ومن عذاب الجحيم. فلا بد لكل سالك من عزيمة راسخة متمكنة مستمرة ليفلح وينجح ويغنم.

وهذا الكتاب مرتبط بكتاب الإرادة، فالعزم هو قوة الإرادة مع الثبات عليها.

«والعين والزاي والميم أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على الصّريمة والقطع.

يقال: عزمْتُ أعزُمُ عزمًا، ويقولون: عزمت عليك إلا فعلت كذا، أي جعلته أمرًا عزمًا أي لا مثنوية^(١) فيه. ويقال: كانوا يرون لعزيمة الخلفاء طاعة.

قال الخليل: العزم: ما عُقد عليه القلب من أمرٍ أنت فاعله^(٢)، أي: متيقّنه، ويقال: ما لفلانٍ عزيمة، أي ما يعزّم عليه، كأنه لا يمكنه أن يصرم الأمر، بل يختلط فيه ويتردّد»^(٣).

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]: «فإذا جدّ الأمر، ولزم فرض القتال. والعرب تقول: عزمْتُ الأمر، وعزمت عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

(١) المثنوية هي الاستثناء.

(٢) ونسبه في تهذيب اللغة إلى الليث، كذلك في اللسان.

(٣) معجم المقاييس (٧٤٢).

العزم

وقال الفراء في قوله تعالى في قصة آدم عليه السلام: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]: لم نجد له صريمة ولا حزمًا فيما فعل. وقال أبو الهيثم: العزيمة والصريمة واحدة، وهي الحاجة التي قد عزمت على فعلها، وفسرها قتادة بالصبر، يقال: طوى فلان فؤاده على عزيمة أمر؛ إذا أسرها في فؤاده^(١)، والفرق بين العزيمة والرخصة عند الأصوليين لها مباحث طويلة.

وقال الراغب: «العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمتُ الأمر وعزمت عليه واعتزمتُ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿وَلَا تَعَزِّمُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أي محافظة على ما أمر به وعزيمة على القيام^(٢).

وفي صحيح ابن خزيمة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «متى توتر؟» قال: أوتر قبل أن أنام. فقال لعمر: «متى توتر؟» قال: أنام ثم أوتر، فقال لأبي بكر: «أخذت بالحزم أو بالوثيقة» وقال لعمر: «أخذت بالقوة»^(٣)، فالحزم هو الاحتياط والقوة هي العزم.

(١) معجم تهذيب اللغة (٣/ ٢٤٢٥، ٢٤٢٦)، وانظر: لسان العرب (٦/ ٢٣٥-٢٣٧)، وانظر: القاموس (١١٥٢، ١١٥٣).

(٢) المفردات (٣٣٧).

(٣) صحيح ابن خزيمة (٢/ ١٤٥) (١٠٨٤) وصححه الألباني.

الفرق بين العزم والإرادة والهم:

قال الكفوي: «دواعي الإنسان إلى الفعل من خير أو شر على مراتب، منها: الإرادة، ومنها: الهمُّ بالشيء، ومنها العزم». وذكر الفروق بينها فقال: «الهم اجتماع النفس على الأمر، والإزمام عليه، والعزم هو القصد على إمضائه، فالهمُّ فوق الإرادة ودون العزم»^(١).

قلت: والإرادة لها مراتب تنتظم الرغبة والهم والعزم، وأعلاها الإرادة الجازمة التي تستلزم وقوع الفعل عند القدرة عليه، ويستحق صاحبها عليها الثواب أو العقاب.



(١) الكليات، الكفوي (٩٦١).

هل يوصف الله عز وجل بالعزم؟

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «وهو سبحانه يقدّر الأشياء ويكتبها، ثم بعد ذلك يخلقها، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله، وأراد فعله في الوقت المستقبل، لكن لم يرد فعله في تلك الحال، فإذا جاء وقته أراد فعله، فالأول عزم، والثاني قصد. وهل يجوز وصف الله تعالى بالعزم؟ فيه قولان؛ أحدهما: المنع كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى. والثاني: الجواز، وهو أصح؛ فقد قرأ جماعة من السلف: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] بالضم، وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة: «ثُمَّ عَزَمَ اللَّهُ لِي»^(١)، وكذلك في خطبة مسلم «فعزم لي»، وسواء سمي عزمًا أو لم يسم، فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها، وأراد أن يفعلها في وقتها. فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين، ونفس الفعل، ولا بد من علمه بما يفعله»^(٢).



(١) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم لأبي نعيم الأصبهاني (٢٠٥٨) (٣/ ٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٦٩٢) (١٦٩٤٤).

(٢) الفتاوى (٣٠٣/ ١٦)، ثم قال: «ثم الكلام في علمه بما يفعله؛ هل هو العلم المتقدم بما سيفعله، وعلمه بأن قد فعله هل هو الأول؟ فيه قولان معروفان، والعقل والقرآن يدل على أنه قدر زائد، كما قال: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في بضعة عشر موضعًا، وقال ابن عباس: إلا لنرى».

فضل العزم على الخير وصفات أهله

قال شمس الدين رحمه الله في منزلة العزم: «إذا استحكم قصده صار عزمًا حازمًا، مستلزمًا للشروع في السفر، مقرونًا بالتوكل على الله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، والعزم هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو، وحقيقة العزم: استجماع قوى الإرادة على الفعل.

والعزم نوعان: أحدهما: العزم على الدخول، والثاني: العزم في حال السير، وهو أخص» (١)(٢).

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٥٩).

(٢) هناك اصطلاحات يكثر ترددها في كتب أعمال القلوب والسلوك أرادوا منها تمييز بعض المعاني عن بعض، وهذه المصطلحات وإن لم ترد بمسمياتها في القرآن والسنة، إلا أن المقصود بها مثل المقصود بالمصطلحات الفقهية والأصولية والنحوية الأخرى، فالغرض منها تقريب العلم للسامع أو القارئ دون التعبد بها. لذلك فالحكم فيها بالإباحة ما لم تراحم مصطلحات شرعية أو يكون في مضمونها محذور شرعي، وهي كثيرة ولا ينتظمها حكم واحد، ومن أكثرها تداولاً مصطلحا الحال والمقام.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها،

كل يصف منازل سيره وحال سلوكه. ولهم اختلاف في بعض منازل السير هل هي من قسم المقامات أو من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما أن المقامات كسبية، والأحوال وهبية، ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل من كان أعظم مقاماً كان أعظم حالاً.

فمما اختلفوا فيه: الرضا هل هو حال أو مقام؟ وحكم بينهم بعض الشيوخ فقال: إن حصل بكسب فهو مقام، وإلا فهو حال.

والصحيح في هذا: أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوازم وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوِّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بُعد، فإذا نازلته وباشرها فهي أحوال، فإذا تمكّنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات. وهي لوازم ولوائح في أولها، وأحوال في أوسطها، ومقامات في نهايتها. فالذي كان بارقاً هو بعينه الحال، والذي كان حالاً هو بعينه المقام.

وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه، وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود! ومن المقامات ما يكون جامعاً لمقامين، ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك، ومنها ما تدرج فيه جميع المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه. (قلت: وتأمل تسمية ابن القيم للمنازل بالمقامات أيضاً).

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونها.

والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا، لا يتصور وجوده بدونها.

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

والخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة.

والإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية، لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما.

ومقام المحبة جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحققها.

والإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع.

والزهد جامع لمقام الرغبة والرغبة.

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته.

ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، لذلك كان أرفعها وأعلاها.

ومقام الحياء جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام الأنس جامع لمقام الحب مع القرب.

ومقام الصدق جامع للإخلاص والعزم.

ومقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية.

ومقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل والتفويض والرضا والتسليم.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون، فالأبرار في أذیاله، والمقربون في ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها، وكل من النوعين لا يحصي تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله» المدارج (١/ ٢٦٣، ٢٦٨) بتصرف يسير.

وقال: «واعلم أن ترتيب المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه إلى الثاني كمنازل السير الحسي، هذا محال! ألا ترى أن اليقظة معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة والعزم وكذلك التوبة، فإنها كما أنها من أول المقامات فهي أخص أيضاً، بل هي في كل مقام مستصحبة، كما قال تعالى في غزوة تبوك: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ

والعبد إذا عزم على فعل أمر فعله أن يعلم أولاً: هل هو طاعة لله أم لا؟
 فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة،
 وحينئذ يصير طاعة، فإن بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو مُعَانٌ
 عليه أم لا؟ فإن لم يكن معاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه، وإن كان معاناً عليه؛
 بقي عليه نظر آخر: وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو أفسد منه
 شيئاً، فهذه الأمور الثلاثة أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد:
 ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة: ٥، ٦]، فأُسعد
 الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عَدَمِ الأمور
 الثلاثة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ﴾ معدوم أو ضعيف، فهذا مخذول مهين محزون، ومنهم من يكون

يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿[التوبة: ١١٧]،
 فجعل التوبة أول أمرهم وآخره، كذلك الصبر لا ينفك عنه في مقام من المقامات، وإنما
 هناك منازل متوقفة على ثبوت ما قبلها، كالرضا يستحيل ثبوته بدون ثبوت الصبر قبله
 وهكذا» المدارج (١/ ٢٦١) باختصار.

وقال أبو حامد: «يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان
 عارضاً سريع الزوال، وكما أن الصفرة تقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة
 الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض؛ فكذلك صفات القلب
 تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب، وهذا
 جارٍ على كل وصف من أوصاف القلب». الإحياء (٢/ ١٤٣١) وقد سبق الكلام
 على شيء من هذا.

نصيبه من ﴿يَاكَ نَعْبُدُ﴾ ضعيفاً أو مفقوداً، فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً، كحال كثير من العباد والزهاد الذين قلَّ علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق»^(١).

«وليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدق في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ كَذَبُوا اللَّهَ لَكَانَ خِيراً لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزؤها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم.

فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل، وهو است فراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وألا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتزم من صحة الإخلاص وصحة التوكل، فأصدق الناس من صحَّ إخلاصه وتوكله»^(٢).

«وللعباد أقسام في سفرهم إلى ربهم؛ فالعبد من حين استقرت قدمه في هذه

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم (٢/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) الفوائد، ابن القيم (٢٧١، ٢٧٢).

الدار، فهو مسافر إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر.

فالكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحضره التسويف والوعد والتأخير والمطل، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته. فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، وطوّعت له نفسه الانقياد إلى التزوّد، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها، فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعدّه ليوم فاقتة وحاجته. فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا؛ فحيثئذ يحمد سراه، وينجلي عنه كراهه، فما أحسن ما يستقبل يومه، وقد لاح صباحه، واستبان فلاحه!

ثم إن الناس في قطع هذه المراحل قسمان: فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا مرحلة منها قربوا من تلك الدار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته، فهو لاء جعلت أيامهم مراحل يسافرون فيها إلى الدار التي خلّقوا لها، واستعملوا بعملها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم حتى يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّوهُمْ أَرْأَ﴾ [مريم: ٨٣]، أي

تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله تعالى وإلى دار السلام، وهم فيها ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصّر في الزاد، غير آخذ منه ما يبلغه المنزل، لا في قدره ولا صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوّده، ومع ذلك فهو متزوّد بما يتأذى به في طريقه، ويجد غبّ أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصد من الزاد على ما يُبلّغه، ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرباحة، ولم يتزود ما يضرّه، فهو سالم غانم، ولكن فاتته المتاجر الرباحة، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق للخيرات: همّهم في تحصيل الأرباح، وشدّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار ربحه الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدّخر شيئًا ممّا بيده ولا يتجر فيه، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة يكسب الدرهم فيها عشرة إلى سبعمئة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربه، يرى خسرانًا بينًا أن يمر عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذةً من تاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه: فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليله، استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحرّكت جوارحه طالبة لها ساعية فيها. فإذا زاحمتها حقوقُ ربّه فتارةً وتارةً؛ فمرة يأخذ بالرخصة، ومرة بالعزيمة، ومرة يُقدم على الذنب وترك الحقّ تهاونًا ووعداً بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما.

فإذا وَرَدَ القيامة مُيِّزَ ربحه من خسارته، وحُصِّلَ ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله عز وجل من وراء ذلك، لا يعدم عباده منه فضله وعدله.

وأما المقتصدون: فأدّوا وظيفة تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي لهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه، استقبلها بالطهور التام، والصلاة التامة في وقتها، بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشغلاً بها، قائماً بأعبائها، مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرّغ لنوافل العبادات، وأوراد الأذكار والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول، فهو كذلك سائر يومه وفي الليل كذلك، وإذا جاء الصوم الواجب

قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات: فهم نوعان: أبرار ومقربون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمّى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ الآية [فاطر: ٣٣]، هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات^(١)، أو يختص بالقسمين الأخيرين، وهما المقتصد والسابق؟ على قولين» ثم أطال النفس ﷺ في إيراد الأدلة والحجج ومناقشتها^(٢)، ثم قال: «ونكتة المسألة: أن الاصطفاء والولاية والصدقية، وكون الرجل من الأبرار والمتقين ونحو ذلك، كلها مراتب تقبل التجزئ والانقسام والكمال والنقصان، كما هو ثابت باتفاق السلف في أصل الإيمان، وعلى هذا

(١) أي في الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

(٢) حيث استغرقت الصفحات (١/ ٤٠٨-٤٤٢) من طريق الهجرتين.

فيكون الظالم لنفسه مصطفى من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر. وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفر. ونوع يبقى معه حصّة من الإيمان والاصطفاء والولاية، وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالاتها بحمد الله.

ثم قال ممهّدًا لوصف المقربين السابقين: «وأما السابقون المقربون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرّف منزلتهم والعلم بها»^(١)، ثم ذكرهم بكلام رائق ووصف شائق وعلم واسع وفقه عميق، وسنذكره بطوله عند الكلام عن التبتل والقنوت إن شاء الله تعالى.

وقال ﷺ: «النفس حجاب بين العبد وبين الله، لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب، وهي جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعاب وعقبات ووهود وشوك وعوسج وعُلق^(٢)

(١) طريق الهجرتين (١/ ٤٠٣-٤٠٨) (١/ ٢٤٦) باختصار. وانظر: التبيان في أيمان القرآن، ابن القيم (٣٥٤-٣٥٦).

(٢) العلق هو التوت البري. وفي العهد القديم - وهي التوراة المحرفة مع كتب الأنبياء - النص على أن الشجرة التي كلم الله منها موسى عليه السلام هي شجرة العلق.

وشبرق، ولصوص يقطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلّجين، فإذا لم يكن معهم عُدَّةُ الإيمان ومصابيح اليقين تتقدّ بزيت الإخبات، وإلا تعلّقت بهم تلك الموانع، وتشبّث بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير. فإن أكثر السائرين فيه قد رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته.

والشيطان على قُلَّةِ ذلك الجبل، يُحذّر الناس من صعوده وارتفاعه، ويُخوّفهم منه، فيتفق مشقّة الصعود، وقعود ذلك المخوّف على قُلَّتِهِ، وضعف عزيمة السائر ونيتِهِ، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع! والمعصوم من عصمه الله.

وكَلِّمَ رَقَى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّتِهِ؛ انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً، وحيثُئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يُفْضِي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام، وفيه الإقامة قد أُعدت لركب الرحمن.

فبين العبد وبين الفلاح وبين السعادة قوّة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»^(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «أيتها النفس! تدبري أمرَك وتأملي، ومثلي ما يبقى وما يفنى ولا تعجلي، لقد ضللت طريق الهدى فقفي واسألي، وآثرت هَوْنًا يُورث

والله أعلم بصحة ذلك.

(١) عن: إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك، عبد الكريم الحميد (٢٢٦)، (٢٢٧).

وهنا لا تفعل، يا غمرة من الشقاء ما أراها تنجلي، اتبع الهوى، والهوى عليّ ليس لي، أريد حياة نفسي، ونفسي تريد مقتلي، يا جسداً قد بلي، بما قد بُلي:

نخطو وما خطونا إلا الأجلِ وننقضي وكأن العمر لم يطلِ

يا مدنيين: مصيبتنا واحدة، وكل غريب للغريب نسيبُ.

من نام على فراش الكسل سار به سيل التماذي إلى وادي الأسف.

الرجولية قوة معجونة في طين الطبع، والأنوثية رخاوة.

ولد السبع عزيز الهمة، وابن الذئب غدار، وكلُّ إلى طبعه عائد.

الجدُّ كله حركة، والكسل كله سكون.

إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة حين يخرج من البيضة؛ فعلقه

بمنقاره فإذا تحرك فديكٌ، وإلا فدجاجة.

فتورُّك عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم.

يا من قد بلغ أربعين سنة، وكل عمره نومٌ وسنةٌ، يا متعباً في جمع المال بدنه،

ثم لا يدري لمن خزنه، أعلم هذه النفس الممتحنة؛ أنها بكسبها مُرتهنة، ألا يعتبر

المغرور بمن دفنه؟! كم رأى جباراً فارق مسكنه ثم سَكَنَ مَسْكَنَ مَسْكَنَةٍ^(١).

يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين من أخذ صفو ما أنتم في كدره؟

أما وعظكم في سيره بسيره؟ بلى قد حمل بريد الإنذار أخبارهم، وأراكم تصفحُ

الآثار آثارهم.

(١) المسكنة: الذلة والقلّة.

وحَدَّثْتُكَ الليالي أن شيمتها تفريقُ ما جمَعْتُهُ فاسمع الخَبْرَا
فكن على حذرٍ منها فقد نَصَحَتْ وانظر إليها تَرِ الآيات والعِبْرَا
فهل رأيت جديداً لم يُعَدَّ خَلْقًا وهل سمعتَ بصفوٍ لم يَصِرْ كَدْرَا
حُبُّ الدنيا خيال، تُغْرِ العُرَى، المتمسك بها يلعب بلُعبِ الشمس!

الدنيا كامرأة فاجرة، لا تثبت مع زوج، فلذلك عِيبٌ حلاؤها.

حَلَفْتُ لَنَا أَلَا تَخُونُ عَهْدَهَا فكأنَّما حلفت لَنَا أَلَا تَفِي
كم أفردت من أرفدت، وأخذت من أخدمت، وقللت من ألفت، وأفقرت
من أرفقت، وفارقت من رافقت، وقطعت من أقطعت؟! فعلها في التكدير كله
كذا، فإن أثرت الصفا فما في الزهد^(١) من أذى، وإن أردت القذى، فألقِ ذا.

يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات، وإذا أمسى انقلب إلى فراش
الغفلات، أين أنت من أقوام نَصَبُوا الآخرة بين أعينهم فنصبوا^(٢)، فوفرَّ النصبُ
نصيبتهم ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ^(٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ
الْأَخْيَارِ ﴿[ص: ٤٦، ٤٧].

يا سوق الأكل: أين أرباب الصيام؟! يا فرش النوم: أين حُرَّاسُ الظلام؟
دَرَسَتْ والله المعالم، ووقعت الخيام، قِف بنا على الأطلال، نخُصُّها بالسلام.

(١) مما يعين على مضاء العزيمة للآخرة؛ الزهد في الدنيا.

(٢) نصبوا: جدّوا واجتهدوا.

إذا الصَّبا سحبت أذيالها سحرًا على العقيق وقرَّت في رُبى إضم
وَحَرَّشَتْ بين بانِ الجَزَعِ ظالمةً وشيحه وجَرَّت في الضَّالِ والسَّلمِ^(١)
تنفَّسَ الوجدُ وارتاح المشوقُ لها وعاش بالروح بعد الأخذِ بالكَظَمِ
ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد طول السرى، ما نالوا لذَّة الراحة إلا بعد
مرارة التعب.

لو قَرَّب الدُّرُّ على جُلابه ما جَجَّ الغائِصُ في طلابه
ولو أقام لازمًا أصدافه لم تكن التيجانُ في حسابه
ما لؤلؤ البحر ولا مرجئه إلا وراء الهولِ في عُبابه
من يعشق العلياء يلقَ عندها ما لقي المحبوبُ من أحبابه
ما حظي الدينار بنقش اسم الملك حتى صبرت سيكته على التردد إلى النار،
فنفث عنه كل كَدَر، ثم صبرت على تقطيعها دنانير، ثم صبرت على ضربها على
السكة، فحيثُ ظهر عليها رقم النَّقش ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ﴾ [المجادلة:
٢٢].

من طلب الأنفَسَ هَجَرَ الألدَّ، من اهتم بالجواهر نسي العَرَضَ، «يا صفراء يا

(١) الشيخ: من رياحين البر، ورائحته طيبة ويكثر في نجد. والضال: واحدته ضالة، وهو شجر من فصيلة النبقيات. السلم: واحدته سلمة وهو شجر شائك من فصيلة القطنانيات، ويكثر في تهامة والحجاز، ويسمى عند بعضهم «السنط» ويكثر في سهوب أفريقيا وفي السافانا، ومن عروقه يستخرج القرظ للدباغ. وكان من اشتاق للحجاز ذكر السلم، ومن اشتاق لنجد ذكر العرار.

بيضاء غُرِّي غيري»^(١).

«يا معاشر التائبين ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، مكابدة البادية تهونُ عند ذكر مني، المضحى في بوادي^(٢) الجوع والمُعشى في بوادي السهر، إلى أن تلوح بوادي القبول، إن وَنْتُ في السير ركائبكم، فأقيموا حداة العزم تُدْلَجُ.

البين يا أهل المطايا البينا	لا يشتكي سوطك البطينا
يا حادييها من نُميرٍ عامرٍ	خُذا بها عن حاجرٍ ^(٣) يمينا
حُلّا على وادي الغضى- نُسوعها	وأرخيا برامة الوضينا ^(٤)
ردّا بها ماء العذيبِ علّها	تُشفَى وتُطفي داءها الدفينا ^(٥)
واستقبلا بالجزع أنفاس الصبا	أين استقلّ ^(٦) الجيرة الفادونا ^(٧)

(١) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة. والأثر رواه أحمد موقوفاً على علي رضي الله عنه.

وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣١٥).

(٢) بوادي: جمع بادية، وهي الصحراء.

(٣) حاجر: منزل للحاج في البادية.

(٤) وادي الغضا: وادٍ بنجد. النسع: سيرٌ ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال تشدّ به

الرحال. رامة: موضع ببادية القصيم بقرب الرس ولا زال باسمه حتى اليوم.

الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.

(٥) ردا: فعل أمر من الفعل يَرُدُّ. وورد الماء: أشرف عليه. العذيب: وادٍ شمال المدينة.

(٦) الجزع: قرية قريبة من المدينة النبوية. استقل: ركب وامتطى وسافر.

(٧) المدهش (١/ ٢٦٩ - ٢٧٤) باختصار.

«أين عزائم الرجال؟ أين صرائم^(١) الأبطال؟ تدعى وتتوانى! هذا مُحال.

أشتاقُكُمْ ويحولُ العزمُ دونَكُمْ فأدَّعي بُعْدَكُمْ عَنِّي وأعتذرُ
وأشتكي خطرًا بيني وبينكم وآية الشوقِ أن يُستصغَرَ الخطرُ

إن هممت فبادر، وإن عزمت فثابر، واعلم أنه لا يُدرك المفاخر من رضي
بالصف الآخر.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه: خُلِقْتُ لِي نَفْسٌ تَوَاقَةٌ، لَمْ تَزَلْ تَتَوَقَّ
إِلَى الْإِمَارَةِ، فَلَمَّا نَالَهَا تَاقَتْ إِلَى الْخِلَافَةِ، فَلَمَّا نَالَهَا تَاقَتْ إِلَى الْجَنَّةِ^(٢).

بدوتُ وأهلي حاضرون لأنني أرى أن دارًا لستُ من أهلها قفرُ
وما حاجتي للمال أبغي وفوره إذا لم يفر عِرْضي فلا وفر الوفرُ
وقال أضحابي الفرارُ أو الردى فقلتُ هما أمران أحلاهما مُرُ
سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدرُ
ولو سدَّ غيري ما سددتُ اكتفوا به وما كان يغلو التبرُّ لو نَفَقَ الصُّفرُ^(٣)
ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهمُّون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يُغْلِه المهرُ^(٤)

(١) صرائم: جمع صريمة، وهي العزيمة.

(٢) وتأمل العلاقة بين العزم وعلو الهمة.

(٣) التبرُّ: فئات الذهب والفضة قبل أن يُصاغَا. الصُّفر: النحاس.

(٤) الأبيات لأبي فراس الحمداني.

ابتليت الهمم العالية بعشق الفضائل، شجر المكاره يثمر المكارم.
متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السبع.

إذا استقام للجواد الشوط لم يُخَوِّج راكمه إلى السوط.

من ضرب يوم الوغى وجه الهوى بسهم؛ ضرب مع الشجعان يوم القسمة
بسهم.

من اشتغل بالعمارة، استغل الخراج. إذا طلع نجم المهمة في ظلام ليل البطالة،
ثم ردفه قمر العزيمة أشرق الأرض.

يا طالباً للدعة؛ أخطأت الطريق، علّة الراحة التعب، إن لم تكن أسداً في
العزم، ولا غزالاً في السبق، فلا تشعلب.

يا هذا! الجدد جناح النجاة، وكسلك مُزْمِنٌ.

من كدَّ كدَّ العبيد؛ تنعم تنعم الأحرار.

من امتطى راحلة الشوق؛ لم يشقَّ عليه بُعد السفر.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

يا فلان! ألك في مجاهدة النفس نيّة؟ أم النيّة نيّة؟

ما نفّشت غنم العيون النواظر، في زروع الوجوه النواضر، إلا وأغير على
السرح! والمتعرّض للنبلّة أبلّة.

إخواني! إلى متى سُكّر عن المقصود؟! ألا صحو ساعة؟!

مَثُلُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي غَفْلَتِهِمْ وَطُولِ أَمَالِهِمْ كَمَثَلِ الْحَاجِّ، نَزَلُوا مَنْزِلًا، فَقَامَ أَقْوَامٌ يَقْطَعُونَ الصَّخُورَ، وَيَبْنُونَ الْبُيُوتَ، فَقَالَ الْمُتَيْقِظُونَ: وَيَحْكُمُ! مَا هَذَا الْبَلَاءُ؟! الرَّحِيلُ بَعْدَ سَاعَةٍ.

لَوْ عَلِمَ الْوَرْدُ قِصَرَ عُمُرِهِ مَا تَبَسَّمَ، بَيْنَمَا هُوَ يَنْشُرُ بَزَّ رِيحِهِ فِي شِمَالِ الْبُكُورِ، بَزَّهُ النَّاطُورُ^(١) إِذَا هُوَ فِي زُجَاجَةِ الزُّورِ^(٢)، فَانْتَبَهَ أَنْتَ وَلَا تَغْتَرَّ بِزُورٍ.

إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ففِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ
تَرْوِجُ صَلَاةَ بَنِ أَشِيمٍ فَأَدْخَلَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَمَامَ، ثُمَّ أَدْخَلَ بَيْتَ الْمَرْأَةِ، وَقَدْ طُيِّبَ، فَقَامَ يَصَلِّيَ فَمَدَّ الصَّلَاةَ إِلَى الْفَجْرِ، فَعَاتَبَهُ ابْنُ أَخِيهِ فَقَالَ: إِنَّكَ أَدْخَلْتَنِي أَمْسَ بَيْتًا أَذْكَرْتَنِي بِهِ النَّارَ، ثُمَّ أَدْخَلْتَنِي بَيْتًا أَذْكَرْتَنِي بِهِ الْجَنَّةَ، فَمَا زَالَ فِكْرِي فِيهِمَا حَتَّى أَصْبَحْتُ»^(٣).

وَالْجِهَادُ وَالْمُجَاهِدَةُ لَا بَدَ لَهُمَا مِنْ وَقُودٍ عَزِيمَةٍ، فَعَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ النَّازِلَةِ يَحْتَاجُ الْعَبْدُ لِعَزِيمَةٍ رَافِعَةٍ.

وَرَايَةُ الْكُفْرِ إِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهَا	لَا تَيَأْسُنْ فَإِنَّ الْكُسْرَ لَا قِيَهَا
لَا يُسْنَدُ الْحَقُّ مِثْلَ الْعِزْمِ فَآتَ بِهِ	لَا يَنْصُرُ الْحَقُّ وَعَدًّا مِنْ أَعَادِيهَا
جَيْشٍ مِنَ الْكُفْرِ مَهْزُومٍ إِذَا صَدَقَتْ	نِيَّاتُ قَوْمِي إِلَى أَعَالِيهَا

(١) بَزَّهُ: قَطَعَهُ. النَّاطُورُ: حَارِسُ الْبُسْتَانِ وَالْقَيْمِ عَلَيْهِ.

(٢) الزُّورُ: مَجْلِسُ اللَّهْوِ وَالْغِنَاءِ.

(٣) الْمَدْهَشُ (١/ ٣٦٤-٣٦٨) بِاخْتِصَارٍ.

نمشي حفاةً على الرمضاء تأسُرنا فردوس ربي فلا الدنيا تدانيها
نمشي- بعزم وفي الأنفال شرعتنا يا أبلغ الله أجناداً أمانيتها

وتأمل أخي في الله هذا الدعاء العظيم الذي كان يقوله رسول الله ﷺ في صلاته، فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأَسْأَلُكَ شُكْرَ نعمتك، وحسن عبادتك، وأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ ما تعلم، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما تعلم، وأَسْتَغْفِرُكَ لما تعلم»^(١).

وقال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فإنه لا مستكره له»^(٢)، وقال ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله؛ فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلم بعطيته إلا الله، والذي أعطاه. وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعَدِّلُ به نزلوا فوضعوا رءوسهم فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي»^(٣)، ورجل كان في

(١) النسائي (٣/ ٥٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٥)، والحاكم ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه (٢٤١٦). وللحافظ ابن رجب رسالة خاصة في شرحه ضمن مجموع رسائله.

(٢) البخاري، الفتح (١١/ ٦٣٣٨). ومن أخطاء العامة في هذا الباب قولهم: غفر الله لك إن شاء الله، وشفاك الله إن شاء الله.

(٣) ورويت هذه الحال كثيرًا عن ابن باز رحمه الله تعالى في أسفاره.

سرية فلقى العدو فهزموا، وأقبل بصدرة حتى يُقتل أو يُفتح له. والثلاثة الذين يغضبهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم»^(١).

فتأمل - رعاك الله - أولئك الثلاثة الذين يحبهم الله تعالى، وما هو الجامع بينهم؟ إنه العزم بإخلاص. فالأول ضد ماله، والثاني ضد راحة جسده، والثالث ضد سلامة روحه. فكانت الجائزة محبة رب العالمين، نسأله سبحانه من فضله.

وتأمل قصة استشهاد أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢) وقول الله تعالى فيه وفي أصحابه: ﴿رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، كذلك قصة سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الباحث عن الحقيقة، والمتدين بالمجوسية ثم النصرانية حتى هداه الله للإسلام، في قصة عظيمة تدل على عظيم عزم الرجل وبقينه وحسن ظنه بربه^(٣)، وقصة سلمة بن الأكوع ورده سرح رسول الله ﷺ في الغابة^(٤)، والبراء بن مالك وخالد بن الوليد وصحابة رسول الله صلوات الله عليه ورضي عنهم وكيف كانوا أسياد أنفسهم عزيمة ومضاءً، فكانوا حقيقين بقول الله تعالى في المقربين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤].

(١) الترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له وصححه. وأحمد (١٥٣ / ٥)، وابن حبان (٣٣٤٩) وصححه الأرئوط.

(٢) البخاري، الفتح (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

(٣) انظرها بطولها في المسند (٤٤١ / ٥)، والبيزار (٢٦٨ / ٣).

(٤) وانظرها مطولة مع أخباره في الحديث وغيرها في مسلم (١٨٠٧).

وسمع عامر بن عبد الله بن الزبير . رحمه الله ورضي عن أبيه وجده . المؤذن وهو يجود بنفسه فقال : خذوا بيدي ، فقل : إنك عليل ، قال : أسمعُ داعي الله فلا أُجيبه ! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعة ثم مات ^(١) .

وكأنه للعزم ريح عاصفٌ وكأنه للحلم طود راکدٌ

ولما حاصر المسلمون القسطنطينية أقسم قسطنطين ألا يسلمها لهم ، وأن يدافع عنها حتى آخر حياته ، فإما أن يحتفظ بعرشها أو يُدفن تحت أسوارها ، فلما بلغ ذلك محمد بن مراد العثماني رحمه الله . محمد الفاتح . قال : حسناً ، عما قريب سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ ، أو يكون لي فيها قبر ^(٢) .

فالعابد والمتصدق والمجاهد والبارّ وطالب العلم كلهم يتتظمهم سلك العزيمة المضاء ، فإما عزمٌ فوصول بإذن الله ، وإما عجزٌ وخذلان عياداً بالله ، والله المستعان .



(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥ / ٢٢٠) .

(٢) محمد الفاتح، الرشيد (١١٩) .

وقفة تدبر

روى أبو نعيم والحاكم أن عمر بن عبد العزيز رحمته الله شيع جنازة من أهله، ثم أقبل على الناس فوعظهم وذكرهم الدنيا ودمها، وذكر أهلها وتنعمهم فيها، وما صاروا إليه بعدها من ظلمة القبر، وكان من كلامه قوله:

«إذا مررت بهم فنادهم إن كنت مُناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا، ومُرّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم، سَلْ غنيَّهم ما بقي من غناه؟ وسَلْ فقيرهم ما بقي من فقره؟ وسَلْهم عن اللسان الذي به يتكلمون؟ وعن الأعين التي كانوا بها إلى اللذات ينظرون؟ وسَلْهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان؟ مَحَتِ الألوان، وأكَلَتِ اللحمان، وعَفَتِ الوجوه، ومَحَتِ المحاسن، وكَرَّتِ القفا، وأبانت الأعضاء، وخرجت الأشلاء.

وأين حُجَّابُهم وقيانهم، وأين خدمهم وعبيدهم، وجمعهم وكنوزهم؟ والله ما زودوهم فرشًا، ولا وضعوا هناك مِسْكًَا، ولا غرسوا لهم شجرًا، ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا.

أليسوا في الحَلَوَات؟ أليس الليل والنهار عندهم سواء؟ أليس في مُدْلِهِمَّةٍ ظلماء؟ قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة.

وكم ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم بائنة، وأوصالهم مُتَفَرِّقة، وقد سالت الحديق على الوجنات، وامتلاأت الأفواه صديدًا،

ودبَّت دوابُّ الأرض في أجسادهم، وتفرّقت أعضاؤهم.

ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا؛ حتى عادت العظام رميًا، قد فارقوا الحدائق، وصاروا بعد السَّعة في المضائق، وقد تزوّجت نساؤهم، وتردّدت في الطرقات أبناءُهم، وتوزّعت القرايات ديارهم وميراثهم، فمنهم والله الموسّع له في قبره، والغصُّ الناضر فيه، والمتنعمُ بلذّته.

يا ساكن القبر غدًا! ما الذي غرّك من الدنيا؟ هل تعلم أنك تبقى لها أو تبقى لك؟ أين دارك الفيحاء، ونهرُك المضطرد؟ وأين ثمرتُك اليانعة؟ وأين رِقاقُ ثيابك؟ وأين طيبُك وبخورُك؟ وأين كسوتُك لصيفك وشتائك؟!

أما والله قد نزل به الأمر، فما يُدفع عنه، وخلا وهو يرشّح عرقًا، ويتلمّظ عطشًا، يتقلّب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء القدر والقضاء، هيهات وهيهات! يا مُغمّض الوالد والولد وغاسله، يا مكفّن الميت وحامله، يا مُخلّيه في القبر راجعًا عنه! ليت شعري؛ بأي جنبيك بدا البلى؟ يا مجاور الهلكى صرّت في محلة الموتى، ليت شعري ما الذي يلقيني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا، وما يأتيني به من رسالة ربي^(١) ثم انصرف، فما عاش بعد

(١) ورد أنه حين احتضر أخرج من كان عنده من أهله، وقال: إني لأرى رجالاً ما هم من أهل الدنيا، فلما خرجوا وأغلقوا الباب سمعوه يقرأ مستبشراً: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثم فاضت نفسه رحمه الله ورضي عنه.

ذلك إلا جمعة، رحمه الله تعالى» (١).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.



(١) عن عقود اللؤلؤ والمرجان، إبراهيم آل عبد المحسن (٣٩٣-٣٩٥).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقارُ إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُس بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الرجاء



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

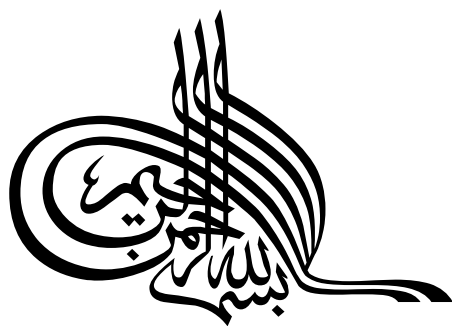
الكتاب رقم (١٠)

الرجاء

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
٩	الرجاء الصادق والفرق بينه وبين التمني
١٥	الرجاء والخوف والمحبة
٢١	فضل الرجاء ومنزلته
٤٤	ثمرات الرجاء
٤٧	درجات الرجاء



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله حمداً يليق بجميل فضله وعميم جوده وسابغ إحسانه، والصلاة والسلام والبركة على خيرته من خلقه ومصطفاه من عباده وخليله وكليمه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

أما بعد: فالرجاء باب واسع جميل، طيب الذكر، مستلذ المعاني، مستملح المباني، قد أقام الله تعالى دينه على ما فطر عباده عليه من الرغبة إليه فيما لديه، ورجائه والازدلاف إليه، فالدينُ مبنيٌّ على معاني غيبٍ وموعدٍ غيبٍ لم نره حساً، لكن قد رأيناه يقيناً بقلوبنا وعلومنا وأفهامنا. وهل ينتظر المؤمنون سوى رضوان الله وجنته! - ورؤيته من جنته - فالدينُ رجاءٌ كله. وهذا الكتاب في بيان ما يحتاجه المؤمن زاداً لقلبه في طريقه إلى الله والدار الآخرة مما يسر الله تعالى رقمه وتحريره، سائله سبحانه وبحمده لي وللقارئ ولوالدينا وأحبابنا والمسلمين فضله وعفوه ورفده ورضاه والجنة، إنه سميع قريب.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ٦ / ٥

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الرجاء والأمل والرغبة حداً يحدون المؤمن في سيره إلى ربه تعالى، فالرجاء وقود المسير، فإذا رأى المؤمن أعلام الآخرة بعيني بصيرته سارع وسابق وقصر عليه الطريق، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

والرجاء ظنّ حصول ما فيه مسرّة. والراء والجيم والحرف المعتل أصلان متباينان، يدلّ أحدهما على الأمل - وهو مرادنا بهذا الباب - والآخر على ناحية الشيء. فالرجاء: الناحية من البئر، وكل ناحية رجاء، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، فالجمع أرجاء، والمثنى رجوان.

فالرجاء هو الأمل وترك الهمز لغة. يقال: رجوتُ الأمر أرجوه رجاءً. ثم يتسع في ذلك فربما عبّر عن الخوف بالرجاء، قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أي: لا تخافون له عظمة، وقيدها الأزهري بأن يأتي معه حرف نفي. وقال الفراء: ولم نجد معنى الخوف يكون رجاءً إلا ومعه جحد، كقول الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] أي لا يخافون أيام الله، ولا يجوز رجوتك، وأنت تريد خفتك، ولا خفتك وأن تريد رجوتك.

وناسٌ تقول: ما أرجو. أي: ما أبالي، وفسروا الآية على هذا. وذكروا قول أبي ذؤيب الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النُّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلٍ
قالوا: معناه لم يكثرث. ويقال للفرس إذا دنا نتاجها: قد أُرْجَتْ تُرْجِي
إِرجاء، قال الشيباني: أُرْجَات.

وأما المهموز فيدل على التأخير، يقال: أُرْجَأْتُ الشيء: أَخْرَتُهُ، قال الله جل
ثناؤه: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَأَخْرُوبُكَ مُرْجَوْنَ
لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦]، وقرئ: مرجئون لأمر الله. وقرئ: ﴿أَرْجَهُ وَأَخَاهُ﴾
[الشعراء: ٣٦] «أَرْجِئْهُ وَأَخَاهُ». ومنه سميت المرجئة؛ لأنهم أُرْجَأُوا العمل، أي
أَخْرَوْهُ عَنْ مَسْمَى الْإِيْمَانِ.

وقال الليث: الرجاء ممدود، وهو نقيض اليأس، والفعل منه: رجا يرجو،
ورجى يَرْجَى، وارتجى يرتجى، وترجى يترجى، قال: ومن قال: فعلت ذاك رَجَاءً
كذا فهو خطأ، إنما يقال: رجاء كذا^(١).



(١) معجم المقاييس (٤٢٣، ٤٢٤)، معجم التهذيب (٢ / ١٣٦١، ١٣٦٢)، اللسان
(٤ / ٦٧)، المفردات (١٩٤)، القاموس (٦٤٧).

الرجاء الصادق والفرق بينه وبين التمني

«الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه؛ فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها؛ فاسم الغرور عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود، ولا معلومة الانتفاء؛ فاسم التمني أصدق على انتظاره؛ لأنه انتظار من غير سبب»^(١).

«ولا يُطلق اسم الرجاء والخوف إلا مع التردد، أما مع القطع فلا. فلا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها؛ لأن ذلك مقطوع به. ويقال: أرجو نزول المطر، وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الآبار وسياقة الماء إليها، والقلب المستغرق بالدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلماً ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا تنمو بذرة في أرض سبخة.

(١) الإحياء (٢/ ١٤٣٢).

فينبغي أن يُقاس رجاءُ العبد المغفرة والرحمة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوّس، ثم أمده بما يحتاج إليه من سوق الماء في أوقاته، وإزالة الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات الأرض أو يفسده ونحو ذلك، ثم جلس منتظراً فضل الله تعالى من دفع الآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سُمّي انتظاره رجاء.

وإن بثّ البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة، لا ينصبّ إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه، سُمّي انتظاره غروراً لا رجاء.

وإن بثّ البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب مياه الأمطار، وكانت في غير مواسمها، ولا تمتنع، سُمّي انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذا اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب عهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ثم تلطفه بالقبول وفوق ذلك كله رحمته وغفرانه.

والعبد إذا بثّ بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية بفضل الله إلى المغفرة، وكان انتظاره رجاءً حقيقياً باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان وفي إتمام أسباب المغفرة إلى الموت. وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب الدنيا ثم انتظر المغفرة؛ فانتظاره غرور، قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وذمَّ الله سبحانه صاحب البستان إذا دخل جنته وقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿[الكهف: ٣٥، ٣٦].

فإذن العبدُ المجتهد في الطاعات، المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط فيه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة، وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية، تسوء السيئة وتسره الحسنة، وهو يذم نفسه ويلومها، ويشتهي التوبة ويشتاق إليها؛ فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] أي أولئك يستحقون أن يرجون رحمة الله، وليس معنى ذلك تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجوه، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء. وأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى، ولا يذم نفسه عليه، ولا يقوم على التوبة والرجوع، فرجاؤه المغفرة غرور كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على ألا يتعهده بسقي ولا تنقية.

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التهادي في الذنوب مع رجاء

العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله من غير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع التفريط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومطنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان. فإن مَنْ حَسَنَ بذره، وطابت أرضه، وغُزِرَ مأوؤه؛ صدق رجاءه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدتها، وتنحية كل حشيش ينبت فيها، فلا يفتر عن تعهدتها أصلاً إلى وقت الحصاد. وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء معوز، وأن البذر لا ينبت؛ فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدتها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم لأنه ضده وهو صارف عن العمل. والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له، فهو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة.

فإذن طول الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.

ومن آثار الرجاء: التلذذ بدوام الإقبال على الله، والتنعم بمناجاته، والتلطف بالتملق له، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو مَلَكًا من الملوك أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟

فإذا كان لا يظهر فليستدل به على مقام الحرمان من مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني»^(١).

إذن فالتمني يكون مع الكسل، فلا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، أما الرجاء فيكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

«والرجاء حادٍ يحدو القلب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيبُ لها السير.

وهو استبشار بجود وفضل الله تبارك وتعالى، وارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وهو ثقة بجود الرب تعالى.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصحّ إلا مع العمل.

قال شاه الكرمانى: علامة صحة الرجاء؛ حسن الطاعة. فالرجاء ثلاثة أنواع، نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنباً ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة الله وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه، وقد يجتمعان.

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا ليس برجاء في الحقيقة بل هو محض غرور وتمني.

(١) الإحياء (٢/ ١٤٣١-١٤٣٣) بتصرف.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله؛ يفتح عليه باب الخوف، ونظرٌ إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره، يفتح عليه باب الرجاء. ولهذا قيل في حدّ الرجاء: هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى»^(١).

وقال ابن حجر رحمته الله: «المقصود من الرجاء: أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها. وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذه بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع، وتحاف ألا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو»^(٢).



(١) المدارج (٢/ ٢١٨).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١١ / ٣٠١).

الرجاء والخوف والمحبة

«قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حكم الموت. وقال أبو عبد الله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لكرم المرجو. وقال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وروي أن لقمان قال لابنه: يا بني خف الله خوفاً لا تأمن فيه مكره، وارجه رجاءً أشد من خوفك»^(١).

وقال الغزالي: «إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يُقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود»^(٢).

أما ابن القيم فقد أضاف لهذا الطائر رأساً هو المحبة.

«وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجياً لتمام النعمة عليه من الله في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا، أي الرجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه، أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟

(١) عوارف المعارف (٢١٤٠).

(٢) الإحياء (١/١٤٢).

فرجحت طائفة رجاء المحسن لقوّة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب؛ لأنه رجاء مجرّد عن علّة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب»^(١).

قلت: إنّما المعوّل صدق الرجاء وما يصاحبه من حسن ظن بالله وسوء ظن بنفسه، مع بذل الجهد في إحسانه وتكميله. وإن كان الإخلاص في ترك الذنب أسهل منه في العمل الصالح المستأنف.

وقال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأنني أجدني أعتد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفّيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف^(٢)؟

(١) المدارج (٢/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) وفي المدارج علّق ابن القيم رحمته الله على شطحة للهروي رحمته الله في منزلة الرجاء حيث تكلم بكلام مفاده الزهد في الرجاء وأنه أضعف المنازل ونحو ذلك. فقال ابن القيم: «شيخ الإسلام - أي الهروي - حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم عليه السلام فمأخوذ من قوله ومترك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبين ما فيه. ثم بين وجه كلامه وحمله على أحسن المحامل ثم قال: هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة، وقوّة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

=

إحداهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة - أي المتصوّفة - ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأهدرت محاسنه؛ لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت مصالحها. (قلت: ولا يدخل في هؤلاء من أشرك شركاً أكبر فوقع في بدع مكفرة، كدعاء غير الله).

الثانية: حُجّبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء نفوسهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها؛ فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلوم، ولا للمعلوم السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد.

قلت: والكمال إنما هو في اتباع سلف الأمة والصحابة ومن تبعهم بإحسان، فإنما تحمد الطائفة أو تدم بقدر قربها وبعدها عن هذا المعيار النبوي، فالاتباع توفيق، والإحداث خذلان.

ثم قال ﷺ: «وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذّر منها سادات القوم وذمّوا عاقبتها، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته أن أبا سليمان الداراني رؤي بعد موته، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وما كان شيء أضّر علي من إشارات القوم. وذكر عن الجريري أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسيّحات كنا نقولها بالغدوات.

وقال الحافظ ابن كثير رحمته الله في تفسيره لقول الله تعالى ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]: «يقرر الله هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن، ليبقى العبد بين الرجاء والخوف»^(١).

«وقال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فالخشية أبداً متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله. وقد روي عن أبي حيان التيمي رحمته الله أنه قال: العلماء ثلاثة؛ فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه، وفي الصحيح^(٢)

وقال أبو سليمان الداراني: تُعرض علي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل: الكتاب والسنة. وقال الجنيد: مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث؛ لا يُقتدى به في طريقنا». المدارج (٢/ ٢٢٠-٢٢٥) باختصار.

قلت: وتأمل حال هذين الجليلين، واجتهادهما في العبادة، وإشهارهما لاشتراط الكتاب والسنة في طريقتهما، ثم تأمل جوابهما في المنام لمن سألهما عن حالهما، والرؤيا المنامية ليست بدليل عندنا إنما هي تسر المؤمن ولا تغره، وهي بشارة ونذارة وبقية نبوة إذا صدق الرائي ووفق المعبر.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٢) البخاري (٢٠) مسلم (١١٠٩).

عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»^(١).

«فالخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن، لأن كل خائف راجٍ، وكل راجٍ خائفٌ، ولهذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف كما قال ربنا تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي لا تخافون لله عظمة. فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه، فانظر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن. والخوف بلا رجاء: يأس وقنوط. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤] لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴿أي: لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك﴾^(٢).

«وعلى حسب قوة المحبة يكون الرجاء، فكل محب خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرده محبوبه له، وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوفٍ، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبرّه وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٧/ ٢١، ٢٢).

(٢) سلسلة أعمال القلوب، المنجد (٧٥).

حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء وأجلّه وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حالتهما»^(١).



(١) المدارج (٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).

فضل الرجاء ومنزلته

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر الله تعالى مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناء الإيمان: الحب، والخوف، والرجاء. وقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنَّ بربه»^(١)، وفي الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»^(٢).

فالرجاء من أجل منازل السائرين إلى الله تعالى، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله تعالى، وقد مدح الله أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) مسلم (٢٨٧٧).

(٢) أحمد (٤٩١ / ٣) وأصله في الصحيحين.

وفي الحديث الإلهي الصحيح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»^(١)، وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا، اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا، اقتربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢).

«وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى؛ أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ٥٦ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقربون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟! فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

والرجاء عبودية لله تعالى، وتعلق به من حيث اسمه: المحسن البرُّ. فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله؛ هو الذي أوجب للعبد الرجاء من

(١) الترمذي (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب (١٦١٦): حسن لغيره.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٠٢)، مسلم (٢٦٧٥).

حيث يدري، ومن حيث لا يدري، فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه.

ولولا رَوْحُ الرجاء؛ لَعُطِّلَتْ عبودية القلب والجوارح، وهُدِّمَتْ صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، بل لولا رَوْحُ الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسراً وتمزقاً
وكذاك لولا برده بحرارة	الأكباد ذابت بالحجاب تحرقاً
أ يكون قط حليف حب لا يرى	برجائه حبيبه متعلقاً
أم كلما قويت محبته له	قوي الرجاء فزاد فيه تشوقاً
لولا الرجا يحدوا المطي لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وبالجملة؛ فالرجاء ضروري للمؤمن، ولو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها، فالرجاء من أعظم المنازل في السير إلى الله تعالى.

والراجي راغب راهب، مؤمل لفضل ربه وحسن الظن به، متعلق بالأمل ببرّه وجوده، عابد له بأسمائه؛ المحسن، البر، المعطي، الحليم، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق، والله سبحانه يحب من عبده أن يرجوه، ولذلك كان عند رجاء

العبد له، وظنه به.

والرجاء من أعظم الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، بل هو من أقوى الأسباب، والرب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفى بعقابه، ولا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة، لا ينقص مغفرته، ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه، كيف، والرحمة أوسع من العقوبة، وأسبق من الغضب، وأغلب له؟ وهو قد كتب على نفسه الرحمة. فرجاء العبد لا ينقص شيئاً من حكمته، ولا ينقص ذرة من ملكه، ولا يخرج عنه كمال تصرفه، ولا يوجب خلاف كماله، ولا تعطيل أوصافه وأسمائه، ولولا أن العبد هو الذي سدّ على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه؛ لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمّله.

وقوّة رجاء العبد توجب له الاستسلام لربه والانقياد له والانطراح ببابه، ولا يتصوّر هذا بدون رجاء البتة، فالرجاء حياة الطلب، والإرادة روحها^(١).

وتأمل رعاك الله هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وهذا العرض لصفاتهم متضمن لإجابتها برحمة الله، وقال جل شأنه في أعظم آية في شأن أهل القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، فهل من مشمر؟!

(١) المدارج (٢/ ٢٢٧-٢٤٠) باختصار.

وقال سبحانه وبحمده في شأن أهل الليل والإدلاج: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتُّ عَانَاءَ
الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَبِ﴾ [الزمر: ٩] وما أجمل رجاء أهل الأسحار!

وقال الغفور الرحيم سبحانه: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:
٥٣]، وهذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله تعالى، وتحتها من المعاني الرجائية ما
يفوق الوصف ويربو على الحصر، فتأمل نداءه سبحانه عباده ووصفهم بالعبودية،
فمهما جنوا على أنفسهم فهم عبيده وهو ربهم ومولاهم، ﴿يَعْبادِي﴾، وقال:
﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي غرقوا في لجج الذنوب وبحار المعاصي، فاقترفوا
الكبائر بإسراف، فيأتيهم النداء الرحامي: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، الله أكبر
ولله الحمد، فبعد وصفهم بالإسراف . وهو تجاوز الحد . أرشدهم لحسن الظن
بمولاهم، وألا ييأسوا من رحمته وفضله وعفوه وغفرانه، ثم بين سبب ذلك
بأحسن بيان وأرق عبارة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، فكل ذنب مهما عظم
فليس هناك ما يمنع من غفرانه، حتى الشرك بالله تعالى وهو أعظم الذنوب على
الإطلاق إذا أتبعه المذنب بتوبة نصوح، فالتوبة تَجِبُ ما قبلها، والإسلام يهدم ما
قبله.

ثم ختم هذه الآية اللطيفة المشعة بنور الرجاء المطلية بلباس الطمأنينة
والسكينة بذكر اسمين رقيقين من أسمائه يوافقان معنى هذه الآية، مؤكداً ما
يشتملانه من معانٍ بـ«إن» وحصرها بـ«هو»، فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا

الأسلوب في ختم الآيات القرآنية بأسماء حسنى تناسب صدر الآية مُطَرَّد في الكتاب العزيز كما حرر ذلك العلامة السعدي رحمه الله تعالى، في القواعد الحسان .

وقال الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وقد وقف على أناسٍ جلوس: «ألا أخبركم بخيركم من شرِّكم؟» فسكتوا. فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله، أخبرنا بخيرنا من شرِّنا. قال: «خيركم من يُرجى خيره، ويؤمن شرّه، وشرِّكم من لا يُرجى خيره ولا يؤمن شرّه»^(١) والجزاء من جنس العمل.

وقال بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند صلاة الفجر: «يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دفّ نعليك»^(٢) بين يدي في الجنة» قال: ما عملتُ

(١) الترمذي (٢٢٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني والأرنؤوط.
(٢) دف نعليك: أي صوت تحريك نعليك في خطواتك في الجنة. وعند مسلم: «خشف نعليك»، وليس في هذا استحالة، فإن الغيب المستقبل لله تعالى كالحاضر والماضي سواء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وقد يكون أرى رسول الله ﷺ وكشف له بعض ما في المستقبل من رؤية بلال يسير في الجنة وسماعه لدف نعليه. ولا يمتنع أن يكون رأى روحه أو أنها رؤيا منامية، أو غير ذلك. والله على كل شيء قدير.

قال ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٥) (١١٤٩): «وقال الكرمانى: ظاهر الحديث أن السماع المذكور وقع في النوم؛ لأن الجنة لا يدخلها أحد إلا بعد الموت. ويُحتمل أن يكون يقظة لأن النبي ﷺ دخلها ليلة المعراج، وأما بلال فلا يلزم من هذه القصة أنه دخلها؛ لأن قوله: «في الجنة» ظرف للسمع، ويكون الدف بين يديه خارجاً عنها.

عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي^(١).

وفي حديث غزوة بدر قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يُقدمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»^(٢)، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بَخِ بَخِ^(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «ما يملكك على قولك بخ بخ» قال: لا، والله يا

ولا يخفى بُعد هذا الاحتمال لأن السياق مشعر بإثبات فضيلة بلال لكونه جعل السبب الذي بلغه إلى ذلك ما ذكره من ملازمته التطهر والصلاة. وقد وقع في حديث بريدة المذكور: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟» وهذا ظاهر في كونه رآه داخل الجنة، ويؤيد كونه في المنام حديث جابر مرفوعاً: «رأيتني دخلت الجنة فسمعت خشفة فقيل هذا بلال، ورأيت قصرًا بفنائها جارية فقيل هذا لعمر» ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ لأنه في مقام التابع، وكأنه أشار إلى بقاء بلال على ما كان عليه في حال حياته واستمراره على قرب منزلته، وفيه منقبة عظيمة لبلال». اهـ. باختصار.

(١) البخاري (١١٤٩)، الفتح (٣/ ١١٤٩).

(٢) أي متقدماً عليه في ذلك الشيء، وهذا من حسن سياسته في الحرب وقوة حزمه وشجاعته عليه الصلاة والسلام.

(٣) بخ بخ: كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وتنطق بالسكون وبالجر وبالتنوين.

رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمراتٍ من قرنيه^(١) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة! قال: فرمى بها كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»^(٣). وقال ﷺ: «أربعون خصلةً أعلاهنَّ منيحةُ العنز، ما من عاملٍ يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»^(٤). وتأمل ربط الرجاء بالتصديق.

وقال ﷺ في حديث من أعظم أحاديث الرجاء، فمن قرأه وسمعه هبت نسائم الفرح على فؤاده: «قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٥). وتأمل شؤم الشرك، وبركة

(١) القرَن: جُعبة السَّاب.

(٢) مسلم (١٩٠١).

(٣) الترمذي (٩٨٣) وقال: حسن غريب. وجوّد النووي إسناده.

(٤) البخاري (٢٦٣١)، الفتح (٥ / ٢٦٣١).

(٥) الترمذي (٣٥٤٠) وحسنه. وللحديث شواهد عن أبي ذر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التوحيد. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا أحسن أحدكم إسلامه؛ فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وكل سيئة تكتب له بمثلها»^(١). وتأمل كيف أطلق الحسنات فلم يقيدوها بالصدقة، فله الحمد كله. وتأمل أهمية إحسان الإسلام^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش^(٣) على ولدها. وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»^(٤).

(١) متفق عليه. البخاري، الفتح (١/ ٤٢)، مسلم (١٢٩).

(٢) وللإحسان كتاب مستقل إن شاء الله.

(٣) الوحش: كل ما لم يُستأنس من الحيوان.

(٤) متفق عليه. البخاري، الفتح (١٠/ ٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢) واللفظ له. وقال شيخ الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان ما يضاف إلى الله تعالى في معرض كلامه عن حديث «الريح من روح الله» قال: أي من الرُّوح التي خلقها الله، فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف. إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها؛ فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله. فالأول: كقوله تعالى: ﴿نَافََةَ اللَّهُ وَسُقْيَهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] وهو جبريل، وقال عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

والثاني: كقولنا: علم الله، وكلام الله، وقدرة الله، وحياة الله، وأمر الله. لكن قد

وقال ﷺ: «تَلَقَّتْ الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تذكّر. قال: كنتُ أداين الناس، فأمر فتياي أن يُنظروا المعسر، ويتجاوزوا عن المؤسر. قال: قال الله عز وجل: تجاوزوا عنه»^(١).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبِيٌّ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسعى^(٢)، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: «للهُ أرحم بعبدِه من هذه بولدها»^(٣)، فلا إله إلا الله

=

يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به، فيسمى المعلوم علماً، والمقدور قدرة، والمأمور أمراً، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقاً، كقوله: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْعَاجُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده»، ومنه قوله في الحديث الصحيح للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي» كما قال للنار: «أنت عذابي أعذب بك من أشياء، ولكل واحدة منكم ما ملؤها» مجموع الفتاوى (٩ / ٢٩١) باختصار يسير.

(١) متفق عليه، البخاري، الفتح (٤ / ٢٠٧٧)، مسلم (١٥٦٠) واللفظ له.

(٢) أي سال ثديها بالحليب إشفافاً وحناناً.

(٣) متفق عليه، البخاري، الفتح (١٠ / ٥٩٩٩) واللفظ له، مسلم (٢٧٥٤).

ما أعظم رحمة الله! وقد اشتق من الرحمة اسمين رقيقين من أسمائه: الرحمن الرحيم، ووصف نفسه بأن رحمته وسعت كل شيء، وأنه قد كتب على نفسه الرحمة، فهل تُرجى الرحمة من سواه؟!

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت ردف^(١) النبي ﷺ على حمار يقال له: عَفِيرٌ، فقال: «يا معاذ، هل تدري حَقَّ الله على عباده، وما حَقُّ العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر الناس؟ قال: «لا تبشّرهم فيتكلموا»^(٢).

«قال ابن رجب: قال العلماء: يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلموا على أحاديث الرخص لذلك فلا تشاع في عموم الناس، لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها. وقال: وقد سمعها معاذ فلم يزد إلا اجتهداً في العمل، وخشية لله عز وجل، فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر، اتكالا على ظاهر الخبر»^(٣).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره أخباراً في الرجاء: «فهذه هي الأسباب التي بها يُجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوها شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في باب الخوف، فإن

(١) الردف والرديف: الراكب خلف رাকب الدابة.

(٢) متفق عليه. البخاري، الفتح (٦/ ٢٨٥٦) واللفظ له، مسلم (٣٠).

(٣) أعمال القلوب للمنجد (٨٨).

أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف، كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام. وأما ضد ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا»^(١).

قلت: قصّد أبو حامد رحمته الله بتلك المبالغة حميتهم من الركون إلى الدنيا، من باب أن تسمع من يخوّفك حتى تأمن خير لك من أن تسمع من يؤمنك حتى تخاف. ولا شك أن التوسط أولى، نعم تصبّ عليهم أخبار الوعيد والتهديد والزجر ولكن لا يحرمون من روح الرجاء ومتنفسه حتى لا يهلكوا في الجهة الأخرى، والقرآن الكريم قد أتى بالأمرين، فالحكمة تقتضي الزيادة من أخبار الوعيد لمن ظهر من حالهم الأمن من مكر الله، مع ذكر شيء من أخبار الوعد، والعكس صحيح بالنسبة لمن ظهر من حاله القنوط واليأس. أما مع الاعتدال فبالأمرين جميعاً لأنهما كجناحي الطائر، فبعضهم قال باستوائيهما وآخرون قالوا بتغليب الخوف حال الصحة والأمن وتغليب الرجاء حال الإقبال على الآخرة، وهذا أظهر وأنصح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقي

(١) الإحياء (٢/ ١٤٤٥).

(٢) متفق عليه. البخاري، الفتح (٦/ ٣١٩٤) واللفظ له، مسلم (٢٧٥١).

بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحتجب عن الجنة»^(١). وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة؛ ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد»^(٢).

فانظر إلى التوازن بين الرجاء والخوف، فالرجاء حاد يحدو بالمؤمن ويشوقه، والخوف سوط وزجر حازم يدفعه للأمن والسعادة، أما المحبة فتؤنسه وتغذيه، حتى يصل لبلاد أشواقه وبر أمانه وديار أحبابه، فالرجاء لوحده مفسد، والخوف لوحده كذلك، لكن اجتماعهما يوازن المسير، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وما يذكر إلا أولو الأبواب.

وعن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلمٌ يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بِإثم أو قطيعة رحم» فقال رجل من القوم: إذن نكثر. قال: «الله أكثر»^(٣)، فماذا بقي أخا الإيمان؟! فمهما ملأت رأسك من أمنيات فالله أكثر، فسل تعطه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان؛ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي وُلد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟

(١) مسلم (٢٧).

(٢) مسلم (٢٧٥٥).

(٣) الترمذي (٣٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وصححه محقق جامع الأصول.

قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، كلّ درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة»^(١)، وهذا حديث عظيم جليل القدر نفيس المعاني، فلا تشبع النفس من تذكره وإمراره على القلب، واللهج بما فيه من لطائف وكرم وعلوم ومواهب مما تضيق عن بيانه الطروس وتعجز عن إيفائه النفوس.

وهذا الحق الذي جعله الله على نفسه المقدسة هو حق تفضّل وإنعام وإكرام. وتأمل كيف رفع رسول الله همّة الأمة حين سأله الصحابة عن إبلاغ هذه البشارة، فأخذ بقلوبهم إلى السماء ووجههم إلى أعظم منزلة في جنات النعيم وهي الفردوس الأعلى، ولا أعلم في السنة ما يرفع الهمّة مثل هذا الحديث العظيم الجليل. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة» يدل على أن أعلى الجنة مقبَّبٌ، أي مثل القبة المقوّسة، فالأوسط لا يكون أعلى إلا مع استدارة الشكل، بخلاف المثلث والمربع ونحوهما من الأشكال فإنه لا يكون أعلاه وأوسطه^(٢).

(١) البخاري، الفتح (١٣/ ٧٤٢٣).

(٢) انظر: بيان تلبس الجهمية، ابن تيمية (٢/ ٢١٣). قلت: قد يكون رأس المثلث والمخروطي وسط ولكن لا يصح أن يقال له سقف. وفي موضع آخر قال ﷺ: «وقد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة أن الأفلاك مستديرة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]،

وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. قال ابن عباس: في فَلَكَةٍ مثل فَلَكَةِ الْمِغْزَلِ، وهكذا هو في لسان العرب، الفلك: الشيء المستدير، ومنه يُقال: تفلَّك ثديُّ الجارية، إذا استدار. قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] والتكوير هو التدوير. ومنه قيل: كَارَ العمامة وكَوَّرَها إذا أدارها. ومنه قيل للكرة: كُرَّةٌ، وهي الجسم المستدير. ولهذا يقال: الأفلاك كروية الشكل؛ لأن أصل الكرة كورة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وكورت الكارة إذا دوَّرتها، ومنه الحديث: «إن الشمس والقمر يكوران يوم القيامة كأنهما ثوران في نار جهنم»، وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] مثل حُسْبَانِ الرَّحَا، وقال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣] وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام، دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرها فإنه يتفاوت؛ لأن زواياه مخالفة لقوائمه، والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي، ليس بعضه مخالفاً لبعض. وقال النبي ﷺ للأعرابي الذي قال: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. فقال: «ويحك، إن الله لا يُستشفع به على أحد من خلقه، إن شأنه أعظم من ذلك، إن عرشه على سجاواته هكذا». وقال بيده مثل القُبَّة - «وإنه ليُطَّطَّ به أطيَّطَ الرجل الجديد براكبه». رواه أبو داود وغيره من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنها أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن» فقد أخبر أن الفردوس هي الأعلى والأوسط، وهذا لا يكون إلا في الصورة المستديرة، فأما المربع ونحوه فليس أوسطه أعلاه، بل متساوٍ. وأما الإجماع فقد قال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة. وقال ابن

المُنَادِي: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال، والآخر في ناحية الجنوب. قال: ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق، تقع قليلاً على ترتيب واحد في حركاتها ومقادير أرجائها إلى أن تتوسط السماء ثم تنحدر على ذلك الترتيب، كأنها ثابتة في كرة تديرها جميعها دوراً واحداً. قال: وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة. قال: ففكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالنقطة في الدائرة، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يُرى من جميع نواحي السماء على قدر واحد؛ فيدل ذلك على بُعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء .

وقد يظن بعض الناس أن ما جاءت به الآثار النبوية من أن العرش سقف الجنة وأن الله على العرش، مع ما دلّت عليه من أن الأفلاك مستديرة متناقص أو مقتضي أن يكون الله تحت بعض خلقه. كما احتجت بذلك الجهمية. وهذا من غلطهم في تصوّر الأمر. ومن عَلِمَ أن الأفلاك مستديرة، وأن المحيط الذي هو السقف هو أعلى عليين، وأن المركز الذي هو باطن ذلك وجوفه وهو قعر الأرض هو سَجِّين وأسفل سافلين، عَلِمَ من مقابلة الله بين أعلى عليين وبين سَجِّين مع أن المقابلة إنما تكون في الظاهر بين العلوّ والسُّفْل، أو بين السعة والضيق، وذلك لأن العلو مستلزم للسعة، والضيق مستلزم للسفول، وعلم أن السماء فوق الأرض مطلقاً لا يتصور أن تكون تحتها قط وإن كانت مستديرة محيطة، وكذلك كلّما علا؛ كان أرفع وأسفل.

وعَلِمَ أن الجهة قسمان: قسم ذاتي أو هو العلو والسفول فقط. وقسم إضافي: وهو ما يُنسب إلى الحيوان بحسب حركته؛ فما أمامه فيقال له: أمام، وما خلفه يقال له: خلف، وما عن يمينه يقال له: اليمين، وما عن يسره يقال له: اليسار، وما فوق

رأسه يقال له: فوق، وما تحت قدميه يقال له: تحت. وذلك أمر إضافي، أرأيت لو أن رجلاً علّق رجله إلى السماء ورأسه إلى الأرض، أليست السماء فوقه وإن قابلها برجليه؟! وكذلك النملة أو غيرها لو مشى تحت السقف مقابلاً له برجليه، وظهره إلى الأرض؛ لكان العوّ محاذياً لرجليه وإن كان فوقه، وأسفل سافلين ينتهي إلى جوف الأرض والكواكب التي في السماء، وإن كان بعضها محاذياً لراءوسنا وبعضها في النصف الآخر من الفلك؛ فليس شيء منها تحت شيء، بل كلها فوقنا في السماء.

ولما كان الإنسان إذا تصوّر هذا يسبق إلى وهمه السفّل الإضافي كما احتج به الجهمي الذي أنكر علو الله على عرشه، وخيّل على من لا يدري أن من قال: إن الله فوق العرش، فقد جعله تحت نصف المخلوقات، أو جعله فلّكاً آخر. تعالى الله عما يقول الجاهل. فمن خشي أنه لازم لأهل الإسلام من الأمور التي لا تليق بالله، ولا هي لازمة، بل هذا يصدّق الحديث الذي رواه أحمد في مسنده من حديث الحسن عن أبي هريرة ورواه الترمذي من حديث الإدلاء، فإن الحديث يدل على أن الله فوق العرش، ويدلّ على إحاطة العرش كونه سقف المخلوقات. ومن تأوّل على قوله هبط على علم الله كما فعل الترمذي؛ لم يدر كيف الأمر، ولكن لما كان من أهل السنة. أي الترمذي. أن الله فوق العرش، ولم يعرف صورة المخلوقات، وخشي أن يتأوله الجهمي أنه مختلط بالخلق قال: هكذا، وإلا فقول رسول الله ﷺ كُله حق، يُصدّق بعضه بعضاً.

وما علّم بالمعقول من العلوم الصحيحة؛ يُصدّق ما جاء به الرسول ويشهد له فنقول: إذا تبين أننا نعرف ما قد عُرف من استدارة الأفلاك: علم أن المنكر له مخالف لجميع الأدلة، لكن المتوقف في ذلك قبل البيان فعَلّ الواجب، وكذلك من لم يزل يستفيد ذلك من جهة لا يثق بها. فإن النبي ﷺ قال: «إذا حدّثكم أهل الكتاب؛ فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم» مجموع الفتاوى (١٩٨ / ٢٥) باختصار يسير.

وتأمل نصيح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفرحهم للناس وإحسانهم لهم، وتأمل عظيم فضلية الجهاد في سبيل الله، وأن الله تعالى قد أعدَّ لهم في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، وتأمل كيف ذكر شرطها وهو الجهاد ولم يشترط الشهادة، ثم تذكر أنواع الجهاد ومقاماته، وأعظم بربك الرجاء وحسن الظن، وليكن لك في الجهاد مقام لتغنم المنازل العالية والدرجات السامية، وتدبر كيف أرشدنا نبينا الذي وصفه ربه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم؛ أن نُعلي الهمة في السؤال، فنسأل الكريم من واسع فضله، ونخصّ الفردوس وهي منازل سادة المؤمنين من السابقين المقربين، فليست أعمالنا التي تبلغنا ولكن رحمة الله وفضله، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا بديع السموات والأرض، يا منان، يا علیم، يا حلیم، يا عليّ، يا عظیم، يا رب العالمين،

وهذا الكلام المتين قد حوى منهجية علمية منطقية حقيقة بالتحليل والدراسة والنشر، وهذا هو التجديد في العلوم حقاً، لا ما يزعمه أهل التهوّك أو التقليد، فللعقل والتأمل والتحليل والتجريب حظه الوافر غير المنقوص، لكنه محوط مقيد بالشرع، فما خالف صحيح الشرع وصريحه فقد علمنا ببطلانه، وكُفينا جهد تتبعه ودراسته، وما أيده الشرع وشهد له علمنا بصحته وصوابه، وما سكت عنه انطلقنا فيه على ضوء كليات الشريعة ومحكمات الوحي، وهذا مضطرد في كل العلوم على اختلاف الفنون.

وانظر في هذا الموضوع: الرسالة العرشية لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد أبهر علماء الفلك ما فيها من اتساق وعظمة وطمأنينة وقوّة حجاج.

نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلا، وباسمك الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطيت، وإذا دُعيت به أجبت، وبوجهك الأكرم: الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، ووالدينا، ووالديهم وأهلينا وذرائنا وأقاربنا ومشايخنا، إله الحق آمين آمين آمين.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُئِعَ أهل الجنة؟» قال: فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة؟» قال: فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شَطْرَ^(٢) أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك: ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»^(٣).

قال ابن القيم بعد سياقه لهذا الحديث: «وعن بريدة بن الحبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومئة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًا»^(٤).

(١) مسلم (٢٧٤٩).

(٢) الشطر: يراد به النصف وهو المقصود هنا، ويراد به الجهة ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٣) متفق عليه. البخاري، الفتح (١١ / ٦٥٢٨)، مسلم (٢٢١) واللفظ له.

(٤) أحمد (١٣٠٦١)، والترمذي وحسنه (٢٥٤٦)، والدارمي (٢٨٣٥)، وابن حبان (٧٤٥٩). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده على شرط مسلم. وصححه الألباني في

رواه الإمام أحمد والترمذي وإسناده على شرط الصحيح. وعند الطبراني بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿[الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة»^(١). ثم ذكر أحاديث تشهد للثلثين وتعصدها، ثم قال: وهذه الأحاديث قد تعددت طرقها، واختلفت مخرجها، وصحَّ سند بعضها، ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر؛ لأنه ﷺ رجا أولاً أن يكونوا شطر أهل الجنة، فأعطاه الله سبحانه رجاءه وزاد عليه سدساً آخر^(٢).

قلت: ويعضد ذلك الكثرة العددية لأتباع نبينا ﷺ، فلا نعلم أن نبياً قد قارب أتباعه هذه الملايين التي لا تحصى على مرّ القرون. وفي الطبراني^(٣) من حديث معاذ وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «أتاني آتٍ من ربي فخيرني بين أن تكون أمتي شطر أهل الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة» وفيه: «إن شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئاً». فالحمد لله أن جعلنا من أتباعه، ونسأله سبحانه أن يوفقنا ويهدينا سبلنا ويحسن ختامنا إنه سميع قريب مجيب.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ

المشكاة (٥٦٤٤).

(١) حديث شطر أهل الجنة متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم (٩٦).

(٣) المعجم الكبير (١٤٨٤٥) (١٨ / ٧٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٨٦٥)،

والترمذي (٢٤٤١) وابن ماجه (٤٣١٧) وصححه الألباني والأرنؤوط.

يَنْبَعُوثُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ. وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْبَعُوثُ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعونهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافنة سرّاً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتغنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] فحيثئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به ويرسله بالرحمة، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ﴿لَا مَنَ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ١٠٩] مع قوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] مع قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِثْلَ رَحْمَةِ أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ رَحْمَةً، بِهَا يَتَرَاهُمُونَ وَيَتَعَاطَفُونَ، حَتَّىٰ إِنْ الْبَهِيمَةَ تَرَفَعَ حَافِرُهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَ أَنْ تَصِيْبَهُ»^(١)، أي من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد، مع قوله ﷺ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا»^(٢) فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عن عبادته، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين»^(٣).

وقال الشافعي رحمه الله في مرض موته:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَزَاجِي جَعَلْتُ الرَّجَا مَنِي لِعَفْوِكَ سُلَامِي
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بعفوك ربّي كان عفوك أعظمي

(١) مسلم (٦٩٠٨).

(٢) البخاري (٥٦٥٣) ومسلم (٦٩١٢).

(٣) تفسير السعدي (٥١٣).

وقال الثوري رحمه الله: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبيي؛ لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما.

وقال الجنيد رحمه الله: إذا بدت عين من الكرم، ألحقت المسيئين بالمحسنين.

وقال الرافعي رحمه الله:

إذا أمسى فراشي من ترابٍ وصرْتُ مجاورَ الربِّ الرحيمِ
فهنّوني أحبائي وقولوا لك البُشرى قدِمْتَ على كريمِ



ثمرات الرجاء

بما أن الرجاء في الذروة من أعمال القلب فلا عجب أن تكون ثمراته بتلك المنزلة، فمنها:

١. إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٢. أن الله تعالى يحب من عباده أن يؤمّلوه ويرجوه ويسألوه من فضله ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]؛ لأنه الملك الحقّ الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحبُّ ما إلى الجواد أن يُرجى ويؤمّل ويُسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١)، والسائل راجٍ وطالب، فمن لم يرجُ الله يغضب عليه. وهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء، وهي الابتعاد من غضب الله.

٣. أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله، ويطيّب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلو لا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويُزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

٤. أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويلقيه في مدينتها، فإنه كلما اشتد رجاءه، وحصل له ما يرجو؛ ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضا به وعنه.

(١) الترمذي في الدعوات، باب (٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٨٦).

٥. أنه يبعثه على أعلى المقامات؛ وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوّه؛ كان أدعى لشكره.

٦. أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها، فإن الراجي متعلق بأسماء الله الحسنى، متعبّدٌ بها، داعٍ بها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يُعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي.

٧. أن المحبة لا تنفك عن الرجاء، فكل واحد منهما يمدُّ الآخر ويقوّيه.

٨. أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف.

٩. أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه؛ كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ في حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

١٠. أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذاك تكميلها بالرجاء والخوف.

١١. أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله تعالى ما يوجب

تعلّق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة، فإذا غاب عن ذلك؛ فاته حظّه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات^(١).

١٢. أنه يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلّبت الأحوال.



(١) المدارج (٢/ ٢٤٠-٢٤٣) بتصرف يسير.

درجات الرجاء

للرجاء مراتب متفاوتة، وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد في العبادة، بل يولّد عنده اللذة بالعبادة ولو كانت شاقة وصعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف قدر المطلوب؛ هان عليه ما يبذل فيه، ومن رجا الأرباح العظيمة في سفره، هانت عليه مشقة السفر، ألا ترى أن التجار يكابدون ويسهرون ويسافرون ويغترّبون رجاء الربح الذي يأملونه، وكذلك المحب الصادق الذي يسعى في مرضاة مولاه، تهون عليه مشقة صلاة الفجر، ومشقة الوضوء في البرد، ومشقة الجهاد، ومشقة الحج والعمرة، ومشقة الإنفاق، ومشقة طلب العلم وتكرار الحفظ، ومشقة مكابدة قيام الليل، ومشقة جوع الصيام، بل تنقلب عنده إلى اللذة!

فالدرجات العملية في العبادة: أولاً مشقة، ومن ثمّ لذة. قال ثابت البناني رحمته الله: كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة.

فإذا قوي تعلّق الرجاء بالعوض؛ سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فكيف للإنسان أن يعود نفسه على الطاعة والعبادة؟ إن من طرق تحصيل ذلك: أن يعرفها الأجر، فإذا عرفت النفس الأجر والثواب وقبله القرب من مرضاة رب العالمين؛ سمحت حينئذ بالتخلي عن الراحة والكسل والدعة والشح، والإنسان مفطور على ألا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه، وهو رضا الرب، واللجنة. وكذلك يصبر على الألم النفسي والجسدي إذا تلبّس الرضا

بالقضاء، فيصبره أن يرجو ثواب الصبر فيصبح المر حلواً، والعلقم عسلاً.

الدرجة الثانية: المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدالها بخير منها، فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة، وهذا يلزم له العلم وهو الوقوف على الأحكام الدينية؛ لأن رجاءهم متعلق بحصول ذلك المهم، ولا بد من علم وبذل الجهد بالمعرفة والتعلم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصدًا.

الدرجة الثالثة: رجاء أرباب القلوب لقاء ربهم وسيدهم وإلههم، والاشتياق إليه سبحانه وتعالى، وهذا هو الذي يمكن أن يزهد الإنسان في الدنيا تماماً، وهو أعلى الأنواع، قال الله تعالى: ﴿فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو رجاء اللقيا، وهو محض الإيمان وزبدته، وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين، وهو الذي يسليهم، ولذلك ضرب الله لهم أجلاً تسكن إليه نفوسهم.

ونفوس أصحاب هذه الدرجة العالية مضطربة حتى يلقوا الله تعالى؛ لأنهم في اشتياق إليه، ويريدون لقاءه، فهم قد أعدوا العدة واجتهدوا، ويتطلعون للقاء، فلسان حالهم: متى تنتهي الدنيا حتى يلقوا الله؟! ولقاء الله تبارك وتعالى أعظم من كل نعيم الجنة. وتأمل قصة عمير بن الحمام حينما ألقى بتمرته متطاولاً الحياة التي سيقضيها في أكلها!

وشتان بين حال كثير من الناس الآن وبين الرعيل الأول من السلف الصالح في هذه الأمور! فهذه المعاني الجليلة لا نراها في كثير من الناس، ولا يحوم طائر فكرهم عليها إذ غرقوا في خضم دنياهم ولجة أعمالهم لجمع حطامها، مع أنها أشياء كانت قائمة في نفوس الصحابة، ومذكورة في الكتاب والسنة^(١).

ومن جميل ما قيل في الرجاء قول يحيى بن معاذ رحمته الله: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه؛ لم يَتَلَّ بالذنب أكرم الناس عليه. يشير إلى أنه ابتلى كثيرًا من أوليائه وأحبابه بشيء من الذنوب ليعاملهم بالعفو، فإنه عفوٌ يحب العفو.

ولولا طمع المذنبين في العفو لاحتقرت قلوبهم باليأس من الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه، وكان بعض المتقدمين يقول في دعائه: اللهم إن ذنوبي قد عظمت فجَلَّتْ عن الصفة، وإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني. وقال آخر: جُرمي عظيم، وعفوك كبير، فاجمع بين جُرمي وعفوك يا كريم. وقال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو، إن كانت الرحمة للمحسنين؛ فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين؛ فالظالم لنفسه غير محبوب عنها.

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي	جعلت الرَّجاء منِّي لبابك سُلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
ألست الذي غديتني وكفلتني	وما زلت منّا عليّ ومُنعماً

(١) أعمال القلوب، المنجد (٧٩-٨٢) بتصرف يسير.

عسى من له الإحسان يغفر زلّتي ويستر أوزاري وما قد تقدّما
 فلله درّ العارف الندب إنه تَسَحُّ لفرط الوجد أجفائه دَمَا
 يُقيم إذا ما الليل مدّ ظلامه على نفسه من شدّة الخوف مأتما
 فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربّه وفيما سواه في الورى كان أعجما
 ويذكر أياماً مضت في شبابه وما كان فيها بالجهالة أجرما
 يقول إلهي أنت سُؤلي وبُغيتي كفى بك للراجين سُؤلاً ومغنياً^(١)

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «يا عاصياً بالأمس، أين الالتذاذ؟ يا مُطالباً بالجُرم، أين المعاذ؟ يا مُتمسكاً بالدنيا وحبلها جُذاذ»^(٢)! تخلص من أسرها قبل أن يعزّ الإنقاذ، وقبل أن تجري دموع الأسى بين وبلٍ ورذاذ، تذكّر قبرك وما فيه من ضمة لو نجا منها أحدٌ لنجا سعد بن معاذ، ألا يلين القلب؟ أصخر أم فولاذ؟ تدّعي العجز عن الطاعة وفي المعاصي أستاذ!

يا مُستكبّاً عن أهله وماله، يا خالياً في القبر بأعماله، ليتّه خلاك ما منه تخلّيت، ليتّه ولّى عنك إثم ما عنه تولّيت. وا أسفاً من حالةٍ حيلتها ليت!
 إذا خضر الربيع ناح الهزار، وندب القُمري وأنت تعتقده غناء، إنها هو بكاء على انتظار التكوير، ولا يغرتك صفو العيش، فالرسوب في أسفل الكأس! من لم يسمع كلام الصامت، ولم يفهم عبارة الجامد^(٣) فليس بفتن.

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان، آل عبد المحسن (٤٦٢-٤٦٣).

(٢) جذاذ: مقطوع.

(٣) الصامت من المال: الذهب والفضة، ولعله قصد من الذهب الذهاب، ومن الفضة =

قال أحمد بن أبي الحواري: رأيت شاباً قد انحدر عن مقبرة، فقلت: من أين؟ فقال: من هذه القافلة النازلة! قلت: وإلى أين؟ قال: أتزوّد لألحقها. قلت: فأني شيء قالوا لك؟ وأي شيء قلت لهم؟ قال: قلت: متى ترحلون؟ فقالوا: حتى تقدّمون!

وكم من عِبْرَةٍ أَصْبَحَتْ فِيهَا يَلِينُ لَهَا الْحَدِيدُ وَأَنْتَ قَاسِي
إِلَى كَمِّ وَالْمَعَادُ إِلَى قَرِيبٍ تُذَكِّرُ بِالْمَعَادِ وَأَنْتَ نَاسِي
ويحك! تَلَمَّحْ عَاقِبَتَكَ بَعِينَ عَقْلِكَ فَإِنَّهَا سَلِيمَةٌ مِنْ رَمَدٍ. يَا صَبِيانَ التَّوْبَةِ، قَدْ عَرَفْتُمْ شُرُورَ أَعْطَانِ الْهَوَى، فَرَحَلْتُمْ طَالِبِينَ رِيفِ التَّقَى، فَحَثُّوا مَطَايَا الْجَدِّ ﴿وَلَا يَلْنِفَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

كُلَّمَا شَرَفَ الْمَطْلُوبُ؛ طَالَ طَرِيقُهُ. الْهَرَّةُ تَحْمِلُ خَمْسِينَ يَوْمًا، وَالْحُفُّ وَالْحَافِرُ^(١) سَنَةً، فَأَمَّا الْفِيلُ فَسَبْعَ سِنِينَ^(٢). عَمُومُ الشَّجَرِ يَحْمِلُ فِي عَامِهِ، وَالصُّنُوبَرُ بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً^(٣). شَرَفُ النَّسْلِ يُوجِبُ الْقِلَّةَ، الشَّاةُ تَلِدُ وَاحِدًا أَوْ اثْنَيْنِ، وَالْخَنْزِيرَةُ تَلِدُ عَشْرِينَ.

الانفضاض. أما الجامد: فهو الحد بين الأرضين والدارين، إشارة إلى عالم البرزخ وسكنى القبر؛ لأنه الحد الفاصل بين دار الدنيا والأخرى. نسأل الله حسن الختام.

(١) الخف: الإبل. الحافر: الخيل.

(٢) مدة حمل أنثى الفيل ستان أو (٢٢) شهرًا، والمؤلف رحمه الله قصد ضرب المثل والله أعلم.

(٣) المشهور أنه يثمر بعد اثنتي عشرة سنة.

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاةٌ نَزَوْرُ

يا هذا، ينبغي أن تكون همّتك على قدرك، ولك قدر عظيم لو عرفته!

إنما خلقت الداران لأجلك، أما الدنيا فليتنزّود، وأما الأخرى فليتنوطن،

أفتراك تعرف مكانة ﴿أَذْكُرْكُم﴾ [البقرة: ١٥٢] أو قيمة ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] أو مرتبة «وأكره مساءته»^(١).

يا من كان في رفقة ﴿نَتَجَافَى﴾ [السجدة: ١٦] فصار اليوم في حزب أهل

النوم!

يا ديار الأحباب كيف تغيّرت ويا عهد ما الذي أبلاكا

هل أولاك الذين عهدي بهم فيك على عهدهم وأين أولاك

الذميل الذميل^(٢) يا ركبُ إني لضمن أن لا تخيب سُراكا

يا هذا، لا تجزع من ذنب جرى، فربّ زلّةٍ أورثت تقويماً «لو لم تذنبوا»^(٣).

من لم يذُق مرارة الفراق لم يدْرِ ما حلاوة التلاقي

ما لم يقع سهم في مقتل؛ فالعلاج سهل، انحناء القوس ركوع لا اعوجاج،

كانت محبة آدم لمولاه أصليّة، وتعبدُ إبليسَ تكلفاً، والعِرْقُ نَزَّاعٌ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾

(١) البخاري (٢٠٧٦٩).

(٢) الذميل: ضرب من السير سريع.

(٣) مسلم (٢٧٤٩).

[الكهف: ٥٠]، وإنما يعالج الرَّمْدُ لا الأَكْمَه (١).

تَأَمَّلُوا خِسَّةَ هِمَّةِ إبليس إذ رضي بعد القرب من السُّدَّةِ بالتقاط ﴿إِلَّا مَنْ
أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] إنه ليهجم على ساحة الصِّدْرِ، فيأخذ في حديث
الوسوسة، فيصيح به حُرَّاسُ الإِيْمَانِ من شُرُفَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فيرجع بقلب الخَنَاسِ!
فضائل آدم خفيت على الملائكة يوم ﴿أُنْبِئْتُهُمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فكيف يعرفها
إبليس؟!

كُلَّمَا غلب إبليسُ صاحبَ معصية، وجلس يقسم في تقواه؛ صدرت عن
التائب نشابة (٢) ندم، ف وقعت في صدر إبليس.

كان فتح بن شخرف يقول: قد طال شوقي إليك؛ فعجل قدمي عليك.

تُمْدُدْ بِالْأَذَانِ وَالْمَنَاخِرِ	حَاجِرٍ أَنَّى لَهَا بِحَاجِرِ (٣)
أَرْضُهَا السَّائِغُ مِنْ رَبِيعِهَا	وَشَوْقُهَا الْمَكْنُونُ فِي الضَّمَائِرِ
سَارَتْ يَمِينًا وَالْغَرَامُ شَامَةٌ	يَاسِرُهَا يَابْنَ الْحُدَاةِ يَاسِرِ (٤)

(١) الرَّمْدُ: من بعينه رمد، وهو التهاب و هييجان بالعين. أما الأَكْمَه فهو من وُلِدَ أَعْمَى.

(٢) النشابة: السهم.

(٣) حاجر: من منازل الحاج في طريقهم. والمقصود شوق الإبل لذلك المكان، أما
المصنف فقصد معنى شريفًا ساميًا وهو شوق المؤمنين للقاء مولا هم سبحانه.

(٤) المدهش (٢/ ٥٢٠-٥٢٥) بتصرف يسير.

وقفة تفكر

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله في صحيحه^(١) قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعطاء بن زيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما:

أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تُمَارُونَ في القمر ليلة البدر، ليس دونه حجاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فهل تُمَارُونَ في الشمس ليس دونها سحب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترونه كذلك، يُحْشَرُ الناسُ يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبّع، فمنهم من يتبّع الشمس، ومنهم من يتبّع القمر، ومنهم من يتبّع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: هذا مكائنا حتى يأتينا ربَّنَا، فإذا جاء ربَّنَا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: أنت ربَّنَا، فيدعوهم فيضربُ الصراط بين ظهراي جهنم، فأكونُ أوَّل من يجوزُ من الرسل بأمته، ولا يتكلَّم يومئذُ أحدٌ إلا الرسل، وكلام الرسلِ يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليبٌ مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم.

قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلمُ قَدْر عِظَمها إلا الله، تحطَفُ الناسُ بأعمالهم، فمنهم من يُوبَق بعمله، ومنهم من يُجْرَدُ ثم ينجو، حتى إذا أراد

(١) كتاب صفة الصلاة في باب فضل السجود (٧٧٣).

الله رحمة من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبدُ الله، فيُخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيُخرجون من النار قد امتحشوا^(١) فَيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياة، فينبتون كما تنبتُ الحَبَّةُ في حميل السيل، ثم يَفْرُغُ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجلٌ بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة، مقبلاً بوجهه قِبَل النار، فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار، قد قَشَبَنِي رِيحُهَا^(٢) وأحرقني ذكاؤها^(٣). فيقول: هل عسيتَ إن فَعَلَ ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزّتك، فيُعطي الله ما يشاء من عهدٍ وميثاق، فيصرفُ الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة رأى بهجتها سَكَتَ ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا ربِّ قدّمني عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والمواثيق ألا تسأل غير الذي كنت سألتَ؟ فيقول: يا ربِّ لا أكونُ أشقى خَلْقك، فيقول: فما عسيتَ إن أُعْطيت ذلك ألا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزّتك لا أسأل غير ذلك، فيُعطي ربّه ما شاء من عهدٍ وميثاق، فيقدّمه إلى باب الجنة، فإذا بَلَغَ بابها، فرأى زهرتها، وما فيها من النَّضْرَةِ والسُّرور، فيسكتُ ما شاء الله أن يسكتَ، فيقول: يا ربِّ أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم، ما أغدرك! أليس قد أعطيت العهد والميثاق ألا تسأل غير الذي أُعْطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خَلْقك، فيضحكُ الله

(١) امتحشوا: احترقوا واسودوا.

(٢) قشبنني: سمّني وأهلكني.

(٣) ذكاؤها: لهيها وشدة اشتعالها.

عز وجل منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تَمَنَّ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا، أقبل يُذكره ربُّه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه.

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: «لك ذلك ومثله معه». قال أبو سعيد: إني سمعته يقول: «لك لك وعشرة أمثاله».

بِسْمِ اللَّهِ

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الرغبة



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

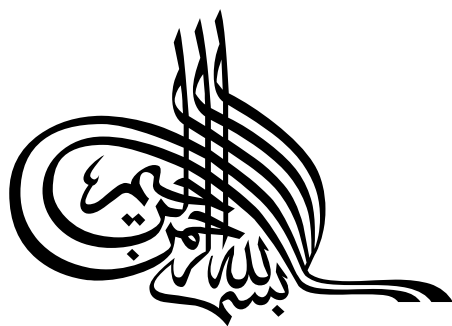
الكتاب رقم (١١)

الرغبة إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١٠	فضل الرغبة إلى الله تعالى
٤١	الدعاء
٤٦	شروط الدعاء وآدابه
٥٣	أسباب إجابة الدعاء الظاهرة والباطنة
٦٠	دعاء السر
٧٠	الاعتداء في الدعاء
٧٧	إطالة نبوية



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله أنزل الذكر بلسان عربي وحفظه، ودلَّ عبده على طريق الهدى وبشَّره وأنذره ووعظه، له الملك وله الحمد، بسط الآمال ونشرها، وطوى الآجال وسترها، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وسِعَ كُلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وقَدَّرَ المقادير حكمةً وحكماً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تقي النَّدَامَةَ برحمة الله يوم الحسرة، وتنجي صاحبها بإذن الله ساعة العسرة. وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بَلَغَ الرسالة، وأَوْضَحَ الدَّلَالَه، صَلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه السَّادَةِ الأبرار، والتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا تَعاقَبَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، وَسَلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ: فهذه رسالة يسرّها الله تعالى في بيان جملة من مسائل الرغبة إلى الله تعالى والدار الآخرة، جعلنا الله جميعاً من أهل تحقيقها، أنه وليُّنا ومولانا وربُّنا ومعبودنا، عزَّ جاره وجلَّ ثناؤه ولا إله غيره.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ٨ / ٩

aldumaiji@gmail.com

التعريف

لهذا الكتاب علاقة وطيدة بكتاب الرجاء؛ فكلاهما طلب شيء، وتطلع إليه. والراء والغين والباء أصلان؛ أحدهما: طلبٌ لشيء، وهو المراد هنا، والآخر: سعةٌ في شيء. قاله ابن فارس^(١). قلت: ولعل الثاني عائدٌ إلى الأول فيتنظّمهما إرادة الخير الكثير الواسع. لذلك قال الراغب الأصفهاني: الرغبة هي السعة في الإرادة. وتقول: رغبتُ في الشيء إذا أردته، فإن لم ترده فتقول: رغبتُ عنه. وتقول رغبتُ إلى فلان في كذا وأرغب إليك في كذا إذا سألته إياه^(٢).

ورغب الرجل في الشيء رغبة فهو راغب. ويقال: رغب رغبة ورغبي. وتقول: إليك الرغباء، كما في تلبية عمر بن الخطاب حيث كان يقول: «والرغباء إليك والعمل»^(٣). والرغبة هي المرغوب فيها، فيقال: فلان وهوبٌ لكل رغبة، والجمع رغائب^(٤). قال النمر بن تولب:

ومتى تُصَبِّك خصاصةً فارح الغنى وإلى الذي يُعطي الرغائب فارغبِ

والرغبوة: المبالغة في الرغبة والضراعة فيها.

(١) معجم المقاييس (٣٩٢).

(٢) المفردات (٢٠٤) وقد جعل أصلها السعة فقط دون الطلب.

(٣) مسلم (١١٨٤).

(٤) معجم التهذيب (١٤٣٢ / ٢).

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيَدْعُوكُمْ رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفي دعاء أخذ المضجع: «رغبة ورهبة إليك»، قال ابن الأثير: أعمل لفظ الرغبة وحدها، ولو أعملها معًا لقال: رغبة إليك ورهبة منك. وفي حديث أسماء: «أتتني أمي رغبة» أي تسأل شيئًا، وأرغبني في الشيء ورغبني بمعنى. والمرأغب: الأطماع، ورغب بنفسه عنه: رأى لنفسه عليه فضلًا^(١).

وقريب من معنى الرغبة الابتغاء، بيد أنه لوحظ في الرغبة معنى الحرص، وفي الابتغاء معنى الشدة والاجتهاد.

والتعدية لها أثر في المعنى، فإن عدت الرغبة بـ«في» فهي التطلع والأمنية والرجاء، كقولك: «أرغب في كذا». أما إن عدت بـ«إلى» متضمنة للسؤال أيضًا كقولك: «أرغب إليك في كذا».

أما الفرق بين الرغبة والرجاء؛ فالرجاء طمع والرغبة طلب. فالرغبة ثمرة الرجاء، فإنه إذا رغب الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود: أن الراجي راغب، والخائف هارب. والرغبة في الحقيقة هي من الرجاء؛ لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق، والرغبة سلوك على التحقيق، فالرغبة تتولد من الرجاء^(٢) لكنه طمع، وهي سلوك وطلب. والرجاء طمع في مغيب عنه مشكوك في حصوله، إن

(١) اللسان (٤/ ١٨٤).

(٢) القاموس (٦٨٣).

كان متحققاً في نفسه، كرجاء العبد دخول الجنة، فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في دخوله إليها، وهل يوافي ربه بعمل يمنعه منها، أم لا؟ بخلاف الرغبة فإنها لا تكون إلا بعد تحقق ما يرغب فيه.

وبالجملة: فالرجاء طمع، والرغبة طلب. فإذا قوي الطمع صار طلباً^(١).



(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

فضل الرغبة إلى الله تعالى

قال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقال جل شأنه واصفًا سادة عبادہ المرسلين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال مرشدًا عبادہ لما فيه فلاحهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَىٰ اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال أهل الجنة التي طاف عليها طائف من الله عقوبة لهم وقد ندموا ورغبوا إلى ربهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

والرغبة التي تستحق الرغبات هي الجنة، قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أُوْنِيبِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، ووعد سبحانه المؤمنين بجناته ووعد الصديق: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وتأمل بشارته سبحانه للمجاهدين في سبيله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ

رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿[التوبة: ٢١، ٢٢]﴾ إِي وَاللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ عِنْدَهُ أَجْرًا عَظِيمًا.

وتأمل دعواهم وتحتيتهم في دار الخلود والنعيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَءَاخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[يونس: ٩، ١٠]﴾، وهؤلاء الذين رغبوا إليه سبحانه جزاهم بغسل قلوبهم وصدورهم من كل غل وضغينة وحق، فطابت لهم الحياة بجواره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوهَا سَلَامًا ۖ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿[الحجر: ٤٥، ٤٨]﴾، وهذه أخص آية في خلودهم. وتأمل كرمه وجوده وفضله حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿[الكهف: ١٠٧، ١٠٨]﴾، فهم في الفردوس الأعلى، فلا عجب ألا يريدوا التحول عنه مهما طالت بهم الآماد والأحقاب، وهل فوق جوار الكريم نعيم؟! نعيم؟!

ثم تفكر في خاتمة القول بعد استقرارهم في الجنان: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَىٰ

أَلَمْ تَكُنْ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الزمر: ٧٣.٧٥]﴾، فكما ابتداء خلقه بالحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] فناسب ختم الجزاء بالحمد كذلك، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وقال النبي ﷺ مرغباً فيما عند الله: «إذا سمعتم أصوات الديكة فإنها رأت ملكاً، فاسألوا الله وارغبوا إليه»^(١)، وفي تعليمه البراء بن عازب في ذكر أخذ المضجع قال: «إذا أخذت مضجعتك^(٢) فتوضأ وضوءك للصلاة^(٣) ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك^(٤) رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. واجعلن آخر كلامك؛ فإن مُتَّ من ليلتك مُتَّ وأنت على الفطرة»^(٥)، قال: فرددتهنَّ لأستذكرهنَّ فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، قال: «قل: آمنت بنبيك الذي أرسلت»، وفي ذلك أهمية التأسي والتقييد بالفاظ الأذكار، ومن لزم ما صحَّ من أذكار وأوراد استغنى تماماً عما أحدثه الناس بعدها.

(١) أحمد (٣٢١ / ٢)، وصححه أحمد شاكر (١١٨ / ١٦).

(٢) أي أردت النوم في مضجعتك.

(٣) فمن السنن النوم على طهارة.

(٤) أي توكلت عليه توكلأً كاملاً، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسنده كي لا يقع.

(٥) الفطرة: الإيمان والإسلام.

«هذا وملاكُ الشأن أربعة أمور:

نية صحيحة، وقوة غالبية، يقارنهما رغبة ورهبة. فهذه الأربع هي قواعد السير إلى الله تعالى، ومهما دخل على العبد نقص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه؛ فهو من نقصان هذه الأربعة أو نقصان بعضها.

فليتأمل اللبيب هذه الأربعة أشياء، وليجعلها سيره وسلوكه، ويبنى عليها علومه وأقواله وأحواله، فما نتج من نتج إلا منها، ولا تخلف من تخلف إلا من فقدتها، والله المستعان»^(١).

وعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ. أنه راقب رسول الله ﷺ الليلة كلها حتى كان مع الفجر، فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه خبابٌ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي؛ لقد صليتَ لله صلاة ما رأيتك صليتَ نحوها! فقال رسول الله ﷺ: «أجل إنها صلاةٌ رغبٍ ورهبٍ، سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل ألا يُظهر علينا عدوًّا من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي ألا يُلبسنا شيعًا فمنعنيها»^(٢).

(١) مجموع رسائل ابن القيم، رسالته إلى أحد إخوانه (٥٤).

(٢) الترمذي (٢١٧٥) وقال: حسن غريب صحيح، وصححه أحمد شاكر (١٠٩ / ٥)، والنسائي (٢١٧ / ٣) واللفظ له، وقال محقق جامع الأصول (٩ / ٢٠٠) كما قال الترمذي. وصححه الأرئؤوط في تخريج المسند (٢١٠٥٣).

وعن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل بناقة مخطومة^(١) فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة، كلها مخطومة»^(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا عز وجل من رجلين؛ رجلٍ ثار^(٣) عن وطائه ولحافه من بين حيّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزموا، فعِلِمَ ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع؛ فرجع حتى أُهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أُهريق دمه»^(٤).

وتأمل ارتباط الرّغْبِ بالرهْب وهو الإشفاق والخوف، وتأمل الجامع بين هذين الرجلين اللذين استحقا هذه المزية الجسيمة؛ حيث تميزا عن أقرانها بأن حَقَّقَا معنى العُربة الاختيارية الجهادية للنفس، فلما كان الناس بين نوم ودعة ولحاف ووطاء وهروب من سيف الأعداء؛ قاما لله رب العالمين، فالأول لم يعلم

(١) أي فيها خطام، وهو قريب من الزمام وهو حبلٌ يُلَفُّ حول أنفِ الناقة يُشَدُّ على أعلى رأسها لِيَتَقَادَ به.

(٢) مسلم (١٨٩٢).

(٣) ثار: قام بهمة ونشاط بلا كسل. وتأمل اختيار هذا اللفظ فلم يقل: قام، بل قال: ثار. وفي هذا من بيان حرص الرجل على ورده من الليل وخوفه من فواته.

(٤) أحمد (٤٦/١) وصححه أحمد شاكر (٢٢/٦) وحسنه الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٥).

به سوى خالقه فصفت قدميه يراوح بينهما مناجياً سيده ومولاه رغباً ورهباً، والآخر رأى أصحابه مولين أديارهم فعلم ما عليه من الفرار من الفشل وكسر المسلمين والتبعات اللاحقة به وبهم، وما له في الرجوع لجهة القتال من الأجر العظيم وإثبات محبته لإلهه ومولاه بتقديم نفسه ذبيحة وقرباناً لمولاه على يد أعدائه، فقاتلهم حاسراً مهلاً رغباً فيما عند ربه من النصر أو الشهادة، فاختار له مولاه أفضلهما لديه وهي الشهادة في سبيله مقبلاً غير مدبر، فاستحق بذلك مباهاة ربه تعالى به في الملأ الأعلى.

فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي فما أطيب الآلام إن كنت راضياً
ويا ربّ قطعني وفرّق مفاصلي بجوف طيورٍ أو بطون العوافيا
لئن عزّ ديني واستيحت جوارحي فأين مقام العزّ إلا مقاميا

وقال رسول الله ﷺ يوماً: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعملُ بهنَّ، أو يُعلِّمُ من يعملُ بهنَّ» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعَدَّ خمساً، وقال: «اتقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(١).

وقد رغب نبي الله ﷺ فيما عند الله، ورفع همّة نفوس المؤمنين إلى التطلع إلى

(١) الترمذي (٢٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (٣١٠ / ٢) وحسنه محقق جامع الأصول (٦٨٧ / ١١) وهو حديث جامع حقيق بالنشر والدراسة والعمل به.

الأجور الوافرة والجوائز السنية عند البر الكريم سبحانه، فمن ذلك قوله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلّوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة؛ حلّت له الشفاعة»^(١).

فتلك المنزلة هي له إن شاء الله، فلا أكرم على الله منه، فمن نُصِّحَ لأمته بين لها أسباب شفاعته يوم القيامة كرامة من الله تعالى له. ومن هذه الأسباب: إجابة المؤذن ثم الصلاة عليه ثم سؤال الله عز وجل الوسيلة كما في هذا الحديث، كذلك من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢)، فالله تعالى قد أكرم نبيه ﷺ بست شفاعات، منها ثلاث شفاعات خاصة به وهي: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: «أنا لها»^(٣)، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف^(٤)، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي وعده الله نبيه ﷺ بقوله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فيحمده عليه الأولون والآخرون.

(١) مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٢).

(٣) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٤) في حديث طويل رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

والشفاعة الثانية الخاصة به ﷺ هي شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف الله عنه العذاب في النار، فيستجيب الله له بأن يجعله في ضحضاح من نار وتحت قدمه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه، وهو يرى أنه أشد الناس عذاباً بينما هو أهونهم عذاباً^(١). والشفاعة الثالثة هي شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة الجنة، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه.

أما الشفاعات الثلاث العامة له ولغيره من الأنبياء والمرسلين والشهداء الصالحين والأفراد والملائكة فهي: الشفاعة لقوم من العصاة قد استوجبوا النار بذنوبهم ألا يدخلوها. والشفاعة في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم أن يخرجوا منها، والأحاديث بها متواترة عن نبي الله ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكرها كالخوارج والمعتزلة، وصاحوا بهم من كل جانب ونادوا عليهم بالضلال. أما الشفاعة السادسة فهي الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم، وهذا مما لم ينزع فيه أحد.

وكل هذه الشفاعات. خلا الشفاعة في أبي طالب وإن كان لا يخرج من النار. مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شافعاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، والذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم هم المؤمنون، كما قال

(١) بنحوه عند البخاري (٥١).

الفضيل بن عياض رحمته الله: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية. والإعلام هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها^(١).

والشفاعة نوعان، الأولى: شفاعة منفية في القرآن، وهي الشفاعة للكفار والمشركين، وهؤلاء هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقوله سبحانه: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الثانية: شفاعة مثبتة في القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدتها الله تعالى بأمرين، الأول: إذنه للشافع أن يشفع كما قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والثاني: رضاه عن المشفوع له كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاعة كلها ملك لله تعالى لا يملكها سواه، قال عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] فليس لمن تطلب من دونه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه؛ لأن ذلك عباده وتأله لا يصلح إلا لله وحده. وإن القلب ليتفطر حزناً إذا رأى ما يصنعه الجهال من سؤال الأموات الشفاعة لهم عند الله، فيسدّون على أنفسهم باب الشفاعة من حيث أرادوا فتحه! وهذا لعمرك الله هو الخذلان المبين، فهم بطلبها من الأموات قد أشركوا مع

(١) فتح المجيد، عبد الرحمن حسن آل الشيخ (٢٢٨).

الله وجعلوا له أندادًا، فطلب الشفاعة من الأموات شرك ناقض للتوحيد، والشفاعة إنما هي خاصة بأهل التوحيد. وتأمل قول الرب جل جلاله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. ﴿[سبأ: ٢٢، ٢٣] قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْبَهًا لقطع هذه الآية عروق الشرك: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملكٌ أو قِسْطٌ منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجدُ لربِّه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقُلْ يُسْمِعْ، واشفعُ تُشَفِّعْ» (١)، وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن الله له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن، ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص» (٢).

(١) متفق عليه.

(٢) عن فتح المجيد (٢٣٣).

وقال ابن القيم رحمه الله في الكلام على تلك الآيات: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] «وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكا؛ كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له؛ كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا، كان شفيعا عنده، فنفي الله سبحانه المراتب الأربع نفيا مرتبا، منتقلا من الأعلى إلى الأدنى، فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعته لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعه بإذنه. فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا وتجريدا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمينه له، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا^(١) فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمري الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه - أي الشرك الأكبر - طلب الحوائج من الموتى، والاستعانة بهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عما استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله،

(١) أي لدينهم وضلالهم.

وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى تنقص الأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وتنقصوا أوليائه الموحدين بدمهم وعيبيهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروا به، وأنهم يوالونهم عليه.

وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانت بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعا لأمره، متطلبا لمرضاه، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله وبالله ومع الله»^(١).

ولما كان تقي الدين ابن تيمية في مصر جاءه ثلاثة رهبان من الصعيد، فناظرهم وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار، وأنهم ليسوا على الدين الذي كان عليه إبراهيم والمسيح. فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون، واحتجوا بما يفعله بعض الجهلة من المنتسبة للإسلام فقالوا: أنتم تقولون بالسيدة نفيسة، ونحن نقول

(١) السابق (٢٣١-٢٣٣).

بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم أن المسيح ابن مريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك^(١)!

فقال لهم: وإن من فعل ذلك؛ ففيه شبه منكم، وهذا ليس بدين إبراهيم الذي كان عليه، فإن الدين الذي كان إبراهيم عليه^(٢): ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا نشرك معه ملكاً ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ثم ذكر لهم حقيقة دين المرسلين. فلما سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه. ثم انصرفوا من عنده^(٣).

(١) ولا حظ إنكار الفطر للشرك من أساسه ولكن تراكم طبقات الجهل على مر العصور أذاهم لهذه الضلالة مع إنكارهم لها بداية!

(٢) ولما جاء أحد الناس لشيخ الإسلام بخبز يابس وقال له: قد أتيتك بهذا الخبز من سماط الخليل على اسمك! فقال له: ليس لي به حاجة، أنا حاجتي إلى الدين الذي كان عليه الخليل، ومتابعة ملّة الخليل الذي أمر الله أمة محمد بمتابعتها. ليس لي حاجة بهذا الخبز، والخليل لم يعمل هذا، ولا أمر بهذا العدس، ولا كان يطعم ويضيف غير اللحم. قال تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وأما العدس فهو شهوة اليهود. وقد سئل ابن المبارك عنه فقيل له: جاء حديث «أن العدس قدّسه سبعون نبياً» (موضوع، المقاصد الحسنة ٤٨٥) فقال: لا، ولا نصف نبي. الجامع لسيرة شيخ الإسلام (١٣٩) بتصرف يسير.

(٣) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، فصل في تكسير الأحجار (١٤٣، ١٤٤) بتصرف يسير.

ولاشتباه مسألة الشفاعة على الكثير فقد أفرد لها الإمام المجدد رحمه الله تعالى بباب مستقل في كتابه النفيس (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وقد وُفق هذا الإمام أيما توفيق في تجديد الدين، ونقض أصول الشرك، ونقض غبار الجهل والشُّبه عن قلوب كثير من الناس، رحمه الله تعالى ورفع منزلته وألحقنا به في الصالحين. وإن من أنفس ما خطته يده بعد كتاب التوحيد رسالة عزيزة جدًا وعالية القدر، وفيها من وضوح الحجة وقوة البرهان ما يهدي الله بها من شاء من عباده، فقد تتبع رحمته شبه المشركين في باب توحيد العبادة على مرّ العصور، ثم انتظمها كشفًا وهتكًا بسيف الوحي من الكتاب والسنة في رسالته (كشف الشبهات)، ومن عرف قدر التوحيد والشرك عظم أمر هذه الرسالة، وقد فتح الله عليه منها من فتوح العلم ما يشهد به كل متدبر منصف. وقد كان كثير من العلماء يحفظها عن ظهر قلب. فقال رحمته:

«اعلم رحمك الله أن التوحيد هو أفراد الله بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله إلى عباده، فأولهم نوح عليه السلام، أرسله الله إلى قومه لما غلّوا في الصالحين: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وآخر الرسل محمد صلّى الله عليه وآله وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده؛ مثل الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين. فبعث الله إليهم محمدًا صلّى الله عليه وآله يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل

فضلاً عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون مقرّون ويشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبّر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلّهم عبيده وتحت تصرّفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فاقراً قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقَوْنَ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تُنْقَبُونَ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرّون بهذا، وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات، أو نبياً مثل عيسى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ

فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ [الجن: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم، والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور؛ سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً، لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد. فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار والجُهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو أفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. فإذا عرفت أن جُهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهال الكفار! بل يظن أن ذلك التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجلٍ جُهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله!

إذا عرفت ذلك معرفة قلب، وعرفت أن الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية [النساء: ٤٨]، وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالبُ الناس عليه من الجهل بهذا؛ أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأفادك أيضًا: الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يُعذر بالجهل^(١)، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظنَّ المشركون، خصوصًا إن ألهمك الله ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فحينئذٍ يعظم خوفك وحرصك على ما يُخلصك من هذا وأمثاله.

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيًّا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، فإذا عرفت ذلك، وعرفت أن الطريق إلى الله

(١) وقد فصلت ذلك في رسالة: (ويكون الدين كله لله).

تعالى لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلمٍ وحجج؛ فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَنِيَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٦، ١٧]، ولكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حجج الله وبيّناته، فلا تخف ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح. وقد منّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانًا لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

وأنا أذكر لك شيئًا مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتجّ به المشركون في زماننا علينا، فنقول: جواب أهل الباطل من طريقتين: مجمل، ومفصل. أما المجمل: فهو الأمر العظيم، والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا

الله ﴿آل عمران: ٧﴾، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»^(١).

مثال ذلك إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، أو أن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن المشركين يقرون بالربوبية، وأنه كفرهم بتعلقهم بالملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] هذا أمرٌ محكم لا يقدر أحدٌ أن يغيّر معناه، وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل، وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى، فلا تستهن به، فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]»^(٢).

ثم ذكر ﷺ الجواب المفصل، فاستقرأ أكبر حجج المخالفين من القبورية وأشباههم، ثم فندها ودحضها بما ملخصه:

(١) متفق عليه.

(٢) رسالة كشف الشبهات للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

١. إن قالوا نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه الخالق الرازق، ونعلم أنه لا أحد من الخلق يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولكن نحن مذنبون والصالحون لهم جاه عند الله، فنطلب منهم وهم يسألون ويطلبون لي ويقربوني إلى الله زلفى. فالجواب بما تقدّم، وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكر ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئا، إنما أرادوا الجاه والشفاعة، وقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه. فتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام بل لا بد من توحيد العبادة.

٢. إن قال: إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، فكيف تجعلون الأنبياء الصالحين مثل الأصنام^(١)؟

فالجواب: أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]، ويدعون المسيح وأمه، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومنهم من يعبد الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] فقد كفرهم الله تعالى جميعا، وكفرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم، ولم يفرق بين من عبد الأصنام وبين من عبد الصالحين.

(١) الصنم: ما عُبدَ من دون الله، وكان على صورة كائن حي، أما الوثن فيعم كل ما عبد من دون الله ولو كان حجرا أو شجرا أو جنيا أو غائبا أو غيره، فكل صنم وثن وليس كل وثن صنما.

٣. فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر، ولكنني أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا هو قول الكفار سواء بسواء، وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وهذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم.

٤. فإن قال: الالتجاء إلى الصالحين ودعائهم ليس عبادة.

فالجواب: هل تُقرّ أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله؟ فإذا قال: نعم، فقل له: فبين لي هذا الإخلاص الذي فرضه الله عليك، فإن أجاب بأنه أفراد الله بالقصد والطلب فقد هدم أصله، وإن لم يعرف فبين له الجواب بأن تتلو عليه قول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، واسأله: هل هذه الآية تدل على أن الدعاء عبادة، وكذلك قول رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١) فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فبما أنك أقررت أنها عبادة، ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً، ثم دعوت أحداً غيره في نفس تلك الحاجة، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول: نعم.

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٣٠).

ثم قل له: إذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] وأطعت الله عز وجل، ونحرت له، فهل هذه عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ لأن طاعة أمر الله هي العبادة. ثم قل له: فإن نحرت لمخلوق سواء كان نبياً أو جنياً أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بد أن يقرّ ويقول: نعم.

ثم قل له: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم. فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء وغير ذلك؛ وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر، ولكنهم دعوهم والتجؤوا إليهم للجاء والشفاعة.

٥. فإن قال: وهل تنكر شفاعة رسول الله ﷺ؟

فالجواب: إني لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل إن نبينا ﷺ هو الشافع المشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] ولا تكون إلا بإذن الله، وفيمن ارتضى الله أن يشفع له كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهو سبحانه لا يرضى إلا لأهل التوحيد، كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا بإذنه، وأنه لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، تبين أن الشفاعة كلها لله، فأنا أطلبها منه فأقول: اللهم شفّعني في، اللهم لا تحرمني شفاعته، وأمثال هذا.

٦. فإن قال: النبي أُعطي الشفاعة، وأنا أطلبها مما أعطاه الله.

فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة، ونهاك عن هذا، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

كذلك فإن الشفاعة قد أعطاه الله غير النبي ﷺ، فصَحَّ أن الملائكة والأفراط والأولياء والشهداء يشفعون، أنقول: إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم؛ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه. وإن قلت: لا، بطل قولك: أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبها مما أعطاه الله.

٧. فإن قال: أنا لا أشرك بالله شيئاً، ولكن الالتجاء للصالحين ليس بشرك.

فالجواب: إذا كنت تقر أن الله حَرَّمَ الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقر أن الله لا يغفره كما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] فما هذا الذي حرمه الله وبيّن أنه لا يغفره؟ فإنه لا يدري، فقل له: كيف تُبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ وكيف يحرم الله عليك هذا، ويذكر أنه لا يغفره، ولا تسأل عنه، ولا تعرفه؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟

٨. إن قال: الشرك هو عبادة الأصنام، ونحن لا نعبد الأصنام.

والجواب: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أن الذين عبدوها يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذّبه القرآن. وإن قال: هم من قصدوا حجراً أو قبراً أو غيره يدعون له ويذبحون له ويقولون: إنه يقربنا إلى الله زلفى، وأن الله يعطينا بركته.

فقل: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والقبور وغيرها.

كذلك فقل له: في قولك: الشرك عبادة الأصنام، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن دعاء الصالحين لا يدخل في ذلك؟ فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كُفرٍ من تعلق بالملائكة أو عيسى أو الصالحين.

٩. إن قال: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟

فالجواب^(١) من عدة أوجه: أولاً: لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدّق رسول الله ﷺ في شيء وكذّبه في شيء؛ أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقرّ بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقرّ بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقرّ بهذا كله وجحد الصوم أو أقرّ بهذا كله وجحد الحج.

ولما لم ينقد أناسٌ في زمن النبي ﷺ للحج؛ أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) تأمل في هذا الجواب جيداً وتفهمه واحفظه عن ظهر قلب، فعامة القبورية في هذا الزمان في حاجة إلى سماعه وبياناه وفهمه فهماً تاماً، فادعهم به إلى الحنيفية أيها الموحّد.

ومن أقر بهذا كله وجحد البعث؛ كفر بالإجماع وحلّ دمه وماله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠، ١٥١]، فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًا؛ زالت هذه الشبهة.

ثانيًا: إذا كنت تُقرّ أن من صدّق الرسول في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع، وكذلك الحال في الصوم والبعث وغيرهما مما أجمع العلماء على كفر من جحد؛ فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ، فهو أعظم من الصلاة والزكاة والصيام والحج. فكيف يكون من جحد شيئًا من هذه الأمور ولو كان عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ ثم لا يكفر بجحد التوحيد الذي هو دين جميع المرسلين؟!

ثالثًا: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون. فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي. قلت: هذا هو المطلوب، فإذا كان من رفع رجلًا إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحلّ دمه وماله، ولم تنفعه الشهاداتتان ولا الصلاة؛ فكيف بمن رفع مخلوقًا. مهما علا شأنه. إلى رتبة جبار السموات والأرض؟! سبحان الله! ما أعظم شأنه! ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

رابعًا: الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنار كلّهم يدّعون الإسلام وهم من أصحاب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتعلّموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في علي مثل اعتقادات عبّاد القبور والأولياء في هذا الزمان. فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم. أتظنّون أن الصحابة يكفّرون المسلمين؟ أتظنّون أن الاعتقاد في الأولياء والقبور لا يضرّ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يُكفر؟

خامسًا: بنو عبيد القدّاح الذين ملكوا مصر والمغرب في زمن بني العباس كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويدّعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهرُوا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه؛ أجمع العلماء على كفرهم وقتلهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

سادسًا: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن وإنكار البعث؛ فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد) وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه؟ وقد ذكروا أنواعًا كثيرة، كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله.

سابعًا: الذين قال الله فيهم: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً أَكْذَرُ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] أما سمعت الله كفرهم بكلمة، مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ، ويجاهدون معه، ويصلّون معه، ويزكّون ويحجون ويوحّدون؟

وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿لَا تَعْنَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] فهو لاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم، وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح.

فتأمل هذه الشبهة، وهي قولهم: تكفرون من المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون، ثم تأمل جوابها؛ فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ثامنًا: ما حكاه الله تعالى عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاتهم أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقول أناس من الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط^(١) فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾، علمًا بأن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، كذلك الصحابة الذين سألوا النبي ﷺ لم يكفروا لأنهم لم يفعلوا. ولا خلاف أن بني إسرائيل أو الصحابة لو فعلوا ذلك بعد نهيهم لكفروا.

وهذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها؛ فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل: التوحيد فهمناه. أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضًا أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك وتاب من ساعته؛ أنه لا يكفر، ومع ذلك فيغلظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا

(١) أحمد (٢١٩٠٠) وإسناده على شرط الشيخين، وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩).

كما فعل رسول الله ﷺ.

١٠. إن قال: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله، كذلك حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»^(١).

فالجواب: قد قاتل الرسول ﷺ اليهود وكفرهم وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله، وكذلك الحال في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع بني حنيفة، وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادّعى الإسلام؛ بسبب أنه ظن أنه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك. وأنزل الله تعالى في هذا المعنى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتثبتوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه ما يخالف الإسلام قُتل، لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر معناه ما ذكرناه أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يُناقض ذلك.

١١. فإن قال: إن الاستغاثة بالأنبياء ليست شركاً لجواز الاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة.

فالجواب: أن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك فالاستغاثة^(١) بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول: ادعُ الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته، وأما بعد موته فحاشا وكلاً أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف دعاؤه نفسه.

١٢. إن قال: إن الاستغاثة بالأموال والغائبين ليست شركاً لأن جبريل عليه السلام عرض المساعدة على إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة السابقة؛ فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه، فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] فلو أذن الله له أن يأخذ إبراهيم لمكان آمن لفعل. وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا مئة فيه لأحد. فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك؟!!

(١) الاستغاثة: طلب إزالة الكرب.

تنبيه هام:

ثم قال ﷺ: ولنختم الكلام بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفهم مما تقدّم، ولكن نُفرد لها الكلام لعظم شأنها، وكثرة الغلط فيها، فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا، لم يكن الرجل مسلماً.

فإن عرف التوحيد ولم يعمل به؛ فهو كافر معاند كفرعون وإيليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس فيقولون: هذا حقٌّ، ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق، ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار. ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار كما قال تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩] وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وغير ذلك من الآيات.

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، أو لا يعتقد به بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملت في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سأله عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه!

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْنِزُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، فإذا تحققت أن بعض الصحابة

الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزاح واللعب؛ تبين أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مالٍ أو جاهٍ أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان.

وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفاً أو مداراة أو مشحّة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض، إلا المكره. والآية تدل على هذا من وجهين:

الأول: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ [النحل: ١٠٦] فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] فصّرّح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين^(١).



(١) كشف الشبهات للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي.

الدعاء

الرغبة إلى الله تعالى وفيما عنده تقتضي صلاح القلب ومتابعة الجوارح ولهج اللسان في السعي الحثيث لتحقيقه. ومن رحمة الله تعالى أن نُوِّع لعباده طرق تحصيل الخير، فالعبادات كلها من أسباب حصوله. وترك المحرمات كذلك من أسباب تحصيل رضى الله عز وجل والجنة، ومن أسهل وأجمع العبادات وأجلها وأحبها إلى الله تعالى وأدلّها على ضراعة العبد واستكانته وانطراحه بين يدي ربه، وتلبسه برداء الفقر والمسكنة، وتمثله حال العبد المملوك المحتاج: الدعاء.

فالله تعالى يفرح إذا دعاه عبده بدعاء مسألة أو ثناء، فلذلك خلقه، فكل العبادات إنما هي أدعية، إما بلسان الحال؛ كامتثال الأوامر واجتناب المناهي، وإما بلسان المقال بدعاء الثناء كالذكر وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة والصدقة، ونحو ذلك، أو بدعاء المسألة وهو طلب العبد من ربه حاجته والرغبة إليه بها^(١).

وقد قال ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»^(٢)، وقال: «أفضل العبادة الدعاء»^(٣)، وقال: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾

(١) وسأذكر نقولاً نافعة عن كتاب العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ (تصحيح الدعاء) مع شيء من التصرف والاختصار.

(٢) أحمد (٤ / ٢٦٧)، وابن حبان (٨٧٠) وحسنه شعيب الأرناؤوط والترمذي وقال: غريب، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٢ / ٧١٢).

(٣) الحاكم (١ / ٤٩١) ووافقه الذهبي، وتتبعهما الألباني فضعف القتات وذكر تدليس =

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١﴾
[غافر: ٦٠] (١).

وإذا التفتت إلى فاتحة كتاب الله تعالى وخاتمته، بدا لك من أسرار التنزيل عجباً؛ فإن الله سبحانه افتتح كتابه الكريم في سورة الفاتحة بدعاء ثناء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤.٢] ودعاء مسألة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٥، ٦] واختتم سبحانه كتابه الكريم بالدعاء في سورتي المعوذتين فهما دعاء مسألة متضمناً دعاء ثناء.

وما هذه المرتبة السامية، والمنزلة العالية - والله أعلم - إلا لأنه يجتمع فيه من أنواع التعبد ما لا يجتمع في غيره، فيستدعي حضور القلب وعبادة الله بالتوجه والقصد والرجاء والتوكل والرغبة فيما عنده والرغبة من عذابه.

ويستدعي عبادة اللسان من اللهج بالتحميد والتقديس والطلب والمسألة والابتهاال والتضرع.

ويستدعي عبادة البدن بالانكسار والاستكانة بين يدي الله تعالى والتذلل له،

حبيب بن أبي ثابت، ثم قال: والحديث بمجموع الطريقتين حسن (الصحيحة: ١٠٦/٤).

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٨٢٨).

والتبري من الحول والقوة إلا به، مستغيثاً به سبحانه دون سواه، إلى آخر ما هناك من أنواع العبادة التي يشتمل عليها الدعاء، ولهذا قال سبحانه في محكم كتابه: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، أي لولا عبادتكم الشاملة لنوعيتها؛ دعاء طلب بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، من الأقوال والأعمال والنيات والتروك، التي تملأ القلوب بعظمة الله وجلاله، ودعاء مسألة وطلب، وهو دعاء العبد ربه وطلبه إياه، وسؤاله ما ينفعه في الدنيا والآخرة، ودفع ما يضره، وكشف ما أَلَمَّ به. وهذا النوع هو الذي يملأ القلوب بالرغبة والانكسار بين يدي الله جل ثناؤه، قال الله سبحانه فيه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي هذه الآية سمى الله تعالى دعاء المسألة عبادة، وسماه في آية أخرى ديناً، فقال سبحانه: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ولِعَظَم شأنه وجلالة أمره فقد سماه الله تعالى صلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومن استقرأ آيات القرآن العظيم في التحذير من الشرك بالله تعالى وجد أن أكثرها في التحذير من الشرك في الدعاء، ومن هنا صار الدعاء من صريح الاعتقاد.

والدعاء أكرم شيء على الله عز وجل، وهو طريق الصبر في سبيل الله، وصدق في اللجأ، وتفويض الأمور إليه، والتوكل عليه، وبُعد عن العجز

والكسل، وتنعم بلذة المناجاة لله، فيزداد إيمان الداعي، ويقوى يقينه، والله سبحانه يحب من عبده أن يسأله و«من لم يدع الله يغضب عليه»^(١).

والدعاء عبادة سهلة ميسورة، مطلقة غير مقيدة أصلاً بمكان ولا زمان ولا حال، فهي في الليل والنهار والبر والبحر والجو، والسفر والحضر، وحال الغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية، فالدعاء . وايم الله . وظيفة العمر، وهي مع المسلم في أول منازل العبودية وأوسطها وآخرها، ليعيش العبد دائماً في حال الالتجاء والافتقار إلى خالقه ومولاه سبحانه.

وملازمة الدعاء أخذ بأسباب رفع البلاء ودفع الشقاء، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، وقال زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

وكم من بلاء رُدّ بسبب الدعاء! فكم من بلية ومحنة رفعها الله تعالى بالدعاء، ومصيبة كشفها الله بالدعاء، وذنب ومعصية غفرها الله بالدعاء، فهو حرزٌ للنفس من الشيطان، وترس لرد السهام، وكم من رحمة ونعمة ظاهرة وباطنة استجلبت بسبب الدعاء، من نصر وعز وتمكين ورفع درجات في الدنيا والآخرة، فله ما أعظم شأن الدعاء، وأعظم فضل الله ونعمته على عباده به!

فدعاء المسألة من أهم الواجبات، وأعظم المفروضات، ولذا كان دأب

(١) البخاري في الأدب المفرد (٦٥٨)، والترمذي (٣٤٢ / ٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٥٤).

الأنبياء، كما ذكره الله عنهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وتكاثرت نصوص الشرع المطهر في الترغيب في الدعاء بما هو نهاية في توجيه قلوب الخلائق لخالقهم، وأنه سلاح المؤمن، وحصن حصين للمسلم، ومنشور الولاية للعبد الأواه، الذي من أعطيه اتصل، ومن ضيَّعه عُزل، ولهذا كان تركه قدحًا في الدين، وإعراضًا عن رب العالمين. ومن أعرض عن الله، أعرض الله عنه.



شروط الدعاء وآدابه

لابد لتحصيل مقصود الدعاء من مراعاة شروطه وآدابه، وجميع هذه الشروط والآداب اشتملت عليها آيتا الأعراف، قال الله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأعراف: ٥٥، ٥٦] سواء بطريق النص، أو الإشارة (١).

فمن ذلك:

١. أن يكون الداعي موحدًا لله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ممتلئًا قلبه بالتوحيد وشجرة الإيمان، فشرط إجابة الله للدعاء: استجابة العبد لربه بطاعته وترك معصيته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢. أن يكون الدعاء مشروعًا، في أمر مشروع.

٣. أن يكون الداعي مؤمنًا أن الله سبحانه هو القادر وحده على إجابة دعوته.

٤. أن يحقق ركني العمل: الإخلاص والمتابعة.

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/٣).

٥. أن يتوجّه إلى الله وحده، بضراعة وابتهاال.
٦. طيب المطعم والملبس والمسكن والمكسب.
٧. ألا يعتدي على نفسه بالمعاصي وهتك المحارم كالعقوق والقطيعة.
٨. ألا يعتدي في دعائه بإثم أو قطيعة رحم.
٩. ألا يستعجل الإجابة، ولا يقنط من ربه الكريم.
١٠. استفتاح الدعاء بالحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، والأفضل أن تكون الصلاة في فاتحته ووسطه وخاتمه، والمرتبة الثانية في أوله وآخره، والمرتبة الثالثة في أوله.
١١. اليقين بالإجابة سواء معجلة بذاتها أو مدخرة بثوابها.
١٢. يبدأ بنفسه إذا دعا منفردًا، فإن النبي ﷺ كان إذا دعا بدأ بنفسه، وكذا إذا دعا لغيره، وهذه طريقة الأنبياء كما في القرآن، وبالجمع إذا كان يدعو بقوم يؤمنون على دعائه.
١٣. الإيمان بقدرة الله على الإجابة.
١٤. التوسل إلى الله سبحانه بالتوحيد والأسماء والصفات وصالح الأعمال، ثم سؤال الحاجة^(١).
- وتأمل دعاء النبي ﷺ الذي علّمه أبا بكر ليقوله في الصلاة: «اللهم إني

(١) جلاء الأفهام (٧٩، ٨٠).

ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١)، فجمع هذا الدعاء الشاء على الله أولاً، والاعتراف بالفقر والمسكنة والذنوب ثانياً، وطلب الحاجة ثالثاً^(٢)، فهو من أعظم الأدعية.

١٥. الأخذ بجوامع الدعاء.

١٦. أن يختتم دعاءه باسم من أسماء الله الحسنى يناسب مطلوبه، وهذا دأب الأنبياء عليهم السلام في دعائهم وفي أدعية نبينا محمد ﷺ وهي كثيرة في السنة^(٣).

١٧. الطهارة من الأحداث والأخبار.

١٨. نظافة الفم، فهو طريق القرآن.

١٩. طهارة المكان.

٢٠. إحسان الهيئة، واستقبال القبلة، وخفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقد أثنى الله على عبده زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

(١) متفق عليه.

(٢) تأمل سورة يوسف وما فيها من بيان ذلك واطّراده على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام.

(٣) جلاء الأفهام (١٨٨، ١٨٩)، الروح (٣٨)، التبيان (٥٩).

٢١. يدعو بدعاء غير مُلَحَّن، ولا متكلّف صنعة الكلام، ولا مسجوع؛ لأنّه ينافي حال الضراعة.

٢٢. أن يكون الدعاء مُعَرَّبًا غير ملحون. قدر الطاقة. من غير تكلف؛ لأنّ التكلف فيه، وفي تقويم اللسان، ومخارج الحروف، إلى غير ذلك من أنواع التكلف والتفاسح يضعف توجّه قلب الداعي إلى ربه^(١).

٢٣. رفع اليدين قُبَالَةَ الوجه، ضامًّا إحداهما للأخرى، فإنّ رفع اليدين من أسباب الاستجابة، كما في قول النبي ﷺ: «إِنْ رَبَكُمْ حَيٌّ سَتِيرٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ

(١) وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل دعا دعاءً ملحوناً. أي غير مقيم للإعراب. فقال له رجل: ما يقبل الله دعاءً ملحوناً. فأجاب رحمه الله: «من قال هذا القول فهو آثم مخالف للكتاب والسنة، ولما كان عليه السلف. وأما من دعا الله مخلصاً له الدين بدعاء جائز، سمعه الله، وأجاب دعاءه، سواء كان معرباً أو ملحوناً، والكلام المذكور لا أصل له، بل ينبغي للداعي إذا لم تكن عادته الإعراب ألا يكلف الإعراب.

قال بعض السلف: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع، وهذا كما يكره تكلف السجع في الدعاء، فإذا وقع بغير تكلف فلا بأس به، فإن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب، ومن جعل همته في الدعاء تقويم لسانه أضعف توجّه قلبه، ولهذا يدعو المضطر بقلبه دعاءً يفتح عليه لا يحضره قبل ذلك، وهذا أمر يجده كل مؤمن في قلبه، والدعاء يجوز بالعربية وبغير العربية، والله سبحانه يعلم قصد الداعي ومراده وإن لم يقوّم لسانه، فإنه يعلم ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تنوع الحاجات» الفتاوى (٢٢/٤٨٨، ٤٨٩).

عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»^(١)، فيشرع رفع اليدين في الدعاء إلا في حال الدعاء المقيّد بحال أو زمان أو مكان لم يثبت أن رسول الله ﷺ رفع يديه فيه مثل حال الدعاء في خطبة الجمعة، فإنه يكره رفعهما إلا إذا استسقى.

وقد تواتر رفعهما حال الدعاء عن النبي ﷺ في أحاديث ومواطن كثيرة، ورفع اليدين وبسطهما لله تعالى استكانة وعبودية واستطعام.

٢٤. إظهار الافتقار والمسكنة بين يدي الله حال الدعاء.

٢٥. الإكثار من الدعاء حال الرخاء، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»^(٢)، وقيل: من أدمن قرع الباب وَلَجَ^(٣).

٢٦. الإلحاح في الدعاء، والملازمة له، فلا يملّ من الدعاء، فإن المُلحّ في الدعاء يكسب محبة الله له، ولا يهلك مع الدعاء أحد كما جاء الحديث بذلك.

٢٧. ألا يستبطن الإجابة، ولا يضجر إذا تأخّرت ولا ييأس فيدع الدعاء، وإلا كان مستحسراً فيأثم؛ إذ اليأس من رحمة الله من الكبائر، ومن استحسر انقطع، قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) أحمد (٢٣٧١٤) وابن حبان في صحيحه وأبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) الحاكم (١٩٩٧)، والترمذي (٣٣٨٢)، وقال: حديث غريب، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٩٣).

(٣) كما قيل: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩] وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ: أي لا يتعبون.

٢٨. ألا يقنط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»^(١)، وقال سفيان بن عيينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ مِنَ الدَّعَاءِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَجَابَ شَرَّ الْخَلْقِ إِبْلِيسَ إِذْ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿[الحجر: ٣٦، ٣٧].

٢٩. أن يحسن الظن بالله حال دعائه، كحاله في سائر حياته، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»^(٢)، فمن ظنَّ بالله خيراً أفاض عليه من خيراته، ومن لم يكن في ظنِّه هكذا، لم يكن الله تعالى له هكذا.

قال القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قِيلَ مَعْنَى: «ظَنُّ عَبْدِي بِي» ظَنُّ الْإِجَابَةِ عِنْدَ الدَّعَاءِ وَظَنُّ الْقَبُولِ عِنْدَ التَّوْبَةِ، وَظَنُّ الْمَغْفِرَةِ عِنْدَ الْاسْتِغْفَارِ، وَظَنُّ الْمَجَازَةِ عِنْدَ فِعْلِ الْعِبَادَةِ بِشُرُوطِهَا تَمَسُّكًا بِصَادِقِ وَعْدِهِ»^(٣) لَكِنْ إِيَّاكَ وَظَنُّ الْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ، فَذَلِكَ مُحَضُّ الْجَهْلِ وَالْغَرَّةِ.

(١) الطبراني في الكبير (٨٨٠٣) وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد.

(٢) متفق عليه.

(٣) عن تصحيح الدعاء (٢٩).

٣٠. أن تكون الإجابة أغلب على قلبه، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب من قلب غافل لاه»^{(١)(٢)}.



(١) الترمذي (٣٤٧٩) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحسنه

الألباني في الصحيحة (٥٩٦).

(٢) تصحيح الدعاء (٢١-٣٠) باختصار وتصرف.

أسباب إجابة الدعاء الظاهرة والباطنة

ومن سابغ نعم الله، وعظم آلائه على عباده؛ وعده سبحانه - ووعدته حقاً - أنه لا يدعو أحداً إلا استجاب له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وانظر إلى هذه اللطيفة القرآنية في هذه الآية؛ إذ ورد فيها لفظ: السؤال، ولم يأت بعده لفظ: قل. كما هو في آيات السؤال الأخرى في القرآن الكريم، وفي هذا - والله أعلم - إشارة إلى رفع الوساطة بين العبد وربّه في مقام التّعبّد والدّعاء.

ومن استجابة الله سبحانه لدعاء عبده؛ ما يحصل للداعي من أداء هذه العبادة: الدعاء، والطلب، والمسألة، وإثابته عليها وإن لم تقع الإجابة. وهذا نوع من أنواع الإجابة.

ومن استجابة الله تعالى لدعاء عبده: ما يحصل لنفس الداعي من انشراح في صدره، وبهجة في فؤاده، لامتنال أمر ربّه بعبادته، والاشتغال بذكره ودعائه، وإظهار الافتقار والحاجة إليه، وردّ القلب إليه بالتضرّع والاستكانة، ولهذا فإن الداعي يقصد بدعائه تعظيم الله وتمجيده، رجاء الأجر والمثوبة، مع الطمع بتحقيق ما وعد الله به من الاستجابة كلها، ومنها استجابة مطلوبه الخاص.

ودعوة المؤمن لا تُرد، والخير فيما يختاره الله له من تعجيل الإجابة، أو

يعوّضه الله بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، بأن يدفع عنه من السوء مثلها، أو يدّخر له في الآخرة خيراً مما سأل. إذن فعلى الداعي الأخذ بالأسباب الباطنة والظاهرة.

أما الباطنة: فتقديم التوبة الخالصة من المآثم، ورد المظالم، وإطابة المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب من الكسب الحلال، واجتناب المحرمات، والتعقّف عن الشبهات، وحضور القلب، والثقة بالله، وقوّة الرجاء، وقوّة اللجأ إليه، والخيفة والضراعة، وقرع النفس بالتخويف، والتفويض إلى الله، وقطع النظر عما سواه، كمؤمن آل فرعون، وناصح موسى عليه السلام، وتجنّب اليأس من الإجابة.

أما الظاهرة: فتقديم عمل صالح، مثل: الصدقة، وتقديم الوضوء، والصلاة، ورفع اليدين، واغتنام ما ورد به الدليل من أنه مئنة الإجابة في الأوقات الفاضلة، والأحوال الصالحة، والأماكن الشريفة.

فالأوقات الشريفة الفاضلة في العام: الدعاء يوم عرفة، وفي أوقات المشاعر لحاجّها، والتماس ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.

وفي الأشهر: شهر رمضان، لا سيما في العشر الأخيرة منه^(١).

وفي الأسبوع: يوم الجمعة، من جلوس الإمام على المنبر حتى تنقضي الصلاة

(١) والأشهر الحرم عامّة، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وانظر: اللطائف لابن رجب.

ذلك اليوم^(١). ومن صلاة العصر حتى غروب شمسها، وبخاصة آخر ساعة.
وفي الساعات: في الأسحار، وجوف الليل الآخر، وساعة في يوم الجمعة،
قليل: إنها آخر ساعة بعد العصر^(٢).
وأما اغتنام الأماكن الشريفة؛ ففي مكة - حرسها الله تعالى - وفي المشاعر لحاجٍ
بها^(٣).

وأما اغتنام الأحوال الصالحة؛ فالدعاء عند زحف الصف للمجاهدين في
سبيل الله، وعند نزول الغيث، وبعد الوضوء، وعند الأذان، وبين الأذان
والإقامة، وعند إقامة الصلاة المكتوبة، وفي حال السجود، فأقرب ما يكون العبد
من ربه وهو ساجد، وأدبار الصلوات المكتوبات، وحال الصيام حتى يفطر
الصائم، وعند فطره، ودعوة الحاج حتى يصدُرَ من حجّه، ودعوة المظلوم،
ودعوة الإمام العدل، ودعوة العالم، وعقب تلاوة القرآن، وبعد ختمه كما في أثر
مجاهد وغيره^(٤)، وفي مجالس الذكر، وفي اجتماع المسلمين، وإذا تعارَّ المرء من

(١) وانظر: زاد المعاد (١/ ١٠٤-١٠٦)، وتعليق أحمد شاكر رحمه الله على جامع الترمذي
(٢/ ٣٦٢).

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٤١٦): «قل في تحديد ساعة الإجابة يوم الجمعة
نحو من أربعين قولاً، أرجحها قولان؛ الأول: من جلوس الإمام على المنبر إلى
انقضاء الصلاة، الثاني: آخر ساعة بعد العصر».

(٣) وفي بيوت الله تعالى.

(٤) ولا يصح من المرفوع شيء. وانظر: مرويات دعاء ختم القرآن للشيخ بكر أبو زيد.

الليل فقال: لا إله إلا الله ثم استغفر ودعا، وعند صياح الديكة، ودعوة المريض حتى يبرأ، وحال الحضور عند مريض، أو ميت، ودعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب، ودعوة المسافر، ودعاء المضطر^(١)، ومن ذكر الله عند النوم حتى غلبه النوم، وعند شرب ماء زمزم مع النية الصادقة، وعند الدعاء بـ«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»^(٢).

ودعاء الناس عقب وفاة الميت، وعند الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، وعند الدعاء في المصيبة بـ«إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلفني خيراً منها»، والدعاء حال إقبال القلب على الله واشتداد الإخلاص، ودعوة المظلوم على من ظلمه، ودعوة الوالد لولده وعلى ولده، ودعوة المسافر، ودعوة الولد البار بوالديه، والدعاء عقب الضوء إذا دعا بالمأثور في ذلك، والمؤمن يدعو ربه في كل زمان ومكان ولكن هذه المذكورة تخص بمزيد عناية^(٣).

وختاماً: الدعاء بالأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، والدعاء باسم

(١) ويسمى دعاء الحال.

(٢) قال الشيخ صالح الفريج حفظه الله: معناه أن يلهج بهذا الثناء وفي قلبه حاجته بدون أن يسألها، فهذا كاف في الإجابة إن شاء الله، وقد بسط الكلام عنها شيخ الإسلام في الفتاوى (١٠ / ٢٣٧ - ٢٥٤).

(٣) وينظر كذلك: الدعاء، د. سعيد بن وهب القحطاني (١٥، ١٦) وبعضها مفتقر لدليل.

الله الأعظم^(١) كما في الحديثين اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٣، ٢٤)، وقد رجح ابن تيمية وابن القيم أنه الحي القيوم، وقال غيرهما إنه ذو الجلال والإكرام، وقيل: الله، وقيل: المنان، وقيل: بديع السموات والأرض. وقيل: رب رب، وقيل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وقيل غير ذلك.

وقال الدكتور عبد الله الدميحي في كتابه (اسم الله الأعظم) بعد سياق الأقوال وأدلتها والإيرادات عليها: فالذي يترجح عندي - والله تعالى أعلم - هو أن الجزم بتحديد الاسم الأعظم وتعيينه على وجه قطعي من الأمور المتعذرة؛ لأن العلم به من الأمور الموقوفة على الوحي لا مجال للاجتهاد فيه؛ وما ورد عن النبي ﷺ في هذا الموضوع مما يمكن الاحتجاج به ليس صريحاً في تعيينه، وما روي عن تقدم من العلماء في تحديده إنما هو اجتهاد منهم في فهم هذه النصوص الواردة والعلم بهذا الاسم توقيفي، ولا مجال للاجتهاد أو التجارب في تحديده، وإن كان أقواها من حيث الاستدلال: لفظ الجلالة (الله) كذلك: الحي القيوم.

وحيث تبين لي أنه لم يصح من الأدلة الواردة عن المصطفى ﷺ في هذا الموضوع إلا الأحاديث الأربعة: حديث بريدة، وحديث أنس، وحديث أسماء، وحديث أبي أمامة. على ضعف في بعض طرقها، وليس بين الأحاديث الأربعة اسم مفرد أو مركب مشترك بينهما جميعاً، حتى لفظ الجلالة؛ فدل ذلك على صعوبة الجزم بتحديدته على وجه التعيين.

وعليه فالذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن تحديد هذا الاسم على وجه القطع غير متيسر، وقد أخفاه الله تعالى عنا بعد أن بين لنا الرسول ﷺ أهم خصائصه، وبعض مواطن وجوده، وأماكن تحريره؛ ليجتهد في الثناء على الله تعالى واللهج بأسمائه عز وجل والتوسل إليه بأكبر قدر ممكن من أسمائه الحسنى، خاصة التي لها مزية، لعلنا نظفر بدعوة لله تعالى بهذا الاسم فتتحقق الإجابة.

والترمذي، وهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١). وحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم»^(٢).

وأنفع الدعاء: طلبُ العون من الله تعالى على مرضاته، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عِظَمِ مَنْزِلَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: «فالناس في هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام: أجَلُّها وأفضلها: أهلُ العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسألُ الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لِحَبِّهِ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا معاذ،

ولعل الحكمة في إخفائه لا تبعد أن تكون مثل الحكمة في إخفاء تحديد التسعة والتسعين اسماً التي من أحصاها دخل الجنة، ولذلك نظائر أخرى في الشريعة كإخفاء ليلة القدر وساعة الجمعة لحفز الهمم على الاجتهاد في العبادة والدعاء. (اسم الله الأعظم) (١٥٦-١٦٤) باختصار.

(١) أبو داود (١٤٩٣) بسند صحيح.

(٢) أبو داود (١٤٩٥)، وباقي أهل السنن، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٩٠).

والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دُبَّرَ كل صلاة^(١): اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك^(٢)، فأنفع الدعاء: طلب العون من الله على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يُضادّه وعلى تكميله، وتيسير أسبابه، فتأملها^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «تأملت أنفع الدعاء؛ فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»^(٤)(٥).

(١) ورجح شيخ الإسلام أن موضع هذا الدعاء العظيم قبل التسليم؛ لأن دبر الشيء جزء منه.

(٢) أحمد (٢٤٤ / ٦) وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤٩).

(٣) الداء والدواء (٩.٥).

(٤) تصحيح الدعاء، بكر أبو زيد (٣٥.٢١) باختصار.

(٥) الداء والدواء (٩)، وقال تلميذه البزار في الأعلام العلية: «وكنْتُ أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ، فرأيتُه يقرأ الفاتحة ويكررها، ويقطع ذلك الوقت كله، أعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها، ففكرت في ذلك لم قد لزم هذه السورة دون غيرها؛ فبان لي. والله أعلم. أن قصده بذلك أن يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد من الأحاديث وما ذكره العلماء، هل يستحب تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن، أو العكس؟ فرأى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعًا بين القولين وتحصيلًا للفضيلتين، وهذا من قوّة فطنته وثاقب بصيرته». الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبزار، بذيل العقود الدرية (٧٦٠).

دعاء السر

دعاء السر هو اللهج بالدعاء باللسان بدون الجهر به، بحيث لا يسمعه إلا الداعي أو من بجانبه. أما الدعاء بدون تحريك اللسان فالأشبه أن يكون تفكيراً لا دعاءً.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يُراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويُراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه. وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، ولا بد أن يكون مالكا للنفع والضر.

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعبادتهم.

وهذا كثير في القرآن؛ يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر،

فهو يدعو للنفع والضرر دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاء دعاء العبادة^(١)، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزماً لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فُسرَت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً، فتأمل أنه موضوع عظيم النفع، وقل من يفتن له، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً فهي من هذا القبيل^(٢).

فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

(١) وهو دعاء الشناء.

(٢) ثم مثل عليه فقال: «مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ أَيْلٍ﴾ [الإسراء: ٧٨] فُسر الدلوك بالزوال، وفسر بالغروب، وليس بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى، فمبتدأه: الزوال، ومنتهاه: الغروب. واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار. كذلك الغاسق يفسر بالليل وبالقمر، وليس ذلك باختلاف لتلازمهما، فإن القمر آية الليل، ونظائر هذا كثيرة» (الفتاوى ١٥ / ١٢).

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولهذا كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل؛ وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنه ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي^(١).
 ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، والله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به^(٢).
 ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولَّبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكيتته وضراعتة إلى أن

(١) وأما قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع ههنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع (السابق ١٥ / ١٤).

قلت: ومنه: سمع الله لمن حمده.

(٢) وحتى في المعارك، فالسنة خفض الصوت بالذكر.

ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق^(١) وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكتاً، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص^(٢).

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه^(٣)، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها - وهو من النكت^(٤) البديعة جداً -: أنه دالٌّ على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل، وأنه أقرب إليه من كل قريب؛ أخفض دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر فقال: «اربعوا على أنفسكم،

(١) ورد عن بعض من سلف أنه أراد أن يدعو الله أو يذكره بلسانه ليلة كاملة، فلم يطق تحريك لسانه هيبة لله، فلما أصبح بال الدم، ﷺ.

(٢) ولعل هذا مراد الحسن في تضعيف دعوة السر بسبعين ضعفاً، والمراد المبالغة لا التحديد، وهذا سائغ في لغة العرب.

(٣) وهذا ملحظ دقيق جداً.

(٤) النكت: هي الفوائد العلمية الدقيقة النفيسة، وصدق ﷺ فما أعظمها من فائدة! ومن نصحه ﷺ وحرصه أن نبه على أهمية تدبرها، وهو القائل: المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع. العقود الدرية (١٥٢).

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١)، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يملّ اللسان وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته فإنه لا يطوله له، بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه؛ لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد، وممانعته وعارضته. ولو لم يكن إلا أن تعلّقها به ينفزع^(٢) عليه همّته؛ فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا^(٣) فإذا أسر

(١) البخاري (٢٩٩٢) مسلم (٢٧٠٤).

(٢) لأن الهمة ساكنة مطمئنة بالدعاء، فإذا تعلّقت بها أرواح الأغيار فزعت من سكونها وتشتت نظامها.

(٣) وقال البزار عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله: «وكان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه عز وجل، ضارعًا، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكرّرًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية... ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرِفَت عادته لا يكلمه أحد بغير

الدعاء أَمِنْ هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمة؛ الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دَقَّتْ أو جَلَّتْ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها^(١)، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ الآية [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية^(٢) وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها؛ فسلبه إياها الأغيار، ولهذا يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحد، والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل^(٣)، وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمبتدئ السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى لِيُقْتَدَى به، ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله.

ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمع نفسه، وربما يسمع ذكره من الروحانية، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس، ويزول وقت النهي عن الصلاة». الأعلام العلية (٧٦٠).

(١) هذه الفائدة متعلقة بما قبلها، ولأهميتها أفردها.

(٢) الجمعية: اجتماع القلب على شأن واحد. وضدها: الشعث، والتفرقة.

(٣) كالفتح على العبد في العلم بالله تعالى وحلاوة الإيمان والتأله والتعبد والإيمانيات كمًا وكيفًا ونحو ذلك.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء، والمحبة والإقبال على الله تعالى؛ فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسد؛ وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سُمِّيَ دعاء لتضمنه للطلب، كما قال ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله»^(١) فسُمِّيَ الحمد دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن للحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحسوب، فهو أحق أن يُسَمَّى داعيًا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه. قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح.

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ الآية. وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

(١) الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

وخصّ الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخصّ الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانسياط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود فلاشتغال بالوسيلة باطل^(١).

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المريد أعزّ عليه من عشرة دراهم. أو كما قال. وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذرٌ مسقط للجماعة في حقه! فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجل.

فتأمل هذا الغرور العظيم، كيف أدّى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك؛ انسلخ عن الإسلام العام، كانسلاخ الحيّة من قشرها، وهو يظنّ أنه من خاصة الخاصة^(٢).

وسبب هذا: عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته؛ ولهذا قال بعض

(١) كما أثير عن بعضهم حينما أنكر عليه انغماسه في المعاصي فقال: أتراه يُعذّب من يجبه؟! عيادًا بالله من الغرور والأمن من مكر الله تعالى.

(٢) وانظر إلى طبقات الشعرا في تجد أمثلة وافرة على من عناهم الشيخ. والله المستعان.

السلف: من عبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق^(١)، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري^(٢)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، وردّه إليها، كالحائف الذي معه سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق، والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدتها وزمامها الذي يشوّقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا تردّها إذا حادت عن الطريق؛ خرجت عن الطريق وخلّت عنها^{(٣)(٤)}.

فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، ومتى خلا القلب من هذه الثلاث؛ فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه؛ ضعف إيمانه بحسبه، فتأمل أسرار القرآن

(١) الزنديق: المنافق.

(٢) الحروري: الخارجي. والخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، فهم قد غلبوا جانب الخوف، وعلى عكسهم المرجئة.

(٣) وكلام الإمام رحمه الله عن علاقة الحب والرجاء والخوف ببعضها ليس استطرادًا، بل هو من صريح موضوع الدعاء.

(٤) والناظر في عبارات السلف في تقديم الخوف أو الرجاء أو التسوية يلحظ أنها أقوال متباينة ظاهراً لكنها متفقة في الحقيقة، فمن نظر لحال العصاة غلب الخوف، ومن نظر للمريض المخوف غلب الرجاء، ومن نظر إلى المسددين المسارعين بالخيرات ساوى بينهما. كما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب التوحيد.

وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالة على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا. وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع. فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور»^(١).



(١) الفتاوى (١٥ / ١٥ - ٢٢) باختصار.

الاعتداء في الدعاء

قال شيخ الإسلام رحمته الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] «قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء، كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك. وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن معقل أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بُني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»^(١).

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء: تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من المعونة على المحرمات. وتارة يسأل ما لا يفعله الله^(٢)، مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله بأن يطلعه على غيبه^(٣)، أو أن يجعله من المعصومين^(٤)، أو يهب له ولدًا من

(١) أحمد (٨٦ / ٤)، وأبو داود (٩٦)، وصححه الألباني.

(٢) أي اقتضت سنته ألا يفعله، وإلا فهو على كل شيء قدير، ووجه الاعتداء في الدعاء هنا هو مخالفته لسنة الله تعالى في إمامته البشر وعدم تخليدهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا لَشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وعلى هذا بقية الأمثلة.

(٣) أي الغيب المطلق، أو الخمس التي استأثر بها.

(٤) لأنها خاصة بالأنبياء. وفي المنع من الدعاء بالعصمة من الذنوب نظر، ولا يلزم من

غير زوجة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء لا يحبه الله، ولا يحب سائله.

وفُسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا.

وبعدُ: فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء بالدعاء مرادًا بها فهو من جملة المراد، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعلى هذا فيكون أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يجب أهل العدوان، وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان؛ الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخليًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ذلك أن يكون كالأنبياء، فللأنبياء خصائص تميزهم عن غيرهم كتلقيهم وحي الرحمن. وقد جاءت الأخبار بطلب العصمة من الذنوب بعامة ومن مسببها الشيطان كحديث أبي هريرة مرفوعًا في دعاء دخول المسجد: «اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم» (ابن ماجه ٧٧٣ وصححه الألباني)، وحديث حذيفة في حديث الملك: «واعصمني فيما بقي من عمري» (أحمد ٢٣٣٥٥) وضعفه الألباني، وحديث أبي هريرة في دعاء الاستفتاح مرفوعًا: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي...» متفق عليه، قال ابن حجر في الفتح: «باعد: المراد بالمباعدة محو ما حصل منها والعصمة عما سيأتي منها.. والذي قال: «كل بني آدم خطاء» (متفق عليه) هو الذي شرع الدعاء السلامة من الذنوب. فالأظهر الجواز والله أعلم.

ومن العدوان؛ أن يدعو غير متضرع، بل دعاء هذا كالمستغني المدل على ربه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الدليل، فمن لم يسأل مسألة مسكين خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء أن يعبد بهما لم يشرع، ويثني عليه بما لم يثن به على نفسه، ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله؛ مفسد، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو من الشرك بالله ومخالفة أمره، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، قال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر؛ فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم عنهم فبسببهم أجذبت الأرض وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره معه، أو مطاع

متبع غير الرسول ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة^(١)، فإن الله أصلح الأرض برسول الله ﷺ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به ومخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبر أحوال العالم؛ وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] إنها ذكر الأمر بالدعاء لما ذكر معه من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر أيضًا أن يكون الدعاء خوفًا وطمعًا، وفصل الجملتين بجملتين: إحداهما: خبرية ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والثانية: طلبية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ والجملتان مقررتان للجملتين الأولى، مؤكدتان لمضمونها، ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفًا وطمعًا،

(١) حتى ولو كان شعبًا أو برلمانًا أو سلطانًا أو مبدلاً للدين، فكل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت، وإن تغيرت المسميات، بأن قالوا: حرية، أو ديمقراطية، أو ملكًا أو غير ذلك.

لتعلق قوله: ﴿لَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ولما كان قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيثار والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء؛ عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنما تنال من دعاءه خوفاً وطمعاً فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابل الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿لَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وانتصاب قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على الحال، أي: ادعوه متضرعين إليه محتفين خائفين مطيعين.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعاً وخفية، وخوفاً وطمعاً، فقرّر مطلوبكم منه، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بإيائه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله عز وجل وهو أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بُعِدَ عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بُعِدَ بِبُعْدٍ، وَقُرْبٌ بِقُرْبٍ، فمن تقرب إليه بالإحسان؛ تقرب الله إليه بالرحمة، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته.

والله تعالى يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغض الله فرحمته أبعد شيء منه. والإحسان ههنا هو فعل المأمور به سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى، والإقبال إليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة، وحياءً ومحبة وخشية^(١).

فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(٢)، فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يُحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بها جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

(١) فعلى قدر الإحسان يكون تحقيق الرغبة، ويكون قرب الداعي من الإجابة.

(٢) متفق عليه.

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»^(١).

والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدن، والله أكبر كبيراً.



(١) الفتاوى (١٥ / ١٠ - ٢٨).

إطالة نبوية

أخرج الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري في صحيحه^(١)، قال: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا جرير بن حازم، حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جُريج، وكان جريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمُّه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أُمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أُمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أُمي وصلاتي، فأقبل على صلاته. فقالت: اللهم لا تُمتِّه حتى ينظر إلى وجوه المومسات. فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يُتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتُ لأُفتننه لكم. قال: فتعرّضت له فلم يلتفت إليها. فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزله وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنت بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به. فقال: دعوني حتى أصلي، فصلي، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام من

(١) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠).

أبوك؟ قال: فلان الراعي! قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا.

وبينا صبيٌّ يرضع من أمه، فمرَّ رجلٌ راكبٌ على دابةٍ فارهة، وشاريةٍ حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله! ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع. قال: فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصُّها.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيّت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها! فهناك تراجعاً الحديث، فقالت: حَلَقَى^(١)! مرَّ رجلٌ حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيّت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها^(٢).

قال: إن ذاك الرجل كان جبّاراً، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون: زنيّت، ولم تزني، وسرقت، ولم تسرق. فقلت: اللهم اجعلني مثلها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) يقال: عقرى حلقى ومعناه: عقرها الله وحلق شعرها، وهذا مما تطلقه العرب ولا تريد معناه الحقيقي كترت يدها، وثكلته أمه، وقاتله الله، ونحو ذلك.

(٢) مثلها: أي سالماً من المعاصي كما هي سالمة. وتحت هذا الحديث من الفوائد ما لا يكاد ينحصر.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة إلى الله تعالى	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(١٢)

موسوعة تعظيم أعلام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

التوكل على الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

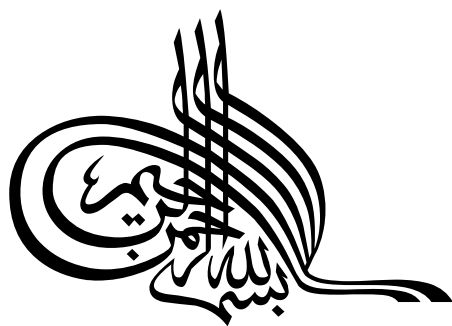
الكتاب رقم (١٢)

النوكل على الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	التعريف
١٦	فضل التوكل ومنزلته
٣٧	أقسام التوكل
٤٢	الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بل التوكل من جملتها
٨٨	قواعد التوكل
٩٠	أولاً: الاسترقاء
٩٨	ثانياً: الاكتواء
١٠٣	ثالثاً: التطير
١١٢	الجمع بين نصوص ظاهرها التعارض في مسألة التشاؤم والتطير
١٢٧	مواطن التوكل
١٣٠	من أخبار المتوكلين
١٣٣	إطالة على صحيح أبي عبد الله البخاري



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله العظيم الجليل الجميل، وَعَدَ المتوَكِّلِينَ عليه بكفائته، وَأَضَاءَ سَبِيلَهُم بِهَدَايَتِهِ، وَحَقَّقَ أَمَانِيَهُمْ بِكَرَمِهِ وَأَعْطِيَاتِهِ وَهَبَاتِهِ. وَأَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، عَمَّ الْخَلَائِقُ فَضْلُهُ وَنَوَالُهُ، وَانْبَسَطَتْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فَيَوْضُ كَرَامَاتِهِ، أَسْعَدُ الْخَلْقِ مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلَ، وَإِلَيْهِ تَوَجَّهَ، وَمِنْهُ اسْتَحْيَا، وَبِحَبْلِهِ اعْتَصَمَ، وَإِلَى رُكْنِهِ التَّجَا، وَبِهِ اكْتَفَى.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَصَفِيَّهِ وَكَرِيمَهُ وَكَلِيمَهُ وَخَلِيلَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ، إِمَامُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَسَيِّدُ الْعَابِدِينَ، وَإِمَامُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى هُوَ جَبَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَسْتَنْدُ عَلَيْهِ عِنْدَ لَأْوَاءِ الْمَعْضَلَاتِ، وَأَدْوَاءِ الْمَشْكَلَاتِ، وَظِلْمَاتِ الْحِيرَاتِ، وَهَجَمَاتِ الرِّغْبَاتِ، وَآلَامِ الْجُوعَاتِ، وَمَعَرَّةِ الْحَاجَاتِ، وَهُوَ لِمَنْ حَقَّقَهُ مَعِينَ الْهَدَايَاتِ لِمَرْضِي رَبِّ الْبَرِيَّاتِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَعَلَى قَدَرِ تَوَكُّلِ الْمَرْءِ عَلَى رَبِّهِ يَكُونُ حَظُّهُ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْهُدَى وَالسَّعَادَةِ، وَإِنْ وَصَلَ أَحَدُهُمْ يَوْمًا لِأَعْظَمِ رَغْبَةٍ لِمُؤْمِنٍ وَهِيَ مَرْضَاةُ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَى صَهْوَةِ التَّوَكُّلِ كَانَ طَرِيقُهُ، وَبِمَعْرَاجِهِ كَانَ وَصُولُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ. ذَلِكَ أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْلٌ مِنْ أَعْظَمِ أَصُولِ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، فَهُوَ الْحَبْلُ الْوَاصِلُ لِكُلِّ تَوْفِيقٍ، وَكُلِّ سَبِيلٍ بَغَيْرِ التَّوَكُّلِ فَهُوَ مَفْضُضٌ لَضِياعٍ

وخيبة وخسار. ولو لم يرد في فضل التوكل سوى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه لكفاه فضلاً وشرفاً.

وهذه صفحات يَسرها الله تعالى في بيان أمور التوكل حدّاً، وفضلاً، وطُرُقاً لتحصيله، ووسائل لدفع عوائقه، وأخبار أهله، ونحو ذلك مما تيسر من مهماته، سائلاً ربي الكريم التوفيق والسداد والهدى والرشاد، هو ربي وإلهي ووكيلي وحسيبي ومولاي، ونعم المولى ونعم النصير ونعم الوكيل.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ١٠ / ٨

aldumaiji@gmail.com

التعريف

هذا العمل القلبي عظيم جدًّا، وهو من أعمدة حياة القلب، فلا حياة للقلب إلا باعتماده وتفويضه وتوكله التام على من بيده مقاليد الأمور.

التوكل هو تمام التفويض، «ومادة (وكل)، الواو والكاف واللام: أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك. والتوكل هو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك. ويقال: واكَلْتُ الرجلَ، إذا اتَّكَلْتُ عليه، واتَّكَل عليك» (١)(٢).

وقال ابن الأنباري في قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] «يقول: كافينا الله، ونعم الكافي، كقولك: رزقنا الله ونعم الرازق. وقال أبو

(١) معجم المقاييس (١٠٦٣).

(٢) واعلم أن التوكل عبادة محضة، فلا يشرع استعمال كلمة التوكل بين المخلوقين، إنما تُستعمل الوكالة أو الاعتماد. فقل للمخلوق: اعتمدت عليك ووكلتك، ولا تقل: توكلت عليك. وكان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يقولون: «التوكل عمل القلب». وعليه فيقين القلب بأن الله تعالى مدبر الأمور وتفويض الأمر كلية إليه مع بذل السبب المشروع هذا محض التوكل، فالتوكل عبادة، وهو بخلاف التوكيل. وعلى هذا فلا ينبغي أن يقال: توكلت على الله ثم عليك، لأن أصل التوكل عبادة، ومنبتها جذر القلب، وليست كالاستعانة والاستعاذة والاستغاثة ونحو ذلك التي جاء استعمالها سائغاً على لسان الشارع فيما يقدر عليه المخلوق. وبالله التوفيق.

إسحاق: الوكيل في صفة الله عز وجل: الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق. ويقال: قد أوكلت على أخيك العمل، إذا خليته كله عليه. ورجل وكلة إذا كان يكل أمره إلى الناس. ورجل تكلة إذا كان يتكل على غيره. والمتوكل على الله هو الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره، فاطمأن قلبه على ذلك، ولم يتوكل على غيره^(١).

وقال الراغب: «التوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، والوكيل: فاعيل بمعنى المفعول^(٢)»، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] أي اكتف به أن يتولى أمرك ويتوكل لك، وعلى هذا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، و﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] أي بموكل عليهم وحافظ لهم، كقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ [الغاشية: ٢٢، ٢٣]، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، و﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦] أي: من يتوكل عنهم؟

والتوكل يقال على وجهين: يُقال: توكلت لفلان، بمعنى توليت له. ويقال: وكلته فتوكل لي، وتوكلت عليه، بمعنى اعتمدته. قال عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ [المتحنة: ٤] ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿وَتَوَكَّلْ

(١) معجم التهذيب (٤/ ٣٩٤٦، ٣٩٤٧).

(٢) ومن بابه عقيدة، فهي فعيلة بمعنى مفعولة، أي: معقودة.

عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿ [الفرقان: ٥٨] ﴾ (١).

وقال ابن سيده: «وَكَلَّ بالله، وتوَكَّلَ عليه، واتَّكَلَ: استسلم إليه. ويقال: توَكَّلَ بالأمر، إذا ضمن القيام به، ووَكَلْتُ أمري إلى فلان: أَلَجَّيْتُه إليه، واعتمدتُ فيه عليه، ووَكَّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. والاسم: الوَكالة والوَكالة، والاسم من التوكل: التُّكْلان» (٢).

والوكيل من أسماء الله الحسنى، وقد ورد مرارًا في القرآن العزيز، قال ابن الأثير: «الوكيل هو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكل إليه» (٣).

وقال الغزالي: «الوكيل هو الموكولة إليه الأمور. ولكن الموكل إليه ينقسم إلى من يُوَكَّلُ إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يُوَكَّلُ إليه الكل، وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى.

والموكل إليه ينقسم إلى من يستحق أن يكون موكولاً إليه، لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص لأنه فقير إلى التفويض والتولية، وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكلة عليه، لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق.

(١) المفردات (٥٤٦).

(٢) اللسان (٣٩٢، ٣٩٣)، القاموس (١٨٩٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢١ / ٥) عن نضرة النعيم (١٣٧٧ / ٤).

والوكيل أيضاً ينقسم إلى من يفي بما وُكِّل إليه وفاءً تاماً من غير قصور، وإلى من لا يفي بالجميع. والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه، وهو مليٌّ بالقيام بها، وفيَّ بإتمامها، وذلك هو الله تعالى فقط»^(١).

وقال العلامة الشنقيطي: «المعاني كلها متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، هو أن الوكيل: من يُتَوَكَّل عليه. فتفَوَّضُ الأمور إليه؛ ليأتي بالخير، ويدفع الشر. وهذا لا يصلح إلا لله وحده جل وعلا. ولهذا حذّر من اتخاذ وكيلٍ دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضار ولا كافي إلا هو وحده جل وعلا، عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل»^(٢).

وهناك علاقة بين التوكل والتفويض والثقة، فبين التوكل والتفويض عموم وخصوص، فالتفويض أوسع من معنى التوكل، والتوكل أخص من التفويض^(٣)؛ أما الثقة فهي خلاصة التوكل وُثْبُهُ وسواد عينه، ولولا كمال ثقة أم موسى بربها لما أَلْقَتْ بوليدها في اليم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي أَلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]^(٤).

وقال ابن القيم بعد ذكر بضعة وعشرين تعريفاً للتوكل: «وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكلُّ أشار إلى

(١) المقصد الأسنى (١٢٩) عن السابق (٤ / ١٣٧٧).

(٢) أضواء البيان (٣ / ٣٦٧) عن السابق (٤ / ١٣٧٨).

(٣) المدارج (٢ / ١٤٥).

(٤) المدارج (٢ / ١٤٩).

واحد من هذه الأمور، أو اثنين فأكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته؛ من قدرته، وكفايته، وقِيَمِيَّته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل. قال شيخنا - أي ابن تيمية - رحمته الله: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة، ولا من الجهمية، فلا يستقيم إلا من أهل الإثبات».

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات، فمن نفى الأسباب فتوكله مدخول.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فحقيقة التوكل: توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها.

والتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علائق القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه

وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية^(١).

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلاوة هذا: ألا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يجب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماداً على الله، وسكونه إليه قد حصّنه من خوفها ورجائها، فحالُه حالٌ من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً؛ فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوّه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملك درهماً فسرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه فلا تهتم، متى جئت إليّ أعطيتك من خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك؛ لم يحزنه فوته.

وقد مثّل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتمادهِ وسكونهِ، وطمأنينته بثدي أمه، لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه.

(١) وللأسباب وعلاقتها بالتوكل فصل خاص يأتي إن شاء الله تعالى.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله تعالى^(١)، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له؛ يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله عز وجل.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يُتصوّر التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعته. وبهذا فسّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

الدرجة السابعة: التفويض: وهو رُوح التوكل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا لا كرهاً واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته، وتما كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له^(٢)، فهو يرى أن تدبيره له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليها؛ خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليها. فلا يجد أصلح له ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلفها وثقل حملها مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوّض إليه، وقدرته وشفقته.

(١) وهو شريف جدًّا، وله كتاب مستقل إن شاء الله تعالى.

(٢) المراد التمثيل للتقريب، ولله المثل الأعلى سبحانه وبحمده.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى الدرجة الثامنة وهي: درجة الرضى. وهي ثمرة التوكل، ومن فسّر التوكل بها فإنما فسّره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده، فإذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيّله.

وكان شيخنا^(١) يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضى بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضى بالمقضي له بعد الفعل؛ فقد قام بالعبودية.

قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرُك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»^(٢)، فهذا توكل وتفويض، ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب»، فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسّل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسّل بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحة عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو^(٣) حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له، فقال: «واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضى به».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضى بعده؛ وهو ثمرة التوكل،

(١) ابن تيمية رحمه الله، وإذا أطلق ابن القيم شيخه فهو ابن تيمية، رحمه الله.

(٢) البخاري (١١٦٢).

(٣) يصحّ لغة تذكيره بناء على ما مضى من تذكير دون ما أقبل من تأنيث، والأشهر عكسه.

والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قُضي له؛ فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه فيه، وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به. وقول يحيى بن معاذ، وقد سُئل: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً^(١).



(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٩-٣٦٩) باختصار.

فضل التوكل ومنزلته

إن من أعظم أعمال القلوب على الإطلاق وأشرف منازل السائرين لرضى الله رب العالمين: منزلة التوكل، وقد استفاضت نصوص الوحي الإلهي قرآنًا وسنة بذكره والتنويه بشأنه، وبيان منزلة أهله، فقد ذكر الله عز وجل التوكل في القرآن في اثنين وستين موضعًا^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فشرط التوكل لتحقيق الإيمان، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فما توكل نافع إلا على الله وحده، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي، ومن كان الله كافي فلا تسل عن فلاحه. وقال عز وجل عن أوليائه أن من أدعيتهم: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وقال له ولكل من تبعه بإحسان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال له ولأتباعه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، والقرآن مملوء من ذلك.

(١) بلفظ (توكل) ٣٨ موضعًا، ولفظ (وكيل) ٢٤ موضعًا، مجموعها ٦٢ موضعًا.

وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتون، وعلى ربهم يتوكلون»^(١)، وقال ﷺ: «من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ يُقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطان لشیطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟»^(٢). والأحاديث كثر.

«والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»^(٣).

«ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم.

فأهل السموات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق، ويتوكلون عليه في الإيمان ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابته وتنفيذ أوامره.

(١) متفق عليه. البخاري (٥٧٠٥)، مسلم (٢٢٠).

(٢) الترمذي في الزهد في باب التوكل على الله. وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٥٩).

(٣) المدارج (٢/٣٤٩، ٣٥٠).

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، في رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب؛ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس. وأوسع وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية^(١)، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم، ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله^(٢)؛ فإن كان محبوباً له

(١) وهذا ملحظ مهم للدعاة والمربين والمحتسين والمجاهدين ومصلحي ذات البين.

(٢) شريطة أن يتحقق التوكل كاملاً، فإذا كان التوكل هو أقوى الأسباب فقد يخرق الله =

مرضياً؛ كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً، حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعته.

به العادة حتى بدون أسباب أخرى ومع وجود موانع، وهذه هي مرتبة توكل الاضطراب للعالم بالله عز وجل، قال ابن القيم رحمه الله: «قد تعرض للصادق أحياناً قوة ثقة بالله، وحال مع الله تحمله على ترك كل سبب، كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة، ويكون ذلك الوقت بالله لا به، فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله، ولكن لا تدوم هذه الحال، وليس في مقتضى الطبيعة، فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها، فإن استدعى مثلها وتكلفها لم يُجب إلى ذلك». المدارج (٣٨٨/٢).

قلت: وفي تحدي شيخ الإسلام لرؤوس الأحمديّة الذين كانوا يشعبدون على العامة بحيل ودهون يضعونها على أجسادهم ثم يزعمون أن النار لا تضرهم حتى يسلم الناس لهم حالهم وينفذون بذلك إلى قلوبهم، فلما اجتمع بهم شيخ الإسلام في جمع كثيف من العامة والجنّد والأمرء صاح فيهم: أن يغتسل هو وإياهم بما يزيل ما وضعوه على جلودهم ثم يدخل هو وإياهم في النار فمن أكلت منهما فهو مخذول من الله، فانخذلوا ونكلوا وكُشِفُوا وهدم الله بدعتهم وضلالهم، ولها نظائر في التاريخ. فشيخ الإسلام هنا نظر للمسألة من جهة أن القائم لله في حال يكون كسره كسر للدين وهدم للسنة واضمحلال للشرعية وتبديل للملة، فإن كان القائم في هذه اللحظة مضطراً لله قائماً به وله، متعلقاً به متوكلاً عليه مستنزلاً نصره ومستمطراً معونته ومستمدداً مدده، فإن اللطف لا يتخلف، والنصر لا يتأخر، والفتح لا يبطئ، فتلك سنة ماضية جعلها الله ناموساً لكونه، فالسنة الشرعية غالبية للكونية في حالة الاضطراب لإقامة الدين من يستحق ذلك، وكلُّ بيد الله الحكيم المدير المتصرف الحي القيوم.

وليتنبه المؤمن إلى مسألة وهي: اشتباه علم التوكل بحال التوكل، فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفصيله فيظنّ أنه متوكل، وحقيقة حاله أنه ليس من أهل التوكل^(١)! فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كـمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها، وحال المحب العاشق وراء ذلك، وكـمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك، وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقته، وحاله بخلافها.

وفي هذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والتوكل من أعلى المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقاً خاصاً بعامّة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، فله تعلق باسم الغفار والتواب والعفو والرهوف والرحيم والفتاح والوهاب والرازق والمعطي والمحسن والمعز والمذل والخافض والرافع والمنع، وتعلق بأسماء القدرة والإرادة، وفي تعلقه من جهة توكله على الله في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. أما تعلقه باسم الوكيل فظاهر، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسرّه من الأئمة بأنه المعرفة بالله، وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى^(٢).

(١) فالعلم المجرد لا يكفي بل لابد من العمل به.

(٢) المدارج (٢/ ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٧١، ٣٧٣) باختصار.

هذا والتوكل دليل صحة الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل. وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، فكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد.

والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية^(١).

«والرسل عليهم السلام قالوا لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، فالهداية والتوكل متلازمان. فصاحب الحق لعلمه بالحق ولثقته بأن الله وليّ الحق وناصره؛ مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بداً من توكله، فإن التوكل يجمع أصليين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

(١) انظر تفصيلها في طريق المهجرتين (٢/ ٥٥٧-٥٦٠).

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل أَدْخَلَ في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، أو جزء من ماهيته.

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره، وسكونه إليه، فما له ألا يتوكل على ربه؟! وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإن الله سبحانه لا يتولى الباطل، ولا ينصره، ولا يُنسب إليه بوجه، فهو منقطع النسبة إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الحق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعدته حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله وأقواله شيء باطل، فلما كان الباطل لا يتعلق به سبحانه، بل هو مقطوع عنه البتة؛ كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله، وكان منقطعاً عن ربه؛ لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر، وهذه الفائدة السرية^(١) حقيقة أن تُودَعَ في خزانة القلب لشدة الحاجة إليها، والله المستعان وعليه التكلان^(٢).

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان وجميع أعمال

(١) السرية: الشريفة الجليلة.

(٢) وصدق ﷺ؛ فالعلم الصحيح مع العمل به موجبان بإذن الله للمعونة الإلهية، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن؛ فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»^(١)(٢).

ومن أعظم فضائل التوكل مدح أهله بمحبة الله لهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، «وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه، فَمَنِ اللَّهُ تعالى حسبه وكافيه ومُحِبُّهُ ومُراعِيه؛ فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يُعَذَّب ولا يُبعد ولا يُحجب»^(٣). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] أي: عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجناحه والتجأ إلى ذمامه وحماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، وكل ما سوى الله فهو عبد مُسَخَّرٌ، وحاجته مثل حاجة أمثاله من المخلوقين، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

ويكفي في فضائل التوكل وثماره أنه سبب لدخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»^(٤)، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى

(١) فكأن التوكل قاعدة وغذاء لبقية مراتب الدين ومقامات الإيمان.

(٢) طريق المهجرتين، ابن القيم (٢/ ٥٥٧-٥٦٢) باختصار.

(٣) الإحياء (٢/ ١٥٤٠).

(٤) وفيه فائدة جليلة: وهي أن العبرة ليست بكثرة الأتباع، بل العبرة بما وافق الحق ولو

وقومه^(١)، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتون، ولا يتطيرون»^(٢) وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»^(٣).

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين مرفوعاً وصفُ السبعين ألفاً بأنهم

كنت لوحذك، كذلك فيه عزاء للدعاة الذين لم يروا أثر دعوتهم في الناس، فهذا نبي مرسل مسدد يوحى إليه ثم لم يستجب له أحد، بل بعض الأنبياء قد قتلهم أقوامهم. وقد يكون في ذلك خير للداعي إلى ربه، وقد تتأخر ثمرة دعوته إلى بعد مماته ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

- (١) وفيه فضيلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه.
- (٢) سيأتي الحديث عن هذه الثلاث في قواعد التوكل بمشيئة الله وعونه.
- (٣) وهو عكاشة بن محصن الأسدي، من الفرسان المعدودين، واستشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدي، ثم أسلم طليحة بعد ذلك. وأولى الأقوال في قوله: «سبقك بها عكاشة» أي إلى إحراز تلك الصفات المستلزمة لتنام التوكل، فليس عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، كما ذكره ابن بطال والقرطبي، وإليه مال شيخ الإسلام. وانظر: تيسير العزيز الحميد (١١٣).

تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر^(١)، وفيهما عنه مرفوعاً: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة»^(٢).

وبحمد الله فقد جاء في أحاديث أخر زيادة على هؤلاء السبعين ألفاً، فعند أحمد والبيهقي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السبعين ألفاً: فذكره وزاد: «فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً»^(٣).

بل وهناك زيادة بحمد الله كما في حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي»^(٤)، الله أكبر ولله الحمد، فلا تسئل عن هذه الحثيات، نسأل الله الكريم من فضله.

وفي حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيْتُ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»^(٥).

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أحمد (٨٧٠٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة. وله زيادة لا تصح بلفظ «وما أرى بقي من أمتي شيء» السلسلة الضعيفة (١٩٧٦).

(٤) أحمد (٢٦٨ / ٥)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٧٩).

(٥) وفي سنده مقال، وله شاهد صحيح من حديث عامر بن عمير وقد صحح إسناداه =

وفي حديث الشفاعة المتفق على صحته من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً وفيه: «فأنطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تُشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسي بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبُصرى»^(١) فصلى الله وسلم وبارك على من خص أمته بهذه الدعوة الملحة في أعظم المواطن وأكرم المواقف.

هذا والتوكل مقترن بمراتب الدين الثلاث وبشعائره العظام، ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] شرط التوكل لتحقيق الإيمان والإسلام، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]. أما علاقته بالإحسان فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

البوصيري فيما حكاه عن شيخه العراقي في إتحاف الخيرة المهرة، باب من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب (٨ / ٢٤٤)، وفيه عن عبد الرحمن بن أبي بكر، وعمر بن حزم.

(١) متفق عليه. البخاري (٨٤ / ٦) (٤٧١٢)، مسلم (١ / ١٨٥، ١٩٤).

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[الأَنْفَال: ٢]﴾، قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «في الآية وصف المؤمنين حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده»^(١).

أما علاقته بشعائر الإسلام العظام وأهدافه الكبرى؛ فمن ذلك ارتباطه بالهداية. وتأمل قول الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا^(٢)، فالعبد آفته إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كله^(٣).

وله علاقة بالتقوى كما قال الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] أي كافيته، فجعل التوكل سببًا للكفاية، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكَافِرِينَ ۚ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١، ٣]، فقرن التقوى بالتوكل لترتب أحدهما على الآخر ولزومه وتضمنه له.

وللتوكل علاقة بالدعاء بشقيه الثناء والمسألة، وهذا كثير في أدعية المرسلين، فمن دعاء الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٦).

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٩).

(٣) المدارج (١٢٧/٢).

[الممتحنة: ٤]، ومن دعاء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ومن دعاء يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال الرسل الذين كذبهم أقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] ومن دعاء نبينا محمد ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ»^(١).

والتوكل مقرون بالصبر، فمن ذلك قول المرسلين: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، [١٢]، وقال سبحانه واصفا عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢] [العنكبوت: ٥٩]، قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونص على التوكل وإن كان داخلا في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به»^(٢).

وأما اقترانه بالعبادة فكثير جداً بل لا تقوم العبادة إلا على التوكل؛ فهو ساقها وعمودها، قال تعالى: ﴿إِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِيزُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى في ختام سورة الزواجر والقوارع سورة هود: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

(١) متفق عليه. البخاري (١١٢٠)، مسلم (٧٦٩).

(٢) وانظر كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ في تيسير الكريم الرحمن (٤ / ٧٠، ٧١) فقد بسط القول في ذلك.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: ٨٨]، ويروى عن نبينا محمد ﷺ أنه قال عند ذبح أضحيته: «اللهم هذا منك ولك»^(١)، قال شيخ الإسلام: فإن قوله: «منك» هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله: «لك» هو معنى العبادة^(٢).

وقد أمر الله جميع المرسلين بالتوكل عليه وحده، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والآيات كثيرة جدًا في الأمر بالتوكل.

«والتوكل هو شعار المؤمنين وقد جعله الله شعارًا لهم ومدحة، فمن ذلك قوله تعالى في سبعة مواطن من القرآن الكريم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦١، المائدة: ١١، التوبة: ٢٥١، إبراهيم: ١١، المجادلة: ١٠، التغابن: ١٣]، وقال تعالى في سياق مدحه لتوكل المرسلين وأتباعهم: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في ثلاثة مواطن [يوسف: ٦٧، إبراهيم:

(١) أبو داود (٢٧٧٨)، وابن ماجه (٣١٢١) وفي سنده محمد بن إسحاق، وهو مدلس وقد عنعن.

(٢) التوحيد (٩٩) عن التوكل، د/الدميحي (٧٧).

١٢، الزمر: ٣٨]، ولما أثنى الله على المؤمنين في صدر سورة الأنفال وذكر من صفاتهم التوكل، ختم ذلك المدح الرباني بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

والعبد لا يستغني عن ربه طرفة عين، فثبتت ضرورة حاجته وافتقاره وما ترتب على ذلك من ضرورة توكله على ربه وسيده ومولاه ومعينه وناصره وهاديه وهو الإله الحق المبين، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس لها نظير، فتقاس به، ولكن يشبهه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كبيرة، فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذات وسرور بغير الله فلا يدوم ذلك.. وأما إلهه فلا بد منه في كل حال، وفي كل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل: ﴿لَا أُحِبُّ إِلَّا فِليكَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وكانت أعظم آية في القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]»^(١).

والأمور كلها بيد الله تعالى وحده فكيف تُسند القلوب والتوجهات لغيره؟! قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ

(١) التوحيد (٧٧) عن التوكل (٧٩)، وسيأتي بسط ذلك في باب الافتقار، إن شاء الله تعالى.

بَعْدِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

والعبد إذا تعلق بغير الله عاد ذلك بالضرر والخذلان عليه، فمن توكل على غير الله وكله الله إليه فباء بالخسار والخيبة، قال شيخ الإسلام: «وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله؛ فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالأعلى عليه، إلا ما كان لله، وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد^(١)، وتأمل قول الله تبارك وتعالى في بيان هلاك المتعلقين بغيره من جهة ما رجوا، وخيتهم من حيث أملوا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي بخلاف ما ظنوا فيهم. وقال جل وعز: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْيِبًا﴾ [هود: ١٠١] أي غير تباب وخيبة، وقال صالح عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] أي غير خسارة وخيبة، وقال صالح عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

(١) التوحيد (٨١)، وانظر: الفتاوى (٢٩ / ١).

[هود: ٦٣] أي بصارة في نسبتكم للخسارة، ومنه التفسيق والتفجير أي النسبة إلى الفسق والفجور^(١).

وقال ابن تيمية: «ما علّق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في الخالق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانت به، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرته وهلكته وفساده»^(٢).

وللتوكل ثمرات يانعة جليلة جسيمة، منها: تحقيق الإيمان، ومنها طمأنينة النفس وارتياح القلب، وما أجمل قول المؤمنين: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ومنها كفاية الله للمتوكل جميع شؤونه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قال ابن القيم: «فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده، وأحبها إليه»^(٣)، وقال تعالى:

(١) بمعناه عن مختصر تفسير البغوي، د/ عبد الله الزيد (٤٣٠)، وقد بذل في اختصاره جهداً مشكوراً، وهو مطبوع في مجلد واحد (مضغوط).

(٢) كتاب التوحيد لابن تيمية (٨٢).

(٣) المدارج (١٤٨/٢).

﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين، فلا تحتاجون معه إلى أحد^(١).

ومن ثمار التوكل أنه من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان آخر قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلْقِيَ في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٢)، وقال بشر بن الحارث: «لما رُفِعَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُلْقَى في النار عرض له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا إبراهيم، هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك فلا»^(٣). ولكن ماذا كانت النتيجة؟! قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا نَارُكُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠]، قال بعضهم: لو لم يقل: وسلامًا؛ لمات إبراهيم من شدة بردها، ولو لم يخص نار إبراهيم لما انتفع الناس بعده بنار.

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٣٧). ويخطئ من حمل الآية على أن الله حسب النبي والمؤمنين حسبهم كذلك فهو معنى باطل، فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ففرّق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعياده. زاد المعاد، ابن القيم (١ / ٣٦، ٣٧)، وقد بسط الاستدلال والبرهنة.

(٢) البخاري (٤٥٦٤).

(٣) ابن جرير في تفسيره (١٧ / ٤٠)، البغوي في تفسيره (٤ / ٢٤٣)، البيهقي في الشعب (١٠٧٧).

ولما قالها نبينا محمد ﷺ حين قال له الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] كانت النتيجة: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ومن الثمار للتوكل محبة الله تعالى للمتوكلين، ومن الثمار قوّة القلب وشجاعته وثباته وتهديد الأعداء ورباطة جأشه.

ومنها أنه يورث الصبر وقوّة التحمل، كذلك يورث النصر والتمكين كما قال جل شأنه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وتأمل مغازي رسول الله ﷺ ترى برهان ذلك.

ومن ثماره تقوية العزيمة والثبات على الحق، ومنها الوقاية من تسلّط الشيطان كما قال تعالى للشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ومنها أنه سبب لدفع السحر والحسد والعين، قال ابن القيم رحمه الله في الأسباب الدافعة لذلك بإذن الله: «السبب الرابع: التوكل على الله، فمن توكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، ومن كان الله كافيّه وواقيه؛ فلا مطمع لعدوه فيه، ولا يضرّه إلا أذى لا بدّ منه، كالحر والبرد

والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده؛ فلا يكون أبداً^(١)، وتأمل كيف ختم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصيته لابنيه ألا يدخلوا من باب واحد تقاة العين وخوفاً عليهم منها لجمالهم وهيبتهم، فقال بعد هذا كله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

ومن ثمار التوكل أنه يورث الرزق ويدره وينميه بإذن الله، ولما توكل الصحابة على ربهم كافأهم بنعمته وفضله وحفظه لهم ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِ عِمْرَانَ: وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسَّ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وحديث عمر: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٢) أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق، كما قاله أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣).

ومن ثماره طرد داء العجب والكبر، لعلمه أنه بالله لا بنفسه، ومنها أنه يطرد التطير والتشاؤم والأمراض القلبية لقوة التعلق بمن بيده مقاليد الأمور، ومنها أنه يورث الرضا بالقضاء كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: «هو الرجل

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٧).

(٢) أحمد (١/ ٣٠)، الترمذي (٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، الحاكم (٤/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) جامع العلوم والحكم (٤٠٩).

تصبيه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»^(١).

وقال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ...»^(٢)، قال ابن رجب رحمه الله: «اعلم أن ثمرة التوكل الرضا بالقضاء، فمن وكل أموره إلى الله، ورضي بما يقضيه له؛ فقد حقق التوكل»^(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: «سألت شيخنا - أي ابن تيمية - هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظ (بشرطه) ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك»^(٤).

وأعظم ثمار التوكل أنه سبب لدخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما في حديث السبعين ألفاً^(٥) وقد سبق الكلام عليه^(٦).



(١) تفسير الطبري (٣٨ / ١٢٣).

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (٤١٤).

(٤) الفوائد (٨٧). وسيأتي بسط ذلك في كتاب الرضا بالله تعالى.

(٥) متفق عليه. البخاري (٥٧٠٥)، الفتح (١٠ / ١٦٤)، مسلم (٢٢٠).

(٦) انظر للتوسع في فضله وثماره: التوكل وعلاقته بالأسباب، د/الدميجي (١٤٧.٦٥).

أقسام التوكل

أولاً: التوكل على الله تعالى: وهذا بحسب موضوعه ينقسم إلى أربعة أقسام:

١. توكل على الله عز وجل في استقامة نفسه وهدايتها، وتجريد التوحيد، والالتزام بدين الله تعالى ظاهراً وباطناً، دون أن يحاول التأثير في الآخرين، بمعنى التوكل على الله في إصلاح نفسه دون النظر إلى غيره.

٢. توكل على الله تعالى في استقامة النفس - كما تقدم - بالإضافة إلى التوكل عليه تعالى في إقامة دين الله في الأرض، ودفع الفساد، وقمع البدع، وجهاد الكفار والمنافقين، والاهتمام بمصالح المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثير في الآخرين حتى يعبد الله وحده، وهذا هو توكل الأنبياء وتوكل ورثتهم من بعدهم من العلماء، وهذا أعظم أنواع التوكل وأشرفها وأنفعها.

قال العلامة ابن سعد بن سَعْدٍ رحمه الله: «واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب. وهو التوكل على الله تعالى في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل»^(١).

٣. توكل على الله في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية، كمن يتوكل في حصول رزق أو عافية أو زوجة أو

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣ / ١١).

ولد أو نصر على عدو ونحو ذلك، فهذا تحصل له الكفاية فيما توكل عليه في الدنيا دون الآخرة، إلا إذا نوى الاستعانة بذلك على طاعة الله عز وجل، وهذا توكل فطري كتوكل العجماوات من الطير والحيوان على الله في جلب مصالحها ودفع مضارها.

قال ابن القيم رحمه الله: «وبين النوعين -يعني الثاني والثالث- من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله؛ كفاه الله النوع الثالث تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الثالث دون الثاني كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه»^(١).

فمن شرف التوكل على الله في إقامة الدين في الأرض أن هذا التوكل يتنظم النوع الثالث وهو جلب المصالح التي لا بد منها دون العكس.

٤- توكل على الله في جلب محرم أو دفع مأمور به.

كمن يتوكل على الله في حصول فاحشة أو إثم، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم^(٢).

فهؤلاء يحصل لهم مطلوبهم غالبًا، لكنهم آثمون مجزيون عليه في الآخرة.

(١) الفوائد (٧١).

(٢) المدارج (٢/ ١١٣، ١١٤).

ويظهر هذا النوع أكثر فيمن كانت معاصيهم ناتجة عن تأويل فاسد أو شبهة مضلّة^(١).

وهنا تنبيه مهم، وهو أن بعض الناس مغبون في توكله وإن كان قد توكل على الله حق التوكل، كمن صرف توكله إلى حالة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه فعلها بأيسر شيء - مع التوكل - وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصر الدين، وذلك كمن يصرف همته وتوكله ودعائه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصره الدين وزيادة إيمانه ومصالح المسلمين^(٢).

وإذا علمت بأنه متفاضل فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل والمقصود هو من يعالج وساوس نفسه ويجهد في جمعيتها على تحقيق التوكل في أمر يسير، وهذا لا يعني التقليل من أهمية ذلك التوكل والاجتهاد في تحقيقه في كل أمور الدنيا والآخرة، إنما المقصود هو التنبيه على أن النفس البشرية لا تستطيع تحصيل الاجتهاد في تحقيق كمال التوكل في جميع الأمور لعوارض الضعف البشري لذلك كان على العاقل تحقيق الأهم فالمهم، فمن الفقه النفيس فقه الأولويات خاصة في هذا الزمان الذي اختلطت فيه المفاهيم وتداخلت في أحشائه المتناقضات والسعيد من وفقه الله وهداه.

(١) وانظر تفصيل ذلك في مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٧٦) (١٣ / ٣٢٤ وما بعدها).

(٢) المدارج (٢ / ١٢٥، ١٢٦).

ثانيًا: التوكل على غير الله تعالى:

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين:

١. التوكل الشرقي: وهو نوعان أيضًا:

أ. التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر، فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى^(١).

ويسمى هذا النوع؛ توكل السرّ؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سرّيًا في الكون، ولا فرق بين أن يكون نبياً أو ولياً أو طاغوتاً عدواً لله تعالى^(٢).

ب. التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها - فيما يظن - المتوكل عليه، وهذا شرك أصغر^(٣).

وذلك كالتوكل في الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك، فهذا شرك

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٧، ٤٩٨).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٥٤ / ٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٠). وهذا شيء زائد على الاعتماد اليسير، وفرق التوكل عن الاعتماد أن التوكل عمل القلب بخلاف الاعتماد فلا يلزم منه تحرك القلب به بل مجرد عمل الجوارح وفق ما هو مأذون شرعاً مع كمال توكل القلب على الله وحده.

خفي^(١)، ولذلك قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، لقوة تعلق القلب به واعتماده عليه.

أما لو اعتمد عليه باعتبار أنه سبب، وأن الله تعالى هو الذي قدّر ذلك على يده؛ فإن ذلك لا بأس به، إذا كان للمُعْتَمِد عليه أثر صحيح في حصوله.

٢. الوكالة الجائزة:

وهي أن يوكل الإنسان في فعل مقدور عليه، والوكالة كما قال الفقهاء: هي إنابة جائز التصرف مثله فيما تصح فيه النيابة. وقيل: إقامة الشخص غيره مقام نفسه مطلقاً أو مقيداً^(٢).

والوكالة بهذا المعنى جائزة بالكتاب والسنة والإجماع، ووكل رسول الله ﷺ عملاً وحفاظاً.

لكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وَّكَّله، بل يعتمد على الله تعالى في تيسير ما وَّكَّله فيه^(٣)؛ لأن المخلوق لا يستقل بشيء بل هو مجرد سبب^(٤).



(١) السابق (٤٩٨).

(٢) انظر: المغني والشرح الكبير (٥ / ٢١٠).

(٣) رسالة تحقيق التوكل ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام (٨٩).

(٤) التوكل، د/الدميجي (١٥١-١٥٧) باختصار وتصرف يسير.

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بل التوكل من جملتها

خلاصة المسألة كما قررها شيخ الإسلام ابن تيمية أن:

١. الالتفات إلى الأسباب؛ شرك في التوحيد.

٢. محو الأسباب أن تكون أسباباً؛ نقص في العقل.

٣. الإعراض عن الأسباب المأمور بها؛ قدح في الشرع.

وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع^(١).

قال ابن القيم رحمته الله: «التوكل على نوعين. أي بحسب المتوكل به.:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

الثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

(١) الفتاوى (٨ / ٥٢٨)، (١٠ / ٣٥). وقد سبق الغزالي رحمته الله إلى هذه العبارة المحكمة بقوله: «إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها؛ شرك في التوحيد، والتشاغل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابه؛ تغيير في وجه العقل، وانغماس في غمرة الجهل». (الإحياء مع شرحه ٤ / ٢٤٣).

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حقَّ توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية. ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه^(١)، فأعظم التوكل عليه: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم^(٢).

والتوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وِزْرًا إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب، وضافت عليه نفسه، وظنَّ أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلَّف عنه الفرج واليسير البتة.

المراد: فإن كان السبب مأمورًا به ذمَّ على تركه. وإن قام بالسبب وترك التوكل ذمَّ على تركه أيضًا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما.

وإن كان السبب محرَّمًا حرَّم عليه مباشرته، وتوحدَّ السبب في حقِّه في التوكل، فلم يبق له سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق^(٣).

(١) باعتبار أن المتوكل هنا قد توكل عليه في النوع الأول فقط دون الثاني؛ لأن الكمال في اجتماعهما، بل لا يتحقق الثاني تمامًا إلا بانتظامه مع الأول، وهذا هو الكمال.

(٢) كما قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

(٣) ومن فقه هذا انجلت عن عينيه قلبه غشاوة المشكلات في الجمع بين التوكل والسبب.

وإن كان السبب مباحًا، نظرت: هل يُضعف قيامك به التوكل أو لا يُضعفه؟ فإن أضعفه وفرّق عليك قلبك، وشتّت همّك؛ فتركه أولى، وإن لم يُضعفه؛ فمباشرة أولى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين^(١) اقتضت ربط المسبب به، فلا تُعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنويّ به القربة.

والذي يُحقق التوكل: القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطّلها لم يصحّ توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يُحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاءه تمنياً^(٢)، كما أن من عطّلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا!

وسرّ التوكل وحقيقته؛ اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضرّه مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا يتفق قوله: توكلت على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به. فتوكلّ اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب إن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مُصرّ على معصيته، مرتكب لها^(٣).

وقال تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في شرحه للحديث القدسي: «يا

(١) ولابن القيم رحمه الله مصنف مستقل بهذا الخصوص مع اشتماله على فوائد أخرى وهو كتابه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

(٢) وقد سبق تفصيل ذلك في باب الرجاء.

(٣) الفوائد (١٢٥، ١٢٦).

عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، وكلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم»^(١): «هذا يقتضي أصليين عظيمين:

أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام، ودفع المضرة كاللباس، وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة. وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، فالمأمور به هو المقدور للعباد، وكذلك قوله: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾^(١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤ - ١٦]، وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر.

ومن هنا يُعرف أن السبب المأمور به أو المباح؛ لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سبباً إلا بمشيئة الله تعالى^(٢)، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(١) مسلم (٢٥٧٧) وهو أشرف أحاديث أهل الشام، وهذا حديث جليل جداً.

(٢) فلا بد من اكتمال الأسباب وانتفاء الموانع، وهذه لله وحده لا شريك له.

فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل؛ فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخلّ بواجب التوحيد، ولهذا يُخذلُ أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب^(١)، فمن رجا نصراً أو رزقاً من غير الله؛ خذله الله، كما قال علي رضي الله عنه: لا يرجو عبدٌ إلا ربه، ولا يخافنٌ إلا ذنبه، وقد قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر الله به من الأسباب فهو أيضاً جاهل ظالم، عاصي لله بترك ما أمره، فإن فعل المأمور به عبادة لله. وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، فليس من فعل شيئاً أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلأً أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب؛ إذ كلاهما مخلّ ببعض ما وجب عليه،

(١) حتى لو كانت أسبابهم مباحة، بل قد يُعان المتوكلون على الله في أسبابهم المحرمة، كمن توكل على الله في الإعانة على سرقة ونحوها، فيُعان لتحقيق توكله ويستحق العقاب والسخط من جهة مباشرته للمعصية.

وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب؛ فقد يكون هذا ألوم، وقد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب.

وقد روى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين. فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإن غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢).

ففي قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» أمر بالتسبب بالمأمور به، وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس، كما قال في الحديث الشامي: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٣)، فالعاجز في

(١) أحمد (٢٣٩٨٣)، وأبو داود (٣٦٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٥٩).

(٢) مسلم (٢٦٦٤)، وانظر: زاد المعاد (٢/ ٣٥٨) فقد بسط القول فيه، وسبق بيان طرف منه في باب الإرادة.

(٣) الترمذي وحسنه (٢٤٥٩) وسنده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم.

الحديث مقابل الكيس^(١). ومن قال: العاجز هو مقابل البرّ فقد حرّف الحديث ولم يفهم معناه، ومنه الحديث: «كل شيء بقدرٍ حتى العجز والكيس»^(٢).

ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون، يقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس^(٣)، فقال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]^(٤)، فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله، وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً؛ كان مطيعاً لله في هذين الأمرين، بخلاف من ترك ذلك ملتفتاً إلى أزواد الحجيح، كلاً على الناس، وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفتٍ إلى معيّن فهو ملتفتٌ في الجملة، لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله، ومواساة المحتاج؛ فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به.

وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف:

طائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصاً أو قدحاً في التوحيد

(١) فائدة لغوية: العبارة الدارجة: هذا الشيء كويس، صحيحة لغة، فأصلها من الكيس، وهو الحزم الذي يثمر الجودة، وهي في الأصل: كُؤِيس، فحُففت الهمزة وبقيت الواو: كويس.

(٢) مسلم (٢٦٥٥).

(٣) وهو حال كثير من المتصوفة. والله المستعان.

(٤) أبو داود (١٧٣٢) وصححه الألباني.

والتوكل، وأن تركه من كمال التوحيد. وهم في ذلك ملبوسٌ عليهم. وقد يقترن بالغلط إخلاد النفس إلى البطالة، ولهذا تجد عامة هذا الضرب، التاركين لما أمروا به من الأسباب؛ يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلّقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبثّلوا له من الغلو في التوكل واجباتٍ أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرفُ همّته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كانت مباشرة الدواء الخفيف، والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة والتوجّه في عمل صالح؛ أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبثّله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه.

وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضًا نقصًا وانقطاعًا عن الخاصّة^(١) ظنًّا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصّة! وقد قال في هذا الحديث: «كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم» وقال: «فاستكسوني أكسكم»، وفي الطبراني أو غيره عن النبي ﷺ قال: «ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلها، حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»^(٢).

وهذا^(٣) قد يلزمه أن يجعل أيضًا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك، وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقاً^(٤) بل دفع المخلوق والمأمور، وإنما غلطوا

(١) أي خاصة عباد الله وهم الأولياء السابقون.

(٢) ابن حبان في صحيحه (٨٩٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٠). وضعّفه الألباني.

(٣) أي من أطرح التوكل والدعاء.

(٤) فيهدم الدين جملة.

من حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمر على ما هي عليه، فمن قدره الله من أهل السعادة؛ كان مما قدره أنه يُيسرُه لعمل السعادة، ومن قدره من أهل الشقاء؛ كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء، كما أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين، وسراقة بن جُعشم، وغيرهم.

ومنه حديث الترمذي بسنده عن أبي خزيمة عن أبيه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرايت أدوية نتداوى بها، ورُقي نسترقى بها، وثُقاة نَتَقِيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(١).

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل^(٢)، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها؛ كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك، وهذا ضلال مبين. بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو: إما كافر، وإما منافق، لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك. وليس هؤلاء

(١) الحاكم (٨٢٢٣)، والترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وضعفه الألباني في التعليقات الرضية على الروضة الندية (٢/ ٢٢٨)، وفي ضعيف سنن ابن ماجه (٣٤٣٧).

(٢) أي يظنون أن التوكل مستحب وليس بواجب.

المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل لوماً من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبّسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، وإن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها^(١)، والأمور الظاهرة كمها وفروعها التي لا تتم إلا بها^(٢).

«وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] إلى قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فمدحهم الله على الانتصار تارة، وعلى الصبر أخرى، فلما حمدهم الله على هذه الصفات من الإيمان والتوكل وانتصارهم إذا أصابهم البغي، والعفو والصبر ونحو ذلك؛ كان هذا دليلاً على أن ضد هذه الصفات ليس محموداً بل مذموماً، فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها.

وضد الانتصار: العجز، وضد الصبر: الجزع، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس، حتى بعض المتدينين إذا ظلموا فلا هم ينتصرون ولا يصبرون، بل يعجزون ويجزعون، فالمؤمن لا يعجز عن مأمور، ولا يجزع من مقدور.

وذلك أن الإنسان بين أمرين: أمر أمر الله بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين بالله ولا يعجز، وأمر أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر

(١) وقد سبق تفصيل ذلك في المقدمة.

(٢) الفتاوى (١٨/١٧٨-١٨٥) باختصار.

عليه، ولا يجزع منه، ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع أو غيره -: الأمر أمران: أمر فيه حيلة، فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه، فلا تجزع منه. وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة: هو ما أمر الله به وأحبه له، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير فيه له حيلة، وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله»^(١).

«والأعمال الباطنة كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه ونحو ذلك؛ كلها أمور مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محموداً في حال أحد، وإن ارتقى مقامه.

وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلّق بأمر الدين^(٢)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥]، وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وأمثال ذلك كثير.

وذلك لأنه لا يجلب منفعة، ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا

(١) الفتاوى (١٦ / ٣٩٠٣٧) باختصار.

(٢) أي حتى وإن تعلّق بأمر الدين فهو منهي عنه، فهو سلبية وخمول وسوء ظن وعجز.

يأمر الله به. نعم، لا يَأْثَمُ صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن على المصائب، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْخُذُ عَلَى دَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا عَلَى حُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ عَلَى هَذَا أَوْ يَرْحَمُ» وأشار بيده إلى لسانه^(١). وقال ﷺ: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى الرَّبُّ»^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه، ويُحَمَّدُ عليه، فيكون محمودًا من تلك الجهة، لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عمومًا؛ فهذا يُثَابُ على ما في قلبه من حب الخير، وبغض الشر وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة؛ نُهي عنه، وإلا كان حَسْبُ صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به؛ كان مذمومًا عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودًا من جهة أخرى.

وأما المحبة والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فكلها خير محض، وهي حسنة محبوبية في حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

خروج الخاصة عنها؛ فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق. ولكن هذه المقامات ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم، فللخاصة خاصها، وللعمامة عامتها»^(١).

«والتوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله، ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد، كما في الحديث الذي في

(١) الفتاوى (١٠/١٤ - ١٦) وهذا التفصيل وما شابهه من أحوذيات هذا اللوذعي يدل على رسوخ في دقائق أعمال القلوب، وعلو كعب في معضلات المشتبهات، لذلك فلا لوم عليّ أن سطرت عنه النقول العديدة الطويلة، ومن تأمل سيلان الآيات والأحاديث على أسلة يراعه وغزارتها ودقة فهمه لها مع سكبها على القلوب القريحة والأرواح العطشى؛ عرف المرام واستمكن من الدقة. ومن قصد البحر استقل السواقيا.

صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله سبحانه: قسمت الصلاة بين عبدي نصفين؛ نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: الحمد لله رب العالمين؛ يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثني عليّ عبدي، ويقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: اهتدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين؛ فهو لاء لعبدي، ولعبدي ما سأل»^(١)، فالرب سبحانه له نصف الثناء والحمد^(٢)، والعبد له نصف الدعاء والطلب، وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه، وما للعبد؛ فإياك نعبد: للرب، وإياك نستعين: للعبد.

والتوكل والاستعانة للعبد هو الطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة، فالاستعانة بالدعاء والمسألة، وقد روى الطبراني في كتابه الدعاء عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: يا ابن آدم، إنما هي أربع؛ واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي، فأما التي لي؛ فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك؛ فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك؛ فمَنك الدعاء وعلي الإجابة»^(٣)، وأما التي بينك وبين خلقي؛ فائت

(١) مسلم (٩٣٨).

(٢) أي النصف المتعلق بالثناء والحمد.

(٣) وهو الدعاء بمعناه العام؛ الثناء والمسألة، والإجابة تكون على الثناء بالأجر، وعلى المسألة بالإجابة.

للناس ما تحب أن يأتوا إليك»^(١).

وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلّق المحبة والرضا ابتداءً، فإن العبد ابتداءً يحب ويريد ما يراه ملائماً له، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك، وإلا فكل مأمور به فممنفعته عائدة على العبد، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه، وعلى هذا فالذي ظنّ أن التوكل من مقامات العامة؛ ظنّ أن التوكل لا يُطلب به إلا حظوظ الدنيا، وهو غلط، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم.

وأيضاً فالتوكل من الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويرضاه، ويأمر به ويرضاه. فالتوكل محبوب لله، مرضي له، مأمور به دائماً، لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين.

وأغلاط الناس في التوكل يجمعها أصل واحد: وهو أنهم ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدّر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد، وغير أفعالهم، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية.

(١) أبو يعلى (٢٧٥٧)، والبخاري (١٩) بسند ضعفه مخرج مجموع الفتاوى وقال: وجاء بلفظ: «ثلاث خصال...» عند الطبراني في الكبير (٦١٣٧)، وله شاهد عند البخاري برقم (١٨) عن أبي هريرة بإسناد جيد. اهـ. بمعناه ملخصاً.

وقد سئل النبي ﷺ عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما أخرجنا في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أَعَلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قال: «نعم» قالوا: ففيم العمل؟ قال: «كُلُّ ميسر لما خلق له»^(١)، وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ، فجلس ومعه مُحْصَرَةٌ، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال: «ما من نفس منفوسة إلا وقد كُتِبَ مكائها من النار أو الجنة، إلا وقد كُتِبَتْ شقية أو سعيدة» قال: فقال رجل من القوم: يا نبي الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة ليكون إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكون إلى الشقاوة؟ قال: «اعملوا، فكل ميسر»^(٢) لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة». ثم قرأ نبي الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۚ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۚ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]^(٣). أخرج الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد.

فبين ﷺ أن تقدّم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافي أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة، فإنه سبحانه يعلم الأمور

(١) متفق عليه.

(٢) وفي هذه الكلمة إجابة على السؤال الشائع: هل الإنسان مسير أم مخير؟ فالجواب النبوي: أنه لا مسير ولا مخير بل مُيسَّر. يسرنا الله تعالى ليسرى بمنه وكرمه.

(٣) متفق عليه.

على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة، والشقي يشقى بالأعمال السيئة، فمن كان سعيداً يسر للأعمال الصالحة التي تقتضي السعادة، ومن كان شقيّاً يسر للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة، وكلاهما ميسر لما خلق له. وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨-١١٩].

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه، وهو إرادته الدينية التي أمروا بموجبها فذلك مذكور في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والله سبحانه قد بين في كتابه كل واحدة من: الكلمات، والأمر، والإرادة، والإذن، والكتاب، والحكم، والقضاء، والتحريم ونحو ذلك مما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية^(١).

«والمقصود هنا: أنه ﷺ بين أن العواقب التي خُلق لها الناس من سعادة وشقاوة يسرون لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك، فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح، واجتماع المائتين في الرحم، فلو قال

(١) ثم ذكر أمثلة من الكتاب والسنة على كل واحدة منهن باستفاضة. الفتاوى (١٠) / ٢٤-٢٦.

الإنسان: أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي فإن كان قد قُضي لي بولد وُجد، وإلا لم يوجد، ولا حاجة إلى وطء؛ كان أحرق، بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء، فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله، إذ قد يسبق الماء بغير اختياره.

ومن هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيًا من العرب، فاشتبهنا النساء، واشتدت علينا العُزبة^(١)، وأحببنا العزل، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة»^(٢). وفي صحيح مسلم عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل. فقال: «اعزل عنها إن شئت فسيأتيها ما قُدِّر لها»^(٣).

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح ابن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ^(٤) لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة.

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع - فقد وقع في

(١) وفي لفظ: «العزوبة».

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (١٣٤).

(٤) وهذه من المسائل التي يُلغزُ بها، وقسمتها رباعية.

كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين، يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أُمر به ونُهي عنه، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل، والجري مع الحقيقة القدريّة، وهذا من ضعف النور والفرقان لديه الذي يفرق بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه، فيسوّي بين ما فرّق الله بينه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢] (١) وأمثال ذلك.

(١) مما يجدر التنبيه إليه أن بعض القراء يتكاثر سرد الآيات ويود لو اكتفى المؤلف بواحدة منها تدل على المقصود بزعمه، وتراه إذا مر على صفحة فيها كلام رب العالمين وكلام المخلوقين تجاوز كلام ربه وقرأ ما بعده، وهذا من أعظم الجهل وأكبر الخذلان! فلا نسبة بين علوم الآية وهدايتها وإيمانياتها وأثرها على القلب والعلم والفكر والإيمان وبين غيرها مهما علا شأنه، ولو تدبرنا قول الله جل وعز: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِّلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ

حتى يفضي الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأثور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة، وأنه داخل في ملكه، ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه، والأبرار والفجار، والمؤمنين والكافرين، وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره الديني، وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر. ويستشهدون في ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ، أو بعض غلطات بعضهم^(١).

مَهْجُورًا ﴿[الفرقان: ٣٠]، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لتغيّر حالنا ولصلح أمرنا والله المستعان. فالعلم النافع والهدى التام هو ما جاءنا من الوحي، فلا تزهّد في الوحي الذي به وحده سعادة الأبد.

(١) روي عن بعض هؤلاء الجهلة الغلاة في الأمر الكوني القدري على حساب الأمر الديني الشرعي أن التتار لما دخلوا بلاد الإسلام أخذ ذلك المخذول بلجام قائد التتار سائرًا معه، ويقول: أنا مع القدر سائر! والآخر أقرّ الحَبَثَ في أهله وتديثَ زعمًا أنه مع القدر! ونسي أن المشركين قد احتجوا بحجته فلم تغن عنهم من عذاب الله من شيء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾

وهذا أصل عظيم من أعظم ما يجب الاعتناء به على طريق الله السالكين سبيل الإرادة؛ إرادة الذين يريدون وجهه، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين في الأرض من أهل الظلم والعلو، كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من أهل العلو في الأرض والفساد، ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها في ذلك كانوا بذلك من أولياء

نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿النحل: ٣٥﴾ أي يبلغون الأمر الديني الشرعي الذي تترتب عليه التبعات الدينية أمراً ونهياً وجزاؤها في الآخرة إحساناً أو عقوبة. وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿الأنعام: ١٤٨﴾.

ورحم الله شيخ الإسلام ورحم عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمداً وكل من ساعد في نشر علم هذا العالم الذي لا نزال نفتس شيئاً من علومه التي فتح الله بها عليه وجمعنا به ووالدينا في جنات النعيم. ولله در أحمد بن مري الحنبلي حين كتب لتلامذة شيخ الإسلام بعد وفاته يوصيهم بجمع علومه ونشرها، وكان مما كتب: «والله إن شاء الله ليقمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبها، رجالاً هم الآن في أصلاب آبائهم». (رسالة شهاب الدين بن مري، ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص ١٥٦). وقد كان ذلك بحمد الله.

الله، فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة، ومكروهاً لله أخرى، وخرق العادة بكشف أو تأثير يوافق إرادته ليس كله كرامة من الله، بل قد يكون فتنة وشقاء، فالكرامة هي لزوم الاستقامة، وموافقة الله فيما يحبه ويرضى.

قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين، مع أن كل واجب محبوب، وليس كل محبوب واجباً، وأما ما يتلى الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها، أو بالضراء، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه، ولا هوانه عليه، بل قد يسعد بها أقوام إذا أطاعوه في ذلك، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك^(١). قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

ولهذا كان الناس في أمور خرق العادات على ثلاثة أقسام^(٢):

- (١) علاقة خرق العادة بالتوكل والأسباب جلية، ويظهر ذلك في عدم انفراد الأسباب بما يترتب عليها، بل قد يحول مانع بأمر الله، إما بموانع مقابلة أو بمحض القدرة والخلق للدلالة على تفرد سببانه بالخلق والأمر.
- (٢) بسط شيخ الإسلام الكلام في ذلك بأمثلة وافية في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، وسيأتي مزيد بيان لهذه الجزئية في كتاب الاستقامة إن شاء الله تعالى.

قوم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة الله.
وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله، كبلعام وغيره^(١).

وقوم تكون لهم بمنزلة المباحات.
والقسم الأول هم المؤمنون حقاً، المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم، الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله.
ولكثرة الغلط في هذا الأصل؛ نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢).

(١) بلعام بن باعوراء الذي حارب موسى عليه السلام، وروي أنه كان مستجاب الدعوة، فلما عصى سلبت منه، وأنه المعني بقول الله عز وجل: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].
وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٥٤٨)، وهذه الآية هي أشد آية على العلماء، فما ثم إلا الاستقامة أو التعرض للمقت، عياداً برضا الله من سخطه، وبغفوه من عقوبته، وبه منه سبحانه وبحمده.

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

وفي حديث الرجلين اللذين اختصما قال ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإن غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١). فأمر ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته، إذ

(١) أحمد (٢٣٩٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٥٩).

(٢) قال العلامة أحمد العمري في تاريخه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) في ذكر كلامه عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: «وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شقحب ونوبة كسروان ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال وأبطال اللقاء وأحلاس الحرب. تارة يباشر القتال، وتارة يحرص عليه. ولما جاء السلطان إلى شقحب جعل يشجعه ويثبتته، فلما رأى السلطان كثرة التتار قال: يا لخالد بن الوليد! فقال له: لا تقل هذا، بل قل: يا الله، واستغث بالله ربك، ووحدته وحده تُنصر، وقل: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين. ثم ما زال يُقبل تارة على الخليفة، وتارة على السلطان ويهدئهما ويربط جأشهما حتى جاء نصر الله والفتح. وحكي أنه قال للسلطان: اثبت فأنت منصور، فقال له بعض الأمراء: قل: إن شاء الله تعالى، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. فكان كما قال». عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام خلال سبعة قرون (٣٢٢، ٣٢٣) باختصار.

قلت: وهذه الدعوة والاستنصار بالله كان يقوها ويلهج بها أهل التوحيد في الزمن القريب في معاركهم ومغازيهم، فيقولون: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، فينصرون، وهي مأثورة عن رسول الله ﷺ في حروبه ومغازيه. وانظر: صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية. للمؤلف.

النافع له هو طاعة الله، ولا شيء أنفع له من ذلك، وكل ما يُستعان به على الطاعة فهو طاعة، وإن كان من جنس المباح. قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك»^(١). فأخبر ﷺ أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله، فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل، وإن كان لا يُنافي القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي^(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) مبحث الاستطاعة من مباحث القضاء والقدر، وقد زلت فيها أقدام القدرية والجبرية فلم يهتدوا للحق فيها؛ إذ جعلوا الاستطاعة نوعاً واحداً، وكل منهم متعلق بطرف منه كما قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء. والحق أن الاستطاعة نوعان، استطاعة متقدمة، واستطاعة مقارنة. قال شيخ الإسلام: «الصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة: أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضاً، وتقارنه أيضاً استطاعة أخرى لا تصلح لغيره. فالاستطاعة نوعان: متقدمة صالحة للضدين، ومقارنة لا تكون إلا مع الفعل، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له، وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له. قال الله تعالى في الأولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج، ولما عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجباً على أحد قبل الإحرام به، بل قبل فراغه!

وقال الله تعالى: ﴿فَأَنْقُزُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة؛ لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل

فقط، إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة.

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والوسع: الموسوع، وهو الذي تَسَعُهُ وتطيقه، فلو أُريد به المقارن؛ لما كَلَّفَ أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات!

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، والمراد به: الاستطاعة المتقدمة، وإلا كان المعنى: فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين، فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم، ولا يكون الصيام واجباً على أحد لم يفعله!

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» متفق عليه. ولو أُريد به المقارنة فقط لكان المعنى: فأتوا منه ما فعلتم، فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه! وكذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» رواه البخاري، ولو أُريد به المقارنة لكان المعنى: فإن لم تفعل فتكون مخيراً!

ونظائر هذا متعددة، فإن كل أمر عُلق في الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة، وعدمه بعدمها؛ لم يرد به المقارنة، وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها، وقد أسقطها عمن لم يفعلها، فلا يَأْثَمُ أحد بترك الواجب المذكور.

وأما الاستطاعة المقارنة الموجبة: فمثل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة، إذ الأخرى لا بد منها في التكليف.

فالأولى. وهي المتقدمة. هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي، والثواب والعقاب،

وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس.

والثانية - وهي المقارنة الموجبة - هي الكونية، التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل.

فالأولى للكلمات الأمرات الشرعية، والثانية للكلمات الخلقيات الكونيات، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] «الفتاوى (٨/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وقال رحمه الله: «العبد فاعل على الحقيقة، وله مشيئة ثابتة، وإرادة جازمة، وقوة صالحة، قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

ففارقنا مجوس الأمة بإثبات أن الله خالق، وفارقنا الجبرية بإثبات أن العبد كاسب فاعل صانع عامل.

وأفعال العبد قسمان: اختيارية واضطرابية، وهي ما يعبر بها الآن على لسان الأطباء: حركات إرادية، وحركات لا إرادية.

ثم قال موصياً بعدم التعمق في دراسة القدر والتفكير فيه: ويكفي العاقل أن يعلم أن الله عز وجل عليم حكيم رحيم، بهرت الأبواب حكمته، ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه، وأن الله تعالى في قدره سرّاً مصوناً وعلماً مخزوناً استأثر به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته، وإنما رحل به أهل العلم وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك، وقد لا يؤذن لهم في ذكر ما (لعلها: علموه) وربما كلم الناس في ذلك على قدر عقولهم. وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر، وأنه لو شاء أن يُطاع لأُطيع، وأنه مع ذلك يُعصى فأخبرهم سبحانه وتعالى: أن هذا سرُّه. وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق» الفتاوى (٨/ ٣٩٥-٣٩٩) باختصار.

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له، ولا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠] وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقتزن بها الفعل وقد لا يقتزن^(١)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

وقال الطحاوي رحمه الله: «وأصل القدر سرُّ الله تعالى في خلقه، ولم يُطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالخذر الخذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين» الطحاوية بشرح ابن أبي العز الحنفي (٢٢٥)، وانظر كلامًا نفيسًا للشيخ سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد، باب ما جاء في منكري القدر (٦٨٥).

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «على العبد أن يتحقق أن استطاعته بيد الله لا بيده، فهو مالکها دونه، فإنه إن لم يُعطه الاستطاعة فهو عاجز، فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه، فكيف يأمن المكر وهو مُحَرَّك لا مُحَرِّك؟! يُحرَّكه مَنْ حركته بيده، فإن شاء ثبَّطه وأقعدته مع القاعدين، كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ

أُنْعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه موادَّ توفيقه، ويخلي بينه وبين نفسه، ولا يبعث دواعيه، ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه، وليس هذا حقًا على الله فيكون ظالمًا بمنعه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل هو مجرد فضله الذي يُحمد على بذله لمن بذله،

النَّاسِ حُجُّ أَلْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقول النبي ﷺ
لعمران بن حصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى
جنب»^(١).

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة، شاهدين لإلهية
الرب سبحانه، الذي أمروا أن يعبدوه ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر
والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفككة والمتعبدة، فهم مع حسن
قصدهم وتعظيمهم لحرمة الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز
والخذلان؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه والملجأ إليه ودعاءه هي التي تقوي
العبد وتيسر عليه الأمور.

ولهذا قال بعض السلف: من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله،

وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سرّ القدر، وانجلت له إشكالات كثيرة، فهو
سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعل به بعده يقع منه ما يحبه ويرضاه، فيمنعه فعل
نفسه به، وهو توفيقه، لا أنه يكرهه ويقهره على فعل مساخطه، بل يكله إلى نفسه
وحوله وقوته، ويتخلى عنه، فهذا هو المكر». (المدارج ٢/٤٠٠) اللهم لا تكلنا إلى
أنفسنا طرفة عين فنعجز، ولا إلى خلقك فنضيع، وكلنا إليك يا وكيلنا في الدنيا
والآخرة.

(١) البخاري (١١١٧).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: «أن رسول الله ﷺ صفته في التوراة: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء^(١)، فأفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله»^(٢).

ولهذا رُوي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنها كنز من كنوز الجنة»^(٣) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] إلى قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: «قالها إبراهيم الخليل حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم»^(٤).

(١) الملة العوجاء هي الخنيفة، ملة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، والخنيفة والعوجاء بمعنى واحد، فهي الميل، أي عن الباطل إلى الحق وعن الضلال إلى الهدى، وهذا هو معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فالإثبات يسبقه النفي.

(٢) البخاري (٤٨٣٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) البخاري (٤٥٦٣).

القسم الثاني: يشهدون ربوبية الحق عز وجل، وافتقارهم إليه، ويستعينون به، لكن على أهوائهم وأذواقهم، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبه، وهذا حال كثير من المتفكر والمُتصوِّف، ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود، ولا يقصدون ما يُرضي الرب ويحبه.

وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته، فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة القدريّة يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي تحوي مرضاة الرب ومحبه ونهيه ظاهراً وباطناً.

وهؤلاء كثيراً ما يُسلبون أحوالهم، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام؛ لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه، تارة في بدعة يظنونها شرعة، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر، والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله، وأن شرعوا ما لم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ونظيرها في النحل ويس والزخرف، وهؤلاء يكون فيهم شبه

من هذا وهذا^(١).

القسم الثالث: هم من أعرض عن عبادته واستعانت به، فهو لاء شر الأقسام.

القسم الرابع: هو القسم المحمود، وهو حال الذين حققوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فاستعانوا به على طاعته، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله، وأنه ربهم الذي ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وأنه ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قبح في الشرع. وإنما التوكل ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع^(٢).

(١) أي في الابتداء في الشريعة، والاحتجاج بالقدر على المعاصي.

والقاعدة الشرعية في الاحتجاج بالقدر: أنه يحتج بالقدر على المصائب وليس على الذنوب.

(٢) قال العثيمين رحمته الله في القول المفيد، باب ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] بتصرف يسير: «من جعل اعتماده أكثر على السبب فهذا قدح في كفاية الله.

وقد ذكر الله تعالى هذه الكلمة «حسبي الله» في جلب المنفعة تارة، وفي دفع المضرة أخرى، فالأولى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، والثانية في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١).

«ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه، فلا ينكر ما خلقه الله من الأسباب، فينبغي أن يعرف في شأن الأسباب ثلاثة أمور: أحدها: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لابد معه من أسباب أخرى، ومع هذا فلها موانع.

الثاني: لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سببٌ إلا بعلم، فمن أثبت سبباً بلا علم أو بخلاف الشرع كان مبطلاً، كمن يظن أن النذر سبب في رفع البلاء.

ومن جعل اعتماده على الله تعالى مُلغياً السبب فهذا قدح في حكمة الله، كمن يعتمد على الله في حصول الولد بدون زواج وتسري، فالله قد جعل لكل شيء سبباً، فهو حكيم يربط الأسباب بمسبباتها.

وأعظم المتوكلين هو النبي ﷺ وقد اتخذ الأسباب، ولما رأى عمر بعض أهل اليمن قد حجّوا بلا زاد وقالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتواكلون.

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لشيخ الإسلام، ضمن الفتاوى (١٠ / ١٦ - ٣٦) باختصار. وانظر (١٠ / ٢٥٧)، وكلمة حسب يختلف معناها بتحريكها؛ فإن قلت: بحسب كذا، فالمراد: باعتبار كذا. أما الحسب - بسكون السين - فهو الكفاية.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً للدنيا، إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادة مبنية على الإذن من الشارع، فلا يجوز أن يشرك بالله فيدعو غيره وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، وكذلك لا يعبد الله بالبدع وإن ظن أن في ذلك ثواباً، فإن الشيطان قد يعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل له بالكفر والفسق والعصيان بعض أغراضه فلا يجوز له ذلك.

هذا وإن من أعظم الأسباب: الدعاء؛ فهو سبب جعله الله محققاً للمقصود وإن كان لا يستقل بالحكم ولا يوجهه، بل قد يتخلف عنه الحكم لتخلف سبب آخر أو وجود مانع، وليس في الوجود من يستقل بالتأثير إلا الله الذي هو خالق كل شيء، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] فتعلمون أن خالق الأزواج واحد^(١).

«والأنبياء هم سادة المتوكلين وقد بذلوا الأسباب^(٢)، فليس في قول يوسف

(١) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٠، ١٤١) باختصار، وهو ضمن الفتاوى المصرية (٢٦٨، ٢٦٩).

(٢) وتأمل قصة الهجرة وكيف أخذ النبي ﷺ بكل الأسباب الممكنة المشروعة لتحقيق هدفه العظيم وهو الوصول لمأرز الإيمان دار الهجرة لبناء دولة الإسلام، فتأمل كيف أتى لإخبار الصديق بالإذن له بالهجرة في ساعة الظهيرة بعد أن هدأت السابلة وغفلت العيون، ثم مبيتها في غار جبل ثور وهو في جهة الجنوب إيهاماً لقريش، ثم مبيت راعي غنم أبي بكر أسفل الجبل لسقيهما اللبن، ثم لإعفاء أثر ابن أبي بكر إذا جاءهما كل ليلة بأخبار قريش، ثم سلوك طريق غير معتاد إلى المدينة. إلى غير ذلك =

عليه السلام للفتى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، كما أن قول أبيه: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧] لم يناقض توكله، بل قال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وأيضاً فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركاً لا في عبادته ولا في توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَلَا أَتَصَرَّفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عبادة؟! عبادته؟!

وقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] مثل قوله لربه: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا ناقضاً للتوكل، ولا من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مناقضاً للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيَوْمٍ﴾ قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ

من الإجراءات والاحتياطات الأمنية التي فعلها سيد المتوكلين على الإطلاق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿يوسف: ٥٠﴾ فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك، ويقول: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ﴾ فلم يكن في قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ترك لواجب، ولا فعل لمحرّم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين - كما زعم بعض المفسرين - وقد كان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظمًا له، مع علمهم ببراءته من الذنب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُزْئُهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ل يتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال^(١)، ولهذا قال: ﴿أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ

(١) ولشيخ الإسلام عبارة مشهورة: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. وقد جرى عليه من الأمور العظام ما لا يوصف من الحبس وغيره، وتأمل هذا الموقف حتى ترى بركة العلم على العاملين به.

فقد سجن سبع مرات بما مجموعها نحوًا من خمس سنين، أربع منها بمصر - التي سجن فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثلاث بالقاهرة ومرة بالإسكندرية، وثلاث بدمشق حتى لقي ربه وجاد بروحه سجينًا في ذات الله تعالى يوم الاثنين ٢٠ / ١١ / ٧٢٨، رحمه الله تعالى.

ومن نماذج الابتلاء العظيم بالسجن أن خصومه أرادوا اغتياله في السجن وذلك عن طريق إرساله إلى سجن الإسكندرية ليغتال بدون ضجيج، فحاولوا إخافته أولاً عن طريق التلميح بذلك، فأجابهم جوابه العظيم: أنا إن قُتِلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن

اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ [يوسف: ٩٠] ولو لم يصبر ويتق، بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن؛ لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس^(١).

فاتخاذ الأسباب لا يقدح في التوكل، والله سبحانه وتعالى هو الوكيل الكافي، قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، وإذا كان كفى به وكيلاً فهذا مختص به سبحانه، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلاً،

حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف.
قال إبراهيم الغياني واصفًا ذلك اليوم الذي دبّر الأعداء مكيدتهم لإرساله للإسكندرية ليغتال هناك: فلما كان بعد صلاة العصر وقفت أبكي. فقال لي الشيخ: لا تبك، ما بقيت هذه المحنة تبطئ.

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً، كأن وجهه شمع يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي فقال: بسم الله، فبقوا يودعونه ويبكون ويدعون على من ظلم شيخهم. ووقف على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أدت عشر هذه النعمة التي أنا فيها... وكان آخر ذلك الأمر أن انتقم الله ممن ظلمه وأرسل السلطان بطلبه مكرماً» (فصل في تكسير الأحجار) ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ١٧٠).

(١) الفتاوى (١١٣/١٥-١١٥).

فإن من يتخذ وكيلاً من المخلوقين غايته أن يفعل بعض المأمور وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له، وهو عاجز عن أكثر المطالب.

فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلاً، عُلِمَ أنه يفعل بالتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره^(١) في جلب المنافع ودفع المضار.

والتوكل من أعظم الأسباب، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩) **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿[آل عمران: ١٥٩، ١٦٠]، فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله، فلو كان التوكل لا يُعينه على مثل ما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ** ﴿٣٧﴾ **وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴿[الزمر: ٣٦-٣٨]، فبيّن سبحانه أنه يكفي عبده الذي يعبد، الذي هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، الذين هم من عباده المخلصين، الذين هم من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً،

(١) وهذه نفيسة، وإن كانت معلومة بداهة إلا أن الغفلة والازدحام ينسيها أحياناً في الواقع، فتلتفت شعبة من القلب إلى غير من كفى به وكيلاً! ومن هذا الباب: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

الذين هم من عباد الله الذين يشربون من عين يفجرونها تفجيراً^(١).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِعَايِنِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وكذلك قال عن هود لما قال لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ٥٥ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]^(٢) فهذا من

(١) وهنا ربط الكفاية بتحقيق العبودية، قال ابن القيم رحمه الله: الكفاية على قدر العبودية.
(٢) هاتان الآيتان الكريمتان قد وصفتا مشهداً للشجاعة لا يكاد يضاهيه إلا مشهد إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وموسى حين جابه فرعون، ومحمد صلى الله عليه وسلم حينما صدع بالحق بعد أن طم الكفر الأرض. وتأمل - رعاك الله - اليقين والثقة والثبات والشجاعة من نوح وهود، وهذا ديدن كل المرسلين فهم أولو العزم حقاً.
وقد جاء في الأثر: «إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله»، هذا مع تمام عبوديتهم لربهم سبحانه وبحمده.

واستطراداً أقول: إن تعيين أولي العزم المُنَوَّه بهم في سورة الأحقاف بالخمسة دون هود عليه السلام وقد ذكره الله بهذا الموقف الذي لم يذكره إلا لنوح عليه السلام - ولعل هذا هو السبب في تسمية السورة باسمه عليه السلام - كذلك كثرة ترداد قصته بين بسط واختصار. بحجة أن الله تعالى جمعهم في آيتي الأحزاب والشورى دون غيرهم فيه نظر؛ وإن كان له وجه إلا أن الحصر مفتقر لدليل أقوى من هذه الحجة، وبالله التوفيق.

كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه.

فنوح قد دعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له؛ أن يجتمعوا ثم يفعلوا به ما يريدونه من الإهلاك، وقال: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة، وهو توكله على الله، يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته؛ لكان قد طلب منهم أن يهلكوه، وهذا لا يجوز، وهذا طلب تعجيز لهم، فدل على أنه بتوكله على الله يُعجزهم عما تحداهم به.

وكذلك هود عَلَيْهِ السَّلَامُ يشهد الله وإياهم أنه بريء مما يشركونه بالله، ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ إني تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴿٥٦﴾، فبين أنه توكل على من أخذ بنواصي الأنفس، وبسائر الدواب، فهو يدفعكم عني لأني متوكل عليه، ولو كان وجود التوكل كعدمه في هذا؛ لكان أغراهم بالإيقاع به، ولم يكن لذكر توكله فائدة.

والله تعالى مع رسله وأوليائه، فإذا كان بسبب الإيثار والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] عُلِمَ أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة ويدفع بها المضرة، فالتوكل من أعظم ذلك، وعُلِمَ أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضار ليس معلقاً بالأسباب بل يحصل بدونها فقد غلط. وكذلك قول من جعل ذلك مجرد أمانة وعلامة لا اقتران هذا بهذا من القرآن في خلقه وأمره، كقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا بِالْمَاءِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿[الحاقة: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].
 وأنكر تعالى على من ظن وجود الأسباب كعدمها في قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ
 الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وأمثال
 ذلك»^(١).

وقال ابن الجوزي فيمن ألغى الأسباب زاعماً توكله: «وقد لبس -أي إبليس-
 على أقوام يدعون التوكل؛ فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم على
 غاية الخطأ. قال رجل للإمام أحمد: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل بغير زاد،
 فقال له أحمد: فإخرج في غير القافلة^(٢). قال: لا، إلا معهم، قال: فعلى جُرْبٍ^(٣)
 الناس توكلت»^(٤).

وتأمل حديث صاحب الناقة، ففيه جواب المسألة برمتها، فعن أنس رضي الله عنه
 قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: «اعقلها
 وتوكل»^(٥)، فهذا الحديث أصل في الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز مع الأمر

(١) رسالة في تحقيق التوكل، ابن تيمية (٩٨-٩٥) باختصار.

(٢) مراده إيضاح خطئه بإيقافه على حقيقة تصوّره القاصر للتوكل، وليس لإلقائه في التهلكة.

(٣) جمع جراب، أي على أكياس أموال وأزواد الناس توكلت وليس على الله تعالى.

(٤) تلبس إبليس، ابن الجوزي (٨٣٢/٢).

(٥) الترمذي (٤ / ٦٦٨) (٥٣٧)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٤٩) وغيرهما، وقال

الزوين العراقي في تخريجه للإحياء: رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث أمية

الضمري بإسناد جيد. الإحياء (٤ / ٢٧٩) وحسنه الألباني.

بالتوكل^(١).

وعن المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٢)، قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وفي الحديث: أن التكسب لا يقدح في التوكل»^(٣).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(٤)، قال أبو حاتم الرازي: «هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق»^(٥)، وقال الإمام أحمد: «ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق»^(٦).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده، وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة

(١) التوكل وعلاقته بالأسباب، د/ عبد الله الدميحي (١٧٩).

(٢) البخاري (٣٥٥ / ٤).

(٣) الفتح (٣٥٨ / ٤).

(٤) أحمد (٣٠ / ١)، الحاكم (٣١٨ / ٤) ووافقه الذهبي.

(٥) جامع العلوم والحكم (٤٠٩).

(٦) شعب الإيمان (٦٦ / ٢)، (٦٧).

والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، والشاهد من الحديث قوله: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»، وأعظم المكاسب هي الغنائم لأنها ثمرة الجهاد في سبيل الله.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ يُنفق على أهله نفقة سستهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مَجْعَلٌ مال الله. فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته^(٢).

(١) أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣)، وعلقه البخاري في صحيحه (٦/ ١١٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٩) وقال: فيه عبد الرحمن بن ثابت، وثقه ابن المدني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر: له شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة. الفتح (٦/ ١١٦).

قلت: وقد طعن في هذا الحديث بعض الانهزاميين في عصرنا بغيّة إلغاء جهاد الطلب! ونقول: على فرض رد هذا الحديث لضعفه فأينكم عن محكمات القرآن ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وغيرها كثير، كذلك من السنة المطهرة كحديث «اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله...» رواه مسلم، كذلك «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» متفق عليه. كذلك الإجماع المنعقد عليه، وللمزيد: انظر الرسالتين: (ويكون الدين كله لله) و(هل انتشر الإسلام بحد السيف؟) للمؤلف.

(٢) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٣٨) ومسلم (٣/ ١٣٧٧).

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، أفتُحُ مصحفِي فأقرأه حتى أُمسي؟ فقال الحسن: اقرأه بالغداة، واقرأه بالعشي، وكن سائر نهارك في صنعك وما يُصلحك^(١).

وكان الإمام أحمد يأمر بالسوق ويقول: ما أحسن الاستغناء عن الناس^(٢)، وسئل عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن متوكلون؟ فقال: هؤلاء مبتدعة^(٣).

قال ابن الجوزي في بيان تكسب الأنبياء وهم سادة المتوكلين: «كان آدم عليه السلام حرّاً، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجرًا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدروع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة، صلى الله عليهم أجمعين»^(٤).

«والتوكل باعتبار تعلّقه بالأسباب ينقسم إلى قسمين:

الأول: توكل اضطرار: بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا ملاذًا إلا التوكل على الله، كما إذا تقطعت به الأسباب، وضاعت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ فهذا لا يتخلّف عنه الفرج والتيسير بحول الله.

(١) البيهقي في الشعب (٢/ ٩٤).

(٢) الحث على التجارة والرد على من يدعي التوكل (٢٧).

(٣) مسائل صالح (٧٢).

(٤) تلبس إبليس (٢٨١)، وانظر كلام شيخ الإسلام عن أرجح المكاسب في الفتاوى (١٠/ ٦٦٢، ٦٦٣).

الثاني: توكل اختيار: وهو التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، وهو على ثلاثة أنواع:

١. أن يكون السبب مأمورًا به، فهنا يجب عليه الجمع بين اتخاذ السبب وتحقيق التوكل. قال ابن القيم: الواجب القيام بهما، والجمع بينهما.
 ٢. أن يكون السبب منهيًا عنه، فهنا تحرم مباشرة السبب، ويتعين تحقيق التوكل، فلم يبق سبب سواه؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب، ومباشرة الأسباب المحرمة أو المكروهة أو الموهومة قاذح في تحقيق التوكل.
 ٣. أن يكون السبب مباحًا. وهنا يُنظر فإن كان مضعفًا للتوكل ومفرقًا القلب؛ فتركه أولى، وإن لم يضعفه فالمباشرة أولى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكن القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة»^(١).
- قال ابن الجوزي: «ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق»^(٢).
- وقال الجنيد: «ليس التوكل الكسب ولا ترك الكسب، التوكل شيء في القلوب»^(٣).

(١) الفوائد (٨٠).

(٢) تلييس إبليس (٢٨٠).

(٣) المدارج (٢/ ١٣٠).

لذا؛ فالواجب على العبد أن يعرف في الأسباب الأمور التالية:

«أولاً: ألا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدرًا، ولهذا فعليه أن يجتنب تعليق التماثل والخرز والتطير ونحو ذلك.

ثانياً: ألا يعتمد عليها، بل على مسببها ومقدرها عز وجل، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثاً: أن يُوقن أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف شاء، فإن شاء أبقي سببيتها جارية على مقتضى حكمته، ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك حكمته حيث ربط الأسباب بمسبباتها، وإن شاء غيّر كيف شاء، لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده^(١).

رابعاً: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيئاً سبباً إلا أن تكون مشروعة؛ فالعبادات مبناه على التوقيف.

وعلى العبد أن يتقي في الأسباب أمرين:

١. الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها؛ فهذا شرك يرقّ ويغلظ، وبين ذلك.

٢. ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك^(٢).

(١) القول السديد (١٨).

(٢) التوكل وعلاقته بالأسباب، د/الدميجي (١٧٨-١٩١) باختصار.

قواعد التوكل

لا شك أن أعظم مظاهر ضعف التوكل على الله تعالى - وهو الجامع لكل المظاهر الجزئية - هو التفات القلب إلى الأسباب وتعلّقه بغير الله تعالى الذي هو الوكيل حقًا والخلاق صدقًا والمسبّب قطعًا. وتختلف درجات هذا الضعف باختلاف أنواع الأسباب، وباختلاف درجات تعلّق القلب بها والتفاتة إليها^(١).

والأسباب على ثلاث درجات:

الأولى: المقطوع بها: وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت بالمسببات بها بتقدير الله ومشيتته ارتباطًا مطّردًا لا يتخلّف إلا على سبيل خرق العادة إذا شاء الله لحكمة يريد بها الحكيم سبحانه وتعالى، كشرب الماء لإذهاب العطش، وأكل الطعام لإذهاب الجوع، ولبس اللباس للتدفئة ونحو ذلك، فترك هذه الأسباب جنون محض وليس من التوكل في شيء كما قرره الإمام الغزالي رحمه الله^(٢).

الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، وإنما هي ظنية، كالرقى^(٣) والاكْتِواء،

(١) تلخيصًا عن التوكل، الدميحي (١٩٥-٢٤٧) مع تصرّف وزيادات.

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٢٦٥) وإن كان الغزالي رحمه الله لم يوفق في بعض تقريراته في مباحث التوكل.

(٣) فقد يتخلّف أثر الرقية لضعف اليقين أو الاعتماد على غير الله أو ذنوب مانعة أو غير ذلك.

فهذه لا شك أن الاعتماد عليها والتفات القلب إليها بذاتها مضعف للتوكل ومنقص لكمالها، سواء كانت هذه الأسباب الثابتة شرعية دل عليها الوحي، أو تجريبية.

الثالثة: الأسباب الموهومة، وهي التي ليست من الأسباب الشرعية التي دلت عليها النصوص، ولا من الأسباب القدريّة التي ثبت برهانها بالتجربة والحسّ، وإنما هي من الوهم والتخرص، كالتطيّر وتعليق الحروز والتمائم وغيرها، فلا شك أن الالتفات إليها واستعمالها محرم، وهي منافية لتحقيق التوكل وكمال التوحيد.

وستتناول الحديث عن النوع الثاني والثالث، وهي الأسباب الظنية والأسباب الموهومة، وقد جمعها قول النبي ﷺ في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب عليهم ولا عذاب أنهم هم الذين «لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»^(١)، وجملة «وعلى ربهم يتوكلون» إما أنها مفسّرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكْتواء والطيرة، وإما أن تكون من العام بعد الخاص^(٢).

وإلى شيء من استعراض هذه الأمور الثلاثة:

(١) متفق عليه. البخاري بلفظه (٦٥٤١).

(٢) فتح الباري (١١ / ٤١٧).

أولاً: الاسترقاء:

وهو طلب الرقية، وهي تنقسم من حيث الحكم إلى قسمين:

١. جائزة: وهي ما جمعت ثلاثة شروط:

أ. أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته.

ب. أن تكون باللسان العربي أو بما يُعرف معناه من غيره.

ج. أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بالله تعالى، وقد حكى الحافظ ابن

حجر إجماع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط^(١).

ومما يدل على جوازها أربعة أمور، أمره ﷺ بها وفعلها بنفسه وفعلها بغيره

وإقراره لها.

أما أمره ﷺ بها فقوله لما رأى في بيت أم سلمة جارية في وجهها سَفْعَة^(٢):

«استرقى لها فإن بها النظرة»^(٣)، قيل: إنها نظرة الجن، أي: إن الجن قد أصابتها

بعينها.

أما فعله ﷺ فقد ثبت عنه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه ﷺ كان إذا أوى

(١) فتح الباري (١١/٢٠٦).

(٢) السَّفْعَة: قروح تخرج على رأس الصبي، وقيل: إنه داء الثعلب، أو ما يسمى الآن

بالثعلبية، وهو تساقط الشعر، وقيل: إنه لون في الوجه يخالف لون الوجه كما ذكره

ابن قتيبة. قلت: وهو الأوجه لدلالة اللغة عليه، ولذكر وجه الجارية في الحديث.

(٣) متفق عليه. البخاري (٥٧٣٨)، مسلم (٢١٩٧).

إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وبالمعوذتين جميعاً، ثم مسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده^(١). وعنهما أنه ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده^(٢).

وأما فعله ﷺ بغيره، فكما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ يعوذُ بعضهم، يمسح بيمينه: «أذهب الباس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^(٣)، وعنهما قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات^(٤).

وأما إقراره ﷺ لها، فكما في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الرهط من أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في سفر فنزلوا بحي من أحياء العرب فلم يضيفوهم، فلدغ سيدهم، فأتوهم فاشتروا أحدهم جُعلاً^(٥) لرقيته، فرقى بسورة الفاتحة^(٦)، فقام كأنما نشط من عقال، فأوفوهم جعلهم، فسألوا رسول الله ﷺ

(١) البخاري (٥٧٤٨).

(٢) متفق عليه. البخاري (٤٤٣٩)، مسلم (٢١٩٢).

(٣) متفق عليه. البخاري (٥٧٥٠)، مسلم (٢١٩١)، وفي رواية بزيادة: «لا كاشف له إلا أنت».

(٤) مسلم (٢١٩٢).

(٥) الجعل والجعالة: هي العوض المقطوع والمكافأة لمن قام بعمل معين، وهي تختلف عن الأجرة في كونها معلقة بتحقيق الهدف أو الطلب بغض النظر عن الجهد المبذول، وهي جائزة.

(٦) لذلك تسمى سورة الرقية، وهي مع آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين أمثل ما

عن ذلك فقال: «وما يدريك أنها رقية؟! أصبتم، فاقسموا، واضربوا لي معكم بسهم»^(١)، ودخلهم معهم في القسمة برهاناً حلّ لها، وحسن مَعَشَرٍ منه لأصحابه ﷺ.

والرقى نافعة بإذن الله تعالى، والراقي محسن للمرقي، وهناك فرق بين الراقي والمسترقي، فالراقي سواء رقى نفسه أو غيره هو باذل للسبب المأذون به وتوكله تام لا قدح فيه، ولفظ الحديث في معظم الروايات إنما هو «لا يسترقون» من الاستفعال وهو طلب الفعل، وأما رواية سعيد بن منصور عند مسلم «لا يرقون» فقد حكم عليها جمع من المحققين بالشدوذ لذلك لم يخرجها البخاري في صحيحه، قال شيخ الإسلام على هذا اللفظ: «وهو غلط، فإن رقيهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره، وهذا مأمور به»^(٢)، والراقي محسن لأخيه، وقد قال النبي ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»^(٣).

والفرق بين الراقي والمسترقي أن الراقي محسن نافع، أما المسترقي فسائلٌ ملتفت إلى غير الله بقلبه^(٤).

رقى به، خاصة مع اليقين والتكرار والنفث.

(١) متفق عليه. البخاري (٢٢٧٦)، مسلم (٢٢٠١).

(٢) الفتاوى (١/ ١٨٢)، وانظر (١/ ٣٢٨) (٢٧/ ٦٨).

(٣) مسلم (٢١٩٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٨٧)، وانظر: فتح الباري (١١/ ٤١٦).

وسبب عدم طلب هؤلاء السبعين ألفاً للرقية من غيرهم ما يلي:

١. قوة توكلهم وكمال اعتمادهم على الله.

٢. عزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣. ما في ذلك من التعلق بغير الله^(١).

أما أحاديث الأمر بالاسترقاء من العين فمحمول على الرخصة لهم بذلك، أما الترك والثناء على أهله فمحمول على الكمال، جمعاً بين النصوص وإعمالاً لها كلها.

لذلك فعلى الإنسان أن يرقى نفسه ابتداءً وأن يبعد نفسه قدر طاقته عن سؤال المخلوقين ومنه الاسترقاء، ولو أن الناس قوي يقينهم لما رأينا ازدحامهم على أبواب الرقاة وتعلقهم بهم، مع ما يصاحب ذلك التعلق من مخالفات أخرى لدى بعضهم والله المستعان.

والله سبحانه قد سمى القرآن شفاء فقال جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي للبيان - أي بيان الجنس وهو القرآن كله - فالقرآن كله شفاء، وإن كانت بعض آياته أشفى من بعض، وتأمل كيف سماه الله تعالى شفاء ولم يسمه دواء، فالدواء قد يفيد وقد يضر وقد لا يفيد ولا يضر، أما الشفاء فمفيد

(١) القول المفيد، العثيمين (١/ ٩٧).

دومًا. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، فهو شفاء لأمراض الروح والجسد وهداية تامة، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يُؤَهِّل ولا يوفق للاستشفاء بالقرآن، وإذا أحسن العليل التداوي به وعالج به مرضه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه؛ لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على علاجه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا لكتابه، والله عز وجل قد ذكر في القرآن أمراض القلوب والأبدان، وطب القلوب والأبدان.

فأما أمراض القلوب فهي نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغى، وهو سبحانه يذكر أمراض القلوب مفصلة، ويذكر أسباب أمراضها وعلاجها^(١).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] قال ابن القيم

(١) انظر: زاد المعاد (٤/٦)، (٤/٣٥٢)، والطب النبوي لابن القيم.

ﷺ: «فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله»^(١).

وأما أمراض الأبدان فقد أرشد الله في كتابه إلى أصول طبها ومجامعه وقواعده، وذلك أن قواعد طب الأبدان كلها في القرآن العظيم وهي ثلاثة: حفظ الصحة، والحماية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة المؤذية، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع. ولو أحسن العبد التداوي بالقرآن لرأى لذلك تأثيراً عجيباً في الشفاء العاجل. قال ابن القيم: «لقد مرّ بي وقت في مكة سقمتُ فيه، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنتُ أعالجُ نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، أخذ شربةً من ماء زمزم وأقرأها عليها مراراً ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع به غاية الانتفاع، فكنتُ أصف ذلك لمن يشتكي الماء، فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً»^(٢) ولا عجب، فما يدريك أنها رقية، كيف وقد اجتمعت مع ماء زمزم الذي هو طعام طعم وشفاء سقم؟! سقم

وكذلك العلاج بالرقى النبوية الثابتة، فذلك من أنفع الأدوية، والدعاء إذا سلم من الموانع كان من أنفع الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وخاصة مع الإلحاح فيه والاشتغال على آدابه الباطنة والظاهرة، فهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل^(٣)، قال ﷺ:

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).

(٢) السابق (٤/ ١٧٨)، والجواب الكافي (٢١).

(٣) الجواب الكافي (٢٢-٢٥).

«الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٢).

وهنا أمر ينبغي التفطن له؛ وهو أن الآيات والأذكار والدعوات والتعوذات هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول وقوة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، فإن العلاج بالرقى يكون بأمرين: أمر من جهة المريض، وأمر من جهة المعالج. فالذي من جهة المريض يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان؛ فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصار من عدوه إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً، فمتى تخلف أحدهما لم يُغنِ السلاح كثير طائل، فكيف إذا عُدِم الأمران جميعاً بأن يكون القلب خراباً من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له؟!

الأمر الثاني: من جهة المعالج بالقرآن والسنة، وهو بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً (٣)(٤).

(١) الترمذي والحاكم وأحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٣).

(٢) الحاكم والترمذي، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٤).

(٣) زاد المعاد (٤/٦٨)، الجواب الكافي (٢١).

(٤) العلاج بالرقى من الكتاب والسنة، د/سعيد بن علي القحطاني (٧٣-٨٢) باختصار، وهي رسالة نفيسة على صغر حجمها. كذلك حصن المسلم للمؤلف نفسه.

وتدبر قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنبياء إذ قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وهذا الدعاء: رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، هو من أعظم أدعية الكرب وطلب الشفاء والولد والغنى، وقد غفل عنه كثير من الخاصة بله العامة، وهذا الدعاء الأيوبي العظيم قد تضمن بث الشكوى إلى رب العالمين، ومن بيده مقاليد الأمور وأزمة المقادير، وفيه توكل تام وتفويض مطلق وثناء عظيم على ربه سبحانه وبحمده، وليس هذا من الجزع في شيء، فهو دعاء نبي، وقد أثنى الله به عليه ومدحه به وذكر تفضله وامتنانه عليه باستجابته له وكشف كربته، وأخبر بمكافأته عليه وسرعة إجابته فيه نزول رحمته مباشرة، فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ ولم يقل: واستجبنا، فالفاء تدل هنا على قرب الفرج من وقت الدعاء والضراعة واللجأ، وتأمل ذكر العندية في قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وفيها من قرب المرحوم من ربه ورحمته ما لا تحيطه العبارة وصفًا، ثم ختمها بقوله الأعز الأكرم: ﴿ذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ فصارت عملاً لمحققي العبادة ومجردي التوحيد ومخلصي التعلق، فهل بعد هذا رغبة عن هذه الدعوة؟!

ثانياً: الاكتواء:

وهو طلب المرء من يكوّيه، والكي في أصله جائز، ومن الأدلة حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ لَأَبِي بَنْ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ لَهُ عِرْقًا وَكَوَاهُ عَلَيْهِ^(١)، وَقَالَ أَيْضًا: رُمِيَ أَبِي يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى أَكْحَلِهِ فَكَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢)، وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مَحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةِ نَارٍ»^(٣)، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَوَى مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيٌّ^(٤)، وَوَرَدَ عَنْهُ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ مَحَبَّتِهِ لِلْكَيِّ؛ حَيْثُ قَالَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ: «وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»^(٥)، وَوَرَدَ عَنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»^(٦)، وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْكَيِّ^(٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها:

(١) مسلم (٢٢٠٧) باب: لكل داء دواء.

(٢) مسلم (٢٢٠٧) (٤/ ١٧٣٠).

(٣) متفق عليه. البخاري (٥٧٠٢)، مسلم (٢٢٠٥).

(٤) البخاري (٥٧٢١).

(٥) البخاري (٥٧٢١).

(٦) ابن ماجه (٣٤٩١).

(٧) الترمذي (٣٨٩ / ٤)، وقال: حسن صحيح. وأبو داود (٣٨٤٧).

فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الشاء على من تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله؛ فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الشاء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو النوع الذي لا يحتاج إليه بل خوفاً من حدوث الداء، والله أعلم^(١).

وقد ذكر ابن قتيبة رحمته الله أن الكي جنسان: كيّ الصحيح لئلا يعطل، كما يفعله كثير من أمم العجم، فإنهم يكوون ولدانهم وشبّانهم من غير علّة، يرون أن ذلك الكي يحفظ لهم الصحة، ويدفع عنهم الأسقام، وهذا هو الذي أبطله الرسول صلّى الله عليه وآله وقال فيه: «لم يتوكل من اكتوى»^(٢)؛ لأنه ظنّ أن اكتواءه وإفزاعه الطبيعة بالنار وهو صحيح البدن، يدفع عنه قدر الله تعالى. وأما الجنس الآخر، فكي الجرح إذا نغل، وإذا سال دمه فلم ينقطع، وكي العضو إذا قطع، أو حسمه.. وهذا هو الكي الذي قال فيه النبي صلّى الله عليه وآله: «إن فيه الشفاء»^(٣).

وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجع، ويجوز ألا ينجع - أي

(١) زاد المعاد (٤/٦٦).

(٢) أحمد (١٨٢١٧) بزيادة: «واسترقى» وفي نسخة: «أو استرقى»، قال محققو المسند: حديث حسن، من أجل عقار بن المغيرة روى عنه جمع ووثقه العجلي وابن حبان، وحسان بن أبي وجزة وإن كان مجهول الحال لكن تابعه مجاهد، وباقي رجاله رجال الشيخين. اهـ. مختصراً.

(٣) تأويل مختلف الحديث (٣٢٩-٣٣٢).

حسب العادة. فإنه إلى الكراهية أقرب^(١)، وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْكِي، قَالَ: فَاذْنَبْنَا فَاذْنَبْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا وَلَا أَنْجَحْنَا^(٢)، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: سَقَمَ بَطْنُ عِمْرَانَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، كُلُّ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْكِي فَيَأْبَى، حَتَّى كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ بَسْتَيْنِ فَاذْنَبُوا^(٣)، وَقَالَ عِمْرَانُ: وَقَدْ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ - يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ - حَتَّى أَذْنَبْتُ فَتَرَكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكِيَّ فَعَادَ^(٤).

حكم التداءي، وهل ينافي التوكل؟

والجواب أن الأصل في التداءي الجواز، فقد كان من هديه ﷺ التداءي في نفسه، والأمر لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ومن أدلة ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»^(٥)، وقال ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»^(٦)، لذلك فلا يخرج من هذا العموم أي مرض حتى الإيدز وشبهه، ولكن علاجه لا زال في طيِّ علم علام الغيوب سبحانه، فإذا أذن لعباده أن يعلموه يسر

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٥).

(٢) الترمذي (٢٠٤٩) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٣٨٤٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٨).

(٤) مسلم (١٢٢٦).

(٥) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «علمه من علمه...» فإنها عند أحمد (٤/ ٢٧٨)،

والحاكم (٤/ ١٩٦).

(٦) مسلم (٢٢٠٤).

لهم أسباب ذلك. وقال ابن القيم على الحديث الآنف: «فيه تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه»^(١).

وعن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب^(٢) فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد» قالوا: ما هو؟ قال: «الهرم»^(٣). وعن أبي خزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أرايت رُقَى نسترقئها، ودواء نتداوى به، وثُقاة^(٤) نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»^(٥).

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كردّ

(١) الزاد (١٧/٤).

(٢) وقد كان الصحابة يفرحون بهم ليتعلموا من أجوبة رسول الله ﷺ لهم، وفي هذا بيان جمال خلق الصحابة مع نبيهم ﷺ وهيبتهم له وتوقيره رضوان الله عليهم.

(٣) أحمد (٤/٢٧٨)، الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه ابن حبان في الموارد (١٣٩٥) والبوصيري في الزوائد (١٩٢٤).

(٤) الثقة: ما يتوقى به الضرر، كالدرع والترس ونحو ذلك، لذلك فالتقوى جنة من غضب الله وعذابه.

(٥) أحمد (٣/٤٢١)، الترمذي (٢٠٦٦).

قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكلُّ من قدر الله، الدافع والمدفوع والدفع»^(١).

وقد اختلف العلماء في التداعي، هل مباح وتركه أفضل؟ أم مستحب؟ أم واجب؟ فالمشهور عند أحمد الأول، وعند الشافعي الثاني، وذكر النووي أنه مذهب جمهور السلف والخلف، وعند أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يُداني به الوجوب، وعند مالك استواء الطرفين.

وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة، إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

قلت: ولعل الأمر بجملته عائد إلى نفس المريض، ويختلف الأمر من شخص لآخر ومن حال لآخر حتى لنفس الإنسان. فإن وثق بيقينه وتوكله واكتفى برقيته على نفسه وتلذذ بالرضى بمرّ القضاء فالأفضل له ترك التداعي الحسي إلا من العسل والحبة السوداء ونحو ذلك مما جاء في الوحي الإرشاد إليه، أما إن خشي على نفسه من نوع تضجّر أو انشغال عما هو أولى كمصالح المسلمين العامة ونحو ذلك فالتداعي مستحب له، أما إن خشي على نفسه التلف والهلكة كنزيف يحتاج لرتق أو كي وجرت العادة بنفع ذلك الدواء، أو خشي على دينه من الجزع والتسخط فالواجب في حقه التداعي، أما إن استوى الطرفان فهو على الإباحة. والله أعلم.

ثالثاً: التطير:

الطَّيْرَة هي اسم مصدر من تطيّر طيرة، وأصله من التطيّر بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها^(١)، وصفته قديماً: أن العرب كانوا إذا أرادوا أمراً نفروا الطير، فإن طار يمنية تفاءلوا به، وتيمّنوا ومضوا إلى حاجتهم كسفر أو زواج أو تجارة ونحو ذلك، أما إن طار ميسرة فإنهم يتشاءمون به، ويقعدون عن حاجاتهم، ومن بعد صار التطيّر اسماً رديفاً للتشاؤم بكل مرئي أو مسموع أو معلوم، ويدخل فيه التشاؤم بالأسماء والألفاظ والأشخاص والأرقام والألوان والشهور والأيام والعاهات وغير ذلك، ولا زالت أشكال الطيرة والتشاؤم تتجدد في كل زمان، فلا يحلّ مكروه إلا ربط بعض الجهلة بينه وبين شكله أو رسمه أو هيئته أو زمنه، والشيطان يُعنتق بهم في طولِ التعلّق بغير خالقهم ومولاهم ووكيلهم، والمحفوظ من حفظه الله.

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٥٢)، ولسان العرب (٤/ ٥١٢). وقال أبو عبيد: الطائر عند العرب الحظ، وهو الذي تسميه العرب البَحْت. وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل، وطائر الإنسان عمله الذي قُلِّده، وقيل: رزقه، والطائر: الحظ من الخير والشر. وفي حديث أم العلاء الأنصارية: اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون، أي حصل نصيبنا منهم عثمان. وطائر الإنسان: ما حصل له في علم الله مما قُدِّر له، ومنه الحديث «بالميمون طائره» أي المبارك حظّه، والطيرة مضادة للفأل، وكانت العرب مذهبها في الطيرة والفأل واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها. لسان العرب (٥/ ٦٨١، ٦٨٢) باختصار. وسيأتي الكلام على الفأل إن شاء الله تعالى.

ومن خلال استقراء نصوص الشريعة وأقوال أهل العلم في مسألة التطير نخرج بالتتابع التالية:

أولاً: التطير من أعمال الجاهلية، ولذلك لم يذكره الله تعالى إلا على أعدائه، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يَمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وطائرهم هنا: أي ما قُضي عليهم وقُدِّر لهم، أو شؤمهم إنما جاءهم من قبله تعالى^(١). وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٨ ﴿قَالُوا طَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تُكَلِّمُوا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِئْسَ مَعَكُمْ قَالَ طَيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

ثانياً: الطيرة من المحرمات الشركية:

ومما يدل على ذلك حديث ابن مسعود يرفعه «الطيرة شرك، الطيرة شرك» ثم قال ابن مسعود: «وما منّا إلّا، ولكن الله يذهب بالتوكّل»^(٢)، وقال ﷺ: «من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ١٦٨).

(٢) أبو داود (٣٩١٢)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصححه الألباني. قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على سنن ابن ماجه: وقد ذكر كثير من الحفاظ أن جملة «وما منّا إلّا...» من كلام ابن مسعود مدرج في الحديث. ولو كان مرفوعاً كان المراد: وما منّا: أي من المؤمنين من هذه الأمة.

لا خير إلا خورك، ولا طير إلا طورك، ولا إله غيرك»^(١)، وقال ﷺ: «العيافَةُ والطَّرْقُ والطيرةُ من الجبت»^(٢).

ثالثاً: لا ارتباط بين الأعيان المتطير بها وبين جلب المنافع ودفع المضار.

قال القرطبي رحمه الله: قال علماءنا: وأما أقوال التطير، فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير، إلا ما كان الله خص به سليمان عليه السلام^(٣) من ذلك، فالتحق التطير بجملة الباطل^(٤)، ومما يدل على ذلك ما يلي:

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»^(٥)، زاد مسلم: «ولا نوء ولا غول»، و(لا) هنا للنفي لا للنهي، والنفي هنا أبلغ؛ لأنه يدل على البطلان وعدم التأثير، ثم يدل على النهي بدلالة

(١) أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦٥).

(٢) عبد الرزاق في المصنف (١٩٥٠٢)، وأبو داود (٣٨٨٩)، وابن حبان في الموارد (١٤٢٦)، وحسنه النووي.

(٣) كذلك رسولنا ﷺ كما في حديث القبرة وأفراخها وغير ذلك من علم منطق الحيوان كالجمال والغزلان والضباب، بل والجمادات كالأحجار والجبال، وأعجب من ذلك تأثيره فيها بإذن الله تعالى الذي جعل ذلك من دلائل نبوته وبراهين رسالته، وقد بسطت ذلك في كتاب محمد رسول الله ﷺ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٦).

(٥) متفق عليه. البخاري (٥٧٥٧)، مسلم (٢٢٢٠).

اللزوم.

وقال ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»^(١)، وقال أحمد القرشي: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢). وعند معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إن منّا رجلاً يأتي الكهان؟ قال: «فلا تأتهم» قال: ومنّا أناس يتطيرون؟! فقال: «ذاك شيء مجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم»^(٣).

رابعاً: تحريم الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نفسه من التطير:

يدل على ذلك حديث معاوية بن الحكم المتقدم: «فلا يصدنكم» وحديث عروة بن عامر المتقدم، وفيه: «ولا ترد مسلماً»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن مضيت فمتوكل، وإن نكصت فمتطير^(٤).

خامساً: نهى النبي ﷺ عن تنفير الطير:

كما في حديث أم كرز الكعبية قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «أقروا الطير

(١) متفق عليه. البخاري (٥٧٥٥)، مسلم (٢٢٢٤) واللفظ للبخاري.

(٢) أبو داود (٣٩٠٠)، وفي سنده مقال، ورجح المنذري إرساله (عون المعبود ١٠ / ٤١٦).

(٣) مسلم (٥٣٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٩٥٠٥).

على مِكناتها»^(١)، قال القرطبي: هكذا في الحديث، وأهل العربية يقولون: وكناتها^(٢). قلت: إن ثبت لفظ الحديث فهو حجة لغوية؛ فأفصح من نطق بالضاد وفتح لسانه بالعربية هو محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله^(٣).

سادساً: الإخبار عنه ﷺ بأنه كان لا يتطيّر:

كما في حديث بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطيّر من شيء^(٤).

سابعاً: مدح النبي ﷺ لمن ترك التطير:

كما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وتقدم.

ثامناً: شدة حذر السلف من التطير:

ومن ذلك ما ذكره عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس، فمرّ طائر يصيح،

(١) أحمد (٣٨١ / ٦)، والحاكم (٢٣٧ / ٤) ووافقه الذهبي، ورواه أبو داود (٢٨١٨)، عون المعبود (٣٦ / ٨) وقال: منقطع، وأشار إلى انقطاعه البغوي في شرح السنة، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠٦ / ٥) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها ثقات.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦٥ / ٧).

(٣) وللجاحظ رسالة لطيفة في بيان بعض مواطن فصاحته ﷺ.

(٤) أحمد (٣٤٨، ٤٧ / ٥)، أبو داود (٣٩٠١)، وحسن الحافظ إسناده كما في الفتح (٢٢٥ / ١٠).

فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا خير ولا شر^(١). وعن زياد بن أبي مريم قال: كان سعد بن أبي وقاص غازيًا، فبينما هو يسير إذ أقبل في وجوههم طباء يسعين، فلما اقترب منهم ولّين مدبرات، فقال له الرجل: انزل أصلحك الله، فقال له سعد: مم تطيرت؟ أمن قرونها حين أقبلت، أم من أذناها حين أدبرت؟! إن هذه الطيرة لباب من الشرك. قال: فلم ينزل سعد ومضى^(٢)، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبنى^(٣). وقال ابن عبد الحكم: لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، قال مزاحم: فنظرت، فإذا القمر في الدبران، فكرهت أن أقول له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر؟ ما أحسن استواءه في هذه الليلة! قال: فنظر عمر فإذا هو في الدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر في الدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار^(٤).

تاسعًا: نفور ذوي العقول السليمة والطباع المستقيمة منه، وإن كانوا من أهل الجاهلية.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: كان بعض أهل الجاهلية ينكر التطير، ويمدح بتركه، ومن أشعارهم:

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦)، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٩٥٠٦).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٩٥١٣)، وانظر: مفتاح دار السعادة (٥٨٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (٥٨٩)، وانظر: تيسير العزيز الحميد (٤٢٨).

وَالزَّجَرُ وَالطَّيْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمْ مُضَلَّلُونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْفَالُ
وقال آخر:

وَمَا عَاجِلَاتُ الطَّيْرِ تُدْنِي مِنَ الْفَتَى نَجَاحًا وَلَا عَنْ رَيْثِنَ قُصُورُ
وقال أحد حكمائهم:

لعمرك ما تدري الطوارق بالخصى. ولا زاجرات الطير ما الله صانع^(١)

عاشراً: بيان كفارة ذلك الإثم لمن وجد في نفسه شيئاً من التطير:

يدل على هذا حديث ابن عمرو المتقدم قال ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرِكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرِكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرِكَ»^(٢)، فهذه كفارة الطيرة بعد وقوعها.

أما لدفع وقوعها. وذلك عندما يجد أثرها في نفسه قبل أن يعمل. فقد جاء في حديث عروة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «أَحْسِنِهَا الْفَأْلَ، وَلَا تَرُدِّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٣)، والحديث ضعيف، ولكن وإن لم يصح بحروفه فمعناه صحيح، وهو من الأدعية التي يسأل المؤمن ربه بها حفظه

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦٥).

(٣) أبو داود (٣٩٠٠)، وفي سنده مقال لتدليس حبيب بن أبي ثابت، وقد عنعن عن عروة بن عامر وقد اختلف في صحبته، ورجح الحافظ انقطاع رواية حبيب عن عروة. التهذيب (٧/ ١٨٥)، ورجح المنذري إرساله. عون المعبود (١٠/ ٤١٦).

وتسديده وكفايته.

حادي عشر: الآثار النفسية السلبية للمتطير:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: واعلم أن من كان معتنياً بها، قابلاً بها، كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوسوس فيها يسمعه ويراه ويُعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه. فالواجب على العبد التوكل على الله، ومتابعة رسول الله ﷺ، وأن يمضي لشأنه، لا يردّه من الطير شيء عن حاجته فيدخل في الشرك^(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله مبيناً أثر التطير في قلب المتطير: «أثر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازماً على فعله، أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكفي عن الأمر الذي كان عازماً عليه، فهذا كما ترى قد علّق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه قد أثر على إيمانه وأخلّ بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدث له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين، وتعلقه بالأسباب، وبأمر ليس أسباباً، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، هذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

(١) التيسير (٤٢١).

الأمر الثاني: ألا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًا وغمًا، فهذا وإن كان دون الأول، لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه، وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيرّه، وربما تدرّج به إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشرع للطيرة ودمّها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك، وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها، ويستعين بالله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه، ليندفع الشر عنه^(١).

هذا وتظهر منافاة التطير والتشاؤم للتوحيد والتوكل من خمسة أوجه:

١. كونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته.
٢. كونها من ادعاء علم الغيب.
٣. فيها تعلّق بغير الله تعالى خوفًا وطمعًا، رهبًا ورغبًا.
٤. فيها اعتماد على الأسباب الوهمية التي لا حقيقة لها، وإنما يتخيلها الإنسان أسبابًا، وهي ليست بأسباب، لا شرعية ولا قدرية، وهذا ينافي التوكل.
٥. فيها اعتقاد النفع والضرر من غير الله تعالى، وهذا شرك في الربوبية.



(١) القول السديد (٣٢) ضمن المجموعة الكاملة، ج ٣.

الجمع بين نصوص ظاهرها التعارض في مسألة التشاؤم والتطير

مع كثرة الأحاديث الناهية عن التطير وإحكامها إلا أنه قد وردت بعض الأحاديث التي تثبت ظاهر التشاؤم، فكيف الجمع بينها، مع إيماننا أن مشكاة الوحي واحدة، وأن ما صح عن رسول الله ﷺ إنما هو وحي يوحى، وأنه معصوم في التبليغ، وأن الله سبحانه قد اقتضت حكمته البالغة أن يجعل هناك مسائل علمية دقيقة يختلف فيها المجتهدون من هذه الأمة المرحومة بعد استفراغ وسعهم وطاقاتهم، وكلهم دائرون بين الأجر والأجرين.

وقاعدة الإحكام والتشابه مضطردة في غالب نصوص الشريعة، فتجد أن هناك نصوصاً محكمة متكاثرة صحيحة صريحة يكون عليها العمل، ثم تظهر نصوصٌ مخالفة لها وهي إما صريحة غير صحيحة، أو صحيحة غير صريحة، أو منسوخة أو مقيدة أو مخصصة أو غير ذلك مما تختلف في إدراكه قرائح حملة الشريعة فيردون مورداً واحداً. إلا من خُذِلَ وشُدَّ. وهو مورد تعظيم النصوص وتقديمها على ما سواها، وتجريد الحكم والاتباع والطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ثم يصدر من مصادر شتى، وكلٌّ وتوفيق العليم الحكيم له، فمنهم من يقترب من الحق ويدنو من الصواب، ومنهم من يقع على عين الحقيقة ويصيب كبد الصواب، ومنهم من يُبعد، وكلٌّ على خير ما دام تعظيم أمر الله هو الرائد، واعتبر ذلك بأكثر مسائل الخلاف.

ومن تلك المسائل مسألتنا هذه، فمع إحكام النصوص المانعة من التطير

والتشاؤم إلا أنه قد وردت نصوص يوهم ظاهرها إثبات التشاؤم كحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس والمرأة والدابة»^(١)، وذكر مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، دار سكتناها والعدد كثير، والمال وافر، فقلّ العدد وذهب المال، فقال رسول الله ﷺ: «دعوها ذميمة» وفي رواية: «اتركوها ذميمة»^(٢).

ولأهل العلم في الجمع أقوال شتى نجملها في أربعة أقوال كما يلي:

الأول: حملوا هذه الأحاديث على ظاهرها، وقالوا بإباحة التشاؤم في هذه الثلاث، وقالوا: إن هذه الثلاث مخصوصة من حرمة التطير العام، ومن ذهب هذا المذهب الإمام مالك وابن قتيبة والشوكاني.

الثاني: القول بأن هذه الثلاث منسوخة بأحاديث النهي عن التطير.

قال الحافظ ابن حجر: حكاه ابن عبد البر، يعني أنه نسخ بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾

(١) البخاري (٢٨٥٨).

(٢) مالك في الموطأ (٩٧٢ / ٢) بسند معضل، ورواه أبو داود (٣٩٠٥) عن أنس، ورواه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٥٢٦) والبخاري في الأدب المفرد (٩١٨) بسند حسن. قال ابن عبد البر: هذا حديث محفوظ عن أنس وغيره. وصححه جاسم الفهيد في النهج السديد (ص ١٥٨).

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ [الحديد: ٢٢]، ولكن يعكّر على ذلك الجهل بتاريخ إثبات التشاؤم، لاسيما وقد ورد في نفس الخبر نفي التطير، ثم إثباته في الأشياء المذكورة^(١).

الثالث: طائفة تأولت حديث الشؤم بتأويلات كثيرة:

منها: أن الحديث إنما ذكر لبيان واقع حال الناس لا إقراراً لهم^(٢)، وهذا غير مسلم لأن سياق الأحاديث يأباه، كذلك فرسول الهدى ﷺ قد بعث ليعلم الناس ما يلزمهم اعتقاده لا أن يخبرهم عن معتقداتهم المأجنة والحاصلة^(٣).

ومنهم من تأوله بأن معنى شؤم المرأة: إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليها، وشؤم الدار جار السوء^(٤).

ومنها أن ذلك محمول على قلة الموافقة وسوء الطباع، ويستدلون بحديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة؛ من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح. ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»^(٥).

(١) فتح الباري (٦ / ٧٤)، وانظر: التمهيد (٩ / ٢٩٠).

(٢) وقد وجهت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لفظ الحديث ومعناه إلى ذلك، وسيأتي بمشيئة الله تعالى.

(٣) فتح الباري (٦ / ٧٤).

(٤) مفتاح دار السعادة (٦١٢).

(٥) أحمد (١ / ١٦٨)، وبنحوه الحاكم (٢ / ١٦٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٤٧).

قلت: وهذا وجهه فالأحاديث يفسر بعضها بعضاً، وليس في هذا إثبات التشاؤم إنما هو مجرد النفرة وعدم الملاءمة، مع الضيق في الصدر بملابسة المكروه ليس إلا، فعبر عن التشاؤم هناك بما فسر به بالشقاء الدنيوي هنا.

وفي بعض الروايات إضافة السيف^(١) وفي بعضها الخادم^(٢).

ومن توجيهاتهم لحديث التشاؤم أن على المرء مفارقة هذه الأشياء عند وجود كراهتها في قلبه، وذلك صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل، وسداً للذريعة، حيث يُخشى من شدة كراهيته لها أن يعتقد فيها التطير والتشاؤم فيقع في المحذور، فجاز له مفارقتها.

قلت: وهذا التعليل وجهه لولا أن فيه مبادرة إلى ما هرب منه ولو ظاهراً، ولكن إن غلب على ظنه حدوث المحذور الديني فيستقيم هذا التوجيه درءاً للمفسدة الكبرى بالصغرى، أما حديث أرض أبين الوبئة «دعها فإنها من القرف التلف» فسنده ضعيف^(٣).

وبعضهم تأول الشؤم فيها بالعذاب القلبي والأذى النفسي فجعلوا الاستثناء من غير الجنس، بمعنى أن من كانت عنده واحدة من هذه الثلاث يكرهها فليفارقها. قلت: وهذا ملحق بما قيل من قلة الموافقة وسوء الطباع.

(١) مصنف عبد الرزاق (١٩٥٢٧) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) مسلم (٢٢٢٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٣) أبو داود (٣٩٠٤). قال المنذري: في إسناده رجل مجهول.

وقيل: إن المراد إخباره ﷺ عن الأشياء المثيرة للطيرة الكامنة في الغرائز - وهي هذه الثلاثة - فأخبرنا بها لنجنبها ونحذرها.

وقيل: المخاطب بقوله: «الشؤم في ثلاثة» من التزم التطير ولم يستطع صرفه عن نفسه فقال لهم: إنما يقع ذلك في هذه الأشياء التي تلازم في غالب الأحوال، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم ولا تعذبوا أنفسكم بها. قلت: وهذا غير ظاهر. وقيل: الشؤم في هذه الثلاث إنما يلحق من تطير بها، أما من توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشؤومة عليه.

الرابع: من أنكر هذا الحديث وطعن في ثبوته.

كما روى قتادة عن أبي حسان أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة في الفرس والمرأة والدار» فغضبت غضباً شديداً وقالت: ما قاله، وإنما قال: «إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك» وفي رواية: فأنكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك وقالت: كذب^(١) والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم ما حدث بهذا، ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: «كان أهل الجاهلية يقولون: إن الطيرة في المرأة والدار والدابة» ثم قرأت:

(١) والكذب في لغة قريش لا يلزم منه تعمد القول المخالف للصواب، بل يتوسعون في إطلاقه على من أخطأ مطلقاً، خلافاً للغة تميم، فأم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تقصد اتهام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتعمد الكذب، بل أطلقت ذلك وقصدت أنه مخالف للصواب، وقد جاء عنها وعن غيرها في أحاديث ومسائل آخر هذا الإطلاق على أبي هريرة وابن عمر وغيرهما.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] (١).

قال الحافظ: ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقته من ذكرنا من الصحابة له في ذلك.

وعند أحمد بسند لّين أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ: سمعت من رسول الله ﷺ: الطيرة في ثلاث؛ في المسكن والفرس والمرأة؟ قال: كنت إذن أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصدق الطيرة الفأل، والعين حق» (٢)، وورد كذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان ينكر هذا الحديث (٣).

هذا ومن أهل العلم من سلك مسلك حمل رواية أبي هريرة المثبتة للشؤم على روايات غيره من الصحابة التي تعلّقه دون إثبات، والغرض من هذا التعليق هو

(١) أحمد (٢٤٦/٦)، الحاكم (٤٧٩/٢) ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي عن إسناده أحمد: رجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٩٣)، وروى مكحول عن عائشة أنها قالت عن حديث أبي هريرة: لم يحفظ، إنه دخل وهو يقول: «قاتل الله اليهود يقولون: الشؤم في ثلاثة...» فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله، والإسناد منقطع؛ فمكحول لم يسمع من عائشة، وعلى فرض صحته فالجملتان متتابعتان، ويبعد أن يسمع الثانية دون ما قبلها.

(٢) أحمد (٢٨٩/٢) بإسناد فيه أبو معشر، وفيه ضعف، وانظر: الصحيحة (٧٢٦/٢).

(٣) انظر: تهذيب الآثار لابن جرير الطبري (ح ٧٢) (١/٢٤).

النفي دون الإثبات، وهذا مسلك وجيه جدًا، وأشهر الروايات المعلقة للشؤم لغرض النفي هي رواية ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري بلفظ: «إِنْ كَانَ الشَّوْمُ فِي شَيْءٍ؛ ففِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ»^(١)، وكذلك حديث سهل بن سعد بلفظ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ...»^(٢). فالغرض نفي الشؤم بالكلية لتعليقه على ما هو منفي شرعًا، كما في حديث: «لَا طَيْرَةَ» والمعلق على المنفي منفي.

قال ابن عبد البر: فلم يقطع في هذا الحديث بالشؤم.. قال: وهذا أشبه في الأصول؛ لأن الآثار ثابتة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا طَيْرَةَ وَلَا شَوْمَ وَلَا عَدْوً»^(٣).

قلت: ولكن يعكّر على ذلك رواية ابن عمر الأخرى في البخاري، بالجزم دون التعليق «الشؤم في المرأة والدابة والفرس»^(٤)، وقد روي هذا الإسناد بأقوى الأسانيد فهو عن مالك عن الزهري عن سالم عن عبد الله بن عمر، ولكن إذا تعارضوا ولم يمكن الجمع فيتساقطان ويبقى المرجح من خارجهما.

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «والراجح عندي رواية محمد - يعني العسقلاني عن ابن عمر - هذه أي الرواية المعلقة لا الجازمة - لأن لها شواهد صحيحة. ثم ذكر الشواهد ومنها عن سهل بن سعد وعن سعد بن أبي وقاص وأنس وأبي سعيد

(١) البخاري (٥٠٩٤).

(٢) الفتح (٧١ / ٦).

(٣) التمهيد (٢٧٩ / ٩).

(٤) البخاري (٥٠٩٣).

وجابر وحكيم بن معاوية، ثم قال: وجملة القول أن الحديث اختلف الرواة في لفظه، فمنهم من رواه كما في الترجمة، ومنهم من زاد عليه في أوله ما يدل على أنه لا طيرة أو شؤم^(١)، وعليه الأكثرون، فروايتهم هي الراجحة؛ لأن معهم زيادة علم فيجب قبولها. وقد تأيد بحديث عائشة^(٢).

قلت: قد أفضى بنا البحث إلى حديثين بمعنيين مختلفين ظاهراً، فإن أمكن الجمع وإلا فالترجيح والحكم بشذوذ المرجوح وبحفظ الراجح. ففي الطرف المثبت للشؤم في الثلاث حديث أبي هريرة وابن عمر، وفي الطرف الثاني أو المعلق على ما يقتضي النفي جملة من الأحاديث المختلفة المخارج والرواة، مع ما يعضدها من الأحاديث الصريحة في نفي التطير المقتضي للنهي عنه كذلك، فالقول بأن حديث الإثبات يقيد الإطلاق غير مستقيم؛ إذ هذه الثلاثة هي أكثر ما يلبسها المرء في معاشه فلا معنى لنفي التطير في غيرها مع إثباتها.

وعليه فإن أمكن إعمال الأحاديث كلها فحسن، وذلك بأن يقال: إن الأحاديث المثبتة لم تثبت الشؤم المنهي عنه إنما تحكي بعض المظاهر التي تشابه ظاهره مع اختلاف الحقائق، وذلك كعدم الملاءمة والموافقة بين الإنسان وبين ما يلبسه في أمور معاشه مما اقتضت حكمة الله تعالى ألا يوفق فيها، بل لا يزداد مع ملابستها إلا مشقة وعناء، لاقتضاء حكمة رب العالمين لتلك المشقة وعدم التوفيق، فعليه إذن أن يفارقها طلباً لراحته ولحصول مقصوده لا لأمرٍ كامنٍ فيها،

(١) وهما بمعنى قريب والطيرة أعم.

(٢) السلسلة الصحيحة (٩٩٣).

وهذا في كل أمور معاشه كالتجارة^(١) والزراعة والرعي، وبعض أبواب العلم، وغير ذلك، ولكن لما كانت هذه الثلاث هي أكثر ما تُلابس الإنسان، وتتردد الشكايات منها صارت مثلاً لغيرها يعتبر بها غيرها.

فمسلك الجمع هذا هو الأظهر عندي، فمهما أمكن الجمع لم يُرغب عنه إلى الترجيح، وإعمال النصوص كلها خير من إبطال بعضها. أما إن لم يمكن الجمع بأي حال فما ثمَّ إلا الترجيح، وحيث إن كِفَّةَ إثبات الشؤم في الثلاث لا تقوم لما يقابلها من نفيه على العموم، وتعليقه على ما نفي شرعاً، وكثرة مخارج الأحاديث وجودتها وتعددتها، والاحتياط العام لجناب التوحيد والتوكل فإنه يحكم بشذوذ ذلك اللفظ المثبت وضعفه وعدم التعويل عليه، وهو ما مال إليه الإمام الألباني رحمته الله (٢).

قال ابن القيم رحمته الله: «إخباره ﷺ أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعياناً مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر.. وشبه ذلك

(١) وكان بعض السلف ومنهم عمر رضي الله عنه يوصون من لم يوفق في باب من أبواب التجارة ثلاث مرات أن ينصرف عنه إلى باب آخر. وفي هذا تلمس التوفيق وأن الله إذا أراد أمراً هياً له أسبابه.

(٢) لفظه: «فهذا اللفظ - أي رواية ابن عمر: الشؤم في ثلاث - شاذ مرجوح»، الصحيحة (٩٩٣) (٢/ ٧٢٧)، والشاذ من أقسام الحديث الضعيف، سببه مخالفة الثقة لمن هو أوثق، ويقابله المحفوظ، أما مخالفة الضعيف للثقة فهو المنكر، ويقابله المعروف.

بأن الله قد يعطي الوالدين ولدًا بارًّا رحيماً بهما، وقد يعطيها ولدًا شريراً والله خالق الخير والشر، والفرق بين هذين النوعين يُدرك بالحس، فكَذلك في الديار والنساء، والخيال، فهذا لون، والطيرة الشركية لون»^(١).

ويدل على ذلك أنه يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه.

وتأمل حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: «والله ما أعتبُ على ثابت بن قيس بن شماس في دين ولا خُلُق، ولكني أكره الكفر بعد الإسلام، ولا أطيقه بُغْضًا»^(٢). فهذا وإن كان من طرف المرأة للرجل فهو عكس صحيح فالنساء شقائق الرجال وهن مكلفات بما كلفوا به في الجملة، ودلالته أن جميلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كرهت العشرة خوفاً من ألا تقوم بحق الزوج فتهلك فكأنها رأت الشؤم من هذه الجهة. ولعل من ذلك ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(٣).

وقال شيخنا عبد الله الدميحي في خاتمة بحثه لهذه المسألة: والذي يبدو - والله تعالى أعلم - أنه ليس في هذه الأحاديث إثباتٌ للشؤم المنهي عنه، وإنما بعض الأعيان - وخاصة هذه الثلاث المذكورة - قد يجعلها الله تعالى سبباً في وقوع

(١) مفتاح دار السعادة (٦١٤).

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره (٤٠٣/١) وقال عنه: إسناده جيد مستقيم.

(٣) البخاري (٣٤٩٥، ٣٤٩٦) باختلاف يسير، ومسلم (٢٦٣٨).

البلاء والضرر على الإنسان، وليس الشؤم في ذواتها، وإنما ما قد يجده العبد في نفسه تجاهها، لذا أجاز له الشارع مفارقتها حين يجد مضرة عند الاستمرار في مصاحبتها، وأن الشؤم والتطير المنهي عنه فهو محاولة الاستدلال ببعض الأحوال والأعيان والأصوات على أمر غيبي لم يقع بعد، أما عند وقوع الضرر وتحقيقه فالإنسان مأمور بترك ما يضره والبحث عما ينفعه، وليس للقلب في مثل هذه الحالة تعلّق بغير الله تعالى أو اعتماد عليه، الذي هو أصل التشاؤم المنهي عنه. والله أعلم»^(١).

هذا واعلم أن الفأل في حقيقته ليس من التطير في شيء، فالفأل ليس تلمّس علم غيب، إنما هو حسن ظن بالله تعالى، أما الطيرة فهي قد تجمع إلى سوء الظن وتوقع السوء تلمّس الغيب والرجم به.

وضابط المسألة أن الفأل حُسْنُ ظَنٍّ مجرّد مع توقع للخير المقبل، مع إقبال النفس ونشاطها في العمل المقصود، أما إن رافق ذلك ترتيب التوقع على أمر مستأنف كمن يزجر الطير ويستقسم بالأزلام والعيافة والطرق ونحو ذلك فهو من الطيرة الشركية حتى ولو أفضت به إلى ما يجب، كمن زجر الطير فطارت يميناً فهو في حقيقته متطير وليس متفائلاً.

أما إن زجرها فطارت شمالاً فعمل على ما اقتضاه ذلك التطير فترك العمل فهو متطير متشائم، وقلنا: إنه متطير، لزجره الطير بقصد تلمس ما وراء سجنف الغيب، ومتشائم؛ لأنه أساء الظن بالخالق سبحانه، فهذا هو الفرق بين الطيرة

(١) التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، د/الدميجي (٢٤١).

والتشاؤم، ولم يصب من جعلها بمعنى واحد، بل بينهما من الفرق كما هو ظاهر لك، فالتطير أعم من التشاؤم وهو من أبواب الشرك لتعلق صاحبه بأسباب موهومة، سواء تفاعل بها واستبشر أم تشاءم وحزن، ومن قال إنها بمعنى واحد لحظ اجتماعهما في تلمس الغيب بناء على ما ظهر من الحوادث الأرضية كنعيق الغراب ورؤية ذي العاهة، وسماع الاسم المكروه، أو حتى بقصد كمن يزجر الطير أو يضرب الودع أو الأزلام، وهذا ما دعى بعض أهل العلم للقول بأن الفأل مستثنى من الطيرة، ويستدلون بظواهر أحاديث إنما هي في حقيقتها - إن صحت - تذكر ذلك المعنى الكلي الذي يرتب بعض المشاعر النفسية، دون ابتداء الأعمال عليها كحديث: «لا طيرة وخيرها الفأل» وحديث: «الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم»^(١) وحديث: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً»^(٢)، وحديث: «أصدق الطيرة الفأل»^(٣)، فالفأل هو الكلمة الطيبة أو المشهد المفرح الذي يزيد في المؤمن إحسان الظن بربه تعالى، وينشطه للإقدام على العمل المراد، لا أنه مبتدأ ومستأنف بسببها.

لذلك فقد صح عنه ﷺ في الحديث المتفق على صحته أنه فرق بين الطيرة والفأل فقال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال:

(١) البزار (٨٠٥٢).

(٢) أبو داود (٣٩٠٠) بسند ضعيف، ورجح المنذري إرساله. عون المعبود (١٠)/

(٤١٦) وسبق.

(٣) أحمد (٢٨٩/٢).

«الكلمة الطيبة»^(١)، فانظر كيف استطرد لذكر الفأل بعد نفيه^(٢)، بذكر إعجابه بالفأل لاجتماعهما في الأمر الكلي. ولو من بعيد. المتوقَّع لأمر غيب مقبل، وإن كان في الطيرة أشد أثرًا لأنه سيعتمد على ذلك الأمر الموهوم في التطير والمظنون في التفاؤل، وارتفعنا بالتفاؤل إلى درجة الظن عن التوهم والتخرص بدليل الشارع الذي جعله بشاره، فهي ظنيّة في حقيقتها. لأنها قد تكون موهومة وغير مقصودة. ويقينية من جهة إحسان الظن بالله الذي لا يأتي الخير إلا من قبّله، فهو محمود مأجور من هذه الحيشة، وقد يكافأ من لدن من بيده مقاليد الأمور وأزمة الشؤون بدركه لرغيته ومبتغاه.

وهذا المعنى - في إخراج الفأل^(٣) من حقيقة التطير - قد فهمه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كما قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل الحسن^(٤) ويكره الطيرة^(٥).

(١) البخاري (٥٧٥٥)، مسلم (٢٢٢٤) واللفظ له.

(٢) والنفي يقتضي الإبطال، ويتضمن النهي، فهو أبلغ وأشد من مجرد النهي.

(٣) بعضهم يقيده بالحسن، فيقول: الفأل الحسن. وهذا غير ظاهر، فالفأل كله حسن، أما ضده فهو الشؤم، وإن كان يصح لغة وله شواهد لكنه استعمال نادر فأصبح كالمطلق العرفي فلا يحتاج إلى هذا القيد. وفي اللسان: والفأل يكون فيما يحسن وفيما يسوء. قال أبو منصور: من العرب من يجعل الفأل فيما يكره أيضًا (اللسان ٧ / ٧، ٨).

(٤) وهذا وصف كاشف وقيد لا مفهوم له، إنها أراد به التوضيح حتى لا يختلط بضده، كذلك فيصح على مذهب من عمّم الفأل على الحسن والسيئ.

(٥) أحمد (٦ / ١٣٠)، ابن ماجه (٣٥٣٦). قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله =

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن»^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ سمع كلمة فأعجبته فقال: «أخذنا فألَك من فيك»^(٢).

وحتى مع القول بأن الفأل في الأصل يطلب على الخير والشر كما نحا إليه الأئمة النووي وابن القيم وابن حجر وغيرهم، فلا مشاحة في الاصطلاح والأمر قريب؛ لأن الجميع متفق على أن المباح منه هو ما كان حسناً، ولم يترتب عليه استثناء عمل، فالمنتهى واحد بحمد الله.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الفرق بين الطيرة والفأل أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء، فلذلك كُرِهت»^(٣).

قال الشيخ ابن سعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة والنشاط والسرور وتقوية النفوس.

ثقات، وحسن الحافظ إسناده مع الفتح (١٠ / ٢٢٥).

(١) أحمد (١ / ٢٥٧) وفيه ليث بن أبي سليم؛ صدوق اختلط جداً، ولم يتميز حديثه فترك. (التقريب ٤٦٤).

(٢) أبو داود (٣٩١٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٢٦).

(٣) البخاري (الفتح ١٣ / ٧٥١٧)، ولفظ الكراهة عند المتقدمين أكثر ما يطلق على التحريم خلافاً لاصطلاح المتأخرين.

وصفة ذلك: أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة، ثم يرى في تلك الحال ما يسره، أو يسمع كلاماً يسره مثل: يا راشد أو سالم أو غانم فيتفاءل، ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه^(١) فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء^(٢).

وقال الدكتور عبد الله الدميحي حفظه الله: «ضابط الفرق بين الفأل والطيرة كالتالي:

١. من شروط الفأل ألا يقصده المتفائل، فيكون من الطيرة المنهي عنها.
٢. ألا يحمله على العمل بموجبه، فإن عمل به فإنه يُعتبر من الطيرة الشركية، فالطيرة ما أمضاك أو ردك^(٣)، وذلك لأن القلب في مثل هذه الحالة له اعتماد على غير الله - وهو الفأل - وهذا شرك^(٤).



(١) لاحظ قيد العزم، فهو لم يستأنف العمل بعد التفاؤل بل ازدادت همته وقويت نفسه، أما إن استأنف وابتدأ بسببها دون عزم سابق فهو من التطير الشركي.

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد (٣١) ضمن المجموعة الكاملة (ج ٣).

(٣) والحديث في ذلك ضعيف ومعناه صحيح «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

(٤) التوكل، الدميحي (٢٤٦، ٢٤٧).

مواطن التوكل

إن التوكل على الله تعالى مطلوب في كل شؤون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحُصُّ على التوكل والأمر به للمصطفى ﷺ والمؤمنين، وقد ذكر الفيروز آبادي من ذلك:

١. إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا عليه ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ^ط وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ^ط وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢. إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكل ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٣. إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على الوكيل الحق سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤. إذا تلى عليك القرآن أو تلوته فاستند على توكلك على الله عز وجل ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] (١).

(١) وقد تكون دلالة هذه الآية على ربط سماع القرآن بالتوكل عن طريق الإيماء، أما الظاهر فإن التوكل ذكر قسيماً لسماع القرآن مع الوجل عند الذكر وجعلت هذه الثلاثة شرطاً لصحة عقد الإيمان.

٥. إذا طُلبت للصُّلح فعليك بالتوكل: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

٦. إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

٧. إذا نصبت الأعداء حِبَالَاتِ المكر فادخل أنت في أرض التوكل ﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

٨. إذا أردت تحقيق العبادة فلذ بالتوكل على ربك تبارك وتعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٩. إذا رأيت أو سمعت من يكفر بالرحمن فوَحِّده متوكلاً عليه تائباً إليه ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

١٠. استقبل الهداية بالشكر والتوكل والصبر على الأذى في الاستقامة عليها ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنُوكِلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١١. إذا خشيت بأس أعداء الله وتخويف الشيطان لك ووسوسته وإلقاءه فاستعذ بالله متوكلاً عليه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

١٢. إذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال، فتمسك بالتوكل على كل حال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْهِدْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

١٣. إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التوكل ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

١٤. إن شئت أن تنال محبة الله عز وجل فانزل أولاً في مقام التوكل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٥. إذا رُمت الثبات على الحق فالزم التوكل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] (١).



(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي (٢/ ٣١٣. ٣١٥) بتصرف.

من أخبار المتوكلين

سادة المتوكلين هم الأنبياء، وعلى رأسهم النبي الذي سماه الله في التوراة المتوكل «سميتك المتوكل»^(١)، وهو نبينا محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله. ومن ذلك أنه قد نزل يوماً مع أصحابه في وادٍ فعلق سيفه في شجرة فتفرق الناس في الوادي يستظلون في الشجر. فلم يرعهم إلا والنبي ﷺ يدعوهم فأتوه، فإذا بشخصٍ وسيفٍ ساقط، فقال الرسول ﷺ: «إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتاً. أي مسلولاً. فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. قال: فشام السيف» أي أغمدته، وفي رواية «سقط السيف من يده»^(٢).

ولما كان رسول الله ﷺ في الغار ومعه صاحبه الصديق والكفار حول الغار يبحثون عنهما لقتلهما، وأبو بكر خائف على النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى ما بين قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(٣)، وقد خلّد الله هذا التوكل وصدق التفويض وكمال حسن الظن بمن بيده مقاليد الأمور، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ
وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٤٠﴾.

وفي مسند الإمام الرباني أحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله تعالى بسنده عن
النبي ﷺ قال: «إن امرأة خرجت في سرية من المسلمين وتركت ثتي عشرة عنزاً
لها وصيبتها^(١) كانت تنسج بها، ففقدت عنزاً من غنمها وصيبتها، فقالت: يا
رب، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزاً من
غنمي وصيبتني، وإني أنشدك عنزي وصيبتني، فجعل رسول الله ﷺ يذكر
مناشدتها لربها تبارك وتعالى وشدة توكلها عليه، قال رسول الله ﷺ: «فأصبحت
عنزها ومثلها، وصيبتها ومثلها»^(٢).

وفي المسند كذلك عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما رجل وامرأته في
السلف الخالي لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته
جائعاً قد أصابته مسغبة^(٣) شديدة، فقال لامرأته: أعندك شيء؟ قالت: نعم
أبشر، أذاك رزق الله^(٤)، فاستحثها فقال: ويحك، ابتغي إن كان عندك شيء.

(١) الصيصية: السيخ الذي يُنسج به الغزل.

(٢) أحمد (٢٠١٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦ / ١٠٤٧).

(٣) المسغبة: شدة الجوع. وفي التنزيل ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤].

(٤) وهذا من تمام توكلها وحسن ظنّها برّبها، وإلا فليس لديها ما يضّمّه ذو كبد.

وإني لأدعو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع

قالت: نعم هنيئة اصبر نرجو رحمة الله^(١)، حتى إذا طال عليه الطوى وجاع زيادة فوق جوعه فقال: ويحك قومي إن كان عندك خبز فأتيني به، فإني قد بلغت وجهدت. فقالت: نعم، الآن ينضج التنور فلا تعجل، فلما أن سكت عنها ساعة وتحيت أن يقول لها؛ قالت هي من نفسها: لو قمتُ فنظرت إلى تنوري، فوجدتُ تنورها ملآن جنوب الغنم^(٢) ورحيها^(٣) تنطحان! فقامت إلى الرحي فنفضتها^(٤)، وأخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم. قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحيها ولم تنفضها لطحتها إلى يوم القيامة»^{(٥)(٦)}.

اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، اجعلنا ممن استهداك فهديتهم، وتوكل عليك فكفيتهم، وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، وكلنا إليك فأنت وكيلنا في الدنيا والآخرة وأنت حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بك، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

(١) وفي هذه الكلمة منها ترغيب له في حسن التوكل، وإيماء من خلف الستر بخلو الوفاض إلا من التوكل وحسن الظن، وَلَنَعْمَ الْقُنِيَّةُ.

(٢) وهي أرق لحم الماعز.

(٣) واحدهما رحي، وهي آلة من حجرين أحدهما فوق الآخر مثقوب الأعلى لوضع الحبوب التي تطحن عن طريق إدارة الحجر الفوقي.

(٤) أي أخرجت جميع الطحين منها.

(٥) أحمد (٩١٦٨)، والهيتمي في المجمع (٢٥٧ / ١٠) ووثق رجاله.

(٦) أعمال القلوب، المنجد (٢٢٩-٢٣١) بتصرف.

إطالة على صحيح أبي عبد الله البخاري

قال أبو عبد الله: وقال الليث: حدثني جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسَلِّفَهُ ألف دينار، فقال: اتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجلٍ مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يَقدِّمُ عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زَجَّجَ^(١) موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جَهِدْتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر. وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء به، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار^(٢)، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بهالك، فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتُ فيه. قال:

(١) زَجَّجَ: سوى موضع النقر وأصلحه.

(٢) وهذا من فقهه وورعه، فإن الله تعالى لم يضمن خرق العادة له.

هل بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالآلف دينارٍ راشداً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ

(١) البخاري (٢١٦٩).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٣)	حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٧)	الأُسُّ بالله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٨)	الإرادة	(٢٠)	سلامة الصدر
(٩)	العزم	(٢١)	العفاف
(١٠)	الرجاء	(٢٢)	الصبر
(١١)	الرغبة	(٢٣)	الرضا
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٤)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(١٣)

موسوعة تعظيم علامات الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى

تأليفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

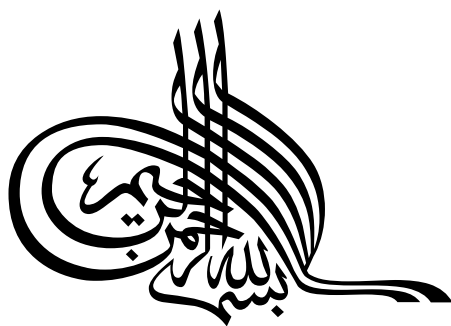
الكتاب رقم (١٣)

حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	تعريف
١٠	أقسام الظن وأحكامه
١١	فضيلة حسن الظن بالله تعالى
٣٧	الأسباب العشرة المانعة من العقوبة
٥٤	إحسان الظن بحكمة الله تعالى
٨٣	سعة رحمة الله تبارك وتعالى
٩١	ضابط حسن الظن بالله تعالى
١٣٦	شناعة ظن السوء بالرحمن
١٦٨	إحسان الظن بعباد الله تعالى
١٧٨	حديث الإفك، عِبْرٌ وَعِبْرَاتٌ
٣٠٣	من سبب المؤمنين وشيم الصالحين إحسان ظنهم بإخوانهم
٣٠٥	من وسائل تحصيل حسن الظن بعباد الله
٣١١	إطلالة نبوية



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ذي الرضا المرغوب، يعفو ويصفح ويغفر الذنوب، يُملي ويمهل لعلّ العاصي يتوب، يعطي ويرضى ويحقق المطلوب، يُطعم ويسقي ويستتر العيوب، يُغني ويشفي ويكشف الكروب. وأشهد أن لا إله إلا الله ذو الجنب المرهوب، خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّه من لغوب، يُضللّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويقلّب الأبصار والقلوب. وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله ذو المقام الموهوب، لا يأكل الصدقات، ولا يرتكب الهفوات، وخاتم النبوة بين كتفيه مضروب. من أطاعه فقد أطاع الله، ومن تبع نهجه فقد أرضاه، ومن عصاه فهو في النار مكبوب. اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه عدد الرمال والحصى، وكلما أطاعه عبد أو عصى، ونور بصلاتنا عليه بصائرنا والقلوب.

يا صاحبَ الهمِّ إنَّ الهمَّ منفرجٌ	أبشر بخير فإنَّ الفارجَ اللهُ
إذا بُليتَ فثقَ بالله وارض به	إنَّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ
والله مالِك غير الله من أحدٍ	فحسبك الله في كل لك اللهُ

أما بعد؛ فإنّ حسن الظن بالله تعالى عماد الدين والدنيا، وكيف لا نُحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قبّله، ولا يدفع الشرّ إلا هو، تبارك

وتعالى ووَعَزَّ وتقدَّس، وهذه رسالة في هذا الموضوع وما يتعلق به من فروع،
وبالله التوفيق.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ١٠ / ٧

aldumaiji@gmail.com

التعريف

حسن الظن بالله تعالى هو برهان الرضا بربوبيته وتدبيره وثمره الإيمان بأسمائه وصفاته جلاله وجماله، والقلب الذي يفارقه حسن الظن بمولاه قفرٌ خربٌ ترتاده وحوش الشياطين وخيالات السوء والشر. وكيف لا يحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يُدفع الشر إلا من قبله، ولا تقوم حاجة في الدنيا والآخرة إلا عليه، ولا رغبة إلا فيما عنده، كيف وقد تعرّف إلى عبادته بتوالي الإنعام وإسباغ الآلاء، من العافية في الأبدان، والأمان في الأوطان، والأرزاق الدائرة، والبشائر المتتابعة، وفوق ذلك كله رضي لهم الإسلام ديناً، وبلغهم تفاصيله، وسهل لهم الترقى في درجاته والعلو في كمالاته، وليس حتى الفردوس عمن أرادها من صالحى عبادته بممنوعة؟ فلك الحمد يا ربنا على كل شيء.

أما حد حسن الظن عند أهل اللغة، فالحُسْنُ ضد القبح، وهو الجمال، وهو نعتٌ لما حُسِّنَ. أما الظنُّ فهو مأخوذ من مادة (ظ ن ن) التي تدل على معنيين: أحدهما اليقين، والآخر الشك. فمن الأول قول الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي متيقنون اللقيا، ومن الثاني قوله سبحانه على لسان الكفار في تشكيكهم في البعث: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] أي نَشْكُ شكًا.

قال الراغب: «الظَّنُّ اسم لما يحصل عن أمانة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا لم تتجاوز حد التوهم». قلت: فما كان مستوي الطرفين فهو

الشك، وما كان راجحًا، فالراجح غلبة الظن، والمرجوح الوهم. وقال ابن منظور: «الظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا عِلْمٌ، وفي التنزيل: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠] أي علمت».

وعلى هذا فحسْنُ الظَّنِّ: ترجيح جانب الخير على جانب الشر^(١)، وهذا من جهة المخلوق، أما جهة الخالق سبحانه فالواجب تمحيض حسن الظن بالله عز وجل وإلغاء جانب سوء الظن تمامًا، فالشر ليس إليه قط، وإن كان داخلياً في عموم مخلوقاته ولكن لا ينسب إليه؛ لأنه ينسب إلى مستحقه وهو المخلوق الحقيقي بذلك الشر، والذي تسبب لنفسه به، لذا لا ينسب الشر إلى الله تعالى تأدباً معه في الخطاب، وصيانةً للظنون الكاذبة الجاهلة، فصار ههنا طرفان: الأول الظن في الله تعالى، فهذا كله حسن فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

الثاني: جهة النفس الأمارة، فهي أولى بسوء الظن، وإن كانت تُسَدِّدُ وتُوقِّقُ بتوفيق الله لها، وإلا فلو تركها وخذلها لأمعنت في الشر ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(١) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٤٦١) (٢/ ٥٧)، الصحاح (٦/ ٢٢٦٠)، التعريفات (١٤٤)، اللسان (١٣/ ٢٧٢) (١٣/ ١١٥ - ١١٧) عن موسوعة نضرة النعيم بتصرف واختصار (٥/ ١٥٦٩، ١٥٩٦).

والظن في كثير من الأمور مذموم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد ذكر الزركشي رحمه الله ضابطين لمعنى الظن في القرآن العزيز بين اليقين والشك:

أحدهما: أنه حيث وجد الظن محمودًا مثابًا عليه؛ فهو اليقين. وحيث وجد مذمومًا متوعدًا عليه فهو الشك.

الثاني: أن كل ظنّ تتصل به (أنّ) المخففة فهو شك، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]، وكل ظنّ تتصل به (أنّ) المشددة فهو يقين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠]، والمعنى في ذلك أن: (أنّ) المشددة للتأكيد فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها فدخلت في الشك^(١).



(١) كليات الكفوي (٣/ ١٦٥) عن السابق (٥/ ١٥٩٨).

أقسام الظن وأحكامه

صفوة القول أن الظن لا يخرج عن أمور خمسة:

الأول: الظن المحرم، وهو سوء الظن بالله تعالى، ويقابله وجوب حسن الظن بالله تعالى.

الثاني: حُرْمَةُ سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حسن الظن بهم.

الثالث: الظن المباح، وهو الذي يَعْرُضُ في قلب المسلم في أخيه بسبب مما يوجب الريبة، وهذا الظن لا يُحَقَّقُ.

الرابع: الظن المندوب إليه، وهو حسن الظن بالأخ المسلم، وعليه الثواب.

الخامس: الظن المأمور به، وهو الظن فيما لم يَنْصَ عليه دليل يُوصلنا إلى العلم، وقد تَعَبَّدَنَا الله بالاعتصار على الغالب الظني، كقبول شهادة العُدُول، وتحري القبلية، وتقويم المستهلكات، وأروش الجنايات التي لم يرد نص في تقديرها، ونحو ذلك^(١).



(١) انظر: منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي (٤١٢) عن السابق (٥ / ١٥٩٨).

فضيلة حسن الظن بالله تعالى

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، فهذه الآية الجليلة قد جمعت أمور حسن الظن بحذاقها، فلم تغادر منها شيئاً، قال ابن جرير رحمته الله: «أي من كان يرجو الله يوم لقائه، ويطمع في ثوابه، فإن أجل الله الذي أجله لبعث خلقه للجزاء والعقاب لآت قريباً»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي في الدار الآخرة، وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصيرٌ بكل الكائنات، لهذا قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»^(٢).

وقال البغوي رحمته الله: «قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف»^(٣). وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: من كان يطمع في ثواب الله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ يعني ما وعد الله من الثواب

(١) جامع البيان (١١ / ١٦٠).

(٢) المصباح المنير (١٠٣٢).

(٣) وقد سبق في باب الرجاء أن من معانيه الخوف، وهو على خلاف الأصل فلا يُصار إليه إلا بقرينة.

والعقاب. وقال مقاتل: يعني يوم القيامة لكائن، ومعنى الآية: أن من يخشى الله أو يأمله فليستعد له، وليعمل لذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] (١). وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يرجو بمعنى يخاف، من قول الهذلي في وصف عَسَّال: إِذَا لَسَعَتْهُ النُّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا» (٢).

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه، ذكره النحاس (٣) (٤). وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر

(١) مختصر تفسير البغوي (٧٢٠). وانظر: زاد المسير (٦ / ٢٥٦)، والدر المنثور (٦ / ٤٠٠).

(٢) تمامه: وحالفها في بيت نوب عواسل والشاعر هو أبو ذؤيب الهذلي، ومنازل قومه جنوب مكة، ولا زالوا في مهنة إنتاج العسل حتى اليوم. (٣) وذكر الإجماع ليس بمسلّم، لما ثبت عن سعيد بن جبير وغيره، لذلك أطلق البغوي القولين، وإن كان المعنى الكلي العام يجمع الرجاء والخوف بجامع الطلب، فالرغب والرجاء طلب مأمول، والخوف والخشية طلب ترك أو نجاة، وإن أُورِدَ على ذلك أن هاتين من آثارهما، أما حقائقهما فمتضادة، والله أعلم.

(٤) تفسير القرطبي (١٣ / ٢٩٠)، وذكر تفسير الزجاج لمعنى رجاء لقاء الله برجاء ثوابه، وهذا تأويل باطل ممنوع، إلا إذا كان قد أراد تفسيره ببعض معانيه دون نفي اللقاء، والقرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ على جلال قدره ورسوخه في التفسير والفقه إلا أنه يختار تأويلات الأشاعرة، وهي في حقيقتها تحريفات وضلالات. رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له وعفى =

الخلافاً: «والرجاء على هذا معناه الأمل، وأجل الله هو الأجل المضروب للبعث فهو آت لا محالة، و(من) قد تكون شرطية والجزاء ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾، ويجوز أن تكون موصولة ودخلت الفاء في جوابها تشبيهاً لها بالشرطية، وفي الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى»^(١).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: فإن أجل الله لآت، كيف وقع جواباً للشرط؟ قلت: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة، والوقت الذي تقع فيه تلك الحال، وهو الأجل المضروب للموت: فمكانه، قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت؛ لأن الأجل واقع فيه اللقاء، كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب، إذا عُلِمَ أنه يقعد للناس يوم الجمعة»^(٢).

فمن حسن ظنه بالله تعالى صحَّ عقده، واستفرغ جهده في مرضاته، فهو

عنه وأعلى نزله. وانظر مأخذه هنا في تفسير الرازي (١٣ / ٢٧).

(١) فتح القدير (٤ / ٢٥٤).

(٢) الكشف (٣ / ٤٢٧)، وهو تفسير حقيق بأن يُهَذَّب من لدن صاحب سنّة ولو انتدبت لذلك بعض أقسام التفسير في الجامعات، فقد حرمت بدعته وشبهاته كثيراً من الناس من الاستفادة منه، وحقّ لهم ذلك، فليس أعز على المؤمن من سلامة معتقده! ودرء المفاصد مقدم على جلب المصالح، والله يغفر للزمخشري ويعفو عنه ويرحمه، وما قيل فيه ينسحب كذلك على تفسير الرازي فقد جمعا من الفوائد اللغوية والاشتقاقات والبديع ونحو ذلك ما لا يكاد يوجد عند غيرهما. لكنه طعام شهوي مسموم، والله المستعان.

حَسَنٌ ظَنٌّ يَنْفَخُ فِي الْقَلْبِ إِحْسَانَ الْعَمَلِ، وَتَعْظِيمَ الرِّغْبَةِ، وَإِخْلَاصَ الْوَجْهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَحْيِيزَ الْإِتِّبَاعِ لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ أَحْسَنَ فِي ظَنِّهِ وَفِي عَمَلِهِ.

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْآيَةِ وَتَأْمَلْ كَيْفَ حَلَّقَ بِهِذِهِ الْعِبَارَاتِ الرِّقِيقَةَ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِيهَا: «يَعْنِي يَا أَيُّهَا الْمَحَبُّ لِرَبِّهِ، الْمَشْتَقُّ

(١) تفسير السعدي على جلالته وعمقه وغزارته مع اختصار لفظه وحسن سبكه ورواقه وغزارة مائه وروائه إلا أنه لم يحظ بمكانته الحقيقية به بين التفاسير عند كثير من طلبة العلم، وهذا حرمان، فإن هذا التفسير هو خالص علم ذلك الحبر الذي هضم علوم شيوخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم حتى صار قلمه ثالثاً لهما، ولكأنه حين يكتب تفسيره للآية قد اقتنى علم ابن تيمية ويراغ ابن القيم فأضحى مزيجاً مفعماً بالحياة والتدفق والغزارة والفقهاء الدقيق، وهذا مسلك لا يحسنه إلا الواحد بعد الواحد في الفئام من أهل العلم، وقد يزهد في هذا التفسير من لا يرى فيه نقولاً عن السلف بأسمائهم ولفظ عباراتهم، والجواب أنه لم يخرج عنها بل فقهها وميزها ونخلها ثم سكبها في هذا القالب الجميل المتين، وقد يرغب بعضهم عنه لاختصاره، فالجواب: أن هذا الاختصار ميزة في هذا الكتاب النفيس عديم المثال، فما لنا ولتشقيق الكلم وتعكير اللفظ وإطناب المقال وتطويل الحواشي إذا كان الاختصار بل والاقتصار. مؤدياً للغرض؟ وهذا التفسير المميز (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) لو أدركه من سبقنا لعرفوا له قدره، ولقدّموه على كثير من التفاسير المشهورة، وهذا من بركة تأخر زمن العالم، فإنه يقرأ لمن سلفه ويوازن ويقارن ويختار ثم يبسط قوله على مداد من نور وقبس من حكمة. رحم الله الشيخ عبد الرحمن وجمعنا به في عليين.

لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقاءه، وسر نحوه، مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن ما كل من يدّعي يُعطى بدعواه، ولا كل ما تمنى يُعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً لم تنفعه دعواه، وهو العليم بما يصلح لحبه ومن لا يصلح»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي»^(٢)، وأنا معه^(٣) إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ، ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً؛ تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً؛ تقربت منه باعاً^(٤)، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٥).
 فيالله! أين يذهب حسن الظن إن لم يجتمع في قلب من خوطب بهذا الخطاب الرباني؟! فهذه ثلاث رسائل قد تضمنها هذا الوحي العظيم والحديث المقدس:

(١) تفسير السعدي (٧٣٥).

(٢) قال القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المفهم (٥/٧): «معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار». قلت: وهذا بعض من كل، فأحسن الظن بالله محيط بكل أمور الدين والدنيا.

(٣) معه بالعلم والإحاطة والسمع والبصر والرؤية والتسديد والتوفيق وما يتبع ذلك من لوازم المعية الخاصة.

(٤) الباع: قدر ما بين مدّ اليدين، ومنه سمي البيع بيعاً في اللغة؛ لأن البزاز يمد القماش بين يديه قدر الباع في العادة.

(٥) متفق عليه. البخاري (٧٤٠٥) بلفظه، مسلم (٢٦٧٥).

الأولى: أن الله عز وجل عند ظن عبده به، وقد أطلق سبحانه هذه العنودية، فما بقي للعبد التَّوَّاق إلا تعظيم الرغبة وحسن السؤال وإحسان العمل، وليبشر، فربه تعالى عند حسن ظنه فيه، ومن أصدق من الله قيلاً؟! ومن أصدق من الله حديثاً؟! وهي وصية رسول الله ﷺ لكل عبد في أضيق كرباتِه وشدائده فقال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»^(١).

الثانية: فضيلة الذكر، وأن من بركاته معية الرب تبارك وتعالى للذاكر، وهي معية خاصة، ليست كمعياته سبحانه لبقية خلقه المقتضية للرزق والعلم وفروع ألطاف الربوبية، بل هي معية خاصة معها المحبة والحفظ والنصر والتأييد والتوفيق والإسعاد، وقل ما شئت من بركات هذه المعية التي تحصل للذاكر على قدر إحسانه للذكر، فكلما كان حسن المعتقد، صادق التوجه، مُخَضِّص الاتِّباع، طاهر القلب والبدن والملبس والمكان، حلال المطعم والمشرب والمسكن والملبس، متديراً لذكره، معظماً لمذكوره، متعبداً بألفاظ وأعمال تعظيمه؛ كانت المعية أتم وأكمل، وكان من ربه أقرب. وإن ذكر ربه في نفسه كافأه بأن يذكره في نفسه المقدسة العظيمة، فهل بعد هذا شرف؟! ولقد بكى أبي بن كعب حين بشره رسول الله ﷺ أن الله تعالى أمره أن يقرأ عليه سورة البينة، وقال: يا رسول الله، أوسماني الله لك؟!^(٢).

فإن كان الذاكر في ملائ فالله تعالى وهو الشكور الحميد، يذكره في ملائ خير

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) رواه مسلم (١٦١٤).

منهم، وسواء كان الذاكر متفكراً أو تالياً أو مسبحاً أو مكبراً أو مصلياً أو مذكراً واعظاً أو معلماً أو مجاهداً ونحو ذلك، فكلهم ذاكرون لله تعالى كل على ما يسر الله له، والحمد لله على إحسانه.

الثالثة: شريفة القرب، فلا أشرف من التقرب لملك الملوك ورب العالمين وإله الأولين والآخرين، ومن فضله عز وجل أن جعل الميدان واسعاً مستقيماً واضحاً منيراً، يسع جميع من أراد القرب منه، فمن تقرب إلى ربه ومعبوده شبراً بما تيسر له من قربة فالجزاء من جنس العمل والله أكبر وأكرم وأوهب، وعند الله للأتقى مزيد، فإن تقرب إلى ربه ذراعاً فصار أسبق ممن قبله كانت جائزته أكبر بأن يكون من ربه أقرب، فتكون ألطافه أكمل وأجمل وأعظم وأكبر، وعلى قدر قرب ربه سبحانه وتعالى منه يكون إشراقه وحياته وسعادته وانشراحه، فإن ازداد في التقرب والخير فالله أكرم، كما قال الصحابة لرسول الله ﷺ لما بشرهم بفضائل الذكر وعظيم أجره: يا رسول الله إذن نُكثِر، قال: «الله أكثر»^(١).

ومهما بلغت أمانى الخلائق فالله سبحانه قادر على تحقيقها ولا ينقص ذلك من ملكه شيئاً، فهو جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، وكما قال سبحانه في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألة، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما

(١) الترمذي (٣٥٧٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وقال الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ٢٧١، ٢٧٢): حسن صحيح.

ينقص المخيط إذا أُدخل البحر»^(١).

فإن سارع كمًّا وكيفًا في القربات جاءته الجوائز والألطف والمكافآت، فإن تقرب إلى ربه ذراعًا كافاه ربه بأن يتقرب إليه باعًا، وإن أتاه يمشي مقبلًا محسنًا ظنه به، وقد أحسن عمله، فهو بين حسنة يرجو نوالها أو سيئة قد أطبق عليها بتوبة نصوح وأتبعها بصالحه، فذهب إلى ربه تعالى ماشيًا، فربه أكرم وأجل من أن يخيب سعيه، بل يأتيه هرولة مُجَلَّلًا عليه رحمته مرحيًا عليه ستره ومغفرته، مُدْنِيهِ إليه تحت كنفه، فله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي أن يحمد، وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه^(٢).

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) قال العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في القواعد المثلى: «المثال الثاني عشر: قوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وروى نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضًا، وكذلك روى البخاري نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في كتاب التوحيد، الباب الخامس عشر.

وهذا الحديث كغيره من النصوص الدالة على قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، وأنه سبحانه فعال لما يريد، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

=

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر» متفق عليه، البخاري (١٠٩٤)، مسلم (٧٥٨)، وقوله ﷺ: «ما تصدَّق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه» (مسلم ١٠١٤) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على قيام الأفعال الاختيارية به تعالى.

فقوله في هذا الحديث: «تقربت منه»، «أتيت هرولة» من هذا الباب، والسلف (أهل السنة والجماعة) يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عز وجل من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرحه لحديث النزول (الفتاوى ٥ / ٤٦٦): وأما دنؤه وتقرُّبه من بعض عباده فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله واستواءه على العرش. وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، أهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر. اهـ.

فأي مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه؟ وأي مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟ وهل هذا إلا من كماله، أن يكون فعلاً لما يريد، على الوجه الذي يليق به؟

وذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «أتيت هرولة» يُراد به سرعة قبول الله تعالى، وإقباله على عبده المتقرب إليه، المتوجه بقلبه وجوارحه، وأن مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل، وعَلَّ ما ذهب إليه بأن الله تعالى قال: «ومن أتاني يمشي» ومن المعلوم أن المتقرب إلى الله عز وجل، الطالب للوصول إليه لا يتقرب ويطلب الوصول إلى الله تعالى بالمشي فقط، بل تارة بالمشي كالمشي إلى المساجد ومشاعر الحج والجهاد في سبيل الله ونحوها، وتارة بالركوع والسجود

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ حَسَنَ الظَّنُّ بِاللَّهِ تَعَالَى

ونحوهما، وقد ثبت عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» (مسلم ٤٨٢)، بل قد يكون التقرب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه والعبد مضطجع على جنبه كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» متفق عليه، البخاري (٤٨٢) مسلم (١٠٦٦).

قال: فإذا كان كذلك؛ صار المراد بالحديث بيان مجازة الله تعالى العبد على عمله، وأن من صدق في الإقبال على ربه وإن كان بطيئاً جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية المفهومة من سياقه. وإذا كان هذا ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية؛ لم يكن تفسيره به خروجاً به عن ظاهره، ولا تأويلاً كتأويل أهل التعطيل، فلا يكون حجة لهم على أهل السنة، والله الحمد. وما ذهب إليه هذا القائل له حظ من النظر، لكن القول الأول أظهر وأسلم وأليق بمذهب السلف.

ويجاء عما جعله قرينة من كون التقرب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه لا يختص بالمشي، بأن الحديث خرج مخرج المثال لا الحصر، فيكون المعنى: من أتاني يمشي في عبادة تفتقر إلى المشي بتوقفها عليه لكونه وسيلة لها كالمشي إلى المساجد للصلاة، أو من ماهيتها كالطواف والسعي. والله أعلم.

القواعد المثلى للعثيمين، الباب الرابع، وللشيخ عبيد الجابري شرح لطيف عليها باسم: فتح العلي الأعلى بشرح القواعد المثلى.

من حُسْنِ العبادة»^(١) ومن أعظم الأدعية «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢). فهو سؤال الله سبحانه الإعانة على الذكر الدائم والشكر المتصل والعبادة الحسنة، ومن حسن العبادة حسن الظن بالمعبود سبحانه.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»^(٣)، فتدبر ميقات هذه الوصية النبوية العزيزة، حيث ألقاها ﷺ في أفئدة أصحابه وقد آن له الرحيل إلى من أحسن به الظن، فحري بكل مؤمن تعظيم تلك الوصية بإحسان الظن بمولاه تعالى، وخاصة عند اقتراب تقويض البنيان للارتحال عن هذه الدار، فالعبد المؤمن راجع إلى من هو أرحم به من الوالدة بولدها، فهل أعظم من هذا الذي أربى على الوالدة رَحمةً وبرًّا؟!

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «أن الله عز وجل قال: أنا عند

(١) أبو داود (٤٩٩٣)، الترمذي (٣٦٧٩) وقد سقط الحديث من النسخة المطبوعة في الترمذي ضمن عشرة أحاديث أثبتها المحقق في آخر النسخة (تحفة الأحوذى)، والمسند (١٠٣٦٩) وقال محققه: حسن، وجامع الأصول (١١ / ٦٩٣) وقال محققه: حسن. عن موسوعة النضرة (٥ / ١٦٠٠).

(٢) أحمد (٦ / ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤٩).

(٣) مسلم (٢٨٧٧).

ظن عبدي بي، إن ظنَّ بي خيرًا فله، وإن ظنَّ شرًّا فله»^(١)، وعن حَيَّانَ أَبِي النَّضْرِ قال: دخلتُ مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجُرشي^(٢) في مرضه الذي مات فيه، فسلم عليه وجلس، قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله ﷺ فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنَّكَ ربُّكَ؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي: حَسَنٌ، قال واثلة: أبشر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء»^(٣).

ثم أَمَعِنَ النظر في هذا الحديث العظيم، الذي تهب منه على القلب الكسير النادم نسائم الفرج والرجاء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أذنب عبدٌ ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب،

(١) أحمد (٢/ ٣٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٥)، وأصل الحديث في الصحيحين، انظر: جامع الأصول (٤/ ٤٧٦)، (٩/ ٥٥٥).

(٢) وكان مجاب الدعوة، وكان الناس يستسقون به، أي يطلبون منه الدعاء لهم بالغيث وهم يؤمُّنون.

(٣) أحمد (٣/ ٤٩١)، الدارمي (٢٧٣١)، الحاكم (٢/ ٢٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٦).

اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(١).

قال القرطبي رحمه الله في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحلّ به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم كل مفتّن تواب»^(٢)، ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في ذنب عاد إلى توبة، لا من قال: أستغفر الله، بلسانه، وقلبه مصرّ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار.

وقال القرطبي أيضاً: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه.

وقال النووي رحمه الله في الحديث: إن الذنوب ولو تكررت مئة بل ألفاً وأكثر وتاب في كلّ مرة^(٣) قُبِلَت توبته، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحّت

(١) متفق عليه. البخاري، الفتح (١٣ / ٧٥٠٧)، مسلم واللفظ له (٢٧٥٨)، وفي رواية له في مسلم (٢٧٥٨): «وفي الثالثة: قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء».

(٢) نسبه الحافظ لمسند الفردوس عن علي رضي الله عنه (الفتح ١٣ / ٥٨٥).

(٣) أي بشروط التوبة المعتبرة، وهي الإخلاص، والإقلاع، والندم، والعزم على عدم العودة، ورد المظالم إن كانت.

توبته (١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ» (٢) وَيَسْتَرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكٌ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (٣).

وقد عقد الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ بَابًا فِي كِتَابِ التَّوْبَةِ سَمَّاهُ (بَابُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا تَغْلِبُ غَضَبَهُ) وَمَا أوردته تحته:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وَعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: سَبَقَتْ رَحِمْتِي غَضَبِي» (٤)، وَعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِثْلَ مِائَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمَنْ ذَلِكَ الْجُزْءُ تَتَرَاخُمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ مَرْفُوعَةٍ أُخْرَى لَهُ: «وَأَخَّرَ

(١) عن فتح الباري (١٣ / ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) كنفه: ستره وحفظه.

(٣) البخاري. الفتح (٥ / ٢٤٤١).

(٤) مسلم (٢٧٥١).

الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»^(١). وفي رواية سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»^(٢) أي أكمل المئة.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبغي^(٣) إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٤).

فهل بعد هذه البشارة النبوية بسعة رحمة الله من بشارة؟! فالله سبحانه هو الرحمن الرحيم، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وخير الغافرين، ووسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، وحلمه مؤاخذته، وعفوه عقوبته، وتدبر قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه الكافر في تلطف ورفق وفقه لا يليق إلا بالأنبياء الكرام صلوات الله عليهم وسلامه: ﴿يَأْتِيَنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

فانظر كيف قرن العذاب بذكر اسم الله الرحمن وهو مشتق من المبالغة في

(١) مسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٧٥٣).

(٣) في البخاري: تسعى. قال النووي: كلاهما صواب.

(٤) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

الرحمة، والمعنى - والله أعلم - أن من مَسَّهُ العذاب يوم القيامة من الرحمن الذي هو أرحم الراحمين فهو غير حقيق بأية رحمة، فلا أبعد منه ولا أشقى، فلا يهلك على الرحمن الرحيم إلا هالك.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة؛ ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة؛ ما قنط من جنته أحد»^(١) وهذا الحديث ميزان قسط بين الخوف والرجاء.

وقال معمر: قال لي الزهري: ألا أحدثك بحديثين عجيبين؟ قال الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة^(٢) عن النبي ﷺ قال: «أسرف رجل على نفسه»^(٣) فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي^(٤) ليعذبني

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) رضي الله ورحم وأكرم هذا الرجل المبارك الذي حفظ لنا سنة نبينا ﷺ، إضافة لكونه أكثر الصحابة حديثاً؛ إذ جاوزت مروياته الخمسة آلاف، فكثير من الأحاديث مدارها عليه وحده، فلم ترو إلا من طريقه، فرضي الله عنه وألحقنا به في السابقين المقربين.

(٣) أي بالغ في المعاصي والذنوب.

(٤) وبهذا وأمثاله استدل أهل العلم على أن من موانع تكفير المعين الجهل، فهذا الرجل شك في عموم قدرة الله، وهذا كفر محض، مع ذلك غفر الله له لخشيته ولجهله، ودليل الخشية نص الحديث «فغفر له بذلك»، وفي رواية أبي سعيد في مسلم (٢٧٥٧) «فقال: مخافتك. قال: فما تلافاه غيرها»، وفي هذا حصر سبب العفو. أما

عذابًا ما عذبه به أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدِّي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب. أو قال: مخافتك. فغفر له بذلك»^(١).

قال الزهري: وحدثني حميد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً»^(٢). قال الزهري: ذلك، لئلا يتكل رجل، ولا يئأس رجل.

قال النووي في المنهاج: معناه: أن ابن شهاب - وهو الزهري - لما ذكر الحديث الأول، خاف أن سامعه يتكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء^(٣)، فضم

دليل الجهل فقوله: «لئن قدر علي ربي» وإن كان سياق الحديث في ذم الجهل، إلا أنه قد يكون مانعًا من العذاب عند عدم التمكن من العلم، وذلك لعموم نصوص إيقاع الوعيد على من كان جاهلاً ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وانظر رسالة: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ للمؤلف.

(١) مسلم (٢٧٥٦).

(٢) مسلم (٢٦١٩).

(٣) ولاحظ أن الرجاء هو ثمرة حسن الظن، فهو آخيته وعموده.

إليه حديث الهرة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء، وهذا معنى قوله: لئلا يتكل ولا ييأس. وهكذا معظم آيات القرآن العزيز، يجتمع فيه الخوف والرجاء.

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «أيُّ رجل شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» قلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، قلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد^(١). ولا يعني هذا أن يتعمد المرء إظهار حسناته فيكفي صلاحه ظاهراً وباطناً، وللقلوب على القلوب شواهد وشهادات.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢). فأين أرباب الذنوب والسيئات^(٣) من هذا الفضل الجزيل؟! ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وتأمل ملياً وقف طويلاً طويلاً عند حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم

(١) البخاري، الفتح (٥ / ٢٤٤١).

(٢) مسلم (٢٧٥٩).

(٣) ذكر الحافظ ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن إطلاق الذنوب في القرآن الكريم إنما هو على الكبائر، أما السيئات فعلى الصغائر. المدارج (١ / ٣١٧) بمعناه.

استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب^(١) الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيت بك قرابها مغفرة^(٢)، ولئن أخذت بهذا الحديث في حسن الظن بربك لكفاك.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»^(٣)، فمن أسماؤه سبحانه العفو والغفور والتواب والحليم، فيحب سبحانه أن تظهر آثار أسماؤه وصفاته على خلقه، لذلك ابتلاهم بالذنوب والمصائب ليعودوا ويتوبوا. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول الله تعالى في بعض الكتب: «أهل ذكري أهل مشاهدتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي؛ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب»^(٤).

ويا أهيل الليل أبشروا فقد تناثرت على رؤوسكم الألفاف، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن

(١) قراب الأرض: ما يقارب ملأها.

(٢) الترمذي (٣٥٤٠) وحسنه، وللحديث شواهد، وصححه الألباني.

(٣) مسلم (٢٧٤٩).

(٤) منهاج السنة، ابن تيمية (٦ / ٢١٠).

يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»^(١)، وهل يخرج مؤمن عن رغبة هذه الثلاث: دعوة تُستجاب، ومسألة تُعطى، واستغفار يُغفر لصاحبه؟! وقد أثنى الله عز وجل مرتين في القرآن على أهل الاستغفار وقت السحر - وهو السدس الأخير من الليل - فقال جل شأنه: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال ابن أمّ عبد رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ وهو ابن مسعود: «والذي لا إله غيره ما أُعطي عبدٌ مؤمناً شيئاً خيراً من حسن الظنِّ بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يُحسن عبدٌ بالله عز وجل الظنَّ إلا أعطاه الله عز وجل ظنه، ذلك أن الخير في يده»^(٢).

وعن عبد الله بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمْتُ إلى جنبه، فقال: يا بني لا يُقتل اليوم إلا ظالمٌ أو مظلومٌ، وإني لا أُراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همِّي لديني، أفترى يُبقي ديننا من مالنا شيئاً؟ فقال: يا بني بعْ مالنا، فاقض ديني، وأوصي بالثلث، وثلثه لبنيه - يعني بني عبد الله بن الزبير - يقول: ثلث الثلث - فإن فَضَلَ من مالنا فَضْلٌ بعد قضاء الدين فثلثه لولدك.. قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه ويقول: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي. قال: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله. قال: فوالله ما وقعتُ في كُربة من دَيْنِه إلا قلت: يا مولى

(١) مسلم (٧٥٨)، ولشيخ الإسلام مجلد خاص بشرحه اسمه: شرح حديث النزول.

(٢) حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا (٩٦).

الزبير اقض عنه دينه؛ فيقضيه»^(١). ألا رضي الله عن ذلك الرعيل فما أحسن ظنهم بالله عز وجل!

وعن سهل القطعي قال: رأيت مالك بن دينار رحمته الله في منامي فقلت: يا أبا يحيى، ليت شعري، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، فمحاها عني حسن الظن بالله^(٢).

وعن الإمام سفيان الثوري رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: أحسنوا الظن بالله^(٣). قلت: وهذا من تفسير الكل بالبعض.

وقال أحمد بن العباس النمري:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع والمشهور: وإني لأدعو الله.. وكلاهما حق، فالله عند ظن عبده به، وهو ظن المحسنين لا المغرورين.

وقال ابن القيم رحمته الله في معرض بيان درجات الغنى بالله عز وجل: «وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل

(١) البخاري، الفتح (٦/ ٣١٢٩).

(٢) حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا (٩٦).

(٣) السابق (٢٥)، وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣١٨) عن نضرة النعيم (٥/ ١٦٠٧).

شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت، وأنه تعالى هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره، وإيصال جزاء المحسن إليه، وجزاء المسيء إليه، وأنه لكمال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل^(١)، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضلُّ ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية^(٢).

«والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فهو سبحانه قد أخبر - وهو الصادق الوفيُّ - أنه إنما يعامل الناس بكسبهم، ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسنُ لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يُضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه، وأنه يجزي بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها، ويُضاعفها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيرين، وذكر الغافلين، وآوى الشاردين، وإذا أوقع عذابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه،

(١) جزء من حديث رواه مسلم (١٧٩).

(٢) طريق الهجرتين (١ / ٩١).

ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أصر العبد على عدم استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته؛ أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده، بحيث يُعذرُ العبدُ من نفسه، ويعترف بأن الله سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه. كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقال عَمَّنْ أَهْلُكُمُ فِي الدُّنْيَا: ﴿قَالُوا يَنْوَلِنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٤] ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]، وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، قال الحسن: لقد دخلوا النار وإنَّ حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حجة ولا سيلاً^(١).

ويروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال الأعرابي: والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم بها. فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت. فقال: مهلاً، لِمَ تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثاً واحداً وسوف أحدثكموه اليوم وقد أُحيطَ بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حَرَّمَ الله عليه النار»^(٢).

(١) الداء والدواء (٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) البخاري (٢٠١/٤) ومسلم (٤٢/١) واللفظ له.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ^(١) كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟» فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قال: فتوضع السجلات في كَفَّةٍ والبطاقة في كَفَّةٍ. قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء^(٢).

وقال ﷺ في حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط من رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: يَا رَبِّ لَمْ نَنْذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا لَمْ نَنْذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا لَمْ نَنْذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ»، فكان أبو سعيد يقول: إِنَّ لَمْ تَصْدُقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنَّ شَتَمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]،

(١) وفي لفظ: «أظلمك» بالتذكير، وكلاهما صحيح.

(٢) الترمذي (٢٦٣٩) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في المشكاة (٥٥٥٩).

«قال: فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا هُمًّا، فيلقِيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون منه كما تخرج الحَبَّةُ في حميل السيل، ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض» قالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: «فَيُخْرِجُون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قَدَّموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتم فهو لكم. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول الله تعالى: إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(١).

وهذا حديث جليل عظيم، ويسمى حديث الجهنميِّين، أو حديث الشفاعة، وقد وردت روايات في الصحيحين لهذا الحديث بزيادة: «فيعرفونهم بأثر السجود» وهي رواية أبي هريرة المتفق عليها^(٢). وهي زيادة مقبولة والأحاديث يفسر بعضها بعضًا، وحجة لأهل السنة القائلين بزيادة الإيِّان ونقصانه،

(١) متفق على صحته، البخاري (١٣ / ٤٢٢)، مسلم (٣٠٢)، وقد جعل الغزالي رحمته الله

هذين الحديثين خاتمة لكتابه الإحياء استبشارًا بفضل الله وحسن ظن بلطفه وكرمه.

(٢) البخاري (١١ / ٤٤٥)، مسلم (٢٩٩).

وباشتراط جنس العمل لصحة الإيمان وللنجاة يوم الدين^(١). قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة رحمته الله: «وهذه اللفظة «لم يعملوا خيراً قط» من الجنس الذي تقول العرب بنفي الاسم عن الشيء لنقصه عن التمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأمر به.. وقد بينت هذا المعنى في مواضع من كتبي»^(٢).

هذا ولا عقوبة إلا بعد إقامة الحجة وإبانة المحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، قال ابن تيمية: «إن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع»^(٣).



(١) لا كما قاله الغزالي وتبعه الزبيدي بأن قلوب أولئك طافحة بالإيمان (شرح الإحياء ٥ / ٢٤٣)، وهل هذا إلا ردّ القول على رسول الله ﷺ الذي بين المقدار الضئيل للإيمان في قلوبهم؟! وللدكتور سفر الحوالي كلام مفيد حول كشف تعلقات المرجئة بهذا الحديث الذي هو في حقيقته نقض لمذهبهم البدعي. انظره في (ظاهرة الإرجاء ٢ / ٧٤٦، ٧٥٨).

(٢) التوحيد، ابن خزيمة (٣٠٥) عن ظاهرة الإرجاء (٢ / ٧٥٢).

(٣) الفتاوى (١٠ / ٣٧٢).

الأسباب العشرة المانعة من العقوبة

إن من رحمة الله تعالى وهو الغفور التواب الرحيم أن شرع لعباده أسباب الرحمة، ونوع لهم طرائق المغفرة، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، فهو أرحم الراحمين، وخيرُ الغافرين، وأكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وأحكم الحاكمين، سبقت رحمته غضبه، وحلمه مؤاخذته، وعفوه عقوبته، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، ووسعت رحمته كل شيء، ولو لم يذنب العباد لخلق الله خلقاً ليذنبوا ثم يستغفروه فيغفر لهم لحيه للمغفرة والتوبة والعفو والصفح والستر، فله الحمد كله أوله وآخره، علانيته وسره، فهل من خير إلا من قبّله، وهل من حسن رجاء إلا فيه.

وإن من رحمته تعالى أنه جعل للذنوب مكفرات مسقطات لعقوبتها، أو مخففات لموجب مساخطه فيها، حريّ بكل ناصح لنفسه، مُبتَغٍ لسعادتها أن يفقهها ويعمل بها، حتى إذا جاءه اليقين كان عند ربه من المفلحين. قال ابن أدهم رحمته الله:

أما والله لو علم الأنام	لما خلقوا لما غفلوا وناموا
لقد خلقوا لما أبصرته	عيون قلوبهم ساحوا وهاموا
مات ثم قبر ثم حشّر	وتوبىخ وأهوال عظام
ليوم الحشر قد عملت عبادة	فصلّوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا	كأهل الكهف أيقاظ نيام

فيا أقدام الصبر تحملي فقد بقي القليل، تذكري حلاوة الدعة يهن عليك مُرُّ الشَّرَى، قد علمت أين المنزل، فاحدُ لها تَسِرْ، وإن هممت فبادر، وإن عزمت فتأبر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر^(١).

وقد ذكر تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عشرة أسباب مانعة من العقوبة بإذن الله تعالى، وقد ذكرها في عدة مواضع من كتبه، في الفتاوى وغيرها، وقد رأيت أن أجمع موضع لها وأحسن عرض هو ما سطره في منهاج السنة النبوية^(٢)، وقد نقلتها في باب حسن الظن بالله ليعظم ذلك في قلب المؤمن وتثمر شجرة إحسان الظن في فؤاده بمحبته وذكره وشكره وحسن عبادته، وسأذكرها باختصار:

السبب الأول: التوبة^(٣):

فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب: الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمِنْ إِلَهِ الْإِلَهِ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا

(١) انظر: المدهش (١/٢٧٤).

(٢) (٢/ ٢٠٥-٢٣٥). أما السبب العاشر فذكره في الفتاوى.

(٣) ولها باب مستقل إن شاء الله تعالى.

يَقُولُونَ لِمَ سَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿المائدة: ٧٣، ٧٤﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري رحمته الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أوليائه، وعذبوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة!

والتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة في مواضع كثيرة.

والله سبحانه يرفع عبده بالتوبة، وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية، فإنه تعالى يحب التوابين، ويحب المتطهرين، وهو يبدل بالتوبة السيئات حسنات، والذنوب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك ما لم يكن يحصل قبل ذلك، ولهذا قال طائفة من السلف^(١): إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة، ويفعل الحسنة فيدخل بها النار؛ يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة، ويفعل الحسنة فيعجب بها فيدخل النار. وفي الأثر يقول الله تعالى: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل معصيتي لا أفنطهم من

(١) نقلت عن الحسن البصري رحمته الله.

رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب»^(١) والتائب حبيب الله، سواء كان شاباً أو شيخاً.

السبب الثاني: الاستغفار:

فإن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب، ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: : «أُذنبُ عبداً ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب»^(٢)، قد غفرت لعبدي»^(٣). والتوبة تغفر جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] هي لمن تاب^(٤).

(١) شيخ الإسلام حفيّ بهذا الأثر ويردده كثيراً في ثانيا مصنفاته، ولم أجده، ولعله من آثار بني إسرائيل.

(٢) وفي هذه الجملة بيان أن المذنب قد قام في قلبه خوفه من الله تعالى بأخذه بذنبيه.

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

(٤) وقد تكون بمحض فضل الله بلا سبب من عبده.

وأما الاستغفار بدون التوبة فلا يستلزم المغفرة، ولكن هو سبب من الأسباب.

السبب الثالث: الأعمال الصالحة:

فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل يوصيه: «يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع الحسنه السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١)، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ كفارات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»^(٢). وقال: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٣)، وقال: «الصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار»^(٤)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُم عَلَىٰ تَجَرَّفِ تُجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ إِلِيمٍ ۝١٠ تَوَمَّنُونَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]، وفي الصحيح: «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»^(٥)، وفي الصحيح: «صوم يوم عرفة كفارة ستين، وصوم يوم عاشوراء

(١) أحمد (١٥٣/٥)، الحاكم (١٧٨)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) مسلم (٢٣٣).

(٣) متفق عليه، البخاري (٢٦) ومسلم (٨٣).

(٤) ابن ماجه (٣٩٧٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

(٥) مسلم (١٨٨٦) وفي رواية له بلفظ «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين».

كفارة سنة^(١).

ومثل هذه النصوص كثير، وشرح هذه الأحاديث يحتاج إلى بسط كثير، فإن الإنسان قد يقول: إذا كفر عني بالصلوات الخمس فأني شيء تكفّر عني الجمعة أو رمضان، وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء؟ وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات إذا لم تجد ما تكفره من السيئات.

فيقال: أولاً: العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول، والله تعالى إنما يتقبل من المتقين، قال الفضيل بن عياض رحمته الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَلُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المك: ٢] [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، الخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة^(٢).

(١) الترمذي (٧٥٢) وقال: لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال: «صيام يوم عاشوراء كفارة سنة» إلا في حديث قتادة، وبحديث قتادة يقول أحمد وإسحاق.

قلت: والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي وابن ماجه (١٧٣٨).

(٢) هذه الكلمة الفضيلية الفذة قد نقلها شيخ الإسلام ورددتها كثيراً، وبنى على مضمونها عامة كتبه، فهي بحق عليها نور النبوة لأنها قد جمعت أطراف الدين وانتظمتها في سلك واحد، فالمشرك والمراي مخالفة لمقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، والمبتدع مخالفة لمقتضى شهادة أن محمداً رسول الله، وقد جمعت هذين الشرطين وهما شرط قبول الأعمال. مع الإيمان. آية الكهف ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه، ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمله لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملاً آخر^(١)، وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به، ففي السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها» حتى قال: «إلا عُشرها»^(٢). وقال ابن عباس: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها. وفي الحديث: «رب صائم حظه من صيامه العطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر»^(٣)، وكذلك الحج والجهاد وغيرهما. وقيل لبعض السلف: الحاجُّ كثير، فقال: الدَّاجُّ كثير، والحاج قليل. ومثل هذا كثير.

(١) أي أن التقوى في آية المائدة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] هي التقوى في ذات العمل بخصوصه، لا مطلق التقوى، مع أنه لم يتق الله في ذلك العمل إلا بعد وجود أصل التقوى. وكلما زادت التقوى في شعب قلب المرء ارتقت أعماله لرجاء القبول، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لو أعلم أن الله يتقبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلي من الموت ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فهنا قد عمم ابن عمر ولم يخص، وبالجمله فهي عائدة إلى شروط قبول العمل الثلاثة: الإيمان، الإخلاص، الاتباع.

(٢) أحمد (١٨٨٧٩)، وأبو داود والبيهقي وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وفي صلاة التراويح (١/ ١١٩).

(٣) ابن حبان (٣٤٨١)، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٠).

فالمحو والتكفير يقعُ بما يُتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات، حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من يكتب له نصفها! وهم يفعلون السيئات كثيراً، فلهذا يكفر بما يُقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يُقبل من الجمعة شيء، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال.

وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة^(١)، والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجهٍ يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «يُصَاحُّ برجل من أمتي يوم القيامة على رءوس الخلائق، فيُنشر له تسعة وتسعون سجلاً،

(١) أي أن الحسنة الكبيرة تمحو وتكفر السيئة الكبيرة، أو العديد من الصغائر، والحسنة الصغيرة تمحو السيئة الصغيرة، وقد يكون الجنس معتبراً هنا، لذا فعلى التائب من الربا الإكثار من الجهاد في سبيل الله، أو تجهيز الغزاة أو إخلاصهم في أهلهم بخير، لأن أكل الربا حرب لله ورسوله، فمن توبته - التي لا يعلم قبولها من ردها - أن يكثّر مما ذكرناه، كذلك التائب من شرب الخمر عليه أن يكثّر من الصيام، والمفطر في الصلوات أن يكثّر من النوافل، والتائب من الزنا أن يكثّر من الصدقات على الأراامل والفقيرات حماية لهن من حمأة الفجور ومبائته... ونحو ذلك.

ووجد عن السلف من يطرد الأمر ويعكسه، كما أثر عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أبلغوا فلائناً. وقد رأت أنه أكل الربا. أنه قد أحبط جهاده مع النبي ﷺ.

كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: لا ظلم عليك، فتُخرج له بطاقة قدرُ الكفِّ فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع البطاقة في كِفَّةٍ والسجلات في كِفَّةٍ فتثقلت البطاقة وطاشت السجلات^(١)، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق^(٢)، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجَّح قولهم على سيئاتهم كما رجح قولُ صاحب البطاقة.

وكذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملاً خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»^(٣)، وفي لفظ في الصحيحين: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلح لسانه من العطش، فنزعت له موقها فسقته

(١) كنز العمال (٢٩٦ / ١) (١٤٢١).

(٢) وهو قيد مهم، فليس كل من تلفظ بها نفعته، وكم من عباد القبور من يلهج بها وهو ينقضها؛ إذ قد قيدت بقيود ثقال. جعلنا الله جميعاً من أهلها، وانظر استيفاء ذلك في الدرة اليتيمة والجوهرة النفيسة (تيسير العزيز الحميد) للعلامة سليمان آل الشيخ رحمه الله.

(٣) متفق عليه، البخاري (١٧٣) ومسلم (٢٢٤٤).

به، فُغْفِرَ لَهَا»^(١)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي طَرِيقٍ، وَجَدَ غَصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فُغْفِرَ لَهُ»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطْتَهَا، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ»^(٣)، فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فُغْفِرَ لَهَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ كُلُّ بَغْيٍ تَسْقِي كَلْبًا يُغْفَرُ لَهَا، وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي نَحْنُ غَصْنُ الشَّوْكِ عَنِ الطَّرِيقِ فَعَلَهُ إِذْ ذَاكَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ، وَإِخْلَاصٍ قَائِمٍ بَقَلْبِهِ فُغْفِرَ لَهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضِلِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ^(٤)، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَيْسَ كُلٌّ مِنْ نَحْنِ غَصْنِ شَوْكِ عَنِ الطَّرِيقِ يَغْفَرُ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. فَالنَّاسُ يَشْتَرِكُونَ فِي الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا، وَاللَّهُ لَا يَنَالُهُ الدَّمُ الْمُهْرَاقُ، وَلَا اللَّحْمُ الْمَأْكُولُ، وَالتَّصَدَّقُ بِهِ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ تَقْوَى الْقُلُوبِ.

وفي الأثر: «إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا

(١) متفق عليه، البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٢٩٠) ومسلم (٣٨).

(٤) وانظر الكتاب الأول من هذه السلسلة (مقدمات في أعمال القلوب).

بين المشرق والمغرب».

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، ولا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله، عرف الإنسان أن ما قاله الرسول ﷺ كله حق، ولم يضرب بعضه ببعض. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وفي الترمذي وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، ويخاف أن يُعاقب؟ قال: «لا يا ابنة الصديق، بل هو الرجلُ يصومُ ويصلي ويتصدق، ويخاف ألا يتقبل منه»^{(١)(٢)}.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي؛ فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدكم ولا نصيفه»^(٣). وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه؛ لا يمكن لأحد أن يحصل له مثله ممن بعدهم، وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي

(١) أحمد (٢٥٧٠٥)، وحسنه الألباني في تخريجه لشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٦٥).

(٢) وتأمل كيف ذكر الأعمال الثلاثة على الترتيب: الصوم لأنه سر والغالب أنه لا يدخله الرياء، ثم الصلاة سيدة الأعمال، ثم الزكاة مطهرة الروح، وقد ثلث العبادات في جوابه كما ثلث الصديقة في سؤالها.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١).

يُحْصِلُ لِلنَّاسِ^(١) وَمَا يُحْصِلُ لِلْقُلُوبِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وهذا مما يُعرف به أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد^(٢).

قال أبو بكر بن عياش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبته للرسول ﷺ مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه رفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء^(٣) فقال: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ^(٤)، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يوعدون^(٥)، وأصحابي أمانة لأمتي^(٦)،

(١) ومنهم إن شاء الله تعالى المصنف رحمه الله، فله كم جاهد في الله حق جهاده بلسانه ويد طاقته، ولا نزكيه على الله تعالى، إنما هو ما ظهر من ثناء الأمة ثناءً متواتراً من المخالف قبل الموافق.

(٢) بل وزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح بها، وكذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في حديث رؤياه ﷺ في دخول الجنة. رواه أحمد (٢٢٢٣٢).

(٣) وكان شيخ الإسلام إذا قعد في مصلاه بعد الصبح ينظر إلى السماء كثيراً، ويثبت بصره في شيء كأنه يراه، كما رواه عنه البزار في الأعلام العلية.

(٤) وهي الساعة ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨].

(٥) أي من الفتن.

(٦) لعظيم بركة أتباعهم وصلاتهم وعلمهم وفقهم وولايتهم، رضوان الله عليهم،

فهم خلفاء النبوة في البلاغ والجهاد.

والنبي ﷺ قد تجاوز ليلة المعراج هذه النجوم والمجرات كلها بروحه وجسده ﷺ، فلعله يرى شيئاً لا نراه، وكم شوش كلام أهل الفلك المعاصرين صفاء تصور أهل الإسلام عن الأرض والشمس والسموات، فتخرصوا وظنوا ووصفوا نظريات فسروها على أنها مسلمات، ومن ثم درّست في محاضن التربية والتعليم عند المسلمين حتى صارت حقائق قطعية لا تقبل الجدل ولا النقاش، ومن يفكر فقط - خارج صندوقهم الحديدي - فهو عندهم رجعي ظلامي، وفي أحسن أحواله درويش لا يفقه عالمه!

ولك أن تعجب أخي الكريم إذا علمت أن نظرية الوصول للقمر لا زالت مرفوضة عند قطاع عريض من الفلكيين الإسلاميين والغربيين، ولا زالت رواية وكالة الفضاء الأمريكية ناسا المنشورة في ٢٠ يوليو ١٩٦٩ محل شك شديد لأنهم وجدوا فيها تناقضات لا يمكن أن تجتمع بحال!

ودعك من ذلك فالخطب في الوصول للقمر يسير، بل الأمر العظيم الذي له ما بعده، وكم حجب المؤمنين عن التدبر في ملكوت سموات ربهم! فلقد استقر عندهم منذ فجر الإسلام أن الأرض مركز الكون وأنها ثابتة لا تدور، بل الشمس هي التي تدور عليها، وأن السماوات محيطة بها إحاطة الكرة، وأن كل سماء محيطة بالسماء التي دونها كالكرة، وأن كل سماء أكبر اتساعاً وأشدّ ضياءً مما دونها، وأنها مبنية لها أبواب، وأنها قريبة نسبياً «مسيرة خمسمئة عام» أي بسير الجمال، فجاءنا أولئك المتهوكون وقذفوا قلوب أمتنا بسفسطات كوبرنيك ومن بعده التي ليس لها حتى الساعة من برهان واحد، بل قصارها الظنون والمزاعم والتخرصات! والعجب أنك إن حركت شيئاً في هذا الموضوع المتعارض مع الفلك والجغرافيا الغربية لرميت بالعجائب. ورحم الله الإمام العلامة ابن باز رحمه الله حين جودل في

قوله بثبات الأرض فقال بكل علم ويقين: لو خالفني أهل الأرض قاطبة لما تابعتهم على خلاف ظواهر القرآن والسنة، فالأرض ثابتة.

وللعلم فلا زال كثير من أساطين الفلك والفيزياء المعاصرين (الغربيين) يشككون في النظريات الكثيرة لأهل الفلك، فمنهم على سبيل المثال هوكنج صاحب نظرية الثقوب السوداء، وألكساندر فريدمان صاحب نظرية الانفجار العظيم، وبول ديفيس وغيرهم على سبيل الإجمال، لا زالوا متمسكين بالتالي:

١. أن دوران الأرض ليس إلا نظرية لا تزال قابلة للنقض، ولم يوجد أي دليل على صحتها.

٢. لو قال أحد بسكون الأرض وثباتها ومركزيتها للكون فلن يقدر أحد على إيجاد أي دليل على خطئه.
وأقول :

أ. إن هذه النظرية مفروضة على التعليم والإعلام، مفروضة بقرار سياسي في المقام الأول، لئلا يشعر الإنسان بالعظمة، وأن الإله قد خلق له هذا الكون، ومن ثم التهرب من المسؤولية الأخلاقية تجاه هذا الخالق العظيم، وهذا المكر الإلحادي قد بدأ منذ الثورة الفرنسية.

ب. إن الكون الذي يردد الناس سعته اللانهائية بسنواته الضوئية وملايين المجرات فيه ما هو إلا ظن نتج حسابياً وحاسوبياً، والسبب أنهم فرضوا نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وما تبع ذلك من ظنون.

ج. إن كل تساؤل يطرحه من يشكك في ثبات الأرض ومركزيتها للكون فله جواب منطقي وهو ما لن تجده عند الفريق المتهوك الحائر.

د. وعلى كل حال فالمقصود من كلامنا هذا ليس نفي تلك النظريات الفلكية المذكورة، إنما هو طلب الثبوت من براهينهم قبل التسليم بها، مع أنها لو صحت فليس في ديننا ما

فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^(١).

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً.

السبب الرابع: دعاء المؤمنين له:

فإن دعاء المؤمنين، واستغفارهم للمؤمن، وصلاتهم على الميت ودعائهم وشفاعتهم له من أسباب المغفرة، كذلك استغفار الملائكة له وشفاعتهم، وقد وردت بذلك عدة آيات وأحاديث.

السبب الخامس: دعاء النبي ﷺ واستغفاره في حياته وبعد مماته؛ كشفاعته يوم القيامة، فإن رسول الله ﷺ قد استغفر لأمته إبان حياته، وسيشفع لمن أذن له من أمته يوم القيامة، وقد صحت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^{(٢)(٣)}.

ينافيها بحمد الله فللأدلة الشرعية توجيهات تتماشى معها، وعليه فنقول: إن صحت فلها توجيهها، وإن لم تصح رجعنا إلى إشارات النصوص وإن لم تصرح بها، لأنها لو صرحت لكانت قاطعة في النزاع، وبالله التوفيق.

(١) مسلم (٢٥٣١)، وقد اختصرنا واقتصرنا في كلامه على الصحابة، وقد تركت كلاماً نفيساً خاصة عن خال المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلتراجعه في المجلد السادس من المنهاج.

(٢) الحاكم (٣٤٤٢)، وأبو داود (٤٧٤١) وصححه الألباني.

(٣) والشفاعة إنما تُطلب من الله، فنسأل الله تعالى أن يُشفعَ فينا نبيه ﷺ، آمين.

السبب السادس: ما يُفعل بعد الموت من عمل صالح يُهدى له:

مثل من يتصدق عنه، ويحج عنه، ويصوم عنه، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن ذلك يصل إلى الميت وينفعه، وهذا غير دعاء ولده، فإن ذلك من عمله وكسبه بخلاف غيره. قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم يُتفَع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»^(١).

السبب السابع: المصائب الدنيوية، التي يكفر الله بها الخطايا:

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما يصيبُ المؤمن من وَصَبٍ ولا نصبٍ ولا غَمٍّ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى، حتى الشوكة يُشاكُّها؛ إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢)، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع، تُفيئُها الرياحُ، تقوُّمُها تارة، وتميلُها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزَّة»^(٣) لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة»^(٤) وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة.

السبب الثامن: ما يُبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة والرَّوعة وفتنة الملكين^(٥).

(١) مسلم (١٦٣١).

(٢) مسلم (٢٠٣)..

(٣) وهي الصنوبر.

(٤) مسلم (٢٨٠٩).

(٥) كما جاء في حديث عائشة مرفوعاً: «إن للقبر لضغطة لو سلم منها أحد لسلم منها سعد بن

السبب التاسع: ما يحصل له في الآخرة من كُرب وأهوال يوم القيامة، وهي شديدة جدًّا، وكُرب يوم القيامة لا تشبهها كرب، كالفزع والحشر وإدناء الشمس على الخلائق والعطش وجواز الصراط المنسوب على متن جهنم وغير ذلك، كذلك اقتصاص الله تعالى لعباده المؤمنين من بعضهم قبل دخول الجنة، وفي الصحيحين «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذبوا ونُقوا أُذن لهم في دخول الجنة»^(١).

السبب العاشر: رحمة الله وعفوّه ومغفرته بلا سبب من العباد، والأحاديث في هذا كثيرة^(٢).

هذا وليحسن العبد ظنه بربه، فلا عذاب إلا بعد إقامة الحجة الرسالية، فالله تعالى يقضي يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع في جملة الخلق^(٣).



معاذ» رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٥٣٢/٢) (١١١٤). وسنده صحيح.

(١) البخاري (٦٥٣٥).

(٢) ومنها حديث الجهنميين: «شفعت الملائكة وشفع النبيون... ولم يبق إلا أرحم

الراحمين، فيقبض من النار قبضة لم يعملوا خيرًا قط» رواه البخاري (٥٦/٦)

ومسلم (١١٤/١) وعمومات «سبقت رحمتي غضبي» رواه البخاري (١٢٩/٤)

ومسلم (٩٥/٨)، ونحو ذلك.

(٣) طريق الهجرتين (٩٠٠/٢).

إحسان الظن بحكمة الله تعالى

القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله^(١)، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر^(٢).

ومصدرُ الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزّته وحكمته، ولهذا يقرن الله تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاث كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَلْأَقْبَى الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال: ﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، وقال في فصلت بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وذكر نظير هذا في الأنعام فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقديمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالى.

(١) مسائل ابن هانئ (٢/ ١٥٥) الفتاوى (٨/ ٣٠٨).

(٢) انظر: شفاء العليل (٦٣)، وقد بسط القول في ذلك في كتاب (الرضا بالله تعالى) فصل (القدر والشرع) ضمن هذه السلسلة.

وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزّته، فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه وأمره، عزيز في خلقه وأمره.

ولهذا كان الحكيم من أسماؤه الحسنی، والحكمة من صفاته العلی، والشریعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به؛ فكل هذا يُسمى حكمة^(١).

«وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كل ما خلقه الله وأمر به، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته إلى الله تعالى، وأنه من تلك الإضافة خير وحكمة، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «لبيك وسعديك، الخير في يديك، والشر ليس إليك»^(٢).

فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسماؤه ولا أفعاله. فإن ذاته تعالى مُزَّهة عن كل شر، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل وإحسان، لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه.

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٩٦-١٩٩) باختصار.

(٢) مسلم (٧٧١).

وتحقيق ذلك أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوبتها، كما في خطبته ﷺ: «الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»^(١)، فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفس، ومن سيئات الأعمال وهي عقوباتها، وهذه الاستعاذة النبوية قد اشتملت على الاستعاذة من أصول الشر كله، وهي شر النفس الكامن فيها، الذي لم يخرج إلى العمل، وشر العمل الخارج الذي سولته النفس. فالأول شر الطبيعة والصفة التي في النفس، والثاني شر العمل المتعلق بالكسب والإرادة. ويلزم المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبيهما وهو العقوبة، فتكون هذه الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم، وهذا النوع من الكلام هو من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن ﷺ التي لا يعرف قدرها إلا أهل العلم والإيمان^(٢).

إذا عُرِفَ هذا، فذات الرب تعالى مستلزمة للحكمة والخير والجود، وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمرٌ خارج عن نفسه. فمن أراد الله به خيراً أعطاه هذا الفضل، فصلى منه^(٣) موجبُهُ من الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شراً أمسكه عنه، وبطلان هـ ودواعي نفسه وطبعها وموجبها، فصدر منه موجبُ الجهل والظلم من

(١) أحمد (٣٧٢١)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)

بسند صحيح.

(٢) وللاستعاذة كتاب مستقل بمشيئة الله تعالى. وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٥١)،

وبدائع الفوائد (٧١٦)، والداء والدواء (١٧٨).

(٣) أي من العبد.

كل شر وقبيح. وليس منعه لذلك ظلماً منه تعالى، فإنه هُـدًى له، وليس من مَنع فضله ظالماً، لاسيما إذا منعه عن من لا يستحقه ولا يليق به.

ولهُـدًى ١ فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلفظ بعبده، ويوفقه ويعينه، ولا يخلي بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه، ويزكو به.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها، فإن أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها لهُـدًى ١، ومن عرف النعمة والمنعم ولكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه فقد كفرها ولم يشكرها، ومن عرف النعمة والمنعم، وأقوَّ بها ولم يجدها، ولكن لم يخضع له، ويحبه، ويرضى به وعنه، لم يشكرها لهُـدًى ١، ومن عرفها، وعرف المنعم بها، وأقوَّ بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محبته وطاعته فهذا هو الشاكر لها.

فالخير كله من الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ (٧) ﴿فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ

اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى:
﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالنعم كلها - من نعم الدين والدنيا، وثواب الأعمال في الدنيا والآخرة - من
نعم الله ومنه وفضله على عبده، وهو تعالى وإن كان أجودَ الأجودين وأرحم
الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، لا يضع الأشياء
إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله.
ومن المعلوم أن ألقى نعمه على عبده نعمة الإيمان به، ومعرفته، ومحبته،
وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته.

ومن المعلوم أيضاً أن الأرواح منها الخبيث الذي لا أخبث منه، ومنها
الطيب، وبين ذلك، وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب
الخبثيس الخبيث، وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار، والبر
والبحر، والحر والبرد، والداء والدواء، والعلو والسفل، وهو أعلم بالقلوب
الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها،
ويزكو بذرها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم كتخصيص الأرض الطيبة
القابلة للبذر بالبذر^(١)، فليس من الحكمة أن ينذر للبُرِّ في الصخور والرمال
والسباخ، وفاعل ذلك غير حكيم. فما الظنُّ ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور

(١) وقد يكون استدراجاً ومكرًا لحكمة ربانية، فيودعها ثم يسلبها، ولا حول ولا قوة
إلا بالله.

المعرفة والبصيرة في المحللّ التي هي أخبت المحللّ؟!

فالله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراً^(١)، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة، والنصيحة، وتعظيم المرسَل، والقيام بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله، والقيام بخلافاتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب أهل الأرض، فاختره برسالته، ثم نظر في قلوب العباد، فرأى قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد، فاخترهم لصحبته»^(٢).

فالرب سبحانه إذا عَلِمَ من المحل أهليّةً لفضله ومحبه ومعرفته وتوحيده حبب إليه ذلك، ووضع فيه، وكتبه في قلبه^(٣)، ووفقه له، وأعاناه عليه، هبّ له طرقه، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك، ثم تَلَّاه بلطفه وتدييره وتيسيره وتربيته أعظم من تربية الوالد الشفيق^(٤) الرحيم المحسن لولده الذي هو

(١) أصلاً بالنبوة والرسالة، وميراً بالعلم والعمل.

(٢) أحمد (٣٦٠٠)، والبخاري في كشف الأستار (١٣٠) وحسن سنده زائد النشيري في تخرجه لأحاديث وآثار طريق المهجرتين (١/ ٢٠٩).

(٣) ﴿وَلَيَكُنَّ اللَّهُ حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فسأل الله الكريم من فضله.

(٤) ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

أحب شيء إليه. فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمدّه بمعونته، ويؤيده بتوقيقه، ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به؛ فيزداد العبدُ به معرفةً، وله محبةً، وإليه إنابةً، وعليه توكلًا، ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد سواه، وهذا هو الذي عرف قدر النعمة، وعرف المنعم، وأقوَّ بنعمته، وصرفها في مرضاته، فاقتضت حكمة الرب تعالى وجوده وكرمه وإحسانه أن بذر في هذا القلب بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة، فأنبث أرضه الزاكية من كل زوج كريم، كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مُلِّ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكان منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماء، فأنبثت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها طائفةٌ أجابُ أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفةٌ أخرى إنما هي قيعان»^(١)

(١) قيعان: جمع قاع. قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٢٢٥): القاع هو المكان المستوي الواسع في وِطْأة من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه ويستوي نباته. وفي تاج العروس للحسيني (١٠٤): القاع: أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية، حُرَّةٌ لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط، قد انفرجت عنها الجبال والآكام، ولا حصى فيها ولا حجارة، ولا تنبت الشجر، وما حواليلها أرفع منها، وهي مصب المياه. وقيل: هو منعق الماء في حُرِّ الطين. وقيل: هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات. وفي اللسان نسب عن الأزهري قوله: ولقد رأيت قيعان الصمان، وأقامت بها شتوتين، الواحد منها قاع، وهي أرض صلبة القَفَافِ، حُرَّةٌ طين القيعان، تمسك الماء وتنبت العشب (٨/ ٣٠٤).

لا تمسكُ ماءً ولا تنبتُ كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

فمثل القلوب بالأرض التي هي محلّ النبات والثمار، ومثل الوحي الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزل على الأرض، فمن الأرض

أما الأجادب. وفي بعض الروايات: إخاذات. فهي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا يسرع إليها النضوب، كما ذكره البغوي في شرح السنة ونسبه للأصمعي كذلك، وانظر شرح النووي لصحيح مسلم (٤٦ / ١٥)، وقال عن القيعان إنها الملساء التي لا نبت فيها.

قلت: والقيعان لها في اللغة ثلاث معان، ولا زال هذا عند عامتنا: أحدها: الذي لا يمسك الماء لوقت طويل، لكنه كثير العشب مختلطه، لنقل السيول البذور والتراب إليه وجمعها فيه، وشواهد كثيرة في الصمان كما ذكره الأزهرى، وهو المراد بالأجادب في هذا الحديث. والثاني: القاع الأملس الذي يخزن الماء في أعلاه، ولا ينبت شيئاً إذا جف، وتكثر هذه القيعان والخزانات المائية في الحرار. واستعمال القاع بهذين المعنيين شائع عند العامة، والقليل منهم من يستعمله في المعنى الثالث وهو المقصود من تلك الحروف النبوية، وهو: قاع الأرض السبخة التي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلاً، وهي كثيرة خاصة في أطراف حرار الحجاز، وهي المرادة بالقاع في هذه الألفاظ النبوية الشريفة. وقد ذكر ابن بطال في شرح البخاري (١٦٣ / ١) والعثيمين في شرح رياض الصالحين (١٨٤ / ١) أن القاع في هذا الحديث إنما هو الأرض السبخة.

وبهذا تجتمع المعاني بحمد لله؛ لأن من الناس من لا يذكر القاع إلا المعشب، وهذا قصور لغوي. والله أعلم.

(١) متفق عليه. البخاري (٧٩)، مسلم (٢٢٨٢).

أَرْضٌ طَيِّبَةٌ قَابِلَةٌ لِلْمَاءِ وَالنَّبَاتِ، فَلَمَّا أَصَابَهَا الْمَاءُ أَنْبَتَتْ مَا انْتَفَعَ بِهِ الْآدَمِيُّونَ وَالْبَهَائِمُ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الْقَلْبِ الْقَابِلِ لِهَدْيِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ، الْمُسْتَعِدُّ لَزَكَائِهِ وَثَمَرَتِهِ وَنِمَائِهِ، وَهَذَا خَيْرُ قُلُوبِ الْعَالَمِينَ.

وَمِنَ الْأَرْضِ أَرْضٌ صَلْبَةٌ مَنْخَفِضَةٌ غَيْرُ مَرْتَفِعَةٍ وَلَا رَابِيَةٍ، قَابِلَةٌ لِحِفْظِ الْمَاءِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِيهَا، فِيهَا قُوَّةُ الْحِفْظِ وَلَيْسَ فِيهَا قُوَّةُ النَّبَاتِ، فَلَمَّا حَصَلَ فِيهَا الْمَاءُ أَمْسَكَتْهُ وَحَفِظَتْهُ، فَوَرَدَهُ النَّاسُ لَشَرِبِهِمْ وَشَرَبَ مَوَاشِيَهُمْ، وَسَقَوْا مِنْهُ زُرُوعَهُمْ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الْقَلْبِ الَّذِي حَفِظَ الْوَحْيَ وَضَبَطَهُ، وَأَدَّاهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْهَمُ لَهُ مِنْهُ، وَأَفْقَهُ مِنْهُ فِيهِ، وَأَعْرَفَ بِمَرَادِهِ، وَهَذَا فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ.

وَمِنَ الْأَرْضِ أَرْضٌ قِيَعَانٌ، وَهِيَ الْمُسْتَوِيَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ، إِمَّا لَكُونِهَا سَبِيخَةً^(١)، أَوْ رَمَالًا، وَلَا يَسْتَقِرُّ فِيهَا الْمَاءُ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهَا الْمَاءُ ذَهَبَ ضَائِعًا، لَمْ تَمْسُكْهُ لَشَرَبِ النَّاسِ، وَلَمْ تَنْبِتْ بِهِ كَلًّا لِأَنَّهَا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِحِفْظِ الْمَاءِ، وَلَا لِنَبَاتِ الْكَلِّ وَالْعُشْبِ^(٢)، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَهُمْ الْأَشْقِيَاءُ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا هَدْيَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْسًا، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٣)، بَلْ لَا بَدَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ

(١) وَبَعْضُهُمْ يَذْكُرُهَا بِالْصَادِ (صَبِيخَةٌ). وَحُرُوفُ الصَّغِيرِ يَنْوِبُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ.

(٢) قُلْتُ: فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ: هُمْ أَهْلُ الْفَتْوَى وَالتَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالثَّانِي: أَهْلُ الرِّوَايَةِ لِلْعِلْمِ كَالْمُحَدِّثِينَ وَمُعَلِّمِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَ قِلَّةِ الْعَمَلِ، وَالثَّلَاثُ: مَنْ حَرَّمَ بَرَكَةَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

(٣) وَصَدَقَ ﷻ، فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ كُفْرَةٌ ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

أن يزكو الوحي في قلبه فينبت العمل الصالح والكلم الطيب، وينفع نفسه وغيره بحسب قدرته. فمن لم ينبث قلبه شيئاً من الخير البتة فهذا من أشقى الأتقياء، فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله»^(١).

وقال ابن القيم أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصود: أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلح لها ومن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن يمنع من يصلح له، وهو سبحانه الذي جعل المحلّ صالحاً، وجعله أهلاً وقابلاً، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبب، ومن اعترض بقوله: فهلاً جعل المحالّ كلّها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد؟ فهو من أجهل الناس وأضلّهم وأسفهم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد؟ وهلاً جعلها كلّها سبباً واحداً؟ فلم خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والدواء والداء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمر، والحسن والقبيح؟ وهل يسمح خاطر من له أدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدالّ على حمق سائله، وفساد عقله.

وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيتته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها.

وهل حقيقة المثلّك إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأعداء؟ وهل تمام الحكمة

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٩٩-٢١١) باختصار.

وكمال القدرة إلّا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيب آثارها عليها، وإيصال ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهور آثار أسماؤه وصفاته في العالم إلّا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزاقًا وغفارًا وعفوًا وحليماً ورحيماً، ولم يوجد من يرزقه، ولا من يغفر له، ويعفو عنه، ويحلم عنه، ويرحمه؟ وهل انتقامه إلّا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فَمِمَّنْ يَنْتَقِمُ إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أوليائه كمال نعمته عليهم، واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئي يكون من لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يحیی به الله البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يجبس من مسافر ويمنع من قصار^(١) ويهدم من بناء، ويعوق من مصلحة، ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفاصد في جنب مصالحه إلّا كتفلة في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاصد إلّا موجباً لأعظم المفاصد والهلاك؟

وهذه الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده، وإنضاج ثمارهم وأقواتهم، وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها، كم تؤذي مسافراً وغيره بحرّها؟ وكم تحفف رطوبة؟ وكم تعطش حيواناً؟ وكم تجبس عن مصلحة؟ وكم تنشف من مورد، وتحرق من زرع؟ ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية المكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير، وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه.

(١) القصّار: هو الذي يدقُّ الشّباب بالقَصْرة - قطعة من الخشب - ويبيّضها.

قلت لشيخ الإسلام^(١): فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن
المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة؟

فقال: خلُق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإن وجود الملزوم بدون لازمه
محال، ولو خلُقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكان عالمًا آخر غير
هذا. قال: ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمةً لنوع من الأمور لا ينفك عنه،
كالحركة مثلاً المستلزمة لكونها لا تبقى. فإذا قيل: لم لم تخلق الحركة المعينة باقية؟
قيل: لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان، والتحوّل من حال إلى
حال، فإذا قُدِّر ما ليس كذلك لم يكن حركة. ونفس الإنسان هي في ذاتها جاهلةٌ
عاجزةٌ فقيرةٌ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته، فما
حصل لها من كمال وخير فمن الله، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب

(١) ويعني به ابن تيمية، فهو شيخه عند الإطلاق، وشيخ الإسلام عند الإطلاق. قال
الحافظ ابن حجر في تقييده على الرد الوافر لابن ناصر الدين: «ولو لم يكن للشيخ تقي
الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب
التصانيف النافعة التي انتفع بها الموافق والمخالف؛ لكان غاية في الدلالة على عظم
منزلته.

فكيف وقد شهد له بالتقدّم في العلوم، والتميّز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من
الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة» (الجواهر والدرر: ٧٣٦).
وقال العلامة البلقيني وقد ذكر مناقبه: «ومن هذا شأنه كيف لا يُلقَّب بشيخ الإسلام،
وينوّه بذكره بين العلماء الأعلام؟» (جلاء العينين - الهامش: ٩٧).

الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها. وهذه أمور عدمية وليس لها من نفسها وجود ولا كمال، والأمور العدمية من لوازم وجودها، ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الإنسانية بل مخلوقاً آخر.

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، والشر الذي يحصل لها نوعان: عدم، ووجود.

فالشر الأول: الشر العَدَمي؛ كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات، وعدم العمل بها، وهذا العدم ليس له فاعل، إذ العدم المحض لا يكون له فاعل، لأن تأثير الفاعل إنما هو في أمر وجودي، وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدمٌ محضٌ ليس له فاعل، فإن العدم ليس بشيء أصلاً، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل، فلا يقال إنه من الله، إنما يحتاج إلى الفاعل الأمور الوجودية. ولهذا من قول المسلمين كلهم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فكل كائن فبمشيئته كان، وما لم يكن فلعدم مشيئته.

والمقصود أن ما عدمته النفس من كمالها فمنها، فإنها لا تقتضي إلا العدم، أي عدم استعداد نفسها وقوتها هو السبب في عدم هذا الكمال. فإنه كما يكون أحد الوجودين سبباً للآخر، فكذلك أحد العَدَمين يكون سبباً لعدم الآخر. والموجود الحادث يضاف إلى السبب المقتضي لإيجاده، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يُحدث العدم، بل يكفي في استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لانتفاء مشيئته، فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه، فظهر استحالة إضافة هذا الشر إلى الله عز وجل.

وأما الشر الثاني: وهو الشر الوجودي؛ كالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة، فهو من لوازم ذلك العدم، فإنه متى عُدِمَ ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس؛ لزم أن يَخْلُقَ الشرُّ والجهل وموجبها ولا بد، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين فإذا لم تشغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى، إذ لا خالق سواه، وهو خالق كل شيء، لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لأجلها خلقه، لو لم يخلقه فأتت تلك الحكمة، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، فإن في وجودها من الحكمة والغايات التي يُحمد عليها سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر، مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر، ووجود الشيء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضراده، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعاً لغيره، وحينئذ فقد يكون هدي هذه النفوس الفاجرة وسعادتها مشروطاً بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضراده لم تنتف.

فإن قيل: فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضراد؟ فهذا هو السؤال الأول، وقد بينّا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لا بد منها، فلو قُدِّرَ عدمها؛ لم يكن هذا العالم، بل عالماً آخر، ونشأة أخرى، وخلقاً آخر^(١).

(١) وهذا يجيب على كثير من أسئلة الملاحدة والشكوكيين.

وبيّنّا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقال: هَلَّا تجرد الغيث والأنهار عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى؟ وهَلَّا تجردت الشمس عما يحصل منها من حرٍّ وسموم وأذى؟ وهَلَّا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك؟ وهَلَّا تجردت الولادة عن مشقّة الحمل والطلق وألم الوضع؟ وهَلَّا تجرد بدن الإنسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغيّر أحواله؟ وهَلَّا تجردت فصول العام عما فيها من البرد الشديد القاتل، والحر الشديد المؤذي؟

فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال: لم كان المخلوق فقيراً محتاجاً، والفقير والحاجة صفة نقص، فهَلَّا تجرد منها، وخُلِعَتْ عليه خِلْعَةُ الغنى المطلق والكمال المطلق؟ فهل يكون مخلوقاً إذا كان غنياً غنى مطلقاً، ومعلومٌ أن لوازم الخلق لا بد منها فيه؟

ولا بد للعلوّ من سفلى، والسفلى من مركز^(١) ولوازم العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة

(١) وهذا قريب من نظرية نيوتن في الجاذبيّة الأرضية، فقد سبقه أولئك الأئمة الأفذاذ، ولابن حزم وابن تيمية كلام نحو هذا كذلك، وانظر الرسالة العرشية لابن تيمية، كذلك لابن حزم السبق في نظرية السببية وغيرها من نظريات العلم التجريبي الحديث. وكلام ابن القيم هنا هو في العلو والسفلى المعنوي، وما يتبعه من علو حسي، ولاحظ تكراره للمركز، وهو باطن الأرض السفلى «سجين». أما نيوتن فكلامه على الحسّي فقط.

لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد السفلية لا بد منها. ولوازم السفلى والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة، وأعمالها وآثارها لا بد منها.

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلان، وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خُلِقَ كُلًّا من المحليين معمورًا بأهليه وساكنيه، حكمة بالغة، وقدرة قاهرة، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويُشاكلها^(١) قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي: على ما يُشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول الناس: كلُّ إناء بالذي فيه ينضح.

فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصديقين بين الملائكة الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين، ولو أن ملكًا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سِفْلَةَ الناس وسَقَطَهُم وعرثهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة؛ لقدح الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملائكة الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟ أفيلق بذلك الرفيق الأعلى والمحَلَّ الأسنى والدرجات العلى روحٌ سفليةٌ أرضيةٌ قد أخذت إلى الأرض، وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما تشارك فيه بل قد تزيد على

(١) المشاكلة: هي المشابهة.

الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكلّيتها عليه، لا ترى نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها من كل مأكّل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق؟ فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلبُ والطبع على شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربّما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير^(١) ولهذا جعلهم الله سبحانه شرّ الدواب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۚ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق، وبين شرّ البرية وشرّ الدوابّ في دار واحدة، يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥-٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا، وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار، ليُنَبِّه العقول على أن هذا مما تحيله^(٢) الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]

(١) وهذه البهائم المعجمة والجمادات الساكنة مسبّحة بحمد ربها وفاطرها ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] بل كانت الأحجار والأشجار والدواب تسلم على نبي الله ﷺ وتشهد له بالنبوة والرسالة.

(٢) أي تقول باستحالته.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنََّّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله، فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر، فالله عز و جل قد خلق الخبيث والطيب، والسهل والحزن^(١)

(١) الحزن: الصعب، من الحزونة وهي الخشونة، وضده اليسر والسهولة. أما الحزن فهو الكآبه وضده السرور. وقد يطلق بفتحيتين على الكآبة "حزن" كما في بعض روايات سنن أبي داود: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» أما رواية البخاري فعلى الجادة، والله أعلم. وضبط تشكيل حركات الأذكار من الأهمية بمكان، وهو من حسن المتابعة. قال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٨ / ٣٤١) «الحزن: بضم الحاء وسكون الزاي وبفتحهما» وقال في (٨ / ٤٦٦): «الحزن بفتحيتين وبضم فسكون مثل رَشَد ورَشُد».

أما أهل اللغة فقد جعلوا باهما واحداً ومردّه إلى الشدة والخشونة سواء في المشاعر أو المحسوسات، قال ابن فارس: «الحاء والزاء - قلت: ولم يقل زين كما يغلط طائفة - والنون أصل واحد، وهو خشونة الشيء، وشدة فيه، فمن ذلك: الحزن، وهو ما غلظ من الأرض، والحزن معروف - قلت: وهو الكآبة - يقال: حزنني الشيء يحزنني، وقد قالوا: أحزنني، وحزانتك: أهلك ومن تنحزن له» (معجم المقاييس: ٢٤٢).

وفي كتاب العين للخليل بن أحمد (٣ / ١٦٠): «حزن: الحزن والحزن لغتان، إذا ثقلوا فتحوا وإذا ضموا خففوا، يقال: أصابه حزن شديد، وحزن شديد، ويقال: حزنني الأمر يحزنني فأنا محزون، وأحزنني فأنا محزن، وهو محزون لغتان أيضاً. ورؤي عن أبي عمرو: إذا جاء الحزن منصوباً فتنحوه وإذا جاء مكسوراً أو مرفوعاً ضمّوه، قال الله عز وجل:

والضار والنافع وهذه أجزاء الأرض منها ما يصلح لجلاء للعين ومنها ما يصلح للأتون والنار، وبهذا ونحوه يُعرف كمال القدرة وكمال الحكمة، فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة بتنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يُلقِي الحرب بين قدرة الله وحكمته، فإن آمن بالقدرة قَدَحَ في الحكمة وعطَّلَها، وإن آمن بالحكمة قَدَحَ في القدرة ونَقَصَها، بل يربطُ القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيتته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلاً، فكيفها الإيَّان

﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] وقال عزَّ اسْمُهُ: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] صَمُّوا الحاء هنا لكسرة النون، كأنه مجرور في استعمال الفعل. وإذا أفرَدُوا الصَّوْتِ والأَمْرَ قالوا: أَمَرْتُ مُحْزَنٌ، وصَوْتُ مُحْزَنٌ، ولا يقال: حازن. والحُزْنُ من الأرض والدَّوَابِّ: ما فيه خُسُونة، والأُنثى حُزْنَةٌ وقد حَزُنَ حُزُونَةً.

وفي مختار الصحاح (١ / ١٦٧): «ح ز ن: الحُزْنُ والحَزَنُ ضد السرور وقد حَزِنَ من باب طرب، وحُزْنَا أيضاً فهو حَزْنٌ وحَزِينٌ، وأحزَنَهُ غيره وحَزَنَهُ أيضاً مثل أسلكه وسلكه، ومحزُونٌ بني عليه، وحَزَنَهُ لغة قريش، وأحزَنَهُ لغة تميم، وقرئ بهما، واحترَنَ وتحَزَّنَ بمعنى، وفلان يقرأ بالتَّحْزِينِ إذا أرقَّ صوته به، والحُزْنُ ما غلظ من الأرض وفيها حُزُونَةٌ» وقال ابن دريد في جوهرة اللغة (١ / ٢٧٠): «الحُزْنُ: الغلظ من الأرض، مثل الحُزْمِ سواء. وقد فصل قوم فرعموا أن الحُزْنَ أغلظ من الحُزْمِ، وليس بالمعروف والجمع حُزُونٌ» قلت: والعامّة عندنا لا يعرفون غير الحُزْمِ.

بما تعلم وت شاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم، وقد ضرب الله الأمثال لعباده في كتابه، وبين لهم ما في لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم و حياة الأرض والدواب، وما خلقه لهم من النار التي بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر الجزئي المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فأخبر سبحانه أن الماء بسبب مخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل، فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه، ولا يرى إلا غثاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ما تحته من مادة الحياة. وكذلك ما يُستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها إذا أُوقد عليها في النار لتهيئاً للانتفاع بها خرج منها خبثٌ ليس من جوهرها ولا ينتفع به، وهذا لا بد منه في هذا وهذا.

وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين وعمي عما في القرآن مما به تُنال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير في الدنيا والآخرة لمن لم يجاوز بصره وسمعه رُعود وعيده وبروقها وصواعقها، وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح ومن المعارف الإلهية ويبين طريق العبودية التي هي غاية كمال العبد يسير، وهو مقصود

لتكميل ذلك وتماحه، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْـِٔعَهُمْ فِي ءَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۝ [البقرة: ١٧ - ٢٠] فهكذا حال كل من قصر نظره في بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شرٍّ جزئيٍّ جدًّا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم تكن في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومن عداهم وإن كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم فهم كالقش والزبالة وغطاء السيل، لا يعبأ بكثرتهم، ولا يقدر في الحكمة الإلهية، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه آلاف مؤلفة من النوع الآخر، فإنه إذا وُجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها كان الخيرُ الحاصلُ بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أصداده وأثبت وأنفع وأحبَّ إلى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له. وهذا كالشمس فإن الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها، وأين نفعُ الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم؟! بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به؟!!

وقد ضُربَ للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشر مثلاً بدولاب أو

طاحون شديد الدوران، أي شيء خَطَفَهُ ألقاه تحته وأفسده، وعنده قِيَمُهُ الذي يُديره وقد أحكم أمره ليتنفع به ولا يضر أحدًا، فربما جاء الغرّ الذي لا يَعْرِفُ فيقترب منه فيحرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه، فإذا قيل لصاحبه: لِمَ لَمْ تَجْعَلْهُ سَاكِنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعِلَ على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا أوقدنا نار الأتون^(١) التي تحرق ما وقع فيها، وعندها وقادٌ حاذق يحشوها، فإذا غفل عنها أفسدت، وإذا أراد أحدٌ أن يقرب منها نهاه وحذره، فإذا استغفله من قرب منها حتى أحرقتة لم يقل لصاحب النار هلا قللت حرّها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه؟ فإنه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الكِلْس^(٢) ولم تطبخ الآجر^(٣) ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته، وما يحصل بها من شرّ هو من طبيعتها التي خلقت عليها، والتي لا تكون نارًا إلا بها، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا. وكذلك النفس، فما يحصل لها من شرّ فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وما يحصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته، والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وإرادة

(١) الأتون: الفُرن، والموقد الكبير.

(٢) الكِلْس: الحجر الجيري.

(٣) الآجر: لبنات البناء.

وعلم وعمل وغير ذلك.

فأما الأمور العدمية فهي باقية على ما كانت عليه من العدم، والإنسان جاهل ظالم بالضرورة كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإن الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، والظلم هو النقص كما قال تعالى: ﴿ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص منه شيئاً، وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة المظلومة، إذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها. وتلك الكمالات التي عُدت كان وجودها سبباً لكمالات أخرى، فصار عدمها مستلزماً لعدم تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها، فإن أحد الموجودين قد يكون مشروطاً بالآخر فيستحيل وجوده بدونه، لأن عدم الشرط يستلزم عدم المشروط، فإذا عُدت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أو أعلى منه وهي موصوفة بالنقص الذي هو الظلم والجهل ولوازمها من أصل الخلقة؛ صارت مستلزمة للشر، وقوة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها.

وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فُسر بهما ههنا فهو أمر عدمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه اعترف بنقص حظ نفسه - بما حصل لها من عدم العلم والصبر - بالنسيان الذي أوجب فوات حظه

من الجنة. ثم قال: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك؛ وإلا ضرته آثارها ولا بد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه وإلا ضره ولا بد. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس، وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، فالمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتية الحسنات؛ وإلا هلك ولا بد، إذ عاد كما كان ظالماً لنفسه، ظلوماً بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك للخير تحركت إلى الشر فضررت صاحبها. وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً، لأن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً. فعن النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(١) فالحارث: الكاسب العامل، والهمام: الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢] فأخبر سبحانه أن الإنسان خُلِقَ على هذه الصفة، وإن كان على غيرها فلاجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه.

(١) أحمد (١٩٠٣٢) وأبو داود (٤٩٥٠) وغيرهما، وقد أعلاه أبو حاتم بالإرسال. (علل أبي حاتم: ٣١٢/٢). وصححه الألباني.

وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال طاووس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساء، وقال الحسن: هو خُلُقُهُ من ماء مهين، وقال الزجاج: ضعف عزمه عن قهر الهوى. والصواب: أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر، فإنه ضعيفُ البنية، ضعيفُ القوة، ضعيفُ الإرادة، ضعيفُ العلم، ضعيفُ الصبر. والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في الحدور. فبالاضطرار لا بدَّ له من حافظ معين يقوِّيه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تَخَلَّى عنه هذا المساعد المعين فاهلاك أقرب إليه من نفسه.

وَخُلُقُهُ على هذه الصفة هو من الأمور التي يُحمد عليها الرب سبحانه، ويُثنى عليه بها، وهو موجبُ حكمته وعزَّته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه، وعلمه وعزَّته وحكمته ورحمته وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبرًّا وفجورًا، بل أخصَّ من ذلك، مثل كونها صلاة وصيامًا وحجًّا وزنًى وسرقةً، وأكلًا وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله ونهيه، والله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه خُلِقَ، وعلى توفيقه الموجب لطاعته، وعلى خذلانه الموقع في معصيته، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كلَّ شيء خَلَقَهُ، وأتقن كلَّ ما صنع.

وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله في ذلك سبحانه أعظم

حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدّر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة، ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبين اسمه العزيز تارة، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فإن العزّة تتضمن القوة، والله القوّة جميعاً، يقال: عزّ يعزّ بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز وهي الصلبة الشديدة. وعزّ يعزّ بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعزّ يعزّ بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات وهي الضمّة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلباً ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه^(١) فأعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

(١) لذلك فحديث الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دعاء القنوت الذي روى أصله بسند صحيح أبو داود (١٤٢٥) والنسائي (٣ / ٢٤٨) وزاد الطبراني في الكبير (٣ / ٧٣ / ٢٧٠١) والبيهقي في الكبرى (٢ / ٢٠٩) زيادة بسند صحيح «ولا يعزّ من عاديت» فهي بكسر العين لأن أصلها من الامتناع، ولا يمتنع من الله ممتنع، وقد تتوجّه الأخرتان ولكن على خلاف المشهور الأولى. وبكل الحركات الثلاث يكون المعنى صحيحاً، فلا يعزّ، ولا يعزّ، ولا يعزّ من عاداه الله.

ولا ريب أن قهر المربوب عما يريد من أقوى أوصاف القادر، فإن قَهْرَهُ عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر. والعزّ ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعزّ يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمّا له، بخلاف الكِبَرِ. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر! فقال: لست بمتكبر، ولكنني عزيز. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر»^(١) فالعزة من جنس القدرة والقوة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير»^(٢).

فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريد بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته، ويقصدها بفعله؛ كان فعلها فساداً، كصاحب شهوات الغي والظلم الذي يفعل بقوّته ما يريد من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له قوّة وعزّة لكن لما لم يقتزن بها حكمة؛ كان ذلك معونة على شرّه وفساده.

وكذلك العلم كماله أن تقتزن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجهه، بل يريد ما يهواه؛ سفيه غاو، وعلمه عون على الشر والفساد، هذا إذا كان عالماً قادراً مريداً، له إرادة من غير حكمة، وإن قدر أنه لا إرادة له بحال فهذا أولاً ممتنع من الحي، فإن وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا

(١) وانظر رسالة: إذا ذكر الصالحون فحي هلاً بعمر. للمؤلف.

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

إرادة ممتنع، كوجود إرادة بدون الشعور، وأما القدرة والقوة إذا قُدِّر وجودها بدون إرادة فهي كقوة الجهاد، فإن القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة لا إرادة لها، وقد قال بعض الناس: إن للجهاد شعورًا يليق به، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَبَارَةِ لَمَّا يَنْفَجِّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وبقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٧٧] وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلى كلام لا يليق بهذا الموضع.

والمقصود: أن العلم والقدرة المجردَيْن عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما، واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته في خلقه وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به.

وقد هدى الله أهل الحق لما اختلف فيه الناس من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فأمنوا بالكتاب كله، وأقروا بالحق جميعه، فأمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنه على كل شيء قدير، فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها، كما لا يخرج عن علمه، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلق به قدرته ومشيتته.

وآمنوا مع ذلك بأن له الحجة على خلقه، وأنه لا حجة لأحد عليه، بل لله الحجة البالغة، وأنه لو عَذَّبَ أهل سماواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم، بل كان تعذيبهم منه عدلاً منه وحكمة، لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب

والحكمة.

ولا يجعلون القَدَرَ حِجَّةً لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به، ولا يحتجون به، ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات، وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه. وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة، وأنهم هم جُنَّاهُ، وهم الذين اجتروحوها، ولا يحملونها على القضاء والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر، وطاعة وعصيان، وكفر وإيمان، وأن مشيئة الله سبحانه محيطَةٌ بذلك كإحاطة علمه به.

وأنه لو شاء ألا يُعَصِيَ لما عَصَى، وأنه تعالى أعزُّ وأجلُّ من أن يُعَصَى قسراً، والعباد أقلُّ من ذلك وأهون.

وأنه ما شاء الله كان، وكل كائن فهو بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وما لم يكن فلعدم مشيئته. فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة، والحكمة الشاملة البالغة»^(١).

فهذه الطائفة هم أهل البصر التام. ولا يستكثر تكرار هذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة إليها، وضرورة النفوس إليها، فلو تكررت ما تكررت فالحاجة إليها في محل الضرورة والله المستعان.



(١) طريق المهجرتين (١ / ٢١١ - ٢٣٩) باختصار، وتصرف يسير.

سعة رحمة الله تبارك وتعالى

الله سبحانه أرحم الراحمين، وهو الرحمن الرحيم، وسبقت رحمته غضبه، وعفوه مؤاخذته، ووسعت رحمته كل شيء، ووسع كل شيء رحمة وعلماً وأرحم بعبده من والدته، وأقام الخلق على رحمته. وتأمل نداء الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]، وتدبر هذا التلطف الرفيق والفقه العميق، اللذين لا يليقان إلا بالأنبياء الكرام، مع أن المخاطب كافر جاحد، بل يقال إنه صانع الأصنام، ولم يعلم أن في طي علم العلام أنه سيلد كاسرها وهادمها، وتأمل كيف قرن خوفه من العذاب الماحق بأبيه بذكر اسم الرحمن، فالمتبادر إلى ذهن منتظر السياق أن يردف الكلام ويختتمه بذكر أسماء العزة والجلال والعظمة ونحو ذلك، لكنه عدل عن ذلك إلى اسم المبالغة في الرحمة، فالرحمن من باب فعلان وهي من أبنية المبالغة.

والمعنى - والله أعلم - أن من مسَّهُ يوم القيامة عذاب من الرحمن، الذي هو أرحم الراحمين، فهو غير حقيق بأي رحمة، فلا أَبْعَدَ منه ولا أَشَقَى، ذلك أنه لا يهلك على الرحمن الرحيم إلا هالك، وكما روي عن الْحَبْرِ الْحَبِيرِ والترجمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معناه: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر^(١). وقال غيره: الرحمن ذو الرحمة العامة بالخلائق، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، واستدل بقول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

(١) البيهقي في الشعب (٢٣٦٢) وغيره.

وتدبر آية الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ولعل في هذا أبلغ التشنيع عليهم، وكأنه قال: لولا أنه الرحمن لعاجلهم بعقوبتهم وظلمهم وسفهمهم فور جرمهم، ولكنه يمهلهم ويحلم عليهم ويقيم عليهم الحجج، فمن ارعوى تاب عليه، ومن لجّ في لده ومشاqqته حق عليه العذاب، وفي القرآن كله لا تجد ذكر نسبة تلك الفرية الشنيعة إلا لاسميه: الله والرحمن.

ولقد تكرر ذكر هذا الاسم العظيم في القرآن تسعة وأربعين مرة، وقد يكون اسم الرحمن هو أكثر الأسماء الحسنى ذكرًا في القرآن بعد الاسم الجامع للأسماء الحسنى والصفات العلى: الله. وقد سُميت سورة بهذا الاسم: الرحمن، وتكرر ذكره في مواضع الرحمة والعذاب والخلق والأمر والعبادة وغير ذلك مما يُشعر بأن لهذا الاسم خاصية ومزية على غيره.

وتدبر قرن هذا الاسم المبارك باسم الله في أجل العبادات وهو الدعاء: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، كما أن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن^(١)، فبين هذين الاسمين العظيمين ارتباط جليل مهيب. وكذلك إجماع العلماء على تحريم التسمي به، فهو خاص بالله عز وجل^(٢)، وقد يكون لهذا الاسم العظيم من الاسم الأعظم نصيب، وبالله التوفيق^(٣).

(١) مسلم (١٦٩/٦).

(٢) نقل الإجماع ابن الحصار في المقصد الأسنى (١/٦٣).

(٣) وانظر: قبسات من الكتاب العزيز، للمؤلف.

وعلى قدر علم العبد بربه تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله يكون حسن ظنه به، ولهذا قيل في حد الرجاء هو: النظر إلى سعة رحمة الله تعالى^(١).

وقال تقي الدين رحمه الله: «مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ حَتَّى لَا يَدْرِي مَا يَقْبَلُ وَمَا يَرُدُّ، وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَتْرُكُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ دَوَامُ الدُّعَاءِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ وَالِاسْتِهْدَاءُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ بِشِدَّةِ الشَّرِّ وَحَذَرِ الْإِيَّاسِ، فَإِنَّ فِي السَّالِكِينَ مَنْ يُبْتَلَى بِأُمُورٍ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ يَخَافُ مَعَهَا أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِقُوَّةِ خَوْفِهِ، وَكَثْرَةِ الْمُخَالَفَةِ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَمِثْلُ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَقَبُولَ التَّوْبَةِ مِنْ عِبَادِهِ وَفَرَحَهُ بِذَلِكَ. إِذَا الْوَاجِبُ الْإِفْرَارُ لِلَّهِ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَلِلنَّفْسِ بِالتَّقْصِيرِ وَالذَّنْبِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢)، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(٣) وَفِي الْحَدِيثِ

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٦).

(٢) البخاري من حديث شداد بن أوس (١٠٤٥).

(٣) مسلم (٢٥٧٧) وهو أشرف أحاديث أهل الشام. قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني

الصَّحِيحُ: «يَقُولُ اللَّهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا؛ وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(١) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»^(٢) وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمُسْأَلَةَ تَتَعَلَّقُ بِأُصُولٍ كِبَارٍ مِنْ مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْأَمْرِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَالْعَبْدُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْتَرِحَ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا مُعَيَّنًا، بَلْ تَكُونُ هِمَّتُهُ فِعْلُ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكُ الْمَحْظُورِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُقْدُورِ، فَمَتَى أُعِينَ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلَوْ تَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بِمَطْلُوبٍ فَدَعَا اللَّهَ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ إِحْدَى خِصَالِ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ. وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا.

وَمَا مِنْ سَالِكٍ إِلَّا وَلَهُ غَايَةٌ يَصِلُ إِلَيْهَا. وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَيَأْسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَيَأْسُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ كَبِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجُو ذَلِكَ وَيَطْمَعَ فِيهِ، لَكِنْ مَنْ رَجَا شَيْئًا يَطْلُبُهُ، وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ، وَإِذَا اجْتَهَدَ وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَا زَمَ الْإِسْتِغْفَارَ

إِذَا حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ جِثًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

(١) متفق عليه. البخاري (٧٤٠٥) مسلم (٢٦٧٥).

(٢) البخاري (٧٤٠٥) مسلم (٢٦٧٥).

وَالْاجْتِهَادَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ. وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا يَنْشَرُ صَدْرُهُ وَلَا يَخْصُلُ لَهُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَنُورُ الْهُدَايَةِ فَلْيُكْثِرِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ وَلْيَلْزِمِ الْاجْتِهَادَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وَعَلَيْهِ بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَلِزُومِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ مُتَبَرِّئًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ.

فَفِي الْجُمْلَةِ: لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَيَّاسَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجُوَ رَحْمَةَ اللَّهِ. كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ لَا يَيَّاسَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَخَافَ عَذَابَهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْعُوثُ إِلَى رَبِّهِمْ أَلْوَسِيلَهُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَبْدَ اللَّهِ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زَنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ خُرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِيٌّ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالْحُبِّ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ^(١).

وقال العلامة الغنيان في شرحه للسفر الفريد فتح المجيد: «جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بَارِضٍ فَلَاةٌ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً

(١) الفتاوى الكبرى (٥ / ٦٠) باختصار. وانظره كذلك في مجموع الفتاوى (١١ / ٣٨٧ وما بعدها).

عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا^(١) ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ^(٢) ففرح الله وجوده وكرمه عظيم، وهذا غاية ما يُتصوَّرُ من الفرح، فهذا إنسان فقد الحياة وأيس منها، ثم تعود إليه في لحظة ينتظر فيها الموت! فإنه يفرح فرحاً عظيماً وهو غاية ما يصل إليه الفرح: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده» هل لأن الله جل وعلا يحتاج إلى عبده؟ كلا! ولكن لكرمه وجوده وفضله وحبه للخير تعالى وتقدس، فيُحِبُّ أن يكون عبده ممن يفعل الخير ويريده ويتعرض له، ويكره أن يكون عبده معذباً، ولكن يأبى العبد إلا أن يقع في الأذى كما قال الرسول ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»^(٣) فالأمر يتعلق بالإنسان نفسه وبطاعته ومعصيته.

وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ

(١) الخطوم: الحبل الذي يُقَاد به البعير.

(٢) متفق على أصله، واللفظ لمسلم. البخاري (٦٣٠٩) مسلم (٢٧٤٧).

(٣) الحاكم (١٨٢) وانظر كلام الألباني عنه في الصحيحة: (٣١ / ١٠) ومال إلى تحسينه.

مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ. فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ^(١) فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ^(٢) وَفِي رَوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ: «فَكَانَ إِلَى الْقَرِيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا» وَفِي رَوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ: «فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَغُفِرَ لَهُ» وَفِي رَوَايَةٍ: «فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

والمقصود: أن هذا يدلُّ على عظم رحمة الله جل وعلا، وأنه لا يهلك إلا الهالكون، غير أنه يجب أن يعلم أن هناك أمورًا تقتضي رحمة الله:

أولاً: أن يكون الإنسان على الإيمان.

الثاني: أن يكون على السنة، فلا يكون على بدعة وضلال، فيعمل أعمالاً على خلاف ما جاء به الرسول ﷺ وإن كانت كثيرة، فإنه إن كان بهذه المثابة فهو ممن قال الله جل وعلا فيهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

(١) أي حكماً.

(٢) متفق عليه. البخاري (٣٤٧٠) مسلم (٢٧٦٦) وقد سقت الحديث النبوي بحروفه من الصحيح لأن الشيخ قد رواه بالمعنى، وكذلك الحديث الذي قبله.

صُنْعًا ﴿[الكهف: ١٠٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-٥] فذكر أنهم يخشعون ويعملون وينصبون، والنتيجة: أنهم يصلون النار الحامية؛ لأنهم على ضلال وبدع، فإذا كان الإنسان على السنة، وإن كان عمله قليلاً وإن كان عنده إسراف، فيجب أن لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله، مع أنه يجب أن يخاف حتى يكون الخوف حاملاً له على العمل وداعياً له إلى اجتناب المعاصي، ويكون الرجاء مرغباً له في فعل الطاعة»^(١).

وقد مرّ الكلام في طيات ما سبق عن سعة رحمة الله تعالى.



(١) شرح فتح المجيد، الغنيان. الدرس: (١٢٤).

ضابط حسن الظن بالله تعالى

قد يتهادى الغرور بالمقصر في أمر الله والمفرط في جنبه حتى يستمد في طول الغرور الذي يزينه له الشيطان باسم الرجاء، وما حقيقته إلا رأس مال المفاليس وهي الأمانى الخالية من موجب تحقيقها وهو العمل الصالح المتقبل.

وضابط حسن الظن بالله تعالى هو الاجتهاد في تحقيق مرضاته جل وعلا، فيحسن الظن بربه ويسيء الظن بعمله ونفسه؛ لأنه مهما عمل واجتهد فليس هذا العمل بتحقيق لتقديمه قرباناً وزلفى لرب العالمين، لولا رحمة أرحم الراحمين، فهو يتقبل العمل القليل من العبد الضعيف المقصر، فيثيبه عليه أحسن المثوبة وأجزل الأجر. فالعبد بين ذنب متيقن من حصوله، وطاعة لا يدري ما صلاحها وقبولها، فطوارئ الحبوط كثيرة، كالرياء والعجب والمِنَّة والردّة، أجازنا الله من مواقع سخطه وموارد عذابه، فما ثَمَّ إلا رحمة الله أو الهلكة.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يسير بين الأمن من مكر الله واليأس من رحمته مبتعداً عنهما، ملازماً الاستقامة قدر طاقته، فيحسن الظن بربه ويجتهد في مرضيه، ويسأله المغفرة والقبول، فرحمة ربه أرجى له من عمله، ومغفرته أوسع له من ذنوبه، ولا يهلك عليه إلا هالك.

وليعلم أن للشيطان حظوظاً في كثير من الأعمال، منها الواضح الجلي ومنها المستقر الخفي، والله وحده المستعان، وعليه التكلان، وإليه الرجاء والعمل.

قال شمس الدين ابن القيم رحمه الله: «على العبد أن يحذر مغالطة نفسه، فإن

العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويق بالتوبة تارة، والاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة، وبالاقتداء بالأكابر.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: أستغفر الله، زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا. وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مئة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في يوم سبحان الله وبحمده مئة مرة حطت خطاياهم ولو كانت مثل زبد البحر»^(١) وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً^(٢) قد محي عنه ذلك! وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنبت ذنباً فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فغفر الله ذنبي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنبت ذنباً آخر فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فقال الله عز و جل: عَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي فليصنع ما شاء»^(٣) وقال: أنا لا أشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكّل عليها،

(١) متفق عليه. البخاري (٦٤٠٥) مسلم (٢٦٩١).

(٢) أي سبعة أشواط.

(٣) متفق عليه. البخاري (٧٥٠٧) مسلم (٢٧٥٨).

وتعلّق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتِبَ على الخطايا والانهاك فيها؛ سرَدَ لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته، ونصوص الرجاء. وللجُهَال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وَكَثُرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمٍ
وقول بعضهم: التَّنَزُّهُ مِنَ الذُّنُوبِ جَهْلٌ بِسَعَةِ عَفْوِ اللَّهِ! وقال الآخر: ترك
الذنوب جرأة على مغفرة الله، واستصغار لها! وقال محمد بن حزم: رأيتُ
بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَصْمَةِ!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلّق بمسألة الجبر وأن العبد لا فعل له البتة
ولا اختيار، وإنما هو مجبورٌ على فعل المعاصي!

ومن هؤلاء من يغترّ بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرّد التصديق، وأن
الأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل!

ومن هؤلاء من يغترّ بمحبة الفقراء والمساكين، وكثرة التَّردُّدِ
إلى قبورهم والتضرّع إليهم^(١)، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم،
وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده!

ومنهم من يغترّ بأبائه وأسلافه، وأنّ لهم عند الله مكانة وصلاحة، فلا
يدعوه أن يُخلّصوه، كما يُشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تَهَبُ لخواصهم
ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفضّع خلّصه أبوه وجده

(١) وهذا من الشرك بالله تعالى.

بجأه ومنزلته!

ومنهم من يَغْتَرَّ بأن الله عز و جل غنيّ عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئاً. فيقول: أنا مضطر إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شطٌّ يجري لما منعه منها؛ فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئاً، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً!

ومنهم من يَغْتَرَّ بفهمٍ فاسدٍ، فَهَمُّهُ هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحدٌ من أمته. وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه، فانه يرضى بما يرضى به ربُّه عز وجل، والله تعالى يرضيه تعذيبُ الظلمة والفسقة والخونة والمصريين على الكبائر، فحاشا رسوله أن يَرْضَى بما لا يَرْضَى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضاً من أقبح الجهل، فان الشك داخل في هذه الآية، فإنه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب للتائب، أي ذنب كان. ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجاهل بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمه! وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته! وهذا جهل قبيح، وإنما غره بربه الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله وهواه. وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيد العظيم المطاع، الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] هي لنار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم، فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها بل قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. ثم أن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضموناً له أن يجنبها. وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، ولم يعمل خيراً قط.

وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر! ^(١) ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنب الكبائر، فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصرّ عليها غير تائب منها؟! هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومته، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير، فإذا لم يصرّ على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاوننا على عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتمّ منه مع انفراد أحدهما، وكلّما قويت أسباب التكفير كان

(١) وقد أسلفنا كلام ابن تيمية في نفس هذه الشبهة في موانع العقوبة، وأن التكفير إنما هو بما يُتقبل من الأعمال. وهنا قد زاد ابن القيم أنها باشتراط اجتناب الكبائر، وبعد الإصرار على الصغائر. إنما هي اللّمم. وهي الذنوب التي لا يكاد العبد ينفك عنها لضعفه ونقصه.

أقوى وأتمّ وأشمل.

وكاتكال بعضهم على قوله حاكياً عن ربه: «أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»^(١) يعني ما كان في ظنّه فأنا فاعلهُ به. ولا ريب أن حُسن الظنّ إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. وأمّا المسيء المصّرّ على الكبائر والظلم والمخالفات؛ فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبدَ الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده، لا يحسن الظن به، ولا يجامعُ وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظناً بربه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسنَ الظنَّ برَّبّه، فأحسنَ العمل، وإن الفاجر أساءَ الظنَّ بربه فأساءَ العمل^(٢).

فكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شاردٌ عنه، حالٌ مرتحلٌ في مساخطه وما يغضبه، متعرّضٌ للعتته، قد هان حقُّه وأمرُّه عليه فأضاعه، وهان نهْيُّه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه؟! وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة، وعادى أوليائه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسلُّه، وظنَّ بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟! وكيف يحسن الظن بربه من يظن أنه لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يرضى، ولا يغضب، وقد قال

(١) أحمد (١٦٠١٦) والحاكم (٧٦٠٣) وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) أحمد في الزهد (١٦٥٢).

الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السرّ من القول: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] فهو لاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون؛ كان هذا إساءةً لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كلّ من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يُدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان. لا إحسانَ ظنّ برّبّه، فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه.

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقى الله، وأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سرّه وعلانته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسئولٌ عن كل ما عمل، وهو مقيمٌ على مساخطه، مضيع لأوامره، معطلٌ لحقوقه. وهو مع هذا يُحسن الظن به! وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأمانى.

وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: لو رأيتهما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرّقها. قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله. ثم سألتني عنها فقال: «ما فعلت؟ أكنتِ فرّقت الستة الدنانير؟» فقلت: لا، والله لقد شغلني وجعك. قالت: فدعا بها، فوضعها في كفّه فقال: «ما ظنُّ نبيِّ الله لو لقي الله وهذه عنده»^(١) وفي لفظ:

(١) أحمد (٢٤٧٣٣) وفيه موسى بن جبير ضعيف، ولكن اللفظ الآخر الذي ذكره

«ما ظنُّ محمدٍ برَّبِّه لو لقي الله وهذه عنده».

فيا لله! ما ظنُّ أصحابِ الكِبائرِ والظلمة بالله إذا لقَّوه ومظالمُ العبادِ عندهم؟! فان كان ينفعهم قولهم: حَسَنًا ظنونا بك؟ لم يعدَّ ظالمٌ ولا فاسق، فليصنع العبدُ ما شاء، وليرتكب كلَّ ما نهاه الله عنه، وليُحسِّنْ ظَنَّهُ بالله، فان النار لا تَمْسُه؟! فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد.

وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَفَكَا ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: ما ظَنُّكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟! ومن تأمل هذا الموضع حقَّ التأمل؛ عَلِمَ أنَّ حُسنَ الظن بالله هو حُسْنُ العمل نفسه. فإنَّ العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمّله على العمل حُسنَ الظن، فكلَّمَا حَسُنَ ظَنُّهُ حَسُنَ عَمَلُهُ، وإلا فحسَنَ الظن مع ابتاع الهوى عجزٌ.

وبالجملة، فحسَنُ الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وإما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستندٌ حسنِ الظنِّ سعةُ مغفرةِ الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو، قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محلِّه اللائق به، فإنه سبحانه موصوفٌ بالحكمة والعزّة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق

العقوبة، فلو كان معوّل حسنِ الظنّ على مجرد صفاته وأسمائه^(١) لاشتراك في ذلك البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليّه وعدوّه! فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرّض للعنته، وأوضع في محارمه، وانتهاك حرّماته. بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقْلَع، وبدّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقيّة عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظنّ فهذا حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطلّ هذا الفصل، فإنّ الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففرّق بين حُسْنِ الظنّ بالله، وبين الغرّة به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا الظالمين والفاستقين. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفورٌ رحيم لمن فعلها. فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغترّ يضعه في غير مواضعه.

هذا، وكثير من الجهّال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين. ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاندا.

(١) أي أسماء وصفات الرحمة والعفو والمغفرة دون أضدادها.

وقال معروف: رجأؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق. وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا. وقيل للحسن: نراك طويل البكاء؟! فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي. وسأل رجلُ الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنعُ بمجالسة أقوامٍ يخوِّفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع! فقال: والله لأنْ تصحبَ أقوامًا يخوِّفونك حتى تدرك أمانًا، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه»^(١) فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟! ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنتُ أمرُكم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(٢).

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بالبقيع فقال: «أفُّ لك، أفُّ لك!» فظننتُ أنه يريدني، قال: «لا، ولكن هذا قبرُ فلان بعثته ساعيًا على آل فلان، فغلَّ نَمْرَةً»^(٣) فدُرِّعَ الآن مثلها من نار!«^(١).

(١) أي تخرج أوعاؤه من جوفه. (النهاية: ٢/١٣٠).

(٢) متفق على صحته. البخاري (٣٢٦٧) مسلم (٢٩٨٩) وهو من أشد أحاديث وعظ أهل الحُسبة!

(٣) النمرة: بردة مخططة من صوف.

وفي مسنده أيضا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقَرَّضُ شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا خطباء من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبرّ، وينسون أنفسهم، أفلا يعقلون؟!»^(٢).

وفيه أيضًا من حديثه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(٣).

وفيه أيضًا عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك» فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبّلهما كيف يشاء»^(٤).

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار»^(٥).

(١) أحمد (٢٧١٩٢) بسند فيه كلام، وله شواهد حسنة.

(٢) أحمد (١٢٢١١) بسند صحيح.

(٣) أحمد (١٣٣٤٠) بسند جيد.

(٤) أحمد (١٢١٠٧) والترمذي (٢١٤٠) وصححه.

(٥) أحمد (٣١٣٤٣) وفيه إسماعيل بن عياش وقد روى عن غير أهل بلده وهو ممن يضطرب في غير أهل بلده، وأيضًا عبيد بن حميد فيه جهالة. (عن زائد النشيري)

وفي صحيح مسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً فَيُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ!»^(١).

وفي المسند من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فِي جَنَازَةٍ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ^(٢) فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّهُ عَلَى رُؤْسِنَا الطَّيْرِ^(٣) وَفِي يَدِهِ عَوْذٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ^(٤) فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ^(٥) نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، يَبْضُ الْوُجُوهَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفْنٌ مِنْ

مَخْرَجٌ أَحَادِيثُ الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ).

(١) مسلم (٢٨٠٧).

(٢) لَمَّا: أَي لَمْ يَحْدُثِ الشَّيْءُ، مَعَ قُرْبٍ وَقَوَعِهِ، أَمَّا (لَمْ) فَهِيَ لِنَفْيِ الْحُدُوثِ مُطْلَقًا.

(٣) أَي مِنَ الْخُشُوعِ وَالصَّبَمَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالرَّهْبَةِ.

(٤) وَيَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْعَادَةِ الْمُتَأَمِّلُ، وَلِمِثْلِ هَذِهِ دَوْرٌ فِي تَصْفِيَةِ الذَّهْنِ، وَشِدَّةُ التَّرْكِيزِ.

(٥) أَي سَاعَاتِ الْإِحْتِضَارِ، وَلِحِظَاتِ الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ.

أُكْفَانُ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ^(١) حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ^(٢) ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ^(٣) فَيَقُولُ: أُخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسَ الْمَطْمَئِنَّةَ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ. فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنَ السَّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبِ نَفْحَةٍ مَسْكٍ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَلَا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانَ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يَسْمُونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا. حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتَهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا

(١) الحَنُوطُ: طَيِّبُ الْمَوْتِ وَعَطْرُهُمْ، نَسَأَ اللَّهُ حَسَنَ الْخِتَامِ.

(٢) أَيِ يَرَاهُمْ عَلَى امْتِدَادِ نَظَرِهِ.

(٣) أَمَّا الْبَقِيَّةُ فَهِيَ أَعْوَانُهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وَقَالَ: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وَقَالَ: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو محمدٌ رسول الله^(١) فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله عزَّ وجل، فأمنتُ به وصدَّقْتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدَّقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحِهَا وطيبِهَا، ويُفسَّحُ له في قبره مدًّا بصره. قال: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرُّكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يحيي بالخير. فيقول: أنا عمَلُكَ الصالح^(٢) فيقول: ربِّ أقم الساعة، ربِّ أقم الساعة، حتى أرجع إلي أهلي ومالي^(٣).

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛

(١) وَلِعِظْمْ شَأْنُ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَقَدْ أَفْرَدَهَا الْإِمَامُ الْمَجْدِدُ النَّاصِحُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ: ثَلَاثَةُ الْأَصُولِ. وَقَدْ أَدْرَكْتُ كَثِيرًا مِنْ الْعَامَّةِ مِنْ كِبَارِ السَّنِ يَحْفَظُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَيَرُدُّدَهَا بَعْدَ وَرْدِهِ الْيَوْمِيِّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ.

(٢) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَجْسَدَ الْعَمَلُ، لِأَنَّ خُطَابَهُ هُنَا لِلرُّوحِ أَصَالَةٌ وَإِنْ كَانَ لَهَا تَعْلُقٌ بِذَلِكَ الْجَسَدِ الْمَيِّتِ، وَقَدْ يَكُونُ مَتَجَسِّدًا، وَمِنْ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْلِبَ الْعَرَضَ جَسْمًا وَجَسَدًا، وَلِذَلِكَ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ كَوْزَنِ الْأَعْمَالِ، وَكَتَقَدَّمَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَكَإِتْيَانِ الْقُرْآنِ لِمُصَاحِبِهِ الَّذِي يَتْلُوهُ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيُبَشِّرُهُ وَيُشْفَعُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُحِبُّهُ وَيَزِيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ..وغير ذلك.

(٣) وَكَمْ فِي الْقُبُورِ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يَلْهَجُونَ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ الْمُسْتَبَشِّرِ السَّعِيدِ.

نزل إليه ملائكةٌ من السماء، سودُ الوجوه^(١) معهم المسوح^(٢) فيجلسون منه مدَّ البصر. ثم يحيى ملكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرَّق في جسده^(٣) فيتزعجها كما يُتزعجُ السَّفودُ^(٤) من الصُّوف المبتلِّ فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأتين ربح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرُّون بها على ملاٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا. فيُستفتح فلا يُفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله عز وجل: أكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى^(٥) فتطرَّحُ

(١) وليسو كملائكة الرحمة كالشمس، فالجزاء من جنس العمل، ولرؤية الكثافة وبشاعة الهيئة مزيد عذاب للفجرة.

(٢) المسوح: جمع مسح، وهو الكساء الغليظ من الشعر، وقارنهُ بأكفان الجنة وحنوطها! (٣) هرباً وخوفاً وفرقاً من العذاب، ولكن لا تحين مناص وإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَوْلَاهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿[الرعد: ١١]﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الأنفال: ٥٠]﴾.

(٤) الحديدية التي يشوى فيها اللحم، وتأمل دقة التشبيه، وكيفية تقطع الصوف المبلول بين حروف السفود الخشن المنتزع بساعد شديد، فكذلك الروح في يد الملك! اللهم رحماك.

(٥) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير سورة المطففين وقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]: «يقول: حقاً إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ» أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فعيل من السَّجن، وهو الضيق كما يقال: فسَّيق وشربَّيق =

روحه^(١) طرحًا. ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

وَحْمِيرٌ وَسَكِيرٌ، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَسْجِينَ﴾ [المطففين: ٨] أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم. ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله عز وجل في روح الكافر: «اكتبوا كتابه في سجين». وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثًا غريبًا منكرا لا يصح. والصحيح أن سجين مأخوذ من السجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة. أي السماوات. كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفل المطلق والمحل الأضيّق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.

ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [٥ - ٦] وقال هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ [٧] وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَسْجِينَ ﴿ وهو يجمع الضيق والسفل، كما قال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وقوله: ﴿كَتَبَ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] ليس تفسيرًا لقوله: ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَسْجِينَ﴾ [المطففين: ٨] وإنما هو تفسير لما كتُب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يُزاد فيه أحدٌ، ولا يُنقص منه أحدٌ؛ قاله محمد بن كعب القرظي. (تفسير القرآن العظيم: ٣٤٩/٨ باختصار يسير.

(١) الروح: يؤنث كما في هذا الحديث وغيره وهو الأشهر والأكثر، ويُذكر كما في حديث أم

أَلَطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿[الحج: ٣١] فتعادُ روحُه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! ^(١) لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي ^(٢) فأفرشوه من النار! وألبسوه من النار! وافتحوا له باباً إلى النار! فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ^(٣) ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، متن الرّيح فيقول: أبشر بالذي يسوءك! هذا يومك الذي كنت تُوعَد. فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرّ. فيقول: أنا عملك الخبيث! فيقول: رب لا تُقيم الساعة ^(٤) ^(٥).

سلمة في ذكر وفاة أبي سلمة قال ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ». رواه مسلم (٩٢٠).

(١) كأنّه يريد تذكّر شيء غاب عنه، فيقول: هاهاه، وفي هذا مزيد عذاب. وليس كحال الذي لم يعلم به أصلاً.

(٢) لأن الحجّة قد قامت عليه في الدنيا لكنه كذب وكفر.

(٣) آمناً وصدّقنا. ربنا آمناً بما أنزلت، واتّبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين.

(٤) لأنّه يرى مقعده ولم يصرّ إليه بعد، فالعذاب البرزخي على ما فيه من شدّة وفظاعة إلا أنه أهون من نار القيامة، فهذا على الروح ويلحق الجسد منه شيء، أما تلك فأضعاف العذاب والنكال! عياداً بوجه الله تعالى.

(٥) أحمد (١٨٥٣٤) وغيره، وقد صحّحه جماعة من الحفاظ كأبي عوانة وابن خزيمة وابن منده وابن القيم وغيرهم. ويسمّى حديث البراء - الطويل -.

وفي لفظ لأحمد أيضًا: «ثم يُقَيِّضُ له أعمى أصم أبكم، في يده مرزبة»^(١) لو ضُرب بها جبلٌ كان ترابًا! فيضربه ضربةً فيصير ترابًا. ثم يُعيدُه الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربةً أخرى فيصيح صيحةً يسمعها كل شيء إلا الثقلين»^(٢).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ما أسكر حرام، وإن على الله عز وجل عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال» قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَقُ أهل النار، أو عصارة أهل النار»^(٣).

وفي المسند من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووُضِعَ في قبره، وسُويَ عليه؛ سَبَّحَ رسولُ الله ﷺ فسَبَّحْنَا طويلاً، ثم كَبَّرَ فكَبَّرْنَا^(٤) فقيل: يا رسول الله، لم سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَرْتَ؟ فقال: «لقد تضايقَ على هذا العبدِ الصَّالحِ قبرُهُ حتَّى فرَّجَ الله عنه»^(٥).

(١) المرزبة: مطرقة الحديد الكبيرة تكون لدى الحداد.

(٢) أحمد (١٨٦١٤) والحاكم (١١٤).

(٣) مسلم (٢٠٠٢).

(٤) رضي الله عنهم ما أتبعهم وأقودهم للسنة. وفيه التسييح عند الأمر العظيم، والتكبير عند الفرج.

(٥) أحمد (١٤٨٧٣).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها^(١) أين تذهبون بها؟ يسمعُ صوتها كلُّ شيءٍ إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لَصُعِقَ»^(٢).

وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنوا الشمسُ يوم القيامة على قدر ميلٍ، ويُزَادُ في حرّها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يُلجمه العرق»^(٣).

(١) تأمّل الأدب النبوي الشريف في نسبة هذه الكلمة لغير المتكلم، فالسياق يقتضي أن تكون الكلمة مسندة لتلك الروح الحبيثة التي تدعو على نفسها بالويل فتقول: يا ويلي! ولكن لشناعة هذه الكلمة، ولورودها من المتحدّث على الأسجاع التي ربّما تذهل لحظة عن السياق؛ رغب عنها إلى النسبة للمجهول، فصلّى الله وسلّم على من أعطاه ربّة أزمّة الفصاحة وأعنته البلاغة وجوامع الأدب. وقد أخذ هذا الأدب عنه صحابته المرضييون، كما في حديث المسيّب بن حزن _ والد سعيد _ المتفق عليه في ذكر وفاة أبي طالب قال: «حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» رواه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤)، فالسياق يقتضي ذكر القول كما هو، فينسب القول بالآثنا، ولكن التأديب النبوي ضَرَبُ آخِرِ سَامٍ شَاهِقٍ.

(٢) البخاري (١٣١٤).

(٣) أحمد (٢٢١٨٦) وفيه القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي وثقه غير واحد، لكن في

وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه: «من تعظّم في نفسه أو اختال في مشيئته؛ لقي الله وهو عليه غضبان»^(١).

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المصوّرين يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتكم»^(٢).

وفيها أيضا عنه عن النبي ﷺ: «إن أحدكم إذا مات، عُرِضَ عليه مقعده من الغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة»^(٣).

وفيها أيضًا عنه عن النبي ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار؛ جيء بالموت حتى يُوقَفَ بين الجنة والنار ثم يُذَبِّح. ثم يُنادى منادٍ: يا أهل الجنة خلودوا ولا موت، يا أهل النار خلودوا ولا موت. فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»^(٤).

روايته عن أبي أمامة فيها كلام. والحديث ثابت في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود (٢٨٦٤) لكن بدون جملة: «ويزاد في حرها كذا وكذا، فتغلي منها الرؤوس..» (عن زائد النشيري في تخريجه لأحاديث الداء والدواء: ٦٥).

(١) أحمد: (٥٩٩٥) والحاكم (٢٠١) وغيرهما.

(٢) متفق عليه، البخاري (٢١٠٥) مسلم (٢١٠٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (١٣٧٩) مسلم (٢٨٦٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٥٤٨) مسلم (٢٨٥٠).

وفيه أيضًا عنه مرفوعاً: «من شرب الخمر شربة لم تُقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه» فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردة^(١) الخبال يوم القيامة»^(٢).

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وضرب لهنَّ رسولُ الله ﷺ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرضَ فلاةٍ، فحضر صَنِيعُ القوم^(٣) فجعل الرجلُ ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأَجَّجُوا ناراً، وانضجوا ما قذفوا فيها^(٤).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُضْرَبُ الجسر على جهنم، فأكون أول من يجيز، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وحافتيه كالليب مثل شوك السَّعدان، تَخْطِفُ النَّاسَ بأَعْمَالِهِمْ، فمنهم المَوْبِقُ بعمله، ومنهم المَحْرَدَلُ^(٥) ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخْرِجَ من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا

(١) الرِّدْغَةُ: طين ووحل كثير، وقد جاء تفسيرها في الحديث بعُصارة أهل النار، فلعلها تشبهها فَسُمِّيَتْ بها.

(٢) أحمد (٥٣٨٥) وأبو داود (٣٥٩٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٥٩٧).

(٣) الصنيع: الطَّعام.

(٤) أحمد (٣٨١٨).

(٥) المَحْرَدَلُ: من خردل اللحم، إذا قطعه.

الله؛ أمر الملائكة أن يُخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة أثر السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيُخرجونهم وقد امتَحَشُوا^(١) فيُصَبُّ عليهم من ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحَبَّة^(٢) في حميل السيل^(٣).

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة:

رجلٌ استشهد، فأُتي به فعرفه نِعَمُهُ، فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قُتلت. قال: كذبت، ولكن قاتلت ليقال: هو جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار!

ورجلٌ تعلّم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن. فأُتي به فعرفه نِعَمُهُ فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ فيك العلم، وعلمتُهُ، وقرأت فيك القرآن. فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم، فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار!

ورجلٌ وسّع الله عليه رزقه، وأعطاه من أصناف المال كلّهُ فأُتي به، فعرفه نِعَمُهُ فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ فقال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنفق فيها إلّا أنفقتُ فيها لك؟ قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد

(١) الامتَحَش: الاحتراق.

(٢) الحَبَّة: بذر البقول والعشب، تنبت في البراري وجوانب السيول. (النووي في شرحه

لصحيح مسلم: ٢٧/٣).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٣) مسلم (١٨٢).

قيل، ثم أمر به فُسْحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار!«^(١) وفي لفظٍ: «فهؤلاء أولُ خلق الله تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة»^(٢).

وسمعت شيخ الإسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشرُّ الناس من تشبَّه بهم من الكذابين، وادَّعي أنه منهم، وليس منهم. فخيرُ الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون، فشرُّ الناس من تشبَّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من كانت عنده لأخيه مظلمةٌ في مال أو عرضٍ فليأتِه فليستحلَّها منه، قبل أن يؤخذ، وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطِيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار»^(٣).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بغير حقِّه؛ خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبعِ أرضين»^(٤).

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بِنُورِ

(١) مسلم (١٩٠٥).

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة (٢٣٨٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) البخاري (٢٤٤٩).

(٤) متفق على أصله، وهذا لفظ البخاري (٢٤٥٤) أما مسلم فبلفظ «طَوَّقَهُ اللهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» (١٦١١).

آدم جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية. قال: «فإنها قد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهنّ مثل حرّها»^(١).

والأحاديثُ في هذا الباب أضعافُ أضعافٍ ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نصّح نفسه أن يتعامى عنها، ويُرسل نفسه في المعاصي، ويتعلّق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره، ولا تغترّ، فإنّه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأة النار في هرة، واشتعلت الشّملة نارًا على من غلّها وقد قُتل شهيدًا!

وفي المسند عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يُقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب، فقال: ليس عندي شيء. قالوا: قرب ولو ذبابًا. فقرب ذبابًا فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب شيئًا دون الله عز وجل، ف ضربوا عنقه فدخل الجنة»^(٢).

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٦٥) مسلم (٢٨٤٣).

(٢) أحمد في الزهد (٨٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣) بسند صحيح، وطارق بن شهاب صحابي رأى النبي ﷺ صغيرًا وحديث عنه، فحتّى لو قيل لم يسمع منه، فهو من مراسيل الصحابة، والصحابة كلهم عدول. وقال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ على الحديث: «سنده لا بأس به».

وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب. وربّما أتكل بعض المغترّين على ما يرى من نعم الله عليه في

وفي الحديث شؤم الشرك وشرّه، وأنّ من أفراذه الذبح لغير الله تعالى. وتأمل حقارة الذبيحة فما هي إلا ذباب، لكن لما قام في القلب التوجّه بالعبادة بالذبح والنسك لغير الله خرج المخذول من الملة وصار من المشركين. وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على كتاب التوحيد: قوله: «فقالوا للآخر: قَرَّب. فقال: ما كنتُ لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل. فضربوا عنقه، فدخل الجنة» هذا يحتمل أحد أمرين:

أ - أن في شريعة من قبلنا ليس فيه العذر بالإكراه، ولهذا لم يأخذ بالرخصة، ولم يعمل ما يخلصه من شرهم.

ب - أنه يمكن أن يكون هناك رخصة وعذر بالإكراه، ولكن لقوّة إيمانه وعدم مبالاته بهم لم يأخذ بالرخصة، وبادر بالإنكار وقال: «ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل».

قلت: ويُذكر عن ابنة للإمام المجدّد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، أنّها اجتازت ومعها رفقتها بقوم فطلبوا منهم التقرب لوثنهم بالذبح له، فقال أحد رفقتها: نُقَرِّبُ له التراب - احتقاراً وتشنيعاً وإنكاراً - فقالت تلك الفقيهة بنت الفقيه، ولعل اسمها فاطمة: لا نقرب لغير الله شيئاً ولو كان التراب. وقد عقد المجدد رَحِمَهُ اللهُ باباً خاصاً في كتاب التوحيد في أنّ من الشرك الذبح لغير الله: باب ما جاء في الذبح لغير الله. وذكر حديث طارق بن شهاب وغيره.

وثمّ قاعدة شريفة نافعة: وهي أن كل اعتقاد أو قول أو عمل أمر الله به، فصرّفه لله تعالى توحيد وإيمان وإسلام وإخلاص وشكر وإحسان، وصرّفه لغير الله شرك وكفر وظلم وفسق وضلال.

الدنيا، وأنه لا يغيّر ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور.

وفي المسند عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يُحبّ، فانما هو استدراج» ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] (١).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقد ردّ سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل من نعمته ووسّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيّقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعمة، وأكرم هذا بالابتلاء.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم! ورُبَّ مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم! ورُبَّ مغرورٍ بستر الله عليه وهو لا

(١) أحمد (١٧٣١١) وغيره، وحسنه العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء.

يعلم!

وأعظم الخلق غرورًا من اغترّ بالدنيا وعاجلها، فأثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة. حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة! ويقول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه! وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائم العجم أَعْقَلُ من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تُقَدِّم عليه ولو ضُرِبَتْ. وهؤلاء يقدم أحدهم على ما فيه عَطْبُهُ وهو ينظر إليه وهو بين مصدق ومكذب! فهذا الضرب إن آمن أحدُهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقولُ هذا القائل: النقدُ خيرٌ من النسيئة. فجوابه: أنه إذا تساوى النقد والنسيئة، فالنقد خير. وإن تفاوتتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير. فكيف والدنيا كلّها من أولها إلى آخرها كَنَفَسٍ واحد من أنفاس الآخرة، كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخِلُ أحدكم إصبعه في اليمِّ فليَنظُرِ بِمَ يرجع»^(١)

(١) أحمد (١٨٠٠٨) والترمذي (٢٣٢٢) وقد رواه مسلم بلفظ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم..».

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في سورة الأعلى فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] وقال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] وقال: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١] وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟! فأيُّها أولى بالعاقل: إيثارُ العاجل في هذه المدّة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيءٍ حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمدّه؟!!

وأما قول الآخر: لا أترك متيقناً لمشكوك فيه. فيقال له: إمّا أن تكون على شكٍّ من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على اليقين من ذلك. فإن كنتَ على اليقين؛ فما تركتَ إلّا ذرّةً عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأنّه متيقّنٌ لا شكَّ فيه ولا انقطاع له. وإن كنتَ على شكٍّ؛ فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيتته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه، وتجردُ وقُمُ لله ناظرًا أو مُناظرًا حتى يتبيّن لك أنّ ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وأن خالقَ هذا العالم وربَّ السموات والأرض يتعالى ويتقدّس ويتنزّه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه. ومن نسبّه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذّبه وأنكر ربوبيته ومُلْكَه، إذا من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلاً لا يعلم شيئًا، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعزُّ من يشاء ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا

وَزَيَّنَتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ [الفصص: ٦٠] وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً، وهذا يقدر في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟!

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نقطة إلى حين كماله واستوائه؛ تبين له أن من عَنِى به هذه العناية، ونقله إلى هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار، لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهاه، ولا يُعْرِفه بحقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه. ولو تأمل العبدُ حقَّ التأمل لكان كلُّ ما يُبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه.

فقد بان بأن المضيّع مغرورٌ على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكّه.

فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلفُ العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبدُ أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشدَّ عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهياً غافلاً، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعدُّ له، ولا يأخذ له أهبة؟

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء. وهذا التخلفُ له عدة أسباب: أحدها: ضعفُ العلم، ونقصان اليقين. ومن ظنَّ أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيم الخليل ربّه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك؛ ليزدادَ طمأنينة، ويصير المعلوم غيباً شهادة. فإذا

اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها، لاشتغاله بما يضادّه، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يُمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب. وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر. ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد تبيّن الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه جاذبًا له على الطاعة، زاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور. ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلّها ما ينفعه فأهمّلها، ولم يذرّها ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه سيأتيه من مغلّها ما يأتي من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعدّه الناس من أسفه

السفهاء. وكذلك لو حَسَّنَ ظَنَّهُ وَقَوَّى رَجَاءَهُ بِأَنَّهُ يَجِيئُهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ، أَوْ يَصِيرُ أَعْلَمُ أَهْلَ زَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَحِرْصٍ تَامٍّ عَلَيْهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ مَنْ حَسَّنَ ظَنَّهُ وَقَوَّى رَجَاءَهُ فِي الْفَوْزِ بِالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقَرَّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ بِغَيْرِ إِثْمٍ إِنَّهُمْ فِي سَبِيلٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات. وقال المغترّون: إِنَّ الْمَفْرَطِينَ، الْمُضِيِّينَ لِحَقُوقِ اللَّهِ، الْمُعْطَلِينَ لِأَوْامِرِهِ، الْبَاغِينَ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُجْتَرِّئِينَ عَلَى مُحَارَمِهِ، أَوْلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ!

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ؛ أَنَّ الرِّجَاءَ وَحَسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِتْيَانِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرُهُ وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا، ثُمَّ يُحَسِّنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مَوْصِلَةً إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَصْرِفُ مَا يَعْضِضُهَا وَيَبْطُلُ أَثَرُهَا.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاءه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى، والرجاء شيء، والأمانى شيء آخر، فكلُّ راجٍ خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع

السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(١) وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذا جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة. فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ رِثَايَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ^(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ^(٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(٦٠) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٧ - ٦١] وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألتُ رسول الله عن هذه الآية فقلت: أهُم الذين يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يُتَّعَبَلَ منهم، أولئك يسارعون في الخيرات»^(٢) والله سبحانه وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدَّهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحنُ جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن! فهذا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) الترمذي (٢٤٥٠) والبخاري في تاريخه (٢/٢٢٢) والحاكم (٧٨٥١) وفيه سنده كلام. وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣١٧٥) ورجَّح الدارقطني إرساله كما في العلل: (١١ / ١٩٣). وصححه الألباني

يقول: وددتُ أني شعرةً في جنب عبدٍ مؤمن. ذكره أحمد عنه^(١) وذكر عنه أيضًا: أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وكان يبكي كثيرًا ويقول: ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا^(٢). وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عودٌ من خشية الله عز وجل^(٣) ولما احتضر قال لعائشة: يا بنية إني أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذا الحلاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب^(٤) وقال: والله لو ددتُ أني كنت هذه الشجرة، تُؤكل وتُعصد^(٥) وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرةٌ تأكلني الدواب^(٦).

وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك، صَعُ خَدِّي على الأرض عساه أن يرحمني. ثم قال: ويل أُمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثًا، ثم قضى^(٧) وكان يمرُّ بالآية في ورده بالليل

(١) أحمد في الزهد (٥٥٩) وأشار محقق الداء والدواء لضعفه، وقد صحَّح ما يليه، وهو

في الزهد لأحمد (٥٦١).

(٢) الزهد لأحمد (٥٥٨).

(٣) عبد الرزاق في المصنف (٢٦٤/٢).

(٤) أحمد في الزهد (٥٦٧) والحلاب والمحلَّب: هو الإناء الذي يُجلب فيه اللبن.

(٥) السابق: (٥٨٠).

(٦) السابق: (٥٨٢).

(٧) أبو داود في الزهد (٤٦).

فتخنقه - أي العبرة - فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً^(١) وكان في وجهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَّانِ أسودانِ من البكاء^(٢) وقال له ابن عباس: مَصَّرَ اللَّهُ بِكَ الْأَمْصَارَ، وفتح بك الفتح، وفعل وفعل. فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر^(٣).

وهذا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته^(٤) وقال: لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير^(٥).

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق. ألا وإن الدنيا قد ولّت مُدْبِرَةً، والآخرة مقبلة، ولكل واحدٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل^(٦).

وهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم

(١) أحمد في الزهد (٦٢٧) وفيه ضعف.

(٢) أحمد في الزهد (٦٣٦).

(٣) أحمد في الزهد (٦٩٧) بسند صحيح.

(٤) أحمد (٤٥٤) والترمذي (٢٣٠٨) والحاكم (٧٩٤٢).

(٥) أحمد في الزهد (٦٨٥).

(٦) السابق (٦٩٢).

القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمتَ فكيف عملتَ فيما علمتَ؟^(١) وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم. ولوددت أني شجرة تُعَصَّد، ثم تُؤْكَل^(٢).

وهذا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع^(٣).

وكان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ياليتني كنتُ شجرة تعصد. وودت أني لم أُخْلَق^(٤) وعُرِضْتُ عليه النفقة فقال: عندنا عنز نحلبها، وأحمرّة نقل عليها، ومحرّر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ^(٥).

(١) السابق (٧٣٠).

(٢) السابق (٧٣٠).

(٣) عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد (٧٨٣).

(٤) أحمد في الزهد (٧٨٧).

(٥) ابن المبارك في الزهد (٣١) ووكيع في الزهد (١٥٠) وأبو داود في الزهد (٣٩٤).

وقال أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وددتُ أني كبشٌ فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحَسَوَا مرقِي (١).

وهذا بابٌ يطول تتبعه، قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: باب خوف المؤمن أن يَحْبُطَ عمله وهو لا يشعر (٢). وقال إبراهيم التيمي: ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مُكذِّبًا (٣). وقال بن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمانٍ جبريل وميكائيل (٤). ويُذكر عن الحسن: ما خافهُ إلا مؤمنٌ، ولا أَمَنَهُ إلا منافق (٥). وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشدك الله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ - يعني في المنافقين - فيقول: لا، ولا أُرَكِّي بعدك أحدًا (٦). فسمعتُ شيخنا يقول: ليس مراده: إنِّي لا أبرئُ غيرك من النفاق، بل المراد: لا أفتحُ عليَّ هذا الباب. فكلُّ من سألني: هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ فأزكيه.

قلتُ: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون

(١) أحمد في الزهد (١٠٢٥).

(٢) في كتاب الإيمان: باب (٣٦).

(٣) أحمد في الزهد (٢٢١٥).

(٤) البخاري في تاريخه (١٣٧/٥).

(٥) فتح الباري لابن رجب (١٧٩/١) وصححه.

(٦) الهيثمي في المجمع (٤٢/٣) ووثق رجاله.

من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «سبقك بها عكاشة»^(١) ولم يُرد أن عكاشة وحده أحقُّ بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا لقام آخرٌ وآخر، وانفتح الباب، وربّما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى. والله أعلم»^(٢).

ومن تلبّسات إبليس على العباد بزعم حسن الظن بالله تعالى:

أنَّ ما من عبادة إلا ولأبي مرّة فيها حظٌّ، عياداً بذِي الجلال منه ومن تلبّسه، إذ يُزيّن المعصية في قالب الطاعة، ويُلبس الخذلان ثوب التوفيق، ولم ينبج منه إلا القليل ممن خصهم الله بإخلاص الدين لوجهه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ [الحجر: ٣٩-٤٣] ﴿٤٤﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ [ص: ٨٢-٨٥] وتتدبّر آيات الأعراف وما فيها من ذكر كيد الخبيث الوسواس الخناس، إذ يتوعدك وإخوتك بأنه سيأتيهم من كل الجهات لإغوائكم، عدا جهة العلوّ، فمنها مددُ الله وتوفيقه وحفظه لعبده، فلا مدخل لعدو بني آدم من هناك، وانظر سوء أدبه مع رب العالمين بقوله فيما ذكره

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٤٢) مسلم (٢١٦).

(٢) الداء والدواء، ابن القيم (٣٦-٩٨) باختصار وتصرف.

الله عنه: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

وقد صدق ظنُّ الأبعدِ المرجوم في إضلاله مَنْ كتب الله عليهم الخذلان، ولم يمددهم بالتوفيق والحفظ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿[سبأ: ٢٠، ٢١].

قال عبد الرحمن بن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ومن شُبِّهَ أولئك: أنهم قالوا إن الله عز وجل مستغنى عن أعمالنا، غير متأثر بها معصية كانت أو طاعة، فلا ينبغي أن نُتعب أنفسنا في غير فائدة!

وجواب هذه الشبهة: أن نجيب أولاً بالجواب الأول ونقول: هذا ردُّ على الشرع فيما أمر به. فكأنكم قلتم للرسول وللمرسل: لا فائدة فيما أمرتنا به!

ثم نتكلم عن الشبهة فنقول: من يتوهم أن الله جل وعلا يتنفع بطاعة أو يتضرر بمعصية فما عرف الله جل جلاله، لأنه مقدس عن ذلك، وإنما نفع الأعمال عائد على أنفسنا كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦] ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ١٨] وإنما يأمر الطبيب المريض بالحمية لمصلحة المريض، لا لمصلحة الطبيب. وكما أن للبدن مصالح من الأغذية ومضار، فللنفس مصالح من العلم والجهل والاعتقاد والعمل،

فالشرع كالطبيب، فهو أعرف بما يأمر به من المصالح.

ومن تلبس إبليس على بني آدم قولهم: قد ثبت سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وهي لا تُعْجَزُ عَنَّا، فلا وجه لحرمان نفوسنا مرادها.

فالجواب: كالجواب الأول، لأن هذا القول يتضمن أطراح ما جاءت به الرسل من الوعيد، وتهوين ما شددت في التحذير منه في ذلك، وبالغت في ذكر عقابه.

ومما يكشف التلبس في هذا: أن الله عز وجل كما وصف نفسه بالرحمة فقد اتَّصف بأنه شديد العقاب. ونحن نرى الأولياء والأنبياء يُتَلَوْنَ بالأمراض والجوع، ويؤخذون بالزلل. وكيف وقد خافه من قطع له بالنجاة؟! فالخليل يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، والكليم يقول: نفسي نفسي، وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الويل لعمر إن لم يُغفر له.

واعلم أن من رجا الرحمة تعرَّضَ لأسبابها، فمن أسبابها: التوبة من الزلل، كما أن من رجا أن يحصد زرع. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] يعني أن الرجاء بهؤلاء يليق، وأما المصرون على الذنوب وهم يرجون الرحمة فرجاؤهم بعيد.

ومن تلبس الشيطان على بني آدم: أن يوقعه في غفلة يغلفها بالعصمة بزعمه، فيحسن الظن بنفسه في ما ليس لها فيه مشروعية، ويسوّل له أنه غير واقع في الحرمة. وبعضهم قد يرى ما يشبه نوع كرامات أو منامات صالحة أو

فتح عليهم كلمات لطيفة أثمرها الفكر والخلوة، فيتركون الأمر ولا ينتهون! وهذا ضلال مبين. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قيل لأبي نصر: إن بعض الناس يُجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم في رؤيتهن؟ فقال: ما دامت الأشباح قائمة؛ فإن الأمر والنهي باقٍ، والتحليل والتحريم مخاطب به، ولن يجترئ على الشبهات إلا من يتعرض للمحرمات. وقال أبو علي الروذباري وسئل عمن يقول: وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال؟ فقال: قد وصل، ولكن إلى سقر!

وقال أبو القاسم الجنيد لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهلك المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل. فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يُحال بي دونها، لأنه أوكد في معرفتي به، وأقوى في حالي.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيتَه يدَّعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حدِّ علم شرعي فلا تقربنَّه، ومن رأيتَه يدَّعي حالة باطنة لا يدلُّ عليها ويشهد لها حفظ ظاهره فاتهمه على دينه.

قال ابن عقيل: اعلم أن الناس شردوا على الله عز وجل، وبعثوا عن وضع الشرع إلى أوضاعهم المخترعة، فمنهم من عبد سواه تعظيماً له عن العبادة، وجعلوا تلك وسائل على زعمهم. ومنهم من وحد إلا أنه أسقط

العبادات، وقال: هذه أشياء نُصبت للعوام لعدم المعارف، وهذا نوع شرك، ولقد قال الله تعالى لأهل المعرفة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وأبان سبحانه عن حقائق الإيمان به فقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فعلم أن المعول على المقاصد، ولا يكفي مجرد المعارف من غير امتثال، كما تعول عليه الملحدة الباطنية وشطّاح الصوفية»^(١).

(١) تلبس إبليس، أبو الفرج ابن الجوزي (١ / ٣٢٧ - ٣٣٥) باختصار وتصرف. وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر أوابد للمتصوفة: «ولما قلّ علم الصوفية بالشرع صدر منهم من الأفعال والأقوال ما لا يحل، مثل ما قد ذكرنا. ثم تشبّه بهم من ليس منهم، وتسمّى باسمهم، وصدر عنهم مثل ما قد حكينا، وكان الصالح منهم نادراً؛ ذمّهم خلق من العلماء وعابوهم حتى عابهم مشايخهم. وعن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي يقول: لو أن رجلاً تصوّف أول النَّهَار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمقاً! وعنه أيضاً أنه قال: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً وأنشد - أي الإمام الشافعي -:

وَدَعَ الَّذِينَ إِذَا أَتَوْكَ تَنَسَّكُوا وَإِذَا خَلُوا كَانُوا ذُنَابَ حَقَافٍ

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: قال أبو سليمان: ما رأيت صوفياً فيه خير إلا واحداً عبد الله بن مرزوق، قال: وأنا أرقّ لهم. وعنه - أي ابن أبي الحواري - قال: حدثنا وكيع قال: سمعت سفيان يقول: سمعت عاصمًا يقول: ما زلنا نعرف الصوفية بالحق، إلا أنهم يستترون بالحديث!

وعن يحيى بن معاذ يقول: اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والفقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

وقد ذكرنا في أول ردنا على الصوفية من هذا الكتاب - أي تلبس إبليس - أن الفقهاء بمصر أنكروا على ذي النون ما كان يتكلم به، وبسطام وأخرجوه، وأخرجوا أبا سليمان الداراني، وهرب من أيديهم أحمد بن أبي الحواري، وسهل التستري. وذلك لأن السلف كانوا ينفرون من أدنى بدعة، ويهجرون عليها، تمسكاً بالسنة. ولقد حدثني أبو الفتح بن السامري قال جلس الفقهاء في بعض الأربطة للعزاء بفقيه مات فأقبل الشيخ أبو الخطاب الكلؤذاني الفقيه متوكئاً على يدي حتى وقف بباب الرباط وقال: يعز عليّ لو رأي بعض أصحابنا ومشايخنا القدماء وأنا أدخل هذا الرباط! قلت: على هذا كان أشياخنا. فأما في زماننا هذا فقد أصطلح الذئب والغنم. قال ابن عقيل: وأنا أذم الصوفية لوجوه يوجب الشرع ذم فاعلها منها:

أثم اتخذوا مناخ البطالة وهي الأربطة، فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش، وبدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء، وعولوا على الترقيع المعتمد به التحسين تلميعاً. واستمالوا النسوة والمردان بتصنع الصور واللباس، فما دخلوا بيتاً فيه نسوة فخرجوا إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن. ثم يقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبي الأموال. ويستصحبون المردان في السماعات، يجلبونهم في الجموع مع ضوء الشموع، ويخالطون النسوة الأجانب ينصبون لذلك حجة لباسهن الخرقية، ويستحلّون بل يوجبون اقتسام ثياب من طرب فسقط ثوبه، ويسمّون الطرب وجداً، والدعوة وقتاً، واقتسام ثياب الناس حكماً. ولا يخرجون عن بيت دُعوا إليه إلا عن إلزام دعوة أخرى يقولون: إنها وجبت!

ويعتقدون أن الغناء بالقضبان قربة، وقد سمعنا عنهم أن الدعاء عند حدو الحادي مُجَاب! ويسلمون أنفسهم إلى شيوخهم، فإن عوتِبُوا قالوا: الشيخ لا يعترض عليه أحد! فإن قَبِلَ أمرًا قالوا: رحمة! وإن خلا بأجنبية قالوا: ابتته، وقد لبست الخرقة! وإن قسم ثوبًا على غير أربابه من غير رضا مالكة قالوا: حكم الخرقة!

وإنما هذه الكلمة جعلها الصوفية ترفيها لقلوب المتقدمين، وسلطنة سلكوها على الأتباع والمريدين، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] ولعل هذه الكلمة إنما صدرت ابتداءً من القائلين منهم بأن العبد إذا عرف لم يضره ما فعل! وهذه نهاية الزندقة، لأن الفقهاء أجمعوا على أنه لا حالة ينتهي إليها العارف إلا ويضيق عليه التكليف، كأحوال الأنبياء يضايقون في الصغائر.

فإن الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرغ الخالين من الإثبات، وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمال مُرَقَّعات وصوف، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع، وإهمال لأحكام الشرع. ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فأتوا بوضع أهل الخلاعة.

فأول ما وضعوا أسماء، وقالوا: حقيقة وشريعة، وهذا قبيح، لأن الشريعة ما وَضَعَهُ الحق سبحانه لمصالح الخلق. فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين. وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع. وإن سمعوا أحدًا يروي حديثًا قالوا: مساكين، أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت! فمن قال: حدثني أبي عن جدي قلتُ: حدثني قلبي عن ربي! فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار، وأنفقت عليهم لأجلها الأموال. لأن الفقهاء كالأطباء فيردونهم بفتاويهم عن ضلالتهم وفسقهم، والحقُّ يثقل كما تثقل الزكاة. وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمير بشيء سمّوه: الحشيش والمعجون، والغناء

المحرم سمّوه: السماع والوجد، والتعرّض بالوجد المزيل للعقل حرام. كفى الله
الشريعة شرّ هذه الطائفة التي ليس تحتها سوى إهمال التكليف وهجران الشرع،
ولذلك خفّوا على القلوب، ولا دلالة على أنهم أرباب باطل أوضح من محبة طباع
الدنيا لهم، كمحبتهم أرباب اللهو والمغنيات.

وما على الشريعة أضرّ من المتكلمين والمتصوفين، فهؤلاء يُفسدون عقائد الناس
بتوهماتٍ شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال، ويهدمون قوانين الأديان،
يجبون البطالات وسماع الأصوات. وما كان السلف كذلك بل كانوا في باب العقائد
عبيد تسليم، وفي الباب الآخر أرباب جدّ.

قال ابن عقيل: ونصيحتي إلى إخواني: أن لا يقرّع أفكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا
تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين. بل الشغل بالمعاش أولى من بطالة
الصوفية، والوقوف على الظواهر أحسن من توغل المتحلة. وقد خبرت طريقة
الفريقين، فغاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح». تلبس إبليس (١/٣٣٥-
٣٤٠) باختصار.

شناعة ظن السوء بالرحمن

لا أشنع ولا أفزع ولا أوضع ممن يظن السوء بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، ولا يستحق الحمد على التهام والشكر على الكمال إلا هو، فما من نعمة دقت أو جلّت، خفيت أو أُعلنت إلا من الله، ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وتأمل ختم الآيتين الجليلتين في بيان عجز ابن آدم عن إحصاء نعم الله، قال الجليل العزيز سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُمُ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال في النحل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّكُمُ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٨]، ففي الآية الأولى بين طبيعة غالب البشر، وفي الثانية ذكر برد المغفرة وحلاوة الرحمة، فالحمد لله الحميد الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ولا إله إلا هو.

ولقد فتح الله تعالى على ابن القيم يوم كتب مستخلصاً الدروس والعبر من غزوة أحد على ضوء آيات سورة آل عمران، إذ بين الفرقان بين أولياء الرحمن الذين أحسنوا الظن بربهم وبين من كان في قلوبهم مرض نفاق وسوء ظن، في سفره النفيس زاد المعاد فقال - باختصار يسير - (١):

«ونذكر بعض الحكم والغايات المحمودّة التي كانت في وقعة أحد، وقد

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم (٣ / ٢١٨ - ٢٣٩).

أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة «آل عمران» حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بِشُؤْمِ ذَلِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرزوا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رُسُلِهِ، وأتباعِهِمْ، جرت بأن يُدَالُوا مَرَّةً، وَيُدَالُ عَلَيْهِمْ أُخْرَى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً، دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليميز من يتبعهم ويُطيعهم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هِرْقُلُ لأبِي سَفْيَانَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: سِجَالٌ، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى. قال: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِنَ المنافِقِ الكاذِبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصَّيْتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أن سَبَبَ لعباده مَحَنَةً ميَّزَت بين المؤمن والمنافق، فأطْلَعَ المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُحبَّاتُهم، وعاد تلوِيحُهم تصرِيحاً، وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً، وعَرَفَ المؤمنون أنَّ لهم عدوًّا في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهُ يُجْتَنَى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أى: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما يميزهم بالمحنة يوم أُحُد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميزُ به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومُهُ الذي هو غيبٌ شهادةً. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهُ يُجْتَنَى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنْ

أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ۝﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطْلَعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلکم أعظمُ الأجر والكرامة.

ومنها: استخراجُ عبودية أوليائه وحزبه في السَّراء والضَّرَّاء، وفيما يُجْبُون

وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدٌ حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حَرْفٍ واحدٍ مِنَ السَّراءِ والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم في كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمَكِينَ والقَهَرَ لأعدائهم أبدًا، لطغَتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِبَادَهُ إِلَّا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبْضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عبادِهِ كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة، والكسرة، والهزيمة؛ ذلُّوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصرَ، فإن خِلَعَةَ النصرِ إنما تكونُ مع ولاية الدُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبده، ويُجَبِّره، وينصِّره، كسره أولًا، ويكونُ جبرُهُ له ونصره، على مقدار ذلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغياها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفَّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا

وَرُكُونًا إِلَى الْعَاجِلَةِ، وَذَلِكَ مَرَضٌ يَعُوقُهَا عَنْ جِدِّهَا فِي سِيرِهَا إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ بِهَا رَبُّهَا وَمَالِكُهَا وَرَاحِمُهَا كِرَامَتَهُ، قَيَّضَ لَهَا مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ مَا يَكُونُ دَوَاءً لَذَلِكَ الْمَرَضِ الْعَاقِقِ عَنِ السَّيْرِ الْحَثِيثِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ وَالْمَحَنَةُ بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ يَسْقَى الْعَلِيلَ الدَّوَاءَ الْكَرِيمَ، وَيَقْطَعُ مِنْهُ الْعُرُوقَ الْمُؤَلَّةَ لِاسْتِخْرَاجِ الْأَدْوَاءِ مِنْهُ، وَلَوْ تَرَكَه، لَغَلَبَتْهُ الْأَدْوَاءُ حَتَّى يَكُونَ فِيهَا هَلَاكُهُ.

ومنها: أَنَّ الشَّهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ أَوْلِيَائِهِ، وَالشَّهْدَاءُ هُمْ خَوَاصُهُ وَالْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَيْسَ بَعْدَ دَرَجَةِ الصَّدِيقِيَّةِ إِلَّا الشَّهَادَةُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ عِبَادِهِ شُهَدَاءَ، تُرَاقُ دِمَاؤُهُمْ فِي مَحَبَّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَيُؤْثِرُونَ رِضَاهُ وَمَحَابَّتَهُ عَلَى نَفْسِهِمْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى نَيْلِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ إِلَّا بِتَقْدِيرِ الْأَسْبَابِ الْمَفْضِيَةِ إِلَيْهَا مِنْ تَسْلِيْطِ الْعَدُوِّ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ أَعْدَاءُهُ وَيَمْحَقَهُمْ، قَيَّضَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهَا هَلَاكَهُمْ وَمَحَقَهُمْ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا بَعْدَ كُفْرِهِمْ بَغْيُهُمْ، وَطُغْيَانُهُمْ، وَمِبَالِغَتُهُمْ فِي أَذْيِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُحَارَبَتِهِمْ، وَقِتَالِهِمْ، وَالتَّسْلُطَ عَلَيْهِمْ، فَيَتِمَّحَصُ بِذَلِكَ أَوْلِيَائُهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَعِيُوبِهِمْ، وَيَزْدَادُ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ مِنْ أَسْبَابِ مَحَقِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ.

وقد ذَكَرَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حُسن التسلية، وذكر الحُكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتم في القرح والألم، وتباينت في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يُدَوِّلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حَاضِرٌ، يقسمها دَوْلًا بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عَزَّها ونصرها ورجاءها خالِصٌ للذين آمنوا. ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى، وهي أن يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فيَعْلَمُهُمْ عِلْمٌ رُؤْيَا ومَشَاهِدَةً بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى، وهي اتِّخَاذُهُ سَبْحَانَهُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، فإنه يُحِبُّ الشُّهَدَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وقد أَعَدَّ لَهُمْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ وَأَفْضَلَهَا، وقد اتَّخَذَهُمْ لِنَفْسِهِ، فلا بدَّ أن يُنِيلَهُمْ دَرَجَةَ الشَّهَادَةِ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفُ الموقِعِ جَدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَدَلُوا عَنْ نَبِيِّهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فلم يشهدوه،

وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمْ، فَأَرْكَسَهُمْ وَرَدَّهُمْ لِيُخْرِمَهُمْ مَا خَصَّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَمَا أَعْطَاهُ مَنْ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ، فَثَبَّطَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي وَفَقَ لَهَا أَوْلِيَاءُهُ وَحِزْبُهُ.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى فِيمَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهُوَ تَمْحِيطُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُوَ تَنْقِيَّتُهُمْ وَتَخْلِيصُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِنْ آفَاتِ النُّفُوسِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ خَلَّصَهُمْ وَمَحَّصَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ، فَحَصَلَ لَهُمْ تَمْحِيطَانِ: تَمْحِيطٌ مِنْ نَفُوسِهِمْ، وَتَمْحِيطٌ مِمَّنْ كَانَ يُظْهَرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَهُوَ عَدُوُّهُمْ.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى، وَهِيَ مُحَقُّ الْكَافِرِينَ بِطُغْيَانِهِمْ، وَبَغْيِهِمْ، وَعُدْوَانِهِمْ، ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ، وَظَنَّهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِدُونِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ، وَإِنْ هَذَا مِمَّنْ تَمْتَنَعُ بِحَيْثُ يُنْكَرُ عَلَى مَنْ ظَنَّهُ وَحَسِبَهُ.

فَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] أَيْ: وَلَمَّا يَقَعْ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَيَعْلَمَهُ، فَإِنَّهُ لَوْ وَقَعَ، لَعَلَّمَهُ، فَجَازَاكُمْ عَلَيْهِ بِالْجَنَّةِ، فَيَكُونُ الْجَزَاءُ عَلَى الْوَاقِعِ الْمَعْلُومِ، لَا عَلَى مَجْرَدِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى مَجْرَدِ عِلْمِهِ فِيهِ دُونَ أَنْ يَقَعَ مَعْلُومُهُ، ثُمَّ وَبَّخَهُمْ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ مِنْ أَمْرِ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيُودُّونَ لِقَاءَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَلَمَّا أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بِمَا فَعَلَ بِشُهَدَاءِ بَدْرٍ مِنَ الْكِرَامَةِ، رَغَبُوا فِي الشَّهَادَةِ، فَتَمَنَّوْا قِتَالًا يَسْتَشْهِدُونَ فِيهِ، فَيَلْحَقُونَ إِخْوَانَهُمْ، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَسَبَّهَ لَهُمْ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ انْهَزَمُوا إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ

منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نُنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

ومنها: أن وقعة أحدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصًا بين يدي موتِ رسول الله ﷺ، فثبَّتْهم، ووبَّخْهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو مات محمد أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقَةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ لِيُخَلِّدَ لا هُوَ ولا هُم، بل لِيُمَوِّتُوا على الإسلام والتَّوْحِيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخْهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشافكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبَّتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب يومَ مات رسولُ الله ﷺ، وارتدَّ مَنْ ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشَّاكِرُونَ على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيردُّ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا وَاحِدًا، وإن تنوعت أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مَصَادِرَ شَتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قُتِلُوا وَقُتِلَ معهم أتباعُ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بَقِيَ منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهِنُوا عندَ القتل، ولا ضَعُفُوا، ولا استكانُوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقدامِ، فلم يُسْتَشْهِدُوا مُدْبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل استشهدُوا أعزَّةً كرامًا مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّتَ أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧) فَكَانَتْ لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابٌ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٤٧، ١٤٨] لما علم القوم أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزهمهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حقٍّ أو تجاوزٌ لحدٍّ، وأن النصرَ منوطٌ بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامهم وَيَنْصُرْهُمْ، لم يَقْدِرُوا هُمْ على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فَوَفَّوا المَقَامَيْنِ حَقَّهُما: مقامَ المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصر، وهو الذنوب والإسرافُ.

ثم حذّرهم سبحانه من طاعة عدوّهم، وأخبر أنّهم إن أطاعوهم خسرُوا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يُؤيّد حزبه بجند من الرعب يتتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدرِ الشرك يكون الرعبُ، فالمشرك بالله أشدُّ شيءً خوفاً ورعباً، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم أنه صدّقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كلّهُ، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلّط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلّوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: «لولا عفوهُ عنهم،

لأستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم».

ثم ذكَّروهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدين، أي: جادِّين في الهربِ والذهابِ في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلَوْنِ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ يدعوهم في أخراهم: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ»^(١) فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غَمًّا بعدَ غَمٍّ: غَمُّ الهزيمة والكسرة، وغَمُّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمداً قد قُتِل. وقيل: جازاكم غَمًّا بما غمَّتمُ رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوِّه، فالغَمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغَمِّ الذي أوقعتموه بنبيهِ، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] تنبيهٌ على حِكْمَةِ هذا الغم بعد الغمِّ، وهو أن يُنسيهم الحزنَ على ما فاتهم مِنَ الظفر، وعلى ما أصابهم مِنَ الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغَمِّ الذي يعقبُه غَمٌّ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حَصَلَ لهم غَمُّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غَمُّ الهزيمة، ثم غَمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمُّ القتل، ثم غَمُّ سماعهم أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِل، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غَمَّين اثنين خاصة، بل غَمٌّ -اً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣١٤/٢).

الثالث: أن قوله: ﴿بَغَمٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣] من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابهم غمًّا متَّصلاً بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيِّهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه، فتراذفت عليهم الغمومُ كما تراذفت منهم أسبابُها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوِّه، لكان أمرًا آخر.

وَمِنْ لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصر المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّن، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفةً بالأبواب التي دخل عليهم منها.

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخَفَّفَ عنهم ذلك الغمَّ، وغَيَّبَ عنهم بالنُّعَاسِ الذي أنزله عليهم أمنًا منه ورحمةً، والنُّعَاسُ في الحرب علامةُ النصر والأمين، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن مَنْ لم يُصِبْه ذلك النُّعَاسُ، فهو ممن أهتمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسوله، وأن

أَمْرُهُ سَيُضْمَحِلُّ، وَأَنَّهُ يُسَلِّمُهُ لِلْقَتْلِ، وَقَدْ فُسِّرَ بظَنِّهِمْ أَن مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا حِكْمَةٍ لَهُ فِيهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ، وَإِنْكَارِ أَن يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوِّءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْفَتْحِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَيَعَذِّبُكَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ﴾ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ [الفتح: ٦] (١).

وإنما كان هذا ظنَّ السَّوِّءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلَيَّا، وذاته المبرَّاة من كُلِّ عَيْبٍ وَسَوْءٍ، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية، وما يليق بوَعْدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسوله أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَخْذُلُهُمْ، ولجندِهِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَلَا يُتِمُّ أَمْرَهُ، وَلَا يُؤَيِّدُهُ، وَيُؤَيِّدُ حَزْبَهُ، وَيُعْلِيهِمْ، وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشَّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدُ وَالْحَقُّ اضْمَحِلَالًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، وَصِفَاتِهِ وَنَعْوَتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعَزَّتَهُ، وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَن يَذِلَّ حَزْبُهُ وَجَنْدُهُ، وَأَن تَكُونَ النِّصْرَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ، وَالظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعْدَائِهِ

(١) قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّ أَنَّ السَّوِّءَ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ كَمَا تَحِيطُ الدَّائِرَةُ بِمَنْ فِي جَوْفِهَا». القول المفيد على كتاب التوحيد (٣٨٢/٢).

المشركين به، العادلين به، فَمَنْ ظَنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماؤه، ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك مَنْ أنكر أن يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك مَنْ أنكر أن يكون قَدَر ما قَدَره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قَدَرها سُدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلاً، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلمُ عن ذلك إلا مَنْ عرف الله، وعرف أسماؤه وصفاته، وعرفَ موجبَ حمده وحكمته، فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رحمته، وأيسَ مِنْ رَوْحه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ جَوَّزَ عليه أن يعذَّبَ أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوَّى بينهم وبين أعدائه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أن يترك خلقه سُدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظنَّ أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يُجازي

المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، وبيِّنَ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلُّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

ومن ظنَّ أنه يُضَيِّعُ عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبْطِلُه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعَاقِبُه بما لا صُنِعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يُعَاقِبُه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزاتِ التي يؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجْريها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عبادَه، وأنه يحسُنُ منه كُلُّ شيء حتى تعذيبُ مَنْ أفنى عمره في طاعته، فيخلدُه في الجحيم أسفل السافلين، ويُنْعِمُ مَنْ استنفد عُمرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يُعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

ومن ظنَّ به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيهه، وتمثيله، وترك الحقَّ، لم يُخبر به، وإنما رَمَزَ إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلْغِزَةً لم يُصَرِّحْ به، وصرَّح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتَعَبُّوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالمهم في معرفة أسمائه

وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفه، فقد ظنَّ بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادرٌ ولم يُبيِّن، وعدَل عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ أنه هو وسلفه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين الحيارى هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظنَّ السَّوءِ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

وَمَنْ ظنَّ به أن يكونَ في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجادهِ وتكوينهِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه كان مُعْطَلًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا يُوصَفُ حينئذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا النُّجُومِ، وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ

شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا سَمْعَ لَهُ، وَلَا بَصَرَ، وَلَا عِلْمَ لَهُ، وَلَا إِرَادَةَ، وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَبَدًا، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إِلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَإِلَى الْأَمَكْنَةِ الَّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنَّهُ أَسْفَلُ، كَمَا أَنَّهُ أَعْلَى، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَيُحِبُّ الْفُسَادَ كَمَا يُحِبُّ الْإِيمَانَ، وَالْبِرَّ، وَالطَّاعَةَ، وَالْإِصْلَاحَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا يَغْضِبُ وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنْ ذَوَاتِ الشَّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلَحِينَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ^(١).

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُسَوِّى بَيْنَ الْمُتَضَادِّينَ، أَوْ يَفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، أَوْ يُجَبِّطُ طَاعَاتِ الْعَمْرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصَّوَابَ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا، فَيَخْلُدُ فَاعِلٌ تِلْكَ الطَّاعَاتِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ، وَيُجَبِّطُ بِهَا جَمِيعَ

(١) من علامات صحة العقل واستقامة منطقته الجمع بين التماثلات والتفريق بين المختلفات، ومعرفة الحدود بين التشابهات.

طاعاته ويُخَلِّدُهُ فِي الْعَذَابِ، كَمَا يَخْلُدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَقَدْ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عَمْرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمَعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَمَنْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، أَوْ عَطَّلَ حَقَائِقَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنْ لَهُ وَلَدًا، أَوْ شَرِيكًا أَوْ أَنْ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَيَدْعُونَهُمْ، وَيَحْبُونَهُمْ كَحَبِّهِ، وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ حِكْمَتِهِ وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ لِأَجَلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعَوِّضْهُ خَيْرًا مِنْهُ، أَوْ مَنْ فَعَلَ لِأَجَلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَغْضَبُ عَلَى عَبْدِهِ، وَيُعَاقِبُهُ وَيُجْرِمُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا بِمَجْرَدِ الْمَشِيئَةِ، وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا صَدَقَهُ فِي الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُجِيبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ،

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُثِيبُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثِيبُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دَعَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ، وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ، وَأَسْخَطَهُ، وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ، ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا، وَدَعَا مِنْ دُونِهِ مَلَكًا أَوْ بَشَرًا حَيًّا، أَوْ مَيِّتًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَيُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ، وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بُعْدِهِ مِنَ اللَّهِ، وَفِي عَذَابِهِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْدَاءَهُ تَسْلِيطًا مُسْتَفْرًا دَائِمًا فِي حَيَاتِهِ وَفِي مَمَاتِهِ، وَابْتِلَاهُ بِهِمْ لَا يُفَارِقُونَهُ، فَلَمَّا مَاتَ اسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَ وَصِيِّهِ، وَظَلَمُوا أَهْلَ بَيْتِهِ، وَسَلَبُواهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَذَلُّوهُمْ، وَكَانَتِ الْعِزَّةُ وَالْغَلْبَةُ وَالْقَهْرُ لِأَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ دَائِمًا مِنْ غَيْرِ جَرَمٍ وَلَا ذَنْبٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَهْلِ الْحَقِّ، وَهُوَ يَرَى قَهْرَهُمْ لَهُمْ، وَغَضَبَهُمْ إِيَّاهُمْ حَقَّهُمْ، وَتَبْدِيلَهُمْ دِينَ نَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحُزْبِهِ وَجُنْدِهِ، وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يُدِيلُهُمْ، بَلْ يُدِيلُ أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، أَوْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ حَصَلَ هَذَا بِغَيْرِ قُدْرَتِهِ وَلَا مَشِيئَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الْمُبْدِلِينَ لِدِينِهِ مُضَاجِعِيهِ فِي حَفْرَتِهِ، تُسَلِّمُ أُمَّتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كُلُّ وَقْتٍ كَمَا تَظُنُّهُ الرَّاغِبَةُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ، سِوَاءَ قَالُوا: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصَرَهُمْ، وَيَجْعَلَ لَهُمُ الدَّوْلَةَ وَالظَّفَرَ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ، فَهُمْ قَادِحُونَ فِي قُدْرَتِهِ، أَوْ فِي حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ ظَنِّ السَّوِّءِ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ

الذي فعل هذا بغيضٌ إلى مَنْ ظنَّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلافَ ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسِدَ بخرقِ أعظمٍ منه، واستجاروا من الرَّمضاءِ بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظنَّ إخوانهم المجوسِ والشَّوَيْةِ بربهم، وكلُّ مبطل وكافر ومبتدعٍ مقهورٍ مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَنْ شاء الله يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السَّوءِ، فإن غالبَ بني آدمٍ يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاهُ الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه^(١) ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَنْ فَتَّشَ نفسه، وتغلغل في معرفة دوائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كُمونَ النار في الزناد، فاقدح زنادَ مَنْ شئتُ يُنبئك شرَّارُه عما في زِناده، ولو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ، لرأيت عنده تعبُّبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثِر، وفَتَّشَ نفسك هل أنت سالمٌ من ذلك؟^(٢)

(١) قلت: ومن ذلك: قول بعض العامة فيمن أصابة ضرر أو مصيبة وهم يحبونه: فلان

ما يستاهل! أو لا يستحق! أو حرام أن يصيبه كذا!

(٢) ملخص سوء الظن الذي أورده المصنف: أن سوء الظن بالله ثلاثة أنواع:

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَأِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظنَّ السَّوءِ، وليظنَّ السَّوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنى الحميد، الذي له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزهة عن كل سوءٍ في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كُلُّها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماءُها كُلُّها حُسْنَى.

فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ	فَلَا تَظُنُّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءًا
وَكَيْفَ بَظَالِمِ جَانِ جَهُولِ	وَلَا تَظُنُّنْ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا
أَيُّرَجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيِّتٍ بَخِيلِ	وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سَوْءٍ
كَذَاكَ، وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ	وُظُنِّ بِنَفْسِكَ السُّوْأَى تَجِدُهَا
فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ	وَمَا بِكَ مِنْ تُقَى فِيهَا وَخَيْرٍ
مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ	وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ

١ - إذا ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمنحل معها الحق.

٢ - إنكار القدر.

٣ - إنكار حكمة الله تعالى.

أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقولهم: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كله إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذموا عليه، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظنَّ الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنَّهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، وكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله عزَّ وجلَّ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدَّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُدَّ، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاء الناس أم لم يشأ، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُدَّ، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا

مِنْ أَظْهَرَ الْأَشْيَاءِ إِبْطَالَ لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ النِّفَاةِ، الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ أَنْ يَقَعَ مَا لَا يَشَاءُهُ اللَّهُ، وَأَنْ يَشَاءَ مَا لَا يَقَعُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ حِكْمَةِ أُخْرَى فِي هَذَا التَّقْدِيرِ، هِيَ ابْتِلَاءُ مَا فِي صُدُورِهِمْ، وَهُوَ اخْتِبَارُ مَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، فَاَلْمُؤْمِنُ لَا يَزْدَادُ بِذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَالْمُنَافِقُ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، لَا بَدَّ أَنْ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي قَلْبِهِ عَلَى جَوَارِحِهِ وَلِسَانِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةَ أُخْرَى: وَهِيَ تَمْحِصُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَّ تَخْلِيصُهُ وَتَنْقِيَّتِهِ وَتَهْذِيبِهِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ يُحَالِطُهَا بِغَلَبَاتِ الطَّبَائِعِ، وَمِيلِ النُّفُوسِ، وَحُكْمِ الْعَادَةِ، وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ مَا يُضَادُّ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فَلَوْ تَرَكْتَ فِي عَافِيَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةً، لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْ هَذِهِ الْمَخَالِطَةِ، وَلَمْ تَتَمَحَّصْ مِنْهُ، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ الْعَزِيزِ أَنْ قَيَّضَ لَهَا مِنَ الْمِحْنِ وَالْبَلَايَا مَا يَكُونُ كَالِدَوَاءِ الْكَرِيهِ لِمَنْ عَرَضَ لَهُ دَاءٌ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكَهُ طَبِيبُهُ بِإِزَالَتِهِ وَتَنْقِيَّتِهِ مِنْ جَسَدِهِ، وَإِلَّا خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهُ الْفُسَادُ وَالْهَلَاكُ، فَكَانَتْ نِعْمَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْكُسْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ، وَقَتْلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، تُعَادِلُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِنَصْرِهِمْ وَتَأْيِيدِهِمْ وَظَفَرِهِمْ بَعْدَهُمْ، فَلَهُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ التَّامَةُ فِي هَذَا وَهَذَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَوَلَّى مَنْ تَوَلَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَنَّهُ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَاسْتَرْهَقَهُمُ الشَّيْطَانُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ حَتَّى تَوَلَّوْا، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ جَنْدًا عَلَيْهِمْ، أَزْدَادَ بِهَا عَدُوَّهُمْ قُوَّةً، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ جَنْدَ لِلْعَبْدِ وَجَنْدٌ عَلَيْهِ، وَلَا بُدَّ فَلِلْعَبْدِ كُلِّ وَقْتٍ سَرِيَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ تَهْزِمُهُ، أَوْ تَنْصَرُهُ،

فهو يُمَدُّ عدوّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمالُ العبد تسوقُه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجُندٍ من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضًا، عفا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

ثم كرّر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكية فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله منَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدر والسبب، فذكر السبب،

وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القول بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩].

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلموا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ أَلْجَمَعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدرى، لا الشرعى الدينى، كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهى أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم^(١)، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغية، ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتها.

(١) وهذا معنى عظيم وتربية ربانية شريفة.

ثم عزى نبيه وأوليائه عمن قُتل منهم في سبيله أحسن تعزية، وألطفها وأدعاهها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٣٩) فَرَحِينَ يَمَاءَ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يُجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته، وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبليّة، تلاشت في جنب هذه المنّة والنعمّة، ولم يبق لها أثر البتّة، وهى منتهى عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، ويُزيكهم، ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويُنقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكل بليّة ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمرٌ يسيرٌ جدًّا في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحدوا ويتكلموا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموا في قضائه وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا، وأعظم خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته، لينافسوه فيه، ولا يحزنوا

عليهم، فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله».

هذا، وقد عقد الإمام المجددُ رَحِمَهُ اللهُ بَابًا في كتاب التوحيد وسمَّاه: باب، قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّوكَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال حفيده الشارح^(١) الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهم الله جميعًا: «أَرَادَ المصنِّفُ بهذه الترجمةِ التنبيهَ على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذمَّ اللهُ من أساء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله، وعزِّته، وإحسانه، وقدرته، وعلمه، وحسن اختياره، وقوة المتوكل عليه. فإذا تَمَّ العلمُ بذلك أثمر له حسن الظن بالله. وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات.

وبالجملة، فمن قامت بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته؛ قام به من حسن الظن ما يُناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفةٍ لها عبوديةٌ خاصة، وحسنُ ظنٍّ خاصٍّ»^(٢).

وقال على قول ابن القيم: «ولو فَتَّشْتَ من فَتَّشْتَ لرأيت عنده تعنُّتًا»^(٣)

(١) إذا أطلق الشارح لمتن من متون العلم في أيِّ فنٍّ فإنه ينصرف إلى أول الشُّرَاح لذلك المتن الذين حظي شرحهم بقبول أهل العلم.

(٢) التيسير (٥٨٣).

(٣) الأظهر أنها تصحيف عن: «تعتَّبًا» لسياق الكلام، كما أن القدر نافذ لا محالة غير قابل لتعنُّت أحد، فالتعنُّت مدافعة أما التعتَّب فجزع واعتراض.

على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا: «قلت: بل يَبْوَ حُونٌ بذلك، وَيُصَرِّحُونَ به جهارًا في أشعارهم وكلامهم.

قال ابن عقيل في الفنون: الواحدُ من العوامِّ إذا رأى مراكبَ مقلِّدة بالذهب والفضة، ودارًا مشيِّدة مملوءة بالخدم والزينة قال: انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم! ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم! حتى يقول: فلانُ يصلي الجماعات والجمع، ولا يؤذي الذَّرَّ، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدِّي الزكاة، إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لو كانت الشرائع حقًّا لكان الأمرُ بخلاف ما ترى^(١)!

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: «وهذه حالةٌ قد شملت خلقًا كثيرًا من العلماء والجهَّال، أوَّلهم إبليس، فإنه نظر بعقله^(٢) فقال: كيف يفضِّل الطين على جوهر النار؟! وفي ضمِّنِ اعتراضه: إن حكمتك قاصرة، وأنا أجود! واتَّبَعَ إبليس في تفضيله واعتراضه خلقٌ كثير مثل الراوندي والمعرِّي، ومن قوله: إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ وترزق مجنونًا وترزق أحقًّا ولا ذنب يا ربَّ السماء على امرئٍ رأى منك ما لا يُشْتَهَى فتزندقا وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله،

(١) التيسير (٥٨٤).

(٢) أول من قاس إبليس، وأول من حسد إبليس، وأول من تكبَّر إبليس، وأول من افتخر بأصله إبليس. وهو هنا لم يوفِّق للحق والهدى حينما نظر بعقله القاصر بل خُذِلَ وحرِمَ مادَّة التوفيق فأبليس ولَّعن ورُجِمَ وشُطِنَ، عيادًا برَبَّنَا منه.

وانطلقوا إلى أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا.

وكان أبو طالب المكي يقول: ليس على المخلوق أضرُّ من الخالق! قال ابن الجوزي: ودخلتُ على صدقة بن الحسين الحداد، وكان فقيهاً غيرَ أنَّه كان كثير الاعتراض، وكان عليه جَرَبٌ، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جملٍ لا علي! وكان يتفقده بعض الأكابر بمأكولٍ فيقول: بعث لي هذا على الكبر وقت لا أقدر على أكله! وكان رجلٌ يصحبي قد قارب ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم، فمرض واشتدَّ به المرض فقال: إن كان يريد أن أموت فيميتني، وأما هذا التعذيب فماله معني! والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً! ورأيت آخر تزيّاً بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: أيش^(١) هذا التدبير؟!

وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما تُريدُ نُصَلِّي! وإذا رأوا رجلاً صالحاً يؤذى قالوا: ما يستحقُّ، قد حاف القدر! وكان قد جرى في زماننا تسلُّطُ من الظلمة، فقال بعض من تزيّاً بالدين: هذا حكمٌ باردٌ! وما فهم ذلك الأحق، فإنَّ الله على الظالم أن يسلِّط عليه أظلمَ منه^(٢). وفي الحمقى من يقول: أي فائدة في خلق الحيات والعقارب؟ وما علم

(١) أيش: أي ما هذا. وهي عربية فصيحة وأصلها: أي شيء؟

(٢) وهذا مفتقر للدليل، ويكفي الظالم الوعيد يوم القيامة، ولو تدبَّر من في قلبه مسكة عقل وإيمان آتني طه وإبراهيم لقفَّ شعره قبل ظلمه، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] وقال عز اسمه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا

أن ذلك أنموذج لعقوبة المخالف. وهذا أمرٌ قد شاع، ولهذا مددتُ النَّفْسَ فيه^(١).

واعلم أن المعترض قد ارتفع بزعمه أن يكون شريكاً وحاكماً على الخالق! وهؤلاء كلهم كفر، لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة. وإذا كان توقُّفُ القلبِ عن الرِّضَى بحكم الرسول ﷺ يُخْرِجُ عن الإيمان كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله؟! مع الاعتراض على الله؟!

وكان في زمن ابن عقيل رجلٌ رأى بهيمةً على غايةٍ من السَّقَمِ فقال: وارحمتي لك، واقلةً حيلتي في إقامة التأويلِ لمُعَذِّبِكَ! فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَقِيلٍ: إِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى حَمْلِ هَذَا الْأَمْرِ لِأَجْلِ رِقَّتِكَ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَمُنَاسَبَتِكَ الْجَنَسِيَّةِ، فَعِنْدَكَ عَقْلٌ تَعْرِفُ بِهِ تَحْكُمُ الصَّانِعَ. وَحِكْمَتُهُ تُوجِبُ عَلَيْكَ التَّأْوِيلَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ اسْتَطَرَحْتَ لِطَاطِرِ الْعَقْلِ، حَيْثُ خَانَكَ الْعَقْلُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ^(٢).

عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٤٢﴾ والظلم هنا عامٌّ، وأخصّه وأشدّه الإشرak بالله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وفي نسخة الآداب الشرعية لابن مفلح: «أن الله يُملي للظالم». ولعلها هي الصواب، وما عداها محرّف عنها.

(١) الآداب الشرعية (٢/١٣٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد، سليمان آل الشيخ (٦٨١-٦٨٣) باختصار.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: مَنْ نَظَرَ إِلَى أَفْعَالِهِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ أَنْكَرَ^(١)، فَأَمَّا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَالِكٌ وَحَكِيمٌ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ قَدْ تَخْفَى سَلَمَ لِمَا لَمْ يَعْلَمْ عِلَّتُهُ بِأَفْعَالِهِ مُسْلِمًا إِلَى حِكْمَتِهِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يَخْتَرِزْ بِعَقْلِهِ مِنْ عَقْلِهِ هَلَكَ بِعَقْلِهِ.

وَهَذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، فَإِنَّا إِذَا قُلْنَا لِلْعَقْلِ هُوَ حَكِيمٌ قَالَ: لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَجَائِبَ أَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ حَكِيمٌ، فَإِذَا رَأَيْتُ مَا يُصْدِرُ مَا ظَاهِرُهُ يُنَافِي الْحِكْمَةَ؛ نَسَبْتُ الْعَجْزَ إِلَيْهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ تَسْلِيمَ الْعُقُولِ لِمَا يُنَافِيهَا، وَذَلِكَ عِبَادَةُ الْعُقُولِ. وَصَارَ هَذَا كَمَا خَفِيَ عَنْ مُوسَى حِكْمَةُ فِعْلِ الْخَضِرِ، وَقَدْ يَخْفَى عَلَى الْعَامِّيِّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَلِكُ.

وَلَا تَتِمُّ الرَّجُلَةُ^(٢) فِي الْعَبْدِ حَتَّى يَكُونَ فِي مَقَامِ اخْتِلَالِ أَحْوَالِهِ، وَإِشْبَاطِ أَخْلَاطِهِ وَأَفْرَاجِهِ، وَتَسَلُّطِ أَعْدَائِهِ؛ ثَابِتًا بِثُبُوتِ الْمُتَلَقِّيِّ وَالْمُتَوَقِّيِّ. فَيَتَلَقَّى النِّعَمَ بِالشُّكْرِ لَا بِالْبَطْرِ، مُتَمَاسِكًا عَنْ تَحْرُكِ الرَّعْنِ، وَعِنْدَ الْمَصَائِبِ مُسْتَسْلِمًا نَاطِرًا إِلَى الْمُتَبَلِّ بِعَيْنِ الْكَمَالِ، وَعِنْدَ اشْتِطَاطِ الْغَضَبِ مُتَلَقِّيًا بِالْحُكْمِ، وَعِنْدَ الشَّهَوَاتِ مُسْتَحْضِرًا لِلْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. فَسُبْحَانَ مَنْ كَمَنَّ جَوَاهِرَ الرِّجَالِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَادِ، ثُمَّ أَظْهَرَهَا بِإِبْتِلَائِهِ لِيُعْطِيَ عَلَيْهَا جَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَيَجْعَلَهَا حُجَّةً عَلَى

(١) أي ابتداء الرأي وظاهره عند بعضهم، أمّا مع التأمل وردّ النظر لتلمّس الحكم فإن العقل الصحيح بالنية الخالصة يهdy للتسليم والصواب بإذن الله تعالى. أما النفس المؤمنة فمع التسليم مطلقاً. والإسلام قائم على أمرين: التعظيم والتسليم.

(٢) أي الرجولة التي يُحمد عليها.

بَقِيَّةَ عِبَادِهِ.

وَقَالَ: زِنُوا أَنْفُسَكُمْ: مِنَ الْمُبَادِي مَاءٌ وَطِينٌ، وَفِي الثَّوَانِي مَاءٌ مَهِينٌ، وَفِي
الْوَسْطِ عَيْدٌ مُحَاوِجٌ. لَوْ حَبَسَ عَنْكُمْ نَسِيمَ الْهَوَاءِ لَأَصْبَحْتُمْ جِيعًا، وَلَوْ مُكِّنَتْ
مِنْكُمْ الْبُقُوقُ عَنِ السَّبَاعِ لَأَكَلْتَكُمْ، كُونُوا مُتَعَرِّفِينَ لَا عَارِفِينَ» (١).



(١) الآداب الشرعية، ابن مفلح الحنبلي (٢ / ٢٩٠-٢٩٥) مختصرًا.

إحسان الظن بعباد الله تعالى

المؤمن نقي السريرة، طيب النفس، سليم الصدر، صحيح الطوية، يجب للمسلمين ما يجب لنفسه، يرجو ربه، ويخاف ذنبه، ويجب إخوانه في دين ربه، انشغل بعيوبه عن عيوب غيره، وإن أصابه أمر لا يحبّه من مسلم التمس له المعاذير، وأكثر على نفسه تعليلها بلعله ولعله، ولعلّ له عذراً لا أعلمه، إن تكلم فبعلم، وإن صمت فبحلم، يستغفر للمؤمنين، ويوسع لهم نطاق المَعذرة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُو ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

قال ابن عاشور: «فيه تنبيه على أنّ حقّ المؤمن إذا سمع قالةً في مؤمن، أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشكّ، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحيّة المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير، ظنّ أن ذلك إفكٌ وهتان، حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأنّ ظنّ السوء الذي وقع هو من خصال النفاق، التي سرت لبعض المؤمنين عن غرورٍ وقلة بصارة، فكفى بذلك تشنيعاً له» (١).

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٨/١٧٤ - ١٧٥). مع التنبيه إلى أن كثيراً من مادة هذا الفصل (إحسان الظن بعباد الله) مستفادة من موسوعة الدرر السنية للأخلاق.

وقال أبو حيان الأندلسي: «فيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله في أخيه، أن يبني الأمر فيه على ظن الخير، وأن يقول بناء على ظنه: هذا إفك مبين، هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحسن»^(١).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن حجر الهيتمي: «عقب تعالى بأمره باجتناب الظن، وعلل ذلك بأن بعض الظن إثم، وهو ما تخيلت وقوعه من غيرك من غير مستند يقيني لك عليه، وقد صمم عليه قلبك، أو تكلم به لسانك من غير مسوغ شرعي»^(٢).

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيراً من الظن بالمؤمنين، وذلك أن تظنوا بهم سوءاً، فإن الظان غير محق، وقال جل ثناؤه: اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، لم يقل: الظن كله، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأذن الله جل ثناؤه للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قبيله فيهم على يقين... وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ

(١) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (٢١/٨-٢٢).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، للهيتمي (٩/٢).

الظَّنِّ ﴿١﴾ يقول: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا. وقوله: ﴿إِنَّكَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ﴿٢﴾ يقول: إنَّ ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشرَّ لا الخير، إثمٌ؛ لأنَّ الله قد نهاه عنه، ففعل ما نهى الله عنه إثمٌ ﴿١﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» ﴿٢﴾.

قال النووي: «المراد: النَّهْيُ عَنِ ظَنِّ السَّوِّءِ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: هُوَ تَحْقِيقُ الظَّنِّ وَتَصْدِيقُهُ دُونَ مَا يَهْجَسُ فِي النَّفْسِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُمْلِكُ. وَمَرَادُ الْخَطَّابِيِّ أَنَّ الْمَحْرَمَ مِنَ الظَّنِّ مَا يَسْتَمِرُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَقِرُّ فِي قَلْبِهِ، دُونَ مَا يَعْرِضُ فِي الْقَلْبِ وَلَا يَسْتَقِرُّ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَكْلَفُ بِهِ» ﴿٣﴾.

وقال الغزالي: «أَيُّ: لَا يَحْقُقُهُ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ وَلَا فَعْلٍ، لَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْجَوَارِحِ، أَمَّا فِي الْقَلْبِ فَبِتَغْيِيرِهِ إِلَى النُّفْرَةِ وَالْكَرَاهَةِ، وَأَمَّا فِي الْجَوَارِحِ فَبِالْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ. وَالشَّيْطَانُ قَدْ يَقَرَّرُ عَلَى الْقَلْبِ بِأَدْنَى مَخِيلَةٍ مَسَاءَةِ النَّاسِ، وَيُلْقِي إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا مِنْ فِطْنَتِكَ، وَسُرْعَةً فَهَمَّكَ وَذَكَائِكَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ عَلَى التَّحْقِيقِ نَازِلٌ بِغُرُورِ الشَّيْطَانِ وَظُلْمَتِهِ» ﴿٤﴾.

(١) تفسير الطبري، (٣٠٣/٢٢-٣٠٤).

(٢) عبد الرزاق (٢٠٢٢٨)، وأحمد (٨١٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٦٤).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (١١٩/١٦).

(٤) الإحياء، للغزالي (١٥١/٣).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فقال: «ما أعظم حُرْمَتَكَ» وفي رواية أبي حازم: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، قال: «مرحباً بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتَكَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِكَبَرِ حُرْمَةِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنْكَ وَاحِدَةً، وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثًا: دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوَاءِ»^(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يَحِلُّ لِمَرِّئٍ مُسْلِمٍ يَسْمَعُ مِنْ أَخِيهِ كَلِمَةً يَظُنُّ بِهَا سُوءًا، وَهُوَ يَجِدُ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ مَخْرَجًا». وقال أيضًا: «لا يَنْتَفِعُ بِنَفْسِهِ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِظَنِّهِ»^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من علم من أخيه مروءة جميلة فلا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦/٥) (٦٧٠٦)، وضعف إسناده العراقي في تخريج الإحياء (١٨٦/٣)، وقال في موضع آخر (٢٢١/٢): رجاله ثقات، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٢٠): إسناده حسن رجاله ثقات. وله شاهد من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة وهو يقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتَكَ. والذي نفس محمد بيده، لحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةُ مَنْكَ، مَالَهُ وَدَمَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا» رواه ابن ماجه (٧٨٥)، قال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٢٨٤/٢): إسناده فيه مقال. وقال ابن حجر في الكافي الشافي (٢٦٨): إسناده فيه لين. وأورده الألباني في الصحيحة: (٣٤٢٠)، وصحيح الترغيب والترهيب: (٢٤٤١).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٤٧/١).

يسمعنَّ فيه مقالات الرِّجال، ومن حَسُنَتْ علانيته فنحن لسريته أرجى» (١).

وعن سعيد بن المسيَّب قال: كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً» (٢).

وقال المهلب: «قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسناً أبداً، إذ يقول: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فإذا جعل الله سوء الظنِّ بالمؤمنين إفكاً مبيناً، فقد ألزم أن يكون حُسْنُ الظنِّ بهم صدقاً بيناً» (٣).

وقد أجاز العلماء بعض صور سوء الظن، قال أبو حاتم: «سوء الظنِّ على ضربين:

أحدهما: منهي عنه بحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والآخر: مستحب (٤). فأما الذي نهى عنه، فهو استعمال سوء الظنِّ بالمسلمين كافةً، وأما الذي يستحب من سوء الظنِّ، فهو كمن بينه وبين آخر عداوة أو شحناء في دين أو دنيا، يخاف على نفسه من مكره، فحيثئذ يلزمه سوء الظنِّ بمكائده ومكره؛ كي لا يصادفه على غرة بمكره فيهلكه» (٥).

(١) ذكره ابن بطلال في شرح صحيح البخاري (٢٦١/٩).

(٢) الاستذكار، لابن عبد البر (٢٩١/٨).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٢٦١/٩).

(٤) لو قال: «مباح» كان أولى، والله أعلم.

(٥) روضة العقلاء، لابن حبان البستي (١٢٧).

والمؤمن يحمل الكلام على أحسن محامله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويلتمس الأعذار للمؤمنين، قال ابن سيرين: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذراً، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذراً لا أعرفه»^(١).

وفي التماس الأعذار راحة للنفس من عناء الظن السيئ، الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضاً إبقاء على المودة، وحفاظ عليها من الزوال والانتها.

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ
والمؤمن الراجي رحمة ربه يجري الأحكام على الظاهر، ويوكل أمر الضمائر إلى الله عز وجل، ويتجنب الحكم على النيات، فإن الله لم يكلّفنا أن نفتش في ضمائر الناس. والاكتفاء بظاهر الشخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حسن الظن، وأقوى أسبابها.

وعلى المسلم أن يستحضر الآفات التي تنتج عن سوء الظن، وما يترتب عليه من آثار، فهو دافع لأن يُحسن الرجل ظنه بغيره. وعليه كذلك أن يتعدى عن كل من اتصف بما يصادف هذه الصفة الحسنة التي عابها على أخيه المسلم، فلا يكن ممن لا يتورعون عن إلقاء التُّهم على عباد الله جزافاً بلا تثبُّت. فقد قيل لبعض العلماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: «من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله».

لقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم حسن الظن، وربّ

(١) روض الأخیار المنتخب من ربيع الأبرار، للأمامي (١/٧٠).

الأمة عليه، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُؤْمِنِ السَّلَامَةُ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا بَدَّ لَهُ مِنَ التَّمَاسِ الْأَعْذَارَ لِمَنْ حَوْلَهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَطْرُدَ الشُّكُوكَ وَالرَّيْبَةَ الَّتِي قَدْ تَدَخَّلَ فِي قَلْبِهِ، فَيَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنَ الْآثَارِ مَا لَا يُحْمَدُ عَقْبَاهُ. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ دَاخَلَتْهُ الرَّيْبَةُ فِي امْرَأَتِهِ، وَأَحَاطَتْ بِهِ ظُنُونُ السُّوءِ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا وَلَدَتْ غَلَامًا أَسْوَدَ، عَلَى غَيْرِ لَوْنِهِ وَلَوْنِهَا، فَأَزَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ ظَنٍّ وَرَيْبَةٍ، بِسُؤَالِهِ عَنْ لَوْنِ إِبْلِهِ، فَقَالَ: أَلْوَانُهَا حُمْرٌ. قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟»^(١) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَتَى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعُهُ عِرْقٌ. قَالَ: «فَلْعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعُهُ عِرْقٌ»^(٢).

وَلَمَّا مَرَضَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَتَاهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ يَعُودُهُ، فَقَالَ لِلشَّافِعِيِّ: قَوِّىَ اللَّهَ ضَعْفَكَ! فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَوْ قَوِّىَ ضَعْفِي لَقَتَلَنِي». قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْخَيْرَ. فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «أَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ سَبَبْتَنِي مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْخَيْرَ»^(٣).

(١) الأورق: هو الذي فيه سواد ليس بصاف. شرح النووي على مسلم (١٣٣/١٠).
(٢) نزعه عرق: العرق هو الأصل من النسب، تشبيهاً بعرق الثمرة، ومعنى نزعه: أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه. شرح النووي على مسلم (١٣٣/١٠) والحديث متفق عليه، البخاري (٥٣٠٥)، مسلم (١٥٠٠) وهو من أدلة الأصوليين في ثبات حجية القياس في الشريعة.

(٣) آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم (٢٠٩).
وهو الإمام العلم أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس القرشي المطلبي، المكي نزيل مصر.

قال تلميذه وقرينه الإمام أحمد: «إن الله تعالى يقيض للناس في رأس كل مئة سنة

وقد قالت الحكماء: «من جعل لنفسه من حُسْنِ الظَّنِّ بإخوانه نصيبًا، أراح قلبه». أي إنَّ الرَّجُلَ إذا رأى من أخيه إعراضًا أو تغيرًا، فحمله منه على وجه جميل، وطلب له الأعذار، خَفَّفَ ذلك عن قلبه، وَقَلَّ منه غيظه واغتمامه. وقال محمد بن حرب: «صواب الظَّنِّ، الباب الأكبر من الفراسة». وقال رجل لصاحب له: إنَّما اشتدَّ غضبي؛ لأنَّ من كان علمه أكثر، كان ذنبه أكبر، قال: «فهلَّا جعلت سعة علمي سبيلًا إلى حُسْنِ الظَّنِّ بنزوعي، أو إلى أنِّي غالط في تفريطي، مخطئ بقصدي، غير معاند لك، ولا جريء عليك»^(١).

وقال الخليل بن أحمد: «يجب على الصَّدِيق مع صديقه استعمال أربع خصال: الصَّفْح قبل الاستقالة، وتقديم حُسْنِ الظَّنِّ قبل التُّهْمَة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب». وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتكَ خاطبًا لمودَّتِكَ. قال: «قد زوجتكها على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع فيَّ مقالة النَّاسِ»^(٢).

وقال أحد الزُّهاد: «أَلْقِ حُسْنَ الظَّنِّ على الخَلْق، وسوء الظَّنِّ على نفسك،

من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي»، توفي سنة ٢٠٤.
ترجمته في: تاريخ بغداد ٥٦/٢، وتذكرة الحفاظ ٣٦١/١، وترتيب المدارك ٣٨٢/٢، وتهذيب التهذيب ٣٥/٩.

(١) الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي (١٥٩).

(٢) غرر الخصائص الواضحة، لأبي إسحاق الوطواط (٥٤٢).

لتكون من الأوَّل في سلامة، ومن الآخر على الزيادة».

ولابد في الغالب من علاقة بين طبع سيء الظن وبين سوء ظنه كما قال أبو

الطيب المتنبّي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقولٍ عداته فأصبح في داجٍ من الشكِّ مظلّم

هذا ومن مفردات حُسن الظن بالمؤمنين معاملتهم بظواهرهم دون التنقيب عن سرائرهم وامتحنهم إلا لما لا بدّ منه مما هو على خلاف الأصل، وقد ابتلي فئام من الناس في زماننا بسوء الظنون بعباد الله، والتنقيب عن بواطنهم في ما لا طائل من ورائه ولا ضرورة ملجئة له، إنما هو العُجب والكبر وسوء الظن وصولة العلم والأمر! فللعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صولةٌ إن لم يتداركها صاحبها فتنته وأهلكته، والله المستعان.

قال شيخ الإسلام وسئل عن الصلاة خلف المرازقة: «يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ وَالْجُمُعَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ بِدْعَةٌ وَلَا فِسْقًا بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِئْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ الْمُأْمُومُ اعْتِقَادَ إِمَامِهِ وَلَا أَنْ يَمْتَحِنَهُ فَيَقُولُ: مَاذَا تَعْتَقِدُ؟ بَلْ يُصَلِّيَ خَلْفَ مَسْتُورِ الْحَالِ»^(١).

وقد يحتاج المؤمن في معاملاته أن يمتحن بعض الناس، قال شيخ

(١) مجموع الفتاوى (٢٣ / ٣٥١).

الإسلام: «وَالْمُؤْمِنُ مُحْتَاجٌ إِلَى امْتِحَانٍ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصَاحِبَهُ وَيُقَارِنَهُ بِنِكَاحٍ وَغَيْرِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَتُ مُهَاجِرَتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَنِهِنَّ»
 الآية [المتحنة: ١٠] فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُصَاحِبَ الْمُؤْمِنَ، أَوْ أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُصَاحِبَ أَحَدًا وَقَدْ ذَكَرَ عَنْهُ الْفُجُورُ وَقِيلَ إِنَّهُ تَابَ مِنْهُ،^(١) أَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقُولًا عَنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا؛ فَإِنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ بُرُّهُ أَوْ فُجُورُهُ، وَصِدْقُهُ أَوْ كَذِبُهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُؤَلِّيَ أَحَدًا وَلَايَةً أَمْتَحِنَهُ؛ كَمَا أَمَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُلَامَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ ابْنَ أَبِي مُوسَى لَمَّا أَعْجَبَهُ سَمْتُهُ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَكَانِي عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَمْ تُعْطِينِي إِذَا أَشْرْتَ عَلَيْهِ بِوَلَايَتِكَ؟ فَبَذَلَ لَهُ مَالًا عَظِيمًا! فَعَلِمَ عُمَرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْ يَصْلُحُ لِلْوَلَايَةِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْمَعَامَلَاتِ، وَكَذَلِكَ الصَّبِيَّانُ وَالْمَمَالِكُ الَّذِينَ عُرِفُوا أَوْ قِيلَ عَنْهُمْ الْفُجُورُ وَأَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَشْتَرِيَهُ بِأَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ. وَمَعْرِفَةُ أَحْوَالِ النَّاسِ تَارَةً تَكُونُ بِشَهَادَاتِ النَّاسِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالْجُرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ^(٢).



(١) قلت: وبعض السلف يمهلون التائب سنة كاملة، وحولاً كريئاً حتى تثبت توبته ويصح قبولها في معاملات الناس. وهذا وجيهٌ جداً، فما أسرع النفوس للانتكاسات، وأعجلها للنكوص، وأملها للجدد والأوبة!

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٣٠).

حديث الإفك، عبر وعبرَات

لقد توقّف العلماء كثيرًا متأمّلين متدبّرين عظمة وجلالة العبر من قصة الإفك الهائلة، وما في ثناياها من الرحمات الإلهية لنبي الله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، ولأهله وأصهاره من آل أبي بكر، وللأمة المرحومة من بعدهم.

إنّها الحادثة التي هزّت المجتمع الإسلامي النبوي، وأقلقت السادة، وقلقت الكبار، وأنصعت طيب أهل اليقين، وضوّعت نشرهم، وأشهرت فضلهم، وزلزلت إيمان من كان على حرفٍ، وحيرت عقولاً وأدهشت أفئدة! وأوهت أبنية بعض المتّقين، وأوهنت قوّة بعض الفضلاء، وهذّت عزائم آحادٍ من الحُلَماء، وزاغ فيها من زلّت به القدم إلى مراتع اللسان وسيء الظنون بأهل الإيمان، وثبتت الله أفئدة فئام من المؤمنين فأحسنوا الظن بعباد الرحمن، وأطلقوا على المفترين وحاملي الإفك سهام النكران، وعاتب الله تعالى المؤمنين الذين لم يلتزموا جانب الإحسان في ظنونهم تجاه الإخوان. وتولّى ربُّ العالمين ومالكُ الدنيا والدين، وجبارُ السماوات والأرضين الدّفاع عن الصّديقة أم المؤمنين، وعتاب من زل فيها من الصالحين، ولعنَ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين من المقتريين والأفاكين والمرجفين، وجعلها سبّحانه وبحمده آيةً شاهدةً للمؤمنين إلى يوم يقوم الأشهاد ويلقى العباد رب العالمين.

رَأَيْتُكَ وَلْيَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ حُرَّةً مِنْ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلٍ
حَصَانُ رَزَانٍ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرَثِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤْيٍ بَنِ غَالِبٍ كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلٍ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلٍ

وقد ذُكِرَتْ هذه القصة الجليلة المزلزلة في الصحاح والمسانيد بألفاظ متقاربة ومعانٍ متشابهة متوافقة، وخرّجها محدّث الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري رحمه الله في صحيحه في عدة مواضع، ومن أجمعها قوله رحمه الله تعالى ورضي عنه (١):

بَابُ حَدِيثِ الْإِفْكِ

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ

(١) انظر خبر الإفك بطوله على لسان أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليها وعلى أبيها في البخاري (١٩٨/٥، ٢٠١) (٣٣٣/٧، ٣٣٥) (٣٤٣/٨)، (٣٦٧) وانظر شرح الموضع الأخير من فتح الباري في تفسير سورة النور. وأخرجه مسلم (٣١٧٩، ١٧٣٠) والترمذي (٣١٧٩) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٨) وانظر: سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢، ٣٠٧) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٤/٣)، (٣١١) وتفسيره (٢٦٨/٣، ٢٧٢).

وهذا الحديث جدير بالإذاعة بين المسلمين، لأنّ تحته من العبر، وقرع غوافل القلوب، وترويح أرواح المبتلين، وبثّ أواصر حسن الظن بين عباد الرحمن ما لا يحوط به وصف.

ابن شهاب قال: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا^(١)، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ^(٢) قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ:

(١) قال السهيلي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١]: هم عبد الله ابن أبي، وحمئة بنت جحش، وعبد الله أبو أحمد أخوها، ومسطح، وحسان. انظر: الروض الأنف (٢٢/٤). وقيل: حسان لم يكن منهم. قلت: قد ثبت حده وتطهيره. وزاد النسفي: يزيد بن رفاعه. انظر: تفسير النسفي (١١٣/٣). وفي صحيح مسلم (٢١٣٨/٤): وكان الذين تكلموا: مسطح، وحمئة، وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمئة. ومعنى يستوشيه أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلًا إلى الغميمة.

أما الإفك فقال النسفي: الإفك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الأفك بالفتح مصدر قولك أفكه يافكه أفكًا إذا قلبه وصرفه عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَجْتَنَّا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ ءَاهِلِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وقيل للكذب إفك لأنه مصروف عن الصدق. تفسير النسفي (١١٤/٣) باختصار.

(٢) قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: كان ابن شهاب - قلت: وهو الزهري - أكثر الناس بحثًا

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ (١)، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا

عن هذا الشأن . أي حديث رسول الله ﷺ . فكان ربّما اجتمع له في الحديث جماعة، فحدّث به مرّة عنهم، ومرّة عن أحدهم، ومرّة عن بعضهم، على قدر نشاطه حين تحدّثه. وربّما أدخل حديث بعضهم في حديث بعض، كما صنع في حديث الإفك وغيره، وربما كسل فلم يُسند، وربما انشرح فوصلّ وأسند، على حسب ما تأتي به المذاكرة. فلذا اختلف عليه أصحابه اختلافاً كثيراً. ويبين ذلك روايته حديث ذي اليمين، رواه عنه جماعة، فمرّة يذكر فيه واحداً، ومرّة اثنين، ومرّة جماعة، ومرّة جماعة غيرها، ومرّة يصل، ومرّة يقطع. شرح الزرقاني للموطأ (١/ ٢٨٢).

وفي عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٢٠ / ٢٩٥): وقال الزهري: وكلهم حدثني طائفة: أي بعضاً، وهذا قول جائز سائغ من غير كراهة، لأنه قد بين أن بعض الحديث عن بعضهم، وبعضه عن بعضهم، والأربعة الذين حدثوه أئمة حفاظ، من أجلّة التابعين، فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو عن ذاك لم يضر، وجاز الاحتجاج بها، لأنهما ثقتان. وقد اتفق العلماء على أنه لو قال: حدثني زيد أو عمر وهما ثقتان معروفان بذلك عند المخاطب؛ جاز الاحتجاج بذلك الحديث.

وقوله: أوعى من بعض: أي أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث. وقوله: اقتصاصاً: أي حفظاً، يقال: قصصت الشيء، إذا تتبعته أثره شيئاً بعد شيء، ومنه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] ﴿ وَقَالَتِ لَأُخَيِّرَنَّ قُصْبِيهِ ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره.

(١) قال النووي رحمه الله: هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجهاهير العلماء في العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق، والوصايا، والقسمة ونحو ذلك. وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من

خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا (١)
فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ،
فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي (٢).

وَأُنْزِلَ فِيهِ، فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلْ، دَنَوْنَا

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: يونس، وزكريا، ومحمد ﷺ. قال بن
المنذر: استعملها - أي القرعة - كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها. شرح
النووي على مسلم: (١٧ / ١٠٣).

(١) هي غزوة المريسيع.

(٢) قال الحافظ: أي بعد ما نزل الأمر بالحجاب، والمراد: حجاب النساء عن رؤية
الرجال لهن، وكن قبل ذلك لا يُمنعن. وهذا قالته كالتوطئة للسبب في كونها كانت
مستترة في الهودج، حتى أفضى ذلك إلى تحميله وهي ليست فيه، وهم يظنون أنها
فيه، بخلاف ما كان قبل الحجاب، فلعل النساء حينئذ كن يركبن ظهور الرواحل
بغير هودج، أو يركبن الهودج غير مستترات، فما كان يقع لها الذي يقع، بل كان
يعرف الذي كان يخدم بغيرها إن كانت ركبت أم لا. الفتح: (٨ / ٤٥٥).

أما الهودج فهو: هو مركب من مراكب نساء العرب، عبارة عن محمل له قبة تُستر
بالأقمشة ونحوها، يوضع على ظهر البعير، تركبه النساء ليكون أستر لهن عند
السفر فوق البعير من العين والشمس والأذى. وفي رواية ابن إسحاق: فكننت إذا
رحلوا ببعيري جلسْتُ في هودجي، ثم يأخذون بأسفل الهودج، فيضعونه على ظهر
البعير. وقيل إن الذي كان يرحل هودجها، ويقود بغيرها هو أبو مويهبة، - أو
موهوبة - مولى رسول الله ﷺ، وراوي حديث مرضه ﷺ، وكان رجلا صالحا.

مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، أَذِنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ (١)، فَقُمْتُ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ (٢) قَدْ انْقَطَعَ (٣) فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ (٤)، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي (٥)، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى

(١) وقفل: أي رجع. وقولها: آذن ليلة: من الإيذان، ومن التأذين، قاله الكرمانى. ويقال: آذن بالمد والتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنْكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

(٢) جزع ظفار وروي أظفار: الجزع هنا: حجر منسوب لموضع باليمن يقال له: ظفار. وتروى جزع وهو الخرز، ولا شك أن حملة عليه أولى، فما تصنع بقلادة الحجارة؟! ويمكن الجمع بالقول بأنها حجارة كريمة ولعلها نوع من العقيق. ويقال: جزع ظفاري. وقال ابن التين: ورد في بعض الروايات أن العقد الملتمس مقدار ثمنه اثني عشر درهماً. والعقد: هو القلادة.

وانظر: شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٠٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠ / ٣٠٠) جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الجزري (٢ / ٢٧٢) الديباج على مسلم للسيوطي (٦ / ١٢٦).

(٣) قلت: إذا أراد الله أمراً هيئاً له أسبابه، وكم في هذا الأمر من لطيفة ربانية ومنحة رحمانية، فله الحمد في الأولى والآخرة.

(٤) وفي رواية ابن إسحاق: فرجعت عودِي على بدئي، إلى المكان الذي ذهبت إليه. وفي رواية الواقدي: وكنت أظن أن القوم لو لبثوا شهراً لم يبعثوا بعيري، حتى أكون في هودجي.

(٥) يَرَحْلُونَ وَيُرَحِّلُونَ: أي يجعلون الرَّحْلَ على البعير. رحلت البعير أي شددت عليه

بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبَلْنَ^(١)، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ^(٢)، فَلَمْ

الرحل. وفي لفظ: «يرحلون لي» باللام، قال النووي: يرحلون بي بالباء، واللام أجود. وقال الكرمانى: الرحل: المتاع. وقال بدر الدين العيني الحنفى: الرحل: المنزل والمسكن، يقال: انتهينا إلى رحالنا، أي إلى منازلنا. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٣٠١ / ٢٠).

(١) لم يَهْبَلْنَ: وهذا الضبط أشهر عند النووي، أي: لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن، والمُهْبَلُ: الكثير اللحم، الثقل الحركة من السَّمَنِ. وفي رواية للبخاري: «لم يثقلن» وهو بمعناه. وانظر: جامع الأصول، لمجد الدين ابن الجزري (٢ / ٢٧٢) وقال السيوطي في الديباج: لم يَهْبَلْنَ: ضُبِطَ بضم الياء وسكون الهاء والباء المشددة أي: لم يثقلن باللحم والشحم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لم يَهْبَلْنَهُنَّ اللحم»: أي لم يكثر عليهن، ولم يركب بعضه بعضاً حتى يُرهلهن: يقال منه: أصبح فلان مهبلًا، إذا كان مورم الوجه. غريب الحديث لابن سلام (٣٣٥ / ٤).

(٢) قال العيني في عمدة القاري: ولم يغشهن اللحم: أي لم يركب عليهن اللحم، يعني لم يكن سمينات.

العُلُقَةُ: البُلْغَةُ من الطعام، قدر ما يُمسك الرmq، تريد القليل. ويقال لها أيضا البُلْغَةُ، كأنه الذي يمسك الرmq وتعلق النفس للزيادة منه، أي تشوقها إليه. وقيل ما يمسك به المرء نفسه من الأكل وقيل هو ما يأكله من الغداة. وقال صاحب العين: العُلُقَةُ: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة، وأصلُ العُلُقَةُ شجر يبقى في الشتاء يعلق به الإبل، أي تجترىء به حتى يدرك الربيع، - قلت: ولعلها العُلُقَةُ،

يَسْتَنْكِرُ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السَّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا^(١)، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ! ^(٢) فَتَيَمَّمْتُ ^(٣) مَنَزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ^(٤)، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنَزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي

ويزعم اليهود أنها الشجرة التي كلم الله تعالى منها موسى عليه السلام..

(١) قال الحافظ: ويستفاد من ذلك أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عما في الهودج، بحيث أنها لم تكن فيه، وهم يظنون أنها فيه، وكأنهم جوزوا أنها نائمة.

قولها: وكنت جارية حديثه السن. هو كما قالت، لأنها أدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسيع أنها كانت في شعبان سنة ست، فتكون لم تكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسيع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك. ويحتمل أن تكون أشارت بذلك إلى بيان عذرها فيما فعلته من الحرص على العقد الذي انقطع، ومن استقلالها بالتفتيش عليه في تلك الحال، وترك إعلام أهلها بذلك، وذلك لصغر سنّها، وعدم تجاربها للأمور، بخلاف ما لو كانت ليست صغيرة؛ لكانت تتفطن لعاقبة ذلك، وقد وقع لها بعد ذلك في ضياع العقد أيضاً أنها أعلمت النبي ﷺ بأمره، فأقام بالناس على غير ماء، حتى وجدته، ونزلت آية التيمم بسبب ذلك، فظهر تفاوت حال من جرب الشيء ومن لم يجربه. الفتح: (٨ / ٤٦١).

(٢) داع ولا مجيب: أي ليس بها أحد لا من يدعو، ولا من يرد جواباً.

(٣) أي: قصدت، مِنْ أَمٍّ، ومنه ﴿ءَامِينَ أَلَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

(٤) وهذا من وافر عقلها ورجاحة فكرها، وهكذا ينبغي لمن فقد شيئاً أن يرجع بفكره القهقري، إلى الحد الذي يتحقق وجوده، ثم يأخذ من هناك في التنقيب عليه. ذكره

فَنِمْتُ^(١)، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ^(٢)، فَأَصْبَحَ

الحافظ وقال: وأرادت بمن يفقدها من هو منها بسبب كزوجها أو أبيها، والغالب الأول، لأنه كان من شأنه ﷺ أن يُسَايرَ بعيرها، ويتحدّث معها، فكان ذلك لم يتفق في تلك الليلة، ولما لم يتفق ما توقعته من رجوعهم إليها ساق الله إليها من حملها بغير حول منها ولا قوة.

(١) قال الحافظ: يحتمل أن يكون سبب النوم شدة الغم الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغم - وهو وقوع ما يكره - غلبة النوم، بخلاف الهم - وهو توقع ما يكره - فإنه يقتضي السهر. أو لما وَقَعَ من برد السحر لها، مع رطوبة بدنها، وصغر سنها. وعند ابن إسحاق: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني. أو أن الله سبحانه وتعالى لطف بها، فألقى عليها النوم، لتستريح من وحشة الانفراد في البرية بالليل.

(٢) وراء الجيش: لينظر من سقط له شيء يأتيه به. وكان صفوان على الساقة - وهي مؤخرة الجيش - يلتقط ما يسقط من متاع الجيش، ليرده إليهم. وقيل: إنه كان ثقیل النوم، لا يستيقظ حتى يرتحل الناس، وقد جاء في سنن أبي داود أن امرأته شكت ذلك منه لرسول الله ﷺ فقال صفوان: إنا أهل بيت نوم عُرِفَ لنا ذلك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. وذكر القاضي أبو بكر بن العربي أن صفوان كان حصورًا، لا يأتي النساء.

وأول مشاهدته المريسيع، وقيل الخندق وما بعدها. وكان شجاعًا، خيرًا، شاعرًا. وعن ابن إسحاق: قُتِلَ في غزوة أرمينية شهيدًا سنة تسع عشرة، واندقت رجله يوم قُتِلَ فطاعن بها وهي منكسرة حتى مات! وقيل: توفي في خلافة معاوية سنة ثمان وخمسين.

ولما صَرَبَ حسان بن ثابت بسيفه لما هجاه لم يقتصه منه رسول الله ﷺ بل استوهب

عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ^(١) إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي، وَكَانَ رَأَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ^(٢) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَرْتُ^(٣) وَجْهِي بِجِلْبَابِي^(٤)، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ^(٥) وَهَوَى^(٦) حَتَّى أَنَاخَ رَاِحَلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا^(٧)، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكَبْتُهَا، فَأَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ^(٨) وَهُمْ نَزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلْكَ مَنْ

من حسان جنائته، فوهبها لرسول الله ﷺ، فعوضه منها حائطاً من نخيل وسيرين أخت مارية. وقيل: إن إعطاء رسول الله ﷺ لحسان سيرين إنما كان لذبّه عن رسول الله ﷺ. عمدة القاري (٣٠٣ / ٢٠).

- (١) سواد إنسان أي شخصه الذي لم تتبين ملامحه.
- (٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الحافظ: وكأنه شقّ عليه ما جرى لعائشة، أو خشي أن يقع ما وقع، أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعاً به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر، صيانة لها عن المخاطبة في الجملة، وقد كان عمر يستعمل التكبير عند إرادة الإيقاظ. وفيه دلالة على فطنة صفوان وحسن أدبه.
- (٣) فخمريت أي غطيت. ومنه سميت الخمر لتغطيتها العقل.
- واحذر الخمرة لا تشربها كيف يسعى لجنون من عقل!
- (٤) بجلبابي: الجلباب: ما يغطي به الإنسان من ثوب أو إزار.
- (٥) ظاهر الكلام أنه لم يُسلم عليها لعظيم صيانه وجيل عفافه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعنه، وفيه القسم للتأكيد ولو لم يُطلب.

- (٦) هوى: هوى الإنسان: إذا سقط من علوّ، والمراد: أنه نزل من بعيره عَجْلاً.
- (٧) أي فوطئ صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها فلا يكون احتياج إلى مساعدة.
- (٨) قال النووي: المُوْغِر: النازل في وقت الوَغْرَةِ، وهى شدة الحر. ونحر الظهيرة: وقت

هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرَ الْإِفْكِ^(١) عبد الله بن أبي ابن سلُول. قَالَ عُرْوَةُ: أَخْبَرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيَتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيَقْرُءُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ^(٢)، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمُسْطَحُّ بْنُ أَثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عَلِمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عَصَبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى^(٣)، وَإِنَّ كِبَرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عبد الله بن أبي ابن سلُول. قَالَ عُرْوَةُ:

القائلة، وشدة الحر. وقيل: نحر كل شيء أوله. قال العيني: شدة الحر، والنحر الأول، والصدر، وأوائل الشهر تُسمى النحور. وقال الداودي: الظهيرة: نصف النهار عند أول الفياء. وقال ابن الجزري: ومنه يقال: وغر صدره يوغر: إذا اغتاط وحمي، وأوغره غيره، فيكون قولها: موغرين أي: داخلين في شدة الحر. وقال الخطابي: نحر الظهيرة: أول القائلة. قلت: ولا زال على لسان أهل نجد.

(١) كبر الإفك: معظمه.

(٢) يستوشيه: أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء، كما يستوشي الرجل فرسه: إذا ضرب جنبه بعقبه أو بسوطه ليجري، يقال: أوشى فرسه، واستوشاه.

(٣) قال البقاعي رحمه الله في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٥ / ٢٤١): ذكر الله أنهم عصبة. وقد ذكروا حسان منهم، وأنا والله لا أظن به أصلاً وإن جاءت تسميته في الصحيح، فقد يخطئ الثقة لأسباب لا تحصى، كما يعرف ذلك من مارس نقد الأخبار، وكيف يظن ذلك ولا شغل له إلا مدح النبي ﷺ، والمدافعة عنه والذم لأعدائه، وقد شهد رسول الله ﷺ أن جبريل عليه السلام معه، فأقسم بالله أن الذي أيده بجبريل ما كان ليكله إلى نفسه في مثل هذه الواقعة، وقد سبقني إلى الذب عنه الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي رحمه الله. وكيف لا ينافح عنه وهو القائل:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاءً

وهو القائل يمدح عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويكذب من نقل عنه ذلك:

فإن كان ما بُلِّغَ عَنِّي قُلْتُه فلا رفعت سوطي إليّ أنا ملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الإفك، وجلد فيه. ورووا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها برأت من ذلك.

قلت: أما جلده فثابت، وكذلك اتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له بذلك، وضرب صفوان له بالسيف، وليس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعصوم، وتأيد الروح القدس له ليس بوارد هنا، لأنه إنما دُعي بتأييده في هجاء الكفار، حتى ورد أن جبريل قد أيده بسبعين بيتاً من أبيات الشعر المصمية للكفرة، وعلى كُلِّ فالحَدِّ كفارة، والتوبة كفارة، وأقوى ما يمكن أن تقاوم به روايات الإثبات هي نفيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قيل عنه وإنكاره، بل وإرسال ذلك في أبيات سائرة، مشفوعة بدعاء على نفسه إن كان كاذباً، فلعله. وهذا الظن الحسن به وبأصحاب رسول الله ﷺ. قد شهد عليه زوراً، أو فهم منه ما لم يقصده فجلد مع غيره، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فهو شاعر الإسلام بلا مدافع.

وفي السيرة الحلبية: ولم يُحَدِّ الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول؛ لأن الحد كفارة، وليس من أهلها. وقيل: لأنه لم تقم عليه البيعة بذلك، بخلاف أولئك، وقيل: لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عنده، بل على لسان غيره.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما زنت - وفي لفظ - لم تبغ امرأة نبي قط. وأما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فالمراد: آذتاها، قالت امرأة نوح عليه السلام في حقه: إنه المجنون، وامرأة لوط عليه السلام دلت على أضيافه. قلت: ولعل الخيانة في الآية هي خيانة الدين، وذلك بالكفر بالله ورسله.

وقيل: إنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام، ولم يجز أن تكون فاجرة أي زانية؛ لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه، والكفر غير منقص عندهم، وأما الفجور فمن أعظم النقصان.

كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانٌ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءٌ..

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا^(١) وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ^(٢) فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيئُنِي فِي

وفي الخصائص الصغرى: ومن قذف أزواجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ فلا توبة له البتة، كما قال ابن عباس وغيره. أي لا تقبل ظاهراً وإن قبلها الله بينه وبين عبده، وهذا فرعٌ عن سبِّ الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإن توبته ظاهراً لا تقبل على المشهور، كما حرّره شيخ الإسلام في الصارم المسلول. ويُقتل، كما نقله القاضي عياض وغيره، وقيل: يختص القتل بمن قذف عائشة، ويحد في غيرها حدين. قلت: وروي نحوه عن ابن عمر، وفي رواية ضعيفة أن ابن أبي جُلْد مئة وستين.

وقد وقع أن الحسن بن يزيد الراعي من أهل طبرستان وكان من العظماء الزهاد الأمرين بالمعروف، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرّق على أولاد الصحابة، فحضر عنده رجل من أشياع العلويين فذكر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالقبيح، فقال الحسن لغلامه: يا غلام، اضرب عنق هذا، فنهض إليه العلويون وقالوا: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله، هذا طعن على رسول الله، قال الله تعالى: ﴿الْحَيِثُتُ لِلْحَيِثِينَ وَالْحَيِثُتُ لِلْحَيِثِينَ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ﴾ فإن كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خبيثة فإن زوجها يكون خبيثاً وحاشاه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذلك، بل هو الطيب الطاهر، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر، فضرِبَ عنقه. باختصار عن السيرة الحلبية: (٢/ ٦٢٥ - ٦٢٧).

(١) وهذا من رحمة الله بها إذ لم تسمع قَالَةَ الناس لانشغالها عنهم بمرضها.

(٢) يفيضون: الإفاضة في الحديث: التحدث به، ونشره، وإشهاره، والخوض فيه بين

وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسْلَمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»^(١) ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيْنِي^(٢) وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ^(٣)، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ^(٤) قَبْلَ الْمَنَاصِعِ^(٥)، وَكَانَ مُتَبَرِّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا

الناس. يقال: أفاض القومُ في الحديث: إذا اندفعوا فيه يخوضون، وهو من قوله: ﴿لَسَكُمْ فِي مَا أَفْضَئْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٤١].

(١) تَيْكُم: إشارة إلى المؤنث كـ«ذاكم» في المذكر.

(٢) يَرِيْب: من الرِّيب والريبة وهي الشك. ووردت بفتح الياء وهي أفصح كما في حديث: «دع ما يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ» (أحمد: ٢٢٣٤) (البيهقي في السنن: ٢٠٨٤٠) (الترمذي: ٢٥١٨ وصححه) وهو ما استعملته الصديقة في كلامها، وثُرِي بالضم وهي صحيحة، وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد الحسيني (٥٤٩/٢) وهو كتاب حافل جامع كبير. قال النووي: يَرِيْبِي: بفتح أوله وضمه، يقال: رابه وأرابه، إذا أوهمه وشكَّكه. واللطف: هو البر والرفق.

(٣) نقهت: بفتح القاف وكسرهما، والناقَه: الذي أفاق من المرض، وبرأ منه، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته. وجمع الناقِه نُقَّه، ويقال: أنقَهه الله.

(٤) أُمِّ مِسْطَحٍ: اسمها سلمى، مشهورة بكينيتها. ويقال: اسمها ريطه. ومسطح لقب، واسمه عامر، وقيل: عوف. قال ابن سعد: أسلمت أُمُّ مِسْطَحٍ، فحسن إسلامها، وكانت من أشد الناس على مسطح حين تكلم مع أهل الإفك. ترجمتها في: الإصابة ٣٠٢/٨-٣٠٣.

(٥) المناصع: المواضع الخالية، تُقْضَى فيها الحاجة، من الغائط والبول، وأصله: مكان

لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَتَّخِذَ الْكُنْفَ^(١) قَرِيبًا مِنْ بِيُوتِنَا. قَالَتْ: وَأَمَرْنَا أُمُّ الْعَرَبِ الْأَوَّلَ فِي الْبَرِّيَّةِ قَبْلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنْفِ أَنْ تَتَّخِذَهَا عِنْدَ بِيُوتِنَا.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ . وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُحْمٍ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرٍ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ . فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا^(٢) فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ!^(٣)

فسيح خارج البيوت، واحدها: منصع. وفي الديباج: المناصع مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

(١) الكنيف: موضع قضاء الحاجة. والجمع كُنْفٌ. ومن هنا قيل للوعاء الذي يحرز فيه الشيء: كنِف، كقول عمر في ابن مسعود: كُنِفٌ مُلِئٌ عِلْمًا. ويقال للبناء الساتر لما وراءه: كنيف. قال أهل اللغة: الكنيف الساتر مطلقًا، وسُمِّيَ به موضع الغائط لأنهم يستترون به.

قوله: وأمَرْنَا أُمُّ الْعَرَبِ الْأَوَّلَ: تعني في التبرُّز خارج المدينة. وقولها: التنزه: أي طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء. قال الخطابي: والمتبرِّز: المكان الذي تُقضى فيه حاجة الإنسان، والبراز أيضًا اسم ذلك المكان، وبها سُمِّيَ الحدثُ برازًا، كما يسمَّى الحدث بالغائط، وهو المطمئن من الأرض. - قلت: وهذا من باب تسمية الشيء بمكانه كناية وحياء. - قال: والتنزه: البعد عن البيوت، وكانوا يبعدون عنها عند حاجة الإنسان. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٣ / ٨).

(٢) مرطها: المرط كساء من صوف، أو خز، يؤتز به، وجمعه: مروط.

(٣) تعس الإنسان: أي عثر. ويقال في الدعاء على الإنسان: تعس فلان، أي: سقط لوجهه. ومنه حديث: «تعس عبد الدينار..» فقولها: تعس مسطح أي كُِبَّ لوجهه،

فَقُلْتُ: لَهَا بِنْسَ مَا قُلْتَ، أَتُسَيِّنَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا! فَقَالَتْ: أَيُّ هَتَّاهُ^(١)، وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي^(٢)، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

أو هلك.

(١) قال الحافظ: قال أبو محمد بن أبي حمزة: يحتمل أن يكون قول أم مسطح هذا عمداً، لتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة، ويحتمل أن يكون اتفاقاً أجراه الله على لسانها، لتستيقظ عائشة من غفلتها عما قيل فيها.

وقولها: هتاه: أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منه منزل البعيد. والنكته فيه هنا: أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها، لإنكارها سب مسطح، فخاطبتها خطاب البعيد. الفتح: (٤٦٧ / ٨) وقال النووي: وفي رواية: يا هتاه. قال أهل اللغة: هذه اللفظة تختص بالنداء، ومعناها: يا هذه. وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نُسِبَتْ إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشروهم. ويقال في الثنية: هتتان، وفي الجمع: هنات وهنوات.

وفي المذكر: هن، وهنان، وهنون، ولك أن تلحقها الهاء لبيان الحركة فتقول: يا هنة، وأن تشيع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناء، ولك ضم الهاء فتقول: يا هناء أقبل. شرح النووي على مسلم (١٠٧ / ١٧).

قلت: ولغة العامة في نجد: هُنْ للمفرد المذكر، وهَنَ للمفردة المؤنثة، وكما ترى لها أصل صحيح.

(٢) قال الحافظ: وعند الطبراني بإسناد صحيح، عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما بلغني ما تكلموا به؛ هممت أن آتي قليلاً فأطرح نفسي فيه. وأخرجه أبو عوانة أيضاً. الفتح: (٤٦٧ / ٨).

فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هُوَنِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً^(١) عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرٌ، إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا^(٢). قَالَتْ: فَقُلْتُ:

(١) وضِيئة: الوضاعة: الحسن، ووضيئة: فعيلة بمعنى فاعلة. وقال النووي: وفي نسخة ابن ماهان حظية، من الخطوة، وهي الوجاهة، يقال حظيت المرأة عند زوجها: أي سعدت به، ودنت من قلبه، وأحبها.

(٢) ضرائر: جمع ضرة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقسم.

قال الحافظ: وفي هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تأتيها في تربيتهما ما لا مزيد عليه، فإنها علمت أن ذلك يعظم عليها، فهونت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك، لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدجمت في ذلك ما تُطَيَّبُ به خاطرهما من أنها فائقة في الجمال والخطوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به، مع ما فيه من الإشارة إلى ما وقع من حمنة بنت جحش، وأن الحامل لها على ذلك كون عائشة ضرة أختها زينب بنت جحش، وعرف من هذا أن الاستثناء في قولها: «إلا أكثرن عليها» متصل، لأنها لم تقصد قصتها بعينها، بل ذكرت شأن الضرائر، وأما ضرائرها هي فإئنه وإن كن لم يصدر منهن في حقها شيء مما يصدر من الضرائر، لكن لم يعدم ذلك ممن هو منهن بسبيل كما وقع من حمنة، لأن ورع أختها منعها من القول في عائشة، كما منع بقية أمهات المؤمنين، وإنما اختصت زينب بالذكر، لأنها التي كانت تضاهي عائشة في المنزلة. الفتح (٨ / ٤٦٨).

سُبْحَانَ اللَّهِ^(١)، أَوْلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقَا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ!^(٢) ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتَ الْوَحْيَ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ هُمْ فِي نَفْسِهِ^(٣)، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ^(٤)، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ^(٥)، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقْ.

(١) استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقها، مع براءتها المحققة عندها، ومنزهة ربه أن يختار لنبه الطيب غير الطيبة.

(٢) قولها: لا يرقأ: لا ينقطع. ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.

(٣) يعلم لهم: أي من الود.

(٤) أهلك: أي الزم أهلك. وإطلاق الأهل على الزوجة شائع. والجمع هنا لتعظيم أمرها.

(٥) أثر علي رضي الله عنه جانب النبي ﷺ لما رآه مغتماً، مع ما يعلم من شدة غيrote ﷺ، فرأى أنه إذا فارقتها سكن ما عنده، ثم راجعها عند تحقق براءتها، ولم يرد بقوله ذلك عيباً ولا نقصاً. قاله ابن أبي جمرة وغيره. عن الفجر الساطع (٩٧/٣).

قال الحافظ: ويستفاد من مشورة علي ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما. وقال الثوري: رأى ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره ﷺ. وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها، لأنه عقب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقك، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت =

تعجيل الراحة ففارقها، وأن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها، لأنه كان يتحقق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضه.

والعلة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة: أن علياً كان عنده كالولد، لأنه رباً من حال صغره، ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصاً بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره. وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعلي في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حَبَّ رسول الله ﷺ، وخصَّه دون أبيه وأمه لكونه كان شاباً كعلي، وإن كان علي أسن منه، وذلك أن للشباب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن، لأن المسن غالباً يحسب العاقبة، فربما أخفى ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه أخرى. الفتح: (٤٦٩ / ٨).

ولقد ظلم من اتهم علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإفك لقوله هذا. قال الحافظ: وكأن بعض من لا خير فيه من الناصبة - أي الذين ناصبوا أهل البيت العداء - تقرب إلى بني أمية بهذه الكذبة، فحرّفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتها، حتى بين الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله تعالى خيراً. وقد جاء عن الزهري أن هشام بن عبد الملك كان يعتقد ذلك أيضاً، فقد أخرج يعقوب بن شيبة في مسنده عن الحسن بن علي الحلواني عن الشافعي قال: حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان، الذي تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: كذبت، هو علي.

قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهري فقال: يا بن شهاب، من الذي تولى كبره؟ قال: ابن أبي. قال: كذبت، هو علي. فقال: أنا أكذب لا أبالك، والله لو

قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ^(١) فَقَالَ: «أَيُّ بَرِيرَةٍ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيكَ؟» قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ

نادى مناد من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت، حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي. فذكر له قصة مع هشام قال في آخرها: نحن هيجنا الشيخ، هذا أو معناه. فتح الباري (٨/ ٤٥٥).

(١) وكانت تخدم عائشة بأجرة، وهي في رقٍّ مواليتها قبل شرائها منهم على الراجح، فإنها عتقت بعد الفتح، وهذا أولى من دعوى الإدراج وتغليط الحفاظ، وكلما أمكن الجمع بين الروايات اتبع، وهذه هي الجادة المتبعة عند الأئمة الحفاظ.

وبَرِيرَةُ: هي مولاة كانت لبعض الأنصار كاتبوها، فأدّت عنها أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأعتقتها، فصارت مولاة لها. وقصتها في «الصحيحين» وغيرهما من حديث عائشة وغيرها، وهي التي جاء فيها الحديث: «الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» وكانت بَرِيرَةُ تخدم عائشة قبل أن تعتق كما في حديث الإفك، وعاشت إلى خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتفرّست في عبد الملك بن مروان أنه يلي الخلافة، فبشرته بذلك. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا خِيَرَتِ بَرِيرَةُ، رَأَيْتُ زَوْجَهَا يَتْبَعُهَا فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لَحْيَتِهِ، فَكَلَّمَ الْعَبَّاسَ لِيُكَلِّمَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبَرِيرَةَ: «إِنَّهُ زَوْجُكِ» قَالَتْ: تَأْمُرُنِي بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ» قَالَ: فَخِيرَهَا فَاخْتَارَتْ نَفْسَهَا. وفي البخاري: قالت: لا حاجة لي فيه. وكان عبداً لآل المغيرة، يقال لَهُ: مُغِيثٌ. وفي رواية في الصحيحين: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟!» رواه أحمد (١٨٤٤) والبخاري (٤٦٧/٣).

قلت: وفي أخبارها فوائد فقهية عديدة، في أبواب الشروط والعتق والنكاح وغيرها. وانظر ترجمتها في: الإصابة ٥٣٥/٧-٥٣٦.

أَغْمَصُهُ^(١)، غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي

(١) قال الحافظ: وفي رواية حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عند الطبراني: فقال: لست عن هذا أسألك، فلَمَّا فَطِنْتُ قَالَتْ: سبحان الله! وهذا يدل على أن المراد بقوله في الرواية: حتى أسقطوا لها به: أي حتى صرّحوا لها بالأمر، فلهذا تعجّبت. وقال ابن الجوزي: أسقطوا لها به: أي صرّحوا لها بالأمر. أي: ذكروا لها الحديث وبينوه، فعند ذلك قالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. إنكاراً أو إعظاماً أن تنطق بمثل هذا القول عمّن اختارها الله زوجاً لأطيب خلقه وأفضلهم، وجعلها أحبّ إليه من جميع نساء العالمين، ولا يجوز أن تكون إلا طيبة مثله. ثم قالت: سوى أنها جارية حديثه السن، تنام عن عجين أهلها. وفي رواية ابن إسحاق: ما كنت أعيب عليها إلا أني كنت أعجن عجيني، وأمرها أن تحفظه، فتنام عنه. وفي رواية مقسم: ما رأيت منها مُدّ كنت عندها إلا أني عجنت عجيناً لي، فقلت: احفظي هذه العجينة حتى أقتبس ناراً لأخبزها، فغفلت، فجاءت الشاة فأكلتها. قال ابن المنير في الحاشية: هذا من الاستثناء البديع الذي يُراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتُها عن عجينها أبعدُ لها من مثل الذي رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات. وكذا في قولها في رواية هشام بن عروة: ما علمت إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر، أي كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب. وفي رواية ابن حاطب عن علقمة: فقالت الجارية الحبشية: والله لعائشة أطيبُ من الذهب، ولئن كانت صنعتُ ما قال الناس ليخبرنك الله. قالت: فعجب الناس من فقهها. الفتح - مختصراً: (٨ / ٤٧٠).

وقولها: أغمصه: الغمص: العيب، ومن اشتقاقاته الغمز، فهما من أحرف الصغير. وفي قولها: ما أعلم عليها شيئاً أغمصه، دليل على أن من اتهم في دينه بأمر، أنه يُطلب =

الدَّاجِنُ^(١) فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ^(٢)، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ

في سائر أحواله نظير ما اتُّهم به، فإن لم يوجد له نظير لم يصدق عليه ما اتهم فيه، وإن وجد لذلك نظير قويّ الشبهة، وحُكِمَ عليه بالتهمة في أغلب الحال لا في الغيب. قاله ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٣٩ / ٨).

(١) الداجن: الشاة التي تألف البيت وتقيم به، ولا تخرج للمرعى، يقال: دَجَنَ بالمكان، إذا أقام به. وزاد ابن التين: الدجاج، والحمام والوحش والطيور ونحوها مما تألف البيوت، كما هي لغة العامة في هذا الزمان بقولهم: دواجن.

(٢) وفي رواية عطاء الخرساني عن الزهري بزيادة: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك. فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم. وفي مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ ممن قال ذلك - أي ما يكون لنا أن نتكلم بهذا... - وروى الطبري أيضًا من طريق بن إسحاق حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب قالت له أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. قالت: فنزل القرآن: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الآية. قلت: وفي هذا سلامة قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسن ظنه بالمؤمنين، وحزمه في تربية أهله.

عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ» قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ^(١).

(١) «من يعذرني..» قال صاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (١ / ٨٤): وَعَذَرْتُهُ مِنْ فُلَانٍ: أَي لُمْتُ فُلَانًا وَلَمْ أَلْمُهُ، وَهُوَ الْعَذِيرُ؛ تَقُولُ: مَنْ عَذِيرِي مِنْ فُلَانٍ: أَي مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْهُ. وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلْآخَرِ: أَلَا تَعْذِرُنِي مِنْ فُلَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَيْهِ، أَي إِنَّهُ يَظْلِمُنِي، وَإِنَّمَا يَسْتَعْذِرُ خَافَةَ الْمَلَامَةِ. وَعَذِيرُكَ مِنْ فُلَانٍ: أَي هَاتِ مَنْ يَعْذِرُكَ مِنْهُ. وَعَذِيرُ الرَّجُلِ: مَا يَرُومُ مِمَّا يُعْذَرُ عَلَيْهِ. وَهُوَ حَالُهُ أَيْضًا. وَالْجَمِيعُ: الْعُذْرُ. وَمَا عِنْدَهُ عَذِيرَةٌ وَلَا غَفِيرَةٌ: أَي لَا يَعْذِرُ وَلَا يَغْفِرُ. وَأَعْذَرَ: أَتَى بِمَا يُعْذَرُ عَلَيْهِ.

وفي مقال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال السيوطي في الديباج: استدل به القاضي على أن غزوة المريسيع التي كانت فيها قصة الإفك كانت سنة أربع قبل قصة الخندق، فإن سعد بن معاذ مات في أثر غزاة الخندق من الرمية التي أصابته. قال النووي وهو صحيح.

وإلى شيء من سيرة السعدين وأسيد رضوان الله عليهم:

أما سعد بن معاذ فهو سيّد الأوس، وهو ابن النعمان بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، أسلم على يد مصعب بن عمير لما أرسله النبي ﷺ إلى المدينة يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ، شهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورماه يومئذ حبان بن عرقه في أكحله، فمات من جرحه بعد أيام بعد حكمه الشهير في حلفائه يهود لما غدروا، وهو الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن فرحًا بِرُوحِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان نبي الله ﷺ به حفيًا.

وأما سعد بن عُبَادَةَ سيّد الخزرج، فهو ابن دليم بن حارثة بن أبي حَزِيمَةَ الخزرجي الأنصاري. وأمُّ الأوس والخزرج قَيْلَةُ بنت كاهل. وكان سعد بن عبادَةَ نقيب بني ساعدة، وقد شهد بدرًا. عند بعضهم. ولم يبايع أبا بكر ولا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وبذلك =

استدل شيخ الإسلام على أن البيعة تنعقد بالسواد الأعظم من أهل الحل والعقد، ولا يشترط لها إجماعهم - وهو من كرماء العرب وسادتهم المعدودين، ولما مرض ثقل الناس عن عيادته، فسأل فقيلاً: ما منهم من أحد إلا ولك عليه دين، فأرسل صارخاً: أن كل الناس في حلّ من ديونه عليهم، فلم تمس عتبة بابه إلا منكسرة من ازدحام الناس لعيادته، وسار إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة خمس عشرة، ولم يختلفوا أنه وجد ميتاً على مغتسله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، واشتهر أن الجن قتلته لما بال في جحر، ولم يثبت ذلك الزعم.

هذا، وإذا أطلق السعدان فهما سعد بن معاذ وسعد بن عباد، وكلاهما أسلم على يد داعية الإسلام المحنك مصعب بن عمير، ولما كانا سيّدا قومهما فشا فيهم الإسلام بحمد الله وكثر وعزّ جداً. حتى إن الجن المسلمين استبشروا بذلك، فأغاظوا مشركي مكة وأفرحوا مُسلميها بهتافهم، ومن ذلك ما ذكره الماوردي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره في أعلام النبوة: (١٨٦/١) قال: و من بشائر هتوفهم - أي الجن -: ما حكاه أبو عيسى قال: سَمِعْتُ قُرَيْشٌ فِي اللَّيْلِ هَاتِفًا عَلَى أَبِي قَبَيْسٍ يَقُولُ - وَإِذَا أَطْلُقَ الْهَاتِفُ فَهُوَ كَلَامُ الْجَنِّ وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ -:

فَإِنْ يُسَلِّمُ السَّعْدَانِ يُصْبِحُ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ مُخَالَفٍ
فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السعدان، سعد بكر، وسعد تميم؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:

أَيَا سَعْدُ سَعْدِ الْأَوْسُ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا وَيَا سَعْدُ سَعْدِ الْخَزْرَجِيِّينَ الْغَطَارِفِ
أَجِيئَا إِلَى دَاعِيِ الْهَدَى وَتَمْنِيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفَرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
فَإِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهَدَى جَنَّانٌ مِنَ الْفَرْدَوْسِ ذَاتُ زَخَارِفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هما والله سعد بن معاذ وسعد بن عباد.
وفي البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يوم

بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ افْتَرَقَ مَلَأُوهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ، وَجُرِّحُوا، قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمُ الْإِسْلَامَ. (البخاري: ٣٧٧٧) والسروات: جمع سريٍّ وهو السيد الشريف المطاع. وكان على الأوس يوم بُعَاثٍ وقد انتصرت يوم ذاك حضير بن سمالك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعًا.

قلت: ومن تقدمة ذلك رئاسة السعدين، ولم يكونا من كبار السن، فَشَرَّحُ الشباب مُؤْذِنٌ بقبول الحق، والانصياع للهدى، خلافاً للشيخ الكبير، فإنه لا يكاد يترك مذهبه، ولو استبان ضلاله! كذلك فقد كانت الأوس والخزرج تتشرف حينها لمن يجمع عصاها جميعاً إذ ملَّت وكَلَّت القتال والخوف، لذا فقد كانت يهود تُعَدُّ حليفها الفاجر عبد الله ابن أبي ابن سلول لتملكه على بني قيلة، ويأبى الله إلا أن يأتيهم من يسوسهم سياسة الأنبياء الكُمَّل، لا الملوك الجبابرة.

قال ابن إسحاق في سيرته: ومَرَّ شَأْسُ بن قيس، وكان شَيْخًا يهوديًا قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار. فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله، وأنشدكم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار. ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواب رجلا من الحيين على الركب، فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتَ رددناها الآن جَذَعَةً! فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - السلاح السلاح! فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ

فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟!» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس. فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ٩٨﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شَٰهِدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٩﴾ ﴿وَٱنزَلَ ٱللَّهُ فِي مَن كَادُوا يَقتُلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِكَيْدِ عَدُوِّهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بِعَدَآئِكُمْ كَافِرِينَ ١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَآئِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱؤْلَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ ١٠٣﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٥] وانظر: الروض الأنف: (٤١٦).

وفي المعجم الكبير (٧ / ٦): أن سعد بن معاذ لما رُمي في أكحله قال: رب اشفني من بني قريظة قبل الممات. فرقا الكلم بعدما قد انفجر. أي التأم الجرح. قال: وأقام النبي ﷺ على بني قريظة - أي محاصراً - حتى سأله أن يجعل بينه وبينهم حكماً ينزلون على حكمه، فقال رسول الله ﷺ: اختاروا من أصحابي من أردتم فلنستمع لقوله. فاختاروا سعد بن معاذ، فرضي به رسول الله ﷺ، وسلموا. وأمر رسول الله ﷺ بأسلحتهم فجعلت في بيت، وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا، فجعلوا في دار أسامة بن زيد، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأقبل على حمار أعرابي،

يزعمون أن وطاءه برذعةٌ من ليف، وأتبعه رجل من بني عبد الأشهل فجعل يمشي معه يُعْظِمُ حَقَّ بني قريظة، ويذكر حِلْفَهُم والذي أبلوه يوم بعث، وأنهم اختاروك على من سواك، رجاء عطفك وتحننك عليهم، فاستبقهم فإتاهم لك حملاً وعدد - وتأمل عظيم وقع هذا الكلام لو كان عند غير سعد الذي أراد وجه الله والدار الآخرة. قال: فأكثر ذلك الرجل ولم يجر إليه سعد شيئاً، حتى دنوا فقال له الرجل: ألا ترجع إلي شيئاً؟ فقال سعد: والله لا أبالي في الله لومةً لائم، ففارقه الرجل فأتى إلى قومه قد يئس من أن يستبقهم، وأخبرهم بالذي كلمه به، والذي رجع إليه - أي نعاهم إليهم - ونفذ سعدٌ حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا سعد، احكم بيننا وبينهم». فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحكم فيهم: بأن تُقتل مقاتلتهم، ويُغتَنم سبيهم، وتؤخذ أموالهم، وتسبى ذراريهم ونسأؤهم. فقال رسول الله ﷺ: «حكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله».

فأخرجوا رسلاً رسلاً فضربت أعناقهم، وأخرج حيي بن أخطب فقال له رسول الله ﷺ: «هل أخزأك الله؟» فقال: قد ظهرت عليّ، وما ألوم نفسي فيك! فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج إلى أحجار الزيت التي بالسوق فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق في السيرة النبوية (٤ / ٢٠٠): ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة، في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمئة أو سبعمئة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانئة والتسعمئة. وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً. أي جماعات قليلة -: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب

حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وأتى بحبي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّه له قفاحية - أي موشاة - قد شقّها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعةً يدها إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل! ثم جلس، فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق: وقد كان ثابت بن قيس بن الشماس كما ذكر لي ابن شهاب الزهري، أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، - قلت: فقد كانت اليهود تعرف هذا الاسم الحسن - وكان الزبير قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية. ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان منّ عليه يوم بعث، أخذه فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله. فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي مثلك، قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد كانت للزبير عليّ منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده، قال هم لك. قال: فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله، قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك، قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يترأى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حبي بن

أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال ذهبوا، قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم! فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة! فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا مخلدًا.

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتل! قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبًا منها طيبَ نفسها، وكثرةَ ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل. قال ابن هشام: هي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

وقد كان جرحُ سعد قد برئ، ثم إنه دعا فقال: اللهم رب السماوات والأرض، إنه لم يكن في الأرض قوم أبغض إلي من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، وأني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي بيننا وبينهم قتال فأبقني أقاتلهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرُ هذا المكان، واجعل موتي فيه، ففجره الله تبارك وتعالى وإنه لراقد بين ظهري الليل، فما دروا به حتى مات رحمه الله ورضي عنه.

وأما أُسَيْدُ فَهُوَ ابْنُ حُضَيْرِ بْنِ سَمَاكِ بْنِ عَتِيكَ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ الْأَشْهَلِيِّ الْأَوْسِيِّ الْأَنْصَارِيِّ، أَبُو يَحْيَى، أَسْلَمَ عَلَى يَدِ مُصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْعُقْبَةِ الْأُولَى وَقِيلَ الثَّانِيَةِ، فِي قِصَّةٍ جَمِيلَةٍ تَدُلُّ عَلَى حُسْنِ تَأْتِي مُصْعَبٍ لِلنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

واختلف في شهوده بدرًا، فنفاه ابن إسحاق والكلبي، وأثبتته غيرهما، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وشهد مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فتح بيت المقدس. وهو من أبناء عمومة سعد بن معاذ، ولا يكادان يفترقان في جاهلية وإسلام، وهو القائل لعائشة في قصة نزول آية التيمم: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وكان من شجعان الأنصار وسادتهم ومقدميهم، مات بالمدينة سنة عشرين، وصلى عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي قصة إسلامه هو وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عبر: فقد كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما. أي مصعب وأسعد، وانهما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قوم، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلّمه، فوقف عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواصل من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! - قلت: ذاك نور الإيمان وانبلاج الأسارير بِرُوحِهِ - فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حَدَّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك - وفيه دهاء ابن حضير ليحفز حمية ابن معاذ فيلي الأمر بنفسه - فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتُ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهيله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيّة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم

أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ. فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عَنْقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَّا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ. وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ^(١) بِنْتُ عَمِّهِ مِنْ فَخْذِهِ^(٢). وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ اخْتَمَلْتَهُ^(٣) الْحِمِيَّةُ فَقَالَ

عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا أَيْمَنَ نَقِيَّتَهُ.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصل لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

(١) واسمها فريعة بنت خالد بن خنيس الأنصارية، والدة حسان بن ثابت، وإليها كان ينسب، فيقال: قال ابن الفريعة. ذكرها ابن سعد في المبايعات. ترجمتها في: الطبقات: (٢/٢٧١) والإصابة: (٨/٧٣).

(٢) من فخذ: عند النسابة الفخذ في العشائر أقل من البطن، أولها: الشعب، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. قال الحافظ: وقولها من فخذ بعد قولها بنت عمه: إشارة إلى أنها ليست بنت عمه لحاء، لأن سعد بن عبادَةَ يجتمع معها في ثعلبة.

(٣) وفي لفظ بالجيم، اجتهدته: أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل. أما بالحاء احتملته فمعناها: أغضبته. يقال: احتمل الرجل، إذا غضب. والروايتان صحيحتان. والاجتهال: افتعال من الجهل، أي: حملته الحمية، وهي الأنفة والغضب على الجهل،

لِسَعْدٍ: كَذَبَتْ لَعْمُرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ^(١)، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ. وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ. فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبَتْ لَعْمُرُ اللَّهِ لِنَقْتُلَنَّهُ^(٢)، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ^(٣) مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ^(٤) قَالَتْ:

واحتملته: افتعلته من الحمل.

(١) ولا تقدر: يعني أن النبي ﷺ لم يجعله إليك. الفجر الساطع (٩٨ / ٣)

(٢) لنقتله: أي إن أمرنا النبي ﷺ بقتله.

(٣) منافق: قاله مبالغة في زجر سعد، وحاشاه من ذلك، بل هو من خيار الصحابة وأجلتهم وكرماتهم وشجعانهم وساداتهم.

(٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٧ / ٥٢٢ - ٥٢٥) في هذا الشأن المشكل عند كثير من الناس: «إن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ آخِرِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقال: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ آخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] وكما حصل لسعد بن عباد لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته

الحمية. وهذه الشبهة سمى عمر حاطباً منافقاً فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه شهد بدرًا» فكان عمر متأولاً في تسميته منافقاً للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عباد: كذبت لعمر الله لنقتلته، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين، هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق. وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.

ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف؛ أنهم سموا الفساق منافقين؛ فجعل أهل المقالات هذا قولاً مخالفاً للجمهور، إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق الملى هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق؟ أو منافق والحسن رحمته الله تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة، لكن سماه منافقاً على الوجه الذي ذكرناه.

والنفاق كالكفر؛ نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: أصغر وأكبر. وفي صحيح أبي حاتم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل» فقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من ديب النمل؟ فقال: «ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم» وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم

ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» قال الترمذي حديث حسن.

وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» ومنه قوله: «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا» فإن صيغة «أنا» و«نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي ﷺ والمؤمنين معه - الإيمان المطلق - الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب. ومن هنا قيل: إن الفاسق المَلِيَّ يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمناً باعتبار.

وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة. ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسّر قوله ﷺ «ليس منا» ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال: هذا تفسير المرجئة. وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي ﷺ. وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية، ويستحق الخلود في النار تأويل منكر كما تقدّم، فلا هذا ولا هذا». انتهى. وانظر كذلك: الإيمان الأوسط لابن تيمية رحمه الله (١/ ١٣٨).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢-٢٨٨) باختصار:

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء، وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم؛ قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق

على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفّرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم عليّ حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين؛ فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم؛ فكيف بالطوائف المختلفين، الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟! فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحلّ دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضاً؟! وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعاً جهالٌ بحقائق ما يختلفون فيه.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله. قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» وقال: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» وقال: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ذمة الله ورسوله» وقال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه» وقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وقال: «إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير؛ لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال

النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» وهذا في الصحيحين، وفيهما أيضًا من حديث الإفك: أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عباد: إنك منافق تجادل عن المنافقين، واختصم الفريقان، فأصلح النبي ﷺ بينهم. فهؤلاء البديون فيهم من قال لآخر منهم: إنك منافق، ولم يكفر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا، بل شهد للجميع بالجنة. وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلًا بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظم النبي ﷺ ذلك لما أخبره وقال: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» وكرر ذلك عليه، حتى قال أسامة: «تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ» ومع هذا لم يوجب عليه قودًا ولا ديةً ولا كفارةً؛ لأنه كان متأولًا ظن جواز قتل ذلك القاتل، لظنه أنه قالها تَعَوُّدًا.

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضًا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يسلط عليهم عدوًا

من غيرهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك، وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم يغلبهم كلهم، حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً. وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «هاتان أهون».

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والاتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال النبي ﷺ: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة» وقال: «الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد» وقال: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم».

فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وإذا كان قادراً على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولأه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه. وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنّاً».

وإن كان في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم. وأما إذا ولى غيره بغير إذنه، وليس

في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية؛ كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً، وكان قد ردّ بدعة ببدعة. حتى إن المصلي الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس في إعادته الصلاة، وكرهها أكثرهم حتى قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: من أعادها فهو مبتدع. وهذا أظهر القولين لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحداً إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة.

وبالجملة؛ فالتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدراً».

وقال رحمه الله في المستدرک على مجموع الفتاوى (١/ ١٣١ - ١٣٣) في كلامه على الإيمان المطلق والمقيد وضرب أمثله ثم قال: «ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، ينتفي الاسم عن المسمى تارة لنفي حقيقته وكماله، ويثبت له تارة لوجود أصله وبعضه؛ حتى يقال للعالم القاصر، والصانع القاصر: هذا عالم وهذا صانع، بالنسبة إلى من لا يعلم وإلى من لا يصنع. ويقال: هذا ليس بعالم ولا صانع، لوجود نقصه وتقصيره. ويقال للكمال: هو العالم والصانع، وهذا هو الشجاع، وأمثاله كثيرة من الأسماء والصفات: كالمؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق».

قال ابن القيم رحمه الله في المدارج (١/ ٣٢٨): «وأيضاً فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يُعفى لغيره، ويُسامح بما لا يسامح به غيره. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها! وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله وهو هارون! ولَطَمَ عينَ ملك الموت ففقاها! وعاتب ربّه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه! وربُّه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه، ويكرمه، ويُدَلِّلُه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة، في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمّتي القبط وبني

فثَارَ^(١) الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمُنْبَرِ. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ^(٢) حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ.

إسرائيل أشدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر. وانظر إلى يونس بن متى عليه السلام حيث لم تكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربُّه مرَّة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى.

وقال أيضًا في المدارج: (٢/ ٤٥٦): «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: وكذلك لطم موسى عين مالك الموت ففقأها، ولم يعتب عليه ربه؛ وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي ﷺ إذ رفعه فوقه، ورفع صوته بذلك، ولم يعتبه الله على ذلك. قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال؛ فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى، وتصدَّى له ولقومه، وعالج بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشدَّ الجهاد، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره. وذو النون لما لم يكن في هذا المقام سجنه في بطن الحوت من غضبه. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا».

(١) وفي لفظ: فثاور. ومعنى ثاور الناس أي: ثاوروا ونهضوها من أماكنهم، طلبًا للفتنة.

(٢) يخفضهم: يسكنهم. قال الحافظ: زاد بن جريج في روايته في قصة الإفك هنا قال: قال ابن عباس: فقال بعضهم لبعض: موعدكم الحرة، أي خارج المدينة لتتقاتلوا هناك.

وقولها: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وفي رواية بن حاطب: فلم يزل يومئذ بيده إلى الناس ها هنا حتى هدأ الصوت، وفي رواية فليح: فنزل فخفضهم حتى سكتوا. قال الحافظ: ويحمل على أنه سكتهم وهو على المنبر، ثم نزل إليهم أيضًا ليكمل تسكينهم، ووقع في رواية عطاء الخرساني عن الزهري: فحجز

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ! قَالَتْ:
وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ
بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَا أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ^(١) كِبْدِي!

فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ
فَأَذِنَتْ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِيَ^(٢)، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ

بينهم. الفتح: (٨ / ٤٧٥).

وتأمل حكمة النبي ﷺ في تسكينهم أولاً ثم في طريقته في إذهاب ما قد يعلق
بنفوسهم من ضغينة بسبب ذلك الموقف، فقد روى الواقدي في المغازي (٢ /
٤٣٥) قائلاً: ومكث رسول الله ﷺ أياماً، أي بعد تلك الحادثة - ثم أخذ بيد
سعد بن معاذ في نفر فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عباد، ومن معه
فتحدثا عنده ساعة وقرب سعد بن عباد طعاماً، فأصاب منه رسول الله ﷺ
وسعد بن معاذ ومن معه. ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أياماً، ثم أخذ بيد
سعد بن عباد، ونفر معه فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ، فتحدثا ساعة
وقرب سعد بن معاذ طعاماً، فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عباد ومن معهم.
ثم خرج رسول الله ﷺ. وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لأن يذهب ما كان في
أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولوا.

(١) فالق: فاعل، من فلق الشيء، إذا شقه. ومنه قول رب العزة: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾
[الأنعام: ٩٦].

(٢) وساعدتها على البكاء وأسعدتها بماء عيونها امرأة من أولي الوفاء والمواساة والكرم
والإيثار ومعالي الشيم؛ الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالاً ونساءً.

اللَّهُ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ (١). قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا. وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ (٢). قَالَتْ: فَتَشْهَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَّغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا (٣)، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبرِّئُكَ اللَّهُ (٤)، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ (٥)، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

(١) في رواية هشام بن عروة بلفظ: فأصبح أبواي عندي، فلم يزالا، حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي، وفي رواية ابن حاطب: وقد جاء رسول الله ﷺ، حتى جلس على سرير وجاهي. وفي حديث أم رومان: أن عائشة في تلك الحالة كانت بها الحمى النافض، وأن النبي ﷺ لما دخل فوجدها كذلك قال: «ما شأن هذه؟» قالت: أخذتها الحمى بنافض. قال: «فلعلَّه في حديث مُخْدَتٍ» قالت: نعم: فقعدت عائشة. فتح الباري: (٨ / ٤٧٥).

(٢) وذكر أن المدة كانت سبعة وثلاثين يوماً بإلغاء الكسر في هذه الرواية، وعند ابن حزم أن المدة كانت خمسين يوماً أو أزيد، ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك، وأما التقييد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر. ذكره الحافظ.

(٣) كذا وكذا: كناية عما رميت به من الإفك، وهذا من الكناية البليغة.

(٤) وفي هذا الوعد النبوي رسالة لطيفة لها أن تطمئن لأن الله تعالى سيتولى إظهار براءتها.

(٥) قولها: أَلَمْتِ بِشَيْءٍ، وفي رواية: بذنب: هو من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتهُ، قَلَصَ (١) دَمْعِي، حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً (٢)، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٣). فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةً حَدِيثَهُ السَّنَّ، لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ (٤). فَلَيْتَ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لَا

(١) قلص الدمع: انقطع جريانه وارتفع وانقبض. وقال القرطبي: يعني أن الحزن والوجدة قد انتهت نهايتهما، وبلغت غايتها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك قلص الدمع لفرط حرارة المصيبة. عمدة القاري (٢٠ / ٣١٣).

(٢) وقلوص دمعها من العتب.

(٣) قولها: قال: واللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ: أي أن الأمر الذي سألتها رسول الله ﷺ لا يقف منه على أمر زائد على ما عند رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي من حسن الظن. قال النووي: قولها لأبويها: أجيبا عني. فيه تفويض الكلام إلى الكبار، لأنهم أعرِف بمقاصده، واللائق بالمواطن منه، وأبواها يعرفان حالها. شرح مسلم: (١٧ / ١١٢).

(٤) قالت هذا وإن لم يكن على حقيقته على سبيل المقابلة، لما وقع من المبالغة في التنقيب عن ذلك، وهي كانت لما تحققت من براءة نفسها، ومنزلتها، تعتقد أنه كان ينبغي لكل من سمع عنها ذلك أن يقطع بكذبه، لكن العذر لهم عن ذلك، أنهم أرادوا إقامة الحجة على من تكلم في ذلك، ولا يكفي فيها مجرد نفي ما قالوا والسكوت عليه، بل تعين التنقيب عليه لقطع شبههم، أو مرادها بمن صدق به من أصحاب الإفك، لكن ضمت إليه من لم يكذبهم تغليبًا. الفتح: (٨ / ٤٧٦).

تُصَدِّقُونِي^(١). وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي^(٢).
فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ^(٣) حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ^(٤)، وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ
اللَّهَ مُبَرِّئِي بِرَءَائِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى،

(١) أي لا تقطعون بصديقي.

(٢) ويذكرنا هذا بقول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله ﷺ حين قفل من
تبوك وسأله عن تخلفه فقال: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل
الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد
علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني؛ ليوشكن الله أن يسخطك
عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه؛ إني لأرجو فيه عقبي الله، والله ما
كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول
الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق» متفق عليه، وفيه تعلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالله،
وشديد مراقبتهم له.

(٣) قولها: إلا أبا يوسف: أي إلا مثل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وهو الصبر، وكأنها
من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب، وإنما قالت أبا يوسف لأنه لما جاء إخوة
يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي
رواية أبي أويس: نسيت اسم يعقوب، لما بي من البكاء واحترق الجوف.

(٤) تحولت: حولت وجهي عنهم وأدرته للجدار.

لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهَ بِهَا. فَوَاللَّهِ مَا رَامَ^(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ^(٢)، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ

(١) ما رام: أي ما برح من مكانه، يقال: رام يريم: إذا برح وزال، وقلما يستعمل إلا في النفي. والمراد: أي ما فارق مجلسه.

(٢) البرحاء: الشدة، وهي هنا بسبب ثقل الوحي، فقد كان إذا ورد عليه الوحي، يجد له مشقة، ويغشاه الكرب لثقل ما يُلقى عليه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرِّحْضَاءُ، أي البهر والعرق من الشدة، وأكثر ما يسمّى به عَرَقُ الْحُمَى، ولذلك كان جبينه يتفصّد عرقاً كما يُفصّد. وإنما كان ذلك ليلو صبره، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة.

وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية «فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمدٌ الوجه، وهو يغطُّ، ثم سُرِّي عنه» ومنه في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه كرب لذلك، وتربّد وجهه. وفي حديث الإفك هنا وصف آخر لذلك.

وقال الخطابي: البرحاء: شدة الكرب، مأخوذ من قولك: برحت بالرجل، إذا بلغت به غاية الأذى والمشقة. ويقال: لقيت منه البرح.

قال الحافظ في سياق حديث الإفك: وفي رواية ابن إسحاق: فسجّي بثوب، ووضعت تحت رأسه وسادة من آدم. وزاد بن جريج في روايته: قال أبو بكر: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل من السماء ما لا مردّ له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبّ «أي صافي اللون» فيطمعني ذلك فيها. وفي رواية بن

الجهان^(١)، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

قالت: فسري^(٢) عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة، أما الله فقد برأك»^(٣) قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه^(٤)، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل. قالت

إسحاق: فأما أنا فوالله ما فرغت، قد عرفت أي بريئة، وأن الله غير ظلمي، وأما أبوي فما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس. الفتح: (٤٧٧ / ٨).

(١) الجهان: جمع جهانة: وهي اللؤلؤة، وهي الدرّ، وقيل: هي خرزة تعمل من الفضة مثل الدرة. وقد شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الصفاء والحسن. قال الجواليقي: وقد جعل لبيد الدرّة جمانة فقال: كجمانة البحري سُلّ نظامها. عمدة القاري (٣١٤ / ٢٠).

(٢) سري عنه: أي كشف وأزيل عنه.

(٣) وفي رواية ابن حاطب: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك، حتى إني لأنظر إلى نواجذه سروراً، ثم مسح وجهه. قال ابن دحية: ونزل عذرها بعد سبع وثلاثين ليلة.

(٤) أي قالت لها أمها: قومي فاحمديه، وقبلي رأسه، واشكريه لنعمة الله تعالى التي بشرّك. فقالت ما قالت. قال ابن الجوزي: فعلت ذلك دلالة كما يدل الحبيب على الحبيب. وقال النووي: قالت ذلك إدلالاً عليهم، وعتاباً، لكونهم شكّوا في حالها مع علمهم بحسن طرائقها، وجميل أحوالها، وتنزهها عن هذا الباطل الذي افتراه الظلمة، ولا حجة لهم ولا شبهة فيه. قالت: وإنما أحمد ربي سبحانه وتعالى، الذي أنزل براءتي، وأنعم علي بما لم أكن أتوقّعه. النووي على مسلم (١٧ / ١١٣).

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١-٢٠] الْعَشْرَ
الْآيَاتِ (١)، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي.

وقال ابن القيم في الزاد (٢٣٦/٣) عند ذكر الحكم الربانية الجليلة من تلك الحادثة وقول الصديقة ما قالت: علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليتها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتُه موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أَحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» والله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيءٍ إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّرَ قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفتِ الرِّضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له.

(١) على طريقة إلغاء الكسر، لأنها ثلاث عشرة آية.

قال الزمخشري في شأن آيات قصة الإفك: لم يقع في القرآن من التغليب في معصية ما وقع في قصة الإفك، بأوجز عبارة وأشبعها، لاشتتاله على الوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام القول في ذلك، واستشناعه بطرق مختلفة، وأساليب متقنة، كل واحد منها كافٍ في بابه. بل ما وقع منها من وعيد عبدة الأوثان، إلا بما هو دون ذلك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، وتطهير من هو منه بسبيل. نقله عنه الحافظ في الفتح: (٤٧٨ / ٨) قلت: وفي قوله بأنه لم يأت لأهل الوعيد مثله فيه نظر، بل قد جاء أشدَّ منه وأعظم وعيداً لأهل الشرك ولأهل النفاق.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُنْثَاةَ لِقَرَاتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ -:
 وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ (١) مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:
 ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
 [النور: ٢٢] (٢) قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي.
 فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ
 أَبَدًا (٣). قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ (٤) بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ

(١) أي عنها.

(٢) وَلَا يَأْتَلِ: يَأْتَلُ: يَفْتَعِلُ، مِنَ الْأَلْيَةِ، وَهِيَ الْقِسْمُ، يَقَالُ: آلَى وَاتَّأَلَى وَتَأَلَّى. جَامِعُ
 الْأَصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ لِمَجْدِ الدِّينِ ابْنِ الْجَزَرِيِّ. (٢/ ٢٧٢).

(٣) وَوَقَعَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ أَنَّهُ صَارَ يُعْطِيهِ ضَعْفَ مَا كَانَ يُعْطِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَدْ أَخْرَجَ
 الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ يُعَاتِبُ مِسْطَحًا فِي قِصَّةِ
 عَائِشَةَ: يَا عَوْفُ، وَيَحْكُ، هَلْ لَا قُلْتَ عَارِفَةً مِنَ الْكَلَامِ، وَلَمْ تَبْتَغْ بِهِ طَعْمًا؟! وَكَانَ
 هُوَ وَأُمُّهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَكَانَ أَبُوهُ مَاتَ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَكَفَلَهُ أَبُو بَكْرٍ، لِقَرَابَةِ
 أُمِّ مِسْطَحٍ مِنْهُ. شَرَحَ الْبُخَارِيُّ لِابْنِ بَطَالٍ: (٨/ ٤٢).

وَمِسْطَحٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ (١/ ١٨٨): «إِيَّاكَ يَا جَرِي أَنْ تَنْظُرَ إِلَى
 هَذَا الْبَدْرِيِّ شَزْرًا لَهْفُوهُ بَدَتَ مِنْهُ، فَإِنَّهَا قَدْ غَفَرَتْ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكَ يَا
 رَافِضِي أَنْ تَلَوِّحَ بِقَذْفِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ نَزُولِ النَّصِّ فَتَجِبَ لَكَ النَّارُ».

(٤) زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةُ، أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ
 زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَبَسَبَهَا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ.

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْرِعْكَنْ لِحَاقًا بِي أَطُولُكُمْ يَدًا»،

=

أَمْرِي، فَقَالَ لِرَئِيبٍ: «مَاذَا عَلِمْتَ، أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي^(١)، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي^(٢) مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ^(٣). قَالَتْ: وَطَفِقْتُ أُخْتَهَا حَمْنَةَ تُحَارِبُ لَهَا^(٤)، فَهَلَكَتْ فِيْمَنْ هَلَكَ^(٥).

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هُوَلَاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ، لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنْفٍ^(٦) أَنْثَى قَطُّ! قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ

فكانت أول نساءه لحوقاً به، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. قال ابن عبد البر: كان اسمها برة، فلما دخلت على رسول الله سماها زينب. وانظر ترجمتها في: الاستيعاب ص: ١٨٤٩، والإصابة (٦٦٧/٧ - ٦٧٠).

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أصونها وأمنعها من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، فلا أقول سمعت ولم أسمع، وأبصرت ولم أبصر.

(٢) تساميني: من المساماة، من السمو والعلو، أي أنها تطلب من السمو والعلو والخطوة مثل الذي أطلب. والمراد أي تفاخري وتضاهيني بجماها ومكانها عند النبي ﷺ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده.

(٣) فعصمها الله بالورع: أي منعها به عما لا يحل.

(٤) أي تجادل لها، وتتعصب، وتحكي ما قال أهل الإفك، لتتخفف منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب.

(٥) قلت: وقد طهرها الله بالحدِّ، والتوبة تجب ما قبلها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) قوله: ما كشفت من كنف أنثى: الكنف: هو الستر ويراد به كذلك الجانب، والمراد: ما كشفت على امرأة ما سترته من نفسها، إشارة إلى التعفف. ومنه ما جاء في حديث

فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ^(١) قَالَ: حَدَّثَنِي أُمُّ رُومَانَ^(٢) - وَهِيَ أُمُّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا قَاعِدَةٌ أَنَا وَعَائِشَةُ، إِذْ

النجوى عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً: «يَدْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنْفَهُ» أَي سِتْرَهُ. فَالْكَنْفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ السِتْرُ. قَالَ ثَابِتٌ: الْكَنْفُ هَاهُنَا هُوَ الثَّوْبُ الَّذِي يَكْنُفُهَا، أَي: يَسْتُرُهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هُوَ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَنْفِهِ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: وَبَعْضُ الْعَرَبِ يَقُولُ: أَنْتَ فِي كَنْفِي. وَكُنْفَا الطَّائِرُ: جَنَاحَاهُ. ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كُنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ جَمَاعِ النِّسَاءِ جَمِيعَهُنَّ وَمُخَالَطَتَهُنَّ. قَالَ الْحَافِظُ - وَهُوَ ابْنُ حَجَرٍ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ -: فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هَلَالٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ مَا قِيلَ لَمَّا بَلَغَهُ الْحَدِيثُ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَصَبْتُ امْرَأَةً قَطُّ حَلَالًا وَلَا حَرَامًا. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: وَكَانَ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ. فَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ مَرَادَهُ بِالنَّفْيِ الْمَذْكُورِ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَلَا مَانِعٌ مِنْ أَنْ يَتَزَوَّجَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَذَا الْجَمْعُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ كَانَ حَصُورًا - أَي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ لِنَقْصِ آلَتِهِ - لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ، فَلَا يَعَارِضُ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ.

(١) مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ بْنُ مَالِكِ بْنِ أُمَيَّةِ الْهَمْدَانِيِّ الْكُوفِيِّ. تَابِعِيُّ فَقِيهِ ثَبِتَ، رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاذَ وَعَائِشَةَ وَأُمِّهَا أُمُّ رُومَانَ. وَعَنْهُ الشَّعْبِيُّ وَالنَّخْعِيُّ وَمَكْحُولُ الشَّامِيُّ وَأَبُو إِسْحَاقَ السَّيِّعِيُّ. تَوَفَّى عَامَ (٦٣) هـ. وَانْظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي: تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ: (١٠/١٠٩-١١١) وَالتَّقْرِيبِ: (٦٦٠١).

(٢) وَقَدْ تَكَلَّمَ الْخَطِيبُ فِي سَمَاعِ مَسْرُوقٍ مِنْ أُمِّ رُومَانَ وَاسْتَبْعَدَهُ؛ لِاعْتِمَادِ الْخَطِيبِ عَلَى

وَلَجَتْ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ بِفُلَانٍ وَفَعَلَ^(١)، فَقَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: ابْنِي فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ، قَالَتْ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا! قَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: وَأَبُو بَكْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَخَرَّتْ مَغْشِيًا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَىٰ بِنَافِضٍ، فَطَرَحَتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا فَغَطَّيْتُهَا^(٢). فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ؟» قُلْتُ: يَا

رواية ضعيفة تفيد بوفاها سنة تسع، وقد ردَّ الحافظ ابن حجر ذلك، وأثبت أنها عُمِّرت، ورجح أن مسروقاً سمع منها في خلافة عمر.

وانظر: فتح الباري (٥٥٦/٧ - ٥٥٧). زاد المعاد (٢٦٦/٣ - ٢٦٧)، الفجر الساطع على الصحيح الجامع (١٠١/٣).

(١) فعل الله بفُلَانٍ: أي ولدها، ولم يُسمَّ من الأنصار غير حسان وابن أبي، ولم تكن أميها على قيد الحياة حينها، إلا إن قصدت الرضاع ونحوه، ذكره القسطلاني. وقال ابن حجر: ولم أقف على اسمه ولا على اسم أمه، وهي غير المرأة التي دخلت على عائشة وبكت معها، وطريق الجمع بين هذه الرواية وبين غيرها: أنها سمعت الخبر أولاً من أم مسطح، فسمعت منه أولاً مجملًا، ثم سمعته من أمها كذلك، ثم أخبرتها الأنصارية بحضرة أمها، فحصل القطع بوقوع ذلك الحديث.

(٢) وفي رواية الأسود عن عائشة: فألقت على أُمِّي كل ثوب في البيت. قال البقاعي في نظم الدرر (٢٤٢/٥): واستمر أهل الإفك في هذا أكثر من شهر، والله تعالى عالم بما يقولون، وبأن قولهم يكاد يقطع أكباد أحب خلقه إليه، وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه، ولكنه سبحانه أراد لناس رفعة الدرجات، ولآخرين الهلاك، فيا لله ما لقي النبي ﷺ والصديق وآله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكل من أحبهم، وهم خير الناس، والله سبحانه وتعالى يُملي للأفّاكين ويمهلهم، وكأن

رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَتْهَا الْحُمَّى بِنَافِضٍ. قَالَ: «فَلَعَلَّ فِي حَدِيثٍ مُحَدَّثَ بِهِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَعَدَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ، لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ قُلْتُ، لَا تَعْذِرُونِي، مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيْعُوبَ وَبَيْنِيهِ: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قَالَتْ: وَانْصَرَفَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَهَا. قَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ، لَا بِحَمْدِ أَحَدٍ، وَلَا بِحَمْدِكَ.

وقال ﷺ تعالى: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿[النور: ١٢ - ١٣] وَذَكَرَ حَدِيثَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (١).

الحال كما قال أبو تمام الطائي:

كذا فليجل الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفيض ماؤها عذراً

(١) قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿(١٣) وَلَوْلَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْأَلْسِنَةِ تَقُولُونَ يَا فَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[النور: ١٢ - ١٩].

قال البقاعي رحمته الله في نظم الدرر: ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقابهم، وكان من المؤمنين من سمعه فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستتباً في أمره، ومنهم من كذبه، أتبعه سبحانه بعتابهم، في أسلوب خطابهم، مثنياً على من كذبه فقال مستأنفاً محرّضاً: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ولم لا، إذ سمعتموه، ولما كان هذا الإفك قد تمّلاً عليه رجال ونساء قال: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منكم، والمؤمنات، وكان الأصل ظننتم، ولكنه التفت إلى الغيبة تنبيهاً على التوبيخ، وصرح بالنساء، ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تحويلاً للذي ظن السوء من سوء الخاتمة: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ حقيقة خيراً، وهم دون من كذب عليها، فقطعوا ببراءتها لأن الإنسان لا يظن بالناس إلا ما هو متصف به أو بإخوانهم، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، أو ظنوا ما يظن بالرجل لو خلا بأمه، وبالمراة إذا خلّت بابنها، فإن نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين - قلت: ولعل المراد وصف المؤمنين بالنفس الواحدة، ولها شواهد قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فسامها ذاتاً بالإفراد، مع أنهم لا يُحصون كثرة - .

﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ﴾ أي كذب عظيم ﴿مُتَيْنٌ﴾ أي واضح في نفسه، موضح لغيره، وبيانه وظهوره أن المرتاب يكاد يقول: خذوني، فهو يسعى في التستر جهده، فإتيان صفوان بعائشة رضي الله عنهما راكبة على جملة داخلاً به الجيش في نحر الظهيرة، والناس كلهم يشاهدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، ينزل عليه الوحي، إدلالاً بحسن عمله، غافلاً عما يظن به أهل الريب، أدلّ دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولقد عمل أبو أيوب الأنصاري وصاحبته رضي الله عنهما بما أشارت إليه هذه الآية.

ثم علّل سبحانه بيان كذب الآفكين بأن قال موبخاً لمن اختلقه وأداعه، ملقناً لمن نذبه على ظنّ الخير: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً، ولم لا، ﴿جَاءُوا﴾ أي: المفترون له أولاً

﴿عَلَيْهِ﴾ إن كانوا صادقين ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فالقذف لا يباح إلا بها . ولما لم يأتوا بالشهداء كذبهم فقال: ﴿فَإِذْ﴾ أي: فحين ﴿لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي الموصوفين ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: البعداء من الصواب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الملك الأعلى، بل وفي هذه الواقعة بخصوصها في علمه ﴿هُمْ أَلْكَذِبُونَ﴾ أي الكذب العظيم ظاهراً وباطناً.

ولما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام، وكان ذلك مرغباً لأهل التقوى، بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فقال عاطفاً على ﴿وَلَوْلَا﴾ الماضية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: معاملته لكم بمزيد الإنعام اللازم للرحمة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بقبول التوبة، والمعاملة بالحلم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم ﴿لَمْسِكُمْ﴾ أي عاجلاً ﴿فِي مَا أَفْضَيْتُمْ﴾ أي اندفعتم على أي وجه كان ﴿فِيهِ﴾ بعضكم بالقول، وبعضكم بعدم الإنكار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي يحتقر معه اللوم والجلد، بأن يهلك فيتصل به عذاب الآخرة؛ ثم بين وقت حلوله وزمان تعجيله بقوله: ﴿إِذْ﴾ أي مسكم حين ﴿تَلْقَوْنَهُ﴾ أي تجتهدون في تلقي قبول هذا الكلام الفاحش وإلقائه ﴿بِالسِّنَتِكُمْ﴾ بإشاعة البعض، وسؤال آخرين، وسكوت آخرين ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تصوير لمزيد قبحه، وإشارة إلى أنه قول لا حقيقة له، فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل؛ وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي بوجه من الوجوه، وتنكيره للتحقير ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ بدليل سكوتكم عن إنكاره ﴿هَيْنًا وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الذي لا يبلغ أحد مقدار عظمتة ﴿عَظِيمٌ﴾ أي في حد ذاته، ولو كان في غير أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكيف وهو في جنابها المصون،

وهي زوجة خاتم الأنبياء وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة وأفضل التسليم؟! ولما بين فحشه وشناعته، وقبحه وفضاعته، عطف على التأديب الأول في قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تأديباً فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾ أي حين سماعه من غير توقف ولا تلثم، وفصل بين آلة التحضيض والقول المحضض عليه بالظرف؛ لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، ولأن ذكره منه على الاهتمام به، لوجوب المبادرة على المحضض عليه: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي ما ينبغي وما يصح ﴿لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي بمثله في حق أدنى الناس، فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق، تعجباً من أن يخطر بالبال، في حال من الأحوال.

ولما كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك وإن كان للتعجب، إشارة إلى تنزيه المقام الذي وقع فيه التعجب تنزيهاً عظيماً؛ حسن أن يوصل بذلك قوله تعليلاً للتعجب والنفي: ﴿هَذَا بُهْتَنٌ﴾ أي كذب يبهت من يواجه به، ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة، لأنه في غاية الغفلة عنه، لكونه أبعد الناس منه؛ ثم هوّله بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ والمراد: أن الذي ينبغي للإنسان أولاً أن لا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يسمع فيهم إلا خيراً، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه فلا يتكلم به، بل يبادر إلى تكذيبه.

ولما كان هذا كله وعظماً لهم واستصلاحاً، أردفه بقوله: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما دمت أهلكم لهذا القول، فقد عظم هذا الوعد، وألهب سامعه بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي متصفين بالإيمان، راسخين فيه، فإنكم لا تعودون، فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الاتصاف به ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ أي بما له من الاتصاف بصفات الجلال والإكرام ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي العلامات الموضحة للحق والباطل من كل أمر ديني أو دنيوي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فثقفوا ببيانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا

يضع شيئاً إلا في أَحْكَمِ مواضعه وإن دَقَّ عليكم فهم ذلك، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره، واعلموا أنه لم يختَر لنبيه عليه الصلاة والسلام إلا الخُلَصَّ من عباده، على حسب منازلهم عنده، وقربهم من قلبه.

ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب، أدهم تأديباً ثالثاً أشد من الأولين، فقال واعظاً ومقبِّحاً لحال الخائضين في الإفك ومحدراً ومهدداً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ عبّر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن الاستقامة ﴿أَنْ قَشِيعَ﴾ أي تنتشر بالقول أو بالفعل ﴿الْفَحْشَةَ﴾ أي الفعلة الكبيرة القبح ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، فكيف بمن تسنم ذروته، وتبوأ غايته؟! ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ردعاً لهم عن إرادة إشاعة مثل ذلك، لما فيه من عظيم الأذى ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالحد وغيره مما ينتقم الله منهم به ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ فإن الله يعلم هل كفر الحد عنهم جميع مرتكبهم أم لا؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي له العلم التام، فهو يعلم مقادير الأشياء ما ظهر منها وما بطن، وما الحكمة في ستره أو إظهاره أو غير ذلك من جميع الأمور ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لكم علم من أنفسكم، فاعلموا بما علمكم الله، ولا تتجاوزوه تضلوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه سبحانه لما ختم بالحكم عليهم بالجهل، وكان التقدير كما أرشد إليه ما يأتي

من العطف على غير معطوف: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لعَجَلْ هلاك المحيين لشيوع ذلك بعذاب الدنيا، ليكون موصولاً بعذاب الآخرة؛ عطف عليه قوله مكرراً التذكير بالمنة بترك المعالجة حاذفاً الجواب، منبهاً بالتكرير والحذف إلى قوة المبالغة وشدة التهويل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي ولولا أن الله الذي له القدرة التامة، فسبقت رحمته غضبه ﴿رَءُوفٌ﴾ بكم في نصب ما يزيل جهلكم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحدود الزاجرة عن الجهل، الحاملة على التقوى، التي هي ثمرة العلم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بما يثبت لكم من الدرجات على ما منحكم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية، والجواب محذوف تقديره: لترككم في ظلمات الجهل تعمهون، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيكم، ووصلتم إلى العذاب الدائم بعد الهم اللازم.

ولما أخبرهم بأنه ما أنزل لهم هذا الشرع على لسان هذا الرسول الرؤوف الرحيم إلا رحمة لهم، بعد أن حذرهم موارد الجهل، نهاهم عن التهادي فيه، في سياق معلم أن الداعي إليه الشيطان العدو، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تقتدوا به، ولا تسلكوا مسالكه التي يحمل على سلوكها بتزيينها في شيء من الأشياء، وكأنه أشار بصيغة الافتعال إلى العفو عن الهفوات.

ولما كان التقدير: فإنه من يتنكب عن طريقه يأت بالحسنى والمعروف، عطف عليه قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ﴾ أي بعزم ثابت من غير أن يكون مخطئاً أو ناسياً؛ وأظهر ولم يضمّر لزيادة التنفير فقال: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ويقتد به يقع في مهاوي الجهل الناشئ عنها كل شر ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهو ما لم يجوزه الشرع، فهو أولاً يقصد أعلى الضلال، فإن لم يصل تنزل إلى أدناه، وربما درج بغير ذلك، ومن المعلوم أن من اتبع من هذا سبيله عمِلَ بعمله، فصار في غاية السفول،

وهذا الإظهار أشد في التنفير من الإضرار بإعادة الضمير.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان مع أمره بالقبائح، عطف عليه قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بتطهير نفوسكم ورفعها من الدنيا إلى المعالي ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بإكرامكم ورفعتمكم بشرع التوبة المكفرة لما جرّ إليه الجهل من ناقص الأقوال وسفاه الأفعال ﴿مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ﴾ أي طهر ونما، وأكد الاستغراق بقوله: ﴿مَنْ أَحَدٌ﴾ وعم الزمان بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، من جميع أدناس نفسه وأمراض قلبه، وإن كان العباد وأخلاقهم في الانتشار والكثرة بحيث لا يحصيهم غيره، فلذلك زكّى منكم من شاء فصانه عن هذا الإفك، وخذل من شاء.

ثم ختم الآية بما لا تصح التزكية بدونه فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لجميع أقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يخطر في بالهم، وينشأ عن أحوالهم وأفعالهم، فهو خبير بمن هو أهل للتزكية ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيته لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم ممن خذله نوعاً من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم، وسبباً لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته، وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِي﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ الذين جعلتهم بما آتيتهم من العلم والأخلاق الصالحة أهلاً لبرّ غيرهم ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي بما أوسعت عليهم في دنياهم.

ولما كان السياق والسباق واللاحق موضحاً للمراد؛ لم يحتج إلى ذكره أداة النفي فقال: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ ثم ذكر الصفات المقتضية للإحسان فقال: ﴿أُولَى الْقُرُونِ﴾

وعدها بأداة العطف تكثيراً لها وتعظيماً لأمرها، وإشارة إلى أن صفة منها كافية في الإحسان، فكيف إذا اجتمعت؟! فقال سبحانه: ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ أي الذين لا يجدون ما يغنيهم وإن لم تكن لهم قرابة ﴿وَالْمُهَجِّرِينَ﴾ لأهلهم وديارهم وأموالهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذي عم الخلائق بجلاله من الإحاطة بالجلال والإكرام، فهم وإن انتفى عنهم الوصفان الأولان فإن هذه الصفات مؤذنة بأنهم ممن زكى الله، وتعدادها بجعلها علّة للعفو دليل على أن الزاكي من غير المعصومين قد يزل، فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان، وقد تكون الثلاثة لموصوف واحد، لأن سبب نزولها مسطح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالعطف إذن للتمكن في كل وصف منها.

ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، وكان التقدير: فليؤتوهم، عطف عليه مصرحاً بالمقصود قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ أي عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسلبونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال: ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي يعرضوا عنه أصلاً ورأساً، فلا يخطر له على بال ليثمر ذلك الإحسان، ومنه الصفوح، وهو الكريم.

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه بفضله ومنه وطوله على أولي الفضل، مرغباً في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهباً من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أي يا أولي الفضل ﴿أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما قصرتم في حقه. وناهيك بشهادة الله جل جلاله للصديق بأنه من أولي الفضل فيا له من شرف ما أجلاه، ومن سؤدد وفخار ما أعلاه، ولا سيّما وقد صدّقه رضي الله عنه بالعفو عمن شنع على ثمرة فؤاده، ومهجة كبده، وهي أنه لا يقطع النفقة عنه أبداً، فيا لله من أخلاق ما أبهاها، وشمائل ما أطهرها وأزكاها، وأشرفها وأسناها.

ولما كان الجواب قطعاً كما أجاب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلى والله إنا لنحب أن يغفر الله

لنا، وكان كأنه قيل: فاغفروا لمن أساء إليكم، فالله حكم عدل، يجازيهم على إساءتهم إليكم إن شاء، والله عليم شكور، يشكر لكم ما صنعتم إليهم، عطف عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن صفته ذلك، إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثراً، ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزء من جنس العمل.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) [النور: ٢٣ - ٢٥]

ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جراً على مثل هذه الإساءة، وصل به مرهباً من الوقوع في مثل ذلك قوله معمماً للحكم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي بالفاحشة ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي اللاتي جعلن أنفسهن من العفة في مثل الحصن. ولما كان الهام بالسيئ والمقدم عليه عالماً بما يرمي به منه، جاعلاً له نصب عينيه، أكد معنى الإحصان بقوله: ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ أي عن السوء حتى عن مجرد ذكره. ولما كان وصف الإيمان حاملاً على كل خير ومانعاً عن كل سوء، نبه على أن الحامل على الوصفين المتقدمين إنما هو التقوى، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق فقال: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء، ذكر جزاء القاذف كفاً وتحذيراً منه بصيغة المجهول، لأن المحذور اللعن لا كونه المعين، وتنبيهاً على وقوع اللعن من كل من يأتي منه فقال: ﴿لُعِنُوا﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله، وفعل معهم فعل المبعد من الحد وغيره ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ثم زاد في تعظيم القذف لمن هذه أوصافها فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقيد بوصف الإيمان، لأن قذف الكافرة وإن كان محرماً ليس فيه هذا المجموع، وهذا

الحكم وإن كان عاماً فهو لأجل الصديقة بالذات وبالقصد الأول، وفيما فيه من التشديد الذي قل أن يوجد مثله في القرآن، من الإعلام بعلي قدرها، وجلي أمرها، في عظيم فخرها، ما يجلب عن الوصف.

ثم أتبع ذلك ذكر اليوم الذي يكون فيه أثر ذلك على وجه زاد الأمر عظماً فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يوم القيامة في ذلك المجمع العظيم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَنْجُلُهُمْ﴾ إن أنكرت ألسنتهم كذباً وفجوراً ظناً أن الكذب ينفعها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من هذا القذف وغيره؛ ثم زاد في التهويل بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذ تشهد عليهم هذه الجوارح ﴿يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة، وله الكمال كله ﴿دِينَهُمْ﴾ أي جزاءهم ﴿الْحَقُّ﴾ أي الذي يظهر لكل أحد من أهل ذلك المجمع العظيم أنهم يستحقونه، فلا يقدر أحد على نوع طعن فيه ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي إذ ذاك، لانقطاع الأسباب، ورفع كل حجاب ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ أي وحده ﴿الْحَقُّ﴾ أي الثابت أمره فلا أمر لأحد سواه - الذي لا يستحق العبادة سواه - ﴿الْمُبِينُ﴾ الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته وعلمه وقدرته وتفردته بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع سمات النقص، فيندمون على ما فعلوا في الدنيا مما يقدر في المراقبة وتجري عليه الغفلة. قال ابن كثير: وأمّهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، لا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقيّة أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. انتهى.

وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلظ في شيء من المعاصي ما غلظ في قصة الإفك، ولا توعّد في شيء ما توعّد

فيها، وأكد وبشع، ووبخ وقرع، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ، وغضباً له، وإعظاماً لحرمة، وصوناً لحجابه.

ثم قال سبحانه: ﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالْطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فلما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات، أتبعه ما هو كالعلة لآية ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ دليلاً شهودياً على براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: ﴿الْخَيْثُوثُ﴾ أي من النساء، وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب ﴿لِلْخَيْثِثِ﴾ أي من الرجال. ولما كان ذلك لا يفهم أن الخبيث مقصور على الخبيثة قال: ﴿وَالْخَيْثُوثُ﴾ أي من الرجال أيضاً ﴿لِلْخَيْثِثِ﴾ أي من النساء. ولما أُنْتِج هذا براءتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها قرينة أطيب الخلق، أكد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ﴾ بذلك قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله، ويفعل أفعال مثله، وهو سبحانه قد اختار لهذا النبي الكريم لكونه أشرف خلقه خلص عباده من الأزواج والأولاد والأصحاب ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] «خيركم قرني» وكلما ازداد الإنسان منهم من قبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرباً ازداد طهارة، وكفى بهذا البرهان دليلاً على براءة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكيف وقد أنزل الله العظيم في براءتها صريح كلامه، وحاطه من أوله وآخره بهاتين الآيتين المشيرتين إلى الدليل العادي، وقد خرج مسلم في الأدب من صحيحه وأبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» وفي رواية عنه رفعها: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ولفظ

وقال ﷺ تعالى: بَابُ قَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «تَلَقَّوْنَهُ» يَرَوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، «تُفِيضُونَ» تَقُولُونَ^(١). حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا

حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا التَقْتَ تَشَامَّ كَمَا تَشَامُّ الْخَيْلُ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ..».

وَأَنشَدُوا لِأَبِي نُوَّاسٍ فِي الْمَعْنَى:

إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادٍ مَجْنُودَةٍ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَعْتَرِفُ
فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُؤْتَلَفٌ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلَفٌ
وَلَمَّا ثَبَتَ هَذَا كَانَتْ نَتِيجَتُهُ قَطْعًا: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيِ الْعَالِوِ الْأَوْصَافِ بِالطَّهَارَةِ
وَالطَّيِّبِ ﴿مُبْرَأُونَ﴾ بِبِرَاءَةِ اللَّهِ، وَبِرَاءَةِ كُلِّ مَنْ لَهُ تَأَمَّلٌ فِي مِثْلِ هَذَا الدَّلِيلِ ﴿مِمَّا
يَقُولُونَ﴾ أَيِ الْقَذْفَةِ الْأَخَابِثِ، لِأَنَّهُ لَا تَكُونُ زَوْجَةُ أَطِيبِ الطَّيِّبِينَ إِلَّا وَهِيَ كَذَلِكَ.
وَلَمَّا أَثَبَتَ لَهُمُ الْبِرَاءَةَ، اسْتَأْنَفَ الْإِخْبَارَ بِجَزَائِهِمْ فَقَالَ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَسَا عَائِشَةَ مِنَ الشَّرَفِ مَا كَسَاهَا، وَحَلَاهَا بِرُوقِهِ مِنْ مَزَايَا
الْفَضْلِ مَا حَلَاهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا. نَظْمُ الدَّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ،
إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْقَعَاكِيِّ، مُخْتَصَرًا (٢٣٥/٥ - ٢٤٨)

(١) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَتَحَدَّثَ بِهِ وَيُلْقِيهِ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى يَنْتَشِرَ. وَالثَّانِي: أَنْ يَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ إِذَا
حُدِّثَ بِهِ وَلَا يَنْكَرُهُ. وَحَكَى ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تَقْرَأُ: إِذَا تَلَقَّوْنَهُ، بِكَسْرِ
الْلامِ مُخَفَّفَةً، وَفِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: تَرَدُّدُونَهُ، قَالَهُ الْيَزِيدِيُّ.
الثَّانِي: تَسْرَعُونَ فِي الْكَذِبِ وَغَيْرِهِ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ فالأول تحضيض على الظن الحسن، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف، ففي الأول قوله: ﴿أَحْتَبُّوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» وكذا قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «ما أظن فلانًا وفلانًا يدريان من أمرنا هذا شيئًا» فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك؛ لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان، ونهي عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي؛ لأنه جعل فيها الرجم، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة، والرمي غيرها فيه الاجتهاد، ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم كما قال علي: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدّ المفترى. وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هذى، وإذا هذى افترى، وحدّ الشرب ثمانون، وحدّ المفترى ثمانون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿الآيَةُ﴾، وهذا ذم لمن يحبُّ ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبةً لوقوعها في المؤمنين: إما حسداً، أو بغضاً، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضاً للذين آمنوا فكل من أحب فعلها ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يُرغَّبُ فيها، وكذلك ذكرها غيبة محرمة، سواء كان بنظم أو نثر، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهى عنه، مثل الأمر بها؛ فإن الفعل يطلب بالأمر تارة، وبالإخبار تارة، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم، وهؤلاء يعتبرون من الاغترار؛ فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ﴿١﴾ قيل: أراد الغناء، وقيل أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس. وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته، وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة، مثل النهي عنها وعنهم، والذم لها ولهم، وذكر ما يبغضها وينفر عنها، وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبيهم؛ فهذا كله حسن، يجب تارة، ويستحب أخرى، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه والبغض لما يبغضه. وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين وقصص الفجار والكفار لنعبر بالأمرين: فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم.

سُلَيْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ أُمِّ عَائِشَةَ أَنَّهَا

وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة قال تعالى: ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر القصة في مواضع من كتابه. فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ وهذا استفهام إنكار، ونهي إنكار، ذم ونهي، كالرجل يقول للرجل: أتفعل كذا وكذا؟ أما تتقي الله؟

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ وهذا استفهام ثان فيه من الذم والتوبيخ ما فيه، وليس هذا من باب القذف واللمز. وكذلك قوله: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة، فقد واجههم بدمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى؛ حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث، فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب. وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَّفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهاز النفوس عن معصية الله، والتمسك بالتقوى، وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٣١-٣٣٧) باختصار.

قَالَتْ: لَمَّا رُمِيتْ عَائِشَةُ؛ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

وقال: **باب ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].**

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ. فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ وَجْهِهِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ. فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكَ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنْ اتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكَحْ بِكَرًا غَيْرَكَ، وَنَزَلَ عَذْرُكَ مِنَ السَّمَاءِ.

وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسِيًّا مَنْسِيًّا^(١).

(١) وفي روايات أخرى: فقال لها عبد الله: يا أمتاه، إن ابن عباس من صالح بيتك، يسلم عليك ويودعك، قالت: ائذن له إن شئت. فقال: كيف تجدينك؟ قالت بخير إن اتقيت الله، فلما جلس قال: أبشري يا أم المؤمنين، تقدمين على فرط صدق، وتقدمين على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر، وما بينك وبين أن تلقى محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكراً غيرك، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ، ولم يكن يجب إلا طيباً، ونزل عذرك من السماء. وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه أناء الليل وأطراف النهار،

وسقطت قلاذتك ليلة الأبواء فنزل التيمم، فوالله إنك لمباركة، إنما سميت أم المؤمنين لتسعدي، وإنه لاسمك قبل أن تولدي. عن الفتح باختصار الروايات وإدماجها. وفي هذه القصة دلالة على سعة علم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعظيم منزلته بين الصحابة والتابعين، وتواضع عائشة وفضلها وتشديدها في أمر دينها، وأن الصحابة كانوا لا يدخلون على أمهات المؤمنين إلا بإذن، والتنبيه على رعاية جانب الأكابر من أهل العلم والدين، وأن لا يترك ما يستحقونه من ذلك لمعارض دون ذلك في المصلحة. فتح الباري: (٨ / ٤٨٥) ولتقف مع أمنا الطاهرة قليلاً:

وهي عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، الصديقة المبرأة من كل عيب، حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، وكنيتها أم عبد الله، كناها النبي ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير. حينما استأذنته في الكنية فقال: «اكتني بابنك عبد الله بن الزبير» يعني ابن أختها. روت عن النبي ﷺ فأكثر، روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين، منهم مسروق والأسود وابن المسيب وعروة والقاسم وأبو سلمة وعمر، وولدت سنة أربع من النبوة، وتزوجها النبي ﷺ بعد موت خديجة بثلاث سنين وهي بنت سبع أو ست. وفي صحيح مسلم من حديثها: «تزوجها وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة» وله أيضاً: «تزوجها وهي بنت سبع سنين» دخل بها في السنة الثانية من الهجرة في شوال، ومناقبها جمّة منها نزول القرآن ببراءتها.

وفي الصحيحين من حديث أنس وأبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

وفي الصحيحين من حديثها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة هذا

جبريل يُقرئك السلام» قالت: فقلت: عليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى.

ولهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُرِيْتُكَ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، جَاءَنِي بِكَ الْمَلِكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول إن يك من عند الله يُمَضِّهِ» وعند الترمذي وحسنه بسنده عنها: أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

وأخرج البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أُكِلَ منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرةً غيرها.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبي» فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت غضبي، قلت: لا، ورب إبراهيم» قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. وللترمذي وصححه من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: وتأمل كيف نسب أباها إليها لعظيم محبته لها صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الصحيحين عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: ما ترى ما

صنعت عائشة، أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا. فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وفي المسند بزيادة: قالت: يقول أبي حين جاء من الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر.

وعند أبو داود والنسائي بسند جيد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فحال النبي ﷺ بينه وبينها. ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضاها، وقال: «ألم تريني حلت بين الرجل وبينك» ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى، فسمع تضاحكهما، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتاني في حربكما. وفي الصحيحين في ذكر خبر أم زرع، عن عروة عن عائشة... وفيه بعد أن ذكرت المرأة الحادية عشرة أوصاف زوجها... قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» أي في الألفة والوفاء.

وروى مسلم رحمه الله عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن نساء النبي ﷺ كنَّ حزبن: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ. وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة،

فكَلَّمَ حزب أمِّ سلمة أمَّ سلمة فقلن: كَلَّمِي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هديةً فليهد إليه حيث كان من نسائه. فكَلَّمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كَلَّميه، فكَلَّمته حين دار إليها أيضاً ولم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كَلَّميه حتى يكَلِّمك، فدار إليها فكَلَّمته فقال لها: لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة. قالت: فقلت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلنها إلى رسول الله تقول: إن نساءك يسألنك العدل في بنت أبي بكر، فاستأذنت عليه وهو مضطجع في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت عائشة: وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أي بنية ألسن تحبين ما أحب؟» فقالت: بلى، قال: «فأحبي هذه» قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقلولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، أتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله، ما عدا سورة من حدة كان فيها تسرع منه الفيئة، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ

مع عائشة في مرطها على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وَقَعْتُ بي، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طَرْفَهُ هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرحُ زينبُ حتى عرفتُ أنّ رسول الله ﷺ لا يكرهُ أن أنتصر، قالت: فلما وقعتُ بها لم أنشبهها حتى أثخنتُ عليها، فقال رسول الله ﷺ وتبسم: «إنها ابنة أبي بكر».

ولمسلم عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ، أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ الْقِرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ، سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَا تَرَكِينِ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي، وَأَرْكَبُ بَعِيرَكَ تَنْظِرِينَ وَأَنْظُرِ. فَقَالَتْ: بَلَى. فَرَكِبَتْ. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ، وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلِمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا، وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ. فَلَمَّا نَزَلُوا، جَعَلَتْ رَجْلَيْهَا بَيْنَ الْإِذْخَرِ وَتَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حِيَةً تَلْدَغُنِي، رَسُولُكَ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا. وَفِي هَذَا بَيَانُ مَنْزِلَتِهَا مِنْ قَلْبِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ كَانَ يَخْصِمُهَا دُونَ غَيْرِهَا.

وروى أحمد وأصله في الصحيحين عن بن أبي مليكة، قال: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري. ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريد، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيته مستنًا قط: ثم ذهب يرفعه إليّ، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك. فرفع بصره إلى السماء وقال: «الرفيق الأعلى» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع بين ريقه وريقه في آخر يوم من الدنيا. والسحر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر، ومعنى استن: =

استاك.

وأخرج الحاكم في مستدركه بسنده ووافقه الذهبي عن عائشة: أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة. قالت: فتكلمت أنا. فقال: «أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة» قلت: بلى والله، قال: «فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة».

وله كذلك ووافقه عن عبدالرحمن بن الضحاك: أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة، فقالت: لي خلال تسع، لم تكن لأحد، إلا ما أتى الله مريم عليها السلام. والله ما أقول هذا فخراً على صواحباتي. فقال ابن صفوان: وما هن؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله، فتزوجني: وتزوجني بكراً: وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف: وكنت من أحب الناس إليه: ونزل في آيات كادت الأمة تهلك فيها: ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري: وقُبِضَ في بيتي، لم يله أحد غير الملك إلا أنا.

وأجمل بالمديحة الحسانية حين قال شاعر الإسلام، وصدق:

رَأَيْتُكَ وَلِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ حَرَّةً مِنْ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتَصْبِحُ غَرثِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ
وللترمذي وصححه عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

وله وحسنه أن رجلاً نال من عائشة عند عمّار فقال: اغرب مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟! والمنبوح هو الذي يضرب له مثل الكلب.

وله وصححه عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة. وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما سمعت خطيباً ليس رسول الله ﷺ أبلغ من عائشة. وقال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن

الفرائض. وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثني الصديقة ابنة الصديق، البريئة المبرأة من فوق سابع سماء. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة. وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً. وقال الزهري: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل. وعن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة. وكانت خالته، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا يوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها. وعن عروة قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً وأكثر. وعن الأحنف، قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة. وقال موسى بن طلحة: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة. وعن الشعبي: أن عائشة قالت: رويت للبيد نحواً من ألف بيت، وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟!

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنها أنشدت بيت لبيد:
 ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقى في خُلف كجلد الأجرِبِ
 فقالت: رحم الله لبيداً، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قال عروة: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو أدركت زماننا هذا؟! قال هشام: رحم الله أبي، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قلت: رحمهم الله، فكيف لو أدركوا زماننا هذا؟!
 والأكناف: الجوانب والنواحي، والخُلفُ: ما جاء من بعد، يقال: هو خُلف سوء من أبيه بتسكين اللام، وخُلف صدق من أبيه بتحريكها: إذا قام مقامه.

وعن الشعبي قال: قيل لعائشة: يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقيته عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام: وهذا الشعر والنسب والأخبار سمعتها من أبيك وغيره: فما بال الطب؟ قالت: كانت الوفود تأتي رسول الله ﷺ، فلا يزال الرجل يشكو علة، فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته. وبلغ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن عبد الله بن الزبير كان في دار لها باعته بمئة ألف، ثم قسمت الثمن، فتسخط عبد الله بيع تلك الدار، فقال: أما والله لتنتهين عائشة عن بيع رباعها، أو لأحجرن عليها. قالت عائشة: أو قال ذلك؟ قالوا: قد كان ذلك. قالت: لله علي ألا أكلمه، حتى يفرق بيني وبينه الموت. فطالت هجرتها إياه، فنقصه الله بذلك في أمره كله. فاستشفع بكل أحد يرى أنه يثقل عليها، فأبت أن تكلمه. فلما طال ذلك، كلم المسور بن مخرمة، و عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أن يشملاه بأرديتهما ثم يستأذنا، فإذا أذنت لهما، قالوا: كلنا؟ حتى يُدخلاه على خالته عائشة، ففعلا ذلك. فقالت: نعم كلكم، فليدخل. ولا تشعر. فدخل معها ابن الزبير، فكشف الستر، فاعتنقها، وبكى، وبكت عائشة بكاء كثيراً، وناشدها ابن الزبير الله والرحم، ونشدها مسور وعبد الرحمن بالله والرحم، وذكرها لها قول رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» فلما أكثروا عليها، كلمته، بعدما خشي ألا تكلمه. ثم بعثت إلى اليمن بهال، فابتيع لها أربعون رقبة، فأعتقتها.

وبعث إليها معاوية بمئة ألف فما أمست حتى فرقتها. وقيل: إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار، ورآها عروة تصدقت بسبعين ألفاً، وإنها لترقع جانب درعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعند ابن سعد عن أم ذرة، قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بهال في غرارتين، يكون مئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست، قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن

تشتري لنا لحماً بدرهم؟ قالت: لا تعنّفيني، لو أذكرتيني لفعلت. وعن عطاء: أن معاوية بعث إلى عائشة بقلادة بمئة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين. وفرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال شعبة: أخبرنا عبدالرحمن بن القاسم، عن أبيه: أن عائشة كانت تصوم الدهر. ولفظ القاسم: أن عائشة كانت تسرد الصوم. قلت: أي تصوم الدهر، ولا تفطر إلا في الأيام المحرمة كالعيدين والتشريق وأيام الحيض.

وعن إبراهيم النخعي، قال: قالت عائشة: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة! وهذا من ورعها وعظيم خوفها من الله، وشدة تواضعها وإزرائها بنفسها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاهما، وألحقنا بها في السابقين المقربين.

وعن ابن أبي مليكة: حدثني أبو عمرو ذكوان مولى عائشة، قال: قدم درج من العراق، فيه جوهر إلى عمر، فقال لأصحابه: تدرّون ما ثمنه؟ قالوا: لا. ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: أتأذنون أن أرسل به إلى عائشة، لحب رسول الله ﷺ إياها؟ قالوا: نعم. فبعث به إليها. فقالت: ماذا فتح على ابن الخطاب بعد رسول الله؟ اللهم، لا تبقيني لعطيته لقابل.

وتوفيت أمنا سنة سبع وخمسين على المشهور، في ليلة سابع عشر شهر رمضان، وأمرت أن تدفن ليلاً فدفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير والقاسم بن محمد وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفنت به مع صواحبها رضي الله عنهن أجمعن. وفي المستدرك بإسناد صالح، عن أم سلمة: أنها لما سمعت الصرخة على عائشة، قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، إلا أباه.

وللحاكم عن سالم سبلان: أنها ماتت في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان بعد

وقال: بَاب ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨] حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، أَنبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَشَبَّبَ وَقَالَ:

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ ^(١)

الوتر. فأمرت أن تدفن من ليلتها، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم ير ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالي، فدفنت بالبقيع. قال الذهبي: مدة عمرها: ثلاث وستون سنة وأشهر.

وانظر: الوافي بالوفيات الصفدي (١٦ / ٣٤٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ١٧٠) طرح الشريب، زين الدين عبد الرحيم العراقي (١ / ٣٣٧ - ٣٣٩).

(١) قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

رَأَيْتُكَ وَلِيَعْفِرَ لَكَ اللَّهُ حَرَّةً	مِنَ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانُ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ	وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةٌ حَيٍّ مِنْ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ	كِرَامِ الْمُسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا	وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ	فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنْامِلِ
وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيَّيْتُ وَنُصْرَتِي	لَا لِرَسُولِ اللَّهِ زَيْنُ الْمُحَافِلِ
لَهُ رَبُّ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ	تَقَاصَرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَاطِطٍ	وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَا حِلِ

قال السهيلي: حَصَانُ رَزَانٌ: بِتَوَالِي الْفَتْحَاتِ، مُشَاكَلَةٌ خِفَّةِ اللَّفْظِ لَخِفَّةِ الْمَعْنَى، أَيِ الْمُسَمَّى بِهَذِهِ الصِّفَاتِ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ، وَحَصَانٌ مِنَ الْحِصْنِ وَالتَّحَصُّنِ وَهُوَ الْإِمْتِنَاعُ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَيْهَا. وقيل: الإحصان في كلام العرب هو مطلق

المنع، فتكون المرأة محصنة بالإسلام، لأن الإسلام يكفها عن ما لا يحل، وتكون محصنة بالعفاف والحياء من أن تفعل ما تعاب به، وتكون محصنة بالحرية وبالتزويج أيضاً. والمرأة حصان بفتح الحاء بينة الحصن، أي مستعملة لما يوجبه عليها الإحصان من الامتناع عما لا يحل ولا يحسن، والخاصن أيضاً المتعفة.

وقوله: ما تزن بريبة: أي لا تُتهم، يقال أزننت فلاناً بكذا أي أتهمته، فهو يُزنُّ بكذا. وقوله: وتصبح غرثى من لحوم الغوافل: أي خيصة البطن من لحوم الناس، أي اغتياهم، وضرب الغرث مثلاً، وهو عدم الطعم وخلو الجوف، وفي التنزيل: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ضرب المثل لأخذه في العرض بأكل اللحم، لأن اللحم ستر على العظم، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر. وقال ميتاً، لأن الميت لا يحس، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب.

وقوله من لحوم الغوافل: يريد العفائف الغافلة قلوبهن عن الشر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣] جعلهن غافلات، ولا خطر الشر على قلوبهن، فهن في غفلة عنه، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بالعفاف.

وقوله: له رتب عال على الناس كلهم: فالرتب ما ارتفع من الأرض وعلا. والرتب أيضاً: قوة في الشيء وغلظ فيه. والسورة: رتبة رفيعة من الشرف، مأخوذة اللفظ من سور البناء.

وقوله: فإن الذي قد قيل ليس بلائط: أي بلاصق، يقال: ما يليط ذلك بفلان، أي ما يلصق به. ومنه سمي الربا: لياطاً، لأنه ألصق بالبيع وليس ببيع.

وقوله: فلا رفعت سوطي إلي أناملي: دعاء على نفسه، وفيه تصديق لمن قال إن حسان لم يُجلد في الإفك ولا خاض. الروض الأُنْف للسهيلى: (٢٩-٣٧).

وفي المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد الأنصاري القرطبي (٢٠ / ١٤٥): ويعني حسان بهذا البيت - حصانُ رزانٍ -: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في غاية العِفَّة والنزاهة عن أن تُزَنَّ بريية؛ أي تُتَّهَم بها. ثم وصفها بكمال العقل والوقار والورع، المانع لها من أن تتكلم بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثي؛ لأنَّ بعض الغوافل قد كان هو آذاها فما تكلمت فيها، فكأنها كانت بحيث تنصرف ممن آذاها، بأن تقابلها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينها، وعقلها، وورعها. انتهى.

قلتُ: والمعنى الذي ذكره في دعائه على نفسه قد سبقه إليه النابغة الذبياني في اعتذاره للمنذر بقوله:

ما قلتُ من سيِّءٍ مما أتيت به إذاً فلا رفعتُ سوطي إليَّ يدي
وقد أنكر بعض أهل العلم خوض حسان في الإفك، وقد تقدّم شيء من هذا، ونزيده بالقول:

قال ابن عبد البر: وقد أنكر قوم كون حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاض في الإفك وأنه جلد، وجاء أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا برأتَه من ذلك. وقد ذكر الزبير بن بكار أنها قالت في حق حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبِّه بلسانه عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئاً ولكنه القائل:

فإن كان ما قد قيل عني قلتهُ فلا رفعتُ سوطي إلي أنامي
وعن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقياً على سريرته، فلما بلغ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ ﴿١٠﴾ جلس ثم قال: يا أبا بكر من تولى كبره؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت في نفسي: ماذا أقول؟ إن قلت: لا، لا آمن أن ألقى منه شرّاً! وإن قلت: نعم، جئتُ بأمر عظيم! ثم قلت

لنفسى: لقد عودني الله على الصدق خيراً، فقلت: لا. فضرب بقضيبه السرير قال:
فمن؟ يكرر ذلك مراراً. قلت: عبد الله بن أبي ابن سلول.
وفي البخاري: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تنكر أن يُسَبَّ عندها حسان وتقول: إنه
الذي قال:

فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً
تنظر: السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي: (٢/ ٦١٨-٦٢١)
شيء من خبر حسان وصفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

عن عامر الشعبي أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر
حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:
هجوت محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء
وأورد ابن عساكر وابن سعد والبيهقي في الدلائل والذهبي في تاريخ الإسلام
وغيرهم خبر فتنة رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول في عصابة من المنافقين
حين رأوا أن الله قد نصر النبي ﷺ وأصحابه، فأظهروا قولاً سيئاً في منزل نزل
رسول الله ﷺ في سفر، وكان في أصحاب رسول الله ﷺ رجل يقال له جعال
ورجل من بني غفار يقال له جهجاه، فعلت أصواتهما. وقيل: إن جهجاه خرج
بفرس لرسول الله ﷺ وفرس له يومئذ يسقيهما، فأوردهما على الماء فوجد على
الماء فتية من الأنصار، فتنازعوا على الماء فاقتتلوا، فقال عبد الله بن أبي يومئذ: هذا
ما جزونا، آويناهم ومنعناهم ثم هؤلاء هم يقاتلوننا، ولمز صفوان بشأن الإفك،
وبلغ حسان بن ثابت الذي بين جهجاه الغفاري وبين الفتية الأنصارين فغضب
وقال:

أَمْسَى الْجَلَايِبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كُثُّوا وابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى يَيْضَةَ الْبَلَدِ

في أبيات أُخَر، والجلايب: الغرباء، وقيل: السفلة. والفريعة: أم حسان. وقوله: أمسى بيضة البلد: أي منفردًا لا يدانيه أحد. وبيضة البلد: أي المقيم فلا يضعن، إما لعزته وكثرته، وإما لذته وقلته. فتراد مدحًا وذمًا، وهي في هذا الموضع مدح لنفسه، وقد يكون ذمًا لتهييج قومه، وذلك إذا أريد أنه ذليل ليس معه غيره.

فقال صفوان: ما أراه إلا عناني، أي بالجلايب.

فلما قدموا المدينة جاء صفوان إلى جعيل بن سراقه فقال انطلق بنا نضرب حسان فوالله ما أراد غيرك وغيري، لنحن أقرب إلى رسول الله ﷺ منه. فأبى جعيل أن يذهب قال: لا أفعل إن لم يأمرني رسول الله ﷺ ولا تفعل أنت حتى تؤامر رسول الله ﷺ في ذلك. فأبى صفوان عليه فخرج مصلتا السيف حتى ضرب حسان بن ثابت في نادي قومه قائلاً:

تَلَقَّ دُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِئْتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ

قلت: يعني أن جزاءك ضربة سيفٍ نائر، لا بيت شعر سائر. فوثبت الأنصار إليه فأوثقوه رباطًا، وكان الذي تولى ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس، فمر بهم عمارة بن حزم فقال: ما يصنعون؟ أمِنُ أمرِ رسول الله ﷺ ورضاه، أم من أمر فعلتموه؟ قالوا: ما علم به رسول الله ﷺ؟ فقال: لقد اجترأت خل عنه. ثم جاؤوا سعد بن عبادة سيد الخزرج - الذين منهم حسان - وهو مقبلٌ على ناضحه بين القريتين، فذكروا له ما فعل حسان وما فعلوا فقال: أشاورتم في ذلك رسول الله؟ قالوا: لا. فقعد إلى الأرض وقال: وانقطاع ظهراه! أتأخذون بأيديكم ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فخرج في قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من قوم رسول الله ﷺ - أي مهاجري - تؤذونه وتهجون به بالشعر وتشتمونه، وقد زعمتم أنكم نصرتموه! فغضب سعد لرسول الله ﷺ. وفي رواية أن رسول الله

أمرهم بحبسه حتى ينظر ما يؤول جرح حسان. فقالوا لسعد: فإن رسول الله ﷺ أمر بحبسه وقال: «إن مات صاحبكم فاقتلوه» قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للعفو، ولكن رسول الله ﷺ قد قضى لكم بالحق، وإن رسول الله ﷺ ليحب أن يترك صفوان، والله لا أبرح حتى يطلق، فأطلقوه من الوثاق، فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلّة، ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلي فيه، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «صفوان؟» قالوا: نعم، يا رسول الله. قال: «من كساه؟» قالوا: كساه سعد بن عباد، قال: «كساه من ثياب الجنة».

فلما أصبحوا غدوا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك فقال: «أين ابن المعطل؟» فقام إليه، فقال: هاأنذا يا رسول الله، فقال: ما دعاك إلى ما صنعت قال: آذاني وكثر عليّ، ولم يرض حتى عرض بي في المهجاء، فاحتملني الغضب، وهاأنذا، فما كان عليّ من حق فخذني به، فقال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي حسان» فأُتِيَ به فقال: «يا حسان، أتشوّهت على قومي أن هدامهم الله للإسلام؟!» يقول: تنفّست عليهم يا حسان، «أحسن فيما أصابك» فقال: هي لك يا رسول الله، فقال: «أحسن» فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية القبطية، فولدت له عبد الرحمن، فكان بعدُ يفتخر أنه ابن خالة إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأعطاه أرضاً له، وأعطاه أيضاً سعد بن عباد رضي الله عنه حائطاً كان يتحصّل منه مال كبير بما عفا عن حقّه.

وقيل: إنها أعطاه سيرين لذّبه عن رسول الله ﷺ بشعره، قال ابن عبد البر رحمه الله: إعطاء رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يُروى من وجوه أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له، بل لذّبه بلسانه عن رسول الله ﷺ.

هذا وقد استشهد صفوان بن المعطل السلمي شهيداً في سنة تسع عشرة في أرمينيا حين كان على رأس سرية، وقد حاصر حصناً يقال له «بولا» فرموه فقتلوه، فدفن قدام الحصن قريباً منه. قال أبو إسحاق السنجاري: أتينا بولا في بعث فقال لي شيخ

قَالَتْ: لَسْتُ كَذَّاكَ - وفي رواية: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ - قُلْتُ: تَدْعِينِ مِثْلَ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١] فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟! وَقَالَتْ: وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

من أهلها قد بلغ مائة سنة أو زاد عليها: أتريد أن أريك قبر صفوان بن المعطل؟ قلت: نعم، فإذا هو من بابها على رمية بحجر، وقال: رميناه فقتلناه، فبلغ عمر قتله فدعا علينا دعوة إنا لنعرفها إلى الساعة. وقال عبد الملك بن القعقاع: حدثني مشايخ من الأرمن عن آبائهم: أن صفوان بن المعطل السلمي قاتل فدُفِنَ ساقه فلم يزل يطاعن حتى مات.

وقال الذهبي بعد ذكر روايات مخالفة لقتله: فهذا تباين كثير في تاريخ موته فالظاهر أنهما اثنان، أي رجلا. والله أعلم.

لطيفة: قال صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا حجاجاً فلما كان بالعرج - عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج - إذا نحن بحية تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فأخرج لها رجل خرقة من عييته فلفها فيه ودفنها، وخذ لها في الأرض. فلما أتينا مكة فإنما بالمسجد الحرام إذ وقف علينا شخص فقال: أيكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا: ما نعرفه. قال: أيكم صاحب الجان؟ قلنا: هذا، قال: جزاك الله خيراً، أما إنه كان من آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن. رواه أحمد في مسنده (٢٢٦٦٢).

(١) قوله: فقالت: أي عذاب أشد من العمى: كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان، وإلا فهي في ابن أبي، والله تعالى أعلم. حاشية السندي على صحيح البخاري: (١٧/٣).

وإلى شيء من أخبار شاعر الإسلام حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو حسان بن ثابت بن المنذر من بني النجار الخزرجي الأنصاري الأردني من كهلان بن سبأ بن

يشجب بن يعرب بن قحطان. ويكنى حسان بن ثابت أبا الوليد. وهو فحل من فحول الشعراء، بل هو أشعر أهل المدر، قال أبو عبيدة: أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.

وكان أحد المعمرين من المخضرمين، قيل إنه قد عمّر مئة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام! وشاهد ذلك ما رواه الزبير بن بكار بسنده عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، إذا يهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ويلك، مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. قال: ثم أدركه اليهودي ولم يؤمن به! قال أبو الفرج الأصبهاني: فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولادة النبي ﷺ وله يومئذ ثمان سنين، والنبي ﷺ بعث وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة، وحينئذ أسلم. وعن أبي الزناد قال: عمّر حسان بن ثابت عشرين ومئة سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.

وعن سليمان بن يسار قال: رأيت حسان بن ثابت وله ناصية قد سد لها بين عينيه. وكان حسان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ولا يخضب سائر لحيته! فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسد والغ في دم! قلت: فلا عجب أن يشبه نفسه بالأسد الضارب بذنبه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن محمد بن سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان يهجو رسول الله ﷺ ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبيري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمر بن العاصي، فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أهج عنا القوم الذين قد هجونا. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت. فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال: «ليس

هناك أو ليس عنده ذلك» ثم قال للأنصار: «ما منع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألستهم» فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مَقُولُ بين بصرى وصنعاء.

فقال: «اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اجهم وجبريل معك». وفي رواية: فأخرج لسانه أسود، فوضعه على طرف أرنبته وقال: يا رسول الله، لو شئت لفريت به المزاد. فقال: «يا حسان وكيف وهو مني وأنا منه؟» قال: والله لأسلنه منك كما يسئل الشعر من العجين، قال: «فأت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك» فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله ﷺ فقال: كف عن فلانة، واذكر فلانة. فكان مما قال:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

ولما أنشدت قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة. قلت: إذ هو أعلم العرب بأنسابها، وقد أعطى حسان مادة خصبة لرمي القوم فأحسن الرمي. حتى إن بعض أهل مكة قالوا حينها: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا! وإنك لترى ذلك واضحاً في ثنايا تلك الأبيات المصمية القاتلة، فمنها ما قاله لأحد قرابة النبي ﷺ من بني هاشم الذي كان يهجو رسول الله ﷺ أشد الهجاء. وقد أسلم بعدُ وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فرماه حسان بنبأ سنّها أبو بكر فقال:

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بَنَاتٍ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةٍ مِنْكُمْ كِرَامٌ وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزُكَ الْمَجْدُ
وَإِنْ أَمْرًا كَانَتْ سُمِّيَّةُ أُمُّهُ وَسَمْرَاءُ مَغْلُوبٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ
وَأَنْتَ هَجِينٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّكَّابِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ

فقال العباس: ومالي وما لحسان، يعني في ذكره نتيحة فقال فيها:

وَلَسْتُ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَابْنِ أُمِّهِ وَلَكِنْ هَجِينٌ لَيْسَ يُورَى لَهُ زَنْدٌ

وقال في رجل من قريش بعد بدر يهجو بقصيدة منها:

تَرَكَ الْأَحْبَةَ أَنْ يُقَاتَلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَجَامٍ

وقالت عائشة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وهي متذوقة وحافظة للشعر كأبيها. سمعت رسول الله

ﷺ يقول لحسان بن ثابت الشاعر: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت

عن الله عز وجل وعن رسول الله» وعن ابن بريدة قال: أعان جبريل عليه السلام

حسان بن ثابت في مديح النبي ﷺ بسبعين بيتاً. قلت: ومن ذلك الذب عنه.

وعن جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله قال: «أمرت عبد الله بن رواحة

فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت

فشفى واشتفى» قلت: لأن حسان كان يبلغ الكبد بنفوذ شعره، فهو بمثابة

صاروخ بالستي! إذ تحمله الرواة وتتناقله الركبان لعمقه وجزالته وبديع

معانيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن عوف بن محمد قال: قال النبي ﷺ ليلة وهو في سفر: «أين حسان بن

ثابت؟» فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «أحُد». أي أنشد بالخداء

. فجعل ينشد، ويصغي إليه النبي ﷺ ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائق

راحلته حتى كان رأس الراحلة يمس الورك، حتى فرغ من نشيده، فقال النبي

ﷺ: «لهذا أشد عليهم من وقع النبل».

بل قد كان ينشده في مسجد الرسول ﷺ، فعن سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن عمر

مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ، فأنتهره عمر فقال

حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك، فانطلق عمر. الاستيعاب في معرفة

الأصحاب لابن عبد البر: (١/ ١٠٢).

قلت: ومما يدل على تفرّده بهامة الشعر خبر مفاخرته برسول الله ﷺ مع ثابت بن قيس أُمَامٍ وفد تميم فغلباهم، وقد بسطتها في (وقد يجمع الله الشيتين). ومن جميل شعره الإياني:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ مُحَمَّدًا	رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عُلَى
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذُلُونَهُ	يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا	لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبَّلُ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنَ مَرْيَمَ	رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِي الْعَرْشَ مُرْسَلُ
وَأَنَّ الَّذِي بِالْجِزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ	وَمَنْ دُونَهَا فَلْ مِنْ الْخَيْرِ مَعَزِلُ

فيروى أن النبي ﷺ قال حينها: «أنا أشهد معك».

ولتسمح لي نفس القارئ الكريم بنفح شيء من أرج الأدب العربي العزيز، فإنه ليعز عليّ عزوف كثير من طلبة العلم عن رياض الأدب، ورغبتهم عنها، بل وازورارهم عن مطالعتها، فضلاً عن روايتها! لما ظنوه من أنها قاذحة في المروءة، مذهبة للوقار، مبيسة للروءاء، غير حقيقة بالارتياض والتمتع والامتناع، أو أنها من خوارم الجلالة العلمية! بل أعنق بعضهم في زعمه بأنها بضاعة السفهاء! وقد بسطت القول في نقض ذلك بالأدلة والشواهد والبراهين والأمثلة في كتاب: (وقد يجمع الله الشيتين) وقد عقد القرطبي رحمه الله فصلاً نفيساً في تفسيره الجامع لأحكام القرآن عند قول الله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ بين فيه أنواع الشعر التي وقع عليها وعلى أهلها الدم، ولابن رشيق القيرواني مقدمة باذخة حافلة لكتابه الموسوم بالعمدة في محاسن الشعر وآدابه، استأذن القارئ الكريم بسوقها علّها تنفخ في نفس بعض المعنيين سلاسة الأدب الرفيع، وصَبَا العبق الشذي، وتصلق عارضتهم وأساليبهم بجودة اللفظ الجزيل، وسأختصرها وأقتصرها مكرهاً لضيق المقام،

ومن أراد الربيع المخصب فثمّ وابل هطّال. قال ﷺ:

العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم؛ لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد. وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، وردئية، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم يتتبع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأعلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع، ولم تستقر منه إلا المفرطة في اللفظ وإن كانت أجمل، والواحدة من الألف، وعسى أن لا تكون أفضله، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة، والفريدة الموصوفة؛ فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به، ولا ينظر إليه، فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذ اللابس جمالاً، والمدخر مالاً، فصار قرطة الأذان، وقلائد الأعناق، وأمانى النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويخبأ في القلوب، مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغصب.

وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً؛ لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور.

وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأجداد، وسمحاتها

الأجواد؛ لتَهْزِ أنفُسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنشور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر، يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منشور، وأن النبي ﷺ غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فالذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منشوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمرسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنشور ليس كذلك، فمن ههنا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: لتقوم عليكم الحجة، ويصح قبلكم الدليل، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهري أنه قال: معناه ما الذي علمناه شعراً، وما ينبغي له

أن يبلغ عنا شعراً.

وقال غيره: أراد وما ينبغي له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه، أي: ليس هو ممن يفعل ذلك؛ لأمانته ومشهور صدقه. ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غرض من الشعر لكانت أميته غصاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد.

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب، ولا تجد كاتباً يخدم شاعراً، وقد عميت عليهم الأنباء، وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه. مدل بما عنده على الكاتب والمملك؛ فهو يطلب ما في أيديهما ويأخذه، والكاتب بأي آية يفضل الشاعر فيرجو ما في يده؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته، على أن يكون كاتب بلاغة، فأما كاتب الخدمة في القانون وما شاكلة فصانع مستأجر، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحري قهارمة وكتاب، وكان من عميان الشعراء كتاب أزمة كبشار وأبي علي البصير، وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوق في الشعراء فكذلك تجد للسوق كتاباً، وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله.

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب المملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوق؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منشور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين.

ولما أوعد رسول الله ﷺ كعب بن زهير ضاقت به الأرض، فأتى إلى رسول الله ﷺ متنكراً، فلما صلى النبي ﷺ صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمناً تائباً، أفتؤمنه فأتيك

به؟ قال: هو آمن، فحسر كعب عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هذا مكان العائد بك، أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله رسول الله ﷺ، وأنشد كعب قصيدته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله:
أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال قرآن فيه مواعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب، ولو كثرت في الأقاويل
فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه ووهب له برده، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الشعر فيه كلامٌ حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح، وقال على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: مر الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي ﷺ، وحسان ينشدهم، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده.

وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.
وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب.

وقال: اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهريز بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبست لي همّتي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الربيع
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

ويروى أن أعرابياً وقف على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خط حاجتك في الأرض، فإني أرى الضر عليك، فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير فقال له علي: يا قنبر؛ ادفع إليه حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الشنا حللا
إن الشاء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبل
لا تزهّد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلا أدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم».

وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً. وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه. وسئل في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء فقال:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطَّول
ثم قام فأم الناس، وقيل: بل أنشد:
لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً ولو رضيت رمح أسته لاستقرت
وقال الزبير بن بكار: سمعت العمري يقول: روي أولادكم الشعر؛ فإنه يحل عقدة
اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويخض على الخلق الجميل.
وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتُم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار
العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه
شعراً. وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كثيرة الرواية للشعر. يقال: إنها كانت تروي جميع
شعر لبيد. ولا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.

وكان أبو السائب المخزومي على شرفه، وجلالته، وفضله في الدين والعلم يقول:
أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً. والرحبة: الموضع الذي
تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد في كل يوم مراراً ولا يتركه.
فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ
تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿فَهُوَ غَلَطٌ، وَسُوءُ
تَأْوِيلٍ؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ
بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا
تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ يريد شعراء النبي ﷺ
يتصرون له، ويحييون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك،
وعبد الله بن رواحة. وقد قال فيهم النبي ﷺ: «هؤلاء نفر أشد على قريش من
نضح النبل»، وقال لحسان بن ثابت «اهجهم يعني قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشد
من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، وألقى أبا بكر

يعلمك تلك الهنات» فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي ﷺ شعراء يشبههم على الشعر، ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلى شعراً» فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر كغيره مما جرى هذه المجرى من شطرنج وغيره سواء. وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجللة من الصحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين، من ذلك قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ترى من لؤي فرقة لا يصدها
رسول أتاهم صادق فتكذبوا
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم
ومن شعر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أنقذ أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ويروى للأعور الشني:

هون عليك فإن الأمور
فليس بآتيك منهيها
ولا قاصر عنك مأمورها

ومن شعره أيضاً، وقد روى لورقة بن نوفل في أبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
لم تغن عن هرمرز يوماً خزائنه
يبقى الإله ويفنى المال والولد
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ومن شعر عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها وإن عضها حتى يضر بها الفقر
 وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سـيتبعها يسر
 ومن شعر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان مجوداً ما قاله يمدح همدان:
 ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامي
 وأعرض نقع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
 ونادى ابن هند في الكلاع وحير وكندة في لحم وحي جذام
 تيممت همدان الذين هُم هُم إذا ناب دهر جتني وسهامي
 فجأوبني من خيل همدان عصبه فوارس من همدان غير لئام
 فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
 فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام
 فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ما منهم إلا من قال الشعر، وخامسهم
 الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو القائل وقد خرج على أصحابه محتضباً رواه المبرد:
 نسود أعلاها وتأبى أصولها فليت الذي يسود منها هو الأصل
 ومن شعر معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وهو لائق به، دالٌّ على صحة ناقله:
 إذا لم أجد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم؟!
 خذها هنيئاً واذكري فعل ماجد حباك على حرب العداوة بالسلم
 ومن شعر الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وقد عاتبه أخوه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في امرأته:
 لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سـكينة والرباب
 أحبهما وأبذل جـلّ مالي وليس للائمي عندي عتاب
 وقال حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذكر بدرًا:

عشية صاروا حاشدين وكلنا
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا
وقلنا لهم جبل الإله نصيرنا
فثار أبو جهل هنالك باغياً
وأما العباس فكان شاعراً مفلقاً حسن التهدي، من ذلك قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم حنين
يفتخر بثباته مع رسول الله ﷺ:

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قري
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة
ومن شعر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى
وباكركني في حاجة لم يجد بها
فرجت بمالي همه من مقامه
وكان له فضل علي بظنه
ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله يوم مؤتة، وفيه قتل
رحمة الله عليه:

يا حبذا الجنة واقتراها
والروم روم قد دنا عذابها
ومن قول عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

وكم من عدو قد أراد مساءتي
كثير الخنا حتى إذا ما لقيته
بغيب ولو لاقيته لتندما
أصر على إثم وإن كان أقسما

وقال عمر بن عبد العزيز رحمته الله:

أيقظان أنت اليوم أم أنت حالمٌ وكيف يطيق النوم حيران هائمٌ
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت جفونا لعينيك الدموع السواجم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
وتشغل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وحسبك من القضاة شريح بن الحارث، فقد كان شاعراً مجوداً، وقد استقضاه
عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إلى مؤدب ولده وقد وجده وقت الصلاة يلعب
بجرو كلب، وأودع الأبيات رقعة وأنفذها مع ولده مختومة إلى المؤدب:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
فليأتينك غدوة بصحيفة كتبت له كصحيفة المتلمس
فإذا هممت بضربه فبدره وإذا بلغت به ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت نفسه مع ما يجرعني أعز الأنفس

وأما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس شعراً، وهو القائل:
ومتعب العيس مرتاحاً إلى بلد والموت يطلبه في ذلك البلد
وضاحك والمنايا فوق مفرقه لو كان يعلم غيباً مات من كمد
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد
وهذا باب لو تقصيته لاحتل كتاباً مفرداً ولكني طبقت المفصل، وذكرت بعض
المشاهير من الناس.

وإنما قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر
الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني، وأدنى مروءة السرى؛ لأمر ظاهر، ومن
ذلك اشتهاى عرابة الأوسي بشعر الشياخ بن ضرار، وقد بذل له في سنة شديدة
وسق بعير تمراً، فقال:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرنين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن
حتى صار ذلك مثلاً سائراً، وأثراً باقياً، لا تبلى جدته، ولا تتغير بهجته، وقدح ذلك
في مروءة الشماخ، وخط من قدره؛ لسقوط همته عن درجة مثله من أهل البيوتات
وذوي الأقدار.

وإنما فضل امرؤ القيس وهو من هو لما صنع بطبعه، وعلا بسجيته، عن غير طمع
ولا جزع. وحكي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو أن الشعراء المتقدمين
ضمنهم زمان واحد، ونصبت لهم راية فجزوا معاً، علمنا من السابق منهم، وإذا لم
يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة، فقليل: ومن هو؟ فقال: الكندي، قيل: ولم؟
قال: لأني رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة.

ومن رفعه ما قاله من الشعر الحارث بن حِلْزَة الشكري، وكان أبرصاً، فأنشد
الملك عمرو بن هند معلقته: آذنتنا بينها أساء. وبينه وبينه سبعة حجب؛ فما زال
يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أدناه
وقربه، وأمثاله كثير.

ومن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلق، وذلك أن الأعشى قدم مكة
وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم فقالت له: إن الأعشى
قدم، وهو رجل مفوه، محدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا
وضعه، وأنت رجل كما علمت فقيراً خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها
فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري به
شراباً يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحر له،
ووجد المرأة قد خبزت خبزاً، وأخرجت نحيلاً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلما
أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، قدم إليه الشراب واشتوى له من

كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشوق
ورأى المخلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المخلق جفنة كجايبة الشيخ العراقي تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل درق
لعمري قد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يسطليانها وبات على النار الندى والمخلق
رضيحي لَبان ثدي أم تحالفنا بأسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق
فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى الملحق يهئونونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها.

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يغضبون من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل: ممن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفرًا أنف الناقة بن قريع، ويلغي ذكره فرارًا من هذا اللقب، إلى أن دفعهم الحطيئة بعد ضيافة الزبرقان بن بدر وأحسن إليه فقال:

سيرِي أُمَامُ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصًّا وَالْأَكْرَمِينَ إِذَا مَا يَنْسُبُونَ أَبَا
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبًا

فصاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة.
وعلى الضد من ذلك فالشعر يهتك ويضع، فمن ذلك أن بني العجلان، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن هجاهم به النجاشي فضجروا منه، وسُبُّوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبل
فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنه قال:
قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر رضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو
كلاماً يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال عمر: ذلك أقل للسكاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما
أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح
عليهم! وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد
بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشي، وقيل: إنه حده. أي عزّره بالجلد..

ومن أثر الشعر في النفوس ما ذكره العتبي: أن رجلاً من أهل المدينة ادعى حقاً
على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضي المدينة، فقال: من يشهد بما تقول؟ فقال:

وقال: بَابُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

زنقطة، فلما ولى قال القاضي: ما شهادته له إلا كشهادته عليه، فلما جاء زنقطة القاضي قال له: فذاك أبي وأمي، أحسن والله الشاعر حيث يقول:
من الحنطيين الذين وجوههم دنانير مما شيف في أرض قيصر
فأقبل القاضي على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا بالحق فأجز شهادته.

وكان لأمية بن حرثان ولد اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال أمية:

سأستعدي على الفاروق رباً له عمد الحجيج إلى بساق
إن الفاروق لم يردد كلاباً على شيخين هامهما زواقي
فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا به يقرع الباب.

ولأبي الدهان:

وللشعراء ألسنة حداد على العورات موفية دليله
ومن عقل الكريم إذا اتقاهم وداراهم مداراة جميلة
إذا وضعوا مكاييلهم عليه وإن كذبوا فليس لهم حيلة
وقال بعض الحدّاق: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز: كالفرند في السيف، والملاحاة في الوجه.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿[النور: ١٩-٢٠] تَشِيعُ: تَظْهَرُ (١).

(١) قال العلامة العثيمين رحمته الله: هؤلاء الذين يحبون أن تشيع، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله؟! ولمحة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم، ومن ذلك من يثون الأفلام الخليعة، والصحف الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء لا شك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجالات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك، وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم داخل في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فالذي يقدر على منع هذه المجالات وهذه الأفلام الخليعة ويمكن من شيوعها في المجتمع المسلم هو ممن يجب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

المعنى الثاني: محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين، وليس في المجتمع الإسلامي كله، فهذا أيضاً له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فمن أحب أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما، هذا أيضاً له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ومن يحبون أن يتدنس فراشه، ومن يحبون أن يعير بأهله، من المنافقين وأمثالهم، وقضية الإفك مشهورة. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِنْتِمَاءِ وَلِلَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي المنافق،

فإنه هو الذي كان يشيع الخبر، لكنه خبيث لا يشيعه بلفظ صريح فيقول مثلاً: إن فلاناً زنى بفلانة، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح، لأن المنافقين جبنا يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا توبيخ من الله عز وجل للذين تكلموا في هذا الأمر يقول: هلاً إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وذلك أن أم المؤمنين أمهم، فكيف يظنون بها ما لا يليق؟! وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيراً ويتبرؤا منه ومن قاله، ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ يعني هلاً جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ ولو صدقوا، ولهذا لو أن شخصاً شاهد إنساناً يزني وجاء إلى القاضي وقال: أنا أشهد أن فلاناً يزني، قلنا: هات أربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة، فإن جاء برجل ثان معه جلدناهما كل واحد ثمانين جلدة، وثالث أيضاً نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣) وَلَوْلَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) وَلَوْلَا الْفَضْلُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ لَأَصَابَكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ الْعِقَابُ الْمَذْكُورُ، وفي قوله: ﴿مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر، لأنه أمر جلل عظيم خطير، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة، وتملاً البيوت، وتملاً الأفواه والأذان، ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾

﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

﴿١٤﴾

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ، بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ من غير روية ومن غير بينة ومن غير يقين، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لأنه قذف لأطهر امرأة على وجه الأرض، هي وصاحباتها زوجات رسول الله ﷺ، فالأمر صعب وعظيم، وفي ذلك أيضا - أي من تلقّاهم الإفك - تعريض برسول الله ﷺ لأن الله تعالى يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْطَّيِّبِينَ وَالْطَّيِّبُونَ لِلْطَّيِّبَاتِ﴾ ولكنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طيبة، وزوجها طيب، فزوجها محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم، وهي الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا هو الواجب عليك أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عز وجل إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه، أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدا إن كنتم مؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد، كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه، وإلا قتل كافرا لأنه كذب القرآن. وكل من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافرا مرتدًا، يجب أن يُستتاب، فإن

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] (١) وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي

تاب وإلا قتل بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل ولا تكفين ولا صلاة، لأن الأمر خطير، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٢٠﴾. وسبق أن أشرنا إلى أن الثلاثة من الصحابة الخالص تورطوا في هذه القضية، وهم حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسطح بن أثاثه وهو ابن خالة أبي بكر، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، أما زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ وضرة عائشة فقد حماها الله، لكن أختها تورطت، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يجد هؤلاء الثلاثة حدّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة.

أما المنافقون فلم يحدّهم النبي ﷺ، واختلف العلماء في ذلك، فقيل: لأن المنافقين ما كانوا يجزمون، وإنما يقولون: يقال أو يذكر أو سمعنا أو ما أشبه ذلك، وقيل: لأن المنافق ليس أهلاً للتطهير، فالحدُّ طهرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهلٍ للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه لو جلدتهم لطهرهم من دنس هذا الشيء، لكنهم ليسوا أهلاً للتطهير، فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم وذنوبهم، فليس فيهم خير، وقيل غير ذلك، وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة فيها عبر كثيرة. شرح رياض الصالحين للعثيمين، مختصراً: (١) / ٢٧٥ - (٢٨٥).

(١) قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. قلت: وهي بلا شك من

أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْاسٍ أَبْنُوا^(١) أَهْلِي، وَإِيْمُ اللَّهِ^(٢) مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِيَ» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ ائْذَنْ

أرجى الآيات، والمشهور أنها آية الزمر: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) أبناوا أهلي: التأبين على وجهين: فتأبين الحي: ذكره بالقبيح، ومنه قوله: أبناوا أهلي، أي ذكروهم بسوء. والثاني: تأبين الميت، وهو مدحه بعد موته.
(٢) وإيم الله: من ألفاظ القسم، وفيها لغات كثيرة. وتصح بالهمزة كذلك كسراً وفتحاً، وصلاً وقطعاً.

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر: (١ / ٢٠٧): أيم الله: من ألفاظ القسم، كقولك لعمر الله، وعهد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصل وقطع، وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع يمين، وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم.

وقال أبو البركات الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف (١ / ٤٠٩): وفيها لغات كثيرة تنيف على عشر لغات: أيمن الله، وإيمن الله، وأيم الله، وإيم الله، وأم الله، وم الله، وليمن الله، ومن الله.

أما ابن أم قاسم المرادي في الجنى الداني في حروف المعاني (١ / ٩٢) فذكر عشرين لغة وأوردها. وانظر كذلك: القاموس للفيروز آبادي (١٦٠٢).

لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ - وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتُ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ - فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا مِنَ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ! حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِيَ أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرْتُ وَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ: أَيُّ أُمَّ تَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيُّ أُمَّ، أَتَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَسْبُهُ إِلَّا فِيكَ! فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرْتُ^(١) لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً، وَوُعِكْتُ^(٢). فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرْسَلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِيَ الْغُلَامَ. فَدَخَلْتُ الدَّارَ فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ. فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكَ يَا بُنَيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا. وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، خَفِّفِي عَلَيْكَ الشَّانَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءَ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا. وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي^(٣). قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

(١) فبقرت: البقر هو الفتح والتوسعة والشق، والمعنى: ففتحت لي الحديث وكشفته وأوضحته.

(٢) الوعك: اضطراب الحمى.

(٣) لم يبلغ منها ما بلغ مني: أي لم يؤثر فيها مثل ما أثر فيّ. وقولها: خففي عليك الشأن،

قُلْتُ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ. فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ أَيُّ بَنِيَّةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ، فَرَجَعْتُ.

وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا. وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَسْقُطُوا لَهَا بِهِ^(١). فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تَبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ.

وفي رواية: هوّني عليك، وفي رواية: خفّضي.

لها ضرائر: جمع ضُرّة، وقيل للزوجات ضرائر لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة.

واستعبرت: أي جرى دمعي. قال في القاموس: العبرة: الدمعة، واستعبر جرت عبرته وحزن.

أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك: هذا مثل قولهم نشدتك بالله إلا فعلت أي ما أطلب منك. ينظر: تحفة الأحوذني: (٩/ ٢٤-٢٦).

(١) وأسقطوا لها به: أسقطوا به: أي: قالوا لها السقط من القول، وهو الرديء، يريد: أنهم سبوا، وقوله «به» أي بسبب هذا المعنى: وهو الذي سئلت عنه من أمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيكون المعنى سبوا بهذا السبب. وقيل: أي سموا لها التهمة وصرخوا لها بقالة الناس.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَشَفْتُ
كَفَّ أَنْتَى قَطُّ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١).

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،
وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدْ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي. فَحَمِدَ
اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتَ قَارَفْتَ^(٢) سُوءًا، أَوْ
ظَلَمْتَ، فَتُوبِي إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ» وفيه: ... فَوَعِظَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ، فَالْتَفَتُ إِلَى أَبِي، فَقُلْتُ لَهُ: أَجِبْهُ. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتُ إِلَى أُمِّي،
فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ. فَقَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟

فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ؛ تَشَهَّدْتُ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ:
أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ،
مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ. لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَأَشْرَبْتَهُ^(٣) قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ

(١) فبلغ الأمر: أي أمر الإفك. ذلك الرجل: وهو صفوان. الذي قيل له: أي عنه من
الإفك ما قيل، فاللام هنا بمعنى عن، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي عن الذين آمنوا، أو
بمعنى في، أي قيل فيه، فهي كقوله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي في حياتي.

(٢) قارفت: المقارفة هي الكسب والعمل في الأصل، ويقال لمن باشر معصية أو ألم بها.
وروي بلفظ: أَلَمْتُ، والإلمام: المقاربة، وهو من اللمم: صغار الذنوب، وقيل:
اللمم مقاربة المعصية من غير إيقاع فعل.

(٣) وأشربته قلوبكم: أي: تداخل هذا الحديث قلوبكم، كما يتداخل الصبغ الثوب
فيشربه.

فَعَلْتُ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولَنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ (١) عَلَى نَفْسِهَا. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَّتْنَا (٢). فَرَفَعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لَأَتَيِّنُ الشُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: «أُبَشِّرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكَ» قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبَوَايَ: قَوْمِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمْ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي. لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ، هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا

(١) باءت به: أي رجعت به وتحملته.

(٢) اكتنفتني أبوأي: قال في القاموس: اكتنفوا فلانًا أحاطوا به. والتمسْتُ: من الالتماس، أي طلبت. اسم يعقوب عليه السلام: حين قال: فصبر جميل، أي هو أجمل، وهو الذي لا شكوى فيه إلى الخلق. تحفة الأحوذى: (٢٦ / ٩) وقال شيخ الإسلام في الاستغاثة وهي المسماة: الرد على البكري: (١ / ٤٠٠): قال بعضهم: ذَكَرَ اللَّهُ الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل. فالصبر الجميل: الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، والهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب.

يَنْفَعُ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ﴾ يَعْنِي مِسْطَحًا، إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ^(١).

(١) ﴿مَا تَصِفُونَ﴾: أي على احتمال ما تصفونه. وإني لأتبع السرور: أي أعرفه. وهو

يمسح جبينه: أي من العرق. تحفة الأحوذى: (٢٧ / ٩)

قلت: وكان الإمام ابن باز رحمته الله لا يتهالك نفسه من البكاء عند قراءة هذا الحديث عليه حتى تعلقو مجلس درسه سكينه وخشوع ودعاء. وقد وقف ابن القيم أثناء ذكره لغزوة المريسيع في الزاد عند هذه الحادثة فقال رحمة الله تعالى عليه:

وكانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس، وسببها: أنه لما بلغه ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المصطلق سار في قومه ومن قدّر عليه من العرب، يُريدون حرب رسول الله ﷺ، فبعث بُريدَةَ بن الحُصَيْب يَعْلَمُ له ذلك فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار، وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس فأسرعوا في الخروج، وخرج معهم جماعة من المنافقين، لم يخرجوا في غزاة قبلها، وخرج يوم الإثنين ليلتين خلتا من شعبان، وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ، وقتله عينه الذي كان وجهه ليأتيه بخبره وخبر المسلمين، فخافوا خوفاً شديداً، وتفرّق عنهم مَنْ كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع، وهو مكان الماء، فضرب عليه قُبْتَه، ومعه عائشة وأمّ سلمة، فتهيّؤوا للقتال، وصفّ رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عباد. ولم يكن بينهم

قتال، وإنما أغارَ عليهم على الماء، فسبى ذراريهم، وأموالهم. كما في «الصحيح»: أغارَ رسولُ الله ﷺ على بني المُصْطَلِقِ، وهُم غَارُونَ. وذكر الحديث. وكان من جملة السبي جُويرية بنتُ الحارث سَيِّدِ القَوْمِ، وقعت في سَهْمِ ثابت بن قيس، فكاتَبَهَا، فأدَّى عنها رسولُ الله ﷺ، وتزوَّجَهَا، فأعتقَ المسلمون بسبب هذا التزويج مئة - قلت: ومن الأخطاء الإملائية الشائعة بين الكتّاب كتابة مئة بالمد (مائة) وقد تواضع الأقدمون على ذلك لحاجة أصحاب الأسواق للتمييز في الكتابة بين كلمتي: مئة وفئة، ولكن بعد الإعجام والتشكيل انتهت تلك الحاجة، فعاد الناس للأصل، وهو كتابتها على نبرة. - أهل بيت من بني المُصْطَلِقِ قد أسلموا، وقالوا: أصهارُ رسولِ الله ﷺ. وقصة إسلام بني المصطلق رواها أحمد وغيره وذكرها ابن إسحاق في سيرته بسند حسن إذ صرح فيه بالتحديث، فانتفى تديسه. ثم قال ابن القيم رحمه الله في سياق ذكر الخبر: ثم سار صفوان بها يقودها حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كل منهم بشاكلة، وما يليق به، ووجد الخبيثُ عدوَّ الله ابنُ أبي مُتَنَفِّسًا، فتنفَّس من كَرَبِ النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويُشيعه، ويُذيعه، ويجمعه، ويُفرِّقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه.

فلما قدموا المدينة، أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسولُ الله ﷺ ساكتٌ لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليٌّ رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أسامةٌ وغيره بإمساكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء، فعلي لما رأى أنَّ ما قيل مشكوكٌ فيه، أشار بترك الشكِّ والرَّيبة إلى اليقين، ليتخلص رسولُ الله ﷺ من الهمِّ والغمِّ الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأسامه لما علِمَ حُبَّ رسولِ الله ﷺ لها ولأبيها، وعِلْمَ من عَفَّها

وبراءتها، وحَصَانَتِها وديانتها ما هي فوق ذلك، وأعظمُ منه، وعرفَ من كرامةِ رَسولِ اللهِ ﷺ على رَبِّهِ ومنزلته عنده، ودفاعه عنه، أنه لا يجعلُ ربهَ بيته وحييته من النساء، وبنَتَ صِدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها به أربابُ الإِفْكِ، وأن رسولَ اللهِ ﷺ أكرمُ على ربه، وأعزُّ عليه من أن يجعلَ تحته امرأةَ بَغِيًّا، وعلمَ أَنَّ الصِّدِّيقَةَ حَبِيبَةَ رسولِ اللهِ ﷺ أكرمُ على ربهَا من أن يَبْتَلِيَهَا بِالْفَاحِشَةِ، وهى تحْتَ رسولهِ.

وَمَنْ قَوِيَتْ معرفته لله، ومعرفته لرسوله، وقدره عندَ اللهِ في قلبه، قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]

وتأمل ما في تسييحهم لله، وتنزيههم له في هذا المقام من المعرفة به، وتنزيهه عما لا يليقُ به، أن يجعلَ لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأةً خبيثةً بغيًّا، فمن ظنَّ به سُبْحانه هذا الظَّنَّ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وعرفَ أهلُ المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لا تليقُ إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، فقطعوا قطعاً لا يشكُّون فيه أن هذا بُهْتَانٌ عظيم، وفريةٌ ظاهرة.

فإن قيل: فما بالُ رسولِ اللهِ ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسألَ عنها، وبحثَ، واستشارَ، وهو أَعْرَفُ بالله، وبمنزلته عنده، وبما يليقُ به، وهَلَّا قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟

فالجوابُ: أن هذا من تمام الحِكمِ الباهرة التي جعل اللهُ هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضع بها آخرين، ويزيد اللهُ الذين اهتدوا هُدىً وإيماناً، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَساراً. واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حَسِبَ عن رسولِ اللهِ ﷺ الوحيُّ

شهرًا في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حِكْمَتُهُ التي قَدَّرَهَا وقَضَاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحُسن الظنِّ بالله ورسوله، وأهل بيته، والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويُظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المُرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله والذلُّ له، وحُسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاءها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقام حقّه، لما قال لها أبواها: قومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا الله، هو الذي أنزلَ براءتي.

وأيضاً فكان من حكمة حبس الوحي شهرًا، أن القضية مُحضت وتمَحَضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشرافٍ إلى ما يُوحى الله إلى رسوله فيها، وتطلّعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافي الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، والصديق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوق منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرّوا به أتم السُرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكْمُ وأضعافها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً فإن الله سبحانه أحب أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولّى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه. قلت: المنافحة هي المناضلة والمخاصمة والمدافعة والإجابة. والردّ على أعدائه، وذمّهم وعييبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي رُميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنَّ المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سوءاً قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «مَنْ يَعْذِرُنِي» : أي من يقوم بعذري ويُشهره إن جزيْتُ الأفَّاكَ على سوء صنيعة، فلا يلومني. ومن ذلك قولهم: قد أعذر من أنذر، أي قام عذره في عدم ملامته إن عاقب - «فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكَمال صبره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقّه، حتى جاءه الوحي بما أقرَّ عينه، وسرَّ قلبه، وعظَّم قدره، وظهر لأُمتِه احتفال ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحي ببراءتها، أمر رسول الله ﷺ بمن صرَّح بالإفك، فحدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيث عبد الله بن أُبَيٍّ، مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعدَّه الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبت إلا بالإقرار، أو بيّنة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبتة، وإن قيل: إنه حقُّ لله، فلا بُدَّ من مطالبة المقذوف، وعائشة لم تُطالب به ابن أُبَيٍّ. وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكليمه بما يُوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعاً فيهم، رئيساً

عليهم، فلم تؤمن إثارة الفتنة في حده، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها. فجلد مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحنينة بنت جحش، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً لهم وتكفيراً، وترك عبد الله بن أبي إذاً، فليس هو من أهل ذاك. ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها، فقال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله»، علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليها النعمة لربها، وإفراذه بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جاشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعت موضعته، والله ما كان أحبها إليه حين قالت: «لا أحمد إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» والله ذلك الثبات والرزانة منها، وهو أحب شيء إليها، ولا صبر لها عنه، وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً، ثم صادفت الرضى منه والإقبال، فلم تُبادر إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة. زاد المعاد، ابن القيم (٢٥٨-٢٦٨) باختصار.

وذكر الواقدي في مغازيه وغيره أثناء روايته لهذه الغزاة مثلاً على بركة طاعة رسول الله ﷺ وشؤم مخالفته، فأورد بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسط الليل، فإذا الناس معرسون - أي نازلون للمبيت ليلاً فالتعريس: نزول المسافر آخر الليل للاستراحة. أما الإدلاج فهو السير آخر الليل، وفي الحديث: «من خاف أدلج» - قلنا: فأين رسول الله ﷺ؟ قالوا: في مقدم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بن رواحة: يا جابر هل لك بنا في التقدم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحداً تقدم. قال ابن رواحة:

وكم في ثنايا تلك المحنة من منحٍ جسام وآلاء عظام، فقد رفعت

والله ما نهانا رسول الله ﷺ عن تقدم. قال جابر: أما أنا فلست ببارح. فودّعني وانطلق إلى المدينة، فأنظر إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارث بن الخزرج، فإذا مصباح في وسط بيته، وإذا مع امرأته إنسان طويل. أي نائم قريب منها. فظنّ أنه رجل، وسقط في يديه، وندم على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغرّ! فاقتحم البيتَ رافعاً سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضربهما. ثم فكّر وادّكر. وفي هذا فضيلة التّأني والتّثبت، فغمز امرأته برجله، فاستيقظت فصاحت وهي توسن. من الوسن وهو النعاس، أي قامت من نومها فجأة. فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: رجيلة ماشطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوتها تمشطني فباتت عندي.

فبات، فلما أصبح خرج معترضاً لرسول الله ﷺ، فلقبه ببئر أبي عتبة، ورسول الله ﷺ يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير فقال: «يا أبا النعمان» فقال: لبيك. قال: «إن وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروق أهله». وفيه عظيم فراسة رسول الله ﷺ. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «خبرك يا ابن رواحة؟» فأخبره كيف كان تقدّم، وما كان من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لا تطرقوا النساء ليلاً» قال جابر: فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

قال جابر: فلم أر مثل العسكر ولزومه والجماعة، لقد أقبلنا من خير، وكنا مررنا على وادي القرى فأنتهينا إلى الجُرف. موضع قرب المدينة. ليلاً، فنادى منادي رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلاً، قال جابر: فانطلق رجلان فعصيا رسول الله ﷺ، فرأيا جميعاً ما يكرهان! . المغازي: (١ / ٤٤١ - ٤٤٢).

للصديقين منارًا، وأورثَ زَنْدَ هِمَمِ الصَّالِحِينَ نارًا، وأعلنت في الخافقين للنبي ﷺ ولآله ولآل أبي بكر كرامةً ورفعةً وفخارًا^(١).

(١) ملخص العبر من هذه الواقعة:

جامعُ الفوائد والعبر من هذا الخبر

فبعد العبرَاتِ عِبر، وقد ذكرنا بعضها في تضاعيف الهوامش ولله سبحانه وبحمده في طيّ محنه وابتلاءاته منح ونعم وآلاء. وقد ذكر أهل العلم الغواصون في المعاني والممتحون للغرر والحكم فوائد أخلاقية وفرائد فقهية وقلائد مسلكية وخرائد حديثية، حريٌّ بالأمة الوقوف عليها وحقيقٌ بها تدارسها واعتوارها ونشرها. ومن تلك العبر، وقد رَبَّتْ على المئة، وقد ذكر شطرها الإمام النووي رحمته الله، فأخذها عنه من بعده:

قال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز الحديث عن جماعة ملففًا مجملًا. وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو. وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل، ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئًا، عند قصد نصح من يبلغه ذلك، لئلا يقع فيما وقع فيه من سَبَق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم، وتحصيل الأجر للموقع فيه. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام. وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة. وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشق عليه، حيث يكون مطيقًا لذلك. وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تسرُّ المرأة بالشيء المنفصل عن البدن. وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الإذن العام المستند إلى العرف العام. وجواز تحلّي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها. وصيانة المال ولو قلّ للنهي عن إضاعة =

المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جواهر. وفيه توقّف رحيل العسكر على إذن الأمير. واستعمال بعض الجيش ساقه يكون أميناً ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح. والاسترجاع عند المصابة. وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي. وفيه إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب وتحشم المشقة لأجل ذلك. وحسن الأدب مع الأجانب خصوصاً النساء، لا سيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرهما، وتأمين مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي. وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف. وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يُعلموه بما يؤذي باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه. وفيه السؤال عن المريض. وإشارة إلى مراتب المهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققاً فترك أصلاً، وإن كان مظنوناً فيخفف، وإن كان مشكوكاً فيه أو محتملاً فيحسن التقليل منه، لا للعمل بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه، لأن ذلك من خوارم المروءة. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذبُّ المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسيل، وبيان فضيلة أهل بدر. وإطلاق السبِّ على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيع وتعرُّف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من أتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفاً بالخير، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك. وفيه فضيلة قويّة لأُم مسطح لأنها لم تُحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة، بل تعمدت سبّه على ذلك. وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله ﷺ عن أهل بدر: «إن الله قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وأن

الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلاً لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم، ومرجوحية القول الآخر أن المراد أن الله تعالى عصمهم فلا يقع منهم ذنب. وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب، وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزه أن يحصل لقراة رسول الله ﷺ تدنيس فيشرع شكره بالتنزيه في مثل هذا، قلت: لو قال أهله لكان أولى من مطلق القراة، لأن عرض أهله متصل به. وفيه خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبيها. وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه، والتوقف في خبر الواحد ولو كان صادقاً. قلت: أي فيما يسوء. وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين، وأن خبر الواحد إذا جاء شيئاً بعد شيء أفاد القطع، لقول عائشة: لأستيقن الخبر من قبلها، وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين. قلت: وقد ذكر العلامة الشنقيطي رحمه الله في كتابه الرحلة إلى مكة زبدة تأمله العميق ونظره الثاقب لمسألة حديث الآحاد على وجه العموم فقال مُزيلاً لإشكال قديم: حديث الآحاد إذا صحَّ سنده فهو قطعي من حيث العمل لدلالة الشريعة على ذلك، وظني من جهة صدق نفسه، والقول بقطعيته الخبرية مع تجويز الكذب على غير معصوم مكابرة. أهـ.

وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقراة وغيرها، وتخصيص من جرّبت صحّة رأيهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا يعد ذلك غيبة. وفيه استعمال: لا نعلم إلا خيراً في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطّلع على خفيّ أمره. وفيه التثبت في الشهادة، وفطنة الإمام عند الحادث المهم. والاستنصار بالأخصاء على الأجانب. وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له. واستشارة الأعلى لمن هو دونه. واستخدام من ليس في الرق. وأن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدّم ذكر

عذره في ذلك إن كان يعلمه، كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبته بالنوم عن العجين، فقدّمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن. وفيه أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي، لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي. وأن الحمية لله ورسوله لا تدم. وفيه فضائل جمّة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وفيه أن التعصّب لأهل الباطل يُخرج عن اسم الصلاح. وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظاً له. وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ: لعمر الله. وفيه النذب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما. وفضل احتمال الأذى. وفيه مباحة من خالف الرسول ﷺ ولو كان قريباً حمياً. وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ. وفيه مساعدة من نزلت فيه بليّة بالتوجّع والبكاء والحزن. وفيه تثبت أبي بكر الصديق في الأمور، لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهراً كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبراني. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد. وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه. وأن قول كذا وكذا يكتنى بها عن الأحوال كما يكتنى بها عن الأعداد، ولا تختص بالأعداد. وفيه مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها. وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز، ولو عرف أنه يصدق في ذلك، ولا يؤخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت. وأن الصبر تُحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام. وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من

تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك. ومعدرة من انزعج عند وقوع الشدة، لصغر سن ونحوه. وإدلال المرأة على زوجها وأبويها. وتدرج من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من أشد عليه العطش لا يمكن من المبالغة في الري في الماء، لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة، بل يجرع قليلاً قليلاً. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج. وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير، خصوصاً في صلة الرحم. ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف أن لا يفعل شيئاً من الخير استحب له الحنث. وجواز الاستشهاد بأي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم. وفيه التسييح عند التعجب واستعظام الأمر. وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لا سيما إن تضمنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه، وذم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك في براءة عائشة.

وفيه تأخير الحد عن يخشى من إيقاعه به الفتنة. وفيه منع الحكم حالة الغضب، لما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عباد من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون، فإن الغضب يخرج الحليم المتقي إلى ما لا يليق به، فقد أخرج الغضب قوماً من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله ﷺ إلى ما لا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلة. ويؤخذ من سياق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جميع قصتها المشتملة على براءتها بيان ما أجمل في الكتاب والسنة لسياق أسباب ذلك، وتسمية من يعرف من أصحاب القصص لما في ضمن ذلك من الفوائد الأحكامية

والآدابية وغير ذلك. فتح الباري، ابن حجر: (٨ / ٤٧٤ - ٤٨٢) بتصرف يسير. وقد قدمته مع تأخر زمانه لاحتواء فتحه على جلّ فوائد من سبقه رحمهم الله. وقال ابن بطلال رحمه الله: وفي حديث الإفك من الفقه: تشكّي السلطان والإمام بمن يؤذيه في أهله وفي غير ذلك إلى المسلمين والاستعذار منه. وفيه فضيلة من شهد بدرًا من المسلمين، وأن الدعاء عليهم مما يجب أن ينكر كما أنكرته عائشة على أم مسطح في ابنها مع ما للأبوين من المقال مما ليس لغيرهما. وفيه أن النبي ﷺ لم يكن يأتيه الوحي متى أراد، لبقائه شهرًا لا يوحى إليه. وفيه ترك حدّ من له منعة، والتعرض لما يُخشى من تفرّق الكلمة وظهور الفتنة، كما ترك النبي ﷺ التعرض لحدّ عبد الله بن أبي بن سلول. وفيه غضب المسلمين لعرض إمامهم وسلطانهم. وفيه أن الشبهة تُسقط العقوبة كما سقط الحدّ.

وفيه أن من آذى رسول الله ﷺ في أهله أو في عرضه أنه يقتل؛ لقول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، ولم يردّ عليه النبي ﷺ شيئًا، فكذلك من سبّ عائشة بما برأها الله منه، أنّه يقتل لتكذيبه القرآن المبرئ لها وتكذيبه الله ورسوله. وقال قوم: لا يقتل من سبّها بغير ما برأها الله منه. قال المهلب: والنظر عندي يوجب أن يُقتل من سبّ أزواج النبي ﷺ بما رميت به عائشة أو بغير ذلك؛ لأن قول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، إنما قال ذلك قبل نزول القرآن، ولم يرد النبي ﷺ قوله، ولو كان قوله غير الصواب لما وسع النبي ﷺ السكوت عنه؛ لأنه مفروض عليه بيان حدود الله، ومن سبّ أزواجه ﷺ فقد آذاه وتنقصه، فهو متهم بسوء العقيدة في إيمانه بالنبي ﷺ، فهو دليل على إبطانه النفاق. وفيه معاقبة المؤذي بقطع المعروف عنه. وفيه الأخذ بالعفو والصفح عن المسيء، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب. شرح صحيح البخاري، لابن بطلال: (٨ / ٤٤٠ - ٤٤٢) باختصار مع حذف المكرر قدر الطاقة.

ومن الاستنباطات المذكورة في عمدة القاري للعيني باختصار: جواز رواية

الحديث عن جماعة عن كل واحد قطعة مبهمة منه، وإن كان فعل الزهري وحده فقد أجمع المسلمون على قبوله منه والاحتجاج به. وفيه عدم وجوب قضاء مدة السفر للنسوة المقييات، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلاً، وقال النووي: وحكم السفر القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح. وفيه جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر. وفيه أن من يركب المرأة على البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا الحاجة لأنهم حملوا ولم يكلموا من يظنونها فيه. وفيه فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن ولا يكثرن منه، بحيث يهلهن اللحم. وفيه جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض لهم. وفيه استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء كانت في الدين أو في الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعز عليه. وفيه تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحاً أو غيره. وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وفيه أنه يستحب أن يُسرَّ عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا الأمر شهراً ولم تسمعه بعد ذلك إلا بعارض عرض، وهو قول أم مسطح: تعس مسطح. وفيه استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن معاشرتها. وفيه أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يتعرض لها. وفيه كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه. وفيه جواز التعجب بلفظ التسييح. وفيه جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق وأما غيره فممنهي عنه وهو تجسس وفضول. وفيه خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم. وفيه فضائل ظاهره لصفوان بشهادة النبي ﷺ بما شهد، وبفعاله الجميلة. وفيه المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات. وفيه تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف. وفيه براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن فلو

تشكك فيها إنسان صار كافراً مرتدّاً بإجماع المسلمين. وفيه تجديد شكر الله تعالى على تجدد النعمة. وفيه فضائل لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. وفيه استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين. وفيه استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات. وفيه استحباب لمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي بالذي هو خير ويكفر عن يمينه. وفيه فضيلة زينب أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفيه الثبوت في الشهادة. وفيه أن الخطبة مبتدأة بالحمد لله والثناء عليه. وفيه جواز سب المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عباد لتعصبه للمنافق وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وقد ذكرنا أنه لم يرد به النفاق الحقيقي. وفيه جواز تعديل النساء، لأنه سأل بريرة وزينب عن عائشة وهما من أخبرتا بفضلها وكمال دينها، وبه احتج أبو حنيفة في جواز تعديل النساء بعضهن بعضاً. وفيه جواز تحلي النساء بالذهب والفضة واللؤلؤ والخرز ونحوها. عمدة القاري، للعيني: (٢٠ / ٣١٤ - ٣١٧) مختصراً.

من سيما المؤمنين وشيم الصالحين إحسان ظنهم بإخوانهم

من شيم المؤمنين إحسان الظنون بعباد الله، فلا يتبعون سوء الظن إلا عند غلبة الشبهة، مع ذلك فلا يحققون سوء ظنهم بل يحملون لإخوانهم أعظم المعاذير، فيقول الصالح لنفسه وقد بلغه عن أخيه سوء: لعله لم يقصد، لعله كان ناسياً، لعله كان غافلاً، لعله لعله.. فيستطيل في تلمس أعذار أخيه، فيكسب بذلك أرباح التجارات، إذ قد ربح أجره، وربح راحة نفسه، وربح محبة الناس له، وربح النجاح في أموره لحسن نيته فالله شكور حميد، وربح حسن العاقبة في الدنيا، فكم ممن قصد الإضرار بعبدٍ ثم تاب وأناب وشكر ذلك المضرور على إحسان ظن نفعه ولم يضره. والطباع سراقه، والجبالات نزاعة، وإنما الحلم بالتحلم وكذلك إحسان الظن بالدربة والممارسة وتعلم أسباب ذلك وتلمح موارده والبحث عن متماته، وفحص غوائل النفس وتنظيف دغائلها على من لا يستحقون سوى الإحسان قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقولٍ عداته فأصبح في داجٍ من الشكِّ مظلم

وقالوا: «من جعل لنفسه من حُسن الظن بإخوانه نصيباً، أراح قلبه». يعني إنَّ الرَّجل إذا رأى من أخيه إعراضاً أو تغيراً، فحمله منه على وجه جميل، وطلب له الأعذار، خفف ذلك عن قلبه، وقَلَّ منه غيظه واغتمامه^(١) وقال محمد بن

(١) الأمثال، لابن سلام (١٨٤).

حرب: «صواب الظَّن، الباب الأكبر من الفراسة». قلتُ: وهذا بابٌ كبير، قد تزعم النفوس إحسان دخوله، بينما قد حوى لها الحتوف! والسلامة لا يعدلها شيء.

وقالوا: السَّتر لما عاينت، أحسن من إذاعة ما ظننت^(١).

وقد كان بدور الأمة الصَّحابة رضوان الله عليهم، مثلاً يُحتذى بهم في حُسْن الظَّنِّ بالمؤمنين، فهذا أبو أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول النَّاس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب. أكنت أنت يا أمَّ أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله^(٢).

ولا غرو فقد اختارهم الله لصحبه نبيه المختار ﷺ، وقد علَّمهم رسول الله ﷺ حُسْنَ الظَّنِّ، وبيَّن لهم أنَّ الأصل في المؤمن السَّلامة، وأنَّ الإنسان لا بدَّ له من التماس الأعذار لمن حوله، وعليه أن يطرد الشُّكوك والرَّيبة التي قد تدخل في قلبه، فيترتب عليها من الآثار ما لا يُحمد عقباه.



(١) غرر الخصاص الواضحة، لأبي إسحاق الوطواط (٥٤٢).

(٢) رواه الطبري في تفسيره، (٢١٢/١٧).

من وسائل تحصيل حسن الظن بعباد الله

- ١- دعاء الله سبحانه، والابتغال إليه حتى يمن عليك بقلب سليم، فالدعاء علاج ناجع، ووسيلة نافعة، بل هو سيد الوسائل مع صدق التعلق بالله وحده، ليس لهذه الصفة فحسب، بل لجميع الأمور الدينية والدنيوية.
- ٢- الاقتداء بالرَّسول ﷺ، وصحابته الكرام، وسلف الأمة الصالح في حُسن ظَنِّهم ببعضهم، وتعاملهم مع الإشاعات والأكاذيب، ومحافظةهم على أواصر الحبِّ والمودة بينهم.
- ٣- التَّربية الحسنة للأبناء منذ نعومة أظفارهم على حُسن الظَّن، فينمو الفرد، ويتعرَّع في ظلِّ هذه الصِّفة الحميدة، فتتجذَّر في نفسه، وتتأصَّل في داخله، وتصبح سجيَّة له لا تنفك عنه أبداً بإذن الله.
- ٤- أن ينزل المرء نفسه منزلة غيره، وهو علاج ربَّاني، ودواء قرآني، أرشد الله إليه المؤمنين، وعَلَّمهم إيَّاه، حيث قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأشعرهم تبارك وتعالى أنَّ المؤمنين كيان واحد، وضرر الفرد منهم ضرر للجماعة بأكملها. ولو استشعر كلُّ مؤمن هذا الأمر عند صدور فعل أو قول من أخيه، فوضع نفسه مكانه، لدعاه ذلك إلى إحسان الظَّن بالآخرين.
- ٥- محاولة زيادة الإيمان بفعل الخيرات والطَّاعات، وعلاج أمراض القلب من الحسد والغُلِّ والخيانة وغيرها، فمتى ما زاد إيمان المرء وصفى قلبه

من هذه الأمراض والأوبئة، حُسْنُ ظَنُّه بإخوانه.

٦- حمل الكلام على أحسن محامله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٧- أن يلتمس المؤمن الأعذار للمؤمنين، قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا

بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذراً، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذراً لا أعرفه»^(١). وفي التماس الأعذار راحة للنفس من عناء الظن السيئ، الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضاً إبقاء على المودة، وحفاظ عليها من الزوال والانهاء، كما قال دعبل الخزاعي:

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

٨- إجراء الأحكام على الظاهر، ويوكل أمر الضمائر إلى الله عز وجل، ويتجنب الحكم على النيات، فإن الله لم يكلفنا أن نفتش في ضمائر الناس. والاكْتِفَاءُ بظاهر الشخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حُسْنِ الظَّنِّ، وأقوى أسبابها.

٩- أن يستحضر العبد الآفات التي تنتج عن سوء الظن، وما يترتب عليه من آثار، فهو دافع لأن يُحْسِنَ الرَّجُلَ ظَنَّهُ بغيره.

١٠- البعد عن كل من اتصف بما يضاد هذه الصفة الحسنة، ممن لا يتورعون عن إلقاء التُّهْمِ على عباد الله جزافاً، بلا تثبُّت. وهؤلاء هم أسوأ الناس، فقد قيل لبعض العلماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: «من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله».

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، للأمامي (١/٧٠).

قال أبو حامد رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الْخَطَأَ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ، أَسْلَمَ مِنْ الصَّوَابِ بِالطَّعْنِ فِيهِمْ، فَلَوْ سَكَتَ إِنْسَانٌ مَثَلًا عَنْ لَعْنِ إِبْلِيسَ، أَوْ لَعْنِ أَبِي جَهْلٍ، أَوْ أَبِي لَهَبٍ، أَوْ مِنْ شَاءَ مِنَ الْأَشْرَارِ طَوِيلَ عَمْرِهِ، لَمْ يَضُرَّهُ الشُّكُوتُ، وَلَوْ هَفَا هَفْوَةً بِالطَّعْنِ فِي مُسْلِمٍ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ، بَلْ أَكْثَرُ مَا يُعْلَمُ فِي النَّاسِ لَا يَحِلُّ التَّنَطُّقُ بِهِ؛ لِتَعْظِيمِ الشَّرْعِ الزَّجْرَ عَنِ الْغِيْبَةِ، مَعَ أَنَّهٗ إِخْبَارٌ عَمَّا هُوَ مُتَحَقِّقٌ فِي الْمَغْتَابِ. فَمَنْ يَلَاظِظْ هَذِهِ الْفُصُولَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي طَبْعِهِ مَيْلٌ إِلَى الْفُضُولِ، آثَرَ مَلَاظِمَتِهِ الشُّكُوتَ وَحُسْنَ الظَّنِّ بِكَافَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِطْلَاقَ اللِّسَانِ بِالثَّنَاءِ عَلَى جَمِيعِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ. هَذَا حُكْمُ الصَّحَابَةِ عَامَّةٍ»^(١).

هذا وقد أجاز العلماء بعض صور سوء الظن، قال أبو حاتم: «وَأَمَّا الَّذِي يَسْتَحِبُّ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ، فَهُوَ كَمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ عِدَاوَةٍ أَوْ شَحْنَاءٍ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا، يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَكْرِهِ، فَحَيْثُ يَلْزِمُهُ سُوءُ الظَّنِّ بِمَكَائِدِهِ وَمَكْرِهِ؛ كَي لَا يَصَادِفَهُ عَلَى غَرَّةٍ بِمَكْرِهِ فِيْهِلِكُهُ»^(٢).

قلت: ومن ذلك من أظهر المعصية وتخلف عن الطاعة بلا عذر، كما قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، أَسَانَا بِهِ الظَّنَّ»^(٣). وشتان بين ظنهم وظن أحد الناس الذي فقد جاره عن شهود الجماعة

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي (١/٧٩).

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان البستي (١٢٧).

(٣) رواه الطبراني (١٢/٢٧١) (١٣٠٨٥)، والبيهقي (٣/٥٩) (٥١٥٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٤٣): رجال الطبراني موثقون. وصحَّح إسناده الألباني في الصحيحة (٧/٢٠٩).

بضعة أشهر، فأخذ في الكلام في عرضه، والخط من قدره، وأن فيه من سيما المنافقين.. ولم يكلف نفسه السؤال عنه، ولا احتمال حسن الظن به. وفي أحد المجالس بعدما أرغى وأزبد وانتفخ بالباطل، ردّ عليه أحد جيرانه: إن فلاناً الذي ما زلت تتكلم فيه قد أُصيب بالسرطان ستّة أشهر، ثم مات رَحِمَهُ اللهُ، فأسقط في يد صاحبنا! ولكن بعد خراب البصرة!

إن حسن الظن هو القاعدة، وسوؤه مع مبرّره هو الاستثناء، فإن انقلب الاستثناء قاعدة هلك الناس! قال عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءاً، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجاً». وقال أيضاً: «لا يتتفع بنفسه من لا يتتفع بظنه»^(١). وهو محتمل للأمرين: حسن الظن، أي بحياة خيري الدنيا والآخرة على ما ذكرناه، أو سوء الظن على سبيل الاحتياط، عند الريبة وقوّة الشبهة وخوف الغائلة في دين أو دنيا، كما قيل: «إن سوء الظن من حسن الفطن». وقد كان الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يكاد يقول: أظن في كذا.. إلا صدق ظنّه، ولا عجب فقد كان من المُحدِّثين.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من علم من أخيه مروءة جميلة فلا يسمعنّ فيه مقالات الرّجال، ومن حَسُنَتْ علانيته فنحن لسريته أرجى»^(٢). قلت: ويكأن نور النبوة على هذا الكلام العلوي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وعن سعيد بن المسيّب قال: «كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٤٧/١).

(٢) ذكره ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٢٦١/٩).

الله: أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(١).

وقال المهلب: «قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسناً أبداً، إذ يقول: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فإذا جعل الله سوء الظنِّ بالمؤمنين إفكاً مبيناً، فقد ألزم أن يكون حُسنُ الظنِّ بهم صدقاً مبيناً»^(٢). وروى معمر عن إسماعيل بن أمية قال: «ثلاث لا يعجزن ابن آدم، - أي يغلبانه أحياناً عند ضعف نفسه -: الطيرة، وسوء الظنِّ والحسد. قال: فينجيك من سوء الظنِّ أن لا تتكلم به، وینجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءاً، وینجيك من الطيرة أن لا تعمل بها»^(٣).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن لا يبحث لها عن المعاذير والمخارج وأن لا يركبها قلائص التأويل التي لا تغني عنه من الحق شيئاً في إساءة الظن بها لم يؤذن له فيهم من المؤمنين، بل عليه أن يسيء الظن بنفسه، ويحسن الظن بالعباد، وقد

(١) الاستذكار، لابن عبد البر (٢٩١/٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٦١/٩).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٦١/٩).

حسم رسول الله ﷺ الأمر فقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١).

ولما تكلم أحدهم على الحسن ثم ندم واعتذر؛ أوصاه الحسن بقوله: «لا تخرجنَّ من بيتك وفي نفسك أنك أفضل من مؤمن تلقاه قط.

قال الغزالي: «فلا يُستباح ظنُّ السُّوءِ إلا بما يُستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة. فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظَّنِّ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرَّر عليها أنَّ حاله عندك مستور كما كان، وأنَّ ما رأيته منه يحتمل الخير والشر. فإن قلت: فيما إذا يُعرف عقد الظَّنِّ والشُّكوك تختلج، والنَّفْسُ تحدِّث؟ فتقول: أمانة عقد سوء الظَّنِّ أن يتغيَّر القلب معه عما كان، فينفر عنه نُفُورًا ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته، وتفقدُه وإكرامه، والاغترام بسببه. فهذه أمارات عقد الظَّنِّ وتحقيقه»^(٢).



(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٢٨)، وأحمد (٨١٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد، (٦٠٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (١٥١/٣).

إطالة نبوية

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى:

«بَابُ إِذَا تَصَدَّقَ عَلَى غَنِيٍّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ»

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِي زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِي غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زَنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ» (١).

وبالله التوفيق والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله ومن

تبعهم بإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٤)	الثقة بالله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٣)	العبودية	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٦)	المهوى إلى الله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٧)	الأسنى بالله تعالى	(٢٠)	سلامة لله بدر
(٨)	الإرادة	(٢١)	العفاف
(٩)	العزم	(٢٢)	الله بر
(١٠)	الرجاء	(٢٣)	الرضا
(١١)	الرغبة	(٢٤)	الشكر
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٥)	الحمد
(١٣)	حُسن الظن بالله تعالى	(٢٦)	...

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال: 0502543917

الكتاب رقم
(١٤)

موسوعة تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب



النفقة بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

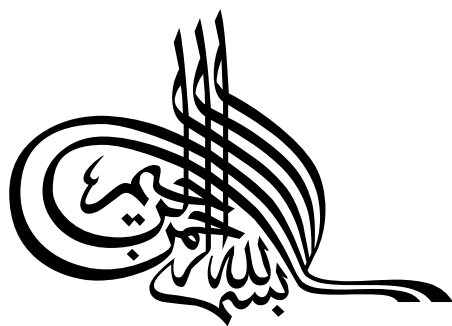
الكتاب رقم (١٤)

الثقة بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٦	التعريف
٨	فضلها ومكانها من أصول وفروع الديانة
١٧	وقفة مع حديث الحفظ المشهور
٥٢	﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾
١٦٧	الإقسام على الله تعالى ثقة به
١٧٠	وصايا للعباد والدعاة وطلبة العلم في باب الثقة بالله ولقائه
١٨٢	أسباب تنمية الثقة بالله في القلب
٢٠٧	الثقة بالله تعالى لها أثرها العظيم في الدعوة للإسلام ونشره والعمل به
٢٠٩	مصدر الثقة رباني
٢١٠	فقه سنة المدافعة بين الهدى والضلال، والحق والباطل
٢١٣	لولا الابتلاء لارتبنا الطريق!
٢٢٣	من أخبار الواثقين بالله رب العالمين
٢٥٧	ليس مع الله تعالى ضيعة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الحي القيوم، ذي الجلال والإكرام، ذو العزّ الذي لا يضام،
والملك الذي لا يُرام، السعيد من تعلّق به ووثق، وأيقن بلطفه في الشاقّ
والأشقّ، عزّ جأزه، وجلّ ثناؤه، ولا إله غيره، أما بعد:

فإن الثقة بالله هي عمود التوكّل، وهي ساق التفويض التي يقوم عليها،
فلا توكّل بدون ثقة، وعلى قدر الثقة تكون قوّة التوكّل، فلهذا العمل القلبي
العظيم علاقة طردًا وعكسًا بالتوكّل، وبحسن الظن، بل بالتوحيد والعبودية
ذاتها، فهي لباب السكينة، وبلسم الانشراح ودواء القلق.

وهذه حروف يسرها الله تعالى في ذكر ذلك، أسأل الله تعالى أن يقبلها
وأن ينفع بها، والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ٠٥ / ٠٢ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

قال ابن فارس في مادة وثق: «الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عقد وإحكام، ووُثِّقَت الشيء أحكمته، وناقة موثقة الخلق. والميثاق: العهد المحكم، وهو ثقة، وقد وَثِّقْتُ به»^(١). وفي المخصص لابن سيده^(٢) قال صاحب العين: «الوثيقة: إحكام الشيء وقد أوثقته ووثقته ووثق هو وثاقه فهو وثيق». وفي التعاريف: «الثقة: من يُعتمد عليه في القول والفعل»^(٣).

وفي المعجم الوسيط: «الثقة: مصدر، وقد يوصف به (يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع بنوعيهما) فيقال هو وهي وهما وهم وهن ثقة. وقد يجمع في الذكور والإناث على ثقات»^(٤). وفي شرح نهج البلاغة في معاني التوكل: «قيل: التوكل الثقة بالله واليأس عما في أيدي الناس»^(٥).

قلت: ولعل الأقرب أن معنى الثقة بالله هو: اليقين الثابت بكمال الله بصفات الجلال والجمال والكمال، وبصدق وعده، وعظيم قدرته، وإحاطة علمه وقدرته وحكمته ورحمته بكل شيء. فإذا استقر هذا اليقين بهذه الصفة في قلب عبد فلا تسل عن كبير الثقة وتتمامها في هذا القلب المؤمن الواثق بربه سبحانه وبحمده.

(١) المعجم: (١٠٤٣).

(٢) المخصص: (٤ / ١٠٤).

(٣) التعاريف: (١ / ٢٢١).

(٤) المعجم الوسيط: (٢ / ١٠١٢).

(٥) نهج البلاغة: (١١ / ٢٠٢).

«إن الواثق معتصم ضرورة بالله وحده. وفي تفسير ابن أبي حاتم عن الربيع - يعني ابن أنس - قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] قال: الاعتصام هو الثقة بالله^(١). وقال السلمي عند قول الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النمل: ٧٩] قال بعضهم: التوكل سكون القلب إلى الله، وطمأنينة الجوارح عند مصادمة المهولات حيثئذ تظهر للمتوكل الثقة بالله^(٢). وقال: قال بعضهم: من رزق الثقة بالله، والرضا عن الله فقد أعطى أفضل الأرزاق^(٣). وفي البحر المديد: قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] وفيه تيسيج على مقام التوكل، وحث على الثقة بالله في جميع الأمور. وفي ذلك يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ وَثِقْ بِاللَّهِ دَبَّرَ الْخَلْقَ أَجْمَعُ
وَضَعْ عَنْكَ هَمَّ الرِّزْقِ فَالرَّبُّ ضَامِنٌ وَكَفَّ عَنِ الْكَوْنَيْنِ وَالْخَلْقَ أَرْبَعُ

قوله والخلق أربع: أراد العالم العلوي والسفلي، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها، والوقوف معها^(٤). وقال الشوكاني: عن ابن جريج في قوله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١] قال: يؤمن به، وعن أبي العالية قال: الاعتصام: الثقة بالله^(٥).



(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٤ / ١٠٩٩).

(٢) تفسير السلمي: (٢ / ٩٦).

(٣) تفسير السلمي: (١ / ٤٥٣).

(٤) البحر المديد (٣ / ٤٠٤).

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: (١ / ٥٥٤).

فضلها ومكانها من أصول وفروع الديانة

اعلم أن الثقة بالله هي السلك الناظم لأمر التدبّر بعامة، وهي الجدار الحافظ بإذن الله لقلب المؤمن من قواصف الشبهات وعواصف الشهوات، فهي الميدان الذي يجري فيه فؤاد المؤمن ويستن بطوله في أنحائه، ويستظلّ متنعمًا في أفيائه. إن الثقة بالله هي سفينة نجاة المتقين، وحبل وصول المقربين، وسلاح الصابرين في دار الابتلاء والامتحان. الثقة بالله هي حصن السابقين، ومنتجع العابدين، ومهيع السالكين، وهي مزيج من قول القلب وعمله، ولها علاقة بأقوال وأعمال القلب الأخرى، فهي ثمرة العلم بالله، ومن ثمارها حسن الظن والتوكل، وبردّها باليقين.

وإذا كان الإيمان تصديقًا خاصًا وإقرارًا؛ فالثقة بالله هي أصله وصلبه، فعلى أساسها يقوم بنيانه، وكل آية إيمانٍ مهما تصرّفت فهي متضمنة للثقة بالله سبحانه. ولقد آل أمر المنافق لأن يكون أرذل العالمين وشر ولد آدم أجمعين لخيانته وكذبه في الثقة بربه ولقائه ووعدته! ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦] يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غفلون ﴿[الروم: ٦، ٧].

ولقد تدبّرتُ أي القرآن فرأيت أن منها آيات هي مثل قلّ الجبال للمسافر في تخوم السهول والحزون! إنها آيات لها قرعها الشديد لانتباه التالي والسامع، ففيها إيقاظ وتنبيه وإرشاد لقبلّة التوجّه القلبي، مع بلسم سكينه لا

يصفه الواصفون، ووقودٌ تام لمحرّك مركبة المهاجر لربه، وزاد وافٍ لمن حمل همّ إصلاح نفسه وأمته، فهي شاطئ أمان العباد والدعاة والعلماء والمربين.. وليس لمؤمن ولا مؤمنة غنية عن فقهها علماً وعملاً، وكم من عامي لا يؤبه له مدفوع بالأبواب يقف أمام فتن الدنيا بثبات يبرز به الجبال الرواسي! بينما يقع حامل أسفار العلوم تحت جناح أهون فتنة! ذلك لأن العلم النافع هو العلم بالله قبل العلم بشرعه، وإن اجتمعا في قلب فواها! لذا فلم يكن الخبر الحكيم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبالغاً حينما قال: «ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية»^(١). وأولى بنا قول ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فإن مررت على تلك الآيات فردّدها وتدبرها وتفكر فيها، ففيها نداء لروحك، وخطاب لفؤادك، وطوق نجاة لمصيرك، ومنشور فلاح لنشرك ومعادك. تأمل قول ربك سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿[القصص: ٦٠، ٦١] قف عندها ورددها مراراً ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ وإني زعيم بأنها ستذيب بإذن الله شهوات الدنيا الفانية من فؤادك إن وفّقك مولاك لتلاوتها وتدبرها بجمعية قلب، وفهم لمعناها، وتدبرٍ لمقاصدها.

إنّ لقا الله سبحانه هي الغاية لقلوب المحبين المشتاقين لمعبودهم وإلههم،

(١) روضة العقلاء لابن حبان (٩).

ولقد كانت آخر آية قرأها العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ هي قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمُلِّقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ثم فاضت نفسه، نسأل الله أن تكون في الفردوس الأعلى، والعجب أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان قد فصل الكلام عليها في سورة الانشقاق وفتح الله عليه بكلام بديع عجيب، وتأمل كذلك آخر آية قرأها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يجود بروحه، وهي خاتمة سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] وقبلها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حين كان آخر عهده بالدنيا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣]. وقد كانت آخر آية قرأها الشيخ غزالي بن منصور الشريف رَحِمَهُ اللَّهُ قبل غيوبته التي رحل منها إلى الله والدار الآخرة: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

كثيرٌ من الناس يبدأ صلاحه فتياً، وتنبت أزاهير قلبه، ويفوح أرج ربيع فؤاده.. ولكن إذا هبت رياح القيظ بابتلاء لا بد منه في نفسه أو أهله أو ولده أو ماله أو ما يحب من علائق الفانية؛ ذبلت زهور الهمة، وتساقطت أوراق العزيمة، وخبا نور المحبة وضياء اليقين، أتدري لماذا؟ إنه ضعف الثقة بالله. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: حدثني إبراهيم بن الحارث حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴿١﴾ قال: «كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء!» (١) قلت: صاحبه ليس عن بؤسه ببعيد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠] بلى وعزة ربي، بلى وعزة ربي، بلى وعزة ربي.

إنه الابتلاء الذي لا مفر منه لمؤمن، وعلى قدر براءته من أوضاره في الدنيا تكون براءته عند عبور الصراط يوم الدين، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا ﴿[مريم: ٧١، ٧٢].

قد يعطى الإنسان بسطة في العلم، لكن سوس حب الدنيا يأكل ثمار علمه حتى تكون معرفته جهلاً وعلمه وبالاً، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴿[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] عائذاً بربي من حاله، فأمثاله من أهل العلم النافع تستغفر لهم الملائكة في سماواتها والحيتان في بحورها والنمل في جحوره، ويحشر يوم القيامة مع الصديقين.. وهذا البائس كالكلب!

فراجع علمك لا يكن مدخولاً، وحاسب خطراتك لا تكن شراكاً لسرقة

كنز قلبك، وهو العلم بالله أولاً ثم العلم بشريعته ثانياً.

قف عند الآيات التي تبني في قلبك حصن الثقة بربك، وكل القرآن كذلك لمن وفقه الله لتلاوته حق التلاوة، وهذا القرآن شفاء لعلل القلوب وأمراض النفوس، فيقرأ الجماعة الموضع الواحد أو يستمعوا لها فتداوي مرض شهوة هذا، وتهتك شبهة ذاك، وتقوي عزم ثالث، وتزهّد قلب رابع، وتعظم رجاء خامس.. والآيات هي الآيات، وهو من أسرار القرآن العزيز، ولا عجب، فالقرآن من كلام الله، وكلام الله من صفاته، وفضله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه، فيا ليت قومي يعلمون!

ولئن كان تأثير القرآن على الجبال الصم الصلاب بالخشوع والتصّدّع فأولى لقلب الإنسان أن يخشع ويحيى ويوقن ويشق الثقة المطلقة بوعد ربه.

إن القرآن مليء بوعود الكريم الوهاب سبحانه، وبعضها مشروط بالإيمان والعمل الصالح إجمالاً، كالوعد بالجنة والنجاة من النار، وبعضها مشروط بشروط إضافية - وإن كانت داخلة دخولاً أولياً في الإيمان والعمل الصالح - كنصر الله لمن ينصره، وحفظ الله لمن يتوكل عليه، وإجابته من دعاه.. وهكذا.

ثم اقبل البشري أيها التالي كتاب ربك، فقد قال سبحانه في سورة فاطر - وتدبر هذا الموضع جيداً ففيه زاد أيّما زاد :- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٩) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٥]

فهل بقيت بقية لمعتبر ومدكر وبائع لهواه بفلاح الأبد بعد هذا؟!

بل إن الدين كله مبني على وعدٍ غيبٍ لم نره حسًّا، وهنا يكون محك الإيثار وبرهان التصديق ودليل التسليم، وعلى قدر الثقة بالله تعالى، بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله تكون الثقة به وبوعده، ومن هنا افرقت الخليفة، فمنهم من يثق الثقة المطلقة التي لم تنزع ولم تضطرب مهما عصفت بها زلازل الخطوب وبلايا الفتن والرزايا وهذا مقام المرسلين، وتدبر كل قصص الأنبياء - بلا مشنوية - تجد أن عنوان الثقة بالله وبوعده موجود باضطراد في تضاعيف أحداث القصص، ولو تأملت السلك الناظم والخيطة الجامع لقصص الصالحين من المرسلين فمن دونهم لرأيت أن الذي ينتظم ذلك هو الثقة بوعده الله ولقائه، وتأمل معنى متردداً على السنة رسل الله في حجاجهم لأقوامهم قد اتفقوا على إشهاره: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] ثقة به واستغناء، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧] ولقد تكرر هذا المعنى الغني العزيز وتصرف في القرآن كثيراً، مما يدل على أنه من أعظم موارد معاني بناء الثقة في قلوب

الصالحين والمصلحين.

وتأمل تكرار الوعد الإلهي ووصفه بالحق في كثير من آيات الكتاب العزيز، كما في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] وقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الأحقاف: ١٧] وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وقريب منه مع مسار خطابي بطراز مختلف، وله وقع خاص جداً: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْرِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨ - ٤٩] وكيف لا يوثق بالله وحده وهو القائل: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ثم ليهنك برد اليقين وقرار العين بتدبر قول الحق تبارك وتعالى عن أهل الجنة حينما يدخلونها وقد استقبلتهم ملائكة الرحمن: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] نعم، لقد استجاب لهم من وثقوا به وأحسنوا به الظن وأحسنوا له العمل وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وذكر الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء^(١) وابن عساكر في تاريخ بغداد^(٢) عن سعيّر بن الخمس قال: رأيت سفيان في المنام يطير من نخلة إلى نخلة وهو يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]^(٣). وروى عن يوسف بن خليل الحافظ قال: رأيت في النوم، كأني دخلت مسجد الكوفة، فرأيت شيخاً طويلاً لم أر شيخاً أحسن منه، فقليل لي: هذا أبو محمد بن حيان، فتبعته وقلت له: أنت أبو محمد بن حيان؟ قال: نعم. قلت: أليس قد مت؟ قال: بلى. قلت: فبالله ما فعل الله بك؟ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، فقلت: أنا يوسف، جئت لأسمع حديثك وأحصل كتبك، فقال: سلمك الله، وفقك الله، ثم صافحته، فلم أر شيئاً قط أليّن من كفه، فقبلتها ووضعتها على عيني.

قال الذهبي: قلت: قد كان أبو الشيخ من العلماء العاملين، صاحب سنة واتباع، لولا ما يملأ تصانيفه بالواهيات. وفي سيرة عمر بن عبد العزيز^(٤) قال: وكتب إليه عدي بن أرطاة: إنه قد أصاب الناس من الخير خيراً، حتى لقد خشيت أن يبطروا! قال: فكتب إليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل

(١) سير الأعلام: (٧ / ٢٧٩).

(٢) تاريخ بغداد: (٩ / ١٧٣).

(٣) السير: (١٦ / ٢٧٩).

(٤) السابق: (١ / ٦٤).

أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رضي من أهل الجنة بأن قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] فمُر من قبلك أن يحمدا الله. قلت: وقد كان
آخر كلام هذا العبد الصالح عند رحيله من هذه الفانية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجَعُلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣]
فنسأل الله الكريم الوهاب من واسع فضله وكرمه وعظيم جوده وإحسانه.



وقفة مع حديث الحفظ المشهور

هذا وإن حديث ابن عباس المشهور «احفظ الله» كل حرف منه ناطق بالثقة بالله تعالى من جهة، حتى وإن تعلقت به أعمال قلوب أخر، فمدار الحفظ على الثقة، ومدار العمل على الثقة، ومدار المعية على الثقة، ومدار الدعاء عليها وبها ومنها وإليها، ومن نعمة الله علينا أن قيض الله الحافظ الزاهد المحقق النادر ابن رجب الحنبلي لبسط الكلام على لطائف هذا الحديث العظيم وإظهار أسرارهِ وإشهار معانيهِ الخُرد، فعبارة نبي الله صلوات الله وسلامه لا مزيد عليها إذ أوتي جوامع الكلم فيذكر اللفظ الواحد المشتمل على مئين المعاني التي تنتظر كأمثال ذلك البحاثة المحقق لإجلاء أكبر قدر من تيك الحقائق الباهرة، والفوائد الشاهقة، ولا غرو فعرأُس المعاني لا تُجلى لضير، وخودها لا تُزف إلى عَنين، فهي بضاعة لها طُلابها، وعروس لها خُطابها، فلتكن لأهلها، ولتُهدى لبعْلِها، وإن هذا العلم النحرير لحقيق بأن تُجرد مطولات كتبه^(١)، فلقد آتى الله أسلة قلمه لطفًا ونبوغًا وسيلاً للمعاني الرقيقة، التي لا يستغني عنها طالب الآخرة، فلا يكاد يمرّ بلفظ فيه حياة للقلوب إلا توقف عنده وأجلّاه، وأبدأ في كلام السلف فيه وأعاد، لعلمه أن القلب إذا حيا فالجوارح له تبع، وما فائدة علوم تجمع ولا تقرب العبد لربه ولم

(١) كفتح الباري في شرح صحيح البخاري إذ شرح فيه قطعة صالحة ولم يكمله، ولو كمل لكان عجباً! كذلك له جامع العلوم والحكم، وله القواعد، وغيرها، وله رسائل نفيسة جدّا في شروح أحاديث متفرقة جُلّها في الرقائق وقد جمعت في بضع مجلدات مطبوعة.

تملاً قلبه بمحبته ورجائه وخشيته؟! وإلى شيء من كلامه على هذا الحديث النبوي المدهش العجيب بشيء من اختصار واقتصار:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «عن أبي العباس عبدالله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهيم لمعناه!

قلت: قوله ﷺ: «احفظ الله» يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه

(١) الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني. وأحمد (٢٨٠٣) وصححه الأرناؤوط، وله شواهد.

بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه، وقال عز وجل: ﴿هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ﴾ (٣٢) ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣] وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها، ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] (١).

وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة. ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل اللسان والفرج، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي

(١) قال الإمام محمد رشيد رضا في تفسير المنار (١ / ٣٤٨): «قد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقاً، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه، وإشعار القلب عظمته وكبريائه، فبهذا الشعور ينمو الإيمان، وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات، وتستتير البصيرة فتكون أقوى نفاداً في الحق، وأشدّ بعداً عن الأهواء، فنفس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية، ومن الثقة بقدرة الله تعالى، فإذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دليلاً أيد به الوعد، فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ هداية إلى طريق الاقتناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجداناً للنفس لا ترزله الشبهات، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات».

عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» خَرَجَهُ الْحَاكِمُ (١).
وَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِفْظِ الْفَرْجِ وَمَدَحَ الْحَافِظِينَ لِفُرُوجِهِمْ.

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَحْفَظُكَ» يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فَأَذْكُرُوا أَنِ ادَّخَرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ نَصْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [محمد: ٧] وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١] قال ابن عباس: «هم الملائكة، يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلّوا عنه». وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حصينة» (٢). ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله، وكان بعض العلماء قد جاوز المئة سنة وهو ممتع بقوته وعقله فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال: «هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر». وعكس هذا أن بعض السلف رأى

(١) الحاكم (١١٩٠) ورواه البخاري (٦٤٧٤) بلفظ: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ» من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) وهو معنى رائق، ومعناه أن الإنسان في أمان من الموت مهما أحاطت به أسبابه، إلا إذا حان القدر.

شيخاً يسأل الناس فقال: «إن هذا ضعيف ضيَّع الله في صغره فضيَّعه الله في كبره»^(١).

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] أنهما حُفِظَا بصلاح أبيهما. قال سعيد بن المسيب لابنه: «لأزیدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية». وقال عمر بن عبد العزيز: «ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه». وقال ابن المنكدر: «إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر». ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله فإن الله يحفظه في تلك الحال.

ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى، كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كُسر به المركب، وخرج إلى جزيرة فرأى الأسد، فجعل يمشي معه حتى دلَّه على الطريق، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع عنه^(٢). ورؤي إبراهيم بن أدهم

(١) الأصل المنع من ذلك التشهير والتعير والاختياب، ولعلها. إن صحَّت. حالة خاصة كأن يكون قد عرف أن هذا الرجل لا يكره ذلك، أو كان مشتهراً بمجاهرة أو نحو ذلك، أو أن الرجل المذكور قد أذن له في ذلك لأجل الاعتبار به، وعلى كل حال فالخبيئات لا يعلمها إلا رب البريات، ومن تاب تاب الله عليه. والقول بأن الله فعل كذا لأجل كذا بلا علم نوع تَأَلَّى على الله تعالى.

(٢) صححه الألباني في تخريج المشكاة (٥٨٩٣) وضعفه الوادعي في (أحاديث معلة) =

نائماً في بستان وعنده حيّة في فمها طاقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى استيقظ! (١).

وعكسُ هذا أن من ضيّع الله ضيّع الله فضاع بين خلقه حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم، كما قال بعض السلف: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي ودابتي».

النوع الثاني من الحفظ - وهو أشرف النوعين -: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيثار. قال بعض السلف: «إذا حضر الرجل الموت يقال للملك: شَمَّ رأسه، قال: أجد في رأسه القرآن، قال: شَمَّ قلبه، قال: أجد في قلبه الصيام، قال: شَمَّ قدميه، قال: أجد في قدميه القيام». قال: حفظ نفسه فحفظه الله. وفي الصحيحين (٢) عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ مَنَامِهِ: «إِنْ قَبِضْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أُرْسَلَتْهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحِينَ».

وفي الجملة فإن الله عز وجل يحفظ المؤمن الحافظ لحدود دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد

للائق طاع بين ابن المنكدر وسفينة. قال الحافظ: روايته عنه مرسلة.

(١) وهذا الأثر من الأخبار المرسلة بلا سند ثابت، والمراد إثبات كرامات الله لأوليائه، وهي ثابتة حتى بدون أمثال هذه الأخبار التي يعلم الله وحده حقيقتها.

(٢) البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).

يكون كارهاً له كما قال في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: «يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجرّه إلى النار». وقال الحسن وذكر أهل المعاصي: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم». وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطيّر بقوله: سبني فلانٌ وأهانني فلانٌ، وما هو إلا فضل الله عز وجل!» وخرّج الطبراني^(١) من حديث أنس عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسطت عليه أفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من يطلب باباً من العبادة فأكفّه عنه لكيلا يدخله العجب. إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني عليم خبير».

وقال ﷺ: «احفظ الله تجده تجاهك» وفي رواية: «أمامك» معناه: أن من

(١) الطبراني في الأوسط (٦٠٩) وابن أبي الدنيا في الأولياء (١) وأبو نعيم في الحلية (٣١٨/٨) وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٤/١) والألباني في الضعيفة (١٧٧٥).

حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] قال قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل». بل كتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو».

وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا﴾ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿[طه: ٤٦] وقول موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وفي قول النبي ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا»^(١) فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، بخلاف المعية المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] فإن هذه المعية تقتضي علمه وإطلاعه ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضية لتخويف العباد منه، والمعية الأولى تقتضي حفظه وحياطته ونصره، فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال، فاستأنس به واستغنى عن خلقه.

وقيل لأحد الصالحين: كيف لا تستوحش وأنت وحدك؟ فقال: «كيف

(١) البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!« وقيل لآخر: نراك وحدك! فقال: «من يكن الله معه كيف يكون وحده؟!« وقيل لآخر: أما معك مؤنس؟ قال: بلى، قيل: أين هو؟ قال: «أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي». وكان الشبلي ينشد:

إذا نحن أدجلنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بذكرك هاديًا

وقوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» يعني أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه، فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهي عامة للمؤمنين. والثاني: معرفة خاصة، تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها»، قيل له: وما هو؟ قال: «معرفة الله عز وجل». وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عرفته استحيت

منه»^(١) ومعرفة الله أيضًا لعبده نوعان:

الأول: معرفة عامة: وهي علمه تعالى بعباده واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» وفي رواية: «ولئن دعاني لأجيبه»^(٢)

ولما هرب الحسن من الحجاج دخل إلى بيت حبيب بن محمد فقال له حبيب: يا أبا سعيد أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء، ادخل البيت فدخل، ودخل الشرط على أثره فلم يروه، فذكر ذلك للحجاج فقال: بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه! وقيل لمعروف: وما الذي هيجك إلى الانقطاع والعبادة وذكر الموت والبرزخ والجنة والنار؟

(١) قلت: قصد الارتفاع بالمعرفة العامة إلى الخاصة.

(٢) البخاري: ١٣١/٨ (٦٥٠٢) أما زيادة «ولئن دعاني لأجيبه» فهي عند البزار في مسنده (٨٧٥٠).

فقال معروف^(١): «إِنْ مَلِكًا هَذَا كُلَّهُ بِيَدِهِ، إِنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ كِفَاكَ جَمِيعَ هَذَا».

وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه؛ عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته. وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَلْيَكْثِرِ الدَّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ»^(٢) وخرج ابن أبي حاتم وغيره من رواية أبي يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه أن يونس عليه الصلاة والسلام لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة: يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة! فقال الله عز وجل: «أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟» قالوا: ومن هو؟ قال: «عَبْدِي يُونُسَ» قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟ قال: «نَعَمْ» قالوا: يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: «بَلَى» قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء^(٣). وقال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله تعالى فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ

(١) هو معروف الكرخي الزاهد العابد المشهور.

(٢) الترمذي: ٣٣٨٢ وحسنه الألباني.

(٣) وفي الحديث المرفوع: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذَا دَعَا فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. مَا دَعَا بِهَا أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ» أخرجه الترمذي (٣٥٥) وأحمد (١٧٠/١) (١٤٦٢).

يُبْعَثُونَ ﴿[الصفات: ١٤٣، ١٤٤] وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ﴾ [يونس: ٩٠] فقال الله تعالى: ﴿ءَالْكَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقال سلمان الفارسي: «إذا كان الرجل دعاءً في السراء، فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوت معروف، فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف، فلا يشفعون له». وقال رجل لأبي الدرداء: أوصني، فقال: «اذكر الله في السراء يذكرك الله عز وجل في الضراء». وعنه أنه قال: «ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك».

وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت، وما بعده أشد منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير. فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما بعده في حال الصحة بالتقوى والأعمال الصالحة، قال الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]

فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه واستعد حينئذ للقاء الله عز وجل بالموت وما بعده؛ ذكره الله عند هذه الشدائد، فكان معه فيها ولطف به وأعاناه وتولاه وثبته على التوحيد، فلقية وهو عنه راض. ومن نسي الله في حال صحته ورخائه

ولم يستعد حينئذ للقاءه؛ نسيه الله^(١) في هذه الشدائد. بمعنى أنه أعرض عنه فأهمله، فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه وجاءته البشرى من الله، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، والفاجر بعكس ذلك. وحينئذ يفرح المؤمن ويستبشر بما قدمه مما هو قادم عليه، ويندم المفرط ويقول: ﴿بَحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

قال أبو عبد الرحمن السلمي قبل موته: «كيف لا أرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان؟!» وقال أبو بكر بن عياش لابنه عند موته: «أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة؟!» وختم آدم بن أبي إياس القرآن وهو مسجى للموت ثم قال: «بحبي لك ألا رفقت بي في هذا المصر، كنت أملك لهذا اليوم، كنت أرجوك لا إله إلا الله»، ثم قضى^(٢). ولما احتضر زكريا بن عدي رفع يديه وقال: «اللهم إني إليك لمشتاق». وقال عبد الصمد الزاهد عند موته: «سيدي لهذه الساعة خبأتك، فلهذا اليوم اقتنيتك، حقق حسن ظني

(١) من معاني النسيان الترك، وهو المقصود هنا.

(٢) قلت: لا بأس بفعله، بل هو مشروع، فلقد توسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، وهل أعظم من حبه الله تعالى؟! وقد روى الشيخان حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أنهم توسلوا لله تعالى بصالح أعمالهم. إنما المحذور التوسل بما لم يشرع، كالتمسك بشفاعة الموتى أو الملائكة أو الأوثان ونحو ذلك فهذا شرك أكبر كما ذكر الله تعالى عن المشركين في حجاجهم للمرسلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، أو التوسل بجاه الأنبياء والصالحين أو بالبقاع ونحو ذلك فهو بدعة ضلالة.

بك» (١).

وقال قتادة في قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] قال: «من الكرب عند الموت». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة» وقال زيد بن أسلم في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] قال: «يبشر بذلك عند موته، وفي قبره، وحين يبعث، فإنه لفي الجنة وما ذهبت فرحة البشارة من قلبه». وقال ثابت البناني في هذه الآية: «بلغنا أن المؤمن حيث يبعثه الله من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له: لا تحف ولا تحزن، فيؤمن الله خوفه، ويقر الله عينه، فما من عظمة تغشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قررة عين لما هداه الله ولما كان يعمل في الدنيا».

وقوله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه، و«الدعاء هو العبادة». كذا روي عن النبي ﷺ من حديث النعمان بن بشير، وتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:

(١) أي: خبأت شوقي إليك وعبادتي لك، فأريد كرامتي الآن. ولم يكن الصحابة يتوسعون هذا التوسع والإدلال في الدعاء، فالمحبة والرجاء يدفعان لذلك لكن الخوف والحياء والمهابة تمنعه، وكل خير في اتباع من سلف، وشأن الأدب مع الله وإجلاله عظيم.

[٦٠] خرجه الإمام وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه^(١). فتضمن هذا الكلام أن يسأل الله عز وجل ولا يسأل غيره، وأن يستعان بالله دون غيره.

وأما السؤال: فقد أمر الله بسؤاله فقال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] وفي الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل»^(٢) وفيه أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «من لا يسأل الله يغضب عليه»^(٣).

وفي حديث آخر: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»^(٤) وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقول: «هل من داع فأستجيب له دعاءه، هل من سائل فأعطيه سؤله، هل من مستغفر فأغفر له» وخرج المحاملي وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: من ذا الذي دعاني فلم أجبه وسألني فلم أعطه واستغفرني فلم

(١) أبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حسن صحيح.

(٢) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع: (٣٢٧٨).

(٣) حسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٧٣ / ٧).

(٤) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (٥٣٧ / ٣).

أغفر له، وأنا أرحم الراحمين»^(١).

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة. وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: «اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك». كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

والله سبحانه يجب أن يُسأل ويُرغب إليه في الحوائج ويُلجَّ في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤالهم من غير أن ينقص من ملكه شيء.

والمخلوق بخلاف ذلك: يكره أن يُسأل ويجب أن لا يُسأل لعجزه وفقره وحاجته. ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوكة: «ويحك تأتي من يغلق عنك بابه ويظهر لك فقره ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ويظهر لك غناه ويقول: ادعني أستجب لك؟!»

(١) البيهقي في الشعب: (١٠٥٣).

وقال طاووس لعطاء: «إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق بابك دونك ويجعل دونها حجابك، وعليك بمن بابك مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك».

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المُعَان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى لا تحوّل للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل. فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(١).

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن العزيز: «لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه». ومن كلام بعض السلف: «يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك».

(١) مسلم: (٢٦٦٤). نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً ممن يسروا اليسرى، آمين إله الحق.

وقوله ﷺ: «جف القلم بما هو كائن» وفي رواية أخرى: «رفعت الأقلام وجفت الصحف» هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على مثل هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١) وفيه أيضًا عن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله، فقيم العمل اليوم، أفبما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال: فقيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢) وخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فكتب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا يطول ذكرها.

(١) مسلم: (٥١/٨).

(٢) مسلم: (٢٦٤٨).

(٣) أحمد (٢٢٧٠٥) وصححه الأرنؤوط وعند الترمذي (٣٧٨٠): «إن أول ما خلق الله

وقوله ﷺ: «فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه» هذه رواية الإمام أحمد ورواية الترمذي بهذا المعنى أيضاً، والمراد إنما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً. وقد دل القرآن على مثل هذا في قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُتُوكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وخرج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيَّان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وإن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(١).

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة؛ علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع، فأوجب

القلم فقال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»

صححه الألباني في صحيح الجامع: (٢٠١٧).

(١) أحمد (٢٧٤٩٠) وصححه الألباني ٢١٥٠ صحيح الجامع.

ذلك للعبد توحيد ربه عز و جل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار.

ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئاً، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله؛ أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً، وإفراده بالاستعانة به والسؤال له وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، خلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دونه، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهٗ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقوله ﷺ: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» يعني أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها كان له في الصبر خير كثير. وفي رواية عمر مولى عفرة وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام وهي: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(١) ومعنى هذا أن حصول

(١) البيهقي في الشعب: (١٠٠٠٠) وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٧ / ٣٨٣): رواه مُسَدَّدٌ واللفظ له ومحمد بن يحيى بن أبي عُمر وأحمد بن حنبل، وأَبُو يَعْلَى. وضعفه =

اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعني أن العبد يجهد على أن يرضي نفسه بما أصابه، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرضا بالمقدور فليفعل، فإن لم يستطع الرضا فإن في الصبر على المكروه خيرًا كثيرًا. فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب أحدهما:

أن يرضى بذلك وهي درجة عالية رفيعة جدًا، قال الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة: «هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى». وخرج الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١) وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(٢) ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبي ﷺ «لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٣) وجاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله أن يوصيه

الألباني في السلسلة الضعيفة (١١ / ١٠٩) (٥١٠٧) وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في «رسالة التوبة» (ص ٢٥٠ ضمن جامع الرسائل) مشيرًا لضعفه بتصديده إياه بقوله: «روي...».

(١) متفق عليه: البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣).

(٢) أحمد (٨٣٧٥) وصححه الألباني في تخريج رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية (٩٠).

(٣) صححه الألباني في تحقيقه لشرح الطحاوية (١٦٣) والحديث بلفظ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ»

وصية جامعة موجزة فقال: «لا تتهم الله في قضائه»^(١).

قال أبو الدرداء: «إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يُرضى به». وقال ابن مسعود: «إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما من أعظم الجهاد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»^(٢).

وقال عبد الله بن عمر لمن سأل عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها». وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته لعمر حين استخلفه: «إن أول ما أحذرْك نفسك التي بين جنبيك».

فهذا الجهاد يحتاج أيضًا إلى صبر فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبه وحصل له النصر والظفر وملك نفسه فصار ملكًا عزيزًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غلب وقهر وأسر وصار عبدًا ذليلاً أسيرًا في يد شيطانه وهواه. كما قيل:

إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» أخرجه مسلم ١٤٠/١ (٢٢٣).

(١) بلفظ: «لا تتهم الله على شيء قضاه عليك» قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: «حسن لغيره (١٣٠٧) وقد رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما حسن. وانظر الصحيحة: (٣٣٣٤).

(٢) ابن حبان (٤٦٢٤) وصححه إسناده شعيب الأرناؤوط.

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه بمنزلة فيها العزيز ذليل

قال ابن المبارك: «من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع». فقله ﷺ: «أن النصر مع الصبر» يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن. فمن صبر فيهما نصر وظفر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع قهر وصار أسيرًا لعدوه أو قتيلاً له.

وقوله ﷺ: «وأن الفرج مع الكرب» وهذا يشهد له قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] وقول النبي ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره» خرجه الإمام أحمد^(١) وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿[الروم: ٤٨، ٤٩] وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] وقال حاكيا عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ثم قص قصة اجتماعهم عقب ذلك، وكم قصّ سبحانه من قصص تفريج كربات

(١) أحمد (١١٢٩٤) وابن ماجه (٦٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧ / ١١) ٢٨١٠ بلفظ: «ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده وقرب خيره» فقال أبو رزين: أو يضحك الرب عز وجل؟ قال: «نعم». فقال: لن نعدم من رب يضحك خيراً» وهو من الأحاديث الثابتة التي شرقت بها الجهمية المعطلة لصفات الكمال لله جل وعز.

أنبيائه عند تناهي الكرب، وإنجاء نوح ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه، وإنجاء موسى وقومه من اليم وإغراق عدوهم، وقصة أيوب ويونس، وقصص محمد ﷺ مع أعدائه وإنجائه منهم، كقصته في الغار ويوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب ويوم حنين وغير ذلك.

وقوله ﷺ: «**فإن مع العسر يسراً**» هو منتزع^(١) من قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال: «لو أن العسر دخل في جحر لجااء اليسر حتى يدخل معه، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] وبإسناده أن أبا عبيدة حُصِرَ فكتب عمر يقول: «مهما ينزل بامرئ شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإنه يقول: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]».

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب، واليسر بالعسر، أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وحصل للعبد اليأس من كشفه من جهة المخلوقين وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله وهو من أعظم

(١) بل هو وحي مستقل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]. ولعله قصد الإشارة إلى أنها من مشكاة واحدة، فهو وحي يفسر بعضه بعضاً. وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ النبوي من الآيات فيما سبق في (ص ٦٠) عند تفسير لفظ الاستعانة.

الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وأيضاً فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة، فرجع إلى نفسه باللائمة وقال لها: إنما أتيت من قبلك، ولو كان فيك خير لأجبت. وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه أهل لما نزل من البلاء، وأنه ليس أهلاً لإجابة الدعاء، فلذلك تُسرّع إليه حينئذ إجابة الدعاء، وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

قال وهب: «تعبد رجل زماناً، ثم بدت له إلى الله حاجة، فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرّة، ثم سأل الله حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه فقال: منك أتيت، لو كان فيك خيراً أعطيت حاجتك، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال له: يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك». خرج ابن أبي الدنيا. ولبعض المتقدمين في هذا المعنى:

عسى ما ترى أن لا يدوم وإن ترى له فرجاً مما ألحّ به الدهر
عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر
إذا لاح عسر فارتج اليسر إنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر^(١)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى الكبرى في شرحه لحديث أهل الشام العظيم «يا عبادي»: «وأما قوله عز وجل: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا

(١) جامع العلوم والحكم - (١ / ١٨٣ - ١٩٨) بتصرف واختصار.

ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»^(١) فإنه هو يبيّن بذلك أنه ليس هو فيما يحسن به إليهم من إجابة الدعوات، وغفران الزلات، بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة أو دفع مضرة، كما هي عادة المخلوق الذي يعطي غيره نفعًا ليكافئه عليه بنفع، أو يدفع عنه ضررًا لينفي بذلك ضرره، فقال: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني» فليست إذا أجبتكم بهداية المستهدي وكفاية المستكفي المستطعم والمستكسي بالذي أطلب أن تنفعوني، ولا أنا إذا غفرت خطاياكم بالليل والنهار أتقي بذلك أن تضروني، فإنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني، إذ هم عاجزون عن ذلك، بل ما يقدرّون عليه من الفعل لا يقدرّون عليه إلا بتقديره وتدبيره، فكيف بما لا يقدرّون عليه، فكيف بالغني الصمد الذي يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعًا أو ضررًا.

وهذا الكلام كما يبيّن أن ما يفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار، فإنهم لن يبلغوا أن يفعلوا به مثل ذلك، فكذلك يتضمن أن ما يأمرهم به من الطاعات، وما ينهاهم عنه من السيئات، فإنه لا يتضمن استجلاب نفعهم، كما أمر السيد لعبده أو الوالد لولده، والأمير لرعيته، ونحو ذلك، ولا دفع مضرتهم، كنهى هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم، فإن المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض، ومضرة بعض، وكانوا في أمرهم ونهيهم قد يكونون كذلك، والخالق سبحانه مقدس عن ذلك.

(١) مسلم (٢٥٧٧).

فبيّن تنزيهه عن حقوق نفعتهم وضرهم في إحسانه إليهم بما يكون من أفعاله بهم وأوامره لهم، قال قتادة: «إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به عليهم، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم».

ولهذا ذكر هذين الأصلين بعد هذا، فذكر أن برّهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه ولا ينقص، وأن إعطاءه إياهم غاية ما يسألونه نسبته إلى ما عنده أدنى نسبة، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملكه بطاعة الرعية، وينقص ملكه بالمعصية، وإذا أعطى الناس ما يسألونه أنفد ما عنده ولم يغنهم، وهم في ذلك يبلغون مضرتهم ومنفعتهم، وهو يفعل ما يفعله من إحسان وعفو وأمر ونهي، لرجاء المنفعة وخوف المضرة فقال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» إذ ملكه وهو قدرته على التصرف. فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم، وتنقص بقلّة المطيعين لهم، فإن ملكه متعلق بنفسه، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، والمُلْكُ قد يراد به القدرة على التصرف والتدبير، ويراد به نفس التدبير والتصرف، ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير،

ويراد به ذلك كله^(١).

وبكل حال فليس برّ الأبرار وفجور الفجار موجباً لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه، بل هو بمشيئته وقدرته يخلق ما يشاء، فلو شاء أن يخلق مع فجور الفجار ما شاء لم يمنعه من ذلك مانع، كما يمنع الملوك فجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك، ولو شاء أن لا يخلق مع برّ الأبرار شيئاً مما خلقه لم يكن برّهم محجّجاً له إلى ذلك ولا معيناً له، كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين.

ثم ذكر حالهم في النوعين سؤال برّه وطاعة أمره، الذين ذكرهما في الحديث، حيث ذكر الاستهداء والاستطعام والاستكساء، وذكر الغفران والبر والفجور، فقال: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر».

والخياط والمحيط ما يخاط به، إذ الفعال والمفعول والفعال من صيغ الآلات التي يفعل بها كالمسار والخلاب والمنشار. فبيّن أن جميع الخلائق إذا سألوا وهم في مكان واحد، وزمان واحد، فأعطى كل إنسان منهم مسألته لم ينقصه ذلك مما عنده إلا كما ينقص الخياط، وهي الإبرة، إذا غمس في البحر.

وقوله: «لم ينقص مما عندي»، فيه قولان.

(١) وهذا معنى بديع.

أحدهما: أنه يدل على أن عنده أمورًا موجودة يعطيهم منها ما سألوه إياه، وعلى هذا فيقال لفظ النقص على حاله؛ لأن الإعطاء من الكثير، وإن كان قليلًا فلا بد أن ينقصه شيئًا ما، ومن رواه: «لم ينقص من ملكي»، يحمل على ما عنده كما في هذا اللفظ، فإن قوله: «مما عندي» فيه تخصيص، ليس هو في قوله: «من ملكي»^(١).

وقد يقال: المَعطى إما أن يكون أعيانًا قائمة بنفسها أو صفات قائمة بغيرها، فأما الأعيان فقد تنقل من محل إلى محل فيظهر النقص في المحل الأول، وأما الصفات فلا تنقل من محلها وإن وجد نظيرها في محل آخر، كما يوجد نظير علم المعلم في قلب المتعلم من غير زوال علم المعلم، وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبله من غير انتقال كلام المتكلم الأول إلى الثاني، وعلى هذا فالصفات لا تنقص مما عنده شيئًا، وهي من المسؤول كالمهدى.

وقد يجاب عن هذا بأنه هو من الممكن في بعض الصفات أن لا يثبت مثلها في المحل الثاني حتى تزول عن الأول كاللون الذي ينقص، وكالروائح التي تعبق بمكان وتزول، كما دعا النبي ﷺ على حمى المدينة أن تنقل إلى مَهْيَعَةٍ وهي الجحفة^(٢).

(١) لأن من معاني المُلْك القدرة والتدبير، كما مرّ.

(٢) ولا يمتنع أن يخلق الله تعالى أعيانًا وأرزاقًا حسيّة ويعطي منها خلقه على التتابع والتوالي، ويخلق أبدالها عند نقصها، ولاحظ أن الحديث هنا ليس على الأرزاق الدنيوية المعتادة، بل هو على حال خاص وهو اجتماع الخلائق لطلب الرغائب في ساعة واحدة، =

والقول الثاني: أن لفظ النقص هنا كلفظ النقص في حديث موسى والخضر الذي في الصحيحين، من حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ وفيه «أن الخضر قال لموسى لما وقع عصفور على قارب السفينة فنقر في البحر، فقال: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر».

ومن المعلوم أن نفس علم الله القائم بنفسه لا يزول منه شيء بتعلم العباد، وإنما المقصود أن نسبة علمي وعلمك إلى علم الله كنسبة ما علق بمنقار العصفور إلى البحر^(١). ومن هذا الباب كون العلم يورث، كقوله: «العلماء ورثة الأنبياء» ومنه قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، ومنه توريث الكتاب أيضًا، كقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]

وثمره ذلك أنه لو قُدِّرَ بوقوع ذلك فإن الله تعالى قادر على إعطائهم غاية أمنياتهم بدون نقص في ملكه، ومع أن الرزق بأيديهم هو ملك له في الحقيقة، فعلى تقدير نسبة ذلك لملكه العام فهو ليس بشيء، لأنه لا يتصور خروج شيء عن ملكه ولا نقص قدرته وغناه بحال، وعلى كل فيكفينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فغناه تام كامل، والأظهر أن هذا النقص المذكور هو لضرب المثل وتقريبه، لأن ملكه في الحقيقة لا ينقص، حتى مع انتقاله وتحوله فهو لا يخرج عن دائرة ملكه.

(١) وهو الراجح كذلك في مسألة نقص الملك، فهو نقص نسبة لا نقص حقيقة، والله أعلم.

ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل في هذا، وإن كان العلم الأول ثابتاً، كما قال سعيد بن المسيب لقتادة، وقد أقام عنده أسبوعاً سألته فيه مسائل عظيمة، حتى عجب من حفظه وقال: «نزفتني يا أعمى»، وإنزاف القلب ونحوه، هو رفع ما فيه بحيث لا يبقى فيه شيء، ومعلوم أن قتادة لو تعلم جميع علم سعيد لم يزل علمه من قلبه كما يزول الماء من القلب.

لكن قد يقال: التعليم إنما يكون بالكلام، والكلام يحتاج إلى حركة وغيرها مما يكون بالمحل ويزول عنه، ولهذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم، كما قال تعالى: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ويقال: قد أخرج العالم هذا الحديث ولم يخرج هذا، فإذا كان تعليم العلم بالكلام المستلزم زوال بعض ما يقوم بالمحل، وهذا نزيف وخروج، كان كلام سعيد بن المسيب على حقيقته.

والمنقوص منه المشبه، ليس مثل الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه به، ولهذا كل أحد يعلم أن المعلم لا يزول علمه بالتعليم، بل يشبهونه بضوء السراج الذي يحدث يقتبس منه كل أحد، ويأخذون ما شاءوا من الشهب، وهو باق بحاله.

وهذا تمثيل مطابق، فإن المستوقد من السراج يحدث الله في فتيلته أو وقوده ناراً من جنس تلك النار، وإن كان قد يقال: إنها تستحيل عن ذلك الهواء، مع أن النار الأولى باقية، كذلك المتعلم يجعل في قلبه مثل علم المعلم، مع بقاء علم المعلم، ولهذا قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العلم يزكو على العمل، أو قال:

على التعليم، والمال تنقصه النفقة».

وعلى هذا فيقال في حديث أبي ذر: إن قوله: «مما عندي»، وقوله: «من ملكي»، هو من هذا الباب، وحيث أنه فله وجهان: أحدهما: أن يكون ما أعطاهم خارجاً عن مسمى ملكه ومسمى ما عنده، كما أن علم الله لا يدخل فيه نفس علم موسى والخضر.

والثاني: أن يقال: بل لفظ الملك وما عنده يتناول كل شيء، وما أعطاهم فهو جزء من ملكه ومما عنده، ولكن نسبت إلى الجملة هذه النسبة الحقيرة.

ومما يحقق^(١) هذا القول الثاني أن الترمذي روى هذا الحديث، من طريق عبد الرحمن بن غنم، عن أبي ذر مرفوعاً فيه: «لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر، وذلك أني جواد ماجد واجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون».

فذكر سبحانه أن عطاءه كلام، وعذابه كلام، يدل على أنه هو أراد بقوله: «من ملكي»، «ومما عندي»، أي من مقدوري، فيكون هذا في القدرة كحديث الخضر في العلم، والله أعلم.

ويؤيد ذلك أن في اللفظ الآخر الذي في نسخة أبي مسهر: «لم ينقص ذلك

(١) أي يرجح.

من ملكي شيئاً إلا كما نقص البحر».

وهذا قد يقال فيه أنه استثناء منقطع، أي لم ينقص من ملكي شيئاً لكن يكون حاله حال هذه النسبة، وقد يقال بل هو تام والمعنى على ما سبق^(١).

ثم ختمه بتحقيق ما بيّنه فيه من عدله وإحسانه، فقال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

(١) وقال الإمام النووي في شرحه لذات الحديث: «قوله تعالى: «إني حرمت الظلم على نفسي» قال العلماء: معناه تقدست عنه وتعاليت، والظلم مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى. كيف يجاوز سبحانه حداً وليس فوقه من يطيعه؟ وكيف يتصرف في غير ملك، والعالم كله في ملكه وسلطانه؟! وأصل التحريم في اللغة المنع، فسمى تقدّسه عن الظلم تحريماً لمسايقته للممنوع في أصل عدم الشيء. وقوله تعالى: «وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» هو بفتح التاء أي لا تتظالموا، والمراد لا يظلم بعضكم بعضاً، وهذا تأكيد لقوله تعالى: «جعلته بينكم محرماً» وزيادة تغليظ في تحريمه. وقوله تعالى: «ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر» المحيط هو الإبرة: قال العلماء: هذا تقريب إلى الأفهام، ومعناه: لا ينقص شيئاً أصلاً، كما قال في الحديث الآخر: «لا تغيضها نفقة» (متفق عليه) أي لا ينقصها نفقة؛ لأن ما عند الله لا يدخله نقص، وإنما يدخل النقص المحدود الفاني، وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه، وهما صفتان لا يتطرق إليهما نقص، فضرِبَ المثل بالمحيط في البحر، لأنه غاية ما يضرب به المثل في القلة، والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه؛ فإن البحر من أعظم المراتب عياناً، وأكبرها، والإبرة من أصغر الموجودات، مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء. والله أعلم». شرح النووي لصحيح مسلم بتصرف واختصار (٨ / ٣٨٤).

فبيّن أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحساناً يستحق به الحمد؛ لأنه هو المنعم بالأمر بها والإرشاد إليها، والإعانة عليها، ثم إحصائها، ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل، وهو وإن كان قد كتب على نفسه الرحمة وكان حقاً عليه نصر المؤمنين كما تقدم بيانه، فليس وجوب ذلك كوجوب حقوق الناس بعضهم على بعض، الذي يكون عدلاً لا فضلاً؛ لأن ذلك إنما يكون لكون بعض الناس أحسن إلى البعض، فاستحق المعاوضة، وكان إحسانه إليه بقدرة المحسن دون المحسن إليه.

ولهذا لم يكن المتعاوضان ليخص أحدهما بالفضل على الآخر لتكافئتهما، وهو قد بين في الحديث أن العباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، فامتنع حينئذ أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق، بل هو الذي أحق الحق على نفسه بكلماته، فهو المحسن بالإحسان، وإحقاقه وكتابته على نفسه، فهو في كتابة الرحمة على نفسه، وإحقاقه نصر عباده المؤمنين، ونحو ذلك محسن إحساناً مع إحسان.

فليتدبر اللبيب هذه التفاصيل التي يتبين بها فصل الخطاب في هذه المواضع التي عظم فيها الاضطراب.

فمن بين موجب على ربه بالمنع أن يكون محسناً متفضلاً، ومن بين مسوّ بين عدله وإحسانه، وما تنزه عنه من الظلم والعدوان. وجاعل الجميع نوعاً واحداً، وكل ذلك حيداً عن سنن الصراط المستقيم، والله يقول الحق وهو

يهدي السبيل.

وكما بيّن أنه محسن في الحسنات، متم إحسانه بإحصائها والجزاء عليها،
بيّن أنه عادل في الجزاء على السيئات فقال: «ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا
نفسه» كما تقدم بيانه في مثل قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود:
١٠١].

وعلى هذا الأصل استقرت الشريعة الموافقة لفطرة الله التي فطر الناس
عليها^(١).



(١) الفتاوى الكبرى: (١ / ١١٦ وما بعدها) بتصرف واختصار يسيرين.

﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾

تأمل ثقة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بربه حين كان المسلمون مستضعفين في مكة، فقد ذكر البخاري في صحيحه^(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً قبَل الحبشة، حتى إذا بلغ بَرَك الغماد^(٢) لقيه ابن الدَغَنَةِ وهو سيد القارة^(٣) فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي! فأنا أريد أن أسبح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على

(١) البخاري: (٢٢٩٧).

(٢) قال الحافظ: «برك الغماد بفتح أوله للأكثر وقيل بالكسر وسكون الراء وضعف فتحها: موضع في أقاصي هجر، وقيل: في طرف اليمن، وقيل: وراء مكة بخمس ليال». فتح الباري: (١ / ٨٧) وقال في موضع آخر: «هو موضع على خمس ليال أو ثمان من مكة إلى جهة اليمن مما يلي البحر» (١ / ١٦٣). قلت: هو المتعين لأن الصديق قصد الهجرة للحبشة وطريقها من اليمن، وأبعد من قال إنها بهجر، إلا إن كان تواضع مسميات، ولكن لم يقصدها الصديق.

(٣) في الفجر الساطع: (٢ / ٨٤): ابن الدَغَنَةِ: اسمه الحارث بن يزيد و«الدغنة» اسم أمه. والقارة: قبيلة مشهورة.

نوائب الحق^(١) وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك.

فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟! فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمَّنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك^(٢) ولا يستعلن به، فإننا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا! قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر.

فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وبرَزَ^(٣) فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقصف عليه نساء المشركين وأبنائهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك دمه حين يقرأ القرآن.

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم

(١) وتأمل مطابقة قوله لقول أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لنبينا صلوات الله عليه وسلامه، وكيف تشابهت الأخلاق والشيم وكريم السجايا، فلا عجب أن يتشابه وصف الناس لهم وتقديرهم لفضلهم، فالله لا يختار لصحبة رسوله إلا أفضل الناس، وأنا هم إن لم يكن أبو بكر أقربهم له بعد النبيين؟

(٢) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

(٣) أي: برز للناس وجاهرهم بعبادته وصلاته ودعائه وقراءته.

عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرة أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله^(١).

ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل، بين لابتين^(٢)» فهاجر من هاجر قبلك المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجراً فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.. «الحديث. وحديث الهجرة جليل، وجدير بالتدبر والتأمل والاعتبار بمآل سادة الواثقين بموعد رب العالمين. وقد ذكر الناس من ثقة الإسلام بربه عجباً، ولا عجب فعلى قدر

(١) أكرم بها من ثقة بالله، ورضي الله عن الصديق عدد ما ذراً وبراً.

(٢) وهما الحرتان.

العلم والإيمان تكون الثقة بالرحمن.

فمن ذلك ما ذكره عنه تلميذه إبراهيم الغرياني في رسالته الموسومة بـ(فصل فيما قام به ابن تيمية وتفرد به وذلك في تفسير الأحجار)^(١) قال:

«ولما كان الشيخ مسجوناً في مصر أتاه وفد من المشايخ التدامرة أرسلوا من قبل سجنانيه يطلبون منه كتاباً يخرجونه بسببه وفيه تنازل عن بعض ما سجنوه بسببه لأن الناس شنعوا عليهم في أمر الشيخ جداً، فلما طلبوه وأخبروه قال: أنا منشرح الصدر، وما عندي قلق، وهم براً الحبس فلم يقلقون؟! فخرجوا من عنده، ثم عادوا بعد أيام فطلبوا منه أن ينزل لهم عن مسألة العرش ومسألة القرآن، وعاهدوه أن يمزقوا الورقة بعد أن يراها السلطان فقط، وأن لا يخبروا بها أحداً.

فقال لهم: تدعونني أكتب بخطي أنه ليس فوق العرش إله يُعبد! ولا في المصاحف قرآن! ولا لله في الأرض كلام؟!^(٢) ودقّ بعمامته الأرض، وقام واقفاً

(١) ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام: (١٣٢-١٥٠ بتصرف يسير).

(٢) قلت: وهذا لازم معتقد الأشاعرة وبعضهم يصرح به، فنفي الاستواء وكذلك نفي العلو والفوقية يلزم منه ما ذكر الشيخ مما هو لازم لمذهبهم، وكذلك نفيتهم أن القرآن كلام الله حقيقة، بل يقولون إنه عبارة عن كلام الله، فهمه جبريل وعبر عنه بأسلوبه، لأن كلام الله عندهم نفسي، أي معنى قائم بنفسه فلا يتكلم متى شاء! والماتريديّة يقولون إنه حكاية عنه، والمعتزلة يقولون إن الله خلقه في الهواء.. إلى آخر تلك الضلالات التي ينفر منها كل ذي فطرة سويّة. نفي وهو كما ترى في غاية الكفر والضلال، لكن منع من تكفيرهم التأويل، أو عدم تصوّرهم للوازم أقوالهم، فصالحهم

ورفع برأسه إلى السماء وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّهُمْ يَدْعُونِي أَنْ أَكْفُرَ بِكَ وَبِكَتَبِكَ وَرِسْلِكَ، وَأَنْ هَذَا الشَّيْءُ مَا أَعْمَلُهُ. اللَّهُمَّ أَنْزِلْ بِهِمْ بِأَسْكَ الَّذِي لَا يَرِدُ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ، نَفَذْتَ فِيهِمْ سَهَامَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَتُقْلِبَنَّ دَوْلَةَ بَيْبُرسَ أَسْفَلَهَا أَعْلَاهَا، وَيَكُونُ أَعَزَّ مِنْ فِيهَا أَذْلُ فِيهَا، وَلَيَنْتَقِمَنَّ اللَّهُ مِنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَكَمْ

يظن أنه ينزهه ربه، ولم يعلم أنه يسب ربه بوصفه بصفات العدم، ويكفي المؤمن أن ينزهه ربه تعالى بما نزه نفسه المقدسة كقوله جل وعز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] عائداً بربي من مضلات الفتن، ورحمة الله وسلامه ورضوانه على الإمام ابن تيمية الذي حفظ الله به الدين في وقت كادت شبهات المتكلمين والمتفلسفة والمتشيعات والباطنية تروج على الأمة، فأقام الله به الملة الحنيفة فنفي عنها ما علّقها عليها علماء السوء وأخبار الضلالة، ولم يأت من لدنه بشيء حتى تتعصب له، بل أعاد الناس لمحكّمات الكتاب والسنة دون سواهما من كلام البشر مهما علت أكعبهم في الحجاج والجدل والخصومة، ومن اغترف من النبع الأصيل أو شك أن يهتدي، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]. وقد جرت سنة ربنا على أن من قام لله بدعوة الناس للتوحيد، وتعييدهم لربهم، وتعظيم ما عظمه الله من الحنيفة والذب عن السنة النبوية؛ أن الله يجعل له لسان صدق في الآخرين على قدر صفاء دعوته وحسن نيته وسلامة أتباعه وقوة صبره. ورحم الله العلامة ابن مري الحنبلي في وصيته لتلاميذ شيخ الإسلام بعد وفاته بالعناية بتدوين علومه وحفظ كتبه ورسائله ونشرها، ويكأنها لمحت لفراسته صفحة غيب إذ قال: «والله إن شاء الله ليقمّن الله سبحانه لِنَصْرِ هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائب رجالاتهم الآن في أصلاب آبائهم!» (الجامع: ١٥٦) ورحم الله الشيخ المبارك عبد الرحمن بن قاسم وابنه الشيخ محمد على ما قاما به من نشر علمه وطباعته وتدوينه.

أجد عليهم وما أدعوا عليهم^(١).. فخرجوا من عنده صاغرين، وبعد أيام رجعوا إليه وأخبروه أن أعداءه سيسفرونه للإسكندرية تسهلاً لاغتياله من لدن المتفلسفة وغلاة المتصوفة الذي شرقوا بكلامه في ابن عربي وأشباهه الملاحدة كابن سبعين وغيره، وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك، أو حبسك، فقال لهم: أنا إن قتلت كنت لي شهادة، وإن نفوني كنت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف. فيئسوا منه وانصرفوا.

ثم جاءه الخبر من نائب الوالي بنقله للإسكندرية.. قال إبراهيم: فلما صلينا المغرب بقي الشيخ يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً. وأشرتُ إلى المحبوسين، كأن وجهه شمعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل، جاء نائب الوالي فقال: باسم الله. فبقوا يودعون ويبدعون عليهم بدعاء مختلف، أقله أن يسلبهم الله نعمته.

وركب على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال له: بل مقام الحمد والشكر^(٢)، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسم على أهل الشام ومصر لفضلُ عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها!

(١) وتأمل ثقته المطلقة بالله وبوعده وبنصره.

(٢) وهذا فقه عظيم لأن حقيقة الابتلاء في ذات الله أنه نعمة ومنحة لا نقمة وعذاب.

ولما ركب الشيخ - وقد منع أحد أن يصحبه - قال ابن تيمية لخدمه إبراهيم - صاحب هذا الأسطر التي ننقلها عنه -: يا إبراهيم انزل الشام وقل لأصحابنا، وحق القرآن - ثلاث مرات -^(١) ما بقيت هذه المحنة تبطيء وتنفرج

(١) القرآن صفة من صفات الله فهو من كلام الله تعالى، ويشرع القسم بالله وباسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، وقد ذكر ابن القيم هذا القسم بذاته على وجه الجواز في التبيان في أقسام القرآن (١/٦) قلت: والأظهر المنع، فحق القرآن غير القرآن، فحقه كالتوقير والاتباع والتسليم ونحو ذلك مخلوقة وليست هي القرآن الذي هو صفة لله. ولعل إبراهيم خادم الشيخ قد وهم في نقل قسم شيخه فلعل شيخه قد أقسم بالقرآن الذي أساس محتته من أجله وأجل تعظيمه وإثبات أنه كلام الله على الحقيقة، وأن صفات الله المذكورة فيه على الحقيقة لا المجاز، وحتى إن ثبت عنه النقل، فالحق أحق أن يتبع، ورحم الله البيهقي حينما نسب للإمام الشافعي فتاوى يعلم أنه لم ينص عليها إنما أطلق القول بها بتصحيح الحديث، فلما رأى البيهقي صحة الحديث نسب الفتوى للإمام، وهذا فقه دقيق لا يحسن لكل أحد، ومعلوم كلام ابن القيم مع بعض أخطاء الشيخ الهروي في شرحه لمنازله واعتذاره له قدر طاقته لكنه حينما يرى الأمر لا يحتمل التأويل يقول: «شيخ الإسلام - أي الهروي - حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه». وبالجملة فكل يؤخذ من قوله ويترك خلا البشير النذير والسراج المنير عليه صلوات ربي وسلامه وبركاته، والله أعلم. (وانظر شرح صحيح البخاري لابن بطال: ١٠٦/٦) وفي دروس شرح سنن أبي داود للعلامة عبد المحسن العباد (١٧ / ٢٨٥) سؤال نصه: هل يجوز القسم بالقرآن أو بحق القرآن؟ فأجاب حفظه الله: القرآن يجوز أن يقسم به؛ لأنه كلام الله، وحق القرآن لا يقسم به؛ لأن حقه أن يعظم، وهذا عمل من أعمال الإنسان، فحق القرآن أن يعظمه الإنسان ويحترمه ويوقره، ولا يحلف باحترامه وتوقيره للقرآن، ولكن يمكن أن يحلف بالقرآن؛ لأنه كلام الله، وكلام الله عز

قريباً فوق ما في النفوس، ويقلب الله مملكة بيبرس أسفلها أعلاها، وليجعلن الله أعز من فيها أذل من فيها^(١).

وكان ذهابه في نهاية شهر صفر سنة ٧٠٩ واستقبل الشيخ جماعة من أكابر الإسكندرية وصالحية، وأقام بثغر الاسكندرية في برج مليح واسع والناس يترددون عليه، ويستفتونه فنفع الله نفعاً عظيماً، وقد لحق به بعض أصحابه.

وفي رسالة كتبها أخو الشيخ شرف الدين إلى أخيه بدر الدين في الشام يقول فيها: فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة التي تفوق العد والإحصاء... فمنها: نزل الأخ الكريم بالثغر المحروس، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدون بها الإسلام وأهله، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة، وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وما زالوا عند الله وعند العارفين من المؤمنين سود الوجوه، يتقطعون حشرات وندماً على ما فعلوه، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى

وجل يحلف به. وأما فيما يتعلق بالمصحف، فإنه لا يقسم بالمصحف؛ لأن المصحف يشتمل على كلام الله وعلى غير كلام الله، فهو يشتمل على كلام الله وهو غير مخلوق، ويشتمل على الورق، وعلى الغلاف، وعلى الحبر والمداد، وكل هذه مخلوقة؛ فالمصحف مشتمل على مخلوق وغير مخلوق ولذا لا يحلف بالمصحف، وأما القرآن فيحلف به؛ لأن القرآن هو من كلام الله عز وجل.

(١) وتأمل قوة يقينه، وعظيم ثقته بربه عز وجل. وقد أجاب الله تعالى دعوته في نحو سبعة أشهر، رحمه الله تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الأخ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله والخط والوقية في أعدائهما من أهل البدع والضلالات والكفر والجهالات، خصوصاً أخص الملاحدة والاتحادية ثم الجهمية. واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم قد باض وفرخ، ونصب بها عرشه ودوح، وأضل بها فريقى السبعينية والعربية، فمزق الله بها بقدمه جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وكشف رمز إلحادهم وأسرارهم وفضحهم، واستتاب جماعات منهم وتوب رئيساً من رؤسائهم، وصنف هذا التائب كتاباً في كشف كفرهم وإلحادهم.

وبقي الشيخ في الإسكندرية ثمانية أشهر، فلما رجع السلطان الناصر إلى الحكم وقدم إلى مصر يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩ لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ ابن تيمية من الإسكندرية، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال فقدم الشيخ في ثامن هذا الشهر - وفي الإسكندرية خرج خلق يودعون - فاجتمع السلطان يوم الجمعة في مجلس فيه القضاة والفقهاء، وقد زالت دولة الجاشنكير (بيبرس) وأتباعه من مشايخ الضلالة، وعرض الناصر على ابن تيمية أن ينتقم له من أعدائه ولكنه رفض ذلك، ففطن ابن تيمية لمراده، وأخذ يعظم أمر القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحداً منهم سوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح^(١).

(١) وكم من غرض دنيوي لسلطان فيأتيه عن طريق العلماء بوجه له ظاهر من الشريعة =

وقد كنت كتبت رسالة لإخواننا في سوريا في جهادهم الكفار النصيرية والرافضة لما اجتمعوا عليهم ليحملوهم على الكفر بالله والإيمان بالطاغوت فقام فيهم سوق الجهاد ونفقت أسهم الاستشهاد وأرى الله تعالى المؤمنين من لطفه وبره ونصره ما تقر به عين كل موحد، ويشجى بها حلق كل زنديق، وهي في الثقة بالله تعالى، وبنصره وعونه، وأن الكفاية على قدر العبودية، وأن من نصر دين الله نصره الله لا محالة، وإن تأخر النصر، ولا زالت تلك الحرب دائرة سائلاً ربي الحي القيوم أن يجعلها برداً وسلاماً على المؤمنين، وأن يورثهم الأرض وأن يديلهم على الفجرة الظالمين، وأن يجمع كلمتهم على الحق والهدى.

وقد ضمنتها كلاماً نفيساً للغاية للإمام الهمام شيخ الإسلام في مقارنته معركة شقحب بمعركة الأحزاب المذكورة في التنزيل، وأوجه الشبه بين تينك

وباطن من رغبته، ولها أمارات ودلائل، وبرهان ذلك في أي سلطان حينما لا نراه يحرص على فتوى العلماء وأفضية القضية إلا إذا كان محتاجاً لها، أما حينما تصدم مع نزغات نفسه فلا نراه يرفع بكلام أهل العلم رأساً، بل ربما طردهم أو عزلهم أو أهانهم. فليكن للعالم فطنة وحكمة حتى لا يؤتى ثغر الديانة من قبل سذاجته أو غفلته، والعرب تقول: «الثقة بكل أحد عجز». كيف إن كان الموثوق به على سلطة تمكنه من الأديان والدماء، والمسألة ليست دعوة لسوء الظن بالولاء، حاشا وكلا! لكنها دعوة لليقظة والفطنة ومعرفة كيفية سياسات الأمة خاصة ما يتعلق بأمورها العامة، وما ينتج عن التساهل فيها من تبديل للشرعية وتغيير لسنن الرسول ﷺ، وهل خلفاؤه وورثته وحراس دينه إلا العلماء، ومن يصلح الملح إذا الملح فسد؟!

العظيمتين، فقلت فيها:

﴿وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾

بين الأحزاب، وشَقَحَب، ومَلَا حِدَةَ الزَّمان!

الحمد لله معزّ من أطاعه ومذلّ من عصاه، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، أقسم بالعاديات الموريات المغيرات تعظيماً لشأن القتال لإعلاء كلمته، وجعل الجهاد في سبيله ذروة سنام دينه، وكتب الذل على من رضي بالدُّون دون سُبُحاتِ العُلَى من ذُرَى معالي مراضيه وسياحة أوليائه، بالقتال لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وهداية خليقته وإغاضة أعدائه. وأشهد أن لا إله إلا الله، جعل أرواح الشهداء عنده في حواصل طير خضر، تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش، فيقول لهم عز وجل: «ما تريدون؟» فيقولون: ما نريد شيئاً، ويقولها ثلاثاً، إلا أن نرد إلى الدنيا فنقتل. حديث صحيح رواه الطيالسي والترمذي^(١). وصلى الله وسلم وبارك على الضحوك القتال، نبي الرحمة والملحمة، من أنزلت عليه سُورُ القتال والأحزاب والأنفال والتوبة. جاهد في الله حق جهاده بجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ وَسِنَانِهِ، بيقين وثبات وشجاعة وصدق ونصح، فأكمل كل مراتب الجهاد في سبيل ربّه، وأتمّ كل شعب الإيمان بلا مثنوية، فلا كان ولا يكون في الخليقة مثله في عبوديته لربه تبارك وتعالى. أما بعد:

(١) الترمذي (٣٠١١) وصححه الألباني.

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١] وقال تعالى جدُّه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال جل شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] وقال تقدَّس اسمه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] ففي القرآن العظيم كل الهدى، وعلى قدر القرب من الهداية يكون التوفيق والرشاد.

وقال جل وعز: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] وقال جل ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] وقال سبحانه وبحمده: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤] وقد ذكرت نصوص الوحي ثلاثة ألفاظٍ يحسنُ التفريق بينها للخلط في فهمها عند الناس؛ القتال والجهاد والشهادة:

فالأول: القتال، وهذا لا يكون إلا في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، دون من قاتل حمية أو شجاعة أو ليرى مكانه

أو للمغنم أو غير ذلك من حُطَامِهَا.

والثاني: الجهاد، وهو مطلق ومقيّد، فلفظ الجهاد إذا أطلق فالمراد به قتال الكفار بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله، ولا ينصرف لغير القتال إلا بقرينة، قال تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨]. فالجهاد هنا هو القتال في سبيل الله، وهو الأصل عند ذكر الجهاد، أما غيره كجهاد النفس والدعوة ونحو ذلك فيدخل تبعاً أو مقيداً، فاستفراغ الجهد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه وهداية خلقه جهادٌ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والثالث: الشهادة، وهي مطلقة ومقيدة، فالمطلقة: هي ما استشهد صاحبها في القتال في سبيل الله تعالى، فهذا هو الأصل في الشهداء، أما المقيدة فهي ما سُمي صاحبها شهيداً في الشريعة، تفضلاً من الله وتطوُّلاً على هذه الأمة المرحومة تكثيراً لشهيدائها.

وبينهما فرق كبير، فالمقيدة بضعة أنواع كالغريق والحريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب - داء في البطن - والمبطون - أي مات بداء البطن -

والمطعون - بالطاعون - والقتيل ظلماً^(١) وغير ذلك مما سُمِّي صاحبه شهيداً، فكل هؤلاء لهم مسمى الشهداء في الدنيا والآخرة، فواحدُهم شهيدٌ، له مطلق الشهادة وهي دون الثانية بكثير، فهؤلاء شهداء، لكن لا يُقال لهم شهداء في سبيل الله، إلا إن كان ذلك ونحوه بسبب جهادهم في سبيله، كما في الحديث الصحيح عن نبينا ﷺ قال: «ما تقولون في الشهيد فيكم؟» قالوا: القتل في سبيل الله، قال: «إن شهداء أمتي إذن لقليل، من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد، و من مات في سبيل الله فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغرق شهيد»^(٢) وقال ﷺ: «الشهادة سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المقتول في سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع^(٣) شهيدة»^(٤). فهؤلاء إنما وهبهم الله منزلة الشهادة فضلاً منه ورحمة دون قتال منهم في سبيله، فهم شهداء إما لموتهم دفاعاً عن أنفسهم أو عرضهم أو ما لهم، أو لميئة شديدة أحلّت بهم رحمة الله،

(١) عند بعض أهل العلم لذكر عمر وعثمان بالشهادة، وعندي أن شهادتهم لأنهم في سبيل الله وليس لمطلق المظلومية والله أعلم.

(٢) صحيح الجامع: ٥٦٠٢.

(٣) الجمع هو النفاس.

(٤) رواه أحمد وغيره من حديث جابر بن عتيك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩).

كالطاعون والهدم والغرق ونحو ذلك.

أما الشهادة المطلقة - وهي الكمال - فهي منصرفة للشهيد قتيلاً في سبيل الله، صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبرٍ، ويكون قتله لتكون كلمة الله هي العليا، فصاحبها هو الذي حاز مرتبة الشهادة الكاملة بخصالها الست^(١)، مع الحياة البرزخية الحقيقية، مع جعل روحه في حواصل الطير الخضر في جنات النعيم. وهذه المرتبة هي غاية آمال المقرّين بعد مرتبة الصّدّيقية نسأل الله الكريم من واسع فضله وعميم كرمه وجزيل هباته وعظيم إحسانه، إنه الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.

ألا وإن لأهل القرآن في مواطن الجهاد ما ليس لغيرهم من عظيم البلاء والنية والصبر والصدق. واعتبر ذلك بأمر رسول الله ﷺ العباس في حنين لما انكشف المسلمون أن ينادي: «يا أصحاب سورة البقرة». فحملة القرآن قد تغذّت قلوبهم على التنزيل وارتوت من الذكر الحكيم. وقد صاح بها ثابت بن قيس في اليمامة لما انكشف المسلمون فنادى: «يا أصحاب سورة البقرة»، قال رجل من طيء: «والله ما معي منها آية، وإنما يريد ثابتٌ يا أهل القرآن».

وقد ذكرَ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً وقعة اليمامة، ومن قُتل فيها من المهاجرين والأنصار وحملة كتاب الله فقال: «أَلَحَّتْ السُّيُوفُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَمْ نَجِدِ الْمُعَوَّلَ يَوْمئِذٍ إِلَّا عَلَيْهِمْ، خَافُوا عَلَى

(١) أو السبع كما ورد في الحديث الآخر.

الإسلام أن يُكسرَ بآبِه فيُدخلَ منه أن ظهر مسيلمة^(١) فمَنَعَ الله الإسلامَ بهم، حتى قتل عدوّه، وأظهر كلمته، وقدموا يرحمهم الله على ما يُسرُّون به من ثواب جهادهم مَنْ كَذَبَ على الله وعلى رسوله، ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به، وجعل منادي المسلمين^(٢) ينادي: يا أهل القرآن، فيجيبون المنادي فُرَادَى ومثنى، فاستحَرَّ بهم القتل. فرحَمَ الله تلك الوجوه، لولا ما استدرَكَ خليفةُ رسول الله ﷺ من جَمْعِ القرآن؛ لَحِفْتُ أن لا يلتقي المسلمون وعدوهم في موضع إلا استحَرَّ القتل بأهل القرآن.

قلت: وشهادة ذلك أن المسلمين في اليمامة انكشفوا بسبب اختلاط الأعراب بالمهاجرين والأنصار فيفرون فيستحرق القتل في أهل السابقة من صحابة رسول الله ﷺ، حتى غلبت حنيفة على الرِّحال، فجعل زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينادي وكانت عنده راية خالد: «أما الرِّحال فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال، اللهم إني أعذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن طفيل»، وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّم بها في نحر العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قُتِلَ وقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نُؤتى من قِبَلِكَ! فقال: «بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي»^(٣). ونادت الأنصار ثابت بن قيس

(١) أي خافوا تبديل الدين بظهور مسيلمة الكذاب.

(٢) يعني يوم اليمامة.

(٣) وتأمل ذكره لحمل القرآن لا غير.

وهو يحمل رايتهم: الزمها، فإنما ملاكُ القوم الراية. ثم إن سالمًا تقدّم في نحر الكفرة براية المهاجرين، ثم حفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، وحفر ثابت بن قيس لنفسه مثل ذلك، ثم لزمَا رايتيهما، وكان الناس يتفرّقون في كل وجه منهزمين^(١)، وإن سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما، حتى قُتِلَ سالمٌ، وقتل أبو حذيفة مولاة عليهما رضوان الله تعالى، فوجدَ رأسُ أبي حذيفة عند رجلي سالم، ورأسُ سالمٍ عند رجلي أبي حذيفة لقُرب مصرع كل واحد منهما من صاحبه، وثباتهما مع شدة القتل.

وتأمل حرص هؤلاء على الشهادة، إذ كان أبو بكرٍ قد دعا زيد بن الخطاب ليؤيّه إمرة الجيش فقال: «يا خليفة رسول الله ﷺ، قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ، فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه»، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فعرض عليه ذلك فقال مثل ما قال زيد، فدعا سالمًا مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه، فدعا أبو بكر خالد بن الوليد فأمره على الناس، وكان خالد للمسلمين فتحًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن أبي سعيد الخدري قال: «قُتِلَت الأنصار في مواطن أربعة سبعين، سبعين: يوم أحد سبعين، ويوم بئر معونة سبعين، ويوم اليمامة سبعين، ويوم جسر أبي عبيد سبعين». ألا ما أصبرهم وأصدقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) قبل أن تخلص الرايات لقومها.

قال شريك الفزاري: «لما التقينا والقوم»^(١) صَبَرَ الفريقان صَبْرًا لم أر مثله قط، ما تزول الأقدام فتُرى! واختلفت السيوف بينهم، وجعل يُقبل أهل السوابق والنِّيَّات، فيتقدمون فيقتلون حتى فنوا، وذَلَقَتْ فينا سيوفهم طويلاً.

وتأمل حسن بلاء وصدق حامل القرآن عبّاد بن بشرٍ الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ضمرة سعيد المازني وذكر ردة بني حنيفة: «لم يلق المسلمون عدوًّا أشد لهم نكاية منهم، لقوهم بالموت النّاقع، وبالسيوف قد أصلتوها، قبل النبل وقبل الرماح! وقد صَبَرَ المسلمون لهم، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق، ونادى عبّاد بن بشرٍ يومئذٍ وهو يضرب بالسيف قد قُطِعَ من الجراح، وما هو إلا كالنمر الجريح، فيلقى رجلاً من بني حنيفة كأنه جمل صئول فقال: هَلُمَّ يا أخا الخزرج، أتَحْسَب قتالنا مثل من لا قيت؟! فيعمد له عبّادٌ، ويبدره الحنفي ويضربه ضربة بالسيف فانكسر سيفه ولم يصنع شيئاً، وضربه عباد فقطع رجله وجاوزه وتركه ينوء على ركبتيه، فناده: يا ابن الأكارم اجهز عليّ، فكرّ عليه عبّادٌ فضرب عنقه، ثم قام آخر في ذلك المقام فاختلفا ضربات وتجاوَّلا، وعبّادٌ على ذلك كثير الجراح، فضربه عباد ضربة أبدى سَحْرَه وقال: خذها وأنا ابن وقش، ثم جاوزه يَفْري في بني حنيفة ضرباً فرياً، فكان يقال: قتل عبّادٌ يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلاً، وأكثرَ فيهم الجراح حتى إن حنيفة لتذكرُ عبّاد بن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مجرّبِ القومِ عبّاد بن بشر».

وقال رافع بن خديج الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شهدنا اليمامة، فكنا تسعين

(١) أي بني حنيفة.

من النبيت^(١) فلاقينا عدوًّا صُبرًا لوقع السلاح، وجماعة الناس أربعة آلاف، وحنيفة مثل ذلك أو نحوه، فلما التقينا أذن الله للسيوف فينا وفيهم، فجعلت السيوفُ تختلي هام الرجال وأكفهم، وجراحًا لم أر جراحًا قط أبعد غورًا منها فينا وفيهم، إني لأنظر إلى عباد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحني كأنه منجل، فيقيم على ركبته! فيعرض له رجلٌ من بني حنيفة، فلما اختلفا ضربات، ضربه عبّاد بن بشر على العاتق مستمكنا، فوالله لرأيت سحره باديا^(٢) ومضى عنه عبّاد، ومررت بالحنفي وبه رمق فأجهزت عليه، وأنظر بعدُ إلى عبّاد وقد اختلفت السيوف عليه، وهو يُبضع بها ويُبعج بطنه فوق، وما أعلم به مصحًا، وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثر القتل فيهم، قال: وحرّضت على قتلته فناديت أصحابنا من النبيت، فقمنا عليه وقتلنا قتلته، فرأيتهم حوله مقتلين فقلت: بعدًا لكم^(٣).

ولقد أنزل الله سبحانه سورة الأحزاب مُجَلِّيةً لأوجهِ حِكَمٍ باهرة غزيرة، إذ وصف سبحانه حال المؤمنين باختلاف درجات إيمانهم ويقينهم وتوكلهم وتسليمهم، وبين آثار رحمته بهدايتهم وتثبيتهم ونصرهم، وزلزلة أعدائه أعدائهم، وهزيمتهم وخذلانهم.

ولا تزال الأمة مرمية عن قوس واحدة من جموع الكفرة باليوم الآخر،

(١) قلت وهم من بني عبد الأشهل من الأوس.

(٢) أي رثته.

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء: (٣ / ٥٥).

مهما اختلفت مشاربهم وتنوّعت طرائقهم، من منافقة وملاحدة وأهل أوثان وأهل كتاب، فمن أفغانستان إلى العراق والشام ومالي وغيرها، في سلسلة لن تنتهي إلا بالملاحم الكبار، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٤-٦].

فتلك معركة الأحزاب، وتلك معركة شَقَحَبٍ ثمّ اليوم بتسلُّطِ جموع الأحزاب الباطنية والصليبية والملاحدة والمشركة والمنافقة... كلُّهم على استئصال روح الإسلام المجاهد لإعلاء كلمة الله، ويأبى الله!

ومن ذلك ما جرى للمؤمنين في القرن الثامن من تسلُّط التتار على ديار الإسلام في كرّتهم الثانية، وحرّبهم لدين المرسلين، وقتلهم أهل ملة محمد وإبراهيم عليهما الصلوات والتسليم. وكان في ذلك الزمان والمكان شيخ للإسلام شهير، ومحبٌّ للرحمن كبير، ذاكُم هو العلّم العلامة والبحر الفهّامة، من جمع الله له بين العلم والعمل، والجهاد لله وبالله وفي الله بالنفس واللسان والقلم، أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام ابن تيمية الحراي النُميري، جمعنا الرحمن به ووالدينا والمؤمنين في جنات النعيم. وصدق ابن الزمّلكاني إذ قال:

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جَلَّتْ عن الحَصْرِ
هو حُجَّةٌ لله قاهرةٌ هو بيننا أعجوبة العَصْرِ

هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفجر وابن تيمية هو بطل شقحب وكسروان بلا مدافع، بشهادة الصناديد البواسل الذين شهدوا تلك الغزاة الرهيبة. ولا زالت الثانية^(١) في الذاكرة النصيرية الثأرية الحقود، إذ ثلَّ الله بشيخ الإسلام وبمن معه من جند الحقِّ عروش الملاحدة النصيرية، وأنزلوهم من صياصيتهم الكسروانية، والزموهم ظواهر الملة المحمدية، بحمد ربِّنا ربِّ البرية.

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ رسالة كتبها بعد وقعة شَقْحَب العظيمة ضد المغول في الشام، التي أبلى فيها المؤمنون بلاء حسناً، وكان لابن تيمية فيها مواقف جليلة، من اليقين والشجاعة والثبات وحسن الظن بالله، وحسن تثبيت المؤمنين وتذكيرهم بالله، وحثهم على إحسان الظن بالله، وتحذيرهم من ظن السوء به تعالى وتقدّس، وقد شبَّهها رَحِمَهُ اللهُ بغزوة الأحزاب وما فيها من عبرٍ للموحدين، وآياتٍ لله رب العالمين، حريٍّ بالمجاهدين في سبيل في زماننا أن يطلَّعوا عليها، وينهلوا من معين عِلْمِها الثَّرِّ وحِكْمِها العالية، فقد جمع الله لهذا الإمام من العلم والفقه والعبادة والنصح والتجربة ما لا يجاريه أحد من عصره إلى عصرنا بشهادة الأكابر الأفاضل. ولا نزكيه على الله تعالى.

كما أن له رَحِمَهُ اللهُ موقف جليل مشهور مع قازان (غازان) وذلك عندما زحف جيش غازان التتري من وسط آسيا وإيران نحو حلب، والتقى جيش

(١) أعني كسروان وهي جبال الباطنية النصيرية الذين سمّتهم فرنسا زوراً العلويين.

غازان بجيش الناصر^(١) في وادي سلمية يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩ للهجرة، وبعد معركة عنيفة هُزم جيش الناصر، وانهمز الجند وأمرأؤهم، ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير! لكن شيخ الإسلام بقى صامداً مع عامة الناس واجتمع مع كبارهم، واتفق معهم على تسيير الأمور، وأن يذهب هو بنفسه على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان، فقابله في بلده النبك^(٢) ودارت بينهما مناقشة شديدة، ووعظ فيها ابن تيمية وقرع وعنف غازان على ظلمه العباد، ونكثه للعهود.

وقال شيخ الإسلام لغازان^(٣): «أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام، وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلتَ فما وفيت!».

وجرت لابن تيمية مع غازان أمور قام بها ابن تيمية كلها لله تعالى متجرداً للحق لا تأخذه فيه لومة لائم - ولا نزكيه على الله - وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل. ثم قرب غازان إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: «كيف أكل من طعامكم، وكلُّه مما نهيتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟!».

(١) السلطان المملوكي الملك الناصر.

(٢) بين دمشق وحمص.

(٣) وكان هناك ترجمان يترجم كلام الشيخ.

وغازان مصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه، وبسبب ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والإعجاب بالشيخ سأل: من هذا الشيخ؟ إني لم أر مثله أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيته أعظم انقياداً لأحد منه! فأخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل.

ثم طلب منه غازان الدعاء، فدعا الشيخ قائلاً: «اللهم إن كان عبدك هذا إنما يُقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك؛ فانصره وأيده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان قد قام رياءً وُسمعة، وطلباً للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذلّ الإسلام وأهله؛ فاخذله، وزلّله، ودمره، واقطع دابره!» وغازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه!

قال الشيخ الصالح الناسك الفقيه أبو عبد الله محمد البالسي: «فجعلنا نجمعُ ثيابنا خوفاً من أن تتلوّث من دم ابن تيمية إذا أمرَ بقتله، فلما خرجنا من عنده، قال كبير القضاة وغيره ممن كان معه: كِدْتَ أن تُهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وإني لا أصحبكم. فانطلقوا عصبية، وتأخّر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواتين والأمرء أصحاب غازان فأتوه يتبرّكون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه، فخرج عليهم جماعة من التتار فسلّحوهم»^(١). قال البالسي - وكان ابن تيمية يحبه -: «وجرت له مع قازان

(١) أي سلّبوهم ثيابهم وما معهم.

وقتلوشاه وبولاي أمور ونوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل»^(١).

وقال العلامة أحمد بن يحيى العُمري في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في ذكره لبعض مواقف ومناقب شيخ الإسلام: «وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شَقَّحَ ونوبة كسروان^(٢) ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال، وأبطال اللقاء، وأحلاس الحرب، تارة يُباشِرُ القتال، وتارة يحرِّضُ عليه.

وركب البريد إلى مهنا بن عيسى - شيخ العرب - واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفره، وواجه بالكلام الغليظ أمراءه وعسكره - قلت: ومما قاله للسلطان وأمرائه: إن لم يكن لكم حاجة في أرض الشام في زمن الحرب، فسنضع لهم من يقوم عليهم غيركم في أيام السلم^(٣).

ولما جاء السلطان إلى شقحب لاقاه إلى قرن الحرّة، وجعل يشجّعه ويثبتّه - قلت: فقال له السلطان كُنْ معنا، فقال: بل تحت راية أهل الشام فالسنة أن يكون كل مقاتل تحت راية قومه - فلما رأى السلطان كثرة التتار قال: يا

(١) البداية والنهاية (١٤ / ١٠١ - ١٠٤).

(٢) الأولى ضد التتار، والثانية ضد الباطنية وبخاصة النصيرية.

(٣) ولما قال له السلطان فيما بعد - بعد علماء السوء -: إنهم يقولون إنك طامع في الرئاسة والملك! فأجابه بكل عزة وغنى بالله تعالى: إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين! فابتسم السلطان لعلمه بزهده وورعه وعلمه ودينه..

لخالد بن الوليد! فقال له: لا تقل هذا، وقل: يا الله، واستغث بالله ربك، ووحدته وحده تُنصر، وقل: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين» - قلت: وذكرني هذا ما روي عن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما صاف جيش طليحة في حروب الردّة وحمل جيش طليحة على المسلمين حتى صار في ميمنة المسلمين كسرة صاح رجلٌ من طيء بخالد: يا خالد، عليك سلمى وأجأ، فصاح فيه خالد مجيباً: بل إلى الله الملجأ، وضرّس خالدٌ في القتال، فجعل يُقحم فرسه وأصحابه يقولون له: الله الله! فإنك أمير القوم، ولا ينبغي لك أن تقدم. فيقول: «والله إني لأعرف ما تقولون، ولكنني والله ما رأيتني أصبر، وأخاف هزيمة المسلمين»، وقاتل بسيفين حتى قطعهما، حتى تراد الناس بعد هزيمة كثيرهم، فحمل المسلمون على المرتدين فاقتلعوهم وأنزل الله نصره على عباده. قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نظرتُ إلى راية طليحة يومئذٍ حمراء، يحملها رجل منهم لا يزول بها فترّاً، فنظرتُ إلى خالد وقد أتاه فحملَ عليه فقتله، فكانت هزيمتهم، فنظرتُ إلى الراية تطوّها الإبل والخيول والرجال حتى تقطعت». وعنه قال: «يرحم الله خالد بن الوليد، لقد كان له غناء وجرأة، ولقد رأيتُه يوم طليحة يباشر الحرب بنفسه حتى ليم في ذلك، ولقد رأيتُه يوم اليمامة يقاتل أشد القتال، إن كان مكانه ليتّقي حتى يطلع إلينا منبهاً!».

فله در صحابة رسول ﷺ، وبخاصة المهاجرين والأنصار، والله هُم من كُماةٍ بوايسل، قد اعتَجَرُوا البأسَ تحت عجاجِ قصف الرماح وقطع السيوف، لهم في جمرة الوغى تكبيرٌ وتهليلٌ، تجولُ بهم المغيراتُ ضرباً على هامة كل ظلومٍ

كفّار - ثم ما زال يُقبلُ تارة على الخليفة^(١) وتارة على السلطان^(٢) ويهدّثهما، ويربط جأشهما، حتى جاء نصرُ الله والفتحُ.

وحُكي أنه قال للسلطان: «اثبُتْ، فأنت منصورٌ»، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله تعالى، فقال: «إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً»، فكان كما قال^(٣). وملخص وقعة شقحب باختصار عن البداية والنهاية للحافظ العماد ابن كثير^(٤):

لما قدم التتر الشام، قدمت لحريهم مع الشاميين طائفة كبيرة من جيش المصريين، فيهم الأمير ركن الدين بيبرس، والأمير حسام الدين لاجين، والأمير سيف الدين كراي، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى. فقويت القلوب، واطمأن كثير من الناس، ولكن كان الناس في خوف عظيم في بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي وتقهر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتر، فجاءوا فنزلوا المرج يوم الأحد خامس شعبان، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، واختبئوا بالبلد لتأخر قدوم السلطان ببقية

(١) أمير المؤمنين الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان المستكفي بالله.

(٢) أي السلطان المملوكي الملك الناصر.

(٣) مسالك الأبصار، للعُمري (٣٠٢-٣٠٣) بتصرف وزيادة. وانظرها كذلك في الجامع

لسيرة شيخ الإسلام (٣١٢-٣٢٣).

(٤) (١٤ / ٢٧-٣٢).

الجيش.

وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان، وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد: أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس، وجلس القضاة بالجامع، وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في القطيعة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا. وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر، من أي قبيل هو؟ فإنهم يُظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقتٍ ثم خالفوه؟^(١).

(١) وهي مسألة كثيرة الورود في زماننا.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج^(١) الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك^(٢)، وكان يقول للناس: إذا رأيتُموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونيّاتهم ولله الحمد.

ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيّمت على الجسورة من ناحية الكسوة^(٣)، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين؛ فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعا للقتال، فإن المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال، وقال فريق: إنما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان!

فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة، فقويت ظنون الناس في

(١) بجامع الإسلام المُحرّف وعدم البيعة والقصد إلى الاستيلاء على البلد.

(٢) لأنهم كانوا يتهيبون قتال من قال لا إله إلا الله مطلقاً، فيّبن لهم الشيخ أنهم وإن قالوها بألسنتهم فإنهم مخالفون لمقتضاها بأعمالهم. وهذا باب واسع ذو شعب كثيرة وذبول طويلة.

(٣) الكسوة: مدينة في سورية تتبع حالياً منطقة ريف دمشق، وهي واقعة في الغوطة الغربية، وتبعد عن دمشق ١٨ كيلو تقريباً جهة جنوب دمشق.

هر بهم، وقد وصلت التتار إلى قارة، و قيل إنهم وصلوا إلى القطيعة فانزعج الناس لذلك شديداً، ولم يبق حول القرى والحوضر أحد، وامتلات القلعة والبلد، وازدحمت المنازل والطرق، واضطرب الناس، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا إنها خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا: أنت منعنا من الجفل وها أنت هارب من البلد؟! فلم يرد عليهم. وبقي البلد ليس فيه حاكم، وجلس اللصوص والخرافيش^(١) فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة، وظهرت الوحشة على البلد والحوضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً، وإلى ناحية الكسوة، فتارة يقولون: رأينا غيرةً فيخافون أن تكون من التتر، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال، وألح الناس في الدعاء والابتهاال، وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان.

وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرغ من ذلك

(١) المشردين، والفقراء الذين بلا مأوى يليق بهم.

قريباً، ولكن أكثرهم لا يفلحون^(١)، كما جاء في حديث أبي رزين عند ابن ماجه «عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيرة ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»^(٢).

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بخير، هو أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من التتر، فوجد الأمر كما يجب لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتار عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا: إن غلبنا فإن البلد لنا، وإن غلبنا فلا حاجة لنا به، ونودي بالبلد في تطيب الخواطر، وأن السلطان قد وصل، فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم، وأثبت الشهر ليلة الجمعة القاضي تقي الدين الحنبلي، فإن السماء كانت مغيمة، فعلمت القناديل، وصليت التراويح، واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته، وأصبح الناس يوم الجمعة في هم شديد وخوف أكيد، لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس.

فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين العادلي فاجتمع بنائب القلعة ثم عاد سريعاً إلى العسكر، ولم يدر أحد ما أخبر به، ووقع الناس في الأراجيف

(١) لعلها: لا يعلمون.

(٢) أبو داود (٣٢٦٦) وأحمد (١٦٢٥١) ضمن حديث طويل وحسنه ابن تيمية في فتاواه (١٣٩/٣) وقال ابن القيم في الزاد (٥٨٨/٣): «هذا حديث كبير جليل، تنادي جلالته وفخامته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة».

والخوض.

أما عن صفة وقعة شقحب^(١): فقد أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر، فرأوا من المآذن سوادًا وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون أن الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد^(٢)، وطلع النساء والصغار على الأسطحة، وكشفوا رؤوسهم، وضجّ البلد ضجةً عظيمة، ووقع في ذلك الوقت مطرٌ عظيم غزير، ثم سكن الناس، فلما كان بعد الظهر قُرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة^(٣). والتحرّز على الأسوار، فدعا الناس في المآذن والبلد، وانقضى النهار وكان يومًا مزعجًا هائلًا.

وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر، وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ومعهم رؤوس من رؤوس التتر، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلًا قليلًا حتى اتّضحت جملة. ولكن

(١) وهي قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق.

(٢) شأن الدعاء عظيم، وهو سلاح المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم». رواه البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) القلعة أمكن وأحفظ من الحصن، فباء القلعة ذو طبيعة عسكرية، أما الحصن فلحفظ البلد في السلم والحرب. ويقال: إن أول من بنى القلاع هم المسلمون.

الناس لما عندهم من شدّة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون.

فلما كان بعد الظهر قُرى كتاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها: أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلاً ونهاراً، وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور، ونودي بعد الظهر بإخراج الجفال من القلعة لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج.

وفي يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر. وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، وفرح الناس به ودعوا له وهنأوه بما يسّر الله على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم. وحرص السلطان على القتال وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن

شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً^(١)، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقوا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم»^(٢) فعزم عليهم في الفطر عام الفتح.

وكان الخليفة أبو الربيع سليمان في صحبة السلطان، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيماً، وأمر بجواده فقيّد حتى لا يهرب، وبإيع الله تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة، وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ دار السلطان، وثمانية من الأمراء المتقدمين معه، وصلاح الدين بن الملك السعيد الكامل، وخلق من كبار الأمراء، ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون عليهم، ولله الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلّول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل، وجعلوا يحيئون بهم في الجبال فتضرب أعناقهم، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، ثم بعد ذلك غرق

(١) لأن المعركة كانت في رمضان.

(٢) مسلم (١١٢٠).

منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة، والله الحمد والمنة».

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي المقدسي في العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وفي أول شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمئة كانت وقعة شقحب المشهورة، وحصل للناس شدة عظيمة، وظهر فيها من كرامات الشيخ، وإجابة دعائه، وعظيم جهاده، وقوة إيمانه، وشدة نصحه للإسلام، وفرط شجاعته، ونهاية كرمه، وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت، ويتجاوز الوصف.

قال: ثم ساق الله سبحانه جيش الإسلام العرمرم المصري صحبة أمير المؤمنين والسلطان الملك الناصر، وولاية الأمر، وزعماء الجيش، وعظماء المملكة، والأمراء المصريين عن آخرهم، بجيوش الإسلام سوقاً حثيثاً للقاء التتار المخدولين، فاجتمع الشيخ المذكور - أي ابن تيمية - بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الأمراء عن آخرهم، وكلُّهم بمَرَجِ الصَّفر، قَبْلِي^(١) دمشق المحروسة، وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعات مسافة. ودار بين الشيخ وبينهم ما دار بينه وبين الشاميين^(٢) واتفق له من

(١) أي أنهم جهة القبلة عن دمشق.

(٢) أي من التذكير، والتثبیت، وحسن الظن بنصر الله، وتعليق القلوب بالله دون سواه.

اجتماعهم ما لم يتفق لأحد قبله من أبناء جنسه، حيث اجتمعوا بجملتهم في مكان واحد، في يوم واحد على أمر جامع لهم وله مهمّ عظيم يحتاجون فيه إلى سماع كلامه وهذا توفيق عظيم كان من الله تعالى له لم يتفق لمثله.

ثم ساق شهادة لأحد أمراء الأجناد عن شجاعة الشيخ وبأسه عند قتال الكفار فقال: ولقد أخبرني أمير من أمراء الشاميين، ذو دين متين، وصدق لهجة، معروف في الدولة قال:

قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفني موقف الموت!

قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم مُنحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم. ثم قلت له: يا سيدي هذا موقف الموت! وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفثيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال. وأما أنا فخيل إليّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة. قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة، وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما^(١) تحريضاً على

(١) السنة عند القتال خفض الصوت، وهو من سكينة المؤمنين، لا كما يفعل الروم والعجم،

القتال، وتخويفاً للناس من الفرار. فقلت: يا سيدي لك البشارة بالنصر، فإنه قد فتح الله ونَصَرَ وهاهم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غد إن شاء الله تعالى يؤخذون عن آخرهم. قال: فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ودعالي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده».

قَالَ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي بيان العبر والدروس من تلك الغزاة، واستعرض أحداثها على ضوء أحداث غزوة الأحزاب بنور سورة الأحزاب، مع انتظام الغزاتين في سنن الله الكونية والشرعية، وهذا شأن أهل العلم والإيمان، وأن على المؤمن إحسان الظن بربه، وأن عليه أن يحذر من ظن السوء^(١):

وعند أبي داود (٨٢/٥) وصححه الأرناؤوط عن قيس بن عباد: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث: عند القتال، وعند الجنائز، وعند الذكر» أما إن كانت هناك حاجة لرفع الصوت فهو المشروع كالنداء والتحريض ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ وإرهاب العدو ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، فقد أمر النبي ﷺ عمه العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حين أن يرفع صوته بنداء أصحاب السَّيِّمَةِ وأصحاب سورة البقرة، وكان يقول: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب» رواه البخاري (٤٣١٥) ومسلم (١٧٧٦) وابن حبان (٧٠٤٩).

(١) باختصار واقتصار من مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٢٤-٤٦٧) وهو بطوله مذكور في العقود الدرية لابن عبد الهادي (١٧٣-٢٢٤).

«بسم الله الرحمن الرحيم»

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فإننا نحمد إليكم الله^(١) الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته وخيرته من بريته محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً. أما بعد:

فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَّا الْوَخِيرَ﴾ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿[الأحزاب: ٢٥] وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْقُقُ لَنَا التَّامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام: قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه وابتلي بها نبيه والمؤمنين، مما هو

(١) هذا التحميد كان من عهد الصدر الأول، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «كيف أصبحت يا فلان؟» قال: أحمد الله إليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الذي أردت منك» حسنه الهيثمي في المجمع (١٤٣/١٠) والألباني في السلسلة (٢٩٥٢) وجاء بنحوه كذلك عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الأدب المفرد، وحسنه الألباني (٨٦٢) ويستعمله العلماء في رسائلهم.

أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا إلى يوم القيامة، فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي. وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها.

وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا. فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها. فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين. ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجل قصص الأنبياء، ثم قال: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١] أي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة. وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦] وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه بيدر وغيرها: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَمَنْ تَقَتَّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرِى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم. وذكر في غير موضع: أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ۖ﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا أَذْبَرْتُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ﴾ (٦٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣] وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين.

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عبادته، ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يمتد ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم^(١) وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار! وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهلهم أبدًا وزين ذلك في قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قومًا

(١) أي: يستأصل.

بوراً^(١).

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيراناً، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان! وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان. ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة. وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى. فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقي وسعيد كما يتفرقون كذلك في اليوم الموعود. وفر الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه؛ إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه. وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه. كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع. وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع. ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيثار والعمل الصالح والبر والتقوى. وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر. وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المال. وذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيلاً.

كما حمد ربه من صدق في إيمانه فاتخذ مع الرسول سبيلاً. وبان صدق ما

(١) أي: لا خير فيهم.

جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون. وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة مُحَدَّثُونَ، كما تواطأت عليه المبشرات التي أُرِيَهَا الْمُؤْمِنُونَ.

وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة، حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام. وانقسم الناس ما بين مأجور ومعدور، وآخر قد غره بالله الغرور. وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة: أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرع له الجهاد، إباحة له أولاً، ثم إيجاباً له ثانياً لما هاجر إلى المدينة وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله، فغزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بدار الهجرة وهو نحو عشر سنين: بضعاً وعشرين غزوة، أولها غزوة بدر، وآخرها غزوة تبوك. أنزل الله في أول مغازيه سورة الأنفال، وفي آخرها سورة براءة، وجمع بينهما في المصحف؛ لتشابه أول الأمر وآخره، كما قال أمير المؤمنين عثمان لما سئل عن القران بين السورتين من غير فصل بالبسملة^(١). وكان القتال منها في تسع غزوات، فأول غزوات القتال:

(١) عند الترمذي (٣٠٨٦) وصححه أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سئل عن ذلك قال: «وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننتُ أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك =

بدر وآخرها حنين والطائف. وأنزل الله فيها ملائكته، كما أخبر به القرآن، ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً؛ فإن بدرًا كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة ما بين المدينة ومكة شامي مكة^(١)، وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة. وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة. ثم قسم النبي ﷺ غنائمها بالجعرانة، واعتمر من الجعرانة. ثم حاصر الطائف فلم يقاتله أهل الطائف زحفًا وصفوفًا، وإنما قاتلوه من وراء جدار. فأخر غزوة كان فيها القتال زحفًا واصطفافًا هي غزوة حنين. وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار. وقتل الله أشrafهم وأسر رؤوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم؛ فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، ليس معهم إلا فرسان، وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد. وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء. فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة وفيها النبي ﷺ وأصحابه. فخرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه في نحو من ربع الكفار، وتركوا عيالهم بالمدينة، لم ينقلوهم إلى موضع آخر. وكانت أولاً الكرة للمسلمين عليهم، ثم صارت للكفار. فانهمز عامة عسكر المسلمين إلا نفرًا قليلًا حول النبي ﷺ، منهم من قتل ومنهم من جرح.

قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، فوضعتها في السبع الطوال».

(١) أي جهة الشام من مكة، أي شمالاً عنها.

وحرصوا على قتل النبي ﷺ! حتى كسروا رِبَاعِيَّتَهُ، وشجّوا جبينه، وهشموا البيضة^(١) على رأسه. وأنزل الله فيها شطرًا من سورة آل عمران من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَّكُمْ مَا تَحْبُونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال فيها: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وكان الشيطان قد نطق في الناس: أن محمدًا قد قتل، فمنهم من تزلزل لذلك فهرب، ومنهم من ثبت فقاتل. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي. وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة؛ من فساد

(١) البيضة: مغفر المحارب.

النيات، والفخر، والخيلاء، والظلم، والفواحش، والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله، والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم. وكان عدوهم في أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة شارعاً في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان.

فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا، وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدهم ما يستوجب به الانتقام. فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعتهم من الشر الكبير، ما لو يقرن به ظفرٌ بعدوهم - الذي هو على الحال المذكورة - لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف^(١). كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين؛ فإن النبي ﷺ قال: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»^(٢).

(١) أي من البغي والفخر والاستعلاء، ولكن الله رحمهم بأن كتب عليهم الهزيمة والانكسار والخوف أولاً حتى إذا حصلوا أسباب النصر من التوبة والتوكل والافتقار والعمل الصالح نصرهم الله حينها، فطهرهم أولاً ثم نصرهم ثانياً، وهو العليم الخليم.

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد. وكان بعد أحد بأكثر من سنة - وقيل بستين - قد ابتلي المسلمون عام الخندق. كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنعو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق، وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها سورة الأحزاب، وهي سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده ﷺ، وأعز فيها جنده المؤمنين، وهزم الأحزاب - الذين تحزبوا عليه - وحده بغير قتال؛ بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم.

وذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمة أهله بيته، لما كان هو القلب الذي نصره الله فيها بغير قتال. كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواء. وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق، وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق.

وكما أنه ﷺ كان يعلم بعض المنافقين ولا يعلم بعضهم كما بينه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] كذلك خلفاؤه بعده وورثته، قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم^(١).

وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار؛

(١) وفي زماننا كذلك، فقد استعلن بعض المنافقين بنفاقهم وجاهروا به وأظهروه لما رأوا ضعف أهل الإيثار، واستخفى بعضهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام؛ بل يتركونهم وما هم عليه.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها، ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين، قال النبي ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من نفاق»^(١).

وقد أنزل الله «سورة براءة»، التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين. أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس قال: «هي الفاضحة؛ ما زالت تنزل (ومنهم، ومنهم) حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها»^(٢) وعن المقداد بن الأسود قال: «هي سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين». وعن قتادة قال: «هي المثيرة؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين». وعن ابن عباس قال: «هي المبعثرة». والبعثرة والإثارة متقاربان. وعن ابن عمر: أنها المقشقة؛ لأنها تبرئ من مرض النفاق، يقال: تقشقش المريض إذا برأ. قال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص: المقشقتان؛ لأنها يبرئان من النفاق^(٣).

(١) رواه مسلم (١٩١٠) قلت: وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذا الحديث: «أي أن على المؤمن أن يحدث نفسه بالجهاد في سبيل الله، وأنه إن قام الجهاد فلن يتخلف ويقعد، ونحو ذلك».

(٢) متفق عليه. البخاري (٤٨٨٢) ومسلم (٣٠٣١).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٨ / ٥٧٥): «قال في القاموس: المقشقتان: الكافرون والإخلاص، أي: المبرئتان من النفاق والشرك كما يقشقش الهناء الجرب. قلت: والهناء - بالكسر - هو: القطران، وقد قيل:

أعيذك بالمقشقين مـ أحاذره ومن نظر العيون»
وفي أسماء براءة قال البيضاوي في تفسيره: «ولها أسماء أخرى التوبة والمقشقة والبحوث والمبعثرة والمنقرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشرجة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين، والقشقة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين، وإثارتها، والحفر عنهم، وما يخزيهم، ويفضحهم، وينكل بهم، ويشردهم ويدمدم عليهم». (١٢٦/١).

وقال السمعاني في تفسيره: «ومن المعروف أنها تسمى سورة البحوث، ومن أسمائها: المبعثرة، ومن أسمائها: المثيرة، ومن أسمائها: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين. وروى النقاش عن ابن عمر أنها تسمى المقشقة. وعن عمران بن حدير أنه قال: قرأت هذه السورة على أعرابي فقال: هذه السورة أظنها آخر ما أنزلت! فقلت له: ولم؟ فقال: أرى عهدًا تُنبذ، وعقودًا تنقض. وعن سعيد بن جبير: أن هذه السورة كانت تعدل سورة البقرة في الطول.

وأما الكلام في حذف التسمية فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «قلت لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما بالكم عمدتم إلى سورة التوبة وهي من المثين، وإلى سورة الأنفال وهي من المثاني، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ فقال: كان إذا أنزل على رسول الله الشيء من القرآن دعا بعض من يكتب، فيقول له: ضعه في سورة كذا، ضعه في سورة كذا، وكانت الأنفال من أول ما أنزلت بالمدينة، والتوبة من آخر ما أنزلت، وكان قصتيهما شبيهة ببعضها ببعض، وخرج رسول الله من الدنيا ولم يبين لنا شيئاً، فظننا أنها سورة واحدة؛ فلذلك قرنا بينهما ولم نكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)». تفسير السمعاني: (٢/ ٢٨٤). وانظر لتفصيل أسماء سورة براءة: الدر المنثور للسيوطي (٣٧٦-٣٧٧/٣).

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ غزوة تبوك، عام تسع من الهجرة، وقد عزّ الإسلام وظهر، فكشف الله فيها أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد، ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال، وهذان داءان عظيمان الجبن والبخل، قال النبي ﷺ: «شر ما في المرء: شحّ هالع، وجبن خالع»^(١) لهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]

وأما وصفهم بالجبن والفرع فقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] فأخبر سبحانه أنهم وإن حلفوا إنهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يفرعون من العدو، ف﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا﴾ يُلجئون إليه من المعادل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد أو ﴿مَغْرَبًا﴾ لولوا عن الجهاد ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعًا لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام، وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا وفيما قبلها من الحوادث وبعدها.

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٨٠١٠) وأبو داود (٢٥١١) وغيرهما، وصححه الألباني.

وكذلك قال في سورة محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿[محمد: ٢٠] أي فبعداً لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿[محمد: ٢١] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿[التوبة: ٤٤، ٤٥] فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد؛ وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن فكيف بالتارك من غير استئذان؟! ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى.

وقال في وصفهم بالشح: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿[التوبة: ٥٤] فهذه حال من أنفق كارهاً، فكيف بمن ترك النفقة رأساً؟! رَأْسًا؟!

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[التوبة: ٣٤] فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله. والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله سواء كان ملكاً^(١) أو مُقَدِّمًا أو غنياً أو غير ذلك. وإذا دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب

(١) وهذا معنى فريد.

فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة ويستحقها مصالحهم أولى وأحرى.

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق، فإذا قرأ الإنسان سورة الأحزاب، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن، ثم اعتبر^(١) هذه الحادثة بتلك وجد مصداق ما ذكرنا. وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة كما انقسموا في تلك. وتبين له كثير من المتشابهات.

افتتح الله السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وذكر في أثنائها قوله: ﴿وَشِئِرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧، ٤٨] ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ إِتَىٰكَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢، ٣] فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله، فبالأولى يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبالثانية يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ومثل ذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وهذا وإن كان مأمورًا به في جميع الدين؛ فإن ذلك في الجهاد أوكد؛ لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين؛ وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله؛

(١) الاعتبار هو القياس.

ولهذا كان الجهاد سنام العمل، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة.

ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفيه سنام التوكل، وسنام الصبر؛ فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[النحل: ٤١، ٤٢] وقال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولهذا كان الجهاد موجبا للهداية التي هي محيطة بآبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فجعل لمن جاهد فيه هدايته جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم^(١)؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) ويعنيان بذلك العلماء والفقهاء من أهل الجهاد في سبيل الله، وليس أنصاف المتعلمين من متفقهة بعض الشباب الذين في ساحات الجهاد ويفتون في المسائل الكبار وهم دون العلم الراسخ الواسع، والله المستعان.

وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا. وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا. وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم إنه تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] كان مختصر القصة:

أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين. فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد وأشجع وفزارة وغيرهم من قبائل نجد. واجتمعت أيضاً اليهود من قريظة والنضير، فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك كما ذكره الله تعالى في سورة الحشر، فجاءوا في الأحزاب إلى قريظة، وهم معاهدون للنبي ﷺ ومجاورون له قريباً من المدينة، فلم يزالوا بهم^(١) حتى نقضت قريظة العهد ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم بقدر

(١) ورأسهم حُيَّي بن أخطب.

المسلمين مرات متعددة. فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في آطام المدينة وهي مثل الجواسق^(١)، ولم ينقلهم إلى مواضع أخرى. وجعل ظهرهم إلى سلع^(٢) وجعل بينه وبين العدو خندقاً، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة. وكان عدوًّا شديد العداوة لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات.

وفي هذه الحادثة^(٣) تحزب هذا العدو من مغول وغيرهم من أنواع الترك ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المرتدة ومن نصارى الأرمن وغيرهم، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها، كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين. ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة. وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الاثنين^(٤) حادي أو ثاني

(١) الجواسق: جمع جوسق، وهو الحصن، ويطلق على القصر الصغير، قال الشاعر:

لعلَّ أمير المؤمنين يسوءه تنادُّمنا في الجوسقِ المتهدِّمِ

أما الآطام: فهي جمع أُطْم، وهو الحصن المبني بالحجارة، وكل بيت مربع مسطح. وفي

حديث بلال: أنه كان يؤذن على أُطْم، وهو البناء المرتفع.

(٢) وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام.

(٣) أي: شقحب.

(٤) الاثنين: همزتها همزة وصل، فلا تكتب، ولا تنطق عند الوصل، لأن الاسم المبدوء =

عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر - عسكر المسلمين - إلى مصر المحروسة، واجتمع بهم الداعي^(١) وخاطبهم في هذه القضية.

وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم؛ ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف. وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات، حتى كره أكثر الناس ذلك. وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن الله فيه حكمة ورحمة. وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك من خيلهم ما شاء الله، وهلك أيضًا منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم؟ وحتى علموا أنهم كانوا صيدًا للمسلمين لو يصطادونهم؛ لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة.

بهمزة وصل إذا صار علمًا تبقى همزته وصلًا.

(١) تأمل تواضعه فلم يذكر اسمه مع أن هذا الموقف يدعيه حتى من لم يكن صاحبه لتوصله به إلى الجاه عند الناس، ولكن أمثال هذا الرباني لا يتفق في سوقهم ذلك البهرج.

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١] وهكذا هذا العام؛ جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال الفرات، وهو قبلي الفرات، فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء، لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وبقرب العدو وتوجهه إلى دمشق، وظن الناس بالله الظنون:

هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام حتى يصطلموا^(١) أهل الشام.

وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر.

وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام!

وهذا يظن إنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها.

وهذا - إذا أحسن ظنه - قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم كما

(١) أي يستأصلوا.

خرج ذلك العام، وهذا ظن خيارهم!

وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث^(١) والمبشرات أمانى كاذبة، وخرافات لاغية! وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يفهم ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات، لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء. بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية.

فلذلك استولت الحيرة على من كان متمسكاً بالاهتداء^(٢)، وتراجعت به الآراء تراجم الصبيان بالخصباء، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما حصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية، والخلافة

(١) ربما قصد الحديث وأهله، وربما أراد الإلهام وهو الأظهر لفظاً وسياقاً.

(٢) وهي من الفتن التي تُصير الحليم حيراناً.

الرسالية، وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لهؤلاء التأسى برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم، وأما الذين في قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة، فذكروا هنا وفي قوله: ﴿لَّيِّنٌ لَّمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] وفي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وذكر الله مرض القلب في مواضع فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِذْ يَكُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٤٩].

والمرض في القلب كالمريض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أو أفسد عمله وحركته.

ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا أن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً. أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أوليائه. وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَلِيِّنَى فَاَرْهَبُون﴾ [البقرة: ٤٠] وقال:

﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلَنَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال: ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَكُولُ الْمُنْفِقُونَ أَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] - على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنبياء الصادقة التي توجب أمن الإنسان من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غرورا لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة. وقيل: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك! وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم^(١) فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما

(١) اقرأ هذا واستمع إلى نعيق كثير من الكتاب، بل وبعض الدعاة المنهزمين، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهى عن هذا، بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن

بقيت أرض الشام تسكن؛ بل ننتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم. فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك!

وهكذا قال طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض. ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام، وإن كانت قد قرئت بالضم أيضاً^(١)، فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به^(٢)؟ قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في أطام المدينة - يا رسول الله إن بيوتنا عورة. أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل. وأصل العورة: الخالي الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك، إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو. وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما

العاقة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حق، ويستغفر لذنبه، ويسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار». مجموع الفتاوى (٢٩٥/١٨).

(١) قرأها عاصم بالضم (مقام) والبقية بالفتح (مقام).

(٢) فإن المقام هو الوقوف كما في التنزيل: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، أمام المقام فهو السكنى والإقامة.

يلي العدو فلا نأمن على أهلنا فأذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة. صاروا يفرون من الثغر إلى المعقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا. وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد. فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟! إرسال عياله؟!

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤] فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة، وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق، لأعطوا الفتنة ولجأوا منها من غير توقف!

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك! كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد، كترك الصلاة، وشرب الخمر، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين

وحريمهم، وأخذ أموال الناس، وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُمُ الْأَدَبُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديماً وحديثاً في هذه الغزوة. فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر، ثم فر منهزماً لما اشتد الأمر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل. فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» متفق عليه^(١)، والفرار من القتل كالفرار من الجهاد. وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل. والفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقضى ذلك أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً. وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره^(٢).

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن؛ فإن هؤلاء الذين فروا في هذا

(١) البخاري (٣٤٧٣) ومسلم (٢٢١٨).

(٢) وهذا حرف جدير بالتأمل والتبصر، وهذا من هداية الله للإمام لأنه أحسن قراءة السنن الربانية في شرعه وكونه.

العام لم ينفعهم فرارهم؛ بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم، وقلَّ في المقيمين! فمات من الهرب من شاء الله. والطالبون للعدو، والمعاقبون لهم لم يمت منهم أحد ولا قتل؛ بل الموت قلَّ في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَمْنَعُوا لِأَقْلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون، فإن الموت لا بد منه. وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل! وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: إنهم يمتنعون بالفرار قليلاً، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً، ثم ذكر جواباً ثانياً، أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل، ثم ذكر جواباً ثالثاً، وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧] ونظيره قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦] فمضمون الأمر أن المنايا محتومة، فكم ممن حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فرَّ من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد لما احتضر: «لقد حضرت كذا وكذا صفًا، وأن ببدي

بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء!».

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة، فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج، ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة فإننا ننتظركم، يثبطونهم عن القتال. وكانوا لا يأتون العسكر إلا ألا يجدوا بداً، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة، فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيد، فقال: أنت ههنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟! فقال: هلم إلي فقد أحيط بك وبصاحبك!

فوصف المشبطين عن الجهاد وهم صنفان بأنهم: إما أن يكونوا في بلد الغزاة أو في غيره، فإن كانوا فيه عوّقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما. وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد، كما جرى في هذه الغزاة. فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوّقون من أراد الغزو، وأقواماً بعثوا من المعقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿[الأحزاب: ١٨، ١٩] أي بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: «بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة». وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، أو شح عليهم

بفضل الله من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره، فإن أقوامًا يشحون بمعروفهم وأقوامًا يشحون بمعروف الله وفضله، وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] ويقال في اللغة: صلقوكم، وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي، ومنه الصالقة، وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة، يقال: صلقه وسلقه - وقد قرأ طائفة من السلف بها؛ لكنها خارجة عن المصحف - (١) إذا خاطبه خطابًا شديدًا قويًا، ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغًا في خطبته؛ لكن الشدة هنا

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير: (٦ / ٣٦٦): «والعرب تقول: «صلقوكم» بالصاد، ولا يجوز في القراءة، وهذا قول الفراء. وقد قرأ بالصاد: أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو عمران الجوني، وابن أبي عبله في آخرين، وقال الزجاج: معنى صلقوكم: خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها في الغنيمة، يقال: خطيب مسلاق، إذا كان بليغًا في خطبته».

وقال القرطبي في الجامع: «وحكى الفراء «صلقوكم» بالصاد. وخطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغًا. وأصل الصلق الصوت، ومنه قول النبي ﷺ: «لعن الله الصالقة والخالقة والشاقة». قال الأعشى:

فيهم المجد والسماحة والنج — — — — —
سدة فيهم والخاطب السلاق

قلت: ورويت للأعشى: «مسلاق». تفسير القرطبي: (١٤ / ١٥٤). والإبدال بين السين والصاد شائع في كلمات عربية كثيرة.

في الشر لا في الخير، كما قال: ﴿بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]
وهذا السلق بالألسنة الحادة يكون بوجه:

تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم؛ فإنكم أنتم الذين دعوتهم الناس إلى هذا الدين وقاتلتم عليه وخالفتموهم، فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة. وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتكم علينا بالمقام هنا والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا. وتارة يقولون: أنتم مع قلتكم وضعفكم تريدون أن تكسروا العدو، وقد غركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ وَهُمْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]. وتارة يقولون: أنتم مجانين لا عقل لكم! تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم. وتارة يقولون أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد^(١).

وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم. قال قتادة: «إن كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم بأحق بها منا. فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم». وقيل: أشحة على الخير، أي بخلاء به، لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم.

(١) ولا زال المنافقون ومن تأثر بشبهاتهم ينعقون بمثل ذلك في زماننا، خاصة بعدما استوت لهم قنوات الإعلام، والله تعالى يقول: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم^(١)، من منع الحق وأخذ الباطل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(٢) فهو لاء أشحاء على إخوانهم، أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير، أي حراس عليه فلا ينفقونه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَو أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠] فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد. وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن.

الوصف الثاني: أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنباءكم: أيش^(٣) خبر المدينة؟

(١) فالشح أشد من البخل، والبخل من ثمراته.

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٧). وصححه أحمد شاكر.

(٣) وهو أسلوب استفهام صحيح، منحوت من أصله: أي شيء؟ ولا وجه لمن أنكره، فالعرب مولعون بالنحت، وقد أجازها علماء كبار كابن منظور وغيره. وفي المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: «وقالوا (أَيُّ شَيْءٍ) ثم خففت الياء وحذفت =

وأيش جرى للناس؟

والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا وهم فيكم لم يقاتلوا إلا قليلاً.

وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة، كما يعرفونه من أنفسهم، ويعرفه منهم من خبرهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ، فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه، فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق؛ بل بها تنال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذاباً، كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

الهمزة تخفيفاً وجعلاً كلمة واحدة فقيلاً: أيش. قاله الفارابي. (١ / ٢٣٠) قلت: وبعضهم يكسر الهمزة. وانظر المزهري للسيوطي إذ نسبها لعامة العرب وإن كانت شاذة في القياس فقال: وقد يلهج العربُ الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة من الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها ويدعوا المتناس المطرد المختار، ثم لا يجبُ لذلك أن يُقال: هذا أفصحُ من المتروك، ومن ذلك قول عامة العرب: إيش صنعت يريدون أي شيء». المزهري في علوم اللغة: (١ / ١٦٥).

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٢٢] قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فبيّن الله سبحانه منكرًا على من حسب خلاف ذلك أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بالبأساء: وهي الحاجة والفاقة، والضراء: وهي الوجع والمرض، والزلال: وهي زلزلة العدو. فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم قالوا: ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلال، وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا لحكم الله وأمره. وهذه حال أقوام في هذه الغزوة قالوا ذلك.

وكذلك قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي عهده الذي عاهد الله عليه فقاتل حتى قتل أو عاش، والنحب: النذر والعهد، وأصله من النحيب: وهو الصوت، ومنه: الانتخاب في البكاء، وهو الصوت الذي تكلم به في العهد^(١).

ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء، ومن صدق في اللقاء فقد يقتل، صار يفهم من قوله ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أنه استشهد. لا سيما إذا كان النحب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقضيه إلا بالموت. وقضاء النحب هو

(١) أي أن النحب هو صوت المتكلم حينما يعاهد، فالنحب هو العهد.

الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي أكمل الوفاء^(١)، وذلك لمن كان عهده مطلقاً بالموت أو القتل ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] قضاءه إذا كان قد وفى البعض فهو ينتظر تمام العهد، وأصل القضاء الإتمام والإكمال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤] بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم حيث صدقوا في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا؛ لا من قال كما قالت الأعراب: آمنا، والإيمان لم يدخل في قلوبهم، بل انقادوا واستسلموا. وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزاة.

وأيضاً: فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة ليجزي الصادقين بصدقهم، وهم الثابتون الصابرون لينصروا الله ورسوله، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم، والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن

(١) فلما كان العهد بمثابة الدين، كان قضاؤه إيفاءه.

السيئات، وقد «فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة، لا يغلقه حتى تطلع الشمس من قبله»^(١).

وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن إسحاق - أن النبي ﷺ قال في الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»^(٢)، فما غزت قریش ولا غطفان ولا اليهود المسلمين بعدها؛ بل غزاهم المسلمون، ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة.

كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغول وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة والنصارى ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزونا^{(٣)(٤)}، ويتوب الله على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم، فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، كما قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَآلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَّبا^(٥)

(١) رواه أحمد (١٨١٠٠) والترمذي (٣٥٣٦) وصححه، وحسنه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٤١٠٩).

(٣) وهذا من فقهه وحسن فراسته وقوة إيمانه ويقينه بربه تبارك وتعالى.

(٤) قلت: وقد غزا المسلمون بعد هذه الغزاة جبال كسروان وطهروها من الباطنية، بحمد الله.

(٥) وهي الرياح المشرقية من قبل نجد. ولا بن المدينة:

ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتت شملهم ولم ينالوا خيراً. إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجوع المزعج ما الله به عليم. وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة^(١). وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر، فلا تكرهوه. فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم. وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه، ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه.

وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى يوم دخلت مصر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين، وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه. فلما ثبت الله قلوب المسلمين؛ صرف العدو جزاء منه وبيانا أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها^(٢)، وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار.

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجد

(١) أي: صلاة الاستغاثة لطلب الصحو وكف المطر، وهو ضد الاستسقاء.

(٢) كما قال قتيبة بن مسلم عن محمد بن واسع: «إن إصبع محمد بن واسع الأزدي أحب إلي من ألف سيف شهير يحملها ألف شاب طرير».

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي. فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق، بل من طالعتها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي، مثل عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وسعيد بن يحيى الأموي، ومحمد بن عائذ، ومحمد بن إسحاق، والواقدي وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد، وتقربوا إلى حماة، وأذلم الله تعالى فلم يقدموا على المسلمين قط. وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار كما جرى في غزوة الخندق حيث قتل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق هو ونفر قليل من المشركين. كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهريين عليهم.

وكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البلديات بالشمال مثل تيزين والفوعة ومعرة مصرين^(١) وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

(١) هذه الثلاث قرى من ريف حلب. وللعلم فملاحم آخر الزمان تبدأ من مرج دابق وهو

وقيل: إن كثيرًا من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامين^(١) منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالمًا بلي به. والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقد ظاهرهم على المسلمين الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل سيس^(٢) والإفرنج^(٣) فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيتهم وهي الحصون^(٤) ويقذف في قلوبهم الرعب، وقد فعل، ويفتح الله تلك البلاد، ونغزوهم إن شاء الله تعالى، فنفتح أرض العراق وغيرها^(٥)، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه.

فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين - بعد أن كاد الإسلام أن، وكر العدو

بقرب حلب.

(١) جمع فرمان وهو الكتاب، وهو لفظ مولد، ولعل أصل الكلمة من لغة الترك.

(٢) سيس: من أعظم مدن الثغور الشامية وهي واقعة بين أنطاكية وطرسوس. وقد رابط فيها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ إذ كانت في وقته من أعظم الثغور. وكذلك كانت طرسوس ثغراً عظيماً.

(٣) ولعل أصل التسمية من الإفرنش، أي: الفرنسيين، فلهم تاريخ عريق في حرب الإسلام وأهله، ولا زالوا، وهم من أشد الناس دموية ووحشية.

(٤) ويقال للقرون: الصياصي.

(٥) وقد تم ذلك بحمد الله تعالى.

كرة فلم يلو عن، وخذل الناصرون فلم يلووا على، وتحير السائرون فلم يدروا من ولا إلى؟^(١) وانقطعت الأسباب الظاهرة، وأهطعت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتحاذلت القلوب المتناصرة، وثبتت الفئة الصابرة، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سماواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين بقوته وحوله، وأرغم معاطس^(٢) أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق.

فإن الله يتم هذه النعمة^(٣) بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة، وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا^(٤) محمد

(١) وهذه الجمل الأربع كلها من باب كلام البليغ، وهو هنا بحذف الخبر إذا كان معلوماً كقول الله الأجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١]. أي: لكان هذا القرآن، أو: لكفروا بالرحمن. وانظر تفسير الطبري (١٦/٤٥٠).

(٢) المعاطس: الأنوف، وتأمل الفخامة والجزالة والعزة في هذه الجمل التيمية.

(٣) وهذا أسلوب دعاء بما ظاهره الخبر، وهو شائع في العربية كقولهم رحم الله فلانا، وغفر الله لك ونحو ذلك، كذلك المرحوم على الراجح لدى العثيمين رحمه الله تعالى بجامع الماضوية بين الفعل الماضي (رحم) واسم المفعول (مرحوم)، إن كانت من باب الدعاء لا الإخبار.

(٤) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «ولا بأس ولا حرج في أن يقول الإنسان: اللهم صل وسلم على

وآله وصحبه وسلم تسليماً»^(١).

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يعز دينه، ويعلي كلمته، ويظهر الهدى ودين الحق على الدين كله، وأن يستعملنا في طاعته، ويستغرسنا في مرضيه، وأن يكلنا في كل أمورنا إليه، هو حسبنا فنعم الوكيل، ونعم المولى، ونعم النصير، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على السراج المنير والنذير والبشير، وآله وصحبه.

هذا، ومن نماذج ثقة شيخ الإسلام بربه وتعلقه بجنابه ما وقع من أمره مع فتنة البطائحية وفيها من الذب عن التوحيد والسنة ما يحمد به في وقت تهاون فيه العلماء والسلاطين عن ذلك الجهاد العظيم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] وفي هذه المناظرة دروس منهجية لفن المناظرات وأساليب الجدل وطرق الحجاج للمناظر المؤمن الذي لا يكتفي بالحماس العاطفي بل يقرن معه البصيرة في الدين والتضلع من العلم ورد الفروع

سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه. هذا كله لا حرج فيه إلا في المواضع التي شرع الله فيها تمحيص اسمه وعدم ذكر السيد فيها؛ فإنه لا يأتي بالسيد فيها، مثل التحيات والأذان والإقامة... أما حديث: «السيد الله تبارك وتعالى» فمن باب التواضع، ومن باب الخوف عليهم أن يغفلوا فيه ويطروه... ضمن أجوبة نور على الدر، وهو في موقع الشيخ على الشبكة.

(١) مجموع الفتاوى (٤٢٤/٢٨ - ٤٦٧) باختصار. وانظر: العقود الدرية لابن عبد الهادي (١٧٣ - ٢٢٤).

لأصولها، والحكمة، والفرح بهداية المخالف وغير ذلك مما هو حقيق بالدرس والتتبع والتفريع.. وملخصها ما ذكره عن نفسه - مع اختصار منا لكلامه - قال رَحِمَهُ اللهُ:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم في أمر البطائحية يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة خمس لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويرى لانتشار هذه الواقعة العظيمة، ولما حصل بها من عز الدين وظهور كلمته العليا وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة، والأحوال الفاسدة والتلبس على المسلمين.

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقهم وطريق الشيخ أحمد بن الرفاعي وحاله وما وافقوا منه المسلمين وما خالفوهم ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام، فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية

هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم، وذلك أني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع: وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك، ويوجد في بعضهم التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد، فيوجد أيضًا في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول والاستخفاف بشريعة الإسلام والكذب والتلبس وإظهار المخارق الباطلة وأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله ما يوجد. وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات، وتاب منهم جماعة، وأدب منهم جماعة من شيوخهم، وبيئتُ صورة ما يظهره من المخاريق مثل ملابسة النار والحيات وإظهار الدم واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك، وأن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة ومن احترق كان مغلوبًا، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك.

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق وكان له صنم يعبدته قال: فقال لي: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر

الأكل في الطعام بيِّناً يُرى فيه، فأنكرت ذلك، فقال لي: إن كان يأكل أنت تموت؟ فقلت: نعم، فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر، فاستعظم التتري ذلك وأقسم بأيان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك، فقلت لهذا الشيخ: أنا أبين لك سبب ذلك، ذلك التتري كافر مشرك ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام وأنت كان معك من نور الإسلام وتأيد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك، فالتتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بُلِّقُ^(١) فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثل من كان حاضراً.

وقلت لهم في مجلس آخر لما قالوا: تريد أن تظهر هذه الإشارات؟ قلت: إن عملتوها بحضور من ليس من أهل الشأن من الأعراب والفلاحين أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفكرة والمتصوفة لم يحسب لكم ذلك. فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش من الصفر، لا يذهب إلى أهل الجهل بذلك، فقالوا لي: لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا، فقلت: همتي ليست معكم بل أنا معارض لكم مانع لكم لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا،

(١) الأبلق: ما خالط سواده بياض والعكس، والعامة تقلب اللام راء فتقول: أبرق.

فانقلبوا صاغرين.

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر مطوقين بأغلال الحديد في أعناقهم وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتي هي أحسن، فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس إن هذا لله سرٌّ من أسرارهم، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع وقلت: هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدي بهم، ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرب به إلى الله تعالى، لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار»^(١) وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال، فالتشبه بأهل النار من المنكرات. وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث الرؤيا قال في آخره «أحب القيد وأكره الغلّ، القيد ثبات في الدين»^(٢) فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة^(١)، فقلت له في ذلك

(١) أبو داود ٤٢٢٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٥٥٤٠).

(٢) متفق عليه. البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣).

المجلس ما تقدم من كلام أو نحوًا منه مع زيادة، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله^(٢) ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به، وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقًا إلى الله وسببًا لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبابه، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند الله وقربة إليه، ولا أن يجعل شعارًا للتائبين المرئدين وجه الله الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم، فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك دينًا لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه، فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟ ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه،

(١) وهي حجة مستقيمة ولازم صحيح.

(٢) والوعظ عند المناظرة سبيل المرسلين، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحَتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١] وقد خوف شيخ الإسلام خصمه بعذاب الآخرة والدنيا رجاء هدايته بقرع قلبه بسياط التخويف.

بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة، ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين وعهود أهل الفتوة ورماة البندق ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله^(١) لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك.

كذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل، وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه بل يقال إنه جائز^(٢)، لا

(١) ومن ذلك العهود على الطاعة لبعض الطرقية أو الجماعات المنتسبة للإصلاح سواء عن طريق الأخلاق والرقائق أو السياسات أو غيرها.

(٢) قال العلامة محمد رشيد رضا عند تحقيقه لهذا الموضع في مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (١ / ١٢٧): «سقط جواب إذا من الناسخ ومعناه أنهم يرون جواز جعله قرابة وعبادة. وهذا مثار كثير من البدع المحدثه. وذكر لي بعض علماء الأزهر في هذه الأيام أن بعض كبار علمائه كانوا يتكلمون فيما ينكره الوهابية من بدع القبور وغيرها ويستحسنون ذلك، فقال بعضهم مُنكَرًا: ولكنهم منعوا أن يستشفع بأصحابها الصالحين. فقال له شيخ الأزهر (الأستاذ أبو الفضل الجيزاوي): هذا هو الشرع. فقال المنكر: ما دليله؟ فقال الشيخ: إنما يطلب الدليل على الإذن به لا على المنع، فدل هذا على أن الشيخ أيد الله به السنة أعلمهم». أهـ. فالأصل في العبادات المنع حتى يأتي الدليل الناقل.

يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبرّاً وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضّة^(١) ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما وبالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي سيئات.

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة^(٢)، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر ذلك الشيخ المسجد الجامع وكان قد كتب إلي كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار،

(١) وهذا ملحظ مهم جداً، ففرق شاسع بين ذلك وبين من يُلبس المباحات لباس الواجبات أو المحرمات مضاهاة للشرعية، ومن ذلك من ينشد ويحدو بقصد ذكر الله! فهذا قد قلب المباح حراماً، فليس ذكر الله بأبيات الشعر وألحان الغناء! كحال أغلب أرباب الطريقة والخرافة! لكن إن قصد به الترويح عن نفسه كأن يكون في سفر، ولم يتبدل نفسه به، ولم يتشبه بأهل الفساد والمجون، ولم يك في الشعر محذور، ولم يطغ على وقته فلا بأس به إن شاء الله.

ومن أمثلة ذلك من يتدين لله بترك شرب الماء بارداً أو تعمد ترك التبسم أو التزام لباس معين ولون معين ونحو ذلك مما لم ينزل الله به سلطاناً، فإن كان بطبعه يألف ذلك فهو وما تولى شريطة ألا يصبغ عمله بصبغة الشريعة والقربة فهذا من البدع.. والأمثلة كثيرة، وبخاصة فيما يأمر به شيوخ الطرق أتباعهم ومريديهم.

(٢) وهذا يدل على أن الحدة في الشيخ ليست صفة غالبية، بل إن اعترته على خلاف ما يستحق المخالف فإن الفيئة للهدوء والرفق والدفع سرعان ما تعود.

وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إما أحاديث موضوعة، أو إسرائيليّات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب، فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك، وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون^(١) وفيهم شبه قوي من النصارى الذي قال الله تعالى فيهم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء، فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب، فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونتفق على اتباع

(١) أي: أن الحال الذي يعترهم من سكرة العشق والرقص عند السماع غير متوجه لجهة معلومة لهم إنما هو شعور يثور في الوجدان بصورة ما في قلب الواجد من اتجاه محبته وعشقه، فتارة للنسوان وتارة للغلان وتارة لغيرهم، ومنهم من تكون محبته تجاه ربه ولكنه لم يحط تلك المحبة بالتوقير والمهابة والإجلال الواجب بل تعدى الحدود إلى إظهار مشاعره على هيئة عشاق الصور!

سبيله، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو على ما ذكر لي وهم من الصياح والاضطراب، على أمر من أعجب العجائب، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعدرة، وطلباً للبيان والتبصرة، ورجاء المنفعة والتذكرة. فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج، والإزباد والإرعاد^(١)، واضطراب الرؤوس والأعضاء، والتقلب في نهر بَرْدَى^(٢) وإظهار التَّوَلَّه الذي يخيّلوا به على الردى^(٣) وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال^(٤).

(١) ومن مأثور الحكم: «إذا كنت على الحق فلست بحاجة لرفع صوتك». وقد جرت العادة أن من يرفع صوته جَدًّا ويضطرب عند المناظرة هو من أحس بذبول حجته فيروم تعويضها بصياحه! وهي ليست لازمة، فثم مبتدعة بل ملاحدة يتعمدون القدح في السنة بل وسب رب العالمين في المناظرات فلا يسوغ للمناظر المؤمن إلا أن يغضب لربه ودينه، لكن عليه مع ذلك أن لا يفقد تركيزه وحادّة حججه، ووحدة جملة. ولكل مقام حال ومقال.

(٢) نهر بَرْدَى في دمشق ينبع من بحيرة نبع بردى في جنوب الزبداني ويقطع دمشق ثم يصب في الغوطة بطول (٨٤) كم، وفيه قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مادحاً الغساسنة:

يسقون من ورد البريص عليهم بَرْدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ

(٣) أي: يدعون أنهم أحباب الله وأولى به دون غيرهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ فَلَمْ يَعِزُّكُمْ يُدْنِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

(٤) معنى يسلمون الحال إليهم: أي يقرون لهم بأنهم من خاصة الأولياء، وأن لديهم معرفة =

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر، وسأل عنهم ف قيل له: هم مشتكون^(١)، فقال: ليدخل بعضهم، فدخل شيخهم وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه، لكن حدثني من كان حاضرًا أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ؟ فقالوا: بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ، قال: فأني شيء يقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا، قال: فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه، قالوا: نريد أن تشدّ منا^(٢)، قال: لا ولكن أشد من الحق سواء كان

خاصة بالله لا تتأتى لغيرهم من العامة بل والعلماء! وهذا السياج الشيطاني إنما وضعوه لأن العامة تأبى فطرتهم قبول ما يرونه منهم من مخالفات فاستعملوا معهم تسليم الحال، وملخصه: عدم محاكمتهم لظواهر الكتاب والسنة، بل تركهم على أذواقهم التي لا يفقهها أهل الظواهر. زعموا! لذلك فهم قد طلبوا في بداية إنكار شيخ السلام عليهم أن يسلم حالهم لهم فأبى عليهم وصرّح لهم بأن قصدهم هدم الشريعة، وصدق رَحْمَةُ اللَّهِ، فما ذا يبقى للناس إن اطّرحوا القرآن والحديث، واستعاضوا عنه بأذواق الجهلة ووأرباب الخرافة؟!

(١) أي: يشكون شيخ الإسلام للأمير، وظاهرة استعداد السلطان على المحتسبين لها جذور قديمة، أبى الله تعالى إلا أن يجعل للمحتسبين نصيبًا من بلاء الأنبياء، وتأمل قرن الأمر بالصلاة مع الاحتساب ثم إتياعه بالأمر بالصبر، ﴿يَبْقَى أَقِيرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] إنه دين الابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَن يَتَرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ ولقد فتنا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ٢، ٣].

(٢) أي: تكون معنا. ورحم الله ذلك الأمير العادل المتبع للحق.

معكم أو معه، قالوا: ولا بد من حضوره؟ قال: نعم، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم، فأرسل إلي بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم، وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء. فلما علمت ذلك ألقى في قلبي^(١) أن ذلك لأمر يريد به الله من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسألك معهم ألا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال، وأني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان.

فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار الذين يعرفون حقيقة الأسرار وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة، وقال شيخهم الذي يسبح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله^(٢)، وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

(١) وللشيخ مع الفراسة نبأ عجيب، ذكر طرفاً منه البزار في سيرة شيخ الإسلام. ولا يمنع أن يكون ذلك من تحديث الملائكة له كما تحدث أولياء الله ولا نزكي على الله أحداً، قال عليه السلام: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عَمْرٌ» رواه البخاري (٣٦٨٩) أي يُلْهِمُونَ إلهاماً، وهم يُكَلِّمُونَ من غير أن يكونوا أنبياء كما في الرواية الأخرى.

(٢) وفي هذا برهان ثبوتي على أن أحوالهم ومخاريقهم ليست من الدين في شيء.

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع^(١) وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع، فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته، واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون بردًا وسلامًا على من اتبع ملّة الخليل، وأنه تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل^(٢)، وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء. وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، نسب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مشابهة الصابئة

(١) لعله شيخهم الذي استعدى السلطان على ابن تيمية أو أن المطاع المذكور هو الأمير.
(٢) وتأمل هاتين الكلمتين جيدًا وكررهما مرارًا، فأتباع الرسول ﷺ قد اقتضت سنة الله تعالى أن يؤيدهم ولو من جنس تأييده لأتباعه ورسله، لأنهم قاموا مقامهم واتبعوا سبيلهم ولم يبدلوا ويتدعوا، بل استنوا واتبعوا، وعن ملة محمد وإبراهيم دافعوا وفي ذات الله جاهدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وهذه الأمور الخارقة للعادة هي من جنس الكرامات، وهي من بركة اتباع المرسلين، ولكن لا بد لصاحبها من مقامات في الدين وعزم وإيمان ويقين، وتمسك بالسنة وعصّ عليها ومنافحة عنها، والكفاية على قدر العبودية، وسيأتي كلام الشيخ بعد صفحات ليين مراده هنا فقال: «فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطنًا وظاهرًا لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله». انتهى. قلت: وكتابه النافع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيه تفصيل وأدلة وأمثلة لهذه القاعدة العظيمة.

الفلاسفة ثم إلى الإشراك ثم إلى جحود الحق تعالى، ومن شركهم الغلو في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو لائق كالملاحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العباد.

فلما أصبحنا ذهبنا للميعاد، وما أحببت أن أستصحب أحداً للإسعاد^(١)، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب، والله هو المسبب لجميع الأسباب، وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وأن لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء، وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة، وأن المنكر عليهم ما هو آخذ بالشرع الظاهر، غير واصل إلى الحقائق والسرائر. وأن لهم طريقاً وله طريق، وهم الواصلون إلى كنه التحقيق، وأشباه هذه الدعاوي ذات الزخرف والتزويق، وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد لخفاء نور الإسلام، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار، لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم

(١) فمن آوى لله فقد آوى إلى ركن شديد ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]

ولا إله إلا الله فياله من مقام له ما بعده من نصر الدين وإقامة الملة!

من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل (١).

قال المخبر: فغدا أولئك الأمراء الأكابر، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق (٢)، فأعاد الرسول لي مرة ثانية فبلغه أنا في الطريق، وكان كثير من أهل البدع الأضداد، كطوائف من المتفكّهة والمتفكّرة (٣) وأتباع أهل الاتحاد، مجدين في نصرهم بحسب مقدورهم مجهزين لمن يعينهم في حضورهم، فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالين للاطلاع، فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء، بعض ما ذكروه من الأقوال المشتعلة على الافتراء، وقال: إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها فقلت: هذا من البهتان.

وها أنا ذا أصف ما كان قلت للأمير: نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن

-
- (١) وما أشبه الليلة بالبارحة في مشارق الأرض ومغاربها، فإن أنكر عليهم، قالوا: أنكر السنة، وأبغض الرسول؟! فيا أيها الموحد قم مقام الأئمة في رد الناس لربهم وتعبيدهم له وخذ بأيديهم لسبيل المرسلين، فلعمري الله ما أنفقت الأعمار في خير من ذلك.
- (٢) وهذا من بركة اتصال الأمير بأهل العلم والأثر لا أهل الخرافة والكفر.
- (٣) تأمل كيف نسبهم إلى التفكّه لا الفقه، فالأول دعوى والثاني تحقيق، وكذلك المتفكّرة والمتشعبة... الخ فلها معان بعضها جيد فالفقيه الحق من كان مفتقراً إلى الله مستغنياً به عن غيره، والمتشيع الحقيقي هي من يحفظ قدر أهل بيت رسول الله وقدر صحابته لا كما يدعي الأفاكون، وشتان بين من يدعي المكارم ومن يحققها.

يدخل نارًا ولا يجوز طاعة من يأمر بدخول النار، وفي ذلك الحديث الصحيح^(١)، وهؤلاء يكذبون في ذلك، وهم كذّابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم، وذكرت تلييسهم على طوائف من الأمراء، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلييسهم على الأيدمري^(٢)، وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالملك، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب^(٣)،

(١) يعني حديث علي رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني قالوا: بلى قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدت ناراً ثم دخلتم فيها فجمعوا حطباً، فأوقدوا فلما همّوا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟! فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف» متفق على صحته. البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠).

(٢) الأيدمري: مملوك ترقى في الخدم حتى تأمر في أيام الملك الظاهر بيبرس، وعلت منزلته في أيام الملك المنصور قلاوون، ومات سنة سبع وثمانين وستمئة. وانظر: المواعظ والاعتبار للمقرزي (٩٠/٣).

(٣) رجال الغيب: خلافة صوفية وضعت لإخراج الناس من سلطان الشريعة، فيدعون أن هناك أناساً لهم خواص غير بشرية وأنهم يتصرفون في الكون وأن الله تعالى اختارهم وأوكل إليهم أموراً سرية تتعلق بربوبيته - سبحانه وتعالى - ولهم مراتب ومسميات كالأقطاب والقطب الأعظم والأغواث والنجباء والرجبيين والرحميين وغير ذلك مما يخالف القرآن ويحاد الشريعة ويخرج عن المعقول والمنقول، ثم يبنون عليها أموراً كثيرة أهمها تسليم الحال لمن يروونه يعمل أعمالاً مخالفة للدين بأنه ربما أنه من رجال الغيب =

فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة، وذاك يرى من بعيد قومًا يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير وولده: هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك وهو ممن حدثني بهذه القصة، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته، وقالوا أنه طلب منه جملة من المال، فقال قفجق: الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله!^(١) وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز، فذكرت للأمير هذا، ولهذا قيل لي إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماه يخبره بصورة ما جرى.

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال^(٢) ونحوها، وأنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة، فذكر الأمير حديث البدعة

الذين يعلمون ذلك بأمر الله! فيهدمون الدين بهذه الخرافة، ويأبى الله إلى أن يتم نوره ولو كره المشركون.

(١) قال جل وعز: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] وقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِنْ رِئِي

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨]. ومهما استطال حبل الباطل فهو إلى انقطاع.

(٢) في الأصل: «الغلال» وقد أثبتتها «الأغلال»، وقد تقدم نهيها في أول حديثه.

وسألني عنه فذكرت حديث العرباض بن سارية^(١) وحديث جابر بن عبد الله^(٢) وقد ذكرتهما بعد ذلك في المجلس العام كما سأذكره.

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار وأن أهل الشريعة لا يقدرّون على ذلك، ويقولون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع فليس لهم أن يعترضوا علينا بل يسلم إلينا ما نحن عليه سواء وافق الشرع أو خالفه، وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم، ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، وذلك بعد أن غسل جسامنا بالخل والماء الحار، فقال الأمير: ولم ذاك؟ قلت: لأنهم يطلون أجسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارج وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق، فاستعظم الأمير هجومي على النار وقال: أتقبل ذلك؟ فقلت له: نعم قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً، فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطنًا وظاهرًا لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر

(١) وهو حديث موعظة المودع، قال ﷺ: «أوصيكم بالسمع والطاعة...» وفيه: «وإياكم ومحدثات الأمور...» الحديث. رواه أبو داود (٢٦٧٦) وصححه الألباني في السلسلة (٢٤٥٥).

(٢) وهو الحديث الذي رواه جابر أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد...» رواه مسلم (٤٣).

والرزق الذي به يقوم دين الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا^(١)، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهره من هذه المخاريق بما يؤيد الله به من الآيات.

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى السحرة لما أظهروا سحرهم أيّد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم، فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السباط بذلك وفرح بذلك وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال على رده، وسمعتة يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السباط بالتركي^(٢) ما فهمته منه أنه قال اليوم ترى

(١) رضي الله عنه ورحمه وأعلى نزله ووالديه والمسلمين.

(٢) لما فتك هارون الرشيد بالبرامكة أراد أن يستبدل البلاط والجيش ورجال الدولة بأمة ليس لها حضارة وليس لها جذور معادية للإسلام كالفرس أو الروم، -وقد تعمّد أن يبعد العرب كما فعل من قبله، وهذه سوءة في العباسيين، والملاحظ أن الأمويين لم ينهاؤا إلا بعد إبعاد العرب وجلب الفرس إلى مقاليد القيادة والقرار، وكذلك فعل الترك ببني العباس! وليس في هذا تعصّباً للعرب لأصلهم ونسبهم، بل لأنهم أقرب لمعدن الرسالة ولفهم الشريعة ولحمل الدعوة أكثر من غيرهم والتاريخ شاهد بذلك، ولكن من ترك أمر الله أبدل الله لدينه خيراً منه ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقد ذكر ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم نحواً من ذلك. الشاهد من الحديث أن هارون الرشيد أبعد الفرس وأتى بالترك، وهم أمة بدوية في الأساس، وقد قدموا من سهوب آسيا وليس لهم حضارة سابقة باسقة يرون أن

حرباً عظيماً، ولعل ذلك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويتوقفون، فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق^(١)؛ وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر فسمعتة يذكر له أيوب الحمال بمصر والموليين ونحو ذلك فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأن له فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال، فإنه ذكر لي ذلك وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يجب تأليفه

الإسلام قد قطع موردها وليس لهم ثقافة غيبية مقننة ومعها خرافات وأساطير هائلة تناقلوها عبر قرون كحضارات الشرق الكبرى، لذلك فالترك أمة قريبة من الفطرة، سرعان ما تؤثر فيهم صدقاً آيات الله. وقد دخلوا الإسلام سريعاً، ولم يتردد أكثرهم، بل إن التتر (المغول) هم من أمم الترك الكبار، وقد دخلوا في الإسلام بعد أن تغلبوا مادياً على أهلهم، لكن سطوة القرآن على قلوبهم لها وقعها المؤثر الهادي، فدخلوا في دين الله أفواجاً، شاهد الكلام: أن غالب أمراء العباسيين بعد هارون الرشيد هم من هذه الأمة التركية التي لا تزال من منارات الإسلام، وإن لحقها ما لحقها من الجهل والمعاصي كسائر الأمم، والله المستعان.

(١) وهذا مأخذ عظيم وفقه متين، فالصلح وحفظ القضية لا يكون على غمغة وضبابية، بل بعد إقامة الحجة وانقطاع الباطل تكون المسامحة والعفو، حتى لا يفتن الناس، ولعل الأمير كان مغتاضاً من مخاريقهم الباطلة مع جهله بطريقة دفعها، فأراد أن يبطلها الله على رؤوس الأشهاد بواسطة العالم الرباني ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإكرامه، فأمر ببساط يبسط في الميدان، وقد قدم البطائحية^(١) وهم جماعة كثيرون وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء والظفر والحبو والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات^(٢)، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم وحضر شيخهم الأول المشتكي وشيخ آخر يسمى نفسه خليفة سيده أحمد^(٣) ويركب بعلمين

(١) ويقال لهم الرفاعية كذلك.

(٢) قال تعالى عن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام -وقصة موسى جديرة بعناية الدعاة إلى الله تعالى-: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٣) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) ﴿فَغُلِبُوا هُنَا لِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٦ - ١١٩].

(٣) أي: أحمد الرفاعي وإليه تنسب الطريقة الصوفية الرفاعية، وهو أحمد الرفاعي بن سلطان علي، ويصل أتباعه نسبه إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى علي بن أبي طالب. ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن بالقرب من أم عبيدة بالعراق سنة ٥١٢ هـ. وتوفي سنة ٥٧٨ هـ. ودفن في قرية أم عبيدة. ونسبت إليه أمور كثيرة مخالفة للسنة، وفيها من الابتداع والغلو الشيء العظيم. وتنسب له الطريقة الرفاعية، وتسمى أحياناً البطائحية نسبة إلى قرى البطائح بالعراق التي ولد فيها الرفاعي. وللشيخ أحمد الرفاعي كلمة مشهورة وفيها من الخوض الشديد على السنة واجتناب البدعة وهي قوله: «ما تهاون قوم بالسنة وأهملوا قمع البدعة إلا سلط الله عليهم العدو، وما انتصر قوم للسنة وقمعوا البدعة وأهلها إلا رزقهم هيبة من عنده ونصرهم وأصلح شأنهم». وقد =

وهم يسمونه عبد الله الكذاب ولم أكن أعرف ذلك وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المساءلة، فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه، حتى فارقني فبقي في نفسي أن هذا خفي على تليسه إلى أن غاب وما يكاد يخفى علي تليس أحد^(١) بل أدركه في أول الأمر، فبقي ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته، ذكر لي أنه ذاك كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تليسه بيني وبينه!^(٢).

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وأنا مجيئون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع ومتبعون للشرعية، فقلت: أما التوبة فمقبولة قال الله تعالى:

تطورت الطريقة في القرن الثالث عشر الهجري في عهد زعيمهم محمد مهدي الصيادي الرفاعي الذي ادعى أموراً خطيرة جداً مخرجة عن ملة المسلمين، والمؤسف أن الرفضة لهم التقاء بهم في بعض التوجهات كإقرارهم بعقيدة الأئمة الاثني عشر ويجعلون الرفاعي هو الثالث عشر، وغير ذلك من المحدثات. وانظر: الفكر الصوفي على ضوء الكتاب والسنة. وكذلك: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٦٢ / ١) وموسوعة الرد على الصوفية (ضمن المكتبة الشاملة: ١٢٧/٣).

(١) أخرج الطبراني في (١٢١/٨) (٧٤٩٧) من حديث أبي أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وحسنه الهيثمي في المجمع (٢٧١/١٠) والسيوطي في النكت (٢١٦).
(٢) إذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] هذه إلى جنب هذه، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠] فأخذ شيخهم المشتكي يتنصر للبسه الأظواق وذكر عن وهب بن منبه أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً في حكاية من حكايات بين إسرائيل التي لا تثبت، فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا، قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون»^(١) يا ابن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(٢).

وفي مراسيل أبي داود أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم»^(٣) وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا،

(١) التهوك: التحير والشك.

(٢) أحمد: (٧٨٣/٣). وحسنه الألباني في تخريج كتاب السنة (٥٠) وقال الأرناؤوط:

«رجاله ثقات إلا أنه من مراسيل الحسن البصري».

(٣) مراسيل أبي داود (٤٥٤) وفي مطبوعة الشيخ القاسم بلفظ (كتابكم) وهو خطأ طباعي.

وقد تنبه لهذا التحريف في ص: (٤٦٣) فذكر الصواب.

وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا كما قال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَظَرُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] هات ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم، وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية^(١) فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية، فقلت له: هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعدده بدعة، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملاكي^(٢) مفتي الشافعية ودعوته وقلت: يا كمال الدين ما تقول في هذا؟ فقال: هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة أو كما قال، وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم^(٣) وأشكُّ

(١) أي: بألفاظ قوية، وبصوت قوي، ولهما وقعها على النفوس إذا اجتمعا.

(٢) وهو من أصحاب شيخ الإسلام ومحبيه.

(٣) ومن شروط لا إله إلا الله الاستسلام لله، وهو ما عبر عنه العلماء بالقبول والانقياد، وقد قتل النبي ﷺ من تزوج امرأة أبيه وخمس ماله -لردته- فهو لم يقبل الشريعة بدليل =

هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر فإني تكلمت بكلام بَعْدَ عهدي به، فانتدب ذلك الشيخ عبد الله ورفع صوته وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر، ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وأن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا^(١)، فقلت له ورفعت صوتي وغضبت: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشرعية والحقائق كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقهاء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ، وذكرت هذا ونحوه.

خروجه عليها، وعلى ذلك جرت حروب الموحدين في نجد مع المشركين في القرن الثاني عشر ومن قبلهم قتال الصحابة للمرتدين من مانعي الزكاة وغيرها. وفي السنن عن البراء بن عازب قال: «رأيت خالي أبا بردة ومعه راية، فقلت: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه، فأمرني أن أضرب عنقه وأخمس ماله» وفيه دليل على وجوب قتل من زنى بأخته مع علمه بالتحريم كما ذكره شيخ الإسلام في بطلان التحليل (١٢٥/٣) وفي مسألة ترك الانقياد والقبول تفصيل، فقد تكون معصية، أو بدعة، أو كفرًا بحسب كل واقعة. ومسألة تبديل الدين من أخطر القضايا التي وقع فيها بعض المتبوعين من أهل العلم أو الدعوة، وكم من مسألة انزلت فيها عالم بفتيا طارت بها الطغام واستبدلوا بها حكم الله!

(١) كما في أقوالهم المشهورة: إذا قابلونا بعلم الورد - أي: أدلة الوحي - أتينا لهم بعلم الخرق، ويقصدون به الخرقه ولها سرّها الصوفي عندهم - وهي خرافة - ويقصدون بها كذلك الخوارق والشعبدات!

فقال ورفع صوته: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا، وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها، فقلت ورفعت صوتي وغضبت^(١): أنا أخاطب كل أحدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثلما تصنعون^(٢)، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت: فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن نغسل جُسومنا بالخل والماء الحار، فسألني الأمراء والناس عن ذلك فقلت: لأن لهم حيلًا في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع وقشر النارج^(٣) وحجر الطلق^(٤)، فضج الناس بذلك فأخذ يظهر القدرة على ذلك^(٥)، فقال: أنا

(١) والله تلك الغضبة التيمية! وكم يحتاج المسلمون من يغضب من علمائهم تلك الغضبة التي تعصف بالمنكرات والبدع والمخالفات ممن يقيمها كائنًا من كان. والرجال مواقف يعرفون بها. وكم من رجل من أوساط طلبة العلم له في دين الله مواقف مشهورة بزَّ فيها كثيرًا من الأكابر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

(٢) لأنهم اشترطوا على أنفسهم أن أهل الظاهر -أي علماء الشرع- لا يستطيعون وليست لهم تلك الأحوال الخاصة.

(٣) النارج: شجرة معمرة دائمة الخضرة، وثمرها برتقالي اللون خشن الملمس وطعمها حامض مثل الليمون، وتسمى حاليًا في الشام باسم أبو صغير.

(٤) حجر الطلق: ويسمى حاليًا (التلك) مشتقًا من اسمه العربي، ويسمى حجر الصابون، وهو حجر معدني كيميائي بلوري ويستخدم في كثير من الصناعات.

(٥) أي: أنه حاول التمثيل لما أسقط في يده بعد كشف ملعوبه! وفي هذا بيان فطنة الشيخ ونباهته.

وأنت نُلِّفُ في باريّة^(١) بعد أن تطلّى جسومنا بالكبريت^(٢)، فقلت: فقم، وأخذت أحرز عليه في القيام إلى ذلك^(٣) فمد يده يظهر خلع القميص، فقلت: لا حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر الوهم على عاداتهم، فقال: من كان يجب الأمير فليحضر خشباً أو يقال حزمة حطب، فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع ولا يحصل به مقصود، بل قنديل يوقد وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل ومن احترقت إصبعه فعليه لعنة الله، أو قلت فهو مغلوب^(٤)، فلما قلت ذلك تغير وذل، وذكر لي أن وجهه اصفر^(٥).

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ولو

(١) الباريّة: حصير مصنوع من القصب.

(٢) لأن الكبريت يبطل مفعلو دهاناتهم، كما أنها مادة سريعة الاشتعال شديدة الاتقاد، وهي مادة معدنيّة صفراء اللون ذات لهب أزرق، وتدخل في صناعة البارود الأسود.

(٣) أي: أحثه وأشدّد عليه في الوفاء بما قال، ولكن هيهات، لقد بطل السحر والساحر، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل!

(٤) وفي لحظة الصفر الحاسمة هذه يحتاج المؤمن إلى يقين تام وإيمان راسخ فالأسباب بيد مسببها سبحانه، إن شاء أرسلها وإن شاء حبسها وأمسكها وأبطل تأثيرها، والمؤمن لحظتها يتذكر قول رب العزة والجبروت والملكوت ومن وعده الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨] فكان مع الله ولا تبالي.

(٥) الله أكبر إن ديين محمدٍ وكتابه أقوى وأقوم قِيلاً
طلعت به شمس الهداية للورى فأبى لها وَصَفَ الكمال أفولاً
والحق أبلغ في شريعته التي جمعت فروعاً للهدى وأصولاً
لا تذكرها الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

طرتم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء: أمطري، فتمطر، وللأرض: أنبتي، فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك، فتخرج كنوزها تتبعه، ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيّه، ثم يقول له قم، فيقوم، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب^(١).

(١) في علم النفس ما يسمى بالإيحاء، وملخصه: أن لكل إنسان طريقة معينة في التأثير عبر الصوت ودرجاته والصورة والشكل واللباس وتعابير الوجه والجسد وغير ذلك، مما يفرز مجموعته تأثيراً معيناً على المتلقي، لذا فنرى بعض الرقاة أو حتى الأطباء - على سبيل المثال - يرقى المريض ثم يقترب منه، ويفتح عينيه بشكل أوسع من المعتاد، ويتكلم بصوت هادي كالضحك أو على العكس برفع صوته - حسب المكان وطبيعة المريض - ثم يلتقي في روع المريض وعقله الباطن بعض الرسائل الباطنة والظاهرة بحيث يتقبلها على علاتها بما يشبه اليقين، ذلك أن روزنة الفؤاد قد انفتحت لذلك الموجي.

وهذا الأمر له آثار علاجية نافعة أو ضارة بحسب حال الملقى والمتلقي، وكم فتحت على الناس من باب شر عند تصدر من ليس بأهل للرقية أو الطب. هذا، وليس لهذا علاقة بما يسمى بالتنويم المغناطيسي الإيحائي، إذ أن هذا يفعله المُلقي بدون تكلف مع وعي تام من المتلقي، لكنه استطاع الوصول لباطنه عن طريق تلك الأدوات الشائعة.. وتأمل طريقة شيخ الإسلام في رفع صوته عند ذكر الدجال ثم لعنه، وفي هذا إيحاء غير مباشر للمتلقين أن هناك من الدجاجة الصغار من يستحق تلك اللعنة.. فكان الختام ما ذكر رَحِمَهُ اللهُ من عظيم وقع الكلام على

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي^(١): لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي.

وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا - يعني الليث بن سعد -^(٢) قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على

القلوب!

(١) استشهد بقول البسطامي لأنه من المعظمين عند الصوفية بل إنهم يلقبونه بسلطان العارفين، وهو أول من أشاع بين المسلمين فكرة الفناء الصوفي الخبيث بمعنى الاتحاد بذات الله تعالى، وهي لوثة هندية بوذية، وغلا فيها حتى صرخ في الناس: «سبحاني ما أعظم شاني» تعالى الله وتقدس عن قول الظالمين علواً كبيراً.

(٢) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء (٩٤ - ١٧٥) أبو الحارث: إمام أهل مصر في عصره، حديثاً وفقهاً. قال ابن تغري بردي: «كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته». أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة، ووفاته في القاهرة. وكان من الكرماء الأجواد. وقال الإمام الشافعي: «الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به». أخباره كثيرة، وله تصانيف.

قال ابن بكير: «قال الليث: قال لي أبو جعفر: تلي لي مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي. فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل لي». وقال عبد العزيز بن محمد: «رأيت الليث عند ربيعة يناظرهم في المسائل، وقد فرفر أهل الحلقة». وقال شرحبيل بن جميل: «أدركت الناس أيام هشام الخليفة، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد

الله بن أبي جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد بن أبي حبيب، وابن هبيرة، وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حادثة سنه. وقال ابن بكير: «لم أر مثل الليث». وقال ابن وهب: «لولا مالك، والليث، لضل الناس». وقال عثمان بن صالح: «كان أهل مصر ينتقصون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث، فحدثهم بفضائله، فكفوا». وكان أهل حمص ينتقصون علياً حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل علي، فكفوا عن ذلك». (قلت: وتأمل بركة العالم الناصر للسنة والذاب عن صحابة رسول الله ﷺ).

كان عالماً بسنة رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن عبد الحكم: «كنا في مجلس الليث، فذكر العدس، فقال مسلمة بن علي: بارك فيه سبعون نبياً. ففضى الليث صلاته، وقال: ولا نبي واحد، إنه بارد مؤذ». وقال عبد العزيز الدراوردي: «لقد رأيت الليث، وإن ربيعة ويحيى بن سعيد ليتزحزون له زحزحة». وقال سعيد الآدم: «قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا، وإمامنا، وعالمنا». وقال ابن سعد: «كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه».

وقد أوسع الله عليه رزقه، وكان منفقاً معطاءً جواداً ممدحاً وربما بلغ ماله في السنة عشرون ألفاً وما وجبت عليه الزكاة لإنفاقه في وجوه البر والإحسان، قال حرمله: «كان الليث بن سعد يصل مالاً بمئة دينار في السنة، فكتب مالك إليه: علي دين. فبعث إليه بخمس مئة دينار، فسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث: إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفرو. فبعث إليه بثلاثين حملاً عصفراً، فباع منه بخمس مئة دينار، وبقي عنده فضلة». وقال أبو صالح: «سألت امرأة الليث مناً من عسل، فأمر لها بزق، وقال: سألت على قدرها، وأعطيناها على قدر السعة علينا». وتأمل ورعه وحسن أدبه إذ لم يقل: وأعطيناها على قدرنا! وعن الحارث بن مسكين، قال: «اشترى قوم من الليث ثمرة،

الماء فلا تغتر به، فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به. وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بعد عهدي به، ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادَّعَوْه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون! وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء الموهَّون منهم، وهم عدد كثير والناس يضجون في الميدان

فاستغلوها، فاستقالوه، فأقالهم، ثم دعا بخريطة فيها أكياس، فأمر لهم بخمسين ديناراً، فقال له ابنه الحارث في ذلك، فقال: اللّهم غفرًا، إنهم قد كانوا أملوا فيها أملًا، فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا».

وكان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها: أما أولها، فيجلس لنائب السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمرًا، أو من السلطان، كتب إلى أمير المؤمنين، فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم. ويجلس للمسائل، يغشاه الناس، فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد فيرده، كبرت حاجته أو صغرت.

قال يحيى بن بكير، وسعيد بن أبي مريم: «مات الليث للنصف من شعبان، سنة خمس وسبعين ومئة». وقال خالد بن عبد السلام الصدفي: «شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي، فما رأيت جنازة قط أعظم منها، رأيت الناس كلهم عليهم الحزن، وهم يعزي بعضهم بعضًا، ويبيكون، فقلت: يا أبت، كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة. فقال: يا بني، لا ترى مثله أبدًا». انظر: الأعلام للزركلي: (٥ / ٢٤٨) سير أعلام النبلاء: (٨ / ١٤٦-١٦٢) وهو من الأئمة الأعلام المغمور فضلهم عند الناس، رَحِمَهُ اللهُ وأحسن إليه.

ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿ [الأعراف: ١١٨، ١١٩] وذكروا أيضًا أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب، وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً. فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب إنه مُلبَّس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقتني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة^(١) وأنه دخل الروم واستحوذ عليهم، فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم وتبين للأمرء الذين كانوا يشدون^(٢) منهم أنهم مبطلون فرجعوا. وتخطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال، وعرفوا حقيقة المحال، وقمنا إلى داخل ودخلنا وقد طلبوا التوبة عما مضى. وسألني الأمير عما يطلب منهم فقلت: متابعة الكتاب والسنة، مثل أن يعتقد أنه لا يجب عليه إتباعها أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز إتباع طريقة تخالف بعض حكمها ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر، وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتنكر علينا غير الأطواق، نحن

(١) أي بما يمنع احتراقها.

(٢) أي يشدون من أزرهم ويعينوهم.

نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق ليس المقصود شيئاً معيناً وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ^(١)، فقال الأمير: فأى شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، ومن خرج عنه ضربت عنقه - وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان - وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس، فإن هذا مشهد عام مشهور، وقد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة وأهل الديوان والعلماء والعباد وهؤلاء وولاة الأمور أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا عليّ في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد شيء لله! وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم، فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عاداتهم في صغير الذنوب، ولم يأمره بإعادة الصلاة! وكذلك يصيحون في

(١) فالعبرة ليست برمز معين، أو مطلب جزئي، أو مثال تفصيلي، بل المطلوب القيام بدين الله والتزامه جملة وعدم الإحداث فيه، وبهذا تنظم جميع الجزئيات في نظام الاستسلام لله تعالى.

الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس، فقلت: العطاس من الله، والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان وهو باختيارهم وتكلفهم ويقدرّون على دفعه، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى، مثل قول أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام! ^(١) وقول الآخر: كذا وكذا من الإمام ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالتوبة، وأنا أعلم أنهم متولّين شياطين، ليسوا مغلوبين على ذلك كما يُغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم، قلت له: أهذا موافق للكتاب والسنة؟ فقال: هذا من الله، حال يَرُدُّ عليهم ^(٢) فقلت: هذا من الشيطان الرجيم، لم يأمر الله به تعالى ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أحبه الله ولا رسوله. فقال: ما في السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته. فقلت:

(١) وتأمل هذه الضلالات، واحمد الله على نعمة التوحيد والسنة، واعلم أن كثيراً منها لا زال سائداً بين بعض الطرقية، ولا قوة إلا بالله.

(٢) وفي جوابه البدعي: الاحتجاج بالقدر على المعاصي، والقول بالجبر، والاستمرار على بدعة تسليم الحال المبتدع!

له هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله، بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن^(١). فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال؟ فقلت: بهذه السياط الشرعية^(٢). فأعجب الأمير وضحك وقال: أي والله بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية^(٣) فبالسيوف المحمدية. وأمست سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول الله ﷺ وغلामه، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله. وأعاد الأمير هذا الكلام، وأخذ بعضهم يقول فاليهود والنصارى يُقَرُّون ولا نَقَرُّ نحن؟ فقلت: اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم، والمبتدع لا يُقر على بدعته، فأفحموا لذلك^(٤).

(١) والقاعدة أنه يحتج بالقضاء والقدر على المصائب لا المعاصي والمعائب، فأهل النار يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

(٢) وصدق الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» ورحم الله الإمام أبا بكر بن العربي المالكي عندما وصف كفر غلاة الشيعة بأنه «كفر بارد لا تسخنه إلا حرارة السيف، أما دفع المناظرة فلا يؤثر فيه».

(٣) أي بالجلد تعزيرًا.

(٤) وصدق أبو حيان النحوي حينما قال:

قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	مقام سيد تيم إذ عصت مُضَرُّ
فأظهر الدين إذ آثاره درست	وأخذ الشرك إذ طارت له شرر

وحقيقة الأمر أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقر، ولا يقر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة، وذكرت ذم المبتدعة فقلت روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «إن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»^(١) وفي السنن عن العرياض بن سارية قال خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كان هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»^(٢).

(١) مسلم: (٤٣).

(٢) أبو داود (٢٦٧٦) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٥٥) وفي صحيح مسلم بعض حروف منه. أما زيادة: «وكل ضلالة في النار» فهي عند النسائي (١٨٩/٣) وقد صححها جمع من المحدثين منهم الألباني، وفي تصحيحهم نظر. وقال محققو المسند الأرئووط ومن معه: وهذا الحرف «كل ضلالة في النار» لم يرو في هذا الحديث إلا من طريق عبد الله بن المبارك عن سفيان الثوري، وأما من غير حديث جابر فقد روي عن

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثاً في ذم الزنا، فقلت: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والزنا معصية، والبدعة شر من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها^(١). وقال بعضهم: نحن نُتَوَّبُ الناس. فقلت: مماذا

ابن مسعود موقوفاً عند اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٨٥)، والبيهقي ص ١٨٩، وإسناد البيهقي ضعيف، أما إسناد اللالكائي ففيه أيوب بن الوليد، وهو مترجم في «تاريخ بغداد» ١٠/٧، ولم يَأْثُر الخطيب فيه جرماً ولا تعديلاً، وانظر (١٤٣٣٤). (تحقيق المسند، دار الرسالة بإشراف التركي: (٢٣ / ٢٣٥).

قلت: وكان ابن باز رَحِمَهُ اللهُ يميل إلى تضعيف هذه الزيادة، ونقدها من جهة العلة في المتن كذلك، فمن الضلالة ما تكون عن غير تفريط من صاحبها، كأن اجتهد وأخطأ، فلا تكون في النار.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٩ / ١٩١): «وقد كان النبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح في خطبة يوم الجمعة: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ولم يقل: وكل ضلالة في النار. بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبه فعجز عنه، فلا يعاقب، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهداه وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفور له. وكثير من مجتهد السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم».

(١) ولعله قصد أن جنس البدع شر من جنس معاصي الشهوات، وهذا في مقابلة جملة لجملة وجنس لجنس، ولا يعني هذا أن كل بدعة هي شر من كل معصية، فبعض البدع

تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم، فإنهم كانوا فاسقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ويرجون رحمة الله ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين، مشركين^(١) خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، ونثبت أن هذه الشريعة التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

وقلت مخاطباً للأمير والحاضرين: أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر ابن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً وكان يشرب الخمر وكان يضحك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان كلما أتي به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جلده الحد، فلعنه رجل مرة وقال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال النبي ﷺ: «لا تلعه فإنه

المسلكية مثلاً كالذكر الجماعي أو قيام ليلة النصف من شعبان أو تلقين الميت بعد دفنه ونحو ذلك ليست بشر من القتل والزنا بلا خلاف، ولكن الشيخ هنا إنما هو مؤصلٌ للمنهج الشرعي، ومعظم لوجوب حراسة العقيدة من حبال البدع والمحدثات، لأنها مؤدية على طول المدى للوقوع في شر منها شيئاً فشيئاً حتى تصل ببعض الناس للانسلاخ من الدين بالكلية! وهذا مكمّن خطورة البدع، إضافة إلى أنها اتهام ضمني غير مباشر لرسول الله ﷺ أنه لم يبلغ البلاغ المبين، أو أن الدين في ذاته ناقص غير مكتمل إلا بإضافة تلك البدعة! وما يلزم من ذلك لتكذيب الله تعالى بقوله: ﴿أَيُّوَمَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

(١) يقعون في الشرك إذا التزموا ما في طريقة الرفاعي من الشراكيات.

يحب الله ورسوله»^(١) قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد^(٢) يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنته.

وأما المبتدع فمثل ما أخرجنا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يَقْسِمُ فجاءه رجل ناتئ الجبين كث اللحية مخلوق الرأس بين عينيه أثر السجود وقال ما قال، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِي»^(٣) هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» وفي رواية: «لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل» وفي رواية: «شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه»^(٤) قلت:

(١) البخاري: (٦٧٨٠).

(٢) فالتوحيد هو المصحح للأعمال، وحسنة التوحيد لا تعادلها حسنة، وتأمل حديث البطاقة وحديث طلب موسى عليه السلام وغيره، وللفادة العظيمة تنظر الأبواب الستة الأولى من كتاب التوحيد للإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) الضَنْضِيُّ والضُّؤُؤُ: الأصل والمَعْدُنُ. ومعنى قوله «يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِي هذا»: أي من أصله ونسله وأشباهه. قال الكمي:

وَجَدْتُكَ فِي الضَّنِّ مِنْ ضَنْضِي أَحَلَّ الْأَكْبَابُ مِنْهُ الصَّغَارَا

(٤) متفق عليه. البخاري (٦٩٣٣) ومسلم (١٠٦٤).

فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته. وأظن أني ذكرت قول الشافعي: لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يُبتلى من هذه الأهواء^(١)، فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعاً منكراً، فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر.

ثم أخذ شيخهم عبد الله يقول: يا مولانا لا تتعرض لهذا الجنب العزيز يعني أتباع أحمد بن الرفاعي. فقلت منكراً بكلام غليظ: ويحك أي شيء هو الجنب العزيز؟! تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله، فقال: يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم، فقلت: مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم^(٢) وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم ويقول أصحابهم: إن لهم سراً مع الله، فنصر الله وأعان عليهم، وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجليل. وقلت لهم: يا شبه الرافضة يا بيت الكذب فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك أو يساوونهم أو

(١) يطلق السلف مسمى الأهواء ويريدون بها البدع.

(٢) كما وقع له معهم في جبال كسروان، بعد وقعة شقحب، فقاتلهم ومعه المسلمون حتى أنزلوهم من جبالهم وألزموهم الشريعة.

يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم، وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿فَكِيدُوا فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود: ٥٥].

ولما رَدَدْتُ عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك، والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

هذا آخر ما جرى مع البطائحية لشيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام، الشيخ تقي الدين أحمد الشهير بابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه ورضي عنه^(١).



(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، طبعة العلامة محمد رشيد رضا: (١) / ١٢١ - (١٤٦) الفتاوى: (١١: ٤٤٥ - ٤٧٥).

الإقسام على الله تعالى ثقة به

ومن الثقة بالله ما يعتلج في نفوس بعض الصالحين أحياناً من إحسان الظن برهم جل جلاله، مع وقوعهم في حال يشبه حال الضرورة والفاقة والمسكنة والتبري من الحول والطول والقوة إلا به، مع انقطاع تام عن حبال الخلق أجمعين، وتعلق بمن مقاليد الأمور بيده وأزمة المقادير بيمينه فيدعو أحدهم ربه دعاء خالصاً مع إقسام على ربه عز وجل أن يحقق رجاءه، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في الصحيح: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(١) وهذا ناشئ عن ثقة بالله مع حسن ظن به، ولكن لا يحسن التماذي في ذلك حفظاً لمقام الأدب مع الله تعالى وخشيته وإجلاله، وتذكراً شر النفس ومعاصيها، ففيه ما فيه من الإدلال، وهو ما يسمى عن عند أرباب الطريق بإدلال الحبيب، ولكن ينبغي التحفظ قدر الإمكان عند وروده على قلب العابد المحب.

وقد قسم أهل العلم أحكام الإقسام على الله لخمسة أقسام:

القسم الأول: أن يحلف على معين، مثال: أن يحلف على معين بعدم المغفرة أو الفضل، ونحو ذلك مثل: والله لا يغفر الله لفلان، ومثال الفضل: والله لا يرزق الله فلاناً.

(١) مسلم (٢٥٤٢).

أما حكمه: فهو حرام وينافي التوحيد أو كماله الواجب، فإن كان من باب العجب بالنفس واحتقار المحلوف عليه، فهذا محرم، وإن كان من باب نسبة الله إلى العجز، أو أنه متصرف مثل الله، فهذا يُنافي التوحيد.

القسم الثاني: الإقسام على وجه الثقة بالله وإحسان الظن بالله ومنه حديث «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(١) ومنه قَسَمَ أنس بن النضر لما قال: «والله لا تكسر ثنية الربيع»^(٢). وهذا النوع جائز، ولا ينبغي الاسترسال فيه.

القسم الثالث: الإقسام على الأحكام الشرعية، مثل قسم ابن عمر على القدرية في قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه»^(٣). ومثل قول الرجل: والله لا يقبل الله من منافق. وهذا يجوز، فقد حفظ عن رسول الله ﷺ إقسام كثير في إثبات أخباره عن الله تعالى وأحكامه كما في مسند أحمد من قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده للدنيا على الله عز وجل أهون من هذه على أهلها»^(٤). وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله عز وجل»^(٥).

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليُحازنَّ الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل،

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٥٤٢).

(٢) متفق عليه من حديث أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. البخاري (٤٦١١) ومسلم (١٦٧٥).

(٣) مسلم: (٨/١).

(٤) أحمد: (٢٩ / ٥٤٨) (١٨٠١٣) وصححه الأرناؤوط، وبنحوه عند مسلم.

(٥) أحمد: (٢٨ / ٢٧٥). والبخاري (٦٦٣٣).

والذي نفسي بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرزن الحية إلى جحرها»^(١) في كثير من أحاديثه صلوات ربي وسلامه عليه.

القسم الرابع: الإقسام على الوصف والنوع، مثل: والله لا يغفر الله للزاني ونحوه. والفرق بينه وبين الأول: أن الأول للعين أي هذا الزاني، والرابع للنوع أي لا يغفر الله للزاني - أي من زنا، وهذا القسم لا يجوز؛ لأن فيه تعميم ينافي المشيئة، فإن من ارتكب الزنا تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه.

القسم الخامس: الإقسام على الله من باب عدم فعل ما حث الله عليه مثل قول رجل: والله لا أتصدق اليوم - أي تطوعاً - للحديث الذي رواه البخاري: أن رجلاً تخاصم مع رجل في حق فقال: والله لا أفعل لما قيل له: صالحه، فقال الرسول ﷺ: «أين الذي يتألى على الله أن لا يفعل المعروف؟»^(٢).

أما الإقسام على عدم فعل الواجب؛ فهذا اعتراض على الشرع، مثل: والله لا أحج أو لا أصلي في المسجد. وكل هذا في باب حقوق الله أما حقوق الخلق ففيه تفصيل^(٣).



(١) أحمد: (٢٧ / ٢٣٧). وعند البخاري (١٨٧٦) مرفوعاً: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرُزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جَحْرِهَا». ورواه الترمذي كذلك بزيادة: «وَلْيُعْقَلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرُوءَةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيْبًا وَيَرْجِعُ غَرِيْبًا فَطَوْبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سِتِّي» (٢٦٣٠) وقال: حسن صحيح.

(٢) البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).

(٣) المعتصر شرح كتاب التوحيد. علي بن خضير الخضير (١ / ٣٥٢ - ٣٥٣).

وصايا للعباد والدعاة وطلبة العلم في باب الثقة بالله ولقائه

أولاً: الاهتمام الشديد بغذاء الروح، فغذاء الروح أهم وأخطر من غذاء الجسد، والروح تطيب وتخبث بحسب غذائها كالجسد بل أشد.

ولتنبه - أخي في الله - لمسألة في غاية الأهمية، وهي مسألة الحرص البالغ على زيادة منسوب الإيمان في القلب، فالإيمان ينقص مع مضي الوقت فليس مستواه ثابتاً، ولو كان كذلك لاقتربنا من أحوال الملائكة، وبعض الناس يظن أن المعصية المباشرة هي ما ينقص الإيمان فقط، وهذا خطأ ترتب عليه زهد بعض الصالحين في رفع مستوى إيمانهم عبر قنواته المعلومة المشروعة، وهي الطاعات تلو الطاعات، من قراءة وذكر وتفكير وصدقة وبر وغير ذلك.. وصار لسان حال بعضهم: بما أني لم أقع في كبيرة ولم أُصرّ صغيرة فإيماني جيد وحالي مطمئن! ولم يعلم أن الغفلة تآكل هذا المخزون الإيماني في القلب، بل إن الانكباب على الشهوات المباحة وكثرة ملابتها هو مما يُخلق الإيمان في القلب وينقص منسوبه! ولولا ذلك لصافحتنا الملائكة في الطرقات، وهذه سنة ربانية جعلها الحكيم سبحانه من موارد ابتلاء عباده، فعلى الناصح لنفسه أن يراعي ذلك المخزون من الإيمان في قلبه وأن يستمر ويدوم على تغذيته باستمرار، فهو كالخزان الذي ينزف الماء من أسفل ولا حيلة في إغلاقه، فتردّد النَّفسِ في الصدر في هذه الدار هو ذلك الخرق اليسير في أسفله، فإن صاحبه توسع في مباح، أو ركّز لمكروه، أو طول غفلة عن ذكر، أو ملاسة خطيئة فتلك

خروق أخرى في جدار خزان الإيمان، وعلى قدر خطرهما يكون نزفه! فخروق الخطايا يمكن سدّها بالتوبة الصادقة النصوح، أما ذلك الخرق الأول اليسير فلا حيلة في سدّه بسبب ثقله الطين وجذب الغريزة وتحمّ مخالطة المادة، ولكن الحيلة في تعويض ما ذهب بمنسوب جديد من الإيمان، وموارده بحمد ربنا في تناول كل مؤمن مهما كان حاله، وعلى قدر كيفية وكمية إحسان الطاعة إخلاصًا واتباعًا؛ يكون المنسوب أغزر وأصفى وأضوأ، والشأن في من يملأ ذلك المخزون حتى يفيض على أركان روحه فتطمئن للقاء ربها وتنتظر موعوده وأجله الذي أخفى وقته وحتّم وقوعه. وتأمل الحكم السامية من مشروعية الاعتكاف كل سنة، بل وأعظم منه الخشوع في الصلاة وما يترتب عليه من نعيم أنفس لا يصفها إلا من ذاقها من الموفقين. وتأمل قول نبينا ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»^(١).

ولا بد أن يعلم أن إزالة وَضَرِ الخطيئة وأثرِ العصيان يحتاج لوقت طويل وليس كما يُظن أن التوبة تعيد القلب كما كان، فالقلب وهو وعاء الإيمان قد خُدش أو طُعِن بحسب نوع وقدر الخطيئة، فبعض الخطايا يحتاج ترميم إيمان القلب بعدها لزمان طويل.. ومعنى «التوبة تجب ما قبلها»^(٢): أي يمحي الإثم من الصحيفة، ولكن هذا لا يعني سلامة القلب بعدها، بل قد تبقى القساوة

(١) رواه الحاكم (٤/١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٠).

(٢) البخاري (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠) بمعناه.

والظلمة في القلب وقتاً قد يمتد العمر كله.. فاحذر الخطيئة مهما صغرت، وسارع للإقلاع عنها قبل أن تطول جذورها في قلبك، فكلما طالت جذورها صعب اقتلاعها بالتوبة أولاً، ثم صعب التخلص من آثارها السيئة آخرًا حتى بعد رحيلها، والذنوب جراحات القلوب، وربّ جرح وقع في مقتل!

وقد يوفق العبد لتوبة خاصة عظيمة تبني القلب بناءً كلياً جديداً كأنه لم يقارف معصية قط! كحال كثير من الصحابة وعظيم إيمانهم الذي لن يلحق به من بعدهم، وكتوفيق الله لبعض التائبين الذين حفر الندم في قلوبهم أخاديد عميقة، وأجرى من عيونهم جداول غزيرة.. وهم يتمنون بصدقٍ لعظيم ندمهم أنهم لم يُخلقوا حتى لا يزلّوا تلك الزلة التي كوت قلوبهم وأحرقت وجوههم حياء من ذي الجلال والإكرام سبحانه، ولكن من يوفق لمثل هذا؟

إن الثقة بالله قد حرم منها أرباب الفكر المادي باتجاهاته العديدة، وعلى قدر مستوى إنكاره للغيب الذي جاء به رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه تكون أزمة ذلك الفكر المادي، وضياعه، وضلاله، وحيрته.

فالواحد منهم لا يطيب مزاجه إلا بتغييبه عن واقعه، بسكرة شرابٍ أو نشوة خيالٍ، إذ أن إفاقته بالرجوع للواقع الصادق، المشعّ ببراهين الفطرة واتساق العقل السليم مع حركة الكون العامة، بامتدادها في الأطراف زماناً ومكاناً يصيبه بدهشة كئيبة لا تطيقها نفسه النزاعة للعلو والاستكبار ضد كل ما يحول بينه وبين عبوديته لنفسه دون غيرها ولو كان رب العالمين!

الفكر المادي المنكر لكل ما وراء المادة والطبيعة يصطدم كل لحظة بجبال

اليقين الحسية والعقلية وأشد منها الروحية، ذلك أن الجاحد لهذه اليقينيات الغيبية لا ينفك عن الارتباط بها ومناداتها ومناغاتها والاستماع لها، بل والابتهاال والدعاء والاستغاثة لمن وراءها عند الكروب والشدائد، حتى وهو يعبّ كأس الإنكار الظاهر ويكرع في تكرار زيف مشاعره!

وأكثر من رام تلمس طريق الغيب صرعه الجهل دون عتباته، إنه السّفَرُ الدؤوب للروح لإشباع حاجتها للإحساس بربوبية ربها وعبادته^(١) والأمن

(١) تسمية توحيد العبادة بأسماء أخرى (ألوهية - إلهية - عبودية) تسميةٌ صحيحة بلا تردد، لا من حيث الاشتقاق، ولا من حيث المعنى، ولكن هناك ربكة ذهنية في فهم بعض طلبة العلم حيال ذلك، وقد لاحظتها فيهم من المراحل الابتدائية حتى الجامعية! فإذا سألت أحدهم عن الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية حار في الجواب، والسبب أنه بطبيعته العربية سيعيد اللفظ تلقائياً إلى اشتقاقه ومصدره، وسيؤديه هذا إلى أن الربوبية مشتقة من كلمة «الرب» والألوهية مشتقة من كلمة «إله» والكلمتان تشيران إلى ذات واحدة، لأن اجتياز ذلك المدى المعرفي اللغوي إلى الوصول لمعرفة أصل كلمة «رب» ورجوع اشتقاقها ومصادرها وفروعها لمعنى الخلق والملك والتدبير.. أو أن كلمة «الإله» راجعة إلى معاني التأله والعبادة، من مألوه بمعنى معبود.. ليس لطلبة زماننا، فالعجمة فيهم فاشية ظاهرة!

فطال تشقيق الكلام على معنى كنا في غنية عن تشييت مبتدئة الطلبة فيه. فلو اكتفى العلماء في تحريرهم وبيانهم لأقسام التوحيد الثلاثة على القول بأنها: ربوبية، وعبادة، والأسماء والصفات والأفعال؛ لكان خيراً لأمرين:

الأول: راحة للطالب من الحيرة، ورحمة به من التشييت.

ثانياً: أنه لفظ شرعي وليس بمحدث - وإن كانت كلها شرعية - لكن هذا اللفظ =

تحت كنفه. إذ أن المفتاح الأول لعالم الغيب - وأعني به العلم بأن للكون ربًّا معبودًا هو الله وحده - لم يؤت به رب الغيب والشهادة سبحانه إلا الموفقين من عباده، نعم لقد نقش رسمه في الفطرة الأولى لكل إنسان، فإن ساعد على ذلك سقيا رحمة أزهرت وأثمرت النافع الجميل من علوم الوحي الشريف النقي،

أقرب من جهة أنه متعلق بالعبد ونيته وأقواله وأعماله. والله أعلم. ومن تلك المصطلحات المحتاجة لإعادة نظر مصطلح: التخلية والتحلية: وقد انتشرت هذه الجملة بين المتأخرين في بيانهم لمعنى ركني الشهادة. وأرى أن لو استبدلت بما هو أولى منها، خاصة وأنه يوجد من اشتقاقات جذر كلمة «التخلية» ما هو أولى منها ككلمة «إخلاء» مثلاً، لدلالاتها على التفرغ والإزالة فقط، أما التخلية فلها معانٍ أخر غير مرادة.

أما «التحلية» فلا أراها سائغة، وليس لها معنى مفهوم في مرادها الموضوع له في هذا السياق! و«التحلية» ربما كان أصلها كلمة «إحلال» فكان تصريفها على وزن «تحلية!» وليس هذا التصريف من العربية في شيء!

وقد يكون أصلها من الحُيَّ أو من تحلية الطعام، أي الوجبة الحلوة المقدمة بعد الدسم، وفي هذا إزراء كبير بمعناها!

هذا ولم أجد للسلف في التعبير بها حرفاً، وكل خير في أتباع من سلف، وكأن أصلها راجع إلى الطريقة ثم إلى أرباب السلوك المتأخرين ولها لديهم معانٍ منها الذكر الخاص، وأحوال ترد على قلب المرید والسالک، ونحو ذلك.

الشاهد: أن هذا الجملة في حاجة لإعادة تقويم ونظر. ولو قيل: الكفر بالطاغوت قبل الإيمان، أو البراء قبل الولاء، أو النفي قبل الإثبات.. والأخير كأنه أجود، وبالله التوفيق.

أما إن انتهبها قُطَّاعُ طريق فلاح الأرواح فإن السعادة تعود شقاءً والنعيم بؤساً، وينقلب العلم جهلاً! وللحكيم سبحانه في ذلك حكم لا يدرك البشر إلا بعض أطرافها بتوفيق الله لهم.

وللفكر المادي أزمة ملازمة، فكل إنسان مهما تطرّف في فكره وإلحاده؛ لا بد أن يؤمن بقدر مشترك من علم الغيب، وأن هناك عوالم موجودة غير محسوسة بحواسه الخمس، وإن اختلف الناس اختلافاً عظيماً في الإقرار بأفرادها وتفصيلها، قال الله تعالى في بيان إقرار ضمائر أشدّ الجاحدين بربوبيته سبحانه: ﴿وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال في وصف حال المكذبين في الدنيا إذا شاهدوا ما كانوا ينكرونه ظاهراً مع إقرارهم به في الباطن: ﴿بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ولا يعني هذا بحال أن كل من آمن بالغيب فهو على سبيل نجاة، بالطبع لا، فكل أمم الأوثان - بلا استثناء - هي مؤمنة بعوالم غيبية، لكنها عوالم شوهاها الجهل والتكذيب وبعدهم عن آثار المرسلين.

وكلما تقدّم العلم التجريبي بفروعه الكوني والتطبيقي والتشريحي وغيرها فإنه يجد نفسه ساجداً في محراب الإيمان بأن وراء هذا العالم المتناسق البديع خالقاً حكيمًا مدبرًا رحيمًا، وعلى قدر تجرده لنداء المنطق وإلحاح الفطرة الأولى يكون قربته من الاستسلام لرب العالمين، وما أقرب به للإسلام حينها إن وفق لمن يأخذ بيده الحيرى ونفسه القلقة.

وهناك خيط فاصل بين الحقيقة والخرافة، بين العلم والأسطورة، ومن

أبصر الخيط بنور الوحي انتظم أمره واستقامت محبته.

وليس بيدع من القول أن كل إنسان لا بد أن يؤمن بقدر من الغيب يلقي إليه أشلاء حيرته من سرّ الوجود وعلة الخليفة، وما يلحق ذلك من تحميل ذلك الغيب أموره المحيرة التي يحس بإلحاحها عليه وضغطها الشديد على عقله ونفسه، كروحه التي بين جنبيه، فنفسه العاقلة المتصرّفة في جسده هي أقرب سرّ وأغمضه وأحلّكه مع إحساسه الدائب بها، فكيف هذا؟! ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لذا فالعلم في كثير من أحيانه إنّما يكون بالإقرار بالجهل الإيجابي، وهو الإقرار بالحقيقة مع التسليم بعدم معرفة التفاصيل، مع الاستسلام والتفويض لمن بيده مقاليد الأمور ومفاتيح حقائق العلوم، وهو الجهل البسيط الذي لا ينفك عنه إنسان مهما بلغ في مراتب العلوم ﴿وَمَا أُوتِئْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فحينئذ يعرف المرء قدره، وأنه لم يُعط من العلم إلا على قدر ما يحتاجه لإقامة العبودية لرب العالمين، واستخلافه في الأرض ليعمرها ثم يعبرها للدار الآخرة.

لهذا فأساس الدين هو الإيمان بالغيب، وللايمان بالغيب طرفان:

الأول: العلم واليقين والإقرار بحقائق ما أخبر عنه الوحي في القرآن والسنة من صفات الله تعالى واللجنة والنار والبعث والملائكة والجن وغير ذلك من الغيوب المذكورة في الكتاب والسنة.

الثاني: الوقوف عند هذا الحد، وعدم الخوض في الكيفيات بدون دليل وبرهان، فصفت الله تعالى معلومة مثبتة مؤكدة، ولكن كيفياتها لا نعلمها ولا نخوض فيها، فالقول في الصفات كالقول في الذات يُحْذَى فيه حذوه ويجرى فيه بمثاله، كذلك أمور الغيب التي جعل الله دونها سجفاً من الحجب التي أحالتها للغيب المطلق دون عالم الشهادة المحسوسة.

لذلك فأول وصف في القرآن وصفَ الله تعالى به عباده المؤمنين هو إيمانهم بالغيب، فقال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] فلا إيمان لمن لا يؤمن بالغيب، بل كل أركان الإيمان الستة هي من أمور الغيب، وكفى بذلك تعظيماً لهذا الجانب.

وبالجملة فمن أنكر الغيوب واستمسك في النزاع بالمحسوسات دون الغيبات فهو مناقض لنفسه، مكذب لفطرته، مناوئ لصداق إحساسه، وليس له عند الله من خلاق.

فيا صاحبي: اكتب بمداد سواد الليل على أديم بياض النهار منشور خلاصك، وأتّى ذلك إلا بالباقيات الصالحات، فاغتنم جمعيتك قبل الشتات، وبقيتك قبل الفوات.

ثانياً: استشعار الثقة بالله على كل حال وفي كل حين في السراء والضراء. قال العلامة محمد المختار الشنقيطي في وصاياه لطالب العلم: «لابد لطالب العلم من استشعار الثقة بالله عز وجل، والثقة بالله سبحانه وتعالى هي التي تفتح لطالب العلم آفاق العلم ورحابه الواسعة بمجرد أن يضع قدمه في أي

منهج أو طريق أو سبيل يقوده إلى العلم، يضع قلبه في السماء وإن كان قلبه في الأرض؛ لأنه من أولياء الله سبحانه وتعالى، وتولى الله سبحانه وتعالى، يريد أن يحمل شرعه ودينه ويكون أميناً على أمة محمد ﷺ، فهو في منزلة شريفة كريمة.

كيف تكون الثقة بالله عز وجل؟ يبدأ طالب العلم وكله أمل في أن الله سبحانه وتعالى ينفحه برحماته: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، من الذي علم آدم؟ ومن الذي فهم داود وسليمان؟ الله سبحانه وتعالى، الثقة بالله عز وجل، الصدر المنشرح، القلب المطمئن، النفس القوية، قوية صادقة؛ لأنها توقن أن الله سبحانه وتعالى لا يخيب من سلك هذا السبيل، وتكفل الله بالجنة لأهله لما أعد لهم من النعيم، كيف تثق بالله؟ تثق بالله أنه سيعلمك، والله ثم والله لو تعلمون كيف كان أهل العلم ممن أدركنا وعرفنا، ومما رأينا من ألطف الله في أنفسنا يحار عقل الإنسان، العالم حينما تنظر كيف يجمع هذا العلم، وكيف يفهم هذا العلم، وكيف يرتب مسائل العلم تثق ثقة تامة أنه لا حول له ولا قوة، وأن وراءه قوة إلهية، وحفظاً إلهياً فوق ما يخطر للإنسان على بال، والله إن الإنسان يكون متعباً منهكاً مريضاً لا يفتر أن يجلس في مجلس العلم، وكأن لسانه يقاد فيما يقول وفيما يتكلم؛ لأن هذا دين الله عز وجل، وإن لم يكن العلماء أولياء الله عز وجل فمن؟

فيا طالب العلم! إذا كنت تريد أن تسلك سبيل الله عز وجل فلا بد أن

يكون عندك ثقة أن الله يُفهمك؛ ولذلك فطالب العلم يأتيه الشيطان ويقول له: أنت لا تستطيع أن تحفظ، أنت إنسان كسول خمول، ابحث عن شيء آخر غير العلم، فيثبته عن طاعة الله عز وجل ويجعل الأمر راجع إلى ملكته، وليس راجعاً إلى فتوح الله جل جلاله الفتح العليم الرزاق الكريم سبحانه وتعالى، لكن حينما يقول: أنا الضعيف، أنا المسكين، أنا الجاهل، أنا المقصر، وربّي هو الكريم، وهو الحليم الرحيم، وأملّي في الله كبير، فتح الله له أبواب رحمته: «أنا عند حسن ظن عبدي بي»^(١) إخلاص واستشعار وثقة بالله سبحانه وتعالى، كنا جاهلين فعلمنا الله، وكنا ضلالاً فهدانا الله، والله عز وجل يقول لنبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]، يقولها لخير الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

يا طالب العلم! حينما تطلب العلم وصدرك منشراح أن الله يكرمك ويعلمك، وأن الله يرحمك، وأن الأمة في حاجة إلى من يعلمها ويفهمها، فتنتطح بين يدي الله عز وجل، وكان بعض العلماء يصغي بخده، ويقول: يا معلم آدم! علمني، ويا مفهم سليمان فهمني^(٢)، فيكون فتوح من الله سبحانه

(١) متفق عليه بدون لفظ: «حسن»، البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ورواه بلفظ

«حسن» المنذري في الترغيب والترهيب (٢١٦/٤) وفيه راو لم يسم.

(٢) كان شيخ الإسلام ابن تيمية يُعفّر وجهه ويقول ذلك.

وتعالى، ولعل العبد في ساعة من الساعات يحتقر نفسه فيسمو إلى درجات الكمال، فإذا كان هناك إخلاص واستشعار بالمسئولية وثقة وأخذت بالأسباب؛ من ضبط العلم وإتقانه فلا تفوتك الكلمة فضلاً عن الجملة والعبارة، وتحس أنك ستسد ثغراً لأمة محمد ﷺ، وأن هؤلاء العلماء لا يبقون ولا يدومون، وأن سنة الله ماضية ومضت في خيرهم وخير خلق الله عز وجل وأحب رسل الله إلى الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، فإذا علم الإنسان أنهم سيزولون وأنهم سيذهبون ويرتحلون، وأن الأماكن التي استنارت بعلومهم ستخلو يوماً من الأيام، وتخبو فيها شمسهم وتطفأ فيها أنوارهم، ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى، ثم ما خلفوه من ثقات أهل العلم الذين صحبوهم، وينبغي ألا نكون مقصرين نائمين لا نستشعر أين نحن ولا نحس أين يجب أن نكون، بل على كل إنسان أن يستنهض الهمة في نفسه»^(١).

ثالثاً: التفريق بين معنى الثقة بالله وبين الغرور والعجز. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها، وتركيتها، كغارس الشجر وباذر الأرض.

والمغتر العاجز: قد أفرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود»^(٢).

(١) شرح زاد المستقنع للشنقيطي: (٣٦٦/٢٣).

(٢) مدارج السالكين: (٢ / ١٢٤)، (١٣٧ - ١٤٣) بتصرف. مجلة البحوث الإسلامية: (٤٩ / ٢٠٠).

رابعًا: معرفة ضرورة ملء القلب بالثقة بلقاء ربه تعالى، وتجديدها في قلبه. وما أحوج الإنسان في زمن طغت فيه المادة، وتعلق الناس فيه بالأسباب إلا من رحم الله، إلى أن يجدد في نفسه قضية الثقة بالله، والاعتماد عليه في قضاء الحوائج مهما صغرت أو عظمت، وفي تفريج الكروب، فقد يتعلق العبد بالأسباب ويركن إليها، وينسى مسببها الذي بيده مقاليد الأمور وأزمة المقادير، وعنده خزائن السماوات والأرض، وقد أكد هذا المعنى كثيرًا في القرآن العزيز، وكذلك في السنة المطهرة، ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقارًا - أي أرضًا - فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك عني إنما اشتريت منك أرضًا ولم أبتع منك ذهبًا. وقال الذي باع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها. قال: فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ فقال أحدهما: غلام، وقال الآخر: جارية، فقال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما وتصدقًا»^(١).

خامسًا: العمل على زيادة الثقة بالله بلا انقطاع، بل يكون ذلك مشروع حياة، والهمة العالية والدأب والاستمرار في ما يزيدها في القلب.



(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢ / ٤٩٦) (٧٢٠) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

وسائل تنمية الثقة بالله في القلب

أولاً: صحة المعتقد، وتحقيق التوحيد، وإخلاص النية، واتباع السنة، وصلاح الظاهر والسريرة.

ثانياً: الدعاء والضراعة وصدق اللجأ إلى الله سبحانه، والإلحاح عليه بصلاح القلب، واستقامة الجوارح، فدعاء الله تعالى بصلاح القلب ومدّه بالثقة بالله هو إكسير صلاح القلب، ومن أعظم أسباب الإجابة الثقة، فتثق بالله وتساله أن يزيد ثقتك به لأنك لا تملك قياد قلبك ولا مسار إيمانك ولا نهاية أعمالك ولا موافاتك!

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «من أعظم شروط الدعاء الثقة بالله والتصديق له ولرسوله، والإيمان بأن الله هو الحق ولا يقول إلا الحق، والإخلاص لله سبحانه والمتابعة لرسوله ﷺ مع الإيمان بأن الرسول عليه الصلاة والسلام بلغ الحق وهو الصادق فيما يقول»^(١).

ثالثاً: التدبر في الآيات الشرعية، إذ لا تكاد تخلو سورة ولا صفحة في كتاب الله من هذا ذكر هذا الأمر العظيم أو الإيحاء إليه. لذا فقراءة القرآن بتدبر وإيمان مُنَمِّية له ضرورة. ولم أر مثل تدبر القرآن وتلاوته مطلقاً في صلاح القلب واستقامته وذوق حلاوة الإيمان.

(١) مجموع فتاوى ابن باز: (٢٦ / ١١٨).

ومن أعظم آيات الثناء على الواثقين بوعد الله تعالى قوله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقد وسّطها الله تعالى بين آية الأمر بتوحيد الائتساء والاتباع وبين الثناء على المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وفي ذلك بناء للثقة في القلوب المؤمنة، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢١، ٢٢] قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتزجزروا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشأئله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعد الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] قال ابن عباس وقتادة: «يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿البقرة: ٢١٤﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]: دليل على زيادة الإيـمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: «إنه يزيد وينقص»^(١). وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري» ولله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٢] أي: ذلك الحال والضيق والشدة ما زادهم ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقيادًا لأوامره، وطاعة لرسوله.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٢٣، ٢٤] وعن ثابت قال أنس: «عمي أنس بن النضر سميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَ عنه، لئن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو، وأها لريح الجنة أجده دون أحد! قال: فقاتلهم حتى قتل قال: فوجد

(١) وهو الحق وما سواه إلا الضلال.

في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا بينانه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه»^(١).

وقال شيخ الإسلام كلامًا مهيبًا موجلاً يكشف مقدار الخطر على قلب المؤمن عند تعرضه لفتنة أقوى من مستوى إيمانه فلربما يقع في النفاق عيادًا بالله تعالى، وذكر أن من المنافقين من لو تركوا بدون امتحان لماتوا على الإسلام والإيمان! قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلمًا؛ فإن الإيمان يستلزم الأعمال، وليس كل مسلم مؤمنًا، هذا الإيمان المطلق، لأن الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الإيمان الخاص.

وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامّة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله؛ فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد! ولو شُكِّكُوا لشُكُّوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارًا ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣). وانظر: (تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٩١-٣٩٤).

ما يقدمونه على الأهل والمال.

وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة^(١)، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبيهم؛ فإن لم يُنعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق! وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا؛ كانوا من أهل الوعيد، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء؛ نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام، ودخلوا الجنة، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم، قال تعالى: ﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ۝ أَمْنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۝﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ [الحج: ١١] ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝﴾ [المنافقون: ١] ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [٢] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾

(١) وتأمل هذه الجملة، واسأل الله أن يثبتك على الإيمان حتى تلقاه به وهو عنك راضٍ، واسأل الله العفو والعافية.

[المنافقون: ٢ - ٣] وقال في الآية الأخرى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْءُوا إِيَّاكَ اللَّهُ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلْ أَيْلَهُ وَعَائِنَهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦] فقد أمره أن يقول لهم: قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريد: أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا خواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا؛ بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء؛ صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين وقد قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُرِيدُونَ أَن يَتَبَوَّأُوا مَنَازِلَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلْ أَيْلَهُ وَعَائِنَهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ [التوبة: ٧٣ - ٧٤] فهذا الإسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب فيكون قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وبعد إسلامهم سواء، وقد يكونون ما زالوا منافقين، فلم يكن لهم

حال كان معهم فيها من الإيمان شيء لكونهم أظهروا الكفر والردة. ولهذا دعاهم إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ^(١) وَإِنْ يَتَوَلَّوْا^(٢) بَعْدَ التَّوْبَةِ عَنْ التَّوْبَةِ^(١)﴾ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَظْهَرَ الْكُفْرَ فِيجَاهِدْهُ الرِّسُولُ بِإِقَامَةِ الْحُدِّ وَالْعُقُوبَةِ، ولهذا ذكر هذا في سياق قوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولهذا قال في تمامها: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]. وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم فإن هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك فلم يصلوا إلى مقصودهم؛ فإنه لم يقل: هموا بما لم يفعلوا، لكن ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ فصدر منهم قول وفعل، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] فاعترفوا واعتذروا؛ ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَقَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦] فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر.

فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف^(٢)، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه

(١) أي يتركون التوبة التي تابوها فينقلبوا لكفرهم.

(٢) أي كان عندهم الحد الأدنى من الإيمان المنجي من التخليد في النار والموجب للجنة ولو بعد العذاب، لكنهم كفروا بعد هذا الإيمان وصاروا كفاراً. عياداً بالله تعالى.

محرم، ولكن لم يظنوه كفرًا، وكان كفرًا كفروا به^(١)، فإنهم لم يعتقدوا جوازه وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم أبصروا ثم عموا وعرفوا ثم أنكروا وآمنوا ثم كفروا^(٢).

وقال العلامة المفسر الفقيه محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي في أضواء البيان عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] من سورة الإسراء، باختصار^(٣):

«ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها. ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات، هي من أعظم ما يعانى العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام، تنبيهاً بها على غيرها:

المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدد عن مقاومة الكفار. وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها، فيبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى

(١) وهي قاعدة مضطردة ومن فروعها أن من سرق واستوفى شروط القطع قطعت يده، وإن لم يعلم أن السارق يُقطع، بل يكفي أن السرقة حرام، كذلك القذف الحرام.. ونحو ذلك. وهنا علموا أن هذا الاستهزاء محرم فكفروا بذلك الفعل والنفاق.

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٧٤/٧ - ٢٧٤).

(٣) وقد تكلم قبل هذا الموضع بكلام رائع نفيس جداً، مبسوط في عشرات الصحائف في هدايات هذه الآية الكريمة.

الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه؛ لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء. فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، كان علاج ذلك هو ما ذكرنا؛ فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة واقتصادًا. فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم، وحلوا به هذه المشكلة العظمى، هو ما بينه جلّ وعلا «في سورة الأحزاب» بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله جلّ وعلا، ثقةً به، وتوكلًا عليه، هو سبب حل هذه المشكلة العظمى.

وقد صرح الله تعالى بنتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ١٥ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ١٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَوْهَا

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونونه، ولا يحسبون أنهم ينصرون به وهو الملائكة والريح، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، ولما علم جلّ وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، أي: من الإيمان والإخلاص؛ كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جلّ وعلا في قوله ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١] فصرح جلّ وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدرُوا عليها، وأن الله جلّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

فدلت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١]، فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق، كما تقرر في الأصول.

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جلّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَإِنَّ

جُندنا لهم الغلبون ﴿ [الصفات: ١٧٣].

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء. مع أن المسلمين على الحق والكفار على الباطل.

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ. فأفتى الله جل وعلا فيها، وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جل وعلا.

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد: فقتل عم رسول الله ﷺ وابن عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار، وجرح ﷺ، وشقت شفته، وكسرت ربايته، وشج ﷺ. استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون؟ ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيهٖ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ۖ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] - إلى قوله -: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح، لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ. وقد أوضحنا هذا في سورة «آل

عمران» ومن عرف أصل الداء عرف الدواء كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية. لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُضْلَإَ أَعْيُنَكُمْ وَيُضْلَإَ سُبُلَكُمْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة «الأنفال».

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمّر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك. وقد بين تعالى في سورة «الحشر» أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما هو ضعف العقل. قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسك به. فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضار ضاراً. قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق، لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً،

وقال تعالى: ﴿أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونورًا بدلاً من الظلمات التي كان فيها.

وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفًا عظيمًا. كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورٍ ۖ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي أقوم، يقتضي تتبع جميع القرآن وجميع السنة لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم. لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيهًا بها على غيرها والعلم عند الله تعالى»^(١).

رابعًا: التدبر والتأمل في الآيات الكونية في الأنفس والآفاق، ومعرفة سنن الله في خليقته، والنواميس التي أقام عليها الكون. وهي سنن صارمة؛ تتسم بالاطراد والشمول والثبات بإذن ربها، كما قال جل ذكره تعالى: ﴿فَهَلْ

(١) أضواء البيان (٦/٥٠-٥٢).

يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ [فاطر: ٤٣] وقراءة قصص الأنبياء التي قصها الله تعالى في كتابه وقصها نبيه ﷺ، كذلك الصالحين والمصلحين على اختلاف أزمانهم وبقاعهم وأعمالهم، وكذا أضدادهم من الكفرة والفجرة ومصارعهم بيد الجبار جل جلاله وانتقامه لأوليائه من الظالمين ونحو ذلك ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ومعرفتها مدعاة لحسن التعامل معها في الاعتبار والقياس، وفي بناء الحضارة، وتنمية المجتمعات، وفي كيفية المحافظة عليها من السقوط. وهناك سنن للأفراد في أنفسهم علواً وانحطاطاً، وسنن جماعية للأمم بناء وحفظاً أو إزالة وهلاكاً، قد جعلها كالدولاب الذي يجر العربة، فلا تختلف البتة، ولكن قد يخطئ القارئ لها حسب معطيات بحثه، وخلفيته الشرعية، وقبل هذا وبعده توفيق الله له، ولا يكفي العلم، بل لا بد من العمل.

وقد نبهنا الله تعالى في كتابه مراراً إلى الاعتبار بهذه السنن، فذكرها صراحة في بعض الأحيان كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وذكرها كذلك بالفحوى كقوله جل وعز: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] وأحياناً يضيفها لنفسه فعلاً وتقديراً كقوله سبحانه: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٥]. وأحياناً أخرى يأتي بذكرها مضافة إلى أمم وأقوام كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥].

وفي هذه التصرفات البلاغية والمعنوية في مفردة السنن وإضافاتها أعظم تنبيه على ضرورة الوعي بها، ومتابعتها في آيات الله الكونية بمطابقتها بآياته الشرعية في القرآن والسنة، ومن أمثلة تيك السنن الربانية: أن عُمر الدولة العادلة أطول من الظالمة، وأن الناس إذا تمالؤا على المعصية أوشك الله أن يعمهم بعذاب، وأنهم إن أعلنوا الفاحشة وجأهروا بها بلا نكير ابتلاهم الله بالأمراض التي لم تك في أسلافهم، ومن السنن الخفية التي يضل عن فهمها بعض الأخيار سنة الإملاء للكفرة والظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَمْلِكَ لَهُمْ خَيْرًا لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِكُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ومن السنن الربانية أن من أعظم موانع العذاب عن الفرد والجماعة الاستغفار، وأن العقوبة للمتقين، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وعلى مستوى الأفراد أن عمر الواصل لرحمه أطول منه لو قطعه، وأن رزقه أوسع منه لو قطع رحمه، وأن الله يجيب دعوة الداع إذا استكمل شروطها، وأن الله مع المحسن بحفظه وبركته، وأن المظلوم منصور وإن طال زمنه.. إلى غير تلك السنن الربانية التي لا تتخلف حين وجود أسبابها وانتفاء موانعها.

هذا وقد أكرم الله نبينا محمداً ﷺ، بأن وعده بأمور لم يعطها أكثر الأنبياء السابقين لوقوع أمهم في موجبات سنن الاستئصال، فعن ثوبان مولى رسول

الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكثرين الأحمر والأبيض. وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنني أعطيك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها، ويسبي بعضهم بعضاً»^(١).

قال تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومما يبين ذلك أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا.

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول، وكانا مشتركين في المقتضي للحكم، فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسول فرعون ومن قبله لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] وكما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

(١) مسلم: (١٧١/٨).

[البقرة: ١١٨] وقال تعالى ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] ولهذا قال النبي ﷺ: «لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»^(١) وقال: «لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع» قيل: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: «فمن؟!»^{(٢)(٣)}.

وقال أيضًا: «ولهذا أبقي الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ؛ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهُ آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» [العنكبوت: ٣٤، ٣٥] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾^(٢٦) وَإِنْ كُفِرْتُمْ عَنْهُمْ فَلْيَعْلَمُوا بِمَا جَاءُوا لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ» [الصافات: ١٣٦ - ١٣٨] أي: تمرون عليهم نهارًا بالصباح وبالليل، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالى في مدائن قوم لوط: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَنْتَوَسَّعِينَ^(٧٥) وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ» [الحجر: ٧٤ - ٧٦] يعني: مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] وهذا كثير في الكتاب العزيز؛ يخبر الله

(١) البخاري (٣٤٥٦) بنحوه.

(٢) المسند (٨٨٠٥) بنحوه، وصححه الأرنؤوط.

(٣) أي: فمن إذا إن لم يكونوا هم؟! الحسنة والسيئة: (١ / ٨٤) وانظر: مجموع الفتاوى: (٢٢٧ / ١٤).

سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة أتباع المرسلين»^(١).

خامساً: ومن أسباب عمارة القلب بالثقة برب العالمين: طولُ القنوت والعبادة، وإنك لتعجب من حال بعض الدعاة إذا رأيته قد أنفق من عمره سنين عدداً، ثم ترى حظّه من قيام الليل ثلاث ركعات، أما التهجد فلا وجود له إلا في رمضان! ثم تراه يشتكي قسوة قلبه وضعف إرادته وصعوبة كبح نفسه التي لا زالت مراوحة بين الأمانة واللوامة، أما المطمئنة فلا يحس لها بساكن! أين طول القيام حتى يراوح بين قدميه، ويلتذ بصفهها لربه في جوف الليل الأوسط والآخر؟! أين ترديد الآي أثناء التهجد والتدبر فيها والتفكير في مراميها والتسبيح عندها والتحميد والاستغفار والتأثر.. والحياة بها؟! أين طول السجود والبكاء والضراعة والانكسار، وذوق اللحظات اللذيذة لروحه التي هي - لعمر الله - من أمتع لذائد الأنفس في هذا الوجود؟! وكما قال الإمام أحمد متأوهاً لمن نام عن تهجده من تلاميذه: «يا عجباً لطالب علم لا يقوم الليل!» فنقول كذلك: يا عجباً لداعية لا يقوم! ثم أين الصدقة العظيمة الخفية التي يحس بانفساح صدره لها، وقد أخذها من حِلِّها وأنفقها في مرضاة ربه حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه؟! ثم أين صيام الهواجر، ومكابدة الجوع والظمأ للشكور سبحانه في يوم بعيد ما بين الطرفين، شديد حرّه حتى تذوب شهوة النفس في ذِيَّك الأصيل من آصال الملك العلام؟! كذلك أين الذكر الطويل المأثور المتدبر في الأوقات الفاضلة بقلب حاضر متنبه لما يجري على

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ٩٨).

لسانه من ذكر ربه بديمومة عمرية تكون لروحه وجبة غذائية لا غنى لها عنها مهما اختلجت مشاغله واشتبكت قواطعه.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي قال: «غَدَوْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا بَعْدَ مَا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ، فَسَلَّمْنَا بِالْبَابِ، فَأُذِنَ لَنَا، قَالَ: فَمَكَّثْنَا بِالْبَابِ هُنَيْئًا، قَالَ: فَخَرَجْتَ الْجَارِيَةُ فَقَالَتْ: أَلَا تَدْخُلُونَ فَدَخَلْنَا، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ يُسَبِّحُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا وَقَدْ أُذِنَ لَكُمْ فَقُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنَّا ظَنَنَّا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبَيْتِ نَائِمٌ، قَالَ: ظَنَنْتُمْ بَالِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ غَفْلَةً، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ يُسَبِّحُ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: يَا جَارِيَةُ: انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ قَالَ: فَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ لَمْ تَطْلُعْ، فَأَقْبَلَ يُسَبِّحُ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ قَالَ: يَا جَارِيَةُ: انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ قَالَ: فَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَالَنا يَوْمَنَا هَذَا، وَلَمْ يُهْلِكْنَا بِذُنُوبِنَا»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَضَرْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ مَرَّةً صَلَّى الْفَجْرَ، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ انْتِصَافِ النَّهَارِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: هَذِهِ غَدَوَتِي، وَلَوْ لَمْ أَتَغَذَّ هَذَا الْغَدَاءَ سَقَطَتْ قَوْنِي، أَوْ كَلَامًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا. وَقَالَ لِي مَرَّةً: لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بَنِيَّةَ إِجْهَامِ نَفْسِي وَإِرَاحَتِهَا لِأَسْتَعِدَّ بِتِلْكَ الرَّاحَةِ لَذِكْرٍ آخَرَ أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ»^(٢).

(١) مسلم: (٥٦٤/١).

(٢) الوابل الصيب: (١/٦٣).

ولقد ثبت في السُّنَّة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا الله أَنْ يُبارِكَ لَأُمَّتِهِ في بكرة النهار، فعن صخر بن وداعة الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي في بَكْرِهَا» وكان إذا بعث سريةً أو جيشاً بعثهم أوَّلَ النهار. وكان صخرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاجرًا، فكان يبعثُ تجارتَهُ من أوَّلِ النهار، فأثرى وكثُرَ ماله^(١).

قلت: هذه بركة في الدنيا فكيف بالبركة في الدين وعمارة القلب بالإيمان والجوارح بالإسلام! وقد قيل: «يومُك مثلُ جملِك إن أمسكت أوَّلَه تبعك آخره». وأعظم الذكر هو تلاوة كلام الله تعالى، ومن جعل شِرَّةً ونفاسةً وقته للقرآن رأى البركة في سائر أموره، وقد ذكر أهل العلم والدعوة من أمثلة ذلك ما لا يحصيه كتاب، وعلى قدر اشتغاله بالتلاوة والتدبر يكون الأثر المبارك في سائر قوله وعمله ونيَّته وأثره في الناس.

قال إبراهيم المقدسي موصيًا من اراد الرحلة لطلب العلم: «أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه ييسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ». قلت: وينبغي ملاحظة أن لا يريد بذلك العاجلة، بل تيسير دروب الفلاح في الآخرة، ولا قوة إلا بالله.

هذا، ولا يظن المحب أن حال الكاتب الضعيف كالوصف الذي يرقمه، فما هو إلا عليلٌ يداوي عليلًا ومريضٌ يرقى سقيمًا، يصف العلا وهو من

(١) سنن أبي داود (٢٦٠٦)، وسنن الترمذي (١٢١٢).

أعجز الناس، ويحكي دقائق الورع وهو من المخلّطين، ويلوم على التقصير وهو من جملة المفرّطين، وكلّ تأوّه على فوتٍ أو تألم من لمٍ فلنفسه من عتابه الحظ الأوفى، فاللهم غُفراً غُفراً.

اعمل بعلمي وإن قصّرتُ في عملي ينفعك علمي ولا يضرّرك تقصيري

ولو اشترط التمام لما دعا داع إلى ربه بعد الرسل!

وإن لم يعظ العاصين من هو مذنبٌ فمن يعظ العاصين بعد محمد

سادساً: من الأسباب المنّية للثقة بالله تعالى: المحاسبة الجادة للنفس، ففي الدنيا دخان وغينٌ يحيط بالقلب ولا تكاد النفوس تسلم منه، فتقع في غفلة وركون إلى الخسار وإخلاق إلى الأرض، فإن وفق الله عبده للمحاسبة استيقظ ونفض عن بصيرته وقلبه غبار الغفلة وقتار الظلمة.

ولقد تكلم أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ في مداواة النفوس عن تغلبه بعد مجاهدة شديدة على طباعه السيئة من الحقد والشهوة وغيرهما حتى ترقى بها للطمأنينة والسكينة، وبعض الدعاة لا يزال يجاهد نفسه ضد الموبقات كالزنا والخمر والربا! فضلاً عن بقية الكبائر والذنوب التي أصبحت كالعادات له، كالغيبة والنميمة غير المقصودة والكذب مازحاً وجاداً، إلى شراسة الخلق والصِّلَفِ وتنفير عباد الله من دين الله، وإدخال الغم والحزن عليهم، وسوء ظنه بالمؤمنين، مع علمه بعيوبه واعترافه إلا أن السنين لم تزده في تيك الأخلاق الرذيلة إلا إيغالاً! فاين الثقة بالله وبوعده وبلقائه؟! ومتى يأتي اليوم الذي تطمئن فيه نفسه فتطبع على أخلاق المؤمنين وتدور بطبعها فيه

فتكون من النفوس المطمئنة؟! فإن طال زمانك وأنت تراوح المجاهدة دون تقدّم في مستوى إيمانك؛ فراجع مساقى قلبك، فلعل هناك دَغَلٌ شهوةٍ خاطئة في حاجة لعصفٍ وتهذيب، أو شبهةٍ ردّت عنك بركة العلم والذكر والإيمان!

إن المؤمن إذا تدبر قول العظيم سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] لتهون في عينه الدنيا وما عليها، فأجلُّ المعاد قريب، وهذي الدنيا القريبة الزائلة بمعاملها الفانية لن تلبث إلا أن تكون كسراب بقيعة بل كطيف خيال أو كحلم منام، فتذهب مشقة الطاعة والمجاهدة ويبقى الأجر مبذولاً من خزائن الحميد الشكور.

سابعاً: صحبةُ الواثقين بربهم، وهذا ترياق مجرب سريع التأثير على القلب، فمصاحبة من تعلق قلبه بربه ووثق بوعدده ولقائه، ورؤية قلبه في سائر أحواله مع دينك الأمرين تلقح في الفؤاد رحيق بَرْدِ الثقة بموعد رب العالمين.

ثامناً: حفر الثقة بالله في القلب عبر ديمومة المطالعة لعلوم الشريعة، وبخاصة ما يتعلّق ببيان قدرة الله تعالى وبقائه وحفظه وكلاّته لأوليائه ونصره لهم على الشيطان وأحزابه، وما يقابل ذلك من إظهار عجز الخلق وضعفهم ونقصهم وفنائهم.

قال الشيخ سليمان آل الشيخ في التيسير: «كتب معاوية إلى عائشة: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري علي. فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضى الله بسخط الناس

كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» والسلام عليك^(١). وقوله: «من التمس» أي طلب. قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية وروي أنها رفعتة: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف من أَرْضَى الله بسخط الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرْضَى عنه الناس ومن أَرْضَى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً^(٢). هذا اللفظ المأثور عنها وهذا من أعظم الفقه في الدين، والمأثور أحق وأصدق، فإن من أَرْضَى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب. وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك، لكن يرضون إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة. ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، كالظالم الذي يعرض على يديه. وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كثيراً، ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم.

قلت: وإنما يحمل الانسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق الخوف منهم،

(١) رواه أبو نعيم والترمذي: (٢٤١٤) وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٣١١) وفي تخريج الطحاوية (٢٧٨).

(٢) رواه عبد بن حميد في المنتخب من المسند (١٦٢ / ١ - ٢) وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة مرفوعاً (٢٣١١) لقبوله زيادة الثقة.

فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضرر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضا رب العالمين، الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم؟!!

وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣] وما أحسن ما قيل: إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب؛ فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟! أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟! إن هذا لشيء عجاب!

وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياداً بالله من ذلك، فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان، وفيه شدة الخوف من عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستتهين ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أصيب، فقد تكون عقوبته في قلبه كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧] اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك

لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

تاسعاً: العلم بالله جل جلاله وبأسائه وصفات جلاله وجماله وكماله، وحكمته وأفعاله، وحسن المعتقد وسلامة التصور - وقد آخرته لعظمته ولحلاوة مدارسته كالحلواء التي يؤخر تقديمها على الموائد، ولذيد تكرار تفهمه وتثنيّه، كما قيل:

وكذا قد ساد النبي محمد كل الأنام وكان آخر مرسل

فالعلم بالله سبحانه وتعالى له أعظم الأثر في نفس المؤمن، فيظل إيمانه قوياً راسخاً؛ لأنه قد علم خالقه وربّه وإلهه حق العلم. والذي يؤمن بالله وبصفاته ويثبتها كما جاءت بدون تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، لا يتسرب إلى قلبه اليأس طرفة عين، ولا ينفطر فؤاده في حال من الأحوال؛ لأنه يؤمن بالذي خلق الخليقة كلها، وأن له خزائن السموات والأرض، وأنه الغني المطلق والعظيم الأعظم والكبير الأكبر واللطيف والخبير والرحيم والقدير.. فهذا الإيمان الراسخ الباسق يُفيض على قلبه طمأنينة غير عادية، ويملؤه سكينه وأملاً وثقة وحسن ظن بالعقبى، ولو أهين في الدنيا وطرد عن كل باب من أبوابها، وضاعت عليه سبل العيش وانقطعت عنه الأسباب، فمن كان معه من هذه صفاته كيف يخشى الضيعة؟!



(١) تيسير العزيز الحميد: (١ / ٤٣٥ - ٣٣٦).

الثقة بالله تعالى لها أثرها العظيم في الدعوة للإسلام ونشره والعمل به

إن الثقة بالله تعالى ثمرة ناتجة عما يقوم بقلب المؤمن من أن الله حق وما خلاه باطل، ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا كِدْعُوتَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] وأن هدى الله هو الهدى، وليس بعده إلا الضلال المبين، فإذا استقر هذا العلم بالنفس أورث المؤمن حالة من الثقة المطلقة بصحة الطريق الذي يسلكه، مقبلاً على ربه وعاملاً في سبيله ومعبدًا الناس له، وذلك الأمر العظيم والوظيفة السامية والرسالة العظمى محفّزٌ جزلٌ للإقدام بثبات نحو الهدف الواضح وهو رضى ربه عن طريق دعوة الناس إليه. فحينها يثق المؤمن بربه ويعلم يقيناً أنه يأوي إلى ركن شديد، ويسير على طريق شديد، ويصح اعتماده على ربه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

هذا عمير بن الحمام الأنصاري لما سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخٍ بخٍ! فقال رسول الله ﷺ: «ما يملكك على قولك بخٍ بخٍ» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة! فرمى بها

كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل^(١). ألا ما أحوج الدعاة إلى صرخة عمير هذه في هذا الزمان الشاق!

ولا عجب من عظمة الإيمان في قلوب صحابة رسول الله ﷺ وهم يتلون قول ربهم: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (١٩٥) إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿[الأعراف: ١٩٥، ١٩٦] ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين، وهذا الاعتصام بالله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين؟ كانت الغلبة، والعزة، والتمكين لأولياء الله، وكانت الهزيمة، والهوان، والدثور للطواغيت الذين قتلوا الصالحين، وكانت التبعية ممن بقي منهم ممن شرح الله صدره للإسلام لهؤلاء السابقين الذين احتملوا الأذى بثقة في الله لا تززع، وبعزيمة في الله لا تلين. وقد أظهر الله للناس من عظيم برّه وجزيل إحسانه ودقيق لطفه ما يحار في وصفها المتأملون، ومن استقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية أفرادًا وجماعات وجد مصداق ذلك وذاق حلاوة مطالعته بل صنعه بإذن الحي القيوم، فقد أبدى الصريح عن الرغبة، وتبين الصبح لذي عينين، وقال كل من كان مرتاب: ﴿الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

إن صاحب الدعوة إلى الله في كل زمان وفي كل مكان لن يبلغ رغبته إلا بمثل هذه الثقة بموعد الله واستشعار معيَّته وقربه وحفظه، ومهما أسفر

(١) رواه مسلم (١٩٠١).

الباطل عن صفيق وجهه وأطلق على الدعاة تهديده، وعربد في التعبير والتفكير؛ فعلى الدعاة أن يمشوا في الطريق، وأن يحملوا الواجب الملقى على عاتقهم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

مصدر الثقة رباني

كثير من عظماء البشر لهم قيم يدعون إليها وغايات يثوبون الناس لها، ولكن شتان بين مؤمن بالله، يستقي القيم من كتابه وسنة رسوله، وبين من يتزعمها من تجارب حياته المادية بمعزل عن الوحي القويم. فتقة الأول بالله لقربه منه، وعلمه به، أما الآخر فعلى جرف هار، ينهار به عند تزلزل حاله، أو فشل مشروعه، بل ربما أقدم على أعظم فشل وهو الانتحار! ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].



فقه سُنَّة المدافعة بين الهدى والضلال ، والحق والباطل

قال سبحانه: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال جل ذكره: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فالفسل والزهق ملازم للباطل وأهله، فهي متلازمة غير منفكة بحال، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] ولكن إزهاق الباطل لا بد أن يسبقه مداولة مع الحق ومصاولة مع الهدى ومجاولة مع حملة القرآن، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] قال ابن القيم في نونيته: والحق منصور وممتحن فلا تجزع فهذي سُنَّة الرحمن هذا وسُنَّة الله في نصر المؤمنين لا تتخلف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وأولياؤه خلفاء رسله وورثتهم، ولكل قوم وارث. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا أَذْبَرْتُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢].

وقد يسبق نصر المؤمنين أذى من العدو وغلبة مؤقتة له، وقد تطول شيئًا،

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٩ - ١٤١] وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

هذا، ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله عز وجل على رأس وذروة هذه المدافعة والصراع، فيقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وما دام هناك حق وباطل فثم صراع وجهاد، وهذا الصراع لصالح البشرية جمعاء، ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاصل العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل وأعظمها فتنة الشرك والكفر والعصيان، كما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقد يكون تأخر نصر المؤمنين لنصر أكبر، كما نصر رسول الله ومعه المؤمنين على قريش وفتحت مكة سنة ثمان للهجرة، ولم يحصل النصر التام إلا بعد مضي أكثر مدة نبوته، بل تأمل وتدبر قصة نوح عليه السلام في سورة العنكبوت - وهي سورة الابتلاء بالفتن وبيان كيفية الخروج منها - كيف ذكر الله قصة نوح في مواضع عديدة في كتابه بإسهاب، بل أفرد لقصته سورة كاملة، ثم نراه قد اكتفى في سورة العنكبوت بآيتين فقط، بل وقد ذكر فيهما

مرور الزمان الطويل لدعوته فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿[العنكبوت: ١٤ - ١٥] قال الشيخ صالح آل الشيخ: «قصة نوح عليه السلام الطويلة (٩٥٠) سنة، اختصرها الله هنا في آيتين فقط للتحذير من فتنة الزمن، فعلى الداعي إلى الله ألا يستعجل الثمار». قلت: قصد ثمار دعوته في الدنيا فقد لا يراها مطلقاً فإن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه أحد^(١)، وقد تثمر دعوته بعد رحيله، وهذا كثير ومعلوم، ولكن الثمرة الحقيقية هي الزلفى والرضوان، فلا عليه إن فاز بهما ما فاته من غيرهما، فهنيئاً للداعي إلى ربه على بصيرة واستقامة وصلاح وإخلاص وحسن اتباع.



(١) مسلم (٢٢٠).

لولا الابتلاء لارتبنا الطريق!

وله علاقه بما سبقه من فقه سنن الله في المدافعة بين الحق والباطل، ولكن هذا أعم، لدخوله في كل شعب القلب بإيمانه ونفاقه!

وعلى قدر إيمانك ويقينك بالقرآن يكون انتفاعك به، وعلى قدر تسليمك وانقيادك لهداياته يكون فلاحك في الدارين. ذلك أن القرآن العظيم حق مطلق لا مزية في حرف منه، فحروفه ومعانيه هي من لدن حكيم خبير، قد حَفِظَهُ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَكَتَبَ أَنْ السَّلَامَةُ وَالْعَافِيَةُ مَعَ مَنْ دَارَ مَعَ أَمْرِهِ مَهْمَا حَرَنْتَ نَفْسَهُ، وَوَقَفَ مَعَهُ مَهْمَا جَمَحَتْ، ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُذًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

في هذا الزمان المتلاطمة أمواج فتنه، أضحى الحليم حيراناً، والشجاع جبناً، والعليم جاهلاً.. إلا من رحم ربي، فقد كان لزاماً على كل حازم مراجعة سجلات عمره، ومنهج حياته فالفرصة يتيمة، والمهلة لا تحتل العود والرُّجعى!

لقد خلقنا الله ليبتلينا ويبتلي بنا، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] فالأمر حاسم جداً كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] إذن فالمسألة مسألة فتنة وابتلاء، فحقيقة الابتلاء هي الفتنة التي تبلو حقيقة معدن المرء أمن ذهب قلبه فيفلح، أم من زرن يخ فيخسر نفسه؟!

يا صاحبي! الأمر أقرب مما تتصور، وخطبُ نفوسنا أجلُّ من أن يوصف،
والعلاج كله بين أيدينا فهل من معتبرٍ مذكّر!

لقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بالشفاء والهدى والبيان والرحمة، فهو
الشفاء التام لكل الأدوية، وبخاصة ما كان متعلقًا بالأرواح والأفكار
والتصورات، فضلًا عن الأجساد ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وههنا إحدى عشرة آية من صدر سورة العنكبوت، وددت لو أن كل
مؤمن يتلوها في هذا الزمان مرارًا، ويكررها ويحفظها ويجعل معانيها نصب
عينيه، ويا حبذا ترديدها من لدن الأئمة في الصلوات، ففي القلوب حاجة
لمثلها، إذ وصفت الداء كما هو، وعرت زيف الشبهة والشهوة، وأقامت عمود
الضيء الهادي من الضلالة العاصم من الغواية، حتى عاد الأمر جليًا واضحًا
لا تحجبة سوى أهوية النفوس الخاسرة!

ولنقف قليلًا مع شيء من هداياتها:

قال سبحانه: ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فمن آمن فلا بد له من الفتنة حتى يُثبت صدقه، لذا
فلا بد له من علمٍ بالحق يدفع به عن قلبه الشبهات، وإيمانٍ راسخ يذود عنه
معاصي الشهوات، لذلك أتبع سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أي يظهر علمه في عالم

الشهادة، وإلا فهو علام الغيوب. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أي لن يفوتونا.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥] الله أكبر! فيا أيها المحب: هذا ربك قد قطع لك الوعد، فتزّين له بالصالحات تلقه راضياً ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] فالله ليس في حاجة أحد بل العبد هو المضطر إلى مدد ربه وقبوله وتوفيقه، ودينُ الله منصور، ولكن السعيد من وُفق لمعیه أنصاره. قال الحسن: «إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] أي بأحسن أعمالهم وهي الطاعات، ومنه برّ الوالدين حتى وإن أمراً بأعظم خطيئة! فكيف بالمؤمنين؟! فقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] مع هذا فقد بشره ووعد به بأن يجعله في زمرة المفلحين يوم القيامة، وليس مع والديه المشركين، فكيف إذا كانا من المؤمنين؟! فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ثم ذكر سبحانه حال بعض المخذولين ممن لم يدخل الإيمان بشاشة أفئدتهم، إنما هو الرياء والنفاق فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا

مَعَكُمْ أُولَئِكَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ [العنكبوت: ١٠] بلى وعزة ربنا، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ٩، ١٠] ففتش قلبك الآن يا صاحبي قبل أن يُحْصَلَ ما فيه. ثم ختمها العزيز سبحانه بقوله الجليل: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] فالفتن العامة والخاصة تفرز الناس لفسطاطين، وفي الحديث الصحيح عند أحمد وغيره: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

وعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَائْتُمِ اللَّهَ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، قَالَهَا ثَلَاثًا، وَلَمْ يَبْتَغِ فَصْبِرَ، فَوَاهَا»^(٢)

قال بعض السالفين: «لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى؛ لكان على الحازم العاقل إثثار الخزف الباقي على الذهب الفاني، كيف والدنيا خزفًا يفنى والآخرة ذهبًا يبقى!».

(١) أحمد (٩٧/٣) وصححه أحمد شاكر. والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود بإسناده صحيح (٤٢٦٣) «فواها»: واهًا كلمة تلهف ولتمني مفروح به، أما آها وآه فهي للأسف والتوجع والتفجع.

والابتلاء يكون بالشر وبالخير، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] بل إن فتنة السراء أشد وأخفى، قال أبو حامد رحمه الله في الإحياء في كلامه على نوعي الصبر: «النوع الأول: ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهمك في ملاذها المباحة؛ أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه، وهذا الصبر متصل بالشكر.

وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء»^(١).

(١) عن موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين: (١ / ٤١٦).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «والدنيا مشوقة الغافلين؛ فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد؛ لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك في الآدميين إلا القليل منهم جاء الشرع بذي الغنى وفضل الفقر»^(١).

أما عن وقت ظهور السنن الربانية وتحقيقها؛ فهو إلى الله، وقد يبدو للناس أن أسباب تحقق سنة الله قد انعقدت واستوجبت، ومع ذلك لم يأذن الله بظهورها عن علم وحكمة خفيت عليهم قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدعاة بالجهد والعمل وفق السنن التي لا تحابي، فالنتائج التي قد يتطلع إليها أكثر المؤمنين إيماناً سوف يجنيها أكثر الكافرين كفراً، إذا وافق المقدمات الصحيحة المؤدية إليها، وربط الأسباب بمسبباتها، بينما ينتظرها المؤمن ارتكازاً على إيمانه وحده واعتماداً على ورعه وتقواه، دون أن يطلبها من مقدماتها التي خلقها الله طريقاً إليها، وإن كان لذلك استثناءات تكون مع شدة التوكل والثقة واليقين بعد العجز عن

(١) نقله عنه العلامة ابن مفلح في الآداب الشرعية: (٤ / ١٨٧).

الأسباب، فهذه الأعمال القلبية لها أثر يفوق أكبر أسباب الحس، ولكنه ليس بالتمني ولا بالتشهّي، لأنه لن يصل إليه إلا الذي بذل الوسع في تحصيل الأسباب المأمور بها مع ربط علاقة قلبه الوحيدة برب العالمين، الذي بيده مقاليد الأمور ونواصي الخليفة، إن شاء أذن بها وسلطها، وإن شاء منعها.

ومرجع ذلك إلى أن السنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تجامل ولا تحاي، ولا تتأثر بالأمانى وإنما بالأعمال، وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء.

ومن ثبات تلك السنة أنها قد بسطت في وحي الله وعلمها أناس قبل أن تقرأ في القرآن الكريم، فهذا ورقة بن نوفل يقول للنبي بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك! فيسأله النبي ﷺ في تعجب: «أومخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي^(١).

وهذا قيصر الروم يقول في حديثه مع أبي سفيان: سألتك كيف كان قتالكم إياه، فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة^(٢).

(١) متفق عليه، البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٥٥٣) ومسلم (١٧٧٣).

وفي حديث عياض بن حمار في ذكر خطبة رسول الله ﷺ^(١) أن الله تعالى

(١) ينتشر على ألسن الناس وصف رسول الله ﷺ بالسيادة وهذا حق لا مرية فيه فهو سيد ولد آدم أجمعين كما في الصحيحين من ذكر حديث الشفاعة. ولكن هل الأفضل وصفه بالسيادة في الصلاة عليه، أم ترك ذلك؟ أجاب العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ بجواب طويل بقواعد محررة كعادته في تقعيد المسائل عند ورود أسبابها، وفي آخر جوابه رَحِمَهُ اللهُ: «.. فلم يكن في السلف من يقول في الصلاة: اللهم صل على سيدنا؛ لأنهم تلقوا الأمر من الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا، وهم لا يخالفون الأمر بفلسفتهم وآرائهم الخاصة، بخلافنا نحن اليوم.

أنا أقول دائماً وأبداً: لو فتح باب إلحاق مثل هذه الألفاظ بآراء الناس لتغيرت الشريعة، ولأصابها ما أصاب شريعة التوراة والإنجيل، لكن وقف الناس - وهذا من فضل الله علينا وعليهم جميعاً - عند بعض الألفاظ، وإلا لو اعتقدوا برأيهم وقدموه لخرجوا بالكلية عن الشريعة، فلما نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قالوا: يا رسول الله! هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» إلى آخر الصلاة المعروفة فهل يتصور عالم - الجاهل ما لنا وله - يسمع هذا الأمر من الرسول مباشرة يقول لهم: «قولوا اللهم صل على محمد» وإذا به بينه وبين ربه في التشهد يقول: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إلخ، أما الصحابة، أما التابعون، أما أتباعهم، فهذا نعتبره مستحيلاً عليهم، أما المتأخرون فحدث ولا حرج.

وكنت أقول: مثل هذا يجز بعض الناس إلى زيادات أخرى، ولكنهم لا يفعلونها، فمثلاً: التحيات لله، لماذا لا يقولون: لله سبحانه وتعالى؟ والله أحق بالتبجيل والتعظيم، لماذا لا يقولون: التحيات لله عز وجل؟ لماذا لا يقولون: التحيات لله

قال له: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغزك، وأنفق فسنتفك عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك»^(١).

ومن أعظم السنن الربانية سنة الابتلاء قبل التمكين، ولعلم الله عز وجل وحكمته أن الابتلاء هو الوسيلة لتمييز الصفوف وتمحيص القلوب؛ جعله سنة ماضية، فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدون لهذا الأمر إعدادا خاصا ليحسنوا القيام به.

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقًا: سنة التمحيص، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فينكص على عقبيه؛ ولهذا جعل الله التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين

مولانا وسيدنا وهو السيد الأصل؟ فكنت أطرح هذا الإشكال لأردهم عن تلك الزيادة للفظ (سيدنا)، وإذا بي أنتبه من بعض المصلين عندنا في المسجد إلى أن أحدهم يأتي بزيادات في التشهد ما سمعتها طيلة حياتي؛ لأنه لا توجد عنده ضوابط، ولا يوجد عنده قيد أن خير الهدى هدى محمد، وأن تعليمه كامل وليس بقاصر، فليس عنده هذه الفكرة». عن دروس للشيخ الألباني: (٥ / ٥).

(١) رواه مسلم: (٢٨٦٥).

والخرز الخسيس، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعلى ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى، وهي سنة التمكين، إذ يمكن الله للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا استحقاقهم للنصر بلجوتهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له، وتطلعهم إليه في زمن الشدة، مستيقنين من نزول نصره بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعا من صبر وتقوى وإعداد.

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: «لا يمكن حتى يبتلى».

ومحصلة هذه السنن: أن بعضها يمسك برقاب بعض كحلقات السلسلة يشد بعضها بعضاً، فلا تمكين بلا تمحيص، ولا تمحيص بلا ابتلاء؛ إذ متى تحققت أوائلها؛ تحققت أواخرها، بإذن الله، إنها سنن ساطعة وحقائق ثابتة^(١).

وبالله التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.



(١) وانظر: موسوعة البحوث والمقالات العلمية: (٢٩-٣١).

من أخبار الواثقين بالله رب العالمين

آدم عليه السلام تاب من فوره لثقتة بكمال ربه، وعظيم حسن ظنه به، وكبير خشيته منه، وجليل حيائه منه، فقال مباشرة كلماته التي تلقاها من فضل ربه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ونوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] فرزقي وكفايتي وإياهم ليست عليكم بل على الله، وبنائه للسفينة في الصحراء! حتى كان مدعاة للسخرية - وما أشد وقعها على الدعاة! - ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] لكن الواثق بربه ليس كغيره ممن ينظرون إلى ظواهر الأمور دون النفاذ لبواطنها، ولم يكن يليهم بهرجها عن حقائقها فقال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

وخطيب الأنبياء شعيب عليه السلام^(١) قال لقومه بعدما استهزأوا به واتهموه بالسحر وتحذوه أن يسقط عليهم السماء إن كان صادقاً، ووصموه بالضعف وتهذوه بالرجم وغيره فقال وقد ملأ الله قلبه ثقة و يقيناً: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣٢٩): «أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: ذَكَرَ لِي يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي مَسْلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا ذَكَرَ شَعِيبًا قَالَ: «ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ» لِحَسَنِ مَرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ فِيمَا يَرِيدُهُمْ بِهِ فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ بِالرَّجْمِ وَالنَّفْيِ مِنْ بِلَادِهِمْ وَعَتَوْا عَلَى اللَّهِ أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ».

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿الشعراء: ١٨٨﴾ فكان عذابهم أسرع وأشد مما تصوّروه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

لقد ذكر الله عز وجل في سورة الشعراء آية كافية لملء القلب ثقة بالله دون سواه، مهما أجلبت الخطوب وادلهمت الحتوف، وقد قدم الله تعالى قصة موسى في هذه السورة على غيرها من القصص، وقد اشتملت على تلك الآية الفاذة الجامعة المانعة، إنها قول موسى عليه السلام فيما ذكره عنه ربه سبحانه، حينما خرج بقومه من فرعون وجيشه اللجب الكثيف، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿الشعراء: ٦٠ - ٦٢﴾ لقد نظر أصحابه للحسابات المادية الأرضية، فالبحر أمامهم قد حجزهم لعدوهم الغاضب الباطش الحاذر من خلفهم، ولكن لأنبياء الله تعالى كلمة أخرى، ولأرواحهم موردٌ لا كموارد البشر، ولقلوبهم تعلق وثقة مطلقة تامة وافية بحفظ الله أوليائه ونصره دينه، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلُنَا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] فصرخ بها الكليم عليه السلام فيهم: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما ظننتم بخذلان الله لكم، وتحدثتم بكسرة حملة دين الله وفنائهم، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وفي هذا المعنى الإيماني والشعور الوجداني قمة مرتقى الواصلين لتمام الثقة برب العالمين سبحانه وبحمده، ولا عجب أن زاد الله ثوابه ومكافأته بعد إنجاء قومه بإغراق عدوه وهلاكه وضمحلالة، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وفي هذا السورة العظيمة المبيّنة لمصارع الأمم المكذبة وحفظ الله ونصره

لأوليائه ورسله وأتباعهم بإحسان أتبع الله سبحانه قصة أبي الأنبياء خليل الرحمن بقصة موسى عليهما السلام، مقدمةً على قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام، وقد تضمنت قصته معنى شريفاً وعلماً منيفاً في الثقة بالله تبارك وتعالى حينما قال مادحاً ربّه وحامداً إلهه الحق، ومتبرئاً من الثقة بغيره: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ (٧٥) أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢] (١).

أما هود عليه السلام فقد تحدى جمع الكفرة فقال بكل ثقة وتوحيد لربه القوي ذي الركن الشديد: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود: ٥٥] لماذا هذا التحدي، وما هو اللطف الذي ينتظره؟ قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ [هود: ٥٦ - ٥٧].

أما أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فتأمل لحظة إلقائه في النار وتسليمه أمره لله تعالى ثقة به، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن

(١) وتأمل التأكيد في الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء بـ «هو» لمنازعة المخلوقين خالقهم في نسبة ذلك لهم، أما الخلق والإحياء والإماتة فالأمر فيها ظاهر. والله أعلم.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١) وفي شعب الإيمان: قال بشر بن الحارث: «لما رفع إبراهيم ﷺ، ليلقى في النار عرض له جبريل عليه السلام فقال: يا إبراهيم، هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك فلا» (٢).

وتأمل استباق يوسف الباب ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] مع علمه بإغلاقه ﴿وَعَلَقَتْ الْأَتُوبُ﴾ [يوسف: ٢٣] لكن ساقته الثقة بربه وحفظه له.

أما رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه فلا تكاد تمر على صفحة من سيرته الجليلة حتى ترى براهين الثقة برب العالمين في حاله ومقاله، قف مع قوله لصديقه وصديقه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» (٣).

نعم إن هذه الثمار القلبية الواثقة بوعد ربها هي نتاج سقي الفؤاد بأمثال قول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٦٦) وَالَّذِينَ

(١) رواه البخاري: ٤٨/٦ (٤٥٦٣).

(٢) شعب الإيمان (٢ / ٣٥٢) ومعناه سائق وإن لم يستقم إسناده، أما الذي لا يصح سندًا ولا متنًا فهو قولهم عنه: علمه بحالي مغنٍ عن سؤالي. وفي هذا إبطال لأعظم العبادات وهي الدعاء، وقد تسرب للأمة من جهلة العباد ومتصوفة الطريقة.

(٣) متفق عليه. البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦ - ١٩٧] وفي الصحيحين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير العضاة^(١) فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابيُّ فقال: «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: من يمنعك مني فقلت: الله ثلاثاً» ولم يعاقبه وجلس^(٢).

وعند ابن عساكر بسند حسنه الألباني عن عقيل بن أبي طالب قال: «جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: أرايت أحمد؟ يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فانه عن أذانا، فقال: يا عقيل، اتتني بمحمد، فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي، إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم، وفي مسجدهم، فانت عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره (وفي رواية: فخلق رسول الله ﷺ ببصره) إلى السماء فقال: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة» - يعني الشمس - قال: فقال أبو طالب: ما كذب ابن أخي، فارجعوا»^(٣).

(١) الشجر الكبير، مفردا عضاة.

(٢) مسلم (٨٤٣).

(٣) ابن عساكر: (١١ / ٣٦٣) قال الألباني: قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله كلهم رجال مسلم وفي يونس بن بكير وطلحة ابن يحيى كلام لا يضر. وأما حديث: «يا عم والله =

وفي تبليغه لقريش حين صعد الصفا وصاح فيهم مبلغاً دين رب العالمين حين نزل قول ربه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه!» فاجتمعت إليه قريش قالوا: ما لك؟ قال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسبكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] (١).

وتأمل ثقته بربه في بدر حين قابل المشركين بجيش بلا عدد ولا عتاد حسي، وفي أُحُدٍ حين ثبت ثبات أُحُدٍ، وفي الأحزاب حين كانت يديه تعمل وقلبه معلق بربه واثق بنصره ووعدته، وهو يبشر أمته بكنوز فارس والشام واليمن، وفي حنين حين صاح في الناس بكل ثقة وقد أدبر عنه ثقل جيشه وأحاطت به كتائب عدوه:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» (٢)

وحينما كان في مكة بين ظهراني أساطين الشرك وأئمة الكفر من أعداء الله

لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته». فليس له إسناد ثابت ولذلك أوردته في «الأحاديث الضعيفة» (٩١٣) السلسلة الصحيحة (١ / ٩١).

(١) البخاري (٤٨٠١).

(٢) البخاري (٢٨٦٤).

كان ملؤه الثقة بالله وبوعده ولقائه، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم^(١) فأخذه فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته؛ رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط» وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر^(٢).

وتأمل هذه العظيمة النبوية في الثقة بوعده الله تعالى مع انقطاع الأسباب المادية تماماً عنه، فقد روى الشيخان من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أحد؟

(١) وهو عقبة بن أبي معيط.

(٢) متفق عليه. البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤).

قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(١)، فرفعت رأسي، فإذا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين^(٢)؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٣).

لقد كان ربه سبحانه يمدّه بالطفاه ويزوده بمداد اليقين وبلسم الثقة به سبحانه حتى وصل لعلم اليقين في قلبه، ولعين اليقين كما شاهد من آيات ربه، ولحق اليقين حينما عرج ربه به لسمواته وجنته وخطابه جل جلاله.

ومن عين اليقين الذي أمدّه به الله سبحانه ما رواه أحمد عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ فَشَكُوها إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَضَعُ ثَوْبَهُ - ثُمَّ هَبَطَ إِلَى

(١) ويسمى قرن المنازل، والسييل الكبير، وهو ميقات أهل نجد.

(٢) الأخشبان: جبلا مكة الكيран.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

الصخرة، فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا» ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا» ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»^(١).

وفي صحيح البخاري في قصة الحديدية^(٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم وفيه: إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديدية، ومعهم العوذ المطافيل^(٣) وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضررت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن

(١) مسند أحمد (٦٢٦/٣٠) (١٨٦٩٤).

(٢) وتأمل مسير النبي ﷺ وأصحابه يوم الحديدية محرمين بلا عتاد إلا السيوف في قريها، وهذا من أعظم الثقة بالله.

(٣) أي: الإبل الشابة معها أولادها حديثة التاج، وهي بهذا الحال أنفس أموال العرب.

شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا^(١)، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره^(٢).

فتأمل هذه الثقة فإنها من ناصع الأمثلة بمكان. وانظر كيف أخذها صاحبه الأول عنه، فقال في حروب المرتدين وقد خُوف بهم: لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي. وله رضوان الله عليه مع رسول الله ﷺ موافقات لفظية وعملية عجيبة كقوله لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديبية كما قاله رسول الله ﷺ سواء بسواء: «أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قال عمر: قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به»^(٣).

إن للثقة بالله اتصال بكل شعب التوحيد والإيمان، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والاستعانة بالله تتضمن ثلاثة أمور: كمال الدل له، مع الثقة به، والاعتماد عليه، ومن استعان بغير الله محققاً هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك

(١) أي: استراحوا وأخذوا وقتاً كافياً لاستعدادهم للحرب.

(٢) البخاري: (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) والسالفة: صفحة العنق، وهما سالفتان من جانبيه، ولا تنفرد إحداهما عما يليها إلا بالموت.

(٣) البخاري: (١٩٦/٣).

مع الله غيره»^(١).

ولتتدبر قصة إبراهيم عليه السلام وهاجر وإسماعيل وما فيها من أوصاف الواثقين بربهم سبحانه، فروى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق^(٢) من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه^(٣) فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى^(٤) إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا^(٥) - وفي رواية في الصحيح أنها قالت: رضيت بالله - ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ

(١) مدارج السالكين: (١ / ٧٤).

(٢) المنطق: ما يشد به الوسط، وجمعه: مناطق.

(٣) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٤) قفى: أدبر.

(٥) وتأمل ثقتها بالله، وقبلها ثقة إبراهيم عليه السلام به.

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقَهُمْ مِّنَ الشَّمْرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها^(١) ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالراية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت

(١) الدرع: ما تلبسه المرأة فوق القميص، ويطلق أحيانًا على القميص.

كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذن لنا أن ننزل عندك^(١)، فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلّم العربية منهم^(٢)، وأنفسهم^(٣) وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سأها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغيّر عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال:

(١) وهذا من شيمهم وكرامتهم ونبلهم، فلم يكن أمامهم سوى امرأة ووليدها. وهذا من عناية الله تعالى بأوليائه، فالله لا يضيع أهله.

(٢) وانظر مبحث (هل كان خليل الرحمن عرييًا؟) من كتابي (ولا تفرقوا) ص: (٤٧٥).

(٣) أي كان فريدًا نفيسًا بينهم.

فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقني بأهلك فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حُبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: «فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه»^(١).

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثب عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثب عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك^(٢).

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت

(١) أي: لا يوافق معيشتهم وصحته الاكتفاء بهما، خلا أهل مكة لدعوة إبراهيم عليه السلام.
(٢) وتأمل كيف اختار إبراهيم بأمر الله تعالى ذلك الرحم الزكي والمنبت الطيب الذي سيخرج الله من سلالته سيد ولد آدم الذي تقلب بين أطيب الأصلاب وأطهر الأرحام حتى أذن ربه سبحانه بولادته وخروجه لهذه الدار كأحسن ما يكون الخلق والخلق، عليه صلوات ربه وسلامه وبركاته.

دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال؟ وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

ولقد كان بعض أهل الكتاب عظيمي الثقة بوعد الله ولقائه، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية منهم: يا رسول الله، بينما نحن جلوس مرت علينا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: ستعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غداً! فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، ثم صدقت، كيف يقْدَس»^(٢)

(١) البخاري: (٣٣٦٤).

(٢) أي كيف يطهر الله، والمراد استبعاد ذلك، أي لا يطهرهم الله أبداً. وانظر: فيض القدير (٧٥/٥).

الله قَوْمًا لَا يُؤْخَذُ لضعيفهم من شديدهم»^(١).

بل حتى على مستوى البشر - والله المثل الأعلى في السماوات والأرض - إن وثقت بشخص شهم نبيل كريم وجعلته محلّ ثقتك - بعد ربك ؛ لم يخذلك، بل إنه لينصرك ويبدل لك طاقته ووسعه وغنائه، أما إن طعنته بسوء الظنّ، فرأى منك عدم الثقة به؛ فإنه يملك ويقطع عنك موارده، والله المثل الأعلى فإن وثقت به يا عبده؛ حفظك وكلائك ونصرك وهداك وأغناك، أما إن كانت ثقتك مبنية على التجربة أو مترددة؛ فإن هذا موجب مقت وسخط وخذلان، لأنه في غاية سوء الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قبله!

وتأمل حال أبي بكر حينما أتى بكل ماله صدقة لله، فسأله رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله^(٢). وكذلك ثقته بالله في إنفاذ جيش أسامة وقد أقبلت جموع الأعراب على المدينة تريد نهبها وقد أكثر عليه كبار الصحابة أن يحبس جيش أسامة حتى يكون حامية لبيضة المسلمين في مدينة رسول الله ﷺ فأبى الواثق بربه إلا إنفاذه، وكان الخير كله في ذلك^(٣).

(١) صحيح ابن حبان (١١ / ٤٤٣) (٥٠٥٨) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث قوي بشواهده. وصححه ابن حبان والألباني في مختصر العلو (٥٩) وقال الذهبي: إسناده صالح.

(٢) أبو داود: (١٦٧٨) وحسنه الألباني.

(٣) «لما بلغ العرب وفاة رسول الله ﷺ وارتد من ارتد منها عن الإسلام قال أبو بكر لأسامة: انفذ في وجهك الذي وجهك فيه رسول الله ﷺ، وأخذ الناس بالخروج وعسكروا في موضعهم الأول، وخرج بريده باللواء حتى انتهى إلى معسكرهم الأول، =

فشق على كبار المهاجرين الأولين ودخل على أبي بكر عمر وعثمان وأبو عبيدة وسعد ابن أبي وقاص وسعيد بن زيد فقالوا: يا خليفة رسول الله إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدة لأهل الردة ترمي بهم في نحورهم، وأخرى لا تأمن على أهل المدينة أن يغار عليها وفي الذراري والنساء، فلو استأنيت بغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجراحه - جران البعير: باطن عنقه، كناية عن عز الإسلام وتمكّن أهله - ويعود أهل الردة إلى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة حينئذ فنحن لا نأمن الروم أن تزحف إلينا؟

فلما استوعب أبو بكر كلامهم قال: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا قد سمعت مقالتنا فقال: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدأت بأول منه، كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: «أنفذوا جيش أسامة» ولكن خصلة أكلم بها أسامة، أكلمه في عمر يخلفه يقيم عندنا فإنه لا غنى بنا عنه، والله ما أدري يفعل أسامة أم لا، والله إن أبي لا أكرهه. فعرف القوم أن أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعث أسامة، ومشى أبو بكر إلى أسامة في بيته فكلمه في أن يترك عمر ففعل أسامة، وجعل يقول له: أذنت ونفسك طيبة؟ فقال أسامة: نعم، قال: وخرج فأمر مناديه ينادي: عزمة مني أن لا يتخلف عن أسامة من بعثه من كان انتدب معه في حياة رسول الله ﷺ فإني لن أوتى بأحد أبطأ عن الخروج معه إلا ألحقته به ماشياً، وأرسل إلى نفر من المهاجرين الذين كانوا تكلموا في إمارته فغلظ عليهم وأخذهم بالخروج، فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد.

وكان أسامة قد أرسل عمر لأبي بكر ليأذن له بالإبقاء على الجيش في المدينة، وقالت الأنصار لعمر: فإن أبي إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة فأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو اختطفني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضاء رسول الله ﷺ. قال: فإن الأنصار

ونقل الحافظ ابن كثير في البداية بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله الذي لا إله إلا هو، لولا أبو بكر استخلف ما عُبِدَ الله، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ف قيل له: مَهْ يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمئة إلى الشام، فلما نزل بذى خشب قُبِضَ رسول الله ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة!؟ فقال: والذي لا إله غيره، لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ (١) ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ. فوجه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: إن هؤلاء

أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سنّاً من أسامة، فوثب أبو بكر وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمّرني أن أنزعه، وتأمل التسليم والإيمان واليقين. فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت من سبيكم اليوم من خليفة رسول الله ﷺ.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله ﷺ لتركن أو لأنزلن؟ فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله». وانظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال باختصار: (١٠ / ٥٧٨) (٣٠٢٦٨ - ٣٠٢٧١).

(١) ومنهن ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوة، وإلا ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم، فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فتثبتوا على الإسلام»^(١).

قال ابن القيم في فروسيته في وصف تلك الثقة البكرية المرضية: «فشمر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جدّه عن ساق غير خوار، وانتضى سيف عزمه الذي هو ثاني ذي الفقار، وامتنطى من ظهور عزائمه جوادًا لم يكن يكبو يوم السباق، وتقدم جنود الإسلام فكان أفرسهم إنما همه اللحاق، وقال: والله لأجاهدن أعداء الإسلام جهدي، ولأصدقنهم الحرب حتى تنفرد سالفتي أو أفرد وحدي، ولأدخلنهم في الباب الذي خرجوا منه، ولأردنهم إلى الحق الذي رغبوا عنه.

فثبت الله بذلك القلب الذي لو وزن بقلوب الأمة لرجحها جيوش الإسلام، وأذل بها المنافقين والمرتدين وأهل الكتاب وعبداء الأصنام، حتى استقامت قناة الدين من بعد اعوجاجها، وجرت الملة الحنيفية على سننها ومنهاجها، وتولى حزب الشيطان وهم الخاسرون، وأذن مؤذن الايمان على رؤوس الخلائق: ﴿فَإِنْ حَرَّبَ اللَّهُ هُمْ أُلْغِلْبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

هذا وما ضعفت جيوش عزماته ولا استكانت ولا وهنت، بل لم تزل الجيوش بها مؤيدة ومنصورة، وما فرحت عزائم أعدائه بالظفر في موطن من المواطن بل لم تزل مغلوبة مكسورة، تلك لعمر الله الشجاعة التي تضاعلت لها

(١) البداية والنهاية (٣٠٥/٦).

فرسان الأمم، والهمة التي تصاغرت عندها عليات الهمم، ويحق لصديق الأمة أن يضرب من هذا المغنم بأوفر نصيب، وكيف لا وقد فاز من ميراث النبوة بكمال النصيب؟! وقد كان الموروث صلوات الله وسلامه عليه أشجع الناس، فكذلك وارثه وخليفته من بعده أشجع الأمة بالقياس، ويكفي أن عمر بن الخطاب سهم من كنانته، وخالد بن الوليد سلاح من أسلحته، والمهاجرون والأنصار أهل بيعته وشوكته، وما منهم إلا من اعترف أنه يستمد من ثباته وشجاعته»^(١).

وتأمل حروب الردة وثقة الصحابة بربهم وموعوده. كذلك تأمل حال عمر منذ إسلامه، وتدبر دعوته ربه، فعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اللَّهُم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»^(٢). وفي رواية عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: فقلت: أنى يكون هذا؟ فقال: «يأتيني به الله إذا شاء»^(٣). وعلي وشجاعته، وعثمان وإنفاقه، والحسن وزهده في الرئاسة، والصحابة في نشرهم الدين وبلائهم العظيم..

تأمل حال الصحابة رضوان الله عليهم في بدر وأحد والأحزاب ومؤته والردة وغيرها، وثباتهم العظيم في تلك المواقف المزلزلة، حتى استحقوا أن يُجَلَّد ذكر ثنائهم في سفر الخالدين، قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا

(١) الفروسية (٥ / ٥٠٢).

(٢) البخاري: (١٨٩٠).

(٣) المعجم الأوسط: (٢٧٩٥).

وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢]
 نعم، هذا وعد الله ورسوله لهم حينما قال الله في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
 تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا
 حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]
 إن هذا الثقة الباذخة الشاخحة هي التي أهلتهم بتوفيق الله تعالى إلى أن يكونوا كما
 قال الله فيهم: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ مَحَبَّهُ
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

قال الطرماح - وكان خارجياً - في أبيات رائقة واثقة^(١):

وَإِنِّي لَمَقْتَادُ جَوَادِي وَقَازِفٌ	بِهِ وَبِنَفْسِي الْعَامَ إِحْدَى الْمَقَازِفِ
لَأَكْسِبَ مَالًا أَوْ أُؤْوِلَ إِلَى غِنَى	مِنْ اللَّهِ يَكْفِينِي عُدَاةَ الْخَلَائِفِ
مَخَافَةَ دُنْيَا رَثَّةٍ أَنْ تَمِيلَنِي	كَمَا مَالَ فِيهَا الْهَالِكُ الْمُتَجَانِفُ
فِيَا رَبِّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ	عَلَى شَرْجَعٍ يُعَلَى بِدَكْنِ الْمَطَارِفِ
وَلَكِنْ أَحْنِ يَوْمِي شَهِيدًا وَعُقْبَةً	يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ

(١) ديوان الطرماح: (١ / ٩٧) وفي الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين: (١ / ٥٩) عن
 أبي عمرو الشيباني قال: «رأيتُ بالبصرة جنازة وعليها مطرف خزر أخضر، فسألتُ
 عنها، فقيل: جنازة الطرمّاح، فذكرت قوله:

فِيَا رَبِّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرْجَعٍ يُعَلَى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ
 فعلمتُ أن الله عزَّ وجلَّ لم يستجب له». قلت: في صحيح مسلم: «من سأل الله
 الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» والله حكيم في عباده،
 ولعل صارف الشهادة خطيئة البدعة، وهي بدعة الخوارج، والله أعلم.

عَصَائِبُ مِنْ شَتَّى يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ هُدَى اللَّهِ نَزَالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وصاروا إلى موعودٍ ما في المصاحفِ
فَأَقْتَلَ قَعَصَاثَمَ يَرْمَى بِأَعْظَمِي كَضَعَفِ الْخَلَى بَيْنَ الرِّيَّاحِ الْعَوَاصِفِ
وَيُضْبِحُ قَبْرِ بَطْنِ نَسْرِ مَقِيلُهُ بِجَوِّ السَّمَاءِ فِي نُسُورٍ عَوَائِفِ

ألا وإن مورد عيش أرواح الصالحين في كل زمن هو الثقة بالحافظ المدبر المتصرف الصادق وعده، فثق بالله أيها الموحد الحنيف، وأبشر بلطافه التي لا يحيطها فكر ولا يقترب منها خيال!

لقد كان إمام الواثقين برهم رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه يحيي زرع الثقة في قلوب أصحابه، حتى إذا زلزلتهم الخطوب وجدوها أحوج ما كانوا إليها، فعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُوْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُوْتَى بِالْمَنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيَمْشِطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصْدَهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضَرِ مَوْتٍ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنْكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

هذا وقد تنوعت الأساليب القرآنية في زرعها ورعايتها في القلوب، فتارة بالخبر المحض كقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥] ﴿وَعَدَ اللَّهُ

(١) متفق عليه. البخاري (٦٩٤٣) ومسلم (٢٣٨٨).

حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿[النساء: ١٢٢]﴾ ﴿لَا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] وتارة بالخبر المتضمن للأمر ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَاسِبًا﴾ [النساء: ٦] وأخرى بالأمر المباشر بها ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣] ومرة بالثناء على أهلها ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وكرة بوصفها في أهلها بمعرض الثناء والكفاية ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧] ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ومرة بذكر سببية عدمها في الخاسرين ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ومن أشدها قرعًا للأفئدة حين تكون بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

فهل عرفت الآن معنى قول الله جل وعز: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] نعم فالله حق ووعدته حق، فلا يستخفّنك أيها المؤمن ويزعزع ثقتك في مولاك أقوام ما لهم في الآخرة من خلاق! وتأمل قول العلي الكبير سبحانه حينما قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] فكل ما سواه مما يُتعلّق به باطل، وكل ما يوثق به دونه ضعيف زائل.

وتدبر قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] فلا إله إلا الله! كم في هذا الوعد الصادق الكريم من تثبيت لعزائم المحبين، وربط على قلوب المجاهدين بألسنتهم وأيديهم.

إنها الثقة التي تثمر أعجب الثمار، وأحلى النتائج، وأبهى النهايات، وأسمى الغايات:

فالمجاهد يقبل بمهجته في أتون كبد الوغى رابط الجأش ثقة بموعود ربه. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وصاروا إلى موعود ما في المصاحف.

والمنفق أمواله في مرضي ربه واثق بموعوده ولا يريد من الخلق جزاء ولا شكوراً، فلا ينتظر منهم حتى كلمة جزاك الله خيراً، أو شكراً! لأن صدره مليء بالثقة بما عند ربه وبصدق وعده، دعها فإن معها حذاءها وسقاءها. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

والمريض المدنف ساكن النفس لاهج بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء^(١)!
ولكن غير الواثقين لا يعلمون حقائق كنوز الرضى وذخائر الثقة! إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفاً للمرضى عنهم: ﴿الْعَبِيدُوتُ الْحَمِيدُوتُ السَّكِينُوتُ﴾ [التوبة: ١١٢] ويتدبر قول ربه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فتتهفو نفسه الواثقة لمزيد من الثقة حتى يكون الخبر كالمعينة!

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تُستحصد»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في طريق المهجرتين: «فإن الإنسان ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه».

والفقير يكدح بيده قد اكتفى بقوت يومه وليلته له ولمن يعول بلا استشراف قلبٍ لمستقبل مظلم! ثقة أن مَنْ خلقهم هو من تكفل برزقهم، وهو

(١) إذا نزل البلاء ومعه الصبر والرضى فهو نعمة، فإن نزل ومعه الجزع فهو العذاب والنقمة. وكل مصيبة أخطأت دينك فلا تعدّها مصيبة.

(٢) متفق عليه. البخاري (٥٦٤٤) مسلم (٢٨٠٩) والأرز: شجر دائم الخضرة من الفصيلة الصنوبرية ويرتفع حتى ٤٥ مترًا تقريبًا.

يعلم أن من أفضل العبادات انتظار الفرج ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

والداعي إلى الله^(١) الرباني^(٢) يقابل جيوش الهموم وكتائب الصعاب والغموم بابتسام وصبر ورضى، مهما تكالبت عليه العوائق وتحالفت على كبحه المنغصات رغبًا ورهبًا وتعجيزًا لأنه واثق بصدق وعد ربه أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، كيف وهذا العمل هو وظيفة المرسلين! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

والوالد المشفق يزرع ذريته في أرض أمهم الخصبة، ويسقيهم بأدعيته المباركة وإرشاده الصادق وقدوته الحسنة، ويعلم أن أبنائه وبناته هم مشروع حياته الأعظم، فيجعل لتحصيل هدايتهم وصلاحهم واستقامتهم أفضل أوقاته وأثمن ممتلكاته وأوفى جهده، واثقًا بأن المربي الحق والهادي الحق

(١) مسمى الداعي أولى من المسمى الشائع (داعية) وإن كانت صحيحة لغة شريطة طول المدى الزماني أو المكاني لدعوته، أما مسمى الداعي فهو يصدق على من دعى إلى الله ولو مرةً، وفوق ذلك فهو المسمى القرآني حيث وصف الله تعالى سيد الدعاة إليه بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

(٢) الرباني: هو من يربي الناس على الخير شيئاً فشيئاً بفعله وقوله، ويربيهم على صغار العلم قبل كباره رحمة بهم ونصحاً ورفقاً، فهو عالم بالله وبشرع الله أولاً، ثم عاملٌ بما علم ثانياً، ثم داعٍ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. قال سبحانه وبحمده: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نَعِمَةً﴾ [آل عمران: ٧٩] فهو متابع للمرسلين في وظيفتهم العظمى في الدعوة إلى الله تعالى بعلم وعمل وقدوة وحسن مأخذ وأتباع ورفق.

والحافظ الحق هو الله الحق، فجثمانه في إصلاح أجسادهم وروحه معلقة بالحافظ الهادي استمطاراً لإصلاح فلذات كبده ومهج حياته، بزاد لا ينضب من الثقة بوعده الله وحكمته. فهو لهجٌ مُلِطٌ بدعوة الحي الذي لا يموت والقيوم الذي لا ينام: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

والمظلوم يتلوّى شلوه على مرارة قرع الظالم، وحرارة سياط مقارعه النفسية والجسدية، لكن قلبه واثق بموعد ربه ونصره للمظلومين، ومهما طالت دولة ظالمه وجولة قاهره ففوقه جبار السماوات والأرضين الذي يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فلا تزال عين المظلوم باردة قرى إذ موعد المحكمة الإلهية لظالمه بالمرصاد، وخير للمظلوم لو أخر نكال ظالمه للآخرة! فما أقصر ليل الظالمين! ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إله الحق جنبنا ظلم أنفسنا بشرك فما دونه وظلم عبادك يا ذا الجلال والإكرام.

والمبتلى في دنياه إن رزق الثقة فلا عليه ما يفوته من الخطام، وليعلم أن الفرّج أقرب له من مارن أنفه:

يا صاحب الهمّ إن الهم منفرج	أبشر بخير فإنّ الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسنّ فإنّ الكافي الله
الله يُحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنّ فإنّ القاسم الله
إذا بُليت فثِقْ بالله وارض به	إنّ الذي يكشف البلوى هو الله

والله مالِك غير الله من أحدٍ فحسبُك الله في كلِّ لك الله

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال صاحب المنازل: الثقة: سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم. وصدر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي إِلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجرياته إلى حيث ينتهي أو يقف. ومراده - أي الهروي -: أن الثقة خلاصة التوكل ولبّه، كما أن سواد العين أشرف ما في العين، وأشار بأنه نقطة دائرة التفويض إلى أن مدار التوكل عليه، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة، فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها، كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله: سويداء قلب التسليم، فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه وهي المَهْجَة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه، فلو كان التفويض قلباً لكانت الثقة سويداءه، ولو كان عيناً لكانت سوادها، ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر التوكل بالثقة ويجعله حقيقتها ومنهم من يفسره بالتفويض ومنهم من يفسره بالتسليم فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأن الثقة عند الشيخ هي روح والتوكل كالبدن الحامل لها، ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان.

ومن حصل له الإيأس من الخلق حصل له الأمن، وذلك أن من تحقق بمعرفة الله وأن ما قضاه الله فلا مرد له البتة؛ أَمِنَ من فوت نصيبه الذي قسمه الله له، وأَمِنَ أيضًا من نقصان ما كتبه الله له وسطره في الكتاب المسطور، فيظفر بروح الرضى أي براحته ولذته ونعيمه، لأن صاحب الرضى في راحة ولذة وسرور. فإن لم يقدر العبد على روح الرضى ظَفَرَ بعين اليقين وهو قوة الإيمان ومباشرته للقلب، بحيث لا يبقى بينه وبين العيان إلا كشف الحجاب المانع من مكافحة البصر. فإن لم يحصل له هذا المقام حصل على لطف الصبر وما فيه من حسن العاقبة، كما في الأثر المعروف: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا»^(١).

ثِقْ بِالَّذِي خَلَقَ الْوَرَى وَدَعْ الْبَرِيَّةَ عَنْ كَمَلِ
إِنْ الصَّدِيقَ إِذَا اكْتَفَى وَرَأَى غِنَاءَ عَنْكَ مَلِ

وتأمل حال الشباب الصالحين من أهل الكهف والرقيم، قال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] «أي: قال بعضهم لبعض: إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم

(١) مدارج السالكين: (٢ / ١٤٣ - ١٤٥) بتصرف واختصار. وقوله: «فإن في الصبر على ما تكره..» رواه أحمد، وهو جزء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا المشهور: «يا غلام احفظ الله يحفظك...» (٣٠٧/١) وصححه العلامة أحمد شاكر (١٨٠٤).

وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فَأَوْأُوا إِلَى﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة»^(١).

ومن ثقة الإمام عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ اللهُ فيما ذكر أحد مرافقيه لوالدي رَحِمَهُ اللهُ قال: كنا في اجتماع دوري في المساء فجاء أحد العاملين في مكتب الشيخ وهمس في أذنه يبلغه رسالة عاجلة ملهوفة من بضعة دعاة في دولة أفريقية قد صدر ضدهم حكم بالإعدام شنقاً عند فجر ذلك اليوم، فتكدر الشيخ جداً ثم طلب مهاتفة الملك فهد يرحمه الله فتمنع مسؤولو الاتصالات الملكية بحجة عدم مناسبة الوقت للملك لأنه وقت راحته، فألح الشيخ وقال: صلوني به وأيقظوه إن كان نائماً وإلا ذهبت إليه بنفسي، فالأمر لا يحتمل التأخير. فوصلوه به فكلّمه وعظّم حرمة دم الدعاة ووجوب نصرتهم

(١) تفسير السعدي (١ / ٤٧٢).

وتحتّم تدخل الملك بنفسه فوراً عند رئيس ذلك البلد فوعد الملك خيراً، ثم أغلق الهاتف والشيخ مشغول بدعاء الله تعالى والضراعة إليه في فكّهم وكشف كربتهم، وتكرار أدعية الكرب، فما هي إلا لحظات حتى هاتفه الملك بنفسه يبشره بإنجاء الله تعالى لأولئك الدعاة، فشكره الشيخ ودعا له بخير، ثم رفع يديه وهو يردد: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصفّات: ٧٥] فلا إله إلا الله ما أعظمها من ثقة بالله وياقين وحسن ظن بمعيّته سبحانه^(١).

وحينما زار الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ العلامة المفسر الفقيه الزاهد محمد العثيمين في منزله الطيني المتواضع قال له: لعلنا نبني لك بيتاً يا شيخ محمد. فأجابه الشيخ الزاهد: ليس لي حاجة فأنا الآن أبني بيتاً لي في الصالحية^(٢)، فإن كان من أمرك ولا بد فجدّد مسجد شيخي ابن سعيدي والوقف التابع له^(٣) وابن للطلاب

(١) وقد ذكر لي أحد مرافقي الشيخ عن أحد طلبة العلم فيما يذكر عن نفسه أنه دخل على الشيخ في إنكار منكرات متهمّاً الحكومة بالتقصير في إنكارها، فأغلظ للشيخ القول، والشيخ يتلطف في الخطاب ويلين له الجواب ويعدّه بالكتابة للمسؤولين، ثم قام الشيخ ومشى، فلما أدبر قال ذلك الرجل كلمة وندم عليها فقال: أم أنك يا شيخ تخاف الحكّام؟ قال: فلما خرجت الكلمة من فمي وعلمت أنّي جرحت الشيخ أسقط في يدي فخفضت رأسي فوقف الشيخ وقال: يا فلان، خمسة من الملوك عاصرتهم ولم أضيع حق الله فيهم، ولم أداهنهم ولم أخشهم بحمد الله، والمصلح الهادي هو الله.

(٢) يعني به قبره لأن المقبرة كانت في حي الصالحية! وقد دفن في مقبرة العدل في مكة بقرب شيخه ابن باز رحمهما الله تعالى.

(٣) وقد كان الشيخ محمد يؤم المصلين فيه حتى موته رَحِمَهُ اللهُ.

المنقطعين لطلب العلم سكنًا يكون كالرباط لهم. فنظر الملك لأحد مرافقيه ممن كانوا يُغمزون فقال: إيه يا فلان، هؤلاء هم مشايخ الآخرة! أما حاجات نفسه وأغراضها فلم يبالها باله ولا لمخلوق، إذ كان واثقًا في كفاية ربه سبحانه وبحمده. إن الثقة بالله هي اتكاء إلى جدار عظيم، واستنادٌ إلى ركن شديد، والسعيد من جاوز بثقته طباق السماوات ووصل بها بين عالمي الغيب والشهادة، فصار يرى بحسن ظنه وعظيم ثقته بوعد ربه ما لا يراه المترعز عون.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ (١):

قصة الغار والصدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لما أغارت قريش خيل الحيل على الرسول ﷺ، خرج إلى غارٍ لو دخله غيره كان غَرًّا (٢) فَغَرَّتْ قريش بالطلب، فحُمِّي بِلُطْفٍ فما بان المستترُّ، فغَشَّى ما غَشَّى على أبصار المُتَتَفِينَ فصاروا كالأعشى، فعادوا عن من عادوا، عودًا بحثًا بلا بختٍ، فقال الصديق من حرّ الوجد: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا» فقال ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» (٣).

فلما رحلا لحقهما سُرّاقة، فسرقت الأرض قوائم فرسه، فلما رأى أرضًا صلدًا قد فرست الفرس فرست (٤) إلى بطنها ببطنها، أشربت نفسه علم اليقين

(١) المدهشات: (٢٧-٢٨) وأصلها في المدهش: (١ / ١٢٦-١٢٨).

(٢) الغر: التعرض للهلاك.

(٣) متفق عليه. البخاري (٣٦٥٣) مسلم (٢٣٨١).

(٤) فرست الأولى: افترست، والثانية: رسبت ونزلت من الرسو.

بظنّها، فأخذ يعرض مفاتيح المال على من رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شعبان «أبيت عند ربي»^(١).

فجاز على خيمة أمّ معبد، فأصحت^(٢) شائها، وأصبحت تشهد، فوصلا إلى يثرب على نجائب السلامة، وفات الخير مكة، وفاءت المدينة بالكرامة.

وفي قصة أهل بدر:

لما بادر بدر الشريعة بالخروج إلى بدر، رأى في الصحابة قلة فارتقى قلة ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فقام المقداد عن قومه قومة لحق متابعة المبايعة، فقال: «لو سرت إلى برك الغماد لتابعناك»^(٣) فما لبث الرسول ﷺ أن صار يطلب بالخطاب الأنصار، ففطن لسعادته سعد بن معاذ، فقال: «لو خضت البحر لخضنا».

فرأى المصطفى في الأعداء العدد والعدد، فاستقبل قبلة الطلب، واقتضى^(٤) كريماً ما ماطل، فانتدب مدد العون، فأقبلت سحابة تسحب ذيل النصر، فسمع

(١) متفق عليه. البخاري (٦٨٥١) مسلم (١١٠٣) وهو حديث متواتر، وانظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٦٩/٦).

(٢) أي: عادت صحيحة.

(٣) رواه أحمد (١٢٩٥٤) وصححه الأرناؤوط.

(٤) اقتضى: طلب من بذمته دين، ويشير هنا إلى سؤاله ربه أن ينجز له ما وعده.

المشركون منها حممة^(١) الخيل فحُمُوا، وانقلبت قلوبهم من يحمومها حمًا^(٢) فنزلت الملائكة مع الإلّفين^(٣) فعدلوا كالغمام، قد سدّلو العمام، وأرسلت قريش رائدًا، فعاد بتأثير ﴿سَأَلْتِي﴾ [الأنفال: ١٢]، فحذر القوم العزل سهام العزائم، فأثر عتبة في عتبه، وكاد يشيب خوفًا شيبه، وأحكم حزام الحزم حكيم بن حزام، وأبى للجهل أبو جهل:

فلزّهم الطراد إلى قتالٍ أحدّ سلاحهم فيه الفرارُ
مضوا متسابقي الأعضاء فيه لأرجلهم بأرؤسهم عشارُ

فلما قلبوا إلى القلب، قام الرسول ﷺ على رأس الرّسّ^(٤) يُنادي الرؤساء حين رُسّوا^(٥) بلسان ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٦] على جواب ﴿تَسْتَفْنِحُوا﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في مضمون ﴿هَلْ تُؤَبَّ﴾ [المطففين: ٣٦] يا فلان! ويا فلان! «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟»^(٦).



(١) الحممة: صوت الفرس.

(٢) الحُمَم: الفحم.

(٣) الإلّفين: من الألفة، إشارة إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٤) الرس: القلب.

(٥) رُسّوا: دُفِنوا.

(٦) انظر: السيرة لابن كثير (٢/ ٤٩٠).

ليس مع الله تعالى ضيعة

قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ أَبْوَابِ الْخُمْسِ:

بَابُ بَرَكََةِ الْغَازِي فِي مَالِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَوُلَاةِ الْأَمْرِ

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي أُسَامَةَ: أَحَدَثَكُمْ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعَانِي فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لَا أَرَانِي إِلَّا سَاقُتِلُ الْيَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفْتَرَى يُبْقِي دِينَنَا مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، بَعْ مَالِنَا فَاقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصِ بِالثُّلْثِ وَثُلْثِهِ لِبَنِيهِ - يَعْنِي بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - يَقُولُ: ثُلْثُ الثُّلْثِ، فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا فَضْلٌ بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ فَثُلْثُهُ لَوَلَدِكَ. قَالَ هِشَامُ: وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ خُبَيْبٌ وَعَبَّادٌ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ وَتِسْعُ بَنَاتٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِهِ وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلَايَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ، اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيهِ.

فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا أَرْضِينَ مِنْهَا الْغَابَةَ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ، وَدَارَيْنِ بِالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بِالْكُوفَةِ، وَدَارًا بِمِصْرَ. قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي عَلَيْهِ؛ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيهِ بِالْمَالِ فَيَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ

فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا، وَلَكِنَّهُ سَلَفٌ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ، وَمَا وَلِيَّ إِمَارَةً قَطُّ، وَلَا جَبَايَةَ خَرَجٍ^(١)، وَلَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: فَحَسَبْتُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، فَوَجَدْتُهُ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِئَتِي أَلْفٍ!

قَالَ: فَلَقِي حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدِّينِ؟ فَكْتَمَهُ فَقَالَ: مِئَةُ أَلْفٍ، فَقَالَ حَكِيمٌ: وَاللَّهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسَعُ لِهَذِهِ! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِئَتِي أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَأَكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي.

قَالَ: وَكَانَ الزُّبَيْرُ اشْتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ وَمِئَةَ أَلْفٍ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِأَلْفٍ أَلْفٍ وَسِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ حَقٌّ فَلْيُؤَاغِرْنَا بِالْغَابَةِ، فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: - وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبَعُ مِئَةِ أَلْفٍ - فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا. قَالَ: فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُموها فِيمَا تُؤَخَّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا. قَالَ: قَالَ: فاقطعوا لي قطعةً، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا. قَالَ: فَبَاعَ مِنْهَا، فَقَضَى دَيْنَهُ فَأَوْفَاهُ، وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ.

(١) لأن هذان الأمران من أكبر أبواب تحصيل المال بالحرام وأكله بالباطل، ولاحظ تبويب البخاري وإشارته إلى بركة مال الغنيمة، وهو أطيب الأموال، وعند أحمد مرفوعاً: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي» (٥١١٥) وصححه أحمد شاكر وجوده ابن باز في فتاوى نور على الدرب (٢٠٠/١).

فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ زَمْعَةَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قُومَتِ الْغَابَةُ؟ قَالَ: كُلُّ سَهْمٍ مِئَّةَ أَلْفٍ. قَالَ: كَمْ بَقِيَ؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ. قَالَ الْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ: قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِئَةِ أَلْفٍ. قَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ: قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِئَةِ أَلْفٍ. وَقَالَ ابْنُ زَمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِئَةِ أَلْفٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: كَمْ بَقِيَ؟ فَقَالَ: سَهْمٌ وَنِصْفٌ. قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ بِخَمْسِينَ وَمِئَةِ أَلْفٍ. قَالَ: وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِسِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ. فَلَمَّا فَرَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قِضَاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا مِيرَاثَنَا. قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بِالْمُوسِمِ أَرْبَعَ سِنِينَ أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ. قَالَ: فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي بِالْمُوسِمِ. فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ. قَالَ: فَكَانَ لِلزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، وَرَفَعَ الثُّلُثَ فَأَصَابَ كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ وَمِئَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِئَتَا أَلْفٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ

(١) صحيح البخاري: (٣١٢٩) أي: خمسون مليونًا ومِئَتَا أَلْفٍ هو مجموع تركته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا من بركة الله تعالى في ماله حيًّا وميتًا. وقد كان في أول وأوسط أمره فقيرًا كما في أخبار زوجه أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(٢٠)	سلامة الصدر
(٧)	الأنس بالله تعالى	(٢١)	العفاف
(٨)	الإرادة	(٢٢)	الصبر
(٩)	العزم	(٢٣)	الرضا بالله تعالى
(١٠)	الرجاء	(٢٤)	شكر الله تعالى
(١١)	الرغبة	(٢٥)	حمد الله تعالى
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٦)	الفرح بالله تعالى
(١٣)	حُسنُ الظنِّ بالله تعالى	(٢٧)	
(١٤)	الثقة بالله تعالى		

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(١٥)

موسوعة تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الافتقار إلى الله تعالى



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

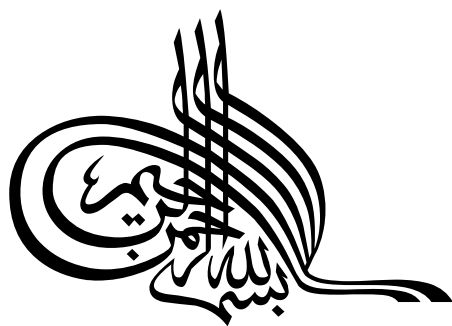
الكتاب رقم (١٥)

الافتقار إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

مقدمة	٥
التعريف	٧
فضل الافتقار الاختياري إلى الله	١٢
الله وحده هو الغني، وجميع الخلائق مفتقرة إليه	١٨
ضرورة العبد للافتقار لربه	٤٩
الافتقار للهدى	٦٥
علامات الافتقار إلى الله تعالى	٨٧
ثمرات الافتقار إلى الله تعالى	١٢١
كيف يحقق المؤمن عبودية الافتقار؟	١٥١
آفات على طريق الافتقار	٢٧٠
الافتقار وشهود القدر	٢٨٨
فقر المشرك	٣٤٧
إضاءة	٣٥٠



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ الأرض وربّ السماء، خلق آدم وعلمه الأسماء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة دار البقاء، وحذّره من الشيطان الدّ الأعداء، ثم أنفذ فيه ما سبق به القضاء، فأهبطه إلى دار الابتلاء، وجعل الدنيا له ولذريته دار عمل لا دار جزاء، وتجلّت رحمته بهم فتوالى الرسل والأنبياء، وما منهم أحد إلا جاء معه بفرقان وضياء، ثم ختم الرسالات بالشرعة الغراء، ونزل القرآن لما في الصدور شفاء، فأضاءت به قلوب الأتقياء. أغنى الناس من افتقر إليه، وأسعدهم من فاز بالزُّلفى لديه.

أحمده تبارك وتعالى على النعماء والسّراء، وأستعينه على البأساء والضراء، وأعوذ بنور وجهه الكريم من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، وأسأله عيش السعداء، وموت الشهداء، ومرافقة الأنبياء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سمیعٌ بصیرٌ يرى ويسمع النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصّماء، أجرى الأمور بحكمته، وقسم الأرزاق وفق مشيئته. وأشهد أن نبينا محمداً خاتم الرسل والأنبياء، وإمام المجاهدين والأتقياء، هو القدوة النيرة في الصبر على البلاء، والعمل لدار البقاء. اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحابه الأجلّاء، وعلى السائرين على دربه والداعين بدعوته إلى يوم اللقاء، ما تعاقب الصبح والمساء،

وما دام في الكون ظلمة وضياء.

أما بعد؛ فهذه رسالة مما يسرّها الله تعالى في الافتقار إلى الله تبارك وتعالى، من جهة المعنى والفضل وطرق التحصيل والموانع ونحو ذلك مما يقتضيه المقام، سائلاً ربي تعالى - وأنا الفقير الكسير الحسير المسكين المذنب الخاطيء الذليل التائب إليه - الغنى به عمّن سواه، فله نفحات لطف وساعات إجابته وأرزاق برٍّ مَنْ أنعم عليه بها فهو من الفائزين، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٨ / ١٢ / ٢٩ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الفقر هو الحاجة، والافتقار الاحتياج، بالفقر صفة راسخة لا تزول إلا بزوال الفقر عن طريق الغنى، أما الافتقار فكأن فيه زيادة الإحساس بالفقر سواء كان فقيرًا في الأصل أم لا. وعلى هذا فيصح القول بأن الافتقار هو الفقر، ويصح كذلك أن نزيد بأن الافتقار متضمن للإحساس بالفقر والتوجه جهة المغني لإزالة فقره.

وبتعبير آخر فالفقر قد يكون حسيًا نابعًا من قرارة النفس وجوعتها لما يسد رمقها الحسي كالمال والغذاء والدواء ونحو ذلك، أو معنويًا - وهو أشد - كالحاجة للأمن والسكينة والراحة والطمأنينة والغنيمة والحب، ثم إن هذا الافتقار قد يكون مكتسبًا، أي أن المرء يحرك قلبه ضراعة وحاجة نحو سبب الغنى أيًا كان ذلك السبب حقيقيًا كان أو متوهمًا. وبالعوم فكل مخلوق هو في حقيقته فقير فقرًا مطلقًا لخالقه ومالكه وربّه سبحانه وبحمده.

وأعظم الافتقار وأصدق وأنجعه هو افتقار المرء لربه، فيتأمل ضعفه وفقره ومسكنته وحاجته وعجزه، ثم يرفع ذلك إلى ربه الغنيّ الملك القويّ العزيز الرزّاق الوهاب، حينها يكون ذلك القلب المهديّ قد التوى على حبل التوفيق والإعانة والرزق والغنى في روحه وجسده ودينه ودينه، وعلى قدر افتقاره لربه يكون توفيقه ورزقه وغناه. قال تعالى: ﴿الْيَسَّ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وفي أصل مادة الفقر والافتقار قال ابن فارس: «الفاء والقاف والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على انفراجٍ في شيء، من عضوٍ أو غير ذلك. من ذلك: الْفَقَارُ لِلظَّهْرِ، الواحدة فَقَارَةٌ، سُمِّيَتْ لِلْحُزُوزِ وَالْفُصُولِ الَّتِي بَيْنَهَا. وَالْفَقِيرُ: الْمَكْسُورُ فَقَارِ الظَّهْرِ. وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: مِنْهُ اشْتُقَّ اسْمُ الْفَقِيرِ، وَكَأَنَّهُ مَكْسُورٌ فَقَارِ الظَّهْرِ، مِنْ ذَلَّتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ. وَمِنْ ذَلِكَ:

فَقَرَّتْهُمْ الْفَاقِرَةُ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ، كَأَنَّهَا كَاسِرَةٌ لِفَقَارِ الظَّهْرِ. وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: الْفَقِيرُ: الَّذِي لَهُ بُلْغَةٌ مِنْ عَيْشٍ. وَيَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ^(١):

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حُلُوبُهُ وَفَقَّ الْعِيَالُ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبْدٌ

قال: فجعل له حلوبةً، وجعلها وفقًا لعياله، أي قوتًا لا فضل فيه. وأما الْفَقِيرُ فَإِنَّهُ مَخْرَجُ الْمَاءِ مِنَ الْقَنَاةِ، وَقِيَاسُهُ صَحِيحٌ، لِأَنَّهُ هُزِمَ فِي الْأَرْضِ وَكُسِرَ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَفْقَرَكَ الصَّيْدُ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ أَمَكَّنَكَ مِنْ فَقَارِهِ حَتَّى تَرْمِيَهُ.

وَسَدَّ اللَّهُ مَفَاقِرَهُ، أَيَ أَغْنَاهُ وَسَدَّ وَجْهَ فَقْرِهِ، قَالَ:

وَإِنَّ الَّذِي سَاقَ الْغِنَى لِابْنِ عَامِرٍ لَرَبِّي الَّذِي أَرْجُو لِسَدَّ مَفَاقِرِي^(٢)

وقال ابن منظور: «الْفَقْرُ وَالْفُقْرُ ضِدُّ الْغِنَى مِثْلُ الضَّعْفِ وَالضُّعْفِ^(٣)،

(١) أي: بقول الراعي النميري.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٤٤٣ - ٤٤٤).

(٣) ولعاصم قراءتان صحيحتان في آية سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وهما بفتح الضاد =

وقَدَّرُ ذلك أن يكون له ما يَكْفِي عياله، ورجل فَقِيرٌ من المال وقد فَقَّرَ فهو فقير، والجمع فُقَرَاءُ، والأنثى فَقِيرَةٌ من نسوة فَقَائِرٍ. وقال يونس: الْفَقِيرُ أَحْسَنُ حالاً من المسكين. قال: وقلت لأعرابي مرةً: أَفَقِيرٌ أَنْتَ؟ فقال: لا والله بل مسكين، فالمسكين أسوأ حالاً من الفقير^(١). وقال ابن الأعرابي: الْفَقِيرُ الذي لا شيء له، قال: والمسكين مثله.

والفَقْرُ الحاجة، وفعله الْإِفْتِقَارُ، والنعت فَقِيرٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] سئل أبو العباس عن تفسير الْفَقِيرِ والمسكين فقال: قال أبو عمرو بن العلاء فيما يروي عنه يونس: الْفَقِيرُ الذي له ما يأكل، والمسكين الذي لا شيء له. وقال الأصمعي: المسكين أحسن حالاً من الْفَقِيرِ، قال: وكذلك قال أحمد بن عبيد، قال أبو بكر: وهو الصحيح عندنا لأن الله تعالى سَمَّى من له الْفُلْكَ مسكيناً فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] وهي تساوي جُمْلَةً، قال والذي احتج به يونس من أنه قال لأعرابي أَفَقِيرٌ أَنْتَ؟ فقال: لا والله بل مسكين. يجوز أن يكون أراد لا والله بل أنا أحسن حالاً من الفقير.

وقيل: الْفَقِيرُ الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بعض ما يَكْفِيهِ. وإليه ذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل فيهما بالعكس، وإليه ذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَضَمَّهَا في المواضع الثلاثة من الآية الكريمة.

(١) والمشهور عند جمهور الفقهاء أن الفقير هو الذي لا يجد شيئاً، أما المسكين فهو الذي يجد شيئاً لكنه دون كفايته ومن يعول.

قال الأزهري: الفقيرُ أشدَّ حالاً عند الشافعي رحمه الله تعالى، وقال ابن عرفة: الفقيرُ عند العرب المحتاج، قال الله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] أي المحتاجون إليه.

والمُفَقَّر من السيوف الذي فيه حُرُوز، يقال: سيف مُفَقَّر، وكلُّ شيء حُرٌّ أو أُثِّر فيه فقد فُقِّر وكان اسم سيف النبي ﷺ ذا الفقار، شبهوا تلك الحزوز بالفقار، قال أبو العباس: سمي سيف النبي ﷺ ذا الفقار لأنه كانت فيه حُفَرٌ صِغار حِسانٌ ويقال للحفرة فُقرة وجمعها فُقَر (١).

وقال الجوهري: الفقيرُ حفير يحفر حول الفسيلة إذا غرست، وفقيرُ النخلة حفيرة تحفر للفسيلة إذا حوّلت لتغرس فيها، وفي الحديث قال لسلمان: «اذْهَبْ فَفَقِّرِ الْفَسِيلَ» (٢) أي احْفَرْ لها موضعاً تُغْرَس فيه واسم تلك الحفرة فُقرة وفقيرٌ. والبئر العتيقة فقير وجمعها فُقَر وفي حديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثم جمعنا المفاتيح فتركناها في فقيرٍ من فُقَر خيبر» أي بئر من آبارها» (٣).

قلت: والفقير أشد حاجة من المسكين ولهذا ابتداءً الله به في آية مصارف الزكاة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] بل وتقديمه على

(١) وجمع فُقرة إذا فتحنا الفاء وهو استعمال صحيح -: فُقَرَات، وفُقَرَات، وفُقَر، وفُقَار.

(٢) بنحوه في سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ١٠٨).

(٣) لسان العرب (٥/ ٦٠).

المسكين مضطرد في التنزيل، وهذا دالٌّ على شدة عوز المُقَدَّم على غيره.

وفي المحيط: «الفَقْرُ: الحاجةُ، وفَعْلُهَا الافتقارُ، والفَقْرُ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ.

وأغنى الله مَفَاقِرَهُ: أي وُجُوهُ فَقْرِهِ. وقيل في قوله: رَأَيْتُ الْيَتَامَى لَا تُسَدُّ فُقُورَهُمْ، أي مَفَاقِرَهُمْ وَجُوعُهُمْ»^(١).

وفي التهذيب: «أخبرني المنذري عن أبي العباس عن ابن الأعرابي أنه أنشده للبيد:

لَمَّا رَأَى لُبْدُ النُّسُورِ تَطَايَرَتْ رَفَعَ الْقَوَادِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَعْزَلَ

وقال: الفقير المكسور الفقار، يضرب مثلا لكل ضعيف لا ينفذ في الأمور»^(٢).

قلت: فعاد الفقر للحاجة للغير على أي وجه كان.



(١) المحيط في اللغة (١/ ٤٧٣).

(٢) تهذيب اللغة (٣/ ٢١٣).

فضل الافتقار الاختياري إلى الله

لما كان الله تعالى هو الخالق المالك المدبر - وتأمل هذه الثلاث التي تنتظم توحيد الربوبية - فلا يخرج شيء في ملكه عن قدرته ومشيتته وحكمته ورحمته، وكان العبد هو المخلوق المملوك المُدَبَّر الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا موتاً، ولا إعطاءً ولا منعاً؛ فهو هباءً صغير فقير في جملة هذا الكون الشاسع الفسيح، فإن مسألة حاجة العبد التامة وافتقاره المطلق ومسكنته البالغة لغنى ربه وقوته ورحمته ولطفه تكون شديدة الوضوح والسطوع في بصر العبد وبصيرته، ذلك أن العبد كله لله وبالله ملكاً وإعانة فأين إذن استغناؤه ولمن يا ترى فراره؟!

والافتقار نوعان:

الأول: افتقار اضطراري، وهذا لكل مخلوق لا ينفك عنه مهما بلغ به التيه والكبر ووهم الاستغناء، وهذا النوع لا يُحمد المخلوق عليه لأنه لا اختيار ولا خيار له فيه البتة.

الثاني: افتقار اختياري، وهو المحمود صاحبه، والموفق فاعله، ومعناه التوجه بكلية القلب إلى الله، فيحدث نفسه ويذكرها دوماً بافتقارها لمولاه، ويملاً قلبه بالامتنان لربه وشدة الحاجة إليه، ويدعو ربه بلسانه وبحاله وبجنانه.

من افتقر فليلد بالغني الكريم، ولينخ ركابه مستمنحاً عطايا الوهاب البر الرحيم، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله العظيم فإنك إذا خفته فررت إليه ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] أي الجئوا إليه واعتمدوا في كل أموركم عليه.

والعبد لا ينفك عن افتقار تام لربه سواء في حياة قلبه وغذاء روحه بالعلم والإيمان والتسديد والتوفيق، أو في حياة جسده وتحصيل بلغته من هذه الدنيا التي جعلها الله قياماً له، حتى إذا وصل لتلك المحلة المنيغة من التعلق والافتقار واللجأ أغناه ربه بأمداد لطفه فازداد علمه بربه ويقينه وإيمانه بموعوده وبارك الله له عمره، قال شيخ الإسلام: «ليس عند القلب أحلى ولا ألد ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبه له وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرهوبه، فلا يكون عبداً لله ومحباً له إلا بين خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]»^(١).

واعلم أخي الكريم أن افتقار القلب إلى ربه هو محض فضل الله وكرمه

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٥ - ٢١٦) وانظرها كذلك في الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٠٤).

وجوده وإحسانه، والناس متفاضلون في إدراكه والإحساس به والعمل بمقتضاه وما يترتب عليه تفاضلاً كبيراً. والتوحيد عمود الافتقار و«الناس في هذا الباب - أي التوحيد والإخلاص وكمال التعلق والافتقار - على ثلاث درجات:

منهم من علم ذلك سماعاً واستدلالاً، ومنهم من شاهد وعين ما يحصل لهم، ومنهم من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله والالتجاء إليه والاستعانة به وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرّة؛ فإنه يُخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له الدين؛ أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره. وكذلك من ذاق طعم الإخلاص لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك، بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال؛ يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه، وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره، بل هو في خوف وحزن دائماً، إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل

إدراكه حزينٌ متألم، حيث لم يحصل، فإذا أدركه كان خائفًا من زواله وفراقه^(١). وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإذا ذاق هذا فقد ذاق حلاوة الإخلاص لله والعبادة وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله وهو محسن، بحيث يكون عمله صالحًا ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة.

ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك، فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة (إياك نعبد) مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة (إياك نستعين) كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا^(٢).

وكلما عظم التوحيد في القلب وامتدت جذوره فيه نمت أعصانه الظاهرة على جذع الإيمان، وأينعت ثمرته وطاب مخبره ومظهره. والافتقار إلى الله يمدّ

(١) ولا بن دريد:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ	وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حين	مخافة فُرقة أو لاشتياق
فيكي إن نأوا شوقًا إليهم	ويكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التناهي	وتسخن عينه عند التلاقي

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٠ / ٦٥٠-٦٥٢).

صاحبه بزاد لا يفنى، وروح لا يضمحل، ولا يزال المفتقر إلى الله يزداد من الغنى حتى تكون شجرة التوحيد في قلبه كالشمس، «والتوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يחדشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًا أدنى شيء يؤثر فيها. ولهذا تشوشه اللحظة^(١) واللفظة والشهوة الخفية فإن بادر صاحبها وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه، منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال. ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه، بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده؛ فيظهر تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير^(٢).

وأيضًا فإن المحل الصافي جدًا يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به.

(١) أي لحظة العين، ويقصد بها النظر إلى الحرام.

(٢) ويقع هذا غالبًا في اللحم الذي لا يسلم منه أحد، لكن عظيم التوحيد يستبشعه في ثاني الحال ولا يصّر عليه ولا يكاد يلتذّ به، بعكس ضعيف الإيمان الذي يستمرئه ويركن إليه ولا يكاد يتوب منه ويقلع عنه.

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة. وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات يُسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات، وليست له مثل تلك المحاسن، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها.

هذا وإن ترك الشهوات لله - وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته - فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به لا يحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم. فإنه سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمة ومتعلقة بغيره. وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاًّ دونه، والذل عزاً معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه.

وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة^(١).

(١) الفوائد (١/١٩٥ - ١٩٦).

الله وحده هو الغنيُّ، وجميعُ الخلائقِ مفتقرةٌ إليه

قال شيخ الإسلام مبيِّناً اضطرار الخلائق وافتقارهم لمولاهم مهما كانت مادة خلقهم: «فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة. وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته، لا تكون ذاته إلا فقيرة فقراً لازماً لها، ولا يستغنى إلا بالله.

وهذا من معاني (الصمد) وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء. بل الأشياء مفتقرة إليه من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته؛ فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم. وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله - فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته - وإلا كانت أعمالاً فاسدة؛ فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية كما افتقرت إلى العلة الفاعلية، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً، ولولا ذلك لم يفعل. فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل لعدمتا، وهذا معنى قول لييد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لييد: ألا كل شيء ما خلا

الله باطل»^(١) معناه: أن كل معبود من دون الله باطل كقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢] وقد قال قبل هذا: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] كما قال في الأنعام: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [٦١] ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود - وهو مريض - فقال: كيف تجدك؟ قال أجدني مردودًا إلى الله مولاي الحق. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٤] يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥] وقد أقرؤا بوجوده في الدنيا، لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه، ولهذا قال: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ بصيغة الحصر، فإنه يومئذ لا يبقى أحد يدعي لغيره الإلهية، ولا أحد يشرك بربه أحدًا»^(٢).

(١) البخاري ٥٣/٥ (٣٨٤١) ومسلم ٤٩/٧ (٢٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (٥/ ٥١٥-٥١٧) وانظر كذلك: الرد على المنطقيين: (١/ ٣٤٥)

والعقل والنقل (١/ ٤٢٩).

قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»^(١).

وقال أبو بكر الكتاني: «إذا صح الافتقار إلى الله صحّت العناية»^(٢) لأنها حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه»^(٣).

وتأمل حال هذا الإنسان العجيب ومزاجه الغريب في جهله مع عجزه، واستغنائه مع فقره، ورجوعه بعد فراره وكفره، قال سبحانه وبحمده:

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾^(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ^(٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿[فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: لا يَمَلُّ الإنسان من دعائه ربه بالخير. وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك. وإن مسه الشر. وهو البلاء أو الفقر. ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة

(١) صفة الصفوة (٤/ ٦٥).

(٢) أي: عناية المؤمن بصلاح أمره واستقامته.

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٨).

ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه حوّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿[العلق: ٦، ٧]﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ [فصلت: ٥١] أي: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢] (١).

و«قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿[العلق: ٦، ٧] يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨] أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيه صرفته؟» (٢).

وتدبر قول الله تعالى مبيناً ضعف البشر وأنهم ليسوا في حقيقتهم بشيء إن

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٧).

خذلهم ربهم ووكّلهم إلى ضعفهم وفقرهم: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] «يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتدلّلها بين يديه، فقال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول، ويقدره ويشعره»^(١).

وقال شيخ الإسلام الثاني في المدارج^(٢): «ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الفقر.

وهذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرّها ولبّها وغايتها.

وهذا إنما يُعرف بمعرفة حقيقة الفقر والذي تريد به هذه الطائفة^(٣) أخص من معناه الأصلي، فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤١).

(٢) قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «كتاب مدارج السالكين كتاب عظيم في مقتضيات الأسماء والصفات. فإذا قرأه الإنسان كأنما قام من النوم لعظمته» في تعليقه المسموع على الحموية.

(٣) أي المشتغلون بتحقيق أعمال القلوب، وإحسان السلوك الخاص، حتى وإن قصّروا في أبواب أخرى كالمُتصوّفة، حتى إنهم يتلقبون بالفُقراء.

أحدها^(١): قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية، أي الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمئة، ولم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله، وهم أهل الصفة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله، وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم بحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠]، والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم

(١) بل أكثر كقوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ [النور: ٣٢] وغيرها. وربما قصد المصنف رحمه الله الأنواع لا الألفاظ وهذا يستقيم مع سياق كلامه، والله أعلم.

وعامّهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم، غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وكافرهم. فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجدة. ومن ليس محصرًا في سبيل الله ومن لا يكتّم فقره تعفّفًا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني. والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره. والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه^(١).

ومراد القوم بالفقر: شيء أخصّ من هذا كله، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلّ من أن يسمى فقرًا^(٢) بل هو حقيقة العبودية ولبها، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيى بن معاذ فقال: «حقيقته أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه: عدم الأسباب كلها»^(٣) يقول: عدم الوثوق بها، والوقوف معها، وهو كما قال بعض المشايخ: شيء لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلى من يريده.

(١) فكل غنيّ إليه فقير، وكل جبار إليه كسير.

(٢) وفي هذا نظر، فالافتقار أحد ركائز العبودية وأفرادها، ونفس اللفظ شريف بمعناه هنا.

(٣) ومراده: عدم الالتفات إليها لا إعدامها بالكلية، وهذا مذهب السلف خلافاً لضلال الأشاعرة. وانظر «شفاء العليل» لابن القيم ففيه شفاء ورواء لغلة الصادي في مسألة القدر والعلة.

وسئل رُوَيْم^(١) عن الفقر فقال: «إرسال النفس في أحكام الله» وهذا إنما يُحمد في إرسالها في الأحكام الدينية والقدرية التي لا يؤمر بمدافعتها والتحرز منها.

(١) أبو محمد رويم بن أحمد البغدادي. مات سنة ثلاثة وثمان مئة. وكان مقرئاً، وفقهياً على مذهب داود.

ومن أقواله: «من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام، ويضيّق على نفسه فيها، فإن للتوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حكم الورع». قال عبد الله بن خفيف: سألت رويماً، فقلت: أوصني. فقال: «ما هذا الأمر، إلا ببذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترّهات الصوفية». ومن وصاياه: «إذا رزقك الله المقال، والفعال، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة، وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنها مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة». عن الرسالة القشيرية (١ / ٢٠).

ونقل عنه ابن الديبع الشيباني في مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (١ / ٤): قال رويم البغدادي: «التوبة هي إسقاط رؤية التوبة. أي إسقاط رؤيتها صادرة من نفس المسلم، بل منة من الله إليه، وهو منفذ لها بعد ما تحركت نفسه إليها، وصدق افتقاره إلى ربه، ولم يجد له مفرّاً من نفسه إلا إلى الله تعالى، وصدق في التخلّق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فحينئذ يسعفه الله تعالى بالتوفيق إليها، ويعينه على تحقيقها».

وذكر عنه صاحب العاقبة في ذكر الموت (١ / ١٣٤) قال: وقيل لرويم عند الموت قل: لا إله إلا الله فقال: ما أحسن غيرها.

وذكروا عنه أنه أجاب من سأله عن المحبة فأنشد:

ولو قلت لي مُتْ قلتُ سمعاً وطاعةً وقلتُ لداعي الموت أهلاً ومرحباً

وسئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه؟ فقال: «ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره».

وحقيقة الفقر وكماله كما قال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: «إذا لم يبق عليه بقية منه» ف قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: «إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له».

وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كله لله عز وجل، لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه فققره مدخول، ثم فسر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثم مُلكٌ واستغناء مناف للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجدة^(١) ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياءه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل، كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ كان كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

(١) أي: الغنى الحسبي بالمال والمعافاة ونحو ذلك، ومنه حديث أبي سعيد مرفوعاً: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أخرجه مسلم (٤٧٧).

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد^(١) وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب، وأكثر إشارات القوم إليها، كقول بعضهم: «الفقر لا تسبق همته خطوته» يريد: أنه ابن حاله ووقته، فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه.

وقيل: أركان الفقر أربعة: «علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه»^(٢).

وقال الشبلي: حقيقة الفقر: «أن لا يستغني بشيء دون الله» وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: «إذا لم ير لنفسه غير الوقت

(١) أي: لا ينفك عنه، لأنه من لوازم خلقته، فلا يستغني عن ربه طرفة عين حتى وإن كابر وكفر.

(٢) وهو كلام شريف، فلا بد من علم بالشرعية حتى لا تتخطفه الجهالات والخيالات والمنامات والأذواق. كذلك الورع حتى لا يستسهل قبول تبرير النفس في تحصيل شهواتها بزعم افتقارها. وكذلك اليقين لأنه الزاد الذي تتغذى به الروح في سيرها لربها. أما الذكر المؤنس للنفس فلا وحشة معه، بل الأنس والسرور بربه هو غاية سعادته.

الذي هو فيه»^(١).

وقال أبو حفص: «أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال».

وقيل: «من أراد الفقر لشرف الفقر؛ مات فقيرًا. ومن أراد له ثلثا يشتغل عن الله بشيء مات غنيًا».

والفقر له بداية ونهاية، وظاهر وباطن. فبدايته: الذل، ونهايته: العز. وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى.

(١) مع التنبيه إلى أن المتصوفة يقررون طرائق ومسالك ورسوم وأوضاع يلزمون بها من رام الافتقار، وكثير منها تكلفات وتنطعات وشطحات ما أنزل الله بها من سلطان، وبالجمل: فلا بد من إحسان الاتباع مع إحسان القصد بلا تكلف أصل معدوم، ولا تغيير ركن موجود، فالأمر أمر الله، والدين دينه، والشرع شرعه، وعلى رسوله البلاغ وعلينا صدق الاتباع وإحسان الاتساء، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وكما قال أبو العالية الرياحي رحمه الله: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ عَبْدُونَ﴾ و﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ورحم الله أبا عثمان النيسابوري - وهو من جلة شيوخ القوم وعارفيهم ومقدميهم - فإنه لما حضرته الوفاة وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها، مزق ابنه قميصًا على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه وهو في السياق فقال: «يا بني خلاف السنة في الظاهر، وعلامة رياء في الباطن».

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله مع التخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعُجب^(١). مع أنه لا صفاء معهما^(٢).

«وعلى العبد الموفق الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنتته وجوده، وأن العبد وكل ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه، وليس للعبد من ذاته سوى العدم، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه.

فإذا شهد هذا وأحضره قلبه وتحقق به؛ خلصه من رؤية أعماله. فإنه لا يراها إلا من الله وبالله، وليست منه هو ولا به. فرؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله، ويخلصه منها شهود السبق ومطالعة الفضل^(٣).

وقال شيخ الإسلام مدللًا على حاجة الإنسان التامة وفقره اللازم الملازم لرحمة ربه وتوليه من تسعة أوجه فطرية عقلية شرعية: «إن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

(١) فالعُجب من محبطات الأعمال الخفية، نسأل الله السلامة. وقيل: أين المذنبين أحب إلى الله من زَجَلِ المُسَبِّحِينَ المدلّين.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦ - ٤٣٩) بتصرف يسير.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٧).

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية. فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر. إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه. فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية، إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً. والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ

﴿تَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين.

الوجه الثاني: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبه والإخلاص له. فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله رأس الأمر. فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق وقرره أهل الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم.

وليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه. ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا

ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل طعام المسموم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهًا حقًا، إذ الله لا سميَّ له ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية، وأما من جهة الربوبية فشيء آخر.

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة. فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته^(١)، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ غير مُنعمٍ له ولا مُلتذٍّ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك. وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ إِلَّا فَلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وكانت أعظم آية في القرآن الكريم:

(١) فسر شيخنا العلامة العثيمين هذه الآية الجليلة وأطال النفس في بسط معانيها في تفسيره لسورة الانشقاق، وما علم أنها آخر آية يرحل بها عن الدنيا، فقد كان يقرأ ورده حتى إذا قرأها فاضت روحه مع أنفاس تلاوته لها رحمه الله تعالى.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقد بسطت الكلام في معنى القيوم في موضع آخر، وبينت أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه. وهذا أمر عظيم جدًا حري بكل مؤمن عابد ملاحظته وتذكره على الدوام، فعبادة ربه تكون حياته فلا قوام له إلا بها.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصليين:

أحدهما: على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم أن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس فالله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية، وقال ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك»^(١) فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما وقع ضمناً وتبعاً لأسباب ليس هذا موضعها، وهذا يفسر في موضعه.

(١) رواه البخاري بنحوه (١٧٨٧) ورواه مسلم (٨٧٦ / ٢) (١٢١١) عن أم المؤمنين قالت: قلت: يا رسول الله يصدر الناس بنسكين وأصدر بنسك واحد! قال: «انتظري، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلي منه، ثم القينا عند كذا وكذا» قال: أظنه قال: «غدا، ولكنها على قدر نصبك» أو قال: «نفقتك».

ولهذا لم يجرى في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا﴾ [الطلاق: ٧] أي وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً^(١)، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبداً. قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

(١) ولهذا فإن عبارة «أعمال المكلفين» و«الأحكام التكليفية» و«التكاليف الشرعية» ونحوها تشير بأن العبادات قائمة على المشقة، وأن الشدة مقصودة لذاتها في العبادة، وليس الأمر كذلك، فالعبادة حياة وراحة وسكينة وغذاء للروح ولا غناء للقلب عنها طرفة عين. أما المشقة اللاحقة بها أحياناً كالقتال في سبيل الله والحج والصيام والتهجد والإنفاق وغير ذلك فهذه متطلبات ووسائل لتحصيلها فهي تابعة لها، وإنما تكون المشقة مقصودة من جهة أنها اختبار وامتحان لدين العبد، فهي كالقنطرة والجسر الذي يميز الصادق المرید عن غيره، وبالجملة فالعبادة مقصودة لذاتها فهي حياة القلب، أما المشقة والتكليف فهو عارض مقصود لغيره، علماً أن مقصود الفقهاء بالتكليف هو الأمر الإلهي وليس المشقة والكلفة. والمقصود أنه لو عبّر بأوامر الله أو فرائضه ونحو ذلك كان أولى من لفظ التكليف الموهم بأن الشرع مبني على المشقة، وليس الأمر كذلك، وفي الأمر سعة بحمد الله تعالى، وبالله التوفيق.

[مريم: ٦٥] فهذا أصل.

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى كما في الدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة». رواه النسائي وغيره^(١).

وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه. فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهو الزيادة»^(٢) فيبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التمتع والتلذذ بغيره، فإن اللذة تتبع الشعور بالمحسوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألد له، وتنعمه به أعظم.

(١) النسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (١٨١).

وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا^(١)، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان.

الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل. بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصره وهده وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسّه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله.

وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول. فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعائه

(١) كما روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٨) (٢٨٣٣) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحتو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً».

ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم، ولكن إذا عبده وأحبه وتوكلوا عليه من هذا الوجه؛ دخلوا في الوجه الأول. ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق؛ فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

الوجه الرابع: أن تعلّق العبد بما سوى الله مضرّة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله^(١)، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس. وإن أحب شيئاً حباً تاماً بحيث يُحَالِلُهُ فلا بد أن يسأله أو يفارقه. وفي الأثر المأثور: «أحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان»^(٢).

(١) فمن رحمة الله تعالى أن أباح بقدر الحاجة ما يكون وسيلة لإقامة الدين الذي هو غاية الخليفة.

(٢) البيهقي في الشعب (١٠٥٤١) الحاكم (٣٢٤ / ٤) أبو نعيم في الحلية (٣ / ٢٠٢) =

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ويكون ذلك سبباً لعذابه، ولهذا كان الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يُمَثَّلُ لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته^(١) يقول: أنا كنزك، أنا مالك^(٢).

فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة^(٣). وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء.

وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرت أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالأعلى عليه إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد. وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه» رواه الترمذي وغيره^(٤).

الوجه الخامس: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من

وانظر السلسلة الصحيحة (٨٣١).

(١) أي: شذقيه.

(٢) الحديث في البخاري (١٤٠٣) و(٤٥٦٥).

(٣) لخوفه من فواته، وهلعته عليه، وحرقة به، وغيرته عليه، وذلت له، وانشغاله به عما سواه.. في عذابات أخر يُصلى بها المحبون غير ربهم.

(٤) الترمذي (٢٣٢٢) وحسنه النووي في المثورات (٢٩٦) والسيوطي في الجامع الصغير (١٩٦١) وذكره الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).

جهته؛ فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء، فما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته. وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه؛ مضرته وهلاكه وفساده.

الوجه السادس: أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد^(١) رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا. والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما. وإن كان ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله. فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه، فهو يجب

(١) الواجد هو الغني، مأخوذ من الجدد وهو الغني، فيوصف الله تعالى بأنه واجد، ولكن لا يُسمى به لأن الحديث فيه لا يصح، وانظر: مدارج السالكين (٣/٣٨٤).

أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه. وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو. ولو بالدعاء أو الثناء. فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله. فأجناد الملوك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدم إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا.

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه. والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا ليتنفع بك^(١)، وذلك منفعة عليك بلا مضرة. فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه.

ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم^(٢)، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم،

(١) وهذا كلام شريف جداً جداً. وقد بسطه ابن القيم في طريق الهجرتين (١/١٠٧).

(٢) وهذا تنبيه نفيس، فبعض الخلق يحفو بني جنسه ويشمئز منهم بل قد يقع في نوع

وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٨) إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠]. وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُنْطِئُكُمْ لُجْجَهُ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

الوجه السابع: أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضررا عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

الوجه الثامن: أنه إذا أصابتك مضرة كالخوف والجوع والمرض؛ فإن الخلق لا يقدرّون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.

الوجه التاسع: أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضرّوك لم يضرّوك إلا بأمر قد كتبه الله عليك. فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله، ولا يضرّونك إلا بإذن الله، فلا تعلق بهم رجاءك. قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ الْإِلَافِي غُورٌ﴾ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].

بغي أو تقصير من جهة قصده الاستغناء عنهم بالله، ونسي أن الله قد سخر الناس لبعضهم وأقام سنن خلقه على تعاونهم وتنافعهم واتصالهم بل وإحسانهم، فالموفق من نظر للأمر نظرة كلية شاملة، فأعطى الناس حقوقها المرعية من قبل الشريعة بلا تعلق البتة بغير رب العالمين.

والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة، قال الله تعالى:
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾
[قريش: ٣ - ٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] الآية. وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»^(١) «بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»^(٢).

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي؛ فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم كما في حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»^{(٣)(٤)}.

قال ابن القيم معلقًا على كلام شيخه الآنف بعد نقله ما سبق من كلام

(١) البخاري (٢٨٩٦).

(٢) وهذه الزيادة عند النسائي (٤٥ / ٦) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه بزيادة تبين معنى الحديث، ولفظه: «إنما ينصُرُ الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١٧٨).

(٣) البخاري (١١٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١ / ٢١ - ٣٣) باختصار. وانظر: (الفتاوى العراقية: ١ / ٤٨٣ - ٤٩٢).

شيخ الإسلام^(١): «فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة، ورعاها حق رعايتها. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تخافهم لا ترجهم. ومما يبين ذلك أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك ضرراً عليك، فإن صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها. فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة^(٢). فهم يريدون أن يصيروك كالكير، تنفخ بطنك وتعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة! وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسراً ومعبراً لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر. وكم بعت آخرتك بدنياههم وأنت لا تعلم وربما علمت، وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك، ورحت صفر اليدين. وكم فوتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها، وقطعوا طريق سفرك إلى منازلك الأولى ودارك التي دعيت إليها، وقالوا: نحن أحبابك وخدمك وشيعتك وأعوانك والساعون في مصالحك، وكذبوا، والله إنهم لأعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين، وقطاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه، ثم واغوثاه بالله الذي يُغيث ولا يُغاث،

(١) وقد نقله بغالب حروفه في طريق الهجرتين (١/١١٦ - ١٣١).

(٢) ويقصد من كانت صحبتهم لا تقربك إلى الله تعالى.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّالْكُم فَاحْذَرُوهُمْ﴾
[التغابن: ١٤]، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فالسعيد الرابع من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله، وآثر الله، ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحى حب الله وخوفه ورجاءه فيه؛ فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلّها ربحاً، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذهم مغنماً لا مغرمًا، وربحاً لا خسراناً.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيتته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»^(١) وإذا كانت هذه حال الخليقة؛ فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع.

(١) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وانظر كلام ابن رجب النفيس في معانيه في جامع العلوم والحكم (٤٦٢/١).

وجماع هذا: أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا تريد لها كما ينبغي، فغيرك أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك ولا قادرًا عليها ولا مريدًا لها، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يريها منك، ولا لتكثرك، ولا لتعزز بك، ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إليك واستغنائه بحيث إذا أخرجه أثر ذلك في غناه، وهو يجب الجود والبذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته^(١)، فإذا حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك. وهذا هو الأغلب على الخليقة، فإن الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته. وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة، فإنه لم يسلبها لبخل منه، ولا استئثار بها عليك، وإنما أنت السبب في سلبها عنك، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣] فما أزيلت نعم الله بغير معصيته.

(١) وتدبر هذا المعنى الشريف مما يحفز الداعي على المسألة والطلب والإلحاح في الدعاء وحسن الظن بالكريم الوهاب سبحانه وبحمده.

إذا كنت في نعمة فارعهـا فإن المعاصي تزيل النعمـ
فأفـتـك من نفسـك، وبلاؤك من نفسـك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في
عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البريء عن
الشكايـة، وتتـهم أقـداره وتعاتبها وتلومها، فقد ضيـعت فرصـتك، وفرطت في
حظك، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدت تعاتب
القدر بلسان الحال والمقال! فأنت المعني بقول القائل:

وعاجز الرأي مضياغٌ لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرًا
ولو شعرت بدائك، وعلمت من أين دُهِيت، ومن أين أصبت؛ لأمكنك
تدارك ذلك، ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوى مصاييح
العلم والإيمان منه، فأعرضتَ عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه، وأقبلت
تشكو من كل إحسان دقيق أو جليل وصل إليك فمـنه، فإذا شكوته إلى خلقه
كنت كما قال بعضهم وقد رأى رجلًا يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به، فقال:
يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا أتتـك مصيبة فاصبر لها صبرَ الكريم فإنه بك أرحم
وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنـما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحم

وإذا علم العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتـي، ومن أي الطرق أُغير
على سـرّحه، ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب؛ استحيا من نفسه - إن لم يستح

من الله - أن يشكوا أحداً من خلقه، أو يتظلمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مّصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] (١).

وقال رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً (٢).

(١) طريق المهجرتين (١/ ١٣٠ - ١٣٦).

(٢) ويعني بذلك القدر الواجب لا أصل الإيمان والإسلام، وهذا من علمه بالله سبحانه وما ينبغي له من الحق العظيم، فمن كان بالله أعرف كان له أحب، وله أرجى، ومنه أخوف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه وهي:

أنا الفقيرُ إلى رب البريّاتِ	أنا المُسيكينُ في مجموع حالاتي
أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي	والخيرُ إن يأتنا من عنده ياتي ^(١)
لا أستطيع لنفسي جلبَ منفعةٍ	ولا عن النفس في دفع المضراتِ
وليس لي دونه مولى يُدبرني	ولا شفيعٌ إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلى الشفيع كما جاء في الآياتي
ولست أملك شيئاً دونه أبداً	ولا شريكٌ أنا في بعض ذراتي
ولا ظهيرٌ له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولاياتِ
والفقرُ لي وصفٌ ذاتٍ لازمٌ أبداً	كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حال الخلق أجمعهم	وكلّهم عنده عبدٌ له آتي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه	فهو الجهولُ الظلومُ المشركُ العاتي
والحمد لله ملء الكونِ أجمعه	ما كان منه وما من بعد قد ياتي ^(٢)



(١) أصلها يأتني، ووصلت الهمزة ولم تقطع للضرورة الشعرية.

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ١٤٣) وانظر: المدارج (٢ / ٥٢٤) و(العقود الدرية: ٤٥٠).

ضرورة العبد للافتقار لربه

لو تأملت العبادات كافة قلبياً وعملياً لعلمت أن الافتقار إلى الله تعالى هو الوصف الجامع لها الذي لا ينفك عنها، وبقدر تمكّن الافتقار من القلب تكون ثمرته ونتيجته ونفعه في الدارين، وحسبك أن تتأمل الصلاة وما فيها من معاني الافتقار للغني الوهاب الرحيم المنان. وكما أسلفنا فليست العبادات فقط بل كل أحوال المرء وحركاته وسكناته لا تخلو من اضطرار حقيقي ملازم افتقاراً للواحد الأحد سبحانه وبحمده.

قال الله سبحانه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] والفقر المذكور هنا هو الفقر الذاتي في الناس إلى الله تعالى، يستوي فيه الغني منهم لكثرة العرض، مع الفقير لقلة العرض.

قال السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنتم الفقراء إلى الله في رزقه ومغفرته، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغني عن عبادتكم، الحميد في فعاله وسلطانه، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]؛ لأن كل واحد يحتاج إليه، لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان. والأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة، وكذلك التاجر يحتاج إلى المكارين، والله عز وجل غني عن الأعوان وغيره»^(١).

(١) تفسير السمرقندي (٨٤/٣).

وقال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه. أمّا فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمّى فقراً. وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً.

وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير؛ لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده. فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق. ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل ما عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، هذا معنى الفقر مطلقاً» (١).

وقال عبدالحق الأندلسي رحمه الله: «الإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلالها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو به مستغن عن كل واحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق» (٢).

وهذا المعنى يزيد بسطاً ابن تيمية زمانه العلامة ابن سعدي رحمه الله فيقول: «يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم، ووصفهم وأنهم فقراء

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٩٠).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٤٣٤-٤٣٥).

إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا أعداده إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم وتقريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له وحبهم له، وتعبدهم وإخلاص العباداة له تعالى؛ فلم يوفقهم لذلك هلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعلمهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه لم يتعلموا ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى، وبكل اعتبار سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا؛ ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا حري

بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم من الوالدة بولدها.

والله هو الغني الحميد أي الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه قد أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، فهو الحميد في ذاته، وأسمائه، وأنها حسنى، وأوصافه لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه فهو الحميد على ما فيه من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل وهو الحميد في غناه الغني في حمده^(١).

ومنزلة الفقر من منازل العبادة لله سبحانه، التي يدور فيها المسلم بين

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا عبادي كلکم ضالٌّ إلا من هديته، فسلوني الهدى؛ أهدِكم. وكلُّكم فقيرٌ إلا من أغنيت، فسلوني؛ أرزقكم. وكلُّكم مذنبٌ إلا من عافيتُ، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفري؛ غفرتُ له ولا أبالي. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادي^(٢)؛ ما زاد ذلك في ملكي جناح بعوضة. ولو أن أولكم وآخركم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/٣٠٩-٣١١).

(٢) وهو نبينا ﷺ وبارك.

وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادي^(١)؛ ما نقص ذلك من ملكي جناح بعوضة. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كلُّ إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيتُ كلَّ سائل منكم ما سأل؛ ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة، ثم رفعها إليه. ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام^(٢) وعذاي كلام. إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون»^(٣).

فلنتأمل - يا أخي - غنى ربنا عنا وعن عبادتنا مهما بلغت كما وكيفاً وصدقاً وإخلاصاً وإحساناً، فنحن المحتاجون المفتقرون لتلك العبادات التي لا غنى لأرواحنا عنها، فهي غذاؤها وأنسها وغانها، وكفاها شرفاً وفضلاً أن ارتضاها الله تعالى لنا قرايين إليه ووسائل لمرضاته وسبلاً لمحبتها، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، له الحمد كله، سبحانه لا نحصي ثناء عليه.

وفقر القلب: خلوه من دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وبعده عن مشاهدة فاقتة التامة إلى الله تعالى من كل وجه^(٤).

وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب؛ بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره،

(١) وهو إبليس الرجيم أعاذنا الله منه.

(٢) فبكلمة (كُن) يخلق ما يشاء وهو الخلاق العليم القدير الحكيم.

(٣) الترمذي (٢٤٩٥) وأحمد (٢١٣٦٧) وصححه محققو المسند.

(٤) انظر مدراج السالكين (٢/٤٤٠).

فيتحقق أنه المعطي المانع فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى^(١).

وهذا المعنى يرجع إلى الفقر الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله في سورة فاطر: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، وهي مكية.

وأما المسكنة التي سألها الرسول ﷺ فهي تعود إلى حالين:

الأولى: المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات والتواضع، فكأنه سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين المتكبرين وأن لا يحشر في زمرة الأغنياء المترفين، كما قال البيهقي رحمه الله.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلام له على حديث: «اللهم أحيني مسكيناً»^(٢) «فالمساكين ضد المتكبرين، وهم الخاشعون لله، المتواضعون

(١) من كلام ابن حجر رحمه الله، في فتح الباري (٢٧٣/١١).

(٢) سنن الترمذي (٥٧٧ / ٤) (٢٣٥٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرن في زمرة المساكين يوم القيامة» فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً. يا عائشة، لا تردى المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة، أحبي المساكين وقربهم، فإن الله يقربك يوم القيامة» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وصححه الألباني في الإرواء. وخرجه البيهقي في الشعب (١٠٠٢٥). والأكثر على تضعيفه، قال ابن تيمية عنه: «هذا يروى لكنه ضعيف لا يثبت، ومعناه أحيني خاشعاً متواضعاً، ولكن اللفظ لم يثبت» الفتاوى (٣٥٧/١٨) وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٤٢/٣).

لعظمته، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، سواء كانوا أغنياء أو فقراء.

ومن هذا الباب أن الله خير بين أن يكون عبدًا رسولًا وبين أن يكون نبياً ملكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده، لا لأجل حظّه، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه، وإن كان مباحًا، كما قال سليمان: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، ففي هذه الأحاديث أنه اختار العبودية والتواضع^(١).

الثانية: المسكنة التي ترجع إلى حالة الكفاف، وهي حالة سليمة من الغنى المُطغّي، والفقر المؤلم، وصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة^(٢).

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «فقر المضطر هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأل في دعائه»^(٣) «وفقر المضطر هو أن يكون ما فقده من المال مضطرًّا إليه كالجائع الفاقد للخبز، والعاري الفاقد للثوب»^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٣٠-١٣١).

(٢) انظر فتح الباري (١١/٢٧٤-٢٧٥).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/١٩٣).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/١٩١).

قال ابن حجر رحمه الله: «إن قيل ما وجه استعاذته من الفقر؟ فالجواب: إن الذي استعاذ منه وكرهه فقر القلب، والذي اختاره وارتضاه طرح المال»^(١) وقال ابن عبد البر: «الذي استعاذ منه هو الذي لا يُدرك معه القوت والكفاف، ولا يستقر معه في النفس غنى؛ لأن الغنى عنده غنى النفس، وقد قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، ولم يكن غناه أكثر من ادخاره قوت سنة لنفسه وعياله، وكان الغنى محله في قلبه ثقة بربه، وكان يستعين بالله من فقر منسي، وغنى مطغي»^(٢)، وفيه دليل على أن للغنى والفقر طرفين مذمومين، وبهذا تجتمع الأخبار في هذا المعنى»^(٣).

فالفقر الحقيقي هو فقر القلب وليس فقر العرض، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «فترى قلة المال هو الفقر؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»^(٤).

(١) انظر: الفتح (٢٧٦/١١).

(٢) أخرج الترمذي وحسنه واستغربه (٢٣٠٦) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال؛ فشر غائب يُنتظر، أو الساعة؛ فالساعة أدهى وأمر».

(٣) التلخيص الحبير (١٢٣/٣)، أحكام الفقير والمسكين، د. محمد بن عمر بازمول (١/ ٤٩، ٢٢٥ - ٢٣٠) باختصار وتصرف.

(٤) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ٤٦١، ٦٨٥) وغيره.

«وفقر القلب: خلوه من دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وبعده عن مشاهدة فاقتة التامة إلى الله تعالى من كل وجه»^(١).

وتدبر - رعاك الله - تملق الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى، واستكانته وانكساره وانطراحه وافتقاره إليه في هذه النجوى النبوية لرب العالمين. ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدِمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمَقْدَمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٢). وفي شفاء العليل: «وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى الله من كل وجه وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له وإحسانه إليه وقيامه بمصالحه وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحجوبه الأعظم الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه، فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده ومن الخلق كلهم، وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافِهِ منها هلك ببعضها، وفقير إليه من جهة عفوه عنه ومغفرته له، فإن لم يعف عن العبد ويغفر له فلا سبيل إلى النجاة، فما نجى أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة

(١) انظر مدارج السالكين (٢/٤٤٠) عن السابق (١/٢٣٠). وقد مر قريباً.

(٢) البخاري (٨/١٠٥) (٦٣٩٩) ومسلم (٨/٨٠) (٢٧١٩) (٧٠).

إلا برحمة الله.

وكثير من الناس ينظر إلى نفس ما يُتاب منه فيراه نقصًا، ولا ينظر إلى كمال الغاية الحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاك عن سببها، فإنه سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته، ولو وُكل إلى عمله لم ينج به البتة.

وهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»^(١) ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحق

(١) كما في حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي خرَّجه أحمد وغيره (٣٥ / ٤٦٥) (٢١٥٨٩) بسنده عن ابن الديلمي قال: «لقيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدثني بشيء لعله يذهب من قلبي. قال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهبًا في سبيل الله عز وجل ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير ذلك لدخلت النار، قال: فأتيت حذيفة فقال لي مثل ذلك»، وأتيت ابن مسعود فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت فحدثني عن

عليهم بجهة ربوبيته لهم، وكونهم عبيده ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه ويعظموه ويوحدوه ويتقربوا إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه، ولا غناء به عنه طرفة عين، فهو يدأب في التقرب إليه بجهد، ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدل به سواء في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه. وهذا يستلزم علوماً وأعمالاً وإراداتٍ وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقى له معها التفات إلى غيره بوجه.

ومعلوم أن ما طُبع عليه البشر لا يفي بذلك، وما يستحقه الرب تعالى لذاته وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والخضوع والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه. وفي بعض الآثار: «لو لم أخلق جنة ولا ناراً لكنت أهلاً أن أُعبدَ» ولهذا يقول أعبُدْ خلقه له يوم القيامة^(١) وهم الملائكة:

النبى ﷺ مثل ذلك. وحديث زيد بن ثابت مرفوع، والبقية لها حكم الرفع، وهو مخرج كذلك في سنن ابن ماجه (٢٩ / ١) (٧٧) وصححه الألباني.

(١) أي: بعد الرسل والأنبياء، فهم أعبد بلا تردد، وقد تقلّبوا في رياض العبودية بشتى صورها ومراتبها، وجاهدوا وصبروا وأوذوا في سبيل الله ودعوا الناس لتوحيد ربهم والإيمان به، إلى غير ذلك من مقامات العبودية التي لم يلحقهم فيها ملك. فمن حيث الكيفية والأفضلية لعبادة المرسلين أفضل من جهة المجاهدة، أما من حيث الكم فالملائكة أطول عمراً وقد قال الله فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

«سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»^(١).

فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون اليسير مما ينبغي أن يعبد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلى ما يستحقه بوجه من الوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزة. وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمه منهم، وأن لم يحيطوا به علمًا، ولو عذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم على أعمالهم لم يكن ظالمًا لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقتته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم^(٢) عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب^(٣).

(١) روى البيهقي في شعب الإيوان (١ / ٣٢٥) بسنده عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب جاء والصلاة قائمة، فذكر قصة امتناع أبي جحش الليثي عن الصلاة مع النبي ﷺ، وفيها أن النبي ﷺ قال: «هلم يا عمر، اجلس حتى أحدثك بغنى الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبي جحش، إن لله في سمائه ملائكة خشوعًا لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم قالوا: ربنا ما عبدناك حق عبادتك، وإن لله في السماء الثانية ملائكة سجودًا لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم، ثم قالوا: ربنا ما عبدناك حق عبادتك» قال البيهقي رحمه الله تعالى: «قد أخرجته بطوله في مناقب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» وضعفه الألباني في السلسلة (٤٩٨٢).

(٢) المقت: غاية الكره، وفي التنزيل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

(٣) يعني الحديث المتفق عليه، ولفظ مسلم (٤ / ٢١٩٧) بطوله من حديث عياض بن

ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسرّ المسألة؛ أنه لما كان شكر المنعم على قدره وعلى قدر نعمه، ولا يقوم

حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِكَ، وأنفق فسننق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك.

قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال.

قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش» وفي رواية: «وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد» وقال في حديثه: «وهم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً» فقلت: وكيف يكون ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، والله لقد أدركتهم في الجاهلية وإن الرجل ليرعى على الحي ما به إلا وليدتهم فيطوؤها.

بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به وإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وأن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسى كليمة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقال: ﴿سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] وقال: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال خليله إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١] وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقال أول رسله إلى أهل الأرض: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥] إلى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنِّي اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦] وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢، ١].

وقد تقدم حديث ابن عباس في دعائه صلى الله عليه وسلم: «رب أعني ولا تعن عليّ» وفيه: «رب تقبل توبتي واغسل حوبتي» الحديث^(١) وقد أخبر سبحانه عن أعبد البشر^(٢) داود أنه استغفر ربه راکعاً وأناب، وقال تعالى:

(١) روى ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطيعاً، إليك مخبتاً، إليك أوّاهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجّتي، واسل سخيمة قلبي» وأخرجه أبو داود (١٥٠١) و(١٥١١)، والترمذي (٣٨٦٥) و(٣٨٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٦٨) وهو في مسند أحمد (١٩٩٧).

(٢) أي: من أعبدهم، إشارة لحديث أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومنّ النهار، ولأقومنّ الليل ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يومين» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود ﷺ، وهو أعدل الصيام» وفي رواية: «هو أفضل الصيام» فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك» ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي» أخرجه البخاري ٦٣/٢ (١١٣١) ومسلم ١٦٢/٣ (١١٥٩) وفي رواية: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود،

﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥] وقال عن نبيه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤، ٣٥] وقال عن نبيه يونس: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقال صديق الأمة وخيرها وأبرها وأتقها لله بعد رسوله: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي. فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلماً كثيراً، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده، أي لا يبلغها علمه ولا سعيه، بل هي محض متته وإحسانه وأكبر من عمله، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم فكيف بمن دونه؟!^(٢). والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.



كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

(١) البخاري (٧٣٧٨) مسلم (٢٧٠٥).

(٢) شفاء العليل لابن قيم الجوزية (١/ ١١٨ - ١٢٢).

الافتقار للهدى

إن أعظم الافتقار هو الافتقار للهدى إرشادًا وتوفيقًا وتثبيتًا، ومن رحمة الله تعالى ولطفه أن شرع لنا اللهج بها سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على أقل تقدير، فكل مصلٍ يتلو قول ربه داعيًا راغبًا راهبًا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وكان رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه كثير اللهج بسؤال الله الهداية، فكان من دعائه بين السجدين: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواه الأربعة إلا النسائي واللفظ لابي داود^(١).

وعند أبي داود والترمذي واللفظ له من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ أَعِنِّي، وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مَطْوَاعًا، لَكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»^(٢) وكان شيخ الإسلام يوصي باللهج بهذا الدعاء العظيم.

(١) أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (١/ ٢٦٢)

(٢٧١) والحديث صحيح.

(٢) أبو داود (١٥١٠) والترمذي (٣٥٥١) وأحمد (٢٢٧/١) (١٩٩٧) وابن ماجه

وروى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتح صلاته؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللهم اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وكان ﷺ يهدي أصحابه ويرشدهم إليها لطلبها ممن لا يهدي هدى التوفيق سواه فمن ذلك:

ما رواه ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعَلَّمَنِي ما يُجِزُّنِي؟ قال: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» قال: يا رسول الله، هذا لله، فماذا لي؟ قال: قل: «اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني» فقال: هكذا بيديهِ - وقَبَضَهما - فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هذا فقد مَلَأَ يَدِيهِ مِنَ الْخَيْرِ»^(٢).

(٣٨٣٠) والحديث صحيح.

(١) مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٣٢) وسكت عنه، وما سكت عنه فهو صالح عنده، وحسنه الألباني، وأخرجه أحمد (٣٨٢/٤) والحميدي (٧١٧) والنسائي (١٤٣/٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي» وفي رواية: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم»^(١).

وروى أبوداود في سننه قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقْوَهُنَّ فِي الْوَتْرِ قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ..»^(٢).

والهدى من جملة رزق الله تعالى لخاصته وأوليائه، كما قال جل وعز: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] وقال سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] والمؤمن يلهج بسؤال الله تعالى الهدى في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاحة: ٦] أي أرشدنا إليه أولاً وبصّرنا به وفقهنا فيه، ثم وفقنا سلوكه والسير فيه دون سواه ثانياً، ثم ثبتنا عليه حتى الموافاة ثالثاً.

والذكاء ليس بمستقل للهدى، فهو سبب محتاج لجملة أسباب، وحجب موانع، وجامع ذلك توفيق الله لمن شاء هداه. «وقد يكون الرجل من أذكياء

(١) مسلم (٨٣/٨) (٢٧٢٥) (٧٨) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سددي: وفقني واجعلني

منتصباً في جميع أمور مستقيماً» شرح صحيح مسلم (٣٨/٩).

(٢) سنن أبي داود (٥٣٦/١) وصححه الألباني.

الناس وأحدّهم نظرًا، ويعميه عن أظهر الأشياء! وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا، ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتّكل على نظره واستدلّاله أو عقله ومعرفته خُذِل، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة كثيرًا ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١) ويقول في يمينه: «لا ومقلب القلوب»^(٢) ويقول: «والذي نفسي بيده»^(٣) ويقول: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»^(٤).

وكان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٥) وكان يقول هو وأصحابه في ارتجازهم:

(١) الترمذي (٣٠٤/٣).

(٢) البخاري (١٢٨/٨).

(٣) وهي كثيرة، ومنها ما جاء عند مسلم (٢٢٢).

(٤) المسند (١٨٢/٤) وسنن النسائي الكبرى (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجه (١٩٩). ورواه

ابن منده في الرد على الجهمية (٨٧) وقال: «ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن

الطعن على واحد منهم».

(٥) مسلم (٧٧٠).

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وهذا في العلم كالإرادات في الأعمال، فإن العبد مفتقر إلى الله في أن يجب إليه الإيمان ويبغض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] (١).

«وحقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: «يا معلم إبراهيم علمني» ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال لمالك بن نَخَامِرٍ السَّكْسَكِيِّ عند موته وقد رآه يبكي، فقال: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما.

اطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٩ / ٣٤-٣٥).

الأرض عنه أعجز، فعليك بمعلم إبراهيم»^(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله منبهاً لأهمية الافتقار التام لله وعظمة دعاء الفاتحة ومبيناً أن معنى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] هو الإرشاد والتوفيق للعمل والتثبيت عليه حتى الموافقة: «الإنسان وإن كان أقرّ بأن محمداً رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا تذكر ما يخص به كل عبد، ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم. والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [الفتح: ١، ٢] وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَأَيَّدْنَاهُمَا بِكُتُبٍ أَلْمُسْتَقِيمِ﴾ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٠) وانظر: إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٧)، (٢/ ٤١٠).

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله التستري: «ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار».

وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل، وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل العمل.

فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من

السعادة» (١).

هذا وإن من تصدّى لهداية الناس فهو محتاج لمزيد هدى وتثبيت، فأفهامهم وبصائرهم ومواردهم تختلف، وحقيق بالمفتي أن يكثّر الدعاء لنفسه بالتوفيق.

وكان بعض السلف يقول عند الافتاء: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا^ط إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وكان مكحول يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وكان مالك يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله العلي العظيم» وكان بعضهم يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي^(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^(٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي^(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨] وكان بعضهم يقول: «اللهم وفقني واهدني وسددني، واجمع لي بين الصواب والثواب، وأعذني من الخطأ» (٢).

«وينبغي للمفتي المؤفّق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحالي لا العلمي المجرد، إلى ملهم الصواب ومعلم الخير وهادي القلوب؛ أن يلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدلّه على حكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة. فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق، وما

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٠٧ - ١١٠) وانظره في: أمراض القلوب (١ / ١٢) وما بعدها.

(٢) إعلام الموقعين للحافظ ابن القيم (٤ / ٢٥٧) الفائدة الحادية والستون.

أجدر من أَمَل فضل ربه أن لا يجرمه إيّاه، فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهي طلائع بشرى التوفيق، فعليه أن يوجّه وجهه ويحدّق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشd وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة، فيستفرغ وسعه في تعرّف حكم تلك النازلة منها، فان ظفر بذلك أخبر به، وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار والاكثر من ذكر الله، فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياح عاصفة تُطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تضعفه.

وشهدت شيخ الإسلام - قدس الله روحه - إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه؛ فرّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله، واللبأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلّمًا يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ.

ولا ريب أن من وُفّق لهذا الافتقار علمًا وحالًا، وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد؛ فقد أعطى حظّه من التوفيق، ومن حُرّمه فقد مُنِع الطريق والرفيق. فمتى أُعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق؛ فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»^(١).

وتأمل قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وما فيها من أبواب العلوم

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٣).

ومن أخصها افتقار العالم - مهم علا شأنه وارتفع كعبه - إلى علم الله وتوفيقه وتسديده.

وقد بَوَّب البخاري رحمه الله في صحيحه^(١): باب ما يُستحب للعالم إذا سُئل أيُّ الناس أعلم، فيكل العلم إلى الله.

وأُسندَ حديثَ أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعَتَبَ الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به. فقيل له: احمل حوتاً في مكمل، فإذا فقدته فهو ثمّ^(٢) فانطلق، وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحمل حوتاً في مكمل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكمل فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً. فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى مساً من النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أُمر به،

(١) ومن افتقار أبي عبد الله البخاري رَحِمَهُ اللهُ ما نقله الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح (ص: ٧): عن الحافظ أبي ذر الهروي: «سمعت أبا الهيثم محمد بن مكي الكشميهني يقول: سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول: قال البخاري: ما كتبت في كتاب (الصحيح) حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين» استعانة واستهداءً وافتقاراً.

(٢) أي: هناك.

فقال له فتاه: أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصًا، فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مُسجى بثوب (أو قال: تسجى بثوبه) فسلم موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام^(١) فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علّمت رشدًا؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علم من علم الله علّمني لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نول^(٢) فجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت، فكانت الأولى من موسى نسيانًا.

فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفس؟! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟!

(١) تعجبًا من وجود من يُسلم عليه في ذلك المكان.

(٢) أي: بلا أجرة.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدنا فيها جدارًا يُريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لآخذت عليه أجرًا. قال: هذا فراقٌ بيني وبينك».

قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما»^(١).

ومن لم يكن له من ربه عاصم توفيق وحارس هدى هجمت عليه عاديّات الضلال ولا بدّ، واعتبر ذلك بفحول الأذكىاء وأكابر أهل العلوم لما رفع الله عنهم توفيقه طاشت بهم الأحلام وضاعت بهم الفهوم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَادُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وكما قال الأول: إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهدُهُ

وقلب أسفار ذوي الابتداع وقف عند نهاياتهم طرحى في مهامه الحيرة وصرعى على شواطئ الندم! كما قال ابن رشد الحفيد - وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم - في كتابه «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يُعتدّ به؟»، وكذلك الآمدي - وهو من أذكى أهل زمانه - وقف في المسائل الكبار حائرًا مضطربًا، وكذلك الغزالي حيث انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عنها للطريقة ودقائقهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم: باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله، ومسلم (٢٣٨٠).

وخيالاتهم، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره. وكذلك محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنّفه في أقسام اللذات:

نهاية إقدام العقول عقلاً	وغاية سعي العالمين ضلالاً
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبالاً
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجالاً فزالوا والجبال جبالاً

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ثم قال: ومن جرّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي».

وكذلك قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني نادماً على سلوكه طرائق المبتدعة من الفلاسفة وأهل الكلام، حائراً:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلّها	وسيرت طرُفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كفّ حائرٍ	على ذقن أو قارعاً سنّ نادمٍ

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به». وقال عند موته: «لقد خُضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم»^(١)، ودخلت في الذي نهوني عنه^(٢)، والآن؛ فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أُمِّي. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور». ويقصد الفطرة الأولى التي لم تلوثها تهوُّكات المتكلمين وأغلوطات الفلاسفة.

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهی - وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي - لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: «اشكر الله على هذه النعمة، لكنني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد!» وبكى حتى أخضل لحيته.

ذلك أن الشبهات تضعف اليقين في المعتقد، فالقلوب ضعيفة والشبه خطافة، فإن أزالها الله بالعلم المتلقى عن نبيه ﷺ من الكتاب والسنة وإلا تقطع القلب بين شعب الضلال! ولا بن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر

(١) أي: القرآن والسنة وآثار السلف الصالح.

(٢) أي: من علم الكلام المذموم.

فلحى الله الألى زعموا أنك المعروف بالنظر^(١)
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

وهو يصف حاله وحال أشباهه الخيارى، أما الموفقون المهتدون فقد أثلج
برد اليقين صدورهم وسكن نفوسهم وأروى عطش لفهمهم، هم كما قال ربهم:
﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ
ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال الخوفجي عند موته: «ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن
يفتقر إلى المرجح. ثم قال: الافتقار وصف سلبي! أموت وما عرفت شيئاً!».

وقال آخر: «أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين
حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء».
ويقصد حجج المبتدعة في مقابل بعضها، فما من باطل لدى طائفة منهم إلا
وقد شيب ببعض الحق ليروج، حتى ينقسم الحق مزعاً بين الطوائف، فيرى
هؤلاء طرفاً منه، ويرون معه باطلاً وغيثاً كثيراً، فيضغطون على أنفسهم لقبوله
جملة واحتمال ما أبته فطرهم ونبت عنه عقولهم، لكنهم بدلاً من الاشتغال
بتكميل الحق لديهم شغلوا بهدم ما لدى غيرهم من حق وباطل، حتى إذا
ناداهم منادي الرحيل تأملوا حينذاك صفقتهم فإذا هم لم يقبضوا سوى الريح!

(١) ينعى على المتكلمين الذين أوجبوا معرفة الله عن طريق مقدماتهم الطويلة العقيمة
التي ما أنزل الله بها من سلطان.

شبه تهافت كالزجاج تخلها حقاً وكل كاسر مكسور
عياداً واستغاثه بالله واستجاره به من مضلات الفتن.

البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبان لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة.

برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الظلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول ﷺ فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر. فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه. وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والاسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبست عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين. فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب: «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لم

يعرف الجاهلية». وهذا من كمال علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها - وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل - فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له؛ أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين.

كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفر من خالفها، واستحلّ منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفر من خالفها^(١).

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً^(٢)، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عن معرفة السبيلين من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

(١) أما أهل السنة فهم أرحم الناس بالناس، وأعذرهم لهم، وأنصحهم وأرفقهم بهم.

(٢) فلم يكتفوا بالتنظير عن التطبيق، ولا بالتطبيق عن حسن الاتّباع، بل هم هدى يمشي على رجلين.

الفرقة الثالثة: من صَرَفَ عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوّره على التفصيل، بل اذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه. وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى فانهم يعرفونها، وتميل إليها نفوسهم، ويجاهدونها على تركها لله^(١).

(١) ثمّ محددات لوزن المسألة:

أولاً: الحق كثير، والعلم غزير، ولو صرف المؤمن عمره في تحصيله لم يحط به. ثانياً: على قدر سيره في الباطل - ولو لأجل إحسان تصوّره لأجل دحضه - فلا بد أن يؤثر ذلك على حظ وقته من نفيس العلم الصحيح دون الدخيل الزائف. وهذا من جهة الوقت وصرف العمر.

ثالثاً: أن طرق الباطل للقلب مؤذن بقسوة ويجد هذا من عانى سبل أهل الضلال ولو للرد عليهم وكشف شبهاتهم، بخلاف من سبح بقلبه وفكره في بحور الحق الصافية.

رابعاً: أن شعب الباطل لا تنتهي، ولا تقف عند حدّ مانع جامع، فهي قُلُبُ خاتلة متجددة، ومهما تتبعها محاربها وأزهرها فلا بد لرأسها من طلوع في مكان وزمان آخر، فهذه من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتحوّل، واعتبر ذلك بما جاءت به المرسلين وبأضداده.

خامساً: السلامة لا يعدلها شيء، والعافية غاية كل ناصح لنفسه، ويخشى على القلب إن خاض الباطل ولو لقصد حسن من خذلان أو ضعف أو عجز، فماله وللمخاطرة =

وقد كتبوا الى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة: أيما أفضل رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب

بيقينه وإيمانه وصفاء قلبه وزكاء نفسه؟! =

فهذه مرجحات للاكتفاء بالحق والاشتغال به كماً وكيفاً، وللرأي الآخر مرجحاته كذلك، فمنها:

أولاً: أن تتبع الباطل لحربه وكشفه وإزهاقه هو من أنفس الجهاد وأعلى رُتبته ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهو وظيفة المرسلين، وكيف يجاهد الباطل من لم يعرف مطاعن قلبه ومكامن هتكه ومغامز ضلاله ومقاتل باطله ومهادم بنيانه؟! فلا يكفي أن تقول لمخالف الحق: إن الحق في كذا، بل يَبْنِي له مواطن زيف باطله وفساد رأيه ومعتقده حتى يكون باطله الساقط من عينيه بمنزلة المعين لك على بناء الحق في قلبه بإذن ربه. وتأمل طريقة القرآن في كشف زيوف المشركين وكيف أظهر عجز آلهتهم وبكمها وخرسها وموتها وفناءها وفقرها بتفصيل وبرهان وتكرار وتنويع.

ثانياً: يعرف الشيء بضده، فمن عرف الباطل والضلال فهو له أبغض وبه أعلم، وهو للحق أحب وبحدوده أعلم، إذ الشعور يتبع العلم.

ولعل الصواب أن نقول: إن الجادة القويمة هي الانشغال بالحق وتفصيله، وعمارة العمر به دونها سواه، فمن احتاج لبيان باطل ومجاهدته فإنه يأخذ في تصوّره ودراسة مطاعنه على قدر الحاجة لكشفه دون ما زاد، كل ذلك إن غلب على ظنه الأمن من دخول الشبهات على قلبه، وإلا فالنجا والوفا. وكل ذلك مع تمام الافتقار واللجأ والانكسار والانطراح بين يدي من نواصي الخلائق بيده، ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] وبالله التوفيق.

عمر: إن الذى تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل فهو من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرَها وحذّرَ منها، ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكًا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها؛ أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه. فانه كلما مرّت بقلبه وتصوّرت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به، فيقوى إيمانه به.

كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرّت به فرغب عنها إلى ضدّها ازداد محبةً لضدّها ورغبة فيه وطلبًا له وحرصًا عليه. فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها الى محبة ما هو أفضل منها، وأنفع له وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول الى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرّف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشدّ وحرصه عليه أتمّ. بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها - وإن كانت طالبة للأعلى - لكن بين الطلبين فرق عظيم، ألا ترى أن من مشى الى محبوبة على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكبًا على النجائب، فليس من أثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن أثره مع عدم منازعتها إلى غيره.

فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يوصله

إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل، ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصّلت له في بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً. وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود: ان الله سبحانه يحب أن تُعرف سبيل أعدائه لتجنب وتبغض، كما يُحب أن تُعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه الا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحيه وبغضه وثوابه وعقابه»^(١).



(١) الفوائد (١/ ١٠٩ - ١١١).

علامات الافتقار إلى الله تعالى

العطايا ليست بالدعاوى، فلكل دعوى صحيحة برهان صحيح، وما كل من ادعى افتقاراً محموداً صادق في دعواه، فعبادات القلوب هي محكات البراهين ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] وللافتقار المحمود الصادق علامات^(١)، منها:

الأولى: تحقيق العبودية لله سبحانه:

فالمؤمن يُسلم نفسه لربه منكسراً بين يديه، متذللاً لعظمته، مقدماً حبه سبحانه على كل حب. فالعبادة هي «الخضوع لله بالطاعة، والتذل له بالاستكانة»^(٢).

ومن كانت هذه حاله؛ وجدته وقافاً عند حدود الله، مقبلاً على طاعته، ملتزماً بأمره ونهيه، فثمرة الذل أن لا يتقدم بين يدي الله وسوله مهتدياً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) الافتقار إلى الله لُبُّ العبودية، أحمد الصويان (٢١ - ٦٣) وبعض هذه العلامات ملخصة منه.

(٢) تفسير الطبري (١/١٥٥).

ثانيًا: شكر الله وحمده:

فليقينه بأن لا رافع لفاقته إلا الله، ولا غنى إلا من الله؛ فهو دائم الشكر له، متقلبًا في رياض الشكر، لا ينفك شاكراً نعمة وشاكراً دفع نعمة، وشاكراً العافية في دينه ودنياه، وشاكراً توفيقه للشكر الذي لولا فضل الشكور سبحانه لما وفق عبده لشكرانه. ممتثلاً مدائح الخليل الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١] سائلاً ربه المزيد من فضله والمزيد من توفيقه لشكره لعلمه بغنى ربه وسعة رحمته وعميم فضله ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] مازجاً شكره بصبره وصبره بشكره، قد أعد لكل نعمة شكراً ولكل بلية صبراً كما قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

ملازماً الذكر بشكر وحمد وثناء، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر. فقد أدى شكر ذلك اليوم»^(٢).

(١) مسلم (٢٩٩٩).

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (٣٨٩ / ٧) وحسنه المحقق حسين أسد. وانظر: جامع الأصول (٤ / ٢٤٥، ٢٥٢).

حافظاً وصية رسول الله ﷺ وكنزه، فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «إذا اكتنز الناس الدنانير والدراهم، فاكتنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(١).

وعن وهب بن منبه، قال: «قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة إلا تحتها منك نعمة، وفوقها منك نعمة، فمن أين يكافيك بما أعطيته؟ قال: فأوحى الله إليه: «يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك لي أن يعلم أن ما به من نعمة مني»^(٢).

وعن طلحة، قال: «قيل من الذي يسمن في الخصب والجذب، ومن الذي يهزل في الخصب والجذب، ومن الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع؟ قال: أما الذي يسمن في الخصب والجذب، فالمؤمن الذي إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وأما الذي يهزل في الخصب والجذب، فالكافر أو الفاجر إن أعطي لم يشكر، وإن ابتلي لم يصبر، وأما الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع فهي ألفة الله التي ألف بين قلوب المؤمنين»^(٣).

والمؤمن المفتقر لربه مسارع لشكر من أسداه معروفاً من الناس حتى لا

(١) رواه أحمد (٩٤٠٧) بسند حسن. وللحافظ ابن رجب رسالة لطيفة في شرحه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٧٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٥١١).

يبقى في قلبه لغير الله تعلق، ويعلم أن الله هو من يسر على أيديهم تلك النعمة والمعروف، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يَشْكُرُ الله من لا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(١).

ثالثاً: دوام ذكر ربه تعالى:

فلا يطمئن قلبه إلا بذكر ربه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] «ومن فُتِحَ له فيه؛ فقد فُتِحَ له باب الدخول على الله عز وجل، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجل؛ يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عز وجل؛ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عز وجل؛ فاته كل شيء».

وفي القلب خلّة وفاقه لا يسدها شيء البتة إلا ذكر الله عز وجل، فإذا صار شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع له فهذا هو الذكر الذي يسدّ الخلّة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنياً بلا مال، عزيزاً بلا عشيرة، مهيباً بلا سلطان.

فإذا كان غافلاً عن ذكر الله عز وجل؛ فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جدّته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»^(٢).

(١) سنن أبي داود (٤٨١١) وصححه الأرئوط.

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (١٣٨ - ١٣٨).

رابعًا: التواضع للحق والخلق:

فلا يردُّ حقًّا استبان له ولا يبطره، ولا يحتقر مخلوقًا حتى وإن رأت نفسه القاصرة فضلًا لها عليه، فالعبرة بالمخابر أولاً لا المظاهر، ثم بالخواتيم، وما أدراك ما الخواتيم!

وكيف للمفتقر لربه أن يرى لنفسه علوًّا في الأرض وهو يُرتل قول الحق الكبير المتعال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ويسمع قول رسول الهدى ﷺ واصفًا عظمة ربه سبحانه: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»^(١).

خامسًا: النزوع للتوبة والاستغفار، وعدم الإصرار على الخطايا:

المفتقر لربه تعالى يمثل أمره إذ قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] منتظرًا منشور البشارة ومرقوم الفرح في قول الرحيم التواب الغفور: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

(١) رواه أبو داود أبي داود (١٨٩ / ٦) وصححه الأرئووط، ورواه أحمد (٧٣٨٢) وهو في «الزهد» لهناد (٨٢٥)، وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٤).

والعبد الصالح إذا زلّت به القدم - ولا بد له من ذلك فكل بني آدم خطاء -
اتّصف بصفتين متلازمتين:

الأولى: سرعة الندم والرجوع إلى الله. كما قال الله تعالى في وصف عباده:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ
يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:
١٣٥].

والثانية: عدم الاستهانة بالمعاصي. فلا يقترب من كبيرة ولا يصير على
صغيرة مهما صغرتها نفسه الأمّارة، بين عينيه قول رسوله ﷺ: «إياكم
ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء
ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضبجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى
يؤخذ بها صاحبها تهلكه»^(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل
يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به
هكذا»^(٢) قال بن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور، فإذا رأى من
نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه. والحكمة في التمثيل بالجبل أن
غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط

(١) أحمد (٢٢٨٠٨) وصححه الأرنؤوط.

(٢) البخاري (٦٣٠٨).

على الشخص فلا ينجو منه عادة.

وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان، فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح، ويخشى من صغير عمله السيء.

وقوله: «وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب» أي ذنبه سهلٌ عنده، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضرر، كما أن ضرر الذباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه.

قال المحب الطبري: «إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة. والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قلَّ خوفه واستهان بالمعصية». وقال بن أبي حمزة: السبب في ذلك: «أن قلب الفاجر مظلم، فوقع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعط يقول: هذا سهل»^(١).

فالمؤمن يحذر الآخرة ويخشى ثمار ذنوبه إن لم يسبغ عليه ربه رحمته وغفرانه، «ففي قلبه نار تلتهب، وفي كبده صدع لا ينشعب»^(٢) يتنقل من منزل توبة لمنزل أخرى، ومن توبة عامة لخاصة، ومن خاصة لعامة، فهو تواب مستغفر مسترحم، للتواب الغفور الرحيم.

(١) فتح الباري لابن حجر (١١ / ١٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٤).

سادسًا: الزهد في حطام الفانية، والمنافسة في نعيم الباقية:

فالمفتقر إلى ربه يعلم أن هناك دارًا قد ارتضاها الله لخُلص عباده، وأن هذه الدنيا يعطيها من يحب ومن لا يحب، أما تلك النفيسة فلا يعطيها إلا أحبابه وأوليائه، فهو يمثل بقلبه قول ربه تبارك وتعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فمن أوصاف المفتقر إلى الله: «أنه المتخلي من الدنيا تظرفًا»^(١)، والمتجاني عنها تعففًا، لا يستغني بها تكثرًا، ولا يستكثر منها تملكًا. وإن كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضره، بل هو فقير غناه في فقره، وغني فقره في غناه^(٢).

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: هل يكون لدى الرجل مئة ألف ويكون زاهداً في الدنيا؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه».

سابعًا: محبة الخلوة بربه ونجواه والأنس به:

فهو بالله ولله وفي الله، يعلم أن الخلائق حُجِبٌ عن ربه إلا ما كان لله وفي الله. فهو دائم اللهج بذكر ربه بقلبه قبل لسانه، لا يكاد ينفك عن مناجاته والأنس به والتلذذ بالتقرب إليه بالصالحات، يسابق عمره بعمله، وبذكره

(١) أي: ما زاد منها عن حاجته.

(٢) طريق الهجرتين (١/١٠٥).

أنفاسه، ويبادر أجله بالاستعداد لما بعده، ويملاً صدره بالسرور والفرح والغبطة بأن خصّه الله بمعرفته والأنس به، ويسأل الله المزيد من جوده وإحسانه.

ثامناً: التعلق بالله تعالى وبمحبوباته:

فلا ينقطع حبل صلته برّبّه، فنياط فؤاده قد علّقت في الملاء الأعلى، فهو مع الناس بجسمه ومع الملائكة المسيّحين بروحه، قد ارتفعت روحه من ثقل الطين وجذب الجسد لنور الملاء الأعلى، فروحه تجول بين السماوات مسبحة حامدة مصلية شاكرة. يعلم أنه في الدنيا للمهلة، وفي ساعاتها للابتلاء، موقن بوعد ربه للمتقين أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهو في فرح بفضل الله ورجاء لما في يديه من فضله، وخوف وإشفاق من ذنوبه وسيئاته. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[يونس: ٦٢ - ٦٤] نسأل الله الكريم من فضله (١).

قال بعض الصالحين: «مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب» (٢) والمؤمن لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهو برّ متعلق بالبرّ الحق سبحانه يبحث عن البرّ في مظانّه: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) وقد سبق الكلام عن الأنس بالله والتعلق به في كتب سابقة.

(٢) شذرات الذهب (٢/٣٢٦).

وَالْمَلَيْكَةِ وَالْكَتَبِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا
ظل إلا ظله..» وذكر منهم: «رجل معلق قلبه بالمساجد»^(١) قال الحافظ ابن
حجر: «إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجاً عنه»^(٢).

تاسعاً: الوجل من عدم قبول العمل:

فهو مع اجتهاده مشفق من رد أعماله، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت
رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]
أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين
يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين
يسارعون في الخيرات»^(٣).

وحينما احتضرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عاذاها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وبشرها بصالح

(١) البخاري (١٤٣/٢) ومسلم (٦٦٠).

(٢) الفتح (١٤٥/٢).

(٣) أحمد (٢٥٢٦٣) والترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الألباني في
السلسلة (١٦٢).

أعمالها فقالت: «دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لو ددتُ أني كنت نسيًا منسيًا»^(١). وهذا لعظمة علمها بالله تعالى وخشيتها وورعها وتواضعها، وإلا فهي تعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

قال الحافظ ابن حجر معلقًا على قولها: «هو على عادة أهل الورع في شدة الخوف على أنفسهم»^(٢).

وتتأكد حقيقة الوجل من رد الأعمال بأربعة أمور:

الأول: أن الله عز وجل غني عن طاعات العباد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] وقال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]

الثاني: أن القبول هو محض فضل الله ورحمته.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم»^(٣).

(١) أحمد (٢٤٩٦) وقوى إسناده المحقق، ورواه مختصرًا البخاري (٤٧٥٣).

(٢) فتح الباري (٨ / ٤٨٤).

(٣) البخاري (٧٠١٨) والمراد: أي على التفصيل له، أما الإجمال بالنجاة والسعادة فقطعي له، ولبعض من علم من أمته.

فإذا كان هذا حال سيد ولد آدم ﷺ، فكيف بغيره من الناس؟!
وقال ﷺ: «لن يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قالوا: ولا انت يا رسول الله؟
قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

وقد كان الصحابة يخشون على أنفسهم النفاق. قال الجعد أبو عثمان: قلت
لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ
يخشون النفاق؟ قال: «نعم، إني بحمد الله قد أدركت منهم صدرًا حسنًا، نعم
شديدًا، نعم شديدًا»^(٢).

الثالث: أن المنة لله جميعًا.

قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي الحديث الرباني قال الله تعالى: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته،
فاستهدوني أهدكم»^(٣).

وعن المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمرُ جعل يَأْلَمُ، فقال له ابن عباس
- وكأنه يُجَزِّعُهُ -^(٤): يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك؛ لقد صحبت رسول الله

(١) البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أبو نعيم في الحلية (٣٠٧/٢).

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

(٤) أي: يُزِيلُ جزعه. فهي من ألفاظ الأضداد.

ﷺ فأحسنت صحبتته، ثم فارقتهُ وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبتته، ثم فارقتهُ وهو عنك راضٍ، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: «أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه؛ فإنما ذاك مَنْ مِنْ الله تعالى مَنْ به عليٌّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه؛ فإنما ذاك مَنْ مِنْ الله جل ذكره مَنْ به عليٌّ، وأما ما ترى من جزعي؛ فهو من أجلك وأجل أصحابك^(١)، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا؛ لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه»^(٢).

الرابع: أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة.

فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»^(٣) ومن دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ مَصْرِفِ الْقُلُوبِ صَرَفِ قُلُوبِنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٤).

وعن جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله عز وجل من النفاق. فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق؟! ما

(١) لأنه تولَّى الخلافة ويخشى أن يكون قد قصّر في حقّها. وهذا من عظيم ورعه وخشيته وعلمه بالله تعالى.

(٢) البخاري (٣٦٩٢).

(٣) مسلم (٢٦٥٤).

(٤) مسلم (٢٦٥٤).

شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: «اللهم غُفراً - ثلاثاً - لا يأمن البلاء من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليُفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه»^(١).

وقال مطرف الشخير: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً؛ أحب إلي من أبيت قائماً فأصبح مُعجباً»^(٢). فوجل المذنبين التائبين أحب إلى الله تعالى من زجل المسيحين المُدّلّين.

عاشراً: خشية الله في السر والعلانية:

وهو من أجل وأجلى صفات أهل الإيمان، قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾^(٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿[الحج: ٣٤، ٣٥].

وخشيته سبحانه من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه سبحانه، وحاله: ﴿أَمِنْ هُوَ قَنِيتٌ إِذَا نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] وقال سبحانه: ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فهو بين خوف ورجاء وحب لله تعالى.

وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب لأن القلب لا يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلى ما سواه، ويعلم أنه يعلم السر والنجوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفرابي ص (٦٩) رقم (٧٤) وصحح المحقق إسناده.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٥١).

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ [الملك: ١٢] وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣١ - ٣٣] فربط الخشية بالغيب تنبيه إلى شهود العبد مراقبة ربه جل وعلا، وأنه يخافه بالغيب كما يخشاه في الشهادة، وليس ممن إذا خلا بمحارم الله انتهكها!

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..» وذكر منهم: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

وكان علي بن الحسين رحمه الله ورضي عن أبيه يُخَلِّ، فلما مات وجدوا أنه يعول أهل مئة بيت في المدينة، «ورجل تصدَّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». فعلموا أنه من أهل الصدقات العظيمة في السرّ.

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال العفيف عن الفاحشة وقد تمكن منها: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج

(١) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) وهو بتمامه: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». والسياق للبخاري. وانقلبت جملة «حتى لا تعلم..» عند مسلم، فوقعت هكذا: «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله».

عنا^(١) فالخشية سوط يزود به المؤمن قلبه عن مواطن الهلكة وأودية الردى.
وقال عبيد الله بن جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من
الله»^(٢).

الحادية عشرة: تعظيم الأمر والنهي:

فغاية العبودية: التسليم والانقياد للأمر الناهي محبة وتذللًا، قال سبحانه:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وقال:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا
تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتّب
على ذلك مقتضاه.

وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو
يهان. وما أكثر ما يُقدّم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه
وأهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب،
ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها.

(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/٦).

وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن يُنكّد عليه محابّه^(١)، وينغصها عليه، ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إثثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئاً سواه عُدّب به ولا بدّ، وأن من خاف غيره سلّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه، ومن أثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يُعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون الله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: «هو أن لا يُعارضا بترخص جافٍ، ولا يُعرضا لتشديد غالٍ، ولا يُحملا على علة تُوهن الانقياد».

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، فالؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه. وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن

(١) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فنعيم الدنيا منغص لأجل ألا يركن إليها المؤمن. ومن عصى الله تعالى لأجل مخلوق نغص الله تعالى عليه ذلك المخلوق وأفسده عليه جزاءً وفاً. ومن أحب غير الله عُدّب به.

لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر، فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الأمر والنهي.

فعلامه التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكما لها، والحرص على تحيئها في أوقاتها والمصارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه إن تُقبِلت منه صلاته منفرداً فإنه قد فاتته سبعة وعشرون ضعفاً، ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً لأكل يديه ندماً وأسفاً؛ فكيف وكُلُّ ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى؟!!

فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعاً، وهو بارد القلب، فارغ من هذه المصيبة، غير مرتاع لها؛ فهذا من ضعف تعظيم أمر الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول وقتها الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاتته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قُرعةً، وكذلك فوّت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، فكلما

كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل، وكلما بعدت الخطأ كانت خطوة تحط خطيئة وأخرى ترفع درجة، وكذلك فوّت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبّها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يُهدي إلى مخلوق مثله عبداً ميتاً أو جارية ميتة؟! فما ظنُّ هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟! فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذا العبد. أو الأمة. الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ إنه قال: «إن العبد ليصلي الصلاة وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها»^(١).

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيراً كاملاً، والناقص بحسبه. وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه. وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانها وأسبابها

(١) مسند أبي يعلى (١٦٢٨) وحسنه الألباني في تخريج الإيمان لابن تيمية (٢٩/١).

وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضبَ لله عز وجل إذا انتهكت محارمهُ، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصى الله تعالى في أرضه.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط. مثال ذلك: أن السنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يُبرَدَ إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه، فيكون مترخصًا جافيًا، وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر، فمن حكمة الشارع ﷺ أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر، فيصلّي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى.

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصلي بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط لتعلق قلبه من ذلك بما يشوّش عليه مقصود الصلاة، ولا يحصل المراد منها. فمن فقه الرجل في عبادته أن يُقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة

فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له وأقبل بكلية عليه،
فركتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه.

والمقصود: أن لا يترخص ترخصاً جافياً، ومن ذلك أنه أرخص للمسافر
في الجمع بين الصلاتين عند العذر، وتعذر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة
السير وتعذر النزول أو تعسيره عليه، فإذا قام في المنزل اليومين والثلاثة أو أقام
اليوم فجمعه بين الصلاتين لا مُوجب له لتمكّنه من فعل كل صلاة في وقتها
من غير مشقة، فالجمع ليس سنّة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر
الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد، بل الجمع رخصة والقصر سنة راتبة، فسنة
المسافر قصر الرباعية، سواء كان له عذر أو لم يكن، وأما جمعه بين الصلاتين
فحاجة ورخصة، فهذا لونٌ وهذا لونٌ.

ومن هذا أن الشّبع في الأكل رخصة غير محرمة، فلا ينبغي أن يجفوَ العبدُ
فيها حتى يصل به الشّبع إلى حد التّخمة والامتلاء، فيتطلب ما يصرف به
الطعام، فيكون همّه بطنه قبل الأكل وبعده! بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع،
ويدع الطعام وهو يشتهيّه، وميزان ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم:
«ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(١) ولا يجعل الثلاثة الأثلاث

(١) خرّجه ابن ماجه بسنده عن المقدم بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، حسب آدمي لقيات يقمن صلبه، فإن
غلبت آدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس» سنن ابن ماجه
(٣٣٤٩) وصححه الأرئؤوط بطرقه.

كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغالياً فيه حتى يفوت الوقت. أو يُردّد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة. أو يتشدد في الورع الغالي حتى لا يأكل شيئاً من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه. ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العباد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئاً من بلاد الإسلام، وكان يتقوّت بما يحمل إليه من بلاد النصارى، ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك! فأوقعه الجهل المفرط والغلو الزائد في إساءة الظن بالمسلمين وحسن الظن بالنصارى، نعوذ بالله من الخذلان.

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعارضاً بترخص جافٍ، ولا يعرّضاً لتشديد غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه.

وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما افراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً؛ أخذه من هذه الخطة فثبّطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذراً وجداً وتشميراً ونهضة وأيس أن يأخذه من هذا الباب؛ أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك، وهمّتك فوق هذا،

وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فطروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعا، وإذا توضؤا للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي. فيحمله على الغلو والمجازرة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم: هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه. وقد فُتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته، ولزوم الوسط. والله المستعان.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله تعالى وحُكمه ممثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر. فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والتسليم، ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه، كما حمل ذلك كثيراً من زنادقة الفقراء والمتنسين إلى التصوف، فإن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره، واستعمالاً للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد، فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية.

فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والحياء

والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه ومجاورته في جنته.

وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه لأنه يدخل عليها بما تحب.

فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه، ويبيّن له ما في طاعة العدو من الهلاك. فهذا يلّم به مرّة، وهذا مرّة، والمنصور من نصره الله عز وجل، والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

وجعل له مقابل نفسه الأمانة نفساً مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمانة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمانة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرّة، وهذه مرّة، وهو للغالب منهما، وربما انتهرت إحداها بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمانة نوراً وبصيرة وعقلاً يردّه عن الذهاب مع الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمانة. فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرّة فيبين له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرّة فيقطع عليه الطريق ويؤخذ ماله ويسلب ثيابه، فيقول: تُرى من أين أُتيت؟!

والعجب أنه يعلم من أين أُتي، ويعرف الطريق التي قطعت عليه وأخذ فيها، ويأبى إلا سلوكها، لأن دليلها قد تمكّن منه، وتحكم فيه، وقويّ عليه، ولو أضعفه بالمخالفة له، وزجره إذا دعاه، وحاربه إذا أراد أخذه؛ لم يتمكن منه، ولكن هو مكنه من نفسه، وهو أعطاه يده، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه فيبائسره، ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يُغاث.

فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارّة، ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه، فلما أن بُلي العبد بما يلي به؛ أعين بالعساكر والعُدد والحصون وقيل له: قاتل عدوك وجاهده، فهذه الجنود خُذ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها، ورابط إلى الموت فالأمر قريب، ومدة المراقبة يسيرة جدًّا. فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفُرق بينك وبين عدوك، وأطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت، وسُجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه. فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أُدخله وأغلقت عليه أبوابه، وأيس من الرّوح والفرج، وأنت فيما اشتهدت نفسك وقرت عينك، جزاء على صبرك في تلك المدة اليسيرة، ولزومك الثغر للرباط، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت، وكأن الشدة لم تكن.

فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه؛ فليتدبر قوله عز وجل: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله عز وجل: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله عز وجل: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ﴾ (١١٣) ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (١٠٣) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يومًا فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال وذلك عند الغروب قال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(١).

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي في الدنيا بأسرها؛ ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئًا، ولو طلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ موفورًا وأكمل منه. كما في بعض الآثار: «ابن آدم بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعًا، ولا تبع الآخرة

(١) أحمد (٢٤٠/٢١). وقال ابن حجر في الأمالي المطلقة (١٩٩): «حسن، رجاله موثقون، وله شاهد».

بالدنيا تحسّرهما جميعاً». وقال بعض السلف: «ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وإنك لنصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا؛ أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة؛ فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمتها انتظاماً»^(١).

الثانية عشرة من علامات الافتقار إلى الله تعالى: أن يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة.

«فهو عاملٌ على مراد الله منه، لا على موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقيرُ خالصٌ بكلّيته لله سبحانه، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظٌّ ونصيب، منشغل بالله عما سواه، وبأمره عن هواه، ويحسن اختياره له عن اختياره لنفسه، فهو في وادٍ والناس في وادٍ.

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلس القياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدّعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله. زاهدٌ في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من الناس، أبعدُ شيء منهم، يأنسُ بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، متفرّد في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، لا يأسف على مفقود.

من جالسه قرت عينه به، ومن رآه ذكرّته رؤيته بالله سبحانه. قد حمل كلّهُ

(١) الوابل الصيب (٢٤ - ٣٩) باختصار.

ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكفّ أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته، وسبّل لهم عرضه ونفسه، لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز. لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفهُ الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقّع لما يبذله للناس عوضاً منهم ولا مدحة. لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقاً، ولا يرى له على أحد فضلاً.

مقبّل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

قد رُفِعَ له عِلْمُ الحب فشمّر إليه، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكلّيته عليه. أجاب منادي المحبة إذ دعاه: حي على الفلاح، ووصل السرى في بيداء الطلب، فحمد عند الوصول سُرّاه، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيّ على جنّات عدن فإنها	منازلُك الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبّئ العدو فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونسلمُ
وحي على روضاتها وخيامها	وحيّ على عيش بها ليس يُسأّمُ
وحي على يوم المزيد وموعد الـ	مُحبّين طوبى للذي هو منهمُ
وحي على واد بها هو أفيحُ	وتربته من أذفر المسك أعظمُ
منابر من نور هناك وفضة	ومن خالص العقيان لا يتفصّمُ
ومن حولها كثران مسك مقاعدُ	لمن دونهم هذا الفخار المعظّمُ

يرون به الرحمنَ جل جلاله
أو الشمس صحواً ليس من دون أفقها
وبيناهم في عيشهم وسرورهم
إذا هم بنور ساطع قد بدا لهم
بربهم من فوقهم وهو قائل
فيا عجباً ما عذر من هو مؤمنٌ
فبادر إذا ما دام في العمر فسحةٌ
فما فرحت بالوصل نفسٌ مهينةٌ
فجدّ وسارع واغتنم ساعة السرى
وسرّ مسرعاً فالسير خلفك مسرعٌ
فهنّ المنايا أي وادّ نزلته
وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ

كرؤية بدر التّم (١)(٢) لا يتوهم
ضباب ولا غيم هناك يغيم
وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
فقل ارفعوا أبصاركم فإذا هم
سلام عليكم طبتهم وسليمتهم
بهذا ولا يسعى له ويقدم
وعذلك مقبول وصرفك قيم
ولا فاز قلب بالبطالة ينعم
ففي زمن الإمكان يسعى ويغنم
وهيهات ما منه مفرٌ ومهزم
عليها قدومٌ أو عليك ستقدم
مُعنى رهين في يديها مسلم

(١) هل تعلم أن في الجنة نعيم ليس من جنس نعيم الدنيا، وليس في الدنيا له شبيه أو نظير أو حتى مثل يقارب المعنى، فالجنة فيها فاكهة ونخل وورمان وأنهار وخمر ولبن وقصور وحوور... إلخ. ولكنها حوت نعيمًا لا يمكن تخيله ولا مقاربته ولو بالخيال فهو جنس ليس له مسمّى ولا شبيه في الدنيا والدليل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ البخاري (٤٧٧٩) وأعلى نعيم الجنة رؤية الله تبارك وتعالى.

(٢) أي بدر التمام.

لها منك والواشي بها يتنعم
 من الخير في روضاتها الدر يسهم
 وطير الأمانى فوقها يترنم
 جناها ينله كيف شاء وينعم
 لخطأها فالحسن فيها مقسم
 هلموا إلى دار السعادة تغنموا
 فطوبى لمن حلوا بها وتنعموا
 من الناس، والرحمن بالغرس أعلم
 سعيد وإلا فالشقا محتتم^(١)
 قفوا بي على تلك الربوع وسلّموا
 قضى نجه فيكم تعيشوا وتسلموا
 بأن الهوى يعمي القلوب ويُبكم
 عليه وفوز للمحب ومغنم
 وأشواقه وقف عليه محرم
 أعتته، حتّام هذا التلوّم
 ودقت كؤوس السير والناس نؤم
 ويبدو لك الأمر الذي كنت تكتّم
 وحرّ لظاها بين جنبيك يضرّم

وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى
 فدعها وسلّ النفس عنها بجنة
 ومن تحتها الأنهار تخفق دائماً
 وقد ذللت منها القطوف فمن يرد
 وقد فتحت أبوابها وتزينت
 أقام على أبوابها داعي الهدى
 وقد طاب منها نزلها ومقيلها
 وقد غرس الرحمن فيها غراسه
 فمن كان من غرس الإله فإنه
 فيا مسرعين السير بالله ربكم
 وقولوا محبّ قاده الشوق نحوكم
 قضى الله رب العالمين قضيةً
 وحبكم أصل الهدى ومداره
 وتفنى عظام الصبّ بعد مماته
 فيا أيها القلب الذي ملك الهوى
 وحتّام لا تصحو وقد قرب المدى
 بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا
 ويا موقدا نارا لغيرك ضوءها

(١) لو قال: فالشقاء محتّم.

أهذا جنى العلم الذي قد غرسته
وهذا هو الحظ الذي قد رضيته
وهذا هو الربح الذي قد كسبته
بخلت بشيء لا يضرّك بذله
وبعت نعيماً لا انقضاء له ولا
فهلا عكست الأمر إن كنت حازماً
وتهدم ما تبني بكفك جاهداً
وعند مراد الحق تفنى كميت
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا
تُنزّه تلك النفس عن سوء فعلها
وتزعم مع هذا بأنك عارف
وما أنت إلا جاهلٌ ثم ظالمٌ
إذا كان هذا نُصْحٌ عبدٍ لنفسه
وفي مثل هذي الحال قد قال من
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ
ولو تبصّر الدنيا وراء ستورها
كحلم بطيف زار في النوم وانقضى الـ
وظلُّ أرتّه الشمسُ عند طلوعها

وهذا الذي قد كنت ترجوه تُطعمُ
لنفسك في الدارين لو كنت تفهمُ
لعمرك لا ربح ولا الأصلُ يسلمُ
وُجِدْتَ بشيء مثله لا يُقوّمُ^(١)
نظيرَ ببخسٍ عن قليل سيعدمُ
ولكن أضعت الحزم إن كنت تعلمُ
فأنت مدى الأيام تبني وتهدمُ
وعند مراد النفس تُسدي وتُلجمُ
ظهير على الرحمن للجبر يزعمُ
وتعتبُ أقدارَ الإله وتظلمُ
كذبت يقيناً في الذي أنت تزعمُ
وإنك بين الجاهلين مقدّمُ
فمن ذا الذي منه الهدى يُتعلّمُ
مضى وأحسن فيما قاله المتكلّمُ:
وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ
رأيت خيلاً في منام سيصرمُ
منام وراح الطيفُ والصَّبُّ مغرمُ
سيقلصُ في وقت الزوال ويُفصمُ

(١) أي بخلت على نفسك بعمارة الآخرة، وُجِدْتَ بها للدنيا!

وَمُزَنَةِ صَيْفٍ طَابَ مِنْهَا مَقِيلُهَا
فَجُزَّهَا مَمَرًا لَا مَقَرًّا وَكُنْ بِهَا
أَوْ ابْنَ سَبِيلٍ قَالَ فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ
أَخَا سَفَرٍ لَا يَسْتَقَرُّ قَرَارُهُ
فِيَا عَجَبًا كَمْ مَصْرَعٍ عَطَبُوا بِهِ
سَقَتَهُمْ بِكَأْسِ الْحَبِّ حَتَّى إِذَا انْتَشَوْا
وَأَعْجَبُ مَا فِي الْعَبْدِ رُؤْيَا هَذِهِ الـ
وَأَعْجَبُ مَنْ ذَا أَنَّ أَحْبَابَهَا الْأَلَى
وَذَلِكَ بِرَهَانٍ عَلَى أَنْ قَدَرَهَا
وَحَسْبُكَ مَا قَالَ الرَّسُولُ مِمَثَّلًا
كَمَا يُدْخِلُ الْإِنْسَانُ فِي الْيَمِّ إَصْبَعًا
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
وَهَلْ أَرَدَنْتَ مَاءَ الْحَيَاةِ وَأَرْتَوِي
وَهَلْ تَبْدُونُ أَعْلَامُهُمْ بَعْدَمَا سَفَتَ
وَهَلْ أَفْرَشَنْ خَدِّي ثَرَى عَتَبَاتِهِمْ
وَهَلْ أَرَيْنَ نَفْسِي طَرِيقًا بِبَابِهِمْ
فَوَا أَسْفَا تَفْنَى الْحَيَاةِ وَتَنْقُضِي
فَمَا مِنْكُمْ بَدٌّ وَلَا عَنْكُمْ غَنَى
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْضَبْ سِوَاكُمْ فَلَا إِذَا
وَعُقْبَى اصْطِبَارِي فِي رِضَاكُمْ حَمِيدَةٌ

فَوَلَّتْ سَرِيعًا وَالْحَرُورُ تَضَرَّمُ
غَرِيبًا تَعِشُ فِيهَا حَمِيدًا وَتَسْلَمُ
وَرَاخَ وَخَلَّى ظِلَّهَا يَتَقَسَّمُ
إِلَى أَنْ يَرَى أَوْطَانَهُ وَيُسَلِّمُ
بُنُوهَا وَلَكِنْ عَنْ مِصَارِعِهَا عَمُوا
سَقَتَهُمْ كَوْوَسِ السُّمِّ وَالْقَوْمُ قَدْ ظَمُّوا
عِظَائِمَ مِنْهَا وَهُوَ فِيهَا مَتِيمٌ
تُهَيِّنُ وَلِلْأَعْدَاءِ تُرَاعِي وَتُكْرِمُ
جَنَاحُ بَعُوضٍ أَوْ أَدَقُّ وَالْأُمُّ
لَهَا وَلِدَارُ الْخُلْدِ وَالْحَقُّ يُفْهَمُ
وَيَنْزِعُهَا مِنْهُ فَمَا ذَاكَ يَغْنَمُ
عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا وَأَمْرِي مُحْكَمُ
عَلَى ظَمَأٍ مِنْ حَوْضِهِ وَهُوَ مُفْنَعَمُ
عَلَيْهَا السَّوَا فِي تَسْتِيْنُ وَتُعَلَّمُ
خُضُوعًا لَهُمْ كَيْمَا يَرْقُؤُوا وَيَرْحَمُوا
وَطِيرُ أَمَانِي الْحَبِّ فَوْقِي تُحَوِّمُ
وَعَتَبُكُمْ بَاقٍ، بَقِيْتُمْ وَعِشْتُمْ
وَمَالِي مِنْ صَبْرٍ فَأَسْلَوْ عَنْكُمْ
إِذَا كُنْتُمْ عَنْ عَبْدِكُمْ قَدْ رَضِيْتُمْ
وَلَكِنِهَا عَنْكُمْ عِقَابٌ وَمَغْرَمُ

وما أنا بالشاكي لما ترتضونه
وحسبي انتسابي من بعيد إليكم
إذا قيل هذا عبدُهم ومُحبُّهم
وها هو قد أبدى الضراعة قائلاً
أحببتنا عطفًا علينا فإننا
فيا ساهياً في غمرة الجهل والهوى
أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده
وبالسُّنَّةِ الغراء كن متمسكاً
تمسك بها مسك البخيل بهاله
وإياك مما أحدث الناس بعدها
وهيَّء جواباً عندما تسمع النداء
به رُسلي لما أتوكم فمن يجب
وخذ من تقى الرحمن أسبعَ جُنَّةٍ
ويُنصب ذاك الجسرُ من فوق متنها
ويأتي إله العالمين لو عده
ويأخذ للمظلوم إذ ذاك حقَّه
وينشر ديوان الحساب وتوضع الـ
فلا مجرمٌ يخشى هناك ظلامه
وتشهد أعضاء المسيء بما جنى
ويا ليت شعري كيف حالك عندما

ولكنني أَرْضَى به وأسلم
وذلك حظُّ مثله يُتَمِّمُ
تهلَّل بِشراً ضاحكاً يتبسَّمُ
لكم بلسان الحال والحال يُعلمُ
بنا ظمأً والمورد العذب أنتم
صريع الأمانى عن قليل ستندم
سوى جنة أو حرَّ نار تضرَّمُ
هي العروة الوثقى التي ليس تُفصَّمُ
وعَضَّ عليها بالنواجذ تسلمُ
فمرتع هاتيك الحوادث أو خمُ
من الله يوم العرض ماذا أجبتم
سواهم سيخزي عند ذاك ويندم
ليوم به تبدو عياناً جهنمُ
فهاؤ ومخدوش وناجٍ مسلمُ
فيفصل ما بين العباد ويحكمُ
فيا ويح من قد كان للخلق يظلمُ
موازن بالقسط الذي ليس يظلمُ
ولا محسن من أجره الذرُّ يهضمُ
لذاك على فيه المهيمن يختمُ
تطائر كُتِبَ العالمين وتُقسَمُ

أَتَأْخُذُ بِالْيَمْنِ كِتَابِكَ أَمْ تَرَى
وَتَقْرَأُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ عَمَلْتَهُ
تَقُولُ كِتَابِي هَؤُلَاءِ اقْرَؤْهُ لِي
وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى فَإِنَّكَ قَائِلٌ
فَلَا وَالَّذِي شَقَّ الْقُلُوبَ وَأَوْدَعَ الـ
وَحَمَلَهَا قَلْبَ الْمَحَبِّ وَإِنَّهُ
وَذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لَصَوْلَةِ الـ
وَذَلَّلَ فِيهَا أَنْفُسًا دُونَ ذُلِّهَا
فَقَدْ فَازَ أَقْوَامٌ وَحَازُوا مَرَابِحًا
عَلَى رَبِّهِمْ طَوَّلَ الْحَيَاةَ وَحَبَّبَهُمْ
بِإِسْرَافِكَ خَلْفَ الظَّهْرِ مِنْكَ يُسَلِّمُ
فَيُشْرِقُ مِنْكَ الْوَجْهَ أَوْ هُوَ يُظْلِمُ
يُشِيرُ بِالْجَنَاحَاتِ حَقًّا وَيُعْلِمُ
أَلَّا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتَهُ فَهُوَ مُغْرِمٌ
مَحَبَّةً فِيهَا حَيْثُ لَا تَتَصَرَّمُ
لِيُضَعِفُ عَنْ حَمْلِ الْقَمِيصِ وَيَأْلُمُ
مَحَبَّةً لَا تَلْوِي وَلَا تَتَلْعَثُ
حِيَاضُ الْمَنَآيَا فَوْقَهَا هِيَ حُومٌ
بَتَرَكَهُمُ الدُّنْيَا وَالْأَقْبَالَ مِنْهُمْ
عَلَى نَهْجٍ مَا قَدْ سَنَّهَ فَهُمْ هُمْ (١)



(١) طريق الهجرتين: (١/١٠٥ - ١١٥) مختصرًا.

ثمرات الافتقار إلى الله تعالى

لكل عمل قلب ثماره، ولما كان الافتقار من أوسع الأعمال كانت ثماره كثيرة جليلة، فمنها:

أولاً: تحقيق العبودية لله تعالى، وتجريد التوحيد له، وصدق التوجه إليه، والإخلاص له، فالافتقار كنز من كنوز التوحيد، بل هو مادته التي قامت فروعه على ساقها. «فالتوحيد يقوى ويستغني، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله؛ وبالاستغفار يُغفر له. فلا يزول فقره وفاقته إلا بالتوحيد، لا بدّ له منه، وإلا فإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً لا يحصل مطلوبه معذباً، والله تعالى لا يغفر أن يُشرك به. وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل غناه وسعادته، وزال عنه ما يُعذب به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهو مفتقر دائماً إلى التوكل عليه والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته، فلا بدّ أن يشهد دائماً فقره إليه وحاجته في أن يكون معبوداً له وأن يكون معيناً له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. هذا هو الصواب الذي علمه جمهور

المفسرين^(١) كابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والنخعي، وأهل اللغة كالفراء^(٢) وابن قتيبة^(٣) والزجاج^(٤) وابن الأنباري. وعبارة الفراء: يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيائِهِ، كما قال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] أي ببأسٍ، وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] أي: بيوم التلاق. وعبارة الزجاج: يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ. قال أبو بكر الأنباري^(٥): والذي نختاره في الآية أن المعنى يخوفكم أوليائه، يقول العرب: أعطيتُ الأموال، أي أعطيتُ القومَ الأموال، فيحذفون المفعول الأول، ويقتصرون على ذكر الثاني^(٦).

«وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] فمن جعل ما يألوه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه. فهم يتخذون أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله.

(١) انظر تفسير الطبري (١٢٢/٤) وزاد المسير (٥٠٦/١).

(٢) معاني القرآن (٢٤٨/١).

(٣) تفسير غريب القرآن (١١٦).

(٤) معاني القرآن (٤٩٠/١).

(٥) زاد المسير (٥٠٧/١).

(٦) جامع المسائل لابن تيمية (٥٥/٣).

ولهذا قال الخليل: ﴿لَا أُحِبُّ إِلَّا فَلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإن قومه لم يكونوا منكربين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب، والخليل بين أن الآفل يغيب عن عابده، وتحجبه عنه الحواجب، فلا يرى عابده، ولا يسمع كلامه، ولا يعلم حاله، ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره. فأى وجه لعبادة من يأفل؟!

وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله؛ خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فعلى صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين. وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال الشيطان: ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْنِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِنَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه؛ حرمه الله على النار»^(١) فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين: لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار.

والشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل، ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ [الفاتحة: ٥] والشيطان يأمر

(١) البخاري (١٢٨).

بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إما خوفاً منه، وإما رجاءً له، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخلص توحيده من شوائب الشرك»^(١).

ثانياً: القرب من الله تعالى عبر باب الانكسار والخشوع. «فالافتقار يورث العبد ذلاً لمولاه الحق، وخشوعاً وعبودية ورقاً ورقة وانكساراً، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه، ويحكى عن بعضهم أنه قال: «دخلتُ على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول»^(٢) حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسع ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته؛ فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه». وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية».

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٢ / ١٠) وانظرها في: (الفتاوى العراقية: ٥٨٢/٢ - ٥٨٥).
(٢) وهذا من شطحاتهم، فالله واسع عليم محيط لا يشغله شأن عن شأن، ولا مخلوق عن سواه وهو على كل شيء قدير، وإنما أتي بعضهم مما يسمونه الغيرة عليه وهذا لا يصح ولا يجوز، فلا يقاس بخلقه سبحانه، وشأن محبته أعظم من ذلك كثيراً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وكأن مقصود ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إيراد هذا الكلام التنبيه إلى أن باب الذل والمسكنة قد غفل عنه الكثير مع أنه أقرب باب لتحصيل العبودية لرب العالمين، وهذا مقصد شريف ومرمى حسن.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تُدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار، وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً وتفريطاً وذنوباً وخطيئة نوع آخر وفتح آخر^(١).

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، هم في واد وهو في واد، وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السُّعاة^(٢)، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك وإذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، والله المستعان وهو خير الغافرين^(٣).

ثالثاً: تحصيل الغنى، فعلى قدر افتقار العبد الفقير لمولاه الغني يكون لطفه ومدده ورحمته. فمن أراد الغنى فليزم عتبة الغني، وليقرع بابه بيد الافتقار والانكسار والمسكنة، وليبشر بالعطاء الجزيل والمنائح الجسيمة، فليعظم الرغبة فالكريم سبحانه لا يتعاضمه شيء أعطاه.

رابعاً: - وهو ومن كبريات ثمراته - سعادة العبد التامة وسروره العظيم

(١) وتأمل لفظ العبد الذي هو سمة أفضل الخلائق وأكمل الرسل، وانظر الكلام على ذلك في باب العبودية من هذا الكتاب.

(٢) أي: المجذون السير المسرعون به.

(٣) مدارج السالكين (١/٤٣١، ٤٤٢ - ٤٤٤) بتصرف واختصار.

وفلاحه المؤكد، وذلك إنما يكون بكمال افتقاره إلى الله.

ولما كان كل طريق فلاح موصدٌ سوى طريق الافتقار للإله الحق فلا سعادة على الحقيقة إلا به، فلا سرور ولا فرح ولا نعيم ولا فرج ولا توفيق إلا بتحقيق الافتقار إلى الله الذي هو لباب العبودية وقلبها. «والعبد كلما كان أذلَّ لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعزَّ له، وأعظم لقدره. فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله.

وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولقد صدق القائل:

بين التذلل والتدلل نقطة في رفعها تتحير الأفهام^(١)

فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه. فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم؛ كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم. وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم، لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ قال: أن يكون شيئك لهم مبدولاً، وتكون من شيءهم آيساً، لكن إن كنت معوضاً لهم عن ذلك وكانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان؛ تساويتم، كالمبتاعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك.

(١) فالتذلل محمود محبوب، أما الإذلال فيخلافه.

فالرب سبحانه: أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه وأفقر ما تكون إليه. والخلق: أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم. لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم فإنهم لا يقدرُونَ عليها، ولا يريدون من جهة أنفسهم، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة.

والرب تعالى يعلم مصالحك ويقدر عليها، ويريدها رحمة منه وفضلاً. وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريداً راحماً، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء. والخلق كلهم محتاجون، لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم. وهذا هو الواجب عليهم والحكمة، ولا ينبغي لهم إلا ذلك، لكن السعيد منهم الذي يعمل لمصلحته التي هي مصلحة، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك.

فهم ثلاثة أصناف: ظالم، وعادل، ومحسن.

فالظالم: الذي يأخذ منك مالا أو نفعاً ولا يعطيك عوضه، أو ينفع نفسه بضررك.

والعادل: المكافئ، كالبائع لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين والمتبايعين والشريكين.

والمحسن الذي يُحسن لا لعوض يناله منك، فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر، أو طلب مدح الخلق وتعظيمهم، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك.

وبكل حال ما أحسنَ إليك إلا لما يرجو من الانتفاع. وسائر الخلق إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك، إما بطريق المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر، والسيد محتاج إلى مماليكه وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم. وعلى هذا بُني أمر العالم.

وأما بطريق الإحسان منك إليهم. فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة، فلو قد وليت ولّوا عنك وتركوك، فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم وأغراضهم.

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم تجد أحدهم سيّدًا مطاعًا، وهو في الحقيقة عبد مطيع. وإذا أؤذي أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغيّر الأمر بحسب الأحوال.

ومتى كنت محتاجًا إليهم؛ نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك. والرب تعالى يمتنع أن يكون المخلوق مكافيًا له أو متفضلًا عليه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول إذا رُفعت مائدته: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مكفور ولا مودّع ولا مستغنى عنه ربنا» رواه البخاري من حديث أبي أمامة^(١) بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على

(١) البخاري (٥٤٥٨).

العبد، وحده لا شريك له في ذلك؛ بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله. وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أي بموجب علمه ذلك. فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم، بل يظنه باقياً، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر. فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق في جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به. والمؤمن يقرّ بذلك ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم عباد الله.

فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه. وليس أحدٌ غنياً بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغنيُّ عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه. فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته.

والإنسان يذنب دائماً فهو فقير مذنب، وربُّه تعالى يرحمه ويغفر له، وهو الغفور الرحيم، فلولا رحمته وإحسانه؛ لما وُجد خير أصلاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولولا مغفرته لما وُقِيَ العبد شرُّ ذنوبه. وهو محتاج دائماً إلى حصول النعمة ودفع الضر والشر، ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والمراد بالسيئات: ما يسوء العبد من المصائب. وبالحسنات: ما يسره من النعم، كما قال: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلاً وجوداً من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق. وإن كان تعالى عليه حق لعباده، فذلك الحق هو أحقه على نفسه، وليس ذلك من جهة المخلوق، بل من جهة الله، كما قد بسط هذا في مواضع.

والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم، كما قال: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والنعم وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها، فإنه سبحانه هو الذي خلق العبد وجعله مسلماً طائعاً، كما قال الخليل: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وقال: ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال: ﴿أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فسأل ربه أن يجعله مسلماً وأن يجعله مقيم الصلاة. وقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الآية، قال في آخرها: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

وعند أبي داود وابن حبان: «اهدنا سبيل السلام، ونجّنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا»^(١)

(١) أبو داود (٩٦٩) وسكت عنه فهو صالح على طريقته، ابن حبان (٩٩٦) وجود إسناده الهيثمي في المجمع (١٨٢/١٠) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد =

وفي الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال: مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلايتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق، المقر بذنبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع، من خضعت لك رقبتك، وذلل لك جسده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيًا، وكن بي رؤوفًا رحيمًا، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين»^(١).

ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله، فأما عبدٌ لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده^(٢)، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فلا استثناء فيه منقطع^(٣)، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء. وقوله: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ﴿وَعِبَادُ

(٤٩٠) بنحوه.

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٣) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير وزاد: «الوجل المشفق» وفيه يحيى بن صالح الأبل، قال العقيلي: روى عنه يحيى بن بكير مناكير. وبقيت رجاله رجال الصحيح».

(٢) أي: العبودية الاختيارية التي يُحمد ويُثاب عليها وليست الاضطرارية، فكل من سوى الله فهو عبدٌ لله.

(٣) أي ليس من عباد الله.

الرَّحْمَنِ الَّذِي يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونََا ﴿ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴿ [ص: ١٧] و﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿ [ص: ٣٠]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴿ [ص: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿ [ص: ٤٥] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴿ [الكهف: ٦٥]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴿ [الإسراء: ١]، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿ [الإسراء: ٣]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴿ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿ [النجم: ١٠]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿ [الجن: ١٩]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴿ [الفرقان: ١]، ونحو هذا كثير.

وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴿ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿ [مريم: ٩٣]. وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال: «فيوحى الله إلى المسيح أن لي عبداً لا يدان^(١) لأحد بقتالهم» وهذا كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴿ [الإسراء: ٥] فهو لاء لم يكونوا مطيعين لله، لكنهم مُعَبَّدُونَ مذلَّلون مقهورون يجري عليهم قدره.

وأما فقر المخلوقات إلى الله، بمعنى: حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به؛ فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه

(١) أي: لا قوة ولا طاقة لأحد بقتالهم.

الملك والحمد^(١).

والمقصود: أن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه، أي في أن يشهد ذلك ويعرفه، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا ۚ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاءَ غَرَضٍ ۚ﴾ [فصلت: ٥١] وفي الآية الأخرى: ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ [الإسراء: ٨٣]^(٢).

ومما ينبغي أن يُعلم أنه «لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

ومعلوم أن كل حيٍّ سوى الله سبحانه من ملك أو إنس أو جن أو حيوان فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك إلا بتصوره للنافع والضار، والمنفعة من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب. فلا بد له من أمرين: أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي يتنفع به ويلتذ بإدراكه.

(١) فالفقر إلى الربوبية اضطراري، أما الفقر إلى الألوهية والعبودية فاختياري، وهو محكّ دعوة المرسلين لأنه تحقيق «لا إله إلا الله».

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩ - ٥٠) مختصراً.

والثاني: معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود. وبإزاء ذلك أمران آخران، أحدهما: مكروه بغضض ضار. والثاني: مُعينٌ دافع له عنه. فهذه أربعة أشياء:

أحدهما: أمر هو محبوب مطلوب الوجود. الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم. الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب. الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، الذي يراد وجهه، ويُبتَغى قربه، ويُطلب رضاه. وهو المعين على حصول ذلك. وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار، والله هو المعين على دفعه. فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه، فهو المعبود المحبوب المراد، وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له.

والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته، وهو المعين لعبده على دفعه عنه، كما قال أعرفُ الخلق به: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»^(١) وقال: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة

(١) مسلم (٤٨٦).

وربهة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»^(١) فمنه المنجى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته. فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والمملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثني على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه.

ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه. والمستعان هو الذي يُستعان به على المطلوب. فالأول^(٢): من معنى ألوهيته، والثاني^(٣) من معنى ربوبيته. فإن الإله هو الذي تأله القلوب محبةً وإنابةً وإجلالاً وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلًا. والرب هو الذي يُربى عبده، فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه.

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله:

(١) متفق عليه، البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٢) أي: عبادته وحده.

(٣) أي: الاستعانة به وحده.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] (١).

وقال ابن القيم في رسالته لبعض إخوته في الإيثار موضحاً محاور استجلاب السعادة واستثباتها وزيادتها وهي ثلاث: شكر النعمة، والصبر على البلاء، والتوبة من الذنب: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر. فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد (٢)، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً. فإن العبد دائم القلب بين هذه الأطباق الثلاث:

الأول: نعم من الله تعالى تترادف عليه فقيدها الشكر، وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة

(١) إغاثة اللفهان (١/٧٠-٧١).

(٢) وجعلها الإمام المجدد في مقدمة القواعد الأربع.

وليها ومسديها ومعطيها. فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: محن من الله تعالى يبتليه بها ففرضه فيها الصبر والتسلي. والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب وشف الشعر ونحوه. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة.

فإذا قام به العبد كما ينبغي؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته. فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب. وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره. ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى. فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقتة عليها وعلى عياله ونفسه عبودية.

هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقتة في الضراء عبودية. ولكن فرق عظيم بين العبودتين، فمن كان عبداً لله في الحالتين، قائماً بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي القراءة الأخرى ﴿عِبَادِهِ﴾ وهما سواء لأن المفرد مضاف، فيعم الجميع. فالكفاية التامة مع العبودية التامة والناقصة بحسبها،

فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالى لا يسلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ص: ٨٢ - ٨٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴿سبأ: ٢٠ - ٢١﴾.

فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوّه أحدهم كما يغتال اللصّ الرجل الغافل؛ فهذا لا بد منه. لأن العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احتزر العبد ما احتزر فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلاً وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيه، فما الظنّ بفراشة الحلم، ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر؟! ولكن عدو الله لا يَخْلُصُ إلى المؤمن إلا غيلةً على غرة وغفلة، فيوقعه، ويظن أنه لا يستقبل ربه عز وجل بعدها، وأن تلك الوقعة قد اجتاحتها وأهلكته. وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله.

فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار

والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمه، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه!

وهذا معنى قول بعض السلف^(١): إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟! قال: «يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقاً وجللاً باكياً نادماً مستحيماً من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة، بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة، فلا يزال يميناً بها على ربه، ويتكبر بها، ويرى نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ وفعلتُ، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة؛ ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه، ويصغر به نفسه عنده. وإن أراد به غير ذلك خلّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق: أن لا يكللك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان: أن يكللك الله تعالى إلى نفسك. فمن أراد الله به خيراً فتح

(١) وهو الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ.

له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبرّه وغناه وحده.

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: «العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل» وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١) فجمع في قوله صلى الله عليه وسلم «أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي» مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنّة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلساً.

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦) وليس عنده لفظ: «العبد» وإن كان عند غيره، وزاد: «من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»، و«أبوء»: أعترف.

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلة منه يمنّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصّرف والإفلاس المحض، دخول من كَسَرَ الفقر والمسكنة قلبه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع. وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تَخلى عنه طرفة عين؛ هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى. والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين: وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام. وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين؛ لم يظفر عدوّه به إلا على غرّه وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويحبره ويتداركه برحمته»^(١).

خامساً: من ثمار الافتقار: الانكفاف عن العصيان، خشية الخذلان وحياء من الرحمن.

(١) الوابل الصيب (١/ ١١ - ١٧).

فالمؤمن يخشى الله ويتقيه، ويزع نفسه ما استطاع عن معاصيه، ويعلم أنه مهما احتجب عن أعين الناس فعين الله لا تُخطيه، ويعلم أنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في شأن الرجل الذي يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية فينزع عنها: «هذا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» [النازعات: ٤٠، ٤١] وقوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال مجاهد وغيره من المفسرين: «هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله؛ فيتركها خوفاً من الله»^(١).

وإذا كان وجل القلب من ذكره، يتضمن خشيته ومخافته؛ فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحذور. قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله»^(٢) ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله. قال مجاهد وإبراهيم: «هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر

(١) نقل البغوي في تفسيره (٨ / ٣٣٠) عن مقاتل قال في الآية: «هو الرجل يهيم بالمعصية

فيذكر مقامه للحساب فيتركها».

(٢) صفة الصفوة (٤ / ٦٥).

مقام الله فيدع الذنب» وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وهم المؤمنون، وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى ﴿الْمَعْرُوفِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم.

وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم، وأهل الهدى ليسوا ضالين، فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله، مستحقين لجنته بلا عذاب. وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب.

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم؛ فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمَنَ هُوَ قَنُوتُهُ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] والخشية أبدا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً. فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: «العلماء ثلاثة، فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله»^(١) فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بحدوده»^(٢) وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات»^(٣).

سادساً: ومن ثمرات صدق الافتقار إلى الله: سكينه القلب وزهاده في الدنيا.

فلا تقلقله زعازع الدنيا فهو لا يراها مستحقة لذلك الهم والغم إذ هو مُعْرِضٌ بقلبه عنها وإن كانت يديه فيها، بل حاله سكوتُ اللسان عن حديث

(١) ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠ / ٣١٨٠) من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: «كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله، وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بالله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله».

(٢) مسلم (١١١٠) بلفظ: «وأعلمكم بما أتقي».

(٣) مجموع الفتاوى: (٧ / ٢١-٢٢).

الدنيا ذمًّا أو مدحًا، فمن اهتم بأمر وكان له في قلبه موقع؛ اشتغل لسانه بما فاض على قلبه من أمره مدحًا أو ذمًّا، فإنه إن حصلت له مدحها، وإن فاتته ذمها. ومدحها وذمها علامة موضعها من القلب وخطرها، فحيث اشتغل اللسان بزمها كان بذلك لخطرها في القلب، لأن الشيء إنما يُذم على قدر الاهتمام به والاعتناء بشفاء الغيظ منه بالذم^(١).

«وكذلك تعظيم الزهد فيها إنما هو على قدر خطرها في القلب، إذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر، وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها، ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها. فإن الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه مدحًا أو ذمًّا.

وكذلك صاحب هذه الدرجة سالم عن النظر إلى تركها، وهو الذي تقدم من ذكر خطر الزهد فيها، لأن نظر العبد إلى كونه تاركًا لها زاهدًا فيها تتشرف نفسه بالترك وتتلذذ به؛ دليل على شغله بها، ولو على وجه الترك، وذلك من خطرها وقدرها^(٢). ولو صغرت في القلب لصغر تركها والزهد فيها، ولو

(١) وينظر ما سبق من الكلام على الزهد في بيان علامات الافتقار لله تعالى.

(٢) فالمدح إنما هو بالذهول والإعراض عن ملاحظة فتنها وعن ملاحظة ترك فتنها كذلك لأنه باب للعُجب.

اهتم القلب بمهم من المهمات المطلوبة التي هي فاقت أهل القلوب الأرواح لذهل عن النظر إلى نفسه بالزهد والترك.

فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأمراض كلها من مرض الضبط والطلب والذم والمدح والترك، فهي بأسرها وإن كان بعضها ممدوحاً في العلم مقصوداً يستحق المتحقق به الثواب والمدح، لكنها آثار وأشكال مشعرة بأن صاحبها لم يذق حال الخلو والتجريد الباطن، فضلاً عن أن يتحقق من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل بكليته في الدنيا قد ركن إليها واطمأن إليها واتخذها وطناً وجعلها له سكناً، وبين من نفصها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلص من قيودها ورعونتها وآثارها، وارتقى إلى ما يسر القلب ويحييه ويفرحه ويهجه من جذبات العزة. فهو في البرزخ كالحامل المُنْقَرِب^(١)، ينتظر ولادة الروح والقلب صباحاً ومساءً، فإن من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه، ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها؛ فهكذا هذا الذي بَعُدَ في مشيمة النفس والظلمات الثلاث التي هي ظلمة النفس وظلمة الطبع وظلمة الهوى، فلا بد من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين»^(٢).

(١) أي على وشك الولادة.

(٢) والملكوت في لغة أهل الكتاب هو الجنة.

والمقصود: أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلب لم يولد ولم يأن له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغى والجهل والضلال.

وقلب قد وُلد وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرت عينه بالله، وقرت عيون به وقلوب، وأنست بقربه الأرواح، وذكّرت رؤيته بالله، فاطمأن بالله وسكن إليه وعكف بهيمته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى. لا يقر بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره، يجد من كل شيء سوى الله عوضاً، لا يجد من الله عوضاً أبداً. فذكره حياة قلبه ورضاه غاية مطلبه، ومحبتُه قُوته، ومعرفته أنيسه. عدوّه من جذب قلبه عن الله وإن كان القريب المصافيا، ووليّه من رده إلى الله وجمع قلبه عليه وإن كان البعيد المناويا. فهذان قلبان متباينان غاية التباين.

وقلب ثالث في البرزخ، ينتظر الولادة صباحاً ومساءً، قد أصبح على فضاء التجريد، وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد. تأبى غلّبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى من السعادة كلّها بقربه، والحظّ كل الحظّ في طاعته وحبّه. وتأبى غلّبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه. فهو بين الداعين تارة وتارة، قد قطع عقبات وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات^(١).

(١) وهذا حال أكثر المؤمنين وهي النفس اللوامة، والله المستعان.

والمقصود: أن صاحب هذا المقام إذا تحقق به ظاهراً وباطناً، وسلم عن نظر نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده؛ فهو فقير حقيقي، ليس فيه قاذح من القوادح التي تحطه عن درجة الفقر.

واعلم أنه يحسن أعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب. والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن من إجابة الداعي. فيستحضر في نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، فإنه إن تمَّ عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد.

وهناك درجة أرفع من الأولى وأعلى، والأولى كالوسيلة إليها، لأن في الدرجة الأولى يتخلى بفقره عن أن يتأله غير مولاه الحق، وأن يضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يفرق همومه في غير محابته، وأن يؤثر عليه في حال من الأحوال. فيوجب له هذا الخلو وهذه المعاملة صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله، وخلوص الوداد والمحبة، فيصبح ويمسي ولا هم له غير ربه، قد قطع همه بربه عنه جميع الهموم، وعطلت إرادته جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه، كما قيل:

لقد كان يسبي القلب في كل ليلة	ثمانون بل تسعون نفساً وأرجح
يهمُّ بهذا ثم يألف غيره	ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبي ضائعاً قبل حبكم	فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواء أجابه	فلمست أراه عن خبائك يبرح

حُرِّمْتُ الأمانِي منك إن كنتُ كاذبًا وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
 وإن كان شيء في الوجود سواكم يقرُّ به القلبُ الجريحُ ويفرحُ
 إذا لعبتُ أيدي الهوى بمُحبِّكم فليس له عن بابكم متزحزحُ
 فإن أدركته غربَةٌ عن دياركم فحبُّكم بين الحشاليس يبرحُ
 وكم مشترٍ في الخلق قد سامَ قلبه فلم يره إلا لحبِّك يصلحُ
 هوى غيركم نازٌّ تلظى ومحبسٌ وحبُّكم الفردوسُ أو هو أفسحُ
 فيا ضيمَ قلبٍ قد تعلَّقَ غيركم ويا رحمتًا مما يجول ويكدحُ^(١)

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلوبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب؛ يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأما إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه، كما قال بعضهم:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنَا^(٢)

ففقرُ صاحب هذه الدرجة تفرُّغه إنائه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة، لأن كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة فمسكرٌ ولا بدَّ، «وما

(١) الأبيات لسمنون بن حمزة، وانظر: صفة الصفوة: (٤٨٥/١) مع التنبيه حرمة وصف محبة الله تعالى بالهوى، فهو من سوء الأدب مع جلاله سبحانه.

(٢) لمجنون بني عامر، ونسب ليزيد بن الطثرية، ونازعهما ديوان ديك الجن عليه، والأشبه أنها للمجنون.

أسكر كثيره فقليله حرام»^(١) وأين سكرُ الهوى والدنيا من سكر الخمر؟! وكيف يوضع شراب التسنيم الذي هو أعلى أشربة المحبين في إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى، ولا يفيق من سكره ولا يستفيق؟!!

ولو فارق هذا السكرُ القلبَ لطار بأجنحة الشوق إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضي المسكينُ بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن صفقة خاسرٍ مغبون، فسيعلمُ أيَّ حظ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبتلون! «^(٢). وبالله التوفيق والاعتصام والاستغناء والاستعانة.



(١) أحمد (٦٦٧٤) والنسائي (٣٠٠/٨) بسند حسن، وعليه العمل عند أهل العلم.

(٢) طريق الهجرتين: (٢٦/١-٣٤) باختصار.

كيف يحقق المؤمن عبودية الافتقار؟

إن شأن الافتقار إلى الله عظيم، فهو سحابة الغيث، وينبوع الإمداد، ومستمنح الفوائد، ومستدفع الشرور، والموفق من وفقه الله لطرق بابه، والولوج لرحابه. وعلى قدر اعتراف العبد بفقره لربه وحاجته وضرورته إليه يكون فرجه وفتح باب رزقه وغناه، فلا بد من الاعتراف والإقرار بالضرورة التامة للخلاق العليم والرحيم الكريم. وإن أمرًا هذا شأنه وفضله ومكانته وعظمته لحقيق بنفيس العناية ووفير الهمة وشديد الاجتهاد. وبحمد الله فقد يسر الله للخير سبله وهياً طرائقه، فمن ذلك:

أولاً: العلم بكمال الربوبية والألوهية لله دون سواه.

قال تقي الدين رحمه الله: «فليس لشيء وجود من نفسه، وإنما وجوده من ربه، والأشياء باعتبار أنفسها لا تستحق سوى العدم، وإنما حصل لها الوجود من خالقها وبارئها فهي دائمة الافتقار إليه، لا تستغني عنه لحظة لا في الدنيا ولا في الآخرة»^(١).

فالافتقار شعور والشعور لا بد أن يسبقه العلم، ولا علم إلا ما جاء به الرسول ﷺ. فإذا كان العلم صحيحاً كان الشعور حقاً، وعلى قدر العلم والشعور تتحرك الإرادة ويزكو الإيمان وتثمر شجرة الإحسان.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٤٥).

وطريقة تحصيل الافتقار المحمود هنا: أن يشهد المؤمن بقلبه أن الله وحده هو الغني المطلق وكل ما سواه فقير محتاج إليه.

فلله سبحانه كمال صفات الجلال والجمال، فله الكمال المطلق بكل وجه من الوجوه، وله الغنى التام، فهو الغني لا منتهى لغناه، الملك لا حدود لملكه وسلطانه، الحميد في كل صفاته وأفعاله، الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها اضطراراً لفضله وجوده وإحسانه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال الله سبحانه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً فغناه ذاتي له، وحده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه.

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات^(١) لا بعلّة، وكل ما يذكر ويقدر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة، لا علة لذلك، إذا ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد. فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه

(١) أي أن ذاته فقيرة بنفسها وخلقتها وليس بسبب خارج عنها.

ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي^(١)، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا.

إذا عرف هذا فالفقر فقران:

فقر اضطراري: وهو فقر عام لا خروج لبرٍّ ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفيين:

أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر^(٢) بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق؛ عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة

(١) قال شيخ الإسلام: «لما كانت شواهد الافتقار في أعيان العالم واحتياجها إلى الصانع بينة ظاهرة، بل معلومة بالبديهة؛ كان معلومًا مع ذلك أن كلاً منها مُحدثٌ مخلوق كائن بعد أن لم يكن في فطر العامة. فإن الأمر مبني على مقدمتين: إحداهما: أن هذا المعين مفتقر إلى فاعل، إذ هو ليس بواجب بنفسه. والثانية: أن ما افتقر إلى فاعل لم يكن إلا مُحدثًا، فإذا كل شيء من العالم تثبت فيه هاتان المقدمتان» الصفدية (٢/ ١٦٠).

(٢) أي: الاختياري الذي ترتب عليه المدح والثناء والجزاء الحسن.

التامة؛ عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعزّ التام؛ عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة؛ عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً، ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد. ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها.

وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفطره، فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحرّكه، ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحوش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحليل على مصالحه، والتحرز والتحفظ مما يؤذيه؛ ظن المسكين أن له نصيباً من الملك، وادّعى لنفسه ملكاً مع الله سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بُسر بن جَحَاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك

مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد^(١)، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة^(٢).

ومن ههنا خذل من خذل، ووُفق من وفق، فحُجب المخذول عن حقيقته، ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعتا، فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿١﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ۖ ﴿٢﴾ فَخَنَّنَا لَهُ ۖ إِنَّكَ كَاشِحٌ ۖ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»^(٣).

وكان يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»^(٤) يعلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل، لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء،

(١) وئيد: أي صوت شدة صوت الوطاء على الأرض.

(٢) أحمد (١٧٨٤٢) وابن ماجه (٢٧٠٧) والحاكم (٣٨٥٥) وصححه، وصححه

كذلك البوصيري وابن حجر. والألباني في صحيح الجامع (٨١٤٤).

(٣) أحمد (٢٠٤٣٠) مطولاً، وأبو داود (٥٠٩٠) وحسنه ابن حجر.

(٤) أحمد (١٧٦٣٠) وابن ماجه (١٩٩) وغيرهما.

كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما لمن بعده منه ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلة؛ لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه.

وكان يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله»^(١).

وذكره الله سبحانه بِسْمَةِ العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وفي حديث الشفاعة: إن المسيح يقول لهم: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(٢) فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية؛ ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته،

(١) البخاري (٣٤٤٥).

(٢) البخاري (٤٤٧٦).

وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام. وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

هذا والعبد إنما هو مملوك ممتحن في صورة ملك متصرف، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ومن ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل إليها، ومن وكل إلى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب، وأغلق عنه باب الفوز والسعادة، فإن كل شيء ما سوى الله باطل، ومن وكل إلى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل إلا على الحرمان، فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان إليه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال

ذلك الذي عمل له؛ عُدِمَ ذلك العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان.

ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة، وأغبنهم يوم معاده، فإنه يُحال على مفلس كل الإفلاس، بل على عدم، والموحد حوَّله على المليء الكريم، فيا بُعْدَ ما بين الحوالتين!

والمُوقِّنون لا يرون لأنفسهم ملكًا حقيقيًّا، بل يرون ما في أيديهم لله عاريةً ووديعةً في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهوهم ويمنعون لهوهم. فوجود المال في يد الفقير لا يقدر في فقره، إنما يقدر في فقره رؤيته لملكته، فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوَّث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالحازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره.

ومن لم يُعَافَ من ذلك ادعت نفسه الملكة، وتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب المعشوق، فهو أكبر همه ومبلغ علمه، إن أعطي رضي وإن منع سخط، فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهمومًا ويمسي كذلك، يبيت مضاجعًا له، تفرح نفسه إذا ازداد، وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف إذا توهمت نفسه الفقر، وقد يؤثر الموت على الفقر.

والأول مستغن بمولاه المالك الحق الذي بيده خزائن السموات والأرض، وإذا أصاب المال الذي في يده نائبة؛ رأى أن المالك الحق هو الذي

أصاب مال نفسه، فما للعبد وما للجزع والهلج؟ وإنما تصرف مالك المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه، فله الحكم في ماله، إن شاء أبقاه وإن شاء ذهب به وأفناه، فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه، ويرى تدبيره هو موجب الحكمة، فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث، لصعوده عنه وارتفاع همته إلى المالك الحق، فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه، وهو فقير إليه دون ما سواه، فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْعَىٰ ۖ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَعْثَىٰ ۚ﴾ [العلق: ٦، ٧] ولم يقل إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤيته غنى نفسه^(١).

ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ۖ﴾ [الليل: ٨ - ١٠] وهذا والله أعلم لأنه ذكر في سورة العلق موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفه عين، ولا يجد بداً من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۚ﴾ [يونس: ٢٦].

(١) فالمال ليس مطعياً بذاته بل بظن صاحبه أنه استغنى به.

ومن فسرّها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنّها أصل الإحسان وبها تنال الحسنى، ومن فسرّها بالخلف في الإنفاق فقد هضم المعنى حقّه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى.

والمقصود: أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره للعُسر، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية»^(١).

ثانياً: الإقرار بالافتقار إلى الله تعالى.

«والإقرار بالافتقار من أجل الأدلة على التوحيد وحقيقة الإيمان، والخلاف فيه بين الكافر والمؤمن من أعظم ما يميز كلّاً منهما عن الآخر، ثم هو مما يميز الذاكرين الصابرين عن الغافلين الهلّعين من المؤمنين.

فالمؤمن مقر بافتقاره إلى الله في كل لحظة عين، شاكراً لأنعمه، ذاكراً لآلائه في حال الرخاء والشدة معاً، يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها، ولا يمل دعاءه ولو لأدنى حاجاته.

وبالجملة هو مشاهد لحقيقة افتقاره إلى مولاه يدعوه صباحاً ومساءً بما أوصى به النبي ﷺ ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا حيّ يا قيوم برحمتك استغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(٢).

بل إن المؤمن ليستشعر ذلك في أعزّ ساعات الانتصار والتمكين. وقد

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢ - ٣٤) باختصار.

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) وهو حسن بشواهده.

قصّ الله تعالى من حال أنبيائه في القرآن ما فيه بيان وقدوة؛ فهذا يوسف عليه السلام في اللحظة التي تمّ فيها تحقيق رؤياه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

في هذه اللحظة نزع يوسف عليه السلام نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر، كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكذلك نبي الله سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضراً بين يديه، من وراء آلاف الأميال، من قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وهكذا فعل النبي ﷺ حين دخل مكة فاتحاً منصوراً؛ فإنه دخلها وهو يقرأ سورة الفتح يُرجع^(١)، ونزل بيت أم هانئ فصلى فيه ثماني

(١) خرّجه البخاري في الصحيح (٤٢٨١) ومسلم (٧٩٤) من حديث عبد الله بن مغفل قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرجع». وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت والترجيع هو ترديد =

ركعات^(١)، وظلّ مكثراً من التسييح والاستغفار إلى أن توفاه الله تأويلاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣].

ولهذا قال أشياخ بدر لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أمرنا أن نحمد ربنا ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا»^(٢)، وهكذا فعل سعد بي أبي وقاص يوم فتح المدائن، وجعلها بعض العلماء سنة فقالوا: يستحب لأمر الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات^(٣).

فهذا حال المؤمنين في حال النعمة وذروة الطمأنينة.

وأما الكافر فإنه مستكبر على ربه، متمرد عليه حال الرخاء والنعمة، يكفره ولا يشكره، يستخدم آلاءه في معاصيه، يطغى إذا استغنى ويفسق إذا أترف. حتى إذا ما نزلت به نازلة وأحدثت به كربة وأحاطت به مصيبة سقط من عرش كبريائه الوهمي، وانهار الزيف أمام الواقع، وانكشف الغيم عن الفطرة المكبوتة، فأيقن حينئذ أنه لا يملك حولاً ولا طولاً، وضلّت عنه

المدّ بلطف في التلاوة بلا تكلف لغرض تحسين الصوت بها.

(١) النسائي في الكبرى (٣٢٩٥).

(٢) البخاري (٧٣٥/٨) وذلك ضمن قصتهم معه بشأن تقديم ابن عباس، ولا خلاف في الحقيقة بين قولهم وقوله في تفسير السورة، فإنهم نظروا إلى ظاهر دلالتها ومنطوقها، وهو نظر إلى مضمونها وفحواها. وهو ما أراده عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسؤال.

(٣) انظر ابن كثير (٥٣٢/٨).

الأرباب المزعومة التي كان يتعلق بها من قبل، وأخلص لله الدعاء وأظهر له من الافتقار والضراعة ما لم يكن ليخطر له ببال حال الأمن والعافية»^(١).

ثالثاً: مشاهدة حرج النفس واضطرابها وقلقها حال الكربة والشدة.

فلربما يغفل المؤمن فينبهه الله تعالى ببعض الشدائد حتى يثوب لافتقاره وعبوديته لربه وإلهه.

وروى أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام رأى مبتلى، فقال: «اللهم ارحمه» فقال الله تعالى: «كيف أرحمه مما به أرحمه»^(٢).

وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «أهلُ ذكري أهلُ مُجَالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب؛ لأطهرهم من المعاييب»^(٣).

رابعاً: عبودية الله تعالى بأسمائه الحسنی ومنها: الأول والآخر والظاهر والباطن والمحيط.

الفقه في كل ما ورد من الأسماء الحسنی والصفات العلى مؤثراً حقاً ونافع جداً للمؤمن الحريص على تحصيل عبودية الافتقار واستشعارها والعيش بها

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (١ / ١٧٩ - ١٨٠).

(٢) قوت القلوب (٢ / ٣٩).

(٣) تفسير المنار (٨ / ٧٨).

ولها ومعها، والعالم بها هو العالم بالله حقًا، وهو أحق الناس بالشرف والأجر والمحمدة والثواب، فالأسماء الحسنى ومعانيها كالنفس للعبد المؤمن تريجه وتعينه، وهذا أنفس علم وأزكاه، فشرف العلم وأهميته بشرف متعلقه، فلا أشرف وأعلى وأعظم من علم يهدي صاحبه للتعرف على ربه تعالى من أوسع الأبواب وأجلها وأجملها وهو علم أسماء الله وصفاته تبارك وتعالى.

فالعلم النافع للقلب كالغيث العميم للأرض الطيبة، فلا يستغني المؤمن عن تعلم ما يرفع جهله حتى يوارى ثرى رسمه «قال تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته رُوحًا، والروح إذا عدم فقد فُقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح الحياة، والنور النور^(١).

وكذلك يضرب الله الأمثال للوحى الذي أنزله حياةً للقلوب ونورًا لها بالماء الذى ينزله من السماء حياة للأرض وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا

(١) والنور هو العلم والبصيرة.

كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فشبه العلم بالماء المنزل من السماء، لأن به حياة القلوب، كما أن بالماء تكون حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية، لأنها محل العلم كما أن الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً وواد يسع ماءً قليلاً.

وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاء، أي يُرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، فإذا تراوى فيها الحق ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.

وقال: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ [الرعد: ١٧] فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأول للحياة والثاني للضياء.

ونظير هذين المثالين المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] إلى قوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] إلى آخر الآية، وأما الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حي،

وإن كانت حياته حياة بهيمية فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها سبب الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه^(١).

واعلم أنه متى صح الذهن وسلمت الفطرة واهتدى القلب والعقل بنور الوحي فإنه لا شك سيفتح له من العلوم والمعارف ما لم يكن يتصورها ويعرفها، فهو في كل يوم بل ساعة يضيف لعلومه علوماً ولإيمانه يقيناً ولإسلامه تصديقاً حتى يكون من الذين نعتهم ربهم بقوله الأجل مادحاً مشيداً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] فالعلم يقرب الغيب للشهادة حتى كأنه رأي عين، ويرسخ اليقين في القلب حتى كأنه ما خلق لقبول سواه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كيف يُطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟!»

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ٩٤-٩٦) وانظر: (١٨ / ٣١٠) ولأمثلة أخرى: جامع المسائل لابن تيمية (٦ / ٨٠ - ٨١).

ولا ريب أن المؤمنين يعرفون ربهم في الدنيا، ويتفاوتون في درجات العرفان»^(١).

ومن أمثلة تحصيل ثمرة الافتقار بالفقه في الأسماء والصفات مشاهدة معاني أسماء الله تعالى التي في سورة الحديد ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ويجمعها اسم المحيط أي: محيط بكل زمان ومكان. وهذه الأسماء إشارة إلى غيرها ومثال لها، وإلا فلكل اسم وصفة أثرهما المباشر على حياة القلب وسكينة وأنسه وافتقاره لربه وغناه به.

«فعلى قدر افتقار العبد لمولاه وإحساسه بحاجته واضطراره لسيده ومالكة يكون تحقيق العبودية، فإذا انضاف لذلك زيادة علمه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی ودعاه بها وتضرع إليه بذكرها فإن التحقيق يكون أتم وأكمل، فالله تعالى قد تعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته وأمرهم أن يدعوه ويتعبدوا إليه بها فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه سبحانه المتعلقة بإحاطته بالعبد قدرة وعلمًا وربوبيةً وزمانًا ومكانًا الأسماء الأربعة التي صدر بها أوائل سورة الحديد بقوله الكريم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وقد فسرها رسول الهدى صلوات الله

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ٣٣).

عليه وسلامه وبركاته^(١) «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(٢).

فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة.

وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب

(١) ولا يجوز تفسيرها بغير ذلك كما فعل المتكلمون المتهوكون!

(٢) روى مسلم (٢٧١٣) بسنده عن سُهَيْل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام: أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربَّنَا ورب كل شيء، فالحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخريّة، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلقٌ بعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به.

وكما نظر العارف إليه بسبق الأوليّة حيث كان قبل الأسباب كلها، فكذلك نظره إليه ببقاء الآخريّة حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين، وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه؛ فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، فكما كان واحداً في إيجادك؛ فاجعله واحداً في تأهلك إليه لتصح عبوديتك. وكما ابتدأ وجودك وخلقتك منه؛ فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتأهلك إليه، لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر.

وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه

الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر، فكما فسرہ النبي ﷺ بقوله: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١) فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أمماً^(٢) يقصده، ورباً يعبده، وإلها يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربه^(٣) فإنه ضائع مشئت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده. وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبّد؛ طلب قلبه إلها يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلى له ويسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح؛ جال قلبه في الوجود جميعه فوق في الاتحاد ولا بد، وتعلق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات فاتخذة إلهه من دون إله الحق، وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تأله وتعبّد لمخلوق مثله، ولخيال نحته بفكره،

(١) صحيح مسلم (٢٧١٣).

(٢) أي جهة، يَمَّم وجهه لكذا أي توجّه بوجهه إلى جهته.

(٣) لما ضلّ المتكلمون فقالوا: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه... إلخ، قالت الحلولية والاتحادية: إذن فهو حال في العالم أو هو ذات العالم! ﴿ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

واتخذها إلهًا من دون الله سبحانه. وإله الرسل وراء ذلك كله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ سَيَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٣ - ٤]

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٤ - ٩].

فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقرُّ به.

والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصَمَدًا يَصُمَدُ إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر؛ استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبد به باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكَلِّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتحفو العبارة عنه، فإنه يستلزم

معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصه من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن، وصحَّ له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلّت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبّه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوّ الأفهام عنه، وعزّة تخلّص الحقّ من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج^(١)، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحقّ، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقانا يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ وتفرّق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(٢).

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم

(١) ما في الذهن: أي الأفكار داخل الذهن، أما الخارج فمرادهم ما كان في الواقع أي خارج الذهن، فالفكرة في الذهن، وهذه الأحرف التي تقرأها الآن هي خارج الذهن حتى أنك تستطيع الإحساس بها، فهي موجودة وجوداً حقيقياً لا ذهنياً.

(٢) وقد أطال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الردود على أولئك، وأزال اللبس عنهم وكشف شبههم في عدة رسائل وكتب، كالصواعق المرسلّة، واجتماع الجيوش الإسلامية، والنونية، وغيرها، كما كان لشيخه كتب محررة في هذا الباب كبيان تلبس الجهمية، والعقل والنقل، وغيرها.

وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٥] وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قربه من

(١) ذكر ابن بطة الإبانة الكبرى (٧/ ٣٠٨) عن ابن عباس قال: «السموات السبع، والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم» وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٤٠/٢٠). قال شيخ الإسلام عنه: «هذه الآثار معروفة في كتب الحديث» الفتاوى (٥٦١/٦).

داعيه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيداناً بقربه تعالى من المحسنين^(١)، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢) و«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل»^(٣) فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم»^(٤)، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عُتُق راحلته»^(٥) فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأني حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خففت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب.

(١) وهذا معنًى شريف نفيس.

(٢) مسلم (٤٨٢).

(٣) الترمذي (٣٥٧٩) والنسائي (٥٧٢) والحاكم (١١٦٢). وصححه ابن القيم في المدارج (٦١/٢).

(٤) أي ارفقوا بأنفسكم.

(٥) البخاري (٢٩٩٢).

وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحبّ أعظم؛ كان القرب أكثر. وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها^(١) عن غيره، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة

(١) قال شيخ الإسلام: «معاني الفناء الموجود في كلام المشايخ والصوفية ثلاثة أقسام: قسم كامل للسابقين، وقسم ناقص لأصحاب اليمين، وقسم ثالث للظالمين الفاسقين والكافرين.

فالأول: الفناء عن عبادة ما سوى الله، والاستعانة به، بحيث لا يعبد الا الله، ولا يستعين الا بالله، وهذا هو دين الاسلام.

والثاني: الفناء عن شهود ما سوى الله، بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده، وهذا لمن لم يقدر على الجمع بين شهود الحقائق وعبادة الخالق، فهم متوجهون إلى معبودهم ومقصودهم ومحبوبهم، وليس لهم قوة مع ذلك على شهود سائر ما يقوم به من الكائنات، وما يستحقه من الأسماء والصفات. فهؤلاء اذا لم يتركوا واجباً لم يضرهم، وإن تركوا مستحباً مشغولين عنه بما هو أفضل منه لم ينقلوا عن مقامهم، وإن اشتغلوا عما تركوه من المستحب بما ليس مثله فانتقلهم إلى ذلك الأفضل أفضل إذا أمكن، وإلا ففعل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره، وإن تركوا واجباً أو فعلوا محرماً مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك.

القسم الثالث: هو فناء الكافرين، وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق، أو وجود نفسه عين وجوده، كما بيناه من مذاهب أهل الحلول والاتحاد، فإن هذا كفر، وصاحبه كافر بعد قيام الحجة عليه، وإن كان جاهلاً أو متأولاً لم تقم عليه الحجة» الاستقامة (٢/ ١٤٢ - ١٤٣) مختصراً.

صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجّه، وسببه ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه فيشطّح.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفوة الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهراً ليس فوقه شيء. ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا؛ فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبته غاية القرب، وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المحب كثيراً ما يستولي محبوبه على قلبه وذاكره، ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه، القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه، ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجى لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومشواك في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار. والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة

الخارجية، وإن كان مطابقاً لها، لكن المثال العلمي محلّه القلب، والحقيقة الخارجية محلّها الخارج، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: الأول والآخر والظاهر والباطن، هي أركان العلم والمعرفة. فحقيق بالعبء أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاءه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية، ومكانية. فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته. فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قَدَمُهُ، والآخر دَوَامُهُ وبقاؤه، والظاهر علوّه وعظمته، والباطن قربه ودنوه.

فَسَبَقَ كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماءً سماءً، ولا أرضاً أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطنُ له ظاهر، والغيبُ عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء له رتبتان:

المرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء. فالخلق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحجاب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره. فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سمّاك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك

الغيب عِمالات^(١) المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجه قلبك إليه سبحانه دون ما سواه؟^(٢). فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقَدَمِ الصدق في القَدَمِ، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها^(٣)، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسمُ بهمتك عن ملاحظة الأغيار^(٤)، ولا تركزن إلى الرسوم والآثار^(٥)، ولا تقنع بالخشيس الدون. وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية، التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله سبحانه قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته.

ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

(١) العمالة: أجرة العامل، والإقطاع والولاية والإمارة. والمقصود الجنة، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه إنه جواد كريم.

(٢) فأعظم النعم هي أن يوفقك الله للإسلام مع أن في الأرض أكثر من (٤٠٠٠) ديانة، فله الحمد والمنة.

(٣) قيل لأعرابي: أتحسن أن تدعو؟ قال: نعم. قيل: فادع، فقال: «اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك».

(٤) أي لا تلتفت بقلبك إلى الناس رغباً أو رهباً.

(٥) أي لا تقف عند المظاهر بل حقق صحة المخابر وهي القلب والنية.

ثم اسمُ بَرِّكَ^(١) إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهياً لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة. فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفاً بها، مستلماً لأركانها، واقفاً بملتزمها. فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يُفيض عليك من ملابس نِعَمِهِ وخِلَعِ أَفْضَالِهِ! «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٢) سبحانه وبحمده.

ثم تعبد له باسمه الآخر، بأن تجعله وحده غايتك، التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه. فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر؛ فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى ينتهي إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر.

وأما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقُرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدؤ السرائر له، وأنه لا شيء بينه وبينها. فعامله

(١) إي بإخلاص إرادتك وقصدك، فالسريرة علمها عند علام الغيوب ﴿وَعَلَّمُوا نُوُوسُوهٖ نَفْسَهُ﴾ [ق: ١٦] ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(٢) مسلم (٥٩٤).

بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله، وجماع العبودية له. فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنتته، فلا يرى لغيره شيئاً إلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه، أو يتحلّى به، أو يراه ليوم فاقتته، أو يعتمد عليه في مهمة من مهماته، فكل ذلك من قصور نظره، وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع، كما هو شأن الطبيعة والهوى، وموجب الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول.

فمن جلى الله سبحانه صدأ بصيرته، وكمل فطرته، وأوقفه على مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها؛ أصبح كمفلس حقاً من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه. يقول: أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي: من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب مني يوجب ذلك، فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبق منتته ودوامه، فيثبته مولاه على هذه الشهادة العالية ثوابين:

أحدهما: الخلاص من رؤية الأعمال، حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها، فيستغرق بمطالعة الفضل غائباً عنها، ذاهباً عنها، فانياً عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال، أي عن شهود نفسه فيها متكثرة

بها، فإن الحال^(١) محلّه الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء، فتتمدّح به وتدّل به^(٢) وتزهو وتستطيل وتقرر إنيّتها^(٣) لأنها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضى الجهل والظلم.

فإذا وصل إلى القلب نور صفة المنّة، وشهد معنى اسمه المنان، وتجلّى

(١) يقصدون بالحال صفة وإحساس روحاني يحس به المؤمن نتيجة عبادة جسديّة أحياناً أو قولية أو قلبية، أو بلا سبب مباشر، وأحياناً يعبرّون بها عن الكرامة. ويفرّقون بين الحال والمقام، فالحال هبة ربانية محضة من غير اجتلاب ولا تعمد، والمقام مكتسب بإذن الله بسبب عبادة قلبية بحضور قلب وتذكّر لله تعالى، فيحتاج لجُهدٍ لتحصيله، وبين الحال والمقام يتنقل العبد في سيره لربه. ويقولون كذلك: المقام راسخ والحال عارض. وكما قالوا: الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأما الحال فمن عين الجود. ولهم كلام كثير وبسط طويل في ذلك نتيجة استطرادهم في حكاية أذواقهم، والذوق لا يحكمه ميزان، فلهذا كثر الاختلاف، ولو اكتفوا بالوحي ووقفوا على حدوده لأغناهم.

(٢) وبين التدلل والتذلل فرق كبير، فالتدلل رقة وانكسار وعبودية، أما التدلل فانبساط وتوسع وتحكم وثقة بعدم المخالفة من الآخر، وأنشدوا:

بين التدلّل والتذلّل نقطة في رفعها تتحرّير الأفهام

وفي المخصص لابن سيّده نقول عن أئمة اللغة في معنى مادة الإدلال (٣/ ٣٧٦) فقال: «صاحب العين: أدلّلت عليه وتدلّلت، يعني انبسطت وتحكّمت. أبو زيد: عوّلت عليه وأعوّلت، أدلّلت. الأصمعي: قربت بكذا، أدلّلت».

(٣) وهو ما يعبرّ عنه عند النفسانيين المعاصرين بالأنا.

سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول؛ ذَهَلَ القلبُ والنفس به، وصار العبد فقيرًا إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول، فصار مقطوعًا عن شهود أمرٍ أو حال ينسبه إلى نفسه.

فإذا أكمل العبد مراتب الافتقار إلى الحي القيوم، وشهد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقرًا تامًّا إليه من جهة كونه ربًّا، ومن جهة كونه إلهًا معبودًا، لا غنى له عنه، كما لا وجود له بغيره، فقد وصل إلى الفقر الأعلى، الذي دارت عليه رحي القوم، بل هو قطب تلك الرحي، وإنما يصحَّ له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية. فهناك تتم له معرفة هذا الفقر.

فإن أعطى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية؛ اتصف بهذا الفقر حالًا، فما أغناه حينئذ من فقير، وما أعزّه من ذليل، وما أقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد. فهو الغنيُّ بلا مال، القويُّ بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفيُّ بلا عتاد. قد قرّت عينه بالله، فافتقر إليه الأغنياء والملوك^(١).

(١) وقد نبه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بعد ذكر ما سبق شرطًا مهمًّا غفل عنه بعض المريدين للخير فقال: «ولا يتم له ذلك إلا بالبراءة من فرث الجبر ودمه، فإنه إن طرق باب الجبر انحَلَّ عنه نظام العبودية، وخلع ربة الإسلام من عنقه، وشهد أفعاله كلها طاعات للحكم القدري الكوني. وإذا قيل له: اتق الله، ولا تعصه، يقول: إن كنت عاصيًا لأمره؛ فأنا مطيع لحُكْمِهِ وإرادته. فهذا منسلخ من الشرائع، بريء من دعوة الرسل، شقيق لعدو الله إبليس.

فمتى اجتمع له هذا الشهود الصحيح إلى شهود الاضطراب في حركاته وسكناته، والفاقة التامة إلى مقلب القلوب، ومن بيده أزمة الاختيار، وأنه لا هادي لمن أضله ولا مضل لمن هداه، وأنه هو الذي يحرك القلوب بالإرادات، والجوارح بالأعمال، وأنها مدبرة تحت تسخير، مذلة تحت قهره، وأنها أعجز وأضعف من أن تتحرك بدون مشيئته، وأن مشيئته نافذة فيها كما هي نافذة في حركات الأفلاك والمياه والأشجار، وأنه حرك كلا منها بسبب اقتضى تحريكه، وهو خالق السبب المقتضي، وخالق السبب خالق للمسبب، فخالق الإرادة الجازمة التي هي سبب الحركة والفعل الاختياري خالق لهما، وحدوث الإرادة بلا خالق محدث محال، وحدوثها بالعبد بلا إرادة منه محال، وإن كان بإرادته بإرادته للإرادة كذلك، ويستحيل بها التسلسل، فلا بد من فاعل أوجد تلك الإرادة التي هي سبب الفعل.

فهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة إلى مالك الإرادات ورب القلوب ومصرفها كيف شاء، فما شاء أن يزيغ منها أزاغ، وما شاء أن يقيم منها أقامه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

بل وظيفة الفقير في هذا الموضوع وفي هذه الضرورة مشاهدة الأمر والشرع، ورؤية قيامه بالأفعال وصدورها منه كسباً واختياراً، وتعلق الأمر والنهي بها طلباً وترغاً، وترتب الذم والمدح عليها شرعاً وعقلاً، وتعلق الثواب والعقاب بها آجلاً وعاجلاً. الطريق (١/ ٥٤ - ٥٥).

فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع، ومن خرج عنه وانحرف إلى أحد الطرفين؛ زاغ قلبه عن الهدى، وعطلَّ مُلك الملك الحق وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه.

وحكم هذا الفقير المضطر إلى خالقه في كل طرفة عين وكل نفس؛ أنه إن حُرِّك بطاعة أو نعمة؛ شكرها، وقال: هذا من فضل الله ومَنِّه وجوده، فله الحمد، وإن حُرِّك بمبادئ معصيته؛ صرخ ولجأ واستغاث وقال: «أعوذ بك منك»^(١)، «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٢)، «يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك»^(٣).

فإن تم تحريكه بالمعصية؛ التجأ التجأ أسير قد أسره عدوه، وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره إلا بأن يفكه سيده من الأسر، ففكاه في يد سيده ليس في يده منه شيء البتة، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فهو في أسر العدو، ناظرٌ إلى سيده وهو قادر على تخليصه، قد اشتدت ضرورته إليه، وصار اعتماده كله عليه. قال سهل: «إنما يكون الالتجاء على معرفة الابتلاء» يعني على قدر الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي.

ومن عرف قوله ﷺ: «وأعوذ بك منك»^(٤) وقام بهذه المعرفة شهوداً

(١) مسلم (٤٨٦).

(٢) أحمد (١٧٦٣٠) والترمذي (٣٥٢٢) وصححه الألباني.

(٣) مسلم (٢٦٥٤).

(٤) مسلم (٤٨٦).

وذوقاً، وأعطائها حقّها من العبودية؛ فهو الفقير حقّاً. ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن فهم سرّ هذا فهم سرّ الفقر المحمدي.

فهو سبحانه الذي ينجي من قضاائه بقضائه، وهو الذي يعيد بنفسه من نفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه. فالخلق كله له، والأمر كله له، والحكم كله له، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئته، وما لم يشأ لم يمكن أن يجلبه إلا مشيئته. فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو. ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحّة الاضطرار، وكمال الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله والاستغناء بها، والخروج عن رتبة العبودية إلى دعوى ما ليس له. وكيف يدّعي مع الله حالاً أو ملكة أو مقاماً من قلبه؛ وإرادته وحركاته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه، لا يملك هو منها شيئاً، وإنما هي بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء.

فالإيمان بهذا والتحقق به نظام التوحيد، ومتى انحلّ من القلب انحلّ نظام التوحيد. فسبحان من لا يُوصل إليه إلا به، ولا يطاع إلا بمشيئته، ولا ينال ما عنده من الكرامة إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوقيفه ومعوته. فعاد الأمر كلّهُ إليه، كما ابتدأ الأمر كله منه، فهو الأول والآخر. ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

ومن وصل إلى هذا الحال وقع في يد التجريد، وأشرف على مقام التوحيد الخاص. فإن التوحيد نوعان: عامٌ وخاص، كما أن الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القُرب كذلك خاصة وعامة، فالخاصة ما بذل فيها العامل نصحه وقصده، بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامة ما لم يكن كذلك، فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم باطنًا وظاهرًا أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل»^(١).

«فلله العظيم أعظمُ حمدٍ وأتمُّه وأكملُّه على ما مَنَّ به من معرفته وتوحيده والإقرار بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وإقرار قلوبنا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة، ربُّ العالمين، قيومُ السموات والأرضين، إلهُ الأولين والآخرين. لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، مُنزَّها عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال.

فهو الحي القيوم الذي لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم، مالكُ السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكل شيء الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم ديب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها المَلَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب.

(١) طريق الهجرتين (١/٣٥ - ٥٩) باختصار وتصرف.

البصيرُ الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى ديبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع.

السميعُ الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا تُبرمه كثرة سؤال السائلين، قالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وإني ليخفي علي بعض كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»^(١).

القديرُ الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمناً والكافر كافراً، والبرَّ برّاً، والفاجرَ فاجراً. وهو الذي جعل إبراهيم وآله أئمةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه أئمةً يدعون إلى النار. ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء أن يُعلمه إياه. ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّه من لغوب. ولا يُعجزه أحدٌ من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، فإن فرّ منه فإنما يطوي المراحل في يديه، كما قيل:

(١) أحمد (٢٤١٩٥) والنسائي (١٦٨/٦) وابن ماجه (١٨٨). وصححه ابن حجر في تغليق التعليق (٣٣٩/٥) والأرنؤوط في تخريج المسند.

وكيف يفر المرء عنك بذنبه إذا كان يطوي في يديك المراحل
ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والظهير والشفيع
بدون إذنه إليه. ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والأرض، ولم
تسعه أرضه ولا سماواته، ولم تُحط به مخلوقاته، بل هو العالي على كل شيء،
الظاهر فوق كل شيء، وهو بكل شيء محيط.

ولا تنفذ كلماته ولا تبيد، ولو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مداد،
وأشجار الأرض أقلام، فكتب بذلك المداد وتلك الأقلام لنفذ المداد وفنيت
الأقلام ولم تنفذ كلماته، إذ هي غير مخلوقة، ويستحيل أن يفنى غير المخلوق
بالمخلوق^(١).

وهو سبحانه يحبُّ رسله وعباده المؤمنين ويحبونه، بل لا شيء أحبَّ إليهم
منه، ولا أشوق إليهم من لقائه، ولا أقرّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم
من قربه.

وأنه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابعة على
خلقه، وكل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل.

وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها. وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد
راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها.

(١) وهذا منحى لطيف متين.

وأنه سبحانه لم يكلف عباده إلا وسعهم، وهو دون طاقتهم^(١)، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم، فإنه ما يسعونه ويسهل عليهم، وتفضل قدرهم عنه، كما هو الواقع.

وأنه سبحانه لا يعاقب أحداً بغير فعله، ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه.

وأنه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور، يطاع فيشكر، ويعصى فيغفر. لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، ولا أحد أحب إليه المدح منه، ولا أحد أحب إليه العذر منه. ولا أحد أحب إليه الإحسان منه، فهو محسن^(٢) يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، جميل يحب الجمال، طيب يحب كل طيب، عليم يحب العلماء من عباده، كريم يحب الكرماء، قوي المؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، بر يحب الأبرار، عدل يحب

(١) لأن الوُسع من السعة وهي القدرة والراحة والقوة، بخلاف الضيق وهو نقص القدرة مع الشدة والتعب فهو يطيقه ولكن بمشقة، لذلك قال أرحم الراحمين: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهذا الوسع من الله الكريم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَمَّهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

(٢) يوصف الله سبحانه بالإحسان، أما تسميته بالمحسن ففيه خلاف قديم، ولم يثبت فيه نص من آية أو حديث، وعليهما المعول لا غير، فالأسماء توقيفية، ولا يُسمى الله تعالى إلا بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ. وعليه فالراجع أن المحسن ليس من أسماء الله تعالى، إنما هو من صفاته، وبالله التوفيق.

أهل العدل، حييٌ سِتِيرٌ^(١) يحب أهل الحياء والستر، غفورٌ عفو يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم، صادقٌ يحب الصادقين، رفيقٌ يحب الرفق، جوادٌ يحب الجود وأهله، رحيمٌ يحب الرحماء، وترٌ يحب الوتر.

ويحب أسماءه وصفاته، ويحب المتعبدين له بها، ويحب من يسأله ويدعوه بها، ويحب من يعرفها ويعقلها، ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ: «لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله^(٣)، من أجل ذلك أثنى على نفسه. ولا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما

(١) وقد صح حديث تسميته بالستير، كما عند أبي داود (٤٠١٤) وغيره وصححه الألباني: «إن الله عز وجل حييٌ سِتِيرٌ، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» أما السَّتَار فليس من أسمائه الحسنى.

(٢) البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وحده والثناء عليه وذكره من مَدَحِهِ تبارك وتعالى، وللعلم فالحمد والمدح متفقان في الاشتقاق الأوسط (وهو الاتفاق في الحروف دون الترتيب) ومن دلالات ذلك قرب المعنيين من بعضهما لوحدة الاشتقاق، ومن ذلك: جذب وجذب، أما الاشتقاق الأصغر فهو الاتفاق في الحروف والترتيب كنصر من النصر، أما الأكبر فهو - على القول به - الاتفاق في مخرج حروف الحلق أو الشفة مثل: نعق وثلم من النهيق والثلب. والله أعلم.

هذا وإن علم الاشتقاق من أشرف علوم العربية وأدقها وأنفعها، فمدار التصريف في معرفة الأصلي من الزائد عليه، حتى قالوا: لو حُذفت المصادر وارتفع الاشتقاق من كل كلام؛ لم توجد صفة لموصوف ولا فعل لفاعل. وانظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٦٥/١).

ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين».

وفي حديث آخر صحيح: «لا أحد أصبرُّ على أذى يسمعه من الله، يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيه»^(١).

ولمحيته لأسماؤه وصفاته أمر عباده بمُوجِبِها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبرِّ والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والثبوت. ولما كان سبحانه يحبُّ أسماؤه وصفاته كان أحبَّ الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبُّها، وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها. فإنما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافه بها ظلمٌ، إذ لا تليقُ به هذه الصفات ولا تحسُنُ منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروج من اتصف بها من رتبة العبودية، ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعديه طوره وحدّه. وهذا خلافُ ما تقدّم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة الإحسان والصبر والشكر، فإنها لا تُنافي العبودية، بل اتّصافُ العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصفُ بها من العبيد لم يتعدَّ طوره، ولم يخرجُ بها من دائرة العبودية^(٢).

والمقصود: أنه سبحانه لكمالِ أسماؤه وصفاته موصوفٌ بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص. له كلُّ ثناء حسن، ولا يصدرُ عنه إلا كل فعل جميل، ولا

(١) مسلم (٢٨٠٤).

(٢) وهذا ضابط حسن مضطرد.

يُسَمَّى إِلَّا بِأَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ، وَلَا يُثْنَى عَلَيْهِ إِلَّا بِأَكْمَلِ الثَّنَاءِ. وَهُوَ الْمَحْمُودُ الْمَحْبُوبُ الْمُعْظَمُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ عَلَى كُلِّ مَا قَدَّرَهُ وَخَلَقَهُ، وَعَلَى مَا كُلُّ أَمْرٍ بِهِ وَشَرَعَهُ.

وَمَنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَاسْتِقْرَاءِ آثَارِهَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ؛ رَأَى الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ مُنْتَظَمَيْنِ بِهَا أَكْمَلَ انْتِظَامٍ، وَرَأَى سَرِيانَ آثَارِهَا فِيهِمَا، وَعِلِمَ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَمَا لَا يَلِيقُ، فَاسْتَدَلَ بِأَسْمَائِهِ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ خِلَافَ مُوجِبِ حَمْدِهِ وَحُكْمَتِهِ. وَكَذَلِكَ يَعْلَمُ مَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ وَيُشْرَعَ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخِلَافِ مُوجِبِ حَمْدِهِ وَحُكْمَتِهِ.

فَإِذَا رَأَى فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ جَوْرًا وَظُلْمًا أَوْ سَفَهًا وَعَبَثًا وَمُفْسَدَةً، أَوْ مَا لَا يُوْجِبُ حَمْدًا وَثَنَاءً فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحْكَامِهِ وَلَا دِينِهِ، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لَا بِالظُّلْمِ، وَبِالْمَصْلَحَةِ لَا بِالْمُفْسَدَةِ، وَبِالْحُكْمَةِ لَا بِالْعَبَثِ وَالسَّفَهَةِ. وَإِنَّمَا بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْحَنِيفِيَةِ السَّمْحَةِ، لَا بِالْغُلْظَةِ وَالشَّدَةِ، وَبَعَثَهُ بِالرَّحْمَةِ لَا بِالْقَسْوَةِ^(١). فَإِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَرَسُولُهُ رَحِمَةٌ مَهْدَاةٌ إِلَى

(١) لَذَلِكَ فَقَدْ كَتَبَ الْفُقَهَاءُ فِي مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَبَنَوْا عَلَى ذَلِكَ أَحْكَامًا كَلِيَّةً وَتَفْصِيلِيَّةً، وَعَلَّقُوا كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِهِمْ وَعَلَّلُوهَا بِالْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ عِلْمٌ لَهُ فَحُولُهُ وَأَسَاطِينُهُ، فَلَا بَدَّ لِلْمَتَكَلِّمِ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَاسِعٍ يَحِيطُ بِغَالِبِ الْأَدَلَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ وَتَطْبِيقَاتِهَا، وَكَلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَتَفْصِيلَاتِهَا، كَذَلِكَ حَصَافَةٌ وَذَكَاءٌ لِيُنْزَلَ الْأَحْكَامُ عَلَى قَوَالِبِ الْمَقَاصِدِ، كَذَلِكَ نِيَّةٌ قَوِيَّةٌ وَإِخْلَاصٌ لِلَّهِ رَاسِخٌ، حَتَّى لَا يَعْثُ

العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة، وأمة الأمة المرحومة. وذلك كله موجب أسمائه الحسنی وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، فلا يُخْبَر عنه إلا بحمده، ولا يُثْنَى عليه إلا بأحسن الثناء، كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماء»^(١).

خامساً: التعبد بمقتضى اسم الله (الحميد).

فمن طرق تحصيل الافتقار المحبوب إلى الله الممدوح من لدنه مشاهدة الأسماء والصفات وبخاصة اسم الحميد.

«وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفردّه بالإلهية وعلى حياته. وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاته أحد من خلقه لحاجته إليه. وحمد نفسه على علوّه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة. وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي. ونبّه على هذا كله في كتابه، وحمد نفسه عليه؛ فنوّع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة، وفرقها أخرى، ليتعرّف إلى عباده، ويعرّفهم كيف يمدونه وكيف يشنون عليه، ولتحبّب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

بالشريعة تمهيداً لأغراض الرؤساء والساسة، أو إرضاءً لنزوات العامة والجمهور، والله المستعان.

(١) طريق الهجرتين (١/٢٦٨ - ٢٨٨) مختصراً.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ② الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكِ يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿[الفاتحة: ٢ - ٤] وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى:
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ④﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا
 مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿[الكهف:
 ١، ٢] وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
 الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرُبَعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ
 وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] وقال:
 ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ⑤﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿[الروم: ١٧، ١٨].

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه
 وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانتة: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمد أهل الجنة له، وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل
 النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال عن أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهُ ﴿[الأعراف: ٤٣]﴾ وَدَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[يونس: ١٠]﴾ وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤ - ٧٥] وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذّبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفترين عليه. وهذا اعترافٌ منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عوقبوا بأفعالهم، وبما كانوا قادرين على فعله وتركه.

وبالجملة: فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها. وجميع ما يُوصف به ويُذكر به ويُخبر عنه به فهو محامدٌ له وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ. فسبحانه وبحمده لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني به عليه خلقه. فله الحمد أولاً وآخرًا حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه، وعزّ جلاله، ورفيع مجده، وعلو جدّه.

فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده وهو حمد الصفات والأسماء.

والنوع الثاني: حمدُ النعم والآلاء^(١)، وهذا مشهودٌ للخليقة: برّها وفاجرّها، مؤمنّها وكافرّها، من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديّه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال، ومن غير استحقاق، بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألفاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصّته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعتة عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام.

وحب إليهم الإيمان وزينة في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وسمّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمة مع غناه عنهم، وتبغّضهم إليه بالمعاصي مع فقرهم إليه.

(١) وقد كان من المناسب إيراد هذا الكلام المتين في كتاب الشكر، ولكن لشدة لصوقه بباب الافتقار أثبتّه هنا، وهذا من شواهد ارتباط أعمال القلوب ببعضها، فليس منها عمل إلا وله لصوق واندراج ولزوم وتضمّن لعمل آخر، بل أعمال. وهذا من فضل الله ورحمته على العباد، فيقصد العبد الدخول على ربه تعالى من باب فلا يلبث أنه قد حمل معه أزوادًا من أعمال آخر، وإذ أبوابها مفتّحة وسبلها مشرعة، فلله الحمد كما ينبغي له.

ومع هذا كله فاتخذ لهم دارًا، وأعدّ لهم فيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين، وملاًها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحبّرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم أرسل إليهم الرسل يدعوهم إليها، ثم يسّر لهم الأسباب التي توصلهم إليها، وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدًّا، بالإضافة إلى بقاء دار النعيم.

وَضَمِنَ لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرًا، وإن أساءوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنّوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات.

وذكرهم بآلائه، وتعرف إليهم بأسائهم، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحسانًا، لا حاجة منه إليهم. ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم، لا بخلاف منه عليهم. وخاطبهم بالطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال. وصرف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسّع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرفهم الأسباب التي تدينهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه.

ويخاطبهم بالطف الخطاب، ويسمّيهم بأحسن أسمائهم، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ﴿وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قُلْ لِّعِبَادِي﴾ [إبراهيم: ٣١].

[٣١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦].

فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيُدَّكُمْ بِضِرِّهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[الأنفال: ٢٤ - ٢٦]﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبٌ مِثْلُ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحج: ٧٣، ٧٤]﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿[الكهف: ٥٠]﴾.

فتحت هذا الخطاب: إني عاديُّ إبليس، وطرده من سمائي، وباعدته من قربي، إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بني توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم! فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب، وشدة لصوقه بالقلوب، والتباسه الأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللفظ والنصيحة البالغة.

وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل، وأفضل المنازل، وأجل العلوم والمعارف، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿[الزمر: ٧]﴾ وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ [المائدة: ٣] ^(١) وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق للمحامد كلها. فإنفاقكم ليس له فيه حاجة، ولا يوجب له حمداً، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم، وعائدتكم عليكم.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه وجذبه للقلوب والأرواح ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى

(١) وتأمل تعليق الخبر البحر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على هذه الآية، وما فيه من طمأنينة وسعادة وأمن واكتفاء، فقد قال: «أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً، وقد رضي الله فلا يسخطه أبداً». تفسير الطبري (٥١٨ / ٩) (١١٠٨٠).

الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة، واللجأ إلى الله أن يحيي قلبه ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة. فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليدم سرح الفكر في رياض القرآن، وليتأمل ما عدّد الله فيه من نعمة، وتعرّف بها إلى عبادته من أول القرآن إلى آخره، حتى خلق النار، وابتلاءهم بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها^(١). فله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره. وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها، ولا قوى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة.

ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناءً تقصّر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها. ومع ذلك فله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الشناء لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر. ففي دعاء أعرف الخلق بربه، وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري،

(١) أي بإعانة الله لهم وتوفيقهم لذلك.

وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي»^(١).

وفي الصحيح عنه في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه، قال: «يفتح عليّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن»^(٢) وكان يقول في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وبغفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣).

فلا يُحصى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه البتة. وله أسماءٌ وأوصافٌ وحمدٌ وثناءٌ لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل. ونسبةٌ ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر^(٤).

والله سبحانه مع كونه خالق كل شيء، فهو موصوف بالرضا والغضب، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، والرحمة والانتقام. فاقترض حكمته سبحانه أن خلق داراً لطالبي رضاه، العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين

(١) أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢). وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٧٤٩/٢) والصنعاني في الإنصاف (١٠٢).

(٢) البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٣) مسلم (٤٨٦).

(٤) أخرج البخاري في صحيحه (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معرض ذكره لقصة موسى عليه السلام والخضر قال: «..فجاء عصفور، فوقع على حرفها - أي السفينة - فنقر، أو فنقر في الماء، فقال الخضر لموسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر أو نقص هذا العصفور من البحر».

بمحبته، وهي الجنة. وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيد، وجعل الخير بحذايره فيها، وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق داراً أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، وهي جهنم. وأودعها كل شيء مكروه، وشحنها من كل مؤذ ومؤلم، وجعل الشرّ بحذايره فيها، وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار.

وخلق داراً ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثم أخرج إليها من آثار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابها، وما يُستدل به عليهما، حتى كأنهما رأي عين، ليصير للإيمان بالدارين - وإن كان غيباً - وجه شهادة، تستأنس به النفوس، وتستدل به. فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة، وسائر ملاذ النفوس ومشتياتها، ما هو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال^(١). فإذا رآه المؤمنون ذكرهم

(١) ثمّ مطلبان:

الأول: أن حقائق الآخرة ليست كحقائق الدنيا وإن اتحدت مسمياتها، قال ابن عباس

بها هناك من الحبرة والسرور والعيش الرخي، كما قيل:

فإذا رآك المسلمون تيقنوا حور الجنان لدى النعيم الخالد

فشمروا إليه، وقالوا: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»^(١) وأحدث لهم رؤيته عزمات وهمماً وجداً وتشميراً، لأن النعيم يذكر بالنعيم، والشيء يذكر بجنسه، فإذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: «موعدك الجنة وإنما هي عشية أو ضحاها».

فوجود تلك المشتبهات والملذذات في هذه الدار رحمة من الله، يسوق بها عباده المؤمنين إلى تلك الدار التي هي أكمل منها، وزاد لهم من هذه الدار إليها، فهي زاد وعبرة ودليل وأثر من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار. فالمؤمن يهتز برؤيتها إلى ما أمامه، ويثير ساكن عزماته إلى تلك، فنفسه ذواق تواق، إذا ذاق شيئاً منها تاق إلى ما هو أكمل منه حتى تتوق إلى النعيم

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأساء» أخرجه الطبراني في التفسير (٥٣٤) وصححه ابن تيمية في فتاواه (١١٥/٥) والسيوطي في الجامع الصغير (٧٦١٤) والألباني في الصحيحة (٢١٨٨).

الثاني: أن في الجنة نعيماً ليس له جنس في الدنيا ولا شبه ولا مثل ولا اسم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال في الحديث الإلهي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

(١) من قول النبي ﷺ في غزوة الخندق، البخاري (٢٩٦١).

المقيم في جوار الرب الكريم^(١).

وأخرج سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات، ما يُستدلُّ بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، مع أن ذلك من آثار النَّفْسَيْنِ الشتاء والصيف^(٢)، الذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما، فاقضى ذاك النَّفْسَانِ آثارًا ظهرت في هذه الدار، كانت دليلًا عليها وعبرة. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكّر بنار الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء، وهم المسافرون. يقال: أقوى الرجل، إذا نزل بالقي، والقواء هي الأرض الخالية. وخصّ المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهاً لعباده. والله أعلم بمراده من كلامه. على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

- (١) قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «إن لي نفسًا تواقّة، ما نالت شيئًا إلا تاقّت لما هو أعلى منه، تاقّت نفسي للزواج بابنة عمي فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، ثم تاقّت للإمارة فوليتها، ثم تاقّت للخلافة فنلتها، والآن تاقّت للجنة فأرجو أن أكون من أهلها».
- (٢) أخرج البخاري في الصحيح (٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربّ أكل بعضي بعضًا. فأذن لها بنَفْسَيْنِ، نَفْسٌ في الشتاء، ونَفْسٌ في الصيف. فأشدّ ما تجدون من الحر، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير».

والمقصود: أنه سبحانه أشهدهم في هذه ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر. وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياتاً يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحساناً إليهم، وتذكرة وتنبهاً.

ولما كانت هذه الدار ممزوجةً خيرها بشرّها، وأذاها براحتها، ونعيمها بعذابها؛ اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن خلّص خيرها من شرّها، وخصّه بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة ودار الشرور المحضة. فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط، وخلط فيها بين الفريقين، وابتلى بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض فتنة. حكمةً بالغّةً بهرت العقول، وعزةً قاهرة. فقام بهذا الاختلاط سوقُ العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه. بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر، وسلّط بعضه على بعض، ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك^(١).

فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط؛ أعقبه بالتمييز والتخليص، فميّز بينهما بدارين ومحلّين، وجعل لكل دار ما يناسبها،

(١) وهي عبودية المجاهدة.

وأسكن فيها من يناسبها. وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداءه الكافرين لنقمته، والمخلطين للأمريين معاً. فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النعمة، وهؤلاء أهل النعمة والرحمة. وقسم آخر لا يستحقون ثواباً ولا عقاباً. ورتب على كل قسم من هذه الأقسام الخمسة حكمه اللائق به، وأظهر فيه حكمته الباهرة، ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنه يضع ثوابه موضعه، وعقابه موضعه، ويجمع بينهما في المحل المقتضي لذلك، ولا يظلم أحداً، ولا يبخسه شيئاً من حقه، ولا يعاقبه بغير جانيته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة إلى العبيد أنفسهم، من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج كمالهم الكامنة في نفوسهم من القوة إلى الفعل^(١)، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسر كل شيء بمقابله، ومصادمته بضده؛ لتظهر عليه آثار القهر، وسماة الضعف والعجز، ويتيقن العبد أن القهار لا يكون إلا واحداً، وأنه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوحدة متلازمان.

فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضدٌّ ومناوٍ ومشاركٌ. فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تُصادمها، وتكسر سورتها^(٢) وتذهب بها. وخلق الماء وسلط عليه الرياح

(١) أي من القوة الكامنة فيهم للفعل المترتب عليه الثواب.

(٢) أي حدتها وشدّة هبوبها، والسورة في أصل اللغة: الغضب.

تَصَرَّفَهُ وَتَكْسِرُهُ. وَخَلَقَ النَّارَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا الْمَاءَ يَكْسِرُهَا وَيُطْفِئُهَا. وَخَلَقَ الْحَدِيدَ وَسَلَّطَ عَلَيْهِ النَّارَ تَذِيهِهِ وَتَكْسِرُ قُوَّتِهِ. وَخَلَقَ الْحِجَارَةَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا الْحَدِيدَ يَكْسِرُهَا وَيُفْتِتُهَا. وَخَلَقَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ. وَخَلَقَ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ يَشْرُدُونَهُمْ كُلَّ مُشْرَدٍ، وَيَطْرُدُونَهُمْ كُلَّ مُطْرَدٍ. وَخَلَقَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ وَالشِّتَاءَ وَالصَّيْفَ، وَسَلَّطَ كِلَا مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ يَذْهَبُهُ وَيَقْهَرُهُ. وَخَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَقَهَرَ كِلَا مِنْهُمَا بِالْآخَرِ. وَكَذَلِكَ الْحَيَوَانَ عَلَى اخْتِلَافِ ضَرْوَيْهِ مِنْ حَيَوَانَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، لِكُلِّ مِنْهُ مَضَادٌّ وَمُغَالِبٌ.

فَاسْتَبَانَ لِلْعُقُولِ وَالْفُطَرِ أَنَّ الْقَاهِرَ الْغَالِبَ لَذَلِكَ كُلُّهُ وَاحِدٌ، وَأَنَّ مِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ إِيجَادُ الْعَالَمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَرَبْطُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَإِحْوَاْجُ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ، وَقَهْرُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَابْتِلَاءُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَامْتِحَانُ خَيْرِهِ بِشَرِّهِ، وَجَعْلُ شَرِّهِ لْخَيْرِهِ الْفِدَاءَ. وَلِهَذَا يُدْفَعُ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرٌ فَيَقَالُ لَهُ: «هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ»^(١) وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه الابتلاء

(١) ابن ماجه (٤٢٩٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند ضعيف، ويغني عنه ما خرَّجه مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي بردة عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فَكَأُكُ مِنَ النَّارِ» ومن طريق قتادة أن عوناً وسعيد بن أبي بردة حدثاه أنهما شهدا أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» قال: فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: فحلف له، قال: فلم يحدثني سعيد أنه أستحلفه ولم ينكر على عون قوله.

والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله. وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضًا. فليعطِ اللبيب هذا الموضوع حقَّه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير.

وهذا القرآن المجيد عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه، والإنباء عن عظمته وعزَّته وحكمته وأنواع صنعته، والتقدم إلى عبادته بأمره ونهيه على السنة رسله، وتصديقهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله، وتبيين مراده من ذلك كله. وكان من تمام ذلك الإخبار عن الكافرين والمكذبين، وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسالات ربهم، ووصف كفرهم وعنادهم، وكيف كذبوا على الله، وكذبوا رسله، وردّوا أمره ومصالحه. فكان في اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان وضوح شواهد الحق، وقيام أدلته وتنوعها.

وكان موقع هذا من خلقه موقع تسييحه تعالى وتنزيهه من الثناء عليه، وأن أسماءه الحسنی وصفاته العليا هي موضع الحمد، ومن تمام حمده تسييحه وتنزيهه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به. وكان في تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه. ولهذا كان تسييحه تعالى من تمام حمده، وحمده من تمام تسييحه، ولهذا كان التسييح والتحميد قرينين. وكان ما نسبته إليه أعداؤه والمعطلون لصفات كماله - من علوه على

خلقه وإنزاله كلامه الذي تكلم به على رسله وغير ذلك. موجِباً لتنزيه رسله له وتسبيحهم عند ذلك مما نَزَّه عنه نفسه وسَبَّحَ به نفسه^(١). وكان في ذلك ظهورُ حمده لخلقه، بل وتنوُّع أسبابه، وكثرة شواهد، وسعة طرق الثناء عليه به، وتقدير عظمتِه، ومعرفته في قلوب عباده. فلولا معرفة الأسباب التي يسبِّح وينزِّه ويتعالى عنها، وخالق من يضيفها إليه ويصفه بها، لما قامت حقيقة التسبيح، ولا ظهر لقلوب أهل الإيمان عن أي شيء يسبحونه، وعمّا ذا ينزهونه. فلما رأوا في خلقه من قد نسبه إلى ما لا يليق به، وجحد من كماله ما هو أولى به، سَبَّحوه حينئذ تسبيح مجلٍّ له، معظَّمٍ له، منزَّه له عن أمر نسبه إليه أعداؤه والمعتطلون لصفاته.

والمقصود: أن خلق الأسباب المضادة للحق، وإظهارها في مقابلة الحق؛ من أبين دلالاته وشواهد، فكان في خلقها من الحكمة ما لو فاتت لفاتت تلك الحكمة، وهي أحب إلى الله من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب، والله أعلم^(٢).

سادساً: تدبر القرآن العظيم.

رحم الله هذه الأمة فأنزل لها كلامه يتلى في صدورهم وعلى ألسنها هدى ونوراً، وأمرهم أن يتلوه ويتدبروه ويقيموا حدوده، فالخير والهدى بحذافيره

(١) التسبيح يتضمَّن التعظيم والإجلال والتنزيه، فالتعظيم من معانيه الأولية وليس مجرد تنزيه.

(٢) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم (١/ ٢٢٩ - ٢٣٧) باختصار واقتصار.

في القرآن، ومن رام بركة عمره وخالص علمه ومتين فقهه وحياة قلبه فليعمر وقته بالقرآن. وعلى قدر أخذه بحظه من القرآن تلاوة وتدبراً وعملاً يكون حظ روحه وقلبه وزكاء نفسه ورفعته.

وتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه، مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره. وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأفطار، ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته. وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ﷺ ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن وجعله كالرقى والتعاويد التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجلّ فائدة الصلاة - وهي عماد الدين - بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع»^(١).

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٣).

سابعًا: من وسائل الافتقار: الاعتراف بظلم النفس.

الإنسان بطبيعة خلقه ظلوم جهول، فلا بد له من المكابدة والمكافحة لاستنقاذ نفسه من استلاب الطبع الظالم والغريزة الجهول. «والمحرمات في الشريعة ترجع إلى الظلم إما في حق الله تعالى، وإما في حق العبد، وإما في حقوق العباد. وكلما كان ظلمًا في حق العباد فهو ظلم العبد لنفسه ولا ينعكس، فجميع الذنوب تدخل في ظلم العبد نفسه.

وأول من اعترف بهذا أبو البشر لما تلقى من ربه الكلمات فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكان في هذه الكلمات اعترافه بذنبه، وطلبه ربه على وجه الافتقار المغفرة والرحمة. فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات. فهذا ظلم لنفسه، ليس فيه ظلم لغيره.

وقال موسى عليه السلام لما ذكر الذي هو من عدوه: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [١٥] قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴿[القصص: ١٥ - ١٦] فاعترف بظلمه نفسه فيما كان من جناية على غيره لم يؤمر بها. وقال يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وفي الصحيح الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أبا بكر أن يدعو به في صلاته: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظِلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً

من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١) فهذا الدعاء مطابق لدعاء آدم في الاعتراف بظلم النفس ومسألة المغفرة والرحمة.

وكان النبي ﷺ إذا استوى على الدابة فحمد وسبح وكبر قال: «لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم يضحك» وهو محفوظ من حديث على بن أبي طالب^(٢).

وإذا كان كذلك؛ فالظلم نوعان: تفريط في الحق، وتعدُّ للحد، فإن ترك الواجب ظلم، كما أن فعل المحرم ظلم، قال النبي ﷺ: «مطل الغني ظلم» متفق عليه^(٣) فأخبر أن المطل وهو تأخير الوفاء ظلم فكيف بتركه، هذا وإن أداء الواجب أعظم من ترك المحرم، والطاعات الوجودية أعظم من الطاعات العدمية^(٤)، فيكون جنس الظلم بترك الحقوق الواجبة أعظم من جنس الظلم بتعدي الحدود.

أيضاً فإن الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرم، ليس هو ترك المحرم فقط. وكذلك التقوى اسم لأداء الواجبات وترك المحرمات، كما بين الله حدّها في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله:

(١) البخاري (٢١١/١) ومسلم (٧٤/٨).

(٢) بنحوه عند أبي داود (٣٤/٣) والترمذي (١٥٦/٣) والمسند (١٨٣/٢) وصححه أحمد شاكر.

(٣) البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).

(٤) أي من حيث الجنس، وهي مسألة خلافية ولها ذيل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل أو المال من كراهة توجب تركه، ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر يوجب فعله. مثال ذلك: ما سئل عنه أحمد عن رجل ترك مالا فيه شبهة وعليه دين، فسأله الوارث: هل يتورع عن ذلك المال المشتبه؟ فقال له أحمد: «أترك ذمة أبيك مرتنهة؟» ذكرها أبو طالب وابن حامد، وهذا عين الفقه، فان قضاء الدين واجب، والغريم حقه متعلق بالتركة، فإن لم يوف الوارث الدين وإلا فله استيفاؤه من التركة، فلا يجوز إضاعة التركة المشتبهة التي تعلق بها حق الغريم، ولا يجوز أيضا إضرار الميت بترك ذمته مرتنهة، ففي الإعراض عن التركة إضرار الميت وإضرار المستحق، وهذان ظلمان محققان بترك واجبين، وأخذ المال المشتبه ليس كذلك» (١).

ثامنا: ومن طرق تحصيل الافتقار: التوبة النصوح المتكررة.

سواء وافقت نقصا في واجب أو ارتكاسا في خطيئة، فالعبد يعلم أنه مهما قرب وتعبد فعبادته ليست لائقة بحق ربه ولا كافية في نجاته، فهو يجد ويستغفر، ويدنب ويستغفر، فلا ينفك في حركاته وسكناته من لبوس التوبة ودثار الاستغفار.

وقلب المؤمن كالنعجة السليمة ترعى الربيع المختلط بأنواع الزهور،

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٩ / ٢٧٩ - ٢٨٠) بتصرف يسير.

وتتغذى بما يصحّ جسمها ويغذوه وينبته، والعقل معها كالراعي القوي الأمين، فهو يحرسها من نفسها بأن ينصح لها المرعى الطيب والغذاء النافع، ويداويها عند اعتلالها، ومن غيرها بأن يحميها من غوائل المفترسات، وفي المرعى ثلاثة ذئاب يرومون صيدها وافتراسها، أصغرهم هو ذئب القوة الشهوانية، يليه ذئب القوة الغضبية، وفوقهما ذئب الشبهات. فلربما غفل الراعي هنيهة فاكتنفها أحدهم فجرحها وأدماها فاحتاجت لعلاج على قدر جرحها، ولربما افترسها وأهلكها! والعاقل يعتبر بما يرى ويسمع ويبصر.

وتوبة المؤمن من ذنوبه هي ساق قوّته التي لا قيام له بدونها، فرسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه كان يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم أكثر من مئة مرة، وقد أنزل الله عليه خِلة البشارة والرضى بقوله العزيز: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فإن كان هذا حال العبد التائب الشكور ﷺ فما بال من سواه؟! فما ثمّ إلا تائب أو ظالم فربنا جل وعز يقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ومراقبة فلاح المؤمن توبته النصوح والله تعالى يقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومن أسرف على نفسه بالعصيان ثم أقبل تائبًا منيبًا فليحرص على حراسة جذوة إيمان التوبة في قلبه، فهي كالزرع الصغير الضعيف المحتاج إلى غذاء وحراسة، فذئب الإنسان - وهو الشيطان - حريص على اقتلاع تلك النبتة حال ضعفها وصغرها قبل أن تستتم شجرة عظمى، ليخلو له القلب فيأكله حتى يختلط بدمه وعصبه فيحل عليه الفساد لخلوّه من مادة الصلاح وهي الإيمان.

وهذا الشيطان الرجيم شديد المكر طويل العُمُر طويل البال في الإفتان، فيلقي للمرء طُعماً من حطام الفانية ليسد به رمق شهوته الخاطئة، كالحبة في الفخ والطُّعم في السنّارة، حتى إذا ابتلعها أفسدت قلبه، فإن وُقِّ لتوبة لعلاجه وإلا خيف عليه ازدياد الفساد والظلمة وانحسار الصلاح والنور، حتى يوافي ربه بقلب قاسٍ مثقل بأوزاره، فهو بين عفو الله أو صلّو النار التي تخرج مادة الفساد وتليّن القسوة، فإن كان فيه بصيص نور توحيد وصلاة فمآله للجنة بعد حين لا يعلمه إلا الله، وإلا فخلود الأبد، عياداً بوجه الرحمن من موجبات سخطه، فالجنة هي دار القلوب السليمة اللينة لا الفاسدة القاسية، وهي ملتقى المقربين والأبرار لا الفسقة الفجار.

تاسعاً: ومن طرق تحصيل الافتقار: الاعتراف بالذنب، وأن لا يخرج من بيته وهو يظن إن مسلماً دونه منزلة.

فلعل هناك خبيثة صلاح في ذلك المسلم، أو سريرة سوء في ذلك المتعالي، أو خاتمة بخلاف الظاهر الآن! فالإزراء بالنفس سبيل علوّها عند ربها، وتعظيمها طريق خفضها، واعتبر دينك الأمرين بحال الأبوين وإبليس. والله المستعان.

قال ابن القيم في شأن من يظن صلاحه أجود من غيره، فيشمت بالمذنب: «وأيضاً ففي التعبير ضرب خفيّ من الشماتة بالمعيّر، وفي الترمذي مرفوعاً: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويتليك»^(١).

(١) الترمذي (٢٥٠٦) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١١٩) والزرقاني في مختصر المقاصد (١١٨٤) ووثق رجاله الأرنؤوط في تخرّيج

ويحتمل أن يريد: أن تعيرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به.

ولعل كسرتة بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب؛ أنفع له وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والاعتداد بها، والمنّة على الله وخلقها بها.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المدلّ من مقت الله. فذنب تدلّ به لديه أحب إليه من طاعة تدلّ بها عليه، وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدلّ. وأنيئ المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلّين. ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر!

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا

رياض الصالحين (١٥٧٧) وحكم بوضعه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٢٨/٣)
وضعه الألباني في الضعيفة (٥٤٢٦).

يُثْرِبُ»^(١) أي: لا يُعَيِّر. من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] فإن الميزان بيد الله، والحكم لله. فالسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب.

ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال يوسف الصديق: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله: «لا ومقلب القلوب»^(٢) وقال: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه» ثم قال: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^{(٣)(٤)}.

وقال رحمه الله في البدائع: «شدوا بنیان العزم بهجر المألوفات والعوائد،

(١) البخاري (٢١٥٢)، ومسلم (١٧٠٣) بلفظ: «إذا زنت أمة أحدكم، فتبين زناها، فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة، فتبين زناها، فليبعها ولو بحبل من شعر».

(٢) البخاري (٦٦٢٨).

(٣) مسلم (٥١/٨) (٢٦٥٤) خلا جملة: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»

فهو عند أحمد (١٧٦٣٠) بسند صحيح.

(٤) مدارج السالكين (١/١٧٧ - ١٧٨).

وقد استحکم البناء، فحيتئذ أفرغوا عليه قطر الصبر. وهكذا بنى الأولياء قبلكم، فجاء العدو فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً.

لقد ضاقت أيام الموسم فأسرعوا بالإبل لا تفتكم الوقفة. لا تحد وما لك بعير، ولا تمد القوس وما لها وتر.

كم بذل نفسه مرء ليمدحه الخلق؛ فذهبت نفسه فانقلب المدح ذمًا، ولو بذلها لله لبقيت ما بقى الدهر. وعمل المرائي بصلّة كلها قشور، والمرائي يحشو جراب الزوادة رملاً يثقله في الطريق وما ينفعه.

ولما أخذ دود القز ينسج، أقبلت العنكبوت تتشبه به، وقالت: لك نسج ولي نسج. فقالت دودة القز: ولكن نسيجي أردية الملوك، ونسجك شبكة الذباب، وعند مسّ النسج يتبين الفرق.

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكامن تباكا
شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدباء تصعد في أسبوعين، فتقول للصنوبرة: إن الطريق التي قطعتها في ثلاثين سنة؛ قطعتها في أسبوعين، ويقال لي: شجرة، ولك: شجرة. فقالت لها الصنوبرة: مهلاً، حتى تهب رياح الخريف، فإن ثبت لها تمّ فخرُك.

لقد كان التصوف والفقر في مواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب، لقد كان خرقة؛ فصار حرفه، فغير زيّك أيها المرائي، فإنه يصبح بك:

خذوني!»^(١).

عاشرًا: البحث الصادق عن التوفيق والعمل لاستجلابه.

وهذا باب واسع ويجمعه علمه وعقد قلبه بأن عقد الأمور وحلّها ومقاليدها وملكوته هو بيد رب العالمين. فيعمل بقلبه وجوارحه على إرضائه حتى يسدده ويوفقه ويمنحه ويعطيه ويرفعه ويهديه، ويدفع عنه الأذى قبل نزوله ويرفعه بعد حَمِّه ووقوعه.

وقد ذكر الإمام ابن القيم جملة وصايا نافعة نفيسة هي خلاصة علمه وتجربته ونصحه، فقال رَحِمَهُ اللهُ تحت قاعدة أصل التوفيق:

«قاعدة أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكللك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكللك الله نفسك، وأن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك. فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد.

ومفتاح التوفيق الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرغبة إليه،

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٥٦).

فمُتي أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجاً دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه».

وعلى قدر نيّة العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانتته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر همهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، هو العليم الحكيم، وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه ألا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك الصبر، فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد.

وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وقد خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. وأبعد القلوب من الله القلب القاسي. وإذا قسى القلب قحطت العين.

وقسوة القلب من أربعة أشياء إذا تجاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات

محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها. والقلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها.

ومن أشغل قلبه بالله والدار الآخرة جال قلبه في معاني كلام الله وآياته المشهودة، ورجع إلى صاحبه بغرائب الحكم وطرف الفوائد. وإذا غُذي القلب بالتذكر، وسقى بالتفكير، ونقي من الدغل؛ رأى العجائب، وأُهم الحكمة.

وليس كل من تحلّى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى، وأما من قتل قلبه فأحى الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه.

وخراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر، وإذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد.

والشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب، يروّح عنه وهج الدنيا. ومن وطن قلبه عند ربه؛ سكن واستراح، ومن أرسله في الناس؛ اضطرب واشتد به القلق.

هذا ولا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سمّ الإبرة^(١) وإذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه، واجتباها لمحبهه، واستخلصه

(١) أي أن محبة الله تطرد محبة الدنيا والإخلاص لها والركون إليها بنسبة وتناسب، فعلى قدر تلك المحبة يكون نصيبها وسلطانها ومكانها وحيّزها من القلب، طرداً وعكساً.

لعبادته، فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته^(١) والقلب يمرض كما

ولعل هذا مراد المؤلف إذ قصد حيِّزًا في القلب لا يجتمعان فيه، أو أنه قصد كمال أحدهما أما عموم القلب فقد يجتمعان، فالقلب متشعب وللإيمان شعب قد يتخلف بعضها لضعف القلب وقصوره وتقصيره، ولضده كذلك لكن ليست من النواقض فقد يكذب لا يبطن الكفر، وقد يغدر لكن لا يشرك شركًا أكبر.. وهكذا، وهي جادة أهل السنة خلافًا للوعيدية من الخوارج والمعتزلة وكذلك المرجئة من الكلائية والأشاعرة والماتريدية وغيرهم الذين جمعتهم بدعة القول بأن الإيمان كتلة واحدة لا تتجزأ، فجنح الوعيدية للحكم بخلوده في النار (قالت الخوارج بكفره في الدنيا، وقالت المعتزلة بأنه في منزلة بين المنزلتين، واجتمعوا في حكم الآخرة أنه من الخالدين في جهنم) أما الوعيدية المرجئة فجنحوا لضعف ذلك فحكموا بنجاة وفلاح كل من كان في قلبه معرفة لله أو تصديق ولو فعل من المكفرات ما فعل. وكلها أقوال باطلة للوعيدية والوعدية، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فهدى الله أهل السنة لما اختلف الناس فيه بإذنه فقالوا: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه شعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كالتوحيد، ومنها ما ينقص بنقصها كالبر والصلة، وعليه فقد يُجامع النفاق الأصغر كالكذب والغدر أصل الإيمان في القلب، أما الأكبر فمحبط للإيمان جملة، كذلك الشرك والكفر، فهي تحبط الإيمان وتنقضه كما يحبط الحدث الطهارة. وتدبر حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إمالة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٠٩ / ١) وصححه الألباني.

(١) لو قال بعبادته بدلًا عن خدمته كان أولى وأحسن، فهي لم تعرف عن السلف وإنما

يمرض البدن وشفاءؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرأة وجلأؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزيتته التقوى، ويجوع ويظماً كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة^(١) والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة.

وإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك وأنفاسك أمداً، ومن كل ما سواه بد^(٢).

ومن توكل على الله ووثق بتدبيره له وحسن اختياره له، فألقى كنفه بين يديه، وسلم الأمر إليه، ورضي بما يقضيه له؛ استراح من الهموم والغموم والأحزان. ومن أبي إلا تدبيره لنفسه؛ وقع في النكد والنصب وسوء الحال والتعب، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم.

عرفت عن بعض كتب أهل الكتاب ثم تلقفها المتصوفة، كذلك فلفظ العبادة هو اللفظ والتسمية الشرعية وفيها غنى وكفاية، ولا يقوم غيرها عنها مهما تكلفوا البلاغة وتنطعوا الكلم.

(١) لفظ المعرفة ورد في التنزيل: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وقد وردت السنة به كذلك كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أرسله إلى اليمن، كذلك في حديث الرؤية: «فيا أيها الله عز وجل في صورته التي يعرفون» رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)، أما الجادة المشهورة فهي العلم.

(٢) أي في التوكل على الله كفاية وغناء عن غيره.

والله سبحانه سهّل خلقه السبيل إليه، وحجبهم عنه بالتدبير، فمن رضي بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلّم لحكمه؛ أزال ذلك الحجاب، فأفضى القلب إلى ربه واطمأن إليه وسكن.

والمتوكل لا يسأل غير الله، ولا يرد على الله، ولا يدخر مع الله^(١).

ومن شُغل بنفسه شُغل عن غيره، ومن شُغل بربه شُغل عن نفسه.

والاخلاص هو ما لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

والرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام، والناس في الدنيا معذبون على قدر همهم بها، وللقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها، ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية:

فالسافلة: دنيا تزين له، ونفس تحدّثه، وعدو يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها.

والثلاثة العالية: علم يتبيّن له، وعقل يرشده، وإله يعبده. والقلوب جوالّة في هذه المواطن.

(١) وهذا لمن وثق بتوكّله كما فعل الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تصدّق بكل ماله، وهي مرتبة عالية لا يناها إلا الصديقون، أما من لم يثق بتمام توكّله وخشي من نفسه الندم والتحسر والجزع واستكفاف أيدي الناس فليدّخر بالمعروف ليعفّ نفسه ويصون وجهه عن سؤال غير خالقه.

وأتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن أتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصدّ عن الاستعداد لها.

ولا يشم عبد رائحة الصدق وهو يدهن نفسه أو يدهن غيره، وإذا أراد الله بعبد خيرًا جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عنده وعند غيره، محتملًا لأذى غيره. وإن أراد به شرًا عكس ذلك عليه.

والهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تتعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنّة تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة، وتذكرًا للذنب تزداد بتذكره توبة وخشية. فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاث جالت في أودية الوسوس والخطرات.

ومن عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته، ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له.

وإنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله؛ فمتى يصل إلى مقصده؟!^(١).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٩-١٠٠، ١٤١-١٤٢، ١٥٤، ٢٢٥-٢٢٦) باختصار وتصرف يسير.

الحادي عشر: - وهو أعظم طريق لتحصيل عبودية الافتقار :: تحقيق العبودية لله والاستعانة به.

كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحزنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ، ناصيتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عدلٌ في قضاؤِكَ، أسألك بكل اسم هو لك سُمِّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابِكَ، أو علَّمته أحدًا من خلقِكَ، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندِكَ، أن تجعل القرآنَ ربيعَ قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همِّي، إلَّا أذهب الله عز وجل همَّه، وأبدله مكان حُزنه فَرَحًا» قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: «أجل، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ»^(١).

«فتضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية، منها أن الداعي به صدر سؤاله بقوله: إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملُّق له، واستخذاء بين يديه، واعتراف بانه مملوكه، وآباؤه ممالكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلَّى عنه هلك، ولم يؤوّه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة.

فتحت هذا الاعتراف أني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ

(١) أحمد (٣٧١٢) وصححه أحمد شاكر.

به وألّوْذ به غير سيدي الذي أنا عبده. وفي ضمن ذلك: الاعتراف بأنه مربوب مدبّر مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية، لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتعرفهم على محض العبودية. فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه.

وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَفَاقَمٌ عَبْدٌ لِلَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وفي التحقق بمعنى قوله: «إني عبدك» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعباد العبد به ولياذه به.

وفيه أيضًا: أني عبد من جميع الوجوه صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافي ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده. وفيه أيضًا: أنك أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا: أني لا أتصرف فيما حولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده. وأنني لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فان صح له شهود ذلك^(١)؛ فقد قال: إني عبدك حقيقة.

ثم قال: «ناصيتي بيدك» أي أنت المتصرف في تصرفي كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده، وناصيته بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء؛ لم يخفهم بعد ذلك، ولم يرجهم، ولم ينزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدير لهم غيرهم. فمن شهدت نفسه هذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناس كذلك؛ لم يفتقر إليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته.

ولذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ

(١) أي استحضرها بقلبه، واستشعرته نفسه، وقوي فيه تفكره وتذكره.

إِلَّا هُوَ أَخِذْ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: «ماضٍ في حكمك، عدلٍ في قضاؤك» تضمّن هذا الكلام أمرين: أحدهما مضاء حكمه في عبده. والثاني: يتضمن حمده وعدله. وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِّن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي مع كونه مالكا قاهرا متصرفا في عبادته، نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرّف به فيهم. فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، فخير به كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضلته ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل لقضاء. فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد، ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه، شاء أم أبى. لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيّه ونفوذه؛ قال: «عدل في قضاؤك» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه. وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكما دينيا فهو ماضٍ في العبد، وإن كان كونيا فإن نفذه سبحانه مضي

فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه. فهو سبحانه يقضي ما يقضى به، وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمرًا ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضي ويمضي، فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «**عدل في قضاؤك**» يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿وَلِإِن نُّصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] فكل ما يقضي به على العبد فهو عدل فيه.

وقوله: «**أسألك بكل اسم هو لك..**» إلى آخره. توسّل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم. وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**» الربيع هو المطر الذي يحيى الأرض، شبه القرآن به حياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الاضاءة والاشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا﴾ [الرعد: ١٧] وفي قوله: ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وفي قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]. ثم قال: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ يُرْجَى سَحَابًا

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ﴿الآية [النور: ٤٣].

فتضمن الدعاء أن يحیی قلبه بریبع القرآن، وأن ینور به صدره، فتجتمع له الحیاة والنور، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب، لأنه قد حصل لما هو أوسع منه. ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها. ولما كان الحزن والهَم والغَم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أخرى أن لا تعود. وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهَم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم^(١).

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته في وصف الله تعالى: «ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين» أي: لا غنى للعبد مهما كان، فإنه لا غنى له عن ربه، فيلجأ إليه، ويتوسل إليه، ويتضرع بين يديه، ويسأله سبحانه وتعالى. ولا أعظم ولا أيسر في الوصول إلى رب العالمين وإلى فضله من باب الافتقار إلى الله جل وعلا؛ فإن العبد إذا افتقر إلى الله جل وعلا وأظهر افتقاره إلى ربه

(١) الفوائد لابن القيم (١/٢٢ - ٩٧) بانتقاء وتصرف.

وأيقن أنه ما من ذرة في بدنه إلا وهي مفتقرة إلى الله جل وعلا؛ كان ذلك من أسباب الخير له.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من رغب في السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»^(١) فالسعادة الأبدية الدائمة التي لا تنقطع في الدنيا والآخرة هي في لزوم عتبة العبودية، ولزوم عتبة العبودية تحصل للعبد بكمال الذل لله جل وعلا، وغاية الحب له سبحانه وتعالى.

ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، لا في ليل ولا في نهار، ولا في يقظة ولا في منام، ولا في صحة ولا في مرض واعتلال، ولا في غنى ولا في افتقار، فالعبد مفتقر إلى الله جل وعلا فقراً ذاتياً لا يمكن أن ينفك عنه، لكن الناس يغفلون ويظنون أنهم أغنياء عن الله عز وجل بما مكنهم، والإنسان إذا بُلي بداء الاغتناء وشعر أنه غني عن الله عز وجل حصل منه شر عظيم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۚ﴾ [العلق: ٦، ٧]، يعني: إذا رأى غنى نفسه عن الله، لكن مادام يرى فقر نفسه إلى ربه جل وعلا فإنه لا يمكن أن يصيبه الطغيان والخروج عن مقتضى العبودية. قال الطحاوي رحمه الله: «ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين والحين: الهلاك»^(٢).

(١) الفتاوى (٣٩/١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية. المصلح (٤/٢٠).

الثاني عشر: التَّفَقُّهُ في معاني الأسماء الحسنى، ودعاء الله تعالى بها، والقيام بما تقتضيه من مقامات العبودية والإجلال والإكرام.

إنَّ علم أسماء الرحمن جل وعلا وصفاته هو أشرف العلوم بإطلاق، فهو متعلق بالمحسوب الأعظم والخالق الأوحد والملك الفرد والإله الحق، فله سبحانه كل صفات الجمال ونعوت الجلال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومتى ما تفكر المؤمن في معاني الأسماء والصفات لرب العالمين قرعت قلبه - ولا بد - أنوار الهيبة والمحبة والإجلال والتعظيم، فخرج من ذلك بافتقار حقيقي واضطرار لازب ومسكنة تامة وخشية راسخة مع حب تام ورجاء لا ينقضي وثناء سابغ وفرح غير محدود وسرور يكاد يظن معه أنه قد حُصَّ برقيقة من الجنة ووقت من أوقات أهلها، نسأل الله الكريم الرحيم من واسع فضله وجزيل عطائه وإحسانه.

ودعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى له شأن عظيم عند المرسلين، وهو صريح أمر رب العالمين، قال سبحانه وبحمده: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الخطابي: «معنى الدعاء: استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة. وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء

على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه»^(١).

«ومن أسماء الله تعالى المتعلقة بافتقار عبده إليه: الرزاق. وهو مبالغة من رازق للدلالة على الكثرة.

والرزاق من أسمائه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ»^(٢).

ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص.

فالعام: إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها. فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضًا من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقًا ونعمة بهذا الاعتبار، ويقال: رزقه الله، سواء ارتزق من حلال أو حرام، وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق: فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد رسول الله ﷺ، وهو

(١) شأن الدعاء (٤).

(٢) أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣٦١) وقال: حسن صحيح. فهو الرازق والرزاق.

نوعان:

رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها.

ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى (اللهم ارزقني) أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهني الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

ومن أسمائه سبحانه المتعلقة بافتقار عبده إليه: الحي، القيوم. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿لَمْ يَلَمْسْ أَهْلَ الْآلَةِ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] وقال عز وجل: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

وهما من أسماء الله الحسنى. و(الحي القيوم) جمعها في غاية المناسبة كما جمعها الله في عدة مواضع في كتابه، وذلك لأنها محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم، والعزة، والقدرة والإرادة، والعظمة، والكبرياء، وغيرها من صفات الذات المقدسة. والقيوم هو كامل القيومية، وله معنيان:

هو الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته. وقامت به الأرض والسموات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدّها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه.

فالحي والقيوم هو من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد»^(١).

«وليعلم المؤمن المفتقر إلى ربه أنه لا حجاب بينه وبين ربه، فمتى أراد ربه دعاء وسأله، والله يحب أن يُسأل ويدعى.

واعلم أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة. فالإنسان إذا سأل شيئاً فإنه يخضع ويذل ويستكين، وهذه هي العبادة، فيكون في ضمن السؤال عبادة. ومن هنا حرمت المسألة، أي: أن يسأل الإنسان أحداً من الخلق؛ لأنه يذل له قلبه، ويستكين له، ويخضع له، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا؛ لأنه عبادة، فيكون تحريم المسألة صيانة للإنسان، وإكراماً له من الله جل وعلا، أكرمه الله بأن لا يخضع لمخلوق مثله، ويكون خضوعه لله وحده، ويكون استغناؤه بالله وحده، ويكون افتقاره إلى الله وحده، والافتقار إلى الله عبادة، أما الافتقار إلى المخلوق فهو شرك.

فهذا معنى كون دعاء المسألة يتضمن العبادة، أما دعاء العبادة فإنه يستلزم دعاء المسألة، وذلك أن المصلي والمزكي والمتصدق والذاكر والتالي يطلب

(١) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني (١/٧٩، ٨١).

بفعله هذا الثواب، فيطلب من الله أن يشبهه على ذلك، وهذا هو دعاء المسألة؛ لكونه يطلب الثواب أو يطلب الالتجاء والاستعاذة من العذاب.

ومن المعلوم أن المخلوق لا بد له من طلب النفع الذي ينفعه، ومن الهرب مما يضره، يضطر إلى هذا اضطراراً، ولا بد له من ذلك. وكذلك الأسباب التي تجلب له النفع هو بحاجة إليها، وكذلك الأسباب التي بها يدفع الضر والعذاب والألم وغيرها، فالعبد مضطر إلى ما ينفعه، ومضطر إلى دفع ما يضره، ومضطر إلى تحصيل السبب الذي به جلب النافع، وإلى تحصيل السبب الذي به دفع المضر، فهو بأمس الحاجة إلى هذه الأمور، وهذه كلها يجب أن تطلب من الله وحده، ولا تطلب من المخلوق.

فيتبين لنا أن الأمر كله بيد الله، وأن الإنسان يجب أن يكون خاضعاً لله، وأن يكون عبداً لله من جميع الوجوه، والدعاء داخل في هذا، سواء كان دعاء مسألة أو دعاء عبادة.

قال الشارح^(١): فتبين بهذا قول شيخ الإسلام: إن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد قال الله تعالى عن خليله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) إذا أطلق الشارح فالمراد أول من تصدى لشرح ذلك المتن المراد، والمراد بالشارح لكتاب التوحيد هو الشيخ سليمان آل الشيخ أول شارح لكتاب التوحيد عبر سفره النفيس تيسير العزيز الحميد لشرح كتاب التوحيد.

وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٨﴾ [مريم: ٤٨ - ٤٩].

يعني: أن هذه الآية بينت أن الدعاء عبادة بأنواعه؛ لأنه - أولاً - قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾، ثم بعد ذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فبين أن الدعاء عبادة، وأنهم إذا دعوا شيئاً فقد عبدوه، وهذا كثير في القرآن^(١).

والدعاء الذي يلامس الشغاف هو الدعاء الحقيقي بالإجابة، فهو متضمن لتهم الافتقار، إذ هو عبد فقير قليل ضعيف عاجز يدعو ويسأل ربه وإلهه الغني القادر البر الرحيم.

«وأصل الشرك والكفر والجهل والجاهلية عند الناس هو شعورهم بأن لهم حولاً أو طولاً أو قوة ليست لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى، فلو شعر الناس أو علموا حقيقة حالهم، وأنهم فقراء إلى الله تبارك وتعالى في كل نفس يتنفسونه، وفي كل لحظة، وأنه لا يمكن في أية حال من الأحوال أن يستقلوا بأنفسهم طرفة عين، لكانت عبوديتهم لله تبارك وتعالى غير ما نشاهد وغير ما نرى، ولهذا كَانَ من دعاء النبي ﷺ استعاذته أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وهكذا المؤمنون، فلو وكلنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى أنفسنا طرفة عين لهلكنا.

ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يدبرنا ويسيرنا بفضله، المؤمن والكافر،

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للغنيان (٤٦/٣).

لكن المؤمن يستشعر فقره: إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، فيكون مقتضى ذلك الشعور أن يعبد الله تبارك وتعالى وحده، ولهذا فالمؤمن رغم أنه يأخذ بالأسباب، لكن لا يجوز له أن يعلق قلبه بالأسباب، أو أن يخاف من بعض ما يخيفه، وهو من الأسباب أيضاً، لكن لا يعلق خوفه بالأسباب، فمنتهى الرجاء ومنتهى الخوف يكون إِلَى اللَّهِ، ولهذا نقول: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ»^(١).

وأصل معرفة العبودية أن تكون مبنية عَلَى الْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن الْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ: أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَطْمَئِنُّ وَلَا تَهْدَأُ وَلَا تَسْكُنُ وَلَا تَرْتَاحُ إِلَّا بِأَنْ تَعْرِفَهُ وَأَنْ تَعْبُدَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَيَعْبُدَهُ حَقَّ الْعِبَادَةِ كَانَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْأَلَمِ، وَالنَّكَدِ وَالنَّغْصِ بِقَدْرِ جَهْلِهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا نجد عصاة المؤمنين أحسن حالاً من الكفار، والكفار شر من ذلك.

فكلما نقصت من القلب هذا المعرفة نقصت السعادة والراحة والطمأنينة، وأكثر الناس سعادة وطمأنينة في هذه الدنيا هم أكثرهم إيماناً بالله، ومعرفةً به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو جاءتهم مصائب الدنيا جميعاً ما أقلقتهم لحظة واحدة.

والمؤمن قد يحزن أو يغتم، ولكن ذلك لا يفقده سعادته وطمأنينته ورضاه بأن كل هذا من الله وإلى الله، وأن له في ذلك الأجر مهما عظمت المصيبة أو

(١) مسلم (٥٩٠).

الفتنة، فإنه يرى أن ذلك لم يخرج عن كونه دافعاً وجالباً للطمأنينة، وللراحة التي يجدها.

وأما الكافر فإن قلبه لا يحتمل ذرة من البلاء الذي يصيب المؤمن إلا ويقنط ويجزع ويسخط ويشكو ربه إلى الناس ويكفر بنعم الله جميعاً من أجل بليّة أُبتلي بها، لا تعدل ولا تزن شيئاً قليلاً من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي أنعمها عليه، فيجب على الإنسان استشعار أنه فقير إلى الله، وأن يكون شعوره ومعرفته بأن قلبه لا يطمئن ولا يسكن ولا يرتاح إلا إذا عرف ربه وعبداه واتباع مرضاته، واجتنب مساخطه، هذا هو الذي به تتحقق العبودية الكاملة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمؤمن لا يستغني عن عصمة الله تعالى وحفظه طرفة عين، فقد كان من دعائه ﷺ: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» (١)(٢).

«فالأنبياء وأتباعهم قالوا هذا لعلمهم شدة فقرهم إلى الله وحاجتهم إليه، أمّا أولئك فقد استغنوا عن الله تبارك وتعالى، فلا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يدعونه ولا يلجأون إليه.

ولهذا كان السلف الصالح يدعون الله في كل وقت، ويحثون أبناءهم

(١) الترمذي (٣٥٢٤) وحسنه الألباني في السلسلة (٥٥٧/٧).

(٢) الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي (١/ ٤٧٩) (٥٩٠).

وتلاميذهم والمسلمين على دعاء الله حتى قال قائلهم: «إني لأدعو الله ولو كان في شرك نعلي» فلو انقطع شرك نعله لدعا الله سبحانه وتعالى. فادعُ الله أيها العبد فأنت فقير إليه في كل لحظة، وفي كل حين وفي كل وقت، لكن أولئك يظنون أنهم في غنى عن الله، ولهذا تمر بهم الأيام ذوات العدد ولا يدعون الله سبحانه وتعالى فيها، حتى وإن عبدوه.

ومن الناس من يصلي ويصوم ويؤدي الفرائض، ولكنه لا يدعو الله، لأن الشيطان قد أغفل قلبه وأشعره بأنه في غنى عن دعاء الله تبارك وتعالى.

والمقصود أن العبد المؤمن إذا شهد هذا الحال من الافتقار ومراقبة الله له ارتفع إيمانه، وما من قلب يرقى في درجات الإيمان وقطيعات اليقين إلا ويشهد ذلك بمقدار رقيه ورسوخ إيمانه ويقينه»^(١).

الثالث عشر: من وسائل تحصيل عبودية الافتقار إلى الغني الغفار مجاهدة النفس بالقناعة.

فالقناعة كنز لا يفنى، وهي من فروع الزهد في الدنيا، والمؤمن يسأل الله غنى لا يطغيه وصحة لا تلهيه.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] والحياة

(١) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١/ ١٤٩٠).

الطيبة هي القناعة، كما قال علي^(١) وابن عباس^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال العثيمين رحمه الله تعالى في هذه الآية: «لم يقل: فلننعمن أبدانهم، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بما يجعل الله في قلوبهم من الأنس وانسراح الصدر وطمأنينة القلب وغير ذلك، حتى إن بعض السلف قال: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». يعني من انسراح الصدر ونور القلب والطمأنينة والسكون. أسأل الله أن يشرح قلبي وقلوبكم للإسلام، وينورها بالعلم والإيمان، إنه جواد كريم»^(٣).

وكان رسول الله ﷺ يحث على القناعة ويدعو إليها بحاله ومقاله، فقد كان إمام الزاهدين ونبراس ذوي العقل والقناعة، قد عُرِضَتْ عليه جبال الذهب ففنع بالكفاف، فكان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وينام على الحصير، ويلبس ما تيسر، ويسكن كسكن غرباء الناس وهو سيد ولد آدم، وخَيْرُ بين الملك والنبوة وبين العبودية والرسالة فتواضع للعبودية دون الملك، وهذا في غاية القناعة التي ليس وراءها مرمى.

وكان ينصح لأمته بالبُلغة دون الترف، فعن عبيد الله بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ^(٤)، مُعَافٍ فِي جَسَدِهِ،

(١) فيض القدير (٣/ ١٧٠).

(٢) المستدرک (٢/ ٣٥٧) (٣٣٦٠) وشعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٩١).

(٣) شرح رياض الصالحين، العثيمين (١/ ٢٩٨).

(٤) آمنا في سربه: أي في نفسه، يقال: فلان واسع السرب، أي: رَخِيُّ البال، وروي بفتح

عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها»^(١) أي كأنها جمعت له الدنيا بأسرها وأعطيتها لوحده دون الناس، لأن قيام الدنيا على هذه الثلاث، فمتى قامت للعبد فهو كملوك الدنيا في الحقيقة، بل عيشه أطيب، إذ لم يزدوا عليه إلا بالخطام الملهي والغم الملازم والحساب الباقي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(٢).

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «طُوبَى لِمَنْ هَدِيَ لِلْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقِنَعٌ»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفَذَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ

السين، وهو المسلك والمذهب.

(١) البخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) والترمذي (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٨٤٣٦) وصححه الشوكاني في فتح القدير (٤٤/٢) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٥٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٢/٣) والترمذي (٢٣٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٩/٦) والترمذي (٢٣٤٩) بسند حسن.

وأوسع من الصبر» متفق عليه^(١).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أغبطُ الناس عندي مؤمن خفيف الحاذ^(٢) ذو حظ من صلاة وكان رزقه كفافاً فصبر عليه حتى يلقي الله عز وجل، وأحسن عبادة ربه، وكان غامضاً في الناس^(٣)، عَجَلْتُ منيته، وقلّ تراثه، وقلّت بواكيه»^(٤).

وكان نبي الله ﷺ يوجّه أمته إلى أن حقيقة الغنى إنما تكون إذا استغنت النفس حتى وإن قلّ عرض الدنيا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض^(٥)، ولكن الغنى غني النفس»^(٦).

بل كان ينهاهم عن مسألة الخلق ويوجههم للاستغناء عنهم، فعن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله^(٧)، ثم يأتي

(١) البخاري (١٥١/٢) ومسلم (١٠٢/٣).

(٢) الحاذ: أصله طريقة المتن، وهو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس، أي: خفيف الظهر من العيال والمال.

(٣) أي: مغموراً غير مشهور. وفي رواية مسند أحمد بزيادة: «لا يُشار إليه بالأصابع».

(٤) شعب الإيوان للبيهقي (٢٩٢ / ٧) وبنحوه في مسند أحمد (٢٥٢/٥) والزهد له

(١١) وفي الزهد لوكيع (١٣٣) والترمذي (٢٣٤٧) وحسنه، وفي السند مقال.

(٥) العرض: ما يتموّل له الإنسان ويقتنيه من المال وغيره.

(٦) رواه البخاري (١١٨/٨).

(٧) الأحبل: جمع حبل.

الجبَلُ فيأتي بحُرْمةٍ من حَطَبٍ على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل الناس أعطَوْهُ أم مَنَعُوهُ»^(١).

وقد أرشد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى وجوب الاستغناء عن الناس وكفّ إراقة ماء الوجه إليهم بالعمل الشريف، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رُجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «أَمَّا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ: بَلَى، جَلَسَ^(٢) نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَنَبْشُطُ بَعْضَهُ، وَقَعَبُ^(٣) نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: «اِئْتَنِي بِهِمَا» فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهَا بِدَرَاهِمٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَزِيدُ عَلَى دَرَاهِمٍ؟» - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدَرَاهِمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ. فَأَخَذَ الدَّرَاهِمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا»^(٤) فَائْتَنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَوْدًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أُرِيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»، ففعل. فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وبيع بعضها طعامًا، فقال له رسولُ الله ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي

(١) أخرجه أحمد بسند صحيح (١٦٤/١) (١٤٠٧).

(٢) الجلّس: الجلّد، وقيل: هو الكساء يكون على ظهر البعير.

(٣) القعب: الإناء.

(٤) القدوم: الفأس.

وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تَصْلُحُ إلا الثلاث: لذي فقر مُدْقِع^(١)، أو لذي غُرم مُفْظِع^(٢)، أو لذي دم مُوجِع^(٣).

وتأمل حكمته ﷺ وعنايته الدقيقة بأسباب الاستغناء وبحفظ كرامة الرجل، إذ امتنع أولاً عن التصدّق عليه رحمة به مما يلحقه من سؤال الناس وقرعاً لقلبه وتنبهاً له، ثم ثنى بسؤاله عما لديه مما يمكن الاستغناء عنه - ولو مؤقتاً -، ثم باعها حتى يكون رأس مال تجارته من أصل ماله لا مال غيره، ثم ساعده بأن يكون سمساراً متبرّعاً له، ثم انتظر المزايدة حتى طابت نفسه بالدرهمين الذين قسمهما بين الحاجة الآنية الملحة لأهل الرجل، وبين شرائه قدوماً يكون معيناً لاحتطابه وعمله، ثم ساعده بربط العود على حديدة القدم ليكون الفأس صالحاً للاحتطاب، ثم أمره أن يغيب عنه خمسة عشر يوماً ليقطع رجاءه بالعودة لطلب الصدقة التي لا ترهق البدن ولا تتعبه وذلك أدعى لنشاطه، حتى إذا عاد بربح الدراهم التي أغنته ووسعت عليه وعلى أهله وذاق حلاوة جنى الكد وربح عرق الجبين ختم له بالوصية الرائعة المنبهة له ولغيره. فصلوات الله وسلامه وبركاته ما جرى الزمان على هذا الرسول المعلم

(١) الفقر المدقع: هو الذي يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي التراب، وذلك من شدته وخلوّ يد صاحبه.

(٢) الغرم: هو احتمال الغرامة الماليّة، والمفزع: الشديد الثقيل.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٠/٣) وحسنه الأرناؤوط لغيره، وأبو داود (١٦٤١) وسكت عنه فهو صالح عنده. والدم الموجع: هو الدية الثقيلة على من احتملها.

والرحيم الشفيق، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ووعده من استغنى بسؤال الله عن سؤال بالجنة فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَاتَّكَفَلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئاً^(١).

وقال حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا حَكِيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ^(٢)، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسِهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِأَشْرَافِ نَفْسِهِ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرَزَأُ^(٣) أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا. فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ عَطَاءً، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ إِنْ عَمِرَ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ عَطَاءً، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِنِّي أَعْرَضُ عَلَى حَكِيمٍ حَقَّهُ الَّذِي لَهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرَزَأُ حَكِيمٌ شَيْئًا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٢٧٥/٥) وأبو داود (١٦٤٣).

(٢) الخَضِرُ: هو العشب الناعم الطري، والمراد: أن المال محبوب إلى الناس مستحلى في قلوبهم ملتذون به.

(٣) الإزراء: التنقص والأخذ. وأصله من النقص، فإن من أخذ شيئاً فقد انتقصه.

حتى تُوفي. متفق عليه^(١).

فالأصل في سؤال الناس بلا حاجة التحريم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثُرًا»^(٢)، فإنما يسأل جَمْرًا، فليستقل أو ليستكثر»^(٣) وعن قبيصة بن مخارق الهلالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً^(٤)، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرُكَ بِهَا» ثم قال: «يَا قَبِيصَةَ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ رِجُلٍ تَحْمِلُ حَمَالَةً، فَحَلَّ لَهَا الْمَسْأَلَةَ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمَسِّكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ^(٥) اجْتَاكَ، فَحَلَّ لَهَا الْمَسْأَلَةَ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ -^(٦) وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةَ مِنْ ذَوِي الْحِجَا^(٧) مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّ لَهَا الْمَسْأَلَةَ، حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ

(١) البخاري (١١٦/٨) ومسلم (٩٤/٣).

(٢) أي بلا حاجة، إنما ليكثر ماله بعبائهم.

(٣) أخرجه مسلم (٩٦/٣).

(٤) الحَمَالَةُ: احتمال الكلفة المالية في الديات، وذلك في حال ثورة فتنة بين فريقين، فيقتل بينهم قتلى، فيلتزم رجلٌ مصلح أن يؤدي ديات القتلى من عنده، طالبًا الصلح وإطفاء الفتنة.

(٥) الجائحة: الآفة التي تعرض للإنسان فتستأصل ماله.

(٦) القوام: ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. وبنحو معناه السداد - بكسر السين -:

وهو ما يكفي المعوز والمقل، يقال: في هذا سداد من عوز.

(٧) الحجا: العقل.

قال: سِدَادًا من عيش - فما سِوَاهُنَّ من المسألة يا قبيصة سُحْتَ يأكلها صاحبها سُحْتًا^(١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر قال: كان رسولُ الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي قال: فقال: «خذه، وإذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشْرِفٍ^(٢) ولا سائل فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ، فإن شئتَ كُلْهُ، وإن شئتَ تَصَدَّقْ بِهِ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» قال سالم بن عبد الله: فلاجل ذلك كان عبد الله لا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يردُّ شيئًا أُعْطِيَهِ. متفق عليه^(٣) فالمال متى أُخِذَ من حِلِّه بسخاوة نفس بورك لصاحبه فيه، لا مع الهلع والجزع.

وعن محمد بن كعب القرظي رحمه الله قال معاوية بن أبي سفيان وهو على المنبر: «أيُّها الناس، إنَّه لا مانع لما أعطاه الله، لا مُعْطِي لما منع الله، ولا ينفع ذا الجَدِّ منه الجَدُّ^(٤)، من يُرِدِ الله به خيرا يُفَقِّهْهُ في الدين» ثم قال: سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٩٧/٣) والسحت هو: المال الحرام، سمي به لأنه يُسْحَت البركة ويذهبها، أو لأنه يهلك آكله.

(٢) الإشراف: التطلُّع والانتظار والطمع.

(٣) البخاري (٨٤/٩) ومسلم (٩٨/٣).

(٤) الجد: الغنى.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (١٧٣٢) وصححه سننه أيمن صالح شعبان.

وعن عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِهَالٍ - أَوْ سَبْيٍ - فقسّمه، فأعطى رجالاً، وترك رجالاً، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا؛ فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي أُعْطِي أَقْوَامًا لَمَّا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكُلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلَبٍ» فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١).

وكان يرشد أمته إلى توحيد رب العالمين في السؤال، فكمال التوحيد أن لا يسأل إلا الله، وقد بايع جمعاً من صحابته على أن لا يسألون الناس شيئاً. وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»^(٢).

وروي أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَدْعُو فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَفْنَعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي، وَبَارِكْ لِي فِيهِ، وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٩/١) والترمذي (٢٣٢٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وحسنه أيمن صالح شعبان.

(٣) المستدرک (٣٣٦٠) وشعب الإيمان للبيهقي (٣٧٥٦) أما في مصنف ابن أبي شيبة فموقوف على ابن عباس أنه كان لا يدعه بين الركن والمقام.

وإن الرضى عن الله هو باب القناعة، فمتى ولجّه المؤمن فقد هبط وادي القناعة الخصب. فعن ابن عباس قال: قال موسى عليه السلام حين كلم ربه: أي رب، أيّ عبادك أحب إليك؟ قال: «أكثرهم لي ذكرًا» قال: أيّ عبادك أحكم؟ قال: «الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس» قال: رب، أيّ عبادك أغنى؟ قال: «الراضي بما أعطيته»^(١).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ليس لابن آدم حقٌّ في سوى هذا الخصال: بيت يسكنه، وثوب يُؤاري عورته، وجِلْفُ الخبز والماء»^(٢) وقال النضر بن شميل: جِلْفُ الخبز: يعني ليس معه إدام. وفي رواية رزين: «وجلفُ خبز يُرَدُّ بها جُوعَتُهُ، والماء القراح». أما الماء القراح فهو الذي لا يشوبه شيء ولا يخالطه مما يُجعل فيه كالعسل والتمر والزبيب وغير ذلك مما يُتخذ شرابًا. وفي هذا الحديث غُنيَّةٌ ومستمسكٌ للزهاد المقتصدين.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال حكيم: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

وقال بشر: لو لم يكن في القنوع إلا التمتع بالعز لكفى.

وقال الشافعي: من غلبت عليه شهوة الدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

(١) جامع الأصول (٩٨٦٥) والشعب للبيهقي (١٠٣٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٢/١) (٤٤٠) والترمذي (٢٣٤١) وقال: هذا حديث حسن

وقال بعض العارفين: الطمع طمعان: طمع يوجب الذل لله، وهو إظهار الافتقار. وغايته العجز والانكسار، وغايته الشرف والعزّ والسعادة الأبدية. وطمعٌ يوجب الذل في الدارين، وهو رأس حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، والخطيئة ذل وخزي.

وحقيقة الطمع: أن تعلق همّتك وقلبك وأملك بما ليس عندك، فإذا أمطرت مياه الآمال على أرض الوجود، وألقي فيها بذر الطمع؛ بسقت أغصانها بالذل. ومتى طمعت في الآخرة وأنت غارق في بحر الهوى ضللت وأضللت»^(١).

وقال بشر بن الحارث:

أفادتنا القناعةُ أيَّ عزٍّ	ولا عزّاً أعزّ من القناعة
فخذ منها لنفسك رأس مالٍ	وصير بعدها التقوى بضاعة
تحزّ حالين: تُغنى عن بخیلٍ	وتسعدُ في الجنانِ بصيرِ ساعة

وقال آخر:

هي القناعةُ لا ترضى بها بدلاً	فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدنِ
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها	هل راح منها بغير القطن والكفن

(١) فيض القدير (٣/ ١٧٠).

وقال آخر:

عليك بتقوى الله واقنع برزقه فخيرُ عبادِ الله مَنْ هو قانعٌ
ولا تُلهِك الدنيا ولا تطمعُ بها فقد يُهلك المغرورَ فيها المطامعُ
وما أحسن قول الشافعي:

غنيٌّ بلا مالٍ عن الناسِ كلِّهم وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
وقال آخر - وما أجوده! :-

إذا أظمأتك أكفُّ اللئامِ كفتك القناعةُ شبعًا ورِيًّا
فكن رجلًا رجله في الثرى وهامةُ همتهُ في الثرى
أبيًا لنائلٍ ذي ثروة تراه بما في يديه أبيًا
فإن إراقةَ ماء الحياةِ دون إراقةِ ماء المحيَّا

والافتقار إلى الله بحر لا ساحل له، وعلى قدر تحقيقه يكون تحقيق الغنى وإقامة بناء التوحيد في القلب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان، وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ولهذا كانت إلهية الرب لهم فيها عموم وخصوص».

ولهذا كان الشرك في هذه الأمة «أخفى من ديب النمل»^(١) وفي الصحيح

(١) المسند (٤٠٣/٣) وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦).

عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعَسَّ عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»^(١).

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبراً وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما تُخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصِفَ ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبدٌ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له. إذ الرِّقُّ والعبودية في الحقيقة هو رِقُّ القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده. ولهذا يقال:

العبدُ حُرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

(١) البخاري (٦٤٣٥).

وقال الشاعر:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرًّا
ويقال: الطمع غلٌّ في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغلُّ من العنق؛ زال
القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «الطمع فقر، واليأس
غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا
يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه ولا إلى من يفعله. وأما إذا طمع في أمر من
الأموال ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيرًا إلى حصوله وإلى من يظن أنه
سبب في حصوله. وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك. قال الخليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله
صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا
إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة،
وفي النهى عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد كقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا

تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعه لحم»^(١) وقال: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خُدوشًا أو خُموشًا أو كُدوشًا في وجهه»^(٢) وقوله: «لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفتح، أو دم موجه، أو فقر مدقع»^(٣) وبهذا المعنى في الصحيح^(٤).

وأوصى خواص أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا وفي المسند: أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه، ويقول: «إن خليلي أمرني ألا أسأل الناس شيئًا»^(٥) وفي صحيح مسلم^(٦) وغيره عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايعه في طائفة وأسر إليهم كلمة خفية: «أن لا تسألوا الناس شيئًا» فكان بعض أولئك نفر يسقط السوط من يد أحدهم، ولا يقول لأحد: ناولني إياه.

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨] وقول النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن

(١) البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠).

(٢) أحمد (٣٨٨/١) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) أحمد (١٠٠/٣) وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٤) مسلم (١٠٤٤).

(٥) أحمد (٦٥) وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٦) (١٠٤٣).

بالله»^(١) ومنه قول الخليل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل، وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق. ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: إن طاووساً كان يكره أن ين المريض ويقول: إنه شكوى، فما أن أحمد حتى مات^(٢) رحمه الله ورضي عنه.

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣] وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

(١) أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦) وصححه.

(٢) سير الأعلام (٢١٥/١١).

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل، فمرّ بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سُمع نحيجه من آخر الصفوف. ومن دعاء موسى: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليّ غضبك. لك العُتْبَى حتى ترضى، فلا حول ولا قوة إلا بالله» وفي بعض الروايات: «ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٢).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرите مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن

(١) الطبراني في الأوسط (٣/٣٥٦) والبيهقي في الدعوات الكبير (١/٣٥٤) وقال: «تفرد به عبد الله بن نافع، وليس بالقوي» وحسنه المنذري في الترغيب (٣/٥٩).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٤٤) وتهذيب سيرة ابن إسحاق (٢/٧٠) وفي سنده ابن إسحاق وقد عنعن.

شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له؛ يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له؛ يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كما لكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأموارهم متصرفاً بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر. فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة - ولو كانت مباحة له - يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكةا، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم^(١) في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم

(١) لم يعن ابن تيمية تعميم ظلم كل معشوقة لعاشقها، ولكنه يضرب المثال على شدة أسر أمثالها لأمثاله حتى لو وصل الحال بهن إلى الظلم الشديد. والله المستعان.

من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استبعد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسرّه هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقّه فاجر بغير حق لم يضره^(١) ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران^(٢) ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله؛ فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر مَلِكَ الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»^(٣).

وهذا لعمر و الله إذا كان قد استعبد قلبه صورةً مباحة، فأما من استعبد قلبه صورةً محرمة - امرأة أو صبي - فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

(١) لأن ذلك أسر للبدن وهو من المصائب المكفرة فلا مؤاخذه عليه من جهة الأسر، أما أسر القلب فهو الذي يترتب عليه الجزاء سعادة أو شقاء.

(٢) كما عند البخاري (٩٧) ومسلم (١٥٤).

(٣) البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١).

وهؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها مستعبداً لها؛ اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألد ولا أمتع ولا أطيب. والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحسوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروهه. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فإن الصلاة فيها دفع مكروهه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب

دفع ذلك، فإنها تُفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك»^(١).

الرابع عشر: تحقيق التوكل على الله تعالى.

ويكفي المتوكل غناء وفلاحاً ونجحاً قول الحكيم العليم الغني الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. فمن توكل على الله وفوض أمره إليه، ولجأ لعزیز جنابه، واستغنى به عمن سواه؛ فقد حقق عبودية الافتقار، والذي نفسي بيده هو تحقيق بالمدد الرباني واللطف الرحماني والكفاية التامة والغوث العاجل في دينه ودنياه.

والتوكل فرع عن الافتقار وثمره له، وعلى قدر تحقيقه تكون ثمرته وكفايته، وقد بسطت الكلام في التوكل في كتاب سابق بما أغنى عن تكراره.

(١) العبودية لابن تيمية (١٠١ - ١٢٠) مختصراً.

الخامس عشر: ومن وسائل تحصيل الافتقار إلى العلي الغفار: الخلوة بالنفس متفكراً.

وقد سبق في كتاب الأنس بيان ذلك، ونبيّن هنا أن المفتقر إلى الله مخلوق طيني ترابي، تطغى عليه المادة حيناً، وتعشيه غياية الطبع الجهول الغفول حيناً، فلا بد لمن نصّح نفسه من ساعات يقف فيها مناجياً نفسه الأمانة واعظاً لها حتى تكون لربها مطمئنة ساكنة، وبطريق سعادتها مبصرة سالكة.

«فالناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسرّ بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه»^(١).

ومن مواظب أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في هذا الشأن: «إخواني! الخلوة مَهْرُ بَكر الفكر، وسُلَمُ معراج الهمة، حريمُ العُزلة مصونٌ من عيب العبث، إذا خلت دار الخلوة عن الصُّور، تفرَّغ القلب لملاحظة المعاني.

يا هذا! إذا رُزقت يقظةً فصنّها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة نهابة، احذر معاشرّة الجُهاّل، فإن الطبع لصٌّ، لا تُصادقنّ فاسقاً، فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك.

يا أفراخ التوبة! لازموا أوكار الخلوة، فإن هِرَّ الهوى صَيُود، إياك والتقرب

(١) الفوائد (١/ ١٩٦).

من طرف الوكر، والخروج من بيت العزلة، حتى يتكامل نبات الخوافي^(١) وإلا كنت رزق الصائد.

الأنس بالإنس كالغراء، المخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها تشتيت الهم.

أقلُّ ما في سقوط الذئب في غنمٍ إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنم
واعلم أن قطع العلائق أصل الأصول لطيب الوصول.

كان أويس يهرب من الناس فيقولون: مجنون، وصَفَ الرسول ﷺ لأصحابه صفته، فقوي تَوْقُ عمر، وكان في كل عام يسأل عنه أهل اليمن^(٢).

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعْمَانُ بعدنا وَحَبَّ إلينا بطنُ نَعْمَانِ واديا

لما كانت آخر حجة حجها عمر، قام على أبي قيس فنادى: أفيكم أويس؟

وإني للشوق من بعدهم أُرَاعِي الجنوبَ مَرَاحًا وَمَغْدَى
وأفرح من نحو أوطانهم بغيث يجلجل برقًا ورعدا
إذا طلع الركب يَمَمْتُهُمْ أَحْيِي الوجوه كهولًا ومُردَا
أسائلهم عن عقيق الحمى وعن أرض نجدٍ ومن حلّ نجدا

(١) الخوافي: جمع خافيه وهي ما دون الريشات العشر من مقدّم الجناح في الطائر، والريشات الطوال تسمّى: القوادم.

(٢) وفي ثبوت بعض أخبار أويس كلام.

نشـدتكم الله فليـخـبرنـَّ من كان أقرب بالرمـل عهـدا
هل الدار بالـجـزع مأهولة أثار الـربيع عليها وأسدى

كان أويس يأتي المزابل إذا جاع، فأتاها يوماً فنبـح عليه كلبٌ، فقال: يا
كلب! لا تؤذ من لا يؤذك، كل مما يليك، وآكل مما يليني، فإن دخلت الجنة
فأنا خير منك، وإن دخلت النار فأنت خير مني.

ذُلُّ الفتى في الحب مكرمةٌ وخضوعه لحبيبه شرفٌ

صاحبُ أهل الدين وصافهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن
معهم بالتأدب في دارهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارهم، إن لم يكن لك مكنةُ
البذر ولم تُطق مراعاة الزرع، فقَفْ في رفقة ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٨] أنت في وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات البهائم
هائم.

وإن صدقت في طلابهم فانفض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين
قادر. تعرّض لمن أعطاهم وسلّ فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع به فقير، ورُبَّ
فضل فاز به صغير، علِم الخضر ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطي
عن داود.

يا هذا! لا تحتقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم، إقرارك
بالإفلاس غنى، اعترافك بالخطأ إصابة، تنكيس رأسك بالندم رفعة، عرّضت
سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿البقرة: ٣٠﴾ وقال آدم: ما عندي إلا فلوس إفلاسٍ نقشها ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فقليل: هذا الذي ينفق على خزانة الخاص، أنين المذنبين أحبُّ إلينا من زجل المسبحين.

واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا الأسرار حتى درّت الآفاق

يا معاشر المذنبين! إن كان يأجوج الطبع، ومأجوج الهوى، قد عاثوا في أرض قلوبكم ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] اجمعوا عزائم قوية تشابه زُبْر الحديد، وتفكروا في خطاياكم، لتثور صُعداءُ الأسف، شيّدوا بُنيان العزائم بهجر المألوف ليستحجر البناء، هكذا بناء الأولياء قبلكم، فجاء الأعداء ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزماً ما مَرَضَ المرءُ فيه ليس همّاً ما عاقَ عنه الظلامُ

الجدَّ الجدَّ، فما تحتمل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم، فجعجعوا بالإبل^(١).

كان أَسيد الضبِّي إذا عوتب في كثرة بكائه يقول: كيف لا أبكي وأنا أموت غداً؟

وكانت عابدةٌ لا تنام من الليل إلا يسيراً، فعوتبت في ذلك فقالت: كفى

(١) جعجع بالإبل: حرّكها للنهوض.

بطول الرقدة في القبور رقادًا.

هذه طريقهم فأين السالك؟ هذه صفاتهم فأين الطالب؟^(١).



(١) المدهشات (مختارات من المدهش لابن الجوزي) للمؤلف (٨٦-٨٩).

آفات على طريق الافتقار

أمر هذا خطره، وهذا شأنه؛ حريٌّ بأن يُجلبَ عليه العدو الرجيم بخيله ويركض برجله في سبيل إغواء أولاد الكريم على ربه آدم عليه السلام.

ولما علم أن الأبوين استعاذا بالله منه، واعترفا بذنبهما، وتوسلا إلى مغفرة ربهما بإظهار افتقارهما؛ فقد شدَّ حيلَه ومدَّ حوله ليغوي من اسطاع عن ذلك المرتع المخصب والربيع الهنيِّ والكنز المرجح، لذا أمسى وأصبح يلقي وساوسه في روع ابن آدم بأنه غنيٌّ عن ربه، وبأنه مكتفٍ بقوته وحوله وغناه عن كل ما سواه، ولو بصيده في لحظات الغفلات التي لا يلبث أكثرهم أن يثوبوا من عمياء الضلال وحمأة الفجور لنور البصائر واستقامة السلوك.

فهذه آفات ألقاها الشيطان في طريق السُّلَّك إلى ربهم في صراط الافتقار، فمنها:

أولاً: العوائد المانعة والعلائق الجاذبة:

فالنفس تنجذب لثقله طينها، وما تضمنه ذلك من رؤية الأسباب دون مسببها، والتعلق بها دون خالقها، وما يتبع ذلك من الإخلاد للفانية والغفلة عن الباقية. «هذا، وإن الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق، فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من

الرسوم والأوضاع^(١) التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع، فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع!

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه^(٢)، وهي ثلاثة أمور: شرك، وبدعة، ومعصية. فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد إلا إذا أخذ في أهبة السفر وتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعداً فلا تظهر له كوامنها وقواطعها^(٣).

وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه

(١) كالهيات والأحوال والأوراد ونحو ذلك مما لم تأت به الشريعة، كذلك بعض العادات والتقاليد والسلوم التي جعلها الناس مضاهية للشريعة، بل مقدمة عليها عند التنازع.

(٢) وهي حفر النار.

(٣) لأن الكسل والإخلال إلى الدنيا أو الضلال يجثم على القلب فيحول بين صاحبه ورؤية هذه الحتوف الخطيرة، حتى إذا شعّ نور التوحيد وسطع طريق السنة وأشرقت شمس التوبة انقشعت بإذن الله عن القلب ظلماته وكدره وغيبه فطار بأجنحة التوفيق إلى الملاء الأعلى، ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الأمر الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه. وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب: هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه.

ولما كَمَّلَ الرسول ﷺ مقام الافتقار إلى الله سبحانه أخرج الخلائق كلهم إليه في الدنيا والآخرة، أما حاجتهم إليه في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم، وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسول إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم، فكلهم يتأخر عن الشفاعة، فيشفع لهم، وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة ﷻ^(١).

ثانيًا: التخيُّط في السير على غير هدى من الله.

فلا بد للسرائر للدار الآخرة على بصيرة أن يكون له منهج سليم واضح لا لبس فيه، وأن يكون جادًا في مسيره وليس متوانيًا كسولًا، كما أن عليه أن يحاسب نفسه الأمانة ويخطمها بزمام القوة والشفقة، فلئن غفلت ينبغي لنهيته أن تنتبه، ولئن غابت فعلى عقله أن يحضر، قبل أن لا تحين ساعة مناص مما لا خلاص منه! «وَتَمَّ عَشْرَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٍ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا: عِلْمٌ لَا يَعْمَلُ بِهِ، وَعَمَلٌ لَا إِخْلَاصَ فِيهِ وَلَا اقْتِدَاءَ، وَمَالٌ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَمْتَعُ بِهِ جَامِعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا

(١) الفوائد لابن القيم (١/٢٢٥ - ٢٢٦).

يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته، ومحبة لا تتقيد برضى المحبوب وامتنال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارقته، أو اغتنام بر وقربه، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله، ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة:

إضاعة القلب، وإضاعة الوقت. فإضاعة القلب من إثارة الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل. فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل. والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان. العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته^(١).

واعلم أن الطلب لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمر العمل الصالح. وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه، فإذا اجتمعا أثمر إجابة الدعاء. والخشية لقاح المحبة، فإذا اجتمعا أثمر امتثال الأوامر واجتناب

(١) فأخطر آثار الذنوب أن يُطبع على القلب أو أن تُيسر له معاصٍ أخرى وهو لا يعلم أنه مستدرج مفتون، عيادًا بالله تعالى.

النواهي. والصبر لقاح اليقين، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وصحة الاقتداء بالرسول ﷺ لقاح الإخلاص، فإذا اجتمعا أثمر قبول العمل والاعتداد به. والعمل لقاح العلم، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئاً. والحلم لقاح العلم^(١)، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة، وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع. والعزيمة لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العلياء كل مكان، فتخلف الكمالات: إما من عدم البصيرة، وإما من عدم العزيمة. وحسن القصد لقاح لصحة الذهن، فإذا فقدوا فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمر أنواع الخيرات. وصحة الرأي لقاح الشجاعة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن قعدا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهور والعطب.

والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما، قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك»^(٢) والنصيحة لقاح العقل، فكلما قويت

(١) فالعلم سيد الأخلاق، والعلم سيد الأفكار.

(٢) وهذا الفقه الحسني ليس بغريب، فقد برهن على تنظيره بمواقفه المشهودة إبان فتنه =

النصيحة قوي العقل واستنار. والتذكر والتفكر كل منهما لقاح الآخر، إذا اجتمعا انتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. والتقوى لقاح التوكل، فإذا اجتمعا استقام القلب. ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة، فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد.

هذا وللعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هوّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفّه حقّه شدّد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [٢٦] إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

وتأمل قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وكيف جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك

ابن الأشعث وأصحابه، وهي الفتنة التي غلت فيها مراحل الفتنة بالأمة سنيناً واحترق في أتونها كثيراً من خيرة القراء وأكابر فحول العلماء، أما الحسن فكان يزغ الناس عنها طاقته، حتى رُمي في تدينه وأمانته، حتى إذا انجلت قفرة الغمة رأوه ناصعاً طيباً، فعاد ذاّموه له حامدين، ومعادوه له شاكرين، فالفتن إذا أقبلت اختلطت ولم ير حقيقتها سوى أفذاذ العلماء، فإذا أدبرت رآها الجميع بعد الفوات ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء.

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده، ولا يقدر عليه. وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يُرَدَّ لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتَهت إلى خلقه ومشيتته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه. فاجتمع ما يُراد منه كله في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يُراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمرادٌ لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين. فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه

ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

هذا وإن العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر وإلى اللطف عند النوازل. وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كُمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له مستكيناً ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغلته مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيَّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يُجري عليه سيده أحكامه، رضى أو سخط، فإن رضى نال الرضا وإن سخط فحظَّه السخط.

فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

والعبد لا يزال منقطعاً عن الله حتى تتصل إرادته ومحبه بوجه الأعلى، والمراد بهذا الاتصال أن تُفضي المحبة إليه وتتعلق به وحده، فلا يحجبها شيء دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة، والتفاتة في حال الذكر إلى غير

مذكوره، فحيث يتصل الذكر به، ويتصل العمل بأوامره ونواهيه، فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها، ويترك المناهي لكونه نهى عنها وأبغضها. فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه.

ويتصل التوكل والحب به، بحيث يصير واثقاً به سبحانه، مطمئناً إليه، راضياً بحسن تدبيره له، غير متهم له في حال من الأحوال. ويتصل فقره وفاقه به سبحانه دون سواه، ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده، فلا يخاف غيره، ولا يرجوه، ولا يفرح به كل الفرح، ولا يسر به غاية السرور، وإن ناله بالخلق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون القلب إلا به سبحانه، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به، وإن حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به.

فلا فرحة ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاته. وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها، وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الإسلام والإيمان والقرآن كما فسرهم الصحابة والتابعون.

والمقصود: أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل، وإلا فهو مقطوع عن ربه، متصل بحظه ونفسه، ملبس عليه في معرفته وإرادته وسلوكه.

وقد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزعك شكرها، قال تعالى:

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وقال:
 ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال: ﴿وَأَشْكُرُواْ
 نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوقيفه، والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له الى كشفه عن نفسه. فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهاال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها.

فلا ينفك عن العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرغبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء. فإن وَفَّقَ عبده أقبل بقلبه إليه، وملاه رغبة ورهبة. وإن خذله تركه ونفسه، ولم يأخذ بقلبه إليه، ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن»^(١).

وقال موضعاً وباسطاً معناه السابق: «قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٢ - ٢٠٩) بتصرف واختصار واقتصار.

[الأنعام: ٥٣]، فهو سبحانه أعلمُ بمواقع الفضل، ومحالُّ التخصيص، ومحالُّ الحرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرَّم، فمن ردَّه المنعُ إلى الافتقار إليه والتذلُّل له، وتملُّقه، انقلب المنعُ في حقه عطاءً، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه، انقلب العطاءُ في حقه منعاً، فكلُّ ما شغل العبدَ عن الله، فهو مشؤوم عليه، وكلُّ ما ردَّه إليه فهو رحمة به.

والربُّ تعالى يُريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعلُ حتى يُريد سبحانه من نفسه أن يُعينه، فهو سبحانه أراد منَّا الاستقامةَ دائماً، واتخاذَ السبيلِ إليه، وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتى يُريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيتته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يُعينه، ولا سبيلَ له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فإن كان مع العبد روح أخرى، نسبتها إلى روحه، كنسبة روحه إلى بدنه يستدعى بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبدُ فاعلاً، وإلا فمحله غير قابلٍ للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء، رجع بالحرمان، ولا يلو من إلا نفسه.

والنبي ﷺ استعاذ من الهمِّ والحزن^(١)، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان، فإنَّ تخلف كمال العبد وصلاحه عنه، فهو إما أن يكون

(١) البخاري (٦٣٦٩) ومسلم (٢٧٠٦).

لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادراً عليه، لكن لا يُريدُ فهو كسل. وينشأ عن هاتين الصفتين فواتُ كُلِّ خير، وحصولُ كُلِّ شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه، وهو الجبن، وعن النفع بماله، وهو البخل. ثم ينشأ عليه بذلك غلبتان: غلبة بحق، وهى غلبة الدّين، وغلبة بباطل، وهى غلبة الرّجال. وكلُّ هذه المفاصد ثمرة العجز والكسل^(١).

ثالثاً: ومن الآفات: سؤال المخلوق والافتقار إليه.

وقد أشرنا لشيء من هذا قريباً، ونزيد القول بأن محور الافتقار هو الشعور أولاً ثم الطلب ثانياً، فمن صح شعوره وتحقق صدق افتقاره الوحيد للرب الواحد فلا تسل عن غناه، وعلى قدر ذلك يحصل المؤمل بغيته، والعكس صحيح فإذا اضطرب الشعور أو التصور أو ضعف أو غشيتته سحابة غين فالنقص يدبُّ لا محالة. لذا فمن سأل للعالم مخلوقاً - حتى فيما يجوز - فليتنفّذ كمال يقينه وافتقاره وتوحيده!

قال شيخ الإسلام: «فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال، هو مأمورٌ بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء؛ لا دعاء ولا غير دعاء، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء؛ لا دعاء ولا غيره.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٢/٣٦٢ - ٣٦٣).

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب، بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع، ويكون المسئول مأمورًا بالإعطاء قبل السؤال، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ، فإنه أجل قدرًا وأغنى بالله من غيره.

فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفسد:

مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك.

ومفسدة إيذاء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق.

وفيه ذل لغير الله وهو ظلم النفس.

فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله. وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما يتفعلون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات، وإن كان هو يتفعل بدعائهم له فهو أيضًا يتفعل بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة.

فإنه ثبت عنه في الصحيح^(١) أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا». ومحمد ﷺ هو الداعي إلى ما تفعله أمتة من الخيرات، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا.

(١) مسلم (٤/٢٠٦٠) (٤٧).

ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال، لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيئاً. وليس كذلك الأبوان، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره، وإنما يتتبع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب، كما قال في الحديث الصحيح^(١): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يتتبع به، وولد صالح يدعو له» فالنبي ﷺ - فيما يطلبه من أمته من الدعاء - طلبه طلبٌ أمر وترغيب ليس بطلب سؤال. فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه، فهذا قد أمر الله به في القرآن بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة. ومن هذا الباب قول القائل^(٢): «إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قال: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قال: النصف؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك» قال: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإذا زدت فهو خير لك» قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إِذَا تُكْفَى هَمْكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ» رواه أحمد^(٣) في مسنده والترمذي^(٤) فإن هذا كان له دعاء يدعو به، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه

(١) صحيح مسلم (٣/١٢٥٥).

(٢) هو أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) (١٣٦/٥) وحسنه ابن حجر في الفتح (١١/١٧٢).

(٤) (٢٤٥٧) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٧٠).

الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته، فإنه كما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرًا، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقاتل الملائكة: «آمين، ولك بمثل»^(١) فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك.

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ولا واجب ولا مستحب بل ولا مباح، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة؛ لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة، والشرعية إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل إما أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة، وكلاهما غير مشروع.

فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئًا. ومن عبادته الإحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو بهم، لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين، وكانوا مؤذنين ظالمين لمن يسألونه، وكانوا ظالمين لأنفسهم. فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة.

(١) مسلم (٢٠٩٤/٤).

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد. فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وهذا أمر بمعالي الأخلاق، وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها.

وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه الحاكم في صحيحه^(١) وهذا ثابت عنه في الصحيح. فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراف به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله؟

وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه؟»^(٢).

رابعاً: الشُّبه التي تعترى قلب المفتقر لجهله فيظن الباطل حقاً.

فالافتقار عبادة، والعبادة لا بد أن تكون على السنة، ولإبليس مداخل خفية على المتعبدين، فيلقي البهرج في طريقهم ليلهيهم عن الثمين، ويشغلهم

(١) المستدرک وصححه ووافقه الذهبي (٦١٣/٢) وأحمد (٣٨١/٢).

(٢) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة (٧١/٢ - ٧٩) مختصراً.

ببنيات الطريق حتى يفوتهم الحق في نهاية الطريق.

قال ابن القيم: «وقد أجمعت هذه الطائفة^(١) على أنه لا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر ولا دخول عليه إلا من بابه.

وقال: وإن لترك طلب الدنيا آفات، ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك، بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها. فان قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها، فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟ قلت: من وجوه شتى أحدها: أنه إذا تركها وهو بشر لا ملك؛ تعلق قلبه بما يقيمه وقيته ويعيشه وما هو محتاج إليه، فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا، وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه يردها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبج عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعتة، بل أعطاها حظها وطلبها بما عليها من الحق. وهذه طريقة الرسل وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك كما قال النبي ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا، ولربك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا، ولضيفك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه»^(٢).

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة؛

(١) أي شيوخ المتصوفة على اختلاف طرائقهم.

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري (١٩٦٨).

مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن وقطاع الطريق على القلوب، كأهل البدع، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم، ويتقوى على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح، ولا يشتغل به.

ومن آفات الترك: تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها وعدم أخذها: ما يداخله من الكبر والعجب والزهو، وهذا يقابل الزهد فيها وتركها، كما أن كسرة الأخذ وذلتة وتواضعه يقابل الأخذ التارك. ففي الأخذ آفات، وفي الترك آفات.

فالفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك، وهذا لا يحصل إلا بفقته في الفقر»^(١).



(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٦) بتصرف يسير.

الافتقار وشهود القدر

المؤمن إذا شهد ضرورته وفاقته لرحمة ربه فإن لا بدّ ماّر بالقدر، الذي هو سرّ الخلق ونظام التوحيد، وهذا الباب العظيم هو ركن من أركان الإيمان، وقد ظلت فيه أفهام وحارت في تفصيله ألباب، فهدى الله من شاء من عباده فيه وبصّرهم ووفقهم.

واعلم أنه يكفيك في باب القدر أن تعلم التالي:

كل مخلوق لا يخرج عن قَدَرِ الله تعالى ولا قُدْرته طرفة عين، والله سبحانه قد علم كل شيء بتفاصيله وکلياته وجزئياته، كما أنه قد كتب كل شيء من هذه الدنيا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأنه لا يخرج شيء عن مشيئته وإرادته البتّة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقد أعطى عبده مشيئة وإرادة حقيقية يحاسبه على وفقها، وهي لا تخرج في النهاية عن مشيئته سبحانه بتوفيق من شاء بإمداده بأسباب تحصيل الخير، وخذلان من شاء بمنع أسباب الخير عنه، وأن مشيئة الله الكونية القدريّة شاملة لكل شيء، فقد يشاء قَدَرًا وكونًا ما لا يحبّه دينًا وشرعًا لكنه مقتضى حكمته العليّة، وهذا هو أمره القدري، فهو واقع لا محالة فلا يتخلف ولا يتأخر، أما إرادته الشرعية فهي أمره الشرعي ولا تكون إلا فيما يحبه ويرضاه، وقد تُوافق القدر الكوني والمشيئة الكونية رحمة بعبده وإكرامًا، وقد تتخلف عنها ابتلاء من الله تعالى لعبده وخذلانًا. وأن كل شيء هو مخلوق لله، فالله خالق كل شيء.

فمراتب القدر أربع: العلم، والكتابة، والمشية، والخلق.

ولما كان فهمُ القَدَر على وفق مذهب السلف الصالح شرطاً لسلامة المعتقد وصحة الإيمان واستقامة المسلك رأيت أن يكون الحديث فيه منبسّطاً مفصّلاً على قدر حاجة القارئ الكريم، بدون دخول في مذاهب المبتدعة المضلّة، مع الإجابة عن بعض الإشكالات التي ترد ذهن بعض من طرق علمُ القدر سمعه وقلبه. وقد كفانا ابن القيم كثيراً من تلك المؤنة فجزاه عنا خيراً.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فإن أصررت على اتهام القدر، وقلت: فالسبب الذي أصبت منه وأتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم، وكان في الكتاب مسطوراً، فلا بد منه على الرغم مني، وكيف لي أن أنفك منه وقد أودع الكتاب الأول قبل بدء الخليقة، والكتاب الثاني قبل خروجي إلى هذا العالم، وأنا في ظلمات الأحشاء حين أمر الملك بكتب الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، فلو جريت إلى سعادتي ما جريت حتى بقي بيني وبينها شبر لغلب عليّ الكتاب، فأدركتني الشقاوة، فما حيلة من قلبه بيد غيره يقلبه كيف يشاء، ويصرفه كيف أراد، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وهو الذي يثبت قلب العبد إذا شاء، ويزلّزه إذا شاء، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه، لا يتحرك إلا بإذنه ومشئته؟

قال أعلمُ الخلق بربه: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه» ثم قال: «اللهم

مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»^(١) وكان أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب»^(٢).

وقال بعض السلف: «مثل القلب مثل الريشة في أرض فلاة، تقلبها الرياح ظهرًا لبطن»^(٣).

فما حيلة قلب هو بيد مقلبه ومصرّفه، وهل له مشيئة بدون مشيئته؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

وقال طاووس: «أدركت ثلاثمئة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر»^(٤).

وقال أيوب السخيتاني: «أدركت الناس وما كلامهم إلا إن قُضي، إن قُدِّر»^(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]: «خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق الخير والشر، فخير

(١) أحمد (١٧٦) وصححه الأرناؤوط، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦) والوادعي في الصحيح المسند (١١٩٥).

(٢) البخاري (٦٦١٧).

(٣) ذكره أحمد في المسند (١٩٧٥٧) موقوفًا على أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح أصول اعتقاد اهل السنة للالكائي (٥٣٥).

(٥) البيهقي في القضاء والقدر (٢١٣).

الخير السعادة، وشرُّ الشرِّ الشقاوة»^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الديلي قال: «قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قُضيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت لا بل فيما قضي عليهم ومضى.

قال: أف يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففرغت فرعاً شديداً، وقلت: إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال: سدّدك الله، إنما سألتك لأحرز عقلك^(٢)، إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قُضيَ عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «فيما قُضيَ عليهم ومضى» فقال الرجل: فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «من كان خَلَقَهُ اللهُ لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ^(٧) فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿الشَّمْسُ: ٧ - ٨﴾»^(٣).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال:

(١) تفسير الطبري (٢٧/١١١).

(٢) أي أختبر عقلك هل يقوم لهذا السؤال أم لا؟

(٣) مسلم (٢٦٥٠).

«عَلِمَ مِنْ إِبْلِيسَ الْمَعْصِيَةَ، وَخَلَقَهُ لَهَا»^(١).

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال ابن عباس: «إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنين وكافرين»^(٢).

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: «يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله»^(٣).

وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩] قالوا: «خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف»^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا

(١) تفسير الطبري (٤٧٧/١).

(٢) الطبري (٣٨٢/١٢).

(٣) الطبري (٤٦٨/١٣).

(٤) الطبري (٥٣٥/١٥).

فَعَلُوهُ ﴿ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَٰهَهُم نَصِيْبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧] أي نصيبهم مما كتب لهم.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكَنتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] قال الحسن وغيره: «الشرك والتكذيب»^(١).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ﴾ [الجنات: ٢٣] قال: «أضله في سابق علمه»^(٢).

وقال في قوله تعالى حكاية عن عدوه إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] قال: «أضللتني»^(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز: «لو أراد الله أن لا يُعصى لم يخلق إبليس، وقد فصل لكم وبين لكم ما أنتم عليه بفاتنين إلا من قُدِّر له أن يصلى الجحيم»^(٤).

وقال وهيب بن خالد: أنبأنا خالد قال: قلت للحسن: ألهذه خُلق آدم - يعني السماء - أم للأرض؟ فقال: «لا، بل للأرض» قال: قلت: أرأيت لو

(١) الطبري (١١٥/١٩).

(٢) الطبري (١٥١/٢٥).

(٣) الطبري (٣٣٢/١٢).

(٤) الطبري (١٠٩/٢٣).

اعتصم من الخطيئة فلم يعملها، أكان ترك في الجنة؟ قال: «سبحان الله، كان لا بد له من أن يعملها»^(١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: «مكتوب في عنقه شقي أو سعيد»^(٢).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] يقول: «ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيئاً»^(٣).

وفي صحيح مسلم عن طاووس: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ يقول: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»^(٤).

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»^(٥).

وفي صحيحه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن

(١) اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٠٦).

(٢) الطبري (٥١/١٥) بنحوه.

(٣) ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٣٣/٤).

(٤) مسلم (٢٦٥٥).

(٥) مسلم (٢٦٥٣).

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، فاحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء الله فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

وفي صحيحه أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النذر لا يُقدَّر لابن آدم شيئا لم يكن الله قدره، ولكن النذر يوافق القدر، فيُخرج ذلك من البخل ما لم يكن يريد أن يخرج»^(٢).

وفي حديث جبرائيل وسؤاله النبي ﷺ عن الإيمان قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره»^(٣).

وفي الصحيحين حديث ابن مسعود في التخليق وفيه: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»^(٤).

وفي الصحيحين حديث علي عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا كتب

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) مسلم (١٦٤٠) وانظر البخاري (٦٦٩٤).

(٣) مسلم (٨).

(٤) البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

مقعده من النار ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠] (١).

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ سُئِلَ: أَعْلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قِيلَ: ففيم يعمل العاملون؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» (٢).

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ غُلَامٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا، عَصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يُدْرِكِ السَّوَاءَ، وَلَمْ يَعْمَلْهُ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ. وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ» (٣).

وفي الصحيحين عن ابن عباس وأبي بن كعب عن النبي ﷺ قَالَ: «الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ، طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبُويهِ طَغْيَانًا

(١) البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤٩).

(٣) مسلم (٢٦٦٢).

وكفرًا»^(١).

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ» وفي لفظ: «فَجَعَلَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَخَذَ مِنْ نُورِهِ فَأَلْقَاهُ عَلَى تِلْكَ الظُّلْمَةِ، فَمِنْ أَصَابِهِ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ. فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ»^(٢).

وذكر راشد بن سعد عن أبي عبد الرحمن السلمي أن أبا قتادة سمع النبي ﷺ يقول: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَأَخْرَجَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي» قال قيل: علامَ نعمل: قال: «على مواقع القدر»^(٣).

في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْمَلِكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ،

(١) مسلم (٢٦٦١) ولم يروه البخاري بهذا اللفظ.

(٢) أحمد (٦٦٤٤) وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط، والترمذي وحسنه (٢٦٤٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) أحمد (١٧٦٦٠) وابن حبان (٣٣٨) والحاكم (٣١/١) وصححاه. وصححه الألباني في السلسلة (٤٨) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند (١٠٥٢).

ويكتب عمله وأثره ورزقه. ثم تطوى الصحف ولا يزداد فيها ولا ينقص»^(١).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُنفخ^(٢) فيه الروح، ويُبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»^(٣).

وفي الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب» قال الترمذي حديث حسن صحيح^(٤).

وفي الترمذي عن ابن عباس قال: ردت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. رُفعت الأقاليم، وجفت الصحف. لو جَهدت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو جَهدت الأمة على أن يضررك بشيء لم يضررك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. واعلم أن النصر

(١) مسلم (٢٦٤٤).

(٢) الغالب تذكير الروح، والأقل تأنيثها، وكلاهما صحيح، والتذكير أصح.

(٣) البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

(٤) (٢٩٥٥) ورواه أبو داود (٤٦٩٣).

مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

وقال عكرمة عن ابن عباس: «كان الهدهد يدل سليمان على الماء» فقلت له: وكيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ عليه التراب؟ فقال: «أعَضَّكَ اللهُ بِهَنٍ أُنْيِكَ»^(٢) إذا جاء القضاء ذهب البصر»^(٣).

وصح عن ابن عمر أن يحيى بن يعمر قال له: إن ناسًا يقولون: لا قَدَر، وإن الأمر أُنْفُ»^(٤) فقال: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أن ابن عمر بريء منهم، وأنهم براء منه»^(٥).

وقد تقدم قول أبي بن كعب وحذيفة وابن مسعود وزيد بن ثابت^(٦): «لو أنفقت مثل جبل أحد ذهبًا في سبيل الله، ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. وإن مت على غير ذلك دخلت النار»^(٧).

(١) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وصححه الترمذي وابن رجب.

(٢) وهي مما تقولها العرب ولا تريد حقيقة معناها.

(٣) اللالكائي (١٢٢٨) وصححه سننه زائد النشيري، مع التنبيه إلى استفادتي من كثير من تخرجه لكتاب طريق المهجرتين، جزاه الله خيرًا.

(٤) أي مستأنف من غير سابق قضاء، وهو قول القدرية النُّفَاة.

(٥) مسلم (٨).

(٦) ورفع زيد إلى النبي ﷺ.

(٧) أبو داود (٤٦٩٩) وأحمد (٢١٥٨٩) وغيرهما.

وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان أربع: الصبر للحُكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب»^(١).

والآثار في ذلك أكثر من أن تذكر، وإنما أشرنا إلى بعضها إشارة.

فالجواب^(٢): أن ههنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك، زلت فيه أقدام، فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء.

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس. وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه. وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله.

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظلمة الأمارة بالسوء، وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضّرّ على العباد من إبليس، كما صرح به بعضهم!

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عاتبت بعض شيوخ هؤلاء فقال لي: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراد، فأني

(١) اللالكائي (١٢٣٨).

(٢) أي جواب قوله في تصدير كلامه: «فإن أصررت على اتهام القدر...».

شيء أبغض منه؟ قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من في الكون، وعاداهم ولعنهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، أكنت ولياً للمحبوب أو عدواً له؟ قال: فكأننا ألقم حجراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته^(١):

ويُدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طُراً فرقة القدرية سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا به الله أو ماروا به للشريعة

وسمعه يقول: القدرية المذمومون في السنة على لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته وهم القدرية المجوسية. والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهم القدرية المشركية. والمخاصمون به الرب سبحانه، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] ولم يعترف بالذنب ويؤبه به، كما اعترف به آدم. فمن أقر بالذنب، وباء به، ونزه ربه، فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برأ نفسه، واحتج على ربه بالقدر، فقد أشبه إبليس^(٢).

(١) وهذه شهادة من تلميذه ابن القيم في نسبة التائية إليه، وهي كافية، فهو من أعلم الناس بمصنفات شيخه، وقد نسب إليه أبياتاً أخرى في مواضع من مصنفاته، وقد يكون إغفال بعضهم لذكرها مع مسرد مصنفاته قد سقط سهواً، أو قد رأوها قصيرة بالنسبة لمصنف مستقل، فهي أشبه بفتوى أو نحوها.

(٢) قسم شيخ الإسلام الضلال في باب القدر لثلاثة أقسام، ولقب كل قسم بما يلائمه، =

ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبلسية والمشركية شر من القدرية النفاة،

ومن ثم أخذت عنه هذه القسمة الثلاثية:

الأولى: القدرية المشركية. وهم المحتجون بالقدر على المعاصي. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال عنهم في الاستقامة (٢/ ١٣٩):

«وأكثر ما يُتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية، فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدرتي، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به! وإنما المشروع العكس، وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل، ويجتهد أن لا يعصي، فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار».

الثانية: القدرية المجوسية: وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد ولا شاء جميع الكائنات. فشابهوا المجوس في القول بخالقين، فالمجوس يعتقدون بإله النور وإله الظلام، وهؤلاء اتخذوا مع الله خالقاً هو العبد، إذ قالوا: إنه يخلق فعل نفسه، وأن مشيئة الله ليست عامة في المخلوقات! تعالى الله عما يقولون.

الثالثة: القدرية الإبلسية: وهم الذين يقرّون بوجود الأمر والنهي من الله، ويقولون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه، لكنهم يقولون: هذا تناقض منه، وفيه جهل وظلم، ورئيسهم إبليس الذي قال لربه مخاصماً: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُكَ﴾ [الحجر: ٣٩].

نعوذ بالله من الضلال.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تائيته:

وَيُدْعَى خَصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرّاً معشر القدرية

فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو الله ورسله، لا يقر بأمر ولا نهى، وتلك وراثته عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فهذه أربعة مواضع في القرآن، بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسول.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق، وهدى الله بفضلله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيتته العامة النافذة، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد. وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً، والمصلي مصلياً، والمتقي متقياً. وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار. وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها. وأنه يهدي من يشاء بفضلله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله

وحكمته. وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه، ولو شاء لخذلهم فعصوه. وأنه حال بين الكفار وقلوبهم، فإنه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به، ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه. وأنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم. وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى:

الأولى: علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم.

الثانية: كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه، فإنه لا خالق إلا الله، والله خالق كل شيء. فالخالق عندهم واحد، وما سواه فمخلوق. ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق. ويؤمنون مع ذلك بحكمته، وأنه حكيم في كل ما فعله وخلق، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلق. وأن حكمته حكمة حق، عائدة إليه، قائمه به كسائر صفاته. وهذه الحكمة هي الغاية المحبوبة له، المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده. ولأجلها خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأضل وهدى،

ومنع وأعطى. وهذه الحكمة هي الغاية، والفعل وسيلة إليها.

والمقصود: أن ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبههم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي، وصدقوا بالوعد والوعيد. فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصددوا بالخلق والأمر. واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولب العالم.

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قُدْرَةُ اللَّهِ»^(١) واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر.

ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين من هذه الثلاثة كثيراً كقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] وقال بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] وذكر نظير هذا فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(١) مسائل ابن هانئ (٢/١٥٥).

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه. وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه وأمره، عزيز في خلقه وأمره.

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنی، والحكمة من صفاته العلی. والشریعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به. فكل هذا يسمى حكمة.

فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشیئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده. وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشر حمداً استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره، فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة.

وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كل ما خلقه الله وأمر به، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته إليه سبحانه. وأنه من تلك الإضافة خيرٌ وحكمة، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال في دعاء الاستفتاح: «ليک وسعديک، والخیر فی یدیک، والشر ليس إلیک»^(١) فهذا النفي يقتضي

(١) مسلم (٧٧١).

امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزّهة عن كل شرٍّ، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وأسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتة. وهو المحمود على ذلك كله. فيستحيل إضافة الشر إليه.

وتحقيق ذلك: أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوباتها، كما في خطبته ﷺ: «الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»^(١) فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس، ومن سيئات الأعمال، وهي عقوباتها. وعلى هذا فالإضافة على معنى اللام من باب إضافة المتغايرين، أو يقال المراد السيئات من الأعمال، فعلى هذا الإضافة بمعنى «من» وهي من باب إضافة النوع إلى جنسه.

ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ [غافر: ٩] قال شيخنا^(٢): «وهذا أشبه إذا أريد السيئات من الأعمال. فإن أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها. إذ الواقع لا يمكن رفعه، وإن استعاذ منها قبل وقوعها لثلا تقع، فهذا هو الاستعاذة من شر النفس».

(١) أحمد (٤١١٦) وأبو داود (٢١١٨) بإسناد صحيح.

(٢) وإذا أطلقه فهو تقي الدين ابن تيمية، وانظر قوله في الفتاوى: (٢٨٩/١٨).

وإذا عرف هذا، وأنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، وكونها ذنباً تأتي من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما من نفس العبد، كما أن سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى، وهي أمور ذاتية للرب، وذات الرب سبحانه مستلزمة للحكمة والخير والجود. وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه. فمن أراد الله به خيراً أعطاه هذا الفضل، فصدر منه الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شراً أمسكه عنه، وخلاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح. وليس منعه لذلك ظلماً منه سبحانه، فإنه فضله، وليس من مَنع فضله ظالماً، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه، ولا يليق به.

وأيضاً فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه، ولا يخلي بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله. وهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر به، ويزكو به. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة، ويشكره عليها. فإن أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة

المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها. فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبه والخضوع له، كما في صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات من ليلته دخل الجنة»^(١) فقله: «أبوء لك بنعمتك عليّ» يتضمن الإقرار والإنابة إلى الله بعبوديته، فإن المباءة هي التي يبوء إليها الشخص، أي يرجع إليها رجوع استقرار، والمباءة هي المستقر، ومنه قوله ﷺ: «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»^(٢) أي ليتخذ مقعده من النار مباءةً يلزمه ويستقر فيه، لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه.

فالعبد يبوء إلى الله بنعمته عليه، ويبوء بذنبه ويرجع إليه بالاعتراف بهذا وبهذا، رجوع مطمئن إلى ربه، منيب إليه، ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض

(١) البخاري (٦٣٢٣).

(٢) البخاري (١١٠) ومسلم في المقدمة (٣).

عنه، بل رجوع من لا يعرض عن ربه، بل لا يزال مقبلاً عليه إذ كان لا بد له منه. فهو معبوده، وهو مستغاثه، لا صلاح له إلا بعبادته، فإن لم يكن معبوده هلك وفسد. ولا يمكن أن يعبد إلا بإعانه.

فقوله: «أبوء» يتضمن أني وإن جُلتُ كما يجول الفرس إما بالذنب، وإما بالتقصير في الشكر، فإني راجع منيب أو اب إليك، رجوع من لا غنى له عنك.

وذكر النعمة والذنب، لأن العبد دائماً يتقلب بينهما، فهو بين نعمة من ربه، وذنب منه هو. كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرّك إلي صاعد، كم أتحب إليك بالنعمة وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي. ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح»^(١).

وكان في زمن الحسن البصري شاب لا يرى إلا وحده، فسأله الحسن عن ذلك، فقال: إني أجدني بين نعمة من الله، وذنب مني، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً وللذنب استغفاراً. فذلك الذي شغلني عن الناس. أو كما قال، فقال له: أنت أفقه من الحسن^(٢).

فالخير كله من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [٧] ﴿فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ - ٨]

(١) أبو نعيم في الحلية (٣١/٤).

(٢) ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٦).

وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده، وهو سبحانه وإن كان أجود الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين. لا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله، ولو رأى العقلاء واحداً منهم قد وضع المسك في الحشوش والأخلية، ووضع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة؛ لاشتد نكيرهم عليه، والقدح في عقله، ونسبوه إلى السفه وخلاف الحكمة. وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان، والإحسان موضع العقوبة؛ لسفهوه وقدحوا في عقله، كما قال القائل^(١):

ووضع الندى موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء، والغذاء موضع الدواء، والاستفراغ حيث يكون اللاتق به عدمه، والإمساك حيث يليق الاستفراغ.

(١) وهو أبو الطيب المتنبي.

وكذلك وضع الماء موضع الطعام، والطعام موضع الماء، وأمثال ذلك مما يخل بالحكمة. بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يخلق له من العلوم والصنائع. فمن بهرت حكمته العقول والألباب كيف ينبغي له أن يضع الأشياء في غير مواضعها اللائقة بها.

ومن المعلوم أن أجل نعمه على عبده الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته.

ومن المعلوم أيضاً أن الأرواح منها الخبيث الذي لا أخبث منه، ومنها الطيب، وبين ذلك. وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب الخسيس الخبيث. وهو سبحانه خلق الأضداد، كما خلق الليل والنهار، والبرد والحر، والداء والدواء، والعلو والسفل. وهو أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذرها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعمة كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر، فليس من الحكمة أن يبذر البر في الصخور والرمال والسباح، وفاعل ذلك غير حكيم، فما الظن ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المحال التي هي أخبث المحال.

فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً^(١)، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته، فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة، وتعظيم

(١) أي ميراث العلم والإيمان عن الرسول ﷺ.

المُرْسَلِ، والقيام بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك.

وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله، والقيام بخلافاتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم، قال عبدالله بن مسعود: «إن الله نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض، فاختره برسالته. ثم نظر في قلوب العباد، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فاخترهم لصحبته»^(١) وفي أثر إسرائيلي: «أن الله تعالى قال لموسى: أتدري لم اخترتك لكلامي؟ قال: لا يا رب. قال: إني نظرت في قلوب العباد، فلم أر فيها أخضع من قلبك لي»^(٢) أو نحو هذا.

فالرب سبحانه إذا علم من المحل أهليةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده؛ حُبب إليه ذلك، ووضع فيه، وكتبه في قلبه، ووفقه له، وأعانه عليه، ويسر له

(١) أحمد (٣٦٠٠) والبخاري في كشف الأستار (١٣٠) بسند حسن.

(٢) سير الأعلام (٤٩٨/١٥) ولا حرج في التحديث عن بني إسرائيل فيما لم يخالف الإسلام، لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» رواه أحمد (١٠١٣٠) وأبو داود (٣٦٦٤) وصححه الألباني. قال الخطابي: «ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل، ورفع الحرج عمن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد، وذلك لأنه أمر قد تعذر في أخبارهم لبعد المسافة وطول المدة، ووقوع الفترة بين زمني النبوة».

طرقه، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك. ثم تولاه بلطفه وتديره وتيسيره وتربيته أحسن من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شيء إليه، فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوقيقه، ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به، فيزداد العبد به معرفة وله محبة وإليه إنابة وعليه توكلًا، ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد معه سواه. وهذا هو الذي عرف قدر النعمة، وعرف المنعم، وأقر بنعمته، وصرفها في مرضاته.

واقترضت حكمة الرب وجوده وكرمه وإحسانه أَنْ بَذَرَ في هذا القلب بذرة الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة؛ فأنبئت أرضه الزاكية من كل زوج كريم. كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمَثَل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير. وكان منها طائفة أجادب، أمسكت الماء، فسقي الناس وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً. فذلك مَثَلٌ من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

فمثل القلوب بالأرض التي هي محل النبات والثمار، ومثل الوحي الذي

(١) البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزله على الأرض. فمن الأرض أرض طيبة قابلة للماء والنبات، فلما أصابها الماء أنبت ما انتفع به الآدميون البهائم وغيرهم، وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه، المستعد لركائه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرض أرض صلبة منخفضة، غير مرتفعة ولا رابية، قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها، ففيها قوة الحفظ، وليس فيها قوة النبات. فلما حصل فيها الماء أمسكته وحفظته، فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم. وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه، وأداه إلى من هو أفهم له منه، وأفقه منه فيه، وأعرف بمراحه. وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرض قيعان، وهي المستوية التي لا تُنبت، إما لكونها سبخة أو رمالاً، ولا يستقر فيها الماء، فإذا وقع عليها الماء ذهب ضائعاً، لم تمسكه لشرب الناس، ولم تنبت به كلاً، لأنها غير قابلة لحفظ الماء، ولا لنبات الكلاً والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأساً. ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحي في قلبه، فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته، فمن لم ينبت قلبه شيئاً من الخير البتة؛ فهذا من أشقى الأشقياء. فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله.

والمقصود: أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن

يصلح لها ومن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن يمنعه من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحاً، وجعله أهلاً وقابلاً، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبب.

ومن اعترض بقوله: فهلاً جعل المحالّ كلها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد؟ فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفهم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد، وهلاً جعلها كلّها سبباً واحداً، فلم خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والدواء والداء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمرّ، والحسن والقبيح؟ وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيتته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها.

وهل حقيقة الملك إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأعداء؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيب آثارها عليها، وإيصال ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته في العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزاقاً وغفاراً وعفوّاً وحليماً ورحيماً ولم يوجد من يرزقه ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه، فممن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أوليائه كمال نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شرّ جزئي يكون من

لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يحبي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يجبس من مسافر، ويمنع من قصَّار، ويهدم من بناء، ويعوق من مصلحة؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفسدات في جنب مصالحه إلا كقطرة في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفسدات إلا موجباً لأعظم المفسدات والهلاك؟

وهذه الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده، وإنضاج ثمارهم وأقواتهم، وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطيور، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها، كم تؤذي مسافراً وغيره بحرّها، وكم تجفف رطوبة، وكم تعطش حيواناً، وكم تجبس عن مصلحة، وكم تنشف من مورد، وتحرق من زرع! ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كبير، وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه.

قلت لشيخ الإسلام: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفسدات، مشتملة على المصلحة الخالصة. فقال: خُلِقَ هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال، ولو خُلِقَتْ على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكانَ عالماً آخر غير هذا.

قال: ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الأمور لا ينفك عنه، كالحركة مثلاً المستلزمة لكونها لا تبقى، فإذا قيل لمْ لَمْ تُخْلَقِ الحركة المعيّنة باقية؟ قيل: لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان، والتحوّل من حال

إلى حال، فإذا قَدَّر ما ليس كذلك لم يكن حركة. ونفس الإنسان هي في ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضلِهِ ورحمته، فما حصل لها من كمال وخير فَمِنْ الله، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها. وهذه أمور عدمية، وليس لها من نفسها وجود ولا كمال، والأمور العدمية من لوازم وجودها، ولو جُعِلت على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الإنسانية، بل مخلوقاً آخر^(١).

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، والشر الذي يحصل لها نوعان: عدمٌ ووجودٌ.

فالأول: كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات، وعدم العمل بها. وهذا العدم ليس له فاعلٌ، إذ العدم المحض لا يكون له فاعل، لأن تأثير الفاعل إنما هو في أمر وجودي. وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل، فإن العدم ليس بشيء أصلاً، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل. فلا يقال إنه من الله، إنما يحتاج إلى الفاعل الأمور الوجودية. ولهذا من قول المسلمين كلهم: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» فكل كائن فبمشيئته كان، وما لم يكن فلعدم مشيئته.

(١) وهذا الكلام من أجود ما قيل في تفسير قوله ﷺ في ثنائه على رب العالمين سبحانه: «والشر ليس إليك» فشر الإنسان من نفسه لأن الله تعالى قطع عنه مدد التوفيق والهدى، فرجع إلى حاله الظالم الجاهل العاجز.

والمقصود: أن ما عدمته النفس من كمالها فمنها، فإنها لا تقتضي إلا العدم، أي عدم استعداد نفسه، وقوتها هو السبب في عدم هذا الكمال. فإنه كما يكون أحاد الوجودين سببا للآخر فكذلك أحد العدمين يكون سببا لعدم الآخر. والموجودُ الحادث يضاف إلى السبب المقتضي لإيجاده، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يُحدث العدم، بل يكفي في استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لانتفاء مشيئته، فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه، فظهر استحالة إضافة هذا الشر^(١) إلى الله عز وجل.

وأما الشر الثاني: وهو الشر الوجودي - كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة - فهو من لوازم ذلك العدم. فإنه متى عُدِمَ ذلك العلم النافع والعمل والصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين، فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح؛ اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى، إذ لا خالق سواه، وهو خالق كل شيء. لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لأجلها خلقه، لو لم يخلقه فأتت تلك الحكمة.

وليس من الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، فإن في وجودها من الحكم والغايات التي يحمد عليها

(١) أي الشرّ العدمي.

سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر، ووجود الشيء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعاً لغيره. وحينئذ فقد يكون هدي هذه النفوس الفاجرة وسعادتها مشروطاً بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضداد لم تنتف.

فإن قيل: فهلاً حصلت تلك اللوازم، وانتفت تلك الأضداد؟ فهذا هو السؤال الأول، وقد بينّا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لا بد منها، فلو قُدرَ عدمها لم يكن هذا العالم، بل عالماً آخر، ونشأة أخرى، وخلقاً آخر.

وبينّا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقالك هلاً تجرد الغيث والأنهار عما لا يحصل به من تغريق وتخريب وأذى؟ وهلاً تجردت الشمس عما يحصل منها من حرّ وسموم وأذى؟ وهلاً تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك؟ وهلاً تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع؟ وهلاً تجرد بدن الإنسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله؟ وهلاً تجردت فصول العام عما فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذي؟

فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال: لم كان المخلوق فقيراً محتاجاً، والفقر والحاجة صفة نقص، فهلاً تجرد منها،

وخلعت عليه خِلعة الغنى المطلق، والكمال المطلق، فهل يكون مخلوقاً إذا كان غنياً غنى مطلقاً، ومعلوم أن لوازم الخلق لا بد منها فيه؟

ولا بد للعلو من سفلى، والسفلى من مركز^(١). ولوازمُ العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها، وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة، والتجرد من علائق المواد السفلية لا بد منها. ولوازمُ السفلى والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة، وأعمالها وآثارها لا بد منها.

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خلق كلا من المحليين معموراً بأهليه وساكنيه، حكمة بالغة وقدرة قاهرة. وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به. كما يقول الناس: كل إناء بالذي فيه ينضح.

فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملاء الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين. ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سِفلة الناس

(١) وهذا بناءً على أن الكون مقبب مستدير كالكرة، فكلما صعد اتسع وكلما نزل ضاق حتى يصل إلى مركز الضيق والسفلى.

وَسَقَطُهمْ وَغَرَّتْهمْ^(١) الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة، لَقَدَحَ الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للملك. فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟

أفيلق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية، قد أدخلت إلى الأرض، وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما يشاركها فيه بل قد يزيد عليها الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها من كل مأكّل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق. فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلب والطبع على شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿[الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة، يكونون فيها على حالة واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾^(٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ

(١) الغرث: الجوع والفاقة، وتصح بفتح الراء وهو الأكثر، وتساكنها وهو الأصح، كما قال حسان: وتصبح غرثي من لحوم الغوافل.

تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥ - ٣٦] فَأُنْكَرَ عَلَيْهِمُ الْحُكْمُ بِهَذَا، وَأُخْرِجَهُ مَخْرَجَ الْإِنْكَارِ لَا مَخْرَجَ الْإِخْبَارِ، لِيُنْبَهَ الْعُقُولُ عَلَى أَنَّ هَذَا مِمَّا تُحِيلُهُ الْفَطَرُ، وَتُتَابَاهُ الْعُقُولُ السَّالِمَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ أَفْضَايُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله، فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. والله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع، وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار.

وبهذا ونحوه يُعرَف كمال القدرة وكمال الحكمة، فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يُلقِي الحرب بين قدرة الله وحكمته، فإن آمن بالقدرة قَدَحَ في الحكمة وعطَّلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها، بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيتته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلاً، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم. وقد ضرب الله الأمثال لعباده في كتابه، وبين لهم ما في لوازم ما

خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب، وما خلقه لهم من النار التي بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم، من الشر الجزئي المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فأخبر سبحانه أن الماء بسبب مخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغشاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل. فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه، ولا يرى إلا غشاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ما تحته من مادة الحياة. وكذلك ما يُستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، إذا أوقد عليها في النار لتتهدأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا يُتفَع به. وهذا لا بد منه في هذا وهذا.

وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين، وعمي عما في القرآن مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير في الدنيا والآخرة، ولم يجاوز بصره وسمعُه رعودَ وعيده وبروقها وصواعقها، وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو - بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح، ومن المعارف الإلهية، وتبين طريق العبودية التي هي غاية كمال العبد - يسيرًا، وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ

يُنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعَهُمْ فَيَءَاذِبُهُمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴿[البقرة: ١٧ - ٢٠]﴾ فهكذا حال كل من قَصَرَ نظره في بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئي جدًا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم يكن في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومن عداهم - وإن كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم - فهم كالقش والزبالة وغيث السيل، لا يعبأ بكثرتهم، ولا يقدر في الحكمة الإلهية. بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه آلاف مؤلفة من النوع الآخر، فإنه إذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها، كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده، وأثبت وأنفع وأحب إلى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له.

وهذا كالشمس، فإن الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها، وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها، من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم؟ بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به؟

وقد ضرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشر مثلاً بدولاب أو

طاحون شديد الدوران، أي شيء خطفه ألقاه تحته وأفسده، وعنده قيّمه^(١) الذي يديره، وقد أحكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدًا، فربما جاء الغرّ الذي لا يعرف فيقترب منه فيحرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه، فإذا قيل لصاحبه: لم لم تجعله ساكنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا أوقدنا نار الأتون التي تُحرق ما وقع فيها، وعندها وقاد حاذق يحشّها^(٢)، فإذا غفل عنها أفسدت، وإذا أراد أحد أن يقرب منها نهاه وحذره، فإذا استغفله من قُرب منها حتى أحرقتُه لم يقل لصاحب النار: هلا قللت حرّها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه؟ فإنه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الكلس^(٣) ولم تطبخ الأجر، ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته، وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التي خلقت عليها، والتي لا تكون نارًا إلا بها، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا. وكذلك النفس فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وما يحصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته، والله خالقها وخالق كل شيء

(١) أي المسؤول عن تشغيله وإدارته.

(٢) أي يزيد إشعالها ويعتني بها.

(٣) وهو الجير.

قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك.

فأما الأمور العدمية فهي باقية على ما كانت عليه من العدم، والإنسان جاهل ظالم بالضرورة، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإن الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وهي ظالمة نفسها، فهي الظالمة والمظلومة، إذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها. وتلك الكمالات التي عدت كان وجودها سبباً لكمالات أخرى، فصار عدمها مستلزماً لعدم تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها.

وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا فهو أمر عديمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه اعترف بنقص حظ نفسه بما حصل لها من عدم العلم والصبر بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة. ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويقي العبد من ذلك؛ وإلا ضرته آثارها ولا بد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه؛ وإلا ضره ولا بد.

وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما تصلح به النفس وتصير عاملة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، فالمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم

يغفر للإنسان فيقيه السيئات، ويرحمه فيؤتيه الحسنات؛ وإلا هلك ولا بد، إذ عاد كما كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك للخير تحركت إلى الشر فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا، لأن ما ليس حساسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا، ففي الصحيح^(١) عن النبي: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(٢) فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهَمِّ، والهَمُّ مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾^(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا^(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا^(٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿[المعارج: ١٩ - ٢٢] فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وإن كان على غيرها فلاجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه.

وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال طاووس ومقاتل

(١) لفظ (في الصحيح) عند الإطلاق يراد به أحد الصحيحين البخاري ومسلم، ولعل ابن القيم أطلقه هنا بمعنى (في الحديث الصحيح) وهذا تصحيح منه للحديث بكل حال ولكنه خارج الصحيحين.

(٢) أحمد (١٩٠٣٢) والبخاري في الأدب المفرد (٨١٣) وأُعلِّ بالإرسال. وصححه ابن تيمية في جامع الرسائل (٢٠١/٢).

وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»^(١) وقال الحسن: «هو خلقه من ماء مهين»^(٢) وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى»^(٣) والصواب: أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر. فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور. فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تحلى عنه هذا المساعد المعين فاهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي يُحمد عليها الرب سبحانه، ويشنى عليه بها. وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة وما يلزم عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته. وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية، وبرًا وفجورًا، بل أخص من ذلك مثل كونها صلاة وصيامًا وحبًا وزنى وسرقة وأكلًا وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه. فله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه

(١) زاد المسير (٦٠/٢).

(٢) زاد المسير (٦٠/٢).

(٣) زاد المسير (٦٠/٢).

لخلقه، وعلى توفيقه الموجب لطاعته، وعلى خذلانه الموقع في معصيته.

وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع. وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله في ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدّر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة.

ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبينه وبين اسمه العزيز تارة، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَلْغَى الْفَرَّاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فإن العزة تتضمن القوة، والله القوة جميعاً.

يقال عَزَّ يَعَزَّ - بفتح العين - إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز للصلابة الشديدة، وعَزَّ يَعَزَّ - بكسر العين - إذا امتنع ممن يرومه، وعَزَّ يَعَزَّ - بضم العين - إذا غلب وقهر. فأعطوا أقوى الحركات وهي الضمة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلباً ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه. فأعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط

للمتوسط^(١).

ولا ريب أن قهر المريد عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر. والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذمًا له، بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر، فقال: «لست بمتكبر، ولكني عزيز» وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر»^(٢) وقال النبي ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام»^(٣).

فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله؛ كان فعله فسادًا، كصاحب شهوات الغي والظلم الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه، ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له بقوة وعزّة، لكن لما لم يقرن بها حكمة؛ كان ذلك معونة على شره وفساده.

(١) انظر منهاج السنة (٣/٢٣٨).

(٢) البخاري (٣٨٨٤).

(٣) الترمذي (٣٦٨١) وأحمد (٥٦٩٦) بسند جيد.

وكذلك العلم كماله أن تقترن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجيهه، بل يريد ما يهواه؛ سفيهٌ غاوٍ، وعلمه عون على الشر والفساد.

هذا إذا كان عالمًا قادرًا مريدًا له إرادة من غير حكمة، وإن قُدر أنه لا إرادة له بحال؛ فهذا أولاً ممتنع من الحي، فإن وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنع، كوجود إرادة بدون الشعور. وأما القدرة والقوة إذا قُدر وجودها بدون إرادة؛ فهي كقوة الجماد، فإن القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة لا إرادة لها.

والمقصود: أن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما. واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته في خلقه وأمره، في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به.

وبالجملة: فالموفقون المهيئون هم من آمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنه على كل شيء قدير، فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها، كما لا يخرج عن علمه، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيتته. وآمنوا مع ذلك بأن لله الحجة على خلقه، وأنه لا حجة لأحد عليه، بل لله الحجة البالغة. وأنه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، بل كان تعذيبهم منه عدلاً منه

وحكمة، لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة.

ولا يجعلون القدر حجة لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به ولا يحتجون به. ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات، وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه، وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة، وأنهم هم جُنَاثُهَا، وهم الذين اجترحوها، ولا يحملونها على القضاء والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر، وطاعة وعصيان، وكفر وإيمان. وأن مشيئة الله سبحانه محيطه بذلك كإحاطة علمه به. وأنه لو شاء ألا يُعصى لما عُصي، وأنه تعالى أعزّ وأجل من أن يُعصى قسراً، والعباد أقل من ذلك وأهون. وأنه ما شاء الله كان، وكل كائن فهو بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وما لم يكن فلعدم مشيئته. فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة.

ولا يستكثر تكرار هذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة إليها، وضرورة النفوس إليها^(١)، فلو تكررت ما تكررت فالحاجة إليها في محل الضرورة والله المستعان.

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات

(١) وصدق فيما قال رَحْمَةُ اللَّهِ، ومن يعاني سؤالات الحيارى، والتباس دينهم عليهم من جهة ضعف بصيرتهم بالقدر، وما ينتج عن ذلك من ضلال وقلق وحيرة واضطراب، بل وانسلاخ من الدين جملة لقدر هذا الكلام النفيس حق قدره.

الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خَلَقَهُ وأمر به ونهى عنه. فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم. وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم. وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه.

فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبّحت بحمده السموات السبع الأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «ربنا ولك الحمد، ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»^(١) فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السماوات والأرض، ويملاً ما يقدّر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده.

والمعنى أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض، أي: لك الحمد ملء ما خلقتَه وملء ما تخلقه بعد ذلك.

وأسماء الرب تعالى كلّها حسنى، ليس فيها اسم سوء. وأوصافه كلّها كمال، ليس فيها صفة نقص. وأفعاله كلّها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة. وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. موصوف بصفات الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزّه عن الشبيه

(١) مسلم (٤٧٦).

والمثال، ومنزّه عما يضاد صفات كماله. فمنزّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنّة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيوميّة. وموصوف بالعلم، منزّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه. وموصوف بالقدرة التامة، منزّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء. وموصوف بالعدل، المنزّه عن الظلم. وموصوف بالحكمة، منزّه عن العبث. وموصوف بالسمع والبصر، منزّه عن أضدادهما من الصمم والبكم. وموصوف بالعلوّ والفوقية، منزّه عن أضداد ذلك. وموصوف بالغنى التام، منزّه عما يضاده بوجه من الوجوه.

ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي. وله الحمد كله واجب له لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًا وقادرًا.

فإذا قيل: «الحمدُ كلّهُ لله» فهذا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يُحمد به الحمد التام. وإن كان بعض خلقه يُحمد أيضًا، كما يُحمد رسله وأنبيأؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا. وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه.

المعنى الثاني: أن يقال: «لك الحمد كلّهُ» أي: الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله، ليس لغيره فيه شركة.

والتحقيق: أن له الحمد بالمعنيين جميعاً، فله عموم الحمد وكماله. وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد. فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربُّه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة. فله الملك كله.

والمقصود: بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يُحدثه من إحسان ونعمة، وامتحان وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية. والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حمد المدح وحمد الشكر^(١)، أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله رب العالمين. وأما حمد الشكر فلا أن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه.

والإحسان والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة، والطاعة من أجل نعمة. وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتب عليها من الآثار المحمودية والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضاً، وإن كان سببها مسخوطاً مبعوضاً للرب سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار. وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضلّ راحلته بأرض دوية^(٢)

(١) فالحمد هو الثناء على ذي الصفة الجميلة، والشكر هو الثناء على ذي المنّة الحميدة.

(٢) الدوية: هي الصحراء الواسعة التي ليس فيها نبات.

مهلكة، عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، فنام ثم استيقظ، فإذا بها قد تعلّق خطامها في أصل شجرة، فجاء حتى أخذها، فאלله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته.

فهذا الفرع العظيم الذي لا يشبهه شيء أحبُّ إليه سبحانه من عدمه، وله أسبابٌ ولوازم لا بد منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوباً له، فهذا الفرع أحبُّ إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع. فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة، ونعمة سابعة.

هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه، وأما بالإضافة إلى العبد فإنه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفاً على أسباب لا تحصل بدونها. فتقدير الذنب عليه إذا اتصلت به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه، والرب سبحانه محمود على الأمرين، فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه، وشرّه، وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملاء الأعلى. ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها، فلا بد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل، ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل، فإن هذه النفوس إذا كانت مهياً

لذلك فمن الحكمة أن تُستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهياة له، ولا يليق بها سواه.

والرب سبحانه محمود على ذلك أيضًا، كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كل أحد قابلاً لنعمته تعالى، فحمده وحكمته يقتضي أن لا يُودع نعمه وإحسانه وكنوزه في محل غير قابل لها.

ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غير قابلة لنعمته؟ فقد تقدّم من الجواب عن ذلك ما فيه كفاية، وأن خلق الأضداد والمتقابلات وترتيب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته، وأن تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية.

وأيضاً فإن هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن، فإنها إذا وقعت فهو مأمور أن ينكرها بقلبه ويده ولسانه، أو بقلبه ولسانه فقط، أو بقلبه فقط، ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الإمكان. فيترتب له على الإنكار والجهد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك.

والمقصود بالقصد الأول: إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة. وكان في تمكين أهل الكفر والفسق والعصيان من ذلك إيصال أوليائه إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاتة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة

في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بَذَلَ له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة.

ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتاً وأسباباً وأعمالاً وأخلاقاً وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها. فكلُّ أحد يُحب الإحسان والراحة والدعة واللذة، ويجب من يوصل إليه ذلك ويحصّله له، ولكن الشأن في أمر وراء هذا، وهو محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس، وأشق شيء عليها مما لا يلائمها. فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويجب ما يجب، ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكّل والمشرب والمنكح والرياسة، فإن أعطي منها رضي، وإن مُنِعها سخط وعتب على ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته.

فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه بهم لم يستخرج خالص العبودية من عبده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ونصرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عبده لأجله في مرضاته. فلا يتحيز إليهم، وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم، فيرضى مفارقتهم ومشاققتهم وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.

وأيضاً فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه.

وأيضاً فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية، بل كانت ملكية، فإن الله سبحانه خلق خلقه أطواراً، فخلق الملائكة عقولاً لا شهوات لها^(١)، ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد منها، فخلقها من مادة نورية لا تقتضي شيئاً من الآثار والطبائع المذمومة. وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها، وخلق الثقلين الجن والإنس، وركّب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة، بحسب موادها وصورها وتركيبها، وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء، وهم المعرضون للثواب والعقاب. ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة خلق واحد، ولم يفاوت بينهم، لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية.

أيضاً فإن تنويع المخلوقات واختلافها هو من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضاً من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمّه.

أيضاً فإن مخلوقاته هي مَوْجَبَاتُ أسمائه وصفاته، فلكل اسم وصفة أثر لا

(١) ولا يعني بذلك نفي الجسمية عن الملائكة، فهم وإن كانوا قد خلُقوا من نور فإن لهم القدرة بإذن الله على التشكل والتجسّم، إنما يقصد نفي الشهوة المؤدية للمخالفة والعصيان.

بد من ظهوره فيه واقتضائه له، فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته، كما يمتنع تعطيل ذاته عنها. وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد، كما تقدم التنبيه عليه.

وأيضاً فإن تنوع أسباب الحمد أمر مطلوب للرب محبوباً له، فكلما تنوعت أسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها، وكثر بكثرتها، ومعلوم أنه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الإجمام والإساءة، كما هو محمود على إكرامه لأهل العدل والإحسان، فهو محمود على هذا وعلى هذا، مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنایات العبيد. فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذي عفا عنه، وأنه لو عاجلهم بعقوبته وأخذهم بحقه لُقِضِيَ إليهم أجلهم، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه سبقت رحمته غضبه، وعفوه انتقامه، ومغفرته عقابه، فله الحمد على عفوه وانتقامه، وعلى عدله وإحسانه. ولا سبيل إلى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها. فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر، وليعطه حقه يُطْلِعْهُ على أبواب عظيمة من أسرار القدر، ويهبط به على رياض منه معشبة وحدائق مؤنقة^(١)، والله الموفق الهادي للصواب.

وأيضاً فإن الله سبحانه نوع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية

(١) وما يعين على ذلك: التفقه في معاني أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وآثارها في مخلوقاته، والربط بين كل اسم وصفة مع ما يشاهده ويطالعه ببصره وسمعه وقلبه، ويعتبر بذلك كله في تفكره وتذكره، وهذا علم شريف عزيز.

التنوع، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، ليقيم عليهم حجته البالغة، ويتمّ عليهم بذلك نعمته السابعة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليهم سبحانه. بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له. فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوّى بينهم في الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب وخالطت العقل واتحدت به، فلا يمكن للعقل دفعها ولا جحدها، ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذه مشيئته، ولكن حكمته تأبى ذلك، وعدله يأبى تعذيب أحد وأخذه بلا حجة، فأقام الحجة وصرّف الآيات وضرب الأمثال ونوع الأدلة. ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور، ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال، ولا ظهرت عزته سبحانه في انتقامه من أعدائه ونصر أوليائه عليهم، ولا حججه التي أقامها على صدق أنبيائه ورسله، ولا كان للناس ﴿ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] ولا كان للخلق آية باقية ما بقيت الدنيا في شأن موسى وقومه، وفرعون وقومه، وفلق البحر لهم، ودخولهم جميعاً فيه ثم إنجاء موسى وقومه ولم يغرق أحد منهم، وأغرق فرعون وقومه لم ينج منهم أحد. فهذا التعرّف إلى عبادته، وهذه الآيات، وهذه العزة والحكمة، لا سبيل إلى تعطيلها البتة، ولا توجد بدون لوازمها.

وأيضاً فإن حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة،

والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[آل عمران: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويكشف غمًا، وينصر مظلومًا، يأخذ ظالمًا، ويفك عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقِيلُ عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين. يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه. فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا،

ويضع آخرين^(١).

فالملك والحمد في حق الله تعالى متلازمان، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته؛ يستحيل خروجها عن حمده وحكمته. ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبّه عباده إلى أن مصدر خلقه وأمره عن حمده وحكمته. فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمدين: حمد شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح، ويجمعهما التَّبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمد أوسع الصفات، وأعمّ المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته وتفصيل الأمر والنهي واسعة جداً، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمداً، وصفاته حمداً، وأفعاله حمداً، وأحكامه حمداً، وعدله حمداً، وانتقامه من أعدائه حمداً، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمداً. والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووُجد بحمده، وظهر بحمده، وكان لغاية هي حمده. فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله. فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

(١) ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان (٦٨٩) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة، وله شواهد، وقد روي موقوفاً.

فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات: معرفة أسمائه وصفاته، وإقرارُ العبد بأن للعالم إلهًا حيًّا جامعًا لكل صفة كمال واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا تخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من جميع البريات.

واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرة من ذرات ملكه، أو يخلفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائله، أو يتوسط بينهم وبينه بتلييس أو فرية أو كذب، كما يكون بين الرعايا وبين الملوك. ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود، وفسد العالم بأسره، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولو كان معه آلهة أخرى - كما يقوله أعداؤه المبطلون - لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال، ولا يصلح عليه وجود.

ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب به حمدَ عباده له أن جعلنا عبيدًا له خاصةً، ولم يجعلنا نهبًا منقسمين بين شركاء متشاكسين، ولم يجعلنا عبيدًا لإله

نحتته الأفكار، لا يسمع أصواتنا، ولا يبصر أفعالنا، ولا يعلم أحوالنا، ولا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا، ولا وموتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تكلم قطّ ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يُرفع إليه العمل الصالح^(١).

فله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل إذ لم يجعلنا عبيدًا لمن هذا شأنه، فنكون مضيعين، ليس لنا رب نقصده، ولا صمد نتوجه إليه ونعبده، ولا إله نعول عليه، ولا رب نرجع إليه^(٢).



(١) وسبق الكلام بحمد الله على طريق تحصيل الافتقار بمشاهدة الأسماء والصفات للحميد سبحانه.

(٢) طريق المهجرتين للإمام ابن القيم (١/ ٢٣٩ - ٢٣٧) (١/ ١٣٧ - ٣١٠) باختصار واقتصار.

فقر المشرك

الموحد غنيٌّ بالله مهما جاع بطنُه، وعري جسدهُ، وأملقت يدهُ، والمشرك فقيرٌ حسيرٌ مهما انتفخ بطنه من زاد جسده، ودفع جلدَه برياش الترف، وأثقلت مفاتيح خزائنه العصبية أولى القوة. ذلك أن الغنى في الحقيقة هو غنى القلب، والفقر فقر القلب، ومن ذاق عرف، ومن جرّب اغترف، ومن حقّق اعترف.

وبما أن المشرك ادّعى الغنى عند غير الله وطلبه منه؛ فقد قطع عن نفسه مادة الغنى الحقيقية، ليعيش في وهم ويطرد خيال. فالله أغنى الشركاء عن الشرك ولا يرضى أن يُرجى الغنى بكمال التوجه لسواه.

قال شيخ الإسلام: «وهكذا يوجد من فيه شبه من النصارى والرافضة من الغلاة في أنفسهم وشيوخهم تجدهم في غاية الدعوى وفي غاية العجز كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، وملك كذاب، وفقير مختال»^(١) وفي لفظ: «عائل مزهو» وفي لفظ: «وعائل مستكبر»^(٢) وهذا معنى

(١) فليس لديهم ما يستدعي هذه الخلال الخبيثة، فالشيخ قد أدبرت شهوته، والملك غني عن الكذب لسطوته، والفقير عارٍ عن المال الكاسر تواضع من ضعف عقله، فدلّ ذلك على استحكام مادة تلك الصفة الرديئة من قلبه، والله المستعان.

(٢) رواه مسلم (٧٢/١) بلفظ «عائل مستكبر».

قول بعض العامة الفقر والزنطرة، فهكذا شيوخ الدعاوى والسطح يدعى أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة ويعزل الرب عن ربوبيته والنبي عن رسالته، ثم آخرته شحاذ يطلب ما يقيته أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته! فيفتقر إلى لقمة ويخاف من كلمة، فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعز؟! وهذه حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١] والنصارى فيهم شرك بين كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وهكذا من أشبههم من الغالية من الشيعة والنسك فيه شرك وغلو كما في النصارى شرك وغلو، واليهود فيهم كبر، والمستكبر معاقب بالذل، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِلكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِلكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى

أَنْفُسَكُمْ أَتَكْبِرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ [البقرة: ٨٧] فتكذيبهم وقتلهم
 للأنبياء كان استكباراً، فالرافضة فيهم شبه من اليهود من وجه وشبه من
 النصارى من وجه، ففيهم شرك وغلو وتصديق بالباطل كالنصارى، وفيهم
 من جبن وكبر وحسد وتكذيب بالحق كاليهود^(١).

فالشرك دهليز الفقر والخيبة، ومهما تذرث نفس المشرك بباذخ الحطام
 الفاني فهي فقيرة فقراً مدقعاً لأن مادة الاستغناء معدومة في فؤاده، فلا تعجب
 حينها من تكسر نفوسهم على سوا حل البلاء!
 والحمد لله رب العالمين.



(١) منهاج السنة النبوية (٧/ ١٥٠ - ١٥١).

إضاءة

روى مسلم في الصحيح عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: «سَأَلَ مُوسَى ﷺ رَبَّهُ: مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟

قال: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخْدَانَهُمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مُلِكٍ مِنَ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَيَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قال: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟

قال: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ»^(١).

وروى الشيخان بسنديهما عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ. رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبَوًّا، فَيَقُولُ اللَّهُ عز وجل له: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيَحِلُّ إِلَيْهِ أَتْنَاهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى! فَيَقُولُ اللَّهُ عز وجل له:

(١) مسلم ١/١٢٠ (١٨٩) (٣١٢).

اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخِيلُ إليه أنها مَلَأَى، فيَرْجِعُ، فيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى. فيَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُ: اذهب فادخل الجنة، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا؛ أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فيَقُولُ: أَتَسْخَرُ مِنِّي، أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ».

قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَكَانَ يَقُولُ: «ذَلِكَ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً» متفق عليه (١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَحِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجُوفَةٍ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا» (٢). لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» متفق عليه (٣).

وروى مسلم بسنده عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

فَتَرَفَعَ لَهُ شَجَرَةٌ، فيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَذِنَنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَلَا سِتْظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فيَقُولُ اللهُ عز وجل: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي

(١) أخرجه: البخاري ١٤٦/٨ (٦٥٧١) ومسلم ١١٨/١ (١٨٦) (٣٠٨).

(٢) المِيلُ: سِتَّةُ آلَافِ ذِرَاعٍ، وهو الميل المعروف حاليًا، ويقدر بـ (١٥٩٠) متر.

(٣) البخاري ١٨١/٦ (٤٨٧٩) ومسلم ١٤٨/٨ (٢٨٣٨) (٢٣).

غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُذْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَذْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُذْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِي مِنْ هَذِهِ، لِأَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُذْنِيهِ مِنْهَا.

فَإِذَا أَذْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِفُنِي مِنْكَ^(١) أَيْرُضِيكَ أَنْ أُعْطِيكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟

قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ

(١) «ما يصرفني منك»: أي ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك، وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه: الشاة المَصْرَاة، وهي التي قطع حلبها لجمع لبنها.

قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»^(١).

وروى مسلم بسنده عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: اغْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ.

فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا؟!» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»^(٢).

وأخرج مسلم بسنده عن أَبِي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ فَقَالَ: «نَجِيءٌ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، أَنْظِرْ أَيُّ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْتَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبَّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: «مَنْ تَنْظُرُونَ» فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا. فَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ» فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ. فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ.

قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ

(١) مسلم (١٧٤/١) (١٨٧).

(٢) مسلم (١٧٧/١) (١٩٠).

يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ
الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ. فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ،
سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسِبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ.
ثُمَّ مَحِلُّ الشَّفَاعَةِ، وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ، وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ
يُرْشُونَ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ، وَيَذْهَبُ حَرَّاهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ
حَتَّى تُجْعَلَ لَهُ الدُّنْيَا وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهَا مَعَهَا»^(١).

نسأل الله الكريم من فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب	(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
(٢)	التوحيد والإخلاص	(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
(٣)	العبودية	(١٧)	التعلق بالله تعالى
(٤)	الصدق مع الله تعالى	(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى
(٥)	محبة الله تعالى	(١٩)	الاعتصام بالله تعالى
(٦)	الشوق إلى الله تعالى	(٢٠)	سلامة الصدر
(٧)	الأنس بالله تعالى	(٢١)	العفاف
(٨)	الإرادة	(٢٢)	الصبر
(٩)	العزم	(٢٣)	الرضا بالله تعالى
(١٠)	الرجاء	(٢٤)	شكر الله تعالى
(١١)	الرغبة	(٢٥)	حمد الله تعالى
(١٢)	التوكل على الله تعالى	(٢٦)	الفرح بالله تعالى
(١٣)	حُسنُ الظنِّ بالله تعالى	(٢٧)	
(١٤)	الثقة بالله تعالى		

الصفحة والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

الكتاب رقم
(١٦)

موسوعة تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الاستغناء بالله تعالى



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

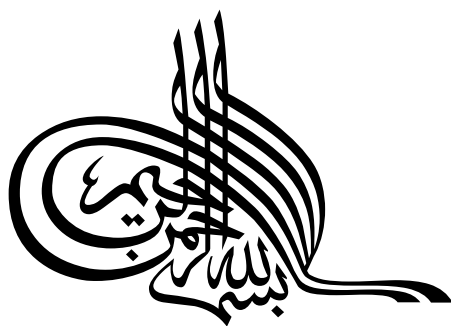
الكتاب رقم (١٦)

الاستغناء بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥.....	مقدمة
٧.....	التعريف
١٠.....	بين الافتقار إلى الله والاستغناء به
١٣.....	مراتب الغنى بالله تعالى
٣٢.....	الاستغناء بعلم السلف عن علوم الخلف
٦٩.....	كيف يسعى لجنون من عقل!



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الكريم المجيب لكل سائل، التائب على من تاب فليس بينه وبين العباد حائل، جعل ما على الأرض زينة لها، وكل نعيم فيها لا محالة زائل، حذر الناس من الشيطان، وللشيطان منافذ وحبائل، فمن أسلم وجهه لله فذلك الكيس العاقل، ومن استسلم لهواه فذاك الضال والغافل. أحمدته تبارك وتعالى وأعوذ بنور وجهه الكريم من فتن الضراء والسرائر وفتن العلم والجهل في عاجل أمري والآجل، وأسأله لي وللقارئ ووالدينا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين الفوز بالجنة ورُفقة النبيين الصديقين والمُقرَّبين الأوائل.

وأشهد أن لا إله إلا الله المنزه عن الشريك والشبيه والمُشاكل. من للعباد غيره ومن يدبر الأمر سواه ومن يجيب المضطر إذا دعاه وقد استعصت عليه المسائل! من لنا إذا انقضى العُمُرُ وتقطّعت بنا الأسباب والوسائل! هو الله لا إله إلا هو، الإله الحق، وكلُّ ما خلا الله باطل. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] وأشهد أن نبينا محمداً عبداً لله ورسوله وخليفه وكليمه وكريمه، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد؛ فإنّ أغنى الناس هو من استغنى برّب الناس عن الناس، (ما

يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم). وهذه حروف يسرها ربي تبارك وتعالى في هذا المعنى وما يتعلق به، وبالله التوفيق والعصمة والتسديد، ومنه القبول والرحمة والمغفرة.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٢ / ٤

aldumaiji@gmail.com

التعريف

هذا الباب لصيَّق بما قبله، لأن حقيقة الافتقار هي استغناء بالغنى سبحانه عما سواه، وقد عدهما بعض العلماء بابًا واحدًا، والصواب أن بينهما فروق يسيرة لذا أفردتُ الغنى وألحقته بالافتقار حتى يكون كالمكمل له، وبالله التوفيق وعليه التوكل وإليه التوجه، وهو المستعان، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

إن حدَّ الغنى مقاربٌ لحد الافتقار، وفيه زيادة الاكتفاء والكفاية وتمام التوكل على الله دون خلقه، فالغنى بالله ثمرة الافتقار إليه، ويأتي بعده في ثاني الحال، والله أعلم.

ومعنى الغنى: الكفاية بما حصل له، وقال صاحب العين: «الغنى مقصور في المال. واستغنى الرجل: أصاب غنى. والغنية: اسم من الاستغناء تَغْنَى إلى معنى استغنى»^(١).

«وقال الراجز:

لو أشربُ السُّلوانَ ما سَلَيْتُ ما بي غِنَى عنكِ وإن غَنَيْتُ^(٢)

وفي المختار: «غني: - بالكسر والقصر -: اليسار، تقول منه: غني غني»

(١) كتاب العين (٨ / ٤٥٠).

(٢) جمهرة اللغة (٢ / ٤٢).

فهو غَنِيٌّ، وَتَغْنَى أَيُّضًا: أَيِ اسْتَغْنَى، وَتَغَانَوْا: اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ»^(١).

وقال إمام الفن ابن فارس في تحليله لمادة غِنَى: «الغين والنون والحرف المعتل أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على الكفاية، والآخر صوت. فالأول الغِنَى في المال. يقال: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغِنَاءُ بفتح الغين مع المدِّ: الكفاية. يقال: لا يُغْنِي فلانٌ غِنَاءَ فلانٍ، أي لا يَكْفِي كِفَايَتَهُ. وَغَنِيَ عن كذا فهو غَانٍ. وَغَنِيَ القَوْمُ في دارهم: أَقاموا، كَأَنَّهُمْ اسْتَغْنَوْا بها. وَمَغَانِيهِمْ: مَنَازِلُهُمْ. والغانية: المرأة. قال قومٌ: معناه أنها استغنت بمنزل أبيها. وقال آخرون: استغنت ببعْلِها. ويقال استغنت بجمالها عن لبس الحلي. قال الأعشى:

ولكن لا يصيد إذا رماها ولا تُضْطادُ غانيةٌ كَنُودُ

والغنيان: الغنى. قال قيس:

أَجَدَّ بَعْمَرَةَ غُنْيائُهَا فَتَهَجَّرَ أَم شَانُنَا شَائِهَا

ويقال: تَغْنَيْتُ بكذا، وَتَغَانَيْتُ به، إذا أنت استغنيت به. قال الأعشى:

وكنْتَ امرأً زَمَنَّا بِالْعِرَاقِ عَفِيفَ الْمَنَاحِ طَوِيلَ التَّغَنُّ

وقال في التَّغَانِي:

كلانا غِنِيٌّ عن أخيه حَيَاتُهُ وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا^(٢)»

وعند ابن سيده: «الغنى، مقصور: ضد الفقر. فإذا فتح مد. فأما قوله:

(١) مختار الصحاح (١ / ٤٨٨).

(٢) معجم المقاييس لابن فارس (٧٧٦ - ٧٧٧).

سيغنيني الذي أغناك عني فلا فقريدوم ولا غناء
 فإنه يُروى بالكسر والفتح، فمن رواه بالكسر أراد: مصدر غانيت، ومن
 رواه بالفتح أراد: الغنى نفسه.
 واستغنى الله: سأل أن يغنيه.

والغني والغاني: ذو الوفرة. وأنشد ابن الأعرابي:
 أرى المال يغشى ذا الوصوم فلا ترى ويدعى من الأشراف من كان غانيا
 ومالك عنه غنى، ولا غنية، ولا غنيان، ولا مغنى: أي مالك عنه بد^(١).
 فالغنى بالله والاستغناء به: طلب حصول الكفاية وسد الحاجة منه
 سبحانه دون من سواه.



(١) المحكم والمحيط الأعظم (٦ / ١٧).

بين الافتقار إلى الله والاستغناء به

بينهما تلازم وتضمّن، فكل فقير إلى الله غنيّ به ضرورة، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يغني من افتقر إليه، ويكشف كرب من وحده، ويفرج هم من عبده، ويرخي عيش من آمن واكتفى به^(١).

وعليه فقد اختلف كلام أهل العلم في تفريقهم بين الافتقار والاستغناء، فمنهم من جعلهما ضرباً واحداً، ومنهم من فرق ولو تفريقاً يسيراً، وهو الأقرب، ففي الغنى بالله زيادة معنى الاستغناء به عن الخلق والاكتفاء به دون سواه، وحصول المقصود، وإن كان هذا لازم للافتقار أيضاً، لكنه أوضح وأبين في الاستغناء.

قال ابن القيم: «إذا عرفت معنى الفقر؛ علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحالين أكمل: الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟ فهذه مسألة غير صحيحة، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغاني فقال: «إذا صح الافتقار إلى الله تعالى؛ فقد صح الاستغناء بالله. وإذا صح الاستغناء بالله؛ كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى».

وإما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما على

(١) رخاء العيش يكون بالكفاية مع القناعة.

صاحبه^(١) فعند أهل التحقيق والمعرفة؛ أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق^(٢) فالمسألة أيضًا فاسدة في نفسها، فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: «والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾^(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦] أي ليس كل من وسّعت عليه وأعطيته؛ أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيّقت عليه أكون قد أهنته. فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبه ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك، ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى فإن استويا في التقوى؛ استويا في الدرجة» سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ فقال: «لا يوزن غداً الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر»^(٣) وقال غيره: هذه المسألة محال من وجه آخر، وهو أن كلا من الغنى والفقر لا بد له من صبر وشكر، فإن الإيمان

(١) وستأتي مفصلة مبسوبة في كتاب الصبر، بإذن الله تعالى.

(٢) فأفضلهما أتقاهما.

(٣) وهذا فقه عميق ومعنى نفيس، مع أنها متداخلان ولا قوام لأحدهما بدون الآخر، فتأمل.

نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. بل قد يكون نصيب الغني وقسطه من الصبر أوفر؛ لأنه يصبر عن قدرة، فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز، ويكون شكر الفقير أتم؛ لأن الشكر هو استفراغ الوسع في طاعة الله، والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغني، فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقى الصبر والشكر.

نعم، الذي يحكي الناس من هذه المسألة فرعاً من الشكر وفرعاً من الصبر، وأخذوا في الترجيح بينهما فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوه القرب، شاكرًا لله عليه، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأوراد العبادات من الطاعات، صابراً على فقره. فهل هو أكمل من ذلك الغني، أم الغني أكمل منه؟ فالصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما، فإن تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما، والله أعلم^(١).



مراتب الغنى بالله تعالى

ما سلف من ذكر فضائل الافتقار فهو منسحب على الاستغناء كذلك،
فشأرهما الطيبة واحدة.

واعلم أنه بحسب تحقيق المؤمن للاستغناء بربه تعالى يكون غناه وسدّ
فاقته ونُجْعُهُ ونُجْحُهُ وفوزه وفلاحه وسعادة أبّده.

وبما أن الغنى هو محض فضل الله تعالى، وحيث أن أفضاله لا تعدّ ولا
تحصى ولا تحصر؛ فاقتضت حكمته سبحانه أن يجعل للغنى مراتب ودرجات،
«ولما كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به، فأفقر الناس إلى الله أغناهم
به وأذلهم له، وأعزهم وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلهم عند نفسه
أعلمهم بالله، وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله؛ كان ذكر الغنى بالله مع
الفقر إليه متلازمين متناسبين.

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغني بذاته عن كل ما سواه،
وكل ما سواه فموسوم بسمّة الفقر، كما هو موسوم بسمّة الخلق والصنع. وكما أن
كونه مخلوقاً أمر ذاتي له، فكونه فقيراً أمر ذاتي له. وغناه أمر نسبي إضافي عارض له،
فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته، فهو غني به فقير إليه.

ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته، فهو الغني
بذاته عما سواه، وهو الأحد الصمد الغني الحميد.
والغنى قسمان: غنى سافل^(١)، وغنى عال.

(١) لو سماه غنى أدنى أو أقل أو جسدي أو نحو ذلك؛ لكان أليق من سافل من حيث

فالغنى السافل: الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى فإنه غنى بظل زائل وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان حلمًا فانقضى، ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغنى الذي هو ظل زائل.

وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون وإياه يطلبون وحوله يحومون، ولا أحبّ إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده.

قال بعض السلف: «إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر»^(١).

وهذا الغنى مخفوف بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما. فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له جعله سببًا لغناه الأكبر ووسيلة إليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أعزّ عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق، أو يجعلها خادمة لغيره.

الوصف الموحش، وإن كان قصد الإمام رحمه الله التنبيه إلى سفول هذا النوع والتنفير من التعلق به. ولكن يبقى هذا الغنى الأدنى والأقل له اعتباره الشرعي حتى وإن كان في مرتبة ليست بشيء إزاء الغنى العالي، وبالله التوفيق.

(١) الرسالة القشيرية (٢٧٢).

وأما الغنى العالى: فهو بحصول ما يسد فاقة القلب ويدفع حاجته، وفي القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة، لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنيّ الحميد، الذي إن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاتته كل شيء.

فكما أنه سبحانه الغنيّ على الحقيقة ولا غني سواه، فالغنيّ به هو الغني في الحقيقة ولا غني بغيره البتة، فمن لم يستغن به عما سواه تقطعت نفسه على السوى^(١) حسرات، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة، وحضره كل سرور وفرح، والله المستعان.

وقد قال النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، إلا وهي القلب»^(٢).

والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربّه وعطاياه السنية خلّع على الأمراء^(٣) والرعية خلّعاً^(٤) تناسبها، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات، فأدت الحقوق سمحة لا كظماً بل بانسراح ورضا ومبادرة، وذلك لأنها جانست القلب حينئذ ووافقته في أكثر أموره

(١) أي ما سوى الله تعالى.

(٢) البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٣) لأن القلب بمثابة الملك على رعيته الأعضاء على قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) الخَلْع: جمع خِلعة، وهي فاخر الثياب وثمانيتها.

واتحد مرادهما غالباً، فصارت له وزير صدق^(١) بعد أن كانت عدوًّا مبارزًا بالعداوة، فلا تسأل عما أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم، هو رقيقة من نعيم أهل الجنة.

هذا ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما، بل عُدَّتْها وسلاحها كامنٌ متوار لولا قدرة سلطان القلب وقهره لحاربت بكل سلاح، فالمرابطة على ثغري الظاهر والباطن فرض متعين مدة أنفاس الحياة.

وتنقضي الحرب محمودٌ عواقبُها للصابرين وحظُّ الهارب الندمُ

وخَلَعَ على الجوارح خِلَعَ الخشوع والوقار، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغض عن المحارم، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش^(٢) في الطاعات أين كانت بقوة وأيد، وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ. فغدا العبدُ وراح يرْفُلُ^(٣) في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذيالاً وأرداناً.

فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه، فإذا استغنى سرى الغنى

(١) فصارت مطمئنة بالإيمان بعد ما كانت أمارة لؤامة.

(٢) البطش: الأخذ بقوة. ويطلق أحياناً على الأخذ بعنف وشدة. والمراد هنا الأول، فبطش اليدين تناولهما للشيء.

(٣) يرفل: يزهو ويختال ويتنعم.

منه إلى النفس. وغنى القلب ما يناسبه من تحقيقه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تخلع عليه، فيستغني حينئذ بما توجه به هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة، وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة، وما تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفة.

فإذا استغنى القلب بهذا الغنى الذي هو غاية فقره؛ استغنت النفس غنى يناسبها، وذهبت عنها البرودة التي توجب ثقلها وكسلها وإخلاؤها إلى الأرض، وصارت لها حرارة توجب حركتها وخفتها في الأوامر وطلبها الرفيق الأعلى، وصارت برودتها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها، وذهبت عنها أيضًا اليبوسة المضادة للينها وسرعة انفعالها وقبولها، فإنها إذا كانت يابسة قاسية كانت بطيئة الانفعال بعيدة القبول، لا تكاد تنقاد، فإذا صارت ييوستها حرارة وبرودتها رطوبة وسقيت بماء الحياة الذي أنزله الله عز وجل على قلوب أنبيائه وجعلها قرارًا ومعينًا له ففاض منها على قلوب أتباعهم فأثبتت من كل زوج كريم؛ فحينئذ انقادت بزمام المحبة إلى مولاهم الحق، مؤدية لحقوقه، قائمة بأوامره، راضية عنه مرضية له بكمال طمأنينتها، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفرج: ٢٧، ٢٨]

هذا، ومحض لذة المؤمن وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة الله، وحضور بين يديه، ومناجاة له، واقتراب منه. فكيف لا تكون قرة العين كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١) وكيف تقرر عين

(١) أحمد (٣٣٠٨٨). وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١) وابن القيم في الإغاثة

المحب بسواها؟!

فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل؛ فأى فقر يُخشى معه، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه؟! ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها ويصير مجانسًا لطبيعة القلب، فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لوامة. وإنما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها وانقلاب طبعها لاستغناء القلب بها وصل إليه من نور الحق سبحانه، فجرى أثر ذلك النور في سمعه وبصره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله، وأحاط بجهاته من فوقه وتحتة ويمينه ويساره وخلفه وأمامه، وصارت ذاته نورًا فصار عمله نورًا، وقوله نورًا ومدخله نورًا ومخرجه نورًا، وكان في مبعثه ممن أتم له نوره فقطع به الجسر.

وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال؛ استغنت بها عن التناول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضًا فتقاعدتها عن المطلوب منها موجب لفقرها إلى الشهوات، فكل منهما موجب للآخر.

وترك الأوامر أقوى لها من افتقارها إلى الشهوات، فإنه بحسب قيام العبد بالأمر تُدفع عنه جيوش الشهوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُلْفِعُ عَنِ الَّذِينَ

ءَامِنُوا ﴿[الحج: ٣٨] وفي القراءة الأخرى (يدفع) ^(١) فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الإيثار وضعفه.

وإذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب ففاض منه إليها؛ استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب، وسلمت به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراءاة.

ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنًا وظاهرًا، ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وهذه الاستقامة ترقى صاحبها إلى الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه، وهي أعلى درجات الغنى.

فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قبل ذكرك له، وأنه تعالى ذَكَرَكَ فيمن ذَكَرَهُ من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة، وذكرك تعالى بالإسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط، وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاكه لم يكن لك إليه سبيل.

(١) على قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

ومن الذي ذَكَرَكَ باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم؟ ومن الذي ذَكَرَكَ سواء بالتوبة حتى وفقك لها وأوقعها في قلبك وبعث دواعيك وأحیی عزماتك الصادقة عليها حتى ثُبَّتَ إليه وأقبلت عليه، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذاتها؟ ومن الذي ذكرك سواء بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها، وتوجَّهت نحوه سبحانه ركائبها، وعمَّرَ قلبك بمحبته بعد طول الخراب، وأنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟ ومن تقرب إليك أولاً حتى تقربت إليه، ثم أثابك على هذا التقرب تقرباً آخر، فصار التقرب منك محفوفاً بتقريبين منه تعالى، تقربٌ قبله وتقربٌ بعده، والحب منك محفوفاً بحبين منه، حب قبله وحب بعده، والذكر منك محفوفاً بذكرين ذكر قبله وذكر بعده؟

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه. فهذه كلها آثارُ ذكره لك.

ثم إنه سبحانه ذَكَرَكَ بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نَعَمٌ عديدة، ذكرك بها قبل وجودك، وتعرَّفَ بها إليك، وتتحبَّبَ بها إليك، مع غناه التام عنك وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده، إذ هو الجواد المحسنُ لذاته، لا لمعاوضة، ولا لطلب جزاء منك، ولا لحاجة دعت به إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟

فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكرك بها، فلتعظَّمْ عندك لذكره

لك بها^(١)، فإنه ما حَقَرَكَ مَنْ ذَكَرَكَ بِإِحْسَانِهِ، وابتدأك بمعروفه، وتحبب إليك بنعمته، هذا كله مع غناه عنك.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربه تعالى له، ووصل شاهدهُ إلى قلبه؛ شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنى عالٍ لا يشبهه شيء^(٢). وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه، فهو يحصل له - بشعوره بذكر أستاذه له - غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنينة له، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد.

وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(٣) فهذا ذكرٌ ثانٍ بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره به حتى جعله ذاكرًا، وشعورُ العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه له^(٤).

(١) فالحمد والشكر لله رب العالمين على كل حال وكل حين.

(٢) قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتأمل هذا الجلال والعظمة والفرح الكبير والاختصاص السنِّي. قال رسول الله ﷺ لأبيّ - وهو ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قال أبيّ: أَللهُ سَمَانِي لَكَ؟! قال: «اللَّهُ سَمَاكَ لِي» فجعل أبيّ يبكي. قال قتادة: فَأَنْبَتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [سورة البينة]. رواه البخاري (٤٩٦٠) ومسلم (٧٩٩).

(٣) البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) لأنه يُحَسِّسُ بقربه من ربه وتفضيله وتخصيصه بإنعامه فيورثه ذلك الشعور حبًّا وامتنانًا وعبوديةً لإله الحق تبارك وتعالى.

وقد ذكرنا في كتاب (الكلم الطيب والعمل الصالح)^(١) من فوائد الذكر استجلاب ذكر الله سبحانه لعبده، وذكرنا قريباً من مئة فائدة تتعلق بالذكر، كل فائدة منها لا نظير لها، وهو كتاب عظيم النفع جداً^(٢).

والمقصود: أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم.

ومن درجات الغنى بالله تعالى دوام شهود أوليته سبحانه، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإله الحق الكامل في أسمائه وصفاته، الغني بذاته عما سواه، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده، فهو معبود محمود حي قيوم، له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، وكل شيء سواه فإنما كان به، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به، ولا حاجة به في قيوميته إلى غيره بوجه من الوجوه. فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية، ودوام وجوده الحق، استغنى به

(١) وقد اشتهر باسم (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وهو مطبوع مشتهر.

(٢) وصدق رَحْمَةُ اللَّهِ، وفي هذا نصح وشفقة للناس بدلالتهم على سد حاجة قلوبهم وأرواحهم بما ينفعهم من العلم النافع، فالعالم لا يكتب إلا لنفع الناس، ومن ذلك دلالتهم على ما كتبه في موضع آخر والإشادة بما فيه من الخير، وإن كان بعضهم قد يتحسس من مثل ذلك، والصحيح أن لكل مقامٍ وحالٍ ومقامٍ وحالٍ.

عما سواه من مخلوقاته، وشهد العبد حينئذ أن كل ما سواه باطل، وأن الحق المبين هو الله وحده.

وجميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه فإن العبد يستغني بها بقدر حظّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها. فمن شهد مشهد علوّ الله على خلقه، وفوقيّته لعباده، واستوائه على عرشه، كما أخبر به أعرفُ الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق، وتعبّد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صمّدٌ يعرج القلب إليه، مناجياً له، مطرّقاً، واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأن كَلِمَه وعَمَلَه صاعدٌ إليه، معروض عليه بين خاصته وأوليائه؛ فيستحيي أن يصعد إليه من كَلِمِهِ ما يخزيه ويفضحه هناك.

ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإمامة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسمه نافذة فيها كما يشاء، ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فمن أعطى هذا المشهد حقّه معرفة وعبودية؛ استغنى به.

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال، بل أحاط

بذلك علمه كله علماً تفصيلياً، ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه؛ عَلِمَ أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه، علانية له بادية، لا يخفى عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها، سواء عنده مَنْ أَسْرَّ القول ومن جهر به، لا يشغله جهر مَنْ جهر عن سمعه لصوت مَنْ أَسْرَّ، ولا يشغله سمعٌ عن سمع، ولا تغلّطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة^(١).

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله، الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ونحوها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مدّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل^(٢).

(١) قيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كيف يكلم الله الناس كلهم يوم القيامة في ساعة واحدة؟ قال: «كما يرزقهم كلهم في ساعة واحدة». منهاج السنة لابن تيمية (٣٩٨/٢) والفتاوى (١٣٣/٥).

(٢) قال الزمخشري:

يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل

وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية، فحرس حركاته وسكناته، وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه، ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء.

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره، وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويُعبد ويُصلى له ويُسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده. فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكل غنى لغيره فقر وفاقة، وكل عز لغيره ذل وصغار، وكل تكبر لغيره قلة وذلة. فكما استحال أن يكون

ويرى وصول غدى الجنين بطنها	في ظلمة الأحشاء بغير تمقل
أمنن علي بتوبة تمحوها	ما كان مني في الزمان الأول

للخلق ربٌّ غيره؛ فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجَّهت نحوه الطلبات.

ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله على الحقيقة هو الغنيُّ الصمد، ولا حاجة به إلى أحد، وقيامٌ كلِّ شيء به، وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد، واختل أعظم اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل، فإن استقلالهما ينافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر، فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية.

ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره، لصحة دلالاته وظهورها، وقبول العقول والفطر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية. وكذلك كان عبَادُ الأصنام يقرّون به وينكرون توحيد الإلهية، ويقولون: ﴿أَجْعَلِ لِلْإِلَهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المنفرد بملك ذلك كله، فأرسل الله تعالى الرسل تذكّره بما في فطرهم من الإقرار به، من توحيده وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلّتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات. ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله، فإن هذا

الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه، فيقال الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمن. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التبعيد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول: غنيتُ بلا مال عن الناس كلهم وإنَّ الغنى العالي عن الشيء لا به فيا له من غنى ما أعظم خطره، وأجل قدره، تضاءلت دونه الممالك فما دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظل من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس، ويطرده الانتباه من النوم.

واعلم أن أعلى درجات الغنى بالرب سبحانه الفوز بوجوده، وهذا الغنى أعلى درجات الغنى لأن الغنى الأول والثاني^(١) كانا من آثار ذكر الله والتوجه إليه، ففاضت على القلب من صدق التوجه إلى الله أنوار الصفات المقدسة، واستغنى القلب بذلك، وحصلت له أيضًا أنوار الشعور بكفالاته وكفايته لعبده، وحسن وكالاته وقيوميته بتدبيره، وحسن تدبيره، فاستغنت النفس بذلك أيضًا.

(١) الأول: شهود ذكر الله تعالى لعبده قبل ذكر عبده له، والثاني: دوام شهود صفات الله تعالى ومنها الأولية والقيومية والربوبية والإلهية.

وأما هذا الغنى الثالث الذي هو الغنى بالحق فهو من آثار وجود الحقيقة^(١)، وهو إنما يكون بعد ترقّيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد^(٢) فهذا أوّلُهُ. وكما أنّه عند طلوع شمسهِ^(٣)، فيتقطّع ضباب الوجود الفاني، وتشرق شمس الوجود الباقي^(٤) فينقطع لها كل ضباب، فهذا غنى لا يناله

(١) أي إدامة التفكّر واليقين بوجود الله تعالى، فوجوده واجب الوجود، أما المخلوق فممكن الوجود، وأما وجود شريك مع الله سبحانه في ربوبيته أو ألوهيته أو صفاته وأفعاله فمستحيل الوجود، فالقسمة ثلاثية.

(٢) أي ليس كما يقوله من أعمى الله بصيرته ممن قالوا بوحدة الوجود بين الخالق والمخلوق، أو بوجود الشريك معه سبحانه وتعالى.

(٣) أي بالعلم بما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته وأفعاله والتفقه فيها، والتوفيق لإصابة الحق فيها، وكلّ قلب تشرق شمس علمه عليه بقدر حظّه من ذلك العلم الراسخ وتوفيق الله له.

(٤) أي أن المؤمن حال ذلك المشهد منشغل عن نفسه وذاته في مشاهدة ومطالعة صفات الله تعالى الماثلة في القرآن والسنة، ويحرك قلبه وجوارحه بمقتضاها، ويلهج لسانه بالثناء على الله بما يليق به سبحانه، وكل هذا من آثار هذا العلم الشريف المثيف، أعني علم أسماء وصفات الله رب العالمين.

وهذا المشهد العظيم محتاج لفقه وعلم، حتى لا يضل مع من ضلّوا فقالوا بالفناء البدعي، والفناء كلمة مجملة تحتمل حقاً وباطلاً، فلا بد فيها من الاستفصال الدافع للإلباس، ومسمى الفناء بمفهوم الحلف لم يرد على ألسنة السلف. قال شيخ الإسلام رحمه الله مبيّناً أقسام الفناء الثلاثة: «والمعنى الذي يسمونه الفناء ينقسم

ثلاثة أقسام: فناء عن عبادة السّوى، وفناء عن شهود السّوى، وفناء عن وجود السّوى.

فالأول: هو الفناء الديني الشرعي، الذي جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهو أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر الله به، فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعته غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله، وبحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤] فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله ﷺ، وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو تحقيق لا إله إلا الله، فإنه يفنى من قلبه كل تأله لغير الله، ولا يبقى في قلبه تأله لغير الله، وكل من كان أكمل في هذا التوحيد كان أفضل عند الله.

وأما الفناء الثاني: وهو الذي يذكره بعض الصوفية، ويسمونه حال الاصطلام والفناء والجمع ونحو ذلك، وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، بحيث يغيب بمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، فلا يبقى ناظرًا إلا إلى توحيد الربوبية، وهو أن الله خالق كل شيء، بحيث يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله.

ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضالٌّ ضالًّا مبينًا، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من

الوصف، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم.

فيا لك من فقرٍ تَقْضَى ومن غنى يدومُ ومن عيشٍ أَلَدَّ من المنى
فلا تستعجزُ نفسك عن البلوغِ إلى هذا المقام، فبينك وبينه صدق الطلب،
وإنما هي عزيمةٌ صادقةٌ، ونهضةٌ حرٌّ من لنفسه عنده قدر وقيمة، يغار عليها أن
يبيعها بالدون.

وقد جاء في أثر إلهي: «يقول الله عزو جل: ابن آدم خلقتك لنفسي فلا
تلعب، وتكفّلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني
وجدت كل شيء، وإن فُتِكَ فاتك كل شيء، وأنا أَحَبُّ إليك من كل

اللوازم التي تحصل لمن سلك.

فإنه إذا شهد أن الله ربّ كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه المعبود لا إله إلا هو، الذي
أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية
رسله، فشهد حقائق أسائه وصفاته وأحكامه خلقاً وأمرًا؛ كان أتمَّ معرفة وشهودًا
وإيمانًا وتحقيقًا من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر.

وأما الثالث: فهو الفناء عن وجود السّوى، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين
وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد، الذين هم من
أضلّ العباد، وقولهم أعظم كفرًا من قول اليهود والنصارى وعباد الأصنام». انظر:
التدمرية (٩٠/١) مجموع الفتاوى (٣٧٠ / ٢) الرد على البكري (٧٤٧ / ٢). وقريب
من معناها ما يسمى بالنرفانا وهي الغاية من جلسات اليوجا البوذية ومدارسها
العصرية الوثنية.

شيء»^(١).

فمن طلب الله بصدق وجده، ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء.
 فأصبح حرًّا في غنى ومهابة على وجهه أنواره وضيأؤه
 وإن فاته مولاه جل جلاله تباعد ما يرجو وطال عناؤه
 ومن وصل إلى هذا الغنى قرّت به كل عين، لأنه قد قرت عينه بالله
 والفوز بوجوده، ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وقد قال
 ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همّ جعل الله فقره بين عينيه، وشئت عليه
 شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له. ومن أصبح والآخرة أكبر همّ جعل الله
 غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٢).

فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت
 الآخرة أكبر همّ، فكيف من كان الله سبحانه أكبر همّ^(٣)، فهذا من باب التنبيه
 والأولى»^(٤).



(١) أثر إسرائيلي كما نص شيخ الإسلام في الفتاوى (٥٢/٨) ومعناه صحيح شريف.
 (٢) أحمد (٢١٥٩٠). وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/٤): «إسناده لا بأس به».

(٣) لا شتمال الآخرة والجنة على ما سوى الله تعالى، فأخلص هذا الموقف همه لله محبة وتألهًا.
 (٤) طريق الهجرتين (١/٦٥ - ٩٦) باختصار.

الاستغناء بعلم السلف عن علوم الخلف

صح عن حبيبنا ﷺ قوله: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَفْشُو فِيهِمُ السَّمَنُ»^(١) فكلما قرب العهد بعصر النبوة كان العلم الشرعي أسلم وأحكم طردًا وعكسًا، فالعهد القريب بتنزل الوحي وصحبة خير المرسلين صلى الله عليه وعليهم وسلم، ورؤيته ومجالسته وسماعه ومخاطبته، والتعبد لله بمقتضى ذلك العلم العتيق الصافي، ثم صحبة من صحبوه وأخذ العلم والعمل عنهم، ومخالطتهم وملازمتهم، ثم صحبة من بعدهم، وهكذا. فهو نور يتوهج ويصفو ويضيء بقدر قربته من المركز، ثم بصفاء وزكاء النواقل عنه وهم الصحابة فالتابعون فالأتباع، وإن حصل خلل عند بعض التابعين، وازداد عند أتباعهم إلا أنه في جملة الأمة باطل مضمحل لا يكاد يذكر، ثم مع مرور الزمان وتصرم السنين تثوب الفتن إلى أفئدة الفئام من الناس، ولكل بدعة وارث، ويأبى الله ألا يخلو زمان من قائم له بحجة وظهور وبلاغ.

فإن الله ابتعث محمدًا ﷺ بدين كامل، وشرعية تامة، فكان أعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق، ﷺ، ثم لم يقبضه إليه حتى رضي عن بلاغه الوافي، وبيانه الشافي، فكانت الأمة بعده على الصراط المستقيم، والمهيح

(١) البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القويم، لا تضل هدايتها عن سنته، ولا تزيع بصائرهم عن شرعته، كانوا على هذا زمناً حتى أذن الله بابتلاء هذه الأمة المرحومة، وتمييز المؤمنين، واستبانة سبيل المجرمين، فنبتت نابتات سوء في العصر الأول من الأصحاب، فقام الصحابة لله حق القيام، وصاروا نجوماً في حنادس الظلام، ورجوماً لكل مبطل، وسعوطاً لكل مبدل، ومن قصد البحر استقل السواقيا.

وعلى آثارهم مشى التابعون، ثم الأتباع، فتمت القرون المفضلة الثلاثة تماماً على الذي أحسن، فدونت السنن، وحفظت الشريعة، وقمع المبتدعون، وحارب المشركون، ودون العُلَى ضربٌ يُدَمِّي النواصيا.
ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثيت ولي فؤاد شقيق

وقامت منارات العلم في حواضر الإسلام بالوحيين تثجّ، وأتتها النفوس الراغبة من كل فجّ، فقرروا في نفوس الناس عظمة توحيد رب العالمين، وخطر ضده من الشرك الذميم، وحذّروهم من البدع بريد الكفر، ومن المعاصي بريد النفاق، فأمرّوهم بالمعروف، ونهّوهم عن المنكر، فأطاعهم الصالحون والعامة ديانة، والفسّاق حياءً أو مخافة، فمخرت سفينة الإسلام والإيمان البحر بعزّ وسلام، وكرامة وإقدام، ورحمة وشفقة، ولم تزل مُد سارت تُسالم وتُسالم، وتُحارب وتُحارب، من وَفَى لها وَفَتْ له، ومن غَدَرَهَا أوقعَتْ به، ثبت فيها فئام، وتساقط منها آخرون، تعاون أهلها على حفظها بحفظ الله لها، كلُّ على ما يسّر الله له، فالعمل للدين قرين الانتماء إليه.

وهذه السفينة هي الإسلام، وهي التوحيد، وهي السنّة، وهي السلفية،

حتى وإن ركبها الأدعياء! وسرق اسمها للصوص!، فليس في السلفية الحقّة شيء سوى الإسلام، وليس من الإسلام الأصيل شيء سواها، فباطنها وظاهرها الالتزام والدعوة إلى ما كان عليه نبينا صلوات الله وسلامه عليه، بلا وكس ولا شطط، مع قبول الاجتهاد المنضبط الدائر مع الدليل حيث دار، فهذا المنهاج السلفي هو عقد نظام الدين الصافي، والملة التالدة الخالدة التي قال فيها ﷺ: «تركتم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١).

وهذه الدعوة السلفية كمعادن الطيب النفيس، فكلما ازداد ضربها نصع طبيها وتضوع عبيرها، وهذا عائد لأنها تتضمن حقيقة الإسلام الصافي الذي لم يُشب بلوثة خرافة، أو حوبة زندقة، أو تحريف للكلم عن مواضعه، بل رجعت بالأمر إلى أوله، وهو التوحيد والسنة، وانطلقت منه وانتهجته، فانتظم لها الدين جملة، وانسجمت تصورات العقول مع حاجات القلوب وأعمال الجوارح، فكان من أراد محض الإسلام الذي لم يُشب؛ ناله بأيسر جهد، موافقاً لفطرته السويّة، وعقله الذكيّ، خاليًا من الأكدار والتعقيدات والمقدمات والآصار والأغلال، فوجدت الفطرة طريقها السويّ فسكنت، وتاقت إليه الروح ونالته فخشعت، وأطلق العقل عنانه المنضبط في مهيعه وسُموّه، وأظهرت هذه الدعوة للأمة المهدية المرحومة طريق نبيهم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، واضحة آثار سيره عليه، محفوظ المسلك، بيّن المعالم،

(١) رواه أحمد (٤ / ١٢٦) وصححه الألباني.

يسير المرء فيه فيراه واضحاً جلياً، فلا يستوحش ولو سار وحده، لكثرة من يرى من سلفه الذين قد ساروه وسلكوه، فيرى آثار نبيه ﷺ، وعلى إثرها الأصحاب والتابعون والأتباع، ومن سار على تلك المحجة القويمية، واستقام على ذلك الصراط المستقيم، ويرى الأئمة فيه بسيرهم وأقوالهم وفتاويهم يرشدونه حتى لا يضل، ويبصرونه حتى لا يزيغ، ويعظونه حتى لا يتكبر صراط المنعم عليهم، الذي امتن الله به عليه، فتستأنس نفسه في ذلك الطريق المسلك بمعية من ساروا عليه من بدور الدجى وحراس الملة وحفاظ الإسلام، فيرى الواقف في طرف الطريق قوافل الأئمة والصالحين والصديقين والعباد والشهداء، يسبقهم نبيهم ﷺ، قد تركهم في أوله وينتظرهم في آخره. فليس في ذلك الطريق الجميل شرك ولا بدعة ولا فسق، بل توحيد وسنة وطاعة. جعلنا الله جميعاً ممن حقق ذلك ومات عليه. آمين.

وإذا تولاه امرؤ دون الورى طراً تولاه العظيم الشأن

وأهل الإسلام هم كما قال فيهم نبيهم ﷺ «كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» متفق عليه^(١)، ولهما مرفوعاً: «كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٢).

وقد مدحهم ربهم جل وعلا بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال أيوب السخيتاني رحمه الله: «إنه ليبلغني عن الرجل من أهل السنة أنه مات،

(١) البخاري ١١/٨ (٦٠١١) ومسلم ٢٠/٨ (٢٥٨٦).

(٢) البخاري ١٦٩/٣ (٢٤٤٦) ومسلم ٢٠/٨ (٢٥٨٥).

فكأنما فقدت عضواً من أعضائي». وأهل السنة يعرفون الحق، يرحمون الخلق ويمحضونهم النصيح، وهل ذلك إلا بأن تتحقق الشهادتان في النفوس ظاهراً وباطناً. فالحمد لله الذي أكمل لنا الدين ورضيه.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] «أكمل لهم الدين، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وأتمه فلا ينقصه أبداً، ورضيه فلا يسخطه أبداً»^(١).
وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً» رواه أحمد^(٢).

وقال بعض المشركين لسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال: «أجل...» رواه مسلم^(٣).

وبأسفٍ؛ فما زال بعض أبناء الملة وأهل القبلة، يغبشون صفاءها باستحسانات يقدحها الهوى في أفئدتهم، فيبثونها في العامة دون الرجوع لحكمة وعلم العلماء، لأنهم قد أسقطوهم من مرجعيتهم، إذ عنّ لهم أنهم رجال وهم رجال، وما الفقه لأحد دون أحد.. أمّا الخيام فإنها كخيامهم!

ومن ثمّ بثوا شُبُههم التي ظنوها حججاً، ونفخ بعضهم في كيرها، فطار

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٥١٨/٩).

(٢) المسند (١٥٣/٥، ١٦٢).

(٣) مسلم (٢٦٢).

شررها إلى أطراف خيمة الإسلام، فإن لم يدركها أهل العلم والفضل وإلا فالحوف أن يدرك مارجها الأركان، فالشبهة تبدأ هزيلة سقيمة فتغذى بلبان الهوى، وتُنشر في الأنام كأنها حقيقة مسلمة، فتتلقف ممن قل نصيبه من الفقه، وما أكثرهم! والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر!

ظنوها ثهلان ذا الهضبات ما يتحلحل، فإذا بها سحابة صيف عن قليل تقشع، حقيقتها برق حُلْب، وإن زخرفوها بحسين الكلم، ورصفوها مكرًا لبادي الرأي، ثم العجب أنهم لها أحنُّ من شارف، وعليها أخطر من غراب، كأنهم لم يخلقوا إلا لها، ولن يسألوا عن سواها، فصيروها شعارًا عليه معاهد الولاء والبراء، فمن نبههم أو أنكر باطلهم ردوا بحالهم ومقالهم: أساجلك العداوة ما بقينا! ثم استقبلهم أبو مرة^(١) بلحيته، وتلفع لهم بعمامته، فظنوه ناصحًا مشفقًا، وما دروا أنه من أزهَم لذلك، وجمع لهم ما هنالك، والباقة أنهم ممن عُدَّ من أهل الدين، والفارس لا يغزو قومه، والرائد لا يكذب أهله، ولكن؛ إذا الله سَنَى عقد أمر تيسرًا.

وظلم القريب يغصّ الحلق	ويجري من العين دمعا بدم
فضيم البعيد أذى قد يداوى	وكيد القريب مصاب أطم
إذا قدوة القوم أمسى لئيمًا	وباع بأخراه دنيًا أذم
فكبر وسلم على أمتي	فقبل الوفاة يكون السقم

وبالجملة؛ فالسنة كلها خير مهما اشتدت، والبدعة كلها شر مهما تلونت

(١) كنية إبليس أعادنا الله جميعًا منه.

وتقلبت وتبهرجت، لذا فكلما رفعت بدعة كاهلها قيّض الله لها دقاً وكسراً بصوارم السنّة على أيدي الأئمة الحنفاء وهل هم إلا أئمة السلف الصالح، وأتباعهم حملة ذلك العهد الرباني، والنهج النبوي؟ فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، فلما ارتد من ارتد من العرب، قصفهم الله بصارمه الصديق الأكبر، الذي قاد ألوية الموحدين من مدينة النبي الأمين ﷺ لكّد معاقل الردة، وردّ الأمة لدين الله أفواجاً، ولما بث الشيطان سراياه الفكرية الكفرية المبدلة للدين، والملوثة للملّة، قام عليهم إمام السنة المبجل أحمد بن حنبل معه أئمة جهابذة، حاربوا الفتن، ورد الله بهم الباطل.

تناثر العلم شهداً من ثغورهم أكرم به منبعاً للدين ينسكب

ثم هدأ الناس زماناً حتى ثاب بعض من تلوث ببدع القول لمذاهب منبوذة من رفات الفلسفة الإغريقية، إذ لم يكتف بعضهم بتقريرات أئمة السنة ونقضهم لها قرابة ثلاثة قرون منذ عهد أحمد وأقرانه، وراجت تلك المذاهب في بعض المنتسبة للعلم فتخطفت قلوبهم وبصائرهم فصنفوا وخطبوا ما أضلوا به الناس وفتنوا به العامة، وزينوا المنطق والفلسفة، وجعلوا مقدماتها الممتنعة وتقعيداتها المعقّدة شروطاً للإيمان، وضرورة لكل متعلم، ورفعت الرافضة عقيرتها بالدعوة إلى وثنيّتها، وتنادت عبدة الموتى لإغواء العامة، حتى عبّاد الصليب صار لهم طمع في ردة أهل الإسلام! وانتشرت الشّبه بين من رام العلم، وسقط في شباكها الكثير، فعظمت بهم البلية، وتكاملت بهم الرزية، حتى قيض الله للإسلام من هدّ عروشهم، وزلزل صروحهم، وجعل أعاليلها أسافلها، ودكّ معاقل إحداثهم وحصون فتنهم فأوهاها وأسقطها، وفضح

شبههم وكشفها وعراها، ذاكم هو شيخ الإسلام الرباني وإمام السنة الثاني، أحمد بن تيمية الحراني، فما زال يصول بالله ويجول ويقاتل بعلمه وعمله، ولسانه وسنانه هو ومن تابعه من الأئمة وأهل الفضل، فما زال كذلك حتى قبضه الموت في ذات الله سجيناً صابراً راضياً حامداً شاكراً، ولا نزكه على الله، قد جعل الله جنته وبستانه في صدره، فرحل إلى ربه وهو يتلو: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] (١).

(١) قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يأت قبل ابن تيمية بخمسمئة سنة مثله»، أي: بعد الإمام أحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ.

قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ معلّقاً: «ولا نعلم إلى عصرنا هذا من قد أتى مثله، رَحِمَهُ اللَّهُ».

قلت: فمنذ ١٢٠٠ سنة لم يأت أحد كهذا الإمام المجدد الصديق، فهل يُلام من أحبه ووثق بنصحه وعلمه.

ونقول فيه كما قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ابنه سالم:

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ

ومن طعن في الإمامين ابن تيمية أو ابن عبد الوهاب فاتهمه على الإسلام، فقد قاما بالدين حق القيام، وجدد الله بهما ما اندرس من معالم الإسلام. قال الشيخ عبد الكريم الخضير في شرحه لبلوغ المرام، كتاب الصلاة: «وقد سئل الشيخ محمد رشيد رضا عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ هل هو أعلم من الأئمة الأربعة أم هم أعلم منه؟ فأجاب بجواب موفق فيما أحسب، قال: باعتبار أن شيخ الإسلام تخرّج على كتب الأئمة الأربعة، وكتب أتباعهم فلهم الفضل عليه من هذه الحيثية، وباعتباره جمع بين ما قالوه وأحاط بما كتبه، يعني إحاطة بشرية لا يعني هذا أن

=

ثم حمل الراية تلاميذه وكثير من أقرانه على سننه الحميد وفعله الرشيد، وليس به وحده جُدد الدين لكنه بزَّ أهل زمانه في حمل لوائه وفاقهم في عظيم بلائه، وسار الناس على السنن المحمدي سنيًّا، ثم لم يلبث إبليس أن أغرى بعض الطغام بعبادة الطاغوت جهارًا، وبذبح الحنيفية عند عتبته نهارًا، كما قال شيخ الإسلام: «إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن، وحدث البدع والفجور، ووقع الشر بينهم»^(١) حتى رحم الله تعالى الأمة بجيل راشد، يقوده إمام هدى، هو ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ فَهَبَتْ صبا نجد بالعلم والإيمان، فكان نسيمة راحة وهداية وبصيرة للراغبين.

خليلي من نجدٍ قفا بي على الربى فقد هبَّ من تلك الديار نسيمٌ وكانت حصباؤها رغامًا واجتثًا لصروح القبوريين، وكما صحَّ عن أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»^(٢) فعاد الناس لدينهم، وآبوا لسنة نبيهم ﷺ. فلم يقبض الله الإمام المجدد حتى أقرَّ

شيخ الإسلام أحاط بكل ما كتب أو ما قيل، نعم، فهو من هذه الحيشة أشمل منهم علمًا، هذا كلامه، وهناك أمر ينبغي أن نتنبه له وهو فضل علم السلف.

ولد شيخ الإسلام سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٢٨ وله ٦٧ سنة و١٠ أشهر، رَحِمَهُ اللهُ. ولا فضل إلا بالتقوى وتمامها العلم والإيمان. وهؤلاء الأئمة سلیمان والحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن جبیر وعكرمة ومجاهد، كلهم من فارس و«لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء» رواه البخاري (٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦).

(١) مجموع الفتاوى (٣١٠/١٧).

(٢) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (١١٨/١) تاريخ بغداد (١٠٧/٤).

عينه برؤية ثمار دعوته وجهاده، وما عند الله خير وأبقى، ولا نزكي على الله أحداً.

عسى جدث يحوي رفاتاً لحبنا رياض جنان مترعات سواقيا
ثم أتم علماء الدعوة السنيّة السنيّة ذلك التجديد، فزكت شجرة الإسلام
بتيك الكوكبة من العلماء الذين قاموا بالحق وبه يعدلون، فأظهرهم الله
وأعزهم، على قلة المعين وضعف الناصر، فما برحوا يقيمون الديانة، ويحرسون
معالم الملة، ويزودون عن أصول السنّة، ويحلّون عرائس المعاني لراغبيها،
ويزفون أبكار خرائد المعارف لخاطبيها، فله هم من أنجم وأقمار، ورواسٍ
وأنهار!

أتاك حديث لا يملّ سماعه شهّي إلينا نثره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى قتامه

ثم خرج ممن استظلوا بنعمة السنّة، وترّبوا في رحاب مدرسة علماء
الدعوة، وتخرجوا على علمهم، فأخذوا يناكفونها، زعمًا أنهم يقومون بالمنهج
ويصوّبون المسار! وما علموا أنهم قد أخذوا بشبهات من سبقهم من مناوئي
الدعوة النجدية السلفية، فما هم سوى أبواق سوء، ورُسُل بغّي، لمن خُلبوا بهم
وفُتنوا، حالهم:

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاك!
ولو أتهم تريثوا وتمهلوا، وراجعوا أنفسهم وتجردوا، وتدثروا بالتقوى،
والتحفوا الورع؛ لأدّاهم ذلك إلى الهدى، ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾

[البقرة: ١٨٩] وقد ركب موجتهم فئام من الأغرار، أو طوائف من الفجار، فتارة يركض معهم المستنوقون «العصرانيون» المنهزمون، وتارة التزويريون «التنويريون» المميّعون، ومتأسلمة العلمانيين، ناهيك عن أهل الخرافة من المتصوّفة والمتشيّعة، أو أذئاب الكفرة من العلمانيين والليبراليين والمستغربين، وخلف صفوف هؤلاء مجامع الاستشراق ونوادي الفكر الموجه، ودوائر البحوث والدراسات الممنهجة ضد الحق. فحاربوا الدعوة صفّاً واحداً، وتفرقوا إلا عليها، فتنوّعت طرق حربها، وتباينت سبل ضربها، فتارة في إسقاط الرموز باتهامهم في نياتهم.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسنة قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لديم

وأخرى بضرب المنهج، واتهامه بأنه دخيل على الإسلام.. رمتني بدائها وانسلت!

وثالثة بافتراء أحداث من وحي الخيال وزاملة الكذب، ولطخها بصفحة تلك الدعوة الصافية، وفي كل عصر لهم جنود مجنّدة، وشُبّه ملوّنة ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وللنار ملؤها وللجنة ملؤها. وتوارد هؤلاء المخدولون، وأولئك الموتورون على الهجوم على الدعوة السلفية أصالة أو نيابة.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

فمن جزافهم وخطلهم؛ قولهم: إن للشيخ محمد بن عبد الوهاب مآرب

سياسية ومالية! أو أن حركته خارجية تكفيرية، وأنه يكفر الأمة بعمومها، أو أنه مبغض لرسول الله ﷺ، أو أنه مدع للنبوّة، أو أنه مرجئ لا يكفر أحدًا منها غلا كفره^(١).

ثم ظهر الآن من يزعم أنه لا يختلف مع الشيخ علميًا لكنه لا يوافقه عمليًا في المبدأ الأصل التكمير والقتال، وهذا من تناقضه فأين الكفر بالطاغوت والبراءة منه؟! وبعضهم يتجاوز الشيخ إلى تلاميذه من علماء الدعوة فيتهمهم بأنهم خالفوا منهج الإمام وأنه لم يكفر من قامت عليه الحجة، ويتعلق بمتشابهه من القول، ويعرض عن المحكم المضطرد، وقد كفانا أئمة الدعوة رد كل شبهة، فقد سطروها في كتبهم وفتاويهم وردودهم.

ومن أولئك المدهنون من ينتسب للسلفية ويخالف منهجها بغموض وغمجمة، يريد بوهمه أن يبقى في المنطقة الرمادية التي حقيقتها ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣] كالشاة العائرة بين الغنمين، ولم يعلم أن أصول الدين وثوابت المنهج لا تقبل أنصاف الحلول، فلا منزلة بين المنزلتين ولا طريق بين السبيلين، بل: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسَتِّيْنَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] فنرى ذلك البائس يحبر الصفحات يظنها ماءً

(١) وانظر: دعاوى المناوئين د. عبد العزيز العبد اللطيف، (عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي) د. صالح عبد الله العبود. وانظر: (ويكون الدين كله لله). للمؤلف.

زلاًلاً، وليست بشيء إنما هي حديث خرافة، وسراب بقية:

أظلت علينا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
 فلا غيمها يجلو فيئأس طامع ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

وأصبح تنويريهم! أو عصرائيهم! المنتسب للسلفية يُجمل الخطاب مداهنة
 لا مداراة، ولا يبالي بأن نسبته المتمشعة أو المتصوفة بل والمتشعبة لها! فصار
 كمن جره القرش لبحره، والعقرب لبحرها ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾
 [الحج: ١٨]. بل ربما والى بعضهم أهل الصليب وداهنهم في دينه.

أيها المبتلى بحب الكلاب لا يحب الكلاب إلا الكلاب
 لو تعريت وسطها كنت منها إنما فقتها بلبس الثياب

ونحن في زمن اشتدت فيه ضراوة الشبه، وتخطف كلبها كثيراً من منتسبة
 العلم، ففي كل يوم لها صريع أو قتيل، وليتهم لوحدهم بل قد جرّوا معهم
 فئاماً من الأمة أحسنوا الظن بهم، وعلّقوا بكلامهم الحق، فصاروا رؤوس
 باطل، ودخان ضلالة، قد رُوّعوا وأُخنعوا بعبارات المستغربين وأفراخ
 المستشرقين وأذناهم في وصف منهاج النبوة بالراديكالي والمتشدد والمتطرف
 واليميني والرجعي والظلامي والوهابي^(١) فراحوا ينقبون في الآثار والسير لا

(١) عن مصطلح الوهابية قال الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله تعالى:
 «إن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليست منهجاً جديداً، وليست فكراً جديداً،
 وأكرر هنا المناداة بأن من يستطيع أن يجد في كتابات الشيخ ورسائله أي خروج على
 الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح، فعليه أن يبرزه ويواجهنا به. لذا أدعو
 =

ليردّوا عادية أولئك بقوة وعزة وشمم، ولا ليصولوا عليهم ويُخرسوهم بالبراهين والحجج! بل ليجدوا لهزيمتهم النفسية تأويلاً ومخرجاً يلوون به باقي الأدلة لينفوا كلام الأسياد «الخصوم» وينفوا عن الدين الصلابة والشدة والغلظة مع أهلها، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] فإن اشتد خطابهم، وأرقلت رواحلهم، وُحِّدَتْ حراهم؛ فإنما ذلك على إخوانهم.. بينما سلّم منهم شرّ البرية!

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنيا أن يكن أمانياً

وحين اتهم مستشرقون الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف، قابلهم المنهزمون المخدولون الذين طغت عليهم عقدة المغلوب، وراعتهم صولة الصليب وعَيَاية المادة؛ فنفوا. عن حسن نية، وضعف بصيرة. القتال في سبيل الله! وصيروه جهاد

الكتاب والباحثين إلى عدم الانسياق وراء من ينادي بالوقوع في فخ مصطلح الوهابية وأنه مجرد مصطلح، بينما يتناسى هؤلاء الهدف الحقيقي من وراء نشر هذا المصطلح للإساءة إلى دعوة سلفية صحيحة ونقية، ليس فيها مضامين تختلف عما جاء في القرآن الكريم وما أمر به نبيه محمد ﷺ، بخاصة أن هذا التشويه جاء من جهات متعددة لا يروق لها ما تقوم به تلك الدعوة الصافية من جهة، وما أدت إليه من قيام دولة إسلامية تقوم على الدين أولاً وتحفظ حقوق الناس وتخدم الحرمين الشريفين، وهي الدولة السعودية التي مكنها الله في هذه البلاد لتخدم المسلمين جميعاً وتحافظ على هذا الدين، لأنها قامت على أساسه ولا تزال» (عن جريدة الحياة اللندنية. الأربعاء ١٤ جمادى الأولى ١٤٣١هـ).

الدفع دون الطلب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجْرِيفٍ يُشِجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١٩١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣] وهل يجرو مسلم على توجيه آية التوبة هذه إلى جهاد الدفع، وهي في غاية الصراحة في الطلب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وقال إمام المجاهدين صلوات الله وسلامه عليه: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» رواه البخاري معلقاً^(١)، ومن لم يثق في الوحي ثقة مطلقة فلا ترجمه.

ومن الآخية عينها - أعني الزهادة في السنة - دفت دافة الاعتزال، ونبتت نابتة الإرجاء بل والخرافة في بعضهم، فليتنبه الغيورون لذلك. وهذه نابتة لا بد من قطعها قبل استفحالتها، لأنها تلبس الباطل والإرجاء لباس السنة

(١) البخاري (٩٨/٦) (الفتح). ووصله أحمد (٥١١٤) وصححه الطبراني في تفسيره (٥٨/٢/١٠) وصححه أحمد شاكر في تخريج المسند وابن باز في مجموع فتاواه (٤٠٦/١٣).

والسلفية، كما أن من واجب الوقت ردّ صيال الطرف الآخر سليل فكر الخوارج ووارث تعتهم الفكري وضلالهم المنهجي وغلوهم في الدين، الذين خرجوا على أهل الإسلام فكفروهم، واستحلّوا دماءهم وأعراضهم، ولم يعلموا أنهم بذلك قد حكموا على أنفسهم بأن صاروا شرّ الخلق والخليقة^(١)! عياداً بالله تعالى. وإنما تُردّ عاديّات هؤلاء وأولئك ببراہين الوحي، ومحكمات الشريعة^(٢).

لقد ضيع بعض قومنا الثوابت عند ازدحام الأحداث، وكثرة مزالق الناس، وكبار سقطاتهم ليست مبرراً لغيرهم إذا سقط، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِٗٓ بَصِيرَةٌ﴾^(١٤) ﴿وَلَوْ أَنفَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] ولا يصحّ في النهاية إلا الصحيح، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] والعاقل لا يبني قصرًا ويهدم مصرًا.

وبعض هؤلاء متلون متقلب، في الصباح يحرّر ويقرّر، وفي الظهر يصوّر ويبرّر، وفي المغرب ينقض ويكرّر! لا ضابط له ولا تأصيل، تارة يشرق

(١) كما جاء وصف الخوارج بذلك من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً. (٢٠٦٧).

(٢) الشرع في هذا الزمان يطلق ويراد به أحد ثلاثة معان: شرع منزل؛ وهو الكتاب والسنة، وشرع متأول؛ وهو موارد الاجتهاد التي تنازع فيها العلماء، وشرع مبدل؛ مثل الأحاديث الموضوعية والتأويلات الفاسدة والأقيسة الباطلة والتقليد المحرم، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/٤٣٠ - ٤٣١).

وأخرى يغرب، ضالته حيث حطّ رحلها أم قشعم:
يَوْمًا يَمَانٌ إِذَا مَا جِئْتَ ذَا يَمَنِ وَإِنْ لَقِيتَ مَعْدِيًّا فَعَدْنَانِ
حتى مسألة سيادة الشريعة والحكم بما أنزل الله جدّ فيها عندهم نظر!
﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] ناهيك عن التشبه بالكفار
ومسائل الغناء والمعازف والاختلاط والحجاب... وتبرير ذلك الغناء بهزال
أغثي! ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

بل وحتى تهنة الكفار على كفرهم وجدت لها بين هؤلاء داعيًا ومجيزًا، هم
بعضهم تتبع الشذوذات التي تُطرب أشباه الفُسّاق الباحثين عن أي تكأة أو
مخرج من قيود الشريعة وحياض الأحكام، ظنّ ذلك المزيف نفسه قد أتت
بمسائل وحررت أحكامًا لم يعلمها السلف! أو قصرت عنها أفهامهم! أو
علموها فخافوا! حتى صدع بها ديانة وأمانة! اللهم غفرًا، كأننا يقول: ها أنذا
فاعرفوني، ثم ماذا؟! حال بعضهم كمن بال في بئر زمزم، فلما سئل قال: كي
يعرفني الناس! وصدق، فقد عرفه الناس بشرّ عمله، وخطيئة قلمه،
وسيشهدون عليه بين يدي الديان يوم الحساب حين تضحل الزيوف، ويبقى
ما أُريد به وجه الله، وكان على سنة رسول الله ﷺ. قال أبو العالية: «كلمتان
يسأل عنها الأولون والآخرون، ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين»^(١).
مآرب كانت في الحياة لأهلها عذابًا فصارت في المهمات عذابًا

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٥ / ١٠٥).

والإسلام منصور بنا أو بغيرنا، والسعيد من ركب تلك السفينة، ورافق أولئك القوم، والله حافظ دينه ومعل كلمته ولو كره المشركون، ولو زاغ الزائعون، ودينه كامل لا يقبل الانتقائية، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ولما اشترط بعض الناس شروطاً في بيعة الإسلام تناقض ثوابته، ردّ رسول الله صلى اله عليه وسلم ذلك عليهم حتى يدخلوا في السِّلْم كَافَّةً، ولما قال عمر لأبي بكر: «يا خليفة رسول الله! تألف الناس». قال له أبو بكر: «يا ابن الخطاب! أجبار في الجاهلية، خوارج في الإسلام؟! رجوت نصرك فجئتني بخذلانك! علام أتألفهم، أعلى حديث مفترى؟! أم على شعر مفتعل؟!».

ولم يوفق في الكلام في ذلك بعض الفضلاء، وليتهم إذ لم يعلموا أو اشتبهوا سكتوا، وليتهم إن حسبوا أنهم علموا تریثوا وشاوروا الراسخين ممن تنقطع دونهم أعناق المطي، وقد سهّل الله تواصلهم، ولكن أبت أمّ الندامة ذلك! وزلّة العالم زلّة العالم، ومضروب لها الطبل، ومحمولة عند المناوئين على أسوأ المحامل، فتكلّم بعضهم بكلام غريب، فمهّدوا وجعلوا الكلام في الشريعة وأصول الدين وكبار المسائل كلاً مباحاً لكل دعيّ ومتعلم! حتى جعلوا وحي الله وشرعة الخالق المالك العوبة بيد عبيده ومماليكه! مراعاة لخواطر أعداء الشريعة وعبداء الصليب ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِّنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] وما ثمّ إلا

توفيق الله، ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول
هذا، ولا بد من تحرير مسألة الأسماء والأحكام في باب الإيمان، وتأصيل
العامة عليها، وقد خدمها العلماء والباحثون بحمد الله بمدونات محررة
وبكلام محقق، ومن المهمات بيان براءة المنهج السلفي من الضلالتين؛ المفرطين
الغلاة، والمفرطين المقصرين، فالبعض من قومنا قد هرب من التكفير بالباطل
فوقع في الإرجاء المذموم، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وكما أن القول
بتكفير المجتمعات قول خطير فكذلك القول بإسلام المشركين الذين قامت
عليهم الحجة قول خطير، فكلا القولين خلل منهجي في باب الإيمان، ثم جاءنا
آخرون بقول شاذ حيث ألمحوا لاتهام الإمام بالإرجاء وأئمة الدعوة بالخروج!
وما أعجب فهم الناس!

قال مفتي الديار النجدية الشيخ عبد الله أبو بطين رَحِمَهُ اللهُ: «وقد استزل
الشیطان أكثر الناس في هذه المسألة، فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت
نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره، وتعدى بآخرين فكفروا من
حكم الكتاب والسنة والإجماع بأنه مسلم، فيا مصيبة الإسلام من هاتين
الطائفتين، ومحتته من تينك البليتين»^(١).

(١) فتاوى الأئمة النجدية (٣/٣٣٦).

وقال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ: «فجنس هؤلاء المشركين وأمثالهم ممن يعبد الأولياء والصالحين، نحكم بأنهم مشركون، ونرى كفرهم إذا قامت عليهم الحجة الرسالية، وما عدا هذا من الذنوب التي هي دونه في المرتبة والمفسدة لا تكفر بها... ونبرأ إلى الله مما أتت به الخوارج، وقالته في أهل الذنوب من المسلمين»^(١).

إذن فلا بد من تكفير من يستحق، بعد اكتمال الشروط وانتفاء الموانع، لا كما يقوله بعضهم: إن الاحتياط أن لا تكفر أحداً أصلاً! وهل هذا الاحتياط البارد والورع الأعور إلا عين المضادة للقرآن الكريم، والمشاقة للسننة المطهرة، سواء من الكفار الأصليين، أو المرتدين.

وليس من الإسلام في شيء ما يفعله أفراخ ذي الخويصرة وذوي الشدّة من تكفير أهل الإسلام، وحرب أهل الإيمان، وشق صف أمة محمد ﷺ. وقال المشايخ عبد الله بن عبد اللطيف وإبراهيم بن عبد اللطيف وسليمان بن سحمان: «وأما قوله عن الشيخ محمد أنه لا يكفر من كان على قبة الكوآز ونحوه، ولا يكفر الوثني حتى يدعوه وتبلغه الحجة فيقال: نعم، فإن الشيخ محمداً رَحِمَهُ اللهُ لم يكفر الناس ابتداءً إلا بعد قيام الحجة والدعوة، لأنهم إذ ذاك في زمن فترة أو عدم علم بآثار الرسالة، ولذلك قال: «لجهلهم، وعدم وجود من ينبههم» فأما إذا قامت عليهم الحجة فلا مانع من تكفيرهم وإن لم يفهموها... ولا يجادل في هذه المسألة ويشبه بها إلا من غلب جانب الهوى،

(١) الدرر السنية (١/٥٢٢).

ومال إلى المطامع الدنيوية، واشترى بآيات الله ثمناً قليلاً»^(١).

فعدم تكفير المجدد لبعض الناس ليس نفيًا لحقيقة الكفر عن مرتكب الكفر الأكبر - تكفير الوصف - بل نفي لتكفير المعين - الشخص - قبل إقامة الحجة عليه، فهذه الأفعال مكفرة عند الإمام ولكن لاحتمال وجود الموانع توقف، وهذا مسلك نفيس، وهو جادة أهل السنة على امتداد الزمان، وهذا مضطرد في كتبهم ورسائلهم.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ فِي البراءة من منهج الخوارج الذين يكفرون بالكبيرة ومحدِّراً من ضلالهم: «وأما ما يكذب علينا سترًا للحق، وتلييسًا على الخلق، بأننا نكفر الناس على الإطلاق من أهل زماننا... فجوابنا سبحانه هذا بهتان عظيم، فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسب به إلينا فقد كذب علينا وافترى»^(٢).

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تجد المؤمن كذاباً» وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خَلَّةٍ غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذْبِ» وقال الأحنف: «ما خان شريف، ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن، وكانوا يملفون فيحشون، ويقولون فلا يكذبون». وقال: «اثنان لا يجتمعان أبداً؛ الكذب والمروءة». قلت: فأخص صفات المؤمن الصدق، وأخص صفات المنافق الكذب.

(١) الدرر السنية (١٠/٤٣٤ - ٤٣٥).

(٢) الهدية السنية: عن دعاوى المناوئين (١٢٧).

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
وسبيل علماء الأمة واحد في البراءة من التكفير بغير حق، وفي البراءة من
عدم التكفير بإطلاق، والتطبيق فرع عن التنظير. ومن أولى المسائل الكبار التي
وقع فيها الاختلاف والتفرق؛ مسائل التكفير والتبديع والتفسيق.

ومؤرخا الدعوة ابن غنام وابن بشر - والأول من تلاميذ المجدد - قد
شاهدا حال الناس إذ ذاك، فهما أعلم بواقع ذلك الزمان وحال أهله من بعض
المؤرخين المعاصرين الذين شككوا في بعض الأمور.

قال الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ اللهُ:

فيا أيها الإخوان جدوا وشمروا لنصرة دين الله بالمال واليد
وبيعوا نفوساً في رضا الله واطلبوا بذلك خلوداً في نعيم مؤبد

وبعض الكتاب يقسم السلفية لأقسام ويشرذمها لأنواع؛ فهذه سلفية
تقليدية، وتلك جهادية، وثالثة علمية، ورابعة إصلاحية، وخامسة وسادسة..!
وهذا باطل، فالسلفية مدرسة واحدة، ومنهج واحد، واضح المعالم، بين
القسمات، والسلفية اسم مطابق لمعناه، ومعنى موافق لمبناه، فمن كان على ما
كان عليه أهل العلم والدين في القرون المفضلة الثلاثة فهو سلفي.

وليس من السلفية في شيء تكفير المجتمعات الإسلامية أو الأفراد بمجرد
الكبائر، أو الافتئات على الولاية، أو إيغار صدور شعوبهم عليهم، أو الخروج
عليهم بإطلاق، ولا خفر ذمة المسلمين بالغدر بأهل ذمتهم وعهدهم، وإنهار
الدماء المعصومة والأنفس المصونة من أمة الإسلام، أو ممن عاهدوهم على

الأمان والمسألة.

وليس من السلفية في شيء الخنوع للكفرة والمستشرقين والمستغربين، وإقرار الربا والخنأ والتغريب، بداية بالتبرير وانتهاءً بالتبديل، ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمْتَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ [المائدة: ٨٠، ٨١]. ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا آيَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

وليس من السلفية في شيء تصيّد عشرات أهل العلم والدعوة، وإشاعتها على سبيل التنقّص والشماتة، واستباحة أعراض أهل السنة بغيتهم وأخذهم بالظنّ، واعتساف كلامهم، والتحزّب لذات التحزّب، أو التحزّب هرباً من التحزّب ﴿ هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج: ٧٨] والبذاء والإقذاع في الإنكار كيف وذلك على أمور يسوغ فيها الخلاف؟! - ولا يعني هذا ترك الرد على الغلط والخطأ، بل ولا بأس من التسمية إن دعت الحاجة، وسبيل السلف الرد والاحتساب فيه بضوابطه المعتمدة..

أفاطم ما للنبع قد أجّ ماؤه وقد كان قبل اليوم عذباً وصافياً

وليس من السلفية في شيء التفريط في حقوق شهادة أن لا إله إلا الله، فيخرج منها أهلها، ويغفل عظيم حقها وحق أهلها. ولا التفريط في حقوق شهادة أن محمداً رسول الله، فتميع السنة، ويدخل فيها من وما ليس منها.

وليس من السلفية في شيء تطويع أدلة الوحي لهوى الساسة والسلاطين،
وليس من السلفية في شيء تميع الدين القويم، وتلوّث المنهج النقي أو تبديله
إما لرغبة حاكم أو حزب أو جمهور، كما قال السفينان رحمهما الله: «من نجا
من فتنة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله»^(١)

أيا مبتغي الفردوس عجل بصارم وكن صادق الإقبال عند التلاقيا
فإن تحي عشت العز في كل لحظة وإن كانت الأخرى ستلقى المراقيا

واعلم أن هذا الدين محارب من زنادقة دخلوه ليهدموه وينقضوا أساساته
وأعمدته ويبدّلوا مادته من الداخل، ولا زال لهم أفراخ تقتات على لوثات
مصنفاتهم الخبيثة، وتقيئها في نوادي الفكر، ومجالس الحوار، ونشرات الثقافة،
وقنوات الأثير! وقد فرّخ بعض بيضهم، فبعض الناس أضلته شبهاهم
وتخطّفت قلبه لما أعرض عن تعظيم الآثار، وكفى بالخذلان عقوبة، وممن كان
له دور في إثارة الشبه وإضلال الأمة:

إبراهيم النظام؛ وهو مزدكي زنديق، على ما قاله العلماء، تظاهر بالإسلام،
وتلبس الاعتزال، وبث شبهه بين الناس. ومنهم عدو الإسلام المتسمي به ابن
الراوندي الذي ألف لليهود كتاباً أسماه الدامغ، يزعم أنه يرد به على القرآن
العظيم، أخزاه الله.

ومنهم غيلان الدمشقي، القدري، ويقال: إنه قد أخذ عقيدته من يوحنا
أو سوسن الدمشقيين النصرانيين، وهو الذي ناظره الإمام الأوزاعي، ثم أفتى

(١) الفتاوى (١١٨/٥).

بقتله، فقتله هشام بن عبد الملك.

ومنهم معبد الجهني، وهو أول من قال بنفي القدر، وهو الذي توعد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن لو قبض عليه - بعد ما عمي - أن يعض أنفه حتى يقطعه، وأن يدق عنقه، غضباً لله تعالى. وقد قتله الحجاج بن يوسف عام ١٢٨.

ومنهم الجعد بن درهم، وهو أول من أظهر القول بخلق القرآن، وقد أخذ هذه العقيدة الضالة من اليهود، ويقال: إنه قد أخذ قائلته عن أبان بن سمعان، الذي أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم وختنه، الذي سحر رسول الله ﷺ، فما أنتنها من سلسلة ضلال! وأقبح به من سند كفر، وقد قتله خالد القسري - قصاب الزنادقة - عام ١٢٨ بناء على فتاوى العلماء. شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان وهو مؤدب آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد الذي لقب بالجعدي.

وكان من تلاميذ الجعد الجهم بن صفوان إمام نفاة الصفات، وهو جبري في القدر.

عجبت لمن يدعو الناس جهرةً إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد قتله سلم بن أحوز رَحِمَهُ اللَّهُ بناء على فتاوى العلماء.

من تلاميذ الجهم أحمد بن أبي دؤاد رأس فتنة القول بخلق القرآن. ومن تلاميذ الجهم بن صفوان بشر المريسي؛ وهو يهودي ابن يهودي دخل نفاقاً بشهادة أمه؛ حيث قالت: «ما دخل دينكم إلا ليفسده»، وهو جهمي في

الصفات، قدرني في القدر، وكان ينكر العلم، وهو الذي ناظره عبد العزيز الكناني، ورد عليه الإمام الدارمي.

ومنهم محمد بن الحسن النصيري، مدّعي الألوهية، من زعماء النصيرية في جبال اللاذقية، كان يلقب بالمهدي تارة، وتارة يدعى علي بن أبي طالب فاطر السموات والأرض، خرج بالنصيرية فدخلوا جبلة فقتلوا خلقاً من أهلها، وخرجوا يقولون: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان، وأمر أصحابه بهدم المساجد، واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن يأسرونه من المسلمين: قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي الذي يحيي ويميت، حتى يحقن دمك، فجرّدت إليهم العساكر، فقتل منهم جمع كبير، ونامت فتنتهم.

ومنهم ابن سينا فيلسوف الزنادقة قال ابن القيم عنه: «كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم»، فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمعيد ولا معاد، ولا رب خالق ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى.

ومنهم النصير الطوسي ولهذا الخبيث مصنفات، قال عنه ابن القيم: «ولما انتهت النبوة إلى نصير الشرك والكفر المُلحد وزير الملاحدة: النصير الطوسي، وزير هولاءكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين، والطبائعيين والسحرة».

ولا زالت عقائد أولئك الفجرة تُداول في بعض الهيئات العلمية والجامعات الإسلامية على أنها فكر حرّ مستنير من أئمة كبار للمسلمين! هذا وللأسف فبعض متأخري الصّوفية قد أدركتهم موجات كفر وإلحاد، فصار منهم حلولية - يرون حلول الخالق في المخلوق! - على عقيدة والحلاج وأتباعه القائل: وما الكلب والخنزير إلا إلهنا..! وما في الجبة إلا الله! وسبحاني سبحاني! واتحادية - يرون الخلق مظاهر للخالق! - على عقيدة ابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني وابن الفارض، قال ابن عربي: «من عبد الصنم فقد عبد الصمد»! وقال أحد المريدين لشيخ ضلالة يؤصل لهم مذهب الاتحادية ويقرره في نفوسهم: يا شيخ أردت أن أقضي حاجتي فتذكرت قولك: إن الأرض وكل شيء هو الله! فكيف أصنع؟ فقال ذلك الإبليسي الزنديق: «وربك أيش إذا!! الكلّ ربك!!» تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وسبحان الله عما يصفون، والآخر يقول مقررًا ومؤصلاً في نفوس الأغرار شرك الربوبية والألوهية معاً: «لا يدخل مصر حبة شعير واحدة إلا بإذن السيد البدوي!» وفي قرة العيون للشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وأعظم آلهة القبوريين في مصر أحمد البدوي».

وينبغي التنبّه الى اختراق المتصوفة من قبل بعض القبوريين، الذين جعلوهم يتبنّون خرافاتهم وشركياتهم؛ كخرافة التوسل والوساطة والسرّ ونحو تلك الوثنيات^(١).

(١) وانظر: التوسل والوسيلة، والرد على البكري، والرد على الأخنائي لابن تيمية،

قال العلامة صالح آل الشيخ في كتابه (هذه مفاهيمنا)^(١): «وقد جادلت يوماً ببلد إفريقي أحد المفتونين من كبار العلماء المحبّذين لعبادة القبور والسدنة حولها في حالهم، ومعنى العبادة، ومفهوم الشهادتين، فقال: أنا أعلم أنكم على الحق ولكن (سيب) الناس تعيش!».

وللعلم فليس كل المتصوفة يقولون بذلك الكفر، بل هو عند فئة قليلة نسبة إلى جمهورهم الذي يبرأ إلى الله من هذه الأمور، وبعض هؤلاء يحسن الظن ببعض الزنادقة وأئمة الضلال وهو لا يعلم حقيقة مقالاتهم الفاجرة. فمن المتصوفة أهل علم ودين وورع وفضل، انتسبوا جهلاً لطريقة دون سبيل نبي الرحمة ﷺ، التي اجتمع فيها كل الخير بحذافيره، ومنهم زنادقة كفر، أخبر من نطفة إبليس، وأكفر من اليهود والنصارى، وبين هؤلاء وأولئك طوائف.

ذكرتُ ذلك إيقاظاً لبعض من أحسن الظن بمن لا يستحقه، وليحذر من تلك المذاهب الخبيثة والنحل الرديئة، وليعلم المحب أن دين الفلاسفة والزنادقة والباطنية والقبورية والحلولية والاتحادية مباين لدين المرسلين، ومزايل لملة محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والتسليم، ومناقض لدين المسلمين، وأن بعض من ينتسب إلى الإسلام قد تشرب ذلك الضلال والوثنية، ولقد قابلت بعضاً منهم وصرّحوا بذلك، فما أعظم واجب أهل الحق، وأخطر

والصارم المنكي لابن عبد الهادي، وكشف الشبهات للإمام المجدد.

(١) ص (٤).

مسؤوليتهم، وأكبر أمانتهم في كشف الباطل وبيان الحق.

وبالجملة: فلا بد من البيان والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ونشر التوحيد، والتحذير من ضده، بكل طريقة ممكنة، لرفع الجهل عن الأمة، ونشر إرث النبوة فيها.

ولسان حال بعض الغيورين على ثوابت الإسلام ومحكمات الإيمان والقرآن:

كم من هموم أحرقت كبدي التي	بجوانحي لکنن أتجلدُ
أواه قلبي لا تبُحْ سري الذي	أكننته قلباً حزيناً يكمدُ
لكننا اللوعات حين أوارها	تجشوا على القلب القوي فيهمدُ
تتهشم الأضلاع من رجع الصدى	من أنة مكلومة تترددُ
يا مقلتي ما عدت أقوى صابراً	جوذي يبحر زاخريتمددُ
بحر خضم سخنت أمواجه	من نار كبدي والضلوع تُقددُ

لكن نقول: دع البكاء على الأطلال والدمن.. وأصلح نفسك وثن بمن حولك وأتبعهم بمن تطيق من عباد الله^(١).

أبشر أخا الإسلام فالنصر قادم وإن أجلب الكفار كل النوادي^(٢)

وتأمل نفيس العلم، ودرر التسليم، وعظم الاتباع، وجمال الافتقار إلى الله تعالى في جواب العالم الرباني ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ فِي رسالته الموسومة

(١) وانظر في تاريخ نشأة البدع: منهاج السنة النبوية (١/ ٣٠٦).

(٢) انظر رسالة: (ويكون الدين كله لله) للمؤلف (٣- ٢٣).

ب(الحموية)^(١) حينما سئل عن آيات الصفات: «الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأئمة دينهم وأتم عليهم نعمته محال مع هذا وغيره: أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه وما يمتنع عليه. فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب

(١) قال ابن باز: «لأهميتها ينبغي أن تقرأ أكثر من مئة مرة». قلت: وقد ألفها في جلسة واحدة بين الظهر والعصر - وتأمل بركة العلم والعمر والوقت - وقيل: إنها كانت أقل من ذلك فزادها وبخاصة النقول من الكتب.

وحصلته النفوس وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا؟!!

ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة وقال: «تركتمكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١) وقال فيما صح عنه أيضًا: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»^(٢).

وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقرب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا». وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه» رواه البخاري^(٣).

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب. بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية.

فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٨٧٠) بدون لفظ «المحجة» وصححه الأرئوط.

(٢) أخرجه مسلم ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦).

(٣) في صحيحه (٣١٩٢).

هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام، ثم إذا كان قد وقع ذلك منه؛ فمن المحال أن يكون خيراً أمته وأفضل قرونها قَصُرُوا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه. ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأن مَنْ في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة؛ يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه، أعني بيان ما ينبغي اعتقاده ومعرفة الرب وصفاته. وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر. وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي - الذي هو من أقوى المقتضيات - أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم. هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق وأشدّهم إعراضاً عن الله، وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله تعالى، فكيف يقع في أولئك؟!

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائلين فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم.

ثم الكلام في هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى وأضعافها، يعرف ذلك من طلبه وتبعه، ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا

عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها: من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم^(١)، فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأमीين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر.

وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف. وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة

(١) في مطبوع الشيخ ابن قاسم - وليس في غيره مما حقق - عبارة شاذة منكرة، ومقحمة على كلام شيخ الإسلام وهي - «وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحاً». قال العثيمين: «إنه رجع إلى أصل المخطوطة فلم يجد هذه العبارة، فلعلها مقحمة في متن الحموية».

وعلق ابن باز على ذلك بقوله: «هذا الأقرب، فهي كلمة خبيثة حاشا شيخ الإسلام قولها، ولا نجد لها مساعاً».

قلت: كذلك قد نفى وجود هذه العبارة محقق الحموية المطبوعة. وانظر كلاماً متيناً لشيخ الإسلام في نقض تلك الجملة الباطلة في درء التعارض (٥ / ٣٧٨ - ٣٨٠). وهذه شهادة ضمنية بنفي نسبة تلك الجملة إليه، رَحِمَهُ اللَّهُ.

دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر - وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى - بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى^(١) - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف - فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية، ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه.

فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين؛ كانت النتيجة استجهاال السابقين الأولين واستبلاهم^(٢)، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين

(١) والتفويض مذهب محدث خبيث، وخلاصته: الإيمان بألفاظ القرآن في صفات الله تعالى مجردة عن معانيها مع اعتقاد صرف هذه الألفاظ عن ظواهرها المعروفة من لغة العرب. فجعلوا نصوص الصفات مجرد حروف مترابطة غير مفهومة، وهذا من الجهل الوخيم وزادوا الفرية بأن جعلوها مذهباً للسلف الصالح، وكذبوا، فالسلف أجروا معاني الألفاظ على معانيها الظاهرة مع اعتقاد نفي المماثلة والكيفية، لذلك فما تعلق به المبتدعة من نصوص للسلف هي في حقيقتها هدم لبدعتهم، فمقصود السلف كأحمد وغيره من قولهم عنها: «أمروها كما جاءت» إنما عنوا نفي الكيفية وليس نفي المعنى، كما قال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» وللأسف فبعض أهل الكلام حينما تركوه وهجروه وأرادوا اعتقاد مذهب السلف ظنوا أن التفويض للمعاني هو مذهبهم فاعتنقوه، وهذا خروج من ضلال إلى ضلال! ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

(٢) أي رميهم بالبلاهة وضعف الإدراك.

بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله!

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، فكيف يكون هؤلاء المتأخرون - لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيّرت طرقي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه، متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من

كتبهم كقول بعض رؤسائهم:

«نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلالٌ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبالٌ
ولم نستفد من بحشنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً،
ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقرأ
في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

ويقول الآخر منهم: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام

وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أُمي».

ويقول الآخر منهم: «أكثر الناس شُكًّا عند الموت أصحاب الكلام».

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر؛ لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر. كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضلون^(١) المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصايح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة؟!

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة - لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟! أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركون وضلّال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من

(١) في الأصل: «المفضلون» وهو تصحيف.

ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!»^(١).

ويكفي في تقديم علم السلف وتقديره بل وحصره في أمور المعتقد أنهم الأجيال الأقرب لتنزل الوحي الإلهي، فالصحابه هم من ارتضاهم الله تعالى لتبليغ دينه للأمة بعد نبيها ﷺ، فالموفق من نهج سبيلهم وسلك طريقهم واستن بطريقتهم، فلم ولن يكون في الأمة مثلهم في العلم والإيمان، فعلام تنكب الطريق، وتتبع بنياته؟!

وبالجملة فكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداء من خلف، واتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم^(٢).

ومن استغنى بالله تعالى، وخالط الاستغناء حشاشة فؤاده فسيستغني ضرورة بالوحي المنزل عن أذهان البشر، وسيستغني بغنى الخالق عن كل مخلوق، وبالله التوفيق، وهو المستعان، وبه الاستغناء، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) الحموية (١-٤) وهي ضمن مجموع الفتاوى (٥/ ٩ - ١٣).

(٢) ولابن رجب رَحِمَهُ اللهُ رسالة لطيفة لجامعة موسومة بـ «فضل علم السلف على علم الخلف».

كيف يسعى لجنون من عقل!

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ. وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾» [محمد: ١٥].

فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته.

وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها، ويُجرىها في غير أحوالها، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها.

كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا: تغتال العقل، ويكثر اللغو على شربها، بل لا يطيب لشربها ذلك إلا باللغو، وتنزف في نفسها، وتنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان، توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الحزي والندامة والفضيحة، وتُلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان وهم

المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس، وإفشاء السر الذي في إفشائه ضرته أو هلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قيامًا له ولمن يلزمه مؤنته، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتُخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب، وأفقرت من غني، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت من مودة، ونسجت من عداوة، وكم فرقت بين رجل وزوجته فذهبت بقلبه وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير، وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بليّة، وعجّلت من منيّه، وكم أورثت من خزيّة، وجرت على شاربها من محنة، وجرت عليه من سفلة.

فهي جماع الإثم، ومفتاح الشر، وسلاطة النعم، وجلابة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من شرب الخمر في الدنيا؛ لم يشربها في الآخرة»^(١) لكفى. وآفات الخمر أضعافُ أضعاف ما ذكرنا، وكلها منتفية عن خمر الجنة»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣) وفي رواية في الصحيحين من حديث ابن عمر بزيادة: «إلا أن يتوب».

(٢) حادي الأرواح (١/ ١٢٢).

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي
موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

- | | | | |
|------|-------------------------------|------|-------------------------|
| ١ - | مقدمات في أقوال وأعمال القلوب | ١٥ - | الافتقار إلى الله تعالى |
| ٢ - | التوحيد والإخلاص | ١٦ - | الاستغناء بالله تعالى |
| ٣ - | العبودية | ١٧ - | التعلق بالله تعالى |
| ٤ - | الصدق مع الله تعالى | ١٨ - | الالتجاء إلى الله تعالى |
| ٥ - | محبة الله تعالى | ١٩ - | الاعتصام بالله تعالى |
| ٦ - | الشوق إلى الله تعالى | ٢٠ - | سلامة الصدر |
| ٧ - | الأنس بالله تعالى | ٢١ - | العفاف |
| ٨ - | الإرادة | ٢٢ - | الصبر |
| ٩ - | العزم | ٢٣ - | الرضا بالله تعالى |
| ١٠ - | الرجاء | ٢٤ - | شكر الله تعالى |
| ١١ - | الرغبة | ٢٥ - | حمد الله تعالى |
| ١٢ - | التوكل على الله تعالى | ٢٦ - | الفرح بالله تعالى |
| ١٣ - | حُسن الظن بالله تعالى | ٢٧ - | |
| ١٤ - | الثقة بالله تعالى | | |

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|---|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ. | ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ. |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ. |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة. | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البايبل). |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية. | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان. |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام. | ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليها السلام. |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل. | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب. | |

كتب متنوعة

- | | |
|---|--|
| ١٣- دموع على سفح الفؤاد. | ١- (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات. |
| ١٤- نَظَرَاتُ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ
الإنسانية. | ٢- حديث الإفك (عبرات وعبر). |
| ١٥- أزمة الفكر المادي. | ٣- لله درّك يا كعب. |
| ١٦- السِّلَفِيَّةُ مُحْضُ الْإِسْلَامِ الْعَتِيقِ. | ٤- إذا ذُكِرَ الصّالِحُونَ فحِيهلاً بعمر. |
| ١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان
(في حجاب الوجه). | ٥- كفاءة النسب وزیوف الجاهلية. |
| ١٨- رقائق المتقين. | ٦- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة
العربية (إخوان من طاع الله). |
| ١٩- شعاعُ الفكر (١) مقالات
شرعية. | ٧- (ويكون الدين كله لله). |
| ٢٠- شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية
وأدبيّة. | ٨- نافذة على قصة الحضارة
لديورانت. |
| ٢١- رياضُ الأنسِ. منتخبات نافعة
من البداية والنهاية، للشيخ محمد
الدميجي رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق
وتعليق). | ٩- المدهشات. |
| | ١٠- تهافت الليبرالية، أركون
أنموذجاً. |
| | ١١- متى يشرع البحث في تفاصيل
القدر. |
| | ١٢- وقد يجمع الله الشيتين. |

٢٢- دمعُ الغمامِ مِنْ مَحَابِرِ الأعلامِ.

حكم وفوائد ووصايا وقصائد،

جمع الشيخ محمد الدميحي

رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).

٢٣- الحنيفيَّة، مِلَّةُ إبراهيم عليه

السلام

٢٤- مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ.

٢٥- انفساخُ العزائمِ وانتقاضُ

الدَّعَائِمِ

٢٦- مقدِّمةُ الحمويَّة.. طلعَ الصَّبَّاحُ

فَأُطْفِئُوا الْقِنْدِيلَا.

٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي

الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة

النفوس).

٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ فِي الْقَدَرِ.

٢٩- من هو الماهر بالقرآن الكريم.

٣٠- مباحث فقهية.

٣١- معالم التوحيد والحنيفية في سيرة

خير البرية ﷺ.

٣٢- إرشاد الحفاظ في متشابه الألفاظ

للقرآن الكريم.

٣٣- الإعجاز الرباني في اليهود.

٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ.

٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفات،

(على شرحي الإمامين النووي

وابن حجر للصحيحين).

٣٦- الإقليد.. مفاتيحُ للعلم،

والعبادة، والدعوة، والسلوك.

• ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجَّاناً بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمل مجَّاناً مؤلفات إبراهيم

الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. وهذا باركود

التحميل المباشر لها:



رابط التحميل المباشر:

حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميحي، من هنا

الصفء والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة - جوال: 0502543917

لميس الغديري

lameesalghadeery@gmail.com

☎ ٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩

الكتاب رقم
(١٧)

موسوعة تعظيم أعلام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

التعلُّق بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرزبي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

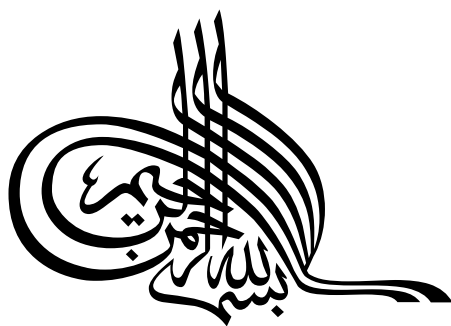
الكتاب رقم (١٧)

النعلف بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٨	مقدمة
٩	التعريف
١٤	علاقة التعلق بالتوكل
١٩	فضل التعلق بالله تعالى وأهميته ووجوبه وضرورة العبد إليه
٣٠	علامات المتعلق بالله تعالى
٣٠	١- الخضوع والخشوع لربه
٣١	٢- الاستعداد للرحيل
٣٣	٣- تجديد التوبة النصوح
٣٤	٤- الرضا بالله رباً ومعبوداً
٣٧	٥- الزهد فيما يشغل عن الآخرة
٤٣	٦- إحسان الظن بالمولى الكريم
٤٥	٧- الفرح بالله تعالى وبشاراته
٤٧	٨- حراسة الوقت من الضياع
٥١	٩- توحيد التعلق بالله تعالى دون من سواه
٥٣	١٠- حفظ اللسان
٥٥	١١- شدة الحرص على موارد حياة القلب، ودفع أسباب ضعفه وموته
٥٨	١٢- رعاية أحوال القلب
٦٠	١٣- توطين النفس دائماً لأحسن الأخلاق مع الله تعالى مع اختلاف الأحوال
٦١	١٤- تعليق القلب ببيوت الله تعالى
٧١	١٥- التواضع والإزراء بالنفس

- البراءة من التعلُّق بالخلق ٧٣
- التعلُّق بالله في زمن الابتلاء ٩٢
- من مصالِح الابتلاء: ١١٠
- ١ - التوبة والإنابة والرجوع إلى الله عز وجل ١١٠
- ٢ - استخراج الدعاء ١١١
- ٣ - كشف المنافقين وفضحهم ١١٢
- ثمرات التعلُّق بالله تعالى ١١٦
- ١ - الثبات عند التقلبات، والرسوخ عند المُلْهَمَات ١١٦
- ٢ - أنه خير معين على الدعوة إلى الله تعالى ١١٧
- ٣ - السعادة والهناء في الدنيا والآخرة ١٢٤
- ٤ - إحسان التعلُّق بالله تعالى ١٢٩
- ٥ - العزة بالله تعالى، والأئفة من الذلِّ لمخلوق ١٣٠
- ٦ - التوفيق الملازم للمتعلِّق بربه تعالى ١٣١
- ٧ - انشراح الصدر وانفساحه بالأنس بالله تعالى ١٣٢
- نماذج وأمثلة من سادة المتعلِّقين بالحي القيوم سبحانه ١٣٨
- طرق تحصيل التعلُّق بالله تعالى وتثبيتته وزيادته ١٥٧
- ١ - العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ١٥٧
- ٢ - التفكير والتدبر وإمعان النظر في أحوال الأمم وتصريف الله لها ١٥٨
- ٣ - دراسة سير المتعلِّقين بالله رب العالمين ١٥٩
- ٤ - تدبر القرآن العظيم ١٥٩
- ٥ - الدعاء ١٦٢
- ٦ - التأمل في عجز الخلائق وفقدهم لله تعالى ١٦٤



١٦٥.....	٧- دوام العبادة
١٦٨.....	٨- الحرص على عبادة السر
١٦٨.....	٩- صحبة المتعلقين بالله تعالى
١٦٩.....	١٠- الإخلاص
١٧٤.....	١١- مداومة الذكر
١٧٩.....	١٢- دوام إحسان الظن بالله تعالى وحسن الرجاء به
١٨٤.....	١٣- طلب العلم
١٩٢.....	عوائق التعلق بالله تعالى
١٩٢.....	١- قلة العلم بصفات تعالى وربوبيته وأفعاله وما ينبغي له
١٩٦.....	٢- الإخلاد إلى الأرض، والتكاثر والتهالك على حطام الفانية
٢٣٣.....	٣- اتباع الهوى
٢٨١.....	٤- المعاصي والذنوب
٣٠٨.....	٥- ضعف الإيمان، وضعف أعمال القلوب
٣١٨.....	٦- الانقطاع عن العبادات، أو عدم ديمومتها
٣٣٠.....	٧- هجر القرآن العظيم
٣٣٥.....	٨- ضعف التفكير وقلة المحاسبة
٣٦٧.....	٩- صحبة ضعيفي التعلق بالله تعالى
٣٩٠.....	١٠- الخوف من المخلوق ورجاؤه ومحبة
٣٩٢.....	١١- الشرك والكفر بالله عز وجل
٤٠٤.....	هل ينافي التعلق بالله تعالى اتخاذ الأسباب والتداوي؟
٤٠٩.....	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، يسمعُ دعاءَ الخلائق ويُجيب، يُؤنسُ الوحيد، ويَهدي الشريد، ويذهب الوحشة عن الغريب. يغفر لمن استغفره، ويرحم من استرحمه، ويصلح المعيب. يستر العصاة، ويمهل البُغاة، ويقيم حُجَّتَه على الغُواة، ومن تاب منهم قُبِلَ وأُثيب. من أطاعه تَوَلَّاه، ومن غفل عنه لا ينساه، وله من رزقه نصيب.

أحمده تبارك وتعالى، وأرجوه الأمن والأمان والرضا والرضوان في يوم يسقط الجنين فيه والصغير من هوله يشيب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المهيمن والرقيب. من تبع شرعه والآه، ومن آوى إليه آواه، ومن توكل عليه كفاه، ومن اعتصم به فهو مولاه، ومن ارتجاه مخلصاً لا يخيب.

وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله المقرب والحبيب. خلَّقه نعمة، ومبعثه رحمة، وشمس سُنَّتَه لا تغيب. هو تاجُ أولي العزائم، وقدوة لكل عابد وصائم وقائم، وباتِّباعه تحلو الحياة وتطيب. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى الصَّحْب والآل ومن تبعهم بإحسانٍ يا قريب يا مجيب.

أما بعد؛ فإنَّ التعلُّق بالله تعالى هو لبَّابُ تحقيق كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فمن صدَّق التعلُّق به استقام دينه، وصحَّت عبادته، وكفَّر بما سواه، وصدقت دعواه؛ فصار من السابقين المقربين. وهذه - أحسن الله إليَّ وإليك - حروفٌ يَسرها الله تعالى في بيان ذلك وما يتعلَّق به، سائلاً ربي التوفيق

والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٠٤ / ٢٢ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

التعلق انجذاب وافتقار واحتياج ولزوم، كتعلق الجنين بحبل أمه السُّرِّي، فهو لا ينفك عنه لحظة، فغذاؤه ودواؤه وحاجات جسده عن طريقه بإذن الله تعالى، فالقلب إذا تعلق بربه فخضع وخشع واعترف وتوكل وافتقر واغتنى وتأله؛ فقد قام بعبودية التعلق بربه تبارك وتعالى، وعلى قدر تعلقه بال مخلوقين وانجذابه نحوهم واحتياجه إليهم؛ يكون نقص تعلقه بربه سبحانه، ومن ثم استحقاقه الخذلان بقدر التعلق بغير الكريم المنان سبحانه وتعالى.

وحدُّ التعلق هو ملازمة التَّشَبُّث بالشيء الأعلى، مادِّيًّا كان أو معنويًّا، وهو الاحتياج والانجذاب والتَّشَبُّث والثقة والتَّقَرُّب واللزوم والإناطة، قال ابن فارس في مادة (علق): «العين واللام والقاف أصلٌ كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي. ثم يتَّسع الكلام فيه، والمرجع كله إلى الأصل الذي ذكرناه. تقول: عَلَّقْتُ الشيءَ أَعْلَقَهُ تعليقًا. وقد عَلِقَ به، إذا لَزِمَهُ. والقياس واحد. والعَلَقُ: ما تَعَلَّقَ به البَكْرَةُ من القامة. ويقال العَلَقُ: آلة البَكْرَةِ. ويقولون: البئر محتاجة إلى العَلَقِ. وأَعْلَقْتُ بالغرب بعيرين، إذا قرنتَهُما بطَرَفِ رِشائِهِ.

قال الخليل: العَلَقُ أن يَنْشِبَ الشيء بالشيء. قال جرير:

إِذَا عَلِقْتُ مَخَالِبُهُ بِقَرْنٍ أَصَابَ الْقَلْبَ أَوْ هَتَكَ الْحِجَابَ

والعَلَقُ: الهوى. وفي المثل: «نظرة من ذي علق»، أي ذي هوى قد علق

قلبه بمن يهواه. وقال الأعشى:

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

والعلاقة: الحبُّ اللازم للقلب^(١).

ويقولون: إِنَّ الْعُلُوقَ مِنَ النِّسَاءِ: الْمُحَبَّةُ لزوجها. ويقولون: عَلِقَتِ الْمَرْأَةُ: حَبِلَتْ. وقد عَلِقَتِ الْفَسِيلَةُ إِذَا ثَبَتَتْ فِي الْغِرَاسِ^(٢).

وفي المختار: «الْعِلْقُ بِالْكَسْرِ: الْفَيْسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَجَمْعُهُ أَعْلَاقٌ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ»^(٣) بضم اللام أي: تتناول.

والمِعْلَاقُ والمُعْلُوقُ ما عُلِقَ بِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عِنَبٍ وَنَحْوِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ عُلِقَ بِهِ شَيْءٌ فَهُوَ مِعْلَاقُهُ^(٤) والعِلَاقَةُ بِالْفَتْحِ عِلَاقَةُ الْخُصُومَةِ، وَأَعْلَقَ أَظْفَارَهُ فِي الشَّيْءِ أَنْشَبَهَا، وَالْإِعْلَاقُ أَيْضًا إِسْهَالُ الْعَلَقِ عَلَى الْمَوْضِعِ لِيَمَصَّ الدَّمُ. وَعُلِقَ

(١) وأنشدوا لابن الدُّمَيْنَةِ:

ولقد أَرَدْتُ الصَّبْرَ عَنْكَ فَعَاقَنِي عَلِقْتُ بِقَلْبِي مِنْ هَوَاكِ قَدِيمٍ

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٤ / ١٢٦ - ١٣٢) بانتقاء.

(٣) روى أحمد (٢٦٦/١) (٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ، أَوْ شَجَرِ الْجَنَّةِ» ومعنى تعلق: أي تأكل، وذلك في الإبل، إذا أكلت العضاء، فنُقِلَ إِلَى الطير.

(٤) ولا زال عند العامة بالتذكير: (مِعْلَاق) أي: ما عُلِقَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ.

الشيء تَعْلِيْقًا وَاَعْتَلَقَهُ أَحَبَّهُ. وَتَعَلَّقَهُ وَتَعَلَّقَ بِهِ بِمَعْنَى (١)، وَتَعَلَّقَهُ أَيْضًا بِمَعْنَى عَلَّقَهُ تَعْلِيْقًا (٢).

وقال ابن منظور: «عَلِقَ بِالشَّيْءِ عَلَقًا وَعَلَقَهُ نَشَبَ فِيهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «فَعَلَقَتِ الْأَعْرَابُ بِهِ» (٣) أَيْ نَشَبُوا وَتَعَلَّقُوا، وَقِيلَ: طَفِقُوا. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: إِذَا عَلَقْتَ قِرْنًا خَطَاطِيفُ كَفِّهِ رَأَى الْمَوْتَ رَأَى الْعَيْنِ أَسْوَدَ أَحْمَرَ وَهُوَ عَالِقٌ بِهِ أَيْ نَشَبٌ فِيهِ، وَيُقَالُ لِلصَّائِدِ: أَعْلَقْتَ فَأَذْرِكُ، أَيْ عَلِقَ الصَّيْدُ فِي حِبَالَتِكَ.

وَعَلِقَ الشَّيْءَ عَلَقًا وَعَلِقَ بِهِ عِلَاقَةً وَعُلُوقًا لَزَمَهُ، وَعَلَقَتْ نَفْسُهُ الشَّيْءَ فَهِيَ عِلَقَةٌ وَعِلَاقِيَّةٌ، وَعِلَقْنَةُ: لَهَجَتْ بِهِ، قَالَ:
فَقُلْتُ لَهَا وَالنَّفْسُ مَنِّي عِلَقْنَةُ عِلَاقِيَّةٌ تَهْوَى هَوَاهَا الْمُضَلَّلَ
وَالْعِلَاقَةُ الْهَوَى وَالْحُبُّ الْإِلَازِمُ لِلْقَلْبِ، وَقَدْ عَلَقَهَا - بِالْكَسْرِ - عَلَقًا وَعِلَاقَةً
وَعَلِقَ بِهَا عُلوْقًا وَتَعَلَّقَهَا وَتَعَلَّقَ بِهَا وَعُلَّقَهَا وَعُلِقَ بِهَا تَعْلِيْقًا: أَحَبَّهَا، وَهُوَ مُعَلَّقٌ
الْقَلْبَ بِهَا. قَالَ كَثِيرٌ:
وَلَقَدْ أَرَدْتُ الصَّبْرَ عَنْكَ فَعَاقَنِي عَلِقٌ بِقَلْبِي مِنْ هَوَاكِ قَدِيمٍ
وَعَلِقَ حُبُّهَا بِقَلْبِهِ: هَوَاهَا، قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

(١) أي بنفس المعنى.

(٢) مختار الصحاح (١ / ٤٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٤ / ٩٤) (٣١٤٨) بلفظ: «علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه..» وفي البخاري ٢٧/٤ (٢٨٢١) بلفظ: «فعلقه الأعراب يسألونه».

لقد عَلَقْتُ مَيِّ بقلبي عَلاقَةً بَطِيئًا على مَرِّ الليالي انْجَلاها
وعَلَّقَ الشيءَ بالشيءِ ومنه وعليه تَعْلِيْقًا ناطَهُ، وفي الحديث: «من تَعَلَّقَ
شيئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ»^(١) أي من عَلَّقَ على نفسه شيئًا من التعاويذ والتَّهائم وأشباهها
معتقدًا أنها تَجْلِبُ إِلَيْهِ نفعًا أو تدفع عنه ضرًّا.
وكلُّ ما يُتَبَلَّغُ به من العيش فهو عُلُقَةٌ^(٢)، والعُلُقَةُ والعَلاقُ ما فيه بُلْغَةٌ من
الطعام إلى وقت الغذاء، وفي حديث الإفك: «وإنما يَأْكُلْنَ العُلُقَةَ من
الطعام»^(٣)(٤).

وفي المحكم: «والمعلقة: بعض أداة الراعي»^(٥)، وقال أبو حنيفة: العليق
شجر من شجر الشوك لا يعظم، وإذا نشب فيه شيء لم يكد يتخلص من كثرة
شوكه، وشوكه حجن حداد، ولذلك سمي عليقًا. قال: وزعموا أنها الشجرة
التي آنس موسى ﷺ فيها النار. وأكثر منابتها الغياض والأشب. والمعلقة
شجر يبقى في الشتاء تبْلَغُ به الإبل، حتى تدرك الربيع»^(٦). «وقالوا: ما في

(١) رواه أحمد (٣١٠/٤) بسند صحيح.

(٢) قال الأزهري: «والمعلقة من الطعام والمركب ما يُتَبَلَّغُ به وإن لم يكن تامًّا».

(٣) البخاري (٢١٩/٣)، و٤٠/٤، و١١٠/٥، و٩٦/٦، و١٧٢، ١٦٨، و١٧٦/٩.

ومسلم (١١٢/٨) وانظر: (حديث الإفك، عِبْرٌ وَعِبَرَات) للمؤلف.

(٤) لسان العرب (١٠ / ٢٦١ - ٢٦٤) باقتصار.

(٥) يظن بعضهم أن العامة تقلبها فتقول: ملعقة، وهذا خطأ فهي لغة صحيحة مشتقة
من اللّعق، واللّعق مغاير للتعليق.

(٦) المحكم والمحيط الأعظم (١ / ٢٠٨).

الأرضِ عَلاق ولا لَمَاق، أي: ما فيها ما يُتَبَلَّغُ به من عَيْش. ويقال: ما فيها مَرَتَعٌ. قال الأعشى:

وَفَلَاةٍ كَأَنَّهُما ظَهَرُ تُرْسٍ لَيْسَ إِلَّا الرَّجِيعَ فِيهَا عَلاقُ
يقول: لا تَجِدُ الإِبِلَ فيها عَلاقًا إِلَّا ما تُرَدُّدُهُ من جَرَّتِها.

ويراد به الثبوت، وفي المثل: عَلِقْتُ مَعَالِقُها وَصَرَ الْجُنْدُبُ، وأصله أَنَّ رجلاً انْتَهَى إلى بئرٍ، فأَعْلَقَ رِشاءَهُ بِرِشائِها ثم سار إلى صَاحِبِ البئرِ، فَادَّعَى جَوارَهُ، فقال له: وما سَبَبُ ذلك؟ قال: عَلِقْتُ رِشائِي بِرِشائِكَ، فَأَبَى صَاحِبُ البئرِ، وأَمَرَهُ أَنْ يَرْتَحِلَ، فقال: عَلِقْتُ مَعَالِقُها وَصَرَ الْجُنْدُبُ، أي جاءَ الحَرُّ ولا يُمَكِّنُنِي الرِّحِيلُ.. وقال ابنُ سِيدَه: يُضْرَبُ لِلشَّيْءِ تَأْخُذُهُ فلا تُريدُ أَنْ يُفْلِتَكَ»^(١).

قلت: فعاد التعلُّق إلى ملازمة التَّشَبُّثِ بالشَّيْءِ الأعلى مادِّيًّا كان أو معنويًّا. كما أَنَّ التعلُّق من مفردات المحبة ومراتبها، فإذا أطلق التعلُّق في بابها فهو المحبة والميل الشديد والاحتياج.

وبعد؛ فالتعلُّق دائر بين هذه المعاني، واشتقاقاته كلها راجعة إلى اللزوم والتَّشَبُّثِ، وبالله التوفيق.



(١) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٦ / ١٨١ - ١٨٥) مختصرًا.

علاقة التعلق بالتوكل

كَأَنَّ التَّعَلُّقَ أَخْصَّ مِنَ التَّوَكُّلِ لَكِنَّهُ أَدْوَمُ بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ الْمُتَّعِلِّقُ بِهِ عَنْ قَلْبِ الْمُتَّعِلِّقِ، فَالْمُتَّعِلِقُ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْفَكُ لَحْظَةً عَنْ إِحْسَاسِهِ بِضُرُورَتِهِ وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى. فَفِي التَّوَكُّلِ تَعَلُّقٌ لِأَنَّهُ لَا تَفْوِضَ عَلَى التَّهَامِ إِلَّا لِمَنْ تَعْلُقُ الْقَلْبَ بِهِ، وَلَا يَقُومُ التَّوَكُّلُ إِلَّا بِالتَّعَلُّقِ، وَفِي التَّعَلُّقِ تَوَكُّلٌ مِنْ جِهَةِ ثَمَرَتِهِ.

فَجَامِعُهُمَا التَّعَلُّقُ، لِذَلِكَ فَسَرَّ جَمْعُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ الْقَيِّمِ - لِمَا لَحِظْتَهُمْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةَ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عَمُومٌ وَخُصُوصٌ كَمَا قَدَّمْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ أَبُو تَرَابِ النَّخْشَبِيِّ: «التَّوَكُّلُ: طَرَحُ الْبَدَنِ فِي الْعِبَادِيَّةِ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى الْكِفَايَةِ، فَإِنْ أُعْطِيَ شُكْرٌ وَإِنْ مَنَعَ صَبْرٌ»^(١).

وَسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ عَنِ التَّوَكُّلِ فَقَالَ: «التَّعَلُّقُ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ. فَقَالَ السَّائِلُ: زِدْنِي، فَقَالَ: تَرَكْ كُلَّ سَبَبٍ يُوَصِّلُ إِلَى سَبَبٍ، حَتَّى يَكُونَ الْحَقُّ هُوَ الْمُتَوَلَّى»^(٢) أَيِ تَرَكْ التَّعَلُّقَ بِالسَّبَبِ وَتَوَحِيدَ التَّعَلُّقَ بِالسَّبَبِ، وَهَذَا مِنْ ذَخَائِرِ التَّوَحِيدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا تَرَكْ الْأَسْبَابَ بِالْكَلِيَّةِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ، فَاللَّهُ أَمْرٌ بِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ وَمُبَاشَرَتِهَا مَعَ أَمْرِهِ بِالْإِعْتِمَادِ وَالتَّفْوِضِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ دُونَ سِوَاهِ، وَهَذَا مُلْحَظٌ يَجِبُ أَنْ لَا يَغِيبَ عَنْ قَلْبِ

(١) مدارج السالكين (٢ / ١١٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٦ / ٢٧٣).

كل موفق، بل والمتوكل حينما يباشر الأسباب يوقن أن وكيله سبحانه هو الذي سخرها له، ولولاه وحده لما تيسرت له، ولما تيسرت لوازمها وارتفعت موانعها، فكل توكل يحجره لتوكل على الله آخر، وكل تعلق يهديه لتعلق بالله جديد، فهو ينهل من معين العبودية لربه ما تقرُّ به عينه، وتسعد به نفسه، ويفلح منقلبه لربه ومولاه.

وتأمل توكل إبراهيم عليه السلام، إذ قال له جبريل عليه السلام: «ألك حاجة؟» فقال: «أما إليك فلا»^(١)، وهذا مع كون إبراهيم يعلم قوة سيّد الملائكة جبرائيل التي أودعها إياه ربُّ العالمين، لكن المقام مقام توحيد تعلّق، وتجريد ثقة، وإفراد تألّه بمن هو على كل شيء قدير، فلا يأتي الخير إلا من قبله، ولا يُدْف الشّرُّ إلا من جهته تبارك وتعالى.

وليس في هذا تركٌ لدعاء ربه كما روى بعضهم بإيراد زيادة: «قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤال علمه بحالي» وهي رواية لا تصح بحال^(٢)، وهي مخالفة لمنهج الأنبياء في دعاء ربهم تبارك وتعالى، ومن ضمنهم الخليل عليه السلام، وفي القرآن أدعية إبراهيمية كثيرة، كما في سورته عليه السلام كما في الآيات (٤١-٣٥) وغيرها.

والمقصود؛ أن قطع الناس عن ضرورتهم لدعاء ربهم بحجة تفويضهم

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٠٤٥). وقال ابن تيمية: «أول هذا الحديث معروف، وأما

قوله: حسبي من سؤال علمه بحالي فكلام باطل». الفتاوى (٥٣٩/٨).

(٢) قال الألباني في الضعيفة (٢١): «لا أصل له».

لعلمه مخالفٌ لسبيل الأنبياء، بجانب لجادة المرسلين، وهم سادة العباد بلا ريب، وهم أعلم الخلق برهم وما يحبه ويرضاه من سبل الزلفى لديه والقربى بين يديه.

وتأمل حال نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه مع الدعاء والإلحاح على ربه لعلمه بمحبة الله تعالى لذلك، وأنه من شواهد تحقيق العبودية له سبحانه، وقد أمر الله تعالى في كتابه بدعائه وتوحيده بدعائه فقال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وكما قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١) وغير ذلك كثير في القرآن والسنة.

قال الغزالي معلقاً على قصة إبراهيم عليه السلام: «فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك»^(٢)، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حال مبهور غائب عن نفسه بالله تعالى، فلم ير معه غيره، وهو حال عزيز في نفسه، ودوامه - إن وجد - أبعد منه وأعز»^(٣).

(١) الترمذي (٥ / ٤٥٦) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني.

(٢) وقد سخر الله له النار التي أرادوا بها عذابه حتى صارت برداً وسلاماً عليه، فمنع المسبب السبب عن ما خلق له من الإحراق، كرامة لوليه وخليله عليه الصلاة والسلام.

(٣) الإحياء (٦ / ٧٣).

فالتوكل هو التعلق بالله مخلصاً في كل حال، مع بذل الأسباب، ثم التفويض لله وحده، وهذا النعيم القلبي هو الذي يثمر الرضا بقضاء الله وقدره. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يصح التوكل إلا بالقيام بالأسباب، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد، والراحة هي إلقاء حمل الكل، فيظن صاحبه أنه متوكل من دون بذل أدنى الأسباب»^(١).

«قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «التوكل عمل القلب» فعمل القلب هو التوكل، ولا شك أنه من أعظم أعمال القلوب، وبعض العلماء فسر التوكل على الله بالرضا، أن يرضى الإنسان بأمر الله سبحانه وتعالى ويسلم لله تبارك وتعالى أموره كلها، وإذا سلم أموره كلها اعتمد على الله سبحانه وتعالى سواء جاءت الأسباب بما يحبه أو بما لا يحبه، فيرضى بما قدر الله سبحانه وتعالى له، ولذلك سئل يحيى بن معاذ ف قيل له: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: «إذا رضي بالله وكياً».

وبعضهم قال: «إن التوكل هو التعلق بالله في كل حال».

وهذه مسألة مهمة، فيتعلق بربه تبارك وتعالى في كل أحواله، فإن جاءه المال والشرف لا يقطعه ذلك عن التوكل على الله تعالى، وإن ابتلي بالفقر والمرض لا يقطعه ذلك عن التوكل على الله، وهكذا في أحواله وأموره كلها، حتى إن بعضهم قال: «إن التوكل معناه: أن يستوي عندك الإقبال والإكثار». ويستويان حينما تعلم أن الله هو المدبر الرازق، وحينما تعلم أن الله

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).

سبحانه وتعالى هو الذي بيده الأمر كله، وهو الله سبحانه وتعالى المتصرف بعباده كما يشاء، فإذا ما صرت غنياً أو فقيراً لا تتغير أحوالك ومعاملتك لربك تبارك وتعالى»^(١).



(١) حقيقة التوكل ومعناه عند السلف، عبد الرحمن المحمود (٢٠ / ٣) بتصرف يسير.

فضل التعلق بالله تعالى وأهميته ووجوبه وضرورة العبد إليه

لا إيمان إلا بتعلق، ولا عبودية إلا بتعلق، ولا إحسان إلا بتعلق، فمدار الدين على تعلق القلب برب العالمين من جهة ربوبيته له وإحاطته به وحفظه وإمداده ورزقه، ومن جهة إلهيته وحبه وعبادته وتوجهه وإسلامه.

فقلب المؤمن معلق بربه مهما باشرت يده تقليب الأسباب، قال الشيخ عبد الله بن أبي حمزة رَحِمَهُ اللهُ: «وقد أشتمل القرآن على أحكام عديدة؛ فمنها عمل الأسباب في الظاهر وخلو الباطن من التعلق بها، وهو أجلها وأزكاها، لأن ذلك جمع بين الحكمة وحقيقة التوحيد، وذلك لا يكون إلا للأفذاذ الذين من الله عليهم بالتوفيق.

ولذلك مدح الله تعالى يعقوب عليه الصلاة والسلام في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] لأنه عمل الأسباب واجتهاد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد، فقال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧] فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين^(١).

(١) تفسير الثعالبي (٢ / ٢٤٧) بتصرف.

والمؤمن يعلم أن الملك ملك الله، والخلق خلقه، والعبيد عبيده، فهو لا ينفك عن تعلقه بمن هذا شأنه سبحانه وبحمده، «وذكر الله تعالى انفراده بالتدبير والعطاء والمنع فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ من رحمته عنهم ﴿فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها»^(١).

والمؤمن الموفق يعلم أن الله خلقه لعبادته، وأن زبدة رسالة المرسلين هي تحقيق التوحيد وتجريد العبودية لله وحده لا شريك له «ولما بعث صلوات الله وسلامه عليه صار يقول للناس: «قولوا: لا إله إلا الله»^(٢) فكان هذا هو أول ما أمرهم به، ومعنى لا إله إلا الله: أن يكون التأله - الذي هو حب القلب وخوفه ورجاؤه - لله وحده، فلا يكون القلب متعلقاً بغير الله جل وعلا، وكل شيء تتعلق به القلوب من غير الله يجب أن يُبطل وأن يُنصرف عنه، فليس لأحد من الخلق من الألوهية شيء، وإنما هي مجرد أوضاع تواضع عليها الآباء واتباعهم عليها الأبناء، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، يعني: مجرد أسماء سموها الآلهة، وليس لها

(١) تفسير السعدي (١ / ٦٨٤).

(٢) «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد (١٦٦٠٣) بسند صحيح.

من معنى الإلهية شيء، فالإلهية يجب أن تكون لله، والتأله هو حب القلب وخوفه ورجاؤه، ثم كانوا مختلفين، منهم من يعبد شجراً، ومنهم من يعبد حجارة، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد عبداً صالحين دفنوا كاللآلئ. على قراءة التشديد. فقد جاء عن ابن عباس وغيره من السلف: أنه كان رجلاً يلت السوق بالسمن، ثم يقدمه لمن يأتي إليه من الحجاج وغيرهم، فلما مات دفن تحت صخرة في الطائف فعُبد، وصاروا يعكفون عنده للتبرك، ويطوفون بقبره، ويأتونه سائلين أن يشفع لهم عند الله، فكانت هذه هي عبادتهم، وما كان أحد منهم يأتي إليه ويقول: أنزل المطر، أنبت النبات، ادفع عني العدو، أعطني الصحة، وأزل المرض مني، ما كان أحد يقول هذا ولا يعتقد، وإنما كانوا يجعلونهم وسطاء، ويقولون: اسأل لنا الله أن يفعل لنا كذا وكذا؛ لأنهم يزعمون أنه أقرب إلى الله منهم، ولم يفرق الرسول ﷺ بين هؤلاء. ومعلوم في التواريخ وكتب السيرة أن الشيطان كان يأتي أحياناً في هذا البناء الذي بينونه أو تحت الشجرة التي يعظمونها. مثل العزى. فيكلمهم ليضلهم؛ لأنهم حين يسمعون الكلام يعتقدون أنه يستجيب لهم»^(١).

والمتعلق بالله لا يُخذل في أشد الأهوال ولا يُنسى مع تتابع الكروب، بل تتابع عليه ألطاف الملك الوهاب، وتتوالى عليه أمداد اللطيف الخبير، وهو ذاكرٌ لربه في كل حال، حتى مع التحام الأقران بتوالي الطعان ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١٢٨ / ٩).

قال أبو حيان الأندلسي: «أمرهم الله تعالى بذكره كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدو والتلاحم بالرماح والسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء، فأمرُوا بذكر الله، إذ هو تعالى الذي يُفزع إليه عند الشدائد، ويُستأنس بذكره، ويُستنصر بدعائه، ومن كان كثير التعلق بالله ذَكَرَهُ في كل موطن حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء ويغيب فيها الحس، ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وحكى لي بعض الشجعان: أنه حالة التحام القتال تأخذ الشجاع هزّة وتعتريه مثل السكر لهول الملتقى، فأمر المؤمنين بذكر الله في هذه الحالة العظيمة. وقد نظم الشعراء هذا المعنى فذكروا أنهم في أشقّ الأوقات عليهم وأشدّها لم ينسوا محبوبهم، وأكثرُوا في ذلك فقال بعضهم:

ذكرت سليمى وحرّ الوغى كقلبي ساعة فارقتهَا
وأبصرت بين القناقدّها وقد ملن نحوي فعانقتها^(١)

قال قتادة: «افترض الله ذكره أشغل ما يكون العبد عند الضراب والسيوف». والظاهر أن الذكر المأمور به هو باللسان، فأمر بالثبات بالجنان وبالذكر باللسان، والظاهر أن لا يعيّن ذكر^(٢)، وقيل: هو قول المجاهدين: الله

(١) ومثله قول عنتره:

ولقد ذكرتُك والرماح نواهلُ منّي ويبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

(٢) وهو الراجح، لإطلاق الآية الكريمة.

أكبر الله أكبر عند لقاء الكفار، وقيل: الدعاء عليهم: اللهم اخذهم اللهم دمرهم وشبهه، وقيل: دعاء المؤمنين لأنفسهم بالنصر والظفر والتشيت كما فعل قوم طالوت فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وقيل: حم لا ينصرون، وكان هذا شعار المؤمنين عند اللقاء.

وقال محمد بن كعب: «لو رخص ترك الذكر لرخص في الحرب»^(١).

والمتعلق بالله لا تضيق عليه المخارج عند ادلهام الخطوب وتكاثف الغموم وتراكم الرزايا، قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «ضاق بي أمر أو جب غمًا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه. فما رأيت طريقًا للخلاص. فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم. فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج. فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتنال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج.

ثم أعجبه أن يكون من حيث لم يُقدِّره المتفكر المحتال المدبر، كما قال عز وجل: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب،

(١) تفسير البحر المحیط (٤ / ٤٩٨).

فقد قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

والمتعلق بالله بصير بحاله، عليم بعاقبة أفعاله، يعلم من أين يؤتى لذلك قلت ذنوبه، حسن الظن بالمولى لذلك كثرت ضراوته وعظمت رغائبه، ويعلم أن لمولاه حَكَمٌ في تأخير إجابة دعواته أحياناً، يحدث نفسه وغيره فيقول: من العجب إلحاحك في طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك! وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين، إما لمصلحتك فربما مُعَجِّلٌ أذى، وإما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الإجابة.

فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصي.

وانظر فيما تطلبه هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك؟

فإن كان للهوى المجرد. فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه.

وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيُمنع رفقاً به.

وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيرها، أو كان صلاح الدين

بعده.

وفي الجملة؛ تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك، وقد يمنعك ما

تهوى ابتلاء ليلو صبرك. فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر.

ومتى نظّفت طرق الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه

لك؛ فكل ما يجري أصلح لك، عطاءً كان أو منعاً»^(١).

ومن فضائل التعلق بالله دون سواه أن مَنْ تعلق بربه ومولاه ربّ كل شيء ومليكه؛ كفاه ووقاه، وحفظه وتولاه؛ فهو نعم المولى، ونعم الرازق، ونعم الهادي، ونعم المجيب، ونعم الظهير، ونعم النصير. ومَنْ تعلق بغيره وكلّه الله إلى مَنْ تعلق به؛ والتعلق يكون بالقلب وبالفعل، ويكون بهما جميعاً.

فالمتعلقون بربهم، المنزلون به حوائجهم، المفوضون إليه أمورهم، يكفيهم ويحميهم؛ يقرب لهم البعيد، ويسر لهم العسير. ومَنْ تعلق بغير ربه، وسكن إلى رأيه وعقله، وركن إلى الأسباب الظاهرة، واعتمد على الخلق دون الخالق، وأشرك العبيد الفقراء الفانين مع الربّ الحي القيوم؛ وكلّه ربه إلى ما تعلق به، وخذله أحوج ما يكون إليه.

قال عطاء الخراساني: «لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه داود عليه السلام: يا داود! أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم بي عبدٌ من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن؛ إلا جعلتُ له من بينهن مخرجاً، أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته؛ إلا قطعْتُ أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدمه، ثم لا

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٣).

أبالي بأي أوديتها هلك»^(١).

إنَّ المتعلق بالله لا يخشى غيره الله ولا يخاف سواه، لعلمه أن المخلوقين مهما أوتوا من قوة وخبرة وسلطان وبطش؛ فلا يخرجون عن قَدْرِهِ وقُدْرَتِهِ طرفة عين، ولو اجتمعوا على أن ينفعوا أو يضرّوا أحدًا فلا يكون لمرادهم وقوع إلا إن شاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون.

وإن مما ينافي حقيقة التعلق بالله: الخوف من المخلوق خوفًا يدفع إلى ترك ما يجب أو فعل ما يحرم مدهنة في الدين رَغَبًا ورَهَبًا، محاباةً لمخلوق أو خوفًا من شره، أو طمعًا في لعاعة حطام زائل، فالطمع في نفع المخلوق أو الخوف من شرّه إذا أدّى إلى ضعف التعلق بالله عز وجل، وَوَهَنِ التَّوَكُّلِ عليه تبارك وتعالى، وزلزلة الثقة به سبحانه، وزعزعة جبل اليقين به في صدره، والغفلة عن حقائق الأشياء؛ فإن هذا يقدح في أَسَسِ التعلق، ويضعفه إن لم يذهب، فيضعف في القلب حتى يتلاشى إن لم يتداركه ربه بعنايته، ويغمره بلطفه، ويأخذ بيده لتوفيقه وهداه ونوره، ومن تعلق بشيء وَكِلَإِله، ومن وُكِّلَ إلى غير الله عز وجل ضاع وهلك، وخاب وعطب، وكان من الخاسرين. «ومما

(١) رواه الإمام أحمد في المسند وأسنده بقوله: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن منبه..» فذكره. وانظر أيضًا: حلية الأولياء (٢٦/٤). ونقله ابن القيم في إغاثة اللهفان (٣٤/١) ومعناه حسن عظيم، وقد روي عن كعب بن مالك مرفوعًا ولا يثبت، بل قد حكم عليه الألباني بالوضع، كما في ضعيف الجامع (٤٩٢٣).

يصلح التمثيل به في عصرنا اليوم على هذا الضعف: ما يعتري بعض الدعاة وهو في دعوته إلى الله عز وجل من خوف على نفسه أو رزقه أو منصبه، الأمر الذي يؤدي ببعضهم إلى ترك ما هم عليه من تعليم للعلم أو دعوة إلى الله عز وجل، والإحجام عن مجالات الخير ونفع الناس، بحجة الحذر والبعد عن الفتن. والله سبحانه أعلم بما في قلوب العالمين. ثم إنه لو كان يغلب على الظن حصول الأذى والابتلاء؛ لكان لذلك بعض الوجه في الأخذ بالرخصة وترك العزيمة، أما وأن الأمر على العكس من ذلك؛ حيث يغلب على الظن عدم التعرض للأذى، فإنه لا تفسير لهذه المواقف إلا ضعف التوكل على الله عز وجل، والوسوسة الشديدة، والمبالغة في الخوف، والحذر الزائد من المخلوق الضعيف، وتهويل أمره، وهذا من كيد الشيطان ووسوسته، وكأننا لم نسمع ولم نعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٧٥].

وكما قال أحد الصالحين: الشيطان صاحب مصلحة في أن يتنفش الباطل وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع، ولا يغلبه غالب.

الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا، فتحت ستار الخوف والرغبة، وفي ظل الإرهاب والبطش: يفعل أوليائه في الأرض ما يقر عينه، يقبلون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وينشرون الفساد والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل. والشيطان ماكر خادع غادر يخنفي وراء

أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا محتاطون لوسوسته. ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً، لا يستره ثوب من كيده ومكره، ويُعرِّف المؤمنين الحقيقة: حقيقة مكره ووسوسته؛ ليكونوا على حذر، فلا يَرهبوا أولياء الشيطان، ولا يخافوهم، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته»^(١).

ومن عرف الله لم يبتغِ غيره، ولم يرجُ سواه، ولم يخفِ إلّا هو، ومن عرف الناس استراح، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.



(١) المفهوم الصحيح للتوكل ومظاهر الانحراف فيه. عبد العزيز بن ناصر الجليل. مجلة البيان (١٠٨ / ٢٢) بتصرف.

علامات المتعلق بالله تعالى

١- الخضوع والخشوع لربه.

إذا تعلّق المؤمن برّبّه فإنه يذلّ لأمره ويخضع ويخشع، ويعلم أن الأمر كلّه لله تبارك وتعالى، وأن الدين دينه، والشرع شرعه، والعبد مُلْكُه، والخلقة كلّها مفتقرةٌ إليه بإطلاق، فإذا عقل الموفق هذا المعنى العظيم؛ استقرّ علمه على حقيقة الأمر، ورسخ قلبه في جذر اليقين، وتفرّعت شجرة إيمانه على شعب الإيمان الجميلة، وأثمرت - بفضل الكريم - صلاح القلب وسلامة الحال وبركة الحياة، فمهما جرت به رياح الأحكام فهو جارٍ معها، رخيّةً كانت عليه أو شديدة، فالله تعالى قد خلقه ليتلى ويبتلى به، وليظهر رسوخ قدمه في التصديق والتسليم لخبره وأمره وشرعه.

فمن ابتلاء التصديق بالخبر؛ خبر الإسراء للمسجد الأقصى والرجوع في ليلة، فلقد كان زلزالاً شديداً لأهل الإيمان، ومكراً ربّانياً بأهل الكفران، وكان فتنةً للناس وابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب، وليجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً، وليُخلّص صفّ المؤمنين من كل شائبة تردّد، أو هنة ريب، أو مائلةٍ بيقين، فثبتّ الله تعالى على جادة الإيمان من شاء من خُلّص السابقين، وله الأمر من قبل ومن بعد، وتبارك الله كيف يُؤفك الناس عن آيات تنزيله وشرعه وخلقه وتدبيره؟!

أما من جهة الابتلاء بالأمر، فمن ذلك؛ تحويل القبلة للصلاة، ففيها ابتلاء للمؤمنين، ونخلّ لصفوفهم من دغل المخلّطين والمنافقين، فتمايزت حينها

أقدام المتعلقين به ممن ترددت قلوبهم عن القبول والإذعان. قال الحرالي رَحِمَهُ اللهُ: «في جملته إنباء بأن القبلية مجعولة - أي مصيِّرة - عن حقيقة وراءها ابتلاءٌ بتقليب الأحكام، ليكون تعلق القلب بالله الحكيم لا بالعمل المحكم، فالوجهة الظاهرة ليكون ذلك علماً على المتبع عن صدق، فيثبت عند تقلب الأحكام بما في قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيا ما وجهه، وعلى المجيب عن غرضٍ ظاهر ليس يسنده صدق باطن، فيتعلق من الظاهر بما لا يثبت عند غيره»^(١).

وقال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: «ثم بين شدتها على من أخلد إلى العادة لغلبة القوة الحيوانية البهيمية، ولم يتمرن في الانقياد للأوامر الإلهية على خلع الإلف وذل النفس فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي ثقيلة شاقة جداً، لأن مفارقة الإلف بعد طمأنينة النفس إليه أمر شاق جداً، ثم استثنى من أيده سبحانه بروح منه وسكينة فقال: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خلق الذي له الأمر كله الهداية في قلوبهم فانقادوا لما هداهم إليه»^(٢).

٢- الاستعداد للرحيل.

المتعلق بالله مستعد للرحيل، حازم أمره قبل الموت، حامل زاده قبل الفوت، حبل أمله في الدنيا أقصر من كراع نملة، وفي الآخرة أوسع من شعاع

(١) عن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١ / ٢٦٤).

(٢) نظم الدرر (١ / ٢٦٤).

الشمس، هو في واد بهيج كريم، وأكثر الناس في أودية الدنيا صرعى، له حال ولهم أحوال، يرى الآخرة بعين بصيرته، إذ طمست الغفلة أعين أناسٍ وأعشت آخرين، يرحمهم وينصح لهم، ويجتهد صادقاً في الخير لهم والهدى والبر والنجاة وحسن العاقبة وطيب المنقلب، يحمّد الله فرحاً به شاكرًا مُعظِّمًا مُنيبًا، مستعدًّا للرحيل لربه على الدوام، حتى إذا جاءه هتفت روحه مُشتاقًا جَذَلِي: مرحبًا بحبيبٍ جاء على فاقّة، وحيّلاً بفتح الباب للقاء ربي وسيدي ومولاي، غداً ألقى الأحبة محمداً ﷺ وحزبه، قد أعدّ للأمر أهبتة من صالح العلم والعمل والحب والخوف والرجاء وحُسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قبّله، ولا يُدفع الشرُّ إلا من جهته تبارك وتعالى وتقدس، «ويجب على من لا يدري متى يبيغته الموت أن يكون مستعدًّا.

وَيَبْكِي عَلَى الْمَوْتِ وَيَتْرُكُ نَفْسَهُ وَيَزَعُمُ أَنَّ قَدْ قَلَّ عَنْهَا عَزَاؤُهُ
وَلَوْ كَانَ ذَا رَأْيٍ وَعَقْلٍ وَفِطْنَةٍ لَكَانَ عَلَيْهِ لَا عَلَيْهِمْ بُكَاءُهُ

ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقلّ من يموت الأشياء، وأكثر من يموت الشبان. ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يَعْمُرُ وَاحِدٌ فَيُغَرِّقُ قَوْمًا وَيُنْسِي مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشَّبَابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه. فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً، وإنما يقدم على المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل وتبادر الشهوات، وينسى الإنابة لطول الأمل.

وإن لم تستطع قصر الأمل؛ فاعمل عمل قصير الأمل. ولا تمسّ حتى تنظر

فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقه باستغفار. وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك. وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس:

وَحَذِّ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ وَمَقْبَلِ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ
وَحَفْ هَجْمَةً لَا تُقِيلُ الْعَثَارَ وَتَطْوِي الْوُرُودَ عَلَى الْمَصْدِرِ
وَمَثَلُ لِنَفْسِكَ أَيِّ الرَّعِيلِ يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمُحْشِرِ

ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوة الندم على التفریط عند الموت؛ وطول الحسرة على البدار بعد الفوت. وصوّر ثواب الكاملين وأنت ناقص، والمجتهدين وأنت متكاسل.

ولا تحل نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها، فإن النفس كالفرس المتشيطان، إن أهملت لجأته لم تأمن أن يرمي بك، وقد والله دنستك أهواؤك، وضيّعت عمرك.

فالبدار البدار في الصيانة، قبل تلف الباقي بالصباغة، فكم تعرقل في فحّ الهوى جناح حازم، وكم وقع في بئر بوار مخمور، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

٣- تجديد التوبة النصوح.

المتعلق بالله تعالى محسنٌ لِمَتَابِهِ، فهو يعلم أنه محلّ نظر ربه تعالى الذي لا

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٥).

تخفى عليه خافية، ويعلم السرّ وأخفى، ولا يخرج شيء عن علمه وقدرته وحكمه وحكمته وتصريفه وتدبيره، فينبغي للعبد أن يتعاهد توبته على الدوام، فهو محتاج للتوبة بكل حال، عن مأمور لم يأت به كما أمر، أو منهي وقع فيه، أو غفلة أبعدته عن أسباب حياة قلبه، «والحذر الحذر من المعاصي. فإن عواقبها سيئة.

وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبداً مع تعثر أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمن نالها. فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذي ارتكبه كان اعتراضه على القدر في فوات أغراضه يعيد العذاب جديداً.

فوا أسفاً لمُعاقِبٍ لا يحس بعقوبته، وآه من عقاب يتأخر حتى يُنسى سببه. أو ليس ابن سيرين يقول: «عيرت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة»، وابن الخلال يقول: «نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة»، فوا حسرة لمُعاقِبٍ لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها. فالله الله في تجويد التوبة عساها تكفّ كفّ الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تُسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر؛ وقد أصلح لك أحوال العلانية»^(١).

٤- الرضا بالله ربّاً ومعبوداً.

المتعلق بالله تام الرضى بربه وبدينه وبنبيه ﷺ، معترف بالنعمة السابغة

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٦).

عليه أن خصه بأن خلقه أولاً ولم يك شيئاً، ثم اختار له الجنس الإنساني الذي كرمه بعبودية الاختيار، ثم اختصه بأن أخر وجوده حتى يولد في هذه الأمة المصطفاة المرحومة الحمّادة، ثم أسبل عليه أعظم نعمة بأن هداه للإسلام، وشرّفه بالقرآن، ووفّقه لاتباع سيّد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، فهو متقلب بفكره بين الحمد والشكر وحفظ المنة ورجاء مزيدها والثبات عليها والعصمة من مخالفتها، فكيف لا يتعلّق بالله من هذا شأنه وشرفه وعبوديته؟! فالحمد لله رب العالمين.

وتأمل البشارة العظيمة لهذه الأمة المحمدية التي اختصها الله تعالى بين الأمم بخصائص كثيرة منها:

أنهم يؤجرون على عملهم القليل أكثر مما يؤجر به من سبقهم بالعمل الكثير فضلاً من الله وإحساناً. فقد أخرج أبو عبد الله البخاري في صحيحه^(١) بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهل التوراة التوراة، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُعطي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُعطيتم القرآن، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربنا؛ هؤلاء أقل عملاً، وأكثر

(١) (٧٤٦٧).

أجرًا، قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتي من أشياء» وتحت هذا الحديث المبشر فوائد وعبر مسلكية وقلبية تملأ القلب بشرًا وسرورًا، اللهم وفقنا لما وفقك به عبادك الصالحين.

وهذا الحديث العظيم «فيه مثلٌ ضربه النبي ﷺ لهذه الأمة، وللأمة السابقة». وفيه أن نسبة زمان هذه الأمة إلى ما سبق كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، بالنسبة إلى أول النهار، فإذا نسبت ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى أول النهار إلى العصر، تجد أن هذه الأمة سبقها أمم كثيرة، وهي في آخر الناس، ونبينا ﷺ هو نبي الساعة، فنسبة بقاء هذه الأمة في الدنيا إلى ما مضى كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إذا نسبت به إلى ما مضى من النهار.

وبيّن النبي ﷺ أن هذه الأمة أقلّ عملاً وأعظم أجورًا، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. وفيه أن النبي ﷺ ضرب مثلاً لليهود والنصارى وهذه الأمة، فاليهود أعطوا التوراة، وقيل: لهم اعملوا بها، فعملوا من أول النهار إلى الظهر على قيراط قيراط، وفي اللفظ الآخر: «مثلهم كمثّل من استأجر أجيرًا فقال له: اعمل من أول النهار إلى الظهر على قيراط قيراط، فعمل وأخذ قيراطًا». وفي هذا الحديث أنهم عملوا فعجزوا، فأخذوا قيراطًا قيراطًا، واستأجر آخرين من الظهر إلى العصر فعملوا، فأعطاهم قيراطًا قيراطًا، ثم استأجر آخرين من بعد العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين، فغضب الأولون، وقالوا: كيف تعطيه قيراطين قيراطين، ونحن أطول زمنًا وأقل أجرًا، فقال: هل

ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: ذلك فضلي أوتيته من أشياء، وفي اللفظ الآخر: «فغضبت اليهود والنصارى لما أعطى هذه الأمة». فهذا من فضل الله على هذه الأمة، أنهم أقل عملاً وأكثر أجراً^(١).

وتأمل قول الله تعالى: «ذَلِكَ فَضْلِي أُوْتِيْتِهِ مِنْ أَشْيَاءٍ»، «فهذا الفضل هو من الله جل وعلا، وإذا كان من الله جل وعلا؛ فإن فضل الإسلام على أهله إنما هو من الله جل وعلا، وهذا يجعل المسلم دائم التعلق بالله جل وعلا معرفةً منه بفضل ربه عليه في دينه هداية، وفي أجره عليه، فمن الذي هدى عباده للإسلام؟ هو الله جل وعلا، من الذي هداك للاستقامة على السنة؟ هو الله جل وعلا، من الذي تفضل عليك بالنور بعد ذلك؟ هو الله جل وعلا، من الذي تفضل بالحظين من الرحمة والكفيلين من الأجر^(٢)؟ هو الله جل وعلا، فحيثُ يُدْىَى الأمر من الله جل وعلا وإليه ابتداء وانتهاء، وهذا يجعل قلب المؤمن موطناً على محبة الله جل وعلا والذل له والاعتراف له جل وعلا بالفضل والإحسان دائماً وأبداً^(٣).

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (١ / ٩٧).

(٢) إشارة لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(٣) شرح رسالة فضل الإسلام. ضمن مجموعة كتب الشيخ صالح آل الشيخ (٣٥ / ٢٧).

٥- الزهد فيما يشغل عن الآخرة.

المتعلق بربه سبحانه زاهدٌ في حطامٍ يشغله عن الآخرة والمنافسة فيها، لأن التعلق فرع عن العلم، والعلم الصحيح مفض للنظر الصحيح للدنيا والآخرة؛ فهو مشغول بالمسابقة للجنة والمسارة إليها، «ولما ذكر سبحانه في سورة الحديد حال الفريقين يوم القيامة الأشقياء والسعداء قال مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة، مصدراً له بما يوجب غاية اليقظة والحضور: ﴿اعْلَمُوا﴾ أي أيها العباد المبتلون، وأكد المعنى بزيادة (ما) لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصراً قصر قلب: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي الحاضرة التي نبهتكم للزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن ﴿لَعَبٌّ﴾ أي لعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان ﴿وَلَهُوَ﴾ أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه، ثم ينقضي كلهو الفتیان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾ أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض.

ولما كان ذلك مخصوصاً بأهل الشهوات قال: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي يجر إلى الترفع الجار إلى الحسد والبغضاء، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال: ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ أي من الجانبين ﴿فِي الْأَمْوَالِ﴾ أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها زائلة ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ الذين لا يغتر بهم إلا سفيه، وأن جميع ما ذكر زائل، وأن الدنيا آفاتا هائلة، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره، ثم إلى ذلك كله قد يكون

ذهابه عن قرب، فتكون على أضداد ما كان عليه، فيكون أشد في الحسرة.

ومطابقة ذلك لما بعده أن الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد، ثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تمّ شبابه وأطفأه مجيئه وذهابه وأشكاله وأترابه؛ أخذ في الانحطاط، ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم، وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت، فإذا هو قد اضحمل أمره، ونسي عما قليل ذكره، وصار ماله لغيره، وزينته متمتعاً بها سواه!

فالدينا حقيرة، وأحققر منها طالبها، وأقلّ منها خطرًا المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة^(١)، وطلّابُ الجيفة ليس لهم خطر، وأخسهم من بخل بها، قال القشيري: «وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخرة، فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا».

ولما قرر سبحانه أنها ظلٌّ زائل، وكان بعض الناس يتنبّه فيشكر، وبعضهم

(١) الخطرُ هنا: هو القدرُ والعظمةُ والأهميّةُ، وأنشدوا للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

ومن يذق الدنيا فإنّي طعمتها	وسيق إلينا عذّبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورًا وباطلاً	كما لاح في ظهر الفلاة سراها
وما هي إلا جيفة مستحيلة	عليها كلاب همهنّ أجتذاها
فإن تجتنبها عشت سلماً لأهلها	وأن تجتذبها ناهشتك كلابها
فطوي لِنفس أوطأت قعر بيتها	مغلقة الأبواب مرخى حجابها

يعمى فيكفر؛ كان القسم الثاني أكثر، لأن وجودها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها؛ ضرب لذلك مثلاً مُقَرَّرًا لما مضى من وصفها، لأن للأمثال في تقرير الأشياء وتصويرها ما ليس لغيرها، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلٌ﴾ أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشبه مثل ﴿غَيْثٍ﴾ أي مطر حصل بعد جذب وسوء حال.

ولما كان المثل في سياق التحقير للدنيا والتنفير عنها؛ عبّر عن الزارع بما يُنْفَرُ فقال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنِائِهِ﴾ أي الزُّرَّاع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذي يستره الحارث بحرثه، كما ستر الكافر حقيقة أنوار الإيثار لما يحصل من الجحد والطغيان^(١)، ولا يتناهى إعجاب الزُّرَّاع إلى حدّ يلهي مطلقاً عن الله إلا مع الكفر به سبحانه، فإن المؤمن وإن أعجبه ذلك فإنه يتذكر به قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، وما أعد لأهل طاعته في الآخرة، فيحمله ذلك على الشكر.

ولما كان الزرع يشيخ بعد مُدَيِّدة فيضمحل، كما هو شأن الدنيا كلها قال: ﴿ثُمَّ يَهْجُ﴾ أي يسرع تحركه، فيتم جفافه، فيحين حصاده ﴿فَتَرَهُ مُصْفَرًّا﴾ أي عقب ذلك بالقرب منه على حالة لا ثمر معها بل ولا نبات، ولذلك قال معبراً بالكون لأن السياق للترهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها: ﴿ثُمَّ﴾ أي

(١) والكفر في اللغة هو الستر والتغطية، كما قال البيد:

يعدو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غماؤها

وقصد البقاعي أن الله اختار لقباً مُنْفَرّاً لمسمّى الزُّرَّاع إزراءً بالدنيا حتى بمسمّاها ومسمّى تشبيهاً لها.

بعد تناهي جفافه وبيضاضه ﴿يَكُونُ﴾ أي كونًا كأنه مطبوع عليه، وأبلغ سبحانه في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون هنا للمبالغة، لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدَمٌ وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال والمؤاتاة.

ولما ذكر الظل الزائل ذكر أثره الثابت الدائم مقسمًا له على قسمين، فقال عاطفًا على ما تقديره هذا حال الدنيا في سرعة زوالها وتحقق فنائها وضمحلها: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن أخذها بغير حقها، معرضًا عن ذكر الله، لأن الاغترار بها سببه، فكان كأنه هو.

ولما قدم ما هو السبب الأغلب لأن أكثر الخلق هالك، أتبعه الصنف الناجي فقال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي لأهل الدرجة الأولى في الإيمان ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي الإله الملك الأعظم، وهذا الجزاء الحسن لمن يذكر بما صنعه له في الدنيا عظمته سبحانه وجلاله فتاب من ذنوبه، ورجع إليه في التطهير من عيوبه ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ لأهل الدرجة العليا، وهم من أقبل عليه سبحانه فشكره حق شكره ببذل وسعه فيما يرضيه.

فآخِرُ الآية تقسيم للدنيا على الحقيقة، لئلا يظن من حصرها فيما ذكر أول الآية أنها لا تكون إلا كذلك، فالمعنى أن الذي ذكره أولاً هو الأغلب لأحوالها وعاقبته النار، وما كان منها من إيمان وطاعة وتوحيد الله وتعظيمه ومعرفته تؤدي إلى أخذها تزودًا، ونظرها اعتبارًا وتعبدًا؛ فهو آخرة لا دنيا.

وقد تحرّر أن مثل الغيث المذكور الخطام، وتارة يعقبه نكد لازم وأخرى سرور دائم، فمن عمل في ذلك عمل الحَزْمَةِ فحرس الزرع عن ما يؤذيه،

وحصده في وقته، وعمل فيه ما ينبغي، ولم ينس حق الله فيه؛ سرّه أثره ومحدث عاقبته، ومن أهمل ذلك أعقبه الأسف. وذلك هو مثل الدنيا فمن عمل فيها بأمر الله أعقبته حطاميتها سرورًا دائمًا، ومن أهمل ذلك أورتته حزنًا لازمًا، وكما كان التقدير: فما الآخرة لمن سعى لها سعيها وهو مؤمن إلا حق مشهور وسعي مشكور؛ عطف عليه قوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي لكونها تشغل بزيتها مع أنها زائلة ﴿إِلَّا مَتَّعُ الْعُرُورِ﴾ أي هو في نفسه، وغرور لا حقيقة له إلا ذلك، لأنه لا يجوز لمن أقبل على التمتع إلا ذلك، لأنه لا يسر بقدر ما يضر.

ثم قال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ فإنه سبحانه لما بين أن الدنيا خيالٌ ومحالٌ ليصرف الكُمَّلَ من العباد عنها لسفوها وحقارتها، وأن الآخرة بقاء وكمال ليرغبوا غاية الرغبة فيها، وليشتاقوا كل الاشتياق لكمالها وشرفها وجلالها، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا﴾ أي افعلوا في السعي لها بالأعمال الصالحة حق السعي، فَعَلَّ من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينه بطيئًا فسار هوينًا، وأما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة، فآية آل عمران الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ^(١) لأنها

(١) وهي قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصلاً ورأساً، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصوفين. وأما هذه ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته للذين آمنوا.

ولما كان المقام عظيماً، والإنسان - وإن بذل الجهد - ضعيفاً، لا يسعه إلا العفو سواء كان سابقاً أو لاحقاً من الأبرار والمقربين؛ نبه على ذلك بقوله في السابقين ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ أي ستر لذنوبكم عيناً وأثراً ﴿مِّن رَّيْكُمْ﴾ أي المحسن إليكم بأن رباكم بعد الإيجاد بأنواع الأسباب بأن تفعلوا أسباب ذلك بامثال أو امره سبحانه واجتناب زواجه.

ولما كان المقصود من المغفرة ما يترتب عليها من نتيجتها قال: ﴿وَجَنَّةٍ﴾ ومن عظم أشجارها واطراد أنهارها سترت داخلها. ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالسعة قال: ﴿عَرْضُهَا﴾ أي فما ظنك بطولها؟! ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أوقعوا هذه الحقيقة وهم من هذه الأمة إيقاعاً لا ريب معه ﴿بِاللَّهِ﴾ أي الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له بالإيمان ﴿وَرُسُلِهِ﴾ فلم يفرقوا بين أحد منهم.

ولما كان ما ذكر من الوعد بالمغفرة والجنة عظيماً لا سيماً لمن آمن ولو كان إيمانه على أعلى الدرجات؛ عظّمه بقوله ردّاً على من يوجب عليه سبحانه شيئاً من ثواب أو عقاب: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿فَضَّلُ اللَّهُ﴾ أي الملك الذي لا كفاء له فلا اعتراض عليه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ولعل التعبير بالمضارع

للإشارة إلى خصوصية هذه الأمة بأنها أقل عملاً وأكثر أجراً، فإذا حسدهم أهل الكتاب قال تعالى: «هل ظلمتكم من أمركم شيئاً» فإذا قالوا: لا، قال: «ذلك فضلي أوتيته من أشياء»^(١) ﴿وَاللَّهُ﴾ أي والحال أن الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي الذي جل عن أن تحيط بوصف عظمة فضله العقول»^(٢).

٦- إحسان الظن بالمولى الكريم.

المتعلق بربه كله أمل في فضله وكرمه وسعة رحمته، وتهش نفسه وتطرب لسماع البشارات للمؤمنين سائلاً ربه أن يسلكه سبيلهم، وفي صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيّاً لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا. قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٣) فرحمة الله تعالى لا تُحيطها العقول، ولا تتخيل الأفئدة سعتها وعظمتها، ولا تتصور الأفهام قدرها، فأعظم رحمة في الدنيا على الإطلاق هي رحمة الوالدة، ومع ذلك فالله أرحم بعبد منها، بل وكل رحمت الدنيا - بما فيها رحمة الوالدات - هي جزء من مئة جزء من الرحمة التي يرحم الله بها عباده، قال ﷺ: «إن لله عز وجل مئة رحمة، فجعل منها رحمة في الدنيا

(١) البخاري (٧٤٦٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧ / ٤٥١ - ٤٥٦) بتصرف واختصار.

(٣) البخاري (٥٩٩٩).

تتراحمون بها، وعنده تسعة وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين رحمة، ثم عاد بهنّ على خلقه»^(١) فرحمة الله وسعت كل شيء، وهذه الرحمة التي جعلها في عباده مخلوقة، أما الرحمة التي هي صفة من صفاته سبحانه القائمة بذاته فليست مخلوقة، بل هي رحمة لا تئثّر بجلال الله وعظمته، فلا يهلك على الله إلا هالك، أما المؤمن فمتعلق برحمة أرحم الراحمين، فهو منتظر لرحمة ربه في الآخرة، راغباً راهباً محبباً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، منتظر بحسن ظنه بربه تحية الجليل الجميل سبحانه ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فيسلم عليهم بأحسن تحية كما قال سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

٧- الفرح بالله وبشاراته.

المتعلق بالله فرح مسرور بالله تعالى، مستبشرٌ بحُسنِ ظنه في العاقبة لديه، فرحٌ بالزلفى بين يديه، محتفٍ بالخير الهائل في قلبه والكرم الكبير في يديه، جدلٌ مسرورٌ ببشارات رسوله وحببيه ﷺ، متمثلاً ومتأسياً بتلك السجايا المحمدية الحميدة والأخلاق الأحمدية الجميلة، مملوءٌ قلبه بمحبته والتمسك بسنته والمسارة لاتباعه، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^(٤٦) وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً^(٤٧) [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

(١) أحمد (١٠٨١٠) بسند صحيح، وبنحوه عند البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٣).

قال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: «إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعياء^(١): أن قُمْ في قومك بني إسرائيل، فإني منطلق لسانك بوحى وأبعث أُمِّيًّا من الأُمِّيِّين، أبعثه مُبَشِّرًا، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكنته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه. أبعثه مبشرًا ونذيرًا، لا يقول الحنا. أفتح به أعينا عميًا كُمَّها^(٢)، وأذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرّف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أُمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئامًا من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد

(١) ويقال: أشعياء، وإشعياء، وهو من مشاهير أنبياء بني إسرائيل، وباسمه سفر من أسفار كتابهم، وقد حوى بشارت كثيرة بنبو محمد ﷺ، وانظر سلسلة: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ للمؤلف.

(٢) الأكمة: الذي وُلد أعمى.

والثناء والتكبير والتوحيد في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلُّون لي قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوًّا وزُحوفًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفًا، يُطهِّرون الوجوه والأطراف، ويشدُّون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل لئوثة بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أُعِزُّ مَنْ نصرهم، وأُؤَيِّد مَنْ دعا لهم، وأجعل دائرة السَّوء على مَنْ خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم.

أجعلهم ورثةً لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقىمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدّأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيّه من أشياء، وأنا ذو الفضل العظيم^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣٨) وقال: هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رَحِمَهُ اللهُ. ورواه أبو نعيم في الدلائل (٣٣). وابن أبي حاتم في تفسيره (٣١٤١/١٠). وانظر: تفسير الطبري (١٧ / ٣٦٢). وقال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية (٧/٤٢٢): «قربانهم دماؤهم»: أي: أضاحيهم وهداياهم، أو المراد أنهم متهيئون للجهاد في سبيل الله، فكانهم يتقربون إلى الله بدماء أنفسهم، أو بدماء من قتلوه من الكفار؛ كما قال كعب بن زهير في مدح الأنصار: يتقربون يروونه نسكًا لهم بدماء من علّقوا من الكفار

٨- حراسة الوقت من الضياع.

فالمتعلق بالله يعلم أن عمره قصير، وأن سنينه مهما امتدت وبسطت فمناه وآماله أكبر وأبعد من أن تحتويها، لذلك فهو يعمر الباقية ولو بخراب الفانية، يرفع الآخرة حيث رفعها الله، ويضع الدنيا حيث وضعها الله، فيجعل الدنيا مُعينة على تحصيل فوز الآخرة وفلاح الباقية، مجتهد في عمارة وقته بذكر الله وما والاها، عاقلٌ يُقدِّم الأهمَّ على المهم، متكاملٌ في توزيع جهده، منظمٌ في ترتيب وقته، يقطع بحسن نيته وحسن توكله وقوة عزمته وثبات إرادته ما لا يقطعه الأفاذا من أقرانه، متعلق بكليته بالله تعالى، واثقٌ به، متوكلٌ عليه، مفوضٌ أموره إليه، مُحِبٌّ لربه بكليته.

يحزن للساعة التي يغفل فيها عن ربه، فإن اختلستها نفسه الأمارة، واستلبها القرين الرجيم؛ حمل عليهما بنفسٍ لوامة لهما، فاستعاض عما سلف من غفلته بتدارك ما استقبله، والاجتهاد في تعويض ما فاتته، والعوذ الحسن للعمل الصالح، فاطمأنت نفسه للخير الذي ترجوه، والأمل الذي ترقبه، فهو بين اذكّار واعتبار وفرح واستبشار، متقلّب على مراضي ربه، راتعٌ في رياض ذكره، مراوح بين الفرض والنفل، قد جهز راحلتي صبره وشكره، وزاملة زاد التقوى، بنور بصيرة اليقين.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز، دعا زوجه فاطمة، فخيرها بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت، وبكت جواريتها من بكائها، فسُمت ضجة البكاء من دارهم، ثم اختارت مقامها معه على كل

حال رحمهما الله. وقال له رجل: تقرب إلينا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول:

قد جاء شغلٌ شاغلٌ وعدلتُ عن طُرُقِ السلامة
 ذهب الفراغُ فلا فراغَ لنا إلى يومِ القيامةِ

وبالجملة؛ فإنَّ من علامات المتعلق بالله حقًّا أن يكون ضنينًا بوقته
 النفس، مقبلًا على شأنه العظيم، منشغلًا بما يعنيه ويُغنيه عما لا يعنيه ولا
 يُغنيه، وأن يجتنب كل مجلس يكون على حساب خيره وصلاح نفسه وحسن
 منقلبه وطيب معاده، فيجتنب مجالسة الناس فيما لا ينفع على حساب الطاعة
 والعلم والبر والذكر والتلاوة وقيام الليل، اغتنامًا للعمر وأوقاته، وأن يقتصر
 في مجالس الناس التي يُضطرُّ إليها على الحد القليل، مع نيَّة الطيبة نفع الناس
 ونصحهم، رحمة بهم وحبًّا للخير لهم بقوله وعمله وخلقه، ولا يطيل مجالسة
 الناس فيما دون ذلك ما استطاع.

ومن لم يغتنم وقته وأضاع عمره بزيارة غير نافعة هنا وهناك؛ لم يجد وقتًا
 لطلب علم ولا لقيام ليل ولا لذكر، خاصة مع قلة بركة الوقت في زماننا،
 فكيف الحال والمصيبة الجاثمة بانصباب وسائل التواصل الإلكتروني علينا،
 وانهيال أسباب الغفلة عبر الشاشات صغيرها وكبيرها لدينا!

أو لم يهد لنا أن نتفطن لحالنا معها، أمّا هذه سارقة نفيس الأوقات، وذابحة
 جميعات القلب على رب البريات، بل فيها دُحُول ذنوب الخلوات، وتراكم
 رجوم الغفلات، ومن أضرارها يبوسة القلب وقسوته، بل والخوف عليه من
 الرّين والطّبع، وقحط العين بعد أن جفّ نبعُ رُوح الخشية من معدن العمر،

وانسلّ بساط المراقبة من تحت قدم المحاسبة، فأمست في الصدر ظلمً وبلاقع بعدما كان بالوحي بصيرًا مستنيرًا، وبغيث الإيمان مُخصبًا ربيعًا، والله الأمر من قبل ومن بعد.

ألا إنّ الرزية في ذلك يا إخوتاه كبيرة، والشرّ فيها شديد، والخذلان فيها عظيم، والحسرة بها واقعة، إلا من رحم الله تبارك وتعالى من أوليائه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، فاللهم أجرنّا في مصيبتنا، واخلف لنا خيرًا منها، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأيقظنا اللهم من رقدات الغفلات إلى روضات العبادات، إله الحق.

ولقد بيّن النبي ﷺ منهجًا لمن خشي أن يُفتن في دينه بمخالطة الناس - بالبدن أو الكتاب أو غيرهما كوسائل التواصل الحديثة - أن عليه أن يعتزل أسباب الفتنة، ولو أن يتخذ البادية بدل المدينة مسكنًا وموطنًا. وهذا حال يحتاج إلى فقه متين، وعقلٍ قويم، وقلبٍ عزّام، وروحٍ بالله راضية، حتّى لا تزلّ به عند المعترك القدم، فينحرف من حيث رام الثبات، ويسقط حين أراد القيام - فقال ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواطن القطر، يفرّ بدينه من الفتن»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وحقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله

(١) البخاري (١٩).

سبحانه الكافر ميتاً غير حيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَتْ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره. فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية، أو لا. فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك؛ فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً. وإن كان له تطلع إلى ذلك؛ طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير، بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسرّ المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعيم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته^(١).

٩- توحيد التعلق بالله تعالى دون من سواه.

فتوحيد التعلق بالله هو أخص سمات المتعلق الحقيقي، ومن مقتضيات تحقيق العبودية لله تعالى إفراده سبحانه بالتعلق، فمع بذل الأسباب الظاهرة لا بد أن يكون القلب متعلقاً بمسببها سبحانه، فالخير كله بيديه، وهو على كل

(١) الداء والدواء لابن القيم (١ / ١٣٨).

شيء قدير.

وَمَنْ وَطَّنَ نفسه على التعلق بالله وحده في أمور معاشه ومعاذه، بحيث لا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله، ولا يخشى من غيره، ووطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس، فإن اليأس عصمة، ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبداً لله حقيقة، سالماً من عبودية الخلق، قد تحرر من رقهم، واكتسب بذلك العز والشرف، فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم، والله المستعان.

وتفكر في قصة خطبة الصديق عند وفاة رسول الله ﷺ وكيف علق الناس برب الناس لا بغيره من مخلوقاته، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكلم الناس، وقال: اجلس يا عمر. قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما بعد: فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٥] قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتلاها منه

الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»^(١) وعن سعيد بن المسيب أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعُقِرْتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض»^(٢).

فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد احتمل هذا الخطب الجسيم لأن قلبه كان شديد التعلق بالخالق عليم بشرعه فوقه في ساعة الشدة، وتأمل فقهه بقوله: «فإن الله حيٌّ لا يموت»، فيا لله! كم فيها للمؤمنين من ذخيرة ورضا.

ومع نماذج أخر من سادة الأمة؛ فعن أبي نجيح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار يتشحط في دمه فقال له: يا فلان، هل شعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ وكان ذلك في أحد، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم»^(٣).

وفي غزاة أحدٍ لما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستقبل رجالاً من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ. فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا سعد، واهًا لريح الجنة، إني أجدها من دون أحد، فقاتل حتى قتل،

(١) البخاري (٤٤٥٢).

(٢) البخاري (٤٤٥٣).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٤٨/٣).

وَوُجِدَ بِهِ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ ضَرْبَةً، وَلَمْ تَعْرِفْهُ إِلَّا أُخْتُهُ بِنَانَهُ^(١).

١٠ - حفظ اللسان.

إنَّ المتعلق مشغول بحفظ لسانه ومراقبته، متذكر قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فإن حفظ اللسان عليه المدار، وإليه جرت الإشارات لخطره، فهو مَلَكُ أمر العبد. فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه، ومتى ملكه لسانه فلم يصنه عن الكلام الضار؛ فإن أمره يختل في دينه ودنياه. فلا يتكلم بكلام إلا قد عرف نفعه في دينه أو دنياه. وكل كلام يحتمل أن يكون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعه، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام، وصار أسيرًا له، وربما أحدث عليه ضررًا لا يتمكن من تلافيه، ومصارع الرجال تحت ألسنتها.

ومن التنبيه المهم أن يحذر المرء من قلمه، فالقلم أحد اللسانين، وكل ما قيل ويقال في اللسان فهو منسحب على القلم فخطرهما واحد، وكم من عبي اللسان سليط القلم، ولو عي قلمه لسلمت نفسه وسلم الناس من وَضَرِهِ!

ويكفي في خطر اللسان وضرورة حراسته وحبسه وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ هَذَا» فقال معاذ: أَوْ نَحْنُ مُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال: «ثَكَلْتُكَ أَمْكُ يَا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا

(١) زاد المعاد (٣/ ١٩٨ و ٢٠٩) وأصل القصة في الصحيحين.

حصائد ألسنتهم»^(١). وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»^(٢). وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»^(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»^(٤).

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٥). وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٦).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦) والترمذي (٢٨٠٤) وصححه والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥) وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (٢٥٩/٤) والشوكاني في الفتح الرباني (١٣٥٤/٣).

(٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٤).

(٣) البخاري ٦١/٥ (٣٨٦٦).

(٤) رياض الصالحين. تحقيق د. الفحل (١٧٧/٢) وقد استفدت منه في تخريج بعض الأحاديث، جزاه الله خيراً.

(٥) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٥) ومسلم ٤٩/١ (٤٧) (٧٤).

(٦) البخاري ١٠/١ (١١)، ومسلم ٤٨/١ (٤٢) (٦٦).

وقال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»^(١) ومعنى يتبين: أي لا يتفكر في مآلها خيراً كانت أم شراً، ولا يبالي بمنتهاها فتهوي به في النار عياداً بالله.

وقال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم»^(٢). وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعصم به قال: «قل: ربي الله، ثم استقم» قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(٣). وصلاح اللسان من صلاح القلب، فإن صلح القلب وقويت الإرادة؛ طاب اللسان بأمر ربه.

١١ - شدة الحرص على موارد حياة القلب، ودفع أسباب ضعفه وموته.

فلما كان القلب هو قطب رحي الإرادة، وصندوق ذخائر الإيمان، وبصلاحه صلاح النفس وفلاح المصير؛ كان له المحل الأرفع في استصلاحه، وتنمية موارد الخير فيه، والعمل على حراسته من غوائل الشيطان. ومن كان

(١) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٧) ومسلم ٢٢٣/٨ (٢٩٨٨).

(٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٧٢) والترمذي (٢٤١٠) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

هذا حاله فهو البصير حقًا، والعاقل صدقًا، وعلى قدر صلاح القلب تكون نسبة تحسُّسه من دغل الذنوب، وتفَرُّسه في مآلاتها في حاله ومآله.

ولابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تأمل رائع في حال الثلاثة الأخيار الذين خُلِّفُوا، فكان ذنبهم هذا سبب لفتوح الخير بصدق توبتهم، وجِدَّ أَوْبَتِهِمْ، ومحو حوبتهم^(١)، وذلك لأنهم كانوا من المتعلقين برَبِّهم، الراجين رحمته، الخائفين من عذابه، في حين كان المنافقون لا يحسون بموات أفتتِهِمْ، وما لجرح بميت إيلاَمُ. قال رَحِمَهُ اللهُ: «وفي نهى النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر مَنْ تَخَلَّفَ عنه؛ دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون، فجرمهم أعظمُ من أن يُقابَلَ بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعلُ الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدَّبُ عبده المؤمن الذي يحبُّه وهو كريم عنده بأدنى زَلَّةٍ وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حَذِرًا، وأما مَنْ سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخَلَّى بَيْنَهُ وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرورُ يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة، وأنه يُريد به العذابَ الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»^(٢).

(١) انظر رسالة: (لله درك يا كعب) للمؤلف.

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن غريب وصححه السيوطي في الجامع

وقول كعب: «حتى تنكّرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرف» هذا التنكر مجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض، وفي الشجر والنبات، حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس، ويجده أيضًا المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلق زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويجده في نفسه أيضًا، فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه، ومن يُشفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراك هذا التنكر والوحشة.

ومن المعلوم، أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلب إذا استحكم مرضه، واشتد ألمه بالذنوب والإجرام؛ لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامة الشقاوة، وأنه قد آيس من عافية هذا المرض، وأعيا الأطباء شفاؤه، والخوف والهَمُّ مع الريية، والأمنُ والسُرورُ مع البراءة من الذنب.

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيٍّ وَلَا فِي الْأَرْضِ أَخَوْفُ مِنْ مُرِيبٍ

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلى به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعًا عظيمًا من وجوه عديدة تفوت الحصر، ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة، وذوقه نفس ما أخبر به الرسول فيصير تصديقه ضروريًا عنده، ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعته من أدلة صدق

النبوة الذوقية التي لا تتطرق إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل، فخالفته وسلكتها، فرأيت عين ما أخبرك به، فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له، وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها، ولم تجد من تلك المخاوف شيئاً، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً، فإن علمه بتلك يكون مجملًا»^(١).

١٢ - رعاية أحوال القلب.

المتعلق بالله تعالى عن علم يخشى سقوطه من عين ربه لأدنى زلة، ويخاف إبعاده عن حضرة قدس محبة ربه لأدنى غائلة خطيئة، فخوفه من الله وخشيته وهيبته على قدر علمه به، فهو ممسك بميزان العلم في قلبه، تكشف له بصيرة المحاسبة حاله مع دينه، لا يركن إلى الغافلين، ولا يطير مع الطامعين، ولا يياس مع القانطين، بل ينعم مع المسبحين القانتين الأوّابين، يتلمّسهم وحداناً في سيره لربه، إن رآهم يبصره وخالطهم بحسّه، وإلا اكتفى بمعية الرعيل الأول، الذين تفتّح لأعمالهم أبواب السماء، وتفرّج برفع أرواحهم الخضراء، ولا تستوحش لهم الغبراء، بل تشهد لهم بالخير عند ربها حين تُحدّث أخبارها، السابقين السابقين الأوّاهين المسارعين في مرضي رب العالمين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، يتلمّح آثارهم على الطريق، وخطاهم على المنهاج، وتراتيلهم عبر الزمان، ويتسمّع أخبارهم عبر طروس العلم الأصيل، من آثار السلف

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٥٧٧ - ٥٨٠).

الصالحين، فهو بين رجاء عظيم لربه، وحسن ظن جميل به، وبين خوف شديد من عاقبة ذنبه، ورهبة خجلى من لقاء ربه. وهذا التعلق الصحيح الصادق العميق يثمر في قلبه التقوى والورع والزهد والجِدَّ والاستعانة وقصر الأمل وقوة الإيَّان باللقاء.

وتلك الموارد القلبية الصافية النقية تثمر أينع الثمر وأطيبه وأزكاه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «المعرفة تثمر المحبة، والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزهد أيضًا، والتوبة تثمر المحبة أيضًا، ودوام الذكر يثمرها، والرضا يثمر الشكر، والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر حسن الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام، والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزّه وجبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحة البصيرة تثمر اليقين، وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتُسْكِنَه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته تنزلها على داء قلبك، فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة

لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلاً السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم.

ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتنا وقطاعها، والله المستعان»^(١).

فيا من علمك الله وعرفك وهداك: عرفت فالزم، واشكر تُشكر، وأقبل يُقبل عليك، وجاهد تُغن، وأخلص تتخلص، وما خاب من صدق الله تعالى!

١٣- توطين النفس دائماً لأحسن الأخلاق مع الله تعالى مع اختلاف الأحوال.

المتعلق بالله قد وُطن نفسه على إحسان العبادة على كل حال قدر طاقته ووسعه، وحسن المعتقد والعمل هو جوهر حسن الخلق مع الله تبارك وتعالى، فالموفق من أولياء الله تعالى هو من أطر نفسه على الخير حتى سكنت، ثم انقادت، ثم اطمأنت، فوصلت وحصلت، «فهو قد وُطن النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله. ويوطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس؛ فإن اليأس عصمة. ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبداً لله حقيقة، سالماً من عبودية الخلق. قد تحرر من رقهم، واكتسب

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٨ - ٣١) باختصار يسير، ولم يذكر الإمام الأمر الثاني في هذا الموضع، فلعله شغل عنه.

بذلك العز والشرف؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم. والله أعلم»^(١).

١٤ - تعليق القلب ببيوت الله تعالى.

لما تعلق قلب المؤمن بربه هفت نفسه لبيوت الله التي رُفعت لذكره، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٢) رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] فالمسجد هو قطب رحى راحة المؤمن، فإذا خرج منه أحس ببُضْعَةٍ منه بقيت خلفه تجذبه إليها، فلا يطمئن حتى يعاودها ويرتاضاها ويعيش بروحه فيها، فيستريح ويُسّر وتقرّ عينُ عينه بها. فهو ينتقل مُهْتَزًّا بِخَبْرَةِ السُرُورِ بين جَنَّاتٍ لَذَائِدِ الأرواح، ومغاني هناءات الأفراس، من صلاةٍ لقراءةٍ لذكرٍ لتفكيرٍ لدعاءٍ حتى اختلط حبُّ المسجد بروحه وفؤاده ولحمه ودمه وعصبه، وغَدَاً بيت الله تعالى (أو كسيجيناً) لرئة روحه، برحابه تنعم وتسعد، بل تحيا وتصحّ. وكذلك المؤمنة في مصلاها في قعر بيتها، فسلوتها وراحتها في صلاتها وذكرها ودعائها.

ويكفي المؤمن الذي أمسى بهذا الحنين لموطن السجود بشارة رسول الله ﷺ بأن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجل قلبه معلق بالمساجد»^(٢). فأمسى قلبه كأحد قناديل المسجد المعلقة من حُبِّه والكَلَفِ

(١) مجموع مؤلفات السعدي (٧ / ٢٠٣).

(٢) البخاري (٦١١٤) ومسلم (١٠٣١).

به، كيف لا والمساجد أحبّ البقاع إلى الكريم تبارك وتعالى، ولا يعني هذا دوام العكوف بها، فلا رهبانية في الإسلام، إنما الأمر حُبُّ لها وَصَل الشَّعَافِ، واستولى على ما سِوَاهُ مَّا سِوَى مَرَاذِي مَوْلَاهُ، وثبت عبر المدى، وَصَدَقَ بِحُسْنِ التَّعَبُّدِ وسرعة الإجابة ورسوخ القنوت، وهؤلاء في الأمة كثيرون بفضل الرحمن جل جلاله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فالمؤمن من عُمَارِ بيوت الله بقلبه وقالبه، «وليس المقصود بتلك العمارة أداء الصلوات فيها فقط، ولكن لا بد كذلك من تعلق قلبه بها، قال النووي في شرح حديث السبعة الذين يظلمهم الله تعالى ومنهم: «رجل قلبه معلق بالمساجد»: «معناه شديد الحبِّ لها، والملازمة للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود في المسجد»^(١). وقال ابن حجر في الفتح: «ظاهره أنه من التعليق، كأنه شُبِّهَ بالشيء المعلق في المسجد، كالقنديل مثلاً؛ إشارة إلى طول الملازمة بقلبه، وإن كان جسده خارجاً عنه، ويدل عليه رواية الجوزقي: «كأنما قلبه في المسجد».

ويُحْتَمَلُ أن يكون من العَلاَقَةِ، وهي شدة الحب، ويدل عليه رواية أحمد: «معلق بالمساجد» وكذا رواية سلمان: «مِنْ حُبِّهَا»، وزاد مالك: «إذا خرج منه حتى يعود إليه»، وهذه الخُصْلَةُ هي المقصودة من هذا الحديث^(٢).

وجاء في فيض القدير للمناوي: «قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها، لِمَا آثر طاعة الله وغلب عليه حُبُّه؛ صار قلبه ملتفتاً إلى المسجد، لا يُحِبُّ الْبَرَّاحَ

(١) المنهاج (٤/١٠٨).

(٢) فتح الباري (٢/١٤٥).

عنه؛ لَمَّا وجد فيه من رَوْحِ القُرْبَةِ، وحلاوة الخدمة، فأوى إلى الله مؤثراً فأظله»^(١).

وقال المباركفوري في التحفة^(٢): «لأن المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص، فإن القلوب كثيرة التقلبات والتحولات، فَلِلْقَلْبِ من اسمِهِ حظٌّ ونصيب، ونستطيع أن نُشَبِّهَهَا بالإناء، فيمكن أن يُغْرِفَ به ماءٌ عذبٌ، ويمكن أن يُغْرِفَ به ماءٌ أُجَاجٌ، وهكذا القلب، يمكن أن يتقبل الخير، ويمكن أن يتقبل الشر، ويمكن أن يتقبل الخير والشر، وهو إلى ما غلب أقرب، ولذلك فقد جاء الثناء والمدح لأصحاب القلوب الخيرة - نسأل الله أن يجعلنا منهم -».

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ، في وصف الرجل المعلق قلبه بالمساجد: «فهو يحب المسجد ويألفه لعبادة الله فيه، فإذا خرج منه تعلق قلبه به حتى يرجع إليه، وهذا إنما يحصل لمن ملك نفسه، وقادها إلى طاعة الله، فانقادت له؛ فإن الهوى إنما يدعو إلى محبة مواضع الهوى واللعب المباح أو المحظور، ومواضع التجارة واكتساب الأموال، فلا يَقْصُرُ نفسه على محبة بقاع العبادة إلا من خالف هواه، وقَدَّمَ عليه محبة مولاه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿رِجَالٌ لَا نُفِيتُ لَهُمْ يَجْرَةَ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

(١) فيض القدير (٤ - ٨٩) ولو أنه عبّر بحلاوة العبادة بدلاً عن التعبير بالخدمة لكان

حسناً من جهة أصل اللفظ الشرعي وبركته وسلامته.

(٢) تحفة الأحوذى (٤٨/٨).

أَلْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿[النور: ٣٧]، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُوْطَنُ الرَّجُلُ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشَّشَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حِينَ يُخْرَجُ مِنْ بَيْتِهِ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ»^(١)»^(٢).

وقد روي عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «من جلس في المسجد؛

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه واللفظ له (٦٥٢)، وأحمد في المسند (٢٣٠٧، ٣٢٨، ٣٤٠، ٤٥٣)، وصححه إسناده أحمد شاكر (٨٥٠١)، ورواه الدارمي في رده على بشر المريسي ص (٢٠٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٥٢) وصحيح الترغيب والترهيب (٣٢٥). وفي الحديث إثبات صفة البَشْبَشَةِ لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي بمعنى الفرح.

قال ابن الأثير: «البَشْ: فرح الصديق بالصدق، واللفظ في المسألة، والإقبال عليه. وقد بششت به أبش». فمعنى البَشْ: الفرح. ويضرب إذا تلقى الصديق صديقه بالبر، وقربه، وأكرمه. النهاية في غريب الحديث (١١٣٠). وقال أبو يعلى الفراء بعد الكلام على صفة الفرح لله تعالى: «وكذلك القول في البَشْبَشَةِ؛ لأنَّ معناه يُقَارِبُ معنى الفرح. والعرب تقول: رأيتُ لفلان بشاشة، وهشاشة، وفرحًا. ويقولون: فلانٌ هَشٌّ بِشٍّ فَرِحٌ؛ إذا كان منطلقًا؛ فيجوز إطلاق ذلك كما جاز إطلاق الفرح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظ البَشْبَشَةِ جاء أيضًا أنه يتبشش للداخل إلى المسجد كما يتبشش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم، وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويُنَاسِبُهُ شيءٌ كثير، فيُقال لمن نفى ذلك: لم نفيتَه؟ ولم نفيتَ هذا المعنى؟ وهو وصف كمال لا نقص فيه؟ ومن يتصف به أكمل ممَّن لا يتصف به؟ وإنَّما النقص فيه أن يحتاج فيه إلى غيره، والله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل هو فعَّال لما يُريد». النبوات (١٦٣).

(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي (٢٩/٥).

فإنما يُجَالِسُ رَبَّهُ عز وجل». فهو رجل تعلق قلبه بالمساجد، كلما نودي للصلاة فيها سارع إليها وإليه بشوقٍ ولَهْفٍ وشديد رغبة؛ لينال القلب ارتياحه الذي لا يتهياً بمتاع الدنيا وإن عَظُمَ، فسبيله في ذلك سبيل من كان يأمر بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرِحْنَا يَا بِلَالُ»^(١) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبارك، وإذا قُضِيَت الصلاة ظلَّ القلب معلقاً بالمسجد حتى وإن خرج منه الجسد، حتى يعود إليه مرة أخرى، فتسكن لوعته بطيب اللقاء.

وما كان هذا التعلق أن يأتي من فراغ، ولا أن يزهر بلا ابتداء نصَّب، ولكنه ثمرة التعلق بالله سبحانه وتعالى، محبةً وإنابةً ورغبة ورهبة وخوفاً ورجاءً وإخلاصاً وتوكلًا وذلاً وتعبدًا، فالتعلق بالله عز وجل وحده هو الغاية العظمى والنجاة الحقة.

ومن تعلق بغير الله عز وجل شأنه خسر خسراناً مبيناً؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وكما قيل: والمستجيرُ بعمرو عند كربته كالمُستجير من الرمضاء بالنار

وإن المتأمل لأحاديث رسول الله ﷺ عن فضل الارتباط بالمسجد، يجد الثواب العظيم في فضل المشي إليها، وأداء الصلوات فيها، وطول المكث بها،

(١) «يا بلال! أقم الصلاة، أرحنا بها» أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

وهذا مما يدل على أن المسجد ينبغي أن يَحْتَلَّ مساحة معتبرة في الحياة اليومية للمسلم، وأن يُرتَّبَ أموره عليه. وهذه بعض الفضائل المتعلقة به:

فمنها الاتِّصاف بصفة من يُظَلُّهم الله في ظله، وكذلك تبشيش الله تعالى به. ومنها: زيادة الحسنات ومحو السيئات فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من راح إلى مسجد الجماعة فخطوةٌ تمحو سيئةً، وخطوةٌ تكتب له حسنة، ذاهبًا وراجعًا»^(١).

ومنها: الحياة الطيبة وحسن الخاتمة ففي حديث اختصام الملائ الأعلی: «قال لي: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملائ الأعلی؟ قلتُ: نعم، في الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السُّبَرَات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ومن حافظ عليهن عاش بخير، ومات بخير، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٢).

ومنها إعداد النُّزُل له في الجنة: فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نُزُلًا في الجنة، كلما غدا أو راح»^(٣).

(١) المنذري في الترغيب والترهيب (١٦٦/١) وحسنه.

(٢) صحيح الترغيب (١٩٤) قال الألباني: صحيح لغيره، وصححه شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (٢٠٥/٧) والسُّبَرَات: جمع سبرة، وهي شدة البرد.

(٣) مسلم (٦٦٩).

ومنها أنه ضامن على الله عز وجل: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم ضامن على الله، إن عاشَ رُزِقَ وكُفِيَ، وإن مات دخل الجنة: من دخل بيته فسَلَّم فهو ضامن على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله، ومن خرج في سبيل الله فهو ضامن على الله»^(١).

ومنها أن الله عز وجل يباهى به الملائكة: فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلَّينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فَرَجَعَ من رجع، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فجاء رسول الله ﷺ مُسْرِعًا، قد حفزه النَّفْسُ، قد حسر عن ركبته، قال: «أبشروا، هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء، يباهى بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي، قد قَضُوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى»^(٢).

فلتربط قلوبنا بالمساجد، ولنجعلها بيوت قلوبنا، ولنكن كصحابة رسول الله ﷺ في تعلُّقهم بالمساجد، وشعورهم بالأمان فيها، فقد كانوا إذا فَرَعُوا من شيء أتوا إلى المساجد، ولنسابق للصف الأول طلبًا للمنزلة العظيمة المُعَدَّة لأهله، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ»^(٣) فالصف الأول على مثل صف الملائكة، كما قال ﷺ: «وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ عَلَى مِثْلِ صَفِّ

(١) ابن حبان (٤٩٩) الترغيب والترهيب (٧٢/١) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٠٩).

(٢) ابن ماجه (٨٠١) وأحمد (٤٩٤٦) صححه الألباني في صحيح الترغيب (٤٤٥).

(٣) أحمد (٢٢٢٦٣) وصححه الأرئوط لغيره وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٣).

الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لا بُدَّ رُتْمُوهُ»^(١)، فهم مثل صفِّ الملائكة في القُرب من الله عز وجل، ونزول الرحمة، ومثله في إتمامه واعتداله.

وإنَّ للمُعَلَّقة قلوبُهُم بالمساجد صفات منها:

١- حب صلاة الجماعة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خَمْسًا وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخطْ خطوة إلا رُفِعَتْ له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلاه: اللَّهُمَّ صَلِّ عليه، اللَّهُمَّ ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»^(٢).

وقال سعيد بن المسيب: "من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البرَّ والبحر عبادة". وقال: "ما فاتتني الصلاة في الجماعة منذ أربعين سنة".

٢- كثرة الخطى إلى المساجد.

عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأصبح الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة، فصلّاها مع الإمام، غُفِرَ له

(١) أحمد (٢١٢٦٥) وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٨٤٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧).

ذنبه»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُدْلِكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ فَذَلِكَ الرِّبَاطُ»^(٢). وقوله: «فَذَلِكَ الرِّبَاطُ» أي: المِرابطة في سبيل الله؛ فكأنه يحمي ثغراً من ثغور المسلمين.

سبحان الله، وهذا من عظيم نِعَمِ الله وفضله علينا، فالجالس في المسجد في انتظار الصلاة، كالقائم على الثغور في المناطق التي يقاتل فيها المسلمون، فيحرسون حدود بيضة الإسلام، ويدفعون عن الأمة عاديّات الكفار! وليس هذا بعجيب؛ لأن الذي يُرابط في سبيل الله يمكنه مُرابطاً مدة محدودة، أما المحافظ على الصلاة دائماً فكالمرابط عليها طوال العام، بل طوال العمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فيمنع نفسه عن شهواتها خمس مرات في اليوم واللييلة، ويذهب ليرابط في سبيل الله تعالى.

٣. الصلاة لوقتها.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أحمد (١/ ٢٣٨) وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

الله؟ قال: «الصَّلَاةُ على وقتها» قلتُ: ثمَّ أيُّ؟ قال: «ثمَّ برُّ الوالدين» قلتُ: ثمَّ أيُّ؟ قال: «ثمَّ الجهادُ في سبيلِ الله» قال: حدَّثني بهنَّ، ولو استزدتُهُ لراذني^(١).

٤. الحرص على الصف الأول وتكبيره الإحرام.

فعن أنس مرفوعاً: «من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كُتِبَتْ له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»^(٢). فالصلاة طهارة للقلب من رجس النفاق ونجاسة الرِّيب.

٥. عمارة المساجد والإنفاق عليها.

فعمارة المساجد من علامات الإيمان بالله والخشية، قال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

وعمارتها تكون بالعمل الصالح فيها من إيمان وصلاة وقرآن ودعاء وذكر واعتكاف، كما أنها تعمر بينائها وتنظيفها وتطيبها وتهيتها لراحة المصلين وعونهم على عبادة الله فيها.

وقد بشّر النبي ﷺ ببشارة عظيمة فقال: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^{(٣)(١)}. وإذا بنى الله تعالى لك بيتاً سكنته بكرمه

(١) مسلم (٨٥).

(٢) الترمذي (٢٤١) وعند أحمد (١٢٥٨٣) بنحوه. وصححه الألباني، انظر الصحيحة (٢٦٥٢).

(٣) البخاري (٤٥٠).

ورحمته.

١٥ - التواضع والإزراء بالنفس.

فالإزراء بالنفس، والشعور بالتقصير في حق الله تعالى وشكره من أجل علامات المتعلق بالله، لعلمه أنه بالله ولله، فهو مستيقن أنه مهما فعل من الأعمال الصالحة فلن يوفي حق شكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى؛ فكيف بباقي النعم التي لا تعد ولا تحصى. وفي هذا إذهاب لأي أثر من آثار الإعجاب بالنفس، واعتراف دائم بالتقصير والتفريط. وهذا له أثر مباشر في تحقيق التعلق بالله سبحانه وتعالى، والتضرع بين يديه، وسؤاله سبحانه الإعانة على شكر النعم، وصرفها في طاعته عز وجل؛ كما ذكر ذلك سبحانه عن أنبيائه وأوليائه:

فهذا سليمان عليه الصلاة والسلام لما رأى نعم الله عليه من الملك، وفهم لغة الطير، وحوار النملة مع أمة النمل سأل ربه سبحانه أن يلهمه شكر نعمته عليه؛ قال الله عز وجل: ﴿فَنَبِّئْهُمْ صَاحِبَكُم مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وقال عن دعاء الولد المؤمن البار بوالديه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

(١) وانظر: «رجل قلبه معلق بالمساجد» مقال في موقع الألوكة لمحمد كامل السيد.

الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأحقاف: ١٥].

ومن جدير التنبيه: أن كثيراً من التائبين والسُّلَّاء والنِّسَّاك والمتعبدة يبتدئ بمقتِ نفسه والإِزرَاء بها حتى تُلِين له قيادها، وهذا حسنٌ، لكنّه مشروط بضبط الشريعة لذلك الإِزرَاء والمقت، فالشريعة تُصَفِّي النفس، وتغسل العقل، وتنقي الفكر، وتُزَكِّي القلب، وتحقن في النفس الإيجابية والتفاؤل والسعادة والعمل وحسن الظن، لا القنوط والفشل والكآبة والسوداوية، فكثير من الزَّهَاد والعِبَاد والنِّسَّاك قد خرجوا عن نهج الشريعة وسبيلها لرسوم زينتها لهم أنفسهم ظنوها هدىً وهي محض باطل.

فالمؤمن كريم على ربه تعالى، والله تعالى يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] وخلق الله له جنته، وخلق له ما في الأرض جميعاً، وأنزل عليه كتبه الهادية، وأرسل له رسله الناصحين، وأمدّه بملائكته الكرام، وفرح بتوبته، وجعل له شأنًا في أرضه وسماؤه وعلياه.

والمقصود: أن مقت النفس والإِزرَاء بها لا بد أن يُخلط مزيجُه بتذكّر إكرام الله لجنس بني آدم، ومحبتة لمطيعيهم، ودفاعه عن المؤمنين، ومعيتة للمحسنين، ونصره للمجاهدين، ومحبتة للتائبين. فالتوازن مطلب شرعي، فلا عجب وتيه، ولا إهلاك بالإِزرَاء، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وبالله التوفيق والعصمة.



البراءة من التعلق بالخلق

لا يجتمع في قلب عبدٍ تمامُ تعلقٍ بالله وبغيره، فأحدُ التعلقين سيطرد صاحبه لا محالة، ويخلي موقعه له، وهي ليست على جهة المناقضة بل المناقصة، فعلى حسب تعلق القلب بالله تعالى تكون براءته وسلامته من التعلق بمخلوقاته، وهذا راجع إلى تمكّن توحيدَي المعرفة والإثبات (الربوبية والأسماء والصفات) والطلب والقصد (توحيد الألوهية) من القلب، فإذا استقرّ في القلب وتمكنا من سويدائه؛ فليس له بغير الله متعلق. وكلما ازداد معرفة بالله عظمَ تعلقه به حتى لا يبقى في فؤاده بغير ربه أدنى تعلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن تعلق بغير ربه فقد حكم على نفسه الحرمان وختمها بالخذلان، بل إن أصل مادة الشرّ في العالم هي من تعلق المخلوق بغير خالقه، وتأله قلبه لغير إله الحق، فما دخل القلب شرك بالله إلا من باب التعلق، فليعتن الفطن اللبيب الناصح لنفسه غاية العناية بحراسة هذا الباب لقلبه، فله عظيم الخطر، وأيّما خطر! «ومن أعظم أسباب تأليه البشر ضعف التعلق بالله تعالى، وضعف تحقيق العبودية لله تعالى وحده لا شريك له.

فإذا ضعف تعلق العبد بربه، وانحسر تحقيقه لعبودية الله تعالى قوي تعلق قلبه بغير الله، وصُبَّ في قلبه من العبودية للبشر بحسب ذلك؛ فما كان لبشر أن يُستعبد قلبه لبشر مثله إلا بسبب إخلاله بعبودية الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير ذلك: «كلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأموارهم، متصرفاً بهم؛ فالعقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تتحكّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها أو مالكةا، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها»^(١).

لقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على تمام التعلق بالله وحده^(٢)، ومن ذلك نهيه ﷺ أصحابه أن يسألوا الناس شيئاً؛ فإن من احتاج إلى الناس نقص قدره عندهم وفاته من عبودية الله تعالى بحسب ذاك الاحتياج «والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعزّ له، وأعظم لقدره؛ فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله؛ فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتاج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله

(١) العبودية، لشيخ الإسلام (٩٤ - ٩٦) باختصار.

(٢) انظر الرد على البكري لابن تيمية (٣٣٧).

ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يُشْرِك به شيء»^(١).

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «والله ما صدق الله في عبوديته مَنْ لأحد من المخلوقين عليه ربّانية»^(٢)، أي تعلق واحتياج.

ومما سطره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب: «إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده، تحمّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرّغ قلبه لمحبهته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبهته بُليّ بعبودية المخلوق ومحبهته وخدمته»^(٣).

ولذا كان اليأس مما في أيدي الناس أعظم التحرر من رق عبوديتهم، فأما إذا طمع فيما عندهم فإن قلبه يتعلق بهم ويفتقر إليهم، ولهذا يقال:
العبدُ حُرٌّ ما قَنَعَ والحُرُّ عبدٌ ما طَمِعَ

(١) الفتاوى (٣٩/١).

(٢) الفتاوى (٥٩٨/١٠).

(٣) الفوائد (٧٧). والكير: كير الحداد، وجمعه: كيرة. ويسمى عند عامتنا الآن: المنفخ، لأنه ينفخ الهواء على النار ليهيج اشتعالها بالأوكسجين.

ويُروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه فإن قلبه يتعلق به فيصير فقيراً إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله»^(١).

وما أروع كلام ابن الجوزي إذ يقول: «والقناعة بما يكفي، وترك التشوّف إلى الفضول أصل الأصول، ولما أيأس الإمام أحمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلوات اجتمع همّه وحسن ذكره، ولما أطمعها (فلان) وغيره سقط ذكرهم».

ثم فيمن يطمع؟ إنما هو سلطان جائر، أو مُزَكِّ مَنّان، أو صديق مُدُلُّ بما يعطي! والعزُّ ألدُّ من كل لذة، والخروج عن ربة المحنة ولو بسفّ التراب»^(٢).

ولما أعرض قوم فرعون عن عبادة الله تعالى؛ اشتغلوا بتأليه فرعون حتى صدّقوه في دعواه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وما كان لفرعون أن يدّعي ذلك لولا أن قومه خارجون عن عبادة الله تعالى فاستخفهم فأطاعوه، كما قال عز

(١) العبودية (٨٩).

(٢) صيد الخاطر (٢٦٧).

وجل: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

يقول أحد الدعاة الباحثين^(١): «فأما المؤمنون فيصعب خداعهم

(١) وقد أهملت ذكر اسم الكاتب لأن بعض الصدور تضيق عن احتماله لتعلقها بأمور نُسبت إليه هو منها بريء، أو صدر بعضها منه وتاب منها ونقضها، أو وسَّع العبارة حتى التبست على قارئ كلامه، أو صدر منه تقريرٌ باطلٌ مخالفٌ للحق، فحقُّه تصحيح ما لديه من خطأ أو خطيئة، وتنبيه قارئ محتواه المُحدَّد بموضع الخطأ نصحاً له ولكاتبه، وليس باطِّراح كل ما كتب. وفقه موازنات نقد الكتب والرجال تُراعى فيه اختلافات الأشخاص والأحوال والمآلات، بما لا يهدم للدين أصلاً، ولا يثلم له فرعاً، ولا يخرم لمسلم حقاً، وبخاصة لدى طالب علم يفقه ويعي ويُميِّز، ولا يطيشُ ويطيرُ مع كل مُطيرٍ، فثمَّ الصَّدِّيق والزنديق وما بينهما، ويُعتَبَرُ كلُّ امرئٍ بما ظهر من حاله، وبالجملة؛ فالإنصاف عزيز، والله المستعان. والمقصود؛ بيان أن ليس في وسع بعض الأفاضل احتمال مجرد ذكر اسمه! ولربما اطَّرح الكتاب جملة لورود اسم مخالفٍ له في هامشه! كما أن بعضهم لا يستوعب مسألة الخلاف السائغ من غيره، ولا يستحضر أعداء أهل الدعوة لدين الله، وما يكتنف أمورهم من مشاق تمنعهم من إتمام ما يُظنُّ بهم من خير، أو البراءة مما ينسب لهم من خلافه، والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها.

وليس يضيره ولا غيره رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ أَهْمَلْنَا ذِكْرَ اسْمِهِ، ونشرنا ما رأيناه مفيداً من علمه ودعوته، وعند الله في ذاك الجزاء. وقد قال الشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ: «وددت لو أن علمي نشر للناس ولم ينسب لي منه شيء». وهذا من دقة فقهه وعظيم نصحه وسعة عقله رَحْمَةُ اللَّهِ. وقد شرح ابن أبي العزِّ الحنفي رَحْمَةُ اللَّهِ الطحاوية بكلام شيخه الإسلام ابن تيمية وابن القيم بدون نسبة كلامهما لهما، لأن الدعاية ضدَّهما كانت =

واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا كانت استجابة الجماهير لفرعون كما قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] (١). ومن أسباب تأليه البشر وبواعثه: الغلو في محبة البشر وتعظيمهم وإطرائهم؛ فهؤلاء النصارى لما غلوا في إطراء عيسى عليه السلام جعلوه إلهًا من دون الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى؛ فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً، أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال الله تعالى:

مغرضة خبيثة واسعة. فشكر العلماء صنيعة، رحمة الله على الجميع. وانظر: (ولا تفرقوا. معالم وتأصيلات) للمؤلف.

(١) عن مقال بعنوان تقديس البشر، د. عبد العزيز آل عبد اللطيف مجلة البيان (١٥٢) / (١٦).

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]»^(١).

ومن حكمة الشارع أنه نهى عن الغلو وحذر منه أيما تحذير، حتى قال عليه السلام: «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(٢). كما قرّر عجز البشر وضعفهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

ومن الظواهر المؤسفة في الواقع والإعلام: الغلو في الإطراء، والمبالغة الممجوجة في المديح لا سيما إن كان ذاك الإطراء المكشوف صادرا عن من يتسبب للعلم!

قال الشيخ محمد الغزالي رحمهُ الله أثناء حديثه عن ذاك المديح: «إن إطراء الشيوخ للحكام ومسارعتهم المريبة إلى تهنتهم في كل مناسبة، وتعزيتهم في كل مصيبة بأسلوب يكتبه الأرقاء والأتباع، ويتنزه عنه الرجال الأحرار، هذه الظاهرة التي تدل على داء بالقلوب، قد غَضَّت من شأن الدين ومنزلته لدى العامة.

وقد تذاكر الناس أن شيخا كبيرا من جلة العلماء كما يقولون كان في المرض الذي يُسْقِطُ عنه الصلاة لا ينسى أداء مراسم الوثنية السياسية، على حين كان الدكتور طه حسين وموقفه من الدين معروف يتكلم بحذر ويرسل

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٥٨).

(٢) رواه النسائي (٢/٤٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).

مدائحُه بقدر!

هذا في الوقت الذي شُطبت فيه ميزانية الأزهر، وأُرسل المال سيلاً غدقاً إلى وزارة المعارف التي كان يشرف عليها آنذاك طه حسين^(١).

ومما يحسن ذكره ها هنا ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال: «لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابن بطال: حاصل النهي أن من أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العُجب لظنه أنه بتلك المنزلة؛ فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالا على ما وصف به، ولذلك تأوّل العلماء في الحديث الآخر «احثوا في وجوه المدّاحين التراب»^(٣) أن المراد من يمدح الناس في وجوههم بالباطل، وقال عمر: «المدح هو الذبح»، قال: وأما من مُدِحَ بما فيه فلا يدخل في النهي، فقد مُدِحَ ﷺ في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يحُثْ في وجهه مادحه تراباً»^(٤). قلت: وليس هذا بظاهرٍ لحديث أبي موسى الأنف في قطع ظهر الرجل بالمدح، وكذلك في إطلاق المدّاحين

(١) تأملات في الدين والحياة، محمد الغزالي (٣١، ٣٢).

(٢) البخاري (٦٠٦٠).

(٣) رواه أحمد (٢٣٨٢٤). وعند مسلم (٣٠٠٢) بلفظ: «إذا رأيتُم المدّاحين فاحثوا في

وجوههم التراب».

(٤) فتح الباري (١٠ / ٤٧٧).

بالحثو عليهم. فلا يخرج من ذلك إلا للمصلحة الشرعية كالحض على الخير، أو الدفاع عن تهمة المسلم، أو تربية الناس ذريةً أو طلاباً، ونحو تلك المصالح المثلى.

وإذا كان مدح الشخص بما فيه لا يأمن أن يحدث فيه كبراً أو إعجاباً أو فتوراً عن العمل الصالح، فكيف إذا مدح الشخص بما ليس فيه مما يعدّ كذباً وباطلاً؟! بل وما ظنك بمن يُمدح بنقيض حاله؟! كمن يُمدح بأنه أكمل الناس براً وعدلاً، وهو في الحقيقة من أعظم الناس فجوراً وظلماً.

وكم أفضت كثرة المديح والإطراء إلى الولوغ في آفات الكبر والغرور والعجب والتّيه، ومن ذلك أن عبد الله بن زياد بن ظبيان خوّف أهل البصرة أمراً، فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من نواحي المسجد: أكثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلّفتم الله شَطَطاً!. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً..

قال الماوردي معلقاً على حال هذا المغرور وأشباهه: «فانظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العُجب إلى حمق صاروا به نكالا في الأولين، ومثلاً في الآخرين، ولو تصوّر المعجب المتكبر ما فُطر عليه من جِلَّة، وبُلي به من مَهْنَة^(١) لخفض جناح نفسه، واستبدل ليناً من عتوّه، وسكوناً من نُفُوره.

وقال الأحنف بن قيس: عجت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف

(١) من الامتهان والإهانة.

يتكبر؟!» (١).

وإنَّ من أقبح الغلو في محبة الأشخاص وأشنعه: عشقهم واستغراق القلب في ذكرهم ووصلهم؛ حتى آل ببعضهم العشق إلى الشرك بالله تعالى وأفضى بهم لسوء الخاتمة عيادًا بالله تعالى، كما في قصة عاشق الغلام أسلم (٢) الذي أنهكه العشق وأتلفه، حتى أنشد عند موته:

أسلمُ ياراحةَ العليلِ رفقا على الهائم النحيلِ
وصلُّك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل!

فعيادًا بالله تعالى من مصارع السوء، ومراقد الفتن، ومهاوي الردى، ومن الحور بعد الكور.

وهذا رجل كان يجاهد مع المسلمين فعشق نصرانية فتنصّر من أجلها (٣). وثالث كان مؤذّنًا فشغف قلبه بنصرانية فارتد عن الإسلام وتنصّر ومات على ذلك (٤). ورابع كان متنسكًا عابدًا فهوى شخصًا فتهتّك، وأظهر الخلاعة والفجور (٥).

(١) أدب الدنيا والدين (٢٣٣).

(٢) انظر تفصيل القصة في المنتظم لابن الجوزي (٢٤٧/١٥) (٢٤٩) والبداية لابن كثير (٣١٧/١٢).

(٣) انظر القصة في البداية لابن كثير (٦٤/١١).

(٤) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي (٤٠٩).

(٥) انظر تفصيل قصته في المنتظم لابن الجوزي (٧١/١٠).

ولقد «كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ يَنشُد:

تَفْنَى اللِّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْخَزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغْبِتَتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ»^(١)

ومما يجدر ذكره أن هؤلاء المُعْظَمِينَ من البشر يُضْفَوْنَ على أنفسهم أنواعًا من الهالات والبهرجة والأبهة والرسوم التي تسلب عقول السذج والجهال والرعا والطغام، وضعيفي الإدراك من أشباه الأنعام، وتشغل قلوبهم بالمهابة والتقديس والإجلال والتعظيم لأولئك المتألهين.

وها هي قبور الأموات إذا بُنِيَ عليها وأسرجت وزُيِّنَتْ أُوْرِثَتْ تَأْلِيَهَا لأولئك المقبورين، فكيف ببهرجة الأحياء من ذوي النفوذ والتأثير ورسومهم؟!

وكما قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في أثر بناء القبور وتزيينها: «إن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة والسرج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب؛ فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيمًا لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه العقائد الشيطانية»^(٢).

(١) روضة المحبين لابن القيم (٣٧٤).

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور (١٧).

ومن أسباب تأليه البشر: إلغاء دور العقل وطمسه عن التأمل والتفكير، وتحبيده عن التدبر والتبصر، فيمشي بين الناس بلا عقلٍ راجح، ولا لبٍّ صالح. ولما غلب على غلاة المتصوفة وأيضًا غلاة الشيعة والنصارى تحجيم وتقزيم وإلغاء العقل وإهماله؛ استحوذ عليهم تقديس البشر وتأليههم، فاستعاضوا عن الهدى ضلالًا، وعن الاستقامة انحرافًا وعن الرضوان سخطًا ومقتًا، والمعصوم من عصمه الله تعالى بنهيته بها يستبين مواطنَ خطوِ أعماله، ومفاوزِ بصَرِ معتقداته، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن تحرير العقل من رق تقديس الأشخاص إنما يكون بالتفكر وإمعان النظر والتأمل، والحذر من وصاية الآخرين وهيمنتهم، وعدم قبول الدعاوى إلا بينة وبرهان، فالمؤمن لا تطمئن نفسه إلا بسلطان الدليل عن ربّه، لا سلطان التقليد لمثله.

ولذا فإن المجتمعات التي يعمها الجهل وتقليد الآخرين والتبعية العمياء تكون ذليلة منقادة لكل ناعق، مصفّقة لكل أحق، تابعة لمن عَلا صوته، لا لمن علا برهانه. وقد وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الصنف بقوله: «همجٌ رعاغٌ أتباعٌ كلِّ ناعقٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق»^(١).

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١٢/٢) في سياق كلام عَلَوِيٍّ عَلَوِيٍّ شَرِيفٍ حَرِيٍّ بالتدبر والدرس. وقال الحافظ ابن عبد البر عن هذا الأثر: وهو حديث مشهور عند أهل العلم يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم. ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩ - =

ولابن هبيرة كلام جميل في شأن التدبر والتأمل وخطر وثنية التقليد بلا حجة ولا مسوغ من الشرع؛ حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «ومن مكاييد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً. ومنها أن يقيم أوثاناً في المعنى تُعبد من دون الله، مثل أن يبين الحق، فيقول: ليس هذا مذهبنا، تقليداً للمعظم عنده، قد قدّمه على الحق»^(١).

ومن أسباب تأليه البشر وبواعثه: الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للمتألهين؛ وإنما استكبر من استكبر من الفراعنة والجبابة لأنهم وجدوا من الرعاع من يسارع إلى إجابة أهوائهم، وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر؛ فعتوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً.

«وفساد الأديان الأولى جاء من طراوة الأتباع في أيدي رؤسائهم، وتحولهم إلى أذنان مسيرة لا فكر لها ولا رأي.

إن الفراعنة والأباطرة تألهوا؛ لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلا وعي. والأخبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك؛ لأنهم وجدوا رعايا تمنحهم الثقة المطلقة وتلغي وجودها الأدبي أمام ما يصدر من أحكام، والشعوب التافهة في

٨٠) والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٢ - ١٨٣) وذكره الشاطبي في الاعتصام

(٢/ ٨٧٥ - ٨٧٦).

(١) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٣/ ٢٧٣).

كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبدين وتغريهم بالأثرة والجبروت»^(١).
ومن ثم فينبغي الاعتناء بضوابط الطاعة وشروطها؛ فإن الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للبشر لا تقل ضرراً وفساداً عما يضادها من الطيش والفوضى.
وإنَّ من الشرك - فاعلمن - شركُ الطاعة.

ومن تلك الضوابط: أنه لا طاعة مطلقة إلا للرسول عليهم السلام، فليس من المخلوقين مَنْ أمره حتمٌ بإطلاق إلا الرسول عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: «من نصَّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك، كائمه الضلال الرافضة الإمامية؛ حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء»^(٢).

ومن هذه القيود: أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما في قصة سرية عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أمر أصحابه بأن يوقدوا ناراً ويدخلوها؛ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف»^(٣).

ومما قاله ابن القيم في شأن تلك الحادثة: «وإن كانوا مطيعين لولي الأمر

(١) من معالم الحق، محمد الغزالي (٢٣٨، ٢٣٩) باختصار.

(٢) الفتاوى (٦٩/١٩).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٥).

فلم تدفعهم طاعتهم لولي الأمر معصيتهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قتل نفسه فهو مستحق للوعيد؛ فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر، فكيف من عذب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر.

وأيضاً فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبة والرغبة الدنيوية؟!^(١).

ومن ضوابط الطاعة أنه ليس لأحد أن يلزم بمسائل الاجتهاد إن لم يكن معه دليل من كتاب أو سنة، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في مناظرته خصومه بشأن العقيدة الواسطية، كما قررها أثناء محنته في مصر سنة ٧٠٦ هـ كما في مقدمة كتابه التسعينية. يقول رَحِمَهُ اللهُ: «وأما إلزام السلطان في مسائل النزاع بالتزام قول بلا حجة من الكتاب والسنة، فهذا لا يجوز باتفاق المسلمين، ولا يفيد حكم حاكم بصحة قول دون قول في مثل ذلك... ومما يجب أن يُعلم أن الذي يريد أن ينكر على الناس ليس له أن ينكر إلا بحجة وبيان؛ إذ ليس لأحد أن يلزم أحداً بشيء، ولا يحظر على أحد شيئاً بلا حجة خاصة إلا رسول الله ﷺ المبلغ عن الله»^(٢).

وبالجملة: فمن حقق التعلق بربه، فليهنه الفلاح، ومن خلط خلط عليه! ومن أدبر رُفعت عنه العافية، ووكله الله إلى نفسه العاجزة! والله المستعان.



(١) زاد المعاد (٦٩/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٤٠، ٢٤٥).

التعلق بالله في زمن الابتلاء

المتعلق بالله تبارك وتعالى هو أثبت الناس عند الابتلاء مهما اشتدت وطأته، وأصفاهم عند التمحيص مهما سخنت نارُه، وأخلصهم عند الامتحان مهما بلغت لأواؤه، ذلك أن سنة الله تعالى قد اقتضت معونته لمن وُحِدَ تعلُّقه به، فهو مُجيب المضطرين، ومُعِين المُتَبَهِّلِينَ، وسامعُ الداعين، وشاكرُ العاملين الصادقين.

والبلاءُ مَنْسَأَةٌ يَتَكَيُّ عليها اليقين، لأنَّ المؤمن موعود بابتلاءٍ يُعَانُ عليه إن صدق مع ربه تعالى، فالابتلاء قَبْسُ الهُدَى، ومِعْرَاجُ الفلاح، ومَدْرَجَةُ الْجَنَّةِ.

والابتلاء للمؤمن تزكية؛ فيُصَفِّيهِ من كَدَرِ الغفلات، وينقِّيهِ من شائبات الدنيا، ويُطَهِّرُهُ من دَنَسِ سَيِّئَاتِ الأخلاق، كالنار تستخلص الذهب من شوب المعادن الرديئة، فيزيد الابتلاء في نقاء قلبه وصفائه وصلابته واشتداده وثباته وطهارته وسلامته، فلا يزال المتعلق بالله مع الابتلاء المتتابع مدفوعاً إلى تعلق آخر بالله تعالى، وذاك التعلق يحجره لتعلق آخر، فهو متعلق بالله على الدوام مع تتابع البلاءات، لائذا بربه الأعلى، منطرِحاً بين يديه، كسيراً في جَنَابَاتِ تَأْلُهُ، لاهجاً بدعائه لإصلاح دينه، وإعانتته على مرضي ربه، وحفظه من غوائل الشر وأهله، ولا يزال ثوابه يعمل عمله في تكفير سيئاته، وزيادة حسناته، ورفع درجاته حتى يكون أهلاً لولاية الله التامة، فالاصطفاء بعد الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأهل هذه المراتب وإن كانوا من المؤمنين المتقين، المستحقين لولاية الله تعالى إلا أنهم ليسوا بمعصومين، فقد يصدر من أحدهم بعض الصغائر أو الكبائر، لكنهم ملازمون للتوبة مبادرون لها، وعلى خطيئة لا يُصِرُّون، كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

والمؤمن المتعلق بربه قد بنى بنيانه على أساس صلب راسخ، وعلى معتقد صحيح، وتصوّر للدين سليم، «والأساس العقدي يقتضي من الإنسان الصبر والثبات والثقة بالله وحده، وكذلك فإن هذه الأسس العقدية تقتضي من الإنسان الصمود والصبر والثبات وعدم الترحيح، فالذي يؤمن بالله وحده ويعلم أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وأن الله كتب ما هو كائن في قدره النافذ، وأنها قد رفعت الأقلام وجفت الصحف، وأن الأمة كلها لو اجتمعت على أن تنفعه بشيء لم تنفعه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنها لو اجتمعت على أن تضره بشيء لم تضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه؛ لا يمكن أن يخضع ويذل لغير الله، ولا يمكن أن يؤثر رضا المخلوق على رضا الله، ولا يمكن أن يخاف إلا من الله سبحانه وتعالى وحده، ذلك لأن إيمانه بالله سبحانه وتعالى مقتضى معرفته به، بمعرفته وأنه ديان السماوات والأرض، الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، بيده مقاليد كل شيء، هو الحق الملك المبين لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويعلم أنه سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، وأنه المدبر للكون كله، وأنه لا يغفل عنه لحظة واحدة، ومن هنا فإن قناعته

بهذا مقتضية منه تمام التعلق بالله والاتصال به^(١) والتوكل عليه ورجائه وخوفه، وعدم رجاء من سواه أو خوفه أو الاعتماد عليه في أي شيء؛ لعلمه أن كل من سوى الله لا يملك لنفسه فضلاً عن الغير حياة ولا موتاً ولا نشوراً ولا نفعاً ولا ضرراً، ومن هنا لا يحق أن يُتوكل عليه، ولا أن يُرجى نفعه، ولا أن يخاف ضرره.

وإيمان الإنسان الراسخ بأن الأنفس كلها بيد الله، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، مقتضى منه كذلك أن لا يثق فيما سوى الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي لا يبدو له البداء^(٢)، فعلمه سابق لكل خلقه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١] والمخلوق يبدو له البداء في كل لحظة، فيتغير رأيه ويعدل عن الآراء التي كان يراها^(٣).

وفي جواب للشيخ محمد المختار الشنقيطي حفظه الله عن حال المؤمن مع ما يجري للأمة من ابتلاءات شديدة قال: «الله المستعان! وإلى الله المشتكى، ماذا يقول الإنسان - حقيقةً - في جراحٍ لا تزداد إلا نزيفاً؟! لكن نسأل الله العظيم أن يجبر كسرهم.

الحقيقة: عَظُمَتِ الفتن والمحن، وخاصة في هذا الزمان، وتكالب أعداء

(١) أي بالعبادة إيماناً وتعلقاً وتأهباً.

(٢) أي: يبدو له أمر جديد على خلاف أمره القديم، فالله تعالى منزّه عن ذلك لكمال علمه.

(٣) دروس الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي (٤١ / ٦).

الله ورسوله على أولياء الله: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] تكالب الأعداء من كل حدبٍ وصوب على أولياء الله، يقتتلونهم، ويشردونهم، ويبتمون أطفالهم، ويرملون نساءهم، وكان من البلاء ما لا يعلمه إلا الله جل جلاله. فالذي أوصي به إخواني في خضم هذه الفتن والمحن ما يلي:

أولاً: التعلق بالله جل جلاله واليقين به سبحانه: فما يقف المؤمن أمام الفتن والمحن بشيء مثل وقوفه باليقين بالله جل جلاله، وهذا اليقين يغرس في قلبه إيماناً كاملاً بأن الكلمة كلمة الله، وأن الدين دين الله، وأن الرسالة رسالة الله، وأنها ستبلغ ما أراد الله أن تبلغ وإن رَغِمَت الأنوف، وذلت لله جل جلاله.

فأول ما أوصي به: ألا تكون هذه الفتن سبباً لتحبيط المهمة، وضعف النفوس؛ ولكن تكون سبباً لقوة الإيمان بالله، وقوة التعلق بالله، والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى. فينبغي أن يكون عندك يقين بأن أعداء الإسلام مهما فعلوا فإن الله وراءهم، ولهم الرصد، وهو ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

عندما دخل التتار على دولة الإسلام وخلافة المسلمين وضعوا تراث الأمة في نهر دجلة، حتى ساح بلون المداد، تراث أمة قرون عديدة وُضع في النهر؛ لكي تسير الخيول عليه لتعبر نهر دجلة، حتى أصبح ماء دجلة متلوّناً بلون المداد، فهل انتهى الإسلام؟! أبداً، بل عاد يُمكن أقوى مما كان عليه، فالإسلام دينٌ يغلب ولا يُغلب، وينفذ ولا يُردُّ، لا يستطيع أحد أن يقف في

وجهه.

جاءت سَخِينَةُ كي تغالب ربَّها وليُعْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَالِبِ^(١)

مَنْ هذا الذي يستطيع أن يقف أمام مَلِكِ الملوك؟! ومن هذا الذي يستطيع أن يطفئ نور الله جل جلاله؟! إن هذه الفتن لَمَّا نسمعها تؤلم القلوب؛ ولكن الذي نخشاه أن شباب الصحوّة أو الشباب الأخيار قد تخور قواهم أمام هذا السيل الجارف من الكيد للإسلام والأذية لعباد الله؛ ولكن صَبْرٌ جَمِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ بِالرَّصَدِ، وَاللَّهُ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ، والقوّة لله، والأرض أرضُ الله، والكون كونُ الله، والخلق خلقُ الله، والأمر أمرُ الله، وَلَيَنْفُذَنَّ أَمْرُ اللَّهِ جَل جلاله.

فعندما كان النبي ﷺ في المدينة كان من عجيب ما يقع غالباً أنه إذا اشتدت الفتن والمحن يجعل الله فَرَجَها من حيث لا يدور بالحسبان، فكل ما اشتدت الفتن على المؤمنين خاصّةً الفتن التي يراد بها الدين يأتي الفرج منها غالباً من حيث لا يحتسب المؤمن.

فانظر في غزوة بدر، حيث التقى المسلمون بالكفار، فكانت الغلبة

(١) البيت لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهجو به قريشاً لما هجوا رسول الله ﷺ. وسَخِينَةُ: لقب لقريش تُعَيَّرُ به لمحبتهم لها وولعهم بأكلها، وهي من الدقيق والسمن. وقد قال ﷺ لكعب - لما قال ذلك البيت - شاكرًا له: «أَمَّا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْسَ لَكَ ذَلِكَ». أخرجه الحاكم ٣/ ٥٥٦ (٦٠٦٥) ووافقه الذهبي. وقوى سنده الألباني في الصحيحة (٦١٨/٤).

للمسلمين؛ لكن القتال قتال ماذا؟! قتالٌ حَسِّي. لكن يوم الأحزاب قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠] الله أكبر! نبي الله والصحابة الذين هم صفوة الأمة يقول الله عنهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾! وماذا بعدها؟! ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(١٠) ما معنى ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠]؟! معناه: أنه بلغ بالصحابي مرتبةً من كيد الشيطان، سبحانه الله العظيم! قد يدخل الشيطان على الإنسان بشيء من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى! يقول الله عن هذا الأمر العظيم: ﴿هُنَالِكَ﴾ ما قال: هناك؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام العظيم من الابتلاء والامتحان، ﴿أَبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليس ابتلاءً واحداً، بل ﴿وُزِّلُوا﴾ انظر كيف يكون الزلزال إذا ضرب أرضاً! فكيف بزلزال القلوب؟! فكذاك تُزَلُّ مثلما زُلِّلَ الصحابة، ﴿وُزِّلُوا﴾ كما قال الله عن الأنبياء وصفوة الأنبياء في ذلك الأزمنة، قال: ﴿وُزِّلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(١١) [الأحزاب: ١١] إذا كان الله زلزل الصحابة زلزالاً شديداً؛ فكيف بنا نحن الفقراء؟! فالكُفْرُ مثلاً مَرٌّ، الحق هو الحق، والباطل هو الباطل، وإن تغير الستار، وتبدل الشعار؛ فهو ملّة الكفار، شئنا أم أبينا؛ وإنما هي أيامٌ تمرُّ^(١)؛ ولكن الحقيقة واحدة، حقٌّ وباطل.

فإياكم ثم إياكم أن تكون هذه المآسي المؤلمة - ولا شك أنها جارحة

(١) وكلُّ مَرٍّ سَيَمُرُّ.

للقلوب ومؤلمة للقلوب - لكن لا ينبغي أن تكون سبباً للتخذيل، بل ينبغي أن تكون سبباً لقوة الشَّكِيمَةِ^(١): ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] إنه اليقين، فما تقف أمام الشدائد والمحن والفتن بشيء أقوى من اليقين بالله جل جلاله، وأن يكون عندك قوة ثقة بالله سبحانه وتعالى في أن الكلمة ستنفذ، وأن الأمر سيمضي، إن عاجلاً أو آجلاً.

الأمر الثاني: ينبغي أن نأخذ بالأسباب: وهي: إلهية، وكونية، أي: شرعية، وكونية.

فالشرعية هي: ما أمرنا الله عز وجل بها، ومن أعظمها: الدعاء: - أن نكثر من الدعاء لإخواننا، فأقل ما فيه أنك في السحر إذا أوترت ودعوت لإخوانك تترجم عما في قلبك من أنك بذلت شيئاً لإخوانك، فتدعو لهم، وتذكر - أخي - أرملة من المسلمين فقدت زوجها من أجل لا إله إلا الله! تصوّر أنها لو كانت قريبتك أو كانت أمك أو أختك أو ابنتك فكيف يكون حالك؟! هل يهناً لك العيش؟! هل يهناً لك البال؟! هل ترتاح؟! فلذلك يجب أن تدعو لهم وأن تستشعر أن إخوانك يفتقرون منك الدعوة الصالحة، والدعاء سلاح المؤمن، فيجب أن نكثر من الدعاء لإخواننا، وأن نجعل هذا الدعاء أشجاناً وأحزاناً مع أشجان إخواننا وأحزانهم.

(١) الشَّكِيمَةُ: هي الأنفة والعزة والقوة والإباء. وأصلها من الحديد المعترضة في فم الفرس.

والكونية هي: الأخذ بالأسباب التي تؤمر بها في الدين: بأن نُعدَّ لأعدائنا ما أمر الله بإعدادهِ، فمن استطاع أن يعين بنفسه فليُعين بنفسه، ومن استطاع أن يعين بهاله فليُعين بهاله، ومن استطاع أن يعين بالكلمة فليُقلِّ.

فينبغي أن نكون مع إخواننا، فنعيش أشجانهم وأحزانهم، ولذلك لما بلغ خبر مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي حميد الساعدي قال: «اللَّهُمَّ لَكَ عَلَيَّ أَلَّا أَضْحَكَ أَبَدًا»^(١) وذلك من شدة ما سمع من مصاب أخيه في الله عثمان الخليفة الراشد، فكيف بأعراض تُنتهك! ودماء تُسفك! وغير ذلك من نساء للمسلمين يُرْمَلْنَ! وَيُيْتَمَّ أطفالهن؟! وإلى الله المشتكى.

فالذي نحب أن نقوله: أنه ينبغي أن نوطِّن أنفسنا، وأن نعد العدة لأعداء الله عز وجل - وذلك لما ذكرنا -، على قدر استطاعة الإنسان ووسعه، فيبذل كل ما يستطيع لإعانة إخوانه والوقوف معهم، ويقف الوقفة الصادقة.

الأمر الأخير: الإخلاص: - إذا أردنا أن نقف مع إخواننا يجب أن نقف بإخلاص، ولما يتحدث الإنسان في هذه القضايا يجب أن يتحدث بإخلاص، فلا يتحدث من أجل غلبة شخصية، أو حَنَقٍ شخصي أبداً^(٢)، بل يجب أن يتحدث من واقع إسلامي وبشعور إسلامي نابع من القلب يريد وجه الله،

(١) الحزن على ذلك مشروع، ولكن التزام ترك الضحك ليس بمستحب، وقد مات رسول

الله ﷺ فلم يلزم كبار الصحابة وفقهاؤهم أنفسهم بتركه.

(٢) وهذا ملحظ مهم، فللشيطان مداخل كثيرة من أبواب الأغراض أو الثارات أو غيرها.

حتى تكون الكلمات هادفة ومؤثرة وبالغة إلى القلوب»^(١).

وتأمل ابتلاء أهل الشام بالتر وكيف نصرهم الله حين تعلقوا به وكفروا بما سواه، وقد وصفها إمام وقف على أحداثها، وصفها وشخص فيها أحوال الناس، وصور مشاعرهم ومواقفهم بدقه وعلم وخبرة، ذاكم هو شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللهُ. حيث قال: «فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عبادته ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شرورها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكثر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيها عمود الكتاب أن يُجثَّ ويُحترَم، وحبلُ الإيَّان أن ينقطع وينصرم، ودارُ المؤمنين أن يحلَّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهلهم أبدًا.

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت اللبيب لكثرة الوسوس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة،

(١) مجموع دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٧ / ٨).

وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامه مختصرة من القيامة الكبرى... وفرّ الرجل فيها من أخيه، وأمه وأبيه، إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه، وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه... وبُليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المال»^(١).

ومن حكم الابتلاء: تمحيص الصفوف، وتكفير الذنوب، وهذا أمرٌ بين، فكم هم الدخلاء على الصف الإسلامي، الذين لا يعرفهم إلا الندرة من الناس، فإذا جاءت مثل هذه المحن والابتلاءات ميّزت الطيب من الخبيث. وهذا دين الله الذي تكفل بنصره، وأمرنا بأن نسعى لذلك، ولم يكلفنا أن نحصد ثمرة النصر، بل هذه لم تُطلب من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿[الصفافات: ١٧١ - ١٧٣] فكيف يدبُّ اليأس إلى قلب مؤمن بعدها؟!]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا يشكل على بعض الناس، فيقول:

(١) الفتاوى (٢٨ / ٤٢٨ - ٤٢٩). وانظر: (وزلزلوا زلزالاً شديداً. بين الأحزاب وشقحب وملاحدة الزمان)، للمؤلف.

الرسُل قد قُتِلَ بعضهم، فكيف يكونون منصورين؟

فيقال: القتل إذا كان على وجهٍ فيه عزّة الدين وأهله كان هذا من كمال النصر، فإن الموت لا بد منه، فإذا مات ميتةً يكون بها سعيداً في الآخرة، فهذا غاية النصر، كما كان حال نبينا ﷺ، فإنه استشهد طائفة من أصحابه فصاروا إلى أعظم كرامة، ومن بقي كان عزيزاً منصوراً، وكذلك كان الصحابة يقولون للكفار: أخبرنا نبينا أن من قتل منا دخل الجنة، ومن عاش منا ملك رقابكم. فالمقتول إذا قتل على هذا الوجه كان ذلك من تمام نصره، ونَصْرُ أصحابه.

ومن هذا الباب حديث الغلام . الذي رواه مسلم^(١) . لما اتّبع دين الراهب، وترك دين الساحر، وأرادوا قتله مرة بعد مرة، فلم يستطيعوا حتى أعلمهم بأنه يُقتل إذا قال الملك: باسم الله رب الغلام، ثم يرميه، ولما قتل آمن الناس كلهم، فكان هذا نصراً لدينه^(٢).

وفي ظل هذه الفتن، وتتابع هذه المصائب، يجب ألا تشغلنا هذه الفتن عن عبادتنا الخاصة بيننا وبين ربنا صلاةً وتلاوةً وذكرًا ودعاءً وتفكيرًا وصدقةً، وكذا ما تحتم على كلّ مؤمنٍ صلةً وبرًّا وغيرها، فالضرورة تتأكد بوجوب العناية بإصلاح القلب في كل حال، وتفقد سلامته كل حين، وبذل أسباب عافيته على الدوام، وإطعامه أغذية الروح التي لا غناء له عنها، وهي الصلة

(١) في صحيحه (٣٠٠٥).

(٢) نقله عنه تلميذه ابن عبد الهادي في اختيارات ابن تيمية (٧٠-٧١).

بالله العلي العظيم، وتشتدُّ الفاقةُ لذلك عند ادلهامِ الفتن والمُلِّمات، وإن كانت ضرورة لازمة كل وقت، وفي حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العبادة في الهَرْجِ كهجرة إلي»^(١). فالنفوس عند الاضطراب الشديد ربما ذهلت عن معادها بُرْهَةً، وغفلت عن ربها هُنيهةً، ولربما أعرض بعضهم عن مصالحه لمَصَارِعِهِ، فهو يُفْتَنُ في العام عَدِيدَ مَرَّاتٍ ولا يعقلُ سبيل عافيته، ولا يأخذُ بحبل نجاته، حتى تُعْطِبَ قلبه الفتنُ، حينها لا يَدُّكُرُ إلا بعد الفوات، ولات حين مندم!

لكن الموفقون لا يضيعهم ربهم، ولا يخذلهم، بل يُلطف بهم فيهديهم لحسن عبادته في زمن غفلة الناس، وللتعلق الحق به حين سقوط المخدولين في الالتباس، وهذا من خصائص أهل الإخلاص والشكر والتعلق.

فلا بد من التعلق بالله عز وجل دائماً، واللجأ إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء، وملازمة الضراعة والافتقار والاستكانة على عتبات أبواب إجابته، فلا خاب من أحسن به ظنه، ولا ندم من وَحَدَ إليه قِصْدَهُ، وأخلص به تَعَلُّقَهُ، فإن الله تعالى نعى على قومٍ أصيبوا بالضراء، فلم يكن ذلك سبباً في تضرعهم، إذ لم يكونوا من المخلصين، فقبضوا الخذلان، وتزيين الشيطان، وقسوة القلب، وخيبة المنقلب! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾^(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

والمؤمن أولى الناس بذلك التعلُّق الخالص، فمهما كانت المصيبة فهو على غنم، فهو بين أجرِي الشكر والصبر، وعاملُ الله لا يخيبُ، قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيراً له»^(١). وإذا نزلت مصيبة - خلا مصيبة الدين - ونزل معها صبر ورضا وحمد فهي نعمة، فإن صاحبها جزع وتسخط فهي نقمة وعذاب. فخذها أمارَةً صادقة لفحص مصابك يا عبد الله.

بل حتى مع الصبر على الضراء ترى المؤمن يحمد الله أن جعل مصيبته في دنياه لا في دينه، بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقام المنّةً عليه لله اللطيف الكريم الرحيم، فيعلم أنه وإن أعسر شهراً فقد أيسر دهرًا، وإن مارس الشدة أيامًا، فقد لابس النعمة أعوامًا، على ثقة من أن ساعة الضراء تزول، كما أن مدة السراء قد تحول، وكما لم تثبت نوبة المنحة، فلن تلبث نوبة المحنة، فما أعظم طمأنينة قلب من كان هذه حاله، وهنيئًا له الفوز بالدرجات العُلا يوم القيامة^(٢).

ويعقوب عليه السلام طراز فريد من أولئك، ونسيجٌ جميلٌ مما هُنالك،

(١) رواه مسلم (٢٢٩٥/٤) (٢٩٩٩).

(٢) وانظر كتاب الصبر، للمؤلف.

وقد جمع الله له بين الصبر الجميل وبين التعلق بالله القدير، ففرَّ إلى مَنْ بيده مفاتيح الفرج سبحانه، لعلمه بأن من آوى إليه كفاه، ومن استهداه هداه، ومن فزع إليه جلَّه سكينه النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وحمد العاقبة، وتدبر حاله وحال ابنه يوسف عليهما السلام، وكيف وصف الله حالهما مع تصارييف البلاء، وساق جميل خبرهما مع اشتداد اللاأواء، ولا جرم فسورة يوسف هي سورة الفرج بعد الشدة لعباد الله المحسنين.

فالفزع إلى الله تعالى عند نزول المصائب يربط على القلب، ويقرب من الرب، ويخفف من وطأة المصيبة على النفس، وهو دأب الصالحين في كل زمان. ونبينا ﷺ كان «إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»^(١) وقد أحسن من قال:

إذا أرهقتك هموم الحياة ومسك منها عظيم الضرر
وذقت الأمرين حتى بكت وضج فؤادك حتى انفجر
وسدَّتْ بوجهك كل الدروب وأوشكت تسقط بين الحفر
فيمم إلى الله في لهفة وبث الشكاة لرب البشر

هذا؛ ولا ينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها، فهذا يعقوب عليه السلام، صاحب الصبر الجميل، قال وهو الصادق فيما يقول:

﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ومع ذلك لم يغفل ناموس الأسباب، ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ

لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ٨٧] فالله تعالى قد بنى الكون على نظام دقيق مُحْكَمٍ وَفَقَّ أسبابٍ رَبَّهَا لمسبباتها، فله تعالى سنن شرعية دينية فهذه متعلِّقها الأمر، وله سنن كونية قدرية فمتعلِّقها الخلق، وبينهما تناسب وتكامل. فسننه الكونية لا تتخلَّف ولا تتبدل ولا تتحول إلا حينما يشاء سبحانه لحكمة كآيات الأنبياء وكرامات من أراد من الأولياء واستدراج من شاء من الأشقياء.

وتدبر حال يعقوب عليه السلام وهو يوجَّه بنيه، وكأنه يهتف بهم بحنان ويقين وإيمان: يا بَنِيَّ، لا تياسوا من روح الله، فكلَّ عسير إذا يسَّره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، لا يقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فابحثوا عن أخبار من تلوموني في ذكره، وعن أخيه، وفي هذا بيان لقوة نفسه عليه السلام وثبات جنانه، ولك أن تقدر ما يقوله الناس له، وعظيم إنكارهم عليه، وما يتحدثون به في مجتمعه، وخذ مقياساً لذلك كلمة بنيه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ فإذا كان هذا قول الأبناء المقربين فكيف بالغرباء الأبعدين، بل كيف بمن لم يعرف له مقام نبوة؟

إنك ترى كثيراً من الناس ربما قال بحقٍّ في مسألة من المسائل التي بدت له أدلتها، وظهر له برهانها، فلبث قليلاً فيعظم إنكار بعض الناس عليه، فيخنس! أما الأنبياء، أما مَنْ عرف قدر الحق من أصحاب النفوس القوية والقلوب الأبَّية فلا، بل يثبتهم الله تعالى بالعلم واليقين فيصبرون، وعندها

يجعل الله منهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يُبصر بنور الوحي أنّ رأيهم هو الرأي، إلا أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالمتكبر المخالف منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكر، لما رأى الصبر واليقين ماثلين أمامه. ويعقوب عليه السلام من أئمة المتقين الموقنين المتعلقين بالله العلي العظيم، فلقد فرّ من كل أحدٍ إلى من بيده مفاتيح الفرج سبحانه وبحمده.

إننا بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ثم يبصرون بنور الله أهل العمى، ويثبتون فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنعت، عندها يجعل الله منهم أئمة وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسى الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة، بفضل أتباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمون، من ورثة الأنبياء أهل العلم والإيمان^(١).

هذا «ويتحتم على المؤمن مراجعة إيمانه، ومحاسبة نفسه بين وقت وآخر، ولا سيما في أوقات الفتن والمحن والابتلاءات، وأحوال علو الكافرين وطغيانهم، وظهور المنافقين وافتراءهم، وضعف المؤمنين وانزوائهم، وذلك لئلا تميد بالمسلم الفتن فتخرجه من دينه أو تجعله يسيئ الظن بربه، فيظن أن الله تعالى لا ينصر أوليائه ولا يكبت أعداءه، وأن القوة المادية المحسوسة فوق

(١) ينظر: موسوعة فقه الابتلاء (٤ / ١٧٥).

كل قوة، وأنه لا اعتبار بعالم الغيبات، وإذا تمادى به الظن السيئُ إلى هذا الحد فيُخشى عليه من إنكار الغيب، ومن ثم إنكار الخالق جل جلاله، نعوذ بالله من هذا الحال!

ومن الناس من يتخلى عن دينه لا شكاً فيه وفي وعد ربه تبارك وتعالى، ولكنه يستبطئ ذلك، فيتفلت من الأوامر والنواهي شيئاً فشيئاً، ويوجد لنفسه الأعذار والمسوغات حتى يخرج من الإسلام وهو لا يشعر، ولا سيما إذا صاحب الفتن موجات من السخرية بالدين وأهله، ووصفهم بالأوصاف التي تنفر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للإيذاء والابتلاء، كما هو الواقع في هذا الزمن من اتهامات باطلة للإسلام والمسلمين المتمسكين بدينهم، المعظمين لشعائره، المحافظين على سننه وأحكامه؛ إذ يوصفون في الإعلام العالمي اليهودي والنصراني والعلماني العربي بأوصاف تجرّمهم، ويُتهمون بتهم تخوّف الناس منهم، وذلك بقصد صرف الناس عن دينهم، وتخويفهم منه ومن شريعته، واستبداله بدين آخر ممسوخ تم صفّه وإعداده في الدوائر السياسية والمؤسسات الأكاديمية الغربية، وتلقفه العلمانيون العرب، وعملوا له الدعاية في وسائل الإعلام المختلفة، وليس في هذا الدين الجديد حرام، ولا له حدود، ويؤمن بالحرية والديمقراطية وبكل المقررات العلمانية.

إنهم باختصار يريدون أن يكون ديننا كدين النصارى الذي ما بقي منه من كثرة التحريف والمسخ إلا بعض الوصايا الأخلاقية التي ينطق بها رهبانهم على استحياء.

وإن تعجب فعجب أمر فئام الناس مِمَّنْ صاروا يتساءلون في الصحف والفضائيات، بعضهم يلمح وبعضهم يصرح بطريقة أو بأخرى، قائلين: أين رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين الذين التزموا دينه، وأقاموا شريعته في أنفسهم وأهليهم ورعاياهم، واختاروا الإسلام الحق الذي أنزل على محمد ﷺ دون ما سواه؟! ها هم يوصمون بالتطرف والإرهاب وبكل نقيصة، ويوصفون بما ينفر الناس منهم!

ها هم أولاء في بلاد الأفغان قد قُتلوا، وأُخرجوا من ديارهم، وشُردت أسرهم، وعذبوا واضطهدوا، وفقدوا مقومات الحياة من الأمن والطعام والكساء والمأوى. فأين رحمة الله تعالى بهم؟! وأين رحمة الله تعالى بأهل فلسطين وقد فعل بهم اليهود والنصارى ما فعلوا؛ من هدم ديارهم، وإتلاف زروعهم، ومصادرة أراضيهم، واعتقال أبنائهم، ولا سيما من يرفعون لواء الإسلام.

وأين هي رحمة الله تعالى بالمسلمين في بلاد الشيشان المنكوبة التي يعيش نساؤها وأطفالها في مخيمات جليدية، لا يجدون أمناً ولا طعاماً ولا كساء؟! وأين هي نقمة الله تعالى على أعدائه: اليهود والنصارى والرافضة والباطنية والهندوس والمنافقين؟! (١).

(١) وانظر ما سلف من جواب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة، وزبدتها أن حقيقة النصر هي الثبات على الدين حتى الممات، حتى وإن صاحب ذلك بعض متالف الدنيا، وأن أهل الإيمان يُبتلون ثم تكون لهم العافية بإذن الله تعالى.

إنها أسئلة بدأ المنافقون الماديون الذين لا يؤمنون بالله تعالى، وينكرون الغيب، يلقونها بطريقة أو بأخرى ليشككوا الناس في رحمة ربهم، بل في وجوده تبارك وتعالى! داعين إلى تحرير العقول مما يسمونه: خرافات دينية، وأطروحات عاطفية، وأحلام يقظة وردية، تعالى الله عن إفكهم وكفرهم علواً كبيراً.

وهذه الأسئلة ومثيلاها ترد على قلوب ضعاف الإيمان عند كل نازلة تنزل بالمسلمين، ومصيبة تحل بهم، لكن ألسنتهم تعجز عن النطق بها؛ لأن ما في قلوبهم من إيمان - ولو كان ضعيفاً - يحفظ ألسنتهم من نطقها. ونعوذ بالله العزيز الحكيم من أن تلفظها أفواهنا، ونعتصم به تبارك وتعالى من أن ترد على أذهاننا، أو تنكت في قلوبنا؛ لأنها أسئلة مكتوبة على بوابة الإلحاد والزندقة، لا ترد على قلب عبد وينطق بها لسانه إلا ولج البوابة التي من دخلها لا يرجى خروجه منها إلا أن يرحمه الله بتوبة يرزقه إياها، فتصله قبل أن يصل إلى النار. وإلا فكيف ترد هذه الأسئلة ومثيلاها على قلب مؤمن يوحد الله تعالى، ويؤمن بوعده، ويعرف أسماء وصفاته، ويتعلق به؟!!

إن المؤمن المتعلق بربه يوقن أن الله أرحم بنا من أنفسنا، وربنا جل جلاله قد وسع كل شيء رحمة وعلماً، فوسعت رحمته كل شيء، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو تعالى أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه،

وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بالعبد من أوصل له مصالحه ودفع عنه مضاره - ولو بمشقة - ولهذا كان من رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على عباده المؤمنين من القتل والتعذيب والحرق والأسر والحبس والتهجير والجوع والخوف ونحو ذلك من البلايا؛ مما هو مشاهد.

المسلمون في ضعف. وهذا الابتلاء للمسلمين هو من رحمة الله تعالى بهم، وهو من أعظم ما يحقق المصالح الدائمة لأولياء الله تعالى وأحبابه في الدنيا والآخرة، ومن أهم تلك المصالح:

١ - التوبة والإنابة والرجوع إلى الله عز وجل.

كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فما يصيب المسلمين في أقطار كثيرة في هذا العصر من الأذى والقهر والتسلط من قبل أعدائهم؛ ما هو إلا من الابتلاء بالسيئات لعلمهم يراجعون أنفسهم، ويعودون إلى دينهم، ويتعلقون بجناب ربهم تبارك وتعالى.

٢ - استخراج الدعاء.

فلولا هذه المصائب العظيمة التي نزلت بالمسلمين لما سمعت الخطباء في الجمع يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء لإخوانهم المسلمين المنكوبين، وكذلك يفعل أئمة المساجد في قنوت النوازل، ناهيك عن عباد الله وإمامه الضارعين لمولاهم بكشف كرب المستضعفين ونصر المجاهدين.

وهذا من أعظم المصالح التي تحصل بسبب الابتلاءات، وقد بين الله

تعالى أن هذا من مقاصد الابتلاءات التي تحصل للبشر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] فالبأساء والضراء التي أصابت ولا تزال تصيب إخواننا في فلسطين وأفغانستان وكشمير والهند والشيشان والشام واليمن والعراق وغيرها تستخرج التضرع منهم، وتلجئهم إلى التعلق بالله تعالى ودعائه والانطراح بين يديه، بل إن كثيراً من المسلمين الذين يشاهدون عذاب إخوانهم تأثروا بذلك، لجأ كثير منهم إلى الله تعالى، وصاروا يكثرون من الدعاء والتضرع، وهذا مصلحته عظيمة لأهل البلاء خاصة، ولكل الأمة عامة؛ لأن الدعاء من أعظم العبادات التي يحبها الله تعالى.

قال وهب بن منبه - رَحِمَهُ اللهُ -: «ينزل البلاء ليستخرج به الدعاء»^(١) وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: «ما يكره العبد خير له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه»^(٢).

وقد قيل: «مصيبة تقبل بها على الله؛ خير لك من نعمة تُنسيك ذكر الله»^(٣). وقال بعضهم: «يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك»^(٤).

(١) الشكر، لابن أبي الدنيا (١٣٢).

(٢) الفرج بعد الشدة، لابن أبي الدنيا (٢٢).

(٣) تسلية أهل المصائب (٢٢٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧٧/٦).

٣. كشف المنافقين وفضحهم.

فإن الأمور إذا استقامت للمسلمين، واستقر لهم الأمن، ولم يكن ثمة مخاطر تحقيق بهم؛ دخل فيهم من ليس منهم من المنافقين وعباد الدنيا والمصالح الذاتية، ولا يبين حينئذ من هو صادق في إيمانه موقن بإسلامه مهما كانت النتائج، ممن يظهر الإسلام ويقيم بعض شعائره؛ لأنه أمام المسلمين، ولأن ضرورة العيش معهم تقتضي مسايرتهم ومجاملتهم. وقد قال الله تعالى عقب غزوة أحد: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - تعليقاً على هذه الآية: «أي ما كان الله ليذكركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب وشهادة»^(١).

هذا؛ وإن الغلبة والنصر والتمكين للمؤمنين مُبرّمٌ محتوم مهما ضاقت بهم شدائد العاديات، فقد كتب ذلك رب البريات تبارك وتعالى، فقد قال الله تعالى وقوله الحق ووعدُه الصدقُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١) زاد المعاد (٣/٢٢٠).

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «نذكر هنا نكتة نافعة؛ وهي أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للتقوى.. وهو ممن يصدق بالقرآن؛ حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة، والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس، ويعتمد على هذا فيما إذا أدب عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق... والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية؛ بناهما على الجهل بأمر الله ونبيه وبوعده ووعيدة، فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق؛ فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور، وهو على العكس من ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق، وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، وقد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على

المؤمنين ولأهل الفجور على أهل البر، فهذا من جهله بوعده الله تعالى. أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها وبوجوبها، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم، ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين؛ بخلاف من فارقه إلى طاعة أخرى وسبيل آخر^(١).

ولهذا أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم وهو طاعته وهو المقدمة الأولى، وأمرهم بانتظار وعده وهي المقدمة الثانية، وأمرنا بالاستغفار والصبر لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] (٢).

ويؤكد شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ - على أن حصول النصر وغير ذلك من

(١) ففي الأول لم يرَ نقص دينه، وفي الثاني لم يفقه وعده ربه، وكلاهما جهل.

(٢) انظر: النبوات، لشيخ الإسلام (٢٤٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣٢/٣)، ومجموع الفتاوى (١٠٢/١٧)، وشفاء العليل (٢٠٢)، وإغاثة اللهفان (١٧٧/٢) وقاعدة في المحبة، (١٤٠ - ١٩٠)، وعنه نقل ابن القيم في إغاثة اللهفان، (١٧٣/٢ - ١٨٧).

أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى، وذلك أن الخلق كلهم يموتون، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم^(١)، فمن عدّ القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس، بل الفتن التي تكون بين الكفار، وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره، ومن جوع وغيره، وبأسباب خاصة، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل، بل الأمر بالعكس^(٢) كما قد جربه الناس، ثم موت الشهيد من أيسر الميتات^{(٣)(٤)}.



-
- (١) عند الترمذي (١٦٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الشهيد لا يجد ألم القتال إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة». وحسنه الألباني في المشكاة (٣٧٥٩).
- (٢) قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة».
- (٣) قاعدة في المحبة، لابن تيمية، (١٤٩)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان، (١٧٧/٢) وما بعدها.
- (٤) موقف المسلم عند الفتن، مقال لإبراهيم بن محمد الحقييل، مجلة البيان (١٩٥/٢٢) بتصرف يسير.

ثمرات التعلق بالله تعالى

شجرة التعلق بالله تعالى مباركة يانعة مثمرة ثمارًا تغذي القلب بهادة حياته، وتُلدِّدُه بحلاوة زمانه، وتُطِيبُ له عيشَ زمانه، فيزكو القلب ويسعد وينفسح وينشرح، ذلك أن أمداد الإعانة والطفاء التوفيق وأسباب الفلاح كتب الله تعالى أن تنزل بإذنه على القلوب المتعلقة به.

ومن تلك الثمرات التي يحصلها المؤمن جراء تعلق قلبه بربه دون سواه:

١- الثبات عند التقلبات، والرسوخ عند الملمات.

وتأمل موقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موت رسول الله ﷺ، فقد نزلت بالمؤمنين مصيبة عظيمة، وابتلاء شديد، ومن خلالها وبعدها ظهرت شخصية الصديق كقائد للأمة فذ لا نظير له ولا مثيل، فقد أشرق اليقين في قلبه، وتجلّى ذلك في رسوخ الحقائق فيه، وشدة تعلقه بالحي القيوم، فعرف حقيقة العبودية، والنبوة، والموت، فثَبَّتَ وثَبَّتَ الناس بلطف الله تعالى، فأخذ الناس آيات مماته صلى الله عليه وسلم من في الصديق كأنها لم تنزل إلا يوم تلاها على أسماعهم، فساروا في الطرقات يقرؤونها ويتدبرونها. وفي ذلك الموقف العصيب والحدّث الهائل الشديد ظهرت حكمته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانحاز بالناس إلى التوحيد بقوله لهم: «من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(١)، وما زال التوحيد في قلوبهم غصًا طريًا، فما إن سمعوا تذكير الصديق لهم حتى رجعوا إلى الحق، تقول عائشة

(١) البخاري (٣٤٦٧).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها»^(١).

ولما قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] فَقَدَ يَوْسُفَ وَفَقَدَ بَصَرَهُ، فلما قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] أعاد الله له ابنه وبصره، فشأن المتعلق بالله عظيم جدُّ عظيم.

ولما حاول أبو سفيان بث الرعب في قلوب المؤمنين، وأرسل وعيده لهم بعد أحد أنه عائد لاستئصالهم قال سيد المتعلقين برَبِّ العالمين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

فالمتعلق بالله قد آوت نفسه إلى ركن شديد، فلا تزعزعه عظام الخطوب، ولا تقلقله كوارث الزمان، ولئن طارت بالناس الفتنُ مع كل مُطِيرٍ؛ فالمتعلق بالله راسخٌ بيقينه، ثابت بإيمانه، عزيز بربه، شامخ بدين ربِّ العالمين.

٢- أنه خير معين على الدعوة إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. «فسبيل النبي ﷺ ومن قبله الأنبياء واضح لا لبس فيه، قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ

(١) البخاري (١٢٤١، ٢٤٢).

صُحِّي ﴿طه: ٥٩﴾ أي: «ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح»^(١).

«ولا بد من هذا الوضوح والظهور في السبيل الذي يسلكه الأنبياء، فلو كان غامضاً لكان عسير المنال، صعب الاتباع، والرحمن لا يكلف عباده بمثل هذا.

وقال العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً، وأحلّ الحلال، وحرّم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم، وما كان راعي غنم يتبع بها رؤوس الجبال يخبط عليها العضاة بمخبطه، ويمدر حوضها بيده بأنصب ولا أدأب من رسول الله ﷺ كان فيكم»^(٢).

وهو سبيل واحد وصراط فرد، وهو الحق وحده، ولا سبيل إلى الله تعالى غيره، وتحيط به سبل كثيرة، قاطعة عنه، مضطربة معوجة مشوشة، وهو من بينها واضح بين لا اشتباه فيه، مستقيم لا اعوجاج فيه؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٦/٣).

(٢) الدارمي في سننه (٨٣) من حديث عكرمة مرسلاً. وقال الأرنؤوط في تحقيقه جامع العلوم والحكم (١٩٦/١): رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧) عن عارم بن الفضل، عن حماد بن زياد، عن أبي أيوب، عن عكرمة.. وهذا سند رجاله ثقات إلا أنه مرسل.

خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»^(١).

قال ابن القيم في هذا الحديث والآية الواردة فيه: «فوحّد سبيله؛ لأنه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة ومتعددة... والمقصود: أن الطريق إلى الله واحد؛ فإنه الحق المبين. والحق واحد مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى باطل فهو باطل»^(٢).

وقف قليلاً عند الياء في قوله: ﴿سَبِيلِي﴾ فتلاحظ فيها قوة ارتباط المتكلم بها ونسبتها إلى نفسه، وتمسكه بها، وأنه يعيش ويموت من أجلها^(٣)، إنه معنيّ سامٍ تشوق النفوس للتحلي به، والحياة عليه، والموت من أجله، ونسأل الله أن نعيش ونبعث عليه، آمين إله الحق.

(١) رواه أحمد وغيره، وحسنه الألباني في المشكاة (١٠/١٦٦).

(٢) طريق الهجرتين (١٦٨، ١٦٩) وقال في النونية:

فلو اُحِدٌ كُنْ واحداً في واحدٍ أعني سبيل الحق والإيمان

(٣) قال ﷺ وهو ذاهب للحديبية - وتأمل العزم واليقين والثبات النبوي -: «وإن هم أبوا،

فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، وليُنفذن الله أمره...»

الحديث. رواه البخاري (٢٧٣١) كذلك قالها صديقه وخليفته لما ارتدت بعض القبائل

عن الإسلام، لا جرم فهو يقبس من مشكاة النبوة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتلمّح أيضًا من قوله ﴿سَبِيلِي﴾ أنها سبيلي قبل أن تكون سبيل غيري، فمن شاهد هذا المعنى أدرك أنه لا بد من سلوكه هو لهذا السبيل والتزامه به قبل دعوة غيره إليه.

والدعوة إلى الله هي تعبيد الناس له وحده، وهي الغاية العظمى في هذا السبيل، وتدبر أنها إلى الله لا إلى النفس، ولا إلى الحزب، ولا إلى الشيخ الفلاني أو الطريقة الفلانية؛ فهي خالية من حظوظ النفس، ومن حظوظ الخلق؛ فهي دعوة إلى الله تعالى وحده، لا إلى نفوس بشرية، أو مناهج أرضية.

ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ يقول في هذا المقام: «التنبية على الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»^(١) وتبرز في هذه الآية حقيقة الاتباع للسبيل النبوي، فها هي أماننا: أصلها الدعوة إلى الله على بصيرة؛ وهذا يكفي في التأكيد على الاتباع والتأسي؛ لأننا مأمورون بالافتداء بسنة النبي ﷺ، وعطف عليه الاتباع فهم يدعون إلى الله على بصيرة^(٢) كما يفعل النبي ﷺ، نعم هذه حقيقة الاتباع، فلا يكون الرجل من أتباعه حقًا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، ويكفيك شرفًا وثباتًا على المنهج أنك من أتباع النبي ﷺ.

(١) كتاب التوحيد، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

(٢) اختلف المفسرون في عطف: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعْنِي﴾ والراجح كما قال ابن القيم: «والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة، الذين يدعون إلى الله» الصواعق (١/١٥٥) نقلًا عن بدائع التفسير (٢/٤٧٧).

ويقول ابن القيم عمّن التزم هذا المنهج النبوي: «فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء»^(١). وقال أيضاً: «فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة؛ فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى»^(٢). وقال في موضع آخر: «فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسول الله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه. ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو من أتباعه»^(٣).

ويتأكد في هذه الآية تحميل هذا السبيل وهذه الدعوة إلى الله تعالى من يقوم بأعبائها وينصرها ويرفع رايتها، ويتم توارثها جيلاً بعد جيل حتى تقوم الساعة، ولنعمل على تهيئة هؤلاء، ولنعلم أن الله قد تكفل لنا بذلك، فقد ورد في الحديث عن أبي عتبة الخولاني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته»^(٤).

وفي الحديث الآخر عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال

(١) مفتاح دار السعادة (٨٥) نقلاً عن بدائع التفسير (٤٧٧/٢).

(٢) المدارج ٤٨٢/٢ نقلاً عن بدائع التفسير (٤٧٨/٢).

(٣) جلاء الأفهام (٢٤٩) نقلاً عن بدائع التفسير (٤٧٨/٢).

(٤) رواه أحمد (١٧٨٢٢) وابن ماجه (٨) وقال البوصيري: إسناده صحيح. وصححه الألباني.

طائفة من أمتي على الحق منصورين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل»^(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موضحاً توارث هذه الأمانة بين من يحملونها، فقال واصفاً لهم: «أولئك الأَقْلُونَ عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدّوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم»^(٢).

وينبغي التنبيه أنه مع الحرص على إيجاد فئة يحملون هذه الدعوة، فإنه لا عبرة بالقلة والكثرة، أو استجابة الناس وإعراضهم؛ فالقلة ليست دليلاً على الضعف والإخفاق. قال ابن القيم في شرحه للأثر السابق عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا الصنف أقل الخلق عدداً؛ فإنهم قليلون في الناس، والناس على خلاف طريقهم؛ فلمهم نبأ وللناس نبأ. وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون؛ فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً، والناس على خلافهم... وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب»^(٣).

إن الحق لا يعرف بالكثرة؛ وكيف يكون ذلك وقد قال المصطفى ﷺ في

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩) وغيره، وروى من وجوه آخر في الصحاح، وعده بعض العلماء من المتواتر.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٩٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٢٣١) بتصرف.

صفة الغرباء: «أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير، من يعصيههم أكثر ممن يطيعهم»^(١) وحال من يحمل هذه الدعوة هو كمال التقديس والتعظيم والتنزيه لله سبحانه وتعالى، فلا خوف إلا منه، ولا محبة إلا له. بل إن غاية الدعوة هي تنزيه الله وتعظيمه بعبادته وحده لا شريك له.

وفي هذه الكلمة: ﴿وَسَبِّحْ لِلَّهِ﴾ إيماء إلى ضرورة التعلق بالله سبحانه وتعالى فمع هذه الأعباء وهذه التكاليف قد يغفل الداعية عن الاتصال بالله، ويخطئ بأن يبذل وقته للناس وينسى نفسه، فلا يزودها بما يكفل لها الاستمرار والثبات والصبر.

وفي هذه الدعوة تأكيد على الإخلاص، والبراءة من الشرك صغيراً كان أو كبيراً، والبراءة من المشركين، فلا أنا من المشركين في جميع أنواع التوحيد: ألوهية، وربوبية، وأسماء وصفات، وطاعة، وحاكمية، ولا أنا ممن يطيع المشركين أو يواليهم أو يقدمهم على طاعة الله، ولا تقارب مع كل كافر سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو وثنياً أو علمانياً أو مادياً أو غير ذلك؛ كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند هذه الآية: «من أهم مسائل الآية: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم ولو لم يشرك»^(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: ٤]. قال ابن كثير: «أي ولا أعبد عبادتكم، ولا أسلكها ولا

(١) رواه أحمد (٦٦٥٠) والطبراني (٣٦٣/١٣) وغيرهما، وصححه أحمد شاكر، وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٢) كتاب التوحيد، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه»^(١).

ومتى حصل انحراف عن هذه الدعوة مع غير المؤمنين بشتى أصنافهم، فهي ليست دعوة إلى الله، وليست على بصيرة، وفي النهاية: ليست على سبيل المصطفى ﷺ^(٢). ويا بشارة الداعي إلى ربه المخلص على بصيرة!

٣- السعادة والهناء في الدنيا والآخرة.

إن السعادة كلها، والخير بحذافيره، والفلاح بأنحائه في صدق توحيد التعلق بالله تعالى، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا إله إلا هو، تبارك وتعالى. فمن أراد النُّجَحَ فليبدأ من هنا، «قال إبراهيم بن شيبان: من أراد أن يكون معدودًا في الأحرار، مذكورًا في الأبرار؛ فليخلص عبادة ربه.

إنك بدون ذلك التعلق تبقى عبدًا مأسورًا لحاجتك، ذليلاً لمن تمد إليه يدك غير الله، مقهورًا لكل من تخافه غير الله سبحانه وتعالى، أما إذا علقت القلب به، وأخلصت النية له، ووجهت القصد والوقت والجهد في طاعته ومرضاته، فأنت حرُّ الأحرار، وأنت برُّ الأبرار، وأنت الناجي من عذاب النار

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٩٩).

(٢) قل هذه سبيلي، محمد بن عبد الله الزغبى، مجلة البيان (١٢١ / ٨) باختصار وتصرف وزيادات.

بإذنه سبحانه وتعالى.

سئل ذو النون رَحْمَةُ اللَّهِ: فيم يجد العبد الخلاص؟ وكلنا نسأل هذا السؤال كلنا نريد الخلاص كلنا نريد النجاة كلنا نريد السعادة، فقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «الخلاص في الإخلاص»، فإذا أخلص تخلص من كلِّ همٍّ دنياه^(١)، تخلص من كل تسلط أعدائه، وتخلص من كل حاجات نفسه الدنية الدنيوية؛ ليبقى سامياً عالياً مرتقياً على الدنيا وما فيها، وعلى أهل الدنيا جميعاً، فإن قوته وصلته بالله تعطيه من الغنى والاستغناء ما لا يكون أهل الأرض كلهم يوازنون عنده جناح بعوضة، كما قال سيد الخلق ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

ونحن لنا مطامع إذا علقناها بالله وجدنا الخير والسعادة والحرية، وإذا علقناها بأسباب الحياة لم نجد ما يشبع النهمة ويروي الظمأ، ثم كنا أسرى ضعفاء لا نستطيع أن نحقق مرادنا في دنيانا، ونحشى ألا نحقق نجاتنا في آخرانا.

وتأمل أخي المؤمن ماذا تريد من الدنيا؟ وماذا تريد في الآخرة؟ اسأل نفسك، وتلمس الإجابة، فإنك تجدها كلها متعلقة بأمر الله وطاعته، وتعليق القلب به، وربط الحبال بما عنده سبحانه وتعالى. أأست تريد تكثير الحسنات

(١) ويا نفس أخلصي تتخلصي، وقل لمن لا يُخلص: لا تتعب.

(٢) الترمذي (٢٣٢٠) وصححه الألباني.

وتكفير السيئات؟ استمع لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥] ألسنت تريد العلم والفقه والفهم؟ استمع لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ألسنت تريد الفرج والرزق ورغد العيش؟ استمع لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ألسنت تريد الفرج والسرور والسعادة؟ استمع لقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] المعين عذب متدفق فأين الوردون الشاربون؟ والطريق واضح مستقيم فأين السالكون المشمرون؟ تأملوا لنجد أن شقاءنا مغروس في نفوسنا بما أعرضت عن ذكر الله، وبما فرطت من التعلق بالله سبحانه وتعالى، لنجد أن كل ما نحتاج إليه مرتبطٌ بحقيقة التعلق بالله وحده، ألسنت تعرفون أحاديث المصطفى ﷺ؟ ألسنا نحفظ قوله: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»؟ (١)(٢).

قال العلامة محمد المختار الشنقيطي: «والسعادة ليست في الصور والأشكال، السعادة ليست في المناظر وليست في زهرة الحياة الدنيا، السعادة سعادة القلب. والله در الشاعر إذ يقول:

ولست أَر السعادة جمع مالٍ ولكن التقى هو السعيد

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وبمعناه عند أحمد.

(٢) دروس الشيخ علي بادحدح (٩٩ / ٣) بتصرف.

الراحة والطمأنينة والسعادة التي وعد الله بها المؤمن في قلبه وفؤاده، ولذلك تجد الإنسان فقيرًا مدقًا لا طعام عنده ولا شراب ولا كساء، وتقول له: كيف حالك؟! فيقول لك: الحمد لله، في نعمة وفضل من الله، وتجد الرجل طريح الفراش مشلول اليدين مشلول القدمين أعمى أصم، فتخاطبه ويسمعه فتقول له: كيف حالك؟! فيقول لك: الحمد لله.

والله إن أحد الشباب من الأخيار أصيب منذ عهد قريب فأصبح - والعياذ بالله - مشلولًا لا يتحرك، لكن كل من يدخل عليه يعجب من قوة إيمانه وثبات جنانته، ويقول: ما رأينا أشرح صدرًا من ذلك الرجل، ليست السعادة في المناظر، وليست السعادة في هذا الزهرة، السعادة في التعلق بالله تبارك وتعالى، المؤمن له السعادة؛ لأن عنده اليقين الذي يتعلق به بالله عز وجل.

لذلك تجد أغنى الناس أشقى الناس بغناه، تجد له قلبًا هُنا، وقلبًا هناك، وقلبًا مع التجارة، وقلبًا مع السيارة، وقلبًا في العمارة. في همٍ ونكدٍ لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، تجده يركب أحسن وأفره السيارات، ولكن في داخل قلبه من الجحيم والقلق والاضطراب النفسي ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، مع أنه في عز وكرامة ومال وجاه لكن فقد السعادة الحقيقية، فقد الإيمان بالله والصلة والثقة بالله عز وجل.

وأضرب لك مثلًا أوسع من ذلك كله: انظر إلى أغنى الناس تجده أكثر الناس مرضًا، تجده أغنى الناس ولو طلب أي طعام يُلبى له، ولكن عنده مرض السكر، ومرض في الضغط، ومرض في عينه، ومرض في قدمه بسبب

هذه الأموال والهـم الذي أصابه من هذه الأموال، ومع ذلك لا يستطيع أن يأكل إلا طعاماً معيناً، ولا يشرب إلا بطريقة معينة؛ لأنه حرّم السعادة الأبدية، ولذلك قد تجد الإنسان فقيراً مدقّعا، وحوله أبناؤه، لطف الله به من حيث لا يشعر.

هـب يا أخي الكريم: أن الله أعطاك الأموال فعظمت تجارتك، وكثرت أموالك، وأصبح عندك في كل وادٍ تجارة، وفي كل مدينة تجارة، يتشتت قلبك، ويتشتت ذهنك، حتى إن أبناءك يتشتتون بهذه الأموال التي لك، يوماً يسافر ويوماً يغادر ويوماً في مكان كذا ويوماً في مكان آخر، ولا يمكن أن يتمتع الغني، سله متى يتمتع بأبنائه؟ ربما يمر عليه العام الكامل لا يرى ابنه أو ربما يراه يوماً أو يومين، ومع ذلك يظن أنه في سعادة، أي سعادة هذه؟ المال الذي يظن الإنسان أنه سعادة قد يكون سبباً في تدمير حياته كلها، فإنّ قارون أشقاه الله بهاله.

ولذلك ذكر لي الوالد رَحِمَهُ اللهُ قصّةً عجيبة، يقول: قامت الحرب العالمية فجئت ذات يوم والطعام قد أصبح شغل الناس، حتى إنه بيع بيت في ساحة المدينة بكيس أرز، نسأل الله ألا يتلينا بمثل تلك الأيام.

الشاهد على هذه العبرة العظيمة يقول تاجر: دخلت عليه عند قيام الحرب - وكان قد اشترى سفينة من الأرز - فجاءه الخبر أن الأرز قد ارتفع وأنه غلي سعره في السوق، فمن شدة صدمة الفرح خر ميتاً من فوق كرسيه، ثم مرت الأيام تلو الأيام واحتجت أن أشتري أرزاً عند انتهاء الحرب، فوقفت على

تاجر أيضًا قد اشترى سفينة من الأرز وجاءه الخبر أن السوق قد كسد، فسقط ميتًا من ساعته، فسبحان الله! أحدهم عند غلاء السوق والثاني عند كساده، ما نفعت الأموال ولا نفعت التجارات، الأموال والتجارات إذا لم تقرب من الله عز وجل فلا خير فيها.

إن أيام البلى التي تكثر فيها التضرع لله عز وجل إذا كشفت كرباتها تتمنى أن تعود لك تلك الأيام التي كنت تناجي فيها الله عز وجل من حلاوة المناجاة وحلاوة مناداة الله عز وجل، هذا كله هو السعادة الحقيقية، فالبلاء الذي يصيب المؤمن يصيبه في الظاهر، أما الباطن فلا يصيبه؛ لأن قلبه مع الله ويقينه بالله^(١). والله المستعان.

٤- إحسان التعلق بالله تعالى.

من ثمرات التعلق إحسان التعلق، وهذه عجيبة فإذا استغرق القلب في تعلقه بخالقه وإلهه ازداد تعلقًا به، فكل تعلق مفض لتعلق آخر، ومُعَدُّ له، وسائق له وحادٍ، حتى يستغرق القلب في توحيد تعلقه بإلهه وتعظيمه وإجلاله والفرح به والافتقار إليه والغنى به والاكتفاء - كل الاكتفاء - به عما سواه، والحسنة تنادي أختها، والإيمان يزيد بالإيمان والعمل الصالح، والدرجة تُقَرَّب مما يليها علوًا، والبر يهدي إلى الجنة.

ولا يزال المتعلق بربه يسير في مدارج التعلق، ويمدّ حباله، ويشتدّ

(١) دروس الشيخ محمد المختار الشنقيطي (١٣ / ٤٩) بتصرف يسير.

بأسبابه، وينسج قلائده حتى يتم له إحسان التعلق، وهناك تنزل عليه ألطاف الملك العلام، وتنهمر على فؤاده المنح والفوائد ولذات القلوب والأرواح، فيسير في وادٍ والناس في وادٍ، وله مع الآخرة شأنٌ والناس مع دنياهم في شأنٍ، فهو لله وبالله ومع الله، قد حقق العبودية، وجرّد التوحيد، وأفرد التعلّق، فلعمُرُ إلهي هو الفائز حقًّا، والمفلح صدقًا، عزَّ بعزِّ إلهه، وقويَّ بقوة مولاه، واغتنى بغنى سيّده، واهتدى بهدى ربّه، ونال خير الدنيا والآخرة بسعة فضل رب العالمين وأكرم الأكرمين ورحمة أرحم الراحمين، نسأل الله الكريم من مواهبه وكرمه وأفضاله، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

٥ - العزة بالله تعالى، والأنفة من الذل لمخلوق.

فالجل المتين القريب الذي لا ينقطع هو جبل الله تعالى وحده، وبضده جبل المخلوق مهما علا شأنه وتوثّقت وسائله وظهرت لدى الأكمه قواه. ذلك أنّ من أحسن التعلق بالله تعالى انجلت عن بصيرته حجب الآخرة فكأنه يراها رأي عين، وانكشفت لعيني قلبه عورة الدنيا وغرورها وفنائها فصار أزهّد الناس فيها، وأرغبهم فيما يليها من النعيم المقيم في جوار الكريم الجميل الجليل، قد وضع الدنيا حيث وضعها الله، وأعلى في قلبه الآخرة كما هداه إليها مولاه.

فليس في قلبه بعد ذلك مكانٌ ذلّة لمخلوق مهما علت ناصية رئاسته، وامتدّ في البريّة كعبُ سلطانه، وتعاضم بين الفانين جبروته، ذلك ليقينه أنّ

ناصيته بيد ملك الملوك، ومن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماوات، ومن بيده مقاليد الأمور، وتصاريق الأقدار، وتدبير الأشياء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فهو موقن غير مرتاب أن الخلق بيد الخالق، إن شاء أن يسلطهم سلطهم، أو شاء أن يحبسهم ويكفهم حسبهم وكفهم، إنما هم مجرد ذرات غبار فانية في كون الله الواسع، وخلقه الشاسع، لا يعدون أن يكونوا أسباباً مجردة عن أي تدبير مع الخلاق العظيم، إن شاء المسبب تبارك وتعالى أمضاها أو ردّها أو حتى قلبها، له الأمر كله، ويده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا الله العلي العظيم.

فالمعلق لا يخشى مخلوقاً مع الخالق، إنما يخشى أن يؤتى من قبل نفسه الأمانة ومعصيته المزيّنة، فقلبه متعلق بالله وحده، راجٍ خيره، محسن ظنه بكرمه ورحمته، منطرح بين يديه، يسأله الإعانة والهدى والثبات، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، فمثل هذا ليس عليه ضيعة، فالعليّ تبارك وتعالى لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.

حج هشام بن عبد الملك، فلما كان في الطواف رأى سالم بن عبد الله وهو يطوف وحذاؤه في يديه، وعليه ثياب لا تساوي ثلاثة عشر درهماً، فقال له هشام: «يا سالم، أتريد حاجة أقضيها لك؟» قال سالم: «أما تستحي من الله، تعرض عليّ الحوائج وأنا في بيت من لا يُعوّزُ إلى غيره؟!» فسكت هشام، فلما خرجا من الحرم قال له: «هل تريد شيئاً؟» قال سالم: «أمن حوائج الدنيا أو

الآخرة؟» فقال: «من حوائج الدنيا». فقال سالم: «والله الذي لا إله إلا هو ما سألت حوائج الدنيا من الذي يملكها تبارك وتعالى، فكيف أسألكها منك؟!».

٦ - التوفيق الملازم للمتعلق بربه تعالى.

قال الله سبحانه في شأن المتعلق به دون سواه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] بلى وعزة ربنا. فعلى قدر التعلق يكون التوفيق والفلاح في الدارين، وكان رسول الهدى ﷺ يربي أمته على ذلك، كما في حديث ابن عباس المشهور أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام إني مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احفظِ اللهَ يحفظُكَ، احفظِ اللهَ تجدهُ تُجَاهَكَ، وإذا سألتَ فلتسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

فتأمل ربط التوفيق بحذايره من حفظ وإغناء ومعية بالتعلق التام بالله تعالى والسير وفق مراده سبحانه، وهذا الحديث يجمع التوحيد في القلب من أطرافه، حريٌّ بكل والدٍ ومُربٍّ وحادٍ تربية الأفتدة عليه، وتوجيه القلوب إليه، وتصحيح العقائد به، وبالله التوفيق.

٧ - انشراح الصدر وانفساحه بالأنس بالله تعالى.

المؤمن مُفَتَّنٌ تَوَّابٌ، ومن عرف قدر الآخرة هانت عليه نفسه وزالت عن

(١) أحمد (٢٣٣/٤) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

عينة غشاوة فتنه الدنيا، وعمر قلبه بحبّ الله تعالى، والأنس به، والشوق إليه والدار الآخرة.

ذلك أن محبة الله تعالى والتعلق به إذا استحكما في القلب هانت عليه الدنيا وتصاريفها، ولم يعبأ بحلوها ومرّها، لأن قلبه قد استضاء بنور الإيمان، وأشرق بشمس الإحسان، والتذّ بحلاوة القرآن، ورغب في مزيد من ثمرات الرضوان. أما من لم يتعلق بالله تعالى فهو في أودية العذاب والهوان، يتقلب في حسرات الحرمان، حتى وإن كان في عزّ سلطته، واستتمام ملكه، وعنفوان صحته، ووفير ماله، وكثير متاعه فيما يرى المغرورون!

وإنه لتمرّ بي ساعات أتذكّر فيها الراحلين عني للآخرة من معارفي، فيترأى لي أحياناً أنّ معارفي الأموات أكثر من الأحياء، لكثرة سوادهم في الذاكرة، وازدحامهم بين حنايا الضلوع، وربما أنه وهمٌ أسقطه حنين الذكرى على صفحة القلب الحزين!

وبكل حال؛ فالدنيا بأسرها ممرّ لدار المستقرّ عند من لا تضيع عنده الودائع، ولا يخيب من علق به صدق الرجاء، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، تبارك وتعالى.

فلا أصدق من محتضر، ولا أنصح من مودّع، وبين يديك رسالة محزون راحل، بث فيها شجنه، وكشف سرّه، وصدق نصحه، وبكى حاله كيما يكون لمن بعده منبهاً محذراً موقظاً، وأنفس الهدايا ما حوته الحنايا.

فلقد حدثني أحد من أثق بصدقهم في بثّ شجونٍ له بعد توبته. وقد توفاه

الله تعالى إليه من نحو عقدين، أسأل الله أن يقبل توبته وأن يغفر له ويرحمه ويرضى عني وعنه وعنك وقد أخذت المعاني منه وصُغْتُها لك - وكان من عُلَّالَاتِ شَجْنِهِ قَوْلُهُ الْمُؤَثِّرُ الْبَاكِي وَالنَّاصِحُ الْحَادِبُ:

حدثتك ليعلم من تكتب لهم أَنَّ الدنيا سراب بقيعة! وأن لذاتها طيفُ خيال مرَّ على القلب ولم يلجَّه، وبرقٌ خُلِبَ شامُهُ مغرورٌ فخدعه، وأحلامٌ منامٍ استيقظ منها مخدوع بها بعد معاينة رُسُلِ الآخرة. ولولا حرصي على استفادة من يقرأها ما فهتُ لك بها حرفاً، لعلمي أنها مجاهرة لك بعصيان، وإن كان قد نما لك بعض أنباء فعَلَاتِي، والأعمال بالنيات، وحسبي أني تبتُّ منها لربي، وأرجو أن تكون نصوحاً مُتَقَبِّلَةً، وأحمده على توفيقِي لتوبتي قبل رحيلي للقاءه، سائله السِّرَ والغفرانَ لما مضى، والحفظ فيما أَسْتَقْبِلُ، وحسن الختام. فلعل المطلع على خبري أن يستغفر لي، وأن يعتبر بحالي، وألا تغرّه نفسه بالله الكريم المنان، فالسعيد من وُعِظَ بغيره، والشقي من وعظته بعد الفوت نفسه.

وإني حينما أتذكر ذلك الزمان الموحش؛ أحسُّ كأنني كنت أعيشُ في حلمٍ داخل حلم وأنا مستيقظٌ منتبه، من شدّة الحيرة التي كانت تعتريني، والفراغ الذي كان يحتويني، والقلق الذي أزرى بما أَمَلْتُه من طيب عيشي، كتب الله ضنك المعيشة على من خالف أمره، مهما استطالت بأوهامه الأمانِي، واستطارت بأحلامه الآمال، سُنَّةُ الله!

قال رحمه الله تعالى: لقد منَّ الله تعالى علي بصحة بدنٍ، ووفرة مالٍ، وظرافة أخذانٍ، وحدّة ذهنٍ، وبسطة جسمٍ، ووسامة وجهٍ، وجمال قوامٍ، وحسن صوتٍ،

ورقة طبع، وعدوبة منطق، ورَوَاءِ كلام، وبشاشة معشر، ومضاء عزم، وانبساط أجل.. في نعم لا أحصيها، فلم أشكر نعمته السالفة فيما مضى لي من سنين، فلقد. وأقولها لتقرَّع قلب مبتدئ المشوار حتى لا يضيع كضياعي، ويفجأه أجله كأصحابي، كيما يحذر آخرته، ويتنبه من غفلته، ويستيقظ من رقدته، فلا يبتدئ من حيث ابتدأوا فينتهي كما انتهوا، فيا خيبة المُعترِّين، ويا طول أمل الغافلين، كأن لم يعلموا أن رحيلهم للجبار قد أزف، وزادهم ليس للآخرة بزادٍ صالح، فيا ويح من لم يرض ربه في دار العمل!

أقول: لقد سكنت الفاره من القصور، ومشيت في الغريب العجيب من الديار في أركان الأرض الأربعة، وشاهدت من البلدان من لم يشاهده غيري إلا القليل من الناس، وركبت متن الهواء، وغصت بطن البحار، وقطعت الفيا في المروج والثلوج والسفوح والوهاد والقفار صيداً ونزهة واكتشافاً وانتجاعاً، وسبحت في عرض الأنهار والبرك والبحار، وترأستُ الناس وسُدْتُهم، وصار لي جاه بينهم، واسترسلت مع نفسي في كل ما هويته، فوطئت من النساء بالحلال والحرام ما يزيد على الخمسين ولا أبعد إن قلت: المئة! وشربتُ من الخمر فاخرها ونادرها وجديدها ومُعَتَّقها بأنواعها. وسَمَى خموراً. وعببتُ منها عبّ العطشان بل الشيطان الذي لا يرتوي من آخر شربة! وشربت حتى غبت عن وعيي مراراً، وتقياؤه مراراً، وفعلت في سُكري ما لا يفعله سوى المجانين، ولا عجب فالسكر جنون باختيار.

ولم أقف عند هذا المجنون الخالغ، إذ لم أجِد ما أبحث عنه من هناء وسعادة

بقضاء وطر النفس الأمارة، فأكلت المخدرات والمفترتات وشربتها، من الدخان للهريوين والكوكايين، مرورًا بالحشيش والأفيون والكبتاجون وغيرها، وحشرت عقلي في ركنٍ صغيرٍ من دماغي، حتى تجشأ قلبي لذائذه المُرعة بالجنون، ولَسَعَاتُ عقارب الشيطان لا تبرح عن ذلك القلب المُضْنَى بالخطايا، تحاول إطفاء آخر قَبَسٍ من نور الهُدَى بين أشلاء فؤاده المَعْنَى في ظلامه، المتشحط في بلائه، ثم كان ماذا؟!

لقد عدتُ بالخيبة والتَّباب! فقد رجعت من أقصى حدِّ شهوات العالمين خائبًا حسيرًا، فَوَعَزَةً ربي لم ألتذ بشيء من ذلك لذةً حقيقية، فمع تلبس الجسد لتلك الشهوة طلبًا للمتعة؛ إلا أنه كمن يلبس قميصًا ليس له، أو قُلْ سِرْبَالًا من قَطْرَانٍ مغليٍّ! ويأكل طعامًا بلا طعم ولا لون ولا رائحة، أو قُلْ طعامًا بشعًا مسمومًا لا تُسيغه حتى الحشرات! وأقرب ما يكون لتلك اللذة المتوهَّمة الأحلام، ولا أدري كيف استزلني وهُمُّ (الدوبامين) الغبي مع علمي بعظَمَةِ من عصيت! فاللهم رحمةً وغُفْرًا.

وهذا كله مع وجود أشياء أُشَبَّهها بحسَكَةٍ في صدري على الدوام، ودبَّوسٍ في قلبي لا يزول، ووتدٍ في فؤادي لا يحول، ومسمارٍ مُحمى في عيني، وشَوْكٍ مُشتبكٍ في روحي، فلا أهنأ بليل، ولا أسعد بنهار، فلا ليلي ليل السعداء، ولا نهاري نهارهم، ولا نومي ويقظتي، وظَعْنِي وإقامتي، وخُلطَتي وانعزالي كسائر أهل السرور والراحة والسكينة، كأننا قُرْنُ بي شيطان يُعَذِّبُ في جهنم، أسمع صراخه اليائس في أذني، وأنفاسه الحرَّى في وجهي، ورائحة

جسده المحترق في أنفي، وروحه البائسة تصيحُ بي، فكيف الهناء مع هذا
الرحيم، عياداً بالله الرحمن الرحيم؟!

إذا الحياة لغير الله وجهتها فطولها في صميم الأمر نُقصان
فدربها ضيعة تُفضي لمهلكة وزادها علقم سُم لمن خائوا
فعرش إذا شئت أو فلتمت كمدًا فالموت والعيش بعد اليوم سيان!

وكلما صرخت بي نفسي ضيقًا، وصاح بي رُشدي نصحاء، وصوت عقلي بي
خوفًا وحدبًا وإشفاقًا وحُبًّا؛ ألويتُ عن ناصحهم الأمين إلى تزيين القرين
الرجيم، فبحثتُ لاهثًا عَجلاً عن لذة جديدة، فألحقت جديد الهوى بالتلديد،
وداويتها بدائها، وزدتُ جرعة المعصية كمًّا وكيفًا، والعجب أنه كلما ازدادت
وُغولاً فيها وانغماسًا في وُحولها ازدادت تعاستي وكآبتي وشقائي وضيق
صدري، كالعطشان الذي يشرب البحر فيزداد عطشًا، وكالمستغيث من
الرمضاء بالنار، وبين يديه واحة باردة لو كان يعقل!

ولربما ضحكتُ حينها بملء شِدقي، وقهقهت من أقصى لهاقي حتى أذرف
الدمع وأسقط على ظهري، والله يعلم أنني أبكي من داخلي بدموع يذرفها
الفؤاد المكلوم بخزي الخطيئة! ولقلبي بين حنايا الأضلاع عويلٌ يبزُّ نواح
الشكالي وبكاء الأيتام! فصرتُ كالمهرول عن سروره، والمدبر مسرعًا عن
هنائه، والمعرض عن أسباب فلاحه، وكلما هجم بي خاطر التوبة حاصرته
الأماني والتسويق والوعود حتى تصرّم كثير من جيلي، ومات أعزّاء من
لِداتي، وغزت أمداد المشيب رأسي، فجللت بالبياض ناصيتي وفؤدي، وقد

رأيت كثيرَهم صرعى بلا توبة مع تحدُّثهم بأمنيتهم لها وقت العافية، فأيقنت ألا مفر من الله إلا إليه، ولا مهرب منه إلا له، وأنه لم يَعِدني بامهالٍ دائمٍ، فلربما فَجَأَنِي الحق من لدنه، وعاجلني هاذم اللذات من قبْله، فسلب رُوحِي قبل التوبة، وزارني ملك الموت قبل الأوبة، فرحلت لربي ثَقِيل الحوبة! ويارب هل إلا إليك متابي.

بعدها: أيقنت أن اللذة ليست كالسعادة، فالسعادة نعيم القلب، وهناء الروح، وراحة الصدر، ومجّمة الفؤاد، أما اللذة فعارضٌ سريع الزوال، وظلٌّ عجل الأفول، ثم إن مأوى اللذة ومحلها هو ذِيَاك الجسد الفاني لا الروح التي لا قوام لها إلا بالسعادة، فالسعادة فرح وسرور وسكينة روحية عقلية، أما اللذة فشعور جسدي سريع بالنشوة عما قريب يزول، ولربما انقلب بؤساً وتعاسة، وبخاصة إن كان في غير مرضاة الله تعالى، فلا سعادة إلا مع الإيمان، وواها لمن جمعهما، وهل هذا إلا في الجنة على الكمال، ولكن الكريم الرحيم قد لطف بعباده، وتكرّم على أوليائه، فأورد قلوبهم أشياء من رقائق الآخرة، وألطف الجنة، وسرور المعاد، كيما يبقوا على العهد ثابتين، وباليقين عن مراقد الغفلات مُبارحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لقد أنعم الله علي بطوق نجاتي، وهي التوبة، أسأل الله التواب أن تكون نصوحًا، وأن يوفقني للباقيات الصالحات، وأن يُسبِل علي رحمته ومغفرته ورضوانه، ولقد وجدت - والذي نفسي بيده - سعادتي، وانشراح صدري، وهناء عيشي، وقرة عيني، وراحة فؤادي، وأمن نفسي، وسكينة بالي في طاعة

الله تعالى، والبعد عن معصيته.

وإن رُمتَ أجمل لحظة في حياتي فهي أن أرفع يدي لله العليّ، أو أسجد له وأنا تائب له منكسر مفتقر، متكىء على منسأة الضراعة نادماً وبالذنب مُقرّ، جاثٍ بين يديه، خاشعٌ لجنابه، خاضعٌ لعظمته، منتظرٌ جوّده وكرمّه وإحسانه وعفوه ومغفرته ورحمته وهباته، مستندٌ على جدار حسنٍ ظني به، فهو عند ظن عبده به، خائف مشفق وجِلّ راهبٌ منه، هاربٌ منه إليه، لا أعلم أني في حال سجودي ذلك مصرٌّ على معصية، أو مُتنكّبٌ عن واجب أطيعه، فلا تسل - يا صاحبي - عن سعادتي حينها، فوالله لو جمعت لي متع الدنيا ما ساوت بجانب حلاوة الإيمان ولذة الطاعة وراحة الهداية وسعادة الاستقامة قُلامه ظفر! فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وكريم نواله وسابغ نعمائه.

لهفي على عمرٍ تقضى غافلاً وتركتُ للنفس السفهية غاربي
يا صاحبي إن جُزتَ قبري هائماً فانصحْ لنفسك واعتبر بتجاربي

وبعد؛ فأحمدُ الله تعالى إليك - أيها القارئ الكريم - أن مدّ في أجلك حتى اليوم، ومتّعك بعمرِكَ حتى الساعة، حتى تتأمل حال أولئك ممن كانوا ملءَ بصرِ الدنيا وسمعها، فظعنوا عنها للآخرة، كيف حالهم؟!

وتفكر الآن في حال أحدٍ من كنت تعرفهم، وتحبهم، وتعاشرهم، ممن رحلوا لربهم. تأمل حاله وقد أكل الثرى عظامه، وقطّعت الأرض أوصاله، وفرّق توالي الزمان نظامه، وأذهبت الليالي نضارته وغضاضته وجماله، وأبقى

كُرُّ الجديدين بين الناس ذكره وأحواله، فسبحان الحي القيوم الذي لا يموت،
والجن والإنس يموتون، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم.



نماذج وأمثلة من سادة المتعلقين بالحي القيوم سبحانه

سيد المتعلقين بالله هو نبيه ورسوله محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وكل حياته بإطلاق حتى لحوقه بالرفيق الأعلى هي صور ونماذج صالحة حسنة جميلة كاملة لتمام التعلق بالله تعالى دون سواه، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

وتأمل سيرته العطرة الزكية، التي يفوح من أردانها أطيب عبق، ويضوع من تذكارها أطيب أريج، وينطبع على خياشيم القلب من تقليبها أنفح مسك، فهو الأنموذج الكامل والجادّة الهادية والصراط المستقيم لمن رام حقيقة التعلق بالله تعالى. لا جرم؛ فهو مصطفى رب العالمين.

وتأمل ملياً حاله الزاكي حين فجأه الوحي وهو في الغار، وقد كان هو المسلم الوحيد على الأرض - مع بقايا موحدين - فحمل العبء الثقيل والمهمة الجسيمة لوحده متعلقاً بربه سبحانه، ثم دعا الناس شيئاً فشيئاً معلقاً قلوبهم بربهم، وقد تحمّل في ذات الله ما لا يطيقه إلا من كمل تعلقه بالله تعالى، وكلما ازداد كيد الكافرين ازدان سموّاً ورفعة ونقاء وإشراقاً وتعلقاً بربه الأجل، فكان التوفيق في معيته، لا يفارقه أينما حل وارتحل، فالله لا يخيب رجاء من تعلق به، كيف والمتعلق هو أحب خلائقه إليه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ومن ذلك ليلة الغار، فحينما هجم المشركون على جبل ثور يحثون الخطأ

ويرقلون الأقدام في البحث الدقيق عنه وعن صاحبه، وقد وضعوا دية كل منهما - أو تزيد - مكافأة لمن يدل عليهما، وأوشكوا على رؤيتهما والفتك بهما؛ هناك تجلّى التعلق النبوي بمن بيده مقاليد السماوات والأرض، وتصاريف الأمور، ونهايات الأشياء، وقد خلّد الله تعالى هذا التعلق والتوحيد في محكم التنزيل فقال: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

«يقول تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: عام الهجرة، لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام حتى يرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ومن بعد ذلك يكون المسير المبارك والهجرة الطيبة نحو طيبة.

فجعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجزع أن يطّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!» كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا

بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(١).

وفي بدر نام صحابته الأكارم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، إلا هو عليه الصلاة والسلام فقد بات تلك الليلة يصلي إلى جذع شجرة، ويكثر في سجوده أن يقول: «يا حيُّ يا قيوم» يكرر ذلك ﷺ ويسأل الله النصر^(٢)، وحين رأى رسول الله جند قريش قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك، وتكذّب رسولك، اللهم أخرجهم العداة»^(٣).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمئة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً». قال عمر بن الخطاب: فما زال يستغيث ربّه ويدعوه، حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه، ثمّ التزمه من ورائه، ثمّ قال: يا نبي الله، كفّاك مناشدتك ربك، فإنّه منجز لك ما وعدك»^{(٤)(٥)}.

(١) المسند (٤/١) والبخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) البداية والنهاية (٨٢/٥).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١٦٨/٣).

(٤) أخرجه أحمد (٣١.٣٠/١) (٢٠٨) وقال أحمد شاكر: سنده صحيح، ورواه مسلم

(١٧٦٣)، وأصله في البخاري، وانظر جامع الأصول (١٨٣/٨).

(٥) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (٦٧ / ٤٥١) بتصرف يسير.

وقد يظن من لا فقه له أن رسول الله قصر في هذا المقام عن الصديق الذي يثبته ويذكره، وهذا باطل، فرسول الله ﷺ قد وفى هنا مقامات العبودية كلها، فكان واثقاً بوعده الله ونصره وتمكينه، وكذلك لا هجاً بالدعاء والابتهاال والضراعة والمسكنة والافتقار إلى الله تعالى، وصدق اللجأ إليه، وتكرار الاستغاثة به إلحاحاً مُحبِّباً للرب العظيم الرحيم الكريم، فلا تعارض بين الحالين بل الكمال في اجتماعهما، وقد ظهر الحال الأول في الصديق، أما رسول الله ﷺ فقد ظهر فيه الأمران بكمال الظهور والوضوح والكمال والجمال على التمام، فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا العبد الرسول.

«وقد وصف الله سبحانه حال رسوله العظيم وصحابته الكرام في غزوة بدر بأنهم كثيرون الاستغاثة به، ومكثري رجائه ودعائه فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأين نحن من الاقتداء برسول الله وصحابته بالدعاء للمجاهدين بالنصر، وخذلان عدوهم؟!»

وعليه؛ فإنَّ مما نستفيده من ذلك أنَّه في حالة نشوب الحرب، وقيام المعركة، واضطرار القتال؛ أن نرفع أكف الضراعة والاستغاثة بالله، حتى يستجيب سبحانه لنا فيقهر عدونا، ويخذل محاربنا، ويمدنا بمددٍ من عنده كما أمد رسول الله وصحابته بجند من عنده من الملائكة المرسلين حين دعوه في غزوة بدر، فانخلعت قلوب الكافرين، وفروا خاسرين، وتم بفضلته تعالى النصر المبين.

لهذا كان الدعاء في الغزو مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع المجاهدين في أرض المعركة، وقد بَوَّبَ الإمام الترمذي في جامعه: (باب في الدعاء إذا غزا) وأورد تحته ما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عِزِّي، وَأَنْتَ نَصِيرِي، وَبِكَ أَقَاتِلُ»^(١).

وهنا وقفة لابد منها؛ وهي أنه حين تدك بلاد الإسلام بالراجمات، وتقذف بالقنابل، يهرع الكثير من المسلمين إلى شاشات التلفاز، ليروا أثر المعركة، ويستمعوا الأخبار، حتى يعلموا ماذا حلَّ في تلك البلاد.

وهذا الأمر وإن كان هاماً؛ لأنَّ فيه الاهتمام بأخبار المسلمين، إلا أنَّ المداومة على ذلك، لا يفيد إلا كثرة الهم والغم والحزن، والذي لا ينفع ولا يصنع شيئاً، والرأي الوجيه لمن قعد عن الجهاد للظروف المحيطة به، أن يوظف ذلك الحدث توظيفاً إيجابياً، ومن أولى الأمور اللجوء إلى محراب العبودية، والانكسار بين يدي ربِّ البرية، والتضرع والبكاء والقنوت والابتهاال، ورجاء ودعاء رب الأرباب ومسبب الأسباب أن يكف شرَّ الكافرين، وأن ينصر عباده المجاهدين، وأن يخذل المنافقين وعملاء الكافرين.

تلك والله سمة المؤمن، وشيعة الموحّد، وهو أكبر دليل على صدق ما في قلبه من الحب لإخوانه المؤمنين، وحمل همّهم، ويؤكد على من حضر المعركة الإلحاح في دعاء الله بالنصر والتمكين للمؤمنين، فللدعاء في ذلك الحال

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٨٤) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٣٦).

خاصية عجيبة في الاستجابة والقرب من الحي القيوم سبحانه، فقد قال النبي ﷺ: «ثنتان لا تردان أو قلما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يُلحِمُ بعضهم بعضاً» أي: حين تشتبك الحرب بينهم^(١).

ولقد عاب الله أقواماً نزلت بهم المصائب والبأساء، فأعرضوا عن ربهم، ولم يدعوه لكشف ضرهم، فلم يرفع عنهم تلك النازلة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَأَلْصَقْنَا لَعْنَهُمْ فَمِنْهُمْ مَّنْضَرَعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣] أي: فلو أنهم ضرعوا إلى الله، واستغاثوا به، ولجأوا إليه، وتابوا؛ لرفع الله عنهم البأساء، وأنزل عليهم العافية، ولكنهم نسوه فنسيهم، وخذلهم، وقطع عنهم مادة التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فصار المصير إلى أن نعلم علم اليقين، أن من أوجب الواجبات في زمن الكوارث والملمات؛ رفع اليدين بالدعاء لله رب العالمين، فلعل ذلك الدعاء من أكف بيضاء نقية، وقلوب صادقة وفيّة، وأعين باكية تقيّة؛ تخفف من تلك المآسي التي أقلقّت المسلمين وأقصّت مضاجعهم، وقد علّمنا رسول

(١) أخرجه أبو داود، وقال الحافظ في التتائج (٣٧٨/١): حديث حسن صحيح، وصححه النووي في الأذكار (٢٦٧.٥٧) وقال الألباني في (الكلم الطيب): حسن صحيح (٧٦).

الله ﷻ أَنَّهُ «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدَّعَاءُ»^(١) وأخبرنا بأنَّه «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما قد نزل وما لم ينزل، وإنَّ البلاء ينزل فيتلقيه الدعاء، فيعتلجان»^(٢) إلى يوم القيامة»^(٣).

ولهذا كان الدعاء من أسباب النصر على الأعداء، وخاصَّة إذا كان ذلك من عباد الله الضعفاء، وقد دلَّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ: «إنَّها ينصر الله هذه الأُمَّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»^(٤).

فأين نحن يا أخوا الإسلام عن ذلك السلاح العظيم، والحِرْز القويم، والكنز المغني والمنجي لنا بإذن الله تعالى من بطش الأعداء؟! وأين الإلحاح على الله بأن يكشف الضر عن المسلمين؟! وأين الانطراح بين يديه؟! وأين التوجه إليه والتعلُّق به؟!

وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرَّجاً

(١) أخرجه الترمذي (١٣٩)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٨٧).

(٢) الاعتلاج: الاقتال والاصطراع والتدافع، والأقرب لسياق الحديث أنه التدافع، والله أعلم.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨١٣) زاد الحاكم بسند لا بأس به: «فعليكم عباد الله بالدعاء».

(٤) أخرجه النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٧٨). وانظر مقال: سلاح غفل عنه الكثير في نصرته المجاهدين. لخباب الحمد على موقع صيد الفوائد.

وربّ فتى ضاقت عليه همومُه أصاب له في دعوة الله مخرجًا
ومن تدبّر سير أنبياء الله ورسله انتهى إلى سر توفيقهم؛ وهو توحيد
التعلق بالله تعالى، فأحسان العبودية هو بإحسان التعلق، وعلى قدر التعلق
بالله يكون تحقيق التوحيد.

فنوح عليه السلام أعرض عن أسباب أهل الأرض والتوى بحبل الله
وتعلق به؛ فكان الفوز والظفر والتمكين في الدارين له، ولما ضاقت فجاج
الأرض وأسراها وأطباق السماء وهوائها عن منفذ لمشرك وكافر حين غطت
أمواج البحار رؤوس الجبال وصبت السماء بسيولها ودرت بأمواجها جعل الله
للمتقين المتعلقين منها فرجًا ومخرجًا ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وحينما تعلق هود عليه السلام بربه واستغاثه من كربته نصره الله بريح
اجتاحت أعداءه حتى اجتالت حياتهم وسحقت هامهم.

وثمود حين أرادوا بصالح عليه السلام شرًا نصره بصيحة جبرائيل
﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِ﴾ [القمر: ٣١] فبعدما كانوا سادة جبارين أضحوا كزرع
يابس داسته البهائم في حظائرهما! والله الأمر من قبل ومن بعد، وهنيئًا وبشارة
لمن كانوا بربهم متعلقين.

ومن سادة المتوكلين شعيب خطيب الأنبياء عليه السلام فحينما رتعت
نفوس المشركين في حمأة الشرك وضلال الوثنية؛ صاح بهم ليتعلقوا بالله تعالى
وحده دون سواه، وأطال خطابهم وحجاجهم لعلهم يهتدون، وبربهم دون
غيره يتعلقون، وكان مما قاله لهم - وتأمل الصدق والنصح والرفق والحرارة
ورسوخ التعلق بالله تعالى -: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: ٨٨] وقال: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] فكان التمكين والنصر والظفر والغلبة له ولمن تبعه بإحسان، والتباب والخسار والعطب والهلاك لأعدائه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [١١] الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَأَنَّهُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿[الأعراف: ٩١ - ٩٢]. وفي هذا مُعْتَبَرٌ لِكُلِّ ذِي حِجَى: أَنَّ مَعْيَارَ التَّوْفِيقِ بِصَدَقِ التَّعَلُّقِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَتَأَخَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ.

وحينما ألقى الكفرة خليل الرحمن في النار ظهر صدق تعلقه بالواحد الأحد وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»^(١) وكذلك قالها ابنه محمد صلى الله عليهما وسلم حينما همّت قريش باستئصاله والمسلمين بعد أحد، فكانت العقابة لهما خير الدنيا والآخرة، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] كفى به هادي يهدي قلبك لما يرضيه، ويُرشد لسانك لما يُحِبُّه، ويوفّق جوارحك لمراضيه، وكفى به ناصراً لك على كل من أراد بك شرّاً من إنس وجان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] فمن حقق صدق التعلق فهو حقيق بدفاع رب العالمين عنه، وكفى بذلك فلاحاً ونصراً وفوزاً ورفعة، فلا نامت أعين الجبناء، ولا رقت جلود الجبابرة، ولا سكنت نفوس الظالمين، ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه.

(١) البخاري (٤٥٦٤) موقوفاً على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولوطٌ عليه السلام حينما تعلق به وحده أمدّه الله بمدد من السماء، فأمر سيد الملائكة جبرئيل عليه السلام أن يرفع ديارهم ثم يقلبها على أُمّ رؤسهم لما قلبوا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فلما كفروا وفحشوا جعل عالي قراهم سافلها، ثم أمطرهم بحجارة من سجيل منضود، ومن فعل فعلهم فهو حقيق بمثل عذابهم، وتأمل آخر تنبيه وزجر في قصتهم، فما أشدّ عذاب الجبار جل جلاله، نسأله تعالى السلامة والعافية من أعمال الفاسقين ومصارع الكافرين ومُنقلب أولياء الشياطين.

وحينما ارتعدت أقدام قوم موسى بين البحر الهائج والجيش اللجب الغاضب صرّحوا بما خافوه فقالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [٦١] ولكن هيهات أن يخذل الله جنده وفيهم كليمه ومصطفاه ووجهه موسى ﷺ، فقد ثبتّه الله تعالى وأرسخ يقينه وقوى عزمه وشدّ أزره فقال بكل إيمان وثقة ويقين وتوكل وصدق تعلق ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢] تالله إنه موقف بأمة، وكلمة تغني عن معركة، وموقف يعلو ما سواه، فكان النصر حليفه، والظفر رفيقه، والفرج في معيته، والعزُّ تاجه. فال أمره وأصحابه وأمر عدوهم إلى ما قصّ الله علينا في القرآن العظيم، وهنيئاً لمن كان برب العالمين متعلقاً.

ومن المتعلقين بالله تعالى طالوت الذي خلد الله ذكره في التنزيل، ومدحه وجنده لتعلقهم به فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وبعد هذا الدعاء، كان الجواب من الله الغالب القوي العزيز:

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] وكان النصر حليفهم حين دعوا الله تعالى وتوكلوا عليه ووحدوه.

ومن سادة المتعلقين بربهم الغلام التقي من أصحاب الأخدود، «فهو الغلام المؤمن صاحب الملك الكافر حين اكتشف أمره، وعلم أنه موحد؛ أراد أن يفتنه عن دينه، ويخيفه بجنده ولكن هيهات فإنَّ مع الغلام سلاحاً لا ينفد، وكنزاً لن يفقد؛ إنَّه التعلق بالله ودعاؤه، فحين أراد جنود هذا الطاغية، أن يلقوه من فوق الجبل إلى هاويته، نطق الغلام بكل مسكنة وتعلق وافتقار للملك القهار: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ»^(١)، فسقط الجنود من فوق الجبل وكانوا في الهاوية، بل في القاع، ويمضي ذلك الغلام شامخاً بإيمانه إلى الملك الكافر، ليعلمه دروساً في التوحيد من التوكل على الله والتعلق به دون سواه، والاستعانة به، وعدم الخوف إلا منه إلى غير ذلك، لكن الطغاة متكبرون، ولا يسمعون داعي الإيثار، فما كان من ذلك الملك إلا أن أمر جنده بأن يذهبوا بذلك الغلام في إحدى السفن فإذا توسطت السفينة في البحر، ألقى الجنود ذلك الغلام ليتخلصوا منه، وحين أرادوا أن يفعلوا ذلك بعد أن توسطت بهم السفينة في البحر، إلا ويطلق الغلام سلاحه على أعدائه: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ»، واستجاب الله الدعاء، وقلب السفينة بمن فيها من جند الطاغوت، ونجا ذلك الغلام المؤمن من مكر الكافرين، والقصة معروفة، ومن أراد المزيد فليقرأ تفاسير العلماء لسورة البروج.

(١) مسلم (٣٠٠٥).

وهذا المشنى بن حارثة الشيباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقعة البويب في السنة الثالثة عشرة من الهجرة يدعوا له المسلمون، والجند المقاتلون، بأن ينصره الله على أعدائه، ويكفيه شرهم، ويضربون أروع أمثلة التعلق برب العالمين^(١).

وتأمل قصة النعمان بن مقرن المزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سنة إحدى وعشرين، فبعد أن تحصن الفرس بخنادقهم، وطال حصار المسلمين لهم، استشار النعمان قاداته، فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب حتى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم هجموا عليهم، ووافق النعمان على الخطة، وقال لهم: إني مكبر ثلاثاً فإذا كان الثالثة فابدؤوا بالقتال، وهنا لم ينس النعمان ضرورة إحسان التعلق بالله، فدعا ربه وعزم على المسلمين بالتأمين على دعائه: «اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيداً»، وبكى الناس مع النعمان وأمنوا على دعائه وابتهلوا إلى الله وتضرعوا، واستجاب الله دعاءهم فنصرهم على عدوهم نصراً عظيماً، واستجاب الله دعاء النعمان بن مقرن، فكان أول قتيل من المسلمين على أرض المعركة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢). ورضي عن جميع صحابة رسول الله، الذي رباهم بسجاياه الشريفة، وبمسيرته المباركة فكان نتاجه عظيماً، وتربيته قديرة، فصلى الله عليه صلاة دائمة تتعاقب بتعاقب الليل والنهار وسلم تسليماً.

(١) انظر: معارك المسلمين في رمضان د. عبدالعزيز العبيدي (٣٨-٣٤).

(٢) البداية والنهاية (٨٩/٧) (إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء للخضري (٩٦-٩٥)).

وهكذا يفعل الأبطال إن غضبوا وهكذا يعصف التوحيد بالوثن

وانظر تعلق حبيب بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالله حين أُمِّر على جيش، فلما أتى العدو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع قوم فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم إلا أجابهم الله تعالى» ثم إنَّه حمد الله وأثنى عليه، وقال: «اللهم احقن دماءنا، واجعل أجورنا أجور الشهداء» فبينما هم كذلك إذ نزل أمير العدو، فدخل على حبيب بن مسلمة سرادقه، وسلَّم إليه بدون حرب^(١).

وأنعم النظر في قصة قتبية بن مسلم الباهلي مع محمد بن واسع رحمهما الله تعالى، فقد ذكر ابن الجوزي^(٢) أنَّ محمد بن واسع كان مع قتبية بن مسلم في معركته، وقد كان قتبية بن مسلم صاحب خراسان، وكانت الترك قد خرجت إليهم، فبعث قتبية إلى المسجد لينظر من فيه، فقليل له: ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه، فقال قتبية: إصبعه تلك أحبُّ إلي من ثلاثين ألف شاب طرير. وفي رواية^(٣) قال قتبية بن مسلم: تلك الإصبع أحبُّ إلي من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير. وهذا من تقديرهم للتعلق بمن بيده تصاريف الأمور.

إليك وإلا لا تُشَدُّ الركائبُ ومنك وإلا فالمؤملُ خائبُ

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١١٣/٧) والطبراني (٣٥٣٦) وحسنه المنذري في الترغيب (٢٤٠/١) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٩٦٨)، وللمزيد انظر: التحفة المستطابة لرشيد الراشد (٧٨٧٧).

(٢) صفة الصفوة (١٣٦/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢١/٦).

وفيك وإلا فالرجاء مُضَيِّعٌ وعنك وإلا فالمُحَدَّثُ كاذِبٌ

لقد كان تعلق المؤمنين بربهم واستغاثتهم به أعظم أسباب النصر وأقرب حبال الظفر، وتأمل ما قاله أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان في قتاله للفرس: «إنَّه بلغني أنَّ العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله، وإنِّي نازل وواضع جبهتي، فادَّعُوا الله، واسجدوا لربكم، وأخلصوا له الدعاء، ففعلوا، ثمَّ رفعوا رؤوسهم، وهم لا يشكُّون في الفتح»^(١).

وهكذا كان عقبة بن نافع - وقد ذكروا أنه كان مستجاب الدعوة - وكان يتوجه إلى الله بالدعاء عند الشروع في معاركه، ويصادم العدو في شجاعة مذهلة، كما ذكره عنه أهل السير، ثمَّ يكتب الله له النصر المبين^(٢).

وهكذا يمضي جنود الإسلام، وتسير قوافل المجاهدين المتعلقين بالله رب العالمين، فهذا الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي يقول لألب أرسلان في موقعة (ملاذكرد) بعد أن رأى كثرة جيش الروم والتي قُدِّرَت بمئتي ألف مقاتل: «إنَّك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره، وأرجو أن يكون الله قد كتبه لك بجيشك القليل شرف النصر، فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة، بعد الزوال، والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر والله غالب على أمره»، وتمَّ ذلك عند ظهيرة يوم الجمعة من صيف أربعمئة

(١) تاريخ الطبري (١١٩/٧).

(٢) أبطال ومواقف (١٨٧).

وثلاث وستين للهجرة، فقد صلى وبكى فبكى الناس لبكائه، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، وعفر وجهه بالتراب ثم ركب وقال للناس: «ليس عليكم الآن أمير وكلكم أمير نفسه، من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله»، ولبس البياض وتحنط، وحمل بجيشه حملة صادقة، فوقعوا في وسط العدو يقتلون ما يشاؤون، وثبت العسكر، ونزل النصر، وولت الروم، واستحر بهم القتل، وقتل طاغيتهم أرمانوس، بعد أن أسره مملوك وسار به ذليلاً ليقتل على الشرك. والمتعلق بالله تعالى عمله صالح، وقد جاء عن الصحابة وصيتهم للمجاهدين بذلك، كما قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما تقاتلون بأعمالكم»^(١).

وانظر. أخى الموفق. في حال نور الدين محمود في فتح حارم سنة ٥٥٩ هـ وقد انفرد لربه عن أصحابه تحت تل حينما التقى الجمعان، وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع، وقال: «هؤلاء يا رب عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك» ففتح الله على يديه فتحاً عظيماً^(٢).

ومتّع عينيك وافسح صدرك وأبهج مهجتك بقصة المجاهد صلاح الدين محرر القدس من الصليبيين - بعث الله في الأمة من يحررها من رجس يهود - فقد جمع صلاح الدين الجموع المؤمنة، ونظم الجيوش، ثم عقد مجلس شوره

(١) انظر: السير (٤١٦/١٤١٤) والبداية والنهاية (٩١/١٢). وأثر أبي الدرداء عند

البخاري (٢٤ / ٦) في صحيحه.

(٢) معارك المسلمين في رمضان، د. عبدالعزيز العبيدي (٦٥).

للتشاور في منازل العدو، وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج في ١٧ / ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ بعد صلاة الجمعة، وبين تكبير المسلمين وابتهاهم وتضرعهم بالدعاء^(١). قال لقاضي ابن شدّاد: «وكان صلاح الدين إذا سمع أنّ العدو قد داهم المسلمين خرّ إلى الأرض ساجداً لله، داعياً بهذا الدعاء: «اللهم قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاذ إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل». ويقول: «ورأيت ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته، ثمّ على سجّادته، ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء، وكان أبداً يقصد بوقّاته^(٢) الجُمع، سيّما أوقات صلاة الجمعة تبرّكاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الاستجابة»^(٣).

وانظر ماذا كان يفعل المظفر قطز في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨ هـ) وهو يحمّس المجاهدين ويصيح: وا إسلاماه! وا إسلاماه! ويسجد ويعفّر وجهه في التراب ويقول: يا الله؛ انصر عبدك قطز^(٤).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية^(٥) عن قطز: «ولمّا رأى عصائب التتار،

(١) صلاح الدين الأيوبي، د. عبدالله ناصح علوان (٦٧).

(٢) أي: معاركه وزحوفه.

(٣) سيرة صلاح الدين الأيوبي للقاضي ابن شدّاد رحمه الله (٨ وما بعدها).

(٤) معارك المسلمين في رمضان للعبدي (٧١).

(٥) (١٨٨/١٣).

قال للأمراء والجيوش: لا تقتاتلوهم حتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء في صلاتهم». واستجاب الله دعاءه، وهزم المغول، ووقعوا بين يديه ما بين قتيل وجريح وأسير، بل وقع بين يديه قائد المغول فقتله.

أمّا محمد الفاتح فقد دخل المسجد فوجد شيخه ومعلمه ومربيه آق شمس الدين منطرحاً بين يدي ربه، مستغرقاً بالدعاء، فاستبشر خيراً بالنصر، وحين كان المجاهدون يهيئون للمعركة عدتها كان هتافهم: يا الله، يا الله، ولما فتحت القسطنطينية رآه الناس وهو يمرّغ وجهه في التراب تواضعاً لله، والمؤمنون يهتفون بالنصر، وهو لا يزيد على أن يقول: النصر من عند الله، النصر من عند الله^(١).

هكذا - يا أخا الإيمان - عرف هؤلاء البواسل المتعلقين بالله دربهم، فساروا إلى ساح الجهاد، ومُعترك الوغى، ففتح الله بهم الفتوحات، وغير بصدق جهادهم مجرى التاريخ لصالح أمة الإسلام الخالدة الحامدة الموعودة بالنصر والتمكين والرفعة والثناء، وأكثروا الدعاء لربهم، والاستغاثة بمعبودهم، حتى خطّ الله لهم طريق النصر المبين، والعز والتمكين^(٢). والله الأمر من قبل ومن بعد.



(١) أبطال ومواقف (٤٥١.٤٥٠) بتصرف يسير.

(٢) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (٦٧ - ٦٩ / ٤٥٤) عن موقع المسلم بتصرف واختصار وزيادات.

طرق تحصيل التعلق بالله تعالى وتثبيته وزيادته

أمرٌ هذا شأنه حقيقٌ بأن يُعتنى به غاية العناية، وتُقْبَض على الأُهبَةِ له الخناصر، وتشدّ لتحصيله أوتادُ القلوب، ويُلَحَّ لأجلِ الغنيمة به على عَلامِ الغيوب، فقد فاز عند الله المتعلّقون، ووصل لدار كرامته المحسنون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، والبرّ الكبير، والكرم الواسع، والآلاء التي لا تُحصى، تبارك وتعالى. فمن طرق تحصيله بعون الله تعالى وتوفيقه:

أولاً: العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فالعلم بالله يغرس في القلب عظمة ربه وسعة ملكة وتما إحااطته وكمال قدرته، فالقلب العليم بأسماء الله تعالى وأوصافه المجيدة متعلق بربه تمام التعلق، فإن غفل عن ذلك لضعفه البشري فإنه يعود سريعاً لحياض التوحيد والإيمان وحسن التعلق وتحقيقه.

ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، وله أرجى. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فالعمل من ثمار العلم، والإرادة مردّها إلى العلم، وصحّة التصوّر حقيقتها العلم، فعادت طبيّات الأمور ابتداءً وانتهاءً إلى العلم.

والموفق من عباد الله من بذل جهده في تحصيل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وما يليق به جل جلاله، من مشكاة الوحي لا غير، وعلى نهج السلف المسددين، لا الخلف المتهوِّكين.

ثانيًا: التفكير والتدبر وإمعان النظر في أحوال الأمم وتصريف الله لها.

فإذا تدبر المرء أحوال البشر على اختلاف سلطانهم، وتمايز أحوالهم، وتباين غناهم، وامتداد ممالكهم، ثم نظر ببصيرته ونفذ لمآلاتهم؛ علم علم اليقين أنه لا بقاء محمود إلا ما كان ذكرًا لله تعالى وما والاها، وأن أقوى الناس هم المتعلقون بالقوي الغني الملك سبحانه، فحيثما سبرت البصر في التاريخ الحاضر والغابر وأعمقت البصيرة في حقائق الأشياء؛ خرجت بيقين أن العقبى لأهل إحسان التعلق بالحي القيوم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْءَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن أراد الاعتبار بمصارع الأمم ونصر الله لأوليائه وخذلانه أعداءه؛ فليتمعن التفكير في سورة هود عليه السلام، ولينعم اذكّار عبرها، فلينعم مداد الألباب المتدبرة، والأفئدة المتفكرة، والقلوب المتذكّرة.

فقد ساق الله تبارك وتعالى فيها القصص بطريقة تهزُّ القلوب هزًّا، وتحفرُ فيها معاني العبر، وتنحت فيها خلاصة النهايات، وتحقن فيها مضامين الإيمان، وتبني فيها أعمدة اليقين، فلا إله إلا الله ما أعظم كلامه وقرآنه ودينه وحكمه وأحكامه!

ثم ثنَّ بَقَصص آدم عليه السلام مع عدوّه وعدوّ ذريته الرجيم، وثلّت

بقصص إبراهيم الخليل عليه السلام وقومه، ثم موسى الكليم الوجيه عليه السلام وفرعون، ثم انطلق راشداً مُسَدِّداً مُوَفَّقاً في قصص المرسلين مع أمهم حتى تحسّ بشجرة التعلق بالله تعالى تثمر في قلبك أطيب ثمار التوحيد، وأجمل معاني العبودية، وأرقى مدارج القصد، وأسمى مراتب التوجّه.

ولا تنس قطب رحي القصص المجيدة، ودرة تاج السير الحميدة؛ أعني سيرة خيرة الله تعالى من خليقته، وصفوته من عباده، خير البرية، وسيد البشرية، وصفوة الإنسانية؛ نبينا ورسولنا وحبينا وخليلنا ومصطفانا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ففي سيرته غَنَاءٌ وكَمَالٌ وَلَذَّةٌ وَسَعَةٌ وَهُدًى وَجَمَالٌ.

ثالثاً: دراسة سير المتعلقين بالله رب العالمين.

ذلك أن النفس متأثرة بسيرة من تصاحب - ولو عن طريق تصور الأصحاب في الذهن عبر العلوم والأفكار - فمن أمعن النظر في دراسة وتكرار قراءة سيرة سيد المتعلقين بالله تعالى رسول الله ﷺ، والأنبياء والصحابة وأئمة الأمة الأعلام ومشاهير العباد ممن اشتهرت قوة تعلقهم ورسوخ توحيدهم وعلو إيمانهم؛ فإنه يجد في هذه الصحبة المعنوية خير أنيس في سيره لربه تعالى، ويلتذ بسيرتهم بخير جليس، فالقلب متأثر بضرورة بما يمر على خاطره من ذكر المحبوبين، وبمن يُعَجَّبُ بحسن حالهم، وجمال سجايهم، وطيب تديّنهم، وقوة نياتهم، وصدق توجّههم، وثبات سيرهم.

رابعاً: تدبر القرآن العظيم.

وهو من أنجعها على الإطلاق، فكل علم شريف فالقرآن الشريف قد

حواه، وكلُّ غذاءٍ للقلب والروح فالقرآن العظيم قد حازه، وكلُّ حاجةٍ للنفس فالقرآن الكريم قد أوفاهَا أتمَّ الوفاء بأيسرِ طريقة، وأقربِ طريق، وأبينِ عبارة، وأهدى سبيلٍ، والعبارة تقصر حتى عن مجرد الإشارة لتلك المعاني والأغذية القلبية العظيمة للمتدبر كتاب ربه جل وعز.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فالقرآن يهدي إلى الطريقة التي هي أصوب. وقيل: الكلمة التي هي أعدل. وهي شهادة أن لا إله إلا الله^(١).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآية الجليلة: «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جلَّ وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي الطريق التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب. وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أَجْمَلَ اللهُ جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، لو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة

(١) انظر: تفسير البغوي (٥ / ٨٠).

كثيرة^(١) من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام.

فمن ذلك توحيد الله جلّ وعلا: فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيد الله جلّ وعلا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته. وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الله في ربوبيته. وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العباد لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني: توحيد الله جلّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى « لا إله إلا الله » وهي مترتبة من نفي وإثبات. فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلّ وعلا وحده بجميع أنواع

(١) وقد ذكرها بعد هذا الموضع الذي نقلته وفصلها، وهي نفيسة فليراجعها طلاب الهدى، فثمّ معينٌ عذبٌ فراتٌ سائغٌ للشاربين، ولقد نفع الله في هذا الزمان بهذا الخبر العلامة، رحمه الله تعالى، وألحقه في الصالحين الصديقين السابقين والكتاب والقارئ ووالدنا وأحبابنا والمسلمين، إله الحق آمين.

العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام»^(١).

فتدبر القرآن موصلٌ للمعاني الغائية من إنزاله، كما قال جل وعز:
﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] وقال
الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

فتدبر القرآن إن رُمِت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

خامساً: الدعاء.

ولو لم يك من بركة الدعاء إلا لذة مناجاة الله تعالى، والأنس به، وجمعية القلب عليه لكفاه، وعلى قدر إحسان الدعاء والإلحاح على الله تعالى به والاجتهاد في مظان إجابته؛ يكون قدر التعلق وجودته واستحكامه. والداعي قريب من ربه متعلق به ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] والداعي المعان قد اجتمعت في قلبه معان جميلة وألطف حميدة وقرب خاص من ربه إذا دعاه بقلب حاضر وطريقة متبعة ومعتقد سليم.

والدعاء فيه إثبات لصفات كثيرة من صفات الرب تبارك وتعالى، فمن دعا الله تعالى بحق فإنه يستحضرها إذ دعا، وحتى لو لم يستحضرها على التمام فإن دعاءه متضمن لها:

(١) أضواء البيان (٣/ ١١١).

الصفة الأولى: وجود الرب سبحانه وبحمده.

الصفة الثانية: أنه يسمع دعاءه وهو في عليائه، وبيننا العبد يهمس همساً لا يجر، فهو يعتقد أن الرب سبحانه سميعٌ لدعائه.

الصفة الثالثة: أنه قدير على إجابة دعائه.

الصفة الرابعة: أنه غني يُعطي بغير حساب.

الصفة الخامسة: أنه رحيم بعباده، فإن سؤال الرب تعرّض لآثار لرحمته.

الصفة السادسة: أنه حي، وهكذا.

فمن تأمّل دعاء العبد، وجد في دعاء العبد أنواعاً من إثبات الكمالات للرب، ولذلك يَضْعُفُ التوحيد إذا ترك العبد دعاء ربه، وكلّما قلّ الدعاء قلّ تعلّق العبد بالله تعالى، لأن آثار التوحيد على النفس والنور الذي يُقَذَفُ في القلب من آثار التعلق بالله يضعف شيئاً فشيئاً^(١).

فالموفق لحسن التعلق هو من كان ديدنه الالتجاء إلى الله عز وجل، والإقبال عليه، والانطراح بين يديه، وسؤاله الهداية، فهو الهادي الكريم الرحيم الرحمن المستعان، وعليه التكلان، ولن يهتدي أحد للحق وإن علا إلا بهداية الحق جل وعلا، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحْدِلَهُ، وَلَيَأْمُرْ شِدَاً﴾ [الكهف: ١٧] وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ،

(١) شرح العقيدة الطحاوية صالح آل الشيخ (١/ ٥٩٨) بتصرف يسير.

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ [المائدة: ٤١].

وقد روى مسلم^(١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتَهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ». ولذا فقد فرض الله على عباده سؤاله الهداية في كل ركعة من صلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال ابن القيم: «ليس الداعي إلى شيء أشدَّ فاقة وحاجة منه إلى الهداية البتة؛ فإنه يحتاج إليها في كل نفس وطرفة عين، فهو محتاج إلى الهداية في جميع ما يأتيه ويذرّه من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية ليزداد هدى، وأمور يحتاج إلى الهداية إليها في المستقبل»^(٢).

ففي العبد ضرورة للتعلق بالله والالتجاء إليه والإلحاح عليه بسؤال الهداية للحق. وهي من فروع التعلق كما أنها ثمرة له. وَأَنْ يَلْظَ^(٣) عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسْؤَالِهِ الثَّبَاتَ عَلَيْهِ فَهُوَ الْقَرِيبُ الْمَحِيبُ كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) الصلاة (١٧٥).

(٣) في الترمذي (٣٥٢٥) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلْظُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وجوّده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٨٢٢) من طريق ربيعة بن عامر.

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يُرْشَدُونَ ﴿البقرة: ١٨٦﴾ والرشاد: هو الهدى والاستقامة.

فإذا أصابتك بلية، أو تُهت في نازلة، أو تعاقبت عليك الرزايا، أو تكاثفت
عليك الغيوم، وترادفت إليك الهموم، وضلّت بك الحيل والفهوم؛ فارفع
يديك للواحد الأحد الحي القيوم، يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويفتح غلقًا،
ويزيد علمًا، ويهديك إلى سواء السبيل^(١).

سادسًا: التأمل في عجز الخلائق وفقرهم لله تعالى.

فما ثمّ إلا خالق ومخلوق، ومالك ومملوك، ورب وعبد، وإله ومألوه، فإذا
تبين المؤمن هذا وتدبره وتفكر فيه، وآمن به، وعقد عليه قلبه؛ رسخ التعلق
حينها في حُشاشة فؤاده، وانغرس الافتقار في سويداء قلبه، فيتحقق فيه حينئذ
أنّه ممن لا يتعلقون إلا بالله وحده، ولا يسألون غيره، ولا يخافون سواه، ولا
يرجون معه أحدًا، ولا يستعيذون ويستجيرون بمن عداه، وهذا من فروع
شجرة التوحيد العامرة وثمارها الطيبة في قلوب المتعلقين بالحي القيوم الذي لا
شريك له.

سابعًا: دوام العبادة.

فالعبادة هيكل الطاعة للرب سبحانه، والقنوت - وهو ملازمة الطاعة -
علامة الصدق معه تبارك وتعالى، والعبادات تُغذي الإيمان وتزيده وترسخه،

(١) وانظر: بين يدي الحكم، رسالة الى القضاة (١/ ٥ - ٧).

وهل التعلق إلا رسوخ الإيمان؟!

فإذا أتبع المؤمن صلاته بصلاة، وزكاته ببر، وصلته بأمر بمعروف ونهي عن منكر، ودعائه بحسن أخلاق، وقراءته للقرآن بقراءة أخرى وتلاوة متكررة، ونحو ذلك، فنوع هذا العبد الموفق ما يسر الله تعالى له من العبادات، وازداد من تحصيلها، واجتهد في إحسانها، فاجتمع له الكم والكيف فيها، وحقق الإخلاص والاتباع حيالها، فصارت حسنات متوافرات، وباقيات صالحات، وزادًا نافعًا للقدوم على رب البريات سبحانه. وهذه حقيقة القنوت، فلا تسل عن تعلقه حينها بعلام الغيوب، وتلذذه بمعيته وإحسانه ولطفه واستجابته دعاءه، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وإنَّ الله تعالى أَلطافًا وموَّاهِبٌ ومكرماتٍ يختصُّ بها خُلَصَّ عباده المؤمنين، ويسوقها لأصفيائه الذين تعبَّدوا له، وآمنوا به، وصدَّقوا ما عاهدوه عليه، واجتهدوا في تحصيل مرضاته، يزدلفهم بها لرياض مرضاته، ويسوقهم بها لدار كراماته، ويميزهم بها أحسن ما كانوا يعملون، فالله شكور حميد كريم وهَّاب لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يُنسى أجر عابد، ولا يخيب لديه مؤمِّل صادق، عزَّ جأزه، وجلَّ ثناؤه، ولا إله غيره.

ثم إن من مسالك النجاة وأسباب الهداية والتوفيق والإعانة؛ الاستكثار من العبادة في الرخاء والشدة، والأمن والخوف، والعافية والفتنة، واليسر والمشقة، والرَّغد والمسغبة، والصحة والسقم، على العهد في حُسْنِ التَّعبُّد ما بقيَ للمؤمن قلبٌ ينبض، وعينٌ تطرف، وعقلٌ يعي، وجارحةٌ تعمل، وأنفاسٌ

تتردد. ويا لطيب عيش القانتين، فكل حال للدنيا فلعباد الله فيه عبادات تليق به، فالعبادة هي الركن الذي لا يهتز، والحبل الذي لا يُحز، وما خلقنا الله إلا لها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولم يعبأ بنا إلا لأجلها ﴿قُلْ مَا يَعْبُدُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وإن من أرفع العبادات ذكرًا، وأكثرها أجرًا، وأعظمها أثرًا الصلاة. كيف لا ! وهي الصلة بين العبد وربّه، وهل صلة أعظم وأعون وأهدى وأقوم من صلاة العبد بربه؟! فالصلاة وَصْلٌ وَصِلَةٌ، ولذا أمر الله بالاستعانة بها، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر صلى^(١)، فكان يرتاح بها فينادي بلالًا: «أقم الصلاة، أرحنا بها»^(٢) وهي نور للمؤمنين، كما روى مسلم^(٣) أن الرسول ﷺ قال: «الصلاة نور».

قال ابن رجب: «فهى للمؤمنين في الدنيا نور في قلوبهم وبصائرهم، ولهذا كانت قرة عين للمؤمنين، كما كان النبي ﷺ يقول: «جعلت قرة عيني في الصلاة»^(٤)، وهي نور للمؤمنين في قبورهم، ولا سيما صلاة الليل كما قال أبو

(١) أبي داود (١٣١٩) وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، والأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (٤٩٨٥).

(٢) ابن أبي شيبة (٩٣٩).

(٣) مسلم (٢٢٣).

(٤) أحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩)

الدرداء: «صلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور». وهي في الآخرة نور للمؤمنين في ظلمات القيامة وعلى الصراط، فإن الأنوار تقسم لهم حسب أعمالهم. وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة» (١) (٢).

فما أحوج المؤمن إلى نور يضيء له ظلمات الطريق، وعون يشد من أزره في الكربة والضيق، ولقد روى البخاري (٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قال الله تعالى: ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

قال ابن رجب: «وأعظم فرائض البدن التي تقرب إليه الصلاة كما قال ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو

والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٨). وصححه الحاكم في المستدرک (٢/ ١٦٠). ووافقه الذهبي. وحسنه ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٣٣). وحسنه محمد عزيز شمس.

(١) أحمد (٦٥٧٦) وحسنه الأرئوط.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٢).

(٣) البخاري (٧١٣٧).

ساجدٌ» (١).

فالصلاة حبل متين قريب يتعلق به المرء بمن بيده مفاتيح الخير وجوامعه،
فحري بالمؤمن احتساب إقامتها من نفيس وقته وكبير جهده.

ثامناً: الحرص على عبادة السرّ.

وهي برهان الصدق، وقرينة الإخلاص، فإذا اجتهد العبد في إخفاء ما
شُرّع بإخفائه من العبادات البدنية والقولية والمالية والقلبية؛ كان هذا أدعى
لمزيد من منح الكريم له، وزيادته بالخير العميم من أرزاق القلب، وغياثات
الروح. ذلك أن السرّ دليل الإخلاص، والإخلاص سرّ التوفيق.

تاسعاً: صحبة المتعلقين بالله تعالى.

فالساحب صاحب إما للحُسنى واليسرى وإما للشقوة والعُسرى،
والنفوس مجبولة على التأثر والانفعال والتشبه بمن تلازمه وتخالطه وتجالسه،
فالمجالسة مُجانسة، والإنسان مدني بطبعه، ولا بد له من صحب يؤنسونه
ويعينونه، فإن كان مُوفقاً فهو مجتهد في صحبة الأخيار، وإن كان سوى ذلك
فاللهم سلم سلم، ولا يلومنَّ عبدٌ إلا نفسه، ولن يُعاد للدين نادمٌ من رمسه.

وكما قيل: صلاح الشيم بمعاشرة الكرام، وفسادها بمخالطة اللئام.

عاشراً: الإخلاص.

الإخلاص هو سرّ العبودية، ولُبُّبُ الديانة، ورحيق الإيمان، وزاد الراكب المسافر للدار الآخرة، وكلما عمق جذر الإخلاص في القلب ازداد رسوخ التعلُّق بالله تعالى فيه، فبينهما تكامل وتعاون، وكل منهما مؤثر من لصاحبه.

ولأهل الإخلاص قربٌ خاص برّبهم تعالى، فهم مجتهدون في تنقية نياتهم ومقاصدهم من حظوظ النفس وسرقات الشيطان، وكم للنفس من حظ خفي مستتر بجلباب تقى وورع! والموفق من فتح الله بصيرته، ووسّع علمه، وقوّى عزيمته، وصنّفى نيته، وأنصع إخلاصه، وقل لمن لا يخلص: لا تتعب!

والإخلاص يكون في أصل الدين وهو ما يسمى بالتوحيد، وضده الشرك والتنديد، كما يكون في أصول العبادات وهو ما يضاد الرياء. فالإخلاص محيط بالعلميات والعملات، فلا بد من صحة تصوّر المؤمن برّبه توحيداً لا تنديداً، ولا بد من أفراد العمل العباديّ لوجهه دون ما سواه إسلاماً وتجريداً.

وحسنة تحقيق التوحيد لا تقوم لها كِفَفُ الذنوب مهما بلغت، ولكن أين المحققون له، فشمس التوحيد تحرق ما قابلها من الخطايا، وصدقها يُحقّق بالتوبة النصوح مما يلوث نقاءها، وتأمل حديث صاحب البطاقة، والله المستعان.

وشعار التوحيد والإخلاص هو أعظم كلمة على الإطلاق وهي الشهادة لله بالوحدانية في الألوهية «لا إله إلا الله». وهي التي قامت عليها السماوات

والأرض، وخلق لأجلها العباد، وقام لها سوق الجهاد، وعمرت لأجلها الجنة والنار. فسادة المتعلقين بالله هم سادة المحققين لهذه الكلمة العظيمة، «ولا بد من الإخلاص المنافي للشرك. إذا قال هذه الكلمة لا إله إلا الله، ولم يخلص أعماله لله، فإن وقع في عمله شرك بطلت هذه الكلمة وانتقضت، فالشرك ينقضها ويحبط جميع الأعمال. قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

فلا بد من الإخلاص، فإن وقع الشرك في عمل العبد بطل توحيده وإيمانه، وانتقض كما لو توضأ وأحسن الوضوء وتطهر وأحسن الطهارة ثم أحدث، كذلك كلمة التوحيد إذا قالها عن غير إخلاص في عمله فإن شركه ينقض التوحيد.

ولا بد من علم مناف للجهل، ويقين مناف للشك والريب، وصدق مانع من النفاق، وإخلاص مناف للشرك، ولا بد من المحبة لهذه الكلمة ولأهلها والسرور بذلك، ولا بد من الانقياد لحقوقها، وهي الأعمال الواجبة بفعل الواجبات وترك المحرمات، ولا بد من القبول المنافي للترك، فقد يقولها بعض الناس لكن لا يقبلها ممن يدعون إليها تعصبًا وتكبرًا.

فإذا وجدت هذه الشروط^(١)، فإن هذه الكلمة تكون صحيحة، ويكون قالها عن تحقيق. فلا بد من إخلاص التعلُّق بالله عز وجل.

أما مَنْ قالها بلسانه، ولكنه ينقضها بأفعاله، أو قالها وقلبه مكذب فإنها لا تنفع، ولا بد أيضاً أن يوحد الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته.

وأنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. هذه الأنواع الثلاثة متلازمة، كلها مطلوبة، لا بد أن توحد الله في ربوبيته، وتوحد الله في أسمائه، وصفاته، وتوحد الله في عبادته وألوهيته.

ومَنْ لم يأت بنوع من هذه الأنواع فلا يصح توحيده، فمن لم يوحد الله في ربوبيته فهو كافر ولو زعم أنه يعبد الله، ولا يمكن أن يعبد الله وهو لا يوحد الله في ربوبيته، كذلك من زعم أنه يوحد الله في أسمائه وصفاته، ولكنه لم يوحد الله في عبادته لم يكن موحدًا^(٢).

إن إخلاص التعلُّق وقوّته هو نظام الحنيفية بحق، وإنّ مسلك النجاة الكبرى، وسبب الهداية العظمى حسنُ التعلُّق والافتقار للملك القهار، وإخلاصُ العمل لله تعالى، وتجريد القصد لوجهه تبارك وتعالى وعزّ وتقّديس،

(١) وهي الشروط السبعة المشهورة لتحقيق كلمة التوحيد: العلم، واليقين، والقبول، والانقياد، والصدق، والإخلاص، والمحبة. وزاد بعض أهل العلم: الكفر بالطاغوت.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، عبدالعزيز الراجحي (١/ ١٦).

كما أمر الله تعالى وقضى به فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وفي الصحيحين من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» (١).

فَلَكَ نِيَّتُكَ إِنْ أَخْلَصْتَهَا لِرَبِّكَ، وَعَمَلُكَ بِمَا جَرَّدْتَهُ عَنْ رُؤْيَا غَيْرِ مَوْلَاكَ، وَنُجْحُكَ بِمَا صَفَّيْتَهُ لِقَصْدِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِصْلَاحُ الْعَمَلِ وَتَرْتِبُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، أَوْ فُسَادُهُ وَتَرْتِبُ الْعِقَابِ عَلَيْهِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِسَبَبِ النِّيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِإِيجَادِهِ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فَالْأَعْمَالُ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُورِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... وَتَأْمَلُ حَدِيثَ الْبَطَاقَةِ (٢) الَّتِي تَوْضَعُ فِي كَفَّةٍ وَيَقَابَلُهَا تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبَطَاقَةُ وَتَطْيِشُ السَّجَلَاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَوْحِدٍ لَهُ هَذِهِ الْبَطَاقَةُ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ.

قال ابن المبارك: «رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظِّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ». وعن يحيى بن أبي كثير قال: «تَعَلَّمُوا النِّيَّةَ، فَإِنَّهَا أَبْلَغُ مِنَ الْعَمَلِ». وقال

(١) البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) مسند عبد بن حميد (٣٣٩)، وأحمد (٦٩٩) وابن ماجه (٣٤٨٨) وصححه الألباني.

داود الطائفي: «رأيت الخير كله يجمعه حسن النية، وكفاك به خيراً وإن لم تنصب»^(١).

فاستصلاح النية وتجريد القصد من أعظم القربات، ومن أقرب أسباب تحصيل المقاصد العالية، ومنها إحسان التعلق بالله تعالى. وقد روى ابن ماجه وصححه ابن حبان من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: «من كانت الدنيا همّة؛ فَرَّقَ اللهُ عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّة؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٢).

لذا فإن معرفة أهمية الإخلاص وفضله وأثره، وعاقبة ضده وخطره، مع الخوف من الله تعالى ومراقبته، واستحضار علمه بالظواهر والسرائر، وأن الأمر له جل وعلا، والمملك بيده، وهو النافع الضار، مع الرغبة فيما عنده والتعلق به سبحانه دون ما سواه، إن ذلك مع المجاهدة لمن أعظم أسباب صلاح النية والعمل، ثم الهداية إلى المقصود الأجل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]»^(٣).

ومن يتعين عليهم التدقيق في إخلاص نفوسهم العباد وطلبة العلم وأهل

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٩).

(٢) ابن ماجه (٤١٠٥) وصححه الألباني.

(٣) بين يدي الحكم (١/٨ - ١١) باختصار وتصرف وزيادات.

الدعوة والجهاد، فَنُهْمَةِ الشَّيْطَانِ فِيهِمْ أَكْبَرُ، وَرَغْبَتُهُ فِي عَطَبِهِمْ أَكْدُ، وَحَرْبُهُمْ لَهُ أَشَدُّ، وَهُمْ كَبَرِيَتِ الْأُمَّةِ الْأَحْمَرِ، وَهُمْ يَاقُوتُهَا وَالْجَوْهَرِ، كَثَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَبَارَكَهُمْ وَهَدَاهُمْ وَعَصَمَهُمْ وَحَفَظَهُمْ، وَأَلْحَقْنَا بِهِمْ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى.

قال رجل لابنه: اذهب فاطلب العلم، فخرج فغاب عنه ما غاب، ثم جاءه فحدثه بأحاديث، فقال له أبوه: يا بني اذهب فاطلب العلم، فغاب عنه أيضًا زمانًا، ثم جاءه بقراطيس فيها كتبٌ فقرأها عليه، فقال له: هذا سوادٌ في بياض، اذهب فاطلب العلم، فخرج، ثم غاب عنه ما غاب، ثم جاءه، فقال لأبيه: سلني عما بدا لك، فقال له أبوه: أرأيت لو أنك مررت برجلٍ يمدحك ومررت بآخر يعيبك، ماذا تفعل؟ قال: إذا لم أَلَمْ الذي يعينني، ولم أحمَد الذي يمدحني، قال: أرأيت لو مررت بصفحةٍ ذهبٍ؟ قال: إذا لم أهيجهما، ولم أقربهما، فقال: اذهب، فقد علمت.

ولسان حاله: الآن جاء العلم النافع، فلما حصل الزهد في كلام الناس، والزهد في الدنيا؛ حصل العلم النافع، فقطع الطمع بالدنيا وقطع الطمع بكلام الناس من أجل علامات الإخلاص، والمُؤَفَّق من وفقه مولاه.

الحادي عشر: مداومة الذكر.

فالذكر للقلب كالهواء للبشر، وكالماء للسمك، وكالغذاء للجنين، والمتعلق بالله تعالى في حاجة دائمة للزوم الدين، وضرورة لازمة إلى الاستمرار على التعلق بالله تعالى حتى الوفاة، ويكون ذلك بلزوم الذكر على كل حال وفي كل حين بحسبِ الوسع والطاقة.

لذلك فالذكر يُصلح له ما فسد من غفلته، ويبني له ما انهدم من إيمانه، ويزرع له ما خرب من بستان صدره، فهو في زيادة ما دام في ذكر الله تعالى، وفي أمانة مادام مع الله بقلبه وقلبه، لذلك فمن أخصّ أوصاف المتعلقين أنهم من أهل الذكر، فاجتهادهم في تكميله ظاهر عليهم، ولين ألسنتهم ورطوبتها به علامة لهم، فألسنتهم بذكر الله رطبة، وبدعاء الله لهجة، وقلوبهم بربهم على الدوام متعلقة، فواهاً لطيب عيشهم، ويا لكرامة وفدهم، ويكأنما يقضون أعمارهم في عليين!

وههنا مسألة مهمة، وهي أن دوام الذكر ناتج عن عظيم المحبة، فعلى قدر المحبة يكون الذكر، واعتبر ذلك بأهل الدنيا، فالتاجر يلهج دوماً بتجارته وأسعاره ومشترياته وزبائنه وبضاعته ومبيعاته، ولاعب الكرة أو محبها نرى جسيم وقته ونفيس زمانه خالص لها، فمواعيده ملغاة لأجلها، وزمان لعبها الطويل يعتبره قصيراً لحفاوته بها، وذكره وهجّيراه في متابعة أخبارها ومسابقاتها وأنديتها ومنتخباتها، وصاحب الإبل نراه قد سخر نفسه لها - ولو على حساب من يقوت - ولا يطيب له ذكر إلا بذهاها ومجيئها وألوانها وجلائبها وولادها ومرعاها وفخرها والعناية بها، وصاحب هوى النساء نراه في شغلٍ شاغلٍ لقلبه للغاية في هواه، تطلّباً إرضاء غريزته الجثمانية والنفسانية.. إلى غير تلك المحابّ وأهلها، وهذا حال هؤلاء في حبّ ما أصله مباح، ولكنهم زادوا من قدره فتعلّقوا بذلك الحبّ الوسيليّ دون الغائيّ، فعَلِقُوا حب متاع الدنيا على حساب الحبّ القويم الذي خُلِقُوا لتحقيقه، فخسروا من الآخرة بقدر ما انتقصوها من حظوظ الدنيا.

وإذا كان هذا حال هؤلاء؛ فكيف بأولئك الذين أحبوا المعصية رأساً فعاقروها، وعشقوا الخطيئة أصلاً فلازموها، وتعلقوا بالذنب حتى أَلْفُوهُ فَلَفَّهِمْ في حضيض الدركات والهلكات والخيبات! كأنها صيرّ واحدُهم هواهُ وثناً يلثمه بشقة فؤاده السكران بخمر الهوى.. إلى آخر زُرَافَاتِ صرعى الهوى من المحبين لأنواع ملاذ الدنيا دون اللذة الكبرى من لذائذ الأرواح التي لصاحبها شأنٌ أيّما شأن، وللناس شؤونٌ مِنْ دُونِ لِدُون!

فمُحِبُّ الله تعالى الذي استغرق الحب والشوق فؤاده فهانئٌ بما شغله ربه، قرّت عينه، وسعد قلبه، وسكنت نفسه، واطمأنت روحه. نسأل الله الكريم من واسع فضله، فهو في جنّة قبل جنّة الآخرة، وفي جنّةٍ مما يحاذره، وفي حبور يستتبع السرور، وغناء يخلفه توفيق، ومن كان الله تعالى معه فلا تَسْلُ عن فلاحه.

وبالجملة؛ فالذكر من أفضل العبادات، وهو مأمور به شرعاً كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] فالمسلم مطالب بذكر الله تعالى في كل وقت، بقلبه، ولسانه، وبجوارحه، قائماً، وقاعداً، وعلى جنبه.

وملازمة حُسن الذكر من أعظم مظاهر وبراهين التعلق بالله تعالى، ويكون حُسنه بأن يذكر ربه بما ورد، بالإخلاص باطناً، وبلزوم اللفظ والوقت والحال والعدد، وبأن يستحضر بقلبه ما يجري على لسانه، ويحرك قلبه بمعانيه، ويتفنّن في تدبره والعمل بمقتضاه، ولزومه على كل حال وفي كل حين قدر

طاقته، ولا سيما أذكار ما بعد الصلاة، وطرفي النهار، والمسجد، والمنزل، والنوم ونحو ذلك، وكذا الأذكار عند العوارض والأسباب، فإن الذكر عبادة ترفع درجات صاحبها عند الله الكريم، وينال بها الأجر العظيم دون مشقة أو تعب وجهد، فضلاً من الله الكريم، والله يختص برحمته وفضله وكرمه وعطاياه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، والكرم العميم، والنعم التي لا تُحصى.

فينبغي للمسلم أن يكون في ذكره لله تعالى ملتزماً بحدود الشريعة ونصوصها، وهدى النبي ﷺ، وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وذلك لأن حسن الاتباع شرط لصحة العمل، وقبوله عند الله تعالى، كما قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(١) أي باطل مردود على صاحبه.

وإن من أعظم المقربات إلى الله من النوافل والقربات كثرة الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وقد أمر الله بذكره، وبين أنه سبب الفلاح فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وفي الصحيحين^(٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني». «ولقد فقه الكليم هذا المعنى فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^(٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي^(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي^(٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي^(٢٩)

(١) البخاري (٢٤٩٩) ومسلم (٤٥٨٩).

(٢) البخاري (٧٠٩٩) ومسلم (٢٦٧٥).

هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾. فكل تلك الأسباب لمقصد عظيم هو ﴿كَيْ تُسَبِّحَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ [طه: ٢٥ - ٣٤] لما لكثرة الذكر من أثر عظيم على المؤمن.

ومن أعظم أنواعه كثرة قراءة القرآن، قال ابن رجب: «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله من النوافل، كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكير وتدبر وتفهم، قال خباب بن الأرت لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه»^(١).

وقال ابن سعدي في تفسير سورة يونس ما ملخصه: «يقول تعالى مرغبا الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] فهو شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، وفيه الهدى، وهو العلم بالحق والعمل به، والرحمة، وهي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور، ولذلك أمر الله بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ يَفْضَلِ

(١) جامع العلوم (٢/٣٤٢).

اللَّهُ ﴿ وَالَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً وَمِنَّةً وَفَضْلًا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ، وَعِبَادَةَ اللَّهِ وَمَحَبَّتَهُ ﴿فَإِذْ لَكَ فُلَيْفَرَحُوهُ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَلِذَاتِهَا»^(١).

وقد بين الله أن حفظه وفهمه من صفات أهل العلم كما قال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ مِّنْ بَيْنَتٍ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفي الصحيحين^(٢) عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار..».

ومن ذلك أيضًا كثرة الاستغفار فقد كان النبي ﷺ كما روى مسلم^(٣) يستغفر الله في اليوم مئة مرة، ولقد أمر الأنبياء أتباعهم بالاستغفار فلقد أمر الله بالاستغفار على لسان نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] وقال الله على لسان هود: ﴿وَيَقَوْمِ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] فبين الله أثر الاستغفار في جلب

(١) تفسير السعدي (٣/٧١٨).

(٢) مسلم (٢٦٦).

(٣) مسلم (٢٧٠٢) بلفظ: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ». والغين: شيء يغشى القلب ولا يغطيه، كالغيم الذي يعرض في الهواء ولا يغطي ضوء الشمس، فيزيله عن قلبه بالاستغفار.

الفضل والبركة وزيادة القوة والمتاع»^(١).

الثاني عشر: دوام إحسان الظن بالله تعالى وحسن الرجاء به.

وهذا فرع عن معرفته والعلم به سبحانه. فالله تعالى حكيم له الحكمة البالغة في كل ما قضاه ودبره، وما من أمر من لدنه إلا وغايته الصلاح، علمه من علمه وجهله من جهله.

وحسن الظن به وعظيم الرجاء له رافد غزير للتعلق به سبحانه وتعالى، فالمرء بين نعمة يريد تحصيلها أو ثباتها أو نساءها، وبين نقمة يريد دفعها أو رفعها، وكلُّ بيد الله وحده، فإذا عمر القلب بربوبية الله ازداد تعلقاً به، وكلما حسن ظنه بربه عظم رجاءه له، ومن هذين يزداد التعلق ويرسخ ويثبت.

والمؤمن المتعلق بربه ينظر بعين القدر من الله تعالى والتقصير من نفسه، فيحمد الله تعالى على نعمه وابتلائه ولطفه ورحمته وحكمته، ويصبر ويرضى ويسلم ويشكر، ويلوم نفسه على التقصير والغفلة، فيرفق بها ويحزم معها حتى تلين له قيادها فيفلح ويفوز بموعد ربه بالأمن والإيمان في الدنيا والدرجات العُلى في جنات النعيم.

وفي هذا الزمان اشتدت غربة الإسلام حتى بين أهله، فصار التوحيد غريباً والموحدون غرباء، والإسلام غريباً والمسلمون غرباء، فاستضعفتهم أمم الشرق والغرب ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يرعى إلا ولا ذماً،

(١) بين يدي الحكم، عبد الله العقيلي (١٣/١ - ١٥) باختصار وتصرف وزيادة.

فاسترخصوا دماءهم وأعراضهم وأموالهم، وأصبح المسلمون قد استباحتهم عبدة الصليب والأوثان، وهذا له أسباب:

أعظمها: نقص تحقيق كثيرهم لعبودية الله الواحد القهار، والاكتفاء بالدعاوى دون العمل الصادق المخلص والمجاهدة الجادة للنفس ولأعداء الله تعالى، فقد اقتضت سنته الماضية وناموسه المحكم أنه ينصر من نصره ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وكتب الغلبة والنصر والظفر لجنده ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ومن جملة الأسباب: الابتلاء والامتحان للمؤمنين، ليظهر المعدن النفيس من الزيف الخسيس، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولتستبين سبيل المجرمين.

ومنها: أن الله يحب اتخاذ الشهداء من عباده، وهذه الأمة أمة شهداء بحمد الله تعالى. ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءً﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [٤] سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بِأَلْهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

ومنها: أنها مرتبطة بالحكمة العامة لله تعالى، فهو الحكيم الخبير، وقد يؤخر نصر أوليائه لما تقتضيه مصلحة دينه ومصلحتهم، وقد يمهل لأعدائه لتستحكم عليهم الحجة، وتحيط بهم موارد الغضب، فيمهلهم رويداً ولا يهملهم قط، وقد يؤخر رفع الكرب عن أوليائه ليسمع ضراعتهم واستغاثتهم. وبالجملية: فليس تأخير النصر دليلاً على فشل مشروع الداعي إلى الله

تعالى والمجاهد في سبيله، فالعبرة بحسن العمل لا بحصول الثمرة، ويأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد! ومن ثبت على دينه فهو المنصور حقاً والموفق صدقاً، وهذه مُسَلِّمة ابتداءً لا شِيةَ فيها.

وما كان لمؤمن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنْهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] ويدب اليأس إلى قلبه، فلا ضيعة مع ذي الجلال والإكرام تبارك وتعالى.

فيا مؤمناً بالله؛ اعلم أن الحق ظاهرٌ بالحجة والحقيقة على الدوام، وأن زمانَ ظهورِ الباطل مادياً على الحق لا يدوم، بل سعيه إلى زوال وأقول واضمحلال، مهما اشتدَّ كَلْبُهُ، وانتشت بالظلم أحزابه، واشمخر بالباطل أنفه، وامتلات بالعقارب خططه، وتجشأ قلبه عَفَنَ فساده، فللحق حسنُ العاقبة، وسناء التمكين، ومضاء النصر، وجمالُ النهاية في الدنيا والآخرة. والعبرة عند العقلاء إنما هي بكمال النهايات لا نقص البدايات، والله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن تدبر قصة يوسف وأبيه عليهما السلام ظهر لبصيرته ورسخ يقينه أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، وأن ليل الباطل قصير، وحبل الظلم ضعيف. قال السعدي رحمه الله تعالى: «فإنه لما طال الحزن على يعقوب، واشتد به للغاية، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب، ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، وحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة

والرخاء والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم»^(١).

وقد ذكر بعض أهل العلم أمورًا عدّوها من حكم اقتران الفرج باشتداد الكرب، واقتران اليسر بالعسر، فمن ذلك:

أن الكرب إذا اشتدّ وعظم وتناهى؛ وُجِدَ الإيأس من كشفه من جهة المخلوقين، ووقع التعلق بالله وحده، فحينئذ يستجيب الله له، ويكشف عنه ما به، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، والاعتماد على الله وحده لا شريك له، والتوكل على الله من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ومنها أن العبد إذا وقع في عسر، واشتد عليه الكرب؛ فإنه يحتاج إلى مجاهدة نفسه والشيطان، لأن الشيطان قد يأتيه فيقنطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب ذلك دفع البلاء عنه، وتيسير أمره، وتفريج كربته، وحسن العقبي له، ولهذا جاء في الحديث: «يُستجاب لأحدكم ما لم يُعجل، فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فيدع الدعاء»^(٢).

ومنها أن العبد إذا استبطأ الفرج، ولا سيما بعد الدعاء والتضرع، رجع

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٦٦).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

باللائمة إلى نفسه، وبحث عن تقصيره، فأصلح خطأه، وعالج نقصه^(١).

ومن جدير التنبيه للمؤمن المتعلق بالله تعالى والدار الآخرة ألا يشغل بالمفضول عن الفاضل «وفي ظل هذه الفتن، وتتابع هذه المصائب، يجب ألا تشغلنا هذه الفتن عن عبادتنا الخاصة بيننا وبين ربنا، فالضرورة تتأكد بوجوب العناية بإصلاح القلب، وهذا يتحقق بأمور:

أعظمها التعلق بالله عز وجل دائماً، واللجأ إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء، والتوبة النصوح والاستغفار الملح، فإن الله تعالى نعى على قوم أصيبوا بالضراء، فلم يكن ذلك سبباً في تضرعهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

فما أحوجنا إلى اللجأ، والتضرع إلى ربنا في كشف ضرنا، وإصلاح أحوالنا، والاستغاثة به في طلب النصر، وكبت العدو وخذلانه.

كما لا بد لكل واحد منا من عبادة يلزمها، ويكثر منها، مع العناية ببقية العبادات، فإن للعبادة أثراً عظيماً في سكون القلب، واستقرار النفس.

ولئن كان هذا مطلوباً في كل حين، فهو في أوقات الفتن أكد وأعظم، فإن النبي ﷺ يقول: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»^(٢).

(١) انظر نور الاقتباس (٧٦، ٧٧) وجامع العلوم والحكم (٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) مسلم (٧٥٨٨).

وسبب ذلك - والله أعلم - أنه في زمن الفتن يخف أمر الدين، ويقل الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه، ومعاشه، ونفسه وما يتعلق به.

فمن فتح الله تعالى عليه في نوافل الصلوات، أو في الصيام، أو في الصدقة، أو في قراءة القرآن، أو في غيرها من العبادات، فليزِمها، وليكثر منها، فإنها من وسائل الثبات بإذن الله تعالى»^(١).

الثالث عشر: طلب العلم.

فالعلم بالله تعالى وبشرعه هو رافد التعلق الذي لا ينضب، وهو من أعظم وسائل ثبات القلب ورسوخ تعلقه بربه، فهو يكشف الريب، ويدحض الشبهات، وينير الطريق، ويبين المنازل، ويرفع الهمة، ويُحلي للسائر سيره، فينطلق لمرضاة لربه على هدى وبصيرة، كما أنه من أعظم الذخائر عند المولى تبارك وتعالى، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلبوا العلم، فوالذي نفسي بيده لبيعن الله يوم القيامة شهداءَ يتمنون أن الله قد بعثهم علماء؛ لما رأوا من كرامة الله للعلماء!». ويكفي أنهم ورثة الأنبياء، وحُرَّاسُ الديانة، وأحبابُ الله تعالى.

إن العلم بالله تعالى كنزٌ مرصودٌ لأهله، وذخائرٌ ثمينةٌ لطلَّابه، وسلاحٌ ماضٍ في ألسنِ حاوييه، ومنازلاتٌ عاليةٌ لأصحابه، وشواهدٌ مرصَّيةٌ لحملته،

(١) موسوعة الرد على الصوفية (٤١ / ٤).

وهدى ورشاداً وسكينة وسعادة في أفئدة أهله، فبينما الجاهل محشور في زاوية صغيرة في أحد أركان عقله؛ نرى العالم في فضاء فسيح من نور علمه، و«إن من أنفع أسباب الهداية والرشاد وأعظمها أثراً وأكثرها فضلاً، العلم الشرعي، فهو أشرف مطلوب وأفضل مرغوب، وأهله هم أهل الرفعة، وأولوا الخشية، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال القرطبي في تفسيره: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء.

وقد أراد الله بهم خيراً، وأعظم لهم أجراً ففي الصحيحين^(١) عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وروى أبو داود^(٢) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) البخاري (٧٠٢٢) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أبو داود (٣٦٤٣) وسكت عنه. وقد قال في رسالته لأهل مكة: «وما سكتُ عنه فهو صالح». والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) وغيرهم، وحسنه ابن القيم في المفتاح (١٠٩/١) وحسنه عبد المحسن العباد في أهمية العناية بالتفسير والحديث والفقه (٥/١) وصححه الألباني. وقد شرحه الحافظ ابن رجب في جزء، وهو حديث عظيم جميل المعاني.

«من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رُضًا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

قال ابن القيم: «هذا حديث حسن، وقوله: «إن العلماء ورثة الأنبياء» هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء؛ كانوا أحق الناس بميراثهم، وفي هذا تنبيه إلى أنهم أقرب الناس إليهم، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث»^(١).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحَدِّثُ في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء، والزَّينُ عند الأَحْلَاء، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقْتَصُّ آثارُهم، ويُقْتَدَى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خدمتهم، وبأجنتها تمسحهم، يستغفر لهم كل

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٠٩).

رطب ويابس، وحيتان البحر وهوائه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصاييح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، وَيُلْهِمُهُ السَّعْدَاءُ، وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءُ»^(١).

وقال الحسن: «إن الرجل ليعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

لذا فإنه يتأكد على من رام حسن التعلق على بصيرة؛ الاجتهاد في طلب العلم لحاجته الماسة إليه، وألا يحول بينه وبين الازدياد من العلم حائل، وأن يشتد في طلبه مخلصاً ويسعى في تحصيله مُتَّبِعاً مهما استطاع سبيلاً، فليس أعظم من النبوة، والعلم ميراثها، وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يسأله جل وعلا زيادة العلم كما في قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] «قال ابن عينة: فلم يزل في زيادة ﷺ حتى مات»^(٣). فميراث النبوة علم الشريعة، وقد فاز من حازه بحقه.

«وروى ابن عبد البر أنه قيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٤/١) وقال: حديث حسن جداً، ولكن ليس له إسناد قوي. وقال الألباني في الترغيب (٤٧): موضوع ضعيف.

(٢) السابق: (٥٤/١).

(٣) تفسير ابن كثير (١٦٢/٣).

حتى الممات إن شاء الله. وقال: لعلَّ الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد. وعن ابن أبي غسان قال: لا تزال عالماً ما كنت متعلماً فإذا استغنيت كنت جاهلاً.

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم؛ لأن الخطأ منه قبيح^(١). وكلمة الإمام أحمد «مع المحبرة إلى المقبرة» قد سارت بها ركائب الصالحين.

إذا تقرر هذا؛ فإنه ما من شك في وجوب العمل بالعلم، والدعوة إلى الله فلا يتنفع صاحب علم لا عمل له بل هو سبيل الخسران كما بين الرحمن ﴿وَالْعَصْرِ﴾^(١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [سورة العصر] فقدّم العلم، وهو الإيمان ثم أعقبه بالعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، قال ابن سعدي في تفسير سورة العصر: «فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم».

وعن مالك بن أنس قال: «لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعليم». وعن الحسن قال: «إن الرجل ليعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها»، وقال سفيان الثوري: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله باب الخوض على استدامة الطلب والصبر على اللاأواء والنصب. (٤٠٦/١).

ارتحل». وعنه قال: «لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من تعليم الناس»^(١).

وإن من العمل بالعلم، تبليغه للناس ودعوتهم إلى الهدى، وقد بين الله أن الدعوة إليه هي سبيل المرسلين فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]، وهي طريق المفلحين كما قال: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد بين النبي ﷺ عظيم أجر الدعاة إلى الله فقال فيما روى مسلم^(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه».

كما دعا لهم بالنصرة، فقال: «نَصْرُ اللَّهِ امرأٌ سمع مقالتي، فوعاها وحفظها وبلغها، فَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه»^{(٣)(٤)}.

والعمل هو ثمرة العلم النافع، أما غير النافع فهو حجج يجمعها الطالب على نفسه، ورُبَّ علمٍ خيرٌ للمرء الجاهل به إن لم يصنعه عن عَجْبٍ وكبرٍ وغفلة

(١) جامع بيان العلم وفضله (٥/٢).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٠) وقال حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٤) بين يدي الحكم (١٩/١ - ٢٧) مختصراً بتصرف وزيادات.

وإعراض! فالعمل هو الغاية للعلم، ومن العلوم ما يكون في نفسه غاية كالعلم بالله تعالى وصفاته.

قال عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يخلفوها حتى يعملوا بها فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في إحدى تأملاته الرائقة: «وجدت رأي النفس في العلم حسناً، أي: النفس مقبلة على التعلم، فهي تُقدِّمه على كل شيء، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، غير أنني رأيت كثيراً ممن شغلتهُم النوافل عن العلم قد ضلُّوا، ولكن في المقابل علم بدون تطبيق ولا ممارسة، قال: رأيت نفسي واقفةً مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها، فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين التعلُّق؟ أين الحذر؟ أما سمعت بأخبار أختيار الأخبار في تعبدهم واجتهادهم؟! أما كان رسول الله ﷺ سيد الكل؟! - أي البشر - ثم أنه قام حتى ورمت قدماه؟! أما كان أبو بكر شديد الشيع كثير البكاء؟! أما كان في خدِّ عمر خطَّان من آثار الدموع؟! أما كان عثمان يُختم القرآن في ليلة؟! أما كان علي يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: «يا دنيا غُرِّي غيري»؟! أما كان الحسن يحيا على قوة التعلُّق بالله؟! أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد، فلم تفتته صلاة الجمعة أربعين سنة؟! أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر؟! أما قالت بنت الربيع بن خثيم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟! قال: إن أباك يخاف عذاب البيات،

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة وهو يقول: والله فاه سبقني العابدون وقُطِعَ بي؟! أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟! أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟! أما تعلمون أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، احذري من الإخلاد إلى صورة العلم وترك العمل به.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله». وقال حفص بن حميد: دخلت على داود الطائي أسأله عن مسألة أشكلت، وكان كريماً، فقال: أرأيت المحارب إذا أراد أن يلقي الحرب، أليس يجمع آلتَه؟ قال: نعم، قال: فإذا أفنى عمره في الآلة، فمتى يحارب؟! والعلم ليس بنافع أربابَه ما لم يُفدْ عملاً وحسن تبصُّرٍ سَيَّانٍ عندي من لم يستفد عملاً به وصلاة من لم يطهر^(١)



عوائق التعلق بالله تعالى

١ - قلة العلم بصفات تعالى وربوبيته وأفعاله وما ينبغي له.

فالجهل بالله تعالى سرُّ الآفات، وهو مفضٍ للضلال والظلام وسائر الخبيات، ويكأنَّما الجاهل بربه يعيش في حلم داخل حلم بينا هو مستيقظٌ منتبه! كلُّ ذلك من أثر غياهب الحيرة التي تعترينه، والظلام الحالك الذي يسير فيه، والقلق الموجه الذي لا يدري مصدره، والخوف الخفي والجليّ مما أمامه!

وقد ذكر الله تعالى في سورة النور مثالين لعاقبة أعمال الجهلة الكافرين به تعالى، فذكر صاحب السراب بقيعة، ويشبهه الجاهل البسيط الذي لا يعلم، ويعلم أنه لا يعلم، وذكر صاحب ظلمات البحر اللجّيّ وأمواجه والسحاب من فوقه، ويشبهه الجاهل المركّب، وهو الذي لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم! وقد شبّهت العربُ نوعي الجاهلَيْن بتوما الحكيم - بزعمه - وحماره، وأنشد بعض الظرفاء:

قَالَ حِمَارُ الْحَكِيمِ تَوَمَّا لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبُ
لَأَنْنِي جَاهِلٌ بِسَيِّطُ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبُ

فالجهل - يا صاحبي - أوّلُ العطب، والنُّجْحُ أوّلُ الطلب، وبضد الجهل الوخيم العلمُ النافع الذي يجلو الظلام، ويُنقّي القتام، ويقشعُ عن عين التقى غطاءها، ويجعل السائر للآخرة يمشي على نور وهدى وبصيرة من الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى أن أقوامًا يبتعدون عنه وهم يظنون أنفسهم إليه يسIRON

فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿[الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] وقال فيمن أراد عبادته ولكن بضلال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٢) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿[الغاشية: ٣ - ٤].

قال أبو جعفر الطبري في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] «يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجاروا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله وظهراء، جهلاً منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسب أنه هادٍ وفريق الهدى فرقاً. وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية» (١).

(١) تفسير الطبري (١٢ / ٣٨٨). فليس كل جاهل معذور بكل حال، وقد بسطت ذلك في رسالة: «ويكون الدين كله لله».

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء»^(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾: «لأنهم انقلب عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا والحق باطلاً. وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومِنَّتِهِ، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضالٌّ؛ أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى»^(٢) وقال: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ لَیْصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل،

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٢٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٢٨٦).

فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغبي، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبري من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ﴾ [الزخرف: ٣٨] كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يُؤَلِّقُ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانَا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرنائكم وأحلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه. ولن ينفعكم أيضاً، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك» (١).

وبالجملة؛ فما عصى الله تعالى إلا بجهل، وكل من عصى الله فهو جاهل

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٦٦).

إما لعدم العلم أصلاً، أو للغفلة عنه لحظة العصيان، وعدم التصوّر للعظمة والعرفان، وهو بين الجهل والجهالة، جهلاً بالعلم، أو جهالة بإعراضه عن موجهه.

وإذا تراكمت أطباق الجهل على الفؤاد؛ انطفأ نور البصيرة من القلب، فقلّ التعلق بالله تعالى أو عُدْم، وطريق الخيبة يبدأ بخطوة.

والموفق من ولد آدم هو من كان عالماً بما يستحق رب العالمين من تعظيم وتكبير وتسييح وتحميد، وكان عالماً بأسمائه الحسنی وصفاته العلی التي ذكرها الله تعالى في كتابه وذكرها رسوله ﷺ، فيثبتها بلا تمثيل ولا تكييف، ولا يعطل معانيها ويحرفها كفعل المؤولة المحرفة، فإن العلم بذلك يثمر أنفع الثمار وأبركها وأطيبها، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه وجوده وامتنانه.

٢- الإخلاق إلى الأرض، والتكاثر والتهالك على حطام الفانية.

خلق الله ابن آدم محتملةً خَلَقْتُهُ الخیر والشر، قابلاً للهدى والضلال، والسعادة والردى، وغرز له في سويدائه مع نشأته فطرةً قويمه، وهدهد برسله وكتبه لصراط مستقيم، وركب فيه غرائز، وجبّله على طبائع، وابتلاه في هذه الدار مؤقتاً، فسَلَطَ عليه تلك الغرائز ومعها وساوس الشيطان، ولكنه أعانه بعقل يقوده ويدله على خير حال ومآل، وملائكة تسدده وتدعوه له وتستغفر، ووحى يسبصر به إن أراد الرشاد، ومن وراء ذلك كله توفيقه لعبده أو خذلانه.

وطبائع بني آدم وإن اختلفت في مقادير غرائزها وشدتها وسطوتها

وضعها إلا أنها تجتمع في أمور كليّة لا يخرج عنها إنسان خلا الأنبياء، فحب الرئاسة، وحب المال بأنواعه المنقولة والسائلة، وحب النساء - وبالنسبة للنساء حب الرجال - وحب الراحة والإخلاق إلى الأرض، والتمتع بالنعيم الأرضي، وحب الضرب فيها والتكسب والحرث، وأنواع تلك الغرائز والطباع، فهذه لا يكاد يخرج عنها إنسان، ولكن يختلفون في أربعة أمور تحيط داخل وخارج الواحد منهم، وهي كالتالي:

الأولى: قوة عصفها على فؤاده، وضعفها.

الثانية: قوة احتماله لواردها، وسيطرته عليها بجوهرة عقله، ونور علمه، وقوة إرادته بإذن الله تعالى.

الثالثة: نظرتة العامة لحياته، فمنهم من قصرها على مجرد تلك الأوقات السرابية القليلة، وهي حياته في هذه الدار الدنيا، فصرف همّه وهمّته في التكاثر فيها، والتنافس لأجل تحصيلها، والولاء والبراء عليها، والغيوبة عن داره الأخرى، إما لتكذيبه وكفره بها، أو لضعف يقينه وتسلط نفسه الأمانة عليه فيها، أو لغفلته الطويلة عما يراد منه وله هنا وهناك.

ومنهم من نظر إلى حياته نظرة صحيحة؛ فتبصّر فيها، وسبرها، وعرف حالها، وأيقن أنها مجرد مرحلة ابتدائية يسيرة جدًّا مقارنة بالحياة السرمديّة الدائمة الكاملة في الدار الآخرة، فربط الدنيا بالآخرة، وجعلها معينة عليها، ومصنّعًا لبناء داره الأخرى، ومزرعة لثمار يرجو جنيها في آخرها، وحيوانًا يأمل نتاجه في دار الكرامة لدى مولاه.

الرابعة: توفيق الله لعبده أو خذلانه، فليس العلم ولا الإرادة بكافيين لتحصيل المقصود، بل الأمر راجع بالكلية إلى محض فضل الله وجوده وميته وكرمه وإحسانه، وهذا العلم وتلك الإرادة هما فرعان لتوفيق الله تعالى لمن شاء من عباده، أو لقطع مادة التوفيق عمن شاء، وربنا تعالى لا يُسئل عما يفعل، فعلمه وقدرته وحكمته ورحمته ومغفرته وعدله وغضبه وصفاته لا يحيط بها مخلوق البتة، ومهما ظهرت لنا أطراف من آثار العلم والقدرة والحكمة والرحمة والإحسان والعدل ونحوها لله تعالى؛ فهي النهاية علم قليل جداً جداً، وليس للمخلوق طاقة بإدراك ما ليس له به طاقة، فأنتى للمخلوق تجاوز ما حد له خالقه جل جلاله.

ويكفي - بحمد الله تعالى - ما ذكره من صفاته سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو قدرٌ كافٍ وافٍ شافٍ لكلٍّ مريد هدى وطالبٍ شريفٍ علمٍ، فشرَّف كل علم بشرف متعلِّقه، وعليه؛ فأشرف العلوم بإطلاق هو علم أسماء الله وصفاته وأفعاله، والقرآن العظيم من كلامه تبارك وتعالى، فتدبَّر - مُسَدِّدًا مُوَفَّقًا - آيات أسماء وصفات وأفعال وهدايات الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله، وإني ضامنٌ لك - بإذن الله تعالى - علماً لا تنقضي بركته، ولا ينقطع فضله، ولا يندم حائزُه، ولا يشبه علوم العالمين.

والمقصود أن هذه الطبائع والغرائز لا تدم ولا تمدح لذاتها، بل بما ينتج عنها من ثمار طيبة كانت أو خبيثة، وما أغلق الله باب حرام إلا وفتح بدلاً منه أبواباً للمباح والمشروع، فالحرام يفسد القلب ويُجَبِّث الروح، والحلال يطيبهما،

والدنيا كلها بحسب ذلك، فاعتبر به، وقس عليه.

قال تبارك وتعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝١٤﴾ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ [آل عمران: ١٤ - ١٥] فتأمل كيف أظهرت هاتين الآيتين الصورة كاملة، وجلّتا عن عيون أهل البصائر غشاوة الغفلة إن هم أمعنوا النظر فيها، وأنعموا تدبّرها، وكروا التفكير في معانيها وهداياتها.

فلقد ذكر الله تعالى فيها أصول حب الدنيا المركبة الغريزية ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي ركبت في غرائزهم هذه الشهوات، فأصبحت محبوبة مشتهاة لنفوسهم، ثم ذكرها وابتدأ بأخطرها وهو حب شهوة النساء، ثم أتبعها بحب الولد، ثم الأموال السائلة من الذهب والفضة وما في حكمهما من النقود، ثم بهيمة الأنعام، ثم الحرث والزرع، ثم ختم الآية بالتنبيه إلى أنها مجرد متاع، أي بلغة يتبلغ بها المسافر للدار الآخرة، والعاقل الناصح لنفسه لا يُخاطر بنهاية مصيره لأجل حطام دنيا فانية، ولا يُغامر بعاقبة مُنقلبه في سبيل ظل زائل، ولا يبذل مهجته ونفيس وقته وقليل عمره لما ليس له، وليس بباقي في يديه، وإن لم ترحل عنه تلك الشهوات وإلا رحل عنها بالسقم والوفاة! لذلك ختم هذه الآية الجامعة بطابع الوعد الرباني بحسن المرجع والمآب لمن عمروا

الآخرة ولم يهملوها، فقال جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَاقِبِ﴾ وهذا في غاية الإغراء لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم ثنى سبحانه بالنبا العظيم، وفيه تنبيه شديد وقرع هائل للعقل بأن يعقد مقارنة صحيحة بين الدارين، وأسدى لهم النصيح وأجلى البيان وأقام الحجة إذ أخبرهم صراحة أن الدار الآخرة خير من الأولى، لكنها خاصة بمن اتقى، فذكر جملة من مرغبات النفوس التي جبلت على حب الشهوات من الجنات والأنهار والنعيم المقيم والأزواج الطاهرات وفوق ذلك كله الرضوان، وهو الرغبة القصوى لخلاصة بني الإنسان، فمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلا تسل عن نعيمه وسعادته وسروره وهنائه وابتهاجه وفلاحه.

ثم ختم الآية بتوجيه أفهامهم لإحاطة علمه بهم مهما تسربلوا الحجب والستور، بأن ذكّرهم بصره وعلمه، وأنه لا تخفى عليه خافية وإن أسروها، فسّرهم وعلاانيتهم لديه سواء، فخيرٌ لتلك النفوس المبتلاة أن تصبر قليلاً عن الحرام، وتمتّع نفسها عنه بالمباح، وتعلّل شأنها بالحلال هُنيئاتٍ إلى حين، كيما تنال الفوز والفلاح والرفعة في العاقبة. فله الحمد والشكر والثناء الحسن أن أحسن لنا أولاً في هذه الدار، ثم رحماً بتنبيهنا بحسن المقارنة بين دار الابتلاء ودار البقاء، ونصحنا ببيانه الشافي أن خيراً لنا أن نعبرها كراماً لا أن نعملها غافلين.

وقال عمر رضوان الله عليه: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه». قال الحافظ - وهو عند الإطلاق ابن

حجر رحمه الله تعالى :- «وفي هذا الأثر إشارة إلى أن فاعل التزيين المذكور في الآية هو الله تعالى، وأن تزيين ذلك بمعنى تحسينه في قلوب بني آدم، وأنهم جبلوا على ذلك، لكن منهم من استمر على ما طبع عليه من ذلك وانهمك فيه؛ فهو المذموم. ومنهم من راعى فيه الأمر والنهي ووقف عند ما حُدَّ له من ذلك، وذلك بمجاهدة نفسه بتوفيق الله تعالى له؛ فهذا لم يتناوله الذم. ومنهم من ارتقى عن ذلك فزهّد فيه بعد أن قدر عليه، وأعرض عنه مع إقباله عليه وتمكّنه منه؛ فهذا هو المقام المحمود، وإلى ذلك الإشارة بقول عمر «اللّهم إني أسألك أن أنفقه في حقه». فعن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب أتى بهال من المشرق يقال له نفل كسرى، فأمر به فصبَّ وغطّي، ثم دعا الناس فاجتمعوا، ثم أمر به فكشف عنه، فإذا حلي كثير وجوهر ومتاع، فبكى عمر، وحمد الله عز وجل فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ هذه غنائم غنمها الله لنا، ونزعها من أهلها، فقال: ما فتح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرماتهم. قال فحدثني زيد بن أسلم: أنه بقي من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع، فقال له عبد الله بن أرقم: حتى متى تحبسه لا تقسمه؟ قال: بلى إذا رأيتني فارغاً فأذني به، فلما رآه فارغاً بسط شيئاً في حشّ نخلة، ثم جاء به في مكتل فصبّه. فكأنه استكثره، ثم قال: اللّهم أنت قلت: (زين للناس حب الشهوات)، فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال: لا نستطيع إلا أن نحب ما زينت لنا، فقني شرّه وارزقني أن أنفقه في حقك، فما قام حتى ما بقي منه شيء»^(١).

(١) فتح الباري لابن حجر (١٨ / ٢٥٤).

كما نبه سبحانه لمكمن داءٍ قد يخفى على بعض الأفاضل من الناس، وهو حب التكاثر، خفيًا كان الحب أو ظاهرًا، فالعرقُ ينمو للجذع فالفرع فالغصن الثمرة، وطوبى لطلاب الآخرة الذين سلّموا من حب التكاثر في العالمين.

والمرء يعلم أن سيكفيه القليل من البلغة في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه، لكنه يقفز بمناءه إلى التكثر من الدنيا، والتكاثر فيها، والتباهي بها، والتفاخر لأجلها؛ فتصيب قلبه قارعة الغفلة، وتُدخل مُهْجَتَهُ سموماً عقرب حبّ العاجلة، وينغرس في فؤاده نابُ ثعبان الأمل، إن لم يرحمه الله بإنباة وحسن تدبير لحاله ومآله.

قال سبحانه فاضحًا زيف الدنيا، منبِّها سُكَّانَهَا عن الاغترار بها جمعًا لزائلٍ وتكاثرًا بَفَانٍ: ﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿ [سورة التكاثر] قال شيخ المفسرين والمؤرخين الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «عن مطرّف عن أبيه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي - قَالَ - وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»^(١) وقوله ﷺ بعقب قراءته ﴿أَلْهَنُكُمْ﴾ ليس لك من مالك إلا كذا وكذا، ينبىء أن معنى ذلك عنده: أهاكم التكاثر:

(١) مسلم (٨/ ٢١١) (٧٦٠٩).

المال.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال؛ لابتغى ثالثاً! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(١).

وقوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٢) يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر، لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيداً منه لهم وتهديداً. وعن زِرِّ، عن عليٍّ، قال: نزلت ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر.

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) يعني تعالى ذكره بقوله: كلا ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيَكُمُ التَّكَاثُرُ. وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر غِبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٤) يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يُلْهِيَكُمُ التَّكَاثُرُ بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرّر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف

(١) البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩).

والتهديد كرّروا الكلمة مرتين.

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يقول تعالى ذكره: لو تعلمون أيها الناس علماً يقيناً، أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما أهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتكم إلى عبادته، والانتهاه إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقاً على أنفسكم من عقوبته. قال قتادة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ كنا نحدث أن علم اليقين: أن يعلم أن الله باعته بعد الموت.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٦) أي: لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة، ثم لترونها عياناً لا تغيون عنها. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧) يعني: أهل الشرك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يقول: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به.

واختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟ فقال بعضهم: هو الأمن والصحة، قاله ابن مسعود ومجاهد وسفيان والشعبي. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم لَيُسْأَلُنَّ يومئذ عما أنعم الله به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن، قاله ابن عباس قال: «النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿يُنَبِّئُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال به الحسن.

وقال آخرون: هو العافية. وقيل: بعض ما يطعمه الإنسان أو يشربه، فعن بكير بن عتيق، قال: رأيت سعيد بن جبيرة أتي بشربة عسل، فشربها، وقال: هذا النعيم الذي تُسألون عنه.

وعن جابر بن عبد الله قال: أتانا النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فأطعمناهم رطباً، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ»^(١).

وعن أبي هريرة، قال: بينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان، إذ جاء النبي ﷺ، فقال: «مَا أَجْلَسَكُمَا هَاهُنَا؟» قالا الجوع، قال: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ»، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «أَلَا كُنْتُ أَجْتَنِّتُ؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ»، فذبح لهم يومئذ، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»^(٢) وفي رواية: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ، الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مَسْئُولُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَذَا الظِّلُّ الْبَارِدُ، وَالرُّطْبُ

(١) النسائي (٣٦٤١) وأحمد (١٥٠١٣) وصححه الألباني في الروض النضير (١/٤٠٣).

(٢) مسلم (٢٠٣٨).

البارد، عَلَيْهِ الْمَاءُ الْبَارِدُ^(١).

وعن أبي عسيب، مولى رسول الله ﷺ، قال: مرَّ النبي ﷺ حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنَا بُسْرًا»، فجاء بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بهاء بارد فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا؟ قال: «نَعَمْ، إِلَّا مَنْ كَسْرَةٍ يُسَدُّ بِهَا جُوعَةً، أَوْ حُجْرَةٍ^(٢) يُدْخَلُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ»^(٣).

وعن أبي بصيرة، قال: أكل رسول الله ﷺ وناس من أصحابه أكلة من خبز شعير لم يُنْخَلْ، بلحم سمين، ثم شربوا من جدول، فقال: «هذا كله من النعيم الذي تُسْأَلُونَ عنه يوم القيامة».

وعن محمد بن محمود بن لبيد، قال: «لما نزلت ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأها حتى بلغ: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أيِّ النعيم نسأل، وإنما هو الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على عواتقنا، والعدو حاضر! قال: «إِنْ ذَلِكَ سَيَكُونُ»^(٤).

(١) تهذيب الآثار للطبري (٦٢٧).

(٢) وهو البيت لأنه يحجر ما بداخله عن الخارج، وورد بلفظ: «جحر» بتقديم الجيم، فإن صح فهو للمبالغة.

(٣) أحمد (٢١٣١٣). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٢٢١).

(٤) الترمذي (٣٣٥٧) وقال الألباني: حسن لغيره.

وعن الضحاك بن عَزْرَم، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال: رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصَحِّحْ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُرَوْ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(١).

وعن عبد الله بن سخبرة قال: ما أصبح أحد بالكوفة إلا ناعماً، إن أهونهم عيشاً الذي يأكل خبز البرّ، ويشرب ماء الفرات، ويستظلّ من الظلّ، وذلك من النعيم.

وقال آخرون: ذلك كلّ ما التذّه الإنسان في الدنيا من شيء. قال مجاهد في قول الله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: عن كل شيء من لذة الدنيا. وقال قتادة: إن الله عزّ وجلّ سائل كلّ عبد عما استودعه من نعمه وحقّه.

وكان الحسن وقتادة يقولان: ثلاث لا يُسأل عنهنّ ابن آدم، وما خلاهنّ فيه المسألة والحساب إلا ما شاء الله: كسوة يوارى بها سوءاته، وكسرة يشدّ بها صلبه، وبيت يظله.

والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم،

(١) الترمذي (٤٤٨/٥) (٣٣٥٨) وقال: غريب. والحاكم (١٥٣/٤) (٧٢٠٣) وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٢) والصحيحة (٥٣٨).

لا عن بعض دون بعض (١)» (٢).

وقد بين الله تعالى قدر الدنيا وحقيقتها وحقارتها وفناءها فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] قال أبو جعفر الطبري: «يقول: ما باغي لذات الحياة التي أذنت لكم وقربت منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها، والمنافس عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فتمر عليه وتكدر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويورثه منه ترحًا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يندم ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ﴾» يقول: وللعمل بطاعته، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرور أهلها فيها، خير من الدار التي تفنى وشيكًا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم» (٣).

وقال جل ذكره ممثلًا حقيقة الدنيا وغرورها بمثال محسوس ملموس: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرْنَهُ مُمْسَفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

(١) وهذا من اختلاف التنوع لا التضاد، فكلُّ حقٍّ وصواب.

(٢) تفسير الطبري (٢٤ / ٥٨٠ - ٥٨٦) بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري (١١ / ٣٢٩).

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿[الحديد: ٢٠]﴾ يقول تعالى ذكره: اعلموا أيها الناس أن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم، ما هي إلا لعب وهو تتفكّهون به، وزينة تتزيّنون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أولي فيها من رياسها. ﴿وَتَكَاثَرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فيباهي بعضكم بعضًا بكثرة الأموال والأولاد ﴿كَثَلِ غَيْثٍ آجَبٍ الْكُفَّارَ نَبَأَهُ ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ ثم ييس ذلك النبات. ﴿فَتَرْنَهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضر نضرا. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: نباتًا يابسًا متهشمًا. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لأهل الإيمان بالله ورسوله.

قال قتادة عند قول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ...﴾ الآية: صار الناس إلى هذين الحرفين في الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: وما زينة الحياة الدنيا المعجلة لكم أيها الناس، إلا متاع الغرور. وعن أبي هريرة قال، قال النبي ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

ثم قال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، التي أعدها الله للذين آمنوا بالله ورسوله، فضل الله تفضل به على المؤمنين،

(١) البخاري (٣٠٧٨).

والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وهو ذو الفضل العظيم عليهم، بما بسط لهم من الرزق في الدنيا، ووهب لهم من النعم، وعرفهم موضع الشكر، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ما وصف أنه أعدّه لهم^(١).

وقال سبحانه وبحمده منكرًا على من لا يعقل حقيقة الدارين ومؤثر الدنية الفانية على العالية الباقية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] قال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: «لما كان السياق للخسارة، وكانت أكثر ما تكون من اللعب - وهو فعل ما يزيد سرور النفس على وجه غير مشروع^(٢)، ويسرع انقضاؤه - قدمه فقال: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي للأشقياء، وللحياة الدنيا شر للذين يلعبون، واللهو ما من شأنه أن يعجب النفس كالغناء والزينة من المال والنساء على وجه لم يؤذن فيه، فيكون سببًا للغفلة عما ينفع، فتأخيره إشارة إلى أن الجهلة كلما فتروا في اللعب وهو اشتغال بالأمور السافلة والشواغل الباطلة بعلو النفوس أثاروا الشهوات بالملاهي، والمعنى أنه تحقق من هذه الآيات زوال الدنيا، فتحققت سرعته، لأن كل آت قريب، فحينئذ ما هي إلا ساعة لعب، يندم الإنسان على ما فرط فيها، كما يندم اللاعب - إن كان له عقل - على تفويت الأرباح إذا رأى ما حصل أولو

(١) تفسير الطبري (٢٣ / ١٩٥).

(٢) من اللعب ما يكون مشروعًا، قال رَحِمَهُ اللهُ: «كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله، فإنهم من الحق» رواه الترمذي (١٦٣٧) وقال: حسن صحيح.

الجد وأرباب العزائم.

ولما كان التقدير بما أرشد إليه المعنى: وما الدار الآخرة إلا جد وحضور وبقاء للأتقياء، أتبعه قوله مؤكداً: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ولما كان الكل مآلهم إلى الآخرة، خصص فقال: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يوجدون التقوى، وهي الخوف من الله الذي يحمل على فعل الطاعات وترك المعاصي، ليكون ذلك وقاية لهم من غضب الله، فذكر حال الدنيا وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمرة الآخرة عليه، وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه، فهو احتباك؛ ولما كان من شأن العقلاء الإقبال على الخير وترك غيره، تسبب عن إقبالهم على الفاني وتركهم الباقي قوله منكراً: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «إِنْ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتِهَا» فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت النبي ﷺ فقليل له: ما شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنه ينزل عليه، قال: فمسح عنه الرَّحْضَاءُ^(٢) فقال: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فكأنه حمده، فقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرَ بِالْشَّرِّ، وَإِنْ مِمَّا يَنْبَتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا^(٣)، أَوْ يُلْمُ، إِلَّا أَكَلَةَ الْحَضِرِ، أَكَلْتُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلُطَتْ، وَبَالَتْ،

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣/ ٤٣ - ٤٤).

(٢) الرَّحْضَاءُ: عرق الحمى، وقد رخص ورحضت الثوب: غسلته.

(٣) حبطاً: أي انتفخ من كثرة الأكل، أو من أكل ما لا يوافقه.

ورفعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل - أو كما قال النبي ﷺ - وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة»^(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: «قال المهلب: احتج قوم بهذا الحديث في تفضيل الفقر على الغنى، وليس كما تأولوه، بل هو حجة عليهم، لأن النبي ﷺ لم يخش عليهم ما يفتح عليهم من زهرة الدنيا إلا إذا ضيعوا ما أمرهم الله به من إنفاقه في حقه، وإذا كسبوه من غير وجهه.

وقوله ﷺ: «لا يأتي الخير بالشر» يعنى المال إذا كسب من وجهه وفعل به ما أمرهم الله، ثم ضرب لهم مثلاً بقوله: «وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم» يعنى أن الاستكثار من المال والخروج من حدِّ الاقتصاد فيه ضار، كما أن الاستكثار من المأكَل مسقم، ضرب هذا مثلاً للحريص على جمع المال، المانع له من حقه، والربيع تنبت فيه أحرار الشعب التي تحلوليها الماشية؛ فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها فتهلك.

وقوله: «أو يُلِمَّ» يعنى يقرب من الهلاك، يقال: ألم الشيء: قرب، وقوله: «إلا آكلة الخضر» يعنى التي تخرج مما جمعت منه ورعت ما ينفعها إخراجاً - وتبقي ما ينفعها ولا يضرها باجتراره - فهذا لا يقتلها ما رعت، فضرِبَ هذا ﷺ مثلاً لمن تصدق، وأخرج من ماله ما ينفعه إخراجاً مما لو أمسكه لضره

(١) البخاري ١٤٩/٢ (١٤٦٥) ومسلم ١٠١/٣ (١٠٥٢) (١٢٣).

إثمه كما يضر التي رعت لو أمسكت البول والغائط ولم تخرجه.

وقال^(١): الخضر ليس من أحرار البقول التي تسكثر منها الماشية فتنهكه أكلاً، ولكن من الجنبه التي ترعاها بعد هيج الشعب ويبسه، وأكثر ما رأيت العرب تقول: الخضر لما اخضر من الكلاء الذي لم يصفر، والماشية من الإبل ترتع منه شيئاً فشيئاً، فلا تستكثر منه فلا تحبط بطونها عليه، وقد ذكره طرفة، وبين أنه ينبت في الصيف فقال:

كَبَنَاتِ الْمَخْرِ يَمَّا أَذْنُ إِذَا أَنْبَتَ الصَّيْفَ عَسَالِيَجَ الْخَضِرِ

والخضر من كلاء الصيف، وليس من أحرار بَقُولِ الربيع، والنَّعْمُ لا تَسْتَوْبِلُهُ - أي لا تستوخمه وتستثقله - ، ولا تحبط بطونها عليه، وأما قوله: «وإن هذا المال خضرة» فإن العرب تسمي الشيء الحسن المشرق خضراً تشبيهاً بالنبات الأخضر الغض، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام: ٩٩] ومنه قولهم: اختضر الرجل، إذا مات شاباً، لأنه يؤخذ في وقت الحسن والإشراق، يقول: إن المال يعجب الناظرين إليه، ويحلو في أعينهم، فيدعوهم حسنه إلى الاستكثار منه، فإذا فعلوا ذلك تضرروا به، كالماشية إذا استكثرت في المرعى ثلطت، والثلط: السلح الرقيق.

وفيه: أن المكتسب للمال من غير حله غير مبارك له فيه، لقوله: «كالذي يأكل ولا يشبع» لأن الله تعالى قد رفع عنه البركة، وألقى في قلوب آكليهِ

(١) وهو الخطابي رَحِمَهُ اللهُ.

ومكتسبيه الفاقة، وقلة القناعة، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الْفَضْلَ﴾ [البقرة: ٢٧٦] فالمحق أبدا في المال المكتسب من غير الواجب.

قوله: «يكون شهيدا عليه يوم القيامة» يعنى، والله أعلم، أنه يمثل له ماله شجاعا أقرع^(١) ويأتيه في صورة تشهد عليه بالخيانة، لأنه آية معجزة، ولا أكبر شهادة من المعجزات، وفيه: أن للعالم أن يُحذّر من يجالس من فتنة المال وغيره، وينبههم على مواضع الخوف من الافتتان به، كما قال ﷺ: «إِنْ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ» فوصف لهم ما يخاف عليهم، ثم عرفهم بمداواة تلك الفتنة، وهى إطعام المسكين واليتيم وابن السبيل، وقد جاء عن النبي ﷺ أن الصدقة على اليتيم تذهب قساوة القلب^(٢).

إن التعلق بالدنيا مفض إلى ضعف التعلق بالله تعالى، فالدنيا متاع وممر، لا منزل ومستقر، والقلب بطبيعته يتعلق بما يراه مصلحة له، وإن كانت النفس مولعة بحب العاجل!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والزهد في الدنيا سبب لمحبة الله عبده، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله

(١) كما في حديث من لم يؤد زكاة ماله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَمْ يَأُدِّ حَقَّهُ؛ جُعِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَيْبَتَانِ، يَتَّبَعُهُ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ فِيهِ، فَلَا يَزَالُ يَقْضِمُهَا حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ». رواه أحمد (٧٧٤٢) والبخاري (١٢: ٢٩٤).

(٢) شرح ابن بطلال لصحيح البخاري (٦/ ٣٠-٣٣) باختصار.

دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فقال: «ازهد في الدنيا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وازهد فيما في أيدي الناس يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(١). «فأما الزهد في الدنيا، فقد كثر في القرآن الإشارة إلى مدحه، وإلى ذم الرغبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقال تعالى في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٢) وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُم تَوَاتُ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾ [القصص: ٧٩ - ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَآ مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ انْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَنِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

وقال عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وقد ذم الله مَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا بِعَمَلِهِ وَسَعِيهِ وَنِيَّتِهِ. والأحاديث في ذم الدنيا وحقارتها عند الله كثيرة جدًا، منها ما في صحيح مسلم^(٢) عن جابر أن

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه (٤١٠٢) بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٢) مُسْلِم (٢١٠/٨ - ٢١١ - ٢٩٥٧).

النَّبِيُّ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ (١) فَمَرَّ بِجَدِّي أَسْلَكَ (٢) مَيْتٍ، فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: «أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمُ؟» فَقَالُوا: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا شَيْءٌ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتَحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسْلَكُ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيْتٌ؟ فَقَالَ: «وَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ».

وفيه أيضًا (٣) عن المستورد الفهري، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «ما الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ».

وخرَّجَ الترمذي (٤) من حديث سهل بن سعد، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً».

ومعنى الزهد في الشيء: الإعراض عنه لاستقلاله، واحتقاره، وارتفاع الهمة عنه، يقال: شيء زهيد، أي: قليل حقير.

وقد تكلَّم السَّلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَتَنَوَّعتْ عِبَارَاتُهُمْ عَنْهُ، قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِي: «لَيْسَ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، إِنَّمَا الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ بِهَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِي

(١) الكَنَفُ: الْجَانِبُ وَالنَّاحِيَةُ.

(٢) الْأَسْلَكُ: صَغِيرُ الْأُذُنَيْنِ. وَقِيلَ: صَغِيرُ الْأُذُنَيْنِ مُلْتَصِقَهُمَا. وَقِيلَ: الَّذِي لَا أُذُنَانِ لَهُ، وَالَّذِي قَطَعَتْ أُذُنَاهُ.

(٣) مُسْلِمٌ ١٥٦/٨ (٢٨٥٨) (٥٥).

(٤) فِي جَامِعِهِ (٢٣٢٠) وَصَحِّحَهُ. وَكَذَا صَحِّحَهُ الْأَلْبَانِي.

يديك، وإذا أُصِبتَ بمصيبةٍ، كنتَ أشدَّ رجاءً لأجرها وذُخْرًا مِن إِيَّاهَا لو بقيتَ لك»^(١) زاد ابن أبي الدنيا: «وَأَنْ يَكُونَ مَادْحُكَ وَذَائِمُكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً»^(٢).

ففسر الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كُلُّهَا مِن أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، لَا مِن أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، ولهذا كان أبو سليمان يقول: «لَا تَشْهَدْ لِأَحَدٍ بِالزُّهْدِ، فَإِنَّ الزُّهْدَ فِي الْقَلْبِ».

أحدها: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِ نَفْسِهِ، وهذا ينشأ مِنْ صِحَّةِ الْيَقِينِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ ضَمِنَ أَرْزَاقَ عِبَادِهِ، وَتَكَفَّلَ بِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ، وَقَالَ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ، وَقَالَ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال الحسن: إِنَّ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِكَ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ.

وروي عن ابن مسعود قال: «إِنَّ أَرْجَى مَا أَكُونُ لِلرِّزْقِ إِذَا قَالُوا: لَيْسَ فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ». وَقَالَ مَسْرُوقٌ: «إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَكُونُ ظَنًّا حِينَ يَقُولُ الْخَادِمُ: لَيْسَ

(١) الزهد للإمام أحمد (٩٦).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٣ / ٨).

في البيت قفيزٌ من قمحٍ ولا درهمٌ»^(١).

وقال الإمام أحمد: «أسرُّ أيامي إلَيَّ يومُ أُصْبِحُ وليس عندي شيء»^(٢).

وقيل لأبي حازم الزاهد: ما مألُك؟ قال: «لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثِّقَةُ بالله، واليَأْسُ ممَّا في أيدي الناس»^(٣).

وقال الفضيل بن عياض^(٤): «أصلُ الزُّهد الرِّضا عَنِ الله عز وجل». وقال: «القُنُوعُ هو الزهد، وهو الغنى».

فمن حقق اليقين، وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلُّق بالخلقين رجاءً وخوفاً، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك، كان زاهداً في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا كما قال عمار: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»^(٥).

والثاني: أن يكون العبد إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه من ذهبٍ مالٍ، أو ولدٍ، أو غير ذلك، أرغبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه من الدنيا أن يبقى له،

(١) ابن أبي شيبة (٣٤٨٧١).

(٢) صفة الصفوة (٣٤٥/٢).

(٣) الدينوري في المجالسة (٩٦٣) وأبو نعيم في الحلية (٢٣١/٣ - ٢٣٢).

(٤) الدينوري في المجالسة (٩٦٠).

(٥) البيهقي في شعب الإيَّان (١٠٥٥٦).

وهذا أيضًا ينشأ من كمال اليقين.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اقسّم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»^(١) وهو من علامات الزهد في الدنيا، وقلة الرغبة فيها، كما قال علي رضي الله عنه: «من زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب».

والثالث: أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق، وهذا من علامات الزهد في الدنيا، واحتقارها، وقلة الرغبة فيها، فإن من عظمت الدنيا عنده أحب المدح وكره الذم، فربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق؛ دلّ على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه من محبة الحق، وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود: «اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله». وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

وقال الحسن: «الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هو أفضل مني». وهذا يرجع إلى أن الزاهد حقيقةً هو الزاهد في مدح نفسه وتعظيمها، ولهذا يقال: الزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة، فمن أخرج من قلبه حب الرياسة في الدنيا، والترفع فيها على الناس، فهو الزاهد حقًا، وهذا هو الذي

(١) الترمذي (٣٥٠٢). وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦).

يستوي عنده حامدٌ وذامٌ في الحق.

وسئل الإمام أحمد عمَّن معه مَالٌ: هل يكون زاهداً؟ قال: «إِنْ كَانَ لَا يَفْرَحُ بِزِيَادَتِهِ وَلَا يَحْزَنُ بِنَقْصِهِ».

وقال سفيان الثوري: «الزهد في الدنيا قِصْرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء»^(١) وقال: كان من دعائهم: «اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا، وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا، وَلَا تَزَوِّهَا عَلَيْنَا، فَتَرْغَبْنَا فِيهَا». وكذا قال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قِصْرُ الأمل واليأس مما في أيدي الناس».

ووجه هذا أَنَّ قِصْرَ الأملِ يُوجِبُ مَحَبَّةَ لقاء الله بالخروج من الدنيا، وطول الأمل يقتضي مَحَبَّةَ البقاء فيها، فمن قَصَرَ أمله، فقد كره البقاء في الدنيا، وهذا نهاية الزهد فيها، والإعراض عنها، واستدل ابن عيينة لهذا القول بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الدُّنْيَا أَلَا يَكْفِيكُمْ فِيهَا خُزُنُكُمْ أَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَأْوٰتٌ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

وأفضل الزهد: الزهد في الشرِّ، وفي عبادة ما عُبِدَ من دُونِ الله، ثمَّ الزهد في الحرام كُلِّهِ من المعاصي، ثمَّ الزهد في الحلال، وهو أَقْلُ أقسام الزهد، فالقسمان الأولان من هذا الزهد، كلاهما واجبٌ، والثالث: ليس بواجبٍ، فَإِنَّ أعظم الواجبات: الزهد في الشرِّ، ثم في المعاصي كُلِّها. وكان بكرُّ المزني يدعو

(١) وكيع في الزهد ١/٢٢٢ (٦).

لإخوانه: «زهدنا الله وإياكم زهداً من أمكنه الحرام والذنوب في الخلوات، فعلم أن الله يراه فتركه».

واعلم أن الذمّ الوارد في الكتاب والسنة للدنيا ليس هو راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله جعلهما خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً. ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: «إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما». وكان يقول: «اعملوا الليل لما خلق له، والنهار لما خلق له».

وليس الذمّ راجعاً إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مهاداً وسكناً، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشجر والزرع، ولا إلى ما بثّ فيها من الحيوانات وغير ذلك، فإن ذلك كله من نعمة الله على عباده بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيّة صانعه وقدرته وعظمتِهِ، وإنّما الذمّ راجعٌ إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأنّ غالبها واقعٌ على غير الوجه الذي تُحمدُ عاقبته، بل يقعُ على ما تضرُّ عاقبته، أو لا تنفع، كما قال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

والمنتسبون إلى شرائع المرسلين منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

فالظالم لنفسه: هم الأكثرون منهم، وأكثرهم وقف مع زهرة الدنيا

وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همٍّ، لها يغضب، وبها يرضى، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وكلُّهم لم يعرف المقصود من الدنيا، ولا أنّها منزل سفرٍ يتزوّد منها لما بعدها من دار الإقامة، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيماناً مجملاً، فهو لا يعرفه مفصلاً، ولا ذاق ما ذاقه أهل المعرفة بالله في الدنيا ممّا هو أنموذج ما أدخر لهم في الآخرة.

والمقتصد منهم أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدّى واجباتها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب، يتوسّع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء قد اختلف في دخولهم في اسم الزهادة في الدنيا كما سبق ذكره، ولا عقاب عليهم في ذلك، إلاّ أنّه ينقص من درجاتهم من الآخرة بقدر توسّعهم في الدنيا^(١).

قال ابن عمر: «لا يصيبُ عبدٌ من الدنيا شيئاً إلاّ نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريماً»^(٢).

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده: أنّ رجلاً دخل على معاوية، فكساه، فخرج فمرّ على أبي مسعود الأنصاري ورجل آخر من الصحابة، فقال أحدهما له: خذها من حسناتك، وقال الآخر: من طبيّاتك.

(١) وهذا ملحظ في غاية الخطر، فلينبه له المتقون الموفقون.

(٢) خرّجه ابن أبي الدنيا بإسناد جوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٣ / ١٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٢٠) وانظر: هناد في الزهد (٥٥٧) وأبو نعيم في الحلية ١ / ٣٠٦.

وبإسناده عن عمر قال: «لولا أن تنقص حسناتي لخالطتكم في لين عَيْشِكُمْ، ولكنني سمعت الله عَيَّرَ قومًا، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»^(١).

وقال الفضيل بن عياض: «إن شئت استقل من الدنيا، وإن شئت استكثر منها فإنما تأخذ من كيسك».

ويشهد لهذا أن الله عز وجل حَرَّمَ على عباده أشياء من فضول شهوات الدنيا وزينتها وبهجتها، حيث لم يكونوا محتاجين إليه، وأدَّخره لهم عنده في الآخرة، وقد وقعت الإشارة إلى هذا بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِك لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة»^(٢) و«من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»^(٣).

قال وهب: إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: «إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العرة، وما

(١) الطبري في تفسيره (٢٤١٩٦) بنحوه.

(٢) البخاري ١٩٣/٧ (٥٨٣٢)، ومسلم ١٤٢/٦ - ١٤٣ (٢٠٧٣).

(٣) البخاري ١٣٥/٧ (٥٥٧٥)، ومسلم ١٠٠/٦ (٢٠٠٣).

ذلك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا»^(١).

ويشهد لهذا ما خرّجه الترمذي عن قتادة بن النعمان، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَمَاهُ عَنِ الدُّنْيَا، كَمَا يَظُلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ»^(٢) وفي صحيح مسلم^(٣) عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».

وأما السَّابِقُ بالخيرات بإذن الله، فهم الَّذِينَ فَهِمُوا الْمِرَادَ مِنَ الدُّنْيَا، وَعَمِلُوا بِمَقْتَضَى ذَلِكَ، فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَسْكَنَ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال بعض السلف: أيهم أزهّد في الدُّنْيَا، وأرغب في الآخرة، وجعل ما في الدُّنْيَا مِنَ الْبَهْجَةِ وَالنُّصْرَةِ مُحَنَّةً، لينظر من يقف منهم معه، ويركن إليه، ومن

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ١١/١ - ١٢ من طرق عن ابن عباس، بنحوه. والعرة: هي ذرق الطير، وعذرة الناس، والبر، والسرّجين ونحوها مما يُستقذر.

(٢) الترمذي (٢٠٣٦) وحسنه، وابن حبان (٦٦٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٣) ٢١٠/٨ (٢٩٥٦).

ليس كذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) ثم بيّن انقطاعه ونفاده فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨) [الكهف: ٧-٨]، فلمّا فهموا أنّ هذا هو المقصود من الدنيا، جعلوا همّهم التزوّد منها للآخرة التي هي دار القرار، واكتفوا من الدنيا بما يكفي به المسافر في سفره، كما كان النبي ﷺ يقول: «ما لي وللدنيا، إنّما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها»^(١).

ووصّى ﷺ جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، منهم: سلمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو ذرّ، وعائشة، ووصّى ابن عمر أن يكون في الدنيا كأنّه غريب أو عابر سبيل^(٢) وأنّ يعدّ نفسه من أهل القبور.

وأهل هذه الدرجة على قسمين: منهم من يقتصر من الدنيا على قدر ما يسدّ الرّمق فقط، وهو حال كثير من الزّهاد. ومنهم من يفسح لنفسه أحياناً في تناول بعض شهواتها المباحة؛ لتقوى النفس بذلك، وتنشط للعمل، كما روي عن النبي ﷺ: أنّه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣).

(١) أحمد ٣٩١/١ و ٤٤١، وابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧) وصححه.

وصححه أيضاً أحمد شاكر في تخريج المسند.

(٢) البخاري ١١٠/٨ (٦٤١٦).

(٣) خرّجه الإمام أحمد (١٢٨/٣ و ١٩٩ و ٢٨٥) من حديث أنس. وصححه ابن القيم

وقال وهب: مكتوبٌ في حكمة آل داود عليه السلام: «ينبغي للعاقل أن لا يَغْفَلَ عن أربع ساعاتٍ: ساعةٌ يُحَاسِبُ فيها نفسه، وساعةٌ يُنَاجِي فيها ربَّه، وساعةٌ يلقي فيها إخوانه الذين يُخْبِرُونَهُ بعيُوبِهِ، ويصدقونه عن نفسه، وساعةٌ يُخَلِّي بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ويحمل، فإنَّ في هذه السَّاعةِ عونًا على تلك الساعات، وفضلٌ بُلغةٍ واستجمامًا للقلوب»^(١) يعني: ترويحًا لها.

ومتى نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التَّقَوِّي على الطاعة كانت شهواته له طاعة يُثَابُ عليها، كما قال معاذ بن جبل: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»^(٢) يعني: أنَّه ينوي بنومه التَّقَوِّي على القيام في آخر الليل، فيحتسبُ ثوابَ نومِهِ كما يحتسبُ ثوابَ قيامه.

وقال سعيد بن جبير: «متاعُ الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنَّه متاعٌ بلاغٌ إلى ما هو خيرٌ منه»^(٣).

وعن علي رضي الله عنه: «نعمتِ الدَّارُ الدُّنيا لمن تزوَّد منها لآخرته حتَّى يُرَضِيَ ربَّه، وبُستِ الدَّارُ لمن صدَّته عن آخرته، وقصَّرت به عن رضا ربَّه،

في الزاد (٣٠٨/٤) وقوى سنده الذهبي في ميزان الاعتدال (١٧٧/٢) وصححه

الأرنؤوط في تخريج جامع العلوم والحكم (١٩٠/٢).

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٧٧) و(٤٦٧٨).

(٢) عبد الرزاق (٥٩٥٩)، وأحمد (٤٠٩/٤).

(٣) نعيم بن حماد في زوائد على الزهد لابن المبارك (١٤٠).

وإذا قال العبد: قَبَّحَ اللهُ الدُّنْيَا، قالت الدُّنْيَا: قَبَّحَ اللهُ أعصانا لرَبِّهِ»^(١).

وقال بعضُ الحكماء: «الدُّنْيَا أمثالُ تَضَرُّبِهَا الْإَيَّامُ»^(٢) لِلْأَنَامِ، وَعِلْمُ الزَّمَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَرْجُمَانٍ، وَبِحَبِّ الدُّنْيَا صُمَّتْ أَسْمَاعُ الْقُلُوبِ عَنِ الْمَوَاعِظِ، وَمَا أَحْتَسَّ السَّائِقُ لَوْ شَعَرَ الْخَلَائِقُ!».

وأهل الزُّهْدِ فِي فَضُولِ الدُّنْيَا أَقْسَامٌ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْصِلُ لَهُ، فَيُمْسِكُهُ وَيَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ، قَالَ أَبُو سَلِيحَانَ: «كَانَ عَثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ خَازِنَيْنِ مِنْ خَزَانِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، يُنْفِقَانِ فِي طَاعَتِهِ، وَكَانَتْ مَعَامِلَتُهُمَا لِلَّهِ بِقُلُوبِهِمَا»^(٣).

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُهُ مِنْ يَدِهِ، وَلَا يُمَسِكُهُ، وَهَؤُلَاءِ نَوْعَانِ: مِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُهُ اخْتِيَارًا وَطَوَاعِيَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُهُ وَنَفْسُهُ تَأْبَى إِخْرَاجَهُ، وَلَكِنْ يُجَاهِدُهَا عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَيِّهِمَا أَفْضَلُ، فَقَالَ ابْنُ السَّيِّدِ وَالْجَنِيدُ: الْأَوَّلُ أَفْضَلُ، لِتَحَقُّقِ نَفْسِهِ بِمَقَامِ السَّخَاءِ وَالزُّهْدِ، وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: الثَّانِي أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ لَهُ عَمَلًا وَمُجَاهَدَةً. وَفِي كَلَامِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا^(٤).

(١) وروى مرفوعاً في المستدرک (٤/٣١٢ - ٣١٣) وفيه مجهول، فلا يثبت.

(٢) لأن الأيام هي قالب الزمن التي تجري فيه أقدار الله تعالى، فنسبها إليها - استعارة - لا على أنها الفاعلة. وهذا كثير في كلامهم، والأولى تركه.

(٣) أبو نعيم في الحلية (١٠/٥٦).

(٤) وذكر ابن كثير في تفسير سورة الحجرات عن كتاب الزهد للإمام أحمد عن مجاهد قال: كُتِبَ إِلَى عَمْرِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ لَا يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَفْضَلَ أَمْ

ومنهم من لم يحصل له شيءٌ من الفضول، وهو زاهدٌ في تحصيله، إمَّا مع قدرته، أو بدونها، والأوَّل أفضلٌ من هذا، ولهذا قال كثيرٌ من السلف: «إنَّ عمرَ ابن عبد العزيز كان أزهدَ من أويس ونحوه»، كذا قال أبو سليمان^(١) وغيره. وكان مالكُ بن دينار يقول: «الناسُ يقولون: مالكٌ زاهدٌ، إنَّما الزَّاهدُ عمر ابن عبد العزيز»^(٢).

وقد اختلف العلماء أيُّها أفضل: من طلب الدنيا من الحلال، ليصل رحمه، ويقدم منها لنفسه، أم من تركها فلم يطلبها بالكُلِّيَّة؟ فرجَّحت طائفةٌ من تركها وجانبها، منهم الحسن وغيره، ورجَّحت طائفةٌ من طلبها على ذلك الوجه، منهم النخعي وغيره، وروي عن الحسن عنه نحوه.

والزاهدون في الدنيا بقلوبهم لهم ملاحظٌ ومشاهدٌ يشهدونها، فمنهم من يشهد كثرة التعب بالسَّعي في تحصيلها، فهو يزهد فيها قصدًا لراحة نفسه. قال الحسن: «الزُّهد في الدنيا يُريح القلب والبدن».

ومنهم من يخاف أن ينقصَ حظُّه من الآخرة بأخذ فضول الدنيا. ومنهم

رجُلٌ يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ الْمُعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) أبو نعيم في الحلية (٢٧٢/٩).

(٢) أبو نعيم في الحلية (٢٥٧/٥).

من يخافُ من طُولِ الحسابِ عليها، قال بعضهم^(١): «من سأل الله الدُّنيا، فإنَّها يسأل طوْلَ الوُقوفِ للحساب».

ومنهم من يشهدُ كثرةَ عُيوبِ الدُّنيا، وسرعةَ تقلُّبِها وفنائها، ومزاحمةَ الأراذلِ في طلبها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهَّدَكَ في الدُّنيا؟ قال: «قلَّةُ وفائها، وكثرةُ جفائها، وخسةُ شركائها».

ومنهم من كان ينظر إلى حقارةِ الدُّنيا عند الله، فيقذرُها، كما قال الفضيلُ: «لو أنَّ الدُّنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالاً لا أحاسب بها في الآخرة، لكنت أتقذرُها كما يتقذرُ الرَّجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيبَ ثوبه»^(٢).

ومنهم من كان يخافُ أن تشغله عن الاستعدادِ للآخرة والتزوُّدِ لها. قال الحسن: «إنَّ كان أحدهم ليعيش عمره مجهوداً شديداً الجهد، والمالُ الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتُصيب منه؟ فيقول: لا والله لا أفعل، إنِّي أخافُ

(١) أبو نعيم في الحلية ٣٣٧/٨ من قول بشر بن الحارث.

(٢) أبو نعيم في الحلية ٨٩/٨، وفي قوله رَحِمَهُ اللهُ نَظَرَ، فقد بُسِطَتِ الدُّنيا على بعض النبيين كداود وسليمان عليهما السلام، ولو كانت كذلك لنزههما الله منها، وكذلك بعض الصحابة كعثمان وعبد الرحمن والزبير وغيرهم وفيهم أسوة. وإن كانت السلامة لا يعدها شيء، وقد زواها الله عن سادة أنبيائه، لكن المقام مقام مقارنة وبيان، وأنعم بالدنيا إن قرَّبت لرضوان الله، وبُست إن أبعدت عنه، والبقية تفاصيل، وغايتها تحصيل التقوى لأهل الفلاح، والخذلان لمن هم له أهل، والله المستعان.

أَنْ آتِيَه، فَأَصِيبَ مِنْه، فَيَكُونُ فَسَادَ قَلْبِي وَعَمَلِي»^(١).

وُبُعِثَ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ بِهَالٍ، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بَكَاءُهُ، وَقَالَ: «خَشِيتُ أَنْ تَغْلِبَ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِي، فَلَا يَكُونُ لِلْآخِرَةِ فِيهِ نَصِيبٌ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ، فَتُصَدِّقَ بِهِ عَلَى فَقَرَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وخواص هؤلاء یخشى أَنْ یشتغل بها عن الله.

وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: «الزَّهْدُ تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ». وَقَالَ: «كُلُّ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللَّهِ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ فَهُوَ مَشْغُومٌ». وَقَالَ: «أَهْلُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا عَلَى طَبَقَتَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ فِيهَا رُوحُ الْآخِرَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا زَهَدَ فِيهَا فَتَحَ لَهُ فِيهَا رُوحُ الْآخِرَةِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْبَقَاءِ لِيُطِيعَ اللَّهَ». وَقَالَ: «لَيْسَ الزَّاهِدُ مَنْ أَلْقَى هُمُومَ الدُّنْيَا، وَاسْتَرَحَ مِنْهَا، إِنَّهَا الزَّاهِدُ مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا، وَتَعَبَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ»^(٢).

فَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرَادُّ بِهِ تَفْرِيقُ الْقَلْبِ مِنَ الْإِشْتَغَالِ بِهَا؛ لِيَتَفَرَّغَ لِطَلْبِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْقَرَبِ مِنْهُ، وَالْأُنْسِ بِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَيْسَتْ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣).

(١) أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٦/٢٦٩).

(٢) انظر: الْحَلِيَّةُ لِأَبِي نَعِيمٍ (٩/٢٥٨، ٩/٢٦٤، ٩/٢٧٤، ٩/٢٧٣).

(٣) النَّسَائِيُّ (٣٩٣٩) وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (٢/١٧٤) وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ =

وقال ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(١).

فالدُّنْيَا وَكُلُّ مَا فِيهَا مَلْعُونَةٌ، أَي: مُبْعَدَةٌ عَنِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا تَشْغُلُ عَنْهُ، إِلَّا الْعِلْمَ النَّافِعَ الدَّالَّ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَطَلَبَ قُرْبِهِ وَرِضَاهُ، وَذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ تَمَّا يُقَرِّبُ مِنَ اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ عِبَادَهُ بِأَنْ يَتَّقُوهُ وَيُطِيعُوهُ، وَلَا زِمَ ذَلِكَ دَوَامُ ذِكْرِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «تَقْوَى اللَّهِ حَقٌّ تَقْوَاهُ أَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى»^(٢).

وإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ أَقَامَ الصَّلَاةَ لَذِكْرِهِ، وَكَذَلِكَ الْحَجَّ وَالطَّوْفَ. وَأَفْضَلُ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ فِيهَا، فَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا الْمَذْمُومَةِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِجَادِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولنرجع إلى شرح حديث: «ازهد في الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ»^(٣) فهذا الحديث يدلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الزَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يُحِبُّ الدُّنْيَا

ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٥) و (١١ / ٣٤٥). ومَرَّ قَرِيبًا.

(١) خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَه (٤١١٢) وَالتِّرْمِذِي (٢٣٢٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَحَسَنُهُ الْأَرْنَؤُوط.

(٢) الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ (٥٩٥٧).

(٣) ابْنُ مَاجَه (٤١٠٢) بِسَنَدٍ حَسَنٍ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي.

ويؤثرها على الآخرة، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والمراد حبُّ المال، فإذا ذمَّ من أحبَّ الدنيا دلَّ على مدح مَنْ لا يحبُّها، بل يرفضها ويتركها.

وفي المسند^(١) عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ، قال: «من كانت الدنيا همه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

قال الحسن: «من أحبَّ الدنيا وسرّته، خرج حبُّ الآخرة من قلبه»^(٢)»^(٣).

وقال عون بن عبد الله: «الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان بقدر ما ترجح إحداهما تخفُّ الأخرى»^(٤).

وقال وهب: «إنما الدنيا والآخرة كرجلٍ له امرأتان: إن أَرْضَى إحداهما

(١) مسند أحمد (١٨٣/٥) بسند صحيح، وابن ماجه (٤١٠٥)، والطبراني في الكبير

(٤٨٩١) و(٤٩٢٥)، وصححه ابن حبان (٦٨٠).

(٢) أي يخرج من قلبه جزء من حب الآخرة بقدر حبه للدنيا، لأن المحل واحد والمحبة متباينة.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧٩/٧ و٢٢/١٠ من قول سفيان الثوري.

(٤) أبو نعيم في الحلية (٢٥١/٤).

أسخط الأخرى»^(١).

وبكلِّ حالٍ، فالزُّهد في الدُّنيا شعارُ أنبياءِ الله وأوليائه وأحبابه، قال عمرو بن العاص: «ما أبعدَ هديكم من هدي نبيكم ﷺ، إنه كان أزهدَ النَّاسِ في الدُّنيا، وأنتم أرغبُ النَّاسِ فيها»^(٢).

وقال ابن مسعود لأصحابه: «أنتم أكثرُ صومًا وصلاةً وجهادًا من أصحاب محمد ﷺ، وهُم كانوا خيرًا منكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدُّنيا، وأرغبَ منكم في الآخرة»^(٣).

وقال أبو الدرداء: «لئن حلفتُ لي على رجلٍ أنه أزهدُكم، لأحلفنَّ لكم أنه خيرُكم»^(٤).

الوصية الثانية: الزُّهدُ فيما في أيدي الناس، وأنه موجبٌ لمحبةِ الناس.

قال الحسن: «لا تزالُ كريماً على الناس، ما لم تعاطَ»^(٥) ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك، استخفُّوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك»^(٦).

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٧).

(٢) الحاكم ٣١٥/٤، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥١٩) و(١٠٦٩٩).

(٣) الحاكم ٣١٥/٤، وأبو نعيم في الحلية (١٣٦/١).

(٤) ابن المبارك في الزهد (٥٥٠).

(٥) أي تستشرف له وتطلبه.

(٦) أبو نعيم في الحلية (٢٠/٣).

وقال أيوب السَّخْتِيَانِي: «لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَصْلَتَانِ: الْعِفَّةُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالتَّجَاوُزُ عَمَّا يَكُونُ مِنْهُمْ»^(١).

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر: «إِنَّ الطَّمْعَ فَقْرٌ، وَإِنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَيْسَ مِنَ الشَّيْءِ اسْتَغْنَى عَنْهُ»^(٢).

وروي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ لَقِيَ كَعْبَ الْأَحْبَارِ عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا كَعْبُ، مَنْ أَرْبَابُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ، قَالَ: فَمَا يَذْهَبُ بِالْعِلْمِ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ إِذْ حَفَظُوهُ وَعَقَلُوهُ؟ قَالَ: يُذْهَبُ الطَّمْعُ، وَشَرُّهُ النَّفْسُ، وَتَطَلُّبُ الْحَاجَاتِ إِلَى النَّاسِ. قَالَ: صَدَقْتَ^(٣).

وقد تكاثرت الأحاديثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالْإِسْتِعْفَافِ عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ، فَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ مَا بِأَيْدِيهِمْ، كَرِهُوهُ وَأَبْغَضُوهُ؛ لِأَنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ لِنَفْسِ بَنِي آدَمَ، فَمَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَا يُحِبُّونَهُ، كَرِهُوهُ لذلِكَ.

وأما مَنْ كَانَ يَرَى الْمِنَّةَ لِلسَّائِلِ عَلَيْهِ، وَيَرَى أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ لَهُ عَنْ مُلْكِهِ كُلِّهِ، لَمْ يَفِ لَهُ بِبَذْلِ سَوَالِهِ لَهُ وَذِلَّتِهِ لَهُ، أَوْ كَانَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: ثِيَابُكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ أَحْسَنَ مِنْهَا عَلَيْكُمْ، وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَحْسَنَ مِنْهَا تَحْتَكُمْ، فَهَذَا نَادِرٌ جَدًّا

(١) أبو نعيم في الحلية ٥/٣ بنحوه.

(٢) أبو نعيم في الحلية (٥٠/١).

(٣) ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٦/٢ بنحوه مُختَصَرًا.

من طباع بني آدم، وقد انطوى بساطُ ذلك من أزمانٍ متطاولةٍ^(١)!

وأما من زهد فيما في أيدي الناس، وعَفَّ عنهم، فإِنَّهم يُحِبُّونه ويُكْرِمونه لذلك ويسود به عليهم، كما قال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيِّدُ أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: «احتاجَ الناسُ إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم»^{(٢)(٣)}.

٣- اتباع الهوى.

الهوى هو الرغبة، وغالبًا ما يطلق على رغبة الشر لا الخير، وقيل إنها سَمِّيَ هوىً لأنه يهوي بصاحبه في المهالك والمتالف، ويوردها المخاسر والمعاطب. وقد ذكره الله تعالى في القرآن في معرض الذم والنهي، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ﴾ [النساء: ١٣٥] أي أن الهوى قائد للضلال وغضب الله، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍو خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

(١) في الأمة خير كثير، ولا يخلو زمان من صالحين فضلاء، وزاهدين عظماء، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره» رواه ابن حبان في صحيحه (٧٢٢٦) والترمذي (٢٨٦٩) وأحمد (١٢٣٢٧) قال ابن تيمية: «معناه أن يكون في آخر الأمة من يقارب أولها حتى يشبهه على بعض الناس أيها خير، كما يشبهه على بعض الناس طرفا الثوب، مع القطع بأن الأول خير من الآخر». الفتاوى (٣٠٦/١٨).

(٢) أبو نعيم في الحلية ١٤٧/٢ - ١٤٨ بنحوه مُختَصَرًا.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ١/١٩٢ - ١٩٩ وما مضى مختصر منه.

بَصَرِهِ غَشَوَهُ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣] قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحق الذي له الألوهة من كل شيء، قال قتادة في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: لا يهوي شيئاً إلا ركبته، لا يخاف الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: وخذله عن محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءت كل آية، وعن ابن عباس: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يقول: أضله الله في سابق علمه.

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: وطبع على سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى. ﴿وَقَلْبِهِ﴾ أي: وطبع أيضاً على قلبه، فلا يعقل به شيئاً، ولا يعي به حقاً. ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَوَةً﴾ أي: وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج الله، فيستدل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره. ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة الرشاد بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً» (١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: «يقول: وأما من خاف مسألة الله إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتقاه

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٧٥-٧٧) مختصراً.

بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) أي: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) أي: فإن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٩) [الرحمن: ٤٦ - ٤٩] يقول تعالى ذكره: ولمن اتقى الله من عباده - فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه - جنتان، يعني بستانين.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ وعد الله جل ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأدّوا فرائضه الجنة. وقال: هو من خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله، وترك معصيته. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ هو الرجل يهمل بالذنب، فيذكر مقام ربه فينزع، فله جنتان. وقال قتادة: إن المؤمنين خافوا ذاكم المقام فعملوا له، ودانوا له، وتعبّدوا بالليل والنهار، إن لله مقامًا قد خافه المؤمنون» (١).

ولما كان الهوى مهلكة كان الهدى فلاحًا، قال الله تعالى في وصف أهل الهدى الذين آثروا الله والدار الآخرة على حطام الدنيا وهواها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٢-٥٨، ٢٤ / ٢١٢).

﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

«قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلّون إذا غابوا^(١)، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فزعت وخافت. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أو امره، وترك زواجه. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] قال

(١) جاء رجل إلى حذيفة فقال: يا أبا عبد الله؛ إني أخشى أن أكون منافقاً! قال: «تصلّي إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنت؟» قال: نعم، قال: «اذهب فما جعلك الله منافقاً» تاريخ دمشق (٦٦٦٦) والترغيب والترهيب (١٦٧/١).

السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهم بمعصية - فيقال له: اتق الله فيجُلُّ قلبه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله^(١)، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما

(١) بمعنى أن الله يعولهم ويرزقهم. وعند البزار (٣٣١٥) والطبراني في الأوسط (٥٥٤١) والبيهقي في الشعب (٧٠٤٨) من حديث ابن مسعود: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله من أحسن إلى عياله» قال الجلو في كشف الخفاء (١/٤٥٧): «له طرق بعضها يقوي بعضاً» ووثق رجاله السفاريني الحنبلي في شرح كتاب الشهاب (٥٦٦).

هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضّل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء»، قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١).

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(٢) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما

(١) البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المسند (٦١/٣) وسنن أبي داود (٣٩٨٧) وسنن الترمذي (٣٦٥٨) وسنن ابن ماجه (٩٦). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧٩) والأرناؤوط في تحريج المسند (١١٩٣٩).

ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا».

وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» (١) (٢).

وقياد النفس هُداها خير لها من اتباع هواها، والحازم حقًا هو من أجم نفسه عن الردى، وخطمها بالهدى، فلا تحرن عن طاعة، ولا تجمع لعصيان. وتأمل قول الله تعالى في وصف المؤمن بأنه ينهى، فهو ذو نُهيَّة وعقل، وذو رأي وحزم، قال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها عن المعاصي والمحارم، فاتق المحارم تكن أعبد الناس.

وقال سهل: «ترك الهوى مفتاح الجنة»، لقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ ثَمُودُ﴾ قال عبد الله بن مسعود: «أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمان» (٣). فمأوى ذلك التقى هو جنات النعيم: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤) أي المنزل (٤).

(١) البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ١١) (٧ / ٥٠١ - ٥٠٧) مختصرًا.

(٣) تفسير القرطبي (١٩ / ٢٠٨) وانظر كذلك: تفسير البغوي (٨ / ٣٣٠).

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والآيتان نزلتا في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسر يوم

وقال الله مبيّنًا أن سبب المخالفة هو الهوى المستحكم في النفس الضالة

بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه وبيّتوه عندهم، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه، فقال: ما هو لي بأخ، شدّوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليًا ومالًا. فأوثقوه حتى بعثت أمه في فدائه.

ووقى مصعب بن عمير رسول الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه - وهي السهام - فلما رآه رسول الله ﷺ مُتَشَحِّطًا في دمه قال: «عند الله أحسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما، وإن شراك نعليه من ذهب». وقيل: إن مصعب ابن عمير قتل أخاه عامرًا يوم بدر. وعن ابن عباس أيضًا قال: نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزومي ومصعب بن عمير البدري.

وقال السدي: نزلت هذه الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام، وكان يسأله من أين أتيت بهذا، فأثامه يومًا بطعام فلم يسأل وأكله، فقال له غلامه: لم لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام. فقال: تكهنتُ لقوم في الجاهلية فأعطوني. فتقيأه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبسته، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾.

وقال الكلبي: نزلت في من هم بمعصية وقدر عليها في خلوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عباس، يعني من خاف عند المعصية مقامه بين يدي الله، فانتهى عنها، والله أعلم. تفسير القرطبي (١٩ / ٢٠٨).

قلت: والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الوعد الكريم عام لكل من نهى نفسه عن هواها، وألزمها هداها، مخلصًا وجهه لله وهو محسن.

الظالمه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] «فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحج: ١٨ - ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها، وأوحى إليه العمل بها، وأمر الأمة بها، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول ونهى عن الثاني»^(١).

وجمع سبحانه. محذراً سبيل الهالكين. بين الاستمتاع بالخلق^(٢) وبين الخوض بالباطل فقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ

(١) إعلام الموقعين (١ / ٤٧ - ٤٨).

(٢) الخلاق: هو الحظ والنصيب.

مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّمٍ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿التوبة: ٦٩﴾ «لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذِّبَت الرسل، وعُصِيَ الرب، ودُخِلَت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتنه البدع فنفاها، والدنيا فأبأها. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر ترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات. وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل

الكامل عند حلول الشهوات^(١).

فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله^(٢).

والموفق من يطلب الهدى طلباً صادقاً من الله، ويضرع إليه ويسأله أن يكفيه شر نفسه وهواه، وأن يعيده من الشيطان ومن الزيف والعصيان بعد الهدى والإيمان، «قال تعالى عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾»^(٣) [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب: ٢٥١/٢ (١٠٨٠، ١٠٨١) وفيه عمر بن حفص العبدي وهو متروك. قال العراقي في تخريج الإحياء (١٣٤/٥): «فيه حفص بن عمر العدني، ضعفه الجمهور».

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٣٦-١٣٧) وانظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٨) وما بعدها.

(٣) قال ابن باز رحمه الله: «هذا دعاء الراسخين في العلم».

وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُم وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عام مطلق وقوله: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاص بأهل اليقين. ونظير ذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُم وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقد أخبر أنه^(١) هدى عام لجميع المكلفين فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣] فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة. وهي فعيلة بمعنى مفعلة. أي مبصرة لمن تبصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: مبينة موجبة للتبصر.

فالقرآن بصيرة وتبصرة وهدى وشفاء ورحمة بمعنى عام وبمعنى خاص، ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين وموعظة للمتقين، وهدى للمتقين وشفاء للعالمين وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدى ورحمة وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل، وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة.

(١) أي: القرآن.

وكذلك الهدى فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنها يهتدى به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون.

ومن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتدياً، كما في الأثر: «من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله تعالى إلا بعداً». ولكن يسمى هدى لأن من شأنه أن يهدي. والله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به، فالله الهادي وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله ﷺ.

فهنا ثلاثة أشياء: فاعل وقابل وآلة، فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلب العبد، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل. والله سبحانه يهدي خلقه هدى، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشاداً، وبين لهم بياناً.

والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئاً، بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿[التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلُّف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارة. ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى، ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة: فأما العاجلة فما

يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر وذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدى، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضل ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، وهما اتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة.

ومثّل هذا بمسافرين: أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ انْتَظِرْنَا قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم؛ كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر.

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: نعم العدلان، ونعمت العلاوة. فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة.

والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى؛ كان أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»^(١).

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة كما قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعلمنا به». يعني النبي ﷺ. فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

(١) رواه الترمذي (٤١٥٩) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني. ورواه أحمد (١٤٣٥٤). وصححه ابن العربي في العواصم من القواصم (٢٥٢).

وهكذا الرجل، كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قرب، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول.

فكم من مكرم لنفسه بزعمه وهو لها مهين، ومرفّه لها وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها. فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه، فقد بخسها حظها وأضاع حقها وعطل مصالحها وباع نعيمها الباقي ولذتها الدائمة الكاملة بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة، فلو هُدي ورُحِمَ لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب تعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة، فهو الذي يؤتيها العبد كما قال عن عبده الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً^(١).

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٠-١٧٤) باختصار يسير.

والقانع هو اه شديد الخشية لله تعالى، عظيم الرجاء به، يكدح في مرضيه ويلتذ بالقرب منه وبالقرب إليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١] «وقد روى الترمذي في جامعه (١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، ويخافون ألا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات».

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير - بل التفريط - والأمن! فهذا الصديق يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن». ذكره أحمد عنه (٢)، وكان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد». وكان يبكي كثيرا ويقول: «أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا». وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأتى بطائر فقلّبه ثم قال: «ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح».

(١) الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني.

(٢) الزهد لأحمد (١٠٨/١).

ولما احتضر قال لعائشة: «يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب»^(١) وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب». وقال: «والله لو ددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد». وقال قتادة: «بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب».

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك ضع خدي على الأرض لعل الله أن يرحمني، ثم قال: ويل أُمي إن لم يغفر الله لي - ثلاثاً - ثم قضى». وكان يمرّ بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً. وكان في وجهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطّان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس: مصّر الله بك الأمصار^(٢) وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل. فقال: «وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر».

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتّل لحيته. وقال: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي؛ لا اخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى، قال: «فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما

(١) الحلاب: هو الإناء الذي يُجلب فيه اللبن.

(٢) أي: الكوفة والبصرة وما بعدهما مما أنشأه المسلمون من القرى والمدائن في عهده.

اتَّباع الهوى فيصعد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولَّت مدبرة، والآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «إن أشدَّ ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمتَ فكيف عملتَ فيما علمتَ؟». وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شرباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ^(١) تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وهذا عبد الله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع. وكان أبو ذر يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، وددت أني لم أُخلق». وعُرِضَتْ عليه النفقة فقال: «عندنا عِزٌّ نحلبها، وحمَرٌ ننقل عليها، ومُحَرَّرٌ^(٢) يخدمنا، وفضل عباءة، وإنني أخاف الحساب فيها».

وقرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ

(١) الصُّعَدَاتُ: الطُّرُق والأفنية والمواضع الواسعة، وهي جمع صُعْد، وصُعْد جمع صعيد، والصعيد هو التراب والموضع العريض الواسع.

(٢) أي: كان مملوكاً فأعتقه، ولعله آثر البقاء لخدمته حتى بعد حرّيته لما رأى من كريم السجايا ولذة الإيمان بصحبته.

الَّذِينَ أَجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿[الجاثية: ٢١]﴾
جعل يرددها وييكى حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: «وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحَسَوَا مَرَقِي». وهذا باب يطول تتبَّعه.

وقال البخاري في صحيحه^(١): باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال ابراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا». وقال بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل». ويذكر عن الحسن: «ما خافه إلا مؤمن ولا آمنه إلا منافق».

قال ابن رجب في فتح الباري^(٢): «معناه^(٣): أن المؤمن يصف الإيَّان بقوله، وعمله نقص عن وصفه، فيخشى على نفسه أن يكون عمله مكذبًا لقوله، كما روي عن حذيفة أنه قال: «المنافق: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به». وعن عمر قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون المنافق عليماً؟ قال: يتكلم بالحكمة ويعمل بالجرور، أو قال بالمنكر»^(٤)

(١) البخاري: ٣٦- باب (٤).

(٢) ولم يتمه، ولو أتمه لكان أعجوبة من أعاجيب الكتب، والجزء الذي شرحه ليس له نظير فيما أعلم.

(٣) أي: كلام إبراهيم التيمي.

(٤) انظر: (صفة المنافق) للفريابي (٦٨).

وقال الجعد أبو عثمان: «قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب النبي ﷺ يخشون النفاق؟ قال: نعم، إني أدركت بحمد الله منهم صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا»^(١) وكان قد أدرك عمر.

ومن كان يتعوذ من النفاق من الصحابة: حذيفة، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري. وأما التابعون فكثير، قال ابن سيرين: «ما علي شيء أخوف من هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]» وقال أيوب^(٢): «كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها على نفسي». وقال معاوية بن قررة: «كان عمر يخشاه وآمنه أنا؟!» وكلام الحسن في هذا المعنى كثير جدًا. وكذلك كلام أئمة الإسلام بعدهم. قال زيد بن الزرقاء عن سفيان الثوري: «خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:

نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: الإيمان قول ولا عمل. ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص. ونحن نقول: النفاق^(٣) وهم يقولون: لا نفاق».

(١) أبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٠٧) والفريابي في صفة المنافق (ص: ١١٨) والمعنى: أنهم يخشون النفاق خوفًا شديدًا.

(٢) إذا أطلق فهو السخيتاني رحمه الله تعالى.

(٣) أي: نخشاه على أنفسنا، ونقول إن المؤمن قد يقع في شعبه، وهم ينكرون ذلك لأن الإيمان عندهم كتلة واحدة وجزء لا يتجزأ ولا يتشعب، إذا ذهب بعضه ذهب جميعه، وهذا ضلال مبين، ومذهب خبيث وخيم، نبتت فيه الوعيدية الخوارج ومن

وقال أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي: «قد خاف عمر على نفسه النفاق» قال: فقلت للأوزاعي: إنهم يقولون: إن عمر لم يخف أن يكون يومئذ منافقاً حين سأل حذيفة؛ لكن خاف أن يُبتلى بذلك قبل أن يموت، قال: «هذا قول أهل البدع».

وسئل الإمام أحمد: ما يقول فيمن لا يخاف النفاق على نفسه؟ فقال: «ومن يأمن على نفسه النفاق؟»^(١).

وأصل هذا يرجع إلى أن النفاق أصغر وأكبر؛ فالنفاق الأصغر: هو نفاق العمل وهو الذي خافه هؤلاء على أنفسهم؛ وهو باب النفاق الأكبر^(٢)، فيخشى على من غلب عليه خصال النفاق الأصغر في حياته أن يخرج ذلك إلى النفاق الأكبر، حتى ينسلخ من الإيمان بالكلية! كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفي بعض الروايات عن ابن أبي مليكة قال: «أدركت زيادة على خمسمئة من أصحاب رسول الله ﷺ ما مات أحد منهم إلا وهو يخاف النفاق على

شابههم المكفرة لأهل الكبائر، والوعدية المرجئة القائلون بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ووفق الله أهل السنة والجماعة للحق لما اختلف الناس فيه بحمده ومنتته.

(١) مسائل ابن هانئ (٢ / ١٧٦).

(٢) والدهليز المفضي إليه.

نفسه».

وقال الحسن عن النفاق: «ما خافه إلا مؤمن، ولا آمنه إلا منافق». وقال أيضًا: «والله ما أصبح على وجه الأرض مؤمن ولا أمسى على وجهها مؤمن إلا وهو يخاف النفاق على نفسه، وما آمن النفاق إلا منافق». وقال: «إن القوم لما رأوا هذا النفاق يَغوُلُ الإيمان؛ لم يكن لهم همٌّ غير النفاق»^(١).

وقول البخاري بعد ذلك: «وما يُحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]: فمراده أن الإصرار على المعاصي وشعب النفاق من غير توبة يخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص، وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر.

وفي مسند الإمام أحمد^(٢) من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «ويل لأَقْمَاعِ القول، ويل للذين يصِرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون». وأَقْمَاعِ القول: الذين آذانهم كالقُمُع يدخل فيه سماع الحق من جانب، ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه.

(١) الفريابي في صفة المنافق (١١٩). والغول: الإتلاف والإهلاك، ومنه قتل الغيلة، وهو الاغتيال.

(٢) المسند (٢ / ١٦٥، ٢١٩) وأخرجه أيضًا البخاري في الأدب (٣٨٠) والخطيب في التاريخ (٨ / ٢٦٥ - ٢٦٦) وصححه الألباني.

وقد وصف الله أهل النار بالإصرار على الكبائر فقال: ﴿وَكَاثُرًا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] والمراد بالخنث: الذنب الموقع في الخنث وهو الإثم. وتبويب البخاري^(١) لهذا الباب يناسب أن يذكر فيه حبوط الأعمال الصالحة ببعض الذنوب كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال الحسن: «ما يرى هؤلاء أن أعمالاً تُحْبَطَ أعمالاً، والله عز وجل يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾». ومما يدل على هذا أيضاً قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُطْلَوُا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الآية [البقرة: ٢٦٤]، وقال: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٦].

وفي صحيح البخاري أن عمر سأل الناس عنها فقالوا: الله أعلم، فقال ابن عباس: ضُربتُ مثلاً لعمل، قال عمر: لأي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم يبعث الله إليه الشيطان فيعمل

(١) وقد ظهر فقه أبي عبد الله البخاري رَحِمَهُ اللهُ في تبويبه، وقد أطال أهل العلم الكلام حول فوائد أبواب صحيحه، وطريقته البارعة فيها، واضطراد منهجه في ذلك. وقد سلك طريقته في التبويب والترتيب والدقة وتسمية الأبواب لأكثر من غرض وغير ذلك كثير من أهل العلم، ومنهم الإمام المجدد رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد.

بالمعاصي حتى أغرق أعماله»^(١).

وقال عطاء الخراساني: «هو الرجل يختم له بشرك أو عمل كبيرة فيحبط عمله كله». وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك صلاة العصر حبط عمله»^(٢) وفي الصحيح أيضًا أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»^(٣) وقالت عائشة: «أبلغني زيداً أنه أحبط جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»^(٤). وهذا يدل على أن بعض السيئات تحبط بعض الحسنات، ثم تعود بالتوبة منها^(٥).

وعن أبي العالية قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإخلاص ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل صالح، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فخافوا

(١) الفتح: (٤٥٣٨).

(٢) البخاري (٦٨٩١) الفتح: (٥٥٣).

(٣) مسلم (٢٦٢١).

(٤) في قضية بيع تأولها زيد على الإباحة، ورأت أنه تعاطى الربا، والربا محبط للجهاد، لأنه حرب لله ورسوله، فذنب الحرب الباطل يبطل ثواب الحرب المشروع من باب الموازنة.

(٥) وهذا فقه نفيس.

الكبائر بعد أن تحبط الأعمال»^(١).

وعن قتادة في هذه الآية قال: «من استطاع منكم أن لا يُبطل عملاً صالحاً بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله؛ فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال: خواتيمها»^(٢).

والآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جداً يطول استقصاؤها، حتى قال حذيفة: «قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة»^(٣)! وعن عطاء قال: «إن الرجل ليتكلم في غضبه بكلمة يهدم بها عمل ستين سنة أو سبعين سنة». وقال الإمام أحمد: «ما يؤمن أحدكم أن ينظر النظرة فيحبط عمله».

وأما من زعم أن القول بإحباط الحسنات بالسيئات قول الخوارج والمعتزلة خاصة، فقد أبطل فيما قال، ولم يقف على أقوال السلف الصالح في ذلك. نعم المعتزلة والخوارج أبطلوا بالكبيرة الإيمان وخلدوا بها في النار. وهذا هو القول الباطل الذي تفردوا به في ذلك»^(٤).

قال ابن القيم: «وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشدك الله، هل

(١) عزاه في الدر المنثور (٦ / ٦٧) لابن أبي حاتم.

(٢) ابن جرير في تفسيره (٣٩ / ٢٦).

(٣) البحر الزخار (٧ / ٣٣١).

(٤) فتح الباري لابن رجب (١ / ١٠٩ - ١١١) باختصار.

سماني لك رسول الله؟ - يعني في المنافقين - فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا. فسمعت شيخنا^(١) يقول: ليس مراده أني لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد: أني لا أفتح عليّ هذا الباب، فكل من سألني هل سمني لك رسول الله ﷺ فأزكيه. قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «سبقك بها عكاشة»^(٢) ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى، والله أعلم»^(٣).

إن عاقبة اتباع الهوى هي الهاوية، وما دخل الشر على قلب امرئ إلا من قبل جهله وهواه، وما أفلح وجهٌ إلا من قبل هداه بفضل مولاه.

إن النظر لعاقبة الهوى كاف في قطع علائقه، وبتر عروقه لمن كان له قلب، حتى وإن مسه طائف من الشيطان لضعفه وطروء الغفلة على قلبه؛ فسرعان ما يعود لكنف ربه، والأوبة إليه، واسترحامه، واستغفائه، واستغفاره، أما من اتبع نفسه في السوء هواها، وتمنى على الله الأمانى بلا عمل؛ فلا يلومن غداً إلا نفسه ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) البخاري (٣٢٢٩).

(٣) الجواب الكافي (٢٥-٢٦).

قال أبو جعفر^(١): «يقول جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسه: أن تُسَخِّطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم، فتوافونه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، وهو عليكم ساخط، فينالكم من أليم عقابه ما لا قبيل لكم به. ثم أخبر عز وجل أنه رءوف بعباده رحيمٌ بهم، وأنَّ من رآفته بهم: تحذيره إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه. وعن الحسن في قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿﴾ قال: من رآفته بهم أن حذَّره من نفسه».

إن على المؤمن الناصح لنفسه إن يحمي قلبه من الداء قبل حلوله، وأن يداويه بعد وقوعه، وإن يبادر بحسم مادته قبل استفحاله. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الداء والدواء: «فلنذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته، فمما ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسح ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة

(١) وهو شيخ المفسرين الطبري في تفسيره (٦ / ٣٢١).

ومشاقة، وبزَجَلِ التسييح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، ولباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان؟

فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحلّ عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومَقَّتْه أكبر المقت فأرداه، فصار قوَّادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعيادًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال؟

وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطيّة حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارةً من سجيل السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟ ولاخوانهم أمثالها، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٧﴾.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظُّلّ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعونَ وقومَه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم،
فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب (يس) بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال
الديار، وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا
الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبرّوا ما علو
تتبرًا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات، مرّة بالقتل والسبي
وخراب البلاد، ومرّة بجور الملوك، ومرّة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك
أقسم الرب تبارك وتعالى ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء
العذاب؟

عن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص، فُرق بين أهلها، فبكى بعضهم
إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما
يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك يا جبير، ما أهون
الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك،

تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى» (١)(٢).

والحذر الحذر من اتباع الهوى في العلم، فكم من علم عاد على صاحبه وبالأ، ومن أول من تسعر به النار يوم القيامة من لم يعمل بعلمه، فقرأ القرآن ليقال قارئ!

وعالمٌ بعلمه لم يَعْمَلَنَّ مُعَذِّبٌ مِنْ قَبْلِ صَاحِبِ الْوَثْنِ

وحيل النفس الأمارة خفية، والمؤمن محتاج لمجاهدة في كشفها، وحزم في اقتلاع عروق هواها، وثبات في حسم مادة شرها «واتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخْ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴿[الأعراف: ١٧٥-١٧٦] فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه: أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢١٧).

(٢) الجواب الكافي (٢٧-٢٩).

الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل: تبعه، فإن في معنى اتبعه: أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه وصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه!

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خِصَّة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام^(١).

والمؤمن الموفق حريص على إعلاء همته للدار الآخرة، حريص على حفظ عمره من الضياع ووقته من التفات فيما لا ينفعه، وعلامة المقت إضاعة الوقت، «وأعظم الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت. وإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت

(١) الفوائد (١٠١-١٠٣).

من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصالح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان»^(١).

إن لا اتباع الهوى دركات لا يحيط بها بشر، ولو لم يأت من شؤم اتباع الهوى إلا أنه مُبعد عن الله تعالى، صاُدُّ بصاحبه عن موطن قربه ومنازل مرضيه؛ لكفى به شقوة وخسار، فكيف والشر بحذايره مجتمع فيه.

والموفق من سار لربه بعزم وهو على بصيرة من أمره، ومتى زاغت قدمه عدل بها لرشدتها، وحَنَفَ لربه راشداً فتَنَكَّب طريق الغواية وسلك سبيل الاستقامة.

وفي المنتظم^(٢) لابن الجوزي وصية عجيبة لطيفة جامعة مانعة مختصرة، فقد نقل عن بنان بن أحمد المصري قال: قدم ابن الفرخي إلي فقصدته فإذا هو في بيت مملوء كتباً، فقلت له: رحمك الله، اختصر لي من هذه الكتب كلمتين انتفع بهما. فقال: «ليكن هَمِّكَ مجموعاً فيما يرضي الله، فإن اعترض عليك شيء فتب من وقتك». رَحِمَهُ اللهُ ما أحكمه! فقد جمع العلم والموعظة في كلمتين.

ولقد عقد الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فصلاً نفيساً ختم به كتابه (روضة المحبين)^(٣) وعدّ خمسين أمراً يتخلص بها المؤمن من الهوى بإذن الله تعالى،

(١) الفوائد (١١٢).

(٢) المنتظم (٨٤ / ٥).

(٣) (٤١٤ - ٤٢٧) وهو الباب التاسع والعشرون.

وسأخلص لي ولك مهماتها بعون الله، قال رحمننا الله تعالى وإياه: «فإن قيل: فكيف يتخلص من الهوى مَنْ قد وقع فيه؟»

قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدها: عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها.

الثاني: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة، وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العقابة والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إثارة لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئًا بغيظه وغمه وهمّه، حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي

أَلْأَرْضُ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴿١٠٠﴾ [النساء: ١٠٠] أي: مكانا يراغم فيه أعداء الله. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: التفكير في أنه لم يخلق للهوى، وإنما هُيئَ لأمر عظيم، لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هَيَّأوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرعى مَعَ الْهَمَلِ

العاشر: أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره؛ كان حال الحيوان البهيم أحسن منه.

ويدل على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال عن الفكر والهم، ولهذا تُساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها، لفقدان العلم بالعواقب. والآدمي لا ينال ما يناله الحيوان لقوة الفكر الشاغل وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بُخِسَ منه حظُّ الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفرَّ منه حظُّ البهائم. وفي توفير حظِّ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عوض عن ذلك.

الحادي عشر: أن يسير بقلبه في عواقب الهوى، فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلت منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكّست رأسًا، وقبّحت ذكرًا،

وأورثت ذمًّا، وأعقبت ذلًّا، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

الثاني عشر: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر وما فاتته وما حصل له.

فأفضل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يميّز ما تجني عواقبُه

الثالث عشر: أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

الرابع عشر: أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أعجب أحدكم امرأةً فليذكر مناتِنها». وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين (١):

لو فكَرَ العاشقُ في مُتَتَهَى حُسْنِ الذي يَسِيهِ لم يَسِبِهِ

لأن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على أمر متأخر.

الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلًّا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

(١) وهو المتنبي.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس بيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة، وميلاً إلى هواه؛ طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى، وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة؛ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة. فما قارن شيئاً إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

العشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله ﷺ، وجعل أتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع

الوحي، وأتباع الهوى. وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠].

الحادي والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبهم بالكلب تارة، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَلَبُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحمز تارة، كقوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١] وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

الثاني والعشرون: أن متبوع الهوى ليس أهلاً أن يطاع، ولا يكون إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الثالث والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل متبوع الهوى بمنزلة عابد الوثن، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] في موضعين من كتابه. قال الحسن: «هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبته»، وقال أيضاً:

«المنافق عبد هواه، لا يهوى شيئاً إلا فعله».

الرابع والعشرون: أن الهوى هو حظار^(١) جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(٢).

وفي الترمذي^(٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «لما خلق الله الجنة أرسل إليها جبريل فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه وقال: وعزتك؛ لا يسمع بها أحد من عبادك إلا دخلها، فأمر بها فحُجبت بالمكاره. وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع فإذا هي قد حُجبت بالمكاره، فقال: وعزتك؛ لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فقال: وعزتك؛ لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع فانظر إليها، فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالشهوات، فرجع إليه فقال: وعزتك؛ لقد خشيت ألا ينجو منها أحد».

(١) الحظار: هو الحاجز بين الشيئين، كحائط البستان.

(٢) البخاري (٦٤٨٧) ومسلم (٢٨٢٣).

(٣) الترمذي (٢٥٦٣) وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٨٣٩٨) وصححه أحمد شاكر، وأخرجه أبو داود (٤٧٤٤) وصححه الحاكم (٢٦/١) ووافقه الذهبي.

الخامس والعشرون: أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به»^(١) وصح عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلَّات الهوى»^(٢).

السادس والعشرون: أن اتباع الهوى من المهلكات، قال ﷺ: «ثلاثٌ منجيات، وثلاثٌ مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله عز وجل في السرّ والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فهوى متبعٌ، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٣).

السابع والعشرون: أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: «الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده»،

(١) ذكره الحكيم (١٦٤/٤) وأخرجه الخطيب (٣٦٨/٤) وأخرجه أيضًا ابن أبي عاصم (١٢/١، ١٥) والحديث لا يثبت ففيه نعيم بن حماد ضعيف لا يحتج به، قال الذهبي: لا يجوز لأحد أن يحتج به. وقال ابن رجب: تصحيح هذا الحديث بعيد جدًا لوجوه. وانظرها في جامع العلوم والحكم (٣٣٨) وضعفه الألباني ولكن معناه صحيح.

(٢) أحمد (٤٢٠/٤). ووثق رجاله الأرنؤوط، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢١٤٣).

(٣) البزار (٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٣٤٣/٢) والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) وهو صحيح بطرقه، وله شواهد عديدة، وانظر: الأحاديث الصحيحة (١٨٠٢). وقال الألباني في المشكاة (٥٠٤٩): حسن لغيره.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١) وكلما تمرّن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته. الثامن والعشرون: أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه، قال معاوية: «المروءة ترك الشهوات، وعصيان الهوى». فاتباع الهوى يُزِمُّ^(٢) المروءة ومخالفته تنعشها.

التاسع والعشرون: أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأياها قوي على صاحبه طرده، وتحكم وكان الحكم له، قال أبو الدرداء: «إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله فيومه يوم صالح».

الثلاثون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد؛ فخالف أقربهما من هواك^(٣)، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

الحادي والثلاثون: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: «إن

(١) البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) الزمانة: الشلل.

(٣) قال عبد قيس بن خُفاف التميمي:

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً أمران فاعمد للأعفّ الأَجَلِ
وإذا هممتَ بأمر سوء فاتتد وإذا هممتَ بأمر خير فاعجلِ

شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته». وقال بشر الحافي رَحِمَهُ اللهُ: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه».

الثاني والثلاثون: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: «جهادك هواك»^(١). وسمعت شيخنا يقول: «جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً، حتى يخرج إليهم».

الثالث والثلاثون: أن الهوى تخليط، ومخالفته حمية، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصصره داؤه. قال عبد الملك بن قريش: «مررت بأعرابي به رمد شديد، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر. فقلت: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: بلى، ولكنني أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم فهلكوا».

الرابع والثلاثون: أن اتّباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا، وقد سدّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل بن عياض: «من استحوذ عليه

(١) وسأل رجل ابن عمر عنهما عن الجهاد فقال: «ابدأ بنفسك فاغزها».

الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق».

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمه! ورجلاً عشق فتنصّر! وكان بعض السلف يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدّين واللذات تُعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
فقلت: دع أحدهما تنل الآخر^(١).

(١) وليس في هذا دعوة منها له بالسوء، إنما تبيان استحالة الجمع بين الضدين، فلا بد لأحدهما أن يُزيح الآخر بقدر تمكّنه من القلب. وعلى كلّ؛ فإن صحت الحكاية فقد أذنب بتغزله بغير ما أحل الله له، وأذنب بإجابته بما يشبه الخضوع، عفا الله عنا وعنهما.

واعلم - رحماني وإياك - أنّ من أعظم أسباب محبة الله تعالى لعبده: أن يغلب العبد متابعة ما يحبه الله دون ما تحبه نفسه، وبخاصة عند اشتداد الشهوة وقوة الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

ومن جدير التنبيه: أنّ ذمّ الهوى في الشرع وعلى ألسن السلف إنما يُراد به الهوى الصادق عن طاعة الله تعالى، وإلا فأصل الهوى الرغبة والميل، وليس كل رغبة مذمومة، ولا كل ميل للنفس منهية عنه، فهو من فروع المحبة، والمحبة متشعبة الأطراف كثيرة المتعلقات.

إنّما المذموم من الهوى ما أبعد عن الله تعالى وخالف أمره، ولما كان الغالب استعمال

الخامس والثلاثون: أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه. وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانته في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: «يا فلان إذا نُصِرَ الهوى ذهب الرأي». وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد، أو قال: نسيه. فقال الشيخ: «هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم».

السادس والثلاثون: أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَيْتُهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]

لفظ الهوى في الغواية؛ فقد صار علماً عليها ولقباً لها، ولهذا نظائر في اللغة. وعليه؛ فلا بأس من استعمال لفظ الهوى بمعناه المذموم دون الحاجة لاستثناء أو توضيح، وقد جاء القرآن العظيم بهذا، فإن الهوى إنما يُذكر فيه بسياق الذم.

ومن شواهد معنى الهوى السائق ما رواه مسلم (١٤٦٤) من قول عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ لما أنزل الله تعالى عليه آية الأحزاب في شأن تخييره أرجاء وإيواء من شاء من أزواجه: «وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ». أي: يُخَفِّفُ عنك، ويوسِّعُ عليك في الأمور، ولهذا خيرك.

والمقصود؛ أن جادة ذكر الهوى هي الذم، فهذا هو الأصل، ولكن لا يمنع ذلك من استعمال اللفظ فيما دون الذم، وعليه يحمل قول الصديقة وغيرها مما جرى مجراه، وبالله التوفيق.

١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق؛ جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: «جزاهم بما صبروا عن الشهوات».

السابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم. قال محمد بن أبي الورد: «إن لله عز وجل يومًا لا ينجو مَنْ شَرُّهُ منقادٌ لهواه، وإنَّ أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريعٌ شهوته، وإنَّ العقول لما جرت في ميادين الطلب؛ كان أوفرها حظًا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر، والعقل معدن، والفكر مِعْوَل».

الثامن والثلاثون: أن اتباع الهوى يحلّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقويها، والعزائم هي مركب العبد الذي يسيّره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر.

قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزماً؟ قال: «الغالب لهواه». ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر، من أحسن الناس وجهًا، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير، ما رأيت عيناى أحسن منها قط. فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة عجبها بها. فقال: ويحك، خذها على شدة عجبى بها، ليعلم هواي أني له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقد حباني وأعطاني وفضّلني عن غير مسألةٍ منه سليمانُ

أعطاني البدر خُودًا في محاسنها والبدر لم يُعْطَهُ إنسٌ ولا جانٌ
ولست يومًا بناسٍ فضله أبدًا حتى يُغَيِّبَنِي لحدٍّ وأكفانٌ

التاسع والثلاثون: أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديد صعب جموح لا لجام له، فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به، أو يسير به إلى مهلك.

قال بعض العارفين: «أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حبُّ الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات». وقال آخر: «أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى». وقال عطاء: «من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح».

الأربعون: أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً. قال الحسن بن علي المطوعي: «صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة».

وتأمل قول الخليل لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كآل نعيم بل هم أضل سبيلاً ﴿[الفرقان:

الحادي والأربعون: أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن. فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إثثار الهوى على ما ينبغي تركه.

الثاني والأربعون: أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه، فاستراح وأراح. قال أبو بكر الوراق: «إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم». فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

الثالث والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلاً، فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفى: «من غلبه هواه توارى عنه عقله»، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه. وقال علي بن سهل رَحِمَهُ اللهُ: «العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرين العقل، والخذلان قرين الهوى، والنفس واقفة بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه».

الرابع والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح، ومعدن معرفته ومحبه وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتَيْن، فالحق والزهد والهدى سلطانٌ، وأعوانه الملائكة، وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطانٌ، وأعوانه الشياطين، وجنده وعُدَّتُه اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين، ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب، وتصير مع عدوه عليه،

فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عدَّةً من قبلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك، ويقع الخذلان على القلب.

الخامس والأربعون: أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه، واستأسر له، وأشتمته به، وساء صديقه ووليّه، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء!

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يعذب به في قلبه، كما قال القائل:

مَارَبْتُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَشِيبِ عَذَابًا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زريّة؛ لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده؛ كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس، قال أبو علي الدقاق: «من ملك شهوته في حال شبابه؛ أعزه الله تعالى في حال كهولته». وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: «بطاعة الحزم وعصيان الهوى». فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه والنار نهاية من اتبع هواه.

السابع والأربعون: أن الهوى رِقٌّ في القلب وغِلٌّ في العنق وقيد في

الرجل، ومُتَابِعُهُ أَسِيرٌ لِكُلِّ سَيِّءِ الْمَلَكَةِ^(١)، فَمَنْ خَالَفَهُ عَتَقَ مِنْ رِقِّهِ وَصَارَ حُرًّا، وَخَلَعَ الْغُلَّ مِنْ عُنُقِهِ وَالْقَيْدَ مِنْ رِجْلِهِ^(٢)، وَصَارَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ سَلَمًا لِرَجُلٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَ رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ.

رُبَّ مُسْتَوْرٍ سَبَّتُهُ شَهْوَةٌ فَتَعَرَّى سِتْرَهُ فَانْهَتَكَا
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا غَلَبَ الشَّهْوَةَ أَضْحَى مَلِكًا

وقال ابن المبارك:

وَمِنَ الْبَلَاءِ وَلِلْبَلَاءِ عِلَامَةٌ أَنْ لَا يُرَى لَكَ عَنْ هَوَاكَ نَزْوُعُ
الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا وَالْحُرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوعُ

الثامن والأربعون: أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقامٍ من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بكرة فأعطي عوضها درّة.

ومتّبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتّة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ في المنام فقلت

(١) المَلَكَةُ: هي التدبير.

(٢) وكما قيل: العبد حُرٌّ مَا قَنَعَ، وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعَ.

له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حساباً يسيراً، ثم أمر بي إلى الجنة، فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد؟ فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يوماً؟ قلت: إي والله. فأخذني الثَّأْرُ^(١) من كل جانب».

التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعزَّ الظاهر وعزَّ الباطن، ومتابعته تضعُّ العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر وفي الباطن.

الخمسون: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدتهم إنما نالوا ذلك الظلَّ بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلَّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشابُّ المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدِّقُ المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه.

(١) الثَّأْر: ما يُنثر على رؤوس الناس من نقود وزهور وحلوى في المناسبات والولائم ونحوها.

فلم يكن لحرّ الموقف وعرقه وشدّته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحرّ والعرق كلّ مبلغ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالحمد لله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيدنا من أهواء نفوسنا الأمارّة بالسوء، وأن يجعل هوانا تبعاً لما يحبه ويرضاه، إنه على كلّ شيء قدير، وبالإجابة جدير^(١).

٤- المعاصي والذنوب.

المعصية تطفئ نور الطاعة في القلب، وتضعف التعلق بالله تعالى، بل لم يقع الذنب لولا خلل في التعلق ولو من باب الغفلة الطارئة، فالتعلق كالإيمان - وهو من شعبه وثمراته - يزيد حتى يلامس العنان وحتى يرسخ رسوخ الجبال، وينقص حتى يكاد صاحبه ألا يكون من أهله، فالموفق من تدّرّع بسلاح الطاعات في ميادين دنيا الغفلات، وبالعلم والإيمان في معترك الابتلاء والامتحان بالشیطان وأحزابه.

إنّ المتعلق بالله تعالى حريص كل الحرص على بناء الحواجز بينه وبين سبل المعاصي، لعلمه بقطع الذنوب طريقه في سيره لربه، وقطعها حبله المتعلق به إليه، فهو حريص على الازدياد من الطاعات وتحصيل سبل تكفير السيئات، وعمران قلبه بالتوبة النصوح، والاستغفار الدائم.

وفي حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الحلال بينٌ،

(١) روضة المحبين لابن القيم (٤١٤ - ٤٢٧) باختصار.

والحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١) قال الحافظ ابن رجب: «هذا الحديث حديث عظيم؛ وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها، وقد قيل: إنه ثلث العلم أو رבעه.

ومعنى الحديث: أن الله أنزل كتابه وبيّن فيه حلاله وحرامه، وبيّن النبي ﷺ لأئمة ما خفي من دلالة الكتاب على التحليل والتحريم، فصرح بتحريم أشياء غير مصرح بها في الكتاب وإن كانت عامتها مستنبطة من الكتاب وراجعة إليه، فصار الحلال والحرام على قسمين:

أحدهما: ما هو واضح لا خفاء به على عموم الأمة؛ لاستفاضته بينهم وانتشاره فيهم، ولا يكاد يخفى إلا على من نشأ ببادية بعيدة عن دار الإسلام؛ فهذا هو الحلال البين والحرام البين.

القسم الثاني: ما لم ينتشر تحريمه وتحليله في عموم الأمة؛ لخفاء دلالة النص عليه ووقوع تنازع العلماء فيه ونحو ذلك، فيشتبه على كثير من الناس هل هو من الحلال أو من الحرام؟ وأما خواص أهل العلم الراسخون فيه فلا

(١) البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (١٥٩٩).

يشتبه عليهم؛ بل عندهم من العلم الذي اختصوا به عن أكثر الناس ما يستدلون به على حل ذلك أو حرمة، فهؤلاء لا يكون ذلك مشتبهًا عليهم لوضوح حكمه عندهم.

أما من لم يصل إلى ما وصلوا إليه فهو مشتبه عليه؛ فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حلُّه وحرمة واجتنبه فقد استبرأ لدينه وعرضه، بمعنى أنه طلب لهما البراءة مما يشينهما، وهذا معنى الحديث الآخر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١) وهذا هو الورع، وبه يحصل كمال التقوى، كما في الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين؛ حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس»^(٢).

وأنواع الشبه تختلف بقوة قربها من الحرام وبعدها عنه. وقد يقع الاشتباه في الشيء من جهة اشتباه وجود أسباب حله وحرمة، كما يشك الإنسان فيه هل هو ملكه أم لا؟ وما يشك في زوال ملكه عنه، وقد يقع الاشتباه لاختلاط الحلال بالحرام في الأطعمة والأشربة وغيرها من المكيلات، والموزونات والنقود.

فكل هذه الأنواع من كان عنده فيها علم يدل على حكم الله ورسوله فيها

(١) النسائي (٥٧١١) وصححه الألباني من حديث الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥) من حديث عطية الساعدي، قال الحافظ في الإصابة (٥ / ٢٧٦): «ذكره بعضهم في الصحابة، وهو غلط». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٢٠).

فتبعه فهو المصيب، ومن اشتبهت عليه فإن اتقاها واجتنبها فقد فعل الأولى واستبرأ لدينه وعرضه، فسلم من تبعثها في الدنيا والآخرة، ومن اشتبهت عليه فلم يتقها؛ بل وقع فيها فمثله كمثل راع يرمى حول الحمى فإنه يوشك أن يواقع. وفي رواية: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» ومعنى هذا: أن من وقع في الشبهات كان جديراً بأن يقع في الحرام بالتدريج؛ فإنه يسامح نفسه في الوقوع في الأمور المشتبهة فتدعوه نفسه إلى موقعة الحرام بعده؛ ولهذا جاء في رواية: «ومن خالط الريبة يوشك أن يجسر»^(١) يعني: يجسر^(٢) على الوقوع في الحرام الذي لا ريب فيه.

ومن هنا كان السلف يحبون أن يجعلوا بينهم وبين الحرام حاجزاً من الحلال يكون وقاية بينهم وبين الحرام، فإن اضطروا واقعوا ذلك الحلال ولم يتعدوه، وأما من وقع في المشتبه فإنه لا يبقى له إلا الوقوع في الحرام المحض فيوشك أن يتجرأ عليه ويجسر.

وقوله: «ألا وإن لكل ملك حمى، وإن حمى الله في الأرض محارمه»، وفي

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٢٩) وسكت عنه. والنسائي في المجتبى (٧ / ٢٤١ - ٢٤٢)

(٨ / ٣٢٧). وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(٢) الجسارة: الجرأة والشجاعة، وهي مذمومة حال اقتحام الذنوب، إنما المحمود الخوف من الله تعالى، وتوقيره، وإجلاله، والحياء منه، وشكره، وطاعته، والمجاهدة في سبيله، والولاء والبراء لأجله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لوجهه، تبارك وتعالى.

رواية: «ألا وإن حمى الله محارمه»: ضرب مثل لمحارم الله بالحمى الذي يحميه الملك من الأرض ويمنع الناس من الدخول إليه، فمن تباعد عنه فقد توقي سخط الملك وعقوبته، ومن رعى بقرب الحمى فقد تعرض لمساخت الملك وعقوبته؛ لأنه ربما دعت نفسه إلى الولوج في أطراف الحمى.

وفي هذا دليل على سد الذرائع والوسائل إلى المحرمات كما يحرم الخلوة بالأجنبية، وكما يحرم شرب قليل ما يسكر كثيره، وكما ينهى عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر خشية الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وكما يُمنع مَنْ تُحرِّك القُبْلَةُ شهوته في صيامه من القُبْلَة، وكما يؤمر من يباشر امرأته في حال حيضها أن يباشرها من فوق إزار ما بين سرتها وركبتها.

ثم ذكر النبي ﷺ كلمة جامعة لصلاح حركات ابن آدم وفسادها وأن ذلك كله بحسب صلاح القلب وفساده، فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح فلم تنبعث إلى طاعة الله واجتناب سخطه ففقت بالحلال عن الحرام. وإذا فسد القلب فسدت إرادته، ففسدت الجوارح كلها وانبعث في معاصي الله عز وجل وما فيه سخطه ولم تقنع بالحلال؛ بل أسرع في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق.

فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليماً عن جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله ويسخطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته ومحبة ما يحبه الله وإرادة ذلك، وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه.

والقلب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضلة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس؛ فالقلب ملك الجوارح وسلطانها، والجوارح جنوده ورعيته المطيعة له المتقادة لأمره، فإذا صلح الملك صلحت رعاياه وجنوده المطيعة له المتقادة لأوامره، وإذا فسد الملك فسدت جنوده ورعاياه المطيعة له المتقادة لأوامره ونواهيه.

وقد بوب البخاري على هذا الحديث باب: (فضل من استبرأ لدينه). والمقصود من إدخاله هذا الحديث في هذا الباب أن من اتقى الأمور المشتبهة عليه التي لا تتبين له أحلال هي أو حرام؛ فإنه مستبرئ لدينه، بمعنى أنه طالب له البراء والنزاهة مما يدينسه ويشينه؛ ويلزم من ذلك أن من لم يتق الشبهات فهو معرض دينه للدنس والشين والقدح، فصار بهذا الاعتبار الدين تارة يكون نقيًا نزهًا بريًا، وتارة يكون دنسًا متلوثًا.

والدين يوصف تارة بالقوة والصلابة، وتارة بالركة والضعف، كما يوصف بالنقص تارة وبالكمال تارة أخرى، ويوصف الإسلام تارة بأنه حسن وتارة بأنه غير حسن، والإيمان يوصف بالقوة تارة وبالضعف أخرى.

هذا كله إذا أخذ الدين والإسلام والإيمان بالنسبة إلى شخصٍ شخص، فأما إذا نظر إليه بالنسبة إلى نفسه من حيث هو فإنه يوصف بالنزاهة. قال أبو هريرة:

«الإيمانُ نَزَّةٌ، فإن زنا فارقه الإيمان، فإن لام نفسه وراجع راجعه الإيمان»^(١) ومن كلام يحيى بن معاذ: «الإسلام نقيٌّ فلا تدنّسه بآثامك»^(٢).

قال الشيخ عبد العزيز آل عبد اللطيف: «إن التعلق بالله عز وجل وقصده وإرادته هو أساس التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، والله سبحانه وتعالى هو المستحق وحده أن يكون المقصود والمدعو والمطلوب. يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «إن الإله هو المقصود والمعتمد عليه، وهذا أمر هيّئ عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من يعرفه»^(٣).

ومن لم يكن مقصوده وغايته الله عز وجل؛ فلا بد أن يكون له مقصود ومراد آخر يستعبده، كما وضح ذلك ابن تيمية بقوله: «الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله؛ كان أعظم إشراكاً بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله تعالى ازداد فقراً وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود. فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته؛ فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك؛ فلا بد أن له مراداً محبوباً يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥١٣٢). ومعنى نزّه أي شديد النقاء فأى كدر أو قدر يتبين فيه لصفائه.

(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ١١٦ - ١٢٠) مختصراً.

(٣) الدرر السنية (٢١/٢) وانظر: تاريخ ابن غنام (٥٢/٢، ٢٩٨)، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٤/١).

الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله»^(١).

والناظر إلى واقعنا الحاضر يرى أنواعًا من التعلق بالشهوات والافتتان بها، فما أكثر المسلمين الذين أشربوا حب الشهوات من النساء والأموال، والملبوسات والمركوبات، والمناصب والرياسات، والولع بالألعاب والملاهي.

وإن المسلك العدل إزاء الشهوات وسط بين مسلك أهل الفجور والفواحش، ومسلك أصحاب الرهبانية والتشدد^(٢)؛ فأهل الفجور أضاعوا

(١) العبودية (ص ١١٢-١١٤) بتصرف، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠ / ١٨٥-١٨٧)، والفوائد لابن القيم (ص ١٨٦).

(٢) أي التشدد الزائد عن الحد المشروع، وهو ما يسمى بالغلو والتنطع. ولفظ التشدد يأتي على ثلاثة معان:

الأول: شدة الاستمسك بالشيء، وعدم التسامح في شأنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، والاستمسك هو التشدد القوي المشروع، كذلك فلقد أمرنا رسول الله ﷺ بالاستمسك بسنته لدرجة التمثيل بالعض عليها فقال: «تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» رواه أحمد (١٧١٤٢) وأبو داود (٤٦٠٧) وصححه الألباني.

الثاني: القوة في الشيء، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قوينا، وقال: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: مبلغ غاية قوته. والله تعالى قد أمر بأخذ دينه بالقوة، فقال في شأن بني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. وقد شدَّ الله تعالى عضد موسى بأخيه هارون عليهما السلام، ووصف الله تعالى المؤمنين بأنهم أشدَّاء على الكفار، وهي القوة الغليظة. وقال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»

وفي كل خير» رواه مسلم (٢٦٦٤). وقال الإمام أحمد: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد». ذكره الخطيب البغدادي في الكفاية (١/ ١٣٤). والتشدد هنا هو قوة الإحكام وعدم التساهل.

فالشدة ممدوحة في موطنها، وليس لفظ التشدد موحياً بالذم على الدوام، إنما يكون للذم إن كانت شدة غير مأذون بها شرعاً، وهي النوع الثالث.

الثالث: المبالغة والغلو والتنطع والتكلف والتعمق وتجاوز الحد المشروع، أي: تشدد في العمل، وغلو في الاعتقاد، وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ: «يَا كُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»، رواه النسائي (٣٠٥٧) وصححه الألباني، وكذلك قوله ﷺ: «هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ»، رواه مسلم (٢٦٧٠)، وكذا قوله ﷺ: «لَنْ يَشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلْبَهُ»، رواه البخاري (٣٩) وهو هنا التشديد والمغالبة.

وبالجملة؛ فالتشدد المذموم: هو الغلو والتنطع والزيادة والخروج عن منهج الاعتدال في الدين الذي كان عليه النبي ﷺ، أما الشدة الممدوحة: فهي الشدة المنضبطة بحسن الاتباع للشرع الحنيف، وهي شدة معها علم وحكمة ورفق، وليست الشدة القاسية، فالمؤمن قوي صلب رقيق، ليس بالخوار الضعيف، ولا العتل القاسي.

وعلى كل حال؛ فمن استخدم لفظ «التشدد» قاصداً معنى الغلو والتنطع فلا تشرب عليه، بل أكثر جادتهم عليه، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «فَشَدَّدْتُ فُشَّدَ عَلِيٌّ»، رواه البخاري (٥٧٨٣) وفعله هذا ليس تنطعاً ولا غلوً منه، بدليل إذنه ﷺ له، لكنه ألزم نفسه حال شبابه ونشاطه بما شق عليه حال شبابه

الصلاة واتبعوا الشهوات؛ وأهل الرهبانية حرّموا ما أحل الله من الطيبات. ودين الله عز وجل وسط بين دينك، فهو حق بين باطلين وهدى بين ضلالتين، فهو يراعي أحوال الناس، ويدرك ما هم عليه من الغرائز والشهوات؛ لذا فهو يبيحها ويعترف بها، لكنه يضبطها ويهذبها.

يقول ابن القيم مقررًا هذه الوسطية: «لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيًّا، فإنّ هواه لازم له؛ كان الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن الأمن والسلامة؛ مثاله أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة؛ بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل، وكانت الريح دبورًا فاستحالت صَبًّا»^(١).

وضعه، ولم يُرد أن يغيّر شيئًا من حاله الذي عهد عليه حبيبهِ ﷺ. ولاحظ زيادة مبنى مفردة «التشدّد» على «الشدة»، وفي هذا زيادة لمعناها، أي: بالمبالغة فيه. والمقصود؛ أن استعمال لفظ الغلو والتنطّع أولى من لفظ التشدّد - مع صحته - دفعًا للإيهام لدى بعضهم في الخلط بين التمسك المحمود والتشدّد المذموم، وبالله التوفيق، والله أعلم.

(١) روضة المحبين (١١) وانظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، (٣٥).

والدُّبُور: هي الريح الغربية، وهي التي سلّطها الله تعالى على عاد فأهلكتهم، وهي التي تهبُّ من دُبُرِ الكعبة، وفيها خشونة وشدة، وتسمّى محوة فهي تمحو السحاب وتسلّته، وتثير العجاج بأمر الله تعالى.

أما الصَّبَا فهي الريح المشرقية، وتُسمَّى القَبول لأنها تقابل وجه الكعبة، وهي ريح طرية، وكثيرًا ما تغنى بها الشعراء لرقتها، وهي التي سلطها الله تعالى على الأحزاب يوم الخندق، وكانت باردة في ليلة شاتية، فسفت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت خيامهم، وكانت سبب رحيلهم بإذن الله تعالى عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك فلم يهلك منهم أحدًا. فالدَّبُور والصبا من جند الله عز وجل، وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأهلك عَاد بالدَّبُور» رواه البخاري (٣٠٣٣) ومسلم (٩٠٠). فالقبول نصرت أهل القبول، والدَّبُور أهلك أهل الإِدبار بأمر مُسَيِّرِهِنَّ تبارك وتعالى.

أما ريح الشمال فهي الريح الشامية، ولها خاصية جميلة إذ سُميت بها ريح الجنة، ففي صحيح مسلم (٢٨٣٣) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقًا يؤتى كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا».. الحديث. والعرب يفرحون بالريح الشامية لمطرها بإذن الله تعالى، وهي ريح باردة، وتسمى الجرياء، وبعضهم يسميها محوة لمحوها السحاب أحيانًا وإذها به بأمر الله تعالى.

أما الجنوب، فهي الريح اليمانية، لأنها جهة اليمين من الكعبة، وتهب من ناحية نجم سهيل اليماني، وتسمى النعماء والأزيب.

هذا؛ وكل ريح انحرفت عن مهاب هذه الرياح الأربع فوقعت بين ريحين فهي تَكْبَاء، وجمعها نُكْبٌ، لتكبتها عن المهاب المعروفة، وتميل في طبعها بأمر الله تعالى إلى الريح التي في مهبها أقرب إليها. ونكب الرياح أربع: بين الصبا والدَّبُور وتسمى الصَّابية، وبين الصبا والجنوب وتسمى الأزيب، وبين الشمال والدَّبُور وهي الجرياء، وبين الجنوب والدَّبُور وهي الهيف. وكما تلاحظ فأسماء هذه النكب تستعمل لها كما تستعمل لأصول الرياح الأقرب إليها. ونقل المرزوقي في الأزمنة

وأتباع الشهوات والانكباب عليها يؤول إلى استيلائها على القلب، فيصير القلب عبداً وأسيراً لتلك الشهوات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهي حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسير ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب.

فما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه؛ فيبقى مستغرقاً في تلك الصورة.. والقلب يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور؛ والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقاً كما يغرق الغريق في الماء»^(١).

وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء

والأمكنة (١٦٢/١) عن ابن الأعرابي قوله: «مهبّ الجنوب من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، ومهبّ الصّبا من مطلع الثّريا إلى بنات نعش، ومهبّ الشّمال من بنات نعش إلى مسقط النّسر الطائر، ومهبّ الدّبور من مسقط النّسر الطائر إلى مطلع سهيل. والجنوب والدّبور لهما هيف وهو الرّيح الحارة الصّيفية، والصّبا والشّمال لا هيف لهما. والعرب تجعل أبواب بيوتها حذاء الصّبا ومطلع الشّمس». وبالله التوفيق.

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/٥٩٤، ٥٩٥، بتصرف يسير.

الدنيا» (١).

وإذا كان الإفراط والانهماك في الشهوات مذمومًا شرعًا، كما قال عز وجل: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]؛ فكذلك اتباع الشهوات مذموم عقلاً؛ فإن العاقل البصير ينظر في عواقب الأمور، فلا يُؤثِّرُ العاجلة الفانية على الآخرة الباقية.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل. فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة يعقبها ألم، وشهوة تُورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًا للهوى.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة» (٢).

وليعلم العبد أن الصبر عن الشهوات وما فيها من الإغراء والبريق والافتتان أيسر من الصبر على عواقب الشهوات وآلامها وحسراتها، كما بينه

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٩٧).

(٢) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص ٣٦، باختصار.

ابن القيم بقوله: «الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تُضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تُذهب مالا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألد وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكره ألد من نيل الشهوة، وإما أن تُشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»^(١).

وهلمّ - أخي في الله تعالى - إلى طَرَقِ شيء من مداخل الشهوات على ابن آدم، وكيف يسيّرهما المؤمن الموفق على مراد ربه الأكرم، ووفق غريزته التي رُكِّبها باعتدال واستقامة واتباع وديانة:

شهوة النساء:

أما عن شهوة النساء، أو بالأحرى شهوة الجنس المحرّم عمومًا؛ فإن المتأمل في أحوال المسلمين فضلًا عمن دونهم يرى سُعارًا محمومًا تجاه هذه الشهوات الفاسدة، وولوغًا في مستنقعاتها الآسنة، فما أكثر المسلمين العاكفين

(١) الفوائد، (١٣١).

على متابعة الشاشات الصغيرة والكبيرة عبر الأطباق الفضائية أو السينما أو شبكات (الإنترنت)، وقد سَمَّروا أعينهم في سبيل ملاحقة برامج الفحش، ومُهيَّجات الغرائز، ومُحرِّكات الكوامن، وأتباع خطوات الشيطان، وفتح ذرائع الخطايا، نظرًا لمحرم، وسماعًا لمعازف وغناء، ومخالطة لأهل فسق وفاحشة، ومغازلة لكل شاذة وفاذة من حبائل إبليس، فيسيرُ به عمره للنقص والنهاية والحساب، وهو لا يكثرث للأمر العظيم ويظن الأمر جدُّ يسير!

وما أكثر الذين يشدّون رحالهم إلى بلاد الكفر والفجور في سبيل تلبية شهواتهم المحرمة، وقد يكون المرء مختليًا لوحده مع هاتفه وشاشته، محتضنًا بيضَ خطاياها، باحثًا عن سبل الشرِّ إرضاءً لغريزته بالحرام القذر دون المباح الطيب، ويفتن في كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوب ولا يذكّر ولا يُسلف الصالحات بين يديه إلى الممات.

وكم من معتوه في مسلّاح عاقل، وجَهِولٍ في ثوب حكيم، وحيوانٍ بهيمٍ في شكل إنسان كريم! حكمةُ الله تعالى نافذة، وقضاءٌ له ساري، وناموسٌ له باقي، ويومُ القيامة يندمُ المُقرّطون.

والموفق المُعافي المعصوم من عصمه مولاه، وكتب فلاحه فاتّبع هُداياه، والمخذول من اتّبع هواه، فانتكس في رده، وارتكس في خطاياها، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد تكالب شياطين الإنس والجن مع النفوس الأمّارة بالسوء على إفساد عفاف المسلمين وأخلاقهم، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

ومما يجدر ذكره أن من أرخى لشهوته العنان؛ فإنَّ سعار هذه الشهوة لا حدَّ له ولا انقضاء، وإذا كان الشخص المولع بالدنيا لا يشبع من المال كما في الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»^(١)، فكَذلك الشخص المولع بشهوة الجنس بدون ضابط شرع، أو حارس عقل، أو رادع شرف؛ فإنه لا يقف ولا ينعوي ولا يشبع ولا يكتفي، حتى يحين حينه، إلا من رحم الله تعالى.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ: «لو أُوتيتَ مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشر آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكفي؟ لا، أقولها بالصوت العالي: لا، أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك. لا تطلبوا مني الدليل؛ فحيثما تلقتُم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائماً ظاهراً مرئياً»^(٢) وصدق رَحِمَهُ اللهُ. وكما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «لو كان لرجل ملء البصرة نساء فدخلت امرأة من خارج البصرة متحجبة لأرادها لنفسه وظن أن معها شيئاً ليس مع نسائه!».

وجاء في الأدب الكبير، لابن المقفع: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين،

(١) مسلم (١٠٤٩) والترمذي (٣٧٩٣) و(٣٨٩٨).

(٢) فتاوى علي الطنطاوي، ١٤٦ وانظر: صيد الخاطر، لابن الجوزي (٢٦١).

وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأجلبها للعار، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار: الغرام بالنساء.

ومن العَجَب أن الرجل لا بأس بلبِّه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصوِّر لها في قلبه الحُسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر.

ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمِّ الدمامة، فلا يعظه ذلك؛ ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة، لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء والسفه.

إنَّ أشدَّ الفتن وأعظمها: الفتنة بالنساء، كما قال النبي ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أشدَّ على الرجال من النساء»^(١). قال طاووس رَحِمَهُ اللهُ عند قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، «إذا نظر إلى النساء لم يصبر»^(٢). وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء، وهو كائنٌ، كُفِرَ من بقي من قبل النساء»^(٣). لا جرم؛ فهنَّ حبائل إبليس، حاشا الصالحات.

(١) أخرجه مسلم ٢٧٤، ٢٧٤١ والترمذي ٢٧٨٠.

(٢) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي ١٧٩، وروضة المحبين، (٢٠٣).

(٣) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، ١٧٨، وروضة المحبين (١٩٧).

وهاك أخى القارئ حكايتين واقعتين تكشفان أن من أسباب الكفر بالله تعالى عشق النساء.

فأما الحكاية الأولى: فقد ساقها أبو الفرج ابن الجوزي بقوله: «بلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له: صالح المؤذن، أذن أربعين سنة، وكان يُعرف بالصلاح، أنه صعد يوماً إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمّها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك. فقالت: لا؛ إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلت هذا لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك، فكل من لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر، فشرّب، فلما دبّ الشراب فيه دنا إليها، فدخلت بيتاً وأغلقت الباب، وقالت: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفّته في ثوب، فجاء أبوها، فقصّت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه، فرُمي في مزبلة»^(١). ولا خير في لذّة من بعدها سَقَرُ!

أما الحكاية الثانية: فقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في حوادث سنة ثمان وسبعين ومئتين ما يلي: «وفيها توفي عبده بن عبد الرحيم قبحه الله، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلما كان في

(١) ذم الهوى، (٤٠٩).

بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إليّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مرّوا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان ما فعل القرآن الذي كان معك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿[الحجر: ٢، ٣] وقد صار لي فيهم مال وولد﴾^(١). عيادًا بالله من موارد سخطه ونوازل عذابه، جَلَّ في عُلاه.

إن الوقوع في الفواحش وارتكابها له ذرائع متعددة، وأسباب كثيرة، فإبليس - أعاذنا الله منه - يفتل حبله على المدى البعيد حتى يخنق رادع الإيمان في القلب على طول الأمد وكثرة الملابس لمقدمات الفتن، فإنه يعرض الفتن على القلب واحدة بعد واحدة، فيشتمُّ قلب العبد، ويسوق له ما ضعف قلبه من جهته، ويصبّ عليه فتنه التي هو لها محب، حتى يستمرئها الفؤاد المريض، ويستلذّ بها القلب الضعيف، وتهشُّ لها النفس الأمارة، فتتمكّن مضلات الفتن حينئذ من سويداء القلب، فتسوق صاحبه لمعاطبه، وتزجيه لمهالكه، وتبعده عن كلّ خير وكلّ ذي خير، وجُرّت لحتفها الرعناء.

فمن ذرائع الفاحشة ومقدمات قسوة القلب: سماع الغناء؛ فإن الغناء رقية الزنا، وداعية الفاحشة. قال يزيد بن الوليد: «يا بني أمية! إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُّكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا»^(١).

قال ابن القيم: «ومن الأمر المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يُسمعها صوت الغناء، فحينئذ تُعطي اللبان». وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًّا، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين: من جهة الصوت، ومن جهة معناه؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه: «يا أنجشة رويدك، رفقا بالقوارير»^(٢) يعني النساء.

أما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدَّف والشبابة والرقص بالتخت والتكسر، فلو حبلت المرأة من صوت لحبلت من هذا الغناء. فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، وكم من حرٍّ أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا، وكم من معافى تعرّض له فأمسى

(١) انظر: إغاثة اللفهان، ١/٣٦٩.

(٢) البخاري (٥٨٠٩) ومسلم (٢٣٢٣) والمعنى: ارفق بالنساء في حدائك، وليكن رويدًا رويدًا، لأن الإبل تطرب له فتسرع في مشيها أكثر من احتمال النساء اللاتي فوقها.

وقد حلت به أنواع البلايا»^(١).

ومن أشد الوسائل فتكاً: النظر المحرم، فكم من نظرة إلى صورة جميلة في السوق أو العمل أو في شاشة أو مجلة أعقبت فواحش وآلاماً وحسرات. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «إذا خاف الفتنة لا ينظر، كم نظرة قد أَلقت في قلب صاحبها البلبال»^(٢).

يقول ابن الجوزي محذراً من إطلاق البصر: «اعلم وفقك الله أن البصر صاحب خبر القلب، ينقل إليه أخبار المبصرات، وينقش فيه صورها، فيجول فيها الفكر، فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة. ولما كان إطلاق البصر سبباً لوقوع الهوى في القلب، أمرك الشارع بغض البصر عما يُخاف عواقبه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. ثم أشار إلى مُسبب هذا السبب، ونبه على ما يؤول إليه هذا الشر بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]»^(٣).

وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن النظر المحرم وما يؤول إليه من الوقوع في الفواحش، بل وقد ينتهي بصاحبه إلى الشرك بالله تعالى

(١) إغاثة اللفهان (١/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) ذم الهوى، لابن الجوزي، (١١٦) والبلابل: كبار الرزايا.

(٣) ذم الهوى، (١٠٦).

فقال: «وأما النظر والمباشرة؛ فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش، فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه، ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل: أن لا يأتي كبيرة، ولا يصّر على صغيرة.

بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان. والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة، وعن قوم لوط المشركين»^(١).

فالعين جاسوسة القلب وممراته وساعيته، وكم من عين خانت قلبها بفاتن الصور فأهلكته، وعين حفظت قلبها عن الحرام وحرصته، وهو في الحقيقة الملوّم لا هي، فهي خادمتها وجارحتة وتابعتها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غَضَّ العبد بصره، غَضَّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.. والنظرة إذا أثرت في القلب، فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهّل علاجه، وإن كرر النظر ونقّب عن محاسن الصورة، ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه؛ تمكنت المحبة.

وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة

(١) مجموع الفتاوى، ٢٩٢/١٥، ٢٩٣.

الحب تنمو حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن»^(١).

ومن أشد الوسائل ضرراً وشرّاً: اختلاط النساء بالرجال؛ فإن هذا الاختلاط أنكى وسيلة في الانغماس في الفواحش والقاذورات، وقد كثر في هذا الزمان من يطالب بهذا الاختلاط المطلق بلا ضوابط شرعية، ويدعو إليه؛ حيث ينادون بمزاحمة النساء للرجال في جميع المجالات والأعمال، زاعمين أنهم يريدون الخير والإصلاح لمجتمعاتهم، ودعوتهم في الحقيقة - وإن لم يقصدوا - دعوة رذيلة، فإن أحبّوا ذلك فهم من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وقد علم المؤمنون وعيد الجبار في ذلك، فلقد أعظم الله تعالى الزجر والوعيد لمن تلوّث بتلك الرغبة الآثمة والخطيئة الشيطانية في سورة النور، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

قال ابن القيم متحدثاً عن مفاسد الاختلاط: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة.. وهو من أسباب الموت العام والطواعين المهلكة. ولما اختلطت البغايا بعسكر موسى عليه السلام وفشت فيهم الفاحشة؛ أرسل الله عليهم الطاعون، فمات في يوم واحد سبعون ألفاً، والقصة مشهورة في كتب التفسير.

(١) روضة المحبين، ٩٢، ٩٤، ٩٥، باختصار يسير.

فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشى بينهم متبرجات متجملات»^(١).

وها هنا أمر مهم ينبغي التنبيه عليه، وهو أن الولع والانكباب على الشهوات سببه ضعف التوحيد، فإن القلب كلما كان أضعف توحيداً وأقل إخلاصاً لله تعالى؛ كان أكثر فاحشة وشهوة وسُعاراً^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة: «وهذا - أي العشق والشهوات - إنما يُبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص، كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فامرأة العزيز كانت مشركة فوقع مع تزوّجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته، ومراودتها له، واستعانته عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه له، تحقيقاً لقوله: ﴿لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢-٨٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والغى هو اتباع الهوى^(٣).

(١) الطرق الحكيمة، ٢٥٩.

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم، ٧٥.

(٣) مجموع الفتاوى، ٤٢١/٥١.

إن الافتتان بالنساء والولع بهن يورث أنواعاً من العقوبات والمفاسد في الدنيا والآخرة. وقد أشار ابن الجوزي إلى تنوع هذه العقوبات فقال: «اعلم أن العقوبة تختلف: فتارة تتعجل، وتارة تتأخر، وتارة يظهر أثرها، وتارة يخفى.

وأطرف العقوبات ما لا يحس بها المعاقب، وأشدّها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة، ودون ذلك موت القلب ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين. وربما دبت العقوبة في الباطن ديب الظلمة، إلى أن يمتلئ أفق القلب، فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا، وربما كانت عقوبة النظر في البصر. فمن عرف لنفسه من الذنوب ما يوجب العقاب؛ فليبادر نزول العقوبة بالتوبة الصادقة، عساه يرُدّ ما يرد»^(١).

وتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقوبات الشهوة المحرمة، فكان مما قاله: «فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه»^(٢) وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبداً لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد

(١) ذم الهوى، ٢١٧.

(٢) أي: لا طاقة له به. ومن شواهد ما رواه مسلم (٢٩٣٦) في حديث الملاحم والدجال عن النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: أني قد أخرجتُ عبداً لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطُّور».. الحديث.

ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ومن أعظم هذا البلاء إغراض القلب عن الله؛ فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألد ولا أطيب»^(١).

وقال أيضًا: «ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب؛ فإن الشهوة توجب السكر، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر..» الحديث إلى آخره^(٢).

فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستماع والمخاطبة، ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة، ومنهم من يقبل وينظر، وكل ذلك حرام، وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزنا رافة، بل نقيم عليهم الحد، فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شأن الفاسقين وقلبيهم على ما يتمتع

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/ ١٨٧.

(٢) عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: إن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» أخرجه البخاري (٤ / ١٧٠ و ٢٥٥) ومسلم (٨ / ٥٢).

به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره»^(١).

وتحدّث ابن القيم في غير موضع عن مفسدات الزنا وما يحويه من أنواع الشرور فقال: «والزنا يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين وذهاب الورع، وفساد المروءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله.. ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمة عياله، ومنها: سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت، ومنها ظلمة القلب وطمس نوره.. ومنها أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقط من عين ربه ومن أعين عباده، ومنها أن يسلبه أحسن الأسماء ويعطيه أصدادها. ومنها ضيق الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضدّ قصودهم؛ فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط»^(٢).

وقال في موضع آخر: «واعلم أن الجزاء من جنس العمل والقلب المعلق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.. وفي بعض طرق حديث سَمُرَة بن جندب الذي في صحيح البخاري^(٣) أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت

(١) مجموع الفتاوى، ٢٨٨/١٥، ٢٨٩.

(٢) روضة المحبين، ٣٦٠.

(٣) البخاري (١٣٢٠).

معهما، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع، يوقد تحته نار، فيه رجال ونساء عراة، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أخذت رجعوا فيها، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة».

فتأمل مطابقة هذا الحديث لحال قلوبهم في الدنيا؛ فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون»^(١).

وقال في موضع ثالث: «وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بهما عشر معشار من يفعله نادرًا في الأحيان»^(٢).

ومما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ في مفاصد البغاء: «في البغاء فساد كبير، وشر مستطير: يفتك بالفضيلة، يدنس الأعراض، يعكّر صفو الأمن، يفصم رابطة الوفاق، يبعث الأمراض القاتلة في الأجسام، وأي حياة لجماعة تضيع أخلاقها وتتسخ أعراضها، ويختل أمنها، وتدب البغضاء في نفوسها، وتنهك العلل أجسامها؟»^{(٣)(٤)}.

(١) روضة المحبين، ٤٤٢.

(٢) روضة المحبين، ٤٧٠.

(٣) رسائل الإصلاح، ٢٣.

(٤) عبودية الشهوات، عبد العزيز آل عبد اللطيف. مجلة البيان (١٣٤ / ٨) باختصار

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في بيان أسباب ترك المعاصي وقمع الشهوة الحرام: «ويدخل في الصبر عن محارم الله المواظبة على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيد، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بمرأى ومسمع فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالباً تكون سبباً لزوال النعمة، ومنها محبة الله فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب، وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج، وقد أثنى الله على الصابرين في عدة آيات، والصبر نصف الإيمان، وقال عمر: وجدنا خير عيشنا بالصبر»^(١).

٥- ضعف الإيمان، وضعف أعمال القلوب.

الإيمان فرع عن علم القلب، فعلى قدر شعاعه ورسوخه يكون نور التعلق وثباته، فإذا ضعف الإيمان وقلّت مادته في القلب تبعها ضرورة ضعف بقية أعمال القلب، فالأعمال كالشبكة التي تغذي بعضها بعضاً، فإذا ضعف طرف غذّته بقية الأطراف، فإن استحكم داؤه ومرضه أمرضها معه! فكذلك التعلق بالله تعالى، فإن ضعف الإيمان به وغابت عن القلب مشاهد تعظيمه ورواسخ

وتصرف وزيادات.

(١) فتح الباري لابن حجر (١٨ / ٢٩٢) بتصرف يسير.

ربوبيته ومعالي ألوهيته؛ ضَعُفَ على الأثر التعلق به ولا بدَّ، فعلى الموفق الناصح لنفسه أن يراعي موارد غذاء قلبه بالقرآن والإيمان، وأن يُرَمِّمَ ما وَهَى من بنیان قلبه بالمحاسبة والمجاهدة والإحسان، وأن يتفقد أعمال قلبه وقيسها جميعًا بمعيار صدق تعلُّقه بربه تبارك وتعالى، فهو المعيار الذي لا يخطئ بإذن الله تعالى إن كانت البصيرة حاضرةً والعقل شاهدًا.

وإذا كانت الأعمال الصالحة للقلب واللسان والجوارح تزيد الإيمان والتعلق، ويغذي بعضها بعضًا؛ فكذلك الذنوب والمعاصي طردًا وعكسًا، وتوفيق الله وخذلانه من وراء ذلك كله!

قال ابن القيم في تدبره لقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْغُوتُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلْوَسِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٧]^(١): «في هذه الآية ذكر المقامات الثلاثة:

الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء، والخوف. وهذا هو التوحيد وهو حقيقة دين الإسلام كما في المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما أتيتك حتى حلفت عدد

(١) والمعنى: أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين. قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» قال العماد ابن كثير: «وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين»، وذكره عن عدة من أئمة التفسير. قلت: وليس في هذا مستمسك لقبوري، فالآية داحضة لشبهتهم من جهة هدم ما تعلّقوا به من أن هؤلاء الذين دعواهم مع الله قد رضوه أو أنه يصح لهم ذلك، بل هؤلاء عبادُ الله يؤمنون به ويتقربون بصالح أعمالهم إليه، فكيف يصح أن يُتقرب بهم إليه؟!»

أصابعي هذه ألا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك به؟ قال: «الإسلام». قال: وما الإسلام؟ قال: «أن يسلم قلبك لله، وأن توجه وجهك إلى الله، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدّي الزكاة المفروضة. أخوان نصيران»^(١). لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بعد إسلامه^(٢)»^(٣). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للإسلام صَوًى ومَنَارًا كمنار الطريق»^(٤)، من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٥) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

(١) أي أن المسلم ينصر أخاه المسلم، وتوضحه الرواية الأخرى: «كل مسلم على مسلم محرّم، أخوان نصيران».

(٢) أي أن الشرك يحبط العمل بالكلية. وفي الرواية الأخرى يكون المعنى تعليق قبول توبته حتى يهاجر عن المشركين: «لا يقبل الله من مشرك أشرك بعد ما أسلم حتى يفارق المشركين إلى المسلمين».

(٣) أحمد (٢٠٢٧٢).

(٤) الصُّوًى: جمع صُوءَة، وهي الأعلام المنصوبة من الحجارة التي يُستدلُّ بها على الطريق. والمعنى: أن للإسلام معالم واضحة يُهتدى بها إلى رضوان الله وجنته، وأن الدين واضح بيّن. وقد سمي العلامة محمد رشيد رضا مجلته المنار اقتباسًا من هذا الحديث العظيم.

(٥) أخرجه الحاكم (٧٠/١) (٥٢) وقال: صحيح على شرط البخاري. وصححه الألباني.

«فيجب على المسلم أن يجعل خوفه ورجاءه وتعلقه بالله وحده فقط، ويعلم أن جميع الخلق لا يملكون ضرًا ولا نفعًا من دون الله جل وعلا، قال الرسول ﷺ في وصيته لابن عباس: «واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١) فالأمر كله بيد الله جل وعلا، فيجب أن يكون تعلق القلب والتوجه إليه وحده، وأن تكون العبادة خالصة له وحده.

والعبادة تكون بالقلب، وتكون بالجوارح، وتكون بهما جميعًا، فمثلاً القيام تعبدًا يجب أن يكون لله، والركوع يجب أن يكون لله، والسجود يجب أن يكون لله، والتوبة يجب أن تكون لله، والنذر والدعاء والرجاء والخوف وغير ذلك من أنواع العبادة الكثيرة كلها يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، ولا يجوز أن يتعلق العابد لله بغير الله جل وعلا في دعاء ولا في خوف ولا في رجاء، إلا أن الخوف يكون خوفًا طبيعيًا ويكون خوفًا غبييًا، فالخوف الطبيعي كالذي يخاف من السبع أو من الحية أو من الظالم المقتدر على أذاه أو تعذيبه، فهذا لا يضر الإنسان شيئًا، وليس عليه في ذلك شيء.

ولكن الخوف الذي يضر إذا خاف من غائب عنه^(٢)، فهو يخافه وهو ميت، أو يخافه في أمر ليس من الأسباب الظاهرة، فإن هذا لا يجوز أن يكون

(١) الترمذي (٢٧٠٦) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) وهو ما يُسمى بخوف السرّ.

إلا لله وحده جل وعلا، فإن حصل للإنسان شيء من ذلك - والعياذ بالله - فقد وقع في الشرك، وهذا الشرك يكون من الشرك الأكبر.

وكذلك المحبة يجب أن تكون لله وحده، فالحب هو لبّ العبادة وهو التأله، وهو معنى (لا إله إلا الله)، فيجب أن يكون لله وحده، إلا أن الحب ينقسم أيضًا إلى حب طبيعي وحب خاص، فالحب الطبيعي كحب الجائع للطعام والظمآن للشراب، وكذلك حب الألفة والأنس والمصاحبة، وكذلك حب الحنان والرحمة كحب الوالد لولده وما أشبه ذلك فهذا لا ضير فيه، ولا يلام الإنسان عليه، وإنما الحب الذي يكون لله هو الحب الخاص الذي يتضمن الذل والتعظيم، فهذا لا يجوز إلا أن يكون لله؛ إذ كان الحب في ضمنه ذلّ للمحبوب وتعظيم له، فهذا يكون عبادة لا يجوز أن يكون للمخلوق، وكذلك هذه الآية، حيث استثنى إبراهيم الله جل وعلا فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٧] مما يدل على أنه لا يكفي في عبادة الله جل وعلا أن يقرّ الإنسان بأن الله هو ربه، بينما يوزع عبادته بين الله جل وعلا وبين المخلوقين، فإنه بذلك يكون مشرّكًا، فإذا قال الإنسان: إن الله هو ربي، وهو خالقي، وهو المتصرف في كل شيء والمالك لكل شيء، وهو المحيي والمميت، وهو الضار النافع، ومع ذلك يدعو غيره من الأموات فهذا الإقرار لا يفيد شيئًا ولا ينفعه، وذلك لأن المشرك لا يقبل منه عمل، والشرك يفسد العمل كله، فلا بد في قبول العمل وصحته من الإخلاص، أن يكون الإنسان مخلصًا في عبادته

ودعوته واتجاهه إلى الله جل وعلا»^(١).

لذا فمن توحيد التعلق بالله تعالى توحيد الخوف منه وخشيته تبارك وتعالى، فالمؤمن لا يخشى إلا الله تعالى، ولا يخاف إلا منه؛ لعلمه أن الخير لا يأتي إلا منه سبحانه، ولا يرد الشر إلا هو عز وجل، وأنه على كل شيء قدير، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، ولا بأس بخوف طبيعي عارض كالخوف من سبع أو غرق أو عدو قادر حاضر ونحو ذلك، ولكن الحذر كل الحذر من خوف السرّ وضابطه المخرج من الإسلام هو أن يخاف من غير الله كخوفه من الله تعالى، أو أن يخاف من غير الله لظنه أن له تصرفاً في الكون من دون الله تعالى، أو أن يخاف من غائب كميت أو جنّي أو وثني أو طاغوت لظنه بأن له تصرفاً سرّياً في الكون، أو أن يخاف أحداً في شيء من خصائص الله تعالى، وفيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فكل هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، أما الخوف الطبيعي فعفوٌ بحمد الله تعالى.

وكذلك الحال في المحبة، فالمحبة الطبيعية فطرة وغريزة لا بأس بها، وبها تحلو الحياة شيئاً من مُرّها، وترتاح له هشاشة الروح شيئاً من عناء الدنيا وكبدّها، كحب الولد والزوجة والحرث والمهنة ونحو ذلك، مع أنها في الحقيقة ليست بشيء إزاء محبة الإله الحق تبارك وتعالى، فلا تطيب الحياة إلا بذلك، إنما المحذور هو محبة العبادة لغير الله تعالى، وهي ما خالطها ذلٌ وتعظيم لغير الله تعالى، فهنا تكون المحبة شركية، فهذا هو شرك المحبة، وهو داء العاشقين،

(١) شرح فتح المجيد للغنيان (٢٩ / ٤) بتصرف يسير.

ويكون كذلك لدى أتباع المُعْظَمِينَ، وهو أشدُّها وأخطرها وأوبقها، والله المستعان.

إن المؤمن المتعلق بربه تعالى يترقى بتوفيق الله له في درجات الكمال في التعلق حتى يصل درجة الإحسان، فكل محسن متعلق بالله تعالى ولا بد، فحبل الإحسان هو التعلق، ولا يكون التعلق طيباً حتى يكون حسناً، وبحسب جودة الإحسان يكون طيب التعلق. قال ابن رجب في الفتح: «وأما الإحسان: ففُسر بنفوذ البصائر في الملكوت حتى يصير الخبر للبصيرة كالعيان، فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه. ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتاً كثيراً بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) قيل: المراد: أن نهاية مقام الإحسان أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه فيكون مستحضراً ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجز عنه وشق عليه انتقل إلى مقام آخر وهو أن يعبد الله على أن الله يراه، ويطلع على سره وعلايته، ولا يخفى عليه شيء من أمره.

وقد وصّى النبي ﷺ طائفة من أصحابه أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، منهم ابن عمر، وأبو ذر، ووصّى معاذاً أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل ذي هيبة من أهله^(٢).

(١) البخاري (٤٤٩٩) ومسلم (٩، ١٠). وهو حديث جبريل عليه السلام المشهور.

(٢) جاء من حديث سعيد بن يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «أوصيك أن تستحي من =

قال بعض السلف: «من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص». فهذان مقامان: أحدهما: مقام المراقبة، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه وإطلاعه عليه؛ فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله، فيراقبه في حركاته وسكناته وسره وعلايته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان.

والثاني: أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة، فيصير كأنه يرى الله ويشاهده، وهذا نهاية مقام الإحسان، وهو مقام العارفين^(١). ومنه قول ابن عمر لعروة

الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح في قومك». رواه أحمد في الزهد (ص: ٤٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٣٨)، والديلمي (١٧٤٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤١).

(١) أي العالمين بالله تعالى، المليئة قلوبهم بحبه ورجائه وإجلاله وخشيته. ولو أنه قال مقام المحسنين أو العلماء به ونحوهما مما مُدح مُسمّاه في الشرع كان حسناً، والخطب يسير بحمد الله تعالى، فقد ورد لفظ المعرفة في أحد طرق حديث معاذ لما أرسله إلى اليمن وأوصاه، والحديث مخرج في الصحيحين كما عند البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن قال: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله..". وقد ذكره ابن القيم في المدارج (١٥٤/١) بلفظ "إلى أن يعرفوا الله"، وأظنه قد قصد إلى لفظ: "فإذا عرفوا الله".

والأظهر أن لفظ المعرفة قد روي بالمعنى، فأكثر المواطن قد جاءت بلفظ "فإن هم أطاعوا لذلك"، والمقام واحد، فلعله المحفوظ وما سواه قد روي بالمعنى، وقد

لما خطب إليه ابنته في الطواف فلم يردّ عليه، ثم لقيه فاعتذر إليه وقال: «كنا في الطواف تتخايل الله بين أعيننا»^(١).

أخرج البخاري هذا الحديث في صحيحه في سبعة مواضع، أولها: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك..". وهو اللفظ بدون ذكر المعرفة هو الأكثر دوراناً، فلعل ما سواه قد روي بالمعنى، وقد ورد هذا الموضع بالفاظ: "فإن هم أطاعوا لذلك"، "فإن هم أطاعوا لك بذلك"، "فإذا عرفوا ذلك"، "فإذا عرفوا الله"، وإذا وقع الاحتمال سقط الاستدلال.

وقد شكك الحافظ في فتح الباري (٣٥٤/١٣) في حفظ هذا اللفظ "فإذا عرفوا الله" فقال: "الاحتجاج به يتوقف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة، وفيه نظر؛ لأن القصة واحدة، ورواة هذا الحديث اختلفوا هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره، فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لا يتم الاستدلال، وقد بينت في أواخر كتاب الزكاة أن الأكثر رواه بلفظ: "فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك"، ومنهم من رواه بلفظ: "فادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك"، ومنهم من رواه بلفظ: "فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله". ووجه الجمع بينها: أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: "فإذا عرفوا الله"، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطوعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة". أهـ. وبالجملة؛ فلفظ العلم أشرف وأعلى من لفظ المعرفة، لذلك فمن أساء الله تعالى العليم، وبالله التوفيق.

(١) أي كأننا نراه بأعيننا حال طوافنا تعظيماً ومحبة وقرّباً.

وبهذا فسر المثل الأعلى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] ومثله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن كعب وغيره من السلف: «مثل نوره في قلب المؤمن». فمن وصل إلى هذا المقام فقد وصل إلى نهاية الإحسان، وصار الإيمان لقلبه بمنزلة العيان، فعرف ربه وأنس به في خلوته وتنعم بذكره ومناجاته ودعائه حتى ربما استوحش من خلقه، كما قال بعضهم: «عجبت للخلقة كيف أنست بسواك؟! بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك». وقيل لآخر: أما تستوحش؟! قال: «كيف استوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!»^(١).

وقيل لآخر: أما تستوحش وحدك؟ قال: «أويستوحش مع الله أحد؟!» وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته ويقول: «من لم تقر عينه بك فلا قرّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أنس». وقال الفضيل: «طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله جليسه»^(٢).

وقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى أن العابد يتخيل ذلك في

(١) هو قول محمد بن النضر، أخرجه البيهقي في الشعب (١ / ٤٥٨).

(٢) الحلية (٨ / ١٠٨).

عبادته، لا أنه يراه حقيقة لا ببصره ولا بقلبه. وأما من زعم أن القلوب تصل في الدنيا إلى رؤية الله عياناً كما تراه الأبصار في الآخرة - كما يزعم ذلك من يزعمه من الصوفية - فهو زعم باطل»^(١).

٦- الانقطاع عن العبادات، أو عدم ديمومتها.

فالعبادة للقلب كالماء للشجرة، فإذا انقطع الماء فقد انقطعت مادّة حياتها وسبب بقائها بإذن مولاه، وهذا أمر يحسه كل مؤمن، فحال قلبك في صلاتك وسجودك وقراءتك ودعائك ليس كحالهِ في تجارتك وطعامك وشهوتك وفضول مباحاتك، فالعبادة مثل الدِّيمِ الهتون على الأرض الطيبة القابلة له، والقلب هو مخزن الإيمان، والعبادات القلبية والقولية والعملية هي مادّة هذا الإيمان، فالإيمان قول القلب وعمله وقول الجوارح وعملها، والعلم الصحيح عن الله تعالى مفضل بإذن الله للعمل النافع على اختلاف مشاربه وتنوع مسالكه، فكل عبادة لها قناة تُغذّي القلب بمادة الإيمان، وتتغذّي منه كذلك وللقرآن والدعاء والسجود والصدقة تأثير مباشر سريع في حياة القلب وانشراحه وسعادته.

وخير العمل ما كان ديمة، كما هو حال الرحمة المهداة صلوات الله

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٩٨ - ١٠٨) باختصار.

وسلامه وبركاته عليه، كما في الصحيحين^(١) عن علقمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة، قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله ديمةً، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟». ومعنى ديمة: أي يدوم عليه ولا يقطعه^(٢).

وقد كان ﷺ ينهى عن قطع العمل وتركه، كما قال لعبد الله بن عمرو: «لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»^(٣) وقال: «إن الله لا يملّ حتى تملّوا»^(٤) وفي رواية: «لا يسأم حتى تسأموا»^(٥).

قال ابن رجب في ذلك: «الملل والسآمة للعمل يوجب قطعه وتركه، فإذا سأم العبد من العمل وملّه قطعه وتركه؛ فقطع الله عنه ثواب ذلك العمل؛ فإنّ العبد إنما يُجازى بعمله، فمن ترك عمله انقطع عنه ثوابه وأجره إذا كان قطعه لغير عذر من مرض أو سفر أو هرم.

كما قال الحسن: إن دور الجنة تبنيها الملائكة بالذكر فإذا فتر العبد انقطع الملك عن البناء، فتقول له الملائكة: ما شأنك يا فلان؟ فيقول: إن صاحبي

(١) البخاري (١٨٨٦) ومسلم (١ / ٥٤١) واللفظ له.

(٢) «ديمة» أصلها الواو، لأنها من الدوام، وانقلبت ياءها للكسرة قبلها، قال أهل اللغة: الديمة: المطر الدائم في سكون، شبه به عمله في دوامه مع الاقتصاد.

(٣) مسلم (١١٥٩ / ١٨٥).

(٤) البخاري ١٧ / ١ (٤٣)، ومسلم ١٨٩ / ٢ (٧٨٥) (٢٢١).

(٥) مسلم (٧٨٥ / ٢٢٠).

فتر^(١)، قال الحسن: أمدوهم - رحمكم الله - بالنفقة.

وأيضاً فإن دوام العمل وإيصاله ربما حصل للعبد به في عمله الماضي ما لا يحصل له فيه عند قطعه؛ فإن الله يحب مواصلة العمل ومداومته، ويجزي على دوامه ما لا يجزي على المنقطع منه.

وقد صح هذا المعنى في الدعاء، وأن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فيَدْعُ الدعاء، فدل هذا على أن العبد إذا أدام الدعاء وألح فيه أجيب، وإن قطعه واستحسر^(٢) منع إجابته، وسُمِّي هذا المنع من الله مللاً وسأمة مقابلةً للعبد على ملله وسأمته، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فسمى إهمالهم وتركهم نسياناً مقابلةً لنسيانهم له. هذا أظهر ما قيل في هذا^(٣).

(١) ولعل هذا من باب ضرب الأمثال أو أنه من الإسرائيليات، والأول أظهر، والله أعلم.

(٢) الاستحسار: الكلال والتعب والندم، فهو قد انقطع عن الدعاء بسبب ضعف يقينه بالإجابة.

(٣) فتح الباري لابن رجب (١ / ٨٧) وذكر الشيخ ناصر العقل في شرحه للطحاوية (٧٦ / ١٧) كلاماً متيناً في وجه امتناع اشتقاق الصفة من التردد والهرولة والملل فقال - حفظه الله تعالى -: «التردد والهرولة وردت في مقابل أفعال العباد، ولو لم ترد في مقابل فعل العبد لأطلقناها صفة بجزم، لكن ما دامت قد وردت في سياق فعل العبد فلا بد أن يربط المعنى بهذا المفهوم، وهذا أمر لا نستطيع أن نرده عن أذهان السامعين، وهو مقتضى اللغة التي تكلم بها النبي ﷺ، فالنبي ﷺ تكلم بلسان عربي

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ

مبين، وأُعطي جوامع الكلم، ولا يتكلم عن ربه إلا بحق، فألفاظ الحديث التي ورد فيها التردد ووردت فيها الهرولة ونحوها من الأفعال الثابتة لله عز وجل لا نستطيع أن نجزم بأنها صفات، لكن نقول: نقرأها كما جاءت، ونثبتها لله عز وجل حقيقة على ما يليق بجلاله، فهي حق على حقيقتها، ولا نتأول، لكن مع ذلك لا نثبتها صفة مفردة؛ لأن إثباتها صفة مفردة يحتاج إلى دليل، ولا سيما أنها ربطت بأفعال الخلق، فأَيُّ فعل لله يربط بأفعال الخلق يفهم من سياقه المعنى المراد، وإذا فهم من سياقه المعنى المراد لم يصح هذا الفهم تأويلاً؛ بل هو تفسير للفظ بظاهره، فإذا فهمنا أن التردد في قبض نفس المؤمن القصد منه إكرام المؤمن والرفقة به لعمله الصالح؛ فهذا يعني أننا ما أولّنا؛ لأن هذا هو مفهوم النص وظاهره.

وكذلك الهرولة، وإن كانت الهرولة تختلف عن التردد نوعاً ما، لكن يمكن أن يقاس على التردد الملل: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»، فربط الفعل بأفعال العباد، فمعنى الملل عند العباد منفي عن الله عز وجل، إذًا: للملل في حق الله معنى آخر بالضرورة مفهوم من السياق نفسه، لا بتأول، ولذلك لا تصلح هذه أمثلة على التأويل كما يزعم كثير من المبطلين، فالسلف حينما أولّوا الملل أو فسروه بغير لفظه - وكذلك التردد - لا يعني ذلك أن هذا تأويل؛ لأن هذا مقتضى السياق، فالمعنى موجود في النص نفسه؛ لأنه مقابل أفعال العباد، فهذا خبر، ولا مانع أن نثبت منه صفةً بالإجمال، لكن لا يقال: إنها صفة مفردة، فلا يقال: من الصفات التردد ومن الصفات الملل، لكن يقال: هذا الفعل من صفات أفعال الله عز وجل، ونكتفي بذلك ونقف على النص، ونقول: هذا النص يُثَبِّتُ لله على ظاهره على ما يليق بالله عز وجل، ومعناه مفهوم عند المخاطبين، والله أعلم.

هذه؟» قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها. قال: «مه^(١)، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا» وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه. متفق عليه^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبرُوا كأنهم تقالُّوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه^(٣).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً^(٤). قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتنطعون هم المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد»^(٥).

(١) مه: كلمة نهى وزجر.

(٢) البخاري ١٧/١ (٤٣)، ومسلم ١٨٩/٢ (٧٨٥) (٢٢١).

(٣) البخاري ٢/٧ (٥٠٦٣)، ومسلم ١٢٩/٤ (١٤٠١) (٥).

(٤) مسلم ٥٨/٨ (٢٦٧٠) (٧).

(٥) رياض الصالحين (١/ ٨٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد^(١) الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(٢) وفي رواية للبخاري: «سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، القصّد القصّد تبلغوا» أي: الزموا الاقتصاد ودعوا التنطّع والغلوّ والتشديد.

قال النووي: «قوله ﷺ: «إلا غلبه»: أي غلبه الدّين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه. و«الغدوة»: سير أول النهار. و«الروحة»: آخر النهار. و«الدلجة»: آخر الليل. وهذا استعارة وتمثيل، ومعناه: استعينوا على طاعة الله تعالى بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة، ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب، والله أعلم»^(٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب^(٤) فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «حُلُّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد»

(١) المشادة: هي المنازعة بقوة، وهي الغلو والتنطّع، والمراد أنه زاد على نفسه من العبادات بما لم تكلف به، إمّا في الكيفية أو العدد.

(٢) البخاري ١٦/١ (٣٩) و١٢٢/٨ (٦٤٦٣).

(٣) رياض الصالحين: ٨٦/١.

(٤) أم المؤمنين، وهذا من اجتهداها في العبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

متفق عليه^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يَصِلِي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعَسَ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسَهُ»^(٢).

وعن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَنتُ أَصِلِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَاةَ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا»^(٣) وَقَوْلُهُ: قَصْدًا: أَيِ بَيْنِ الطَّوْلِ وَالْقَصْرِ.

وعن أَبِي جَحِيْفَةَ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَى النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً^(٤) فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخَوْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا^(٥)، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكْلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكُلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ

(١) البخاري ٦٧/٢ (١١٥٠)، ومسلم ١٨٩/٢ (٧٨٤) (٢١٩).

(٢) البخاري ٦٣/١ (٢١٢)، ومسلم ١٩٠/٢ (٧٨٦) (٢٢٢).

(٣) مسلم ١١/٣ (٨٦٦) (٤٢).

(٤) متبدلة: أي لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة. ولعل هذا قبل فرض الحجاب.

(٥) وهذا من علمها وحيائها، فألمحت للمقصود بأيسر طريق وأعفّه وأنقاه.

فقال له: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن^(١)، فصلباً جميعاً^(٢) فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»^(٣).

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخبر النبي ﷺ أَنِي أَقُول: واللّٰهُ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ^(٤) فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر» قلت: فإني أطيع أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يومين» قلت: فإني أطيع أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام».

(١) وتأمل حسن خلق الأصحاب، ولينهم بأيدي بعضهم، وبُعدهم عن المخالفة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) وهذا أصل في صلاة الجماعة في قيام الليل، وقد صلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع رسول الله ﷺ، وكذلك ابن مسعود وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) البخاري ٤٠/٨ (٦١٣٩).

(٤) ولاحظ همة شباب الصحابة وسمو أهدافهم وعلو مقاصدهم ومبلغ اجتهادهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفي رواية: «هو أفضل الصيام» فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك» ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي^(١).

وفي رواية: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «فلا تفعل: صم وأفطر، ونم وقم؛ فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك^(٢) عليك حقًا. وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر» فشددت فشد عليّ. قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة، قال: «صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه» قلت: وما كان صيام داود؟ قال: «نصف الدهر» فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟» فقلت: بلى، يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «فصم صوم نبي الله داود، فإنه كان أعبد الناس، واقرأ القرآن في كل شهر» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال: «فاقرأه في كل عشرين» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال: «فاقرأه في كل عشر» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل

(١) لأنه قد بلغ به الجهد والمشقة مع كبر سنه بخلاف نشاط الشباب وقوته.

(٢) أي: الزائر والضيف.

من ذلك؟ قال: «فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك»^(١) فشددت فشدد علي. وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر»^(٢) قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ. فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ^(٣).

وفي رواية: «وإن لولدك عليك حقاً». وفي رواية: «لا صام من صام الأبد» ثلاثاً. وفي رواية: «أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(٤).

وفي رواية قال: «أنكحني أبي امرأة ذات حسبٍ وكان يتعاهد كَنَّتِه^(٥) فيسألها عن بعْلِها^(٦) فتقول له: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش

(١) وفي رواية له عند أحمد (٦٥٤٦) وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط: «قال: «اقرأه في سبع»، قال: قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك، قال: «لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث».

(٢) وهذا من دلائل نبوته ﷺ فقد عمّر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ولكنه أخذ بالعزيمة حفظاً للحال الذي فارقه عليه رسول الله ﷺ، وهذا من فضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أي: أن صيامه وقيامه لا يضعفان جسده ولا قلبه عن القتال في سبيل الله تعالى.

(٥) أي: امرأة ولده.

(٦) وفيه أن على الوالد أن يتفقد حال ولده حتى وإن كبر ونضج.

لنا كَنَفًا^(١) منذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه^(٢) ذكر ذلك للنبي ﷺ^(٣)، فقال: «القني به» فلقيته بعد ذلك، فقال: «كيف تصوم؟» قلت: كل يوم، قال: «وكيف تحتم؟» قلت: كل ليلة، وذكر نحو ما سبق. وكان يقرأ على بعض أهله السُّبع الذي يقرؤه^(٤)، يعرضه من النهار ليكون أخفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبي ﷺ^(٥)»^(٦).

وعن أبي ربي حنظلة بن الربيع الأسيدي الكاتب - أحد كتاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟^(٧) قلت: نافق

-
- (١) كنفًا: أي لم يكشف لها سترًا وعورة، والمراد: لم يجامعها.
- (٢) وفيه إهمال من لوحظ عليه أمر خلاف المظنون به أو المنتظر منه، فلعل له عذر يتبدى مع مضي الوقت، أو يزول مع تتابع الأيام.
- تأن ولا تعجل بلومك صاحبًا لعل له عذرٌ وأنت تلومُ
- (٣) وفيه رفع المشورة لأهلها من أهل العلم والحكمة والنصح.
- (٤) أي: في آخر عمره بعدما سن وكبر.
- (٥) وهذا حال الصحابة في حسن عهدهم به صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.
- (٦) البخاري ٦٣/٢ (١١٣١) و٥١/٣ (١٩٧٥) و(١٩٧٦) و(١٩٧٧) و(١٩٧٩)
- و٤/١٩٥ (٣٤١٨) و٦/٢٤٢ (٥٠٥٢) و(٥٠٥٤)، ومسلم ١٦٢/٣ (١١٥٩)
- (١٨١) و(١٨٢) و(١٨٣) و(١٨٦) و(١٨٧) و(١٨٩) وقد جمع هذه الروايات
- الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في الرياض (١/ ٨٨-٩١).
- (٧) وفيه سؤال صاحب عن أصحابه وتفقد أحوالهم والاهتمام بأمرهم.

حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين^(١) فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا^(٢) الأزواج والأولاد والضيعات^(٣)، ونسينا كثيرًا، قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إننا لنلقى مثل هذا^(٤) فانطلقت أنا وأبو بكر^(٥) حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر^(٦)، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، لكن يا حنظلة ساعة

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٥٩/٩ (٢٧٥٠): «أي نراها رأي عين».

(٢) أي: عاجلنا ولاعبنا.

(٣) أي: الأموال والمعاش والحرف، لأنها تضيع إن أُهملت.

(٤) وتأمل عنايتهم بأمر القلوب وحساسيتهم الشديدة من كل ما يحول بينها وبين سلامتها.

(٥) انطلقوا من فورهم لحل المعظلة وعلاج النازلة، فالأمر العظيم قد يدهم من لا يأبه به ويبادره، فقد تفوت النفس بأجلها قبل تداركها بإصلاحها.

(٦) أما الأولى فأغلق بابها بوفاته بأبي هو وأمي وولدي ونفسي ﷺ، وأما الثانية فباقية وهي الذكر. ولا بد للمرء من ساعة يروح فيها عن نفسه عناء الجد، وفي الإحماض والترويح إيقاظ وإجها.

وساعة» ثلاث مرات (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه» (٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل عمل شَرَّةٌ» (٣) ولكل شَرَّةٍ فترة (٤) فمن كانت فترته إلى ستي فقد أفلح (٥)، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك (٦) (١).

(١) مسلم ٩٤/٨ (٢٧٥٠) (١٢).

(٢) لأن الوقوف وترك الاستظلال والصمت ليست من الشرع فأبطلها، أما الصيام فأقره على إتمامه. وكان الصمت من شرع بني إسرائيل كما أخبر الله تعالى عن مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وقد فسّر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صومها بالصمت، كما نقله عنه ابن جرير رحمه الله (١٨٢/١٨)، ولو كان إنما شرع بمجرد النذر لم ينه رسول الله ﷺ أبا إسرائيل عنه، لأنه لا أصل له في شرعنا. والله أعلم. والحديث خرّجه البخاري ١٧٨/٨ (٦٧٠٤).

(٣) أي: نشاط.

(٤) أي: فتور وكسل يعقب النشاط.

(٥) أي: لم يخرج عن السنة، ولم يدخل الحرام، إنما ضعفت عبادته مؤقتاً عن نشاطها السابق.

(٦) أي خرج إلى المعصية بعد الطاعة، وانتكس بعد الاستقامة، عياداً بالله تعالى.

٧- هجر القرآن العظيم.

كلام الله تعالى العظيم الكريم المنزل على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن له خصائص يعجز الذهن عن تصوّر بعض حدودها، ويُعقّر القلم عن الوقوف على وصف ساحلها، فالقرآن هدى ونور وشفاء ورحمة للمؤمنين.

ومن أراد الخير بحذافيره وجوامعه وأوائله وخواتمه؛ فليزم القرآن تلاوة وتدبّراً وحفظاً وتفكيراً وعملاً واستشفاءً واستهداءً، فما من علم ولا هدى ولا خير إلا ومفاته في القرآن. والشجرة إذا لم تسق الماء يبست وماتت، وكذلك القلب إذا لم يسق بالقرآن، فالقرآن ورْدُ القلوب، كما أن الماء ورْدُ الأجساد.

قال الحسن: «والله ما جالس القرآن أحدٌ إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]».

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ «يقول تعالى ذكره: ونزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يُستشفى به من الجهل من الضلالة، ويُبصر به من العمى للمؤمنين، ورحمة لهم، دون الكافرين به، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، وينجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

يقول: ولا يزيد هذا الذي نزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا. يقول: إهلاكًا، لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به»^(١).

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]: «يقول تعالى ذكره لخلقه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: ذكرى تذكركم عقاب الله وتخوفكم وعيده. ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ودواء لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهل الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به ﴿وَهُدًى﴾ وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليل على طاعته ومعصيته ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به؛ لأن من كفر به فهو عليه عَمَى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلود في لظى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبينه لكم، ودعاكم إليه ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾، التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن

(١) تفسير الطبري (١٦ / ٣٤٠).

﴿فَإِذْ لَكَ فُلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَام الدنيا وأموالها وكنوزها.

وعن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال: بفضل الله القرآن ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ أن جعلكم من أهله. وعن هلال بن يساف قال: (فضل الله) الإسلام، و(رحمته) القرآن^(١).

وقال العماد بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: «وذكر عن أئف بن عبد الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خرج عُمر ومولى له فجعل عمر يعدّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت^(٢). ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهذا مما

(١) تفسير الطبري (١٧ / ٥٣٨).

(٢) الكذب بلغة قريش هو الخطأ في الكلام حتى ولو بدون قصد الكذب.

يجمعون»^(١).

وإلى القرآن الكريم مرْدُّ علوم الشريعة، ومدارج الدنيا ومعارج الآخرة، ومن كان من أهل فهم القرآن فهو الفقيه حقًّا، قال الضحاك: «حقُّ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً»^(٢).

وذكر القرطبي عن ابن أبي الجوزي قال: «أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومئة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئاً فقرأ فاطلع علينا من كوة، فقلنا: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا علي، وكيف حالك؟ فقال: أنا من الله في عافية، ومنكم في أذى، وإنَّ ما أنتم فيه حديثٌ في الإسلام^(٣)، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكننا كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرَّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، قال: قلنا قد تعلمنا القرآن، قال: إنَّ في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، قلنا:

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١١٢٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٧٥) بتصرف يسير.

(٣) أي مُحدَّث.

كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه^(١)، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه، إذا عرفت ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿[يونس: ٥٧-٥٨]﴾^(٢).

ولتحذر. رعاك الله ووقاك. هجر القرآن، وليكن لك ورد تردده، وحزب تدأب فيه، وختمة تستولي على فكرك، وآيات تتابع تدبرها، وكن من أهل الله وحزبه تَفُزْ وتُفْلِح، وتعلو وتنجح، وتغنم وتربح. فما انقطع من انقطع عن خير كان من أهله إلا من قَبِلَ تضييعه لحق القرآن، ولو حفظ نفسه بالقرآن ما اجتالته الشيطان عن رياض رضى الرحمن. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال ابن القيم في أنواع هجر القرآن: «هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والاصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمة والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد

(١) دلّ هذا على أن العُجْمَة قديمة.

(٢) الدر المنثور (٢/ ٣٦٩).

أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها،

فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنك لا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته^(١)، كما إنك لا تجد ظالماً فاجراً الا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء^(٢).

٨- ضعف التفكير وقلة المحاسبة.

المحاسبة ضرورة لحفظ رأس المال حتى لا يُستلب أو ينقص، ورأس مال المؤمن دينه، وطيب دينه بحسب حسن تعلقه بربه تعالى، فحري به أن يحاسب نفسه دومًا محاسبة من يوقن بهول المطلع وحق اللقاء لرب العالمين.

قال أبو حامد رَحِمَهُ اللهُ: «حَتَّمْ عَلَى كُلِّ ذِي حِزْمٍ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا وَخَطَرَاتِهَا

(١) كما تمنى بعض أئمة البدع أن يُحْكَّ آيات الاستواء والكلام من المصحف!

(٢) تفسير القرطبي (١ / ٢٢).

وخطواتها. فإن كل نفسٍ من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك؛ خسران عظيم هائل، لا تسمح به نفس عاقل.

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يُفرغ قلبه ساعة لمُشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يُفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنساً^(١) في أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد تُوفيت ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، فاعلمي يا نفس واجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك.

وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عُفِيَ عنه؛ أليس قد فاتته ثواب

(١) الإنساء: التأخير والتأجيل، وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا اللَّيْلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾

أي تأجيل حرمة الشهر الحرام للحلال، ومن ذلك: ربا النساء والنسيئة من تأخير العوض الربوي عن المناولة يداً بيد، وهو ربا الجاهلية.

المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: ٩] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها، فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة.

وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمَحْرَم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يُفَصَّل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن^(١).

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنائته

(١) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ» رواه البخاري (٦٤٧٤).

عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمة، واللعن، والدعاء على الأعداء، والمهارة في الكلام، وغير ذلك، مع أنه خُلِقَ للذكر، والتذكير، وتكرار العلم، والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته.

فليأخذ على نفسه ألا يحرك اللسان إلا بما فيه خيره، فنطقُ المؤمن ذكر، ونظره عبرة، وصمته فكرة ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الحاجة.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة. ثم النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها.

وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان ذلك على نفسه أياماً، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها؛ استغنى عن المجاهدة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المجاهدة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، والله عليه في ذلك حق.

ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يجاهد نفسه ويحاسبها على الاستقامة فيها، والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرهما مغبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد، فإن النفس

بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قبله للتحذير، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهذا للمستقبل، وكلُّ نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُورًا بِهٖ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] ذكر ذلك تحذيرًا وتنبيهًا للاحتراز منه في المستقبل.

وقال بعض الحكماء: «إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى؛ فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإنَّ مُكْثَ الندامة في القلب أكثر من مُكْثِ خفة الشهوة».

وقال لقمان: «إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة».

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر»^(١).

وقال عمر بن الخطاب يوماً لنفسه: «أمر المؤمنين بخٍ بخٍ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك».

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدماً لا يعاتب نفسه.

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «رحم الله عبداً قال لنفسه: أأست صاحبة كذا؟ أأست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى، فكان له قائداً».

وقال ميمون بن مهران: «التقيّ أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك صحيح»^(١).

وقال إبراهيم التيمي: «مثّلت نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثّلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلاها. فقلت لنفسي: يا نفس، أي شيء تريدين؟ فقلت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنت في الأمانة فاعلمي»^(٢).

(١) فالسلطان الغاشم يصرعه، والشريك الصحيح يسرقه، وكلاهما من صفات النفس الأمارة.

(٢) وهو الآن ليس في الأمانة، بل في الجزاء، رحمه الله تعالى وإيانا، وغفر لنا، وتاب علينا أجمعين، ووالدنا والمسلمين. والكاتب والقارئ على الأثر، نسأل الله حسن الختام، وسعادة اللقاء، وطيب المنقلب.

وقال مالك بن دينار: «سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرءًا حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرءًا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءًا نظر في مكياله، رحم الله امرءًا نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني»^(١).

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: «كنت أصحابه، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حنيف^(٢) ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟».

وأعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يجاهد فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم، حرصًا منهم على الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل. فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشريك: أن ينظر في رأس المال وفي الربح

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٨١ - ٤٨٣) بتصرف واختصار.

(٢) تصغير وترخيم أحنف، وهذا من إذلاله نفسه لا تدليلها.

والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمائه، وكلفه^(١) تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار^(٢).

ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبتها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل.

وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبّة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يُغبن في شيء منها^(٣)؛ فينبغي أن يتقى غيبنة النفس ومكرها، فإنها خداعة مُلبّسة مكّارة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟^(٤) وعن سكونه لم سكن؟

(١) كمن يفوته ورده من القرآن فيعوّضه في اليوم التالي مع ورده الجديد.

(٢) وفي الليل مثل ذلك.

(٣) وهذا من دقيق الورع.

(٤) كمن سكت عن بيان الحق.

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصحَّ عنده قدرُ أدّى الواجب فيه؛ كان ذلك القدر محسوبًا له، فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبت عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه، كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها بردّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلى بعد تحقيق الحساب، وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا، وساعة ساعة، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة - وكان بالرقّة - وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمئة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشيًا عليه، فإذا هو ميت. فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتألت

داره في مدة يسيرة قريبة من عمره^(١)! ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والملكان يحفظان عليه ذلك. ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

هذا؛ ولا بد للمؤمن الفطن الحازم أن يعاقب نفسه على تقصيرها. ومهما حاسب نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه أن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها.

قال عبد الله بن قيس: «كنا في غزاة لنا، فحضر العدو فصيح في الناس، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي، ألم أشهد مشهد كذا فقلت لي: أهلك وعيالك؛ فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك؛ فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك. فقلت: لأرمقنه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم أن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات، وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيت صريعاً، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة، رَحِمَهُ اللَّهُ».

والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن

(١) وصدق رحمه الله، فلا إله إلا الله من حال لا نشكوها إلا إلى الله.

الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك، وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

ولا بد في المحاسبة من مجاهدة، وهو أن المؤمن إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بثقل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط^(١)، كل ذلك مرابطة للنفس، ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين، كما روى أبو داود^(٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية

(١) وهذا من سياسة النفس وتأديبها، لا أنها سنة راتبة لا تترك بحال، حتى لا يخرج للابتداع والإحداث، وكل نفس لها أحوال تليق بها، والعامل الحكيم بحسن سياسة نفسه وسوقها بالخزم والرفق والحكمة والبصيرة.

(٢) أبو داود (١٣٩٨) وصححه الألباني.

كتب من المقتنطين» وله^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء» وللترمذي^(٢) من حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة لكم إلى ربكم، ومكفرةٌ للسيئات، ومنهارة عن الإثم».

ومن أنفع أسباب العلاج: أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة، فتلاحظ أقواله وتقتدي به، وكان بعضهم يقول: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعاً». إلا أن هذا العلاج قد تعذر، إذ قد فُقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين^(٣)! فينبغي أن يُعدل من المشاهدة إلى السماع، فلا

(١) أبو داود (١٣٠٨) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٨٩٥) وحسنه الألباني بشواهده.

(٣) الخير في أمتنا كثير بحمد الله تعالى، ولا تخلو الأمة من خير وعلم وعبادة وقنوت وخشوع وورع واجتهاد وجهاد واستقامة وهدى وحسن اتباع، وهذه الطريقة التي يستخدمها بعض العلماء في ذم جميع الناس غير مرضية، فهي ليست من باب الإضرار بالنفس والتواضع، ولكنها ذمٌ لمجموع الأمة، وحُكمٌ بالبطالة عليها، وهذا إجحاف وإتهام للأمة التي لا ينطفئ النور من مجموعها حتى يأذن الله تعالى بخراب العالم. وقد يكون قصد من وعظ الناس بمثل ذلك استنهاض همهم لمسابقة السلف في الخيرات، ولكن الثمرة بخلاف ذلك، فاليأس لا يصنع شيئاً، كيف والظنُّ باطلٌ

شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهميد^(١)، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع^(٢) فما أعظم ملكهم، وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم، فيمتنع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرّة^(٣) ثم يأتيه الموت، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيهِ أبد الآباد، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فعن أبي بكر أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» قيل: فأَي الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله»^(٤).

من أسه؟!

وقد أدركتُ - بحمد الله - جماعة من الأخيار ممن لو أدركهم بعض الأقدمين لقدّموهم لعلمهم وفقههم وورعهم وتقاهم وجمعهم لخصال خير جمّة، فعلام الإزراء بالأمة المحمدية الحمّادة المرصّية المرحومة؟!

(١) وانظر في ذكر اجتهادهم: حلية الأولياء لأبي نعيم رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) وهذه من أعظم المواعظ، فمن تأمل زوال تعب الطاعة، ورحيل صاحبها عن الدنيا وموافاتها في آخرته، وكذلك زوال لذة المعصية وذهاب صاحبها ليوافيتها في آخرته - إن لم يتب - نشط للعبادة وزهد في الدنيا وأقبل على ما ينفعه في آخرته. فالطاعة تذهب مشقتها ويبقى أجرها، والمعصية تذهب لذتها ويبقى وزرها. والله المستعان.

(٣) فنعيم الدنيا منغصّ، أبى الله تعالى كمال اللذة إلا في جنته.

(٤) البيهقي في السنن الكبرى (٦٣١٧) وبنحوه عند الترمذي (٢٣٢٩) وصححه

قال أبو الدرداء: «لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر»^(١).

وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفّر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: «كرامتها أريد».

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: «يا ابتاه، إن أباك يخاف البيات»^(٢).

ولما رأت أم الربيع ما يلقي الربيع من البكاء والسهرة نادته: يا بني، لعلك قتلت قتيلاً؟ قال: نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك. فيقول: «يا أماه هي نفسي».

وقال أحمد بن حرب: «يا عجباً لمن يعرف أن الجنة تُزِين فوقه، وأن النار تُسَعَّر تحته، كيف ينام بينهما؟!».

وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابن أدهم فوجدته قد صلى العشاء

الألباني.

(١) وورد عن عمر بنحو ذلك.

(٢) قال تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

فقعدت أرقبه فلفّ نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن، فوثب إلى الصلاة ولم يُحدث وضوءاً! فحاك ذلك في صدرى فقلت له: رحمك الله؛ قد نمت الليل كله مضطجعاً، ثم لم تُجدّد الوضوء! فقال: «كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة، أحياناً، وفي أودية النار أحياناً، فهل في ذلك نوم».

وقال ثابت البناني: «أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا».

وقيل: «مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش».

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليتُ خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر، فلما سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، وما أرى اليوم شيئاً يشبههم! كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفرًا، قد باتوا لله سُجّداً وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يُميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم. وكأن القوم باتوا غافلين».. - يعني من كان حوله ..

وكان صفوان بن سليم قد تعقّدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدًا ما وجد متزايدًا. وكان إذا جاء الشتاء

اضطجع على السطح ليضرَّ به البرد^(١) وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام، ومات وهو ساجد، وكان يقول: «اللَّهُمَّ إني أحب لقاءك فأحب لقائي».

وقال القاسم بن محمد: «غدوتُ يومًا وكنت إذا غدوتُ بدأت بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَسْلَمَ عَلَيْهَا^(٢) فغدوت يومًا إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ [الطور: ٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية. فقممت حتى مللتُ وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو».

وقال محمد بن إسحاق: «لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًا اعتلت إحدى قدميه، فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء».

وقال بعضهم: «ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل».

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره».

(١) حتى لا يثقل نومه عن ورده بصلاة الليل.

(٢) لأنها عمته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورحمه.

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: «كان زمعة نازلاً عندنا بالمَحَصَّب^(١)، وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المَعْرُسُون^(٢) أَكَلْ هذا الليل ترقدون؟! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون، فيُسمعُ من ههنا بالِ، ومن ههنا داع، من ههنا قارئ، ومن ههنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السَّرى^(٣)».

وقال بعض الحكماء: «إن لله عبداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوذ بمحجوب الغيوم^(٤)» ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد، وما لا يمكن واصفاً أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حُسنًا، وهم الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعًا. وهذه طريقة لا يُبلغ إليها بالتكلف، وإنما هو فضل الله

(١) المَحَصَّب: شعب في مكة مما يلي منى، مخرجه إلى الأبطح. وقد بات فيه رسول الله ﷺ لما خرج من منى في حجة الوداع.

(٢) التعريس: نوم المسافر آخر الليل، وهو المراد هنا. وتطلقها العرب على الجماع كذلك، وهو لغة صحيحة، لكن الأغلب استعمالها في المعنى الأول.

(٣) أي: السير ليلاً. ويعني أنهم أحسنوا تدبير سفرهم إذا قاموا وحصلوا زاد السفر بالصلاة والقراءة والذكر والضراعة.

(٤) أي: بالأنس بالله تعالى، والتذاذ حلاوة الإيمان، والعلم بالله، واليقين، والضراعة، والابتغال، والذكر، والتدبر، والعبادة.

يؤتيه من يشاء»^(١).

وقال بعض الصالحين: «بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال لي: يا هذا قم، فإن الموت لم يمت! ثم هام على وجهه، فاتبعته فسمعتة وهو يقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ويدعو: اللّهُم بارك لي في الموت. فقلت: وفيما بعد الموت. فقال: من أيقن بما بعد الموت شمرّ مئزر الحذر، ولم يكن له في الدنيا مستقر. ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه، يَبْصُر وجهي بالنظر إليك، واملاً قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذلك التوبيخ غداً عندك، فقد آن لي الحياء منك، وحن لي الرجوع عن الإعراض عنك، ولولا حلمك لم يسعني أجل، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أمني. ثم مضى وتركني».

تَلَذُّهُ التَّلَاوَةُ أَيْنَ وَلَّى وَذَكَرُ الْفَوَادِ وَبِاللِّسَانِ
وَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ بِشِيرٌ يُبَشِّرُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْهَوَانِ
فِيدْرِكُ مَا أَرَادَ وَمَا تَمَنَّى مِنْ الرَّاحَاتِ فِي غَرْفِ الْجَنَانِ^(٢)

وقال ابن القيم في بيان حسن سياسة النفس والحزم بمحاسبته بالحكمة والحزم والرفق والهدى، فقال بعد ذكره للنفس المطمئنة وأماراتها: «وإن كانت

(١) واللطف لا يخيب من رجاء وأقبل عليه بصالح العمل وقوي النية وحسن المعتقد وحرارة العزم، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٠٥ - ١١٣) باختصار وتصرف.

بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادتته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها، وأنه عاداتها ودأبها، إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمة الله، والعدل والعلم طارئٌ عليها بإلهام ربها وفطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدًا بقيت على ظلمها وجهلها فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تركوه وتصلح من الإرادات والتصورات^(١) وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم^(٢).

وسبب الظلم: إما جهل وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر

(١) التصور يتبع العلم، والإرادة تتبع الرغبة والعزم.

(٢) وهذا معنى حديث: «والشرّ ليس إليك» رواه مسلم (٧٧١).

وهلك.

وأما النفس اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة هل هي من التلوم وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم. وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: «هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة». وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر». وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته».

وقال الحسن: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالته، يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدماً لا يعاتب نفسه».

فهذه عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم، وأما من جعلها من التلوم فلكثره تردها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر، فإن هذا المعنى لو أريد لقليل: المتلومة كما يقال: المتلونة والمتردة، ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه، فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أماره وتارة لوامة وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من

أحوالها. فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه، وله علاجان:

محاسبتها، ومخالفتها. وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها.

وعن وهب قال: «مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يتخلّى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات وإجماعاً للقلوب».

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن أهتته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة».

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه

فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلتقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

وعلى المؤمن محاسبة نفسه بعد العمل، وهو على ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه^(١)، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه^(٢)، وشهود منّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وفّى هذه المقامات حقّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به؟

(١) أي بذل الجهد لإتقانه وإحسان القصد فيه.

(٢) أي أن يعبد الله تعالى كأنه يراه.

وليحذر الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمسِّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواجهة الذنوب وأنس بها، وعسر عليه فطام نفسه عنها. ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشى إليه رجلاه أو بطشت يده أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟

ويعلم أنه لا بد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته، وكيف فعلته. فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة^(١). وقال تعالى: ﴿فَرَبِّكَ لَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧] وقال تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ

(١) لو قال: الاتِّباع لكان أولى، وكلاهما صحيح على كل حال. وكأنَّ الاتِّباع في اللغة أقوى من جهة الكيفيّة، والمتابعة أقوى من جهة الزمن. والله أعلم.

صَدَقَهُمْ ﴿[الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم؛ فما الظن بالكاذبين؟!

قال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني: هل بلغوا عنهم؟ كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة^(١): «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ و﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾» فيُسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال محمد بن جرير^(٢): «يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟».

وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه». والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع يأخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

(١) واشتهرت عن أبي العالية، ولا يمنع ورودها عن الاثنين رحمهما الله، فمشكاة علمهما واحدة.

(٢) انظر: تفسيره (٢٤/ ٥٨١).

فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسباً على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الاسراء: ٣٦] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب^(١).

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه؟ أم السيئات التي توبقه؟ قال قتادة: «ما زال ربُّكم يُقربُ الساعة حتى جعلها كغد».

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى. وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدَّ مقتاً»^(٢).

وقال مطرّف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقليت الناس». وقال

(١) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ يُحاسب إلا هلك» قلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «ذاك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك» رواه مسلم (٢٨٧٦).

(٢) كنز العمال (٢٩٥٢٨) وأخرجه ابن عساكر (١٧٢/٤٧).

في دعائه بعرفة: «اللهم لا تردّ الناس لأجلي».

وقال بكر بن عبد الله المزني: «لما نظرت إلى أهل عرفات، ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنني كنت فيهم».

وقال أيوب السخيتاني: «إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل».

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحامد بن سلمة فقال له حماد: يا أبا عبد الله، أليس قد أمنت مما كنت تخافه، وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين، فقال: يا أبا سلمه، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله إنني لأرجو لك ذلك.

وعن جعفر بن زيد قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة^(١) فصلوا، ثم اضطجع، فقلت: لأرمقنّ عمله^(٢) فالتمس غفلة الناس حتى إذا قلت: هدأت العيون؛ وثبّ فدخل غيضة^(٣) قريباً منا، فدخلت على أثره، فتوضأ ثم قام يصلي، وجاء أسدٌ حتى دنا منه، فصعدت في شجرة. فتراه التفت أو عدّه جرواً؟!^(٤) فلما سجد قلت: الآن يفرسه! فجلس، ثم سلم، ثم قال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان

(١) أي: وقت صلاة العشاء.

(٢) أي: لأراقبته.

(٣) وهي الشجر الملتف.

(٤) أي: لم يأبه به.

آخر. فولى وإن له لزئيراً أقول: تصدع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي، حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة^(١) قال: ثم رجع، وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عالم.

وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلي».

وعن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اللهم اغفر لي ظلمي وكفري». فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] (٢).

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ

(١) وهذا خلاف السنة، فرسول الله ﷺ أمرنا بسؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار، كما أنه لا يستحق أحد الجنة بعمله، ولعل هذا الوارد قد هجم على فؤاد صِلَة في ذلك الحال إجلالاً لله تعالى، وتعظيماً له، وإزراءً شديداً على نفسه. والحق أحق أن يتبع، فهو من الخطأ المغفور - بإذن الله تعالى - الذي يُعتذر له عنه، لا من السعي المشكور الذي يُقتدى به فيه.

(٢) الدر المشور (٦ / ٧٦). وكل نعمة لم يُؤدَّ حقها فهي مكفورة، والله المستعان.

مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ﴿٣٢﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات؛ فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد؛ فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه؛ فمثلي ومثلكم». فجعلت نفسها معنا (١)(٢).

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل.

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه؛ فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جداً.

فمن أنفع ما للقلب: النظر في حق الله على العباد، فإن ذلك يورث العبد مقت نفسه والإزراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عِلْمٌ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أُحِيلَ على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من

(١) مسند الطيالسي (١٤٨٩).

(٢) علماً بأنها من السابقين المقربين، لأنها مع رسول الله ﷺ في منزلته في الجنة.

أنفسهم، وعلّق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضدّ ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم. ومن ههنا انقطعوا عن الله، وحُجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانياً.

وأفضل الفكر: الفكر في ذلك، فإنه يُسيّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلاً خاضعاً منكسراً كسراً فيه جبره، ومفتقراً فقراً فيه غناه، وذليلاً ذلاً فيه عزّه. ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى.

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه: أن لا يتركه ذلك يُدِلّ^(١) بعمل أصلاً كائناً ما كان. ومن أدلّ بعمله لم يصعد إلى الله تعالى. كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البقل من دموعي! فقال له: إنك أن تضحك وأنت تعترف لله

(١) الإدلال: هو النظر في العمل الصالح ومراعاته بعينه وملاحظته له والإعجاب بوجه خفي به، وإكباره في عين صاحبه، وقد ينتهي به إلى المينة بعمله على ربه، فينتهي به إلى أن يظن أن له حقاً واجباً على الله تعالى. ومنه الدلال. وقد قالوا:

بين التدلّل والتدلّل نقطة في رفعها تتحيّر الأفهام

بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مُدُلٌ بعملك، فإن صلاة الدال لا تصعد فوقه. فقال له: أوصني. قال: عليك بالزهد في الدنيا، وألا تنازعها أهلها، وأن تكون كالنحلة إن أكلت أكلت طيباً، وإن وضعت وضعت طيباً، وإن وقعت على عود لم تضره ولم تكسره. وأوصيك بالنصح لله عز وجل نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم.

ومن هذا أخذ الشاطبي قوله:

وقد قيل كن كالكلب يُقصيه أهله ولا يأتل في نصحهم مُتَبَذِّلاً

وعن الجريري قال: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له إلى الله عز وجل حاجة، فتعبّد واجتهد، ثم طلب إلى الله تعالى حاجته، فلم ير نجاحاً. فبات ليلة مُزرياً على نفسه وقال: يا نفس، مالك لا تُقضى حاجتك؟ فبات محزوناً قد أزرى على نفسه، وألزم إطلاقه نفسه فقال: أما والله ما من قَبَلِ ربي أُتيتُ، ولكن من قَبَلِ نفسي أُتيت. وألزم نفسه الملامة؛ فقُضيت حاجته»^(١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «يا من قد ملكته نفسه، وغلبه حسّه، وقد دنا حبسه، وسُتْكفُ حُسّه، ولقد أنذره جنسه، عاتب نفسك لعلها ترعوي، وسلمها إلى راض العلم عساها تستوي، أحضر دستور المحاسبة وحاسبها، واندبها إلى الخير فإن أبت فاندبها.

ابك لما بك، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسيف المنون فقد

(١) إغاثة اللفهان (١ / ٧٧ - ٨٩) باختصار وتصرف.

علق الشَّبَابُ بِكَ.

قد كان عمرك ميلاً فأصبح الميل شبراً
وأصبح الشبر عقداً فاحفر لنفسك قبراً
عجبا للطرف كيف اغتمض، ولمكلفٍ ما أدى المفترض، يا مشغولاً عن
الجوهر بفاني العرض.

ألا يا غافلاً تُحصى عليه من العمل الصغيرة والكبيرة
يُصاح به ويُنذر كل يوم وقد أنست غفلته مصيره
تأهب للرحيل فقد تدانى وأنذرك الرحيل أخ وجيرة
وكم ذنب أتيت على بصيره وعينك بالذي تأتي قريرة
تحاذر أن تراك هناك عين وإنَّ عليك للعين البصيرة
وكم من مدخلٍ لو مُتَّ فيه لكنك به نكالا في العشيرة
وُقيت السوء والمكروه منه ورحلت بنعمة فيه ستيرة

هذا حادي الممات قد أسرع، هذه سيوف الملمات تلمع، هذه قصور
الأقران بلقع، إن وصلت الدنيا فعلى نية أن تقطع، وإن بذلت فعلى عزم أن
تمنع، أفيها حيلة أم في وصلها مطمع؟ يا مُعْرِقاً في البلى قل لي لمن تجمع؟! إذا
خلوت وتخلت فكيف تصنع؟»^(١).

«لله درُّ أقوام أقبلوا بالقلوب على مُقلِّبها، وأقاموا النفوس بين يدي

(١) المدهش (٥١٣ - ٥١٥) مختصراً.

مؤدَّبها، وسلَّموها إذا باعوها إلى صاحبها، وأحضروا الآخرة فنظروا إلى غائبها، وسهروا الليالي كأنهم وُكِّلوا برعي كواكبها، ونادوا أنفسهم صبراً على نار حطبها، ومَقَّتُوا الدنيا فما مالوا إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى لقاء حبيبهم فاستطالوا مدة المقام بها.

إِذَا كُنْتَ قُوْتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتَهَا فَكَمْ تَلَبَّثُ النَّفْسُ الَّتِي أَنْتَ قُوْتَهَا؟
سَتَبْقَى بَقَاءَ الضَّبِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَمَا يَعِيشُ بِيَدَاءِ الْمَهَامِهِ حَوْثُهَا

لله در أرواح تشتاق إلى روح قُرْبِهِ، وتلتذ عند ابتلائه بوقع ضَرْبِهِ، ويطول عليها الزمان شوقاً إليه لَحَبِهِ، إن سألت عن صفاتهم، فكل منهم مخلص لربه، مجتهد في طاعته، خائف من عتبه، قائم على نفسه باستيفاء الحق منها على قلبه.

أيها العبد: راقب من يراك على كل حال، وما زال نظره إليك في جميع الأفعال، وطهر سرك فهو عليم بما يخطر بالبال.

إلى متى تميل إلى الزخارف، وإلى كم ترغب لسماع الملاهي المعازف، كأي بك وقد هجم عليك الحِمام العاسف، وافترسك من بين خليلك وصديقك المؤالف، وتخلَّى عنك حبيبك وقريبك ومن كنت عليه عاطف، لا يستطيعون ردَّ ما نزل بك، ولا تجد له كاشف، وقد نزلت بفناء من له الرحمة والإحسان واللطف، فلو عاتبك لكان عتبه على نفسك من أخوف المخاوف، وإن ناقشك في الحساب، فأنت تألف.

أين مقامك من مقام الأبطال يا بطَّال، يا كثير الزلل والخطايا، يا قبيح الفعال، كيف قنعت لنفسك بخساسة الدون؟ وغرتك أمانيك بحب الدنيا يا

مفتون؟ هلاً تعرضت لأوصاف الصدق فاستحليت بها ألقاب الحق:
﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحَمِيدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

إلى متى أنت مريض بالزكام؟ ومتى تستنشق ريح قميص يوسف عليه السلام يا غلام؟ لعله يرفع عن بصيرتك حجاب العمى، وتقف متذلاً على باب إله الأرض والسماء، خرج قميص يوسف من مصر إلى كنعان، فلا أهل القافلة علموا بريجه، ولا حامل القميص علم، وإنما قال صاحب الوجد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]، كل واحد منكم في فقد قلبه كييعقوب في فقد يوسف، فلي نصب نفسه في مقام يعقوب، ويتحسّر وليك على ما سلف، ولا ييأس.

قال أبو سليمان الداراني: «من صفا صُفِّي له، ومن كدّر كُدّر عليه، ومن أحسن في ليله كُفي في نهاره». وقال الفضيل بن عياض: «إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي»^(١).

فيا من يريد دوام العيش على البقاء، دم على الإخلاص والنقاء، وإياك والمعاصي، فالعاصي في شقاء المعاصي، والمعاصي تُذلّ الإنسان وتخرس اللسان»^(٢).

٩- صحبة ضعيفي التعلق بالله تعالى.

(١) قلت ذنوبهم فعلموا من أين أتوا.

(٢) مواعظ ابن الجوزي (١٤-١٥) باختصار.

للصحة تأثير لا يستوعبه أكثر الناس، فكثيرهم يظن أنه محصن من تأثير الأقران والأصحاب والأخلاء، وأنهم إن أثروا فيه فتأثيرهم ضئيل ولا يلبث أن يضمحل وتذروه الرياح. والحق أن الأمر بخلاف ذلك تمامًا!

فالطبائع سرّاقة، والجبال نزّاعة، والصاحب ساحب، وهو يقود صاحبه بأخلاقه وألفاظه وإمحاءاته ومواقفه وفرحه وغضبه وسائر أخلاقه، لكن ذلك النّحت المؤثر في نفسية الصّديق أنها يكون مع مرور الأيام وتطاول الليالي، فالنفس مجبولة على جذب ما يلائمها من السجايا، والتحلي بما أطاقت من محبوباتها المطبوعة في الناس، بل حتى الرغبات والمستكرهات النفسانية تتأثر بمخالطة الجليس، واعتبر ذلك فيما حولك، فتراه واضحًا في الأخلاق والسلوك والألفاظ والإيحاءات، بل وحتى الميول والاتجاهات، والأخطر من ذلك الأفكار والتصورات والقيم والمعتقدات.

فمن صاحب تقيًا صالحًا عابدًا قانتًا فإن الحالة الروحانية الطيبة المحبوبة المحيطة بمجالس ذلك الإنسان الصالح سرعان ما تجد لها منفذًا في قلوب أصحابه، والعالم الربّاني الفقيه يؤثر في تلاميذه بأخلاقه وسمته وورعه أسرع من تأثيرهم بكلامه، فالمسافة طويلة نسبيًا بين كلامه ووقعه في النفس ما لم يكن سبق تمهيد لقبول نفساني للمتكلم، وهذا لا يتأتى إلا بالشعور الناتج عن الثقة والحب والميل القلبي، وكل هذه ثمار المصاحبة والمجالسة.

كذلك الشجاع والكريم - ومعدن الشجاعة والكرم واحد كما أن معدن الجبن والبخل واحد - تجده يؤثر في أقرانه وأخصائه بشجاعته وكرمه، فيخرج

الواحد من عنده وقد زادت شجاعته وانبسط سخاؤه، وما ذاك إلا تأثراً بمن صاحبه، وانفعلاً بمن جالسه.

كذلك الفاسق الخبيث فتأثيره في صحبة صديقه كالسم البطيء الذي يسري في الجسد وصاحبه عنه غافل، حتى يفتك به ويعطبه ويهلكه أو يمرضه ويضعفه ويُغفله.

وكذلك البطال ساقط الهمة الذي لا يرفع رأسه لمهمات الأمور، ولا يسمو بهمته للدرجات العلى من الجنة، ويكتفي بالاعتماد على سعة رحمة الله تعالى ومغفرته دون بذل الجهد لنيل ذلك، وما علم أن تلك هي سلعة الأمانى، والأمانى رأس مال المفاليس! والجنة تريد عملاً لا بطالة، ومجاهدة لا لعباً، وجدّاً لا هزلاً.

ومن أولى وصايا المربين للتائبين أن يرشدوهم لتغيير بيئة الصحبة، فالتوبة زرع ضعيف محتاج لعناية فائقة بحسن تأتٍ وحكمة، وترابٍ طيب بحسن صحبة، وهواء نقي بنقاء علم، وشمس ساطعة بحزم مربٍّ، وملاحظة حنونٍ بعقار نُصح.

وعند أبي داود^(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخَالِلُ»^(٢) وله^(١) عن أبي

(١) أبو داود (٤٨٣٣) وحسنه الألباني.

(٢) يُخَالِلُ: يصاحب ويصادق ويجب.

سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا تُصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقياً» وفي الموطأ^(٢) عن مخبر أن ابن عمر قال - وهو يوصي رجلاً -: «لا تعترض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر خليلك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، ولا تصحب فاجراً كي لا تتعلم من فجوره، ولا تفش إليه سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله عز وجل».

إذا ما صحبتَ الناسَ فاصحبْ خيارَهُمْ ولا تصحبْ الأرْدَى فتزدَى مع الرّدي عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يقتدي

لقد ندب الله أوليائه إلى صحبة الأخيار فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] وأرصد الثواب الجزيل والأجر الوافر للمتحابين فيه، والمتزاورين فيه، والمتجالسين فيه، والمتبازلين فيه، وبين فضل المجلس الصالح، وحذر من ضده، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته^(٣) ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه؟^(٤) قال: لا، غير أني

(١) أبو داود (٤٨٣٢) وحسنه الألباني.

(٢) الموطأ برواية محمد بن الحسن (٣/ ٤١١) (٩٢٢).

(٣) أي: طريقه.

(٤) أي: تقوم بها، وتسعى في صلاحها. وأصل الرُّبَا الزيادة.

أحبته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه^(١). فواهاً لتيك المحبة الإلهية ما أطيبها، وأيسر - بحمد الله تعالى - طريقها!

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله، ناداه مناد: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأ من الجنة منزلاً»^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يُحذيك^(٣) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً متنتة»^(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال: «المرء مع من أحب»^(٥) وفي رواية: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب». ولما ذكر السائل عن الساعة أنه يحب الله رسوله، قال

(١) مسلم ١٢/٨ (٢٥٦٧) (٣٨).

(٢) ابن ماجه (١٤٤٣)، والترمذي (٢٠٠٨) وقال: حديث غريب. وقال ابن حجر في الفتح (٥١٥/١٠): «له شاهد بإسناد جيد» وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٨).

(٣) أي: يُهديك من الطيب. فالحذية هي الهدية.

(٤) البخاري ١٢٥/٧ (٥٥٣٤)، ومسلم ٣٧/٨ (٢٦٢٨) (١٤٦).

(٥) البخاري ٤٩/٨ (٦١٧٠)، ومسلم ٤٣/٨ (٢٦٤١).

رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت». قال أنس: فما رأيت فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بهذا^(١).

وعن أسير بن عمرو قال: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أتى عليه أمداد^(٢) أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال له: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والد؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرادٍ، ثم من قرن، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدته هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبره^(٣)»، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فاستغفرت لي، فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي^(٤)، فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشrafهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رث البيت قليل

(١) أحمد (١٢٠٣٦) والترمذي (٢٣٨٥) وصححه. وكذلك صحيحه الألباني.

(٢) أي: وفود وجماعات.

(٣) برّ والدته فأبره الله تعالى.

(٤) غبراء الناس: أي مختلط بعامتهم غير متميز عليهم بجاه أو غنى أو شارة أو غير ذلك، فلا يختلف ظاهر حاله عنهم، وهذا من تمام تدينه، وكمال عقله، وزهده في الدنيا، وصحة يقينه، وأمانة توفيقه.

المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد من أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك، فافعل» فأتى أويساً، فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفر لي. قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه» (١) (٢).

هذا ومن فاز بصحبة تقي ماجد فليغتبط بذلك، وليدخر محبته له في الله من صالح ذخائره يوم الدين، وليخبره بمحبته له في الله تعالى، فعن أبي

(١) مسلم ١٨٨/٧ (٢٥٤٢) (٢٢٣) و ١٨٩ (٢٥٤٢) (٢٢٤) و (٢٢٥) وانظر لهذا الموضوع شرح النووي لصحيح مسلم ٢٧٥/٨ (٢٥٤٢).

(٢) هرباً من الشهرة، وضناً بجمعيّة قلبه على شتاته، وحذراً على إخلاصه من فتك المراءاة. وفي رواية عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه، فليستغفر لكم». (٢٥٤٢) وهذا نصٌّ في تفضيله على الناس بعد الصحابة، فتأمل فضل برِّ الوالدة، وقد نصر ذلك شيخنا عبد الكريم الحضير حفظه الله تعالى. وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (١٦ / ٩٥): « هذا صريح في أنه خير التابعين، وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره: «أفضل التابعين سعيد بن المسيب». والجواب: أن مرادهم: أن سعيداً أفضل في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونحوها، لا في الخير عند الله تعالى، وفي هذه اللفظة معجزة ظاهرة أيضاً».

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وذكر منهم: رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»^(١).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٢).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٣).

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله عز وجل: المتحابّون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم»^(٤) النبيون والشهداء»^(٥).

وعن أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتى برّاق الثنايا^(٦) وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء، أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه،

(١) البخاري ١٣٨/٢ (١٤٢٣)، ومسلم ٩٣/٣ (١٠٣١) (٩١).

(٢) مسلم ١٢/٨ (٢٥٦٦) (٣٧).

(٣) مسلم ٥٣/١ (٥٤) (٩٤).

(٤) الغبطة: تمنّي مثل ما للغير من الخير من غير زواله عن صاحبه. دليل الفالحين ٣/٣٣٥.

(٥) الترمذي (٢٣٩٠) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٦) وصف ثناياه بالحسن والصفاء، وأنها تلمع إذا تبسم كالبرق، وأراد صفة وجهه بالبشر والطلاقة. النهاية ١٢٠/١.

فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فلما كان من الغد، هَجَرْتُ (١)
فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرتُه حتى قضى صلاته، ثم جِئْتُهُ
مِنْ قَبْلِ وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: الله؟ (٢)
فقلت: الله، فقال: الله؟ فقلت: الله، فأخذني بحبوة ردائي، فجبذني (٣) إليه، فقال:
أبشر! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين
فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتبازلين فيّ» (٤).

وعن أبي كريمة المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال:
«إذا أحب الرجل أخاه، فليخبره أنه يحبه» (٥).

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «يا معاذ، والله

(١) أي: بَكَرْتُ وقت الضحى أو الظهر.

(٢) استفهام بقسم، بمعنى: هل تقسم بالله تعالى على ذلك؟

(٣) الجبذ والجذب بمعنى.

(٤) مالك في الموطأ (٢٧٤٤) برواية الليثي، وصححه النووي في رياض الصالحين.
وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١). ومعنى "المتبازلين فيّ" أي: الذين
يبدلون أنفسهم في مرضاتي، كذلك من تباذلوا في الله تعالى بأي وجه كان بالمال أو
بالجهد أو بالمعونة أو بالدعاء.

(٥) أبو داود (٥١٢٤) وسكت عنه، والترمذي (٢٣٩٢)، والنسائي في الكبرى
(١٠٠٣٤)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه ابن دقيق
العيد في الاقتراح (١٢٨) والألباني في صحيح أبي داود.

إني لأحبك^(١) ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك^(٢).

(١) أيّ فضلٍ ورفعةٍ وغبطةٍ بعد ذلك، فرسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يقسم بالله على حبه! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد قالها لها وهو يودعه في ذهابه لليمن الذي لم يره بعده.

(٢) أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي ٥٣/٣ وصححه النووي في الرياض، وصححه الألباني. وهذا الدعاء معدود من أجمع الأدعية النبوية، فإن أعانك الله تعالى على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ فقد حُزّت الخير بأطرافه، فحريّ بالمؤمن المداومة عليه. وقال شيخنا ابن باز رحمه الله تعالى في فتاويه (١٩٧/١١) في موضع هذا الدعاء من الصلاة: "الأفضل أن يكون هذا الدعاء وأشباهه قبل السلام، لأن النبي ﷺ لما علّم الصحابة التشهد قال: «ثم ليتخير من المسألة ما شاء». - مسلم (٤٠٢) - وفي لفظ: «ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعوه». - البخاري (٨٣٥) ومسلم (٤٠٢) - وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تدع أن تقول دُبْر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». ودبر الشيء آخره، كدبر الحيوان. ويلحق بذلك ما يلي الصلاة بعد السلام، فإنه يُسمّى دُبْرًا، لما ثبت في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال «كان النبي ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ». - البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣) - ومعلوم أن هذا الذكر يقال بعد السلام، وقد جاء ذلك صريحاً في بعض روايات حديث المغيرة وغيرها، فدل ذلك على أنه لا حرج في الدعاء بعد السلام وبعد الذكر فيما بين العبد وبين ربه، عملاً بالأدلة كلها. والله ولي التوفيق».

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمرَّ رجل به، فقال: يا رسول الله، أني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: «أأعلمته؟» قال: لا. قال: «أعلمه» فلحقه، فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له^(١).

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعقل يستزيد من الخير اقتداءً بغيره، وهذا قد تثمره مجالسة الأخيار الأفاضل، وتحذره مكالمة الأتقياء الأماثل. فإذا كثرتهم المجاليس، وطاولهم المؤانس، أحبَّ أن يقتدي بهم في أفعالهم، ويتأسى بهم في أعمالهم، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم، ولا أن يكون في الخير دونهم، فتبعته المنافسة على مساواتهم، وربما دعت الحمية إلى الزيادة عليهم والمكالمة لهم؛ فيصيروا سبباً لسعادته، وباعثاً على استزادته.

والعرب تقول: لولا الوئام لهلك الأنام. أي لولا أن الناس يرى بعضهم بعضاً فيقتدي بهم في الخير لهلكوا.

ولذلك قال بعض البلغاء: «من خير الاختيار صحبة الأخيار، ومن شر الاختيار مودة الأشرار». وهذا صحيح؛ لأن للمصاحبة تأثيراً في اكتساب الأخلاق، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد. ولذلك قال الشاعر:

رَأَيْتُ صَلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمْ عِنْدَ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ

(١) أبو داود (٥١٢٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠١٠) وصححه النووي في الرياض. والرجل المحبوب هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُعْظَمُ في الدنيا بفضل صلاحه ويُحْفَظ بعد الموت في الأهل والولد

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرمال فيخمد^(١)

وقال أبو حامد رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. فلا بد أن يتميز بخصال وصفات يُرْغَب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودينية:

أما الدنيوية، فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا.

وأما الدينية، فيجتمع فيها أيضًا أغراض مختلفة؛ إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عُدَّةً في المصائب وقوَّةً في الأحوال، ومنها الاستفادة من دعاء الصاحب، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة^(٢). ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد.

(١) أدب الدنيا والدين (١٣٠ - ١٣١) باختصار.

(٢) ومن حزين كلام أهل النار وحسراتهم قولهم: ﴿فَمَا لِلنَّاسِ شَفِيعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿

[الشعراء: ١٠٠ - ١٠١].

وهناك شروط لمن تراد مصاحبته، وهي خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحبُ أحمق الجاهلِ	وإيّاك وإيّاها
فكم من جاهلٍ أردي	حليماً حين آخاه
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ	إذا ما المرءُ ماشاه
وللشيء من الشيء	مَقاييسُ وأشباه
وللقلب على القلبِ	دليلٌ حين يلقاه

كيف والأحمق قد يضرّك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري. ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما إذا فهم.

وأما حسن الخلق: فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق المصّر على الفسق: فلا فائدة في صحبته، لأن من يخاف الله لا يصّر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿فَلَا يُصَدِّقُكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ

هُوَ ۞ [طه: ١٦] وقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وقال: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

وأما المبتدع: ففي صحبته خطر سِرَايَةِ البدعة وتعدّي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته؟!

وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: «يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة؛ فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى سيئة سدّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمراً أمرك، وإن تنازعتما أثرك».

فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة، وشرط أن يكون قائماً بجميعها. قال ابن أکثم: قال المأمون فأين هذا؟ فقليل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال لا. لأنه أراد ألا يصحب أحداً!

وقال بعض الأدباء: «إن لم تجد من يستحق صحبتك فلا تصحب إلا نفسك». وقال علي رضي الله عنه:

إِنْ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا شَدُّ^(١) الزَّمَانِ صَدَّكَ شَتَّتَ فِيهِ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ

وقال بعض العلماء: «لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجل تُعلِّمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه».

وقال بعضهم: «الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مرّ كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط»^(٢).

وقال جعفر الصادق: «لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرّك. والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفرّ عند الشدّة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها».

وقال المأمون: «الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء

(١) في الأصل «ريب» فأبدلتها بـ «شدّ»؛ لأن في الأولى سب للدهر، ولا أظنه يصح عن علي رضي الله عنه، وكثير مما نسب له وللشافعي رحمه الله تعالى لا يثبت.

(٢) لعله أراد بالحموضة اختلاط الأخلاق، وبالملوحة حاجة الدنيا.

لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلي به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع».

وقد قيل: «مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها ما له ظل وليس له ثمر، وهو مثل الذي يُنتفع به في الدنيا دون الآخرة، فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما له ثمر وظل جميعاً، ومنها ما ليس له واحد منهما كأُمّ غيلان^(١) تَمَرُّقُ الثياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ» [الحج: ١٣] وقال الشاعر:

الناس شَتَّى إذا ما أنت ذقتهم لا يستون كما لا يستوي الشجرُ
هَذَا لَهُ ثَمَرٌ حَلْوٌ مَذَاقُهُ وَذَاكَ لَيْسَ لَهُ طَعْمٌ وَلَا ثَمَرُ

فإذا لم يجد رفيقاً يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به. قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الوحدة خير من المجلس السوء، والمجلس الصالح خير من الوحدة».

(١) أم غيلان هي شجرة السَّمر. قال ابن البيطار في جامعه (١/٥٧): «هي اسم للسَّمر عند أهل الصحراء، وذكر أبو حنيفة أن العامة تسمي الطلح (أم غيلان). قلت: وأهل البلاد يُسمون ما عظم من شجر السَّمر (الطلح) وأكثر ما يعظم بأودية الحجاز» ا.هـ باختصار.

قلت: وعروق السَّمر هي أجود الخطب.

وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهوّن أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها.

وأما الحريص على الدنيا: فصحبته سَمٌّ قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرّك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تُكرهُ صحبة طلاب الدنيا، وتُستحبُّ صحبة الراغبين في الآخرة^(١).

قال علي رضي الله عنه: «أحيوا الطاعات بمجالسة من يُستحيا منه». وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ما أوقعني في بليّة إلا صحبة من لا أحتشمه». وقال لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر».

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة^(٢)، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقربه ويُقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره؛ فاعتلّ محمد فعاده الشافعي رحمه الله فقال:

مَرَضَ الْحَبِيبُ فَعُدْتُ لَهُ فَمَرَضْتُ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ

(١) ابحث عنهم وإن قلّوا، وأحسن صحبتهم وإن قلّوا.

(٢) فصدّيقك من صدّك لا من صدّك.

وَأَتَى الْحَبِيبُ يَعُودُنِي فَبَرَأْتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقبل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه؛ فقال الشافعي: سبحان الله أَيْشُكُّ في هذا؟ وأرشدتهم لأبي يعقوب البويطي. فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع.

فنصح الشافعي لله تعالى وللمسلمين، وَتَرَكَ المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضي الله تعالى. فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك رَحِمَهُ اللهُ، وهو من كبار أصحاب مالك رَحِمَهُ اللهُ. وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، واشتغل بالعبادة وصنف كتاب (الأم) الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما صنفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه^(١)، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره.

والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله تعالى. قال الأحنف: «الإخاء جوهرة رقيقة، إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات، فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا

(١) فكان كما قال شيخه الشافعي رحمهما الله: «وددت لو أن العلم الذي في صدري قد بُثَّ في الناس ولم يُنسب إليّ منه شيء».

من أخيك التقصير».

ومن الوفاء للصديق: ألا يسمع بلاغات الناس عليه، لا سيما من يُظهر أولاً أنه محب لصديقه. كي لا يُتَّهم. ثم يلقي الكلام عرضاً وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب، ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلاً.

ونذكر جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء:

إن أردت حسن العشرة فالحق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع من غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلاً طرْفِي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات.

وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تحليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقل وتنخمك، وكثرة التمطّي والثأؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها.

وليكن مجلسك هادئاً، وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط. ولا تُحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنّع تصنّع المرأة في التزيّن، ولا تبدّل تبدّل العبد، وتوقّ كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلحّ في الحاجات، ولا تشجع أحداً على الظلم.

ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف، ولن لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

وإذا خاصمت فتوقّر، وتحفّظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك، ولا تبحث على ركبتك، وإذا هداً غيظك فتكلّم.

وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه البداية بالتسليم، وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تُحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وعون الضعيف، وإرشاد الضال، وردّ السلام، وإعطاء السائل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم.

وإياك وكثرة المزاح مع لبيب أو غير لبيب، فإن اللبيب يحقد عليك،

والسفيه يجترئ عليك» (١).

واحذر من صحبة من يبعدك عن ربك، ويضعف صلتك بمعبودك، ويوهن تعلُّقك بإهلك.

فما ينفعُ الجرباءَ قُرْبُ صَاحِبِهِ إِلَيْهَا وَلَكِنَّ الصَّحِيحَةَ تَجْرِبُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَصْعَبُ

والعاقل لا ينزف عقله ومروءته في صحبة من يسرق منه ثمين عمره وسمين وقته، ويوهن من حزمه مع نفسه، ويضعف عزمه فيما ينفعه، ويُشَتِّت جمعيته فيما هو من شأنه.

«قال أرسطو طاليس: الأشكال لاحقة بأشكالها، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها. وقال: من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل، رفع الجاهل قدره عليه.

فصاحب تقيًا عالمًا تتنفع به فصحبة أهل الخير تُرجى وتُطلبُ
وإياك والفساق لا تصحبهم فُقُرْبُهُمْ يُعِدِّي وَهَذَا مُجَرَّبُ
فإنا رأينا المرء يسرق طبعه من الإلف ثم الشرُّ للناسِ أغلبُ
وجانب ذوي الأوزار لا تقرّبهم فُقُرْبُهُمْ يُرْدِي وَلِلْعَرَضِ يَثْلُبُ

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تؤاخ الفاجر، فإنه يزين لك فعله، ويُحِبُّ لو أنك مثله، ومدخله عليك ومخرجك من عنده شين وعار. ولا الأحق فإنه يجهد نفسه لك ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضررك، فسكوته خير من

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨ - ٢١) بتصرف واختصار.

نطقه، وبُعده خير من قربه، وموته خير لك من حياته. ولا الكذاب فإنه لا ينفعك معه عِشْرَة، ينقل حديثك وينقل الحديث إليك، وإن تحدّث بالصدّق لا يُصدّق.

اتَّقِ الأحمقَ لا تصحبهُ إنما الأحمقُ كالثوبِ الخلقُ
فهو إن رقعته من جانبٍ عادَ من هونٍ سريعاً فانخرقُ

فلا يسوغ لك أيها العاقل الرشيد صحبة مثل هذا الأحمق البليد، فإنه يسوءك بحمقه وتأنبه، ولا تعرف رضاه من غضبه.

والصدّاقة تطلق على ما دون الأخوة، والأخوة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع» (١)(٢).

وقيد ابن الجوزي فائدة نفيسة في صيد خاطره (٣) فقال: «رأيت نفسي تأنس بخلطاء نسّمِيهم أصدقاء، فبحثت بالتجارب عنهم فإذا أكثرهم حسّاد على النعم، وأعداء، لا يسترون زلة، ولا يعرفون لجليس حقاً، ولا يواسون من مالهم صديقاً.

فتأملت الأمر فإذا الحق سبحانه يحمي قلب المؤمن أن يجعل له شيئاً يأنس به، فهو يُكدّر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به.

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٤ / ٦٥ - ٦٩) مختصراً.

(٢) وأعظم تشاكل الأوضاع ما كان في المحبة لله تعالى.

(٣) الصيد، (٤٤٣) باختصار وتصرف يسير.

لذا ينبغي أن تعدّ الخلقَ كلهم معارف ليس فيهم صديق، ثم انفر عنهم وأقبل على شأنك، متوكلاً على خالقك، فإنه لا يجلب الخير سواه، ولا يصرف السوء إلا إياه. فليكن أنيسك وموضع توكلك وشكواك.

فإن ضعف بصرك فاستغث به، وإن قلّ يقينك فسله القوة. وإياك أن تميل إلى غيره، وأن تشكو من أقداره، فربما غضب ولم يعتب.

وما طيب العيش إلا لمن يعرفه، ويعيش معه، ويتأدب بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراه، ويقف على باب طرفة حارساً من نظرة لا تصلح، وعلى باب لسانه حافظاً له من كلمة لا تحسن، وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الأغيار).

«قال أبو حازم: كل ما يشغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم. وقد قيل:

فلا كان ما يلهي عن الله إنه يضرّ ويؤذي إنه لمشؤوم
فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعمّ الناس، خصوصاً من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعيّن، فإذا كثر الحُبُّ هلك الناس عموماً!

وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها، يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب، كما قال النبي ﷺ لأصحابه لما مرّ على ديار ثمود بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، خشية أن يصيبكم ما

أصابعهم»^(١).

ولما تاب الذي قتل مئة نفس من بني إسرائيل وسأل العالم: هل له من توبة؟ قال له: نعم، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة، فأدركه الموت بينهما، فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم: «أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها». فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر، فغفر له^(٢).

وهجران أماكن المعاصي وأخواتها من جملة الهجرة المأمور بها، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه^(٣) قال إبراهيم بن أدهم: «من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة من كان يخالطه، وإلا لم ينل ما يريد».

احذر الذنوب، فإنها مشؤومة، عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المحبة لها سقيمة، السلامة منها غنيمة، والعافية منها ليس لها قيمة، والبليّة بها - لا سيّما بعد نزول الشيب - داهية عظيمة.

يا من ضاع قلبه: أنشدّه في مجالس الذكر، عسى أن تجده.

يا من مرض قلبه: احمله إلى مجلس الذكر، لعله أن يُعافى. مجالس الذكر

(١) البخاري ٩/٦ (٤٤١٩) و(٤٤٢٠)، ومسلم ٢٢٠/٨ (٢٩٨٠).

(٢) مسلم (٢٧٦٦).

(٣) البخاري (٦١١٩).

مارستان^(١) الذنوب تُداوي فيها أمراض القلوب كما تداوي أمراض الأبدان^(٢).

١٠ - الخوف من المخلوق ورجاؤه ومحَبَّته.

فعماد التعلق بالله تعالى وتوحيده وعبوديته هو الحب والخوف والرجاء، فإن اختلَّت هذه الأعمدة وزلت تلك الأركان؛ فاضمحلال التعلق يكون بحسبها، والله المستعان.

والمتعلق بربه الموفق هو من جمعها في قلبه، فأَحَبَّ الله تعالى ورجاه وخافه بكل قلبه. وقد عقد البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ فِي صَحِيحِهِ بَابًا سَمَّاهُ: (باب الرجاء مع الخوف) قال ابن حجر رَحْمَةُ اللَّهِ: «أي استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكلُّ منهما مذموم.

والمقصود من الرجاء: أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذه بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: «من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف ألا تقبل. ومن

(١) أي: مشفى (مستشفى).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (٨١) باختصار.

علامة الشقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو!»

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»^(١). وهذا كله متفق على استحبابه في حالة الصحة، وقيل: الأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوهِ ومغفرته، ويؤيده حديث: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»^(٢).

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلاً بحيث يجزم بأنه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف»^(٣).

(١) سنن الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (٢٨٧٧).

(٣) ابن ماجه (٤٢٦١) وحسنه الألباني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»^(١) قيل: المراد أن الكافر لو علم سعة الرحمة لغطى على ما يعلمه من عظم العذاب فيحصل به الرجاء، أو المراد: أن متعلق علمه بسعة الرحمة مع عدم التفاته إلى مقابلها يطمعه في الرحمة.

والحديث اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف، فَمَنْ علم أن من صفات الله تعالى الرحمة والانتقام لا يأمن انتقام من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمة من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولاً وفروعاً كلها في جانب الوسط، والله أعلم^(٢).

١١ - الشرك والكفر بالله عز وجل.

الشرك والكفر أظلم الظلم، وأجهل الجهل، وأشنع الذنوب، وأفحش الخطايا. وكل ذنب يقبل الغفران خلا الشرك والكفر والنفاق، نسأل الله

(١) البخاري (٥٦٥٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٨ / ٢٩٠ - ٢٩٢) مختصراً.

العافية والسلامة. والمؤمن الموفق حريص على معرفة دقائق التوحيد وتحقيقها، وظواهر وخفايا وأطراف وحقائق الشكر وتحصيلها، وأنواع الكفر ومزايلتها، ودقائق الشرك والبراءة منها.

وأول واجب على المكلف هو التوحيد، وهو حقيقة الشكر، وخلاصة الإسلام، وعمادُ الإيمان، وبه يدخل الإنسان في ملة الإسلام، وتصح له من بعده صالحات الأعمال، وهل تحقيق الشهادتين إلا لأجله، وخلقُ الدارين إلا للامتحان به، والجزاء عليه؟!!

وغاية دعوة المرسلين التوحيد وحرب الشرك ﴿أَنْزِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وأولى أولويات الداعية إلى الله تعالى هي دعوة الناس للتوحيد، وتعبيدهم لله تعالى وحده لا شريك له، وهي محضُ الإيمان، وشرط الإسلام، ولُبُّبُ الحنيفية، ومفتاح الجنة، والعروة الوثقى، وكلمة التقوى، جعلنا الله جميعاً ووالدينا وأحبابنا من أهل تحقيقها. وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أوصاه بقوله - وتأمل الأوليّة والألوية -: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى»^(١).

والشرك محبط للعمل كما يحبط الحدث الطهارة، وموجبٌ للخلود في النار مع أئمة الكفر وطُغاة الإشراف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] والمشرِك

(١) البخاري (٦٩٣٧).

محروم من العفو، ممنوع من المغفرة، محتومة له النار، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وعمله كله حابط ولو جاء بعمل نبي - مع عصمتهم منه بكل حال - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦] فالشاكر حقاً هو الموحد صدقاً.

ولطالما نادى الأنبياء، وتتابع المرسلون، وتواصى العلماء المُسدّدون، بالوصية بالتوحيد، وتعظيمه، وحراسته، وتنقيته، وسدّ الذرائع المُتَقَصّة أو الناقضة له. قال السعدي رحمه الله تعالى: «فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار، والخلود فيها، وحرمان الجنة إذا كان أكبر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه؛ كان حقاً على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألهًا وإنابةً وخوفًا ورجاءً وطمعًا وقصدًا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك اثبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه»^(١). والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد للسعدي (١ / ٣٠).

العلي العظيم.



هل ينافي التعلق بالله تعالى اتخاذ الأسباب والتداوي؟

لقد سبق في التوكل تفصيل هذا الموضوع، ولكن نسلط الضوء على جوانب أخرى منه، أو للتأكيد على أمور مهمة حياله، فنقول وبالله التوفيق:

التعلق بالله تعالى توحيد، والتعلق بغيره ينقصه أو ينافيه، فينافيه وينقصه كليتة إن كان التعلق بغير الله تعالى تاماً، أو صحبته أعمالاً شركية كبرى كالسجود أو الذبح ونحوها، ويكون مُنْقِصاً له إن كان دون ذلك.

فالتوحيد نَزْهٌ نَقِيٌّ صَافٍ مَنِيْرٌ بَرَّاقٌ، والموَحَّد قد نَزَّه تعلقه من أن يكون لغير الله تعالى وحده لا شريك له، وحتى لو جرت جوارحه بموجبات الأسباب، وسرت أفعاله على وفق الظواهر، لكن قلبه لا يتعلق بغير مُسَبَّب الأسباب، الذي له الأمر كله.

ومن تلك الأسباب التداوي، قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «الأمراض النفسية كثيراً ما تستعصي على الأطباء إذا عاجلوا بالأدوية الحسية، ولكن دواؤها بالرقية ناجع ومفيد، وكذلك الأمراض العقلية، تنفع فيها الأدوية الشرعية وقد لا تنفع فيها الأدوية الحسية، لذلك أريد منكم أيها الأخوة أن تلاحظوا هذا، وإذا أمكنكم أن تجمعوا بين الدوائين فهو خير، أي الحسي والشرعي، حتى تصرفوا قلوب المرضى إلى التعلق بالله عز وجل وآياته، وحينئذ أحيلكم إلى الكتب المؤلفة في هذا الشأن، أن تطالعوها وتحفظوها وترشدوا إليها المرضى، لأن تعلق المريض بالله عز وجل له أثر قوي في إزالة المرض أو تخفيف المرض.

الأدوية الحسية معروفة، وهي نوعان: منها ما تلقاه الناس من الشرع، ومنها ما تلقوه من التجارب، فمما تلقاه الناس من الشرع: التداوي بالعسل، فإن ذلك دواء شرعي، ودليله قوله عز وجل في النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

ومن ذلك: الحبة السوداء فإن النبي ﷺ قال: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»^(١).

ومنها: الكمأ^(٢) قال فيه النبي ﷺ: «الكمأ من المن، وماؤها شفاء للعين»^(٣) وهذا أمرٌ مُسلمٌ يجب أن نؤمن به، حتى لو فرض أنه لم ينفع فليس ذلك لقصور السبب، ولكن لوجود مانع منعنا من الانتفاع به، لأن الأسباب التي جاءت في الشرع قد تتخلف آثارها لوجود مانع، لكن هذا أمر مسلم.

(١) صحيح البخاري (٥٣٦٤) ومسلم (٢٢١٥) قال ابن شهاب: «والسام: الموت. والحبة السوداء: الشونيز». والشونيز: هو الحبة المعروفة بحبة البركة، وتسمى (السويداء) وهو الراجح، وقد أجريت دراسات علمية وطبية أثبتت إعجاز هذه الأحرف النبوية، وقيل: هي الكمون. فلعل من أسمائها غير المشتهرة الكمون، ثم صار الكمون علماً على غيرها فيما بعد، والله أعلم.

(٢) نوع من الفطر يشبه البطاطا، وهو من المن ويسمى: الفقع. وأنواعه أربعة: الزبيدي وهو أبيض كبير - وهو أشهرها - والهوبر وهو أسود صغير، والخلاسي - وهو أجودها وأقساها، والجبأ (الجبية) وهو أدناها طيباً.

(٣) البخاري (٤٣٦٣) ومسلم (٢٠٤٩).

أما النوع الثاني من الأدوية الحسية، فهو متلقى من التجارب، وهذا كثير، حتى أنه يوجد الآن ممن لم يدرسوا الطب نظرياً من استفادوا بالتجارب، فكانت أدويتهم أحسن من الأدوية المعقّمة التي صنعت على وجه صحّي.

ولا يجوز أبداً أن ننكر هذا، وقد سمعنا كثيراً من الإذاعات من اخترع أدوية عثر عليها من الأشجار والحشائش لم تكن معلومة من قبل، وأثرها أكبر من أثر الموجود المستعمل»^(١).

والرقية مشروعة إن اجتمعت شروطها الشرعية، وهي:

أولاً: أن تكون من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسول الله ﷺ، أو من الأدعية المباحة المشتملة على التعلُّق بالله وحده لا شريك له في جلب الخير ودفع الشر، وعلى اعتقاد أن الشافي هو الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ثانياً: ألا تشتمل على صيغ مجهولة من طلاس ورموز ونحو ذلك.

ثالثاً: أن تكون باللغة العربية، أو بما يفهم معناه من غيرها، وإذا كانت باللغة العربية فيجب أن تكون معلومة المعنى، ليست كلمات لا يعرف معناها، فلا بد أن تكون بأسماء الله جل وعلا وبصفاته، أو بما أبيح من الأدعية التي فيها التوسل بأسماء الله وبصفاته، وأن لا يكون فيها أسماء مجهولة. وقد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ عن الرقى التي فيها أسماء مجهولة قال: «وما يدريك

(١) اللقاء بالأطباء (١٢ - ١٤).

لعلها كفر». يعني لعل في هذه الأسماء المجهولة ما يكون فيه أسماء شياطين أو أسماء ملائكة، فينادي الملائكة، ويستغيث بهم، أو ينادي الشياطين، أو يتقرب بذلك، فيكون بذلك كفرًا.

رابعًا: ألا يعتمد ولا يعتقد فيها ومنها الشفاء المباشر، بل هي مجرد سبب، والشافى هو الله وحده، حيث جعل الله الرقية سببًا للشفاء، والشفاء خاص بالله تعالى. فالرقية سبب، والراقي مثل الطبيب يبذل هذا السبب.

فعلى المريض صدق التعلق بالله جل وعلا، فيسأله سبحانه أن ينفعه بهذه الرقية وبقراءة القارئ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون في الرقية بإطلاق، فكانوا يعتقدون أنها مؤثرة حتمًا، وكان يعظمون الرقية والراقي، وهذا ضلال. والتوكل على الله جل وعلا حينذاك سيكون ضعيفًا، وهذا يكون في نفوس كثير من أهل العصر، فلا بد من تجريد التعلق بالله وحده، والله المستعان.

خامسًا: ألا يكون الراقى من أهل الضلال والانحراف والتعلق بغير الله والتقرب إلى من يتعلق به الشياطين ومردة الجان بوسائل العبادة والخضوع، كأن يطلب ممن يسترقه شيئًا من أثوابه، أو أظفاره، أو شعوره، أو معلومات عن أسرته أو نحو ذلك مما هو مسلك الدجاجة والمشعوذين وعبد الشياطين.

وتكون الرقية أنجع إن كان المسترقي من أهل الإيمان بالله ربًا وإلهًا واختصاصًا بالحوال والقوة والخلق والتدبير واستحقاق العبادة وحده، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا ﴿[الإسراء: ٨٢]﴾.

وبالجملة؛ فالتعلق بالله تعالى لا يمنع اتخاذ الأسباب والتداوي، شريطة تجريد تعلق القلب بمن بيده مقاليد الأمور سبحانه وبحمده، والله أعلم.

وقد ابتدأنا اللهم بحمدك وننتهي بحمدك، فله وحده الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، وعليه التكلان، وبه التوفيق، والعصمة، والفوز، والنجاح، والصلاح، والفلاح، والهدى، والتقوى، والسداد، والرشاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مات ابنُ لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها. لا تُحدِّثوا أبا طلحة بآبائه حتى أكون أنا أحدثه.

قال: فجاء فقرَّبْتُ إليه عشاء فأكل وشرب، ثم تصنَّعتُ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرايتَ لو أنَّ قومًا أعاروا عاريَّتَهُم أهلَ بيتٍ فطلبوا عاريَّتَهُم، أَلَهُمْ أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك!

قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطَّختُ، ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما».

قال: فحملت، قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يطرُقها طروقًا، فدنوا من المدينة فضرَبَها المخاضُ، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ.

قال: يقول أبو طلحة: إِنَّكَ لتعلمُ يا ربُّ أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبستُ بما ترى.

قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجْدُ الذي كنتُ أجْدُ، انطَلَقُ. فانطلقنا، قال: وضرَبَها المخاض حين قدما، فولدتُ غلامًا، فقالت لي أُمِّي: يا

أنس، لا يُرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادفته ومعه ميسمٌ، فلما رآني قال: «لعلَّ أمَّ سليم ولدت؟» قلت: نعم. فوضع الميسم، قال: وجئتُ به فوضعتَه في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عَجْوَةِ المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت، ثم قذفها في فيِّ الصبي، فجعل الصبي يتلمّظها. قال فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حُبِّ الأنصار التمر». قال: فمسح وجهه وسماه: عبد الله» (١).

بِسْمِ اللَّهِ

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى	(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب
(١٦)	الاستغناء بالله تعالى	(٢)	التوحيد والإخلاص
(١٧)	التعلق بالله تعالى	(٣)	العبودية
(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى	(٤)	الصدق مع الله تعالى
(١٩)	الاعتصام بالله تعالى	(٥)	محبة الله تعالى
(٢٠)	سلامة الصدر	(٦)	الشوق إلى الله تعالى
(٢١)	العفاف	(٧)	الأنس بالله تعالى
(٢٢)	الصبر	(٨)	الإرادة
(٢٣)	الرضا بالله تعالى	(٩)	العزم
(٢٤)	شكر الله تعالى	(١٠)	الرجاء
(٢٥)	حمد الله تعالى	(١١)	الرغبة
(٢٦)	الفرح بالله تعالى	(١٢)	التوكل على الله تعالى
(٢٧)		(١٣)	حسن الظن بالله تعالى
		(١٤)	الثقة بالله تعالى

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- ١ - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟
- ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة
- ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية
- ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام
- ٦ - يا سائلاً عن بني إسرائيل
- ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب
- ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله صلى الله عليه وسلم
- ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البيبل)
- ١١ - العقائد النصرانية في الميزان
- ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام

كتب متنوعة

- ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
- ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر)
- ٣ - لله درك يا كعب
- ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهلاً بعمر
- ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية

-
- ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله)
 - ٧ - (ويكون الدين كله لله)
 - ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت
 - ٩ - المدهشات
 - ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً
 - ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر
 - ١٢ - وقد يجمع الله الشيتين
 - ١٣ - دموع على سفح الفؤاد
 - ١٤ - نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية
 - ١٥ - أزمة الفكر المادي
 - ١٦ - السِّلَفِيَّةُ مُحْضُ الإسلام العتيق
 - ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه)
 - ١٨ - رقائق المتقين
 - ١٩ - شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية
 - ٢٠ - شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبية
 - ٢١ - مختارات من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميحي رحمه الله تعالى (تحقيق)
 - ٢٢ - من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ محمد الدميحي رحمه الله تعالى (تحقيق)
 - ٢٣ - الحنيفيَّة، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام
 - ٢٤ - مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ



الكتاب رقم
(١٨)

موسوعة تعظيم أعلام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الالتجاء إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرزبي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

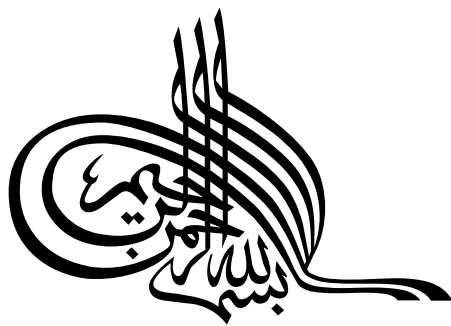
الكتاب رقم (١٨)

الانجاءُ إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٥.....	مقدمة
٨.....	التعريف
١٠.....	فضله ومكانته
٣٤.....	التجاء المرسلين لربهم سبحانه
٤٧.....	التجاء الذاكرين
٩٣.....	﴿وَضُنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَّ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾
١١٧.....	طرق تحصيله
١٢٢.....	موانع تحقيق الالتهجاء
١٢٤.....	اللجأ لغير الله تعالى
١٣٥.....	اللهم سلم سلم



مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد؛ فَإِنَّ مِنَ التَّجَاءِ إِلَى اللَّهِ آوَاهُ وَعَصِمَهُ وَحَفَظَهُ وَحَرَسَهُ وَنَصَرَهُ وَهَدَاهُ،
فَمَنْ آوَى إِلَيْهِ فَقَدْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَاعْتَصِمَ بِحَبْلِ وَاصِلٍ، وَاهْتَدَى بِنُورٍ
مِنَ اللَّهِ مَبِينٍ.

وهذه -بتيسير ربِّي تعالى- حروف هي في بيان هذا الأمر العظيم الجليل وهو
الالتجاء إلى الله تعالى، وما إليه ويقتضيه، من التعريف به، وبيان شيء من فضله،
وطرق تحصيله، وذكر موانعه، وشيء من أخبار أهله، وتعطير الأرواح بأرج
آياته، وشذى سلاكه، وعرف هُدايته، سَلَكْنَا اللَّهَ جَمِيعًا مَسْلَكَهُمُ الطَّيِّبِ الطَّاهِرِ
الْعَبِيقِ الْأَنْيَقِ، وَأَوْصَلْنَا لِمَرَاتِبِ مَحَبَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَخَذَ بِأَيْدِينَا لِمَا فِيهِ صَلَاحُنَا فِي
الْعَاجِلَةِ وَالْعَاقِبَةِ، أَنْ رَبِّي سَمِيعٌ قَرِيبٌ رَحِيمٌ وَدُودٌ.

والله تعالى أسأل توفيقه وعونه وهدايه ومغفرته، فهو الموفق والمعين،
والهادي والمُسَدِّد، والموصل برحمته لمراضيه، والغافر لعبده ما تَخَبَّطَ به نفسه
في بيد الخطأ وبحور الخطايا، وضعفت خطاه عن إتمام ما ابتدأت به من خير
النوايا، فقَصَرَتْ إذْ قَصَرَتْ، فإليه وحده دعائي وابتهالي واستغفاري، وعليه لا
على غيره توكلِّي ومُعَوِّلِي واعتمادي، وإلى الله تصير الأمور، وهو العفو الرحيم
اللطيف الغفور.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٠٦ / ١٢ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الالتجاء هو طلب الحماية والعون، فهو مركَّبٌ منهما معاً. ففيه عِيَاذٌ وَلِيَاذٌ واعتصام واعتضاد واستعانة، مع طلب تحصيل ما يرتفق به، ويُستغنى به، ويحتَمي به، وَيَقْوَى به.

قال ابن فارس في مادة (لجأ): «اللام والجيم والهمزة كلمة واحدة، وهي اللَّجَأُ، والملجأ: المكان يُلتجأ إليه. يقال: لجأت والتجأت»^(١).

وفي التهذيب: «قال أبو زيد: لجأتُ إلى مكان، فأنا ألجأُ إليه لجوءاً ولجئاً. وألجأتُ فلاناً إلى الشيء إلقاءً إذا اضطررته. ويقال: ألجأتُ الشيء، إذا حصّنته في ملجأ.

وقال ابن شميل: ألجأته إلى كذا، أي اضطررته. وقال اللحياني: يقال: مالي فيه حوجاء ولا لوجاء، ومالي فيه حُويجاء، ولا لويجاء كلاهما بالمد، أي مالي فيه حاجة»^(٢).

وعند ابن سيده: «لجأ فلانٌ إلى كذا ملجأً ولجئاً، وألجأه إلى كذا: اضطرّه إليه إذا حصّنته في ملجأ. واللجأ: ما لجأ إليه»^(٣).

وفي التاج: «لجأ إليه - أي الشيء أو المكان - كمنع، يلجأ لجأً ولجوءاً وملجأً،

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٩٠).

(٢) تهذيب اللغة (٤/ ٤٨ - ٥٠) مختصراً.

(٣) المحيط في اللغة (٢/ ١٣٧).

وَلَجَأٌ: لَازَ كَالْتَجَأَ إِلَيْهِ. وَالْجَاهُ إِلَى كَذَا: اضْطَرُّهُ إِلَيْهِ وَأَحْوَجَهُ، وَالْجَأُ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ: أَسْنَدَهُ.

يقال: لَجَأْتُ إِلَى فَلَانٍ وَعَنَهُ وَالتَجَأْتُ وَتَلَجَأْتُ إِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَدْتَ بِهِ أَوْ عَدَلْتَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَالْجَأُ فَلَانًا: عَصَمَهُ. وَيُقَالُ: أَلَجَأْتُ فَلَانًا إِلَى الشَّيْءِ إِذَا حَصَصْتَهُ فِي مَلْجَأٍ. وَاللَّجَأُ مُحَرَّكَةً: الْمَعْقِلُ وَالْمَلَاذُ كَالْمَلْجَأِ، وَقَدْ تُحذف هَمْزَتُهُ تَخْفِيفًا وَمُزَاوَجَةً مَعَ الْمَنْجَا، كَمَا يُهْمَزُ الْمَنْجَا مُزَاوَجَةً مَعَهُ. وَفَلَانٌ حَسَنُ الْمَلْجَا. وَجَمْعُ اللَّجَأِ أَلْجَاءُ^(١).

فَعَادَ اللِّجْوَاءُ إِلَى طَلَبِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ، وَاللَّجَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: طَلَبُ حِمَايَتِهِ وَمَعُونَتِهِ. وَفَعَلَ لَجَأً يَتَعَدَّى بِلَالٍ وَبِالْلامِ، فَيُقَالُ: لَجَأَ إِلَيْهِ، وَلَجَأَ لَهُ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقَ.



(١) تاج العروس (٢١٥-٢١٧) مختصرًا.

فضله ومكانته

اللجأ إلى الله تعالى من لوازم العبودية له تعالى، ومن منازل التوحيد المنيفة، ومن وسائل زيادة الإيمان، ومن سبل مرضاة الرحمن تبارك وتعالى.

وهو من سيما المؤمنين، وشيم الصالحين، به يُحفظ المؤمن في دينه ودنياه، وبه يُحرس المؤمن من قِبَلِ مولاه، فمن كان كذلك فمعه الحارس الذي لا ينام، والقيوم الذي لا يغفل، والرب الذي لا يُهمل، والكريم الذي لا يبخل، والهادي الذي لا يخذل، وبِصِحَّةِ الإلتجاء وَصِدْقِهِ يُعَانِ المرء من رَبِّهِ في كل ما أهُمَّهُ، وبه يُرْزَق في دينه ودنياه، وأُولَاهُ وَأُخْرَاهُ، هكذا وَعَدَ من لا يخلق الميعاد.

فالعبد في هذه الدنيا تكتنفه المتالف من كل جهة، والأعداء من كل مكان. خلا فوَقَهُ. فإن لم يحفظه رَبُّهُ تعالى وإلا فالضيعة ملازمة لمسيره، والهلكة متضمنة لمصيره، فلا عاصم إلا الله، ولا حافظ إلا الله، ولا هادي إلا الله، ولا إله إلا الله.

وما سبق ذكره في باب الافتقار وما سنذكره بإذن الله في الاعتصام داخل جُلِّهِ في الإلتجاء، فبين هذه الأعمال القلبية عموم وخصوص، وتشابه وافتراق. ولهذا لن نطيل النفس في هذا الموضوع اكتفاء بما بُسِطَ هناك، حتى لا نردّد ما سبق وَلِحَقٍّ، بيد أنا سنذكر بعون الله مهمّاتٍ لا يُستغنى عنها في هذا الباب.

وإذا أردت معرفة تداخل أعمال القلوب فتأمل قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فقد حوت هذه الآية أعمال القلب قاطبة، فلم

يخرج منها قول ولا عمل قلبي البتة.

ذلك أن أعمال القلوب قسمتها ثنائية: فهي لا تخرج عن رغبة لعون الله تعالى نازلة إليها، أو ثناء عليه وتعبّد عارضةً إليه سبحانه، مع التنبيه إلى أن كل عمل للقلب فهو عبادة لله وثناء عليه وطلب عونه، ولكن لغلبة حضور أحد جهتي العمل - التعبد أو طلب العون - ألحق به، مع احتوائه وتضمنه للآخر.

فمن الأعمال وثمراتها التي غلب عليها جانب التعبد وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: الإخلاص، والتوحيد، والصدق، والتصديق، والمحبة، والشوق، والأنس، والرجاء، والرغبة، والخوف، والخشية، والرغبة، والإرادة، والتوكل، والتفويض، والثقة، واليقين، والتعلق، والرضا، والشكر، والحمد، والتعظيم، والتوقير، والحياء، والخشوع، والإخبات، والخضوع، والتقوى، والتوبة، والإنابة، والعفاف، والفرار إلى الله تعالى، والانقياد، والقبول، والتسليم، وتوحيد المتابعة، والذكر، ونحو ذلك.

ومن الأعمال وثمراتها التي غلب عليها طلب العون - مع تضمّنها للتعبد كذلك - وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: الاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والعزم، والاستغناء، والافتقار، والاعتصام، واللجأ، والصبر، والمجاهدة، والمراقبة، والمحاسبة، وقصر الأمل، والزهد، والبصيرة، والفراصة، والعلم، والحكمة، والطمأنينة، والسكينة، والقوة، والشجاعة، والغضب لله تعالى، والثبات، والتفكير، والتذكر، والاعتبار، وعلوّ الهمة، والعزة، والأنفة، والرحمة، واللين، والرفق، والإيثار، والإحسان، والنصح،

والعزلة، والورع، وإحسان الظن، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فقد جمعت هذه الآية العظيمة جميع أعمال القلوب الغراء، أسأل الله أن يجعلني والقارئ والقارئة ممن جمعها الله تعالى في قلوبهم تحقيقاً، وتوفيقاً، وتثبيتاً، ونفعاً، وبركة، آمين.

إن الإلتجاء إلى الله تعالى هو من حقوقه على عبده، فالإلتجاء فرع عن العبودية لما فيه من انطراح وتفويض وثقة ورغبة، وعليه: فالإلتجاء التام لا يجوز لغير الله لأنه عبادة، أما الإلتجاء للمخلوق فيما أقدره الله تعالى عليه حيث جعله سبباً لا مُستقلاً، كالحماية من عدو، والتحصين في ملاذٍ وحراسية، والعون بمالٍ أو نصرٍ أو جاهٍ أو رأيٍ ونحو ذلك مما يستطيعه؛ فلا بأس به، لأنه ليس بعبادة، بل هو من باب الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة ونحوها، مما يجوز طلبها من الإنسان القادر الحي الحاضر، وإن كان الكمال في توحيد الطلب من الله تعالى على قدر الطاقة، وسيأتي تفصيله في بابهِ بإذن الله تعالى.

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن من الحقوق الخاصة بالله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله تعالى.

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله تعالى ومرضاته وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ، لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والافتداء به في

إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا.

وقد بين جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب هو من خصائص ربوبيته تعالى.

من أصرح ذلك الآيات التي في سورة النمل أعني قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩] إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

فإنه جل وعلا قال في هذه الآيات الكرييات العظيمة: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله تعالى من خصائص ربوبية الله تعالى، ولذا قال تعالى بعدها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦٠] يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به؟ والجواب: لا، لأنه لا إله إلا الله تعالى وحده.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَاعِلْمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

فهذه المذكورات أيضاً، التي هي جعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعد ذكرها: ﴿أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ والجواب: لا.

فالاعتراف من خصائص ربوبيته جل وعلا هو الحق، وهو من طاعة الله تعالى ورسوله، ومن تعظيم الله تعالى وتعظيم رسوله بالاقتداء به ﷺ في تعظيم الله تعالى.

ثم قال تعالى وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء، وجعل الناس خلفاء في الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعدها: ﴿أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾.

فتأمل قوله تعالى: ﴿أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية بينه وبين خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء وإنبات النبات، ونصب الجبال وإجراء الأنهار، لأنه جل وعلا ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله: ﴿أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله تعالى توجه إليه الإنكار السماوي الذي

هو في ضمن قوله: ﴿أَءَلَهُمَّ اللَّهُ﴾ فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بِئِنَّ يَدَي رَحْمَتِهِ ۚ أَءَلَهُمَّ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

فهذه المذكورات التي هي هدي الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح بشراً، أي مبشرات، بين يدي رحمته التي هي المطر، هي من خصائص ربوبيته جل وعلا.

ولذا قال تعالى: ﴿أَءَلَهُمَّ اللَّهُ﴾ ، ثم نزه جل وعلا نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر فقال جل وعلا: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَهُمَّ اللَّهُ قُلْ هَكَأُو بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النبات، هي من خصائص ربوبيته جل وعلا ولذا قال بعدها: ﴿أَءَلَهُمَّ اللَّهُ﴾.

ثم عبّر جل وعلا كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله تعالى، فقال آمراً نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: ﴿قُلْ هَكَأُو بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية، أن إجابة المضطرين الداعين، وكشف السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ الآية [فاطر: ٢].

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية، ونعتقد ما تضمنته، ونعمل به، لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ، معظمين لله ولرسوله، لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله تعالى ﷺ هو اتباعه والافتداء به، في إخلاص العبادة لله جل وعلا وحده.

فإخلاص العبادة له جل وعلا وحده، هو الذي كان يفعله ﷺ ويأمر به وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] إلى قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾

﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ ﴿[الزمر: ١٤، ١٥].

والعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب من خصائص الربوبية، وكانوا إذا دهمتهم الكروب كإحاطة الأمواج بهم في البحر في وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه، فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراف.

وقد بين الله جل وعلا هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿[يونس: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴿[الأنعام: ٦٣ - ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ٤٠، ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرَّ

أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقد بيّنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما فتح النبي ﷺ مكة ذهب فارًّا منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجهًا إلى الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف. فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله تعالى وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله تعالى إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلا أضعن يدي في يد محمد ﷺ، فلا جدنه رؤوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله تعالى ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١).

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالًا من هؤلاء

(١) وقد استشهد في معركة اليرموك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكفار المذكورين، لأنهم في وقت الشدائد يلجؤون لغير الله تعالى طالبن منه ما يطلب المؤمنون من الله تعالى.

وبما ذكر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكروب والشدائد إلى غير الله جل وعلا، كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي ﷺ وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح، زاعمين أن ذلك من دين الله تعالى ومحبة الرسول ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين، وذلك كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة الله تعالى وحرمة رسوله.

لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله تعالى وسخط النبي ﷺ وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يأمر بذلك، لا هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله جل وعلا يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ ٧٩ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ ٨٠﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره الله تعالى بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿[آل عمران: ٦٤].

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متدينًا في زعمه مدعيًا حب النبي ﷺ وتعظيمه وهو يعظم النبي ﷺ ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل الماء من السماء، وأنبت به الحدايق ذات البهجة، وأنه ﷺ هو الذي جعل الأرض قرارًا، وجعل خلالها أنهارًا، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزًا.. إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة؛ فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله تعالى ورسوله، المتعدين لحدود الله تعالى.

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين، وكشف السوء عن المكرويين.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتنبه من نومة الجهل، وأن نعظم ربنا بامتنال أمره واجتناب نهيهِ، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والافتداء به في تعظيم الله تعالى، والإخلاص له، والافتداء به في كل ما جاء به.

وَأَلَّا نَخَالِفَهُ ﷺ وَلَا نَعْصِيهِ، وَأَلَّا نَفْعَلَ شَيْئًا يَشْعُرُ بِعَدَمِ التَّعْظِيمِ والاحترام، كرفع الأصوات قرب قبره ﷺ، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب الله تعالى، ويعظموا نبیه ﷺ تعظيم الموافق لما جاء به ﷺ، ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيمًا، وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمة الله تعالى ورسوله ﷺ. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿[النساء: ١٢٣، ١٢٤].

واعلم أيضاً رحمك الله تعالى: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير.

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته جل وعلا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وِيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ [الشورى: ٤٩] الآية. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] إلى غير ذلك من الآيات. وفي الحديث: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ»^(١).

وقد أثنى الله جل وعلا على نبيه ﷺ وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] الآية. فنبينا ﷺ كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجؤوا إلى الله تعالى وأخلصوا له الدعاء. فعلينا أن نتبع ولا نبتدع.

واعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع

(١) الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني.

ما أمر الله تعالى أن يتقرب إليه به من جميع القربات، فيخلص تقربه بذلك إلى الله تعالى ولا يصرف شيئاً منه لغير الله تعالى كائنًا ما كان»^(١).

إذن؛ فصدق الإلتجاء من صدق العبودية، وتماحه وكما له من تمامها وكما لها، ونقصه بحسب نقصها. وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]: «من فوائد الآية: أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد. ومنها: أن التجاء الإنسان إلى الله تعالى عند الشدائد سبب لنجاته، وإجابة دعوته، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأما اعتماد الإنسان على نفسه، واعتداده بها فسبب لخذلانه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]؛ وهذا مشهد عظيم في الواقع؛ فإن كثيراً من الناس إذا أعطاه الله سبحانه وتعالى نعمة في بدنه، أو ماله، أو أهله يرى أن ذلك من حوله، وقوته، وكسبه؛ وهذا خطأ عظيم؛ بل هو من عند الله تعالى؛ هو الذي من به عليك؛ فانظر إلى الأصل - لا إلى الفرع - والنظر إلى الفرع، وإهمال الأصل سفه في العقل، وضلال في الدين؛ ولهذا يجب عليك إذا أنعم الله تعالى عليك بنعمة أن تشني على الله تعالى بها بلسانك، وتعرف له بها في قلبك، وتقوم بطاعته بجوارحك.

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٧/ ٤٦٤ - ٤٦٨) بتصرف يسير.

ومن فوائد الآية: اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه على طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ومنها: ذكر ما يكون سبباً للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]؛ لم يقولوا: على أعدائنا؛ كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم؛ وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية، والحمية؛ يعني ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلا لأنهم كافرون^(١). وهذا من تحقيق التوحيد بتحقيق سبب الالتجاء.

ومن فضل اللجأ إلى الله تعالى: إحساس العبد بقربه من ربه وشهوده لمراقبته وسمعه وبصره وعلمه، فيثمر ذلك حسن العمل وصفاء الإيثار وزيادته.

فالملتجئ إلى الله تعالى صاحب خشوع وإنابة وعلم بالله تعالى وتوبة وديمومة صلاة وذكر واستغفار، «وربما وقف العبد في صلاته فحال بينه وبين الخشوع ذنب من الذنوب، وربما حال بينه وبين قبول صلاته ذنب من الذنوب، وربما حال بينه وبين ساعة الإجابة وساعة القبول للصلاة ذنب من الذنوب، فيسأل الله تعالى أن يباعده بينه وبين أسباب الخذلان، ويسأل الله تعالى أن يباعده بينه وبين أسباب الحرمان، ويسأل الله تعالى أن يباعده بينه وبين سبب الذلة والقلّة والفاقة ودمار الدين والدنيا والآخرة، وكل ذلك من الذنوب.

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٥/ ١٧٨ - ١٧٩).

فالذنب شره عظيم، وبلاؤه عظيم، ولما سأل صديق الأمة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١) فإذا كان صديق الأمة يقول: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا»؛ فما بالنا ونحن أرباب الخطايا والذنوب، اللهم ارحمنا برحمتك.

والإنسان إذا نظر إلى مثل هذه الأحاديث وجدها تحتاج إلى تأمل ووقفات، ودعاء الاستفتاح دعاء عظيم، ولذلك كان ﷺ يقول في استفتاحه، حتى في خطبة الحاجة كان يقول: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»^(٢)، فاستعاذ بالله تعالى من سبب الحرمان والخيبة والبلاء وهو الذنب. ونعوذ بالله: أي نلتجئ ونعتصم بالله عز وجل الذي لا عصمة ولا التجاء إلا إليه سبحانه وتعالى.

وقال: «من شرور أنفسنا»، فالذنب كله شر وبلاء، فدعاؤه عليه الصلاة والسلام بمغفرة الذنب وسؤاله لله عز وجل تعليم للأمة، وكأنه ينبه على خطر الذنب وأنه ينبغي للأمة دائمًا أن تكون في استغفار، ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ومن كل بلاء عافية^(٣).

(١) البخاري (٥٩٦٧).

(٢) النسائي (١٤٠٤) وصححه الألباني.

(٣) وفيه حديث مرفوع عند أبي داود (١٥١٨) وسكت عنه، وغيره بلفظ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا

وقلّ أن تجد إنساناً يُكثر من الاستغفار إلا وجدته في رحمة، وإن كُمل استغفاره كملت رحمة ربه له، فالمستغفر بلسانه ليس كالمستغفر بلسانه وقلبه، والمستغفر بلسانه وقلبه مستشعرٌ لعظمة ربه ليس كالذي يستشعر عظمة الله تعالى مع استشعاره لعظيم التفريط في جنب الله عز وجل، فيستغفر وهو يحس أنه مذنب، ويحس أنه ما كان له أن يعصي ربه، وأنه ينبغي أن ينيب إلى الله عز وجل من الذنوب والعصيان، ويسأل الله عز وجل العفو والمغفرة.

فهذه كلها حالات من وُقِّق لصالح دينه ودنياه وآخرته، فهذا الدعاء دعاء عظيم: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»^(١) والمشرق والمغرب لن يجتمعا، ضرب الرسول ﷺ بهما المثل»^(٢).

ما الذي تبلغ النوائب منّي	يا مليكي ولي إليك التجاء
أنت درعي وأنت سيفي ورحمي	ونبالي وعسكري واللواء
لا أبالي وذو الجلال نصيري	أنّ خصمي الملوك والوزراء
لست بالأقوياء أحفل لكن	إن شكاني لعدلك الضعفاء
لك يا رب بطشة إن تُعاقب	عندها الأرض والسماء هباء

يحتسب»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٥٨٢٩) وضعيف ابن ماجه (٨٣٤) والمشكاة (٢٣٣٩)، وجوّد سنده ابن مفلح في الآداب (١٦٨/١) وابن حجر في الأمالي المطلقة (٢٥١) وصححه السيوطي في الجامع (٨٤٨٩) وأحمد شاعر في تخريج المسند (٥٦/٤) ومعانيه صحيحة، قد جاءت بها أصول الشريعة.

(١) البخاري (٧٤٤) ومسلم (٥٩٨).

(٢) السابق (١٠ / ٩١ - ٩٣) بتصرف يسير.

إن تكن غاضباً عليّ تعالى ست فلا ناصرٌ ولا شفعاء
عملي سيئٌ وظلمي لنفسي- ولغيري تضجُّ منه السماء
أستحق الصلّي في النار لكن لي في عفوك الكريم رجاء
ليس مثلي لجنة الخلد أهلاً كيف ترنو لمذنب حوراء
رُب نُعمى على جحود تولّت ما لنُعمى على جحود بقاء
كيف آسى على سرور تولى ويسارٍ أودت به ضراء
إن من كنت كنزه وغناه يستوي الضيقُ عنده والرخاء

يا صاحبي؛ إذا عظم الخطب، واشتد الكرب فلا نجاة إلا بالله سبحانه
وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى
مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ١١٤ ﴿وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤]،
[١١٥].

وإذا تضاعف الضر، وزاد السوء، فلا كاشف له إلا الله، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ مَعَهُ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٧ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
[الأنعام: ١٧، ١٨] وإذا توالى الهم، وتتابع الغم، فلا فارح له إلا الله تعالى: ﴿وَذَا
النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٨٧ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وإذا جاءت النعمة، أو حلت الفتنة فلا دافع ولا ورافع لها إلا الله تعالى:
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤] وكلما
عظمت الخطوب، أو تزايدت الكروب، فلا ملجأ إلا رحمة الله تعالى ﴿فَفِرُّوْا إِلَى
اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

إن إحسان الصلة بالله تعالى سبحانه وتعالى بصدق اللجوء إليه، تعلقاً به،
ويقيناً بموعوده، وأملاً في نصره، ورجاءً لمده، ورضاً بقضائه، ومحبة في ثوابه،
وخوفاً من عقابه، وتوكلاً على قوته ووعدته؛ ذلك هو المعول عليه في كل خطب،
وهو الموثوق به بإذن الله عز وجل في كل كرب، تضرع إلى الله تعالى، واستمسك
بدينه، وطلب ومناجاة وإلحاح بدعائه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾
[البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ونخبرنا جل وعلا بتحقيق المراد، إذا تم اللجوء إليه والتضرع والتذلل بين
يديه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

فيأتي المدد من الله تعالى، ويتنزل النصر منه، ويكون الثبات سكينه من الله
تعالى في النفوس، ويكون اليقين صارف للخوف والجزع، لليقين بالله سبحانه
وتعالى، وليس شيء غير ذلك، لا التجاء إلى أسباب الكثرة العددية، ولا إلى وفرة
القوة المادية، ولا إلى ما يزعم من الاستعدادات العسكرية، إنما اللجوء إلى رب
البرية سبحانه وتعالى.

كل شيء يُستند فيه إلى غير الله تعالى؛ فإنه إلى ضياع وخراب، وكل اعتماد وتوكل على غير الله تعالى؛ فإنه إلى هزيمة وخسار وبوار.

وإن المرء المؤمن ليرى ويقرأ ويوقن ويعتقد، وهو يتلو آيات القرآن، ويتدبر مثاني كتاب الله العزيز: أن ذلك حق لا مرية فيه، ولكن أحوال الدنيا المضطربة، وأحوال القلوب الخائفة الجزعة، وضلال العقول الخربة، ربما ينال من ذاك كله، والله جل وعلا قد بين لنا وفصل أن كل التجاء إلى غيره، واعتماد على سواه لا تكون نتيجته إلا الخيبة فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

مهما اجتمعوا، ومهما كثروا، ومهما عظموا، ومهما انتفخوا، كلهم من دون الله تعالى في صيغة موجزة تدل على الاحتقار لهم، وبيان ضعفهم، واضمحلال كيدهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ (٣٦) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣٨) ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٨، ٣٩].

هل بعد هذا الوضوح في الآيات من وضوح في التفريق بين من يلجئوا إلى من دون الله تعالى أو يعتمدوا عليه، أو يظن أنه به قادر على مراده، وتحقيق ما يصبو إليه، وبين من يلجأ إلى الله عز وجل، وهو كافٍ عباده، وهو حسبهم

سبحانه، وهو وكيلهم جل وعلا.

وكما كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول في مواجهة ما أحاط به من الخطوب، وفي موقفه إزاء ما حل به من الكروب: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جتتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وخروجي من بلدي سياحة»^(١).

من ملك هذا اليقين واجه الدنيا كلها غير عابئ بها بإذن الله تعالى، لا يكون عنده خوف إلا من الله تعالى، ولا لجأ إلا إليه. وليس من دون الله تعالى عاصم ولا ملجأ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَذًا﴾ [الكهف: ٢٧].

كَأَنَّ الْجَبَانَ يَرَى بِأَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ
وَقَدْ تَوَرَّدُ الْحَادِثَاتُ الْجَبَانَ وَيَسْلُمُ مِنْهَا الشَّجَاعُ الْبَطْلُ

وللعز بن عبد السلام رحمة الله تعالى عليه كلمة في غاية النفاسة إذ قال: «والله لن يصلوا إلى شيء بغير الله، فكيف يوصلوا إلى الله بغير الله؟!».

وتأمل حديث الثلاثة وما فيه من صدق اللجأ لله تعالى، والتوسل إليه بصالح الأعمال الخالصة، والثمرة العاجلة لتلك العبودية المحبوبة لله تعالى. فقد خرَّج البخاري في صحيحه بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا

(١) الوابل الصيب، لابن القيم (١٠٩).

ينجيكم إلا الصدق، فليدعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجيرٌ عمل لي على فَرْقٍ من أرز^(١)، فذهب وتركه، وأناى عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسُقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز. فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا. فانساحت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقاداً وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما، فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا. فانساحت عنهم الصخرة، حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأناى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمئة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيها بها فدفعتها إليها، فأمكنني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها، فقالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه. فقامت وتركت المئة دينار، فإن كنت تعلم

(١) الفَرْق: مكيالٌ يسعُ ثلاثة أصع. وفي الأررّ ست لغات صحيحة، منها الرُرّ.

أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا. ففرج الله عنهم، فخرجوا»^(١).

وحينما لجأ الزبير لربه قضى الله تعالى دينه ففي صحيح البخاري^(٢) بسنده عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقلت إلى جنبه فقال: يا بني، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراي إلا سأقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همي لديني، أفترى يبقي ديننا من مالنا شيئاً؟ فقال: يا بني بع مالنا فاقض ديني، وأوصى بالثلث وثلثه لبنيه - يعني بني عبد الله بن الزبير - يقول ثلث الثلث فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين فثلثه لولدك. قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير خبيب وعباد وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات.

قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه ويقول: يا بني إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه مولاي. قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله.

قال: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه.

فقتل الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يدع ديناراً ولا درهما إلا أرضين منها الغابة^(٣) وإحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر، قال:

(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) البخاري (٢٩٦١).

(٣) الغابة: أرض شهيرة من عوالي المدينة، كان الزبير قد اشتراها.

إنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة^(١). وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج ولا شيئاً إلا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومئتي ألف. قال: فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير فقال: يا ابن أخي، كم على أخي من الدين؟ فكتمه فقال: مئة ألف. فقال حكيم: والله ما أرى أموالكم تسع لهذه. فقال له عبد الله: أفرأيتك إن كانت ألفي ألف ومئتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي. قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومئة ألف فباعها عبد الله بألف ألف وستمئة ألف، ثم قام فقال: من كان له على الزبير حق فليوافنا بالغابة. فأتاه عبد الله بن جعفر وكان له على الزبير أربعمئة ألف فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم. قال عبد الله: لا. قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم؟ فقال عبد الله: لا. قال: فاقطعوا لي قطعة. فقال عبد الله: لك من ها هنا إلى ها هنا.

قال فباع منها فقضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان والمنذر بن الزبير وابن زمعة فقال له معاوية: كم قومت الغابة؟ قال كل سهم مئة ألف، قال: فكم بقي؟ قال: أربعة أسهم

(١) لا ولكنه سلف: أي لا أضعه عندي وديعة، ولكنني آخذه ديناً، وذلك حتى يكون مضموناً عليه إذا أصابه شيء من التلف، وهذا من نصحه للمسلمين رضي الله عنه.

ونصف. فقال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهماً بمئة ألف، وقال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهماً بمئة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذت سهماً بمئة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف، قال: أخذته بخمسين ومئة ألف. قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمئة ألف.

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: لا والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه. قال: فجعل كل سنة ينادي بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم. قال: فكان للزبير أربع نسوة ورفع الثلث فأصاب كل امرأة ألف ألف ومئتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف^(١) ومئتا ألف.

وتأمل حال الثلاثة الذين خُلفوا، وكيف أنجاهم بإذن الله تعالى صدق التجائهم إلى الله تعالى، وتدبر كيف وصف ربهم حالهم بقوله: ﴿وَضُنُّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).



(١) أي: خمسين مليوناً، والكريم سبحانه إذا أعطى فلا حدّ لكرمه، وأعظم الرزق صلاح الدين.

(٢) وقد فصلت خبرهم وشرحته بعبره وعبراته في رسالة: «الله درك يا كعب».

التجاء المرسلين لربهم سبحانه

سادة الملتهجنن إلى ربهم هم سادة عباده من الأنبياء والمرسلين، وقد قص الله تعالى في القرآن أخبار صدق التجائهم إليه سبحانه ووفاءه بوعده في حفظه لهم، واختيار حسن العاقبة لهم ولمن تبعهم بإحسان.

وفي سيرة نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أنصع العبر، وأنصح الوصايا، وأصح البراهين، وأجمل الأخبار على أن من صدق في التجاءه إلى الله تعالى أفلح وفاز وأنجح.

وفي تأمل سيرته العطرة الشريفة دروسٌ تروي شجرة الإيمان في قلب المؤمن، وعبرٌ تربّي فؤاده على صدق الالتهجاء إلى ربه تبارك وتعالى. فحياته كلها التهجاء لله وتعلق به وإحسان عبودية له سبحانه.

ومن ذلك خبرٌ ذهابه لدعوة أهل الطائف في شوال سنة عشر للنبوة، فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، ومعه مولاة زيد بن حارثة، كلما مرَّ على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد، ووصل إلى الطائف فعمد إلى ثلاثة أخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله تعالى ونصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلّمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنّ أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلّمك، فقام عنهم رسول

الله وقال: «إِذْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاتَّكُمُوا عَنِّي»^(١).

وأقام في الطائف عشرة أيام، لا يدعُ أحدًا من أشrafهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا! وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين، وجعلوا يرمونه بالحجارة، ويسبونه، ورجموا عراقبه، حتى اختضبت نعلاه ﷺ بالدماء، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، فأصابه شجاج في رأسه.

ولم يزل أولئك السفهاء بالنبي ﷺ حتى أُلجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فرفع كفيه، وروي أنه دعا ربه بقوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضا، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٢).

(١) رواه ابن إسحاق (٤١٩/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٤٢٠/٢) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٣٥/٦) قال الهيثمي (٣٥/٦): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الالباني في السلسلة الضعيفة (٤٨٩/٦) قلت: والحديث وإن كان في سنده كلام لتدليس ابن إسحاق، إلا أن معانيه عظيمة شريفة، وتلوح عليه أنوار النبوة بأصدق ابتهاج، وأخلص دعاء، وأجمل معنى.

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما^(١)، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا، يقال له عدّاس، وقالوا له: خذ قطعًا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل، فلما وضعه بين يدي رسول الله مدّ يده إليه وهو يقول: «بسم الله» ثم أكل، فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أي البلاد أنت؟» قال: أنا نصراني، من أهل نينوى، فقال رسول الله: «من قرية الرجل الصالح: يونس بن متى؟» قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي» فأكبّ عدّاس على رأس رسول الله ويديه ورجليه يقبلهما^(٢).

ورجع رسول الله في طريقه إلى مكة، وهو في غاية الالتجاء لرب العالمين، قد تبرأ من حوله وطوّله وقوّته والعالمين ولجأ لحول قيوم السماوات والأرضين ومدبر الكون وفق رحمته وحكمته سبحانه. روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(٣)، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها

(١) لأنها من بني مخزوم، ويجمعهما مع بني هاشم جدهم عبد مناف، وكلهم من قريش البطاح، سادة مكة.

(٢) ابن إسحاق (٢/٤٢١).

(٣) ويسمى قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد والمشرق، ويسمى حالياً: السَّيل.

جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، ذلك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة يحيطان بها، قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلاهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً»^(١).

الله أكبر! هكذا كانت إجابة النبي الرؤوف الرحيم الشفيق الرفيق الناصح لأُمته، الحليم الحكيم بإذن ربه تعالى. فمع كل ما قابله من تكذيب وتحريش وأذى يقول: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». لا غرو ولا غرابة؛ فهو الرحمة المهداة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقد استجاب الله تعالى دعاءه الصدق، وكل دعائه صادق بأبي وأمي ونفسي وولدي ﷺ، وكان البرّ سبحانه عند حسن ظن عبده البارّ، سبحانه وبحمده.

وأتمّ الله تعالى نعمته عليه بأن أسرى به للأقصى، وعرج به للطّباق العُلّى، وقد اختُلف في تحديد زمان الإسراء والمعراج، ف قيل: في رمضان من السنة ١٢ من النبوة، وقيل: في المحرم أو ربيع الأول من السنة ١٣ للنبوة، وقد روى أهل السنن والمسانيد والصحاح في كتبهم هذا الأمر العظيم، وهو أعظم سَفَرٍ وأكمل رحلة في التاريخ كله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أسري برسول الله بجسده على الصحيح من

(١) البخاري (٣٢٣١).

المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرّاق، صُحبة جبريل عليه السلام فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد، ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلم عليه ورحب به، ورد عليه السلام وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون بن عمران، وفي السادسة موسى بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقليل له: ما يبكيك، فقال: أبكي لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم عليه السلام، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ثم كان فرض الصلاة على ما جاء، وعرض عليه في مسراه لبن وخمر، فاختر اللبن فقليل: هُديت للفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك، ورأى أربعة أنهار في الجنة، نهران ظاهران، ونهران باطنان، والظاهران هما النيل والفرات، ورأى مالك خازن النار، وهو لا يضحك، وكذلك رأى الجنة والنار، ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأنهار فتخرج من أدبارهم، ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقدر أن أجعلها أن

يتحولوا عن مكانهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار، ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث متتن، يأكلون من الغث المتتن، ويتركون الطيب السمين، ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بأثدائهن، ورأى عيرًا من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير ندّ لهم، وشرب ماءهم^(١) من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك ليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء^(٢).

فلما أصبح رسول الله في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله تعالى له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً، وذكر ذلك لأبي بكر فقال: إن كان قال فقد صدق، ولذلك سمي صديقاً^(٣).

إن الملتجئ لربه لا يخيب، والمفتقر لغناه لا يحتاج لغيره، والمتوكل عليه يكفيه عما سواه، والمعتصم به يحفظه ويحوطه. وتأمل لجوء نبي الله صلوات الله

(١) تأكيداً على أن الإسراء كان بجسده وروحه، لا بروحه فقط، فالروح لا تشرب اللبن.

(٢) وقد جمع ابن كثير كثيراً من روايات الإسراء والمعراج في صدر تفسيره لسورة الإسراء.

(٣) زاد المعاد (٣/٣٠-٣٣) بتصرف واختصار.

وسلامه عليه لربه في بدر، وهي أعظم معركة في التاريخ بإطلاق، وفيها من ظهور التجاء نبي الله ﷺ إلى رب العالمين، وتعلقه به وضراعه إليه ما يكفي السائرين على سنته، والمقتفين أثره.

قال الله تعالى في وصف رسوله ﷺ وصحابته في معركة الفرقان: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. «والاستغاثة طلب الغوث، و(إذ) ظرف يكون للماضي، وهو هنا للماضي المتصل بالحاضر، وجاء المضارع بعدها لتصوير الاستغاثة وأنها كانت التجاءً متجددًا مستمرًا لله تعالى.

وقد روت السنة استغاثة النبي ﷺ، وقد كانت ضراعة له سبحانه وتعالى، وروى مسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبدًا».

فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفأك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك»^(١).

هذه هي استغاثة رسول الله ﷺ، وهي استغاثة من معه، فهو إمامهم في

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

الصلاة، واستغاثته استغاثته لهم، كما أن الإمام قراءته قراءة للمؤمنين، وإن النبي ﷺ عندما اتجه إلى الاستغاثته اتجه إلى القبلة، وكأنها صلاة، يمم وجهه فيها شطر المسجد الحرام.

وقد استجاب الله تعالى لاستغاثته نبيه، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] (الفاء) للعطف الدال على الفورية، أي أن الإجابة كانت فور الدعاء، وكذلك دعاء النبيين ومن معهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

والاستجابة - بالسين والتاء - هي شدة الإجابة كأحسن ما تجاب به الاستغاثته؛ لأنها استغاثته لله تعالى فهي إيمان لأجل قوة الإيثار وعزة المؤمنين، وقرنت الإجابة بما يدل على قوتها، فهي من ربكم الذي يكلؤكم، ويرعاكم، وذكر الاختصاص في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ﴾، أي الإجابة لكم أنتم من ربكم ولا إجابة لغيركم لأنكم على الحق، وتدعون للحق»^(١).

وهذا يوسف الصديق عليه السلام التجأ لربه حال خوفه الفتنة في دينه فقال في أحلك حال يمر على الصديقين: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] «وهذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدكم، فالظاهر أنه قال هذا القول في نفسه. ويحتمل أنه جهر به في

(١) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٦/ ٣٠٧٥) بتصرف يسير.

ملئهن تأيسًا لهن من أن يفعل ما تأمره به.

وفضّل السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه من اللذة، ولكن كرهه لفعل الحرام فضل عنده مقاساة السجن. فلما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين؛ صار السجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب.

فالإخبار بأن السجن أحبُّ إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضا بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه.

وعبر عما عرضته المرأة بالموصولية لما في الصلة من الإيحاء إلى كون المطلوب حالة هي مظنة الطوعية، لأنّ تمالئ الناس على طلب الشيء من شأنه أن يوطن نفس المطلوب للفعل، فأظهر أن اتفاقهن على طلبهن منه امتثال أمر المرأة لم يقلل من صارم عزمه على الممانعة، وجعل ذلك تمهيدًا لسؤال العصمة من الوقوع في شرك كيدهن، فانتقل من ذكر الرضا بوعيدها إلى سؤال العصمة من كيدها.

وأسند فعل ﴿يَدْعُونَنِي﴾ إلى ضمير جمع النساء، مع أنّ التي دعت امرأة واحدة، إما لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في ﴿كَيَّدَهُنَّ﴾، وإما لأنّ النسوة اللاتي جمعتن امرأة العزيز لما سمعن كلامها اجتمعن على لوم يوسف عليه السلام، وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن.

وجملة ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ خبر مستعمل في التخوّف والتوقع التجاء إلى الله تعالى وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة، والخشية من تقلب القلب، ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرّع عنه جملة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾.

وعطف جملة ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بفاء التعقيب إشارة إلى أنّ الله تعالى عجل إجابة دعائه الذي تضمنه قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾. واستجاب: مبالغة في أجاب^(١) وصَرَفَ كيدهن عنه صَرَفَ أثره، وذلك بأن ثبتته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلائلها في أضيق الأوقات.

وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في موضع العلة لـ (استجاب) أي: أجاب دعاءه بدون مهلة لأنه سريع الإجابة وعليم بالضمائر الخالصة. فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده^(٢) وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى^(٣).

(١) كما في القاعدة اللغوية: زيادة المبنى زيادة في المعنى، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَغْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] فالاستمسك أبلغ من التمسك وكلاهما أبلغ من المسك، فلزيادة الحروف في الكلمة متحدة الجذر ذات الوجوه المختلفة أثر في زيادة معناها المراد. ومن ذلك: زيادة معنى الاعتصام في كلمة (استعصم) على (اعتصم) وبالله التوفيق.

(٢) أي: استجاب الله لمن دعاه.

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٣-٢٦٤) باختصار.

وتفكر في صدق لجوء عليه السلام لربه في السراء والضراء، فبعد كل ما لاقى من عناد وعذاب يدعوه ربه ويبتهل إليه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وموسى عليه السلام يخرج من وطنه طريداً كسيراً وآلامه تعتصر قلبه، فينادي ويدعوه ربه بصدق اللجأ إليه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وانظر لصدق الخليلين في قوة لجوئهما لله تعالى، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١) فسلح اللجوء إلى الله تعالى جاهز في كل حين لكل أمر، ومن كان الله تعالى معه فلن يخش الضيعة.

ولما استجاب خليل الرحمن لأمر ربه تعالى بإسكان هاجر وابنها واد قفر أجرد أجذب، لم يخش عليهما الضيعة، ليقينه بأن من لجأ لله حفظه ووقاه وأسعده وأغناه، وقد ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه (٢) خبر ذلك، فساق بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل،

(١) البخاري (٤٢٨٧).

(٢) البخاري (٣١٨٤).

اتخذت منطقاً لتُعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه^(١) فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء.

فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى^(٢) إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها! فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت^(٣).

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلو، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٢) أي: أدبر عنهم.

(٣) وفيه كمال التوكل والثقة والإيمان.

من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو كانت تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله..» الحديث.

فتأمل واعتبر وأيقن أن من لجأ لله فقد ركن لركن شديد وغني كريم وإله برّ رحيم تبارك وتعالى وتقدس.



التجاء الذاكرين

رطبُ اللسان بذكر ربه له شأن مع الالتجاء إليه، فللذاكر خصيصة مع صدق اللجأ لله، ذلك أن الذكر حياة قلبه كالحبل السري لحياة جسده حين كان في بطن أمه جنيناً، ولك أن تتأمل معاني الأذكار حتى يتبين لك أن من أخص سمات الذاكرين ديمومتهم اللجأ لربهم سبحانه، في الصباح والمساء والقيام والقعود والدخول والخروج والمبيت والنوم واليقظة وسائر شؤونهم.

قال تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ [النور: ٣٧، ٣٨]

خص الله تعالى هذين الوقتين بالتسبيح والذكر - الغدو والآصال - «لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله تعالى وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها الله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعًا﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله تعالى وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله تعالى على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن^(١)، كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمُ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥] ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرتة جداً^(٢).

وقال الشرييني: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] جمع غدوة، ﴿وَالْآصَالِ﴾

(١) قال البغوي رحمه الله في تفسيره لها: «أي: بأحسن ما عملوا، يريد يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوئ أعمالهم لا يجزيهم بها». وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره: «ذكر الجزاء على الحسنات ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازي عليها لأمرين: أحدهما: أنه ترغيب، فاقصر على ذكر الرغبة. الثاني: أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر؛ فكانت صغائرهم مغفورة».

(٢) تفسير السعدي (٥٦٩-٥٧٠).

[النور: ٣٦] جمع أصيل، وهو ما بين صلاة العصر إلى الغروب، وإنما خص هذين الوقتين بالذكر؛ لأنَّ الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو آخر الموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم، وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أوَّل أعماله ذكر الله تعالى، وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإنَّ الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب الذكر؛ لأنها حالة تشبه الموت، ولعله لا يقوم من تلك النومة، فيكون موته على ذكر الله تعالى، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] عن ذكر الله.

وقيل: إنما خُصَّ بالذكر؛ لأنَّ الصلاة بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة العصر مكروهة، واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيهما ليكون في جميع أوقاته مشغولاً بما يقربه إلى الله تعالى من صلاة وذكر.

وقيل: إنَّ أعمال العباد تصعد أوَّل النهار وآخره، فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى الغروب، فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله بالذكر وختامه بالذكر^(١).

ومما ذكره السلف: أن الأرزاق تُقسم بُكْرَةً، والأعمال تصعدُ عَشِيَّةً. فحسنُ أن توافق ذكره تعالى فيهما فيرزقك ويغفر لك.

والله تعالى قد أمر بالذكر وبيَّن فضل أهله وحسن منقلبهم لديه، وعظيم درجاتهم عنده، ونهى عن ضد ذلك من الغفلة عنه ونسيانه، فقال الله تعالى:

(١) تفسير السراج المنير (٥/١٦) (ص: ١١٩٥).

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وتدبر قوله ﴿كَثِيرًا﴾ أي بلا حد تنتهون إليه، بل كل وطاقته وهِمَّته وتوفيق الله تعالى له. وقال تعالى في وصف عباده: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وحت على الذكر مبعوئه بالهدى ودين الحق، وبيّن فضله، وفصل أحواله، وأعداده، وأوقاته.

ولتأمل بعض معاني الأذكار حتى نرى ضرورة التلازم بينها وبين موجبها من صدق الالتهاء لله تعالى:

فمن ذلك قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».

وقال ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده، في يوم مئة مرة، حطت خطاياها،

وإن كانت مثل زبد البحر»^(١).

فبالإضافة إلى حرص المؤمن على كثر الأجور الوفيرة وذخائرها النفيسة بالتزامه بهذا الذكر التوحيدي الجليل إلا أنه متعلق كذلك بحفظه وحراسته بإذن ربه الأعلى، فهو حرز له من الشيطان، فلنعم المعاذ والملجأ ربنا.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»^(٢) فالمؤمن حريص على الإكثار مما يحبه ربه، كيف وهو أحب الكلام إليه سبحانه؟!

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: علمني كلاماً أقوله. قال: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم» قال: فهو لاء لربي، فما لي؟ قال: «قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني»^(٣) فالمؤمن دائم اللجوء لربه لمغفرة ذنوبه التي لا يأتيه الشر إلا من قبلها، فإن غفرها له ربه حسن حاله ومآبه، وأناله رحمته وهداه.

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم، قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ

(١) البخاري ١٥٣/٤ (٣٢٩٣) و١٠٧/٨ (٦٤٠٥) ومسلم ٦٩/٨ (٢٦٩١) (٢٨).

(٢) مسلم ٨٥/٨ (٢٧٣١) (٨٥).

(٣) مسلم ٧٠/٨ (٢٦٩٦) (٣٣).

منك الجُدُّ»^(١) فالملتجئ لربه موقن أن لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لكمال قدرته وغناه، «ولا ينفع ذا الجَد منك الجَد»: أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، ومهما تلونت وتراكمت في يده الأموال فلا ينفعه منها إلا ما شاءه ربه سبحانه.

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبْنِ وَالْبَخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»^(٢). فمن لجأ لربه عائداً به من هذه الشرور والبلايا والرزايا وقاه وألجأه وأعاده، وبمثله حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَشَهَّد أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٣).

وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غاية الإلتجاء لله بالرغب إليه ليعين عبده على أسباب سعادته، فقد حدّث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ» فقال: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعُنَّ فِي دَبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ»^(٤). وهذا الدعاء من

(١) البخاري ٩٠/٨ (٦٣٣٠) ومسلم ٩٥/٢ (٥٩٣) (١٣٧).

(٢) البخاري ٢٧/٤ (٢٨٢٢).

(٣) مسلم ٩٣/٢ (٥٨٨) (١٢٨).

(٤) رواه أبو داود (١٥٢٢) بإسناد صحيح.

الجوامع الموانع، وحري بالمؤمن إيمانه، وبخاصة في الصلاة قبل السلام.

ولقد نوه ﷺ بحال السجود وهو الغاية في الذل واللبأ فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ، قال: «فأما الركوع فعظّموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنُ^(١) أن يُستجاب لكم»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء»^(٣).

وعنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله: دِقَّهُ وِجْلَهُ، وأوله وآخره، وعلايته وسره»^(٤). قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ^(٥): «فيه تأكيد الدعاء وتكثير ألفاظه، وإن أغنى بعضها عن بعض».

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: افتقدت النبي ﷺ، ذات ليلة، فتحسّست، فإذا هو راکع - أو ساجد - يقول: «سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت». وفي رواية: فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ

(١) أي: خليف وجدير وحريّ.

(٢) مسلم ٤٨/٢ (٤٧٩) (٢٠٧).

(٣) مسلم ٤٩/٢ (٤٨٢) (٢١٥).

(٤) مسلم ٥٠/٢ (٤٨٣) (٢١٦).

(٥) شرح صحيح مسلم ٣٧١/٢.

بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١). وفي هذا الدعاء يظهر صدق الإلحاح بالالتجاء لربه تعالى، والتأدب معه، والبراءة من الحول والقوة إلا به، وحسن الثناء عليه.

والملتجئ لربه حريص على الغنائم بخلاف الغافل النائم، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة!» فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: «يسبِّح مئة تسيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة»^(٢).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، قال: «يصبح على كل سلامي^(٣) من أحدكم صدقة: فكل تسيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»^(٤).

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها^(٥) ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، فقال

(١) مسلم ٥١/٢ (٤٨٥) (٢٢١) و(٤٨٦) (٢٢٢).

(٢) مسلم ٧١/٨ (٢٦٩٨) (٣٧).

(٣) السَّلامى: المِفْصَل.

(٤) رواه مسلم (٧٢٠).

(٥) أي: مُصَلَّاهَا.

النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»^(١).

إنَّ الذاكر لربه حيٍّ وما سواه ميت، وكذلك البيت الذي يُذكر الله فيه حيٍّ وما سواه ميت، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»^(٢). وقال: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت»^(٣).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو الدرداء: الذين لا تزال أَلْسِنَتُهُمْ رطبة من ذكر الله يدخل أحدهما الجنة وهو يضحك».

وقيل له: إن رجلاً أعتق مئة نسمة! فقال: «إن مئة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار، وألا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله».

وقال معاذ: «لأن أذكر الله من بكرة إلى الليل أحب إلى من أن أحمل على جياذ الخيل في سبيل الله من بكرة إلى الليل».

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

(١) مسلم ٨٣/٨ (٢٧٢٦) (٧٩) وفي رواية له: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته».

(٢) البخاري ١٠٧/٨ (٦٤٠٧).

(٣) مسلم ١٨٨/٢ (٧٧٩) (٢١١).

قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يكفر».

وقال زيد بن أسلم: قال موسى عليه السلام: «يا ربّ قد أنعمت علي كثيراً فدلني على أن أشكرك كثيراً». قال: اذكرني كثيراً، فإن ذكرتني كثيراً فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني».

وقال الحسن: «أحب عباد الله إلى الله أكثرهم له ذكراً، وأتقاهم قلباً».

وقال كعب: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق». ويشهد لهذا المعنى أن الله وصف المنافقين بأنهم ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] فمن أكثر ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا ختمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله، وألا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وإن من ألهاه ذلك عن ذكر الله فهو من الخاسرين.

قال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره».

وقال ذو النون: «من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه».

وقال إبراهيم الجنيد: «كان يقال: من علامة المحب لله دوام الذكر بالقلب واللسان، وقلما ولع المرء بذكر الله إلا أفاد منه حب الله».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل

أحيائه»^(١). والمعنى في حال قيامه ومشيه وقعوده واضطجاعه، وسواء كان على طهارة أو على حدث.

وكان لأبي هريرة خيط فيه ألف عقدة، فلا ينام حتى يسبح به.

وكان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات وضع على سريره ليغسل فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح!

وقيل لعمير بن هاني: ما نرى لسانك يفتر، فكم تسبح كل يوم؟ قال: «مئة ألف تسبيحة إلا أن تخطيء الأصابع»^(٢) يعني أنه يعد ذلك بأصابعه.

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثني عشرة ألف تسبيحة، فماتت فلما بلغت القبر اختلست من أيدي الرجال»^(٣).

ونام بعضهم عند إبراهيم بن أدهم قال: «فكنت كلما استيقظت من الليل

(١) مسلم ١٩٤/١ (٣٧٣) (١١٧).

(٢) الأصل في الإخبار بالعمل الصالح أنه مخالف للسنة ومجلبة للرياء وذريعة لدخول العجب والغرور والحب التصدر.. ونحو ذلك، إلا أن بعض السلف كان يفعل ذلك من باب تعليم الناس وشق طريق الاقتداء، وهذا حسن جداً لمن أمن فتنة الرياء والسمعة ونحوهما، وقد كان النبي ﷺ يخبر ببعض أعماله من هذا الباب، كما في قوله: «إني أستغفر الله في اليوم مئة مرة» رواه أحمد (١٧٨٤٨) وصححه الأرناؤوط لغيره، والله التوفيق.

(٣) يشير إلى أن الملائكة عليهم السلام قد حملوها، والله أعلم.

وجدته يذكر الله، فأعْتَمْتُ، ثم أعزّي نفسي بهذه الآية: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالمحب اسم محبوبه لا يغيب عن قلبه، فلو كلف أن ينسى ذكره لما قدر، ولو كلف أن يكف عن ذكره بلسانه لما صبر، كيف ينسى المحب ذكر حبيب اسمه في فؤاده مكتوب. ولقد كان بلال كلما عذّبه المشركون في الرمضاء على التوحيد يقول: أحدٌ أحدٌ، فإذا قالوا له: قل: واللّات والعزى، قال: لا أحسنه! يُراد من القلب نسيانكم وتأيي الطباع على الناقل وكلما قويت المعرفة صار الذكر يجري على لسان الذاكر من غير كلفة، حتى كان بعضهم يجري على لسانه في منامه، ولهذا يُلهم أهل الجنة التسبيح كما يلهمون النَّفْسَ، وتصير لا إله إلا الله لهم كالماء البارد لأهل الدنيا.

وإذا سمع المحب ذكر اسم حبيبه من غيره زاد طرْبُهُ وتضاعف شوقه، قال النبي ﷺ لابن مسعود: «اقرأ عليّ القرآن» قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأ عليه ففاضت عيناه^(١).

ذكر المحبين على خلاف ذكر الغافلين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] قال أبو الجلود: أوحى الله إلى موسى: «إذا ذكرتني

(١) البخاري ٢٤١/٦ (٥٠٥٠)، ومسلم ١٩٥/٢ (٨٠٠) (٢٤٧) وقد قرأ عليه صدر سورة النساء حتى بلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فاذكرني وأنت تتنفض أعضائك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك».

ووصف علي رضي الله عنه يوماً الصحابة فقال: «كانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم الشديد الريح، وجرت دموعهم على ثيابهم».

وقال زهير البابي: «إن لله عبادةً ذكره فخرجت نفوسهم إعظاماً واشتياقاً، وقوماً ذكره فوجلّت قلوبهم فرقاً وهيبة، فلو أحرقوا بالنار لم يجدوا مس النار، وقوماً ذكره في الشتاء فارتفضوا عرقاً من الخوف، وقوماً ذكره فحالت ألوانهم غبراً، وقوماً ذكره فجفت أعينهم سهرًا».

صلى أبو يزيد الظهر فلما أراد أن يكبر لم يقدر إجلالاً لاسم الله! وارتعدت فرائضه حتى سمعت قعقة عظامه.

وكان أبو حفص النيسابوري إذا ذكر الله تغيرت عليه حاله حتى يرى جميع ذلك من عنده.

إذا سمعت باسم الحبيب تقعقت مفاصلها من هول ما تتذكر
وقف أبو زيد ليلة إلى الصباح يجتهد أن يقول: لا إله إلا الله، فما قدر إجلالاً
وهيبة، فلما كان عند الصباح نزل فبال الدم! رحمه الله تعالى.

الذكر لذة قلوب العارفين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال مالك بن دينار: «ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله».

قلوب المحبين لا تطمئن إلا بذكره، وأرواح المشتاقين لا تسكن إلا برؤيته. قال ذو النون: «ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته».

أبدأ نفوس الطالبين إلى طولكم تحنّ، وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئن.

كان أبو مسلم الخولاني كثير الذكر، فرآه بعض الناس فأنكر حاله فقال لأصحابه: أجنون صاحبكم؟ فسمعه أبو مسلم فقال: «لا يا أخي، ولكن هذا دواء الجنون».

يستوحشون من كل شاغل يشغل عن الذكر، فلا شيء أحب إليهم من الخلوة بحبيبيهم. قال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين كلّموا الله كثيراً، وكلّموا الناس قليلاً». قالوا: كيف نكلّم الله كثيراً؟ قال: «اخلّوا بمناجاته بدعائه».

وقيل لمحمد بن النضر: أما تستوحش وحدك؟ قال: «كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني!».

إذا قوي حال المحب ومعرفته لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل، فهو بين الخلق بجسمه، وقلبه معلق بالمحل الأعلى. كما قال علي في وصفهم: «صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلى».

وفي هذا المعنى قيل:

جسمي معي غير أنّ الروح عندكم فالجسم في غربّة والروح في وطن
وقال غيره:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي وأبحثُ جسمي من أرادَ جلوسي
فالجسمُ مني للجلّيسِ مُؤانسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي—

وهذه كانت حال الرسل والصديقين كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال تعالى: ﴿فَازْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]

قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: «ما دام قلب الرجل يذكر الله فهو في صلاة وإن كان في السوق، وإن حرك به شفته فهو أفضل».

وكان بعض السلف يقصد السوق ليذكر الله فيها بين أهل الغفلة. والتقى رجلان منهم في السوق فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى نذكر الله في غفلة الناس، فخلوا في موضع فذكرا الله، ثم تفرقا، ثم مات أحدهما فلقيه الآخر في منامه فقال له: أشعرت أن الله غفر لنا عشيّة التقينا في السوق؟!

هذا وإن من توفيق الله لعبده المؤمن أن يحرص على وظائف الذكر الموظفة في اليوم والليلة.

فمعلوم أن الله فرض على المسلمين أن يذكروه كل يوم وليلة خمس مرات بإقامة الصلوات الخمس في مواقيتها الموقّعة، وشرع لهم مع هذه الفرائض

الخمس أن يذكروه ذكرًا يكون لهم نافلة، والنافلة الزيادة، فيكون ذلك زيادة على الصلوات الخمس، وهي نوعان:

إحدهما: ما هو من جنس الصلاة، فشرع لهم أن يصلّوا مع الصلوات الخمس قبلها أو بعدها أو قبلها وبعدها سنًّا، فتكون زيادة على الفريضة. فإن كان في الفريضة نقص جبر نقصها بهذه النوافل، وإلا كانت النوافل زيادة على الفرائض.

وأطول ما يتخلل بين مواقيت الصلاة مما ليس فيه صلاة مفروضة ما بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، وما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، فشرع ما بين كل واحدة من هاتين الصلاتين صلاة تكون نافلة لئلا يطول وقت الغفلة عن الذكر. فشرع ما بين صلاة العشاء وصلاة الفجر صلاة الوتر وقيام الليل، وشرع ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر صلاة الضحى.

وبعض هذه الصلوات أكد من بعض، فأكدوا الوتر، ولذلك اختلف العلماء في وجوبه، ثم قيام الليل، وكان النبي ﷺ يداوم عليه حضرًا وسفرًا، ثم صلاة الضحى، وقد اختلف الناس فيها وفي استحباب المدوامة عليها وفي الترغيب فيها أحاديث صحيحة، وورد الترغيب أيضًا في الصلاة عقيب زوال الشمس.

وأما الذكر باللسان: فم شروع في جميع الأوقات، ويتأكد في بعضها. فمما يتأكد فيه الذكر: عقيب الصلوات المفروضات، وأن يذكر الله عقيب كل صلاة منها مئة مرة ما بين تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل، ويستحب أيضًا الذكر بعد

الصلاتين اللتين لا تطوع بعدهما وهما الفجر والعصر، فيشرع الذكر بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس.

وهذان الوقتان - أعني وقت الفجر ووقت العصر - هما أفضل أوقات النهار للذكر^(١)، ولهذا أمر الله تعالى بذكره فيهما في مواضع من القرآن كقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥] وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وأفضل ما فعل في هذين الوقتين من الذكر صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات، وقد قيل في كل منهما إنها الصلاة الوسطى، وهما البردان اللذان من حافظ عليهما دخل الجنة.

ويليهما من أوقات الذكر: الليل والنهار، ولهذا يذكر بعد هذين الوقتين في القرآن تسبيح الليل وصلاته.

والذكر المطلق يدخل فيه الصلاة وتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه والعلم النافع. كما يدخل فيه التسبيح والتكبير والتهليل. ومن أصحابنا من رجح

(١) كان بعض السلف يقول: «تنزل الأرزاق أول النهار، وتُرفع الأعمال آخره».

التلاوة على التسبيح ونحوه بعد الفجر والعصر، وسئل الأوزاعي عن ذلك فقال: «كان هديهم ذكر الله، فإن قرأ فحسن». وظاهر هذا أن الذكر في هذا الوقت أفضل من التلاوة، وكذا قال إسحاق في التسبيح عقيب المكتوبات مئة مرة إنه أفضل من التلاوة حينئذ^(١).

والأذكار والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ في الصباح والمساء كثيرة جداً. ويستحب أيضاً إحياء ما بين العشاءين بالصلاة والذكر، ويستحب تأخير العشاء إلى ثلث الليل كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وهو مذهب الإمام أحمد وغيره حتى يفعل هذه الصلاة في أفضل وقتها وهو آخره، ويشغل منتظر هذه الصلاة في الجماعة في هذا الثلث الأول من الليل بالصلاة أو بالذكر أو انتظار الصلاة في المسجد.

ثم إذا صلى العشاء وصلى بعدها ما يتبعها من سنتها الراتبة أو أوتر بعد ذلك إن كان يريد أن يوتر قبل النوم، فإذا أوى إلى فراشه بعد ذلك للنوم فإنه يستحب له ألا ينام إلا على طهارة وذكر، فيسبح ويحمد ويكبر تمام مئة، ويأتي بما قدر عليه من الأذكار الواردة عن النبي ﷺ عند النوم، وهي أنواع متعددة من تلاوة القرآن وذكر الله، ثم ينام على ذلك، فإذا استيقظ من الليل وتقلب على

(١) والأظهر أنها تختلف باختلاف الأحوال، فما جاء تعيينه بحال فالذكر حينئذ أفضل، كإجابة المؤذن وأذكار بعض الصلاة ونحو ذلك، وما كان بخلافه فالتلاوة أفضل؛ لأنها أشرف الذكر، فإن عرض للقلب حاجة لذكر معين كاستغفار وابتهاال ونحوه فهو أولى؛ سداً لجوعه القلب، وإرواءً لعطش الروح، واغتناماً لانتباه الفؤاد، والله أعلم.

فراشه فليذكر الله كلما تقلب. ففي صحيح البخاري^(١) عن عبادة عن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل^(٢) فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: رب اغفر لي، أو قال: ثم دعا استجيب له فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته».

وثبت أنه ﷺ كان إذا استيقظ من منامه يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٣) ثم إذا قام إلى الوضوء والتهجد أتى بذلك كله على ما ورد عن النبي ﷺ، ويختتم تهجده بالاستغفار في السحر كما مدح الله المستغفرين بالأسحار.

وإذا طلع الفجر صلى ركعتي الفجر، ثم صلى الفجر، واشتغل بعد صلاة الفجر بالذكر المأثور إلى أن تطلع الشمس.

فمن كان حاله على ما ذكرنا لم يزل لسانه رطباً من ذكر الله، فيستحب الذكر في يقظته حتى ينام عليه، ثم يبدأ به عند استيقاظه، وذلك من دلائل صدق المحبة، كما قال بعضهم:

وآخرُ شيءٍ أنتَ في كلِّ هجعةٍ وأوّلُ شيءٍ أنتَ وقتَ هبوبِ

(١) (١١٥٤).

(٢) أي: انتبه من نومه.

(٣) البخاري ٨٤/٨ (٦٣١٢).

وأما ما يفعله الإنسان في آناء الليل وأطراف النهار من مصالح دينه وبدنه ودنياه فعامة ذلك يشرع ذكر اسم الله عليه، فيشرع له ذكر اسم الله وحمله على أكله وشربه ولباسه وجماعه لأهله ودخول منزله وخروجه منه ودخوله الخلاء وخروجه منه وركوبه دابته، ويسمّي على ما يذبحه من نسك وغيره.

ويشرع له حمد الله على عطاسه وعند رؤية أهل البلاء في الدين أو الدنيا وعند التقاء الإخوان وسؤال بعضهم بعضاً عن حاله وعند تجدد ما يحبه الإنسان من النعم واندفاع ما يكرهه من النقم، وأكمل من ذلك أن يحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء، ويحمده على كل حال.

ويشرع له دعاء الله عند دخول السوق وعند سماع أصوات الديكة بالليل وعند سماع الرعد وعند نزول المطر وعند اشتداد هبوب الرياح وعنه رؤية الأهلة وعند رؤية باكورة الثمار.

ويشرع أيضاً ذكر الله ودعاؤه عند نزول الكرب وحدوث المصائب الدنيوية وعند الخروج للسفر وعند نزول المنازل في السفر وعند الرجوع من السفر.

ويشرع التعوذ بالله عند الغضب وعند رؤية ما يكره في منامه وعند سماع أصوات الكلاب والحمير بالليل.

ويشرع استخارة الله عند العزم على ما لا يظهر الخيرة فيه.

وتجب التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها كما

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فمن حافظ على ذلك لم يزل لسانه رطباً بذكر الله في كل أحواله»^(١).

هذا وإن أصدق اللجأ هو ما كان بحسن ظن ويقين وثقة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(٢) وهو حديث جليل عظيم كبير القدر والشرف، وعلى كل موفق أن يتأمله وأن يتدبر ما تحته من المعاني الهائلة الفاضلة الجميلة، وأن يحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قبله، ولا أرحم له منه، ولا أحب له من صلاحه منه سبحانه وبحمده لا نحصي ثناء عليه.

والملتجئ لربه يعرف محبة ربه للذاكرين فيحرص ويسعى طاقته أن يسلكه في زميرهم في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(٣).

وعن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ٤٤٤ - ٤٥١) باختصار وتصرف.

(٢) البخاري ١٤٧/٩ (٧٤٠٥)، ومسلم ٦٢/٨ (٢٦٧٥) (٢).

(٣) مسلم ٦٣/٨ (٢٦٧٦) (٤).

من ذكر الله»^(١).

وقال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»^(٢).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»^(٣).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(٤).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى، قال: «ذكر الله تعالى»^(٥).

(١) ابن ماجه (٣٧٩٣)، والترمذي (٣٣٧٥)، وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

(٢) ابن ماجه (٣٨٠٠)، والترمذي (٣٣٨٣)، وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

(٣) رواه الترمذي، (٣٤٦٤) و(٣٤٦٥) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني.

(٤) الترمذي (٣٤٦٢)، وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

(٥) أبو داود (١٥٠٠)، والترمذي (٣٥٦٨)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٦٦/٣) والمنذري في الترغيب (٣٢٦/٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٠٩).

والملتجئ لربه لا يكاد يغفل عن ذكره، بل دائم الذكر بقلبه ولسانه وجوارحه. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه^(١).

بل حتى في شهوته يلجأ لمن بيده نواصي الخلائق خيرها وشريرها، طلباً للبركة وليأذاً بربه من كل شر يناله أو أهله أو ذريته. فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد، لم يضره»^(٢).

وإذا نام المؤمن التجأ لربه وإذا قام التجأ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه، قال: «باسمك اللهم أحيأ وأموت» وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٣).

والملتجئ إلى الله الذاكر له آمن في سره، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ما لقيتُ من عقرب لدغتنني البارحة! قال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم تضرْك»^(٤).

وكان سيد الملتجئين لربهم ﷺ يقول إذا أصبح: «اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» وإذا أمسى قال: «اللهم بك

(١) مسلم ١٩٤/١ (٣٧٣) (١١٧).

(٢) البخاري ٤٨/١ (١٤١) ومسلم ١٥٥/٤ (١٤٣٤) (١١٦).

(٣) البخاري ٨٤/٨ (٦٣١٢) عن حذيفة، و٨٨/٨ (٦٣٢٥) عن أبي ذر.

(٤) مسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٩).

أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور»^(١). فإدراك الصباح والمساء والحياة والممات والمبعث كلها بيد من بيده مقاليد الأمور وتصارييف الأقدار، فأحسنَ الموفقون حينما وكلوا أمورهم له وأسندوا توفيقهم إليه وصدقوا الالتهجاء إليه.

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله مُرِنِي بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة؛ ربَّ كُلِّ شيءٍ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه» قال: «قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعتك»^(٢) فتوسل في لجوئه لربه بصفاته العظيمة من الخلق والعلم والملك والربوبية، وخص الالتهجاء من أمرين هما منبع السوء إن لم يق الله عبده شرهما: شر النفس وشر الشيطان.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له» قال الراوي: أراه قال فيهن: «له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ربَّ أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما

(١) أبو داود (٥٠٦٨) وسكت عنه، والترمذي (٣٣٩١) وصححه النووي في الأذكار (١٠٧) وابن دقيق العيد في الاقتراح (١١٨).

(٢) أبو داود (٥٠٦٧) وسكت عنه، والترمذي (٣٣٩٢). وصححه النووي في الأذكار (١٠٨) وابن حجر في الفتوحات الربانية (٩٦/٣) وأحمد شاكر في المسند (٧٩٤٨).

بعدها، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكبر^(١) رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر» وإذا أصبح قال ذلك أيضًا «أصبحنا وأصبح الملك لله»^(٢).

ومن أعظم وسائل الالتجاء إلى الله قراءة الإخلاص والمعوذتين، فعن عبد الله بن حبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمي وتصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء»^(٣).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، إلا لم يضره شيء»^(٤)

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٣٨/٩: «الكبر»: روي بإسكان الباء وفتحها، فالإسكان بمعنى التعاضم على الناس، والفتح بمعنى الهرم والخرف والرد إلى أرذل العمر. عن تحقيق الرياض للفحل (٤٧/٢).

قلت: بفتحها هو الأقرب، فالكبرُ كله سيء خلا ما كان في الحرب إغاضة لأعداء الله، كذلك لربطه بالكسل الذي هو مدعاة للمرء عند كبره لتبسط عن الأعمال الصالحة وقد قرب رحيله، والله المستعان.

(٢) مسلم ٨٢/٨ (٢٧٢٣) (٧٥).

(٣) أبو داود (٥٠٨٢) وسكت عنه، والترمذي (٣٥٧٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه النووي في الأذكار (١٠٧) وابن دقيق في الاقتراح (١٢٨).

(٤) أبو داود (٥٠٨٨) و(٥٠٨٩)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، والترمذي (٣٣٨٨)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥١٣).

وهو دعاء قصير العبارة عظيم المنفعة كبير الحرز، حري بالمداومة عليه.

وفي رواية أبان عن عثمان أنه حدّث بهذا الحديث وكان أبان قد أصابه طرف من الفالج^(١) فجعل الرجل ينظر إليه، فقال له أبان: ما تنظر؟ أما إنّ الحديث كما حدّثتك، ولكني لم أقله يومئذ ليُمضي الله عليّ قدره^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ فراشه بداخلة إزاره»^(٣) فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٤). واستشعار هذا الدعاء مفضل لحسن اللجأ لله تعالى، وفيه تمام التفويض لله تعالى والتبرك بذكره والاستعانة به وسؤاله الحفظ والستر.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه»^(٥) وقرأ بالمعوذات، ومسح بهما جسده وقالت: كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: «قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه

(١) الفالج: الشلل.

(٢) الترمذي (٣٣٨٨) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) داخلة إزاره: طرفه وحاشيته من الداخل. النهاية (١٠٧/٢).

(٤) البخاري ٨٧/٨ (٦٣٢٠) ومسلم ٧٩/٨ (٢٧١٤).

(٥) النفث: نفخ لطيف بلا ريق.

ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات، وقالت: «وكان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات..» وقالت: «أو مرض أحد من أهله..»^(١).

وتأمل حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حين يأخذ المؤمن مضجعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول»^(٢). قال البراء: فرددتهم لأستذكره فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، فقال: «قل: آمنت بنيك الذي أرسلت» وفي هذا الحرص على مراعاة ألفاظ الذكر والدعاء وعدم التصرف فيهن، وقد كان الصحابة يتعلمون الذكر ويتحفظونه كما يتعلمون السورة من القرآن.

وقوله: «وألجأت ظهري إليك» قال في عمدة القاري^(٣): «أي اعتمدت عليك في أموري كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يستند إليه».

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد، وضع يده

(١) البخاري ٢٣٣/٦ (٥٠١٧) و٨٧/٨ (٦٣١٩) ومسلم ١٦/٧ (٢١٩٢) (٥١) وانظر: تحفة الأشراف ٣٨٨/١١ (١٦٥٣٧) و٥٢٤ (١٦٩٦٤).

(٢) البخاري ٧١/١ (٢٤٧) و١٧٤/٩ (٧٤٨٨) ومسلم ٧٨/٨ (٢٧١٠) (٥٧) و(٥٨).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣٣ / ٥٩) لبدر الدين العيني.

اليمنى تحت خده، ثم يقول: «اللَّهُم قُني عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»^(١) وفي هذا تسليم بالقدرة وإيمان بالنشور ولهج بحسن الظن. وليس هذا بعجيب من المؤمن فربه تعالى قد أغراه بالمزيد من فضله حين قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

قال سعيد بن عنبسة: «بينما رجل جالس في الكعبة وهو يعبد بالحصى ويخذفها»^(٢)، إذ رجع حصاة منها، فصارت في أذنه، فعالجوه بكل الحيل، فلم يقدروا على إخراجها، فبينما هو ذات يوم جالس إذ سمع قارئاً يقرأ هذه الآية: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، فوثب الرجل فقال: يا رب أنت المجيب، وأنا المضطر اكشف ضرر ما أنا فيه! قال: فندرت الحصاة من أذنه»^(٣).

وعن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليّ طاووس وأنا مريض، فقلت: يا أبا عبد الرحمن ادع لنا، فقال: «ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه»^(٤). قال ابن العربي في هذه الآية: «إلا أنه وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث

(١) الترمذي (٣٣٩٨) عن حذيفة، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود (٥٠٤٥)

من رواية حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: أنه كان يقوله ثلاث مرات.

(٢) الحذف: رمي الحصى الصغار، أما إن كانت كباراً فهو الحذف.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (١١٠٢).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٩٦٧٣).

الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب: إما أن يعجل له ما طلب، وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله. وهذا كما قيّد مطلق قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ بقوله تعالى ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١] (١).

قلت: الآية الثانية إنما هي في كشف السوء، وهو جزء من الإجابة، فالإجابة أعم من ذلك، كما في المراتب الثلاث المذكورة، ومن فقه عمر رضي الله عنه قوله: «إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء، فإذا جاء الدعاء فإن الإجابة تكون معه».

والمؤمن الملتجئ لربه يفرح بخلوته به أشد من فرح الغافلين بالأنس بدنياهم وأخلائهم، ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه (٢) وفيه: «فضل البكاء من خشية الله، وفي اشتراطه الخلوة بذلك حصر وندب على أن يجعل المرء وقتاً من خلوته للندم على ذنوبه ويفزع إلى الله بإخلاص من قلبه، وتضرع إليه في غفرانها فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، وألا يجعل خلوته كلها في لذاته كفعل البهائم التي قد أمنت الحساب والمساءلة عن الفتيل والقطمير على رءوس الخلائق».

فينبغي لمن لم يأمن ذلك وأيقن به أن يطول في الخلوة بكاءؤه، ويتبرم لحياته،

(١) فتح الباري لابن حجر (٥/ ١٢٣).

(٢) البخاري ١٣٨/٢ (١٤٢٣) ومسلم ٩٣/٣ (١٠٣١) (٩١).

وتصير الدنيا سجنه لما سلف من ذنوبه»^(١).

فعينٌ بكت من خشية الله حُرِّمَتْ على النار في نصّ الحديث المُسَدَّدِ

وقال ﷺ: «لا يلج النار أحدٌ بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في

الضرع»^(٢).

هذا، وليرابط الملتجئ الموفق في محراب الدعاء فأمره عظيم جد عظيم، وما أمر الله سبحانه بالدعاء إلا وقد أجب أن يعطي، فله الحمد والشكر، وقد أفادت دلائل الشرع «تعظيم قدر الدعاء، والتنبيه لعظيم المنّة، وشرف المنزلة أُعْطِيَ العبد ما سئل أو منع، وذلك أن من أذن له بالدعاء فقد جذبته الحق عز وجل إليه، وصرفه عن غيره، وألجأه إلى كنفه، وضمه إليه، واختصه به، وشغله به عمن سواه؛ لأنه صرف قلبه بالرغبة إليه، وشغل لسانه بالثناء عليه، وذلل جوارحه بالمشول بين يديه.

على أن الداعي لا شك يُجاب لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

هذه سين التوكيد، وهو يقوم مقام القسم عند أصحاب المعاني، وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فيه إضمار: أن الله تعالى يجيبه لا غيره، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فإذا دعي بأسمائه

(١) شرح ابن بطلال (١٥/٤٥٩).

(٢) الترمذي ٣٨٣٨ وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٣٧٥١) والأرناؤوط في تخريج المسند (١٠٥٦٠).

وأثنى عليه بصفاته، لا بد أن يجيبه»^(١).

ولتحرص - رعاك الله - على حفظ الدعوات المستجابات، والإلحاح على الكريم الوهاب بها.

«فكل من عمل بشروط الدعاء، وابتعد عن الموانع، وعمل بالآداب، وتحري أوقات الإجابة، والأماكن الفاضلة فهو ممن يستجيب الله دعاءه، وقد بينت السنة أنواعاً وأصنافاً ممن طبق هذه الشروط واستجاب الله دعاءهم فمن ذلك:

١. دعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب:

عن أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت لصفوان: أتريد الحج العام؟ قال: فقلت: نعم، قالت: فادعُ الله لنا بخير فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»^(٢).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملكُ وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(٣).

٢. دعوة المظلوم:

(١) بحر الفوائد، المسمى بمعاني الأخيار، للكلا باذي (ص: ٢٢).

(٢) مسلم ٢٠٩٤/٤ (٢٧٣٣).

(٣) مسلم ٢٠٩٤/٤.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مَعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ وَسَاقَ الْحَدِيثَ وَقَالَ فِيهِ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

ومن هذه الإجابة قصة سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي سعدة عندما قال لمن سألَه عن سعد: «أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسَمْعَةً فَأُطْلَ عَمْرَهُ، وَأُطْلَ فَقْرَهُ، وَعَرَضَهُ بِالْفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدَ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدَ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطَّرِيقِ يَغْمَزُهُنَّ»^(٢).

وخاصمت أروى بنت أويس سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مروان بن الحكم وادعت عليه أنه أخذ من أرضها، فقال: أنا كنت أخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» ثم قال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةٌ فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا، قَالَ: فَرَأَيْتُهَا عَمِيَاءَ تَتَلَمَّسُ الْجَدْرَ تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بئرٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا^(٣).

(١) البخاري ١٣٩٥، ٢٤٤٨.

(٢) البخاري ٢٣٦/٢ برقم ٧٥٥ ومسلم ١/٣٣٤ برقم ٤٥٣.

(٣) مسلم برقم ١٦١٠، ٢/١٢٣٠.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفَجْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ»^(١).

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مُقْتَدِرًا فالظالم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

٣. دعوة الوالد لولده.

٤. دعوة الوالد على ولده.

٥. دعوة المسافر:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لهنَّ لَا شَكَّ فِيهنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمَسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ»^(٢) وفي رواية أحمد والترمذي: «على ولده»^(٣).

٦. دعوة الصائم:

(١) أحمد ٣٦٧/٢، وأبو داود الطيالسي في مسنده برقم ١٢٦٦، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٠٧/٢ برقم ٧٦٧، وفي صحيح الجامع ١٤٥/٣ برقم ٣٣٧٧.
(٢) الترمذي ٣١٤/٤ برقم ١٩٠٥، ٥٠٢/٥، برقم ٣٤٤٨، وأبو داود ٨٩/٢، وابن ماجه ١٢٧٠/٢، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٢٨٦/١، وفي صحيح الترمذي ١٥٦/٣ وصحيح ابن ماجه ٣٣١/٢.
(٣) الترمذي ٥٠٢/٥، برقم ٣٤٤٨، وأحمد ٢٥٨/٢. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٠) والأرنؤوط في تخريج المسند (١٠٧٠٨).

عن أبي هريرة يرفعه: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر^(١)، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٢).

٧. دعوة الصائم حتى يفطر.

٨. الإمام العادل:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل عن النبي ﷺ في صفة الجنة ونعيمها قال في آخره: «... ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٣).

٩. دعوة الولد الصالح:

لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»^(٤).

(١) وفيه أن دعوة الصائم مستجابة - بإذن الله - حال صيامه كله، وليس فقط عند فطره، وإن كان له عند فطره مزيد إجابة لحديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» أخرجه الطيالسي في المسند (٢٣٧٦) والبيهقي في الشعب (٣٩٠٧) وصححه ابن الملقن في تحفة المحتاج (٩٧/٢) وأحمد شاكر في عمدة التفسير (٢٢٥/١).

(٢) الترمذي بلفظه ٥/٥٧٨، برقم ٣٥٩٨ وصححه الألباني.

(٣) الترمذي ٤/٦٧٢، برقم ٢٥٢٦، وصححه الألباني.

(٤) مسلم ٣/١٢٥٥.

١٠. دعوة المستيقظ من النوم إذا دعا بالمأثور:

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استُجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته»^(١).

١١. دعوة المضطر:

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ وَلِيدَةَ^(٢) كانت سوداء لحِيٍّ من العرب فأعتقوها فكانت معهم. قالت: فخرجت صبية لهم عليها وشاح أحمر من سيور، قالت فوضعتة أو وقع منها فمرت به حُديّاة^(٣) وهو ملقى فحسبته لحماً فخطفته قالت: فطفقوا يفتشوا حتى فتشوا قُبُلَهَا. قالت: والله إني لقائمة معهم إذ مرت الحديّاة

(١) البخاري برقم ١١٥٤ والترمذي بلفظه إلا قوله: «اللهم» فإنها عنده: «رب» برقم ٣٤١٤.

(٢) الجارية الصغيرة المملوكة، فإذا بلغت فهي أمة.

(٣) وتسمى: الحداة، وهي من طيور الرخم المؤذية. وهي من الخمس الفواسق اللاتي يقتلن في الحل والحرم، كما في الصحيحين مرفوعاً: «خمس من الدواب كلهن فواسق تُقتل في الحرم: الغراب، والحداة، والكلب العقور، والعقرب، والفأرة» رواه البخاري (٣٣١٩) ومسلم (١١٩٨) واللفظ له.

فألقتة، قالت: فوقع بينهم. قالت: فقلت هذا الذي اهتمموني به زعمتم وأنا منه بريئة وهو ذا، قالت فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت. قالت عائشة فكانت لها خباء في المسجد أو حفش^(١) قالت فكانت تأتيني فتحدث عندي، قالت: لا تجلس عندي مجلسًا إلا قالت:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني قالت عائشة: فقلت لها: ما شأنك لا تقعين معي مقعدًا إلا قلت هذا؟ قالت: فحدثتني بهذا الحديث^(٢) وهذا سبب إسلامها، فرب ضارة نافعة. ومن أجلى الأمثلة قصة الثلاثة الذين في الغار، ومرت قريبًا.

١٢. دعوة من بات طاهرًا على ذكر الله:

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يبيتُ على ذكر الله طاهرًا فيتعارَّ من الليل فيسأل الله خيرًا من الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه»^(٣).

١٣. دعوة من دعا بدعوة ذي النون:

قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)

(١) الحفش: هو البيت الضيق الصغير.

(٢) البخاري برقم ٤٣٩، و٣٨٣٥.

(٣) أبو داود برقم ٥٠٤٢، وأحمد ١١٤/٤ وصححه الألباني. وقد مر قريبًا.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

عن سعيد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط^(١) إلا استجاب الله له»^(٢).

وقد قالها ذو النون (يونس) عليه السلام «تصريحاً بالعجز والانكسار، وإظهار الذلة والافتقار. قال الحسن: ما نجا إلا بإقراره على نفسه بالظلم. وإنما قبل منه ولم يقبل من فرعون حين قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ، يَبْنُوا إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لأن يونس ذكرها في الحضور والشهود، وفرعون ذكرها في الغيبة تقليداً لبني إسرائيل»^(٣).

١٤. دعوة من أصيب بمصيبة إذا دعا بالمأثور:

عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتى وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف لي خيراً منه. رسول الله

(١) قال شيخنا صالح الفريخ رحمه الله تعالى: «معناه: أن يلهج بهذا الدعاء وتكون حاجته في

قلبه، وإن دعا به وذكر حاجته فهو حسن» بمعناه.

(٢) أحمد (١٤٦٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).

(٣) فيض القدير (٣ / ٧٠٢).

١٥. دعوة من دعا بالاسم الأعظم:

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى» (٣) (٤).

١٦. دعوة الولد البار بوالديه:

عن مالك عن يحيى بن سعيد أن سعيد بن المسيب كان يقول: إن الرجل

(١) مسلم ٦٣٢/٢ برقم ٩١٨.

(٢) الترمذي ٥١٥/٥ وأبو داود ٧٩/٢، وأحمد ٣٦٠/٥، وابن ماجه ١٢٦٧/٢، والحاكم ٥٠٤/١، وصححه الألباني.

(٣) أبو داود ٨٠/٢، والترمذي ٥٥٠/٥، وابن ماجه ١٢٦٨/٢، والنسائي ٥٢/٣، وصححه الألباني.

(٤) وللشيخ د. عبد الله الدميحي حفظه الله كتاب قيم نافع بعنوان: «اسم الله الأعظم».

ليرفع بدعاء ولده من بعده، وقال بيده نحو السماء فرفعهما^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا ربَّ أُنِّي لي هذه؟ فيقول باستغفار ولدك لك»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٣).

ومن ذلك حديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة، فإن منهم رجلاً كان بَرًّا بوالديه فتوسل بذلك العمل الصالح، فاستجاب الله دعاءه^(٤).

١٧. دعوة الحاج.

١٨. دعوة المعتمر.

١٩. دعوة الغازي في سبيل الله:

لحديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الغازي في سبيل الله، والحاج،

(١) أخرجه الإمام مالك ٢/١٧٧ وقال المحقق عبد الباقي: قال ابن عبد البر: هذا لا يدرك بالرأي، وقد جاء بسند جيد.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥٠٩/٢، وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره، ٤/٢٤٣.

(٣) مسلم ٣/١٢٥٥.

(٤) البخاري ٣٧/٤ ومسلم ٤/٢٠٩٩.

والمعتمر وفدُ الله: دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»^(١).

٢٠. دعوة الذاكر لله كثيرًا:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يُردُّ دُعاؤُهم: الذاكر لله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط»^(٢).

٢١. دعوة من أحبه الله ورضي عنه:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(٣).

وهذا المحبوب المقرب الذي له عند الله منزلة عظيمة إذا سأل الله شيئًا أعطاه، وإن استعاذ به من شيء أعاده، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه عز وجل.

(١) ابن ماجه برقم ٢٨٩٣، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٤٩/٢، وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٨٢، ٤/٤٣٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيوان ٣٩٩/٢، والطبراني في الدعاء برقم ١٢١١، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢١١/٣ برقم ١٢١١. والقسط هو العدل.

(٣) البخاري، ٦٥٠٢.

وقد ذكر ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في جامع العلوم والحكم أمثلة كثيرة على استجابة الله تعالى لكثير من عباده المؤمنين^(١) وشيخ الإسلام ذكر أمورًا عظيمة من ذلك في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان^(٢) وأبو بكر بن أبي الدنيا ذكر في كتابه «كتاب مجابي الدعوة» أمورًا عظيمة^(٣) «(٤)».

وكيف لا يكون للدعاء شأن وقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه هو العبادة فقال: «الدعاء هو العبادة»^(٥).

والموفق هو من يحرص على جوامع الدعاء الماثورة، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء^(٦) ويدع ما سوى ذلك^(٧) ومن الأدعية الجامعة الماثورة ما رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان أكثر

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص ٣٤٨-٣٥٦.

(٢) انظرها في الفرقان (٣٠٦-٣٢٠).

(٣) ذكر مئة وثلاثين إجابة ص ١٧-١٨.

(٤) شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة سعيد بن علي بن وهف القحطاني (٦٧-٧٧) مختصرًا.

(٥) أبو داود (١٤٧٩) وسكت عنه وابن ماجه (٣٨٢٨) والترمذي (٢٩٦٩) و(٣٢٤٧) و(٣٣٧٢) وقال: حسن صحيح. وصححه النووي في الأذكار (٤٧٨) وابن باز في فتاواه (٢٦/١٨).

(٦) الجوامع من الدعاء: هي التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، أو تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة. النهاية: ٢٩٥/١.

(٧) أبو داود (١٤٨٢) وجوده النووي.

دعاء النبي ﷺ: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» متفق عليه، وزاد مسلم في روايته قال: وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه^(١).

ومنها: «اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»^(٢).

ومنها ما رواه طارق بن أشيم أنه سمع النبي ﷺ، وأتاه رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: «قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني. فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك»^(٣).

ومنها: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^(٤).

وكذلك ما حدث به شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٥).

(١) البخاري ١٠٢/٨ (٦٣٨٩)، ومسلم ٦٨/٨ (٢٦٩٠).

(٢) مسلم ٨٣/٨ (٢٧٢٥) (٧٨) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٣٨/٩: «العفاف والعفة: التنزه عما يباح والكف عنه، والغنى هنا غنى النفس، والاستغناء عن الناس، وعما في أيديهم». قلت: وحصره بغنى النفس فيه نظر، والأظهر العموم، والله أعلم.

(٣) مسلم ٧١/٨ (٢٦٩٧) (٣٥) و(٣٦).

(٤) مسلم ٥١/٨ (٢٦٥٤) (١٧).

(٥) الترمذي (٣٥٢٢) وحسنه. وصححه ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: (٣٤/٩).

ومنها: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١).

ومنها الدعوة التي علّمها لصاحبه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال له: علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»^(٢).

ومنها: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جِدِّي وهزلي؛ وخطئي وعمدي؛ وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(٣). وهذا الدعاء من أجمع الأدعية في الاستغفار؛ لأنه بالفاظ العموم والشمول والتفصيل والبسط والإلحاح.

ومنها: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة

(١) مسلم ٨١/٨ (٢٧٢٠) (٧١).

(٢) البخاري ٨٩/٨ (٦٣٢٦) و١٤٤/٩ (٧٣٨٧) و(٧٣٨٨)، ومسلم ٧٤/٨ (٢٧٠٥) (٤٨).

(٣) البخاري ١٠٥/٨ (٦٣٩٩) ومسلم ٨٠/٨ (٢٧١٩) (٧٠).

نقمتك، وجميع سخطك»^(١).

ومنها: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(٢).

ومنها: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء»^(٣).

ومنها ما رواه الترمذي^(٤) عن علي رضي الله عنه أن مكاتباً جاءه فقال: إني عجزت عن كتابتي فأعني، قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ، لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك؟ قل: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك».

وبحمد الله تعالى، فلا أذكر ضائقة مرّت علي فألححت على ربي سبحانه بهذا الدعاء إلا جعل لي فرجاً ومخرجاً فله الحمد.

ومنها: سؤال الله العافية، فعن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

(١) مسلم ٨٨/٨ (٢٧٣٩) (٩٦).

(٢) مسلم ٨١/٨ (٢٧٢٢) (٧٣).

(٣) الترمذي (٣٥٩١) وقال: حديث حسن غريب. وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١٤٦٦) والألباني في صحيح الجامع (١٢٩٨).

(٤) (٣٥٦٣) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال: «سلوا الله العافية». فمكثت أياماً، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال لي: «يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة»^(١). وتكرار نفس الجواب مع تعدد السؤال في أيام ولعمه العباس دليل على قدر هذا الدعاء الجامع. ومنها: الإلحاح بـ «يا ذا الجلال والإكرام» فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلْظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ»^(٢) ومعنى «أَلْظُّوا»: أي أَلْحُوا بهذا التوسل، والزموه، وأكثرُوا منه.

ومنها ما روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ علمها هذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَازَبَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَمَا قَرُبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرُبَ مِنْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا»^(٣).



(١) الترمذي (٣٥١٤) وقال: حديث صحيح. وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٥٢٥) عن أنس، وأخرجه النسائي في الكبرى (٧٧١٦)، والحاكم ١/٤٩٨ - ٤٩٩ عن ربيعة، وصححه. وجوّد سنده ابن باز في النكت على التقريب (٨٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٥٠).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١ / ٥١٢ - ٥٢٢). وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٢) والأرناؤوط في تخريج المسند (٢٥٠١٩).

﴿وَضَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾

هذه الآية الكريمة العظيمة وصفت حال المؤمنين الملتجئين إلى الله تعالى بيقين لا يهتز ولا يتزعزع، وهذا الالتجاء يزيد حال الشدة ولا ينقص حال الرخاء، ورُبَّ حال يظنه المرء رخاءً وهو أشدَّ الشدة وذلك كحال النعماء بعد الشدة، فكم من مؤمن يصبر حال الشدة ويضيع ويغفل حال النعمة والرخاء، لذلك فمن صفات المؤمن الصالح دوام التجائه إلى ربه تبارك وتعالى، فهو مع الله في رخائه وشدته، يلجئ إليه إن خاف غشيان معصية أو كسلاً عن طاعة، أو قتر غفلة أو وهج شهوة أو كُلوخ خيفة، فهو موقن أنه لا غنى له إلا بالله ولا حافظ له إلا الله، ولا ملجأ له إلا إليه، وهناك يلقي الأمن والحفظ والكلالة والستر والسعادة.

قال الله تعالى في ذكر توبته على الأنصار الثلاثة كعب وهلال ومرارة حين تابوا إليه بعد تخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبعد أن صدقوا اللجأ إليه سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، وهؤلاء الثلاثة الذين وصفهم الله في هذه الآية بما وصفهم به فيما قيل، هم الآخرون الذين قال جل ثناؤه: ﴿وَالْآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فتاب عليهم عز ذكره وتفضل عليهم.

ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ، كما قال قتاد في قوله: ﴿خَلَفُوا﴾ أي: فخلّفوا عن التوبة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨]، يقول: بسعتها، غمًّا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾، بما نالهم من الوجْد والكُرْب بذلك ﴿وَلَا تَمْلِكُ﴾، يقول: (وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، بتخلفهم خلاف رسول الله ﷺ، ينجيهم من كرب، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله.

ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينبوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاة إلى أمره ونهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، يقول: إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحبّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه (الرحيم)، بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه.

وذكر لنا أن كعب بن مالك أوثق نفسه إلى سارية، فقال: لا أطلق نفسي حتى يطلقني رسول الله ﷺ! فقال رسول الله: «والله لا أطلقه حتى يطلقه ربه إن شاء» وأما الآخر فكان تخلف على حائط له كان أدرك^(١)، فجعله صدقة في

(١) الحائط: البستان من النخيل إذا كان عليه حائط، وهو الجدار. وأدرك الثمر: أي بلغ نضجه.

سبيل الله، وقال: والله لا أطعمه! وأما الآخر فركب المفاوز يتبع رسول الله ﷺ، ترفعه أرض وتضعه أخرى، وقدماه تشلشلان دمًا^(١).

وكانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في تلك الغزوة في بضعة وثمانين رجلاً. فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، صدقه أولئك حديثهم، واعترفوا بذنوبهم، وكذب سائرهم، فحلفوا لرسول الله ﷺ: ما حبسهم إلا العذر، فقبل منهم رسول الله وباعهم، ووكلهم في سرائرهم إلى الله، ونهى رسول الله ﷺ عن كلام الذين خلفوا، وقال لهم حين حدثوه حديثهم واعترفوا بذنوبهم: «قد صدقتم، فقوموا حتى يقضي الله فيكم» فلما أنزل الله القرآن، تاب على الثلاثة، وقال للآخرين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أنني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول

(١) تشلشلان: أصلها تشلشلان فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، والمعنى: قطر الدم على الأرض وسيلانه متفرقاً.

الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين توثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها^(١).

فكان من خبري حين تخلفت عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة. فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفاوزَ، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع النبي ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظٌ. يريد بذلك: الديوان. قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا يظن أن ذلك سيخفي، ما لم ينزل فيه وحْيٌ من الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الشار والظلال، وأنا إليهما أصغر^(٢) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت! فلم يزل ذلك يتماذى بي، حتى استمر بالناس الجدُّ. فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا. فلم يزل ذلك يتماذى بي، حتى أسرعوا وتفارط الغزو^(٣).

(١) أي: أشهر ذكرًا منها.

(٢) أي: أميل وأحب.

(٣) أي: فات وقت اللحاق بهم.

وهممت أن أرتحل فأدرتهم، فيا ليتني فعلت، فلم يُقدّر ذلك لي. فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي ﷺ يحزنني أنّي لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق^(١) أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه، والنظر في عطفه^(٢)! فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك، رأى رجلاً مُيَّضاً يزول به السراب^(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة!» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدّق بصاع التمر، فلمزه المنافقون.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرنني بئس^(٤)، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظّل قادماً!

(١) المغموص عليه: من قولهم: غمص عليه قولاً قاله، أي: عابه عليه، وطعن به عليه.

ويعني: مطعوناً في دينه، متهماً بالنفاق.

(٢) النظر في عطفه: كناية عن إعجابه بنفسه، واختياله بحسن لباسه. والعطفان: الجانبان، فهو يتلف من شدة خيالاته.

(٣) أي: يرفعه ويخفضه، وإنما يحرك خياله.

(٤) البث: أشدّ الحزن. وذلك أنه إذا اشتد حزن المرء احتاج أن يفضي بغمه وحزنه إلى صاحب له يواسيه، أو يسليه، أو يتوجع له.

زاح عني الباطل^(١)، حتى عرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه^(٢).

وصَبَّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. حتى جئت، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟».

قال قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أنني سأخرج من سَخَطه بعذرٍ، لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يُسَخِّطَكَ عليّ، ولئن حدثتك حديثَ صدقٍ تجدُّ عليّ فيه^(٣) إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي عُذر! والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، قم حتى يقضي الله فيك!».

فقممت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا! لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به

(١) أي: زال الباطل وتباعد.

(٢) أي: عزمت على قول الصدق له.

(٣) من الوجد، أي: تغضب وتسخط علي.

المتخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك! قال: فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي! (١).

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهم يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفّتيه بردّ السلام أم لا؟ ثم أصلي معه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة. وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليّ. فسلمت عليه، فوالله ما ردّ علي السلام! فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. قال: فعُدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عينا، وتولّيت حتى تسوّرت

(١) وهذا من أحلك المواقف، فالمؤمن لا يأمن تقلّب قلبه!

الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا ببنطيٍّ من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له، حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فقرأته، فإذا فيه: أما بعدُ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضِيعَةٍ، فالحق بنا نُواسيك. قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضًا من البلاء! (١) فتأملتُ به التنوُّر فسجَّرتُه به.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي (٢)، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك (٣) قال فقلت: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبي بذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقني بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلالٍ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدُمه؟ فقال: لا ولكن لا يقربَنَّك! قالت فقلت: إنه والله ما به حركة إلى شيء! والله ما زال يبكي مُنذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا! قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول

(١) وهذا من فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لذلك لجأ لربه تعالى وقطع مادة الشر بتسجير الكتاب.

(٢) أي: تأخر.

(٣) وهذا أو أن الفرج، فمع استحكام البلاء يكون انبلاج صبح الفرج.

الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه؟ قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول لي إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب! فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ، فأكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على جبلٍ سلْع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر! قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبْل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشري، نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه بشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمّم رسول الله ﷺ.

فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفون بالتوبة ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني، وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من

السروور: «أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» فقلت: أومن عندك، يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله!» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك، فهو خيرٌ لك!» قال فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت! قال: فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله عليه السلام، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمّدت كذبًا منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني أرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿[التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، ألا أكون كذّبت، فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوا، حين أنزل الوحي، شَرَّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] (١).

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] «أي: بما اتسعت يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. و (ما) مصدرية، أي: ضاقت عليهم الأرض برحبها، لأنهم كانوا مهجورين لا يُعاملون ولا يُكَلَّمون. وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ضاقت صدورهم بالهم والوحشة، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي: تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه.

قال أبو بكر الوراق رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب وصاحبيه» (٢).

وقال الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض أهل التوفيق: «إذا نزلت بي نازلة ما مِنْ أي نوع كَانَتْ، فَأُلْهِمْتُ فِيهَا اللَّجَأَ، فلا أَبَالِي بِهَا».

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٣ - ٥٧٧) باختصار وانظر: صحيح مسلم (٨٧، ٩٨) فاللفظ له. وانظر رسالة: لله درك يا كعب. للمؤلف.

(٢) قلت: والأمر أهون من ذلك بحمد الله تعالى، نعم؛ ضيق الأرض على التائب أول أمره هو من أمارات شدة الندم، لكن لم يرتب الله تعالى ورسوله ﷺ صدق التوبة على ذلك، بل متى ما أخلص وكف وندم وعزم فقد تاب توبة نصوحاً بإذن الله تعالى ورحمته وكرمه.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] لما كان هذا القول في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عِنَ الله عز وجل؛ ليكون ذلك مِنْهَا على تَلَقِّي النعمة مِنْ عنده لا رَبَّ غيره، ولو كان هذا القول في تعديد ذَنْب، لكان الابتداء بالجهة التي هي على المذنب، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ليكون ذلك أشدَّ تقريرًا للذنب عليهم، وهذا مِنْ فصاحة القرآن وبديع نظمِهِ ومُعْجَزِ اتساقه.

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إِنَّمَا يَكْمُلُ مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خَلَفُوا. وإِنَّمَا عَظُمَ ذنبهم، واستحقوا عليه ذلك، لأن الشرع يطلبهم مِنَ الجِدِّ فيه بِحَسَبِ منازلهم منه، وتقدُّمهم فيه؛ إِذْ هُمْ أُسْوَةٌ وَحُجَّةٌ لِلْمَنَافِقِينَ وَالطَّاعِنِينَ، إِذْ كَانَ كَعَبٌّ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ، وصاحبه من أَهْلِ بَدْرٍ، وفي هذا ما يقتضي أَنَّ الرَّجُلَ الْعَالِمَ وَالْمُقْتَدِيَ بِهِ أَقْلَ عَذْرًا فِي السَّقُوطِ مِنْ سِوَاهِ.

وَكَتَبَ الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ فِي آخِرِ رِسَالَةٍ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ قَرَابَتَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَنْ تَزِيدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكَ إِلَّا عَظْمًا، وَلَا طَاعَتَهُ إِلَّا وَجُوبًا، وَلَا النَّاسَ فِيمَا خَالَفَ ذَلِكَ مِنْكَ إِلَّا إِنْكَارًا، وَالسَّلَامَ»^(١).

«فهؤلاء الثلاثة لما اشتدت كربتهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزنا عظيمًا، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع،

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٢٨٧).

والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وَضَعُوا أَنْ أَمْلَجَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَهَهُ﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عبادته، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًّا، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم فقال: ﴿خُلِّفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عمن بُتَّ في قبول عذرهم، أو في رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالافتداء بهم فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية^(١).

والملتجئ لله تعالى دائم التوبة إليه والأوبة طلبًا لمغفرته ورحمته ورضاه،

(١) تفسير الثعالبي (٢/ ١٧٨) باختصار.

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قال قائل: ما معنى التوبة؟

فنقول: التوبة من العبد أن يتنقل من معصية الله إلى طاعته، والتوبة من الله أن يقبل الله من العبد فيبدل سيئاته حسنات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقد تطلق التوبة من الله على توفيقه العبد إلى التوبة، فله تعالى على العبد توبتان: توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة. والدليل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٨]. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي وفقهم للتوبة فتابوا، أما التوبة الأخرى وهي قبول توبة العبد، فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كل توبة مقبولة، وليس كل من قال: أنا تائب إلى الله يكون تائبًا، بل لابد من شروط:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، أي لا يحملها على التوبة أنه خائف من أبيه، أو خائف من أخيه الأكبر، أو خائف من السلطات، أو تاب لأجل أن يقال: فلان مستقيم، والإخلاص لله في التوبة أن يكون الحامل له على

التوبة طلب رضى الله عز وجل والوصول إلى كرامته، والإخلاص شرط في كل عبادة.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، ومعنى يندم أي: يتحسر، ويتكدر أنه وقع منه هذا الشيء. ويحجل من الله عز وجل.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال. وذلك بأن يأتي بالواجب إن أمكن تداركه، أو بدله إذا لم يكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلاً محرماً، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مალًا، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم، وعزم على ألا يعود، فلا بد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا، فإذا قال: أخشى إن ذهبت إلى هذا الرجل وأعطيته المال أن يترتب على ذلك ضرر عليّ، وعلى سمعتي، وربما أحبس، وربما يدعي أن المبلغ المسروق أكثر، وأنا قد تبت إلى الله قبل أن يقدر عليّ فكيف تكون الحال؟ فهل يجوز أن يتصدق به عن صاحبه؟

والجواب: لا يجوز، لأن صاحبه معلوم، أما لو كان مجهولاً كما لو سرق من أناس نسيهم أو جهلهم ولا يدري أين هم، فهنا يتصدق بما سرق عنهم، لكن إذا كان معلوماً لا بد أن يوصله، ويمكن أن يعطي شخصاً يثق به، ويقول: يا فلان، إني سرقت هذا المال من فلان^(١)، وقد ندمت وتبت إلى الله، ومن فضلك

(١) ومن صدق الله صدقه الله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ومن أراد ردّها بلا علم صاحبه بسرقة فثمّ طرق كثيرة بدون فضح نفسه بإخبار الناس بذنبه الذي ستره الله تعالى عليه، ومن يتوخّ الخير يُعطه، ومن يتوقّ الشرّ يُوقه.

أعطه إياه، وقل له: هذه دراهم من إنسان تستحقها عليه، وهو الآن يبذلها، ولكن لا بد أن يكون هذا الرجل الذي وكله أن يوصل الدراهم موثقاً عند صاحب المال وأميناً، لأنه لو لم يكن موثقاً لاتهمه صاحب المال، وقال: أنت السارق والمسروق أكثر، فلا بد أن يكون ثقة، وإذا لم يمكن فيمكن أن ترسل بالبريد، ويقال: هذه دراهم من شخص تستحقها عليه، وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضاً يحسن أن لا تكتبها بقلمك، لأنه ربما يمر عليه ويعرف خطك يوماً من الدهر، هذا إذا كان الحق مالياً، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبهته، في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟

قال كثير من العلماء: لا بد أن تذهب إليه، وتستحلّه، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلان سامحني.

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحلّه، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كفارة من اغتبهته أن تستغفر له»^(١).

أما القول الثالث فهو قول وسط، ولعله الصواب وهو: إن كان صاحبك الذي اغتبهته قد علم بذلك فلا بد من أن تذهب إليه وتستحلّه، لأنه لن يزول ما

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والنميمة (١٥٥) وغيره، ولا يصح. وقد ضعفه ابن حجر في بلوغ المرام (٤٤٧) والزرقاني في مختصر المقاصد (٧٤٦) وقال السمهودي في الغماز على اللماز (١٩٨): «ضعيف، وله شواهد واهية».

في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يناقش ويرى ما الذي حصل، لأنه ربما يذكر شيئاً كبيراً فتعجز نفس صاحبه عن أن يحلله، لأن النفس أماراة بالسوء، فالأولى ألا يسأل، وأن يحتسب الأجر من الله، ويقول: هذا جاء معتذراً، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبة ثناء حسناً، وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وهو الحق، وهو أنه إن كان عالماً فلا بد أن تستحله حتى يزول ما في قلبه، وإن كان غير عالم فلا حاجة إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أما الذي اغتیب وطلب منه السماح فالذي نرى أن الأفضل والأكمل أن يحلله، لأنه أخوه جاءه معتذراً نادماً فليحلله.

وثقوا أنه إذا حلله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحله، سيرى أنه أهدى إليه أكبر هدية، فتقلب الكراهية التي كانت من قبل إلى محبة وألفة، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفاً محبباً واداً.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل، أي يكون في نفسه نية عازمة جازمة ألا يعود لهذا الذنب في المستقبل، فإن تاب وهو يقول: ربما أنه يطرأ علي أن أفعل الذنب، فهذا التائب لا تصح توبته، لأنه لا بد أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، لأنه يأتي وقت يسد باب التوبة، ولا تقبل من الإنسان، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص:

أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فسيأتي زمن تخرج الشمس من المغرب، والذي يردّها الله عز وجل لو اجتمعت الخلائق كلها على أن تردّها ما ردتّها، لكن يردّها الله عز وجل الذي أمره ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ترجع هذه الشمس العظيمة إذا غربت من مغربها، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن كل من على الأرض، اليهودي، والنصراني، والبوذي، والشيوعي، وغيرهم كلهم يؤمنون؛ لأنهم يرون شيئاً واضحاً في الدلالة على الرب عز وجل لكن لا ينفعهم الإيثار، لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وفسّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أنه خروج الشمس من مغربها، وحينئذ لا تنفع التوبة^(١)، مع أن الناس كلهم يؤمنون، لكن لا تنفع، لأنه انسد الباب، وإذا سُدَّ كيف يدخل الناس؟

أما الخاص: فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ لَأَكُنَّ﴾ [النساء: ١٨].

وإني أسأل: هل أحد منا يعلم متى يموت؟! أبداً، ربما يموت الإنسان وهو على مكتبه، أو وهو على فراشه، أو وهو في صلاته، في أي لحظة، وإذا كنا نعلم

(١) الترمذي (٣٥٣٥) وصححه، وأحمد (١٨١٢٠) وصححه الأرنؤوط.

هذا ونوقن به، فالواجب أن نبادر بالتوبة لئلا يفجأنا الموت، فينسد الباب، ولهذا كانت التوبة مما يجب على الفور، فلنبادر بالتوبة إلى الله عز وجل ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِئْتُ أَلْتَنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا الخبر من الله عز وجل له أمر واقع يدل عليه لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه، قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] يعني الله عز وجل ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَاَلْتَنَ﴾ [يونس: ٩١] أي: الآن تتوب؟ لماذا لم تتب قبل؟ ﴿ءَاَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] فلم تقبل توبته والعياذ بالله.

وإذا تاب العبد فإن الله يفرح بهذا فرحاً عظيماً لا يتصوره إنسان، قال النبي ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم» أو قال: «بتوبة عبده من أحدكم براحلته» الراحلة هي البعير «كان عليها طعامه وشرابه فأضلها» يعني ضاعت عنه «فطلبها فلم يجدها، فنام تحت شجرة ينتظر الموت» ضعفت قواه وخارت واضطجع ينتظر الموت «فبينما هو كذلك إذا بناقته متعلقاً زمامها بالشجرة فأخذ الزمام فقال: اللهم أنت عبيدي وأنا ربك» يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكنه «أخطأ من شدة الفرح»^(١).

وهل تجدون فرحاً أعظم من هذا؟ لا، لأنه لا فرح أشد من حياة بعد الإشراف على الموت، فالرب عز وجل يفرح بتوبة أحدنا أشد من فرحة هذا

(١) مسلم (٧١٣٦).

الرجل بناقته»^(١).

وقال ابن رجب في تعليقه على الحديث السالف في فرح الله بتوبة عبده: «وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وإنه إنما يعد نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم.

فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه، ويجب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره، وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده، كما في حديث: «من علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة ثم استغفرني غفرت له ولا أبالي»^(٢) وفي الصحيح^(٣) عن النبي ﷺ: «أنَّ عبدًا أذنب ذنبًا، فقال: يا رب، إنِّي عملتُ ذنبًا، فاغفر لي، فقالَ اللهُ: علمَ عبدي أنَّ لهُ ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرتُ لعبدي». وفي حديث علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ: «أنَّهُ لما ركب دابَّته، حمَدَ اللهُ ثلاثًا، وكَبَّرَ ثلاثًا، وقال: «سبحانَكَ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوبَ إلَّا أنت» ثمَّ ضحك، وقال: «إنَّ ربَّكَ ليعجَبُ مِن عبده إذا قال: ربِّ اغفر لي ذنوبي، يعلم أنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٧/ ٢٨ - ٣٠).

(٢) مسند البزار (٤٠٥٢)، والترمذي (٢٤٩٥) وحسنه، وأحمد (٢١٥٤٠) بنحوه، وصححه الأرناؤوط.

(٣) البخاري ١٧٨/٩ (٧٥٠٧) ومسلم ٩٩/٨ (٢٧٥٨) (٢٩) و(٣٠).

غيري»^(١) وفي الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ، قال: «والله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها».

كان بعض أصحاب ذي النون يطوف وينادي: آه أين قلبي، من وجد قلبي؟ فدخل يوماً بعض السكك، فوجد صبياً يبكي وأمه تضربه، ثم أخرجته من الدار، وأغلقت الباب دونه، فجعل الصبي يتلفت يميناً وشمالاً لا يدري أين يذهب ولا أين يقصد، فرجع إلى باب الدار، فجعل يبكي ويقول: يا أمه من يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك؟ ومن يدنيني من نفسه إذا طردتني؟ ومن الذي يدنيني بعد أن غضبت عليّ؟ فرحمته أمه، فقامت، فنظرت من خلل الباب، فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكاً في التراب، ففتحت الباب، وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبله، وتقول: يا قرّة عيني، ويا عزيز نفسي، أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرّضت لما حلّ بك، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروهاً، فتواجد الفتى، ثم قام، فصاح، وقال: قد وجدت قلبي، قد وجدت قلبي^(٣).

وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾

(١) أحمد ٩٧/١ و ١١٥ و ١٢٨ ، والترمذي (٣٤٤٦) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٢) البخاري ٩/٨ (٥٩٩٩)، ومسلم ٩٧/٨ (٢٧٥٤) (٢٢).

(٣) أي: ذو النون. وقد ذكر القصة ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/٢٧١). وهي قصة شريفة جميلة، علق عليها ابن القيم بكلام نفيس، ثم ربط آخرها بوصفه لله تعالى: أن رحمته سبقت غضبه، وأنه أرحم بعبده من الوالدة بولدها.

لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥] إشارةً إلى أَنَّ المذنبين ليس لهم من يلجؤون إليه، ويُعَوِّلون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره، وكذلك قوله في حقِّ الثلاثة الذين خُلِفُوا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] فرَّتْ توبته عليهم على ظنِّهم أَنَّ لا ملجأ من الله إلا إليه، فَإِنَّ العبدَ إِذَا خَافَ من مخلوقٍ هرب منه، وفرَّ إلى غيره، وأمَّا من خَافَ من الله، فما له من ملجأ يلجأ إليه، ولا مهرب يهرب إليه إلا هو، فيهرب منه إليه، كما كان النَّبِيُّ ﷺ يقول في دعائه: «لا ملجأ، ولا منجأ منك إِلَّا إِلَيْكَ»^(١) وكان يقول: «أعوذُ برضاك مِنْ سَخَطِكَ، وبِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وبِكَ مِنْكَ»^(٢).

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا مِنْ لَيْلَةٍ اخْتَلَطَ ظِلَامُهَا، وَأَرْخَى اللَّيْلُ سِرْبَالَ سِتْرِهَا، إِلَّا نَادَى الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ: مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جَوْدًا، وَالْخَلَائِقُ لِي عَاصُونَ، وَأَنَا لَهُمْ مُرَاقِبٌ؟ أَكَلَوْهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُونِي، وَأَتَوَلَّى حَفَظَهُمْ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، أَجُودُ بِالْفَضْلِ عَلَى الْعَاصِي، وَأَتَفَضَّلُ عَلَى الْمُسِيءِ، مَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أُبَيِّهْ؟ أَمْ مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَنِي فَلَمْ أُعْطِهِ؟ أَمْ مَنْ ذَا الَّذِي أَنَاخَ بِبَابِي فَفَنَحَيْتُهُ؟ أَنَا الْفَضْلُ، وَمَنِّي الْفَضْلُ، أَنَا الْجَوَادُ، وَمَنِّي الْجَوَادُ،

(١) البخاري ٧١/١ (٢٤٧) و ٨٥/٨ (٦٣١٣) و ٩/١٧٤ (٧٤٨٨)، ومسلم ٧٧/٨ (٢٧١٠) و (٥٦) و (٥٧).

(٢) مسلم ٥١/٢ (٤٨٦) (٢٢٢).

أنا الكريم، ومنِّي الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلاق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟^(١). ول بعضهم في المعنى:

أَسَأْتُ وَلَمْ أَحْسِنْ وَجِئْتُكَ تَائِبًا وَأَنْتَ لِعَبْدٍ عَنْ مَوَالِيهِ مَهْرَبٌ
يُؤَمِّلُ غُفْرَانًا فَإِنْ خَابَ ظَنُّهُ فَمَا أَحَدٌ مِنْهُ عَلَى الْأَرْضِ أَخِيْبٌ

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه سبحانه الغني بذاته عمّن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى لا تخافن غيري ما دام لي السلطان، وسلطاني دائم لا ينقطع، يا موسى، لا تهتمن برزقي أبداً ما دامت خزائني مملوءة، وخزائني مملوءة لا تفنى أبداً، يا

(١) أبو نعيم في الحلية ٨ / ٩٢ - ٩٣.

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

موسى لا تأنس بغيري ما وجدتنى أنيساً لك، ومتى طلبتنى وجدتنى، يا موسى،
لا تأمن مكري ما لم تجز الصراط إلى الجنة». وقال بعضهم:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مُضِرٌّ - مِنْكَ بالدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هي بعد الكاف والنون^(١)



(١) جامع العلوم والحكم محقق (٢٦ / ١٨ - ٢٩) مختصراً.

طرق تحصيله

أمر بهذه العظمة حريً بالتعب لأجله، والحرص البالغ لاجتنائه، والمسابقة الجادة لتحصيله، ومن سلك وصل، ومن ثبت نبت، ومن صدق صدق.

وتحصيل اللجأ يكون بتحصيل العبودية، فهو جزء منها، وفرع لها، وثمرة من شجرتها، وعلى قدر إحسان اللجأ يكون إحسان العبودية في ذاتها، فاللجأ لُبُّها ومعدنها وبرهانها وحبلها.

لذلك فطرق تحقيق العبودية وإحسانها هي بذاتها طرق تحقيق اللجوء وصدقه وكماله.

فأول طريق لتحقيقه هو العلم بالله سبحانه وتعالى وما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الجليلة الجميلة الحكيمة.

ومعرفة إحاطة الله بكل شيء رحمة وعلماً وقدره وحكمة، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨] أي: لا تستطيع

شيئاً من الأمر.

وكما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رَفَعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَتِ الصُّحُفُ»^(١).

فالعلم هو أول مدارج تحصيل صحة اللجوء وصدقه، والإيمان علم وعمل، ولكل منهما مراتب متفاوتة جداً، ينزلها من حَقَّقَهَا.

ومن فضل الله تعالى أَنْ جَعَلَ الْعِلْمَ تَعْلِماً وَتَعْلِماً مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «طَالِبُ الْعِلْمِ كَالْغَادِي الرَّائِحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ رَأَى الْغُدُوَّ وَالرَّوَّاحَ إِلَى الْعِلْمِ لَيْسَ بِجِهَادٍ؛ فَقَدْ نَقَصَ عَقْلَهُ وَرَأْيَهُ»^(٣).

ثم يلي العلم العمل، فالعمل تابع العلم، وعلم بلا عمل حجب على صاحبها، وزاد من أزواد النار، ومشابهة ليهود، والعمل بلا علم ضلال وظلام وتيه وحيرة ومشاكلة للنصارى.

(١) الترمذي (٢٥١٦) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) حلية الأولياء (٣٧٧/٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٥٢/١).

وألزم العلوم - فاعلم - هو علم التوحيد والعمل به، فتحقيق لا إله إلا الله يكون بتحقيق معناها ومبناه، وذلك بتحقيق توحيد الألوهية. «وكمال هذا التوحيد هو ألا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء: يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه»^(١).

ومن طرق تحصيل صدق اللجوء: نزول الشدة على العبد، حينها يصدق اللجأ، فإن الشدائد هي مما يلجئ المؤمنين إلى توحيد الله والتعلق به.

ومن نفيس مقول تقي الدين رحمه الله تعالى قوله: «من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنزل بهم من الشدة والضر ما يلجؤهم إلى توحيدِهِ، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونهُ لا يرجون أحداً سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم: من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك، ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجذب والضر.

وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين، فأعظم من أن يعبر عنه مقال؛ ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قيل: «يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك».

وقال بعض الشيوخ: «إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي أن ينصرف

(١) مدارج السالكين (٣/٤٨٥).

عني ذلك». لأن النفس لا تريد إلا حظها، وقد قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا» (١) (٢).

ومن طرق تحصيله: الدعاء الملحّ المستمر بإصلاح القلب، فإذا صلح القلب صدق في اللجأ لربه تعالى.

ومنها: صحبة الصادقين في الالتجاء لرب العالمين في السراء والضراء.

ومنها: العمل الصالح، فللعمل الصالح بركة، والله شكور حميد، يشكر عبده على عمله بتوفيقه لعمل صالح يرضى به عنه، فيوفقه للرشد ويهديه للإحسان ويثبتته على الإيمان حتى يلقاه به وهو عنه راض.

ومنها: مطالعة عيوب النفس ونقصها، وتفقد القلب من حين لآخر، وتطهيره من علائق الدنيا.

ومنها: عبادة التفكر - وهي من أعجبها - فإذا تفكر الإنسان في ضعف أهل الدنيا وعجزهم وفنائهم، بل كل من سوى الله تعالى، فإنه يخرج من ذلك بنفس منشحة وقلب متعلق ملتجئ بمن لا يعول على غيره.

ومنها: قراءة القرآن وتدبره وترديده والتفكر فيه، والتفقه في معانيه، ففيه من الفوائد والألطف ما لا يحيط به مداد!

وقراءة القرآن، وتحفظه، وتدبره، والعمل به، وغسل أدران الروح بنوره،

(١) مسلم (١٦٠).

(٢) مختصر الفتاوى (٢٦٨) والمستدرک على مجموع الفتاوى ١/١٤٤.

وإزالة أوساخ القلب بهداه، وتلين قسوة الفؤاد بمياه فوائده، وإنارة منهاج البصيرة ببيانه، وقشع وحر الصدر وخرجه بترديده بالتفكر والتذكر واليقين والاعتبار؛ ديدن الموحدين الصادقين، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن كان من أهل القرآن كان من أهل الله، وخاصة الله، وأهل مائدة الله، نسأل الله الكريم من فضله.



موانع تحقيق الإلتجاء

جامع ذلك الخذلان من الله تعالى، فإذا خذل الله عبداً فلن تقوم له قائمة، فما كسره الله لا جابر له، وما طرحه لا مقيم له، وما أفقره لا مغني له، وما أهلكه لا نافع له!

ويمنع تحقيق الإلتجاء أضداد ما سبق من طرق تحصيله، فمنها الجهل بالله تعالى وبما يليق به سبحانه، وبعظمته وكبره وإحاطته وعلمه وقدرته وحكمته. ومنها: المعاصي والذنوب، فلها رانٌ على القلب ينتهي به إلى المرض والعلّة ثم الموت والطّبع، إن لم يرحمه الله بيقظة وتوبة وصحّة وانتباه وحياة. ومنها: الانغماس في الترف والإغراق في الماديّات وقلة إعطاء الروح حصّتها من نصيب الهمة والحاجة.

ومنها: صحبة ضعيفي الإلتجاء لربهم، فالطباع سارقة، والصحبة نزاعة، ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. ومنها: هجر القرآن، وإذا كان الفوز والظفر والفلاح مع قراءته وتدبره والعمل به فالخيبة مع هاجريه.

ومنها: إهمال المحاسبة للنفس، فتجري الأيام والشهور والسنين بالمرء وهو سادر في هواه بلا محاسبة، فيطوى عمره وهو لا يشعر، ويفجأه الأجل ولم يستعد له، ويندم ولات حين مندم، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

[٨]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾

[فاطر: ٥].

فينبغي على الناصح لنفسه لزوم المحاسبة الجادة الصادقة الثابتة على الدوام
بميزان الشرع، رفقا بحزم، وحزما بلطف، وتدقيقا بالأولويات، وبالله التوفيق.



الرجاء لغير الله تعالى

إن أصل الشرك هو اللجوء لغير الله تعالى. فإذا اختل ميزان البصيرة في القلب لم يعد صاحبه يعرف مصدر سعادته وشقائه، فالتجأ بمن لا يضر ولا ينفع ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢، ١٣]

ومن أشنع مظاهر اللجوء لغير الله تعالى اللجوء للأضرحة والقبور، والاستغاثة بأهلها، ودعائهم، والتوسل بهم، والتبرك بتربتهم. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إنَّ في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاصد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيره على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن: ما لجرح بميت إيلام.

فمن مفاصد اتخاذها أعيادًا: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلاها، واستلامها، وتعفير الخدود على تراها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد

أربوا في الربح على الحجيح، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يُعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر رُكَّعًا سجدًا، يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملئوا أكفهم خيبة وخسرانًا!

فلغير الله بل للشيطان ما يُراق هناك من العَبَرَات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبلّيات!

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عَفَّروا لديه تلك الجباه والحدود، التي يعلم الله أنها لم تعفّر كذلك بين يديه في السجود^(١)، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاَق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق!^(٢)

وقرّبوا لذلك الوثن القرايين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً.

فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج

(١) لأنهم لو حقّقوا السجود لله لوحدوه عن الأنداد.

(٢) الخلاق: الحظ والنصيب.

المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا ولو بحجك كل عام! (١).

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سدّ الذريعة إلى هذا المحذور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه لما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته.

ورأيتُ لأبي الوفاء بن عقيل في ذلك فصلاً حسناً فذكرته بلفظه قال: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالخواجج وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى».

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر،

(١) ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً.

فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله تعالى.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه^(١) عن أبي الهيثج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.

وفي صحيحه أيضاً^(٢) عن ثمامة بن شُفْيٍ قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها. وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

(١) مسلم (٩٦٩).

(٢) مسلم (٩٦٨).

ونهى عن تخصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في صحيحه^(١) عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تخصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه بناء.

ونهى عن الكتابة عليها كما روى الترمذي في سننه^(٢) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن تُحصّص القبور، وأن يكتب عليها. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

ونهى أن يُزاد عليها غير تراها، كما روى أبو داود^(٣) من حديث جابر أيضاً: أن رسول الله ﷺ نهى أن يخصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه. وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب، مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ^(٤).

إن الفلاح بحذايره منوط بالتوحيد، والهلاك بالشرك، ويا نفس أخلصي تتخلصي، و﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

(١) مسلم (٩٧٠).

(٢) (١٠٧٢) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٣) (٣٢٢٦) وصححه الألباني.

(٤) إغاثة اللفهان (١/ ١٩٣ - ١٩٩) مختصراً. وانظر تيسير العزيز الحميد، باب: ما جاء في الصورين، ففيه نقول وتحريرات مهمة.

و«يا مخدوعاً قد فُتن! يا مغروراً قد غُبن! من لك إذا سُوي عليك اللَّبن؟

أنت في دار شتاتٍ فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم صمته عن شهواتك
وليكن فطرك عند الله في يوم وفاتك

إخواني! العمر أنفاسٌ تسيّر، بل تطير، الأمل منامٌ لا تُرى فيه إلا الأحلام،
هذا سيف الموت قد دنا، هذا الرحيل ولا زاد عندنا، انتبهوا من رُقاد الغفلة.
أول منازل الآخرة القبر، فمن مات فقد حطَّ رَحْلَ السفر، وسائرُ الورى
سائر.

من كان في سجن التقي فالموت يطلقه، ومن كان هائماً في بوادي الهوى
فالموت له حبس يُوثقه.

من كان واثقاً بالسلامة من الجناية فرح بفكّ باب السجن «والدنيا سجن
المؤمن»^(١).

لما توعدّ فرعون السحرة بالصلب أنساهم أمل لقاء الحبيب مرارة الوعيد
﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] يا فرعون! غاية ما تفعل تُحرق الخيم
والركب قد سرى ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]. ومن لاحت له منى نسي
تعب المدرج

(١) مسلم (٢٣٩٢).

متى رُفِعَتْ لها بالغور نارٌ وقرَّ بذِي الأراكِ لها قرارُ
فكلُّ دمٍ أراقَ السيرَ منها بحكم الشوقِ مطلولٌ جُبَارُ^(١)

لا بد للمحبيب من اختبار المحبِّ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أسلم أبو جندل بن سهيل فقيدهُ أبوه، فلما نزل رسول الله ﷺ الحديبية خرج أبو جندل يرُسُفُ في قيده، فدخل في الصحابة، فقال سهيل: هذا أول من أقاضيك عليه، فاستغاث أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين فيفتنوني عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «وإنا لا نغدر بهم»^(٢). فرد إليهم، فقدمه يسعى إليهم، وقلبه يُجهِّزُ جيوش الحيل في الخلاص، فخلَّصه الله.

لما أسلم مصعب بن عمير حبسه أهله، فأفلت إلى الحبشة، ثم قدم مكة، فدخل على رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه أمه: يا عاقُ! أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ، فأرادت حبسه، فقال: والله لئن حبستني لأحرصنَّ على قتل من يتعرَّض لي، فتركته.

(١) مطلول: مهذور، جُبَار: هدر.

(٢) أحمد (١٩٤٢٣) والبيهقي (٩ / ٢٢٧). وانظر الخبر بطوله في سيرة ابن هشام (٢ / ٣١٨)، والسيرة الحلبية (٢ / ١٤٦)، ومغازي الواقدي (٢ / ٦٠٨)، وزاد المعاد (٣ / ٢٩٤)، والطبقات (٢ / ٩٧). وهو خبرٌ مُلَى عِبْرًا، ومِن أمثل من استخلص العبر من السيرة النبوية بإطلاق ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد.

وعاذلونِ حُوبِي^(١) في محبتهم يا ليتهم وجدوا مثل الذي أجدُ
لما أطالوا عتابي فيك قلت لهم: لا تفرطوا بعض هذا اللوم واقتصدوا

عذبوا بلاً فأصرّ على الصبر، فسلموه إلى صبيانهم في حديدة يصهرونه في
حرّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صخرة، ولسان محبته يقول:

بعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي وللشوق ما لم يبق مني وما بقي
قدّم الطفيل الدوسي مكة، فقالت له قريش: لا تدن من محمد، فإننا نخاف
أن يفتنك، فسدّ أذنيه بقطعتين، ثم تفكّر، فقال: والله ما يخفى علي الحسن من
القبيح، فانطلق فسمع من رسول الله ﷺ فأسلم.

قطعت قريش لحم خبيب، ثم حملوه إلى الجذع ليُصلب، فقالوا: أئحب أن
محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحبّ أني في أهلي وولدي، وأن محمدًا شيك
بشوكة، ثم نادى: واحمداه! (٢).

لما بُعث معاذ إلى اليمن خرج الرسول ﷺ يودّعه، ودموع معاذ ترش طريق
الوداع.

كانت الدنيا بمثلهم عسلاً، فتعلقمت بمثلنا، خلّت الديار من الأحباب،

(١) الحُوب: الهم والحزن والوجع. أو أن المراد دعوتهم عليه بقولهم: (لحاك الله) أو أن قصده
وصف رجوعه للمحبة بالخطيئة والحبوبة.

(٢) انظر قصته في يوم الرجيع، سيرة ابن هشام ١٧٢/٢ وهذا النداء من باب الوجد والمحبة،
وهو معتاد في لسان العرب، وليس مقصوده الاستغاثة والشرك بحال - وحاشاه..

فلما فرغت رُدِمَ الباب.

وقعتُ فيها أصيلاً كي أسأئُلُها أعيْتُ جواباً وما بالربع من أحدٍ
أضحت قِفاراً وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبِّدٍ^(١)

ولتحذر أيها الملتجئ لربك من مبارزته بالمعاصي في الخلوات، فهي من أسباب الشقاء وذرائع الهلكات، «قال إبراهيم التيمي: كنت كثير التردد إلى المقابر أذكر الموت والبلى، فبينما أنا ذات ليلة بها إذ غلبتني عيناى فنمت، فرأيت قبراً قد انشق، وسمعت قائلاً يقول: خذوا هذه السلسلة فاسلكوها في فيه، وأخرجوها من دبره! وإذا الميت يقول: يا رب ألم أكن أقرأ القرآن، ألم أحج بيتك الحرام؟ وجعل يعدد أفعال البر شيئاً بعد شيء، وإذا قائل يقول: كنت تفعل ذلك ظاهراً، فإذا خلوت بارزت الله بالمعاصي ولم تراقبه.

وعن عبد الله بن المديني قال: كان لنا صديق فقال: خرجت إلى ضيعتي، فأدركتني صلاة المغرب، فأتيت إلى جنب مقبرة فصليت المغرب قريباً منها، فبينما أنا جالس إذ سمعت من جانب القبور أنيناً، فدنوت إلى القبر الذي سمعت منه الأنين وهو يقول: آه قد كنت أصوم، قد كنت أصلي، فأصابني قشعريرة، فدعوت من حضرني فسمع مثل ما سمعت.

ومضيت إلى ضيعتي، ورجعت -يعني في اليوم الثاني- وصليت في موضعي الأول، وصبرت حتى غابت الشمس وصليت المغرب، ثم استمعت إلى ذلك

(١) المدهش لابن الجوزي (١/٢٤١-٢٤٣) باختصار.

القبر، فإذا هو يئن ويقول: آه، قد كنت أصلي، قد كنت أصوم، فرجعت إلى منزلي ومرضت بالحمى شهرين.

وأقول^(١): قد وقع لي نظير ذلك، وذلك أني كنت وأنا صغير أتعاهد قبر والدي رَحْمَةُ اللَّهِ، فخرجت يوماً بعد صلاة الصبح بغلس في رمضان، بل أظن أن ذلك كان في العشر الأخير، بل في ليلة القدر، ولم يكن بالمقبرة أحد غيري، فإذا أنا أسمع التأوه العظيم والأنين الفطيع بآه آه آه، وهكذا بصوت أزعجني من قبر مبني بالنورة والحص، فاستمعت فسمعت صوت ذلك العذاب من داخله، وذلك الرجل المعذب يتأوه تأوهاً عظيماً بحيث يقلق سماعه القلب ويفزع، فاستمعت إليه زمناً، فلما وقع الإسفار خفي حسه عني، فمر بي إنسان فقلت قبر من هذا؟ قال: هذا قبر فلان، لرجل أدركته وأنا صغير، وكان على غاية من ملازمة المسجد والصلوات في أوقاتها والصمت عن الكلام!

وهذا كله شاهدته وعرفته منه، فكبر علي الأمر جدًّا لما أعلمه من أحوال الخير التي كان ذلك الرجل متلبساً بها في الظاهر، فسألت واستقصيت الذين يطلعون على حقيقة أحواله فأخبروني أنه كان يأكل الربا، فإنه كان تاجرًا ثم كبر وبقي معه شيء من الحطام، فلم ترض نفسه أن يأكل من جنبه حتى يأتيه الموت، بل سول له الشيطان محبة المعاملة بالربا حتى لا ينقص ماله، فأوقعه في ذلك العذاب الأليم حتى في رمضان حتى في ليلة القدر»^(٢).

(١) القائل هو المؤلف، أعني به: ابن حجر الهيتمي رَحْمَةُ اللَّهِ.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، للهيتمي (١ / ٣١ - ٣٤) باختصار وتصرف يسير.

إن اللجأ لغير الله ممحقة للصالحات، فالمؤمن دائم اللجوء لربه في الهينات والملمات، يعلم أن ربه إن لم يمدده برحمة هلك، وإن منع عنه أسباب التوفيق خسر وخاب، فهو دائم اللجوء لربه، والتعلق به، والاعتصام بحبله.

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وبالله الهدى والعون التوفيق والقبول، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



اللهم سلم سلم

قال أبو عبد الله محمد البخاري رحمه الله^(١): حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ بْنُ حَازِمٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» فَيَقْصُصُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَصَ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ^(٣): «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ^(٤) آتِيَانِ، وَإِثْمَهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَتْلُغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهَّدُهُ الْحَجَرُ هَاهُنَا^(٥)، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى!» قَالَ: «قُلْتُ لَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا.

فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكَلُوبٍ^(٦) مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقِّي وَجْهِهِ فَيَشْرِشُرُ شِدْقَهُ^(٧) إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ،

(١) صحيح البخاري (١٣٨٦).

(٢) ويصح بفتح الدال (جندب).

(٣) الغداة والغدوة: الصباح. والمقصود هنا بعد صلاة الفجر.

(٤) ما كان في الليل قبل الزوال يقال له: الليلة. وما كان بعده يقال له: البارحة.

(٥) أي: يضرب رأسه بالحجر فيشق رأسه ويشدخه فيتدحرج الحجر من قوة الضربة، عيادًا بالله!

(٦) الكلوب: حديدة معوجة الرأس.

(٧) أي: يقطع.

وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى» قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا.

فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ» فَأَحْسِبُ أَنَّهُ قَالَ: «فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ، وَأَصْوَاتٌ، فَاَنْطَلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ هَبٌّ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا»^(١) قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا.

فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرٍ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ^(٢) فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا.

فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْأَةِ^(٣) أَوْ كَأَكْرَهَ مَا أَنْتَ رَاءِ رَجُلًا مَرَأَى فَإِذَا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحْسُشُهَا^(٤) وَيَسْعَى حَوْلَهَا^(٥) قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ،

(١) أي: صخبوا بالضوضاء والصراخ من الفزع والألم.

(٢) أي: يفتحه.

(٣) أي: المنظر.

(٤) أي: يوقدها.

(٥) أي: يرقبها ويراعي مادة إحراقها حتى لا يحمد لهبها.

فَانْطَلَقْنَا.

فَأْتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ ^(١) وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوِيلًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرٍ وَلِدَانِ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِي، فَانْطَلَقْنَا.

فَأْتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ ^(٢) عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ! قَالَا لِي: ارْقُ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبَنِ ذَهَبٍ وَلَبَنِ فِضَّةٍ، فَأْتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتِ رَاءِ! وَشَطْرٌ مِنْهُمْ كَأَفْبَحَ مَا أَنْتِ رَاءِ! قَالَا هُمُ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، وَإِذَا هُوَ نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ ^(٣) فَذْهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالَ: «قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، فَسَمَا بَصْرِي صُعْدًا ^(٤) فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ ^(٥) قَالَا لِي: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ؟ قُلْتُ لهما: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، فَذَرَانِي فَادْخُلْهُ. قَالَا لِي: أَمَّا الْآنَ فَلَا، وَأَنْتِ دَاخِلُهُ.

قُلْتُ لهما: فَإِنِّي رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا؟ فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَا لِي: أَمَّا إِنَّا

(١) الرَّوْضَةُ الْمُعْتَمَةُ: هِيَ وَافِيَةُ النَّبَاتِ طَوِيلَتِهِ. وَالنَّوْرُ هُوَ الزَّهْرُ، وَرَوَى: "لَوْنُ الرَّبِيعِ".

(٢) الدَّوْحَةُ: الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ.

(٣) الْمَحْضُ: اللَّبَنُ.

(٤) أَي: ارْتَفَعَ نَظْرِي لِلْأَعْلَى.

(٥) أَي: السَّحَابَةُ الْبَيْضَاءُ.

سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَتْلَعُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ^(١) وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ^(٢).

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشْرِشُرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذِبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ^(٣).

وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ، فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي^(٤).

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ، وَيَلْقَمُ الْحَجَارَةَ، فَإِنَّهُ أَكَلُ الرَّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرَاةُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْشُشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكُ

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢ / ٤٦٤) عن ابن هبيرة رحمها الله تعالى: «رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة؛ لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس».

(٢) فاحذر تلك الصخرة يا من تنام عن الصلاة المكتوبة.

(٣) وتأمل حال الناس مع وسائل الاتصال الآن، وكيف تبلغ الكذبة أطراف الأرض في وقت وجيز، فاستحق منشؤها وناشرها ذلك العذاب المروّع في القبر.

(٤) أي: صاحوا من لهيب النار وعذاب الإحراق، فأحرقت تلك الجلود التي كشفت واستعملت بغير أمر الله.

خازنُ جهنم^(١).

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم عليه السلام، وأما الولدان الذين حولَه، فكلُّ مولودٍ ماتَ على الفطرة. فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولادُ المشركين؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «وأولادُ المشركين^(٢)». وأما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسنٌ، وشطراً منهم قبيحٌ، فإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفي روايةٍ للبخاري أيضاً: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أُتِيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ» ثُمَّ ذَكَرَهُ وَقَالَ: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقْبٍ مِثْلِ التَّنُورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ؛ تَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا ازْتَفَعَتِ اازْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا اخْتَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عَرَاءٌ». وفيها: «حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلُّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَرْمِي فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ». وفيها: «فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ».

(١) قال الحافظ في الفتح (٤٤٥/١٢): «إنما كان كربه الرؤية؛ لأن في ذلك زيادة في عذاب أهل النار».

(٢) أي: أنهم في كفالة إبراهيم كذلك لموتهم على الفطرة، وللعلماء في المسألة أقوال، هذا أحدها، وقد بسطها ابن القيم بأدلتها في كتابه (الروح).

وفيها: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْقُّ شِدْقَهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ فُتَحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيَصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَفِيهَا: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدِخُ رَأْسَهُ فَارْجُلُ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَتَأَمَّ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالذَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ. وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلُ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَهُ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ».

بِسْمِ اللَّهِ

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| ١ - مقدمات في أقوال وأعمال القلوب | ١٤ - الثقة بالله تعالى |
| ٢ - التوحيد والإخلاص | ١٥ - الافتقار إلى الله تعالى |
| ٣ - العبودية | ١٦ - الاستغناء بالله تعالى |
| ٤ - الصدق مع الله تعالى | ١٧ - التعلق بالله تعالى |
| ٥ - محبة الله تعالى | ١٨ - الالتجاء إلى الله تعالى |
| ٦ - الشوق إلى الله تعالى | ١٩ - الاعتصام بالله تعالى |
| ٧ - الأنس بالله تعالى | ٢٠ - سلامة الصدر |
| ٨ - الإرادة | ٢١ - العفاف |
| ٩ - العزم | ٢٢ - الصبر |
| ١٠ - الرجاء | ٢٣ - الرضا بالله تعالى |
| ١١ - الرغبة | ٢٤ - شكر الله تعالى |
| ١٢ - التوكل على الله تعالى | ٢٥ - حمد الله تعالى |
| ١٣ - حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى | ٢٦ - الفرح بالله تعالى |

الإلتجاء إلى الله تعالى

١٤٢

.... -٢٧

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|---|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ. | ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ. |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ. |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة. | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البايبل). |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية. | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان. |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام. | ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليها السلام. |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل. | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب. | |

كتب متنوعة

- ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
- ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر).
- ٣ - لله درّك يا كعب.
- ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمر.
- ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية.
- ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
- ٧ - (ويكون الدين كله لله).
- ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
- ٩ - المدهشات.
- ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً.
- ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
- ١٢ - وقد يجمع الله الشيتين.
- ١٣ - دموع على سفح الفؤاد.
- ١٤ - نَظَرَاتٌ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الإنسانية.
- ١٥ - أزمة الفكر المادي.
- ١٦ - السِّلَفِيَّةُ مُحَضُّ الإِسْلَامِ العتيق.
- ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
- ١٨ - رقائق المتقين.
- ١٩ - شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية.
- ٢٠ - شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبيّة.
- ٢١ - رياضُ الأنسِ. منتخبات نافعة من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميحي رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).

- ٢٢- دمعُ الغمامِ مِنْ مَحَايِرِ الأعلامِ.
حكم وفوائد ووصايا وقصائد،
جمع الشيخ محمد الدميحي
رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).
- ٢٣- الحنيفية، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام
٢٤- مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ.
٢٥- انفساخُ العزائمِ وانتقاضُ
الدعائمِ
٢٦- مقدِّمةُ الحموية.. طلعَ الصَّباحُ
فَأُطْفِئُوا الْقِنْدِيلَا.
٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي
الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة
النفوس).
٢٨- مسائل مُلَحَّةٌ فِي الْقَدَرِ.
- ٢٩- من هو الماهر بالقرآن الكريم.
٣٠- مباحث فقهية.
٣١- معالم التوحيد والحنيفية في سيرة
خير البرية ﷺ.
٣٢- إرشاد الحفاظ في متشابه الألفاظ
للقرآن الكريم.
٣٣- الإعجاز الرباني في اليهود.
٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ.
٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفات،
(على شرحي الإمامين النووي
وابن حجر للصحيحين).
٣٦- الإقليد.. مفاتيحُ للعلم،
والعبادة، والدعوة، والسلوك.

- ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجَّانًا بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمل مجَّانًا مؤلفات إبراهيم الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. **وهذا باركود التحميل المباشر لها:**



رابط التحميل المباشر:

[.حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميحي، من هنا](#)

الصفء والتنسيق والإخراج الفني
خالء محمد جاب الله
مكة المكرمة - جوال: 0502543917

لميس الغديري

lameesalghadeery@gmail.com

☎ ٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩

الاعتصام بالله تعالى



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

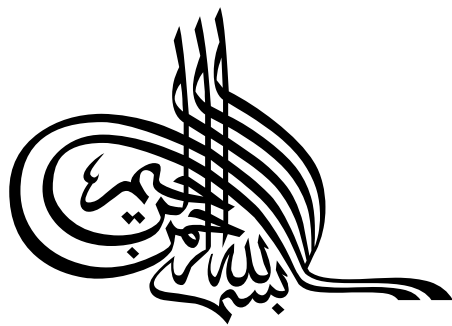
الكتاب رقم (١٩)

الاعْتِصَامُ بِاللَّهِ تَعَالَى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فَهْرِسُ الْمَحْتَوَاتِ

مقدمة	٩
التعريف	١١
علاقة الاعتصام بالتعلق واللجأ	١٤
فضله وضرورته للمؤمن	١٥
وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة	٣٠
ماهية البدعة	٣٤
أسباب البدع	٣٥
مصدر التلقي الصافي التليد	٤٠
الاعتصام بكتاب الله تعالى	٤٢
الاعتصام بالسنة وسبيل السلف الصالح	٤٨
أصول السعادة الثلاثة قد حواها القرآن العظيم	٥٣
الاعتصام بالله في زمن غربة الإسلام	٦٣
ثمرات الاعتصام بالله تعالى	٦٧
وسائل تحصيل الاعتصام	٧٧
النعم السبع الكبار	٩٤
مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى	١١٢
عوائق تحقيق الاعتصام	١٢٦
العصمة من فتنة الشهوات	١٣٢
عاقبة ترك الاعتصام أو ضعفه	١٣٨
ليس من شرط الولاية العصمة من الخطأ	١٤٥

١٥٩	الاعتصامُ بالجماعة وذمُّ الافتراق
١٧١	الاختلاف والتفرُّق سبب هلاك الأمم السابقة
١٧٣	هل الاختلاف رحمة؟
١٧٦	طريق الخلاص من الفرقة والاختلاف
١٨٠	ويلات الفرقة والاختلاف
١٩٠	فضائل أهل السنة والجماعة وأوصافهم
١٩٩	تعيينُ الفرق الهالكة
٢٠٣	مسألة تكفير المبتدعة
٢٠٦	أصول البدع
٢٠٩	من هدايات حديث الافتراق
٢١١	معنى الجماعة
٢١٢	معنى الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه سبل أهل الابتداع
٢١٧	الهوى آخية الافتراق
٢١٨	هل وجود المتشابه في القرآن والسنة يُعْتَبَرُ سبباً في خروج أهل الأهواء؟
٢١٩	العصبيات الجاهلية والفرقة
٢٢٢	متى ظهر الاعتناء بأهل السنة والجماعة؟
٢٢٤	معنى الجماعة
٢٣٨	الفرقة في الدين التي حصلت في الأمة على مراتب وأنواع
٢٤٣	معنى لا إنكار في مسائل الخلاف
٢٤٦	الكفر ضد الإيمان
٢٤٧	مذهب السلف، حقيقته وكيفية ضبطه
٢٤٨	حقيقة مذهب السلف والأمور المترتبة على نسبة فعل ما إليه



٢٥٣	حكم إضافة القول في المسألة المختلف فيها إلى مذهب السلف
٢٥٤	مخالفة قول الجماهير للظاهر الذي يراه بعض المتأخرين
٢٥٨	كيفية ضبط مذهب السلف
٢٥٨	تحصيل مذهب السلف وضبطه بالنقل
٢٦٣	هل يُدرك ويضبط مذهب السلف بالفهم
٢٦٥	التحذير من تحصيل مذهب السلف بالفهم
٢٦٥	من أسباب الفرقة تحصيل مذهب السلف بالفهم
٢٦٦	خلاصة الكلام عن حقيقة مذهب السلف وضبطه
٢٦٩	المذهبية
٢٧٠	التمذهب المذموم
٢٧١	التمذهب الجائز
٢٧٢	المقصود بالتمذهب من باب التراتيب العلمية
٢٧٧	الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمذهبية
٢٧٩	عدم الإنكار على المتمذهبيين وغير المتمذهبيين
٢٨٢	الافتراق واقع
٢٨٣	مدى صحة حديث الافتراق
٢٨٥	ما اختص به حديث الافتراق
٢٨٧	الجمل المذكورة في حديث الافتراق
٢٨٨	حكم الفرق المخالفة لأهل السنة
٢٩٠	منزلة الاجتماع عند أهل السنة والجماعة
٢٩٢	أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم
٢٩٤	خطأ القول بأن العامة والجمهور ليسوا من أهل السنة

٢٩٦	السواد الأعظم
٢٩٨	حكم زيادة لفظ: (على فهم السلف الصالح)
٣٠٠	الأسماء الشرعية لأهل السنة والجماعة
٣٠١	دعوى بعض أهل البدع أنهم يلتزمون بفهم السلف الصالح
٣٠٤	أهل السنة لا يتبعون إلا رسول الله ﷺ
٣٠٦	كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام
٣٠٨	الحكم على المخالفين لأهل السنة
٣٠٨	من قال قولاً مبتدعاً لا يلزم أن يكون مبتدعاً
٣١٢	الاشتراك في مقالة واحدة لا يستلزم الاشتراك في تفاصيلها
٣١٢	الاشتراك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني
٣١٣	الاشتراك في الحروف والمعاني الكلية
٣١٥	وقوع بعض الأئمة في القول بأقوال مبتدعة
٣١٨	الغلو في الرد على الفرق المخالفة لأهل السنة
٣٢١	ذم البدع وسوء منقلب أصحابها
٣٢٥	الأدلة من النقل على ذم البدع
٣٣١	توقير المبتدع هدم للإسلام
٣٣٣	شؤم البدعة وشر أهلها
٣٤٠	الفرق بين البدعة والمعصية والخطأ الفقهي
٣٤٣	إثم المبتدعين ليس على رتبة واحدة
٣٤٥	طريق الحق وطرق الضلال
٣٤٨	البدعة قدح في الشريعة
٣٤٨	نشوء البدع

٣٤٩	رد شبهة استفتاء القلب.....
٣٥٠	تزوين النفس للبدعة.....
٣٥١	وسائل الوقاية من البدع.....
٣٥٢	التحذير من الرأي المذموم.....
٣٥٥	الاحتساب على أهل البدع.....
٣٥٩	هل الاحتفال بالمولد النبوي من مقتضيات محبته ﷺ؟.....
٣٦٠	بعض العلماء الذين أفتوا ببدعية الاحتفال بالمولد النبوي.....
٣٧٣	وصايا وأقوال أئمة أهل السنة في الاتباع والنهي عن الابتداع.....
٣٨٣	استقراء مستقبل الأمة في ظل الواقع والمبشرات.....
٣٨٩	أولاً: المبشرات القرآنية.....
٣٩٩	ثانياً: المبشرات النبوية.....
٤٠٤	وقفه مع حديث: «يا طوبى للشام..».....
٤٢٣	«يَا حَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ اِرْكَبِي».....
٤٥٢	المبشرات الواقعية.....
٤٥٦	كتاب الاعتصام للبخاري.....
٥١٢	من أخبار المعتصمين بالله تعالى.....
٥١٣	الإمام البخاري رحمه الله تعالى.....
٥١٣	صباه العلمي.....
٥١٤	شيوخه.....
٥١٥	رحلته وطلبه وتصانيفه.....
٥٢٢	حفظه وسعة علمه وذكائه.....
٥٢٦	ثناء الأئمة عليه.....

- ٥٣٥ عبادته وفضله وورعه وصلاحه
- ٥٤٤ كرمه وسماحته وصفته
- ٥٤٨ محنة الإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله تعالى
- ٥٦٢ وفاته رحمه الله تعالى
- ٥٦٥ صحيح البخاري
- ٥٦٦ موعظة القبر



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أمر بالاعتصام بحبله المتين والاجتماع، ونهى عن الفرقة والتنازع والضياع، جَعَلَ أُخُوَّةَ الدِّينِ مِنَ الدِّينِ، وأمر بالموالاة فيه كلَّ حين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق وقدر، وملك ودبر، وشرع ويسر، فله جميلُ الحمدِ مقدِّمُهُ والمؤخَّر، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله النَّبِيُّ الخاتم والناصح المشفق والمصطفى الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإنَّ الاعتصام بالله تعالى هو من أعمال القلوب الشريفة الفاضلة جدًّا، ولا غنى للمؤمن عنه طرفة عين، وعلى قدر اعتصام المؤمن بمولاه يكون تسديده وتوفيقه وهداه، وهو حبل الدين المتين، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويكفيه فضلًا أن كفاية الرب تعالى على قدر الاعتصام به، فمن حقَّق اعتصامه بالله فلا تخش عليه الضيعة، ولا تخف عليه الخيبة، فربَّنَا لا يَخْلِف الميعاد. وهذه حروف في تبيان حدِّ الاعتصام، ودلائله، وفضله، وضرورة المؤمن له، وبيان حال أهله، وطرق تحصيله، وعوائقه، وكشف الإيرادات عليه، وشيء من أخبار أهله.. ونحو ذلك مما يقتضيه الأمر مما يسره ربي تبارك وتعالى، سائله التوفيق والتسديد والقبول والغفران، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الاعتصام بالله تعالى



فاشد يدك بحبل الله معتصمًا فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٠٨ / ٢٠ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الاعتصام: هو ملازمة سبب النجاة من الهلكة ونوال الرغية. ففيه لياذ واستجارة واستعاذة واستعانة وتوكل وتعلق. وكما له تحقيق التوحيد، والعاصم هو المانع، وفي التنزيل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا مانع لأحد من الغرق إلا من رحمه الله تعالى.

والله يعصم عبده، بمعنى يمنعه مما يضره، ويمنع عنه ما يضره. واعتصم فلان بالله: إذا امتنع به، ومنه: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]

والعصمة بمعنى الحفظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: يحفظك ويحميك.

قال ابن فارس: «العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد. ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه. واعتصم العبد بالله تعالى: إذا امتنع. واستعصم: التجأ»^(١).

والاعتصام: الاستمسك بالشيء، ومنه قول أبي طالب في لاميته الشهيرة مادحاً رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣٣١/٤).

أي: يمنعهم من الضياع والحاجة.

والعصمة: المنع، واعتصم فلان بالله، إذا امتنع به، ويُراد بالعصمة: الحفظ، وعصم إليه: اعتصم به، وأعصمه: هياً له شيئاً يعتصم به، وأعصم بالفرس: امتسك بعرفه.

قال الزجاج: «أصل العصمة الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه، وأعصم الرجل بصاحبه إعصاماً إذا لزمه».

والاعتصام بمعنى الامتناع، تقول اعتصمت بالله؛ إذا امتنعت بلطفه من المعصية، واستعصم بمعنى امتنع وأبى، ومنه قوله تعالى عن امرأة العزيز حين راودت يوسف عن نفسه: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] بمعنى أنه أبى عليها ولم يجيبها إلى ما طلبت. والعاصم: المانع والحامي.

فمن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الاعتصام في اللغة ورد بمعان عديدة، وهي المنع والاتقاء والحفظ والحماية والالتجاء، وكلها معان متقاربة تدور حول فلك واحد^(١).

والاعتصام في الاصطلاح هو عين الاعتصام في اللغة مع شيء من التخصيص. قال الإمام الشوكاني: الاعتصام بالله التمسك بدينه وطاعته والوثوق بوعدته^(٢).

(١) ينظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (١/ ٤).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (١/ ٣٦٧).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «الاعتصام بحبل الله هو التمسك بعهدده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه. والحبل يطلق على العهد، وعلى الأمان، وعلى الوصلة، وعلى السبب. وأصله من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور لاستمسакهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون بها المتفرق، فاستعير اسم الحبل لهذه الأمور»^(١).

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «الاعتصام: افتعالٌ مِنْ عَصَمَ، وهو طلب ما يعصم، أي: يمنع، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء»^(٢).

وقال القشيري: «الاعتصامُ بحبله سبحانه: التمسك بآثار الواسطة صلوات الله عليه، وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسُّنَّة. وَلَمْ يَرْجِعْ عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلّاله، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره؛ فمرفوع عنه ظل العناية، وموكل إلى سوء حاله»^(٣). وقال: «الاعتصامُ بالله: التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. يقال: الاعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة. ويقال: الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة»^(٤).

(١) شرح النووي على مسلم (١٢ / ١١).

(٢) التحرير والتنوير، المجلد الثالث (٣١ / ٤).

(٣) تفسير القشيري (١ / ٣٦٥).

(٤) تفسير القشيري (٥ / ٢٣٣).

علاقة الاعتصام بالتعلق واللجأ :

يجمعها العلم بالله والتعلق بالله والثقة به، بيد أن في الاعتصام مزيد سكونية
ومزيد ثقة ومزيد ثبات ومزيد استغناء.



فضله وضرورته للمؤمن

الاعتصام بالله تعالى عصمة من الهلكة، ووقاية من الخلل، وأمان من الخذلان، وسلامة من عثرات الطريق، ووسيلة مفضية لكمال الرضا والفلاح بإذن الله تعالى.

وجوهر الاعتصام: صدق الاعتماد، وتحقيق التوحيد، وتجريد التعلق، وتتمام الثقة، وكمال التوكل، ورسوخ اليقين. فمن اعتصم بهاله قلّ، ومن اعتصم بعقله ضلّ، ومن اعتصم بجاهه ذلّ، ومن اعتصم بغير الله زلّ، ومن اعتصم بالله عزّ وجل لا قلّ ولا ضل ولا ذل ولا زلّ، بل إلى ذرى المنى يقيناً قد وصل.

ذلك أن الاعتصام بالله تعالى هو ركن التوفيق، فالمرء في كل أطواره وأزمائه متردد بين جلب الخير وثباته ونهائه، أو دفع الضر أو رفعه، ليس له حول وطول على الحقيقة البتة، إنما غاية جهده اتخاذ الأسباب المأمور بها من لدن المسبّب الخالق البارئ، فهو لا شيء إلا بمعونة إلهه وسيده ومولاه.

وهذه الأسباب لا تستقل بحدوث تأثيراتها، بل لا بد من صرف الموانع، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة رب العالمين، فعاد الأمر طراً لمن بيده مقاليد الأمور وتصاريف الأشياء وصيرورات الأقدار، فمن رام التوفيق فليلد بذلك الركن، وليعتصم بمن لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر سواه.

والمعتصم بالله حقاً في تحصيل إيمانه فغاياته الجليلة ليس وراءها مرمى، كيف لا، وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي؟ فعلمه وإرادته

وقدرته بربه الأعلى، فلا يقوم لقوته قوة، ولا يتخلف عن معيته توفيق.

ومتى أحسن العبد الاعتصام بربه انتظمت له سائر أعماله، وتيسرت له، وانشرح صدره بها؛ ذلك أن الله شكور حميد. «فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبداً، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة» (١).

قال الله جل ذكره موصياً عباده بالاعتصام بحبله المتين الواصل إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٤) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] فالاعتصام وصيته سبحانه للمؤمنين به.

وقال مشروطاً الاعتصام به للتائب من أعظم جرم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٧١).

بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ^ط وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿النساء: ١٤٥ - ١٤٦﴾.

وقال تبارك وتعالى في وصف أوليائه الموعودين برحمته: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] ثم أردف أمره بالصلاة والزكاة بالاعتصام، وختم ذلك بالإغراء بتحصيل ولايته فقال: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جل وعلا في بيان ألا معصوم من كل كربة إلا من عصمه برحمته: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وأوصى الحريص الشفيق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بتحقيق الاعتصام بالله، وبيّن طرق تحصيله؛ فعن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل: ربي الله ثم استقم». قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا» (١).

وقال للحارث بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأله: أخبرني بأمر أعتصم به؟ فقال

(١) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٨).

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «املك هذا» وأشار إلى لسانه^(١)، فبين أن ملاك التقوى الاعتصام بالله تعالى في لزوم الاستقامة، ومن ذلك حفظ اللسان.

وأخبر ﷺ أن صِمَامَ أَمَانِ الْمُؤْمِنِ اعتصامه بكتاب ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: فِي حَدِيثِ الْحَجِّ الطَّوِيلِ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللَّهِ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ينزل القلب منزل الاعتصام، وهو نوعان: اعتصام بالله واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعالٌ من العِصْمَةِ، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُمِّيت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها. ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من

(١) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد، المعجم الكبير (٣/ ٢٩٥) (٣٣٤٨، ٣٣٤٩)، وانظر الترغيب والترهيب للمنزدي (٣/ ٥٢٧) ويتقوى بشواهد عند أحمد (٥/ ٢٩٥)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤).

(٢) مسلم (١٢١٨).

الهلكة، فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

والاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلزم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن، وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى. وفي الموطأ^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل. وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه.

(١) الموطأ (٢/ ٩٩٠) وصححه الألباني وأصله في مسلم (١٧١٥).

فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قَدَرُهُ بِقَدَرِهِ، وإِرَادَتُهُ بِإِرَادَتِهِ، ويعيده به منه»^(١).

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي آيَةِ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ: «قوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أي: بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام، المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿ءَامِنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوباً إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعاً، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق،

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٠ - ٤٥٥) مختصراً.

وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد»^(١). وقال: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية»^(٢).

«ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت في دفع شره إلا بأن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ﴾ أي: اعتصمت عند ابتداء الرسالة ﴿بِرَبِّي﴾ ورغبهم في الاعتصام به وثبتهم بقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أي: المحسن إلينا أجمعين، وأرسلني لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا ﴿مَنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره ﴿لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] من ربه له وهو يعلم أنه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده، فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه.

وبالأميرين يقدم الإنسان على اتقاء الناس، لأن المتكبر القاسي القلب قد يحمله طبعه عن إيذاء الناس، إلا أنه إذا كان مقررًا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له عن الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل له الإيمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعياً له إلى الإيذاء»^(٣).

وقال أبو بكر الوراق: «علامات الاعتصام ثلاثة: قطع القلب عن معونة

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٩٧١).

(٣) انظر: السراج المنير (٣/ ٣٨٣).

المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله» (١).

وعن الإمام الزهري أنه قال: «الاعتصام بالسنة نجاة» (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]
«الاعتصام هو التمسك، ولا يتأتى إلا في علو، فيقال: اعتصمت بحبل الإيمان،
لأن للإنسان ثقلًا ذاتيًا، وهذا الثقل الذاتي إن لم يرفعه سواه؛ فإنه يقع بالإنسان.
وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقًا في الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من
يدفعه إلى أسفل، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض. فمن يعتصم بالله
ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهوي والسقوط.

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تلي علينا من الآيات، وما سنّه
لنا رسول الله ﷺ. إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله.

وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري، لأنهم كانوا
منغمسين في حمأة الجاهلية، فلا بد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء
لهم، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. ولم يقبض الحقُّ رسولَه إلا
بعد أن أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا. قال الرسول
ﷺ: «تركتم فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» (٣).

(١) تفسير السلمي (١/ ١١٤).

(٢) تفسير السمعاني (٣/ ٤٦٠).

(٣) الحاكم (٣١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٦٦) المشكاة
١٨٦، الصحيحة (١٧٦١).

هكذا نرى أن وجود آيات الله وسنة رسول الله هي العاصم الذي يهدي إلى صراط مستقيم. والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين؛ فالذي يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى، وكل ما يدل إنساناً على الموصل للغاية اسمه هدى»^(١).

ومن تدبر حديث ابن عباس المشهور وعمل به حاز الاعتصام، وقطف ثمراته، ونال على حسب تحقيقه درجاته، فهو حديث جامع، وكلام حافل بكل معاني المنعة والحفظ والعصمة، ووصية مانعة لمن حققها، ووعد إلهي لمن التزمه، فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٢).

«ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى ملك الملوك، ليس شأنه شأن الملوك، الذين يأخذهم السفه، ويميل بهم التيه، فلا يرقون لمملوك، ولا يعطفون عليه، وإن بالغ في التضرع والاستغاثة، لذلك لجأ كثير من رعية الملوك وأهل مملكتهم إلى الأمراء، فتوسلوا بهم عند هؤلاء الملوك، وتمسكوا بأهدابهم، ولاذوا

(١) تفسير الشعراوي (١/ ١١١٠).

(٢) الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

بحماهم ليميلوا إليهم، ويشملوهم بعطفهم، ويعفوا عن خطاياهم، تحقيقاً لرغبة هؤلاء الشفعاء، أو وجاهة أولئك الأمراء والعظماء، بل هو في منتهى الكرم والرحمة، لا ينسى أحداً، ولا يغفل عن أحد، شفيع شفيح، أو لم يشفع، وليس له مجلس كمجالس الملوك والسلاطين.

بل إن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فمن أقبل عليه بقلبه أقبل عليه بعطفه، ووجده تجاه نفسه، ليس بينه وبين ربه حجاب إلا الغفلة والجهالة، فمن بُعد عنه بعد بغفلته، ومن حُرِمَ رحمته حرم بجهالته ومعصيته، وهو أقرب من كل قريب.

ألا يعرف من دعا شيخاً أو نبياً، وناداهما لنصرته ليقرباه إلى الله زلفى؛ أن الشيخ والنبىَّ بعيدان عنه، والله قريب منه، ومثله مثل رجل جالس وحده عند الملك، وقد أقبل عليه الملك يسمع طلبه، وما يبيديه من حاجة أو رغبة، فانصرف هذا الرجل الجاهل عن الملك، وبدأ ينادي أميراً أو وزيراً، وهما بعيدان، وسألها أن يُبلِغا حاجته إلى هذا الملك العظيم!

فهو لا يخلو عن حالين: إما أنه أعمى، وإما أنه مجنون.

وقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن العبد إذا سنحت له حاجة اضطرتة إلى السؤال فليسأل الله، وأنه إذا كان في حاجة إلى إعانة أو إغاثة فليستعن بالله، وأنه قد رفعت الأقلام، وجفت الصحف، فلا ماحي لما أثبتته الله، ولا مثبت لما محاه الله، وأن القضاء واقع، والأمر محتوم، وإن اجتمع الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم على أن ينفعوا أحداً أو يضرّوه؛ لم يجاوز ذلك قدر الله.

والمؤمن الموحد رابط الجأش ناعم البال، وضعيف العقيدة مشتت الفكر

موزع النفس، فمن المشاهد أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء واستحوذ عليه، أو أملت به ملمة فلم تنفرج؛ تشتت فكره، وذهب في طلب الغوث كل مذهب، وهام في كل واد، وقد تسول له نفسه أن يستصرخ النبي الفلاني، وقد تزين له أن ينادي فلاناً من الأئمة، وقد يجول بخاطره أن ينذر لفلان من المشايخ، وكذا من الشهداء، أو يخضع لجنية فلانية، أو يرجع إلى المنجم الفلاني، أو الرمال الفلاني، وقد تحدثه نفسه بأن يراجع سادناً، أو إماماً من أئمة المساجد الذين اتخذوا هذه الأمور حرفة، فيطلب منه أن يبحث عن الفأل في كتاب!

ومن هام في كل واد، واتبع كل ناعق؛ صرف الله عنه عنايته، وأخرجه من عباده الصادقين، وأخطأ طريق التربية والهداية الربانية، وظل يهيم في هذه الأودية، ويتيه في مهامه الأوهام والأحلام إلى أن يتلف ويهلك، فمنهم من تمذهب بمذهب الدهريين، ومنهم من سلك مسلك الملحدين، ومنهم من دخل في غمار المشركين، ومنهم من ابتلي بالسفسطة.

وأما من توكل على الله ولم تتشعب به المذاهب وفقه الله، وفتح الله عليه طريق الهداية، وهدى قلبه، فأذاقه حلاوة الإيمان، وغشيته غاشية من السكينة، ورزق من اجتماع الخاطر، ورباطة الجأش، وبرد اليقين، وهدوء النفس ما لا سبيل إليه لمن تشتت فكره، وتفرق هواه.

ثم إنه لا يخطئه ما قُدِّرَ له وقُسم، ولكن ضعيف العقيدة متشتت البال، يعاني الحزن والقلق من غير جدوى، والمؤمن المتوكل الموحد ينعم بالهدوء والطمأنينة والسكينة.

ومعنى ذلك: أن الله عز وجل وعلا لا يقاس على ملوك الدنيا، فإنهم يباشرون الأمور الخطيرة ويتولونها بأنفسهم، أما الأمور التافهة فيكلونها إلى الخدم والموظفين، فيلجأ الناس إليهم في هذه الأمور التي ليست ذات خطر وشأن، وليس الأمر كذلك فيما يختص بالله تعالى، فإنه هو القادر المطلق الذي يقدر على أن يصلح ما دقَّ وجلَّ من الأمور، وإن كانت في عددها وانتشارها كنجوم السماء، ورمال الدهناء، وليس لأحد تصرف في مملكته، فيحب أن يطلب منه الأمر التافه كما يحب أن يطلب منه الأمر الجليل والعطاء الجزيل، لأن أحداً لا يملك شيئاً سواء الصغير منه والكبير، والدقيق والجليل»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] «أي: متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتها أضرم من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله»^(٢).

والمعتصم بالله الملازم للاعتصام يمدّه الله بقوة الإيمان وإصابة الحق، فيريد الحق ويحرص عليه، وهذا من أعظم أسباب معرفة الحق واتضاعه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وفي الحديث الصحيح: «إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»^(٣) فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين

(١) رسالة التوحيد الدهلوي (١/ ٩٣ - ٩٩) مختصراً، وهي كما ترى نفيسةً توحيديةً عزيزة.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٠).

(٣) بنحوه في مسلم (٧٥٥٢).

لغيره؛ ولا سيما في الفتن.. وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور» (١).

ومن فضائل تحقيق الاعتصام بالله تعالى:

١- اختصار الطريق على نفسك، فلا تتشعب بك السبل ومردك إلى الله بكل أحوالك، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مُتِمَّ أَوْ قَتَلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨] «فالخلق إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟» (٢).

٢- تكفير الخطايا مهما بلغت. فحتى المنافق إذا تاب واعتصم بالله حُطت عنه ذنوبه برحمة الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿ [النساء: ١٤٥-١٤٧] «ينجبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر

(١) الفتاوى (٢٠/٤٥-٤٦).

(٢) تفسير السعدي (١/١٥٤).

الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يُشعر به ولا يُحسّ. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه؛ فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن. ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلّموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرا

عظيما، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابا أو عقابا، وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه؛ رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئا لله أعطاه الله خيرا منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وألا يستعين بنعمه على معاصيه^(١). فأكرم بالاعتصام ملجأ وملاذا، وأمنة وسلاما، ونعمة ونوالا. والحمد لله رب العالمين.



(١) تفسير السعدي (١/ ٢١١-٢١٢).

وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة

لقد أمر الله تعالى الأمة بالاجتماع واتحاد الكلمة وجمع الصف، على أن يكون أساس هذا الاجتماع الاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق والتباغض والتهاجر والاختلاف، وبيّن خطورة ذلك على الأمة في الدارين. ولتحقيق ذلك المقصد الأسمى والغاية العظمى أمرنا تعالى بالتحاكم إلى كتابه في الأصول والفروع، ونهانا عن كل سبب يؤدي إلى التفرق والتبدّد.

فالطريق الفرد الصحيح إلى النجاة ثمّ الفلاح هو التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإنهما حصن حصين وحرز متين لمن وفقه الله تعالى من أصفياه ومكرميه. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو عهد الله، وهو القرآن كما قال المفسرون، إذ العهد الذي أخذه الله على المسلمين هو الاعتصام بالقرآن والسنة. فقد أمر الله تعالى بالجماعة ونهى عن التفرق والاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وهذا شامل لأصول الدين وفروعه الظاهرة والباطنة.

وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة في وجوب التمسك بالكتاب والسنة، منها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ اللَّهُ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطَ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلَاهِ اللَّهُ

أمركم. ويسخط لكم ثلاثاً، قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»^(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وستي»^(٢).

وقال ﷺ: «تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٣).

وجاء في حديث العرباض بن سارية قوله ﷺ: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعُضُّوا عليها بالنواجذ»^(٤).

واعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ فإنه يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا يحل لأحد مخالفته، ولا مندوحة لأحدهم في الإعراض عنه مهما اكتنفته شدائد شهوات الغفلات. ونص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، فهو المبلغ عن الله المرسل منه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له.

(١) صحيح مسلم (١٧١٥).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٨٩٩ / ٢).

(٣) سنن ابن ماجه (١٦ / ١) المقدمة، وصحيح ابن ماجه للألباني (٦ / ١).

(٤) سنن أبي داود (١٣ / ٥) والترمذي مع تحفة الأحوذى (٤٣٨ / ٧).

ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] أي تتركوا طاعته وامتنال أو امره وترك زواجه.

وقد أمر الله تعالى بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من كتابه الكريم، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنزَعْنُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال الحافظ ابن كثير: «أطيعوا الله، أي اتبعوا كتابه، وأطيعوا الرسول أي خذوا سنته، وأولي الأمر منكم، أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله». وقوله: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] أي ردوا الفصل في الخصومات والجهالات إلى الكتاب والسنة، ومن لا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا اليوم الآخر. وقوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [النساء: ٥٩]، أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. أي:

وأحسن عاقبة ومآلا كما قال السدي وقال مجاهد: «وأحسن جزاء، وهو قريب»^(١) وفي كتاب الله آيات كثيرة وردت في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل الأمور.

وقد بشر النبي ﷺ المتمسكين بسنته من أمته بأعظم بشارة ونيل أشرف مقصد يطلبه كل مؤمن ويسعى إلى تحقيقه من كان في قلبه أدنى مسكة من إيمان وعقل ألا وهو الفوز بدخول الجنة التي هي عنوان لرضا الملك العلام تبارك وتعالى وقبوله لوليّه الصالح الذي خرج من امتحان الدنيا بالفوز الحقيقي، نسأل الله الكريم من فضله العميم الجميل الجزيل.

وقد جاءت هذه البشرى في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»^(٢) وأي إباء ورفض للسنّة أعظم من مخالفة أمره ﷺ؟ وذلك بالإحداث والابتداع في الدين، والإيضاع في تنن المعصية ونجس الرذيلة وحفرة النار.

ومعلوم أن الفرقة الناجية هي التي كانت على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهي الجماعة. قال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٨٠).

وسنة».

والمؤمن الناصح لنفسه شديد الحذر من البدع والمحدثات، وقد تضافرت الدلائل وتظاهرت النداءات من الوحي المنزل في الكتاب والسنة في التحذير من البدع والتشنيع على أهلها، لأنها - وإن لم يقصد أهلها - إشعارٌ بعدم الاكتفاء بالوحي الإلهي، وإلماحٌ بعدم إكمال الدين إما بنقصه في ذاته، أو في قصور البلاغ عنه، وكفى بتصورِ شناعة ذلك كفرًا بالبدع وأهل البدع! لا جرم؛ فشرُّ الأمور المحدثات البدائع.

ماهية البدعة:

البدعة هي: ما خالف الكتاب والسنة، أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات المحدثّة في الدين.

والبدع والمحدثات في الدين لها خطورة عظيمة، وآثار سيئة على الفرد والمجتمع، بل وعلى الدين كله أصوله وفروعه.

فالبدع: إحداث في الدين، وقول على الله بغير علم، وشرع في الدين بما لم يأذن به الله تعالى، والبدعة سبب في عدم قبول العمل، وفي تفريق الأمة، والمبتدع يحمل وزره ووزر من تبعه في بدعته، كما أن البدعة سبب في الحرمان من الشرب من حوض النبي ﷺ، فعن سهل بن سعد الأنصاري، وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «أنا فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لا يظمأ أبداً. ليردّن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول إنهم من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فأقول: سحقاً لمن غيّر بعدي»^(١).

أسباب البدع:

وللبدع أسباب كثيرة أعظمها البعد عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح، الأمر الذي يؤدي إلى الجهل بمصادر التشريع.

ومن أسباب انتشار البدع: التعلق بالشبهات والاعتماد على العقل المجرد وجلساء السوء، والاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي يستدل بها المبتدعة على بدعهم، والتشبه بالكفار، وتقليد أهل الضلال ونحو ذلك من الأسباب الخطيرة.

قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «هنيئاً لمن وفقه الله للإخلاص له في عبادته واتباع سنة نبيه ﷺ ولم يخالطها ببدعة، إذا فليشر بتقبل الله عز وجل لطاعته وإدخاله إياه في جنته. جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

واعلم أن مرجع البدع المشار إليها إلى أمور:

الأول: أحاديث ضعيفة لا يجوز الاحتجاج بها ولا نسبتها إلى النبي ﷺ، ومثل هذا لا يجوز العمل به عندنا على ما بينته في مقدمة «صفة صلاة النبي ﷺ» وهو مذهب جماعة من أهل العلم كابن تيمية وغيره.

الثاني: أحاديث موضوعة أو لا أصل لها، خفي أمرها على بعض الفقهاء

(١) صحيح البخاري (٦٥٨٣) (٦٥٨٤) وصحيح مسلم (٢٢٩٠) والفرط: الذي يسبق إلى الماء. وسحقاً: أي: بعداً.

فبنوا عليها أحكاماً هي من صميم البدع ومحدثات الأمور.

الثالث: اجتهادات واستحسنات صدرت من بعض الفقهاء خاصة المتأخرين منهم لم يدعموها بأي دليل شرعي، بل ساقوها مساق المسلمات من الأمور حتى صارت سنناً تتبع! ولا يخفى على المتبصر في دينه أن ذلك مما لا يسوغ اتباعه، إذ لا شرع إلا ما شرعه الله تعالى، وحسب المستحسن إن كان مجتهداً أن يجوز له هو العمل بما استحسنته وأن لا يؤاخذ الله به. أما أن يتخذ الناس ذلك شريعة وسنة فلا ثم لا. فكيف وبعضها مخالف للسنة العملية؟!

الرابع: عادات وخرافات لا يدل عليها الشرع ولا يشهد لها عقل، وإن عمل بها بعض الجهال واتخذوها شرعة لهم، ولم يعدموا من يؤيدهم ولو في بعض ذلك ممن يدعي أنه من أهل العلم ويتزيّاً بزيهم.

ثم ليعلم أن هذه البدع ليست خطورتها في نسبة واحدة، بل هي على درجات، فبعضها شرك وكفر صريح، وبعضها دون ذلك، ولكن يجب أن يعلم أن أصغر بدعة يأتي الرجل بها في الدين هي محرمة بعد تبين كونها بدعة، فليس في البدع كما يتوهم بعضهم ما وهو في رتبة المكروه فقط، كيف ورسول الله ﷺ يقول: «كل بدعة ضلالة»^(١).

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في صحيحه (٨٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه وعند أبي داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرباض رضي الله عنه مرفوعاً: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرناؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢)

وقد حقق هذا أتم تحقيق الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم «الاعتصام»^(١) ولذلك فأمر البدعة خطير جداً، لا يزال أكثر الناس في غفلة

وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(١) مع التنبيه لوقوعه - عفا الله عنا وعنه - في بعض بدع الأشاعرة في باب الصفات والقدر والإيمان وغيرها.

ولم ينفرد الشاطبي رحمه الله تعالى في هذه الازدواجية المؤسفة - أي شدة الاتباع في العمليات والمسلوكيات مع الوقوع في بدع العلميات والاعتقادات - فقد وقع فيها غيره كالإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ حين عطل بتأويل (تحريف) بعض صفات الرحمن، وأبي بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللهُ صاحب كتاب (البدع والحوادث) فقد وافق الأشاعرة في أصولهم، وأبي شامة الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ صاحب كتاب (الباعث في إنكار البدع والحوادث) الذي وافق الأشاعرة، وغيرهم كثير من أهل العلم والفضل ممن أخطأوا في بعض العلميات العقدية، والحمد لله على كل حال.

والذي نرجوه لهم من الله تعالى أن يتجاوز عنهم أغلاطهم، إذ لم يُوفَّقوا لمن ينبِّههم لذلك الانحراف العلمي والله المستعان، ومن استفرغ وسعه في طلب الحق من بابه لن يُعَدَم توفيقاً للصواب وعفواً عن الخطأ بإذن الرحيم العليم سبحانه، والله في ذلك أعظم الحكم الربانية تبارك وتعالى، ولعل من أسباب ذلك أن المتكلمين المتقدمين لم يبسطوا القول في استحسان البدع العملية، بل قد أنكروا بعضهم.

والقاعدة عند خطأ العالم أنه يُعْتَذَرُ له وينبّه على خطئه ولا يتابع على قوله، ولا عصمة لمن دون رسول الله ﷺ. قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون».

عنه» (١).

هذا وإن البدعة تشويه للدين، وتغيير لمعالمه، وخطرها عظيم على المسلمين في أمر دينهم ودنياهم.

ومن تأمل الكتاب والسنة وجد أن البدع في الدين محرمة ومردودة على أصحابها من غير فرق بين بدعة وأخرى، وإن كانت تتفاوت درجات التحريم بحسب نوعية البدعة.

ومن المعلوم أن النهي عن البدع قد ورد على وجه واحد في قول النبي ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» (٢). وقوله

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يقول العالم برأيه ثم يجد من هو أعلم منه برسول الله ﷺ فيترك قوله ذلك ثم تمضي الأتباع» وانظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١٣٣/٢) وما بعدها.

أما التشغيب على أهل العلم بتتبع عثراتهم وسقطاتهم والاشتغال بنشرها وإشاعتها بقصد العلو فليس بسبيل سنة، بخلاف نشر ما خشي منه فتنة الناس فهذه طريقة رسولية وجادة سلفية، وما كل أحد يُحسن تمييز السيلين، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد بسطت ذلك في كتاب «ولا تفرقوا».

(١) مناسك الحج والعمرة للألباني (٤٤ - ٤٧).

(٢) أبو داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرياض رضي الله عنه مرفوعاً، وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرناؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

عَنْ اللَّهِ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).

فدل الحديثان على أن كل محدث في الدين فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة مردودة، ومعنى ذلك أن البدع في العبادات والاعتقادات محرمة، ولكن التحريم يتفاوت بحسب نوع البدعة، فمنها ما هو كفر صراح كالطواف بالقبور تقريباً إلى أصحابها، وتقديم الذبائح والندور لها، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم، ومنها ما هو من وسائل الشرك كالبناء على القبور، والصلاة والدعاء عندها، ومنها ما هو ضلال ومعصية كإقامة الأعياد التي لم ترد في الشرع، والأذكار المبتدعة والتبتل والصيام قائماً في الشمس ونحو ذلك من العَنَتِ الخذلان، وبالله التوفيق والعصمة، وإليه المبدأ والمعاد، وإليه.. وإلا لا تُشدُّ الركائب.



(١) صحيح البخاري (٢٦٩٧) وصحيح مسلم (١٧١٨).

مصدر التلقي الصافي التليد

قال أبو داود رَحِمَهُ اللهُ في حائثه المشهورة:

وَلَا تُكْ بَدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ	تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ الْهُدَى
أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُو وَتَرْبُحُ	وَدُنْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَنِ الَّتِي
فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ أَزْكَى وَأَشْرَحُ	وَدَعُ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ
فَتَطْعَنَ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَتَقْدَحُ	وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلْهَوْا بِدِينِهِمْ
فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ تَبَيْتُ وَتُصْبِحُ	إِذَا مَا اعْتَقَدْتَ الدَّهْرَ يَا صَاحَ هَذِهِ

قال شيخنا العلامة: عبد المحسن العباد حفظه الله: «هذان البيتان العظيمان فيهما الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة والتحذير من البدع، وقد بدأ بهما قبل بيان الاعتقاد ومسائله على طريقة أهل السنة في كتب الاعتقاد.

وقد جرت عادتهم في الغالب على البدء بهذا الأمر، وهذا منهم تحديدٌ لمصدر التلقي في أصول الدين وفروعه ليكون بناء المعتقد وقيامه على أسس سليمة وأصول صحيحة قويمه، وعندما يُحدد العبد مصدره في التلقي، ويكون مصدره من المنبع الأساس وهو الكتاب والسنة، فإنه يرى ما سواه من المنابع كدراً، فلا يأخذ منها شيئاً ولا يجعلها مصدراً له في دينه وعقيدته، وإنما يتلقى من المنبع الصافي والمعين النقي الذي لا شائبة فيه ولا كدر، فيسلم له بذلك معتقده ويصح إيمانه.

وأهل السنة مصدرهم في التلقي هو: الكتاب والسنة، بهما يأخذون، وعنهما يتلقون، وعليهما يُعَوَّلون، لا يحيدون عنها قيد أنملة، بل هم كما قال الأوزاعي:

«ندور مع الكتاب والسنة حيث دارا» لا يُحدثون شيئاً من قبل أنفسهم.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ليس الاعتقاد لي ولا لمن هم أكبر مني، الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ». فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق والتسليم.

ولذا نجد كتب أهل السنة تبدأ بتحديد المصدر قبل بسط الاعتقاد، وهذا نستفيده مما كان يداوم عليه رسول الله ﷺ في خطبة الجمعة، فكان دائماً يقول في مقدمتها: «أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها»^(١) وتكراره ﷺ لذلك كل جمعة فيه تأكيد على أهمية العناية بهذا المصدر وضرورة رعايته والمحافظة عليه»^(٢).



(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود المسماة بالحائية (١/ ٧-٩).

الاعتصام بكتاب الله تعالى

إنَّ من الاعتصام بكتاب الله تعالى تعظيمه، وإجلاله، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، بل على الدوام عند الاقتدار والسعة، إن لم يكن بالتلاوة والتدبر فبالعمل والحياة، وحفظه في الصدور، وتعظيمه في السطور، والعمل بهداه، والرقية والاستشفاء به، واتخاذه قائداً للهدى والنور.

قال سبحانه في المعتصمين بكتابه المستمسكين به: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] «والإمساك والتمسيك والتمسك: الاعتصام والتعلق بشيء»^(١).

وتدبر وصف الله تعالى لهم بأنهم يُمسكون -بتشديد الياء- لما في دلالة ذلك التعبير من زيادة الاستمساك والاعتصام، فزيادة المبنى زيادة معنى، ثم تدبر وعده الرباني لهم بحفظ أجرهم لما حفظوا عهده المنزل وأدّوا أمانته العظيمة.

واعلم - وفقك الله تعالى - أن رأس العلم وينبوعه كتاب الله تعالى، فمن تدبره بآلة جيدة، ونية قوية، وقلب صادق؛ تفجرت في قلبه ينابيع الحكمة المحكّمة، وسالت على فؤاده أودية العلم النافع، وانهمرت على روحه غيوث اللطف الإلهي، وامتألت يمينه بالكرامة الربانية، والله شكور حميد.

هذا، «وبقاء الدين والدنيا في بقاء العلم، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم. قال ابن شهاب الزهري:

(١) تفسير النسفي (١١٩/٢).

«الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فتعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله».

والعلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشريف شرفاً، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك، كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. فقال: من ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى! فقال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(١).

وقال أبو العالية: «كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش، فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزت بي قريش ففطن لهم ابن عباس فقال: كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرة».

وقال إبراهيم الحربي: «كان عطاء ابن أبي رباح عبداً أسود لامرأة من مكة، وكان أنفه كأنه كذا، قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم. ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما، فقال: يا بني اطلبا العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

قال الحربي: «كان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنه، وكان منكبه خارجين كأنهما زجان»^(١) فقالت أمه: يا بني لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فولي قضاء مكة عشرين سنة. قال: وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يردد حتى يقوم». هذا مع التنبيه إلى ضرورة إخلاص النية في طلب العلم لله، فكل شيء لغير وجه الله يضمحل، وطلب العلم عبادة وصرفها لغير الله مورد هلكة ومدحضة خسران، وإرادة الدنيا بالدين حفرة جحيم، أما الدنيا فتبغ للآخرة. ومن أراد الدنيا بالعلم فجعله خير له من علم لا يقربه لربه!

وقال أبي الخناجر: «كنا في مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه، فمر أمير المؤمنين فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس أوف، فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا الملك».

وقال الحسن بن فارس: «سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألد من الرياسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته..»^(٢).

(١) الزج: طرف السهم.

(٢) وذكر قصة لا تخلو من تكاثر ومراء! - وهما آفة العلم، وكذا العجب والرياء في خصال قلبية وسموم خفية يدسها الرجيم في فؤاد طالب العلم مع العلم فتزاحمه، وتذهب رونقه، وتبطل طهارته، وربما أفسدته، وكرب علم الجهل خير منه عاقبة! وإن كان المرء لا يسلم

وقال المزني: «سمعت الشافعي يقول: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن تعلم اللغة رُقّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وقال سفيان الثوري: «من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم. وقال النضر بن شميل: من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله، ويكون بين الله وبين عباده».

«وابتنى معاوية بالأبطح مجلساً فجلس عليه ومعه ابنه قرظة، فإذا هو بجماعة على رحال لهم، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَا جَدًّا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر، قال: خلوا له الطريق. ثم إذا هو

بجماعة فيهم غلام يتغنى:

من عشرة بعد عشرة يقوم منهما خيراً منه قبلهما، وله في أبيه الطيّب التّوّاب أسوة، وهذا حال التّوّابين فكلنا ذوو خطأ وضعف وهفوات وسقطات، والتقيُّ ممّا محفوظ بحفظ الله الأعلى، فما إن يمَسَّ قلبه طائفُ شيطانٍ تذكّر وارعوى وتاب وأناب فأبصر واهتدى. وتتمام القصة: «.. ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي. فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليف حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنبأنا سليمان بن أيوب ومني سمع أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو إسنادك، فإنك تروي عن أبي خليفة عني! فخرج الجعابي وغلبه الطبراني.

قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لي، وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرح الذي فرح الطبراني لأجل الحديث أو كما قال».

بينما يذكُرُنِي أبصِرُنِي عند قيد الميل يسعى بي الأغر
قلن: تعرفن الفتى؟ قلن: نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة، قال: خلوا له الطريق فليذهب.
قال: ثم إذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يُسأل فيقال له: رميتُ قبل أن أحلق،
وحلقت قبل أن أرمي - في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج - فقال: من
هذا؟ قالوا: عبد الله بن عمر، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال: هذا والله الشرف،
هذا والله شرف الدنيا والآخرة!

وقال أبو جعفر الطحاوي: «كنت عند أحمد بن أبي عمران، فمرّ بنا رجل
من بني الدنيا، فنظرت إليه وشُغلت به عما كنتُ فيه من المذاكرة. فقال لي: كأني
بك قد فكّرت فيما أُعطي هذا الرجل من الدنيا؟ قلت له: نعم، قال: هل أدلك
على خلّة؟ هل لك أن يُحوّل الله إليك ما عنده من المال، ويحول إليه ما عندك
من العلم، فتعيش أنت غنيًا جاهلاً، ويعيش هو عالمًا فقيرًا؟! فقلتُ: ما أختارُ
أن يحوّل الله ما عندي من العلم إلى ما عنده، فالعلم غني بلا مال، وعزّ بلا
عشيرة، وسلطان بلا رجال»^(١). وفي ذلك قيل:

العلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرين إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يُجرمه عما قليل فيلقى الذلّ والحربا

(١) كيف وهما الآن تحت الثرى، ولا أنيس سوى العمل الصالح والعلم النافع؟! فما أعظمها
من موعظة، وما أنفعها من وصية، وتلك بركة العلماء الربانيين، أكثرهم الله في الأمة،
وشدّ أزرها بهم، وجزاها عنها خير ما جزى المصلحين المحسنين.

وجامع العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذر منه الفوتَ والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمععه لا تعدلنَّ به دُرّاً ولا ذهباً»^(١)
وبالجملة فمن رام سعادة الدنيا وفلاح الآخرة فعليه بعلم الوحي
والاعتصام به فهو الموصل لعناية ربه جل وعز وعونه وكرامته وحبّه رضوانه.



(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٤ - ١٩١) بتصرف واختصار وزيادات. ونَعُشُ الدين:
بقاؤه ورفعته شأنه. ومعنى «يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ»: هو الحبل الذي يُشَدُّ في وَسْطِ
العَرَّاقِي ثم يُثْنَى، ثم يَثْلَثُ؛ ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير. ويضرب
مثلاً لمن يبالغ فيما يلي من الأمر.

الاعتصام بالسنة وسبيل السلف الصالح

من تأمل عجائب أحوال الناس، وغرائب اختياراتهم، وسرعة تقلبهم في محن الدنيا وفتنها، ومسارعتهم لركوب ما مآله هلكتهم؛ أيقن أن الأمر في الغاية القصوى من الخطر، وأنه لا عاصم من أمر الله عز وجل إلا من رحم، فموج الفتن بشبهاتها وشهواتها يحول بين المرء وعقله وعلمه وقلبه وإرادته، فيصبح العاقل سفيهاً، ويضحى الحليم حيراناً، ويمسي العالم على خطرٍ، والعابد على حَرَضٍ، فما بال الجاهل، فاللهم رحماك رحماك!

قال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «كان علماءنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة»^(١). وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»^(٢).

وهذا التشبيه المالكى في الغاية من المطابقة والجودة، ولا غرو؛ فالطيب من معدنه لا يُستغرب، فهو إمام دار الهجرة، معدود من نوادر معادن الحكمة، وذخائر العلم، وحصون الديانة. وتظهر براعة التشبيه لمن تدبر حال الناس في أزمنة الجهل وغربة الدين واستطالة الفسقة، فسفينة السنة علماً وعملاً ونيةً واتباعاً ودعوةً وجهاداً هي سفينة النجاة والفلاح لمن وفقه الله لركوبها والاعتصام بها.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٧).

(٢) الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٠٩)، وأبو إسماعيل الأنصاري الهروي في «ذم الكلام» (٨٨٥).

قال تقي الدين: «وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج: هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله. والرسول: هو الدليل الهادي الخريث في هذا الصراط كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرَ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال عبد الله بن مسعود خط رسول الله ﷺ خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»^(١).

وإذا تأمل العاقل - الذي يرجو لقاء الله - هذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ثم المعتزلة ثم الجهمية والرافضة ومن أقرب منهم إلى السنة من

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ٩٥/١٠ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسند الدارمي ٢٨٥/١ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و ١٧): حسن صحيح.

أهل الكلام مثل الكرامية والكلابية والأشعرية وغيرهم، وأن كلاً منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدّعي أن سبيله هو الصواب. وَجَدَ أنهم المراد بهذا المثال الذي ضربه المعصوم الذي لا يتكلم عن الهوى. ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]»^(١).

فلا مندوحة للمؤمن عن الاعتصام بالكتاب والسنة وعلى قدر اعتصامه تكون كفايته بإذن الله. «وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) كما ترجم عليه البخاري والبخاري وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين.

إذا عُرِفَ هذا فمعلوم أنها يهدي الله به الضالين ويرشد به الغالوين ويتوب به على العاصين لا بد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ﷺ لا يكفي في ذلك؛ لكان دين الرسول ناقصاً محتاجاً تامة!

(١) مجموع الفتاوى (٤ / ٥٧) وهو في «الانتصار لأهل الأثر» المطبوع باسم «نقض المنطق» ٨٣/١. ولا يقصد المصنف الحصر، بل هو الدخول الأولي في تلك السبل الضالة، لأنها كبريات البدع التي استقرت بأهلها، واستطار في الناس إحداثهم، واستطالوا في ضلالهم، فهم رؤوس الطرق والسبل المخالفة للسنة فيما خالفوها فيه، فمن سلك سبيلهم فهو منهم، سواء في موافقتهم في نفس بدعتهم، أو في طريقتها وبنائها وتقعيد أشباهها في ابتداء المخالفة والسير في الإحداث، ولا يمنع دخول غيرهم من كل مُحَدِّثٍ ضال جهول على تطاول الزمان، والحمد لله رب العالمين.

وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب. والأعمال الفاسدة نهى الله عنها. والعمل إذ اشتمل على مصلحة ومفسدة فإن الشارع حكيم. فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه؛ بل نهى عنه كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله ولم يشرعه الله ورسوله؛ فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه. وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع؛ فإنه ﷺ حكيم لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

لذلك فمن قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر وزعم أنه لا يمكنه ذلك إلا بما من طريق بدعي فهو جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية. فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق

الشرعية التي ليس فيها بدعة» (١).

إذا تبين ذلك فالسعيد من اعتصم بموارد العصمة الحقيقية الباقية دون الزائفة الفانية، فمن رام الثبات والهدى فليعتصم برسالة سيد الثقلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، «فالسعادة والهدى في متابعة الرسول ﷺ والضلال والشقاء في مخالفته، وكل خير في الوجود إما عام وإما خاص فمنشأه من جهة الرسول، وكل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وسعادة العباد في معاشهم ومعادهم مقرون باتباع الرسالة.

والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟!

والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢٣ - ٦٢٨) باختصار وتصرف.

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

وكذلك يضرب الله الأمثال للوحى الذي أنزله حياة للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

أصول السعادة الثلاثة قد حواها القرآن العظيم:

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة

عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه.

وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، وشقي شقاوة لا سعادة معها أبداً.

فلا فلاح إلا باتباع الرسول، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: لا مفلح إلا هم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويسيرون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة بالهدى والفلاح، فعلم بذلك إن الهدى والفلاح دائر حول الرسالة وجوداً وعدماً، وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء، وبُعث به جميع الرسل.

ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قرده

وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذ به أنواع العقوبات، وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول، وإعراضهم عما جاؤوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم، ولهذا أبقي الله سبحانه آثار المكذبين لنتعبر بها ونتعظ لئلا نفعل كما فعلوا فيصينا ما أصابهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [٣٤] وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ [العنكبوت: ٣٤ - ٣٥] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ [١٣٦] وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿ [١٣٧] وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ [الصفات: ١٣٦ - ١٣٨] أي تمرّون عليهم نهارًا بالصباح وبالليل ثم قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصفات: ١٣٨] وقال تعالى في مدائن قوم لوط: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [٧٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿ [٧٥] وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿ [الحجر: ٧٤ - ٧٦] يعني مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩].

وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة أتباع المرسلين، ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ [الشعراء: ٨ - ٩] فختم القصة باسمين من

أسماؤه تقتضيها تلك الصفة وهما العزيز والرحيم، فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجي رسله وأتباعهم برحمته.

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودينه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجْم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والتصدق، والإحسان، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرضا بمواقع القدر به، والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب^(١) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وانتفعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٢).

فالحمد لله الذي أرسل إلينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آيات الله ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين، وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(١) الأجادب: أي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً. النهاية (١/٢٤٢).

(٢) البخاري ١/٣٠ (٧٩) ومسلم ٦٣/٧ (٢٢٨٢).

والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة!

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»^(١) وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(٢) وهذا المقت كان لعدم هدايتهم

(١) قال الأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٦ / ١٤٥): روى ابن سعد في الطبقات ١ / ١٩٢، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٩) عن طريق وكيع بن الجراح، أخبرنا الأعمش، عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة» وهذا سند صحيح لكنه مرسل، ويعضده حديث أبي هريرة في مسلم (٢٥٩٩) قيل: يا رسول الله - ﷺ - ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة».

(٢) مسلم (١٥٩/٨).

بالرسل، فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ، فبعثه رحمه للعالمين ومَحَجَّةً للسالكين وحُجَّةً على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بأداء حقوقه، وسدَّ إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتَّبَعَهُم من المؤمنين.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا وأذنًا صمًا وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألَّفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، حين حُرِّفَ الكَلِمُ، وبُدِّلَت الشرائع، واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغيِّ، وجعله قسيم الجنة والنار^(١) وفرق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتِّباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته.

وامتحن به الخلائق في قبورهم، فهم في القبور عنه مسؤولون وبه ممتحنون،

(١) أي قُسم الناس بسببه إلى سعداء باتباعه، وأشقياء بمخالفته.

يؤتى العبد في قبره فيقال: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأمنّا به واتبعناه. فيقال له: صدقت، على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم نومة العروس لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه. ثم يُفسح له في قبره، وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيزداد غبطة وسرورًا.

وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري! سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. فيقال له: قد كنا نعلم ذلك، وعلى ذلك حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان^(١).

وقد أمر الله بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعًا من القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر الله إلا ذكر معه، قال بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] قال: «لا أذكرُ إلا ذكرتَ معي»^(٢). وهذا كالتشهد والخطب والأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلا يصح الإسلام إلا بذكره

(١) الترمذي (١٠٧١) وحسنه الألباني.

(٢) أبو يعلى في مسنده، وابن حبان (١٧٧٢) وابن جرير في تفسيره (٢٣٥ / ٣٠) ولا يصح مرفوعًا. سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٣٠ / ٤) والله درّ حسان بن ثابت وهو يقول:

أَعَزُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ	مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ	إِذَا قَالَ فِي الْحَمْسِ الْمُؤَدَّنِ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ	فَذُوا الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

والشهادة له بالرسالة.

وكذلك لا يصح الأذان إلا بذكره والشهادة له، ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له، ولا تصح الخطبة إلا بذكره والشهادة له.

وحذر الله سبحانه وتعالى من العذاب والكفر لمن خالفه قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أي فتنة هي، إنما هي الكفر».

وكذلك ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَحْمِي، وَجُعِلَتِ الذُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي الهالك، فكذلك من أعرض عنه وعما جاء به واطمأن إلى غيره ورضي به بدلاً منه هو هالك أيضاً، فالشقاء والضلال في الإعراض عنه وفي تكذيبه، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه.

(١) أحمد (٥٦٦٧) وصححه أحمد شاكر. وتأمل إنهاء الخبر بنسبة المتشبه لمن تشبه به حمداً وذنماً، وما فيه من الإغراء والتحذير.

فالأقسام ثلاثة: المؤمن به، وهو المتبع له، المحب له، المقدم له على غيره، والمعادي له، والمنابذ له، والمعرض عما جاء به. فالأول هو السعيد، والآخران هما الهالكان»^(١). وبالله التوفيق وإليه المآب.



(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (١٩/ ٩٣ - ١٠٥) باختصار وتصرف.

الاعتصام بالله في زمن غربة الإسلام

اعلم - رحمني الله وإياك - أنه كلما ابتعد الزمن عن عصر النبوة كلما اشتد الضلال، واسودّ الظلام، وعلا القتر، واستحكمت غربة الإسلام، ولكن الله تعالى بلطفه ورحمته وإحسانه لا يزال يستخلص ويصطفي فتاً وأفراداً من أمة نبيه الخاتم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، يقيم بهم دعائم الملة، ويحفظ بجهادهم - علماً وعملاً - أركانه ومبانيه، ويستخلص منهم الأولياء والشهداء، قال رسول الله ﷺ: «بُدىء الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بُدىء فطوبى للغرباء»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يُضِلُّون عند فساد الناس»^(١).

قال الشاطبي رحمه الله: «وجملة المعنى فيه من جهة وصف الغربة ما ظهر بالعيان والمشاهدة في أول الإسلام وآخره، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها، من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة، فحين قام فيهم ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، ونسبوا إليه كل محال، ورموه بأنواع البهتان، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق، وآونة يتهمونه بالسحر، وكرة يقولون: إنه مجنون، كل ذلك دعاء منهم إلى التآسي بهم والموافقة لهم على

(١) الآجري في الغرباء (٥)، والداني في السنن الواردة في الفتن (٨٨٢) وانظر السلسلة الصحيحة (٣٧٢١).

ما يتتحلون، فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم، لأنه خرج عن معتادهم، وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم.

فأبى عليه الصلاة والسلام إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب؛ وأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢] إلى آخر السورة، فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة، ورموه بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه، عاد الوليُّ الحميم عليه كالعذاب الأليم، فأقربهم إليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته، كأبي لهب وغيره، وألصقهم به رحماً؛ كانوا أقسى قلوباً عليه، فأَيُّ غربة توازي هذه الغربة؟!

ومع ذلك فلم يكله الله إلى نفسه، ولا سلطهم على النّيل من أذاه، بل حفظه وعصمه، وتولاه بالرعاية والكلاءة، حتى بلغ رسالة ربه.

ثم ما زالت الشريعة في أثناء نزولها، وعلى توالي تقريرها، تبعد بين أهلها وبين غيرهم، وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا، وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو لها، فيؤوب إليه الواحد بعد الواحد، خوفاً من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الإسلام.

ثم استمرّ تزيدُ الإسلام، واستقام طريقه على مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته؛ وأكثر قرن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إلى أن نبغت فيهم نوايغ الخروج عن السنة، وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج، وهي التي نبه عليها الحديث بقوله: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم» يعني لا يتفقهون فيه، بل يأخذونه على الظاهر: كما بينه حديث ابن عمر، وهذا كله في آخر عهد الصحابة.

ثم لم تزل الفرق تكثر حسبها وعد به الصادق عليه السلام في قوله: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^(١) وفي الحديث الآخر: «لتبْعُن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!»^(٢) وهذا أعم من الأول، فإن الأول عند كثير من أهل العلم خاص بأهل الأهواء، وهذا الثاني عام في المخالفات، ويدل على ذلك من الحديث قوله: «حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم».

وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويحض سؤاله بل سواه عليها، إذ التأسي في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجبلة، وبسببه تقع من المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق الموافقة، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين.

كان الإسلام في أوله وجِدَّتْه مقاومة بل ظاهراً، وأهله غالبون، وسوادهم أعظم الأسود، فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين، فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم أو سلكه ولكنه ابتدع فيه صولة يعظم موقعها، ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون، فصار على استقامة، وجرى على اجتماع واتساق، فالشاذ مقهور مضطهد، إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود؛ وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده، واقتضى سرّ التأسي المطالبة بالموافقة، ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالبت على سواد السنة

(١) أبو داود (٦٩٥٤) والترمذي (٤٦٢) وابن ماجه (١٩٩٣) وقد تقدم.

(٢) البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

البدع والأهواء، فتفرق أكثرهم شيعاً. وهذه سنة الله في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قتلهم، وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالثريب والتعنيف؛ كما كان أولاً يقام على أهل البدعة، طمعاً من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها. على كثرتها. على مخالفة السنة عادة وسمعاً، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة، وتناصبهم العداوة والبغضاء استدعاء إلى موافقتهم، لا يزالون في جهاد ونزاع، ومدافعة وقراع؛ آناء الليل والنهار، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل، ويشبههم الثواب العظيم.

فقد تلخص مما تقدم أن مطالبة المخالف بالموافقة جارٍ مع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان، فمن وافق فهو عند المطالب المصيب على أي حال كان، ومن خالف فهو المخطئ المصاب، ومن وافق فهو المحمود السعيد، ومن خالف فهو المذموم المطرود، ومن وافق فقد سلك سبيل الهداية، ومن خالف فقد تاه في طرق الضلالة والغواية^(١)، وبالله تعالى وحده الاعتصام.



(١) مختصر كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي (١١ - ١٥) اختصار الشيخ علوي السقاف، وقد استفدت من تخرجه وفقه الله تعالى.

ثمرات الاعتصام بالله تعالى

إذا كان فضل الاعتصام بهذه المثابة؛ فلا غرو أن تكون ثمراته طيبة، وأوقاته نافعة، ومخرجاته مباركة، ونهاياته سعيدة، ومن تلك الثمرات:

١- رضا الله تعالى:

فالاعتصام توحيد وتعلق وثقة وتوكل وثبات على الإيمان، ومن كان هذا ديدنه وسبيله؛ فليبشر بالرضوان من لدن الرحيم الرحمن.

٢- حصول المأمول:

ويكفي لبرهان ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فقد ضمن الحق سبحانه الهدى لمن اعتصم به، ومن أفراد الهدى نيل المراد، هذا من جانب، ومن جانب آخر فالمعتصم متوكل على ربه، مفوض أموره إليه، وقد سبق ما وعد الله به المتوكلين من توفيق وظفر ونيل مأمول.

٣- دفع المكروه:

وهذا متعلق بما قبله، فإذا اعتصم العبد بربه أناله مطلوبه، ويسر له أسباب سعادته، وقرب إليه مبادئ رغائبه، ودفع عنه مكروهه، بل ودفع عنه أموراً تضره مآلاتها وإن ظن عبده خلاف ذلك، فقد يحرص العبد على تحصيل أمر، ويستغرق جهده في نيله، وربُّه يحميه عنه ويمنعه من بلطف خفي، والعبد يكرر احتياله لنيله، وربّه الرحيم محيط به ويرحمه ويحجزه عنه لعلمه أن هلكته أو نقصه

في حصوله، فتبارك أرحم الراحمين.

٤. الظفر والنصر:

شريطة أن يكون الاعتصام حقيقياً لا متوهماً، ورأسخاً لا متداعياً، وعميقاً لا سطحياً، وعن علم وثقة لا عن ريبة وتجريب، فالاعتصام لزومٌ وثباتٌ وثقة وعمق، ومتى اعتصم عباد الله به أنزل عليهم نصره، وأظفرهم بعدوه وعدوهم، سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولا تبديلاً.

٥. انشراح الصدر:

وكيف لا ينشرح صدر المعتصم وهو واثق بمعية الله له بحفظه وتوفيقه ولطفه ومدده ومعونته وربوبيته وحسن تدبيره، فهو محسنٌ ظنه بربه، عظيم الرجاء به، تامّ التوكّل عليه، رأسخ اليقين به، معوّل كلّ التعويل عليه، حافظ قلبه وقالبه مما يחדش اعتصامه، واثق بوعد ربه، عالم أن مع العسر يسراً، وأن مع الشدة لطفاً، وأن مع الابتلاء رحمة، وأن مع الكرب فرج، وبعد الليل صبح، وأن تدبير ربه كله خير، وأنه بربه لا بنفسه وغيره، وأن الدنيا دار ممرٍّ ومعبر، فلا تستحقّ عناءً لا يُبلغ للدار الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

٦. الثبات على الحق:

لما كان الاعتصام لزومٌ لباب الله تعالى، كان الثبات على ذلك ملازم له طبيعةً، فالثبات على الاعتصام يورث الثبات على الإيمان جملة، ويورث الثبات

على الخير النامي في قلب المؤمن المعتصم، فأعمال القلوب روافد لبعضها، سيما ما كان موقعها قريباً من بعض في قلعة الفؤاد المؤمن.

٧. اليقين بموعد رب العالمين:

لأن المعتصم لا يزال يرى ثمرات اعتصامه شيئاً بعد شيء، وثمره طيبة بعد أختها، فتارة في تقوية إيمانه وانسراح صدره وحصول مأموله، وتارة بالمزيد من العلم بالله وبدين الله وبموعد الله، فلا يزال يترقى في مدارج اليقين حتى يتذوق ثلج اليقين وبرد الحقيقة، فتتابع على بصيرة فؤاده العلوم النافعة، فيعلمها ويراها ويتحققها، ويعيش بها وتعيش به، حتى يلقي بها الحق تبارك وتعالى راضياً مرضياً.

٨. صدق التعلق بالله تعالى:

لأن الاعتصام لا يكون إلا بالتعلق، فكلما زاد الاعتصام كماً وكيفاً زاد التعلق الصادق برب العالمين دون ما سواه.

٩. الاستقامة:

وأجمل بها من ثمرة، وأكرم به من شرف، وأسعد به من نوال، فالمعتصم يراقب خواطره وأقواله وأفعاله، ويحرس كنز إيمانه من عبث الشيطان وتلاعبه، فيلزم جادة الاستقامة، ويلتوي على حبل الهداية، ويحرص على ما يعينه على بلوغ غايته بأن يموت مودة المرضيين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

١٠. تحصيل محبة الله تعالى ومحبة الناس:

فالنفوس الزكية المؤمنة مجبولة على حب ما يُشاكلها ومودة مَنْ يُشابهها، فمن أحب الله أحب من يحبون الله وَمَنْ يحبهم الله وكلَّ عمل يوصل لمحبة الله، ومن أجلَّ أعمال القلوب الاعتصام بعلام الغيوب، فمن كان بالله معتصماً أحب المعتصمين بالله، وأحبه المعتصمون بالله، وإذا أحب الله عبداً أنزل له القبول في أرضه، وبسط له المودة في قلوب أوليائه، ونَشَرَ له أعراف المسك في عليائه.

١١. السكينة:

فلا شيء في الدنيا يستحق تكدير النفس وضيقها وغمها، فقلب المعتصم بالله ساكن، وعينه قريرة، ونفسه منشرحة، وروحه مستريحة، فإذا تراحم الناس على أبواب غموم المعاش وهموم الأيام رأينا المعتصم في واد ليس واديههم، ومنتجع ليس كناديههم، حتى وإن زاحمهم أحياناً بجسده في طلب رزقه المأمور به فإن قلبه ونفسه ليسا معهم، بل روحه تسبح بسكينة وسعادة في الملا الأعلى والملكوت الأسمى لنفاذ بصيرته وسعة علمه وعظيم توفيقه، قد أدى عبادة الجسد بطلب المعاش، وأدَّى عبادة القلب بتحقيق التجريد وتفريد التوحيد، فسكنت حينئذٍ نفسه، وسبحت في الملكوت الأعلى روحه، وأطمأنت بربه جوارحه، وطاب بإلهه عيشه، وأفلح في دنياه وأخراه. والله لا يضيع أجر المحسنين، وواهاً لعيش الجنة في دار الغربية!

١٢: الامتثال لأمر الله عز وجل:

فالاعتصام بحبل الله والالتفاف بدينه فيه امتثال لأمر الله تعالى، وسمع وطاعة له، ورضا بما ارتضاه، فالله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بخير، ولا يُحذّر إلا من شر، قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: تعلقوا بأسباب الله جميعاً، وتمسكوا بدينه الذي أمركم به، وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله، فقد كره الله لكم الفرقة وحذركموها ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فارضضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم^(١).

١٣: الهداية إلى صراط الله المستقيم:

فالهداية إلى الحق ثمرة من ثمرات الاعتصام بحبل الله كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] «فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد»^(٢) قال الشوكاني: «أرشدكم الله إلى الاعتصام به ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام»^(٣).

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/ ٣١-٣٣) بتصرف وزيادات.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٧).

(٣) فتح القدير (١/ ٣٦٧).

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: «سياق الآية مؤذن بأنها جرت على حادثة حدثت وأن لنزولها سبباً، وسبب نزولها أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تحاذلوا وتحاربوا حتى تفانوا، وكانت بينهم حروب كان آخرها يوم بُعَاث التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم، وأصبحوا عدة للإسلام، فساء ذلك يهود يثرب، فقام شاس بن قيس اليهودي وهو شيخ قديم منهم بإرسال شاب يهودي جلس إلى الأوس والخزرج يذكرهم حروب بعَاث، فكادوا أن يقتتلوا، ونادى كل فريق يا للأوس! يا للخزرج! وأخذوا السلاح، فجاء النبي ﷺ فدخل بينهم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» ثم قرأ عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠١] فما فرغ منها النبي ﷺ حتى ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أي من يتمسك بالدين فلا تخش عليه الضلال، وفي هذا إشارة إلى التمسك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة النبي ﷺ، لأن ذلك هو السبيل في عصمة المسلمين من كيد أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب الذين يحاولون جاهدين في الإيقاع بين المسلمين كما كانوا يفعلون زمن النبي ﷺ (١).

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٤٢٨) بتصرف.

فطاعة أهل الكتاب تحمل معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الضروري للأمم، وهم أيضاً لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها وفضيلتها وشريعتها وأخلاقها، وإثارة الفتن والقلاقل بين أبنائها، ويبدلون في سبيل ذلك كل ما في وسعهم من مكر وغدر وحيلة وقوة وعدة، وحين يعيهم أن يحاربوا الإسلام بأنفسهم فإنهم يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن يتسبون زوراً إليه لينخروا لهم في جسمه وجسم أتباعه من داخل الدار، فالاعتصام بالله والتمسك بكتابه والوثوق بوعده يعصم الأمة من مكائدهم ومخططاتهم بإذن الله العليّ سبحانه.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسول الله ﷺ باق، وشريعته معصومة من الزلل، فلا خير إلا دلنا عليه، ولا شر إلا حذرنا منه، ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خاطب به الأولون، وطريق العصمة بيّن، ولواء العصمة مرفوع، ورايته ظاهرة، وأهله ظاهرون، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٤: الدخول في رحمة الله تعالى، ونيل فضله وهدايته:

قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

والمراد آمنوا بالله في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، واعتصموا به في أن يشبههم على الإيثار، ويصونهم عن نزغ الشيطان، ويدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

فوعده الله المعتصمين به بأمر ثلاث: الرحمة والفضل والهداية، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً يريد ديناً مستقيماً»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «الذين آمنوا بالله واعتصموا به جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، فهؤلاء يرحمهم الله، ويدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، أي: طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنان»^(٢).

والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به، متى صح الإيمان، ومتى عرفت النفس حقيقة الله، وعرفت حقيقة عبودية الكل له، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وهو صاحب السلطان والقدرة وحده، فهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل، رحمة في هذه الحياة الدنيا قبل الحياة الأخرى، وفضل في هذه العاجلة قبل الفضل في الآجلة.

فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الضلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود، كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. مجلد (٦) (١١/١٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٥٩٢).

ونظامه، فالذين آمنوا بالله واعتصموا به في رحمة من الله وفضل في حياتهم الحاضرة وفي حياتهم الآجلة.

وكلمة (إليه) في قوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] تخلع على التعبير حركة مصورة، إذ ترسم المؤمنين ويد الله تنقل خطاهم في الطريق إلى الله على استقامة، وتقربهم إليه خطوة خطوة، وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة، فيعتصم به على ثقة حيث يحس في كل لحظة أنه يهتدي، وتتضح أمامه الطريق، ويقترّب فعلاً من الله كأنها هو يخطو إليه في طريق مستقيم.

١٥: استحقاق معية المؤمنين ومرافقتهم في الدارين:

فقد شهد الله لمن اعتصم بحبله وتمسك بدينه وأخلص عمله فيه بأنه مع المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الحديث عن المنافقين وما يستحقون من الله من عذاب يوم القيامة، فهم أشد الناس عذاباً وفي الدرك الأسفل من النار إلا الذين تابوا منهم وأصلحوا عملهم واعتصموا بالله وأخلصوا لدينهم، بحيث لم يشبوا عملهم بتردد، ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين. وفي لفظ (مع) إيحاء إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق، لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل^(١).

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور. ٣ (٢٤٤/٥).

ويقول القرطبي: هذا استثناء ممن نافق، ومن شرط التائب من النفاق أن يصلح في قوله وفعله ويعتصم بالله أي يجعله ملجأ ومعاداً، ويخلص دينه لله وإلا فليس بتائب قال الفراء: معنى ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المؤمنين^(١).

فهذه بعض ثمرات الاعتصام بحبل الله، فما أحوجنا إلى الامتثال لأمر الله، والاعتصام بحبله، وأن نتعرف على الله في الرخاء حتى يتعرف علينا وقت الشدة، وما أحوجنا أن نلجأ إليه سبحانه ليمنحنا الهداية الإلهية إلى صراطه المستقيم، وما أحوجنا إلى رحمت الله ونيل فضله لنكون في معية المؤمنين في الدارين.

فكل هذه الثمرات وعد بها رب العزة والجلال إذا اعتصمنا بحبله والتزمنا بشرعه ووثقنا بوعد^(٢). فيا طيب عيش الصالحين، ويا سعادة مآل المعتصمين، والحمد من قبل ومن بعد لله رب العالمين.



(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/٤٢٣).

(٢) الثمرات الأربع الأخيرة ملخصة بتصرف وزيادات عن: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر (١/١-١٩) شكر الله تعالى له.

وسائل تحصيل الاعتصام

من رحمة الله بعباده أن بين لهم جادة النجاة، وطريقة الفلاح، وسبيل السعادة، وجعلها مَهْيَعًا سَالِكًا، واضحًا بَيِّنًا، سهلًا ميسورًا على من رام الوصول لمرضاته وجنته، كما قد جعل أسباب الضلال واضحة بَيِّنَةٌ لكل ذي لب وإرادة، وجعل فيها من أسباب الضيق والظنك والعنت والوحشة ما تَشِيْمُ عنه نفوس الطيبين الأحرار، وكلُّ مسؤول عما جنته يده، فنحن على البيضاء حقًا لا يزيغ عنها إلا هالك، قال سبحانه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقال سبحانه وبحمده: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فالْمُؤْمِنُ الحَرِيصُ على إدراك خلاصه وفلاحه لا تراه إلا ساعيًا في فكاك نفسه وتنقيتها وتحصيل أسباب طهاراتها وطيبها، ثم رفعها عند ربها وقربها منه تبارك وتعالى. وباب فلاحها وفكاكها هو الاعتصام بالله وحده على التمام، ولتحصيله أسباب منها:

١. الإخلاص:

فهو باب الدخول، وعمود القبول، ومعراج التوفيق، ومستدرّ العون الإلهي، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلام متين: «إن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الإنسان فضررهم أقرب من نفعهم، والخالق - جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره - إذا اشتكى إليه المخلوق وأنزل حاجته به واستغفره من

ذنوبه: أيده وقوّاه وهداه، وسد فاقته وأغناه، وقربه وأقناه، وأحبه واصطفاه.

والمخلوق إذا أنزل العبد به حاجته استرذله وازدراه، ثم أعرض عنه، فخر الدنيا والآخرة حتى وإن قضى له بعض مطلبه؛ لأنه عنده من بعض رعاياه يستعبده بما يهواه، قال الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ۚ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئاً كثيراً وعرفته علماً وذوقاً وتجربة^(١).

ومن الإخلاص يكون تحقيق التوحيد الذي وعد الله أهله بالجنة والمزيد. قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما قول السائل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟

فيقال: سبب هذا تحقيق التوحيد؛ توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية. فتوحيد الربوبية: أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكل ما سواه إذا قُدِّر سبباً فلا بد له من شريك معاون، وضدّ معوّق، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١/٢٨).

لا يستقلّ به، ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور.

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمر خارجة عن مقدوره إن لم يُعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣١] وقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦].

والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق، وذلك المخلوق عاجز عنه، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله.

فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، ثم إن وحده العبد توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة، وإن كان ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢] وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ

الْضُرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧] كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه، كما احتج سبحانه على المشركين الذين يُقرّون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ [العنكبوت: ٦١] وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع.

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنزل بهم الشدة والضرر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجون له لا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض، أو الخوف، أو الجذب، أو حصول اليسر، وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذاتٌ بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن.

وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبّر عن كُنْهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: «يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من

قرع باب سيدك». وقال بعض الشيوخ: «إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحبُّ معه أن يُعَجِّلَ قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قُضي انصرفت». وفي بعض الإسرائيليات: «يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك».

وهذا المعنى كثير، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس، لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك.

ولفظ «الذوق» وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك، فهو مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر، قال تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فجعل الخوف والجوع مذوقاً، وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللباس^(١).

«وأنت تجد كثيراً من المنتسبين إلى علم ودين لا يكذبون فيما يقولونه، بل لا يقولون إلا الصدق، لكن لا يقبلون ما يخبر به غيرهم من الصدق، بل يحملهم الهوى والجهل على تكذيب غيرهم وإن كان صادقاً، إما تكذيب نظيره، وإما تكذيب من ليس من طائفته، ونفس تكذيب الصادق هو من الكذب؛ ولهذا قرنه

(١) مجموع الفتاوى ٣٣٤/١٠ وهذا المجلد العاشر هو مجلد السلوك، وهو نفيس جداً، وقد حوى نكتاً علمية دقيقة لا تكاد تراها في غيره.

بالكاذب على الله، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، فكلاهما كاذب: هذا كاذب فيما يخبر به عن الله، وهذا كاذب فيما يخبر به عن المخبر عن الله، والنصارى يكثر فيهم المفترون للكذب على الله، واليهود فيهم المكذِّبون بالحق»^(١).

هذا ومع زيادة الإيمان يكون الفرقان في قلبك وبصيرتك بإذن الله تعالى ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] «وفي الحديث الصحيح: «إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»^(٢). «فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن.. وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم.

ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور»^(٣).

وكل مبطل لا بد أن يكون معه طرف حق يُلبس به على الناس، قال ابن تيمية: «وكل من سوى أهل السنة والحديث من الفرق فلا ينفرد عن أئمة

(١) منهاج السنة النبوية ١٩٢/٧

(٢) البخاري (١٦ / ٥٧٤ - فتح) ومسلم (٤ / ٢٢٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى ٤٥/٢٠

الحديث بقول صحيح، بل لا بد أن يكون معه من دين الإسلام ما هو حق، وبسبب ذلك وقعت الشبهة، وإلا فالباطل المحض لا يشتبه على أحد، ولهذا سُمي أهل البدع أهل الشبهات، وقيل فيهم: إنهم يلبسون الحق بالباطل»^(١).

٢. العلم:

لا اعتصام إلا بعد العلم، وبخاصة العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وحقه، وعلى قدر العلم يكون إحسان الظن وثبات اليقين وعظيم الرغبة، فإن ساعد العمل فثم نيل المراد بإذن الله تعالى.

ومن تأمل اعتصام العلماء بالله عند النعم والمحن عرف قدر العلم في هذا الباب وجلاله وعظمته وعظيم نفعه، فمادته هي العلم النافع والله المستعان. وأعظم العلم هو العلم بالله تعالى، «ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حشرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقته الصبر على ذلك إلى وقت لقاءه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبداً»^(٢).

(١) منهاج السنة النبوية ١٦٧/٥

(٢) مدارج السالكين ١٧٢/٣

٣. إحصان الاتباع:

لا بد لكل معتصم بسنة سابقة يعتصم بها، وصراطٍ بينٍ يهتدي خلاله، وطريقٍ واصلٍ لمراده، وما ثمَّ إلا سنة سيد الأولين والآخرين ﷺ، فمن رغب عنها هلك.

وتركُ السنة مفضٍ للوقوع بين براثن البدعة، وعلى قدر بُعده عن السنة يكون دخوله في ضدها وهي المخالفة، إما بالترك أو الابتداع والاختراع، وبحسب قربه منها يكون انفكاكه مما سواها من المحدثات، كلاً بكلاً، وجزءاً بجزءٍ، وشيئاً بشيءٍ، فالمكان الممكن لا يحتمل الضدين، فعلى قدر تحصيل أحدهما يكون فراغه من الآخر، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة، قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤] فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقع بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أي: عن الذكر الذي أنزله الرحمن، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى [طه: ١٢٣ - ١٢٤] وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

قال العلماء: «من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم» فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب؛ فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه.

وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحذور، ومن فعل المحذور لم يفعل جميع المأمور؛ فلا يمكن الإنسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر، ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر، فإن ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور، ومن المحذور ترك المأمور؛ فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم، وكل ما لا يمكن فعل الواجب إلا به فعليه فعله، ولهذا كان لفظ «الأمر» إذا أطلق يتناول النهي، وإذا قيد بالنهي كان النهي نظير ما تقدم^(١).

«والبدع نوعان: نوع في الأقوال والاعتقادات، ونوع في الأفعال والعبادات. وهذا الثاني يتضمن الأول، كما أن الأول يدعو إلى الثاني.

فالمنتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول.

والمنتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني.

وقد أمرنا الله أن نقول في كل صلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة: ٦-٧] آمين.

(١) الإبان لابن تيمية ١/١٣٩ وهو ضمن مجموع الفتاوى ١٧٤/٧

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(١).

قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى». وكان السلف يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

فطالب العلم إن لم يقترب بطلبه فعل ما يجب عليه، وترك ما يحرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقع في الضلال.

وأهل الإرادة إن لم يقترب بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي.

ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب، كان غاوياً، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالاً، والضلال سمة النصارى، والبغي سمة اليهود، مع أن كلا من الأمتين فيها الضلال والبغي، ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة

(١) الترمذي (٢٩٥٤)، والإمام أحمد في المسند (٣٧٨/٤، ٣٧٩)، وأبو داود الطيالسي (١٠٤٠)، وابن جرير في جامع البيان (١٨٥/١، ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٣/١)، كلهم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. والحديث صحيح أحمد شاكر إسناده. انظر جامع البيان الموضع المتقدم. وقال عبد الرحمن ابن أبي حاتم: «ولا أعلم بين المفسرين في هذا الحرف اختلافاً». يعني تفسير الآية بما جاء عن رسول الله ﷺ. انظر تفسيره (٢٣/١).

والسلوك والطريق يتتهون إلى الفناء الذي لا يميزون فيه بين المأمور والمحظور، فيكونون فيه متبعين أهواءهم.

وإنما الفناء الشرعي أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبسؤاله عن سؤال ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وهذا هو إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي أرسل الله به الرسل، وأنزل به الكتب»^(١).

٤. الصدق:

فالصدق مع الله تعالى هو آخية التوفيق والفلاح، ودليل صحة التوجه والإخلاص، وبرهان التوفيق للعليّ الأعلى تبارك وتعالى، ومن رام جزيل العطايا فليصدق مع العظيم بقلبه وقوله وعمله. وفي مصنف عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بينا فتى من الأنصار عَلفَ ناضحه، وأقام معاذ بن جبل صلاة العشاء، فنَزَلَ الفتى عَلفَه، فقام فتوضأ، وحضر الصلاة، وافتتح معاذ بسورة البقرة، فصلّى الفتى وترك معاذًا، وانصرف إلى ناضحه فعَلفَه أو فعَلفَها، فلما انصرف معاذ جاء الفتى فسبّه ونَقَصَه، ثم قال: لآتين نبي الله ﷺ فأخبره خبرك، فأصبحنا فاجتمعنا عند النبي ﷺ، فذكر له معاذ شأنه، فقال الفتى: إنا أهل عمل وشُغلٍ، فطَوَّل علينا، استفتح بسورة البقرة، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أتريد أن تكون فتانًا، إذا أمت الناس فاقراً بِ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾،

(١) الفتاوى الكبرى (٢/ ١٤٢).

﴿وَالْتِّلْ إِذِ ابْتُغِي﴾، و ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾ وبهذا النحو.

فقال عبد الله بن عبيد بن عمير: فدعا النبي ﷺ الفتى فقال: «يا معاذ، ادع» فدعا، فقال للفتى: «ادع» فقال: والله لا أدري ما دندنتكما هذه، غير أني والله لئن لقيت العدو لأصدقن الله، فلقى العدو فاستشهد، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ اللهُ فَصَدَقَهُ اللهُ»^(١).

٥. الدعاء:

الدعاء حبل المعتصمين بربهم، وباب الداخلين إلى سيدهم، ووسيلة الطالبين كريمهم، فبه يرفعون شكاياتهم من غوائل الدنيا وحبال الشيطان، وبه يطلبون رغائبهم من الكريم الوهاب المنان، قال بكر بن عبد الله المزني: «من مثلك يا ابن آدم! خُلِّي بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت دخلت على ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان»^(٢).

٦. المحاسبة:

قال الحسيب سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] وهذا أصل في محاسبة المؤمن نفسه، ومن أولى ما يحاسب المؤمن نفسه فيه قوة اعتصامه بربه تعالى واستمسাকে بحبله، فالدنيا تذهب بلبه أحياناً فيطيش وهله عن سعادته باعتصامه بحبل مولاه، فإن أسعفه ربه

(١) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٣٦٥) (٣٧٢٥).

(٢) شعب الإيمان (٤/ ٥٣٧).

بمحاسبة صادقة لنفسه عاد لكنف ربه ورحمته وكرامته.

وبالجملة؛ فالمحاسبة أخذٌ بالحزم في تحصيل المراد، واحترازٌ من مؤاخذة الحساب، ومن اعتصم بربه فاز.

٧- لزوم العلماء:

فالمعتصم بالله تعالى مفتقر لبصيرة تهديه، ومعدنها العلم بالله وبدينه، ومعينها صدور العلماء الأتقياء العاملين الربانيين، فمن لزم غرزهم أوشك أن يصل بإذن الله، ذلك أن للشيطان حظوظ من فريسته الآدمية، وللنفس رغائب تعميها، وشهوات تُعشيها، فإن استفرد به الشيطان أتلفه، فإن وفقه الله لبصير يرشده ويأخذ بيده أوشك السعيد لفلاحه أن يصل.

أيضاً فلزوم أهل العلم ومصاحبتهم في اختلاف أحوالهم وتقلّباتهم مع الشدة والرخاء، والخوف والأمن، والضيق والسعة يحقن في قلب المؤمن جرعات النفع وعقار التحصين وغذاء المسير بإذن الله تعالى.

٨- الفرح بالله:

الفرح بالله له لذة تقصر عن وصفها الحروف، فهي الجنة قبل الجنة، والنعيم السابق للنعيم، وهي حقاً قطعة من نعيم الجنة، وفي الجرعة اليسيرة منها ما يشبع الروح في مسيرها للآخرة، فكيف بالكثير؟!

فافرح بربك وبرحمته وفضله كلّ الفرح، واجرع بقلبك وروحك ونفسك موارد الفرح ومصادر السرور وألوان الجبور، فلا أفرح على الإطلاق من فرح

العبد بربه تعالى، وهذا من الأمور المعلومة بالفطرة والعقل والشرع والحال والتجربة، فالحمد لله كثيرًا كثيرًا على ما يعجز عنه البيان، وتقصر عنه الحروف، ويقف دونه التوضيح ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن تيمية حين كان سجيناً في قلعة دمشق قبل وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يُبَيِّن نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان أعظم قدرًا وأكثر عددًا ما لا يمكن حصره، وأكثر ما ينقص علي الجماعة، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يُفَتَّحَ لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات، وأُعرِّفُ أكثرَ الناس قدر ذلك، فإنه لا يُعرف إلا بالذوق والوجد، لكن ما من مؤمن إلا له نصيب من ذلك ويستدل منه بالقليل على الكثير، وإن كان لا يُقدَّرُ قدره الكبير، وأنا أعرِّفُ أحوال الناس والأجناس واللذات. وأين الدر من البعر؟ وأين الفالودج من الدبس؟ وأين الملائكة من البهائم؟»^(١)

٩. تجديد التوبة:

فلما كانت التوبة هي أولى المنازل وأوسطها وآخرها - بحسب ابن القيم - فعلى المؤمن أن يعتصم بها، وهي - بحمد الله - موصلة للاعتصام بحبل ربه، لأن دائم التوبة لله دائم الاعتصام به، فهو يتوب إلى الله تعالى من قصور وتقصير،

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٥) وللفرح بالله تعالى كتاب مستقل في هذه السلسلة بإذن الله تعالى.

من قصور في ذات الاعتصام، وتقصير في تحصيل وإعمال أدوات الاعتصام، فيتوب على التكرار والدوام تطهيراً وإنقاءً من دخيلة في نفسه، ودخن في قلبه، وضعف في فؤاده، ونكت وقتر وثقل وغفلة يعترينه أحياناً على مر الزمان وتتابع الأيام، لأن الإنسان ضعيف عاجز، جهول فاتر، ملول عجول، مفتن تواب، ومن هنا كانت ضرورته لتجديد التوبة للتواب تبارك وتعالى، وتجديد التوبة فرع عن المحاسبة الصادقة وثمره نافعة لها.

١٠. الذكر:

وهو زاد المعتصمين، ووقود المقرورين بين جليل الدنيا وبأسائها، ذلك أن الاعتصام بحد ذاته ذكر خالص بالقلب، فأعظم بالذكر منهلاً وزاداً وسلاحاً. قال الطبري رحمه الله تعالى: «ومن جسيم ما يرجى به للعبد الوصول إلى رضا ربه ذكره إياه بقلبه، فإن ذلك من شريف أعماله عنده؛ لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم»^(١).

والذكر سبب للعصمة من لأواء الأرواح. أي أذاها بالذنوب. فالذكر سربال حافظ بإذن الله من غوائل الخطايا، ونوازل الرزايا، وحرابات طوارق الليل والنهار، كما أن بعض الأذكار عاصمة بإذن الله من أخطار مخصوصة، كتعويدات طرقي النهار والمنزل والنوم وغيرها، وكعشر سورة الكهف، فعن أبي

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٣٨/١٠).

الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» وفي رواية: «مَنْ آخِرُ سُورَةِ الْكَهْفِ» رواهما مسلم^(١).

قال الطبري: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ أَفْضَلُ؛ فَإِنْ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ؟

قِيلَ: أَعْلَى ذَلِكَ وَأَشْرَفُهُ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ عَمَلُ إِلَّا بِهَا، وَلَا إِيمَانٌ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِهَا، وَذَلِكَ التَّهْلِيلُ، وَهُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٢).

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» متفق عليه^(٣). وقال ﷺ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^{(٤)(٥)}.

(١) مسلم ١٩٩/٢ (٨٠٩) (٢٥٧) وفي صحيح ابن حبان (٦٥ / ٣) (٧٨٥): «مَنْ قَرَأَ...» بدلاً من: «مَنْ حَفِظَ» قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قلت: وهو كما قال، فهي خير الكلام، وهي مفتاح الجنة، وهي حبل الوصول إلى الله تعالى، وهي أحب الكلام إلى الله تعالى، ومن أجل تحقيقها خلق الله الخليفة، وكل الأذكار مردّها إليها، وهي قطعة من القرآن قال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

(٣) البخاري ٩/١ (٩) ومسلم ٤٦/١ (٣٥) (٥٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٠/٢) (٦٩٦١).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٣٩ / ١٠) بتصرف يسير.

١١. التفكر:

واعلم أن التفكر سبيل للاعتصام بإذن الله، ولنقف قليلا متفكرين شاكرين في سبع نعمٍ كبار!

تركوا التفكر في أمور فلاحهم فكأنهم بجمودهم أصنام العاقل الحازم الرشيد، المريد لنفسه الخلاص ثم الفلاح وحسن العاقبة لا بدّ له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها ممن ربه وآلاء معبوده..

وجّه الله عبادة للتدبر في آياته: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وأرشدهم للتفكر في الخليفة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والنهاية: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال حكيم الصحابة أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

يا لله! كم تحت هذه الكلمة من كنوز علم، وذخائر حكمة!

ألم تعلم أنك منغمس حتى شعر رأسك في نعم لا تستطيع إحصاءها، مع هذا فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوب الشكر على قدر وسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله تعالى.

قف الآن هنيهات متذكراً بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك، فالله يحب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه.

النَّعْمُ السَّبْعُ الْكَبِيرُ:

أولاًها: نعمةُ الخلق:

إنها نعمةٌ مدهشةٌ عجيبةٌ، فأحضر عقلك بين يديك، وعُدْ بذاكرتك لأبعد ما تستطيع، يوماً بعد يومٍ، وشهراً بعد شهرٍ، وسنةً بعد سنةٍ حتى تقفَ عند عتبةٍ زمنيةَّةٍ، لا تستطيع بذاكرتك اختراقَ حاجزها ولا كشفَ سِتْرِها.

مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ الزَّمَانِيِّ اقْفِزْ بِمُخِيلَتِكَ إِلَى مَا قَبْلَ خَلْقِكَ!

هناك في ذلك العالم السحيق لا تجدُ نفسك، قد وُجِدَ الكونُ وأنتَ غيرُ موجودٍ، ليس لك ذرَّةٌ وجودٍ فيه، لا جسداً ولا روحاً، ليس هناك منك أيها الفاني سوى العدم!

مرَّتْ أَزْمَانٌ وَأَزْمَانٌ وَأَحْدَاثٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُوجُودٍ فِيهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

بعد ذلك خلقك ربُّكَ، وفطرك وبرأك، وسوّاك وأوجدك ولم تُكْ شَيْئاً، فاحمد الله واشكره على نعمةِ خَلْقِكَ، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها غافلون.

ثانيةُ النعم: نعمةُ الاصطفاء الانساني:

لَمَّا خَلَقْتَ رَبُّكَ اخْتَارَكَ لِتَكُونَ مَخْلُوقاً مُّمَيَّزاً فَاضِلاً كَرِيماً ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وتأمل ضدَّ ذلك، ماذا لو أن الله قد خلقك شجرةً تُرعى وتُقطعُ وتُرمى

للنار، أو خلَقَكَ صخرةً، تهوي وتُكسر، أو قطرة ماء في بحرٍ، أو ذرَّة هواء، أو حيوانًا بهيمًا، أو طيرًا حائرًا، أو حشرة تائهة!

اصطفاك الله من جميع أجناس مخلوقاته لتكون بشرًا مُميزًا كريماً، تستحق رضاه وحبّه، وكرامته وجنته إن شكرته وأطعته.

ثالثةُ النعم: نعمةُ الإسلام:

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرت قدرَ هذه النعمة فلن تطيق قدرها، وكيفيك أن ترى شؤمَ الكفر وظلمة الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمنقلب.

ألم تعلم أن نسبة دخول البشر للجنة هي واحد من كل ألف! اللهم سلّم سلّم.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].»

إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠] فهل

أنت من العائدين؟!!

سيغضبُ اللهُ في ذلك اليومِ غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فماذا أعددت لغضبه من صالح العمل؟!!

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ:

وأبشر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتمِ الكامل. فاسعدُ الآن وابتهج، فأنت من الأمة المرحومة، فلهذه الأمة من المزايا والخصائص ما ليس لغيرها، من مضاعفة الأجرِ والحسنات، والتجاوزِ عن الخطايا والسيئات، ورحمة الله لها ورفع الدرجات، كرامةً لسيدها نبيّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجل كلّ نبيّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعاً عند ربك يوم القيامة، فكن من أهل الإخلاص والاتباع تنلها بإذن ربك.

وما حملت من ناقةٍ فوق رَحْلِها أبرّ وأوفى ذمّةً من محمدٍ
ولا طلعت شمس النهار على امرئ تقىً نقىً كالنبي محمدٍ
ولا لاحت الجوزاءُ شرقاً ومغرباً بأطيب من طيبِ النبي محمدٍ

ولولا أن الله أرسله ووفقه لكنت أنت ووالديك وكلّ من تحب من حطبِ جهنم، لكن الله استنقذكم به من عمّاية الضلالة لنور الإسلام والايان، فاحد

الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألح عليه، ألح عليه بأن يُثبِّتَكَ على الحق حتى تلقاه وهو راضٍ عنك.

إنك إنسان محظوظٌ متميِّزٌ بكونك من أتباع هذا النبي المُميِّز، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُبْعَ أهل الجنة»، فكبر الناس. فقال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة»، فكبر الناس. فقال: «أما ترضون أن تكونوا شَطْرَ أهل الجنة» ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أمته ثلثي أهل الجنة. رواه مسلم^(١) وثبت عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومائةُ صَفٍّ، أنتم منهم ثمانون صَفًّا»^(٢).

ومن رحمته ﷺ بأمته أنه كان يتلو قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه قائلاً: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله عز وجل - وهو أعلم -: «يا جبريل اذهب إلى محمد فسأله: ما يبكيك؟» فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبي ﷺ، فقال الله تعالى: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوِّك»^(٣) ﴿وَلَسَوْفَ

(١) مسلم (١/ ٢٠٠) (٢٢١).

(٢) أحمد (٧/ ٣٤٩) (٤٣٢٨).

(٣) مسلم ١٣٢/ ١ (٢٠٢) (٣٤٦).

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَ ﴿٥﴾ [الضحى: ٥].

عليك بتأمل سيرته ﷺ، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنك كلما استوعبت سيرته كلما ازددت به شغفا وحباً وشوقاً.

إنه يُحِبُّك ويشتاق لك، فهل لك مهجة تُطِيق الصدود يا صاح!

تسلى الناس بالدنيا وإنّا لعمرُ الله بعْدَكَ ما سَلَيْنَا

والذي نفسي بيده لو استغرقت عُمرَكَ في الصلاة والسلام عليه ما أدّيت معشَرَ حقّه عليك، مع ذلك فأكثر من الصلاة والسلام عليه ما استطعت.

ولقد أوصاك وبشرك بقوله: «إن أولاكم بي يوم القيامة أكثركم علي

صلاة»^(١).

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلّقاكم ويكفينّا

خامسةُ النعم: نعمة الهداية للسنة:

إذ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفرقة والبدعة، هل

هناك أجمل من أن تبيت على مُعتقدِ رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار؟!

إن مُعتقد أهل السنة موافق للفطرة، مريحٌ للنفس، مبهِجٌ للروح، مغدٌّ

للعقل، فليس فيه خرافة ولا دجل ولا شعوذة، ولا تعقيد ولا قرمطة ولا

(١) أبي يعلى في مسنده (١٣/٩) (٥٠٨٠).

سفسطةً. بل هو الزُّلَّالُ الصَّافِي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة، والمهيَّعُ السهلُ المُنِيرُ للجنة، فاستمسك به وافرح به واثبت عليه رعاك الله.

سادسةُ النعم: نعمةُ الصَّلاح والاستقامة:

فما كُلُّ من عرف الحقَّ عمل به، ولا كُلُّ من عَلِمَ الهدى اهتدى، ولا كُلُّ من اهتدى ثبت. فافرح بصلاحك واستقامتك وورعك وعفافك، واسأل ربَّكَ المزيدَ من فضله ورحمته وتوحيته وغفرانه.

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق:

تفكّر في نعمة العقل والإدراك وما فيه من الآلاء والمنح، وفي الجسد وما فيه من العجائب والحكم، تأمل القلب ونبضه، والدم وجريانه، والعظم وإحكامه، والعصب ودقته، والنفس وراحته، والبصر ومُتعتّه، والسمع وضرورته.

أبحرْ بخشوعٍ في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد، واهتف بقلبك: آمَنْتُ بك يا ربّي، حنانيك خُذ بيدي.

اسبح في بحر التأمل لنعم الكريم عليك، واحمده حمداً من عَرَفَ وخَضَعَ وخشَعَ، وامتلأ فؤاده بالمحبة والشكر والامتنان للوهاب الكريم الرحمن ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والآن: قد عرفتَ فالزم. وانتشِ بهذه النعم، واغبط وافرح بها، ولا فرح كالفرح بالله، لا فرح كالفرح بالله، ولا أنس كالأنس بالله، واشكره وسلهُ المزيد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

نعم، لقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

١٢ - الثقة بالله تعالى:

الثقة أساس الاعتصام، فالاعتصام استمسك واستيثاق وسكون وعكوف واستئمان، وعلى قدر الثقة يكون الاعتصام، فعزز الثقة يشتد الاعتصام، ومن جمال الثقة جمعها بين عالمي الغيب والشهادة، إذ يتنفسها المؤمن بقلبه قبل صدره، ويرأها ببصيرته قبل بصره، ويأنس إليها ومنها وبها، فهي الركن الشديد، والمأرز الوثيق، ومن وثق بالله انقطع حقيقة عن كل ما سواه، وانخلع من نظره إليهم وانتظار فرجهم أو عونهم أو حفظهم ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

١٣ - اليقين بالله تعالى:

اليقين هو العمود الذي يرفع بنيان الاعتصام، فإذا هبت رياح شتاء البلى ثبث جبل الاعتصام بعمود اليقين، فيرى ببصيرته اليقينية حكم ربه في ابتلائه وآلاء معبوده في طي محنه، وقرب فرجه من كربه، فالناس يتساقطون صرعى في أتون الكربات، ويتلوون شاكين من ماجريات الأقدار، وصاحب اليقين راسخ في اعتصامه بحبل ربه، ثابت الجنان، عظيم العلم والإيمان.

وتأمل كيف حمل البحر موسى في مهده وهو وليد وحيد، ثم أغرق فرعون وجنده وهو ملك جبار عنيد، إنه تدبير العزيز الحميد فثق به وتيقن من صدق موعوده.

١٤. الاعتصام بمسمّيات الشرع دون اصطلاحات المُحدثين:

من المهمات في باب الاعتصام: الحرص على مراعاة الألفاظ السنية الواضحة التي لا تحتل محامل أهل الفرقة، ومما داخل الناس من سبل الشر الألفاظ المجملّة التي تحتل حقاً وباطلاً، فيقولها الصّدّيق والزنديق، ويوردها صاحب البدعة ليصل لباطله دون الحق الذي تحتله، فيُغضي عنه صاحب السنة إحساناً للظن به أو غفلة عن باطن بدعته، وهذا خطأ فالباطل يردّ على من كان نصيحاً له ولغيره.

وبالجملة؛ فمن وسائل تحصيل الاعتصام الاعتصامُ بألفاظ الشرع وحروفه، توقيراً وإعظاماً، وحراسة واحترازاً، وكلُّ الخير في الاتّباع، ونحن وإن قلنا بتقديم المعنى واللب إلا أن القالب واللفظ والظاهر له حظه من الأهمية، فشعار المؤمنين ظاهر، واجتماعهم ظاهر، وحزبهم ظاهر، وحروفهم ظاهرة، وحظهم قائم، وقسمهم غانم، وطائفتهم منصورة بإذن الله تعالى.

ومن تلك المجملات ما حمّله أهل الكلام من زاملة كتب اليونان من الحيّز والجهة والعرض والجسم.. إلخ. ولقد تواترت عبارات السلف وتطابقت مقالاتهم في ذم علم الكلام والتحذير منه، وهو الذي قد دخل حصن أهل الإسلام من باب المجملات.

فهذا أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ اللهُ سألَه سائل: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة! عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة».

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «أكلّمنا جاءنا رجل أجدلّ من رجل تركنا ما نحن عليه؟! إذاً لا نزال في طلب الدّين».

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لأن يُتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به، خير من النظر في الكلام». وقال - أيضاً -: «حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويجلسوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

وقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دَغْلٌ». والدغل هو الكدر واللوث والحقْد.

وأما موقف ابن تيمية رحمه الله تعالى من الألفاظ المجملة المبتدعة التي أطلقها أهل الكلام، وجعلوها من الاعتقاد، وبيان موقف السلف منها فيمكن إجماله في التالي:

«١ - كان السلف يتحرّون في إطلاق الألفاظ على الله عزّ وجلّ، فلا يطلقون إلا الألفاظ الشرعية، ويحرصون على اجتماع الحُسن بين اللفظ والمعنى، ولا يلجؤون إلى المعنى الحسن، ليعبروا عنه بأفضل الألفاظ التي لم ترد في الكتاب والسنة، إلا إذا لم يهتدوا إلى لفظ مناسب موجود في الكتاب أو في السنة.

٢ - حين يردّ السلف على النفاة فإنهم يردّون على ألفاظهم القريبة من الإثبات، ويبطلونها، فيكون ذلك رد من باب أولى على ألفاظهم الموغلة في النفي، البعيدة عن الحق.

٣- نهى السلف عن إطلاق الألفاظ الكلامية، فذكر رَحْمَةُ اللَّهِ أَقْسَامَ مثبتة الصفات تجاه النفاة، وذكر عن أهل السنة والجماعة قوله: «وطائفة نازعتهم نزاعاً مطلقاً في واحدة من المقدمتين، ولم تطلق في النفي والإثبات ألفاظاً مجملة مبتدعة لا أصل لها في الشرع، ولا هي صحيحة في العقل، بل اعتصمت بالكتاب والسنة، وأعطت العقل حقه، فكانت موافقة لصريح المعقول، وصحيح المنقول».

٤- سبب نهى السلف عن إطلاق الألفاظ الكلامية هو:

أ- اشتغالها على معان باطلة ومعان صحيحة، ولذلك فهي توقع في الاشتباه والاختلاف والفتنة، خلاف الألفاظ الماثورة التي تحصل بها الألفة، يقول ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ: «يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة: النهي عن إطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات».

وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق، ولا قصور، أو تقصير في بيان الحق، ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل، ففي إثباتها إثبات حق وباطل، وفي نفيها نفي حق وباطل...».

ب- لأنها تتضمن تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ، ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة.

ج- لأنها ليس لها ضابط، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك، فجعلوها دقيقة غامضة، بخلاف ألفاظ الرسول ﷺ فإن مراده بها يُعلم كما يعلم مراده بسائر ألفاظه.

٥ - أول من عرف عنه إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة نفيًا أو إثباتًا هم أهل الكلام المحدث بقسميهم: النفاة كالجهمية والمعتزلة. والمثبتة الغلاة كالمشبهة من الرافضة وغير الرافضة.

٦ - تضمنت الألفاظ المجملة أنواعاً مختلفة من الإجمال، وليس نوعاً واحداً، فتارة يكون الإجمال بطريق الاشتراك لاختلاف الاصطلاحات، وتارة يكون الإجمال بطريق التواطؤ مع اختلاف الأنواع، فإذا فُسِّر المراد، وفُصِّل المتشابه تبين الحق من الباطل والمراد من غير المراد.

٧ - كثير ممن تكلم بهذه الألفاظ المجملة كان يظن أنه ينصر الإسلام بهذه الطريقة، وأنه بذلك يثبت معرفة الله وتصديق رسوله ﷺ، ف وقعت عندهم أمور كثيرة من الخطأ والضلال.

والبدعة - في هذا - لا تكون حقاً محضاً ولا باطلاً محضاً، إذ لو كانت حقاً محضاً موافقاً للسنة، لما كانت باطلاً.

ولو كانت باطلاً محضاً لما خفيت على الناس، ولكنها تشتمل على حق وباطل، وقد لبس صاحبها الحق بالباطل، إما مخطئاً غالطاً، وإما متعمداً لنفاق فيه وإلحاد.

٨ - كثير من الألفاظ البدعية المجملة تختلف معانيها في اصطلاحات المتكلمين عنها في لغة العرب، ولذلك تحدث إشكالاً، وتورث شكاً، ويضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مثلاً لذلك بالعقل، فهو عند المتكلمين: جوهر قائم بنفسه، وأما العقل في لغة العرب فهو عَرَض: علم، وعمل بالعلم، وغريزة

تقتضي ذلك.

ولذلك يحرص ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على معرفة معاني ألفاظ المخالفين ومرادهم من إطلاقها.

٩- أن هذه الطرق التي يسلكها المتكلمون أحسن أحوالها أن تكون عوجاء طويلة، وقد تهلك، وقد توصل بمشقة ووعورة وكلفة مع وجود غيرها من السهل الموصل، فتلك الطرق والألفاظ إذن لو كانت مستقيمة مُوصلة لم يعدل عنها السلف، فكيف إذا تيقن أنها مهلكة!

ويضرب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مثلاً لذلك بمن ترك سلوك الطريق المستقيم الذي يوصله إلى مكة، وسلك طريقاً بعيدة لغير مصلحة راجحة، فهذا يكون تاركاً لما يؤمر به، فاعلاً لما لا فائدة فيه أو ما ينهى عنه، إذا كانت تلك الطريق موصلة إلى المقصود، فأما مع الاستراية في كونها موصلة أو مهلكة فإنه لا يجوز سلوكها.

١٠- لا يُكفر مطلق هذه الألفاظ أو نافيها، بل يُبدع ويُذم غاية الذم.

١١- تختلف مقامات الخطاب في الاقتصار على الألفاظ الشرعية، أو الحاجة إلى مثل هذه الألفاظ المجملة ومنها:

أولاً: إن كان الإنسان في مقام دفع من يلزمه ويأمره ببدعة، ويدعوه إليها أمكنه الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يقول: لا أجيبك إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله، بل هذا هو الواجب مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿[الأنعام: ١٥٣] وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

ثانياً: وإن كان الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له، وفي مقام النظر - أيضاً، فعليه أن يعتصم بالكتاب والسنة، ويدعو إلى ذلك، وله أن يتكلم مع ذلك، ويبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة.

فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبيّن بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله وأمر المعاد وغير ذلك، وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

ثالثاً: وإن كان المتكلم في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل، وادعى أن العقل يعارض النصوص، فإنه قد يحتاج إلى حل شبهته وبيان بطلانها، فإذا أخذ النافي يذكر ألفاظاً مجملة، فهنا يستفصل السائل ويقول له: ماذا تريد بهذه الألفاظ المجرمة؟

فإن أراد بها حقاً وباطلاً قبل الحق ورُدَّ الباطل. وإذا قُدِّرَ أن المعارض أصر على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفيها بألفاظه الاصطلاحية المحدثه، قيل له: هب أنه سمي بهذا الاسم، فنفيك له: إما أن يكون بالشرع، وإما أن يكون بالعقل.

أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الأسماء في حق الله، لا بنفي ولا إثبات، ولم ينطق بذلك أحد من سلف الأمة لا بنفي ولا بإثبات.

وإن أردت أن نفي ذلك معلوم بالعقل، فيقال: الأمور العقلية لا عبرة فيها بالألفاظ، فالمعنى إذا كان معلوماً إثباته بالعقل لم يحز نفيه لتعبير المعبر عنه بأي عبارة عبر بها، وكذلك الحال في النفي العقلي لا يجوز إثباته بأي عبارة، والمنازعات اللفظية غير معتبرة في المعاني العقلية.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ الموقف من هذا الصنف، وأن المناظر يحتاج أن يعبر بألفاظ لا يطلقها إلا في مثل هذا الموضع بقوله: «وقد يقع في محاورته إطلاق هذه الألفاظ؛ لأجل اصطلاح النافي ولغته، وإن كان المطلق لا يستجيز إطلاقها في غير هذا المقام».

فتبين أن المصلحة الشرعية الراجحة هي الضابط والمعياري بحسب اختلاف حال المخاطبين.

١٢ - تبنى على الفقرة السابقة مسألة وهي: حكم معاملة أهل الاصطلاح باصطلاحهم. ويجب عنها شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ بالجواز إذا توفر فيها شرطان:

إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم، ومن كرهه من الأئمة، فإنما ذلك إذا لم يُحتج إليه، والله أعلم.

١٣ - المنازعات اللفظية اللغوية والاصطلاحية والعقلية والشرعية توجب

على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، كما أمرهم الله بذلك في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ١ - ٣] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقوله: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

١٤ - الاستفصال في بيان معاني الألفاظ المجملة هو الطريق الشرعي للتعامل معها إزاء المخالف، فيبين له ما وافق الحق وما خالفه، وهذا من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم.

ويشترط ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فيمن يستفصل في بيان الألفاظ المجملة شرطين وهما:

أن يكون عارفاً بمعاني الكتاب والسنة، وأن يكون عارفاً بمعاني ألفاظ المخالفين ومرادهم منها، لتقابل المعاني الشرعية بمعاني المخالفين؛ ليظهر الموافق والمخالف.

ويوجب ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى من يريد كشف ضلال من يطلق الألفاظ المجملة ألا يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين له معناه، ويعرف مقصوده، ويكون الكلام في المعاني العقلية المبينة، لا في معانٍ مشتبهة بألفاظ مجملة.

وينبه رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى طريقته إذا ذكروا لأحد كلامهم المجمل فاعترض عليهم بما تنفر عنه فطرته، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية ما يحملها على أن تسلّم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل.

والاستفصال في الألفاظ المجملة نافع في الشرع والعقل:

أما الشرع: فإن علينا أن نؤمن بما قاله الله ورسوله، فكل ما ثبت أن الرسول ﷺ قاله فعلينا أن نصدّق به، وإن لم نفهم معناه؛ لأننا قد علمنا أنه الصادق المصدوق الذي لا يقول على الله إلا الحق.

وما تنازعت فيه الأمة من الألفاظ المجملة فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء، لا في النفي ولا في الإثبات، حتى يستفصل ويبين له معناه، ويكون المعنى صواباً إذا كان موافقاً لقول المعصوم.

أما العقل: فمن تكلم بلفظ يحتمل معاني، لم يقبل قوله ولم يردّ حتى

نستفسره ونستفصله، ليتبين المعنى المراد، ويبقى الكلام في المعاني العقلية، لا في المنازعات اللفظية.

١٥ - الاستفصال في الألفاظ المجملة يكون كالتالي:

إن أراد المثبت لهذه الألفاظ بها معنى صحيحاً، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد النافي لهذه الألفاظ معنى صحيحاً، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد المثبت لهذه الألفاظ معنى باطلاً نفى ذلك المعنى عن الله عز وجل.

وأما من أثبت بلفظه حقاً وباطلاً، أو نفى بلفظه حقاً وباطلاً فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق، مخطئ فيما عناه من الباطل، قد لبس الحق بالباطل، وجمع في كلامه حقاً وباطلاً.

وأما الموقف من اللفظ مجرداً عن المعنى فإن الأصل هو التعبير بالألفاظ الشرعية الواردة كما تبين من قبل.

ولا ينبغي العدول إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد بها.

ويضرب ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ مثلاً على الحاجة وهو: أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها كمخاطبة العجمي بلغته.

ويسهل الأمر عند ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إِذَا عُبِّرَ بِالْأَلْفَاظِ الْمُحَدَّثَةِ الَّتِي تَحْمِلُ
معان صحيحة حين المنازعات العقلية، والله أعلم»^(١).

والمقصود؛ حفظ قالب حروف الشريعة، وحراستها من عاديات الألفاظ
المسمومة التي تحتل حَقًّا دُسَّ معه باطل، فيحار السامع ويتردد بين ردّه فيردّ
ما فيه من الحق، أو يقبله فيكون قد قبل الباطل، لذلك فالسلامة هي بالبقاء على
ألفاظ الشريعة وفيها غنية وكفاء، فإن ابتلينا بألفاظ أخرى وألجئنا لها فلا بد من
الاستفصال حتى يرد الحق لنصابه والباطل لنطاقه.

وبالجملة؛ فمن اعتصم بَمَعْنَى حَقٍّ وَلَفْظٍ حَقٍّ فَقَدْ اهْتَدَى وَأَنْجَحَ، وَمَنْ لَمْ
يَرِ فِي حُرُوفِ الشَّرْعِ غُنًى فَلَا أَغْنَاهُ اللهُ.



(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٣٤ - ١٤١) بتصرف يسير، وانظر: درء
تعارض العقل والنقل (١/ ١٣٣) وما بعدها، ففيها تحرير طويل ونفيس.

مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى

الاعتصام بغير الله داء قاتل، وسُمُّ نافع، يثلم الدين، ويهدم الإيمان، ويقطع الطريق بين العبد ورحمة ربه تعالى.

وقد يبتدى الأمر بضعف يسير، ثم يزداد مع المدى حتى ينتهي إلى الخروج من ربقة الدين، فأصل الشرك التفات القلب واعتصامه بغير الله تعالى، والتوحيد يعصف بالشرك ويقطع جذوره من القلب والجوارح، وعليه فتعزيز توحيد المعرفة والإثبات والقصد والطلب في القلب في الغاية من الأهمية، فهي المطلب الأسمى، والهدف الأشرف، والغاية الخالدة.

ولكل داء أعراض تشير إليه، وأسباب تدعو إليه، ولكل باطن مظاهر دالة عليه، ومن مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى:

١. الجهل بالله تعالى:

فالجهل أبو الخيبات، وسرداب الضيعات، ودهليز الهلكات، لذلك كانت أول آية في القرآن هي: ﴿اقْرَأْ﴾ فالقرآن منبع العلم النافع الدافع للجهل، والرافع لآفاته.

وكثير من الخلائق قد أتوا من ركن جهلهم، فالعلم سلاح المؤمن، وأشرف العلوم بإطلاق هو العلم بالله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآلائه وبما يستحق من الحمد والتقديس والتسبيح والذكر، ثم العلم بدينه وشرعه الذي ارتضاه صراطاً مستقيماً وطريقاً قوياً للوصول إلى حبه ومرضاته وجنته.

٢. التعلق بالمخلوق:

لا بأس من معاملة الناس والإفادة منهم والانتفاع منهم شريطة أن يكون تعلق المضغة فقط بمن فطرها وسواها وقدّر لها سيرها ومرساها، فكل شيء هالك إلا وجهه، وكل جبل منقطع إلا من جهته، وكل شأن مضمحل إلا من قبّله، فبه ومنه وإليه تُرجع الأمور وتُتصرّف الأشياء سبحانه وبحمده.

ومتى تعلق المرء بمخلوق ناقص ضعيف فقير فإنّ فلا تسأل عن خيئته وخساره من جهة مأموله ومطلوبه، أبّت سنة الخلاق القدير الحكيم تعالى إلا أن يكون النقص بقدر خطأ وجهة التعلق.

فكلما تعلق القلب بربه تنزّلت عليه المنح والألطاف، وانهمرت على دربه أسباب التوفيق والسعادة، وكلما ضعف تعلّقه انقطعت عنه الأسباب بحسبه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: تركهم ووكّلهم لأنفسهم.

عن عطاء الخراساني قال: لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت له: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: «يا داود؛ أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن؛ إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته؛ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي

وإِ هلك» (١).

وتعلق القلب بالله مستلزم لإخلاص الدين له، ولا يكفي العلم بقدرته تعالى، بل لا بد من العمل بمقتضاها من تجريد الاعتصام والعبادة. قال الدهلوي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الكفار في عهد الرسول ﷺ لم يكونوا يرون لله عديلاً يساويه في الألوهية والقدرة وفي الخلق، ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم والأصنام التي كانوا يعبدونها هم وكلاؤهم عند الله، وبذلك كفروا. فمن أثبت في عصرنا هذا لمخلوق التصرف في العالم، واعتقد أنه وكيله عند الله؛ ثبت عليه الشرك ولو لم يعدله بالله، ولم يثبت له قدرة تساوي قدرة الله» (٢).

ومن رام الوصول لمنح الكريم العلام فليزم عتبة الاعتصام. وإذا تولاه امرؤ دونَ الوري طُرّا تولاه العظيم الشأن وبالاعتصام بالله والاعتماد عليه، وإنزال الحوائج به دون غيره، يبطل كيد الكائدين، ويندفع عدوان المعتدين، وشر الحاسدين، من الإنس والجن

(١) قال الإمام أحمد: حدثنا به هشام بن القاسم ثنا أبو سعيد المؤدب ثنا من سمع عطاء.. «تيسير العزيز الحميد (١/ ١٣٩) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٨) بنحوه. وهو من أخبار وهب بن منبه رحمه الله تعالى، وقد كان من أحبار أهل الكتاب وأسلم وحسن إسلامه، وكثرت فوائده ومواعظه ووصاياه وأخباره. ولا بأس بالتحديث عنهم اعتباراً فيما لا يخالف شرعنا.

(٢) رسالة التوحيد، الدهلوي (١/ ٨٠).

والشياطين. وإذا ابتلي الإنسان بتعلق بغير الله فالواجب عليه الفزع إلى الله تعالى، والاعتصام والاستعاذة به، والتوبة والالتجاء إليه، ورجاؤه وحسن الظن به، والتوكل عليه، والتوجه إليه بقلبه وقلبه، وتفويض الأمور بحذاقها للطفه ورحمته وحكمته، فإن هذا هو السبب المنجي من الشرور، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه.

٣. التهالك على الدنيا، وإيثارها على الآخرة:

حب الدنيا مغروز في نفوس البشر، لأجل سيرورة استخلاصهم ليقوموا بمصالحهم، ويتابعوا معيشتهم وتناسلهم، لإقامة امتحان صلاحيتهم لقرب الله تعالى في جنته. ولا يلامون على حب الدنيا ابتداءً، فليس حبها بعيب ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو زاحمها، أو ألهى عنها، أو قسى القلب لأجلها، فحينها يكون حباً مذموماً.

وقد نبهنا الله تعالى لذلك في سورة الزهد فقال: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾ [سورة التكاثر] أي: «شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟!»

قال الحسن البصري: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ «في الأموال والأولاد». وعن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب».

وعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(٢).

وعن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنان: الحرص والأمل»^(٣).

ورأى الأحنف بن قيس في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر:

أَنْتَ لِلْهَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

(١) المسند (٢٤/٤) ومسلم (٢٩٥٨) وسنن الترمذي (٣٣٥٤) وسنن النسائي (٢٣٨/٦).

(٢) البخاري (٦٥١٤) وصحيح مسلم (٢٩٦٠).

(٣) البخاري (٦٤٢١) ومسلم (١٠٤٧).

وقال قتادة: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان. وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

والمراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فَنَعَمْ إِذَا» (١).

وعن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بُدُّ من أن يرجع إلى منزله.

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما أهلكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر.

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرْوُنَّ النَّارَ ۚ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿﴾ توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة خَرَّ كل ملك مقرب

(١) البخاري (٥٦٦٢، ٥٦٥٦، ٧٤٧٠).

ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأحوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨) أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وعن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما هاهنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم.

فعلّق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتيت؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم.

ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «لتسألنّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم»^(١).

وعن محمود بن الربيع قال: لما نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ:

(١) تفسير الطبري (١٨٥/٣٠) وبنحوه في صحيح مسلم (٢٠٣٨).

﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم تُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(١).

وعن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»^(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له: ألم نُصَحِّحْ لك جسمك، ونُزَوِّكَ من الماء البارد؟»^(٣).

وقال سعيد بن جبيرة: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) المسند (٤٢٩/٥).

(٢) المسند (٣٧٢/٥) وسنن ابن ماجه (٢١٤١) وقال البوصيري في الزوائد (١٥٨/٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٣) سنن الترمذي (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠).

قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيها استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(١). ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون»^(٢).

٤ - ضعف اليقين:

اليقين: هو قوة الإيمان والثبات، حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شدة يقينه، وعلى قدر اليقين يكون رسوخ الثقة في الموعد الإلهي، وما أجمله وأبهاه وأحلاه. ومن الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة.

واليقين من أكبر أسباب الثبات عند الزعازع والنوازع والرزايا والبلايا، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا، اللهم

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٣ - ٤٧٧) مختصراً.

متعنا بأسهاعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا^(١)، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا^(٢).

وفي وصية رسول الهدى ﷺ الشهيرة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «احفظ الله يحفظك».. «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا»^(٣).

واليقين صمام أمان للنجاة غدا، وفي حديث فتنة القبر: «وإن قال: أشهد أن

(١) أي: اجعلنا وارثين لقوانا، فموت حين نموت ونحن بكامل صحتنا، ولا نفقد منها شيئا.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) الترمذي ضمن جامع الأصول في أحاديث الرسول (٩٣١٥) (١١ / ٦٨٥) من رواية رزين، وتماه: عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: «كنتُ رَدِيفَ رسول الله ﷺ فقال لي: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحمّدهُ تُجاهك» - أو قال: أَمَامَكَ - تَعَرَّفَ إلى الله في الرِّخاء يَعْرِفَكَ في الشدة، إذا سَأَلْتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يَقْدِرُوا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك، جَفَّتِ الأقلام، وطُوِيَتِ الصحف. فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا. واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين». وبنحوه عند أحمد (٣٠٧ / ١) قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه جامع الأصول ١١ / ٦٨٥: «وهو حديث حسن بمجموع طرقه، بعضه عند أحمد، وبعضه عند الترمذي، وبعضه عند غيره».

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قيل: على اليقين عشت وعليه مت، هذا مقعدك من الجنة»^(١).

واليقين خير مطلوب وأجمل مرغوب، فعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قام على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسولُ الله ﷺ عام أولَ على المنبر، ثم بكى، فقال: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ، فَإِنْ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعدَ اليقين خيراً من العَافِيَةِ»^(٢).

أما ضعف اليقين فسرابٌ خيية، وباب حيرة، وبحرٌ شك، وسحابة ضلال، فليعتن الناصح لنفسه بهذا الباب العظيم، فلليقين شأن ليس كغيره، فهو أساس الدين الذي ترفع عليه أركانه، ويقوم عليه بنيانه، وهو فرقان الإيـمان عن النفاق، فالإيمان يقين والنفاق ريبة.

فكيف يعتصم من كان في قلبه قلق من حسن العاقبة للمعتصمين، أو شكٌ وريبة في حقائق الدين؟! إن ضعف اليقين سُمٌّ للروح، وظلام للبصيرة، ودهلـيز للخذلان، وزلزال للإيمان، والموفق حقاً والسعيد صدقاً هو من اعتصم بيقينه بموعد ربه تبارك وتعالى. وقد خاب من ولد آدم مَنْ حَمَلَ شَكًّا!

٥. الجزع:

الجزع ضعف وفشل وانهازم، وهو معيب حتى في الجاهلية. كما قال أبو طالب: «لولا أن تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يقولون: إنما حَمَلَهُ على ذلك الجزعُ، لأَقْرَرْتُ بها

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣) (٥) بسند صحيح.

عَيْنَكَ»^(١). وقد عزز الإسلام قيمة العزم والحزم والقوة، قال خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقريش لما أرادوا قتله: «دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت»^(٢).

والجزع علامة ومظهر على وَهْنِ حبل الاعتصام في قلب العبد، وانحسارِ حقائق الآخرة عن أطراف بصيرة الفؤاد، فالجزع دَهَشٌ يزعج سكينه الروح إلى اضطرابٍ وتشويشٍ وشتاتٍ، فيرميها من علياء يقينها وطمأنينة موارد علمها إلى صخرات طيش العقل، وانفلات زمام أمر اللب الحكيم في مهامه الفشل والحسرات. وعليه؛ فالجزع رِداءٌ رديءٌ على أكتاف المؤمن، وجدريٌّ قبيحٌ على مُحِيَّا المعتصم بربه الواثق بمعيته. فعليه من فوره الوضوء بماء التوبة، والتطهر بغسل الأوبة من الحوبة، والله يغفر ويعفو ويرحم ويكرم، وهل من خير إلا منه كرمًا وفضلًا، وهل من دافع شرٍّ إلا هو عزةً ورحمةً واقتدارًا.

فالمعتصم بالله حقيقة قوي حازم صابر، غير هيَّاب ولا جزوع ولا قنوط، ومن رأى في نفسه جزع فليراجع اعتصامه بمولاه فثَمَّ خلل هناك، والله المستعان.

٦. ضعف الصبر:

لما كان الصبر رأس الأعمال كان ضعفه مؤثرًا فيها ضرورة، وعلى قدر ضعف الصبر يكون الانحدار في الخذلان، وما نال العباد خير دنيا ولا آخرة إلا

(١) أخرجه أحمد (٤٣٤/٢).

(٢) البخاري ١٠٠/٥ (٣٩٨٩).

بركوبهم راحلة الصبر بإذن الله وتوفيقه.

والاعتصام بالله يمدّ الصبر بهادته، فمن كان بالله مستعصماً كان من الصابرين.

٧- التردد وعدم الثبات:

فالمعتصم ثابت الخطى، راسخ المبدأ، واثق المسير، نافذ البصيرة، فعنده من العلم بالله ما يهديه سواء السبيل، ومعه من مدد الله ولطفه ما يحوطه بالتوفيق والثبات.

والعالم بربه شديد الاعتصام به ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] أي يعتصمون به فقد حفظهم الله لحفظهم دينه وعملهم بعلمهم واستمسكهم بحبله.

فالاعتصام جدار يسند المؤمن ظهره إليه وعليه، فما حال من ضعف جداره أو سقط؟!

فاشدّد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

٨- موالاة أعداء الله تعالى:

ذلك أن المعتصم بالله موال لله ولحزبه المؤمنين، فهو لله وبالله ومع الله وإلى الله، يدور مع أمر ربه ومراده ومحابه ومراضيه، يوالي أوليائه ويعادي أعداءه. والله تعالى يحفظه ويحوطه ويجرسه ويوفقه.

أما من اعتصم بغير مولاه فقد دخل عليه عدوه من أبواب كثيرة واسعة،

من أكبرها باب ترك الاعتصام بالله أو ضعفه، فكيف حال من وكله الله لنفسه القاصرة أو خلقه العاجزين، بينما أعداؤه قد أحاطت بقلبه وروحه إحاطة السوار بالمعصم؟! ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويا خيبة المغترّين!



عوائق تحقيق الاعتصام

أمرٌ بهذه العظمة ليس بغريب على الشيطان أن يسعى دون تحصيل العبد له بكل جهده وحوله وطاقته، وأن يُجلب على حرمانه منه جميع خيله ورجله، وعلى هذا فلا بد للمؤمن أن يكون يقظاً متنبهاً بصيراً.

فتحقيق الاعتصام هو في حقيقته تحقيق للتوحيد الذي هو مقصد الخليقة، فاقدر له قدره يا صاح.

وما مضى من مظاهر ضعفه هي راجعة كذلك لموانع تحقيقه، واعلم أن من موانع تحقيقه كذلك:

١ - الشرك بالله تعالى، ذلك أن التعلق بغير الله هو نوع تشريك به حتى وإن لم يوصل للشرك الأكبر.

٢ - التعلق بالدنيا والتهالك عليها والعيش في سبيلها، والغفلة عما خلقنا لأجله، فنحن في الحقيقة من نسل الآخرة لا الدنيا.

ولكننا سبي العدو فهل ترى نردّ إلى أوطاننا ونسلم

٣ - الكفر، وأقله كفران النعم ونسيان مسديها.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] «لا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شمسُ العرفان أن يوقع الكفر عليه ظلّ، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا

أدبر الليل من ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ﴾ الآية؛ إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله، فأَمَّا مَنْ لم يَهْدِهِ الله فمتى يعتصم بالله؟ فالهدايةُ منه في البداية توجبُ اعتصامك في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوء إليه، ودوامُ الفرار إليه، واستصحاب الاستغاثة إليه»^(١).

ويزيد الأمر عند الكافر خبثاً إن جمع إليه نفاق. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾^(١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

«وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لأنهم شرُّ أهلها بما جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح وأنفسهم أخس الأنفس، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد، وغلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره، باتخاذهم شفعاء عنده، ووسطاء بينهم وبينه، قياساً على معاملة ملوكهم المستبدين، وأمرائهم الظالمين، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ومخادعة الله والمؤمنين، والإصرار على الكذب والغش، ومقابلة هذا بوجه وذاك بوجه.

(١) تفسير القشيري (١/ ٣٦٣).

فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحاً وعقولاً؛ كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً ينقذهم من عذابها أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فاستثنى الله تعالى من ذلك الجزاء الشديد الذي أعده للمنافقين من تابوا من النفاق والكفر بالندم على ما كان منهم مع تركه والعزم على عدم مقارفته، وعززوا هذه التوبة بثلاثة أمور:

أحدها: الإصلاح، وهو إنما يكون بالاجتهاد في أعمال الإيمان التي تغسل ما تلوثت به النفس من أعماق النفاق، كالترام الصدق والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمانة التامة، والوفاء، وإقامة الصلاة بالخشوع والحضور، ومراقبة الله تعالى وما أشبه ذلك.

ثانيها: الاعتصام بالله، وهو إنما يكون بالتمسك بكتابه، تخلّقاً بأخلاقه وتأديباً بآدابه، واعتباراً بمواعظه، ورجاءً في وعده، وخوفاً من وعيده، وانتهاء عن منهيته، واثباتاً بأوامره بحسب الاستطاعة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] أي: اعتصموا بهذا النور الذي أنزل إليهم وهو القرآن المجيد، وهو حبل الله في الآية الأخرى.

ثالثها: إخلاص الدين لله عز وجل بأن يتوجه إليه وحده فلا يدعى من دونه أحد، ولا يدعى معه أحد، لا لكشف ضر ولا ل جلب نفع، ولا يتخذ من

دونه أولياء يجعلون وسطاء عنده، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة - وأعظمها وأهم أركانها الدعاء - خالصاً له وحده، لا تتوجه فيه النفس إلى غيره ولا يسأل اللسان سواه، ولا يستعان فيما وراء الأسباب العامة بين البشر بمن عداه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥٠﴾ هذا هو أهم ما يقال في إخلاص الدين لله.

الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فمن تأمل ما قلناه بإنصاف ظهر له به على اختصاره: أن محمداً النبي الأُمِّي ﷺ كان نفسه برهاناً من الله تعالى - أي حجة قطعية - على حقية دينه، وأن كتابه القرآن العربي أنزل من العلم الإلهي عليه، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله، وإنما أنزل نوراً مبيناً إلى جميع الناس، ليروا بتدبيره حقيقة دين الله الذي يسعدون به حياتهم الدنيا، وينالون به في الآخرة ما هو خير وأبقى، ولذلك قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

والاعتصام: هو الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ، مأخوذ من العصام، وهو: الحبل الذي تشد به القربة والإداوة لتحمل به، والأعصم: الوعل يعتصم في شعاف الجبال وقننها، فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله تعالى في رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم. ويدل على هذا التخصيص تنكير الفضل والرحمة، ورحمة الله وفضله غير محصورين، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما، وقد فسرت الرحمة هنا بالجنة، والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

ويمكن أن يفسر بما هو أعم من نعيم الآخرة جزاء وزيادة، فيشمل ما يكون لأهل الاعتصام بالقرآن الذي هو حبل الله المتين من الخصوصية في

الدنيا، إذ يكونون رحمة للناس بعلومهم وأعمالهم وفضائلهم واجتماعهم
وتعاونهم وتراحهم، يرحم الناس بالافتداء بهم والافتباس منهم»^(١).



(١) تفسير المنار (٥ / ٣٨٥ - ٣٨٧).

العصمة من فتنة الشهوات

قلب المؤمن المسافر لربه والدار الآخرة يعترضه سبعان ضاريان؛ سبع الغضب وسبع الشهوة، والسعيد من وقاه ربه غائلتهما، فهما غريزتان ضروريتان لبقاء الجنس الإنساني، فالشهوة لبقاء نوعه، إذ لو بردت أو بادت لم يسع إلى الجماع المؤدّي إلى التناسل والبقاء بإذن الله تعالى، فالآدمي بطبعه أنانيّ ذاتيّ ما لم تُحرّكه رغبة خارجة، وكذلك شهوة الطعام والشراب واللباس والعمل والإنجاز والجاه ونحوها، فلو لم تكون تلك الخلال فيه لحيف عليه العطب والضيعة والخمود حتى الهلاك، لكنها محرّكة همته لمصالحه، وإنما العلم والإيمان مهذبان ناصحان.

أما غريزة الغضب فضرورية لبقائه كذلك، لأنه إن لم يغضب لم يدفع عن نفسه الأذى، كما قال الشافعي رحمه الله تعالى: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار». فالغضب والشهوة سلاحان له، وغريزتان لصلاحه وبقائه، فعليه ألاّ يقلبهما سلاحان عليه، إن لم يخطمهما بشرع ربه الأعلى.

فالغضب يُلجِمُ بالحلم وتذكّر مآل كاظمي الغيظ، والشهوة تلجم بالإيمان وتذكّر من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن حرّك قلبه عندهما يتدبر قوله ربه: ﴿أَذِلَّةَ خَيْرٍ أَمْ جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] أوشك أن يفلح بإذن الله تعالى.

فشهوات النفس الأمارة وغرائزها المستعصية يمكن كبحها بعلم رسوليّ

وعقل روحاني، يسير مع دنيا الناس بجسده، وهو في الملا الأعلى بروحه وهمته. وشهوات النفس كثيرة كشهوة الجاه والرئاسة والمال والولد، وأشدها النساء، فهن حبائل الشيطان ومصارع الرجال. فعند مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرْتُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ». زاد في رواية: «فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١) وعند الشيخين: «ما تركت بعدي فتنة هي أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

وقد نبهنا الله تعالى لتلك الفتن بقوله الأعز: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، فقدم النساء على جميع الشهوات، فينبغي للمؤمن الاعتصام بالله، والرغبة إليه في النجاة من فتنتهن، والسلامة من شرهن، وفي الأثر: لما خلق الله المرأة فرح الشيطان فرحاً عظيماً، وقال: هذه حباتي التي لا يكاد يخطئني من نصبتها له^(٣).

والعاقل مراقب لنفسه حارس لقلبه، ومتى ألمَّ بقدر معصية عاد لربه من باب الانكسار والحياء قائلاً: «إلهي؛ لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لا طلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً في مغفرتك، واتكالا على

(١) أخرجه مسلم (٤٧/٧).

(٢) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨٩/٨ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٣) ذكره العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٩/٢٢٩).

عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك.
وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخى علي، وأعاني
جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك..
ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف
بالعجز والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله
يجب من عبده أن يتملق له^(١).

وفي الصحيح: «لا أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله»^(٢) وإن كان معنى ذلك
الإعذار كما قال في آخر الحديث: «من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين
ومنذرين» وقال تعالى: ﴿فَالْمُلقِيَتِ ذِكْرًا ۝ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥ - ٦] فإنه
من تمام عدله وإحسانه أن أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال
الإعذار وإقامة الحجة عليه، فهو أيضاً يجب من عبده أن يعتذر إليه ويتنصل إليه

(١) أي يظهر له ضعفه وعجزه وضراوته وافتقاره إليه في كل أحواله.

(٢) صحيح البخاري (٩ / ١٢٣) وصحيح مسلم (٢ / ١١٣٦) وتامه بلفظ البخاري:
«أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني من أجل غيرة الله حرم
الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر
من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه
المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنة».

من ذنبه. فهذا هو الاعتذار المحمود النافع»^(١).

والعفيف معتصم بحبل ربه، موعود بحسن العاقبة، فهو يحب العفيفين، فالعفة نقاء وطهارة ونظافة وسلامة وعافية، وتأمل عفاف الصديقة مريم حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] «أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه.

وهذه العفة - خصوصًا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع - من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله ورسولًا من رسله»^(٢).

وتأمل حال الصديق يوسف عليه السلام حينما اعتصم بمولاه من الفاحشة فعصمه ربه ووهب له خزان مصر ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

(١) مدارج السالكين (١/ ١٨٣) بتصرف يسير.

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٩١).

وَأَلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]. فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة. ومن اعتصم بالله حفظه وهدى قلبه وأنار قلبه قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] «أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوَّان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

والإيمان لا يقوم إلا بالاعتصام، والهلكة في الانخلاع من عصمة الله للعبد، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده اشتدت عليه مفارقتها، وعلم أن الهلك كل الهلك بعده، وهو حقيقة الخذلان. فما خلى الله بينه وبين الذنب إلا بعد أن خذله وخلى بينه وبين نفسه، ولو عصمه ووفقه لما وجد الذنب إليه سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلي بينك وبينها، والتوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك.

وإن الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، وفرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من موافقتها.

والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه

من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتَّهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابه للذنوب وغازله وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام!«^(١)

وبالجملة فالعبد لا ينفك عن ضرورة اعتصامه بالله من الذنب بالحفظ والعصمة، وبعده بالتوفيق للتوبة وقبولها، والله المستعان.



(١) مدارج السالكين (١ / ١٨١) بتصرف.

عاقبة ترك الاعتصام أو ضعفه

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

وعليه فمن اعتصم بغيره فقد ضل وخسر وهلك!

فكيف يكون حال من خُذِلَ من بيده مقاليد الأمور، وتصاريف الأقدار، ومفاتيح الأرزاق، ونهايات الأشياء، ومن أمره تبتدئ الأحداث وإليه تصير الأمور؟!!

إنَّ ترك الاعتصام هو عنوان الخذلان التام، ومقرّ الخيبة الكاملة، ومستودع الندامة الكبرى. فيا مؤمن؛ اتق الله وبه اعتصم.

وعلى قدر نقص الاعتصام بالرحمن يكون العبد مستحقاً للحرمان، فاعتن بنفسك، وحاسب خطراتك، وفتش قلبك، واراع هواجسك، واحرس أفكارك، فلا تلتفت لغير الله الأجلّ، ولا تتعلق بسواه، ولا تأمل غيره، ولا تحش سواه، فما ثم إلا رحمة الله أو الهلكة!

ومن تأمل أحوال المتعلقين بغير الله تعالى يجد الخذلان مضطرباً في حياتهم، ولا جرم؛ فمن ولّى دبره لحبل الله فلا تسل عن خذلانه في أعماله، وتعاسته في معاشه، ووحشته في حياته الأشبه بالموات، وعدم التوفيق في مساعيه وأمانيه.

وإن كانت هذه عاقبة، إلا أنها مظهرٌ كذلك في الأغلب، والجزاء من جنس العمل، ومن أدار ظهر قلبه لمادة التوفيق ومعدن الفلاح فلا يلو من إلا نفسه عند انكشافه لكل غاشية وكاسحة. وتأمل المعوذات وحال المؤمن معها، وسنبسط

الكلام في ذلك فيما يُستقبل بإذن الله في الكلام على الاستعاذة بالله تعالى.

إن من لم يكتف بمنبع الهدى الرباني - كتابًا وسنة - فهو ضال زائع حتى وإن تلبست له شبهاتُه زيوفَ الحقائق، قال ابن تيمية: «لا بد من الاعتصام بالكتاب والسنة في العلم والعمل، ولا يمكن أن أحدًا بعد الرسول ﷺ يعلم ما أخبر به الرسول من الغيب بنفسه بلا واسطة الرسول، ولا يستغني أحد في معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ».

وكلام الرسول مبين للحق بنفسه، ليس كشف أحد ولا قياسه معيارًا عليه، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه، بل ما يسمى كشفًا وقياسًا وهو مخالف للرسول فهذا قياس فاسد وخيال فاسد، وهو الذي يقال فيه: نعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي!

والإنسان قد يُصَفِّي نفسه ويلقي الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] (١).

وهذا الكلام التيمي المتين حوى ردًا موجزًا متقنًا على طائفتين ضالتين: الفلاسفة الإلهيين، والمتصوفة الكشفيين، فهم قد راموا كشف غيوب السماء بخيال تائه وذوق تالف، فأمرور الغيب حَجْرٌ لا يعلمها إلا الله وحده، ثم من

(١) الرد على المنطقيين (١/ ٥١٢).

شاء الله من كشفه له عبر الوحي، وعليه؛ فمن رام العلم النافع، والكشف المفيد، والخبر المبارك، والبصيرة النافذة فليعتصم بالوحي المنزل، ففيه الغنى كل الغنى، والكفاية التامة لكل ما يحتاجه العقل وترنو إليه الروح، أما من طلب ذلك من غير هذا الباب فهو يجمع جهلاً إلى جهل، ورُبَّ علم الجهل خير منه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

فلا مندوحة للمؤمن عن متابعة الوحي مهما كان وارد القلب: «..وحيثُذ فيكون حفظ الولي بمتابعة الكتاب والسنة، ولا ريب أن السنة كما كان الزهري يذكر عمن مضى من سلف المؤمنين قال: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة. وقال مالك: السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.

وإن قُدِّرَ أن المُحدِّث ممن قبلنا كان ينسخ ما يلقيه الشيطان فيما يلقي إليه من غير استدلال بالنبوة؛ فيكون من كان قبلنا كانوا مأمورين باتباع المحدث مطلقاً لعصمة الله إياه، ونحن لم نؤمر بذلك.

وسبب ذلك أن من كان قبلنا لم تكن يكفيهم نبوة واحدة، بل كانوا يأخذون بعض الدين عن هذا النبي وبعضه عن هذا النبي بتصديق الآخر له، كما كان أنبياء بني إسرائيل مأمورين باتباع التوراة، وكما أن المسيح أحلّ لهم بعض ما حرم عليهم وأحالهم في أكثر الأحكام على التوراة.

وأما نبوة محمد ﷺ فهي كافية لأمته كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿[العنكبوت: ٥١]﴾^(١).

فمعيار قبول العمل ثلاثة أمور: الإيثار والإخلاص والاتباع، فلا يقبل عمل كافر ولا مشرك ولا متعبد بغير ما شرع، «والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلا: أحدهما: ألا يعبد الا الله، والثاني: ألا يعبد إلا بما أمر وشرع، لا يعبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]»^(٢).

«ومعلوم إن كل من سلك إلى الله جل وعز علماً وعملاً بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية، فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيّج فلا بد أن يسلك بُنَيَات الطريق، وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهداً فيه مخطئاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون ذنباً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون كفراً. بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فإنها أقوم الطرق ليس فيها عوج

(١) الصفدية (١/ ٢٥٧).

(٢) العبودية (١/ ٧١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]»^(١).

وبعض الناس قد يُبتلى بمكاشفات وتأثيرات استدراجاً له لا رضا بحاله، ومعيار ذلك تقيده بالسنة، وقد تكون رحمة له وترغيباً إن ردّته للسنة، وثبتت فيه قواعد الإيمان للدوران مع وحي الله تعالى ومراده.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعلم الناس وأتقاهم وأزكاهم وأنصحهم وأفصحهم، وقد جاء بالنور المبين، ووضح الله به الطريق المستقيم، «إن رسول الله ﷺ أعلم الخلق بطريق الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفضل الخلق وأطوعهم له، وأتبعهم لسنته.

والأحوال التي تحصل عن أعمال فيها مخالفة للسنة أحوال غير محمودة، وإن كان فيها مكاشفات وتأثيرات، فمن كان خبيراً بهذا الباب علم أن الأحوال الحاصلة عن عبادات غير مشروعة كالأموال المكسوبة بطريق غير شرعي، والملك الحاصل بطريق غير شرعي. فإن لم يتدارك الله عبده بتوبة، يتبع بها الطريق الشرعية، وإلا كانت تلك الأمور سبباً لضرر يحصل له، ثم قد يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون مذنباً ذنباً مغفوراً لحسنات ماحية، وقد يكون مبتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يعاقب بسلب تلك الأحوال، وإذا أصر على ترك ما أمر به من السنة، وفعل ما نهى عنه، فقد يعاقب بسلب فعل الواجبات، حتى قد يصير فاسقاً أو داعياً إلى بدعة.

(١) العقيدة الأصفهانية (١/١٦٦).

وإن أصر على الكبائر، فقد يُخاف عليه أن يُسلب الإيمان، فإن البدع لا تزال تخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة، كما وقع هذا لغير واحد ممن كان لهم أحوال من المكاشفات والتأثيرات، وقد عرفنا من هذا ما ليس هذا موضع ذكره»^(١).

فالمؤمن معتصم بربه تعالى في كل أحواله، مستمسك بحبل شريعته، لا تزيغ به الأهواء، قد وثق بالعلم الشرعي واكتفى به، وسلك به طريقه إلى ربه تبارك وتعالى، وأطر نفسه على لزوم جادة سيد المرسلين ﷺ.

تلك سنة المرسلين وأتباعهم لا يزيغ عنها إلا هالك، وكم وقعت طرائد بني آدم في حبائل الرجيم بتعليقهم بغير ربهم سبحانه، «وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ فهو لاء ليس فيهم من يرغب في ذلك ولا يدعو إليه.

وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان والهدى والسعد والرشاد والنور والفلاح وأهل المعرفة والعلم واليقين والإخلاص والمحبة له والتوكل عليه والخشية له والإنابة إليه.. فإن القيام بحقائق الدين علمًا وحالًا وقولًا وعملاً ومعرفة وذوقًا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة؛ فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا.

(١) الفتاوى الكبرى (٢/ ١٤١).

وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقاً، ورضي عن اتبعهم بإحسان.

قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح. وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنّاً فليستنّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(١). فيا من عرفت وعلمت؛ الزم غرر الاعتصام بالرحمن، وافرح دوماً بالملك العلام.



(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٢ - ٥٧٤).

ليس من شرط الولاية العصمة من الخطأ

المؤمن يعتصم بالله تعالى ويبذل وسعه وجهده وطاقته في الاعتصام بدينه علماً وعملاً، فإن نقص علمه أو عمله لقصور أو تقصير فهذا حتم القضاء وسنة النقص على أهيل الدنيا والابتلاء لأهل العبودية.

وليس في هذا تبرير للمعصية، ولا إيهان للخطيئة، بل كل إنسان مسؤول عن علمه وعمله، وما استفرغ فيه عمره إلى منتهى أجله، فربُّه قد بين المحجة وأقام الحجة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وبسط القوى وتحريك الإرادة، وأمدّه بعلم الشرع والفطرة والعقل والملائكة، وابتلاه بالنفس الأمارّة والشيطان الموسوس والدنيا الفاتنة، وكلُّ يردُّ يوم البعث على ما قدّم، إن خيراً فخير وليحمد الله، وإن شراً فلا يلومنّ إلا نفسه.

وبالجملة؛ فكل بني آدم خطّاء، ولكن للمؤمن باب عظيم يرجع منه إلى رحمة ربه وعفوه وغفرانه ورضاه، وهو باب التوبة، فالله تواب يحب التوابين، وعلى قدر المعصية كمّاً وكيفاً وإصراراً وحالاً يكون نقص ولاية العبد، وعلى قدر تكميل التوبة والعمل الصالح يكون تحصيل الولاية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن تشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن

لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٥-٢٨٦﴾ وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: «قد فعلت».

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله: «قد فعلت» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: «قد فعلت» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: «قد فعلت» (١).

(١) مسلم (٨١/١).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمر بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر»^(١). فلم يؤثم المجتهد المخطئ؛ بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجعل خطأه مغفوراً له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه.

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيثار بجميع ما يقوله من هو ولي الله لئلا يكون نبياً؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط: فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً، وخيار الأمور أوساطها وهو ألا يُجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يُتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول

(١) البخاري ١٣٢/٩ (٧٣٥٢) ومسلم ١٣١/٥ (١٧١٦).

بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم»^(١) وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر». ثبت هذا عنه من رواية الشعبي. وقال ابن عمر: «ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا؛ إلا كان كما يقول». وعن قيس بن طارق قال: «كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك».

وكان عمر يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات؛ فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدث في هذه الأمة، فأئى محدث ومُخاطب فرض في أمة محمد ﷺ فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقه غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة

(١) مسلم (١١٥/٧).

المشركين، والحديث معروف في البخاري وغيره؛ فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمئة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر، فشق ذلك على كثير من المسلمين، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه». ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى»، قال: «أقلت لك أنك تأتيه العام؟» قال: لا، قال: «إنك آتية ومطوف به» فذهب عمر إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له مثل ما قال النبي ﷺ وردّ عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجع عن ذلك وقال: «فعملتُ لذلك أعمالاً»^(١).

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولاً، فلما قال أبو بكر: إنه مات، رجع عمر عن ذلك.

(١) أحمد (٣٢٣/٤، ٣٢٨) والبخاري (١١/٣) ومراده: أعمالاً يكفر الله تعالى بها صنيعي الذي ندمت عليه، وهذا من فقهه ودينه وورعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(١) فقال له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألم يقل: «إلا بحقها» فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبين تقدُّم أبي بكر على عمر مع أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحدثٌ؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقَّى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ.

ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشاور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وينظرهم، ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني.

فأيُّ أحدٍ ادَّعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله وأنه مُخاطَبٌ يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون، ومثل هذا من أضلَّ الناس. فعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل منه وهو أمير المؤمنين وكان المسلمون ينازعونه فيما

(١) مسلم ١٢١/٧ (٢٤٠٥).

يقوله، وهو وهم على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله، له أجر على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وهذا تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال ابن مسعود وغيره: «حق تقاته: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر». أي بحسب استطاعتكم، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] (١).

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١/ ٣٦ - ٤٠) باختصار يسير.

وقال العلامة الشيخ محمد رشيد رضا^(١) في تفسيره المنار عند قول الله تعالى:

(١) نشرت مقالاً في صحيفة الاقتصادية عن الشيخ محمد بعنوان: «الإمام محمد رشيد رضا..

فتى القلمون، والهمم الإصلاحية».

وفيه: خلق الله تبارك وتعالى بني الإنسان بتمايز في القدرات العقلية والجسدية، وفاوت بينهم في المنح والأرزاق العلمية والإيمانية والمادية، وفرّقهم في أصاير الأزمنة والأمكنة على امتداد التاريخ الإنساني السحيق، وحسابهم غداً على قدر النعمة.

من أولئك الأفاضل النواذر رجل بحجم همّ أمة كاملة، يقلقه وجع مسلم في أقصى المشرق، ويفرحه سرور آخر على شاطئ الأطلنطي، ويقلّقه جهل فنام من أمته بحقائق الديانة، ويكيه بكاء أرملة، ويشجيه دمع یتيم.

نظر إلى حال أمته في ذلك الزمان العصيب، وقد خيم عليهم الجهل، وثار بينهم العصبية والقوميات، واندرس وشي الإسلام أو كاد، واتخذت البدع سنناً وسنناً، وانقلب المنكر معروفاً، وتداعت أمم الكفر على الأمة كما تداعى الأكلة على قصعتها، وألقي الوهن على قادتها ساسة وعلماء.. فصرخ بلسان حاله: أن للأمة النهوض، بل الوثوب.

ولم يكتف بتسطير الأحلام والأمانى، بل شدّ صلبه، ووجه همته وكفاحه، لتحقيق ما استطاع من ذلك الهم السامي.. هم الإصلاح الحقيقي للأمة، والنهوض بكل متطلبات حضارتها، في الإيمان والعلم الشرعي والتجريبي، والوعي السياسي، والإصلاح الاجتماعي والصناعي والزراعي وكل ما يلزم من مفاتيح التقدم ديناً ودنيا.. أما كيف ذلك؟ وما هي نسبة تحقق مراده؟ لنرى:

ولد الإمام محمد رشيد رضا يوم ٢٧ / ٥ / ١٢٨٢ هـ في بلدة القلمون الشامية، ونشأ في بيت علم وفضيلة، وحفظ القرآن في صباه، وألحقه أبوه بالمدرسة الوطنية

الإسلامية في طرابلس، وقرأ على علماء طرابلس فنون العلم.. وكان المنعطف المهم في وجهته الدعوية حينما قرأ عدد من مجلة العروة الوثقى، إذ اتفق أنه قرأها أثناء تقلبيه لأوراق والده. وهذه المجلة كان يحررها الشيخ محمد عبده، فبحث عن أعدادها الأخرى فقرأها بنهم، وقد تكوّنت لديه رؤية واسعة لما قد يستطيعه الداعية إلى الله إن وفقه الله للعلم والعمل والدعوة والصبر والحكمة.

فابتدأ مشروعه الكبير من قرينته القلمون، فوعظ ودرّس وعلم الناس حتى ظهرت ثمار دعوته في بلده وما حوّلها. ومن المفارقة أن دار الزمان حتى أصدر فيها بعد مجلة فيقرأ أحد أعدادها شابّ ألباني فتكون من أسباب توجّهه للحديث، فيتصلع منه حتى يصبح محدّث الدنيا في وقته ذاك هو الإمام الألباني..

ثم أزمع الهجرة لمصر لأمرين: أحدهما: لقاء أستاذه الشيخ محمد عبده، والقرب منه والإفادة من تجاربه وعلمه وتوجيهه، وكان قد التقاه مرتين في طرابلس إبان زيارة الشيخ للشام.

والثاني: البحث عن محضن حرّ لمشروعه الفكري الإعلامي النهضوي عبر إنشاء صحيفة قويّة البناء، صحيحة العلم، سليمة المنهج، صادقة الطرح، وقد كانت مصر خير من يمثل القالب لتحقيق ذلك الحلم لذلك الشاب الطموح. وفي هذا ملمح لأهل الإصلاح ألا يقبّعوا في مكان إن كان غيره أولى، وقد كانت مجلة العروة الوثقى بباريسية الصدور، فلم يضرها ذلك، كما حال مجلة البيان اللندنية الآن.

وصل القاهرة في رجب عام ١٣١٥ والتقى في اليوم الثاني شيخه وأستاذه محمد عبده، ومن هناك وضع لبنة مشروعه العظيم، فاستشار شيخه بعد مدة في إصدار مجلة أسبوعية تكون منبراً للإصلاح فوافقه شيخه، وكان ذا حظوة عنده، وأهداه كتابي التوحيد وكشف الشبهات للإمام المجدد، فأثنى عليهما وعلى صاحبهما وأيدّهما - رحمهم الله - جميعاً، وكان مما قال أستاذه له على عصرانته: إنه لم تُظلم حركة إصلاحية =

قط كما ظلمت هذه الحركة الصافية.

ثم اختارا اسماً للمجلة هو المنار، تيمناً بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الحاكم وغيره بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِن لِلْإِسْلَامِ صُورَى وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ». وصدر العدد الأول في ١٠ / ١٣١٥؛ أي بعد ثلاثة أشهر من وصول الشيخ لمصر، وكان حينها في الثالثة والثلاثين من عمره. وتأمل انتقاد المهمة ومضاء العزم. فكان هو المحرّر لأكثر مقالاتها على تنوعها، مع استكثابه لقامات كبار كتّاب عصره. وهذا يذكرنا بمجلة العرب وصاحبها العلامة حمد الجاسر رَحِمَهُ اللَّهُ، كذلك الرسالة للزيات - وقد كان الشيخ محمد سيّال العلم والبيان.

ومع صدور العدد الثاني صودر في الشام من قبل الدولة العثمانية لمقالة فيها بعنوان: القول الفصل في سعادة الأمة. وتلا ذلك اضطهاد والد الشيخ وإخوته ومصادرة أملاكهم في القلمون، ولم يستطع زيارتهم إلا بعد أحد عشر عامًا.

وكتب الله تعالى القبول لهذه المجلة، فسارت في الناس مسير الشمس، وتلقّفوها مستبشرين بما فيها من تحقيق وتحرير وغيره وصدق ونصح. مع ذلك فقد كانت متنوّعة المواضيع، إلا أن جامعها الرصانة والاستقامة. وهي أعظم آثار الشيخ، وقد استمرت من سنة ١٣١٦ إلى سنة ١٣٥٤ واستغرقت ثلاثة وثلاثين مجلدًا، ضمت ١٦٠,٠٠٠ صفحة. لم يكتف الشيخ بالتوجيه من خلف الأوراق، بل نزل بنفسه لميدان التربية والتعليم، وأسّس دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المؤصّلين على منهج السلف الصالح ونشرهم في أقطار المسلمين. فافتتحها عام ١٣٣٠ هـ لكن ضيق ذات يده حال دون استمرارها.

كان حريصًا على وحدة المسلمين واتحادهم ضد عدوهم، فأيد بعض الزعماء العرب محرّضًا لهم على خدمة الإسلام، ثم سحب تأييده لهم عندما تحولوا عن ذلك، وأخيرًا وجد ضالته المنشودة في الملك عبد العزيز باستقامته وصدقه والتزامه الكتاب

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]: هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية، ألبسوها أولاً ثوب الشريعة وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة، ثم صاروا يلبسونها عليها لبساً، ويعدون بها عنها معنى وحساً بقدر ما يبعدون عن الاتباع، ويوغلون في الابتداع.

واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الأولين كالحارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور بن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم، فإن أكثر أولئك قد رووا الحديث وتفقهوا في الدين، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة، ويحذرون ويحذرون أتباعهم من البدع، ويحثون على اتباع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الأمصار كالأربعة وطبقتهم، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجالين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والإسلام، وكتابهم (الفيدا) وكتابه القرآن.

أمرر ببصرك على طبقات الشعراي الكبرى، فإنك لا ترى فيها فرقاً كبيراً

والسنة، ولم يترك الأمر للدعايات المضللة دونه، بل قابله وناقشه وبحثه، مما أثمر تأييده والدفاع عن منهجه، وظل وفياً حتى اللحظة الأخيرة. تميّز رحمه الله بثلاثة أمور: موسوعية العلم، واتّقاد الغيرة على الدين، والشجاعة الأدبية.

توفي رحمه الله في مصر يوم الخميس ٢٣ / ٥ / ١٣٥٤ هـ، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره: «فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام».

بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر، وتأمل ووازن ترّ في أولياء الشعراني المجانين والمُجَّان والقذرين الذين تتناثر الحشرات من رءوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى، أو في السنة مرة واحدة، تجد ذلك البون الشاسع فيهم، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الألوهية!

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الأقطاب الأربعة، فإنك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتجد أن الشيخ أحمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره، ويخاطبونه بلقب الدجال ويرمونه بالجمع بين النساء والرجال، وأما الدسوقي فكتب عنه أنه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش، ونقل عنه كتابًا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء.. وقال عن أحدهم: ويزعم الشعراني أن هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في ثلاثين مسجدًا من مساجد القطر المصري، بناء على قاعدتهم أن الولي قد يتمثل بالصور الكثيرة في الأمكنة المختلفة، كالشياطين والملائكة، وهم لا يفرقون بينهما.

ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان، والولي الذي كان يسكن في ماخور المومسات ليشفع لكل من يأتيهن عند الله ويمسكه عندهن إلى أن يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له، وكان من كراماته

إتيان الأتان!

فهذا الكفر والشرك والإلحاد ومعارضة القرآن، واجتراح كبائر الفسوق والعصيان، كله عنده وعند أمثاله من كرامات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويطيع أمرهم رضوان خازن الجنان، ومالك خازن النار، كما نقله الشعراني عن الدسوقي.

وجملة القول إنهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة أحياء وأمواتاً، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر وأمثالها من الأقطار، فهم يعتمدون على هؤلاء الأولياء في أمور دنياهم وآخرتهم.

وإنك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ويقولون تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ [الزمر: ٣٤] فهم يزعمون أنه هؤلاء الأولياء الخياليين، وأن الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لأنفسهم ولغيرهم في الدنيا والآخرة، كما يزعم الذين يقولون إن منهم أقطاباً متصرفين (أو مدركين) بالكون كله، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه، وإنما وردت هذه الجملة في عدة سور في جزاء أهل الجنة في الجنة، لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم، راجع سورة النحل (١٦): ٣٠-٣٢ وسورة الفرقان (١٥، ١٦) وسورة الزمر (٣٩: ٣٣، ٣٤) وسورة الشورى (٤٢: ٢٢) وسورة ق (٥٠: ٣١-٣٥).

وجملة القول: إن جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه

الأمة الصالح لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة، ولو صح أنها من الإسلام لكان ما جاء الرسول ناقصاً ثم كمل بها»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «والذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب ويدعونها تنزل عليهم أرواح من الجن، وتقضي لهم كثيراً من حوائجهم، ويسمونهم روحانية ذلك الكوكب وهو شيطان، ومن الشياطين من يطير بصاحبه من الإنس في الهواء ويضعه على رأس السنّان، ويدخل به النار فيمنعه حرّها. فالسعادة والنجاة في الاعتصام بالكتاب والسنة واتباع ما شرع كما شرع. والدعاء من أجل العبادات، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة فإنها معصومة، كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة، فإن هذا هو الصراط المستقيم والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين.

وليحذر العبد مسالك أهل الظلم والجهل الذين يرون أنهم يسلكون مسالك العلماء، تسمع من أحدهم جَعَجَعَةً ولا ترى طِحْنًا، فيرى أحدهم أنه في أعلى درجات العلم وهو إنما يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا»^(٢). وهذه حروف في الغاية من العلم والنفاسة، حريٌّ بها أن تُنشر وتُذاع. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(١) تفسير المنار (١١/ ٣٦٤-٣٦٩) باختصار يسير.

(٢) الرد على البكري (١/ ١٧٠).

الاعتصام بالجماعة وذم الافتراق

خلق الله عباده لعبادته وحده لا شريك له، وأمرهم بالجماعة، وجعل في الجماعة الرحمة، ونهاهم عن التفرق، وجعل في الفرقة العذاب. والجماعة ما وافق الحق وإن كان واحداً. وقد كان إمام الحنفاء وحيداً وقد مدحه الله بأنه جعله أمة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وقد كتب الله الرحمة والتوفيق في الاعتصام به سبحانه، واتباع سنة نبيه ﷺ، ومن أفراد أتباعه الاعتصام بالجماعة والفرار عن الفرقة، والسعي من حفظ له ربُّه دينه حتى يلقاه به وهو عنه راضٍ. ويكفي للمؤمن هداية: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فهو مهديٌ لاعتصامه، وتأمل التعبير عن هدايته بلفظ الماضي فالمسألة محسومة للمعتصمين، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه إنه هو البر الرحيم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ① إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] أي خلقهم ليعتصموا، ومن الابتلاء الاختلاف، فمن لزم منهم الحق واعتصم به فهو المرحوم، فالابتلاء - ومنه الاختلاف - وسيلة، والرحمة غاية الغاية، فالله خلق الخلق لعبادته كما جاء في آية الذاريات، وجزاء العبادة الرحمة، وبهذا تجتمع حروف السلف في الآية، فمنهم من يفسر الآية بطرفٍ من معناها، ومنهم من يفسرها بالطرف الآخر بناء على ما يرى من تقديم كشف المعنى

وأولويته، أو وضوحه وغموضه للمتلقي وغير ذلك، وهذا جارٍ على السُنَنِ العرب، قال ابن كثير رحمه الله تعالى^(١): «يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلَّهُم أمة واحدة، من إيمان أو كفران كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ ١١٨ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] أي: ولا يزال الخُلُفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: ﴿مُخْلِفينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْلِفينَ﴾ في الرزق، يُسخر بعضهم بعضًا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأُمِّي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضًا: «إن اليهود اختلفت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) صحيح الإسناد. أخرجه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٠) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه ابن تيمية والألباني وغيرهما.

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: الحنيفة. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللاختلاف خلقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاووس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثرَا فقال طاووس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاووس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم، ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره،

وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش.

وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۖ قال: فريق في الجنة، وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة والفراء.

وعن مالك فيما رويناه عنه في التفسير: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۖ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَوَسَّيْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن مِمَّنْ خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضَعْفَةُ الناس وَسَقَطُهُمْ؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فَضْلٌ، حتى يُنشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه ربُّ العزة قَدَمَهُ،

فتقول: قَطُّ قط، وعزتك»^(١).

والأمة مأمورة برد نزاعها إلى الوحي المنزل لا لعقولهم مهما بلغت، قال شيخ الإسلام: «موارد النزاع لا تفصل بين المؤمنين إلا بالكتاب والسنة، وإن كان أحد المتنازعين يعرف ما يقوله بعقله، وذلك أن قوى العقول متفاوتة مختلفة، وكثيراً ما يشتبه المجهول بالمعقول فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين ولا معقوله، وإنما يفصل بينهم الكتاب المنزل من السماء والرسول المبعوث المعصوم فيما بلغه عن الله تعالى.

ولهذا يوجد من خرج عن الاعتصام بالكتاب والسنة من الطوائف فإنهم يفترقون ويختلفون، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. وأهل الرحمة هم أهل الإيمان والقرآن»^(٢).

وحديث الافتراق هذا حديث جليل عزيز، فقد بيّن الخطر الماحق لفراق السنة، كما أوضح طريق النجاة، وقد سئل شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن حديث الافتراق فأجاب: «الحمد لله، الحديث صحيح مشهور في السنن والمسند؛ كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم ولفظه: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» وفي لفظ: «على ثلاث وسبعين ملة» وفي رواية:

(١) البخاري (٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) بيان تلييس الجهمية (١/ ٢٤٨).

قالوا: يا رسول الله من الفرقة الناجية؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١) وفي رواية قال: «هي الجماعة، يد الله على الجماعة». ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم.

وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة.

وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع. فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة»^(٢).

وتأمل قوله رحمه الله تعالى: «ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة». فهذا الحرف في غاية الأهمية، فأهل السنة والجماعة هم الأكثر عدداً، فمن حيث الكيف فهم الأفضل، ومن حيث الكم فهم الأكثر، ومردُّ كثرتهم بقاؤهم على الفطرة السوية والفهم البسيط المباشر للقرآن والسنة، فإن سمعوا نصّاً شرعياً في الصفات أو القدر أو المعاد ونحو ذلك؛ فإنهم يفهمونه بسليقتهم الفطرية بلا تكلفٍ مقدّمات كلامية، أو اشتراطات فلسفية، أو تطويلات سوفسطائية، أو قرمطات إنشائية، أو خزعبلات خرافية، بل هم على النمط

(١) الطبراني في الصغير (٧٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٥ - ٣٤٨) باختصار وتصرف يسير.

الأوسط والقصد الأقوم والمعتقد السالم من شوائب المبتدعين، بل حتى من يقول منهم جهلاً إنه على مذهب الشيخ فلان؛ فإنه إنما يقولها إحساناً للظن به من جهة أنه يراه صالحاً للتقليد الموصل بحسب ظنه للمعتقد الصحيح، فإن تلوت عليه الآيات والأحاديث التي فارق فيها ذلك الشيخُ منهجَ السلف وطلبت من ذلك العامي إخبارك بما فهم منها؛ لوجدت فهمه لها موافقاً لمذهب السلف في إجراء النصوص على ظواهرها التي يفهمها العربي بسليقته دون تعطيل المبتدعة وتحريفهم وتكييفهم وإلحادهم.. وهذا هو المطلوب، حتى وإن أخطأ في نسبة نفسه لمذهب مبتدع جهلاً منه بحقيقة الحال، والله يعفو عن العبد خطأه إن صدق معه واستفرغ جهده لمرضاته حتى وإن قُصُر فهمه عن الإحاطة بما لم يدركه علمه، وهؤلاء العامة هم الجمهو الأكبر والسواد الأعظم.

ولا يعني هذا تركيتهم بإطلاق، بل قد يسقط بعضهم في بدع مختلفة الدركات، فقد يخرج بعضهم بسببها من رِبْقَةِ الملة، وقد يقع آخرون فيما دون ذلك، فقد يُبتلى بعضهم بقطاع الطريق بينهم وبين ربهم تعالى فيحرف فطرتهم بإفساد تصورهم عن ربهم وعن بعض أصول الدين كالقول بالاتحاد أو الحلول، وكدعاء الموتى والجن، أو الاستغاثة الشركية، أو اعتقاد أمور مخالفة للشرع سواء في صفات الله تعالى أو معالم دينه أو القدر أو النبوة أو الأسماء والأحكام أو الصحابة.. ونحو ذلك.

وقد يقع بعضهم في بعض بدع مسلكية كالتلبية الجماعية، أو التزام المصافحة بعد الصلاة، أو الالتزام بذكر غير وارد بعد الأذان، ونحو تلك البدع

المسلكية غير الغليظة - وإن كانت البدع كلها شرّ - فحالتها كحال غيرها من الذنوب ولا تخرج صاحبها من متابعة السلف في الجملة، وإن كانت - بلا شك - تنقص من تحقيقه الاتّباع الواجب، وقد تزيد به البدع حتى تلوث مشربه الاعتقادي والعملي فيخرج من السنة شيئاً فشيئاً، وتدرّس السنّة لديه كما يدرّس وشي الثوب، بحسب ما يرُدُّ من موارد الإحداث في الدين، والمعصوم من عصمه مولاه.

فالمقصود؛ بيان أن الأصل في العامة أنهم من أهل السنة والجماعة مهما تسلّط على رئاستهم فئام من المبتدعة إلّا إن تابعوهم حقيقة لا اسماً على بدعهم، فالعبرة بالحقائق والمعاني لا بالألقاب المباني، وكل هذا مع حفظ ضرورة الدخول في الدين كافة، والالتزام بالسنة المحضة، والاعتصام بالاتّباع التام، ومن ذلك المحافظة على المسميات الشرعية، وممايزة أهل الانحراف والإحداث، والبراءة من كل عدوّ لله تعالى، والهجرة إلى الله تعالى بالقلب والوجه والدين، وكلّ ميسّر لما خلق له.

أيضاً؛ فإن أئمة وعلماء الأمة من القرون الثلاثة المفضلة هم من أهل السنة والجماعة قبل أن تنبغ تلك النوابع البدعية التي تنسب السواد الأعظم لها.

وعليه؛ فلا تصح نسبة جمهور المسلمين وعامّتهم لمذاهب المبتدعة كالأشعرية والماتريدية ونحوها، بل هم من أهل السنة والجماعة في الجملة لما قدّمنا.

وكذلك الحال في أهل العلم الذين وافقوا مذهب السلف في أكثر حالهم

وأغلب علمياتهم ولكنهم انتحلوا بعض الأغلاط الرديئة من المبتدعة، فهم من أهل السنة إجمالاً، فيقال في توصيفهم: إنهم على مذهب السلف ولكن خالفوهم في كذا وكذا، فليس لهم وصف السنة المحضة ومدحتها التامة، ولكنهم لا يُخرجون من منهجهم واجتماعهم على السنة بعامة، وعلى ذلك كثير من أهل العلم والفضل والمقامات السنية في الإسلام ممن وقعوا في أغلاط علمية وشابوا صفاء أتباعهم بتلك الأمور مع استمسакهم لمجمل مذهب السلف.

أما من خالف أهل السنة في قواعدهم العامة كمصادر التلقي والاستدلال والاتباع، أو كثرة المفارقة لتفاصيل مذهب السلف ونحو ذلك مما خرجوا به عن طريقة السلف الصالح؛ فهم على ما طردوه من نسبة وضلال، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وبالله التوفيق.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «الأمر بالجماعة معه النهي عن الفرقة، لأنه لا يجتمع الناس إلا إذا انتهوا عن الافتراق والفرقة».

ولهذا نهى الله عن الافتراق فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فقد دلَّت هذه الجملة من الآية على أن النهي عن الفرقة هنا المقصود به الفرقة في الأبدان، ثم قال: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه الفرقة في الدين، وهذا كما في قوله مثلاً في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، يعني في

الدين.

فَتَحَصَّلَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْأَدْلَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْفُرْقَةَ قَسَمَانِ:

فُرْقَةٌ فِي الْأَبْدَانِ، وَفُرْقَةٌ فِي الدِّينِ. وَهِيَ مُقَابِلَةٌ لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي هِيَ: جَمَاعَةٌ فِي الدِّينِ، وَجَمَاعَةٌ فِي الْأَبْدَانِ.

أَمَّا فُرْقَةُ الدِّينِ: فَتَكُونُ بَانْتِحَالِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَخْذِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْهَوَى مِنْ الْخَوَارِجِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَأَعْظَمُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْخَوَارِجُ - يَعْنِي مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى الصَّحَابَةِ -، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَتَى الْأَقْوَالُ الْكُفْرِيَّةَ عِنْدَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ إِلَى آخِرِهِ. وَهَذَا أَعْظَمُ افْتِرَاقٍ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدِّينَ وَاضِحًا لَا لَبْسَ فِيهِ، فِي أَصُولِهِ وَعُقَائِدِهِ وَفِي قَوَاعِدِهِ الْعِلْمِيَّةِ لَا لَبْسَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

لَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ التَّفَرُّقَ وَنَهَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ. وَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَحْذَرُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْإِخْتِلَافِ وَتُبَيِّنُ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْخِذْلَانِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ وَالْخِزْيِ وَسَوَادِ الْوُجُوهِ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ

(١) مختصرًا عن: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٦ / ١).

أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٧] قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة». وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فقد دلت الآيات على ذم التفرق وخطورته على الأمة في الدنيا والآخرة، وأنه سبب هلاك أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وسبب كل انحراف وقع في الناس.

وأما السنة فقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في ذم التفرق والاختلاف، والحث على الجماعة والاتلاف، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»^(١).

فقد أخبر النبي ﷺ بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، وهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم، ثم إن هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي ﷺ إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا ثم يؤول إلى الدين.

(١) رواه أحمد (١٥٢/٤) وأبو داود (٥/٥) وغيرهما بسند صحيح.

وعلى كل حال؛ فإن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة،
والرسول ﷺ يحذر أمته منه؛ لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة
والعافية ممن اعتصموا بحبل الله جميعاً ولم يتفرقوا.



الاختلاف والتفرق سبب هلاك الأمم السابقة

إذا تأملنا القرآن والسنة وجدنا أن سبب هلاك الأمم السابقة هو التفرق وكثرة الاختلاف لاسيما الاختلاف في الكتاب المنزل عليهم، وأول التفرق هو فراقهم سنن أنبيائهم وتكذيبهم، ثم اختلاف أتباعهم بعدهم في كتابهم، وهذا ظاهر جداً في بني إسرائيل، كما بين يهوذا والسامرة، ثم افتراق أتباع كل شيعة منهما فيما بينهم حتى اكتسحهم بختنصر البابلي فسحقهم وأسرهم إلا قليلاً من الشاردين، ثم تسلط من بعدهم من الرومان وتنكيلهم بهم ورميهم في أركان الأرض في شتاتهم الشاسع المعلوم.

وكذلك تفرق النصارى في مجامعهم الكنسية الكبرى، وتكفير بعضهم بعضاً، وإراقة الدماء بينهم، وإلهاب الحروب الكثيرة بينهم على إثر تفرقهم في الكتاب. سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً. وإنما قص الله تعالى علينا أخبارهم وأسباب هلاكهم حتى لا نهلك هلاكهم، والله المستعان.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أدرك هذه الأمة، لا تختلف في الكتاب كما اختلفت فيه الأمم قبلهم» لما رأى أهل الشام وأهل العراق يختلفون في حروف القرآن الاختلاف الذي نهى عنه رسول الله ﷺ. فأفادنا ذلك أمرين: أولاهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا مما لا يحل الاختلاف فيه، ولأنه يجر إلى الاختلاف الأعظم.

والثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا، وقياس الحال بالحال، والحذر من مشابهة

أحوالهم وأفعالهم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سَوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١). فقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللاً ذلك بأن سبب هلاك الأولين وخيبتهم وضلالهم وعذابهم إنما كان كثرة السؤال تعنتاً أو لما لا فائده منه، ثم الاختلاف من بعد ذلك على الرسل بالمعصية، أي بمخالفتهم لما أمرتهم به أنبياءهم، وهذا عين الخذلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالاجتماع على السنة والاعتصام بها نجاة، والتفرق فيها وترك الاستمسك بها وتوهين الاجتماع عليها هلاك، وبالله التوفيق والعصمة.



(١) صحيح البخاري (٧٢٨٨) وصحيح مسلم (١٣٣٧).

هل الاختلاف رحمة؟

يدعي بعض الناس أن الاختلاف رحمة اعتمادًا على حديث موضوع لا يصح: «اختلاف أمّتي رحمة»^(١)، وإن كان مرويًا من كلام القاسم بن محمد في اختلاف أصحاب النبي ﷺ قال: «ما أظنه إلا رحمة»، وليس بحديث. والخلاف سنة الله في خلقه، ولا يعني هذا أنه رحمة، بل هو ابتلاء، أما الرحمة فهي الوفاق والاجتماع على الحق.

وهذا القول مردود بالكتاب والسنة والعقل. وقد ذكرنا بعض الآيات

(١) ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقًا، وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس: «اختلاف أصحابي لكم رحمة»، وذكره نصر المقدسي في الحجة، وأورده الحلبي والقاضي حسين وإمام الحرمين وغيرهم. قال المناوي في الفيض (١/ ٢٠٩): لم أقف له على سند صحيح. وقال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، وقال الألباني: موضوع. وانظر الجامع الصغير وزيادته (١/ ١٢٥)، وتبيين كذب المفتري (١٠٦)، والأسرار المرفوعة (٥٠٦)، وتنزيه الشريعة (٢/ ٤٠٢)، والمقاصد الحسنة (٢٦-٢٧)، وكشف الخفاء (١/ ٦٤ - ٦٥). وقد فصل الألباني الكلام عليه حيث قال عنه في السلسلة الضعيفة والموضوعة ١/ ٧٦: «لا أصل له. ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند فلم يوفقوا، حتى قال السيوطي في الجامع الصغير: «ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا». وهذا بعيد عندي، إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه ﷺ وهذا مما لا يليق بمسلم اعتقاده. ونقل المناوي عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع». وأقره الشيخ زكريا الأنصاري في تعليقه على تفسير البيضاوي (ق ٩٢/ ٢)».

والأحاديث الواردة في ذم الاختلاف والتفرق. وفي ذلك كفاية لمن تدبر وتأمل. وقد دل القرآن على أن الاختلاف لا يتفق مع الرحمة، بل هو ضدها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴿[هود: ١١٨ - ١١٩].

والحديث الذي استدل به أصحاب هذه الدعوى باطل ولا يصح بحال، ولا يوجد في شيء من كتب السنة. وهذا كافٍ في بطلان هذه الدعوى، يضاف إلى ذلك مخالفته للمعقول، فإنه لا يتصور عاقل أن الاختلاف رحمة، بعدما عرفنا المفسدات الخطيرة الناتجة عنه من التشاحن والتباغض والتهاجر، بل ربما أفضى إلى القتال والحروب التي كثيراً ما ثارت بين الناس بسبب الاختلاف حتى في بعض مسائل الفروع.

ومعنى قول بعض أهل العلم: «إن الإجماع حجة قاطعة، واختلاف الأمة رحمة واسعة»؛ محمول على أن أهل السنة يختلفون في العمليات ولا يختلفون في الأصول، واختلافهم في العمليات رحمة للأمة من حيث إنها سبب للتوسعة عليهم في العمل، لا على أنها في ذاتها رحمة. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «لم يسؤني أن أصحاب النبي ﷺ اختلفوا، فإن في اختلافهم رحمة»، وقال يحيى بن سعيد رحمه الله تعالى: «لم يكن الخلاف سبباً للهلاك فيمن كان قبلنا» يعني: من الصحابة، فإنهم كانوا يختلفون في المسألة، فلا يرى أحدهم هلاك صاحبه المختلف معه. وقال غير واحد من السلف: «في الخلاف توسعة». والمقصود بالخلاف هنا: الخلاف في مسائل العمل، لما فيه من التوسعة ورفع الحرج عن الناس.

وبالجملة؛ فالاتفاق والوفاق رحمة، لأنَّ الحق في ذاته لا يتعدّد، والمحمود من أصابه، والأمة لا تجتمع على ضلالة، أما الاختلاف فهو محض ابتلاء؛ فإن أفضى إلى تقوى فهو رحمة، وإن أفضى لما لا يرضي الله فهو عذاب، ورُبَّ اتفاقٍ أدّى إلى اجتماع ووثام، واختلافٍ أفضى إلى تنازع وفشل وافتراق.

هذا؛ وإنّ في بعض الاختلاف نوع رحمة؛ وهو الخلاف الذي يبدأ وينتهي بالاجتماع حتى مع عدم الاتفاق، لما فيه من التوسعة على المجتهدين وعلى العاملين، فرحة على المجتهدين من جهة رفع الحرج عن خطئهم إن بذلوا وسعهم في إدراك الحق، فهم بين الأجر والأجرين، ورحمة على العاملين من جهة ما يحصل لهم من السعة إذا أخذوا بقول أحد العلماء فيما ذهب إليه بدون نية تتبع الرخص. وبالله التوفيق، ومنه العون، وبه الاعتصام.



طريق الخلاص من الفرقة والاختلاف

من المعلوم أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هي الجماعة. والجماعة هم الذين يسرون وفق منهج النبي ﷺ وأصحابه، لا يعدلون عن ذلك ولا يحدون عنه يميناً أو شمالاً.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في الاعتصام: «إن الجماعة ما كان عليه النبي وأصحابه والتابعون لهم بإحسان». فطريق الخلاص هو اتباع منهج أهل السنة والجماعة قولاً وعملاً واعتقاداً، وعدم مخالفتهم أو الشذوذ عنهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي السنة ما رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ قال: «لا تجتمع أمتي على ضلالة». أو قال: أمة محمد على ضلالة. ويد الله على الجماعة»^(١).

وبهذا يستقيم لنا القول بأن طريق الخلاص وعنوان السعادة التمسك بكتاب الله تعالى، ذلك الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٦٦) وغيره بسند صحيح.

خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكذلك التمسك بالسنة المطهرة الثابتة عن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فإنهما أي الكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان لعقيدة الإسلام وشريعته.

فأي منهج جانب هذا الطريق فإنه منهج خاسر وسابكة ضلال، فالتمسك بالسنة هو سبيل المؤمنين، ومنهاج المتقين، وصراط المنعم عليهم من الأبرار والسابقين، وطريق الوصول إلى مرضاة رب العالمين، وهو الحصن الحصين الآمن المتين، والمنهاج الذي يحفظ الله به الأمة من بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وهو الطريق الذي صلحت به أحوال الأمة في صدر الإسلام، ولا فلاح لنا ولا نجاح إلا بالرجوع إليه. قال إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» وما صلح به أولها هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومما ينبغي على المسلم في هذا الجانب؛ أن يكون العمل بالكتاب والسنة مقيداً بفهم السلف الصالح ومنهجهم لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فاتباع سبيل المؤمنين وهم الصحابة وأتباعهم من الأئمة المهديين بإحسان هو سبيل النجاة والفلاح والفوز في الدارين^(١).

(١) وانظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٣٠٣/١

ويُروى عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كل عبادة لا يتعبد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم»، وروى البخاري^(١) عن حذيفة أيضاً قال: «يا معشر القراء استقيموا؟ فقد سبقتهم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»^(٢). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق».

وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التَّوَسُّلِ^(٣): «يقول الفقهاء: الأصل في الأشياء الإباحة. وأما الوسائل الشرعية فلا يكفي في جواز الأخذ بها أن الشارع الحكيم لم ينها عنها كما يتوهمه الكثيرون، بل لا بد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها. لأن الاستحباب شيء زائد على الإباحة، فإنه مما يتقرب

(١) البخاري (٧٢٨٢).

(٢) رواه رزين كما في «المشكاة» (١/ ٦٧) وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٧) من طريق قتادة عنه وفيه انقطاع.

(٣) ص: (١٧ - ٢٨).

إلى الله تعالى، والقربات لا تثبت بمجرد عدم ورود النهي عنها، ومن هنا قال بعض السلف: «كل عبادة لم يتعبدوا أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدوها»، وهذا مستفاد من أحاديث النهي عن الابتداع في الدين وهي معروفة، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الأصل في العبادات المنع إلا لنص، وفي العادات الإباحة إلا لنص» فاحفظ هذا فإنه هام جداً يساعدك على استبصار الحق فيما اختلف فيه الناس^(١). وبالله التوفيق.



(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (١/ ٣٨٠ - ٣٩٣) باختصار وتصرف وزيادات.

ويلات الفرقة والاختلاف

نهى الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام عن الفرقة والاختلاف، وحذر من الاكتواء بويلاتها مذكراً بما حصل للأمم السابقة من جراء فرقتهم ومحذراً من الويلات التي تنجم عن ذلك والتي من أخطرها:

أولاً: التشبه بالكافرين من أبناء الأمم الماضية:

كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال ابن كثير: «ينهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم»^(١).

وقال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ معطوف على قوله ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وفي هذا تمثيل لحال التفرق في أبشع صوره المعروفة لديهم عن مطالعة أحوال اليهود، وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزاعات والنزغات وتنشق الأمة بذلك انشقاقاً شديداً.

وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/٣٩٠).

والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق، وقدم الافتراق على الاختلاف للإيدان بأن الاختلاف علّة التفرّق، وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارناتها، وفيه إشارة بأن الاختلاف المذموم هو الذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الدين الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار وهو المعبر عنه بالاجتهاد.

ونحن إذاً تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقاً نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف العقائد والأصول دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة^(١).

ولا شك أن مردّ الافتراق الحاصل في المسلمين راجع للاختلاف في الأصول والعلميّات، ولكن ليس هذا على إطلاقه؛ فثمّ افتراقات متفرّقة نتجت عن سوء التعامل مع بعض الخلاف في العمليات، فنشأ عن ذلك الجهل أو إرادة العلوّ بعض التفرّق المؤرّي كما حدث في بعض الأعصار من الشقاق بين طائفة من الأحناف وأخرى من الشافعية، وكذا بين بعض الشافعية وبعض الحنابلة، والله المستعان، وله الأمر من قبل ومن بعد.

ألا وإن من أدواء الأمة ضعف المناصحة فيما بينها، ووهن التواصل بالحق والصبر، والتساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها، وعدم أخذ

(١) التحرير والتنوير (م ٣، ج ٤، ص ٤٢، ٤٣).

التعاون على البر والتقوى بالجدية الكافية، والتفريط في الاعتصام بالكتاب والسنة والاجتماع عليهما وردّ التنازع إليهما؛ فهذا كله مؤدّ لوقوع الأمة في الفرقة والتنازع والشقاق والفشل وذهاب الريح!

فترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفه، وترك المناصحة لولاية الأمور والأئمة وذوي الشأن في الأمة، ووقوع المداينة في الدين، أو سلوك مسلك التشاؤم واليأس من الإصلاح، أو التعبد بترك المناصحة للولاية كما تفعل الفرق وأهل الأهواء، وعدم قيام طائفة من الأمة في أداء النصيحة ودرء الفساد والافتراق عنها يوقعها في الذل والهوان وفساد ذات البين والفرقة.

فالمناصحة والتواصي بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى باب عظيم من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، كما أوصى بذلك الرسول ﷺ وأبدأ وأعاد، ويّين أن الدين النصيحة، فقال ﷺ: «الدين النصيحة» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(١) وكما في قوله: «وأن تُناصحوا من ولّاه الله أمركم»^(٢)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وإنّ من بركة المناصحة أنها تزيل الغلّ من القلوب، وهي قوة للخير، وإعذار عند الله تعالى، وسبب لدفع البلاء والنقمة عن الأمة بحول الله وقوته

(١) مسلم (٨٢).

(٢) أحمد في المسند (٣٦٠، ٣٢٧/٢) وصححه أحمد شاكر والألباني، وأصله في مسلم دون

«وأن تُناصحوا من ولّاه الله أمركم».

﴿قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

واعلم أن أهل السنة لتمسكهم بالحق لا ينصرون باطلاً أبداً، فهم صادقون مخلصون ناصحون، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فالواجب إذا كان الكلام بين طائفتين من هذه الطوائف أن يبين رجحان قول الفريق الذي هو أقرب إلى السنة بالعقل والنقل، ولا ننصر القول الباطل المخالف للشرع والعقل أبداً، فإن هذا محرم ومذموم، يُذم به صاحبه، ويتولد عنه من الشر ما لا يوصف، كما تولد من الأقوال المبتدعة مثل ذلك» (١).

ثانياً: الفشل وذهاب القوة:

كما بيّن الله سبحانه وتعالى وهو ينهي عن الفرقة والتنازع والاختلاف أن مآل ذلك كله هو فشل الأمة وضعفها وهوانها على أعدائها وذلك في قوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أي: ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن، وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني قوتكم.

فالناس يتنازعون حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وحين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله وداروا مع الوحي حيث دار انتفى السبب الأول الرئيس للنزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف

(١) منهاج السنة (٢/٣٤٣).

وجهاً النظر، إنما الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصير عليها مهما تبين له وجه الحق، وإنما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح كفة الحق، عندئذ يزول التنازع ويتلاشى الخلاف ويحل الوفاق والوئام مكان النزاع والصدام فيبقى للدين هيئته وللإسلام قدسيته وللوحدة مكانتها^(١).

ولو تواضع الناس للهدى لانطفأت بإذن الله نيران إبليس في قلوبهم، ولَرَدَّهم الحقُّ إلى نَصَابٍ جميلٍ حظوظهم، لكن نفخة الشيطان في فؤاد المخذول بالغة النكاية، فليس للشيطان مطيتان أمضى في أوليائه من الكبر والحسد.

وردُّ الحقِّ للهوى بابٌّ من الكبر البغيض، لأن نصف الكبر بطرُ الحق وردُّه، وهو من إرادة العلوِّ في الأرض، والنظر في الأعطاف تيهًا، وتصغير الخدِّ تعاظُمًا، واشمخار الأنف بالباطل، وأخذ العزة له بالإثم، وكم لحسد الأقران من صيد!

والنهي عن التنازع - فاعلم - يقتضي الأمر بالتفاهم والتشاور وحسن الظن والمصابرة، ومراجعة بعضهم بعضًا بالتؤدة والحسنى حتى يصدروا عن رأي واحد، أو يختلفوا بمودة وإخاء دون افتراق وشقاق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله بكتابه ورسوله بسنته فأفلحوا وأنجحوا وصدروا عن أمر رشيد وتوفيق وتسديد، وذلك الهدى لو كانوا يعلمون.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «ولقد كان التنازع مفضياً إلى الفشل لأنه

(١) انظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (١ / ٢١).

يشير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم فيتمكن منهم العدو كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] (١).

وهذا الفشل والضعف أدى إلى تفكك الأمة الإسلامية وضعفها وهوانها على أعدائها، فنقصت البركة، وذهبت الريح، واستبيحت الديار، وانتهكت الأعراض، وخذشت الكرامة، ودنست المقدسات، وعزّت النخوة، وقلّ النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واعلم أن الاعتصام بالكتاب والسنة أمان بإذن ربنا من الفشل والشقاق والفرقة والتنازع، وإن من فروع ذلك (٢):

١ - معرفة هدي النبي ﷺ والتمسك به، والاهتداء بهديه، فقد تركنا على البيضاء الواضحة بالشمس الساطعة والحجة القاطعة.

٢ - السير على نهج السلف الصالح وهم الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الدين أهل السنة والجماعة، فالراسخون في العلم أمان بإذن الله لمن لزم

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦م، ج ١٠، ص ٣٠، ٣١) بتصرف.

(٢) وقد ذكرنا شيئاً منه في وسائل تحقيق الاعتصام.

غرزهم.

٣. التفقه في الدين بأخذه عن العلماء الربانيين مباشرة، والتأسي بأخلاقهم وحسن سمتهم وورعهم، وعدم تتبع الشذوذات والغرائب والمعائب.

٤. الالتفاف حول علماء الأمة، الأئمة المهديين الذين تثق الأمة بدينهم وعلمهم وأمانتهم، ومجانبة سوء الظن بهم، واحتمالهم على أحسن المحامل وأجمل الظنون، وحماية أعراضهم من مقاريض الجهلة أهل الرّهب والعجلة، فهم أولى الناس بذلك، وأعلمهم بما هنالك، وبخاصة عند إقبال أمارات التفرق وعصف الفتن وتطايير شررها واستطالة ألسن لها.

٥. الحذر من التعالي على العلماء، ومعرفة خطر الاعتداد بالرأي والغرور والتعاضم والانتفاخ بزبد إبليس، والبعد عن العجلة والتسرع والرعونة والطيش، أو الشذوذ عنهم بأي نوع من أنواع الشذوذ التي تؤدي إلى الفتنة أو المفارقة.

٦. معالجة مظاهر الفرقة، وعدم التساهل مع بداياتها، فالحرب أولها كلام، ومعظم النار من مستصغر الشرر، خاصة عند بعض الأحداث أو المتعجلين والذين تخفى عليهم الحكمة في الدعوة، وينقصهم الفقه في الدين، وتجهلهم تجارب الزمان.

٧. الحرص على الجماعة والاجتماع والإصلاح، والتواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى، ونشر حسن الظن بالله تعالى والتفاؤل بنصره وحفظه ومعيته وربوبيته وألوهيته وصدق وعده وعدله وإحسانه.

٨ - تجنب العصبية والحزبية وبخاصة في الدعوة إلى الله تعالى والعلم والتعليم، ومن فروع ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أهل العلم والدعوة خاصة، والمناصحة من الجميع للجميع بحكمة ونصح وشفقة وموعظة حسنة.

٩ - الثقة المطلقة بالوحي المنزل كتابًا وسنة على فهم سلف الأمة، ومن لم يثق بالوحي ثقة مطلقه فلا ترّجّيه.

١٠ - التفقه في علوم وأعمال وأقوال القلوب، والاهتمام الشديد بها وتفتيشها وحراستها وتغذيتها، فأول الخير صلاح القلوب، وسلامة العقائد، ونقاء الصدور، وطيب الظنون، وصفاء الطوايا، وإخلاص النوايا، وأول الشر فساد العلوم، وغلط البصائر، وسوء الظنون، ووَخَر الصدور، واختلال ميزان نظر القلوب، وتقديم حظوظ النفوس، والركون للعاجلة، وإيثار الحياة الدنيا، والله المستعان وبه العصمة والتوفيق.

ثالثاً: التشبه بالمشركين:

لقد بيّن الله سبحانه أن الفرقة والاختلاف هي صفة من صفات المشركين، ونهى وحذر أبناء الأمة من مغبة الوقوع في ذلك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: ٣١-٣٢].

«فإن الله عز وجل قد وصف المشركين بأنهم فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، فالشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يشركون الجن، ومنهم من يشركون

الملائكة والأنبياء، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين والعظماء والآباء والمشايخ والأمراء، ومنهم من يشركون الشياطين، بل منهم من يعبد إبليس ذاته، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله، وكل حزب منهم بما لديهم فرحون، بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد» (١).

رابعاً: تبرؤ رسول الله ﷺ منهم:

فقد برأ الله سبحانه رسول الله ﷺ من أصحاب البدع الذين تفرقوا في دينهم واختلفوا فيما بينهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فمعنى شيعاً: «فرقاً وأحزاباً حيث أوجب الله براءة رسوله ﷺ منهم، أي هؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا لست منهم يا محمد وهم ليسوا منك» (٢).

وقال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ «هم أصحاب البدع، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه وكانوا شيعاً، أي فرقاً

(١) الاعتصام بحبل الله (١/ ٢٣) بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ج ٧، ص ١٤٨).

كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه»^(١).

خامساً: الخذلان المطلق ممن لا يأتي التوفيق إلا من قبله:

قال تعالى موصياً عباده بالتوحيد والاعتصام به ومحذراً من ضد ذلك: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. «أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾» أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان فهو بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه»^(٢).



(١) تفسير القرآن العظيم (ج٢، ص ١٩٦) وانظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر (١/٢٠ - ٢٥).
(٢) تفسير السعدي (١/٥٣٨).

فضائل أهل السنة والجماعة وأوصافهم

أهل السنة والجماعة هم أهل الاتّباع التام لرسول الله ﷺ، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق»^(١). وقال رحمه الله عن أهل الحديث المشتغلين بسنة وسول الله ﷺ المعتصمين بسنته: «لم يجتمع قط أهل الحديث على خلاف قوله ﷺ في كلمة واحدة، والحق لا يخرج عنهم قط، وكل ما اجتمعوا عليه فهو مما جاء به الرسول، وكل من خالفهم من خارجي ورافضي ومعتزلي وجهمي وغيرهم من أهل البدع؛ فإنما يخالف رسول الله ﷺ، بل من خالف مذاهبهم في الشرائع العملية كان مخالفاً للسنة الثابتة، وكل من هؤلاء يوافقهم فيما خالف فيه الآخر، فأهل الأهواء معهم بمنزلة أهل الملل مع المسلمين؛ فإن أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل»^(٢).

وأهل السنة والجماعة: «يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سُمّوا: أهل الكتاب والسنة، وسُمّوا: أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن

(١) الفتاوى (٢٧٩/٣).

(٢) الفتاوى (١٧٢/٢٤).

كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين»^(١).

«والهدى والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسنة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله ﷺ، فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يغضبون لقول غيره إلا إذا اتبع قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله»^(٢) «فأهل السنة لا ينتصرون إلا لقوله ﷺ، ولا يضافون إلا إليه، وهم أعلم الناس بسنته واتباع لها، وأكثر سلف الأمة كذلك، لكن التفرق والاختلاف كثير في المتأخرين، والذين رفع الله قدرهم في الأمة هو بما أحيوه من سنته ونصرته»^(٣).

واعلم - رحماني الله وإياك - أن الله تعالى ابتعث محمداً ﷺ بدين كامل، وشريعة تامة، فكان أتقى الخلق، وأعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق، ﷺ. ثم لم يقبضه إليه حتى رضي عن بلاغه الوافي، وبيانه الشافي، ونصحه الصافي، فكانت الأمة بعده على الصراط المستقيم، والمهيئ القويم، لا تضل هدايتها عن سنته، ولا تزيع بصائرهم عن شرعته، فهو إمامهم الذي يمشي أمامهم، ويناديهم بحب ورحمة ونصح من رأس الطريق إلى بحبوحة الجنة ورضوان رب العالمين.

كانوا على هذا زمناً حتى أذن الله بابتلاء هذه الأمة المرحومة، وتمييز

(١) الفتاوى (١٥٧/٣).

(٢) المنهاج (٣٦٩/٦، ٣٦٨).

(٣) المنهاج (١٨٢/٥).

المؤمنين، واستبانة سبيل المجرمين، فنبت نابتات سوء، في العصر الأول من الأصحاب، فقاموا لله حق القيام، وصاروا نجومًا في حنادس الظلام، ورجومًا لكل مبطل، وسعوطًا لكل مبدل، ومن قصد البحر استقل السواقيا.

وعلى آثارهم مشى التابعون، ثم الأتباع، فتمت القرون المفضلة الثلاثة تمامًا على الذي أحسن، فدونت السنن، وحفظت الشريعة، وقمع المبتدعون، وحورب المشركون، ودون العلى ضربٌ يُدَمِّي النواصيا.
ما لاح برقٌ أو ترنم طائرٌ إلا انشيت ولي فؤاد شيقٌ

وقامت منارات العلم في حواضر الإسلام بالوحيين تشج، وأتتها النفوس الراغبة من كل فج، فقرروا في نفوس الناس عظمة توحيد رب العالمين، وخطر ضده من الشرك الذميم، وحذروهم من البدع بريد الكفر، ومن المعاصي بريد النفاق، فأمرهم بالمعروف، ونهواهم عن المنكر، فأطاعهم الصالحون والعامة ديانة، والفساق حياء أو مخافة، فمخرت سفينة الإسلام والإيمان البحر بعز وسلام، وكرامة وإقدام، ورحمة وشفقة، ولم تزل مُد سارت تُسالم وتُسالم، وتُحارب وتُحارب، من وقى لها وفّت له، ومن غدرها أوقعت به، ثبت فيها فئام، وتساقط منها آخرون، تعاون أهلها على حفظها بحفظ الله لها، كل على ما يسر الله له، فالعمل للدين قرين الانتماء إليه.

وهذه السفينة هي الإسلام، وهي التوحيد، وهي السنة، وهي السلفية، وهي إن ركبها الأدعياء! فليس في السلفية الحقّة شيء سوى الإسلام، وليس من الإسلام الأصيل شيء سواها، فباطنها وظاهرها الالتزام والدعوة إلى ما كان

عليه نبينا صلوات الله وسلامه عليه، بلا وكس ولا شطط، مع قبول الاجتهاد المنضبط الدائر مع الدليل حيث دار، فهذا المنهاج السلفي هو عقد نظام الدين الصافي، والملة التالدة الخالدة، وهي البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذه الدعوة السلفية كمعادن الطيب النفيس، فكلما ازداد ضربها نصع طيبها وتضوّع عبيرها، وهذا عائد لأنها تتضمن حقيقة الإسلام الصافي الذي لم يُشب بلوثة خرافة، أو حوبة زندقة، أو تحريف للكلم عن مواضعه، بل رجعت بالأمر إلى أوله، وهو التوحيد والسنة، وانطلقت منه وانتهجته، فانتظم لها الدين جملة، وانسجمت تصورات العقول مع حاجات القلوب وأعمال الجوارح.

فكان من أراد محض الإسلام الذي لم يُشب؛ ناله بأيسر جهد، موافقاً فطرته السويّة، وعقله الذكيّ، خاليّاً من الأكدار والتعقيدات والمقدمات والآصار والأغلال، فوجدت الفطرة طريقها السويّ فسكنت، وتاقت إليه الروح ونالته فخشعت، وأطلق العقل عنانه المنضبط في مهيعه وسُموّه.

وأظهرت هذه الدعوة للأمة المهدية المرحومة طريق نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، واضحة آثار سيره عليه، محفوظ المسلك، بيّن المعالم، يسير المرء فيه فيراه واضحاً جليّاً، فلا يستوحش ولو سار وحده، لكثرة من يرى من سلفه الذين قد ساروه وسلكوه، فيرى آثار نبيه ﷺ، وعلى إثرها الأصحاب والتابعون والأتباع، ومن سار على تلك المحجة القويمة، واستقام على ذلك الصراط المستقيم، ويرى الأئمة فيه بسيرهم وأقوالهم وفتاويهم يرشدونه حتى لا يضل،

ويبصرونه حتى لا يزيغ، ويعظونه حتى لا يتنكب صراط المُنعم عليهم، الذي امتن الله به عليه، فتستأنس نفسه في ذلك الطريق المسلك بمعية من ساروا عليه من بدور الدجى وحرّاس الملة وحفاظ الإسلام.

فيرى الواقف في طرف الطريق قوافل الأئمة والصالحين والصدّيقين والعبّاد والشهداء، يسبقهم نبیهم ﷺ، قد تركهم في أوله ومنتظرهم في آخره. فليس في ذلك الطريق الجميل شرك ولا بدعة ولا فسق، بل توحيد وسنة وطاعة. جعلنا الله جميعاً ممن حقّق ذلك ومات عليه. إله الحق آمين.

وإذا تولاه امرؤ دون الوری طراً تولاه العظيم الشّان وأهل الإسلام كالجسد الواحد والبنیان الشامخ يشد بعضه بعضاً، وقد مدحهم ربهم جل وعلا بقوله: ﴿رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] قال أيوب السخيتاني رحمه الله: «إنه ليلغني عن الرجل من أهل السنة أنه مات، فكأنها فقدت عضواً من أعضائي».

وأهل السنة يعرفون الحق، يرحمون الخلق ويمحضونهم النصح، وهل ذلك إلا بأن تتحقق الشهاداتتان في النفوس ظاهراً وباطناً. فالحمد لله الذي أكمل لنا الدين ورضيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] «أكمل لهم الدين، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وأتمه فلا ينقصه أبداً، ورضيه فلا يسخطه أبداً».

قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً». وقال بعض المشركين لسلمان رضي الله عنه: لقد علمكم

نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال: «أجل...».

وبأسفٍ؛ فما زال بعض أبناء الملة وأهل القبلة، يغبشون صفاءها باستحسانات يقدحها الهوى في أفئدتهم، فيثبونها في العامة دون الرجوع لحكمة وعلم العلماء، لأنهم قد أسقطوهم من مرجعيتهم، إذ عنّ لهم أنهم رجال وهم رجال، وما الفقه لأحد دون أحد... أمّا الخيام فإنها كخيامهم!

ومن ثمّ بثّوا شبههم التي ظنوها حججاً، ونفخ بعضهم في كيرها، فطار شررها إلى أطراف خيمة الإسلام، فإن لم يدركها أهل العلم والفضل وإلا فالخوف أن يدرك مارجؤها الأركان، فالشبهة تبدأ هزيلة سقيمة فتغذى بلبان الهوى، وتُنشر في الأنام كأنها حقيقة مسلمة، فتتلقف ممن قل نصيبه من الفقه، وما أكثرهم لا كثرهم! والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر.

ظنّوها ثهلان ذا الهضبات ما يتحلحل، فإذا بها سحابة صيف عن قليل تقشع، حقيقتها برق خلب، وإن زخرفوها بحسين الكلام، ورصفوها مكرّاً لبادي الرأي، ثمّ العجب أنهم لها أحنّ من شارف، وعليها أحنّ من غراب، كأنهم لم يخلقوا إلا لها، ولن يسألوا عن سواها، فصيروها شعاراً عليه معاهد الولاء والبراء، فمن نبّههم أو أنكر باطلهم ردوا بحالهم ومقالهم: أساجلك العداوة ما بقينا! ثم استقبلهم أبو مرة بلحيته، وتلفّع لهم بعمامته، فظنّوه ناصحاً مشفقاً، وما دروا أنه من أزهم لذلك، وجمع لهم ما هنالك، والباقة أنهم ممن عدّ من أهل الدين، والفارس لا يغزو قومه، والرائد لا يكذب أهله، ولكن؛ إذا الله سنى عقد أمر تيسرا.

وظلمُ القريبِ يغصُّ الحلوَقَ ويُجري من العين دمعًا بدمٍ
فضيْمُ البعيدِ أَدَى قد يُداوَى وكيدُ القريبِ مُصابٌ أطمٍ
إذا قدوةُ القومِ أمسى لئيمًا وباعَ بأخـِـراهُ دنيا أذمٍ
فكبرَ وسلَّم على أمتي فقبلَ الوفاةِ يكونُ السَّقمُ

وبالجملة؛ فالسُّنة كلها خير، والبدعة كلها شرٌّ مهما تلوّنت وتقلبت وتبهرجت، ووعد الله لأوليائه حقٌّ، وكلُّ وعد الله تعالى حقٌّ، فكلما رفعت بدعة كاهلها قيّض الله لها دقًّا وكسرًا بصوارم السنة على أيدي الأئمة الحنفاء وهل هم إلا أئمة السلف الصالح، وأتباعهم حملة ذلك العهد الرباني، والنهج النبوي؟ فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

فلما ارتد من ارتد من العرب، قصفهم الله بصارمه الصديق الأكبر، الذي قاد ألوية الموحدين من مدينة النبي الأمين ﷺ لكك معاقل الردة، وردّ الأمة لدين الله أفواجًا.

ولما بث الشيطان سراياه الفكرية الكفرية المبدلة للدين، والملوثة للملة، قام عليهم إمام السنة المبجل أحمد بن حنبل معه أئمة جهابذة، حاربوا الفتن، ورد الله بهم الباطل.

تناثر العلمُ شهْدًا من ثغورهم أكرم به منبعًا للدين ينسكبُ
ثم هدأ الناس زمانًا حتى ثاب بعض من تلوّث ببدع القول لمذاهب منبوثة من رفات الفلسفة الإغريقية، إذ لم يكتف بعضهم بتقريرات أئمة السنة ونقضهم لها قرابة ثلاثة قرون منذ عهد أحمد وأقرانه، وراجت تلك المذاهب في بعض

المنتسبة للعلم فتخطفت قلوبهم وبصائرهم فصنفوا وخطبوا ما أضلوا به الناس وفتنوا به العامة، وزينوا المنطق والفلسفة، وجعلوا مقدماتها الممتنعة وتقعيداتها المعقدة شروطاً للإيمان، وضرورة لكل متعلم، ورفعت الرافضة عقيرتها بالدعوة إلى وثنياتها، وتنادت عبدة الموتى لإغواء العامة، حتى عبّاد الصليب صار لهم طمع في ردة أهل الإسلام! وانتشرت الشبهة بين من رام العلم، وسقط في شباكها الكثير، فعظمت بهم البلية، وتكاملت بهم الرزية، حتى قيص الله للإسلام من هدد عروشهم، وزلزل صروحهم، وجعل أعاليها أسافلها، ودكّ معاقل إحداثهم وحصون فتنتهم فأوهاها وأسقطها، وفضح شبههم وكشفها وعراها، ذاك هو شيخ الإسلام الرباني وإمام السنة الثاني، أحمد بن تيمية الحراني، فما زال يصول بالله ويجول ويقا تل بعلمه وعمله، ولسانه وسنانه هو ومن تابعه من الأئمة وأهل الفضل، فما زال كذلك حتى قبضه في ذات الله سجيناً صابراً راضياً شاكراً، ولا نزكيه على الله، قد جعل الله جنته وبستانه في صدره، فرحل إلى ربه وهو يتلو: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ثم حمل الراية تلاميذه وكثير من أقرانه على سننه الحميد وفعله الرشيد، وليس به وحده جدّد الدين لكنه بزّ أهل زمانه في حمل لوائه وفاقهم في عظيم بلائه، وسار الناس على السنن المحمدي سنياً، ثم لم يلبث إبليس أن أغرى بعض الطغام بعبادة الطاغوت جهاراً، وبذبح الحنيفية عند عتبته نهاراً، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن، وحدث البدع والفجور، ووقع الشر بينهم». حتى رحم الله تعالى الأمة بجيل

راشد، يقوده إمام هدى، فهبت صبا نجد بالعلم والإيمان، فكان نسيمها راحة وهداية وبصيرة للراغبين.

خليلي من نجدٍ قفا بي على الربى فقد هبّ من تلك الديار نسيمٌ
وكانت حصباؤها رغامًا واجتثاًا لصروح القبوريين، وكما صحّ عن أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فعاد الناس لدينهم، وآبوا لسنة نبيهم ﷺ. فلم يقبض الله الإمام المجدد حتى أقر عينيه برؤية ثمار دعوته وجهاده، وما عند الله خير وأبقى، ولا نزكي على الله أحداً.
عسى جدث يحوي رفاتاً لحبنا رياض جنان مترعات سواقيا

ثم أتم علماء الدعوة السنيّة السنيّة ذلك التجديد، فزكت شجرة الإسلام بتيك الكوكبة من العلماء الذين قاموا بالحق وبه يعدلون، فأظهرهم الله وأعزهم، على قلة المعين وضعف الناصر، فما برحوا يقيمون الديانة، ويجرسون معالم الملة، ويزودون عن أصول السنّة، ويحلّون عرائس المعاني لراغبيها، ويزقّون أبكار خرائد المعارف لخاطبيها، فله هم من أنجم وأقمار، ورواسٍ وأنهار!

أتاك حديثٌ لا يُملّ سماعُه شهّي إلينا نشره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى قتامه^(١)

«فأهل الحديث الفقهاء فيه العاملون به أخص الناس باتباع محمد ﷺ»^(٢) «فلا

(١) ويكون الدين كله لله. للمؤلف (١-٦).

(٢) الفتاوى (٢٥٢/٢٥).

عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين»^(١).

تعيين الفرق الهالكة:

قال تقي الدين ابن تيمية: «وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات وذكرهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم عموماً؛ وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأيضاً فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة؛ ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين. فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر؛ وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

(١) الفتاوى (١٣٠/٣) وانظر: مفهوم أهل السنة والجماعة (١/٤٧-٥٦).

فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة - كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك - كان من أهل البدع والضلال والتفرق.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها؛ تصديقاً وعملاً وحُباً وموالاتة لمن والاهها ومعاداة لمن عاداهها، الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف؛ فما كان من معانيها موافقاً للكتاب والسنة أثبتوه؛ وما كان منها مخالفاً للكتاب والسنة أبطلوه؛ ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم.

وجماع الشر الجهل والظلم، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

جَهُولًا ﴿[الأحزاب: ٧٢] إلى آخر السورة. وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائماً يتبين له من الحق ما كان جاهلاً به، ويرجع عن عمل كان ظالماً فيه. وأدناه ظلمه لنفسه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] وقال تعالى ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ومما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات: منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة. ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقاله من الحق؛ لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها؛ ورد باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين؛ يوالون عليه ويعادون؛ كان من نوع الخطأ. والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها؛ لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة؛ بخلاف من والى موافقه وعادى

مخالفه وفرّق بين جماعة المسلمين، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهو لاء من أهل التفرق والاختلاف. ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع الخوارج المارقون. وقد صح الحديث في الخوارج عن النبي ﷺ من عشرة أوجه خرجها مسلم في صحيحه؛ وخرج البخاري منها غير وجه. وقد قاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فلم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين، إذ كانوا في ذلك ثلاثة أصناف: صنف قاتلوا مع هؤلاء؛ وصنف قاتلوا مع هؤلاء؛ وصنف أمسكوا عن القتال وقعدوا. وجاءت النصوص بترجيح هذه الحال.

فالخوارج لما فارقوا جماعة المسلمين وكفروهم واستحلوا قتالهم جاءت السنة بما جاء فيهم؛ كقول النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»^(١).

وقد كان أولهم خرج على عهد رسول الله ﷺ، فلما رأى قسمة النبي ﷺ قال: يا محمد؛ اعدل فإنك لم تعدل! فقال له النبي ﷺ: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل» فقال له بعض أصحابه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه

(١) البخاري (٣٦١٠) مسلم (١٠٦٤).

مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم» الحديث (١).

فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى؛ كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه. وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن أسباط ثم عبد الله بن المبارك وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين قالوا: أصول البدع أربعة: الروافض والخوارج والقدرية والمرجئة. فقليل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب: بأن أولئك ليسوا من أمة محمد ﷺ. وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية (٢) وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة وجعلوا أصول البدع خمسة.

مسألة تكفير المبتدعة:

وهذا يبنى على أصل آخر وهو تكفير أهل البدع، ومن أصول أهل السنة

- (١) مسلم (١٠٦٤) بنحوه والقائل: دعني أضرب عنقه، هو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في مسلم. وقيل: بل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في مصنف عبد الرزاق. والضئى في الأصل: النسل، والمقصود النسل الفكري، أي يأتون على شاكلته وشبهه، وقد زاد الأمر فيهم واستجرهم الشيطان حتى وصل في هذا الزمان إلى أن كَفَرَ بَعْضُهُمْ إِمَامَ الْهُدَى وخاتم النبيين صراحة! حاشاه بأبي وأمي وولدي ونفسي، صلى الله وسلم وبارك وأنعم عليه وآله، وأبترَ شائئيه، فالخوارج لا منتهى لضلالهم لعدم وجود ضابط وقيد علمي ملجم لهم عن الخوض فيما تخرعه عقولهم الضالة وتسويلات الشيطان الخبيثة عياداً بالله تعالى.
- (٢) وأصولهم في نفي الأسماء والصفات تنتهي إلى الإلحاد المطلق ونفي الربوبية، وإن كان جلهم لا يلتزم تلك اللوازم.

والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب^(١) كذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة^(٢) وفصل الخطاب في هذا الباب بذكر أصليين:

أحدهما: أن يعلم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقًا، فإن الله منذ بعث محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف: مؤمن به، وكافر به مظهر الكفر، ومنافق مستخفٍ بالكفر. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة، ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين؛ وآيتين في الكفار؛ وبضع عشر آية في المنافقين.

وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله: ﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُ مِنْكُمْ قَدِيَّةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام، وإلا فهم في الباطن شر من الكفار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وكما قال: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] وكما قال: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْتَهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا

(١) أي: بكل ذنب، وإلا فمن الذنوب ما هو كفر إجماعًا، وهل الكفر إلا ذنب؟!

(٢) أي: بكل بدعة.

يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴿٥٣﴾ [التوبة: ٥٣ - ٥٤].

وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية، فإن رؤسائهم كانوا منافقين زنادقة.

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنًا وظاهرًا، لكن فيه جهل وظلم، حتى أخطأ ما أخطأ من السنة؛ فهذا ليس بكافر ولا منافق، ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقًا أو عاصيًا؛ وقد يكون مخطئًا متأولًا مغفورًا له خطؤه؛ وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، فهذا أحد الأصلين.

والأصل الثاني: أن المقالة تكون كفرًا: كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات المحارم، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب، وكذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام، فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول، ومقالات الجهمية هي من هذا النوع، فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله.

وتغلط مقالاتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدًا مشهورة، وإنما يردونها بالتحريف.

الثاني: أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله.

الثالث: أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها؛ لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات. ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنًا وظاهرًا؛ وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة، فهؤلاء ليسوا كفارًا قطعًا، بل قد يكون منهم الفاسق والعاصي؛ وقد يكون منهم المخطئ المغفور له؛ وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

أصول البدع:

وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض؛ كما قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(١) وحينئذ فتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك.

فأصل قول الخوارج: أنهم يكفرون بالذنوب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنوب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب. وإن كانت متواترة. ويكفرون من خالفهم ويستحلّون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلّونه من

(١) مسلم ٦٥/١ (٩١) (١٤٧).

الكافر الأصلي، كما قال النبي ﷺ فيهم: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»^(١) ولهذا كفّروا عثمان وعليًا وشيعتهما؛ وكفّروا أهل صفين - الطائفتين - في نحو ذلك من المقالات الخبيثة.

وأصل قول الرافضة: أن النبي ﷺ نصّ على عليّ نصًّا قاطعًا للعدر؛ وأنه إمام معصوم ومن خالفه كفر؛ وأن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفّروا بالإمام المعصوم؛ واتبعوا أهواءهم وبدّلوا الدين وغيّروا الشريعة وظلموا واعتدوا؛ بل كفّروا إلا نفرًا قليلًا: بضعة عشر أو أكثر، ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين. وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفّروا.

وأكثرهم يكفر من خالف قولهم، ويسمون أنفسهم المؤمنين ومن خالفهم كفارًا، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة، أسوأ حالًا من مدائن المشركين والنصارى، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين. وعلى معاداتهم ومحاربتهم، كما عرف من موالاتهم الكفار المشركين على جمهور المسلمين؛ ومن موالاتهم الإفرنج النصارى على جمهور المسلمين؛ ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين.

ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني فإنما معناه لست رافضيًّا. ولا ريب أنهم شر

(١) البخاري (٣٣٤٤) مسلم (١٠٦٤).

من الخوارج، لكن الخوارج كان لهم في مبدأ الإسلام سيف على أهل الجماعة. وموالاتهم الكفار أعظم من سيوف الخوارج، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة هم منتسبون إليهم، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق؛ والروافض معروفون بالكذب. والخوارج مرقوا من الإسلام وهؤلاء نابذوا الإسلام.

وأما القدرية المحضة فهم خير من هؤلاء بكثير، وأقرب إلى الكتاب والسنة، لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضاً، وقد يكفرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك.

وأما المرجئة فليسوا من هذه البدع المغلظة، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة؛ وما كانوا يُعدّون إلا من أهل السنة؛ حتى تغلّظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة.

ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون؛ تكلم أئمة السنة المشاهير في ذم المرجئة المفضّلة تنفيراً عن مقالتهم كقول سفيان الثوري: «من قدم علياً على أبي بكر والشيخين فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار؛ وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك». أو نحو هذا القول. قاله لما نسب إلى تقديم عليٍّ بعض أئمة الكوفيين. وكذلك قول أيوب السخيتاني: «من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»، قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين. وقد روي أنه رجع عن ذلك. وكذلك قول الثوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين.

وكلام الإمام أحمد في هذا الباب جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى، ليس له قول ابتدعه، ولكن أظهر السنة وبيّنها؛ وذوّب عنها وبين حال مخالفيها وجاهد عليها؛ وصبر على الأذى فيها لما أظهرت الأهواء والبدع؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابعاً لمن قبله. وإلا فالسنة هي ما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ وتلقاه عنهم التابعون ثم تابعوهم إلى يوم القيامة، وإن كان بعض الأئمة بها أعلم وعليها أصبر^(١).

من هدايات حديث الافتراق:

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «حقيقة هذا الافتراق: يحتمل أن يكون افتراقاً على ما يعطيه اللفظ، ويحتمل أن يكون مع زيادة قيد لا يقتضيه اللفظ بإطلاقه ولكن يحتمله.

وهذه الفرق تحتمل من جهة النظر أن يكونوا خارجين عن الملة بسبب ما أحدثوا، فهم قد فارقوا أهل الإسلام بإطلاق، وليس ذلك إلا الكفر، إذ ليس بين المنزلتين منزلة ثالثة تتصور.

ويحتمل ألا يكونوا خارجين عن الإسلام جملة، وإن كانوا قد خرجوا عن جملة من شرائعه وأصوله.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٠ - ٣٥٩) باختصار وتصرف يسير.

ويحتمل وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون منهم من فارق الإسلام، ومنهم من لم يفارقه، بل انسحب عليه حكم الإسلام وإن عظم مقاله وشنع مذهبه، لكنه لم يبلغ به مبلغ الخروج إلى الكفر المحض والتبديل الصريح.

وهذه الفرق إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كُلِّ في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئيٍّ من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية.

وهذه الفرق غير معيّنة، ولكن لها خواص وعلامات تعرف بها، وهي على قسمين: علامات إجمالية، وعلامات تفصيلية.

فأما العلامات الإجمالية فثلاثة:

أحدها: الفرقة التي نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

الثانية: هي التي نبه عليها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، فبينت الآية أن أهل الزيغ يتبعون متشابهات القرآن، وجعلوا ممن شأنه أن يتبع المتشابه لا المحكم، ومعنى المتشابه: ما أشكل معناه، ولم يبين مغزاه.

الثالثة: اتباع الهوى، الذي نبه عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ والزيغ هو الميل عن الحق اتباعاً للهوى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

أَتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴿ [القصص: ٥٠]؛ وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وأما العلامة التفصيلية في كل فرقة:

فقد نُبِّه عليها وأشيرَ إلى جملة منها في الكتاب والسنة، وفي ظني أن من تأملها في كتاب الله وجدها منبهاً عليها ومشاراً إليها.

هذا وإنه عليه الصلاة والسلام أخبر أنها كلها في النار، وهذا وعيد يدل على أن تلك الفرق قد ارتكبت كل واحدة منها معصية كبيرة أو ذنباً عظيماً، إذ قد تقرر في الأصول أن ما يتوعد الشر عليه فخصوصيته كبيرة؛ إذ لم يقل: كلها في النار إلا من جهة الوصف الذي اختلفت بسببه عن السواد الأعظم وعن جماعته، وليس ذلك إلا للبدعة المفرقة.

معنى الجماعة:

وقد اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

أحدها: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.

الثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين.

الثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص.

الرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم.

الخامس: أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث.

معنى الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه سبل أهل الابتداع:

الإحداث في الشريعة إنما يقع:

١- إما من جهة الجهل.

٢- وإما من جهة تحسين الظن بالعقل.

٣- وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق.

وهذا الحصر بحسب الاستقراء من الكتاب والسنة، فعلى الناظر في الشريعة أمران:

أحدهما: أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان، ويعتبرها اعتباراً كلياً في العبادات والعادات، ولا يخرج عنها البتة، لأن الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عمّاية، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، والمنحرف عن الجادة إلى بُنيّات الطرق.

الثاني: أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف؛ فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف، لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه.

وليعلم أن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب.

ولما ثبت أن العقل قاصر الإدراك في علمه، فما ادّعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنه أدركها، لإمكان أن يدركها من وجه دون وجه، وعلى حال دون حال.

فالإنسان - وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علماً - لا يأتي عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك، كل أحد يشاهد ذلك من نفسه عياناً، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم، ولا بذات دون صفة، ولا فعل دون حكم، فكيف يصح دعوى الاستقلال في الأحكام الشرعية - وهي نوع من أنواع ما يتعلق به علم العبد؟ لا سبيل له إلى دعوى الاستقلال البتة حتى يستظهر في مسأله بالشرع - إن كانت شرعية - لأن أوصاف الشارع لا تختلف فيها البتة، ولا قصور ولا نقص، بل مبادئها موضوعة على وفق الغايات، وهي من الحكمة.

وليعلم أن الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله. فالله تعالى وضع هذه الشريعة حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم.

وكذلك سائر الشرائع إنما وضعت لتكون حجة على جميع الأمم التي تنزل فيهم تلك الشريعة، حتى إن المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها.

فأنت ترى أن نبينا محمداً ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته، مما اختص به دون أمته، أو كان عامّاً له ولأمته.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثم من اتبعه فيه. والكتاب هو الهادي، والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى، والخلق مهتدون بالجميع.

وإذا كان كذلك؛ فسائر الخلق حريّون بأن تكون الشريعة حجة حاکمة عليهم، ومناراً يهتدون بها إلى الحق، وشرفهم إنما يثبت بحسب ما اتصفوا به من الدخول تحت أحكامها والعمل بها قولاً واعتقاداً وعملاً، لا بحسب عقولهم فقط، ولا بحسب شرفهم في قومهم فقط، لأن الله تعالى إنما أثبت الشرف بالتقوى لا غيرها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فمن كان أشدّ محافظة على اتباع الشريعة فهو أولى بالشرف والكرم، ومن كان دون ذلك لم يمكن أن يبلغ في الشرف مبلغ الأعلى في اتباعها، فالشرف إذاً إنما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشريعة.

ثم نقول بعد هذا: إن الله سبحانه شرف أهل العلم ورفع أقدارهم، وعظم مقدارهم، ودل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، بل قد اتفق العقلاء على فضيلة العلم وأهله، وأنهم المستحقون شرف المنازل، وهو مما لا ينزع فيه عاقل.

واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم، وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة.

وأيضاً فإن علوم الشريعة منها ما يجري مجرى الوسائل بالنسبة إلى السعادة الأخروية، ومنها ما يجري مجرى المقاصد، والذي يجري مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك، كعلم العربية بالنسبة إلى علم الفقه، فإنه كالوسيلة، فعلم الفقه أعلى.

وإذا ثبت هذا؛ فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا إشكال ولا نزاع، وإنما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى، ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيّداً بالاتصاف به، فهو إذاً العلة في الثناء؛ ولولا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم.

ولذلك إذا وقع النزاع في مسألة شرعية وجب ردها إلى الشريعة حيث يثبت الحق فيها، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنُزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

فالملكف بأحكامها لا يخلو من أحد أمور ثلاثة:

أحدها: أن يكون مجتهداً فيها: فحكمه ما أداه إليه اجتهاده فيها، لأن اجتهاده في الأمور التي ليست دلالتها واضحة إنما يقع موقعه على فرض أن يكون ما ظهر له هو الأقرب إلى قصد الشارع والأولى بأدلة الشريعة، دون ما ظهر لغيره من المجتهدين، فيجب عليه اتباع ما هو الأقرب.

الثاني: أن يكون مقلداً صرفاً، خَلِيّاً من العلم الحاكم جملة، فلا بد له من قائد يقوده، وحاكم يحكم عليه، وعالم يقتدى به.

الثالث: أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين، لكنه يفهم الدليل وموقعه، ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتبرة في تحقيق المناط ونحوه، فلا يخلو إما أن يُعتبر ترجيحه أو نظره، أو لا؛ فإن اعتبرناه صار مثل المجتهد في ذلك الوجه، والمجتهد إنما هو تابع للعلم الحاكم ناظرٌ نحوه، متوجهٌ شطره؛ فالذي يشبهه كذلك.

وإن لم نعتبره فلا بد من رجوعه إلى درجة العامي، والعامي إنما اتبع المجتهد من جهة توجهه إلى صوب العلم الحاكم، فكذلك من نزل منزلته.

فالخاص أن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً ضلالاً، وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غيره.

ثم نقول: إن هذا مذهب أصحاب رسول الله ﷺ، ومن رأى سيرهم والنقل عنهم وطالع أحوالهم علم ذلك علماً يقيناً، ألا ترى أصحاب السقيفة لما تنازعوا في الإمارة - حتى قال بعض الأنصار -: «منا أمير ومنكم أمير» فأتى الخبر عن رسول الله ﷺ بأن: «الأئمة من قریش»^(١) أذعنوا لطاعة الله ورسوله ولم يعبأوا برأي من رأى غير ذلك، لعلمهم بأن الحق هو المقدم على آراء الرجال.

(١) أخرجه أحمد (١٢٩/٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢/٢٩٨).

إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال؛ فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم، بل بهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه»^(١).

الهوى آخية الافتراق:

الدنيا دار ابتلاء وميدان امتحان، وربنا تعالى خلقنا ليلبونا أينما أحسن عملاً إخلاصاً وتقوى واتباعاً، ومن عظيم حكمته تبارك وتعالى أن جعل صراطه واضحاً جلياً يقبله العقل، وترتاح إليه الفطرة، وتفرح به النفوس الطيبة، ويجد في سلوكه كل ذي همة ورغبة في سعادته وفلاحه.

وإن من موارد الابتلاء الرباني أن جعل في بعض حروفه المنزلة مواطن تختلف فيها الأفهام، فمن وفقه الله تعالى من عباده لاستفراغ وسعه وفق شرعه بلبغ المنزل، فإن أصاب ظفر بالأجرين، فبذل الوسع في ذك الحق إرضاءً لله تعالى في ذاته فضيلة، وإدراكه وتحصيله فضيلة أخرى، والله قد جعل العلماء مراتب، وكل محض فضل الله تعالى، وإن أخطأ المجتهد الصادق فله أجر سعيه، وهو غير مؤاخذ بخطئه غير المقصود رحمة من الله تعالى وعدلاً وإحساناً، فمأيز سبحانه عباده بما خص بعضهم بإصابة الحق كرامة منه ورحمة، وقصر بعضهم عن إدراكه إما لتقصير في طريقة تحصيله، أو لما شاء سبحانه من أمور لا تبلغها العقول ولا تدركها البصائر، فلا مانع لفضله وعطائه وكرامته، ولا رادّ لعدله وخذلانه وحرمانه، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وهو العزيز الحكيم. والمقطوع به؛ أن كل ذلك لحكم ربانية باهرة لا تحيطها الأفهام، ولا تدركها الأبواب

(١) الاعتصام للشاطبي (١/١٠١، ٤٧٣، ٤٧٤) بتصرف يسير.

والعلوم، فلا يُسأل عما يفعل، وهو يخلق ما يشاء ويختار. والسعيد من رضي بالله ربًّا وإلهًا ومُدبِّرًا مُتصِرًّا رحيماً كريماً حكيماً.

وقد يدرك بعضهم موطن الحق فيستنكف عنه لهوى، من زيغة كبر، أو حظ نفس، أو لعاعة دنيا، وهؤلاء هم أهل الزيغ والفرقة الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وما أكثرهم لو كانوا يعقلون، والله المستعان. قال شيخنا صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى: «كل أنواع الافتراق التي حدثت إنما كانت لأجل الهوى، ولذلك سُموا أهل الأهواء.

هل وجود المتشابه في القرآن والسنة يُعتبر سبباً في خروج أهل الأهواء؟

الجواب: ليس كذلك؛ لأنَّ الله تعالى بيَّن أنَّ أهل الأهواء في قلوبهم زيغ قبل أن ينظروا إلى الأدلة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال سبحانه في أول الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فيبين أنَّه جعل كتابه منه محكم ومنه متشابه، يعني يشبهه على المرء العلم به.

ما الذي حصل؟

أنَّ الذين في قلوبهم زيغ اتَّبَعُوا المتشابه، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ فَأَتَبَّتْ الزَيْغُ فِي قُلُوبِهِمْ ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِاتِّبَاعِ المتشابه.

فإذا المتشابه في الكتاب والسنة ابتلاء ليظهر أهل الأهواء من أهل السنة والجماعة، فحُصِّلَ الهوى والزيغ في القلب ينتج عنه أن يبحث عما يؤيد به هواه

وَيُؤَيِّدُ بِهِ زَيْغَهُ، وهذا ما نصت عليه الآية قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾^(١) بالفناء الترتيبية. ولهذا قال الأئمة: «إِنَّ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْاجْتِمَاعَ، وَأَعْظَمَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ الْإِفْتِرَاقَ» لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَفِي الْأَبْدَانِ وَبِهِمَا صَلَاحُ الْعِبَادِ، وَأَعْظَمُ الْمَصَائِبِ الْإِفْتِرَاقَ وَبِهِمَا يَحْصِلُ الْبَلَاءُ كُلُّهُ.

فالشُّرْكُ فُرْقَةٌ، والتَّوْحِيدُ جَمَاعَةٌ. والبدعة فُرْقَةٌ، والسنة جماعة. والعقائد الصحيحة جماعة، والعقائد الفاسدة فُرْقَةٌ. والاستدلال بالكتاب والسنة وصحة منهج التلقي جماعة، والاستدلال بالأهواء والعقول وما أَلَفَ المرء آباءه وأقوامه عليه فُرْقَةٌ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الْمَنْهَجَ الصَّحِيحَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ. والاجتماع مع جماعة المسلمين وأئمتهم جماعة، والافتراق وترك أئمة المسلمين وجماعتهم فُرْقَةٌ، وهكذا، فكل خير في الجماعة والسنة، وكل شر في الشذوذ والخلاف والفُرْقَةُ»^(١).

العصبية الجاهلية والفُرْقَةُ:

أَنَّ مَا يَتَعَجَّبُ لَهُ النَّازِرُ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَمَا قَبْلَهُ - وبخاصة لدى أهل العلم والدعوة والسلوك - أن يرى فئامًا منهم قد فارقوا مسميات الشرع الجميلة الجامعة المانعة المُسَدِّدَةَ المحمودة ورغبوا عنها إلى مسميات لا تخلو من غلط في مبانيها أو معانيها، ثم بنوا على ذلك اجتماعهم عليها دون ما وضعته لهم الشريعة من مسميات كاملة جامعة، فالقوالب العَلَمِيَّةُ من تلك المسميات تتضمن بداخلها بذور الفرقة والنزاع والشقاق والخصومة، لأنها

(١) إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٦ / ٣).

اجتماع على غير سبيل السنة لما فيها من تخصيص فئة دون أخرى مما يفضي إلى النزاع بأحرّة، ولما فيها من هجر ألقاب الشريعة المحمودّة بكل حال، حتى وإن كان ظاهر بعض ما أحدثوه من مسميات بخلاف ذلك، ومن لم تُغنه مسميات ربه فلا أغناه الله.

والمقصود؛ أن الغاية هي الاجتماع على الحق من الجميع، فإن دَاخَلَ ذلك المُسمّى تفریقًا للجماعة مُنْع، بل حتى مسميات الشريعة وألقابها الفاضلة التي عُنيّت بالتمييز المصلحي لأجل التعريف لا يجوز أن تُتخذ وسيلة لتفريق الجماعة، واعتبر ذلك بغضب رسول الله ﷺ على من هَتَفَ للمهاجرين والآخر الذي هتفَ للأنصار لأنَّ مُحَرَّكَ ذلك النداء عصبية جاهلية لا دينية، مع أن لقب المهاجرين والأنصار قرآنيٌّ فاضل شريف، وهذا من اعتبار المقاصد والمآلات.

وبالجملة؛ فالعبرة بالاجتماع اللقبى بمسميات الشرع والعملى باجتماع القلوب والأبدان، فكيف بألقابٍ هي عينُ المضاهاة أو المشاقّة لألقاب الشريعة؟! «واعلم أنّه لا يُشرع أن يُحدَثُ ألفاظ وأسماء يُجمَعُ الناس عليها وَيَتَعَصَّبُونَ لها، وهي ليست من الألفاظ الشرعية؛ لأنَّ هذا نوع من الفرقة والخلاف والافتراق.

ولهذا قال العلماء: الله تعالى سَمَّى أتباع محمد ﷺ مسلمين ومؤمنين، وَسَمَّى منهم المهاجرين، وَسَمَّى منهم الأنصار، وَسَمَّى منهم الأعراب، وَسَمَّى منهم إلى آخره، وهذه التسميات لأجل مجيئها في القرآن فهي شرعية، وهذه التسميات الشرعية إذا تُعَصَّبَ لها مع أنّها شرعية صارت مذمومة حاشا اسم

الإسلام والإيمان.

لهذا لما قام رجل من المهاجرين لأجل خلاف وقال: يا للمهاجرين. يتتخي بهم، وقام غلام من الأنصار فقال: يا للأنصار. يتتخي بهم فقال النبي ﷺ: «ما بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ»^(١). لم؟

لأنَّ النخوة هنا والتَّعَصُّب صار لطائفة من المؤمنين وللفظ ليس هو لفظ الإسلام والإيمان أو المسلمين والمؤمنين فصار هذا مُحَدِّثًا للتفرق، ولهذا قال «ما بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ» لأنَّ الجاهلية هم الذين يتتخون ويتعصبون للأسماء دون غيرهم.

فكذلك الأسماء المحدثَّة في الأمة إذا تُعَصِّبَ لها دون غيرها فإنه يكون ذلك مردوداً على أصحابه، مثلاً اسم الحنابلة، اسم الشافعية، اسم المالكية، اسم السعوديين، اسم المصريين، اسم الشرقيين المغاربة الشُّوام إلى آخره، هذه أسماء إذا كانت في الأمة لأجل التعريف فإنَّ هذا الأمر فيه واسع؛ لكن إن كان ثَمَّ تَعَصُّب عليها وذم لما خالفها لأجل الاسم، أن يمدح الشافعية لأجل أنهم شافعية، أو يذم الحنابلة لأنهم ليسوا بشافعية، أو العكس فإنَّ هذا من التعصُّب المذموم، وهو من التفرق والأخذ بالشعارات أو الأسماء التي لم يُدَلَّ عليها الدليل»^(٢).

(١) البخاري (٤/ ١٨٣).

(٢) إتحاف السائل (١١/ ٣٦) بتصرف يسير.

قال الإمام الشاطبي^(١): «قال عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنس عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غيره السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

وقال ابن القيم^(٢): «وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ قال: ما لا اسم له سوى السنة. يعني أن أهل السنة ليس لهم اسم يُنسبون إليه سواها». وفي كتاب الانتقاء لابن عبد البر^(٣): «أن رجلاً سأل مالكا فقال: من أهل السنة؟ قال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعرفون به؛ لا جهمي ولا قدري ولا رافضي».

متى ظهر الاعتناء بأهل السنة والجماعة؟

«ظهر ذلك لما ظهر الاختلاف.

والاعتناء بالاسم تمييزاً ليس ثناءً فقط لمن اتبع للسنة والجماعة؛ ولكن هو أيضاً عدل مع من خالف؛ لأنّ الذي خالف لو قلنا هؤلاء مسلمون؛ لكان أولئك نقول كفار، كيف تُحْصُونَ أنتم بالمسلمين؟

فإذا صار عند السلف من كان على الطريقة الأولى يقال له من أهل السنة والجماعة، ومن كان مُخَالَفاً يقال له من أهل الأهواء كالمرجئة الخوارج إلى آخر ذلك.

(١) الاعتصام (٧٩/١).

(٢) مدارج السالكين (١٧٩/٣).

(٣) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص: ٣٥).

ولهذا أجمع أئمة الإسلام على صحة هذه التسمية من أهل الحديث؛ بل ومن غيرهم من الأشاعرة والماتريدية على أن تسمية أهل السنة والجماعة صحيحة، وهذا اتفاق منهم على ذلك، فالتسمية صحيحة مُجْمَع عليها؛ لكن دلالتها مُخْتَلَف فيها.

قال الإمام الطحاوي: «وَنَرَى الْجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا». ويريد العلامة الطحاوي رَحْمَةُ اللَّهِ وَأَجْزَلُ لَهُ الْمَثُوبَةُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ النَّافِعَةِ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ أَتْبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَرَوْنَ الْجَمَاعَةَ حَقًّا أَحَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَحَقَّهُ رَسُولُهُ ﷺ ثَابِتٌ وَخِلَافُهُ بَاطِلٌ. وَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْجَمَاعَةَ صَوَابًا فِي الْإِلْتِزَامِ بِهَا وَفِي التَّمَسُّكِ بِهَا فِي الْحَالِ وَالْمَالِ وَفِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ خِلَافَ الْجَمَاعَةِ بَاطِلٌ وَغُلَطٌ وَضَلَالٌ.

وسبب إيراد هذه الجملة في العقائد أمران:

الأول: أن أعظم ما حصل به الزيغ والذم في الأمة وإضعاف الأمة والبدع والمحدثات والشرك وجميع الموبقات بأنواعها إنما حصل من جرّاء ترك الجماعة والأخذ بالفرقة أو استحسان الفرقة.

الثاني: أن الفرق الضالة رأت الفرقة خيراً وطلبتها ورأت الجماعة ضعفاً فنبذتها»^(١).

(١) إتحاف السائل (٥٠ / ٥).

معنى الجماعة :

لفظ الجماعة مأخوذ من الاجتماع، فإذا جاء على لسان الشرع فهو الاجتماع في الدين أولاً باجتماع القلوب والجوارح على الهدى ثم باجتماع الأبدان على التعاون على البر والتقوى، لذا جاء الزجر شديداً في المفارقة بالقلوب أو الأبدان، وجاء تقديم الاجتماع ولو على حساب تحصيل بعض الكمالات الدينية الخاصة، ومن ذلك أن ابن مسعود أتمّ خلف عثمان رضي الله عنهما في منى واسترجع لأنه يرى أن السنة قصر الصلاة في ذلك الموطن، فلما روجع في ذلك وكيف ترك الفاضل من القصر للمفضول من الإتمام ذكر لهم وجه ذلك بقوله: «الخلاف شر»^(١) ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عمّن يأتهم بإمام شافعي يقنت في الفجر أمر بمتابعته، وهذا من الفقه العميق لذلك الإمام الرباني رحمه الله تعالى، فاجتماع الأبدان مطلب شرعي ولو كان في تحصيله فوات بعض الكمالات، وهذا من مراعاة الشريعة لفضيلة الاجتماع، وهذا فيما بين الفاضل والمفضول، أو الراجح والمرجوح فيما ساغ فيه الخلاف، وليس بالمتابعة على الضلال أو المعصية، لذلك لا يعني ما ذكرناه من المتابعة الشروع في فعل المعصية أو المتابعة على بدعة، والموفق من راعى مصالح الشرع بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء الفاسد وتقليلها، وبدرء المفسدة الكبرى بالصغرى، وليس الحكيم هو من يعرف الخير والشر، وإنما الحكيم هو من يعرف خير الخيرين، وشر الشرين ويُتبع حكمة علمه حكمة عمله.

(١) أبو داود (١٩٦٠) وصححه الألباني.

وإن أنس لا أنس غضب شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى في درسه بعد صلاة التراويح في سطح المسجد الحرام لما شغب بعضهم اعتراضاً على دعاء ختم القرآن أثناء الصلاة حتى إن بعضهم فارق الإمام أو رفع يديه واستغفر بعد التأمين إلى غير ذلك؛ فبين رحمه الله تعالى وجه دعاء الختم في الصلاة والأدلة في ذلك، وأنها من مسائل الاجتهاد التي يُتابع فيها الإمام، ثم مثل لهم بخبر الفقيه ابن مسعود مع أمير المؤمنين الراشد عثمان رضي الله عنهما في إتمام الصلاة بمنى وبين لهم مخالفة وشؤم المفارقة.

ومن فروع ذلك ما قرره أهل علماء أهل السنة من قبول ولاية المتغلب، وأنه في حقيقته قوة وليست ضعفاً، ففهما يتميز به النهج السنّي العتيق الحرص الشديد على حفظ بيضة المسلمين، واجتماعهم على إمام مطاع يسوسهم بالشرع الحنيف، لذا فقد شدد الشرع في شأن الخروج غير المبرر على من انعقدت له البيعة وصحّ له الحكم، فلا يحل خروج ونبد إلا بشرطي كفر الإمام وغلبة الظن على تغييره، وتقرير الشرطين إنما هو بيد الراسخين في العلم.

ومن هنا فينبز بعضهم هذا المنهاج بالضعف والخنوع لقوله بانعقاد ولاية المتغلب المسلم، والجواب من وجهين:

أولاً: أن هذا مقتضى الشرع، والأدلة في ذلك صحيحة صريحة كثيرة متنوعة، وبما أنها كذلك فيكفي المؤمن علمه بها ليستيقن قلبه وتطمئن نفسه ويعلم أن أمر الله كله خير. ولكن لا يعني هذا ترك الإنكار على السلطان وإبراء الذمة بنصحه ونصح الأمة، والعمل على إقامة دين الله تعالى بحسب الوسع

والطاقة.

ثانيًا: أنها قوة وعزة في الحقيقة، وليست بضعف ووهن وخنوع، وهذا جليٌّ لمن تأمله، فالقبول للمتغلب ومبايعته ليس لشخصه، بل لمركزه الذي يخوله القيام بأمر الناس، فإن غلبه غيره ببيع المتغلب الآخر، لأن القبول بالأول ليس لشخصه بل لمكانه الذي يقيم به دين الناس ودنياهم.

وتأمل حال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الرياض في وقت إمارة ابن رشيد للرياض فقد قاتل بشراسة وأفتى لأهل الرياض بالقتال ضد الملك عبد العزيز حينما أراد دخول الرياض للمرة الأولى إبان معركة الصريف المشهورة. وبعد ذلك لم يعتذر الشيخ، بل قال: «قد كانت لهؤلاء بيعة في أعناقنا». فالقضية إذن هي قضية مبدأ ودين، لا رَغَب ورَهَب.

وتأمل حال ابن عمر رضي الله عنهما وغيره من الصحابة مع السلطان المتغلب المسلم والتزام بيعته والتشديد في نكثها، حتى لا تروج الفتن في الناس بسبب القتال على الإمرة.

ذلك أن الولاية - مُلْكًا كانت أو إمرة أو سلطنة - فهي بمنظور الشرع إنما هي تكليف محض شاق يليه حساب شديد يوم الدين، وليست تشريفًا ومغنىً، ولكن من وليّ وعدل فإنه يستحق أن يكون من السبعة الذين يكرمهم الله غداً بأن يجعلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذلك أن ولايات السلطة المطلقة سمّ للروح نافع لا يسلم منه إلا من كان شديد التحصين بالإيمان والورع.

هذا، وخطر مقام السلطان وخطر زعزعته على أمن الناس وسكيتهم

ودينهم فقد شدد الشرع في حرمة الخروج عليه أو نقض بيعته أو شق عصاه بلا مبرر ومسوغ من الشريعة.

وبالجملة فالمنهج السلفي ليس بدعاً من الأقوال والأفعال والمناهج، بل هو الممثل للإسلام الصافي والسنة النقية من شوائب البدع وغوائل المحدثات، وهو التلاد حقاً للأمة.

لذا فلا تعجب من كثرة الخصوم لمنهج السلف وكثرة التغبيش حول هدايته؛ فلشموخه ووضوحه ورسوخه وقوة حججه وقرب معانيه لم يبق لهم سوى ضجيج التائهيين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.^(١)

وبعد؛ فالعلم - رحماني الله تعالى وإياك - أن من ألف باء فهم المسائل حسن التصور لها إجمالاً، أما تحقيق حدود التفاصيل فهو ميدان اختلاف الرأي، وفي دائرته يكون السجال مؤيداً بالبراهين.

فنحن كمسلمين لدينا كلية مطلقة لا تقبل الجدل والتمحك، ولا الضبابية والتمحل، تلك هي محورية تحقيق العبادة لله جل وعلا. فهذا القدر الكلي مجمع عليه، لذا فمنه المنطلق في الحوار وإليه العود في الترجيح.

فموضوع الغاية من الخلق محسوم بأية الداريات، إنما الشقاق يكون بالقفز الفكري أو الشعوري خارجه! لذلك فطريقة القرآن هي رد الناس إلى هذه الغاية

(١) ولمزيد تفصيل انظر: «ولا تفرقوا» للمؤلف.

مهما تلونت سبلهم وأسبابهم، فيستحيل أن يتعدد الحق في نفسه، إذن فلا بد من مرجعية مهيمنة وحاسمة، تلك بلا تردد هي حاكمية الوحي المنزل.

ودعنا نقف على أمثلة متنوعة الألوان والرسوم حتى ندرك خداع النفس الأمارة لصاحبها حينما تتلفع له بقناع النصح والوداد المخفي لما تحته من وجه الحقيقة الآثمة! وثم خمسة أمثلة:

الأول: مثال الفقيه المبرر بلي أعناق النصوص لما يراه من تقديم مصلحة دنيا الناس على دينهم بتضخيم جانب أمن الجسد على أمن الديانة.

فحينما يتوسع الفقيه في منطق تسويق فعل سياسي خارج حدود المقبول، وينشغل بترقيع خلل السياسي في مقابل تضخيم خوف المآلات بحجة - أو شبهة - دفع ورفع الفتن المتوهمة، فنحن هنا أمام مثال لتقزيم الأصل وهو تحقيق العبادة لرب العالمين في سبيل حفظ دنيا لفرد أو جماعة. وكم من مبطل بلباس ناصح!

ولا نعني بذلك إلغاء القصد النبيل للفقيه، فهو أمر قد جاءت به الشريعة وعظمت شأنه، فلا يقوم الدين إلا بدنيا صالحة، والتاريخ شاهد صدق، إنما المطلوب أن يُججَم الأمر بقدره الشرعي، فلا يكون هو الأصل دون تحقيق العبادة لله جل وعلا.

والمؤمن كَيِّسٌ فطن، فلا بد من مراعاة الحكمة والمصلحة الشرعية في ذلك، فَرُبَّ إلقاءٍ لمفسدة صغرى تُدفعُ بها مفسدة كبرى، فليعلم ذلك؛ حتى لا يكون فساد عمل المرء من جهة إصلاحه، فلا بد من مراعاة قاعدة المصالح والمفاسد

ودرء المفسدة الكبرى بالصغرى ونحو ذلك، علماً أن حال السعة والراحة والأمن في أحوال الناس ليس كحال الضيق والخوف والضرورة، وعلى المؤمن قصد السبيل المستقيم دون الجائر، والموفق من وفقه الله تعالى.

وللتوضيح نقول: تحقيق العبودية عبادة محضة، ومحور لا يقبل التجزئة، أما غير ذلك فهي وسائل لتحقيقها لا غير، فهذه الوسائل ملحقة بالعبادات من جهة أنها تفضي إليها لا أنها هي.

قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] فالفتنة حينما تصرف عن الأصل الأعظم وهو الإيمان؛ فهي بلا ريب أشدُّ من قتل يُتلف الجسد وتبقى بعده حياة الإيمان. وفرض الوقت هو أن تُحفظ العبادات ووسائلها، بحيث لا تنقلب الوسيلة غاية ولا الفرع أصلاً، وبالمقابل لا يجوز أن تلغى الوسيلة بحيث لا يبقى للمرء بعدها لغايتها وصول.

الثاني: الغيور المنكر المتحمّس الذي ترتاح نفسه للّجج والخصام، والعجلة، والبداة بالتغيير بسلطة اللسان وسوء الظن وتفتيش النيات وكشف العورات والفرح - عملياً - بالزلات، ونشر المنكرات وإشاعتها بقصد حربها وكسرها، والتساهل في اتهام أهل العلم والفضل بالتقصير في القيام بأمر الدين، ووصمهم بالمداهنة وبيع الآخرة نظير عمالة من سلطان.. ونحو ذلك مما قد كُفّيه ولم يكلف به، ولكن أبت عثرته إلا أن تُكرعه حمأة البغي!

وقد يزيد هذا العجول بلا علم ولا حلم فينكر باليد ما ليس تحت يده ومما ليس مأذوناً له فيه، وقد يستطيل بغياً فيستطيب إشهار السيف على من حرّم الله

في سبيل إقامة أمنيّة لا يراها خارج جمجته الحيرى! فيفرح بدرس نواقض الإسلام دون درس موانع التكفير، بل يريعيها أذنًا صماء، فيكتفي بالأولى ليركض بها في نكيره، ويتعمّد الإغماض عن الثانية لأنها تقيد حرية طيشه! ويكأنما نسي أن شارع الأولى والثانية واحد. وكم من مريد للخير لم يبلغه، وكم من كارثة لا ترقؤها الأيام ابتدأها من يظن فعله صالحًا! ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦].

يا صاحبي: إنكار المنكر فرض على الأعيان أو الكفايات بحسب الأحوال، فاحرص على اعتدال رمانة ميزانك بلا وكس ولا شطط، فلا تقعد عن إنكار مشروع، ولا تتخوّض ما لم تأمرك به الشريعة ولم يأذن لك به الله تعالى.

الثالث: الداعي إلى سبيل ربه ولكن عبر التوسع فيما يراه وسيلة جاذبة للناس للخير الذي يدعوهم إليه، فيركب المشتبه، ويتوسع فيما اختلف فيه، وينسلخ من ضوابط من أجازوا له ما هوي مرحلة بعد أخرى حتى تظهر عورة منهجه بعد سقوط آخر ورقة للتوت ولو من غيره ممن استنوا طريقته، بل ربّما عصى ربه في سبيل طاعته! والله طيّب لا يقبل إلا طيبًا، ولم يجعل هداية خلقه وطبّ قلوبهم وأجسادهم فيما حرّم عليهم، وليس كل طريقٍ للحق موصلٌ وإن نبل هدف سالكيه.

فقف إذن حيث وقف سلفك الصالح، فإنهم عن علم وورع وحكمة وتوفيق كفوا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

الرابع: المرء مع أسرته من زوج وذرية، فيسعى لأن يملأ أعمارهم بهجة

وسرورًا، ويتذكر فصول الحب وحسن المعشر والرحمة والكرم ونحوها، ولكنه في غفلة هائلة عن النصح الحقيقي، والشفقة التامة، والحب الصادق الذي يفضي به إلى أن يأخذ بأيدهم إلى رضوان الله تعالى والجنة.

جميل جدًا أن ترسم الضحكة والبسمة على محياهم شريطة أن تعمل على أن يستمر هذا معهم بعد رحيلهم عن هذه الدار الصغيرة الزائفة الزائلة الفانية، فاعمل على رسم الهدف النهائي الأخروي لك ولهم، وصلِّه بمباهج الدنيا التي لا تحلو أصلًا إلا مع طاعة الله تعالى. فإن رأيت يومًا فرعًا أمارًا بالسوء فاهتف به: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

الخامس: المؤمن مع نفسه في حال زجرها أو إكرامها، فمن شقَّ عليها بأطرها على مسيرٍ لم تؤمر به، ولم يرفق بها في طريقٍ صالحٍ حتى كَلَّتْه وملَّتْه، فحبسَ غريزته تأثمًا دون إفراغها فيما سخر لها خالقها من المباح، أو أطلقها حول الحمى، ثم أوجها الحمى، حتى إذا طرقت الحرام وألفت العصيان لم يسمع لنداء الإيمان في قلبه ركزًا!

وكما أن الإيمان لا يصح دون علم؛ فكذلك العلم لا ينفع دون إيمان، وتأمل كيف جمعها ربنا بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦].

فإحسان العبادة غاية الصديقين، والرفق بالنفس مع الخزم معها وسيلة تحقيق هذا المقصد الأعلى بإذن ربنا الأعلى، ومتى طغت الوسيلة على الغاية هلكت الراحلة والراحل. فالمؤمن فطنٌ نبيه، وحكيم عليم، وحازم لطيف، يرى الشرع بمنظار الشرع، ويستعين بالله من هواه هُداة، فيحرص على

الاعتصام بحبل الله تعالى في نفسه وما أطاق من أمته، والدنيا كلها ابتلاء، والآخرة ميعاد المؤمنين ووعد الكافرين، والسعيد من ولد آدم من رضي الله تعالى عنه. فضع يدك على فؤادك ثم اسأله: أي فؤادي، متى خفقتك الأخيرة؟! اللهم اجعلها على الإيمان، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

هذا؛ وإن الجماعة قد «اختلف السلف في تفسيرها على عدة أقوال، والذي يجمع كلام السلف أن الجماعة نوعان: جماعة في الدين، وجماعة في الأبدان والدنيا.

والنصوص تشمل هذا وهذا، ومن فسّر من السلف (الجماعة) بجماعة الدين فإنه تفسيرٌ للشيء ببعض أفرادها، كما هو عادة السلف، ومن فسّرَها بأنها جماعة الأبدان والاجتماع على الإمام وولي الأمر فإنه يعني بها فرداً أو بعض أفراد الجماعة. فالجماعة نوعان:

أولاً: جماعة في الدين: وهي الأساس الأعظم لما أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله، فإن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجل أن يجتمع الناس في دينهم، وهو توحيد الله، عبادته وحده دون ما سواه والبراءة من الشرك وأهله.

وهذا هو الذي جاء في نحو قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] يعني واجتمعوا عليه، وهو المذكور في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهذا الاجتماع في الدين هو أعظم أمرٍ لأجله بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، وهو الذي من أجله يجاهد المجاهد ويدعو الداعي، وهو الذي من أجله أتى الله تعالى الرسل الآيات والبينات، أن يجتمعوا لأجل تحقيق الدين، لأجل ألا يفترق الناس في الالتزام بما يُرضي الله تعالى فيما يستحقه في العبادة والطاعة له ولرسوله ﷺ.

فيدخل هنا في الاجتماع: الاجتماع في ملازمة الإسلام، والالتزام به، وألا نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ، وأن يُدْخَلَ في الإسلام كافة دون تفریق ما بين مسألة ومسألة. أي من حيث الاعتقاد والإقرار والإذعان والالتزام..

ثانياً: جماعة الأبدان: أي اجتماع الأبدان والدنيا بملازمة طاعة من ولّاه الله الأمر، والسمع والطاعة في غير معصية الله.

وهذا النوع وسيلة لتحقيق الأول، فالأمرُ به والنهي عن الخروج عن الولاية والأمر بالاجتماع فيما أَحَبَّ الإنسان وكرهه، كما جاء في الحديث: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره»^(١) هذا به يتحقق الاجتماع في الدين.

والتفريط في الأول أو في بعضه يُعاقِبُ الله تعالى به بالفرقة في الثاني أو بعضه، وكذلك التفريط في الثاني وهو: السمع والطاعة لولاية الأمور في غير المعصية، والاجتماع وعدم الخروج، التفريط في الثاني يُنتِجُ التفريط في الأول أو في بعضه.

(١) مسلم (١٨٣٩).

ولهذا ما مِنْ فُرْقَةٍ في الأبدان حصلت في الأمة إلا وكان معها وبعدها من الافتراق في العقائد ونفوذ البدع والمُحدثات ما لا يدخل في حُسْبَان.

فالأمران مترابطان، والجماعة مطلوبةٌ في هذا وهذا، ومأمورٌ بها، وجماعة الدين واجتماع الناس في دينهم حقٌ وصواب، وإحداث المحدثات باطلٌ وغلط وضلال، وكذلك الاجتماع في الأبدان والدنيا حقٌ وصواب، وخلافه بالفُرْقَة والخروج باطلٌ وزيفٌ وضلال.

هذا؛ وجماعة الدين حصل فيها الافتراق أو حصل فيها الخلل ووقعت الفُرْقَة قبل الافتراق في الأبدان أو قبل اختلال جماعة الأبدان، وذلك حين نشأت الخوارج في عهد عثمان، وحدث منهم ما حدث حتى آل الأمر إلى قتل عثمان، ثم بعد ذلك وقعت الفُرْقَة واختلَّت الجماعة.

وهذا يؤخذ منه أنَّ من دعا إلى الدين والاجتماع عليه وتحقيق التوحيد ونبذ البدع ووسائل الشرك والبدع وإحلال الحلال وتحريم الحرام والأمر بما أوجب الله تعالى والنهي عن ضد ذلك أنَّ هذا في الحقيقة يدعو إلى الاجتماع في الأبدان، لأنَّه إذا اجتمع الناس في دينهم آل الأمر إلى اجتماعهم في أبدانهم، والمسائل مرتبطة بعضها ببعض.

لهذا كان من اللوازم على كل من يطلب معرفة منهج السلف والأئمة وأهل الحديث أن ينظر إلى التلازم العظيم ما بين الجماعة الأولى والجماعة الثانية، أو الاجتماع الأول والاجتماع الثاني.

والتوازن فيما بينهما هو سبيل أهل العلم، فإنَّ الناس في هذين الأمرين على

ثلاثة أنحاء:

الفئة الأولى: منهم من قَدَّمَ تحقيق المطالب الدينية ورَعَاهُ حتى ولو حصل خلل في الاجتماع في الأبدان - بحسب اعتقادهم ..

وهذه طريقة من ضل في هذا الباب وغلا من الخوارج والمعتزلة، ومن رأى رأياً يشابه ما قاله الخوارج والمعتزلة ونحوهما.

الفئة الثانية: من تساهلت فرأت المحافظة على الجماعة في الأبدان والدنيا سبيلاً لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة الواجبة وإعلان الحق بضوابطه الشرعية في أمر الجماعة، فَتَرَكُوا إنكار المنكر من الشرك والبدع تَسَاهُلاً وَضَعْفاً.

الفئة الثالثة: هم الراسخون في العلم ومن تَوَلَّاهُ الله بتوفيقه، فإنهم أخذوا بهذا وهذا، فدعوا إلى الاجتماع في الدين وتحقيق ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبشر العلم النافع والدعوة إلى ذلك وبالنصيحة بطرقها الشرعية، ولم يروا ذلك مُخَالَفاً لما أوجب الله من الاجتماع في الأبدان والدنيا، فوازنوا بين هذا وهذا وأَجَرُوا الحكمة في هذا وهذا.

ولا شك أَنَّ أحوال الناس تختلف في مثل هذه المقامات ما بين مقام الأمن ومقام الخوف، ومقام الفتنة ومقام الاستقرار.

والراسخون في العلم ومن تبعهم يضعون لكل شيء موضعه، فلا يتركون الأمر والنهي والدعوة والنصيحة لأجل تَوَهُُّم أَنَّنِ هَذَا يُفَرِّقُ، ولا يأمرن مع

مَظَنَّةٌ وجود الفرقة.

ولهذا يقول ابن تيمية في رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «الأمر والنهي إذا ظَنَّ أنه ستحدث مفسدة لأمره ونهيه أكبر مما أَمَرَ به ونَهَى، فإنه لا يُنْكَر، وقال: يَأْثُم إذا أنكر» لأنَّ الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ودرء المفسدات وتقليلها.

وهذا بخلاف التَّوَهُّم، لأنَّ التَّوَهُّم غير الظن الراجح، غير ما يعلمه أهل العلم مما سَتُحْدِثُهُ الأمور. فَالتَّوَهُّم هذا راجع للخوف، فمن الناس من يخاف أن يقول لفلان: اتق الله في كذا وكذا أو صلِّ الصلاة، يَتَوَهُّم أنَّ كل شيء سيؤثر على النفوس وأن كل شيء سَيَغَيِّرُ.. الخ. وهذه حيلة وطريقة مَنْ تَرَكَ ما أوجب الله، وهي طريقة بني إسرائيل التي ذم الله الناس عليها.

لهذا يجب في هذه المسائل أن يؤخذ بطريقة أئمة الإسلام الراسخين في العلم ممن رَعَوْا هذا وهذا، وأنَّ الاجتماع في الدين هو الأصل الذي يجب أن يُدْعَى إليه، وأنَّ الاجتماع في الأبدان والدنيا أصل عظيم يجب المحافظة عليه، والموازنة بين هذا وهذا إنما يدركه أهل العلم الراسخون.

وما ضلت الخوارج - أي في أصلها - إلا لأجل أنهم رأوا أنَّ تحقيق ما يَظُنُّون من الشريعة يحصل بقتل عثمان وبجمع الناس على ما يرون، ثم حصل من المعتزلة ما حصل.. الخ. فَحَصَلَ الفساد والشرّ بسبب التفريط في الموازنة

والوسط في هاتين المسألتين العظيمتين»^(١). وبالله الاستعانة والاعتصام، ومنه
التوفيق والسداد، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) أتحاف اسائل، صالح آل الشيخ (٥٠ / ٨ - ١٠).

الفرقة في الدين التي حصلت في الأمة على مراتب وأنواع

للدنوب دركات كما للطاعات مراتب ودرجات، فالجنة درجاتها لأعلى عليين، وجهنم دركاتهما لأسفل سافلين، والعُباد في الدنيا يسعون لمصائرهم في الآخرة على ما ييسرهم الحكيم الرحيم العدل تبارك وتعالى.

وإنَّ الفرقة في الدين على أنواع:

«الأول: هو أعظمها، وهو مخالفة أصل الدين بحدوث البدع المختلفة الشريكة الكفرية، كإنكار صفات الله تعالى وكعبادة غير الله وإقامة المشاهد والحج إليها وتقريب القرابين لها ودعاء الأموات أو التقرب للكواكب أو نحو ذلك، كما حصل من الفرق الباطنية أو فرق الرافضة ومن شابههم.

الثاني: الافتراق البدعي غير الكفري، الذي حصل من الخوارج والمرجئة والقدرية ومن نحناحوهم.

وهذان النوعان مذمومان مُتَّفَقٌ على ذمِّهما.

النوع الثالث: الافتراق في المسائل العملية؛ في مسائل الفقه في أحكام الطهارة والآنية أحكام الصلاة الصيام البيوع الجنایات.. إلخ.

ونقول عن الاختلاف والفرقة التي حصلت في المسائل العملية:

أولاً: هي مذمومة من حيث الأصل، وإن كان الذي قال قولاً باجتهاده معذور ويؤجّر؛ لكن في الجملة الافتراق مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ

مُخْلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

ثانياً: أنَّ الفرقة في المسائل الفقهية، والاختلاف الذي وقع بين الصحابة وبين الأئمة المجتهدين اختلاف لأصحابه فيه إما أجران وإما أجر واحد، فإذا اجتهد وتحرى الحق وأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وتحرى الحق فأخطأ فله أجر واحد على اجتهداده وتحريره الحق.

وأما من قال قولاً ليس فيه بمتحرر للحق، وإنما هو نتيجة عن هوى ونتيجة عن شهوة، فهذا يَأْثِمُ ولا يُؤْجَرُ، فإنَّ الذي يُؤْجَرُ هو المجتهد الذي يبحث عن الحق، كما هو صنيع السلف، أما إذا كان ميدانه الهوى والشهوة فإنَّ هذا مذمومٌ على كل حال.

ثالثاً: العلماء إذا اختلفوا في الفقهيات فالواجب أن يُرعى معه ألا يكون افتراق في الأبدان ولا افتراق في القلوب؛ لأنَّ هذا الخلاف الذي يُوجد ابتلاء من الله ابْتَلَى به الناس أن يختلف العلماء؛ فهذا يقول بقول وهذا يقول بقول، ويكون لهم فيه سعة في بعض البلاد ونحو ذلك، لكن هو ابتلاء يُبْتَلَى به الناس.

فالواجب إذا وقع هذا الاختلاف في الأقوال الفقهية أن ينظر الناس إلى أنَّ المختلفين إذا اجتهدوا وتحرروا الحق وخاصةً من الأئمة الذين شُهِدَ لهم بتحري الحق وطلبه أنَّهم ما بين أجرٍ وأجرين، وأنَّ من وثق بإمام فاتَّبَعَهُ على ذلك ولم يَسْتَبِنْ له الحق، فهو معذور في اتِّبَاعِهِ له، وأنَّ الله تعالى إذا أراد بالعباد عقوبة فإنه يجعل هذا الخلاف سبباً للتفريط في الجماعة الثانية وهي جماعة الأبدان.

والله تعالى لما ذَكَرَ أهل الكتاب قال: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴿١٣﴾ [المائدة: ١٣]. ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ يعني تركوا نصيباً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾

يعني مما جاءهم في كتاب الله. فما النتيجة؟

قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، ومما أمر الله به وذكرنا به أن نحرص على الاجتماع، الاجتماع في النفوس والاجتماع أيضاً في الأبدان.

فإذا صار اختلاف أهل العلم سبباً لوقوع الفرقة، ولوقوع التلاعن والتباغض والسب والشتم، وطعن كل فئة في أتباع العالم الذي اجتهد وتحري الحق؛ فإن هذا لا شك أنه بغْيٌ وظلم يُعاقَبُ عليه الإنسان، وهذا مما نهى الله تعالى عنه.

وهذا هو الذي حصل، وهو الذي يحصل عند من لم يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه قلَّ أن يحصل اختلاف إلا ويَبْغِي بعض الناس على بعض، إما بتجهيل أو بسب أو بوقوع فيه أو نحو ذلك من الأقوال.

والواجب أن يُنَصَّرَ الحق، وأن يُعَذَّرَ من خالف في الفقهيات، ويُعَلَمَ أنه إذا اجتهد وتحري الحق فإنه له أجر لكن لا يُتَابَعُ على ذلك.

ولا شك أن زلة العالم زلة العالم، ولكن هذا قضاء الله وحكمته، فكم من مسائل ثم من الأئمة المشهورين من خالفوا فيها السنة وخالفوا فيها الدليل باجتهادهم فهم معذورون، ومن اتبعهم بلا معرفة للحق وإنما ثقةً بذلك الإمام معذور.

ولكن الواجب تحرّي الحق بإتباع ما دلّ عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو وافق القواعد والأصول العامة للشريعة التي يعلمها أهل العلم.

وهذا في الحقيقة هو أعظم ما حصل في كل زمان إلى زماننا الحاضر؛ بل وإلى يومنا هذا، فقلّ من يعذر في المسائل المُتخَلَف فيها في الفقهيات؛ يعني التي فيها بحث، فيَنْظُرُ هذا فيه فيجتهد في كذا وهذا يجتهد في كذا، حتى رمى بعضهم بعضاً بالضلال، ورمى بعضهم بعضاً بمخالفة ما أمر الله به؛ بل حُكِمَ على بعضهم بالبدع والمحدثات لأجل بعض المسائل الفقهية التي اختلف فيها الناس.

وهذا مما ينبغي أن يُعْلَمَ كعقيدة: أنّه إذا كانت الفرقة في الفقهيات والعمليات والاختلاف في ذلك إذا كانت سبباً للفرقة في الأبدان فقد بَغَى العباد بعضهم على بعض، ووقعت الفتنة، ووقع البلاء فيهم.

والواجب ألا يقع فيهم البغضاء والشحناء لأجل ذلك، كيف إذا زاد الأمر؟! إذا حصل القتال؟! وحصل التكفير؟! ونحو ذلك كما حصل من بعض في بعض الأزمان حيث كَفَرَ بعض الشافعية بعض الحنفية في مسائل، وكَفَرَ بعضهم بعض الحنابلة في مسائل ونحو ذلك مما وقع فيه طائفة في أعلى درجات الظلم والبغي والعدوان من الناس بعضهم على بعض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا لا يزال يوجد إلى يومنا هذا، فكلما زاد العلم زادت البصيرة بأمور:

الأول: أن يحرص طالب العلم على تحرّي الحق.

والثاني: ألا يجعل تحرّيه للحق سبباً لفرقة العباد، ولا سبباً في وقوع الشحناء والبغضاء بينهم؛ بل يتودد في ذلك كثيراً، ولا يجادل في ذلك مجادلة الذي يريد الانتصار والقوة؛ بل يتكلم في ذلك بسكينة وهدوء.

وما أجمل قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ في نحو هذا لما قيل له: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عنها؟ قال: «لا» يعني يرى من يخالف السنة ويذهب إلى قول آخر، والمدينة كان فيها مدرسة الرأي أتباع ربيعة الرأي ومن معه، وهي مدرسة قريبة من مدرسة الكوفة في الأخذ بالرأي وعدم العلم بتفاصيل السنة، ف قيل له: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عنها؟ قال «لا، يُخْبِرُ بالسنة، فإن قُبِلَتْ منه وإلا سكت»^(١) لماذا؟

لأنّ الشيطان يأتي فيجعل الإنسان ينتصر لنفسه لا للسنة، وهذا مسلكٌ شائك في النفوس، ويُنَافِي الإخلاص، وينافي ما يجب، فيبحث فإذا هو يريد ينتصر للحق، ثم تنقلب المسألة في النقاش أو في المجادلة أو في الإخبار بالصواب إلى انتصارٍ للنفس دون انتصارٍ للحق وهذا مما ينبغي تداركه^(٢).

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٩٣).

(٢) وهذا مسرب خفي للنفس، ومسلك دقيق للهوى، ينبغي لطالب العلم أن يتنبه له من دسيسته، وأن يحتاط من غلوائه، ولك أن تنظر لأي حوار ونقاش ساخن بين طلبة العلم حتى ترى خطر ذلك الباب الخفي على نفوس الصالحين، وحضور الشيطان بعمامة الناصح الحادب، فالأمر خطير جدّاً، ولا يحتمل التساهل والتواني، فعلى الناصح أن يتنّد ويتريث ويتمهل ويراجع مساقط نيته وخوافي قصوده، ولا يكن همه =

معنى لا إنكار في مسائل الخلاف:

ومما يدخل أيضاً في مثل هذا أنَّ اختلاف الفقهاء في المسائل العملية اختلافٌ كبيرٌ جداً، حتى إنَّ المسائل المُجمَّع عليها قليلة، وليس كل قولٍ من الأقوال المختلفة يصحُّ أن يكونَ في الخلاف المعتبر. وليس كل خلافٍ جاء مُعتَبَراً إلاَّ خلافٌ له حظٌّ من النظر وإذا وقع الخلاف فإنَّ الخلاف على نوعين: خلافٌ قوي، وضابطه: ما كان الخلاف فيه في فهم الدليل ولا مُرَجِّح. وخلافٌ ضعيف، وضابطه ما كان الخلاف فيه بمخالفة الدليل أو بالغلط في فهم الدليل.

العلو على الأقران والمفاخرة على الإخوان والانتصار للنفس الأمارة، وأن ينظر هل من الحكمة المبادرة أو التأجيل أو الإلغاء، وكما قيل: «الانتهاض لمجرد الاعتراض من جملة الأمراض». وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا رأى أن كلامه أعجبه سكت ولم يتممه مخافة التسميع. وعلى المنصوح كذلك ألا يستكبر عن قبول الحق أيّاً كان حال قائله، فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، وأن يتَّضع لنور الحق الأبلج، ولا يغطيه بسواد كبره، ولا يُعْنَق في باطلٍ خشية أن يُقال: إن فلاناً غلبه أو قطع حجته ونحو تلك الأشرار الشيطانية للنفس الضعيفة المندفعة في الباطل، الحُرُون عن الهدى، وكلُّ الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها.

فعلى الموفق تأمل ذلك، وله أسوة في أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لما برك على المشرك وأهوى عليه بالسيف بصق المشرك على وجهه فرفع عنه السيف وقام عنه وتركه، فسئل عن ذلك فقال: «كان غضبي لله لما رفعت عليه السيف، فلما بصق علي خشيت أن أنتصر لنفسي»، فله دره ما أحسن علمه وعمله.

والخلاف القوي لا إنكار فيه، فإذا كانت المسألة فيها خلافٌ قوي فلا عتَبَ من الأصل لمن أَخَذَ بأحد القولين، أخذ بهذا أو أخذ بهذا، هذا يرى كذا وهذا يرى كذا، المسألة فيها سَعَة. وأما الخلاف الضعيف فإنَّ فيه الإنكار.

وقول العلماء «لا إنكار في مسائل الخلاف» يعنون به الخلاف القوي على الصواب دون الخلاف الضعيف، لأنَّ الخلاف الضعيف خلافٌ بلا دليل أو غَلَطٌ في فهم الدليل. وأقل من الضعيف الخلاف الشاذ المنكر، ويجب فيه الإنكار.

ويشتبه هذا. أي الخلاف. بمسألةٍ مهمة وهي مسائل الاجتهاد.

والصواب: التفريق ما بين مسائل الخلاف ومسائل الاجتهاد، فمسائل الخلاف التي مرجعها الخلاف في فهم الأدلة، وهذه هي التي فيها التفصيل الذي ذكرت لك: في أنَّ الخلاف القوي لا إشكال فيه، وأما الخلاف الضعيف فيلزم فيه البيان والإيضاح بدون أن يُجِدَّثَ الفُرْقَة وتنافر القلوب.

أما المسألة الثانية وهي مسائل الاجتهاد في النوازل: فإذا نَزَلَتْ نازلة واجتهد العلماء فيها، هل هذه تُلْحَقُ بكذا وهذه تُلْحَقُ بكذا، فإنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية قال في بعض كلامه: «لا إنكار في مسائل الخلاف يُعْنَى بها مسائل الاجتهاد» لأنَّ مسائل الاجتهاد ليست هي مسائل الخلاف. فقولهم: «لا إنكار في مسائل الخلاف» يعنون بها: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، ويعنون كذلك: لا إنكار في مسائل الخلاف. أي الخلاف القوي.

أما مسائل الاجتهاد التي تحدث في الناس فهذه لا إنكار فيها من باب أولى؛ لأن كل مجتهد له اجتهاده ونصيبه في إلحاق النازلة ببعض الأصول والقواعد التي تدل عليها.

ونختم هذا الموضوع بوصية في هذا الموطن: بأن طالب العلم يتسع صدره للعلم، وهذا إذا حباك الله تعالى اتساع الصدر في العلم فإنك تؤتي علماً جديداً، وهذا هو الواقع والمشاهد، أما من يضيق بالأقوال، أو من يضيق باختلاف العلماء ولا يبحث في مأخذ هذا ومأخذ هذا، وإذا أورد عليه أحد قولاً نظراً في كلامه وتأمل فإنه يُحرم بعض العلم.

لهذا كلما اتسع صدر طالب العلم كلما أوتي الصواب في العلم، وأوتي الصواب أيضاً في العمل، وفي عدم التعدي على المسلمين والتعدي على العلماء أو على طلبة العلم أو نحو ذلك، والله تعالى يقول لعباده: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والفرقة والخلاف يحصل فيه التعدي في كثير من الأحيان، ولا يقول: العبد التي هي أحسن، والله تعالى أمر بأن تقول التي هي أحسن.

وأنا ألحظ وربما منكم كثير لحظوا أن أحداً منا قد يقول قولاً يكون غير واضح، فيأتي أحد ويعترض عليه فهو يتألم ويتحرج لنفسه أنه أخطأ أو أنه ما أدرك الصواب، فيأتي الشيطان فيصرفه من تقرير المسألة إلى وجود مخرج لنفسه. وهذه من وسائل الحرمان، وإذا قوى الله طالب العلم على أن يكون قوياً على نفسه في أنه إذا ما اتضحت له صورة المسألة: لا يتكلم فيها، بل ينتظر، ويسكت.

فِيُعَلِّمُ نَفْسَهُ التَّوَدَّةَ، وَيُعَلِّمُ نَفْسَهُ عَدَمَ الاسْتِعْجَالِ فِي الْكَلَامِ، وَعَدَمَ إِقَاءِ الْكَلَامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَالدَّقَّةَ فِي الْأَلْفَاظِ، وَكَيْفَ يُعَبِّرُ عَنِ الْمَسَائِلِ. وَإِذَا غَلَطَ يَقُولُ: غَلَطْتُ. وَمَا أَسْهَلُهَا عِنْدَ مَنْ يَرَى تَحْقِيقَ الْحَقِّ - فَعَلًا. وَلَيْسَ مِنْ شَرِّ طَالِبِ الْعِلْمِ إِلَّا يَخْطِئُ.

لهذا عَوِّذْ نَفْسَكَ عَلَى الْحِلْمِ، عَوِّذْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبْرِ، تَعَوِّذْ عَلَى أَلَا تَنْتَصِرَ لِنَفْسِكَ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ.

حتى لو جاء المَقَابِلَ وطعن في علمك، وطعن في طريقة الإيراد، لا تتأثر بهذا واجعل الكلام على العلم، لأنك مُبَلِّغٌ لِلْعِلْمِ وَلَسْتَ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِكَ، وَالْمُنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ يَحْرِمُ نَفْسَهُ انْتِصَارَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ»^(١).

هذا وقد وفق الله العلامة يوسف بن محمد الغفيص لكلام متين مؤصل حين شرح حديث الافتراق، وعلق على تأصيل شيخ الإسلام الأنف له، ولأهميته وشدة الحاجة له خاصة ممن تصدى للعلم والجهاد. وسألخص ما تيسر من مهماته مع زيادات نافعة بعون الله تعالى. قال وفقه الله تعالى:

الكفر ضد الإيمان:

«لا شك أن الإيمان والكفر - الذي هو الكفر بالله - لا يجتمعان، فإن كل من كان كافراً من الممتنع أن يكون مؤمناً، وكل من كان مؤمناً من الممتنع أن يكون كافراً.

(١) السابق (١٥-١٧، ٥٠).

وعليه: فإن من المسائل التي ينبه إليها - ولا سيما في حال كثرة البحث في مسائل التكفير - أن من أخص المقاصد لضبط هذا الباب من الشريعة، ومتى يقع الكفر، ومتى يقع التكفير.. إلى غير ذلك، يعتبر بتحقيق أصول، أخصها: تحقيق القول في الإيمان عند السلف، ومراد السلف بقولهم: الإيمان قولٌ وعمل، وزيادة الإيمان ونقصانه، والنفاق مع الإسلام.. إلى غير ذلك من المسائل.

فالقصد هنا: بيان أن التناسب متينٌ بين كتاب الإيمان وهذه الرسالة من هذا الوجه؛ فإنه لا يفقه القول بالتكفير إلا من كان فقيهاً بقول السلف في باب الإيمان وقولهم فيه.

مذهب السلف، حقيقته وكيفية ضبطه :

إن الناظر في منهج السلف الذي بدأ ببعثة النبي ﷺ، والمتأمل في سيرة السلف الأول وأخصهم الصحابة الذين قال الله فيهم: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] يجد عليه سؤالين فاضلين:

السؤال الأول: ماذا يقصد بالقول عن قولٍ ما، أو فعلٍ، أو تصديقٍ، إنه مذهبٌ للسلف؟

السؤال الثاني: بم يُضبط مذهب السلف؟

هذان سؤالان لا بد لطالب العلم أن يكون على فقهٍ متينٍ فيهما؛ لأن ثمة فواتاً لفقه هاتين المسألتين - ولا سيما في هذا العصر - عند كثيرٍ من السلفيين، وعن

هذا ترى أن السلفيين - ولا سيما في بعض الأمصار - صار لهم تجمعات متعددة، وصار كل جمعٍ يسير يعتبر أنه هو المحقق للسلفية.

والسلفية لم تكن يوماً ما مسألة معقدة، أو مسألة من دقائق الحقائق، أو من دقائق المعارف، أو التراتيب، بل هي مسألة بينة، فهي الإسلام والحق الذي بُعث به محمد ﷺ، هي هدي صاحب الرسالة الذي كان يقول: «أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة»^(١) فكل ما خالف هديه ﷺ فهو الخارج عن ذلك.

ولفظ السلفية لفظٌ قد استعمل في كلام أهل السنة، وإن لم يطرده القصد إليه في كلام السلف أو محققي أهل السنة، وهو نسبةٌ فاضلة، حيث إنه إضافةٌ إلى السلف الأول الذين أثنى الله عليهم وامتدحهم، وأمر باتباعهم بإحسان، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار كما هو حرف القرآن.

حقيقة مذهب السلف والأمر المترتبة على نسبة فعل ما إليه :

إذا أخذنا السؤال الأول، وهو: ماذا يقصد بالقول عن قولٍ ما، أو فعلٍ، أو تصديق: إنه مذهب للسلف؟

قيل: هذا السؤال يترتب على إجابته عدة أمور فيها تعدد: قد يكون مترادفاً، وقد يكون متنوعاً:

(١) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣).

الأمر الأول: أن هذه المسألة سنة لازمة لا يجوز لأحد أن يخالفها، وأن ما خالفها يكون بدعة وضلالة.

الأمر الثاني: أن من تقمص مخالفة هذه المسألة فقد تقمص ضلالة، ومن دعا إليها فقد دعا إلى ضلالة.

الأمر الثالث: أنه لا يجوز الاجتهاد بخلاف ما قيل عنه أنه قول أو مذهب للسلف.

هذه حقائق لا بد أن تكون بينة لطالب العلم، وهي تترتب على القول عن قول ما أو فعل ما: إن هذا مذهب للسلف، أو من مذهب السلف كذا، أو السلف يقولون كذا، فضلاً عن القول: إن قولاً ما أو فعلاً ما مخالف للسلف، فإن هذا أكد في التصريح، حيث إن وصف المخالفة بأنها مخالفة للسلف أو لمذهب السلف - سواء كانت مخالفة قولية أو فعلية أو تصديقية - يعني أن هذه المخالفة من البدع، ومن الضلال، ومما لا يعذر أحد بمخالفته، ولا يجوز أن يقال عن صاحبها أنه على الاجتهاد المأذون فيه، بل لا بد أن يكون عند صاحبها - وإن سمي مجتهداً من وجه آخر - تفريط، وتقصير في تحقيق الحق، وفي اتباع السنة، إلى غير ذلك من اللوازم، والمتضمنات لهذه الجملة.

إذا عرف هذا المعنى؛ تبين أن ما يقال فيه: إنه مذهب للسلف، فإن معناه: أنه من جنس مسائل الإجماع، أي أنه إجماعٌ وهديٌّ ولزومٌ لا يجوز لأحد الاجتهاد بخلافه، حتى لو فرض أن مبنى الاجتهاد ظاهر من الكتاب أو السنة، فإن هذا الاجتهاد لا بد أن يكون غلطاً، ولا بد أن يكون هذا الفهم لما استدل به من

الكتاب أو السنة فهماً باطلاً، وضللاً عن الحق، إلى غير ذلك من اللوازم.

وهذه المسألة لا بد من ضبطها على هذا التقدير، وإذا تم ضبطها تبين أنه لا يجوز القول عن مسألة من مسائل الخلاف بين الأئمة: إن هذا القول هو طريقة السلف؛ مع العلم أن في المسألة خلافاً بين فقهاء السلف أنفسهم.

وعليه: فإن عامة المسائل المتعلقة بالعبادات وتفصيلها وإن رجح المرجح فيها، وإن كان قوله قد نطقت به جملة من النصوص إلى درجة تحاكي الظاهر عنده أو الصريح، ورأى أن القول الثاني بعيداً عن هدي السنة أو ظاهرها أو عما يتعلق بذلك من أوجه الاستدلال، مع هذا كله لا يجوز له أن يقول عن هذا القول: إنه مذهبٌ للسلف، أو هذه سنة السلفيين، ومن خالفها فقد خالف طريقة السلف أو السنة السلفية.

وأضرب لذلك مثلاً قد يستعمل كثيراً في هذا العصر، ولا بد من التنبيه إلى مثله، مثال ذلك: الإشارة بالإصبع في التشهد.

هذه المسألة الجهور من علماء السلف على شرعيتها، وإن اختلفوا في تحديد ما يتعلق به المقام من الإشارة، فهذه مسألة خلافٍ بينهم، ولكن من الفقهاء المتقدمين من لا يذهب إلى ذلك.

فهذا الفعل يصح أن يقال فيه: إن هذا ثابتٌ بسنةٍ صريحة، وأن من خالفها فقد خالف ظاهر هذه السنة، إما لكونها لم تبلغه أو لم تصح عنده، وأن قوله غير معتبر، أي لا يصار إليه، ولا يفتى به، ولا يدعى إليه، مع بيان أن السنة هي الإشارة وإن اختلف في تحديد مقامها.

لكن أن يقال: إن هذه من السنن السلفية، وأنه لا يتركها إلا من هو خارج عن مذهب السلف، فهذا غلط.

وهذا وإن تعلق ببعض الأحناف إلا أن له مثلاً في سائر الأئمة، بمعنى: أنه إذا تتبعنا أقوال الأئمة - كالأئمة الأربعة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد - فإننا نجد أن لكل إمام في الجملة بعض المسائل التي تخالف بعض ظواهر النصوص البينة، وهذا لكون هذه النصوص إما أنها لم تبلغه أو لم تصح عنده، أو لسبب من أسباب التردد فيها، أو عدم الأخذ بظاهرها أو ما إلى ذلك.

من أمثلة ذلك: أن الإمام مالكا يذهب إلى أنه لا يستفتح بدعاء الاستفتاح المعروف في الصلاة، مع أن دعاء الاستفتاح روي عن النبي ﷺ من أوجه متعددة محققة في الصحيحين وغيرهما، فهذا لا شك أنه مخالف لظاهر السنة، لكنه لا يجوز أن يقال: إن ترك الاستفتاح مخالفة لمذهب السلف.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الإنكار في مسائل الخلاف غير سائغ، لا سيما على من كان متقيداً بمذهب من يرخص فيها، أو قد تفقه فيها ورأى الدليل يقتضي جوازها، وقد شاع العمل بها عن جماعات من الفقهاء، والقول بها معزواً إلى مذهب أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما، وما قاله مثل هؤلاء الأئمة لا ينبغي الإنكار البليغ فيه، لا سيما على من يعتقد أن الأئمة المجوزين لها أفضل من غيرهم، وقد ترجح عنده متابعة مذهبهم إما على سبيل الألف والاعتقاد، أو على طريق النظر والاجتهاد.

وهب هذا الاعتقاد باطلاً، ألستم تعرفون فضل هؤلاء الأئمة ومكانهم من

العلم والفقه والتقوى وكون بعضهم أرجح من غيره، أو مساوياً له أو قريباً منه؟ فإذا قلد العامي أو المتفقه واحداً منهم إما على القول بأن العامي لا يجب عليه الاجتهاد في أعيان المفتين، أو على القول بوجوبه إذا ترجح عنده أن من يقلد فيهما هو الأفضل، لا سيما إن كان هو المذهب الذي التزمه، فلا وجه للإنكار عليه إلا أن يقال: إن المسألة قطعية لا يسوغ فيها الاجتهاد. وهذا إن قيل كان فيه طعن على الأئمة لمخالفة القواطع وهذا قدح في إمامتهم، وحاشا الله أن يقولوا ما يتضمن مثل هذا.

ثم قد يفضي ذلك إلى المقابلة بمثله، أو بأكثر منه، لا سيما ممن يحمله هوى دينه أو دنياه على ما هو أبلغ من ذلك، وفي ذلك خروج عن الاعتصام بحبل الله سبحانه، وركوب للتفرق المنهي عنه، وإفساد ذات البين، وحينئذ فتصير مسائل الفقه من باب الأهواء، وهذا غير سائغ. وقد علمتم أن السلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعية، مع بقاء الألفة والعصمة وصلاح ذات البين.

نعوذ بالله سبحانه مما يقضي إلى الوقعة في أعراض الأئمة، أو انتقاص بأحد منهم، أو عدم المعرفة بمقاديرهم وفضلهم، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحبهم ويواليهم ويعرف من حقوقهم وفضلهم ما لا يعرفه أكثر الأتباع، وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ. ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٩٢) باختصار يسير.

حكم إضافة القول في المسألة المختلف فيها إلى مذهب السلف :

كل مسألة تنازع فيها المتقدمون كالأئمة الأربعة أو من قبلهم، ولم يغلط المنازع بالتبديع أو بوصف قوله بكونه بدعة فإنه لا يجوز إضافتها إلى مذهب السلف المطلق، أي أن يقال: هذه مسألة من مذهب السلف؛ لأن معنى هذا أن هذه مسألة لازمة، وأن الاجتهاد بخلافها اجتهادٌ محرم، وأن من اجتهد وخالف ولو كان إماماً كالشافعي أو مالك أو أحمد فإن اجتهاده غلط، وأن عنده تفريطاً في تحقيق الحق واتباع النصوص، ويعني هذا أيضاً: أن المالكية من بعد مالك أو من يقتدي بهالك لا يجوز له أن يعتبر قوله، إلى غير ذلك من اللوازم. والإمام أحمد نُقل عنه روايات في بعض المسائل تخالف ظواهر من النصوص، وإن كانت الرواية لا تطرد في الغالب في مسائل أحمد، بل يأتي عنه رواية توافق الظاهر من النصوص.

القصد: أن مسائل الفقه التي حصل فيها نزاع لا تضاف إلى السلف، ولو كان الخلاف يسيراً، فضلاً عن أن بعض المسائل التي يضيفها بعض طلبة العلم أو الشيوخ الفضلاء من السلفيين اليوم إلى السلفية مسائل هي على خلاف قول الجمهور من فقهاء السلف، فقد يظهر لهم ظاهراً من بعض النصوص يستدلون به على هذا القول، مع أن ظاهر أقوال السلف تكون بخلاف هذا القول، وهذا أكثر إشكالاً.

مخالفة قول الجماهير للظاهر الذي يراه بعض المتأخرين :

ننبه هنا - وإن كان المقام لا يستدعي؛ لأن هذا في منهج الاستدلال الفقهي - إلى مسألة لبيان صحة هذا:

مسألة الاستدلال على الأقوال الفقهية هي مسألة فيها قدر من الإغلاق - أي: من جهة ضبطها - ويراد بهذا الإغلاق أنه أحياناً تظهر بعض الظواهر من النصوص، ومع ذلك الجماهير من أئمة السلف على خلاف هذا الظاهر الذي بلغ المتأخرين، وصار عندهم من صريح الاستدلال.

وأضرب لذلك مثلاً: طلاق الثلاث، من المعلوم أن مسلماً رَحِمَهُ اللهُ^(١) وغيره روى في صحيحه من حديث طاووس عن ابن عباس أنه قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وستين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم. فأمضاه عليهم».

فظاهر السياق أن عمر فعل ذلك من باب التعزير، وعمر لم يستقر عند هذا المذهب؛ لأن طلاق الثلاث في صدر خلافته كما يروي طاووس عن ابن عباس واحدة.

وهنا سؤال على هذه المسألة: هل هناك سنةٌ صريحة عن النبي ﷺ وقبل ذلك في كتاب الله أن طلاق الثلاث ثلاث؟ أي: إذا طلق الرجل ثلاثاً في مجلسٍ

(١) في صحيحه (١٤٧٢).

واحد أو نحو ذلك من الصور هل يكون ثلاثاً؟

أو هل هناك سنة صريحة تعارض ما رواه طاووس عن ابن عباس؟

ليست هناك سنة صريحة.

ومن هنا: قد يظهر لطالب العلم أن السلفية النبوية الصديقية العمرية أن طلاق الثلاث واحدة، وأن عمر إنما فعل ما فعل تعزيراً؛ وهذا إذا سُلم يكون من باب حقوق السلطان في تقرير مسألة التعازير واجتماعه بالفقهاء وتشاوره معهم.

لكن الذي نراه: أن الجمهور من أئمة السلف يقولون: إن طلاق الثلاث ثلاث.

وهنا السؤال: لماذا ترك الجماهير من السلف ظاهر حديث ابن عباس؟

هنا أجوبة يستعملها بعض طلبة العلم ولا سيما المبتدئين في الطلب، يقولون: نحن متعبدون بالحق لا بقول الرجال.

وهذا الجواب جوابٌ إيمانيٌّ صحيح لا جدل فيه، ومن أنكره فقد خرج عن السنة، ولربما لو التزمه التزاماً مطرداً قد يخرج إلى حد الكفر؛ فإن من قال: إننا متعبدون بالرجال لا بالحق؛ فهذا كافر.

فهذا جوابٌ سلفي أو إيماني أو شرعي لا جدل حوله، ولكنه متأخر عن التحقيق من جهة أن السؤال ليس عن هذا، إنما السؤال: ما الذي جعل الأئمة المحققين السلفيين الكبار من الطبقة الأولى المتقدمة لا يعملون بهذا الحديث؟

إن كنت تقول: نحن متعبدون باتباع الكتاب، فهم كذلك متعبدون، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه أضبط تحقيقاً للتعبد بالكتاب والسنة من الأئمة لا علماً ولا عملاً. وإن كان هذا في الجملة، ولا ينبغي أن يلتزم في الأعيان، فقد يكون من المعاصرين من هو أتقى عند الله سبحانه وتعالى وأكثر تحقيقاً من بعض المتقدمين، أي: أن هذا ليس بلازم. فهذا الجواب جوابٌ صحيح في نفسه، لكنه ليس في محل النزاع.

وهذا التوارد مسألة مهمة؛ لأن طالب العلم ولا سيما الدارس في الفقهيات يقف أمام هذا الحديث على أنه تسليم، ولذلك يقول: الصواب أن طلاق الثلاث واحدة، وهذا سنة النبي ﷺ وأبي بكر وصدر خلافة عمر، والقول بأن طلاق الثلاث ثلاث لا دليل عليه.

فنقول: هذا منهج غلط، ولا ينبغي أن يعبر عن قولٍ درج عليه الأكابر من جمهور السلف أنه قولٌ لا دليل عليه؛ فإن في هذا تعدياً على السلف؛ فإنه لا يمكن أن يجتمع جمهورهم مع اختلاف أمصارهم على قول يكون عرياً عن الدليل، قد يقال: إنه مرجوح، هذا لا بأس، لكن أن يصادر بالقول: هذا قولٌ لا دليل عليه، أو خلاف السنة أو خلاف الهدي؛ فهذا تجنٌ وغلط كبير.

القصد: أن المسألة تأخذ بعداً إلى درجة أن ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ قال: «اعلم أنه لم يصح عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المتبوعين أنه جعل طلاق الثلاث واحدة»^(١) فهو رَحِمَهُ اللهُ يميل إلى أن هذا من قول الشيعة، وأنه

(١) وهذا غير مسلم، فالخلاف محفوظ عند السلف من الصحابة ومن بعدهم.

دخل على بعض المتأخرين من أهل السنة.

وليس المقصود هنا الترجيح في المسألة، لكن القصد: أن مسألة الاستدلال مسألة فيها إغلاق على المتأخر في الغالب، بمعنى أن لها استقراءً.

وقد شاع في هذا العصر بين طلبة العلم بحوثٌ فاضلة في مسألة الفرق بين منهج المتقدمين ومنهج المتأخرين في مسألة الحديث والتصحيح والتضعيف والإعلال إلى غير ذلك، ويقال مثله أو أجل منه: الفرق بين منهج المتقدمين والمتأخرين في مفهوم ونظم الاستدلال الفقهي.

ونبه إلى أن مذهب الأئمة الأربعة والسواد من فقهاء السلف أن طلاق الثلاث ثلاث، وأن الجمهور من الأئمة جاءوا لأثرٍ آخر قال فيه ابن عباس: «من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً»^(١) فأيهما أصرح من جهة السنة: كلمته في الطلاق أو كلمته في النسك؟

كلمته في الطلاق؛ لأنه كان يقول: «على عهد رسول الله». وهنا ما قال كل هذا، إنما قال: «من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً». وكأنه اجتهد من ابن عباس، فهو لم يضيفها إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أبي بكر ولا إلى عمر، ومع ذلك الجمهور من الأئمة بما فيهم الأئمة الأربعة أطبقوا على أن من ترك واجباً في الحج فإنه يلزمه دم.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤١٩/١) (٢٤٠) والشافعي في الأم (١٨٠/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٢/٥) من حديث ابن عباس موقوفاً، وصححه الألباني في الإرواء (١١٠٠).

فهذه المسائل وإن لم يكن هذا محلاً لذكرها، لكن الذي ينبه إليه هو: أنه إذا قيل عن مسألة ما إنها مذهب للسلف فهذا يعني اللزوم، ولهذا إذا اختلف فقهاؤهم لا يجوز أن يقال عن أحد الأقوال المرجحة: إنه مذهب للسلف.

وعليه: ما أدخله بعض السلفيين اليوم في بعض حركات الصلاة، أو العبادات، أو اللباس، أو نحو ذلك من مسائل النزاع والخلاف بين السلف، وإن ظهر لها دليل ما؛ فإنها تُرَجَّحُ بظاهر الدليل لا بكون هذا من مذهب السلف، وأن من لم يفعل ذلك فليس سلفياً؛ فإن هذا هو التقرير الغلط والصعب، بل هو من التكلف الذي لم يدرج عليه السلف رحمهم الله، فقد كان فقهاؤهم يختلفون، حتى إنه قد اختلف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يصرح أحدهم أن من خالفه فقد خرج عن السلفية.

كيفية ضبط مذهب السلف:

السؤال الثاني: بم يضبط مذهب السلف؟

وهذه المسألة لا بد من تقريرها فهي مسألة غاية في الأهمية ولا سيما في عصرنا هذا، وهنا تقرير لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، نقف معه لمناسبته لرسالته.

تحصيل مذهب السلف وضبطه بالنقل:

يتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسائل خالف فيها بعض الفقهاء من أصحاب الأئمة بعض مقالات السلف، ثم قال قولاً حسناً، قال: «إن معرفة مذهب السلف للناس فيه من المتسبين إلى السنة والجماعة من أصحابنا وغيرهم طريقان في ضبطه وتحقيقه:

الطريق الأول: تحصيل مذهب السلف وضبطه بالنقل؛ فإن ما قيل فيه إنه مذهب السلف، فهذا يعني إطباق السلف عليه، قال: وتحصيله من جهة النقل يكون بوجهين:

الوجه الأول: أن يستفيض ذكر هذا القول أو هذه المسألة في كلام الأئمة المتقدمين، ولا يظهر بينهم من أعيانهم منازع.

وهذا ظاهر. مثلاً. في كتاب شرح أصول السنة للالكائي والإبانة لابن بطة وما إلى ذلك من الكتب، فإن الناظر فيها يجد هذا التوارد، أو كما يذكر البخاري في خلق أفعال العباد حيث يقول: «لقيت أكثر من ألف أستاذ في الأمصار، كلهم يقول: الإيمان قول وعمل» فهذا توارد، واستفاضة، ولهذا يكفي هذا في إثبات كون هذا القول مذهباً للسلف، ولا يلزم بعد ذلك أن تأتي عبارات أصرح من هذا.

إذاً: إذا استفاض قول ما بين المتقدمين وشاع وقرروه ووصف ما خالفه بكونه مخالفاً للسنة، أو جعلوا هذا القول من السنة اللازمة، فهذا يعني أنه سنة سلفية لازمة، وهذا ظاهر في معتقد الأئمة الذي ذكره اللالكائي في مقدمة كتابه، فإن الناظر في هذا الكتاب يرى أنهم يقولون - مثلاً -: ومن السنة اللازمة عندنا.. ثم يذكرون مسائل.

هذه المسائل التي وصفها الكبار كأبي حاتم وأبي زرعة وأحمد والبخاري بأنها من السنة اللازمة تعد من أقوال السلف اللازمة، فهذا الوجه الأول في ضبط النقل.

الوجه الثاني في ضبط النقل: أن ينص بعض علماء الإسلام الكبار من المعروفين بالسنة على أن هذا إجماعاً عند السلف، كنص أبي عمر ابن عبد البر، والإمام ابن تيمية، والحافظ ابن رجب، وأمثال هؤلاء، أو نص من هو أجل من هؤلاء كمحمد بن نصر رَحِمَهُ اللهُ.

فإذا نص أمثال هؤلاء الأكابر أو ممن جاء بعدهم من كبار الفقهاء من الطبقة التي بعد طبقة الأئمة، على أن هذا إجماع للسلف، ولم يعارض هذا الإجماع من عالم آخر، أو من شيوخ سلفي آخر، فإن هذا هو الضبط لمذهب السلف. إذاً: هذان وجهان في ضبط مذهب السلف.

قال شيخ الإسلام: «وهذا الطريق هو الطريق المستعمل عند الأئمة، وهو المراد في كلام الله ورسوله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].»

لذلك كل من خرج عن سنة سلفية فإن عنده قدرأ من مشاقة الله ورسوله، وهذا محقق بالشرط المذكور في الآية: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾.

وعليه: يمتنع القول عن قول لمالك - ومالك وسط الهدى والأئمة - أنه خارج عن هدي السلف؛ لأنه يلزم من ذلك أن مالكاً تبين له الهدى وتركه؛ لأنه يسمع الهدى من شيوخه ومن أساتذته ومن علماء الأمصار إلى غير ذلك.

فلا يصح أن يوصف واحد من علماء السلف بأنه قد شاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى؛ لأن هذا تكلف، ومن يقول كثيراً من هذا الأقوال لا

يستطيع أن يلتزم مثل هذا أبداً، وإن التزمه لأسقط سلفيته.

إذاً: هذا الطريق الأول، وهو الطريق المحقق والصواب، وبهذا الطريق يظهر أن مذهب السلف رجع في الأخير إلى الإجماع؛ فإذا تحقق الإجماع كان المذهب مذهباً لازماً وسنة ماضية؛ لأنه لا يتصور إلا أحد أمرين: إما أن أئمة السلف يتفقون أو يختلفون، ولا يوجد ولا يتصور في العقل غير هذين القسمين، فإذا اختلفوا فاختلافهم مورد اجتهد يرجح بحسب الأدلة، ولا يلتزم قول واحد، ومن التزم قول واحد منهم - أحمد أو مالك أو الشافعي - فقد خرج عن السنة والهدي؛ فإن هذا من تكلف بعض المتعصبة من المذهبيين الذين يرجحون قول إمام على الاطراد، وقد كان السلف كمالك وأمثاله ينكرون هذه البدعة، وهذا لا يعني إنكار التمذهب جملةً وتفصيلاً.

إذاً تبين أن القول: إما أن يكون اتفاقاً عندهم، وهذا هو السنة والمذهب السلفي اللازم، وإما أن يختلفوا فيه فهذا اختلاف لا يجوز معه أن يخص أحد هذه الأقوال بالقول عنه: إنه هو مذهب السلف أو السنة اللازمة وما خلافه يكون بدعة، فإن التبديع إنما يكون لما خالف مذهب السلف، لأن البدعة مخالفة لهدي صاحب النبوة، فإنه يقول ﷺ: «خير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»^(١) ويقول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

(١) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣).

(٢) مسلم ٢١٣/٦ (١٧١٨) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي الْمَنْهَاجِ: «هَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ ﷺ، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ

لكن السؤال الآن: كيف يتم تعيين مخالفة هدي الرسول ﷺ؟ هل تكون بالإجماع أو بالاجتهاد؟

هذه هي مسألة الجوهر في بيان ضبط المسألة، فقد تحقق لنا بالسنة الصريحة وبالأصول الشرعية أن مخالفة هدي النبي ﷺ بدعة، لكن السؤال: هل تعيين هذه المخالفة يكون بالاجتهاد أو بالإجماع؟ هذا هو محل الإشكال عند بعض السلفيين في هذا العصر.

والصواب: إنه بالإجماع، وأما إذا اجتهد مجتهد في دراسة قول مالك أو أبي حنيفة أو الثوري أو فلان وفلان من الفقهاء، وبأن له أن قوله مخالف لسنة، ولهدي نبوي، فلا يجوز له أن يصف قول هذا الإمام بهذه المخالفة، أو أن يقول: إن قوله بدعة، فإن الضبط لهذه المخالفة إنما يجزم به إذا صار الإجماع إليه؛ لأنه لو صدق هذا المنهج للزم من ذلك أن كل واحدٍ من الأئمة يجعل ما خالفه بدعة، لأن مالكا حين يذهب إلى قول ما ويجعله في الشريعة والديانة فإنه يعتقد أن هذا هدي؛ فهل قال مالك والأئمة من قبله - حتى من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: أن ما خالف ما انتصروا له من السنة وظهورها من الأقوال أنه بدعة؟

إذاً: لا تُحَدِّدُ أو تُعَيِّنُ المخالفة بالاجتهاد، بل بالإجماع.

وبهذه الطريقة يظهر أن أقوال السلف المعتبرة اللازمة هي الإجماعات المنضبطة، بل إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يذهب إلى أكثر من هذا، فهو يقول: «إن

الإجماع المنضبط الذي يلزم به مذهب السلف هو إجماع الصدر الأول كالصحاباء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن لزم قولهم، إذ بعدهم كثر الاختلاف». فعند شيخ الإسلام ضبطٌ وتحقيقٌ لمسألة الإجماع، وأنها معتبرة بإجماع الصدر الأول كالصحاباء وأئمة التابعين، وأمثال هؤلاء من طبقات الأئمة الذين انضبط إجماعهم.

هذا هو الطريق الأول، وهو النقل بوجهيه، وهو الطريق الوحيد الذي يعرف به مذهب السلف، ومرده في الجملة إلى الإجماع المنضبط.

هل يُدرك ويضبط مذهب السلف بالفهم:

الطريق الثاني^(١): قال شيخ الإسلام: «وقد استعمل طائفةٌ من متكلمي الصفاتية المتسبين للسنة والجماعة، واعتبر ذلك طائفة من الفقهاء - من أصحابنا وغيرهم - أنهم يعتبرون مذهب السلف بالفهم، فإذا تحصل لواحدٍ منهم في مسائل من النظر أن هذا هو الموافق للكتاب والسنة، أو لبعض أصول السلف، جعل هذا قولاً للسلف. لأن السلف عنده لا يخرجون عن الكتاب والسنة، فإذا تحقق له جزءاً في قولٍ ما أنه موافق للكتاب والسنة جعله قولاً للسلف».

محصل هذا الطريق: هو تحصيل مذهب السلف بالفهم. أي: أن يقول قائل عن قولٍ ما أو فعلٍ ما أو تصورٍ ما: هذا مذهب السلف، ومن خرج عنه فقد خرج عن مذهب السلف، وهو من أهل البدع أو ما إلى ذلك.

(١) وهو باطل كما سيأتي.

فإذا أورد عليه سؤال: أين استفاضة ذكر هذا المفهوم أو هذا القول أو هذا التقرير في كلام الأئمة؟ أو من نقل الإجماع؟

قال: هذا محصل بدراسة أصول السلفية وبضبطها وبظاهر الكتاب والسنة، والسلف لا يخرجون عن الكتاب والسنة.. إلخ.

ولذلك: مَنْ يَعيّن مسائل من اجتهاده وفهمه أنها مذهبٌ للسلف يجد عند التحقيق - ولا بد - مخالفاً من السلف لقوله، كمن يقول - مثلاً -: إن وضع اليدين على الصدر بعد الركوع مخالفٌ للسلفية، نجد أن من أئمة السلف من يذهب إلى شرعية وضع اليدين على الصدر بعد الركوع. وليس المقصود من هذا الترجيح في المسألة، فهي على كل حال مسألة سهلة، مترددة من جهة الاستدلال.

وهذا لا يعني التهوين من شأن السنن والاتباع؛ فإن المسلم مأمورٌ باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى، والافتداء بهدي النبي ﷺ الظاهر والباطن، ولكن العزمات أمرٌ شديد؛ فالصحابه بعد نبيهم ﷺ اختلفوا كثيراً، مع أنهم أدركوا صاحب النبوة، وأدركوا هديه وأقواله، ومع ذلك ترددوا واختلفوا في مسائل كثيرة.

فالعزمات ليست من المقامات الفاضلة، وليست من تحقيق العبادة؛ لأن في العزمات قدراً من الجزم على صاحب الشريعة، والإبطال للقول الآخر بأنه بدعة، والذي قد يكون في نفس الأمر هو من السنن، ولهذا من ورع السلف أنهم ما كانوا يصيرون إلى العزمات إلا في الأمور البينة التي انضبط دليلها أو إجماعها.

التحذير من تحصيل مذهب السلف بالفهم:

إذاً: الطريق الثاني: تحصيل مذهب السلف بطريق الفهم، وهذا هو الذي يحذر منه، قال شيخ الإسلام: «وهذا الطريق أصله من كلام طائفة من أهل البدع المنتسبين للسنّة والجماعة، ثم دخل على طائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم».

ولذلك لا يجوز إضافة مسائل إلى مذهب السلف إلا وقد انضبط دليلها وإجماعها، إما استفاضة وإما نقلاً.

ولو أن السلفيين في هذا العصر التزموا المنهج الذي قرره شيخ الإسلام، والذي قد درج عليه الأئمة، فإنهم لا يمكن أن يختلفوا في مسائل تصنف على أنها سلفية، بمعنى أن كل طائفة تقول: نحن السلفيون، ومن خالفنا خارج عن مذهب السلف.

ولذلك ظاهرة تعدد التجمعات السلفية، وكلّ منها يزعم أنه السلفي وحده أو بجماعته أو بطائفته ليست ظاهرة شرعية؛ لأن هذه الجماعة المؤمنة المنصورة الناجية هي جماعة واحدة، ولو انضبطت على الإجماع لاتفقت.

من أسباب الفرقة تحصيل مذهب السلف بالفهم:

ولهذا: من أسباب انقسام السلفيين فيما بعد عصر الأئمة أو في العصور الفقهية المتأخرة أو في عصرنا هذا: هو أنهم استعملوا طريق الفهم لتحصيل مذهب السلف.

وهذا التحقيق لا نعتبره لكونه كلاماً لشيخ الإسلام حتى يأتي شخص

ويقول: إن في كلامه نظراً، بل هو معتبر لكونه موافقاً للأصول؛ لكلام الله ورسوله؛ فقد وصف النبي ﷺ هذه الطائفة - وإن كان الحرف فيه ضعيفاً، إلا أن معناه صحيح بالإجماع - بأنها: «هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١) وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو في صحيح مسلم - كان عليه الصلاة والسلام يردد في الخطب: «أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد»^(٢).

فما كان منضبطاً عند الأئمة أنه هدي لرسول الله فهذا مذهبٌ للسلف، وما تردد فيه الأئمة من السلف على تعيين هديه ﷺ أو الجزم به، فهذا مما يرجح فيه ولا يوصف أحد الأقوال بأنه سنةٌ سلفية.

وبهذا الطريق يصح أن يقال: إن مذهب السلف مذهب واسع.

خلاصة الكلام عن حقيقة مذهب السلف وضبطه:

هاتان مسألتان لا بد من ضبطهما:

المسألة الأولى: ماذا يقصد بمذهب السلف؟

والمقصود به أنه سنةٌ لازمة، وأن الاجتهاد بخلافه محرم، وأن تقليد المجتهد

(١) أحمد (٣٣٢ / ٢) والطبراني في الصغير (٧٢٤) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١)

والترمذي (٢٦٤٣) والحاكم (١ / ١٢٨)، والآجري في الشريعة (٢٥)، وقال العراقي

في «تخريج الإحياء» (٢٣٠ / ٣): «حديث افتراق الأمة أسانيداً جياداً». وحسن إسنادها

الحافظ في «تخريج الكشاف» (١٧).

(٢) مسلم ١١ / ٣ (٨٦٧) (٤٣).

بخلافه محرم، وأن القول المخالف يكون بدعةً وضلالاً، ويلزم من هذا أن يكون عند المجتهد المخالف له - ولا بد - تفريطاً، وإذا كان بعد شيوع القول السلفي وبلوغه إياه لم يتبعه فإنه يكون مشاقاً لله ورسوله. فهذه لزومات تلزم في كل ما قيل عنه مذهب السلف.

وهذه اللزومات إذا ما اعتبرناها بالمسألة الثانية، وهي أن مذهب السلف هو الإجماع لا تُشكّل؛ لأن كل من خرج عن الإجماع المنضبط يسوغ أن يقال عنه: إنه مفرط، وأن اجتهاده لا يجوز، ويسوغ كذلك أن يقال عنه: إنه لا يجوز متابعتة في اجتهاده. حتى لو عرض هذا من إمام فاضل كحماد بن أبي سليمان، قيل: إن قوله بدعة خارج عن الإجماع.

ولذلك نجد أن الذين خرجوا عن الإجماع المنضبط هم أئمة أهل البدع من الخوارج والشيعة والمتكلمين وأمثال هؤلاء، وإن كان قد يعرض أن يخرج بعض أئمة السنة عن بعض مسائل السلف كخروج حماد، لكن هذا نادر، فإن الذي كان مطرداً عند الأئمة هو أن الذي يخرج عن سنتهم ولزومهم هم أئمة أهل البدع، الذين لا يعتبرون منهجهم وطريقة هدي صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثانية: بم يحصل مذهب السلف؟

بأحد طريقين: الطريق الأول: النقل، وله وجهان:

الوجه الأول: الاستفاضة، كاستفاضة قولهم: الإيمان قولٌ وعملٌ، وتواردتهم على ذلك، لذلك لما جاء حماد بعد هذه الاستفاضة أصبح قوله بدعةً.

الوجه الثاني: أن ينص بعض علماء الإسلام المعتبرين في ضبط مذهب السلف أن هذا إجماع ولا ينخرم.

والطريق الثاني لتحصيل مذهب السلف ليس طريقاً لأهل البدع؛ لأن الغلاة من أهل البدع وأهل البدع المغلظة أصلاً ما كانوا ينتسبون إلى مذهب السلف، وإنما هذا طريق طائفة من أهل البدع من متكلمة الصفاتية، وإذا قال الإمام ابن تيمية: متكلمة الصفاتية فإنه يقصد ابن كُلاب والأشعري وأمثالهم، ممن يحصلون مذهب السلف بطريق الفهم.

ومن أمثلة ذلك التحصيل: أن الأشعري في كتبه قال: «أجمع أهل السنة أن الله ليس بجسم» لأنه وجد أن أئمة السلف ينكرون التجسيم والتشبيه، وهذا ليس تحصيلاً بالنص؛ فإنه لم يصرح أحد من السلف أن الله ليس بجسم، لكن الأشعري حصله فهماً، وقد تكون أدوات الفهم أحياناً - وهذا هو الذي يشكل - عاصفة، أي: ملزمة في عقل الإنسان أو في عقل الناظر، فهو قد وجد أن السلف طبقوا على ذم التشبيه، فقال: إنهم يذهبون إلى أن الله ليس بجسم، مع أن مذهب السلف هو التوقف عن هذا الحرف أصلاً، وأن هذا حرف مبتدع إثباتاً ونفيًا، وإذا ذكره ذاكر سُئل عن مراده به، فإذا أراد بالنفي مراداً باطلاً، قيل: المراد ليس صحيحاً، وإن كان النفي يتوقف فيه، وإن أراد بنفي التجسيم عن الله أي: أن الله ليس كالمخلوق وليس كالمحدثات وليس كجسم من الأجسام فهذا المعنى صحيح؛ لأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن هذا، لكن الحرف حرفٌ مشكّلٌ متردد فيه؛ لظهور مادة الإجمال فيه عند كلام المتكلمين فيه.

بعد هذه المقدمة اللازمة، أرى ضرورةً من طلبه العلم أن يعتنوا بالتفقه في هاتين المسألتين ليحصل اجتماع أهل السنة والسلفيين كما كان أصلهم وطريقتهم السالفة، ولا يتناذبوا ويتنازوا بالألقاب والهجران من القول نتيجة غلط في تقرير المنهج الذي يعتبر منهجاً سلفياً.

المذهبية:

القول بأن من السلفية ترك التمدّ به ليس بصحيح، كما أنه يقال: ليس من السلفية لزوم التمدّ به، ولكن التمدّ به ترتيب علمي لا جدل حوله، فحين يصبح تقليداً لمعين أو لطائفة أو مذهب من أجل الانتصار له فلا شك أنه غلط، أما حين يكون التقليد مبني على الأخذ بالتراتب العلمية للأئمة فعندها يكون التمدّ به جائزاً.

وهل يصح أن يقال عن مجرد انتساب من ينتسب إلى مذهب من المذاهب - الحنبلي أو الشافعي أو المالكي أو الحنفي - أنه انتساب بدعي مخالفٌ للسلفية؟ أحياناً مثل هذه المسائل من المهم أن تضبط بالإجماعات وبالاطراد، فإن الاطراد إذا درج لا يمكن أن يكون غلطاً.

الانتساب إلى المذاهب الأربعة المعروفة، والتي استقرت عند المسلمين ابتداءً من القرن الرابع، بمعنى: أن جماهير علماء المسلمين حتى السلفيين منهم - أي: من عقيدتهم ومنهجهم سلفية محضة - كانوا إما حنابلة أو شافعية أو مالكية أو حنفية.

قد يقول قائل: وجد في تلك القرون بعض العلماء الذين كانوا يعتبرون

طريقة أهل الحديث، فما الجواب؟

يقال: ليس المقصود هنا أن نقول إن الانتساب للمذاهب هو الشرعي أو هو المقصود، فإن بقاء طائفة من العلماء في كل القرون السابقة متمسكة بالاستقلال والاستدلال بالأثر، وعدم الاتصال بمذهبٍ ما، أمر لا ينكر، إذا كان القائم به أهلاً له، لكن قد حصل التوارد في الانتساب للمذاهب، وبالقطع الضروري والعلم الضروري أن المتمذهبين أكثر من غير المتمذهبين ولا شك؛ فإن علماء الأمصار أكثرهم متمذهبون.

وهنا سؤال: إذا افترضنا أنه وجد اطراد في ترك المذهبيات بعد القرون الفاضلة، أو في القرن الرابع وما بعده، فهل أنكر أحد من العلماء السلفيين المعتبرين التمدّ به كمجرد انتساب وانتحال؟ فالجواب: هذا ليس له شيوع أبداً.

إذاً: تحصل من هذا أن ثمة إقراراً عاماً على مبدأ الانتحال. وأما الذي يفصل فيه فهو أن التمدّ به يراد به أحد وجهين مذموم وجائز:

التمدّ به المذموم:

إما أن يكون تقليداً لمعينٍ أو لطائفة، تقليداً للشافعي أو للشافعية، تقليداً لأحمد أو للحنبلية، أي: يأتي المجتهد بعد أبي يعلى ليعتبر أقوال أبي يعلى وأقوال أحمد ولا يخرج عنها ويكون مقصوده ومراده الانتصار للمذهب والاتباع له، فمن كان هذا غرضه وهذا مقصوده فلا شك أنه ليس محقق؛ لأن المقصود: الانتصار للحق، والحق ليس محصوراً في الحنابلة أو غيرهم. وقد يقول قائل:

هذا موجود عند الفقهاء وبكثرة. فنقول: نعم، موجود بكثرة وبكثرة، لكن لا يُقر.

إذاً: إذا ما فُسر التمدّ به: بأنّه التقليد والاتباع والانتصار فهذا لا شك أنه لا يجوز، وهو حرام بالأدلة الشرعية، وبإجماع أئمة السلف الذين نصوا على تحريم اعتبار أقوال الرجال وترك الأدلة.

التمذهب الجائر:

وهو المقصود بالتمذهب عند المحققين، وهو الأخذ بالتراتب العلمية للأئمة.

وإذا قيل: إن ثمة متعصبين من أتباع الفقهاء الأربعة، قيل: ثمة أقوام عندهم اعتدال وليسوا من أهل التعصب.

وإذا قيل: إذا كانوا ليسوا متعصبين لأقوال الأئمة الأربعة، كابن تيمية مثلاً ليس منتصباً لمذهب الحنابلة، إذاً ما معنى أنه حنبلي؟ فنقول: هذه تراتيب علمية.

إذاً: إما أن يُفسر التمدّ به بالتقليد والانتصار والاتباع، فهذا مؤاخذ بإجماع السلف وبالكتاب والسنة، وإما أن يُفسر التمدّ به بأنه تراتيب علمية فهذا سائغ، ولا يجوز أن يقال: من استعمله فقد خرج عن السلفية، وإلا يلزم من ينتصر لأقوال عالم باطراد - كبعض الشيوخ المعاصرين - ما يلزم من انتصر للشافعي ومالك.

وإن قال: لا، فأنا أريد منهج الشيخ بشكلٍ عام، وأما الاتباع لأحد المسائل فيعتبر بالأدلة. فإنه يقال: وهذا هو الذي أراده المحققون من أصحاب الأئمة، وهو ما نسميه التراتيب العلمية.

المقصود بالتمذهب من باب التراتيب العلمية:

من المعلوم أن الفقه ليس كمسائل أصول الدين، فمسائل أصول الدين مضبوطة بالكتاب والسنة والإجماع فقط - ولا بد من الإجماع.. أما مسائل الفقه فثمة الأصول الثلاثة لمعرفة، ولكن هناك قدرٌ واسع من أوجه الاستدلال، أي: إن صريح الكتاب وصريح السنة والإجماع، لا جدل حولها، ونحن لا نجد اختلافاً بين الأئمة في صريح أو إجماع، إلا أحياناً، يكون فواتاً، أي: لم يبلغ، وهذه مسألة أخرى.

لكن هناك ما يسمى عند الأصوليين بالأدلة المختلف فيها، كالقياس، وأقوال الصحابة، والاستصحاب، والاستحسان إلى آخر هذه الأدلة، وسوف نضرب مثلاً باثنين من هذه الأدلة، وهما: القياس، وأقوال الصحابة. فما موقف أئمة السلف - بما فيهم الأئمة الأربعة - من القياس وقول الصحابي؟

النتيجة الضرورية هي: إن تقديرهم لهذين الدليلين ليس تقديرًا واحداً، أي: أن استعمال الإمام أحمد للقياس ليس كاستعمال أبي حنيفة أو حتى كاستعمال الشافعي، واعتبار الشافعي أو أبي حنيفة لأقوال الصحابة ليس كاعتبار أحمد وأئمة الحديث.

وباختصار: إنه عند مراجعة النظم الفقهي عند السلف نجد أنهم ينقسمون

إلى أقسام، فمنهم: فقهاء غلب عليهم الفقه ولم يعرفوا بعلم الحديث والرواية، أي: ليسوا من أربابها المعروفين، وإن كانوا ينسبون إلى أهل الحديث في أصولهم، كأبي حنيفة؛ فإنه لم يكن محدثاً، ولم يكن عارفاً بكثير من السنن؛ لأسباب اقتضاها مقامه في الكوفة، ولكنه إمام في الفقه، حتى إن الشافعي يقول: «الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه»، وقد أثنى عليه مالك وغيره.

ومنهم: محدثون انشغلوا بعلم الحديث والرواية ولم يشتغلوا بكثير من الفقه، ليس عجزاً، وإنما لأن الرواية شغلتهم عن الفقه، كما أن أبا حنيفة شغله الفقه عن الرواية.

وهذا له مثالات: كبعض الأئمة الذين اشتدوا في تتبع الطرق والبحث في العلل وما إلى ذلك كيحيى بن معين وابن المديني، وإن كان هذا لا يعني أن ابن معين ليس فقيهاً، فهو فقيه، لكنه اشتغل بعلم الرواية وغلب عليه علم الرواية عن الدراية.

ومنهم: فقهاء غلب عليهم الفقه، ولكنهم معروفون بقدر من الحديث، وهؤلاء من يمكن أن يسمون «المحدثون من الفقهاء» أو «محدثو الفقهاء» ومن أخص مثالات محدثي الفقهاء: الإمام الشافعي، فإن مقامه في الفقه أبلغ من مقامه في الحديث، وهذا لا يختلف فيه.

والعكس: وهو القسم الرابع، فقهاء المحدثين، وهذا له أعيانٌ كثيرون، من أخصهم الإمام أحمد والبخاري رحمهما الله.

وهذا لا يعني أن الطبقة الأولى لا علم لهم بالحديث، ولا يعني أن المحدثين

كابن معين ليس فقيهاً، إنما يعني: أن ثمة تفاوتاً في طبقات هذا العلم.

وقد تقدم أنه من المتحقق ضرورة أن ثمة فرقاً بين الأئمة في تقدير الاستدلال بالقياس وبقول الصحابي. فالإمام أحمد يقدم قول الصحابي على القياس، وهناك من الأئمة من قال: يصار قبل قول الصحابي إلى القياس. وهناك من قال: يصار إلى عمل أهل المدينة قبل هذين.

فهذه التراتيب تراتيب مختلفة، فإذا ما جاء علماء من بعد الأئمة، ونظروا في أصول أحمد فوجدوا أنه يرتب الأدلة بهذا الشكل: الإجماع والكتاب والسنة ثم قول الصحابي، ووجدت طائفة أن أبا حنيفة يقول: ثم القياس، ووجدوا مالكا يقول: ثم عمل أهل المدينة، والإمام أحمد لا يعتبر الاستدلال بعمل أهل المدينة بنفس درجة مالك، ولا يعتبر القياس كأبي حنيفة، وأبو حنيفة لا يعتبر قول الصحابي كأحمد.

فإذا تخير العالم بعد هؤلاء تراتيب علمية له ليطردها في مسائله الفقهية، فإذا تكلم في مسألة في الطهارة، أو الصلاة، أو الحج، أو الديات، أو الجنائز، أو القضاء، أو الشهادات والهبة.. إلخ، يكون له منهج مطرد: أن القياس يقدم على قول آحاد الصحابة، أو أن قول الصحابي يقدم على القياس.. فإن هذا هو الذي يعطي الأقوال الفقهية اطراداً.

ولذلك من يبطل المذهبية في هذا العصر ويقول: الكتاب والسنة والإجماع، نقول له: لم تكن التراتيب المذهبية من أجل مسألة الكتاب والسنة والإجماع؛ لأن هذه مسألة متفق عليها، لكن السؤال: إذا جئت بعد الكتاب والسنة والإجماع.

أي: بعد ظواهر الكتاب والسنة والإجماع - فإنك تجد مسائل كثيرة مبنية على أقوال الصحابة، ومسائل مبنية على القياس.. إلخ، فبماذا سوف تأخذ؟ إذا: المراد بالتمذهب هو هذا الوجه: الترتيب العلمي.

إذا: ليس من الممنوع أن العالم يقول: أنا أقدم طريقة الإمام أحمد أو منهجه الفقهي على منهج الشافعي، أو يقول: أنا حنبلي.

على هذا الاعتبار، فإن هذا غير مخالف للسلفية، بل هو انتصار لقول من أقوال السلف، كما أنه لو ظهر لفقيه أن الإمام أحمد أصاب في مسألة واحدة من مسائل الفقه فانتصر له، فإنه لا يعتبر مخطئاً؛ فكذا إذا ما نظر في تراتيب الأئمة في العراق، في الحجاز، في الكوفة، في بغداد.. إلخ، وظهر له من تراتيب الأئمة جملة من التراتيب، لما بعد الأصول المنضبطة - وهي الكتاب والسنة والإجماع - فقدم تراتيب الشافعي على أحمد، فهذا معنى أنه شافعي، لكن إذا ما زاد وبدأ ينتصر لآحاد أقوال الشافعي، ويهجر السنن فهذا على ضلال، لكن يبقى أصل التراتيب لا بأس به. فهذا هو المقصود بالتمذهب السائغ، ولا نقول المشروع.

وبهذا: يظهر أن القول بأن من السلفية ترك التمذهب ليس بصحيح، كما أنه يقال: ليس من السلفية لزوم التمذهب، ولكن التمذهب ترتيب علمي لا جدل حوله، لكن إذا زاد عن القدر الترتيبي والترجيحي السابق كان غلطاً، كما أن هذا قد يقع عند غير المتمذهبين بالمذاهب الأربعة.

ولكون هذه النظرة استقرت عند بعض المعاصرين، حيث بدأوا يعتبرون في استدلالاتهم الفقهية الكتاب والسنة والإجماع فقط، ومن هنا تفرع عندهم -

أحياناً. القول بأن هذه المسألة - وهي مسألة فقهية متنازع فيها - سنة سلفية.. ومن السلفية كذا. وترتب على هذا أن من لم يفعل ذلك - عندهم - فهو متمذهب متعصب مقلد، مخالف لسنة النبي ﷺ!

ويلزم من هذا أن ينطبق هذا الكلام على إمام هذه المقالة من المجتهدين الأوائل، اللهم إلا إذا كان المعاصر أو الطالب المتأخر يقلد هذا تقليداً محضاً وهو يرى أن الدليل بخلافه، فهذا مقام آخر لا جدل حوله.

القصد: أن بعض الشيوخ الفضلاء وطلبة العلم من السلفيين المعاصرين، لما رفضوا التمسك بذهب بدأوا يصيرون في استدلالهم إلى الكتاب والسنة والإجماع، وبالطبع ضاق عليهم الاستدلال في مسائل الفقه؛ لأنه ليس كل مسألة فقهية عليها دليل صريح أو حتى ظاهر من الكتاب والسنة، فضلاً عن الإجماع، مما أدى إلى حاجتهم إلى قياس، أو أقوال الصحابة إلخ، ولهذا تغلب عليهم الطريقة التي يقدمها ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ، وتقديمه إياها فرع عن مذهب سابق لداود بن علي، وهي مسألة البراءة الأصلية واستصحاب الأصل؛ ولذلك نجد أنهم يرجعون كثيراً من المسائل التي لا دليل عليها من الكتاب والسنة والإجماع إلى البراءة الأصلية، فإن كانت عادات قيل: الأصل الحل، وإن كانت عبادات قيل: الأصل براءة الذمة.

وهذه الطريقة التي يستعملها ابن حزم أقل ما يقال فيها: إنها مذهبية؛ لأنها إما أنها مذهبية من ابن حزم، وابن حزم ليس أشرف من الشافعي ومالك وأحمد، وإما أنها مذهبية من داود بن علي، وداود بن علي وإن عاصر الإمام أحمد إلا أنه

ليس أجل من الأئمة الأربعة، بل جميع الأئمة الأربعة أجل فقهاً من داود بن علي رَحِمَهُ اللهُ.

فلا بد لطالب العلم - ولا سيما السلفي - أن يعتبر مثل هذه الإدراكات: أن عند ابن حزم أثراً ظاهرياً، وهو إنما نقل عن داود بن علي أصولاً عامة في الاستدلال، ثم قام بشرحها، وأحياناً قد يكون تجاوز في شرحها، فليس بالضرورة أن يكون شرحه قد صرح به داود بن علي.

وهو - أي: ابن حزم - إمام، قد أجمع المتأخرون على إمامته، ولم يطعن فيه إلا متكلف ومتعصب من المذهبيين، وكتابه المحلى لا يستغني عنه طالب العلم أبداً، لكن على طالب العلم أن يترفق في قراءة كلام الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ؛ لأنه يأخذ عقل القارئ - ولا سيما عقل المبتدئ - إلى لزومات يرى أنها من صريح السنن وهي ليست كذلك، ويمكن أن يقال: إن المبتدئ لا يبتدئ بكتب ابن حزم، وإنما يقصد إليها بعد تعديه لمرحلة الابتداء.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمذهبية:

إذاً: التمدد الذي ليس على تعصب وانتصار مطلق ليس غلطاً، بل هو أمر سائغ ليس بمشروع، ولا يجوز أن ينقسم السلفيون إلى قسمين: هؤلاء مذهبون وهؤلاء ليسوا بمذهبيين، حتى قيل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: إنه سلفي العقيدة ليس سلفي المنهج. وهذا القول غير صحيح؛ لأنه ما كان حنبلياً متعصباً.

قد يقول قائل: إنا سبرنا أقواله فلم نجد له خروجاً عن المذهب الحنبلي أو

عن روايات أحمد. فيقال: الكلام عن المذهب الحنبلي موضوع طويل، وقد قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إني تأملت المسائل فلم يظهر مسألة فيها رجحان من الكتاب والسنة إلا ولأحمد فيها رواية في الجملة».

فقد يظهر للباحث أن الراجح أو ما يراه راجحاً، أنه خلاف المذهب الحنبلي، لكن عندما يعود إلى روايات الإمام أحمد أو ما ذكره الأصحاب من رواياته كصاحب الفروع أو الإنصاف، في الغالب. لا نقول: دائماً في الفروضات الجدلية. أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يكون له رواية.

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ لم يخرج عن روايات أحمد، إلا أنه قال كلمة تبين أنه ليس متعصباً، وإنما متمذهب على التراتيب العلمية فقط.

ومن المعلوم أن أجل كتابين عند الحنابلة المتأخرين في ضبط المذهب الحنبلي هما الإقناع والمنتهى، فما اتفق عليه صاحب الإقناع والمنتهى يقول المتأخرون عنه مباشرة: هذا مذهب الإمام أحمد، ولهذا تفاصيل ليست مهمة عندنا الآن. لكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ يقول: «أكثر ما في الإقناع والمنتهى مخالف لمذهب أحمد ونصه»، فهل هذا القول يصدر عن متعصب؟!

فالقصد: أن طلبة العلم من السلفيين لا ينبغي أن يختلفوا على مثل هذه المسائل، وأن يكون فيها خفضٌ ورفعٌ ليس على هدي سالف، بل لابد من ضبط الأمور، وكل من خرج عن هدي صاحب الرسالة البين، قيل: خرج عن السنة والجماعة.

هذه المقدمة بتوابعها كان لابد منها، وينبغي أن يجري فيها نقاش معتدل ومتحرر ومنصف ومنضبط.

عدم الإنكار على المتمذهبين وغير المتمذهبين:

كما يُراعى بعض العلماء المعاصرين وطريقتهم في ترك التمذهب فينبغي أن يراعى مئات من الأئمة درجوا على التمذهب، وفي المقابل لا ضرر ولا ضرار، أي: لا يزداد ويغلط العالم بأنه خرج عن المذاهب الأربعة كما يقوله بعض المتمذهبين؛ حيث يقولون: إن من أخطاء فلان أنه لم ينتسب إلى واحد من المذاهب الأربعة! ومن قال: إنه يجب على المسلم أن ينتسب إلى واحد من المذاهب الأربعة! بل إن من المسائل المختلف فيها: هل يلزم العوام هذا الانتساب أو لا يلزمهم، فضلاً عن الأكابر؟

ومما يقرب هذه المسألة للفهم: أن هناك أصولاً أو كلمات - وهذا يرجع بنا إلى مسألة تحصيل مذهب السلف بطريق الفهم - سلفية، إما قالها أئمة سلفيون قدماء، أو قالها أئمة محققون في السنة كابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، لكنها تحتاج إلى فقه، وأضرب لذلك مثلاً شائعاً:

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ما انعقد سبب فعله زمن النبي ﷺ ثم لم يفعله، ففعله بعده من البدع والمحدثات» فهذه كلمة قالها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وذكرها الشاطبي أيضاً في تقريره لمسألة السنة والبدعة. فماذا نقول عن هذه الكلمة؟ هل هي صحيحة أو خطأ؟

كمقدمات في المسائل المجملة المحتملة الصادرة من أرباب العلم

المعتبرين: نقول: صحيحة، وهذه ليست قضية مشكلة، لكن المشكل هو فقهاها. فهذه كلمة صحيحة من شيخ الإسلام ابن تيمية، لكن يأتي أحياناً بعض الترتيب لها عند بعض الشيوخ، وأحياناً يرون أن هذا الترتيب لزومي.

مثلاً: وضع مكان للنساء في المساجد، يقولون: لقد انعقد سببه زمن النبي ﷺ، فقد كان النساء يصلين مع رسول الله ﷺ أكثر مما يصلين اليوم، ولا سيما في بعض الأمصار، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في البخاري وغيره: «كان نساء المسلمين يشهدن صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ»^(١). فهل جعل النبي ﷺ مكاناً مختصاً بهن؟ أو هل وضع جريداً من النخل أو رواقاً ساتراً؟ الجواب: لا. لم يضع شيئاً.

فقالوا: إن سبب الفتنة بالنساء موجود في الرجال، سواء كانوا صحابة أو غير صحابة، وإن كان الصحابة - لا شك - أذكى وأطهر وأبعد عن الفتنة وعن النظر إلى النساء، لكن أيضاً كان يحضر الصلاة أحياناً حُذَاء عهد، وأعراب، وكان يحضر الصلاة من هم من أهل النفاق، والمرأة في الإسلام - حتى في زمن الصحابة - مأمورة بالحجاب، وهو لم يقل لها: لا تتحجبي أمام الورعين من الصحابة.

المهم: أن النبي ﷺ لم يفعله، فيأتي بعض الفقهاء اليوم ممن يأخذ كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بترتيب لزومي، فيقول على قاعدة شيخ الإسلام: إن وضع مكان في هذا العصر للنساء بدعة. ويأتي بمثل هذه التراتيب المتكلف فيها، وهذا

(١) البخاري (٣٧٢) ومسلم (٦٤٥) (٢٣٠).

ليس بصحيح.

فالإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الذي قال هذه الكلمة له مسائل في الفتاوى أذكر جملةً منها: حكم استخدام السبحة للتسبيح، لقد انعقد سبب التسبيح في زمن النبي ﷺ، لكنه كان يسبح بأصابعه أو بأنامله، وكان من الممكن أن تستعمل مثل هذه الأدوات، كالأحجار أو الخرز أو غيرها، ومع ذلك لم يفعل ﷺ ذلك، فعلى هذه القاعدة أن التسبيح بالسبحة بدعة، ومع ذلك عندما سئل الإمام ابن تيمية عن مسألة التسبيح بالسبحة، قال: «إن التسبيح بها إذا لم يكن على قصد الرياء أو هجران ما جاءت به السنة من الأصابع والأنامل، فالتسبيح بها حسن». فهو لم يقل: جائز، بل قال: حسن، بشرط ألا يكون رياءً ولا يكون هجراناً لفعل النبي ﷺ. إذاً: أين كلامه السابق، وتطبيق هذه القاعدة؟ فلا يمكن أن يكون شيخ الإسلام متناقضاً في تقريره.

وأشد من هذا: حكم تلقين الميت في قبره: هذه المسألة من المسائل التي أغلقها الشارع إغلاقاً شديداً، فهي مبنية على قاعدة سد الذرائع، وهي كذلك ليس لها أصل، وزيادة على ذلك هي مسألة مخالفة للعقل؛ لأن المملكين حين يقولان للميت: من ربك؟ وما دينك؟ هل القضية قضية أنه يسمع أحداً فيقلده؟ لا.

قد يكون هذا الميت يقول هذه الكلمة وفصيحا فيها، لكنه إذا لم يكن مؤمناً حقاً يصرف عنها في مقام الابتلاء والفتنة. إذاً: التلقين مخالف حتى لمبادئ العقل، ومقاصد الشارع من الافتتان الذي يقع في القبر، ومع ذلك لما سُئِلَ ابن

تيمية عنها قال: «وهذه المسألة فيها للفقهاء ثلاثة أقوال: منهم من استحَبها، ومنهم من أجازها، ومنهم من نهى عنها إما نهى تنزيه أو نهى تحريم. قال: وقد كان واثلة بن الأسقع يرخص في هذا، قال: والصحيح أنها جائزة، وإذا قيل بالنهى عنها فهي مكروهة، وليست بمحرمة». ثم قال: «ومع هذا فإنه ينبغي ترك ذلك، وليس هذا من السنن الواردة عن النبي ﷺ» (١).

إذاً: هو أبعد المسألة عن البدع والتحريم، فقد قال: إنها جائزة، ثم رجع وقال: وإذا نُهي عنها فهذا نهى كراهة، وإن كانت مع ذلك ليست من السنة، ولا ينبغي أن يصار إليها.. إلخ، وكان من المفترض على القاعدة السابقة: أن يقول: هذا بدعة أو من المحدثات. وهناك أمثلة أخرى لشيخ الإسلام في هذا لا يتسع المقام لذكرها.

والقصد من هذا أن جملته السابقة لما قال: «ما انعقد سببه..» هي جملة مجملة ينبغي أن تنزل تنزيلاً مناسباً للنصوص، أما أن تجعل كقاعدة - إن صح التعبير - رياضية مطردة، وتُبدع كثير من الأقوال والأفعال على هذه الطريقة فهذا فيه تكلف، فإن شيخ الإسلام قد خالف هذا الافتراض أو هذا الفهم في كلامه نفسه، ولا يمكن أن يكون متناقضاً في تقريره للأصول والتفريع عليها.

الافتراق واقع:

الافتراق في أهل القبلة افتراق واقع، لا مجال لرفعه أو التكلف في ادعاء أنه ليس له وجود، فقد أثبتت الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ حصوله، ولو لم تثبت

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/٢٥) بمعناه.

الأحاديث فإنه أمر بيّن من جهة الوقوع منذ قرون ماضية، بل من آخر عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، والعلم بالواقع علم ضروري يمتنع رفعه.

مدى صحة حديث الافتراق:

حديث الافتراق ليس من الأحاديث الصحاح البينة الصحة مما خرّج في الصحيحين، أو مما ظهرت واستفاضت صحته عند الأئمة، وإن كان قد روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده وأهل السنن وغيرهم، وصححه جماعة من الحفاظ، واعتبره جماعة من أصحاب السنة فيما صنفوه في مسائل الافتراق ومسائل أهل البدع، وبيان مخالفتهم للسلف^(١).

فإن هذا الحديث ثمة خلافٌ بين الحفاظ في ثبوته، فمنهم من يذهب إلى تضعيفه بأوجهه، ومنهم من يذهب إلى تقويته، وهذا هو المشهور والأظهر عند المتأخرين من الحفاظ.

وهنا مسألة لا بد أن تعتبر في مثل هذا النوع من البحوث، وهو أنه ليس مهماً - فيما يظهر - أن يتوصل إلى جزم بصحة هذا الحديث أو عدم صحته، فإن الوصول إلى هذا الجزم ليس له نتيجة محققة في تقرير المسائل المقصودة في هذا الباب، فإن هذا الحديث قد جاء من رواية أبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر -

(١) أحمد (٣٣٢ / ٢) والطبراني في الصغير (٧٢٤) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٣) والحاكم (١ / ١٢٨)، والآجري في الشريعة (٢٥)، وغيرهم، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣ / ٢٣٠): «حديث افتراق الأمة أسانيداً جيداً». وحسن إسنادها الحفاظ في «تخريج الكشاف» (١٧).

أي: من رواية جماعة من الصحابة - عن النبي ﷺ، وكما أسلفت قد اختلف الحفاظ في ثبوته وعدمه، فذهب ابن حزم إلى الطعن فيه، وهذا قول جماعة، وذهب شيخ الإسلام وجماعة إلى تقويته.

لكن هذا الحديث لا يقال فيه: إن صحته تدل على جملة من المسائل المعتبرة في منهج التقرير لعقيدة السلف أو منهجهم أو أحكام المخالفين، فإن ما تضمنه من المعاني المعتبرة هي ثابتة في الشرع بأدلة أخرى، ولهذا ما يذهب إليه بعض المعاصرين من أن تفريق الأمة بهذا الحديث، أو إن ثبوت اختلاف الأمة مبني على صحة الحديث، وإن الحديث ليس بصحيح، هذا ليس فيه نتيجة محققة، لوجهين:

الوجه الأول: أن افتراق أهل القبلة - أي: اختلاف المسلمين في مسائل أصول الدين - أمر بين من جهة الوقوع، فإنه بين وقوعاً من قرون ماضية، بل من آخر عهد الخلفاء الأربعة الراشدين، لما ظهرت الخوارج، والشيعة، ثم بعد ذلك القدرية.. إلخ.

إذاً الافتراق في أهل القبلة افتراق واقع، لا مجال لرفعه أو التكلف بأنه ليس له وجود، حتى لو لم يحدث به الرسول ﷺ، فما دام أنه وقع فيجب أن يعلم أنه وقع؛ لأن العلم بالواقع علمٌ ضروري يمتنع رفعه.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ قد انضبط إليه من جهة الرواية ثبوت الافتراق في هذه الأمة، فإنه تواتر عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا

من خالفهم، حتى يأتي أمر الله»^(١) وفي وجه في الصحيح: «حتى تقوم الساعة» فهذا الحديث حديث ثابت متواتر من جهة استفاضة ثبوته عند الأئمة، ومخرج - كما تقدم - في الصحيحين من غير وجه وفي غيرهما. وهذا الحديث فيه تقرير لكون الأمة سيدخلها افتراق واختلاف في مسائل أصول الدين، ولهذا وصف عليه الصلاة والسلام هذه الطائفة بأنها الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وأنهم على أمر الله ورسوله ﷺ. وعليه: فتقرير افتراق الأمة ثابت بهذا الحديث المتواتر الصحة.

إذاً: قوله في مبدأ هذا الحديث: «وستفترق هذه الأمة» يقال فيه: إن العلم بهذا الافتراق ليس معلوماً من هذا الحرف من الحديث فقط، بل هو علم ضروري من جهة الوقوع، ومن جهة الخبر النبوي الآخر أيضاً.

ما اختص به حديث الافتراق:

أما قوله: «على ثلاثٍ وسبعين فرقة» فهذا التحديد للعدد هو الذي اختص به هذا الحديث، فإن كان الحديث غير ثابت، فلا يجوز أن يقال: إن الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين، أو افترقت على ثلاثٍ وسبعين.

إذاً: في هذا الحديث امتياز ذكر عدد الطوائف المخالفة، وأنهم ثلاثٌ وسبعون فرقة، وهذا الامتياز ليس تحته حقيقة كثيرة؛ لأنه علم كلي. ومعنى أنه علم كلي أي: أنه لا يستطيع أحدٌ لا من السلف ولا من الخلف أن يحدد هذه الفرق الثلاث والسبعين على القول بصحة الحديث، ولهذا قال شيخ

(١) البخاري (٩) مسلم (١٥٦).

الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «إنه لم يكن من طريقة السلف الجزم بتعيين هذه الفرق، وإن عَيَّنوا أصولها كقولهم: أصول البدع أربع: المرجئة، والقدرية، والجهمية، والشيعة، أو ما إلى ذلك من جمل السلف»، فهم قد يعينون أصول البدع.

أما أنهم اشتغلوا بتسمية الفرق المخالفة للسلف - وهم ثنتان وسبعون فرقة - فإن هذا الاشتغال لم يقع من أحد من السلف، وإنما اشتغل به بعض المتأخرين، وأصل الاشتغال به من طريقة متكلمة أهل الإثبات كأصحاب أبي الحسن الأشعري المنتسبين إلى السنة والجماعة، فإنهم سمو الطوائف الثلاث والسبعين، واستعمل هذا أيضاً بعض الفقهاء من أصحاب الأئمة رحمهم الله الذين يجانبون طريقة المتكلمين.

لكن هذا الاشتغال ليس اشتغالاً سلفياً، بل هو من القول على الله بغير علم؛ لأنه إن اعتبرت أسماء الطوائف التي ظهرت في تاريخ المسلمين فإن العدد لا يمكن أن ينضب عليها، بل قد يزيد عنها إذا اعتبر تفرق الطوائف، كأن يقال الخوارج: خمس عشرة طائفة والمرجئة: ثنتا عشرة طائفة، إذا اعتبر هذا التقرير كما هي طريقة أهل المقالات فإن الفرق تزيد كثيراً عن ثلاث وسبعين. وإذا اعتبرت أصول الطوائف فإن الفرق تقل عن ثلاث وسبعين؛ ولذلك إن صح هذا الحرف عن النبي ﷺ فإنه حرفٌ يُعلم علماً مجملًا كلياً، فيُعلم أن الفرق ستكثر، وكأن المراد من كلمته ﷺ: أن البدع ستكثر، وأنه سيكون لها أوجهاً متعددة.

وأما أن المكلفين يعلمون أسماء هذه الفرق فهذا ليس بصحيح، وقد

أوضحنا في شرح كتاب الإيمان لأبي عبيد أنه لم يصح عن الرسول ﷺ أنه سمي طائفة بدعية باسمها، كاسم المرجئة أو القدرية أو الشيعة، أو ما إلى ذلك، بل كل ما روي مرفوعاً إليه لا يصح، وإنما صح كلامه ﷺ في الخوارج.

إذاً قوله: «على ثلاث وسبعين فرقة» هذا التحديد هو الذي أفاده هذا الحديث. فإن صح قيل: هذا من العلم المجمل الكلي، وإن لم يصح فالاعتبار بثبوت الافتراق، وليس بماهية العدد.

الجميل المذكورة في حديث الافتراق:

هذا الحديث فيه سبع جمل:

الجملة الأولى: «افترقت اليهود»، وافتراق اليهود معلوم من الكتاب والسنة.

الجملة الثانية: «على إحدى وسبعين فرقة» فإن صح هذا الحديث علم عدد فرق اليهود علماً مجملاً، وإن لم يصح علم افتراق اليهود من الكتاب والسنة.

الجملة الثالثة: «وافترقت النصارى» وافتراق النصارى معلوم من الكتاب والسنة.

الجملة الرابعة: «على اثنتين وسبعين فرقة» فإن صح هذا الحديث علم عدد فرق النصارى علماً مجملاً، وإن لم يصح علم افتراق النصارى من الكتاب والسنة. وبقي في الحديث ثلاث جمل تتعلق بهذه الأمة:

الجملة الأولى: «وستفترق هذه الأمة» وهذا معلوم من جهة متواتر الشرع،

ومن جهة الوقوع.

الجملة الثانية: «على ثلاث وسبعين» تحديد العدد أفاده هذا الحديث، فإن صح فهذه الإفادة إفادة كلية مجملة، ليس تحتها تعيين ممكن.

الجملة الثالثة: «كلها في النار إلا واحدة» هذه جملة مهمة، لكن نقول: هذه الجملة - وقد ذكرت في هذه الأمة، وذكرت في اليهود والنصارى - أفادتها دلائل الشريعة من الكتاب والسنة، ولم يختص بذكرها هذا الحديث، فهي ليست كالجملة الثانية التي قلنا: إن هذا الحديث أفادها؛ فثبوتها مبني على ثبوته، لكنها كالجملة الأولى.

حكم الفرق المخالفة لأهل السنة:

بهذا يتبين أن هذا الحديث ليس فيه زيادة في حكم المخالفين للسلف؛ فإن قوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة» لا يراد به عند السلف أن جميع من خالفهم يكون من أهل النار أو من أهل الوعيد جزماً، وإنما هذا من أحاديث الوعيد العامة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار»^(١). وقوله في حديث ابن مسعود: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال

(١) مسلم (١٣٧).

ذرة من كبر»^(١) وغيرها من النصوص.

فهذا الحديث فيه بيان لكون المفارقة للسنة والجماعة من موجبات الوعيد، فإن من فارق السنة والجماعة لابد أن تكون مفارقتة في الجملة عن تفريط منه، ولا شك أن المفرط يكون تاركاً لواجب من الواجبات، ومن ترك واجباً من الواجبات أو قصر فيه فإنه يكون مُعَرَّضاً لوعيده سبحانه وتعالى، وهذا لا يمنع أن يكون بعض من انتحل البدع وطرق أهل الأهواء على قدر من الزندقة والكفر والخروج من الملة، وهذا مقام آخر.

المقصود: أن حكمه عليه الصلاة والسلام - إن ثبت هذا الحرف عنه - على جميع هذه الفرق أنها في النار إلا واحدة، وهي الفرقة الناجية، لا يراد به التعيين، لا للطوائف، ولا التعيين - من باب أولى - للأعيان.

بل يقال: هذا وعيد؛ لأن من فارق السنة والجماعة لابد أن تكون مفارقتة بسبب قدر من التفريط في الجملة، والمفرط تارك لواجب، والتارك للواجب العلمي من جنس التارك للواجب العملي، بل تركه للواجب العلمي أشد من ترك الواجب العملي، ولهذا كان السلف يَعُدُّون جنس البدع أعظم من جنس المعاصي والكبائر العملية.

هذا هو المراد من هذا الحرف، وهو مراد لا ينبغي أن يختلف فيه، ومن فسر الحديث بأن هذا حكم على أصحاب هذه الطوائف بأنهم من أهل النار وأنهم

(١) مسلم ٦٥/١ (٩١) (١٤٧).

كفار، أو أنهم من أهل التخليد في النار، أو عيّن طائفة الخوارج، أو طائفة المعتزلة، أو الأشعرية أو غيرها بأنها من أهل النار؛ لأن النبي ﷺ قال: «كلها في النار» فهذا فهمٌ غلطٌ لكلامه ﷺ، وهذا لا يمنع أن أهل البدع المغلظة، قد يقع في أعيانهم من هو من أهل الكفر والزندقة والخروج من الملة، فهذا مقام آخر له قدر من الثبوت كما ذكره الأئمة رحمهم الله، وكما هو المعروف في الواقع التاريخي لبعض غلاة أهل البدع.

إذاً: هذا هو الذي يراد بهذا الحديث، وعليه ترى أن الجملة الثالثة ليست مما اختص به هذا الحديث، فهي معلومة بكليات وبمفصل دلائل الشريعة، فقد دلت دلائل الشريعة على أن أصحاب الكبائر العلمية من جنس أصحاب الكبائر العملية، بل هم أولى في الوعيد من أصحاب الكبائر العملية.

منزلة الاجتماع عند أهل السنة والجماعة:

وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهذا في قوله ﷺ: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وهذا الوصف من جهة الثبوت فيه نظر، فإن هذا الحرف فيه كلام للحفاظ من جهة ثبوته، لكن معناه معنى صحيح، فلا شك أن الطائفة المنصورة الناجية هم من كان على هدي النبي ﷺ وأصحابه.

ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه جمع الاسمين - السنة والجماعة - في سياق واحد؛ أي: أن هذا التركيب بهذا السياق لم يثبت، وإنما ثبتت الأفراد، ولثبوت الأفراد استعمل هذا الاسم في تعيين هذه الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة.

وهذا الاسم حين يقال: إنهم هم أهل السنة وهذا بيان لاتباعهم، والجماعة

وهذا بيان لاجتماعهم، فإن السنة لابد فيها من اجتماع، والاجتماع لابد فيه من سنة، فهما أصلان متلازمان، ولذلك يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان الإجماع من أشرف أصول الاستدلال عند الأئمة، ومخالفه يكون على قدر من الضلال والبدعة بخلاف من خالف ما لم يظهر له من دلائل أو من آحاد الدلائل، فإن هذا مقام يقع فيه اجتهاد».

إذاً: لا يمكن أن تتحقق هذه الطائفة إلا بهاذين الأصلين: الاتباع للسنة، والاجتماع على ذلك. ولذلك من لم يحقق مقام الاجتماع فقد فاتته كثير من السنة.

وهنا تنبيه: إلى أنك قد ترى بعض السلفيين اليوم، وهذا لا يقع من علمائهم أو شيوخهم الكبار، بل يقع كنوع من - إن صح التعبير - الاندفاع أو التعجل من بعض الطلبة في بعض المدارس، فقد يقومون بتحصيل سنة مختلف فيها بين الفقهاء، وهذا التحصيل يستلزم تفويت مصلحة الاجتماع، فيكونون حصلوا سنةً يسيرةً مختلف فيها كالشهاد أو كالإشارة بالإصبع أو وضع اليدين على الصدر، وفوتوا في هذا مصلحة الاجتماع.

وهذا لم يكن من هدي السلف، فإن ابن مسعود - وهو من كبار أئمة السلف؛ لأنه إمام صحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أتم خلف عثمان، وما كان إتمام عثمان موافقاً للسنة؛ فإن النبي ﷺ لم يتم الصلاة في سفر قط، لكن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أتم وتأول، وليس المقصود هنا بم تأول، بل المقصود: أن ابن مسعود وجمله الصحابة من بعده أتموا خلف عثمان، ولما قيل لابن مسعود في ذلك، قال: «الخلاف شر».

فمع أن هذه سنة مقصودة التحصيل إلا أن الاجتماع أيضاً شريعة وسنة مقصودة التحصيل لا بد من ضبطها، وهذه من قواعد الفقه: أنه لا تحصيل مصلحة يسيرة مختلف فيها بتفويت مصلحة كلية مجمع عليها؛ والعناية بالسنة مقام بين عند السلفيين اليوم، لكن ينبغي أن يؤكد على العناية بالاجتماع على السنة؛ ولهذا ما يقع من افتراق كثير من السلفيين اليوم ليس افتراقاً شرعياً، ولا موجب له من الشريعة، ومسائل السلفية هي الإجماعات، والإجماعات لا ينبغي أن يختلف فيها، وليس فيها مادة قابلة للاختلاف.

أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم:

وهذه مسألة يخطئ فيها كثير من أهل البدع، وذلك حين تزعم بعض طوائف أهل البدع: بأن طائفتهم عليها أكثر المسلمين.

وقد قال جملة من متكلمي الأشعرية: إن النبي ﷺ جاء عنه في ذكر الفرق الناجية المنصورة أنهم السواد الأعظم، قالوا: وأصحابنا الأشاعرة هم السواد الأعظم، فإن جمهور العلماء أصحاب المذاهب الأربعة - أي: فقهاء المذاهب الأربعة، أتباع أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - إما أشعري، أو سالك مسلك بعض أئمتهم، أو متأثر بهم - ومن هنا زعم جملة من متكلمي الأشاعرة أن طائفتهم هي الطائفة التي يمكن أن توصف بأنها السواد الأعظم. وهذا لا شك أنه خطأ.

ومن قال: إن أكثر علماء المسلمين من الأشاعرة فقد أخطأ، فإن أئمة العلماء هم القرون الثلاثة الفاضلة، وهؤلاء ليس فيهم أشعري، بل هؤلاء وجدوا قبل

أن يوجد المذهب الأشعري، فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعهم أئمة سنة، والتابعون كذلك.. إلخ.

إذاً هذا خطأ في التقدير التاريخي، وخطأ في تقرير الحقائق الشرعية، فإن أئمة المسلمين وجمهور علمائهم هم أئمة السنة والجماعة، هذه جهة.

وجهة أخرى: أن السواد الأعظم من المسلمين هم على السنة والجماعة، فإن طرق المتكلمين كالأشاعرة - فضلاً عن المعتزلة - في تحصيل عقائدهم طرق نظرية، وهي طرق علم الكلام، كتقرير دليل الأعراض، ودليل الاختصاص، ودليل التركيب إلى آخر هذه الطرق الجدلية النظرية، فإذا تكلموا في الصفات جاءوا بدليل الأعراض، وإذا تكلموا في القدر جاءوا بنظرية الكسب التي أعيا تفسيرها أئمة الكلام من الأشاعرة. وهذه الطرق لا يمكن عقلاً ولا جدلاً أن العامة من المسلمين يعرفونها ويفهمونها؛ فهي متعذرة الفهم على العامة.

ولهذا اختلف علماء الأشاعرة أنفسهم في حكم إيمان العوام، فمنهم من يقول بفساد إيمان العامة - وهذا عليه بعض غلاتهم - ومنهم من يقول: إنهم تاركون لواجب في الإيمان، وهي الطرق التي اخترعوها وابتدعوها ودخلت عليهم من المعتزلة، ومنهم من يقول: إن إيمانهم صحيح ولم يتركوا واجباً فيه، لكنه إيمان مجمل، ليس الإيمان التام المحقق، فالإيمان التام المحقق لا يحققه أو يعرفه إلا أرباب العلم الكلامي.

وبما أن طرق المتكلمين، متعذرة التحقق عند العامة؛ إذاً سواد المسلمين وعامتهم أهل سنة؛ لأن سواد المسلمين ليس لهم مرادٌ إلا الإسلام، والسنة

والجماعة هي الإسلام، وليس فيها زيادة عن الإسلام، حتى بعد حدوث الفرق والبدع، لم تزد السنة بزيادة هذه الفرق، بل السنة واحدة، السنة والجماعة والسلفية هي الإسلام الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

هذا هو المنهج السني السلفي، وهو الإسلام الحق التام المحقق ظاهراً وباطناً. وعليه: فسواد المسلمين وعامتهم أهل سنة، قد يتأثرون ببعض علماء بلدهم، فهذا التأثير يؤخذ بقدره، ويكون تقصيراً، ولا يلزم أن تُغَلَّبَ الحالة على العامة؛ نظراً لأن علماء البلد أشاعرة.

خطأ القول بأن العامة والجمهور ليسوا من أهل السنة:

وعليه: ما يقع فيه بعض الأشعرية أو من ينتصر لمذهبهم ويقول: إن بلاد كذا، وبلاد كذا، وبلاد كذا، وأكثر أمصار المسلمين اليوم أشاعرة، بحجة أن الظاهر في علماء بلدها أنهم أشاعرة، هذا ليس متيناً؛ لأنه والله الحمد ما من بلد اليوم إلا وفيه علماء من السنة والسلفيين، هذه جهة.

الجهة الثانية: لو فرض جدلاً عدم ذلك، فإن العامة قد بقوا على أصل الديانة وأصل الإسلام، ولم يسمعوا بهذه المعارف الكلامية الفلسفية السفسطية.. إلخ. فهذا الباب لا بد من إدراكه.

ويقابل ذلك بعض السلفيين أحياناً، حيث يقول: إن السلفية مختصة بمكان كذا وكذا، وأما جمهور الأمصار فهي على البدعة والضلال، وهذا أيضاً خطأ وليس بصحيح، بل أمصار المسلمين في الجملة هي على السنة والجماعة، وأكثر

ما يغلب على المسلمين هو التقصير في تحقيق الاتباع لله ورسوله ﷺ، وأما التقصد إلى معارضة الكتاب والسنة والخروج عن طريقة السلف، فهذا - في الجملة - ليس مقصوداً للعامة وإن كانوا يخالفون، وفرق بين من اختص بطائفة، وبين من يخالف وهو لم يقصد الخروج عن طائفة أهل السنة والجماعة.

إذاً: لا شك أن أهل السنة والجماعة هم السواد الأعظم، وهم الذين فيهم الأئمة، وهم أئمة الصحابة والقرون الثلاثة، وفيهم المجاهدون، والأولياء إلى غير ذلك. فهذا من المسائل التي لا ينبغي أن ينازع فيها، ولا يتكلف في التوهم فيها.

أما أن الأشعرية هم أكثر علماء المسلمين، أو هم جمهور المسلمين.. إلخ، فهذا ليس له حقيقة، بل هم طائفة نظرية امتدت بعض القرون، وكثرت في بعض أتباع المذاهب، ولكنها لا يمكن أن تصنف على هذا التصنيف المتكلف، وهي طائفة كما قيل فيها: هي أقرب الطوائف إلى الكتاب والسنة بعد السلف، أو هم أقرب طوائف المتكلمين إلى أهل السنة والجماعة.

أما القصد إلى تقليل الطائفة السلفية - أهل السنة والجماعة - بأي نوع من أنواع القصد فليس قصداً شرعياً ولا قصداً حكيماً ولا قصداً فاضلاً.

وهذا القصد إما أن يقع فيه بعض الأشاعرة وهذه فكرة قديمة عند الأشاعرة، أو يقع فيه بعض طلبة العلم السلفيين الذين لم يكتملوا، وذلك حين يبالغون في تقييد المذهب السلفي بتقييدات كثيرة، ويجعلون من خرج عن هذه التقييدات ليس سلفياً، وكتيجة لهذا فعلاً يصبح الأكثر من المسلمين ليس

سلفياً، ولا من أهل السنة والجماعة، إنما قد يقال: عنده سنة، ولكن عنده بدعة.. إلخ. فهذا التضييق ليس مقصوداً.

السواد الأعظم:

وإذا قيل: لم يكن مقصوداً؟ هل لكون النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «هي السواد الأعظم»^(١) فإنه قد يقال: هذا الحرف لم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث؟ فيقال: كلا، لا يقصد إلى تضييقه لهذا الحرف، إنما لأن المراد من الطائفة التي قال النبي ﷺ فيها: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله» هذه الطائفة التي على الحق هي طائفة أهل السنة والجماعة، هم السلفيون، ومن أسماء هذه الطائفة التي تقال في حقهم هم أهل الإسلام حقاً.

وقد يقول قائل: إن المراد بالحق في قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق»^(٢) يراد به السلفية، نقول: أجل من كلمة السلفية كلمة الإسلام، فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقد يقول البعض: إذا سُميت باسم الإسلام؛ فإنه يشمل جميع المسلمين من أهل السنة وأهل البدعة.

قيل: هذا يستدعي قدراً من التمييز كاسم أهل السنة والجماعة، لكن هذا لا

(١) البيهقي (١٨٨ / ٨) ولفظه: «كلها في النار، إلا السواد الأعظم» بسند حسن.

(٢) البخاري (٩) ومسلم (١٥٦) وأبو داود (٢٤٨٤) بسند صحيح.

يستدعي هجران الاسم الأول، ولا يستلزمه، والدليل على ذلك أن الله عظم اسم الإسلام، مع أن اسم الإسلام كان يدخل فيه زمن النبوة المنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقد قال شيخ الإسلام: «وقد اتفق العلماء على أن المنافقين يدخلون في اسم الإسلام إذا ذكر».

إذاً؛ كون هذا الاسم يدخل فيه قوم ليسوا أهلاً له أمر لم يظهر بظهور البدع، بل هو موجود حتى في زمن النبوة من جهة اسم النفاق؛ ولهذا كان المقصود بأهل السنة المحققين للإسلام حقاً، وكما أن فيهم المحقق القاصد فيهم الظالم لنفسه، وفيهم المقتصد، وفيهم السابق بالخيرات.

ولهذا لا ينبغي أن يضيق هذا الاسم بحال من الأحوال، بل كل من اعتبر الكتاب والسنة وأخذ بإجماع الصدر الأول، فهذا يعد من أهل السنة والجماعة، وليس هناك شروط لسلفيته يجتهد فيها المجتهدون، أو يتكلف فيها أحياناً بعض أصحاب الردود والمخالفات والمناقشات التي لا معنى تحتها ولا حقيقة.

قال شيخ الإسلام: «وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع» وهذا من فقه شيخ الإسلام، مع أنه رَحِمَهُ اللهُ جاء في القرن السابع وأدرك من القرن الثامن، وقد كان المذهب الأشعري هو الغالب في - إن صح التعبير - الدوائر الرسمية في الدولة الإسلامية آنذاك، أي هو

الممثل الرسمي للدولة إذ ذاك من جهة القضاء ومن جهة الفتيا، فكان كبار أئمة الشافعية خاصة على المذهب الأشعري، فمع هذا الانتشار وهذا الشيوع في بعض الفترات وبعض المراحل من القرون الإسلامية، إلا أن شيخ الإسلام كان يقرر هذه الحقيقة: أن أهل السنة هم السواد الأعظم، وأن الطوائف هم أهل الشذوذ والابتداع والافتراق، وهم في الغالب على قدرٍ من القلة إلى غير ذلك.

حكم زيادة لفظ: (على فهم السلف الصالح):

هنا طريقة يقررها البعض أحياناً وهي أنه لابد أن يقال: الكتاب والسنة والإجماع على فهم السلف الصالح، فيذكرون هذا القيد وهو: على فهم السلف الصالح.

وهذا القيد هو قيدٌ بياني على الصحيح، وليس قيداً لازماً، بمعنى أنه قيد فاضل صحيح إذا اقتضت الحاجة إلى ذكره ذكر، وهو من جنس كلمة سهل بن عبد الله في الإيمان، حيث قال: «الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ واتباعٌ». فقوله: «واتباعٌ» أي: للسنة، ليس خطأ، لكنه ليس قيداً لازماً؛ لأننا لو قلنا: الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ كان كافياً، ولا يلزم أن نقول: «واتباعٌ»؛ لأننا نقصد بلفظة «قول» القول الشرعي، وبلفظة «وعملٌ»: العمل الشرعي وهكذا، فهذا من القيود البيانية. لكن هل الأفضل ذكره أو عدم ذكره؟

يقال: هذا بحسب الاقتضاء، فإذا شاع عند كثيرين دعوى الاتباع للكتاب والسنة على خلاف منهج السلف وفهمهم كان استدعاء ذكره استدعاءً مشروعاً ومقصوداً.. إلخ. وهذا هو المقصود، فإنه لا يقصد من هذا أن طالب العلم لابد

أن ينفك عن هذا التعبير، حتى من التزم هذا التعبير في كلامه وتقاريره وكتبه ودروسه، فإن التزامه صحيح، وقد كان الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ يلتزم هذا التعبير في الغالب. فيما أحسب.. وهو التزام سلفي صحيح.

لكن إذا عبر معبر من علماء السنة والجماعة فقال: ومذهب السلف معتبر بالكتاب والسنة، فإنه لا يجوز أن يقال: إنه قد أخطأ، أو فاته التقرير لكلمة على فهم السلف الصالح، إلا إذا علم أنه كان يقصد عدم الاعتبار لفهم السلف. أما من يحتج ويقول: إننا إن قلنا الكتاب والسنة لم نميز أهل السنة؛ لأن أهل البدع يقولون: الكتاب والسنة.

نقول: حتى لو قالوا ذلك؛ فإن هذا لا يستدعي هجر هذه الاستعمالات؛ لأنها مستعملة في كلام الله ورسوله قبل أن نقول: إنها مستعملة في كلام أعيان السلف؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١)، وقال: «فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله»^(٢) ولم يقل ﷺ في حجة الوداع: وستي، إنما قال: «وأنتم تسألون عني»^(٣) فكان عليه الصلاة والسلام تارة يذكر القرآن، وتارة يذكر هديه، وتارة يذكر الكتاب والسنة.. إلخ، وكل هذا حق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قال جملة

(١) أبو داود (٤٦٠٦) وصححه الألباني.

(٢) مسلم ١٢٢/٧ (٢٤٠٨) (٣٦) و(٣٧) بنحوه.

(٣) مسلم (١٢١٨) في حديث جابر الطويل في صفة حجة الوداع.

من السلف: حبل الله القرآن، ومنهم من قال: حبل الله الإسلام، ومنهم من قال: حبل الله السنة وهدى محمد، فهل نأتي ونقول: هذا تقصير في التحقيق، كان يجب أن يقولوا: حبل الله القرآن والسنة وفهم السلف؟ لا؛ فإن كل هذه المعاني صحيحة.

وكمثال على هذا: قال الإمام أحمد: «نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث». فهل يحق لأحد أن يأتي ويقول: فات الإمام ذكر الإجماع؟ الجواب: لا.

إذاً: هذه التعابير هي قيود بيانية إذا استدعت المصلحة إلى ذكرها ذكرت، وإذا لم تستدع المصلحة لا نقول: إنها لا تذكر، وإنما نقول: إن ذكرها أو عدم ذكرها أمر فيه سعة.

الأسماء الشرعية لأهل السنة والجماعة:

مما ينبه إليه هنا: هو أن الأسماء المضافة لهذه الطائفة كلها شرعية، فإذا قيل: السلفيون، أو قيل: أهل السنة والجماعة، أو قيل: المسلمون، أو قيل: المحققون، أو قيل: المؤمنون، أو قيل: الصالحون، فكلها أسماء شرعية، ولهذا ينبغي ألا يختص اسم واحد من هذه الأسماء بالالتزام، ويكون الذكر لغيره ليس تحقيقاً، فلا شك أن اسم المؤمنين والصالحين والصدّيقين والشهداء إلى غير ذلك أشرف وأعظم من اسم السلفية، فإن هذه أسماء عظمها الله سبحانه وتعالى في كتابه.

وهذا لا يعني المنع من استعمال هذا الاسم -السلفية أو السلفيون- فإنه اسم شرعي، وهو يدل على الاتباع للسلف الذين هم القرون الثلاثة الفاضلة، لكن

القصد: أنه ليس وحده المستعمل، بل يستعمل هو ويستعمل غيره.

دعوى بعض أهل البدع أنهم يلتزمون بفهم السلف الصالح:

كثير من أهل البدع يقولون فهم السلف الصالح ويخطئون في فهمهم، كما أنهم غلطوا في فهمهم لكلام الله والمراد من كلامه ومراد الرسول، فإنهم يغلطون في فهمهم لكلام السلف.

مثلاً: الإمام أبو الحسن الأشعري أول ما ترك الاعتزال بعد ما أمضى فيه ما يقارب الأربعين سنة. كان فيها تلميذاً لشيخه وزوج أمه أبي علي الجبائي، الذي كان من كبار شيوخ المعتزلة. انتسب إلى مذهب الإمام أحمد مباشرة، أما ما يقرره بعض الباحثين من أنه رجع إلى طريقة ابن كلاب أولاً فهذا خطأ، فإنه لا توجد مسألة كلابية في الانتساب الأشعري أساساً، وهذا الخطأ دخل على بعض الباحثين من كلام الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، فالصحيح هو الذي يقرره ابن تيمية، وهو المعروف في طريقة الأشعري رَحِمَهُ اللهُ: أن الأشعري أول ما ترك الاعتزال صرح أنه على مذهب الصحابة والتابعين والأئمة، وأنه على مذهب الإمام أحمد؛ لأن الإمام أحمد وقتها كان هو المعروف بإمامة السنة أكثر من غيره. لكن بقي سؤال، وهو: هل حقق الأشعري مذهب أهل السنة؟

الجواب: إن الإمام الأشعري كان عارفاً بعلم الكلام وطرق المعتزلة والجدل علماً مفصلاً، وعارفاً بكلام السلف علماً مجملاً، ولذلك إذا تكلم في المجملات ففي الغالب أنه يحسن، وإذا تكلم في المفصلات ففي الغالب أنه يخطئ، وذلك لأن علمه بكلام أهل السنة علم قليل، والدليل على هذا: أنك إذا

قرأت في كتابه مقالات الإسلاميين - والذي يعد من آخر كتبه - تجد أنه تكلم عن المعتزلة بكلام تفصيلي، وفند آراءهم وذكر الفروقات الدقيقة بين أعيان المعتزلة، وشرح مذهب المعتزلة ومقالات المعتزلة في جوهر الكلام شرحاً دقيقاً؛ لكن لما جاء إلى مذهب أهل السنة ما استوعب عنده حتى ثلاث صفحات، فتراه جاء بجمل عامة، فقال: «جملة مقالة أهل السنة والحديث: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يدينون بدين الإسلام، يؤمنون بالصلاة والزكاة، يؤمنون بصفات الله، يؤمنون بكمال الله، يؤمنون بالقدر خيره وشره» فهي جمل عامة، ثم قال في الأخير: «وبكل ما قال أهل السنة نقول». فهو في كتبه الكلامية المفصلة بعد الاعتزال ما استطاع أن يفصل تفصيلاً سلفياً؛ لأن من يعرف الشيء مجملًا لا يعني أنه يعرفه على التفصيل.

والمقصود من هذا: أن الأشعري وجملة أصحابه - ولا سيما المتقدمون من الأشاعرة - جميعهم ينتسبون إلى الكتاب والسنة وإلى فهم السلف؛ فالأشعري في مقدمة الإبانة لما زجر أقوال أهل البدع قال: «فإن قيل: فما قولكم الذي تقولون به ودينكم الذي تدينون الله به؟ قال: هو ما كان عليه أصحاب محمد.. إلخ»، ثم قال: «ونحن بكل ما قال به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولما يعتقده معتقدون، فإنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل.. إلخ». فكان يتوهم أن فهمه فهمٌ مناسب لفهم السلف.

إذاً مسألة أن الناس قد يدعون هذا فلا بد أن نزيد التمييزات، يقال: هذه زيادات مناسبة إذا استدعت الحاجة ذكرها، وأما أنها لازمة فلا؛ فإن الرسول

عليه الصلاة والسلام لما ظهر النفاق في المدينة النبوية لم يقل: سنغير اسم الإسلام أو سنهجر اسم الإسلام إلى اسم لا يدخل فيه المنافق وهو اسم الإيمان - مثلاً، فإن اسم الإيمان لا يدخل فيه المنافق، ولم يقل ﷺ كذلك للمسلمين من بعده: التزموا اسم الإيمان ولا تلتزموا اسم الإسلام.

امتناع تعيين الثنتين والسبعين فرقة:

قال شيخ الإسلام: «وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكرهم في كتب المقالات؛ لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل»، ولا يمكن أن يكون عليه دليل. إذاً العلم بتعيين أسماء هذه الطوائف على التفصيل والتمام علم ممتنع؛ لأنك إذا اعتبرت الطوائف من جهة أصولها قلّت، وإذا اعتبرتها من جهة مُفَصِّلها زادت وكثرت، هذه جهة.

الجهة الثانية: لو فرض جدلاً أن ثمة ثنتين وسبعين طائفة، فإن الجزم بأنها هي المقصودة في الحديث فيه أيضاً تأخّر من جهة العلم والإمكان؛ لأنه قد يكون مقصوداً في كلامه ﷺ بعض الطوائف التي لم تظهر بعد، والنبي ﷺ ذكر أن كثيراً من الافتراق سيقع في آخر هذه الأمة، كما أن بعضه أدرك صدر هذه الأمة، وقال في حديث عبد الله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم في سياق طويل: «وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها»^(١)

(١) خرّجه مسلم في الصحيح ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦) وهو حديث عظيم رواه عبد الله بن

فهناك افتراق سيقع في آخر الأمة. إذاً الجزم متعذر من أوجه متعددة.

أهل السنة لا يتبعون إلا رسول الله ﷺ:

قال شيخ الإسلام: «فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة».

وهذه مسألة لا بد أن تحقق عند الخاصة والعامة، وهي أنه لا يمكن أن

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من يتنضل، ومنا من هو في جَشْرِهِ - أي: الدواب في مرعاها القريب وهو المَفْلَى -، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم. وإن أمتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة يرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحب أن يرحل عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» قال النووي في شرح مسلم (١٢: ٢٣٣): «الجشْر: هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها»، وفي اللسان: «قال أبو عبيد: الجشْر: القوم يخرجون بدواهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يأوون إلى البيوت». وقوله: «ومنا من يتنضل» أي: يرمون بالسهام.

تجتمع الأمة على رجلٍ واحدٍ، مهما بلغ من العلم والإدراك والتقوى، فالأمة لا تصدر عن رجل واحد أبداً إلا أن يكون محمداً ﷺ، أما من بعده فلا، حتى الخلفاء، فإن الخلفاء من سنتهم المراجعة، ولهذا لما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام وأُخبر أن الطاعون قد وقع فيها - كما في حديث ابن عباس^(١) - أمر أن ينادى بالمهاجرين، فاستشارهم فاختلفوا عليه، منهم من يقول: أقدم، ومنهم من يقول: ارجع، ثم استشار الأنصار، فاختلفوا كاختلاف المهاجرين، ثم أمر أن ينادى بمشيخة قريش من مهاجرة الفتح فاستشارهم فاتفقوا أن يرجع، فقال عمر: إني مصبِّحٌ على ظهرٍ فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة - وكان ممن يرى الإقدام -: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله».

الشاهد من ذلك: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يسعه الاجتهاد في هذه المسألة، لكنه مع ذلك جمع؛ لأن الأمة في القضايا الكلية لا يجوز أن تصدر عن واحد، نقول: في القضايا الكلية، وهذا أمر يقصّر فيه لا نقول العامة أو بعض طلبة العلم، بل - مع الأسف - يقصر فيه بعض الشيوخ، وذلك حين يضع له منزلة مطّردة، فيتصدّر الأمة في أمور كلية عامة.

الأمر الكلية لا بد أن تكون مدروسة بين علماء الأمة، وأن تكون معنية بالتقرير والاستدلالات، وأما الصدور عن الواحد صدوراً كلياً في كل شؤون الأمة، في كل مصر من أمصار المسلمين فهذا لا يتحصّل، وإن ما كان يتحصّل

(١) البخاري ١٦٨/٧ (٥٧٢٩) ومسلم ٢٩/٧ (٢٢١٩).

فيما سلف من الأزمنة أن بغداد كان لها إمام معروف فيها يعتبر هو إمام بغداد ومفتيها فهذا أمر جرى عليه عمل كثير من المسلمين في دولهم وأمصارهم، هذا - مثلاً - مفتي بلاد مصر، وهذا مفتي الشام، وهذا مفتي الحجاز، وهذا مفتي المملكة، وهذا مفتي كذا، هذه الإفتاءات المختصة في مسائل الفقه مما يسوغ تَصَدُّرُ شخص لها، وقد انتشر هذا منذ زمن بعيد في الأمة.

لكن الأمور الكلية العامة التي تمس جميع الأمة في شرقها وغربها، عربها وعجمها لا يُصدر فيها عن رجل واحد، ولا ينبغي لرجل واحد أن يستصدر وأن يفتات على الأمة في تصرف يختص به، المنزلة الكلية التي تكون للأمة هي منزلة محمد ﷺ، وأما من بعده فلا بد أن يراجع غيره من أهل العلم، وأن يكون على قدر من التشاور والمراجعة والبحث إلى غير ذلك. وهذه كلمة فاضلة في كلام الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ لما قال: «ولست هذه المنزلة لغيره من الأئمة».

ولهذا لا ينبغي أن يُعْظَمَ عالمٌ من العلماء لا معاصر ولا سابق تعظيماً مطلقاً، ويلتفت على جميع أقواله أو جميع ما يقرر، فإن هذا من التكلف، ومما لا يشرع أبداً، وهو من التقليد المذموم الذي ذمه السلف رحمهم الله.

كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام:

قال شيخ الإسلام: «بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة - كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك - كان

من أهل البدع والضلال والتفرق».

وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللهُ: أنه لا يجوز أن يُبتلى المسلمون بالأعيان، حتى لو كان هذا المعين عالماً من علماء السنة؛ لأن المخاطب لم يكلف شرعاً أن يعرف هذا الرجل بعينه، وإنما كلف شرعاً أن يعرف من الأشخاص محمداً ﷺ، فإذا ما استجاب لرسول الله وأقر بسنته والتزم هديه؛ فإنه لا يلزمه أن يعرف فلاناً أو فلاناً من أعيان العلماء، فضلاً عن أن يلتزم الثناء عليه ومدحه والتعظيم له، اللهم إلا إذا ذكر له إمام من أئمة السنة، فطعن عليه، مع أنه يعرف أنه من علماء السنة، فهذا لا يصدر إلا عن صاحب بدعة. وأما الجهل فالجهل كثير، وقد كان كثير من عامة المغاربة لا يعرفون كثيراً من أئمة المشاركة، والعكس.

فابتلاء الناس بالأسماء المعينة من أهل العلم هذا ليس ابتلاءً فاضلاً، إنما يبتلى الناس بالحق، ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فمن قال بالحق: الكتاب والسنة والاتباع لهدي النبي ﷺ وهدي صحابته؛ كان من أهل الحق.

وكذلك يكون الابتلاء لمن عُرف وعرف الله به في كتابه من أعيان أصحاب نبيه محمد ﷺ؛ لذلك من طعن في الصحابة لا بد أن يكون صاحب بدعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] أما أعيان العلماء من بعدهم فلا يلزم المسلمين العلم بهم.

وقد تقدم: أن هذه مسائل صار فيها كثير من الزيادة على المذهب السلفي، وظهر بعض المتعصبين من أتباع الأئمة الأربعة ولا سيما من بعض شيوخ

المذهب رحمهم الله - أي: من الحنابلة - وإن كان الحنابلة هم أجل الطوائف في السلامة من البدع، وهم أسلم الطوائف من علم الكلام، لكن في بعض شيوئهم قدر من الزيادة، ولهذا وضعوا بعض السؤالات التي يُعرف بها السني من البدعي، وزادوا بعض الزيادات التي قد تكون - إن صحّت - مناسبة لزمن ما أو لوقت ما، ولكن الأصول الشرعية هي أصول الإسلام، والإيمان، الذي كان عليه الصحابة في مكة والمدينة النبوية.

الحكم على المخالفين لأهل السنة:

قال شيخ الإسلام: «ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون؛ كان من نوع الخطأ. والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك»

وهذه إشارة إلى معنى في فقه السلف رحمهم الله لأحكام المخالفين، وهو: أن من اختص ببدعة من البدع ونصبها شعاراً يوالي ويعادي عليه، وفارق به الجماعة - أي: الإجماع الذي عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فهذا الانتصار لا يكون إلا من طرق أهل البدع الخارجين عن السنة والجماعة، وهؤلاء في الجملة على قدر من التفريط والتقصير في تحقيق ما يجب عليهم من العلم والعمل.

من قال قولاً مبتدعاً لا يلزم أن يكون مبتدعاً:

ثمة أقوال لبعض الأعيان هي من البدع المخالفة للإجماع، ومع ذلك تعرض هذه الأقوال عَرَضاً في أقوالهم وفي أحوالهم العامة، بمعنى: أن هذا المعين يكون في جمهور أمره على السنة والجماعة من جهة الموالاة والمعاداة، فهو

يوالي السلف وأهل السنة، وينبذ البدع والابتداع، وهو في أقواله في مسائل الأصول على أقوال السلف، ولكن عرض له شيء من الخطأ في بعض مقامات أصول الدين عروضاً قد يخفى فيما هو من مثل هذا. (١)

فهذا وإن كان قوله الذي عرض له بدعة مخالفة للإجماع، وقد أنكره السلف وشددوا فيه؛ إلا أن صاحبه لا يخرج به عن السنة والجماعة، ويصبح من أصحاب البدع، بل يعد من أصحاب السنة على هذا القدر من التعليق في شأنه. ويكون خطأه في الجملة من باب الخطأ الذي اجتهد فيه. والنبي ﷺ قال: «وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» (٢) وهذا يعني: أن ثمة أقوالاً هي في الأصل من أقوال أهل البدع والضلال عرضت لبعض الفضلاء من الفقهاء أو من أصحاب السنة والجماعة، فهذه الأقوال وإن سماها السلف بأسماء (٣) إلا أن من عرضت له لا يجوز أن يسمى بأسماء هذه الكلمات.

فلا يلزم من تسمية السلف لهذه أن من عرضت له هذه الكلمات يسمى بهذه الأسماء من جهة الخروج من السنة، فضلاً عن جهة التكفير، فضلاً عما هو فوق ذلك كالمآلات في الآخرة.

ومن مثال ذلك: أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ لما سُئِلَ عن حديث الصورة، ومن

(١) كالنووي وابن حجر وأمثالهما رحمهما الله تعالى، وقد مرت الإشارة لذلك.

(٢) البخاري (٤٣٨) ومسلم (١٣١/٥).

(٣) أي: ألقاب البدع كالجهمية والرافضة والخوارج ونحوها.

يقول فيه: «إن الله خلق آدم على صورته»^(١). أي: على صورة آدم - أو على صورة

(١) مسلم (٢٦١٢)، والمسند (٢٥١/٢) ويسمى حديث الصورة، وروى بلفظ: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن». أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٢٨) (٥١٧) والطبراني في الكبير (٣٢٩/ ١٢) (١٣٥٨٠)، والسنة لعبد الله بن أحمد ٤٧٢/ ٢ (١٩٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٨٥) (٤١)، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٥٢) (٧٢٥)، وابن بطة في الإبانة (المختار ٢٤٤) (١٨٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٦٤) (٦٤٠)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٤٩) (٣٢٤٣)، وأبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٩٦) (٨١). وصححه الإمام أحمد وإسحاق وابن تيمية والذهبي وابن حجر وابن باز، وضعفه الألباني. وقد نص الإمام أحمد على أن إعادة الضمير فيه إلى آدم أو إلى المضروب هو قول الجهمية. فقال: «من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟!»، وقال عبد الله بن الإمام أحمد: «قال رجل لأبي: إن فلانًا يقول في حديث رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»، فقال: على صورة الرجل! قال أبي: كذب هذا، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا؟». إبطال التأويلات للقاضي أبي يعلى (١/ ٩٠: ٨٨). وقد عقد الآجري بابًا بعنوان: «الإيمان بأن الله تعالى خلق آدم على صورته بلا كيف»، ثم ساق هذا الحديث بطرق متعددة، ثم قال: «هذه من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولا يُقال فيها: كيف؟ ولم؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر». الشريعة (٣/ ١١٥٣). ومن نص على ذلك أيضًا ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٢٠٦)، والقاضي أبي يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٨١)، وأبو إسماعيل الهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (٦٣). فقد عقد بابًا بعنوان: «إثبات الصورة له تعالى»، وإسماعيل التيمي الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١/ ٣١٠ - ٣١١). وسئل ابن باز رحمه الله تعالى عن تصحيح ابن حجر له فقال: «هذا هو الصواب، الحديث صحيح مثل ما قال إسحاق وأحمد وغيرهم. معناه: سميع بصير، وليس معناه: =

المضروب أو نحو ذلك؛ قال: «هذا قول الجهمية». وكان أحمد وأمثاله يذهبون إلى أن المراد: على صورة الرحمن.

ومع هذا فإن إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ عرض له هذا القول، ولم يكن تجهماً من ابن خزيمة، ولا يجوز أن يسمى جهماً، ولا أن يقال: إن حكمه حكم الجهمية، ولا أن يقال: إنه يذم بما ذم السلف به الجهمية إلى أمثال ذلك، وإن كان قول ابن خزيمة ليس من أقوال أهل السنة، وإنما دخل عليه من أقوال أهل البدع، فإن أهل السنة قولهم في هذا معروف محفوظ، هذه جهة.

مثل سمع ابن آدم وبصره، يقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يعني أن الله خلق آدم على صورته سمياً بصيراً متكلاً، له يد، وله قدم، وليس مثل ابن آدم، تعالى الله عن الشبيه والنظير». أهـ. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ١٢٧/٢٥ وقال العثيمين رحمه الله تعالى: «الهاء تعود على الله تعالى، أي: أن الله خلق آدم على صورته، كما جاء ذلك مفسراً في بعض الروايات «على صورة الرحمن»، ولا يلزم من هذا أن يكون ممثلاً لله تعالى لأن الله قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فنقول: إن الله خلق آدم على صورته دون ماثلة. وهذا ليس بغريب، فهؤلاء الزمرة الأولى من أهل الجنة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، بدون ماثلة، فإذا جاز هذا بين المخلوقين؛ فبين الخالق والمخلوق من باب أولى.

واعلم أن ما ورد في الكتاب والسنة في كتاب الله الواجب إجراؤه على ظاهره بدون تمثيل، ولا يحق لنا أن نتصرف فيه بتحريفٍ عن معناه، بل نقول بإثبات المعنى ونفي المماثلة، وبذلك نسلم من الشر ومن تحريف الكلم عن مواضعه». فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٢/٦). وللشيخ حمود بن عبد الله التويجري رسالة محررة في الموضوع بعنوان: «عقيدة أهل الإيثار في خلق آدم على صورة الرحمن».

الاشتراك في مقالة واحدة لا يستلزم الاشتراك في تفاصيلها :

الجهة الثانية: أن الاشتراك بين جملة من الأعيان في مقالة واحدة لا يلزم منه الاشتراك في تفاصيلها، وإنما الاشتراك في التفصيل يكون بين أصحاب الطائفة الواحدة، بمعنى: أنه إذا نفى إمام من أئمة المعتزلة الصفات، وجاء آخر من المعتزلة فنفاها، وجاء الثالث والرابع.. وهلم جرا، ففي الغالب أن من توارد على هذه الكلمة وهو منتسب إلى طائفة معينة كالمعتزلة يكون اشتراكهم في تقرير نفي الصفات مفصلاً، وإن كانوا قد يختلفون في التفصيل، لكنهم يحققون النفي - أي: يلتزمون النفي - بخلاف من عرض له قول كلي من أقوال أهل البدع، فإنه لا يلزم بالضرورة أنه يلتزمه بجميع تفاصيله.

إذاً النتيجة: أنه قد يشترك بعض الفقهاء من أصحاب السنة والجماعة الذين لم يحققوا مذهب السلف تحقيقاً تاماً، أو من يقاربهم، أو من يشاركهم حتى من المتقدمين في بعض الألفاظ المجملة، فيقولون قولاً قاله أرباب أهل البدع الذين أجمع السلف على ذمهم، لكن لا يلزم من الاشتراك في جملة قولية الاشتراك في تفاصيلها.

الاشتراك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني :

بل ثمة مقام آخر: أن الاشتراك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني لا مجماً ولا مفصلاً، ونضرب لذلك مثلاً: الجهمية كانوا يقولون: اللفظ بالقرآن مخلوق. ويريدون باللفظ القرآن نفسه، وقد قال بعض أئمة السلف في هذه المسألة: اللفظ بالقرآن مخلوق، كما قاله البخاري، ومن أنكر أن البخاري

قال هذا فقد أخطأ، لكنه كان يريد اللفظ الذي هو من أفعال العباد، فإن البخاري عني بتقرير مسألة خلق أفعال العباد.

وكذلك قال بعض أهل البدع من القدرية: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، وأرادوا به نفي الخلق لأفعال العباد، فقال بعض أئمة السنة كمحمد بن يحيى الذهلي - وهو شيخ البخاري -: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، أراد بقوله هذا أن القرآن نفسه - أي: كلام الله - ليس مخلوقاً.

إذاً: ثمة اشتراك في الحروف بين بعض أئمة السنة وبين بعض أرباب البدع الذين قصدوا بحروفهم هذه مقاصد بدعية تصل إلى حد الكفر، وهو التقرير لخلق القرآن مثلاً، وقد أجمع السلف على أن من قال: القرآن مخلوق؛ فإن قوله كفر. وليس المراد هنا أن نقول: إن الذهلي أو البخاري أصابا، بل كان الصواب - كما هو مذهب جمهور السلف - التمسك بهذه الجملة كما هو تقرير الإمام أحمد.

لكن الشاهد: أنه قد يقع في كلام بعض أئمة السنة مشاركة لبعض المجمل من كلام أهل البدع - بل أهل البدع المغلظة كالجهمية - ومع ذلك لا يجوز أن ينسب هذا القائل إلى مقاصد ومعاني أهل البدع، فضلاً عن أن ينسب إلى طريقته، وإنما يقال: هذا غلط في الألفاظ. هذه جهة.

الاشتراك في الحروف والمعاني الكلية:

الجهة الثانية: أنه قد يقع بين بعض أصحاب السنة والجماعة - الذين هم في جمهور أمرهم على السنة - وبين مقالات أهل البدع اشتراك في الحروف واشتراك في المعنى، ولكنه من جهة الاشتراك في المعنى اشتراك كلي، فلا يلزم أن يطرد

فيهم سائر التفصيل في هذا المعنى، فضلاً عن غيره؛ فإن ابن خزيمة لما قال ما قال في حديث الصورة لم يكن مبنى - وإن كان أراد اللفظ وأراد المعنى - المعنى عنده من جنس مبنى المعنى في تفسير الجهمية، فإن الجهمية إنما قالوا: على صورته - أي: على صورة آدم، أو لم يفسروه بما فسرهم السلف به - لأن هذا مبني عندهم على نفي الصفات عموماً، والصورة منها. بخلاف ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنه من أئمة التحقيق في إثبات الصفات، ولكنه في هذا الحرف من الحديث خرج على هذا التوجيه، وهذا قد عُلِمَ التعقب عليه عند السلف رحمهم الله.

إذاً: هذه مسألة ينبغي أن تضبط على هذا الوجه: وهي أن من شارك أهل البدع في بعض الحروف لا يلزم أن يكون مشاركاً في المعاني، ومن شارك في مجمل المعنى لا يلزم أن يكون مشاركاً في مفصله، وحتى من شارك في مجمله ومفصله فلا يلزم من ذلك - أي: في مفصل المعنى الواحد - أن يكون قد خرج بهذا التفصيل عن السنة والجماعة.

تأكيد على قاعدة: من قال قولاً بدعةً لا يلزم أن يكون مبتدعاً:

وهذه قاعدة قطعية منضبطة، بل قال شيخ الإسلام في المجلد التاسع عشر: «وكثير من مجتهدى السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة، لكن لم تقم عندهم الحجة الرسالية في مفارقة ما قالوه أو فعلوه للسنة والهدي».

وهذا المعنى لا بد من ضبطه في مسألة التبديع وما يتعلق بها، فإن كثيراً من الأعيان من أصحاب السنة والجماعة عرضت لهم أقوال بدعية - ولا سيما بعد طبقة الأئمة من القرون الثلاثة الفاضلة - ومقالات شاركوا فيها بعض أهل

البدع، ودخلت عليهم من أصحابها، فهؤلاء لا يضافون إلى أهل البدع، وإنما يضافون إلى أهل السنة والجماعة.

فلا بد أن تحقق هذه القاعدة، وهي: أن الاشتراك في الحرف لا يستلزم الاشتراك في المعنى، والاشتراك في مجمل المعنى لا يستلزم الاشتراك في مفصله، وقد تم توضيح هذا في شرح كتاب الإيمان لأبي عبيد، فقد بينا أن القول بأن الإيمان قول واعتقاد اشترك فيه كثير من مرجئة الفقهاء والمرجئة المتكلمون، أي: حصل اشتراك بين بينهم في مجمل المعنى ومجمل الحرف، لكن لا يلزم منه أن مفصل المعاني كذلك.

كذلك بعض رجال الرواية والإسناد قالوا: إن أفعال العباد ليست مخلوقة. حتى قال الإمام أحمد: «لو تركنا الرواية عن القدرية لتركناها عن أكثر أهل البصرة» وهذا الأصل قد قرره أئمة البدع من المعتزلة. فاشتراك المعتزلة وهؤلاء الرواة في أن أفعال العباد ليست مخلوقة، نقول فيه: هو اشتراك في مجمل المعنى وليس في مفصله؛ ولهذا قول المعتزلة في هذه المسألة أغلظ وأشنع من قول هؤلاء.. وهكذا.

وقوع بعض الأئمة في القول بأقوال مبتدعة:

قال شيخ الإسلام: «ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها». أي في مثل هذا النوع من البدع التي تعرض عروضاً لمن هو في جمهور أصوله على السنة والجماعة. وهذا حرف لا بد من الوقوف معه، ومن يلتزم من المعاصرين التبديع لبعض الأعيان المعروفين بالسنة والجماعة لخطأ عرض له،

بل لبدعة عرضت له من البدع القولية التي لا تعد من كليات الأصول، وفي أنه لم يلتزم أصلاً مطرداً يعارض السلف في حرفه ومعناه، من التزم تبديع أمثال هؤلاء فإنه يلزمه أن يطرد هذه القاعدة؛ لأن القاعدة لا تفرق بين المعاصر وبين السالف.

فمن قال قولاً باجتهاد ولو كان خطأ، ولم يوال ويعاد عليه، وهو في جمهور حاله على السنة فهذا من أهل السنة، بخلاف من والى موافقه وعادى من خالفه فهذا هو طريق أهل البدع، فإن من أخص الأصول: الاجتماع على السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام: «من كفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهو من أهل التفرق والاختلافات». أي: من يلتزم التحيز. وهذه القاعدة تطرد، وهي: أن كل من التزم التحيز بقول من الأقوال، مع معاداة من خالفه فيه، فإنه ينظر في هذا القول، وهو أحد أنواع ثلاثة:

النوع الأول: إما أن يكون من صريح السنن وبينات الهدي وإجماعات السلف القطعية كإجماعهم على الصفات، وعلى أن القرآن ليس مخلوقاً، وعلى أن الإيمان قول وعمل، فالتحيز لمثل هذه الأقوال والانتصاب لها طريق صحيح.

النوع الثاني: أن تكون مقالة هذا المعين الذي انتصب لها وتحيز بها مقالة بدعية، يعلم خطأها ومخالفتها لقول السلف، فهذا لا شك أنه يكون ببدعته وتحيزه وامتناعه بها صاحب بدعة.

وقد يقول قائل: لماذا جمعت بين كون مقالته بدعة وانتصابه لها؟ أي: لم لم يكن بواحد منهما؟ قيل: هذا من فقه الشريعة! أليست ترى أن الصحابة لم يكن من ظاهر مذهبهم التكفير لتارك الزكاة، والنبى ﷺ قال: «ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١) والأئمة كمالك وأمثاله ما كانوا يكفرون تارك الزكاة، وهو الذي عليه الجمهور من السلف.

لكن لما امتنع من امتنع ممن ترك الزكاة، ونصبوا امتناعهم، وعادوا به، وقتلوا عليه كفروا. فإن قيل: بم كفروا؟ هل بالامتناع أم بالترك؟ قيل: بهما، فهم إنما كفروا باجتماع الموجب الذي اقتضى التكفير^(٢).

النوع الثالث: ولا بد من ضبطه وتفطّن طالب العلم له؛ وهو من يقول قولاً هو اجتهاد. أي: ليس على قوله إجماع للسلف، وليس هو على خلافه وضده، بل هو اجتهاد. واستطاع أن يستدل لهذا الاجتهاد بظاهر من الأدلة الشرعية، فإن الانتصاب لقول من أقوال أهل الاجتهاد في المسائل العلمية أو المسائل العملية، تحيزاً وموالاتاً ومعاداةً يعتبر من طرق أهل البدع.

وهذا يقع أحياناً من كثير من التجمعات العلمية أو الحركية: حيث إنهم قد ينتصبون لقول من أقوال أهل الاجتهاد، أو هو قول اجتهادي، يوالون ويعادون عليه، وهذا لا شك أنه خطأ.

وإذا قيل: متى يعرف أن هذا القول من مقامات أهل الاجتهاد؟ قيل: إذا لم

(١) أبو داود (١٦٥٨) وصححه الألباني وابن باز.

(٢) وهو اختيار الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ.

ينضبط فيه إجماع، فهو مما يسوغ فيه الاجتهاد في الجملة، وإن كان قد يقال: إن بعض المجتهدين قد أخطئوا، فهذا مقام آخر.

إذاً المتحصل من هذا: أن الانتصاب والتحيز هو في كثير من الموارد أشد ضللاً وخروجاً عن مذهب السلف من بعض الحروف القولية أو الفعلية؛ ولهذا من يعظم شأن الحروف ولا يعظم التحيز الذي يصاحب قدرأ من الافتراق عن دائرة أهل السنة الشاملة العامة نقول له: هذا التحيز هو أيضاً من البدع؛ لأنه لا موجب له؛ فالذي ينتسب إلى أصول أهل السنة المحققة المجمع عليها لا يحتاج إلى تحيز خاص يختص به هو وجماعته؛ لأن غيره يشاركه في الإجماعات المنضبطة.

وهذا التحيز لا يقع إلا عند من يختص بمقام من الاجتهاد المختص به، وهذا الاجتهاد لا بأس به، لكن التحيز الذي يصاحبه موالاته ومعاداة وتصنيف للآخر وما إلى ذلك من الملاحقة، فهذا ليس من طرق أهل السنة، بل هو من طرق أهل البدع، وهو مخالف لقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فإن الحبل الذي أمر بالاعتصام به هو المحكم من الشريعة، وهو الأصول المجمع عليها علمية أو عملية.

الغلو في الرد على الفرق المخالفة لأهل السنة:

قد بدأ أكثر من بعض الشباب - وأحياناً من طلبة العلم - أنه إذا اشتد في الرد على طائفة بدعية قال: وهذه الطائفة أكفر من اليهود والنصارى.. ويحتجون بأن شيخ الإسلام كان يذكر مثل ذلك - وهذه فوضى في الغالب؛ فإن ابن تيمية قد استعمل هذا في كلمات معينة، فمثلاً: لما تكلم عن وحدة الوجود قال: «إن قول

أهل وحدة الوجود أن الوجود واحد، وليس ثمة امتياز بين وجود العبد وبين وجود الرب.. قال: إن هذا القول الكفري أكفر من قول اليهود والنصارى» وهذه قضية شرعية واضحة لا جدل حولها.

أما جمع طوائف بغلاتها ومتوسطيها ومقتصديها والقول فيهم: الطائفة الفلانية أكفر من اليهود والنصارى على الإطلاق. فهذه الإطلاقات ما كان السلف ينطقون بها، فاليهود والنصارى ماذا بقي لهم من الخير وهم يقولون كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] و: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وبعد ذلك تأتي إلى طائفة من أهل البدع لا تستطيع تحقيق إجماع السلف على تكفيرها وتقول: هم أكفر من اليهود والنصارى؟! هذا في الغالب فيه قدر من الزيادة.

والصواب: هو أن توزن الأمور بميزان الحق، فالطائفة تبعد ويبين خروجها عن السنة وتدم بما ذمها به السلف، أما الحروف المفردة فلا تلزم. وأنبه إلى أنه قد يوجد عند بعض المتأخرين من فضلاء أهل السنة القاصدين إلى تعظيم السنة والجماعة بعض الزيادة، فبعض الحنابلة خاصة. وهذا ليس عيباً لهم، فقد قلت سابقاً: إن الحنابلة أشرف الطوائف الأربع في السلامة من البدع، لكن لما صاحب بعض أئمتهم من قصد التحقيق حصل عندهم قدر من الزيادة. من الفقهاء المنتسبين والمعظمين للسنة الداميين لأهل البدع، يقول كلمة، مثلاً: وكان الأئمة يذهبون إلى أن فلان أكفر من اليهود والنصارى، أو هؤلاء أكفر من اليهود والنصارى وفرعون.. فهذه الكلمات إذا اجتهد بها قائل

فقالها فهذا قول يخصه هو، ولا يلزم أن يكون قاعدة ومنهجاً للسلف؛ لأن منهج السلف: هو النقل الإجماعي إما استفاضةً وإما تصريحاً بالإجماع. فإطلاق هذه الكلمة في الغالب لا يكون صحيحاً، لا نقول: دائماً، وإنما نقول: في الغالب»^(١).
وبالله التوفيق.



(١) شرح حديث الافتراق للعلامة الشيخ يوسف الغفيص، باختصار واقتصار وزيادات. وأصله شرح لفتوى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في حديث الافتراق وهي ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٢-٣٤٥).

ذم البدع وسوء منقلب أصحابها

البدعة والابتداع والإحداث: هو تأسيس عبادة لم تُشرع، أو تغيير في عبادة مشروعة على وجه التعبد.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «لا خفاء أن البدع من حيث تصورهما يعلم العاقل ذمها، لأن أتباعها خروج عن الصراط المستقيم ورمي في عمالة، وبيان ذلك من جهة النظر، والنقل الشرعي العام. أما النظر فمن وجوه:

أحدها: أنه قد علم بالتجارب والخبرة أن العقول غير مستقلة بمصالحها، استجلاباً لها، أو مفاسدها، استدفاعاً لها. لأنها إما دنيوية أو أخروية.

فأما الدنيوية فلا يستقل باستدراكها على التفصيل البتة لا في ابتداء وضعها أوّلاً، ولا في استدراك ما عسى أن يعرض في طريقها، إما في السوابق، وإما في اللواحق، لأن وضعها أوّلاً لم يكن إلا بتعليم الله تعالى.

فلولا أن من الله على الخلق ببعثه الأنبياء لم تستقم لهم حياة، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم، وهذا معلوم بالنظر في أخبار الأولين والآخرين.

وأما المصالح الأخروية، فأبعد عن مصالح المعقول من جهة وضع أسبابها، وهي العبادات مثلاً. فإن العقل لا يشعر بها على الجملة، فضلاً عن العلم بها على التفصيل.

فعلى الجملة، العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي. فالابتداع مضاد لهذا الأصل، لأنه ليس له مستند شرعي بالفرض، فلا يبقى إلا ما ادّعوه

من العقل.

فالمبتدع ليس على ثقة من بدعته أن ينال بسبب العمل بها ما رام تحصيله من جهتها، فصارت كالعبث.

الثاني: أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان، لأن الله تعالى قال فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها الأعين ووجلّت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي..» الحديث (١).

فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتامها من كل وجه، لم يبتدع ولا استدرك عليها. وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً».

(١) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤) وهو صحيح.

الثالث: أن المبتدع معاند للشرع ومشاقق له، لأن الشارع قد عيّن لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غير ذلك، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين. فالمبتدع رادُّ لهذا كله، فإنه يزعم أنَّ ثَمَّ طرقاً أخرى، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عيَّنه بمتعين، كأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم. بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه علم ما لم يعلمه الشارع.

وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع فهو كفر بالشرعية والشارع، وإن كان غير مقصود، فهو ضلال مبين.

الرابع: أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع، لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المنفرد بذلك، لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون. وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس. ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام. هذا الذي ابتدع في دين الله قد صير نفسه نظيراً ومضاهياً لله حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف باباً؛ ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع.

الخامس: أنه اتباع للهوى، لأن العقل إذا لك يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة؛ وأنت تعلم ما في اتباع الهوى وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيْفَةً فِى الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ ۗ اِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌۢ بِمَا نَسُوْا يَوْمَ

الْحَسَابِ ﴿ص: ٢٦﴾.

فحصّر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجرداً إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك. وقال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] فجعل الأمر محصوراً بين أمرين، اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وهي مثل ما قبلها. وتأملوا هذه الآية فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه، فلا أحد أضل منه. وهذا شأن المبتدع، فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن. وما بينته الشريعة وبينته الآية أن اتباع الهوى على ضربين:

أحدهما: أن يكون تابعاً للأمر والنهي فليس بمذموم ولا صاحبه بضال.

والآخر: أن يكون هواه هو المقدم بالقصد الأول، والمبتدع قدم هوى نفسه على هدى الله، فكان أضل الناس وهو يظن أنه على هدى.

وقد انجرّ هنا معنى يتأكد التنبيه عليه، وهو أن الآية المذكورة عينت للاتباع في الأحكام الشرعية طريقين:

أحدهما: الشريعة، ولا مزية في أنها علم وحق وهدى؛ والآخر: الهوى، وهو المذموم، لأنه لم يذكر في القرآن إلا في سياق الذم، ولم يجعل ثمّ طريقاً ثالثاً. ومن تتبع الآيات، ألفى ذلك كذلك.

الأدلة من النقل على ذم البدع:

وهي من وجوه:

أحدها: ما جاء في القرآن الكريم مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله في الجملة. فمن ذلك:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]
فالصراط المستقيم: هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة. والسبيل: هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم وهم أهل البدع. وليس المراد سبل المعاصي، لأن المعاصي من حيث هي معاص لم يضعها أحد طريقاً تُسلك دائماً على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات.

ويدل على هذا حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً طويلاً، وخط عن يمينه وعن يساره فقال: «هذا سبيل الله» ثم خط لنا خطوطاً عن يمينه ويساره وقال: «هذه سُبُلٌ، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ - يعني الخطوط - ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١).

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ٩٥/١٠ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود =

قال بكر بن العلاء: أحسبه أراد شيطاناً من الإنس وهي البدع والله أعلم.
وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال: البدع والشبهات.

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائز عن الحق؛ أي عادل عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضله، وكفى بالجائر أن يحذر منه، فالمساق يدل على التحذير والنهي.

وعن التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ يعني إلى النار، وذلك الملل والبدع. وعن مجاهد ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع.

٣ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عطية: هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام. هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد. وقال القاضي إسماعيل: ظاهر القرآن يدل على أن

عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسند الدارمي ٢٨٥/١ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و ١٧): حسن صحيح.

كل من ابتدع في الدين بدعة من الخوارج وغيرهم فهو داخل في هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعاً.

الوجه الثاني من النقل: ما جاء في الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ، وهي كثيرة تكاد تفوت الحصر، إلا أنا نذكر منها ما تيسر مما يدل على الباقي، فمن ذلك:

١ - ما في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(١) وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(٢) وهذا الحديث عدّة العلماء ثلث الإسلام، لأنه جمع وجوه المخالفة لأمره عليه الصلاة والسلام، ويستوي في ذلك ما كان بدعة أو معصية.

٢ - وخرّج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٣)، وفي رواية قال كان رسول الله ﷺ يخطب الناس، يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضِلِّ الله فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله، وخير الهدي

(١) البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٢) مسلم (١٧١٨).

(٣) مسلم (٨٦٧).

هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة»^(١).

٣- وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

٤- وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما عن العرباض بن سارية وفيه: «فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعصّوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٣).

٥- وفي الصحيح عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله! هل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم، قوم يستنون بغير ستي، ويهتدون بغير هديي» قال فقلت: هل بعد ذلك الشر من شر؟ قال: «نعم، دعاة على نار جهنم من أجابهم قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «نعم، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها،

(١) مسلم (٨٦٧).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(٣) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤) وهو صحيح.

ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

٦- ومما جاء في هذا الباب أيضاً ما خرج ابن وضاح ونحوه لابن وهب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي دجالون كذابون يأتونكم يبدع من الحديث لم تسمعه أنتم ولا آباؤكم، فإياكم إياهم لا يفتنونكم»^(٢).

الوجه الثالث من النقل: ما جاء عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذم البدع وأهلها وهو كثير، فمن ذلك:

١- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»^(٣).

٢- عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال يوماً: «إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيه القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمُتَّبِعِيَّ حتى أبتدع لهم غيره»^(٤)، وإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة. وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة

(١) البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (٧) بلفظ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، ولا يضلونكم ولا يفتنونكم».

(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة (١٠٤) وأبو خيثمة في كتاب (العلم) بإسناد صححه الألباني.

(٤) وقد ابتليت الأمة في زمننا بمثل هؤلاء، فقد كثروا لا كثرهم الله.

الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق».

قال الراوي: قلت لمعاذ: وما يدريني يرحمك الله إن الحكيم قد يقول كلمة ضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: «بلى! اجتنب من كلام الحكيم غير المشتهرات التي يُقال فيها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه»^(١)، فإنه لعله أن يُراجع، وتلقَّ الحقَّ إذا سمعته فإن على الحق نوراً»^(٢).

ومما جاء عمن بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

١- عن أبي إدريس الخولاني أنه قال: «لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها، أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها»^(٣).

٢- وعن الفضيل بن عياض: «اتَّبِعْ طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»^(٤).

٣- وعن ابن المبارك قال: «اعلم أي أخي! إن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور البدع. وإلى الله نشكو عظيم ما حل بهذه الأمة

(١) وهذا إنصاف ونصح عزيز جدًّا، ولا عجب فهو من مدرسة رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته.

(٢) أبو داود (٤٦١١).

(٣) فإنا البدعة أشد لأنها تأكل الدين.

(٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

من ذهاب العلماء وأهل السنة، وظهور البدع»^(١).

توقير المبتدع هدم للإسلام:

الماشي إلى المبتدع الموقر له معين على هدم الإسلام، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٢). والتوقير من الإيواء، ووجه ذلك ظاهر لأن المشي إليه والتوقير له تعظيم له لأجل بدعته، والشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا، كالضرب والقتل، فصار توقيره صدوداً عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالاً على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به والعمل بما ينافيه.

وأيضاً فإن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

إحداهما: التفات الجهال والعامّة إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وُقِّر من أجل بدعته صار ذلك كالحادي المحرّض له على إنشاء الابتداع في كل شيء.

فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه، وعلى ذلك دلّ النقل

(١) الاعتصام للشاطبي (١/١٠٣ - ١٠٩) مختصراً.

(٢) البخاري (١٨٧٠، ٣١٧٩) ومسلم (١٣٧٠).

عن السلف زيادة إلى صحة الاعتبار، لأن الباطل إذا عمل به لزم ترك العمل بالحق كما في العكس، لأن المحل الواحد لا يشتغل إلا بأحد الضدين^(١).



(١) الاعتصام للشاطبي ١٥٢/١

شؤم البدعة وشر أهلها

شؤمها وبيل وُسْمُها تُمِيت، وشرها مستطير، وإن لم يمن الله على صاحبها بتوبة فيخشى عليه سوء عاقبتها ووبال تبعثها وحريق شررها، فمن ذلك:

١ - أن يُوكل إلى نفسه، فإن الله تعالى ابتعث إلينا محمداً ﷺ رحمة للعالمين وهداية للسالكين، وقد كنا قبل طلوع ذلك النور الأعظم لا نهتدي سبيلاً، ولا نعرف من مصالحنا الدنيوية إلا قليلاً، ولا من مصالحنا الأخروية قليلاً ولا كثيراً إلا بقايا مما اندرس من الملة الإبراهيمية الحنيفية وخبايا مما انطم تحت الجهل من البقية الفطرية، حتى بعث الله نبيه ﷺ لإضاءة ما بين الخافقين هدى ورشاداً، فأذن الله تعالى بزوال الجهل والريب والالتباس، وارتفاع الخلاف الواقع بين الناس.

فإذا ترك المبتدع هذه الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة، وأخذ في استصلاح نفسه أو دنياه بنفسه بما لم يجعل الشرع عليه دليلاً، فكيف له بالعصمة والدخول تحت هذه الرحمة؟ وقد حل يده من حبل العصمة إلى تدبير نفسه، فهو حقيق بالبعد عن الرحمة. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] بعد قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فأشعر أن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله حقاً، وأن ما سوى ذلك تفرقة، لقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والفرقة من أحسن أوصاف المبتدعة، لأنه خرج عن حكم الله وباين جماعة أهل الإسلام.

٢- أن صاحب البدعة متوعد باللعنة - عياداً بالله تعالى - لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(١) وعد من الإحداث الاستئناس بسنة سوء لم تكن.

٣- أن صاحبها يزداد من الله بعداً. فعن الحسن أنه قال: «صاحب البدعة ما يزداد الله اجتهاداً صياماً وصلاة؛ إلا ازداد من الله بعداً»، وعن أيوب السخيتاني قال: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً؛ إلا ازداد من الله بعداً».

ويصحح هذا النقل ما أشار إليه الحديث الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام في الخوارج: «يخرج من ضئضيء هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم - إلى أن قال - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٢) فبين أولاً اجتهادهم ثم بين آخراً بُعدهم من الله تعالى.

٤- أنها مظنة إلقاء العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، وهذا لأنها تقتضي التفرق شيعاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقد بين عليه الصلاة والسلام أن فساد ذات البين هي الحالقة، وأنها تحلق الدين، هذه الشواهد تدل على وقوع الافتراق والعداوة عند وقوع الابتداع.

(١) البخاري (١٨٧٠، ٣١٧٩) ومسلم (١٣٧٠).

(٢) مسلم (١٠٦٤) بنحوه، والمقصود أنه يخرج على شاكلته وشبهه ونسله الفكري أولئك القوم المذكورون، عياداً بالله من حالهم وضلالهم.

وأول شاهد عليه في الواقع قصة الخوارج إذ عادوا أهل الإسلام حتى صاروا يقتلونهم ويدعون الكفار، ثم يليهم كل من كان له صولة منهم بقرب الملوك فإنهم تناولوا أهل السنة بكل نكال وعذاب وقتل. ثم يليهم كل من ابتدع بدعة فإن من شأنهم أن يشبطوا الناس عن اتباع الشريعة ويذمونهم^(١).

وأيضاً فإن أهل السنة مأمورون بعداوة أهل البدع، وقد حذر العلماء من مصاحبتهم ومجالستهم، وذلك مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، لكن الدرك فيها على من تسبب في الخروج عن الجماعة مما أحدثه من اتباع غير سبيل المؤمنين لا على التعادي مطلقاً، كيف ونحن مأمورون بمعاداتهم وهم مأمورون بموالاةتنا والرجوع إلى الجماعة؟

٥ - أنه يخشى على صاحبها الحرمان من شفاعة محمد ﷺ لقوله ﷺ: «أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنه سيؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال - إلى قوله - فيقال لم يزالوا مرتدين على أعقابهم..» الحديث^(٢). ففيه أنه لم يذكر لهم شفاعة رسول الله ﷺ، ويظهر من أول الحديث أن ذلك الارتداد لم يكن كفر لقوله: «وإنه سيؤتى برجال من أمتي» ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لما نسبوا إلى أمتهم، ولأنه عليه الصلاة والسلام أتى بالآية وفيها: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولو علم النبي ﷺ أنهم خارجون عن

(١) وذكر الشاطبي رحمه الله تعالى في الاعتصام أمثلة شنيعة من ذمهم لأعيان الصحابة والسلف (١/ ١٥٨) رضي الله عن السلف وقاتل شائئهم، أنى يؤفكون؟!
(٢) رواه البخاري (٦٥٢٦، ٣٣٤٩، ٣٤٤٧) ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الإسلام جملة لما ذكرها، لأن من مات على الكفر لا غفران له البتة، وإنما يرجى الغفران لمن لم يخرج عمله عن الإسلام لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٦. أن على مبتدع البدعة إثم من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] ولما في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها»^(١).

وقد ورد أن صاحبها ليست له من توبة^(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة»^(٣). ويدل على ذلك أيضاً حديث الفرق إذ قال فيه: «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلبُ بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»^(٤)، وهذا النفي يقتضي

(١) مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي لا يوفق لها في الغالب والله أعلم لرغبته عن السنة.

(٣) رواه أبو الشيخ في تاريخ أصبهان، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وغيرهم. انظر السلسلة الصحيحة (١٦٢٠) وقد ورد بلفظ: «حجب» و«احتجز» و«احتجب» وصححه السقاف.

(٤) أبو داود (٤٥٩٧) وأحمد (١٠٢/٤) وهو صحيح. ومعنى يتجارى الكلب: التجارى، تفاعل من الجري، وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة، والتداعي فيها، تشبيهاً بجري الفرس. والكلبُ: داء معروف يعرض للكلب، إذا عض حيواناً عرض له أعراض رديئة =

العموم بإطلاق، ولكنه قد يحمل على العموم العادي، إذ لا يبعد أن يتوب عما رأى ويرجع إلى الحق، كما نقل عن عبد الله بن الحسن العنبري، وما نقلوه في مناظرة ابن عباس الحرورية الخارجين على علي رضي الله عنه، وفي مناظرة عمر بن عبد العزيز لبعضهم. ولكن الغالب في الواقع الإصرار.

ومن هنا قلنا: يبعد أن يتوب بعضهم لأن الحديث يقتضي العموم بظاهره، وسبب بعده عن التوبة: أن الدخول تحت تكاليف الشريعة صعب على النفس لأنه أمر مخالف للهوى، وصاد عن سبيل الشهوات، فيثقل عليها جداً لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه، وكل بدعة فللهوى فيها مدخل، لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع.

مع ضميمة أخرى: وهي أن المبتدع لا بد له من تعلق بشبهة دليل ينسبها إلى الشارع، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع، فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك وداعى الهوى مستمسك بحسن ما يتمسك به؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة.

٧ - أن صاحبها معرض لأن يلقى عليه الذل في الدنيا والغضب من الله تعالى. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فهو عمومٌ فيهم وفيمن أشبههم، من حيث كانت البدع كلها

فاسدة قاتلة، فإذا تجارى بالإنسان وتمادى هلك. وتسميه العامة: غلاث ومغلوث، والتشبيه ظاهر.

افتراء على الله حسبما أخبر في كتابه في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فإذا كل من ابتدع في دين الله فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي
الرأي في عزه وجبريته فهم في أنفسهم خَنَعَةٌ أَذِلَّاءٌ، وأيضاً فإن الذلة الحاضرة
بين أيدينا موجودة في غالب الأحوال.

ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين، وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا
بالسلطين ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك استخفى ببدعته وهرب
بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التَّقِيَّةِ.

٨ - التعرّض للبعد عن حوض رسول الله ﷺ لحديث أسماء عن النبي ﷺ
أنه قال: «أنا على حوضي انتظر من يرد عليّ، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول:
أمتي، فيقال: إنك لا تدري، مشوا القَهْقَرَى» (١).

٩ - ومن شؤمها أنه يُخَافُ على صاحبها سوء الخاتمة - والعياذ بالله - لأن
صاحبها مرتكب إثماً، وعاصٍ لله تعالى حتماً، ومن مات مصراً على المعصية
فيخاف عليه.

فالمبتدع مع كونه مصراً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه معارض
للشريعة بعقله، غير مسلّم لها في تحصيل أمره، معتقداً في المعصية أنها طاعة،
حيث حسن ما قبحه الشارع، وفي الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره،
فهو قد قبح ما حسنه الشارع، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة
إلا من رحم الله.

(١) البخاري (٧٠٤٨) ومسلم (٢٢٩٣).

١٠ - يخشى على المبتدع من اسوداد وجهه في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] (١).

١١ - أن رسول الله ﷺ بريء من بدعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقد كان الصحابة يتبرؤون من المبتدعة، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ: إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بَرَاءٌ مِنِّي (٢). والآثار في ذلك كثيرة. ويعضدها ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخلل» (٣) ووجه ذلك ظاهر.

١٢ - المبتدع يُخشى عليه من الفتنة في دينه. فعن سفيان بن عيينة أنه قال: سألت مالكا عما عمن أحرم من المدينة وراء الميقات؟ فقال: هذا مخالف لله ورسوله، أخشى عليه الفتنة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٦٣] وقد أمر النبي ﷺ أَنْ يُهْلَ مِنَ الْمَوَاقِيتِ (٤).



(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ: «تَبْيَضُّ وَجُوهُ أَهْلِ السَّنةِ، وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ». تفسير البغوي (٢/ ٨٧).

(٢) مسلم (٨).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨).

(٤) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ١٦٧-١٧٤) باختصار وانتخاب وتصرف.

الفرق بين البدعة والمعصية والخطأ الفقهي

البدعة مضاهاة للشرع وصاحبها مؤاخذ بتفريطه، والخطأ الفقهي عفوٌ إذ ليس فيه مضاهاة للشرع، وصاحبه غير مؤاخذ إن كان من أهل الاجتهاد ولم يفرط، وأما معصية الشهوة المحضة فليس فيها مضاهاة للشرع، ولكن صاحبها مؤاخذ من جهة تقحّم العصيان وركوب المخالفة. و«البدع ضلالة، والمبتدع ضال ومضل، بخلاف سائر المعاصي، فإنها لم توصف في الغالب بوصف الضلالة إلا أن تكون بدعة أو شبه البدعة. وكذلك الخطأ الواقع في المشروعات - وهو المعفو - لا يسمى ضلالاً، ولا يطلق على المخطئ اسم ضال، كما لا يطلق على المعتمد لسائر المعاصي.

وذلك أن الضلال والضلالة ضد الهدى والهدى، فصاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه فحاد بسببه عن الطريق المستقيم، فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجادة.

فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضلّ في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله. وهذا هو الفرق بين المبتدع وغيره، لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع، فإذا انضم إلى ذلك الجهل بأصول الشريعة وعدم الاضطلاع بمقاصدها، كان الأمر أشد وأقرب إلى التحريف والخروج عن مقاصد الشرع.

والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن ينسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي فينزله على ما وافق عقله وشهوته، بخلاف غير المبتدع فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه؛ وأخر هواه فجعله بالتبع.

وفصل القضية بينهما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فلا يصح أن يسمى من هذه حاله مبتدعاً ولا ضالاً، وإن حصل في الخلاف أو خفي عليه.

فأما أنه غير مبتدع فلا أنه اتبع الأدلة، مؤخراً هواه، ومقدماتاً لأمر الله. وأما كونه غير ضال فلا أنه على الجادة سلك، وإليها لجأ، فإن خرج عنها يوماً فأخطأ فلا حرج عليه، بل يكون مأجوراً حسبما بيّنه الحديث الصحيح: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران»^(١) وإن خرج متعمداً فليس على أن يجعل خروجه طريقاً مسلوفاً له أو لغيره، وشرعاً يدان به»^(٢).

وأما معصية الشهوة فراكبتها عالمٌ بمخالفته مقرّبها، غير ناسبها إلى الشريعة، فلا يجعلها مضاهية للمشروع، لذلك كان هو أقرب في العادة رجوعاً للجادة من صاحب البدعة المصر عليها، فلا يزداد صاحب البدعة بها مسيراً إلا ازداد بها ولعاً وعن ربه بُعداً! لذا كانت أحب إلى إبليس من المعصية المحضّة، فإن في

(١) البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١٧٨/١).

معصية الشهوة تأنيب الضمير ووازع الإيمان، ولا يزال به ينغص عليه معصيته
ويقرب له توبته، وربما وُفِّق للتوبة والأوبة بعد الذنب والحوبة، والله المستعان،
ولا حول ولا قوة إلا بالله.



إثم المبتدعين ليس على رتبة واحدة

الله تعالى عدل، وشريعته عدل، وميزانه عدل، وحسابه عدل، فهو العدل ومنه العدل تبارك وتعالى، ولما شرع سبحانه الشرع، وأقام نظام الإسلام لوجهه والتعبد له؛ رتب على ذلك عطايا وعقوبات، وجعل طاعاته درجات، ومعاصيه دركات، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وأهل البدعة ليسوا سواء، لا في حال ابتداعهم ولا في نوازعهم ولا في علمهم ولا في تفريطهم أو اجتهدهم في رضا الله تعالى وبذل الوسع في اتباع السنة.

و«إذا ثبت أن المبتدع آثم فليس الإثم الواقع عليه على رتبة واحدة، بل هو على مراتب مختلفة، من جهة كون صاحبها مستتراً بها أو معلناً، ومن جهة الدعوة إليها وعدمها، ومن جهة كون البدعة حقيقية أو إضافية، ومن جهة كونها بينة أو مشككة، ومن جهة كونها كفراً أو غير كفر، ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه، إلى غير ذلك من الوجوه التي تتفاوت بها المؤاخذه.

١ - أما الاختلاف من جهة الأسرار والإعلان، فظاهر أن المسرّ بها ضرره مقصور عليه لا يتعداه إلى غيره، فعلى أي صورة فرضت البدعة من كونها كبيرة أو صغيرة أو مكروهة. هي باقية على أصل حكمها، فإذا أعلن بها - وإن لم يدعُ إليها - فإعلانه بها ذريعة إلى الاقتداء به.

٢ - وأما الاختلاف من جهة الدعوة إليها وعدمها فظاهر أيضاً، لأن غير الداعي وإن كان عرضة بالاقتداء فقد لا يقتدي به، ويختلف الناس في توفر دواعيهم على الاقتداء به، إذ قد يكون حامل الذكر، وقد يكون مشتهراً ولا

يقتدي به، لشهرة من هو أعظم عند الناس منزلة منه.

٣- وأما الاختلاف من جهة كون البدعة حقيقية أو إضافية، فإن الحقيقية أعظم وزراً، لأنها مخالفة محضة وخروج عن السنة ظاهراً.

٤- وأما الاختلاف من جهة كونها ظاهرة المأخذ أو مشكلة، فلأن الظاهر عند الإقدام عليها محض مخالفة، فإن كانت مشكلة فليست بمحض مخالفة، لإمكان ألا تكون بدعة، والإقدام على المحتمل أخفض رتبة من الإقدام على الظاهر.

٥- وأما الاختلاف بحسب الإصرار عليها أو عدمه، فلأن الذنب قد يكون صغيراً فيعظم بالإصرار عليه، كذلك البدعة تكون صغيرة فتعظم بالإصرار عليها، فإذا كانت فلتة فهي أهون منها إذا داوم عليها.

٦- وأما الاختلاف من جهة كونها كفراً وعدمه فظاهر أيضاً، لأن ما هو كفر جزاؤه التخليد في العذاب - عافانا الله - فلا بدعة أعظم وزراً من بدعة تخرج عن الإسلام، والله المستعان^(١). وقد جعل الله لكل شيء قدراً.



(١) الاعتصام للشاطبي (٢١٦/١).

طريق الحق وطرق الضلال

من رحمة الله تعالى إقامة الحجة على العالمين بإيضاح المحجة للسالكين، فمن أراد السعادة فسبيلها واضح وصراطها مستقيم وشريعته ميسرة، ولم ير حل نبينا صلى الله عليه وسلم لربه حتى أتم الله تعالى به النعمة بتمام البلاغ للشريعة الحنيفية المثل، الموصلة بفضل الله تعالى إلى العلى. قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فأفادت الآية أن طريق الحق واحدة، وأن للباطل طرقاً متعددة لا واحدة، وتعددتها لم يُخص بعدد مخصوص، وهكذا الحديث المفسر للآية وهو قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ فقال: «هذا سبيل الله مستقيماً» ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا هذه الآية (١).

ففي الحديث أنها خطوط متعددة غير محصورة بعدد، فلم يكن لنا سبيل إلى

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ١٠/٩٥ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسند الدارمي ١/٢٨٥ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و ١٧): حسن صحيح.

حصر عددها من جهة النقل، ولا لنا أيضاً سبيل إلى حصرها من جهة العقل أو الاستقراء، لكننا نذكر من ذلك أوجهاً كلية يقاس عليها ما سواها.

١. اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة، والمكذوب فيها على رسول

الله ﷺ.

٢. ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم.

٣. تخرُّصهم في الكلام في القرآن والسنة العربيين بلا رسوخ في اللغة

العربية.

٤. انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات.

٥. تحريف الأدلة عن مواضعها: بأن يرد الدليل على مناط^(١) فيصرف عن

ذلك المنط إلى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله.

٦. بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل.

٧. التغالي في تعظيم شيوخهم حتى الحقوهم بما لا يستحقونه.

٨. الاحتجاج بالمنامات.

ومن نظر إلى طريق أهل البدع في الاستدلالات عرف أنها لا تنضبط، لأنها

(١) المناط عند اللغويين هو التعليق، وعند الأصوليين والفقهاء هو العلة، لأن الحكم لما تعلق

بها صار كالشيء المتعلق بغيره.

سيّالة لا تقف عند حدّ، وعلى كل وجه يصح لكل زائع وكافر أن يستدل على زيغهِ وكفرهِ حتى ينسب النحلة التي التزمها إلى الشريعة.

فمن طلب خلاص نفسه حتى يتضح له الطريق، ومن تساهل رمته أيدي الهوى في معاطب لا مخلص له منها إلا ما شاء الله^(١). ولكل نهاية بداية، ولكل شيء غاية، ولكل سبيل عاقبة، والله الموعِد.



(١) الاعتصام للشاطبي (١/٣٦٥).

البدعة قدح في الشريعة

لما كانت الشريعة كاملة غير منقوصة؛ صار المبتدع المريد زيادة فيها قادح لها، «وذلك من جانبيين:

أحدهما: أنها مضادة للشارع ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه نصب المستدرك على الشريعة.

والثاني: أن كل بدعة - وإن قلَّت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، فيكون قادحاً في المشروع.

فليتأمل هذا الموضع أشد التأمل ويعط من الإنصاف حقه، ولا ينظر إلى خفة الأمر في البدعة بالنسبة إلى صورتها وإن دقت، بل ينظر إلى مصادمتها للشريعة ورميها لها بالنقص والاستدراك، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها، بخلاف سائر المعاصي فإنها لا تعود على الشريعة بتنقيص ولا غرض من جانبها، بل صاحب المعصية متنصل منها، مقر لله بمخالفته لحكمها»^(١).

نشوء البدع:

«البدعة تنشأ عن أربعة أوجه:

أحدها: - وهو أظهر الأقسام - أن يخترعها المبتدع.

الثاني: أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة، فيفهمها الجاهل مشروعة.

(١) الاعتصام للشاطبي (٥٤٦/٢) باختصار.

الثالث: أن يعمل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الإنكار، وهو قادر عليه، فيفهم الجاهل أنها ليست بمخالفة.

الرابع: من باب الذرائع، وهي أن يكون العمل في أصله معروفاً، إلا أنه يتبدل الاعتقاد فيه مع طول العهد بالذكرى^(١).

رد شبهة استفتاء القلب:

خرَّج مسلم عن النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه»^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك»^(٣) وعن وابصة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «يا وابصة! استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٤).

والمعنى أن فتاوي القلوب وما اطمأنت إليه النفوس معتبر في الأحكام الشرعية بما وافق الدليل، لأن فتوى القلب مجردة عن الدليل غير معتبرة، وإلا

(١) الاعتصام للشاطبي (٤٩٣/٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٣) حديث صحيح رواه أحمد في المسند (٣٥١/٣).

(٤) حديث حسن رواه أحمد (٢٢٧، ٢٢٨) والدارمي (٢٤٥/٢) وأبو يعلى (١٥٨٦).

صار هناك قسم ثالث غير الكتاب والسنة.

تزيين النفس للبدعة:

مكر النفس بحر لا ساحل له، وشبكة لا انتهاء لها، ومدارات لا حصر لها، ولها مع النية ألف وجه كلها خائبة، فهي كسول حرون هلوغ منوع عجول، ولكن مع الترفق الحازم معها فإن قيادها يلين بإذن الله تعالى، وجوها يصفو برحمة الله تعالى، ومشرها ينقى بلطف الله تعالى، فلا بد لها من حسن سياسة، من علم وحكمة ورفق وحزم وصبر وتؤدة، والموفق من وفقه الله تعالى. «إن الدخول تحت التكاليف في الشريعة صعب على الأنفس؛ لأنه أمر مخالف للهوى، ومحاد للشهوات، فيثقل عليها جداً، لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها، لا بما يخالفه، وكل بدعة للهوى فيها مدخل؛ لأنها راجعة إلى نظر مخترعها وهواه، لا إلى الشارع وحجته.

والمبتدع لا بد له من تعلق بشبهة دليل، ينسبها إلى الشارع، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه، فكيف يمكن الخروج من ذلك، وداعي الهوى مستمسك بأحسن ما يتمسك به؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة، ويزيد في الاجتهاد لينال في الدنيا التعظيم والمال والجاه، وغير ذلك من أصناف الشهوات، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿[الكهف: ١٠٣-١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿[الغاشية: ٢-٤] فسبب ما داخل أنفسهم من الهوى يجد المبتدعة في ذلك الالتزام

والاجتهاد خفة ونشاطاً، يستسهلون به الصعب، ويرون أعمالهم أفضل من عمل غيرهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١].

وسائل الوقاية من البدع:

للوفاية من البدع وسائل عدة، نذكر منها على سبيل الإيجاز:

- ١- الاعتصام بالكتاب والسنة.
- ٢- تطبيق السنة في سلوك الفرد وسلوك المجتمع.
- ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤- القضاء على أسباب البدع وذلك بأمر عدة، منها:
 - أ- منع العامة من القول في الدين، وعدم اعتبار آرائهم مهما كانت مناصبهم فيه.
 - ب- الرد على ما يوجه إلى الدين من حملات ظاهرة أو خفية، وكشف مظاهر الابتداع، وتسليط الضوء عليها من القرآن والسنة لمنعها من التغلغل والانتشار.
 - ج- الاحتراز من كل خروج عن حدود السنة مهما قل أثره أو صغر أمره.
 - د- صدّ تيارات الفكر العقائدي والتي لا حاجة للمسلم فيها، بل ورد النصّ بالتحذير منها، كأراء غير المسلمين فيها يتصل بالعقيدة، أو الأمور الغيبية ونحوها.
 - هـ- الاعتماد على الكتاب والسنة فقط في أمور العقيدة التي لا مجال للاجتهاد

والاستحسان والقياس فيها، وعدم الاعتماد على ما يعده بعض أهل الضلال مستنداً كالعقل ونحوه، وما هو أوهى من ذلك كالمنامات ونحوها.

و- ترك الخوض في التشابه؛ لأن الخوض فيه علامة على أهل الزيغ والبدع. وسبب كل بلاء ومصيبة دخلت على المسلمين»^(١).

ولا بد من الاحتساب في ذلك كله، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي على الخير والهدى، والاعتصام بحبل الله المتين، والله المستعان.

التحذير من الرأي المذموم:

الوحي معصوم من الخطأ، لأن مصدره إلهي، أما الرأي فقاصر ضعيف ناقص كثير الخطأ، فلا تقابل أصلاً بين الوحي والرأي، وإنما يكون الرأي مذموماً إن خالف الوحي بمعارضة أو مضاهاة، فالرأي المذموم: «هو المبني على غير أسّ، والمستند إلى غير أصل من كتاب ولا سنة، لكنه وجه تشريعي فصار نوعاً من الابتداع، بل هو الجنس فيها، فإن جميع البدع إنما هي رأي على غير أصل، ولذلك وصف بوصف الضلال. ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعاً. ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُسْتَفْتُونَ فيُفْتُونَ برأيهم فيضلون ويضلون»^(٢).

وقد اختلف العلماء في الرأي المقصود. فقد قالت طائفة: المراد به رأي أهل

(١) البدع الحولية. عبد الله التويجري (٨٠ - ٨٥).

(٢) البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (٣٧٦٢).

البدع المخالفين للسنن لكن في الاعتقاد^(١)، كمذهب جهم وسائر مذاهب أهل الكلام لأنهم استعملوا آرائهم في رد الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، بل وفي رد ظواهر القرآن لغير سبب يوجب الرد ويقتضي التأويل.

وقالت طائفة: إنما الرأي المذموم المعيب الرأي المبتدع وما كان مثله من ضروب البدع، فإن حقائق جميع البدع رجوع إلى الرأي، وخروج عن الشرع وهذا هو القول الأظهر. إذ الأدلة المتقدمة لا تقتضي بالقصد الأول من البدع نوعاً دون نوع، بل ظاهرها تقتضي العموم في كل بدعة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، كانت من الأصول أو الفروع.

وقالت طائفة: الرأي المذكور هو القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ العضلات والأغلوطين، وردّ الفروع والنوازع بعضها إلى بعض قياساً، دون ردها إلى أصولها والنظر في عللها واعتبارها، فاستعمل فيها الرأي قبل أن تنزل، وفرعت قبل أن تقع، وتكلم فيها قبل أن تكون، بالرأي المضارع للظن، قالوا: لأن في الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن والبعث على جهلها، وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها، ومن كتاب الله تعالى ومعانيه.

وهذا القول غير مخالف لما قبله، لأن من قال به قد منع من الرأي وإن كان غير مذموم، لأن الإكثار منه ذريعة إلى الرأي المذموم، وهو ترك النظر في السنن اقتصاراً على الرأي، وإذا كان كذلك اجتمع مع ما قبله، فإن من عادة الشرع أنه إذا نهى عن شيء وشدد فيه منع ما حواليه، وما دار به ورتع حول حماه. ألا ترى

(١) أي حصره في الاعتقاد دون العمل.

إلى قوله عليه السلام: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة»^(١). وكذلك جاء في الشرع أصل سد الذرائع، وهو منع الجائز لأنه يجر إلى غير الجائز. وبحسب عظم المفسدة في الممنوع، يكون اتساع المنع في الذريعة وشدته. والحاصل من جميع ما تقدم: أن الرأي المذموم ما بنى على الجهل واتباع الهوى من غير أن يرجع إليه، وما كان منه ذريعة إليه وإن كان في أصله محموداً، وذلك راجع إلى أصل شرعي: فالأول داخل تحت حد البدعة وتتنزل عليه أدلة الذم، والثاني خارج عنه ولا يكون بدعة أبداً^(٢). وعليه؛ فالرأي المذموم هو ما خالف الشرع بأي طريق كان، سواء أكان مُزَيِّفاً مُزَيَّنًا بشبهة استحسان، فأنشأ عبادة أصلية أو إضافية خارجة عن إطار الشريعة، أو كان معارضاً لسنة في الشرع، إما برّد أو مضاهاة.. إنَّ الخلائق فاعلم شرّها البدع.



(١) البخاري (٢٠٥١) واللفظ له، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/٧٦).

الاحتساب على أهل البدع

الاحتساب باب عظيم من أبواب الإيمان، وأصل كبير من أصول الإحسان، ومحبة للناس مثل محبة المرء لنفسه، فالدين كله نصيحة، نصح في العبادة بإخلاصها وإتقانها، ونصح من جهة محبة الخير للناس والاجتهاد في نفعهم بلا غش ولا تقصير، فالمؤمن للناس كاللبن المحض الصافي النضوح، بل إن الجهاد في سبيل الله تعالى هو فرع عنه، والمراد بالاحتساب هنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي باب السنن والبدع: الأمر بالسنة وتولي أهلها، والنهي عن البدعة والبراءة من أهلها، وقد عدَّ بعض العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركناً سادساً للإسلام. والاحتساب على المبتدعة باب عظيم من الجهاد، قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «وهذا باب كبير في الفقه، تعلق بهم من جهة جنائتهم على الدين، وفسادهم في الأرض، وخروجهم عن جادة الإسلام إلى بنيات الطريق فنقول: إن القيام عليهم بالثريب أو التنكيل أو الطرد أو الإبعاد أو الإنكار هو بحسب حال البدعة في نفسها من كونها عزيمة المفسدة في الدين أم لا، وكون صاحبها مشتهراً بها أو لا، وداعياً إليها أو لا، ومستظهِراً بالاتباع وخارجاً عن الناس أو لا، وكونه عاملاً بها على جهة الجهل أو لا.

وكل من هذه الأقسام له حكم اجتهاديّ يخصه، إذ لم يأت في الشرع في البدعة حدٌّ لا يُزاد عليه ولا ينقص منه، كما جاء في كثير من المعاصي، كالسرقة والقتل والقذف والخمر وغير ذلك، ولا جرم أن المجتهدين من الأمة نظروا

فيها بحسب النوازل، وحكموا باجتهاد الرأي، تفرعاً على ما تقدم لهم في بعضها من النص، فخرج من مجموع ما تكلم فيه العلماء أنواع:

أحدها: الإرشاد والتعليم وإقامة الحجة، كمسألة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ذهب إلى الخوارج وكلمهم حتى رجع منهم ألفان أو ثلاثة آلاف.

الثاني: الهجران وترك الكلام والسلام.

الثالث: التغريب، كما غرَّب عمر صبيغاً.

الرابع: السجن، كما سجنوا الحلاج قبل قتله سنين عديدة.

الخامس: ذكرهم بما هم عليه وإشاعة بدعتهم كي يُحذروا، ولئلا يُغتر بكلامهم، كما جاء عن كثير من السلف في ذلك.

السادس: القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم، كما قاتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخوارج^(١)، وغيره من خلفاء السنة.

السابع: القتل إن لم يرجعوا مع الاستتابة^(٢).

الثامن: من أسرها وكانت كفراً أو ما يرجع إليه فالقتل بلا استتابة لأنه من

(١) وإن كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبتدئ قتلهم حتى سفكوا الدم الحرام.

(٢) لمن قد أظهر بدعته ودعا إليها، وكان حقيقاً بالقتل تعزيراً، وكان لا يُكفَّ بغير ذلك، وهو باب شديد فلا يجوز تقحُّمه إلا ببرهان ودليل محكم ومصلحة ظاهرة جليلة ولدفع مفسدة ملحة، فالدماء شأنها عند الله عظيم.

باب النفاق كالزنادقة^(١).

التاسع: تكفير من دل الدليل على كفره^(٢)، كما إذا كانت البدعة صريحة في الكفر.

العاشر: لا يرثهم ورثتهم من المسلمين^(٣) ولا يرثون أحداً منهم، ولا يغسلون إذا ماتوا، ولا يصلي عليهم ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ما لم يكن المستتر؛ فإن المستتر يحكم له بحكم الظاهر، وورثته أعرف بالنسبة إلى الميراث.

الحادي عشر: الأمر بأن لا يناكحوا، وهو من ناحية الهجران، وعدم المواصلة.

الثاني عشر: تجريحهم على الجملة، فلا تقبل شهادتهم ولا يكونون ولاية ولا

(١) وليس على إطلاقه، بل لا بد من الثبوت والتبين، ثم الاستتابة إلا في حالات ضيقة جداً يقدّرها الحاكم في النازلة ويجزم بأنه لا مندوحة له عنها، ولكل قضية ملاساتها، والاستتابة أصل فلا يُتَّحى عنه إلا بحجة وبرهان، ورسول الهدى ﷺ لم يقتل المنافقين وقد علمهم، وقد تساهل بعض منتسبة العلم في الخوض في الدماء إرضاء للساسة وتتبعاً لهواهم بزعم حراسة الدين - وحقيقة فعلهم حراسة دنيا الملوك - ولو تریثوا لربما وُفقوا للهدى، وليس هذا بعام ولا مضطرد، فالظن الحسن في القضاة وأهل العلم حسن بحمد الله، ومن شذ فلا حكم له، والله مواعده، إنما المقصود التنبيه.

(٢) وهذا بعد قيام الحجة الرسالية وانتفاء الموانع، وانظر رسالة: «يكون الدين كله لله» للمؤلف.

(٣) أي في حالة الحكم بكفره.

قضاة، ولا ينصبون في مناصب العدالة من إمامة أو خطابة^(١).

الثالث عشر: ترك عيادة مرضاهم، وهو من باب الزجر والعقوبة.

الرابع عشر: ترك شهود جنازتهم كذلك.

الخامس عشر: الضرب كما ضرب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صبيغاً.

تنبيه:

قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة»^(٢) ليس المراد به الاختراع البتة، وإلا لزم من ذلك التعارض بين الأدلة القطعية وإنما المراد به العمل بما ثبت من السنة النبوية، فالسبب الذي جاء لأجله الحديث هو الصدقة المشروعة»^(٣).



(١) وكل هذا في حال القدرة والاختيار.

(٢) رواه مسلم (١٠١٧).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٣١).

هل الاحتفال بالمولد النبوي من مقتضيات محبته ﷺ؟

كلنا نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً عظيماً مهماً تلوثنا بمعاصٍ أو بدع، فمِمَّا لا شك فيه بين المسلمين: أن كل مؤمن هو بطبعه محبُّ النبي صلى الله عليه وسلم محبة حقيقية صادقة عظيمة، ولهذا مظاهر لا تحصيها الأفلام، وهذا المعنى واضح مستقر غير محتاج لتفصيل وإثبات، وإن كانت بعض مظاهر إبداء المحبة غير مأذون بها في الشرع الطَّهُّور.

ذلك أن المحبة تقتضي الاتِّباع والطاعة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أما معصيته فمضادة لمحبته، والسؤال الكبير: هل الاحتفال بمولده ﷺ طاعة له أو عصيان لأمره؟ أي: هل ذلك الاحتفال معدود من مظاهر محبته الموصلة لرضوان الله تعالى، أم أنها مخالفة لشريعته وسنته التي من خالفها فقد عصى الله تعالى وارتكب معصيته وتعرض لسخطه ومقته؟

والجواب: إن كل مؤمن هو يحب رسول الله ﷺ ضرورة، فكل المؤمنين مفعمين بمحبته والشوق للقاءه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولكن بعضهم - ويا للمرارة - قد يعبر عن هذا الحب بما لم يشرعه حبيبهم ﷺ ولم يأذن له فيه!

إن الاحتفال بمولده ﷺ معصية بلا شك، لأنه مُحدث، وقد نهى ﷺ عن البدع والمحدثات نهياً صريحاً في كثير من أحاديثه وزجر عنها.

ولقد أجمع المسلمون على بدعية الاحتفال بالمولد النبوي، ولكن بعضهم

دخل عليه اللبس من جهة ظنّه أن من البدع ما يكون حسناً، وهذا باطل لعموم قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(١) فالضلال ليس بحسن إطلاقاً.

وقد أفتى عامّة العلماء المحقّقين بحرمة الاحتفال بالمولد، عملاً بالأدلة الشرعية التي تحذّر من البدع في الدين، والأعياد والاحتفالات من أمور الشريعة، ووقفوا أمام فتح باب شر متيقّن لخير موهوم؟

قال الإمام مالك: «من ابتدّع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً».

بعض العلماء الذين أفتوا ببدعية الاحتفال بالمولد النبوي:

- الإمام الشاطبي فقد ذكر بعض أنواع البدع في أول كتابه الاعتصام^(٢) وعدّها منها اتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيداً، وذم ذلك.
- الإمام الفاكهاني قال ببدعية المولد النبوي، في رسالته المفردة^(٣).

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في صحيحه (٨٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، وعند أبي داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرباض رضي الله عنه مرفوعاً: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرناؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) الاعتصام (٣٤/١).

(٣) (٩-٨).

- العلامة ابن الحاج المالكي في المدخل فقد قال ببدعية المولد النبوي^(١).
 - علامة الهند أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي قال ببدعية المولد النبوي، وكذلك شيخه العلامة بشير الدين قنوجي الذي ألف كتاباً سماه «غاية الكلام في إبطال عمل المولد والقيام»^(٢).
 - الشيخ العلامة أبي عبد الله محمد الحفار المالكي. من علماء المغرب. قال: «ليلة المولد لم يكن السلف الصالح. وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم. يجتمعون فيها للعبادة، ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة، لأن النبي ﷺ لا يعظم إلا بالوجه الذي شرع تعظيمه، وتعظيمه من أعظم القرب إلى الله، لكن يتقرب إلى الله جل جلاله بما شرع»^(٣).
 - الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية وكذلك خلفه العلامة عبد العزيز بن باز والعلامة محمد العثيمين، وقال العثيمين: «يقيمونها لأنهم كما يقولون يحبون رسول الله ﷺ، ويريدون إحياء ذكرى رسول الله ﷺ. ونحن نقول لهم: مرحباً بكم إذ أحببتم النبي ﷺ، ومرحباً بكم إذا أردتم إحياء ذكرى رسول الله ﷺ، ولكن هناك ميزان للقبول وإثبات المحبة وضعه أحكم الحاكمين وإله العالمين، ألا وهو قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾
-
- (١) (١٢/٢-١١).
- (٢) وانظر تعليقه على حديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» في سنن الدارقطني.
- (٣) المعيار المعرب (٧/٩٩).

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴿[آل عمران: ٣١]. والعبرة عند العقلاء بالحقائق والمعاني لا
الدعاوي والأمانى.. فما كُلُّ دارٍ أَقْفَرَتْ دَارَةَ الْحِمَى!

وَالدَّعَاوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بَيِّنَاتٌ أَصْحَابُهَا أَذْعِيَاءُ
فإذا كان الإنسان صادقاً في دعوى محبة الله ورسوله؛ فليثبت دعواه بالحقيقة
والبرهان لا بدعوى بلا سلطان، وإثباتها إنما يكون بتحقيق الاتِّباع لشرعية الله
تعالى مخلصاً له الدين مستتاً بما جاء به رسول الله ﷺ، فإن لم يكن متبِعاً له فإنه
كاذب في دعواه، لأن هذا الميزان ميزان صدق وعدل.

وعليه؛ فلننظر هل إحداث احتفال بليلة مولد الرسول ﷺ هل هو من
شرعية الله؟ هل يرضى الله تعالى به؟ هل أذن به؟ هل شرعه؟ هل أجاز لنا باباً
ندخل منه لمحبه بدون شريعته التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟
هل فعله النبي ﷺ؟ هل فعله الخلفاء الراشدون؟ هل فعله الصحابة؟ هل فعله
التابعون لهم بإحسان؟ هل فعله أتباع التابعين؟

إن الجواب على كل هذه التساؤلات إنما هو بالنفي المحض القاطع، ومن
ادعى خلاف ذلك فليأت به: ﴿هَآئِلُكُمْ بِرُهْنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
[البقرة: ١١١] فالعبرة في صدق المحبة - يا أخي - هي بصدق الاستئذان بسنة النبي
الخاتم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، لا باتباع هوى النفس على غر سنته
وطريقته وشريعته.

أَمَّا الْخِيَامُ فَلِأَنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

• الشيخ القرضاوي، وكتب: «وقالوا إن الذي ابتدع هذه الموالد وهذه الأشياء الفاطميون في مصر، ومن مصر انتقل إلى بلاد أخرى، وربما كان وراء ذلك أهداف سياسية معينة، أنهم يريدون أن يشغلوا الجماهير والشعوب بهذه الموالد وهذه الاحتفالات، حتى لا يبحث الناس في أمور السياسة ولا في أمور القضايا العامة.. إلى آخره. ولذلك إذا نظرنا إلى الأمر باعتباره عبادة نقول: أنه لم ترد هذه العبادة ولم تصح».

• الشيخ محمد الغزالي فقد أفتى ببدعية المولد النبوي، في كتابه «ليس من الإسلام»^(١) وقال: «والتقرب إلى الله بإقامة هذه الموالد عبادة لا أصل لها.. ومن ثم فنحن نميل إلى تعميم الحكم على هذه الموالد جميعاً ووصفها بأنها مبتدعات تُرفض ولا يُعْتَدَرُ لها.. إن إلغاء الموالد ضرورة دينيةً ودنيويةً.. وهكذا انتظم الاحتفال بليلة المولد النبوي، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، ورأس السنة الهجرية.

وقد حددت لهذه الاحتفالات تواريخ كيفما اتفق، وجُعل البذل فيها من مظاهر التدين، وأحيائها العوام والخواص بمزيد من الكلام والطعام، وهكذا تكون نصرة الإسلام!»^(٢).

هذا وإن أماننا ثلاث قضايا كلها تتعلق بالنبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه:

(١) ص (٢٥٢).

(٢) عن موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٧ / ٤٧).

الأولى: الاحتفال بمولده ﷺ.

الثانية: التوسل به ﷺ.

والثالثة: شد الرحل إلى قبره ﷺ.

هذه الأمور الثلاثة قد صارت عند طائفة من الناس علامة على حب رسول الله ﷺ، فعندهم أن من احتفل بمولده وتوسل به وشد رحله إلى قبره فهو محب، ومن لم يفعل ذلك أو نهى عنه فهو فاقد الحب!

وقد قلنا من قبل إن إمامنا في كل قضية هو الكتاب والسنة وفقه السلف، فهل الشرع دعا إلى شيء من ذلك؟ وهل جعلها علامة على حب الرسول ﷺ؟
الثابت أن الشرع لم يأمر بالاحتفال بالمولد النبوي، لكنه في ذات الوقت لم ينه عن تدارس سيرة النبي واستخراج العبر منها في كل زمان ومكان، بل هو من المقربات إلى الله تعالى، والشرع لم يعلق حب الرسول على فعل تلك الأمور الثلاثة، بل علقه على اتباعه وتعظيمه.

وأما التوسل فإن الشرع لم يأمر بالتوسل بالنبي الكريم بعد مماته، وقد كان الصحابة يتوسلون به في حال حياته، أي يطلبون منه الدعاء، وكان هذا جائزاً حينذاك، لكنه لما مات تركوا ذلك لاستقرار علمهم أن الميت ولو كان نبياً لا يملك أن ينفع أحداً، وأن الميت لا يُدعى ولا يستغاث به ولا يتوسل بذاته مهما كان حاله ومقامه.

لذا فإنهم لما قحطوا في عام الرمادة في عهد عمر استسقوا بالعباس عم النبي

ﷺ وما استسقوا بالنبي ﷺ مع أنه مدفون بينهم، فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْقِيكَ بِنَبِينَا فَتَسْقِينَا، وَإِنْ نَسْتَسْقِيكَ بَعْمِ بِنَبِينَا فَاسْقِنَا»^(١).

وفي خلافهم في سقيفة بني ساعدة حول الخلافة لم يتوسلوا به في حل ذلك الخلاف، ولا في المحنة التي تعرض لها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا في الخلاف بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلو كان التوسل به أي طلب الدعاء منه بعد مماته جائزاً لم يفرط الصحابة فيه، فعدم فعلهم. وهم الأحرص على الخير والأعلم بالدين. يدل على المنع منه. وأما التوسل بجاهه ﷺ فذلك أمر لم يفعله الصحابة أبداً لا في حال حياته ولا بعد مماته، وما ورد من أثر يميز التوسل بجاهه فهو ضعيف، وعليه فلا يجوز التدين والتعبد بحديث لم يثبت، وما بني على باطل فهو باطل، فجاهه ﷺ عظيم ولكننا ممنوعون من التوسل به، والمؤمن وقَّاف عند حدود إذن الله تعالى له^(٢).

أما عن شد الرحل إلى قبره عليه الصلاة والسلام، فإنه قد نهى صراحة عن شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد فقال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ:

(١) البخاري، كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا. انظر: فتح الباري (٢/٤٩٤).

(٢) وقد أحسن شيخ الإسلام في كشف هذه الشبهة وتفنيدها وما شابهها في كتابه «الرد على البكري»، وكذلك أحسن تلميذه ابن عبد الهادي في كتابه «الصارم المنكي». وياليت من يتصدى للكتابين من لدن طلبة العلم باختصار وتيسير عبارات ونشرها في الناس لمسييس الحاجة إليها خاصة فيما يتعلق بخوارم توحيد العبادة.

مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»^(١) أي لا يجوز شد الرحل لأجل العبادة إلا لهذه المواطن الثلاثة.

أما من قصد غيرها لأجل العبادة فقد خالف الأمر ووقع في النهي، لكن قد يأتي من يخالف فيقول: ليس في الحديث النهي عن شد الرحل إلى القبر، وليس فيه ذكر القبور أصلاً، فمن أين قلتم الحديث ينهى شد الرحل إلى القبر؟ فيقال: إنما ذكرت المساجد لأن المقصود هو العبادة، فالقاصد للمسجد إنما يقصده لأجل الصلاة وقراءة القرآن والذكر والاعتكاف، وهذه عبادات، وزيارة القبور لا ريب أنها عبادة لأن الشارع أمر بها، وكل ما أمر به الشارع فهو عبادة. وعلى ذلك فلا يجوز السفر من أجل زيارة القبر، لأن السفر لأجل العبادة لا يجوز إلا لهذه الثلاثة.

وليس في هذا الكلام منع لزيارة القبور، بل الزيارة مشروعة في كل حال، أما الممنوع فهو السفر لأجلها.

فإن لم يسلم المخالف بهذا فحينئذ الحكم الذي يحكم بين المسلمين إذا اختلفوا في فهم نص من نصوص الشرع هم السلف وعلى رأسهم الصحابة، فماذا يقول الصحابة في هذه المسألة؟

ورد أن أبا هريرة خرج إلى الطور فلما بلغ ذلك بصرة بن أبي بصرة الغفاري قال له حين أقبل: «لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت، سمعت رسول الله

(١) البخاري كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، وانظر: فتح الباري (٣/٦٣، ٦٤).

يقول: «...» فذكر الحديث (١).

وجاء رجل إلى ابن عمر فقال له: «إني أريد الطور». فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأت» (٢).

والطور ليس بمسجد، بل بقعة مباركة (٣) كلم الله فيها موسى عليه السلام، فالصحابه ما فهموا من الأثر أن المنع خاص بالمساجد، بل فهموا المنع لأجل العبادة، ولو فهموا أنه مخصوص بالمساجد لما أنكروا على من خرج إلى الطور يريد التبرك.

فهذه فتوى الصحابة في هذه المسألة، ولا أظن مسلماً إلا هو يرضى بما ثبت عنهم ورضوه ديناً، لأنهم هم الكمل، وهم خيار الأمة وقدوتها وعلماءها، وقد زكاهم رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله.

وكل حديث ورد في فضل زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فهو موضوع أو ضعيف، كما ذكر الأئمة المحققون كابن تيمية، بل الوارد هو النهي عن اتخاذ

(١) النسائي كتاب الجمعة باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة، وصححه الألباني.

(٢) أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة، انظر: فتح المجيد باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد (٢٨٩).

(٣) وانظر: «هل جبل الطور في الحجاز؟» للمؤلف.

قبره عيداً فقال: «لا تتخذوا قبري عيداً»^(١) أي: لا تعتادونه بالزيارة.

والعيد في اللغة اسم لما يُعتاد مجيئه، سمي عيد الفطر عيداً وكذا الأضحى والجمعة لكونها معتادة تجيء كل عام وكل أسبوع، فالذي يزور قبره في كل موسم أو عيد أو نحو ذلك فقد اتخذ قبره عيداً، وهذا هو عين ما نهى عنه الرسول الكريم.

وقد أنكر الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب اعتياد زيارة القبر، فقد روى سعيد بن منصور في سننه عن سهيل بن أبي سهيل قال: «أتى الحسن بن الحسن بن علي عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»^(٢).

ومما يردده أساطين الطُرُقِيَّة مَّا يسمونها بالحقيقة المحمدية، فإذا سمع السامع هذا اللقب تبادر إلى ذهنه النبي محمد ﷺ، ومن المعلوم أن أعظم شخصية في تاريخ المسلمين هو محمد ﷺ، وله خصائص ليست لغيره بإجماع

(١) أبو داود (٢٠٤٢) وصححه النووي في رياض الصالحين.

(٢) انظر: الفتاوى (١٨٩/٢٧) وفتح المجيد: باب حماية المصطفى جناب التوحيد (٢٨٦) عن موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٧/ ٤٨ - ٥١) بتصرف واختصار.

المسلمين، وكثير من المسلمين ممن قلّ فقهه وعلمه لا يمانع من الزيادة والغلو في حقه عليه الصلاة والسلام.

وقد وظّف هؤلاء هذه الشخصية لإبراز الفكرة الوثنية لما يسمى عندهم بالإنسان الكامل من خلالها - حتى الملحد نيتشه قد أكّدها في نظريّته الهزيلة «السوبرمان» ولكن هؤلاء تجاوزوا ذلك الهراء للحلول ثم للاتحاد بين الإله والمألوه فيما يسمونه بوحدة الوجود، تعالى الله علوّاً كبيراً..

فصارت الحقيقة المحمدية هي حقيقة الإنسان الكامل بغير فرق، ومن هذا الإنسان الكامل تكون المرحلة التالية لصلاحية هذا الإنسان للحلول الإلهي المقدس في ذاته - حلول اللاهوت في الناسوت كعقيدة النصارى في المسيح، ومن بعد ذلك تكون المرحلة الأخيرة وهي كون ذاته هي عين ذات الإله وكون ذوات غيره هي عين ذات الإله كذلك، وهو ما يسمى بوحدة الوجود المطلق - إلا أنهم ومحاولة منهم لترويج تلك الفكرة الفلسفية حرّفوا الآيات واختلقوا الأحاديث للتدليل عليها.

والذي يُثبت هذا التوافق ما يرد في أقوالهم وأشعارهم من أوصاف غالية في حق النبي الكريم لا يمكن أن تفسر إلا من خلال فكرة الإنسان الكامل، ثم الحلول كما نص عليه الحلاج، ثم الاتحاد كما نص عليه ابن عربي، ومن ذلك:

يقول ابن عربي^(١): «بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية (١/١١٨).

الرحمانية» ويقول الحلاج^(١): «أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم سوى نور صاحب الكرم.. همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم.. العلوم كلها قطرة من بحر.. والأزمان ساعة من دهره».

وقال ابن الدباغ^(٢): «اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور محمد، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليه لتهافتت وتساقطت» ويقول البوصيري في البردة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
وبعد أن كانوا يلمحون زمناً لكنهم صرحوا به آخرًا، فهذا ابن عربي الطائفي يطلق لقب الإنسان الكامل في كثير من مؤلفاته وله مؤلف بعنوان: «الإنسان

(١) الحلاج: كتاب الطواسين. ص (١١). ولاحظ تعمد هذا الأفك تسمية كتابه بأسماء سور من القرآن الكريم، فقد روى البخاري في صحيحه (٤٩٩٤) بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: «إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي».

(٢) عن هذه هي الصوفية نقلا عن محبة الرسول ﷺ (٢٠٣) باختصار وتصرف وزيادة.

الكلي» وكذلك عبد الكريم الجيلي وضع كتابا بعنوان: «الإنسان الكامل» وهناك آخرون غيرهم قدماء ومحدثون.

وإن المدقق في أقوالهم وأحوالهم يعلم أنهم لا يعظمون رسول الله ﷺ، وأن كلامهم لا يدل على حبهم الصادق له، بل يتخذون محبته ذريعة إلى تحقيق فكرة الإنسان الكامل بين المسلمين!

ولذا فإنهم عندما يطلقون لقب الحقيقة المحمدية أو غيره مما يقوم مقامه لا يقصدون به ذات النبي عليه الصلاة والسلام خاصة، بل كل ذات تتحقق فيها الأهلية . حسب شروطهم . لأن تصير في مرتبة الإنسان الكامل، كما فعل السهروردي حينما اضطلع في الغار قائلاً: ههنا حتى يأتي تنزيل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾! فليست هذه المرتبة عندهم حكراً على النبي أو غيره من البشر، - فالنبوة عندهم مكتسبة وليست بالاصطفاء والاختيار من الله تعالى، كما أشاع ذلك الضلال ابن سينا في الإشارات وغيرها وابن الطفيل في حي بن يقظان وغيرهما - فالنبوة عندهم ينالها كل من هذب نفسه وصفّاها على طريقة فلسفية خاصة ورياضة صوفية محدّدة حتى تصل إلى مرحلة الاتحاد بذات الله تعالى كما يقولون - تعالى الله عما يقولون - فإذا صارت كذلك نالت مرتبة الإنسان الكامل، وهي فلسفة وثنية غنوصية مستوحاة عن النرفانا الهندية، ومن فروع وثنية النرفانا مايشاع حالياً بجلسات اليوجا الشرقي، والمقصود أنهم يبدؤون بالحلول ويتنهون بالاتحاد، تعالى الله علواً كبيراً.

لذا فإنهم يعتقدون في مشايخهم ما يعتقدونه في الإنسان الكامل، فهم نور،

وهم يعلمون الغيب، ويدبرون شؤون الكون، ومن هنا نفهم لماذا يصرون على تعظيم أولئك المشايخ هذا التعظيم الغالي الذي لا يجوز أن يكون إلا لرب العالمين.

يقول الجيلي: «اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمى باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان.. فقد اجتمعت به ﷺ هو في صورة شيخي إسماعيل الجبرتي»^(١). فماذ بعد الحق إلا الضلال!

وبالجملة؛ فبرهان المحبة هو بصدق الاتباع للنبي الكريم وليس بالهوى والابتداع للنفس الأمارة والشيطان الرجيم، والموفق من وفقه الله، والمهتدي من هداه الله، والمرضي من رضي عنه الله، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.



(١) الإنسان الكامل (٧٣/٢) وانظر: النفحات الأقدسية للبيطار وانظر: موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٤٨ / ٧) وما بعدها بتصرف.

وصايا وأقوال أئمة أهل السنة في الاتباع والنهي عن الابتداع

العلماء ورثة الأنبياء، فهم حفاظ تركتهم، وحراس ملتهم، وهم النجوم التي لا يضل معها الساري، والرجوم لكل شيطان مريد، فبعلمهم وعملهم وهداياتهم تنكشف شبه الشياطين، وتبطل ألاعيب المرجفين، ويهتدي إلى الله تعالى بعلمهم كل سالك عابد شكور، فالعلم نور، والهدى توفيق، والدين اتباع، فمن رام الفلاح فليلزم غرزهم، وليمش ممشاهم، ولينهج جادتهم، وليحفظ وصاياهم؛ فإن علماء السلف منارات على الصراط المستقيم، حفظوا كتاب الله وسنة رسوله فقها وعملا ونصحا وجهادا، فإلى شيء من ناصح نصحتهم، وهادي علمهم، وصادق حبهم:

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، أَلَا وَإِنْ رَفَعَهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدْعَ وَالتَّبَدُّعَ وَالتَّنَطُّعَ، وَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِكُمُ الْعَتِيقِ»^(١).

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَمْ يَتَعَبَّدْ بِهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَتَعَبَّدُوا بِهَا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعَ لِلْآخِرِ مَقَالًا؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْقَرَاءِ، خُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ بِي مَنْ قَدْ مَاتَ

(١) البدع والنهي عنها. لابن وضاح (١-٦٠).

(٢) الأمر بالاتباع للسيوطي، ص: (٦٢) وأخرج البخاري نحوه (١٣ / ٢٥٠) (٧٢٨٢).

أولئك أصحابُ محمد ﷺ كانوا خيرَ هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم؛ فهم كانوا على الهدى المستقيم»^(١). وقال رضي الله تعالى عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتُم؛ عليكم بالأمر العتيق»^(٢).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يَزَالُ النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ؛ مَا اتَّبَعُوا الْأَثَرَ» وقال: «كل بدعة ضلالة؛ وإن رآها الناس حسنة»^(٣).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَنْ تَضِلَّ مَا أَخَذْتَ بِالْأَثَرِ»^(٤).

وعن عابس بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقْبِلُ الْحَجَرَ - يعني الأسود - ويقول: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْبِلُكَ مَا قَبِلْتُكَ»^(٥).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِصَرٍ نَافَذَ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِهَا كَانُوا أَقْوَى، وَبِالْفَضْلِ لَوْ كَانَ

(١) شرح السنة للبغوي (١/٢١٤).

(٢) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٦) وابن وضاح في البدع (١٠) وغيرهما.

(٣) رواهما الأصبهاني في الترغيب والترهيب (١/٢٣٦).

(٤) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/٣٥٣).

(٥) متفق عليه. البخاري ١٨٣/٢ (١٥٩٧) ومسلم ٦٧/٤ (١٢٧٠) (٢٥١) قال الحافظ

ابن حجر في الفتح ٥٨٤/٣ (١٥٩٧): «في الحديث التسليم للشارع في أمور الدين،

وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها».

فيها أخرى، فلئن قُلتُم: حَدَّثَ بَعْدَهُمْ؛ فما أَحَدُهُ إِلَّا مَنْ خَالَفَ هَدْيَهُمْ، وَرَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ، وَلَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، وَتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي، فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسَّرٌ وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ، لَقَدْ قَصَرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ فَجَفَوْا، وَتَجَاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى: «عَلَيْكَ بِأَثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسَ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرِّجَالِ وَإِنْ زَخَرَفُوهَا لَكَ بِالْقَوْلِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْجَلِي وَأَنْتَ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢).

وقال أيوب السَّخْتِيَانِي رحمه الله تعالى: «مَا أَرْدَادَ صَاحِبُ بَدْعَةٍ اجْتِهَادًا إِلَّا أَرْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا»^(٣).

وقال حسان بن عطية رحمه الله تعالى: «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بَدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نُزِعَ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلُهَا»^(٤).

وقال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَا دَامَ عَلَى الْأَثَرِ؛ فَهُوَ عَلَى الطَّرِيقِ»^(٥).

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «الْبَدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ،

(١) أبوداود (٤٦١٢)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٣٠).

(٢) المدخل إلى السنن للبيهقي (٢٣٣).

(٣) البدع والنهي عنها، لابن وضاح (١/ ٦٢).

(٤) مسند الدارمي (١/ ٢٣١) بسند صحيح.

(٥) ذم الكلام وأهله، للهروي (٢/ ١٨٣).

المعصية يُتَابُ منها، والبِدْعَةُ لَا يُتَابُ منها»^(١).

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: «لِيَكُنِ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْأَثَرُ، وَخُذْ مِنَ الرَّأْيِ مَا يُفَسِّرُ لَكَ الْحَدِيثَ»^(٢).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «كُلُّ مَسْأَلَةٍ تَكَلَّمْتُ فِيهَا بِخِلَافِ السَّنَةِ؛ فَأَنَا رَاجِعٌ عَنْهَا؛ فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَمَاتِي»^(٣).

وعن الربيع بن سليمان قال: روى الشافعي يوما حديثا فقال له رجل: أتأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟ فقال: «مَتَى مَا رَوَيْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا صَحِيحًا؛ فَلَمْ أَخْذُ بِهِ؛ فَأَشْهَدُكُمْ أَنَّ عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ»^(٤).

وعن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مَقَالَاتُ الْفَلَّاسِفَةِ، عَلَيْكَ بِالْأَثَرِ وَطَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ مُحَدِّثَةٍ؛ فَإِنَّهَا بَدْعَةٌ»^(٥).

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: «السَّنَةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»^(٦).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (١/١٤٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/١٠٧٠).

(٣) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول، لأبي شامة المقدسي (١/٥٧).

(٤) معرفة السنن والآثار، للبيهقي (١/٢١٦).

(٥) ذم الكلام وأهله (٥/٢٠٧).

(٦) ذم الكلام وأهله (٥/٨١).

وعن ابن الماجشون قال: سمعت مالكا يقول: «مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا»^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا: التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ، وَتَرْكُ الْبِدْعِ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ فَهِيَ ضَلَالَةٌ»^(٢).

وما أجمل قول العالم العامل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى حيث قال: «اتَّبِعْ طُرُقَ الْهُدَى وَلَا يَضُرَّكَ قَلَّةُ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطُرُقَ الضَّلَالَةِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»^(٣).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَنْ سَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ أَبَاكَ نَهَى عَنْهَا: «أَأْمُرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَحَقَّ أَنْ يَتَّبَعَ، أَوْ أَمْرُ أَبِي؟!»^(٤) وسمع رجلاً عطس فقال: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، فقال له ابن عمر: «مَا هَكَذَا عَلِمْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

(١) الاعتصام، للإمام الشاطبي (١ / ٥٤).

(٢) اللالكائي في: شرح أصول أهل السنة (١١ / ٥).

(٣) الاعتصام، للإمام الشاطبي (١ / ٨٣)، الأمر بالإتباع ص: (١٥٢).

(٤) أحمد (٦٣٩٢) والترمذي (٨٢٤) وصححه الألباني. والمسألة هي متعة الحج. وانظر: تحفة

الأحوزي (٢ / ٣٧٠).

وسلم، بل قال: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ؛ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ» ولم يقل: وليُصلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ^(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمن عارض السنة؛ بقول أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ لَكُمْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(٢) وقال: «النَّظَرُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ يَدْعُو إِلَى السُّنَّةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ»^(٣).

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «إِذَا بَلَغَكَ عَنْ رَجُلٍ بِالْمَشْرِقِ؛ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ فَابْعَثْ إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ؛ فَقَدْ قَلَّ أَهْلُ السُّنَّةِ»^(٤).

وقال أيوب السخيتاني رحمه الله تعالى: «إِنِّي لَأُخْبِرُ بِمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ فَكَأَنِّي أَفْقَدُ بَعْضَ أَعْضَائِي»^(٥).

(١) الترمذي في: سننه (٢٧٣٨) بسند حسن بشواهده.

(٢) ذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٠ / ٢١٥) وغيره، وجاء بلفظ: «أراهم سيهلكون، أقول قال النبي ﷺ، ويقولون نهى أبو بكر وعمر». أو نحوه، أخرجه الإمام أحمد (٣١٨٢) وعبد الرزاق في «المناسك الكبير» (٤٧٦) وإسحاق بن راهويه في «المسند» كما في «المطالب العالية» (١٣٠٦) وابن عبد البر في «الجامع» (٢٣٧٨) والخطيب في «الفيقهِ والمتفقهِ» (١ / ٣٧٦) والضياء في «المختارة» (١٠ / ٣٣١) من طرق. وصحَّح ابن حجر في «المطالب» إسناده «مسند إسحاق».

(٣) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧/٤).

(٤) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧/٤).

(٥) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

وقال قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَهْلَ الْحَدِيثِ؛ مِثْلَ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوِيَةَ.. وَذَكَرَ قَوْمًا آخَرِينَ؛ فَإِنَّهُ عَلَى السُّنَّةِ، وَمَنْ خَالَفَ هَؤُلَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ»^(١).

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: «لَوْ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَسَحُوا عَلَى ظُفْرِ لَمَّا غَسَلْتَهُ؛ التَّمَّاسَ الْفَضْلَ فِي اتِّبَاعِهِمْ»^(٢).

وعن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «اعْلَمْ - أَيُّ أَخِي - أَنَّ الْمَوْتَ الْيَوْمَ كَرَامَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ عَلَى السُّنَّةِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ؛ فَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو وَحَشْتَنَا، وَذَهَابَ الْإِخْوَانُ، وَقِلَّةُ الْأَعْوَانِ، وَظُهُورُ الْبِدْعِ، وَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو عَظِيمَ مَا حَلَّ بِهِذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، وَظُهُورِ الْبِدْعِ»^(٣).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يُخَيِّبُهُمُ الْبِلَادُ؛ وَهُمْ أَصْحَابُ السُّنَّةِ»^(٤).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَكَأَنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»^(٥).

(١) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

(٢) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

(٣) البدع والنهي عنها (٨٤/١).

(٤) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٩/٤).

(٥) صيانة الإنسان (٣٠٨) وذم الكلام (١٠٩) والسير (١٠ / ٥٩ - ٦٠) وتلبس إبليس

(١٨) والحلية (١٠٩ / ٩).

ووضع الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ قاعدة عظيمة؛ تُلخص جميع ما ذكرناه من أقوال الأئمة، وهي قوله: «لَنْ يَصْلَحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا؛ فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا لَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا» (١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «انظُرُوا عَمَنْ تَأْخُذُونَ هَذَا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ الدِّينُ» (٢).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكْبَرِهِمْ؛ فَإِذَا أَخَذُوهُ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ وَشَرَارِهِمْ هَلَكُوا» (٣). (٤)

وكان نجم السنن وإمام دار الهجرة الإمام مالكا كثيرا ما ينشد (٥):

وَحَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ
وَرُوي:

وَحَيْرُ الْأُمُورِ السَّالِفَاتُ عَلَى الْهُدَى وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ

وقال ابن القيم: «والسلف يذكرون كثيرا الاقتصاد في الأعمال والاعتصام

(١) انظر: الشفاء، للقاضي عياض (٢/ ٨٨) وانظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٨) وما بعدها.

(٢) الخطيب في: الكفاية في علم الرواية (١٩٦).

(٣) ابن عبد البر في: جامع بيان العلم (٢٤٨).

(٤) ملخصا بتصرف وزيادات عن: الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة.

عبد الله بن عبد الحميد الأثري (١/ ١٦٥ - ١٨٠).

(٥) الاعتصام للشاطبي (١/ ١١٥).

بالسنة، فإن الشيطان يشمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها.. وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط، ولا يبالي بأيها ظفر زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا عبد الله بن عمرو؛ إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة فقد خاب وخسر»^(١). قال له ذلك حين أمره بالاعتصام في العمل^(٢).

(١) حديث صحيح رواه أحمد (٦٦٦٤) وغيره. وفي جامع الأصول عن (٣١٨ / ١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت مولاة لرسول الله ﷺ خُبْرَ عنها: أنها تقوم الليل، وتَصُومُ النَّهَارَ، فقال رسول الله ﷺ: «لَكُلِّ عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن صارت فترته إلى سُتِّي فقد اهتدى، ومن أخطأ فقد ضلَّ». عزاه الهيثمي للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح. المجمع (٢٥٨/٢، ٢٥٩).

(٢) مدارج السالكين (١٠٧ / ٢).

والشَّرة: هي الحرص على الشيء والنشاط له، وهي ما يسميه العامة: الحماس، فهو نشاط وانتشاء بالتدين، واستلذاذ بالعمل، لكنه لا يدوم، بل قد لا يطول، ذلك أن النفس بطبيعتها ملولٌ حرُّون، فمن خطمها وزمَّها حال فتورها وكسلها وملاها بالسنة فلم يولجها الحرام ولم يخل بينها وبين ترك الواجب؛ فهو الموفق المهتدي، من زاغ هلك. ومعنى الحديث أن العابد يجتهد في تنسكه وتحنّفه وقد يبالغ فيه، ثم تنكسر همته على المدى، فمنهم من يرجع حين الفتور إلى الاعتدال في الأمر فينجو ويسعد ويفلح، ومنهم من ينحرف بعصيان بترك فريضة أو ركوب جريمة أو بترك العبادة بالكلية فيخزي ويهلك.

وبالجملة؛ فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع، وتقوى على هدى، وسيرٍ على نور، كما قال أبيُّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وستنتهم»^(١).

فالاعتصام بهدي السلف عاصم بإذن الله تعالى من الضلال، وليس راءٍ كمن سمعَ، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) ابن المبارك في «الزهد» (٨٧)، ومن طريقه اللالكائي: (١ / ٥٩)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٦١).

استقراء مستقبل الأمة في ظل الواقع والمبشرات

الاعتصام بحبل الله تعالى بركة وخير وأمان ونجاة وسلامة من كل شرٍّ وسوءٍ، وعافيةٌ من كل عَاديَةٍ، سواءً في العبادة أو الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو أي عمل ومسلِك للفرد وللجماعة، فوعد الله تعالى صدق وحق لا يتخلف، ووعيده لمن استهان به أو أمن مكره لا يُؤمّن، فهو الحميد الشكور، وهو العليم الحكيم، وهو العزيز القهار، ولا أفلح مَنْ أَمِنَ مَكْرَهُ!

هذه؛ وإن أمتنا موعودة - بحمد الله تعالى - بالسَّناء والرفعة والتمكين إن اعتصمت بحبل ربها تبارك وتعالى.

وإنَّ أهل السنة المحضة كانوا ولا زالوا ولن يزالوا في جهاد مستمر مع المبتدعة والفساق من داخل الملة، ومع الكفرة والملاحدة من خارجها، سنة الدِّفع لمن اصطفاهم العليُّ سبحانه. فمن كان على الجادة المستقيمة للرسول ﷺ فله حظه من الجهاد بقدر قُربه وبُعده، سَدَادًا أو مقاربة، استقامةً أو انحرافًا، والله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضيع أجر المصلحين.

واعلم وتيقن - رحماني الله وإياك - أنَّ النصر للإسلام مهما انتهت إليه ظنونُ الناس، وحقيقةُ النصر هي تدبُّنُ الناس بالإسلام واعتناقهم إِيَّاه ودخولهم في حوزته وثباتهم عليه، أما ملكُهُ للآفاق فليست كنصره في النفوس، وإن كُنَّا. بحمد الله. قد وُعدنا بهذا وهذا.

وإنَّ من المهمات في هذا العصر نشرُ ثقافة التفاؤل بنصر الإسلام،

والاستبشار بمستقبله، وحسن الظن بالله تعالى فيه، وعظيم حكمته في أقداره، وحسن عاقبته للمؤمنين. فهو الذي وعد نبيّه بعلو دينه ونصر جنده وعزّ شريعته مهما تكالبت عليها سباع الكفرة، وضباع المنافقين، وكيدُ الفُسّاق، ومكرُ أئمة الضلال والإحداث.

والتفاؤل بجمال المستقبل ليس ضعفاً إذا كان ناشئاً عن حسن الظن بالله تعالى وليس عن خورٍ وعجزٍ وكسل، فاستفرغ جهدك في نصر دين الله، وأحسن الظن بجميل تدبيره. واعلم أنّ الفرقانُ بين التفاؤل والأمانى هو الجدية والعمل، فالأملُ محتاج لعمل. وأعظم الجدّية هي الجدّية في الاستقامة على الإسلام، فدعوة بلا استقامة؛ لا عمود لها ولا ثبات ولا صدقيّة، وإن أردتَ امتحان جدية رجلٍ في الاستقامة؛ فارقُب حرصه على اتباع السنة وتبكيه لشهود الفريضة، ألا ما أقلّهم، وأكرم بقليلهم.

وقد يُظن جهلاً بالمتفائل سداجة لقوّة تفاؤله، وحقيقته حسن الظن بربه ومعرفته بسنن الله في خلقه. فلا تخذل نفسك بالقلق، بل أسعفها بالتفاؤل وحسن الظن بمن لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع ويرفع الشر إلا هو، وهو اللطيف الخير.

ومهما كبست على صدرك جيوش الهموم وتراكت على روحك أرتال الغموم؛ فثمّ نورٌ في آخر النفق، إنّه حسن الرجاء بالله تعالى. ومهما بلغ حجم جليد الكذب يوماً؛ فشمس الزمان كفيلة بإذابته، حينها سيصحص الحق. وما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل. ومع ظلام التحليلات وسوداوية التوقعات، وتتابع الفواجع الدامية في جسد الأمة؛ تبقى هناك ألطافٌ مدهشة غير متوقعة، ليس لها

تفسير سوى لطف الله المحض، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢].

وعلى الداعي إلى سبيل ربه أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأن الله ولي الصالحين، وأنه إن رضي عنه؛ فلا عليه ما فاته من غيره، فالخيرُ بحذايره في مرضيه، والنعماءُ بكمالها بين يديه، وقد وعد. ووعدته الحق. أن العاقبة للمتقين. والحقُّ منصورٌ ومُتَحَنٌّ فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد ذكر الله هذا الحرف في آل عمران وكرره في الأنفال مختتماً إياه في الموضعين بذكر اسميه الجليلين ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فهو العزيز القوي الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة وله الحكم والحكمة، ولا نصر على الإطلاق إلا من الله وحده، فكلما احتجت لنصر. وأنت على الدوام كذلك. فردد بقلبك: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلن تنتصر على نفسك أو على غيرك من الإنس والجن وغيرهم إلا بحبل الله الناصر، فنصره حقيقي تام، ونصر غيره هباء فاني، فتعلق به وحده واعبده حق العبادة.

لقد وعدنا الله بالنصر إن نصرنا دينه، وبالعزيز أن اعتصمنا به دون سواه، وبالتمكين إن مكنا عبادته في القلوب والأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا

عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴿[الأنبياء: ١٠٥] ولا يكفي الصبر لإدراك النصر، بل لا بد أن يُقرن بالتقوى ﴿وَأِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وأبشر ببشرى الله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥ - ٦] فالعاقبة للتقوى.

نحن الذين إذا وُلدنا بكرَةً كُنَّا على ظهر الخيول أصيلاً
فليهدموا كلَّ المآذن فوقنا نحنُ المآذنُ فاسمعِ التهليلاً
ولسانُ حالِ الباطل: أَشْغَلْهُمْ بالتوافه، واحشُ جماجمهم بالسفساف،
وصبَّ عليهم سيلَ الشهوات، ومطرَ الشبهات، وتافِه الصراعات، واملأ وقتهم
بحصد اللاشيء، ثم دَعَهُمْ في ضحضاح الخيبة؛ كي لا يدافعوا بالحق باطلك!
وما باتَ يسقينا سوى الماء وحدهُ وهذا جَزَا من باتَ ضيفَ الضفادعِ
وبحمد الله فمهما صلصل الباطل وجلجل؛ فهو تبابٌ، ويبقى الحق شامخاً
راسخاً، وتدبر: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوكَ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾
[الأعراف: ١١٦] ثم كانت النهاية بأيسر طريق: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنها سُنَّةُ المدافعةِ والصراع، ونهايته: ﴿بَلْ
نَقَذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جيشٌ من الكفر مهزومٌ إذا صدقتْ نياتُ قومي إلى أعلى أعاليتها

وافرح. أخوا الإيمان. ببشارة نبي الإسلام بنصر الله للإسلام، قال النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوي لي منها»^(١). وقال أيضاً: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل به الكفر»^(٢).

وتأمل حال الأمة اليوم، واعلم أن أحداث آخر الزمان في الفتن جُلّها في العراق، والملاحم جُلّها في الشام، حتى طريق الدجال للحجاز يكون من بينهما، نعوذ بالله من مضلات الفتن، ونسأله جبر القلوب بعزة الإسلام في قلوب أهله وميادين الجهاد في سبيله، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لكل طريق مختصراً، ومختصر طريق الجنة الجهاد».

خَلَقَ اللهُ لِلْحَرْبِ رَجَالاً وَرَجَالاً لِقَصْعَةٍ وَثَرِيدٍ

ولا تكن - لك الله - من المرجفين ولا البكائين المتشائمين، وفي الصحيح: «إذا قال الرجل: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُمُ»^(٣). والإسلام يعلو ولا يُعلى، واعلم أن نصر المؤمن وفوزه لا يلزم منه كسب الحرب العسكرية، بل يكفي منه ثباته على الإسلام، وهذا معنى حَسَنٌ تَكَرَّرَ فِيهِ فِي الْمَجَامِعِ وَالْخُلُواتِ، فَمَنْ ثَبَتَ

(١) مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أحمد (١٦٩٥٧) وصححه الألباني على شرط مسلم في تحذير الساجد (١١٨-١١٩).

(٣) مسلم ٣٦/٨ (٢٦٢٣) (١٣٩).

على دينه فهو المنتصر حقاً حتى ولو كان تحت الأقبية في الزنازين أو تُوج بالشهادة في سبيل رب العالمين، وتزول عن أماكنها الجبال، ولا تزول عن مبادئها الرجال، فالعبرة الحق إنما هي بالدين الحق، أما الدنيا فمجرد ممر للسائرين. ورضوان الله عز وجل أصل جميع السعادات، وكلها راجعة إليه، قال سبحانه لما ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلتكن رعاك الله. من أصحاب المبادئ لا من أصحاب المصالح، واعلم أن المصالح تتدثر أحياناً بثياب المبادئ، فتجمع ضغثاً على إباله، وحشفاً وسوء كيلة، وشحاً ونفاقاً. فإن يوماً ضعفت نفسك وحار عقلك وتقلقل علمك وتحرك يقينك وتزعزع جأشك؛ فتدبر خاتمة الصافات، وفيها يقول ربنا الأعلى: ﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٧) وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ (٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الصافات: ١٧٦-١٨٢].

أبشر خليلي فقد أجلت لنا الكتبُ	نصر من الله في الكفار يلتهبُ
أنجد أخِي ولا تلو على ضعة	واشف صدوراً شواها القهر والكربُ
أشرق بوجهك قد حانت بوادره	وعد من الله للأحرار يقتربُ
تنزيل مرحمة تنزيل ملحمة	تجنيد ألوية صمصامها النجبُ
نبراسها العلم والتقوى تؤججها	فرقائها سائق إن صاحت النوبُ

وبالجملة؛ فالطريق واضح، والمنهاج مسلك، والنور في أيدينا إن كنا

نعقل^(١).

هذا؛ وإن لشمس الحضارات دورات فلكية تغرب في بلاد لتشرق في بلاد، وإن حضارة الإسلام قد أوشكت على الشروق في العالم كله بأبهى حللها وأروع صورها، ولا شك أن الإسلام هو المرشح لقيادة البشرية في المرحلة المقبلة لإنقاذها من التردّي والسقوط، وتخليصها من مآهات الحضارة المادية المعاصرة التي تسير بهوج وغرور وطيش لتدمير الإنسان تدميراً كاملاً، والقضاء على ما تبقى من قيمه ومقدراته، لولا أن الله حرس جنس البشر بالإسلام.

فالإسلام يتقدم اليوم إلى العالم بأسره حاملاً معه الشريعة الربانية التي ستنقذ البشرية مما هي فيه من الضلال والانحراف، وتقودها إلى السعادة والسلام والطمأنينة، وتنقلها من واقع مأساوي متردي إلى واقع جديد طالما انتظرت الأجيال الماضية وحلمت به الأجيال الحاضرة.

والمؤمن الصادق في إيمانه لا بد أن يؤمن إيماناً جازماً بأن المستقبل لهذا الدين، وأن أمة الإسلام هي القادمة - وإن تأخرت زمناً - لقيادة العالم وريادة البشرية، وهذا التفاؤل إنما هو ثقة بوعده الله وإيمان بمبشرات قرآنية ونبوية معززة بمجموعة من المبشرات الواقعية.

أولاً: المبشرات القرآنية:

وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بالاستخلاف والنصر والغلبة

(١) انظر: «ولا تفرقوا». للمؤلف (٣٩٩-٤٠٤).

والتمكين في الأرض، وقد أنجز الله سبحانه وتعالى هذا الوعد لرسوله وللمؤمنين وهو وعد ماض إلى يوم القيامة وسنة من سنن الله لا تتبدل ولا تتحول، وما على المسلمين الصادقين إلا أن ينهضوا لحمل راية الدين والمضي بها اقتداء بالنبي ﷺ واقتفاء بخطواته المباركة، فمن المبشرات القرآنية التي تبشر بالاستخلاف والتمكين.

١ - قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فمن الحقائق الكبرى التي يجب أن تكون مستقرة في قلب كل مؤمن هي وعد الله لعباده بالاستخلاف في الأرض، ووعد له لدينه بالظهور والغلبة في الأرض، ومن ثم التمكين في الأرض كما يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولادة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً».

وقد أنجز الله وعده لعباده المؤمنين، فلم يمت النبي ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من أهل الكتاب، ومن مجوس هجر.

ثم لما مات رسول الله ﷺ قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجيش الجيوش، ودك الحصون، وفتح الله على يديه جزءاً من بلاد فارس وبصرى ودمشق من بلاد الشام.

وألهم الله الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يستخلف عمر الفاروق من بعده، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، وتم في عهده فتح البلاد الشامية بكاملها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهان غاية الهوان، وهزم قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام.

ثم لما كان عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتدت الممالك الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب والأندلس وقبرص وبلاد القيروان ووصلت الفتوحات شرقاً إلى أقصى بلاد الصين، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وجبي الخراج من المشارق والمغرب إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم من بعده»^(١).

وبقيت الأمة الإسلامية في طليعة الأمم والشعوب تحتل مكان القيادة والريادة ما بقيت متمسكة بكتاب ربها وسنة نبيها محمد ﷺ، وبقي المسلمون أعزاء ما بقوا يعتزون بدينهم، ويلتفون حول إسلامهم.

فلما هان على المسلمين دينهم وبحثوا عن العزة في غيره أذلهم الله ووصلوا إلى هذه الحالة من الذلة والمهانة والضعف والهوان، ومع ذلك فإن سنن الله

(١) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٣٠٠)

ماضية إلى يوم القيامة لا تتحول ولا تتبدل، وما زال وعد الله باقياً لهذه الأمة بالنصر والتمكين، إن عادت الأمة إلى رشدّها، وتمسكت بكتاب ربّها، وسنة نبيّها، عندئذٍ ستكون لهم الغلبة، وسيتحقق لهم النصر والتمكين والخلافة في الأرض.

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة، فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وحركات جسمه، ولفترات جوارحه، وسلوكه مع ربه، ومع الناس جميعاً، يتوجه بهذا كله إلى الله ليكون هذا الإيمان منهج حياة كامل يتضمن كل ما أمر الله به ونهى عنه، ويدخل في ذلك كله إعداد العدة والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض وهي أمانة الاستخلاف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أي يخلف من سبقه، فيعمر الأرض بسلام الإيمان وأمن الإسلام.

وهذه الأمانة ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة.

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم

مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، وتمكن الدين بعد الاستخلاف يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها، فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، ويأمر بالإصلاح والعدل ويأمر بعمارة الأرض والاستعلاء على شهواتها، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

فإذا استقام المسلمون على النهج فلا عليهم من قوة الكافرين فما هم بمعجزين في الأرض وقوتهم المادية الظاهرة لن تخضع المؤمنين الذين يتسلحون بسلاح الإيمان، فالقلوب المؤمنة التي تجاهد الأعداء تصنع الخوارق والأعاجيب بعون من الله ومدد منه، إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله إلا تحقق لها وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن، وما من مرة خالفت هذا النهج الإلهي إلا ذلت وتخلفت في ذيل القافلة، وطردت من الهيمنة على البشرية، واستبدَّ بها الخوف، وتخطفها الأعداء. ألا وإن وعد الله قائم، ألا وإن شرط الله معروف، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط^(١).

٢. ومن المبشرات القرآنية التي تبين أن الغلبة لهذا الدين وأن جند الله هم المنصورون والغالبون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿[الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

(١) انظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (١/٢٦ - ٢٩).

فهذه الآية الكريمة تسلية ووعد من الله لرسوله ﷺ وأتباعه المؤمنين من بعده بأن الله سينصرهم على من عاداهم، وهي بشارة أيضاً بالغلبة للنبي ﷺ بعد تسليته وللمؤمنين، فإن المؤمنين هم جند الله وهم أنصاره الذين نصرُوا دينه، وقوله: ﴿لَهُمُ الْغَلْبُونَ﴾ يشمل علوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة.

فوعد الله لا محالة واقع، وكلمة الله لا شك قائمة، فهذا الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والغلبة سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تختلف أبداً ولا تتخلف، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المؤلف من صور النصر والغلبة.

وقد يريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى فيكون ما يريد الله، ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قريش، وأراد الله أن تفوتهم القافلة الراحلة الهينة، وأن يقابلوا الطائفة ذات الشوكة، وكان ما أراد الله هو الخير لهم وللإسلام، وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله ﷺ وجنده ودعوته.

وقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة، ويقسوا عليهم الابتلاء، لأن الله يُعِدُّهُمْ للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر

أدوم، لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد (١).

٣- ومن المبشرات القرآنية التي تعد المسلمين بالنصر والتمكين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) ﴿أَنَّ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

«فإن الله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بالدفاع عنهم، ولقد كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألستهم وأيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول الله فيقول لهم: «اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال» (٢).

فأباح لهم القتال في المدينة وكانت هذه الإباحة من جملة دفع الله لأعدائهم ودفاعه عنهم، ولولا هذا الدفاع الإلهي لهدمت في زمن موسى وفي زمن عيسى الصوامع والبيع وفي زمن محمد ﷺ المساجد، وذلك على أيدي الكفار

(١) السابق (٢٩/١).

(٢) أحمد ٢٦٢/١ (١٨٠٦٥)، الترمذي (٣١٧١) (٣٠٤/٥)، زاد المسير (٤٣٦/٥)، تفسير ابن كثير (٤٣٠/٥)، تفسير البغوي (٣٨٨/٥).

والمشركين الذين يصدون عن سبيل الله ويقفون في وجه دعوة الله ويقسم الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ أي والله لينصر الله من ينصر دينه وأوليائه وهو وعد من الله مؤكد بالقسم بالنصر لمن إن مكن في الأرض أقام الصلوات الخمس وآتى الزكاة المفروضة، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، والله لا يخلف وعده^(١).

ومن اللطائف: «لقد ضمن الله للمؤمنين أنه سيدافع عنهم، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حقاً من عدوه ظاهراً حتماً عليه، ولكن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماها من الكسالى الذين يجلسون في استرخاء ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء، بل جعل نصره لهم ودفاعه عنهم عن طريقهم هم أنفسهم.

فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة، والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور.

وأيضاً فالنصر السريع يسهل فقدانه وضياعه؛ لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات، ولأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، وبالتالي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه، من أجل هذا كله جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم أنفسهم، ولم يجعله لقيّة

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣/ ٤٥٦، ٤٥٧).

تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه، فالله ينصر من ينصره، ينصر الذين ينصرون نهجه معتزين بالله وحده دون سواه، والنصر الذي يعد الله به هو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه، فهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة^(١).

٤ - ومن المبشرات القرآنية أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ^(٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢١-٢٢].

فهذه الآية الكريمة تتحدث عن سنة ثابتة من سنن الله، وتبين أن الذين يحادون الله ورسوله سيلحقهم الذل في الدنيا والآخرة، وقد قضى الله سبحانه قضاء ثابتاً بالذلة للكافرين وأعداء الدين، والغلبة لرسوله وأوليائه، وهذه الغلبة على نوعين: فمن يؤمر منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة^(٢).

(١) عن: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، دراسة قرآنية واقعية. د. محمود هاشم عنبر (٣١ / ١) وانظر ما بعدها. وأصله بحث مقدم إلى مؤتمر "الإسلام والتحديات المعاصرة" المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية. وجُلّ مبشرات هذا الفصل مقتبسة منه.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٤ / ٢٦٤).

فالمؤمن يجب أن يتعامل مع وعود الله بالغلبة والنصر والتمكين على أنها هي الحقيقة الواقعة، رغم ما نراه من أحوال المسلمين اليوم وواقع حياتهم، وصور الحروب الهائلة والمتنوعة التي يشنها أعداء الدين على أهل الإيمان، حيث يقتلون العباد، ويقطعون الأرزاق، وينتهكون الحرمات، ويدنسون المقدسات، ويهلكون الحرث والنسل، ويتسلطون على المسلمين في بلادهم بكل أنواع النكاية، وبكل أساليب البطش والتنكيل والهلاك، والتي أفقدتهم إنسانيتهم، وأظهرت حقدهم الدفين وأفكارهم الماكرة، ومع ذلك بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار والضياع، والذوبان في الأمم المستعمرة، فحين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع يشعر بمعية الله، وقرب تحقق وعد الله وأن الذين يحادون الله ورسوله مهما علوا في الأرض فهم الأذلون، وأن الله ورسوله وأوليائه هم الغالبون.

٥- ومن المبشرات القرآنية على غلبة الدين ونصر أتباعه: الإخبار بضعف كيد الكفار وضلال سعيهم في النيل من الإسلام، وفشل كيدهم في الصد عنه والتآمر عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فهذه الآية نزلت بعد هزيمة المشركين في غزوة بدر كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما أصيبت قريش يوم بدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم

وأبناءؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قریش تجارة فقالوا: يا معشر قریش إن محمداً قد وَتَرَکُمْ، وقتل خيارکم، فأعينونا بهذا المال على حربہ لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، فأخبر تعالى أن الکفار ینفقون أموالهم لیصدوا عن اتباع طریق الحق فسیفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون علیهم حسرة، أي ندامة، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور کلمتهم على کلمة الحق والله متم نوره ولو كره الکافرون، وهو سبحانه مظهر دینہ على کل دین، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعینه وسمع بأذنه ما یسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدی والعذاب السرمدي»^(١).

وفي ذلك تحفيز ضمني للمسلمين بأن یجتمعوا على دینهم وأن ینفقوا الغالي والنفيس في الذود عنه ودحض وصد الاعتداءات علیه، فإذا كان أهل الباطل ینفقون أموالهم للدفاع عن باطلهم ولا ییخلون فجدير بأهل الحق أن یكونوا أحرص على الإنفاق في سبیل الله والبذل في سبیل نصرته ورد العدوان عنه.

ثانياً: المبشرات النبویة:

بَشَّرَ النبي ﷺ أمة الإسلام بالغلبة على أعدائها وبالنصر والتمكين والخلافة من خلال أحاديث كثيرة بینت أن المستقبل لهذا الدین لأنه منهج حياة للبشرية یشتمل على کل المقومات المنظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، وینسجم بتعالیمه مع المصلحة الإنسانية والمتطلبات الفطرية، ومن هذه الأحاديث:

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٧).

١ - ما رواه تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»^(١).

٢ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ويفيض، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»^(٢).

فهذه البشارة النبوية تبشر بحقبة من الرخاء والأمن والأمان يؤدي فيها الناس زكاة أموالهم، وتوزع الزكاة على المحتاجين، فينعم الجميع بالخير، وتسود العدالة الاجتماعية في أجمل صورها، وتفيض الأموال بحيث يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها قناعة من الناس بما في أيديهم، واكتفاء بما من الله به وأنعم عليهم من مال، ولا يكون ذلك إلا في ظل سيادة الإسلام للبشرية، وقيادته للإنسانية، وتطبيق الإسلام وتجسيده واقعاً في حياة الناس.

٣ - ومن المبشرات النبوية أيضاً البشارة بقتال أعداء الإسلام وانتصار المسلمين عليهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/١).

(٢) رواه مسلم (١٥٧).

من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله؛ هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله. إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»^(١).

فالاستكبار اليهودي في الأرض لن يدوم، ووعد الله متحقق لا محالة، لأن الله لا يخلف وعده، والمعركة الفاصلة التي يبشر بها النبي ﷺ بين المسلمين واليهود واقعة بإذن الله، وسيعود اليهود إلى وضعهم الطبيعي الذي كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة وغضب من الله، فقد توفرت فيهم أسباب الاندحار والهزيمة والخذلان، وسينجز الله للأمة وعده يوم أن يقوموا له بأسباب النصر.

٤ - ومن المبشرات النبوية البشارة بقيام الخلافة الراشدة وذلك في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم يكون ملكاً عاصباً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية فتكون

(١) رواه البخاري (٢٩٢٦) والغرقد: هو ضرب من شجر العِضاه وشجر الشوك، والغَرَقْدَة واحدته، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة: بقيع الغرقد لأنه كان فيه غرقد وقطع. ويسمى العوسج، وعند بعض عامة نجد: طماطم البدو. والغرقد من شجر السباح، وبها أشواك حادة، وأغصانها كثيرة متشابكة جاثية على الأرض كالأراك، ويصل ارتفاعها إلى المترين، وهي من العائلة الرطاطية. وأوراقها لحمية سميكة بعض الشيء، وأزهارها صغيرة، وثمرتها تشبه ثمر الكرز، وترعاها الجمال، وتزهر وتثمر في الشهر الخامس الميلادي مايو. وتأكل الطيور ثمارها، فثمارها عصيرية حلوة الطعم. وربما تكون الغردقة المصرية مسماة منها، وتقديم الأحرف على بعضها سائغ شائع في العربية.

ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»^(١).

فمن خلال هذا الحديث يتبين لنا أن أمة الإسلام على موعد مع نصر وتمكين من الله، وإقامة خلافة على منهاج النبوة، والنبي ﷺ إذ يعد بذلك إنما ينطق بوحى من الله سبحانه، فالوعد وعد الله ولن يخلف الله وعده.

٥ - المبشرات بوجود الطائفة المنصورة، حيث تظهر هذه المبشرات من خلال أحاديث نبوية تبين فضل الشام، وأن هذه الأرض المباركة سيكون لها دور في تاريخ البشرية وقيادتها، فمن هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة: جند بالشام، وجند بالعراق»، فقلت: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك فقال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يحبني إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واستقوا غُدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله»^(٢).

فمن خلال هذه المبشرات النبوية نستمد يقيناً لا يتزعزع بأن المستقبل للإسلام، وأن له دوراً قادماً في قيادة البشرية بعد أن أثبت الواقع في الماضي والحاضر، ومن خلال التجارب العملية إفلاس كل النظم والمذاهب في

(١) أحمد في مسنده (٢٧٣ / ٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٨ / ٦) رجاله ثقات،

وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٨، ٩).

(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٣) وصححه الألباني.

مناهجها وتشريعاتها وعقائدها وفشلها في قيادة سفينة الإنسانية نحو حياة
عزيزة مطمئنة كريمة، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



وقفة مع حديث: «يا طوبى للشام...»^(١)

وبين يديك حروف قد كتبتها في أحداث الشام التي أصابت الأمة وآمتها وأبكتها وأثكلتها حوت كثيرًا من المبشرات بعنوان: يَا طُوبَى لِلشَّامِ!

فالحمد لله الذي فضل بعض البلدان واختارها، وقَدَّم بعض البقاع واصطفاه، وأكْرَم بِشَامِهَا! فليس بعد مكة والمدينة أشرف بقعة منها، ولقد تربعت الشام على أفئدة المؤمنين، وسكنتها قلوب الصالحين، ودرجت عليها نفوس الأنبياء والمرسلين، فهي سيِّدة البقاع بعد الحرمين، وإليها موئل الإيَّان ومأرز الجهاد في آخر الأيام، وفيها عسكر الإيَّان ومهاجر جند الإسلام قبل نهاية الزمان، ولعلَّ شدة المخاض في هذه الأيام في غالبية الإسلام سوريا أمارات لذلك الأمر الجليل.

فَيَا رَبَّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُتَعَى وَيَا رَبَّ هَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعْوَلُ

وفي هذا المقال وقفات مختصرة لإجلاء بعض تيك الفضائل وتنوياً بصلاح أهلها في آخر سِنِّي الدنيا وبقية صُباباتِ كأس زمانها.

وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (مناقب الشام وأهله): «ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء^(٢) وهي أحد ما اعتمدته في

(١) وهو مقال منشور في الشبكة بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٤٣٣ / https://saaid.net/arabic/١٤٣٣.htm

وهو في مدونتي كذلك: مدونة إبراهيم الدميحي.

(٢) وقد سُطرت مؤلفات عدّة في القديم والحديث حيال فضائل الشام وأهله منها:

تحضيضي على غزو التتار، وأمري لهم بلزوم دمشق، ونهبي لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائي للعسكر المصري إلى الشام، وتثبيت العسكر الشامي فيه، وقد جرت في ذلك فصول متعددة.

وهذه المناقب أمور:

أحدها: البركة فيه، ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى:

الأولى: قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْزَنَّا آلَقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٩] ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورشوا مشارق أرض الشام ومغارها بعد أن أغرق فرعون في اليم.

(فضائل الشام ودمشق) لأبي الحسن علي بن محمد الربعي، وخرّج المرفوع من أحاديثه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ، وخرّج وطبع معه (مناقب الشام وأهله) للإمام ابن تيمية وأكثر أحاديث هذا المقال مستفادة منه، (فضائل الشام) للحافظ أبي سعد عبد الكريم السمعاني، (فضائل الشام) لابن رجب الحنبلي، (فضائل الشام) للحافظ ضياء الدين المقدسي، (نزهة الأنام في محاسن الشام) لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري، (حدائق الإنعام في فضائل الشام) لعبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي، (ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام) للعز بن عبد السلام، (بغية المرام في سكن المدينة والشام) لعبد المطلب بن محمد الخطيب الحسني، (الإعلام بسن الهجرة إلى الشام) لبرهان الدين إبراهيم البقاعي، وفي (تاريخ دمشق لابن عساكر) طائفة حسنة شريفة من الأحاديث والآثار في شأن الشام ولابن عبد الهادي مصنف في ذلك، وغير ذلك كثير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) [الإسراء: ١] وهي أرض الشام.

الثالثة: قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿[الأنبياء: ٧٠-٧١] ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَسَلِّمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

الخامسة: قوله تعالى في قصة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨] وهو ما كان بين اليمن وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء.

فهذه خمسة نصوص حيث ذكر الله أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها، وانتقال بني إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها، وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها.

وأيضاً ففيها الطور^(١) الذي كلم الله عليه موسى والذي أقسم الله به في

(١) وانظر: «هل جبل الطور في الحجاز». للمؤلف.

سورة الطور، وفي سورة التين ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ^(١) وَطُورِ سِينِينَ ﴿[التين: ١ - ٢] وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها معراج ومصرى نبينا ﷺ، ومنها معراج، وبها ملكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد، كما أن من مكة المبدأ، فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض.

والشام إليها يحشر الناس كما في قوله تعالى: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر؛ فإنه أسرى بالرسول ﷺ من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام. فمكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية.

ومن ذلك أن بها الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية وغيره: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» ^(١) وفيها عن معاذ بين جبل قال: «وهم بالشام». ^(٢) وفي تاريخ البخاري مرفوعاً قال: «وهم بدمشق» ^(٣). وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال أهل الغرب

(١) البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٥٦).

(٢) البخاري (٣٦٤١).

(٣) الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٥٨) وأبو يعلى (٦٤١٧)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٨٤/٧). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦١٠٤).

ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١).

وقال أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام. وهو كما قال لوجهين..
فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة، وما كان ثمّ شرقيها فهو شرقي المدينة.
فأخبر ﷺ أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين، وأما أهل الشرق فقد
يظهرون تارة، ويُغلبون أخرى، وهكذا هو الواقع، فإن الجيش الشامي ما زال
منصوراً. وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي: إمام أهل الغرب، ويسمون
الثوري شرقياً، ومن أهل الشرق.

ومن ذلك أنها خيرة الأرض، وأن أهلها خيرة الله وخيرة أهل الأرض،
واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديث كثير مثل؛ حديث عبد الله بن
حوالة الأزدي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ستجندون أجناداً؛
جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق». فقال الحوالي: يا رسول الله،
اختر لي. قال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها حزبه من
عباده، فمن أبي فليلحق بيمنه، وليسّق من غدّره، فإن الله تكفل لي بالشام
وأهله»^(٢) وكان الحوالي - راوي الحديث - يقول: من تكفل الله به فلا ضيعة

(١) مسلم (١٩٢٥).

(٢) أبو داود (٢٤٨٣)، والطبراني (٥٨/٢٢) (١٣٧)، وصححه الذهبي في التلخيص
والألباني في صحيح الجامع (٤٠٧٠). وقال العز ابن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه
شهادة من رسول الله ﷺ باختيار الشام، وبفضلها وباصطفائه ساكنيها، واختياره
لقاطنيها، وقد رأينا ذلك بالمشاهدة، فإن من رأى صالحي أهل الشام ونسبتهم إلى

عليه... وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سيكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم، وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيثما كانوا، وتقيل معهم حيثما قالوا»^(١). فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام.

وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حرّان وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم، ودين نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم تعدل مهاجر نبينا ﷺ، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة.

ومن ذلك أن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام، كما في الصحيح

غيرهم رأى بينهم من التفاوت ما يدل على اصطفتائهم واجتبائهم بارك». وانظر: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ١٣٨/٢ للمهاجري الأسيوطي، وإتحاف الأنام في فضائل المسجد الأقصى والشام. ص: (٥٥).

(١) أبو داود (٢٤٨٢) وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو صدوق، كثير الإرسال والأوهام، فهو ضعيف كما في التقريب (٢٨٤٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٢٠٨ - ٢٠٩) (٤٠٠٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ ٥١٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

من حديث عبد الله بن عمر.

ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام كما قال النبي ﷺ: «رأيتُ كأن عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي، فأتبعته بصري فذهب به إلى الشام»^(١).
ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وعقر دار المؤمنين بالشام»^(٢).

ولهذا استدلتُ لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع الموصوفين بخصال المنافقين، لما خوَّفونا منهم، فأخبرتهم بهذا الحديث: «وأن منافقيننا لا يغلِبوا مؤمنينا». وقد ظهر مصداق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجوه في جهادنا للتتار، وأظهر الله للمسلمين صدق ما وعدناهم به، وبركة ما أمرناهم به^(٣)، وكان ذلك فتحاً عظيماً ما رأى المسلمون مثله، مثل صرح مملكة التتار التي أذلت أهل الإسلام، فإنهم لم يُزَمُوا

(١) رواه أحمد (٣٦ / ٦٢) (٢١٧٣٣) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه النسائي (٢ / ٢١٧ - ٢١٨) وابن حبان (١٦١٧) وأحمد (٤ / ١٠٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤ / ٤٣٤).

(٣) قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها. وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها، وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم». المدارج (٢ / ٣٦٦ - ٣٦٧). وهذا من فراسة المؤمن الصادق التقي المجاهد العالم العامل، واستقراء سنن الله تعالى في شرعه وخلقه التي لا تبدل، ولا تتحول، ولا تتأخر، ولا أزكي على الله أحداً.

أو يُغلبوا كما غلبوا على باب دمشق في الغزوة الكبرى التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه خصوصاً وعموماً»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والنبي ﷺ مَيَّزَ أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة، وهذا الوصف ليس لغير أهل الشام من أرض الإسلام.

فإن الحجاز^(٢) التي هي أصل الإيذان نقص في آخر الزمان منها العلم والإيمان، والنصر والجهاد، وكذلك اليمن والعراق والمشرق، وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان، ومن يقاتل عليه منصوراً مؤيداً في كل وقت»^(٣).

وكم بالشام من شرفٍ وفضلٍ ومرتبٍ لدى برٍّ وبحرٍ
بلادٌ بآرك الرحمن فيها فقدَسَها على علمٍ وخُبِرٍ

قال الحسن وقتادة رحمها الله تعالى: «إن الأرض ﴿الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾ هي الشام، وقال قتادة: هي الشام، وقد أنجى إبراهيم ولوط عليهما السلام من العراق إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد

(١) مجموع الفتاوى (٢٧: ٥٠٥-٥١١) باختصار وتصرف يسير، والرسالة مطبوعة

بعنوان مناقب الشام وأهله بتخريج الإمام الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) يصح إطلاق الحجاز أو تهامة على مكة والمدينة، فهما من تهامة من جهة طبيعة الأرض، ومن الحجاز من جهة موقعهما بين تهامة الساحل ونجد، فالأمر واسع.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٤/٤٤٩).

في الشام، وما نقص في الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى بن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال»^(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «هي أرض الشام، وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبني بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقيم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين»^(٢).

قال الخطابي: «فالهجرة الثابتة هي الهجرة إلى الشام يرغب فيها خيار الناس، وهي مهاجر إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وعلى آلها وسلم»^(٣).
وقال ابن رجب الحنبلي: «واعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا، ولهذا سميت الأرض المقدسة»^(٤).

وعن زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! قالوا: يا رسول الله

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨: ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١٨: ٤٧٠).

(٣) عن: إسعاد الأخصا بذكر صحيح فضائل الشام والمسجد الأقصى (١/ ١٤).

(٤) السابق (١/ ١٨).

ولم ذلك؟ قال: «تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام»^(١).
وفي الصحيحين عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «اللَّهُم
بارك لنا في شامنا اللَّهُم بارك لنا في يمننا..»^(٢).
وعن معاوية بن حيدة رضي الله قال: قلت: يا رسول الله أين تأمرني؟ وفي
رواية (خِرَ لِي) قال: «ها هنا» ونحا بيده نحو الشام، قال: «إنكم محشورون
رجالاً وركباناً وتُجَرَّون على وجوهكم»^(٣).
وعن أبي أمانة الباهلي قال: «لا تقوم الساعة حتى يتحوّل خيار أهل العراق
إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق، وقال رسول الله ﷺ: «عليكم
بالشام»^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا وَقَعَتْ

(١) أحمد (٥ / ١٨٤)، والترمذي (٢ / ٣٣١) وقال: «حديث حسن»، وزاد في بعض النسخ: «صحيح»، والفسوي في «التاريخ» (٢ / ٣٠١)، وابن حبان (٢٣١١)، والحاكم (٢ / ٢٢٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي. قال الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن الربيعي (٩ / ١): وهو كما قالاً، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١ / ١١٢-١١٥)، وقال المنذري في «الترغيب» (٤ / ٦٣): رواه ابن حبان في «صحيحه»، والطبراني بإسناد صحيح.

(٢) البخاري ٦٧/٩ (٧٠٩٤).

(٣) أحمد (٢٠٠٣١) (٣٣ / ٢٣٣) والترمذي (٢١٩٢) وقال: حسن صحيح، والطبراني ١٩ / (٩٧٦)، والحاكم ٥٦٤/٤ وصححه الألباني.

(٤) أحمد (٤٦١ / ٣٦) (٢٢١٤٥) وحسنه الألباني.

الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من الموالي أكرم العرب فرساً، وأجودهم سلاحاً، يؤيد الله بهم الدين»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ، إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى، فِسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الْغُوطَةُ، فِيهَا مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ»^(٢).

وعن النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ»^(٣).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ! مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يُخْرِجُ مِنْهَا نُورَ أَضَاءَاتِ مِنْهَا قُصُورَ الشَّامِ»^(٤).

قال ابن كثير^(٥): «وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه

(١) ابن ماجه (٤٠٩٠) والحاكم (٤٠٤٨ / ٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١ / ٢٥٨ - ٢٦٠) وصححه الألباني.

(٢) أحمد (١٩٧ / ٥) (٤٢٩٨) وصححه أيمن صالح شعبان في تخريج جامع الأصول (٣٥٢ / ٩).

(٣) مسلم ١٩٦ / ٨ (٢٩٣٧) (١١٠) وهي المنارة الشرقية للجامع الأموي وهي بيضاء.

(٤) أحمد (٥٩٥ / ٣٦) (٢٢٢٦١) وهو صحيح لغيره.

(٥) تفسير ابن كثير (١ / ٤٤٤).

ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم.

وعن قُرّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١).

وعن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالشام، فإنها صفوة بلاد الله، يسكنها خيرته من خلقه»^(٢).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في بناء له، فسلمت عليه، فقال: «عوف» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «ادخل» فقلت: كلي أم بعضي؟ قال: «بل كلك» قال: فقال لي: «اعدد عوف ستاً بين يدي الساعة، أولهن: موتي» قال: فاستبكت حتى جعل رسول الله ﷺ يسكتني قال: «قل: إحدى. والثانية: فتح بيت المقدس. قل: اثنين. والثالثة: فتنة تكون في أمتي وعظمتها، والرابعة: مُوتان يقع في أمتي يأخذهم كقعاص الغنم»^(٣)، والخامسة: يفيض المال فيكم فيضاً حتى إن الرجل ليعطى المئة دينار فيظل يسخطها، قل:

(١) أحمد (٤٣٦ / ٣) (٣٥ / ٥) والترمذي (٢١٩٢) وصححه.

(٢) المعجم الكبير (١٣٧) وصححه الألباني.

(٣) المُوتان - بضم الميم -: الموت الكثير الوقوع. والقعص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، يقال: قعصته وأقعصته، إذا قتله قتلاً سريعاً، وقعاص الغنم: داء يأخذ الغنم لا يُلبثها أن تموت.

خمسًا. والسادسة: هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر^(١)، يسرون إليكم على ثمانين راية، تحت كل راية ثمانين ألفًا، فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة ويقال لها دمشق^(٢).

ونقف عند فتوى جامعة للشيخ الشامي الجامع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حينما سُئِلَ: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين؟ هل تفضل الإقامة في الشام على غيره من البلاد؟ وهل جاء في ذلك نص في القرآن أو الأحاديث أم لا؟ أجيبونا مأجورين. فأجاب رَحِمَهُ اللهُ: «الحمد لله، الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه أطوع لله ورسوله، وأفعل للحسنات والخير، بحيث يكون أعلم بذلك، وأقدر عليه، وأنشط له أفضل من الإقامة في موضع يكون حاله فيه في طاعة الله ورسوله دون ذلك. هذا هو الأصل الجامع، فإنَّ

(١) بنو الأصفر: الروم، ويقال إن أصلهم من بني عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، ثم اختلطوا مع شعوب أخرى وانصهروا جميعًا. وهم أشدُّ الأمم احتكاكًا وصراعًا مع المسلمين على مر الأزمنة، وهم الخصم الحضاري التقليدي المستمر حتى تقوم الساعة، والله في ذلك أعظم الحكم.

(٢) أحمد (٦/ ٢٥)، والحاكم (٤/ ٤١٩ و ٤٢٢-٤٢٣)، وصححه، وابن عساكر، قال الألباني: وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن الربيعي (١/ ٦٧). وأخرجه البخاري (٦/ ٢٢ و ٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٤٩٦-٤٩٧)، وأحمد (٦/ ٢٢ و ٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٢٨)، والمقدسي في «فضائل الشام» (٤٤/ ٢)، وغيرهم من طرق أخرى عن عوفٍ به، دون قوله في آخره: «فسطاط المسلمين».

أكرم الخلق عند الله أتقاهم. والتقوى هي ما فسرّها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وجماعها فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

وإذا كان هذا هو الأصل؛ فهذا يتنوع بتنوع حال الإنسان. فقد يكون مقام الرجل في أرض الكفر والفسوق من أنواع البدع والفجور أفضل إذا كان مجاهداً في سبيل الله بيده أو لسانه، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، بحيث لو انتقل عنها إلى أرض الإيمان والطاعة لقلت حسناته، ولم يكن فيها مجاهداً، وإن كان أرواح قلباً، وكذلك إذا عدم الخير الذي كان يفعله في أماكن الفجور والبدع.

ولهذا كان المقام في الثغور بنية المراقبة في سبيل الله تعالى أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة باتفاق العلماء؛ فإن جنس الجهاد أفضل من جنس الحج، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٩] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ [التوبة: ١٩ - ٢٠].

وسئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله» قال: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»^(١).

(١) البخاري (١٥٢٠).

وهكذا لو كان عاجزاً عن الهجرة والانتقال إلى المكان الأفضل التي لو انتقل إليها لكانت الطاعة عليه أهون، وطاعة الله ورسوله في الموضوعين واحدة، لكنها هناك أشق عليه. فإنه إذا استوت الطاعتان فأشقهما أفضلهما، وبهذا ناظر مهاجرة الحبشة المقيمون بين الكفار لمن زعم أنه أفضل منهم، فقالوا: كنا عند البُغضاء البُعداء، وأنتم عند رسول الله ﷺ: يُعَلِّمُ جاهلكم، ويطعم جائعكم، وذلك في ذات الله.

وأما إذا كان دينه هناك أنقص فالانتقال أفضل له، وهذا حال غالب الخلق، فإن أكثرهم لا يدافعون، بل يكونون على دين الجمهور.. وأما الفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان ففي الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْآلَ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١ - ١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وإسلام الوجه لله تعالى هو إخلاص القصد والعمل له والتوكل عليه.. فلا ينبغي للرجل أن يلتفت إلى فضل البقعة في فضل أهلها مطلقاً، بل يعطى كل ذي حق حقه، ولكن العبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب، ثم قد يكون بعض البقاع أعون على بعض الأعمال كإعانة مكة حرسها

الله تعالى على الطواف والصلاة المضعفة ونحو ذلك.

وقد يحصل في الأفضل معارض راجح يجعله مفضولاً؛ مثل من يجاور بمكة مع السؤال والاستشراف، والبطالة عن كثير من الأعمال الصالحة، وكذلك من يطلب الإقامة بالشام لأجل حفظ ماله وحرمة نفسه، لا لأجل عمل صالح، فالأعمال بالنيات»^(١).

إنَّها الشام، مشى على ثراها كرام المرسلين كمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل، ووصلتها طلائع الأمة الحمّادة المرحومة فاتحة مظفرة منصوره منهم عشرة آلاف من الأصحاب مئة منهم من البدرين. قال الوليد بن مسلم: دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله ﷺ^(٢).

ثم تكسّرت على سواعد بواسلها حملات الصليب طوال مئتي عام، فلله هم من حُماة الدين، رحم الله أسلافهم، وحفظ الأحياء وحماهم.

ختاماً: يا أهلنا في الشام: الله الله في الاعتصام بحبل الله وإخلاص الدين له، وفي التزام أسباب النصر، وفي تحقيق التوكل على الله والبراءة من الحول والقوة إلا به، مع الأخذ بالمباح من الأسباب ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] وفي الاجتماع على الحق ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ

(١) مجموع الفتاوى (٢٧: ٣٩-٤٧).

(٢) التاريخ الكبير (١/ ١٦٩).

وَرَسُولُهُ، وَلَا تَنْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنفال:

٤٦] وفي الأخذ بأسباب التمكين، ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تغلب،

ومن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد. ورحم الله شوقي حين صدح:

سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرْقٍ	وَدَمْعٌ لَا يُكَفِّفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْدِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي	جَلَالُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفٍ يَدُقُّ
وَذِكْرِي عَنْ خَوَاطِرِهَا لِقَلْبِي	إِلَيْكَ تَلَفْتُ أَبَدًا وَخَفَقُ
دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ إِتِّلَاقُ	وَوَجْهُكَ ضَا حِكُ الْقَسَمَاتِ طَلَقُ
وَتَحْتَ جَنَانِكَ الْأَنْهَارُ تَجْرِي	وَمِلءُ رُبَاكِ أَوْرَاقُ وَوُزُقُ
غَمَزْتُ إِبَاءَهُمْ حَتَّى تَلَطَّطُ	أُنُوفُ الْأُسْدِ وَاضْطَرَمَ الْمَدَقُ
وَضَجَّ مِنَ الشَّكِيمَةِ كُلُّ حُرٍّ	أَبِيٍّ مِنْ أُمِّيَّةٍ فِيهِ عِتَقُ
تَكَادُ لِرَوْعَةِ الْأَحْدَاثِ فِيهَا	تَخَالُ مِنَ الْخُرَافَةِ وَهِيَ صِدْقُ
وَقِيلَ مَعَالِمُ التَّارِيخِ دُكَّتْ	وَقِيلَ أَصَابَهَا تَلَفٌ وَحَرَقُ
أَلَسْتُ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظَمْرًا	وَمُرْضِعَةُ الْأُبُوءِ لَا تُعَوُّ
سَمَاوُكُ مِنْ حُلَى الْمَاضِي كِتَابُ	وَأَرْضُكَ مِنْ حُلَى التَّارِيخِ رَقُ
بَنِيَتِ الدَّوْلَةَ الْكُبْرَى وَمُلْكًا	غُبَارُ حَضَارَتِيهِ لَا يُشَقُّ
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعُرسُ	بَشَائِرُهُ بِأَنْدَلُسٍ تَدُقُّ
رُبَاعُ الْخُلْدِ وَيَحْكُ مَا دَهَاها	أَحَقُّ أَنَّهَا دَرَسَتْ أَحَقُّ
وَهَلْ غُرِفُ الْجِنَانِ مُنْضَّدَاتُ	وَهَلْ لِنَعِيمِهِنَّ كَأَمْسٍ نَسَقُ
وَأَيْنَ دُمَى الْمَقَاصِرِ مِنْ حِجَالِ	مُهَتَّكَةٍ وَأَسْتَارٍ تُشَقُّ
بَرْزَنَ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ	وَخَلَفَ الْأَيْكِ أَفْرَاحُ تُزَقُّ
إِذَا رُمِنَ السَّلَامَةُ مِنْ طَرِيقِ	أَتَتْ مِنْ دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقُ

بَلِيلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفُقٍ
سَلِي مَنْ رَاعَ غَيْدَكَ بَعْدَ وَهْنٍ
إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَّابُ حَقٍّ
بِلَادُ مَاتَ فَتَيْتُهَا لِتَحْيَا
وَحُرَّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاها
بَنِي سَوْرِيَّةَ اطَّرَحُوا الْأَمَانِي
فَمِنْ خِدَعِ السِّيَاسَةِ أَنْ تُغَرَّوْا
وَكَمْ صَيْدٍ بَدَا لَكَ مِنْ ذَلِيلٍ
فُتُوْقُ الْمَلِكِ تَحْدُثُ ثُمَّ تَمْضِي
نَصَحْتُ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارًا
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلَادُ
وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمٍ كُلِّ حُرٍّ
وَمَنْ يَسْقَى وَيَشْرَبُ بِالْمَنَايَا
وَلَا يَبْنِي الْمَالِكُ كَالضَّحَايَا
فَفِي الْقَتْلِ لِأَجْيَالِ حَيَاةٍ
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ
جَزَاكُمْ ذُو الْجَلَالِ بَنِي دِمَشَقٍ
نَصَرْتُمْ يَوْمَ مِحْنَتِهِ أَخَاكُمْ
لِكُلِّ لَبْوَةٍ وَلِكُلِّ شَبَلٍ

وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفٌ وَصَعُقُ
عَلَى جَنَابَتِهِ وَاسْوَدَّ أَفُقُ
أَبَيْنَ فُؤَادِهِ وَالصَّخِرِ فَرَقُ
يَقُولُ عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
فَكَيْفَ عَلَى قَنَاها تُسْتَرَقُّ
وَأَلْقُوا عَنْكُمْ الْأَحْلَامَ أَلْقُوا
بِالْقَابِ الْإِمَارَةَ وَهِيَ رِقُّ
كَمَا مَالَتْ مِنَ الْمَصْلُوبِ عُنُقُ
وَلَا يَمْضِي لِخُتْلَفَيْنِ فَتَقُ
وَلَكِنْ كُلُّنَا فِي الْهَمِّ شَرَقُ
بَيَانٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطْقُ
فَإِنْ رُمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشَقُّوا
يَدُ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحِقُّ
إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقُوا وَيَسْقُوا
وَلَا يُدْنِي الْحُقُوقُ وَلَا يُحِقُّ
وَفِي الْأَسْرِ فِدَى هُمْ وَعِتْقُ
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوَّلُهُ دِمَشَقُ
وَكُلُّ أَخٍ بَنَصْرٍ أَخِيهِ حَقُّ
نِضَالٌ دُونَ غَايَتِهِ وَرَشَقُ

اللهم نصراً عاجلاً وفتحاً مبيناً يا حي يا قيوم يا جبّار يا قهّار وأنت على كل
شيء قدير، والحمد لله على كل حال، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله
وصحبه.



«يَا خَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ ارْكَبِي» (١)

وهذا مقال آخر لي في سياق المبشرات بالنصر والتمكين بعد البلاء المبين لمن اتقى وصبر لوجه رب العالمين، منشور بعنوان: «يَا خَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ ارْكَبِي» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿[الأنعام: ١-٣]، وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ إِخْيَرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿[الأنعام: ١٧-١٨].

إن المتأمل لتعاقب أحداث زماننا الكبرى وتسارعها ليتفرّس - والعلم عند الله وحده - أن لهذا الزمان موعداً مع أحداثٍ كونيّةٍ عظمى، وأن الحكيم القدير سبحانه يستغرسُ عبادةً له في طيّ غيبه، يُصنعون على عينه: أخلصَ دينهم، وهذبَ أخلاقهم، وجرّدَ مطلوبهم، وأصحّ فقههم، وأقام لهم عبادتهم. لأن اشتداد طلق الفرج يستسقي المقرّبين، ويستقدّم الشهداء والصديقين، وإذا أراد الله - في العادة - أمراً هيأ له أسبابه.

وهذه الأمة المرحومة كالغيث، لا يُدرى أوّل خير أم آخره؟ ولكم اشتاق نبي الرحمة والملحمة لإخوانه الذين للواحد منهم أجر خمسين من صحابته

(١) مدونة إبراهيم الدميحي http://aldumaiji.blogspot.com/2013/04/blog-post_12.html

المرضىين، فأعظم بها من كرامة لمن هداه الله ذِيَاكَ السبيل! ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ
لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ الَّذِيْنَ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ
⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ⑥ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ﴿[محمد: ٤-٧].

إنَّ هذه الأحداث العظام لها أبعادٌ ودلالاتٌ ومآلاتٌ الله وحده يعلم
حجمها وحقيقتها ومكانها من أحداث الإنسانية جمعاء في المستقبل المنظور!
ولئن اختزلها عبَادُ الصليبِ وعُزير بثورة مَادَّة؛ فلعمر الحق إنها لفوق ذلك،
وأسمى وأجل مما هُنالك، وأكرم وأجلى من كل ما يدعونه ويُزيّفونه.
إنها دمشق! الملاحم من أكنافها تقدح شررها، والألوية من غوطتها تعقد
بيارقها، والكتائب من هضابها تنحدر كالسيل لموعد ربها!

فيا لله كم من أملاك ربي لأجنتها على الشام باسطة، ويا لله كم من رَضِيٍّ
مَرْضِيٍّ بحالِهِ ولسانِهِ وسلاحِهِ ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

ولا تصحّ بحالٍ مقولة: التاريخ يُعيد نفسه! فالتاريخ ظرفُ زمانٍ، ومحلُّ
قضاء وقدر الرحمن، والله سبحانه هو الذي يُجري الزمان ويُقدِّرُ ويقضي ﴿إِنَّا
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

إخوتي في الله: إن من ضرورات هذه المرحلة ومُحْتَمَاتِهَا؛ أن يُوحَّد
المجاهدون كلمتهم، ويجمعوا راياتهم، ويرصّوا صفّهم، ويُفردوا عصاهم، وأن

يُحْذِرُوا التَّفَرُّقَ وَالْاِخْتِلَافَ وَذَهَابَ الرِّيحِ، وَلْيَعْتَبِرُوا بِأَفْغَانِسْتَانِ الْمَجَاهِدَةِ؛ إِذْ عَادَتْ حِرَابُ الْمَجَاهِدِينَ لِصُدُورِ الْفَاتِحِينَ! وَالْمُؤْمِنُ كَيْسٌ فَطِنٌ، لَا يُلْدَغُ مِنْ جَحْرِ مَرَّتَيْنِ.

فَعَلَى كِتَابِ الْجِهَادِ وَفَصَائِلِهِ أَنْ لَا يَفْرَحُوا بِتَعَدُّدِ الْأُلُويَةِ، فَكَدَّرُ الْجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِنْ صَفْوِ الْفِرْقَةِ، وَلْيَعْظُمُوا أَمْرَ الشُّورَى، وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي أَشْيَاءٍ رِيحَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وَالْكِيسَ الْكِيسَ.

فِي إِخْوَتَاهُ: أَرَوْا اللَّهَ مِنْكُمْ خَيْرًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَأَنْ سُنَّهَ لَا تَبْدَلُ، فَلَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ رَسُولِهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحَابَتِهِ مَعَ ذَلِكَ أَقَامَ نَوَامِيسَ كَوْنِهِ وَشَرْعَهُ مَعَهُمْ لَمَّا أَطَاعُوا رَسُولَهُ وَصَدَقُوا التَّوَكُّلَ عَلَى رَبِّهِمْ، فَلَمَّا خَالَفُوا فِي أَحَدٍ وَحَنِينٌ أُدِيلَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ حَتَّى كَادَ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ لَوْلَا لَطْفُ اللَّطِيفِ الْبَرِّ الْكَرِيمِ الَّذِي أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَالصَّبْرَ وَالْيَقِينَ، فَتَنَزَّلَتْ أُمْدَادُ اللَّطْفِ وَالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ!

فَهَذِهِ سُنَّتُهُ الْمَاضِيَةِ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنْ رَأَى مِنْكُمْ ذَلِكَ هَذَاكُمْ سَبْلَكُمْ، وَوَقَاهُمْ شَرَّ أَنْفُسِكُمْ، وَوَكَلَكُمْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، لَا إِلَى النَّاسِ، وَلَا إِلَى أَنْفُسِكُمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

كَمَا لَا بَدَّ أَنْ تَتَّسَعَ صُدُورُكُمْ لَخِلَافِكُمْ، وَأَنْ يَرْحَمَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَأَنْ تَنْظُرُوا بِقَلْبٍ وَاحِدٍ لِلْخَطَرِ الْمَاحِقِ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِكَافَةِ أَحْزَابِهِ وَأُمْدَادِهِ، الَّذِي يَكِيدُ كَيْدًا كُبَّرًا ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦] وَلَكِنْ إِنْ اتَّقَيْنَا اللَّهَ وَأَخْلَصْنَا لَهُ الْوُجُوهَ فَلَا نَخَافُ مَخْلُوقًا ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)

وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤْيَا ﴿[الطارق: ١٥-١٧]﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرَّتْ أَحْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهٗ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ فَتِلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[التوبة: ١٣-١٦] والوليعة: هي البطانة من المشركين.

فعلى المجاهدين في سبيل الله أن يتدبروا القرآن، ومهما أجلب أولياء الطاغوت فرب العزة جل جلاله يقول: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَيَنْصُرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] إذ لا بد لمن رام استنزال معونة الله ونصره وتأييده من تحقيق هذين الأمرين: الصبر، والتقوى. ومجاهد لا يتقي الله لا خلاق له في الفتح والظفر ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وبالجملة؛ فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، وليبشر بموعد الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿قَالَ الَّذِينَ

يَطُئُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ
بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابٌ
الَّذِينَ أَحْسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

ولتكثرُوا ذكر الله تعالى على كل أحوالكم، فهو من أعظم أسباب النصر
والثبات ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأبشروا معشر المجاهدين فإنما هي إحدى الحسينين، فإما نصرٌ وظفرٌ
يشفي الصدور ويشرح النفوس، وإما صعودٌ لعليين، وارتقاء لجنات النعيم، قد
أفلح وجهه، وثبت عند الله أجره. وفي الصحيحين^(١) عن رَشْدِينَ بْنِ سَعْدٍ عَنْ
رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَن رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ
فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ فَقَالَ أَبِي هُوَ وَأُمِّي وَوَلَدِي وَنَفْسِي: «كُفَى بِبَارِقَةِ
السَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً».

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «معناه - والله أعلم - أنه قد امتحنَ نفاقه من
إيَّانه ببارقة السيف على رأسه، فلم يفرّ، فلو كان منافقًا لما صَبَرَ ببارقة السيف

(١) البخاري (٢٤/٤) ومسلم (٤٣/٦).

على رأسه، فدلّ على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله، وتسليمها له، وهاج من قلبه حميَّة الغضب لله ورسوله، وإظهار دينه، وإعزاز كلمته. فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل، فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره» (١).

وعن المقدام بن معدي كَرِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْ خَيْرِ مَا فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» (٢).

ويا إخواننا: احذروا شؤم المعاصي ومساقط الخطايا ودركات الذنوب، وحظوظ النفس الأمارة من رئاسة أو رياء أو غلول وغيرها، فكلَّربَّ معصية أدالت الأعداء على أهل الهدى، واعتبروا بالأسلاف، ولله في تدبيره وتقديره حِكمٌ باهرة، لا تُحِيطُهَا الْأَفْهَامُ، وَلَا تَدْرِكُهَا الْعُقُولُ! ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

قال شيخ الإسلام (٣): «وكثيرٌ من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من

(١) الروح، لابن القيم (١/٢٤١).

(٢) الترمذي (١٦٦٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه (٢٧٩٩). وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٥٨).

(٣) الفتاوى (١٨/٢٩٥) وهو حرف شريف فاضل.

أحوال الإسلام؛ جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهّي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حقّ، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشيّ والإبكار».

ولنحذر جميعاً من مغبة خلافتنا لحديث المجاهد الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إذ قال: «من مات ولم يغز، ولم يُحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق» رواه مسلم^(١) فهلاً غزونا بهالنا وكلمتنا، علّ الله أن يكتبنا مع الغزاة في سبيله المجاهدين لإعلاء كلمته؟

شاهد المقال ومقصود الخطاب أمران، لا غنى لكل مجاهدٍ عنهما، حتّى وإن عزّ فيهما الرفيق والأخ والشريك، على كل جاهدٍ مجاهدٍ تحقيقها طاقته ووسعه، وليعلم أنّ التوفيق واللفظ والقبول دائرٌ معهما حيث دارا، وعلى قدر تحقيقهما ينزل الفرج، ويتتابع النصر، وتعظم الفتوح، ذاك الأمران يا طالب الرضوان هما:

الإخلاص لوجه الله تعالى وحسن الاتّباع لرسوله ﷺ. فبإخلاص الدين لله تعالى، وتحقيق توحيده، وإفراده بالعبودية، ثمّ بتوحيد اتّباع رسوله ﷺ، وتعظيم سنته، والصدور عنها مهما نازعت النفس الجموح، أو حرّنت أختها القعود!

(١) مسلم ٤٩/٦ (١٩١٠) (١٥٨).

ولقد فتح الله تعالى على ابن القيم يوم كتب مستخلصاً الدروس والعبر من غزوة أحد على ضوء آيات سورة آل عمران، إذ بين الفرقان بين أولياء الرحمن الذين أحسنوا الظن بربهم وبين من كان في قلوبهم مرض نفاق وسوء ظن، في سَفَرِهِ النفيس الباهر زاد المعاد فقال:

«ونذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة «آل عمران» حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بِشُؤْمٍ ذَلِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذَا تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذراً ويقظة، وتحزناً من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رُسُلِهِ، وأتباعِهِمْ، جرت بأن يُدَالُوا مَرَّةً، ويُدَال عَلَيْهِمْ أُخْرَى، لكن تكونُ لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً؛ دخل معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميز الصادقُ من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً؛ لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقترضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين؛

ليتميز مَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ للحق، وما جاؤوا به مَنْ يَتَّبِعُهُمْ على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِنْ أعلام الرسل، كما قال هِرْقُلُ لأبِي سفيان: «هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟» قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: سِجَالٌ، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمِرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى. قَالَ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ^(١).

ومنها: أن يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ الْكَاذِبِ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصَّيْتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ سَبَبَ لِعِبَادِهِ مِحْنَةً مَيَّزَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ، فَأُطْلِعَ الْمُنَافِقُونَ رُؤُوسَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، وَتَكَلَّمُوا بما كانوا يَكْتُمُونَهُ، وَظَهَرَتْ مُحِبَّائُهُمْ، وَعَادَ تَلْوِيحُهُمْ تَصْرِيحاً، وَانْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى كَافِرٍ، وَمُؤْمِنٍ، وَمُنَافِقٍ، وَانْقَسَمَ ظَاهِراً، وَعَرَفَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ لَهُمْ عَدُوًّا فِي نَفْسِ دُورِهِمْ، وَهُمْ مَعَهُمْ لَا يُفَارِقُونَهُمْ، فَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ، وَتَحَرَّزُوا مِنْهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أَي: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّبَاسِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُنَافِقِينَ، حَتَّى يَمِيزَ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، كَمَا مَيَّزَهُم بِالْمِحْنَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ الَّذِي يَمِيزُ بِهِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ مَتَمَيِّزُونَ فِي غَيْبِهِ وَعِلْمِهِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُرِيدُ أَنْ يَمِيزَهُمْ تَمَيِّزاً مُشْهُوداً، فَيَقَعُ مَعْلُومُهُ الَّذِي هُوَ غَيْبٌ شَهَادَةً.

(١) البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [النمل: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطلع عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يُحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حَرَفٍ واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكن والقهر لأعدائهم أبداً؛ لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر؛ لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يُصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة؛ ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يُعز عبده، ويجبره، وينصره، كسره أولاً،

ويكونُ جبرُهُ له ونصره، على مقدار ذلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغوها إلا بالبلاء والمحنة، فقيَّض لهم الأسباب التي تُوصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفَّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً ورُكُوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدِّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربُّها ومالكُها وراحمُها كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السير الخيِّث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدوية منه، ولو تركه، لغلَبَتِ الأدوية حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يُحب أن يتَّخذ من عباده شهداء، تُراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويُؤثرون رضاه ومحابَّته على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم

بغيرهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائهم، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) **إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ**، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴿[آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حُسن التسليّة، وذكر الحُكمِ الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنئون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يُداوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حَاضِرٌ، يقسمها دُولاً بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عَزَّهَا ونَصَرَهَا ورجاءها خالصٌ للذين آمنوا.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى، وهي أن يتميَّز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم عِلْمَ رُؤْيَةٍ ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب

عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذُ سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنيلهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفٌ الموقع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين اتخذوا عن نبیه يومَ أُحد، فلم يشهدوه، ولم يتَّخذ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركسهم وردَّهم ليَحْرِمَهُمْ ما خَصَّ به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حُساباتهم، وظنَّهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيث يُنكرُ على من ظنه وحسبه.

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٤٢] أي: ولما يَقَعْ ذَلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يَقَعَ معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودُّون لقاءه.

فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ [آل

عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أُحُد، وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾.

ومنها: أن وقعة أُحُد كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قُتِل، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقْتَلُوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو مات محمد أو قُتِل، لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهُمْ ذَلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ ليخلدَ لا هوَ ولا هم، بل ليُموتُوا على الإسلام والتَّوْحِيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ مَنْ ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيردُّ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحدًا، وإن تنوعت أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتلوا وقُتل معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بَقِيَ منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتل، ولا ضَعُفُوا، ولا استكانُوا، بل تَلَقَّوْا الشهادةَ بالقُوَّةِ والعزيمة والإقدام، فلم يُسْتَشْهِدُوا مُدْبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل اسْتَشْهِدُوا أعزَّةً كراماً مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧) فَانصُرْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

لما علم القوم أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزِرُّهم ويهزِمُهُم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حقٍّ أو تجاوزٌ لحدٍّ، وأن النصرَ منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا. ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامهم وَيَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أَنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامهم وينصرهم لم يَثْبُتُوا ولم يَنْتَصِرُوا، فَوَقَّوْا الْمُقَامَيْنِ حَقَّهُما: مقامَ المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصر، وهو الذنوبُ والإسرافُ.

ثم حَذَّرهم سبحانه مِنْ طاعةِ عدوِّهم، وأخبر أَنَّهُم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يومَ أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أَنَّهُ مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فَمَنْ والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أَنَّهُ سَيُلْقِي في قلوبِ أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم، والإقدام على حربهم، وَأَنَّهُ يُؤَيِّدُ حَزْبَهُ بجندٍ مِنَ الرعبِ يَنْتَصِرُونَ به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسببِ ما في قلوبهم مِنَ الشُّرْكِ بالله، وعلى قدرِ الشُّرْكِ يكون الرعبُ، فالمشركُ بالله أَشَدُّ شَيْءٍ خَوْفًا ورُعبًا، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِالشُّرْكِ، لهم الأَمْنُ والهُدَى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوهم عنهم، لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجتمعين على استئصالهم.

ثم ذكّرهم بحالهم وقت الفرار مُصعدين، أي: جادّين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل لا يَلَوْن على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في آخرهم: «إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ»^(١) فأنابهم بهذا الهرب والفرار، غمّاً بعد غمٍّ: غمّ الهزيمة والكسرة، وغمّ صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قد قُتل. وقيل: جازاكم غمّاً بما غمتم رسولكم بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوّه، فالغمّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمّ الذي أوقعتموه بنبيه، والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَكُمْ يَلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

(١) روي نحوه عن ابن عباس والسدي والحسن وقتادة والربيع بن أنس. انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٤٧ - ١٤٩) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٩٠).

أَصْبَبَكُمْ ﴿[آل عمران: ١٥٣] تنبيهٌ على حِكْمَةِ هذا الغم بعد الغمِّ، وهو أن يُنْسِيَهُم الحزنَ على ما فاتهم مِنَ الظفر، وعلى ما أصابهم مِنَ الهزيمة والجراح، فنُسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغمِّ الذي يعقبه غمٌّ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حَصَلَ لَهُمْ غَمٌّ فَوَاتِ الغنيمة، ثم أعقبه غَمٌّ الهزيمة، ثم غَمٌّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمٌّ القتل، ثم غَمٌّ سَمَاعِهِمْ أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غَمٌّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غَمَّيْنِ اثنين خاصة، بل غَمًّا متتابعاً لتهام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ من تمام الثواب، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غَمًّا متصلاً بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيِّهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غَمًّا يَخْصُّه، فتراذفت عليهم الغمومُ كما تراذفت منهم أسبابها وموجبائها، ولولا أن تداركهم بعفوهِ، لكان أمراً آخر.

وَمِنْ لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصر المستقرة، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعينٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها.

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم، وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاس في الحرب علامة النصر والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يُصبه ذلك النعاس، فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

وقد فُسر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصرُ رسوله، وأن أمره سيمضجُ، وأنه يُسلمه للقتل، وقد فُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويُظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعدِهِ الصادق الذي لا يُخلفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن بأنه لا ينصرُ رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حربه،

ويعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشركَ على التوحيد، والباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرةً يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإنَّ حمده وعزَّته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصرَةُ المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به. فَمَن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماؤه، ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك مَن أنكر أن يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيَّته، وملكه وعظمته، وكذلك مَن أنكر أن يكونَ قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابُ المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سُدى، ولا أنشأها عبثاً، ولا خلقها باطلاً، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماؤه وصفاته، وعرفَ موجبَ حمده وحكمته، فَمَن قَنِطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوْحه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

وَمَن ظنَّ به أنه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ

إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكْمَتِهِ وخلافَ موجبِ أسمائه وصفاته، وهو من ظنِّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه إذا تركَ لأجله شيئاً لم يُعوِّضْه خيراً منه، أو مَنْ فعلَ لأجله شيئاً لم يُعطه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظنِّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكلَ عليه أنه يُجِيبُه ولا يُعْطِيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنِّ السَّوِّءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهله.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَنْ شاء الله يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوِّءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به!

وَمَنْ فَتَّشَ نفسه، وتغلغل في معرفة دوائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُموْنَ النار في الزناد، فاقدح زنادَ مَنْ شئتُ يُنبئك شرَّارُه عما في زِناده، ولو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَه، لرأيت عنده تعتُباً على القدر وملامةً له، واقتراحاً عليه خلافَ ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثرٌ، وفَتَّشَ نفسك هل أنت سالمٌ من ذلك؟

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِحَالَكَ نَاجِياً
فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفره

كلَّ وقت من ظنه بربه ظنَّ السَّوءِ، وليظنَّ السَّوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزهة عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ، وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى (١).

فَلَا تَظُنُّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءًا	فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَلَا تَظُنُّنْ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا	وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَا أَوْى كُلُّ سُوءٍ	أَيَّرَجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيِّتٍ بَخِيلِ
وَوَظَنَ بِنَفْسِكَ السُّوَاى تَجِدَهَا	كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقَى فِيهَا وَخَيْرٍ	فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ	مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كُلِّهِ إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما دُمُّوا عليه، ولما حَسُنَ الرَّدُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ولا كان

(١) وانظر: حسن الظن بالله تعالى. ضمن هذه السلسلة.

مصدرُ هذا الكلام ظَنُّ الجاهلية، ولهذا قال غيرُ واحد من المفسِّرين: إن ظَنَّهُم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتلُ، ولكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظَنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدَّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ أَلَمَرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُدَّ، شاءَ الناسُ أم أبوا، وما لم يشأْ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يشأوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُدَّ، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يُجَوِّزون أن يقع ما لا يشأؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حِكْمَةٍ أُخرى في هذا التقدير: هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرضٌ، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكْمَةً أُخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه

وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يُخالطها بغلبات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تُركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمحَّص منه، فاقتضت حكمة العزيز أن قيَّض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَنْ قُتل منهم، تُعادلُ نعمته عليهم بنصرهم وتأيدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تَوَلَّى مَنْ تَوَلَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزَّهَّم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلُّ وقت سرِّيَّةٌ من نفسه تهزُّمه، أو تنصره، فهو يمدُّ عدوّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزَّله به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضاً، عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

ثم كرّر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السور المكية فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩].

فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله من بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكر السببِ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا

تَتَكَلَّمُوا عَلَى سِوَاهُ، وَكَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى وَأَوْضَحَهُ كُلُّ الْإِيضَاحِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدرى، لا الشرعى الدينى، كقوله فى السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير: وهى أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فلله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغّة، ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشادٍ وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتها.

ثم عزى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم فى سبيله أحسنَ تعزية، وألطفها وأدعاهما إلى الرضى بما قضاه لهما، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٣١) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتمُّ سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يُجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته.

وَذَكَرَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمَحْنَةِ بِمَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَنَنِهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ
الَّتِي إِنْ قَابَلُوا بِهَا كُلَّ مَحْنَةٍ تَنَالَهُمْ وَبَلِيَّةٍ، تَلَاشَتْ فِي جَنْبِ هَذِهِ الْمُنَّةِ وَالنِّعْمَةِ، وَلَمْ
يَبْقَ لَهَا أَثَرُ الْبَتَّةِ، وَهِيَ مَنَّتَهُ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَيْهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُنْقِذُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي كَانُوا
فِيهِ قَبْلَ إِرْسَالِهِ إِلَى الْهَدْيِ، وَمِنَ الشَّقَاءِ إِلَى الْفَلَاحِ، وَمِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ، وَمِنَ
الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ.

فَكُلُّ بَلِيَّةٍ وَمَحْنَةٍ تَنَالُ الْعَبْدَ بَعْدَ حَصُولِ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ لَهُ أَمْرٌ يَسِيرٌ جَدًّا
فِي جَنْبِ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ، كَمَا يَنَالُ النَّاسُ بِأَذَى الْمَطَرِ فِي جَنْبِ مَا يَحْصِلُ لَهُمْ بِهِ مِنَ
الْخَيْرِ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ سَبَبَ الْمُصِيبَةِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لِيَحْذَرُوا، وَأَنَّهَا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ
لِيُوحِّدُوا وَيَتَّكِلُوا، وَلَا يَخَافُوا غَيْرَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ لثَلَا يَتَهَمُوهُ
فِي قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَلِيَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَسَلَّاهُمْ بِمَا أَعْطَاهُمْ
مِمَّا هُوَ أَجْلُ قَدْرًا، وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَعَزَّاهُمْ عَنْ
قَتْلِهِمْ بِمَا نَالُوهُ مِنْ ثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، لِيَنَافِسُوهُمْ فِيهِ، وَلَا يَحْزَنُوا عَلَيْهِمْ، فَلَهُ الْحَمْدُ
كَمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ، وَعِزِّ جَلَالِهِ» (١).

وَمَا قَلْتُ قَدِيمًا فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ الْجَمِيلَةِ:

أَيَا مَبْتَغِي الْفَرْدُوسِ عَجَّلْ بِصَارِمٍ وَكُنْ صَادِقَ الْإِقْبَالِ عِنْدَ التَّلَاقِ
فَإِنْ تَحْيَ عِشْتَ الْعِزَّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى سَتَلْقَى الْمَرَاقِيا
فَلِلْعَبْدِ إِنْ يَصْدُقَ وَيُمْسِي مُجْنَدَلًا شَهِيدًا فَقَدْ فَاحَتْ دِمَاءُ زَوَاكِيَا

(١) زاد المعاد، (٣/ ٢١٨ - ٢٣٩) باختصار واقتصار.

فما يتتصر الإسلام غير إلهيا
وليصدقن الله في الحرب لاقيا
ومن نصر المولى له النصر ساعيا
فمن كذب الرحمن فالقصر ماحيا
فبادر وكن للدين حصناً وحامياً
وإن أجب الشيطان كل النواديا
إذا هيعة ثارت وما كنت راميا
ويا رب أملاكاً عظاماً ثمانيا
وختم حياتي بالسرور المواتيا
بعيداً عن الأوطان للشرك غازيا
فما أطيب الآلام إن كنت راضيا
بجوف طيور أو بطون العوافيا
وأزرع الغماماً لنسف الأعدايا
برمي رصاص الحق جماً غواشياً
وضحوا لمولاهم بغيراً فما ليا؟
فئاماً من الكفار أضحت بواليا
ولا عجباً فالكنز في القلب خافيا
إذا جندل المخدول تحت السوافيا
وقد خاض زحفاً بل حروباً ضواريا
فلا نام من أمسى جباناً وساليا!

لئن نثر الكفار كل سهامهم
فلندعون الله ليلاً وبكرة
ومن صدق الجبار يجبر كسره
فيا قوم قوموا فاصدقوا في لقا العدا
ويا فارس التوحيد مالك لا ترى؟!
وأبشر أبا الإيمان فالفتح قادم
أيا طول يومي ثم يا طول ليلتي
فيا رب يا ذا الجود والطول والندى
ويا كامل الأوصاف: هب لي شهادة
فأسأل ربّي أن تكون منيّي
فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي
ويا ربّ قطّعي وفرّق مفاصلي
أسوق لحرق الكفر نيران مدفعي
فهمني رضى ربّي بقتلي لكافر
لئن قرب العباد في العيد أنعماً
فيا ربّ فاقبلها قرابين راحتي
يظنّ بي المغرور ظنّ سفاهة
سيعلم من قد فاز فوزاً ورفعة
وقد مات سيف الله بالأمس خالداً
وقد قال قولاً يقدح النور في النهى

قتيلاً كليلاً من قتال البواغيا
وقد مات خوّاراً جباناً ولاهيا؟!
فقد نادى الفردوس من كان ساميا
فأعظم به خُسراً شديداً وكاويا!
وقد صاح صوت في الرجال مناديا؟!
به النار تُذكى من لحوم الطّواغيا
فيا ويح وأخسراً لمن كان عاصيا!
فأين مقام العزّ إلا مقاميا؟
ببعثك جنداً في زمان التّهاويا
وأزع لها سمعاً من القلب صاغيا
فحيّ هلاً بالحرب زادت شعاعيا!
يريدُ بكم كيذاً عظيم الدّواهايا
ألا حبّذا قرماً عن الدّين حاميا
فإن عرينَ الليث قد بات خاليا
فهذا أوانٌ للنّهوض بدا ليّا
على خيرٍ من أرسلت للكفر ماحيا
وفي كلّ يومٍ من جديد الزّمانيا
إذا كان تُربّ القبر قسراً وساديا

فيا ليت شعري أين ميتة من ثوى
ومن مات مثلاً الكلب من شبع بطنه
فمن ذا يبيع المُستَهام جناهُ
لئن قرّب الرّحمن عبداً وأنت لا
أترضى قعوداً يا جبان مع النساء
تذكّر هداك الله يوم قيامه
أما عرف المسكين شدّة حرّها؟
لئن عزّ ديني واستيحت جوارحي
لك الحمد يا ربّاً عظيماً نواله
أيا سامعاً فافهم هُديت مقالتي
لقد هبّت الأرواح نصراً ونجدة
ففيه حُماة الدّين جاء عدوكم
فإن تستجيبوا للكفور فخبتم
أيا أمة الإسلام جدّوا وأذلّجوا
لئن كان للإسلام قومٌ ودولة
وصلّ إله الناس ما مات مسلّم
عليه سلامُ الله في كلّ ليلة
تمّت وأدعو الله يرحم غربتي



المبشرات الواقعية

من أعظم المبشرات الواقعية بأن المستقبل للإسلام حالة التدين العام أو ما يسمى بالصحة الإسلامية المباركة التي يشهدها العالم الإسلامي اليوم، حيث أصبح الالتزام بتعاليم الدين الحنيف والتمسك بشرائع الإسلام وآدابه وأخلاقه ظاهرة واضحة بين جيل الشباب والفتيات، وهي حدث تاريخي له دلالة الواقعية، فهي تجيء من جهة بعد الجهد الكبير الذي بذلته القوى الصليبية والصهيونية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان لزرحة الأمة المسلمة عن دينها وسلخها عن عقيدتها وأخلاقها، وتجيء من جهة أخرى والبشرية في أحد منعطفاتها التاريخية، وقد بدأت تأس من حضاراتها المادية الجافة وبدأت تتطلع وتبحث عن المنقذ والمخلص الجديد^(١).

وهذا الظاهرة من التدين العام بمظاهرها الظاهرة والخفية ليست عارضة أو طارئة، كما أنها ليست رد فعل لظروف معينة أو أوضاع اجتماعية، بل هي امتداد طبيعي لرسالة الأمة الإسلامية من خلال الطائفة القائمة على الدين، الظاهرة على الحق رغم كل العقبات والتحديات والمؤامرات التي تحاول زحزحتها عن إسلامها.

وقد ظهرت بعد فشل النظم المستوردة في حل مشكلات الناس وقضاياهم، وفشل الزعماء العلمانيين وسياساتهم في تحقيق ما كانت تعلقه عليهم

(١) انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم الإسلامي (٢٤٢).

الشعوب من الآمال والأمان حيث لم يجد المسلمون من زعمائهم العلمانيين إلا المزيد من تمزق الدول الإسلامية، وتفتيت العالم الإسلامي، وتراكم الديون الربوية، وظهور طبقة الأغنياء والمترفين والمفسدين في الأرض، وانحيار الأخلاق، وتدهور القيم، واستفحال الفواحش والمنكرات، واقتطاع القدس وما حولها من قلب العالم الإسلامي. فحين يأس الناس من هذه النظم والزعامات اتجهوا إلى الإسلام^(١). ويتجلى ذلك في أمور كثيرة منها:

عودة كثير من الشباب إلى الإسلام رغم محاولات الأحزاب العلمانية والإلحادية التي بذلت لصرفهم عن ذلك، حتى أصبحت كثير من هذه الأحزاب تعاني من الكساد في ترويج أفكارها، وقلة أعداد الشباب الذين يطرقون أبوابها، وتحول كثير من الشباب من الأحزاب الشيوعية والقومية إلى الاجتماعات الإسلامية كما هو مشاهد.

ومن مظاهر هذا التدين العام المبارك الفوز الذي يحققه أصحاب الاتجاه الإسلامي في النقابات والجامعات في كثير من ديار الإسلام. كما أصبحت مكة المكرمة تزدهم بالشباب المسلم القادمين من أنحاء العالم الإسلامي لأداء مناسك العمرة والحج، كما يلاحظ عودة الكثير من النساء خاصة الفتيات إلى الحجاب الشرعي.

ومن مظاهره أيضاً توبة عدد كبير من الممثلين والممثلات، والمغنيين والمغنيات، حيث عادوا إلى دينهم وتمسكوا به معتزين ونادمين على ما فات، كما

(١) واقعنا المعاصر (٥٣٨-٥٣٩).

عاد الشباب المسلم الذي يدرس في أوروبا وأمريكا إلى الإسلام، وانكبوا عليه فهماً وعملاً ودعوة، ولم تؤثر فيهم الثقافة الغربية اللادينية، بل أصبحوا هم دعاة في بلاد الغرب، وصورة نقية صافية تمثل هذا الدين في بلاد الكفر، مما جعل الكثير، بل الآلاف من الغربيين والأمريكيين يعتنقون الإسلام اقتناعاً به، وهروباً من حياتهم المادية، ومعاناتهم الروحية، فانتشر الإسلام في أوروبا وأمريكا وتحولت العشرات من الكنائس إلى مساجد^(١).

ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك، بسبب ما نراه حولنا من الضربات الوحشية التي تكال للأمة المسلمة في كل مكان، ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية، فالذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام، إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات، فالبشرية اليوم بحاجة إلى من يغنيها عن جهالة الشيوعية، ويريحها من طغيان الرأسمالية بأذرعها العلمانية والليبرالية والوجودية وغيرها، فهي نظم معاندة للفطرة البشرية السوية، والنظام الإسلامي هو البديل والقرآن والسنة هما العلاج والحل لكل ما تعانيه البشرية من هموم ومشاكل ومعضلات في شتى مناحي الحياة.

ونحن أمام هذه المبشرات القرآنية والنبوية والواقعية لا يسعنا إلا أن نؤمن إيماناً جازماً بوعد الله ونثق ثقة تامة بنصر الله وتمكينه، فالمراد الإسلامي يتقدم

(١) انظر: عداء اليهود للحركة الإسلامية، زياد أبو غنيمة، (١٠١) واقعنا المعاصر (٥٣٨ -

٥٣٩) الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (٣٨ / ١).

لقيادة البشرية، ونصر الله آت لا محالة وسنة الله ماضية، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، ولن تجد لسنة الله تبديلاً^(١).



(١) الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر (١ / ٣٥ - ٣٨) باختصار وتصرف يسيرين.

كتاب الاعتصام للبخاري

لقد عقد الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه كتابًا خاصًا بهذا سماه كِتَابُ الْاِعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وقد ذكر رحمه الله تعالى أنه قد كتبه في ليلة واحدة،^(١) فله در تلك الليلة ما أكثر بركتها على الأمة.

وقد تناوله العلماء بالدرس والتحليل والشرح والانتفاع، وتعاوروا على الإحالة إليه؛ لما في الأمة من ميسر الحاجة له، وضرورة العلم به، خاصة في أزمنة الفتن المدلّمة كزماننا والله المستعان. ولأهميته سأورد منتخبات من مهمّاته، مع شيء من شروح أهل العلم وتعليقاتهم عليها وتدبّر حسن تراجمه ودقة اختياره عليه الرحمة والرضوان، وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد، ومن قصد البحر استقلّ السواقيا. وسأجعل المتن بين معقوفتين [.]

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة].^(٢)

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(١) قال البخاري رحمه الله تعالى: «صنفت كتاب الاعتصام في ليلة». سير أعلام النبلاء (١٢/٤١٢).

(٢) ورقم كتاب الاعتصام (٩٧) ويليه كتاب التوحيد الذي ختم به الصحيح، وعدد أبوابه - أي الاعتصام - (٢٩) بابًا، وعدد أحاديثه وآثاره (١٠٢)، مرقومة من: (٧٢٦٨) إلى: (٧٣٧٠) بترقيم السلطانية.

[المائدة: ٣] لَا تَتَّخِذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ».

وعن أَنَسٍ، سَمِعَ عُمَرَ الْغَدَّ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَشْهَدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ».

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ». وعن أَبِي بَرزَةَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ». وعن ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ، وَأَقْرَأَ لَكَ: بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ فِيمَا اسْتَطَعْتُ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَعَثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيْتُ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضَعَتْ فِي يَدِي». قال أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتُمْ تَلْعَثُونَهَا»^(١).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) من اللغيث: وهو الطعام المخلوط بالشعير. والمعنى: تأكلونها كيفما اتفق.

والمراد أي^(١): صُدِّقَ بتلك الآيات لإعجازها لمن شهدها، كقلب العصا حية، وفلق البحر لموسى، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى، وكان الذي أعطيه ﷺ وحياً أوحاه الله إليه. فكان آية باقية دعي إلى الإتيان بمثله أهل التعاطي له، ومن نزل بلسانهم، فعجزوا عنه، ثم بقي آية ماثلة للعقول إلى من يأتي إلى يوم القيامة، يرون إعجاز الناس عنه رأى العين.

والآيات التي أوتيها غيره من الأنبياء قبله رئي إعجازها في زمانهم، ثم لم تصحبهم إلا مدة حياتهم، وانقطعت بوفاتهم، وكان القرآن باقياً بعد النبي ﷺ يتحدى الناس إلى الإتيان بمثله، ويعجزهم على مرور الأعصار، فكان آية باقية لكل من أتى، فلذلك رجا أن يكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة، مع أن الله تعالى قد ضمن هذه الآية ألا يدخلها الباطل إلى أن تقوم الساعة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وضمن نبينا ﷺ بقاء شريعته وإن ضيع بعضها قوم بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «معنى الحصر في قوله: «إنما كان الذي أوتيته» أن القرآن أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٠/١٠ - ٣٣١) وعمدة القاري شرح

صحيح البخاري (٣٥/٣٧٣) وما بعدها، وكذلك: فتح الباري للحافظ ابن حجر

(١٣/٢٤٥ وما بعدها).

(٢) رواه مسلم (٩٥/٣).

والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر، فلما كان لا شيء يقاربه فضلاً عن أن يساويه؛ كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع.

وقيل: يؤخذ من إيراد البخاري هذا الحديث عقب الذي قبله أن الراجح عنده أن المراد بجوامع الكلم القرآن وليس ذلك بلازم، فإن دخول القرآن في قوله: «بعثت بجوامع الكلم» لا شك فيه، وإنما النزاع: هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن؟

وقد ذكروا من أمثلة جوامع الكلام في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] إلى غير ذلك، ومن أمثلة جوامع الكلم من الأحاديث النبوية: حديث عائشة: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) وحديث: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»^(٢) متفق عليهما، وحديث أبي هريرة: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٣) وحديث المقدم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٤) الحديث أخرجه

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

(٢) البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).

(٣) البخاري (٧٣٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٤) أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي (٨٧٣٦)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وغيرهم. وصححه الألباني.

الأربعة وصححه ابن حبان والحاكم، إلى غير ذلك مما يكثّر بالتتبع.

وإنما يسلّم ذلك فيما لم تتصرف الرواة في ألفاظه، والطريق إلى معرفة ذلك أن تقلّ مخارج الحديث وتتفق ألفاظه، وإلا فإن مخارج الحديث إذا كثرت قلّ أن تتفق ألفاظه؛ لتوارد أكثر الرواة على الاختصار على الرواية بالمعنى بحسب ما يظهر لأحدهم أنه واف به.

والحامل لأكثرهم على ذلك: أنهم كانوا لا يكتبون، ويطول الزمان فيتعلق المعنى بالذهن، فيرتسم فيه، ولا يستحضر اللفظ فيحدث بالمعنى لمصلحة التبليغ، ثم يظهر من سياق ما هو أحفظ منه أنه لم يوف بالمعنى» (١).

وقال: [باب الاقتداء بسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وَقَالَ: أُمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ قَبَلْنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أَحْبَبُّنَا لِنَفْسِي وَلَا لِخَوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ، أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ (٢).

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٥١).

(٢) قال الكرماني: «قال في القرآن: «يتفهموه» وفي السنة: «يتعلموها» لأن الغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره فلا يحتاج إلى الوصية بتعلمه، فلهذا أوصى بتفهم معناه وإدراك منطوقه.

ويحتمل أن يكون السبب أن القرآن قد جُمع بين دفتي المصحف ولم تكن السنة يومئذ جمعت، فأراد بتعلمها جمعها ليتمكن من تفهمها، بخلاف القرآن فإنه مجموع فليبادر =

وعن أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، قَالَ: جَلَسَ إِلَى عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ: لَمْ؟ قُلْتُ: لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ. قَالَ: هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

وعن حُذَيْفَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

«قال المهلب: وأما الأمانة التي في حديث حذيفة، فإنها الإيمان وجميع شرائعه، والتنزه عن الخيانة وشبهها. والجذر: أصل الشيء، فدل ذلك أن الإيمان مفروض على القلب»^(١).

[وعن عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هَدْيُ^(٢) مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَ﴿إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لَا تِلْكَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وعن جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَتْ مَلَائِكَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنْ لَصَاحِبُكُمْ

لتفهمة». فتح الباري لابن حجر (٢٥٢ / ١٣).

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٤ / ١٠).

(٢) «وأحسن الهدى هدى محمد» بفتح الهاء وسكون الدال للأكثر، وللكشميهني بضم الهاء مقصور، ومعنى الأول: الهيئة والطريقة، والثاني: ضد الضلال. فتح الباري لابن حجر (٢٥٣ / ١٣).

هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، قالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس»].

قال ابن حجر: «قوله: «فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله» أي: لأنه رسول صاحب المأدبة، فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة، وهو كناية عن دخول الجنة. ووقع بيان ذلك في رواية سعيد ولفظه: «وأنت يا محمد رسول الله، فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»^(١).

[وعن حذيفة قال: «يا معشر القراء، استقيموا، فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»].

وعن أبي موسى قال النبي ﷺ: «إنما مثلى ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»^(٢).

(١) فتح الباري (١٣/٢٥٦).

(٢) البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

وعن أبي هريرة: لما مات النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال: «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه».

وعن ابن عباس: «أن عيينة بن حصن قال لعمر: والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل! فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وهذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله».

وعن أسماء - في حديث الخسوف -: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فأما المؤمن، فيقول: محمد، جاءنا بالبينات فأجبناه فأماناً، واتبعنا»^(١).

وعن أبي هريرة، قال النبي ﷺ: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٢).

قل ابن حجر رحمه الله تعالى: «قال البغوي في شرح السنة: المسائل على وجهين:

أحدهما: ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين فهو جائز، بل

(١) البخاري (٨٦).

(٢) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

مأمور به، لقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الآية، وعلى ذلك تنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما.

ثانيهما: ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث والله أعلم. ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك وضم السلف، فعند أحمد من حديث معاوية «أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات»^(١) قال الأوزاعي: هي شداد المسائل، وقال الأوزاعي أيضاً: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً.

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: المرء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل.

وقال ابن العربي: كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم فأما بعد فقد أمن ذلك، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع، قال: وإنه لمكروه إن لم يكن حراماً إلا للعلماء، فإنهم

(١) أحمد في المسند ٥ / ٤٣٥، وأبو داود (٣٦٥٦) بلفظ: «نهى النبي ﷺ عن الغلوطات» وفسرها الأوزاعي بأنها شداد المسائل وصعابها، وفي رواية عنه: شرار المسائل. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٣٥) قد ضَعَّفَ الحديث بسبب عبد الله بن سعد البجلي. انظر: تهذيب التهذيب (٥ / ٢٢٤)، والجرح والتعديل (٥ / ٢٦٤). والأغلوطات: هي المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها مرء من السائل وسوء نية، فيهيح بذلك شر وفتنة، أي: ينصب فخاً لعالم، ويلقي له هذا السؤال كي يصدر منه الجواب، فيحصل بذلك شر وفتنة، وهي جمع أغلوطة على وزن أُحدوثة.

فرعوا ومهدوا فنفع الله من بعدهم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم. انتهى ملخصا.

وينبغي أن يكون محل الكراهة للعالم إذا شغله ذلك عما هو أهم منه، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر وقوعه مجردا عما يندر، ولا سيما في المختصرات ليسهل تناوله والله المستعان»^(١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعني وقوله الله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

فيه: سعد، قال النبي ﷺ: «إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته».

وفيه: أبو موسى، سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال: «سلوني» فقام رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، ثم قام آخر، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «أبوك سالم مولى شيبة» فلما رأى عمر ما بوجه النبي ﷺ من الغضب، قال: إنا نتوب إلى الله.

وذكر قصة حذافة من رواية أنس وفيه: فقام رجل، فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: «النار!»^(٢) فقام عبد الله بن حذافة، فقال: من أبي يا رسول

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٦٥).

(٢) قال الحافظ: «ولم أقف على اسم هذا الرجل في شيء من الطرق كأنهم أهتموه عمداً للستر عليه». فتح الباري (١٣ / ٢٧١). قلت: لأنه لا يلزم من ذلك كفره، ولا الحكم عليه =

الله؟ قال: «أبوك حذافة»، فبرك عمر على ركبتيه، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فسكت النبي ﷺ عند ذلك، ثم قال: «والذي نفسي بيده لقد عُرِضَت على الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط، فلم أرَ كالיום في الخير والشر».

وفيه: أنس، قال النبي ﷺ: «لن يبرح الناس يتسألون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟».

وفيه: ابن مسعود، أن النبي ﷺ مرّ عليه نفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يسمعكم فيه ما تكرهون، فقال بعضهم: لنسألنه فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه. ففقت، فلما انجلى عنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الروح: ٨٥] وما أوتوا من العلم إلا قليلاً. قال الأعمش هكذا في قراءتنا].

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «قال ابن عون: سألت نافعا عن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّلَكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠١]، فقال: لم تزل كثرة السؤال منذ قط تكره».

وكان زيد بن ثابت وأبى بن كعب وجماعة من السلف يكرهون السؤال في

بالنفاق كما نحا إليه بعض الشراح، فقد يلج النار لذنوبه بلا خلود لتوحيده. ومن حقوق الإسلام في الجملة الستر بشرطه.

العلم عما لم ينزل، ويقولون: إذا نزلت النازلة وُفِّقَ المسؤول عنها، ويرون الكلام فيما لم ينزل من التكلف.

وقال مالك: أدركت أهل هذا البلد وما عند أحدهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت النازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء، فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ.

فإن قيل: فإذا ثبت النهي عن كثرة السؤال والبحث في هذه الأحاديث، فقد جاء في كتاب الله ما يعارض ذلك، وهو الأمر بسؤال العلماء والبحث عن العلم؛ بقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فالجواب عنه: أن الذي أمر الله عباده بالسؤال عنه هو ما ثبت وتقرر وجوبه مما يجب عليهم العمل به، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه.

وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ﴾ الآية قال: ما لم يذكر في القرآن فهو مما عفا الله عنه، ألا ترى أن الله لم يجب اليهود عن سؤالهم عن الروح لما لم يكن مما لهم به الحاجة إلى علمه، وكان من علم الله الذي لم يُطْلَع عليه أحدًا فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الروح: ٨٥] فنسبهم تعالى في سؤالهم عما لم ينبغ لهم السؤال عنه إلى قلة العلم.

وقال مالك: قيل وقال هو هذه الأخبار والأراجيف في رأيي، أعطى فلان كذا ومنع كذا بقوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾

[التوبة: ٦٥]، فهو لاء يخوضون. وأما قول بعض اليهود حين سأله عن الروح: لا تسأله يسمعكم ما تكرهون. فإنما قال ذلك لعلمه أنهم كانوا معتتين، والمُعت من عقوبته أن يخاطب بما يكره.

وأما قوله ﷺ في حديث أنس: «لن يبرح الناس يسألون: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟» هذا من السؤال الذي لا يحل، وقد جاء هذا الحديث بزيادة فيه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا، حتى يقول: من خلق الله، فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله»^(١). وفي حديث آخر: «فذلك صريح الإيمان»^(٢). رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ جاءه ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله، نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به ما نحب أن لنا الدنيا وأنا تكلمنا به، فقال النبي ﷺ: «أو قد وجدتموه، ذلك صريح الإيمان».

وقد ذكر ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمة أحب إليّ من أن أتكلم به. فقال له رسول الله: «الحمد لله الذي رده إلى الوسواس»^(٣).

(١) أبو داود (٤٧٢١) وصححه الألباني. وقد استوفى الحافظ كلام الأئمة في شرح هذا الحديث في «الفتح»: (١٣ / ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) مسلم (١ / ١١٩) (١٣٢) وفيه: قال النبي ﷺ: «وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». ورواه أحمد (٤٥٦/٢) وأبو داود (٥١١١).

(٣) أبو داود (٥١١٢)، وأحمد (٣٤٠/١) بلفظ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

فإن قيل: كيف سمّي هذه الخطرة الفاسدة من خطرات الشيطان على القلب صريح الإيمان؟ قال الخطابي: يريد أن صريح الإيمان هو الذي يعظم ما تجدونه في صدوركم ويمنعكم من قول ما يلقيه الشيطان في قلوبكم، ولولا أنه لم يتعاضموه ولم ينكروه، ولم يرد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وكيف تكون إيماناً وهي من قبل الشيطان وكيدته؟! ألا تراه ﷺ حين سئل عن هذا قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في تعليقه على شكاية الصحابة من هذا الوسواس: «ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس، فمن الناس من يجيها فيصير كافراً أو منافقاً، ومنهم من غمرت قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين، فإما أن يصير مؤمناً، وإما أن يصير منافقاً، ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا؛ لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ لأنه - أي غير طلاب العلم والعبادة - لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبلٌ على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوبُ الشيطان، بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب

وصححه الألباني.

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٨/١٠ - ٣٤٣) باختصار.

صدهم عن الله» (١).

وقال الحافظ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾: «رجح ابن المنير أن النهي في كثرة المسائل عما كان وعما لم يكن، وصنيع البخاري يقتضيه، والأحاديث التي ساقها في الباب تؤيده.

وقد اشتد إنكار جماعة من الفقهاء ذلك منهم القاضي أبو بكر بن العربي فقال: اعتقد قوم من الغافلين منع السؤال عن النوازل إلى أن تقع تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك، لأنها مصرحة بأن المنهي عنه ما تقع المسألة في جوابه، ومسائل النوازل ليست كذلك. انتهى. وهو كما قال؛ لأن ظاهرها اختصاص ذلك بزمان نزول الوحي، ويؤيده حديث سعد الذي صدر به المصنف الباب: «من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» فان مثل ذلك قد أمن وقوعه.

ويدخل في معنى حديث سعد ما أخرجه البزار وقال: سنده صالح، وصححه الحاكم من حديث أبي الدرداء رفعه: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فان الله لم يكن ينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] (٢) وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا

(١) الفتاوى (٧/ ٢٨٢).

(٢) المستدرک (٢/ ٣٧٦) وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٢٥٦).

عنها»^(١).

وقد أخرج مسلم عن أنس قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع». فذكر الحديث^(٢). ولأبي يعلى عن البراء: «إن كان لتأتي عليَّ السنَّةُ أريد أن أسأل

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٢٢١ رقم ٥٨٩)، وفي «مسند الشاميين» (٤ / ٣٣٨ رقم ٣٤٩٢)، والدارقطني في «سننه» (٤ / ١٨٤ رقم ٤٣٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩ / ١٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٢ - ١٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢ / ٩) جميعهم من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعاً، وهذا إسنادٌ منقطعٌ، فإنَّ مكحولاً لم يصحَّ له سماعٌ من أبي ثعلبة، كما قاله غير واحد من الحفاظ. وقد ضعف الحديث الألباني والفحل.

إلا أنَّ للحديث شواهد منها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه الذي أخرجه البزار في «مسنده» (١٠ / ٢٦ رقم ٤٠٨٧) وقال: إسناده صالحٌ، والدارقطني في «سننه» (٢ / ١٣٧)، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٢ رقم ١٩٥٠٨).

وعلى هذا فالحديث حسنٌ بشواهد، وقد حسَّنه النوويُّ في «الأربعين» (رقم ٣٠)، والحافظُ أبو بكر ابنُ السمعاني في «أمالیه» وغيرهما، ومعاني الحديث في الجملة ثابتة في الصحيح، والله أعلم.

تنبيه: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦ / ١٧٩) بعد أن أورد حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه: «ثبت بالسنة والإجماع أن الله يوصف بالسكوت، لكن السكوت يكون تارة عن التكلُّم، وتارة عن إظهار الكلام وإعلامه».

(٢) مسلم (١ / ٤١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتهم، وإن كنا لنتمنى الأعراب»^(١). أي: قدومهم ليسألوا فيسمعوهم أجوبة سؤالات الأعراب فيستفيدوها.

وأما ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة فيحتمل أن يكون قبل نزول الآية، ويحتمل أن النهي في الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة، كالسؤال عن الذبح بالقصب والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة، والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن، والأسئلة التي في القرآن كسؤالهم عن الكلاله والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك.

لكن الذين تعلقوا بالآية في كراهية كثرة المسائل عما لم يقع أخذوه بطريق الإلحاق من جهة أن كثرة السؤال لما كانت سبباً للتكليف بها يشق فحقها أن تجتنب.

وعن عمر: «أُحْرَجَ عليكم أن تسألوا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً». وعن زيد بن ثابت أنه كان إذا سئل عن الشيء يقول: «كان هذا؟» فإن قيل: لا، قال: «دعوه حتى يكون»، وعن أبي بن كعب وعن عمار نحو ذلك.

ومما يدخل في النهي الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع جداً، فيصرف فيها زماناً كان صرفه في

(١) رواه أبو يعلى في المسند الكبير رواية الأصبهانيين، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، كما في المطالب العالية ٣/ ٣٢٥ (٣٩٦١) وأخرجه الروياني في «مسنده» (٣٠٨)، وجود سننه الفحل. وانظر: إتحاف الخيرة المهرة (١/ ٢٣٩).

غيرها أولى، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه، وأشد من ذلك في كثرة السؤال والبحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة إلى أمثال ذلك مما لا يعرف الا بالنقل الصرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من غير بحث» (١).

وقال الحافظ أيضًا: «قوله: «فلما رأى عمر ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب» بين في حديث أنس أن الصحابة كلهم فهموا ذلك، ففي رواية: «إذا كل رجل لافاً رأسه في ثوبه يبكي»، وزاد في رواية: «وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر»، وفي رواية: «فغطوا رؤوسهم لهم خنين». زاد مسلم من هذا الوجه: «فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم كان أشد منه».

وقوله: فقال: «إنا نتوب إلى الله عز وجل». زاد في رواية الزهري: «فبرك عمر على ركبته، فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً». وفي رواية قتادة من الزيادة: «نعوذ بالله من شر الفتن».

وفي هذا الحديث مراقبة الصحابة أحوال النبي ﷺ، وشدة إشفاقهم إذا غضب خشية أن يكون لأمر يعم فيعمهم، وجواز الغضب في الموعظة، وبروك الطالب بين يدي من يستفيد منه، ومشروعية التعوذ من الفتن عند وجود شيء قد يظهر منه قرينة وقوعها» (٢).

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٦٥ - ٢٦٨) مختصراً.

(٢) فتح الباري (١٣ / ٢٧٠).

وقال الحافظ: «قوله: «فمن خَلَقَ الله» في رواية بدء الخلق: «من خلق ربك» وزاد: «فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتته» وفي لفظ لمسلم: «فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله»^(١) ولأبي داود والنسائي من الزيادة: «فقلوا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾»^(٢) السورة، ثم ليتفل عن يساره ثم ليستعذ»^(٣). ولأحمد من حديث عائشة: «فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه»^(٤).

ولمسلم في رواية عن أبي هريرة نحو الأول وزاد: فبينما أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فذكر سؤلهم عن ذلك وأنه رماهم بالحصى، وقال: «صدق خليلي».

وقد ورد بزيادة من حديث أبي هريرة بلفظ: «لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خَلَقَ كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله» وفي رواية: «ذاك صريح الإيمان»^(٥).

(١) مسلم (١٣٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أحمد ٣٨٧ / ٢ (٩٠١٥) ومسلم (٢٦٦) وأبو داود (٤٧٢٢) والنسائي في الكبرى (١٠٤٢٢).

(٣) أحمد (٢٦٢٠٣) وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٠) وأبو يعلى (٤٧٠٤) والحديث صحيح.

(٤) مسلم (١١٩ / ١) (١٣٢) وفيه: قال النبي ﷺ: «وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». ورواه أحمد (٤٥٦ / ٢) وأبو داود (٥١١١).

ولعل هذا هو الذي أراد الصحابي فيما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ من أصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا شيئا يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنا تكلمنا به! فقال: «أوقد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان» ولا بن أبي شيبه من حديث بن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمَّة أحب إليّ من أن أتكلم به! قال: «الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة» (١).

وقوله في الحديث الآخر: «فليستعذ بالله ولينته» أي: يترك التفكير في ذلك الخاطر ويستعيز بالله إذا لم يزل عنه التفكير.

والحكمة في ذلك: أن العلم باستغناء الله تعالى عن كل ما يوسوسه الشيطان أمر ضروري لا يحتاج للاحتجاج والمناظرة، فإن وقع شيء من ذلك فهو من وسوسة الشيطان، وهي غير متناهية، فمهما عورض بحجة يجد مسلماً آخر من المغالطة والاسترسال فيضيع الوقت إن سلم من فتنه، فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله تعالى بالاستعاذة به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] (٢).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين،

(١) أبو داود (٥١١٢)، وأحمد (٣٤٠/١) بلفظ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». وصححه الألباني. والحُمَّة واحدة الحُمَم: أي الفحم، والمراد أن أحترق حتى أكون فحمًا أهون علي من الكلام بذلك.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٢٧٤ / ١٣).

لقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية [النساء: ١٧١].

وفيه: عائشة: صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إثم من آوى محدثاً رواه علي عن النبي ﷺ].

فيه: أنس: حرّم النبي ﷺ المدينة، فقال: «لا يقطع شجرها، ومن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «في هذا الحديث فضل عظيم للمدينة، وذلك بتغليظ الوعيد بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين لمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، وفي حديث علي: «لا يقبل منه صرف ولا عدل»^(١) ذكره في آخر كتاب الحج، ودل الحديث على أنه من آوى أهل المعاصي والبدع أنه شريك في الإثم. وليس يدل الحديث على أن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً في غير المدينة أنه غير متوعد ولا ملوم على ذلك؛ لتقدم العلم بأن من رضي فعل قوم وعملهم أنه منهم، وإن كان بعيداً عنهم.

فهذا الحديث نص في تحذير فعل شيء من المنكر في المدينة وهو دليل في التحذير من إحداث مثل ذلك في غيرها، وإنما خصت المدينة بالذكر في هذا

(١) البخاري (١٨٧٠).

الحديث؛ لأن اللعنة على من أحدث فيها حدثاً أشد والوعيد له أكد؛ لانتهاكه ما حذر عنه، وإقدامه على مخالفة رسول الله ﷺ فيما كان يلزمه من تعظيم شأن المدينة التي شرفها الله بأنها منزل وحيه وموطن نبيه ﷺ، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك فضل مزية على سائر البلاد» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فيه: عبد الله بن عمرو، قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون».

وفيه: أبو وائل، شهدت صفين، فسمعت سهل بن حنيف يقول: يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ عليه لرددته، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يفظعنا إلا أسهلنا بنا إلى أمر نعرفه. غير هذا الأمر! قال: وقال أبو وائل: شهدت صفين، وبئست صفون (٢).

قال الحافظ: «وبيان المراد بقوله «يفظعنا» أي يوقعنا في أمر فظيع وهو الشديد في القبح ونحوه. وقوله: إلا أسهلنا: أي أنزلتنا في السهل من الأرض،

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٣٥٠ - ٣٥١).

(٢) أي من ندمه على اشتراكه فيها.

أي أفضين بنا، وهو كناية عن التحول من الشدة إلى الفرج.

ومراد سهل: أنهم كانوا إذا وقعوا في شدة يحتاجون فيها إلى القتال في المغازي والثبوت والفتوح العمرية عمدوا إلى سيوفهم فوضعوها على عواتقهم، وهو كناية عن الجد في الحرب، فإذا فعلوا ذلك انتصروا، وهو المراد بالنزول في السهل، ثم استثنى الحرب التي وقعت بصفين لما وقع فيها من إبطاء النصر وشدة المعارضة من حجج الفريقين، إذ حجة عليٍّ ومن معه: ما شرع لهم من قتال أهل البغي حتى يرجعوا إلى الحق، وحجة معاوية ومن معه: ما وقع من قتل عثمان مظلومًا ووجود قتلته بأعيانهم في العسكر العراقي.

فعظمت الشبهة حتى اشتد القتال وكثر القتل في الجانبين إلى أن وقع التحكيم فكان ما كان. وقوله: «اتهموا رأيكم على دينكم»، أي: لا تعملوا في أمر الدين بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين»^(١).

وقال ابن بطلال: «قال الطبري: قال عمر: «يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين»، كقول سهل سواء.

قال المهلب وغيره: إذا كان الرأي والقياس على أصل من كتاب الله وسنة رسول الله أو إجماع الأمة فهو محمود، وهو الاجتهاد والاستنباط الذي أباحه الله للعلماء، وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهى عنه، فهو ما لم يكن على هذه الأصول؛ لأن ذلك ظن ونزع من الشيطان، والدليل على صحة هذا

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٨٩ / ١٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال ابن عباس: لا تقل ما ليس لك به علم. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم. وأصل القفو العضه والبهت، فنهى الله عباده عن قول ما لا علم لهم به، فإنه سائل السمع والبصر والفؤاد عما قال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بالحق.

ومثل هذا قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ فَيَقْبِضُ نَاسَ جِهَالٍ يَفْتَنُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»^(١)، ألا ترى أنه وصفهم بالجهل، فلذلك جعلهم ضالين، وهو خلاف الذين قال فيهم: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وأمر بالرجوع إلى قولهم.

قال الطبري: فإن قيل: فإن قول سهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب: «اتهموا الرأي» يردّ قول من استعمل الرأي في الدين، وأنه لا يجوز شيء من الرأي والقياس لأنهم أخطئوا يوم أبى جندل في مخالفتهم رسول الله ﷺ في صلحه المشركين، وردّه لأبى جندل لأبيه وهو يستغيث، وكان قد عذّب في الله، وهم يظنون أنهم محسنون في مخالفة رسول الله. قيل: وجه قولهما: «اتهموا الرأي» الذي هو خلاف لرأي رسول الله وأمره على الدين، الذي هو نظير آرائنا التي كنا خالفنا بها رسول الله يوم أبى جندل، فإن ذلك خطأ، فأما الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فذلك هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم، وبنحو هذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين.

(١) البخاري (٧٣٠٧).

روى ابن عمر أن النبي ﷺ لما انصرف من الأحزاب قال: «لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة»^(١) فأبطأ ناس فتخوفوا فوت الصلاة، فصلوا، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا العصر. فما عَنَّفَ رسول الله ﷺ أحد الفريقين.

وهذا الخبر نظير خبر سهيل بن حنيف، ومن حرص يوم أبى جندل على القتال اجتهداً منهم ورسول الله يرى ترك قتالهم في أنه لم يؤثمهم كما لم يؤثم أحد الفريقين: لا الذين صلوا قبل وصولهم إلى بنى قريظة؛ لأن معنى ذلك كان عندهم ما لم يخشوا فوت وقتها، وكذلك لم يؤثم أيضاً الذين لم يصلوا حتى فاتهم وقتها إلى أن صاروا إلى بنى قريظة؛ لأن معنى أمره ﷺ بذلك كان عندهم لا يصلوها إلا في بنى قريظة وإن فاتكم وقتها، فعذر كل واحد منهم لهذه العلة.

وعن شريح أنه كتب إلى عمر بن الخطاب يسأله، فكتب إليه: «أن اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله ففي سنة رسول الله، فإن لم يكن فيما قضى الصالحون، فإن لم يكن فإن شئت تقدم وإن شئت تأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك، والسلام»^(٢).

قال الحافظ: «ذكر الشافعي شرط من له أن يقيس فقال: يشترط أن يكون عالماً بالأحكام من كتاب الله تعالى وبناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه،

(١) البخاري (٤١١٩) ومسلم (١٧٧٠ / ٦٩) (٤١١٩).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٥٣ / ١٠) وانظر إعلام الموقعين لابن القيم فقد أفاض في بحثها وبسطها وتقعيدها.

ويستدل على ما احتمل التأويل بالسنة وبالإجماع، فإن لم يكن فبالقياس على ما في الكتاب، فإن لم يكن فبالقياس على ما في السنة، فإن لم يكن فبالقياس على ما اتفق عليه السلف وإجماع الناس ولم يعرف له مخالف.

قال: ولا يجوز القول في شيء من العلم إلا من هذه الأوجه، ولا يكون لأحد إن يقيس حتى يكون عالمًا بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلاف العلماء ولسان العرب، ويكون صحيح العقل ليفرق بين المشتبهات، ولا يعجل، ويستمع ممن خالفه ليتنبه بذلك على غفلة إن كانت، وأن يبلغ غاية جهده، وينصف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما قال»^(١).

وقال أيضًا في كلامه على حديث قبض العلم: «أخرج ابن عبد البر بسنده في كتاب العلم قال دراج أبو السمع: «يأتي على الناس زمان يُسمّن الرجل راحلته حتى يسير عليها في الأمصار يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجد إلا من يفتيه بالظن». ويحمل هذا على أن المراد الأغلب الأكثر في الحالين، وقد وجد هذا مشاهدًا، ثم يجوز أن يقبض أهل تلك الصفة ولا يبقى الا المقلد الصرف، وحينئذ يتصور خلو الزمان عن مجتهد حتى في بعض الأبواب، بل في بعض المسائل، ولكن يبقى من له نسبة إلى العلم في الجملة، ثم تزداد حينئذ غلبة الجهل وترئيس أهله، ثم يجوز أن يُقبض أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وذلك جدير بأن يكون عند خروج الدجال أو بعد موت عيسى عليه السلام، وحينئذ يتصور خلو الزمان عمن ينسب إلى العلم أصلاً، ثم تهب الرياح فتقبض كل

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٩٨).

مؤمن، وهناك يتحقق خلو الأرض عن مسلم، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجتهد، ويبقى شرار الناس فعلهم تقوم الساعة والعلم عند الله تعالى.

وفي الحديث: الزجر عن ترئيس الجاهل لما يترتب عليه من المفسدة، وقد يتمسك به من لا يميز تولية الجاهل بالحكم ولو كان عاقلاً عفيفاً، لكن إذا دار الأمر بين العالم الفاسق والجاهل العفيف؛ فالجاهل العفيف أولى؛ لأن ورعه يمنعه عن الحكم بغير علم، فيحمله على البحث والسؤال.

وفي الحديث أيضاً: حض أهل العلم وطلبته على أخذ بعضهم عن بعض، وفيه شهادة بعضهم لبعض بالحفظ والفضل، وفيه حض العالم طالبه على الأخذ عن غيره ليستفيد ما ليس عنده، وفيه التثبت فيما يحدث به المحدث إذا قامت قرينة الذهول» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يسأل فما لم ينزل عليه الوحي فيقول: «لا أدري» أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي ولا بقياس؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال ابن مسعود: سئل النبي ﷺ عن الروح، فسكت حتى نزلت الآية. وفيه: جابر: مرضت، فجاءني النبي ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ، ثم صب وضوءه علي فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ قال: فما أجابني بشيء حتى نزلت آية المواريث.

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٨٨).

«قال المهلب: هذا الباب ليس على العموم في أمر النبي ﷺ؛ لأنه قد علم أمته كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعاني في كتاب الله ومشروع سنته؛ ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص؛ إذ قد علم أن الله تعالى لا بد أن يكمل له الدين. والقياس: هو تشبيه ما لا حكم فيه بما حكم في المعنى فشبه ﷺ الأحمر بالخليل، فقال: ما أنزل على فيها شيء غير هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وشبه دين الله بدين العباد في اللزوم، وقال للتي أخبرته أن أباهما لم يحج: «أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟ فالله أحق بالقضاء». وهذا هو نفس القياس عند العرب وعند العلماء بمعاني الكلام.

وأما سكوت النبي حتى نزل عليه الوحي، فإنما سكت في أشياء معضلة ليست لها أصول في الشريعة فلا بد فيها من إطلاع الوحي، ونحن الآن قد فرغت لنا الشرائع واكتمل لنا الدين، وإنما ننظر ونقيس على موضوعاتها فيما أعضل من النوازل» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون» وهم أهل العلم.

فيه: المغيرة، قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٥٧ / ١٠).

أمر الله وهم ظاهرون».

وفيه: معاوية، قال النبي ﷺ: «لن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله تعالى».

قال الطبري: «وليس هذا معارض لحديث: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»^(١) وحديث: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»^(٢) بل بعضها يدل على صحة بعض، ولكن بعضها خرج على العموم، والمراد به الخصوص^(٣)، فقوله: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» و«لا تقوم إلا على شرار الناس» يعني: في موضع كذا، فإن به طائفة من أمتي لا يضرهم من خالفهم وهم الذين عنى بقوله ﷺ: «لن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً» يريد: في موضع دون موضع.

وقد بين ذلك أبو أمامة في حديثه أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك». قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «بيت المقدس وأكناف بيت المقدس» فقد تكون الطائفة. فثبت أنه ليس أحد هذه الأخبار معارضاً لصاحبه^(٤).

(١) مسلم (٢٣٤، ١٤٨).

(٢) مسلم (٢٩٤٩) وأحمد (٣٧٣٥).

(٣) قسمتها ثلاثية: عامٌ باقٍ على عمومته، وعامٌ مخصوص، وعامٌ أريد به الخصوص أو خرج مخرج الخصوص وهو المراد هنا.

(٤) السابق (١٠ / ٣٦٠).

قلت: ولعل هذا التحديد هو تحديد أولوية، لأن في الشام كثير من أسباب البركة والخير والعلم والإيمان، ولا يلزم منه أن تكون الطائفة المنصورة منحصرة فقط في تلك البقعة الشامية دون غيرها، فاللفظ لا يحتمل هذا التحديد، ولكنه تعيين أولوية فيما يظهر، فقد تكون الطائفة الظاهرة المنصورة في الشرق أو الغرب من بلاد الإسلام مع ضعف أهل الشام وغيرهم، ولكن حظ الشام من تحقيق ذلك الظهور المبارك المظفر أغلبي على امتداد الزمان، والتاريخ شهيد صدق، وقد تكون الطائفة ظاهرة في بقعة بالحجة والبيان، وفي أخرى بالسيف والسنان، وإن كان الأغلب اجتماعهما، فقد جرت سنة الله تعالى أن من وفى الله بالعمل والعمل وفاه أيضاً بالجهاد في سبيله، فإن اجتمعا تنزل النصر الرباني المبين.

وبالجملة؛ لا يخلو الزمان من طائفة تقوم لله ظاهرة على الحق منصورة، حتى يأتي أمر الله وهو أحكم الحاكمين.

وقد ذكر نحو ذلك الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله عنه الحافظ رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً إلى ألا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد،

فإذا انقروا جاء أمر الله. انتهى ملخصاً مع زيادة فيه.

ونظير ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»^(١) أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مئة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه.

وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المئة هو المراد سواء تعدد أم لا»^(٢).

وقال أيضاً: «المراد بأمر الله: هبوب تلك الريح، والمراد بقيام الساعة: ساعتهم، والمراد بالذين يكونون بيت المقدس: الذين يحصرهم الدجال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال. ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى»^(٣).

(١) أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٩٦).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).

وقال أيضًا: «هذه الترجمة «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» لفظ حديث أخرجه مسلم^(١) عن ثوبان وبعده: «لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٢) وله من حديث جابر مثله لكن قال: «يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يِقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

قوله: «وهم أهل العلم» هو من كلام المصنف، وأخرج الترمذي حديث الباب ثم قال: سمعت محمد بن إسماعيل - هو البخاري - يقول: سمعت علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث. وذكر في كتاب خلق أفعال العباد عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] هم الطائفة المذكورة في حديث «لا تزال طائفة من أمتي» ثم ساقه وقال: وجاء نحوه عن أبي هريرة ومعاوية وجابر وسلمة بن نفيل وقرة بن إياس.

وأخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»^(٤).

قلت: ولا شك أن المقاتلين في سبيل الله لهم دخول أولوي في هذا لقوله:

(١) مسلم (٥٤/٦).

(٢) مسلم (١٩٢٠).

(٣) مسلم (٩٥/٣).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٢٩٤ / ١٣) باختصار يسير.

«يقاتلون» إن كانوا من أهل السنة والجماعة، ويشملهم لقب أهل الحديث أي المتسببة للأخذ عنه والاستئنان به حتى وإن لم يشتغلوا بدرسه، وأهل الحديث من الألقاب الفاضلة لأهل السنة والجماعة، فهم غالبون ظاهرون بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، وتفسير السلف تلك الطائفة بأنهم أهل العلم والحديث ونحوه إنما يقصدون به من كان على معتقدهم ممن تمسك بالسنة عند اختلاف الناس، وبالأخص من تحقق بالعلم النافع بها، فكلما زاد علمه وعمله واتباعه ازداد تحقيقاً للخيرية الظاهرة المنصورة، فحتى الظهور بالسنان لا يكون مقبولاً إلا مع الظهور بالعلم والحجة، فالظهور أولاً إنما يكون بالعلم الذي تقوم به الحجة الرسالية، ومقصود البلاغ إقامة الحجة، وما الحديد إلا وسيلة، وهذا الظهور العلمي هو من خصائص أهل العلم وحمة الشريعة، لذا قال المصنف رحمه الله «وهم أهل العلم» وفسرها الإمام أحمد وغيره بأهل الحديث، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ كُفْرُكُمْ شَيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

فيه: جابر، لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوَلَيْسَ كُفْرُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «هاتان أهون أو أيسر».

«ولقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قالوا: يحصبكم بالحجارة، أو يغرقكم بالطوفان الذي غرق به قوم

نوح ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف الذي نال قارون ومن خسف معه، وقيل: الريح ﴿أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعًا﴾ يعنى: يخلط أمركم فيجعلكم مختلفي الأهواء، يقال: لبست عليكم الأمر ألبسته إذا لم أبينه، ومعنى شيعا أي: فرقا، لا نكون شيعة واحدة ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعنى بالحرب والقتل، ويروى أن النبي ﷺ سأل ربه عز وجل أن لا يستأصل أمته بعذاب، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فأجابه عز وجل في صرف العذاب، ولم يجبه في أن لا يذيق بعضهم بأس بعض، وأن لا تختلف^(١)، فلذلك قال ﷺ: «هاتان أهون وأيسر» أي: الاختلاف والفتنة أيسر من الاستئصال والانتقام بعذاب الله، وإن كانت الفتنة من عذاب الله لكن هي أخف؛ لأنها كفارة للمؤمنين، أعاذنا الله من عذابه ونقمه.

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» فيه: أبو هريرة، قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامّة، وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أني لا أهلكهم بسنة بعامّة، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارهم - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً». رواه مسلم: (٢٢١٥/٤). ومعنى زوى: جمع وضم.

القرون قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع» ف قيل: يا رسول الله، كفارس والروم، فقال: «ومن الناس إلا أولئك».

وفيه: أبو سعيد، قال النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

قال ابن حجر: «ذكر الكرمانى أن المراد حصر الناس المعهود من المتبوعين، قلت: ووجهه أنه ﷺ لما بُعث كان ملك البلاد منحصرًا في الفرس والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم، أو كلاً شيء بالنسبة إليهم، فصح الحصر بهذا الاعتبار.

ويحتمل أن يكون الجواب اختلف بحسب المقام، فحيث قال فارس والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، ومن ثم كان في الجواب عن الأول «ومن الناس إلا أولئك» وأما الجواب في الثاني بالإبهام» (١) (٢).

وقال ابن بطلال: «قال المهلب: قوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم». بفتح السين هو أولى من ضمها؛ لأنه لا يستعمل الشبر والذراع إلا في السنن وهو الطريق فأخبر ﷺ أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور، والبدع

(١) أي من قوله: «فمن؟».

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠٢).

والأهواء المضلة كما اتبعتها الأمم من فارس والروم حتى يتغير الدين عند كثير من الناس.

وقد أُنذِرَ ﷺ في كثير من حديثه أن الآخر شر، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم في دين الله، وفي رواية: «بما أخذ القرون». وفي أخرى: «بأخذ القرون» قال ثعلب: أخذ الجهة: إذا قصد نحوها» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥]].

قال الحافظ: «ووجه التحذير: أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في أحداثها» (٢).

[فيه: عبد الله، قال النبي ﷺ: «ليس من نفس تقتل ظمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها» وربما قال سفيان: «من دمها، لأنه أول من سن القتل»].
قال ابن بطلال: «قال المهلب: فيه الأخذ بالمآل، والحديث على معنى

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٣٦٦/١٠).

(٢) فتح الباري (٣٠٦/١٣).

الوعيد. وهذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين المتبعين لسنة الله وسنة رسوله التي فيها النجاة» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْحَرَمَانُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَمَا كَانَ بَهَا مِنْ مَشَاهِدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمَصْلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمَنْبَرِ وَالْقَبْرِ.

فيه: جابر أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فجاء الأعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي، فأبى رسول الله ﷺ. ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى. فخرج الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبْثَهَا، وَيَنْصَعُ طَيْبُهَا» (٢).

وفيه: ابن عباس: كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف، فلما كان آخر حجة حجها عمر، فقال عبد الرحمن بمنى: لو شهدت أمير المؤمنين أتاه رجل قال: إن

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ٣٦٧).

(٢) الكبير: فرن الحداد الذي يوقد فيه النار، فالمدينة كالفرن الناري الذي لا يطيقه أهل الخبث، لأنه يمتحن دواخل نفوسهم، وهذا الفرن المديني يفرز معادن الناس ما بين ذهب إبريز يطيب ويصفو وينقى مع الحرارة ويصفو، وبين مختلط، وبين خبيث. وفي حديث آخر شبه جليس السوء بنافخ الكبر، فيؤذي من حوله بالشر وبالريح المستكره، وفي ذلك غاية البلاغة وجمال البيان وروعة التعبير.

فلاناً يقول: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً، فقال عمر: لأقومنّ العشية، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغضبوهم. قلت: لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاك الناس يغلبون على مجلسك، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها، فيطير بها كل مطير، فأمهّل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة، فتخلص بأصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، فيحفظوا مقاتلتك، وينزلوها على وجهها. فقال: والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة فقال: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل آية الرجم.

وفيه: أنس، أن النبي ﷺ طلع له أحد، فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها».

وفيه: أبو هريرة، قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

وفيه: عمر، أن النبي ﷺ قال: «أتاني الليلة آت من ربي، - وهو بالعقيق - أن صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة وحجة».

وفيه: ابن عمر، أن النبي ﷺ أُرِيَ وهو في مُعَرَّسِهِ بذي الحليفة، فقيل له: «إنك ببطحاء مباركة».

«قال المهلب: غرضه في هذا الباب تفضيل المدينة بما خصها الله به من معالم الدين، وأنها دار الوحي ومهبط الملائكة بالهدى والرحمة، وبقعة شرفها الله بسكنى رسوله وجعل فيه قبره ومنبره وبينهما روضة من رياض الجنة، وجعلها

كالكير تنفى خبث الفضة، وتخلص من بقي فيها من أن يشوبهم ميل عن الحق، ألا ترى قول ابن عوف لعمر بن الخطاب: إنها دار الهجرة والسنة، وإن أهلها أصحاب النبي الذين خصهم الله بفهم العلم وقوة التمييز والمعرفة بإنزال الأمور منازلها» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فيه: علي أن النبي ﷺ طرقة وفاطمة ابنة النبي ﷺ، فقال لهم: «ألا تصلون؟» (٢) فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فأنصرف النبي ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

قال الحافظ: «قال الكرمانى: الجدال: هو الخصام، ومنه قبيح وحسن وأحسن، فما كان للفرائض فهو أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما

(١) السابق مختصراً (١٠ / ٣٧١).

(٢) قلت: وهذا سائغ في اللغة، ولم يزل باقياً على ألسنة العامة، وليس من تصرف الرواة، وفي التنزيل: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] وعند بعضهم أن أقل الجمع اثنان. وقال الحافظ: «قوله «ألا تصلون» في رواية شعيب: «ألا تصليان» بالثنائية، والأول محمول على ضم من يتبعهما إليهما، أو للتعظيم، أو لأن أقل الجمع اثنان». فتح الباري (١٣ / ٣١٥).

كان لغير ذلك فهو قبيح. اهـ.

وليس في الحديث أن علياً لم يمثل ما دعاه إليه رسول الله ﷺ من الصلاة، فليس في القصة تصريح بذلك وإنما أجاب علي بما ذكر اعتذاراً عن تركه القيام بغلبة النوم، ولا يمتنع أنه صلى عقب هذه المراجعة إذ ليس في الخبر ما ينفيه، أو ربما منعه أمر يُستحيا من ذكره فدفعه عنه وعن أهله بمثل هذه المراجعة، ولعل هذا سبب خروج رسول الله ﷺ السريع عنهم.

وقال الكرمانى: حرضهم النبي ﷺ باعتبار الكسب والقدرة الكاسبة، وأجاب علي باعتبار القضاء والقدر، قال: وضرب النبي ﷺ فخذه تعجباً من سرعة جواب علي، ويحتمل أن يكون تسليماً لما قال.

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: في هذا الحديث من الفوائد: مشروعية التذكير للغافل خصوصاً القريب والصاحب، لأن الغفلة من طبع البشر فينبغي للمرء أن يتفقد نفسه ومن يحبه بتذكير الخير والعون عليه.

وفيه فضيلة ظاهرة لعلي من جهة عظم تواضعه، لكونه روى هذا الحديث مع ما يشعر به عند من لا يعرف مقداره أنه يُوجبُ غاية العتاب، فلم يلتفت لذلك، بل حدث به لما فيه من الفوائد الدينية^(١).

[وفيه: أبو هريرة، قال النبي ﷺ: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدْراس، فناداهم النبي ﷺ: «يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا»، قالها

(١) فتح الباري (١٣ / ٣١٥) بتصرف واختصار يسيرين.

ثلاثاً، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد، أسلموا تسلموا»، قالها ثلاثاً، فقال: «اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وأنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بئاله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله».

«قال المهلب: الجدل موضوعه في اللغة المدافعة، فمنه مكروه، ومنه حسن، فما كان منه تثبيتاً للحقائق وتثبيتاً للسنن والفرائض فهو الحسن، وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم. وأما قول علي فهو من باب المدافعة، فاحتج عليه النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال غيره: وجه هذه الآية في كتاب الاعتصام أن النبي ﷺ عرض على علي وفاطمة الصلاة، فاحتج عليه على بقوله: إنما أنفسنا بيد الله. فلم يكن له أن يدفع ما دعاه النبي إليه بقوله هذا، بل كان الواجب عليه قبول ما دعاه إليه، وهذا هو نفس الاعتصام بسنته ﷺ؛ فلاجل تركه الاعتصام بقبول ما دعاه إليه من الصلاة قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾، ولا حجة لأحد في ترك أمر الله وأمر رسوله بمثل ما احتج به علي.

وأما حديث أبي هريرة، فموضع الترجمة منه أن اليهود لما بلغهم النبي ﷺ ما لزمهم العمل به والإيمان بموجبه قالوا له: قد بلغت يا أبا القاسم. رادّين لأمره في عرضه عليهم الإيمان، فبالغ في تبليغهم، وقال: ذلك أريد. وهذه مجادلة

من النبي ﷺ لأهل الكتاب بالتي هي أحسن» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم.

فيه: أبو سعيد، قال النبي ﷺ: «يُجَاءُ بَنُو حَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أُمته، هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته». فقال رسول الله ﷺ: «فِيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدلاً، إلى قوله: ﴿شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

«معنى هذا الباب: الاعتصام بالجماعة، ألا ترى قوله: ﴿لَكُمْ كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ولا يجوز أن يكونوا شهداء غير مقبولي القول، ولما كان الرسول واجباً اتباعه وجب اتباع قولهم؛ لأن الله جمع بينه وبينهم في قبول قولهم وزكاهم وأحسن الثناء عليهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني عدلاً.

والاعتصام بالجماعة كالاكتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لقيام الدليل على توثيق الله ورسوله صحة الإجماع وتحذيرهما من مفارقتها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥]، وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٧٨ / ١٠).

وهاتان الآيتان قاطعتان على أن الأمة لا تجتمع على ضلال، وقد أخبر الرسول بذلك فهما من كتاب الله فقال: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»^(١) ولا

(١) أحمد في المسند ٦/ ٣٩٦ عن أبي بصرة الغفاري قريئاً من هذا. وصححه الألباني في السلسلة (١٠/ ٤٣٦) والأحاديث التي تدل على معنى هذه الأحاديث كثيرة، فانظر: الترمذي (٢١٦٧)، وأبا داود (٤٢٥٣)، والمستدرك للحاكم (١/ ١١٥، ٤/ ٥٠٧). واعلم أن أحاديث عدم اجتماع أمة محمد ﷺ على ضلالة ولا على خطأ، مشهورة المتن كثيرة الأسانيد، ولها شواهد عديدة. وانظر كشف الخفا (٢/ ٣٥٠، ٤٨٨). وقد حاول بعضهم الاستدلال بحديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة» على صحة عقيدة الأشاعرة. وقد سئل شيخنا أ. د. ناصر بن عبد الكريم العقل عن ذلك وهل فيه حجة على صحة اعتقاد الأشاعرة والماتريدية؟ فأجاب:

«أولاً: لا يصح القول بأن المسلمين اجتمعوا على الاعتقاد الذي لخصه الإمامان أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي، بل بقي أهل السنة والجماعة، (أهل الحديث) على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون إلى يومنا، وإلى قيام الساعة.

وثانياً: أبو الحسن الأشعري، والماتريدي لا يتفقان على العقيدة، فعقيدة الأشعري استقرت على ما كان عليه السلف الصالح في الجملة إلا في مسائل قليلة. أما الماتريدي فإنه نهج نهج أهل الكلام في تقرير العقيدة، في الصفات بخاصة، بالقواعد الكلامية والفلسفية كما في كتابه التوحيد.

وثالثاً: وعليه فإن مذهب السلف هو الحق وإن خالفه الأكثرون في بعض الأزمان وبعض الأمكنة، ومذهب الأشاعرة المتكلمين والماتريدية يخالف مذهب السلف، وهو مذهب محدث بعد القرون الفاضلة، وهم أي الأشاعرة والماتريدية يوافقون السلف في بعض الأمور في الجملة، كما أنهم أصناف منهم من يدين بمنهج السلف، ومنهم من يدين =

يجوز أن يكون أراد جميعها من عصره إلى قيام الساعة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئاً؛ إذ الحكم لا يعرف إلا بعد انقراض جميعها، فَعُلم أنه أراد أهل الحل والعقد من كل عصر»^(١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»].

فيه: أبو سعيد، وأبو هريرة، أن النبي ﷺ بعث أخابني عدي الأنصاري إلى خيبر، واستعمله على خيبر، فقدم بتمر جَنِيْبٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَكُلْ تمر خيبر هكذا؟» قال: لا، والله يا رسول الله إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجَمْع، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن مثلاً بمثل، أو بيعوا هذا، واشتروا بثمانه من هذا، وكذلك الميزان»^(٢).

«الواجب على من حكم بغير السنة جهلاً وغلطاً، ثم تبين له أن سنة الرسول خلاف حكمه فإن الواجب عليه الرجوع إلى حكم السنة وترك ما

بمناهج أهل الكلام وهم الأكثر».

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠ / ٣٨٠).

(٢) صحيح البخاري (٩ / ١٠٧) جنيب: على وزن كريم، أجود ألوان التمر، قال الأصمعي: «الجمع من التمر: ما لم يعرف له اسم»، وقال الفراء: «أخلاق من التمر من أجناس». عن: الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، لأحمد بن إسماعيل الكوراني. ١٨٠ / ١١.

خالفها امتثالاً لأمره تعالى بوجوب طاعته وطاعة رسوله ألا يحكم بخلاف سنته، وهذا هو نفس الاعتصام بالسنة»^(١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: الحجة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة، وما كان يغيب بعضهم من مشاهد النبي ﷺ وأمر الإسلام.

فيه: أبو موسى أنه استأذن على عمر، فوجده مشغولاً، فقال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له، فدُعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إنا كنا نؤمر بهذا، قال: فأتني على هذا ببينة، أو لأفعلن بك. فانطلق إلى مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهد إلا أصاغرنا، فقام أبو سعيد الخدري، فقال: قد كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر النبي ﷺ، ألهاني الصفق بالأسواق.

وفيه: أبو هريرة: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ، والله الموعد، إني كنت امرءاً مسكيناً ألزم النبي ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فشهدت من رسول الله ﷺ ذات يوم، وقال: «من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي، ثم يقبضه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني»، فبسطتُ بردة كانت عليّ، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه].

«هذا الباب يرد به على الرافضة وقوم من الخوارج زعموا بأن أحكام النبي

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠ / ٣٨٢).

وسننه منقولة عنه نقل تواتر، وأنه لا سبيل إلى العمل بما لم ينقل نقل تواتر، وقولهم في غاية الجهل بالسنن وطرقها، فقد صحت الآثار أن أصحاب النبي ﷺ أخذ بعضهم السنن من بعض، ورجع بعضهم إلى ما رواه غيره عن النبي ﷺ، وانعقد الإجماع على القول بالعمل بأخبار الأحاد، وبطل قول من خرج عن ذلك من أهل البدع.

هذا أبو بكر الصديق على مكانه لم يعلم النص في توريث الجدّة حتى أخبره محمد بن مسلمة والمغيرة بالنص فيها، فرجع إليه، وأخذ عمر بن الخطاب بما رواه عبد الرحمن بن عوف في حديث الوباء، فرجع إليه، وكذلك أخذ أيضًا عمر بما رواه أبو موسى في دية الأصابع، فرجع إليه، وأخذ أيضًا عمر بما رواه المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في دية الجنين، ورجع عمر إلى أبي موسى وأبي سعيد في الاستئذان، وابن عمر يحكى عن رافع بن خديج النهي عن المخابرة فرجع إليه، والصحابة ترجع إلى قول عائشة: «إذا التقى الختانان وجب الغسل»^(١). وأيضًا ترجع إليها في أن النبي ﷺ كان يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يصوم^(٢)، وأبو موسى يرجع إلى حديث ابن مسعود في ابنة وابنة ابن وأخت.. وهذا الباب أكثر من أن يحصى^(٣).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة لا من

(١) البخاري (١/ ٨٠) ومسلم (١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) البخاري (١٩٢٥، ١٩٢٦) ومسلم (١١٠٩، ٧٨).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطل (١٠/ ٣٨٦).

غير الرسول ﷺ.

فيه: محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصائد الدجال. قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ].

قال الحافظ بعد ذكر قصة ابن عمر مع ابن صياد: «وقد أخرج مسلم هذا الحديث بمعناه من وجه آخر عن ابن عمر ولفظه: «لقيته مرتين.. فذكر الأولى ثم قال: لقيته لقيّة أخرى وقد نفرت عينه فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: ما أدري، قلت: لا تدري وهي في رأسك! قال: إن شاء الله جعلها في عصاك هذه، ونخر كأشد نخير حمار سمعت. فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأنا والله ما شعرت! قال: وجاء حتى دخل على أم المؤمنين حفصة فحدثها، فقالت: ما تريد إليه، ألم تسمع أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟

قال ابن بطال: فإن قيل هذا أيضًا يدل على التردد في أمره، فالجواب: أنه إن وقع الشك في أنه الدجال الذي يقتله عيسى بن مريم؛ فلم يقع الشك في أنه أحد الدجالين الكذابين الذين أنذر بهم النبي ﷺ في قوله: «إن بين يدي الساعة دجالين كذابين قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي»^(١).

ومُحَصَّلُهُ: عدم تسليم الجزم بأنه الدجال، فيعود السؤال الأول عن جواب

(١) البخاري (٦/٦١٦)، ومسلم (٨٤).

حلف عمر ثم جابر على أنه الدجال المعهود، لكن في قصة حفصة وابن عمر دليل على أنهما أرادا الدجال الأكبر، واللام في القصة الواردة عنهما للعهد لا للجنس.

وقد أخرج أبو داود^(١) بسند صحيح عن موسى بن عقبة عن نافع قال: كان ابن عمر يقول: «والله ما أشك أن المسيح الدجال هو ابن صياد».

ووقع لابن صياد مع أبي سعيد الخدري قصة أخرى تتعلق بأمر الدجال، فأخرج مسلم^(٢) عن أبي سعيد قال: صحبتني ابن صياد إلى مكة فقال لي: ماذا لقيت من الناس يزعمون أني الدجال! أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه لا يُولد له»؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد ولد لي، قال: أو لست سمعته يقول: «لا يدخل المدينة ولا مكة»؟ قلت: بلى، قال: فقد ولدت بالمدينة، وها أنا أريد مكة.

ومن طريق سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: أخذتني من ابن صياد دَمَامَةً^(٣) فقال: هذا عذرتُ الناس، مالي وأنتم يا أصحاب محمد؟ ألم

(١) أبو داود (٤٣٣٠) وصححه ابن حجر كما بين يديك.

(٢) مسلم (١٩٠/٨).

(٣) الدَّمَامَةُ: تأتي بمعنى الحياء، ومنه ما جاء في موسى عليه السلام: «فَأَصَابَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ دَمَامَةٌ» رواه مسلم (٢٣٨٠)، أي استحيا من الخضر عليهما السلام. وتأتي الدَّمَامَةُ بمعنى الدَّم واللوم، والمذمة: العار. والحديث محتمل للأمرين، فقد يكون قد لأمه مما سمع فيه من الناس، وربما استحيا منه لما رأى من أمارات كونه ليس كما يقولون، والأظهر: أنه =

يقول نبي الله ﷺ «إنه» يعني الدجال «يهودي»^(١) وقد أسلمت.

وفي رواية: خرجنا حجّاجًا ومعنا ابن صياد فنزلنا منزلاً وتفرق الناس، وبقيت أنا وهو، فاستوحشتُ منه وحشة شديدة مما يقال فيه، فقلت: الحر شديد، فلو وضعت ثيابك تحت تلك الشجرة ففعل، فرفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعُسٍّ^(٢) فقال: اشرب يا أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد، وما بي إلا أن أكره أني أشرب من يده، فقال: لقد هممتُ أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق به مما يقول لي الناس!

يا أبا سعيد؛ مَنْ خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار؟! ثم ذكر نحو ما تقدم وزاد: قال أبو سعيد: حتى كدت أعذره.. وفي آخر كل من الطرق الثلاثة أنه قال: إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن؟ قال أبو سعيد: فقلت له: تبّا لك سائر اليوم!

وقال البيهقي: ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ على حلف عمر، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ كان متوقفاً في أمره، ثم جاءه الثبت من الله تعالى بأنه غيره على ما تقتضيه قصة تميم الداري، وبه تمسك من جزم بأن الدجال غير ابن صياد، وطريقه أصح، وتكون الصفة التي في ابن صياد وافقت ما في الدجال.

دجال من الدجاجة، وليس هو بالدجال الأكبر، والله أعلم.

(١) مسلم (٢٩٢٧).

(٢) العُسُّ: قدح ضخم يشرب فيه.

قلت: قصة تميم أخرجها مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ خطب فذكر أن تميمًا الداري ركب في سفينة مع ثلاثين رجلًا من قومه، فلعب بهم الموج شهرًا، ثم نزلوا إلى جزيرة، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر، فقالت لهم: أنا الجساسة، ودلتهم على رجل في الدَّير قال: فانطلقنا سرعًا فدخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا وأشدّه وثاقًا، مجموعة يده إلى عنقه بالحديد!

فقلنا: ويملك ما أنت؟!.. فذكر الحديث وفيه: أنه سألهم عن نبي الأميين هل بعث، وأنه قال: إن يطيعوه فهو خير لهم، وأنه سألهم عن بحيرة طبرية، وعن عين زُغرٍ، وعن نخل بيسان.. وفيه أنه قال: إني مخبركم عني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة. وفي بعض طرقه عند البيهقي أنه شيخ. وسندها صحيح.

قال البيهقي: فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر ﷺ بخروجهم، وقد خرج أكثرهم، وكأن الذين يجزمون بابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم، وإلا فالجمع بينهما بعيد جدًا، إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله، أن يكون في آخرها شيخًا كبيرًا مسجونًا في جزيرة من جزائر البحر، موثقًا بالحديد، يستفهم عن خبر النبي ﷺ هل خرج أو لا؟!!

فالأولى أن يحمل على عدم الاطلاع، أما عمر فيحتمل أن يكون ذلك منه

قبل أن يسمع قصة تميم، ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور، وأما جابر فشهد حلفه عند النبي ﷺ فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي ﷺ.

قال الخطابي: اختلف السلف في أمر ابن صياد بعد كبره، فروي أنه تاب من ذلك القول ومات بالمدينة، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا وجهه حتى يراه الناس، وقيل لهم: اشهدوا.

وقال النووي: قال العلماء: قصة ابن صياد مشكلة، وأمره مشتبه، لكن لا شك أنه دجال من الدجاجلة، والظاهر أن النبي ﷺ لم يوح إليه في أمره بشيء، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان ﷺ لا يقطع في أمره بشيء، بل قال لعمر: «لا خير لك في قتله»^(١). وأما احتجاجاته هو بأنه مسلم إلى سائر ما ذكر فلا دلالة فيه على دعواه؛ لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت خروجه آخر الزمان.

قال: ومن جملة ما في قصته قوله للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ وقوله: إنه يأتيه صادق وكاذب، وقوله: إنه تنام عينه ولا ينام قلبه، وقوله: إنه يرى عرشاً على الماء، وأنه لا يكره أن يكون الدجال، وأنه يعرفه ويعرف مولده وموضعه وأين هو الآن.

قال: وأما إسلامه وحجه وجهاده فليس فيه تصريح بأنه غير الدجال؛

(١) البخاري (٦١٧٥)، ومسلم (٧٤٦١).

لاحتمال أن يختم له بالشر. وقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر قال: «فقدنا ابن صياد يوم الحرة»^(١).

ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم، وقد توهم بعضهم أنه غريب فَرَدُّ وليس كذلك، فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر»^(٢).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»].

فيه: عبد الرحمن، سمع معاوية، يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب^(٣).

وفيه: أبو هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦].

(١) أبو داود (٤٣٣٢) وصححه ابن حجر والألباني.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٢٦ - ٣٣٠) ملخصاً.

(٣) الكذب في لغة القرشيين هو القول بخلاف الحقيقة وإن كان بلا قصد، وقصد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن في حديث كعب ما هو باطل لأنه يحدث عن صحف أهل الكتاب.

وفيه: ابن عباس، قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم].

«قال المهلب: قوله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» إنما هو في الشرائع، لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا نعرفه من شرعنا لنعمل به؛ لأن شرعنا مكتفٍ، وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال ما يقوم الشرع منه. وأما سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، وما جاء به نبينا ﷺ من الأخبار عن الأمم السالفة فلم نُنه عنه.

فإن قيل: فقد أمر الله رسوله بسؤال أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قيل: ليس هذا بمفسد لما تقدم من النهي عن سؤالهم؛ لأنه ﷺ لم يكن شاكاً ولا مرتاباً.

فإن قيل: كيف يجوز سؤال الذين يقرأون الكتاب مع جحدهم النبوة؟ ففيه قولان: أحدهما: سل من آمن من أهل الكتاب كابن سلام، وكعب الأخبار.

الثاني: سلهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم، ثم انظر ما يوافق تلك

الصفة» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** وأن المشاورة قبل العزم والتين، لقوله: **﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** [آل عمران: ١٥٩] فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم، قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»، وشاور عليا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منهما حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله.

وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمراء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره؛ اقتداء بالنبي ﷺ. ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهؤلاء

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٣٩٣) مختصراً.

كانوا، أو شبَّانًا، وكان وقَّافًا عند كتاب الله^(١).

«عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من الفضل. وقال الحسن: وما شاور قوم إلا هُودوا لأرشد أمورهم. وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه مع غناه عنهم بتدبيره تعالى له وسياسته إياه؛ ليستن به من بعده ويقتدوا به فيما ينزل بهم من النوازل. وقال سفيان الثوري: وقد سنَّ رسول الله الاستشارة في غير موضع، استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر، واستشار أصحابه في يوم الحديبية.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال قتادة: أمر الله نبيه إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله. وقال المهلب: وامثل هذا النبي ﷺ فقال: «لا ينبغي لنبي لبس لأُمته أن يضعها حتى يحكم الله» أي: ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض التوكل الذي شرط الله مع العزيمة، فلبسه لأُمته دالٌّ على العزيمة.

وفيه من الفقه: أن للمستشير والحاكم أن يعزم من الحكم على غير ما قال به مشاوره إذا كان من أهل الرسوخ في العلم، وأن يأخذ بما يراه كما فعل النبي ﷺ في مسألة عائشة، فإنه شاور عليًا وأسامة، فأشار عليه أسامة بإمسакها، وأشار عليه علي بفراقها، فلم يأخذ بقول أحدهما، وتركها عند أهلها حتى نزل القرآن فأخذ به.

(١) صحيح البخاري (٩/١١٣).

وكذلك فعل أبو بكر الصديق فإنه شاور أصحابه في مقاتلة من منع الزكاة، وأخذ بخلاف ما أشاروا به عليه من ترك قتالهم لما كان عنده متضحاً من قول النبي ﷺ: «إلا بحقها»^(١) وفهمه هذه النكتة مع ما يعضدها من قوله: «من غير دينه فاقتلوه».

وأما قول البخاري: فكان الأمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأئمة من أهل العلم، فبذلك تواصى العلماء والحكماء.

قال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة ومن يخشى الله، فإذا أشار أحد برأي سألته: من أين قاله؟ فإن اختلفوا أخذ بأشبههم قولاً بالكتاب والسنة، ولا يحكم بشيء حتى يتبين له حجة يجب الحكم بها.

وقول البخاري: فإذا وضح الكتاب والسنة يعني: إن وجد فيهما نص لم يتعدوه، وإن لم يوجد نص وسعهم الاجتهاد»^(٢). وبالله التوفيق.



(١) قلت: فإن قيل: لم شاورهم والسنة بين يديه؟ فالجواب: بحث ما لديهم من أدلة ربما لم يقف عليها، ولذلك فلما لم يجد لديهم ما يخالف ما لديه من السنة عمل بها وترك رأيهم.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣٩٩ / ١٠).

من أخبار المعتصمين بالله تعالى

حديث المعتصمين برهم يسوق الروح لعلاها، ويسمو بها لسمّاها، ويعلو بها لتُحلّق مع الملائة الأعلى لهداها، فالكلام عنهم ينشطها ويغذيها، ويلهمها ويشفيها، وقد قص ربنا سبحانه في التنزيل أخبار سادة أوليائه من أنبيائه ومن دونهم، للاعتبار بسيرتهم، والانتهاج في سبيلهم، والسير في ركاب قافلتهم المحفوفة بالسكينة والرحمة والبركة والتوفيق، ومن قصد البحر استقلّ السواقيًا.

وإن من سادة أولياء هذه الأمة علّم صالح، ووليّ للأمة ناصح، وإمام هدى في سنة رسول الله ﷺ، حريّ بمن رام الصلاح أن يقبس من نور علمه النقي، ويتلمّس مهيعه الصافي؛ لأنه قد عرف الطريق بدلائله، واطمأنت نفسه فيه وبه وله، كيف لا وهو يصبح ويمسي على استعلام واستبشار واستبصار واستظهار سنة الحبيب ﷺ والعمل بها، والجهاد لها وبها، ونشرها في الأمة، والذبّ عنها، نصحاء لها ومحبة وشفقة، جزاه الله عنا خير ما جزى مصلحًا عن قومه، وداع إلى سبيل ربه عن أحبابه، ورضي عنه وأرضاه، وقدّس روحه ورحمه، وكتبه من أهل الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، ووالديه وأحبابه وإيانا جميعًا، ذاكم هو الخبر الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صاحب الصحيح، وحتى سلسلة اسمه قد حواها الجمال والبهاء والجلال.

وسيكون غالب مرجعنا في منتخبات سيرته عن الذهبي في سير الأعلام^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩١ - ٤٧٠). باختصار واقتصار وزيادات من الفتح وغيره.

الإمام البخاري رحمه الله تعالى

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه^(١) البخاري.

أسلم المغيرة على يدي اليمان الجعفي والي بخارى، وكان مجوسياً، وطلب إسماعيل بن إبراهيم العلم. وولد أبو عبد الله في شوال سنة أربع وتسعين ومئة. وعن محمد بن أحمد بن الفضل البلخي، سمعت أبي يقول: ذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صغره، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: «يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك»، - شك البلخي - فأصبحنا وقد رد الله عليه بصره^(٢).

صباه العلمي:

عن محمد بن أبي حاتم، قال: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: أهتم حفظ الحديث وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين، أو أقل^(٣).

(١) وهي لفظة بخارية، معناها الزراع.

(٢) مقدمة فتح الباري (٤٧٨). أي: بدعائها المقرون بالبكاء رجاءً لله تعالى ورحمة بالصبي الصغير، فالله تعالى عند المنكسرة قلوبهم إليه، الواثقة أفئدتهم به تبارك وتعالى.

(٣) الحافظ في الفتح (١ / ٤٤). وفي هذا أن على الوالدين ملاحظة العناية يتحجب الصغير في الإيثار والعبادة والعلم منذ نعومة أظفاره، فالغصن يثبت على ما امتد عليه. والله =

قال رحمه الله تعالى: ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره. فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إنَّ أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل. فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال ابن إحدى عشرة سنة!

فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء^(١)، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها، وتخلفت في طلب الحديث^(٢).

شيوخه:

أجلَّة كثيرون، قال وراقه محمد بن أبي حاتم: سمعته يقول: دخلت بلخ، فسألوني أن أُملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثاً، فأملت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم.

لا يضيع أجر المصلحين، كيف وإن كان مشروع حياة المرء فلذة كبده وامتداده في الزمان!

وينشأ ناشئُ الفتيانِ فينا على ما كان عودُه أبوه

(١) أي: أهل الرأي، وهم دون أهل الأثر.

(٢) الحافظ في الفتح (١/ ٤٤)

قال: وسمعت قبل موته بشهر يقول: كتبت عن ألف وثمانين رجلاً، ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص^(١). وكتابه الصحيح هو أعلى الكتب الستة سنداً إلى النبي ﷺ في شيء كثير من الأحاديث، وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة، وأقدمهم لقياً للكبار، أخذ عن جماعة يروي الأئمة الخمسة^(٢) عن رجل عنهم.

رحلته وطلبه وتصانيفه:

قال محمد بن أبي حاتم البخاري: سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل يقول: حججت، ورجع أخي بأمي، وتخلفت في طلب الحديث. فلما طعنت في ثمان عشرة، جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب «التاريخ» إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المقمرة. وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب.

وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرور وأنا صبي، فإذا جئت أستحيي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين، فضحك من حضر المجلس. فقال شيخ منهم: لا تضحكوا، فلعله يضحك منكم يوماً!

وسمعت يقول: دخلت على الحميدي وأنا ابن ثمان عشرة سنة، وبينه وبين

(١) ذكره الحافظ في الفتح (١/ ٤٤).

(٢) أي: مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

آخر اختلاف في حديث، فلما بصر بي الحميدي قال: قد جاء من يفصل بيننا، فعرضاً علي، فقضيت للحميدي على من يخالفه، ولو أن مخالفه أصر على خلافه ثم مات على دعواه لمات كافراً.

وعن أبي بكر الأعين قال: كتبنا عن البخاري وما في وجهه شعرة. فقلنا: ابن كم أنت؟ قال: ابن سبع عشرة سنة.

وقال إبراهيم بن معقل: سمعت أبا عبد الله يقول: كنت عند إسحاق بن راهويه^(١)، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتاباً مختصراً لسنن النبي ﷺ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب^(٢).

وعن كتابه العظيم «الصحيح» قال البخاري: أخرجت هذا الكتاب من زهاء ست مئة ألف حديث. وقال: ما وضعت في كتابي «الصحيح» حديثاً إلا

(١) رَاهُويَ: بضم الهاء وفتح الياء عند المحدثين، وراهويّ: بفتح الحاء والواو وتسكين الياء عند أهل اللسان، وهو الأشبه؛ لأنه اسم فارسي له نظائر كسيويّ ونفطويّ ومسكويّ وعمرويّ وحمويّ وخميريّ ونحوها، وعليه؛ فليُسلَك براهويّ بسبيلها، وهو مركب من اسم وصوت، وصوتها «ويه»، ولعلّ المحدثين كرهوا النطق بـ«ويه»، لأن فيه نوعاً إشعار بتفجّع لوقوع مكروه، والله أعلم.

(٢) وفي هذا بركة الإشارة على التلميذ بما ينفعه الله به وينفع به الأمة، ولهذا شواهد لا تحصر في أبواب الخير، ومشاريع البر، وأوجه النفع المتعدي للناس، فكثير منها كان بذرتها كلمة ألقاها الشيخ. ولم يلق لها كثير بال. فنمت مع الزمن بإذن ربها حتى أثمرت نتائجاً صالحاً وأكلاً طيباً وعملاً مباركاً.

اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين^(١).

وقال: ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب.

وسمعه يقول: صنفت جميع كتبي ثلاث مرات. وقال: أخذ إسحاق بن راهويه^(٢) كتاب «التاريخ» الذي صنفت، فأدخله على عبد الله بن طاهر،

(١) انظر: طبقات الحنابلة (١ / ٢٧٤) وتاريخ بغداد (٢ / ٩). وتأمل بركة الصلاة ونفعها وعظيم أثرها، فلاجلها وأمثالها خلقتنا، وليست صلاة العالم به الخاشع له كصلاة من سواه من الغافلين، والله المستعان.

(٢) سئل الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه رحمه الله تعالى، فقال: «مثل إسحاق يُسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين» أخرجه الخطيب في «الكفاية» (ص: ١٤٧ - ١٤٨) بإسناد صحيح. وفي تاريخ الخطيب: (١٠ / ٣٢٨): قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: «ما جاوز الجسر أفقه من إسحاق بن راهويه، ولا أحفظ من أبي زرعة»، أي الرازي الإمام الحافظ.

ويعني الإمام بالجسر: جسر نهر جيحون، لأنهم قد سمّوا ما خلفه من البلاد: بلاد ماوراء النهر، وعلى الشرق منه نهر سيحون، هي منطقة تاريخية وجزء من آسيا الوسطى، تشمل أراضيها أوزبكستان والجزء الجنوب الغربي من كازاخستان والجزء الجنوبي من قيرغيزستان، وأهم مدنها: سمرقند - بخارى - فرغانة - طشقند - خوارزم - مرو - ترمذ.

وقد قال عليه السلام: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة». رواه مسلم (٢٦) / ٢٨٣٩. قال النووي رحمه الله تعالى: «اعلم أن سيحان وجيحان غير سيحون =

فقال: أيها الأمير، ألا أريك سحرًا؟ قال: فنظر فيه عبد الله، فتعجب، منه، وقال

وجيخون، فأما سيحان وجيخان المذكوران في هذا الحديث اللذان هما من أنهار الجنة، في بلاد الأرمن، فجيجان نهر المصيصية، وسيحان نهر أذنة، وهما نهران عظيمان جدًّا، أكبرهما جيخان، فهذا هو الصواب في موضعهما، وأما قول الجوهر في «صحاحه»: جيخان نهر بالشام، فغلط، أو أنه أراد المجاز من حيث إنه ببلاد الأرمن، وهي مجاورة للشام، قال الحازمي: سيحان نهر عند المصيصية، قال: وهو غير سيخون، وقال صاحب «نهاية الغريب»: سيحان وجيخان نهران بالعواصم، عند المصيصية، وطرسوس، واتفقوا كلهم على أن جيخون بالواو نهر وراء خراسان، عند بلخ، واتفقوا على أنه غير جيخان، وكذلك سيخون غير سيحان، وأما قول القاضي عياض: هذه الأنهار الأربعة أكبر أنهار بلاد الإسلام، فالتيل بمصر، والفرات بالعراق، وسيحان وجيخان، ويقال: سيخون وجيخون ببلاد خراسان، ففي كلامه إنكار من أوجه:

أحدها: قوله: الفرات بالعراق، وليس بالعراق، بل هو فاصل بين الشام والجزيرة.
والثاني: قوله: "سيحان وجيخان"، ويقال: سيخون وجيخون، فجعل الأسماء مترادفة، وليس كذلك، بل سيحان غير سيخون، وجيخان غير جيخون، باتفاق الناس، كما سبق.
الثالث: أنه ببلاد خراسان، وأما سيحان وجيخان ببلاد الأرمن، بقرب الشام، والله أعلم.

وأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ففيه تأويلان، ذكرهما القاضي عياض:
أحدهما: أن الإيمان عمّ بلادها، أو الأجسام المتغذية بها صائرة إلى الجنة.
والثاني: وهو الأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة، والجنة مخلوقة موجودة اليوم، عند أهل السنة، وقد ذكر مسلم في «كتاب الإيمان» في حديث الإسراء (١٧/ ١٧٧): أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة، وفي البخاري (٤/ ١٣٤): من أصل سدرة المنتهى. وهو تحرير حسن، والله تعالى أعلم.

لست أفهم تصنيفه.

وقال: دخلت بغداد آخر ثمان مرات، في كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل، فقال لي في آخر ما ودعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس، وتصير إلى خراسان؟! ^(١) قال: فأنا الآن أذكر قوله.

(١) قالها الإمام أحمد متعجباً متحسراً على ترك البخاري بغداد، فمثله لا يعوّض، وهو من هو! وكأنه يلمح إنه حقيق بخلافته في الحديث، وأن مثله ينبغي أن يكون في قصبة الإسلام لا أطراف البلاد حيث لا يستفيد منه إلا قليل مقارنة بالكم الهائل من طلبة الحديث في بغداد، وتيسير التحديث له بها، وربما توقع البخاري ذلك فرغب في نشر علمه في المشرق لحاجة الناس إليه هناك أكثر من غيرهم مهما أصابه في سبيلها من لأواء ومشقة وغربة في الإخوان، أو أنه لم يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، فإنه ترك بغداد وذهب للإقامة في نيسابور، وبقي فيها خمس سنين، ثم وقعت الفتنة التي أدت إلى خروجه من نيسابور، فتذكر يومها قول شيخه أحمد فقال: «فأنا أذكر قوله الآن». ولعل في الأمر خيراً كثيراً، وكل أمر الله خير، فقد تخرج على يديه في نيسابور وما حولها الإمام مسلم ومن كان في طبقة من الأئمة، وقد كانت نيسابور وقتها تكاد أن تضاهي بغداد في العلم والعلماء، وكان مقصده رحمه الله تعالى نشر العلم في تلك الأقطار في المشرق، أما بغداد ونحوها ففيها كفاية بالإمام أحمد وأقرانه من الأئمة، والله المستعان.

والمقصود: أن الإمام أحمد قد تفرّس فيه فرآه جامعاً للعلم الواسع والعقل الذكي والعمل الصادق، ومما قاله في الثناء عليه كما في تاريخ بغداد: (٢/٢، ٢٨٢): «ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل»، ولما سألته عنه عبد الله عن الحفاظ فقال: «شبان من خراسان فعده فيهم، فبدأ به»، وقال أيضاً: «أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد عندي أبصرهم

وقال أبو عبد الحاكم: أول ما ورد البخاري نيسابور سنة تسع ومئتين، ووردها في الأخير سنة خمسين ومئتين، فأقام بها خمس سنين يحدث على الدوام. وقال محمد بن يوسف البخاري: كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة!

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر، يجمعنا بيت واحد إلا في القipzig أحياناً، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة، فيوري ناراً، ويسرج، ثم يخرج أحاديث، فيعلم عليها.

وقال عبد القدوس بن همام يقول: سمعت عدة من المشايخ، يقولون: حول محمد بن إسماعيل تراجم جامع بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين^(١).

وقال البخاري: صنفت «الصحيح» في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت هانئ بن النضر يقول: كنا عند محمد بن

وأعلمهم، وأفقههم»، ولم تخطى فراسة الإمام في الإمام.

(١) وتقدم من قوله عن نفسه: أنه كان يغتسل ويصلي ركعتين عند كل حديث.

يوسف - يعني: الفريابي - بالشام، وكنا ننتزه فعل الشباب في أكل الفِرْصَاد^(١) ونحوه، وكان محمد بن إسماعيل معنا، وكان لا يزاحمنا في شيء مما نحن فيه، ويكب على العلم.

وقال النجم بن الفضيل: رأيت النبي ﷺ في النوم، كأنه يمشي، ومحمد بن إسماعيل يمشي خلفه، فكلما رفع النبي ﷺ قدمه، وضع محمد بن إسماعيل قدمه في المكان الذي رفع النبي ﷺ قدمه^(٢).

وقال: لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر.

قال: وذاك أني كنت بنيسابور مقيماً، فكان ترد إليّ من بخارى كتب، وكُنَّ قراباتٌ لي يقرئن سلامهن في الكتب، فكنت اكتب كتاباً إلى بخارى، وأردت أن أقرئنهم سلامي، فذهبت علي أساميهن حين كتبت كتابي^(٣)، ولم أقرئنهم سلامي، وما أقل ما يذهب عني من العلم، وقال: سمعته يقول: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء.

(١) الفرصاد: التوت.

(٢) وتعبير منامه: أنه يمشي على سنته ويحييها ويشهرها في الناس، والله أعلم.

(٣) وهذه من شغفه بالعلم الذي أخذ عليه ذاكرته إذهاً عن إدراك أسماء قريباته! وهو من هو في الحفظ والإتقان! وتأمل هذا مع قوله الآنف: «وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب»، وقوله: «فأملت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم!» فسبحان العليم الخبير، وتبارك الحكيم المحيط، حيّ قيوم لا يشغله شيء عن شيء، ولا يعجزه شيء، أحاط بكل شيء رحمة وعلماً واقتداراً.

كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث، إن كان الرجل فهِمًا، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته. فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون، وكيف يكتبون.

وقال العباس الدوري: ما رأيت أحدًا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل، كان لا يدع أصلًا ولا فرعًا إلا قلعه. ثم قال: لا تدعوا من كلامه شيئًا إلا كتبتموه.

وقال: كتب إلى أبي عبد الله بعض السلاطين في حاجة له، ودعا له دعاء كثيرًا. فكتب إليه أبو عبد الله: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: وصل إلي كتابك وفهمته، وفي بيته يؤتى الحكم، والسلام.

وقال إبراهيم الخواص: رأيت أبا زرعة كالصبي جالسًا بين يدي محمد بن إسماعيل، يسأله عن علل الحديث.

حفظه وسعة علمه وذكائه:

قال جعفر بن محمد القطان: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كتبت عن ألف شيخ وأكثر، عن كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده. وقال: فما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء: أن الدين قول وعمل، وأن القرآن كلام الله^(١).

(١) اعلم أن أهل السنة يأخذون الاعتقاد تحصيلًا عن طريق النقل فقط؛ لأنه معصوم بعصمة الله تعالى الأمة ألا تجتمع على ضلالة، ولا يأخذونه عن طريق الفهم؛ لأنه متباين وغير

وقال حاشد بن إسماعيل وآخر: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما، فاعرضا علي ما كتبتما. فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه! ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وكان أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه، ويجلسوه في بعض الطريق، فيجتمع عليه ألوف، أكثرهم ممن يكتب عنه. وكان شاباً لم يخرج وجهه.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا

معصوم. والنقل له وجهان، وهما راجعان إلى الإجماع:

الأول: استفاضة القول المعين عند الأئمة المتقدمين، بحيث لا يظهر بين أعيانهم نزاع حياله، كهذا الحرف الشريف للإمام البخاري في تقرير الإيمان والصفات.

الثاني: أن ينص أحد الأئمة الكبار من من المعروفين بضبط مذهب السلف على أن هذه المسألة المعينة مجمع عليها من السلف، كنص أبي عمر ابن عبد البر، والإمام ابن تيمية، والمحقق ابن القيم، والحافظ ابن رجب، ونحوهم.

وبالجملة: لا يجوز إضافة مسألة إلى مذهب السلف إلا عن طريق الاستفاضة عنهم، أو نقل إجماعهم من الاعتبارين. وقد مرّ تفصيل ذلك.

وعمدوا إلى مئة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الاسناد هذا، وإسناد هذا المتن هذا، ودفَعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم، فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه. وسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه. وكذلك حتى فرغ من عشرته. فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم. ومن كان لا يدري قضى على البخاري بالعجز، ثم انتدب آخر، ففعل كما فعل الأول. والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم الثالث وإلى تمام العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على: لا أعرفه.

فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده. وفعل بالآخرين مثل ذلك. فأقر له الناس بالحفظ^(١). فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح.

وقال يوسف بن موسى المروزي: كنت بالبصرة في جامعها، إذ سمعت منادياً ينادي: يا أهل العلم، قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا في طلبه،

(١) وهذا شيء من قبل الله تعالى ومحض فضل من لدنه، لا تجري العادة بمثله ولا قريباً منه، حفظاً لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على يد أبي عبد الله وأمثاله الأفاضل رضي الله عنهم ورحمهم وأعلى نزلهم.

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى في هدي الساري (٤٨٥) بعد أن ذكر جملة من أقوال الأئمة المتقدمين في الثناء على الإمام البخاري: «ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس؛ فذاك بحر لا ساحل له».

وكنتم معهم، فرأينا رجلاً شاباً، يصلي خلف الأستوانة. فلما فرغ من الصلاة، أهدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء؛ فأجابهم.

فلما كان الغد اجتمع قريب من كذا كذا ألف، فجلس للإملاء وقال: يا أهل البصرة، أنا شاب وقد سألتهموني أن أحدثكم، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون الكل^(١).

وقال: أبو الأزهر: كان بسمرقند أربع مئة ممن يطلبون الحديث، فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد اليمن في إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد، ولا في المتن.

وقال: تفكرت أصحاب أنس، فحضرني في ساعة ثلاث مئة.

وقال: ما قدمت على أحد إلا كان انتفاعه بي أكثر من انتفاعي به^(٢).

(١) وفي مقدمة الفتح (٤٨٧): «تستفيدونها». قال ابن حجر: «يعني ليست عندكم». ثم قال: «حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة ابن أبي رواد بلديكم، قال: حدثنا أبي، عن شعبة، عن منصور وغيره، عن سالم بن أبي الجعد، عن أنس، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم... وذكر الحديث - قلت: وهو عند البخاري (٤٥٨)، (٤٦٢) ومسلم (٢٦٣٩). ثم قال: ليس هذا عندكم، إن ما عندكم عن غير منصور، عن سالم، وأملى مجلساً على هذا النسق يقول في كل حديث: روى شعبة هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان، فليس عندكم، أو كلاماً هذا معناه».

(٢) والظن فيه أنه قد قالها تحذيراً بنعمة الله تعالى عليه.

وقال الفربري: سمعت أبا عبد الله يقول: ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني، وربما كنت أُغْرِبُ عليه. أي: يرى عندي ما لم يسمع به. وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله يقول: ما نمت البارحة حتى عددت كم أدخلت مصنفاتي من الحديث، فإذا نحو مئتي ألف حديث مسندة. وسمعتة يقول: ما كتبت حكاية قط، كنت أتخفظها.

وسمعتة يقول: صنفت كتاب «الاعتصام» في ليلة. وسمعتة يقول: لا أعلم شيئاً يُحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة. فقلت له: يمكن معرفة ذلك كله؟ قال: نعم.

وقال محمد بن خميرويه، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مئة ألف حديث صحيح، وأحفظ مئتي ألف حديث غير صحيح^(١).

وقال أبا بكر الكلواذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتاب من العلماء، فيطلع عليه اطلاعة، فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرّة.

ثناء الأئمة عليه:

قال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: سمعت بعض أصحابي يقول: كنت عند محمد بن سلام، فدخل عليه محمد بن إسماعيل، فلما خرج قال محمد بن سلام: كلما دخل علي هذا الصبي تحيّرت، وألبس علي أمر الحديث وغيره، ولا أزال

(١) وكانوا يسمون كل إسناد حديثاً، فربما رَوَوْا مئة إسناد على متن واحد وعدوها مئة حديث.

خائفاً ما لم يخرج.

وقال أبو جعفر: حدثني بعض أصحابي: إن أبا عبد الله البخاري صار إلى أبي إسحاق السرماري عائداً^(١)، فلما خرج من عنده قال أبو إسحاق: من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه، فلينظر إلى محمد بن إسماعيل وأجلسه على حجره.

وقال أبو جعفر: قال لي بعض أصحابي: كنت عند محمد بن سلام، فدخل عليه محمد بن إسماعيل حين قدم من العراق، فأخبره بمحنة الناس، وما صنع ابن حنبل وغيره من الأمور. فلما خرج من عنده قال محمد بن سلام لمن حضره: أترون البكر أشد حياء من هذا؟

وقال يحيى بن جعفر: لو قدرت أن أزيد في عُمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم^(٢).

وقال يحيى بن جعفر - وهو البيكندي - لمحمد بن إسماعيل: لولا أنت ما

(١) والعيادة للمريض، والزيارة لغيره.

(٢) فهل تعلم نصحاء للأمة في علمها كهذا؟ اللهم كلاً. والعلم رَحْمٌ بين أهله، وكان يقول لأبي عبد الله - كما سترى -: «لولا أنت ما استطبت العيش ببخارى». وأبو زكريا يحيى بن جعفر البيكندي البخاري من الأئمة الحفاظ، رحل وسمع: سفيان بن عُيينة، ووكيعاً، ويزيد بن هارون، وطبقتهم. لقد وضعوا الدنيا حيث وضعها الله تعالى، ورفعوا الآخرة كما أمرهم، رحمهم الله تعالى.

استطبت العيش ببخارى^(١).

وقال محمد بن يوسف: كنا عند أبي رجاء، فسئل عن طلاق السكران، فقال: هذا أحمد بن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد ساقهم الله إليك، وأشار إلى محمد بن إسماعيل.

وقال عبدان: ما رأيت بعيني شاباً أبصر من هذا، وأشار بيده إلى محمد بن إسماعيل.

وقال نعيم بن حماد: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

وقال مسدد: لا تختاروا على محمد بن إسماعيل يا أهل خراسان.

وقال أحمد بن عبد السلام: ذكرنا قول البخاري لعلي بن المديني - يعني: ما استصغرت نفسي إلا بين يدي علي بن المديني - فقال علي: دعوا هذا، فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثله نفسه^(٢).

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله يقول: ذاكرني أصحاب عمرو بن علي الفلاس بحديث، فقلت: لا أعرفه، فسروا بذلك، وصاروا إلى

(١) تقع بخارى في أوزبكستان حالياً، ويتألف سكان المدينة من الطاجيك والأوزبك.

(٢) وصدق رحمه الله تعالى، إلا ما كان من الإمام أحمد فهو من جملة شيوخه، وقد قيل هذا أيضاً في يحيى بن منصور أبو سعد الهروي وأبو طاهر السلفي والدارقطني وابن حجر العسقلاني وابن تيمية وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

عمرو، فأخبروه، فقال: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث (١).

وقال أبو مصعب الزهري: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث من أحمد بن حنبل (٢) فقليل له: جاوزت الحد. فقال للرجل: لو أدركت مالكا، ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل، لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث.

وقال إسحاق بن راهويه: اكتبوا عن هذا الشاب -يعني: البخاري- فلو كان في زمن الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفة بالحديث وفقهه.

وقال علي بن حجر: أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. ومحمد عندي أبصرهم وأعلمهم وأفقهم.

وقال أحمد بن الضوء: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير يقولان: ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل.

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما أخرجت

(١) وقد قيلت هذه التزكية في الإمام الزهري والإمام أحمد وأبي زرعة الرازي ويحيى بن معين وابن تيمية وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

(٢) وفيه نظر، ولعله لم يقف تماما على فقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وإن كان هذا يدل على سعة علم البخاري رحمه الله تعالى.

خراسان^(١) مثل محمد بن إسماعيل.

وقال بندار: ما قدم علينا مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عمار الحسين بن حريث: لا أعلم أني رأيت مثله، كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمود بن النضر: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، كلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضّلوه على أنفسهم.

قال البخاري: لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس بُندار^(٢)، فلما وقع بصره علي، قال: من أين الفتى؟ قلت: من أهل بخارى. فقال لي: كيف تركت أبا عبد الله؟ فأمسكت، فقالوا له: يرحمك الله، هو أبو عبد الله، فقام، وأخذ بيدي، وعانقني، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين.

(١) خراسان: إقليم كبير. وحدود خراسان حاليًا: من شرق إيران وتمتد إلى شمال غربي أفغانستان عبر هرات وأجزاء من جنوب جمهورية تركمانستان، بالإضافة إلى جمهورية طاجيكستان وولاية سمرقند وبخارا في جمهورية أوزبكستان.

(٢) أبو بكر محمد بن بشار رحمه الله تعالى، وبُندار لقّبهُ، وهو محدّث حافظ، وأحد أئمة السُّنة؛ ولذلك لُقّب بُندارًا؛ لأنه جمع حديث مالك، روى له أصحاب الأصول الستة.

وبُندارٌ: لفظ فارسي معناه الحافظ. والبندره: الكثرة، والبُندارُ: التاجر يحتكر البضائع ويتربص بها غلاء السعر، وشاه بندر: رئيس تجار. والبندرُ: مُرسى السفن في الميناء، ويطلق الآن على البلد الكبير. وكان الاسم الشائع في الخليج «بندر» مأخوذ من هذا، ويعنون به: الرجل الغني، والله أعلم.

وقال محمد بن بشار: لم يدخل البصرة رجل أعلم بالحديث من أخينا أبي عبد الله. فلما أراد الخروج ودعه محمد بن بشار، وقال: يا أبا عبد الله، موعدنا الحشر ألا نلتقي بعد.

وقال محمد بن بشار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالرّي^(١)، والدارمي بسمرقند^(٢)، ومحمد ابن إسماعيل ببخارى، ومسلم بنيسابور^(٣).

(١) الرّي: هي طهران حالياً في إيران. ويحكون أن عمر بن سعد قد قال في شأن ولايته لها نظير أسر الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو قتله، بعد وعد ووعد ابن زياد، وما أبأسه وأتعسه وأخزاه من خيار!:

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ أَفَكَّرُ فِي أَمْرِي عَلَى خَطَرَيْنِ
أَتَرَكُ مُلْكَ الرِّيّ والرِّيّ مُنِيَّتِي أَمْ أَصْبِحُ مَأْثُومًا بِقَتْلِ حُسَيْنٍ
وَفِي قَتْلِهِ النَّارُ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ، وَمُلْكَ الرِّيّ قُرَّةٌ عَيْنِي

(٢) سمرقند: ثاني أكبر مدن أوزبكستان حالياً. ومعنى الاسم "قلعة الأرض"، وهي التي جرى في فتحها القصة المشهورة لما دخلها قتيبة بن مسلم الباهلي بجيشه قبل أن يخيرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال، فحكم عليه قاضيه بالزمام بالخروج من المدينة، فلما خرج كامل الجيش أعلن السمرقنديون إسلامهم فرحاً به واستبشاراً بعدله وإحسانه وطيب موعوده. وقد ازدهرت مدينة سمرقند ازدهاراً كبيراً خصوصاً في عهد الخليفة العباسي (المعتمد على الله) الذي جعل من مدينة سمرقند عاصمة لبلاد ما وراء النهر، واستمرت كذلك حتى عهد الأمير (أحمد بن إسماعيل) الذي نقل العاصمة إلى بخارى.

(٣) نَيْسَابُور أو نَيْسَابُور (بالفارسية: نيشابور): مدينة في مقاطعة خراسان شمالي شرق إيران قرب العاصمة الإقليمية مشهد. كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديماً، وتعد من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي، قبل أن يدمرها =

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، سمعت أبي يقول: انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، والحسن بن شجاع البلخي. قال ابن الأشعث: فحكيت هذا لمحمد بن عقيل البلخي، فأطرى ذكر ابن شجاع، فقلت له: لم لم يشتهر؟ قال: لأنه لم يتمتع بالعمر.

وقال الفريبري: سمعت عبد الله بن منير يقول: أنا من تلاميذ محمد بن إسماعيل، وهو معلمي ورأيت يكتب عن محمد.

وخرج رجل من أصحاب عبد الله بن منير، رَحِمَهُ اللهُ إلى بخارى في حاجة له. فلما رجع قال له ابن منير: لقيت أبا عبد الله؟ قال: لا. فطرده، وقال: ما فيك بعد هذا خير. إذ قدمت بخارى ولم تصر إلى أبي عبد الله محمد بن إسماعيل^(١). وقال يعقوب بن إبراهيم الدورقي: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

وقال حاتم بن مالك الوراق: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا وفقيه خراسان.

زلزال ضربها عام ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م). قال فيها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢٢٣/٥): «بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها».

(١) وفيه فضل الحرص على لقاء العلماء متى حانت الفرص فضلاً عن ركوب الصعب والذل لهم.

وقال أبو سهل محمود الشافعي: سمعت أكثر من ثلاثين عالمًا من علماء مصر، يقولون: حاجتنا من الدنيا النظر في «تاريخ» محمد بن إسماعيل.

وقال عبد الله بن عبد الرحمن: لم يكن يشبه طلب محمد للحديث طلبنا، كان إذا نظر في حديث رجل أنزفَه^(١).

وقال أبو الطيب حاتم بن منصور الكسي: محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ونفاذه في العلم.

وقال رجاء الحافظ: فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء. فقال له رجل: يا أبا محمد، كل ذلك بمرّة؟! فقال: هو آية من آيات الله يمشي على ظهر الأرض.

وقال سليم بن مجاهد: لو أن وكيعًا وابن عيينة وابن المبارك كانوا في الأحياء، لاحتاجوا إلى محمد بن إسماعيل.

وعن قتيبة قال: لو كان محمد في الصحابة لكان آية.

وقال قتيبة بن سعيد: نظرت في الحديث، ونظرت في الرأي، وجلست الفقهاء والزهاد والعباد، ما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.

وقال حاشد بن إسماعيل: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

(١) أي: أخذ ما استطاع من حديثه. وطلب الحديث على أصوله شاق، قال الزهري: «الحديث ذكّر، يطيقه ذكور الرجال لا مؤنثوهم».

وعن أبي حاتم الرازي قال: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل.

وقال محمد بن يعقوب الحافظ: سمعت أبي يقول: رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي.

وقال أحمد ابن حمدون: رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل، ومحمد بن إسماعيل يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقال مسلم بن الحجاج، وجاء إلى البخاري فقال: دعني أقبل رجلك يا أستاذ الأتاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله.

وقال أبو عيسى الترمذي: لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل.

وقال أبو علي صالح بن محمد جزرة: كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً.

ولما قدم البخاري نيسابور استقبله أربعة آلاف رجل ركباناً على الخيل، سوى من ركب بغلاً أو حملاً وسوى الرجال.

وقال عبد الله بن حماد الآملي: وددت أني شعرة في صدر محمد بن إسماعيل.

وقال أبو زيد المروزي الفقيه: كنت نائماً بين الركن والمقام، فرأيت النبي ﷺ، فقال لي: يا أبا زيد، إلى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي؟ فقلت: يا رسول الله، وما كتابك؟ قال: جامع محمد بن إسماعيل.

عبادته وفضله وورعه وصلاحه :

قال مسبح بن سعيد: كان محمد بن إسماعيل يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمة، ويقوم بعد التروايح كل ثلاث ليال بختمة.
وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

قال الذهبي: صدق رَحْمَةُ اللَّهِ، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا (١).

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعته - يعني البخاري - يقول: لا يكون لي خصم في الآخرة، فقلت: إن بعض الناس ينقمون عليك في كتاب «التاريخ» ويقولون: فيه اغتياب الناس، فقال: إنما روينا ذلك رواية، لم نقله من عند أنفسنا، قال النبي ﷺ: «بئس مولى العشيرة» يعني: حديث عائشة (٢). وسمعته يقول: ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها.

(١) وقال الذهبي في مقدمة «ميزان الاعتدال» (١/ ٣، ٤): «قوله: فيه نظر، وفي حديثه نظر، لا يقوله البخاري إلا فيمن يتهمة غالباً».

(٢) البخاري (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩) ومسلم (٢٥٩١).

قال: وكان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم. فقلت: أراك تحمل على نفسك، ولم توقظني. قال: أنت شاب، ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

وقال بكر بن منير: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور^(١) سبع عشرة مرة. فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش^(٢) آذاني.

وقال محمد بن أبي حاتم: دعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه، فلما صلى بالقوم الظهر قام يتطوع، فلما فرغ من صلاته، رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئاً؟ فإذا زنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً، وقد تورّم من ذلك جسده. فقال له بعض القوم: كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك؟^(٣) قال: كنت في سورة، فأحببت أن أتمّها^(٤)!

وقال عبد الله بن سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بالبصرة يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح^(٥).

(١) وهو الدَّبُّور والدَّبر.

(٢) وهي استفهامية فصيحة منحوتة عن: أي شيء.

(٣) أي: لسعك بإبرته.

(٤) وله أسوة في عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ضربته السهام وهو قائم يحرس جيش المسلمين في قصة مشهورة.

(٥) وفيه بركة العمل بالعلم، فالعمل هو الثمرة وهو معيار صلاح القلب بالعلم.

وقال عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي: جاء محمد إلى أقربائه بخرتنك، فسمعتة يدعو ليلة إذ فرغ من ورده: اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك. فما تم الشهر حتى مات.

وعن الفربري، قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: أين تريد؟ فقلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري، فقال: اقرئه مني السلام^(١).

وقال محمد بن أبي حاتم: ركبنا يوماً إلى الرمي، ونحن بفَرَبُر^(٢)، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرْصَة^(٣) فجعلنا نرمي، وأصاب سهم أبي عبد الله وتد القنطرة الذي على نهر وراة، فانشق الوتد. فلما رآه أبو عبد الله، نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتد، وترك الرمي. وقال لنا: ارجعوا. ورجعنا معه إلى المنزل، فقال لي: يا أبا جعفر، لي إليك حاجة تقضيها؟ قلت: أمرك طاعة. قال: حاجة مهمة، وهو يتنفس الصعداء. فقال لمن معنا: اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته، فقلت: أية حاجة هي؟ قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم، على الرأس والعين، قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة، فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حلٍّ مما كان منّا، وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفربري. فقال لي:

(١) فلاهل الحديث خصوصية برسول الله ﷺ.

(٢) فرب: هي مدينة قريبة من نهر جيحون، وهي من تركمانستان حالياً.

(٣) فُرْصَة النهر: مشرب الماء منه، وتُلْمَتُهُ التي منها يُسْتَقَى، ويقال لها: المشرعة، وفُرْصَةُ البحر: مَحَطُّ السَّفْنِ.

أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت في حل مما كان منك. وقال: جميع ملكي لك الفداء. وإن قلتُ: نفسي، أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي.

فأبلغته رسالته، فتَهَلَّل وجهه، واستنار، وأظهر سرورًا، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوًا من خمس مئة حديث، وتصدق بثلاث مئة درهم.

قال وسمعتَه يقول لأبي معشر الضرير: اجعلني في حلٍّ يا أبا معشر، فقال: من أي شيء؟ قال: رويت يومًا حديثًا، فنظرت إليك، وقد أعجبت به، وأنت تحرك رأسك ويدك، فتبسمت من ذلك. قال: أنت في حلٍّ، رحمك الله يا أبا عبد الله (١).

قال: ورأيتَه استلقى على قفاه يومًا، ونحن بفربر في تصنيفه كتاب «التفسير». وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث. فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت شيئًا بغير علم قط منذ عقلت، فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة، فإن غَافَصْنَا (٢) العدو كان بنا حراك.

قال: وكان يركب إلى الرمي كثيرًا، فما أعلمني رأيتَه في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، فكان يصيب الهدف في كل ذلك، وكان لا يُسبق.

(١) وهذا من دقيق الورع، لا جَرَم؛ فهو من أئمتَه، رحمه الله تعالى.

(٢) أي: فاجأنا، وأخذنا على غرة منا.

قال: وسمعتَه يقول: ما أكلت كُرَّاءً قط، ولا القُنَّابِرِي^(١) قلت: ولم ذاك؟
قال: كرهت أن أؤذي من معي من ننتهما. قلت: وكذلك البصل النِيء؟ قال:
نعم.

قال: وحدثني محمد بن العباس الفربري، قال: كنت جالسًا مع أبي عبد الله
البخاري بفربري في المسجد، فدفعْتُ من لحيته قذاةً مثل الذرَّةِ أذكرها^(٢)، فأردت
أن ألقِيها في المسجد، فقال: ألقها خارجًا من المسجد.

قال: وأملَى يومًا علي حديثًا كثيرًا، فخاف ملائي، فقال: طب نفسًا، فإن أهل
الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم،
وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه^(٣). فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله إلا
وأنا أرى الحظ لنفسي فيه.

قال: وسمعتَه يقول: ما أردت أن أتكلّم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت
بحمد الله والثناء عليه.

وقال له بعض أصحابه: يقولون: إنك تناولت فلانًا. قال: سبحان الله، ما
ذكرت أحدًا بسوء إلا أن أقول ساهيًا، وما يخرج اسم فلان من صحتي يوم

(١) نوع من البقول له رائحة غير مستطابة، ويسمى البهق، والغملول، والتملول،
والبرَغْشَت.

(٢) وهذا من خدمة التلميذ لشيخه، وليس فيه ثلم لمروءتيهما بحال، وترك تكلف الشيخ مع
تلميذه دليل تقريبه.

(٣) وفي هذا عظيم الفرح بالله وبرسوله ﷺ وبسته.

القيامة.

قال: وضيّفه بعض أصحابه في بستان له، وضيّفنا معه، فلما جلسنا أعجب صاحب البستان بستانه، وذلك أنه كان عمل مجالس فيه، وأجرى الماء في أنهاره. فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترى؟ فقال: هذه الحياة الدنيا ^(١).

قال: وكان لأبي عبد الله غريم قطع عليه مالا كثيرا، فبلغه أنه قدم آمل ^(٢)، ونحن عنده بفربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك. فقال: ليس لنا أن نروّعه. ثم بلغ غريمه مكانه بفربر، فخرج إلى خوارزم ^(٣)، فقلنا: ينبغي أن

(١) وهي كلمة تغني عن دروس كثيرة.

(٢) آمل، بضم الميم: مدينة في إيران حالياً، تبعد ١٨٠ كم شمال شرق مدينة طهران. ومن مشاهير من سكنوها: الإمام مسلم صاحب الصحيح، والحاكم صاحب المستدرک، والإمام محمد بن جرير الطبري، واللالكائي، والرازي.

(٣) خوارزم: هي واحة كبيرة تقع على دلتا نهر جيحون في غرب آسيا الوسطى، يحدها من الشمال بحر الآرال - وهو على وشك الجفاف حالياً بسبب تحويل الروس النهرين الذين كانا يغذيانه إلى جهات أخرى - ومن الشرق صحراء قيزيل، ومن الجنوب صحراء قره قوم، ومن الشرق هضبة استجورت. وقد كانت الدولة الخوارزمية عظيمة يوماً حتى سحقها التتار إبان زحفهم إلى بلاد الإسلام. ويتّمي إقليم خوارم حالياً إلى أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان.

وأنوّه إلى أني قد حرصت على توضيح بلدان المشرق الإسلامي مما وراء النهر حتى يكون القارئ الكريم على بينة من ذلك؛ لأن أسماء كثير من تلك البلدان والأقاليم قد تغيرت بعد انحسار الخلافة الإسلامية عن تلك البقاع الجميلة، والجدير بالذكر: أن كثيراً من

تقول لأبي سلمة الكشاني عامل آمل ليكتب إلى خوارزم في أخذه، واستخراج حقه منه، فقال: إن أخذت منهم كتاباً طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي. فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره. فكتب إلى والي خوارزم.

فلما أبلغ أبا عبد الله ذلك، وجد وجدًا شديدًا وقال: لا تكونوا أشفق عليّ من نفسي. وكتب كتابًا، وأردف تلك الكتب بكتب، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لا يتعرض لغريمه إلا بخير. فرجع غريمه إلى آمل، وقصد إلى ناحية مرو. فاجتمع التجار، وأخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له. فأراد السلطان التشديد على غريمه، وكره ذلك أبو عبد الله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئًا يسيرًا. وكان المال خمسة وعشرين ألفًا. ولم يصل من ذلك المال إلى درهم، ولا إلى أكثر منه^(١)!

قال: وسمعت أبا عبد الله، يقول: ما توليت شراء شيء ولا بيعه قط. فقلت له: كيف، وقد أحل الله البيع؟ قال: لما فيه من الزيادة والنقصان والتخليط، فخشيت إن توليت أن أستوي بغيري. قلت فمن كان يتولى أمرك في أسفارك ومبايعتك؟ قال: كنت أكفي ذلك.

قال: وعن أحمد بن حفص، يقول: دخلت على أبي الحسن - يعني: إسماعيل

العرب المسلمين الفاتحين قد بقيت سلالاتهم في تلك الأقطار حتى ذابت لغتهم وأنساب كثير منهم مع أهل البلاد الأصليين، والله المستعان.

(١) وفيه غاية الزهد والشفقة بالناس والنصح لهم رحمه الله ورضي عنه.

- والد أبي عبد الله عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شبهة^(١). قال أحمد: فتصاغرْتُ إليَّ نفسي عند ذلك. ثم قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت.

قال: وكان أبو عبد الله اكترى منزلاً، فلبث فيه طويلاً، فسمعتة يقول: لم أمسح ذكري بالحائط، ولا بالأرض في ذلك المنزل. فقيل له: لم؟ قال: لأن المنزل لغيري.

قال: وقال لي أبو عبد الله يوماً بفربرج: بلغني أن نخّاساً^(٢) قدم بجواري، فتصير معي؟ قلت: نعم، فصرنا إليه، فأخرج جواري حسناً صَبَاحًا. ثم خرج من خلاهن جارية خزرية دميمة عليها شحم، فنظر إليها، فمسّ ذقنها فقال: اشتر هذه لنا منه، فقلت: هذه دميمة قبيحة لا تصلح، واللاقي نظرنا إليهن يمكن شراءهن بثمن هذه. فقال: اشتر هذه، فإني قد مسست ذقنها، ولا أحب أن أمس جارية، ثم لا أشتريها. فاشتراها بغلاء خمس مئة درهم على ما قال أهل المعرفة. ثم لم تزل عنده حتى أخرجها معه إلى نيسابور.

وقال بكر بن منير: كان حمل إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع بعض التجار إليه، فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم. فقال: انصرفوا الليلة. فجاءه من الغد تجار آخرون، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف.

(١) وانظر لسريان بركة المال الحلال في صلاح ولده! فصلاح الآباء يدرك الأبناء، وطيب المطعم يسري ببركة التقوى للذرية بإذن الله ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

(٢) النخّاس: هو الذي يبيع العبيد.

فقال: إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة!

وقال عمر بن حفص الأشقر: كنا مع البخاري بالبصرة نكتب، ففقدناه أيامًا، ثم وجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفذ ما عنده، فجمعنا له الدراهم، وكسوناه.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله، يقول: ما ينبغي للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يُستجب له. فقالت له امرأة أخيه بحضرتي: فهل تبين ذلك أيها الشيخ من نفسك، أو جربت؟ قال: نعم. دعوت ربي عز وجل مرتين، فاستجاب لي، فلن أحب أن أدعو بعد ذلك، فلعله ينقص من حسناتي، أو يعجل لي في الدنيا^(١).

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتخلّفت عني نفقتي، حتى جعلت أتناول الحشيش، ولا أخبر بذلك أحدًا. فلما كان اليوم الثالث، أتاني آتٍ لم أعرفه، فناولني صرة دنانير، وقال: أنفق على نفسك.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت الحسين بن محمد السمرقندي يقول: كان محمد بن إسماعيل مخصوصًا بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحموده: كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله كان في العلم.

(١) وهذا من غاية الفقه في الدين والزيادة في الإيمان، فلا يريد تعجيل طيباته في الدنيا، وقد جاء نحوه عن عمر وأبي الدرداء وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وقال: سمعت سليم بن مجاهد يقول: ما بقي أحد يُعلّم الناس الحديث حُسْبَةً غير محمد بن إسماعيل.

وسمعت سليماً يقول: ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه، ولا أروع، ولا أزهّد في الدنيا، من محمد بن إسماعيل.

وقال عبد المجيد بن إبراهيم: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يسوّي بين القوي والضعيف.

كرمه وسماحته وصفته :

قال محمد بن أبي حاتم: كانت له قطعة أرض يُكرّيها كل سنة بسبع مئة درهم. فكان ذلك المكتري^(١) ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثّة أو قثّتين، لأنّ أبا عبد الله كان معجباً بالقثّاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحياناً، فكان يهب للرجل مئة درهم كل سنة لحمله القثّاء إليه أحياناً.

قال: وسمعه يقول: كنت أستغلّ^(٢) كل شهر خمس مئة درهم، فأنفقت كل ذلك في طلب العلم. فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه وبين من كان خلواً من المال فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له؟! فقال أبو عبد الله: ما عند الله خير وأبقى.

قال: وكنا بفربز، وكان أبو عبد الله يبني رباطاً مما يلي بخارى، فاجتمع بشر

(١) أي: المستأجر.

(٢) من الغلّة: وهي ما يُتَحَصَّلُ من من كِراءِ عقار، أو ثمرة أرض من الحبوب ونحوها.

كثير يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللبن، فكنت أقول له: إنك تُكفي يا أبا عبد الله، فيقول: هذا الذي ينفعنا. ثم أخذ ينقل الزُّنبرات^(١) معه، وكان ذبح لهم بقرة، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام، وكان بها مئة نفس أو أكثر، ولم يكن عَلمَ أنه يجتمع ما اجتمع، وكنا أخرجنا معه من فربر خبزًا بثلاثة دراهم أو أقل، فألقيناه بين أيديهم، فأكل جميع من حضر، وفضلت أرغفة صالحة^(٢). وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمّناء^(٣) بدرهم.

قال: وكان أبو عبد الله ربما يأتي عليه النهار، فلا يأكل فيه رقاقة، إنما كان يأكل أحيانًا لوزتين أو ثلاثًا.

قال: وكان يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر، من غير أن يشعر بذلك أحد، وكان لا يفارقه كيسه.

ورأيت ناول رجلًا مرارًا صرة فيها ثلاث مئة درهم، - وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بعد - فأراد أن يدعو، فقال له أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد.

قال: وكنت اشتريت منزلًا بتسع مئة وعشرين درهمًا، فقال: لي إليك حاجة، تقضيها؟ قلت: نعم، ونعمى عين، قال: ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي

(١) جمع زنبر، وهو الزنبيل والمكتل.

(٢) وفيه كرامة الله لهذا الولي الصالح.

(٣) هو وزن أو مكيال يسع مئتي وسبعة وخمسين درهمًا.

شداد الصيرفي، وتأخذ منه ألف درهم، وتحمله إليّ، ففعلت، فقال لي: خذه إليك فاصرفه في ثمن المنزل. فقلت: قد قبلته منك وشكرته. وأقبلنا على الكتابة، وكنا في تصنيف «الجامع». فلما كان بعد ساعة، قلت: عرضت لي حاجة لا أجتري رفعها إليك، فظن أني طمعت في الزيادة، فقال: لا تحتشميني، وأخبرني بما تحتاج، فإني أخاف أن أكون مأخوذاً بسببك، قلت له: كيف؟ قال: لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه. فذكر حديث سعد وعبد الرحمن. فقلت له: قد جعلتك في حلٍّ من جميع ما تقول، ووهبت لك المال الذي عرضته علي، عنيت المناصفة. وذلك أنه قال: لي جوار وامرأة، وأنت عزب، فالذي يجب علي أن أناصفك لنستوي في المال وغيره، وأربح عليك في ذلك، فقلت له: قد فعلت. رحمك الله. أكثر من ذلك إذ أنزلتني من نفسك ما لم تنزل أحداً، وحللت منك محل الولد، ثم حفظ علي حديثي الأول، وقال: ما حاجتك؟ قلت: تقضيها؟ قال: نعم، وسرّ بذلك. قلت: هذه الألف، تأمر بقبوله، واصرفه في بعض ما تحتاج إليه، فقبله، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي.

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف «الجامع» وكتبنا منه ذلك اليوم شيئاً كثيراً إلى الظهر، ثم صلينا الظهر، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئاً، فرآني لما كان قرب العصر شبه القلق المستوحش، فتوهم في ملالاً، وإنما كان بي الحَصْرُ^(١) غير أني لم أكن أقدر على القيام، وكنت أتلوّ اهتماماً بالحصر. فدخل أبو عبد الله المنزل، وأخرج إلي كاغدة فيها ثلاث مئة درهم، وقال: أما

(١) أي: حبس البول.

إذ لم تقبل ثمن المنزل، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك. فجهدي، فلم أقبل.

ثم كان بعد أيام، كتبنا إلى الظهر أيضًا، فناولني عشرين درهمًا. فقال: ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخضر ونحو ذلك. فاشتريت بها ما كنت أعلم أنه يلائمه، وبعثت به إليه، وأتيت. فقال لي: بيض الله وجهك، ليس فيك حيلة، فلا ينبغي لنا أن نُعني أنفسنا.

فقلت له: إنك قد جمعت خير الدنيا والآخرة، فأني رجل يبر خادمه بمثل ما تبرني إن كنت لا أعرف هذا، فلست أعرف أكثر منه.

ومن كظم غيظه: ما حدث به عبد الله بن محمد الصارفي قال: كنت عند أبي عبد الله في منزله، فجاءته جارية، وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق، كيف أمشي؟ فبسط يديه، وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك.

قال: فقيل له فيما بعد: يا أبا عبد الله، أغضبتك الجارية؟ قال: إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت.

وعن صفة خلقه: قال الحسن بن الحسين البزاز: رأيت محمد بن إسماعيل شيخًا نحيف الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وقال محمد الوراق: دخل أبو عبد الله بفرير الحمام، وكنت أنا في مشلح

الحمام^(١)، أتعاهد عليه ثيابه. فلما خرج ناولته ثيابه، فلبسها، ثم ناولته الخف، فقال: مسست شيئاً فيه شعر النبي ﷺ. فقلت: في أي موضع هو من الخف؟ فلم يخبرني. فتوهمت أنه في ساقه بين الظهارة والبطانة.

محنة الإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله تعالى:

قال الحسن بن محمد بن جابر يقول: سمعت محمد بن يحيى قال لنا لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح فاسمعوا منه. فذهب الناس إليه، وأقبلوا على السماع منه، حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى، فتكلم فيه.

وقال أبو أحمد بن عدي: ذكر لي جماعة من المشايخ: أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه، حسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه، واجتماعهم عليه، فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق، فامتحنوه في المجلس.

فلما حضر الناس مجلس البخاري، قام إليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في اللفظ بالقرآن، مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه. فقال الرجل: يا أبا عبد الله، فأعاد عليه القول، فأعرض عنه. ثم قال في الثالثة، فالتفت إليه البخاري، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد

(١) أي: محل خلع الثياب في الحمام، ويسميه بعضهم: جَمَكَان. والشَّلح من مفردات الخلع، فإن كان بالعين "شلع" فهو الاقتلاع.

مخلوقة^(١)، والامتحان بدعة. فشغب الرجل، وشغب الناس، وتفرقوا عنه. وقعد البخاري في منزله.

يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. وقال: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة. فأما القرآن المتلو، المبين، المُنْبَتُّ في المصاحف، المسطور المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فما أتى على هذا شهر حتى قال محمد بن يحيى: ألا من يختلف إلى مجلسه فلا يختلف إلينا، فإنهم كتبوا إلينا من بغداد أنه تكلم في اللفظ، ونهيناه فلم ينته، فلا تقربوه، ومن يقربه فلا يقربنا^(٢). فأقام محمد بن إسماعيل ها هنا مدة، ثم خرج

(١) القرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ. وقد كره الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ هذا السؤال لأنه محدث ومحض تشغيب، ولكن كريم النفس يجيب عند الثالثة، وهو ما نالوه منه بسبب سؤالهم المبتدع وعدم فقههم لجوابه رَحِمَهُ اللهُ، وللعليم الحكيم سبحانه في ثانيا ذلك من الحكم الباهرة ما لا يُحاط به تبارك وتعالى وتقدس.

(٢) حتى أهل بغداد لم يسلم من فريتهم عليه أو جهلهم بما قال، وفي هذا درس لكل طالب علم ألا يلتفت إلى ما يحدث أحياناً بين أهل العلم من أمور هي من قبيل التغاير والحسد، فهم بشر غير معصومين، فيأخذ منهم ما يفيد في علمه ودينه، ويطوي صفحة خلاف ذات بينهم، فكلام الأقران في بعضهم يطوى ولا يروى، ولو عمل الناس بذلك لدُفعت عن الأمة فتن شقاق وفرقة وتشرذم قد أججها من ضعفت نفسه عن احتمال رفع الله قريته عليه، والله المستعان، وانظر: "ولا تفرقوا". للمؤلف.

إلى بخاري.

ثم اتهم الذهلي البخاري بأنه يقول: إن القرآن مخلوق! وزاد: ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مثل مذهبه^(١).

قال الفريزي: حدثنا البخاري، قال: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس، فما رأيت أحداً أضل في كفرهم من الجهمية، وإني لأستجمل من لا يكفرهم. وكان يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر^(٢).

(١) ويشبه لهذا ما حصل لغير واحد من علمائنا، بل من أئمة أهل السنة في زماننا، حيث اتهم في عقيدته زوراً وبهتاناً أنه يقول بالحلل إذ لم يفقهوا كلامه في المعية، والله المستعان وهو الموعد.

(٢) قلت: سبب المآجريات المؤلمة على الإمام البخاري هي فرع عن فتنة القول بخلق القرآن، وقد كره الكلام في هذه الكلمة غير الشريفة رَحِمَهُ اللهُ، ووصفها بالمشؤومة، حتى الجاه السفهاء إلى ذلك الامتحان الذي لم يفقهوه، فلما ألحوا عليه أجابهم: بأن اللفظ مخلوق والقرآن غير مخلوق، فالقرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ، وكلمة اللفظ بالقرآن مخلوق لها احتمالان: أحدهما: أن الأعضاء المؤدية لللفظ كاللسان والفم والهواء مخلوقة وهذا حق، وهو عين قصد الإمام البخاري.

الثاني: أن القرآن المتلو الملفوظ مخلوق، وهذا باطل، وهو ما فهم الذهلي أن البخاري قد قال به فأنكر عليه.

إذن؛ فكل واحد منهما قصد معنى صحيحاً، وبالتفصيل زال الإشكال. لذلك فقد زجر الإمام أحمد عن هذه الكلمة (اللفظ بالقرآن مخلوق) وبدّع من قال بها لأمرين:
الأول: أنها عبارة محدثة، لم يقل بها السلف.

الثاني: أنها عبارة موهمة لمعنى باطل.

وخلاصة رأي البخاري في هذه المسألة تتلخص في فقرتين:

١ - القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر.

٢ - لم يقل البخاري يوماً من الأيام: «لفظي بالقرآن مخلوق» لكنه قال: «أفعال العباد مخلوقة» وهذا حق.

وبالجملّة؛ فالأئمة أحمد والذهلي والبخاري متفقون على الفقرة الأولى، لكنهم اختلفوا في قول الإنسان: «لفظي بالقرآن مخلوق»، فالإمام أحمد والذهلي ومن تابعهما أنكروا هذا القول واعتبروه بدعة؛ لأنه لم يقل به السلف. وذلك: أن اللفظ يطلق ويراد به أمران:

الأول: الملفوظ نفسه - أي القرآن - وهو غير مقدور للعبد، ولا فعل له فيه.

الثاني: التلفظ به والأداء له، وهو فعل العبد.

فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول، وهو خطأ، وإطلاق نفي الخلق عليه يوهم المعنى الثاني، وهو خطأ أيضاً. ولذلك منع الإمام أحمد وغيره الإطّلاقين حسماً للمادة، فلا يقال: «لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق».

أما البخاري فقد قال في «خلق أفعال العباد» (١٣٨ و ١٤٦): «حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة. فأما القرآن المتلو، المبين المثبت في المصاحف، والمسطور المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق»، وساق أدلته وبسطها حتى قال ابن القيم في مختصر الصواعق (٢/ ٣١٠): «البخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب من جميع من خالفه، وكلامه أوضح وأمتن من كلام أبي عبد الله».

=

قال الحاكم: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، سمعت ابن علي الخلدي، سمعت محمد بن يحيى يقول: قد أظهر هذا البخاري قول اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية.

وقال محمد بن شاذل: لما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري، دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، أيش الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى، كل من يختلف إليك يطرد؟ فقال: كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء.

فقلت: هذه المسألة التي تُحكى عنك؟ قال: يا بني، هذه مسألة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي ألا أتكلم فيها. قلت - أي: الحافظ الذهبي -: المسألة هي أن اللفظ مخلوق، سئل عنها

يعني الإمام أحمد، ويقصد أن البخاري قد اقتحمها وأجلاها بصوابٍ مفصّلٍ من القول غير مُتَتَّعٍ ولا هيّاب، ولا يعني بذلك قصور الإمام أحمد رحمه الله عن إدراك تفاصيلها، بل إن الإمام قد استوعبها تمامًا، لكنه رأى أن الخير في الوقوف عنها حسماً لمادة المخالفة لدى من لم يدرك أبعادها وأطرافها سواء ممن حسنت نياتهم أو خبثت، ولأن السلف لم يتكلموا فيها، وهذه جادته المشهورة في هذه المسألة وأشباهاها. وقد بسط شيخنا الدكتور عبد الله الدميحي هذا المعنى بكلامٍ محرر في شرحه لنونية ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، فلتنظر هنالك. وانظر: رسالة الإمام أحمد بن حنبل إلى الخليفة المتوكل، ورسالة في أن القرآن غير مخلوق للإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٣١٠) ٦٧ وانظر أيضًا: تخرّيج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير، لمحمد بن عبد الكريم بن عبيد. (١/ ٧٤).

البخاري، فوقف فيها، فلما وقف واحتج بأن أفعالنا مخلوقة، واستدل لذلك، فهم منه الذهلي أنه يوجّه مسألة اللفظ، فتكلم فيه، وأخذه بلازم قوله هو وغيره. وقال محمد بن نصر: سمعت أبا عبد الله يقول: من زعم أنني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله. فقلت له: يا أبا عبد الله، قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه. فقال: ليس إلا ما أقول^(١).

(١) ونقل الذهبي رحمه الله تعالى في السير (١٢/٤٥٨) عن أبي سعيد حاتم بن أحمد الكندي، قال: «سمعت مسلم بن الحجاج يقول: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين وثلاثة. فقال محمد بن يحيى في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فليستقبله. فاستقبله محمد بن يحيى وعامة العلماء، فنزل دار البخاريين، فقال لنا محمد بن يحيى: لا تسألوه عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروري، وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجئ بخراسان». قلت: وهذا من نصيح الذهلي وحكمته رَحِمَهُ اللهُ. فالظن أنه كان يعرف رأي البخاري في «مسألة اللفظ» فنهى تلاميذه وأصحابه عن سؤال البخاري عن هذه المسألة وأشباهاها حتى لا يفقدوه، وهو ما كان! وكان يقول: «اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح، فاسمعوا منه».

قال الكندي: «فازدحم الناس على محمد ابن إسماعيل، حتى امتلأ السطح والدار، فلما كان اليوم الثاني أو الثالث، قام إليه رجل، فسأله عن اللفظ بالقرآن، فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا.

فوقع بينهم اختلاف، فقال بعض الناس: قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم: لم يقل، حتى توثبوا، فاجتمع أهل الدار، وأخرجوهم».

قال أبو عمرو الخفاف: فأتيت البخاري، فناظرته في شيء من الأحاديث حتى طابت نفسه فقلت: يا أبا عبد الله، ها هنا أحد يحكي عنك أنك قلت هذه المقالة. فقال: يا أبا عمرو؛ احفظ ما أقول له: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمدان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كذاب. فإني لم أقله، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخراسان، خصوصاً في هذه المدينة، وقد لجج في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه^(١)، فما ترى؟ فقبض على لحيته، ثم قال: ﴿وَأَفَوْضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً، ولا طلباً للرئاسة، وإنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير. ثم قال لي: يا أحمد، إني خارج غداً لتتخلصوا من حديثه لأجلي. قال: فأخبرت جماعة أصحابنا، فو الله ما شيعه غيري! كنت معه حين خرج من البلد، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره^(٢).

(١) وكان الذهلي رحمه الله تعالى مُقَدِّمًا في الناس.

(٢) وهذا من غربة الصالحين، وكفاه بالله تعالى مؤنسًا ومُغْنِيًا. وسئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: خيرٌ للمؤمن أن يُتلى أم يُمَكَّن؟ فقال: لا يُمكن حتى يُتلى. وقال هرقل لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هكذا الرسل يبتلون ثم تكون لهم العاقبة».

فهذا طريق المرسلين، فمن رام سبيلهم وحسن عاقبتهم فليطوِّ قلبه على احتمال البلاء في

قال: وسمعت محمد بن يعقوب الحافظ يقول: لما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم بن الحجاج الاختلاف إليه. فلما وقع بين الذهلي وبين البخاري ما وقع في مسألة اللفظ، ونادى عليه، ومنع الناس عنه، انقطع عنه أكثر الناس غير مسلم.

فقال الذهلي يوماً: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم رداء فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس، وبعث إلى الذهلي ما كتب عنه على ظهر جمال^(١). وكان مسلم يظهر القول باللفظ ولا يكتمه^(٢).

وقال محمد بن يعقوب الأخرم، سمعت أصحابنا يقولون: لما قام مسلم وأحمد بن سلمة من مجلس الذهلي، قال الذهلي: لا يساكنني هذا الرجل في البلد. فخشى البخاري وسافر.

وقال محمد بن أبي حاتم: أتى رجل أبا عبد الله البخاري، فقال: يا أبا عبد الله، إن فلاناً يكفرك^(٣)! فقال: قال النبي ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا

ذات الله تعالى، والتلذذ به في سبيل مرضاته، وليشرب بولاية ربه له وقربه ورضاه، وأعظم البلاء أجراً هو ما كان من جنس الجهاد في سبيله بالعلم والعمل.

(١) وهذا من وفائه للحق أولاً لاستبانه له، ثم وفاء لشيخه ثانياً، رحمه الله وجمعنا بهم ووالدينا وأحبتنا والمسلمين في عليين.

(٢) أي: القول بأن اللفظ والصوت بالقرآن مخلوق، أي: تلاوته بأعضاء الإنسان، أما القرآن ذاته فغير مخلوق، بل هو صفة من صفات الله تعالى.

(٣) وقد ضل في تكفيره، وأن كان الظاهر من تكفيره هنا أنه لتأويل لا لسوء قصد، ولعله صدق فيه قالة كاذب جهول، وليس هذا له بعذر إذ لم يتثبت مع القدرة والإمكان، والله أعلم.

كافر، فقد باء به أحدهما»^(١).

وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك، فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]^(٢) فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(٣). وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه، فقد انتصر»^(٤).

وقد يكون بين أهل العلم والفضل من ذلك أشياء بلا سوء طوية ولا خبث نية، وقد قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنك منافق تجادل عن المنافقين». رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠). بل حتى المرسلين لم يسلموا من قذف الناس لهم بطعن دينهم، فالعبرة ليست بالقائل مهما علا كعب قدره من غير الأنبياء، بل الاعتبار بحقيقة الحال، ومن كفره الناس بلا مكفر فلن يضره عند الله وصالحه عباده قد فهم، فالعبرة بالحقائق والبراهين لا التهم والدعاوى.

(١) البخاري (٤٢٨ / ١٠) ومسلم.

(٢) تأمل اعتصامه بربه وحسن العاقبة له إذ رفع الله له ذكره وجعل له لسان صدق في العالمين وجعل كتابه أصح كتاب على ظهرها بعد كتابه الكريم.

(٣) البخاري (٨٩ / ٧)، ومسلم (١٨٤٥) وإن كان الخطاب موجَّهاً للأنصار قد فهم أبو عبد الله منه العموم لكل من ناله الناس بسبب أتباعه للسنة والذب عنها وطاعة رسول الله ﷺ، فالذي قرب الأنصار ورفعهم هو الدين، فمن استقام وأوذى أو انتقص من حقه لأجل دينه فهو موعود بحسن العاقبة وبانتظار حبيبهِ ﷺ له على حوضه المورود.

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٥٢) في الدعوات من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفي سنده أبو

قال محمد بن أبي حاتم: وسمعتَه يقول: لم يكن يتعرض لنا قط أحد من أفناء الناس إلا رُمي بقارعة ولم يسلم، وكلما حدث الجهال أنفسهم أن يمكروا بنا رأيت من ليلتي في المنام نارًا توقد ثم تطفأ من غير أن ينتفع بها، فأتأول قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] (١).

وكان هُجَيْرَاهُ (٢) من الليل إذا أتته في آخر مقدمه من العراق: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٠].

وقال إبراهيم وراق ابن سيار لما قدم البخاري مَرَوْ (٣) استقبله أحمد بن سيار فيمن استقبله، فقال له أحمد: يا أبا عبد الله، نحن لا نخالفك فيما تقول،

حمزة ميمون الأعور وهو ضعيف، ونقل المناوي في «فيض القدير» قول الترمذي في «العلل»: سئل عنه البخاري فقال: لا أعلم أحدًا رواه غير أبي الأحوص، لكن هو من حديث أبي حمزة، وضعف أبا حمزة جدًا.

قلت: والمعنى: أن من دعا على ظالمه فقد تعجل نصيبه من النصر في الدنيا، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول به ويذكر هذا الحديث.

(١) وهذا من عاجل بشره لما اعتصم بمولاه، وتأمل عظم مسؤولية أهل العلم في توجيه الناس عند الفتن، وخطر عزوفهم عن كفّ جهالهم وبخاصة سرعان السفهاء في تخوّضهم أعراض الناس وأبشارهم ودماءهم وأمواهم زعمًا منهم أنهم للدين ناصحون! وإن الله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) أي: دأبه وشأنه، والمراد بهُجَيْرَاهُ هنا: كلامه.

(٣) تقع مرو جنوب تركمانستان حاليًا.

ولكن العامة لا تحتمل ذا منك. فقال البخاري: إني أخشى النار، أسأل عن شيء أعلمه حقاً أن أقول غيره. فانصرف عنه أحمد بن سيار.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قدم محمد بن إسماعيل الرّي سنة خمسين ومئتين، وسمع منه أبي وأبو زرعة، وتركوا حديثه عندما كتب إليهما محمد بن يحيى أنه أظهر عندهم بنيسابور أن لفظه بالقرآن مخلوق^(١).

قال أحمد بن منصور الشيرازي: سمعت بعض أصحابنا يقول: لما قدم أبو عبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور إلا استقبله، ونثرت عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير^(٢) فبقي أياماً.

قال: فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى: إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة^(٣). فقرأ كتابه على أهل بخارى، فقالوا:

(١) وهذا من أشد البلاء حين يطعن الناس وأكابرهم وعلماءهم في دينه وعقيدته، ويهجروا علمه، وهذا - والذي نفسي بيده - سبيل المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، فمنهم من كُذِّب وقُتِل، ومنهم من طُرد من بلاده، ومنهم من أُوذِيَ في ذات الله العظيم الأذى، وموعدوهم رضوان الله تعالى وكرامته، ولكن من كان الله معه فلا يخش الضيعة، ومن كان في الله تعالى جهادُه وتعبُه وتلفُه؛ كان على الله تعالى كفايته وأجره وخلفُه، وقد ذهب الآن عناؤه وتعبه، وبقي عند الله أجره وكرامته، ولا أزكيه على الله تعالى.

(٢) احتفاء به وفرحاً، وكان هذا من أعرفهم.

(٣) وهذا من شديد البلاء، أن تُبتلى بمن له قدرٌ عند الناس وعلم وجاه وسلطان، فلا يكون

لا نفارقه، فأمره الأمير بالخروج من البلد، فخرج.

وقال إبراهيم بن معقل النسفي: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى، فتقدمت إليه، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر؟ فقال: لا أبالي إذا سلم ديني^(١).

وقال بكر بن منير بن خلود بن عسكر: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل: أن احمل إليّ كتاب «الجامع» و«التاريخ» وغيرهما لأسمع منك. فقال لرسوله: أنا لا أدلّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس. فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضر في مسجدي، أو في داري.

همّة إلا مراقبتك، وهمّة إلا التضييق عليك، والمكر بك، والافتراء عليك، وحربك، وإجهاد نفسه بكل طريق ليلحق الأذى بك! لذا فقد كره إمامنا البخاري رحمه الله تعالى مقام الدنيا على سعتها، وضاعت نفسه الصافية الشريفة عن البقاء في همومها وعنائها وأكدارها وشتاتها وغرباتها وكرباتها، وقد رأى أن قد أدّى ما قُدّر له من بلاغ العلماء لأمتهم، ووفائهم لعلمهم وإيمانهم، بما يسره الله من كُتب ودروس وإفتاء وجهاد، فدعى ربه حينها بقبض روحه شوقاً إليه، وخشية الفتنة في دينه، وراحة من عناء الفانية الزائلة إلى سعة الآخرة الأخيرة الباقية، ولا إله إلا الله، فلکم هز نفسي وأفاض دمعي دعاؤه ربه بروحه الرقيق الجميل الطيب الصادق، فله؛ ما أجمل حياة المؤمنين!

(١) نعم، فالؤمن العاقل لا يستغزه مدح الناس وذمهم ما دام على جادة نبيه ﷺ.

كريم لا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنْ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءٌ

وكما قيل:

وإن سواد الليل لا يستغفني ولا الجاعلات العاج فوق المعاصم

وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأنني لا أكتتم العلم، لقول النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه أجم بلجام من نار»^(١) فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

وقال أبو بكر بن أبي عمرو الحافظ البخاري: كان سبب منافرة أبي عبد الله: أن خالد بن أحمد الذهلي الأمير خليفة الطاهرية ببخارى سأل أن يحضر منزله، فيقرأ «الجامع» و«التاريخ» على أولاده، فامتنع عن الحضور عنده، فراسله بأن يعقد مجلساً لأولاده، لا يحضره غيرهم، فامتنع، وقال: لا أخص أحداً. فاستعان الأمير بحريث بن أبي الورقاء وغيره، حتى تكلموا في مذهبه^(٢)

(١) أحمد بسند صحيح (٢/ ٢٦٣).

(٢) والأظهر أن الأمر أبعد من ذلك، فالمكيدة ليست خاصة بالأمير، بل حتى من أهل العلم ممن يُعدّون إخواناً للبخاري، وقد كانوا من أهل الرأي الذين لا يرون الأثر كما يراه، عفا الله عنهم جميعاً، وعلى رأس هؤلاء: حريث بن أبي الورقاء، وقد كانت لهم علاقة وطيدة بأمير بخارى، بخلاف البخاري الذي كان لا يدخل على السلاطين حفظاً لدينه، وضناً بأمانته. وقد كانوا وراء هجرة البخاري من بلده بخارى. قال الذهبي رحمه الله تعالى في السير (١٢ / ٤٦٥): «قال الحاكم: حدثنا خلف بن محمد، حدثنا سهل بن شاذويه قال: كان محمد بن إسماعيل يسكن سكة الدهقان، وكان جماعة يختلفون إليه، يظهرون شعار أهل الحديث من أفراد الإقامة، ورفع الأيدي في الصلاة وغير ذلك. فقال حريث بن أبي الورقاء وغيره: هذا رجل مُشَغَّبٌ، وهو يفسد علينا هذه المدينة، وقد أخرجه محمد بن يحيى من نيسابور، وهو - أي الذهلي - إمام أهل الحديث، فاحتجوا عليه بآبن يحيى، واستعانوا عليه بالسلطان في نفيه من البلد،

ونفاه عن البلد، فدعا عليهم، فلم يأت إلا شهر حتى ورد أمر الطاهرية بأن ينادى على خالد في البلد، فنودي عليه على أتان. وأما حريث، فإنه ابتلي بأهله، فرأى فيها ما يجل عن الوصف. وأما فلان، فابتلي بأولاده، وأراه الله فيهم البلايا.

وكان محمد بن إسماعيل ورعاً، يتجنب السلطان ولا يدخل عليهم.

قال أحمد بن محمد بن محمد بن واصل البيكندي، سمعت أبي يقول: من الله علينا بخروج أبي عبد الله، ومقامه عندنا، حتى سمعنا منه هذه الكتب، وإلا من كان يصل إليه وبمقامه في هذه النواحي: فربر وبيكند^(١)، بقيت هذه الآثار فيها، وتخرج الناس به.

فأخرج.

وعليه؛ فقد كان البلاء عليه من ثلاثة أطراف: الذهلي، والأمير، وحريث وأصحابه، ومن بعدهم جهلة العامة وطغام الغوغاء، فقد اضطروه أن يخرج من بخارى إلى نيسابور، ثم إلى مرو، ثم إلى فربر وبيكند، ثم إلى خرتنك حيث توفاه الله تعالى، والله الموعد.

(١) بيكند: مدينة تاريخية قديمة، تبعد ٤٤ كم إلى الشمال الغربي من مدينة بخارى في أوزبكستان، وإليها ينسب طائفة من الحفاظ كالحافظ المعمر: أبي الفضل السليمانى البيكندي البخاري وأبي زكريا البيكندي وغيرهما رحمهم الله تعالى، وتأمل فرح أهل هذه البلاد بمجيء البخاري إليهم، ورأوه نعمة عظيمة من الله تعالى حيث ساق إليهم أمير المؤمنين في الحديث على قدميه، وذلك لبعد هذه الديار عن حواضر العلم الكبيرة التي حوت الأئمة، وصدق من قال: «مصائب قوم عند قوم فوائد»، والله المستعان.

وفاته رحمه الله تعالى:

قال ابن عدي: سمعت عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي - يقول: جاء محمد بن إسماعيل إلى خَرْتَنَك^(١) وكان له بها أقرباء، فنزل عندهم، فسمعتة ليلة يدعوا، وقد فرغ من صلاة الليل: اللهم إنه قد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك، فما تم الشهر حتى مات. وقبره بخرتنك.

وقال أبو منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله: أقام عندنا أياماً، فمرض، واشتد به المرض حتى وجّه الأمير رسولاً إلى مدينة

(١) قرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند «١٧ كم» تقريباً، وقيل فرسخين. والشاهد؛ أنه بعد هذا العناء والأذى وتشويه السمعة وثلّم المعتقد من الحسدة والشائنين؛ فضّل هذا الإمام الرباني الصالح الصابر المظلوم أن يبحث له عن مكان منعزل يتفرغ فيه لعبادة ربه تعالى، وتقلّ فيه مخالطته لأنصار من ظلموه من العلماء والأمرء، فنزل هذه القرية الصغيرة التي له فيها أقرباء، فنزل على رجل صالح من معارفه اسمه: غالب بن جبريل، فمكث عنده أياماً من شهر رمضان، لكن من ظلموه لم يتركوه آمناً مستريحاً حتى في هذه القرية الصغيرة النائية، فوجهوا من يخرجهم منها وهو مريض، فضاقت نفسه عن البقاء في الدنيا فدعا ربه العليّ بقبض روحه إليه، ومثله حريٌّ بأن تُستجاب دعوته من الحميد الشكور الكريم الرحيم سبحانه، وقد كان.

فهكذا؛ طويت صفحة من أطيب صحف بني الإنسان، وكانت هذه القرية خاتمة حياة إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري، فدفن فيها، رحمه الله تعالى، وأعلى نزه في عليين، وألحقنا به ووالدينا وأحبابنا والمسلمين غير خزايا ولا ندامى، إله الحق آمين.

أَلَا إِنَّ فِي كَفِّ الْمَنِيِّ مَهْجَةً تَظَلُّ لَهَا عَيْنُ الْعُلَا وَهِيَ تَدْمَعُ
هِيَ النَّفْسُ إِنْ تَبَكَ الْمَكَارِمُ فَقَدَهَا فَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الْمَكَارِمِ تُنَزَّعُ

سمرقند في إخراج محمد، فلما وافى تهيأ للركوب، فلبس خفيه، وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها، وأنا آخذ بعضده، ورجل آخذ معي يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال رَحِمَهُ اللهُ: أرسلوني، فقد ضعفت. فدعا بدعوات^(١)، ثم اضطجع، ففضى رَحِمَهُ اللهُ. فسال منه العرق شيء لا يوصف، فما سكن منه العرق إلى أن أدرجنه في ثيابه.

وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا: أن كفنوني في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، ففعلنا ذلك. فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك، فدام ذلك أياماً، ثم علت سوارى بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره، فجعل الناس يختلفون، ويتعجبون. وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر، حتى ظهر القبر، ولم نكن نقدر على حفظ القبر بالحراس. وغلبنا على أنفسنا، فنصبنا على القبر خشباً مشبكاً لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب، ولم يكونوا يخلصون إلى القبر^(٢). وأما ريح الطيب فإنه تداوم أياماً كثيرة، حتى تحدث أهل البلدة، وتعجبوا من ذلك، وظهر عند مخالفته أمره بعد وفاته، وخرج بعض مخالفه إلى قبره، وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب.

(١) وربما أنه لما تيقن بأن مخالفه لن يتركوه، وأنه حيث ذهب سيلاحقونه، وخشي على نفسه الفتنة؛ طابت نفسه بالرحيل عن الدنيا والحق بسالف الصالحين، فجعل يدعو مولاه كي يقبضه إليه واستجاب الله لعبده الصالح، فلم يشمت به أعداءه.

(٢) وهذا من بدع المقابرية وتبركهم بما لم يشرعه الله تعالى.

قال محمد بن أبي حاتم: ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل، وأوصى أن يدفن الى جنبه.

وقال عبد الواحد بن آدم الطواويسى: رأيت النبي ﷺ في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري. فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي ﷺ فيها.

وقال مهيب بن سليم الكرمني: مات عندنا البخاري ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين، وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وكان في بيت وحده، فوجدناه لما أصبح وهو ميت.

وقال ابن عدي: سمعت الحسن بن الحسين البزاز البخاري يقول: توفي البخاري ليلة السبت ليلة الفطر عند صلاة العشاء، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومئتين. وعاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يومًا.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا ذر يقول: رأيت محمد بن حاتم الخلقاني في المنام، وكان من أصحاب محمد بن حفص، فسألته - وأنا أعرف أنه ميت - عن شيخي رحمه الله، هل رأيته؟ قال: نعم - رأيته وهو ذاك، يشير إلى ناحية سطح من سطوح المنزل.

ثم سأله عن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، فقال: رأيته، وأشار إلى السماء إشارة كاد أن يسقط منها لعلو ما يشير.

وقال محمد بن يوسف الفربري: سمع كتاب «الصحيح» لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل، فما بقي أحد يرويه غيري^(١).

صحيح البخاري:

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: جملة ما في صحيح البخاري من الأحاديث المسندة سبعة آلاف وخمس مئة وثلاثة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة (٧٥٧٣)(٢).

أما اسمه فسماه مؤلفه البخاري رَحِمَهُ اللهُ «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».

وأما محله فقال العلماء: هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد، واتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرهما فوائد. وبالله التوفيق والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.



(١) مختصراً ومزيداً عن سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩١ - ٤٧٠).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ / ٧٥ / ١).

موعظة القبر

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبته: أين الوَصَاءَةُ الحسنةُ وجوهُهُمْ، المعجبون بشبابهم، الذين كانوا يُعْطَوْنَ الغلبةَ في مواطن الحرب، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان، قد تضعضع بهم، وصاروا في ظلمات القبور، الْوَحَا الْوَحَا^(١) النَّجَا النَّجَا.

وعن الحسن: أنه مرَّ به شاب وعليه بردة له حسنة فقال: ابن آدم معجب بشبابه، معجب بجماله، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك لا قيت عملك، ويحك داو قلبك، فإن حاجة الله إلى عبادة صلاح قلوبهم.

وعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيتان: بيت على ظهر الأرض وبيت في بطن الأرض، فعمد للذي على ظهر الأرض فزخرفه وزينه وجعل فيه أبواباً للشمال وأبواباً للجنوب، وصنع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه. ثم عمد إلى الذي في بطن الأرض فأخربَه!

فأتى عليه آت فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد أصلحته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدري. قال: فالذي قد أخربته كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامي. قال: تقرّ بهذا على نفسك وأنت رجل يعقل؟!

وعن الحسن قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط: ليلة تبيت مع أهل القبور ولم تبت ليلة قبلها، وليلة صيحتها يوم القيامة.

(١) أي: السرعة السرعة. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥ / ٣٥٢).

ويوم يأتيك البشير من الله تعالى إما بالجنة أو النار، ويوم تعطى كتابك إما يمينك وإما بشمالك.

وعن عمر بن ذر أنه كان يقول في مواعظه: لو علم أهل العافية ما تضمنته القبور من الأجساد البالية لجدوا واجتهدوا في أيامهم الخالية خوفاً من يومٍ تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: القبر منزل بين الدنيا والآخرة، فمن نزل به زاد ارتحل به إلى الآخرة؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وعن الحسن قال: أودُّنوا بالرحيل، وجلس أولهم على آخرهم وهم يلعبون.

وقال رجل لبعض السلف: أوصني، فقال: عسكر الموتى ينتظرونك.

وكان أبو عمران الجوني يقول: لا يغرنكم من ربكم طول النسيئة وحسن الطلب، فإن أخذه أليم شديد، حتى تبقى وجوه أولياء الله بين أطباق التراب، إنما هم محبوسون لبقية آجالهم، حتى يبعثهم الله إلى جنته وثوابه.

وشهد الحسن جنازة فاجتمع عليه الناس فقال: اعملوا لمثل هذا اليوم - رحمكم الله - فإنما هم إخوانكم يقدمونكم وأنتم بالآخر. أيها المخلف بعد أخيه: إنك الميت غداً، والباقي بعدك الميت في أثر، أولاً بأول، حتى توافوا جميعاً، قد عممكم الموت، واستويتم جميعاً في كُربِه وغُصصه، ثم تخلَّيتم إلى القبور، ثم تنشرون جميعاً، ثم تعرضون على ربكم عز وجل.

وقال صفوان بن عمرو: ذكروا النعيم فسمَّوا أناساً فقال: أنعم الناس أجساداً في التراب هو من قد مات وبقي ينتظر الثواب.

وقال مسروق: ما من بيت خير للمؤمن من لحده قد استراح من أمر الدنيا ومن عذاب الله.

وقال بشر بن الحارث: نعم المنزل القبر لمن أطاع الله.

وقال الفضل بن غسان: مر رجل بقبر محفور فقال: المقيّل للمؤمن هذا.

ونظر إلى قبر فقال: أصبح هؤلاء زاهدين فيما نحن فيه راغبون.

وعن عقبة البزار قال: رأى أعرابي جنازة فأقبل يقول: هنيئاً يا صاحبها. فقلت: علام تهنته؟ قال: كيف لا أهنئ من يذهب إلى حبس جواد كريم نُزِلَ عظيم وعفوه جسيم. قال: كأني لم أسمع القول إلا تلك الساعة.

وعن أبي معاوية قال: ما لقيني مالك بن مغول إلا قال لي: لا تغرنك الحياة واحذر القبر، إن للقبر شأنًا. وقال أبو العتاهية:

يا حسانَ الوجوه سوفَ تموتونَ وتبلى الوجوه تحت الترابِ
ولا بن السماك:

تمرُّ أقاربي جنباتِ قبري كأن أقاربي لا يعرفوني
وذووا الأموال يقتسمون مالي ولا يألون إن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فبالله ما أسرع ما نسوني^(١)

وقال عمرو بن عتبة بن فرقد: سألت الله ثلاثاً؛ فأعطاني اثنتين، وأنا أنتظر

(١) أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، لابن رجب (١ / ٢٤٤) مختصراً.

الثالثة. سألته أن يُزهدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها.

وكان طلحة بن مصرف يقول في دعائه: اللهم اغفر لي ريائي وسمعتي.

وقال خليلد العصري: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تعرجون، وما عسيتم تنتظرون، الموت فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر.

يَجِدُّ بِنَا صَرْفُ الزَّمَانِ وَنَهْزُلُ	وَنُوقِظُ بِالْأَحْدَاثِ فِيهِ وَنَعْفُلُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَاغِنٌ وَمُودَعٌ	وَمُسْتَلَبٌ مُسْتَعَجَلٌ أَوْ مُؤَجَّلٌ
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ	إِذَا مَا قَطَعْنَا مَنَزِلًا بَانَ مَنَزَلُ
فَنَاءٌ مُلِحٌّ مَا يُغِبُّ جَمِيعَنَا	إِذَا عَاشَ مِنَّا آخِرٌ مَاتَ أَوَّلُ
وَكَمْ صَاحِبٍ لِي كُنْتُ أَكْرَهُ فَقْدَهُ	تَسَلَّمَهُ مِنِّي الْفَنَاءُ الْمُعَجَّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأملوا تقلب الأحوال إن كنتم تبصرون.

وقال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزناً^(١). وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله عدد ما خلق وذراً وبرأ، والحمد لله رب العالمين كما ينبغي لكمالهِ وجماله وجلاله.

بِسْمِ اللَّهِ

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، لعبد العزيز السلیمان (٣ / ٢٦٥).

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى	(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب
(١٩)	الاعتصام بالله تعالى	(٢)	التوحيد والإخلاص
(٢٠)	سلامة الصدر	(٣)	العبودية
(٢١)	العفاف	(٤)	الصدق مع الله تعالى
(٢٢)	الصبر	(٥)	محبة الله تعالى
(٢٣)	الرضا بالله تعالى	(٦)	الشوق إلى الله تعالى
(٢٤)	شكر الله تعالى	(٧)	الأنس بالله تعالى
(٢٥)	حمد الله تعالى	(٨)	الإرادة
(٢٦)	الفرح بالله تعالى	(٩)	العزم
(٢٧)		(١٠)	الرجاء
		(١١)	الرغبة
		(١٢)	التوكل على الله تعالى
		(١٣)	حسن الظن بالله تعالى
		(١٤)	الثقة بالله تعالى
		(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
		(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
		(١٧)	التعلق بالله تعالى

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|---|--|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ | ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البيبل) |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام | ١٢ - ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب | |

كتب متنوعة

- | | |
|---|---|
| ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات. | ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت |
| ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر) | ٩ - المدهشات |
| ٣ - لله درك يا كعب | ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجًا |
| ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهلاً بعمر | ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر |
| ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية | ١٢ - وقد يجمع الله الشتيتين |
| ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله) | ١٣ - دموع على سفح الفؤاد |
| ٧ - (ويكون الدين كله لله) | ١٤ - نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية |
| | ١٥ - أزمة الفكر المادي |

٢٣- الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام

٢٤- من سير الراجلين

٢٥- انفساخ العزائم وانتفاض

الدعائم

٢٦- مقدمة الحموية.. طلع الصباح

فأطفؤا القنديلا

٢٧- صقيع الفلاسفة (كيف تؤذي

الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة

النفوس)

٢٨- مسائل ملحّة في القدر

١٦- السلفية محض الإسلام العتيق

١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان (في

حجاب الوجه)

١٨- رقائق المتقين

١٩- شعاع الفكر (١) مقالات شرعية

٢٠- شعاع الفكر (٢) مقالات فكرية

وأدبية

٢١- مختارات من البداية والنهاية، للشيخ

محمد الدميحي رحمه الله تعالى

(تحقيق)

٢٢- من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ

محمد الدميحي رحمه الله تعالى

(تحقيق)



الكتاب رقم
(٢٠)

موسوعة تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب



سلامة الصدر

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرزقي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

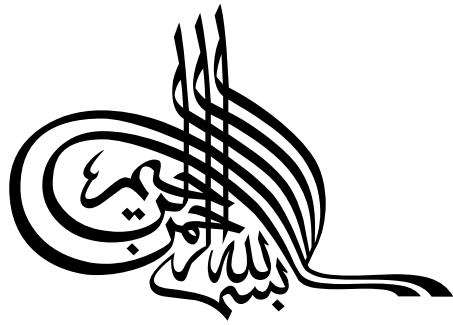
الكتاب رقم (٢٠)

سلامة الصدر

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فَهْرِسْتُ الْمَحْتَوَاتِ

مقدمة	٥
التعريف	٩
سلامة الصدر أخص من سلامة القلب	١١
فضل سلامة الصدر	١٣
سليم الصدر نصوح للمسلمين	١٩
سلامة صدر النبي ﷺ	٣٣
سلامة صدور سلف الأمة	٤٥
معيار سلامة القلب والصدر	٥٥
سلامة الصدر وطهارة القلب ليست بلاهة ولا غفلة	٦٣
آثار الغل والحسد	٨٣
أسباب التشاحن	١٠٤
وسائل سلامة الصدر	١٥١
من حُظوظ أهل القرآن؟	١٦٤
حفظ الله تعالى عقل صاحب القرآن العظيم من الحرف	١٦٦
من هو الماهر بالقرآن؟	١٦٨
التغني بالقرآن الكريم:	١٨٤
حكم التجويد:	٢٠٠
من هم أهل القرآن؟	٢٢٣

- ٢٢٧.....سَكِينَةُ الْقُرْآنِ:
- ٢٢٩.....استماع القرآن عبادة:
- ٢٢٩.....مراتب الأداء:
- ٣٥٨.....﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾
- ٣٦٢.....طريق السلامة من الحسد وموقف المسلم من حاسديه وشائئيه
- ٣٨٤.....من أخبار سليمي الصدور
- ٣٩١.....ضوء من سنا الياقوتة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي زَيَّن قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى قلوب أحبائه شراباً
لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوَجَلَ والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في
أيِّ الدواوين، كُتِب ولا في أيِّ الفريقين يُساق، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾
[الشورى: ٧] فإن سامح فبفضله وهو الغفور الرحيم، وإن عاقب فبعدله وهو العليم
الحكيم، ولا اعتراض على الملك الخلاق، فاحلِّقْ خلقه، والملكُ ملكه، وهو الفعَّالُ
لما يريد. وَعَدَ السَّالِمَةَ قلوبهم بالنعيم، فلا نفع لصالحه ما لم يسلم صدرُ صاحبها من
نجاسة الشرك، وحريق الكفر، وشؤم الظلم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا
مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وعلى قدر السلامة تكون الكرامة،
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٩٦﴾﴾
[فصلت: ٩٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على
كل شيء قدير، إلهٌ عَزَّ مَنْ اعْتَرَّ به فلا يُضَام، وذَلَّ مَنْ تَكَبَّرَ عن أمره ولقي الآثام.
وأشهد أن نبينا محمداً عبداً لله ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، خاتم
أنبيائه، وسيد أصفياه، المخصوص بالمقام المحمود في اليوم المشهود الذي جُمع فيه
الأنبياء تحت لوائه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على
نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه وأتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم أشهدك

على حُبِّكَ ثم حُبِّهِ إله الحق.

ما هبَّتِ الرِّيحُ من تلقاءِ أَرْضِكُمْ إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا على كَبِدِي
ولا تَنَسَّمتُ أُخرى أَسْتَفِيقُ بها إِلَّا وَجَدْتُ خيالًا منك بِالرَّصَدِ

أما بعد: فإنَّ سلامة الصدر غايةٌ وُضعتُ لها عظيمُ الأجور من لدن ربِّ
الناس، ونهايةٌ لا يوفِّقُ لها إلا القليل من الناس، فلا زال القليل بعد القليل يَصِلُون
شاطئ فوزها الهائل الناعم الغني الرِّضي، ذاك أنَّ الإنسان مجبول على حبِّ شفاء
غِيظه وإبرادِ غليل صدره إزاء من ظَلَمَهُ حقُّه أو انتقص قدره، وبعضهم لا يسلم
من مرض الحسد العضال، أو الحقد المميت، أو الكراهية الملازمة، فهو يجمع
الخطب في قلبه لتوقده تلك الصفات الخائبة، والخلال السامة، والعادات المدمرة
لراحته وسعادته وهنائه في الدنيا، ونجاته وفوزه وفلاحه في الأخرى يوم يقوم لله
الأشهاد.

وبينما نرى الناس في أودية الغفلة والأحقاد والغضب يَزِفُّون؛ إذ سلِّم الصدر
في وادٍ آخر من الجنة، جميلٍ عاطِرٍ واسعٍ أفيح، يتقلَّب تحت أفياء موعود ربِّه بوافر
الأجر للسَّلامة صدورهم من أغلال الأحقاد وأوضار الكراهية وأدواء الحسد لعباد
الرحمن الذين يمشون بين الناس بالسلامة والإسلام.

هذا؛ وتدبر - مُسَدِّداً - قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقوله عز وجل في معرض ثنائه
على الصالحين من عباده، العَجَّاجين لربهم الأعلى يَدْعُونَهُ ويبتهلون إليه

ويضرعون: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحش: ١٠]، ثم ها هم في نعيم الخلد يتقلبون بسلامة الصدور ويهناون، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ثم تدبر سعادتهم وغبطهم وثناءهم وحمدهم لربهم تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿خَتَمَهُ مِسْكًَ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافِسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ثم تأمل ضراعة الحبيب ﷺ بسؤاله ربه الأعلى الكريم أن يطهر قلبه ويحفظه من كل دنسٍ حقدٍ: «**وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**»^(١).

واضمم ذلك كله إلى طيبِ خاتمةِ سليمي الصدور، طاهري القلوب، طيبِي الأفتدة، فعن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى: أنه دخل على أبي دجاجة رضي الله عنه وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: «ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما: فكنت لا أتكلّم فيها لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً»^(٢).

(١) المسند ٣/٣٠٩-٣١٠ (١٩٩٧).

(٢) الصمت، ابن أبي الدنيا (١١٣)، والطبقات الكبرى ٣/٥٦٦، ومعنى يتهلل: أي يستنير فرحاً. وقال في الطبقات: قال محمد بن عمر: وشهد أبو دجاجة اليمامة وهو

إِذْنٍ؛ فَأَمْرُ شَرَطَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْتِفَاعَ يَوْمَ الدِّينِ بِتَحْصِيلِهِ، وَوَصَفَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِتَحْقِيقِهِ، وَنَعَتَ فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِهِ، وَرَغِبَ فِيهِ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ﷺ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِإِجَابَتِهِ، وَجَعَلَ وَجْهَ الصَّحَابِيِّ يَتَهَلَّلُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ؛ لهُوَ حَقِيقٌ - كُلُّ الْحَقِّ - بِأَنْ يُعْلَمَ وَيُعْمَلَ بِهِ قَدَرُ الطَّاقَةِ، وَمَدَى الْوَسْعِ، طَوْلَ الْحَيَاةِ وَعَرْضُهَا، وَهُوَ حَقِيقٌ بِتَحْقِيقِ، وَحَرِيٌّ بِتَحْرِيرِ، وَمُسْتَحَقٌّ الْجَدَّ لِلتَّطْيِيقِ، وَالْمَوْفَّقُ مِنْ وَفَّقَهُ مَوْلَاهُ!

فاجتهد - أعانك الله تعالى - في تحصيل ذلك للغاية، فعسى أن يرزقك السلامُ الكريمُ سلامةَ القلبِ من الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسق ومنكرات الأخلاق والأعمال والأقوال والنيات والأهواء والأدواء، وأن يسبل على صدرك ستر لطفه وبرد عفوه ومزيد نعمائه، وأن يجعل فؤادك راضياً راضياً مرضياً، إنه هو السميع العليم القريب المجيب. وما التوفيق إلا بالله الولي الحميد البر المجيد.

وهذه - أخي وأختي - رسالة في بيان ما يسره الله من ذلك، حدًّا وفضلاً ووصفاً وطُرُقاً ونحو ذلك، والله الموفق والميسر والهادي، وإليه التفويض وعليه التكلان، ومنه القبول والغفران، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله ومن تبعه بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٠٩ / ٢٩ هـ

aldumaiji@gmail.com

فيمن شرك في قتل مسيلمة الكذاب. وقتل أبو دجانة يومئذ شهيدا سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر الصديق.

التعريف

سلامة الصدر: هي نقاء النفس وبراءتها وطهارتها من خَبَث الأخلاق الغضبيّة التي تُكَدِّر صفاء الروح والقلب من الغِلِّ والحقْد والحسد وما أشبهها، فقلبه طاهرٌ من كل نجاسةٍ خُلُقِيَّة، ونظيفٌ مما كلِّ لوثَةٍ أو شَنَاةٍ أو نقيصةٍ تجاه ربه، ونقيٌّ من كَدَرِ سيِّئ الأخلاق، وبعيدٌ عن قَدَرِ المعاني والأعلاق، وسليمٌ من كلِّ عوَالِقِ الإِحْنِ، وبريءٌ من حظِّ شيطانِ الحسد والأثَرَةِ ودَغَلِ الضغينة، فهو طيِّبٌ صافٍ نَصُوحٌ تجاه الناس، فلا يحمل عليهم لأجل دنيا، بل يشفق عليهم ويرحمُ ويحنو، وينصح لهم باجتهاد وصدق، ويجب لهم الخير كما يجب له لنفسه.

وما الحُسْنُ في وَجهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخُلَاقِ وَالسَّلَامَةِ: العافية والبراءة، قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «وَالسَّلَامُ فِي الْأَصْلِ: السَّلَامَةُ، يُقَالُ: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلَامًا وَسَلَامَةً، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنَةِ: دَارُ السَّلَامِ، لِأَنَّهَا دَارُ السَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ»^(١)، وقال الزَّجَّاج رحمه الله تعالى: «سُمِّيَتْ دَارُ السَّلَامِ لِأَنَّهَا دَارُ السَّلَامَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ وَلَا تَفْنَى، وَهِيَ دَارُ السَّلَامَةِ مِنَ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ وَالْأَسْقَامِ»^(٢)، وقال ابن فارس رحمه الله تعالى:

(١) النهاية في غريب الحديث: ٣٩٢ / ٢

(٢) لسان العرب ٢٩١ / ١٢

«سلم: السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية» (١).

قلت: فعاد الأمر بالسلامة إلى العافية من كل سوء. وسلامة الصدر في الأصل: سلامته من كل سوء ديني وخُلُقِيّ، ثم كأنهم خَصَّوه بسلامته الخُلُقِيّة، والله تعالى أعلم.



سلامة الصدر أخص من سلامة القلب

سلامة الصدر أخص من سلامة القلب، إذ سلامة القلب أعم وأشمل وأكمل، فهي تعم براءته من الشرك والكفر والظلم ومنكرات الأخلاق القلبية الغضبية والشهوانية والجارية ونحو ذلك، أما سلامة الصدر فتختص عرفاً - فيما يظهر - بسلامته من آفات الأخلاق فقط لا الأديان، فإذا أطلقوا سلامة الصدر فيعنون سلامته من الحقد والغل والحسد والأذى وأضرارها، لا سلامته من منكرات أصل الديانة كالشرك والكفر والنفاق ونحوها.

ولما كانت سلامة القلب تعم سلامة الصدر وزيادة جاء اللفظ القرآني بها، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فمن سلم قلبه فأحرى به وأولى له أن يسلم صدره، فالصدر جزء وشعبة من القلب، كما أن سلامة القلب مُفضية مباشرة لسلامة الصدر، فمعاني العلم والإيمان والطهر الإحسان تنضح الصدر من أطرافه فتطرح عنه كل غائلة سوء وحظ شيطان.

كما أن سلامة الصدر سبب من أسباب سلامة القلب؛ لأنها إحدى شعبه أولاً، ثم لأنها مؤدية لطيب ثمار العلم والإيمان وصحة الرغبة لدى الكريم الديان تبارك وتعالى.

وبين سلامة القلب وسلامة الصدر عموم وخصوص، فإن اجتماعاً لسلامة القلب تكون بالإيمانيات، بأن يكون سليماً من الشرك والكفر والنفاق ونحو

ذلك، وسلامة الصدر ببراءته من الحقد والغلّ والحسد والغش وأشباهها. والأغلب أنهم يقيّدون سلامة القلب بقيد للمسلمين ونحو ذلك، كقول أبي دجانة رضي الله تعالى عنه: «وكان قلبي للمسلمين سليماً». والخطب في ذلك يسير، والسياق يُعيّن المراد.

ويصحّ لغة إطلاق هذا بهذا؛ لأن الصدر وعاء القلب، والقلب سيّد الصدر وأصله، ولكن التفريق أوضح وأتمّ وأحسن وأعمل. وبالله التوفيق.



فضل سلامة الصدر

اعلم - رحمني الله وإياك - أنَّ سلامة الصدر هي الطريقُ لحُسْنِ النصيح للمسلمين، وحبِّ الخير لهم، وحسنِ الظن بهم، فمن أراد بلوغَ مرتبة أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه؛ فليبدأ بتفقد سلامة صدره لهم.

واعلم أنَّ المؤمن إنَّما يغضب لله تعالى، ويكره لله تعالى، ويقوم ويقعد ويصول ويجول لله تعالى وحده، لا لدنيا زائلة وحظوظ فانية مهما استدارت به بهارجها وخطوبها ومظالمها وزينتها ورغبتها ورهبها، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

إنَّ سلامة الصدر محضُ منحةٍ عليَّةٍ من العليِّ الأعلى، وكرمٌ وفضلٌ من لدنه، يختصُّ به من أراد توفيقه من خاصَّةِ عبادِه، فالقلبُ قُلْبٌ ما لم يعصمه مولاه، والصدر ضيقٌ ما لم يفسحه الله، والهَمُّ ملازمٌ ما لم يرفعه الله، والسبيلُ مقطوعٌ ما لم يصله الله، والعبدُ ضائعٌ ما لم يهده الله، وهالكٌ ما لم يحفظه، وكفى بالله وليًّا وهاديًا وحافظًا وناصرًا وظهيرًا، ونعمَ بالله!

إنَّ سالم الصدر على عباد الله يعيش بين الناس وجنته في صدره، وبستانه في قلبه، وسعادته وسكنته في روحه، ينظر إليهم بعيني قلبه الطاهر السليم، وصدره الناصح الناصع الواسع، وروحه النقيَّة الطيِّبة البيضاء، فلا يرى شيئاً من نكدهم عليه يستحق ذلك المقابل، فينقلب إليهم سليم الصدر، حسن الظن، محبًّا لهم كلَّ خير، مُسديًّا لهم كل معروف يطيقه، مُوصلاً لهم كل فائدة يستطيعها، لعلمه أنه لم يُخلق لحمل همومِ دنيا وغمومِ فانية.

فهو يعيش - حتى بين أعدائه - بقلبٍ قلبٍ كراهيته شفقةً، وانتقامه نصحاء، وبغضاءه حُبًّا، لرؤيته ببصيرته ما لا يرونه بأبصارهم، هو في وادٍ أفيح، وهم في خنادقٍ كالحية، يرونه مجنونًا لفرط مسامحته، ويراهم بسطاء لغلالة جهلهم، نفذ للآخرة بهمته، بينماهم يقتاتون أغلال الرجيم على موائد الجحيم، وبئس ما اختاروا، وخيبة ما صنعوا!

إنه - فقط - يحمل همَّ آخرته درجاتها ودركاتها، ويسعى لتحصيل رضا مولاه طاقته، فإن صادفه ظلمٌ له أو أذى لم يتكدر تكدر الهلوعين، ولم تضق نفسه بأمرٍ هو عند الناس عظيم وعند الأتقياء تافهٌ مهين.

فما كُلُّ ما راجت عند الناس عظمتُه عظيمًا، وما كُلُّ ما تهالك الناس على تحصيله يستحق العناء، ولا كل ما حمل الناس همَّ دفعه ورفع وإزاحته واجتنابه حقيق بذلك، فالميزان هو ميزان الآخرة، والمعوّل إنما هو على رضوان الرحمن، والسعيد من وفقه الله تعالى، ويا ربّ هل إلّا عليك المعوّل.

فالمؤمن قلبه سليم، وصدره سليم، ونصحه للناس صادق صاف مهراق متدفق، يجب لهم ما يجب لنفسه من خيري الآخرة والدنيا.

وصدره سالم من سوادِ الحسد، وقترّةِ الحقد، ودخانِ الضغينة، وجريرِ البغضاء، فهو سليم كقلب الطير البريء، طهر قلبه من نتنِ المعصية، وقبح الخطيئة، وضرامِ البغضاء لمسلم.

ومثل هذا موعودٌ برحمة ربه وعظيم نواله وجزيل هباته، فؤاده كفؤاد الطير طاهر لا خبث فيه، قد كسره خوفه من الله تعالى وهيبته وجلاله عن اتباعِ نداءِ

سِبَاعِ الحَقْدِ وَضِبَاعِ الحَسَدِ فِي فُؤَادِهِ، فَلَيْسَ هُنَّ مِنْهُ سَامِعٌ وَلَا مَجِيبٌ، وَلَا هُنَّ فِيهِ مَحَلٌّ وَنَصِيبٌ، وَلَا إِلَيْهِنَّ مِنْهُ ضَاعِنٌ وَرَغِيبٌ، فَلَيْسَ فِيهِ مُحَامِلٌ ضِغَائِنٌ لِأَجْلِ دُنْيَا، قَدْ أَزَالَ جَلَالَ الْآخِرَةِ عَنْ قَلْبِهِ دَغَائِلَ الْغَشِّ وَغَيُومَ الْأَحْقَادِ وَسَرَابَ الْأَحْسَادِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْتَدَتْهُمْ مِثْلُ أَفْتَدَةِ الطَّيْرِ»^(١). قَدْ سَلِمَتْ أَفْتَدَتُهُمْ مِنْ غَشٍّ لِمُسْلِمٍ، أَوْ ضِغِينَةٍ، أَوْ حَقْدٍ، أَوْ حَسَدٍ.

قال النووي رحمه الله تعالى: «قيل: مثل قلوب الطير في رقتها وضعفها كالحديث الآخر: «أهل اليمن أرق قلوباً، وأضعف أفئدة»^(٢)، وقيل: في الخوف

(١) مسلم (١٤٩/٨) (٢٨٤٠) (٢٧).

(٢) عند مسلم (٥٢/١) بلفظ: «جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وأضعف قلوباً، الإيمان بيان، والحكمة بيان، السكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر قَبْلَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ». والفدّادون: هم رعاة المواشي في الجملة، وقَصَدَ هنا رعاة الإبل خاصّة، لأنهم يرفعون أصواتهم خلفها لغلظ طباعها وطباعهم، مع ما يصحب ذلك من فخر وخيلاء واستعلاء، وعند البخاري (٣٣٠٢) عن عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن فقال: «الْإِيْمَانُ يُبَايِنُ هَا هُنَا، أَلَا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلْظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ، عِنْدَ أَصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ، حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ». قال أبو عبيد الهروي في الغريبين في القرآن والحديث (١٤٢١/٥): «قال الأصمعي: الفدّادون: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم وأموالهم ومواشيهم، يقال: فدّ الرجل يفدّ فديداً إذا اشتدّ صوته. وقال أبو عبيد: الفدّادون: المكثرون من الإبل، وهم حفاة أهل خيلاء. وقال أبو العباس: الفدّادون

والهيبة، والطير أكثر الحيوان خوفاً وفزعاً، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وكأن المراد قوم غلب عليهم الخوف، كما جاء عن جماعات من السلف في شدة خوفهم، وقيل: المراد متوكلون، والله أعلم^(١).

والمؤمن لا يحمل غلاً لمؤمن، بل يحبه وينصح له، ويحوطه بدعوته وخيره ويرفده، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «وقد علمنا الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] على أنه إذا عرض ما يوجب تكدر الخاطر فإن القول الحسن يزيل ما في نفس القائل من الكدر، ويرى للمقول له الصفاء فلا يعامله إلا بالصفاء، قال المعري:

وَالْحُلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الْكَدْرِ

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور،

الجمالون والرعيان والبقارون والحمّارون».

(١) شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٧٧) تنبيه: يذكر بعضهم في هذا الباب حديث أنس مرفوعاً: «أكثر أهل الجنة البُلّة». ويتكلفون له المخارج والأوجه مع أنه لم يثبت أصلاً، فلا وجه للتكلف في توجيهه.

فقد قال الهيثمي: فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أحمد بن صالح وغيره. وقال الزين العراقي: قد صححه الدارقطني في التذكرة وليس كذلك، فقد قال ابن عدي: إنه منكر. وسبقه ابن الجوزي قال: حديث لا يصح. وقال ابن عدي: حديث منكر. وقال الدارقطني: تفرد به سلامة عن عقيل وهو ضعيف. كما وضعفه البيهقي في الشعب. وكذا وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٠٩٦).

وأمر بالإحسان القولي إذا تعذر الفعلي على حد قول أبي الطيب: فليُسعد النطقُ إن لم تسعد الحال^(١).

وسلامة الصدر - فاعلم - هي من فروع السَّلام، وإنَّ من أجمل المفردات الإنسانية بإطلاق: لفظ السَّلام، ففيه الأمن والعافية والسكينة والراحة والسلامة، والجنة هي دار السَّلام، ومن أساء الله السَّلام. وسلامة الصدر هي من مَحْضِ السَّلام، لذا فهي نعيمٌ مُعَجَّلٌ لصاحبه، وهي رقيقةٌ من رقائق أهل الجنة دار النعيم، فإنهم سالمون من الغلِّ والحقد والحسد والبغضاء والضغينة، قد سلمت صدورهم فطاب نعيمهم.

فالسكينة من الله تعالى، وهي دفءٌ، وطمأنينة، وسَّلام، وراحة بال، وهنأة عيش، ونعيمٌ رغيد. ويضادُّها الخوف والهلع والجزع، فالسعيد من وفقه الله تعالى لتحصيل أسباب السكينة، ومن أعظمها سلامة صدره، وطهارة قلبه، وعفَّة روحه، وجسده.

فإن رُمت الإكسير الذي تتحصل به سلامة صدرك حقاً فهو بعد الإيمان بالله تعالى الزهد في الدنيا، فعامةُ أحقاد الناس نتاج حبِّ الدنيا، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ: فقال: يا رسول الله؛ دُلّني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبنى الناس؟ فقال: «ازهد في الدنيا يُحبك الله،

(١) التحرير والتنوير (١ / ٥٨٣) مختصراً.

وازهد فيما عند الناس يُحِبُّكَ الناس»^(١). وسيأتي بسطه في موضعه إن شاء الله تعالى.



(١) ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم ٣١٣ / ٤. وحسنه النووي في «الأربعين» برقم (٣١).
وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٢)، والصحيحة: (٩٢٢، ٩٤٤).

سليم الصدر نصوح للمسلمين

وهذه أمانة مضطربة في هؤلاء الطيبين الأخيار، وعلامة مضيئة على جبين أولئك الأبرار الأطهار، وتأمل حديث النصيح حتى تجعله معياراً لك، وميزاناً لسلامة صدرك، وسلامة نصحك للناس، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١) زاد البزار: قال أنس: فخرجت أنا والرجل إلى السوق، فإذا سلعة تُباع فساومتها، فقال: بثلاثين، فنظر الرجل فقلت: قد أخذتها بأربعين، فقال صاحبها: ما يملك على هذا وأنا أعطيكها بأقل من هذا؟ ثم نظر أيضاً فقلت: قد أخذتها بخمسين! فقال صاحبها: ما يملك على هذا وأنا أعطيكها بأقل من هذا؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وأنا أرى أنه صالحاً بخمسين»^(٢).

وفي التحفة: «قوله «لا يؤمن أحدكم» أي: إيماناً كاملاً «حتى يحب لأخيه» أي: المسلم «ما يحب لنفسه» أي: مثل جميع ما يحبه لنفسه.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣): «قال العلماء: معناه: لا يؤمن الإيمان التام، وإلا فأصل الإيمان يحصل وإن لم يكن بهذه الصفة، والمراد يحب لأخيه من الطاعات

(١) البخاري ١٠/١ (١٣) ومسلم ٤٩/١ (٤٥) (٧١).

(٢) مسند البزار (١٥، ١٠) (٢ / ٣٦٦).

(٣) شرح صحيح مسلم ٢٣٠/١ (٤٥).

والأشياء المباحات. ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي في هذا الحديث: «حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»^(١).

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللهُ: وهذا قد يُعدُّ من الصعب الممتنع وليس كذلك، إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام مثل ما يحب لنفسه، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها، بحيث لا تنقص النعمة على أخيه شيئاً من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدَّغِلَ^(٢)، عافانا الله وإخواننا أجمعين، والله أعلم»^(٣).

(١) النسائي (٥٠١٧). وصححه الألباني في الصحيحة ١٥٥/١ وقال: «اعلم أن هذه الزيادة «من الخير» زيادة هامة، تحدد المعنى المراد من الحديث بدقة، إذ أن كلمة (الخير) كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية وتخرج المنهيات، لأن اسم الخير لا يتناولها، كما هو واضح. فمن كمال خلق المسلم أن يحب لأخيه المسلم من الخير مثلما يحب لنفسه. وكذلك أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، وهذا وإن لم يذكره في الحديث، فهو من مضمونه، لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء كما قال».

(٢) دَغَلُ القلب: فساده بمادة خبيثة، وهو الحقد المكتتم. وأدغل في الأمر: إذا أدخل فيه ما يخالفه ويفسده، والأدغال: الغابات الملتفة على بعضها. قال ابن منظور في اللسان: ٢٤٥/١١: «أصل الدَّغَلُ: الشَّجَرُ المَلْتَفُّ الذي يَكْمُنُ أهل الفساد فيه، وقيل: هو من: قولهم: أَدْغَلْتُ في هذا الأمر، إذا أدخلت فيه ما يُخَالِفُهُ ويفسده».

(٣) تحفة الأحوذى (٧ / ١٨٤).

قلت: فتمني الخير للغير على وجه لا مزاحمة للغير فيه سهل يسير على عامة النفوس، فلا يخرج من ذلك إلا أهل الغلّ والحسد.

قال السندي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه» لعل المراد ترك الحسد والعداوة، وحصول كمال المودة حتى يقرب أن ينزل أخاه منزلة نفسه في الخيرات بطريق الكناية، أو المراد أن يجب ذلك في الأعم الأغلب، ولا يلزم في كل شيء، سيما إذا لم يكن لذلك الشيء إلا فرد واحد كالوسيلة والمقام المحمود، فإنه لا يمكن الاشتراك فيه حتى يحبه لغيره، وبهذا يندفع الإشكال بسؤال سليمان عليه السلام تخصيص الملك بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] وبما حكاه الله عن عباده الصالحين من قولهم: ﴿وَجَعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فإنه ظاهر في الخصوص، والعموم في الإمامة يرفع الإمامة من أصلها كما لا يخفى، وبتخصيص النبي ﷺ سؤال الوسيلة بنفسه، وأمره الأمة بذلك السؤال، والله تعالى أعلم»^(١).

قلت: فالأصل عموم محبة كل خير لكل مؤمن، والاستثناء إنما هو فيما لا يمكن أن يكون لشخصٍ دون آخر، فتقديم النفس حينها في أمور الآخرة هو الأولي، فأول مسؤولية الإنسان نفسه التي بين جنبيه، عليه أولاً فكأكها وإفلاحها وإسعادها بتعبيدها حقاً لله تعالى وإرضائه لتحصيل رضوانه، ثم من بعدها يأتي الآخرون، وكما أنها غريزة بشرية، وفطرة إنسانية؛ فهي جادة شرعية،

(١) حاشية السندي على صحيح البخاري (١ / ١٤).

وطريقة رسولية، ومشرعة نبوية، كما في سؤاله ﷺ الوسيلة لنفسه الشريفة، وأمر أمته بذلك لأنها منزلة لا تكون إلا لواحد.

أما مثاله لدينا في العبادات: فمن ذلك تقديم النفس للصف الأول وعدم تأخيرها لأجل غيره، والمسابقة على كل خيرات الصالحات، مع كون المصلي والمسابق المنافس يتمنى ويحب الخير لكل أحد، وبكل سبيل، وعلى هذا فقس. قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللهُ في حديث: «حتى يحب لأخيه..»: «ويحكي أن الفضيل بن عياض قال لسفيان بن عيينة: إن كنت تريد أن يكون الناس مثلك؛ فما أديت لله الكريم النصيحة، فكيف وأنت تود أنهم دونك؟

وقال بعض العلماء: في هذا الحديث من الفقه أن المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة، فينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه من حيث إنها نفس واحدة، كما جاء في الحديث الآخر: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١)(٢). قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «هذه هي النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك، بحيث يسرك ما يسرهم، ويسوءك ما يسوءهم، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وهذا الباب واسع كبير جدًا.

فنفى النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه

(١) البخاري ١١/٨ (٦٠١١) ومسلم ٢٠/٨ (٢٥٨٦) (٦٦).

(٢) شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد (١ / ٤٤).

في كل شيء. ونفي الإيمان قال العلماء: المراد به نفي الإيمان الكامل، يعني لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية.

ويذكر أن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بايع النبي عليه الصلاة والسلام على النصح لكل مسلم أنه اشترى فرساً من شخص بدراهم، فلما اشتراه وذهب به وجد أنه يساوي أكثر فرجع إلى البائع، وقال له: إن فرسك يساوي أكثر، فأعطاه ما يرى أنها قيمته، فانصرف وجرب الفرس فإذا به يجده يساوي أكثر مما أعطاه أخيراً، فرجع إليه وقال له: إن فرسك يساوي أكثر، فأعطاه ما يرى أنها قيمته، وكذلك مرة ثالثة حتى بلغ من مئتي درهم إلى ثمان مئة درهم، لأنه بايع الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم، وإذا بايع النبي ﷺ أحداً على شيء لا يختص به فهو عام لجميع الناس، كل الناس مبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام على النصح لكل مسلم، بل على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإسداء النصح لكل مسلم.

والمبايعة هنا بمعنى المعاهدة، لأن المبايعة تطلق على البيع والشراء، وتطلق على المعاهدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وسميت مبايعة لأن كلاً من المتبايعين يمدّ باعه إلى الآخر، يعني يده من أجل أن يمسك بيد الآخر ويقول: بايعتك على كذا وكذا»^(١).

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١ / ٢١٦) وانظر: فتح الباري لابن حجر (١ / ٥٧).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه إذا سلم من الحسد والغل والغش والحق، وذلك واجب كما قال النبي ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»^(١) فالمؤمن أخو المؤمن يجب له ما يجب لنفسه، ويحزنه ما يحزنه، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢)، فإذا أحب المؤمن لنفسه فضيلة من دين أو غيره أحب أن يكون لأخيه نظيرها من غير أن تزول عنه، كما قال ابن عباس: إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمها، فأود أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم. وقال الشافعي: وددت أن الناس كلهم تعلموا هذا العلم، ولم ينسب لي منه شيء.

فأما حبّ التفرد عن الناس بفعل ديني أو دنيوي فهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] وقد قال علي وغيره: هو أن لا يحب أن يكون نعله خيراً من نعل غيره، ولا ثوبه خيراً من ثوبه. وفي الحديث المشهور في السنن: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يُباري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ فليتبوأ مقعده من النار».

(١) مسلم ٥٣/١ (٥٤) (٩٤).

(٢) البخاري ١١/٨ (٦٠١١) ومسلم ٢٠/٨ (٢٥٨٦) (٦٦) (١٠٩). وتدبر لفظ «تداعى» وما فيه من معاني الجمال والشفقة والتعاون والتضحية والمحبة والحنان والأخوة. صلى الله وسلم وبارك على خير معلم وناصح ومحب وشفيق.

النار» (١)(٢).

قلت: وكأن الحافظ رحمه الله تعالى قد عنى بقوله «حب التفرد» أي: حب الشهرة، أو حب التفرد بأمر لا تضرّ المزاحمة فيه، كما هو ظاهر في أمثلته. ولم يرد مطلق حب التفرد؛ لأن الأمر فيه ليس على الذم مطلقاً كما في حديث الوسيلة، ودعاء سليمان عليه السلام، وقد مرّ بيان ذلك.

«وفي الجملة؛ فينبغي للمؤمن أن يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، فإن رأى في أخيه المسلم نقصاً في دينه اجتهد في إصلاحه» (٣).

وقال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله في حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»: «إن قيل: كيف يتصور هذا وكل أحد يُقدّم نفسه فيما يختاره لها، ويجب أن يسبق غيره في الفضائل، وقد سبق عمر أبا بكر؟

فالجواب: أن المراد حصول الخير في الجملة، واندفاع الشر في الجملة، فينبغي للإنسان أن يحب ذلك لأخيه كما يحبه لنفسه، فأما ما هو من زوائد

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) وله شواهد. وضعفه أيمن صالح شعبان في تخريج جامع الأصول (٤ / ٥٤٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٨) ومعنى يباهي: يفاخر. ويباري: ينافس لطلب العلوّ. والسفهاء: الجهال. ويصرف: يميل به وجوه الناس وقلوبهم لتعظيمه وتقديمه. وكل هذا من شراء الآخرة بالدنيا، والله المستعان.

(٢) فتح الباري لابن رجب (١ / ٤١)، وهو شرح عظيم، لكنه لم يتمه، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر في مواضع، رحمهما الله تعالى.

(٣) جامع العلوم ابن رجب (١ / ٣٠٨).

الفضائل وعلو المناقب؛ فلا جناح عليه أن يؤثر سبق نفسه لغيره في ذلك» (١).

قلت: ولكن أبي بكر ليس كذلك، وتلك منزلة في غاية الشرف والسمو والنيافة والعلو، وهي ليست من واجبات الأبرار، لكنها من مستحبات المقربين، ومن سادة المقربين عمر بلا شك، ولكن لأبي بكر ما ليس لغيره، وما ورد من أنه طلب من أحد الصحابة أن يسمح له بشارة النبي ﷺ بدلاً عنه فمحمول على اعتبار أن رسول الله ﷺ سيفرح به من جهته أكثر من غيره لخصوصيته، أو غير ذلك، كما أنها داخلة فيما ذكرناه آنفاً من الفضائل الدينية المزاخمة التي لا يمكن أن تكون إلا لواحد دون غيره، فيشرع له حينها تقديم نفسه. والله أعلم.

ومن طبيعة الإنسان الفرح بسبقه غيره، فهي غريزة خلقية كامنة فيه، ولكن من تجاوز هذه العقبة الكؤود فليفرح بفضل الله عليه بذلك، فقد محضه مولاه بفضيلة اصطفائه وتفضيله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأجل الأرزاق أرزاق الدين. إي وربي!

وفي صحيح مسلم (٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ في حديث طويل: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَاحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يَحِبُّ

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١ / ٨٢٥).

(٢) مسلم (١٨٤٤).

أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ^(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصود: أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبيده والكريم يخفيه.

وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك أخوة يوسف لا أباك! ولكن عمَّه في صدرك، فإنه لا يضرُّك ما لم تعدُّ به يداً ولساناً.

فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه.

وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقه على ذمه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه، مفرطون في ذلك لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يُخسرون حقوقهم فلا يُنصفون أيضاً في مواضع، ولا يُنصرون على من ظلمهم، كما لم ينصروا هذا المحسود^(١).

وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب، ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه، كما جرى لزَيْنَب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فإنها

(١) جزاءً وفاقاً.

كانت هي التي تُسامي عائشة من أزواج النبي ﷺ، وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب، لا سيما المتزوجات بزواج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها، وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر، ويكون بين النظراء كراهة أحدهم أن يفضل الآخر عليه، كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى - كحسد اليهود للمسلمين - وقتله على ذلك.

ولهذا قيل: أول ذنب عُصي الله به ثلاثة: الحرص، والكبر، والحسد. فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل..» (١). قلت: بل الذنب الأول هو حسد إبليس آدم لما رأى الله فضله عليه، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء، ثم أمره بالسجود له، فهذا هو أول ذنب عصي الله تعالى به على الإطلاق، ولما تسلط إبليس على قابيل بالحسد قتل أخاه، لذلك فشؤم الحسد على الناس لا يدرك أقصاه، ولو رُفع عن الأرض لعمها بإذن الله السلام، ولكن الله تعالى حكم عالية عظيمة هائلة في تقديره له، وسنبسط ما تيسر منها فيما يستقبل بإذن الله تعالى.

هذا؛ وسلامة الصدر - فاعلم - من أسباب دخول الجنة، فعن أنس بن مالك

(١) أمراض القلوب وشفافها، لابن تيمية (١ / ٢١).

رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً مع الرسول ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلع رجل من الأنصار تنطفُ (١) لحيته من وضوئه، قد تعلَّق نعليه في يده الشمال (٢)، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى!

فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لا حيُّ (٣) أبي، فأقسمتُ ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يُحدِّثُ أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارَّ (٤) وتقلَّبَ على فراشه ذكر الله - عز وجل - وكبَّرَ حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمع

(١) أي: تقطر، ونقطة الماء تسمى نُطفة.

(٢) لأن اليمنى هي محل التكريم، والشمال بخلافها.

(٣) من الملاحاة، وهي الجدل والمراجعة بالقول حال الغضب، والأكثر أن يصحبه صُراخ، ولا تزال بحرفها ومعناها لدى عامة أهل نجد.

(٤) تعارَّ: انتبه من نومه، وتقلَّبَ على فراشه. وروى البخاري (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي ودعا استجيب له، فإن توضأ قبلت صلاته».

يقول إلا خيرًا.

فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله؛ إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك؛ فأقتدي به ^(١) فلم أراك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟

فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وَلَّيْتُ دعاني فقال: ما هو إلا رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطبق ^(٢)» ^(٣).

(١) وهذا من حرصهم رضي الله عنهم على الخير، وتحصيل أسبابه، ومن أعظمها العلم بطرق تحصيله.

(٢) قالها تواضعًا وإغضاءً وإزراءً بنفسه الطيبة، والظن أنه ممن حققوا سلامة الصدور رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠ / ١٢٤) (١٢٦٩٧)، والنسائي (١٠٦٣٣)، وعبد الرزاق (٢٠٥٥٩)، والبزار (٦٣٠٨)، والبيهقي في الشعب (٦١٨١)، ٣ / ١٦٦ وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣٤٨) (٤٣٨٤): «رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي، ورواته احتج بهم أيضًا إلا شيخه سويد بن نصر، وهو ثقة»، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٠٨٥): «رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين»، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٧٨ - ٧٩) (١٣٠٤٨)، وقال:

وعن سفيان بن دينار رحمه الله تعالى قال: «قلت لأبي بشير: أخبرني عن أعمال مَنْ كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً، قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم»^(١).

وما أجمل أن تكون مغموراً لا مشهوراً، فإن رُمّت الراحة ورغبت العافية فكن في غبراء الناس لا رؤوسهم، وكن من مجهول في الأرض معروف في السماء، والصالح إنما يكون حيث أمره الله، فيتتبع مراده تبارك وتعالى، وليبشر ببشارة نبيه ﷺ: «طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع»^(٢).

ولا يعني هذا صرم الناس ومفارقتهم ومباعدتهم، بل المؤمن يخالطهم

«ورجال أحمد رجال الصحيح»، ووافقه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٦/ ٧٨) (٥٣٨٣)، وصححه ماهر الفحل، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٧٢٨).

وقد أعلّ بعض أهل العلم الحديث بقول عبد الله: «إني لأحييتُ أبي»، لأن هذا كذب يُنَزّه الصحابي عن الوقوع فيه، إذ كان يكفيهِ أن يسأل رسول الله ﷺ بدلاً من أن يكذب على الرجل. والجواب: لعلّ هذا من التورية والمعاريض المباحة، فلعلّه قد لاحى أباه يوماً ولو بعض ملاحاة، لهذا قصدها بكلامه هنا. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، فلا يلزم من ذلك كذبه، والله أعلم.

(١) الزهد، لابن السري (٢/ ٦٠٠).

(٢) البخاري (٢٨٨٧).

بعلمه ونصحه ورفقه ورّفده وكرمه مع حراسة نفسه من أذاهم دينه، قال النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(١).

واعلم أنّ من النصح للمسلم: احترامُ حزنه المشروع، ومن توقير صاحب الحزن ألاّ يُلَهّي عنده وقت شدّة مصابه، فللحزن وقاره وجلاله وهيبته وثقله. ومن الغفلة أن يكون في مجموعة واتساب عائلية، ثم يرفق بعضهم مقاطع فيها ضحك أو هو ونحو ذلك.. فمن الشيمة وحسن الخلق احترام الحزن بالجدّ والصبر والتجلد، لا بالتحزّن والبكاء، ولا باللهو والغفلة.

ونقول للحزين: ليس الحزن بمستحب في الشرع، ولكن يُتسامح فيه بقدر عند أوانه، وبقدر حاجته وإبّانه، لغلبة الضعف البشري، ورفقة العاطفة الإنسانية في الجملة. ومن عرف الله هانت مصيبته، فالتّم يا صاحبي أحزانك، وامض قُدّامك، واشعر بالعزم يتدفّق في عروقك، وتوكل على الحي الذي لا يموت. وكن رجلاً على الأهوالِ جَلْدًا وشيمتك السّاحة والوفاء

نسأل الله الكريم من فضله ونواله وهُداه وتوفيقه وإسعاده، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) ابن ماجه (٤٠٣٢)، وبنحوه عند الترمذي (٢٥٠٧) وصححه الألباني.

سلامة صدر النبي ﷺ

نبينا ﷺ هو المثال الكامل لمكارم الأخلاق ومعالي الأمور، إنه المثال الفذّ لكلّ كمالات الجنس البشري، فقد أكمل الله تعالى فيه كل أخلاق البشر الطيبة، والسجايا الحميدة، والصفات النبيلة، ونقاؤه وحفظه من كل أضدادها، ثم خلع عليه حمده الربّاني العزيز، وجلّله بمدحجته الإلهية الهائلة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لقد كان ﷺ أسلم ولد آدم صدراً، وأطيبهم قلباً، وأطهرهم نفساً، وأرحبهم خُلُقاً، وأنقاهاهم سريرةً، وأصدقهم لهجةً، وأنصحهم فؤاداً، وأحنّاهم جناناً، وأحفظهم أمانة، وأعظمهم ديانة، وأكرمهم وأشجعهم وأنبلهم وأكملهم وأجملهم في كلّ خلة كريمة وجميلة.

وكان على الدوام يعمل على تعاهدٍ وحراسةٍ سلامة صدره ونقاء قلبه وطهارة فؤاده على عباد الله تعالى، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُبلغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»^(١).

(١) أحمد (٣٩٥ / ١) وحسنه الشيخ أحمد شاكر. وأخرجه البزار (٢٠٣٨) وأبو داود (٤٨٦٠) (٤٨٦٠) والترمذي (٣٨٩٦) و(٣٨٩٧) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وحسنه محمد أبو الهدى اليعقوبي في شمائل الحبيب المصطفى

وقد بينَ ﷺ أن أفضل الناس هو سليم القلب واللسان، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله؛ أيّ الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان». قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقيُّ، النقيُّ الذي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غلّ، ولا حسد» (١).

وتأمل هذا الوصف الجميل الدقيق لحياته ﷺ من أقرب الناس إليه، فعن أمّنا عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خيرَ رسول الله ﷺ في أمرين إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلّا أن تُنتَهَكَ حُرمة الله؛ فينتقم لله بها» (٢).

وقف كثيراً عند هذا الحرف الأنسيّ الشاهق الأنيق الوفيّ، فعن أنس بن

(١/١٦٩). وقال محقق جامع الأصول (٨/ ٤٥٢): حديث صحيح. وضعفه الألباني والأرنؤوط والحويني والعباد والفحل.

(١) ابن ماجه (٤٢١٦)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٨٩٠) والألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤١١) وأصل المخموم: المقموم، أي: المنظف من قمامة الأخلاق ودنَس الرذائل ومن كل أذى، من قولهم: خَمَمْتُ البيت إذا كنسته، ومخموم القلب حريص على طُهره ونظافته ونقائه، فيزيل ما علق بقلبه أولاً بأول، مثلما تكنس البيت وتزيل ما به من النجاسات والقاذورات، والحماسة: القمامة. وهذا من بديع البيان النبوي فتأمل كيف ذكر القلب المخموم واللسان الصدوق، ثم فسّره بالتقوى والطهارة والنقاء. وانظر: الصحاح للجوهري (٥/ ١٩١٥) وحاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ٥٥٣).

(٢) البخاري ٤/ ٢٣٠ (٣٥٦٠)، ومسلم ٧/ ٨٠ (٢٣٢٧) (٧٧).

مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَوَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفَّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتَ كَذَا، وَهَلَّا صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا»^(١). وفي رواية (٢): «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ بِالْمَدِينَةِ، وَأَنَا غُلَامٌ، لَيْسَ كُلُّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ، مَا قَالَ لِي فِيهَا أُفَّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِي: لَمْ فَعَلْتَ هَذَا؟ أَوْ أَلَا فَعَلْتَ هَذَا»^(٢).

وقال أيضًا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرَ عَلَى صَبِيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ ذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ أُنْسُ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»^(٣).

(١) أحمد (١٣٥٧٧) ومسلم (٢٣٣٠) (٨١).

(٢) أبو داود (٤٧٧٤)، وصححه الألباني.

(٣) مسلم (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣، ٤٧٧٤)، والترمذي (٢٠١٥). قال الطيبي رحمه الله تعالى في الكاشف عن حقائق السُّنَنِ ١٢ / ٣٧٠١: «قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعم» في جواب النبي ﷺ: «أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» مع أنه لم يذهب؛ منبئ عن عزمه على ذهابه إلى المأمور به، فإنه قد جزم بذهابه إليه، فكأنه قد ذهب، ولهذا قال: أنا ذاهب، ويُحْمَلُ قوله لرسول الله ﷺ: «والله لا أذهب»، وأمثاله على أنه كان صبيًّا غير مكلف». وقال القرطبي رحمه الله تعالى في المفهم ٦ / ١٠٣ - ١٠٤: «هذا القول

وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوْلُونَا فَمَا شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ

وتأمل قصته الهائلة المشجبة المبكية المؤثرة ﷺ مع ثقيف، ثم مع ملك الجبال في وادي نخلة، وتفكر في طهارة قلبه وسلامة صدره للعالمين. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(١)».

فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

صدر عن أنس في حال صغره، وعدم كمال تمييزه؛ إذ لا يصدر مثله ممن كمل تمييزه، وذلك أنه حلف بالله على الامتناع من فعل ما أمره به رسول الله ﷺ مشافهةً، وهو عازمٌ على فعله، فجَمَعَ بين مخالفة رسول الله ﷺ وبين الإخبار بامتناعه، والحلف بالله على نفي ذلك مع العزم على أنه كان يفعل، وفيه ما فيه، ومع ذلك فلم يلتفت النبي ﷺ لشيء من ذلك، ولا عرج عليه، ولا أدبه، بل داعبه، وأخذ بقفاه، وهو يضحك رفقا به، واستلطافاً له، ثم قال: «يا أنيس؛ أذهبت حيث أمرتك؟»، فقال له: أنا أذهب، وهذا كله مقتضى خلقه الكريم، وحلمه العظيم ﷺ.

(١) قرن الثعالب: ويسمى قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد، على نحو مرحلتين من مكة (٧٥) كيلاً.

فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد؛ إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؛ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» ^(١) فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» ^(٢).

وزاد الطبراني وغيره أن رسول الله ﷺ ابتهل إلى ربه حين طرده أهل الطائف وكذبوه وآذوه، فقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني» ^(٣)، أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك. لك العُتْبَى ^(٤) حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك» ^(٥).

(١) الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة. والأخشب: هو الجبل الغليظ.

(٢) البخاري ١٣٩/٤ (٣٢٣١) ومسلم ١٨١/٥ (١٧٩٥) (١١١).

(٣) يتجهمني: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

(٤) العُتْبَى: الاسترضاء بالرجوع عن الذنب والإساءة.

(٥) الحديث لا يثبت، لتدليس ابن إسحاق، ولإرسال محمد بن كعب القرظي والزهري. وهو حديث مشهور، وضياء النبوة ظاهر عليه، فهو وإن لم يثبت سنداً إلا أن معانيه ثابتة بنصوص أخرى، وفيه ثناء على الله تعالى وافتقار إليه وتمجيده وتوحيده، فهو

فَلَيْتَكَ تَحُلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيْنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

وتأمل حال النبي الذي حكى عنه نبينا أنه ضربه قومه حتى أدموه
وصرعوه، فجعل يسيلُ الدم عنه ويقول: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا
يعلمون»^(١).

قبس من مشكاة النبوة، إما تعييناً بلسانه ﷺ أو شمولاً بتعليمه أمته أدب الدعاء
والمناجاة والحمد، وقد تتابع علماء السيرة على ذكره والإفادة منه. وانظر: البيهقي في
الدلائل: ٢: ٤١٤ - ٤١٧ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، وهو مرسل، ولم
يذكر الدعاء، وأورد السيوطي الدعاء في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني ورمز له
بالحسن. وقال الألباني في حاشية فقه السيرة: ١٣٢، ودفاع: ١٩: «وروى هذه القصة
الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً، وفيه الدعاء بنحوه». وقال
الهيثمي في المجمع: ٦: ٣٥: «وفيه ابن إسحاق. وهو مدلس، وبقيّة رجال ثقات». و
ذكره ابن هشام في سيرته ٢/ ٤٢٠. وروي مرسلًا: عن محمد بن كعب القرظي،
وعن الزهري. وانظر: مجمع الزوائد (٣٥/ ٦)، وتاريخ الطبري (٣٤٥/ ١) والبداية
والنهاية (٣/ ١٤٧) وزاد المعاد (٣/ ٢٨) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٩٦)
وفيض القدير: ٢: ١٥٠ - ١٥١ (١٤٨٣) وكنز العمال (٣٦١٣، ٣٧٥٦).

(١) البخاري ٤/ ٢١٣ (٣٤٧٧) ومسلم ٥/ ١٧٩ (١٧٩٢) وأحمد ١/ ٣٨٠ و٤٣٢
و٤٤١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٦١) من طرق عن الأعمش به، وزاد
أحمد في رواية بلفظ: «كان قومه يضربونه حتى يُصرع». قال الألباني في السلسلة

(٥٣٣/٧): «وإسنادها صحيح على شرط الشيخين».

قال العثيمين رحمه الله تعالى في شرح رياض الصالحين (٦٠٨/٣): «كَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا مُسْلِمِينَ، لَكِنْ حَصَلَ مِنْهُمْ مَغَاضِبَةٌ مَعَ نَبِيِّهِمْ فَفَعَلُوا هَذَا مَعَهُ، فَدَعَا لَهُمُ بِالْمَغْفِرَةِ، إِذْ لَوْ كَانُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ لَكَانَ يَدْعُوهُمْ بِالْهُدَايَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي، لَكِنْ هَذَا الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ.

قلت: وهذا القول له وجهته، لكنه ليس بظاهر، فضررهم لنبيهم كفر بذاته، وعليه؛ فقد كانوا كفارًا، وأما دعوته لهم بالمغفرة، فإمّا أن ذلك لم يكن منهيًا عنه في شرعهم، أو أنه دعا لهم بالمغفرة المترتبة على هدايتهم للإسلام، وهذا وجهه، ويجري اللسان به من باب التضمن وال لزوم، وإنما الأعمال بالنيات. وتدبر دعاء الخليل عليهم السلام لأبيه: ﴿وَأَعْفِرْ لِي إِنِّي إِذْ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] فسؤاله المغفرة لأبيه متضمنٌ الدعاء له بالهداية بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وقد جاءت هذه الآية من سورة براءة تالية مباشرة لآية النهي عن الاستغفار للمشركين، فقد جاء النهي عن الاستغفار للمشركين، ثم جاء توضيح سبب استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، ثم بيان براءته منه لما عليمَ عداوته لله تعالى.

وعلى هذا الوجه من تضمين الاستغفار الاستهداء قد يُحمل دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبنته بنفس الحروف التي حكاها على لسان ذلك النبي الصالح، ففعل هذا الدعاء في حقيقته دعاء لهم بالهداية، ولكن فيه قلق من جهة صراحة الآية بتحريم الاستغفار للمشركين، فلو كان الأمر كذلك لربما دعا لهم بالهداية اجتنابًا للفظ الموهوم. ولا يستقيم لنا القول بأنه دعاء لهم بالمغفرة من ذنبهم بشج وجهه الشريف، لأن النهي عن الاستغفار لهم جاء مطلقًا، فلا مناسبة لتخصيص ذنب دون غيره، وقد يقال إنه قد دَعَا به قبل أن يُنَهَّ عن ذلك، وهذا محمل وجهه أيضًا، وقد يُحمل على أنه قصد بها الحكاية عن نبي سابق وليس فيه إنشاء الدعاء لقومه الكفار،

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي حُسْنِ تَأْمَلٍ وَجَمَالِ اسْتِفَادَةٍ وَإِفَادَةٍ: «وَتَأْمَلْ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي حَكَى عَنْهُ نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّهُ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ حَتَّى أَدْمَوْهُ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، كَيْفَ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَرْبَعَ مَقَامَاتٍ مِنَ الْإِحْسَانِ، قَابِلٌ بِهَا إِسَاءَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ إِلَيْهِ.

أَحَدُهَا: عَفْوُهُ عَنْهُمْ، وَالثَّانِي: اسْتَغْفَارُهُ لَهُمْ، وَالثَّلَاثُ: اعْتِذَارُهُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، الرَّابِعُ: اسْتِعْطَافُهُ لَهُمْ بِإِضَافَتِهِمْ إِلَيْهِ فَقَالَ: «اغْفِرْ لِقَوْمِي» كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ

وهذا وجيه لولا ثبوت دعائه لهم في أحد.

وبالجملة؛ فكلا الأمرين قد وقعا:

الأول: حكايته دعاء النبي السابق وهي عند الشيخين، وهي الأصل.

الثاني: إنشاؤه الدعاء لقومه، وهي عند الطبراني (٦/ ٢٠٠ - ٢٠١) وحسنه الألباني. ولعل من أسباب ذلك أنه لما ذَكَرَ فعل النبي السابق وقوله تَأَسَّى بِهِ فِي فَعْلِهِ وَقَوْلِهِ، ولهذا نظائر في السنة، والله أعلم.

وقد نحا ابن حبان إلى أنه دعا لهم بالمغفرة من ذنبهم ذاك دون المغفرة العامة المقتضية لإسلامهم فقال في صحيحه (٩٧٣) تعليقا على الحديث الآنف والمخرج أيضا في صحيحه: «يعني هذا الدعاء: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ذُنُوبَهُمْ بِي مِنَ الشَّيْءِ لَوْجَهِي، لَا أَنَّهُ دَعَا لِلْكَفَّارِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَلَوْ دَعَا لَهُمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِأَسْلَمُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ لَا مُحَالَةَ». وقد أقره الحافظ في الفتح (٦/ ٥٢١) على أول كلامه، وتعقبه على الشطر الثاني منه بقوله: «كذا قال! وكأنه بناه على أنه لا يجوز أن يتخلف بعض دعائه على بعض، أو عن بعض، وفيه نظر لثبوت: أعطاني اثنتين، ومنعني واحدة». أه. أخرجه مسلم (٢٨٩٠) من حديث سعد رضي الله عنه، وتماه: «سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها».

لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهَبْهُ لي» (١).
فصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة للعالمين.

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وقوله: «كيف يفلح قوم شجُّوا نبيهم؟» (٢)
هذا منه ﷺ استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾
[آل عمران: ١٢٨] تقريب لما استبعده، وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك، قال
ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل
تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ٤] فإنه ﷺ لم يدع
عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى
أضافهم لنفسه على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله
كالعذر، وإن لم يكن عذراً. وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يُشارك فيها ولا يُوصل
إليها» (٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «قسم رسول الله ﷺ غنائم
حنين بالجعرانة، قال: فازدحموا عليه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ
اللهِ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى قَوْمِهِ، فَكَذَّبُوهُ وَشَجُّوهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبِينِهِ وَيَقُولُ:

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٤٦٩).

(٢) مسلم (١٧٩١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي (٣ / ٦٥٠).

رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». قال عبد الله: فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح جبهته، يحكي الرجل (١). وفي رواية: «تكلم رجل من الأنصار كلمة، فيها مَوْجِدَةٌ على النبي ﷺ. وفي رواية: فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله! فلم تقرني نفسي أن أخبر بها النبي ﷺ، فلوددتُ أني افتديت منها بكل أهل ومال، فقال: «قد آذوا موسى عليه السلام أكثر من ذلك فصبر»، ثم أخبر أن نبياً كذبه قومه وشجّوه حين جاءهم بأمر الله، فقال، وهو يمسح الدم عن وجهه: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» (٢).

وكما حكى رسول الله ﷺ خبر النبي الصالح الذي دعا لقومه بالمغفرة مع أذاهم له وشجّه فكذلك فعل أرحم الخلق ﷺ، فقد جرى عليه ما جرى على الأنبياء من قبله، وقال كما قالوا عفوًا وصفحًا ورحمةً وإشفاقًا. قال الألباني رحمه

(١) أحمد (٤٠٥٧)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) أحمد (٤٣٣١)، وصححه أحمد شاكر. وكم لاقى رسول الله ﷺ العنت من جُفَاة الناس فصبر وصابر ورابط على الحق المبين، فقد روى مسلم (١٠٦٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال: أتى رجل بالجعرانة - مُنْصَرَفُهُ من حنين - وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل، فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟! لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل». فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

الله تعالى بعد كلامه في المسألة (١): «فييدولي - والله أعلم - أن هذا الدعاء منه ﷺ لقومه ثابت؛ لأن هناك عدة روايات في ذلك، منها حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: شهدت النبي ﷺ حين كُسِرَت رِبَاعِيَّتُهُ وَجُرِحَ وجهه وهُشِمَت البيضة على رأسه، وإني لأعرف من يغسل الدم عن وجهه، ومن ينقل عليه الماء، وماذا جعل على جرحه حتى رَقَا الدم؛ كانت فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ له تغسل الدم عن وجهه، وعلي رضي الله عنه ينقل الماء إليها في مِجَنَّةٍ، فلما غسلت الدم عن وجه أبيها أحرقت حصيرًا، حتى إذا صارت رمادًا أخذت من ذلك الرماد، فوضعت على وجهه حتى رَقَا الدم، ثم قال يومئذ: «اشتد غضب الله على قوم كلموا وجه رسول الله ﷺ». ثم مكث ساعة، ثم قال: «اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون» (٢).

ولعل النبي الذي تأسى به نبينا ﷺ في هذا الموطن وذكره هو نوح عليه السلام، فقد روى الإمام أحمد في «الزهد» عن عبيد بن عمير رحمه الله تعالى قال: «كان قوم نوح عليه السلام يضربونه حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم

(١) ذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥٣٣/٧).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/٢٠٠ - ٢٠١): حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي: ثنا داود بن عمرو الضبي: ثنا زهرة بن عمرو بن معبد التيمي.. قال الألباني: قلت: وهذا إسناد حسن أو صحيح؛ فإن رجاله ثقات معروفون؛ غير زهرة هذا، أورده البخاري (٤٤٣/١/٢) وابن أبي حاتم (٦١٥/٢/١) برواية ثلاثة آخرين عنه، ولم يذكر فيه البخاري جرحًا ولا تعديلًا، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٣٤٤/٦).

لا يعلمون» (١).

وعن ابن المبارك قال: بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام مرّ بقوم فشتموه، فقال خيراً، ومرّ بآخرين فشتموه وزادوا، فزادهم خيراً، فقال رجل من الحواريين: كلما زادوك شراً زدتهم خيراً، كأنك تغريهم بنفسك! فقال عيسى عليه السلام: «كل إنسان يُعطي ما عنده» (٢). وفي هذا المعنى العيسوي الكريم المثل السائد: «كل إناء بالذي فيه ينضح»، وأعظم من هذا كله قول ربنا الأعلى: (وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣١﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٢﴾) [فصلت: ٣٤-٣٥]، وبالله التوفيق.



(١) الزهد للإمام أحمد (ص: ٥٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٣٧٧٣٩) عن مجاهد عن عبيد بن عمير. وفي تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣٣٤٤) والطبري (٣٠٩/٢٣) عن معمر، عن الأعمش، عن مجاهد. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢١/٦): «إن صح ذلك فكان ذلك في ابتداء الأمر، ثم لما يؤس منهم قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].»

(٢) الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ص: ٢٦١).

سلامة صدور سلف الأمة

أَرَأَيْتُمْ وُجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومَ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِحٌ تَجْلُو الدُّجَى وَالْأَخْرِيَّاتُ رُجُومٌ

قال ربنا الأعز الأكرم ممتنًا على صحابة نبيه ﷺ بِسَلِّ سَخَائِمِ صدورهم،
وجمع ألفتهم على المحبة والأخوة والإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك ﴿لَوْ
أَنفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] أي: لما كان
بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في
الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع
الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْ لِمَا بِنِعْمَةِ إِخْوَانَا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين
قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم
الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]
أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.
قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في قوله سبحانه:
﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]: «سياق الآية مؤذن
بأنها جرت على حادثة حدثت وأن لنزولها سبباً، وسبب نزولها أن الأوس
والخزرج كانوا في الجاهلية قد تخاذلوا وتحاربوا حتى تفانوا، وكانت بينهم
حروب كان آخرها يوم بُعَاث التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما
اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم، وأصبحوا عدة للإسلام،
فساء ذلك يهود يثرب، فقام شاس بن قيس اليهودي وهو شيخ قديم منهم
بإرسال شاب يهودي جلس إلى الأوس والخزرج يذكرهم حروب بُعَاث،
فكادوا أن يقتتلوا، ونادى كل فريق يا للأوس! يا للخزرج! وأخذوا السلاح،
فجاء النبي ﷺ فدخل بينهم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!»، ثم
قرأ عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ
يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١] فما فرغ منها

النبي ﷺ حتى ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً» (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أي من يتمسك بالدين فلا تخش عليه الضلال، وفي هذا إشارة إلى التمسك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة النبي ﷺ، لأن ذلك هو السبيل في عصمة المسلمين من كيد أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب الذين يحاولون جاهدين في الإيقاع بين المسلمين كما كانوا يفعلون زمن النبي ﷺ» (٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ الرِّحْمَ لَتُقَطَّعَ، وَإِنَّ النِّعْمَةَ لَتُكْفَرَ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا قَارَبَ بَيْنَ الْقُلُوبِ لَمْ يَزَحْزَحْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾ (٣) وذلك موجود في الشعر:

إِذَا مَتَّ ذُو الْقُرْبَىٰ إِلَيْكَ بِرَحْمِهِ فَعَشَّكَ وَاسْتَعْنَىٰ فُلَيْسَ بِذِي رَحْمٍ
وَلَكِنَّ ذَا الْقُرْبَىٰ الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ أَجَابَ وَمَنْ يَرْمِي الْعَدُوَّ الَّذِي تَرْمِي

ومن ذلك قول القائل:

وَلَقَدْ صَحَبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ
فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِعًا وَإِذَا الْمُدَّةُ أَقْرَبُ الْأَسْبَابِ

(١) البخاري (٤٩٠٥) ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٤٢٨) بتصرف.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٢.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول له تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله (١).

وقال عَبْدَةُ بن أَبِي لُبَابَةَ، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله (٢)، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تنقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني (٣). وفي رواية الوليد: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما.

وعن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يُرفع من الناس الألفة (٤).

وإنك لترى هذا في نفسك وفي الناس، فلربما اكفهر قلبك حين رؤيتك من طالك أذاه، ولولا سابق الإيمان؛ لكان لك وله شأن، فتبارك الله رب العالمين.
«والتأليف بين قلوب المؤمنين منة أخرى على الرسول ﷺ، إذ جعل أتباعه

(١) النسائي في السنن الكبرى (١١٢١٠) والمستدرک (٣٢٩/٢) وصححه.

(٢) تراءى الرجلان: أي رأى أحدهما الآخر، من الرؤية، والمراد عند اللقاء.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤٦/١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ٨٥) باختصار وتصرف يسير.

متحابين، وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة، لأن ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم.

وهو أيضاً منّة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحز، التي كانت دأب الناس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة. وأقوالهم في ذلك كثيرة، ومنها قول الفضل بن العباس اللّهي:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِلَّا نُحِبُّونَا

فلما آمنوا بمحمد ﷺ انقلبت البغضاء بينهم مودة، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وما كان ذلك التآلف والتحاب إلا بتقدير الله تعالى فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بدعوات ذوي الألباب.

ولذلك استأنف بعد قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ استئنافاً ناشئاً عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بياني، أي: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم. فكان التآلف بينهم من آيات هذا الدين، لما نظم الله من ألفتهم، وأماط عنهم من التباغض.

ومن أعظم مشاهد ذلك ما حدث بين الأوس والخزرج من الإحز قبل

الإسلام ممّا نشأت عنه حرب بُعث بينهم، ثم أصبحوا بعد حين إخواناً أنصاراً لله تعالى، وأزال الله من قلوبهم البغضاء بينهم» (١).

من جميل ما روي: أن ابن السماك الواعظ المعروف وقع بينه وبين أحد إخوانه شيء، فقال له أخوه: «الميعاد بيني وبينك غداً نتعاتب». فقال له ابن السماك: «بل بيني وبينك غداً نتغافر» (٢).

لقد «كان أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين» (٣).

إنّ سلامة الصدر خلق شريف، يتحلّى به أهل النفوس السامية، ويتزوّج به أهل الرغائب العظيمة في فلاح الدنيا وسعادة الآخرة، وكان السلف يحفظون لسالم الصدر هذه الخصلة ويحمدونه عليها.

قال إياس بن معاوية: كان أفضلهم عندهم أسلمهم صدوراً، وأقلهم غيبة (٤).

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشير: أخبرني عن أعمال من كان

(١) التحرير والتنوير (١٠ / ٦٣) مختصراً.

(٢) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن (١٢٢/٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٤٢).

(٤) مكارم الأخلاق للطبراني (٣٣٦).

قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيرًا ويؤجرون كثيرًا. قال قلت: ولم ذلك؟ قال: لسلامة صدورهم (١).

لقد كانوا يُولون سلامة الصدر عظيم العناية لعلمهم نعيم عاقبتها وحسن مآل صاحبها، راحة في الدنيا وسعادة في الآخرة، وكانوا يتمثلون حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة» قال: فاطلع رجل من أهل الأنصار تنطفُحيته من وضوئه، قد علّق نعليه في يده الشمال، فسلم، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول.

فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لآحيْتُ أبي (٢) فأقسمتُ ألا ادخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت. قال: نعم.

قال أنس: كان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارَّ (٣) انقلب على فراشه وذكر الله وكبر حتى يقوم

(١) هنادي الزهد (٢/ ٦٠٠).

(٢) أي: رادته في الكلام. وقد مرّ مفصلاً.

(٣) أي: انتبه من نومه، وتقلب على فراشه.

لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعته يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله؛ قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي هجرة ولا غضب، ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فاطلعت ثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأفتدي بك، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟

قال: ما هو إلا ما رأيته. قال: فانصرفت عنه، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيته غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على ما أعطاه الله إياه إليه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك هي التي لا نطبق (١)(٢).

(١) وهذا من تواضعه وهضم نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتأمل دقة ملاحظته لحفظ لسان الرجل حينما قال: «غير أني لم أسمعته يقول إلا خيراً» وفي هذا شاهد لأهمية حفظ اللسان لسلامة الصدر، إذ الوقوع في أذى الناس وأعراضهم لا يصدر من سالم الصدر، فلو سلم صدره لعف لسانه.

(٢) أحمد (٢٠ / ١٢٤) (١٢٦٩٧)، والنسائي (١٠٦٣٣)، وعبد الرزاق (٢٠٥٥٩)، والبزار (٦٣٠٨)، والبيهقي في الشعب (٦١٨١)، ٣ / ١٦٦ وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣٤٨) (٤٣٨٤): «رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي، ورواته احتج بهم أيضاً إلا شيخه سويد بن نصر، وهو ثقة»، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٠٨٥): «رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين»، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٨ - ٧٩) (١٣٠٤٨)، وقال: «ورجال

=

وعن محمد بن كعب رحمه الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فدخل عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقام إليه ناس فأخبروه وقالوا له: أخبرنا بأوثق عملك في نفسك؟ قال: إن عملي لضعيف، وأوثق ما أرجو به سلامة الصدر، وترك ما لا يعنيني (١).

وتأمل مطابقة كلام عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند بشارته لكلام أبي دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مرضه، وحصرهما رَجِيَّ العمل في سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني. ولا عَجَب؛ فالمَعْلَمُ واحد ﷺ، فعن زيد بن أسلم أنه دخل على أبي دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين، أما إحداهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً (٢).

وعن ابن بريدة الأسلمي قال: شتم رجل ابن عباس فقال ابن عباس: إنك لتشتمني وفيّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين

أحمد رجال الصحيح»، ووافقه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٦ / ٧٨) (٥٣٨٣)، وصححه ماهر الفحل. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٧٢٨).

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).

(٢) الصمت، ابن أبي الدنيا (١١٣)، والطبقات الكبرى (٣ / ٥٦٦)، ومعنى يتهلل: أي يستنير فرحاً.

يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب
البلد من بلاد المسلمين فأفرح، ومالي به من سائمة^(١).

وعن أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخلت على علي رضي الله عنه مع عمران بن
طلحة بعد ما فرغ من أصحاب الجمل قال: فرحب به وأدناه وقال: إني لأرجو
أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ
غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فقال: يا ابن أخي: كيف فلانة؟ كيف
فلانة؟ قال: وسأله عن أمهات أولاد أبيه قال: ثم قال: لم نقبض أرضيكم هذه
السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس^(٢). يا فلان: انطلق معه إلى ابن قرظة، مره
فليعطه غلته هذه السنين، ويدفع إليه أرضه.

قال: فقال رجلان جالسان ناحية، أحدهما الحارث الأعور: الله أعدل من
ذلك، أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة. قال: قوماً أبعد أرض الله وأسحقها،
فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة؟! يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا^(٣).



(١) المعجم الكبير (١٠ / ٢٦٦) (١٠٦٢١).

(٢) أي: حفظها عنده لهم، وحرسها عن الناس حتى لا يتناهبوها بعد مقتل طلحة رضي
الله عنها.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (٨ / ١٧٣) (١٧١٦٠).

معيار سلامة القلب والصدر

بين سلامة القلب وسلامة الصدر عموم وخصوص، فإن اجتماعاً فسلامة القلب تكون بالإيمانيات بأن يكون سليماً من الشرك والكفر والنفاق ونحو ذلك، وسلامة الصدر ببراءته من الحقد والغل والحسد والغش وأشباهها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «القلوب ثلاثة: صحيح وسقيم وميت، ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة.

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] والسليم هو السالم، فالسليم هو القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق.

وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده، فالقلب السليم: هو

الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلًا وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتنام والاقتراء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقَّةً وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعْلَةٍ وإن صغرت إلا يُنشر لها ديوانان: لم، وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال عن علّة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس، أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودّد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى

وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟ (١).

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعب، أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع. فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة» (٢).

«والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تراحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله.

(١) أي: هل فعلته لله وحده، أم لنفسك؟

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٧).

فهذا القلب السليم في جنة معجّلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُبٌ عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع منها، فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت.

فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم، وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلاً وتهاوناً، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يُصرف قلبه عنه.

وهذا كله واقع سارٍ في الخلق، فمستقل ومستكثر. وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك كله، بل متى وُكِّل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك، وهذا هو

الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم وما جبلت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمر ونهيه، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته، وجعل الهداية حيث تصلح.

ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب الصراط المستقيم الذي هو عليه، فهو على صراط مستقيم، ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم القيامة نصب لخالقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا، وأقام من أقام في الدنيا.

وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً لهم، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيثار حتى لقوه.

وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه كما أطفأ من قلوبهم في الدنيا، وأقام أعمال العصاة بجنتي الصراط كلاليب وحسناً تخطفهم كما تخطفهم في الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعله على قدر سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا.

ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعته في الدنيا، وحرّم من الشرب منه هناك من حرّم الشرب من شرعته ودينه ههنا.

وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حيثئذ علماً يقيناً لا شك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما، وبالله التوفيق» (١).

والعلم بالله تعالى سابلة الراحة، ووسيلة السرور، ومعراج الانشراح، وأما الجهل بالله فهو أساس كل بلاء وغم وشقوة.

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله وأجسامهم قبل القبور قبورٌ وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشورٌ

«ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يليق به إلى الأنبياء روحاً كما قال تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] في موضعين من كتابه وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا﴾ [الشورى: ٥٢] لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قبل وحيه وعمل به فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُكَ رَبُّكَ ثُمَّ تُوْبُّ إِلَيْهِ يُمَْتِّعُكَ مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا مَا ذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ

(١) الجواب الكافي (١ / ٨٤-٨٦) مختصراً.

قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ [النحل: ٣٠] ومثله قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

فبيّن سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يشقى المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]

وقد جمع بين النوعين: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والخرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فأهل الإيمان في النور وانسراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر.

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه»^(١).

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٣).

وسلامة القلب طريق جميل موصل لسلامة الصدر، ومن أراد تعجل شيء
من نعيم الجنة فليتنعم بسلامة صدره، فرغد الأرواح في سلامتها من قيود
الذنوب وأغلال الأحقاد، وتدبر جمال حياة أهل الجنة في قول ربنا تعالى:
﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا
نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ [الحجر: ٤٧-٤٨]. نسأل الله الكريم من
فضله، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا إله إلا الله.



سلامة الصدر وطهارة القلب ليست بلاهة ولا غفلة

سالم الصدر للمؤمنين ليس بخبٍّ، ولا أبلَه، ولا غافلٍ، ولا أنوكٍ، فالكمال لسالم الصدر أن يكون عارفاً بالشرِّ متجنباً له قصداً، بعيداً الغور في معرفة النفوس، قويّ الفراسة في حقائق الأمور، واسع المعرفة بمآلات الكلام والأفعال، بصيراً عليماً قوياً حكيماً، بيدَ أنه يحسن الظن بعباد الله تعالى، ويحمل ما صدر منهم على أجمل المحامل، وأحسن التأويلات، وألطف المخارج، وأجمل المعاذير، وأنظف الظنون، ويفرح بإصابتهم الحق والهدى والخير والسعادة وتوفيق الله تعالى لهم، ويشفق عليهم إن لم يرَ لِيُؤَادِهِمْ صَادِرَ خَيْرٍ!

فهو يعرف ما يعنيه من الخير والشر على الإجمال والتفصيل، لكن سلامة قلبه، وطهارة روحه، وزكاء نفسه، وقوة الخير في إرادته، بتوفيق الله تعالى له؛ يُسَرِّبُنَهُ الطيبَ والخيرَ والصوابَ، وَيَكْسِينُهُ جَمِيلَ الأَعْمَالِ والأَقْوَالِ والأَخْلَاقِ، فهو طيّبٌ يحب أطايب الخلال ومحاسن الشيم، حاله مع عباد الرحمن: وفيّ صادق، ودودٌ ناصحٌ، حسنٌ جميلٌ. كحال نبيه المصطفى ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ليس الوفاء أحاديثاً مُنَمَّقةً إنَّ الوفاءَ مواعيقٌ وأفعالٌ

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الفرق بين سلامة القلب والبله والغفلة؛ أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلّم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به.

وهذا بخلاف البكّة والغفلة، فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يُحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه.

والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لست بِخَبٍّ^(١) ولا يَخْدعني الخَبُّ»^(٢). وكان عمر أعقل من أن يُخدع، وأورع من أن يَخْدع.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا^(٣).

قلت: الخَبُّ - بفتح الخاء وكسرهما -: المخادِع، وقيل: الخَبُّ: هو الجامع للخبث والغش والخداع. وهذا أقرب؛ لأن الخَبَّ صفة ذم، والخداع لا يكون ذمّاً بإطلاق، فالحرب خدعة. والمؤمن قد يَخْدع في الحرب لكنه لا يَخُون. ومعنى كلام الفاروق رضي الله عنه: أنا لست خداعاً، ولا أنخدع للخداع، ولكن

(١) الخَبُّ: الأصل بفتح الخاء، ويصح بكسرها. وهو الخداع والغش.

(٢) ذكره عن عمر ابنُ عبد ربه في «العقد»: (١ / ٤٤)، وكذلك عزاه ابي تيمية في «الفتاوى»: (١٠ / ٣٠٢)، وجاء عن إياس بن معاوية. أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»: (١٠ / ١٩)، والمزي في «تهذيب الكمال»: (١ / ٣٠٤).

(٣) الروح (١ / ٢٤٣).

عندي حزم وكياسة. فكلام عمر رضي الله عنه لا ينافي سلامة القلب والأخذ بالظاهر، ولكنه يعني الحيلة والحزم والحذر، فمن الناس من يستدرج الناس ويستغفلهم ويخدعهم ويمكر بهم، والمؤمن كيّس فطن نبيه. قال تعالى موجّهاً عباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَا الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. قال العثيمين رحمه الله تعالى: «الخداع في موضع الائتمان هذا هو الذي عليه الوعيد، بأن يأتئك الإنسان فتخدعه، يأتئك على سرّ أفضاه إليك ثم تصبح وتنشره بين الناس، يعاملك فتخدعه في المعاملة.. أما الخداع في موضعه فهو محمود، ويمدح الإنسان عليه»^(١).

لأجل ذلك قالوا: «الخصوصية قوّة، فالناس لا يستطيعون تدمير ما لا يعرفون»، و«أنت سيّد ما تخفيه، وأسير ما تفشيه». وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر؛ لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي.

ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك. ولهذا يقال: والضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُّ. ويقال: وبضدّها تتبيّن الأشياء.

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، للعثيمين ٤٠٥/٦

فالقلب السليم المحمود: هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقاً؛ فإن هذا ليس بمطرد، بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان، فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس»^(١).

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن أقع فيه»^(٢). وسأله رجل عن أشدّ الفتن فقال: «أن يُعرض عليك الخير والشر؛ فلا تدري أيّهما تتبع»^(٣). وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تُنقَضُ عُرَى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليّة»^(٤). ومعناه: إنه إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الأمور المذمومة الجاهلية الخاصة بها، فإنه يجهل تفصيل ما

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥ / ٢٦٥).

(٢) البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٥٠٣ / ٧) وحلية الأولياء (٧ / ٢٧١).

(٤) ذكره ابن تيمية في مواضع منها مجموع الفتاوى ٣٠١ / ١٠، ومنهاج السنة، ٣٩٨ / ٢، ٥٩٠ / ٤، ودرء تعارض العقل والنقل ٢٥٩ / ٥ وغيرها.

أزاله الإسلام من الشرك والكفر والشر، فلا يدرك ما بنته الشريعة وقرّرتَه بعد هدم الضلال واقتلاعه، فربما يقع من هذا حاله في بعض أعمال الجاهلية من غير معرفة منه أنها منها، فينقض بذلك بعض عُرَى الإسلام على غير هدى وعلم.

ومن أمثل ما كُتب في هذا الباب: مسائل الجاهلية، للإمام المجدد رحمه الله تعالى، وعلى أهميته وتركيزه وإيجازه وقوة استدلاله وحسن استنباطه ومطابقته لواقع كثير من الناس؛ إلا أنه لم يأخذ حقّه من العناية لدى طلبة علم هذا الزمان، فهو حقيق بالمطالعة والتفهم والمدارسة، والله المستعان.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى معلّقاً على كلام عمر رضي الله عنه: «وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمّه؛ وقع فيه وأقرّه، ودعا إليه وصوّبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه، أو دونه، فتُنقض بذلك عُرَى الإسلام عن قلبه»^(١).

وبالجملة؛ فالمؤمن كيّس فطن، يحزم رأيه مع نفسه ومع الناس، فيحسن الظن بهم ويحذر مكرهم، فيظنّ فيهم الأحسن، ويستعدّ منهم للأسوأ، فيكسب راحة نفسه مع السلامة منهم. ويتضح ذلك عند تبيان رباعية قسمة الناس عند العفو والمسامحة والنسيان، حسن ظنّ بحزم، أو غفلة ونسياناً، أو سوء ظنّ وغلّ، فإنّ الناس عند العفو والمسامحة والنسيان على أربعة أقسام:

فمنهم من يُسامح وينسى، ومنهم من يسامح ولا ينسى، ومنهم من لا

(١) مدارج السالكين " (١/٣٤٣-٣٤٤) .

يسامح ولا ينسى بالعدل، ومنهم من لا يسامح ولا ينسى بالجور والطغيان.
فالقسمة رابعة، وبيانها كالتالي:

الأول: من يُسامح وينسى، وهذا وإن كان طيباً شريفاً في نفسه، إلا أنه عرضة لمكر الناس وإضرارهم به وتكرار الإساءة إليه، فالمؤمن كيّس فطن، وإن كان - بحمد الله - سالماً مُعافى من أضرارها في الآخرة، بل قد تكون جملة مصائبه بهم من جملة مكفراته بين يدي ربه الأعلى. وهذا خير له من هذه الجهة.

الثاني: من يُسامح ولا ينسى، وهذا طيّب فطن نبيه فاضل، وقد أخرج الشيخان بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ، مِنْ جُحْرِ وَاحِدٍ، مَرَّتَيْنِ»^(١).

(١) البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨). قال القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٤٧/٨): «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»: «هذا يروى على وجهين: أحدهما: بضم الغين على الخبر، ومعناه: المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى، وهو لا يفتن بذلك. وقيل: إنه إنما أراد الخداع في أمر الآخرة دون الدنيا. والوجه الآخر: كون الرواية بكسر الغين لالتقاء الساكنين على جهة النهي، على أن يؤتى من ناحية الغفلة، وهذا يصح إذ يتوجه أيضاً؛ لأنه من كلامه المخترع البديع الجامع الذي لم يسبق إليه، وسببه معروف حين أسر أبا عزة بن عمير الشاعر أخا مصعب بن عمير يوم أحد، فسأله أن يمنّ عليه وقد كان أسره يوم بدر، فسأله ذلك، فمنّ عليه وعاهده ألا يحرض عليه ولا يهجوّه. فلما لحق بقومه رجع إلى ما كان عليه، فلما أسر هذه الثانية وسأله المنّ، قال ﷺ هذا الكلام. ومعرفة هذا السبب مخرجة عن معنى من ذهب فيه إلى النهي، وإنما هو على الخبر منه ﷺ.

وربما هو الأفضل، لأنه يسلم من تشويشٍ وتفرقٍ لجمعيته، وحفظاً لعرضه، ونصحاً للناس حتى لا يستغفلهم الشيطان من جهته فتكون غفلته سبباً في ذنوبهم ومظالمهم له، خاصة إن كان سبب نسيانه ليس عائداً لنقص إدراكه ونباهته، بل لزهده في الدنيا وإعراضه عنها، ورغبته في الله والدار الآخرة، فهو يسمو عن دغائل الدنيا وعفن الطين لسعة الآخرة وعلو السماء، كما أنه حسنُ الظنِّ بالناس، ييسط لزلاتهم فراشَ حُسنِ ظنِّه بهم، فتسبقُ خواطرُ الخيرِ لديه ضدها في قلبه الطاهر البرِّ السليم.

ولكن إن صاحبَ تذكُّره شرَّ حقدٍ وروائح غلٍّ؛ فغفوه وسماحه مدخولٌ، ولكنَّ الرجل حقاً هو من يتناسى ولا ينسى، ويتغافل ولا يغفل، لارتفاعه عن تحاربِ الصغار على تفاهة الدنيا ولعاعة الفانية، بيد أنه منهم على حذرٍ.

ونعني بعدم نسيان الأذى: حفظه في الذاكرة لا الشعور قدر الإمكان، وفائدته: الاحتراز من غوائل غدرات البشر بحفظ الموقف في الذاكرة عن ضياعها في غياهب غفلات النسيان، مع ترك حمولة الأحقاد وسائر أغلال القلوب تنظمر تحت شمس الإيمان وحسن الظنون بالمسلمين، ورؤية الخير فيهم، وكلُّ امرئ فيه مقدارٌ خير لا يراه إلا أنقياء القلوب جداً.

وكونُ الأذى لا يُنسى لا يستلزم أنه يصاحبه حقد، فربما سامح المرء كلَّ السامح، وهو لم ينسَ الأذى، فاحتمال الأذى مع الإحساس به يصح مع كمال

وفيه تنبيه عظيم للغافل وتأديب العاقل، وأن المراد إذا جَرَّبَ الأذى من موضع أو وجه ما؛ تنبّه حتى لا يعود إليه ثانية منه».

العفو والمسامحة، بل قد تكون لدى بعض الناس أيسر لدُرْبَتِهِمْ على مثل ذلك ورياضتهم بمثل ما هُنَالِكَ. ولكن هذا محتاج لعقل ثابت ركيز، واسع المدارك، غزير التجارب، عظيم الهمة، لا طائش، ولا مهزوز، ولا عجول، ولا جهول.

ولكن قد يبقى في سويداء القلب شيء من غلٍّ كالجمر تحت الرماد، ينتظر عصفَ ريحٍ تُحيي جذوته، وتُشعل ضرامه، فمعدنُ الحقد جوفُ الفؤاد، فيغلُّ على مساقى القلب وأطراف الجنان، فيعقد على البُطَيْن، ويخنق الوتين، ويكبس على الأخدع، ويلتوي بالأبهر، حتى يسودَّ الفؤاد بحرارة الغيظ، وسعير الضمير، وقترَ تذكُّرِ الأذى، فإن ساعدَ على ذلك سموُّ حسدٍ فهي قاصمة ظهر الفؤاد وفاقرته، وخانقةُ حبل الوتين وباترته.

لذا؛ فإن كان المرء قوياً بالإيمان، واسع الصدر، متين القلب، عظيم الهمة؛ فهو في منأى - بإذن الله تعالى - عن التأثر بتذكُّرِ الأذى، فلن يضره ما بقي في عوالت ذاكِرتِه من مواقف مؤذية للناس، أما الضعيف فيبقى ضعيفاً! فإن كان ساقط الهمة، ضعيف الإرادة، هزيل العزم، مُهلَهَلَ التصوُّر، رديء النظر، ضعيف الإيمان، مريض القلب؛ فهو حريٌّ بتسلُّطِ شياطين الحقد ومردَّةِ الحسد وعفاريت الغلِّ على قلبه حتى يهوي بينها صريعاً مُتَشَحِّطاً في دم خيبته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والمقصود؛ أنَّ عدم النسيان لا يعدو أن يكون صورةً في الذاكرة تُستدعى عند الحاجة، وكلُّ يتعامل معها بحسبِ طيب قلبه أو خبثه، فهي ليست ملازمة حاکمة، وليست مُفاصِلةً مُمايِزةً لسلامة الصدر، فيصح أن يتذكَّرَ الأذى ويُسامح

ويعفو ويصفح ويحب وينصح، كما يصح أن يتذكره بحقد كالح، وبغض كاشح، وكراهية ومقت. فالأمر راجع لمساقى القلب من سلامة دين وطهر سجايا، أو نجس أخلاق وقدر نوايا، والموفق من وفقه الله تعالى.

هذا؛ وقد يكون لدى بعض الناس تلازم غير منفك، فلا يستطيع فصل تذكر الموقف عن اختلاج الصدر بكراهية صاحبه، فمثل هذا خير له أن ينسى لا أن يتذكر.

واعلم - يا صاحبي - أن مجاهدة النفس في سلامة القلب هي من الجهاد العظيم، فعن مجاهد رحمه الله تعالى قال: كُتِبَ إلى عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين؛ رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿اللَّهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]»^(١). وبالله العصمة والتوفيق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «عدم صفات الكمال الممدوحة في القرآن لا يكون مدحاً ولا ذمّاً مأموراً به، بل غاية صاحبه أن يكون معذوراً. ولهذا قال عمر بن الخطاب: «لست بخبٍّ، ولا يخدعني الخبُّ»^(٢). فسلامة

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥٥٢/٧

(٢) ذكره عن عمر ابن عبد ربه في «العقد»: (١ / ٤٤)، وكذلك عزاه المصنف في «الفتاوى»: (١٠ / ٣٠٢)، وجاء عن إياس بن معاوية. أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»: (١٠ / ١٩)، والمزي في «تهذيب الكمال»: (١ / ٣٠٤).

القلب المحمودة هي سلامته عن إرادة الشر وقصده، لا عن علمه ومعرفته، بل من عرف الشر وأبغضه وذمه ونهى عنه؛ فهو أكمل ممن لم يعرفه، ولا أبغضه، ولا نهى عنه، ولا ذمه^(١). وقال أيضاً: «قالوا: «كان عمر أروع من أن يُخدع، وأعقل من أن يُخدع»^(٢).

وسلامة القلب المحمودة: هي سلامته من الأمراض، كالشبهات والأخلاق الرديئة؛ من النفاق والغُل والحسد والبخل والجبن وشهوة الزنا والكبر ونحو ذلك. فأما الجهل بالحقائق فليس في نفسه محموداً؛ إذ العلم صفة كمال، وما يتتفع به إما واجب وإما مستحب. والسياسة بالرأي والخبرة أعظم من السياسة بالشجاعة والقوة وأنفع. وبذلك يرفع الله الدرجات، كما قال في خبر يوسف عليه السلام^(٣).

أما حديث رسول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم»^(٤). فالغر في الحديث الشريف هو الذي ليس بذي نكر ومكر، والغرارة: قلة الفطنة للشر، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً وغباءً، وتأمل ذكره لسجية

(١) جامع المسائل ١٨٠/٧

(٢) القائل هو المغيرة بن شعبة، ذكره عنه أحمد في «فضائل الصحابة»: (١/ ٤٣٨)، وابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص ٢٤٠).

(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. ١٩٤/١

(٤) أبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٣).

الكرم والكرامة، فخلقه الكريم هو ما حجزه عن تتبّع العورات، وتصيّد العثرات، والفرح بالزلات، التي هي ديدن أهل السّفالة، وقد يتغابى ليسلم من جهة، ويدرك مقاصده دهاء من جهة أخرى، كما قيل:

ليس الغبيّ بسَيِّدٍ في قومه لكن سيّد قومه المتّعابى

أما الفاجر: فمن عادته الخُبث والمكر والبحث والتنقيب والتوغّل في معرفة تفاصيل الشر في البشر، وليس ذا منه عقلاً ولا رشداً ولا توفيقاً^(١). قال شيخنا عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى: «معنى قوله ﷺ: «المؤمن غرٌّ»: أي أنه لا يشغل نفسه بتتبّع الأمور التي يكون فيها مضرّة، أو الأمور التي ليست حسنة فيشغل نفسه بها.

وقوله: «كريم»؛ لأنّ كرمه هو الذي يدفعه إلى أنه لا يشغل نفسه بمثل هذه الأمور، بعكس الفاجر، فإنّه خَبٌّ أو خَبٌّ، بمعنى أنه يُقدّم على أشياء فيها فساد وفيها مضرّة؛ لأن نفسه تشتهي ذلك وتميل إليه، فيكون لؤمّه هو الذي دفعه إلى أن يقدم على شغل نفسه بأمور محذورة فيها فساد ومضرّة، وقد يكون معنى قوله: «خَبٌّ» أنه يجتهد في الشيء الذي فيه مضرّة مثلما يقال: خَبٌّ، بمعنى: أقدم وأسرع، أو من التخبيب الذي هو الإفساد، مثل: تخبيب المرأة على زوجها، فيكون المؤمن عنده غفلة عن الأمور التي لا حاجة إليها، وينشغل بما هو أهم

(١) وانظر: النهاية في غريب الحديث (٦٦٦)، وفيض القدير (٦/ ٣٣٠)، وإسعاف الأخيار بما اشتهر ولم يصح من الأحاديث والآثار والقصص والأشعار، لمحمد باموسى (١٠٤/٢).

منها، والفاجر بعكس ذلك» (١).

وبالجملة؛ فالغفلة مذممة ومنقصة، والتغافل محمودة ومكرمة، قال ابن الأزرق رحمه الله تعالى في بدائعه: «الدهاء والتغافل. وفيه نظران:

النظر الأول في الدهاء: وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المرادي: هو اسم لوضع الأمور في مواضعها والكف عمًا لا تقع فيه، انتظارًا لما فيه النفع.

قال: وقد يُوقع على من كثرت حيلته، وقويت فطنته، وكان وُصوله إلى أغراضه بالطف الوجه التي يُمكن التوصل بها إليها، فتراه أبدا كأنه أبله، وهو مُتباله، يُحصى دقائق الأمور، ويُدبر لطيفات الحيل، فلا ينطق حتى يجد جوابًا مُسكتًا، أو خطابًا معجزًا. ولا يفعل حتى يرى فرصة حاضرة، ومضرة غائبة، فعدوه مغترَّبعدواته، ومقدَّر عليه الغفلة والبله بغوايته، وهو مثل النار الكامنة في الرماد، والصوارم المكنونة في الأغمار!

المسألة الثانية: لا شك في فضيلة الدهاء بهذا التفسير لدلالته على فضل العقل وذكاء فطنته، وقد قال عمر رضي الله عنه: «لن يُقيم أمر الناس إلا امرؤ حصيف العقدة، بعيد الغور، لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم». وإن فُسر بالجريرة وهي الخديعة التي هي طرف الإفراط فيه كما تقدم فلا خفاء بدمه؛ لما يُخاف من غوائله وسوء عواقبه.

(١) شرح سنن أبي داود، للعباد ١٦/٥٤٥

ومن الكلمات الحكمية: «العاقِل يغفل غفلة الآمن، ويتحفظ تحفظ الحائِف»، و«الدهاء: تجرُّع الغصّة، وتوقُّع الفرصة». وقالوا: «الشرف التغافل»، و«عظّموا أقداركم بالتغافل»، وما استقصى كريم قطّ حقّه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣].

تغافل في الأمور ولا تكثر تقصّيها فالاستقصاء فُرقة
وسامح في حقوقك بعض شيء فما استوفى كريم قطّ حقّه

إنّ من السخاء والكرم ترك التجني، وترك البحث عن باطن الغيوب، والإمساك عن ذكر العيوب، كما أنّ من تمام الفضائل الصفح عن التوبيخ، وإكرام الكريم، والبشر في اللقاء، ورد التّجّة، والتغافل عن خطأ الجاهل. وقد قالوا: «مَنْ شَدَّدَ نَفْرًا، وَمَنْ تَرَاحَى تَأَلَّفَ»^(١). وأنشدوا في التغافل:

وَمَنْ لَا يُغْمِضُ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ يُمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ
وَمَنْ يَتَّبِعْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبُ

شاهد المقال؛ إنّ سلامة الصدر لا يناقض التحرّز من شرّ البشر، وقد قالت العرباء: «من أطال الركون قلّ ركونه». وقالت: «اتقوا الناس بسوء الظن». أي: عند ورود سببه، أو حضور أهله، وإلا فالأصل في الناس أخذهم بحسن الظن مع الحزم، إلا ما كان من الأمراء، فلو مدّوا سوء الظن قليلاً حراسة لبيضة الأمة من الماكرين والطامعين والانتهازيين، لأنّ الأمير والوالي والسلطان على ثغر

(١) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (١/٥٠٢-٥١٦) بتصرف واختصار.

السلطة والمال والقرار، وهي مظنة أطماع الأشرار، ومن هنا كانت الحيلة والحزم والحراسة بسوء الظن في إبانة، كما هو حال الفاروق رضي الله عنه، قال عبد الملك بن مروان: «فرق ما بين عمر وعثمان؛ إنَّ عمر أساء ظنه فأحكم أمره، وعثمان أحسن ظنه فأهمل أمره»^(١). وقيل لبعضهم: أسأت الظن، فقال: «إنَّ الدنيا لما امتلأت مكاره؛ وجب على العاقل أن يملأها حذرًا».

ومن أجود ما قالته العرب في تزيين الصبر؛ وأنَّ مخاوف الإنسان وخطرات قبله قلما تحدث، قول ضابيء بن الحارث البرجمي:

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةً وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبٌ
وَفِي الشَّكِّ تَفْرِيطٌ وَفِي الْحَزْمِ قُوَّةٌ وَيُخْطِئُ فِي الْحَدْسِ الْفَتَى وَيُصِيبُ

فالأصل في المؤمنين إحسان الظن بهم، ومن حسن عمله حسن ظنه، والعكس صحيح في الأغلب، كما قال المتنبي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ

والتغافل شيمة النبلاء الأحرار، وليس بقادح في سلامة الصدر بحال، وقد سئل حكيم: ما اللبيب؟ فقال: «الفطن المتغافل».

لَوْلَا التَّغَافُلُ عَنْ أَشْيَاءَ نَعْرِفُهَا مَا طَابَ عَيْشٌ وَلَا دَامَتْ مَوَدَّاتُ

و«اعلم أنَّ سلامة الصدر وتنقية القلب مطلب عزيز، والحرص عليه واجب، وبذل الأسباب إليه وسلوك طريقه مُتَعَيِّن، ولكن لا تنس أن الناس

(١) نقله البرقوقي في الذخائر والعبريات، (١٦٨/٢).

بَشَرٌ، وأن النفس ضعيفة، فلا بدّ من الخطأ، ولا بدّ للنفس أن تتأثر، فتنبّه لهذا، وعامل الآخرين بحسبه. ولهذا يقول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: «إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله».

صَبَرْتُ عَلَى اللَّذَاتِ لَمَّا تَوَلَّيْتُ مِنْهُ الْإِصَابَةَ وَالْغَلْطَ
وَتَجَافَى عَنْ تَعْنِيْفِهِ إِنَّ زَاغَ يَوْمًا أَوْ قَسَطَ
وَأَطْعَهُ إِنَّ عَاصَى وَهْنُ إِنَّ عَزَّ وَادُّنُ إِذَا شَمَطَ
وَعَلِمَ بِأَنَّكَ إِنْ طَلَبْتَ مُهَذَّبًا رُمْتَ الشَّطَطَ
مَنْ الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ؟ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ؟ (١)

القسم الثالث: الذي لا يُسامح ولا يَنسى بحقٍّ وقسطاس، وهذا عدل، وإن كان دون الإحسان، إلا أنه لا ينبغي التثريب على صاحبه ما دام لم يتعدّ حدود ربّه. وغالب الناس هم من هذا القسم فيما أظن، ففيهم خير وغيظ.

ولا يعني هذا أنّ من ظَلِمَ عليه ألا يغضب ويغتاض ويسعى للانتقام ولردّ الاعتبار، فهذا قد حفظ الله تعالى له حقّه، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فإنّه بذلك الذُّكْر والغِيظ لم ينزل عن منزلة العدل، ولا يُلام من سعى لعدل، إنّما إشارتنا إلى مرتبة الإحسان، فهي مرتبة أعلى من العدل، وكلاهما قد أمر به الله تعالى، ولا إحسان إلا بعد استيفاء العدل، فإن

(١) دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ، شحاتة صقر ٥٨١/٢

اطقت الإحسان وإلا فلا تنزل عن العدل، والعدل في محله إحسان في الحقيقة، والله تعالى عدلٌ مُحْسِنٌ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعليه؛ فإنَّ تَطَلُّبَ المثالية والكمال في الناس على وجه الإلزام نوعٌ من الإجحاف بحقهم، وسببٌ لنقص الخير لديهم، وذريعة لليأس والقنوط من إصلاح نفوسهم، فلا تحمل - رعاك الله - الناس على تشديداتك ومثالياتك بلا برهان، ولا تحجر عليهم ما وسَّعه لهم الرحمن، ولا تكلف نفسك ما لا تطيق.

والمشاعر والأخلاق - فاعلم - ليس كلُّ أحدٍ يطيقُ تسييرها وتهذيبها، وخِلَالُ الخير وسجايا البرِّ منها ما يكون فطرةً وغريزةً، ومنها ما يكون اكتساباً وتهذيباً، وطبيعة القلب ازوراره عمَّن آذاه، والسعيد من وسَّع الله صدره لاحتمال أذى الناس، فصار بحرًا تنغمس فيه قالائمهم وفعلاتهم وسهواتهم وزلائمهم، وجبلاً أشمًا شامخًا تتقاصر دون قُلَّتِهِ سيئاتُ نفوسهم، فأمسى على عامَّة المسلمين سليماً، فلم يخرج ذو قِبَلَةٍ عن ذي قِبَلَةٍ، ففؤاده مُحِبٌّ لكل من أسلم وجهه لحبيبه تبارك وتعالى، فتسامى بإيمانه وارتقى بجماله درجات الرِّضا الربَّاني بتوفيق الله تعالى له.

بل إنَّ أسلمَ الناس صدرًا بإطلاق، وأطهرهم قلبًا، وأرحبهم فؤادًا هو رسول الرحمة والهدى والمحبة والاستقامة والرِّضا محمدٌ ﷺ، الذي هو المثال

الكامل، والأسوة الحسنة، والقُدوة المثل، قد أَمَرَ وحشِيَّ بنَ حربٍ - قاتِلَ حمزة رضي الله عنهما - أن يُعَرِّبَ عنه وجهه، ولعلَّ من مَرَدِّ ذلك؛ كيلا يتذكَّر الأذى الماضي المَوجع المُضِّض، فتشتَّت جمعيَّة قلبه على ربه، وكذلك لطفًا بوَحشيٍّ حتى لا يكون بسببٍ واصلٍ لغضبِ نبويٍّ فيهلك.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «وقوله: «هل تَسْتَطِيعُ أن تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عني؟»^(١). في هذا إشكال على من قلَّ علمه، فَإِنَّهُ يَقُول: إِذَا كَانَ الْإِسْلَامُ يَجِبُ ما قبله، فما وجه هذا القول من رسول الله ﷺ؛ وهو قولٌ يُشبهه مُوَافَقَةُ الطَّع، وأين الحلم؟

والجواب: أن الشرع لا يُكَلِّف نقل الطَّع، إِنَّمَا يُكَلِّف ترك العَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، وكان النَّبِيُّ ﷺ كلَّما رأى وحشيًّا ذكر فعله فتغيَّظَ عَلَيْهِ بالطَّع، وهذا يضرُّ وحشيًّا في دينه، فلعلَّه أَرَادَ اللطف في إبعاده»^(٢). والله وحده المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

الرابع: الذي لا يُسامح ولا يَنسى بطغيان وإجحاف، وبئس الحال حاله، ولا كَثُرَ اللهُ في العالمين أمثاله.

فهو يسعى على الدوام في شفاء غيظه أضعاف ما لقيه من أذى من أخيه المسلم، ولو أنه اكتفى بالاعتداء كما اعتدى فلا خصام ولا عتب ولا ملام، لكنَّ

(١) البخاري (١٢٩ / ٥).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١٧٧ / ٤

الله لا يحب الظالمين، وقد أمر بالقسطاس المستقيم، ولا يخرج عبد من خصومة إلا بظلم أو عدل أو إحسان، بحسب توفيق الله عبده وعونه وإمداده، أو خذلانه وتركه لغلبة طبعه الجاهل الظالم.

وإن من الناس من لا يعيش إلا على علق دم الحقد، وعقد سحر الحسد، ونفثات يحموم الغل، حتى إذا انتهى من التهام روح مسلم ولّى سواد وجهه غيره، فلا يزال دأبه في السعاية والشكاية والمكر والضرر والاغتيال والنم وأنواع الظلم، حتى إذا حقت الحقائق بين يدي ملك الملوك غداً صفق بيده ريح الخيبة وصفر الخسار، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان.

وبالجملة؛ فإن تذكر المرء وسامح - فيما تحسن فيه المسامحة - فهو خير الأربعة، ويليه الطاهر الغافل المسامح، ثم الثالث الذي لا يسامح مع التزامه العدل فلا يتعدى، أما الرابع فهو الصيد السهل المحبب للرجيم، أعاذنا الله جميعاً من الشيطان الرجيم.

ومقصودنا مما مضى؛ هو حمد نسيان الموقف السيء، أو تذكره مع التغافل القلبي قدر طاقته، لتزول ضغينته على أخيه المسلم، أما من لم يطق فعله لزوم العدل، مع التحرز من الجور، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن توكل على الله كفاه، ومن استعان بالله بلغه مناه، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وبالجملة؛ فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يأطر نفسه على كريم خصال القلوب والأعمال، فهي محل نظر الرب الأعلى تبارك وتعالى. ومن كان معدين

خُلِقَ الكرم؛ فإن الأحوال والأشخاص والأطباق والأحداث والأزمنة والبقاع لا تغيّره سجيّته الكريمة، كما قيل:

كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخُلُقِ السَّيِّئِ وَلَا مَسَاءٌ

وعودٌ على بدء؛ فلا تلازم بين الغفلة والبلاهة وضعف العقل وبين سلامة الصدر وطيب القلب وطهارة الروح، فالمؤمن كَيِّسٌ نَبِيهٌ فَطِنٌ، ومُتَغَابِلٌ ليس بغافل، ومُعَرِّضٌ صَافِحٌ لَوَافِرِ عقله وعظيم إيمانه وسلامة سريره وطيب سجاياه عن الجاهلين، وإن كان أعرف الناس بخبثهم ومكرهم، فمعرفة الشرّ لا تعني محبته ولا الرغبة فيه، وقد قال أبو فراس الحمداني:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لَتَوَقَّيْهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

وقد يكون المرء أحمقاً ساذجاً لا يفهم دقائق الأشياء، ولا يتمعن في خفايا الأمور، لكنه مع هذا خبيث الطويّة، مظلم القلب، قبيح المخبر، حمّال دغائل الصدر، سيء النية والظن في العباد، كفقير يهود، خاسر الدنيا والأخرى! وبالجملة؛ فلا ارتباط بين العقل والذكاء والدهاء والبصيرة في الأمور وبين الغباء والنوك والغفلة. وكأنّ الذي أشكل على بعضهم هو أنّ سليم الصدر يعامل الجميع بالإحسان لا بالعدل، فيبسط لهم جميل المعاذير، بظنّ حسن، وتصرف حكيم، وصفح جميل، وجزاء للإساءة بالإحسان، فيظنّ بعضهم أنّ هذا عائد لضعف عقله، أو نقص قدرته، وكلاهما خطأ؛ فهو يُدرك المكر ويدريه، ويعفو عند المقدرة ويُسامح، لنبل نفسه وتساميها عن قترّة أخلاط

الأحقاد، تقوده معالي الشيم ودوافع الإيمان بتوفيق الرحمن لأطيب القول وأحسن النوايا وأطهر الظنون وأجمل الأخلاق. ومن عاش بالمكر مات بالفقر، ومن عاش بالتقوى، عاش كريماً فوق الأرض، آمناً تحت الأرض، فائزاً يوم العرض ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وأجمل بوصف عبيد الله بن زياد الحارثي لمجد الكاظم غيظه نقي وطيباً وساحة ونباله وسُموً، إذ هتف له عبر الزمان:

لا يبلُغُ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا	حَتَّى يَذُلُّوا وإن عَزُّوا لِأَقْوَامٍ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً	لا عَفْوَ ذُلٍّ وَلَكِنْ عَفْوُ أَحْلَامٍ
وإن دَعَا الجَارُ لَبَّوْا عِنْدَ دَعْوَتِهِ	في النَّائِبَاتِ بِأَسْرَاجٍ وَأَجَامٍ
مُلْثَمِينَ هُمْ عِنْدَ الْوَعَى زَجُلٌ	كَأَنَّ أَسْيَافَهُمْ أُغْرِينَ بِالْهَامِ



آثار الغلّ والحسد

كُلُّ إناء ينضح بما فيه، وكل روح يغتذي بمساعيه، وكلُّ قلب يمتلئ بمساقيه، فمن كان شِرْبُهُ الوحي الكريم، وغذاؤه الاستنان بالنبي الكريم ﷺ؛ كان صالح الأخلاق، عظيم الحظّ، نابه المكارم، وشجر المكاره يثمر المكارم، ومن كان ساقطَ الهمة لِلْعَاجِ الحطام من حظّ نفسٍ بالسوءِ أُمارة؛ فلا تَسَلُّ عن خبيته وفشله وخسرانه.

وإنّ من أخبث الخلال الحسد والغلّ على عباد الرحمن، وبما أن كل شجرة لها ثمر؛ فثمر الغلّ أغلالُ الشقاء، وثمر الحسد حَسَكُ الصدور، وخيبات الأمور، وحسرات الدنيا، وندامات الآخرة، فلهما من مسأهما أخبث نصيب، فمن ثمارهما السامة وآثارهما المرّة:

١ - الغمّ الملازم.

فصدّر ضاق عن احتمال رؤية الخير لعباد الله أخرى به أن يضيق بغمّ لازم وهمّ لا ينقطع. فكما أنّ حب الخير للناس يشرح الصدر ويفسحه، فحب الشر لهم يضيقه ويحبسه، وبحسب مقدارهما تكون ثمرة الشيطان في الفؤاد المبتلى بالخذلان، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

فالغمّ قرين الحسد الملازم، وصاحبه المُنَاغم، ولا يخلو قلب حاسد من غمّ يثقله ويسقمه ويُميت فرحته، وفرحة الحاسد لنفسه واحدة، لكن غمّه بتنوّع

النعم على العالمين لا تُحصى، ومن هنا كان حقه. وقد قيل: «لا راحة لحسود، فهو ظالمٌ في ثوبٍ مظلوم، وعدوٌّ في جلبابٍ صديقٍ». و«لله درُّ الحسدِ ما أعدَّله، بدأ بصاحبه فقتله»!

فأعدُّ خصالِ السوءِ الحسد؛ لأنه يبدأ بصاحبه فيتلفه، ولا قوة إلا بالله
القدير العلي العظيم.

٢- الغيبة.

وقد عدها القرطبي رحمه الله تعالى من الكبائر، وقلَّما تجد مرسلاً لسانه في
أعراض الناس؛ إلا وسخيمةً قلبه غالبية، ووَحَرَاتِ صدره فاشية، فالكيل لهم
اليوم بالصاع الأوفى، وغداً بالسوط الأنكى، والله المستعان.

ومن خبث سريره ساءت علانيته، والألسن مغاريف القلوب، والورعُ
عن حقوق الناس سببُ العفوِّ وصِمَامُ العافية بإذن الله تعالى، وإن وخام الغيبة
ظاهرٌ من نواحي عديدة:

فهي كبيرة من الكبائر، وهي اعتداء وظلم محسوب من ضمن دواوين
المظالم غداً، وهو الديوان الذي لا يُغادرُ منه شيء، ومنها أنها مجاهرة بمعصية،
ومنها أنها تجرُّ لذنوب أخرى من جنسها ومن غير جنسها، ومنها أنها تُقَسِّي
القلب وتغرّه بربه الأعلى! ومنها أنه تعاون على الإثم والعدوان، ومنها أن الله
تعالى قد شبه فيها المغتاب بتشبيهٍ شنيعٍ لم يذكره لغيره، وهو أكله لحم أخيه ميتاً!
وبما أن الغيبة قد أصبحت فاشية في مجالس كثير من الناس حتى ممن ينسبون

لعلم وصلاح، وكان من الحكمة أن تداوى كل بليّة بقدرها؛ فإن كان هذا حالنا مع الغيبة؛ فلنقم لله تعالى حُسبة جماعية في جهادها، حتى يكون الشيطان هو الصاغر الطريد الرجيم. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإنّ معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة، والغيبة، والكذب، والمراء، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وحكاية كلام الناس، والطعن على من يبغضه، ومدح من يحبه، ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا ﷺ قال لمعاذ: «كف عليك هذا» فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!»^(١).

ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعزّ عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورّع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكّه في أعراض الخلق! وكثير ممن تجده يتورّع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر ورأس الإبرة من النجاسة ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام، كما يُحكى أنّ رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواءمتها قال: يا هذه غطي وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام!^(٢).

(١) ابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦).

(٢) ولعلّ في الخبر مبالغة، ولا أظنه يصحّ، والشيخ ناقل، أو إنّما قصد إلى ضرب المثال

وقد سأل رجل^(١) عبد الله بن عمر عن دم البعوض فقال: انظروا إلى هؤلاء يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ؟^(٢).

ومتى رفع الله تعالى عنايته وعافيته عن عبدٍ فهو راجع لأصل الجهل والظلم، مرتكس لأودية الضياع والهلاك، وإنما تتخلص العافية عن العبد بقدر بعده عن المعافي تبارك وتعالى وعزّ وتقدس. قال صالح بن عبد القدوس:

وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ثرارة في كـلّ نادٍ تحطّب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب

والمؤمن يسأل الله تعالى العافية على الدوام من الهمّ والغمّ والضيق ومنكرات الأخلاق وجوالبها ومسبباتها، ويدفعها بما أطاق مما شرع الله تعالى وأمر به تقدّس اسمه. فيقول بحالِه ومقاله: اللهم عافية وشكراً.

٣- الغمز واللمز.

قال تعالى مبيناً منهج المؤمنين في تعاملهم النفساني والقولي والعملي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ

بالحكاية، وهي إن كانت مستبعدة فليست مستحيلة، ففي الناس أدهى وأشر وأحير، ولا تعجب ففي القوم أعجب!

(١) من أهل العراق.

(٢) عدة الصابرين (١ / ٥٦).

الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ [الحجرات: ١١].

«ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» ويروى: «وغمط الناس» (١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، وقد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا تلمزوا الناس. والهمّاز الّلمّاز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

وعن أبي جَبْرِ بن الضحّاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا

بِالْأَلْقَابِ ﴿١﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (١).

وقوله: ﴿يَبْسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنازع بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾ طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة، يهمزه في وجه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعن عليهم (٢).

(١) المسند (٢٦٠/٤) وسنن أبي داود (٤٩٦٢) والترمذي (٣٢٦٨) وقال: حسن صحيح. والحديث سكت عنه أبو داود بمعنى أنه صالح لديه كما في رسالته لأهل مكة، وصححه الألباني.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٧٦ / ٧) (٨ / ٤٨١) باختصار. وقد اختلف المفسرون واللغويون في التفريق بين الهمز واللمز، ويجمعهما تعييب الناس بالقول أو الفعل في الوجه أو في الغيب. قال الخطيب الشربيني في السراج المنير ٤ / ٥٨٥ في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]: «قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب، فعلى هذا هما بمعنى. وقال مقاتل: الهمزة الذي يعيبك في الغيب، واللمزة الذي يعيبك في الوجه. وقال أبو العالية

وقال السعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]: «وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلّ بكل خلق

والحسن: الهمزة الذي يغتاب ويظعن في وجه الرجل، واللمزة الذي يغتابه من خلفه، وهذا اختيار النحاس. وقال سعيد بن جبير: الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم، واللمزة الطعان عليهم. وقال ابن زيد: الهمزة الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: يهزم بلسانه ويلزم بعينه. وقال ابن كيسان: الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة الذي يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه.

وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ويدخل في ذلك من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منهم. وأصل الهمز الكسر واللمز الطعن، ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم حتى صار ذلك عادة، لأنه خلق ثابت في جبلتهم والذي دلّ على الاعتياد صيغة فعلة بضم ففتح، كما يقال: ضحكة للذي يفعل الضحك كثيرًا حتى صار عادة له وضرى به أهـ. مختصرًا.

ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار. كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وسمي الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا يعير أحدهم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه وهذا هو التنابز^(٢).

وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا. ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] أي: بئسما تبدلت من الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُوبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] فهذا هو الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابلة على ذمه. فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب،

(١) مسلم ١٠/٨ (٢٥٦٤) (٣٢). أي: يكفيه شرًا أن يحتقر أخاه.

(٢) قال أحد الفزاريين:

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا أَلْقِبُهُ وَالسَّوْءُ اللَّقْبُ

وتائب مفلح، ولا ثم قسم ثالث غيرهما» (١).

وتأمل كيف شبه الله تعالى ورسوله ﷺ أخوة المسلم لأخيه بالنفس الواحدة، وبالجسد الواحد، وبالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، كلُّ هذا لأجل تحصيل الألفة والمودة والتناصح والاجتماع والتعاون على البر والتقوى. وبضد ذلك جاء الزجر والتغليظ في كل ما من شأنه نقض هذا الخير في أخوة أهل الإسلام من الحسد والغلّ في داخل القلوب التي تُنبِتُ الغيبة والنميمة والظلم والقطيعة والسعاية بالسوء ونحو تلك النجاسات والخروق في نسيج أهل الإيثار.

والتلقيب المنقّر اعتداء وأذى، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «واللقب ما أشعر بخسة أو شرف سواء كان ملقباً به صاحبه أم اخترعه له النابز له. وقد خُصَّصَ النهي في الآية بالألقاب التي لم يتقادم عهداها حتى صارت كالأسماء لأصحابها، وتنوسي منها قصد الذم والسبِّ بما وقع في كثير من الأحاديث كقول النبي ﷺ: «أَصْدَقُ ذُو الْيَدَيْنِ» وقوله لأبي هريرة: «يَا أَبَاهِرَ» ولُقّب شاول ملك إسرائيل في القرآن طالوت، وقول المحدثين الأعرج لعبد الرحمن بن هرمز، والأعمش لسليمان من مهران.

ودلّ قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَنْبُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] على أن ما نُهوا عنه مذموم لأنه فسوق يُعاقبُ عليه، ولا تزيله إلا التوبة، فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل، وهذا دالٌّ على أن اللمز والتناز

(١) تفسير السعدي (١ / ٨٠١).

معصيتان لأنهما فسوق، وفي الحديث: «سباب المسلم فسوق»^(١). ولفظ ﴿الْأَسْمُ﴾ هنا مطلق على الذَّكْرِ، أي التسمية. كما يقال: طار اسمه في الناس بالجدود أو باللؤم. والمعنى: بسَّ الذِّكْرُ أن يُذكر أحد بالفسوق بعد أن وُصِفَ بالإيمان. وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان؛ لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة، إذ الألقاب أسماء، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية.

ومعنى البعدية في قوله: ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بعد الاتصاف بالإيمان، أي: أن الإيمان لا يناسبه الفسوق، لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعمهم عن الفسوق وازع»^(٢).

فشتان بين اسم الإيمان واسم الفسوق، فلباس الإيمان والتقوى والبر خير كله، أما الفسق فهو خروج من الخير بقدره، وسعي إلى الشر بقدره، حتى يصل لحال أموات الأحياء!

وكم من مؤمن مسخور به قد حطَّ رحاله في عليين، وكم من ساخر مستكبر

(١) البخاري ١٩/١ (٤٨) ومسلم ٥٧/١ (٦٤) (١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٤٨) باختصار. وقد نخل ابن عاشور رحمه الله تعالى تفسيري الكشف والبيضاوي وحواشيها مع غيرهما، وبخاصة في المباحث اللغوية والبلاغية والنحوية، مع ما طُبِعَ عليه الشيخ من جودة القريحة، واتقاد الذكاء، وعظيم المصابرة، وحسن الدياجة القلمية، مع سعة العلوم حتى أخرج لنا هذا السفر الماتع النافع النفيس، تقبله الله تعالى ونفع به.

على عباد الله قد خرج اسمه في ديوان الهالكين، ولا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم.

إِنْ خُوطِبُوا كَذَبُوا أَوْ طُوِّلُوا غَضِبُوا أَوْ حُورِبُوا هَرَبُوا أَوْ صُوحِبُوا غَدَرُوا
على أرائِكِهِمْ سُبْحَانَ خَالِقِهِمْ عاشوا وما شَعَرُوا مَاتُوا وما قُبِرُوا!

٤- تتبع العثرات.

فإحساسه بنقصه مع ضعف نفسه مفضٍ إلى ميله إلى تتبع عثرات إخوانه، لعله يشفي شيئاً مما خالطه من ألم فشله أو سبقهم له، أما من وفقه الله فهو منشغل بإصلاح عيوب نفسه عن تتبع عثرات المسلمين، وفي عيوب المرء شغل عن عيوب الناس، ومن تتبع عورات المسلمين ونقّب أسرارهم أوشك أن يفتضح، سنة الله ولا تجد لسنة الله تبديلاً.

والصالحات ستر الخطايا وغطاء الطّالحات، والحسنات يذهب السيئات، والحسنة تُنادي أختها وتدعو إليها، ومن حكم والدي رحمه الله تعالى: «إذا أضعفتك الذنوب فزاحمها بالطاعات». قلت: لأن الإيمان يزيد بالطاعة، فكلما زاد إيمان القلب لأنّ للحقّ، وانشرح به، ورغب فيه، وانطلق مستريحاً إليه، وتصاغرت لديه شهوات النفس المحرمة فرغب عنها إلى مصالح دينه ورغائب آخرته، وربّما زاد مستوى الإيمان في قلب العبد حتى لا يدع فيه حباً لمعصية ولا غفلة عن طاعة، فقوّة القلب حقيقة إنما هي إيمانه بالله واليوم الآخر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وكل حسنة لها حجمها ومقدارها بحسب ما يسوقها أوّلاً ويثمرها لاحقاً

من أعمال القلب الجميلة، وهذا جارٍ حتى في معاملات الخلق، ومن ذلك السخاء، ومما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى (١):

ولا تَجْزَعُ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فما لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وكن رجلاً على الأهوالِ جَلْدًا وشيْمَتُكَ السَّاحَةُ وَالْوَفَاءُ
وإن كثرتْ عيوبُكَ في البرايا وسَرَّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
تسترُ بالسَّخَاءِ فكل عَيْبٍ يغطيه كما قيلَ السَّخَاءُ
ولا ترُ لأَعَادِي قَطُّ ذَلًّا فإن شِمَاتَةَ الأَعْدَاءِ بِلَاءُ

٥ - الغفلة عن عيوب النفس.

من بناء الإسلام لنفس المؤمن حياته بانشغاله بإصلاح نفسه، وترميم ما انهدم منها، ورفع ما تماهى من جدران هدايتها، مع النصح للمؤمنين، والحرص على الخير لهم، ومحبتهم، وابتدائهم بكل خير، وعدم الدخول فيما لا ينبغي له، قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (٢). فحسن إسلامك أحسن الله إليك.

«وعن أبي داود رضي الله عنه قال: كتبت عن رسول الله ﷺ خمس مئة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعت فيه

(١) وعلى فرض صحة نسبتها إليه، إذ هي شائعة ذائعة مشتهرة منسوبة إليه، فقد أقحمت فيها أبيات من قبيل نسبة الفعل والمشية إلى الأيام وسبّ الدهر، حاشاه أن يقولها وهو الإمام الفقيه الورع رحمه الله تعالى. ولعل أصلها صحيح وأقحم فيها ما ليس منها.

(٢) ابن ماجه (٣٩٧٦) والترمذي (٢٣١٧) وقال: حديث غريب.

أربعة آلاف وثمان مئة حديث، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدهما: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» والثاني: قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» والثالث: قوله ﷺ: «لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه» والرابع قوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين».

قال ابن رجب: وإنّ من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه، وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «كان في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها لحاجته من الطعام والمشرب.

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث: تزوّد لمعاد، أو حرفة لمعاش، أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه. ومن حسب كلامه من عمله؛ قلّ كلامه إلا فيما يعنيه»^(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه». وهو كما قال، فإن كثيرًا من الناس لا يعدّ كلامه من عمله فيجازف فيه ولا يتحرّى. وقد خفي هذا على معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى سأل عنه ﷺ

(١) صحيح ابن حبان (٧٦ / ٢) (٣٦١) والحديث لم يثبت، فهو من رواية إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني وليس بثقة، لكن معاني الحديث حسنة.

فقال: أنؤاخذ بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم»^(١).

وقد نفى الله الخير عن كثير مما يتناجى به الناس بينهم فقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وعن أم حبيبة عن النبي ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل»^(٢).

وقد تعجب قوم من هذا الحديث عند سفيان الثوري فقال سفيان: وما تعجبكم من هذا؟ أليس قد قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]؟ أليس قد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وخرج الترمذي من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: توفي رجل من أصحابه يعني النبي ﷺ فقال رجل: أبشر بالجنة فقال رسول الله ﷺ: «أو لا تدري، فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا يعنيه»^(٣). وفي بعض الروايات أنه قُتِلَ

(١) ابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦).

(٢) أخرجه عبد بن حميد (١٥٥٤) وابن ماجه (٣٩٧٤) والترمذي (٢٤١٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٦) وقال: هذا حديث غريب. قلت: وفيه انقطاع، وله شواهد من حديث أبي هريرة وكعب بن عجرة رضي الله عنهما.

شهيداً.

وقال عمرو بن قيس الملائي: مرّ رجل بلقمان والناس عنده فقال له: ألسنت عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمرُّ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه أبداً، قالوا: وما هو؟ قال: الكفّ عما لا يعنيني. وعن الحسن قال: «من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، خذلاً من الله عز وجل».

وقال سهل بن عبد الله التستري: «من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق».

وقال معروف: «كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل».

وحديث «من حسن إسلام المرء..» يدل على أن ترك ما لا يعنيه المرء من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه وفعل ما يعنيه كلّهُ؛ فقد كمل حُسن إسلامه. وقد جاءت الأحاديث بفضل مَنْ حَسُنَ إسلامه، وأنه تُضاعَفُ حسناته وتكفّر سيئاته، والظاهر أن كثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام^(١). ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وكل

(١) وهذا معنى شريف جدير بالتأمل والتدبّر والترعّب.

سيئة تكتب بمثلها حتى يلقي الله عز وجل»^(١). فالمضاعفة للحسنة بعشر أمثالها لا بد منه، والزيادة على ذلك تكون بحسب إحسان الإسلام وإخلاص النية والحاجة إلى ذلك العمل وفضله، كالنفقة في الجهاد وفي الحج وفي الأقارب وفي اليتامى والمساكين وأوقات الحاجة إلى النفقة.

ويشهد لذلك ما روى عطية عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نزلت ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] في الأعراب، قيل له: فما للمهاجرين؟ قال: ما هو أكثر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وخرج النسائي من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومُحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والسيئة بمثلها، إلا أن يتجاوز الله»^(٢). والمراد بالחסنات والسيئات التي كان أزلفها ما سبق منه»^(٣).

وبعد؛ فمن انشغل بعيوب نفسه وتحصيل مصالحها؛ اشتغل عن عيب غيره وتتبع خواص أموره. ولقد قال ﷺ زاجراً مَنْ انشغل بعيوب غيره عن عيوب

(١) مسلم (٨٢/١).

(٢) النسائي (١٠٥/٨) بسند حسن.

(٣) جامع العلوم والحكم (١٠ / ١) (١١٦ / ١) مختصراً.

نفسه: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه!»^(١)

و«القذاة»: هي ما يقع في العين والماء والشراب من نحو تراب وتبن ووسخ «وينسى الجذع» واحد جذوع النخل «في عينه» كأن الإنسان لنقصه وحب نفسه يتوفر على تدقيق النظر في عيب أخيه فيدركه مع خفائه، فيعمى به عن عيب في نفسه ظاهر لا خفاء به، وهو مثّل ضرب لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيرهم به وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجذع إلى القذاة، وذلك من أقبح القبائح وأفضح الفضائح! فرحم الله من حفظ قلبه ولسانه، ولزم شأنه، وكف عن عرض أخيه، وأعرض عما لا يعنيه. فمن حفظ هذه الوصية دامت سلامته، وقلّت ندامته.

«وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة»^(٢)، والله در القائل:

أرى كلّ إنسانٍ يرى عيبَ غيره ويعمى عن العيبِ الذي هو فيه
فلا خير فيمن لا يرى عيبَ نفسه ولا يعمى عن العيبِ الذي بأخيه

٦- الظلم.

إذا ضاق صدر المرء؛ ضاق حلمه، وعزب رأيه، وتقارب بغيه، إلا من

(١) صحيح ابن حبان (١٣ / ٧٣) (٥٧٦١) قال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال

الصحيح غير كثير بن عبيد.

(٢) طريق المهجرتين (١ / ٢٧١).

عصم الله بالتقى، أما إن وكله لضعف نفسه، وقصور تكوينه، وجهل خلقته؛ فقد وكله إلى عجز وجهل وظلم، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فلو ترك البشر لنزغات شرهم، ونزعات طيشهم؛ لعمّ الظلم البسيطة، وأظلمه ظلام العصيان للملك الديان، قال الله تعالى في شأن الظالمين: ﴿وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم. حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلهاء»^(٢) من الشاة القرناء»^(٣) فلئن كُنَّ البهائم موعودات بالعدالة يوم الدين، فما بالك بالبشر؟!

(١) مسلم ١٨/٨ (٢٥٧٨).

(٢) الجلهاء: التي لا قرن لها. النهاية (٢٨٤/١).

(٣) مسلم ١٨/٨ (٢٥٨٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حِجَةِ الْوَدَاعِ - فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ - : «أَلَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثًا (١).

والظالم مأخوذ تالف مهما استطالت به أمنيته، أو امتد ببعيجه حبْلُ غروره، فعن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

وقال ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (٣).

وفي قصة ابن اللَّتْبِيَّةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَمِيدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهُ لَا يَأْخُذُ أَحَدًا مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ؛ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خُورٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعَرٌ»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَوَى بِيَاضٍ إِبْطِيهَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ

(١) البخاري ٢٢٣/٥ (٤٤٠٢) ومسلم ٥٨/١ (٦٦) (١١٩) (١٢٠).

(٢) البخاري ٩٣/٦ (٤٦٨٦) ومسلم ١٩/٨ (٢٥٨٣).

(٣) البخاري ١٥٨/٢ (١٤٩٦) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧٧/١ (٢٩): أي أنها مسموعة لا ترد.

بلغت» ثلاثاً^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه، من عَرَضِهِ أو من شيء، فليتحلَّله منه اليوم، قبل ألا يكون ديناراً ولا درهماً؛ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحوَّلَ عليه»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عبادة قد غلَّها!^(٤). وتأمل ويدك على قلبك: عبادة فقط اشتعلت وتأجَّجت عليه ناراً، وهو خادم رسول الله ﷺ، فما بالك بمن يغلُّ الغلول الكثير العظيم، أو يأكل أموال اليتامى، أو يحوز جوراً أموال الأراامل، أو يعتدي على ما اتَّمَّنَ عليه، أو ينتهب الحرام، أو يتخبَّط في بيت مال أمة الإسلام!

(١) البخاري ٢٠٩/٣ (٢٥٩٧)، ومسلم ١١/٦ (١٨٣٢) (٢٦). والرَّغَاء: صوت الإبل. والخوار: صوت البقر. وتيعر: تصيح، وصوتها اليعار. النهاية ٨٧/٢ و (٢٤٠) و (٢٩٧).

(٢) البخاري ١٧٠/٣ (٢٤٤٩).

(٣) البخاري ٩/١ (١٠) ومسلم ٤٧/١ (٦٤) (٤٠) بالشرط الأول فقط.

(٤) البخاري ٩١/٤ (٣٠٧٤).

وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرّم عليه الجنة» فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «وإن قضييّا من أراك»^(١). وبالجملّة؛ فمن سلم صدره للمسلمين؛ فقد سلم قلبه ولسانه ويده من أذيتهم، وفاز بنفسه، ونجا بجلده، وأفلح بحسن إسلامه وسلامته.

٧-الكذب.

إذا امتلأ القلب بنجاسة الحسد وقذارة الحقد؛ لم يبال بالصدق، فتراه يكرع - بلا مبالاة - في مباءة الكذب علّه يطفئ شيئاً من حرّ حسده، أو يُبرد غليلاً زادته حرقات غشه وحقده وتمنيّه خفض المؤمنين وعلوّه عليهم^(٢)^(٣). وقد من ولد آدم من جَارَ وتعَدّى وكذّب وظلّم!



(١) مسلم ٨٥/١ (١٣٧) (٢١٨).

(٢) الحث على سلامة الصدر. علي الدهامي (٣١_٣٤) مختصراً مزيداً.

(٣) بدائع الفوائد (٢ / ٤٦٣).

أسباب التشاحن

العاقل ينظر من أين يؤتى حتى لا يؤتى، فيحرس قلبه من العاديات
خواطراً كُنَّ أو سانحات، والمعصوم من عصمه مولاه، ولا قوة إلا بالله. وإنَّ
من أسباب التشاحن بين العباد:

١ - الشيطان أعاذنا الله جميعاً منه.

قال ربنا تعالى آمراً عباده بانتقاء القول الحسن والكلام اللطيف والأسلوب
الرفيق مع بعضهم، لأن الشيطان يدخل بينهم على وجه الإفساد وتقسية
القلوب: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] وليس الحسن فقط، بل الأحسن، ثم
حذر من كيد عدوهم المفسد ذات بينهم: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾.

والنزغ: هو الإلقاء الخفي للشر في القلوب، ثم ذكر حاله الدائم مع
المؤمنين: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة، قديم
الكيد، ضاري الشر.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قد
يُثْس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(١).

والتحريش: هو الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم. وفي فيض القدير: «ولكن

(١) مسلم ١٣٨/٨ (٢٨١٢) (٦٥).

في التحريش بينهم» أي: يسعى في التحريش، أي في إغراء بعضهم على بعض، وحملهم على الفتن والحروب والشحناء. قال القاضي: والتحريش: الإغراء على الشيء بنوع من الخداع، من حرش الضب الصياد خدعة، وله من دقائق الوسواس ما لا يفهمه إلا البصراء بالمعارف الإلهية.. وقد ساءهم المصليين تعظيماً لهم، ولما ذكر الفتنة أخرجه مخرج التحريش، وهو الإغراء بين البهائم توهيناً وتحقيراً.. وقد انتشر الآن تليسه في البلاد والعباد والمذاهب والأعمال، فحقَّ العبد أن يقف عند كل هم يخطر له، ليعلم أنه لله مَلَكٌ أو لَمَّةٌ شيطان، وأن يُمضي النظر فيه بنور البصيرة، لا بهوى من الطبع، بل بنور اليقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] (١).

وقد لبس بعض القبورين بهذا الحديث على بعض الناس، فزعم استحالة عبادة الأوثان في الجزيرة، وأنَّ هذا الحديث قد جرى مجرى الخبر بنفي عبادتهم للأوثان، وليس كما قالوا؛ فلم يذكر الحديث شيئاً وراء يأس الشيطان. والشيطان مخدول بحمد الله، فلا يزال الله تعالى يغيظه بصلاح أمة نبيه محمد ﷺ، فاليأس من الخير غير مستغرب ممن معدُّه الإبلas من كل خير، وبالله وحده التوفيق والحفظ والعود والعصمة.

وفي المشكاة: «والنبي ﷺ لم يخبر عنهم أنهم لا يفعلون ذلك، وإنما أخبر عن اليأس الذي استشعر بالشيطان عنهم أن يعودوا في طاعته لما رأى من كثرتهم وعزتهم واجتماعهم وقوتهم، لكن وقع ذلك مع يأسه منه، فلا تضاد بين هذا

(١) فيض القدير (٢ / ٤٥١).

الحديث وبين القضية التي ذكرت، يعني أن قصده ﷺ بسياق هذا الحديث هو الإخبار عن بلوغ أمر المسلمين ودولتهم حدًّا أيسّ الشيطان أن يقع الارتداد بعده، وليس غرضه عليه الصلاة والسلام الإخبار من عدم وقوع الارتداد البتة»^(١).

وبالجملة؛ فمائدة الشيطان هي التحريش بين المؤمنين، وإثارة نغرات الفرقة في المسلمين، وطعائمه دينهم وأعراضهم ودمائهم، والموفق من كان حريصاً على ألفتهم واجتماعهم، والمخذول المشؤوم من أوقد مراجل فرقتهم، ونشأ أسباب شرهم، ونشرها في العالمين، والله المستعان.

٢- البدعة.

لما كانت السنة بركة جامعة، فضدّها البدعة المفرقة، فالمبتدع ينقل الناس ببدعته عن مهيع الاجتماع على نور السنة، إلى ظلمة طريقته المخترعة، وعلى قدر ازدياده في بدعته؛ يكون فراقه وافتراقه وتفريقه.

قضى الله بالضلالة على من ترك سبيل الهداية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: «اختلاف الناس كلهم يرجع الى ثلاثة أصول، لكل واحد منها ضد، فمن سقط عنه وقع في ضده: التوحيد ضده

(١) مشكاة المصابيح (١ / ٣٨٤).

الشرك، والسنة ضدها البدعة، والطاعة ضدها المعصية»^(١).

وقد تؤدي البدعة بالفرقة إلى القتل بغير حق، وتكفير المسلمين هو باب قتلهم، وتكفير المخالف من المسلمين ورطة عظيمة ابتلي بها خلق كثير من المتحمسين من غير انضباط بحبل الشريعة وقواعد القرآن العظيم، في صحيح مسلم: «وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِلَّا حَارَّ عَلَيْهِ»^(٢). قال ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى في هذا: «هذا وعيدٌ عظيمٌ لمن أكفر أحدًا من المسلمين وليس كذلك، وهي ورطةٌ عظيمةٌ وقعَ فيها خلقٌ كثيرٌ من المتكلمين ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث لما اختلفوا في العقائد»^(٣). والله المستعان.

٣- الغضب.

قال جعفر بن محمد: «الغضب مفتاح كل شر»^(٤). وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فالغضب شعبة من الجنون، وأنقص ما يكون عقل المرء إذا غضب، ويوشك عدوه الرجيم أن يظفر به في ساعة غضب ما يهدم سنوات خير كان يعمرها!^(٥). وأكثر قراراتنا الغبية في الحياة مردّها إلى الغضب، لا جَرَمَ؛ فهو ركضة الشيطان.

(١) الاعتصام للشاطبي (٩١/١).

(٢) البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (٦١).

(٣) شرح العمدة، لابن دقيق العيد (ص: ٦٤٧).

(٤) شرح حديث عمار لابن رجب (٢٩).

(٥) أدب الدنيا والدين (١ / ٣١٦).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «لو عَزَبَ عن المرء الحلم حتى انقاد لغضبه ضلَّ عنه وجه الصواب فيه، وضعف رأيه عن خيرة أسبابه ودواعيه، حتى يصير بليد الرأي، مغمور الروية، مقطوع الحجة، مسلوب العزاء، قليل الحيلة، مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضب له.

وقد قال بعض الحكماء: «من كثر شططه كثر غلطه». وروي أن سلمان قال لعلي رضي الله عنهما: ما الذي يباعدني عن غضب الله عز وجل؟ قال: «لا تغضب». وقال بعض السلف: «أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل إذا غضب». وقال بعض البلغاء: «من ردَّ غضبه هدَّ من أغضبه». وقال بعض الأدباء: «ما هيَّج جأشك كغيظ أجاشك».

فينبغي لذي اللب السوي والحزم القوي أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل دواعي شرِّته بحزمه فيردّها، ليحظى بأجلّ الخيرة، ويسعد بحميد العاقبة.

واعلم أن لتسكين الغضب إذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم، منها: أن يذكر الله عز وجل، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه، ويأخذ بنديه. فعند ذلك يزول الغضب. قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] قال عكرمة: يعني إذا غضبت. وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ومعنى قوله ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾ أي يغضبناك، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ فهو سميع بجهل من جهل، عليم بما يذهب عنك الغضب.
وذكر أن في التوراة مكتوباً: «يا ابن آدم؛ اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أحقك فيمن أحق».

وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً ودفعه إلى وزير له وقال: إذا غضبت فناولنيه. وكان فيه: «ما لك والغضب، إنما أنت بشر، ارحم من في الأرض؛ يرحمك من في السماء». وقال بعض الحكماء: «من ذكر قدرة الله؛ لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله».

وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين أسألك بالذي أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك، وبالذي هو أقدر على عقابك منك على عقابي؛ لما عفوت عني. فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى.

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاماً فقال عمر: «أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان، فأنا منك اليوم ما تناله مني غداً! انصرف رحمك الله». وقال بعض البلغاء: «ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، ولا من شروط الكرم إزالة النعم».

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي: إني شاورت في أمرك، فأشاروا عليّ بقتلك، إلّا أنا وجدتُ قدرَك فوق ذنبك، فكرهت القتل لئلا أحمقك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة، إلّا أنك أبيت أن تطلب النصر إلّا من حيث عودته من العفو، فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فلا نظير لك. وأنشأ يقول:

البرّ بي منك وطّا العذر عندك لي فيما فعلتُ فلم تعذّل ولم تلمّ
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدلٍ غير متهم
لئن جحدتُكَ معروفًا مننتَ به إني لفي اللؤم أحظى منك بالكرم
تعفو بعدلٍ وتسطو إن سطوتَ به فلا عِدْمُناكَ مِنْ عافٍ ومُتّقمٍ^(١)

وقد وصّى ﷺ باجتناّب موجبات الغضب، وبكظم الغيظ عند استفحاله،
فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا
تغضب» فردّد مراراً، قال: «لا تغضب»^(٢). وخرّج الترمذي هذا الحديث
ولفظه: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئاً ولا تكثر عليّ
لعليّ أعيه، قال: «لا تغضب» فردد ذلك مراراً كل ذلك يقول: «لا تغضب»^(٣).
وفي رواية أخرى لغير الترمذي قال: قلت: يا رسول الله دلني على عمل يدخلني
الجنة ولا تكثر عليّ قال: «لا تغضب».

فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة جامعة لخصال
الخير ليحفظها عنه خشية ألا يحفظها لكثرتها، ووصّاه النبي ﷺ ألا يغضب، ثم ردّد
هذه المسألة عليه مراراً، والنبي ﷺ يُردّد عليه هذا الجواب. فهذا يدل على أنّ

(١) أدب الدنيا والدين (١ / ٣١٧ - ٣٢٠) مختصراً.

(٢) البخاري (٦١١٦).

(٣) الترمذي (٢٠٢٠) وقال: «حسن صحيح غريب». وصححه الحافظ ابن حجر في
الأمالي المطلقة ١/ ١٨٧ وصححه الألباني.

الغضب جماع الشر، وأن التحرّز منه جماع الخير، ولعلّ هذا الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وآله هو أبو الدرداء كما عند الطبراني^(١).

وكان النبي ﷺ يأمر من غضب بتعاطي أسباب تدفع عنه الغضب وتسكنه، ويمدح من ملك نفسه عند غضبه، ففي الصحيحين عن سليمان بن صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبان، وأحدهما قد احمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب منه ما يجد». فقالوا له: إن النبي ﷺ، قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(٣).

ومن غضب فليسكت، وما أحسن قول مورق العجلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما امتلأت غضباً قط، ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت».

وغضب يوماً عمر بن عبد العزيز، فقال له ابنه عبد الملك رحمهما الله: أنت يا أمير المؤمنين مع ما أعطاك الله وفضّلك به تغضب هذا الغضب! فقال له: أو ما تغضب يا عبد الملك؟ فقال له عبد الملك: وما يغني عني سعة جوفي إذا لم أردد فيه الغضب، حتى لا يظهر؟!

وعن أبي وائل القاص: قال دخلنا على عروة بن محمد السعدي، فكلمه

(١) الطبراني (٢٦٣٦) بإبهام السائل.

(٢) الأوداج: هي ما أحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح. النهاية ١٦٥/٥.

(٣) البخاري ١٥٠/٤ (٣٢٨٢) ومسلم ٣٠/٨ (٢٦١٠) (١٠٩) وفي رواية: فقالوا

للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟! قال: إني لست بمجنون.

رجل، فأغضبه، فقام فتوضأ، فقال: حدّثني أبي عن جدي عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»^(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ، وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٢).

وفي صحيح مسلم^(٣) عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «مَا تَعْدُونَ الصُّرْعَةَ فِيكُمْ» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال قال: «ليس ذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عن الغضب». وعن معاذ بن أنس الجهني عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا^(٤) وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ؛ حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»^(٥).

وقال ميمون بن مهران: جاء رجل إلى سلمان فقال: يا أبا عبد الله أوصني، قال: لا تغضب. قال: أمرتني ألا أغضب وإنه ليغشاني ما لا أملك! قال: فإن

(١) حديث حسن أخرجه أحمد (٢٢٦/٤) وأبو داود (٤٧٨٤).

(٢) البخاري ٣٤/٨ (٦١١٤) ومسلم ٣٠/٨ (٢٦٠٩) (١٠٧).

(٣) رقم (٢٦٠٨).

(٤) الغيظ: هو الغضب الشديد، والإنسان الغاضب هو الذي يتصور نفسه أنه قادر على أن ينفذ، لأن من لا يستطيع لا يغضب، لكنه يحزن، ولهذا يوصف الله بالغضب. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ١/١٢٥.

(٥) أبو داود (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) والترمذي (٢٠٢١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

غضبت فاملك لسانك ويدك.

وامتلاكُ اللسان واليد بالحزم العاقل هو الذي أشار إليه النبي ﷺ بأمره لمن غضب أن يجلس ويضطجع، وبأمره له أن يسكت.

قال عمر بن عبد العزيز: «قد أفلح من عصم عن الهوى والغضب والطمع». وقال الحسن: «أربعٌ من كُنَّ فيه عصمه الله من الشيطان، وحرّمه على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرغبة والشهوة والغضب».

فهذه الأربع التي ذكرها الحسن هي مبدأ الشر كله، فإن الرغبة في الشيء: هي ميل النفس إليه لاعتقاد نفعه، فمن حصل له رغبة في شيء حملته تلك الرغبة على طلب ذلك الشيء من كل وجه يظنه موصلاً إليه، وقد يكون كثير منها محرماً، وقد يكون ذلك الشيء المرغوب فيه محرماً. والرغبة: هي الخوف من الشيء، وإذا خاف الإنسان من شيء تسبب في دفعه عنه بكل طريق يظنه دافعاً له، وقد يكون كثير منها محرماً. والشهوة: هي ميل النفس إلى ما يلائمها وتلتذ به، وقد تميل كثيراً إلى ما هو محرم كالزنا والسرقة وشرب الخمر، وإلى الكفر والسحر والنفاق والبدع. والغضب: هو غليان دم القلب طلباً لدفع المؤذي عنه خشية وقوعه، أو طلباً للانتقام ممن حصل له منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل والضرب وأنواع الظلم والعدوان وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف والسب والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر كما جرى لجليلة بن الأيهم، وكالأيمن التي لا يجوز التزامها شرعاً، وكطلاق الزوجة الذي يعقب الندم.

والواجب على المؤمن أن تكون شهوته مقصورة على طلب ما أباحه الله له، وربما تناولها بنية صالحة فأثيب عليها، وأن يكون غضبه دفعا للأذى في الدين له أو لغيره مما يباح»^(١).

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على حديث: «ليس الشديد بالصرعة»: بين النبي ﷺ أن القوي الشديد ليس بالصرعة، بل القوي في الحقيقة هو الذي يصرع نفسه إذا صارعته، وإذا غضب ملكها وتحكم فيها؛ لأن هذه هي القوة الحقيقية. ففي الحديث الحث على أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، فإذا غضب، عليه أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، وإن كان قائما فليقعد، وإن كان قاعدا فليضطجع، وإن خاف خرج من المكان الذي هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم»^(٢).

٤ - النميمة.

ما فرق القربات والصدقات كالنميمة بينهم، وإن كلمة النمام لينفذها الشيطان في قلوب الأنام حتى يظنوها حقا ونصحا وما هي إلا ذريعة الشيطان ورقبته وذراعه المفرق اجتماع الأحباب، وإن ربك لبلمرصاد لكل نمام.

ويكفي من غلظ شؤمها تحريم الجنة على صاحبها، وإغلاق أبوابها دونه حين تُفتَحُ لأهل البرِّ والإيمان والاستقامة والنصح والصلاح، قال ﷺ: «لا

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ١٤٤ - ١٤٧) باختصار.

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١ / ١٢٤ - ١٢٥).

يدخل الجنة نياماً»^(١)، وفي القبر له كِفْلٌ مِنْ رِجْزِ الغابرين، فعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على قبرين، فقال: «أما إِنْهُمَا لِيَعَذَّبَانِ، وما يَعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، ثم قال: «بلى، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ: فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»، قال: فدعا بَعْسِيبٍ رَطْبٍ، فَشَقَّه بَاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا، وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُ»^(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ مَا الْعَضُّهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(٣).

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ نِيَامًا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَنْقُلَ الْكَلَامَ الْمَفْسَدَ بَيْنَ النَّاسِ بِلَا نِيَّةٍ سَوْءٍ مِنْ قَبْلِهِ، فَالنَّمِيمَةُ هِيَ النَّمِيمَةُ، وَأَثَرُهَا الْهَادِمُ الْهَادِمُ الْقَاطِعُ الْمَشُورُ لَا تَحِيطُ بِهِ عِبَارَةٌ، وَكُلُّ نِيَامٍ يُوقَدُ بِحَطْبِ نَمِيمَتِهِ وَنَارِ إِفْسَادِهِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ مَسَاقِطِ غَضَبِهِ وَمَوَاقِعِ عَقُوبَتِهِ.

٥- الحسد.

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ سِيءَ الْأَخْلَاقِ فَمَا رَأَيْتُ أَشْأَمَ مِنْ خَصْلَتِي الْكِبَرِ وَالْحَسَدِ، ثُمَّ تَأَمَّلْتُهَا فِي الْقُرْآنِ فَوَجَدْتُهَا سَبَبَ إِبْلَاسِ إِبْلِيسَ فِي الشَّرِّ، وَارْتِكَاسِهِ فِي الْخَذْلَانِ، وَوُقُوعِهِ فِي اللَّعْنَةِ وَالرَّجْمِ.

(١) البخاري ٢١/٨ (٦٠٥٦) ومسلم ١/٧٠ (١٠٥) (١٦٧).

(٢) البخاري ١/٦٥ (٢١٨) ومسلم ١/١٦٥ (٢٩٢) (١١١).

(٣) مسلم ٨/٢٨ (٢٦٠٦) (١٠٢).

لقد حسد آدم وتكبر عليه، فأخلق بمن تشبه به في سواد قلبه أن يمتنع الخير عن قلبه ومن قلبه، فحُبُّ الخير للناس محتاجٌ لقلب واسع طاهر ونية طيبة حسنة، وقبل ذلك لمحض توفيق من الرحمن الرحيم.

والشيطان حريص على تلويث قلوب العباد بسواد خبثه وقتار شؤمه، ولم يجد من راحله كالحسد والكبر، فأخذ يغذوهُمَا برقيته وسمه حتى استطالا واستطارا بين العالمين، فحينما حلنا حلَّ معهما ثقل الشيطان وشره وبأسه وحر به!

فعن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَهِيَ الْحَالِقَةُ أَمَّا إِنِّي لَا أَقُولُ: تَخْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقاً، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم»^(٢).

وقد ذكر الغزالي رحمه الله تعالى أنَّ من حقوق الأخوة: «أن تبلغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محض الحسد»^(٣).

(١) أحمد (١٦٧/١) (١٤٣٠) والترمذي (٢٥١٠) واللفظ له.

(٢) اقتضاء الصراط (١ / ٦).

(٣) إحياء علوم الدين (١٨١/٢).

وتدبر - رحمني الله وإياك - قول ربنا لأعز: ﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] فهي تقتلع جذور الحسد من القلب بالكلية.

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
٦- المراء والجدال.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «المراء يُقْسِي القلوب، ويورث الضغائن»^(١)، وقال الآجري رحمه الله تعالى: «عند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفرقة والوحشة بعد الأنس»^(٢).

وأعظم من هذين قول النبي ﷺ فيما حدّث به أبو أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنا زعيم بيت في رَبَضِ الْجَنَّةِ لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًّا، وبيت في وَسْطِ الْجَنَّةِ لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الْجَنَّةِ لمن حَسَنَ خُلُقَهُ»^(٣).

ومن أكثر ما يفرّق بين الإخوان المهاراة، فيقول الأول شيئاً فيخالفه صاحبه، فيدلي كلاً بحجج تدعم مذهبه ورأيه، ثم يتعصب له وترتفع الأصوات، ثم يتحول محور الحديث لنقد ذات الشخص لا نقد قوله ورأيه، ثم

(١) الإحياء (٣/ ١٢٦).

(٢) أخلاق العلماء (٥١).

(٣) أبو داود (٤٨٠٠) والمراء: هو الجدال. والرَبَضُ: هو ما حول المدينة من العمارة ونحوها.

تُستحضر المواقف البعيدة والقريبة، مع تلوينها بسوء الظنون، وإظهارها بأقصى الألفاظ وأوحش التشبيهات، فتكون النهاية المؤسفة الفرقة والقطيعة والتسبب في عدم رفع الأعمال مع حرمان بركة الاجتماع ورحمته.

وعن أبي أمانة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجِدَالَ، ثُمَّ تَلَا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»^(١).

وقد سأل أبو طالب أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن لا ينقاد للشرع لهوى؛ فقال متسائلاً عن تكرار الأمر: إذا أَمَرْتُهُ بِمَعْرُوفٍ فَلَمْ يَتَّه؟ فقال: «دَعُهُ، إِنْ زِدْتَ عَلَيْهِ ذَهَبَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَصِرْتَ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِكَ، فَتَخْرُجْ إِلَى الْإِثْمِ، فَإِذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ وَإِلَّا فَدَعُهُ»^(٢).

وقال لمن سألته عن السنّة تُذكر في المجلس لا يعرفها غيره، أيتكلم بها؟ فقال: «أخبر بالسنّة ولا تخاصم عليها»، فعاد عليه القول فقال: «ما أراك إلا رجلاً مخاصماً»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لشمس الدين ابن مفلح ١٩١/١

(٣) الآداب الشرعية (١ / ٢٢١).

وقال الإمام مالك: «أخبر بالسنة، فإن لم يقبل منك فاسكت» (١). قال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله تعالى معلّقاً: «وقول أحمد ومالك صريح في أنه لا يسوغ السكوت، وإنما يترك الخصام بعد التعريف والبيان.. والرسول عليهم الصلاة والسلام لم يسكتوا عن الدعوة والإبلاغ لما أرسلوا به حيث لم يقبل منهم، بل استمروا على ذلك حتى أتاهاهم أمر الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٥) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِغَتْ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ [الأنعام: ٣٤-٣٥]» (٢).

(۱) أی: ھل، عجبَتَ منہ۔

وَيُقَسِّي، وَيُورِث الضَّغْنَ»^(١). فعلى طالب الهدى أن يبيّن للناس السُّنَّةَ، ويقيم عليها الحجج، ويتخذ في سبيل ذلك: أسلوب الإقناع، فإن لم يقبل منه؛ فما على الرسول إلا البلاغ المبين»^(٢).

هذا؛ وإنَّ للإمام مالك منهجية حازمة شاملة مسددة في هذا الباب، وقد بسطها الذهبي رحمه الله في السير، ومن مشهور مقوله رحمه الله تعالى: «ليس هذا الجدل من الدين بشيء»^(٣)، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التَّنَقُّل، والدين قد فرغ منه، وليس بأمر يتوقف النظر فيه»^(٤).

وقال ابن مفلح رحمه الله تعالى: «وفي مسائل صالح بن الإمام أحمد عن أبيه قال: وسألته عن رجل يُبلى بأرض ينكرون فيها رفع اليدين في الصلاة، وينسبونه إلى الرفض إذا فعل ذلك، هل يجوز له ترك الرفع. قال أبي: لا يترك، ولكن يداريهم. وقال أحمد حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يقول: ما أغضبت رجلاً قطّ فسمع منك. وقال الشافعي: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه،

(١) موطأ مالك، برواية يحيى، ٢٥٤/١ وسير أعلام النبلاء ٨/١٠٦، ونحوه عن الشافعي، كما في السير (٢٨/١٠).

(٢) ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية، عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم ٨٩/١

(٣) موطأ مالك، برواية يحيى، ٢٥٤/١

(٤) موطأ مالك، برواية يحيى، ٢٥٤/١

ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»^(١).

وقال الفحل البياني العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى: «لم يتعبني الله بتكفير من صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام»^(٢). وقال البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى: «إذا لزم النقد؛ فليكن موجّهاً إلى الآراء بالتمحيص، لا إلى الأشخاص بالتنقيص»^(٣).

وبالجملة؛ فليس كل نقاش مرء، ولا كل محاورة مخاصمة، ولا كل إنكار للشيطان منه نصيب! وكل موضع يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن، «وإنّا لكل امرئ ما نوى»^(٤).

إنما المقصود: التنبيه إلى ضرورة حراسة خطرات المرء من المرء، حتى لا تنقلب الحسنة سيئة! وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا أعجبه الكلام سكت. حفظاً لذخائر طيب النيات، والله المستعان.

والمرء داء الفضلاء، فحتى أهل العلم والفضل لم يسلموا من ضر تلك الإحنة النفسانية - ومرجعها الحسد لدى فئام، وحب العلو لدى آخرين - فترى في ردود بعضهم على بعض - مع أهميتها - انتصاراً ظاهراً للنفس، وهضماً قبيحاً لحق أخيه، وإشاعة لعيبه الذي لا علاقة له بما رُدَّ عليه فيه، وتزيّداً وتكبّراً ورتع

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٢٨٧).

(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٣٧/٢

(٣) كتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٦٧).

(٤) البخاري (١).

عرض حرام. ولو راجع الفقيه نفسه لرأى أنه منتصر لهواه لا لهداه، وقصدنا بعضهم وهم قلة بحمد الله تعالى، وإلا فالأكثر من ردودهم وحواراتهم كالماء الزلال، والوبل الهتان، والشهد المصفى، والنفع العميم، والعلم الأصيل، والهدى القاصد المستقيم، والله الحافظ الهادي العاصم المستعان الكريم.

٧- الهوى.

الهوى يهوى بصاحبه في الهاوية قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] «أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] قال ابن عباس: «كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول».

ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] أي: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع،

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ١١٣).

وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا^(١). فمن عصم من شر هواه فقد عصم من الشر كله.

٨- البغي عند الخلاف.

وهي واقعة بكثرة في المسلمين، ولم يسلم منها حتى بعض أكابر أهل العلم والدعوة ولا قوة إلا بالله، وقد حاولت علاج ذلك في كتاب «ولا تفرّقوا». وبالله تعالى التوفيق.

٩- التعصب لغير الحق.

وهي آفة سوداء في ثوب المؤمن، وهي تابعة للهوى، ودالة على ضعف التسليم لله، ووهن الإسلام في القلب، فالإسلام عقدٌ على الاستسلام لله واتباع دينه جملة وتفصيلاً.

وفي الساعة التي يولي المرء ظهره للحق معنقاً في طول باطله؛ فقد أطلق بعض ما عقده من شعب الإيمان، وبحسب إطلاقه وحنثه وخلفه يكون بعده وخذلانه وخيبته.

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةِ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ»^(٢).

(١) البزار (٨٠) وغيره. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤ / ٣٠١).

(٢) مسلم (٢٢/٦) والعُمِّيَّة: الجهالة والضلالة، وهي فعيلة من العمى. فقُتِلَ: حالة

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا في غزاة - قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق - فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصاري: يا للأنصار! فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟!» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها متنة»^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ، وهم أمته، وقد وصفهم الله بذلك كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهذه في حقه ﷺ، وفي حقهم قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الفرقان: ١١٠] وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٧١].

القتيل، أي فقتله قتل جاهلي. عصبية: العصبية: هي التعصب والمحاماة والمدافعة انحيازاً للطرف ضد آخر.

(١) سنن الترمذي (٣٣١٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو فرض كفاية يسقط عن البعض البعض كقوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة، فبهذا إجماعهم حجة، وإذا تنازعوا في شيء ردوه إلى الله ورسوله.

فإذا تقرر هذا؛ فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله، وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه، فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ، ولا يقول إلا لكتاب الله عز وجل.

ومن نصب شخصاً - كائناً من كان - فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل اتباع الأئمة والمشايع؛ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم. فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به فهذا زاجر. وكما أن القلوب تظهر عند المحن.

وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله؛ أو أخبر الله به ورسوله؛ لكون ذلك

طاعة لله ورسوله.

وينبغي للداعي أن يقدم فيما استدلوا به من القرآن؛ فإنه نور وهدى؛ ثم يجعل إمام الأئمة رسول الله ﷺ ثم من بعده كلام الأئمة.

ولا يخلو أمر الداعي من أمرين:

الأول: أن يكون مجتهداً، فالمجتهد ينظر في تصانيف المتقدمين من القرون الثلاثة؛ ثم يرجح ما ينبغي ترجيحه.

الثاني: المقلد، فيقلد السلف؛ إذ القرون المتقدمة أفضل مما بعدها. فإذا تبين هذا فنقول كما أمرنا ربنا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ونأمر بها أمرنا به، وننتهي عما نهانا عنه في نص كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. فمبنى أحكام هذا الدين على ثلاثة أقسام: الكتاب والسنة والإجماع^(١).

١٠ - سوء الظن.

قصدٌ لم يفهم، أو فهمٌ لم يقصد، من هذا التَّور انقذح شرر نيران العداوات بين

(١) مجموع الفتاوى (٢٠-٢١ / ٨).

كثير من عباد الله، والله تعالى قدر بآنا ووعظنا بأمرين: التثبت وإحسان الظن، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْتَسِبُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] «يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً» (١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير» (٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباعضوا،

(١) رواه أحمد في الزهد كما في الدر المنثور (٥٦٥/٧).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٩٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (٢٢٣/٣) «هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات». عن محقق تفسير ابن كثير.

ولا تدابروا، وكونوا - عباد الله - إخواناً»^(١).

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»^{(٢)(٣)}.

ومن ساء عمله ساء ظنه، فهو يرى غيره بعين طبعه لا عين إنصافه، وقد قال أبو الطيّب:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ
وقد حذرنا ﷺ مِنْ وَضَرِ سَوْءِ الظَّنِّ وعاقبة اتّباعها فقال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»^(٤).

١١ - التنافس على الدنيا.

بما أن معيار الغنيمة عن بعض من خُذِلُوا حطاماً فإن؛ فلا عجب إذن من تهالك فراش قلوبهم على نارها، وتزاحم رغائبهم على زائلها، فالقلوب غير المحفوظة بحب الله والدار الآخرة هي كالفراش التائه حول ضرام الموقدة، والله المستعان.

(١) البخاري (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) مسلم (٢٥٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٧٧) مختصراً.

(٤) البخاري (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣).

قال ﷺ: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟» قيل: نكون كما أمر الله، قال: «أو غير ذلك! تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»^(١).

إن من عجائب الدنيا أنها لا تنفي لعاشق، ولا تدوم لواثق، ولا تبقى لمحِب، حالها مع المخلد إليها المكتفي بها كحال الأعشى مع محبوبته إذ قال:

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ
وَعُلِّقْتُهُ فَتَاةً مَا يَحَاوِلُهَا وَمَنْ بَنِي عَمَّهَا مَيِّتٌ بِهَا وَهْلُ
وَعُلِّقْتَنِي أُخَيْرَى مَا تَلَأَمُنِي فَاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ خَبْلُ
فَكُلُّنَا مُغْرَمٌ يَهْدِي بِصَاحِبِهِ نَاءٍ وَدَانٍ وَخَبُولٌ وَخُتَبَلُ^(٢)

إنها الدنيا؛ الحطام الفاني، والخط الزائل، حلالها حساب، وحرامها عقاب، من تركها تبعته، ومن تبعها تركته، فتنة لكل مفتون، وعون على طاعة الله لكل موفق منيب. وينسبون للإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

(١) مسلم (٢٩٦١).

(٢) وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأهل العراق: «وددت والله لو أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم». فقال له رجل منهم: «أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام؟ قال: وما ذلك؟ قال: ما قاله أعشى بكر حيث يقول:

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

أحبيناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك بن مروان». العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (١/٣٤١).

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ همهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنتَ سَلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

١٢ - حب الرئاسة.

وحب الرئاسة من فروع حب الدنيا، وهو آخر ما يسقط من رؤوس الصديقين، فترى الرجل من أزهد الناس في المال والمتاع حتى إذا هزهزه منصب أو رئاسة تهالك على تحصيله، ونسي ما كان يوعظ به، والله المستعان.
قال الفضيل: «ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس، وكره أن يذكر أحدًا بخير» (١).

ولحبها علامات: قال شيخ الإسلام: «وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً. والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويبغض الكذب والظلم» (٢).

«وأيضاً مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها: أن كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرياسة كامناً لا يشعر به، بل إنه مخلص في عبادته وقد خفيت عليه عيوبه. وكلام الناس في هذا كثير مشهور.

(١) جامع بيان العلم (٢٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٥٩٩).

ولهذا سميت هذه الشهوة الخفية.

قال شداد بن أوس: «يا نعايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية». وقيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: «حبُّ الرئاسة». فهي خفية تخفى على الناس، وكثيراً ما تخفى على صاحبها.

بل كذلك حب المال والصورة فإن الإنسان قد يحب ذلك ولا يدري. بل تكون نفسه ساكنة مطمئنة ما دام ذلك موجوداً، فإذا فقدته ظهر من جزع نفسه وهلعها ما دل على المحبة المتقدمة.

والحب مستلزم للشعور، فهذا شعور من النفس بأمور. والإنسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه لا سيما والشيطان يغطي على الإنسان أموراً. وذنبه أيضاً تبقى ريناً على قلبه قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٥] وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذنب العبد نُكِّت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُفِّلَ قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فالمتقون إذا أصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل

(١) سنن الترمذي (٤٣٤ / ٥) (٣٣٣٤) وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني.

ذلك فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلومًا، ولكن الطيف يمنعهم عن رؤيته»^(١).

١٣ - اختلاف الصفوف في الصلاة.

اختلاف الظاهر في الصفوف بالمخالفة يعقبه اختلاف القلوب في الباطن بالمجافة، حتى إذا اختلفت القلوب تخالفت الوجوه، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لَتَسُونَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم» متفق عليه، وفي رواية لمسلم: كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا حتى كأننا يسوي بها القداح^(٢) حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه. ثم خرج يومًا فقام حتى كاد أن يكبر فرأى رجلا باديًا صدره، فقال: «عباد الله، لتسوين صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»^(٣). فتأمل شؤم المخالفة في الصف بالوعيد بأن يختلفوا في وجوههم ويتعادون.

قال ابن دقيق العيد: «وقوله: «أو ليخالفن الله بين وجوهكم» معناه: إن لم تسووا، لأنه قابل بين التسوية وبينه، أي الواقع أحد الأمرين: إما التسوية أو المخالفة.

والذي يظهر من قوله: «أو ليخالفن الله بين وجوهكم» أنه راجع إلى اختلاف القلوب وتغير بعضهم على بعض، فإن تقدم إنسان على الشخص أو

(١) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٤٦).

(٢) القداح: هي خشب السهام.

(٣) البخاري ١٨٤/١ (٧١٧) ومسلم ٣١/٢ (٤٣٦) (١٢٧) و(١٢٨).

على الجماعة وتخليفه إياهم من غير أن يكون مقامًا للإمامة بهم قد يوغر صدورهم، وهو موجب لاختلاف قلوبهم، فعبر عنه بمخالفة وجوههم؛ لأنّ المختلفين في التباعد والتقارب يأخذ كل واحد منهما غير وجه الآخر.

فإن شئت بعد ذلك أن تجعل الوجه بمعنى الجهة، وإن شئت أن تجعل الوجه معبرًا به عن اختلاف المقاصد وتباين النفوس، فإن من تباعد عن غيره وتنافر زوى وجهه عنه. فيكون المقصود: التحذير من وقوع التباغض والتنافر.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «أو ليخالفن الله بين وجوهكم» يحتمل أنه كقوله: «أن يحول الله صورته صورة حمار»^(١) فيخالف بصفتهم إلى غيرها من المسوخ، أو يخالف بوجه من لم يُقَمَّ صِفُّهُ ويغير صورته عن وجه من أقامه، أو يخالف باختلاف صورها بالمسخ والتغيير»^(٢). قلت: وتفسير مخالفة الوجوه بالمسخ ليس بظاهر، لاختلاف ذنب من لم يُقَمَّ الصف عمّن سبق الإمام فتوَعَّدَ بالمسخ، والراجح: أن المخالفة إنما هي بالقلوب أوّلاً، ثم بالوجوه ثانيًا، جزاءً وفاقًا. والله أعلم.

١٤ - النجوى بين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارٍ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا

(١) البخاري (٦٩١) ومسلم (٤٢٧) واللفظ لمسلم: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار».

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١ / ١٣٦).

بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿[المجادة: ١٠]﴾ أي: إنما النجوى - وهي المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي إذا كان في ذلك أذى على مؤمن، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةٌ فَلَا يَتَنَاجَيْنَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنْ ذَلِكَ يَحْزَنُهُ» (١)(٢).

١٥ - كثرة المزاح.

المزاح لا بأس به على الندرة أو في المرة تلو المرة، بحيث لا يكون طبعاً معتاداً، ولا يكون كذباً ولا مشتملاً على محرم ولا أذى، وقد كان ﷺ يُفَاكِهِ أصحابه ويداعبهم ويمازحهم، لكنه لا يقول إلا حقاً وصدقاً، وبإدخال السرور والفرح بلا أذية.

أما إن طغى المزاح على المرء، بحيث لا يكاد يخلو مجلسه من دعابات وفكاهات حتى يُعرف بها فليس هذا بجيد، ويزيد الأمر إن استمرراً إضحاك الناس على الناس، فهناك تُبذر بذور الضغائن السامة للأخوة، والملاحقة للألفة

(١) المسند (٤٣١/١) مسلم (٢١٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ٤٥).

والاجتماع، وكم من كلمة أراد بها صاحبها المفاكهة والممازحة ألقت ضغائن وإحنا نتجت حرباً وقتلاً، والعامل من اتعظ بغيره.

وبالجملة؛ فالمزاح لا بد أن يكون بقدر، وأن تحفظ له آدابه وأوقاته وأشخاصه، فليس كل وقت يصلح له ولا كل شخص يتقبله، ولا كل حال يكون مناسباً له. وبالله التوفيق.

عن أنس بن مالك قال: أتى النبي ﷺ على بعض نساءه - ومعهن أم سليم - (وفي طريق أخرى عنه: أن البراء بن مالك كان يحدو بالرجال، وكان أنجشة يحدوا بالنساء، وكان حسن الصوت) فقال النبي ﷺ: «يا أنجشة! (١) رويداً سوقك بالقوارير» (٢) قال أبو قلابة: فتكلم النبي ﷺ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه. قوله: «سوقك بالقوارير» (٣).

وعن أبي هريرة، قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً» (٤).

وعن بكر بن عبد الله قال: «كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطين، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال» (٥).

(١) أي: وهنّ على الإبل وأنجشة يحدو بهن وكان حسن الصوت.

(٢) قال القرطبي: والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية.

(٣) الأدب المفرد وصححه الألباني (١٩٩/ ٢٦٤).

(٤) الأدب المفرد وصححه الألباني (٢٠٠/ ٢٦٥).

(٥) الأدب المفرد وصححه الألباني (٢٠١/ ٢٦٦).

وعن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمّله، فقال: «أنا حاملك على ولد ناقة!». قال: يا رسول الله، وما أصنع بولد ناقة؟! فقال رسول الله ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق»^(١).

وعن أنس بن مالك قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النّغير»^(٢).

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن للمزاح إزاحة عن الحقوق، ومخرجاً إلى القطيعة والعقوق، يصم المازح ويؤذي الممازح.

فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء، ويجري عليه الغوغاء والسفهاء. وأما أذية الممازح فلأنه معقوق بقول كربه وفعل مُمَضٍّ، إن أمسك عنه أحزن قلبه، وإن قابل عليه جانب أدبه. فحقُّ على العاقل أن يتّقيه، وينزّه نفسه عن وصمة مساوئه.

قال عمر بن عبد العزيز: «اتقوا المزاح فإنها حمقة تورث ضغينة».

وقال بعض الحكماء: «إنما المزاح سبَابٌ إلا أن صاحبه يضحك». وقيل: «إنما سمي المزاح مزاحاً؛ لأنه يُزيح عن الحق». وقال بعض الحكماء: «خير المزاح لا يُنال، وشره لا يقال».

(١) الأدب المفرد وصححه الألباني (٢٠٢/٢٦٨).

(٢) الأدب المفرد وصححه الألباني (٢٠٣/٢٦٩) وانظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤ / ٤٩٠).

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحه زالت هيئته، ومن ذكر خلافه طابت غيئته». وقال بعض البلغاء: «من قلّ عقله كثر هزلُهُ»!

وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال: «يصبُّك أحدكم صاحبه بأشدّ من الجنذل، ويُشقُّه أحرق من الخردل، ويفرغ عليه أحرّ من المرّجل، ثم يقول: إنما كنت أمازحك!» وقال أبو نُوَاس:

خُلّ جنبيك لرامٍ وامضِ عنه بسلامٍ مُتْ بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألجم فاهُ بلجامٍ ربّما استفتحَ بالمزح مغاليقَ الحِجَامِ
والمنايا آكلاتُ شاربَاتٍ للأنام

واعلم أنه قلما يغري من المزاح من كان سهلاً، فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين لا ثالث لهما:

إحدهما: إيناس المصاحبين والتودد إلى المخالطين. وهذا يكون بما آنس من جميل القول، وبسط من مستحسن الفعل.

وقد قال سعيد بن العاص لابنه: «اقتصد في مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرّئ عليك السفهاء، وإن التقصير فيه يفرض عنك المؤانسين، ويوحش منك المُصاحبين».

والحالة الثانية: أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سَأَمٍ، وأحدث به من همٍّ. فقد قيل: لا بد للمصدور أن ينفث. ولأبي الفتح البستي:

أفدّ طبعك المكدودَ بالجدِّ راحةً يُجِمُّ وعَلَّلهُ بشيءٍ من المزح

ولكن إذا أعطيتُه المرح فليكن بمقدار ما تُعطي الطعام من الملح وقد كان النبي ﷺ يمزح على هذا الوجه. فمن مزاحه ﷺ ما روي أن عجوزاً من الأنصار أتته فقالت: يا رسول الله أدع لي بالمغفرة. فقال: «أما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز»، فبكت. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أما قرأت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرْيَا تُرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥]» (١).

وأنته أخرى في حاجة لزوجها فقال لها: ومن زوجك؟ فقالت: فلان. فقال لها: الذي في عينه بياض؟ فقالت: لا. فقال: بلى. فانصرفت عجلي إلى زوجها وجعلت تتأمل عينيه، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخبرني رسول الله ﷺ أن في عينيك بياضاً. فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سوادها.

وأتى رجل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إني احتلمت على أُمِّي. فقال: أقيموه في الشمس واضربوا ظلّه الحد.

وسئل الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف. وقيل له: ما اسم امرأة إبليس. أعاذنا الله منه.؟ فقال: ذاك نكاح ما شهدناه.

وقال رجل لغلام: بكم تعمل معي؟ قال: بطعامي. فقال له: أحسن قليلاً. قال: فأصوم الإثنين والخميس.

وقد كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسترسلاً في مزاحه. روى ابن قتيبة في

(١) صحيح الألباني نحوه في الصحيحة (٢٩٨٧).

المعارف أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارًا قد شُدَّ عليه برذعة، فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق قد جاء الأمير.

ومن مستحسن المزح ومستسمح الدعابة ما حكى الزبير بن بكار عن الكندي أن القشيري وقف على شيخ من الأعراب فقال: يا أعرابي ممن أنت؟ فقال: من عقيل. قال: من أي عقيل؟ قال: من بني خفاجة.

فقال القشيري: رأيت شيخًا من بني خفاجة. فقال الأعرابي: ما شأنه؟ قال: له إذا جنّ الظلام حاجة. فقال الأعرابي: ما هي؟ قال: كحاجة الديك إلى الدجاجة. فاستعبر الأعرابي ضاحكًا، وقال: - قاتلك الله - ما أعرفك بسرائر القوم.

فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته، ولسانه نزه، وعرضه مصون.

وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة وإن كان مستكره الفحوى، والنزاهة عن مثله أولى.

والقول في الضحك كالقول في المزاح، إن تجافاه الإنسان نفر عنه وأوحش منه، وإن ألفه كانت حاله ما وصفنا. فليكن بدل الضحك عند الإيناس تبسمًا. وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التبسم دعابة».

وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي هو قد يكون استهزاءً وتعجبًا. وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه. فهذا رسول الله ﷺ وهو أملك الخلق لنفسه، قد تبسم حتى بدت نواجذه. وإنما كان ذلك منه

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ»^(١).

فمزاحه ﷺ كان وجه الإيناس لأصحابه، قال ابن مفلح رحمه الله تعالى في بيانه لأدب المزاح: «وقال ابن عبد البر: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح لما فيه من ذميم العاقبة. ومن التوصل إلى الأعراض واستجلاب الضغائن وإفساد الإخاء».

وكان يقال: لكل شيء بدء، وبدء العداوة المزاح. وكان يقال: لو كان المزاح فحلًا ما ألقح إلا الشر. وقال سعيد بن العاص لا تمازح الشريف فيحقد، ولا الدني فيجترئ عليك. قال أبو هفان:

مازح صديقك ما أحبّ مزاحًا وتوق منه في المزاح مزاحًا
فلربما مزح الصديق بمزحة كانت لباب عداوة مفتاحًا
وقال آخر:

لا تمزحنّ فإذا مزحت فلا يكن مزحًا تُضاف به إلى سوء الأدب
واحذر ممازحة تعود عداوة إن المزاح على مقدّمة الغضب
وقال بعض الشعراء:

الكبر ذلٌ والتواضع رفعة والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرص فقرٌ والقناعة عزّة واليأس من صنع الإله قنوط^(٢)

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (١ / ٣٩١ - ٣٩٦) مختصرًا.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢ / ٣٢٢ - ٣٢٦) مختصرًا.

١٦ - المعصية.

شؤم الذنوب لا حدّ له، وضررها لا نهاية له، وشررها يعلق في ثوب إيمان صاحبها ما لم يطفئه بتوبة واستغفار، وقتامها يصمُّ محيّا دينه سُخَامًا ما لم يقلع ويؤبّ للتّواب العفو الغفار، ومن هتك ستر محارم الله فهو حري بنقص معية ربه له بحفظه وعنايته وتوفيقه وتيسير الخير له، ومن تاب تاب الله عليه، ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

ومن الشار المرّة للمعصية الجفوة في قلوب العباد للعاصي حتى وإن لم يعلموا معصيته، فيُحسّون بنوع نفرة منه، فالأرواح الطيبة تشمُّ الخيانة الخفيّة، وأيُّ خيانة أشنع من خيانة العبد ربّه الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وما من خير له إلا منه، وما من شرّ دفع ورفع عنه إلا من لدنه، ﴿وَأَتَذَكَّرُ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنسَنَ لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا اللَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ﴿وَمَا يَكُرُّ مِن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعَّرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

والعاصي المُصرُّ قاسي القلب، فيركب المعصية غير مبال بسوء العاقبة، فلا يرفعى حدود الله أمرًا ونهيًا، حرمة وفرضًا، ولا يبالي بحرمة قطع رحمه، أو هجر مسلم لدنيا، أو بغْي، أو أرادة علو في الأرض، ولا يهّمه تغليظ الوعيد على من فعل ذلك. حاله:

فَنِعَمَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَخَازِي وَبُئْسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَعَالِي

جمعت السوء، لا حياءَ ربِّي وأبواب السفاهة والضلال
وإن المعاصي ذاتها سببٌ للتشاحن، ولو تأملت قضايا الشحاء بين الناس؛
لرأيت كثيرًا منها كان شره معصية، وابتداؤه ذنب، ولو اتقى ما فعل، ولو لم
يغترّ بربه لارعوى، والله المستعان.

وما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة، وإن من البلاء المبين المشاحنة
والخصومات بين المؤمنين. قال أحد السلف: «إني لأعصي الله فأرى ذلك في
خلق دابتي وامراتي».

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ
أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُزِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْكُمْ نَصْرَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾
[الأنعام: ٦٥] «ومعنى يلبسكم أي يخلطكم، من الالتباس، والشيع هي الفرق.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ
عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُزِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ
بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون» أو قال: «هذا أيسر»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه
الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أما

(١) البخاري (٤٦٢٨)، (٧٤٠٦).

إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد»^(١).

وعنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه، عز وجل، طويلاً قال: «سألت ربي ثلاثاً، سألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها. وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها»^(٢).

وقال جل وعز: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) فقلوه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] أي: من فضل الله

(١) المسند (١/١٧٠) وسنن الترمذي (٣٠٦٦) واستغربه. وضعفه الذهبي وأحمد شاكر والألباني والأرنؤوط، وهو الأشبه، وضعفه من جهة أبي بكر بن أبي مريم. قال في «التقريب»: «ضعيف، وكان قد سُرِقَ بيته فاختلط». وحسنه حمود التويجري في إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة ٢٧/١ وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٧/٤٢٨): «قال النبي ﷺ: «إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد». فقد عرف تأويلها، وهو وقوع الاختلاف والفتن، وإن لم يعرف متى يقع، وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته، فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية، وغيره قد لا يعرف ذلك، أو ينساه بعد ما كان عرفه، فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن، فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً، وما أَرَانَا من أهلها، وإذا نحن المعنيون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].»

(٢) المسند (١/١٧٥) ومسلم (٢٨٩٠).

ومنه ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩] أي: فمن قبلك، ومن عملك أنت كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال السدي، والحسن البصري، وابن جريج، وابن زيد: ﴿فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ أي: بذنبك. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ عقوبة يا ابن آدم بذنبك.

وقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها»^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها، بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]

وقال أبو صالح: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩] أي: بذنبك، وأنا الذي قدرتها عليك»^(٢).

(١) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٦٣) (٧ / ٢٠٧) باختصار وتصرف.

١٧- المنافقون.

المنافقون لا يألون جهداً في تفريق المؤمنين، وخضد شوكتهم، وشق عصاهم وكسرهما، وقد بين الله تعالى ذلك في تنزيهه فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧] «فوصفهم بحرصهم الشديد على تفريق المؤمنين، ويريدون بعضاً من الذين يصلون بقاء أن يصلوا معهم في مسجدهم تفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً وترقباً لمن حارب الله ورسوله من قبل بنائه وهو أبو عامر الفاسق.

ويكفي من خسيس صفاتهم أن فرح المؤمنين حزنهم ومصيبتهم سرورهم ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ أَلَّفَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]» (١).

ويا صحبي: احذر صاحب السوء، وخلال السوء، وممارسة أهل السوء، ولكل خلة باب، ولكل طريق خطوة أولى، والله المستعان.

إِذَا جَارَيْتَ فِي خُلُقٍ دَنِيًّا فَأَنْتَ وَمَنْ تُجَارِيهِ سَوَاءُ
رَأَيْتُ الْحَرَ يَحْتَنِبُ الْمَخَازِي وَيَحْمِيهِ عَنِ الْغَدْرِ الْوَفَاءُ
وَمَا مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا سَيَّأَتِي لَهَا مِنْ بَعْدِ شِدَّتِهَا رَخَاءُ

(١) الحث على سلامة الصدر. علي الدهامي (٣٥ - ٥٠) بتصرف وزيادة واختصار.

١٨ - سوء الفهم.

العاقل هو من يعمل المعروف في الناس ويطلب أجره من رب الناس لا من الناس، والله لا يضيع أجر المحسنين، ومن كان كذلك فقد ربحت صفقته وسبق مع السابقين سبقه، وثقل في ميزان الصالحات أجره، فمن عامل الله ربح، ومن عمل لأجله أفلح. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨].

وإن كثيراً من أسباب الشحنة بين الناس عائد لسوء الأفهام، فبين مقصود لم يفهم، وفهم لم يقصد؛ ضاعت الأفهام، فانقطعت أواصر الصلات، ووقع تنافر كثير من العالمين. وإن للعجلة واستباق سوء الظن وضعف الصبر نصيب من أحمال ذلك الفهم المنكوس. ومتى اجتمعت السوءتان: سوء الفهم، وسوء الظن؛ ألقحتا الفرقة بين عباد الله.

وبالجملة؛ فعليك الاجتهاد في إعدار نفسك من الناس بنصحك ووضوحك واستيفاء أطراف الأمر بياناً وتفصيلاً حتى لا يطرأ مشكل فيفتح لشیطان التحريش أبواباً من إفساد ذات البين وفرقة الأحباب.

واعلم أنك في النهاية مسؤول عما تقول وتفعل، ولست مسؤولاً عما يفهم الناس إن كانوا لا يدركون المعنى أو السياق أو الحال، أو يسبقون الحال بسوءات الظنون، وبئس مطية الرجل سوء ظنه بلا إلقاء. ولكن كما أسلفت إليك: اجتهد في إحسان النية وجودة العمل على وفق الشرع وتوضيح المقصود، ثم لا يضرك لو عاداك أهل الأرض قاطبة.

واللسان مغرافُ القلب، والأفعال مرآة الجنان، وكان الحسنُ رحمه الله تعالى يقول: «لسانُ العاقل من وراء قلبه، فإن عَرَضَ له القولُ نظر، فإن كَانَ له أن يقولَ قال، وإن كان عليه القولُ أَمْسَكَ، ولسانُ الأحمقِ أمامَ قلبه، فإذا عَرَضَ له القولُ قال، كان عليه أَوْ لَهُ» (١).

وبالجملة؛ فالاعتبار بوزن الكلام قبل إطلاق القول، وإحسان الظن قبل عقد القلب على سيء الظنون، فإن كان الأمر عائدًا لرأي؛ فأراء الاجتهاد للعرض، وليست للفرض، ومتى تسربل الناس بإحسان الظنون، ومحاولة الاستيعاب قبل العتاب؛ سلموا من حَزَازَاتِ الأحقاد، فحَقَّتْ ظهورهم يوم المعاد. ولا قوة إلا بالله تعالى.

١٩- الكبر.

لا تجتمع سلامة الصدر مع الكبر، فالصدر المتكبر لا يتسع لغير ذات صاحبه الحمقاء، فكيف يسمح لداء الكبر أن يمسَّ قلبه، وينفث في جوفه، وينفذ في جنبه، ويتوغَّل في فؤاده، ويتربَّع في سويدائه، وهو يعلم أن الكبرياء رداء الجبارِ جلَّ جلاله، والعَظَمَةُ إزاره، وأنَّ المتكبر محروم من جنة رب العالمين، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» (٢)، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه

(١) نسبه إليه في الكامل ٢/٧٩

(٢) أبو داود (٤٠٩٠) وغيره، وصححه الألباني.

مَثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(١). وقد خاب من أولاد آدم من أصاب قلبه داء كبر!

واعلم أنّ الكبر نوعان: كِبَرُ الرَّأْيِ (بَطَرُ الْحَقِّ)، وَكِبَرُ الْقَدْرِ (اِحْتِقَارُ الْخَلْقِ)، فاسأل على الدوام معافاتك منه، فلا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة كبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإنّ المتكبر أحمق مخذول، ولقد وقفتُ على عُلَيْمٍ صُدِّرَ قَبْلَ إِبَّانِهِ، فاستصلف واستكبر وبغى، حتى تعاظم على شيخ بقدر شيوخ شيوخه في مسألة كان الشيخ قد جمعها وفحصها وعلمها حين كان ذلك الغلام حيواناً مَنْوِيّاً!

فالكبر له دافعان كلاهما مؤثران بفساد في الصدر على قدرهما:

الأول: ردُّ الحق، وهذا إنما يكون لمن رأى نفسه أكبر من الحق، مهما تدبَّر وتزَيَّف واعتذر وتأوَّل بخلاف ذلك. لهذا فكبر بَطَرُ الْحَقِّ هو من أكبر جند إبليس الصادِّين عن سبيله الله تعالى، فكن تابعاً مقوِّداً للحق حيثما حلَّتْ ركائبه، وتقلَّبَتْ في العالمين أوجُهُهُ، فالحق ابتلاء الصادِّين الثابتين من المباحِّين المرتابين، فإنَّه كثيراً ما يأتي على خلاف شهوة النفس وهواها، فمن هنا جاء الابتلاء الكبير: أَيْتَبِعْ نَفْسَهُ هَذَا أَمْ هَؤُلَاءِ؟

فإياك إياك وركضات الشيطان وحبائله وخطواته ووكزاته وهمزاته ونفخاته، فإنما هي أيام دونها أيام حتى تُنْشَرَ لِلْحِسَابِ بَيْنَ يَدَيِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ الْعَلِيمِ الدِّيان! فاعلمْ قَدْرَكَ، واحزمْ أَمْرَكَ، وألجمْ غُرُورَكَ، واكعمْ كِبْرَكَ، قبل

ألا تحين مناص. فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، والسعيد من كان خميص البطن من زاد إبليس، سليم القلب من داء التعيس، وهل كالكبر خيبة حين تقيس، فاقطع عروقه من قلبك حتى يكون طاهراً مستحقاً لطهور العلم والعمل التواضع والإيمان.

إليك، وإلا لا تُشدُّ الركائبُ ومنك، وإلا لا تُنالَ الرغائبُ
وفيك، وإلا فالرجاءُ مُضَيِّعٌ وعنك، وإلا فالمحدثُ كاذبٌ
لديك، وإلا لا قرارَ يطيبُ لي عليك، وإلا لا تسيلُ السواكبُ

الثاني: احتقار الخلق، وبئس مطية الرجل لقبره كبراً، وزاده لآخرته تعاظماً! ورُبَّ محتقر في الأرض عظيم في الملاء الأعلى، مجهول بين الأنام تتسابق الملائكة الكرام على رفع صحائفه وكتابتها، ورُبَّ معروفٍ في الأرض له جاه ومال ورياسة وأتباع، لا يزن عند الله ذبابةً على جيفة! ويا ربَّ هل إلا عليك المعوّل! وتدبر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

٢٠- التربية والبيئة.

وهذه ليست مضطردة، ولكن لها أثرها البالغ في أكثر الناس حسناً وسوءاً، فالمرء ابنُ بيئته، وولَدُ بَجْدَتِهِ، وثمرَةُ أهله، ونتائج مجتمعه، فإن وفقه الله تعالى ليد حانية، وقلبٍ أبيض، ونفسٍ رؤوم، وصدرٍ طيب، وعقلٍ عليم، وروحٍ ناصح؛ فهو حريٌّ بقطف ثمرة ذلك الطيب بلسان فؤاده، وعمرانها ببيان قلبه،

وإبهاجها جوانب روحه، فإن كانت الأخرى فلا إله إلا الله^(١) من حالٍ وخيم،
وثمره فاسدة، وُسْمٌ في القلب ناقعٌ، إلا مَنْ رَحِمَ الرحيمُ، وعَصَمَ الكريمُ،
وحَفِظَ خيرُ الحافظين، والحمد لله رب العالمين.



(١) هذا أسلوب استعانة، وهو شائع سائع، ومعناه هنا: أستعينُ بالله الذي لا إله إلا هو
من حال أولئك.

وسائل سلامة الصدر

البداية الجيدة نصف النهاية، ومن أحسن ابتداءه وصل لمنتهى رغبته بتوفيق الله تعالى، والعكس بالعكس، والعبد ماش في طريقه وساع في سبيله شاء أم أبى، فلا توقف لرحلته إلا على شفير قبره، فمن كان سعيداً في ماله وفق برحمة الله لإحسان تدبير أمره، فقد أمرنا بحسن العمل مع تيسير كل لما إليه مصيره، فكل ميسر لما خلق له، ومن كان شقياً في بطن أمه فهو ميسر لسيئات العمل، فضع يدك على نابض فؤادك وسله: أي فؤادي؛ متى نبضتك الأخيرة؟ اللهم اجعلها على الإيمان.

واسأل ربك أن يُحييكَ مستقيماً، ويُميتَكَ سعيداً، ويبعثَكَ راضياً مرضياً، فهو لا يخيب رجاء من بصدق رجاءه، وبخوفٍ انتهى عن حدوده، وبحب عبده، فتأله وتعبّد وادع وأضرع وأبشر، فربك عند ظنك به، فلتظن به ما شئت من صالحات الظنون يقيناً وثقةً ومحبةً وإحباتاً وإيماناً.

لذا؛ فعلى المؤمن إحسان تصوّر حاله، وطريقه، ونهايته حال فوزه أو خسارته؛ كيما يمشي في دار الشدة والعنت والبلايا والأحزان بقلب قوي بربه، عظيم الإيمان به، تام التوكل عليه، قد امتلأ قلبه بحب ربه، وعبوديته، والشوق إليه، والأنس به، والثقة به، والرضا عنه، حينها تنقلب الأكدار صفاءً ونقاءً، والشدائد رخاءً ويسراً، والأحزان سعادةً وهناءً وسروراً، فيعيش في الدنيا عيش المشتاقين للآخرة، المرتفعين بأرواحهم عن غناء الدنيا وزحامها وقَتَامِها إلى سماء الإيمان، ومعارض الهدى، وطهارة الرغائب، وراحة القلب، وعلو الهمة،

ورسوخ اليقين بموعد الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

وَمَنْ رَامَ الْعُلَا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ أَضَاعَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ

وقد ثبت في مسند أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي^(١) شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»^(٢). أي: أن المؤمن القوي بربه يقهر شيطانه، ولا ينيله منه مراده بطاعة وساوسه وخطراته.

فالمؤمن يأخذ أمر آخرته بجِدَّةٍ خالصة ثابتة، ومن ذلك حرصه على تحصيل أسباب سلامة صدره لعلَّ الله تعالى أن ينظر إلى صدره وقد برئ من غِلٍّ وغشٍّ وحقْدٍ وحسدٍ لمسلم فيرضى عنه، ومن رضي الله تعالى عنه فاز الفوز الذي ليس بعده مثله.

واعلم أنك حينما تتمسك بالندم فإنك تبقى في الماضي بكل فشله ومراراته وأحزانه، فتفاعل - رحمك الله - وأحسن ظنك بربك، وكن قوياً به، وأبشر.

(١) أَنْضَيْتُ الثَّوْبَ، وَأَنْتَضَيْتُهُ: أَخْلَقْتُهُ وَأَبْلَيْتُهُ، وَنَضَا الْخِضَابُ، نَضُوءًا، وَنُضُوءًا: ذَهَبَ لَوْنُهُ. لسان العرب (١٥ / ٣٢٩). قلت: ولا زال في لسان العامة وصفهم لدواب الركوب: النَّضَا. لأن السير قد أهزلها وشدَّ لحمها.

وقد جاء الحديث بلفظ: «شيطانه» و«شياطينه»، والجمع أجود سنداً. وقال في فيض القدير (٢ / ٤٨٨) في معنى «يُنْضِي شيطانه»: «أي: يُهْرِلُهُ، ويجعله نضوءاً، أي: مهزولاً لكثرة إذلاله له، وجعله أسيراً تحت قهره وتصرفه، ومن أعزَّ سلطان الله أعزَّه الله، وسلَّطه على عدوه».

(٢) أحمد (٨٩٢٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٨٦).

صبرتُ ومن يصبرُ يجدُ غَبَّ صبره أَلَذَّ وأحلى من جَنَى النحلِ في الفَمِ
ولا يأتي مجدُّ الصباحِ إلا لمن صمدوا في وجه الظلام، وعند الصباحِ يحمدُ
القَوْمُ السَّري، ومن جدَّ للخيرِ وَجَدَ، فكن مع الله ولا تبالي، فليس مع الله قطُّ
ضيعة.

إذا اشتملت على اليأسِ القلوبُ وضاقَ لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطنت المكارهُ واستقرَّت وأرستُ في أَمَكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكِشافِ الضُّرِّ وَجْهًا ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ يَمُنُّ به القريبُ المستجيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهت فموصولٌ بها فرجٌ قريبُ

وإن من وسائل تحصيل سلامة الصدر بإذن الله تعالى:

١ - الإخلاص.

مَنْ أسلم وجهه لربه وأخلص له عمله؛ فليس لعدوه الشيطاني فرصة عليه،
ولا مدخل إليه، فللمخلصين شأنٌ وللمخلطين شأن.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاصُ العمل
لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من
ورائهم»^(١)، «أي: لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٨) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٠٣) ومعنى لا يغلّ:

عنه غلّه وتنقيّه منه وتخرجه عنه، فإن القلب يغلّ على الشرك أعظم غلّ، وكذلك يغلّ على الغشّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة^(١).

ومن أخلص دينه لله عز وجل فلن يحمل في نفسه تجاه للمسلمين إلا المحبة الصادقة، والنصح الراسخ، وحينها سيفرح إن أصابتهم حسنة، ويحزن إن أصابتهم مصيبة، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو الآخرة. وكلّ بعين الله جل جلاله.

وإن من محاسن الإيمان المدهشة الجميلة بالرب سبحانه: إحساس المؤمن بالأمان، والسكينة، والطمأنينة، وأنّ هناك من يراه، يحفظه ويكلّؤه ويرزقه ويستره ويعينه ويحرسه، ولكن الملحد البائس عن هذا النعيم بمعزّل، فهو يعاني الوحدة القاتلة، والوحشة الموجعة، والعجز المميت، والقلق الموهض، لأنه يعتقد ويوهم نفسه أنه يعيش لوحده بلا معيّة من خالقه، لا يدري من أين أتى ولا أين يُذهب به! فالحمد لله كثيراً على نعمة الإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

فلما كان الأمر كذلك؛ فلا على المؤمن ما فاته من حطام زائل وإن لهث خلفه

بالضم من الإغلال، وهو الخيانة، وبالفتح من الغل، وهو الحقد والشحناء: أي: لا

يدخله حقد يزيله عن الحق.

(١) مدارج السالكين (٢ / ٩٠).

الهلوعون، بل يَقَرُّ قلبه على متن الإخلاص لربه، والرضا به، والسلامة من إْحْنِ الدنيا، وغُثاء الناس، وقَتَرِ أحقادهم، والله المستعان.

ومن لطيف الوعظ الناصح في هذا الباب: ما ذكره أحد أئمة المساجد الكبار في صلاة التراويح، فذكر أن المصلين خلفه بلغوا خمسة آلاف، وكانوا يخشعون عند قراءته ويكفون، وكان والده يُصلي خلفه، وفي يوم قال لأبيه: يا أبت؛ هل رأيت كثرة المصلين؟ قال: فلم يُجِبني. ثم سألتُه في اليوم التالي، فأجابني بحزن: أي بني؛ كلُّ المصلين جاءوا يصلون لله، إلا أنت! - أي: بملاحظتك إياهم، واحتفائك بكثرتهم، وانشغالك بهم عن حراسة قلبك من الرغبة إلى غير الله تعالى والإخلاص لوجه - قال: فكأنَّما أيقظني أبي من النوم! فله درُّ الآباء، ما أحسن نصيحهم.

٢- الرضا بالله تعالى.

هو المعين النقي الذي لا ينضب، والغيث النмир الذي لا يكفُّ، فقل ما شئت من لأواء الدنيا وعناها وكدرها فستجد البلسم في الرضا.

ومن اكتفى بالله رضي به، فلم تهزه إْحْنِ النفوس وسوءات رغائبها، بل هو جارٍ بقلبه مجاري التسليم والسكينة والسلام، والمؤمن ثابت على الحق عند الامتحان، والخطوب محكُّ القلوب.

والمؤمن متقلب بين الشوق إلى ربه والأنس بقربه، وقد قيل: الشوق: هو ملاحظة بُعد المحبوب وغلبة التطلُّع إلى لقائه، والأنس: هو ملاحظة قرب المحبوب والفرح والاستبشار بحضوره. فالشوق محبة مع بُعد، والأنس محبة مع

قُرب. وواهاً لطيب قلوب المحبين لله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الرّضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليماً نقيّاً من الغشّ والدّغل والغلّ. ولا ينجو من عذاب الله إلّا من أتى الله بقلب سليم. وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرّضا. وكلّما كان أشدّ رُضاً كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغشّ قرين السخط. وسلامة القلب وبرّه ونصحه قرين الرّضا. وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرّضا» (١).

وَلَا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ الْيَالِي	فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ جَلَدًا	وَشِيَمَتِكَ السَّاحَةِ وَالْوَفَاءُ
وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي الْبَرَايَا	وَسَرَّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
تَسْتَرِّ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ عَيْبٍ	يُغَطِّيهِ كَمَا قِيلَ السَّخَاءُ
وَلَا تُرِ لِلْأَعَادِي قَطُّ ذُلًّا	فَإِنَّ شِمَاتَةَ الْأَعْدَا بَلَاءُ
وَلَا تَرْجُ السَّاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ	فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمَانِ مَاءُ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَّأَنِّي	وَلَيْسَ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ الْعَنَاءُ
وَلَا حُزْنٌ يَدُومُ وَلَا سُرُورٌ	وَلَا بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلَا رَخَاءُ
إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ	فَأَنْتَ وَمَالُكَ الدُّنْيَا سَوَاءُ

٣- تلاوة القرآن المجيد، وحفظه، وتدبره، والعمل به.

هنيئاً لمن كان من أهل القرآن وتدبره والتفكر في عظاته. إن الدنيا بحذاويرها لتتصاغر في قلب متدبر القرآن، فمن ذاق حلاوته زهد فيما دونه، ومن زهد فيما دونه لم يحمل على أحدٍ لدنيا، بل سيتسع قلبه للمؤمنين محبة ونصحاً وشفقة.

وتأمل معي نداء الله لنا من فوق سبع سماء حينما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿يونس: ٥٧-٥٨﴾ فليئن فرح الناس بالمال والخطام؛ فلنفرح بالله وبفضل الله ورحمته، وهو القرآن والإسلام، وكفى بذلك غنية وفضلاً.

ألا إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، فاعرفن قدر القرآن. وتذكرن كيف وصف الله القرآن الكريم بأنه الحق إذ قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

إنه الكتاب الذي من قام يقرأه فكأنما خاطب الرحمن بالكلم، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

هو القرآن الذي أدهش العقول، وأبكى العيون، وأخذ بالألباب والأفئدة. إنه ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته وفلاحه في الدارين من تلاوة كتاب ربه آناء الليل وأطراف النهار، وتدبره وإطالة النظر فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، وعقد القلب على العمل به؛ فإن ذلكم يُطلع العبد على جوامع الخير والشر وعلى حال أهلها، ويُريه صورة الدنيا والآخرة في قلبه، ويعمر بنيان الإيمان في فؤاده.

إنه النور الذي لا تطفأ مصابيحُه، والمنهاج الذي لا يضلُّ ناهجُه، هو معدنُ الإيمان، وينبوعُ العلم، ومائدةُ العلماء، وربيعُ القلوب، والشفاء الذي ليس بعده داء ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هَدَىٰ وَبَشَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

واعلم يا صاحبي: إن كان تعظيمُ القرآن ومكانته ومنزلته في قلبك كما يجب للقرآن، وكما يليقُ بكلام الرحمن، فاحمد الله تعالى على هذه النعمة، واسأل الله تبارك وتعالى الثبات على تعظيم هذا القرآن المجيد، وعلى العمل به، أما إن كان تعظيمُ القرآن ومنزلته في قلبك أقل مما يجب وأدنى مما يليقُ بالقرآن العظيم، فتب إلى الله، واستدرك ما كان من نقص، وتدارك ما فات من العمر، فأنت في المزرعة فابذر خيرًا فستوشك على الحصاد، والله ولي المتقين.

قال ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها حلو، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر،

والمناق الذي لا يقرأ القرآن كمثّل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر»^(١).

إنه «كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مُستقيم»^(٢).

وتذكر أن القرآن يحفظك بإذن الله قبل أن تحفظه، وليكن مشروع حياتك أن تتعلمه وتعلمه وتعمل به، فافرح به وكن من أهله تسعد وتفرح وتفز.

والقرآن قد حوى مفاتيح العلوم النافعة طرًا، وقد عرف قدر أهله ذوو الألباب، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَالتَّفْسِيرَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفَقْهِ نَبَّلَ قَدْرَهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحَدِيثِ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي اللَّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ جَزَلُ رَأْيِهِ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ»^(٣). وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(١) البخاري ٩٩/٧، ١٠٠ (٥٤٢٧) ومسلم ١٩٤/٢ (٧٩٧) (٢٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٩١/١) (٧٠٤) والدارمي (٣٣٣٤) والترمذي (٢٩٠٦) ولا يصح مرفوعًا، وروي موقوفًا.

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (٦/١).

قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ، لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَحْدَّ مَعَ مَنْ حَدَّ، وَلَا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى» (١).

فمن كان يرجو أن يفوز بجَنَّةٍ فجَنَّتَه في فهمه إذ يرتلُ
وعش في ظلال الذِّكْرِ تحت لوائه ملاذُ لَنَا في النائبات ومعقِلُ
تباركت يا ربي لك الملك كله فما شئت يا مولاي في الملك تفعلُ
أعنا على حفظ الكتاب وفهمه فأياك نستهدي وإياك نسألُ

إنَّ دَغَلَ الصدر وَوَحَرَهُ مرض خطير يسري على قلب المؤمن فيحرمه معالي الزلفى ومراقى الفلاح، والحازم من استدرك مرضه فعالجه بتدبير كلام ربه، وتمكّن من سخيّمته فسَلَّها لأجل الله واليوم الآخر. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. «والصحيح: أنَّ «مِنْ» هاهنا لبيان الجنس لا للتبعض. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والمحرم من لم يتداو بكتاب الله تعالى، فهو الدواء لكلِّ داء، وهو الشِّفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤْهَل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعَه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ شروطه، لم يُقاومهُ الداءُ

(١) الحاكم في المستدرک (٢٠٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٨١) مرفوعاً، ولا يصح رفعه، ولا بأس بوقفه.

أبدًا.

وكيف تُقاوَمُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال، لصدَّعَها، أو على الأرض، لقطعها، فما من مريضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه.

أما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مُفَصَّلةً، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها. قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فَمَنْ لم يَشْفِهِ القرآنُ، فلا شفاه الله، وَمَنْ لم يَكْفِهِ، فلا كفاه الله^(١).

فليعتن المؤمن بالتدبر والتفكر والتذكر وحضور القلب عند القرآن العظيم، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قراءة سُورَةٍ بتدبُّرٍ ومَعْرِفَةٍ وَتَفْهَمٍ، وَجَمْعِ القلب عليها؛ أَحَبُّ إلى الله تعالى من قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ سَرْدًا وَهَذَا، وَإِنْ كَثُرَ ثَوَابُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ.

وكذلك صلاة ركعتين يُقبل العبد فيهما على الله تعالى بقلبه وجوارحه، ويُفرِّغ قلبه كله لله تعالى فيهما، أَحَبُّ إلى الله تعالى من مِئْتِي ركعة خالية عن

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤ / ٣٥٢) باختصار.

ذلك، وإن كثر ثوابها عددًا. ومن هذا: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ» (١) «(٢)».

واعلم أن للقرآن وتلاوته بركة يهبها الله تعالى لمن شاء من صالح عبيده، وقد ذكر لي العم الفاضل الأستاذ عبد العزيز الدميحي حفظه الله تعالى: أن جازًا له قد تقاعد بالسن النظامي منذ ٣٥ سنة، وكان عمره حين حدّثه ٩٥ وكان يختم القرآن كل ثلاثة أيام على الدوام. وكانت طريقته سهلة يسيرة مباركة، إذ كان يكرّر قبل الأذان بربع ساعة، ويفتح المسجد قبل المؤذن، ويبقى قليلًا بعد الصلاة، مع قليل من تلاوة البيت. فقط. فلا إله إلا الله ما أبرك أعمار الصالحين. وقد ذكر الإمام القارئ إسماعيل بن عياش رحمه الله تعالى عن نفسه أن الله تعالى قد امتنّ عليه بختم كتابه ١٨ ألف مرة. ﴿خَتَمَهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافِسَ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وتدبر مليًا قول ربك الأكرم: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ

(١) أحمد (٨٩٢٩) بسنده عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «سَبَقَ دِرْهَمٌ دِرْهَمَيْنِ»، قالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ، فَتَصَدَّقَ أَجُودَهُمَا، فَأَنْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا». قال محققوه: إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الصحيح غير ابن عجلان، فقد روى له البخاري تعليقًا ومسلم في الشواهد، وهو صدوق لا بأس به. ورواه النسائي في سننه (٢٥٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٤٣)، وابن حبان كما في الإحسان (٣٣٤٧)، والحاكم في المستدرک (٤١٦ / ١)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي بشيء.

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم (٢٩/١) والكتاب أجوبة عن أسئلة حديثية، يناقشها تصحيحًا وتضعيفًا ووضعًا، مع شيء من فوائدها.

فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ [يونس: ٣٧] وراجع تفسيرها ففيها من مغاني العلوم ما لا يحيطه قلم كاتب، والموفق من وفقه الله تعالى.

ولا تنس تنشئة صغارك وأحبائك على القرآن العظيم، قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتاب صيد الخاطر: «كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد شغلوه بحفظ القرآن وسماع الحديث؛ فثبت الإيمان في قلبه»^(١). وفي هذا المعنى قال المخبّل السعدي، واسمه ربيع بن مالك:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئًا فَمَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ

إن تدبر القرآن في الغاية من غذاء القلوب وحياتها وبهجتها وسعادتها وعلمها وبصيرتها وحكمتها وقوتها، فهو قوت وقوة ومدد بإذن الله تعالى.

واعلم أن التلاوة بذاتها تداوي القلب وتشفيه من أدوائه، وتصفيه من أقداره، وتنقيه من غلّه ووحره، أما التدبر ففيه المزيد من البركة الإلهية والمدد الرباني والعلم اللدني، ففي القرآن العظيم أصول العلوم النافعة للأولين والآخرين.

وإذا قرأت القرآن فحسّن به صوتك، وجمل به تلاوتك، وزين به أدائك، فالله يحب جمال الصوت بالقرآن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(٢).

(١) صيد الخاطر ١/٤٩١.

(٢) البخاري (٧٥٤٤) ومسلم (٥٤٥/١).

ومعنى أذن: استمع، فما أجمل حال التلاوة يا أهل القرآن!

وتأمل قوله ﷺ لعبد الله بن زيد رضي الله عنه في الأذان: «ألقه إلى بلال؛ فإنه أندى منك صوتاً»^(١). وفي رواية الترمذي: «فإنه أندى وأمدُّ صوتاً منك». فإن من المقاصد المشروعة في الأذان أن يكون المؤذن صبيّاً جهوريّ الصوت، حتى يصل صوته إلى أبعد مكان، كما يسنّ كونه حسن الصوت، كما أنّ رسول الله ﷺ اختار أبا محذورة رضي الله عنه لحُسْنِ صوته، فجعل الصوت أرقّ لسامعيه، وأوقع في النفس، وأدعى لِسَامِعِهِ إلى تأثرهم بمضمونه، فيكون ميلهم إلى الإجابة أكثر، وبالجملة؛ فجعل الصوت له اعتباراته في نداءات وأصوات الشرع.

وإنّ رنينَ تلاوة الذكر الحكيم ليكشط الدَّغْلَ عن حنايا الصدر المؤمن حتى تكون صقيلاً يرتدّ عنها كل وسواس، وتدبّر الآي يُرْمَمُ مَا وَهَى من أبنية الفؤاد الكليل بكدح الدنيا، ومعاناة لأوائها، ومجاهدة شياطينها، ويشعّ في أرجاء القلب نور الذكر الحكيم.

مِنْ حُظُوظِ أَهْلِ الْقُرْآنِ؟

هنيئاً مريئاً لهم، وبشرى مبهجة لأساريهم، ومنازل سامية لطُهرِ ذواتهم، وهم لذلك أهلٌ، ولكل معروف فعلٌ، كيف وهم أهل الله تعالى وخاصته ومكرّميه وأوليائه، قال إمامهم ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل

(١) أبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩) وصححه الألباني.

كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(١).

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فتدبر كيف وصف الله حملة كتابه بالعلم، وتدبر كيف ذكر الإيتاء. فهو خصيصة يؤتيها من أحب من عباده. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]. وقد كان مُطَرِّفُ بن عبد الله يقول: هذه آية القراء ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر: ٣٠]^(٢).

وتدبر بفرح وحبور قول ربك الأعلى في شأن النعمة بالإسلام العظيم والمنة بالقرآن الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه: «تقرب إلى الله ما استطعت؛ فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فليُنظر، فإن كان يحب القرآن، فهو يحب الله ورسوله ﷺ»^(٣).

(١) أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤) وصححه، وكذا صحيحه الألباني.

(٢) تفسير الطبري ٣٦٦/١٩

(٣) الطبراني في الكبير (ج ٩) (٨٦٥٧). قال الهيثمي في (المجمع) (٧ / ١٦٥): رجاله =

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى لأحد طلابه: «أتحفظ القرآن؟» قال: لا. قال: «واغوثاه لمؤمن لا يحفظ القرآن، فَبِمَ يترنم؟ فَبِمَ يتنعم؟ فَبِمَ يناجي ربه؟». نسأل الله الكريم من فضله العقيم ونؤله الجزيل.

حفظ الله تعالى عقل صاحب القرآن العظيم من الخرف

من بركات القرآن أنه يُرجى لصاحبه وتاليه حفظ عقله من الخرف حتى آخر ساعة من حياته ليرحل لمثواه بعقله، ولعل هذا راجع لأمرين:

الأول: البركة القرآنية لصاحبها، فالعيش مع كتاب الله تعالى تلاوة وتدبراً وحفظاً ومراجعة وعملاً يفيض على صاحبه بركات ربانية خاصة بأهل القرآن، والأمـر في ذلك واضح مشهور، ففيه بركة العلم والإيمان، إذ تُغذّي علوم القرآن جَوْعَةَ عقله للعلم النافع، وتفتح بصيرة قلبه على ما يصلحها، وتملأ جوانح النفس بشراً وسعادة وسكينة وأمناً.

الثاني: أنّ الاشتغال بالقرآن يُحَفِّزُ الذاكرة ابتداءً عبر المحفوظ والمتدبر والمتلو، فمن أسباب الخرف كسل التذكر، ولكن تالي القرآن وخاصة ما كان عن ظهر قلب وكذا ما كان عن تدبر يبقى منشغلاً بإعمال الفكر والتذكر فيبَعُدُ عنه النسيان، فليس مع القرآن كسل ذهني، كما أن القرآن العظيم بذاته مناعة وعلاجاً، فكما أنه رقية بإذن الله من أدواء الجسد والقلب والروح، فهو كذلك للعقل، والحمد لله رب العالمين.

ثقات. وقال أبو إسحاق الحويني في تحقيقه لتفسير ابن كثير (١/ ١٥٢): إسناده صحيح.

ولا أعلم امراً لزم القرآن في كهولته إلا حفظ الله عقله في شيخوخته، وكل من وقفت عليه من كبار السن الذين أصاب عقولهم الخرف لا أعلم منهم واحداً كان ملازماً أوراده القرآنية الكثيفة في كهولته.

وقد ورد عن السلف والخلف من ذلك وصايا وآثار، منها ما جاء عن الخبر ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾» [التين: ٥-٦] قال: الذين قرؤوا القرآن»^(١). قلت: معناه: أن يحفظ الله له عقله من الخرف والزهايمر والخلل ونحوها بحسب تحقيقه التلاوة نيةً وقولاً وعملاً.

وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال: «من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر». ثم قرأ: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]^(٢). وعن السدي رحمه الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] الآية قال: «أرذل العمر هو الخرف». وعن طاووس رحمه الله تعالى قال: «إنَّ العالم لا يخرف». وعن عبد الملك بن عمير رحمه الله تعالى قال: «كان يقال: إنَّ أبقى الناس عقولاً قراء القرآن»^(٣). وعن الشعبي رحمه الله تعالى قال: «من قرأ

(١) الحاكم (٢/ ٥٢٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٠٦).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة ٤٠٢/١٦

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١٤٦/٥

القرآن لم يخرف» (١).

وقد أكد العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي هذا المعنى بقوله: «وقد تواتر عند العامة، والخاصة، أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته، لا يصاب بالخراف، ولا الهذيان» (٢).

وعلى كل؛ فليس المعنى المقصود استحالة إصابة حامل القرآن بالخراف فهو وارد، ولكن حامل القرآن أبعد وأسلم في الجملة من غيره لما ذكرناه، والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

من هو الماهر بالقرآن؟

تدبر - راشداً - حال صحيفة فارغة رُقمت عليها آيات الكتاب العزيز؛ كيف شرفتها ونقلتها لقدسية ألا يمسها إلا طاهر! فكيف بقلب مؤمن نُقشت عليه وحفظت في جوفه آيات الكتاب العظيم؟! نسأل الله الكريم من فضله العميم، وتأمل شاهد ذلك في حديث عصمة بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو جُمع القرآنُ في إهابٍ ما أحرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ» (٣). فهذا من مبيّنات فضيلة حفظ ما تيسر من القرآن الكريم عن ظهر قلب.

فمشروعك العمرى - فاعلم - هو أن يجمع الله تعالى لك القرآن المجيد في صدرك. واعلم أن أكثر أهل المقابر كانت أمنيتهم الكبرى أن يحفظوا القرآن

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧ / ٥٧١

(٢) أضواء البيان ٩ / ٣٣٤

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٣٩٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٦٦).

الكريم، ولكن تقطعت آجالهم عن إدراك أمانهم تسويقاً أو انشغالاً بالخسيس الفاني عن النفيس الباقي، ومنهم المعذور المأجور، ومنهم الواصل المشكور، والموفق من وفقه الله تعالى.

وعليه؛ فيما أنك في دار العمل فاعمل، فالدرجات العالية محتاجة لعمل عظيم متقبّل، فكيف بمن يلقي وجه ربّه وقد جمع القرآن في صدره خالصاً عاملاً مؤمناً صالحاً! فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتّع فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران»^(١). والماهر: الحاذق بالقراءة، والسفرة: الملائكة^(٢)، ومعنى يتتّع: أي: يتردّد في قراءته، ويتبدّل فيها لسانه^(٣).

فالماهر بالقرآن هو الضابط له حفظاً ولفظاً. فإن ضَعُفَ الحفظُ أو نقص إتقان اللفظ؛ كان نقص المهارة بقدر ذلك.

ونبه إلى أنّ كثيراً من أهل الخير وطلبة العلم يظنون أنّ المهارة بالقرآن محصورة في مهارة التلاوة فقط، وذلك بإقامة الحروف والوقوف، فاقترضوا على إتقان الأداء دون إتقان الحفظ، وهذا قصور شديد، فالحفظ مطلب شرعي، وهو داخل ابتداءً في المهارة المذكورة في الحديث، فالمهارة الممدوحة فيه جامعة بين مهارتي الأداء والحفظ، وَوَاهَا لمن جمعها!

(١) البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٦).

(٢) النهاية ٤ / ٣٧٤.

(٣) النهاية ١ / ١٩٠.

وعلى قدر نقص جودة الأداء أو الحفظ يكون نقصُ المهارة بقدره، فاجتماعهما هو أعلى المراتب، ويليه إتقان الأداء والمهارة فيه، ثم يليهما إتقان الحفظ والتحمّل والجمع، والله المستعان، فسلعة الله غالية، وَمَنْ يَطْلُبِ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ الْمَهْرُ.

وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْمَى إِلَى الْعِزِّ نَالَهُ وَدُونِ الْعُلَى ضَرْبٌ يُدَمِّي النَّوَاصِيَا
وتوضيح ذلك: أن للمهارة مراتب أعلاها مهارة التلاوة والحفظ جميعاً، وتليها مهارة التلاوة، وتليهما مهارة الحفظ.

وعليه؛ فتَقَيَّدُ مهارته بما أتقنه، فيقال: ماهر في التلاوة، أو ماهر في الحفظ، أما إطلاق الماهر بالقرآن فهي لمن جمعهما، ولكلٍّ أَحَدٍ حَظَّهُ من المهارة بما اكتسبه منها بفضل الله تعالى له، وعلى قدر الإتيان لكليهما يكون تحقيق المهارة وتحصيل مرتبتها بفضل الله تعالى.

والذي لا يلحن بالقرآن لحناً جلياً هو من المهرة بتلاوته، أمّا الحافظ المجوّد الذي لا يلحن حتى اللحن الخفي فهو الماهر حقاً بتلاوته، وهو في مرتبة أعلى من الذي يلحن لحناً خفياً حتى وإن كان حافظاً، ولكن كلاهما ماهر، شريطة ألا يزيد ولا يغلو، فبعضهم يزيد في الغنة والشدة إلى خمس حركات وأكثر، وبعضهم إذا مدّ المدّ يخفض صوته ويمدّه بترجيع مُعَالاً فيه حتى كأنه يأتي بمدّات زائدة، بل وبهمزات مع ذلك المدّ، وإذا قلقل يغلو في قلقلته حتى كأنه يأتي بحرف آخر، وبعضهم يُغْنِيهِ كلحون أهل الغناء، وهذا كله من الغلو

والتكلف والتقعر والتّمطيط^(١) والشّطّط، وهو يهبط بالمستوى المهاري لقارئ القرآن الكريم بحسب غلوّه في التكلف، والقرآن العظيم ليس فيه تكلف، والماهر بالقرآن يقرأه بسلامة نطق، وشرطه ألا يلحن اللحن الجليّ، فيحرص على أن يُخرج الحروف من مخارجها، ويأتي بصحيح حركاتها، مع إحسان الوقف والابتداء. أما لحنه الخفي فهو عفو إن شاء الله تعالى، وإن كان الكمال والتمام والزينة والجمال إنما يكون به.

والذي يظهر أن مرتبة المد متوسطة في الأهمية بين مخارج الحروف وبقية أحكام التجويد، فهي تلي في الأهمية إقامة المخارج، وتتقدّم على بقية الأحكام. ويظهر هذا جلياً من الأمر به؛ فالمدّ هو عماد الترتيل، لأنّ الترتيل هو الترسل والتّودة.

علماً أن التجويد الحقيقي ليس فيه تكلف، ولا تشدّد، ولا ثقل، بل هو سهل متدفق كالماء السلسال، فلا تحسّ فيه عُسر القراءة، فلا يثقل نطقها على اللسان،

(١) لاحظ أنّ الطاء منقلبة عن الدال فأصلها تمديد، من مَطَّ الشيء إذا مدّه. ولعلهم قلبوها إلى الطاء في حال إشارتهم إلى الزيادة غير المقبولة، كما هو عرفهم الآن، قال ابن الأثير النهاية ٣٤٠/٤ في مادة (مَطَطَ): «في حديث عمر، وذكر الطلاء» فأدخل فيه أَصْبَعَهُ ثُمَّ رَفَعَهَا، فَتَبِعَهَا يَتَمَطَّطُ أَي: يَتَمَدَّدُ. أَرَادَ أَنَّهُ كَانَ تُخِينًا. ومنه حديث سعد «وَلَا تَمَطُّوا بِأَمِينٍ» أَي: لَا تَمَكِّدُوا. وفي لسان العرب ٤٠٣/٧: «عن اللّحياني: وَمَطَّ الشَّيْءُ يَمُطُّهُ مَطًّا: مَدَّهُ». ولعلهم اشتقوا منها المطّاط وهو معروف، ويستخرج المطاط الطبيعي من سيقان أشجار خاصة تنمو في المناطق الاستوائية، فمن خصائصه أنه يُمَطَّط؛ أي يُمدّ مرّة بعد مرّة حتى يصل مدى قطعه، والله أعلم.

ولا تنبو عن سماعها الآذان، بل تأخذ بسهولة ويسرها وجمالها الجنان، واعتبر ذلك بكبار القراء في عصرنا، فتسمع حروفَ الجمال في تجويدهم السهل غير المتكلف، وتتذوق نغماتِ الحلاوة في تلاوتهم السلسة العذبة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولا يجعل همته فيما حُجِبَ به أكثرُ الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إمّا بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمدّ الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك. فإنّ هذا حائلٌ للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق ب﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ وضم الميم من ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ووصلها بالواو وكسر الهاء، أو ضمّها ونحو ذلك» (١).

ولا يعني ما ذكرناه الخطّ من شأن التجويد، فالتجويد قد وصل إلينا بالتواتر، فهو مُسنَدٌ سماعيٌّ، ولولا أنه وصل إلينا متواتراً سماعياً لما صارت له ولأهله هذه المنزلة الشريفة والرتبة المنيفة، لذلك فالتجويد عبادة، والواجب إقامة مخارج الحروف والإعراب، أما المرتبة الفضلى من الإتقان المهاري وهو ما يسمّى بالتجويد - أي: الذي لا يلحن اللحن الخفي - فالراجح - والله أعلم - أنها ليست واجبة، ولكن ينبغي الحرص على تحصيلها والقراءة بها، وفيها تنفق أعمار خيرة الصالحين، وليس لمن يتقنها أن يقرأ بخلافها إن تيسّر، وإن كانت ليست من شروط صحة التلاوة الواجبة، فهو كمالٌ وجمالٌ، لا شرط صحة.

وأشبهه ما تمثّل به المهارة في التلاوة بالتجويد هو تزيين الصوت بالقرآن، كما

(١) مجموع الفتاوى (٥٠/١٦).

جاء عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١). أي. بتحسين أصواتكم عند القراءة، فإن الكلام الحسن يزيد حسنًا بالصوت الحسن الجميل. فتزيين الصوت بالقرآن مثل تجويد الحروف من وجه، وإن كانت مرتبة تجويد الحروف أعلى؛ لأن التجويد متعلق بذات الحرف واللفظ، أما تزيين الصوت فمُتَعَلِّقُهُ عموم الأداء الصوتي الترنُّمي للتلاوة، فتجويد القراءة مَرْتَبَةٌ، وتليها تزيينها بالصوت والتَّغْنِي به، فهما - وإن كانتا مرتبتين - إلا أن بابهما واحد، والله أعلم.

إذن فالمهارة التامة إنما يستحق وصفها من أحسن الأداء للتلاوة، وبحفظ القرآن الكريم حتى يجيده كإقامة السهم.

والأصل في المهارة: أنها الحذق بحُسن الأداء بالتلاوة، أما قوّة الحفظ وجودته فهي تبعٌ، وإن كانت داخلة في الحذق والمهارة من حيث العموم، ولذلك يقال: فلان ماهر بالقراءة وفلان يخطئ فيها، بمعنى أنه لا يقيمها، ولا يقال فيما يقابل الحفظ: إن فلانًا ماهر، وفلانًا غير حافظ، وإن كان الحفظ يدخل في المهارة من حيث العموم والتَّبَعِيَّة، وقد يدخل فيها أصالةً بمعنى أن الحافظ ماهر في حفظ الحروف عن الضياع وسردها بلا انقطاع، والأمر واسع بحمد الله تعالى، فمؤدّي القولين إلى ثمرة واحدة: وهي أن الماهر بالقرآن حقًا هو من جمع حفظ القرآن وصحة قراءته.

وعليه؛ فالمهارة هي الحذق في الشيء، أما الحفظ فهو قوة إمساكه. ويعزّز

(١) أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.

هذا شواهدُ اللسان، فمن حيث أصل اللغة إذا قُدِّرَ أن رجلاً حافظاً للقرآن، ويقيمه إقامة السهم، لكنه لا يحسن أداءه، بمعنى أنه يلحن لحناً جلياً أو فاحشاً في مخارج الحروف والحركات، أو لا يحسن الوقف والابتداء؛ فلا يصح لغةً أن يقال: فلان ماهر بالقرآن. مع أنه حافظ له. فالمهارة أخص من مطلق الحفظ، وعكس مثالنا غير صحيح، فإذا افترضنا أن رجلاً يقرأ نظراً من المصحف تلاوةً صحيحة، فيصح لغة وعرفاً أن يقال: فلان ماهر بالقرآن، حتى وإن لم يك حافظاً - مع التنبيه إلى أن العرف المعتبر هو عرف السلف لا الخلف .. فهذا مقتضى اللغة، والتعنت تارة تكون من جهة عدم إتقان الأداء وهو الأكثر، وتارة من عدم إتقان المحفوظ.

ومن هنا يوبّ أبو عوانة رحمه الله تعالى في مستخرجه باباً سماًه: بابُ ثوابِ الماهر بالقرآن، والحافظ له، وفضله على غير الماهر، وثواب الذي تشقُّ عليه قراءته، وذكر حديث: «الذي يقرأ القرآن وهو له حافظ مع السفارة الكرام البررة، ومثل الذي يقرؤه وليس بحافظ له وهو يتعاهده؛ فله أجران»^(١). وحديث: «مثل الذي يقرؤه وهو يتعائياً فيه وهو عليه شديد له أجران»^(٢).

(١) مستخرج أبي عوانة (٣٨٠٢) وأخرجه مسلم في صحيحه، من طريق وكيع، عن هشام، به، ولم يذكر لفظه، وهذا اللفظ من زوائد أبي عوانة على مسلم، ولفظ: «وهو يتعاهده» أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١١٠ / ٦، من طريق أسود بن عامر، عن شعبة، به.

(٢) مستخرج أبي عوانة (٣٨٠٧).

وإنَّ من مُرَجَّحات القول بدخول الحفظ في إطلاق الماهر بالقرآن: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا بطبعهم لا يلحنون، لسلامة لسانهم وبراءته من العُجمة إلا قليلاً منهم^(١)، وأكثرهم أميون لا يقرأون، فصارت المهارة الواردة في الحديث شيئاً زائداً عما يحسنه جُلُّهم، وهو الحفظ، لأنه مفتقرٌ لمشقة في جمعه وتعاهده على الدوام. ولكن الخطاب النبوي قد جاء مُوجَّهاً إلى الأمة جمعاء، وفيها عجمةٌ ولحنٌ وجهلٌ بالأداء عظيم، فكانت المهارة ابتداءً إنَّما تكون بحسن الأداء، ثم يليه الحفظ التام، ولا يكون ماهراً مطلقاً إلا من جمَّعها.

لذلك؛ فالمهارة بالقرآن لها مراتب: أعلاها: المهارة في الأداء والحفظ، وهي المرتبة الذي لا يدخل الخلاف والتردد في كون صاحبها ماهراً بالقرآن.

والمرتبة التالية: هي مرتبة إحسان إقامة الحروف والمخارج والابتداء والوقف.

أما الثالثة: فهي مرتبة المهارة في الحفظ، وهي غير كافية، ولكن بحسبها يكون نصيبه من المهارة، فله مهارة بحسبها، وله من فضل الله بالقرآن نصيب، والله أعلم.

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والأعجمي، فقال: «اقرأوا، فكلَّ حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه». أخرجه سعيد بن منصور في «فضائل القرآن» من «سننه» (٣١) وأحمد (١٥٢٧٣) وأبو داود (٨٣٠) وغيرهم. وصححه الألباني، وله شواهد.

وبالجملة؛ فكلاهما مقصود لذات القراءة، وعلى قدر تكميلهما يكون تكميل معية السفارة الملكية له، وعلى قدر السلعة يصعب الطريق ويقلُّ سلاكه، وأقلهم الواصلون، وبالله وحده التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

ولأهمية حفظ حروف القرآن العظيم جاء النص عليه في الحديث الشريف، فعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له؛ مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد؛ فله أجران»^(١).

وعليه؛ فهل لفظ الحفظ في الحديث يُعدُّ مفسراً للمهارة في اللفظ الآخر المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهرُ بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتّع فيه، وهو عليه شاقٌّ؛ له أجران»^(٢)، أم أنه مُنْشِئٌ مؤسِّسٌ لمعنى جديد بعد إحياء إقامة الحروف والوقوف؟

الأظهرُ هو ما قدّمناه من أن الحفظ يدخل في المهارة، فالحديث يفسر بعضه بعضاً، ويُكمّل بعضه بعضاً، وحافظ القرآن كله - ويقال له جامع القرآن، وحامل القرآن - موعود إن أتقن التلاوة بأن يكون مع السفرة الكرام البررة. فالحفظ شرط لكمال الفضل، ويظهر هذا من الإشارة إلى التعاهد وهو المراجعة

(١) البخاري (٤٩٣٧).

(٢) البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٦).

بعد أن نصَّ على الحفظ، فقال: «وهو يتعاهده»، ثم ذكر شدته، أي: حال مراجعته على الدوام «وهو عليه شديد».

أما الحديث الآخر فإنه لما ذكر الماهر بالقرآن؛ ذكر ضده بوصفه بالتعته، فقال: «ويَتَعْتَعُ فيه»، والتعته في الكلام: العي، أي: يتردد في تلاوته عيًّا وصعوبة^(١)، فتعته غالبًا ليس مردُّها إلى ضعف المحفوظ، بل إلى صعوبة المنطوق كما هو ظاهر، لذلك وصفه بقوله: «وهو عليه شاق».

وبناء على هذا فإنه ﷺ قد وصف القارئ الذي وعد بكونه «مع السَّفَرَة الكرام البررة» بالمهارة: أي في المتلو، وبالحفظ له. وعليه؛ فلا يختلف الحال بالأمرين؛ سواء قلنا إن حديث الحفظ مفسَّر موضَّح أو منشئ مؤسَّس. فكما أن القارئ ماهرٌ في إقامة الحروف بلا لحن، فهو كذلك ماهرٌ في قراءتها عن ظهر قلب بلا تَتَعْتَعٍ ولا تردُّ ولا تلثم. فالماهر هو الحاذق بالقراءة، والقراءة يشملها جودة الملفوظ والمحفوظ. فتكون رواية: «الماهر بالقرآن» لإقامة الحروف على اللسان الذي يقرأ القرآن، والأخرى لحفظها في الصدر، وإن كانت تدخل في الأولى كذلك بالتَّبَع.

فَمَنْ كان كذلك فهو موعود بأن يكون «مع السَّفَرَة الكرام البررة» والسَّفَرَة: الملائكة. والكرام البررة: هم الملائكة البارون بالطاعات. قال البخاري رحمه الله تعالى: «السفرة: الملائكة، واحدهم: سافر، سَفَرْتُ:

(١) قال ابن الأثير رحمه الله تعالى في معناها: «أي: يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه». النهاية (١/ ١٩٠).

أصلحتُ بَيْنَهُمْ، وجُعِلَتْ الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته كالسفير الذي يُصلح بين القوم»^(١).

ثم ثنى صلى الله عليه وسلم في كلا الحديثين بذكر جائزة الأجرين لمن جاهدَ لحفظ الحروف ولإقامتها على اللسان كذلك.

والأجريا صاحب القرآن على قدر المشقة، فتأمل -راشدًا- شدة حال تعاهد القرآن على حافظه في قوله: صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»^(٢). والإبل المعقّلة: أي المشدودة بالعقال، وهو الحبل، والتشديد فيه للتكثير. كما قاله ابن الأثير رحمه الله تعالى^(٣)، والمعنى: أن حاله مع محفوظه القرآني كحال صاحب الإبل المعقّلة معها، فلا بدّ له من تعاهدٍ لمحفوظه على الدوام حتى لا يتفلّت تفلّت الإبل المطلقة من عقلها. وقوله صلى الله عليه وسلم: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، هو أشدُّ تَفَضُّيًا مِنَ الْإِبِلِ مِنْ عُقْلِهَا»^(٤). والمراد: واطبوا عليه بالتلاوة والحفظ.

وتعاهدُ القرآن يكون بأمرين: دوام تلاوته، والعمل به. وليس بهاجرٍ للقرآن ما دام عاملاً به، مؤتمراً بأمره، منتهياً عن نهيه، حافظاً لحدوده قارئاً منه ما تيسّر له.

(١) البخاري في صحيحه في تفسير قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥]

(٢) البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣ / ٢٨١).

(٤) البخاري (٤٧٤٦) ومسلم (٧٩١).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «شبه درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يُخشى منه الشُّراد، فما زال التعاهد موجودًا فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ، وخصَّ الإبل بالذكر لأنها أشدُّ الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمکان نفورها صعوبة» (١).

هذا؛ وإنَّ الحاجة لتعاهد المحفوظ هو في الحقيقة رحمة من الله تعالى ولطف ورفق من لدنه، وفي ذلك حكم وألطف وموهابٌ عظيمة، منها: تحصيل مزيد من الأجر بكثرة ترديد الآي والسور.

ومنها: زيادة الإيمان بالتلاوة، فذات التلاوة تزيد الإيمان جدًّا خاصة إنَّ صاحبها تدبَّر وتفهم ونيةً صالحة للعمل بالقرآن.

ومنها: زيادة العلم بمعاني القرآن، فمن خصائصه العظيمة انفتاح معانٍ جديدة وفوائد فريدة بقراءته مرة بعد مرة، ففي كل مرة ترد على القلب علومٌ ومعانٍ وألطفٌ لم تكن في المرة السابقة، وهذا من براهين نبوة رسولنا محمد ﷺ الذي جاء به من عند الله تعالى، فقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أُوتي ما على مثله آمنَ البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (٢)، أي أن برهان القرآن الكريم معجزة علمية ومعنوية ولفظية دائمة، وليست معجزة حسية ظهرت ثم لم يُعانيها إلا من رآها، كناقصة صالح عليه السلام، وشقَّ البحر لموسى عليه السلام، وإحياء

(١) فتح الباري (٦٩٨/٨).

(٢) البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

الموتى لعيسى عليه السلام، أو غير ذلك من المعجزات التي ظهرت في زمن معين ولم تدم للأبد، بل الحجة بالقرآن قائمة على كل مخلوق على ظهر الأرض إلى أن يُرفع من الصدور والسطور في آخر الزمان.

وإن ملازمة تلاوة القرآن من المصحف وعن ظهر قلب لمن أعظم أبواب العلم والإيمان، كما روي عن علي رضي الله عنه قال: «كتابُ الله، فيه بيان مَنْ قبلكم، وخبرٌ من بعدكم، وحكمٌ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢] من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»^(١).

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «قال المهلب: المهارة في القرآن: جودة التلاوة بجودة الحفظ، ولا يتردد فيه؛ لأنه يسره الله تعالى عليه؛ كما يسره على الملائكة، فهو على مثلها في الحفظ والدرجة، والسفرة: جمع سافر، وهم ملائكة الوحي، سُموا بذلك لأنهم يسفرون بين الله وبين خلقه. وقيل: هم الكتبة، والكتاب يسمى: سافراً، ومنه أسفار الكتاب. وعلى هذا فيكون وجه كونهم مع الملائكة:

(١) الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٧٤)، والبزار (٨٣٦)، وابن أبي شيبة (٣٠٦٢٨)
عن علي رضي الله عنه، ولا يصح رفعه، وقد مرّ.

أنَّ حملة القرآن يبلِّغون كلام الله إلى خلقه، فهم سفراء بين رسل الله وبين خلقه، فهم معهم؛ أي: في مرتبتهم في هذه العبادة. ويستفيد من هذا حملة القرآن: التحرُّز في التبليغ والتعليم، والاجتهاد في تحصيل الصدق، وإخلاص النية لله؛ حتى تصح لهم المناسبة بينهم وبين الملائكة.

وقوله: «يتتبع فيه»؛ أي: يتردّد في تلاوته عِيًّا وصعوبة. والتتبع في الكلام: العِيُّ. وإنما كان له أجران؛ من حيث التلاوة؛ ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله؛ لأنه قد كان القرآن مُتَعَتِّعًا عليه، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شُبِّهَ بالملائكة. والله أعلم»^(١).

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «قوله: «الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة»: يريد الملائكة، قال ابن الأنباري سُمُّوا بذلك لأنهم ينزلون بوحى الله وما يقع به الصلاح بين الناس، فُشِبِّهُوا بالسفير الذي يصلح بين الرجلين، وقال ابن عرفة: سُمُّوا بذلك لأنهم يسفرون بين الله وأنبيائه، وقيل: سفرة: كتبة، وسمى الكاتب سافرًا لأنه يبيّن الشيء ويوضحه، والأسفار: الكتب، والماهر: الحاذق بالقراءة. قال الهروي: وأصله الخدق بالسباحة، وقال

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٢/٤٢٤). وقال ابن باز رحمه الله تعالى: «السَّفَرَةُ: هم الحَمَلَةُ للرسائل والأوامر والنواهي بين الله وبين الناس، بين الله وبين الملائكة، بين الله وبين الرسل، وليس مُجَرَّدَ الكاتب فقط، يقال: جبرائيل هو السَّفير بين الله وبين رسله، يعني الوساطة في التبليغ». شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، لابن باز (١/٤٠٦). وقد استبعد الشيخ تفسير السفارة بالكتبة، ورجح أنها من السفارة وهي الرسالة.

المهلب: المهارة جودة القراءة بجودة الحفظ، ولا يتردد فيه، يسره الله عليه كما يسره على الملائكة، فهو معها في مثل حالها من الحفظ، وفي درجة واحدة إن شاء الله.

قال القاضي: يحتمل - والله أعلم - أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة، لاتصافه بوصفهم بحمل كتاب الله، ويحتمل أن يكون المراد: أنه عامل بعمل السفرة، وسالك مسلكهم، كما يقال: فلان مع بني فلان، إذا كان يرى رأيهم ويذهب مذهبهم.

وقوله: «فله أجران» قال القاضي: ليس فيه دليل أنه أعظم أجراً من الماهر، ولا يصح هذا إذا كان عالماً به، فإن من هو مع السفرة فمنزلة عظيمة، وله أجر كثير، ولم تحصل هذه المنزلة لغيره ممن لم يمهر مهارته، ولا يستوي أجر من علم بأجر من لم يعلم، فكيف يفضله؟!^(١). وقال شيخنا العباد حفظه الله تعالى: «وقوله: «مع السفرة الكرام البررة» يدل على علو منزلته، وأنه يكون معهم، والسفرة هم الملائكة، فمعيته معهم أنه يُذكر في الملاء الأعلى مع هؤلاء الأخيار ومع هؤلاء الأطهار، فثوابه عظيم، ولا حد لثوابه، وإذا كان الذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران؛ فكيف بالذي هو ماهر به وقرؤه بسهولة ويسر، ويكثر من قراءته وفهمه وتدبره وتعلمه وتعليمه؟!»^(٢).

وقال النووي رحمه الله تعالى: «قال القاضي وغيره من العلماء: وليس معناه

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (١٦٦/٣).

(٢) شرح سنن أبي داود، لعبد المحسن العباد (٢١/١٧٥).

الذي يتتبع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفارة، وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه واتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مَهَرَ فيه؟!»^(١). وفي عون المعبود: «والحاصل: أن المضاعفة للماهر لا تُخصى، فإنَّ الحسنةَ بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف وأكثر، والأجر شيءٌ مُقدَّر، وهذا له أجران من تلك المضاعفات»^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقوله تعالى: ﴿كَرِّمٌ بَرَزَقًا﴾ [عبس: ١٦] أي: خَلَقَهُمْ كَرِيْمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ، وأخلاقهم وأفعالهم بارزة طاهرة كاملة. ومن ها هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السَّدَادِ والرَّشَادِ»^(٣). ومَنْ حفظ القرآن وعمل بما فيه؛ أثابه الله على ذلك أعظم ثواب وأجزل عطاء وهي الدرجات العُلا من الجنة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»^(٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٨٤-٨٥).

(٢) عون المعبود وحاشية ابن القيم، شرف الحق العظيم آبادي (٤/٢٣٠).

(٣) تفسير ابن كثير، (٨/٣٢١).

(٤) أبو داود (١٤٦٤) ابن أبي شيبة (٣٠٠٤٨) وأحمد (٦٧٩٩) والترمذي (٢٩١٤)

وقال: «حديث حسن صحيح، وله شواهد هو بها صحيح». والحديث صحيحه

الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/٢٨١) (٢٢٤٠)، وقال بعده: «واعلم أن المراد

وحامل القرآن - فاعلم - يشفع له القرآن يوم القيامة إن كان به عاملاً؛ لقول النبي ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: رب؛ منعتك الطعام والشهوات بالنهار فشفّني فيه، ويقول القرآن: رب؛ منعتك النوم بالليل فشفّني فيه؛ فيُشفّعان» (١).

التغني بالقرآن الكريم:

التغني: هو تزيين الصوت، والترنم به، وتحسين نغماته بالتلاوة، وعلى قارئ القرآن الكريم أن يزيّن صوته حال قراءته ويُجملّه ويُحسنه ويحلّيه ويتغنى به ويُجبرّه تحبيراً، على لحن العرب (٢) بخشوعٍ وتلذُّذٍ وتحزُّنٍ، لا على لحن أهل

بقوله: «صاحب القرآن» حافظه عن ظهر قلب على حد قوله ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» أي: أحفظهم، فالتفاضل في درجات الجنة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا، وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها كما توهم بعضهم، ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حفظه لوجه الله تعالى، وليس للدنيا والدرهم والدينار، وإلا فقد قال ﷺ: «أكثرُ منافقي أمتي قراؤها». أه. قلت: حديث: «أكثرُ منافقي أمتي قراؤها». رواه أحمد (٦٦٣٣) والبخاري في خلق أفعال العباد ١١٨/١ وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٠٣).

(١) أحمد في مسنده (١٧٤ / ٢)، والحاكم (٧٤٠ / ١)، والبيهقي في الشعب (١٩٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٢)، وانظر قول الهيثمي في المجمع: (٦٩٣ / ١٠).

(٢) والمراد بلحن العرب طريقة أدائهم وأصواتهم ونغماتهم الميسرة المطبوعة بلا تكلف ولا تشبه بأهل المجون، وقد ورد في تسمية ذلك حديث لا يصح وهو: «اقرأوا القرآن بلحن العرب وأصواتها، وإياكم ولحن أهل الفسق..» أخرجه أبو عبيد في

الغناء والمجون، فإن من كمال القراءة جمال الصوت وحُسن الأداء، قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١). وقد سأل صالح والده الإمام أحمد فقال: قوله: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» ما معناه؟ قال أبي: «التزيين أن يُحَسِّنَهُ»^(٢). وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن، يَجْهَرُ بِهِ»^(٣). أي: يترنم بالقرآن، ويُسمعه جهراً. وقال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وقد سمعه يتلو: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». فقال: «أما إنِّي لو علمتُ بمكانك لَحَبَّرْتُه لك تحبيراً»^(٤). أي: لاجتهدت في تزيينه وتحسينه.

والمراد بالمزمار: الصوت الحسن والنعمة الجميلة، وأصله آلة العزف المعروفة بالنَّاي، فشبهه جمال بصوت المزمار، أي: لقد أعطيت صوتاً حسناً تتلو به القرآن كما أوتي داود عليه السلام صوتاً حسناً يتلو به الزبور.

«الفضائل» (ص: ١٦٥) والحكيم في «النوادر» (٨٥٧) والطَّبْرَانِي في «الأوسط» (٧٢١٩) وغيرهم عن حذيفة، به مرفوعاً.

- (١) أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.
- (٢) مسائل الإمام أحمد، رواية ابنه أبي الفضل صالح ٣٦٦/١ (٣٣٩).
- (٣) البخاري في (التوحيد) (٦٩٧٣). وقيل إن: «يَجْهَرُ بِهِ» مدرج من كلام أبي هريرة أو أبي سلمة. وانظر: بذل المجهود في حل سنن أبي داود، للسَّهَارَنفُورِي ١٨٩/٦ ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري ٢٦٨/٧
- (٤) البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣). قال الخطابي في غريب الحديث (١/ ٣١٨): «قوله: «آل داود» يريد داود نفسه، لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطي من حسن الصوت ما أعطي».

وعن أبي عثمان النهدي قال: «صلى بنا أبو موسى الأشعري صلاة الصبح فما سمعت صوت صَنْجٍ ولا بَرْبَطٍ ولا نَائٍ قَطَّ كان أحسن صوتاً منه، إن كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته»^(١). قال الحافظ ابن كثير: «فدلَّ على جواز تَعَاطِي ذلك وَتَكَلُّفِهِ»^(٢). أي: بلا خروج عن أصول القراءة الصحيحة.

ويرى علماء الصوتيات أن الجهاز الصوتي للإنسان لا تقاربه أعظم آلات المعازف في طبقات جمال الأصوات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن الصحابة أيضاً من كان جميل الصوت جداً بالقرآن كسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئتُ فقال: «أين كنتِ؟» قلت: كنتُ أسمع قراءة رجلٍ من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمتم معه حتى أستمع له، ثم التفت إليَّ فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا»^(٣).

(١) سير الأعلام ٢ / ٣٩٢ وفصائل القرآن (ص: ٧٩). وقال الحافظ في الفتح ٩٣/٩: «سنده صحيح». وقال أيضاً: «والصنج هو آلة تتخذ من نحاس كالطبقين يضرب أحدهما بالآخر، والبربط آلة تشبه العود، والنأي هو المزمار».

(٢) تفسير ابن كثير ٦٣/١

(٣) ابن ماجه (١٣٣٨) وقال البوصيري في «الزوائد» ٤٣١/١: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». والحاكم ٣ / ٢٢٥-٢٢٦ وجود سنده ابن كثير في تفسيره ٦٣/١ وصححه الألباني.

ومنهم أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ رضي الله عنه، ومن ذلك أَنَّهُ كان يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه فرس مربوط بِشَظَينٍ، فتَغَشَّتْهُ سحابةٌ فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلَمَّا أَصْبَحَ ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن»^(١)، وفي رواية أخرى قال: «تلك الملائكةُ دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبح الناس ينظرون إليها لا تتورأى منهم»^(٢)، وفي مسلم أيضاً: «فجعلت تدور وتدنو»^(٣). ودنو السكينة والملائكة لسماح قراءته أعظم من سمع الجبال والطير والوحش لصوت داود عليه السلام، وهذه كرامة لنبينا ﷺ فكل هذا من بركة أتباعه وأخذ الهدى والنور الذي جاء به.

والملائكة تطلب حلق الذكر والقرآن في كل زمان، قال النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٤).

فعلى أهل الذكر استشعار معيَّتهم الطيبة فرحاً بفضل الله تعالى عليهم،

(١) البخاري (١٨٨ / ٦) (٥٠١١) ومسلم (٥٤٧ / ١) (٧٩٥). والشَّظَنُ: الحبل، أي مَرْبُوط بِحَبَلَيْنِ مِنْ قُوَّتِهِ. وقيل: هو الحبل الطويل الشديد القتل. و«السكينة» في الأصل: السكون والطمأنينة، والمراد بها هاهنا: الملائكة.

(٢) البخاري (١٩٠ / ٦) (٥٠١٨) ومسلم (٥٤٨ / ١) (٧٩٦)، بلفظ: «تلك الملائكة كانت تسمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم».

(٣) مسلم (٧٩٥ / ٢٤٠).

(٤) مسلم (٢٦٩٩).

وأعظم من ذلك استشعارُ معيَّة ربهم الأعلى بحفظه لهم وإطلاعهم وإعانتهم على ذكره وشكره وحسن عبادته تبارك وتعالى وسماحه تلاوتهم كلامه وذكرهم إيَّاه، فأَيُّ فضل أعظم هذا!

وإذا كان هذا جمال أصوات الصحابة الكرام؛ فما ضنك بجمال صوت أكرم الخلق وهو يتلو أعظم كتابٍ لله تعالى أنزله هدى للعالمين ﷺ؟! فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١]: «فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه»^(١).

وعليه؛ فينبغي للقارئ تحسن صوت بالتلاوة قدر طاقته تعظيماً للقرآن العظيم، ورغباً ورهباً وتحشُّعاً لله رب العالمين، وإكراماً للملائكة الكرام المستمعين.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «من إعجاز القرآن أن قارئه لا يملّه، وسامعه لا يملّجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة»^(٢). وقال الشافعي رحمه الله تعالى: «لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصّوت بأيّ وجهٍ ما كان، وأحبّ ما يقرأ إليّ حدرًا وتحزينا»^(٣). وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «واتفق العلماء على أنه يستحب قراءة القرآن بالتحزين والترتيل

(١) البخاري (١٥٨ / ٩) (٧٥٤٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٧٧ / ١).

(٣) الأم، للإمام الشافعي ٦ / ٢١٥

والتحسين»^(١).

قلت: وفي الأمر تفصيل؛ فالأصل على الاستحباب بشرطين: الأول: سلامة القراءة من الإخلال بسبب المبالغة في التحسين. والثاني: عدم مشابهة لحن أهل الغناء والمجون. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم، لأن للتطريب تأثيراً في رقة القلب وإجراء الدمع.

وكان بين السلف اختلاف في جواز القراءة بالألحان. أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت على غيره؛ فلا نزاع في ذلك.. ومحل هذا الاختلاف إذا لم يختل شيء من الحروف عن مخرجه، فلو تغير: قال النووي في «التيان»: أجمعوا على تحريمه. ولفظه^(٢): أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ما لم يخرج عن حدّ القراءة بالتمطيط، فإن خرج حتى زاد حرفاً وأخفاه حرم»^(٣). وقال الحافظ أيضاً: «الذي يتحصّل من الأدلة: أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن القارئ حسن الصوت فليحسنه ما استطاع، كما قال ابن مليكة أحد رواة الحديث، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح، ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن حسن الصوت يزداد حسناً بذلك، وإن خرج عن قوانين النغم أثر ذلك في حسنه، وغير الحسن ربما انجبر بمراعاة

(١) المغني، لابن قدامة ٣١٢/١٠

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي. ص: (٨٨).

(٣) الفتح: (١٤ / ٢٤٠).

قوانين النغم ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء، فإن وجد من يراعيهما معاً فلا شك في أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين، ويحتمل المنوع من حرمة الأداء» (١).

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الألحان التي كره العلماء قراءة القرآن بها هي التي تقتضي قصر الحرف الممدود، ومدّ الحرف المقصور، وتحريك الساكن، وتسكين المتحرك. يفعلون ذلك لموافقة نغمات الأغاني المطربة، فإن حصل مع ذلك تغيير نظام القرآن، وجعل الحركات حروفاً فهو حرام» (٢). وقال السيوطي رحمه الله تعالى: «قراءة القرآن بالألحان والأصوات الحسنة والترجيع إن لم تخرجه عن هيئته المعتبرة فهو سنة حسنة، وإن أخرجته فحرام فاحش» (٣).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ذكر أدلة الفريقين: «وفصل النزاع أن يقال: التطريب والتغني على وجهين:

أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به، من غير تكلف ولا تمرين وتعليم، بل إذا خلّى وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين، فهذا جائز، وإن أعان طبيعته فضلُ تزيين وتحسين كما قال أبو موسى للنبي ﷺ: «لو

(١) الفتح: (٨٧/١٩).

(٢) حاشية مقدمة التفسير، لعبد الرحمن بن قاسم (١٠٧).

(٣) الحاوي للفتاوي، للسيوطي ٢٩٦/١

علمتُ أنَّكَ تستمع لحبِّرتُهُ لك تحبيرًا» (١).

والحزين ومن هاجه الطربُ والحبُّ والشوقُ لا يملك من نفسه دفعَ التحزين والتطريب في القراءة، ولكنَّ النفوس تقبله وتستحليه وتستملحه لموافقة الطبع وعدم التكلُّف والتصنُّع فيه، فهو مطبوع لا متطبِّع، وكلِّف لا متكلِّف. فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويسمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع. وعلى هذا الوجه تُحمَل أدلَّةُ أرباب هذا القول كُلِّها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعةً من الصنائع، ليس في الطبع السباحة به، بل لا يحصل إلا بتكلُّف وتصنُّع وتمرُّن، كما يتعلَّم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركَّبة على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة لا تحصل إلا بالتعلُّم والتكلُّف. فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذمُّوها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها. وأدلَّةُ أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبيَّن الصواب من غيره. وكلُّ من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلَّفة التي هي على إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة (٢)، وأنهم أتقى لله من أن

(١) البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣).

(٢) قارن كلامه رحمه الله تعالى بما يسمونه المقامات، وهي ألحان بأوزان معينة، وجمعوها على ستة أوزان هي: (البيات، والرَّسْت، والنهاوند، والسيكا، والصبا، والحجاز).

يقرؤوا بها أو يسوِّغوها؛ ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب،
ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بشجى تارة، وبطرب تارة، وبشوق تارة.
وهذا أمر في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل
أرشد إليه، وندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «ليس منّا من لم
يتغنّ بالقرآن»^(١). وفيه وجهان، أحدهما: أنه إخبار بالواقع، أي كلنا نفعله.
والثاني: أنه نفى لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته. والله أعلم»^(٢).

وقد فسّر بعض العلماء التغني بالاستغناء، أي: بالقرآن عن غيره. وهذا
التفسير ليس بصواب، ففرق بين «يتغنّى» و«يستغني»، فالأولى من التغني،
والثانية من الاستغناء. قال المزي: سمعت الشافعي يقول: «لو كان معنى يتغنّى
بالقرآن على الاستغناء؛ لكان يتغنّى، وتحسين الصوت هو يتغنّى، ولكنه يراد به
تحسين الصوت»^(٣).

فليس لتحسين الصوت وتزيينه حدّ ينتهي إليه، وهو بحسب ما أتى الله
الإنسان من ذلك، مع الانتباه لسلامة التلاوة فلا يجاوز أحكام التجويد المرعية،
وقواعد التلاوة الشرعية.

وتأمل حال تلاوة الفضيل رحمه الله تعالى، فعن إسحاق بن إبراهيم رحمه
الله تعالى قال: «كانت قراءة الفضيل حزينة، شهية، بطيئة، مترسلة، كأنه يخاطب

(١) البخاري في (التوحيد) (٦٩٧٣).

(٢) الزاد (١/ ٤٧٤).

(٣) مختصر المزي ٨/ ٤٢٠.

إنساناً. وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة يُرَدِّدُهَا» (١).

وتدبّر ملياً وتفكّر جلياً في جمال وجلال وهيبة الاستماع الرباني الدال على الرضا والقبول، فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» (٢). ومعنى «أَذِنَ اللَّهُ»: أي اسْتَمَعَ. قال الغنيان حفظه الله تعالى: «معنى «مَا أَذِنَ»: ما استمع لشيء كاستماعه لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآن، فالله تعالى يحب حسن الصوت فيمن يتلو كتابه، ويستمتع لذلك الصوت أكثر من غيره، وإلا فهو تعالى لا يفوت سمعه صوت. والقرآن هنا اسم جنس لكل كتاب أنزله الله تعالى على نبيٍّ من أنبيائه» (٣).

وقال ابن بطّال رحمه الله تعالى: «قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، يَجْهَرُ بِهِ» (٤). لأن تزينه بالصوت لا يكون إلا بصوت يطرب سامعيه ويلتذّون بسماعه، وهو التغنّي الذي أشار إليه النبي ﷺ، وهو الجهر الذي قيل في الحديث: «يَجْهَرُ بِهِ» بتحسين الصوت المثلّين للقلوب من القسوة إلى الخشوع، وهذا التزيين الذي أمر به ﷺ أمته» (٥). والجهر مقصود في التلاوة، فهو من جمالها وغناها وغنائها.

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي ٤٢٨/١.

(٢) البخاري ١٩٣/٩ (٧٥٤٤)، ومسلم ١٩٢/٢ (٧٩٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيان ٥٩٣/٢.

(٤) البخاري في (التوحيد) (٦٩٧٣).

(٥) شرح صحيح البخاري، لابن بطّال ٥٤٤/١٠.

وقال ابن باز رحمه الله تعالى: «التزيين: هو أن يقرأ بتلاوة واضحة بيّنة، فيها الحشوع، فيها التّخزّن، فيها التّرتيل وعدم العجلة، حتى يتأثر هو وغيره»^(١). وقال العبّاد حفظه الله تعالى في الحديث: «يعني حسن الصوت بالقراءة؛ لأن القرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ إنما يتلوه نبينا ﷺ، وأما سائر الأنبياء فإنهم لا يتلون إلا كتبهم، كما جاء في الحديث أن أبا موسى أعطي مزمارة من مزامير آل داود في حسن صوته وحسن قراءته، فالمراد به هنا حسن الصوت بالقراءة، وليس بالقرآن الذي هو منزل على نبينا محمد ﷺ؛ لأن القرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ لم ينزل على أحد قبله، ولكن الأنبياء السابقين نزلت عليهم الكتب وهم يقرأونها.

وأما ذكر القرآن في الكتب السابقة فقد جاء في القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] والمقصود أنه جاء ذكره وليس هو؛ لأن القرآن لم ينزل على أحد قبل نبينا ﷺ^(٢). وعن طاووس رحمه الله تعالى قال: «كان يقال: أحسن الناس صوتا بالقرآن أخشاهم لله». وفي رواية عنه أنه سئل من أقرأ الناس؟ فقال: «من إذا قرأ رأيت يهتف بخشى الله»^(٣). قال: «وكان طلق

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، لابن باز ٤٠٦/١

(٢) شرح سنن أبي داود، للعباد ٢١/١٧٧

(٣) ابن أبي شيبه (٣٠٥٦٤) وأحمد في الزهد (١١٩٥). ولا يصحّ مرفوعاً، وكان الألباني رحمه الله تعالى قد صحّحه، ثم توقف عن ذلك بأخرة طلباً للمزيد من التحقيق، كما في الصحيحة (١١١/٤). وقد تتبّع أبو إسحق الحويني طرق الحديث في إسعاف الليث بفتاوى الحديث ٣/٣٥١ وانتهى إلى عدم ثبوت رفعه.

من أولئك». أي: التابعي العابد طلق بن حبيب^(١).

ومما يعنى بتلاوة القرآن سماعه، بل أن ذكر سماعه أكثر ورودًا في القرآن من ذكر تلاوته، ومن وفقه الله تعالى لسماع تلاوة متقنة متدبرة خاشعة من صوت نديٍّ واستمع بجوارحه مخلصًا محبًا خاشعًا؛ فقد عَجَّلَ له من نعيم الجنة فليستقلَّ أو ليستكثر.

ومما يحسن بنا إيراده كشف الفروق في لفظ التكلف، فإن المراد منه يختلف بحسب المقاصد ومواقع السياق، فاعلم أن لفظ التكلف في التجويد والأداء والتغني والترتيل لكل منها معنيان بحسب السياق؛ فمعنى مشروع: وهو زيادة جهد التالي في التحسين بقدرٍ محتمل عرفًا، بحيث لا يخلل بإقامة الحروف والمدود وحقوق التلاوة، فهذا طيبٌ وحسن، وهو معنى: «لحبرته لك تحبيرًا».

(١) وذكر المزي رحمه الله تعالى عنه في ترجمته في تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٤٥٣/١٣ قال: «عن بكر بن عبد الله المزني: لما كانت فتنة ابن الأشعث، قال طلق ابن حبيب: اتقوها بالتقوى. فقبل له: صف لنا التقوى، فقال: التقوى، العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، والتقوى، ترك معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

وعن عوف الأعرابي: سمعت طلق بن حبيب، يقول في موعظته: يا ابن آدم، إن الدنيا ليست لك بدار، إلا عن قليل، فإنك لا تلوذ فيها بحریم، فلا تستبق من نفسك باقياً، الله الله في السرّ المفضي به إليه.

وعن سعد بن إبراهيم، عن طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعمه أكبر من أن تحصى، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين».

أما المعنى الثاني: فهو ما زاد عن ذلك، إما بالانحراف عن إقامة اللفظ من مخرجه، أو بالزيادة والتمطيط في الأداء عن استقامته لألفاظ القرآن العظيم، ونحو ذلك.

ففي تكلف التغني بالقرآن لدينا لحن مشروع ولحن ممنوع، وهذا من قبيل مشتركات الألفاظ التي تتضح بالسياق، ولو رُوِيَ هذا الملحظ عند الاختلاف؛ لزال أسباب تناوش كثيرة، فمن تكلف تزيين الصوت شيئاً، وحبّره، ولم يشابه به أهل الباطل؛ فهو على خير وجادة، ومن تكلفه فأخرجه عن رونقه وطبيعته، وأبعده عن لحون العرب لألحان أهل الغناء فقد أساء. ومن ذلك ما يسمونها بالمقامات، فلا تتقصّد المقام، ولا تتقصّد الهرب منه، بل كن على طبيعتك وسجيّتك بلا تكلفٍ إليه ولا عنه. وزين صوتك ما استطعت، واعلم أنّك عن سائر مقاماتهم في غنى تام.

والمقصود؛ أن الترنّم بالقرآن عبادة، ولا بد لكل أحد مهما كان جنسه وحاله من ترنّم يترنّم به، وقد أكرم الله أهل الإسلام بأن جعل الله لهم الترنّم بالقرآن الجميل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فمن لم يترنّم بالقرآن ترنّم بالشعر. وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين»^(١).

قلت: التغني بالقرآن الكريم ترنّم مُشبعٌ للروح، ومُغذٍّ للقلب، فمادته هي ذات العلم والإيمان، أمّا نقيضه فهو الغناء بالمعازف، فمادته محض الغفلة، وثقلّة

(١) مجموع الفتاوى ١١/٥٣٣

الغرور، وهو ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، فشتان بين سماع القرآن والألحان، وواعجباً لمن يترنم لهذا بذاك!

ولك أن تعلم: أن المقامات الشهيرة لدى بعض من استحسناها لتلاوة القرآن هي في حقيقتها مقامات موسيقية، وُضعت أصلاً قانوناً للعزف، والترنم بالشعر الغنائي. فهذه المقامات الصوتية هي عبارة عن قوالب الصوت الترنمية المعروفة. فحقيقتها: نوتات موسيقية محددة، ومُرتَّب بعضها على بعض، ولها نظام وقانون يحكم تتابعها وتداخلها يعرفه المختصون في فن الموسيقى. وتلك الإيقاعات الموسيقية لا تحصل إلا بالتعلم والدُّربة والتمرين، ولها مقادير ونسبٌ صوتية لا يجوز الخروج عنها.

وعليه: فإنَّ كلام الله تعالى أجلُّ وأشرف وأعزَّ وأطهر من أن يوضع تحت هذا الأمر الذي سمّاه الصحابة والسلف صوت الشيطان ومزمار الشيطان، فكيف يرضى مؤمن أن يتلو كلام الرحمن بصوت الشيطان؟!

والمزمار مأخوذٌ من الزمير، وهو الصَّوتُ الذي له صَفيرٌ، وأضافوه إلى الشيطان؛ لأنَّه يُلهي عن ذكرِ الله تعالى، وهذا من عملِ الشَّيْطَانِ واستفزازهِ قلوب العالمين بصوته. ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية حتى وإن خلا من معازف، ولهذا فُسرَّ صوت الشيطان به. (١).

علماً أن أداء القرآن له مقاديره التجويدية المنقولة التي لا يمكن أن تتوافق

(١) ولا شك أنه أشدُّ وقعاً على القلوب إن صاحبه معازف، بل قد تفعل المعازف بدونه فعلها في الصدور، والله الحافظ العاصم المجير.

مع مقادير قواعد تلك الألحان الموسيقية إلا بعد الإخلال بقواعد التجويد،
والله المستعان.

ولتيسير فهم المسألة المقصودة أقول: اعلم أن لكل إنسان طبقات صوت
يترنم بها، بأوزان يستحليها فيما بينه وبين نفسه، فإن قرأ الشعر ترنم، وإن قرأ
النثر أحيانا ترنم، وكذا إن هو تلى القرآن ترنم. فهو بهذا الحال الطبيعي المعتاد
مُحسِّنٌ مأجور محمود؛ لأنه يزيّن نغمات طبقات صوته بآيات القرآن الكريم على
وفق طبيعته البسيطة غير المتكلفة. فهذا هو المقدار المحمود والنزر المشكور.

أما إن وضع الآيات العظيمة الشريفة الإلهيات الربانيات تحت قانون
أوزان الموسيقى، فيختار مقامًا موسيقيًا كالصَّبَا أو النهاوند أو السيكَا ونحو
تلك المسميات، ثم يُطَبِّقُ قانونها الصوتي الصارم على الآيات، فيخفض صوته
ويرفعه ويمده ويقصره على وفق قانونها لا على وفق معانيها، ولا على وفق
طبيعته وسجيته؛ فهذا هو الممنوع المحذور.

وأصل المقامات تلك أن بعض الناس ممن لهم ميزان للأذن دقيق حسّاس،
حتى صار عنده ما يسمّى بالحسّ الصوتي للأوزان، فتتبع أوزان الأصوات
المشرقية المَعْنَاة، فوضع لها نوتات صوتية موسيقية وفُقَّ نظام الطبقات والمدّات
ونحو ذلك المنهاج، فصاغوها على طريقة الآهات، فبنوها على الآه، فجعلوا
النوتة الموسيقية مترجمة بواسطة الآهات والتأوهات رفعًا للصوت وخفضًا،
ومدًا وقصرًا وسكتًا، بأعدادٍ وصيغٍ محددة مخصوصة بكل مقام.

وعليه؛ فهذه المقامات المصوغة للتلاوة هي موضوعة أصلاً لموسيقى

الغناء سواءً بسواء، لا تزيد عنها ولا تنقص. ولهذا؛ فإنّ هذه المقامات تُعلِّمها بعض معاهد الموسيقى وتُدَرِّب القراء عليها، لأنها رَحِمُها التي خرجت منها. ويقولون في تفصيلهم: إنّ هذا المقام يليق بآيات الخشوع، وذلك للحزن، وذلك للطرب، والآخر للشوق.. وهكذا.

ولو تُرك التالي بطبعه وخُلِّي وسجَّيته؛ لقرأ باسترسالٍ نفسه قراءة حسنة لذيدة جميلة سهلة يسيرة مريحة بدون تقيّد بتلك المقامات المُحدثة المُلوّثة.

وبالجملة؛ فالتلاوة بمقتضى طبيعة الصوت البشري المجلّم المترنّم على وفق الطبيعة الصوتية، وهي الألحان التي تسمح بها طبيعة الإنسان من غير تصنّعٍ ثَقِيلٍ؛ فهي من الترتيل المحمود والسعي المشكور، فإن تكلف تزيينها بعض الشيء بحيث يراعى قواعد الترتيل الشرعي والتجويد في المدود ونحوها وهو ما يسمى بالتحبير كقول أبي موسى رضي الله عنه: «لحبرته لك تحبيراً». أي: تزييناً؛ فهي محمودة مشكورة. فإلى هنا والتزيين والتغني والترنم محمود، وهو التغني المقصود بقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، يجهُر به»^(١).

وإنما يكون ممنوعاً مذموماً إذا وضع القرآن تحت قواعد النوتات الموسيقية التي تُسمى بالمقامات الست: وهي (البيات، والرّست، والنهاوند، والسيكا، والصّبا، والحجاز)، وما تفرّع عليها كالركباني النجدي أو البصري والكرد والعجم أو غيرها مما يُستحدث ما دامت على قانون أهل الغناء.

(١) البخاري في (التوحيد) (٦٩٧٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «والغرض: أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثّة المركّبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقيّ؛ فالقرآن يُنزّه عن هذا ويُجَلّ، ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب»^(١).

وقد سئل العثيمين رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال السائل: هل ورد في السنة تلحين الأذان أو الدعاء؟ فأجاب رحمه الله تعالى: «أما الأذان، فقال العلماء: إنه يكره تلحين الأذان. يعني أن نجعله كألحان الغناء. وإنما يرسله إرسالاً مطلقاً. وأما التلحين في الدعاء فكذلك أيضاً لا ينبغي أن يكون كألحان الغناء، لكن ترفيقه بحيث يخشع السامع ويحضر قلبه أكثر لا بأس به»^(٢). وبالله التوفيق والعصمة.

حكم التجويد:

التجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، ومعناه في اللغة: التحسين والإتقان، يقال: جوّدت الشيء تجويداً أي: حسنته تحسيناً، وأتقنته إتقاناً، والاسم منه: الجودة.

وحكمه الاستحباب - كما أسلفنا - لأنه مُحَسِّنٌ للتلاوة ومُزَيِّنٌ لها، فهو لا يتعلّق بمعاني الألفاظ، إنما يتعلّق بجمال الأداء. ولكن ينبغي الاعتناء به، لأنّه

(١) فضائل القرآن، لابن كثير (١١٤).

(٢) فتاوى الحرم المكي - ١٤١٥ - ١٠١ b

عبادة متعلّقة بتلاوة كتاب الله تعالى، وقد قرأ به الصحابة رضي الله عنهم كما وصل إلينا عنهم بالتواتر.

وفائدة علم التجويد هي حفظ اللسان من الخطأ عند قراءة القرآن، وهو ما يسمّى باللحن. واللحن في القرآن نوعان:

الأول: اللحن الجليّ: وهو الخطأ الذي يطرأ على الألفاظ ويخلّ بالمعنى المقصود للآية، ومثاله استبدال حرف مكان آخر أو تغيير حركة بأخرى.

والثاني: اللحن الخفي: وهو الإخلال بكمال تطبيق أحكام التجويد كالغنة والإدغام والإظهار والإقلاب ونحو ذلك، وهو كان لا يُخلّ بالمعنى، ولا بالإعراب.

قال ابن باز رحمه الله تعالى: «قراءة القرآن بالتجويد مستحبة، وفيها تحسين الصوت بالقرآن، والرسول ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، يجهر به»^(١). يعني: يحسن صوته، ويقول ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢). فالسنة للمؤمن العناية بتحسين الصوت بالقراءة؛ لأن هذا أخشع للقلب، وأنفع للمستمعين». وقال أيضًا: «أحكام التجويد مستحبة، وليست واجبة، فإذا قرأ الإنسان القرآن بلغة العرب؛ كفى، والحمد لله. لكن يشرع له أن يقرأها على من هو أعلم منه؛ حتى يتقنه جيّدًا، وإذا قرأه بالتجويد على إنسان يعرف ذلك؛ كان هذا من باب الكمالات، ومن باب الفضل، ومن باب العناية بإتقان القرآن، وأن

(١) البخاري في (التوحيد) (٦٩٧٣).

(٢) أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.

يقرأه على الوجه المرضي، وإلا فليس بشرط، وليس بواجب، ولا دليل على ذلك.

فإذا قرأه بلغة العرب، وأقامه على لغة العرب، ولو كان ما أدغم، أو ما فخم الراء ونحوها، أو رقق كذا، أو أظهر في محل الإدغام، أو أدغم في محل الإظهار فلا يضره ذلك» (١).

وقال العثيمين رحمه الله تعالى: «القراءة بالتجويد ليست واجبة ما دام الإنسان يقيم الحروف ضمًّا وفتحًا وكسرًا وسكونًا، فإنَّ التجويد ليس إلا تحسين اللفظ فقط، إن تمكن الإنسان منه فهذا حسن، وإن لم يتمكن فلا إثم عليه.. فالقراءة بالتجويد إنما هي تحسين للفظ وليست بواجبة، والتعمق فيه والتنطع فيه والتكلف فيه من الأمور المنهي عنها، لأن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» (٢). قالها ثلاثًا» (٣). وقال أيضًا: «التجويد في القرآن ليس بواجب، وإنما هو من باب تحسين الصوت بالقرآن، فإذا أمكن أن تؤدِّي القرآن بالتجويد بدون تكلف ولا تنطع فهذا خير، وأما أولئك القوم الذين يتكلفون، وتجده يكاد ينجرح حلقه إذا أراد أن ينطق بالحاء أو الهاء أو غيرها من الحروف الحلقية؛ فلا شك أن هذا خلاف السنة، لكن المراد بالتجويد المعتدل.

(١) موقع الشيخ الرسمي، نور على الدرب، حكم قراءة القرآن بالتجويد.

(٢) مسلم (٢٦٧٠). والمتنطعون: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

(٣) سلسلة اللقاء الشهري (٤٩).

والصواب: أنه ليس بواجب وإنما هو سنة، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن الذين يعتنون بالتجويد ويتكلفونه يكون هذا سبباً لعدم تدبرهم القرآن؛ لأن الإنسان حينئذٍ ليس له هم إلا إصلاح اللفظ فقط، وصدق رحمه الله تعالى، ذكر هذا في الفتاوى، وقال: إنه لا ينبغي التكلف في التجويد» (١).

وقالت لجنة الإفتاء المصرية في جواب للسؤال: هل قراءة القرآن بالتجويد واجبة أم مستحبة؟: «تعلّم أحكام القراءة والتجويد التي تحفظ اللسان من اللحن المفسد للمعنى واجب على كل مسلم ومسلمة، كي يقرأ الفاتحة وسائر سور القرآن الكريم قراءة صحيحة في مقتضى اللغة العربية الأصلية.

أما تعلم الأحكام التحسينية التي تتعلق بصفات الحروف ومخارجها وأحكامها التي لا يؤدّي الجهل بها إلى إفساد المعنى واللحن الجليّ فهو تعلم مندوب ومستحب، وليس بواجب.

يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: «واجبُ صناعة، بمعنى ما لا بد منه مطلقاً، وبمعنى ما يَأْثُم بتركه إذا أُوْهِم خلل المعنى أو اقتضى تغيير الإعراب» (٢). وقال أيضاً: «اللحن الجليّ: خطأ يعرض للفظ ويُخلّ بالمعنى والإعراب، كرفع المجرور ونصبه. والخفيّ: خطأ يعرض للفظ ولا يُخلّ بالمعنى ولا بالإعراب، كترك الإخفاء والإقلاب والغنة» (٣). ويقول المُلّا علي القاري

(١) لقاء الباب المفتوح ١٦/١١٥

(٢) الدقائق المحكمة (ص/١٩).

(٣) الدقائق المحكمة (ص/٣٨).

الحنفي: «ينبغي أن تُراعى جميع قواعدهم وجوبًا فيما يتغيّر به المبنى ويفسد المعنى، واستحبًا فيما يحسن به اللفظ ويستحسن به النطق حال الأداء». وأما اللحن الحنفي فقال: «لا يُتصور أن يكون فرض عين يترتب العقاب على قارئه لما فيه من حرج عظيم»^(١). والله أعلم^(٢).

فالأصل في سلامة القراءة سلامة الإعراب من اللحن، مع المدّ وتزيين الصوت، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والأعجمي، فقال: «اقرأوا، فكلُّ حسنٍّ، وسيجيء أقوامٌ يُقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٣). فقله: «اقرأوا فكل حسن»: أي فكل واحدة من قراءتكم حسنة مرجوة للثوب، ولا عليكم ألا تقيموا ألسنتكم إقامة القدح وهو السهم قبل أن يُراش، «وسيجيء أقوام يقيمونه»: أي يصلحون ألفاظه وكلماته ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته «كما يقام القدح»: أي يبالغون في إظهار كمال الأداء للتلاوة لأجل الرياء والسمعة والمباهاة والشهرة والتصدّر والظهور وعاجل الدنيا وحظوظها، دون رجاء وخوف الآخرة.

قال الطيبي رحمه الله تعالى: «وفي الحديث رفع الحرج، وبناء الأمر على

(١) شرح الجزرية (ص/٢٠).

(٢) لجنة الإفتاء. رقم الفتوى: (٢٠٨١).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «فضائل القرآن» من «سننه» (٣١) وأحمد (١٥٢٧٣) وأبو داود (٨٣٠) وغيرهم. وصححه الألباني، وله شواهد.

المساهلة في الظاهر، وتحري الحسبة والإخلاص في العمل، والتفكر في معاني القرآن»^(١). «وهذا يعطي سعة في عدم التعمق في إتقان التجويد، والتساهل في ذلك ما دامت أصول القواعد ظاهرة، وذلك مثل وجود الحد الأدنى من المدود الفرعية، فيغض النظر عن توفر الكمال فيها»^(٢).

فالتجويد الواجب هو عدم اللحن الجلي، فحق التلاوة إعرابها، أما اجتناب الخفي فمستحب جليل، قال الخاقاني رحمه الله تعالى^(٣):

فأَوَّلُ عِلْمِ الذِّكْرِ إِتْقَانُ حِفْظِهِ وَمَعْرِفَةُ بِاللَّحْنِ مِنْ فِيكَ إِذْ يَجْرِي
فَكُنْ عَارِفًا بِاللَّحْنِ كَيْمَا تَزِيلُهُ وَمَا لِلَّذِي لَا يَعْرِفُ اللَّحْنَ مِنْ عَذْرِ

وجاء رجل إلى الإمام نافع رحمه الله تعالى فقال: تأخذ عليّ الحدر؟ فقال نافع: «ما الحدر؟ ما أعرفها! أسمعنا». فقرأ الرجل، فقال نافع: «حَدَرْنَا أَلَّا نَسْقُطَ الْإِعْرَابَ، وَلَا نَنْفِي الْحَرْفَ، وَلَا نُخَفِّفَ مُشَدَّدًا، وَلَا نُشَدِّدَ مُخَفَّفًا، وَلَا نَقْصِرَ مَمْدُودًا، وَلَا نَمُدَّ مَقْصُورًا، قَرَأْتَنَا قِرَاءَةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَهْلَ جَزَلٍ، لَا نَمْضِغُ وَلَا نَلُوكُ..»^(٤). وقال السخاوي رحمه الله تعالى في مطلع قصيدته المسماة: «عمدة المفيد وعمدة المجيد في معرفة التجويد»:

(١) عون المعبود (٣/ ٤٢).

(٢) إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم، لعبد السلام المجيدي (٢٤٤).

(٣) قصيدتان في تجويد القرآن، للواقاني (٢١).

(٤) جامع البيان في القراءات السبع ٤٨٢/٢ والتحديد في الإتقان والتجويد، كلاهما

لأبي عمرو الداني ٩٣/١

يَا مَنْ يَرُومُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَيَرُودُ شَأْوَ أئِمَّةِ الْإِثْقَانِ
لَا تَحْسَبِ التَّجْوِيدَ مَدًّا مُفْرَطًا أَوْ مَدًّا مَا لَا مَدَّ فِيهِ لِوَانٍ
أَوْ أَنْ تُشَدَّ بَعْدَ مَدٍّ هَمْزَةٌ أَوْ أَنْ تُلُوكَ الْحَرْفَ كَالسَّكَرَانِ
أَوْ أَنْ تَفُوهَ بِهَمْزَةٍ مُتَهَوِّعًا فَيَفِرَّ سَامِعُهَا مِنَ الْغَثَيَانِ
لِلْحَرْفِ مِيزَانٌ فَلَا تَكُ طَاغِيًا فِيهِ وَلَا تَكُ مُخْسِرَ الْمِيزَانِ

وبالجملة؛ فلا دليل مع من أوجب التجويد، وأثم العبيد، وألزمهم ما لم يلزمهم الله تعالى^(١)، وإن كان لقوله وجاهة، ولكنها مرجوحة، والله أعلم.

(١) قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى في التعليق على تفسير الجلالين ٦/١٤: «مسألة أحكام التجويد من المدود والغنة والإظهار والإقلاب والإخفاء وما أشبه ذلك، هذه يوجبها أهل التجويد «من لم يجود القرآن آثم» هذا عندهم، ويستدلون على ذلك بأنه تُلقَى هكذا، تلقى عن الشيوخ طبقة عن طبقة هكذا، فلا بد من تطبيق الأحكام، وقد يتعارض عند طالب العلم مثل هذا الكلام مع ما يسمعه من شيوخه، ومع ما يسمعه من أهل التجويد أيضًا من خلل كبير بهذه الأحكام، فهل تتوقع أن أشهر القراء، وأمهر القراء في قراءته للركعتين الأولتين في الصلاة الجهرية يفعل مثلها، مثل هذه القراءة في الركعتين الآخرين، يعني يرتل إذا أسر، نحن نسمعهم وهم يصلون بجوارنا، لا يرتلون، ولا يطبقون الأحكام، وليس هذا بدليل على الإيجاب ولا على المنع، لكن مما يدل على أن القرآن يُقرأ سهلاً سمحاً لا يمحط فيه، ولا يهذَّ كهذِّ الدقل، والمجزوم به أن هذه القراءة حينما أنزل القرآن على النبي ﷺ وقرأه على أصحابه، وفيهم كبار السن، وفيهم الصغار، وفيهم قبائل مختلفة، بعضهم يطاوعه لسانه أن يمدّ، وبعضهم لا يطاوعه، ولذلك جاء الأمر على قراءة القرآن على سبعة أحرف، كل هذا من باب التسهيل والتيسير لقراءة القرآن في

أول الأمر، ثم بعد ذلك اتَّفَقَ على حرف واحد، لكن إذا أوجبنا التجويد فما الذي نوجبه على أي قراءة؟ يعني إذا كان إظهار حرف أو إخفائه -الهمز وعدمه- بعض القراء يهمز، وبعض القراء لا يهمز «النبئون، والنبيون» مثلاً، أيهما أسهل أن نهمز، أو نظهر المدغم؟ ثم بعد ذلك إذا قلنا بالإظهار والإدغام فعلى أي قراءة؛ لأننا لسنا ملزمين بقراءة شخص بعينه؛ لأن القراءة كلها سبعية متواترة، واختلاف الأداء في هذه القراءات، واختلاف الأداء في هذه القراءات يدل على أن الأمر فيه سهل؛ لأنها كلها سبعية، كلها متواترة، يعني مَدَّ سِتَّ حركات وغيره يمد أربع حركات، هذه ثابتة بالتواتر، وهذه ثابتة بالتواتر، فما الذي يلزمني بست أو أربع أو اثنتين، كلها ثابتة بالتواتر.

فيدل على أن الأمر ليس كما يقولون، نعم تجويده وضبطه وإتقانه وإخراج الحروف من مخارجها هذا أمر مطلوب، لكن التأثيم يحتاج إلى دليل.

وينص كثير منهم على أنه واجب عندهم في فقههم، وأما تأثيم التارك فيحتاج إلى قول فقيه، هذا كلامهم، يقولون مثل هذا الكلام، يعني هل كلامهم في وجوب المد، في وجوب التجويد مثلاً، هل هو مثل كلام النحاة في وجوب رفع الفاعل، أو نصب المفعول يعني وجوب فني وليس بوجوب شرعي؟ لأنه حتى بعضهم ينص من أهل التجويد أن هذا الوجوب وجوب علم، وجوب تلقي، وجوب هذا الفن يعني بيننا يجب لا يفرط فيه، لكن مع ذلك تأثيم التارك يحتاج إلى قول فقيه مجتهد هذا كلامهم، مما يدل على أن المسألة فيها سعة.

والمقصود؛ أن القرآن يقرأ، ويحسن الصوت بالقرآن، ويزين القرآن بالصوت، ويتغنّى به، بحيث يتأثر القارئ، ويؤثر في السامع، لكن التطبيق بدقة على ضوء ما قرره، وتأثيم تاركه يحتاج إلى دليل، يعني حتى القراء المجودون المتقنون إذا قرأوا القرآن للاستدلال، أو في خطبة للاستشهاد مثلاً، أو قرأها غيرهم وهم يسمعون ذلك، هل يؤثمون؟ أحياناً يورد الدليل بسرعة كما هو شأن من يستدل للمسائل

كُلُّ إِمَامٍ لَيْسَ قَوْلُهُ بِحُجَّةٍ إِلَّا الَّذِي مِنْ صَاحِبِ الْمَحَجَّةِ
ولتبسيط فهم حجتهم في إيجاب التجويد على كل قادر: أنهم قالوا: إنا أمرنا
بالترتيل، ثم فسروا الترتيل بالقراءة بالتجويد، وأن الأمة قد أخذت القراءة
المجودة خلفاً عن سلف، فهي مُطالبة بقراءته كما أنزل.

وجواب هذه الدعوى هو مطالبتهم إثبات أن الترتيل هو التجويد، لأن
الترتيل هو التَرْسُلُ المُعَرَّبُ المُبَيَّن، أما التجويد فهو زينةٌ وكمالٌ وجمالٌ، وليس له
علاقة بالمعنى أو الإعراب، وعليه؛ فمن أدخله في معنى الترتيل فهو مُطالب
بالدليل، ولا دليل فيما نعلم، والله أعلم.

وقد تَبَعْتُ حُجَجَ مَنْ قَالَ بِالْوُجُوبِ، وكثير منهم نقل الإجماع عليه، وأمثلة
ما وجدت لهم التالي:

استدلواهم بأمر الله تعالى بترتيل القرآن، ولا صارف للأمر عن الوجوب
للاستحباب، وكذلك بترتيل النبي ﷺ قراءته وقوله: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي
أَصِلِّي»^(١)، والقراءة من أعظم أجزاء الصلاة.

والجواب: أن الترتيل هو التَرْسُلُ والتبيين، كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

العلمية، يعني يندر أن تجد من يقرؤها على قواعد التجويد، وأنا أقول على المسلم أن
يحرص على تطبيق هذه القواعد حتى في الخطبة، إذا قرأ القرآن يقرأه مجوداً، وحتى في
قراءته للكتب يحرص على أن يجوده، وأن يميّزه عن كلام البشر.

(١) البخاري (٦٣١).

والحسن وغيرهم^(١). فالترتيل: هو الترسل والتؤدة، ويقابله الهذُّ: وهو الإسراع. وكلاهما إقامة للمخارج والحروف والإعراب، ولكن الترتيل فيه زيادة الترسل والمدّ. وتأمّل حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قارئ القرآن، وفيه: «اقرأ واضعِدْ في دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرْفِهَا، فهو في صُعودٍ ما دام يقرأ هَذَا كان أو ترتيلاً»^(٢). قال الحافظ رحمه الله تعالى: «هَذَا: بفتح الهاء، وتشديد الذال المعجمة أي: سرّداً وإفراطاً في السرعة، وهو منصوب على المصدر»^(٣).

وقال الخضير حفظه الله تعالى: «فدلّ على جواز قراءة الهذِّ، وأنها مُحَصَّلَةٌ لأجر الحروف، وأما أجر التجويد والتدبر فقد زائد على ذلك»^(٤)، وقال أيضاً: «هَذَا كان أو ترتيلاً»: يدل على جواز قراءة الهذِّ، والحديث حسن. ومع جواز قراءة الهذِّ حتى في هذا المقام فالترتيل أفضل؛ لأن الهذِّ ينتهي بسرعة

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣/٦٨٠ وتفسير البغوي ٦/٨٣٩٧ وتفسير القرطبي ٣٣٩/١٠

(٢) حديث حسن، رواه أحمد ٥/٣٦١ (٢٢٩٥٠) والدارمي (٣٤٣٥)، والحاكم (١/٥٦٠، ٥٦٦) وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وحسنه ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ١٤/٣٢٤ والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ٦/٣٣٠ وحسين أسد في تحقيق مسند الدارمي ٤/٢١٣٥ وعبد الكريم الخضير في شرح سنن الترمذي ٣/٣٥

(٣) الفتح ٢/٢٥٩

(٤) شرح سنن الترمذي، عبد الكريم الخضير ٣/٣٥

فينتهي صعوده، والترتيل لا ينتهي بسرعة، فيستمر صعوده» (١).

(١) شرح كتاب التوحيد، عبد الكريم الخضير ٧/٧ وقال في نفس السياق: «من قرأ القرآن على الوجه المأمور به كما قال شيخ الإسلام، حصل له من العلم والإيمان واليقين والطمأنينة وزيادة الإيمان والعلم بالقرآن، والعلم بالله وأسمائه وصفاته وآلائه ما لا يحصل لغيره إلا من جرب».

نحن نقول هذا الكلام وقد تعودنا الطريقة الثانية التي هي قراءة الهدى؛ من أجل أن نسرع في إكمال القرآن؛ لأن الإنسان بين أمرين: إما أن يجعل له وردًا ثابتًا من القرآن، وحينئذ يحرص على إكماله على أي وجه كان، أو يجعل القراءة كيفما تيسرت، مع أنه يلتزم التدبر والترتيل، لكن مثل هذا إذا لم يجعل له نصيب محدد هذا يضع؛ لأن المشاغل كثيرة، إذا كان ليس وراءك عمل بين واضح، فسوف تُسوّف.

القرآن أمره عجب، يختلف عن سائر الكلام، إذا أكثر من قراءته رغبت في الزيادة، هناك من كان يقرأ القرآن في كل سبع، ثم ترقى في ذلك إلى أن صار يقرأ في كل ثلاث، فطلبت همته الزيادة من القرآن، لكنه مع كونه يقرأ في ثلاث اضطر إلى أن يسرع أكثر، وتراوده نفسه أن يرجع إلى طريقته الأولى، فبدلاً من أن يقرأ في كل ثلاث يقرأ في كل سبع، لكن يعوقه عن ذلك أمران: الأول: أنه تعود قراءة الهدى.

الثاني: الاعتقاد على عبادة ثم النقص منها، لأن هذا كأنه نكوص «فإن الله لا يملّ حتى تملّوا»، وإن كان إلى الأفضل؛ لأن الأفضل ليس بمضمون، والنفوس يقع فيها شيء من التردد، هل يرجع إلى طريقته الأولى؟ مع أنها أفضل بلا شك، يعني كونه يقرأ القرآن في سبع مع التدبر والترتيل أفضل بكثير من أن يقرأ في ثلاث مع الهدى، وأجر التدبر والترتيل أمره عظيم، يعني حتى في زيادة الإيمان والطمأنينة:

فتدبر القرآن إن رُمّت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

ولو أن إنساناً جعل يقرأ القرآن كل ثلاث لتحصيل أجر الحروف، ويقرأ في كل يوم جزء، ليختم في الشهر مرة واحدة، على الوجه المأمور به، ليجمع بين الأمرين؟

نقول: هذا طيب، هذا طيب، لكن لو بدلاً من قراءة الهذ ختم القرآن مرتين على الوجه المأمور به هذا عند جمهور العلماء أفضل، ومن تعود شيئاً لا يستطيع أن يتركه، تعود شيئاً يعني متعود قراءة الهذ تصعب عليه قراءة الترتيل، ونظير ذلك من تعود قيادة السيارة بسرعة لا يستطيع يهدئ أبداً، والتنظير بالقراءة بالسرعة بالسيارة هذه فيه شيء من الواقعية، لماذا؟ لأنك وأنت تقرأ هذا، أو تمشي بالسيارة مسرعاً، في طريقك تجد حادث، تتأني في قيادتك خمس دقائق، ثم بعد ذلك تزيد قليلاً، ثم تزيد قليلاً بعد ربع ساعة ترجع كما كنت، وأنت تقرأ القرآن بطريق الهذ تأنيك آية النساء التي فيها الحث على التدبر، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] تترث قليلاً صفحة صفحتين، ثم بعد ذلك تعود إلى طريقتك، ثم تأنيك آية المؤمنون، ثم تأتي آية ص، ثم بعد ذلك آية محمد القاضية، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] تترث قليلاً ثم تنسى فتعود إلى السرعة، وأنت في طريقك وأنت تمشي مئة وثمانين، مئتين، مئة وسبعين، إذا وجدت حادثاً، قلت: لا، ما له داعي، ترجع إلى نصف هذا المقدار، ثم تنسى قليلاً قليلاً إلى أن تسرع، فالذي تعود على شيء لا يستطيع أن يتركه إلا بجهد ومجاهدة، وتغيير جذري للطريقة، من تعود القراءة بسرعة». شرح كتاب التوحيد. عبد الكريم الخضير ١٠/٧) بانتقاء واختصار.

وهذا من تواضع الشيخ وهضم نفسه حفظه الله تعالى، وإن القليل من العلماء من يحسن تشريح نفسه، فهي شجرة دقيقة بين التواضع والإزراء وبين إهدار المقام الذي في بقائه نصحاً للعامة، وعلى جادة المثال: فإن بعض الوعاظ يسرف في ذم نفسه أمام العامة قصداً للتواضع وهرباً من الرياء والسمعة بلا اتزان ولا توسّط، حتى يصابوا بخيبة أمل، فيؤثرون من جهة حسن الاقتداء وجودة الائتساء، فيسقط من أعينهم لما أزرأه بنفسه، وهتك حُرمة مهابة تنسكه، فيخلوا قلوبهم من فوائده، وتنقطع حبال همهم عن منافسة السباقين، والمقصود: أنها جادة طيبة، بيد أنها مفتقرة لفقه

والمقصود؛ أن من ترسل في قراءته ويبن الحروف وأعرها وأحسن الوقوف فهو مرتل قائم بالترتيل الواجب، وإن كان الكمال في التجويد التام. ومن قرأ القرآن في صلاته بسلامة من اللحن الجلي؛ فقد أتى بالحد الأدنى الواجب من القراءة، فلا يلزم بأكثر من ذلك إلا بدليل، ويدخل في الترتيل الترسل بمد الممدود كما كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدًا، كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل: كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال: «كانت مدًا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» [الفاتحة: ١] يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم» (١). وهذا الحديث يدل على مشروعية التجويد، وإن كان المد في القراءة دال على الترسل والتؤدة.

ومن ذلك ما روي عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ يصلي في سبحة قاعدًا قط، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي في سبحة قاعدًا، ويقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها» (٢). وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ مفسرة حرفًا حرفًا (٣). لذلك قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكانت قراءته ترتيلًا لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند

مسلكي نفساني دقيق، وبالله تعالى التوفيق.

(١) البخاري (٥٠٤٦).

(٢) مسلم (٧٣٣).

(٣) أحمد (٢٦٥٢٦) وأبو داود: ٧٣/٢ والترمذي: ٢٥٤/٤ وقال: حديث حسن

صحيح. وضعفه الألباني والأرنؤوط.

حروف المدِّ، فيمَدُّ الرحمن، ويمدُّ الرحيم»^(١).

وعليه؛ فالترسُّلُ والتَّؤدةُ جادَّةُ التلاوة القرآنية المثلى، وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فالترسُّل مطلبٌ قِرَائِي، وعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]: قال: «في ترسُّلٍ»، وقال أيضًا: «في ترتيلٍ»، وقال أيضًا: «على تَوَدَّةٍ»^(٢). وكلها بمعنى. وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] واضح في هَدْيِ التَّؤدة والتمهِّل.

ومن أدلتهم أيضًا: ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه كان يُقْرِئُ القرآن رجلاً، فقرأ الرجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] مرسلة^(٣)، فقال ابن مسعود: «ما هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ»، قال: كيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ قال: «أقرأنيها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾» [التوبة: ٦٠] فمدّها»^(٤).

والجواب: أنَّ المدَّ من الترسُّل وهو من الترتيل، والمدُّ قد ثبت في قراءة

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٤٨٢/١

(٢) نقلها ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره: ١١٧ / ١٥

(٣) أي: لم يمدَّ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]

(٤) الطَّبْراني في «المعجم الكبير» (٨٦٧٧) وضعفه الجديع من جهة مسعود بن يزيد ضعفاً إما لجهالة عينه، وإما لعدم توثيقه من غير ابن حبان، وله علة أخرى من جهة الكندي انقطاعاً. وحسنه الألباني في الصحيحة ٢٧٩ / ٥ (٢٢٣٧).

رسول الله ﷺ كما في حديث أنس الأنف، ويستفاد منه التؤدة في القراءة بترتيلها والترسل فيها. وفي صحة هذا الأثر كلام، ويجري عليه ما ذكره من آثار كثيرة عن الصحابة في هذا الباب، وهي منقسمة إلى صحيح غير صريح، وصريح غير صحيح، فالصريح بإيجاب التجويد العُرفي لا يثبت، والصحيح منها غير صريح في مناط الخلاف، وهو وجوب التجويد بمعناه المعروف لدى أهل الشأن، ولا شك أن الاحتياط هو العمل به في النفس وعدم الإخلال به قدر الطاقة، أما الإفتاء بوجوبه ففيه نظر.

ومثل ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه حينما سئل عن معنى الترتيل فقال: «هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»^(١). ولا نعلم له أسناداً صحيحاً، وعلى القول بصحته فهل كان رضي الله عنه يعني بالتجويد إتقان الأداء للحروف والمخارج والحركات والوقوف، وهو السلامة من اللحن الجلي، أم أنه كان يعني التجويد المتعارف عليه عند أهل الفن من شموله لأطراف التجويد وسلامته من اللحن بنوعيه. فالأمر محتمل، وإذا دخل الاحتمال سقط الاستدلال إلا على سبيل الاحتياط، والمعنى الأول أرجح؛ لأن من كبار السلف من فسره به، فحمله على المتعارف المشهور في لسانهم أولى من القصد إلى معنى خاص بلا مرجح من خارج. ومثله ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «جوّدوا القرآن، وزينوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يحب

(١) النشر: ٢٠٩/١ والكامل للهنلي: لوحة: ١٩/ب

أَنْ يُعَرَّبَ بِهِ»^(١).

ومن أدلتهم أيضاً: ما ثبت عن النبي ﷺ أنه حثَّ أن يُقرأ القرآن كما أنزل، كما في الحديث الصحيح في فضل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمعه يقرأ، فقال: «من أحبَّ أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد»^(٢). فهذا دليل على أن قراءة القرآن على وجهه إنّما هو بقراءته كما أنزل، وهو قد أنزل مرتلاً بلسان عربيّ مبين، وابن مسعود من أئمة القراءة الذين على قراءتهم بنيت أحكام التجويد، فعليه؛ وإذا كان اللحن منغياً في الأصل عن القرآن، فإضافة اللحن إليه من تحريف الكلم عن مواضعه. وهو تلقّي القراءة عن النبي ﷺ على الصّفة التي أنزل عليها القرآن، وعربية القرآن التي جاءت بأفصح ما في لسانهم وأبينه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. فهذا القرآن مسند إلى الله تعالى بهذه الصيغة العربية الفصيحة، التي لم يدخلها تصرّف الناقل، بل تلقّاها الأمين جبريل، وعنه الأمين محمد ﷺ، وعنه الأمناء من أصحابه، وهكذا من بعدهم، يتبع اللاحق منهم السابق، على الصّفة التي أنزله الله عليها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١] فهو محفوظ في نفسه من أن يبدل منه شيء حتى

(١) الوجيز للقرطبي (ص: ٨٨) والنشر ١/ ٢١٠

(٢) أحمد (٣٥، ٤٢٥٥، ٤٣٤٠، ٤٣٤١) وابن ماجه (١٣٨) من طريق عاصم بن بهدلة،

عن زرّ بن حبیش، عن عبد الله، به. وصححه الجديع.

في النطق بحرف منه. فقراءة القرآن بغير التجويد أو بغير النحو عدول به عن المسموع من رسول الله ﷺ، وخروج به عن عربيته، وهذا لا يحل^(١).

والجواب: أن من قرأه بدون لحن جلي في إعرابه ووقوفه فلم يخرج به عن العربية، وقرأه بمد وترسل فقد رتل، وأتى بالحد الأدنى المسموح به، ولم يخرج به عن لحن العرب، وإن كان الكمال والجمال والزينة إنما هي بالسلامة من اللحن به جلي وخفي، فليس كل مشروع واجب، بل المأمور منه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب، والتجويد من زينة القراءة وليس من إعرابها، والواجب إعرابها والمستحب زينتها، فليسا على مرتبة واحدة، ويجري على تزيين الأداء بنطقه تزيين الصوت والتغني به.

ومن أدلتهم: ما جاء عن سليمان بن يسار رحمه الله تعالى قال: انتهى عمر إلى قوم يُقرئ بعضهم بعضًا، فلما رأوا عمر سكتوا. فقال: ما كنتم تراجعون، فقلنا: كنا نُقرئ بعضنا بعضًا، فقال: «اقرأوا، ولا تَلْحَنُوا»^(٢).

والجواب: أن ظاهر كلام عمر رضي الله عنه أمرهم بإعراب القرآن دون اللحن فيه، وليس ما زاد على ذلك. قال ابن منظور: «اللحن واللحن واللحانة

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ٣١٥/١ والتحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الداني ٨١/١ وهداية القاري إلى تجويد كلام الباري، للمرصفي (٤٨/١) والمقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله الجديع ٤٣٧/١

(٢) المصنف لابن أبي شيبة: ٤٥٩/١٠، شعب الإيمان: ٢٤٢/٥، إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري: ١٩/١

واللحانية: ترك الصواب في القراءة» (١).

ومن أدلتهم: ما جاء من أن القراءة سنة، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «قال لنا علي بن أبي طالب إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا كلما علمتم» (٢)، وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «القراءة سنة» (٣)، ونحو ذلك.

والجواب: كما أسلفناه، فالقراءة سنة متبعة، والناس فيها على درجات، وكلما كان أقرب لواجباتها ومستحباتها كان أمثل وأفضل. فكلها سنة متبعة، إعرابها واجب، وتجويدها مستحب.

ومن أدلتهم: ما جاء عن زر بن حبیش رحمه الله تعالى قال: قرأ رجل على عبد الله بن مسعود (طه) ولم يكسر - أي: لم يُمِلْ - فقال عبد الله بن مسعود (طه) وكَسَرَ، ثم قال: «والله هكذا علمني رسول الله ﷺ» (٤).

(١) لسان العرب، لابن منظور ٣٧٩/١٣

(٢) كتاب السبعة لابن مجاهد: ٤٧ والحاكم في المستدرک ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤ وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. ورواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٤١٩ بلفظ: «كما أقرئ» وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٢٨

(٣) كتاب السبعة لابن مجاهد: ٤٩

(٤) الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ٣١٤، جمال القراءة وكمال الإقراء للسخاوي: ٤٩٨/٢، النشر: ٣١/٢ ونقل السخاوي في جمال القراء ١/ ٥٩٨ بلا سند عن صفوان بن عَسَّال رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَنبَغِي﴾ [مريم: ١٢]

قلت: في هذا فضيلة ظاهرة للتجويد، وأنه مستقرٌّ عند الصحابة المرضيين كما علّمهم إياه رسول الهدى ﷺ. فينبغي على الأمة الحرص على تعلّمه وتعليمه والقراءة به، وعلى قدر نقصه في القراءة يكون نقص المهارة المحمودة فيها، والله المستعان.

ومن أدلتهم: الإجماع على إيجابه. فقالوا: «إنّ الأمة قد أجمعت على تلقي القرآن وعرضه منذ نزوله جيلاً بعد جيل بهذه الكيفية التي عرفت بالتجويد، لا خلاف بينهم في ذلك، إذ القراءة عندهم سُنّة متبعة»^(١)، وأن أحكام التجويد من إظهار وإدغام وإقلاب وإخفاء وإمالة وتفخيم وتحقيق همز وتخفيفه ونحو ذلك؛ كلّ ذلك من لغة العرب التي نزل بها القرآن، وما من قارئ من قراء الأمصار: الحجاز والشام والعراق إلا وقد ورد عنهم الإدغام والإظهار والهمز والتلين والحدرد والتحقيق والإمالة والتفخيم^(٢).

والجواب: أنّ ما نقلوه من إجماع على الوجوب فلا يثبت. ولعلّ من نقلوه - على جلاله أقدارهم - قد نقلوه بالفهم لا بالنص، أي: أنهم قصدوا بالإجماع نقله بهذه الكيفية، وحفظ الله تعالى له. ونحن نقول بذلك النقل المبارك بالتواتر عبر الأجيال المسلمة، ولكن من أين لكم نقل الإجماع على وجوبه بتلك الكيفية؟

ف قيل له: يا رسول الله؛ تُمِيلُ وليس هي لغة قريش؟ فقال: «هي لغة الأخوال بني سعد».

(١) الوجيز في حكم تجويد الكتاب العزيز، لمحمد بن سيدي محمد الأمين ٥٣/١

(٢) المصباح الزاهر، للشهرزوري ٩٢٩/٣

فوجوده غير وجوبه، فهو مستحب مشروع، ولا ينبغي لقادر تركه، ولكن التأثيم شديد لمن لم يقرأ به بلا عذر، ومفتقر إلى دليل من كتاب أو سنة أو إجماع. وبالجملة؛ فالذي يظهر - والله أعلم - هو مشروعية التجويد، وأن الأمر به على سبيل الندب والاستحباب، لأنه من كمال القراءة وزينتها وجمالها، وهو سنة عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، وعنهم تلقاها أئمة القراء، فلا ينبغي الإخلال بها، وتعظيمها من تعظيم القرآن، وتعظيم القرآن من تعظيم الله وإجلاله تبارك وتعالى، ونحن وإن قلنا بأن حكمه الاستحباب لا الوجوب، فإنه لا يبعد من قال بالوجوب، فلا دلتهم وجاهة ظاهرة، وإن كانت غير كافية ولا تنهض للاحتجاج لنقل مشروعيته من الاستحباب إلى الوجوب.

أما الاشتغال بعلم التجويد وتعليمه فهو فرض كفاية، وهو علم جليل شريف محفوظ بحفظ الله تعالى للقرآن الكريم^(١).

وينبغي أخذه وتلاوة القرآن به بلا تكلف ولا غلو ولا شطط، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ»^(٢). والغلو فيه يكون بالتكلف وتجاوز الحد في قراءته أو العمل به، أما التجاني فهو البعد. وإنك لترى بكل أسف مظاهر وآثار الغلو والتكلف في التجويد حتى صار

(١) وانظر: نهاية القول المفيد ص: ٧، وشرح الجزرية للقاري ص: ١٩.

(٢) أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني.

لدى كثيرٍ من الناس صارفاً لهم عن تدبر القرآن العظيم، بدلاً من أن يكون عوناً على فهمه والتلذذ بقراءته وسماعه. وتأمل كيف يَطْرَبُونَ طرب النشوانين ويتميلون تمايل الشاربين^(١) عند قراءته بتلك الأوزان التي لا يخلو بعضها من إحداثٍ وحُرمة وقلة توقير للقرآن العظيم.

وفي المقابل: ثَمَّت طائفة ضلَّت سواء السبيل بتعمد هجر التجويد تديناً مع إجادتهم له، فمما يؤسفُّ له أن بعض من يقرأ، بل ويصلي بالناس يتعمد ترك أحكام التجويد والقراءة بدونها مع إحسانه لها رغبة عنها، ويظنُّ أن الأفضل له تديناً القراءة بدونها، ويعلِّل تركها بأنه يقرأها على لحن العرب! وهذا ضلال.

ومما يلحق بذلك المبحث التمايل، فالتمايل اليسير عند القراءة لا بأس به عند الحاجة، لتنشيط النفس وإذهاب الكسل، شريطة ألا يزيد عن الحدِّ اليسير

(١) نقل أبو حيان في البحر المحيط (٤/٤٢٠). عن الزمخشري: «أنه لما نشر موسى عليه السلام الألواح وفيها كتابُ الله تعالى لم يبقَ شجرٌ ولا جبلٌ ولا حجرٌ إلا اهتزَّ؛ فلذلك لا ترى يهودياً يقرأ التَّوراة إلا اهتزَّ وأنغض لها رأسه. قال أبو حيان معقَّباً: «وقد سَرَتْ هذه النَّزعة إلى أولاد المسلمين فيما رأيتُ بديار مصر؛ تراهم في المكتب إذا قرؤوا القرآن يهتزون ويحركون رؤوسهم، وأمَّا في بلادنا - بالأندلس والغرب - فلو تحرك صغيرٌ عند قراءة القرآن أدبه مؤدَّبُ المكتب، وقال له: لا تتحرك فتشبه اليهود في الدِّراسة». ولذلك فقد منع منه العلامة بكر أبو زيد رحمه الله تعالى لأنه من أمرٍ يهود. قلت: كثير من كبار حاخامات اليهود يكرهون تمايل المصلي والذاكر، إنما يبيحونه للحاجة، فهو ليس من أصل ما تواضعوا عليه من دينهم. والتمايل عند ترديد المحفوظ لا تختصُّ به أمة من الأمم، بل لا تكاد تخلو منه أمة، وبخاصة صغارها.

المعتاد، وألا يتَّخذه قُرْبَةً وعبادةً ودينًا، فإن اتَّخذه دينًا فهو بدعة. وتركه مطلقًا أفضل وأخشع وأحوط. وفي ظني أن أصل هزَّ الرأس آتٍ من طرب النفس للغناء أيًّا كان مشروعًا أو مباحًا أو ممنوعًا.

وأما إن كان هزَّ الرأس والجذع وتراقصهما في الصلاة فهو مكروه في أقلِّ أحواله، لأنه حركة من غير جنس الصلاة، وتوضيح المقصود: أن بعض القراء يتراقص في صلاته على وفق نغمات ترتيله مع حروف التلاوة، فترى القارئ ينحرف برأسه يمنة مع الحرف الأول، ويسرة مع الثاني، وكذلك يرفع رأسه ويخفضه، بل حتى صدره وجذعه، وهذا - كما لا يخفى - مخالف لسكينة الصلاة وطمأنيتها وإقامتها، ولعل من أسباب ذلك انغماس التالي أو السامع مع الطرب الصوتي المؤثر في اختلاج رأسه وأعضائه مع الغفلة عن تدبّر المعنى الذي يُجَلَّل القلب بسكينة الهيبة وطمأنينة الفؤاد وقرار الخشوع.

وبالجملة؛ فهذا الاهتزاز القرآني قد يُحتملُ خارج الصلاة، لكن ليس في الصلاة المبنية على الطمأنينة والسكينة، لا التراقص على تغنيّ التالي. فالتبذُّد الصوت ينبغي ألا يُفْضي إلى غياب الوقار والسكينة والخشوع والاطمئنان، والله المستعان.

قال العثيمين رحمه الله تعالى عن الاهتزاز عند التلاوة: «إن جاء تلقائيًا فهذا لا بأس به، لأن بعض الناس يستعين بالهزِّ هذا على التلاوة، وإن جاء تعبُّديًا فإنه لا يجوز، بل هو بدعة، ومع ذلك نحن نحث الذين يهزون تلقائيًا أن يعودوا

أنفسهم ترك الهز؛ لأنه قد يقتدي بهم غيرهم، ويظن أن هذا أمر مشروط» (١).
وبهذا أفتى شيخنا الجبرين كذلك.

ومما ينبغي التواصي به: تعظيم مجالس القرآن وإجلالها عن الابتذال الذي يقع فيه بعض الناس ممن يتبعون نغمات الصوت الجميلة لا تدبر المعنى العزيز، فشتان ما بين حالهم وحال من مدحهم ربهم بقوله الأكرم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] وعن الليث بن سعد رحمه الله تعالى، أنه قال: «يقال: ما الرحمة إلى أحدٍ بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ولعل من الله واجبة» (٢). قال الإمام محمد بن الجزري في منظومته الجزرية (٣):

وَالْأَخْذُ بِالتَّجْوِيدِ حَتْمٌ لَا زِمٌ مَنْ لَمْ يُصَحِّحْ (٤) الْقُرْآنَ آثَمُ

(١) سلسلة لقاء الباب المفتوح، شريط رقم (١٥٠) الوجه (ب) الدقيقة ١٥، ١٠.

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٩).

(٣) أبياتها: ١٠٧

(٤) في تحقيق الشيخ عبد المحسن القاسم: وفي حاشية ط: «في بعض النسخ: (من لم يُجود القرآن آثم)، ولكن الذي رأيناه بخط المصنف: (مَنْ لَمْ يُصَحِّحْ) فيكون أصح، وإن كان الثاني أنسب؛ للمجانسة».

ولفظ «يُصَحِّحُ» هي الأصح؛ لعدم وجود دليل يُثبتُ إثم من لم يُجود القرآن،

لَأَنَّهُ بِهِ الْإِلَهُ أَنْزَلَ وَهُوَ أَيُّضًا حَلِيَّةُ التَّلَاوَةِ وَهُوَ إعْطَاءُ الْحُرُوفِ حَقَّهَا وَرَدُّ كُلِّ وَاحِدٍ لِأَصْلِهِ مُكَمَّلًا مِنْ غَيْرِ مَا تَكَلَّفَ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَرْكِهِ وَهَكَذَا مِنْهُ إِلَيْنَا وَصَلَا وَزِينَةُ الْأَدَاءِ وَالْقِرَاءَةِ مِنْ صِفَةٍ لَهَا وَمُسْتَحَقَّهَا وَاللَّفْظُ فِي نَظِيرِهِ كَمَثَلِهِ بِاللُّطْفِ فِي النُّطْقِ بِلَا تَعَسُّفٍ إِلَّا رِيَاضَةٌ ^(١) أَمْرِي بِفَكِّهِ

مَنْ هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ؟

أهل القرآن هم أهل الله تعالى، وهم المعتنون به تلاوة وتدبرًا وحفظًا وعملاً وتعلُّماً وتعليماً وتعظيماً، فنُسبوا إليه لما اختصُّوا عَمَّن سواهم بمزيد العناية به، ورأسُ العناية العمل، جعلنا الله جميعاً ووالدينا وأحبابنا منهم، فعن

وأحكامُ التَّكْلِيفِ تَفْتَقِرُ إِلَى نَصٍّ لِإِثْبَاتِهَا وَإِثْبَاتُ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَى لَفْظٍ: «مَنْ لَمْ يُجَوِّدِ الْقُرْآنَ» إِنْ لَمْ يَكْمُلْ حَرَكَاتُ الْمَدِّ أَوْ الْغَنَّةُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَلْزَمُ أَيُّضًا أَنَّهُ عَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ، أَمَّا مَنْ لَمْ يُصَحِّحْ قِرَاءَتَهُ لِلْقُرْآنِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ آثِمٌ.

قال ابن المصنف رحمهما الله تعالى في شرح طيبة النشر (ص: ٣٥): «(مَنْ لَمْ يُصَحِّحِ الْقُرْآنَ)؛ أَي: مَنْ لَمْ يُصَحِّحِ الْقُرْآنَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ آثِمٌ عَاصٍ بِالتَّقْصِيرِ، غَاشٌّ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ».

(١) أَي: أَنَّ الْقَارِئَ يَبْلُغُ مَرْتَبَةَ الْإِتْقَانِ وَالْمَهَارَةِ بِقِرَاءَتِهِ بِالتَّرِيضِ عَلَى النُّطْقِ الصَّحِيحِ بِكَثْرَةِ التَّمْرِينِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْمَهَارَةِ الدَّائِبَةِ، وَبِرِيَاضَةِ اللِّسَانِ عَلَى النُّطْقِ الْقَوِيمِ عَلَى شَيْخٍ مُتَقِنٍ.

أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قالوا: يا رسول الله: من هم؟ قال: «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته»^(١). أي: أولياؤه المختصون به^(٢).

فصاحب القرآن الذي يعمل به هو القائم به ليله بالصلاة به وتدبره وتفهم معانيه، ونهاره بامثال أحكامه وشرائعه، قال ابن الأثير رحمه الله تعالى في معنى «أهل الله»: «أي: حفظه القرآن العاملون به، فهم أولياء الله والمختصون به اختصاص أهل الإنسان به»^(٣).

وتدبر قول الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبِشْفَاءٍ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٧-٥٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فضله الإسلام، ورحمته القرآن»^(٤). فكفى بذلك لأهل القرآن فضلاً وشرافاً وفرحاً.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله

(١) أحمد (١٢٢٧٩) وحسنه الأرناؤوط، وأخرجه ابن ماجه (٢١٥) وصححه الألباني.

(٢) قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالى في تحقيقه لسنن ابن ماجه ٧٨/١: «أهلين»: جمع أهل، جمع بالياء والنون لكونه منصوباً على أنه اسم «إن».

(٣) النهاية في غريب الحديث (١/ ٨٣).

(٤) أخرجه ابن جرير ١٢ / ١٩٦ - ١٩٧، وابن أبي حاتم ٦ / ١٩٥٩، والبيهقي (٢٥٩٦).

مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» (١).

وإن لحافظ القرآن فضله في الإسلام وفي الصلاة وفي الدفن، فهو المُقَدَّم لأشرف مقام بين يدي الله تعالى لإمامة الصلاة، والتقدم بين أيديهم إليه سبحانه، قال النبي ﷺ: «وليؤمكم أكثركم قرآناً» (٢). فاحفظ فكلُّ حافظٍ إمام. والأكثر حفظاً للقرآن هو المُقَدَّم في اللحد حال دفن أكثر من واحد في القبر، فالقرآن الذي في صدره قدّمه على إخوته، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتل أحدهما في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟» فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللحد.. وذكر الحديث (٣).

وليشر صاحب القرآن بالدرجات العالية في جنات النعيم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق

(١) البخاري (٤٧٣٧، ٧٠٩١) ومسلم (٨١٥). وفي رواية: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جاره، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل». رواه أحمد (١٠٢١٤، ١٠٢١٥) والبخاري (٤٧٣٨، ٦٨٠٥، ٧٠٩٠).

(٢) البخاري (٤٠٥١).

(٣) البخاري (١٢٧٨).

ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»^(١). وتأمل كيف نسب صحبته للقرآن، مما يقتضي مزيد العناية به، فاقراً وارقاً ورتلاً يا صاحب القرآن. وقد سئل العثيمين رحمه الله تعالى عن المراد بصاحب القرآن في هذا الحديث هل المقصود بالقراءة: النظر أم الحفظ؟ فأجاب: «النصوص الواردة في فضل تلاوة القرآن تشمل تلاوته نظراً وتلاوته حفظاً؛ لأن النبي ﷺ لو أراد الحفظ فقط لقال: من قرأ عن ظهر قلب، فلما لم يقيده فإن الواجب إطلاقه، وأن نقول: من قرأ من المصحف أو عن ظهر قلب فإنه ينال الأجر الثابت لتالي القرآن»^(٢).

والقرآن في الصدر زاد الصالحين، قال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى لأحد طلابه: أتحفظ القرآن؟ قال: لا. قال: «واغوثاه لمؤمن لا يحفظ القرآن! فبم يترنم؟ فبم يتنعم؟ فبم ينجي ربه؟». وقال خباب بن الارت رضي الله عنه: «تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر، فإن كان يحب القرآن، فهو يحب الله ورسوله ﷺ»^(٣).

(١) ابن أبي شيبه (٣٠٠٤٨) وأحمد (٦٧٩٩) وأبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) وقال: «حديث حسن صحيح، وله شواهد هو بها صحيح». وصححه الألباني. وقد جاء بالفاظ: ارق، ارقه، ارتق، اصعد. وكلها بمعنى.

(٢) لقاء الباب المفتوح ١٨/٤٦

(٣) الطبراني في الكبير (٨٦٥٧/٩). قال الهيثمي في (المجمع) (١٦٥ / ٧): رجاله ثقات.

وليتفقد صاحب القرآن نيته على الدوام، فعليها مدار قبوله ورضوان الله عليه به، وليحرس خلجات نفسه وخطرات قلبه من واردات الوسوس الشيطانية التي تُملي وتزيّن وتحبّب أخذ الدنيا بعمل الآخرة، واتباع حظ هوى النفس من التصدّر والظهور والعلوّ واقتيات الحطام ونحو ذلك، وليتذكر أنّ قارئ القرآن المرائي من أول المُسعرين في النار عياداً بالله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه - ثم ذكر أبو هريرة الحديث الطويل الى أن قال -: ورجلٌ تعلّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلمته، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ! فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتّى ألقي في النار»^(١). فلا بدّ من تصحيح النية للتزكية، وهل يستقيم الظلّ والعودُ أعوجُ؟!!

سَكِينَةُ الْقُرْآنِ:

اعلم - يا محب - أنّ من أعظم جوارب السكينة للمؤمن تدبر كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، فكتاب الله تعالى زاد لا ينقص، وسقاء لا ينضب، وبحر لا يغيض، بل يفيض على القلب والروح حتى تحلّق وتسمو في سماء ليست بسماء دنيا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال أبو إسحاق الحويني: سنده صحيح. انظر تفسير ابن كثير، تحقيق الحويني (١) /

(١٥٢).

(١) أحمد (٨٢٧٧) ومسلم (١٩٠٥) والنسائي (٣١٣٧).

وفي القرآن أمرٌ عجيب؛ وهو أن كل من تلاه بتدبر وجد فيه حلاً لمشكلاته، وزوالاً لجهالاته، وبلسمًا لجراحاته، وبصيرة لمنهاجه. فكلُّ مشكلةٍ في العالم فحلُّها في الكتاب العزيز، وكلُّ تساؤل في الخليفة فجوابه فيه إجمالاً أو تفصيلاً أو دلالة، وصدق الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ [النساء: ٨٢]. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤]. فتجد النفر يتلون آيات واحدة، أو يستمعونها بتدبر، فتصنع في صدورهم الأعاجيب، فهذا يجد فهمًا لجانبٍ من حياته نبهته إليه الآية، وذاك يجد عزاءً لفقدٍ، أو حرمانٍ نفسه من بعض مشتهياتها، أو لما تجرّعته من غُصص آلامها، وآخر يجد برهاناً لفكرةٍ تحيط به ولما يتوثق منها، وغيره يرى إنذاراً لتفريطٍ وقع فيه، وتلك تستمع لآية أنستها فأنستها همًّا ألم بها، وشوّقتها لله تعالى والدار الآخرة، بل أعجب من ذلك أن الشخص الواحد يقرأ الآية مرارًا ويجد في كل تدبرٍ معنىً جديدًا، وسعادةً حادثةً، وهدايةً غضةً طرية تُثري علمه بربه تعالى، ذلك أن القرآن العظيم هو علمُ العلوم، ومرجعُ المعارف، ومأرُزُ الأفهام، فهو كتابٌ شافٍ وافٍ كاملٌ شاملٌ.

فلا إله إلا الله، ما أعظم الله، وأعظم كلامه، وأكبر نعمته علينا به! ومن أراد العلم فليثور القرآن كما وجه به ابن أم عبدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتدبر قول ربنا الأكرم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ [العلق: ٣-٤] فاستجلب عطايا ربك الكريم بتلاوة كتابه الكريم.

استماع القرآن عبادة:

اعلم - رحماني الله تعالى وإياك - أن استماع القرآن عبادة، فإن مما يُعنى بتلاوة القرآن سماعه، بل إن ذكر سماعه أكثر ورودًا في القرآن من تلاوته، ومن وفقه الله تعالى لسماع تلاوة متقنة متدبرة خاشعة من صوت نديٍّ فقد عَجَّلَ له من نعيم الجنة فليستقلَّ من ذلك أو ليستكثر.

وإن التدبّر السماعي أصيل في القلب، فالقلب يصيخ بسمعه لصوت التالي فتردُّ الآيات عبر أذنه لقلبه، فيأخذ العقل حاجته للمعاني، والقلب للمشاعر، والأذن للصوت الحسن، فيمتزج الصوت الجميل بالمعنى البديع بالعاطفة المتدفقة، فيُعمّر القلب حينها بالعلم والإيمان والسكينة، وهل مطلب العالمين إلا ذلك، وهل سعيهم إلا فيما هنالك؟!!

بل إن الأصل في القران السماع خلا الفاتحة، لأن تعلّم القراءة وحفظ ما زاد عن الفاتحة ليس بواجب، إنما يعلم المسلمون كلام ربهم بسماعه وتلاوته عليهم، فمن أوتي منهم علمًا ومعرفة ولسانًا يقرأ به ويتلوه ويحفظه فهو خير إلى خير، وهي مرتبة عالية، والمقصود؛ أن السماع ابتدائي أما التلاوة فتابعة. وحتى في التعلّم فالمفيد هو ما ورد القلب بالسماع أولاً فيرد القلب عبر قالب السمع المسند المحفوظ حتى يسلم من تحريف البصر. والله المستعان.

مراتب الأداء:

وهل هنا سؤال لطيف في هذا الباب، وهو: لماذا يحبُّ أكثر الناس تلاوة القرآن العظيم وسماعه بالحدرد أكثر من الترسّل؟

والجواب ذو مطالب:

الأول: أن كليهما مشروع بحمد الله تعالى، فمن ترسل فقد أحسن، ومن حذر فقد أحسن. والترسل أفضل لأنه أقرب إلى تحقيق الترتيل. والترتيل عند كثير من القراء هو أحد مراتب الأداء الثلاث: الترتيل، والحذر، والتدوير. وإن كان الراجع أن مرتبة التحقيق هي التي يسمونها الترتيل، أما الترتيل فهو يشمل المراتب الثلاث، وإنما خرج منها الهذ.

ولما كان تعلق الترتيل بالمدود قسّموه إلى ثلاثة أقسام: تحقيق وتدوير وحرر بحسب مقدار المد، وكذلك جاء الأداء بقصر المنفصل والتوسط فيه، وهكذا.

فالترتيل: هو القراءة بتؤدة وترسل وتمهل واطمئنان، ومراعاة أحكام التجويد. وأما الحذر: فهو الإسراع في القراءة مع المحافظة على قواعد التجويد ومراعاتها. وأما التدوير: فهو القراءة بسرعة متوسطة بين الترتيل والحذر، مع المحافظة أيضاً على قواعد التجويد. وأفضل المراتب: الترتيل، ثم التدوير، ثم الحذر^(١). قال صاحب تذكرة القراء:

الحذر والترتيل والتدوير والأوسط الأتم فالأخير
وقد جعل بعض العلماء المراتب أربع، فأدخل التحقيق قبل الترتيل،

(١) وانظر لمراتب القراءة وتجويدها: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح المرصفي (٥٠/١) وهو سفر نفيس، رحم الله راقمه.

وجعل فيه مزيد ترسل^(١)، ويكثر استعماله عند التعليم.

ونحى آخرون - وهو الأظهر لدي - إلى أن المراتب ثلاث: التحقيق (وهو الذي يُسمى الترتيل)، والتدوير، والحدَر، أما الترتيل فهو ينتظم هذه المراتب جميعاً، وبخاصة ما كانت قراءةً على مُكثٍ وترسلٍ لإتاحة التدبر للقارئ والسامع، وإنما خرجت عن الترتيل قراءة الهذِّ، لأن رسول الله ﷺ قد جعل الهذِّ قسيماً للترتيل كما في حديث بريدة، والقسيمُ مُباين.

وبالجملة؛ فالحدَرُ من الترتيل، وَمَنْ حَدَرَ بِلَا هَذَا فَقَدْ رَتَّلَ الْقُرْآنَ، والله أعلم. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] والمكث هو الترسل والبطء والترتيل. وقال عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وكان ﷺ يتأوَّل ذلك فيرتل القرآن كما أمره ربه. وكان يمدُّ قراءته حرفاً حرفاً، ويقف على رؤوس الآي، ويقرأ السورة حتى تكون أطول من أطول منها. بمعنى أن قراءته أبطأ من القراءة المعتادة لغيره من الناس. وكلُّ هذا لتحصيل المقصود الأعظم وهو تدبر التلاوة التي من معانيها العمل بالقرآن، وهو ما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يصدِّقون بما فيه من أخبار، ويعملون بما فيه من أحكام.

ولا يتأتَّى العمل بالقرآن إلا بعد العلم بمعانيه، ووسيلته الكبرى - بعون الله تعالى - هي التدبر. لهذا قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

(١) إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم. لعبد السلام مقبل المجيدي ٢٦٢/١

عنهما: «اقرأ في ثلاث، فإنه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»^(١). أي: لا يستطيع تدبره كما ينبغي له. وإلا فالتلاوة المجردة مع نوع تدبّرٍ مقدورة، وقد أتوا بها في ركعة كما ثبت عن عثمان وتميم الداري رضي الله عنهما وكذا سعيد ابن جبير وابن باز رحمهما الله في كثير من العباد.

لذا زجر السلف عن هذ القرآن، أي: الهذ الذي يصل إلى الهزيمة فتتداخل الحروف وتضطرب الكلمات لشدة لإسراع، أما ابتداء الهذ وأعني به الهذ المعتدل الملتزم بأركان الترتيل بمعناه العام فقد جاء الإذن به في الحديث، فعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول - وتأمل بشارته لأهل القرآن -: «.. وإنَّ القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك! فيقول: أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإنَّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعْطَى الملكَ بيمينه، والخلدَ بشماله، ويُوضَعُ على رأسه تاجُ الوقار، ويُكْسَى والداه حُلَّتَيْنِ لا يقومُ لهما أهلُ الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلاً»^(٢).

(١) البخاري (٥١/٣) ومسلم (١٦٣/٣).

(٢) أحمد ٣٤٨/٥ (٢٣٣٣٨). والدارمي (٣٢٥٧)، وحسنه الخضير. وفي سنده بشير بن المهاجر، وثقه ابن معين، وغيره، وتكلم فيه بعضهم، فهو حسن الحديث، وقد صحَّح =

أما الإسراع المفرط فقد نهوا عنه، قال ابن إمّ عبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشَّعر، ولا تنثروه نثر الدَّقْل، وقِفُوا عند محكمه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همَّ أحدكم آخر السورة». وتدبَّر آخر جملة والله المستعان، والهذَّ الذي زجر عنه ابن مسعود وغيره هو الإسراع الذي يفوق الحذر فيكون كالهذَّرة، أما الإسراع الذي لا يحرف القراءة فلا بأس به ما دام مقيماً لإحسان القراءة.

ويخلص لنا بعد هذا أن الهذَّ قسمان: الأول: هذَّ محتملٌ مقبول، وهو ما اختصرت مدوِّده، وأقيمت حروفه، ويدخل في حديث: «هذَّاً كان أو ترتيلاً». والثاني: هذَّ ممنوع محرَّم، وهو ما تداخلت حروفه، وتغيَّرت ألفاظه، وهي الهذَّرة، وهي داخلة دخولاً أولياً في قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تهذَّوه هذَّ الشَّعر، ولا تنثروه نثر الدَّقْل». ولا يمنع أن يكون النوع الأوَّل داخل في مقصوده أيضاً رضي الله عنه لما أثر عنه من تشديد في هذا الباب، والله أعلم.

والمقصود؛ أن الحذر والتحقيق والتدوير مراتب مشروعة، وسبل إلى رضوان الله مسلوكة، ولكن الأصل هو الترتيل بغرض التدبر والعمل. وإنما خرجت عن الترتيل قراءة الهذَّ، لأن رسول الله ﷺ قد جعل الهذَّ قسيماً للترتيل كما في حديث بريدة، والقسيمُ مُباين. وبالجمله؛ فالهذَّ الممنوع غير جائز، أما ما

الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٩٢) وقال محققو المسند بإشراف الأرنؤوط: «إسناده حسن في المتابعات والشواهد من أجل بشير بن المهاجر الغنوي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وحسنه الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٦٢، ولبعضه شواهد يصح بها». وحسنه محقق مسند الدارمي الشيخ حسين سليم أسد.

قارب الحدر فلا بأس به، والله أعلم.

اقطع زمانك بالقرآن تفهمه وما أتى عن رسول الله من كلم
واترك مجالس قوم ليس عندهم سوى المآثم من فعل ومن كلم

المطلب الثاني: أن جمال الصوت وجوده نعماته تتأتى بشكل أسهل عند الحدر لتنوع صعود ونزول مستوى أصوات الحروف. ولكن ذلك يشق - نوعاً ما - عند الترتيل إلا مع الدُّربة، ولكن هذا كله يزول، بل ينقلب لضده إذا كان السامع يسعى بقلبه لتدبر المعاني من غير الوقوف الطويل مع جماليات التغني بالصوت الجميل، وواها لمن جمعهما.

وهي يسيرة بحمد الله تعالى، خاصة إن كانت قراءة حزينة مترسلة متدبرة، ومعلوم أن أشهى الترانيم للأذان هي ترنيمة الأحرار، فالتلاوة بتحزُنٍ أدعى للخشوع، واستدراار الدموع، وهجر الهجوع، وتَشَنُّفِ الأفتدة بكل سَمْعِهَا لتدبُّرِ المَتَلَوِّ العظيم العزيز، وأمكن للروح أن تُحَلِّقَ في ملكوت التدبُّر، وسماء الرجاء، وفَضَاءِ الحُبِّ، وضياء الإيمان، ولذَّةِ سلطان القرآن، فلا تملك القلوب حينها إلا أن تُلقِيَ أزمَّةَ أسماعِها إليه، راشفةً مُتَلَذِّذَةً مهتديةً شاهدةً مُصِيخةً لعهد الله الأخير لبني الإنسان ومن تبعهم من الجن، وهذه القراءة المرتلة هي عامَّة قراءة الصحابة والسلف رضي الله عنهم، وقد ينزلون عنها لعارض، وكلها خير بفضل الله تعالى.

وبالجملة؛ فالصوت وسيلة لا غاية، وإن كان تزيينه من سنن القراءة، فهو عبادة مقصودة لذاتها حتى وإن كانت في نفسها وسيلةً لطيفةً وطريقةً حسنةً

للبلاغ الإلهي الكريم العظيم الجليل الجميل.

وإن الملائكة لتطربُ للصوت الجميل بالقرآن، كما في خبر أسيد بن الحضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إنها كادت أن تبدى للناس عياناً لا تحتجب عنهم بالستور الملائكية، كلُّ ذَا لا ستغراقها في سماع كلام ربِّها بحلاوة المزامير الداودية، وإخواننا من الجنة أسلموا لما سمعوه من في رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. ومن فرحهم بالقرآن وبالرسول ﷺ ازدحموا بشدة لسماع القرآن منه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وتدبر كذلك صدر سورة الجن وغيرها من فرحهم بالقرآن والتوحيد والإسلام. ولربما دخل بعض صالحهم المساجد وبيوت الإنس رغبة في سماع القرآن الكريم، وأخبار الناس في هذا الباب كثيرة مشتهرة.

بل إن رب العزة جل جلاله يحبُّ أن يسمع القرآن من عبده بصوت جميل، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ ما أذنَ لنبِيٍّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(١)، وفي رواية: «لِنَبِيٍّ حَسَنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»، وفي

(١) يقال: أذن إلى الشيء وللشيء، يأذن أذنًا، أي: استمع له. والتغني: تزيين الصوت بالقراءة والتحبير. وقد مرَّ.

رواية: «لِنَبِيِّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» (١).

وعن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منّا». قال عبد الله بن أبي يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ لابن أبي مليكة: يا أبا محمد؛ أرايت إن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع (٢). وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (٣). فتزيين الصوت مطلب شرعي ومرضاة للرحمن، وتدبرُ القرآن مقصودُ التلاوة والسَّماع، فخيرٌ لك، وأولى لك، ثم أولى أن تجمعهما، فاستغرق همتك لهما مدى حياتك، والموعِد الجنة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

الثالث: أن في نفوس الناس نزعة إلى العجلة والإسراع لضعف صبرها، ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ولو جاهدناها لأضحت بإذن الله تعالى مطمئنة للترتيل، لا تكاد تسكن إلا إليه. وذلك أن المقصود الأعظم للتلاوة وسماها هو التدبر، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿كَتَبَ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَكَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَسْتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾ [ص: ٢٩].

(١) البخاري (٢٣٥/٦، ١٧٣/٩) ومسلم (٢/٢١٩٢).

(٢) أبو داود (١٤٧١) وجوّد سنده النووي في الرياض (١ / ٤٩٨).

(٣) النسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.

ووسيلة التدبر هي الترتيل، والترسل، والترجيّع، والبطء، والتأمل، والتفكير، والتسبيح، والسؤال، وإلحاح الدعاء، والاستعاذة، والاستجارة، والاعتصام، والاستغفار، والتوبة، ونحو ذلك عند مروره بالآيات المقتضية ذلك، وكذلك إعادة آيات التنبيه والوعظ والذكرى مرارًا، واسترجاعها تكرارًا، والدعاء أثناءها، وتحريك مشاعر القلب بها، واستنزأ فوائد الفكر في تلاوتها، والعمل بمقتضاها، فيناجي بها ليلاً، ويتفقدتها في قوله وعمله ونيته نهارًا.

وتأمل حالك حتى وأنت تنظر للمصحف بلا قراءة ابتغاء تحصيل معنى تقصده وتفتش عنه، فستجد نفسك بلا جهد ولا قصد ترسل وتبطء وتدبر، فالقرآن معجز، وهداياته لا تنضب، وفوائده لا تنتهي، ومعين أجره لا يزول ولا يفنى، بل إلى رضوان الله يقرب ويرفع ويوصل صاحبه للدرجات العلى من جنات النعيم، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولا يعني ذلك أن الحذر ليس فيه تدبر، بل فيه بحمد الله نزرٌ نافعٌ صالحٌ مبارك، ولكنه ليس كغيث التدبر حينما تنهمر المعاني بتفجير ينابيع الآيات مع كثر النظر تلو النظر، وتدبر العقل بمعول الفكر، وتأمل النظر ببصيرة العقل، وكل هذا مفتقر لبطء وترسل لا عجلة وإسراع.

وقد يكون الحذر والتدوير لدى بعض الناس أسهل للتدبر من الترتيل،

لمشقة الترسّل عليهم وارداتٍ تدبّريّة أو دنيوية لا يطيقون دفعها، أو دفعًا للنّعاس، فيحدّثون، ويملّثون أيديهم من خير الله العميم بالقرآن الكريم. وفضلُ الله واسع، ودينُه يسر، وجنته لها ثمانية أبواب، ورحمته وسعت كل شيء، فله الحمد كما ينبغي له.

وإنّ من مزايا الحدر كثرة الحروف المتلوّة، كذلك كثرة توارّد معانيها العامة مع كثرة الآيات المقروءة، فيرسم تالي الكتاب في قلبه لوحة ذهنية عامة تجمع ما تفرّق من شوارد المعاني المبتوثة في ثنايا الآيات والسور المتباعدة، وترتبط ما تشابه منها فتُحكّمه بابًا واحدًا هو عمود نور المتدبّرين، وهذا يكون بحسب كثرة المقروء، وهو من التدبّر المحمود بلا شكّ.

والمقصود؛ أنّ الحدر والتحقيق والتدوير مراتب مشروعة، وسبل إلى رضوان الله مسلوكة، ولكن الأصل هو الترتيل بغرض التدبر والعمل. ومن العلماء وغيرهم من كانت له أكثر من ختمة واحدة للترتيل المتدبّر جدًّا جدًّا، حتى إنه ربما بقي في الختمة الواحدة بضع سنين يرتل ويتدبر، ويُرجّع ويرجع، ويردد الآية ويدعو ويبتهل، ويجعل لهذه الختمة وردًّا خاصًّا يقطع له أصفى حالات نفسه، وأنقى ساعات يومه، وأجود أوقّات عمره، كما أنّ له ختمة أخرى يرتلها كعادة الناس، حتى لا يغيب عن تمام القرآن بهجر بعضه. وقد مثل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ متدبر القرآن المترسل كمُهدي الجوهرة الجميلة الكبيرة، ومثل الحادر بالقرآن بمهدي عدة جواهر صغار، فالترتيل المتدبر كيف، والحدر كم.

ومتى جاهد المرء نفسه على التدبر تدفقت في قلبه معاني القرآن التي يدهش لبه من عظمتها وجلالها، فهو كتاب الله تعالى الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

ولاحظ الأصل اللغوي لكلمة تلاوة، فتلى معناها: تبع. ومنه قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: يتبعون القرآن حق اتباعه. فالغرض من تلاوة القرآن اتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والاهتداء بهدياته، وتفقدته في الحياة. فالتالي يتبع هدايات القرآن، ويتفقدتها في قلبه ولسانه وعمله ورجائه وخوفه وإراداته وعزماته وعلومه، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]. واعلم أن أهدى وألطف وأجمل وأسد وأحكم المواعظ هي مواعظ القرآن، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْظِمُكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨]، فالقرآن حياة.

وبكل؛ فالترتيل (التحقيق) والتدوير والحدُر كلها وسائل لتحصيل علم القرآن، وفهمه، والاهتداء به، وكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له، فمن النفوس من يصلح لها هذا، ومنهم ذاك أو ذاك، فلا يتكلفن أمرؤ مركباً له عنه مندوحة، ولا يرهقن أنفسه في تلاوتها كلام ربها بما دون مشتهاها المقدور المشروع، إلا على سبيل الكرّة بعد المرّة، حتى تعتاد ما هو أصلح لها في معادها، فالنفس كالراحلة تنشط وتنهج وتمشي سريعةً طرباً لحاديها، ورغبةً في تحصيل منهاها عند هاديها، وتارة تكل وتنفه وتمل وتحرن، وقد تنقطع عن المسير إن لم تُدر بحزم واقتدار، وتُسايس برحمة وحكمة، وكثير من النفوس فيما أحسب تصلح على أداء الحدُر،

فلا تُحْجَرَنَّ عَلَى نَفْسِكَ مَا وَسَّعَهُ رَبُّهَا عَلَيْهَا.

فمن الناس من يكون الحدر أو التدوير أنسب لطريقة قراءته، وتتأبّع أنفاسه، وتوارد أفكاره، ومسابقة وسواسه، فإن بعضهم يشكو عزوب الفكر وشروذ البال إن هو رتّل، لكنّ قلبه يجتمع على الإسراع شيئًا. فمثل هذا التالي ربما يكون الحدر خيرًا له، لأنّ غاية هي التفهم والاهتداء وتحصيل الأجر، فأيّ طريق أوصله فهو خير من ربّه، ومِنَّة من هاديه، ونعمة من مولاه.

وعليه؛ فإنّ وجد التالي نفسه في الترتيل فثمّ بابٌ واسع للفهم، ومهيجٌ جميل للاعتبار، ومنهاجٌ عريض للهدى، ومُتَجَعٌّ للغاية خصيبٌ لغناء الروح، وغذاء القلب، وإشباع العقل، وإسعاد النفس، في كنوز ذخائر لا تُحصى من عظيم المثوبة ووافر الأجر، وإن وجد القارئ نفسه في الحدر فخيرٌ فضيل، وأجرٌ كثير، وحظٌّ من الله كبير، وإن وجدها في التدوير فهو وسط بينهما، يُحصّل بيديه طرفي هذا وهذا، فيجمع غنيمة التدبّر في تَوْدَةِ التدوير، وكثرة الحروف في ترسّله شيئًا. وكلّها خيرٌ وبرٌّ وهدى ونعيم، ومدارج سامقةٌ لمراضي رب العالمين.

وبالجملة؛ فالترسّل لأهله، والحدر لأهله، والتفاضل يكون بحسب حال القارئ، ومواهب الله القرائيّة والتدبيريّة له، فالحدر كمّيّة، والترتيل كيفيّة مع اتحاد زمن القارئ بهما، وكلّ خير، وإن كانت الكيفيّة أهدى سبيلًا.

فسبحان من خَلَقَ وَفَرَّقَ وَمَايزَ الطُّرُقَ، وجمع السُّبُلَ كلّها في سبيلٍ واحدٍ هو الاعتصام بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وتدبر فرحًا بفضل الله عليك أن جعلك من أهل القرآن قول

الرحمن تبارك وتعالى، وخصك بين الأمم به: ﴿قُلْ يَفْضُلِ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) [يونس: ٥٨] وَنَعِيماً هَنِيئاً لَكُمْ يَا مَنْ جَمَعَهُ اللَّهُ أَوْ بَعْضُهُ فِي صُدُورِكُمْ، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩) [العنكبوت: ٤٩] اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا جَمِيعاً وَوَالِدِينَا وَأَهْلِينَا وَأَحِبَّائَنَا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُكَ وَخَاصَّتُكَ يَا كَرِيمَ يَا رَحْمَنَ، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ.

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
والمقصود أنَّ القرآن العظيم هو أصل كل علم نافع، فهو أصل مُحْكَمِ العلم بإطلاق، وما نزل لهذا العالم ولن ينزل أعظم منه، وقد تكلم الله تعالى به بحرف وصوت، فحروفه ومعانيه من الله تبارك وتعالى. وإنَّ مما أسف عليه كثير من أهل العلم عند موتهم أنهم لم يعطوا القرآن العظيم الوقت الكافي لإشباع نهمه نفوسهم للعلم والبركة والخير منه، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قد أبدى أسفه بين يدي وفاته أنَّه أمضى كثيراً من القول والعلم في غير تدبر القرآن وتثوير علومه ورشف بركته، مع أنَّه كان جاهداً مُجَاهِداً بعلمه أهل الأهواء المضلَّة، ولكن للقرآن وتدبره خصائص فريدة محكورة عليه، لا تُتناول إلا عنه، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (٩) [الإسراء: ٩] وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَصْفُهُ بِأَجْرٍ كَبِيرٍ، وَأَجْرٍ كَرِيمٍ، وَرِزْقٍ كَرِيمٍ، فَهُوَ الْجَنَّةُ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ فَضْلَهُ الْعَظِيمَ.

اقْطَعْ زَمَانِكَ بِالْقُرْآنِ تَفْهَمُهُ وَمَا أَتَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ كَلِمٍ

وَأَتْرُكُ مَجَالِسَ قَوْمٍ لَيْسَ عِنْدَهُمْ سِوَى الْمَأْثِمِ مِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمٍ

وواغبطه من كان لقلبه ورد قرآن لا يتركه آناء الليل وأطراف النهار حتى يلاقي مولاه، ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥] ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأَ قِيَمَهُ﴾ [الانشقاق: ٦] فيراوح الموفق بآتزان واعتدال بين الحفظ والمراجعة والتلاوة والتفسير والدعاء.

وانضبط - وفقك الله تعالى - في ضبط حفظك على الدوام، فاحتفظ بها حواه قلبك من الآي والذكر، فهو كنز ليس ككل الكنوز، وزد إليه ما استطعت حتى تحوز كامل القرآن وتجمع أطرافه في قلبك، فلنعم الجوار جواره، ولنعم الصاحب والقرين، والهادي والمبين، بإذن الرحمن الرحيم. وتتبع - يا محب - طرائق الحفظ التي سار عليها سابقوك الأفاضل، وادرسها وتأملها وانظر أنسبها إليك، واعمل بها جاداً عازماً مخلصاً مريداً، وإن مما أجمعوا عليه من أسبابها: تخلص النية، وصدق التوجه، والتكرار، وعلو الهمة، وثبات العزيمة، وصلاح الرفقة ذوو الهمة، وإلحاح الدعاء، وقيام الليل بالورد.

والنفس على ما اعتادت عليه، ولا تستصعب أمرها وإن كبر عمرها فإن مواضع القرآن تقرب بعيدها، وتذيب جليد غفلتها، وتلين قاسيها. فلا تغفلن عن سؤقها إلى ربها ولو بالسلاسل، بذكره وحبه ودعائه والتوبة إليه واستغفاره والتوكل عليه، واليقين بلقائه ووعدده ووعيدته، وإحسان الظن به، واعلم أنه عند ظنك به، فظن به ما شئت من خير تجده إن أحسنت عبادته، سبحانه وتعالى.

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا عَدَلْتُهَا اعتدَلَتْ وَلَا تَلِينُ إِذَا كَانَ مِنَ الْخَشَبِ
والعادة خيرًا أو شرًا - فاعلم - لها أربع مراتب: تبدأ في الثبات بعد ثلاثة أيام،
ثم عشرة، وتستحكم بعد أربعين يومًا، ولا يكون من أهلها حتى يتم السنة.
وتدبر مليًا قول ربك الأعلى: ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]. ورد
بلسانك من وراء فؤادك الصادق الخاشع المنيب: يا رب سلّم سلّم. فالثبات
الثبات.

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَرَكْتَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْقَطِمِ
والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم^(١).

٤ - الصدقة.

للصدقة تأثير عجيب في تنقية الصدر وسلامة القلب وعافيته، «قال تعالى
لرسوله ومن قام مقامه، أمرًا له بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾، وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم
من الذنوب والأخلاق الرذيلة. ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنمّيهم، وتزيد في أخلاقهم
الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي

(١) ولا تستطل - رحمك الله تعالى - هذا المبحث، فهو من الأهمية بمكان، وهل أعظم من
الكلام على بيان أحكام وطرائق وبركات تلاوة كلام رب العالمين؟!

أمواهم» (١).

فالصدقة تزكي القلب وتطهره من دغائل الأحقاد، وتزيل شيئاً من حظ الشيطان الذي علق به وأمراضه، ولها تأثير عجيب في شرح الصدر وفسحه.

واليد التي تمتد بالصدقة هي في الحقيقة تمتد بغسل القلب من الدّرن، فهي مطهرة للقلب، مزكاة النفس، وإنّ أحق المرضى بالمداوة مرضى القلوب، وأحق القلوب بذلك قلبك الذي بين جنبيك، فسارع تهتد.

وتأمل - مُسَدِّدًا مَأْجُورًا - كرم الله تبارك وتعالى وكراماته للمتصدقين، فقد ذكر الله تعالى في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ثم رتب على ذلك أجراً عظيماً وكرماً جسيماً، فرتب لهم ثلاثة أجور هائلة جزيلة، فقال سبحانه: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤) [البقرة: ٢٧٤].

ثم بعدها بآيتين ذكر جلائل شعائر الإسلام؛ من الإيمان، وعمل الصالحات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فرتب على مجموع ذلك نفس أجر ذلك المنفق السخي الجواد المتصدق المخلص. وكأن في ذلك إشارة إلى أن هذا يعدل تلك، وهو تنويه عظيم الخطر جداً، حقيق بكل مؤمن الاحتفاء به، وعقد قلبه على أن يكون من أهله على الدوام طاقته بتوفيق ربه الكريم.

ولا يعني هذا الموازنة بينهما في أصل العمل، فإن ذلك لا يصح أصلاً، فلا

(١) تفسير السعدي (١ / ٣٥٠).

وجه لمقارنة الشيء بشيء من جنسه ونوعه وفرعه وجزئه، فهل الصدقة إلا إيمان، وهل الصدقة إلا عمل صالح وزكاة.. والمقصود؛ أن لها رتبة في الغاية من الرفعة، وهي مرتبة لا تُنال إلا بمحض فضل الله ورحمته ومنتته وكرمه على من يشاء من خلّص عباده وإمائه، نسأله تبارك وتعالى من فضله.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنةٌ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]»^(١). فإنهم لما أخلصوا وأخفوا صلاتهم ودعاءهم وصدقتهم؛ كافأهم ربهم بقرّة أعينهم بما لم يخطر على قلب بشر!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة تُطفئ غضب الربِّ، وتدفع ميتة السوء»^(٢). عياداً بك ربنا من غضبك.

(١) الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٧/ ٣٤٩ - ٣٥٠) وغيرهم. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى: (١٧/ ٢٦).

(٢) الترمذي (٦٦٤)، والبيهقي في «شرح السنة» (١٣٣/ ٦) وغيرهما. وقال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه». وصححه ابن حبان (٣٣٠٩)، وأخرجه الضياء في

المالُ كالماء إن تَحْبَسَ سَوَاقِيَهُ يَأْسِنُ وَإِنْ يَجْرَ يَعْذِبُ مِنْهُ سَلْسَالُ
فَاللَّهُ أَعْطَاكَ فَابْذُلْ مِنْ عَطِيَّتِهِ فَاَلْمَالُ عَارِيَّةٌ وَالْعَمْرُ رَحَالُ

وقد يقول قائل: أنا إنسان منطقي رياضي، والنبى ﷺ يقول: «ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ...»^(١). وأنا مُصَدِّقُ نَبِيِّنا بلا أدنى شك، وأعلم أنه لا ينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى إليه، ولكن كيف تحلون لي عقدة هذا الإشكال؟

والجواب: أنك أحسنت إذ آمنت بالكتاب كله، ولكن أتم هذا الإحسان بأن تكمل ما لم تعلم إلى علام الغيوب، وتسأله شفاء عيِّكَ، فإن الله تعالى إذا سؤل أجاب، واعلم: أن شريعة الله تعالى كاملة لا نقص فيها، وأخباره حق لا كذب فيها، وميعاده صدق لا خُلْفَ فيه، فإن يوماً قلق فؤادك بخبر لم تفهمه كهذا؛ فاعلم أن الشرع ينظر للأمور نظرة كاملة شاملة لا مجزأة ناقصة، ومنها هذا الباب الذي أنت عنه سائل، فالحديث فيه على حقيقته، ليس فيه التواء لا مجاز ولا إشارة ولا ضربٌ مثل، فالبركة جزء خفي من الرزق غير مرئي ولا مسموع ولا معدود، لكنه موجود أو مفقود.

ولنقرب لك الجواب بأمثلة من نفس جنس المسألة: فلو أن الرجل كان

«المختارة» (١٨٤٧، ١٨٤٨). وفيه عبد الله بن عيسى الخزاز، وهو ضعيف، وقد تفرّد

به. وللحديث شواهد. وقال الألباني في تمام المنة (٣٩٠): «أما الشطر الأول من الحديث

فهو قوي، لأن له شواهد كثيرة».

(١) الترمذي (٢٣٢٥) وصححه الألباني.

لديه ألف ريال، تصدَّق منها بمئة، فهذه المئة - إن تقبلها الله تعالى - فهي تبارك ماله وتحفظه وتنميّه، فهذه الألف قد تزيد بسبب بركة تلك الصدقة إلى عشرة آلاف، إلى خمسين ألفاً، إلى سبعمئة ألف أو تزيد، والله يحب الكرم والشكر والإحسان. فالمال هنا زاد ولم ينقص، كذلك؛ فلعل هذه الصدقة قد حفظت هذا المال من النقص وحرصته من التلف، وأمنت له طيب الخلف، فربما أن له مسار قدر سيصيبه لولا أن الله تعالى بسط قلبه ببسط يده بالصدقة فدفع عنه بها شراً كان نازلاً لولاها، بإذن ربه وحده تبارك وتعالى، كاحتراق دكانه، أو بيته، أو تلف سيارته، أو مرضه، أو مرض من يعول، أو اجتياح ماله بعارض خاص أو عام، أو أي أمر من الأمور التي قضى الله أنها تُنقص أو تُتلف الأموال، وهذا ما كان سيحصل لولا أن الله أذن بتلك الصدقة المباركة.

والمقصود؛ أن معيار المال ليس بمقداره، بل بمنفعته، فالمعيار الحقيقي هو نفعه لا جمعه وعدّه، والعامة تقول: «لذة كل شيء في وقته». مثال ذلك: لو أن رجلاً بمحلة بخلاء وقد أهلكه العطش، وليس ثم ماء إلا ببذل مقابله نقوداً، ومع هذا الرجل ريال واحد يستطيع به شراء ما يكفيه من الماء، ويدفع به غلته من العطش، فهو ملهوف جداً، وقد قضى حاجته بل ضرورته بهذا الريال الوحيد، فهذا الريال في الحقيقة أحب إليه وأنفع وأطيب من ألف ريال هو في غنى عنها، فلو أنه كان في وقت آخر ومعها أموال عديدة هو عنها غني، ثم تذكر نفع ريالها ذاك لعلم حينها أن قدر المال ومعياره هو نفعه لا جمعه، وبهذا يتبين التغابن يوم القيامة بين المنفقين المتصدقين والبخلاء والمقتصدين.

فهذه هي المسألة مكشوفة أمامك، والإسلام يريدنا أن ننظر لبواطن الأمور وحقائقها ونهاياتها، لا أن نقف عند ظواهرها وأطرافها وبداياتها، والموفق من وفقه مولاه، والسعيد من قبله وهداه، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وبالجملة؛ فالصدقة برهان على صدق الإيمان، وعلى الصدق مع الرحيم الرحمن، والصدقة المتقبلة تطفئ الخطيئة وتطفئ غضب الرب تعالى، وكل إنسان غداً تحت ظل صدقته، وليس لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، فاستقل من الخير أو استكثر، ولا خابت صفقة مع أكرم الأكرمين.

٥- الدعاء.

الدعاء هو حبل المؤمن لرفع حاجته لربه ونيل مطلوبه من كرمه، هو سلاح المؤمن ضد الشيطان ووسيلة لياذه بربه الرحمن.

ومن سأل الله صلاح قلبه وسلامته وطهارته وألح على ربه بذلك أعطاه سؤاله وطهر له قلبه وسلم قلبه. وكان من دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(١). فالمؤمن الموفق يدعو ربه على الدوام أن يجعل قلبه سليماً على إخوانه أهل الإسلام، ومن دعاء الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ

(١) المسند ٣/٣٠٩-٣١٠ (١٩٩٧).

رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠].

والموفق من لم يفوت نفحات المقربين في ثلث الليل الأخير فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُنْزَلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١). فهل الغنائم أيها النائم!

٦ - صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ؟ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ»^(٢). وَوَحَرُ الصَّدْرِ: هُوَ الْحَقْدُ وَالْغَلُّ وَشِدَّةُ الْغِيْظِ، سَمِّيَ بِهِ لِتَشَبُّهِهِ بِالْقَلْبِ، يُقَالُ: وَحَرَ صَدْرُهُ، وَوَغَرَ، وَيُقَالُ: فَلَانٌ وَحَرَ الصَّدْرَ؛ إِذَا دَبَّتِ الْعَدَاوَةُ فِي قَلْبِهِ كَدَيْبِ الْوَحْرِ^(٣). وَالْوَحَرَةُ - بَفَتْحِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا - هِيَ دَوِيْبَةُ حُمْرَاءِ كَالْعُضَاةِ تَلْزِقُ بِالْأَرْضِ، وَقِيلَ: هِيَ الْوَزْغَةُ، وَقِيلَ: نَوْعٌ مِنَ الْوَزْغِ يَكُونُ فِي الصَّحَارِيِّ، وَمِنْهُ قِيلَ: وَحَرَ الصَّدْرَ يُوْحِرُ وَحَرًا، ذَهَبُوا إِلَى لَزُوقِ الْحَقْدِ بِالصَّدْرِ؛ فَشَبَّهُوهُ بِالزَّاقِ الْوَحْرَةِ بِالْأَرْضِ^(٤). قُلْتُ: وَهِيَ دَوِيْبَةٌ مَعْرُوفَةٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهَا صَحْرَاءٌ، وَهِيَ مِنْ صَغَارِ السَّحَالِي.

(١) البخاري (٦٦/٢) ومسلم (١٧٥/٢).

(٢) أخرجه النسائي (٢٠٨/٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ٢٥٠) (١٠٣٦).

(٣) شرح السنة للإمام البغوي متناً وشرحاً (٩ / ٢٥٢).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧ / ٤٧٢)، لسان العرب ٨ / ٤٧٨٣.

والمقصود؛ أن الله تعالى تفضل علينا بأن جعل لصيام ثلاثة أيام من كل شهر خاصية تطهير الصدر من دغله وحقدته وغشه. فإذا تطهر القلب اليوم ابيضت الصحيفة غداً.

٧- النصيحة.

فالدين كله نصيحة لله تعالى ولخلقه، وبها وصل السابقون، وفيها تنافس المتنافسون، ولها معيارٌ من الدقة بمكان، ففتش فؤادك هل أنت ناصح؟ واحذر أن تتدنى معاييرك في النصيحة للخلق حتى لا تغش نفسك، فأنت من سيسعد أو يشقى، أسعدك الله وحفظك.

قال الفضيل رحمه الله تعالى: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعير»^(١)، فكما تريد فضل الله وعفوه وستره فاعف عن الناس واسترهم وأعنهم على الخير ما استطعت لذلك سبيلاً، فإنّ الحال في أكثر الناس كما قيل: «الناس يفضحون ولا يعفون، والله يعفو ويستر»، ومن دأب على بذل النصيحة للمؤمنين بعمله وقوله ودعائه؛ سلم صدره لهم، لما يرى من ألطاف الله به حين يفعل ذلك، فيشفق عليهم ويحبهم ويتمنى صادقاً الخير لهم، والله شكور حميد يعطيه المزيد من ألطاف أنوار الإيمان وأمداد كرامات التوفيق من حيث لم يحتسب، وبالله الاستعانة.

وقد اشتقت النصيحة من محض اللبن، واللبن النصوح هو الصافي النقي

(١) الفرق بين النصيحة والتعير (٣٩).

مما سواه، ونصيحة المؤمن لإخوته كاللبن النصوح صافية بلا كدر. فَنِيَّةُ الْمُؤْمِنِ لِلنَّاسِ صَافِيَةٌ نَقِيَّةٌ مُحَبَّةٌ طَيِّبَةٌ، لَا دَغْلَ فِيهَا وَلَا غَشَّ وَلَا حَسَدَ.

والنصح له معنيان:

أحدهما: إرادة الخير للناس ومحبة نفعهم حتى يحب لهم ما يحبه لنفسه.

الثاني: بذل النصيحة بالقول أو الكتابة تنبيهاً عن مخالفة وقع فيها صاحبه، وهذه في حقيقتها راجعة للمعنى الأول، ولكن أفردوها لأهميتها.

والناصح يريد الخير للمنصوح، فَهَمُّهُ: ﴿مَعْذَرَةً إِلَى رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] إي: إقامة للحجة عليهم براءة لساحته أمام مساءلة الجليل غداً، ثم شفقة عليهم ومحبة للخير لهم، لعلمهم أن يستفيدوا من نصحه ما يوصلهم لمراضي ربهم تعالى.

والنصيحة لها آداب مرعية، وهي عدل وإحسان، ومن ذلك: أنه لا يجوز التعدي على من لم يقبل النصح، فقد يكون معذوراً أو متأولاً أو مجتهداً، وقد يكون هو المصيب لا الناصح، قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «إن نصحت بشرط القبول فأنت ظالم» (١).

ومن ذلك أيضاً: المؤمن ينصح للناس ولا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً، بل يريد قربة لربه ووسيلة لرضاه، فأكرم بها من قربة ووسيلة لنيل القرب والرضا.

(١) مداواة النفوس (١١٠).

ومن النصح للمسلمين إدخال السرور عليهم، قال شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى في تعليقه على صحيح البخاري: «اعلم أنك لا تُدخل السرور على أخيك إلا جازاك الله عليه بسرور؛ لأن الجزاء من جنس العمل، إما أن يُيسّر الله لك مَنْ يُدخل السرور عليك، أو أن الله يشرح صدرك، فيدخل السرور عليك، بخلاف من إذا علم لأخيه ما يسره كتمه عنه حسداً!».

هذا؛ وإنّ من النصح لعباد الرحمن صدق التدين والقول والمعاملة، ومن الخطأ لدى بعض الناس أن يقصّر مفهوم الصدق على ذكر الحال كما هو، وهذا قصور؛ فالصدق أعم وأشمل وأوسع من قصره على تصوير الحدث كما وقع، فمعدن الصدق أصل الإيمان، وقد نزل في جذر القلوب، وأعلى رتب المؤمنين هي رتبة الصديقية بعد النبوة، وهي أعلى من رتبة الشهادة، بل إن حقيقة الشهادة هي شهادة لصاحبها بصدق تدينه وإيمانه، فانظر حال الصدق في الإسلام والإيمان.

فرأس الدين: التصديق والإقرار بالله تعالى ودينه وكتبه ورسله وأمره ووعدته ووعيده، ومن أصول الصدق: موافقة الباطن للظاهر حتى يبرأ من النفاق، فأخصّ خصال المؤمن الصدق، كما أن أخصّ خلال المنافق الكذب، وعلى قدر طُروء الكذب على الإنسان يتقلّص لباس الصدق والخير والبرّ عنه. وتدبر كيف كانت التورية والمعارض (١) مستثناة من الكذب، لأنها في

(١) التورية وتُسمّى التعريض والمعارض، وهي: أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد،

ويُراد به البعيد منهما. وفي الحديث ﷺ: «إنَّ في المعارض مندوحة عن الكذب». رواه البخاري في الأدب المفرد: (٣٠٥) وله شواهد عند الطبري في تهذيب الآثار ١/ ١٢١، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٩، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٩٤، ونسبه للطبراني في الكبير وقال: رجاله ثقات.

وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٥٩٢): «مندوحة: بوزن مفعولة، أي: فسحة ومتسع، ندحت الشيء وسعته، وانتدح فلان بكذا: اتسع، والمعنى: إنَّ في المعارض من الاتساع ما يغني عن الكذب». وقال النووي رحمه الله تعالى في الأذكار (ص: ٣٠٢): «ومعنى التورية: أن يقصد بعبارة مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه، وإن كان كاذبًا في ظاهر اللفظ».

قلت: وقد كان ﷺ يورِّي لحاجة الإسلام، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه في خبر غزوة تبوك: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة..». رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩). فهو يورِّي ليعمِّي الأخبار، حتَّى لا يترصد له الأعداء.

فالأصل هو الصدق التام، فإن كان هناك حاجة مباحة بلا ضرر فلا بأس بالتورية، وثمَّ أمور معدودة محددة خاصة يجوز فيها الكذب الصريح في حال عدم إمكانه من التورية شريطة الحاجة الشرعية، فقد روى البخاري (٢٥٤٦)، ومسلم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم رضي الله تعالى عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذابُ الَّذِي يُصْلِحُ بين النَّاسِ فيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا». زاد مسلم في رواية له (١٧٤٧): قالت أم كلثوم: «ولم أسمعهُ يُرَخِّصُ في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها». قلت: وأمَّ كلثوم هي بنت عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وكانت من المهاجرات الأوَّلِ اللَّاتِي بايعن النبي ﷺ.

قال النووي رحمه الله تعالى في رياض الصالحين (٤٥٩): «اعلم أنَّ الكذب يجوز - وإن كان أصله محرَّمًا - يجوز في بعض الأحوال بشروط، مختصرها: أنَّ الكلام وسيلة

إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يكن تحصيله إلا بالكذب وكان تحصيل ذلك المقصود مباحاً؛ كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً. فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذ ماله، وأخفى ماله، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذا الودعة.. والأحوط في هذا كله أن يُورَى. ومعنى التورية: أن يقصد بعبارة مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ، وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذا الحال. أه. ومن أهل العلم من منع الكذب صراحة بإطلاق، وحمل الأحاديث التي جاءت باستثناءاتٍ فيه على التورية لا صريح الكذب، كالحرب والإصلاح وما بين الزوجين، وأن المقصود بالحديث هو التورية دون صريح الكذب. فمن ذلك قول ابن بطّال رحمه الله تعالى في شرح صحيح البخاري (٥٩٠/٨): «معنى ذلك أن المعارض جائزة على ما جاء عن عمر أنه قال: «في المعارض مندوحة عن الكذب». وليس في هذا جواز إباحة الكذب الذي هو خلاف الحق؛ لأن ذلك منهي عنه في الكتاب والسنة، وإنما رخص في الحرب وغيره في المعارض فقط؛ لأن النبي ﷺ قال: «ياكم والكذب، فإنه يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار». أه. وقال الماوردي رحمه الله تعالى في أدب الدنيا والدين (٢٥٧): «وردت السنة بإرخاص الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين على درجة التورية دون التصريح به؛ فإن السنة لا ترد بإباحة الكذب؛ لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سئل ﷺ: ممن أنت؟ قال: «من ماء»؛ فورى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل، وكما في إجابة أبي بكر رضي الله عنه عندما سئل عن الرسول الكريم ﷺ فقال: «هأدي يهديني السبيل». فظنوا أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الخير».

قلت: وهو الأحوط، وإن كان مرجوحاً، شريطة ألا يكون فيه يمين، لقول رسول

=

الله ﷺ: «يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ» رواه مسلم (١٦٥٣) إلا عند الضرورة - والضرورة تُقَدَّرُ بقدرها - وألا يكون ظالماً؛ فلا بأس بذلك حينها، والدليل ما جاء عن سويد بن حنظلة رضي الله عنه قال: خرجنا نريد رسول الله ﷺ ومعنا وائل بن حجر، فأخذته عدوٌّ له، فتحرَّج القوم أن يحلفوا، وحلفتُ أنه أخي، فخلَّى سبيله، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرته أن القوم تحرَّجوا أن يحلفوا وحلفتُ أنه أخي، قال: «صَدَقْتَ، المسلمُ أخو المسلم» رواه أبو داود (٣٢٥٨) وصححه الألباني.

فالراجح ما نحا إليه النووي من إباحة الكذب الصريح بشرطه، فقد يكون الحال ضرورة بحفظ نفس أو عرض، وليس كلُّ أحدٍ يُجيد التعريض والتورية، والضرورات تبيح المحظورات، وتُقَدَّرُ بقدرها، فلا ينبغي التساهل فيها ولا التشدد في منعها حال الحاجة الماسة إليها بدون ضرر ولا ضرار. والله أعلم.

قال العثيمين رحمه الله تعالى في شرح رياض الصالحين ١٨١/٦ تعليقا على كلام النووي الأنف: «فالْحَاصِلُ؛ أنه إذا كان هناك ظلم، وأراد الإنسان أن يدفعه وكذب؛ فهذا لا بأس به، ولكن الأولى والأحسن أن يورِّي، أي: ينوي معنى صحيحا ليس فيه كذب، والمخاطب يظنُّ أنه كذب، وكذلك أيضا إذا كانت المصلحة كبيرة كالكذب في الحرب؛ فلا بأس به؛ لأنه فيه مصلحة كبيرة، مثل أن تأتي عيون العدو - أي جواسيسه - فيسألون مثلاً: هل الجيش كبير؟ وهل معه عدة؟ وهل هو قوي؟ فنقول: نعم، الجيش كبير وعظيم وقويٍّ ومعه عدة، ولو كنت تعرف أن هذا لا بأس به؛ لأن فيه مصلحة كبيرة، وهي إلقاء الرعب في قلوب الأعداء. وكذلك الإصلاح بين الناس، كأن يأتيك شخص قد ذُكِرَ له أن شخصا آخر يغتابه ويسبّه، فيأتي إليك ويقول: سمعت أن فلانا قال في كذا وكذا، فتقول: لم يقل فيك شيئا. فهذا لا بأس به، لأن فيه إصلاحا بين الناس، كذلك من المصلحة حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها فيما يوجب الألفة والمودة، مثل أن يقول لها: أنتِ عندي غالية، وأنتِ =

أحب إليّ من سائر النساء، وما أشبه ذلك، وإن كان كاذباً لكن من أجل إلقاء المودة والمصلحة تقتضي هذا.

فالمهم: أن الكذب يجب إذا كان لإنقاذ معصوم من هلكة، أو حماية مال معصوم من تلف، ويباح إذا كان فيه مصلحة عظيمة، ومع ذلك فمن الأولى أن يُورّي، أي: يجعل الكلام تورية حتى يسلم من الكذب، والله الموفق». أه. بتصرف يسير.

قلت: ومن أمثلة المعارض عند السلف كما في الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٤/ ٢١٢): ما روي أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان عاملاً لعمر رضي الله عنه، فلما رجع قالت امرأته: ما جئت به مما أتى به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء، فقال: كان عندي ضاغطاً، قالت: كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه، فبعث عمر معك ضاغطاً. وقامت بذلك بين نسائها، واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذاً وقال: بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً، فقال: أرضها به، ومعنى قوله: «ضاغطاً» يعني رقيباً، وأراد به الله سبحانه وتعالى.

وكان النخعي لا يقول لابنته: أشتري لك سكرّاً، بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكرّاً؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك، وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي: ليس هنا، كي لا يكون كذباً.

وهذا كله في موضع الحاجة، فأما في غير موضع الحاجة فلا؛ لأن هذا تفهيم للكذب، وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة، كما روى عبد الله بن عتبة قال: دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فخرجت وعليّ ثوب، فجعل الناس يقولون: هذا كساكهُ أمير المؤمنين؟ فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي: «يا بني اتق الكذب وما أشبهه». فنهاء عن ذلك؛ لأن فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة، وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

حقيقتها صدق، حتى وإن مُوِّهَ بشيءٍ لحاجة مأذون بها شرعاً، وقارن هذا بتشنيع قلب الحقيقة بالكذب فيها: ككذب المعتقد، وكذب اللسان، وكذب الوعد، وكذب العهد، وكذب الأمانة، وكذب الخصومة؛ لأن ذلك كله راجع لمعدن الكذب لا معدن الصدق، حتى وإن زُيِّفَ ظاهره للناس، والله المستعان.

فمِمَّا يدخل في الصدق بمعناه الواسع بعد صدق الحديث: صدق الوعد، فلا يخلفه بكذب في الوفاء، وصدق العهد فلا ينقضه بغدر، وصدق الأمانة، فلا يخلفها بخيانة، وصدق الخصومة، بلا فجور فيها.

وتأمل كيف اجتمعت أضداد هذه الخلال الجميلة في نجاسة النفاق وخبثه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أُوْتِمِنَ خَانَ»^(١). وفي رواية لمسلم: «آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم..»^(٢). وقال ﷺ: «أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، وإن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا أُوْتِمِنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا

كما تباح المعارض لغرض تطييب قلب الغير بالمزاح، كما روى أنس رضي الله عنه أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: «إني حاملك على ولد الناقة»، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق». رواه أبو داود (٤٩٩٨) وصححه الألباني. وبالله التوفيق.

(١) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) مسلم (٥٩).

خاصم فجر» (١).

ومعنى «وإذا خاصم فجر»: أي: إذا صار بينه وبين أحد خصومة ومنازعة ومجادلة فسَقَ وكَذَّبَ وكَذَّبَ وعدل عن الحق إلى الباطل متعمداً.

قال الشيخ عبد القادر شيبه الحمد رحمه الله تعالى: «حديث عبد الله بن عمرو عند الشيخين بلفظ: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً..»، لا يعارض حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمرو، لأن الإخبار بثلاث علامات لا ينفي صحة الإخبار بأربع علامات؛ لأن كل علامة أمانة مستقلة، فمن وجدت فيه خصلة واحدة؛ كانت فيه علامة واحدة، ومن وجدت فيه خصلتان؛ كانت فيه علامتان، وهكذا» (٢).

مع التنبيه إلى أن المراد بالنفاق هنا هو النفاق العملي الأصغر، لا الاعتقادي الأكبر، قال النووي رحمه الله تعالى: «وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يُحكم عليه بكفر، ولا هو منافقٌ يُحلَّد في النار» (٣).

فهذه الخلال الرديئة هي من مواد وموارد النفاق، وكلما التصقت بالمرء جذبته لוחل النفاق العملي، فإن استمرأها خيف عليه أن تجرّه للاعتقادي، فالذنوب النفاقية سراديب ودهاليز لمباءة نفاق الاعتقاد الأكبر، والإصرار

(١) البخاري (٣٤)، وصحيح مسلم (٥٨).

(٢) فقه الإسلام شرح بلوغ المرام، لعبد القادر شيبه الحمد ١٠/٢٣٤

(٣) شرح النووي على مسلم ٤٦/٢

علامة الرغبة وعَلَمُ الخيبة، قال العلامة المُعَلِّمِي رحمه الله تعالى على حديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كَذَبَ..»: «اعلم - وفقني الله وإياك - أنَّ (إذا) قد تفيد التكرار في نحو قولك: ما لي أرى زيدًا إذا دَخَلَ عمروُ قام، وعلامتها أن تحلَّ محلها (كلَّمَا) وذلك خاصٌّ بما إذا تجرَّدت عن الاستقبال وصارت للاستمرار، فتدبر أيُّها الذَوَّاق» (١).

وقال الشيخ عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى: «الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف واقعه، أي: الخبر الذي لا يطابق الواقع عمدًا كان أو سهوًا، هذه هي حقيقة الكذب عند أهل السنة، عمدًا كان أو سهوًا، فالكلام إما صدق وإما كذب، فإن طابق الواقع فهو الصدق، وإن خالف الواقع فهو الكذب، ولا يشترط فيه العمدية، أعني لتسميته كذبًا، فالكذب نقيض الصدق، لا ضدَّ الصدق، إذ لا واسطة بينهما عند أهل السنة.. ولذا جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه المتواتر لفظه ومعناه: «من كذب عليَّ متعمدًا» (٢) فدَلَّ على أن هناك كذب لكن ليس عن عمد» (٣).

قلت: الكذب في لسان قريش هو القول بخلاف الواقع، حتى لو لم يكُ عامدًا، ومن ذلك قول الصحابة رضي الله عنهم: كذب فلانٌ، ويقصدون بذلك أنه قد أخطأ في كلامه وانحرف به عن حقيقة الواقع، وليس في ذلك اتِّهام لنيته،

(١) شرح حديث «آية المنافق ثلاث». ضمن «آثار المعلمي» ٣٥١/١٥

(٢) البخاري (١٠٨) ومسلم (٢).

(٣) شرح المحرر في الحديث، عبد الكريم الخضير ٢٣/٦٢

ولذلك فقد يصرح من أراد الاحتياط لذلك بقوله: كذب ظنّ فلان، وفي هذا إبراء لنيته وتخطئة لمقوله. ومن ذلك بيت أبي طالب في لاميته المشهورة:

كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ يُبْزَى مُحَمَّدٌ وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلُ^(١)
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نَصَرَ رَعَّ دُونَهُ وَنُذْهِلَ عَنَّا أَبْنَانَنَا وَالْحَلَّائِلُ

قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «فكأنه قال: كذبكم ظنكم»^(٢).

وأولى ما ينصح الإنسان نفسه، فهي أخصُّ خاصته، وإليها ابتداءً يكون خطاب الشرع، ووعدّه ووعدّه. فعلى المرء ألا يلقي باللائمة على الناس في خبيته وفشله وكسله، فهو بصير على نفسه مهما صاح بين الناس بالمعاذير. فابدأ بنفسك فاغزها، وافتح قلبك لموارد الإيمان، وقد نفسك للخير حتى لا تقودك للشّر، فإنّه من يتحرّى الخير يُعطه، ومن يتوقّى الشرَّ يُوقه^(٣).

(١) مع التنبيه لحرمة القسم بغير الله تعالى أو بصفة من صفاته. ومعنى يُبْزَى: أي: يُقهر ويُستذل.

(٢) انظر: الاستذكار، لابن عبد البر ٤٦/٢

(٣) جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالْتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ». أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٦٦٣)، وابن شاهين في الترغيب (٢٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٣٢٨) والسلسلة الصحيحة (٣٤٢). وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ٢٢٣/٢ والهيثمى في مجمع الزوائد ١٣٣/١ والسخاوي في المقاصد الحسنة. (ص: ١٣٤) والعجلوني في كشف الخفاء (٢٤٩/١).

ومن ذلك: أنَّ على المؤمن أن يتقصد الحكمة ويتبع الرُّشد قدر جهده، وبالتَّأني والصبر يكون مراده على ما يشتهي بإذن الله تعالى، ومن الحكمة حُسْنُ اختيار الأصحاب الذين يعينونه على عبودية ربه عز وجل، ولا يكون ذلك إلا بأن يكونوا أهل تقوى وعقل، فبالتقوى يتورَّعون، وبالعقل يُميِّزون الهدى من الضلال، ويميِّزون النقيَّ الصافي عن المشوب الكدر وعن النجس المسموم بإذن الله تعالى، وإلا فأصحاب الغفلات على الطرقات ينادون الغافلين. ولصاحب الصمصامة عَمرو بن معد يكره الزبيدي:

صَبَرْتُ عَلَى اللَّذَاتِ لَمَّا تَوَلَّيْتُ	وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي الصَّبَرَ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ
وَكَاثَتْ عَلَى الْإِيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً	فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتْ
فَقُلْتُ لَهَا يَا نَفْسُ عَيْشِي كَرِيمَةٌ	لَقَدْ كَاثَتْ الدُّنْيَا لَنَا ثَمَّ وَلَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى	فَإِنْ أُطِمِعَتْ تَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ ^(١)

(١) وهو بيت تتابع الناس على الاحتفاء والاستشهاد به لحكمته وفائدته، فاليأس راحة، والترقب قلق، والأمل بلا يقين للروح متعب. وقد أحسن شاعر الحكمة أبي الطيب المتنبي وصف ذلك بقوله الذائع الرائع:

وَمَا صَبَابُهُ مُشْتَاقٍ عَلَى أَمَلٍ	مَنْ اللَّقَاءِ كَمْشْتَاقٍ بِلَا أَمَلٍ
وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أَرَاقِبُهُ	أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَلِ

أي: من على أمل من لقاء من يحبه، بقرب الدار، ودنو المحل، ليست صبابته وشوقه وعذابه كصباية مشتاق لا أمل له في ذلك، لنأي داره، وانتزاع محل. فلا راحة كاليأس، وإذا أردت الزهد في أمر فالتحف باليأس منه.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ذم الهوى: (٥٠١): «فإن الإنسان لو رأى زوجة

فكم غمرة دافعتها بعد غمرة تجرعتها بالصبر حتى تولت
وإذا أردت أن تنظر إلى انقلاب ميزان العقل؛ فاقرأ حال من خذله الله تعالى
بقطع مدد التوفيق، ومعونة البصيرة، ومادة الإيمان عنه، مع شهوده دعوة أعظم
رسول ﷺ!

ومن هذا الصنف المخدول المذموم ما ذكره الله تعالى في سورة النساء
بوصف حقيقة حاله البائس بينما هو فرح مغتبط بعدم شهوده مع نبي الله ﷺ
مشهداً عظيماً وهو يرى من فاز من الصحابة بالشهادة الجليلة، أو بالجهاد معه
والقتال بمعيتته، فقال ذلك الرجل مسبشراً بعدم وجوده معهم، شامتاً بهم:
﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغَىٰ إِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ
مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢] فعَدَّ المسكين خذلانه بغيبابه عن الشهود والشهادة
نعمةً من الله تعالى عليه! فانظر كيف استحال حاله، وانقلب عقله، وانتكس
رشد، والله المستعان!

وليس هذا فقط؛ بل حينما يغتم المسلمون نراه يتحسّر لفوات حظّه من
غنيمة الدنيا الزائلة، فيقول بلهف وهلع: ﴿وَلَيْنَ أَصَبْتُكُمْ فَضَلُّ مِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

الملك فهو بها لم يكد قلبه يتعلق بها؛ لأجل اليأس من مثلها. فأما من طمع في شيء فإن
الطمع يحمله على طلبه، ويعذبه إن لم يدركه.

وعلاج هذا المرض: العزم القوي على البعد عن المحبوب، والقطع الجازم على غض
البصر عنه، وهجران الطمع فيه، وتوطين النفس على اليأس منه، كما قال الشاعر:
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تأقت وإلا تسلت.

لَمْ تَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَكْلِيَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾
 [النساء: ٧٣] فالفوز العظيم عنده ليس بالجهاد ولا الاستشهاد، بل هو بقسمه من
 الغنيمة! فلا إله إلا الله، ما أضعف الإنسان وأجهله وأعجزه وأخسره وأهلكه
 حين يُوَكَّل إلى نفسه، ويا ربَّ هل إلّا عليك المَعْوَلُ.

هذا؛ واضمم إليك -راشدًا- أنّ الدينَ خُلِقَ، فمن فاقك في الخُلُقِ فقد فاقك
 في شُعبَةٍ عظيمة من الدين، فسابق لمحاسن الأخلاق ما استطعت إلى ذلك
 سبيلًا. فلن تر في الميزان غَدًا كَحُسْنِ الخُلُقِ، وأحسنُ الخُلُقِ حُسْنُهُ مع الله تعالى
 بتوحيده والإيمان به، وحُسْنُ التدين بدينه الكامل الجميل العظيم.

ومن جميل كلام الأخت بَيَان بنت الشيخ المحبوب علي الطنطاوي رحمه الله
 تعالى: «إن الذي لا يحب نفسه لن يستطيع محبة الناس. ولكن لا بد من فهم معنى
 محبة النفس، فالذي يحب نفسه حقًا يُسَيِّرُها إلى مرضاة الله تعالى، وبعد هذا يتيسر
 له محبة الخير للناس، لكن الذي يعصي ربه لا يستطيع أن يقول مُحَقًّا: إنه يحب
 نفسه بهذا الفعل، لعلمه أنه في الحقيقة يضرها ولا ينفعها، فكيف يحبها
 بمضرتها؟!»

واعلم أنّ من أولى النصح: نصح النفس بقبول نصح الناس، فأحقّ من
 حرصت على فوزه ونجاته نفسك التي بين جنبيك، فعوّد نفسك على قبول
 النصح، والتواضع للتوجيه، ولو من أقلّ الناس شأنًا، أو أبعدهم نسبًا، أو
 أرذلهم صنعة، أو أضعفهم عقلاً ما دام نصحه فاضلاً مستقيماً.

وبالجملة؛ فأخوك حقًا هو الناصح لك صدقًا، وهو من أعانك على بلوغ

الدرجات العلى من الجنة، فصغرت في عينه الدنيا، وعظمت في قلبه الآخرة.

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّني بِلِسَانِهِ وَلَكِنَّ أَخِي مَنْ وَدَّني فِي النَّوَائِبِ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إِذَا كُنْتُ مُعْدَمًا وَمَالِي لَهُ إِنْ عَصَّ دَهْرٌ بِغَارِبِ
فَلَا تَحْمَدَنَّ عِنْدَ الرَّخَاءِ مُوَاخِيًا فَقَدْ يُنْكِرُ الْأَخَوَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ

٨ - الهدية.

قال رسول الله ﷺ: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»^(١)، وقال ﷺ: «تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةَ لَجَارَتِهَا وَلَوْ شَقَّ فَرْسَنَ شَاةٍ»^(٢)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةَ لَجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرْسَنَ شَاةٍ»^(٣).

ولاحظ خصوصية النساء بهذا التنويه اللطيف بالهدية اليسيرة المعلومة سلفاً للمهدى لها، فهي عادة شريفة، وخصلة نبيلة اتسمت بها نساء المؤمنات عبر العصور، فعلى المؤمنة مراعاة ذلك، ففيه بعد بركة اتباع السنة الأثر الكبير في ربط أواصر قلوب المؤمنات، وتطبيب نفوس بعضهم على بعض، وجبر ما انكسر من خواطرهن على مر الزمان، وردم ما يكون من شقوق في نفوس بعضهن مما لا يكاد يسلم منه إلا القليل من الموفقات، والله المستعان.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤) وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٦ / ٤٤).

(٢) أحمد (٤٠٥/٢) والترمذي (٢١٣٠) واستغربه.

(٣) البخاري (٢٠١/٣) ومسلم (٩٣/٣).

إِنَّ الْهَدَايَا لَهَا حِفْظٌ إِذَا وَرَدَتْ أَحْظَى مِنَ الْابْنِ عِنْدَ الْوَالِدِ الْحَدْبِ

فالهدية وإن كانت يسيرة فلها الأثر البالغ على صدر المهدي له، ومن شأنها أن تزيل وغر صدره أو تخففه حرّه على أخيه، وكلُّ منّا يحسُّ بأثرها اللطيف البالغ على نفسه مهما كان حال الهدية، فالعبرة في الهدية برمزياتها للمحبة والمودة والذكرى والنقاء مهما كان يسيرة في نفسها، فالعبرة بالمعنى الجميل لها، لا القالب والمبنى. وحسنُ المودة وحفظ العشرة خصلة النبلاء الشرفاء الأوفياء. والله علي بن الجهم إذ هتف عبر أثر الزمان:

حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَمَرَّتْ بَنَّا عَقْبُ الشَّدَائِدِ وَالرَّخَاءِ
فَلَمْ آسَفْ عَلَى دُنْيَا تَوَلَّتْ وَلَمْ نَسْبِقْ إِلَى حُسْنِ الْعَزَاءِ
وَلَمْ نَدْعِ الْحَيَاءَ لِمَسِّ ضُرِّ وَبَعْضُ الضَّرِّ يَذْهَبُ بِالْحَيَاءِ
وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوَّلُونَا فَلَا شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ

٩- إفشاء السلام.

المتأمل في السلام يرى أنه محض فضلٍ لله عظيم على هذه الأمة، فاسمُ الله السلام، والجنة دار السلام، وديننا الإسلام، وتحيتنا السلام، وفي السلام إيذانٌ للمُسَلِّم عليه بسلامة جانبه من المُسَلِّم، وفيه الدعاء له بالسلامة، وفيه تحصيل أجور كثيرة على مر الزمان في ابتدائه وردّه، فبركات السلام لا تحصى. فإن اجتمع للسلام بشاشة وابتسامة وسلامة صدر فهي من نعيم الأنفس.

وتأمل أول أمرٍ أمَرَ الله به آدم عليه السلام إنه السلام! فعن أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «لما خلق الله آدم ﷺ، قال: اذهب فسلم على أولئك - نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يحوونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله» (١).

لذلك كان من بداية وصايا رسولنا ﷺ إفشاء السلام، فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعبادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم» (٢).

بل جعله باباً لمحبة المؤمنين التي هي شرط لكمال الإيمان المفضي لدخول الجنة فقال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (٣). قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «في هذا دليل على فضل السلام لما فيه من رفع التباعد وتورث الود. ولقد أحسن القائل:

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهم
وُدٌ فيزرعه التسليم واللطف» (٤).

وقال العثيمين رحمه الله تعالى: «وفي هذا دليل على أن المحبة من كمال

(١) البخاري ١٥٩/٤ (٣٣٢٦) ومسلم ١٤٩/٨ (٢٨٤١) (٢٨).

(٢) البخاري ٦٤/٨ (٦٢٣٥) ومسلم ١٣٥/٦ (٢٠٦٦).

(٣) مسلم ٥٣/١ (٥٤) (٩٣).

(٤) التمهيد، لابن عبد البر ١١٦/٤.

الإيمان، وأنه لا يكمل إيمان العبد حتى يحب أخاه، وأن من أسباب المحبة أن يفشي الإنسان السلام بين إخوانه، أي يظهره ويعلنه، ويسلم على من لقيه من المؤمنين سواء عرفه أو لم يعرفه، فإن هذا من أسباب المحبة.

ولذلك إذا مرّ بك رجل وسلم عليك أحببته، وإذا أعرض كرهته ولو كان أقرب الناس إليك، فالذي يجب على الإنسان أن يسعى لكل سبب يوجب المودة والمحبة بين المسلمين، لأنه ليس من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لا يحبه، ولا يمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالمحبة. ولهذا كانت المحبة في الله من كمال الإيمان^(١).

هذا وإن السلام عريق في الإسلام، فمنذ دخوله ﷺ المدينة وهو يأمر به، فعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وقد كانت هذه أول كلمات سمعها ابن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رسول الله ﷺ^(٢).

ولقد أخذ صحابته المرضيون بهذه الوصايا الجميلة، فعن الطفيل بن أبي بن كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمرّ عبد الله على سَقَّاطٍ^(٣) ولا صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحد

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١ / ٤٣٩).

(٢) ابن ماجه (١٣٣٤)، والترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديث صحيح.

(٣) السقاط: هو الذي يبيع سقط المتاع، وهو رديئه وحقيقه. النهاية ٣٧٩/٢.

إلا سلم عليه.

قال الطفيل: فجئت عبد الله بن عمر يوماً، فاستتبعتني إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ وأقول: اجلس بنا هاهنا نتحدث، فقال: يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطن^(١) - إنما نغدو من أجل السلام، فنسلم على من لقيناه^(٢).

قال النووي: «يستحب أن يقول المبتدئ بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم^(٣).
إن السلام باب كبير من أبواب الأجر بأيسر طريق لمن وفقه مولاه، فعن عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: «ثلاثون»^(٤).

(١) يداعبه بذلك لعلمه أنه لا يكره.

(٢) مالك في الموطأ (٢٧٦٣) برواية الليثي وصححه النووي في الرياض.

(٣) رياض الصالحين للنووي، تحقيق الدكتور الفحل (١ / ٤٤٧) وعنه نقلت تخريج هذه الأحاديث المذكورة في الرياض، جزاءه الله خيراً.

(٤) أبو داود (٥١٩٥) والترمذي (٢٦٨٩) وقال: حديث حسن غريب.

وقد سلم جبريل عليه السلام على أمنا الصديقة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام» قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته^(١).

وأعظم من ذلك سلام رب العالمين على أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها بيت في الجنة من قَصَبٍ^(٢) لا صَحَبَ فيه ولا نَصَبٍ^(٣) فأكرم بها من منقبة وفضيلة^(٤). فما أطابت عيش رسول الله ﷺ؛

(١) البخاري ١٣٦/٤ (٣٢١٧) ومسلم ١٣٨/٧ (٢٤٤٧) (٩٠).

(٢) أي: قَصَبُ اللؤلؤ المجوّف.

(٣) البخاري (٢٨٣، ٧٩٤٧، ٣٨١٩) ومسلم ١٣٣/٧ (٢٤٣٣) (٧٢).

(٤) قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «بشّر ﷺ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيت في الجنة من قَصَبٍ ليس فيه صخب ولا نصب. ولكن القصب الذي بني منه قصر خديجة في الجنة ليس كالقصب الذي في الدنيا. الاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة، كما أن في الجنة نخل ورمّان وفاكهة ولحم طير وغير ذلك لكن التشابه في الاسم فقط، فالاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة.

وهذا باب يجب على الإنسان أن يتفطن له، فإن أمور الغيب التي لها نظير في الدنيا لا تماثل نظيرها في الآخرة، فمثلاً في صفات الله عز وجل، لله عز وجل وجهٌ كريم، موصوف بالجلال والإكرام، ونحن أيضاً لنا وجه، الأمر لا يختلف في الاسم، لكن قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فوجهه يليق بجلاله وعظمته،

ولا يمكن الإحاطة به، لا وصفًا، ولا تصوّرًا في الذهن، ولا نطقًا باللسان، فهو أعظم وأجلّ من أن تحيط به الأوصاف. وهكذا بقية صفاته عز وجل؛ اسمها يوافق الاسم الذي نتصف به، ولكن الحقيقة غير الحقيقة.

كذلك أيضًا الجنة فيها عسل وماء وخمر ولحم ونساء وفاكهة وورمان وغير ذلك، لكن ليست كالتّي في الدنيا، لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كانت مثل ما في الدنيا لكنا نعلمها، لكنها ليست مثلها، ولا قريبًا منها.

وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذان سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢) نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن أعد الله لهم ذلك.

فخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَشَّرَهَا النبي ﷺ بواسطة جبريل، بَشَّرَهَا بيت في الجنة من قصب، ولكن ليس القصب الذي في الجنة مثل القصب الذي في الدنيا. ثم قال: ليس فيه صخب ولا نصب. والصخب: أي الأصوات المزعجة الشديدة. فأهل الجنة كلهم ليس عندهم صخب ولا نصب ولا كلام لغو كما قال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمُ﴾ [الطور: ٣٣]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] فكلامهم طيب، لأنهم جوار الطيبِ جلّ وعلا، فهم طيبون في جنات عدن ومساكن طيبة عند الطيب جلّ وعلا، كما أنّ قلوبهم في الدنيا طيبة، وأفعالهم طيبة، لأن الله لا يقبل إلا الطيب، وأفعالهم مقبولة، كذلك في الآخرة.

فقصر خديجة ليس فيه صخب وليس فيه نصب، وليس فيه تعب، وهذه بشارة لأُم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُوفت بطيب عيش الآخرة، رضي الله عنها وأرضاها.

ومن نعيم الجنة أن رب العزة تبارك وتعالى يسلم على أهلها، قال سبحانه
مبشراً مرغباً: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] قال ابن عباس: فإن الله
نفسه سلام على أهل الجنة.

وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾
[الأحزاب: ٤٤] وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً، وفي إسناده نظر^(١)، عن

وأم المؤمنين خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ، تزوجها وهو ﷺ ابن خمس
وعشرين سنة، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله، وولدت له بناته الأربع وأولاده
الثلاثة أو الاثنان، ولم يتزوج عليها حتى ماتت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وكانت امرأة عاقلة ذكية
حكيمة، لها مآثر طيبة معروفة يجدها من يراجع ترجمتها في كتب التاريخ، وكانت
تسامى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي وعائشة أفضل نساء الرسول عليه الصلاة والسلام
وأحب نسائه إليه.

واختلف العلماء أيهما أفضل؟ فقيل: عائشة، وقيل: خديجة. والصحيح: أن لكل
واحدة منهما مزية تختص بها، لا تشاركها فيها الأخرى، فلعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في آخر
الرسالة، وبعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام من نشر الرسالة والعلم والشرعة
ما ليس لخديجة، ولخديجة في أول الرسالة ومناصرة النبي ﷺ ومعاضدته ما ليس
لعائشة، فلكل واحدة منهما مزية - قلت: وهذا ما قرره ابن باز كذلك - أما الفضيلة
الكبرى: فكفى لهما فخراً أنها أحب نساء النبي ﷺ إليه، ويكفى هذا. وأما الفضائل
فكل واحدة لها فضيلة». شرح رياض الصالحين (١ / ٧٧٩) باختصار.

(١) وضعفه الألباني في تخريج الطحاوية ١٤١، المشكاة ٥٦٦٤، مختصر العلو (٢٥١).

جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]». قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»^(١).

وقال سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦] والملائكة تسلم على أولياء الله في الجنة: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وتأمل منقبة من بدأ بالسلام، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام»^(٢).

١٠ - البشارة بالخير للمؤمنين وتهنئتهم بفضل الله عليهم.

تأمل قصة كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصاحبيه في توبة الله تعالى عليهم، وتسابق الصحابة على بشارتهم، فمنهم من ركض فرسه، ومنهم من ركض

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٥٨٤).

(٢) أبو داود (٥١٩٧)، والترمذي (٢٦٩٤) وحسنه.

برجله، حتى إذا رأى الراجلُ الفارسَ قد سبقه أوفى على جبل سلَّع فصاح: «يا كعب بن مالك؛ أبشر بتوبة الله عليك»، قال كعب: «وانطلقتُ أَتَأْمُمُ رسولَ الله ﷺ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَيِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ، ويقولون: لَتَهْنِئَكَ توبَةُ الله عليك، حتَّى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ حوله النَّاسُ، فقام طلحةُ بنُ عبيد الله يُهَيِّئُونِي، حتَّى صافحني وهَنَّانِي، والله ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرُهُ». قال: «فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة».

قال كعبٌ: «فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال - وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ من السرور -: «أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ» قال: فقلتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يا رسولَ الله، أم من عندِ الله؟ فقال: «بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ. قال: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ» (١)(٢).

وتأمل بشارة رسول الله ﷺ الكبرى للعشرة، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: لَا لَزِمَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا كُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا فَبَاءَ الْمَسْجِدَ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: وَجَّهَ هَاهُنَا.

قال: فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس (٣) فجلستُ عند الباب حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ، فقامت إليه، فإذا هو قد جلس على بئر أريس، وتوسَّط قُفَّهَا، وكشف عن ساقيه، ودَلَّاهُمَا فِي الْبَيْرِ.

(١) البخاري (٩/٤) و(٥٨) و(٥٢٩) ومسلم (١٠٥/٨).

(٢) وانظر رسالة: لله درك يا كعب. للمؤلف.

(٣) وهي قريبة من قباء، وهي البئر التي سقط فيها خاتم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يوجد له أثر.

فسلمتُ عليه ثم انصرفت، فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بوابَ رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدفع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلِك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن؟ فقال: «اُذْن له، وبشّره بالجنة». فأقبلتُ حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله يبشّرك بالجنة. فدخل أبو بكر حتى جلس عن يمين النبي ﷺ معه في القُفِّ^(١)، ودلّى رجله في البئر كما صنع رسول الله ﷺ، وكشف عن ساقه. ثم رجعتُ وجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني، فقلت: إن يرد الله بفلان - يريد أخاه - خيرًا يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب. فقلت: على رسلِك، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت: هذا عمر يستأذن؟ فقال: «اُذْن له، وبشّره بالجنة»، فجئت عمر فقلت: أدخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يساره، ودلّى رجله في البئر.

ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيرًا - يعني أخاه - يأت به. فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلِك، وجئت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «اُذْن له، وبشّره بالجنة مع بلوى تصيبه». فجئت فقلت: أدخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك، فحمد الله تعالى، ثم قال: الله المستعان. فدخل فوجد القُفَّ قد ملئ، فجلس

(١) وهو ما الجدار المبنى حول البئر محيطًا بها، أي: حافة البئر، وهي الدكة التي حول البئر، وأصله ما ارتفع من عيون البئر

وجاههم من الشق الآخر. قال سعيد بن المسيب: فأولتُها قبورَهُم (١)(٢).

(١) البخاري (١٠/٥) ومسلم (١١٨/٧، ١١٩).

(٢) قال العثيمين معلقاً: «لأن قبور الثلاثة كانت في مكان واحد، فالنبي ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم كانوا في حجرة واحدة، دفنوا جميعاً في مكان واحد، وكانوا في الدنيا يذهبون جميعاً، ويرجعون جميعاً، ودائماً يقول النبي ﷺ: «ذهبنا أنا وأبو بكر وعمر، وجئت أنا وأبو بكر وعمر» فهما صاحباها ووزيراها، ويوم القيامة يخرجون من قبورهم جميعاً، فجلس عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تجاههم.

وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه، وهذه البلوى هي ما حصل له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اختلاف الناس عليه، وخروجهم عليه، وقتلهم إياه في بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حيث دخلوا عليه في بيته وقتلوه وهو يقرأ القرآن، وكتاب الله بين يديه.

ويذكر بعد المؤرخين أن قطرةً من الدم نزلت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] والله أعلم، لكن على كل حال هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان معروفاً بكثرة القراءة والتهجد، فدخل عيه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه فقتل شهيداً، وبذلك تحقّق قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما صعد على جبل أحد - وهو جبل معروف كبير في المدينة - هو وأبو بكر وعمر وعثمان، وارتجّ بهم الجبل - وهذا من آيات الله، ليس هو ارتجاج نقمة وخسف، لكنه ارتجاج فرح - فلما ارتجّ بهم الجبل قال له النبي ﷺ: «اثبت أحد، فإنما عليك نبئٌ وصديقٌ وشهيدان». فالنبي هو عليه الصلاة والسلام، والصديق أبو بكر، والشهيدان: عمر وعثمان، وكلاهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما قتل شهيداً.

أما عمر فقتل وهو متقدّم لصلاة الفجر بالمسلمين، قتل في المحراب، وأما عثمان فقتل وهو يتهجّد في بيته في صلاة الليل. فرضى الله عنهما، وألحقنا وصالح المسلمين بهما في

١١ - حسن الظن.

أحسن الظن هو إحسانُ الظن بالله تعالى، والثقةُ به، وكمالُ الرجاء له، وتمازُ الرغبة إليه، واليقينُ كُلُّ اليقين بأنَّ كلَّ الخير لا يأتي به إلا هو، وأنَّ الشرَّ لا يدفعه ولا يرفعه إلا إِيَّاه، وهذه من حقائق العبودية له تبارك وتعالى.

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ يَدُقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَمْ يُسْرِى أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرِ وَفَرَجَ لَوَعَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
وَكَمْ هُمْ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحًا فَتَعْقُبُهُ الْمَسَرَّةُ بِالْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ يَوْمًا فَثِقْ بِالْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْعَلِيِّ

فأحسن ظنَّكَ كُلَّ الإحسان بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر ويرفعه إلا هو، وهو عند ظن عبده به.

ومهما تقلَّبت بك الأحوال، وقلَّبت لك الناس مجانَّ الأخلاق؛ فعاملِ الله تعالى بهم، وعاملهم له، فمعاملتك إنما هي مع الله وحده مهما جفوك وظلموك وبهتوك وأذوك وخذلوك، وهو المكافئ المجازي، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

دار النعيم المقيم.

فهذه القصة فيها بشارة لأبي بكر وعمر وعثمان، فرضى الله عنهم جميعاً وجعلنا والمسلمين ممن يُحشرون في زمرة محمد ﷺ. شرح رياض الصالحين (١ / ٧٨١). إله الحق آمين.

واعلم أن الله تعالى في طيِّ غيبه خبايا وألطف ومراتب نعيم يختص بعاقبة نعيمها من يشاء من عباده، فالعبرة إنما هي بمنازل الآخرة، أما الدنيا فكلنا عابرون.

أما حسن الظن بالناس فهو فضيلة شريفة للسابقين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبتُ عيني»^(١).

إنَّ حسن الظن هو سابلة عباد الله الصالحين التي يسرون فيها بين عباد الله، فيحملونهم على أحسن محامل الظن، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما رواه سعيد بن المسيب، قال: كتب إلي بعض إخواني^(٢) من أصحاب رسول الله ﷺ: «أنَّ ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلو من إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يديه، وما كافأت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدة عند عظيم البلاء، ولا تهاون بالحلف الكاذب فيهينك الله، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون، ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه، وعليك

(١) البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨) (١٤٩).

(٢) ونسبها لعمر كما في: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٦ / ٢٦٣) (٤٤٣٧٢) قال: وضع عمر بن الخطاب للناس ثمان عشرة كلمة حكم كلها، قال: ... وذكرها.

بالصدق وإن قتلك الصدق، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله عز وجل، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب»^(١).

فتأمل شريف وصيته: «ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك إلا خيراً، واحملها على أحسن محمل». وليس هذا لعمر الله^(٢) عن ضعف ولا غفلة، ولكن عن ديانة ورجاحة وورع^(٣)^(٤). فأحسن الظن بالله وبعباد الله، أحسن الله إليك.

إن حسن الظن مفتاح مُرتج الأقفال، ومعراج مراقبي الآمال، وذريعة منائح الكريم الوهاب تبارك وتعالى، وقد ذكروا أن أبا الحسن التهامي رُئي بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قيل له: بأي الأعمال؟ قال:

(١) شعب الإيمان (١٠ / ٥٥٩) (٧٩٩٢).

(٢) قال ابن بطال رحمه الله تعالى في شرح صحيح البخاري ١٢١/٦: «قال أبو القاسم الزجاجي: «لعمر الله» كأنه حلف ببقائه تعالى، وقوله: لعمرك، مرفوع بالابتداء، والخبر مضمّر، والتقدير: لعمرك ما أقسم به. واختلف الفقهاء في قول الرجل: «لعمر الله»، فقال مالك والكوفيون: هي يمين. وقال الشافعي: إن لم يرد بها اليمين فليست بيمين، وهو قول إسحاق. والحجة لمالك والكوفيين: أن أهل اللغة قالوا: إنها بمعنى بقاء الله، وبقاؤه صفة ذاته، فهي لفظة موضوعة لليمين فوجب فيها كفارة».

(٣) وانظر باب: حسن الظن، من هذا الكتاب.

(٤) الحث على سلامة الصدر. علي الدهامي (٥٢ - ٥٨) بتصرف وزيادة واختصار.

بقولي في ولدي الصغير:

جاورتُ أعدائي وجاورَ رَبُّهُ شَتَّانَ بَيْنَ جَوَارِهِ وَجِوَارِي
ويقول قبل هذا البيت هذه الحِكَم البديعة؛ التي جاءت بأيسر لفظ وأتم
معنى وأحكم تفكير:

بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارِي
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ مُنْقَادَةٌ بِأَزْمَةٍ الْأَقْدَارِ

ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ فما أحسن ظنهم بالله تعالى، وأعلى
همتهم لرضوانه وإعلاء كلمته ورفعته دينه. فعن ضرار بن الأزور رضي الله عنه
قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: أمدد يدك أبايعك على الإسلام، فبايعته، وأسلمت،
ثم قال:

تَرَكْتُ الْقِدَاحَ وَعَزَفَ الْقِيَانَ وَالْحُمْرَ تَضْلِيَةً وَابْتِهَالًا
وَكَرِّيَ الْمُحَبَّرَ فِي غَمْرَةٍ وَحَمَلِي عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقِتَالَ
فَيَا رَبَّ لَا أُغْبَنُ صَفْقَتِي فَقَدْ بَعْتُ أَهْلِي وَمَالِي بَدَالًا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا غُبِنْتَ صَفْقَتَكَ، يَا ضَرَارُ»^(١).

(١) أحمد (٥٤٢٧) والطبراني (٣٥٥/٨) (٨١٣٢)، والحاكم (٥٠٤٢) وصححه ووافقه
الذهبي وحسنه ابن كثير في جامع المسانيد والسنن (٥٤١١) وضعفه شعيب
الأرنؤوط. وفي لفظ:

وإنَّ من مُوجِبَاتِ حُسْنِ الظنِّ بالله تعالى: اليقين به وبلقائه وموَعوده، قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

وتدبّر جمال اليقين لدى عمر، رضي الله عن عمر، وعن من أَحَبَّ عمرَ، وأشهدك ربي على محبة عمر، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن أَبَاهُ قُتِلَ يَوْمَ أَحَدِ شَهِيدَا، فَاشْتَدَّ الْغُرَمَاءُ فِي حُقُوقِهِمْ، قَالَ: فَأَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَكَلِمَتُهُ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا تَمْرَ حَائِطِي، وَيُحْلِلُوا أَبِي، فَأَبَوْا، فَلَمْ يَعْطِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ حَائِطِي، وَلَمْ يَكْسِرْهُ لَهُمْ، وَلَكِنْ قَالَ: «سَاعِدُوا عَلَيَّكَ». فَعَدَا عَلَيْنَا حِينَ أَصْبَحَ، فَطَافَ فِي النَّخْلِ، وَدَعَا فِي تَمْرِهَا بِالْبَرَكَةِ، فَجَدَدَتْهَا، فَقَضَيْتُهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَبَقِيَ لَنَا مِنْ تَمْرِهَا نَفَقَةٌ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِعَمْرٍ وَهُوَ جَالِسٌ: «اسْمَعْ يَا عَمْرُ» فَقَالَ عَمْرُ: أَلَا يَكُونُ قَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ (١).

فَيَارَبَّ لَقِّنِي بِهِ جَنَّتِي فَقَدْ بَعْتُ مَالِي وَأَهْلِي بَدَالًا
فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَ الْبَيْعُ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. فَقُتِلَ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ.
وانظر: أطراف المسند (٢٩٠٥)، ومجمع الزوائد ٨/ ١٢٦ و ٩/ ٣٩٠. معرفة
الصحابة لأبي نعيم ٣/ ١٥٣٤ وكنز العمال ١٣/ ٤٤١ وفي الإصابة لابن حجر
٢/ ٢٠٨: ضرار بن الأزور، واسم الأزور: مالك بن أوس. له صحبة، وسكن
الكوفة، وذكر الحديث. وقال البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٨: «ضرار بن
الأزور، له صحبة».
(١) البخاري (٢٣٩٥).

وما أجمل الحياة باليقين! اللهم نسألك حسن الظن، وسلامة القلب، وثلج اليقين، إله الحق آمين.

١٢ - الرحمة والشفقة بالناس.

الموفق هو من نظر لمن أساءوا إليه نظرة شفقة لا كراهية - وما أعزّها في العالمين - فهو يفوز بعاجل راحته في الدنيا، وذخيرة كنز أجره في الآخرة.

فهو على يقين أنهم بأذاهم له لا ينالون شفاء لصدورهم ولا سعادة لقلوبهم لكننا يحشون مراجل صدورهم بسهام حقدهم المصمّية التي تطعن صاحبها قبل غيره وتهدم صروح عافيته في عاجلته وآخريته.

وبالجملة؛ فمن رُزق الشفقة على من آذوه فقد سلم صدره لهم.

واعلم أن من فروع ذلك الاستغفار لنفسه ولمن عادوه، فلا يستغفر لهم ويدعو لهم بالخير إلا من ذاق لذة سلامة الصدر وحلاوة طهارة القلب، وكلما استغفر لهم ازداد سلامة وطهرًا.

وإنّ من معضلات الزمان: سوداوية التفكير والنظر لدى فئام من الناس، فلا يرون في الناس والأحوال والمستقبل إلا الضيق، وسوء الظن، والنظر للنصف الفارغ من الكأس، وهذا خذلان عظيم. وإنك لترى ذلك وتسمعه وتعانيه من مجالستك هؤلاء، والله المستعان.

لهذا أقول لكل من أُحِبّ: حاول أن تكون إيجابيًا متفائلًا، لا سلبياً متشائمًا، والدنيا مليئة بكل أصناف هذين وأحوالهم. وحيثما قلبت نظرك ستجد ما تريد

أن تجد!

فإن بحثت عن معاني الإحسان؛ ستجدها في أديان الناس ودنياهم، فالخير فيهم كثير. وإن رمت أمثلة الشرّ فيهم؛ فسيبنى عمرك وأنت تحصيه! والمقصود: أنك من ترى الناس بمنظارك، فأحسن إلى نفسك برؤية الخير في العالمين. والحمد لله رب العالمين.

١٣ - الاعتصام بالله تعالى.

سلامة الصدر مطلب عزيز، وكلما قوي المطلوب عزّ المساعد، لذلك كان حتمًا على من رام سلامة صدره؛ أن يتعلّق بمن بيده تصريف قلبه، وتيسير أمر صلاحه، وانفساح صدره، وسلامة فؤاده، وتدبّر: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

فلسان حال المؤمن ومقاله في كل حاجاته على مرّ أوقاته: أما إلى الخلق فلا، وأما إلى الله فبلى. ويا طيب عيش الواثقين.

يقولون لي ما بال قلبك واثقًا وحولك أمواج المصائب تعصفُ
فقلتُ لهم إنّي اعتصمتُ بخالقي فمن أيّ شيءٍ يا ترى أتخوفُ

١٤ - التلذذ بالبلاء.

هكذا الدنيا خلقت على الكدر؛ فلا ترّمها صافية، وسنت لها اللاؤاء؛ فلا تظنّها سالمة، قد أقيمت على المشقة؛ فلا تأملها ميسرة، وسنت على الفناء

والزوال؛ فلا تنخدع بزيف سراها.

نعم؛ لا بد للمؤمن في الدنيا من أن يُؤذَى، فالدنيا مُنْعَصَةٌ، خاصة كلما اقترب من جادة المرسلين وسلك وظيفتهم في الدعوة إلى الله تعالى، ففي النفوس ميل إلى العاجلة، وبغضاء لمن يحول بينهم وبين محرمات شهواتهم، فمن حال بينهم وبين تحصيلها آذوه واتهموه وشقوا عليه وحاربوه، لذا فإن لم يتلذذ بالبلاء في ذات الله؛ خيف عليه أن يتلوّث بحمل ضغينة عليهم لأجل أذيتهم له، لكن أن تذكر سبيل البلاء بالمرسلين وأتباعهم؛ فقد وطّن نفسه أوطانهم، وهياً قلبه بحرّاً تغرق فيه هنات البشر، فأصبح سليماً عليهم مشفقاً حادباً.

إنّ مزج مرارة البلاء بحلاوة الرضاء بالقضاء ورجاء موعود الآخرة؛ يهون على قلب العبد تتابع كبار الخطوب والأهوال.

وليس التلذذ بالبلاء مقصود لذاته، فهو ليس بواجب، ولا بأس على المرء ألا يتلذذ بالبلاء، فإنّ الواجب في حقّه الصبر، وما زاد عليه فليس بواجب عليه، والناس مختلفون في القدرة والاحتمال والتجلّد والترضي، لكن التلذذ بالبلاء وسيلة إلى تطيب العيش مع الواقع الأليم الذي لا حيلة في دفعه، كما أنه من تحديث النفس باحتساب ما أصابها في ذات الله تعالى.

والمؤمن مُبتلى، وحتى العاصي مُبتلى، لكن شتآن بين ابتلاء المؤمنين الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين، وابتلاء الغافلين الشاردين التائهين الضائعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم البرّ الرحيم. ورحم الله الألبيري إذ قال:

ليس يخلو المرء من ضدّ ولو حاول العزلة في رأس جبل والمقصود؛ أنّ المرء في الدنيا لن يسلم من أذى مهما كان حاله صلاحاً أو فساداً، فسيؤذى في نفسه أو ولده أو أحبابه أو ماله، وكلّما تعلق بشيء من الدنيا صعب عليه فراقه والانفكاك عنه والبعد عنه، فعلى قدر التعلّق يكون التألم، فكيف إن كان ذلك الشيء للقلب مُقسّياً، ولدمع الخشوع مُجفّفاً، وعن الآخرة مُلهياً، وعن طاعة الله صارفاً! ففراق المباح شديد، فكيف بحرام التوى عليه قلب الغافل! أما الطيّبات المزلفات لعالى الدرجات في الآخرة؛ فهي بسبيل غير هذا السبيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبالجملة؛ هذه هي الدنيا، فتصالح معها بالسلام النفسي، والأمن القلبي، والتسليم التام، والرضا الكامل للمتصرف المدبّر الحي القيوم تبارك وتعالى، وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّ له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إنّ أصابته سرّاً شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراً صبر؛ فكان خيراً له» (١).

واعلم أنّ المصائب تصغر وتكبر بحسب حجمك أنت، فأنت من تكبرها وتعظّمها وتشدّدها، أو تصغرها وتهونها وتيسرها، هي في صدرك كبيرة إن كانت هناك كذلك، وصغيرة إن كانت هناك كذلك.

(١) مسلم (٢٩٩٩).

وقال سعيد بن العاص رضي الله عنه مبيِّناً مشقَّة المكارم ^(١): «يا بُنَيَّ، إِنَّ المكارم لو كانت سهلة يسيرة لسابقكم إليها اللُّثام؛ ولكنَّها كريهة مرَّة، لا يصبر عليها إلا من عرف فضلها، ورَجَا ثوابها» ^(٢).

عَشِقَ المكارمَ فهو مُشْتَغِلٌ بها والمكرماتُ قليلةُ العُشَّاقِ

١٥ - انتظار الأجر.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فمن كانت بين عينيه هانت عليه نفسه ولو تلفت في مهاوي الردى، ذلك أنه موعود بالأجر فرح غدا بلقاء الرحمن.

وكذلك تذكّر الحساب يوم الحساب بين يدي كريم العطاء عظيم المواهب شديد العقاب سريع الحساب تبارك وتعالى، فمن تذكّر ذلك حقّاً؛ سهّل عليه تنظيف صدره من رجس الغلّ، ونجاسة الحقد، وقدر الحسد، وخبث النفس، وسوء الطويّة، وسمّ الأذى لعباد الله تعالى.

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية الأموي، قتل أبوه ببدر، وكان لسعيد عند موت النبي ﷺ تسع سنين، وذكر في الصحابة، وولي إمرة الكوفة لعثمان، وإمرة المدينة لمعاوية، مات سنة (٥٨ هـ) وقيل غير ذلك، الإصابة (٣/ ١٠٧)، التقريب (٢٣٣٧).

(٢) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا ٣٠/١

١٦ - التوبة.

التوبة غسيل للصدر من وَحَرِ الخطيئة وَكَدَرِ العصيان، فلا عجب إذن من كونها سبيلاً لتحصيل سلامة الصدر، فالقلوب بين يدي علام الغيوب يصرفها كيف يشاء، وهو يحب التوابين، ومن آثار محبته تنزيل ألطافه عليهم، ومن أجملها تسليم صدورهم وتطهير قلوبهم بمنه وكرمه وحمده.

فالتوبة شعار الإسلام، ومأررُ الإيمان، وسورُ الإحسان، قال واعظ الإسلام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، وله من كنيته نصيبٌ بتفريج كربات الفكر ومشكلات العلم، رحمه الله تعالى: «ويحك! اغسل العثرة بعبرة، وادفع الحوبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فُسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل على تابوت، قبل أن ترى السمع والبصر قد كَلَّا، وتقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ﴾ ﴿٩٩﴾ فيقال: ﴿كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] قبل أن يصير دمع الأسى من جفن أسا^(١)، ويُقال: هَلَّا كان هذا قبل هذا، هَلَّا.

أترك من تحب وأنت جار	وتطلبهم وقد بُعد المزار
وتبكي من بعد نأيهم اشتياقاً	وتسأل في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور	وترجو أن تُخبرك الديار
فنفسك لم ولا تلم المطايا	ومت كمداً فليس لك اعتذار

يا من أجله يذوب ذوبان الثلج في الحر، أينقش غيم العمر لا عن هلال

(١) أسا: من الإساءة وحذفت الهمزة.

الهدى؟ أتؤثر الفاني المرذول على النفس الباقي؟!

ما تخفى علامات الإدبار عليك، تفتش دارك فلا يرى سواك الطهارة،
يدك لا تطهر للصلاة، بل هي ملاعق للأكل، ليس في البيت مصحف، بل
تقويم، أينفع وجود التقويم مع عدم التقويم؟

ما هذا الحب للدنيا والصَّبابَة؟ وإنما يكفي منها صَّبابَة^(١) فقل للنفس
الحريصة: قد بعث الأخرى رخيصة!

يا من قد أخذ الهوى بأزمته^(٢) وأمسك الردى بلمته^(٣) يا رهين ديون
تعلقت في ذمته، هذا أوان جدك إن كنت مجداً، هذا زمان استعدادك إن كنت
مستعداً.

يا نفس قد عن المراد فخذِي إن كنت يوماً تأخذين أو ذري

رُضْ مُهَرَّ النفس يتأت ركوبه، تلمح فجر الأجر يهن ظلام المشقة، احذر
حية الفم فإنها براء^(٤) إذا خرجت من شفة غدرك لفظة سفه، فلا تلحقها بمثلها
تلحقها، ونسل الخصام مذموم، أوثق سبغ غضبك بسلسلة حلمك، فإنه إن
أفلت أتلغ، متى قمت بحدّة الغضب انطفأ مصباح الحلم، حر الهوى إذا ما مدّ
أغرق، وأخوف المنافذ من الغرق فتحة البصر.

(١) الصَّبابَة: الحب الشديد. والصَّبابَة: بقية الماء في الإناء.

(٢) أزمته: جمع زمام وهو مقود الدابة.

(٣) ليمته: اللمة الشعر الذي يجاوز الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهي جمّة.

(٤) براء: حية شديدة الخطر، تُسقط الحبل، وتذهب البصر.

والمرء ما دام ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا في أعين الغيدِ موقوفٌ على الخطرِ
يُسْرُّ مقلته ما ضُرَّ مُهْجَتُهُ لا مرحباً بسرورٍ عادٍ بالضَّرَرِ

من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان؛ فليُنظر ماذا يُولِّيه.

مصابيح القلوب الطاهرة في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿اللَّهُ نُورُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثِلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] وَحَدَّثَ بَنُ سَاعِدَةَ وَمَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ، وَكَفَرَ ابْنُ أَبِي
وَقَدْ صَلَّى مَعَهُ الْقَبْلَتَيْنِ! ﴿١﴾ .

هذا؛ ولقد قسم الله تعالى جميع عباده إلى قسمين: تائب وظالم، فالصالح
يتوب من تقصيره تركاً أو فعلاً، والمفطر أولى وأولى، قال الله تبارك وتعالى:
﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] فانقسم الناس إلى تائب وظالم،
فهلموا يا صبيان التوبة جددوها؛ ثمر مغفرة ورضواناً برحمة الله تعالى.

إن من وسائل سلامة الصدر تجديد التوبة على الدوام، والمؤمن في حاجة
لتجديدها لأنها تخلوئق مع كَرِّ الأيام، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى
اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «ويموز أن يكونَ
المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدد، أي فإنه يستمر على توبته ولا

(١) المدهشات. منتخبات من المدهش لابن الجوزي، للمؤلف (٧٣ - ٧٤).

يرتدُّ على عَقْبِيهِ، فيَكُونُ وعدًا من الله تعالى أن يُثَبِّتَهُ على القول الثَّابِتِ إذا كان قد تابَ وأيدَ تَوْبَتَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ»^(١). وقال السمعاني رحمه الله تعالى في الآية: «أي: ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح؛ فإنه بذلك تائب إلى الله متائبًا مرضيًا عنده، مكفِّرًا للخطايا، محصلًا للشواب.. والآية صريحة في أنَّ العمل الصالح والمثابرة عليه قولًا وفعلًا شرط في صحة التوبة وقبولها، وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح. فليَتَفَتَّنْ لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان، أو تخشع بأركان، ولا عمل صالح له يرضي الرحمن»^(٢).

إنَّ تجديد التوبة ضرورة ملحة لكل راجٍ فوزًا ونجاةً وفلاحًا، وتدبر آيات الفرقان ففيها للمتدبرين جملة عظاتٍ، وماء حياة، ونور هدايات، قال تبارك وتعالى بعد ذكر ثلاثٍ من أمَّات الذنوب المهلكة، وهي الشرك والقتل بغير حق والزنا: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١]. فمن كان كذلك فهو حقيق بمكافأة الكريم الرحيم له بتبديل سيئاته حسنات، وذلك بأن يبدلها بأعيانها حسنات كرمًا منه ابتداءً، أو يمحوها ويكتب مكانها ما استجدَّ من صالحات، وهذا كرم عظيم من الله تعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا

(١) التحرير والتنوير ٧٧/١٩

(٢) تفسير السمعاني ٣٥/٤

جازماً ألا يعود، ﴿وَأَمَنْ﴾ بالله إيماناً صحيحاً يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله؛ ﴿قُلُوبِكُمْ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب؛ إن لي ذنوباً لا أراها هاهنا»^(١). والله أعلم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾، لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة، ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾^(٢)، أي: فليعلم أن

(١) كما عند الإمام أحمد في المسند، ٣٥/٣١٣، (٢١٣٩٣) ومسلم (١٩٠) «عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيُقالُ: اعْرِضُوا عليه صَغَارَ ذُنُوبِهِ. قال: فَتُعَرَضُ عليه وَيُجَبُّ عَنْهُ كِبَارُهَا، فيُقالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ مُقِرٌّ لَا يُنْكِرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَارِ، فيُقالُ: أَعْطَوْهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمَلَهَا حَسَنَةً»، قال: «فيقول: إن لي ذُنُوبًا مَا أَرَاهَا». قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذُهُ».

توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها، وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا: الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالتها^(١).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «في معنى قوله تعالى: ﴿قُلُوبِكُمْ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلُوبِكُمْ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحوّهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يبدله الله بها خيراً. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشرّكين، وأبدلهم بنكاح المشرّكات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصائاً وبالكفر إسلاماً. وهذا قول أبي العالية، وقاتلة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكّر ما مضى؛ ندم واسترجع واستغفر، فينقلب

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٨٧).

الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه لكنّه لا يضرّه، وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى، فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة: يُؤتى برجل فيقول: نحوا كبار ذنوبه، وسلّوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملتَ يوم كذا وكذا كذا، وعملتَ يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً - فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة. فيقول: يا ربّ، عملت أشياء لا أراها هاهنا». قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» (١). (٢).

وتدبر فضيلة التوبة الخالصة القوية الصحيحة وفضل تجديدها في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٦)، قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: «في هذا النصّ السامي يبيّن الله تعالى أنّ من يؤمن تائباً، ويعمل العمل الصالح ضارعاً، فإنه يعود إلى الله تعالى راضياً مرضياً، ويركن إلى الله تعالى، وحسبه أنه ركن إلى الله تعالى القوي القهار الغالب، يأمن بجانب الله تعالى شرّ كلّ مخلوق.

ومتاب: أحسب أنه اسم مكان، أيّ أنه يعود إلى مكان التوبة وملجئها الحصين الذي لا يذل من يلجأ إليه، ويجعله حصنه الحصين، وركنه الركين،

(١) أحمد في المسند، ٣٥/٣١٣، (٢١٣٩٣) ومسلم (١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/١٢٧) باختصار.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ واقعة في جواب الموصول؛ لأنه في معنى الشرط كما ذكرنا، وإن ذلك هو الثمرة الكبرى للتوبة^(١). ووقفت على كلام نفيس للعثيمين رحمه الله تعالى في هذا إذ قال: «قوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾، ﴿تَابَ﴾ رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استزادَ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَيَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ اسْتَعْتَبَ^(٢) مِمَّا فَعَلَ وازدادَ خَيْرًا، يقول: ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: مَتَابًا تَامًّا، فالمصدرُ هنا لتعظيمِ هَذِهِ التَّوْبَةِ، أي مَتَابًا عَظِيمًا؛ لِكَمَالِ هَذِهِ التَّوْبَةِ، وإِلَّا لو قال قائل: هذا تحصيل حاصل، مَنْ تَابَ فَإِنَّهُ يَكُونُ تَائِبًا؟ نقول: لا، المقصودُ أَنَّ تَوْبَتَهُ هَذِهِ تَوْبَةٌ كَامِلَةٌ

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/٥٣٢٠

(٢) ومعنى يَسْتَعْتَبُ: يطلب العُتْبَى؛ أي: الرِّضَا عنه، ومن معانيه كذلك الرجوع عن الإساءة، فيحصل له الرضا، فالتعب من معانيه الرضا، وهو لفظ دائر في التنزيل العزيز. قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضواء البيان ٣/٣٩٧: «قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]. اعلم أولاً: أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبي، أي: الرجوع إلى ما يرضي العائب ويسره. وتستعمل أيضاً في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبي، أي: رجع إلى ما يحب العائب ويرضى، فإذا علمت ذلك: فاعلم أن قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وجهين من التفسير متقاربي المعنى. قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا تطلب منهم العتبي، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربه؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

وقال بعض العلماء: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يعتبون، بمعنى يزال عنهم العتب، ويعطون العتبي وهي الرضا؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين».

عظيمة، فالإتيان بالمصدر ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾، للدلالة على أن هذه التوبة وقّعت موقعها وأنها كاملة، وهذا حق^(١).

نسأل الله التّواب الرحيم أن يتوب علينا، فيمنّ علينا بالتوبة النصوح الدائمة، ثم يثبتنا عليها حتى نلقاه وقد تقبلها، إنه هو الغفور البر الرحيم.

١٧- التوكل.

الله وحده حسيب المتوكل، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيّه في كل أموره عمن سواه، فلكل عبادة نصيب لصاحبها من الأجر والإجابة أما التوكل فنصيبه الكفاية.

وتدبر الآيتين الفاذتين المانعتين في نقض كل توكل على غير الوكيل القدير العليم الحق سبحانه: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وإن علامة صدق التوكل: عدم فعل الأسباب المحرمة والمكروهة، فإنه لما علم وأيقن أن تمام التدبير لله وحده لا شريك له؛ فعلم أنه من الخير له لدرك غرضه الدنيوي ورغيبته الأخروية أن لا يتوصل لتحصيل مقصوده إلا بما أذن له وكيله الخالق المالك المدبر المتصرف تبارك وتعالى، وبالله وحده التوفيق.

(١) تفسير العثيمين: الفرقان ١/ ٣٠٨

١٨ - مطالعة أسماء الله تعالى وصفاته وتدبر معانيها.

ولهذا أثر جميل جدًا على العبد، فإذا طالع أسماء الله تعالى الرحمن والرحيم واللطيف والغفور والعفو الكريم والوهاب والهادي والرزاق والبر والعليم والحكيم والقريب والمجيب والودود ونحوها أورثه ذلك انشراحًا في صدره، وراحة في قلبه، وسعة في بَالِه، وضياء في وجهه، وبصيرة وهداية في مسيره إليه. ومهما اختلفت عليه وإليه وفيه سهامُ الظالمين من الإنس والجن؛ فهو ثابت الجأش، قارّ الفؤاد، ساكن الطبع، مطمئن البال، مرتاح الحال، يستشعر معية ذي الجلال والإكرام، ويوقن بإحاطة الحي القيوم، ويعلم أنه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه في جهاد نفسه وغيره لأجل وجه ربه الأعلى، فهو معه وبه ومنه وإليه، فهل تُخش ضيعة على مثل هذا القلب العامر بكل خير؟! كلا وربّي، ما دام حافظًا عهد ربه العظيم، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه، فمعه القوة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضلُّ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ [٥٨] الفرقان: ٥٨.

هذا؛ وإنّ تدبر أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله مَطَهْرَةٌ للقلب من دغل الخطايا وسوءات السيئات، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولو عرف العبد ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات؛ لم يتكبر، ولم يغضب لها، ولم يحسد أحدًا على ما أتاه الله، فإنّ الحسد في الحقيقة نوع من معادة الله!

فإنَّه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته. ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلَّع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه، وقلَّع الغضب بمعرفة النفس، وأنها لا تستحق أن يغضب لها ويتنقم لها، فإن ذلك إثارة لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها. وأعظم ما تدفع به هذه الآفة: أن يعود لها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابلته من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وأما الشهوة: فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها، وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعياً في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعياً في إيصالها إليها على أكمل الوجوه^(١).

فتدبر أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله يورث الغنى والسعة واليقين وجمال الحال، قال وجدان العلي: «اتسع! اتسع! ربك الواسع! اتسع في رحمتك وكرمك واحتمالك ولطفك، واتسع في صمتك الذي تتفادى به أخذود غضبك أو أشواك همك، اتسع في تدبرك لجمال الله تعالى، وهنالك ما لا يطيق البيان الإبانة عنه! اتسع في يقينك ولا تدع مساحة لفحم الشيطان ووظيفته المملة التي لا يحسن غيرها: الإرجاف والشك والوسوسة والكذب! واستكثر من حبات

(١) الفوائد (١ / ١٥٨).

النور في مسبحة الثناء والحمد والمناجاة؛ فإنها مصابيح صدرك ودربك الموصلة إلى مأمئك». وصدق وفقه الله تعالى.

١٩ - تدبر شؤم العواقب وحسنها.

فمن حكمة المرء سعة أفقه وتدبره لعواقب أفعاله ومآلات أعماله، فيرى بنفوذ بصيرته وحدة فراسته ما لا يراه من عدم تمام الحكمة، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فالموفق هو من تدبر أحوال الخلائق بميزان الآخرة، وتلمح عواقب الفريقين: أهل الصدور البيضاء، والسوداء، وما بينهما من الرماديين المخلطين.

ومن الناس من بصيرته تنفذ في عاقبته في الدنيا ولا تتجاوزها إلا لئامًا، ومنهم من تتجاوزها على الدوام لعاقبته في أخراه، وهذا هو الموفق حقًا والمغبوط صدقًا، فالموفق هو من كان بصيرًا بدواخل نفسه وجوانح فؤاده، قوي الإرادة صحيح العزم في ما يصلحه من عمران آخرته، راسخ اليقين ببقاء ربه والثقة به، وعامل نفسه بحزم لطيف، وحكمة رفيقة، وإرادة صلبة، قال عمر رضي الله عنه: «إن لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا؛ فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض»^(١). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن

(١) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» ١٢٦/٣ وذكره الزنجشيري في «ربيع الأبرار» (ص: ١٥٨) عن علي رضي الله عنه. وروي نحوه عن ابن مسعود في «الزهد» لابن المبارك (١٣٣١)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣٤)، و«الجامع» للخطيب (١/ ٣٣١).

لهذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإن لها فترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»^(١).

ومما يُعين العبد على مداومة العمل الصالح قضاؤه ما فاتته منه، وقد جاءت السنة بذلك؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حربه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كُتب له كأنما قرأه من الليل»^(٢). وما أجمل مقولة أبي بن كعب رضي الله عنه: «وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهداً أو اقتصاداً: أن يكون ذلك على منهج الأنبياء وستهم»^(٣).

وإن الناس لتمرُّ بهم أوقات نشاط تحيا بها قلوبهم وأبدانهم، وتعقبها أوقات آخر فيها فتور وخمول وثقل عن الطاعات، سنة الله تعالى في خلق الإنسان المتداعي الضعيف^(٤)، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل عمل شرّة»^(٥) ولكل شرّة فترة، فمن كانت فترته إلى سستي فقد أفلح، ومن

(١) الزهد، لابن المبارك (١٣٣١).

(٢) مسلم (٧٤٧).

(٣) اعتقاد أهل السنة، للالكائي (١٠) والزهد لأحمد بن حنبل ١/١٦١ والزهد لأبي داود ١/١٨٣.

(٤) وانظر: انفساخ العزائم وانتقاض الدعائم. للمؤلف.

(٥) أي: حرص ونشاط وهمّة.

كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»^(١)، وفي رواية: «فإن كان صاحبها سدّد وقارب فازجوه، وإن أُشير إليه بالأصابع فلا تعدّوه»^(٢). قال الطحاوي رحمه الله تعالى في معنى الشرّة: «هي: الحِدّة في الأمور التي يريدّها المسلمون من

(١) أحمد (٣٧٦ / ١١) (٦٧٦٤) وقال محققوه: إسناده صحيح.

(٢) أحمد (٦٤٧٣) والترمذي (٢٤٥٣)، وصححه الألباني. ونقل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٦٧٢ / ١١ عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه لما حدّث بهذا الحديث قيل له: أنت إذا مرّرت في السُّوق أشار إليك النَّاسُ. فقال: «إنَّه لَمْ يَعْين هذا، وإنَّما أراد المبتدِع في دينه، والفاجر في ديناه». وقال الصنعاني رحمه الله تعالى في التحبير لإيضاح معاني التيسير ٣٠٧ / ١: «قوله: «وإن أُشير إليه بالأصابع» كناية عن عدم التسديد، بل بالغ مبالغة يعرفها الناس، وعظمت في أعينهم حتى أُشير إليه». وقد وُفق ابن القيم في بيانها إذ قال رحمه الله تعالى في المدايح ٣٥ / ٤: «وهذا موضعٌ يحتاج إلى تفصيل؛ فإنَّ النَّاسَ إنَّما يشيرون بالأصابع إلى من يأتيهم بشيءٍ، فبعضهم يعرفه وبعضهم لا يعرفه، فإذا مرَّ أشار من يعرفه إلى من لا يعرفه: هذا فلان، وهذا قد يكون ذمًّا له، وقد يكون مدحًا.

فمن كان معروفًا باجتهادٍ وعبادةٍ وزهدٍ وانقطاعٍ عن الخلق، ثم انحطَّ عن ذلك، وعاد إلى حال أهل الدُّنيا والشَّهوات؛ إذا مرَّ بالنَّاس أشاروا إليه، وقالوا: هذا كان على طريق كذا وكذا، فُتِنَ وانقلب، فهو الذي قال عنه في الحديث: «فلا تعدّوه شيئًا» لأنَّه انقلب على عقبيه، ورجع بعد الشرِّرة إلى أسوأ فترة.

وقد يكون الرَّجل منهمكًا في الدُّنيا ولذاتها، ثم يوقظه الله لآخرته، فيترك ما هو فيه، ويُقْبِل على شأنه، فإذا مرَّ أشار النَّاس إليه بالأصابع، وقالوا: هذا كان مفتونًا ثم تداركه الله. فهذا كانت شرِّته في المعاصي ثم صارت في الطَّاعات. والأوّل كانت في الطَّاعات ثم فترت وعاد إلى البدعة والفجور. وبالجملّة؛ فالإشارة بالأصابع إلى الرَّجل: علامة خيرٍ وشرٍّ، ومورد هلكةٍ ونجاة، والله الموفِّق».

أنفسهم في أعمالهم التي يتقربون بها إلى ربهم عز وجل، وإن رسول الله ﷺ أحبّ منهم فيها ما دون الحِدَّة التي لا بد لهم من القصر عنها، والخروج منها إلى غيرها، وأمرهم بالتمسك من الأعمال الصالحة بما قد يجوز دوامهم عليه، ولزومهم إياه؛ حتى يَلْقُوا ربهم عز وجل، وروي عنه ﷺ في كشف ذلك المعنى أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ» (١) (٢).

فالمؤمن بين سَدَادٍ ومُقَارِبَةٍ، بلا غلوٍّ وإفراطٍ ولا تقصيرٍ وتفريطٍ، فهو إنْ نشط سَدَدٌ، وإنْ فَرَّ قَارَبٌ، لا يتعدَّى المشروع بزيادة عند نشاطه وشِرَّتِهِ، ولا يقصر عنه بتفريطٍ وتقصيرٍ عند فتوره وخموله، ففي النشاط يأخذ نفسه بالعزائم والكمالات وعزيزات المستحبات، حتى إذا فترت نفسه ألزمها الفرائض وأمهل عليها لدى النوافل وبسط لها في المباحات، وأبعدها بكلِّ حال عن حدود المحرمات. فهذا هو الذي آتاه الله تعالى الحكمة علماً وبصيرة وعملاً وإيماناً. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فتخلَّل الفترات للسالكين أمرٌ لازمٌ لا بدَّ منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تُخرجه من فرض، ولم تدخله في محرَّم، رُجي له أن يعود خيراً مما كان. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «إنَّ لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض». وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحِكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، وبها يتبين الصادق من الكاذب:

(١) البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣).

(٢) شرح مشكل الآثار، للطحاوي ٢٧٠/٣

فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه. والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله، ويُلقِي نفسه بالباب طريحاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد، وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب، لكن ليس هو منك، بل هو الذي مَنَّ عليك به، وجَرَّدَكَ منك، وأخلاقك عنك، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام؛ فاعلم أنه يريد أن يرحمك ويملاً إناءك، فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلبٌ مضَيِّعٌ، فسل ربه ومن هو بين أصابعه أن يرده عليك، ويجمع شملك به، ولقد أحسن القائل:

إذا ما وضعت القلبَ في غير موضعٍ بغيرِ إناءٍ فهو قلبٌ مُضَيِّعٌ^(١).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترقٌّ على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدّم فهو متأخّر ولا بدّ، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طيّاً إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخّر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْأَكْبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧]. ولم يذكر

(١) مدارج السالكين (٣/١٢٦).

واقفاً، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة، فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مُجِدِّ في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه؟ قلت: لا بد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان:

إما أن يقف ليُجِمَّ نفسه، ويُعِدَّها للسير: فهذا وقفته سير، ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شرّة، ولكل شرّة فترة.

وإما أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذبٍ جذبه من خلفه، فإن أجابه آخره ولا بدّ، فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره؛ نهض نهضة الغضبان الأسف على الانقطاع، ووثب وجمَزَ^(١) واشتدَّ سعياً ليلحق الركب.

وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه؛ لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى، حتى يردّه إلى أسوأ منها، وأنزل دركاً، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله تعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوّه وتخليصه؛ وإلا فهو في تأخر إلى الممات، راجع القَهْقَرَى، ناكض على عقبيه، أو مُوَلَّ ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله»^(٢).

(١) أي: قفز.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٦٧-٢٦٨).

فكن - يا عبد الله - عالي الهمة، مُتَّقِد العزيمة، قويّ البأس والشكيمة مع نفسك وشيطانك، فمن أراد شيئاً ناله بفضل ربه تعالى، فكن باسق الهمة يا صاح، ولا تُحَدِّث نفسك بأنَّكَ لا تظفر؛ فإنَّ ذلك يُضْعِف من عزمك، بل توكل واعقل تنل بإذن الله تعالى، واعلم أنَّ الجنة تريد عملاً، والنار يكفي لها الكسل، فاعزم وبادر، وأقدم وثابر، ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، ومن جميل شعر الحكيم لبید بن ربیعہ رضي الله عنه:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ	وبإذن الله ريثي والعجل
أحمد الله فلا ند له	بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى	ناعم البال ومن شاء أضل
وإذا رُمت رَحِيلاً فارتحل	واعص ما يأمر توصيم الكسل ^(١)
واكذب النفس إذا حَدَّثَتْهَا	إن صدق النفس يُزري بالأمل ^(٢)
غير أن لا تكذبها في التقى	واخزها بالبر لله الأجل ^(٣)

(١) التوصيم: التفسير والتقتير.

(٢) أي: لا تُحَدِّث نفسك بأنَّكَ لا تظفر؛ فإنَّ ذلك يُضْعِف من عزمك. ويُقال: كَذَبَت الرجل بالتَّخْفِيفِ: إذا اخبرت بالكذب، وكذَّبت: إذا أخبرته أنه كاذب.

(٣) اخزها: أي سُسَّها. خزوت الرجل إذا سسته كما قال الأول: ولا أنت دَيَّاني فتخزوني.

واضبطِ اللَّيْلَ إِذَا طَالَ السُّرَى وَتَدَجَّى بَعْدَ فَوْرِ وَاعْتَدَلْ (١)
أَعْمَلِ الْعِيسَ عَلَى عِلَاقَتِهَا إِنَّمَا يُنْجِحُ أَصْحَابُ الْعَمَلِ
اعْقِلِي إِنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِي وَمِنْ دُونِهِمْ جَنْدٌ كَثِيفٌ مُجَنَّدُ
مَلَائِكَةٌ لَا يَفْتَرُونَ عِبَادَةً وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقْلُ
والمقصود؛ أن على الموفق أن يتفطن لنفسه، فمن كانت فترته إلى مقاربة
وتسديد، ولم تخرجه عن فرض ولم تدخله في محرم؛ رُجي له أن يعود خيراً مما كان
عليه بإذن الله تعالى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.
أما ساقط الهمة فإلى أشباهه يعود، وفي خذلانه يرتكس، ومن أمانيه يقبض
الريح، والله المستعان.

لكل ساقطة في الأرض لاقطة وكل كاسدة يوماً لها سوق

٢٠- الاستعاذة.

الشیطان يريد شحن صدور المؤمنين على بعضهم، ويجهتد في إدخال الحزن
عليهم، والتشويش والتشتيت لجمعيتهم، كما ذكر الله تعالى ذلك عنه: ﴿لِيَحْزَنَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠] ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] والنجاة من عداوته مفتقرة لمعونة خالقه المتصرف فيه
المالك لناصيته، الذي إن شاء أحنسه وأعاذ عبده منه، وإن شاء سلطه وفق

(١) اضبط الليل: أي اضبط ما تحتاج إلى ضبطه ليلاً. الفور: أول ظلمة الليل.

مشيئته ورحمته وعدله وإمهاله واستدراجه ومكره، فمن استعاذ بربه من عدوه أعاده ولم يسلطه عليه، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٩٩ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ١٠٠ [النحل: ٩٩-١٠٠].

٢١- العدل والإحسان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] هذه أجمع آية في كتاب الله تعالى بحسب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتدبرها تجمع لك أطراف عدلاً وإحساناً، فلا يعدوها إلا الظلم، والله تعالى لا يأمر بالظلم، ولا يحب الظالمين، بل أقام ناموس كونه وقدره وشرعه ودينه على العدل القسطاس المستقيم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

والأوامر منقسمة على العدل والإحسان، فالعدل فرض، والإحسان مندوب، وعلى قدر تحقيق العبد لكل منهما ينال مرتبته، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأهل الجنة في خير فضيل وجبور كثير مع ذلك فليسوا سواء، فليس المقربون السابقون كالأبرار أصحاب اليمين، وكلاً وعد الله الحسنى وزيادة. قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من جُمع فيه الصدق والعدل والإحسان؛ لم يكن ممن يُجزيه الله تعالى» (١).

(١) الأصفهانية (٤٧٩) وانظر: منهاج السنة (٢٢/ ٤١٩، ٤٢٠، ٨/ ٥٤٩).

وصاحب العدل قليلة طرق السوء لقلبه إذ لم يلوّثه بمظالم وتقصير وبغي، وصاحب الإحسان كبير القدر عند الموافق والمخالف، وكبير إحسانه تنغمر فيه هفواته وزلاته، والقلوب تميل بأزمتها على محبته وقبوله مهما هنّ وزلّ مما لا يكاد يسلم منه عبد. فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

ومن أحسن للناس ملك قلوبهم، وكما قيل: «أحسن إلى من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمّن شئت تكن نظيره».

وليس من شرط الإحسان إن يكون ببسط مال، بل يكون بكل طريق يفرح الجنان، بطلاقة الوجه وبداءة السلام وتوسيع المجلس والشفاعة والهدية والرّفد والإعانة والسؤال عن الحال ونحو ذلك من طرق جلب السرور لنفوس العباد.

كما أنّ الإحسان سبب لإزالة غيظ العدو، بل سبب لجلب محبته ومودته، قال ربنا جل وعز: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

والعفو عن المخالف المعادي محتاج لسعة صدر، أما الإحسان فمحتاج مع ذلك لجرعات كظم الغيظ مع عقل كبير يقدر حجم الآخرة الكبرى، ويرى أن الدنيا ليست بشيء. والعفو الكبير لا يصدر إلا من قلب واسع وعقل كبير. وقد أحسن المُنْعَ الكِنْدِي محمد بن عُمَيْر رحمه الله تعالى إذ قال:

يُعَاتِبُنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دُيُونِي فِي أَشْيَاءِ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا
أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخْلُوا وَضَيَّعُوا تُغُورُ حُقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًا

فَمَا زَادَنِي الْإِقْتَارُ إِلَّا تَقَرُّبًا وَمَا زَادَنِي فَضْلُ الْغِنَى مِنْهُمْ بُعْدًا
وَأَنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لُخْتَلَفٌ جِدًّا
أَرَاهُمْ إِلَى نَصْرِي بِطَاءٍ، وَإِنْ هُمْ دَعَوْنِي إِلَى نَصْرِ أَتَيْتُهُمْ شِدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ حُومُهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيْبِي هَوَيْتُ لَهُمْ رَشْدًا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَأْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا
هُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنَى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدَا
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًّا وَمَا شِيمَةُ لِي غَيْرَهَا تُشَبِّهِ الْعَبْدَا

٢٤- العفو والغفران.

العفو ثمرة، ولكن مجاهدة النفس في سبيله هي وسيلة لتحصيل سلامة الصدر. فلا يطبق العفو إلا من لم يحمل غيظاً ابتداءً، أو حملة فاحتمله كظمًا لغاية أسمى في الآجلة، وربما ردفها العاجلة.

والعفو من أسماء الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩] قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «من أسماء الله تعالى «العفو» هو فعول من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة»^(١).

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: «والعفو صفة من صفات الله تعالى، وهو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ

(١) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٦٥).

منه فإنَّ الغفران ينبأ عن السَّتر، والعفو ينبأ عن المحو، والمحو أبلغ من السَّتر. وحظَّ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كلِّ من ظلمه، بل يحسن إليه كما يرى الله تعالى محسناً في الدُّنيا إلى العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة. بل ربَّما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم محاسناتهم، إذ التائب من الذَّنْب كمن لا ذنب له. وهذا غاية المحو للجناية»^(١). وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ تعريفه عبده أنَّه لا سبيل له إلى النِّجاة إلَّا بعفوه ومغفرته جلَّ وعلا وأنَّه رهين بحقِّه، فإن لم يتغمَّده بعفوه ومغفرته، وإلَّا فهو من الهالكين لا محالة فليس أحد من خلقه إلَّا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته»^(٢).

ومن أدعيته ﷺ سؤال الله العافية فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العافية في الدُّنيا والآخرة، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللَّهُمَّ استر عوراتي وآمن روعاتي، اللَّهُمَّ احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(٣)، وكان رسول الله ﷺ يأمر بالعفو، ويبشِّر صاحبه بحسن مآله

(١) المقصد الأسنى (١٤٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٣).

(٣) أبو داود (٥٠٧٤) واللفظ له، والحاكم (١/ ٥١٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

فقال: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»^(١)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال وهو على المنبر: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر الله لكم، ويلٌ لأقماع القول، ويلٌ للمُصْرِّين الذين يُصْرِّون على ما فعلوا وهم يعلمون»^(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَى اللَّهُ تَعَالَى بَعِيداً مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَّا، فقال له: «ماذا عملت في الدنيا؟» قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. قال: يا رب آتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز^(٣)، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر. فقال تعالى: «أنا أحقُّ بذا منك، تجاوزوا عن عبدي»^(٤).

وعن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس^(٥).

وخطب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: قام رسول الله ﷺ مقامي هذا عام الأول، وبكى أبو بكر، فقال أبو بكر: «سلوا الله المعافاة - أو قال: العافية - فلم يؤتَ

(١) مسلم (٢٥٨٨).

(٢) رواه أحمد (حديث رقم ٦٥٤١)، وقال الشيخ شاکر: إسناده صحيح.

(٣) الجواز: المجاوزة، أي: التسامح والتساهل في البيع والافتضاء.

(٤) مسلم (١٥٦٠).

(٥) الإحياء (٣/ ١٩٥).

أحدٌ قطّ بعد اليقين أفضل من العافية - أو المعافاة - عليكم بالصدق، فإنه مع البرّ وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور وهما في النار، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا كما أمركم الله تعالى»^(١).

والأنبياء هم الأسوة السامية في العفو فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَأَنِّي أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدمّوه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُردٌ نجراني^(٣) غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبدة^(٤) شديدة، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرتُ بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفتُ إليه، فضحك، ثم أمر له بعتاء^(٥).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيلَ منه شيء قط فينتقم من

(١) أحمد في المسند (٣ / ١) وقال محققه الشيخ أحمد شاكر (١ / ١٥٦): إسناده صحيح.

(٢) البخاري - الفتح ١٢ (٦٩٢٩) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) نسبة إلى بلاد نجران في جنوب السعودية حالياً.

(٤) فجبذه: جذب وجذب لغتان مشهورتان.

(٥) البخاري - الفتح ١٠ (٦٠٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٧).

صاحبه إلا أن يتتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم الله عز وجل^(١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قَفَلَ^(٢) رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِصَاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّق الناس يستظلُّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلَّق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي. فقال: «إن هذا اخترط^(٣) علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صِلَتًا»، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: «الله» (ثلاثًا) ولم يعاقبه وجلس^(٤).

وقد كان الصحابة مضرب المثل في العفو والصفح، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر»^(٥) فسَلَّمَ وقال: يا رسول الله، إني كان بيني وبين الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك. فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر» (ثلاثًا).

(١) مسلم (٢٣٢٨).

(٢) قفل: أي رجع.

(٣) اخترط: أي سلَّ.

(٤) البخاري، الفتح ٦ (٢٩١٠) واللفظ له، ومسلم (٨٤٣).

(٥) غامر: أي دخل في غمرة الخصومة، والغامر في الأصل هو الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالخرب وغيرها، وقيل: هو من الغمر وهو الحقد، ويكون المعنى صنع أمرًا اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه، ويحقد عليه الآخر. والأول أظهر.

ثم إنَّ عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أئنَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتمرّ (١) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم (مرتين). فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟» (مرتين). فما أُوذي بعدها (٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَلَّ الناس منِّي في حِلٍّ» (٣).

وعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «صرخ إبليس يوم أحد في الناس: يا عباد الله، أُخْرَاكُمْ، فرجعت أولاهم على أخراهم حتى قتلوا اليان، فقال حذيفة: أبي أبي، فقتلوه. فقال حذيفة: غفر الله لكم (٤).

وتأمل عظيم كيد إبليس الرجيم، كيف ناداهم بالعبودية لله تعالى إيهاماً لهم أنه صالح ناصح، كما خادع أبويهم بقوله المخادع: ﴿وَقَالَسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. ثم ندهم إلى المسارعة لغوث الصفوف المتأخرة حتى يقع الناس في بعضهم بسبب اضطراب الحال في معترك القتال واشتباة الولي من العدو، فكان الحال كما كاد، ولله حكمته البالغة في ذلك كله، ابتلاءً للمؤمنين، واستدراجاً للمشركين، واتخاذ الشهداء الصالحين، والحمد لله رب العالمين، فله

(١) تمعر الوجه: أن تذهب نضارته من الغضب.

(٢) البخاري، الفتوح (٣٦٦١).

(٣) الآداب الشرعية (١ / ٧١).

(٤) البخاري، الفتوح ١٢ (٦٨٨٣).

الحمد على كل أمره تبارك وتعالى.

وبعد هذا كله كانت هزيمة الشيطان وفشله على يد العابد الصالح الجاهد المجاهد حذيفة بين اليمان رضي الله عنهما، فقد فقا عين فتنة إبليس بهتافه الإيماني العظيم دعاءً بالمغفرة لمن تشحط دم والده على رماحهم، فحاله ومقاله: «غفر الله لكم»، لأنهم لم يكونوا على علم به، فرضي الله عنهم أجمعين.

وتأمل فقه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد سأله رجل فقال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: «أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه. وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وَخَتَنَهُ^(١) وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون^(٢)».

إن المؤمن الموفق لا ينفك على الدوام عن حاجته الدائمة لاستشعار الحاجة لعفو الله ورحمته ومغفرته، لأنه لا يكاد يسلم من بغي الناس. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ناصحاً واضعاً الدواء الإيماني على الداء الشيطاني: «اعلم أن لك ذنباً بينك وبين الله تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك

(١) قال الأصمعي: الأختان من قبل المرأة، والأهواء من قبل الزوج، والصهر جمعهما.

وقيل: اشتق الختن مما اشتق منه الختان، وهو التقاء الختانين.

(٢) قوله: «هذا بيته حيث ترون»: أي: وسط بيوت النبي ﷺ وليس في المسجد غير بيته،

كما ذكره ابن حجر في الفتح (٧/ ٩١).

أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك؛ يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك، جزاءً وفاقاً، فانتقم بعد ذلك أو اعفُ، وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصوّر هذا المعنى وشغل به فكره؛ هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله، ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، فقال: «لَئِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

هذا مع ما يتعجّله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه؛ وجد قلبه ودعاه وهمة مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرياً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خيراً.

هذا مع أنه لا بد له مع عدوّه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده، وينقاد له، ويذل له، ويبقى من أحب الناس إليه، وإما أن يُفَتَّتْ كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما

(١) مسلم (٢٥٥٨).

ينال منه بانتقامه. ومن جَرَّب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه»^(١).

وتدبر حال أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها وسلامة صدرها وطيب قلبها وطهارة روحها، قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى: «روينا أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقالت: إِنَّ صفية تُحِبُّ السبت، وتَصِلُ اليهود. فبعث عمر يسألها^(٢)، فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة؛ وأما اليهود، فإن لي فيهم رَحِمًا، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان: قالت: فاذهبي، فأنت حُرَّة»^(٣).

ومن جميل كلام رجاء بن حيوة رحمه الله تعالى، أنه حينما أتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة: ماذا ترى؟ قال: «إِنَّ الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر؛ فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم»^(٤).

وقال مالك بن دينار: «أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلاً وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن، وهو خائف فدخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة

(١) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) وهذا من أدبه معها وحفظ حقها، فلم يستدعها إليه، بل أرسل إليها من يستعلم منها بأدب.

(٣) الاستيعاب على هامش الإصابة، لابن عبد البر (٤/ ٢٠٢).

(٤) الإحياء (٣/ ١٩٦).

الفراريح، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته، فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع يوسف حين أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْأَيُّورَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: فأنا أقول لا تتريب عليكم اليوم، ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لوأريتكم تحته^(١).

وعن الحسن، قال: «أفضل أخلاق المؤمن العفو»^(٢).

وقال البخاري رحمه الله: «باب الانتصار من الظالم لقوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩٩] قال إبراهيم^(٣): «كانوا يكرهون أن يُستدَلُّوا، فإذا قدروا عفوا»^(٤).

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر: «إِنَّكَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ وَمَظْلَمَتَكَ كَمَا هِيَ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ وَقَدْ اقْتَصَصْتُهَا»^(٥). ومن جميل شعر الشافعي رحمه الله:

(١) الإحياء (٣/ ١٨٤).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٧١).

(٣) يعني النخعي.

(٤) البخاري - الفتح (٥/ ١٢٠).

(٥) الإحياء (٣/ ١٨٣).

قالوا سكتَ وقد خُصمتَ قلتُ لهم
فالعفو عن جاهلٍ أو أحمقٍ أدبٌ نعم وفيه لصونِ العرضِ إصلاحٌ
إنَّ الأسودَ لتُخشى وهي صامتةٌ والكلبُ يُحشى ويُرمى وهو نباحٌ

وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه: «كِلِ الظالمِ إلى ظلمه، فإنه أسرع
إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل، وقمِّن^(١) ألا يفعل^(٢)».

وعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ قال: «ما من شيء إلا والله يحب أن يعفى
عنه ما لم يكن حدًّا عن عباده»^(٣).

وكتب أحدهم إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: «فلان هارب
من زلته إلى عفوك، لائذٌ منك بك، واعلم أنه لن يزداد الذنب عظمًا إلا ازداد
العفو فضلًا»^(٤).

وقال بعضهم: «ليس الحليم من ظُلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم، ولكن
الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر عفا»^(٥).

ومن أشهر العفاة عن ظالمهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى فقد

(١) أي حريٌّ به.

(٢) الإحياء (٣/ ١٩٥).

(٣) أخرجه في الموطأ (٢/ ٤٣٨)، وقال محقق جامع الأصول (٣/ ٦٠٢): إسناده صحيح.

(٤) الإحياء (٣/ ١٩٦).

(٥) الإحياء (٣/ ١٩٦).

أوذى في ذات الله تعالى فصبر واحتسب حتى إذا قدر صفح وعفا، بل نصح ودعا. والعفو العظيم مفتقرٌ لصبر عظيم، وإنما تنال معالي الجنة بالصبر.

وَهَذَا زَمَانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالتِّي كَقَبْضٍ عَلَى جَمْرٍ فَتَنْجُو مِنَ الْبَلَاءِ
وَلَوْ أَنَّ عَيْنًا سَاعَدَتْ لَتَوَكَّفَتْ سَحَابُهَا بِالْذَّمِّ دِيماً وَهَظَلَا
وَلَكِنَّهَا عَنِ قَسْوَةِ الْقَلْبِ قَحْطُهَا فَيَا ضَيْعَةَ الْأَعْمَارِ تَمْشِي سَبْهَلًا

وبالجملة؛ فالعفو من فروع الإحسان، والإحسان باب عظيم من أبواب الشرع العظيم.

ولفظ الإحسان عامٌ، يدخل فيه أنواعٌ لا تحصر، فمنها الإحسان إلى النفس بتحصيل ما يصلحها في عيشها وفي معادها، ثم الإحسان إلى من سوى النفس من إنس وغيرهم، وهو في الحقيقة راجع إلى الإحسان إلى النفس، فالله شكور حميد تبارك وتعالى.

أما الإحسان إلى الخلق فهو باب عظيم من أبواب الدخول على الملك الوهاب الكريم المنان سبحانه، ومن الإحسان إلى الناس جبر الخواطر وتطبيب النفوس.

وإن من أسماء الله تعالى الجبار، ومن معانيه جبر المنكسرين، سواء كسر القلوب أو الأبدان أو الأحوال، والله تعالى هو أعظم جابر تبارك وتعالى، وتدبر قوله سبحانه في جبر قلوب عباده المؤمنين بعد كسرتهم في المعركة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال جابرًا قلب يوسف عليه السلام، وهو في أحلك موقف، وأوحش

مكان، وأضيق مقام، مع معاناته خيبته بكيد وخذلان أقرب الناس إليه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وقال سبحانه جابراً قلب خليله وكليمه وكريمه محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٩٧] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٩٨] ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٩٩] [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقال الجبار اللطيف سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [١] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [٢] ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [٣] ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [٤] [الشرح: ١-٤]، وقال رابطاً على قلب عبده ورسوله ومصطفاه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال مُطِيباً نفسه الطيبة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [١] ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ [٢] ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [٣] [الكوثر: ١-٣] وقال سبحانه عاصماً مُدافعاً كافياً: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [٥] [الحجر: ٩٥]، وقال سبحانه مطمئناً مواسياً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٦] [إبراهيم: ٤٢]، وقال سبحانه جابراً رافعاً مُقَرَّباً ناصراً: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥].

[٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال جل وعز مثنيًا على نبيه منوهاً لمقامه، رافعاً لقدره، مبيناً كرامته وشرّفه وجهده وصدقه ورأفته: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وتأمل مديحته تعالى المنشورة في العالمين بنشر صفة من أخصّ صفاته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، في آيات كثيرة.

وقال جابرًا قلوب أوليائه لما كُسروا: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال سبحانه مطيباً نفوسهم بولايته ونعمًا هي: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وتأمل دعاءه ﷺ في الجلسة بين السجدين «واجبرني»، فهو سؤال للجبار تعالى بالجبر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقول بين السجدين: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَاجْبُرْنِي وَارْفَعْنِي» (١).

(١) أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٩٦، ٢٨٤، ٢٨٥). وغيرهما بالفاظ. قال النووي رحمه الله تعالى في المجموع (٤١٤/٣): «وأما حديث ابن عباس فرواه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد جيد، ورواه الحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد.. وذكر اختلاف ألفاظه ثم قال: فالاحتياط والاختيار: أن يجمع بين الروايات، ويأتي بجمع

وتأمل ما رُوِيَ من تعليمه لأبي أمانة رضي الله عنه لما شكى حاله مع الهم والدَّين فأوصاه ناصحاً معلماً جابراً مواسياً: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار، يقال له: أبو أمانة، فقال: «يا أبا أمانة، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟» قال: همومٌ لزممتني، وديونٌ يا رسول الله، قال: «أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلتُهُ أذهب الله همَّك، وقضى عنك دينك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»، قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله همِّي، وقضى عني ديني» (١).

وقد أحسن من قال: «من عامل الناس بجبر الخواطر أدركه الله تعالى بعونه

ألفاظها وهي سبعة: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني واجبرني وارفعني واهدني وارزقني».

(١) أبو داود (١٥٥٥). وقد ضعفه ابن حجر في الفتوحات الربانية (٣/ ١٢٣) والألباني والأرنؤوط. قلت: العبرة بالدعاء المذكور ثابت في الصحيحين من غير قصة أبي أمانة رضي الله عنه، والله أعلم. وقال العباد في شرح سنن أبي داود ٣٥/ ١٨٤: «هذه الألفاظ كلها جاءت في أحاديث صحيحة مرّت بنا، ولكن هذه القصة جاءت من هذا الطريق، وفيه من لا يصح الاحتجاج به، والألباني رحمه الله ضعف هذا الحديث، ولعل التضعيف يتعلق بالقصة، وأما بالنسبة لمتن الحديث وما فيه من ألفاظ فكل الألفاظ التي فيه جاءت في أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ».

في جوف المخاطر»، وأبلغ من ذلك قوله ﷺ: «من نفّس عن مسلم كُرْبَةً من كُرْبِ الدنيا نفّس الله عنه كُرْبَةً من كُرْبِ يوم القيامة، ومن يسّر على مُعْسِرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (١).

فتأمل هذه الأحرف النورانية النبوية، ففي كل حرفٍ جبرٌ خاطرٍ وتطبيب نفسٍ، بالكلمة الطيبة تارة، وبالمال أخرى، وبالمشورة مرّة، وبالبدن حيناً، وبالجاه حيناً، وبالدعاء دوماً، ونحو ذلك مما جرت به عادات الطيبين، وعادات السادات سادات العادات.

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِحَدَمَتِهِ أَتَطْلُبُ الرَّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ
أُحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْضُدْ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَةً وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِيَّانُ

ألا وإنّ القلب الممتلئ بحبّ الإحسان إلى الخلق خليقٌ بجبر الله كسره، وإغاثته حين كربته، وإمداده بلطفه كل حين، حتى يغدو قلباً سليماً، وصدراً فسيحاً، ولا يكاد يحمل على مسلم غشاً ولا غلاً ولا حسداً.

وأجمل وأكرم بالإحسان العام للنفس أولاً بأخذها إلى رياض طاعة الله عز وجل، ثم للإنس والجان والحيوان والنبات والجماد المسبح بحمد الله تعالى،

فإن نفع لم يضر، ولم يُفسد، ولم يُتلف إلا بقدر الحاجة، فالله لا يحب الفساد لا في الدين ولا في الدنيا.

فالكريم المحسن حقاً هو من يحسن الإحسان التام إلى الخلق عامة، فيمتدّ إحسانه إلى الحيوان البهيم، والحشرة الصغيرة، فيطعم ويسقي ويعين ويرحم البهائم المعجمة والدواب الهائمة، قد عظمت رحمته حتى طالت غير البشر، فكيف يكون حال مع أهل الملة والدين؟ وهاك بشارة الرحمة المهداة، المرسل رحمة للعالمين، فقد قال ﷺ «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (١).

٢٥- الإيثار بالله تعالى واليوم الآخر.

وهذا السبب هو الرَّحَى الذي تدور عليه بقية الأسباب، والوسيلة الجامعة التي تحويها، والمَأْرُزُ الذي تعود إليه، فمبدؤها منه ورجوعها إليه، وعلى قدره يكون شعاعها وضياؤها ونفعها وخيرها وتوفيقها وهداها.

ومن أراد ألا تتشعب به الطرق وتكثر عليه السبل فليوحد سبيله من هنا، وليُغذِّ إيمانه بشعب الإيمان علماً وعملاً، وليُطعم بصيرته علوم الوحي العظيم، وليحرّك قلبه وليَقَوِّ عزمه به، وليسّق روحه بخُدائه، وليذق نفسه نفحات اللطيف المنان، فإن له نفحات من ذاقها لم يلتفت لما سواها.

(١) أحمد (٦٤٩٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وصححه الألباني.

٢٧- الزهد في الدنيا.

إن رُمت الإكسير الذي تتحصل به سلامة صدرك حقاً فهو بعد الإيمان بالله تعالى الزهد في الدنيا، فعامّة أحقاد الناس نتاج حبّ الدنيا، ولقاح التهلك على حطامها، والثمرة المسمومة للتكاثر في عاجل غنائها.

فمن رام حب الناس له فليعطهم ولا يأخذ منهم، فهذا سرّ محبتهم. فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ: فقال: يا رسول الله؛ دُلّني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبنى الناس؟ فقال: «ازهد في الدنيا يُحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يُحبّك الناس»^(١).

وإنّ مما يعينك على الزهد في الدنيا معرفة حقيقتها، وكشف نهايتها، فكلّ شيء له نهاية وفناء لا لذة له على الحقيقة. وإنّ كشف قناع فنائها وتقلّبها طريقة نافعة لتسهيل عبورها بالقلب، ومتى عبر القلب وصلت الروح.

وإنّ من أكثر ما يعين على ذلك تذكُّر الموت والبلى، فذكرى الموت تُصعّر كبير الدنيا في عين البصير بها، وتُكبر الصغير من كل عمل يتصل بالآخرة فيعظم في عين الموفق الأواب، وتُضيّق الواسع من أحلام الغافلين، وتوسّع الضيق من آمال الصالحين، وترجع كل صورة في الذهن لمكانها اللائق بها، وتجلو عنها قتام الهوى وغبار الغفلة، وتضيء لبصيرتها عتمة المسير للدار الآخرة، فتسير في بيداء الابتلاء ضحى، والناس في أودية الظلام تائهون. قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُوا

(١) ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم ٤/ ٣١٣. وحسنه النووي في «الأربعين» برقم (٣١). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٢)، والصحيحة: (٩٢٢، ٩٤٤).

ذَكَرَ هَازِمُ اللَّذَّاتِ^(١).

وَمِنْ أَوَّلِ التَّشْبِيهَاتِ فِي ذَلِكَ، قَوْلُ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيِّ مَوْجِزًا حَيَاةَ الْإِنْسَانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحْوَرُّ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

إِنَّ الْمَوْتَ هُوَ مَا يُعْطَى لِلْحَيَاةِ مَعْنَاهَا، وَلِلْأَمَانِيِّ دَافِعُهَا، وَلِلْمَوَاقِفِ وَقُودُهَا، فَالْحَقِيقَةُ أَنَّ تَذَكُّرَ الْمَوْتِ يُوجِدُ دَوَافِعَ أَفْعَالِ الْخَيْرِ وَالْإِنْتِجَاجِ مَا دَامَ الْمَرْءُ يَعْلَمُ أَنَّ بَسَاطَةَ الْحَيَاةِ زَائِلٌ، وَشَمْسُهَا عَنْ قَرِيبٍ غَائِبَةٌ، وَأَجْلُهَا لَا يُعْطَى لِصَاحِبِهِ مِيعَادًا لِلرَّحِيلِ، إِذَنْ؛ فَالْدُنْيَا بِأَسْرَافِهَا لَا تَسْتَحِقُّ غِلًّا لِحِظَةٍ، وَلَا غَضَبَ لِفُظَةٍ، فَضَعُهَا حَيْثُ وَضَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى.

وَالْمَقْصُودُ؛ أَنَّ مِمَّا يُزْهَدُ فِي الدُّنْيَا تَدَبُّرُ سُرْعَةِ زَوَالِهَا، وَتَأَمُّلُ حَتْمِ فَنَائِهَا، وَالتَّفَكُّرُ فِي غَيْرِهَا وَتَقَلُّبَاتِهَا، فَتَكَرُّرُ نَظَرِ الْقَلْبِ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَقْصُرُ أَمْلُكَ فِيهَا، وَيَحْرِّكُ قَلْبَكَ أَنَّكَ عَنْهَا قَرِيبٌ رَاحِلٌ، وَعَنْهَا ظَاعِنٌ، وَإِلَيْهَا وَمِنْهَا وَعَنْهَا مُسَافِرٌ، فَهِيَ دَارُ عُبُورٍ لَا مَرُورٍ، وَتَزُودٌ لَا إِقَامَةَ، وَرَحِيلٌ لَا بَقَاءَ، وَفَنَاءٌ لَا خُلُودَ، وَسَبْحَانِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ الدَّائِمِ الْبَاقِي، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، وَكُلُّ ظِلٍّ قَالِصٌ إِلَّا ظِلَّهُ، وَكُلُّ مُلْكٍ نَاقِصٌ زَائِلٌ إِلَّا مَلِكُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَتَقَدَّسَ.

وَلَقَدْ كَانَ لَضَرَّارُ بْنُ عَمْرٍو الضَّبِّي ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَلَدًا، فَرَأَاهُمْ يَوْمًا وَمَعَهُمْ

(١) الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (١٨٢٣)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وابن حبان بلفظ:

«أَكْثَرُوا ذَكَرَ هَازِمُ اللَّذَّاتِ الْمَوْتَ»، (٢٩٩٢)، وصححه الألباني. والهذم: هو القطع.

أولادهم، فعلم أنهم لم يبلغوا هذا السن إلا مع كبر سنه، وضعف بنيته، واقترب أجله، فقال: «مَنْ سرُّه بنوه ساءته نفسه». فذهبت مثلاً، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وإذا رأيتَ بنيكَ فاعلمْ أنَّهم قطعوا إليك مسافةَ الآجالِ
وَصَلَ البنون إلى محلِّ أبيهم وتجهَّزَ الآباءُ للترَّحالِ

وإني لأتأمل حال شخص أحبه خلف الزنازين، فلما أشفقت عليه تذكرت من كانوا معه في السجون عامة كباراً وصغاراً، فإذا لكلٍّ أحدٍ منهم قصة حزينة، وخبرٌ مُبكِ، وأسى أليم!

ثم تأملتُ حال مَنْ بجوارهم في مستشفى الأمراض الخطيرة، وحالهم فوق الأسرة البيضاء، ولبعضهم أنينٌ وبكاءٌ وزفرات تحت أقوى المسكنات والمهدئات، لشدة ضرب الأمراض المتلفة لأجسادهم الهزيلة، وتهشيم قواهم التي أُمست ضعيفة فوق عظامهم النحيلة، ينشدون راحة ساعة، ونوم ليلة!

ثم نظرت إلى مَنْ بجوارهم في المقابر، فإذا هي مليئة من الناس كباراً وصغاراً، ذكراً وإناثاً، قد استوى لديهم الليل والنهار، وبعضهم مدفون في قعر المظلمة الضيقة من آلاف السنين، ينتظرون نفخة الصور للقيام لرب الأشهداء، قد حُبسوا عن العمل، يعلمون ولا يعملون، إنما هم ينظرون وينتظرون، قريبةً بِقاعهم، بعيدةً حقائقهم، استوفوا آجالهم، واستكملوا أرزاقهم، وانصرفت أعمارهم، فانقطعت أعمارهم، وودَّ أحدهم لو يعود فيستعقب، ويصلح ويعوّض ما فات، ولكن هيهات، فهي أُمّياتٌ حِيلَ بينها وأصحابها! نعوذ بالله من سوء

المنقلب.

ثم تأملتُ الحالَّ الأشدَّ من هذا كله، وهو حال من حُبِسَ عن طاعة الله تعالى، وخُذِلَ عن سُبُلِ مرضاته، وهو لا يزال في دار الامتحان، وميدان التكليف، وزمنِ أداء الأمانة، قد حيل بينه وبين التوفيق للطاعات المُقضية برحمة الله إلى رضوان رب البريّات في أعلى الجنات!

فإذا المسكين حقاً والمغبون صدقاً والمأسوف عليه هو المخذول عن الإيوان بالله تعالى والمسارعة إلى مرضاته، والله المستعان، أما الدنيا فليس على فواتها أسف، وليس فيها ما يستحق التضحية بدرجات الآخرة، ففوائت الآخرة هي التي تستحق، أما الدنيا فكلنا فيها عابرون، وعنّها راحلون، وإلى الله ربّنا راجعون، وكم من مؤمن يموت وحاجته في صدره.

وإنّ مما يساعد على سلامة الصدر والقلب: التفكير في المستقبل بنظرة واحدة سريعة، فاضغط نظرك في المستقبل في لحظات؛ تزهّد فيما سيغبر مما يلحق! ومن ذلك أنّ رجلاً اشتكى من جار له، فقلت له بعد كلام: الزمنُ كفيْلٌ بمداواتك، فهذا الألم سيزول، وستنتقل عنه، إما بصلاح جارك، أو انتقاله، أو وفاته، أو انتقالك، أو وفاتك، أو غير ذلك.. المهم: إنّ كلّ مُرٍّ سيَمُرُّ، فماذا أنت فاعِلٌ إنّ تذكّرتَه بعد أن صار ماضياً غابراً، والله المستعان. وهذه الطريقة نافعة في كل أبواب التعلّق بالدنيا رغباً ورهباً وأمانٍ وأحقاداً، ولا إله إلا الله.

فيا صاحبي: لا تأسِ على فوائت الدنيا، ولا تحزن إلّا على ما يفوتك من أسباب رضوان الله تعالى، وعليك برغائب الآخرة فهي الحيوان، وتأمل ملياً:

لو أَنَّ لَكَ نَفْسَيْنِ، وَهَلَكْتَ أَوْلَاهُمَا، وَرَحَلْتَ لِبَارِئِهَا عَنْكَ، فَسَيَمُرُّ يَوْمٌ وَقَدْ نَسِيَتْهَا أَنْتَ بِنَفْسِكَ الْآخَرَى لِعِمَارَةِ الْحَيَاةِ، وَتَشْعُبُ هُمُومَهَا!

فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ مَعَ نَسْيَانِكَ لِنَفْسِكَ وَلَا بَدْءَ فَكَيْفَ الْحَالُ بِنَسْيَانِ النَّاسِ لَكَ حِينَمَا تَرْحَلُ عَنْهُمْ لِرَبِّكَ؟! فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْبَاقِي.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ذكر جملة من الذنوب بتفريط أكثر الناس: «وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ كَذَلِكَ؛ كَانَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ الْقُبُورِ مَعْذِبِينَ، وَالْفَائِزُ مِنْهُمْ قَلِيلٌ، فَظُوَاهِرُ الْقُبُورِ تُرَابٌ، وَبُؤَاطِنُهَا حَسْرَاتٌ وَعَذَابٌ!

ظُوَاهِرُهَا بِالتُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ الْمَنْقُوشَةِ مَبْنِيَّاتٌ، وَفِي بَاطِنِهَا الدَّوَاهِي وَالْبَلِيَّاتُ، تَغْلِي بِالْحَسْرَاتِ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ بِمَا فِيهَا، وَيَحَقُّ لَهَا وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا وَأَمَانِيهَا.

تَاللَّهِ لَقَدْ وَعَظْتُ فَمَا تَرَكْتُ لَوْاعِظَ مَقَالًا، وَنَادَتْ يَا عُمَارُ الدُّنْيَا لَقَدْ عَمَرْتُمْ دَارًا مَوْشَكَةً بِكُمْ زَوَالًا، وَخَرَبْتُمْ دَارًا أَنْتُمْ مَسْرِعُونَ إِلَيْهَا انْتِقَالًا، عَمَرْتُمْ بُيُوتًا لغيركم مَنَافِعَهَا وَسُكْنَاهَا، وَخَرَبْتُمْ بُيُوتًا لَيْسَ لَكُمْ مَسَاكِينُ سِوَاهَا. هَذِهِ دَارُ الْاِسْتِبَاقِ، وَمُسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ، وَبَذَرُ الزَّرْعِ. وَهَذِهِ مَحَلُّ اللَّعِبِ، رِيَاضُ مِنَ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حَفَرُ مِنَ حَفَرِ النَّارِ!« (١).

وبالجملة؛ أَنْتَ بَيْنَ أَوَانٍ فَاتٍ، وَأَوَانٍ آتٍ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَاسْعِدْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِلَحْظَتِكَ، وَأَقْبَلْ عَلَى عِمَارَةِ الْآخِرَةِ بِهَمَّتِكَ، وَأَحْسِنْ إِلَى نَفْسِكَ

بإحسانك إلى الناس، وما مات من بات الصالحون يدعون له اليوم ربّ البريّات، ويشهدون له يوم العرض بالصالحات، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا مَتَى عَهْدُهَا بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مُذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
أَرَى فِيئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسِّمًا وَأَيَّدِيهِمْ مِنْ فِيئِهِمْ صَفِرَاتِ
قُصَارَايَ مِنْهُمْ أَنْ أُؤُوبَ بِغُصَّةٍ تَرَدَّدَ بَيْنَ الصَّدْرِ وَاللَّهَوَاتِ
كَأَنَّكَ بِالْأَضْلَاعِ قَدْ ضَاقَ رُحْبُهَا لِمَا ضُمْنَتْ مِنْ شِدَّةِ الزَّفَرَاتِ

ويكفي لموت الصالحين جمالاً أنه الباب الوحيد للدخول على الله تعالى ولقائه ورؤيته وجنته، ﴿مَنْ كَانَتْ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. وقال ﷺ: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ» (١).

إذن؛ فالموت ليس فكرة سيئة ولا خاطر سلبي في الأصل، إلا إذا اكتنفه اعتراض أو قنوط أو لمة شيطانٍ ونحو ذلك، وما أكثر مَنْ المَنَانِ وآلاءِ الكريم الرحيم الرحمن، والله اللطيف المستعان.

(١) مسلم (٢٩٣١) وأبو داود (٤٣٢٠) وأحمد (٢٢٧٦٤). و«تَعَلَّمُوا» أي: اعلّموا.

٢٨- التفكر.

التفكر عبادة جليلة تقطع بصاحبها مسافات العمل والزمن، وتختصر له طرق الوصول بسلام للدار الآخرة بإذن ربه الأعلى، وهي من أسباب سلامة الصدر من جهة أنها توسع آفاقه خارج الحياة الدنيا صلة بالآخرة الحيوان. وقد أمرنا الحق تبارك وتعالى في محكم تنزيله بالتفكر والتدبر والتذكر، فالتفكر هو إعمال الفكر لتحصيل مادة معرفية نافعة، وعلى ضوءها يكون التدبر، أي: تلمس طريقة إحسان العواقب، وإحسان تدبير الحال بما معه من العلم، فالعبد بين تفكر وتذكر وتدبر، فيعمل فكره في الأدلة، ويتدبر مآلاتها، ويتذكر متعظاً مستبصراً خيره وهُدهاه.

ولذا فقد أمرنا بالتفكر في النفس والآفاق، أما التدبر فللقرآن العظيم؛ لأن أصول العلم النافع بحذاويرها فيه، فهو مادة جاهزة للتدبر، أي دبر حالك وتأمل مالك على ضوء هدايتك معانيه.

فالقرآن العظيم قد حوى أصول العلم النافع بإطلاق، فمنها ما هو واضح بيّن، وهذا حال معانيه التي يحتاج إليها عامة الناس للقيام بحسن التدين لله تعالى، ومنها معانٍ تحتاجُ إعمال الفكر في معانيها، وهي لأهل العلم بالشرع والفقه في الدين، وعلى قدر توفيق الله تعالى للعبد يكون تحصيل علوم القرآن وثمرتها على القلب والجوارح.

وبالجملة؛ فالتفكر نظرٌ في الدليل حسياً كان أو معنوياً، أما التدبر فهو النظر في العاقبة والمآل. وقد ذكر التدبر في القرآن الكريم أربع مرات لضرورة المؤمن

له، وغاية التدبر الذكري، فهي حياة القلب وصحته وسلامته.

ولقد كان السلف الصالح من أئمة المتفكرين المتدبرين المتذكرين، قال الحسن رحمه الله تعالى: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر ويناطقون القلوبَ حتى نطقت، فإذا لها أسمعُ وأبصارُ»^(١). وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «التفكُّر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصَّل له تذكُّر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إثارُه وما ينبغي اجتنابُه، فالتذكُّر هو مقصود التفكُّر وثمرتُه، فإذا تذكَّر عاد بتذكُّره على تفكُّره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يكرِّر بتفكُّره على تذكُّره وبتذكُّره على تفكُّره ما دام عاقلًا، لأنَّ العلم والإرادة لا يقفان على حدٍّ، بل هو دائما سائرٌ بين العلم والإرادة»^(٢).

ومن التفكر النافع؛ التفكر في تقلُّب الدنيا بأهلها، وعد دوامها على حال، وركوب أهلها طبقًا عن طبق، ففيها أطباق، وهي معبر لأطباق، والله المستعان. ثمانيةٌ تجري على الناس كُلِّهم ولا بد للمرء أن يلقي الثمانية سُرورٌ وحُزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ وعُسْرٌ ويسرٌ ثم سَقَمٌ وعافيةٌ ومن التفكر النافع: التفكر في عبادة الكائنات جميعها ربها تعالى وقنوتها له وسجودها وتسبيحها، فيمتلئ القلب حينها محبة إيمانية للمسكن والسكان،

(١) حلية الأولياء، (١٩/١٠)، وانظر: مدارج السالكين (٤٤١/١).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٦٠٨/٢).

ويعلم أن هذا الكون كله ناطق بحمد ربه، مسبح مقدس قانت لله رب العالمين، خلا عصاة الإنس والجن ممن خذلوا عن موافقة الخليفة عبادة ربها تبارك وتعالى! فقد صحت الأدلة من الكتاب والسنة على تسبيح وسجود وقنوت وطاعة الكائنات لرب البريات تعالى، والتسبيح أخص من السجود الذي بمعنى الخضوع، فهو تنزيه وتعظيم وثناء، وهذا محتاج لإدراك، حتى وإن لم يك تكليف. فإن أريد بالسجود عبادة مخصوصة؛ فالسجود حينها أخص من التسبيح من جهة اشتماله على التسبيح وزيادة. قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَكْثَرُ﴾ [الرعد: ١٥] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَبَّحَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إن التفكير في عبادة الكائنات جمعاء لله تعالى يقتضي تعظيم الله تعالى والثناء عليه بغناه وسعة ملكه وعظمته وملكوته وسلطانه وألوهيته وربوبيته وتديره وعظيم حقه وقدره، وأن كل الكائنات مسبحة بحمده ساجدة له مطيعة مؤمنة.

ومذهب أهل السنة أن كل الجمادات لها إدراك، ومن لوازم الإدراك العقل والعلم، فلها إدراك بحسبها، وشعور خاص بها، وعقل يليق بها. ولا يعني ذلك

أن لها إدراكًا تامًّا كالحیوان المختلفة إدراكاته فيما بينه، كما قال الخلیل علیه السلام: ﴿يَتَأَبَّتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ [مريم: ٤٢].

وتأمل - مُسَدِّدًا - حنين جذع النخل، وتسبيح الطعام بين يدي رسول الله ﷺ ويدي أصحابه، وسلام الحجر عليه بالنبوة، وطاعة الشجر له بانقيادها له، وانضمامها على بعضها بأمره، وعودتها لأول مكانها بأمره، وشهادة العذق له بالرسالة، وهبوط الأحجار من خشية الله تعالى، ومحبة جبل أحد لنا ومحبتنا له، وشهادة الحجر الأسود يوم القيامة لمن استلمه بحق، وعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وإبائهنّ خشية لربهنّ، بل إنهنّ يغضبن حمية لله تعالى فيغضبن لربهنّ حين أشرك المشركون وبغى الجاهلون وألحد السفهاء بوصف الصاحبة والولد له تعالى وتقدس: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ﴾ [مريم: ٩٠]، وكلام الجنة والنار وطلبهنّ وسؤالهنّ ربهنّ تعالى، والجبال والطير يسبحن مع داود بالعشي والإبكار، والرعد يسبح بحمده، والشجر والحجر يشهدان للمؤذن يوم القيامة كما قال ﷺ: «المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس سمعه» (١). والأرض تتحدث بشهادتها يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ٤]، والموحد الحنيف يخاطب القمر شاهداً أن ربهما الله وحده، فيقول عند إهلاله: «اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله» (٢).

(١) أبو داود (٥١٥) وأحمد (٧٦١١) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٤٥١) وصححه الألباني لشواهد في «السلسلة الصحيحة» (١٨١٦).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تُكَلِّمَ السَّبَاعُ الْإِنْسَ، وَحَتَّى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذْبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَتُخْبِرُهُ فَخْذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ». (١).

وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّ الشجر والحجر يتكلم في آخر الزمان، بل وينصح للمسلمين فيخبرهم عَمَّنْ كان يتدرأ بها من يهود خلا الغرقد، وكذا القلم العظيم الذي كُتِبَ به المقادير في اللوح المحفوظ، فإن الله تعالى لما أمره بأن يكتب قال: «ماذا أكتب؟» (٢). فهو يَعْقِلُ الخطاب والأمر والجواب. والسموات والأرض أطاعتا الأمر: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، والعرش الكريم المجيد قد اهتزَّ طرباً لروح سعد بن معاذ رضي الله عنه، والشمس تسجد كل يوم لربها وتستأذنه في الطلوع، وغير ذلك.

والله تعالى قد جعل للحيوان البهيم إدراكاً بحسبه، فما من حيوان ولا جماد إلا يعلم أن محمداً رسول الله خلا عصاة الثقلين، قال ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا عَاصِيَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ» (٣). والذئب

(١) أحمد (١١٨٠٩)، والترمذي (٢١٨١) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٢١٥٥)، وأبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

(٣) الطبراني في (الأحاديث الطوال ٥٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٠٩)

ومسند الدارمي (١٦٩/١) وحسنه حسين أسد.

قد شهد له، والجمل، والغزال، والضب، والقُبْرَة^(١)، وغير ذلك كثير، فلها إدراك وشعور ونطق بحسبها.

وللعلم فثَمَّ عوالم لها قواعد فيزيائية وكيميائية وغيرها داخلية في عالمنا ومخالفة له، بعضها متصل بعالم آخر ليس عالمنا، وبعضها من أصل عالمنا، ولكن لها قواعد كونية مختلفة، كالأرواح والجن والملائكة وغيرها، وقد نعلم بعض أمورها عن طريق إخبار من خلقنا وخلقها، وكل أمر نحتاجه من ذلك فقد ذكره لنا في وحيه تبارك وتعالى، والأمر يسير فهمه والإيمان به على من آمن بالغيب.

بل حتى المعنويات يجعل الله تعالى إذا شاء إرادة ونطقاً وإدراكاً كالرَّحِمِ حينما تعلقت بحَقِّو الرحمن مستعيذة به من القطيعة فأعطاهما طَلْبَتَهَا، ويؤتى بالمت على صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار، ويأتي العمل الصالح مؤنساً لصاحبه في قبره، والسيء كذلك، وتأتي البقرة وآل عمران تتقدمان أصحابهما إلى الجنة، وتظللان أهليهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، والقرآن والصيام يشفعان لصاحبهما يوم القيامة، وغير ذلك أمثلة كثيرة، والمقصود ضرب المثال، وإثارة كوامن التفكير في أفئدة الأحباب، وقدح زناد الفكرة في قلب المؤمن الذكي الزكي.

(١) وهي أنواع، ومنها طير القوبع «القوبعة»، وكذا أم سالم التي اشتهرت بعذوبة صوتها وجمال تغريدها في الصحاري وقت الغدو والآصال، حتى لقبوها: «أميرة الصحراء».

ومسند الدارمي (١/١٦٩) وحسنه حسين أسد.

قال ابن تيمية عن سجود الظلال لله تعالى: «سجوده ذله وخضوعه»^(١). وقال عن سجود الشمس: «فهي تسجد سجوداً يناسبها، وتخضع له، وتخضع»^(٢). وقال عن قوله تعالى: وكذلك قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]: «بكاء كل شيء بحسبه، قد يكون خشية لله، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن»^(٣). وقال: «فإن قيل: الحجر لا يفهم، فكيف يخشى؟ قيل: الله يفهمها ويُلهمها فتخشى بإلهامه». ثم نقل كلام البغوي رحمه الله تعالى مؤيداً مُقرّاً: «مذهب أهل السنة أن الله علماً في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، ولها صلاة وتسبيح وخشية»^(٤).

وتأمل بركة العمل بالعلم ومعرفة عبادات الكائنات لرب البريات تبارك وتعالى، قال عمرو بن دينار رحمه الله تعالى: «إني ليلة أطوف بالبيت إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة، وبكائه وتضرّعه، فوقفت لأعرفه، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يُسفر، فانكشف الستور عنه؛ فإذا هو طاووس، فقال: من هذا، عمرو؟ قلت: نعم، أمتع الله بك، قال: متى وقفت هاهنا؟ قال قلت: منذ طويل، قال: ما أوقفك قلت: سمعت بكاءك، فقال: أعجبك

(١) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل، لابن تيمية ص: (٢٨) ضمن المجلد الأول من جامع الرسائل، ت: د. محمد رشاد سالم.

(٢) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل، لابن تيمية ص: (٣٧).

(٣) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل، لابن تيمية ص: (٤٢).

(٤) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل، لابن تيمية ص: (٤٢).

بكائي؟^(١). قلت: نعم، قال: وطلع القمر في حرف أبي قبيس، قال: ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبيكي من خشية الله، ولا ذنب له، ولا يُسأل عما عمل، ولا يُجازى به فعجبت أن بكيتُ من خشية الله، وأنا صاحب الذنوب، وهذا القمر يبكي من خشية الله، وقرأ ابن زيد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝﴾ [الحج: ١٨].

قال: فلم يستثن من هؤلاء أحداً؛ حتى جاء ابن آدم استثناه فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، قال والذي كان هو أحق بالشكر؛ هو أكفرهم ثم قرأ: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۝ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾ [فاطر: ٢٧: ٢٨]»^(٢). وللقرطبي وابن كثير كلام حسن في ذلك في مواضع آيات تسبيح الجهادات وسجودها.

وبعد؛ فإن من جمال هذه اللحظات التفكرية إحساس العبد باتساقه مع جميع الكائنات في عبادة وتعظيم ومحبة الله تعالى، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين.

(١) أي: هل عجبت منه.

(٢) ذكرها ابن تيمية في رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل. ص: (٣٧).

ومن جميل ما نظمه الشيخ محمد بن أحمد الهادي الكرار في التفكير في شيء
من معاني توحيد الربوبية:

وَأَحَدُ رَبِّ الْكَوْنِ مَعَ كُلِّ رَشْفَةٍ	شَرِبْتُ مِنَ التَّوْحِيدِ كَأَسَا هَنِئَةٍ
فَلَا شَيْءٍ يُعْجِيهِ وَمَا مِنْ مَعُونَةٍ	شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ خَلْقَهُ
وَيَمْلَأُ أَيْدٍ بِالْمَطَالِبِ مُدَّتِ	وَيَرْزُقُ كُلَّ الْخَلْقِ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ
سَحَابًا ثِقَالًا فَوْقَهَا قَدْ أَقَلَّتِ	أَلَيْسَتْ رِيَّاحُ اللَّهِ جَاءَتْ مُثِيرَةً
حُومًا طَرِيَّاتٍ وَأَكْرَمَ حَلِيَةٍ	وَمَنْ سَخَرَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ لِتُخْرِجُوا
تَثَبْتُ هَذَا الْأَرْضِ مِنْ أَيِّ مِيلَةٍ	وَمَنْ ذَا الَّذِي أَلْقَى الْجِبَالَ رَوَاسِيًا
وَمَنْ سَخَرَ النَّجْمَ الْمُضِيَّ بِدُجَّةٍ	وَمَنْ صَيَّرَ اللَّيْلَ الْبَهِيمَ لِبَاسِنَا
تَسِيرُ نِظَامًا دُونَ أَيِّ تَفَلَّتِ	وَمَنْ سَيَّرَ الْأَفْلاكَ أَبَدَعَ خَلْقَهَا
فَقَدْ أَيْقَنْتُ نَفْسِي بِرَبِّي وَقَرَّتِ	وَمَنْ قَدَّرَ الْأَقْدَارَ عِلْمًا وَحِكْمَةً
يَمُنُّ بِعَفْوٍ بَعْدَ حَرِّ الْخَطِيئَةِ	تَوَجَّهْ إِلَى اللَّهِ الْغَفُورِ فَإِنَّهُ

٢٩- طلب العلم الشرعي.

إنَّ من أجمل الأسباب تحصيلًا لسلامة الصدر وأقربها وأحسنها وأطيبها
طلب العلم الشرعي، فالقلب ينفسح والصدر ينشرح بالعلم بالله تعالى
وشرعه، بتدبر القرآن، وجرد السنة، والعكوف على مسائل التفسير والحديث
والفقه، ومطالعة السير، ونحو ذلك.

فالجهل ضيق في العطن، وقصر في أفق الإدراك، وقلة في خيارات العقل، وعدم من تصوّر صحيح العلم، وفراغ من الخير، ومجلبة لكل شر. ومن عرف اغترف، ومن ذاق تاق، ومن جهل شيئاً عابه، والناس أعداء لما جهلوا، ومن عرف ألف، ومن جهل استوحش.

حتى العبادة ذاتها يختلف حال أدائها بين العالم وغيره، بل إن ذات تحصيل الفقه في دين الله تعالى من أعظم القربات له سبحانه، قال مكحول رحمه الله تعالى: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين»^(١). وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»^(٢).

وبما أن سلامة الصدر طريق سالك للجنة؛ فطلب العلم موصّل بإذن الله تعالى، فييسّر الله تعالى لطالب العلم سبل الوصول للجنة كرامة منه لأهل العلم. قال ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ سهّل الله له طريقاً إلى الجنة»^(٣). ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]. بلى وعزة ربي. اللهم علمنا ما ينعمنا، وانعنا بما علمتنا، وزدنا علماً يا عليم يا كريم، يا إله الحق.

(١) مسند الشهاب القضاعي ٢٧/٢

(٢) تاريخ بغداد ٣٥٦/١٣

(٣) مسلم (٢٦٩٩).

٣٠- العمل بالعلم.

رائدُ العلمِ العملُ، وغايةُ التعليمِ التطبيقُ، والعلمُ يُراد منه أمران: حقيقةُ المعرفة، وتصحيحُ العمل.

فالأول: حقيقة المعرفة، وهي: تحصيل العلم الصحيح الذي يُراد لذاته، كالعلم بأركان الإيمان من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله واليوم الآخر والجنة والنار ونحو ذلك، وهو أشرف النوعين، فغايته تحصيله لذاته، فثمرته المعرفة به، فهو علم القلب، ويدخل فيه بالتَّبَع أعمال القلب ومنها سلامة القلب وطهارة الصدر، فحياة القلوب حصراً هي بالعلم الصحيح الموافق للحقيقة الشرعية.

أما النوع الثاني: فهو العلم الذي يُراد منه العمل، كالعلم بتفاصيل الشرع من العبادات والمعاملات والعقود ونحو ذلك. ومن هنا كان هذا النوع من العلم شديد الخطر لمن لا يأخذه بحقّه، فهو يجمع حجج الله تعالى عليه، وإن كان ينفع صاحبه من جهتين:

الأولى: نفعُ الناس بتعليمهم الشرع، مما سيعود عليه بأجرٍ المثل، فضلاً من الله وكرماً.

والثانية: أن نفس العلم بالشرع رفعة عند الله تعالى، فهو نور وبصيرة وفضل وخير، وصاحبه معدود من العلماء الذين وُعدوا بالدرجات العالية في عليين، خلا من نقض علمه وأفسد دينه، عياداً بالله تعالى. ومعيارُ العمل بالعلم الخشية، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٣٨) [فاطر: ٢٨]،

وبرهان الخشية جِدِّيَّة العمل فعلاً وتركاً.

هذا؛ وإنَّ ممَّا يُنبِّه له بشدة: خطورة الزهد في بذل أسباب زيادة الإيمان في القلب، والاكتفاء بتحصيل العلم، للظنَّ أنَّ فيه الكفاية.

وهذا خطأ بليغ وتصوّر منكوس، فهؤلاء اليهود عندهم علمٌ لم ينفعهم عند الله تعالى، حتى إنهم ليعرفون أنَّ رسول الله ﷺ حقٌّ، كما يعرفون ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فلم ينفعهم هذا العلم، ولم يرفعوا به رأساً، فلم يَتَّبِعُوا صَحِيحَ عِلْمِهِمْ، بل رفضوه، ولم يكتفوا برفضه بل بدّلوه، حتى غضب الله عليهم، فهم أمة اللعن والغضب. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

فالعلم نور وهدى وبصيرة، ولكنها مفتقرة لإرادة الخير بالتزام الشرع، وذلك بالإيمان اعتقاداً وقولاً وعملاً.

والمقصود؛ أنَّ حال الإيمان بلا علم؛ كحال أعمى يسير في ظلام طريق متعرّج مخوف مخطر. أما العلم بلا عمل؛ فهو كاللص الخبير في دروب النهب والسرقة واللصوصية والعراقّة في الإجرام، بلا وازع خشية ولا رادع ضمير.

وعليه؛ فلا بد من اجتماع العلم والعمل، وقد هتف العلم بالعمل، فإنَّ أجابه وإلا ارتحل. وأهل ذلك على مراتب، منها ما لا يعذر فيه أحد، كالأصول والفرائض، ومنها ما يكون مكملًا للإيمان مُزَيِّنًا له، فمن العلم ما يكون العلم

به مستحبًا، ومن العمل ما يكون كذلك، وواها لمن جمع الله له علمًا وإيمانًا، كما قال الله تعالى قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦].

إلهي لا تعذبني فإني مُقِرُّ بالذي قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي لعفويك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها عَصَصْتُ أنا ملي وقرعت سني
أجنُّ بزهرة الدنيا جنونا وأقطع طول عمري بالتمني
ولو أني صدقتُ الزهد عنها قَلَبْتُ لأهلها ظَهَرَ المَجَنِّ
يظنّ الناس بي خيرًا وإنّي لَشَرُّ الخلق إن لم تعف عني

٣١- كثرة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخذنا هذا من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فمن صلى الله تعالى عليه أخرجه من ظلمات الطبع، وضيق النفس، ووَخَرِ الصدر؛ لنور الإيمان، وانسراح الصدر، وبرد الثقة، وثلج اليقين.

فإذا شاء الله تعالى توفيق عبده فَسَحَ بَطَانَهُ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَنَقَّى سِرِيرَتَهُ، من سموم الغِلِّ، وَحَرَجَ الحسد، وَوَكَزَ الغِشَّ، وَقَذَارَةَ الأحقاد الدنيوية، فصار قلبه طاهرًا، وصدْرُهُ سليمًا. فصلاةُ الله تعالى على عبده سبب لإخراجه من كلِّ ظلمةٍ وكربةٍ وضيقٍ وضلالٍ إلى الهدى والنور والرشاد والسلامة والعافية،

فكان بالمؤمنين رحيمًا كريماً، ولهم مُحبًّا مُعينًا.

ومن أعظم أسباب صلاة الله تعالى على عبده أن يصلي العبدُ على نبيه ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليَّ صلاةً واحدةً؛ صلى الله عليه عشرًا»^(١)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه عشرَ صلواتٍ، وحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ درَجَاتٍ»^(٢). فالصلاة هدى ونور وخيرٌ من الله كثير.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهبَ رُبْعُ اللَّيْلِ قام فقال: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه». قال أَبِي بْنُ كَعْبٍ فَقُلْتُ: يا رسول الله؛ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قال: «مَا شِئْتَ». قُلْتُ: الرَّبْعُ؟ قال: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النَّصْفُ؟ قال: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قال: «إِذْنُ؛ تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ»^(٣).

والمعنى: أنه يسأل عن مقدار الصلاة على رسول الله ﷺ من جملة دعائه العام ثناء ومسألة، فأنتهى إلى أن أرشده لجعل دعائه كله صلاةً على رسول الله

(١) مسلم (٤٠٨).

(٢) أحمد (١٠٢/٣)، والنسائي (٥٠/٣)، وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢١٢٤٢)، الترمذي (٢٤٥٧) وحسنه الترمذي وابن حجر والألباني والعباد.

قال المنذري رحمه الله تعالى: «معناه: أَكْثَرُ الدُّعَاءِ، فكم أجعل لك من دُعَائِي صلاةً عَلَيْكَ» (١). وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقول السائل: أجعل لك من صلاتي؟ يعني من دعائي؛ فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» (٢). وقالت امرأة: صَلِّ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَلَى زَوْجِي. فقال: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ» (٣).

فيكون مقصود السائل، أي: يا رسول الله، إن لي دعاء أدعوه به، أستجلب به الخير، وأستدفع به الشر، فكم أجعل لك من الدعاء؟ قال: «ما شئت». فلما انتهى إلى قوله: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إِذَا؛» (٤) تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ». وفي الرواية الأخرى: «إِذَا؛ يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ». وهذا غاية ما يدعوه به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات؛ فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب واندفاع المرهوب، كما بُسِطَ ذلك في

(١) تحفة الأحوذى (٦ / ٢٤٩).

(٢) البخاري (١٤٩٧).

(٣) أبو داود (١٥٣٣)، والنسائي (١٠١٨٤) وصححه الألباني.

(٤) يصح أن تكتب بالتثنية: «إِذَا» وبالنون: «إِذْن».

مواضعه» (١).

وسمعتُ شيخنا أبو بكر الجزائري رحمه الله تعالى يقول: «إنَّ لي وردًا راتبًا في الصلاة على رسول الله ﷺ يوميًا، فأنا أصلي كل يوم على رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف مرة، حتى إذا كانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة صليت عليه سبعة آلاف مرة ﷺ». وقد رحل الشيخُ وذهب النَّصَب، ونحسب أنَّ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً قد كُتِب، ولا نزكي على الله أحدًا.

واعلم أنك لو بذلتَ عمرَكَ في الصلاة والسلام على نبينا ﷺ ما أدَّيتَ معشارَ حقِّه صلوات الله وملائكته وصالحى عباده وسلامه وبركاته ونعمائِهِ عليه وآله. فإنَّ كُلَّ خيرٍ نالته أمتُه فهو بفضل الله تعالى الذي حَصَرَهُ عليه، وقَصَرَهُ على طريقه ﷺ، فالغنائمُ أيها النَّائم، وسابقُ أحباب ربك وأحباب نبيك وأحبابك في حسن الاتِّباع له وكثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ. وبحمد الله وفضله وكرمه وإحسانه أن لرسول الله ﷺ مثل أجر كل من عمل صالحًا من أمتِه، اللَّهُمَّ اجمعنا ووالدينا وأحبابنا والمسلمين به في عليين إله الحق. ولقد قالوا: «من ابتعد عن الوسادة؛ اقتربت منه السيادة»، و«طلب الراحة في ترك الراحة»، و«من لَزِمَ الرُّقَادَ؛ حُرِمَ المُرَادَ»، و«من أكثر النوم؛ سبقه القوم»، وما المرءُ إلا حيثُ يجعل نفسه، والموفقُ من وفقه مولاه.

٣٢- التوحيد.

من حَقَّقَ التوحيدَ عَظَّمَ الشهادتين، وَمِنْ تعظيمهما حفظُ حقوقِ أهلهما، وهم أهل الإسلام، فمهما بدر منهم فلهم نصيب من حقِّ الموالاة بحسبِ ما ظهر منهم من شعائر الإسلام، ولحقوق الإسلام من الله طالب، وأيِّ طالب؟! فإذا تذكَّرَ العبدُ تلك المعاني السامية الهائلة؛ هانت نفسه في ذات الله تعالى، فلم يتبع حظَّها الزائل، بل رَغِبَ رضوانَ الله تعالى في مراتبِ عِلِّيِّين، وإذا تفكَّرَ في حاله مع مَنْ أَغَاظَهُ عِلْمَ أَنَّ حُبَّ الدنيا هو دليلُ غيظه، وأنَّ تحقيقَ التوحيد هو حبلُ نجاته وسُلَّمُ رفعتِه في الدنيا والآخرة، وذلك الفوز العظيم.

٣٣- محاسبة النفس.

لا بد للمؤمن من محاسبة نفسه عند تعثرها العارض خلف نزعة قرين، أو نزعة غضب، أو نفخة غيظ، أو لدغة حسد، أو سبيل غير صراط المؤمنين.

وبما أَنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه، فلا بد له من خُلُطَةِ الناس على الدوام، وخلطة الناس مجلبةٌ لأسقام الروح إِلَّا سليمي الصدور. فلا يفتأ المرءُ يسمع ويرى ويُعاني بَلَابِلَ النَّاسِ وَغَرَثُهُمْ وَشَرَّهُمْ وَهَوَشَهُمْ وَإِشْغَالَهُمْ وَأَذَاهُمْ، وهو في ذلك مُحَاسِبٌ على قوله وعمله، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

وأول ما يحاسب المرء من نفسه نيته وقصده، ثم سمعه وبصره وعمله ومقاله، وَمَنْ مَلَكَ لسانه؛ فهو حُرِّيٌّ بملك زمام بقية نفسه، فَإِنَّ من أصعب الأعضاء انقيادًا للسان، ومتى لَانَ لِلْحَقِّ تَبَعْتَهُ - غالبًا - الجوارحُ.

فَإِنْ حَفِظَ المرءُ لسانه وبطنه وفرجه وسمعته وبصره؛ فقد أَمِنَ غوائلَ الخطايا، وغدرات الخطيئات، بإذن الله تعالى ربِّ البريات. وفي «السنن» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ؛ تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ! فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنَّ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّنا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجَنا»^(١). ومعنى «تكفر اللسان» أي: تخضع وتذل له. فتأمل كيف صار اللسان قائداً للأعضاء، فالإنسان هو واجهة القلب والترجمان عنه، والقلب إنما يأمر به وينهى، فمن هنا صار عنه نائباً والأعضاء له تابعة خاضعة. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قَوْلُهُ: «تَكْفُرُ اللِّسَانُ»، قِيلَ: مَعْنَاهُ: تَخَضُّعُ لَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى النَّجَاشِيِّ؛ لَمْ يُكْفَرُوا لَهُ؛ أَيْ: لَمْ يَسْجُدُوا وَلَمْ يَخْضَعُوا، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّهُمْ لَا يُكْفَرُونَ لَكَ». وَإِنَّمَا خَضَعَتْ لِلِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ بَرِيدُ الْقَلْبِ وَتَرْجُمَانُهُ وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَعْضَاءِ. وَقَوْلُهَا: «إِنَّمَا نَحْنُ بِكَ»؛ أَيْ: نَجَاتُنَا بِكَ، وَهَلَاكُنَا بِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّنا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجَنا».»^(٢).

وَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ وَجَدْتَ مُصَدِّقَهُ؛ فَالْإِنْسَانُ يُوَاجِهُ النَّاسَ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ ببقية أعضائه، والناس إنما يحكمون ابتداءً على عقل الرجل ودينه وخلقه وأمانته من لسانه أولاً، ثم يختبرون تصديق عمله لمقوله، وإذا أعجبهم منظر رجل انتظروا كلامه ليعرب عما في جنانه من حكمة

(١) الترمذي (٢٤٠٧) وأحمد (٩٦/٣) وحسنه الألباني.

(٢) الفوائد، لابن القيم (ص: ٥٨).

وعلم أو حُقي وجهل. وعقل الرجل مدفون تحت لسانه، ومقتله بين فكّيه، وربُّ كلمة قدَحَتْ زناد حرب، وأوقدت أوارَ فتنة، وربُّ كلمة أطفأت نارَ مكرٍ، وفتحت باب فرج، وأعلت نزل صاحبها في الجنة، فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يَلْقَى لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» (١).

والعامة تقول: «الكلام حوامل، كلٌّ من يريد استيلادها أولدها» بمعنى: أن كلَّ أحد يأخذ من كلام الآخر معناه الموافق لما في نفسه وإن كان غير مراد للمتكلم، ويقع هذا كثيرًا في العموميات حمّالات الأوجه.

فاحفظ لسانك، وصنّه يصُنْكَ، واعمر به منازلك في عليين، حتى إذا استتمّ البناء انتقل الساكن. واعلم أن اللسان بناءٌ وهدام، و«كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا» (٢). والله المستعان.

وإنّا لنغفل عن حقيقة حديث عظيم مع حفظنا لحروفه، فحريّ بنا الوقوف طويلاً على ساحل معانيه الهائلة، فإنّ نبي الله ﷺ لما أخبر معاذاً رضي الله عنه بأمور عظيمة من شعب الدين ختمها بقوله الحسن الشَّريف: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ

(١) البخاري (٦٤٧٧) وأخرجه الترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ، لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ».

(٢) مسلم (١٢٢٣).

ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بلى يا نبيَّ الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا نبيَّ الله، وَإِنَّا لَمُؤْاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (١).
فحصائدُ الألسن من العظائم المغفول عنها، حتى إذا حَقَّتْ الحقائق كَثُرَ النادمون، ولات حين مندم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ولا إله إلا الله العلي العظيم.

٣٤- مصاحبة طيبي الصدور.

المصاحبة لطبيي القلوب طيب، ولسليمي الصدور سلامة، وللصالحين صلاح، ولأهل العلم علم وحكمة وبركة وهدى ونور، فصاحب سليمي الصدور دون من سواهم من المخلطين قدر طاقتك، فالصاحب لأخلاقه صاحب، والأخلاق لأشكالها نزاعة، وحديث حامل المسك ونافخ الكير لا يخفاك.

وإنك لتجد مصداق ذلك فور خلطتك إياهم، ويحكي أحد الإخوة أنه انتقل للعمل في مدرسة غالب زملائه من أهل السفر والترحال، ولم يكن صاحبنا كذلك، فما هو إلا زمن ليس بالطويل حتى جرى في أمره مجراهم، فبقي سنين على هذا، ثم انتقل لمدرسة فيها طائفة من أهل التجارة في الأسهم، مع انكباب زائد وحرص شديد على تحصيل تجارة الدنيا ولو على حساب الآخرة؛ فتلون بلونهم سنين عددًا، ثم انتقل قبيل تقاعده - بلطف الله تعالى - لمدرسة تميز

(١) الفوائد لابن القيم ٨١/١

موظفوها بالاستقامة والعلم والعبادة والحرص على معالي الأمور والمستبقة لدرجات الآخرة، فتطبعت نفسه بطبعهم، فحفظ قدرًا نافعًا من القرآن الكريم، وواظب على قيام الليل وصيام النوافل والبر والصدقة واستباق الخيرات، فتقاعد من عمله وهو على هذا الحال الطيب.

ومن الناس من كان على حال طيب من عبادة وطلب علم وخير؛ فانتكس وغفل وضلّ سواء السبيل بمصاحبٍ سيئٍ واحد، ذلك أنّ شيطان الإنس أعدى من شيطان الجنّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وبعض الناس فيه تأثر سريع بمخالطيه، وذوبان لا شعوري بمجالسيه، ومنهم من يكون ذلك بطيئًا فيه، بحسب عقله، وحكمته، وثقته بنفسه، وعلمه، وخبرته، وتجاربه، وأولوياته، وطريقة هندسة حياته، وتخطيطه، وعزمه، ونحو ذلك بعد مشيئة الله تعالى توفيقًا أو خذلانًا. ولكن الجميع لا يسلمون من التأثير بالخليط مهما ادّعوا غير ذلك، قلّ ذلك أو كثر، أسرع أم أبطأ، وقل لي من تجالس؛ أقلّ لك من أنت!

٣٥- مطالعة سير سليمي الصدر.

وقد ذكرنا طرفًا صالحًا ونزرة طيبة من ذلك في أعطاف ما مضى من الصفحات، وسترى بإذن الله تعالى مزيدًا مما يُستقبل. وإنّ هذه الوسيلة من الأهمية بمكان؛ فإنّ قراءة وسماع سير الطيبين وعشرتهم عزاءً ودواءً وسرورًا وشفاء، فمطالعة السير هي في المرتبة الثانية تأثيرًا بعد الصحبة، لأنّ الحاكم فيها هو العلم والخيال، لا الحس والخلطة التي هي أسرع تأثيرًا لدى الأكثرين، ومن

الناس من يكون بعكس ذلك بحسب طريقة نظره للناس وأحوالهم وطبيعة نفسه الاجتماعية وتركيبته الفكرية ومزاجه العام.

وإن ههنا سيرة جميلة جليلة كريمة كاملة المواصفات لكل راغبٍ حُسنِ التأسي، ومهما وقف المرء على سيرٍ عظيمة في نفسه فيستحيل على كل الأحياء أن يحركوا في قلبه قدر ما تحرك تلك السيرة.

فهل توجد صحبة يتفوق تأثيرها في التصورات والعمل والسلوك والافتداء على سيرة خير البرية ﷺ؟! اللهم كلا.

ثم من بعده من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأتباع وصالحى المؤمنين. ولكن هذه الصحبة الروحية الذهنية العلمية الخيرية مفتقرة لإيمان ومحبة وعيشٍ بكل خلجات القلب وحفقات الفؤاد مع تلك الشمس السواطع والبدور المنيرة والنجوم اللوامع والكواكب الزواهر. لذا كان ابن المبارك رحمه الله تعالى يُفضل صحبة الكتاب على أصحابه، فإذا سأله قال: «أنا مع محمد ﷺ والصحابة والصالحين»، (١). وصدق، لله أبوه.

وقد كان مشايخنا ينصحون بمجرد سير أعلام النبلاء للحفاظ الذهبي رحمه

(١) قال الذهبي رحمه الله تعالى في السير ٨ / ٣٨٢: «كان ابن المبارك يكثر من الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!». وقال في ٨ / ٣٩٨: «قال شقيق البلخي: قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس».

الله تعالى مرارًا وامثاله من طوال السير الماتعة، لِمَا رَأَوْا من حُسن أثره على أرواحهم وقلوبهم وعلومهم وسلوكهم وعبادتهم، وبالله تعالى التوفيق والسداد.

٣٦- حفظ ما تيسر من آيات وأحاديث الحُض على سلامة الصدر.

إنَّ مادة العلم تبني في القلب مادة الحياة، وهي العلم بالله تعالى ودينه ومراضيه، وحفظ القرآن العظيم والسنة النبوية - مع الإيمان - وبخاصة ما لها تعلّق مباشر بسلامة القلب والصدر لها أثرها النافع المباشر في حياة القلب وإذهاب وَحَر الصدر، فهي تبني في النفس بناءً صالحًا على مرّ الزمان، وقد لا يدركه صاحبه أوّل أوانه، لكن ثمرته محفوظة حافظة بأمر ربها، وكم أسعفت بركة الآيات والأحاديث أصحابها حال حاجتهم لها تحت قصف الغضب وضغط الحسد وشدة الرغبة وهيب الانتقام، فالوحي كلّهُ بركة وخير، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. بلى وعزّتكَ!

والمقصود؛ أن المسلم مطالب بتزكية نفسه والبعد عن موارد الغلّ والحقْد والحسد، وفي كثرة ترداد نصوص الوحي وإمرارها على البصيرة حياة القلب وشفأؤه وغناؤه، والحمد لله رب العالمين.

٣٧- ترك كثرة السؤال فيما لا ينفع.

ومن ذلك ترك تتبع أحوال الناس، وتفصيل حياتهم، وما يتبع ذلك من ملامتهم وعتبهم أو مدّ العين لزهرتهم، وفي ذلك امتثال لتوجيه الحبيب ﷺ إذ

يقول: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١). والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. «أي: لا تنظر إلى أهل الدنيا وما مُتَّعُوا به من النعيم، ومن المراكب، والملابس، والمساكن، وغير ذلك.

فكل هذا زهرة الدنيا، والزهرة آخر مآلها الذبول واليبس والزوال، وهي أسرع أوراق الشجرة ذبولاً وزوالاً، ولهذا قال: زهرة، وهي زهرة حسنة في رونقها وجمالها وريحها - إن كانت ذات ريح - لكنها سريعة الذبول، وهكذا الدنيا، زهرة تذبل سريعاً، نسأل الله أن يجعل لنا حظاً ونصيباً في الآخرة. يقول: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، أي: رزق الله بالطاعة»^(٢).

وبعد طراوة زهرة الدنيا وخضرتها أصبحت هشيمًا تذروها الرياح، وأبدل الزمان بقاءها فناء، وسبحان الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

٣٨- إصلاح القلب، ومراقبة موارده، وملاحظة فساد، ومداومة علاجه.

تقدّم الكلام في إصلاح القلب، وضرورة العناية به، وتنقية موارده، وتصفية مشاربه، والعناية بغذائه، ودوام ملاحظته. ذلك أن القلب هو محل نظر

(١) ابن ماجه (٣٩٧٦) والترمذي (٢٣١٧) وقال: حديث غريب.

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ٤٥/٣

الرب جل جلاله، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١)، والقلب سَيِّدُ الأَعْضَاءِ، وَمُوجَّهٌهَا وَقَائِدُهَا، قال ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).

٣٩- الحزم والقوة مع الرفق في تهذيب النفس.

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ سَلَامَةِ الصَّدْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى: الْقُوَّةُ وَالْحَزْمُ وَالرَّفْقُ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ، وَهَذَا يَسِيرُ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ. فَصَاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ قَوِيٌّ فِي الْخَيْرِ نَاصِحٌ لِلنَّاسِ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «لَا يَكُونُ الْقَلْبُ سَلِيمًا إِذَا كَانَ حَقُودًا حَسُودًا مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا، وَقَدْ شَرَطَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْإِيمَانِ أَنْ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣). وَسُئِلَ ابْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ؟ فَقَالَ: «النَّاصِحُ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ»^(٤).

وَتَأْمَلُ قُوَّةَ وَهْبِ رَحِمِهِ اللَّهُ مَعَ نَفْسِهِ فِي أَطْرَافِهَا عَلَى سَلَامَةِ الصَّدْرِ، قَالَ الْفَضْلُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ وَهْبِ بْنِ مَنْبِهِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «إِنِّي مَرَرْتُ بِفُلَانٍ وَهُوَ يَشْتُمُكَ. فَغَضِبْتُ فَقَالَ: مَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ رَسُولًا غَيْرَكَ؟ فَمَا بَرَحْتُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى جَاءَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الشَّاتِمُ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ وَهَبٌ، فَرَدَّ عَلَيْهِ

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) البخاري (٥٢)، ومسلم (٤١٧٨).

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي ٤٥٩/٣.

(٤) إعراب القرآن، للنحاس ٢٨٩/٣.

ومدّ يده، وصافحه، وأجلسه إلى جنبه» (١).

ولا جرم أن السر في سبق السابقين هو سلامة صدورهم وقوتهم بالله تعالى ضدّ نزغات الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، قال سفيان بن دينار: «قلت لأبي بشير - وكان من أصحاب علي -: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم» (٢).

أما النهاية: فهي غاية الصالحين، قال زيد بن أسلم: دخل على أبي دجانة رضي الله عنه وهو مريض، وكان وجهه يتهلّل، فقيل له: ما لوجهك يتهلّل؟ فقال: «ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما: فكنت لا أتكلّم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً» (٣).

وتدبّر هذه الآيات بقلبك، وحرّك بها فؤادك، وأنر بها بصيرتك، قال تبارك وتعالى في هذا الشأن العظيم مثنياً على أهل الإيمان السالمة صدورهم من غلّ الأحقاد للمؤمنين، فهم عجّاجون لربهم الأعلى يدعونه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وربك تعالى يدعوك لإيثار الآخرة الأبقى والإعراض عن تفاهات النفوس

(١) حلية الأولياء ٧١/٤

(٢) الزهد لهناد بن السري ٦٠٠/٢

(٣) الصمت، ابن أبي الدنيا (١١٣)، والطبقات الكبرى ٥٦٦/٣، ومعنى يتهلّل: أي يستنير فرحاً.

الصغيرة فيقول سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [١٩٩] ﴿[الأعراف: ١٩٩]، ويقول: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ويقول: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَلْيَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤] ويقول: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ويقول مثيباً أهل العفو والصفح والسلامة: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَاتِكُمْ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ويقول: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ويقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فأين جنانك عن سلامته؟! فلا يسلم هناك إلا من سلم هنا، قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٨٩] [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وتدبر - مُسَدِّدًا - العرض العظيم من الرب العظيم لك إذ قال جل وعزّ وتقدس: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

٤٠- السبب الأربعون راجعٌ استخراجه إليك.

فابحث عنه بحث الشحيح عن خاتمه النفيس، فما أفادك في نفسك كتقليب النظر في البحث عن وسيلة صلاحك، وهل أعظم من تحصيل ثمرة سلامة القلب وطهارة الصدر؟! والفائدة إذا حصلت بعد بحث وكد يكون لها لون آخر تمامًا، ولذة نفس مختلفة، وخفقة قلب جميلة، ولمعة عين جذلى، فهي أقرب

فهّمًا، وأحرى تطبيقًا، وأجمل إجمالًا عن فوائد مصفوفة مجهزة مسبقة. وبالله
تعالى التوفيق.



﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾

مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فليحفظها بطاعته، ولينميها بشكره، وليتطلب بركتها بطاعة ربه، ولا يغتر بحلمه وإمهاله، حتى إذا زلت القدم في الخيبة صاح! ولات حين مناص. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ [إبراهيم: ٧-٨].

وَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى سَلَامَةَ قَلْبٍ، وَطَهَارَةَ صَدْرٍ، وَنَقَاءَ فَوَادٍ، وَصَفَاءَ رُوحٍ؛ فليحمد الله تعالى، وليحفظ ذلك الكنز العظيم في صدره من عاديات الليالي ومناورات الأيام، فَإِنَّ الْقَلْبَ مُحْتَاجٌ لِحِرَاسَةٍ عَلَى الدَّوَامِ مِنَ التَّقَلُّبِ عَلَى غَيْرِ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْنَفْسُ تَضَعْفُ وَتَعْجُزُ، وَتَغْفُلُ وَتَعْصِي، وَتَكْسِلُ وَتَفْتَرُ، وَتَتُوبُ وَتَتُوبُ، وَتَصْحَحُ وَتَحْيَا، وَقَدْ لَا تَصْحَحُ تَمَامًا، وَقَدْ لَا تَعُودُ، وَاللَّهُ الْحَافِظُ الْمُسْتَعَانُ.

فَقَدْ يَكُونُ الْقَلْبُ رَهِيئًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ صَحِيحًا، ثَابِتًا أَوْ مُتَقَلِّبًا، وَقَدْ يَكُونُ نَوْبًا قَوِيًّا صَافِيًّا. فَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا كَانَ أَكْثَرُ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دَعَائِهِ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ؛ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا لِأَكْثَرِ دَعَائِكَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ؛ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِي إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ،

فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨]. (١).

فالله تعالى يقلب قلوب العباد بين أصبعيه، فقد يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً! والله تعالى كل يوم هو في شأن، وهو محمود على كل أفعاله. والنبي ﷺ كان يدعو الله تعالى أن يثبت قلبه على الإسلام، وألا يضلّه بعد إذ هداه، فاضرع لربك مقلّب القلوب ومصرفها أن يحفظ لك قلبك تثبيتاً على السلامة والإيمان حتى تلقاه به وهو عنك راضٍ.

وقد يعتلي القلب من خبث الخبيث رسوم، ومن نجس الرجيم رسوم؛ فيسقم ويمرض ويقسو ويعتل! إلا من اتقى الله تعالى. ذلك أن الوسواس الخناس جائم على القلب يوسوس له بخطراته ونفثاته ونفخاته وهمزاته حتى إذا ذكر العبد ربّه تعالى خنس وهرب وتأذى وأنمحق، فإذا غفل العبد عاد ووسوس وأفسد في مدينة القلب ما شاء الله من فساد الدين، ولكن المؤمن الذاكر محفوظ بحفظ الله تعالى. فذكر الله الأكبر العظيم حصن حصين من الشيطان الخناس الرجيم.

هذا؛ وإن الشيطان لم يئأس من التحريش بين عباد الله الرحمن، لعلمه سرعة ميل القلوب للتنافر والبعاد والفرقة حسداً وبغياً وغلاً وخيبة، فعن جابر رضي

(١) الترمذي (٣٥٢٢) وحسنه. وقال الألباني: صحيح. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١ / ٩٨) (٢١٩). ومعاذ: هو معاذ بن معاذ العنبري التميمي البصري، أحد رواة الحديث.

الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١). «أي: يسعى في التحريش؛ أي: في إغراء بعضهم على بعض، وحملهم على الفتن، والحروب، والشحناء، قال القاضي: والتحريش: الإغراء على الشيء بنوع من الخداع، من حَرَشَ الصَّيَادُ الصَّيْدَ: خَدَعَهُ، وله من دقائق الوسواس ما لا يفهمه إلا البُصَرَاءُ بالمعارف الإلهية»^(٢).

فالحازم الموفق هو من تَحَفَّظَ مِنَ الزَّلَلِ، وتمسك بالعروة الوثقى، ودعا ربه على الدوام دعاء الغريق أن يحفظه وأن يكله إليه لا إلى نفسه ولا إلى الناس. وأن يراعي أسباب الثبات وأسباب نقاء الصدر وسلامة القلب وطهر النفس وأن يجاهد نفسه على الدوام حتى تلقى الله راضية مرضية. فهو عَجَّاجٌ لربه ضارِعٌ إليه مُلِحٌ مُلِطٌ بأسمائه الحسنَى عَلَّه يُوقِّقُ لِسَاعَةِ إِجَابَةِ رَبَّانِيَةِ وَعَطَاءِ إلهي؛ فيسعد سعادة أبد الأبد، والله ذو الفضل العظيم.

والمؤمن يحسن الظن بربه، ويسبي الظن بنفسه، باعتدال وتوسط، بلا عُجْبٍ ولا قنوط، بل بمحبة ورجاء وعلم وخشية. قال القرطبي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤] «مبالغة في النهي عنه، لعظم موقعه في الدين، وتردده في معاشرات الناس، أي لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الإيمان بعد المعرفة

(١) مسلم (٢٨١٢).

(٢) فيض القدير ٣٥٦/٢

بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه، لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

فلما توافينا ثَبَّتْ وزَلَّتْ

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زلّت قدمه، كقول

الشاعر:

سَيُمنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إِنْ كُنْتَ سَابِقًا وَتُقْتَلُ إِنْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ^(١).

وبالجملة؛ فاحذر غدرات السيئات، وحوبات الخطيئات، وكُنْ من كلِّ

ذلك على دُكْرٍ، فقد خُطَّ كلُّ شيءٍ في كتاب: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].



طريق السلامة من الحسد وموقف المسلم من حاسديه وشائنيه

لا يسلم أحدٌ من حسدِ الناس له، وما خلا جسدٌ من حسدِه للناس إلا من رحم الله من القليل، فما من أحدٍ إلا والله تعالى عليه نعمٌ، ولكلِّ نعمة حاسدٌ، وكثير من الناس لا يرون أثر النعمة عليهم، فينظرون إلى آلاءِ الله تعالى عليهم بعدساتٍ مُقَعَّرَةٍ، لكنهم يرونها مضاعفةً في غيرهم، فينظرونها هنالك بعدسات مُحَدَّبَةٍ!

فتراهم يزدرون النعمة عليهم، ويعظمونها على غيرهم، شرَّروا أعينهم على عباد الله طائرٌ، وضيق صدورهم حشرًا من آلائه شاهرٌ، إن سلم الناس من أبصارهم لم يسلموا من ألسنتهم، همَّازون لمازون، وبالأذى بين العباد يسIRON، وبعيوب الناس بصIRON، وعن عيوبهم عُمِيٌّ أَصْمُونٌ، لا كَثَرَ الله في العالمين أشباههم، وحفظ صالحِي خلقه من كيدهم وأذاهم، والسعيد من عَشْرَائِهِم هو من كان عن حالهم بمعزل.

فمن ابتلي بخلطَةِ أولئك، واجتماعٍ مع مَنْ هُنالك، فهو في حاجة لدفع ما أقبل من شرِّهم، ورفع ما وقع من كيدهم، ومن لاذ بالله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن استهداه هداه، ومن اعتصم به عصمه وحفظه وتولَّاه. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله تعالى من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه، والله تعالى سميع لا يستعذته عليم بما يستعيز منه، والسمع هنا المراد به سمع

الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله سمع الله لمن حمده.

وقول الخليل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيز ذلك، فإنه يستعيز به من عدو يعلم أن الله تعالى يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيز أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيز ويُقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن الكريم كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف والسجدة.

وجاءت الاستعاذة من شرّ الإنس الذين يؤنسون ويرون بالإبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معيّنة ترى بالبصر.

وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا

وَتَتَّقُوا لِأَيِّضُرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴿[آل عمران: ١٢٠] وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»^(١) فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجهه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوّه، وألا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصر على حاسده وعدوّه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيرهِ وبغيهِ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنّداً وقوة للمبغّي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه.

ولو رأى المبغّي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر؟! وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكاً.

قال شيخ الإسلام: «إذا صبر على الأذى واتقى الله كانت العاقبة له كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَيُضِرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢٦٦٩)، وصححه الألباني.

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ أَلَّيْنِ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى، وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين. وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان، فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له.

فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا، فإن الشيطان موكل بيني آدم، وهو يعرض للجميع ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور، دع ما سواها من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور باجتهاد أو غير اجتهاد.

وقال سبحانه لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥] فأمره بالصبر، وأخبره أن وعد الله حق، وأمره أن يستغفر لذنبه.

ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق وإما من ترك الصبر.

فالمظلوم المحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك

المأمور. وإن كان مجتهدا في معرفة الحق ولم يصبر فليس هذا بوجه الحق مطلقاً، لكن هذا وجه نوع حق فيما أصابه فينبغي أن يصبر عليه وإن كان مقصراً في معرفة الحق. فصارت ثلاثة ذنوب:

أنه لم يجتهد في معرفة الحق، وأنه لم يصبر، وأنه لم يصبر.

وقد يكون مصيباً فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه، ولم يكن مصيباً في معرفة حكم الله في غيره، وذلك بأن يكون قد علم الحق في أصلٍ يختلف فيه بسماع وخبر أو بقياس ونظر أو بمعرفة وبصر، ويظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاص أو فاسق أو كافر، ولا يكون الأمر كذلك، لأن ذلك الغير يكون مجتهداً قد استفرد وسعه ولا يقدر على معرفة الأول لعدم المقتضى ووجود المانع»^(١).

السبب الرابع: التوكل على الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]

والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافية ومن كان الله كافيته وواقية فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشقى به منه. قال بعض السلف: جعل الله

تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

والتوكل من أجل مقامات العارفين وكلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد، وعلى قدر إيمان العبد يكون توكله.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فلم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه فلم يقدر عليه عدوه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر.

وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبَّهها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبَّها، فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما. فإذا جَبَدَ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وألا يخطر به، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به؛ بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل

بعضها بعضًا.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلقاه إلا أصحابُ النفوس الشريفة والهمم العالية، والكيس الفطن بذلك يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، لأنه يرى أن من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوّه وتعلّق روحه به، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق ووعدده صدق وأنه لا أوفى بعهدده من الله ولا أصدق منه قِيلاً، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها. ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس.

السبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته ومرضاته والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيتها، فتدب فيها ديب الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابّ الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحجوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يجعل قلبه معمورًا بالفكر في حاسده والباغي عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه، هذا ما لا يتسع له إلا قلبٌ خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته.

بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرسُ قلبه: إياكَ

وحى الملك! اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها ونزل بها، ما لك وليت السلطان الذي أقام عليه الحرس وأحاطه بالسور.

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠] وقال في حق الصديق: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه، وذلك ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره!

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم،

وَأَسْتَغْفِرُكَ لَمَّا لَا أَعْلَمُ^(١) فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلّط عليه مؤذٍ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلّطك به عليّ.

وليس في الوجود شرٌّ إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عُوِيَ من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأُوذِيَ وتسلّط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبّر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد.

فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كلُّ أحد يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) أبو يعلى (٦٠)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦٢)، وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٣٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦)، وضعفه حسين سليم أسد والأرنؤوط، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٥٩/١) ٧١٦/٥٥٤، وفي صحيح الجامع (٣٧٣١).

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها. والحاسد والعائن لا يفتر ولا يئني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفئ ناره - لا أطفأها الله - فما حرس العبد نعمة الله تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة، وهو بابٌ إلى كفران المنعم.^(١)

(١) قال الصديق د. محمد بسيس السفياي حفظه الله تعالى: «إن ابن القيم متابع لابن تيمية في أن الحسد إنما هو كراهية، وليس تمنّي. وهو ينتقد تعريف الغزالي أن الحسد تمنّي زوال النعمة، ويقرّر أنه كراهية تنعم الغير.

والفرق: أن الحسد عند ابن تيمية أشد؛ لأنه إذا كره فلا يلزم أن يتمنّي زوال النعمة، وحينها يقع في الإثم. بينما عند الغزالي إذا كره لا يَأْثُم حتى تزيد الكراهية لتصل لتمنّي زوال النعمة. والأخلاق بحاجة لبحث فاحص والأبحاث العقدية منشغلة عنها».

قلت: اختيار شيخ الإسلام لحدّ الحسد أظهر وأسد، فمجرد كراهية نعمة الله تعالى على غيره هي حسد محض، أما تمنّي زوالها، فضلاً عن تمنّي انتقالها إليه، فضلاً عن السعي في تحقيق ذلك؛ فهذا كله زيادة في شُعب الحسد، ونزول في دركاته. أما الحد الأدنى الذي

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكرياً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه وإن تأخرت مدة الظفر والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله؛ وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذى وشرّاً وبغيّاً وحسداً ازدادت إليه إحساناً وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]

وتأمل حال النبي الذي حكى عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١) كيف

يستحقُّ صاحبه وصمة وصفه بالحسد فهو مجرد الكراهية القلبية للنعمة على غيره، وتدبر قوله تعالى: ﴿أَمَرُ يُحْسِدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ٥٤﴾ [النساء: ٥٤]. فقد وصفهم بالحسد بمجرد ما في قلوبهم من كراهية النعمة على غيرهم، وبالله التوفيق.

(١) البخاري ٢١٣/٤ (٣٤٧٧)، ومسلم ١٧٩/٥ (١٧٩٢).

جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه: أحدها عفوهم عنهم، والثاني استغفاره لهم، الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهّل هذا على النفس، ويطيّبها إليها، وينعمها به: اعلم أنّ لك ذنباً بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرّك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقاً، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصوّر هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة كما قال النبي للذي شكى إليه قرابته وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال: «لا يزال معك من الله ظهيرٌ ما دمت على ذلك»^(١).

(١) مسلم ٨/٨ (٢٥٥٨) (٢٢).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرياً لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه إقطاعاً ولا شكراً، هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين:

إما أن يملكه بإحسانه فينقاد له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه، وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين بيده الخير كله لا إله غيره وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة؛ ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة منفعة للعبد عاجلة وآجلة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا

على أن ينفعوك؛ لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك؛ لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»^(١) فإذا جرّد العبد التوحيد؛ فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوّه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده»^(٢).

وتأمل شؤم الحسد، فالحاسد يغتاز على من لا ذنب له، ويتّهم الله في حكمته، ويعترض عليه في عطائه، قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: "كلّ الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنّه لا يرضيه إلا زوالها!"^(٣).

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ

هذا وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عشرين سبباً تعين المؤمن على تحصيل سلامة صدره وطهارة قلبه، فقد قال في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوحٌ عَظِيمٌ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥] وَيُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى هَذَا الصَّبْرِ عِدَّةُ أَشْيَاءَ:

(١) الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) بدائع الفوائد (٢ / ٤٦٣ - ٤٦٨) باختصار يسير.

(٣) الإحياء، للغزالي (٣ / ٢٠١).

أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيئته، فالعباد آله، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترخ من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَرُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسيبته ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها، عن ذمهم ولوهمم والوقية فيهم. وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبتهم مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة. قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمة من جواهر الكلام: لا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، ولا يَخَافَنَّ عَبْدٌ إِلَّا ذَنْبَهُ. ورؤي عنه وعن غيره: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة.

الثالث: أن يشهد العبد حُسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولما كان الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: «إِلَّا لِيُقَمَّ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»^(١) فلا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ. وإذا شهدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء، سهَّلَ عليه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسنَ أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونَقَّاه من الغشِّ والغِلِّ وطلب الانتقام وإرادة الشرِّ، وحصلَ له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكِبَاطِمْ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أخذَ منه درهمٌ فعُوَّضَ عليه ألوفاً من الدنانير، فحينئذٍ يفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحاً يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذللاً يجده في نفسه، فإذا عفا أعزه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»^(٢) فالعزَّ الحاصل له بالعفو أحبُّ إليه وأنفع له من العزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عزٌّ في الظاهر، وهو يُورث في الباطن ذللاً، والعفو ذلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطناً وظاهراً.

السادس - وهي من أعظم الفوائد :- أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس وأنس. انظر «الدر المستور» (٣٥٩/٧).

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

وأنه نفسه ظالمٌ مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له. فإذا شهد أن عفوهم عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويُحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوهُ وصبرُهُ، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه، وانتصاره لها، فإن رسول الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدُها من كل خلق مذموم، وأحقها بكل خلق جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تُساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يُوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أُوذي على ما فعله الله، أو على ما أمر به من طاعته ونهي عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أُوذي في الله فأجره على الله.

ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبوا دماؤهم وأموالهم في الله لم

تكن مضمونة، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تَلَفُهُ كان على الله خَلْفُهُ، وإن كان قد أُؤْذِيَ على مصيبة فليَرْجَعْ باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شُغْلٌ عن لومه لمن آذاه، وإن كان قد أُؤْذِيَ على حظٍّ فليُوطِنْ نفسه على الصبر، فإن نيلَ الحُطُوطِ دونه أمرٌ أَمْرٌ من الصبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجِرِ والأمطارِ والثلوجِ ومشقةِ الأسفارِ ولصوصِ الطريقِ، وإلا فلا حاجة له في المتاجر.

وهذا أمر معلوم عند الناس أن مَنْ صدَقَ في طلب شيء من الأشياء بُدِّلَ من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه (١).

العاشر: أن يشهد معيَّةَ الله معه إذا صَبَرَ، ومحبةَ الله له إذا صَبَرَ، ورضاه. ومن كان الله معه دَفَعَ عنه أنواع الأذى والمضرات مالا يدفعه عنه أحدٌ من خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصفُ الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزاءً في نُصرةِ نفسه، فإذا صَبَرَ فقد أحرزَ إيمانه، وصانته من النقص، والله يدفع عن الذين آمنوا.

(١) ومن أمثلة العامة الدارجة: «مَنْ طلب شيئاً حَصَلَهُ». أي: من صدق في تحقيق رغبته فإنه في الغالب يناله بإذن الله، وهذا مُجَرَّبٌ ومشاهد، فكيف إن كانت رغبتك العظمى رضوان الله ودار كرامته! نسأل الله الكريم من فضله.

الثاني عشر: أن يشهد أن صبره حكمٌ منه على نفسه، وقهرٌ لها وغلبةٌ لها، فمتى كانت النفس مقهورةً معه مغلوبةً، لم تطمع في استرقاقه وأسرِهِ وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها، لم تنزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمةٌ من ربه. فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذٍ يظهر سلطان القلب، وتثبت جنوده، ويفرح ويقوى، ويطرُد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصرُه ولا بُدَّ، فالله وكيلٌ من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها. فأين من ناصرُه الله خيرُ الناصرين إلى من ناصرُه نفسه أعجز الناصرين وأضعفه؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه واحتماله له يُوجب رجوعَ خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيدائه له مستحيياً منه نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

الخامس عشر: ربما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شرِّ خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا أمِنَ من هذا الضرر، والعاقِل لا يختارُ أعظمَ الضررين بدفعِ أدناهما.

وكم قد جلب الانتقامُ والمقابلةُ من شرِّ عجزَ صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبَت نفوس ورياسات وأموالٌ لو عفا المظلومُ لبقيت عليه.

السادس عشر: أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر لأبد أن يقع في الظلم، فإن النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علماً ولا إرادة، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلى حد لا يعقل ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم ينتظر النضر والعز، إذ انقلب ظالماً ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر: أن هذه المظلّمة التي ظلمها هي سبب إما لتكفير سيئته، أو رفع درجته، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

الثامن عشر: أن عفوّه وصبره من أكبر الجُود له على خصمه، فإن من صبر وعفا كان صبره وعفوّه مُوجباً لذلّ عدوّه وخوفه وخشيته منه ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله^(١).

ولهذا نجد كثيراً من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يحب أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثِقلاً كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربّح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونّه، وكفى بهذا فضلاً وشرّاً للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولّد له حسنة أخرى،

(١) فللمصائب فوائدها، وللشدائد فوائدها، وتدبير الله تعالى خير كله.

جَزَى اللَّهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ وَإِنْ كَانَتْ تُعَصِّصُنِي بِرِيقِي
وَمَا شُكْرِي لَهَا حَمْدًا وَلَكِنْ عَرَفْتُ بِهَا عَدَوِّي مِنْ صَدِيقِي

وتلك الأخرى تُولَّدُ له أخرى، وهَلُمَّ جَرًّا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإنَّ من ثواب الحسنَةِ الحسنَةِ، كما أنَّ من عقاب السيئة السيئة بعدها.

وربَّما كان هذا سببًا لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك» (١).

يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَإِنِّي لَصَابِرٌ عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَهِيَ فَوَاجِعُ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ مَا قَضَى وَإِنَّا لَمَ أَصْبِرُ فَمَا أَنَا صَانِعٌ؟!

فيا مُحِبِّ: امقت نفسك في الله تعالى، وازجرها بالخوف من غضبه، ثم ارفق بها، واستروح لها سعة رحمة أرحم الراحمين، ثم أرقلها بعظيم الرجاء والزلفى والعطاء لديه تبارك وتعالى، فهو عند ظن عبده به؛ فيظنَّ به ما يشاء، ظنًّا يُصَدِّقه العمل، لا أمانى المفاليس.

والمؤمن عالي الهمة لدرجات الآخرة، ولا يتعلَّق بسفساف الحطام مهما تلوَّن بهرجه، وتكاثر عليه الغافلون، قال عبد الغني المقدسي رحمه الله: «أبلغ ما سأل العبد ربه ثلاثة أشياء: رضوان الله تعالى، والنَّظر إلى وجهه الكريم، والفردوس الأعلى» (٢). نسأل الله الكريم الفردوس الأعلى من الجنة ورضوانه والنظر إلى وجهه الكريم، إنَّه سميع قريب مجيب كريم رحيم ودود.

لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا

(١) جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق عزيز شمس (١ / ١٦٨ - ١٧٤) باختصار.

(٢) ذيل الطبقات (١ / ١٨٧).

والسعيد حقاً هو من رزقه الله صدرًا سليماً وقلباً طاهراً نسأل الله الكريم
من فضله إنه هو البر الرحيم. وصلى الله وسلم وبار على النبي الأمي الخاتم
وعلى آله وصحبه أجمعين.

عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا مَنَنْهَتْ فِي الْيَدِ رِيحُ الْمِغَارِبِ



من أخبار سليمي الصدور

إنَّ سالم الصدر موعود بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وإن أمثلة كرامات الله تعالى لسليمي الصدور من هذه الأمة كثيرة غزيرة، وقد مرَّ معنا في تضاعيف الكتاب شيء من ذلك، كخبر أبي دجانة، وخبر عبد الله بن سلام، وخبر علي، وخبر ابن عباس، وخبر الأنصاري صاحب النعلين الذي تنطف لحيته من وضوئه رضوان الله عليهم أجمعين، وغيرهم كثير في السالفين الأَخيار.

ولقد جرت سنة الله تعالى ببسط ألسنِ الناس ثناء على الراحلين من أهل سلامة الصدر، ومن الناس من يكرمه ربه بتعجيل بشارته بالجنة برسالة على شكل رؤيا صالحة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا يراها العبد الصالح، أو تُرى له»^(١).

والعطر الجميل يفوح من مُحيّا الطيّب، ويَضُوع من أردانه، وينادي على شذا صاحبه، ومن العطور ما لا تشمّها إلا أرواح الصادقين، وواها لمن بشره ربه برضوانه، وأمدّه بتوفيقه واستقامته ونقاء جَنَانِه، وأعانه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

ولقد حدثني الشيخ سعود بن عبد العزيز العبيسي والأستاذ محمد صالح الصائغ وكثير غيرهما قصةً جميلةً عطرة بروية رسول الهدى ﷺ في المنام، وبشارته بالجنة لرجل من غير مقدّمي الناس ومشاهيرهم، وقد انتشرت هذه

(١) مسلم (٤٧٩).

القصة في حياة مَنْ قصّها وهو والذي رحمه الله تعالى، وقد سألته عنها فلم يشأ إثباتها، بل صرف حديثه لغيرها، ولعلّه قد تمنّع تورّعاً من التسميع بحديثه للناس.

وفي آخر أيامه من الدنيا أرسل له الشيخ محمد الفراج الشيخ فهد بن صالح ابن يوسف العبيسي، وكان في مرض موته، وكان في معيّة الشيخ فهد بن صالح جملة من المشايخ، فطلب إلى والذي رحمه الله تعالى طلباً حيث قال: عندي سؤال إن اذنت لي؟ فأذن له. قال: سل عما بدا لك. فسأله عن تلك القصة الذائعة المنسوبة إليه، فقال: أعفني. فألح عليه فأجابه إلى رغبته، وأخبره أن رسول الله ﷺ جاءه في المنام ثلاث مرات يأمره أن يذهب إلى مكة، وتحديدًا حي المعابدة، ولعلّه ذكر ريع ذاخر، وسمّى له رجلاً، وقال: «بشّره بالجنة»!

قال رحمه الله تعالى: فهاتف الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى، فقال: اذهب إليه وبشّره.

فسافر حتى وصل إلى منزل ذلك الرجل بعد السؤال، فطرق الباب فخرج له رجل، وعلى كتفه منشفة، وهيئته لا تدل على تنسك واستقامة ومزيد عبادة، فقال: إن لك عندي بشارة عظيمة، ولكنني أشاركك أن تخبرني عما سأسلك عنه بعدها. فوافق الرجل، فأخبرته، فبكى، وحمد الله تعالى، ومسح دموعه، وشكره، ودعا له. فقال: الشرط الشرط. فتمنّع عليه برهة، فلما ألح عليه قال: إنني سائق أجرة، قد جعل الله تعالى رزقي وعيالي منها، ولي جارة أرملة تعول أيتامًا، فكان من عادتي أن أناصفها دخلي اليومي، وأسأل الله الستر والقبول.

قلت: فتأمل سلامة قلب ذلك الرجل المغمور بين الناس، ولا أزكي على الله أحداً، وكيف رفعته سلامة قلبه، وبرّه، وشدة نصحه، ورحمته، وحرصه على إخفاء عمله، واستمراره قانتاً لله في ذلك؛ حتى بشر بالجنة، وعلى كل حال، فكان دأب السلف: أن الرؤيا تسرُّ المؤمن ولا تغرّه. وكان السلف يحسنون الظن بالله تعالى كلّ الإحسان، ثم يعودون على أنفسهم بالملام حتى لا تطغى ولا تغفل بينا هي لا تزال في دار العمل والامتحان، والعبرة إنما هي بالقبول وبحسن الخواتيم، نسأل الله الكريم من فضله.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء في هذا الباب العاطر الجميل؛ يقول الأستاذ محمد بن صالح الصايغ: كنتُ حاضر المجلس، ومعنا المشايخ شجاع بن ذعار الشريف وإبراهيم الحججي وعمي فايز، وكان والدك عبد الرحمن رحمه الله تعالى يخبرنا بقصة الرجل الذي أمر في المنام أن يبشّره بالجنة في مكة.. إلخ. وكان مما أخبرنا به الشيخ عبد الرحمن أيضاً أن قال: أتاني آتٍ في المنام، فقال: بشر عبيد بن سيف العبيسي بالجنة. قلتُ: وقد ذكروا عنه خصلتين: برّه الشديد بأمّه، فإذا ذُكر البارّون من قومه كان من مُقدّمهم، والثانية: سلامة صدره. وما أطيبهما من خصال الصالحين.

قلت: ومن هذا الباب الجميل أيضاً: قد حدثني قديماً الشيخ المعمر عبد الله بن كايد القريشي السبيعي رحمه الله تعالى - وكان صالحاً ناسكاً عابداً كثير الدعاء - ولا أزكيه على الله تعالى، قال: أتاني النبي ﷺ ثلاث ليال، وأمرني أن أبشر رجلاً في المدينة وسماه، - وأظنه أخبرني بأن سأجده في مسجد النبي ﷺ

- فارتحلت لمدينة النبي ﷺ حتى رأته فبشّرته.

ومن ذلك ما ذكروا عن نورة السويلم، وكانت من سكان قصر ابن عقيل، وكانت تلقّب بـ«سويلمة» وذهبت مرّة مع أناس من جماعتها إلى المدينة النبوية، فصلّت في مسجد الرسول ﷺ ومعها جملة نسوة من جماعتها، فجاء شيخ كبير السنّ بعصاه حتى وقف عليهن، فسألهن: أنتنّ من أهل القصيم، قلن: نعم، فقال: أتعرفن «سويلمة» فأجابته: هي تسمعك الآن، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك، وقد أمرني في المنام أن أبشرك بالجنة، ثم مضى وتركهن. فسألت عن عمل المرأة فقالوا: هي مشهورة بأمرين، قيام وتهجد طويل بالليل، وصدقة سرّ، فقد وسّع الله على بنيتها فكانوا يعطونها الأموال، فكانت تشتري بها أطعمة وملابس ونحوها، وتتعاهد مساكين تذهب إليهم في بيوتهم وتعطيهم نقدًا أو طعامًا ونحوه.

قلت: والحرص على تتبع حاجة الناس وسدّها وإغنائهم إخلاصًا لوجه الله تعالى دليلُ صلاح سريرة، وسلامة صدر، وطيب معدن، وصدق ديانة، والله لا يضيع أجر المحسنين. والأخبار عن السلف والخلف من هذا كثير بحمد الله تعالى - حقيقة بتتبع ما تيسر منها ونشرها لعظيم الفائدة بها - فمن رحمة الله تعالى بمن شاء من عباده أن يكرمهم ببشارات تشدّ أزر قلوبهم على السير في مرضيه حتى يلقونه. وقد روى الطبراني، عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذهبت النبوة فلا نبوة بعدي إلا المبشّرات: الرؤيا

الصالحة، يراها الرجل أو ترى له» (١).

واحذر - أخي في الله تعالى - من صولة العبادة والإعجاب بالنفس،
فالعُجب تلف، ومحبط للعمل، ومحرق لجميل الماضي.

فالحسنات أعظم الذخائر الحقيقية بالحراسة من عدوك الرجيم حتى أوان
عرضها يوم يقوم الأشهاد. وتدبر قول ربك الأعز: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ
إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

فيا من ترى من نفسك صلاحًا: اشكر ربك على هذه النعمة، واسأله المزيد
من فضله منها، وكن على الدوام من التوايين. فالأمر أمره، والمشية مشيئته،
والحكم حكمه، والدين دينه، تبارك وتعالى، فليس لك من الأمر شيء فالأمر
كله لله، والله وحده، وإليه وحده.

قال أحد الصالحين: كنت أقتات عقودًا من عمري على حرف قاله واعظ
الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «لا يعجبني ثناء الناس عليك، فإنما غرهم
جميل ستر الله عليك».

فكلُّ أعلم بغدَراته وفَجَرَاتِهِ وتروكه واجتراره، وأنت بين حسنة لا تعلم
قبولها، وذنب لا تعلم قبول توبتك منه، فعلام العجب بحال كهذا؟!

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مُدح في وجهه يقول: «اللَّهُم لا

(١) المعجم الكبير (٣/ ١٧٩). (٣٠٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٣٨).
وقد مرَّ قريباً حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم.

تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»^(١).
فلئن كان هذا مقول الصديق الأكبر، فما الظنّ بي وبك؟! والله المستعان. وأجملُ
بالأول وبنا قوله:

يظنّ الناس بي خيرًا وإني لَشَرُّ الخلقِ إن لم تعفُ عني

وقال العابد الزاهد محمد بن واسع رحمه الله تعالى: «لو كان للذنوب رائحة
ما استطاع أحد أن يجالسني». فالحمد لله على جميل ستره، ونسأله برد عفوه
ومغفرته ورحمته. وقد قيل في ذلك مما نحن أحق به من العُجب والتألي والإدلال
والغرور:

والله لو علموا قبيح جريرتي لأبى السلام عليّ من يلقاني

والمقصود؛ أنّ على المؤمن إحسان الظن بربه تعالى أولاً، ثم إحسان الظن
بالناس ثانيًا، أما مع نفسه فإنه يحسن سياستها بالشرع، فلا يرفعها رفعًا يغرّها،
ولا يخفضها خفضًا يضرّها، مع ميل إلى أن يسيء الظن فيها شيئًا احتياطًا لها،
بحيث يكون بحكمة واعتدال، فلا يصل للقنوط واليأس والفشل والتوقف،
بل يفرح بفضل الله ورحمته، ويعظم رغبته فيما عنده، ويحسن الظن به، إنها المراد
كسر صولة العجب القاتلة، لا قتل محرّك الإيمان، فما أضيق العيش لولا فسحة

(١) كنز العمال (٣٥٧٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٨/٤، ٤٨٧٦). وذكره
البخاري في الأدب المفرد عن عدي بن أرطاة: كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ إذا
زُكي قال: «اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاعْفُ عَنِّي مَا لَا يَعْلَمُونَ». (٧٦١)، وصححه
الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٨٩).

الأمل.

ولا تُتَبَّعْ قَلْبَكَ مَا يُشَوِّشُ جَمْعِيَّتَكَ عَلَى قَلْبِكَ فِي سَعِيكَ لِدَرَجَاتٍ عَلِيَيْنَ،
وَمَا ضَرَّكَ مَا فَاتَكَ مِنْ حُطَامِ الْفَانِيَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَأْسَ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ، فَالتَّعْلُقُ
بِالدُّنْيَا سَبَبُ هَمٍّ وَغَمٍّ وَغَفْلَةٍ وَضِيَاعٍ، أَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ الدَّارُ الْحَيَوَانُ لَوْ كُنَّا
نَعْقِلُ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ولولا الرجاء بالرضوان وحسن الظن بالرحمن ما عمل العاملون، ولا
اجتهد المشمرون، ولا تسابق المتنافسون، واللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وبِهِ التَّوْفِيقُ، وَعَلَيْهِ
التَّكْلَانُ. وَحَسَنَ الظَّنِّ بِالرَّحْمَنِ مَعِينُ الْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ.

يقولون لي ما بال قلبك واثقاً و حولك أمواج المصائب تعصفُ
فقلت لهم إني اعتصمت بخالقي فمن أي شيء يا تُرى أتحوِّفُ

والحمد لله على التمام، وأسأله سبحانه القبول والستر والغفران، وأن يجعله
عملاً شاهداً شافعاً نافعاً صالحاً مُجَابِّاً، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى دُهِمِ الْمَهَارَى رِحَالُهَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ



ضوء من سنا الياقوتة

إخواني: لقد خاب من باع باقياً بفان، وخطر في ثوبي متوان، وتغافل عن أمر قريب كان، وضع يوماً موجوداً في تأميل ثان، أما الجنة تشوقت لطالبيها، وتزينت لمريديها، ونطقت آيات القرآن بوصف ما فيها، وملأت أسمع العباد أصوات واصفيها؟! كأنكم بالجنة وقد فتحت أبوابها، وتقسمها يوم القيامة أصحابها، وغنت ألسن الأمانى قريب قبابها.

بَشَرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَا غَدًا تَرِينَ الطَّلَحَ وَالْجِبَالَ
يا نفس: بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشققت، وبالأمر وقد تحققت، وبجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت.

يا نفس: أما الورعون فقد جدّوا، وأما الخائفون فد استعدوا، وأما الصالحون فقد راحوا، وأما الواعظون فقد صاحوا.

يا نفس: اتعبي قليلاً تستريحين في الفردوس كثيراً، كأنك بالتعب قد مضى، وبحرصك من اللعب قد مضى، وثمر الصبر قد أثمر حلاوة الرضا، لا يطمعن البطلان في إدراك الأبطال، هيهات أن يدرك البطل المجتهد من غاب حين النزال. العلم لا يحصل إلا بالنصب، والمال لا يجمع إلا بالتعب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولا يلقب بالشجاع إلا بعد تعب طويل.

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلَّهُمُ الْجُودُ يَفْقَرُ وَالْإِقْبَالُ قَتَّالُ

أيها العبد: إن عزمتم فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر، من كان في الصف الآخر.

سَلِّحْ المجد كاسدة، وكأن قد غلت، ومراعى الفضل قريية، وكأن قد علت، وكأنك بغايات الغفلات قد انجلت، فأصبحت حلاوة البطالة من أفواه الغافلين قد رحلت، وأصبحت رايات المجاهدين قد حلت، وتفاوت في السباق مضمار وبطين، كما تفاوت في الإحراق ماء وطن.

لا تَحْسَبِ المجدَ تَمَرًا أَنْتَ آكِلُهُ لا تَبْلُغِ المجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبرَ
فاصبر للبلايا فحينها يسير، وأثبت للرزيا فأجرها كثير، وأحسن قرى ضيف
الهم بالصبر الغزير، وتجلد على الظمأ فبين يديك ماءٌ غيرٌ.

لا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْمَنَايَا إِذَا أَتَتْ	واصبر لما تأتي به الأقدارُ
وَعَدَا الصَّبُورُ يَجُرُّ ذَيْلَ سُرُورِهِ	في جَنَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
فَكَأَنَّ قَدْ انْكَشَفَتْ غَايَاتُ الْبَلَا	وانجابت الآفات والأكدار
وَجَرَى الْجَزُوعُ لِمَا جَنَى ثَمَرَ الْأَسَى	فَجَرَى بِلَا أَجْرَ لَهُ الْمِقْدَارُ
إِنِّي رَأَيْتُ مَعَاشِرًا لَمْ يَفْهَمُوا	مَعْنَى الْوُجُودِ فَأَصْبَحُوا قَدْ حَارُوا
دُنْيَاكَ دَائِرٌ لِلْبَلَايَا مَهَّدَتْ	ووراء ذلك إن عقلت نهار ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ

(١) الياقوتة لابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (١ / ٧٩).

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي
موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

- | | | | |
|------|-------------------------------|------|-------------------------|
| ١ - | مقدمات في أقوال وأعمال القلوب | ١٦ - | الاستغناء بالله تعالى |
| ٢ - | التوحيد والإخلاص | ١٧ - | التعلق بالله تعالى |
| ٣ - | العبودية | ١٨ - | الالتجاء إلى الله تعالى |
| ٤ - | الصدق مع الله تعالى | ١٩ - | الاعتصام بالله تعالى |
| ٥ - | محبة الله تعالى | ٢٠ - | سلامة الصدر |
| ٦ - | الشوق إلى الله تعالى | ٢١ - | العفاف |
| ٧ - | الأُنس بالله تعالى | ٢٢ - | الصبر |
| ٨ - | الإرادة | ٢٣ - | الرّضا بالله تعالى |
| ٩ - | العزم | ٢٤ - | شكر الله تعالى |
| ١٠ - | الرّجاء | ٢٥ - | حمد الله تعالى |
| ١١ - | الرّغبة | ٢٦ - | الفرح بالله تعالى |
| ١٢ - | التّوكّل على الله تعالى | ٢٧ - | |
| ١٣ - | حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى | | |
| ١٤ - | الثقة بالله تعالى | | |
| ١٥ - | الافتقار إلى الله تعالى | | |

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|---|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ. | ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ. |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ. |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة. | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البايبل). |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية. | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان. |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام. | ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليها السلام. |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل. | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب. | |

كتب متنوعة

- ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
- ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر).
- ٣ - لله درك يا كعب.
- ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمري.
- ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية.
- ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
- ٧ - (ويكون الدين كله لله).
- ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
- ٩ - المدهشات.
- ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً.
- ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
- ١٢ - وقد يجمع الله الشيتين.
- ١٣ - دموع على سفح الفؤاد.
- ١٤ - نَظَرَاتٌ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الإنسانية.
- ١٥ - أزمة الفكر المادي.
- ١٦ - السَّلَفِيَّةُ مُحَضُّ الإِسْلَامِ العتيق.
- ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
- ١٨ - رقائق المتقين.
- ١٩ - شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية.
- ٢٠ - شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبية.
- ٢١ - رياضُ الأنسِ. منتخبات نافعة من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميحي رَحْمَةُ اللَّهِ (تحقيق وتعليق).

- ٢٢- دمعُ الغمامِ مِنْ مَحَايِرِ الأَعْلَامِ.
حكم وفوائد ووصايا وقصائد،
جمع الشيخ محمد الدميحي
رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).
٢٣- الحنيفية، مِلَّةُ إبراهيم عليه
السلام
٢٤- مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ.
٢٥- انفساخُ العزائم وانتقاضُ
الدعائم
٢٦- مقدمةُ الحموية.. طلع الصُّباحُ
فأطفؤا القنديلاً.
٢٧- صَبِغُ الفلاسفة (كيف تؤذي
الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة
النفوس).
٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ فِي الْقَدَرِ.
- ٢٩- من هو الماهر بالقرآن الكريم.
٣٠- مباحث فقهية.
٣١- معالم التوحيد والحنيفية في سيرة
خير البرية ﷺ.
٣٢- إرشاد الحفاظ في متشابه الألفاظ
للقرآن الكريم.
٣٣- الإعجاز الرباني في اليهود.
٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ.
٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفات،
(على شرحي الإمامين النووي
وابن حجر للصحيحين).
٣٦- الإقليد.. مفاتيحُ للعلم،
والعبادة، والدعوة، والسلوك.

● ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجَّاناً بصيغة pdf: اكتب في قول: (حمل مجَّاناً مؤلفات

إبراهيم الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. وهذا

باركود التحميل المباشر لها:



رابط التحميل المباشر:

حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميحي، من هنا

الصفء والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة - جوال: 0502543917

لميس الغديري

lameesalghadeery@gmail.com

٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩

الكتاب رقم
(٢١)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

العفاف



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرّبيعي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

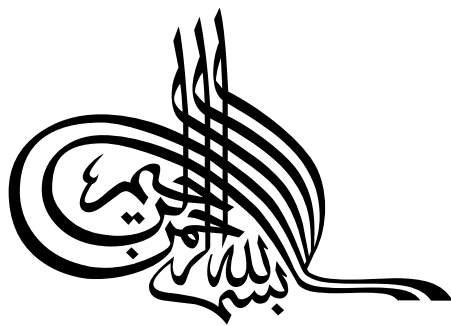
الكتاب رقم (٢١)

العَقَاف

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فَهْرِسْتُ الْمَحْتَوَاتِ

٥.....	مقدمة
٧.....	التعريف
٩.....	أنواع العفة
١٨.....	شروط العفاف
٢٠.....	فضل العفاف وضرورة المؤمن له
٥٢.....	من أعظم العفاف حفظ الفرج
٥٥.....	بم تحفظ الفروج؟
٥٨.....	عفاف الفرج سبيل الجنة
٦٥.....	شناعة فاحشتي الزنا واللواط، وخبثها وشقاء أهلها
٨٢.....	قبح المعصية
٨٨.....	عوائق في طريق العفة
١٠٧.....	الوسائل المعينة على العفة
١٨٧.....	من أخبار أهل العفاف
٢١٦.....	نداءً مشفق من عسكر الأموات!



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله أمر بالعفاف ويسره، وزجر عن الفحش وبشعه، كلُّ شريعته برٌّ وطُهرٌ وخيرٌ، ما قال عاقل قطّ: ليتَه لم يحرم كذا، أو لو أنه أحلّ كذا، أو من الصالح لو أوجب أو شرع كذا. فشريعته تامّة، ودينه كامل، ورحمته وافية، ولطفه واسع، وحكمته لا تحيط بها الأفهام. ولو تأملت أصولَ وأطرافَ شريعته لرأيت أن العفاف يحوطها من سائر جهاتها، فدينُ الله عفافٌ كلّهُ.

إنّ العفافَ تاجُ أخلاق المؤمنين، وشمسُ صفات المتقين، وبرهانُ بُبلِ السَّابِّاقين، وقد أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات العالية، ذلك أنّه لا يكون إلا لشريف النفس، سامي الخلق، عظيم قدرِ النفس، مأمونِ الجوانب الغادرة.

ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّلهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات، لأنهم تساموا بنقاء أرواحهم وحسن تديّنهم عن كلّ ما يشوب ذلك النقاء، أو يُكدر ما هنالك من الصّفاء، أو يُخدش جناب الإيمان.

وإنه خلّق قلبيّ قبل أن يكون ظاهرًا، فالقلب العامر بمحبّة الله تعالى، والحياء منه، وحسن الرجاء فيه، وخشيته وعظيم الخوف منه، وتمام التوكل عليه؛ لا بدّ أن يثمر ذلك صحيح العفاف.

فالعفاف عمل قلب؛ لأنّه حركة القلب للصّلاح والمباح، وكفه وسكونه

وازواره عن المشتبه والحرام، فهو عملٌ من هذه الحثية، وهو كذلك ثمرةٌ من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظهوره في الثمرة أجلى من العمل، وعليه؛ فيصح لنا القول: إنَّ العفافَ عملٌ من أعمال القلب وثمره لَطِيبٌ أقواله وأعماله كذلك.

وبين يديك - أخي في الله تعالى - صفحات في بيان شيء من حقوق هذا العمل القلبي الجميل، من حدّه، وأنواعه، وشروطه، وفضله، وعظيم أجره، وضرورة المؤمنين له، وسبل تحصيله، وعوائقه، وشيء من أخبار أهله، ونحو ذلك مما يلزم بحث هذا الأمر العظيم، سائلاً ربي العظيم المعونة والسداد في الأمر كله، وحسن القصد والقول والعمل والخاتمة، ولله الحمد، وبه التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على خير البرية نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٩ / ٧ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

العين والفاء أصلان صحيحان، أحدهما الكفّ عن القبيح، والآخر دالّ على قلة شيء. فالأول هو العِفَّة: وهي الكف عما لا ينبغي. ورجل عَفٌّ وعفيف^(١).

والاستغفاف: طلب العفاف، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣]؛ أي ليضبط نفسه بمثل الصوم فإنه وجاء، وكذلك في الحديث: «وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفُ اللَّهُ». وقال ابن منظور: «العِفَّة: الكف عما لا يحل ويجمل، والعِفَّة أيضًا: النزاهة»^(٢).

وقال الجاحظ: «هي ضبط النفس عن الشهوات، وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أودّ الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف في جميع الملذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحرس النفس والقوة أقل منه، وهذه الحال هي غاية العفة»^(٣).

قلت: وفي تعريفه تكلف وتشديد، فليس من شرط العفة ترك جميع الملذذات والمشتهيات، إنما حدّها: ترك ما لا يجمل من محرّم ومشتبه

(١) ابن فارس في معجم المقاييس (٦٢١).

(٢) لسان العرب (٤/ ٣٠١٥).

(٣) تهذيب الأخلاق (٢١، ٢٢).

ومستعاب. والله أعلم.

ويقال: «رجل عَفٌّ وعَفِيفٌ، والأنثى بالهاء، وجمع العفيف: أَعْفَاءٌ وأَعْفَاءٌ»^(١).

وقال الجرجاني - رحمه الله تعالى -: «العَفَّة: هي هيئة للقوة الشهويَّة متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطه. فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة»^(٢).

قلت: وكلّ تعاريفهم راجعة إلى كَفِّ النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه يقترب صاحبه من كماله في نفسه ورفعته عند ربه تعالى.



(١) الصحاح (٤/ ١٤٠٥ - ١٤٠٦)، والمفردات (٣٣٩).

(٢) التعريفات (١٥١)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٢٤٣). وانظر: نضرة النعيم (٧/ ٢٨٧٢).

أنواعُ العفّة

العفة أنواع عديدة، وجماعها: الكفّ عن الحرام، والاستيحاش منه، والازورار بعيداً عن ذرائعه. وهي منقسمة على الجوارح، وأصولها ثلاثة:

عَفّةُ الفرج، وعَفّةُ اللسان، وعَفّةُ البطن، والبقية متفرّعة عنها، كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر ونحو ذلك.

قال الماوردي رحمه الله تعالى: «العَفّة والنزاهة والصيانة من شروط المروءة، والعَفّة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كفّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفرج عن الحرام؛ فلأنّ عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل مَعَرَّةٌ فاضحة، وهتكة واضحة.

وأما كفّ اللسان عن الأعراض؛ فلأنّ عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكفّ، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف، وزاجر صاد، تلبّط بمعارّه، وتخبّط بمضارّه.

وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضاً: أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

فأما المجاهرة بالظلم فعتوّ مهلك وطغيان متلف، ويؤول إن استمر إلى فتنة تحيط في الغالب بصاحبها فلا تنكشف إلا وهو مصروع.

وأما الاستسرار بالخيانة فضعة؛ لأنه بذل الخيانة مهين، ولقلة الثقة به مستكين، وقد قيل: من يخن يهن.

هذا ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورًا، ولا ما يبديه من العفة غرورًا، فينتهك الزور وينكشف الغرور، فيكون مع هتكه للتدليس أقبح، ولمعرة الرياء أفصح» (١).

قلت: ويدخل في النوع الثاني العفة عن أكل أموال الناس بالباطل.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «الكمال عزيز والكمال قليل الوجود، وأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمى خُلُقًا، وصورة الباطن تسمى خُلُقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمات واستعمال الأدب، ودليل كمال صورة الباطن حسن الطباع والأخلاق. فالطباع: العفة، والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره.

والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل.

فمن رزق هذه الأشياء رفته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجب النقص» (٢).

وإذا ضبط المرء عفته في أنواع العفة الثلاث: اللسان والبطن والفرج؛ فقد

(١) أدب الدنيا والدين (٣٨٤ - ٣٩٠)، بتصرف عن: نضرة النعيم (٧ / ٢٨٧٤).

(٢) صيد الخاطر (٢٨٩).

انتظمت له سائرُها، وتيسرت له عواقبُها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف. وهي كالتالي:

أولاً: العفة عما في أيدي الناس:

وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً؛ وأتكفل له بالجنة». فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً^(١).

ثانياً: كف اللسان والجوارح عن الأعراض والدماء:

فيجب على المسلم كف لسانه عن أعراض الناس، وألا يقول إلا طيباً. فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٢).

ويتبع اللسان القلم والكتابة، فالقلم هو اللسان الثاني، وهو أشدُّ وقعاً في أحيانٍ كثيرة، وإذا كان اللسان يُسمع وينسى، فمدادُ القلم باقٍ في العادة ما بقي الناس! فَيُشَرِّقُ وَيُغَرِّبُ وَيَطِيرُ طيران الطير في الأرجاء إخباراً وإعلاماً وإنذاراً وتبشيراً وتعليماً، ولربما بقي آلاف السنين يتداوله آلاف البشر، وكم من كتاب

(١) أبو داود (١٦٤٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣).

(٢) البخاري (١٠).

كان أثره أبلغ من ألف خطاب، وكُرب كتاب ناصح أبر من ولد صالح، فمن ههنا كان خطره أعظم!

وإن مما ابتليت به الألسن في هذا الزمان؛ الحكم على الناس على وفق لون الناظر، فيلزم نفسه تصنيف الناس مهما كان حالهم، فلا يسعه ما وسع السلف الصالح من انشغالهم بما خلقوا له، والاكتفاء بإصلاح عيوبهم وما استطاعوا من نصح الناس بالتي هي أحسن. وليس القصد منع نقد الناس، أو سد باب تصحيح مسارات التوجهات، أو وزن الأفراد والجماعات بميزان الشرع الحنيف، كلاً؛ بل لا زال هذا ديدن السلف نصحاء لله تعالى، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وتعاونًا على البر والتقوى.

والناس إذا لم تتواص بالحق؛ غلبهم الباطل، واتبعوا الهوى، وضلوا الهدى، بل على كل قادر عليم أن يبذل وسعه في رد الناس لجادة المرسلين شفقة عليهم من غلبة الشيطان الرجيم وزيفه وفتنه، سواء أكان ضلالهم بسبب شبهة وبدعة، أو بسبب شهوة محرمة، والله لا يضيع أجر المصلحين، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

إنما المقصود؛ التمهّل والتؤدة والتثبت والتبّين، ووضع الأولويات بحسب ترتيب الشرع لا الهوى، وحساب خطر الكلام، قرب كلمة تهدم ديناً وتتركس صاحبها في هويّ الدركات، ورب كلمة ترضي خالقها، وترفع صاحبها إلى عليين.

وفي «السنن» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ؛ تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ! فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنَّ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّنا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجَنا»^(١). قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قوله: «تُكْفِّرُ اللِّسَانَ»، قيل: معناه: تُخَضِّعُ له. وفي الحديث أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى النَّجَاشِيِّ؛ لَمْ يُكْفَرُوا لَهُ؛ أَيْ: لَمْ يَسْجُدُوا وَلَمْ يَخْضَعُوا، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّهُمْ لَا يُكْفَرُونَ لَكَ». وَإِنَّمَا خَضَعَتْ لِلِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ بَرِيدُ الْقَلْبِ وَتَرْجُمَانُهُ وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَعْضَاءِ. وَقَوْلُهَا: «إِنَّمَا نَحْنُ بِكَ»؛ أَيْ: نَجَاتُنَا بِكَ، وَهَلَاكُنَا بِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّنا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجَنا»^(٢).

وتأمل ملياً حديث معاذ رضي الله عنه ووصية رسول الله ﷺ له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَنْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُرَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(٣). فحَصَائِدُ الْأَلْسِنِ مِنَ الْعِظَائِمِ الْمَغْفُولِ عَنْهَا، حَتَّى إِذَا حَقَّتْ الْحَقَائِقُ كَثَرَ النَّادِمُونَ، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

واعلم - رحماني الله تعالى وإيّاك، وسلكننا في الصالحين المصلحين - أَنَّ

(١) الترمذي (٢٤٠٧) وأحمد (٩٦/٣) وحسنه الألباني.

(٢) الترمذي (٢٤٠٧) وأحمد (٩٦/٣) وحسنه الألباني.

(٣) الفوائد لابن القيم ٨١/١

المصلحين أنواع، ومتى استقام القلب واللسان استقام حال صاحبهما بإذن الله تعالى، وسنشير إلى اثنين منهم من جهة الدافع، فمنهم من هو صالح في نفسه، طيب نقي، كما أنه مصلح لغيره، لكنه خامل لا يتحرك إلا بدفع غيره له، ومنهم الصالح المصلح الجاد العزائم المبادر المثابر، فلا تراه إلا مُفكراً فيما يحتاجه الناس، وما يصلح لهم، ويصلحهم، وينفعهم في دينهم ودنياهم. فتراه بقدر وسعه وطاقته على الدوام يسعى لتحويلهم وإعانتهم على تحصيل مصالحهم، وسوق من يستطيع من الصالحين معه، حتى يكونوا كوكبةً صالحةً مُصلحة، وهذا هو الذي يغير في العالم شيئاً إلى الصلاح والبر والهدى والاستقامة والسلامة والبر والسعادة، أكثر الله تعالى في العالمين منهم.

والدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس دين الله من أعظم أبواب الجهاد، والله تعالى يقول في شأن القرآن العظيم: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وتأمل جمال هذا الخبر الرسولي وما فيه من البساطة النبوية والجهد الدعوي والشفقة المصطفوية والحزم المحمدي ﷺ، فعن أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه، قال: قدمنا وفد ثقيف على النبي ﷺ فنزل الأَحلافِيّون على المغيرة بن شعبة، وأنزل المالكيين قُبْتَه. قال: وكان رسول الله ﷺ يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الآخرة حتى يُرَاوَحَ بين قدميه من طول القيام، فكان أكثر ما يُحدثنا اشتكاء قريش؛ يقول: كنّا بمكة مستذللّين مستضعفين. فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم، فكانت سجال الحرب علينا ولنا.

فاحتبس عنا ليلة عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، ثم أتانا، فقلنا: يا

رسول الله احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه. فقال رسول الله ﷺ: «إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فأحببتُ ألا أخرج حتى أقرأه»، أو قال: «أقضيّه».

قال: فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله ﷺ عن أحزاب القرآن كيف تحزّبونه فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل^(١). فتأمل هذا الخبر وما تحته من معاني الجمال والدعوة الحسنى والنبيل العظيم والنصح الكبير. وتأمل هذا القيام الطويل بعد العشاء! فحياته دعوته، ودعوته حياته، وهذا جهد بدنه فما جهد ورثته؟! صلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته والصالحون من عباده عليه وآله.

ويلحق بالعفاف في هذا الباب: الكفّ عن الدماء، والبعد عن أخطار مزالقها، والهرب من وخيم ورطاتها، وعظيم تبعاتها، والازورار عن تخوُّضها بلا برهان شريعة.

ومما يتبع العفاف ههنا أيضًا: لَحْظُ العين، أو حركة اليد، أو غيرُهما بازدراءٍ، أو همز، أو لمز، أو أي أذيةٍ لأيّ كائن - حتى لو كان كافرًا أو بهيمة أو طيرًا - لم يأذن بها الله عز وجل.

(١) مسند أبي داود الطيالسي (١١٠٨)، وأبو داود السجستاني (١٣٩٣)؛ وابن ماجه (١٣٤٥). وحسنه محمد الأمين الهرري في مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه (٢٣٥/٨).

ثالثاً: عفة الفرج عما حرم الله تعالى:

وهي سيّدة العفاف عند الإطلاق، ومتى عَفَّ الفَرْجُ نزل الفَرْجُ، وفتنة بني إسرائيل كانت من ههنا، وقد خاف علينا ﷺ فتنتي المال والنساء، فمن الناس من يكون ضعفه من جهة فرجه، ومنهم من يكون من جهة حب المال، ومنهم من يكون بفتنة حب الخمر، ومنهم من يكون بحب الجاه.. وغير ذلك، والشيطان يشم قلب العبد، فيلججه من أضعف ممراته، خاصة إن لم يك مُحَصَّنًا بإيمانٍ وعلمٍ وذكرٍ. والله المستعان.

وتأمل هذا البيان الرسولي العظيم، والشفقة النبوية الحنون، والنصح المحمدي الكبير، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١). فقد أخبرنا بمصارع من قبلنا، ثم حذرنا سيرهم بين حفرتي المال والفرج، لأنَّ المَالَ سينتهي بمن مشى ممشاهم كما انتهى بهم، إن لم يعتصم بالله تعالى وبدينه العظيم. وصدق الله ومن أصدق من الله حديثاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعفاف الفرج: هو أن يعفَّ فرجه عن المحرمات والفواحش. وقد اشتدت الحاجة في هذا الزمان للتذكير به والتنويه بشأن أهله والتحذير من

(١) مسلم (٧١٢٤).

تدنيسه، والله المستعان.

ويتبع عفاف الفرج عفافُ رُسله كالسمع والبصر والكلام وغيرها. وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَمِ ممّا قال أبو هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِظَّهُ مِنَ الزُّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرَ، وَزَنَا اللِّسَانِ النَّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يَصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ»^(١). وتصديقه بالزنا، وتكذيبه بالعفاف عنه، وسيأتي بسط ذلك إن شاء الله تعالى.



(١) البخاري (١٥٦، ٦٧/٨)، و(مسلم) (٥٢/٨) بنحوه.

شروطُ العفاف

العفافُ شعبةٌ عظيمةٌ من شعب الإيمان، بل هو شطرُ الإيمان، فنصفُ الإيمان هو الكفُّ عما لا يجملُ من المؤمن، والنصفُ الآخرُ فعلُ الجميل، فالجميلُ هو كلُّ ما أحبَّ الله تعالى وأمرَ به، والله جميل يحبُّ الجمال، ومفهومُ الجمالِ واسعٌ في الشرع، وأجلُّ الجمالِ جمالُ حسنِ الأخلاقِ مع الله تعالى بإحسان التدبُّن له. وضدُّه كلُّ ما لا يحبه الله تعالى، وما نهى عنه.

فمعدنُ العفافِ: الكفُّ عن كلِّ ما لم يأذن به الله تعالى. واعلم أنَّ المتعفِّف لا يكون عفيفاً صحيحاً إلا إن كان العقلُ هو الرادعُ عما لا يجمل مع قدرته على تحصيله، أو على محاولة تحصيله، لكن يردعه صدقُ حارسِ النزاهة القلبية. وصحة ذلك وشرط قبوله واستحقاق أجره كرمًا من الله تعالى إنما يكون بإخلاصه لله وجده، لا لغرض دنيا.

وقد ذكروا شرائطَ لصحة العفاف منها: «ألا يكون تعفُّفه عن الشيء انتظاراً لأكثر منه، أو لأنه لا يوافقه، أو لجمود شهوته، أو لاستشعار خوفٍ من عاقبته^(١)، أو لأنه ممنوع من تناوله، أو لأنه غير عارف به لقصوره، فإنَّ ذلك كله ليس بعفة، بل هو إما اضطهاد، أو تطبُّب، أو مرض، أو عجز، أو جهل، وترك ضبط النفس عن الشهوة أذمُّ من تركها عن الغضب، لأنَّ سبع الغضب أشدُّ فتكاً، وأصعب مدافعة من تزيين الشهوة.

(١) أي: في دنياه لا دينه.

فالشهوة مغتالة مخادعة، والغضب مغالب، والمتحيز عن قتال المخادع أردأُ حالاً من المتحيز عن قتال المغالب.

ولهذا قيل: عبدُ الشهوة أذلُّ من عبدِ الرِّقِّ، وأيضاً بالشَّرِّه قد يجهل عييه، فهو شبيه بأهل مدينة لهم سُنَّة رديئة يتعاطونها، وهم يعرفون قبحها، وليس من تعاطى قبيحاً يعرفه كمن يتعاطاه وهو يظنه حسناً»^(١).

وبالجملة؛ فتحقيق العَفَّاف يكون بالحياء الراسخ في القلب من الله عز وجل، وهو ما يثمر على الجوارح ابتعاد المؤمن عن كل ما يחדش كمال عفافه في فرجه وبطنه وماله وقوله وعمله وبصره وسمعه ولمسه وبطشه وخطاه.

أساسُ العَفَّةِ وتَمَامُها:

لا يكون الإنسان تامَّ العفة حتى يكون عفيف اليد والبطن واللسان والسمع والبصر والفرج وما يتبع ذلك.

فمن خوارمها في اللسان: الرفثُ المحرم^(٢)، وقد ساعدت وسائل التواصل الاجتماعي في هذا الزمن على تسهيله ونشر سبله، كذلك السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنازع بالألقاب، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، وظلم اللسان للنفس أو الخلق لا يمكن الإحاطة به ولكن يجمعها إطلاق اللسان في مرتع الحرام.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣١٩) بتصرف وزيادة.

(٢) الرفث: هو الكلام فيما يتعلق بالفروج وشهواتها.

ومما يجرُّ العفة في البصر: مدُّ العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المؤلدة للشهوات الرديئة، ومن منقصاتها في السمع: الإصغاء إلى المسموعات القبيحة. وعماد عفة الجوارح كلها ألا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع، دون الشهوة والهوى^(١).

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في بيان أساس وتام العفة: «وأُسُّها يتعلق: بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية، وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان.

وتامها يتعلق: بحفظ الجوارح، فمن عدم عفة القلب يكون منه التمنيّ وسوء الظنّ، اللذان هما أُسُّ كلِّ رذيلة، لأن من تمنّى ما في يد غيره حسده، وإذا حسده عاداه، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربا قتله.

ومن أساء الظنّ عادى وبغى وتعدّى، ولذلك نهى الله سبحانه عنهما جميعًا فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فأمر فيهما بقطع شجرتين يتفرع عنهما جلُّ الرذائل والمآثم^(٢).



(١) وانظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣١٩).

(٢) الذريعة (٣١٨)، عن نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٧ / ٢٨٧٥) بتصرف وزيادة.

فضل العفاف وضرورة المؤمن له

العتافُ برهانُ التقوى ودليلُ الاستقامة، فالدنيا بأسرها امتحانٌ صبرٍ واختبارٌ صدقٍ، فمن عَفَّ وكَفَّ وصبرَ لله تعالى على الاستقامة، فهو المؤمن حقًا والفاضل صدقًا.

إنَّ العفافَ ضرورةُ الزمان، لأنَّنا نعيشُ زمانًا عاصفًا بكلِّ المقاييس، فأبوابُ الشهواتِ المحرَّمة مُترعةٌ على النفوسِ الغافلةِ بلا حسيب، مُشرعةٌ على القلوبِ الضعيفةِ بلا رقيب؛ إلا من لدنْ علامِ الغيوبِ تبارك وتعالى! فمن لم يكن له من ضميره ضاغطٌ عفافٍ مَكِينٍ؛ أو شكٌّ أن يقع في سراديبٍ وفخاخٍ وشباكِ الشيطانِ الرجيم. وبحمدِ الله العليِّ؛ فمنْ توكلَّ على الله كفاه، ومن عَفَّ بالله والله؛ أعفَّهُ الله!

إنَّ العفافَ قيمةٌ حقيقةٌ بالتأكيدِ على كلِّ نطاقٍ وإلى كلِّ وجهه، فالسبل قد طمَّ حتى أغرق زُبى الآساد، ولقد فُتحتْ على قلوبِ الناسِ شهواتٌ وشبهاتٌ أطاشتْ أحلامَ أولي الألبابِ، وحيرتْ بكيفيَّها وكَمَّها وتنوعها واشتباها أهلَ النَّهى!

بل قد تسلَّطتِ الشهواتُ على الشبهاتِ حتى استبطنتها خُفيةً! فصارتِ الشبهاتُ سُلماً لبلوغِ حظوظِ النفسِ الأمارَةِ بالسوءِ والفحشاء، ففي الأموالِ ضعفٌ وازعٌ الخوفِ من الربا. على سبيلِ المثال. بسببِ اشتباهِ معاملاتِ الحلالِ بالحرامِ، وساعد على ذلك فتاوى لمتفقَّهة التيسير. زعموا. الذين يسوِّغون للناسِ أبوابًا ما كان الشيطانُ يحلم بها في الزمنِ الأول! فابتدعوا للعامة

معاملات تدور هي والربا على رضى واحدة وتصدر من نبع سوء واحد، قد يقترب بعضها حتى يكون رباً صريحاً أو يتأخر قليلاً بحسب حقيقته، لكنه لا يخرج من المشتبه المذموم.

ولا يعني هذا التعميم بحال لا بأوصاف ولا بأشخاص، فثم علماء أهل فضل وورع، وثم معاملات أحدثها الناس لا لبس فيها ولا اشتباه، إنما القصد تنبيه النبيه.

وفي الأنكحة اخترع الشيطان للناس طرقاً قذف زخرفها في قلوب بعضهم فروجوها حتى اشتبه السفاح الذميم بالنكاح الشريف. وحتى لو خالفه في بعض صوره وشروطه لكنه باقٍ في قبيل المشتبهات.

وفي أمور السمع والبصر: وقع الناس في تساهل غريبٍ وتسامح قبيح في شأن حُرمة النظر والسمع في التلفاز، وأيضاً فيما يُسمّى بشبكات التواصل الاجتماعي، فلقد أسقطت منكرات السمع والبصر لدى قلوب بعض أصحاب المبادئ والقيم والإيمان والعفاف كثيراً من حواجز الهيبة والتقوى والورع، فيمرُّ مقطعٌ يحوي معازف في نشرة أخبار أو مناظر جميلة أو غيرها، بل أحياناً في موعظة! وكذا غناءً محرماً، فلا يخفض الصوت، أو صورة امرأة متبرجة ولا يغض بصره عن الحرام، فيبدأ السمُّ الشيطاني والمكر الإبليسي في نخر حصانة القلب من داخله، فيستسيغ المنكر شيئاً فشيئاً، ويقبله ويصاحبه ويواليه بعدما كان عنه بعيداً محارباً مشمئزاً كارهاً قالياً. وكما قيل: كثرة الإمساس تُميت الإحساس، وأعظم من ذلك قولُ ربِّ العزة تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا

خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ [النور: ٢١]. فيبدأ بخطوة لا يُتنبه لخطرها، فيمشي بالعبد في الباطل بعد الخطوة خطواتٍ وأميالاً، ويخوض بقلبه في الغفلة أعواماً وأعواماً، حتى يصيح بحسرة الفوات يوم التغابن، ولقد حذرنا ربُّنا في القرآن أربع مرّات من خُطُوتِ العدوِّ المبين، في البقرة في موضعين وفي الأنعام والنور، أعاذنا الله جميعاً منه. وتأمل الحديث الربّاني في بيان المحجّة القاطعة لكلِّ مُسَوِّفٍ ومُؤَجِّلٍ ولاعبٍ ومُرتاب، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن رَبِّ العِزَّةِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ بِهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا؛ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١).

وتدبّر حال الذين أخذوا أمرهم سهلاً ودينهم لهواً ولعباً؛ فَبَغَتْهُمْ الْحَقُّ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَلَكُمْ حَذَرْنَا رَبُّنَا تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنْ حَالِهِمْ، وَأَنْذَرْنَا مَا لَهُمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَأْنِ أَوْلَئِكَ الْهَلَكِيِّ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]. فالحذر الحذر، والوَحَا الوَحَا! والمقصود؛ أَنَّ العبدَ إذا استمرَّ المشتبه والمكروه؛ سَهَّلَ عليه خوض الحرام

الصريح، ذلك أن ثوبَ الإيمان يتقلّصُ عن المؤمن شيئاً فشيئاً مع كثرة اختلاط المشتبهات ودوران المكروهات وتردد التّزغات في قلبه، فينقص الإيمان حتى لا يطيق مدافعة الباطل ولا مجاهدة الأثّارة! فهناك عقره وكسرّه وخسارّه وخيبته إن لم يتداركه ربّه بلطف منه وعون وغوث ورحمة.

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شُبّه ارتضعت لَبَانِ الشهوات، فصار دين بعضهم شهوة سلطانه بلسان حاله فأشبهوا إمامية الرّفْض وطُرْقية الخرافة.

وفي أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقتار الغفلة ما لا يكاد يُحصى تنظيراً وتطبيقاً؛ لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة جداً في هذا الزمان الشاق، والله لا يخلف الميعاد.

إنّ العفيف سيّد نفسه، غير مستعبَدٍ لهواه وطمعه، بل قد علّق ناصية عبادته على وفق شرع ربّه الأعلى، وكلّمها هبّت على نفسه عواصفُ الشهوات؛ ثَبَّتَ به العفافُ الراسخ في قلبه كالجبل الأشمّ، فيا شيطانَ الرّيحِ قد لاقيتَ إعصارَ الإيمان، فيسمو المؤمن العفيف ببصيرته صُعداً في مراقي الفلاح، يتنسّم وحي ربّه، فيتسنّم سبيلَ رضوانه.

قلْبُهُ العامر بالغِنَى بربه كفاه عفافاً عما سواه، كان في بداية أمره يجاهد نفسه الأثّارة، حتى رَقّاها لتكون لَوّامة، فما زال بها حتى اطمأنت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أنّ الغِنَى - كلّ الغِنَى - في الاستعفاف عما لا يحلّ؛ فكانت من المفلحين. حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلفه من حطامٍ وبهرجٍ وزيفٍ

وخداعٍ وأحاييل، ثم أشاح عن كل ذلك عازماً على لزوم ذلك المنهج النقيّ القويم، وأيّ منهج؟! إنه سبيل الله تعالى وصراطه ودينه ورضوانه.

يقراً قول ربّه الحاضّ على لزوم طريق العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح، وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، فغض البصر يسبقه غض القلب عن خطرات الحرام، فيثمر منه حفظ الفرج وصيانته.

ولقد قال سبحانه آمراً آمراً حاسماً جازماً قاطعاً لكل تسويل باطل وتسويغ ذريعتيه: ﴿وَلَيْسَتَّعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، فعليهم العفاف، ومن الله لهم الغنى.

والفقر ليس بعذر في الخطيئة: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، وقد تكفل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا ﷺ بوعد الله تعالى للمتعففين، وهو الوعد الذي أحقّه على نفسه كرمًا وامتنانًا وهو لا يخلف الميعاد.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتبُ الذي يريدُ الأداء، والناكحُ الذي يريدُ

العَفَاف»^(١). فأين من يشتكي لهيب الشهوة وسعار الغريزة عن هذا الوعد الإلهي والمكرمة الإلهية بالمدد والمعونة؟!

وإن المؤمن الموفق في مسيره لربه تعالى ليتذكر سلفه الأعفّ كالنبي الصديق الذي رمى كل شهوة الدنيا خلف ظهره صارخاً في وجه الهوى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فلله درّه من إمام من أئمة العفيفين، فحينما أحاطته مغريات الشهوة من شباب يافع وجمال وغربة مع مراودة السيدة الجميلة له؛ اعتصم بحصن العفاف العاطر المصون: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤].

حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقاؤه وصدق توحيده؛ فصرف حفرة الغفلة وجحيم الشهوة المحرمة عنه عليه السلام، فشأن أهل الإخلاص ليس كشأن المخلطين، والحمد لله رب العالمين.

لقد كانت العفة محوراً من محاور دعوة النبي العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه، فلقد كان العفاف حاضراً في حياته يفعله قبل قوله، فهو

(١) الترمذي (١٦٥٥) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي (٦ / ٦١)، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (٣ / ٤٣).

من كان العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظلوم، فقد كان هو الصادق الأمين، والأمين هو المستأمن على كل ما يخشى عليه تلف الاستطالة من دم أو عرض أو مال.

لقد كان العفاف من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان الأمر به واضحاً جلياً صريحاً من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هِرْقَل حينما سأله عن أوامر رسول الله ﷺ، ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في شأن كلام هِرْقَل لأبي سفيان ومن معه من رجالات قريش، وفيه: «قال: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة... وسألتك هل قاتلتموه وقتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأنّ حربكم وحربه تكون دُولاً، ويُدال عليكم المرّة، وتداولون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون لها العاقبة. وسألتك بماذا يأمركم؟

فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة... الحديث»^(١).

والعفيف غنيّ بقناعته وطيب نفسه وانشراح صدره، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظُ أمانة، وصدقُ حديث، وحسنُ خَلِيقَةٍ، وعِفَّةٌ في

(١) البخاري، الفتح (٦/ ٢٩٤١) واللفظ له. ومسلم (١٧٧٣).

طعمة» (١).

لقد كان العفيف الأكبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يُعلي قيمة العفاف، ويُثني على الناس بها، إذ كان العفاف من معايير الإيمان لديه، فعن أبي طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرئ قومك السلام، فإنهم ما علمت أعفّة صبر» (٢).

وتأمل حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوصاف أهل الجنة وأهل النار، وكيف كان العفاف ظاهرًا جليًّا معتبرًا ويكأنه الميزان لغيره من الخصال، فحدّث أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا».

وقال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف ذو عيال». قال: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له (٣)، الذين هُم فيكم تبعًا لا يتبعون أهلًا ولا مالا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي

(١) أحمد (١٧٧/٢) (٦٦٦١) واللفظ له، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٣٩/١٠): إسناده

صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٣٠١) (٨٨٦).

(٢) الترمذي (٣٩٠٣) واللفظ له، وقال: حسن غريب. وأحمد (٣/١٥٠)، والحاكم

(٤٨٠) وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) «لا زَبْرَ له»: أي لا عقل له يزره، ويمنعه مما لا ينبغي.

إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك». وذكر البخل أو الكذب. «والشنظير»^(١)
الفحّاش»^(٢).

وحتى عند أعنف أمرٍ وهو القتل، فعفاف المؤمن حاضر هنالك، فلا
يتعدّى ولا يُمَثِّلُ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«أعفُ الناس قتلة: أهل الإيمان»^(٣).

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى: «اللهم إني
أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٤).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «بُرُّوا آبَاءَكُمْ تَبْرُكُكُمْ
أبْنَاؤُكُمْ، وَعَفُّوا تَعَفُّ نَسَاؤُكُمْ»^(٥).

وأهل العفاف موعودون بالجنة؛ فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال:
قال رسول الله ﷺ: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم؛ أضمن لكم الجنة: اصدقوا

(١) الشنظير: السوء الخلق، والذي يقول الكلام المستفحش.

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١ / ٣٩٣) (٣٧٢٧)، وقال شاكر: إسناده
صحيح (٥ / ٢٧٥).

(٤) مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٧٢١).

(٥) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣١٨) وقال: رواه الطبراني بإسناد حسن.
وقال: رواه أيضًا هو وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. عن: «نصرة النعيم (٧ /
٢٨٧٩).

إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتمتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم»^(١).

وتأمل منزلة العفيف عند ربه حيث أكرمه بإظلاله يوم لا ظلّ إلا ظله، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «سبعة يُظْلِمُ اللَّهُ في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله: - ومنهم - رجلٌ دعتَه امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»^(٢).

وهو من أعظم أسباب الغفران فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ما حدثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت. فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأنّ هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة! فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله تعالى، فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إنّ الله قد غفر للكفل. فعجب الناس من ذلك»^(٣).

(١) أحمد (٣٢٣ / ٥) واللفظ له. والحاكم وصححه (٣ / ٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٣٣٩) (١٠٢٩).

(٢) البخاري مع «الفتح» (٣ / ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) واللفظ له.

(٣) الترمذي (٢٤٩٦)، وقال: هذا حديث حسن. وأحمد (٢ / ٢٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح (٦ / ٣٣٤) رقم (٤٧٤٧). والحاكم (٤ / ٢٥٤، ٢٥٥)، وقال:

والعفيف موعود على لسان نبيه ﷺ بالجنة، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»^(١). وأخسر بصفقة من باع جنة عرضها الأرض والسموات بلحظة زلٍ لسانٍ أو فرجٍ.

وانظر كيف مدح فقراء المهاجرين بالعتاف التام، فلا يعلم بحاجة أحدهم أحد حتى يلقي الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي أناس من أمتي يوم القيامة نورهم كضوء الشمس». قلنا: من أولئك يا رسول الله؟ فقال: «فقراء المهاجرين الذين تُتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره، يحشرون من أقطار الأرض»^(٢).

وقال سبحانه مادحاً عباده المتعفين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَاتِلِ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف، أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء، والتعفف: التعلل من العفة، وهي الترك يقال: عَفَّ عن الشيء إذا كف عنه، وتعفف إذا تكلف في الإمساك.

صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ٦٤٧٤).

(٢) أحمد (١٧٧ / ٢)، وقال شاكر: إسناده صحيح (١٠ / ١٣٦).

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ﴾: السَّيِّئُ والسَّيِّمِيَاءُ والسَّيِّئَةُ: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هاهنا، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السُّدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صفرة ألوانهم من الجوع والضر، وقيل: رثاء ثيابهم.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾: قال عطاء: «إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاءً، وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداءً»، وقيل: «معناه: لا يسألون الناس إلحافاً أصلاً لأنه قال: من التعفف، والتعفف ترك السؤال»^(١).

واعلم أن من أعظم أسباب تحصيل العفاف: صدق الدعاء والثقة بالعتاء وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعتاء أحب إليه من المنع، ويفرح إن دُعي وسئل واستُعين واستُغيث واستُنصر واستُغني.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رجلٌ على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرَّحَى فوضعتها، وإلى التنور فسجّرتَه، ثم قالت: اللَّهُم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً!

قال: فرجع الزوج، قال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، مِنْ رَبِّنا. وقام إلى الرَّحَى فرفعها.

فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى يوم

(١) معالم التنزيل للبخاري (١/ ٣٣٨).

القيامة».

وشهدتُ النبي ﷺ وهو يقول: «والله لأن يأتي أحدكم صبيراً^(١) يحمله يبيعه فيستعفف منه، خير له من أن يأتي رجلاً يسأله»^(٢).

(١) للصبير عدة معان، ولعل المراد هنا الجبل، والغرض التهويل من شأن المسألة، والله أعلم. وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١٢ / ٢٧٤).

(٢) أحمد (٥١٣ / ٢) (١٦٦٩). وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٥٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦ / ١٠٥٢)، وقال مقبل الوادعي في الصحيح مما ليس في الصحيحين ٤٤٧/١: «هذا حديث صحيح، رجاله رجال الصحيح».

وعند أحمد أيضاً (٤٢١ / ٢) عن طريق شهر بن حوشب قال: قال أبو هريرة: بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء؛ فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسغبة شديدة، فقال لامرأته: أعندك شيء؟ قالت: نعم؛ أبشر، أذاك رزق الله! فاستحثها فقال: ويحك! ابتغي إن كان عندك شيء، قالت: نعم، هنيئة نرجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه الطوى قال: ويحك! قومي فابتغي إن كان عندك خبز فأتيني به؛ فإني قد بلغت وجهت! فقالت: نعم، الآن ينضج التنور فلا تعجل، فلما إذ سكت عنها ساعة، وتحينت أيضاً أن يقول لها؛ قالت هي من عند نفسها: لو قمت فنظرت إلى تنوري، فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغنم، ورحيها تطحنان!

فقامت إلى الرحي، فنفضتها وأخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم. قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحيها ولم تنفضها؛ لطحتها إلى يوم القيامة» وشهر بن حوشب ضعيف. والمسغبة: الجوع. وقوله: «فاستحثها»؛ أي: طلب منها بسرعة. وقولها: «هنيئة» بالتصغير، أي: اصبر =

والعفاف حاضر حتى في أخذ الحقوق من الغرماء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمَا حَبَّ الْحَقُّ: «خُذْ حَقَّكَ فِي عِفَافٍ وَافٍ، أَوْ غَيْرِ وَافٍ»^(١). أي: مستوفٍ حَقَّكَ كُلَّهُ، أَوْ وَاضِعًا بَعْضَهُ كَرَمًا وَإِحْسَانًا.

وتأمل تعفف صحابة رسول الله ﷺ وتعظيمهم لحدود الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَرَّحْتَنِي^(٢) أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَقَعَدْتُ، فَاسْتَقْبَلَنِي وَقَالَ: «مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ اسْتَعْفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةٌ أَوْ قِيَمَةٌ فَقَدْ

وانتظر قليلاً. «رحيها» تشية الرحي، والمراد الطرفان. وفي الحديث دليل على مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات كرامات الأولياء والصالحين، وعلى استجابة الله تعالى دعاء عباده المؤمنين من حيث لا يحتسبون، وأنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ كَانَ أَفْضَلَ لَدَيْهِ مِنْ حَسَنِ ظَنِّهِ، فَلْيُظَنَّ الْعَبْدَ بِرَبِّهِ مَا شَاءَ مَعَ حَسَنِ الرَّجَاءِ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ.

(١) ابن ماجه (٢٤٢٢)، وقال في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم. ورواه ابن حبان في صحيحه. وذكره الألباني (٥٤ / ٢)، وقال: حسن صحيح. وفي السنن الكبرى للبيهقي مع ذيله (٥٣ / ٦) تفسير ذلك، فإنه لما سئل عنه قال: «مستوف حقه أو تارك بعضه».

(٢) أي بعثتني في الصبح لأسأله من متاع الدنيا بلاغاً.

أَلْحَفَ^(١)، فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله^(٢).

وأكرم بهذه البشارة النبوية للمتعففين؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ»^(٣). فهو يزيد عفافه بتعففه، وفي هذا معنى الاستمرار والمجاهدة لنزغات الشيطان والحراسة للقلب من دغيلة تخدش عفافه.

فتأمل كيف وصفه بالعتاف والتعفف، ذلك أَنَّ النفس مهما كانت سامية عن الدنيا فإنه لا يزال يعرض لها ما يكاد يصرفها عن استقامتها، فكان العبد في حاجة دائمة للمجاهدة بالتعفف.

وفيه أيضًا إشارة إلى البحث عن المتعففين وسدّ خلّتهم، أما السائل فلن يُعَدَمَ صدقة الناس، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي تَرَدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَلَا اللَّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ. اقْرَؤْ إِنْ

(١) ألحف في السؤال: أي ألح وأسرف من غير حاجة، وفي التنزيل: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٢) النسائي (٩٨ / ٥) واللفظ له، وقال الألباني: حسن صحيح (٥٤٩ / ٢) (٢٤٣٢). وأبو داود (١٦٢٨).

(٣) الترمذي (١٦٤٢)، وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٤٢٥ / ٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٣٧ / ١٨).

شئتم: يعني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]»^(١).

وكان يحضُّ على العفاف حتى لمن كان محتاجاً، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ. حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا عِنْدَهُ. قَالَ: «مَا يَكُنُّ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ يُعْطِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(٢).

قال ابن عبد البر: «فيه الحِصْصُ على التعفُّف والاستغناء بالله عن عباده، والتَّصَبُّر، وأنَّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان، وفي هذا كَلَّةٌ نهى عن السؤال، وأمرٌ بالقناعة والصبر»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفُّف عن المسألة: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفَقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ»^(٤).

وتأمل كيف صيَّرَ اللهُ الكريمُ سبحانه النفقة على النفس - وهي شهوة نفسانية جسدية - صدقةً شرط نية الاستعفاف، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ نَفَقَةً يَسْتَعْفُ بِهَا فَهِيَ صَدَقَةٌ، وَمَنْ أَنْفَقَ

(١) البخاري مع «الفتح» (٤٥٣٩ / ٨) واللفظ له. ومسلم (١٠٣٩).

(٢) البخاري مع «الفتح» (١٤٦٩ / ٣). ومسلم (١٠٥٣) واللفظ له.

(٣) التمهيد (١٠ / ١٣٣).

(٤) البخاري مع «الفتح» (١٤٢٩ / ٣)، ومسلم (١٠٣٣) واللفظ له.

على امرأته وولده وأهل بيته فهي صدقة»^(١).

وبالجملة؛ فالعفاف خُلِقَ يسمو بالنفس جدًّا، ويرفعها، وينزّهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدّ للعفيف من قناعة تُبْرِدُ لَوَاعِجَ حاجته، وتُشَبِّعُ نَهْمَةَ فَاقَتِهِ. والله أبي الحسن النعماني إذ يقول:

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكْفُ اللَّئَامِ كَفَتْكَ الْقَنَاعَةُ شَبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا
أَبِيًّا لِنَائِلِ ذِي ثَرَوَةٍ تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَبِيًّا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا^(٢)

هذا ويتأكد العفاف جدًّا - بمعناه العام - في أزمنة المجاعات أو الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل ويستطيل البشر في الدماء والأموال والأعراض، وهو حديث عزيز جدًّا حريّ بنشره وإشهاره، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال: «يا أبا ذر، أرايت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «تعفّف».

قال: «يا أبا ذر، أرايت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد - يعني القبر - كيف تصنع؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر».

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن (٣) /

(٦٢). عن: «نصرة النعيم (٧ / ٢٨٨١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٤٧).

قال: «يا أباذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت^(١) كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك».

قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأنت من أنت منهم^(٢) فكن فيهم». قال: فأخذ سلاحه؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف^(٣) فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك^(٤)».

إذن فمن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

(١) حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة سمي بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنها طليت بالزيت، والمراد: أن الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد من الدماء.

(٢) أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.

(٣) أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقا تل فغطّ وجهك حتى يقتلك فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاص في أزمنة الفتن أما في غيرها فالدافعة هي السنة لما رواه مسلم (٨٧/١) (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار».

(٤) أبو داود (٤٢٦١)، وصححه الألباني (٨٠٣/٣)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، والحاكم (٤٢٤/٤)، وأحمد (١٤٩/٥)، (١٦٣) واللفظ له.

وهاتك لفتة عظيمة جميلة في شأن العفاف، وهي أن المرء في سيره لإعفاف نفسه ومن يعول، فهو مكتوب من أهل سبيل الله تعالى، فعن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه.

فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟^(١) فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده^(٢) صغاراً^(٣) فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل

(١) قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله تعالى، وضنَّهم بأشدَّاء الرجال إلا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعزُّوا بها دين الله ربَّ العالمين، فأرشدهم ﷺ بلطفه المعهود إلى أنَّ فضل الله تعالى واسع، وأن سبيله يشمل من كان ساعياً في شأن عفافه وعفاف عياله، فمفهوم سبيل الله تعالى واسع في الشرع الطهور.

(٢) الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

(٣) يتبع الصغار من كان في حكمهم لمرضه أو إعاقته ونحو ذلك، وخصهم بالذكر إخراجاً للأقوياء من الأولاد، حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

الشيطان (١) (٢).

هذا؛ وإنَّ العفافَ الخالصَ لله عز وجل هو من أكبر أسباب كشف الكربات بإذن الله تعالى، فتعرّف إلى الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة.

وتأمل حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، قال أحدهم بإخلاص: «اللهم إنه كانت لي ابنة عمّ، أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها. فأبت حتى آتيتها بمئة دينار. فتعبت حتى جمعت مئة دينار، فجئت بها، فلما وقعت بين رجلها، قالت: يا عبد الله، اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه. فقممت عنها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرّج لهم ..» الحديث (٣).

والعفاف سبب للنجاة غداً برحمة الله تعالى، وبخاصة في زمننا الشديد، زمن الشهوات المحرمة التي تيسرت أسبابها، وتنادى إليها بالهلاك خطّابها، فعن معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عَيْنٌ حَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ كَفَّتْ عَنِ

(١) فالاعتبار إنما هو بالنيات. ورُبَّ نية سبقت عملاً، وكم من عمل صغير عظّمت النية، وكبّره القصد.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩ / ١٢٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣ / ٦٣).

(٣) البخاري مع «الفتح» (٦ / ٣٤٦٥). ومسلم (٢٧٤٣) واللفظ له.

محارم الله» (١).

وعفاف الوجه من كرامة نفس صاحبه، فالمؤمن عزيز النفس شريف القدر مهما عضته أنياب الحاجات، ولكن ليُعلم أن قبول العطية التي لا مدخل منها لمذلة ولا تعلق للنفس بها لا حرج منها، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني. حتى أعطاني مرة مالا. فقلت: أعطه أفقر إليه مني. فقال رسول الله ﷺ: «خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف، ولا سائل فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك» (٢). والمُشْرِفُ: هو المتطلع المتشوّف للعطية، إنما المؤمن يأخذها بسماحة، وطيب خاطر، لا بحرص، ولا هلع، ولا جزع.

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «إن هذا المال خَصْرَةٌ حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس (٣) لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» (٤).

-
- (١) ذكره الدميّاطي في المتجر الرابع (١٨٨٧) وقال: رواه الطبراني ولا بأس بإسناده إن شاء الله. وصححه الذهبي في التلخيص، والألباني في الصحيحة (٢٦٧٣).
- (٢) البخاري مع «الفتح» (١٣ / ٧١٦٤). ومسلم (١٠٤٥) واللفظ له.
- (٣) بإشراف نفس: أي بتطلع وطمع فيه.
- (٤) البخاري مع «الفتح» (٣ / ١٤٧٢). مسلم (١٠٣٥) واللفظ له. وفيه عند الطبراني: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله». وقال الهيثمي في المجمع: رواه

هذا وعفيف البطن موعود بالفلاح، ولفظ الفلاح هو أشمل لفظٍ لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنَّه الله بما آتاه»^(١).

فيسرُّ العفاف إذن هو القناعة!

والعفاف عن سؤال الناس تكثراً وسيلةً للسلامة من العذاب غداً بإذن الله، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى. جَلَسَ^(٢) نلبسُ بعضه، ونبسط بعضه، وَقَعَبُ^(٣) نشرب فيه من الماء. قال: «ائتني بهما». فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «من يشتري هذين؟» قال رجل: أنا أخذهما بدرهم، قال: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً»^(٤).

الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٩٨ / ٣).

(١) مسلم (١٠٥٤).

(٢) كساء غليظ يكون على ظهر البعير تحت القَتَبِ، وسمي به غيره مما يُداس ويمتن من الأكسية ونحوها.

(٣) أي: قدح.

(٤) وتأمل جدية التربية النبوية.

فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وبيعها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدَقِّع، أو لذي غُرمٍ مُفْطِئٍ، أو لذي دَمٍ مُوجِعٍ»^(١).

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمع فإنَّ ذلك نقصٌ منك في الدين
لن يقدرَ العبدُ أن يعطيكَ خردلةً إلا بإذنِ الذي سواك من طين
فلا تصاحبْ غنياً تستعزُّ به وكن عفيفاً وعظماً حرمة الدين
واسترزقِ اللهَ ممَّا في خزائنه فإنَّ رزقك بين الكاف والنون^(٢)

إنَّ العفاف كمال ومروءة وجمال، قال محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى: «الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة»^(٣). وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لأصحابه وقد خرجوا يوم

(١) أبو داود (١٦٤١) واللفظ له، وقد سكت عنه. وقد قال في رسالته لأهل مكة: «كل

ما سكتُ عنه فهو صالح». والترمذي (١٢١٨) وقال: حسن. والنسائي (٧/

٢٥٩)، وابن ماجه (٢١٩٨)، وأحمد (١٢١٣٤)، وقال الألباني في ضعيف الجامع

(٨٢٧): «ضعيف، دون قوله: «إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاث... إلخ. فصحيح.

وبمثلته قال شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (١٦٤١).

(٢) يقصد الشاعر بينية الرزق بين الكاف والنون: ضمانه وسرعته، وهذا من التجوُّز، ولو

أنه قال: بعد الكاف والنون لأصاب. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فعقَّب بالفاء بعد أمره كن.

(٣) أدب الدنيا والدين (٣٩٣، ٣٩٤).

عيد: «إنَّ أول ما نبدأ به في يومنا عِفَّةُ أبصارنا»^(١).

وتأمل جمال الإسلام بياض ثياب عفافه، قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى: «كان أهل الجاهلية لا يسوِّدون»^(٢) إلا من كانت فيه ست خصال، وتماها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف»^(٣).

ويتأكد العفاف في أهل العلم أكثر من غيرهم، إذ حُرمة العلم وشرفه لبَّاسٌ لا ينبغي تدنيسه من لابس، قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «العالم إذا كان عليماً ولم يكن عفيفاً؛ كان ضرره أشدَّ من ضرر الجاهل»^(٤). قلت: وهو مُشاهد معلوم، فإنَّ الناس بطيهم يأمنون جانب مظهر التنسك أو العلم والإيمان، فإذا خانهم من جانبهم الآمن الذي ائتمنوه لشرف علمه ودينه؛ كانت خيائته أشدَّ وأشنع وأقبح!

ولقد كان السلف يعظّمون شأن العفاف جدًّا لما يعلمون من شرف أهله وفضلهم، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف»^(٥).

(١) الورع، لابن أبي الدنيا (٦٣).

(٢) من السيادة.

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٢١٥).

(٤) الفتح (١٣/ ١٤٩).

(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ١٥٠).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو على المنبر: «لا تُكَلِّفُوا الْأُمَّةَ غَيْرَ ذَاتِ الصَّنْعَةِ الْكَسْبَ؛ فَإِنَّكُمْ مَتَى كَلَّفْتُمُوهَا ذَلِكَ كَسَبَتْ بِفَرْجِهَا، وَلَا تَكَلِّفُوا الصَّغِيرَ الْكَسْبَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَجِدْ يَسْرِقْ، وَعَفُّوا إِذَا أَعَفَّكُمْ اللَّهُ، وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْمَطَاعِمِ بِمَا طَابَ مِنْهَا»^(١).
وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نَحْنُ مَعَشَرُ قَرِيشٍ نَعُدُّ الْحِلْمَ وَالْجُودَ السُّودَّ، وَنَعُدُّ الْعِفَّافَ وَإِصْلَاحَ الْمَالِ الْمَرْوَةَ»^(٢).

وقدم وفد على معاوية فقال لهم: «ما تَعُدُّونَ الْمَرْوَةَ؟» قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد»^(٣).

وقال محمد بن الحنفية: «الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة»^(٤).

وقال أيوب السخيتاني: «لا يَنْبُلُ^(٥) الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم»^(٦).

وقال الحسن البصري: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه».

(١) الموطأ (٤٢).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح الحنبلي (٢/٢١٥).

(٣) العقد الفريد (٢/١٥٠).

(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٣٢٩).

(٥) من النبيل وهو الكرامة والشهامة وعلو الرتبة.

(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني (٣١٩).

قلت: تصديق ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»^(١).

ذلك أن المال عزيز بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري: ﴿وَتُحْبَوْنَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فكما أنه يهتهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم ويروقهم حفظه، فالشح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه قلوه وأبغضوه إلا من سخت نفسه منهم لأمر خارج عن ذلك؛ كزهد، أو غياث، أو تحبّب، أو صدقة، ونحو تلك الرغائب.

فأقل الناس أهل القناعة، وأقل قليلهم أهل الزهادة!

ولا تبغ الفضول من الكفاف	تقنع بالكفاف تعش رخيّا
وفي ماء القراح غني وكاف	ففي خبز القفار بغير أدم
به من كل عري وانكشاف	وفي الثوب المرقع ما يغطّي
وأزينه التزيّن بالعفاف	وكلّ تزيّن بالمرء زين

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٣١٣/٤)، وحسنه النووي في الرياض». وللزهد باب مستقل بإذن الله تعالى.

مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

قال النووي رحمه الله: «معناه تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن،^(٢) وأكثرهن فتنة الزوجات، ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن.

ومعنى «الدنيا خضرة حلوة»: يحتمل أن المراد به شيان: أحدهما: حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها، كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا. والثاني: سرعة فنائها، كالشيء الأخضر في هذين الوصفين. ومعنى «مستخلفكم فيها»: جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم»^(٣).

وقال في «فيض القدير»: «قوله ﷺ: «الدنيا حلوة» أي: مشتهاة موقنة، تُعجب الناظرين، فمن استكثر منها أهلكته، كالبهيمة إذا أكثرت من رعي الزرع الأخضر أهلكها.

ففي تشبيه الدنيا بالخضرة التي ترعاها الأنعام إشارة إلى أن المستكثر منها

(١) مسلم (٧١٢٤).

(٢) وكثير من الناس يغفل عن هذا المعنى، ويذهب ظنه إن المقصود حصرها بغير ذوات المحارم، مع أن دخول الذنوب على الرجل من جهة محارمه وزوجته قد يزيد أحياناً على غيره لدخوله في المظالم، وفي التقصير في أداء الحقوق، وفي الدنيا وغير ذلك.

(٣) شرح النووي على مسلم (٩ / ١٠٥).

كالبهائم، فعلى العاقل القنع بما تدعو الحاجة منها وتجنب الإفراط والتفريط في تناولها فإنه مهلك»^(١).

الدنيا فاتنة بجماها وإغرائها ولا ينجو من فتنها إلا من رحمه الله فبصره وهداه، «إن الدنيا حلوة خضرة»، قال في «النهاية»: «الخضر: نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها، فشبه الدنيا للرجبة فيها والميل إليها بالفاكهة الحلوة الخضرة، فإنّ الحلو مرغوب فيه من حيث الذوق، والأخضر مرغوب فيه من حيث النظر، فإذا اجتمعا زادت الرغبة. وفيه إشارة إلى عدم بقائها.

«فاتقوا الدنيا» أي: اجتنبوا فتنها، واحذروا أن تُملِكُم محبتها والاعتزاز بها عن أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه فيها.

«واتقوا النساء» أي: اجتنبوا الافتتان بهن. أي: أن يمنعكم التمتع بهن لاستيلاء محبتهم عن القيام بأداء حقوق العبودية، والتقرب إلى مرضي الله تعالى. «فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» أي: بسببهن، فهو كحديث «عُذِبَت امرأة في هرة»^(٢). فسببهن هلك كثير من الفضلاء»^(٣).

واعلم أنّ فتنة النساء أشد من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٨ / ١٥٩).

(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «عُذِبَت امرأة في هرة سَجَّتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ». رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١ / ٣١١).

لدى آخرين، وكلُّ امرئ قد رُكِّبَ فيه ضعفٌ وميلٌ بحكم بشريّته وتوجّه غريزته، فيستحكم في جهة دون الأخرى، وقد حذّر رسول الله ﷺ أمته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: «ما تركتُ بعدي فتنة هي أضّرّ على الرجال من النساء»^(١). وقال في فتنة شأن المال: «لكلِّ أمةٍ فتنةٌ، وفتنةُ أمتي المال»^(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمع وجشع وشحٌ وهلع للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطان فطنٌ كائدٌ خبير، يشمُّ قلبَ عدوّه وابنِ عدوّه آدم فحيثما وجد ضعفاً ولَجَّ منه إليه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك.

وقد أجاب الطحاوي رحمه الله تعالى عن كيفية الجمع بين ذكر الأضرّ في فتنتي النساء أو المال فقال: «قال ﷺ: «فتنة أمتي المال»، ففي هذا الحديث أنّ فتنة أمته المال، فكيف يجوز أن تكون فتنة النساء أعظم من ذلك؟

فكان جوابنا له في ذلك: أنّ قوله ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنة أضّرّ على الرجال من فتنة النساء» هو على الفتنة التي تلحق الرجال دون النساء، وفي ذلك ما قد دلّ أنه ترك ﷺ في أمته فتناً سوى النساء، وكان قوله ﷺ: «فتنة أمتي المال» على فتنة تعم الرجال والنساء من أمته، فكانت تلك الفتنة أوسع وأكثر أهلاً من الفتنة الأخرى، وكلُّ واحدة منهما فأهلها الأهل الذين قد دلّ كلّ واحد من

(١) متفق عليه. البخاري ١١ / ٧ (٥٠٩٦)، ومسلم ٨ / ٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصحّحه الألباني.

هذين الحديثين عليهم من هم.

وقد حذر نبينا ﷺ من فتنة الدنيا ومن فتنة النساء، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ»^(١)، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُوا كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا فَتْنَةَ الدُّنْيَا وَفَتْنَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ»^(٢). فكان في هذا الحديث جمعه بذكر فتنة النساء وفتنة الدنيا، وفيها الفتنة بالمال، والفتن بما سوى ذلك، والله الموفق»^(٣).

فتنة المال من أوليات فتنة الدنيا للعالمين.

وقال أبو حاتم البستي: «أعظم المصائب: سوء الخلق، والمسألة من الناس، والهَمُّ بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال، ومن عزّت عليه نفسه؛ صغرت الدنيا في عينيه.

ولا ينبل الرجل حتى يعفّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان ملال، ومن غيرهم ضدّ النوال»^(٤).

وعن المديني قال: «كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف

(١) خَضِرَةٌ: غَضَّةٌ نَاعِمَةٌ طَرِيَّةٌ نَضْرَةٌ كَالثَّمَرَةِ الطَّيْبَةِ.

(٢) مسلم (٧١٢٤).

(٣) مشكل الآثار» للطحاوي (٩ / ٣٣١) بتصرف يسير.

(٤) روضة العقلاء (١٤٦).

والغنى أكثر من مروءة الإِطاء»^(١). وهذا معنى شريف لا يدركه كلُّ أحد.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: «الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة. والثانية: العفة، وقوامها الشهوة. والثالثة: القوة، وقوامها الغضب. والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس»^(٢).

«وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يا أخي، من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غيره تعنى، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع؛ لم يغنه منها كثرة ما يجمع، فعليك منها بالكفاف، وألزم نفسك العفاف، وإياك وجمع الفضول، فإن حسابه يطول.

وقال بعض الحكماء: «هيهات منك الغنى؛ إن لم يقنعك ما حَوِيت»^(٣). اللهم نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى، إله الحق.



(١) روضة العقلاء (١٥١).

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق» من إصدار مؤسسة الدرر السنية. فصل: العفاف.

(٣) أدب الدنيا والدين (١ / ٢٧١).

مِنَ أَعْظَمِ الْعَافِ حِفْظُ الْفَرْجِ

الفرج الحرام حفرة إلى الجحيم، وأكثر أهل النار إنما دخلوا منها ومن اللسان، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: «الفم والفرج»^(١).

وفي التنزيل تشديد على قفل هذا الباب المهلك، فقد نهى سبحانه عن مجرد قربانه فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وأمر بحفظ الفروج.

قال الكفوي في «الكليات»: «كل آية ذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] فإن المراد بها الاستتار»^(٢).

وقال البغوي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]: «الفرج اسم يجمع سؤأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج: التعفف

(١) أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١). قال محقق «جامع الأصول» (١١/ ٦٩٤): رواه ابن حبان في صحيحه»، وهو حديث صحيح بشواهده. وابن ماجه (٤٢٤٦). وحسنه الألباني.
(٢) وانظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٩٨)، والمفردات (٣٧٥)، ولسان العرب: (٢/ ٣٤٢، ٧/ ٤٤٢).

عن الحرام»^(١).

لقد امتدح المولى عز وجل الحافظين فروجهم والحافظات، وجعل ذلك من سمات الفلاح وعلامات الفوز في الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقد وعد الله هؤلاء المفلحين بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]، وإذا كان ذلك هو الجزاء في الآخرة، فما أثر ذلك في الحياة الدنيا؟

إنَّ حفظ الفروج وما يستلزمه من غض البصر والعفة عن المحارم يؤدي إلى تماسك بنیان المجتمع، وحفظه، وسلامته من الأمراض الاجتماعية الفتاكة كاختلاط الأنساب، والأمراض الصحية المهلكة كمرض الإيدز الذي انتشر في المجتمعات الفاجرة المأجنة بصورة تؤدي إلى الخراب والدمار.

أما على المستوى الفردي: فإنَّ حفظ الفرج يُجَنَّب صاحبه مَعْرَاتِ الخطيئات، وشديدات العقوبات الوبيات، وما أشدَّ ويلات الزَّنا، وما أكثرَها! وقد أشار إلى بعض ذلك الإمام ابن القيم عند ما قال: «الزنا يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، إذ

(١) معالم التنزيل (١٨/ ٣٠٣).

الغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من شُعْبِهِ ومُوجِبَاتِهِ» (١).

ومفهوم ذلك أنَّ الذي يحافظ على فرجه يقي نفسه هذه الخلال السيئة، ويتصف بأضدادها من السجايا الحميدة، من كمال الدين والمروءة والغيرة والوفاء والمراقبة ونحوها مما يسعد المرء في الدنيا والآخرة. ومما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

عَفُّوا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ	وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
إِنَّ الزَّنا دَيْنٌ إِذَا أَقْرَضْتَهُ	كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمْ
يَا هَاتِكَا حُرْمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعَا	سُبُلَ الْمَوَدَّةِ عَشْتِ غَيْرَ مُكْرَمٍ
لَوْ كُنْتَ حُرًّا مِنْ سُلَالَةٍ مَاجِدٍ	مَا كُنْتَ هَتَاكَا لِحَرَمَةِ مُسْلِمٍ
مَنْ يَزْنِ يُزْنُ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ	إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيبًا فَافْهَمْ



(١) غذاء الألباب» للسفاريني الحنبلي (٢/ ٣٤٥)، نقلاً عن «روضة المحبين» لابن القيم.

بم تحفظ الفروج؟

إذا كان الإسلام قد أمر بحفظ الفروج من الزنا وما يشبهه ويلحق به؛ فإنه قد أوضح بجلاء لا ريب فيه الطرق الكفيلة بحماية الفرد والمجتمع من هذه الآفات المهلكة، فحثَّ على العِفَّة والطهارة، وأمر بِغَضِّ البصر، ونهى عن التبرج والسفور عند من لا يحلَّ، وغلَّظ عقوبة الزنا والفواحش، ليس ذلك فحسب، ولكنه حث على الزواج لمن يقدر عليه تحصيناً لفرجه، وبالصوم لمن لا يقدر على الزواج، وما ذلك إلا ليقى المسلم من ثوران الشهوة وسطوة الغريزة من ناحية، والمحافظة على النسل وتقوية المجتمع الإسلامي بما ينجم عن الزواج من تكثير عدد المسلمين واستمرارية وجودهم من ناحية أخرى. فحماهمى الحرام من جهة، وبنى بناء العفاف والإنتاج من جهة، ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

حث الإسلام على الزواج:

حضَّت الشريعةُ الغراءُ في مواطن عديدة على الزواج تحصيناً للفرج وحفاظاً على المجتمع، ووقاية من الانحراف أو الانجراف نحو مقتضيات رغبة طائشة، ونزغة هائجة، ولهثة هاربة، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]. وجعله المصطفى ﷺ من سنته، وذلك كما جاء في حكاية الرهط الذين تقالوا

عبادته ﷺ، وقال أحدهم: أما أنا فأعتزل النساء فلا أتزوج أبداً... الحديث (١).

وهنا ردّ عليهم الرسول الكريم الشريف العفيف ﷺ بأن قال: «لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأُصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ»، وقال تعقيباً على ذلك: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمراد من ذلك أن من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، يلمح بذلك إلى طريق الرهبانية التي ابتدعوها تشدداً وما وفّوا بها التزامه، أمّا طريقة النبي ﷺ الحنيفة السمحة فإنّ منها التزوج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل» (٢) (٣).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في معرض كلامه عن الزهد وعلاماته: «وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه؛ تعيّن عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء.

والناس مختلفون فيه، فمنهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همّة، ويكفّ بصره، ويردّ فكره، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يُحمل حال رسول الله ﷺ، وحال عليّ رضي الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري (٨ / ٩).

(٣) وانظر: نضرة النعيم (٥ / ١٦٥٥ - ١٦٥٦).

قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود. وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدُّونَ على الجميلة، وذلك محمولٌ على أنّ تلك تكون إلى الدين أميل، والنّفقة عليها أقلّ، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنّها تُشَتُّ القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن. وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي، فتقول: أريد مرطاً؛ فتمرط دينه!

أما المال فهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف. وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حَبَّتَيْن، قام. وكان سعيد بن المسيب يتجرّ في الزيت، وخلف أربعمئة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

أما الجاه فلا بد للإنسان من جاءه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرّز من شرّ ذلك.

وفي الجملة؛ فإنّ الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم المال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا^(١). والله المستعان.



(١) مختصر منهاج القاصدين» للمقدسي (٤ / ٩١).

عفافُ الفرج سبيلُ الجنة

قال تعالى موصياً عباده بحفظ فروجهم بالوصف بالحفظ والصون والعفاف، وبالوعد بالمغفرة والأجر والفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ۝﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٥].

إنَّ عفاف الفرج من محاور عفاف المؤمن، بل إنَّ أوَّلَ خاطرٍ في دائرة العفاف هو حفظ الفرج وصيانته وسدَّ ذرائع دنسِهِ. قال جل وعزَّ، أمراً باتخاذ أسباب العفاف وبالاتصاف بالعفاف المطلق حتى مع تعدُّر النكاح: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۝﴾ [النور: ٣٣].

كما بيَّن أنَّ تمام الستر للقواعد من النساء خير من كشف المباح منه، فقال سبحانه: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ

يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ [النور: ٦٠].

وأخبر ﷺ أَنَّ العفاف من أسباب تحصيل الجنة وضمان دخولها برحمة الله تعالى، فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ رَجُلَيْهِ وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ؛ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَضْمِنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنَ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثَقْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ»^(٢).

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ»^(٣).

ولقد خاف ﷺ على أمته من غوائل الفرج الحرام فقال: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغِيِّ فِي بَطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتِ الْهَوَى»^(٤).

(١) البخاري (٦٤٧٤).

(٢) أحمد في المسند (٣٢٣ / ٥)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم في المستدرک (٣٥٩ / ٤).

(٣) أحمد في المسند (١٩١ / ١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع من طريق أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦٧٣).

(٤) أحمد (٤٢٠ / ٤، ٤٢٣)، والهيثمي في المجمع (١ / ١٨٨)، وقال: «رواه أحمد وأحمد والبخاري»

وتأمل وصف حياء المؤمن في حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك». قلت: يا رسول الله، فالرجل يكون مع الرجل؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فافعل»، قلت: فالرجل يكون خالياً؟ قال: «الله أحق أن يستحيي منه الناس».

وفي رواية: قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها». قلت: فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: «الله أحق أن يستحيي منه الناس»^(١).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخص الشباب بمزيد وصايا بالعفاف، فعن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع عبد الله^(٢) بمنى، فلقى عثمان، فقام معه يحدثه، فقال له عثمان: يا أبا عبد الرحمن، ألا نزوجك جارية شابة. لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك؟

قال: فقال عبد الله: لئن قلت ذاك، لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر

والطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني في صحيح

الترغيب والترهيب (٥٠٤/٢) والجديع في العقيدة السلفية (٢٥/١).

(١) أحمد (٤/٤٢٠، ٤٢٣)، والهيتمي في المجمع (١/١٨٨)، وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

(٢) وإذا أطلق علقمة عبد الله فالمعني ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان علقمة من أخص أصحابه به.

الشباب، من استطاع منكم الباءة^(١) فليتزوّج، فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاءٌ^(٢).

والمقصود بالصوم أي: بتكراره وصيام الأيام الكثيرة حتى تضعف الغريزة مع المداومة، والله أعلم.

والحذر الحذر من مبادئ الشرر وهي حرام النظر، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدّمًا على حفظ الفرج، فإنّ الحوادث مبدؤها من النظر، فتكون نظرة ثم خطرة ثم خطوة ثم خطيئة؛ ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات»^(٣).

ومن وصايا الناصحين: «من رأى افتتان الشباب بالنساء، وكثرة ما يقع من الشر بمصادقتهن، أو النظر إليهن، علم صدق نصح النبي ﷺ لأمته، وكمال

(١) الباءة: مؤن النكاح والقدرة عليه جسديًا ونفسيًا وماليًا، وهي في الأصل سهلة ميسرة، ولكن الناس تكلفوا فيها بما لا طائل من ورائه فسدّوا على أنفسهم أبوابًا من الخير كثيرة، والله المستعان.

(٢) البخاري «الفتح (٤/ ١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠). واللفظ له. والوِجاء: أن تُرَضَّ خصيتا الفحل رُضًا شديدًا فتذهب شهوة الجماع ورغبته وقدرته، والمراد: أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوِجاء.

(٣) الداء والدواء (٢٣٢).

شفقته ورحمته بهم.

وكم من إنسان بدأ بما يسمّونه بميل عاطفي، ثم آل أمره إلى عشق مستحکم، قد لا ينفع فيه الدواء، هذا إن استعصم وكفّ نفسه عن الزنا، عيادًا بالله من ذلك.

وينبغي أن يسأل المؤمن نفسه ويحاسبها: ما الهدف من هذه العلاقات؟ وإلى متى؟ وماذا بعد؟ وكم من معصية بالقلب أو بالعين أو بالأذن تسجل عليه أثناء ذلك؟

وهل يرضى أن يصدر هذا من زوجته أو أخته مع غيره؟!

إنّ الإسلام لا يقر علاقة حب تنشأ بين رجل وامرأة أجنبية عنه إلا في ظلّ الزواج الذي أباحه الله تعالى، ورغب فيه^(١). ولله معن بن أوس إذ قال:

لعمرك ما أهويتُ كفيّ لريبةٍ	ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها	ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلمُ أني لم تُصبني مصيبةٌ	من الدهر إلا قد أصابتُ فتى قبلي
ولست بماشٍ ما حييتُ بمنكرٍ	من الأمر لا يسعى إلى مثله مثلي
ولا مؤثرًا نفسي على ذي قرابةٍ	وأوثرُ ضيفي ما أقام على أهلي

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٦٠ / ٣١٥) بتصرف واختصار.

ومن فوائد حفظ الفرج:

- (١) الفلاح والفوز برضوان الله عز وجل في الدنيا والآخرة.
- (٢) مَنْ حفظ الفرج يكون قد حفظ النسل وطهارة الإنجاب.
- (٣) به ينشأ المجتمع النظيف النقي من الدنس وأدران الزنا.
- (٤) يحفظ القلوب من التعلق بالمحرمات.
- (٥) يحفظ المسلمين من أن يسري فيهم داء الزنا وما يتبعه من الأوبئة.
- (٦) يحفظ الصحة العامة من عادات الأمراض الفتاكة التي تنتج عن انتشار الزنا كالزهري والإيدز كما هو الآن في المجتمعات الغربية.
- (٧) يمنع المفساد ويطهر الذمم ويؤلف القلوب.
- (٨) ينشر الأمن ويحفظ الأعراض بين أفراد المجتمع.
- (٩) هو عفاف يمتاز به أصحاب الشرائع السماوية عن غيرهم من عباد الأصنام والدهريين والكفرة وغيرهم.
- (١٠) في حفظ الفرج بالزواج فوائد عديدة ذكرها الإمام الغزالي منها التفرغ للعلم والعمل، وترويح النفس وإيناسها، ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية للأهل والولاية عليهم.
- (١١) يزيد في الحسنات ويرفع الدرجات.

(١٢) النية الصالحة فيه تحوّل من عادة إلى عبادة^(١).

وبالجملة؛ فعفاف الفرج وسيلة لدخول الجنة برحمة الله تعالى، فاحرص على عفاف فرجك حرّصك على هواء صدرك، وبالله العصمة والتوفيق.



(١) وانظر: نضرة النعيم (١٠ / ٤٥٦٨).

شناعة فاحشتي الزنا واللواط، وخبثهما وشقاء أهلها

يكفي لخبث هاتين الجريمتين الرذيلتين أَنَّ الله تعالى قد سمَّاهما فاحشة. والفحش هو كل ما عَظُم من جنسه الرديء، ففُحش الأخلاق الزنا واللواط. والزنا: هو وطء المرأة من غير عقد شرعي^(١)، واللواط: هو وطء الذكر. «ولقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواط بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت جميعاً تشتمل على ذلك، لكن الله عز وجل خص هذه الذنوب لغلظها فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال في حق اللواط: ﴿وَلَوْ طَأَّ أَيْنَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِنَهُ مِنَ الْقَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، كما ذكر عن اللواطية أنفسهم أنهم نفوا عن أنفسهم الطهارة فقال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يُّطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وأما الزناة فجاء وصفهم صريحاً فقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

والمقصود الآن بيان ما في الزنا واللواط من نجاسة وخبث أكثر وأغلظ

(١) المفردات (٢٢٠)، وانظر: لسان العرب (٣/ ١٨٧٥، ١٨٧٦)، ونهاية المحتاج (٧/ ٤٠٢، ٤٠٣).

من سائر الذنوب ما دون الشرك؛ وذلك لأنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً.

ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان العبد أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في إبعاد القلب من الله، فإذا انصبغ القلب بهما بُعداً من الله الطيب الذي لا يصعد إليه إلا الطيب»^(١).

قال الذهبي رحمه الله: «النظرة بشهوة إلى المرأة والأمرد زنا، ولأجل ذلك بالغ الصالحون في الإعراض عن المردان»^(٢) وعن النظر إليهم وعن مخالطتهم ومجالستهم. وكان يقال: لا يبيتن رجل مع أمرد في مكان واحد.

وحرم بعض العلماء الخلوة مع الأمرد في بيت أو حانوت أو حمام قياساً على المرأة؛ لأن النبي ﷺ قال: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»^(٣)، وفي المردان من يفوق النساء بحسنه، فالفتنة به أعظم، وأنه يمكن في حقه من الشر ما لا يمكن في حق النساء، ويتسهل في حقه من طريق الريبة والشر ما لا يتسهل في حق المرأة، فهو بالتحريم أولى.

وأقاول السلف في التنفير منهم والتحذير من رؤيتهم أكثر من أن تحصر.

(١) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان (٧٨ - ٨٢) بتصرف.

(٢) المردان: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لم تنبت له لحية.

(٣) أحمد (١٧٧).

وقد جاء رجل إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى ومعه صبي حسن، فقال الإمام: ما هذا منك؟ قال: ابن أختي. قال: «لا تَجِئْ به إلينا مرة أخرى، ولا تمشِ معه في طريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ولا يعرفه سوءاً»^(١).

وقال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «عَدُّ الزنا من الكبائر هو ما أجمعوا عليه، واختلف في أيها أشنع وأقبح، هل القتل أو الزنا؟ والصحيح أنَّ الذي يلي الشرك في الكبائر هو القتل^(٢) ثم الزنا، وأفحش أنواعه الزنا بحليلة الجار، والزنا أكبر إثماً من اللواط، لأنَّ الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه ويعظم الضرر بكثرتة، ولما يترتب عليه من اختلاط الأنساب، وبعض الزنا أغلظ من بعض، فالزنا بحليلة الجار، أو بذات الرحم، أو بأجنبية في شهر رمضان، أو في البلد الحرام، فاحشة مشينة».

مراتب القبح في الزنا:

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى: «الزنا له مراتب (متفاوتة)؛ فهو بأجنبية لا زوج لها عظيم، وأعظم منه بأجنبية لها زوج، وأعظم منه بمحرم، وزنا الثيب أقبح من البكر بدليل اختلاف حدَّيهما.

وزنا الشيخ لكمال عقله أقبح من زنا الشاب، وزنا الحرِّ والعالم لِكَمالهما أقبح من زنا العبد والجاهل»^(٣).

(١) الكبائر (٥٨ - ٥٩) بتصرف.

(٢) أي: قتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق.

(٣) الزواجر (٥٤١ - ٥٥٤) باختصار.

السفاح والمخادنة:

لقد نهى الله تعالى عن كل أنواع الزنا، سرًّا كان أو جهراً، وسواء كان احتراماً أو مجرد نزوة، من حرة أو من أمة، من مسلمة أو غير مسلمة، كما نهى أيضاً عن الخطوات التي تسبقه وتؤدي إليه كالمخادنة والمصادقة والمساكنة، وقد سَوَّى في ذلك بين الرجال والنساء، فقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُسْكِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِينَ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، وقال عز من قائل: ﴿غَيْرَ مُسْكِفَتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وقد عد العلماء كلا الأمرين - أي السفاح والمخادنة - من الزنا المحرم، يقول النيسابوري: «السفاح: هو الزنا على سبيل الإعلان. والمخادنة: هي اتخاذ خدنٍ - أي خليل أو صديق - على سبيل الإسرار»^(١).

وقال الطبري: «﴿غَيْرَ مُسْكِفِينَ﴾: أي غير معالنين بالسفاح (الزنا) بكل فاجرة، ﴿وَلَا مُتَّخِذِينَ أَخْدَانٍ﴾: أي ولا منفردين ببغي واحدة، ومعنى خادنها: اتخذها لنفسه صديقة ليفجر بها، وذات الخدن: أي ذات الخليل الواحد»^{(٢)(٣)}.

لقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنهى سبحانه عن مجرد قربان الزنا وهي مقدماته وذرائعه ووسائله كالنظر

(١) الزواجر (٤٥٥).

(٢) رغائب الفرقان، على هامش الطبري (٤ / ٦) (٦٣).

(٣) تفسير الطبري (٤ / ٦) (٧٠، ٧١).

والكلام والمراسلة واللمس والصدقة ونحو ذلك.

وقد بين سبحانه أن الطيب مستحق للطيب وشبيه له وأن الخبيث شكيل
لخبث يسايره فقال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا
زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، ولم يحجب ربنا باب التوبة
فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

وتدبر ترتيب الذنوب في سورة الفرقان بحسب شناعتها وخبثها، فجعل
الزنا هو ثالث أكبر ذنب عصي الله تعالى به حتى قرّنه بالشرك والقتل الحرام!

فقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقد جاءت السنة أيضًا بذلك، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال:
قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو الله نداءً وهو
خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قال: ثم
أي؟ قال: «ثم أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله عز وجل تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ
لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] (١).

(١) انظر: «نصرة النعيم» (١٠ / ٤٥٧١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تشربوا مسكراً؛ فمن فعل من ذلك شيئاً فأقيم عليه حدّه فهو كفّارة، ومن ستر الله عليه فحسابه على الله عز وجل، ومن لم يفعل من ذلك شيئاً؛ ضمنْتُ له على الله الجنة»^(١).

وكان الرجل إذا أسلم عَفَّ وكَفَّ وابتعد عن الحرام، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان رجلاً شديداً وكان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة^(٢).

قال: فدعوت رجلاً لأحمله، وكان بمكة بغِيٌّ يقال لها: عَنَاق، وكانت صديقتها، خَرَجَتْ فرأت سوادي في ظل الحائط فقالت: من هذا؟ مرثد، مرحباً وأهلاً يا مرثد. انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل.

قلت: يا عناق؛ إن رسول الله ﷺ حَرَّمَ الزنا. قالت: يأهل الخيام هذا الدلدل^(٣) هذا الذي يحمل^(٤) أسْراءَكُمْ من مكة إلى المدينة، فسلكت

(١) البخاري «الفتح» (١٢ / ٦٨٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٢) الهيثمي في المجمع (١ / ١٠٤)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

(٣) الدلدل: هو القنفذ، وقيل ذكر القنافذ، شبهته به، لأنه أكثر ما يظهر في الليل، ولأنّه

يخفي رأسه في جسده ما استطاع.

(٤) أي: يهرّبهم.

الْخُنْدَمَةُ^(١) فطلبني ثمانية فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فطار بولهم عليّ، وأعماهم الله عني^(٢)، فجئت إلى صاحبي فحملته، فلما انتهيت به إلى الأراك^(٣) فككت عنه كَبَلَهُ^(٤).

فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ فسكت عني، فنزلت: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣] فدعاني فقرأها علي وقال: «لا تنكحها»^(٥).

وكان سلمة بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إنما هي أربع، فما أنا بأشح مني

(١) الخندمة: جبل ضخمة في مكة، وله ذكر في فتح مكة. والمراد؛ أنه سلك طريق الجبل هارباً مستخفياً.

(٢) «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». أخرجه أحمد (٢٩٣/١) (٢٦٦٩) أي: ينجيك وقت البلاء ولا يتركك لنفسك ولا لخلقك، بل يتولاك لأنه ولي الصالحين.

(٣) موضع يكثر فيه نبات الأراك الذي تُتخذ من عروقه المساويك. وتهامة بعامّة صالحة لهذا النبات الطيب. والعرب إذا رأت العَرَارَ حنّت لنجد، وإذا رأت الأراك حنّت لتهامة.

(٤) الكَبَلُ: القيد الغليظ. وقيل: هو القيد مطلقاً، قال عكرمة: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن ويعلمني السنة». «عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩ / ١٧٤).

(٥) النسائي (٦ / ٦٦، ٦٧) واللفظ له، وحسنه الألباني (٢ / ٦٨) (٣٠٢٧).

عليهن^(١) يوم سمعتهن من رسول الله ﷺ: «ألا لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا»^(٢).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله: فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه^(٣)، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعدل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملّقني ويتلو آياتي^(٤).

ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا، وأقبل بصدّره حتى يقتل أو يفتح له^(٥). والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم»^(٦).

(١) أي: من المبالغة في التحرز منهن واجتنابهن، فهو شحيح بدينه، لا يسمح لنفسه بتدنيسه وتقديره بهنّ.

(٢) الهيثمي في المجمع (١ / ١٠٤)، وقال: رواه الطبراني في الكبير» ورجاله ثقات.

(٣) وتلمّح محبة الله لفضيلة الإخلاص.

(٤) وهذا لعظيم رغبته في مرضاة ربه، وديمومته على باب الخير المشرع له لربه مهما كان حاله.

(٥) وفيه الفداء بالروح لتحصيل مرضاة الله تعالى.

(٦) الترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح. والنسائي (٥ / ٨٤)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٩ / ٥٦٤).

لقد أبغضهم الله تعالى لضعف داعي المعصية لديهم، ومع ذلك كرعوا فيها لخبث نفوسهم وسوء تديّنهم وتدنّيهم.

ومنه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل^(١) مستكبر^(٢)».

والله تعالى يغار، ولا أحد أغير منه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ ... الحديث. وفيه قال: «يا أمة محمد؛ والله ما من أحدٍ أغير من الله أن يزي عبده أو تزني أمته! يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً^(٣)».

ومن شؤم الزنا أن الله تعالى قد أرصد لصاحبه في القبر عذاباً شديداً، فعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟» قال فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان^(٤)، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالَا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع ... الحديث.

(١) أي: الفقير، من العيلة وهي الحاجة، وفي محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

(٢) مسلم (١٠٧).

(٣) البخاري الفتح (٢/ ١٠٤٤)، واللفظ له. ومسلم (٩٠١).

(٤) أي: في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي وحق.

وفيه: وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فهم الزناة والزواني^(١).

ويكفي في شر الزنا حَدُّهُ العنيف وعقوبته الشنيعة جدًّا في الدنيا قبل الآخرة، ففيه الرجم بالحجارة حتى الموت للزاني المحصن كما في خبر ماعز الأسلمي وخبر الغامدية وخبر العسيف فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... واغْدُ يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»، فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها^(٢). رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذ جادت بنفسها تائبة لربها.

والزنا يطرد كمال الإيمان الواجب من القلب، فإنه ينقص الإيمان جدًّا فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٣).

والزنا مؤذنٌ بالموت العام عقوبة من الله تعالى، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما ظهر الغلول^(٤) في قوم قط إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا^(٥) الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم

(١) البخاري «الفتح» (١٢ / ٧٠٤٧) واللفظ له. ومسلم (٢٢٧٥) مختصرًا.

(٢) البخاري «الفتح» (١٢ / ٦٨٢٧، ٦٨٢٨) واللفظ له. ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

(٣) البخاري «الفتح» (١٠ / ٥٥٧٨) واللفظ له. ومسلم (٥٧).

(٤) الغلول: أخذ شيء من الغنائم دون إذن من الإمام.

(٥) فشا: انتشر وكثر وقوعه.

الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم^(١)، ولا ختر^(٢) قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو^(٣).

وعن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نعايا العرب، يا نعايا العرب^(٤)، إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية^(٥)».

وانتشار الزنا له ارتباط مباشر بترك النهي عن المنكر، فعن أنس بن

(١) فشا فيهم الدم: كثر القتل.

(٢) ختر قوم بالعهد: نقضوه، والختار هو الخائن، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢] أي خائن للعهد كافر بالمنعم.

(٣) الموطأ (٢ / ٣٦٧) واللفظ له، وقال ابن عبد البر: مثله لا يقال رأياً. والبيهقي (٣ / ٣٤٦) وقال الألباني: مثله لا يقال بالرأي، «الصحيحة (١ / ١٧٠).

(٤) كناية عن الموت المقبل عليكم فيكثر نعيكم، والمقصود: التحذير.

(٥) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٢٧١) وقال: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح. قال أبو عبيد رحمه الله تعالى: «قوله: «الشهوة الخفية» قد اختلف الناس فيها، فذهب بها بعضهم إلى شهوة النساء وغير ذلك من الشهوات، وهو عندي ليس بمخصوص بشيء واحد، ولكنه في كل شيء من المعاصي يضمرة صاحبه ويصير عليه، وإنما هو الإصرار وإن لم يعمل به، وقال بعضهم: هو الرجل يصبح معتزماً على الصيام للتطوع ثم يجد طعاماً طيباً فيفطر من أجله». انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (٤ / ١٧١). قلت: والأظهر أنه يعم كل شهوة خفية محرمة، ومن أعظمها الرياء، والعزم على الفجور ونحو ذلك.

مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم» قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المثلُ في صغاركم»^(١)، والفاحشة في كباركم^(٢)، والعلم في رذالتكم»^{(٣)(٤)}.

فالذنوب بعامة والفاحشة خاصة من ذرائع العذاب بالأمراض وغيرها، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين؛ خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين^(٥) وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سَلَّطَ الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما

(١) في صغاركم: أي إن الملوك يكونون صغار الناس سنًّا، غير مجربين للأمور، أو ضعافهم عقلاً.

(٢) في كباركم: أي أن الفاحشة وهي الزنا تنتشر وتفشو إلى أن توجد في الكبار أيضًا.

(٣) والعلم في رذالتكم: إذا كان العلم في الفساق، أو الذين لم يتمكن منهم العلم والإيمان والحياء فلا يصونون العلم حق صيانتته.

(٤) أحمد (٣/ ١٨٧)، وابن ماجه (٤٠١٥) واللفظ له. وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

رجاله ثقات.

(٥) أي: القحط.

لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١).

ومن أشد مفسد الزنا اختلاط الأنساب بنسبة أولاد الزنا لغير آبائهم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم رجلاً ليس منهم فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته. وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عز وجل منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»^(٢).

وتشتد عقوبة الذنب إذا اكتنفته أمور تزيد حرمة كالزنا بامرأة مجاهد، فعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟»^(٣).

وقوله: «فما ظنكم»: يعني ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار

(١) ابن ماجه (٤٠١٩) واللفظ له. وقال في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به. والحاكم (٥٤٠ / ٤) وقال: صحيح، ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨). والصحيحة (١٠٦)، وعزاه أيضًا إلى «الحلية»، ومسند الروياني.

(٢) النسائي (١٧٩ / ٦)، واللفظ له. وأبو داود (٢٢٦٣). والحاكم (٢ / ٢٠٢)،

(٢٠٣) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

(٣) مسلم (١٨٩٧).

منها في ذلك المقام، ومعناه لا يُبقي منها شيئاً إن أمكنه.

والإصرار على فاحشة الزنا من أسباب المسخ عياداً بالله تعالى، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليكوننَّ من أمتي أقوام يستحلون الحرَّ»^(١) والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوام إلى جنب عَلمٍ يروح عليهم^(٢) بسارحة^(٣) لهم، يأتيهم^(٤) لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً. فيبيتهم الله^(٥) ويضع العلم^(٦)، ويمسخ آخرين قرده وخنازير إلى يوم القيامة»^(٧).

وكان الصحابة أحرص ما يكونون على إعفاف من تحت أيديهم حتى من

(١) الحر: هو الفرج. والمعنى يستحلون الزنا.

(٢) أي: الراعي.

(٣) بسارحة: هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى رعيها، وتروح أي ترجع بالعشي.

(٤) يعني الفقير، وفيه بعدهم عن مدافعة أسباب غضب الله تعالى بصدقة يتبعها توبة، والله المستعان.

(٥) فيبيتهم الله: أي: يهلكهم ليلاً، والبيات: هجوم العدو ليلاً.

(٦) العَلم: الجبل العالي. والمراد: أنه يُخسف به وبها حوله، فيجتمع عليهم مسخ وخسف، عياداً بالله تعالى. قال الخطابي رحمه الله تعالى في أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) ٢٠٩/٣: «العَلم: الجبل المرتفع. وفيه بيان أن المسخ قد يكون في هذه الأمة وكذلك الخسف، كما كانا في سائر الأمم، خلاف قول من زعم أن ذلك لا يكون وإنما مسخها بقلوبها».

(٧) البخاري، الفتح (١٠/ ٥٥٩٠).

المماليك، وكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يدعو غلمانَه غلامًا غلامًا فيقول: «ألا أُزوّجك؟ ما من عبد يزني إلا نزع الله منه نور الإيمان»^(١).

وقال خويلد بن نوفل الكلابي يعيب على الحارث بن أبي شمر الغساني الزنا:

يا أيّها المليكُ المخوفُ أما ترى ليلاً وصباحاً كيف يختلفان؟
هل تستطيعُ الشمسُ أن تأتي بها ليلاً وهل لك بالمليك يدان؟
واعلم وأيقن أنك ميتٌ ومحاسبٌ واعلم بأنك ما تدينُ ثدان

والله المستعان، فالناصح والمنصوح عند ربهما الآن! نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وقال المنذري رحمه الله تعالى: «صحَّ أن مدمن الخمر إذا مات لقي الله كعابد وثن، ولا شك أن الزنا أشد وأعظم عند الله من شرب الخمر»^(٢).

وقال الذهبي رحمه الله: «ورد في الزبور مكتوباً: إِنَّ الزُّنَاةَ مُعَلَّقُونَ بفروجهم في النار يُضْرَبُونَ عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث من الضرب؛ نادته الزبانية: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح، ولا تراقب الله تعالى ولا تستحي منه؟»^(٣).

(١) الفتح (١٢/ ٦٠).

(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٧).

(٣) الكبائر (٥١).

من مضار الفاحشة:

- (١) الزنا وعمل قوم لوط يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة.
- (٢) فيهما غضب الرب تبارك وتعالى بانتهاك حرمة وإفساد خلقه.
- (٣) خبث النفس وإذهاب الحياء ورفع الحشمة.
- (٤) سواد وجه صاحب الفاحشة وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين.
- (٥) ظلمة القلب وطمس نوره.
- (٦) الفقر اللازم لأن الله عز وجل مفقر الزناة.
- (٧) الفاحشة تذهب حرمة فاعلها وتعرضه للحد في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.
- (٨) الفاحشة تسلب المرء أحسن الأسماء، وهي العفة والبر والأمانة، ويعطيه أصدادها كالفاجر والفاسق والزاني والخائن.
- (٩) يفارق الزاني وصف الطيب الذي يتسم به أهل العفاف، ويتبدل به الخبث الذي يتصف به الزناة، وقد حرم الله الجنة على كل خبيث وجعلها مأوى للطيبين.
- (١٠) من أضرار الزنا على المجتمع: اختلاط الأنساب واشتباهاها، ويؤدي إلى ضيق في الأرزاق وخراب في الديار، وإيقاع الوحشة بين أبناء المجتمع.

(١١) تسبب الفاحشة ظهور أمراض وبلايا لا يعلمها إلا الله عز وجل ومنها مرض فقد المناعة (الإيدز) الذي شاع في المجتمعات الفاجرة هذه الأيام.

(١٢) في زنا الزاني جناية على ذريته بجلب العار والخزي لهم من ناحية، وتعريضهم -إلا من رحم الله- لمثل هذه الفعلة الشائنة من ناحية أخرى، وكذلك فاحشة قوم لوط^(١). والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) انظر: غذاء الألباب (١/ ٤٤٣).

قبحُ المعصية

يكفي في خبث المعصية قبحُ مُسمّاها؛ لأنها غرورٌ واقتحامٌ لحُرمةِ نهيِ الجبارِ
جلّ جلاله، ونوعٌ كفرٌ لنعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، فكيف نعصي من لا قوام
لنا إلا به، ولا خير عندنا إلا منه، ولا يصرف الشرَّ سواه؟! **اللَّهُمَّ إِنَّ تَغْفِرْ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا**

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «وكثيرٌ من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون
عقولهم، ويتَّبِعُونَ أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنَّبون ما حَضَّ الله تعالى
عليه، ورَتَّبَه في الألباب السليمة؛ من العَفَّةِ وتركِ المعاصي ومقارعة الهوى،
ويخالفون الله ربهم، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المُعْطِية، فيوافقون
المعصية في حبِّهم.

وقد علّمنا أن الله عز وجل رَكَّب في الإنسان طبيعتين متضادتين:

إحداهما: لا تشير إلا بخير، ولا تحض إلا على حسن، ولا يتصور فيها إلا
كل أمرٍ مَرْضِيٍّ، وهي العقل، وقائده العدل.

والثانية: ضدُّ لها، لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي
النفس، وقائدها الشهوة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:
٥٣].

وكنى بالقلب عن العقل فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ
أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]. وخاطب أولي الألباب.

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان، وهما قوتان من قوى الجسد الفعّال بهما، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيين.

ففي كلّ جسد منهما حظّه على قدر مقابله لهما في تقدير الواحد الصمد، تقدست أسماؤه، حين خلقه وهيّاه؛ فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً، فإذا غلب العقل النفس؛ ارتدع الانسان، وقمع عوارضه المدخولة، واستضاء بنور الله، واتبع العدل.

وإذا غلبت النفس العقل؛ عميت البصيرة، ولم يتّضح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس، وتردى في هوّة الردى ومهواة الهلكة.

وبهذا حسن الأمر والنهي، ووجب الامتثال، وصحّ الثواب والعقاب، واستحقّ الجزاء.

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين، وموصل ما بينهما، ومحلّ الالتقاء بهما، وإنّ الوقوف عند حدّ الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحّة المعرفة ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرّض للفتن ومداخلة الناس جملة، والجلوس في البيوت، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة، أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له في النساء، ولا جارحة له تعينه عليهن.

وقديماً قالوا: «من وُقِيَ شَرُّ لَقْلَقِهِ وَقَبَقَبِهِ وَذَبَذَبِهِ فَقَدْ وُقِيَ شَرُّ الدُّنْيَا

بحذافيرها»، والقلق: اللسان، والقبب: البطن، والذبذب: الفرج.

وليعلم المستخف بالمعاصي، المتكل على التسويف، المعرض عن طاعة ربه: أن إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقربين، فلمعصية واحدة وقعت منه؛ استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد، وصير شيطاناً رجيماً، وأبعد عن رفيع المقام! وهذا آدم ﷺ بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها؛ ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه؛ لكان من الهالكين.

أفترى هذا المغتر بالله ربّه ويأملائه ليزداد إثماً يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده أو عقابه اعزّ عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكن استعذاب التمني، واستيطاء مركب العجز، وسخف الرأي؛ قائدة أصحابها إلى الوبال والخزي.

ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجرٌ من نهي الله تعالى، ولا حامٍ من غليظ عقابه؛ لكان في قبيح الأحداث عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظم مانع وأشدّ رادع لمن نظر بعين الحقيقة، واتبع سبيل الرشد، فكيف والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٦٨) يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهْكًا ﴿[الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وإن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل أو من له أقلّ خلاق. وإن أعظم ما يأتي به العبد هتك ستر الله عز وجل في نفسه وفي عباد الله.

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيْع، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مسوَّمة.

ومالكٌ رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرجم، أحصنا أم لم يُحصنا، واحتجَّ بعض المالكيين في ذلك بأنَّ الله عز وجل يقول في رجه فاعليه بالحجارة: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، فوجب بهذا أنَّه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه.

وقد أحرق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه بالنار^(١)، أحرقه بالنار لأنَّه يُؤْتَى في دبره كما تؤْتَى المرأة.

وإنَّ عن المعاصي لمذاهبٌ للعاقل واسعة، فما حَرَّمَ اللهُ شيئاً إلا وقد عوّض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل، لا إله إلا هو.

صُنِيَ النَّفْسَ عَمَّا عَابَهَا وَارْفُضِ الْهَوَى	فَإِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ بَابِ الْمَهَالِكِ
رَأَيْتُ الْهَوَى سَهْلَ الْمَبَادِي لَذِيذِهَا	وَعُقْبَاهُ مُرُّ الطَّعْمِ ضَنْكُ الْمَسَالِكِ
فَمَا لَذَّةُ الْإِنْسَانِ وَالْمَوْتُ بَعْدَهَا	وَلَوْ عَاشَ ضِعْفِي عُمُرِ نُوحِ بْنِ لَامِكِ
فَلَا تَتَّبِعْ دَارًا قَلِيلًا لِبَاثِهَا	فَقَدْ أَنْذَرْتَنَا بِالْفَنَاءِ الْمُوَاشِكِ
وَمَنْ عَرَفَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ طَالِبٌ	رَأَى سَفَهًا مَا فِي يَدَيْ كُلِّ مَالِكِ

(١) انظر المحلى (١١ / ٣٨٠ - ٣٨١)، وأبو محمد بن حزم رحمه الله لا يرى ذلك، وإنما يرى التعزيز فقط، وانظر أيضاً: ذم الهوى (٢٠٢).

ومن عرف الرحمن لم يعص أمره ولو أنه يُعطى جميع الممالك
 سبيلُ التقى والنسك خيرُ المسالك وسالكها مستبصرًا خيرُ سالك
 ويا نفسِ جدي لا تمليّ وشمري لينيل سرورِ الدهر فيما هُنالك
 فلو أعمل الناسُ التفكر في الذي له خلُقوا ما كان حيُّ بضاحك^(١)

ثمرات العفة

١ - سلامة المجتمع من الفواحش: فالمجتمع الذي يتصف بالعفة يكون بعيدًا من الفواحش والرذائل.

٢ - أن العفيف من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. فمنهم: «... ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»^(٢).

٣ - العفاف سبب للنجاة من الابتلاءات والمضائق، وتفريج للكربات: فقد جاء في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة، أن أحدهم توسّل إلى الله تعالى بقوله: «اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمئة دينار؛ فطلبتها حتى قدرت، فأتيها بها فدفعتها إليها، فأمكتني من نفسها. فلما قعدت بين رجلها فقالت: اتق الله، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه»^(٣)! فقامت وتركّت المئة دينار، فإن كنت

(١) انظر المحلى (١١ / ٣٨٠ - ٣٨١)، وأبو محمد بن حزم رحمه الله لا يرى ذلك، وإنما يرى التعزيز فقط، وانظر أيضًا: «ذم الهوى» (٢٠٢).

(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أي: لا تجماع وتفرض الختان إلا عن زواج صحيح.

تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك؛ ففرج عنا، ففرّج الله عنهم فخرجوا»^(١).

٤ - إعانة الله تعالى لمن أراد العفاف: فالله سبحانه وتعالى قد تكفل بمقتضى وعده الذي لا يُخلف إعانة من يريد النكاح بقصد العفاف، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حقٌّ على الله عزّ وجلّ عونهم: المكاتبُ الذي يريدُ الأداء، والناكحُ الذي يريد العفافَ، والمجاهدُ في سبيل الله»^(٢)^(٣). وتأمل معية العفيف للمجاهد؛ فكلاهما في سبيل الله تعالى.



(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) الترمذي (١٦٥٥). وجوّد إسناده ابن باز في حاشية البلوغ (٧٦٥).

(٣) وانظر: موسوعة الأخلاق (العفة).

عوائق في طريق العفة

المعوقات التي تقف في طريق العفة في هذا الزمن كثيرة جدًّا، وقد أعلنت شياطين الإنس الحربَ على العفاف، وتضاعفت جهود أهل الباطل، حتى تنتشر الرذيلة، وتشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، واتخذوا الوسائل العديدة فمنها:

١- وسائل الإعلام:

إنَّ الناظر إلى أغلب وسائل الإعلام الحديثة الموجودة في البلاد الإسلامية فضلًا عن غيرها، يجد فيها الكثير من الفساد والإفساد، سواء كان في القنوات الفضائية، أو الشبكة العنكبوتية وما حوته من مواقع ومنتديات وتواصل اجتماعي، فتجد كثيرًا منها تبث السموم الأخلاقية وتنشر الرذيلة المجتمعية، وتدعو إلى خلاف العفة والفضيلة.

٢- الاختلاط والخلوة:

من أشدَّ موارد الشرِّ بين الجنسين الاختلاط: «إنَّ العِفَّةَ حجابٌ يُمَرِّقه الاختلاط، ولهذا صار طريق الإسلام التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبي عنها، فالمجتمع الإسلامي مجتمع فردي لا زوجي، فللرجال مجتمعاتهم، وللنساء مجتمعاتهنَّ، ولا تخرج المرأة إلى مجتمع الرجال إلا لضرورة أو حاجة بضوابط الخروج الشرعية.

كل هذا لحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الرِّيب والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظائفها الأساس في بيتها.

ولذا حُرِّم الاختلاط، سواء في التعليم، أم في العمل، والمؤتمرات، والندوات، والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتك الأعراض ومرض القلوب، وخطرات النفس، وخنوثة الرجال، واسترجال النساء، وزوال الحياء، وتقلص العفة والحشمة، وانعدام الغيرة^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن عقبة بن عامر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَاكُم والدخول على النساء!»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمى؟ قال: «الحمى الموت»^(٢).

وقال ﷺ: «لا يخلون رجلٌ بامرأة، ولا تسافرن امرأةٌ وإلا معها محرَّم»^(٣).

وقد ذكر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى أدلة تحريم الاختلاط بمجمل ومفصلة فقال: «اختلاط النساء بالأجانب في دور العلم والخوانيت والمكاتب والمستشفيات والحفلات ونحو ذلك؛ فهذا في الحقيقة قد يظن السائل في بادئ الأمر أنه لا يؤدي إلى افتتان كل واحد من النوعين بالآخر. ولكشف حقيقة هذا القسم فإننا نجيب عنه من طريقين مجمل ومفصل.

(١) حراسة الفضيلة» لبكر أبو زيد رحمه الله (٩٧ - ٩٨).

(٢) البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢). والحمى: هو قريب الزوج، وخطورته في بعده

عن الرية وقربه من غير ذات المحارم.

(٣) البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

أما المجمال: فهو أن الله تعالى جبل الرجال على القوة والميل إلى النساء، وجبل النساء على الميل إلى الرجال مع وجود ضعف ولين.

فإذا حصل الاختلاط نشأ على ذلك آثار تؤدّي إلى حصول الغرض السيّء، لأنّ النفوس أمارة بالسوء، والهوى يعمي ويصمّ، والشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

وأما المفصل: فالشريعة مبنية على المقاصد ووسائلها، ووسائل المقصود الموصلة إليه لها حكمه، فالنساء مواضع قضاء وطر الرجال، وقد سدّ الشارع الأبواب المفضية إلى تعليق كل فرد من أفراد النوعين بالآخر. وينجلي ذلك بما نسوقه لك من الأدلة من الكتاب والسنة.

أما الأدلة من الكتاب فسته:

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وجه الدلالة: أنه لما حصل اختلاط بين امرأة عزيز مصر وبين يوسف عليه السلام ظهر منها ما كان كامناً، فطلبت منه أن يوافقها، ولكن أدركه الله برحمته فعصمه منها. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

وكذلك إذا حصل اختلاط بالنساء اختار كل من النوعين من يهواه من

النوع الآخر، وبذل بعد ذلك الوسائل للحصول عليه.

الدليل الثاني: أمر الله الرجال بغض البصر، وأمر النساء بذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴿[النور: ٣٠، ٣١].

وجه الدلالة من الآيتين: أنه أمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وأمره يقتضي الوجوب، ثم بين تعالى أن هذا أزكى وأطهر. ولم يعف الشارع إلا عن نظر الفجأة.

فعن علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «يا علي، لا تُتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة»^(١). وبمعناه عدة أحاديث.

وما أمر الله بغض البصر إلا لأن النظر إلى من يحرم النظر إليه زناً، فروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ»^(٢).

وإنما كان زناً لأنه تمتع بالنظر إلى محاسن المرأة ومؤد إلى دخولها في قلب ناظرها، فتعلق في قلبه، فيسعى إلى إيقاع الفاحشة بها. فإذا نهى الشارع عن النظر إليهن لما يؤدي إليه من المفسدة وهو حاصل في الاختلاط، فكذلك الاختلاط

(١) أحمد (٣٥١/٥)، وأبو داود وحسنه الألباني. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري ٦٧/٨ (٦٢٤٣)، ومسلم ٥٢/٨ (٢٦٥٧) (٢١). واللفظ لمسلم.

ينهى عنه لأنه وسيلة إلى ما لا تحمد عقباه من التمتع بالنظر والسعي إلى ما هو أسوأ منه.

الدليل الثالث: الأدلة التي سبقت في أن المرأة عورة، ويجب عليها التستر في جميع بدنها؛ لأن كشف ذلك أو شيء منه يؤدي إلى النظر إليها، والنظر إليها يؤدي إلى تعلق القلب بها، ثم تبذل الأسباب للحصول عليها، وكذلك الاختلاط.

الدليل الرابع: قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وجه الدلالة أنه تعالى منع النساء من الضرب بالأرجل وإن كان جائزاً في نفسه لئلا يكون سبباً إلى سماع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن. وكذلك الاختلاط يمنع لما يؤدي إليه من الفساد.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

فسرها ابن عباس وغيره: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، ومنهم المرأة الحسنة وتمتر به، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غص، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها، وأنه لو قدر عليها لزنى بها»^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ١٣٧)، ورواه ابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، وابن المنذر. وفي بعض الروايات بدون زيادة: «وأنه لو قدر عليها لزنى بها».

وجه الدلالة أن الله تعالى وصف العين التي تسارق النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه من النساء بأنها خائنة فكيف بالاختلاط.

الدليل السادس: أنه أمرهن بالقرار في بيوتهن، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وجه الدلالة: أن الله أمر أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات المطهرات الطيبات بلزوم بيوتهن، وهذا الخطاب عام لغيرهن من نساء المسلمين، لما تقرر في علم الأصول أن خطاب المواجهة يعم إلا ما دل الدليل على تخصيصه.

وليس هناك دليل يدل على الخصوص، فإذا كن مأمورات بلزوم البيوت إلا إذا اقتضت الضرورة خروجهن، فكيف يقال بجواز الاختلاط على نحو ما سبق؟! على أنه كثر في هذا الزمان طغيان النساء وخلعن جلباب الحياء، واستهتارهن بالتبرج والسفور عند الرجال الأجانب والتعري عندهم، وقل الوازع عمن أنيط به الأمر من أزواجهن وغيرهم.

وأما الأدلة من السنة فإننا نكتفي بذكر عشرة:

الأول: عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إني أحب الصلاة معك. قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حُجْرَتِكَ، وصلاتك في حُجْرَتِكَ خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي». قال فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها

وأظلمه، فكانت والله تصلي فيه حتى ماتت^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَبَّ صَلَاةِ الْمَرْأَةِ إِلَى اللَّهِ فِي أَشَدِّ مَكَانٍ مِنْ بَيْتِهَا ظِلْمَةٌ»^(٢).

وبمعنى هذين الحديثين عدة أحاديث تدل على أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد.

وجه الدلالة: أنه إذا شرع في حقها أن تصلي في بيتها وأنه أفضل حتى من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ ومعه، فلئن يمنع الاختلاط من باب أولى.

الثاني: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفٍ الرِّجَالُ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»^(٣).

وجه الدلالة: أن الرسول ﷺ شرع للنساء إذا أتين إلى المسجد فإنهن ينفصلن عن الجماعة على حده، ثم وصف أول صفوفهن بالشر والمؤخر منهن بالخير.

وما ذلك إلا لبعد المتأخرات عن الرجال عن مخالطتهم ورؤيتهم وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم، وذم أول صفوفهن لحصول

(١) أحمد (٢٧٠٩٠)، وحسنه الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٦٩٢)، وأشار إلى تضعيفه بقوله: «وفي القلب منه»، وضعفه الألباني بأخرة في السلسلة (٩ / ٤٤٤) بعد تحسينه له في صحيح ابن خزيمة.

(٣) مسلم (٣٢/٢) (٤٤٠) (١٣٢).

عكس ذلك، ووصف آخر صفوف الرجال بالشر إذا كان معهم نساء في المسجد؛ لفوات التقدم والقرب من الإمام وقربه من النساء اللاتي يُشغلن البال، وربما أفسدن به العبادة، وشوشت النية والخشوع.

فإذا كان الشرع توقع حصول ذلك في مواطن العبادة مع أنه لم يحصل اختلاط؛ فحصول ذلك إذا وقع اختلاط من باب أولى، فيمنع الاختلاط من باب أولى.

الثالث: عن زينب زوجة عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسّ طيباً»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تَفَلّات»^(٢).

قال ابن دقيق العيد: «فيه حرمة التطيب على مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية الرجال وشهوتهم، وربما يكون سبباً لتحريك شهوة المرأة أيضاً». قال: «ويلحقن بالطيب ما في معناه كحسن الملبس والحلي الذي يظهر أثره والهيئة الفاخرة». وقال الحافظ ابن حجر: «وكذلك الاختلاط بالرجال».

(١) مسلم (٣٣/٢).

(٢) أبو داود (٥٦٥)، وصححه الألباني. ومعنى تَفَلّات: أي غير متطيبات، واحدها تَفَلَّة، ولم يُصب من فسرهما بتتن الرائحة، فالشريعة لا تأمر بمثل ذلك، ويكفي للامتنال ألا يجد الرجال لها طيباً.

الرابع: روى أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء»^(١).

وجه الدلالة: أنه وصفهن بأنهن فتنة، فكيف يجمع بين الفاتن والمفتون؟! هذا لا يجوز.

الخامس: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النَّسَاءِ»^(٢).

وجه الدلالة: أَنَّ النبي ﷺ أمر باتقاء النساء، وهو أمر يقتضي الوجوب، فكيف يحصل الامتثال مع الاختلاط؟! هذا لا يجوز.

السادس: عن حمزة بن أسيد الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال النبي ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافّات الطريق»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها^(٣).

قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث»: «يحققن الطريق: هو أن

(١) البخاري ١١ / ٧ (٥٠٩٦)، ومسلم ٨ / ٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) مسلم (٧١٢٤).

(٣) سنن أبي داود (٥٢٧٤) (٤ / ٥٤٣)، وحسنه الألباني.

يركبن حقّها، وهو وسطها».

وجه الدلالة: أنّ الرسول ﷺ إذا منعهم من الاختلاط في الطريق لأنه يؤدي إلى الافتنان، فكيف يقال بجواز الاختلاط في غير ذلك؟!

السابع: عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ لما بنى المسجد جعل باباً للنساء، وقال: «لا يلج من هذا الباب من الرجال أحد»^(١).

وجه الدلالة: أنّ الرسول ﷺ منع اختلاط الرجال والنساء في أبواب المساجد دخولاً وخروجاً، ومنع أصل اشتراكهما في أبواب المسجد سداً للذريعة الاختلاط، فإذا منع الاختلاط في هذه الحال، ففيه ذلك من باب أولى.

الثامن: عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من صلاته قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث النبي ﷺ في مكانه يسيراً»^(٢). وفي رواية: «كان يسلم فتصرف النساء فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف

(١) الطيالسي في مسنده (١٨٢٩)، وضعفه الألباني في السلسلة (١٢ / ٩٦٣)، وقال: وعن نافع به بلفظ: «لو تركنا هذا الباب للنساء». قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات. أخرجه أبو داود (٤٦٢، ٥٧١). وأعله بالوقف، والراجح عندي الرفع كما بيّنته في صحيح أبي داود (٤٨٣).

والخلاصة: أنّ النهي الصريح عن الدخول من باب النساء رفعه عن النبي ﷺ لا يصح. والصحيح حظه على ذلك بقوله: «لو تركناه للنساء». والله أعلم.

(٢) البخاري (٨٣٧)، ثم قال البخاري: قال ابن شهاب: فأرى - والله أعلم - أنّ مكثه لكي ينفذ النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم.

رسول الله ﷺ. وفي رواية ثالثة: «كُنَّ إِذَا سَلَّمْنَ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ قُفْنَ، وَثَبَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ صَلَّى مِنَ الرِّجَالِ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ الرِّجَالُ» (١).

وجه الدلالة: أنه منع الاختلاط بالفعل، وهذا فيه تنبيه على منع الاختلاط في غير هذا الموضع.

التاسع: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يزحم رجل خنزيرًا متلطخًا بطين وحمأة؛ خيرٌ له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحلَّ له» (٢).

الدليل العاشر: عن معقل ابن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير من أن يمسَّ امرأة لا تحلَّ له» (٣).
وجه الدلالة من الحديثين: أنه ﷺ منع مماسة الرجل للمرأة بحائل وبدون حائل إذا لم يكن محرماً لها، بما في ذلك من الأثر السيء، وكذلك الاختلاط فمُنِع ذلك.

(١) البخاري (٨٦٦)، وأحمد (٢٦٧٣٠).

(٢) الطبراني، كما في مجمع الزوائد (٤ / ٣٢٦)، وقال: فيه علي بن يزيد وهو ضعيف جداً. وعليه فعادت الأحاديث القائمة بالحجة إلى تسعة، وإن كان في الباب غيرها، وكأنه طلب الاختصار، وفي ذلك مقنع لمن كان له اهتداء لا اهتواء، بل في الواحد منها حجة قاطعة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٣) الطبراني في الكبير (٤٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٤٥).

فمن تأمل ما ذكرناه من الأدلة؛ تبين له أنّ القول بأنّ الاختلاط لا يؤدي إلى فتنة إنما هو بحسب تصور بعض الأشخاص، وإلا فهو في الحقيقة يؤدي إلى فتنة، ولهذا منعه الشارع حسماً لمادة الفساد.

ولا يدخل في ذلك ما تدعو إليه الضرورة، وتشتد الحاجة إليه، ويكون في مواضع العبادة، كما يقع في الحرم المكي والحرم المدني^(١)، نسأل الله تعالى أن يهدي ضال المسلمين، وأن يزيد المهتدي منهم هدى^(٢).

قلتُ: وفرّق بين الاختلاط المُنظَّم المقصود كاختلاط الدراسة والعمل، وبين العارض غير المقصود كالطواف والمناسك والطرقات، فالفتنة والخطر بالأول أعظم وأشدّ مع عدم وجود المسوّغ الشرعي أصلاً وعدم الحاجة لذلك، لكنه مرض القلوب من مرضى القلوب، والله الحافظ المستعان.

وقال ابن باز رحمه الله: «... وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفي هذه الآيات الكريبات الدلالة الظاهرة على شرعية لزوم النساء لبيوتهن حذراً من الفتنة بهن، إلا من حاجة تدعو إلى الخروج، ثم حذرهن سبحانه من التبرج تبرج

(١) والضرورة تُقدّر بقدرها.

(٢) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٠ / ٢٦) باختصار يسير. وقد نقلتها اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء مقرّرة لها بتوقيع علامتين الشيخ ابن باز والشيخ عبد الرزاق عفيفي. وانظر: فتاوى اللجنة الدائمة، المجموعة الأولى (٢ / ٩٣)، ومجلة البحوث الإسلامية (٣٢ / ٩٠).

الجاهلية، وهو إظهار محاسنهن ومفاتنهن بين الرجال.

وقد بين الله سبحانه أنَّ الحجاب أطهر لقلوب الجميع، فدل ذلك على أنَّ زواله أقرب إلى نجاسة قلوب الجميع وانحرافهم عن طريق الحق، ومعلوم أنَّ جلوس الطالبة مع الطالب في كرسي الدراسة من أعظم أسباب الفتنة.

ومن زعم أن الأمر بالحجاب خاصٌّ بأمهات المؤمنين فقد أبعد النُّجعة وخالف الأدلة الكثيرة الدالة على التعميم وخالف قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فإنه لا يجوز أن يقال إن الحجاب أطهر لقلوب أمهات المؤمنين ورجال الصحابة دون من بعدهم!

ولا شك أنَّ من بعدهم أحوج إلى الحجاب من أمهات المؤمنين ورجال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما بينهم من الفرق العظيم في قوة الإيمان والبصيرة بالحق.

فإنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالاً ونساءً ومنهن أمهات المؤمنين هم خير الناس بعد الأنبياء، وأفضل القرون بنص الرسول ﷺ المخرج في الصحيحين.

فإذا كان الحجاب أطهر لقلوبهم فمن بعدهم أحوج إلى هذه الطهارة وأشدَّ افتقاراً إليها ممن قبلهم؛ ولأنَّ النصوص الواردة في الكتاب والسنة لا يجوز أن يُخصَّ بها أحدٌ من الأمة إلا بدليل صحيح يدل على التخصيص، فهي عامة لجميع الأمة في عهده ﷺ وبعده إلى يوم القيامة.

لأنه سبحانه بعث رسوله ﷺ إلى الثقلين في عصره وبعده إلى يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

[الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:

٢٨].

وهكذا القرآن الكريم لم ينزل لأهل عصر النبي ﷺ، وإنما أنزل لهم ولمن بعدهم ممن يبلغه كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِتُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وكان النساء في عهد النبي ﷺ لا يختلطن بالرجال، لا في المساجد ولا في الأسواق الاختلاط الذي ينهي عنه المصلحون اليوم^(١)، ويرشد القرآن والسنة وعلماء الأمة إلى التحذير منه حذرًا من فتنه.

بل كان النساء في مسجده ﷺ يصلين خلف الرجال في صفوف متأخرة عن الرجال حذرًا من افتتاح آخر صفوف الرجال بأول صفوف النساء، وكان الرجال في عهده ﷺ يؤمرون بالتريث في الانصراف حتى يمضي النساء ويخرجن من المسجد لئلا يختلط بهن الرجال في أبواب المساجد، مع ما هم عليه جميعًا رجالًا ونساء من الإيثار والتقوى، فكيف بحال من بعدهم؟!

وكانت النساء يُنهين أن يتحققن الطريق، ويؤمرن بلزوم حافات الطريق،

(١) أي الاختلاط المنظم المقصود، وكذلك التساهل في غير المقصود كما في الأسواق ونحوها.

حذرًا من الاحتكاك بالرجال والفتنة بمهاسة بعضهم بعضًا عند السير في الطريق، وأمر الله سبحانه نساء المؤمنين أن يدين عليهن من جلابيبن حتى يُغطين بها زيتتهن حذرًا من الفتنة بهن، ونهاهن سبحانه عن إبداء زيتتهن لغير من سمى الله سبحانه في كتابه العظيم، حسماً لأسباب الفتنة، وترغيباً في أسباب العفة، والبعد عن مظاهر الفساد والاختلاط.

فكيف يجوز لمؤمن أن يقول إن جلوس الطالبة بحذاء الطالب في كرسي الدراسة مثل جلوسها مع أخواتها في صفوفهن خلف الرجال؟! هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من إيمان وبصيرة يعقل ما يقول.

هذا لو سلمنا وجود الحجاب الشرعي، فكيف إذا كان جلوسها مع الطالب في كرسي الدراسة مع التبرج وإظهار المحاسن والنظرات الفاتنة والأحاديث التي تجرّ إلى الفتنة، فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] (١).

٣- تبرج النساء:

تبرج النساء من الأسباب التي تعوق العفة؛ لذا أمرت المرأة بالقرار في البيت، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والتبرج إظهار الزينة، فبعدها كانت مسترة بالحجاب برجت

(١) فتاوى ابن باز (٤ / ٢٣٩) باختصار.

وَبَرَزَتْ وَظَهَرَتْ. ومعنى تَبَرَّجَ أي: خرج من البُرْجِ، والمعنى: لا تخرجن من حصن التستر، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سِتْرُهَا سواء مما يُرى أو يُسمع أو يُشمّ، فمِمَّا يرى كمحاسن كالوجه فهو الجامع لمكانن المحاسن، أو الكفّ المبيّنة للون البشرة ونضارة الجسد ولين القدّ، أو القدم ونحو ذلك مما يُباح للخاطب، لأنهنّ أدلّة على ما وراءهنّ من خفايا الجسد المستور، ويتبع ذلك العبادة، فلا يصحّ أن تتحجّب بما يفتن، وكم من حجاب محتاج إلى حجاب! والله تعالى لا يُغشّ. أمّا ما يُسمع فكأصوات كالغنج ووسوسة الذهب والحليّ ونحوها، أمّا ما يُشمّ فكالطيب وكالروائح الخاصة بالنساء ونحو ذلك مما يحرك كوامن شهوة الرجال.

ويقال: سفرت المرأة: إذا كشفت وجهها، وحسرت رأسها: إذا كشفتها، وتبرجت: إذا أظهرت زينتها، وبالله التوفيق.

وبالجملة؛ فالمؤمنة إذا خرجت التزمت بالضوابط الشرعية للخروج، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قال السعدي في تفسيره لهذه الآية: «أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوّت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سدّ الوسائل، وأنّ الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في

الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة للعلم بالزينة، منع منه»^(١).

هذا؛ وإنّ الحجاب «علامةٌ على العفيفات، فالحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات في عفتهم وشرفهن، وبعدهن عن دنس الريبة والشك: ﴿ذَلِكَ أَدَّتِي أَنْ يُعَرَّفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وإن العفاف تاج المرأة، وما رفرت العفة على دارٍ إلا أكسبتها الهناء.

ومما يستطرف ذكره هنا: أن النُميري لما أنشد عند الحجاج قوله:
يُخَمَّرْنَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى وَيَخْرُجْنَ جُنَحَ اللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتٍ
قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة.

ومن بركات الحجاب: قطع الأطماع والخواطر الشيطانية: فالحجاب وقاية اجتماعية من الأذى، وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكف الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عرضه، وأذى المرأة في عرضها ومحارمها، ووقاية من رمي المحصنات بالفواحش، وإدباب قالة السوء، ودنس الريبة والشك، وغيرها من الخطرات الشيطانية. ولبعضهم:

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَّ مَنْ بَرِيْبَةٍ كَطِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدِهِنَّ حَرَامٌ
ومنها: حفظ الحياء: وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلق يودعه الله في النفوس التي أراد سبحانه تكريمها»^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٥٦٦).

(٢) حراسة الفضيلة (١ / ١٢٢).

٤. استماع الأغاني والمعازف:

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله ما كذبني سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام يستحلون^(١) الحِرَّ^(٢) والحرير، والخمر، والمعازف»^(٣).

«والحكمة في التحريم ظاهرة: حيث إن المتَّبِع لمجالس الغناء الفاسق، ومسارح الطرب، وأماكن اللهو، وما يصاحبها من معازف وآلات، في ذلك يجد الرقص الخليع الفاجر، من نساء امتهنَّ الرذيلة والفاحشة، ويجد العريضة والصياح المتعالي من أفواه السكارى.

ويجد الكلمات البذيئة الفاحشة العارية من الحياء والخجل، والمتخمة بالوقاحة وسوء الأدب، يجد الاختلاط الشائن بين عوائل متحللة؛ حيث التخلع والمراقبة وهدر النخوة والشرف... وباختصار يجد التحلل والإباحية في أسوأ تبذرها ومظاهرها»^(٤).

(١) أي: يفعلونها بلا نكير عليهم كهيئة المستحلين لها من تهاونهم بها واستمراءهم ركوبها بلا خوف ولا حياء من الله تعالى.

(٢) هو الفرج الحرام.

(٣) البخاري (٥٥٩٠) معلقاً بصيغة الجزم، وصححه الحفاظ كابن القيم في تهذيب السنن (١٥٣/١٠).

(٤) تربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله العلوان (٢/ ٩٢٢).

قال الفضيل بن عياض: «الغناء رُقِيَّةُ الزنا»^(١). وصدق رحمه الله، فللغناء فعله المُسكر لنفوس أهل الشهوة، بل قد يفعل بها ما تفعله الكؤوس المُعْتَقَّةُ المُترعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عن الغناء: «فإنه رُقِيَّةُ الزنا ومُنْبِتُ النفاق وشَرَكُ الشيطان وخمرة العقل، وصَدُّهُ عن القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس ورغبتها فيه»^{(٢)(٣)}.

والغناء المذموم هو ما كان مثيراً للغرائز، أو واصفاً للمفاتن، أو صادداً عن ذكر الله تعالى، أو مصاحباً بمعاذف. وللسلف في ذمه كلام كثير مشتهر، وبالله التوفيق ومنه الحفظ والعصمة.



(١) ذم الملاهي لابن أبي الدنيا (٥٥).

(٢) إغاثة اللفهان (١/ ٢٤٠).

(٣) وانظر: موسوعة الأخلاق، فصل (العفاف).

من الوسائل المعينة على العفة

من أراد النجاة فليذل أسبابها، وليهتد إليها بالعلم الصحيح المُردَف بالعمل الجاد القويم، وإلا فلا يلو من إلا نفسه.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
وهاك بعضاً من الوسائل المعينة - بإذن الله - على العفاف، فمنها:

١ - تقوى الله تعالى في السر والعلانية:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ورسول الهدى ﷺ هو مضرب المثل في التزام حفظ العين من الخيانة، وفي كل خلق سنيٍّ، فعن مصعب بن سعد، عن سعد رضي الله عنه، قال: لما كان يوم فتح مكة أَمَّنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ إلا أربعة نفرٍ وامرأتين وسماهم - ومنهم ابن أبي سرح - فذكر الحديث؛ قال: وأما ابن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله؛ بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كُلُّ ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأي كفتُ يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين». قال أبو داود: «كان عبد الله أخا عثمان من الرضاة،

وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه، وضربه عثمان الحد إذ شرب الخمر»^(١).
وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قال: «هو الرجل يكون بين الرجال، فتمر بهم امرأة فينظر إليها، فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصره»^(٢).

فيا أيها المبارك؛ إذا هممت نفسك بفعل المنكر والقبیح من النظر إلى هذا العفن القذر؛ فتذكر بأن الله يراك ومطلع عليك، وأنه يراك قبل أن يصل بصرك وسمعك وجوارحك إلى ما حرم عليك، فاستحي^(٣) أن يراك وأنت في معصية، فلا يكن الله أهون الناظرين إليك، فاجتهد - رعاك الله - أن يراك ربك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك، فإن يوماً دعتك نفسك وزين لك الشيطانُ فعل المعصية؛ فاعلم بأن الله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وصدق والله من قال:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيبٌ
ولا تحسبن الله يغفل طرفه ولا أن ما يخفى عليه يغيب
وقال القحطاني في نونيته القيمة:

(١) أبو داود (٥٩ / ٣) (٢٦٨٣) وصححه الألباني.

(٢) تفسير السمعاني (١٣ / ٥) ومرّ قريباً.

(٣) أصلها بياين (استحيي)، وحذفت إحداهما للجزم، لأنها وقعت جواباً للشرط، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

إذا ما خلوتَ بريبةٍ في ظُلْمَةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى العصيانِ
 فاستحي من نظرِ الإلهِ وقل لها إنَّ الذي خلقَ الظلامَ يراني
 ومتى همَّتْ نفسك بالنظرِ إلى الحرامِ؛ فتذكَّرْ أنَّ الله تعالى هو الذي أنعم
 عليك بهذه النعمة، وهو سبحانه القادر أن يسلبها منك، ولا أحد غيره يستطيع
 أن يردّها لك، فهل يكون ذلك هو شكرُك لهذه النعمة العظيمة التي قد حُرِّمَ
 منها فتاًمٌ من البشر كثير؟!

وكلّ واحدٍ ممن حُرِّموا نعمة البصر يتمنّى أن ينفق ما لديه ويردّ إليه متاع
 بصره ولو ساعة واحدة يرى بها من يُحبّ! فاحفظ بصرَكَ واتّق ربك يحفظك
 الله: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، والجزاء من جنس
 العمل، قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»^(١).

وعليك أن تستحضر دائماً وأبداً بأنك إلى الله راحل، وبين يديه واقف، وهو
 سبحانه سائلك عن كل كبيرة وصغيرة فعلتها في حياتك، فماذا ستقول له عندما
 يسألك عن هذه الأوقات التي ضيعتها في المنكرات أو الغفلات؟

فاحرص أن تلقى الله تعالى وأنت على طاعة، واحذر أن يأتيك الموت
 وأنت على معصية، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي
 فقال: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»، فكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
 يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من

(١) الترمذي (٢٥١٨). وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح.

صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (١).

٢- أن يدعو الله بأن يصرف عنه السوء والفحشاء:

والأدعية الماثورة بتحصيل العفاف كثيرة، فعلى الموفق أن يُلِظَّ بها مُلِحًا على ربه؛ علَّه أن يسلكه في أهل العفاف والفضيلة والهدى والرشاد، فمنها ما رواه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، والتقى، والعفاف، والغنى» (٢).

ومنها ما حَدَّث به علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن مُكَاتَبًا جاءه فقال: إني عجزت عن كتابتي فأعني، قال: ألا أعلمك كلمات علَّمنيهنَّ رسولُ الله ﷺ، لو كان عليك مثل جبل ديناً أدَّاه الله عنك؟ قل: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» (٣).

ومنها ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذ أحدنا مضجعه أن يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ، وَرَبَّنَا، وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَفَالِقَ الْهَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَالظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَالْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ

(١) البخاري (٦٤١٦).

(٢) مسلم (٨١/٨) (٢٧٢١).

(٣) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه. وكذا حسنه الألباني.

شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر»^(١).

ومنها ما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار - يقال له: أبو أمامة - جالساً فيه، فقال: «يا أبا أمامة، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة؟»، قال: همومٌ لزممتني وديونٌ يا رسول الله. قال: «ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عز وجل همّك، وقضى عنك دينك؟»، فقال: بلى يا رسول الله. قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». فقلت ذلك، فأذهب الله همّي، وقضى عني ديني»^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما حديث أبي أمامة: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»، فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كُلُّ اثنين منها قرينان مزدوجان:

فأهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان. فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإما أن يكون سبباً أمراً ماضياً، فيوجب له «الحزن»، وإن كان أمراً متوقعاً في

(١) سنن الترمذي (٥ / ٤٧٢)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) أبو داود (١٥٥٥)، وأصله في الصحيحين، وألفاظ الدعاء ثابتة، أما أصل القصة ففي ثبوتها كلام. وانظر: شرح سنن أبي داود للعباد ٣٥/١٨٤

المستقبل، أو جب «الهم»، وتخلّف العبد عن مصالحه وتقويتها عليه، إما أن يكون من عدم القدرة وهو «العجز»، أو من عدم الإرادة وهو «الكسل»، وحبسُ خيرِه ونفعه عن نفسه وعن بنى جنسه، إما أن يكون منع نفعه ببدنه، فهو «الجبن»، أو بماله، فهو البخل، وقهرُ النَّاسِ له إما بحق، فهو «ضلعُ الدّين»، أو بباطل فهو «غلبةُ الرّجال»، فقد تضمّن الحديثُ الاستعاذة من كل شرٍّ^(١).

وقال سبحانه وتعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿يوسف: ٣٣، ٣٤﴾.

قال ابن تيمية: «فلا بد من التقوى بفعل المأمور، والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه السلام اتقى الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمرأودة والحبس، واستعان الله ودعاه حتى يثبتته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس»^(٢).

ولقد «جمع النبي ﷺ بين العفة والغنى في عدة أحاديث، منها قوله في حديث أبي سعيد المخرج في الصحيحين: «من يستغن يُغنيه الله، ومن يستعفف يُعِفَّهُ اللهُ»^(٣).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤ / ٢٠٨).

(٢) الفتاوى (١٣١ / ١٥).

(٣) البخاري (١٥١ / ٢)، ومسلم (١٠٢ / ٣).

ومنها قوله في حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم: «أهل الجنة ثلاثة: دُو سُلْطَانٍ مُّقْسِطٌ مُّتَصَدِّقٌ مُّوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ، وَعَفِيفٌ مُّتَعَفِّفٌ دُو عِيَالٍ»^(١).

ومنها قوله في حديث الخيل الذي في الصحيح: «ورجل ارتبطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها فهي له ستر»^(٢).

ومنها قوله في حديث عمر وغيره: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مُشْرِفٍ فَخْذُهُ»^(٣). فالسائل بلسانه وحاله ضد المتعفف، والمشرف بقلبه وحاله ضد حال الاستغناء والزهد والقناعة.

وقال الله تعالى في حق الفقراء: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: عن السؤال للناس.

وقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»^(٤). فغنى النفس الذي لا يستشرف إلى المخلوق، فإن الحرّ عبد ما طمع، والعبد حرّ ما قنع. وقد قيل: أطعتُ مطامعي فاستعبدتني^(٥). فكره أن يتبع نفسه ما استشرفت له، لئلا يبقى في القلب فقر وطمع إلى المخلوق؛ فإنه خلاف التوكل

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) البخاري (٢٨٦٠). ومسلم (٩٨٧).

(٣) البخاري (٨٤/٩، ٨٥)، (٧١٦٣)، ومسلم ٩٨/٣ (١٠٤٥).

(٤) البخاري (١١٨/٨)، (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٠/٣) (١٠٥١).

(٥) تمامه: ولو أني قنعتُ لكنتُ حرّاً.

المأمور به وخلاف غنى النفس»^(١).

وللكلام في فضيلة وضرورة الدعاء فإنّ ههنا مسألة شريفة، وهي: هل الأولى في دعاء الله تعالى أن يجهر أو يسرّ، ولماذا قرن الله تعالى الذكر بالخفية، والدعاء بالخفية؟

أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: «قول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء؛ لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت. أي ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل؛ وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وأنه ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، والله المثل الأعلى. فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ٣٢٨).

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولَّبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته؛ حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق. وقلبه يسأل طالبًا مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكتًا. وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها: - وهو من النكت البديعة جداً - أنه دالٌّ على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]. فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: «أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

(١) أحمد (١٩٥٩٩)، وأصله عند الشيخين.

إِذَا دَعَاكَ ﴿[البقرة: ١٨٦]، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يملّ اللسان وتضعف قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له؛ بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدرك به أحدٌ فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فَرَطَتْ له الأرواح البشرية ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلّقها به يفرّق عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفُسَ الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد.

وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ الآية [يوسف: ٥]. وكم من صاحب قلبٍ وجمعيةٍ وحالٍ مع الله تعالى قد تحدّث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار؛ ولهذا يوصي العارفون

والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحدٌ.

والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب، ولا سبباً فعله للمبتدئ السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف.

فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتدى به ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله تعالى فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكرٌ للمدعو سبحانه وتعالى، متضمنٌ للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه للطلب.

كما قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله»، فسمى الحمد لله دعاءً وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب؛ فالحامد طالبٌ للمحسوب فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب؛ فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود؛ أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح. وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخصّ الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكيم وغيرها، وخصّ الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن».

والمقصود؛ أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليه، كالحائف الذي معه سوط يضرب به

مطيته؛ لئلا تخرج عن الطريق. والرجاءُ حادٌ يحدوها يطلب لها السير، والحبُّ قائدُها وزمامها الذي يشوقها، فإذا لم يكن للمطية سوطٌ ولا عصا يردّها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وظلت عنه.

فما حُفظت حدودُ الله ومحارمُه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالة على اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضًا، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأنّ الدعاء مبنيٌّ عليه، فإنّ الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرّك نفسه لطلبه؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه.

فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور»^(١).

٣- تنشئة الأبناء على التربية الإسلامية:

التربية الإسلامية من أهم الوسائل المعينة على العفة، والتي ينبغي فيها مراعاة غرس الفضيلة والعفة في الأبناء، والتربية على الالتزام بالأحكام الشرعية منذ نعومة أظفارهم.

(١) مجموع الفتاوى (١٥- ٢٢) مختصرًا.

٤. الزواج:

فالنكاح من أعظم أسباب العفاف، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا أحدكم أعجبت المرأة، فوقع في قلبه، فليعمد إلى امرأته فليواقِعْهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(١).

ومن لم تكفه الزوجة الواحدة لإعفافه فليتزوج ثانية وثالثة ورابعة ليحصل عفاف فرجه ولينجو من حفر نار الرذيلة.

والله تعالى يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣]، وليحرص على العدل، ولينو الحزم مع نفسه، وليستعد بالعدل لساعة الحساب غداً، قال ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل»^(٢).

ومتى صدق النية في العفاف وبذل السبب المقدور؛ فليشر بمدد الله تعالى له، فقد وعد بذلك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(٣)، أي: العفة من الزنا.

(١) مسلم (١٤٠٣).

(٢) أبو داود (٢١٢٢) واللفظ له، وأحمد (٧٩٣٦). وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٧٤١٦). والترمذي وحسنه (١٦٥٥)، وجود إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥).

قال الطَّبَّي: «إنما أثر هذه الصيغة إيذاناً بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تفدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أنَّ الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها، وأصعبها العفاف؛ لأنَّه قمع الشهوة الجبليَّة المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين.

فإذا استعفَّ وتداركه عون الله تعالى ترقَّى إلى منزلة الملائكة وأعلى عليين»^(١).

وقد ذكر الغزالي رحمه الله تعالى تكثير النسل وإبقائه على أنه المقصد الأول للزواج، وجعل حفظ الفرج وكسر الشهوة المقصد الثاني فقال: «فيه - أي النكاح - فوائد خمسة:

- ١ - الولد، وهو الأصل وله وضع النكاح والمقصود به إبقاء النسل.
- ٢ - كسر الشهوة، والمراد التحصن من الشيطان، وكسر التوقان ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر وحفظ الفرج.
- ٣ - ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر ونحوهما إراحة وتقوية لها على العبادة، ذلك أن النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت، وإذا روحت في بعض الأوقات قويت ونشطت.
- وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكره ويروح القلب،

(١) تحفة الأحوذى للمباركفوري (٢/٢٩٦).

وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات، ولذلك قال تعالى:
﴿لَيْسَ كُنْ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فَإِنِهَا إِذَا أَكْرَهَتْ عَمِيت.

٤ - في الزواج تفريغ القلب عن تدبير المنزل وتهيئة أسباب المعيشة، ولو تكفل المرء بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، والمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريق.

٥ - مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، ورعايتهن، وهذه كلها أعمال عظيمة الفضل لما فيها من الرعاية والولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، ولا يحترز منها إلا من خاف القصور عن القيام بحقها»^(١).

وقال السفاريني رحمه الله تعالى: «النكاح مأمور به شرعاً، وهو مستحسن وضعا وطبعاً؛ لأن به بقاء النسل وعمار الدنيا، وعبادة الله، والقيام بالأحكام، وهو سنة لذي شهوة ولا يخاف الزنا ولو كان فقيراً، والاشتغال به أفضل من التخلي لنوافل العبادة، ويباح لمن لا شهوة له. ويجب على من يخاف الزنا رجلاً كان أو امرأة، علماً كان الخوف أو ظناً، وهو مقدم على الحج الواجب كما نص عليه الإمام أحمد بن حنبل، وتعرض الكراهية للنكاح إذا كان الناكح غير ذي

(١) إحياء علوم الدين بتصرف واختصار (٢/ ٢٤ - ٣١)، وانظر: نضرة النعيم (٥/ ١٦٥٧).

شهوة لأنه يمنع من تزوجها من الإحصان - العفة - غيره، ويضرها بحبسها على نفسه»^(١).

٥ - سد الذرائع التي تؤدي إلى الفساد:

فإذا وُجد السبب وُجد المُسبَّب، والتساهل في الذرائع الموصلة للحرام هو من قبيل الرعي حول الحمى الحرام الذي يوشك صاحبه أن يواقع فيهلك. فلا بد للمؤمن أن يغلق مبادئ الشر فور حدوثها وألا يسترسل فيها، ومن لك:

أولاً: عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية:

قال عليه السلام: «الحمو الموت»، وقال: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»^(٢).

قال ابن تيمية: «ولهذا حرمت الخلوة بالأجنبية؛ لأنها مظنة الفتنة. والأصل أن كل ما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز؛ فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة؛ ولهذا كان النظر الذي يفضي إلى الفتنة محرماً إلا إذا كان لمصلحة راجحة مثل: نظر الخاطب، والطبيب، وغيرهما؛ فإنه يباح النظر للحاجة؛ لكن مع عدم الشهوة»^(٣). وقد سبقت الإشارة لذلك.

(١) شرح منظومة الآداب للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٣٢ - ٤٣٤).

(٢) تقدم تخريجهما قريباً.

(٣) الفتاوى (٢١/ ٢٥١).

ثانياً: عدم التبرج:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾
[الأحزاب: ٣٣].

ثالثاً: عدم الاختلاط إلا بحدود الحاجة الملحة:

وقد تقدم الكلام على التبرج وعلى الاختلاط.

رابعاً: الاستئذان عند الدخول:

وقد جعل الاستئذان من أجل البصر، كما قال ﷺ، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾
[النور: ٢٧].

خامساً: التفريق في المضاجع:

لابد من التفريق في المضاجع بين الأولاد، كما أمر بذلك النبي ﷺ: «مروا
أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في
المضاجع»^(١).

«فهذا الحديث نص في النهي عن بداية الاختلاط داخل البيوت، إذا بلغ
الأولاد عشر سنين، فواجب على الأولياء التفريق بين أولادهم في مضاجعهم،
وعدم اختلاطهم، لغرس العفة والاحتشام في نفوسهم.

(١) أحمد (١٨٧/٢)، وصححه ابن الملتن في البدر المنير (٢٣٨/٣)، وابن باز في فتاواه
(١٨٦/٢٩).

وخوفاً من غوائل الشهوة التي تؤدي إليها هذه البداية في الاختلاط، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(١).

سادساً: الغيرة على المحارم:

إنما يغار على المحارم الأحرار، والغيرة الشريفة هي مما يُصان به العفاف ويحفظ به الشرف، وهي من خصال المؤمنين، وهو خُلُقٌ ممدوح، وخصلة نبيلة، وسجية حميدة.

والغيرة على المحارم حراسة لهن من عبث الفجار وشهوات الفساق. كما أنّ الرجل إذا غار على محارمه من الرجال فهو أدعى لأن يصون نفسه، ففي صيانها حفظ لهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال علي رضي الله عنه: «ألم يبلغني عن نسائكم أنهن يزاحمن العلوج»^(٢) في الأسواق؟ ألا تغارون؟ من لم يغر فلا خير فيه»^(٣).

وقال أيضاً رضي الله عنه: «الغيرة غيرتان: حسنة جميلة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار»^(٤).

(١) حراسة الفضيلة (١٢٩).

(٢) العُلج: الرجل القوي الفخم، والعُلج الرجل من كفار العجم وغيرهم، والأعلاج: جمعه، ويجمع على علوج. النهاية في غريب الحديث (٢٨٦/٣).

(٣) كنز العمال (٣ / ٧٨٠) (٨٧٣٥).

(٤) كنز العمال (٣ / ٧٨٠) (٨٧٣٦).

وعن علقمة: أنَّ معاذ بن جبل كان يأكل تفاحةً ومعه امرأته فدخل عليها غلامٌ، فناولته امرأته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها ضرباً.

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى معلقاً على حديث: «انطلق فحج مع امرأتك»^(١): «فإذا كان هذا في النهي عن الحج بعد حجة الفريضة - على أن الحج من أعلى القربات عند الله - فما بالك بما يصنع النساء المنتسبات للإسلام في هذا العصر من التنقل في البلاد، حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وحدهن دون محرم، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له، فأين الرجال؟! أين الرجال؟!»^(٢).

٦ - إقامة الحدود:

فإقامة الحدود تردع لمن تسول له نفسه أن يقوم بأمر حذر منه الشارع، وعن يحيى بن سعيد رحمه الله: أن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «ما يزع الناس السلطان أكثر مما يزعهم القرآن»^(٣).
ويظلم نفسه وصاحبه من أعان عاشقاً على بلوغ وطره من الحرام وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه عصى الله وأعانه على معصيته.

(١) أحمد (٢٢٢ / ١)، والبخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

(٢) عمدة التفسير (١١ / ٣).

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٨٣ / ٤).

وثانيهما: أنه بذلك يزيد من مرضه وعلته من حيث أراد شفاؤه.

«قال النبي ﷺ: «العينان تزنيان وزناهما النظر»^(١)... الحديث. فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث: كالنظر والاستمتاع والمخاطبة. ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة، ومنهم من يقبل وينظر، وكل ذلك حرام.

وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزنا رافة، بل نقيم عليهم الحد، فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شأن الفاسقين وقلبيهم^(٢) على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره.

وذلك أن المحب العاشق، وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه، فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك لأنه مريض.

والمريض إذا انتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رافة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعنَّاه على ما يضره أو يهلكه، وعلى ترك ما ينفعه، فيزداد سقمه فيهلك.

وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض، فليس الرافة به والرحمة أن

(١) أحمد (٨٥٣٩)، والبخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) شأنهم: ذمهم. وقلبيهم: هجرهم.

يُمْكِنُ مِمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ وَلَا يِعَانُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَنْ يُمْكِنَ مِنْ تَرْكِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ الَّتِي تَزِيلُ مَرَضَهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أَيِ فِيهَا الشِّفَاءُ وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ. بَلِ الرَّأْفَةُ بِهِ أَنْ يِعَانُ عَلَى شَرْبِ الدَّوَاءِ وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا؛ مِثْلَ الصَّلَاةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَذْكَارِ وَالِدَعَوَاتِ، وَأَنْ يُجْمَى عَمَّا يَقْوَى دَاءُهُ وَيَزِيدُ عِلَّتَهُ وَإِنْ اشْتَهَاهُ.

وَلَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ اسْتِمْتَاعٌ بِمَحْرَمٍ يَسْكُنُ بِلَاؤُهُ، بَلِ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ انْزِعَاجًا عَظِيمًا وَزِيَادَةً فِي الْبَلَاءِ وَالْمَرَضِ فِي الْمَالِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ سَكَنَ بِلَاؤُهُ وَهَدَأَ مَا بِهِ عَقِيبُ اسْتِمْتَاعِهِ أَعْقَبَهُ ذَلِكَ مَرَضًا عَظِيمًا عَسِيرًا لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ. بَلِ الْوَاجِبُ دَفْعُ أَعْظَمِ الضَّرَرَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا قَبْلَ اسْتِحْكَامِ الدَّاءِ الَّذِي تَرَامَى بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْعَطَبِ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَلَمَ الْعِلَاجِ النَّافِعِ أَيْسَرُ وَأَخْفَى مِنْ أَلَمِ الْمَرَضِ الْبَاقِي. وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا أَدْوِيَّةٌ نَافِعَةٌ يَصْلُحُ اللَّهُ بِهَا مَرَضَ الْقُلُوبِ، وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمُ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ النَّافِعَةَ لِرَأْفَةِ يَجِدُهَا بِالْمَرِيضِ، فَهُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى عَذَابِهِ وَهَلَكَهُ وَإِنْ كَانَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، إِذْ هُوَ فِي ذَلِكَ جَاهِلٌ أَهْمَقٌ.

كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْجُهَالِ بِمَرْضَاهُمْ وَبِمَنْ يَرْبُونَهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَغُلَامَانِهِمْ وَغَيْرِهِمْ فِي تَرْكِ تَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتُونَهُ مِنَ الشَّرِّ وَيَتْرَكُونَهُ مِنَ الْخَيْرِ رَأْفَةً بِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ فُسَادِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ

وهلاكهم»^(١).

٧- مجاهدة النفس في مرضاة الله تعالى.

فالمؤمن يعلم أنه في دار ابتلاء وامتحان، ويعلم أن الله تعالى خلقه لحكمة وأمده بعلوم تهديه وأعمال تحفظه واعتقادات تحميه وتسلييه، ثم سلط عليه أعداءه وأخبره أنه في ميدان الاختبار حتى يوطن نفسه أن تخرج من تنور الامتحان ذهباً لا خبثاً! وقد وعده ربه الرحيم بمعاونته وهدايته وتسديده إن صدق معه فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وتأمل هذه المعية الربانية الهائلة القريبة اللطيفة.

ومن المجاهدة التفتن لمداغة الخطرات إذا تولدت في الذهن، لأنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، ومن ثم توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي الفعل.

ولذلك فإن من راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه وشهوته، ومن أفلتها فلا ودية الردى نفسه أطلقها!

قال شيخ الإسلام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]: «فذكر ما يتعلق بشهوات الآدميين من سائر ما تشتهيه أنفسهم حتى النساء والمردان... وقال: العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من ذلك أن يجاهد نفسه وهواه، وتكون مجاهدته لله تعالى

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٢٨٩).

وحده... ثم قال: وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم، وقد يبتلى كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان، وإن لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بها هو دون ذلك من المباشرة، وإن لم تكن كان بالنظر، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس.

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه، فإذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى، وهو مأمور بهذا الجهاد وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه، فتكون المجاهدة للنفس في طاعة الله ورسوله^(١).

إنَّ مجاهدة النفس في ذات الله تعالى لها لذة تفوق لذائد الدنيا ومتعتها حسية كانت أو معنوية فضلاً من الله تعالى لأوليائه وكرماً لمريدي رضوانه.

ولا خير البتة في محبة تصرف عن محبة المحبوب الحق، الذي لا يستحق الحب على الكمال إلا هو، وكم ممن كان على جادة الاستقامة فحرفته غواية العشق لمهاوي الردى وأودية الضياع!

«ألا وإن بعض من بسطَ المداد في تيك السابلة، قد جاوز الغاية في التهتك وخلع العذار، وإن لم يكن الأدب رافد عفاف وموقد شرف فلا كان.

ولا ريب أن من امتلأ قلبه من محبة الله استغنى عن محبة غيره، ومن أحب غير الله عُدَّ به، وعلى حسب نقص محبة الإله الحق في القلب يكون حظُّ

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٢٠٧).

الخذلان بحب غيره! وكفى بمحبة الله تعالى عن غيرها غناء. ولو لم يكن من ذلك إلا مدحة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذا ولمحبة الله ورسوله ودينه قد وضعت ركائب الأبرار وركضت إليها خيل المقربين، فأدركهم ما دمت قادرًا قبل انشقاق قبرك للحساب!

وقد يُبتلى المرء بحب يذهب بشغاف قلبه. لنقص محبة الرحمن فيه. فيجاهده ويداريه حتى يسلم من غائلته، ولو لم يكن منها إلا فوات نصيبه من محبة إلهه الحق! لأن العشق يذهب ببعض نصيبه ولا بد، فالمحل واحد والمحبة متباينة.

قال تاجر بن أبي مطيع بكل مجاهدة وعفاف وطهر:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فَيَمْنَعُنِي منه الحياءُ وخوف الله والحدُرُ
كذلك الحبُّ لا آتية فاحشةً لا خير في لذة من بعدها سقرُ

ومن النساء من تستسهل أمر الحديث مع صونها واحتشامها، كما قيل:

أنسُ غرائرُ ما هممن بريبةً كظباء مكة صيدهن حرامُ
يُحَسِّنُ من لين الحديث فواسقًا ويصدُّهنَّ عن الحنا الإسلامُ

وإن كان هذا يثلم كمال العفاف في الجملة، إذ تمامه البعد كل البعد عن ذرائع الشر مهما زينتها النفس، فأبو مرة لم يمت، وخطواته مهلكه، ولا يأمن غوائله إلا مفرطاً!

وقال أحد المحبين العفيفين:

أحبُّك يا سلمى على غير ريبةٍ لا خير في حب لا تُعَفُّ سرائره

وقال جميل بثينة:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو استيقنَ الواشي لقرّت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمُنَى وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آمله

وذكروا عن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل بن معمر العذري، وهو عليل، وإني لأرى آثار الموت على وجهه، فقال: يا أبا سهل، أتقول: إن رجلاً يلقي الله لم يسفك دمًا حرامًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت بفاحشة، أترجو له الجنة؟ قلت: إي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل.

قلت: بعد زيارتك بثينة، وما تُحدّث به عنكما؟ فقال: والله إني لفي يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، ولا أنالني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي فيها برية قط! قال: فما انقضى يومه حتى مات رحمه الله.

وكان عمر بن أبي ربيعة عَفَّ الإزار، وكان يقول لصاحبه: أترى ما سيرتُ في الناس من الشعر، وربّ هذه البنية ما حللت إزاري على فاحشة قط.

وقال الحجاج ليلي الأخيلية: هل كانت بينك وبين صاحبك توبة بن الحمير ريبة؟ قالت: لا، والذي أسأله أن يصلحك، إلّا أنه قال مرةً قولاً ظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ و خليلُ

فلا، والذي أسأله صلاحك، ما كلّمني بشيءٍ بعدها استرته حتى فرّق

الدهر بيني وبينه.

وقال أعرابي من فزاراة: عشقتُ جاريةً من الحي، فحادثتها سنين كثيرة، والله ما حدثت نفسي بريبة قط، سوى أن خلوتُ بها، فرأيت بياضَ كفِّها في سوادِ الليل، فوضعت كفي على كفِّها، فقالت: مه! لا تفسد ما صلح. فارتفضَ جبيني عرقاً، ولم أعد.

ولا شك أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وكما قال الإمام أحمد: كم نظرة أوقعت في قلب صاحبها البلب! وأبلغ من ذلك وأعظم وأجل قول ربنا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ولما دعت امرأة عبد الله بن عبد المطلب إلى نفسها؛ أبى وقال:

أما الحرام فالمات دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه
وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددت يدي ولا مشيت بي لزلّة قدم^(١)

وأن مما يساعد على المجاهدة التفكير بالمقارنة بين الدنيا والآخرة في زمانها وفي حقائقها، وتدبر قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً

(١) وقد يجمع الله الشيتين. للمؤلف (٦، ٨٠ - ٩٠) مختصراً.

مِنْ نَّهَارٍ ﴿[الأحقاف: ٣٥]﴾. سبحانك ربي! العمر الطويل كله حينما تتذكره غداً يكون كالساعة! إلا ما أحقر الدنيا، وأحقر منها معاصيها المبعدة عن رضوان الرب الكريم تبارك وتعالى.

وصبر ساعة خير من ندم الدهر، «والصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجهه الشهوة فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة.

وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب ما لا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألد وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك.

وإما أن تجلب همّاً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علماً ذكره ألد من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»^(١).

«أيها الشيوخ: أن الحصاد. أيها الكهول: قرب الجذاذ. أيها الشباب: كم جرد الزرع جراد!

يا ابن آدم لا تغررك عافية عليك شاملة فالعمر معدود
ما أنت إلا كزرع عند خضرته بكل شيء من الأوقات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها فأنت عند كمال الأمر محصود

واعجباً يتأمل الحيوان البهيم العواقب وأنت لا ترى إلا الحاضر، ما تكاد تهتم بمؤنة الشتاء حتى يقوى البرد، ولا بمؤنة الصيف حتى يشتد الحر. ومن هذه صفته في أمور الدنيا: ﴿فَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟! فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلَا نَفْسِهِمْ يَمَّهْدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

هذا اليربوع لا يتخذ بيتاً إلا في موضع طيب مرتفع، ليسلم من سيل أو حافر، ثم لا يجعله إلا عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه إذا عاد إليه، ثم يجعل له أبواباً ويرقق بعضها فإذا أتى من باب دفع برأسه ما رقى وخرج.

اسمع يا من قد ضيق على نفسه الخناق في فعل المعاصي فما أبقى لعذر موضعاً، يا مقهوراً بغلبة النفس: ضل عليها بسوط العزم، فإنها إن علمت جدك استأسرت لك^(١)، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام، فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشیطان خارجان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو

(١) والنفس كالطفل إن تركه شبَّ على حُبِّ الرضاع وإن تطفمه ينطم

مباطن ومن آداب الجهاد ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ليس من بارز بالمحاربة كمن كَمِنَ، ما دامت النفس حية تسعى فهي حية تسعى، أقلّ فعل لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفاً.

أخلُ بها في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليك؟ نادها بلسان التذكرة: يا نفس ذهب عرش بلقيس وبلي جمال شيرين وتمزق فرش بوران وبقي نسك رابعة.

يا نفس صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تحزم الأجير فإنما هو يوم.

يا هذا ذرات الوجود تستدعيك إلى الموجد، ورسائل العتاب على انقطاعك متصلة، فما هذا التوقف؟!

يا هذا، دبّر دينك كما دبّرت دنيائك، لو علق بثوبك مسمار رجعت إلى وراء لتخلّصه، هذا مسمار الأضرار قد تشبث بقلبك، فلو عدت إلى الندم خطوتين تخلصت.

هيهات صبي الغفلة كلما حرك نام، يا مجنون الهوى: إما مارستان^(١) العزلة وقيد الحمية ومعالجة سلاسل التقوى ومرافقة الصالحين، وإلا فمارستان جهنم في أنكال العقوبة وصحبة إبليس.

كل يوم تحضر مجلس الذكر يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجت كما

(١) أي: المشفى.

دخلت قال: فديت من لا يفلح!«^(١).

ولأبي تمام حبيب الطائي:

أَعَاذِلْتِي مَا أَخْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا	وَأَخْشَنَ مِنْهُ فِي الْمِلَمَّاتِ رَاكِبُهُ
ذَرِينِي وَأَهْوَالِ الزَّمَانِ أَقَاسِهَا	فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهُ
أَرَى عَاجِزًا يُدْعَى جَلِيدًا لِقِسْمِهِ	وَلَوْ كُفِّفَ الْمُقْوَى لَكَلَّتْ مُضَارِبُهُ
وَعَفَا يُسَمَّى عَاجِزًا بَعْفَافِهِ	وَلَوْلَا التُّقَى مَا أَعْجَزَتْهُ مَذَاهِبُهُ
وَلَيْسَ بِعَجِزٍ الْمَرْءُ أَخْطَاهُ الْغِنَى	وَلَا بِأَحْتِيَالٍ أَدْرَكَ الْمَالُ كَاسِبُهُ

هذا وإن المجاهدة هي جهاد في الحقيقة لأنها جهاد للنفس لأطرها على طاعة ربها، والنفس حرون شرود تقوى عند المعصية وتضعف عن الطاعة، فلا بد لها من مجاهدة بالعلم والعقل والإرادة بعد الاستعانة لها بمولايها الذي بيده ناصيتها.

«والشهوة إذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب، وقد قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ أي ضعيفاً عن النساء لا يصبر عنهن، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ذكروا منه العشق. والعشق يفضي بأهله إلى الأمراض والإهلاك، وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضاً.

وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع

(١) المدهش لابن الجوزي (١ / ١٦٢ - ١٦٥) باختصار يسير.

كثيرة كقوله في سورة هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:

١٣٩].

وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله؛ فما ظنك بالذي لم يُحْمِ حول السيئات ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها، بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليركوا السيئات؟ فهل هذا وذاك سواء؟! بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك، وحاله أعظم وأعلى ونوره أتم وأقوى.

فإنَّ السيئات تهواها النفوس ويزينها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات. فإذا كان المؤمن قد حُبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به؛ حيث دفع بالعلم الجهل، وبإرادة الحسنات إرادة السيئات، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضًا حتى يدفع جهله بالظلم وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك.

والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية، وقال: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية [التوبة: ١٩].

فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فهذا في العلم والنور، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، إلى قوله: ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨].

فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضاً وهو من الجهاد، والخروج من ديارهم هو الهجرة، ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيراً لهم وأشد تثبيتاً.

ففي الآية أربعة أمور: الخير المطلق، والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة، والأجر العظيم، وهداية الصراط المستقيم.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنَصِّرُكُمُ اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، إلى قوله: ﴿عَنْقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأما أهل الفواحش الذين لا يغيضون أبصارهم ولا يحفظون فروجهم فقد وصفهم الله بضد ذلك: من السكره والعمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار.

هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام.

فقال عن قوم لوط: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، فوصفهم بالجهل وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، وقال: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

وقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال: ﴿أَيَّتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، إلى قوله: ﴿أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وقوله: ﴿مُسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]»^(١).

٨ - تبييس النفس من الخيانة والرذيلة، والتصبر وعسف النفس لركوب رواحل العفاف.

اليأس راحة، وإنك إذا يأست من شيء زال من خاطرك التعلق به، فالنفس

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٩/١٥، ٤٠٠).

الإنسانية إذا يئست من أمر ارتاحت من الفكر فيه، ثم رغبت عنه إلى غيره. فالمؤمن يقول لنفسه: ليس لك أمل في خيانة أو رذيلة فاقنعي بالحلال المباح تسعدي وتفلحي.

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ
وقال الحبيب ﷺ: «من يستعفف يعفُّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر»^(١).

ومن التصبر المحمود كتمان الهوى وعدم بثه صيانة للعرض وحفظاً للنفس من التناول على ما ليس لها، قال شيخ الإسلام: «وفي حديث أبي يحيى القنات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً: «من عشق فعف وكنتم وصبر ثم مات فهو شهيد»^(٢)، وأبو يحيى في حديثه نظر؛ لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة، فإن الله أمره بالتقوى والصبر، فمن التقوى أن يعفَّ عن كل ما حرم الله من نظر بعين ومن لفظ بلسان ومن حركة بيد ورجل. والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله، فإن هذا هو الصبر الجميل.

وأما الكتمان فيراد به شيئان: أحدهما:

أن يكتُم بثَّه وألمه ولا يشكو إلى غير الله، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره، وهذا أعلى الكتمانين؛ لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد؛ بل كثير من الناس

(١) البخاري (١٥١/٢). ومسلم (١٠٢/٣).

(٢) ولا يصحُّ مرفوعاً، وانظر كلام شيخ الإسلام أيضاً عليه في التفسير الكبير (٢٣٥/٣) - (٢٣٧)، ومجموع الفتاوى (٤٦٢/١٤).

يشكو ما به، وهذا على وجهين:

فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي وهذا حسن.

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام. وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشتكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على معصية فهذا ينقص صبره؛ لكن لا يَأْثِمُ مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط.

والثاني: أن يكتُم ذلك فلا يتحدث به مع الناس لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتيمت. والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيهِ كان ذلك داعياً له إلى الفعل.

فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة به انقلبت إلى تخیلات أخرى فتحرّكت داعية المحبة سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة... فالمبتلى بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة؛ فإذا تصورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب؛ ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة^(١).

والمقصود؛ أن كتمانهُ محمود من هذه الحثية؛ لأنه امتثل أمر ربه فلم يُشع

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٢٠٨، ٢٠٩) باختصار.

الفاحشة ولو بمجرد ذكرها أو مقدماتها ودواعيها للناس، وهو مأجور على هذا الكتمان الشريف.

٩ - صحبة الصالحين وأهل العفاف:

فالصاحب صاحب إما للخير والهدى أو للشر والضلال، ومن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثر سلبيًا وإيجابيًا بالأصحاب، حتى وإن لم يظهر ذلك سريعًا، فالتأثر ينبت في أعماق النفس شيئًا فشيئًا، وقد يتلاشى بعوامل أخرى كالمجاهدة أو التعلم النافع أو ترك الصحبة أو تغير أخلاق الصاحب، وقد يزداد ويكبر ويثمر المشكلة ظاهريًا عبر التقليد في المظهر أو الكلام أو المهمة أو التشجيع أو التحيزات وغير ذلك.

إذا تبين ذلك فعليك بمصاحبة الصالحين والأخيار من طلبة العلم والدعاة والعباد الأتقياء الأنقياء الأخفياء، وحضور مجالس العلم والذكر، والبعد عن مصاحبة أهل الشر والفجور والضلال والغواية، والبعد عن مجالس الشر والسوء، فمصاحبة الفريق الأول: شفاء ونجاة وفلاح وفوز في الدنيا والآخرة، ومصاحبة الفريق الثاني: داء وهلاك وخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المجلس الصالح كبائع المسك، إذا لم تشتتر منه شممت منه رائحة طيبة، ومثل المجلس السوء كنافخ الكير، إذا لم يحرقك لجلوسك معه شممت منه رائحة

كريمة»^(١).

١٠. إشغال النفس بالخير حتى لا تفرغ للشر.

فالنفس كالرّحى، تدور بلا توقف، وهي تطحن ما يُلقى فيها كيفما كان من خير أو ضده، فإن انشغل المؤمن بالخير والعبادة وتحصيل سبل عيشه الكريمة وقام بمصالحه؛ انسدت على النفس أن تأمره بسوء لأنه قد أشغلتها عن طلبه والفكر فيه. والنفس إن لم تُشغل بالطاعة اشتغلت بالمعصية. وقد أوصى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه بقوله: الراحة للرجال غفلة.

فإن استراح المرء وأخلد للترّفه وطلب أسباب غفلته فإنه بذلك يكون قد أشرع أبواب قلبه للتوافه والغفلات، فدبت إليه عناكب السوء فبنت بيوت الغفلة وحجبت عن بصيرته رؤية مصالحه الحقيقية بتحصيلها والتي خلق لأجلها، والله المستعان.

فعليك بطلب العلم الشرعي والاجتهاد في حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليكن عندك همّة عالية، وليكن لك أهداف عالية سامقة في هذه الحياة، بأن تكون داعياً إلى سبيل الله على بصيرة وعلم، سابقاً عملك قولك وهُداك هدايتك واستقامتك تقويمك.

وأكثر من القراءة في الكتب التي ترقق القلب وتحفّز على فعل الطاعات وترك المنكرات، وكذلك سماع ما أمكنك من مرقّقات القلوب التي هي

(١) البخاري (٢١٠١-٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

كالسياط الناصحة لدابة رحلتك للدار الآخرة!

١١ - تجديد التوبة وتعاهدها على الدوام:

فالتوبة مرافقة للعبد في كل شأنه حتى يستحق خلعة العبد التائب من لدن الرب التواب جل وعلا. «وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فوائد جليلة: منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقل ومستكثر.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١).

وفي الصحيح عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(٢).

في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَمِ مما قال أبو هريرة: إن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي،

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤١).

(٢) مسلم (١٧/٨) (٢٥٧٧) (٥٥).

والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا»^(٢).

وأهل الفواحش مأمورون بالتوبة، وإنما أمرُوا بها لُتَقْبَلُ منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ [الشورى: ٢٥].

وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها - كإتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط أو غير ذلك - وسواء تاب الفاعل أو المفعول به، فمن تاب تاب الله عليه. بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئاً أيسره من رحمة الله^(٣). حتى يقول أحدهم: من عمل من ذلك شيئاً لا يفلح أبداً، ولا يرجون له قبول توبة.

وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة، وقد يكون هذا حالاً وعملاً لأحدهم، وقد يكون اعتقاداً، فهذا من أعظم الضلال والغي؛ فإن القنوط من رحمة الله

(١) البخاري (٦٧/٨، ١٥٦)، و(مسلم) (٥٢/٨) بنحوه.

(٢) الترمذي (٣٢٨٤)، وصححه الألباني.

(٣) الشدة في غير موضعها سبب لتنفير الناس من التدنُّن والعبادة، وما أقبح أثر الشديد في موضع الرفق على نفوس بعض العصاة!

بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى. وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش؛ فإن هذا أمن مكر الله بأهلها وذاك قنط أهلها من رحمة الله؛ والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»^(١).

وقد أحسن شيخ الإسلام بتنبهه لهذا السلوك السيء المخالف للحكمة في الدعوة إلى سبيل الله تعالى، فهو ملحظ مهم ورسالة لطيفة لطائفة ممن شددوا في الإنكار حتى جاوزوا حدوده، فكانت النتيجة تيئيس عباد الله من رحمته! وقد يكون حال من أنكروا عليه خيراً من حالهم لحسنات ماحية لديه أو لذنوب خفية لديهم، أو لإحسان توبته اللاحقة وجميل موافاته بخلافهم، أو غير ذلك. والله المستعان.

فإن الفقيه كل الفقه هو من لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله، بل يستعمل الحكمة وهي الرحمة واللفظ في موضعه والشدة والحزم في موطنه، مع استحضار الرفق في شأنه كله فهو الأصل ولا يرغب عنه إلا لمرجح قوي واضح سالم من المعارضة الراجحة، وحتى في الشدة لا بد أن يصحبها شيء من الرفق، فما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه.

والمقصود: أن على الناهي عن المنكرات أن يستصحب الرفق والنصح ومحبة الخير للناس، وأن يكون حكيماً، وأن يعدّ تعامله مع الناس من صالح

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٤٠٤، ٤٠٥).

أعماله عند ربه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

١٢. غُضُّ السمع والبصر:

وهذا أمر في غاية الأهمية والخطر، فإن الأذن والعين بوابتا القلب القريبتان منه، وكل كلام في غض البصر فهو منسحب على السمع كذلك، فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وحيثما خيفت الفتنة وجب الغض.

ففي زماننا انتشرت فتن السمع والبصر، ومع وسائل التواصل والهواتف ونحوها دخل الشيطان بجنده بقوة إلى قلوب العباد فعات فيها فسادًا، وعصف بسكيتها الإيمانية فصار كثير منها يبابًا، حيث صار الحديث الفاتن بين الجنسين سهلاً ميسورًا إلا لدى من حفظ الله دينه بعفاف وورع! وقديماً قال بشار بن برد - وكان كفيفاً -:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحياناً
وكم من حديث يبدأ بلا ريبة فما هو إلا أن تتكسر فيه الفتاة وتتغنج فيذوب
قلب الرجل في أتون الفتنة والغواية ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]
فالرجل أضعف ما يكون إذا فتح قلبه لامرأة.

قال طاووس في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: "أي في أمر النساء، ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء. وقال وكيع:

يذهب عقله عندهن»^(١).

فالمقصود؛ أن أمر السماع بين الجنسين لا يقل خطراً عن البصر، بل قد يشتد عند بعضهم خاصة إن ساعد على ذلك تغنج ونحوه منها، أو حنان واهتمام منه، إذ الشيطان يعرف مكامن ضعف النفوس ومواطن حاجاتها التي يدخل منها فيفسد ما صلح ويهدم ما بُنى.

وبالجملة؛ فالواجب غلق الأبواب الموصلة لفساد القلب، ومن ذلك غض البصر - وهو الأصل - وغض السمع، ورب العزة يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكم من امرئ صالح وامرأة صالحة ممن أمضوا في الاستقامة دهرًا حتى إذا أدرك الشيطان لحظات ضعف ودقائق هوى فأودت بصلاحيهما أسفل سافلين، فاحتاج القلب أزمانًا ليعود لجمعيته على ربه وتنظيف روحه من درن الخطيئة، والله المستعان.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره... وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض

(١) الدر المنثور (٤ / ٣٤٧).

القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته»^(١).

وتأمل كيف سمى الشارع طرائق الزنا ومقدمات الفاحشة زنا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مَدْرُكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زَنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيَصْدَقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ»^(٢).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الزكاة والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة، كما في صحيح البخاري، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي بِحِفْظِ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرَجْلَيْهِ أَتَكْفُلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ»^(٣).

ومن تزكَّى فقد أفلح فیدخل الجنة؛ والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر فإذا حصل الخير وزال الشر - من العلم والعمل - حصل له نور وهدى ومعرفة وغير ذلك، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية وغير ذلك. هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات، ويحصل له ذلك أيضاً قدرة وسلطاناً وهذه صفات الكمال: العلم والعمل والقدرة وحسن الإرادة.

وقد جاءت الآثار بذلك وأنه يحصل لمن غص بصره نور في قلبه ومحبة كما جرب ذلك العالمون العاملون.

(١) روضة المحبين (٩٢).

(٢) مسلم (٢٦٥٧).

(٣) البخاري (٦٤٧٤).

وفي مسند أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة، ثم يغض بصره؛ إلا أخلف الله له عبادةً يجدُ حلاوتها»^(١).

وعن مجاهد قال: «غض البصر عن محارم الله يورث حب الله».

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «اصرف بصرك»^(٢).

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الأخرى»^(٣).

وتأمل كيف فعلت النظرة الواحدة بقلب ابن عجلان لما أطاها حتى انتهى أمره للوفاة دنفاً وعشقا! وقد جُنَّ غيره كقيس العامري مع ليلاه، فقد "ذكروا أن عبد الله بن عجلان التَّهْدِي القضاعي، صاحب هند النهديّة، وهو أقلّ العشاق أياماً، خرج يوماً إلى شعب في نجد ينشد ضالّةً، فشارف على ماء نهر يقال له غَسَّان، فلما علا ربوة تُشْرِفُ عليه إذ بنات قد خلعن ثيابهن يغتسلن في الماء، فكمّن ينظر مستخفياً^(٤).

فخرجن حتى بقيت هند وكانت طويلة الشعر، فأخذت تمشطه وتسرحه

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٢٢١).

(٢) مسلم (٦/١٨١، ١٨٢) (٢١٥٩).

(٣) أحمد (٣٥١/٥)، وأبو داود، وحسنه الألباني، وورد بالفاظ: «الثانية»، «الأخرة».

(٤) فلم يكتف بالنظرة الأولى، بل كرر وتمعّن وتأمّل حتى اخترم سقم الهوى قلبه.

وتسببه على بدنهما، وهو يتأمل شفوف بياض جسدها من خلال سواد شعرها، فتمكّن الهوى من سويدائه.

فنهض ليركب راحلته فعجز وأُفْعِدَ ساعةً مبهوتًا مما جرى من عقره، فلم يستطع ركوب ناقته بعدما كانت تصفُّ أمامه ثلاث رواحل فيقفزها ويرتحل الرابعة، فقال وقد عرف ما داخله من الحب الذي أعجزه وعطل حركته:

لقد كنتُ ذا بأسٍ شديدٍ وهمّةٍ إذا شئتُ لمَسًا للثريا لمُسْتَهَا
أَتَتْنِي سَهَامٌ من لحاظٍ فأرَشَقْتُ بقلبي ولو استطِيعُ رددْتُهَا

ثم قال: هذه والله الضّالّة التي لا تُرَدُّ، فخطبها إلى أبيها فزوّجه^(١)، ومضى عليهما ثمان سنين في أحسن مقام وأهنأ حال، ولما لم تحبل منه أراد والده تزويجه فأبى، فلما ألحّ عليه عرض عليها أن يأخذ غيرها، فأبت أن تكون مع أخرى، ثم إنه سَكِرَ يومًا^(٢) فجمع أبوه وجوه الناس وطلبوا إليه فراقها فطلقها في حال سكره، فلما أفاق احتجبت عنه، وزوّجت بعدُ لغيره، فذاب حاله كمدًا، فمات عشقًا قبل الفيل بأربع سنين.

وقيل: إنه ذهب إليها في مضارب زوجها، وكان من بني نمير، فأراها جالسة في حوض فدنا منها فتعانقا وسقطا ميتين^(٣).

(١) وليت كل من هوى امرأة طرق باب أهلها للزواج، فالكثير من صرعى الهوى لا يفعلون إما عجزًا أو ضعفًا أو يأسًا أو استحالة أو غير ذلك.

(٢) وهذا من شؤم أم الخبائث!

(٣) وقد يجمع الله الشيتين (٧٧) للمؤلف.

وقال بعض السلف: النظر سهم سمّ إلى القلب. فلهذا أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك.

وقد مر حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي ﷺ: «فالعينان زناهما النظر»^(١). ولقد كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى المردان، وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً.

«وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، فهي لكل محسن.

وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غض البصر وحفظ الفرج وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا الحسين الوراق يقول: من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها ويهدي بها إلى طريق مرضاته.

وهذا لأن الجزاء من جنس العمل؛ فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه. وإذا كان النظر بنور العين مكروهاً أو إلى مكروه فتركه الله أعطاه الله نوراً في قلبه وبصراً يبصر به الحق.

(١) مسلم (٢٦٥٧). وأحمد (٨٥٣٩).

قال شاه الكرمانى: من غَض بصره عن المحارم، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال، وكف نفسه عن الشهوات؛ لم تخطئ له فِراسة.

وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق؛ صار زكياً تقيّاً مستوجباً للجنة»^(١).

وقال ابن تيمية: «وإذا أحب امرأة في الدنيا ولم يتزوجها وتصدق بمهرها وطلب من الله تعالى أن تكون له زوجة في الآخرة رجي له ذلك من الله تعالى. ولا يحرم في الآخرة ما يحرم في الدنيا من التزوج بأكثر من أربع، والجمع بين الأختين، ولا يمنع من أن يجمع المرأة وبينها هناك»^(٢).

واعلم أن النظر لمخلوقات الله يختلف حكمه بحسب متعلّقه، «وذلك أن الإنسان قد ينظر إلى إنسان لما فيه من الإيمان والتقوى، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور فهذا حسن.

وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه كما ينظر إلى الخيل والبهايم وكما ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار.

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٣/١٥ - ٣٩٧) مختصراً.

(٢) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (٤ / ١٣٢)، وانظر: الاختيارات (٢١٧) (٢) / (٢٨٩).

فهذا أيضًا إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين وإنما فيه راحة النفس فقط؛ كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق.

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حرامًا بلا ريب، سواء كانت شهوة تمتع بالنظر أو كان نظرًا بشهوة الوطء، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأشجار والأزهار وما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان.

فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي فصار النظر إلى المردان ثلاثة أقسام:

أحدها: ما تقترب به الشهوة. فهو محرم بالاتفاق.

والثاني: ما يجزم أنه لا شهوة معه. كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة وأمه الحسنة، فهذا لا يقترب به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس، ومتى اقترنت به الشهوة حرم. وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان كما كان الصحابة وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة؛ لأنه لم يعتد ذلك وهو سليم القلب من قبل ذلك.

وقد كانت الإماماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات منكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب، فلو أراد الرجل أن يترك الإماماء

التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الإماء يمشين كان هذا من باب الفساد.

وكذلك المردان الحسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم إلا بقدر الحاجة، فلا يُمكن الأمرد الحسن من التبرج ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ولا من رقصه بين الرجال ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس والنظر إليه كذلك.

القسم الثالث: النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها. ففيه وجهان في مذهب أحمد أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي وغيره أنه لا يجوز وهو الراجح. كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز وإن كانت الشهوة منتفية؛ لكن لأنه يخاف ثورانها؛ ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية؛ لأنه مظنة الفتنة.

والأصل: أن كل ما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة.

ولهذا كان النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرماً إلا إذا كان لحاجة راجحة مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة. وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز.

ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه وقال: إني لا أنظر لشهوة كذب في ذلك، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك.

وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره كما ثبت في الصحيح عن جرير قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «اصرف بصرك»^(١). وفي السنن أنه قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الأخرى»^(٢).

ولهذا يقال: إنَّ غرض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. والنفس تحب النظر إلى هذه الصور لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفاء؛ فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم وتصصره كما يصصره السبع!

ولهذا قال بعض التابعين: ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه.

وقال بعضهم: اتقوا النظر إلى أولاد الملوك - أو الأغنياء - فإن فتنتهم كفتنة العذارى.

وما زال أئمة العلم والدين - كأئمة الهدى وشيوخ الطريق - يوصون بترك

(١) مسلم (١٨٢، ١٨١/٦) (٢١٥٩).

(٢) أحمد (٣٥١/٥)، وأبو داود، وحسنه الألباني، وورد بالفاظ: «الثانية»، «الأخرة». ومّرّ قريباً.

صحبة الأحداث حتى يروى عن فتح الموصلية أنه قال: صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث. وقال بعضهم: ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأتنان.

ثم النظر يولد المحبة فيكون علاقة؛ لتعلق القلب بالمحجوب، ثم صباية؛ لانصباب القلب إليه ثم غراماً؛ للزومه للقلب، كالغريم الملازم لغريمه، ثم عشقاً إلى أن يصير تتيماً، والمتيم المعبّد، وتيم الله عبد الله، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا خادماً^(١).

وهذا إنما يتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز كانت مشركة ف وقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على العفة؛ عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله: ﴿وَلَا غُيُوبَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. والغاي: هو اتباع الهوى. وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى.

(١) وانظر ما سبق في كتاب المحبة، ففيه مزيد بسط وتفصيل.

وأما الفائدة الثانية في غض البصر: فهي نور القلب والفراصة. قال تعالى عن قوم لوط: ﴿لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَةٍ يَمَعَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة وسكر القلب بل جنونه كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشقُ أعظمُ مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما يصرعُ المجنون في الحين

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته. فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإن الله جعل العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولهذا كان في كلام الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله. وكان الحسن البصري يقول: إنهم وإن هملجت بهم البراذين وطققت بهم ذلل البغال؛ فإن ذل المعصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من

عصاه.

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه. وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت»^(١). والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة»^(٢).

وذكر ابن القيم فوائد أخرى لغض البصر عن المحارم فقال: «وفي غض البصر عدة فوائد، منها:

تخليص القلب من ألم الحسرة. فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتهي طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه وذلك غاية ألمه وعذابه.

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم يحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٣٢٨/٢)، والنسائي (٢٥٢/١)، وصححه

الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٧٢ / ٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ٤١٠ - ٤٢٧) بتصرف واختصار.

كَلَّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ وَمَعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرِّ
 كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتَكَ السَّهَامُ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرٍ
 وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا فِي أَعْيُنِ الْغَيْدِ مَوْقُوفٍ عَلَى الْخَطَرِ
 يَسْرُرُ مَقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

والناظر يرمي من نظره سهام غَرَضُهَا وهدفها ومرتيتها قلبه وهو لا
 يشعر، فهو إنما يرمي قلبه!

ومنها: أنه يورث القلب سرورًا وفرحة وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور
 الحاصل بالنظر. وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه.

وأيضًا: فإنه لما كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمانة
 بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة
 العفة أعظم من لذة الذنب.

ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة
 أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى.
 ومنها: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة. فإن الأسير هو أسير شهوته
 وهواه فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب
 وصار:

كعصفورة في كفّ طفلٍ يسوئُهَا حياضُ الرّدى والطفلُ يلهو ويلعبُ

ومنها: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم. فإن النظر باب الشهوة الحاملة على واقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول. فمتى هتك الحجاب ضري على المحظور ولم تقف نفسه منه عند غاية.

فإنّ النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد. فصاحب الطارف لا يقنعه التليد^(١)، وإن كان أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا.

فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

ومنها: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته. فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب. ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره.

وأعقل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يفكر ما تجني عواقبه

ومنها: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب. وسكر العشق

(١) الطارف: الجديد. والتليد: القديم.

أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سُكرانُ سُكرٍ هَوَى وسُكرٌ مدامة ومتى إفاقتَه من به سكران

وفوائد غص البصر وآفات إرساله أضعافُ أضعافٍ ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهًا، ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلًا إلى قضاء الوطر منه شرعًا كالمردان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السَّم النافع والداء العضال^(١).

بل قد يكون ذلك المتساهل بالنظر الحرام ممن نكس الله فطرهم فمالوا إلى الذكران وشابهوا قوم لوط عليه السلام الذين سحقهم الله بعذاب لم يعذب به مثلهم أحدًا من العالمين، فقد ابتلي بعض الناس بحب المردان.

وقد سئل شيخ الإسلام عن حكم مسَّهم بشهوة، وهل ينقض الوضوء فقال رحمه الله: «إذا مسَّ الأمرد لشهوة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره: أحدهما: أنه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء، وهو المشهور في مذهب مالك، وذكره القاضي أبو يعلى في شرح المذهب، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي.

والثاني: أنه لا ينقض وهو المشهور من مذهب الشافعي. والقول الأول أظهر، فإن الوطء في الدبر يفسد العبادات التي تفسد بالوطء في القبل، كالصيام والإحرام والاعتكاف، ويوجب الغسل كما يوجبه هذا؛ فتكون مقدمات هذا في

(١) روضة المحبين (١٠١ - ١٠٥) باختصار وتصرف.

باب العبادات كمقدمات هذا.

والذي لا ينقض الوضوء بمسه يقول: إنه لم يخلق محلاً لذلك. فيقال: لا ريب أنه لم يخلق لذلك، وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المحرمات؛ لكن هذا القدر لم يعتبر في بعض الوطء، فلو وطئ في الدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام، وإن كان الدبر لم يخلق محلاً للوطء، مع أن نفرة الطباع عن الوطء في الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة.

ومس الأمرد لشهوة حرام بإجماع المسلمين، والجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية فيجب قتل الفاعل والمفعول به، سواء كان أحدهما محصناً أو لم يكن، وسواء كان أحدهما مملوكاً للآخر أو لم يكن.

كما جاء ذلك في السنن عن النبي ﷺ وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم، وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط؛ وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني أنه بالرجم، فرجم النبي ﷺ ماعز بن مالك والغامدية واليهوديين والمرأة التي أرسل إليها أنيساً وقال: «أذهب إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» (١).

ومتى خرج الخطاب عن العادة خرج به عن نظائره، فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة وجب المنع من ذلك، كما لو كانت في غير ذلك، وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء؛ لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهاً كما يتوجه إليه الأمر

(١) البخاري (٨/٢٠٧)، ومسلم (٥/١٢١).

بحفظ فرجه. فالإماء والصبيان إذا كن حسناً تُحشى الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك كما ذكر ذلك العلماء.

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل -: الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه، كم نظرة أَلقت في قلب صاحبها البلابل!

وقال المروزي أيضًا: قلت لأبي عبد الله: رجل تاب وقال: لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية إلا أنه لا يدع النظر. فقال: أي توبة هذه؟! قال جرير سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك»^(١).

وقال الحسن بن ذكوان: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورًا كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى.

وهذا الاستدلال والقياس والتنبيه بالأدنى على الأعلى، وكان يقال: لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد. وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء المملوك. وقال: مجالستهم فتنة إنما هم بمنزلة النساء.

ووقفت جارية لم ير أحسن وجهًا منها على بشر الحافي فسألته عن باب حرب فدلها، ثم وقف عليه غلام حسن الوجه فسأله عن باب حرب فأطرق رأسه فرد عليه الغلام السؤال فغمّض عينيه.

ف قيل له: يا أبا نصر جاءتك جارية فسألتك فأجبته، وجاءك هذا الغلام

(١) مسلم (١٨١/٦، ١٨٢) (٢١٥٩).

فسألك فلم تكلمه فقال: نعم، يروى عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي شيطانيه.

وروى أبو الشيخ القزويني بإسناده عن بشر أنه قال: احذروا هؤلاء الأحداث.

وقال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصاني عند مفارقتي له: اتق صحبة الأحداث، اتق معاشره الأحداث.

وكان سفيان الثوري لا يدع أمرداً يجالسه. وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد مجلسه للسمع، فاحتال هشام فدخل في غمار الناس مستتراً بهم وهو أمرد فسمع منه ستة عشر حديثاً، فأخبر بذلك مالك فضربه ستة عشر سوطاً، فقال هشام: ليتني سمعت مئة حديث وضربني مئة سوط! وكان يقول: هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللحي والشيوخ فلا يحمله عنا إلا أمثالهم.

وقال يحيى بن معين: ما طمع أمرد أن يصحبني، ولا أحمد بن حنبل في طريق. وروى ابن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه. وقد روي في ذلك أحاديث ضعيفة.

وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيها وابن أختها ومملوكها. عند من يجعله محرماً. متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب، بل وجب.

وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة؛ ولهذا قال

تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك لكن هذا أزكى.

وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب، ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة؛ لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ودون ذلك وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير ونظر الغير إليه، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه.

ولهذا قال ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال له: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». قال: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت ألا يرينها أحد فلا يرينها». قال: فإذا كان أحدا خالياً؟ قال: «فإن الله أحق أن يستحيا منه من الناس»^(١).

وقد «نهى النبي ﷺ أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد، وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد»^(٢). و«نهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل، وأن

(١) عن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه. أخرجه أبو داود (٤٠١٧). والترمذي (٢٧٩٤). وصححه ابن القيم، وحسنه ابن حجر والألباني والأرنؤوط، وحسنه ابن باز من رواية جد بهز بن حكيم.

(٢) من حديث جابر رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «يَنْهَى أَنْ يُبَاشِرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَالْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ». أخرجه أحمد (١٥١٨٤) واللفظ =

تنظر المرأة إلى عورة المرأة»^(١).

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رجلاً اطلع من جحرٍ في باب النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ مدري يحكُّ بها رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر إلي لطعنت به في عينك؛ إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٢).

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل؛ لأن الناظر معتدٍ بنظره فيُدفع كما يدفع سائر البغاة، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل. ولم يجوز قلع عينه ابتداءً إذا لم يذهب إلا بذلك، والنصوص تخالف ذلك؛ فإنه أباح أن تحذفه^(٣) حتى تتفقاً عينه قبل أمره بالانصراف.

وكذلك قوله: «لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك»، فجعل نفس

له، ومصنف عبد الرزاق (١١ / ٢٤٣)، وابن أبي شيبة (١٧٨٨٨)، والطبراني في الأوسط (٥٢١٨) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(١) لفظه: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد». رواه مسلم (١٨٣/١) (٣٣٨) (٧٤)، وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/٢٢٦، ٢٢٧): «فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، وهذا مما تعم به البلوى، ويتساهل فيه كثير من الناس باجتماع الناس في الحمام، فيجب على الحاضر فيه أن يصون بصره ويده وغيرها عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره ويد غيره من قيم وغيره».

(٢) البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦).

(٣) الخذف: هو رمي الحجر الصغير، فهو أخص من عموم الخذف.

النظر مبيحاً للطعن في العين، ولم يذكر الأمر له بالانصراف. وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت، فله أن يفقأ عينه بالحصي والمدري.

والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك، وكما في قصة لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فالفاحشة أيضاً تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة، وكانوا يقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها؛ إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم، وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها وإلا طاف عرياناً، وإن طاف بثيابه حرمت عليه فآلقاها، فكانت تسمى لقاء، وكذلك المرأة. وقد سمي الله ذلك فاحشة.

وقوله في سياق ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يتناول كشف العورة أيضاً وإبداءها، ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشاً، فكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع.

والمقصود؛ أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح، وتتناول إظهار الفعل وأعضاءه، كما أن ذلك يتناول ما فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، فأخبر أن هذا النكاح فاحشة. وقد قيل إن هذا من الفواحش الباطنة، فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة؛ فإن قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، يتناول العقد والوطء. وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال.

وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقاً بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المعارج: ٢٩، ٣٠] الآيات. وقال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فحفظ الفرج مثل قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] وحفظها هو صرفها عما لا يحل.

وأما الأبصار فلا بد من فتحها والنظر بها، وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد فلا يمكن غضها مطلقاً، ولهذا أمر تعالى عباده بالغض منها كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته.

ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقاً في كل حال ولم يؤمر العبد به؛ بل يؤمر برفع الصوت في مواضع إما أمر إيجاب أو استحباب فلهذا قال: ﴿وَأَغْضُ مِنْ

صَوْتِكَ ﴿[لقمان: ١٩].

فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه،
فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه، كما جمع العضوين في قوله: ﴿أَلَمْ
يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩]، فبالعين والنظر يعرف القلب
الأمور، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور، هذا رائد القلب
وصاحب خبره وجاسوسه، وهذا ترجمانه»^(١).

١٣ - استشعار مراقبة الله تعالى وإحاطته وعلمه.

وهذا من بركات الإيمان بأسماء الله وصفاته، وعلى قدر استحضار القلب
لهاتيك الصفات الجليلة العظيمة يكون خوفه من ربه وحيأؤه واستحضار معيَّته.
فالمؤمن حينما يستشعر قرب الله تعالى منه ورؤيته له وسمعه وعلمه بما
يخفي وما يعلن وإحاطته التامة به فإن ذلك يثمر إحسان القول والعمل والسمع
والبصر، بل والخطاير^(٢).

وإذا تدبر المؤمن قول ربه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُحَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
تُبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٢٩]، فإنه يسلم أمر
نفسه الأمانة لشرعة ربه ويسيرها على صراط ربه المستقيم، فإن نازعته مستغلة
ضعف بشريَّته وانتقاض عزمه ذكرها بقول ربه الأعز: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١﴾﴾ [العلق:

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٧٤ - ٣٩٥) باختصار.

(٢) وللمراقبة كتاب مستقل بإذن الله تعالى.

[١٤]، بلى وعزة ربِّي بلى!

ولما سأل جبريل رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، وهذا في الغاية من استحضرار معية الله تعالى وإطلاعه على عبده.

«وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا»^(٢).

وقوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أُمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قرب من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلايته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني؛ وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه.

وقال وهب بن الورد: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي^(٣) من

(١) مسلم (٢٨/١) (٨).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٢ / ٣٣٠).

(٣) حُذفت الياء الثانية للجزم الأمر، فأصلها ياءان من يستحي، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ

الله على قدر قربته منك. وقال له رجل عظمي فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك^(١).

وقال بعض العارفين من السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف^(٢)، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. وفيه إشارة إلى ترك المعاصي في السر، وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

وكتب ابن السمّك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيبك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربته منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرک، وليكثر منه وجلک، والسلام.

لَا يَسْتَحْيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴿البقرة: ٢٦﴾.

(١) ورويت كذلك عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى.

(٢) أي: عالم بالله تعالى.

وقال بعضهم: ابن آدم، إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصفُ لك من عينين ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته! ولم تستحي منه حياءك من بعض خلقه.

ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه لقد اجتأأت.

ودخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوتُ ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفاً^(١) بصوت ملاء الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وراود بعضهم أعرابية وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب. قالت: أين مكوكبها؟!

ورأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما.

وقال الحارث المحاسبي: المراقبة: علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد: بم يُستعان على غَضِّ البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره.

(١) الهاتف هو الصوت الذي لا يُرى صاحبه، وهم يحيلونه في الأغلب إلى الملائكة أو الجان.

وكان عمر قد بعث معاذًا على عمل، فقدم وليس معه شيء^(١) فعاتبته امرأته، فقال: كان معي ضاغط.. يعني من يضيق عليّ ويمنعني من أخذ شيء.. وإنما أراد معاذ ربه عز وجل، فظنت امرأته أن عمر بعث معه رقيبًا، فقامت تشكوه إلى الناس.

ومن صار له هذا المقام حالًا دائمًا أو غالبًا فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم.

وفي الجملة فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الشاء في قلوب المؤمنين. وعن ابن مسعود: ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر^(٢).

وقال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله فيُلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته. وقال غيره: إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله، ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه. وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينفع من

(١) أي: من المال نظير عمله.

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن جندب مرفوعًا (١ / ١٨٠ / ١)، ولا يصح الرفع. وانظر: ضعيف الجامع (٥٠٠٠).

قدرته حجاب ولا استتار.

فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً له.

وقال أبو سليمان: إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.

ومن أعجب ما روي في هذا: ما روي عن أبي جعفر السائح قال: كان حبيب أبو محمد تاجراً يكرى الدراهم، فمر ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا! فنكس رأسه وقال: يا رب أفشيت سري إلى الصبيان. فرجع فجمع ماله كله وقال: يا رب إني أسير وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال فأعتقني. فلما أصبح تصدق بالمال كله، وأخذ في العبادة، ثم مر ذات يوم بأولئك الصبيان فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا فقد جاء حبيب العابد. فبكى وقال: يا رب أنت تذكّر مرة وتحمد مرة، وكله من عندك»^(١).

ومن أعظم أسباب الثبات على ملة الإسلام عبادة السرّ في الأمر والنهي، في الواجب والمستحب وفي المحرم والمكروه، فعبادة الخلوات من أسباب الثبات على الدين حتى الممات، بإذن رب البريّات سبحانه وبحمده، أما معاصي

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ٣٦)، (١٦٠ - ١٦٣) باختصار.

الخلوات فهي دهليز الانتكاسات وسوء الخاتمة عياداً بالله تعالى ورحمته ولطفه.

١٤ - تحديث النفس بفضل العفاف وشرف أهله.

إنَّ أفضل ما يأتيه الإنسان المبتلى بالعشق التعفّف، والاصطبار لله تعالى لتحصيل رضوانه بمصابرة العفاف، حتى يغنم العافية التي من أُعطيها فقد أُعطي الخير، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألا يعصي مولاه المتفضّل عليه، الذي جعله مكاناً وميداناً وأهلاً لأمره ونهيه، وأرسل إليه أنبياءه ورسله، وجعل كلامه أمانةً لديه، عناية منه به وإحساناً إليه وهداية له.

وإنَّ من هام قلبه، واشتغل باله، واشتدَّ شوقه، وعظم وجده، ثم ظفر ببغيته، فرام هواه أن يغلب عقله، وكادت شهوته أن تقهر دينه، فأقام المراقبة والحياء والخشية لنفسه حصناً، وعلم أنّها النفس الأمارة بالسوء، وذكّر لها بعقاب الله تعالى، واستحيا منه، وتذكّر جلال لقائه، وتفكّر في شناعة اجترائه على خالقه وهو يراه، وعظيم جرمه بكفر نعيمه التي بها يريد عصيانه، وحذّر لها من يوم هول المعاد، والوقوف بين يدي الملك العزيز العليم الجليل الشديد العقاب، الذي لا يحتاج إلى بينة واستشهاد، فأنطق حينها بالشهادة على الجاني جوارحه وأركانه المطلقة في السوء والخطيئة والعصيان، «ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿[آل عمران: ٣٠]، يوم: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

يوم: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، يوم الطامة الكبرى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَتُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٥ - ٤١].

واليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كُنْتُكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

عندها يقول العاصي: ﴿يَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فكيف بمن طوي قلبه على أحرّ من جمر الغضا، وطوي كشحه على أحد من السيف، وتجرح غصصاً أمراً من الحنظل، وشرّف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيات له ولم يحل دونها حائل؛ لحريّ أن يُسرَّ غداً يوم البعث، ويكون من المقرّبين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوّضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر.

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب؛ لوجب علينا إفناء الأعمار، وإتعب الأبدان، وإجهاد الطاقة، واستنفاد الوسع، واستفراغ بالعقل الذي ابتدأنا بالنعيم

قبل استئصالها، وامتنَّ علينا بالعقل الذي به عرفناه، ووهبنا الخواص والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات.

وصرف لنا السماوات جارية بمنافعها، ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم، قال الله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأرشدنا إلى سبيلها، وبصّرنا وجه نيلها، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله، وديناً لازماً له، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضلها على تفضله. وهذا كرم لا تهتدي إليه العقول، ولا يمكن أن تكتنفه الأبواب.

ومن عرف ربه ومقدار عاقبة رضاه وسخطه؛ هانت عنده اللذات الداهية والخطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعر لسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم ينته إليه أمل؛ فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها، ولا تفنى التباعة منها، ولا يزول الخزي عن رакبها، وإلى كم هذا التماذي وقد أسمعنا المنادي، وكأن قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنة وإما إلى النار؟ ألا إنَّ التثبُّط في هذا المكان هو الضلال المبين.

قد آن للقلب أن يفيق وأن
ألهاه عما عهدت يعجبه
يا نفس جدي وشمري ودعي
وسارعي في النجاة واجتهدي
من قد حباه الإله رحمته
فصار من جهله يصرفها
أليس هذا أحرى العباد غداً
يزيل ما قد علاه من حجبهِ
خيفة يوم تُبلى السرائرُ به
عنك أتباع الهوى على لغبهِ
ساعيةً في الخلاص من كُربهِ
موصولة بالمزيد من نشبه
فيما نهى الله عنه في كتبه
بالوقع في ويله وفي حربهِ

والحمد لله كثيراً طيباً مزيداً، فمواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا نُحمدُ، ولا يُؤدّي شكرُها، والكلُّ منحه وعطاياه، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكلّ عارية فراجعة إلى معيرها، وله الحمد أولاً وآخرًا وعودًا وبدءًا.

أراك إذا حاولتَ دنياكَ ساعياً
وفي طاعة الرحمن يُقعدُكَ الونى
تُحاذرُ أحزاناً ستفنى وتنقضي
تنبّه ليومٍ قد أظلكَ وردُهُ
تبرّاً فيه منك كُلُّ مُحالٍ
فأودعتَ في ظلماءِ ضنكٍ مقرّها
تُنَادى فلا تدري المُنادي مُفرداً
تُنَادى إلى يومٍ شديدٍ مُفزعٍ
على أنّها بادٍ إليك ازورارها
وتُبدي أناةً لا يصحّ اعتذارها
وتنسى التي فرضَ عليك حذارها
عصيبٌ يوافي النفسَ فيه احتضارها
وآنَ مِنَ الآمالِ فيه انهارها
يلوحُ عليها لِلْعيونِ اغبرارها
وقد حُطَّ عن وجهِ الحياةِ خمارها
وساعةٌ حشرٍ ليس يخفى اشتهارها

صَحَائِفُنَا وَانْثَالَ فِينَا انْتِشَارُهَا
وَأُذْكِي مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ اسْتِعَارُهَا
وَأُسْرِعَ مِنْ زَهْرِ النُّجُومِ انْكَدَارُهَا
وَقَدْ حَلَّ أَمْرٌ كَانَ مِنْهُ انْتِشَارُهَا
وَقَدْ عَطَّلَتْ مِنْ مَالِكِيهَا عِشَارُهَا
وَأَمَّا لِدَارٍ لَا يُفَكُّ إِسَارُهَا
فَتُخَصِّي الْمَعَاصِي كُبْرُهَا وَصِغَارُهَا
وَتُهْلِكُ أَهْلِيهَا هُنَاكَ كِبَارُهَا
إِذَا مَا اسْتَوَى إِسْرَارُهَا وَجَهَارُهَا
وَأَسْكَنَهُمْ دَارًا حَلَالًا عَقَارُهَا
إِذَا صَانَ هَمَّاتِ الرِّجَالِ انْكَسَارُهَا
قَنُوعُ غَنِيِّ النَّفْسِ بَادٍ وَقَارُهَا
أَحَاطَتْ بِنَا مَا إِنَّ يُفِيْقُ خَمَارُهَا
وَفِي عِلْمِهِ مَعْمُورُهَا وَقِفَارُهَا
بَلَا عَمَدٍ يُبْنَى عَلَيْهِ قَرَارُهَا
فَصَحَّ لَدِيهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
فَمِنْهَا تُغَذَّى حُبُّهَا وَثَارُهَا
فَأَشْرَقَ فِيهَا وَرْدُهَا وَبَهَارُهَا
وَمِنْهَا مَا يَغْشَى اللَّحَاطَ احْمِرَارُهَا
فَنَارَ مِنَ الصُّمِّ الصَّلَابِ انْفِجَارُهَا

إِذَا حُشِرَتْ فِيهِ الْوَحُوشُ وَجُمِعَتْ
وَرُيِّنَتْ الْجَنَاتُ فِيهِ وَأُزْلِفَتْ
وَكُوِّرَتْ الشَّمْسُ الْمَنِيرَةُ بِالضُّحَى
لَقَدْ جَلَّ أَمْرٌ كَانَ مِنْهُ انْتِظَامُهَا
وُسَيِّرَتْ الْأَجْبَالُ وَالْأَرْضُ بُدِّلَتْ
فَأَمَّا لِدَارٍ لَيْسَ يَفْنَى نَعِيمُهَا
بِحَضْرَةِ جَبَّارٍ رَفِيقٍ مُعَاقِبٍ
وَيَنْدُمُ يَوْمَ الْبَعْثِ جَانِي صِغَارُهَا
سَتُغْبَطُ أَجْسَادُ وَتَحْيَا نَفُوسُهَا
إِذَا حَفَّهْمُ عَفْوُ الْإِلَهِ وَفَضْلُهُ
هَلِ الْعِزُّ إِلَّا هِمَّةٌ صَحَّ صَوْنُهَا
وَهَلْ رَابِحٌ إِلَّا أَمْرٌ مُتَوَكَّلُ
عَيْنَانَا نَرَى هَذَا وَلَكِنْ سَكْرَةٌ
تَدْبِرُ مِنَ الْبَاقِي عَلَى الْأَرْضِ سَقْفَهَا
وَمَنْ يُمَسِّكُ الْأَجْرَامَ وَالْأَرْضُ أَمْرُهُ
وَمَنْ قَدَّرَ التَّدْبِيرَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ
وَمَنْ فَتَقَّ الْأَمْوَاءَ فِي صَفْحٍ وَجْهِهَا
وَمَنْ صَيَّرَ الْأَلْوَانَ فِي نَوْرِ نَبْتِهَا
فَمِنْهُمْ مُخَضَّرٌ يَرُوقُ بِصَيْصُهُ
وَمَنْ حَفَرَ الْأَنْهَارَ دُونَ تَكَلُّفٍ

وَمَنْ رَتَبَ الشَّمْسَ الْمُثِيرَ ابْيَاضَها
وَمَنْ خَلَقَ الْأَفْلاكَ فامتدَّ جَرِيها
وَمَنْ إِنْ أَلَمَّتْ بِالْعَقُولِ رَزِيَّةً
تَحْدُ كُلَّ هَذَا راجِعًا نحوَ خالِقِ
وأبرزَ مِنْ صُفْمِ الحِجَارَةِ ناقةً
لِيُوقِنَ أَقْوامٌ وَتَكْفُرَ عُصْبَةٌ
وَشَقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ دُونَ تَكْلُفٍ
وَسَلَّمَ مِنْ نارِ الْأَثُونِ خَلِيلَهُ
وَنَجَّى مِنَ الطُّوفانِ نوحًا وَقَدْ هَدَى
وَمَكَّنَ داوودًا بِأَيْدٍ وابْنَهُ
وَذَلَّلَ جَبَّارَ الْبِلادِ لِأَمْرِهِ
وَفَضَّلَ بِالْقُرْآنِ أُمَّةَ أَحْمَدٍ
وَشَقَّ لَهُ بَدْرَ السَّما وَخَصَّصَهُ
فَما بَالُنا لا نَتْرِكُ الْجَهْلَ وَيُحْنا

غُدُّوا وَيَبْدُو بِالْعَشِيِّ اصْفَرارُها
واحكمها حتى استقامَ مدارُها
فليس إلى حيٍّ سِواه افتقارُها
له مُلْكُها منقادَةٌ وائتارُها
وأسمعهم في الْحَيْنِ مِنْها حُوارُها
أُتاهَا بِأسبابِ الْهَلاكِ قُدَّارُها
وبانَ مِنَ الْأَمْواجِ فِيهِ انْحِसारُها
فَلَمْ يُوْذِهِ إِحْراقُها واحْتِرازُها
بِهِ أُمَّةٌ أَبْدى الْفَسوقَ شِرازُها
فَتَعَشِيرُها مُلْقَى لَهُ وَبِذَارُها
وعَلَّمَ مِنْ طَيْرِ السَّما حِوارُها
ومَكَّنَ فِي أَقْصى الْبِلادِ مُغارُها
بِآياتِ حَقٍّ لا يُحِلُّ مُعارُها
لنَسْلَمَ مِنْ نارٍ تَرامى شِرازُها» (١)

١٥ - حسم المادة بعدم اتباع خطوات الشيطان.

لقد حذر الله تعالى في القرآن من خطوات الشيطان في أربعة مواضع فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ

(١) رسائل ابن حزم (١ / ٢٦٩ - ٣١٠) بتصرف واختصار.

اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿النور: ٢١﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال عز من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال جل وعلا: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولقد أنصفك وأشفق عليك ونصحك من بين لك حقيقة عدوك وقدر عداوته.

فاعلم أنّ الشيطان يتدرّج بالإنسان في معصية خالقه تعالى، فينقله من الخطرة والفكرة إلى النظرة والسماع، ثم يتبعه اللمس والقبلة والضم، ثم الفاحشة الكبرى، ثم العادة الدائمة حتى يرحل بفجوره وإباقه ووزره للقاء سيده ومالكة وإلهه وربّه!

وتأمل واعتبر بقصة برصيصا الذي كان عابداً فافتتن بسبب اتباعه خطوات عدوّه الشيطان. وهي عكس خبر جريج، فإن جريجاً عُصم وذلك فتن عياداً بالله تعالى. «فعن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) فَكَانَ عَقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

قال: وكانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها اخوة أربعة، وكانت تأوي بالليل

إلى صومعة راهب. قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل تُصَدِّق ويُسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال: فأتى الشيطان أخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.

فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك قالوا: لا بل قصها علينا. قال: فقصها فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء! فانطلقوا فاستعدوا^(١) ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه.

ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان، فقال: إني أنا أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له. فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل.

وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل ابن حيان نحو ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسياق آخر. فقال: إن راهباً تعبَّد ستين سنة، وإنَّ الشيطان أرادَه فأعياه، فعمد إلى امرأة^(٢) فأجنَّها^(٣) ولها أخوة فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال: فجاءوا

(١) استعدوا ملكهم: أي استعانوا به فأنصفهم منه وصار عدواً لبرصيصا.

(٢) فالنساء حباثل إبليس إلا الصالحات فعدوَّاته وقاهراته.

(٣) أي: أصابها بالجنون أو تلبس الجنان.

بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها^(١) إذ أعجبته فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعيتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة، فسجد له قال: إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين.

فذلك قوله: ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنْ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]»^(٢).

وقيل: إنه طلب منه السجود له، فقال: إني مقيد إلى العمود لا أستطيع، فقال الشيطان: أومئ إلي بالسجود، فأومأ إليه فأشرك مع الله، فطار عنه الشيطان وتركه لما تمكن منه وأدرك مقصوده الذي هو دينه. فقتل كافراً مشركاً بعد استقامته وصلاحه، عياداً بالله من مكره واستدراجه.

وروى الذهبي رحمه الله: أنه «كان رجل بمصر ملتزم المسجد للأذان والصلاة وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة. فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطَّلَعَ فيها^(٣) فرأى ابنة صاحب الدار. وكانت جميلة. فافتتن بها وترك الأذان ونزل إليها فقالت له: ما شأنك وما تريد؟

(١) وفيه خطر الخلوة بالأجنبية مهما كان حالها.

(٢) البداية والنهاية (٢ / ١٦٢، ١٦٣) مختصراً.

(٣) ويأرب معصية جرت لأكبر منها، فلو أنه حسم المادة من أولها ولم يطاوع نفسه حينما زينت له النظر الحرام!

فقال: أنت أريد، قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك. قالت له: أنت مسلم وأبي لا يزوجني بك، قال: أنتصر!^(١) قالت له: إن فعلت أفعل. فتنصّر ليتزوجها.

وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط فمات، فلا هو فاز بدينه ولا هو تمتع بها. نعوذ بالله من مكره وسوء العاقبة وسوء الخاتمة»^(٢).



(١) عيادًا بوجه الله تعالى من سوء العاقبة وشر المنقلب. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ

مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(٢) الكبائر، للذهبي (١ / ٢٢٧) مختصرًا.

من أخبار أهل العفاف

عفة النبي ﷺ

سيد العفيفين بإطلاق هو رسول الهدى والتقى والطيب والفضيلة والعفاف نبينا محمد ﷺ. فلقد كان النبي ﷺ في أعلى درجات العفة في كل مجالاتها الجسدية والنفسية والخلقية والمالية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال رسول الله ﷺ: «كخ كخ!»^(١) ازم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»^(٢).

وعنه أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأنقلب إلى أهلي؛ فأجد التمرة ساقطة على فراشي، ثم أرفعها لأكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقها»^(٣).

وقد عرض عليه ربه ملك الدنيا والخلد فيها مع النبوة فأثر الرسالة والفقر فيجوع ويصبر ويشبع ويشكر ويتعبد ربه في كل أحيانه قد جرى العفاف منه مجرى الدم وخلط بلحمه وعصبه حتى كان عفافاً يمشي على قدمين ﷺ.

ولما عرضت عليه قريش أجمل نسائها وأنفس أموالها وأن يملكوه عليهم نظير كفه عن آلهتهم أبى عفافاً عن أكل الدنيا بالدين، وصياناً للملة من أدنى

(١) كخ: زجر للصبي وردع، وتقال عند التقذر كذلك. «النهاية» لابن الأثير (٤/٢٧٣)، ولا زالت عند العامة فيقولون: كخة.

(٢) البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٨).

(٣) البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

ثلمه، صلوات ربي عليه وسلامه وبركاته.

عفة يوسف عليه السلام

لقد خلّد الله قصة عفافه النادر في سورة باسمه تتلى، فقد كان شاباً أعزباً جميلاً مملوكاً مدعوّاً للسوء من سيده المتهيئة له بكل ما يريده الرجال من النساء، لكن الله عصمه بتقواه وصلاحه واستقامته وإخلاصه.

لقد أخبر الله سبحانه عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته وألحّت في فتنته، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن واقعة الفعل تكون بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، لكن المانع كان أقوى وأرفع وأسمى، إنه العفاف النبوي! «وقد كانت قوّة داعي الفاحشة من وجوه:

أحدها: ما ركّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

الثالث: أنّه كان عزباً، ليس له زوجة ولا سُرّيّة تكسر شدّة الشّهوة.

الرابع: أنّه كان في بلاد غربة، يتأتّى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتّى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أنّ المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إنّ كلّ واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنَّها غير ممتنعة ولا آبية.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب، وذلك الرغبة إليها، بل كانت هي الرغبة الدليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنَّه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة.

التاسع: أنَّه لا يخشى أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الرغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيّت الرقباء.

العاشر: أنَّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتياال، فأرته إياهنَّ، وشكت حالها إليهنَّ؛ لتستعين بهنَّ عليه.

الثاني عشر: أنها توعّده بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه.

الثالث عشر: أنَّ الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرّق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وللمرأة: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكَ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها أثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنا: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٢٩].

[٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأنَّ ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهنَّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه» (١).

فنبى الله يوسف عليه السلام؛ قد استعصم بربه حين حاصرته دواعي الفتنة، ولم يستسلم أمام التهديدات والإغراءات مالية كانت أو جسدية أو لسانية أو نفسانية أو غير ذلك، بل ردّها ابتداء ولم يسمح بمقدمات البلاء أن تستولي عليه، فلا بد للعفيف من اجتناب مقدمات الفاحشة كالنظر والكلام وغيرهما، بل وحتى مدافعة الخواطر القبيحة قدر طاقته حتى لا تنتقل لتكون فكرة ثم شهوة ثم انحذاراً للحرام عبر خطوات الشيطان.

«وفي قول يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

إحدهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الأمرين بالذنوب وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة» (٢).

(١) الجواب الكافي (٢٠٨) بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ١٣٠).

لقد كانت حقاً قصة تهدي أهل العفاف من أن تتخطّفهم سباع الشهوات وضباع الغفلات: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

عفاف سارة زوج إبراهيم عليه السلام

العفيفة الشريفة، التي أحصنت فرجها وأطاعت ربها فحفظها الله تعالى من كيد الملك الفاجر، فالله لا يضيع أهله ولا يخيب من دعاه ورجاه.

والله تعالى حافظ أهل العفاف فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك. أو جبار من الجبابرة. فقليل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء. فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن على الأرض من مؤمن غيري وغيرك.

فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنتُ آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر. فغطَّ^(١) حتى ركض برجله.

قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلتها. فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأ

(١) أي: حُنيق بأمر الله تعالى.

وتصلي^(١) وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ هذا الكافر، فغطّ حتى رَكَضَ برجله». قال عبد الرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: «اللهم إن يمت فيقال هي قتلته. فأرسل في الثانية أو في الثالثة فقال: والله ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة^(٢)»^(٣).

عفاف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وهم المثل الأعلى للعفاف بعد الأنبياء، فله صحابة رسول الله ﷺ في حرصهم على العفاف وخوفهم من ضده، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَدَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التَّبَتُّلَ^(٤)، ولو أذن له لاختصينا^(٥)». والمعنى: أن الرسول ﷺ لو أذن في ذلك الانقطاع عن النساء لاختصينا لدفع الشهوة وحفظ الفرج وضمان العفاف. وتأمل سيرتهم في عفافهم عن الأموال والرئاسات رضوان الله عليهم.

(١) وفيه فضيلة الدعاء حال الصلاة، وأنه أدعى للإجابة، لأنها دخول مقدس على الملك الكريم سبحانه.

(٢) الوليدة: هي الأمة الصغيرة التي لم تبلغ.

(٣) البخاري الفتح (٢٢١٧ / ٤) واللفظ له، ولمسلم (٢٣٧١) نحوه.

(٤) التَّبَتُّلُ: الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعاً لعبادة الله تعالى.

(٥) البخاري (٥٠٧٣)، مسلم (١٤٠٢).

عفة حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشبع اليد العليا خير من اليد السفلى».

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ^(١) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أي أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه.

فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي^(٢).

عفة عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حادثة تبين لنا عفة وشهامة عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولنترك المجال لصاحبة الموقف أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تروي لنا القصة فتقول: «... وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت

(١) أي: لا أنقص.

(٢) البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح^(١) فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا: الحقّي بزوجك إن شئت.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلتُ بغيري، ثم أخذت ابني فوضعتَه في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: قلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وابني هذا، قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي به، فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قطُّ أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلنا استأخر ببعيري فحطَّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاد بي حتى ينزل بي.

فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية. وكان أبو سلمة بها نازلاً. فادخلها

(١) الأبطح: مسيل وادي مكة. «النهاية (١/١٣٤).

على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة، قال: وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام ما أصاب أبو سلمة، وما رأيت صاحباً قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة»^(١).

(١) سيرة ابن هشام (٤٦٩/١). وهو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشيّ العبدريّ، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة. وفي بني طلحة سدانة الكعبة، وقد أخذ النبي ﷺ من عثمان بن طلحة يوم الفتح المفتاح للكعبة، وكان عند أمه محفوظاً، وقد أبت أن تسلمه إياه، فقال عثمان: والله لتعطينه، أو ليخرجنّ هذا السيف من صُلبي، فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فدفعه إليه، ففتح الباب. رواه البخاري (١٥٩٨)، ومسلم (١٣٢٩). وروى عبد الرزاق، والطبراني أنها جعلت تقول: إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبداً. قلت: ولكنه رسول الله ﷺ خير مظنون فيه. فقد ردّ النبي ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وليس ذلك عليه بلازم، لكنها مكارم الأخلاق. وروي أنه قال: «خذوها - أي: سدانة الكعبة - خالدة تالدة، لا يترعها منكم إلا ظالم». رواه الطبراني في الكبير ١١ / ١٢٠ (١١٢٣٤)، بإسناده ضعيف، لضعف عبد الله بن المؤمل، وذكر الحافظ في «الفتح» (٨ / ١٩) شاهداً له من مرسل عبد الرحمن بن سابط.

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣ / ١٠٣٤: «وهاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ، وكانت هجرته في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد، فلقي عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشي يريد الهجرة، فاصطحبوا جميعاً، حتّى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال رسول الله ﷺ حين رآهم: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» - يقول: إنهم وجوه أهل مكة - فأسلموا، ثمّ شهد عثمان بن طلحة فتح مكة، فدفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة إليه وإلى شيبه

عفة سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال ابن عيينة: «دخل هشام الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سلني حاجة. قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره. فلما خرجا، قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا. قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألكها من لا يملكها؟» (١).

عفة الربيع بن خثيم رحمه الله تعالى

عن سعدان قال: «أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعها أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك جبل الوتين؟» (٢)، أم كيف بك

بن عثمان بن أبي طلحة، وقال: «خذاها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم». ثم نزل عثمان بن طلحة المدينة، فأقام بها إلى وفاة رسول الله ﷺ، ثم انتقل إلى مكة فسكنها حتى مات بها في أول خلافة معاوية، سنة اثنتين وأربعين، وقيل: إنه قتل يوم أجنادين». رضي الله عنه.

(١) المجالسة للدينوري (٣٤٨/١).

(٢) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

لو قد ساء لك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًا عليها. فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق»^(١).

عفة الأشرف، صاحب دمشق

قال سبط الجوزي: «كان الأشرف يحضر مجالسي بحرّان، وبخلاط، ودمشق، وكان ملكًا عفيفًا، قال لي: ما مددت عيني إلى حريم أحد، ولا ذكر ولا أنثى، جاءتني عجوز من عند بنت صاحب خلاط - شاه أرمن - بأنّ الحاجب عليًا أخذ لها ضيعة، فكتبت بإطلاقها. فقالت العجوز: تريد أن تحضر بين يديك. فقلت: باسم الله، فجاءت بها، فلم أر أحسن من قوامها، ولا أحسن من شكلها، فَخَدَمَت.

فقمت لها، وقلت: أنت في هذا البلد وأنا لا أدري؟ فسفرت عن وجه أضاءت منه الغرفة، فقلت: لا، استتري. فقالت: مات أبي، واستولى على المدينة بكتمر، ثم أخذ الحاجب قريتي، وبقيت أعيش من عمل النقش وفي دار بالكراء! فبكيت لها، وأمرت لها بدار وقماش. فقالت العجوز: يا خوند، ألا تحظى الليلة بك؟ فوقع في قلبي تغير الزمان وأنّ خلاط يملكها غيري، وتحتاج بتني أن تقعد هذه القعدة، فقلت: معاذ الله، ما هذا من شيمتي. فقامت الشابة باكية

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/١٩١).

تقول: صان الله عواقبك (١) (٢) (٣).

وتأمل عفافه عن هذه الفتاة سليلة الأمراء الأرمن بجهاها وإغرائها وإقبالها عليه. اللهم نسألك العفو والعافية فعن معاذ بن رفاعه قال: قام أبو بكر الصديق على المنبر، ثم بكى فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر ثم بكى فقال: «اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يُعط بعد اليقين خيراً من العافية» (٤).

عفة جريج العابد

نموذج آخر في العفة عما حرم الله، وهو جريج العابد؛ تتعرض له بغية من بغايا بني إسرائيل، فيعف نفسه ولا يلتفت إليها، فتحاول أن تنتقم منه لامتناعه، لكن الله معه، زمن كان الله معه فلا يخش الضيعة والقلّة والهزيمة والفاقة والشر.

والله سبحانه لا يخيب أهل العفاف حينما يدعونه ولا يكلهم إلى ضعفهم حين يحتاجونه فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي الله ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً. فاتخذ صومعة (٥)، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج. فقال: يا رب،

(١) أي: حفظ أهلك، وحفظك فيما تستقبل من زمانك.

(٢) الترمذي (٣٥٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣ / ١٨٠).

(٣) سير الأعلام للذهبي (١٢٦/٤٢).

(٤) وانظر: موسوعة الأخلاق. العفة.

(٥) الصومعة: هي منارة الراهب ومُتَعَبِّدُهُ. فتح الباري (١/١٤٥).

أمي وصلاتي^(١)، فأقبل على صلاته، فانصرفت!

فلما كان من الغد، أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد، أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج. فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات!^(٢)

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغية يُتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم. قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت. فلما ولدت، قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زנית بهذه البغي^(٣) فولدت منك.

فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي فصلي^(٤)، فلما

(١) وكان عليه أن يوجز ما تبقى من صلاته النافلة ويقبل مسرعًا على أمه.

(٢) المومسات: الزواني والمجاهرات بالزنا.

(٣) البغي: الفاجرة الزانية.

(٤) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] وفيه مشروعية الصلاة عند اشتداد الكرب، فقد «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة». رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) ومعنى حزه: أي نزل به أمر مهم أو أصابه غم. وكان يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها». رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام! من أبوك؟ قال: فلان الراعي!

قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا. أعيدوها من طين كما كانت^(١)، ففعلوا.

وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة^(٢) فقالت أمه: اللهم! اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه. فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع، قال: فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة^(٣) في فمه فجعل

والله تعالى يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وتأمل وصف الله للمؤمنين باستثنائهم من الهلوعين لدوامهم على قرع بابه بصلاتهم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرْجُ جُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].
أما ما تسمى بصلاة الحاجة فلم ترو إلا من طرق لا تثبت، والعبادات مبناهما على التوقيف، فعليه: ليس في الشرع تخصيص صلاة معينة بصلاة الحاجة، ولكن يصلي المؤمن صلاته، ويلج على الله تعالى فيها بدعائه خاصة في سجوده وقبل سلامه، وبالله التوفيق.

(١) وهذا من تواضعه وصدقه وشكره لربه تعالى.

(٢) الفارهة: الحادة النشيطة، والشارة: الهيئة واللباس.

(٣) وفيه تسمية هذا الأصبع بالسبابة، خلافاً لمن منع منها وألزم بتسميتها السبابة. وهذا من التكلف والتشديد.

يمصها.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجع الحديث. فقالت: حَلَقِي! ^(١) مَرَّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها!

قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها ^(٢)» ^(٣).

وأكرم بعلم الله تعالى لها غناء عن علم غيره، وكفايته عن كفاية خلقه، وحفظه عن حفظ غيره، ووعدته عن وعد غيره تبارك وتعالى. وهذا من ابتلاء الله تعالى للصالحين والصالحات من عباده وإمائه، وتأمل قصة الإفك وما فيها من أهوال نفسانية أليمة حتى تعلم أن الطعن الكاذب في عرض المؤمن الشريف

(١) حلقى، عقرى، ويل أمه، قاتله الله، ثكلتك أمك... كل هذه وأشباهاها عبارات تطلقها العرب تعجبًا أو حُضًا أو غيره ولا تريد ظاهرها المتبادر.

(٢) أي: في العفاف والتوكل والصبر.

(٣) البخاري، «الفتح (٦/ ٣٤٣٦)»، ومسلم (٢٥٥٠) واللفظ له.

يرفعه ولا يخفضه^(١).

صاحبي العقار

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقاراً^(٢) له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب. وقال الذي له الأرض: إنما بعثك الأرض وما فيها.

فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية. قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقاً»^{(٣)(٤)}.

خالد المسكي

ويذكرون عنه أنه كان بزازاً يبيع القماش، فهو يته امرأة للفاحشة فخافت رفضه لظهور صلاحه واستقامته، فاحتالت عليه فأرسلت جاريته تقول: أن سيدتي تريد كذا وكذا من بضاعتك فاجلبها إليها لتختار ما تريد لأنها لا تخرج للأسواق!

(١) وانظر كتاب: «حديث الإفك عبرات وعبر» للمؤلف.

(٢) العقار: هو الأرض وما يتصل بها من بنيان أو زروع ونحوها.

(٣) وهذا من فقهه وحكمته، فلم يخرج العقار من ملكيها، فذريتهما من كسبهما، وأكرم بذرية من هذين العظمين من عطاء العفاف.

(٤) البخاري (١٦٣٠)، ومسلم (١٧٢١).

فصدقها وذهب إليها ببضاعته، فلما دخل البيت فردّ القماش لトラه السيدة فخرجت عليه في أجمل حلة وأبهى هيئة وأشد فتنة!

فتذكر خالد لقاء ربه ورؤيته له، فقدّم الحظ الباقي النفيس على العاجل الفاني الخسيس فاستعصم بعفافه، وذكرها الله تعالى وسطوته وشديد عقابه، لكنها أبت إلا الفاحشة أو لتفضحنه ولتكذبن عليه بين الناس.

فلما أعيته الحيل قال: إذن فدليني على بيت الخلاء عندكم حتى أتياً لك، فدلته عليه فدخله ولطخ جسده الطاهر بقذر الخلاء، ثم خرج إليها فتأففت وتقذّرت منه وطردته.

ثم إنه ذهب لبيته واغتسل وتطهر وتنظف وعاد لعمله وحاله وعبادته، لا يعلم عن قصته أحد من الناس سوى المرأة وجاريتها. ولكن أظهر الله زكاه وطهره وعفافه، فبعد أيام من خروجه من عندها فاح من بدنه ريح مسك يوضع في الأرجاء التي يمرُّ بها، بل وكان الناس يعرفون أن خالدًا قد مرَّ من ذلك الشارع لبقاء ريح الطيب فيه، حتى لقبوه بخالد المسكي.

ويقال: إنه قد عاش بذلك الريح الطيب في بدنه حتى وفاته رحمه الله، ثم بقي زمانًا يفوح من قبره الذي امتلأ عفافاً وطهرًا.

صاحب عمر رضي الله عنه

في عهد أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هناك شاب ناسك متعبّد جميل الهيئة والصورة، فراودته امرأة عن نفسه فتعفف عنها وزجرها ونهاها عن

المنكر.

فذهبت تشكو حالها لعجوز سوء فاحتالت عليه، إذ جلست في طريق ذهابه للمسجد ومعها متاع ثقيل، فلما مر بها هتفت به: يا بني، احمل عني هذا الحمل لبيتي جزاك الله خيرًا! فحمله لها حتى إذا دخل بيتها أغلقت الباب ونادت الفتاة التي أرادته وهي في كامل زينتها قد استعدت له وتمهأت لإغوائه.

فتذكر الشاب اطلاع الله تعالى عليه فاستحيا أن يراه ربه على معصية، وأي معصية؟! إنها الزنا الذي تلا الشرك والقتل في قبحه وشناعته لدى القلوب الحية العليمة بربها وشرعه، وتذكر الدار الآخرة وذكرهما بالله تعالى والدار الآخرة وهوان الدنيا وقبح الجناية، فأبتا عليه إما أن يفعل الفاحشة أو تصيحاً عليه وتتهمانه بالسوء والفحشاء، فقال بكل ثقة بربه العلي الرقيب: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] (١).

فلما أيستا من استجابته صاحتا عليه فأتى الناس فطرحوه أرضاً وضربوه تبريحاً، ثم قيدوه وأتوا به إلى الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما رآه امتقع وجهه وقال: اللَّهُمَّ لا تحيِّب ظني فيه (٢)!

ثم أنه سأله واستفهمه فأخبره الفتى بواقع الحال كما جرى، فاستدعى عمر عجوز الفتنة وهددها بدِّرتة (٣) فاعترفت وباحت بسرّها، فهتف عمر: الحمد

(١) فاهتف بهذا الشعار العاصف بكل شهوة والمبدد لكل مخافة.

(٢) لِمَا علم من صلاحه واستقامته.

(٣) الدِّرَّة: عصا يضرب بها عمر المخالفين.

لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ كيوسف عليه السلام. أي في تعففه عن الفاحشة بعد مراودة المرأة له وتهديده ووعيده^(١).

الذي لم تأكله النار

وذلك أنّ حريقاً شب في دار فأحرقت الناس والمتاع فخرج منها رجل لم تؤذه النار، فسأله الناس عن سرّه مع الله تعالى إذ حفظه في الهلكة فأبى عليهم، حتى إذا ألحوا عليه أخبرهم خبره، وهو أنه قد هوي امرأة جميلة ذهبت بلبّه فراودها بالسوء فأبت وامتنعت.

ثم إن الحاجة أدركتها فوافقتة، حتى إذا خلا بها في حجرة مغلقة قالت: أي فلان، أغلق كل النوافذ، فقال: كلها مغلقة. قالت: أغلق كل الأبواب، قال: كلها مغلقة. فقالت: وأين الباب الذي بيننا وبين الله عز وجل؟!!

قال: فعلتني قشعريرة الحياء من الله تعالى والخوف منه، فقممت عنها تاركا المال لها. فدعت ربها وأنا منصرف عنها: اللهم حرّمه على نار الدنيا والآخرة. فها هي نار الدنيا لم تطعم جسدي، فأسأل الله ان يستجيب النصف الثاني من دعوتها.

الفتى الأندلسي

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «حدّث هارون بن موسى الطبيب قال:

(١) القصتان الآنفتان قرأتها في صباي فرويتها من الذاكرة، ولا أتذكّر مرجعها، ولم أجده.

رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤنة التحفظ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله، فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً.

ونزل الشاب في داره مع امرأته^(١)، وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبا، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس^(٢) ولم يمكنه الانصراف إلى منزله.

فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تآقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل، فهم بها ثم تاب إليه عقله. وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقق ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنم!

فهاهنا المرأة ما رأت ثم عاودته، فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعل الأولى، فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار!

أفتظنُّ بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه، أو ترى أن الله تعالى يضيع له هذا المقام؟! كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

(١) وهذا في غاية الخطر، فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو ثالث الرجل والمرأة، فإن لم يحفظهما الله تعالى ووكلهما إلى نفسيهما الضعيفتين هلكا.

(٢) أي: لمنع حظر التجول في آخر الليل.

ولقد حدثني امرأة أثق بها: أنها علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته. وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خالين فقال: هلمِّي نحقق ما يُقال فينا.

ف قالت: لا والله لا كان هذا أبداً، وأنا أقرأ قول الله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. قالت: فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال»^(١).

صاحب الغار

مشهورة قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانطبقت عليهم الصخرة فمنعتهم من الخروج فدعوا الله تعالى بخالص أعمالهم فقال أحدهم متوسلاً إلى ربه تعالى بعفاه: «اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأنا راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمئة دينار؛ فطلبتها حتى قدرت، فأتيها بها فدفعتها إليها، فأمكنني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله^(٢)! ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه^(٣) فقمت وتركت المئة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا»^(٤).

(١) رسائل ابن حزم (١ / ٢٦٩ - ٣١٠) بتصرف واختصار.

(٢) وهو أعظم تذكير على الإطلاق. فتأملها ملياً: اتق الله!

(٣) أي: لا تجامع إلا عن زواج صحيح.

(٤) البخاري (٣٤٦٥).

خبر سلامة الزرقاء مع عبد الرحمن بن أبي عمّار

قال الزبير بن بكار: «كان عبد الرحمن بن أبي عمّار من عبّاد أهل مكّة، فسمي القسّ لعبادته.

فمرّ ذات يوم بدار سهل بن عبد الرحمن بن عوف مولى سلامة الزرقاء، وهي تغني، فسمع غناءها، فبلغ منه كلّ مبلغ^(١)، فرآه مولاهما وتبيّن ما لحقه، فقال له: هل لك أن تدخل إليها وتسمع منها؟ فامتنع وأبى، فقال له: أنا أقعدك في موضع تسمع من غنائها ولا تراها ولا تراك. ولم يزل به حتّى دخل وسمع غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك أن أخرجها لك؟^(٢) فامتنع بعض الامتناع، ثمّ أجابه^(٣).

فأخرجها إليه، وأقعدها بين يديه، وغنّته، فشغف بها، وشغفت به. وكان

(١) ويظهر من ذلك خطر الغناء وتسميمه للقلب الصحيح، حتّى يعود سقيماً من العشق، ويزداد الشر فوراً في القلب إذا كان الغناء من امرأة. فإذا اجتمع النظر والسماع فلا تسلك عن فساد القلب وقسوته، والله المستعان وهو المسلّم والحافظ على المؤمن دينه وعافيته.

(٢) وهذا من رقة دين سيدها، فالواجب عليه صيانتها وحفظها وكفّ الفتنة منها وعليها.

(٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

أديباً ظريفاً. واشتهر أمره معها بمكة حتى سمّوها سلامة القس^(١).

وخلا معها يوماً، فقالت له: أنا والله أحبك. فقال لها: أنا والله كذلك. قالت له: أحب أن أضع فمك على فمي. قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك من ذلك، فوالله إنَّ الموضع لخالٍ؟ فقال لها: ويحك، إنِّي سمعت الله عزَّ وجل يقول في كتابه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]^(٢). وأنا أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة.

ثم نهض وعيناه تذرفان من حبّها^(٣) وعاد إلى الطّريقة التي كان عليها من النّسك والعبادة^(٤). وكان يمرُّ في بعض الأيّام ببابها فيرسل إليها بالسّلام^(٥) فيقال له: أدخل فيأبى. وقال فيها أشعاراً كثيرة، وغتته بها. فمنها:

إنَّ التي طرقتك بين ركائب تمشي بمزهرها وأنت حرام
باتت تُعلّلنا وتحسب أننا في ذاك أيقاظٌ ونحن نيام

(١) أي: نسبوها إليه تهكماً به لا تضاع أمره بعد سموّه ونسكه، لكنه نزع عن ذلك فعاد لصالح حاله بحمد الله تعالى.

(٢) وهذا لبقية الخير فيه، فلم يكله الله تعالى لنفسه فيقع في الفاحشة.

(٣) فللحب حرارة وألم في جوف العاشق العفيف.

(٤) وقال ربنا تبارك وتعالى في شأن العفيف يوسف عليه السلام وفي شأن كل عفيف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

(٥) وهذا تفريط منه، فالواجب حسم مادة الفتنة قبل اشتعالها في قلبه مرة أخرى.

حَتَّى إِذَا سَطَعَ الصَّبَاحُ لَنَاظِرٍ فَإِذَا الَّذِي مَا بَيْنَنَا أَحْلَامُ
 قَدْ كُنْتُ أَعْدِلُ فِي السَّفَاهَةِ أَهْلَهَا فاعجب بما تأتي به الأيامُ
 فاليوم أعدُّهُمْ وأعلمُ أَنَّمَا طُرُقُ الضَّلَالَةِ واهْدَى أقسامُ^(١)

الفتى والحجاج

قصص أهل العفاف كثيرة وما خفي منها أكثر مما اشتهر وظهر، والله لا يضيع أجر المحسنين الصالحين المخلصين العفيفين.

ومن ذلك: «أن الحجاج بن يوسف عرض سجنه يوماً، فأُتي برجلٍ فقال له: ما كان جرمك؟ قال: أصلح الله الأمير، أخذني العسس وأنا مخبرك بخبري، فإن يكن الكذب ينجي فالصّدق أولى بالنّجاة.

فقال: ما قصّتك؟ قال: كنت أخاً لرجلٍ فضرب الأمير عليه السير إلى خراسان، فكانت امرأته تجذبني وأنا لا أشعر، فبعثت إليّ يوماً رسولاً قد جاء كتاب صاحبك فهلّم لتقرأه. فمضيت إليها، فجعلت تشغلني بالحديث حتّى صلّينا العشاء، ثمّ أظهرت لي ما في نفسها، ودعتني إلى السوء، فأبيت ذلك.

فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ أنّك لص. فلمّا أبيت عليها صرخت فخرجت هارباً. وكان القتل أهون عليّ من خيانة أخي. فلقيني عسس الأمير فأخذوني. فعرف صدق حديثه وأمر بإطلاقه»^(٢).

(١) أخبار النساء (١ / ١٠).

(٢) أخبار النساء (١ / ١٤).

عفاف أديب

عتب عبد الله بن طاهر على بعض كتّابه فسجنه في مقصورة. فأشرفت عليه جارية لعبد الله كانت حظية عنده، فنظرت إلى الفتى وكان أديباً ووافقت نظرة منه إليها. فوقع في قلبها محبة شديدة، وعالجت الصبر عنه فلم تقدر عليه. فأخذت رقعة فكتبت فيها:

أيها الزاني بعينيه وفي الطَّرْفِ حُتُوفُ
إن تُردَّ وصلًا فقد أمكنك الظبيُّ الألفُ

ثم دلت إليه الرقعة بخيط، فلما قرأها كتب فيها:

إن ترينني زاني العينين فالقلبُ عفيفُ
ليس إلا النَّظَرَ الفا تِك والعقلُ ظريفُ

فلما رأتها الجارية يكتب في الرقعة جواباً فرحت، ولم تشك أنه فيها أرغب. فلما رفعت الرقعة وقرأتها ساءها ردّه، فقلبتها وكتبت في ظهرها:

قد أردناك على أن تجتلي ظبيًّا ألوفا
فأبيت الآن لا زِلْتُ لقيديك حليفاً

ثم دلتها، فلما قرأها كتب فيها:

ما تركتُ الظبيَّ إنِّي كنتُ للظبيِّ عنيفاً
غيرَ أني خِفْتُ ربًّا لم يزلْ برًّا رؤوفاً

فرفعت الرقعة، فلما رأتها ساءها ذلك، فأومأت بها لتجعلها في جيبيها،

فجعلتها بين ثوبها وهي لا تدري. فدخلت مقصورتها، وجاء عبد الله ماشياً في سطح قصره فمرّ بالرقعة فتناولها فعرف خط الجارية وخط الفتى، فعجب من عفته وصبره عنها على حسنهما وجمالها، وكانت من أعزّ جواريه عليه.

فدخل عليها فوجدها مكتئبة حزينة. فقال: ما هذه الرقعة يا فلانة؟ قالت: أعزّ الله الأمير، هي ما رأيت. قال لها: فالله عليك شاهد أنّه لأحبّ إليك مني؟ قالت: إي والله. قال: فأمر الفتى ففكّت قيودّه، وكساه وأجازته، وقال له: خذ هذه الجارية بجميع ما يحويه مُلكُها ثواباً لعفتك وتقاك وخوفك الله تعالى، ورفع مرتبته من كتابه، ولم يزل مكرماً له^(١).

عفاف الأعراب

قيل لبعض الأعراب - وقد طال عشقه لجارية -: ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها، ولا يراكما غير الله؟ قال: إذا، والله لا أجعله أهون الناظرين، لكنني أفعل بها ما أفعل بحضرة أهلها، حديثٌ يطول، ولحظٌ قليل، وترك ما يكره الرّبُّ، وينقطع به الحبُّ.

والله تعالى لا يخيب من دعا ووثق في كرمه وتفريجه، قال محمّد بن عبيد الزّاهد: كانت عندي جاريةٌ فبعتهَا، فتبعتهَا نفسي، فسرت إلى مولاها مع جماعة إخوانه، فسألوه أن يقيّلني ويربح عليّ ما شاء، فأبى.

فانصرفت من عنده مهموماً مغموماً، فبتُ ساهراً لا أدري ما أصنع، فلمّا

(١) المستجاد من فعلات الأجواد، للدارقطني (١ / ٦٦).

رأيت ما بي من الجهد، كتبت اسمها في راحتي، واستقبلت القبلة. فكلَّ ما
 طرقني طارق من ذكرها رفعت يدي إلى السَّماء وقلت: يا سيِّدي هذه قصَّتِي!
 حتَّى إذا كان في السَّحر من اليوم الثَّاني، إذ أنا برجلٍ يدقُّ الباب، فقلت:
 من هذا: أنا مولى الجارية. ففتحت، وإذا بها. فقال: خذها بارك الله لك فيها!
 فقلت: خذ مالك والرَّبح. فقال: ما كنت لأخذ دينارًا ولا درهمًا. قلت فلم
 ذلك؟ قال: أتاني الليلة في منامي آتٍ فقال: ردَّ الجارية على ابن عبيد الله، ولك
 الجنَّة.

وقيل لآخر: ما كنت صانعًا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أعصي
 الشَّيطان في آثامها، ولا أفسد بضع عشرة سنين فيما يبقى ذميًّا عاره، وينشر قبيح
 أخباره في ساعةٍ تفقد لذَّتها. إنِّي إذا لئيمٌ، ولم يلدني كريمٌ^(١).

وقيل لليل: هذا قيسٌ مات لما به من عشقك. قالت: ولقد خفت والله أن
 أموت بذلك منه. قيل لها: فما عندك حيلةٌ تخفِّف ما به؟ قالت: صبري، وصبره،
 أو يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وقيل لعفراء، وقد بلغها ما نزل بعروة، فكادت تبوح بسرِّها ف قيل لها: أما
 عندك له حيلةٌ تخفِّف ما به؟ فقالت: والله، لأنَّا أسرُّ بذلك وأشوق إليه منه،
 ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النَّار.

وصدَّقت رحمها الله، فلا خير في لذة من بعدها النار!

(١) أخبار النساء (١ / ١٥).

وقيل لميَّة، بعد موت قابوس: ما كان يضُرُّك لو أمتعته بوجهك قبل موته؟
 قالت: منعني من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان بقلبي منه أكثر ممَّا
 كان بقلبه، غير أنَّي وجدت ستره أبقى لنا لما في الصِّدر من المودَّة، وأحمد للعافية.
 وقال العتبي: قال أعرابيُّ: إن لم يكن العشق ضرباً من السَّحر، فإنَّه للسَّعة
 من الجنون.

وسئلت أعرابيَّةً عن الهوى، فقالت: هو الهوان غلطٌ باسمه، وإنَّها يعرف ما
 نقول من أبكته المعارف والطلُّول.

وقد سئلت أعرابيَّةً عن صفة الهوى، فقالت:

الحبُّ أوَّلُه ميلٌ تهيم به نفس المحبِّ فيلقى الموت كاللعبِ
 يكون مبدؤه من نظرةٍ عرضت أو مزحةٍ أشعلت في القلب كاللهبِ
 كالنَّار مبدؤها من قدحةٍ فإذا تضرَّمت أحرقت مستجمع الخطبِ

ولمجنون ليلي في وصف مرض قلبه الخطير:

أصليّ فلا أدري إذا ما ذكرتها أثنتين صلَّيت الضُّحى أم ثمانيا
 أراني إذا صلَّيت أقبلت نحوها بوجهي وإن كان المصلَّى ورائيا
 وما بي إشراكٌ ولكنَّ حبَّها وعظم الجوى أعياء الطَّبيب المداويا

وبعدُ: فإنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِبَ الهوى واستراح من لأوائه وعذابه وقسوته
 وغفلة صاحبه عمَّا فيه صلاحه في دنياه وعُقباه. وبالله التوفيق ومنه المعونة وبه
 الاعتصام وعليه الاتكال، والحمد لله رب العالمين.

وسبحان الناشر على الخاطئين جناح ستره، والكاشف الضر الذي بيده عاقبته، والمجيب الدعاء برحمته التي بالتوفيق أنطقت، والمنعم قبل الاستحقاق بنعمته سبحانه.

سبحانه كم سيئة قد أخفاها حلمه حتى دخلت في عفوه، وكم حسنة ضاعفها فضله حتى عظمت عليها مجازاته، ورحم الله عبداً وقف على سهو أو خطأ من أخيه فأصلحه عاذراً لا عاذلاً، ومنياً لا نائلاً، فليس المرء بعيداً عن الخطأ إلا من وقى الله سبحانه وعصم فلا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

اللهم نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز ولا إلى الناس فنضيع، وكلنا إليك يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا حسيناً ووكيلنا في الدنيا والآخرة، اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، إله الحق. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ورجع بنا الحمد آخرًا كما ابتدأ أولاً، فلا محمود على الحقيقة ولا الكمال سواه، فالحمد لله رب العالمين.



نداء مشفق من عسكر الأموات!

كأنك بالمضيِّ إلى سبيلك وقد جدَّ المجهَّزُ في رحيلك
 وجيء بغاسلٍ فاستعجلوه بقولهم له أفرغ من غسيلك
 ولم تحمل سوى كفنٍ وقطنٍ إليهم من كثيرٍ أو قليلك
 وقد مدَّ الرجال إليك نعشاً فأنت عليه ممدودٌ بطولك
 وصلَّوا ثمَّ إنهم تداعوا لحملك من بكورك أو أصيلك
 فلما أسلموك نزلت قبراً ومن لك بالسلامة في نزولك
 أعانك يوم تدخله رحيماً رؤوفٌ بالعباد على دخولك
 فسوف تجاور الموتى طويلاً فذرني من قصيرك أو طويلك
 أخي لقد نصحتك فاسمع لي وبالله استعنت على قبولك
 ألسـت ترى المنايا كل حين تصيبك في أخيك وفي خليلك

بِحَمْدِ اللَّهِ

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي
موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

- | | | | |
|------|-------------------------------|------|--------------------------|
| ١ - | مقدمات في أقوال وأعمال القلوب | ١٥ - | الافتقارُ إلى الله تعالى |
| ٢ - | التوحيد والإخلاص | ١٦ - | الاستغناء بالله تعالى |
| ٣ - | العبودية | ١٧ - | التعلق بالله تعالى |
| ٤ - | الصدق مع الله تعالى | ١٨ - | الالتجاء إلى الله تعالى |
| ٥ - | محبة الله تعالى | ١٩ - | الاعتصام بالله تعالى |
| ٦ - | الشوق إلى الله تعالى | ٢٠ - | سلامة الصدر |
| ٧ - | الأنس بالله تعالى | ٢١ - | العفاف |
| ٨ - | الإرادة | ٢٢ - | الصبر |
| ٩ - | العزم | ٢٣ - | الرضا بالله تعالى |
| ١٠ - | الرجاء | ٢٤ - | شكر الله تعالى |
| ١١ - | الرغبة | ٢٥ - | حمد الله تعالى |
| ١٢ - | التوكل على الله تعالى | ٢٦ - | الفرح بالله تعالى |
| ١٣ - | حُسنُ الظنِّ بالله تعالى | ٢٧ - | |
| ١٤ - | الثقة بالله تعالى | | |

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|---|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ. | ٨ - سبع بشارات توراثية برسول الله ﷺ. |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ. |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة. | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البايبل). |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية. | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان. |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام. | ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليها السلام. |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل. | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب. | |

كتب متنوعة

- ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
- ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر).
- ٣ - لله درك يا كعب.
- ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمر.
- ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية.
- ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
- ٧ - (ويكون الدين كله لله).
- ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
- ٩ - المدهشات.
- ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً.
- ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
- ١٢ - وقد يجمع الله الشتيتين.
- ١٣ - دموع على سفح الفؤاد.
- ١٤ - نَظَرَاتٌ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.
- ١٥ - أزمة الفكر المادي.
- ١٦ - السَّلَفِيَّةُ مُحَضُّ الْإِسْلَامِ الْعَتِيقِ.
- ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
- ١٨ - رقائق المتقين.
- ١٩ - شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية.
- ٢٠ - شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبيّة.
- ٢١ - رياضُ الأنسِ. منتخبات نافعة من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميحي رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).

- ٢٢- دمعُ الغَمَامِ مِنْ مَحَايِرِ الْأَعْلَامِ.
حكم وفوائد ووصايا وقصائد،
جمع الشيخ محمد الدميحي
رَحِمَهُ اللَّهُ (تحقيق وتعليق).
- ٢٣- الحَنِيفِيَّةُ، مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام
٢٤- مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ.
٢٥- انْفِسَاخُ الْعَزَائِمِ وانتقاضُ
الدَّعَائِمِ
٢٦- مَقْدَمَةُ الْحَمَوِيَّةِ.. طَلَعَ الصَّبَاحُ
فَأُطْفِئُوا الْقِنْدِيلَا.
٢٧- صَقِيعُ الْفَلَّاسِفَةِ (كيف تؤذي
الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة
النفوس).
٢٨- مَسَائِلُ مُلَحَّةٍ فِي الْقَدَرِ.
- ٢٩- مَنْ هُوَ الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
٣٠- مَبَاحِثُ فِقْهِيَّةٍ.
٣١- مَعَالِمُ التَّوْحِيدِ وَالْحَنِيفِيَّةِ فِي سِيرَةِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ﷺ.
٣٢- إِرْشَادُ الْحَفَازِ فِي مِثَابِهِ الْأَلْفَاظِ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
٣٣- الْإِعْجَازُ الرَّبَّانِيُّ فِي الْيَهُودِ.
٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ.
٣٥- تَعْقِيَّاتٌ عَلَى كُتُبِ شَرِيفَاتٍ،
(على شرحي الإمامين النووي
وابن حجر للصحيحين).
٣٦- الْإِقْلِيدُ.. مِفَاتِحُ الْعِلْمِ،
وَالْعِبَادَةِ، وَالِدَعْوَةِ، وَالسَّلُوكِ.

- ولَمَنْ شَاءَ تَحْمِيلُ جَمِيعِ كُتُبِي مَجَّانًا بِصِيغَةِ pdf: اكتب في قوقل: (حمل مجَّانًا مؤلفات إبراهيم الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. **وهذا باركود التحميل المباشر لها:**



رابط التحميل المباشر:

حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميّجى، من هنا

الصفء والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917

لميس الغديري

lameesalghadeery@gmail.com

☎ ٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩

الصبر

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرمحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

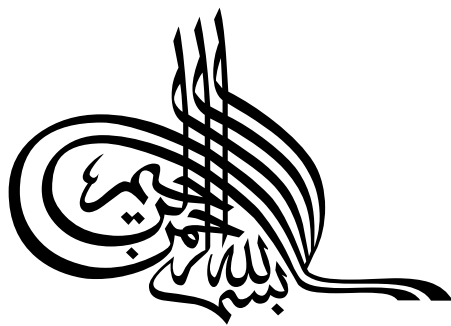
الكتاب رقم (٢٢)

الصَّبر

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فَهْرِسْتُ الْمَحْتَوَاتِ

مقدمة	٩
التعريف	١٦
الفرق بين الصَّبر والتَّصَبُّر والاصطبار والمُصابرة	٢١
الأسماء التي تتجدَّد للصَّبر	٢٨
هل يوصف الله تعالى بالصبر؟	٣١
منزلة الصبر وفضله	٤٧
هل المصائب تُكفر الخطايا بنفسها أم بالصبر عليها؟	٩٩
حكم الصبر	١٠٩
الصبر نصف الإيمان	١١٥
الصبر نصف الدين	١١٧
عاقبة الصابرين	١٢٥
شرط الصبر	١٣٣
آداب الصبر	١٣٥
الشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر	١٥٩
فرق ما بين الإخبار والشكوى	١٦٥
ليس من التصبُّر المحمود تمنِّي البلاء	١٦٦
الصبر الجميل	١٧٣
الفتنة كثر القلوب والصبر برهانها	١٧٧
مراتب الصبر	١٨٨



أقسام الصبر	١٩٠
أقسام الصبر باعتبار موقعه من الأعضاء، وباعتبار أعماله	١٩٢
درجات الصبر، وتفضيل صبر الإرادة على صبر التسليم	٢٠٦
أقسام الصبر باعتبار تعلّق الصابر بالله تعالى	٢٢١
أقسام الصبر بحسب اختلاف القوّة والضعف	٢٢٥
أقسام الصبر بحسب سهولته وشدّته	٢٢٨
أشقّ الصبر على النفوس	٢٣٠
علاقة الصبر بغيره من الأعمال	٢٣٥
الصبر والإرادة	٢٤٠
الصبر والمحبة	٢٤١
الصبر والتوكّل	٢٤٣
الصبر والاستغفار	٢٤٥
الصبر في الدعوة إلى سبيل الله تعالى	٢٥١
الصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣١٣
الصبر في طلب العلم	٣١٧
الصبر عند غربة الدين	٣٢٤
الصبر والثبات	٣٣٤
الصبر عند الابتلاء	٣٤٨
الفرج بعد الشدة	٣٦١
الابتلاء تمحيص وتطهير ورفعة للمؤمن	٣٦٧
الصبر عند الفتن العامة	٣٧٠

٣٨٢		فقهُ الفتنِ وحالُ المؤمنِ حيالها
٥٠٧		أحكام قتال الفئّة الباغية
٥٢٣		الصبر عند فقد الأُحبة
٥٣٦		لا تحزن
٥٤١		الشهداء الصابرون كثير سوى القتل في سبيل الله تعالى
٥٨٣		الشهداء ثلاثة
٥٨٥		الشهداء أكثر من عشرين نوعاً
٥٩٣		حياة الشهيد
٦٠٠		أُمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها
٦١٦		هل يُعذب الميت بما نوح عليه؟
٦٢٢		التعزية وأحكامها
٦٢٦		حكم زيارة الرجال والنساء للقبور وشدّ الرحال إليها
٦٤٠		الصبرُ عند ألم جرح العِرض وانتهاكه بكلام أو فعل أو لمزٍ وهمزٍ
٦٥٥		الصبر لله في التحلّم وكظم الغيظ
٦٦١		عشرون سبباً للحلم والعفو
٦٧٤		جمرة الغضب!
٦٧٤		أقسام الناس في الغضب
٦٧٦		قبح آثار الغضب
٦٧٩		عيب من لا يغضب بالمرّة
٦٨٠		كمال الغضب في اعتداله
٦٨١		هل يمكن إزالة أصل الغضب بالرياضة؟

٦٨٩	 الأسباب المهيجة للغضب
٦٩٣	 علاج الغضب بعد هيجانه
٦٩٧	 فضيلة كظم الغيظ
٦٩٩	 فضيلة الحلم
٧٠٥	 القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام
٧٠٧	 معنى الحق ونتاجه وفضيلة العفو والرفق
٧١٦	 فضيلة الرفق
٧٢٤	 فضيلة التغافل
٧٢٩	 الصبر على العيال
٧٣١	 عاقبة الصبر عند الضراء والمرض
٧٤٥	 مظان الحاجة إلى الصبر
٧٦٣	 دواء الصبر وما يستعان به عليه
٧٦٨	 الصبر والهوى
٧٧٠	 المؤمن مبتلى في طريق العبودية بشهواته
٧٩٨	 يوسف الصديق بين صبرين
٨١٢	 مقويات على الصبر
٨٢٧	 مقويات الصبر عند حلول الفقر أو الدين أو مصيبات الجوائح
٨٤٣	 مقويات الصبر عن المعصية
٨٦٣	 أيهما أفضل: الصبر على الطاعة، أم الصبر عن المعصية؟
٨٧٢	 الصبر عن الحسد
٨٧٥	 أسباب معينة على الصبر على البلاء

٨٩٧	أسباب معينة على الصبر على الطاعة
٩١٤	الصوم غذاء للصبر
٩١٩	الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام
٩٢٢	ومن يؤمن بالله يهد قلبه
٩٣٦	ثمرات الصبر
٩٣٨	شؤم العجز وسوء عاقبته
٩٤٤	بين الصبر والشكر، أيهما أفضل ؟
٩٥٨	وسائل تقوية الصبر
٩٥٨	أولاً: تكرار الحوقلة
٩٦٣	ثانياً: العلم
٩٨١	الدنيا لا تدمّ بجميعها
٩٨٤	ثالثاً: اليقين
٩٨٨	رابعاً: الذكر
٩٩٠	خامساً: التجربة
٩٩٢	سادساً: التعود
٩٩٣	سابعاً: المحاسبة
١٠٠٠	ثامناً: تدبر القرآن
١٠١٣	تاسعاً: التفكّر
١٠٤٨	عاشراً: الدعاء
١٠٥٢	حادي عشر: دوام العبادة
١٠٦٣	ثاني عشر: صحبة الصابرين

١٠٧٥.....	ثالث عشر: معرفة سير الصابرين.
١٠٧٧.....	من أخبار الصابرين
١١٧٨.....	آفات في طريق الصبر
١١٨٤.....	قالوا عن الصبر
١٢١٧.....	﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، أمر بالصبر وأثنى عليه وعلى أهله وهو السميع البصير، أقام سبيل الدنيا بالصبر وطريق الآخرة بالصبر؛ فمن لا صبر له لا فلاح له ولا نُجْعَ ولا قوام، فمن أراد الآخرة فليصبر، ومن أراد الدنيا فليصبر، ومن أرادهما فليصبر، ذلك أنَّ الصبر معوّل المؤمن، فبه - بإذن الله - تدفع الرزايا، وتُرفع البلايا، وتُسلك الصعاب، وتُحتمل المشاق. وصلى الله وسلم وبارك على إمام الصابرين، وسيد الشاكرين، وقائد الغر المحجلين، تمثل الصبر بأحسن صورته، وامتزج به الصبر حتى صار علماً عليه، فإن رُمّت أصبر إنسان فهو ذا محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما ذرَّ شارقٌ وهمى غادقٌ وسجى غاسقٌ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الصبر جماعُ الخير، ومأرزُ الفلاح، ومخزنُ النجاح، ومستودعُ الأفراح، وهو ذلك ينبوع العجيب الذي يسقي جميع أعمال القلوب، فلا قوام لها إلا به، بإذن الله العليّ، وقلب لا صبر له لا فوز له. ويكفي في مدحه قول ربنا في محكم تنزيله وصادق قيله: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] ومعيته: ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ومحبه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إنَّ المؤمن حين ينبض فؤاده بمعاني الدين، ومقامات الإسلام، وإحسان

جوار النعم؛ فنبضه محتاج لجرعات صبر من لدن رب العالمين سبحانه، فهو مضطر إلى الاصطبار لحمل نفسه الأثارة على أحكام التنزيل العزيز، وهو مفتقر إلى كل معاني الصبر أيضًا حينما يسير على خطا المرسلين إِبَّانَ انطماس سبلهم واندراس آثار خطاهم تحت ركام حظوظ دنايا النفوس وحطام فراغ الرؤوس، فرغبوا العاجلة الفانية دون الآخرة الباقية.

إنَّ المؤمن الموفق هو من يتحصَّن بجُنَّة الصبر عند ادلهامَّ الملهمات وانصباب الكُرَبات، وحينما يرى ببصره وبصيرته أكثر الناس قد استبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًّا؛ فإنه يضع كَفَّهُ على نابض قلبه صاعدًا ببصره إلى سماء الله الفسيحة يتلوا مثاني الصبر في كتاب ربه، ضارعًا لإلهه بكل رُوحه وجوارحه ونفسه وكيانه أن يُفرِّغ على قلبه القَلْبَ صَبْرًا يُثَبِّتَهُ حين تزيغُ أقدام الإقدام عن مراضي الملك العلام. ويا رب هل إلَّا عليك المَعْوَل!

وإنَّ رباعية الفلاح - فاعلم - هي: سلامة القلب، وقوَّة الإرادة، وصحَّة العلم، والذكاء. فسلامة القلب وقوَّة الإرادة وصحَّة العلم عليهما المَعْوَل بإذن الله تعالى، أما العقل فيكفي في مناط تكليفه تمييز الخير من الشر. فالقلب هو موضع نظر الرب جل وعلا، ومصدر أعمال وأقوال الإيمان، وبيت فضائل الإنسان، وحديقة أزهار الإحسان، فأهمَّ المهمات صلاحه وطيبه ونقاء موارده حتى يكون نقيًّا طاهرًا طيبًا.

تعيَّنه بإذن ربه إرادةٌ قويَّة حازمة صابرة، لا تلين قناتها لشدائد البلايا وكبريات الرزايا، بل تزيدها قوَّة ومضاء وعزمًا.

والطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى مفتقر لعلم صحيح يضيء الطريق لنفوذ البصيرة، وأنّى ذلك إلا بالوحي المنزل، وعلى قدر العلم النافع كمّاً وكيفاً تكون الرفعة وعلوّ المراتب بإذن الله العليّ تبارك وتعالى.

فإن ساعد على ذلك ساعدُ ذكاء وحِدّة نباهة وجوْدَةٌ ذهن؛ كان المُرتقى العظيم الجليل إلى الله تبارك وتعالى بإذنه ولطفه وكرمه ورحمته.

وبحمد الله تبارك وتعالى فلم يجعل الله الذكاء شرطاً لرضاه وجنته، إنما علّقه على القلب السليم، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فالقلب لا عذر لأحد في بذل وسعه لسلامته لتعلّق المصير المحتوم بذلك، ولكن يحتاج المؤمن لجرعات إرادة حازمة لتطهير ذلك القلب، فالقلب هو الوعاء القُرْباني لِلإله العظيم سبحانه، والإرادة هي الطاقة المُحرّكة والعاملة والحاملة لهذا الوعاء العجيب، أمّا العلم فهو النور المضيء لجهات بقعة الابتلاء لهذا الإنسان، فيضيء له سبيله الموصل - إن سلكه وثبت عليه - لجنت النعيم، وليس هذا الضياء سوى الوحي المقدّس المنزل، لهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب، ولكن لا تمييز للمرء بدون عقل يسمح له بالمعرفة للحال والمآل والخير والشرّ على الإجمال، وحسن التصور لما حوله وما مضى وما يَسْتَقْبِلُ، ويمكنه من التعامل مع جوارحه الحسية والمعنوية حتى تكون القيادة له والسيطرة لديه والقرار بيديه، وهذا القدر من العقل هو القدر الكافي لحمل الأمانة، وهو المناط للتكليف، أما ما زاد عليه فهو الذكاء، والذكاء مراتب عديدة وأنواع متشعبة، ويزيد حساب التكليف مع زيادة حدّته وقوّته.

لذلك فالذكاء سلاح ذو حدين، فليس كله خير، بل إن استعمله صاحبه في طاعة الله قدر وسعه فهو معراج هائل سريع لنيل القربات العظيمة، لأنه ينفذ به لكوامن العلوم، ويخلق به في سماوات المعارف، ويحصل به فوائد غيوث الوحي الطهور، فيحفظ الكتاب والسنة، ويغوص في معانيهما، ويربط بينها، ويحلل العقد، ويجمع الأشتات، ويفرق بين ما فرقته الشريعة، ويجمع بين ما ماثلت حقيقة وإن اختلف ظاهراً، ويقارن بين كلام العلماء، فيعرف مناسبات اختلافهم ومسائل إجماعهم، ويستوعب ذلك بما أمده الله تعالى بذكائه، فيحيل زبدة هذا العلم لقلبه الطاهر الطيب السليم، ويستعين بإرادته الصابرة الشديدة للعمل به في نفسه أولاً، ثم بنشره ونفع الناس به، هناك يكون. بلطف الله تعالى. من أهل العلم النافع والعمل الصالح، ومن رفعهم الله تعالى، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ولكنّ الذكاء الثاقب بالمقابل باب كبير مشرع على مفاتن الدنيا التي تلوح وتترين للأذكاء، ولا يراها البسطاء، لأن حقيقة الذكاء نفوذ الإدراك للأشياء كما هي، بلا زبد ولا قشور ولا زيوف، وعلى قدر الذكاء يكون النفوذ الإدراكي كمّاً: بإدراك الأمور البعيدة والخارجة عن المألوفات المعتادة، وكيفاً: عن طريق النفوذ لتفاصيل التفاصيل مما هو قريب جداً حتى غاب بقربه عن إدراك العامة، كما الشأن بين النسبية والكمية. فكثير من موارد وساوس الشيطان الخفية سببها ذكاء لم يوفق صاحبه لاستعماله في مرضاة ربه، فعاد عليه خيبة ووبالاً.

وبالجملة؛ فالذكاء يكون خيراً للمرء إذا كانت طهارة قلبه وقوة إرادته

مساوية له أو أكبر منه، لأنَّ نفوذه لإدراك الأشياء يكون دومًا محروسًا بقلب طاهر وإرادة صلبة وحكمة حاضرة، وعين عقل رقيقة لا تغيب إلا لِمَامًا، شأنَّ ضعف بني الإنسان. فهنا تكون حدّة الذكاء وقوّته وقودًا هائلًا مُمتِعًا مريحيًا يطوي المكان والزمان بثاقب بصيرته، ويرفع الهمة عاليًا لأسقف السماوات بنفوذ إدراكه، لأنّه حينها يستعمل طيّب العلم، ويستفيد منه خير الفوائد، ويُسخّر علومَ دنياه لخدمة آخرته، فيحصل النفوذ في جواهر العلوم الربانية بالقرآن العظيم، والضياء الرسالي بالسنة المحمدية، فتكشف له غوامض العلوم المغلقة على غيره لا لعدمها ولكن لتشابهها أو تفرّقها أو نسيانها أو كثرتها ونحو ذلك، ولكن البرّ الرحيم جمع له الله قلبًا طيبًا سليمًا، وإرادة رجوليّة صلبة، وعلمًا من الوحي صافيًا من أكدار الأهواء وأخلاط العلوم الأرضية الزائفة، وذكاء نافذًا لجواهر المعاني دون الانتظار طويلاً على عتبات الرسوم والشكليات. ومن أمثلة أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، ولا أزكي على الله أحدًا.

والمقصود؛ أنّ المؤمن المريد للفلاح لا يستغني عن الصبر، فالصبر هو المُعِيلُ - بإذن الله - للإرادة، ومن لا صبر له فإنّ إرادته ضعيفة غير مستحقّة لنيل معالي الأمور، ولكن إن قوّى الله صبر المرء قويت على إثره إرادته، فاستطاع - بتوفيق الله له - أن يطهر قلبه من أدران الخطايا ومُشوّشات البصيرة، ثم استعمل صبره في تحصيل العلوم النافعة لدينه، المغذية لإيمانه، العائدة عليه بحلاوة العبادة ولذة المعرفة، ثم حرس قلبه وعقله وإرادته بصبره لله ما دام قلبه يخفق خفقات الابتلاء في دار الابتلاء، والله المستعان.

وبين يديك صفحات لبيان مهمّات هذا العمل القلبي العظيم، من معناه، وأقسامه، وفضيلته، وضرورته، وأحوال أهله، ومشتبهاته، ومتعلّقاته، وطرق تحصيله ومقويّاته، وموانعه ومضعفاته، ونحو ذلك مما يقتضيه معناه وحاله، وبالله تعالى التوفيق، وعليه التكلان، ومنه القبول والعفو والغفران.

والمؤمن الذي أراد الله به خيرًا هو الذي إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وكان لربه من الصابرين الرّاضين الحامدين الشاكرين، هداني الله وإياك ووالدينا وأحبابنا سبيلهم. إله الحق آمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٤٠ / ٠٦ / ٢١ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

حَدُّهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْحَبْسُ وَالشَّدَّةُ، قَالَ ابْنُ فَارَسٍ فِي مَادَّةِ صَبْرٍ: الصَّادُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ: الْحَبْسُ، وَالثَّانِي: أَعَالِي الشَّيْءِ، وَالثَّلَاثُ: جَنْسٌ مِنَ الْحَجَارَةِ.

فَالْأَوَّلُ: الصَّبْرُ وَهُوَ الْحَبْسُ. يُقَالُ: صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، أَيْ: حَبَسْتُهَا. وَالْمَصْبُورَةُ: الْمَحْبُوسَةُ عَلَى الْمَوْتِ^(١). وَأَمَّا الثَّانِي: فَقَالُوا: صَبْرٌ كُلُّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ. وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّلَاثُ: فَالْصُّبْرَةُ مِنَ الْحَجَارَةِ: مَا اشْتَدَّ وَغُلُظَ^(٢).

إِذْنٌ فَتُسْتَخْدَمُ كَلِمَةُ «الصَّبْرِ» وَمَشْتَقَاتُهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَعَانٍ عِدَّةٍ، مِنْهَا: الْحَبْسُ وَالْمَنْعُ: فَكُلٌّ مِنْ حَبَسَ شَيْئًا فَقَدْ صَبَرَهُ، يُقَالُ: صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، أَيْ: حَبَسْتُهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ١١].

وَالصَّبْرُ: نَقِيضُ الْجَزَعِ، وَهُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ، يُقَالُ: صَبْرٌ يَصْبِرُ صَبْرًا، فَهُوَ صَابِرٌ وَصَبَّارٌ وَصَبِيرٌ وَصَبُورٌ، وَالْأُنْثَى صَبُورٌ أَيْضًا بَغَيْرِ هَاءٍ. وَجَمْعُهُ صُبْرٌ وَصُبَرٌ. وَقَدْ اشتهر الْأَنْصَارُ بِأَنَّهُمْ صَبَرُوا عِنْدَ الْبَأْسِ. وَيُقَالُ أَيْضًا: صَبْرُ فُلَانٍ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ. وَيُسَمَّى شَهْرُ الصَّوْمِ شَهْرَ الصَّبْرِ، لِمَا فِيهِ مِنْ حَبْسِ النَّفْسِ عَنْ شَهْوَاتِهَا.

(١) وَمِنَ الْبَابِ مَا وَرَدَ مِنْ نَهْيِهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا.

(٢) مَعْجَمُ مَقَائِيسِ اللُّغَةِ (٣/٣٢٩).

ومن معانيه: الشدة والقوة: ومنه الصبرة، وهي الحجارة الشديدة الغليظة، ومنه قيل للحرّة: أم صبار. وقيل للهضبة التي ليس لها منفذ: أم صبور. وأم صبار وأم صبور كلتاها: الداهية والحرب الشديدة.

ومن معانيها: الجمع والضم: ومنه الصبرة: وهي ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض كالكومة^(١)، ومنه حديث: «مرّ النبي ﷺ على صبرة طعام فأدخل يده فيها»^(٢).

أما في الاصطلاح: فقد عرّف الصبر بتعريفات كثيرة منها ما يلي: عرّفه الراغب الأصفهاني بأنه: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، وعمّا يقتضيان حبسها عنه^(٣).

وعرّفه ابن القيم بأنه: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش^(٤). وقال أيضًا: هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمنع صاحبه من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها^(٥). وقال الجنيد بن محمد: هو

(١) أما إن كان المجموع غير طعام فهو الزبرة.

(٢) مسلم (١٠٩/٢).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (٤٧٤).

(٤) مدارج السالكين (١١٩/٢).

(٥) عدة الصابرين (١٥).

تجرع المرارة من غير تعبٍ^(١). وعرفه الجرجاني بأنه: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله. وقيل: هو الوقوف على البلاء بحسن الأدب^(٢). وقيل: بأنه خلق كريم يَحْمِلُ صاحبه على ضبط النفس وتحمل الآلام والابتلاءات وتلقيها بالرضا والطمأنينة، دون سخط أو شكوى^(٣).

وبهذا يتبين أن تعريف الصبر يختلف باختلاف الموطن الذي يحتاج إليه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمِّيَ صَبْرًا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سُمِّيَ شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سُمِّيَ رحابة صدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سُمِّيَ كتمانًا، ويضاده الإفشاء، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سُمِّيَ حلمًا، ويضاده التذمر، وإن كان عن فضول العيش سُمِّيَ زهدًا، ويضاده الحرص، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سُمِّيَ قناعة، ويضاده الشره. وإن كان عن شهوة الفرج سُمِّيَ عفة، وإن كان عن شهوة مال أو منصب أو طعام سُمِّيَ شرف نفس، وهكذا.

فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. قال ابن القيم: والاسم الجامع لذلك كله «الصبر»، وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها^(٤).

(١) عدة الصابرين (١٥).

(٢) عدة الصابرين (١٥) والنووي، شرح صحيح مسلم (٣/ ١٠٢).

(٣) الصبر والثبات في مواجهة الحصار (١/ ٤).

(٤) المفردات للراغب (٤٧٤) بتصرف يسير. عن: مجلة البحوث الإسلامية (٧٥/ ١٢٨ -

والتَّصَبُّرُ: تكلّف الصبر^(١). أما الصبر الجميل في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، فالمراد به: الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى^(٢). وقيل: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلا إلى الله؛ لأن الله تعالى أثنى على أيوب - عليه السلام - بالصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] مع دعائه في دفع الضر عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فعلم أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه لا يقدر في صبره.

وعليه فنقول: إنّ مسمى الصبر مشتق من جذره الأصيل، وهو القوة والشدة والكفّ والاحتمال بالنفس لما فيه صلاحها، فهو طاعة مقتضى العقل السليم ضد مشهاة النفس العجلى.

فالصبر خلق أصيل موجود في معادن البشر بنسب متفاوتة، وهو متشعب فيها بحسب موارده، لكنها جميعاً تصدر من معدن واحد وهو ذلك الجوهر المعنوي الشريف الذي يحمل صاحبه لما فيه خيره وصلاحه في عاجله وآجله من قول أو فعل أو خُلُق، وبحسب قوة ذلك المعدن المعنوي في قلب المرء؛

(١٣٢) بتصرف وزيادة. وانظر: تهذيب الأسماء (١ / ١١٩٠) بصائر ذوي التمييز (٣ /

٣٨٣) التعريفات للجرجاني (١٣١) مدارج السالكين (١ / ١٦٢، ١٦٣).

(١) الصحاح للجوهري (٢ / ٧٠٦، ٧٠٧)، ولسان العرب، لابن منظور «ص ب ر» (٤ /

٤٣٨)، والمقاييس (٣ / ٣٢٩).

(٢) تفسير القرطبي (٩ / ١٥٢).

يكون حُسن تصرفه الموافق لمقتضى عقله وحكمته دون شهوته وعجلته. وقد قال عمرو بن معدي كرب:

ليس الجمال بمئزرٍ فاعلم وإن رُدِّيت بُردًا
إنَّ الجمال معادنٌ ومناقب أورثن مجداً

فالمعدنُ خلق غير مكتسب، بل هو منتقلٌ إلى المرء عبر سلالة أرومته، أما المناقب فهي مكتسبة عبر اصطبار النفس على احتمال المشاق لإدراك مجد الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق.



الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

هي راجعة بمجموعها لمعدن واحد وهو الصبر، وتفترق بحسب لباس العبد لها، و«الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خُلِقاً له وملكه سمّي صبراً، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرّع لمرارته سمى تصبراً، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجيّة له، كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن يتصبر يصبره الله»^(١). وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجيّة، كذلك سائر الأخلاق.

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر، بمنزلة الاكتساب. فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين، كالمشاقمة والمضاربة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات وال لزوم والإقامة على الصبر والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يربط، وقد يصبر ويصابر

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩)، ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤).

ويرابط من غير تعبٍ بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] فالمرابطة كما أنها لزوم الشجر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته^(١).

«والمصابرة مفاعلة من الصبر، ويكثر استعمال هذه الصيغة في أحد أمرين؛ المشاركة في الأمر كما في نحو قاتل فلان فلاناً، أي: أنها اشتركا معاً في القتال، الآخر: الموالاة والمتابعة والدأب في الأمر كما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] أي: وإلى في القسم^(٢)، وعلى ذلك فإن المصابرة قد تعني:

١ - المشاركة في الصبر، كأن يصبر الإنسان عن المعاصي، ويصبر الشيطان على الإغواء، وحينئذ تكون الغلبة لأكثرهما صبراً.

٢ - موالاة الصبر ومتابعته سواء كان صبراً عن المعاصي أو صبراً على الطاعات. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قيل في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، أنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصابرة^(٣).

(١) عدة الصابرين (١/ ١٤) والتفسير القيم لابن القيم (٢١٧).

(٢) انظر في معاني هذه الصيغة: شذا العرف في فن الصرف، للشيخ الحملاوي.

(٣) ويشير بهذا إلى أن الصيغة «فاعل» تفيد الموالاة في الصبر والمبالغة فيه.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله.

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله^(١).

وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء.. فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك^(٢).

وهذا الذي ذهب إليه ابن القيم هو عين ما رجّحه الطبري عند ما قال: «وأولى التأويلات في ذلك قول من قال: اصبروا على دينكم وطاعة ربكم، وذلك أن الله لم يخص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئاً، فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل، ومن ثم يكون الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى صعبها وشديدها وسهلها وخفيفها، أما المصابرة: فيقصد بها مصابرة الأعداء من المشركين، لأنّ المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين أو اثنين فصاعداً، ولا تكون من واحد إلا قليلاً^(٣). وإذا كان ذلك كذلك فإنما أمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم وألا يكون عدوهم أصبر منهم^{(٤)(٥)}.

(١) أي: أن الصبر يكون في طاعة الله تعالى، والمصابرة تكون في الاستعانة بالله تعالى.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) كمصابرته ومجاهدته لقريته الرجيم.

(٤) تفسير الطبري (٤/ ١٤٨، ١٤٩).

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٦/ ٢٤٤٧).

وتأمل خاتمة آل عمران فقد «ختمت السورة بوصية جامعة للمؤمنين، تجدد عزيمتهم، وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدو، كي لا يثبطهم ما حصل من الهزيمة، فأمرهم بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة وهي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس وأقربه إلى التزلزل، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر؛ لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يملّ قرنه؛ فإنه لا يجتني من صبره شيئاً، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً، كما قال زُفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام:

سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَ

فالمصابرة هي سبب نجاح الحرب - بإذن الله - كما قال شاعر العرب الذي لم يعرف اسمه:

لَأَنْتَ مَعْتَادٌ فِي الْهَيْجَا مُصَابِرَةٌ يَصْلَى بِهَا كُلٌّ مِنْ عَادَاكَ نِيرَانًا^(١)

وثمة فروق أخرى بين الصبر وغيره مما قد يشترك معه في بعض مظاهره، فقد يشترك الصبر مع غيره من الأخلاق في أوصاف ويفارقها في أخرى، فمن ذلك؛ القسوة، «والفرق بين الصبر والقسوة؛ أن الصبر خلق كسبي، يتخلّق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوراح عما لا ينبغي فعله. وهو ثبات

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/ ٢٠٨).

القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله. وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة:

قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة، وقلب مائع رقيق جدًا، فالأول لا ينفع بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب؛ القلب الرقيق الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه وبقلبه، ويؤثر فيه لرقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته. وفي الأثر: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفأها»^(١). وهذا القلب الزجاجي. فإن الزجاج جمع الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَّشَدُ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]. فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال؛ هذا بمرضه، وهذا

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (٢٢٧٣) عن خالد بن معدان. ولا يصح مرفوعاً، والصواب وقفه. انظر: تهذيب الكمال للمزي (٣٤ / ١٥١)، والسلسلة الصحيحة (١٦٩١). وقد نسب المصنف في شفاء العليل (١ / ١٠٦) إلى المسند - ولم أجده - ولعله أراد الزهد، ونسبه في اجتماع الجيوش الإسلامية (١ / ١٣) إلى بعض السلف، وكذلك نسبه ابن تيمية لبعض السلف كما في الفتاوى الكبرى (٥ / ٥٤).

بقسوته. وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميّز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقَبَلَ الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته، فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] (١).

وقال شيخ الإسلام في هذا المعنى الجميل: «القلب للعلم كالإناء للماء، والوعاء للغسل، والوادي للسيل، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]. وقال النبي ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت فيها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء. ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما أرسلت به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (٢). وفي حديث كميل بن زياد

(١) الروح (١/ ٢٤١)، واجتماع الجيوش الإسلامية ٢٦/١

(٢) البخاري ٣٠/١ (٧٩)، ومسلم ٦٣/٧ (٢٢٨٢) (١٥) والأجادب: هي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعًا. النهاية (١/ ٢٤٢).

عن علي رضي الله عنه، قال: «القلوب أوعية فخيرها أوعاها»^(١). وبلغنا عن بعض السلف قال: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله تعالى أرقُّها وأصفها». وهذا مثل حسن، فإن القلب إذا كان رقيقاً ليناً؛ كان قبوله للعلم سهلاً يسيراً، ورسخ فيه وأثر، وإن يكن قاسياً غليظاً؛ يكن قبوله للعلم صعباً عسيراً. ولا بد مع ذلك أن يكون زكياً صافياً سليماً حتى يزكو فيه العلم، ويثمر ثمراً طيباً، وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدرٌ وخبث؛ أفسد ذلك العلم، وكان كالدغل في المزدرع، إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بين لأولي الأبصار.

وتلخيص هذه الجملة: أنه إذا استعمل في الحق فله وجهان: وجه مقبل على الحق، ومن هذا الوجه يقال له وعاء وإناء، لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه ويوضع فيه، وهذه الصيغة وجود ثبوت، ووجه معرض عن الباطل، ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم وطاهر، لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر والخبث والدغل، وهذه الصيغة عدم ونفي»^(٢). وبالله تعالى التوفيق.



- (١) هذه الجملة ضمن حديث موقوف طويل، انظره في كنز العمال العلم، يُستغني عن الإسناد لشهرته عندهم». ونقل عن أبي بكر الخطيب في مفتاح دار السعادة (١٠ / ٢٦٢) (٢٩٣٩١) وإن كان في إسناده كلام، لكن معانيه حسنة جميلة. قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢ / ١٩٥): «وهو حديث مشهور عند أهل أثناء شرحه له (١ / ١٢٣) قوله: «هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرها لفظاً».
- (٢) الفتاوى الكبرى (٥ / ٥٤).

الأسماء التي تتجدد للصبر

لما كان للصبر متعلقات عديدة ناسب أن تختلف مسمياتها بحسب جهة الصبر فيها، قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن الصبر ضربان؛ أحدهما: ضرب بدني كتحمّل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل؛ كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال؛ كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة.

وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرع، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتتهيات الطبع ومقتضيات الهوى^(١).

ثم هذا الضرب إن كان صبرًا على شهوة البطن والفرج سُمِّيَ عَفَّةً، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميهِ عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتُضادُّه حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشقّ الجيوب وغيرها، وإن كان في احتمال الغنى سُمِّيَ ضبط النفس، وتضادُّه حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سُمِّيَ شجاعة، ويضادُّه الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سُمِّيَ حلمًا، ويضادُّه التذمُّر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سُمِّيَ سعة الصدر، ويضادُّه الضجر والتبرُّم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سُمِّيَ كتمان السر، وسُمِّيَ

(١) أي: مقتضيات الهوى الحرام بفعل المحظور أو ترك الواجب.

صاحبه كتومًا، وإن كان عن فضول العيش سمّي زهدًا، ويضاده الحرص، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سمّي قناعة، ويضاده الشره. فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمّى الكل صبرًا، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: المصيبة، ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ أي: الفقر^(١) ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: المحاربة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢).

قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] «أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعامًا غير موافق لهواه تألم، وإن عرى أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم. فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿وَالضَّرَاءِ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى، وقروح، ورياح،

(١) والمشهور أن البأساء هي شدة الفقر، والضراء هي المرض. وانظر: تفسير الطبري (٣/

٣٥٠) وتفسير الجلالين (١/ ٣٣) الدر المنثور (٢/ ١٥٢) وتفسير السعدي (١/ ٨٣).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٦٦).

ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتساباً لثواب الله تعالى.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلاذ يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمّناً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهو لاء هم الأبرار الصادقون المتقون»^(١).



(١) تفسير السعدي (١/ ٨٣).

هل يوصف الله تعالى بالصبر؟

لله سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى والصفات العلى، وما أثبتته الله تعالى في كتابه أو أثبتته له رسوله ﷺ أثبتناه، وما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ نفينا، فالله تعالى أعلم بنفسه سبحانه وبحمده، ورسوله ﷺ أعلم الناس به وأفصحهم وأنصحهم، وقد ثبت أنه وصف ربه بالصبر، فقد روى الشيخان من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ؛ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»^(١).

وعليه فصفة الصبر ثابتة لله تعالى، أما تسميته بالصبور فلم تثبت من حديث صحيح، إنما جاءت رواية مدرجة عند الترمذي بسرد الأسماء^(٢)، ومن أهل العلم من عدّه من أسمائه تعالى.

وبالجملة؛ فالصفة ثابتة بصريح السنة، «أما الصبور فلم يرد اسماً في القرآن أو السنة، ولكن من أدرجه عند الترمذي استند إلى اجتهاده في الاشتقاق من صيغة أفعل التفضيل فيما ورد عند البخاري: «لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ» وقد علمنا أن أسماء الله توقيفية، ودورنا حيالها الإحصاء، وليس

(١) البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٤٩).

(٢) سنن الترمذي (٣٥٠٧) قال الألباني: ضعيف بسرد الأسماء، المشكاة (٢٢٨٨) / التحقيق

الثاني) وضعيف الجامع الصغير (١٩٤٥).

الاشتقاق والإنشاء»^(١).

قال الشيخ الغنيان حفظه الله تعالى: «فقد جاء في أسماءه تعالى: الصبور، وفي هذا الحديث: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى». قال القاضي: والصبور من أسماء الله تعالى، وهو: الذي لا يُعاجِلُ العصاة بالانتقام، وهو بمعنى الحليم^(٢) في أسماءه سبحانه وتعالى، والحليم: هو الصفوح مع القدرة على الانتقام^(٣).

وفي الفتح: «وقوله في الحديث: «أصبر» أفعل تفضيل من الصبر، ومن أسماءه الحسنى الصبور، ومعناه: الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريب من معنى الحليم، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة»^(٤). وقال الزجاج: «أصل الصبر في الكلام: الحبس، يقال: صبرته على كذا صبراً: إذا حبسته، ومعنى الصبر والصبور في اسم الله تعالى قريب من معنى الحلم»^(٥).

(١) أسماء الله الحسنى (٣١ / ١٣٠) باختصار.

(٢) لا يوجد في كلام العرب ترادف تام، بل كل لفظ له مدلوله المختص به مع تداخله دلالاته مع بعض الأسماء القريبة منه معنى. فإذا كان هذا في مسمياتهم فمن باب أولى القول بذلك في صفات الله تعالى، فالله تعالى موصوف بالحلم وبالصبر، وبينهما قرب لا ترادف، ولعله قصد القاضي رَحْمَةُ اللَّهِ.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٤٦).

(٤) فتح الباري (١٣ / ٣٦١).

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى (٦٥).

وقال ابن الأثير: «الصبور: هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى، فمعنى الصبور في صفة الله تعالى قريب من معنى الحليم، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة في صفة الصبور، كما يأمنون منها في صفة الحليم»^(١). ويقصد أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده، من صفة الصبور، والله أعلم.

وقوله: «على أذى سمعه من الله» لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشرّ والمكروه، وذكره الخطابي، قال شيخ الإسلام: «وهو كما قال، بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرّونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، فيبين أن الخلق لا يضرّونه، لكن يؤذونه»^(٢).

فابن آدم يؤذي الله تعالى ويسبّه بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه، مثل نسبة الولد إليه تعالى، والند والشريك في العبادة التي يجب أن تكون خالصة له وحده، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره من الدهر والطبيعة والكون والمخلوقات وغير ذلك، ثم يسبّون ما أسندوا تلك الحوادث إليه، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادتهم حوادثه، وأهلكتهم كوارث الطبيعة، ويا خيبة الدهر، وهذا زمان سوء، وما أشبه ذلك. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله

(١) جامع الأصول (٤/١٨٣).

(٢) الصارم المسلول (١/٥٩).

ونهاره»^(١). يعني: أن الدهر الذي هو الليل والنهار مخلوق لله مسخر، وهو مؤتمّر بأمر الله تعالى مطيع له، فإذا سبّه الساب، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه.

وأذية الله تعالى بنسبة الحوادث والكوارث إلى الدهر أو الطبيعة وتوجيه اللوم والقدح والسب إلى ذلك كثيرة في كلام أهل الأدب وغيرهم، مع أن ذلك صنع الله وفعله، ولذلك يرجع السبب إليه، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، كقول ابن المعتز:

يا دهرُ ويحك ما أبقيت لي أحداً وأنت والدُ سوءٍ تأكلُ الولداً
وقول أبي الطيب المتنبّي:

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجهٌ له من كلِّ قبحٍ بُرِّقَ
ومثل هذا كثير جداً في أشعار أهل الأدب قديماً وحديثاً، وهو لا يجوز؛ لما دل عليه هذا الحديث. ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالي والسنين والدهور التي هي مجرد ظروف أمكنة وأزمنة لوقوع الحوادث الأليمة، ولكن لأنها كذلك وجه الشعراء اللوم إليها لذلك، وإلا فغالب هؤلاء، إن لم يكن كلهم، لا يعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدبر، والموجد لما يقع فيه، فرجع اللوم في الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة في الليل والنهار، فبذلك يُعلم أن اللوم والسب يعود إلى مُقدِّرها وموجدها، وهو الله تعالى خالق كل

(١) البخاري (١٦٦/٦).

شيء، فليحذر المسلم من مجارة هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار وغيرهم، في القدح في أفعال الله تعالى، وسخط أقداره وتدابيراته.

وأكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله تعالى من الجور والظلم، وإنما ساروا في ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد، بدون تبصر لذلك، والله أعلم.

وكذلك يؤذي ابن آدم ربه بمخالفته أوامره تعالى وارتكابه نهييه، والإصرار على ذلك، وأذية رسله، وعباده الصالحين، بعيبهم، وتنقصهم، كما في مسند الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ، اللَّهُ، فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَخَذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحْبَبَهُمْ، فَبِحَبِي أَحْبَبَهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يَوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ»^(١). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَيُّ الَّذِينَ يُوْذُونَ رَبَّهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَرُكُوبِهِمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

وفي قوله: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ» دليل واضح على تسميته تعالى بذلك، أعني الصبور، كما جاء في حديث الأسماء الحسنى.

وقال ابن المنير: «وجه مطابقة الحديث للآية: اشتماله على صفتي الرزق

(١) المسند (٤/٨٧).

(٢) تفسير الطبري (٢١/٤٤).

والقوة الدالة على القدرة، أما الرزق فواضح من قوله: «ويرزقهم»، وأما القوة فمن قوله: «أصبر» فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم مع إساءتهم، بخلاف طبع البشر، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه ذلك شرعاً، وسبب ذلك أن خوف الفوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة، والله سبحانه قادر على ذلك حالاً ومآلاً، لا يعجزه شيء ولا يفوته^(١). قلت: ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحملة، لأن ذلك يضره في نفسه، أو غير ذلك.

والذي يظهر أن ما أراده البخاري رَحِمَهُ اللهُ من الحديث، هو البيان بأن الله تعالى مسمّى بالأسماء الحسنى، ومتصف بالصفات العليا حقيقة على ما يليق به تعالى، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة، الذي أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله، دون تكلف تأويل، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم أو متفلسف، كما بين ذلك قوله: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيه ويرزقه». فهذا هو حقيقة الصبر المعروف في اللغة، ونصوص الشرع، فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التي تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ، ودل قوله: «ثم يعافيه»، ويرزقه» على فضله على عباده بالعافية والرزق، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه، فهو الذي هيأ أسبابه ويسر طريقه.

وقوله: «ثم يعافيه ويرزقه» أي: أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان،

(١) فتح الباري (١٣/٣٦١).

فهم يسيئون إليه تعالى بالعيب والسب، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس، وتكذيب رسله ومخالفة أمره، وفعل ما نهاهم عنه فعله، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم، وشفائهم من أسقامهم، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم، ويرزقهم بتسخير ما في السماوات والأرض لهم، وهذا غاية الصبر والحلم والإحسان، والله أعلم»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فقد أطلق عليه تعالى أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له، هذه الصفة: «وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله»، كما أن ما ورد في الأسماء الحسنى «الصبور» من أمثلة المبالغة^(٢)، فهو أبلغ من

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيان (١/٧٩ - ٨٢) بتصرف واختصار.
 (٢) وسبق بيان أن تسمية الله تعالى بالصبور فيها نظر من جهة توقيفية الأسماء الحسنى، ولم يثبت ذلك المسمى له تعالى، إنما ثبتت صفة الصبر له سبحانه «ونحن لو تتبعنا ما ذكره ابن تيمية وابن القيم في أن الأسماء الحسنى توقيفية على النص، وأنه لا يجوز أن نسمي الله بما لم يسم به نفسه، أو أن نصفه بما لم يصف به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ لعجزنا عن ذلك. فهذه أصول لا يردّها أو يناقش فيها إلا من لم يدرك منهج هذين الخبرين، وهي أيضاً حجة عليهما قبل غيرهما، ومن ثم لو نقل عن ابن تيمية قوله: «أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع والضار النافع المعز المذل الخافض الرافع، فلا يفرد الاسم المانع عن قرينه ولا الضار عن قرينه لأن اقترانها يدل على العموم»، ونقل أيضاً عن ابن القيم قوله: «فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث الصبور، ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء؛ فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم =

«الصابر» والصبار. ومعنى الصبر معلوم في اللغة، والشرع، والعرف، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين، التي تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب.

وصبر الله تعالى لا يماثل صبر المخلوق، بل يختلف عنه من وجوه:

منها: أنه عن قدرة تامة. ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت. ومنها: أنه تعالى لا يلحقه بصبره ألم، ولا حزن، ولا نقص بوجه

وذريته دارًا يظهر عليهم فيها أثر أسماؤه»، لو نقل عنهما مثل ذلك، فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: على أي دليل استند الخبران إلى تسمية الله بالضار النافع المعز المذل الخافض الرافع المميت إلى غير ذلك، وهي لم ترد إلا أفعالًا، ولا دليل على كونها من الأسماء الحسنى؟ فهل كل منهما يشتق لله اسمًا من كل فعل؟ وكيف يكون ذلك وقد تقدم توبيخهما لمن فعل ذلك؟.. وتجدر الإشارة إلى أن غالب أهل العلم على اختلاف طوائفهم الكلامية والذوقية يكاد يتطابق منهجهم في الأسماء الحسنى مع الطريقة السلفية؛ فهم يؤكدون على أنها توقيفية، وأنه لا يجوز تسمية الله إلا بما ثبت في الأدلة النقلية.. ثم ذكر أمثلة على كلامهم». أسماء الله الحسنى (٦/ ٣٤-٣٥) باختصار. وانظر كذلك: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة للسقاف (١/ ١٣١).

قلت: والعمدة في إثبات الاسم هو ما رواه الترمذي في سرد الأسماء الحسنى على فرض ثبوته، ولعله قد ثبت عند ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، خاصة مع ضمّه لما ثبت من وصفه كما رواه البخاري ومسلم، ومن أهل العلم من يتسامح في اشتقاق الأسماء من الصفات، بل من الأفعال كذلك.

والراجح: وصفه بالصبر دون تسميته بالصبور لعدم ثبوت الحديث في ذلك، والله أعلم.

من الوجوه. وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود في العالم بالعيان، كظهور اسمه تعالى الحليم.

والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم^(١)، وموجبه، والحلم في صفاته تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء في القرآن في مواضع كثيرة، وجاء مقرونًا مع اسمه العليم، كقوله - تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] وحلمه تعالى من لوازم ذاته. وقد جاء اقترانه باسمه الغفور في مواضع عدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وأما صبره تعالى فمتعلق بكفر عباده، وشركهم، ومسببتهم له - تعالى وتقديس - وسائر معاصيهم، وفجورهم، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل عذابهم، بل يصبر عليهم ويمهلهم، ويرفق بهم، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه، حتى إذا لم يَبْقَ فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال، ولم يَنْبِئُوا إِلَيْهِ، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم؛ أخذهم أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليهم، وبذل النصيحة لهم، ودعائهم من كل باب. وهذا كله

(١) أو العكس، فالحلم ثمرة الصبر فيما يظهر، ولكن الإمام نظر إليهما من جهة أن الحلم ألصق بالصفة، والصبر أقرب للفعل، والفعل يتبع الصفة، ومن هنا كان الصبر ثمرة للحلم، خاصة مع كثرة موارد الحلم في بيان صفات الله تعالى في القرآن العظيم، وهذا مأخذ شريف جليل، والله أعلم.

من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلّقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمل، فإنه فرق لطيف قلّ من تنبه له.

وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم في أسماء الله الحسنى، وقالوا: لم يأت في القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به.

ولو أنهم أعطوه حقّه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع خلقه، كما هو أحق باسم العليم، والرحيم، والقدير، والسميع، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره تعالى وبين صبرهم، كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وهذا في سائر صفاته تعالى، ولهذا قال أعرف خلقه به: «**لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى**» فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبرٌ مع كمال علم وقدرة، وعظمة وعزة، وهو صبر على أعظم مصبور عليه، فإن مُقَابَلَةَ أعظم العظماء، وملك الملوك، وأكرم الأكرمين، ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان؛ بغاية القبح، وأعظم الفجور، وأفحش الفواحش، ونسبته تعالى إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله، وفي أسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه، وقتلهم وإهانتهم؛ أمرٌ لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه وتعالى.

ومما يعين على معرفة صبره تعالى وحلمه، والفرق بينهما: تأمل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [ابراهيم: ٤٦]، على قراءة فتح اللام. فأخبر تعالى أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهتم وتستأذن بالزوال؛ لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكهما بحلمه، ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى.

فالذي صدر عنه الإمساك، هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة، وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»^(١) وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كُرَّةَ الماء تعلو كُرَّةَ التراب بالطبع^(٢)، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

(١) أحمد (٤٣/١) وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٧).

(٢) أي: أن مستوى علو البحر أعلى إجمالاً من مستوى شواطئ اليابسة، لكنه لا يرى بسبب كروية الأرض، فاقتضت الجاذبية لفعل العلو انهار الماء على اليابسة وغمرها، لكن الله تعالى حبسه برحمته. لعل هذا مقصود ابن القيم، والله أعلم.

وكذلك خروار الجبال وتفطير السماوات، الرب تعالى يجسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإنَّ ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يجبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمَّ تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها، وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب، كما غلبت الرحمة الغضب.

ولهذا استعاذ النبي ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات، إذ هما قائمان بها فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»^(١).

فإن ما يُستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يُستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبَّب، وهو الذي حرَّك الأنفس والأبدان وأعطاهما قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدّها ومدّها وسلَّطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد، وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه تعالى، والاستعانة به وحده، وإفراجه بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي

(١) مسلم (٤٨٦).

يدفعه بمشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيد من فعله بفعله، وهو سبحانه الذي خلق ما يصبر عليه، وما يرضى به، فاذا أغضبتة معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم؛ أرضاه تسبيح ملائكته وعبادة المؤمنين له وحمدهم إياه وطاعتهم له، فيُعِيدُ رضاه من غضبه.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله؛ ذكر بإثر ذلك شأن خليفه إبراهيم وما أراه من ملكوت السماوات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويحدد توحيده ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك، ويُصَدِّقُ بما كَذَّبُوا به، ويحفظ من حرمانه ما أضاعوه.

وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها، ولما كان اسمُ الحليمِ أدخل في الأوصاف، واسمُ الصبور في الأفعال؛ كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم

الصبور، والله أعلم»^(١).

وبالجملة؛ فصفة الصبر ثابتة لله تعالى بخلاف التسمية به، فيوصف تعالى بالصبر ولا يُسمَّى به.

ولهنا تنبيه: فلا يلزم من المنع التسمية به المنع من التعبيد لله تعالى به، كتسمية عبد الصبور مثلاً وعبد المحسن ونحو ذلك، فكأنه قال: هذا عبد لمن وصفه نبيّه ﷺ بالصبر، فلا يلزم من ذلك تسميته به. وإن كان هذا خلاف الأولى، ففيما ثبت من الأسماء الحسنى غنية عما لم يثبت، وهو الأحوط بكل حال. والمقصود؛ أن التعبيد مرتبة تالية للتسمية، فلا يلزم في الثانية ما يلزم في الأولى؛ لأن الأولى يُخشى بالمخالفة فيها الدخول في معنى قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وتوضيح ذلك: أن التعبيد بالأسماء التي لم تثبت بصيغة الاسم، أو اختلف في كونها اسماً فيه سعة؛ فقد صرح بعض الأئمة بجواز التسمية بها لم يثبت من الأسماء الحسنى؛ ما دام معلوماً أن المراد به: الله جلّ جلاله، وإن كان الأولى والأجل والأحوط والأحسن الاكتفاء بالتعبيد بما ورد من الأسماء الحسنى، وقد سئل ابن باز رحمه الله تعالى: «هل اسم «المحسن»: ورَد؟ فأجاب: «كلاً؛ لم يرد. نعم؛ هو «المحسن» سبحانه، ولكن لم يرد في الأسماء الحسنى اسم «المحسن»».

(١) عدة الصابرين (٢٣٦-٢٣٩) باختصار

فسئل عقب ذلك: «اسم «عبد المحسن»: جائز؟ فأجاب: «لا مانع، إن شاء الله تعالى؛ لأنَّ «المحسن»: هو الله سبحانه وتعالى. لكن لم يرد في الأسماء الحسنی فیما نعلم. ولو سَمِيَ عبد الرحمن، وعبد الله، وعبد البصير، وعبد القدير: أولى»^(١).

كما سئل العثيمين رحمه الله تعالى: «ما حكم التعبيد بأسماء لم يثبت كونها من أسماء الله الحسنی، مثل: «عبد الستار»^(٢)، «عبد المغني»، «عبد الهادي»، «عبد المنعم».. ونحوها؟ وهل يلزم تغييرها؟ فأجاب: «الصحيح أنَّ ما دَلَّ من الأسماء بإطلاق على الله تعالى جاز التعبيد به، كالمذكورة، ولا يلزم تغييره، ومثلها: عبد الناصر»^(٣).

وأيضاً: فالابتداء ليس كالاستدامة، فالابتداء: أن يختار لاسم مولوده اسماً؛ فنقول: تقيّد بما ثبت من الأسماء الحسنی، وأحبّها إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن، لقوله ﷺ: «أحبُّ الأسماء إلى الله تعالى عبدُ الله وعبدُ الرحمن»^(٤).

(١) شرح كتاب التوحيد (٢٠/٢).

(٢) الذي ورد وثبت هو اسم «الستير» لا الستار، وذلك من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسلُ بالبراز، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: إنَّ الله تعالى حلیمٌ حيٌّ سَتِيرٌ مُحِبُّ الحَيَاءِ وَالسَّتْرِ، فإذا اغتسلَ أحدُكم فليستترْ». أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٤) وصححه الألباني.

(٣) ثمرات التدوين من مسائل ابن عثيمين (ص: ٦).

(٤) مسلم (٢١٣٢).

أما الاستدامة: فأن يكون المرء قد سمّاه أهله بذلك الاسم، واشتهر باسمه ذلك بين الناس، وقيد في الأوراق الرسمية، ونحو ذلك؛ فلا حرج عليه في استبقاء هذه التسمية، إذ مقام الاستدامة في الشرع أيسر، ويغفر فيه ما لا يغفر في الابتداء، والخطب فيهما يسير بحمد الله تعالى، لكن إن كان اسمه مُحَرَّمًا، كمن عبّد لغير الله تعالى كعبد الرسول أو عبد الحسين ونحو ذلك فلا بدّ من تغييره حتمًا. وبالله تعالى التوفيق.



منزلة الصبر وفضله

إنَّ المتأمل في أعمال القلب يجد أنها محاطة من جميع جهاتها بوعاء يحتويها ويُغذيها ويمدُّها بكثير من موادِّ قوّتها، ذاكم هو الصبر.

وإذا قرأت الكتاب العزيز تجد ما يزيد على تسعين موضعاً يشني فيها الله تعالى على هذه السجّية الشريفة السامية، ويأمر بالتخلّق بها والاستعانة بها بعد الله تعالى، ويكرر مفرداتها واشتقاقاتها صبراً ومصابرة واصطباراً، وينوّه بأهلها، ويرفع شأنهم، ويذكر محبته لهم ومعيتته، ويذكر جزيل أجره تعالى لهم وأنه بلا حساب! قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «ختمتُ القرآن في يوم، فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وسبعين»^(١) وقال مرّة: أكثر من تسعين موضعاً.

قال الله تعالى أمراً عباده المؤمنين به بالتعبّد له بالصبر والمصابرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فالمؤمن متقلّب بين صبر يطيعه، ومصابرة يتجرّعها، حتى يضع قدمه في الجنة.

وقال تعالى مبشّراً أهل الصبر لوجهه، وقد أطلق البُشرى لتذهب النفس في أمنيّاتها كلّ مذهب جميل، والله الكريم من وراء ذلك كله وأجزل وأكرم وأوهب وأبرّ، وقد مهّد البشارة بذكر إلقائه المشاق الحسيّة والنفسية في طريقهم إليه تعالى، وسمّى ذلك ابتلاءً ليكونوا على بصيرة من أمرهم بأن المراد من هذا البلاء إظهار طيب معادن نفوسهم حين يصهرها البلاء، فيبلوها عن أجمل

(١) المناقب لابن الجوزي (٣٨٤).

معادن الصبر والرضا والحمد والشكر، ونسب فعل الابتلاء إليه لتقرب قلوبهم من معية ربهم لعلمها أن بلاءه في حقيقته رحمة، وأنه خير لهم وأسعد، وأن فيه من الحكم الربانية ما لا تحيط بها أذهانهم، فيستشعرون قربهم ومعيتهم ويرفده وتصييره وتوفيقه ولطفه ورحمته وكرمه، فقال جل جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] ثم بين شعار الصابرين وعينهم بأنهم الذين يهتفون لنفوسهم حين نزول البلاء والكره والشدة والحزن أنها ملك مطلق لربها يصرفها كيف يشاء، ويفعل بها ما أراد، وأنهم سيعودون بعد برهة من الزمان إليه للحساب والجزاء حين يستنفدون أرزاقهم ويستكملون أجالهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فهنا البلسم الروحاني، والترياق النفساني، والعلاج القلبي لكل هزيمة شدة، أو هبة روع، أو هجمة حزن، أو ركضة بلوى، أو أنه مُصاب، أو دمعة فراق.

ثم صبّ تبارك وتعالى بشارته الربانية النفيسة الجليلة على قلوبهم المؤمنة الراضية المسلمة له فقال جل شأنه وعز اسمه: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فلهم من ربهم العليّ أجمل ثناء وأعطر ذكر في الوجود وهو ذكره وثنائوه عليهم، فيا لله كم في هذا المقام من جلال وجمال وغبطة وجدل وفوز!

ثم ثنى بشارتهم برحمته وأنهم من المرحومين، ومن رحمته أرحم الراحمين وإله العالمين؛ فلا تسأل عن نعيمه وسعادته وفلاحه في الأولين والآخرين.

ثم ثلث سبحانه وبحمده بشارته لهؤلاء الصابرين بالهدى: إرشادًا وعلماً وتوفيقًا وثبتًا، فلا خوف عليهم من ضيعة سبيل، ولا ضلالة طريق، ولا ظلام بصيرة، فالهادي العظيم القدير قد تكفل بهداهم والأخذ بأيديهم لصراطه المستقيم المفضي بهم إلى رضوانه وجنانه. اللهم اكتبنا ووالدينا وأحبابنا والمسلمين من أهل الصبر الجميل، إله الحق آمين.

وقال تعالى مبيِّنًا أن أهل الصبر لهم جزاء حسنٌ ليس كجزاء غيرهم يقدر ويوزن، بل يصبّ الخير عليهم صبًّا بلا حساب: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] صبروا فاستحقوا مكافأتهم السنية من تلك اليد العلية الكريمة.

وقال سبحانه وتعالى معزِّيًا ومُعِزًّا أهل العفو الجميل الذين تذرّوا الصبر على قلوبهم فأطاقوا العفو عن عباده؛ فغفروا زلاتهم عليهم أن هذا السمو الرفيع لا يناله سوى من وفقهم الله من أهل العزمات الصابرات والإرادات الهائلات دون غيرهم ممن قصرُوا عن بلوغ مرتبتهم: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزِّزٍ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال عز وجل مبيِّنًا ومُعلِّمًا أنه لا بد لكل مؤمن من جرعات صبر جميل يستقوي بها على ضعف نفسه سواء في أيسر الأمور أو أشقها كالجهاد في سبيله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] أي: يظهر علمنا من عالم الغيب والكتابة لعالم الشهادة والواقع.

وقال جلّت قدرته وعمّ فضله ورحمته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فأمرهم بالاستعانة على لأواء الحياة، ومشاق الدنيا، ومكابدة العبادات، وكلفة التحرز من المحرمات؛ بالصبر، ثم الصبر، ثم الصبر. لأنه الوقود المحرّك للقوى النفسانية والحسية، وبالصلاة لأنها حصن الصابرين، وجنة العابدين، ومستراح السالكين، وقد كان إمامهم ومقدمهم ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى، فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة»^(١).

وقال حذيفة أيضًا: «رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمرٌ صلى»^(٢).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ، يصلي ويدعو حتى أصبح»^(٣).

وقال ربنا تعالى مبينًا ضرورة الاستعانة بالصبر والصلاة - بعد الاستعانة به - وكاشفًا ثقل الصلاة إلا على أهل الخشوع لعظمته وجلاله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿[البقرة: ٤٥-٤٦] فتدبر كيف قرن الصبر بالصلاة وبالخشوع وباليقين

(١) المسند (٢٦/٥).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢١٢).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢١٣).

بلقياه والرجوع إليه! فإن هذه مقامات سنّية شريفة يأخذ بعضها برقاب بعض، حتى تُسَنَّم صاحبها أرقى المراتب في دين الله رب العالمين بفضل الله ورحمته وتوفيقه.

ولقد «ورد الصبر في القرآن الكريم في سياقات عديدة منها:

١. الثناء على أهله كقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] (١).

٢. الاستجابة لأمر الله تعالى بالصبر وإيجاب معيته لهم تلك المعية التي تتضمن حفظهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٣. الإخبار أن أهل الصبر مع أهل العزائم: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣].

٤. يورث صاحبه الإمامة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) قال البيضاوي رحمه الله تعالى: «والآية كما ترى جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأوّل بقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إلى ﴿وَالنَّيِّبِينَ﴾ وإلى الثاني بقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها. ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق». تفسير البيضاوي (١/ ٤٥٢) وانظر: السراج المنير (١/ ١٣١).

٥ - اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٦ - إطلاق البشرى لأهل الصبر على الابتلاء بمصائب الحياة الدنيا ومصاعبها بأن جزاءهم على صبرهم هو الحصول على صلوات من ربهم ورحمة وهداية إلى الصراط المستقيم بإذن الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٧ - أن الصابرين بأنفسهم على طاعة الله والتكاليف المنوطة بهم والتقوى ومجاهدة النفس ونهيها عن الهوى وتركيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاءات جزاؤهم أن يوفى لهم أجورهم بغير حساب لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيلٌ ءَانَاءَ أَلَّيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصَالَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٩-١٠]، وأولئك الصابرين لهم عقبى الدار، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

٨ - ضمان النصر والممد لهم كقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] (١).

وقال الإمام الرباني وشيخ الإسلام الثاني والطبيب الخبير بأدواء وأشفية القلوب ابن القيم رحماً الله تعالى وإياه: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الصبر».

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً. وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ٤٥ وقوله: ﴿اصْبِرُوا وَاصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]

الثاني: النهي عن ضده كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة، وقوله: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطائها ترك الصبر على إتمامها، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٥٣]

(١) البصائر للفيروز آبادي (٣/ ٣٧٥).

١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقُنُوتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] **الخامس:** إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأيدهم، ليست معية عامة وهي معية العلم والإحاطة، كقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] **السادس:** إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ

الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ١٥٥﴾

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»^(١).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلْقَى الأفعال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَدَّكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [الفصص: ٨٠] وقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وقوله في أهل سبأ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَشَاءُ يَسْكُنَ الرِّيحَ

(١) الترمذي (٢٥١٦).

فَيُظَلَّلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيَرْمِعُنَّ عَنِ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان وبالتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة، ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خير عيش أدركناه بالصبر، وأخبر النبي في الحديث الصحيح: أنه ضياء فقال: «الصبر ضياء»^(١). وقال: «من يتصبر يصبره الله»^(٢). وفي الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٣).

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) البخاري (١٤٦٩).

(٣) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩).

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع فسألته أن يدعو لها: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك**» فقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها^(١). وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض^(٢). وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر: أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى^(٣). وأمر

(١) البخاري ١٥٠/٧ و ١٥١ (٥٦٥٢)، ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٦).

(٢) البخاري ٤١/٥ (٣٧٩٢)، ومسلم ١٩/٦ (١٨٤٥) ولفظه: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»، قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحوض الذي يكون في يوم القيامة في مكان وزمان أحوج ما يكون الناس إليه؛ لأنه يحصل على الناس من الهم والغم والكرب والعرق والحر ما يجعلهم في أشد الضرورة إلى الماء، فيردون حوض الرسول ﷺ، حوض عظيم طوله شهر وعرضه شهر، يصب عليه ميزابان من الكوثر وهو نهر في الجنة أعطيه النبي ﷺ. ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك، وفيه أواني كنجوم السماء في اللعان والحسن والكثرة، من شرب منه شربة واحدة لم يظمأ بعدها أبداً. اللهم اجعلنا ممن يشرب منه». شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/١٢٨).

(٣) البخاري ٩٩/٢ (١٢٨٣)، ومسلم ٤٠/٣ (٩٢٦) (١٥) ولفظه عن أنس رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**» فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**» وفي رواية لمسلم: تبكي على صبي لها. قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: في الحديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كل أحد، والاعتذار إلى أهل الفضل إذا أساء الإنسان أدبه معهم، وفيه ما كان عليه النبي ﷺ

المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب؛ فإن ذلك يخفف مصيبتَه ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكى يزيد في المصيبة ويذهب الأجر. وأخبر أن الصبر خير كله فقال: «ما أُعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر»^{(١)(٢)}.

وتدبر حال صَحْبِ طالوت وكيف صار الفرقان بينهم هو الصبر، واستشعار معية الله تعالى للصابرين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وكان الذين بقوا وثبتوا وتجرعوا مرارة المشقة بحلاوة الصبر هم الفائزون، وهم أشبه الناس بصحب نبينا صلى الله عليه وسلم في بدر، بل حتى في عددهم، رضي الله عن الجميع. وفي الدر المنثور: «فرجع عنه ثلاثة آلاف وستمئة وبضعة وثمانون، وجلس في ثلاثمئة وبضعة عشر عدة أهل بدر»^(٣). وإنما النصر صبر ساعة.

وَعَلَى اللَّهِ مِنَ التَّوَاضُعِ، وأنه ينبغي للإمام والقاضي إذا لم يحتج إلى بواب ألا يتخذه. شرح

صحيح مسلم ١١/٤ (٩٢٦) عن تحقيق رياض الصالحين للفحل، (١/ ٤٧).

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩)، ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٥٢ - ١٥٥) باختصار وتصرف يسيرين.

(٣) الدر المنثور (٣/ ١٤٧).

وقال سبحانه بعد فضح أهل النفاق وتحذير المؤمنين من أن يُباطنواهم ويقرّبواهم ويسلطوهم على أسرارهم وقواهم، وبعد الوعد بالنصر والتأييد والممدد بالملائكة شريطة الصبر والتقوى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥-١٢٦].

إن الصبر قرين الجهاد بمعناه العام، فالمجاهدة مفتقرة لاصطبار يدفع بها إلى الأمام ليحرز صاحبها نفسه ويفوز بغيته، والجهاد الخاص من باب أولى، قال تعالى: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] إنها جنة الصابرين وجنة المصطبرين يا معشر الصابرين!

وتفكر في أصحاب الأنبياء وحواريهم وخلصهم كيف كان الصبر شعارهم ودارهم وعنوانهم، قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وكفى بمحبة الله الصابرين عزاء من كل مفقود وراحة وأنسا واعتباطاً.

وعلى قدر خطر الموقف وكبره وعظمته تكون الحاجة إلى ما يقابله من جرعة الصبر، وعلى قدر تمكّن الصبر من قلب المواجه للشديدة؛ يكون وقوفه أمامها ورفعها لثقلها بالغان ما بلغا، قال تعالى واصفاً تيك الثلة النادرة الطراز من ذخائر

عباده المجاهدين المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٨﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨] وتلمح طيب العاقبة، واملأ بها راحتك وصدرك، ثم اذهب بها لمن شئت وما شئت.

ثم تدبر خاتمة آل عمران، وكيف رتب الله تعالى الدخول على الصبر بمراتبه الأدنى فالأعلى ليأخذ العبد أهبطه وَيَشِيكَ سلاح قلبه، فقال جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فادخلوا باب الصبر واجتهدوا في تحقيق أطرافه وإحاطته بالمصابرة ثم رابطوا جبَل الصبر الجميل واثبتوا عليه؛ حتى تدركوا مطلوبكم وفلاحكم.

لأستسهلن الصبر أو^(١) أدرك المني فما انقادت الآمال إلا لصابر ومهما كابدت أيها المؤمن في حياتك فقد جعل الله لك الصبر ملاذاً سواء فيما يجب أو يستحب، ولما ذكر الله تعالى نكاح الإماء على وجه الإباحة لمن لم يطق نكاح الحرائر قال جل شأنه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥] فالصبر عاقباته كلها خيرات.

وعلى المؤمن أن يحتذي حذو نبيه وقُدوته ﷺ فيصبر على التمشي مع أحكام وحي ربه وأحكام قضائه وتدبيره، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّعَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

(١) أو: أتت هنا بمعنى حتى.

وتأمل جمالية استثناء المؤمن الصابر من أولئك العجزة الكسالى العجولين الكفورين فقال جل وعز: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ ٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّنْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿[هود: ٩-١١].

وقال سبحانه بعد ذكر مصرع الغابرين الكافرين من قوم نوح عليه السلام، وحاضاً على العض بالنواجذ على حقائق الصبر: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] ولا تقوى إلا بصبر.

ولما ذكر الله تعالى شأن الحسنات الماحية للسيئات؛ أردف ذلك بالأمر بالصبر لأنه المعتصم بإذن الله من السيئات المهلكة والموصل برحمة الله إلى الحسنات المرضية المفضية لرضاه وجنته فقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِّرِينَ﴾ ١١٤ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[هود: ١١٤-١١٥] وتأمل حضور الصلاة في مشاهد الصبر ومقامات اليقين.

والصبر على مقامات الدين كالهجرة والجهاد أمان من الفتن بإذن الله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وأهل الصبر مأمور بحسن صحابتهم وحبس النفس على معيتهم ومجالستهم

لله تعالى، فإخوان الصبر في ذات الله هم من خير عتاد المؤمن في سيره لربه تعالى، أما إخوان الرخاء أو الترف فإنهم إن لم يعيقوه لم يعينوه على تحصيل موجبات رحمة ربه إلا من رحم الله، أما الغافلون المفرطون في مواطن الصبر فصحبتهم شرّ وهي أعدى من الحرب، قال جل شأنه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تَقْطَعْ مَنَ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إن أهمل الصبر هم ورثة الجنان، قال ربنا: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ٦٣ ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَآبِينَ أَيُّدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَآبِينَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ٦٤ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٣ - ٦٥]. فلما ذكر الجنة العالية الخالصة للمتقين؛ أمر بعبادته ثم ثنى بالاصطبار عليها إيداناً بافتقار التقوى للصبر على العبادة.

لقد كان الأمر بالصبر ابتدائياً في الإسلام، فإن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ سورة المدثر وأمره ووصاه، ختم تلك الوصايا بقوله الأعز: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧] فليس لك طاقة على إقامة الدين في نفسك وفي الناس إلا بالصبر الممدود لك من الله تعالى.

ولما ذكر الله تعالى في سورة الإنسان تنزيل القرآن العظيم أمر بالصبر لأحكام الله تعالى الشرعية فيه والكونية في خلقته فقال جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ٣١ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ٣٢ ﴿وَاذْكُرْ أَسْرَ رَبِّكَ بَكْرَةَ وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣ - ٢٥]. وحتى هذا الذكر المحرك لحياة القلب محتاج إلى صبر

على قدره وكثرته وكيفيته.

وحين بين الله حقيقة البر ذكر أن من أركانه الصبر فقال في معرض ذكر أوصاف أهل البر: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] أما غير الصابرين فليسوا بصادقين في برهم ولا تقواهم.

وبعد أن أمر الله تعالى في سورة آل عمران بحمل هم الدين والتخلّي بمبادئه والتحلي بسماته والاصطباغ بسجاياه، سهّل على النفس المؤمنة الانخلاع من زهرة الدنيا إذا كانت في لحظة خيارٍ بينها وبين الآخرة، فقال عز اسمه وتعالى قدرته وقدره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ تُجْرِكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَمَةٌ الْغُرُورِ﴾ [١٨٥] ﴿لَتَبْلُوتَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥ - ١٨٦]. نعم، سوف تسمعون الأذى، بل الأذى الكثير من أعداء الله تعالى، ولكن لا ضيعة عليكم ولا خوف ولا حزن إن أنتم حققتم التقوى والصبر، فهما صِمَامُ الأمان لكم، فاستعينوا بهما على لأواء الأذى، وقاتم الحيرة، وخشونة المشقة، وطول الطريق، وقلة المعين، وضعف الناصر من البشر، ومن آوى إلى الصبر بالله ولله؛ فقد آوى إلى ركن شديد.

وتدبر كيف يتلطف الله تعالى لعبده النبي ﷺ مخبراً له ومبشراً ومسعداً أنه في معيّن، فحتى لو أصابه حزنٌ عارض لتكذيبهم إياه فعليه ألا يستسلم لهذا الحزن

لعلمه أن الله معه وأنه المدبر لكونه وأن هؤلاء المكذبين إنما هم في حقيقتهم جحدة بآيات ربهم، فلا تبال لهم بالك، وتأس بإخوتك المرسلين، واصبر كما صبروا، فإن الصبر قد أفضى بهم للفرج والنصر والتمكين والفلاح، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْسَلِينَ ۝ [الأنعام: ٣٣ - ٣٤]. إنهم المرسلون الذين جابهوا عتاة أقوامهم بقولهم الخالد وفعلهم الشامخ: ﴿وَلَصَبْرٌ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝ [إبراهيم: ١٢]. صبرٌ لله ومن الله، وتوكل عليه، فلا جرم أن رضيهم الله لرسالاته عليهم الصلاة والسلام والبركة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۝ [الأنعام: ١٢٤].

إن الصبر شعارٌ لكل مؤمن وعنوان لكل داعٍ إلى سبيل الله تعالى، وحتى في أشد حالات الحرب والتكذيب والأذى من أعدائه فالصبر قائم به بحاله قبل مقاله، وحسن الظن بعاقبة الله للصابرين راسخ في فؤاده، راء ببصيرته حسن المال وجمال المنقلب وسرور الخاتمة، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ [الأعراف: ٨٧]. فهنا السكينة التامة، والأمن المحيط المستغرق ذلك القلب المجاهد النابض بحب الخير للناس.

سيؤذى الداعي إلى سبيل الله تعالى بسوء القول، وشين الظنون، وقبح الفعال، وأذى المخالفين، وهتان الشائنين، وشماتة الجاهلين. سيسلبون ماله،

ويحرمونه حقوقه، ويتسلطون عليه بغياً وعدواناً، سيطعون عرضه، ويقذفون شرفه، ويثلمون أمانته إفكاً وبهتاناً، سيسلبونه حرّيته، ويلبسونه الأصفاد والأغلال، ويدفنونه في الزنازين والأقيّة، ويذيقونه حرّ السياط ونكال الحديد، سيهرقون دمه الزاكي، ويرقصون على جسده الطاهر، ولكن ليس عليه ضرر حقيقي يسلب من قلبه إيمانه وتقواه ما دام بالله مستعيناً، وعلى الله متوكّلاً، والله صابراً.

ويخطئ الخطأ الجَمَّ من ظنّ أنّ السجن ضياع للعمر، ومقبرة للسعادة، ومدفنٌ للحياة، إنّ الأمر ليس كذلك يا صاح؛ لأنّ الاستغلال الأمثل للعمر والاستعمال الصحيح للحياة هو أن يقضيها في طاعة الله تعالى والإيمان به، مهما تقلّبت به الأحوال، وتنكّست به الأهوال، فالظروف والأمكنة والأزمنة ليست بشيء ذي بال، بل هي مجرد ظروف وقوالب مكانية وزمانية سواء أكان المرء بين أربعة جدران، أو في الفضاء الفسيح، بل ربّما يكون الحبس خلوة بالله تعالى واعتكافاً على الأنس به وعبادته بصفاء نفس وسكينة فؤاد بعيداً عن مشوّشات الناس والزمان والمكان. كما قال تقي الدين رحمه الله تعالى في ثلاثيته الحاسمة التي صفت وجوه سجّانيه: إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة!

والمقصود: أنّ لأواء الدنيا مهما تصرّفت فهي بأمر الله تعالى وقدره وعلمه وحكمته ولطفه، وهي لمن آمن بالله تعالى وصبر ليست بشيء مهما تكاثرت مُعَادُوهُ، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ط﴾ [آل عمران: ١١١] أي: شيء يسير لا بد منه، فالضرر منفيّ والأذى مثبت، والأذى يسير، لأنه لو ازداد لكان أذى، وقلنا يسير

نسبة إلى الصادر منهم أولاً، ثم إلى مكانه في دار الفناء ثانياً، أما الضرر الحقيقي الذي يسلبكم إيمانكم بالله فليسوا بباليغيه، فالإيمان محروس في القلب فلا يُخلص إليه إلا بإذن صاحبه ورغبته وإرادته، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [١٣] وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [١٣] وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا لَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٠ - ١٣٢]. اصطر على الذكر والصلاة والخير، فهي جماع التقوى.

وتأمل فرح سحرة فرعون بالله تعالى وصدق اضطرارهم في دعائهم إياه، فحينما هددهم الطاغية وتوعدهم بأشد المثلثات بأن صاح فيهم غضباً مُزبداً: ﴿فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [١٣] لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا أَضِلُّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٣] قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [١٤] وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ رَبَّنَا أَفَرَعَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّعْنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ - ١٢٦]. قال الشريبي رحمه الله: «في الآية فوائد:

الأولى: قولهم: ﴿أَفَرَعَ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أكمل من قولهم أنزل علينا صبراً، لأن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية، فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه.

الثانية: أن قولهم صبراً مذكور بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أي:

صبرًا تامًا كاملاً.

الثالثة: أن ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ثم إنهم طلبوه من الله تعالى، وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى وقضائه»^(١).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَحِمَهُمْ إِذْ صَدَقُوا الدِّينَ وَأَخْلَصُوا لَهُ الدُّعَاءَ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ إِعَانَتَهُمْ بِالصَّبْرِ إِفْرَاغًا عَلَى قُلُوبِهِمْ حَتَّى تَمْتَلِئَ بِهِ لِأَنَّهَا فِي أَشَدِّ مَوْطِنٍ لِعَذَابِ الْبَشَرِ، لَكِنَّهُ الْإِيمَانَ بِالْوَاحِدِ الدِّيَانِ.

وهذا موسى الكليم عليه السلام يوصي قومه بعبادة الصبر، وأن من أراد الله به خيرًا فسيعينه بالصبر، فقال لهم حينما بدى منهم خَوْرٌ وَعَجْزٌ وَضَعْفٌ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وهي ذاتها وصية الله تعالى للمجاهدين من هذه الأمة المحمدية المرحومة، فقال جل شأنه في سورة بدر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٥١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦]. وكفى بمعية الله الناصر لمن نصر دينه!

أَصَاحِبِي؛ إِنَّ الصَّبْرَ جَادَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرِيقُ الْمُرْسَلِينَ، فَمَنْ رَامَ سَبِيلَهُمْ فَلْيَصْبِرْ، وَلْيَتَجَرَّعْ مَرَارَةَ الصَّبْرِ طَاقَتَهُ، فَعَايَةَ الصَّبْرِ خَيْرَ الْغَايَاتِ، وَنَهَايَتَهُ أَجْمَلَ الْعَوَاقِبِ،

(١) السراج المنير (١/ ٥٧٨).

وعاقبته الحمد والسرور. وحينما رجع إخوة يوسف عليه السلام يحملون كذبتهم على أكتافهم، ويلبسون الكذب قناعاً على وجوههم، ويزيفون الحال الذي لم يَغِبْ عن علام الغيوب تبارك وتعالى وتقدس، قال العبد الصالح والنبى الصابر: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]^(١). فهو صبر لا شكاية معه ولا جزع ولا استكانة، بل صبر جميل مفعم بالرضا، ومعطر بالشكر، وحشوه حسن الظن بالله العليم الحكيم الرحيم.

فلو شئت أن أبكي دماً لبكيتُهُ عليك ولكن ساحة الصبرِ أوسع
ولما رجعوا إليه بعد سنين طويلة من فقد حبه يوسف أخبروه بأن شقيقه^(٢)
قد ضُبط سارقاً فاستعبده المصريون وملكوه! فقال هذا النبى الصبار: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣] فقرن الصبر بحسن الظن بالله فأثمر حسن الرجاء بأجل عاقبه وهي اجتماعه بالثلاثة يوسف وشقيقه وأخاهما الذي بقي بمصر تحسراً

(١) قال صاحب الكشف: «إن قلت: ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها ألا يحزن ولا يفرح، قلت: المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين والفرح المطغي الملهي عن الشكر، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر؛ فلا بأس بهما والله أعلم». عن تفسير الخازن (٣٧/٧).

(٢) وعند أهل الكتاب أن اسمه بنيامين، وأمه وأم يوسف راحيل.

وخجلاً من والده. وقد كان قدّر الله عند حسن ظن عبده به فجمعهم له أحسن مجمع وأجمل لقيا. وهذه سنة الله تعالى في عباده الصابرين له.

إنهم المؤمنون بالله ربهم وإلههم ومحبوبهم، الذين جللهم جميل المدائح الربانية وألبسهم الخلع الباهرة من ممدحه ومحامده وكرائم نواله، فقال جل ذكره وتعالى قدسيته: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] وقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١] وقال: ﴿إِنَّهُ وَمَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فاليقين وقود الصبر، والصبر عمود اليقين، واجتماعهما طريق الإمامة في الدين.

ثم إن للصبر ثماراً أحلى من الشهد المصفى، فإن الله تعالى لما ذكر شهوات الدنيا ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤] ذكر أن ذلك مجرد متاع ذاهب وظل عن قريب يتقلص ويذهب، ثم ذكر الجنة ونعيمها والخلود فيها، وختم ذلك بذكر أوصاف أهلها، ومنهم الصابرون، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦-١٧]. واعلم أن كل هذه الأوصاف قائمة على الصبر، فعليك بتحقيقه لتتظم لك.

حتى النصر في الحرب والتمكين في الأرض هما نتاج لقاح الصبر، قال

سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وتأمل السببية (بما صبروا) فصبرهم لله بلغهم المنى.

وكذلك الحال في صحابة نبي الله ﷺ ورضي عنهم، فقال تعالى مُبَهَّرًا لَنَا ببيانهِ وصف ذلك الجيل الطاهر الصبار: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [٦٥] أَلْفَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦] فالرجل يقابل العشرة ولا يحل له الهرب منهم إن كان صبره تأمًا، ومع ضعفه ينحط مقام مقابله حتى يقابل الاثنين، أما مقابلة الواحد فلم تذكر أصلاً لأنه لا يفترض أن توجد من مؤمن يحمل صبر عامة المؤمنين. فتأمل معيارية الصبر والاصطبار - رعاك مولاك العليّ..

هذا وإن عبادة التفكير والاعتبار مفتقرة إلى صبر هادئ ساكن رقيق يأخذ برفق يد العقل المتأمل المتدبر المتأنّي رويدًا عن كثافة الطمع والهلل والحركة إلى سكون الاعتبار والاتعاظ والرَّهْب والرَّغْب، حتى يحط رحله في قصر الفوز، وكنز البصيرة، وشمس المعرفة، وضياء اليقين. والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.

ومما يحسن التفكير فيه: مصارع الأمم، وذكر الله تعالى لأيامه بهم، برفعة أوليائه

وجنده وخفض أعدائه وحزب عدوه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] ولاحظ ذكر الصبر هنا بأشدد تصرفاته، فليس مطلق الصبر بكافٍ، بل لا بد من أن يكون صبراً كبيراً شديداً هائلاً يستطيع سبر أغوار الزمان بتأمل صفحته الصادقة في القرآن، وبحسب قدره يكون وصول صاحبه، حتى إذا اعتبر وأذكر شرب شراب الشكر كله حتى يكون شاكراً شكوراً، بقلبه وقوله وعمله، وهذا هو المؤمن العالم حقاً.

وتدبر قول ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١] تجد ذلك المعنى الجميل الفريد.

إن حشو قلب المؤمن هو برد اليقين بلقاء ربه تعالى، فهو يأمل خيره ويرجو نواله ويسأله رفته، ولا يسأل سواه، فلا خير في العالمين وللعالمين إلا من قبله وحده، فالمؤمن الصالح يصبر نفسه لذلك اللقاء الفريد القريب، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

إليك وإلا لا تُشدُّ الركائبُ	ومنك وإلا فالأؤمُّلُ خائبُ
وفيك وإلا فالرجاءُ مُضَيِّعُ	وعنك وإلا فالحدثُ كاذبُ
لديك وإلا لا قرارَ يطيب لي	عليك وإلا لا تسيلُ السواكبُ

والمؤمن الصالح يعيش مع القرآن بكل نبضاته وزفراته وحركاته وسكناته،

وقيامه وقعوده واضطجاعه، فحتى في مقام دفع الاعتداء والانتقام يقرأ قول ربه وَيُصَبِّرْ نَفْسَهُ عَلَى التَّزَامِ أَحْكَامِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝١٢٦ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧] فلا صبر إلمَّ يُصَبِّرْكَ الذي خلق الصبر، فاسأله منه ابتداءً.

يا معشر الصابرين: بُشْرَاكُمْ بِشْرَاكُمْ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] في غرفات الجنان آمنون سعداء، يُلقون السلام من ربهم وملائكته، نسأل الله الكريم من واسع فضله. ﴿وَلَا يُلَقَّهَ إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]. وقال سبحانه مؤكداً ذلك المعنى الشريف: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر: ٥٨-٥٩] وقال جل اسمه: ﴿وَجَزَّوْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا وَجَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾ [الانسان: ١٢].

إن أعمال القلب محتاجة لذلك إكسير الصبر الأعظم الذي يغذيها ويقويها بإذن الله تعالى، لذلك فلا تعجب حينما ترى تردد الأمر به والثناء على أهله، بل ووعدهم بالأجر الذي لا ينحصر بعدد ولا وزن ولا كيل، قال سبحانه: ﴿قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ [الزمر: ١٠].

وحتى فاضل الأخلاق لا يُبلغ إلا بالصبر بعد توفيق المُصَبِّرِ سبحانه، قال جل

وعلا: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥].

وتأمل . رعاك مولاك . نصح نبينا ﷺ بتكرار أمره بالصبر والمصابرة وتنويع طرق حضه عليه، وذلك لعلمه ﷺ أن ما عند الله إنما ينال بتصبير الله لعبده على شرعه وقدره، فليسألها العبد من ربه ابتداء، وليجتهد في تحصيل أسبابها، وليوطن نفسه الضعيفة على احتمال مشقات منازل الصابرين، فهي المفضية برحمة الله للراحة التامة والنعيم المقيم والظفر التام، فمن ذلك ما رواه أبو مالك الحارث بن عاصم الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ. أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حِجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا»^(١).

وتدبر كيف خص الصبر بالضياء وهو النور الصافي المشع المنير، فالسائر لربه تعالى ستعترضه لا محاله مشاقّ البلاء وظلم الوسواس التي تظلم طريقه، إلا إن كان ثم صبرٌ يضيء سبيله، حتى يرى بثاقب بصيرته نهاية نفق تلك الكربة وذلك الابتلاء، فيصبر نفسه على مرضاة ربها تعالى. قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر نبراس ينير معالم الطريق، ويكشف ظلم الحيرة، ويوضح حقائق الأمور»^(٢).

(١) مسلم ١/١٤٠ (٢٢٣).

(٢) أدب الدنيا والدين (٢٧٩).

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ويُعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اضطباره فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وحتى في أمر الحاجة - بل والفاقة - لا بد للمؤمن أن يكون حسن الظن بتدبير ربه تعالى، متسلحاً في حرب عدوه الرجيم بالصبر لله تعالى، فعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله. وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١). يالله! والذي نفسي بيده لو لم يرد من أحاديث فضل الصبر غير هذا الحديث العظيم؛ لكفى به نبأً وهادياً وأملاً للصابرين. فليس من عطايا الله المباركة الطيبة لعبادة أخير خيرية ولا أوسع بركة وإعانة ورزقاً من جُرعات صبر يفرغها في قلب عبده المؤمن.

تمسك بجبل الصبر في كل كربة فلا عسر إلا سوف يعقبه يسر

وتفكر ملياً في سعادة المؤمن بذخيرة صبره وكنز شكره، وليست سوى لأهل الإيمان، فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩)، ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤).

شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»^(١). وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله عز وجل للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يُؤْجَرُ في كل شيء، حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته»^(٢). فالحمد لله كما ينبغي له.

إنهما زاملتي الصبر والشكر، وعَيَّنَتِي تحقيق عبودية السراء والضراء، فهما جناحا طائر القلب المحلّق بهما في سماء الإيثار والعبودية لربه تعالى، فيصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويشكر في النعماء والعافية وحين النعم.

هذا وإن مقام الشكر هو مقام الإسلام على الحقيقة فالشكر ضد الكفر، ولا قوام للشكر إلا على متن الصبر، وبينهما تلازم وتضمّن^(٣)، وبالله التوفيق.

إِذَا سُدَّ بَابُ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ فَدَعْهَا لِأُخْرَى لِيَنَّ لَكَ بِأَبْهَا
ألا وإن البلاء والعقوبة مكفرة للسيئات، وخير للعبد - إن عَذَّبَ - أن يكون عذابه في الدنيا، فجلّده على نار الله لا يقوى، والآخرة أشد بأسًا وتنكيلًا! والمُعَافَى مِنْ وَلَدِ آدَمَ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَرَفَعَ عَنْهُ عَذَابَهُ ابْتِدَاءً، نسأل الله من فضله ورحمته وعفوه وغفرانه. فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩).

(٢) أحمد في المسند (١٤٨٧) وقال محققوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي (٢٠٩ / ٧): رواه

أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح.

(٣) وللشكر كتاب حافل يأتي بإذن الله تعالى.

يوم القيامة»^(١). وقال النبي ﷺ: «إِنْ عِظَمَ الْجَزَاءُ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(٢).

وقال الرازي في قول الله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾^(٣) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٩] «ذكر أمرين الصبر والتوكل، لأن الزمان ماضٍ وحاضر ومستقبل، لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء»^(٣)، بقي الحاضر واللافتق به الصبر، والمستقبل واللافتق به التوكل، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال.

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله، فَمَنْ عَلِمَ ما سواه علم أنه زائل فيهن عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فإن فاته شيء فإنه يتوكل على حي باق. وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب، فإن قوله: ﴿يَعْبَادِ﴾ [الزمر: ١٠] كان لبيان أنه لا مانع من العبادة، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها. فحصل الناس على

(١) الترمذي (٢/ ٦٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨).

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه. وكذلك حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

(٣) بل يؤمر فيه بالمحاسبة والتوبة، فالماضي لا نستطيع إرجاعه، ولكن - بحمد ربنا - نستطيع تداركه بالتوبة والاستغفار. وهذان لا بد فيهما من صبر، فدخل الماضي في هذه الآية كالحاضر والمستقبل.

قسمين: قادر على الخروج وهو متوكل على ربه، يترك الأوطان ويفارق الإخوان، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى»^(١).

هذا؛ ولا قوام للمؤمن في دينه ودنياه إلا بالصبر الذي يمدده الله تعالى به، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً. وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وجعل الإمامة في الدين موروثاً عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر. بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر. كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسييح، به يعرف الله ويعبد، وبه يُمَجِّدُ الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ويتبنون إلى رأيهم». فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

(١) تفسير الرازي (٢٥ / ٧٤).

فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغي. فالضلال العمل بغير علم، والغي اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر. ولهذا قال علي: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له» (١)(٢).

وفي الصبر أجزأت تعرف فضله وآثاره الحسنى فلا تدع الفضلا
وسلم لأمر الله وارض بحكمه تحز منه فضلاً ما برحت له أهلاً

هذا وقد أجاد الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في توصيف النفس البشرية وحاجة المؤمن الماسة للصبر وكيفية التصبر فقال: «الصبر والشكر وصفان من أوصاف الله تعالى، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان.

وكيف يُتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان، ومن به الإيمان؟! وقد ورد الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِ نَالِمًا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠).

عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فما من قرابة إلا وأجرها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبر.

ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(١). فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وعلق النصره على الصبر فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين.

وفي رسالة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: «عليك بالصبر، واعلم أن الصبر صبران، أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى». وقال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بُني الإيِّمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل». وقال أيضًا: «الصبر من الإيِّمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له».

(١) النسائي (٤/١٦١).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «نِعَمَ العدلان ونِعَمَتِ العلاوة للصابرين». يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى. والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير. وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] بكى وقال: «واعجبا! أعطى وأثنى». أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر».

أما فضيلة الصبر من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف، فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال^(١). فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال. فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد^(٢) في جميع

(١) وهي اصطلاحات دارجة عن كثير ممن يكتبون في السلوك، ولا مشاحة طالما لا تخرم ولا تزاحم معنىً شرعياً، والكمال هو الاختصار على الكلمات والأحرف التي أوردتها الشرع، وإن فيها غنية تامة عن غيرها بحمد الله، وللشيخين ابن تيمية وابن القيم استعمالات كثيرة لها كذا ابن رجب والحافظ وغيرهم من المتأخرين.

(٢) يصح لغة: مطرد ومضطرد، وكلاهما بمعنى.

منازل السالكين إلى الله تعالى.

واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف، وتارة يطلق على الكل، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها، والعمل هو كالثمرة يصدر عنها. ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فان الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما في البهائم فلنقصانها وأما في الملائكة فلكمالها.

وبيانه أن البهائم سُلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة^(١)، وليس فيها قوة تُصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جُردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح على الترتيب، وليس له قوة الصبر البتة، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في

(١) فيها شيء من باعث الغضب لكنه لا يضاهي الشهوة، وبافتقار البهيمة للعلم والعقل فقد فارقت أهل التكليف من الثقلين، والحمد لله الذي أكرمنا وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً، فما أعظم نعمة الدين والعقل لمن وفقه الله وأعانه وحفظه، اللهم توفيقك وعونك وحفظك، إله الحق.

مقابلة جند آخرين، قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم^(١).

ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه^(٢) فتميّز بمعونة الملكين عن البهائم، واختص بصفتين؛ إحداهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب، وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيق، وأما الدواء النافع مع كونه مضرًا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه.

فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن أتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر. فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً، ولكن لا قدرة له على دفعه، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكًا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم

(١) قصد الشيخ التمثيل حتى وإن كان القياس ممتنعًا أو ناقصًا.

(٢) في الصحيح ذُكِرَ مَلِكٌ واحد، ولعل من آثاره انشراح الصدر للطاعة وانقباضه عن المعصية. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ومعهُ قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم». مسلم (٢٨١٤).

تروها^(١)، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند، وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضًا يختلف في الخلق اختلافًا لا ينحصر.

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها «باعثًا دينيًا»، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها «باعث الهوى»، وليُفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى.

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين، فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة.

وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة، فإذا قوي يقينه. أعني المعرفة التي تسمى إيمانًا. وهو اليقين بكون الشهوة عدوًا قاطعًا لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث

(١) والأظهر أنه ملك واحد كما مر، وهو غير مستقل بالهداية والإعانة، بل هو من ضمن جند الله تعالى ولطفه ومدده وعونه. فالملائكة تحب المؤمنين، وتدعو لهم، وتستغفر لهم، وتربط على قلوبهم، وتشرح للحق صدورهم بإذن الله تعالى.

الدين، وإذا قوي ثباته تَمَّتْ الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة، وقوة المعرفة والإيمان تقبّح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها.

وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما، وهما من الكرام الكاتبين^(١) وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين، وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المُقَوِّي لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبي الدست الذي ينبغي أن يكون مسلماً له، فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال^(٢).

قال الشيخ الفقيه المنجد حفظه الله تعالى: «إن الله جعل الصبر جواداً لا يَكُوبُ، وصارماً لا يَنُوبُ، وجنداً لا يُهْزَمُ، وحصناً حصيناً لا يُهْدمُ، وهو مطيّة لا يَضِلُّ رَاكِبُهَا.

فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر، وهو أنصر لصاحبه من

(١) الأظهر أنه ملك مستقل ووظيفته مختلفة عن الكرام الكاتبين، أما كلامه في الجملة عن وظيفتهما فهو متسق وسليم، لكنه عن ملك خاص بإلهام الخير وشرح الصدر له وإيعاده بالخير ودفع ضده، وليس عن الملك الذي يكتب الحسنات والملك الذي يكتب السيئات، نعم روى الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة». وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٧) وضعفه آخرون، ولكن ليس هذا فيما نحن بصدد، والله أعلم وبه التوفيق.

(٢) إحياء علوم الدين (٥٩/٤ - ٦٣).

الرجال بلا عدّة ولا عدد، ومحلّه من الظفر محل الرأس من الجسد، وهو سبيل النجاح والفلاح، وهو فضيلة يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه.

فحال الإنسان إما بين صبر على أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدّر يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها.

وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم إلى المهمات، فالحياة لا تستقيم إلا بالصبر، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء، والصبر زاد المجاهد إذا أبطأ عنه النصر، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابة، وزاد العالم في زمن غربة العلم، بل هو زاد الكبير والصغير، والرجل والمرأة، فالصبر يعتصمون، وإليه يلجئون، وبه ينطلقون.

إن للصابرين معيّة مع الله، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمة الله الظاهرة والباطنة، وجعل الله سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين.

والصبر طريق الجنة: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لا تيأسنَّ وإن طالّت مطالبة إذا استعنت بصبرٍ أن ترى الفرجاً
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومُدمِنُ القرعِ للأبوابِ أن يلجأ

والصبر سبب لدخول الجنة وسبب النجاة من النار، فالجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، فكيف تدخل الجنة بدون صبر على المكاره؟ وكيف تقى

نفسك النار بدون صبر عن الشهوات؟

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ»^(١)

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفِّيهم أجرهم بغير حساب، وأخبر أنه معهم بهدأته ونصره العزيز وفتح المبين فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾».

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور فقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وأمر رسوله بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره إنما هو به، وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [النحل: ١٢٧-١٢٨].

والصبر آخِيَّةُ^(٣) المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان إيمان قليل في غاية الضعف وصاحبه ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ

(١) أعمال القلوب للمنجد (٢/ ٣٧ - ٤٤) مختصراً، وبعض حروفها من مقدمة عدة الصابرين، وهي مقدمة سننية شريفة.

(٢) الآخِيَّة: هي العمود الذي تربط فيه الدابة فتجول ثم ترجع إليه. ومن شواهد ذلك قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «التورق آخية العينة، والعينة من الربا». والجمهور على إباحة التورق بشروطه، وقد أفتى بحلها شيخنا ابن باز رحمه الله تعالى وغيره.

عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١١﴾ [الحج: ١١] ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولما كان الايمان نصفين نصف صبر ونصف شكر؛ كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها ألا يهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

وحفظ من خطب الحجاج: اقدعوا هذه النفوس، فإنها طلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاً وزماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه.

قلت^(١): النفس فيها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره.

ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به، وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك، وأفضل الناس أصبرهم على

(١) أي: ابن القيم.

النوعين.

فكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين، بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين»^(١).

ولقد كان السلف يعرفون قدر هذا العمل العظيم من أعمال القلوب، وأنه لا قوام للدين والدنيا إلا به بإذن الله تعالى. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من يتفقد يفقد، ومن لا يُعَدِّ الصبر لفواجع الأمور يعجز»^(٢). وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ثلاث يُدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة؛ الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والدعاء في الرخاء»^(٣). وقال مجاهد: «الصبر مَعْقِلٌ»^(٤).

«إنَّ الصبر خصلة محمودة، وسجية مرغوبة، وخلق فريد، جميل العواقب، حميد الآثار، جم الفوائد، كريم العوائد، وهو قوَّة نفسية وخلقية إيجابية فاعلة، تدفع المتحلي بها إلى مقاومة كل أسباب الخور والضعف والاستكانة، وتحمله على الصمود على طاعة الله، والثبات أمام الفتن والمغريات، والمحن والمكاره، إلى أن

(١) عدة الصابرين (٣/١).

(٢) الزهد لأبي داود (٢٢٢/١).

(٣) الزهد لأبي داود (٤٣٠/١).

(٤) الصبر والثواب عليه (٨٦/١).

يلقى الله وهو عنه راضٍ. وهو أيضًا قوة تحمل واختبار عزيمة، وسلاح نجاح المؤمن وفلاحه في الدنيا والآخرة.

وللصبر فضائل كثيرة وعظيمة ورد ذكرها في مواضع متفرقة من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ، وكذا في العديد من الآثار الواردة عن سلف الأمة وعلمائها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد ذكر الله عز وجل الصبر وأشاد به في مواضع كثيرة في كتابه الكريم، والمتتبع للمواضع التي ذكر فيها الصبر والصابرون في القرآن الكريم يتضح له بجلاء لا يقبل الشك أن الصبر مقام من أرفع مقامات الدين، وخلق من أعظم أخلاق المؤمنين، ومنزلة من أجل منازل الصالحين، وشعبة من أبرز شعب الإيمان، وعروة من أوثق عرى الإسلام، حتى أن القرآن جعله مفتاح كل خير، وباب كل سعادة في الدنيا والآخرة^(١). ولعل من أبرز فضائل الصبر في هذه المواضع الكثيرة في كتاب الله ما يلي:

١. أن الله عز وجل قرن الصبر بأركان الإسلام وقيمه، ومقامات الإيمان:

أ. فقرنه سبحانه بالصلاة، فقال: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:

١٥٣].

ب. وقرنه بالجهاد، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ

وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا

(١) الصبر في القرآن. د. يوسف القرضاوي (٥٣).

فَتَنُوا ثُمَّ جَهِدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مُنْ بَعْدَهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[النحل: ١١٠].

ج - وقرنه بعمل الصالحات عموماً، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

د - وقرنه باليقين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

هـ - وقرنه بالحق، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

و - وقرنه بالصدق، فقال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ز - وقرنه بالتقوى، فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

ح - وقرنه بالتوكل، فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

ط - وقرنه بالشكر، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم: ٥].

٢ - أنه سبحانه أخبر بمعيته للصابرين في آيات عدة:

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، يقول ابن سعدي:

«أي مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن لهم فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً» (١).

٣. أنه سبحانه أخبر بظفرهم بمحبته فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [أل عمران: ١٤٦].

٤. أنه سبحانه أطلق البشرى لهم بأن جمع لهم ثلاثة لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۖ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] (٢).

٥. أنه سبحانه أوجب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، وتوفيتهم أجورهم بغير حساب، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. أي: «بغير

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥).

(٢) وهما العدلان والعلاوة التي ذكرها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالعدلان هما الصلوات والرحمة، أما العلاوة فهي الهدى.

حدّ ولا عدّ ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله»^(١).

٦ - أنه سبحانه ضمن النصر والممدد لهم، فقال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقال: ﴿وَقَمَّتْ كُلُّ نَفْسٍ لِّرَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٧ - وضمن لهم سلامتهم من شر الأشرار وحفظهم من كيد الأعداء فقال: ﴿إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تَصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٨ - أنه سبحانه امتدحهم وأثنى عليهم فقال: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] قال أبو طالب المكي: «إن الله في هذه الآية حقق بالصبر صدق المؤمنين وتقواهم، وكمل به وصفهم وأعمال برهم»^(٢).

٩ - أنه سبحانه أخبر باستحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم فقال: ﴿وَجَزَاءُ مَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال أيضًا: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٢١).

(٢) انظر: قوت القلوب (١/ ١٩٥).

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

١٠ . أنه سبحانه أخبر أنه ما يلقي الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر فقال: ﴿وَيَلْكَمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [الفصل: ٨٠]، وقال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوحًا عَظِيمًا﴾ [فصل: ٣٥].

١١ . أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم: ٥]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١] وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]. فدل هذا على أن عبادات التفكير والتدبر والتفقه في سنن الله تعالى إنما تأتي بحسب ما في القلب من صبر وشكر، فهما قطبا رعى الفلاح في الدارين.

١٢ . أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة، الذين قامت بهم هاتان الخصلتان، ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧-١٨].

١٣ . أنه سبحانه جعل الصبر من عزم الأمور فقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وقال في وصايا لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ

بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿﴾ [لقمان: ١٧].

١٤ - أنه سبحانه جعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»^(١). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»^(٢).

وخير مثال على ذلك؛ الإمام الفذ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ حينما امتحن المحنة العظيمة في فتنة القول بخلق القرآن، فصبر وصابر وثبت على الحق، فأورثه الله الإمامة في الدين، وأصبح إماماً ومناراً لأهل السنة والجماعة.

وللصبر مقام باسق ومكان عالٍ في السنة النبوية فقد صح عن النبي ﷺ أحاديث نبوية كثيرة تبين قيمة الصبر، وتبرز منزلته وفضله، ومن ذلك أن الصابر على طاعة الله وملازمة عبادته، والصابر عن ارتكاب المعصية مع توفر دواعيها أحد السبعة الذين سيظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١١٧).

تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»^(١).

قال المنبجي رَحِمَهُ اللهُ: «ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلمهم الله في ظله، لكمال صبرهم ومشقته على نفوسهم، فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من رعيته، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال الداعي، وصبر المتحابين في الله في اجتماعهما وانفرادهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس، فهذه الأمور فيها مشقة على النفوس، فالصبر عليها بتوفيق الله وفضله وإحسانه إلى عبده صبر جميل عظيم»^(٢).

ومن ذلك إكرام الصابرين بتحية الملائكة لهم في الجنة؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: اتئوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون

(١) البخاري (١٤٢٣) ولاحظ الأمرين الجامعين المضطربين لكل السبعة وهما: الإخلاص

والصبر

(٢) تسلية أهل المصائب (٢٠٤).

بي شيئاً، وتسدّ بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب»^(١).

والصبر حجاب من النار يأذن ربها، ففي صحيح مسلم^(٢) قالت امرأة: «يا رسول الله دفنت ثلاثة! قال: «دفنت ثلاثة؟» قالت: نعم، قال: «لقد احتظرت بِحِطَارٍ^(٣) شديد من النار». كذلك في حديث المرأة التي كانت تصرع؛ فعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقالت: أصبر، وقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها»^(٤).

قال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: «قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: العالو الرتبة ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وبَيَّنَّها بقوله: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة طويلة^(٥)، وهي أعلى الجنان؛ ثم

(١) أحمد في المسند (٦٥٧٠) وجود سنده محققو المسند. ط. الرسالة.

(٢) مسلم (٢٦٣٦).

(٣) الحِطَار: هو الحظيرة تعمل للإبل والدواب من شجر ليقبها البرد والريح، والاحتظار: فعل ذلك، أراد: لقد احتميت بحمي عظيم من النار، يقيك حرها ويؤمنك من دخولها.

(٤) صحيح البخاري (٤/٧) ومسلم (٤/١٩٩٤).

(٥) العَدْن: هو الخلود والبقاء، وقد وردت آيات تجمع العدن مع الخلود، كما في طه: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ وآية البينة:

استأنف بيان تمكنهم فيها فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ولما كانت الدار لا تطيب بدون الحبيب قال عاطفًا على الضمير المرفوع إشارة إلى أن النسب الخالي غير نافع: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ والصلاح: استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع ﴿مِنْ آبَائِهِمْ﴾ أي الذين كانوا سببًا في إيجادهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: الذين تسببوا عنهم؛ ثم زاد في الترغيب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ لأن الإكثار من ترداد رسل الملك أعظم في الفخر وأكثر في السرور والعز.

ولما كان إتيانهم من الأماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الأدب والإكرام قال: ﴿مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ والسلام: التحية بالكرامة على انتفاء كل شائب من مضرة، وبين أن سبب هذا السلام الصبر فقال: ﴿يَمَّا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بصبركم، والذي صبرتم له، والذي صبرتم عليه، إشارة إلى أن الصبر عماد الدين كله^(١).

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ وهذا - والله أعلم - لأنَّ العَدْنَ هو خلود الذات، أي أنَّ معدن الجنة خالد، أي: هي بنفسها خالدة، لذلك ذَكَرَ خلودَ ذاتها وخلود أهلها فيها، فهو نعيم إلى نعيم، فهي لا تفنى ولا تبعد، وأهلها فيها خالدون أبدًا، نسأل الله الكريم من فضله.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٤ / ١٤٧) وهو تفسير نفيس عزيز رائق لم يأخذ حقه من الانتشار والتداول بين طلبة العلم.

ماذا يكلّفك الرّوحاتِ والدُّجَا
 كمّ من فتى قصّرت في الرّزقِ خُطُوتهُ
 لا تيأسنَّ وإن طالَتْ مُطالبهُ
 إنّ الأمور إذا انسَدَتْ مسالكُها
 أخلّق بذي الصبرِ أن يحظى بحاجته
 فاطْلُبْ لرجلك قبل الخطو موضعها
 ولا يغرنّك صَفْوُ أنت شاربهُ
 لا يُنتجُ النَّاسُ إلا من لقاحهم
 البرّ طوّرًا تركبُ اللُّججا وطوّرًا
 ألفيتهُ بِسَهامِ الرزقِ قد فلجّا
 إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا
 فالصبرُ يفتح منها كلّ ما ارتجّا
 ومُذمّنِ القَرعِ للأبواب أن يلجّا
 فَمَنْ عَلا زَلَقًا عن غِرّة زلجا
 فربّما كان بالتكدير مُتَزَجًا
 يبدو لقاحُ الفتى يومًا إذا نتجا

جعلنا الله جميعاً من المحققين لمنازل الصبر والرضا والحمد والشكر والعبادة،
 آمين إله الحق.



هل المصائب تُكفر الخطايا بنفسها أم بالصبر عليها؟

هذا تساؤل يطرأ على ذهن الكثير ممن يتأملون سنن الابتلاء، فحسُن الكلام عليه فأقول مستعيناً بالله تعالى: إن ظاهر النصوص أن المصائب تكفر الذنوب بذاتها بشرط عدم التسخّط والجزع، فهي تكفر الذنوب، ولكنها لا ترفع الدرجات إلا إن كانت نفس المصيبة لذات الله تعالى في أعمال البر كالجهاد والدعوة والصلة والإغاثة ونحو ذلك.

ولا يمكن ترك الجزع والتسخّط إلا بالصبر على المصيبة، وبما أن هذا الصبر شيء زائد عن ألم المصيبة؛ فالعبد مستحق بكرم الله وفضله. أجراً آخر جرّاء عبودية صبره، فإن صاحب الصبر رضا؛ كان الأجر أكثر، فإن انضاف إليهما حمدٌ وشكرٌ؛ كان أفضل وأكمل وأحظى وأجمل.

ومن فاته أجر الاحتساب عند الصدمة الأولى؛ فينبغي ألا يفوت نفسه بقيّة أجرها المستتبع لها؛ بأن يستتبع احتسابها على مرّ الزمان، فله أجرٌ بقدر احتسابه. وبالجملة؛ فالمصيبة كفارة وحِطّة، والصبر عليها ثوابٌ وأجرٌ.

وهذا الصبرُ المشروط للتكفير والأجر؛ هل لا بد أن يصحبه احتسابٌ

للأجر؟

الأظهر أنّه يكفي للتكفير ترك التسخّط، لعموم البلوى بعدم طروء احتساب الأجر حال وقوع المصيبة ذهولاً بالألم عنها، أو جهلاً بهذا الأمر الدقيق، أما تحصيل الأجر فلا بد له من احتساب؛ لأنه حينها يكون من قبيل العبادات، فصار مفتقراً

للإخلاص، بمعنى أن يصبر لله لا لغيره من الدنيا. ومن هنا قال بعض السلف: «فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة». ويعنون بذلك: إما الحرمان من تكفير الخطايا بسبب التسخط، لأنّ هذا يعدُّ ثواباً باعتبار الموازنة؛ فما نقص من ميزان السيئات فهو بالضرورة مُرَجَّحٌ لميزان الحسنات، أما المعنى الثاني فهو فيمن غفل عن احتساب الأجر على المصيبة، فهذا - وإن نال التكفير بسبب صبره بترك الجزع - لكنه محروم من الثواب بسبب عدم احتسابه الأجر، والله أعلم.

وعليه؛ فما ورد من تعليق الكفارة والثواب على المصيبة؛ فالمراد ما لم يصاحبها اعتراض وجزع وسخط، فإنّ التسخطَ معصيةٌ تقلب الحال وبالألّا من الكفارة والأجر إلى السخط والعقوبة. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها؛ إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(٢).

وتأمل تناسب حجم الجزاء مع البلاء، فهذه من عظيّمات مُعَزِّيات أهل البلاء، وأعظم منه ربط المحبة بالبلاء، فأهل البلاء هم أهل محبة الله تعالى. وتأمل كيف عبر عن استحقاق السخط للساخت بـ«له» دون «عليه» وذلك - والله أعلم - لزيادة

(١) البخاري (٥٣١٧) ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

المبالغة في الحرمان فبينما هو منتظر للأجر أو الكفارة على مصيبته إذ هو يحصل على السخط عيادًا بالله تعالى، ولنحو ذلك مال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ، قال: «ولم يقل هنا «فعلية السخط» مع أن مقتضى السياق أن يقول فعلية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] أي: عليهم اللعنة. وقال آخرون: إن اللام على ما هي عليه، فتكون للاستحقاق، أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] أي: حقت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح^(١).

وقال ﷺ: «ليس مِنَّا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»^(٢).

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»^(٣).

وبمقتضى مفهوم المخالفة فهذه البشارة المصطفوية تفيد أن من لم يُبتَلْ فإنه لم يُرد به خيرًا، وذلك كقوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»^(٤). ويتبين ذلك من ثلاث دلالات:

الأولى: أن سنة الله هي ابتلاء أحبائه وأوليائه، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم

(١) لقول المفيد على كتاب التوحيد، للعثيمين (٢/ ٨٠).

(٢) البخاري (١٢٣٥) ومسلم (١٠٣).

(٣) البخاري (٥٣٢١).

(٤) صحيح. رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

الأمثل فالأمثل، فالمؤمن مبتلى على قدر دينه.

الثانية: أن الابتلاء يُظهر أفضل ما في النفس السوية من أخلاق وصفات ودين وإيمان وصبر وحمد، فاستحقت بذلك أعظم الثواب.

الثالثة: أن الإنسان مهما كان حاله - لا ينفك عن ذنوب، فخير له أن تكفر عنه إما بمغفرة مباشرة، أو ببلايا مُطَهِّرة، وبالله التوفيق.

ومن فضل الصبر الخالص الجنة الخالصة، فعند البلاء يتميز صبر المؤمنين، ومن أشد البلاءات فرقة الأحباب، وبخاصة فلذات الأكباد.

أمران لو بگتِ الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حقيهما فَقَدْ الشبابِ وفُرْقَةِ الأحبابِ

فتأمل البشارة الإلهية؛ قال ﷺ: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»^(١).

والصَّفِيُّ هو الحبيب القريب للنفس من ولد أو والد أو أخ أو قريب أو صديق ونحو ذلك.

وقال العز بن عبد السلام في القواعد: «الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته

(١) البخاري (٦٠٦٠).

إياهم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فلا استرجاع هو سبب في حصول ما ذكر^(١).

وتأمل ثواب الحمد عند قبض الولد، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل للملك الموت: يا ملك الموت؛ قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينيه وثمره فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟^(٢) قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد»^(٣). إذن: «فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في الجنة، وتسمية البيت كافية»^(٤).

وقال ابن تيمية في شأن المصائب المصاحبة للعمل لله تعالى وفي طاعته وفي سبيله كالجهاد في سبيله ونحوه من الطاعات والصالحات: «وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه، فإن هذا أصيب وأوذى باختياره طاعة الله، يثاب على نفس المصائب، ويكتب له بها عمل صالح قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:

(١) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٢٦).

(٢) وهو أعلم سبحانه وبحمده.

(٣) الترمذي (١٠٢١) وأحمد (٤/٤١٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥).

(٤) تسليية أهل المصائب (٢٢٢).

[١٢٠] بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد، كالمرض وموت العزيز عليه، وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها، لا على نفس ما يحدث من المصيبة، وما يتولد عنها.

والذين يُؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال، وهم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم المهاجرين الأولين؛ فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظة الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعلاً ويقوم به، لكنها متسببة عن فعله الاختياري^(١) وهي التي يقال لها متولدة^(٢).

وقال أيضًا موضحًا لما أجمله هنا: «الإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه؛ كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام، له ثواب الفاعل التام، وعقاب الفاعل التام، الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو إلى ضلالة، والسَّانِّ سنة حسنة وسنة سيئة، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى؛ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة؛ كان عليه

(١) فهو قد اختار طاعة الله وأرادها وعملها، فما تولد عنها فهو تابع لها.

(٢) أمراض القلوب وشفائها لابن تيمية (٢٠) وانظر زاد المعاد (٤/ ١٨٩).

من الوزر مثل أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١). وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «من سنَّ سنة حسنة؛ كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^(٢).

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة هو طالبٌ مريدٌ كاملُ الطلب والإرادة لما دعا إليه؛ لكن قدرته بالدعاء والأمر وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول، ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٢) وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[التوبة: ١٢٠ -

١٢١] فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة؛ وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب وما يحصل للكفار بهم من الغيظ وما ينالونه من العدو. وقال: ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم وهي الإنفاق وقطع المسافة، فلماذا قال فيها: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ فإن هذه نفسها

(١) البخاري (١٦٨/١) و(١٢٥/٨) ومسلم ٦٢/٨ (٢٦٧٤).

(٢) مسلم (١٠١٧).

عملٌ صالح، وإرادتهم في الموضوعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا. فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح.

وكذلك الداعي إلى الهدى والضلالة؛ لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه؛ كان بمنزلة العامل الكامل، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه؛ للهادي مثل أجور المهتدين، وللضال مثل أوزار الضالين، وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة، فإن السنة هي ما رسم للتحري، فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته^(١).

وللقرافي رَحْمَةُ اللَّهِ وجه آخر للجمع فهو يرى التكفير بنفس المصيبة حتى مع الجزع، لكن الجزع قد يهدم ذلك التكفير أو يقلله أو يزيد عليه بحسب الجزع وبحسب قدر المصيبة، أما الثواب فهو الجادة المشهورة من اشتراط الصبر، قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «المصيبة كفارة للذنوب جزماً، سواء اقترن بها السخط أو الصبر والرضا، فالسخط معصية أخرى، ونعني بالسخط عدم الرضا بالقضاء كما تقدم تقريره، لا التألم من المقضيّات كما تقدم بيانها. والصبر من القرب الجميلة؛ فإذا تسخط جعلت سيئة، ثم قد تكون هذه السيئة قدر السيئة التي كفرتها المصيبة، أو أقل، أو أعظم، بحسب كثرة السخط وقلته وعظم المصيبة وصغرها، فإن المصيبة العظيمة تكفر من السيئات أكثر من المصيبة اليسيرة، فالتكفير واقع قطعاً تسخط المصاب أو

(١) أسباب رفع العقوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩ / ١).

صبر، غير أنه إن صبر؛ اجتمع التكفير والأجر، وإن تسخط؛ فقد يعود الذي تكفر بالمصيبة بما جناه من التسخط أو أقل منه أو أكثر. وعلى هذا يحمل ما في بعض الأحاديث من ترتيبه المثوبات على المصائب، أي إذا صبر ليس إلا، فالمصيبات لا ثواب فيها قطعاً من جهة أنها مصيبة لأنها غير مكتسبة، والتكفير بالمصيبة يقع بالمكتسب وغير المكتسب»^(١).

قلت: والذي أداه لذلك فصله المصيبة عن انفعال المتأثر بها، فلها تكفيرها الخاص، أما الانفعال بها صبراً ورضاً وحمداً أو جزعاً وتسخطاً فله جزاؤه الخاص ثواباً أو عقاباً، وليس بين أيدينا مرجح قاطع لتناول الأدلة هذا وذاك. وبالجمله؛ ففي قوله في تكفير الخطايا بالمصيبة مطلقاً وجاهة وقوة، وإن كانت غير راجحة، وفضل الله تعالى واسع، وكرمه عظيم، وحكمته بالغة، والله أعلم.

وقال عبيد السلمي في اشتراط الصبر للأجر: «والذي يظهر لي: أن الأجر لا يحصل إلا مع الصبر، لا بد للإنسان أن يصبر أو يسخط، ولا أعرف مرتبة بينهما، إلا أن الصبر إما أن يكون لله ومع الله؛ فإنه يؤجر على ذلك للآيات والأحاديث التي تحث على الصبر وتأمربه، وإما أن يكون لغير ذلك من غاياته في الدنيا، أو يجبر على الصبر كصبر البهائم، ويسلي نفسه كصبر الكفار؛ فإن هذا لا أجر له»^(٢).

قلت: وأما قول النووي رَحِمَهُ اللهُ وَمَنْ نَحَى نَحْوَهُ؛ فهو لا يكاد يخرج عما ذكره

(١) الفروق للقرافي (٤ / ٣٩٤).

(٢) الفتنة والابتلاء، عبيد السلمي. مجلة البحوث الإسلامية (٤٥ / ٢٩٣)، المنهاج (١٦ /

الآخرون؛ لأنه وإياهم متفقون على اشتراط ترك التسخط، ولا بد لذلك من صبر، فعاد أمر الثواب للصبر لا المصيبة، وسواء أرجع الثواب الزائد عن الكفارة لذات المصيبة أو إلى الصبر عليها فالثمرة واحدة، قال رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء. وحكى القاضي عياض عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط ولا ترفع درجة وتكتب حسنة، قال: وروي نحوه عن ابن مسعود. وقال أيضًا: والوجه لا يكتب به أجر لكن تكفر به الخطايا فقط. واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصراحة برفع الدرجات وكتب الحسنات»^(١).

وبعد؛ فبجمع الأحاديث وضم معانيها ننتهي إلى ذلك التفصيل في شأن ثواب المصيبة ومكفرتها للذنوب؛ فالجزع والتسخط خيبة وخسار، والصبر تكفير وأجر، والاحتساب والحمد ثواب محض. وبهذا تجتمع الأدلة وتتقارب الأقوال، وبالله التوفيق.



(١) المنهاج (١٦/١٢٨).

حكم الصبر

الصبر واجب في الجملة بإجماع الأمة^(١)، وذلك لما يلي:

١ - أن الله عز وجل أمر به في آيات عديدة في كتابه الكريم، والأمر في أصله يقتضي الوجوب والفورية، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَارَابُطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢ - أنه سبحانه نهى عن ضده، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمُ ٱلْأَذْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فإن تولية الأذبار ترك للصبر والمصابرة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُواْ ءَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطالها ترك للصبر على إتمامها، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

٣ - أنه سبحانه رتب عليه خيري الدنيا والآخرة، فلا يفوز الإنسان بمحسوب ولا ينجو من مكروهه إلا بالصبر، وما كان كذلك كان تحصيله واجباً^(٢).

أما حكمه التفصيلي فيختلف باختلاف نوع المصبور عنه أو المصبور عليه،

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١ / ٢٦٠) وجامع الرسائل والمسائل (٢) /

(١٠٦) والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (٢٦٥) والتحفة العراقية (٣٥٣).

(٢) الصبر في القرآن (٢٩).

فلكل نوع حكم يخصه من الأحكام التكليفية الخمسة^(١).

فالصبر الواجب: هو الصبر على أداء الواجبات، والصبر على ترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، وهذا باتفاق المسلمين^(٢).

والصبر المندوب: هو الصبر على فعل المستحبات، وعن فعل المكروهات، أو عما هو خلاف الأفضل والأمثل، ومثال ذلك: أن مقابلة السيئة بمثلها جائزة في الإسلام، وأفضل منها العفو والصفح، ومن هنا يكون الصبر عن مقابلة السيئة بمثلها أمراً مندوباً، يقول عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ^ط وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ^ط﴾ [النحل: ١٢٦] ويقول أيضاً: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا^ط فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^ط﴾ [الشورى: ٤٠].

والصبر المحظور المحرم: هو صبر الإنسان عن الطعام والشراب حتى الموت^(٣)، وكذا صبره عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة إذا خاف بتركه

(١) الأحكام التكليفية الخمسة هي: الوجوب والاستحباب والإباحة والكراهة والتحريم.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩ / ١٠).

(٣) وينبه هنا إلى أن الأصل فيما يسمى الامتناع عن الطعام حتى الموت - وهذا يحدث من بعض ذوي الإرادات الحديدية والصبر الشديد - وذلك من أجل الضغط على غيره، كالسجين الذي يشتكي الظلم ونحوه؛ نقول: الأصل هو التحريم، لأنه إتلاف للنفس، ولكن قد يكتنف الحكم حالات خاصة لدى بعض الناس كغلبة ظنه بعدم وفاته، أو غلبة ظنه بفتنته في الدين ونحو ذلك؛ فلضرورة أحكامها. والله أعلم.

الموت، وكذا صبره على ما يقصد هلاكه من سبع، أو حية، أو حريق، أو كافر يريد قتله.

والصبر المكروه: هو الصبر على فعل المكروه، والصبر عن فعل المستحب، كصبر الرجل عن الطعام والشراب واللباس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه. وأما الصبر المباح: فهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين خَيْر بين فعله وتركه والصبر عليه^(١).

والمؤمن عليه أن يصبر على المصيبة حتى لو كان سببها من غيره، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على قصة احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت! فقال آدم لموسى: أنت الذي كلمك الله، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فهل تجده مكتوباً عليّ قبل أن أُخلق؟ قال: نعم، قال: فحجّ آدم موسى، عليهما السلام»^(٢): «ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة، فقال له: لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذن ذنباً وتاب منه، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام وقد تاب منه أيضاً، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر

(١) انظر: عدة الصابرين، (٣٤، ٣٥) عن: دراسات في خلق الصبر في ضوء الكتاب والسنة.

د. مفرح بن سليمان القوسي.

(٢) البخاري ١٢٠/٦ (٤٧٣٦) ومسلم ٥١/٨ (٦٨٤١)

لم يقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] فأمره بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب.

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم^(١). فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل؛ صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي؛ فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم؛ ذكّر لهم القدر^(٢).

ومقصده رَحْمَةُ اللَّهِ: أنه يحق لو ألدهم أن يحتج بالقدر على مصيبة الفقر وليس له أن يحتج بالقدر على ذنبه، بناء على قصة احتجاج النبيين الكريمين عليهما السلام، كما أن ولد هذا الفقير إن لاموه وقد تاب فإنه لا يشرع لهم لومه على ذنب قد تاب منه، وظهرت أمارات صدق توبته، ولكن قد يكون لهم بعض ملام على المصيبة التي تسبب بها باختياره وإضاعته وهي الفقر، وإن كان الأفضل لهم ترك ذلك الملام لأنه القدر، وقدر الله ماض، ومن الضياع مدافعة قدر قد مضى وانقضى، ولم يكن رسول الله ﷺ يلوم على الأقدار، وقال عنه خادمه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. بعد ذكر

(١) وروي هذا الحرف عن علقمة وهو من خاصة ابن مسعود، وفيما يظهر أنه أخذه منه.

(٢) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١/ ٧٨).

خدمته له :- «فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلت كذا وكذا، وما قال لي لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا»^(١).

وإنما تشرع مدافعة القدر في المستقبل - وإن كان هذا لا يغيّر ما في اللوح المحفوظ ولكن مما دونه كصحف الملائكة ونحوها - ومن أمثلة المدافعة: قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي عبيدة والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع طاعون عمواس في الشام وهم على مشارفه، وقد اختلفوا هل يعودون للمدينة، أم يدخلوا الشام، فنادى عمر في الناس بعد المشاورة: إني مُصْبِحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها أبو عبيدة! - وكان عمر يكره خلافه - نعم نَفَرٌ من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كانت لك إبل، فهبطت وادياً له عَدَوَتَانِ - والعَدْوَةُ: جانب الوادي :- إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيّياً في بعض حاجاته - فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً»، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف»^(٢).

كذلك ما ورد في شأن فضل الدعاء وأنه لا يرد القضاء إلا الدعاء، وأن البلاء والدعاء يعتلجان بين السماء والأرض، وكذلك ما ورد في فضل صلة الرحم من

(١) أحمد (١٢٧٨٤).

(٢) البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣)، ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢).

زيادة الرزق والأجل وغير ذلك، والله أعلم.

وعودًا على الصبر وأنواعه بحسب اعتباراته؛ فقد قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن الصبر أيضًا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم، فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محذور كمن تُقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكنًا، وكمن تُقصد حريمه بشهوة محظورة فتتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصبر محرم، والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع.

فليكن الشرع محك الصبر، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة»^(١).

وبالجملة؛ فتجري على الصبر الأحكام التكليفية الخمسة باعتباراته واعتباراتها كُلٌّ بِكُلٍّ، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام، والصبر على المستحب مستحب، وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب، وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح. والله أعلم»^(٢)، وبالله تعالى التوفيق.



(١) إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (٣٩٩ / ٥)

(٢) عدة الصابرين (١ / ٢٤).

الصبر نصف الإيمان

اعلم-رحمني الله وإياك- أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليها جميعاً. وللمعارف أبواب، وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً.

والصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين؛ أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان؛ أحدهما: اليقين، والآخر الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين.

إذ اليقين يعرفه ويبيّن له أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر.

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب، فالشهوة لطلب اللذيق، والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الاعتبار: «الصوم

نصف الصبر»^(١). لأن كمال الصبر إنما يكون بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان^(٢)، فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان، والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة^(٣)، وبالله تعالى التوفيق.



-
- (١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٧٣٠٦) وفي سنده عبد الرحمن الإفريقي. قال الترمذي عقب الحديث: إنما نعرفه من حديث الإفريقي، وهو ضعيف عند أهل الحديث. أي: من جهة حفظه.
- (٢) لأن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر، ولما كان الصبر نصفين؛ نصف عن اللذة المحرمة ونصف عن داعي الغضب؛ صار الصوم الذي هو الصبر عن اللذة ربع الإيمان.
- (٣) بتصرف واختصار عن إحياء علوم الدين (٤ / ٦٣-٦٦).

الصبر نصف الدين

الصبر نصف الدين، بل هو الدين كله، فما من أمرٍ إلا والله تعالى فيه حُكْمٌ وحِكْمَةٌ، ولا يطيق العبد تناول أمر الله تعالى اثتمارًا أو انتهاءً إلا بالصبر لله تعالى فيه. وكلُّ هذا منسحب على الشكر، فالصبرُ ثمرةُ الشكر، والشُّكرُ حقُّ الصبر. وكلُّ شعب الإيمان والإسلام والإحسان - بلا مشنوية - صبرٌ وشكرٌ، لا يتخلف شيء منها قطُّ عنهما، وبحسب تحقيقهما يكون كمالها. ويتّضح هذا عند تأمل اعتبارات الشريعة للأمر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإنَّ الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم: ٥] وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(١). فمنازل الإيمان كلها بين الصبر والشكر.

والذي يوضح هذا أن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية، فإن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدتها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى.

ومن هنا يُعلم سرُّ مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، وأن كلا منهما محتاج

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩).

إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغني أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل، فأفضلهما أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به، فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر.

وإن كان في بليّة ففرضها الصبر والشكر أيضًا، أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه في تلك البلية، فإن لله على العبد أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا^(١)، فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر ما دام سائرًا إلى الله.

هذا والصبر ثلاثة أقسام: إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها، وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها. وإن كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاثة، فالصبر لازم له أبدًا لا خروج له عنه البتة.

والله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعًا؛ فمرة أمر به، ومرة أثنى على أهله، ومرة أمر نبيه أن يبشر به أهله، ومرة جعله شرطًا في حصول النصر والكفاية، ومرة أخبر أنه مع أهله، وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبيأؤه

(١) كذلك ففي ثنایا كل بلیة ومحنة توجد نعمة ومنحة تستوجب الشكر إلا بلیة الذنب فحقها التوبة والاستغفار، فحشو البلیا نعم من جهة أن البلیة لم تكن في الدین، وأنها أهون من أختها، وأنها كفارة، وأن الصبر عليها له ثوابه.. وغير ذلك، ولربّ نعمة يراها الناس بلاء، ولربّ بلوى يظنها الناس نعمة، والاعتبار بمؤداها للتقوى أو الغواية، والله المستعان.

ورسله فقال عن نبيه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وقال لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال يوسف الصديق وقد قال له إخوته: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وهذا يدل على أن الصبر من أجل مقامات الإيمان، وأن أخص الناس بالله وأولاهم به أشدهم قيامًا وتحقيقًا به، وأن الخاصة أخرج إليه من العامة^(١).

واعلم أن الصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة، ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة^(٢)؛ أثمر كل مقام شريف وحال كامل. ولهذا في دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبات في الأمر والعزيمة على الرشد»^(٣).

(١) وهذا حرف قيّم من القيّم نفيس جدير بالتدبر والتفهم، فكلما زادت معارف العبد واتسعت علومه تآقت نفسه لما استوجبه حق علمه من معالي تلك الأمور وحسن منازلها وكمال خاتمتها في عليين، وكل ذلك مفتقر لصبر، فكلما علت المهمة؛ عظمت الرغبة واحتيج لعقار الصبر.

(٢) فالعزيمة لقاح الظفر، والثبات ضمانه بإذن الله تعالى.

(٣) أحمد (٤/١٢٥) وضعفه أيمن صالح في تخريجه لجامع الأصول (٤/ ٢١٠) للجهالة =

ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة أعني اسم الصبر لما تخلف عنه، قال النبي ﷺ: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١). وقال عمر بن الخطاب حين غشي عليه: أدركناه بالصبر»^(٢).

إذاً فالإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وقد ذكر ابن القيم عشرة اعتبارات لذلك التنصيف فقال: «قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر».

ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] في سورة إبراهيم وفي سورة حم عسق وفي سورة سبأ وفي سورة لقمان، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشئين؛ فعل المأمور وترك المحذور.

الاعتبار الثاني: أن الإيمان مبني على ركنين: يقين وصبر، وهما الركنان

بالراوي.

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩) ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤).

(٢) طريق المهجرتين (١/٣٩٠ - ٤٠٩) مختصراً بتصرف.

المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحذور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح.

وبيان ذلك: أن من عرف الله بقلبه ولم يقرّ بلسانه لم يكن مؤمناً كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وَعَادَا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِينِهِمْ وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه؛ لم يكن بذلك مؤمناً، بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقرّ بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالات والمعاداة، فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله ﷺ وطاعته

والتزام شريعته ظاهراً وباطناً. وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر، فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر، والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان؛ قوة الإقدام وقوة الإحجام، وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين، فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه، والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة وإحجام عن معاصي الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه^(١): «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك». فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

(١) البخاري (٦٣١٥).

الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى.

وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة، ويترك ما يضره فيها، وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهي يتركه وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحذور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: أن العبد فيه داعيان: داع يدعو به إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعو به إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: أن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(١). وأصل الشكر: صحة العزيمة، وأصل الصبر: قوة الثبات، فمتى أُيِّد العبد بعزيمة وثبات فقد أُيد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: أن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ولما كان المطلوب من

(١) المسند (٤/١٢٣).

العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر؛ لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم»^(١).

فاصبرْ لعلَّ الصبرَ يفتقَ ما ترى وعسى بها أن ينجلي ولعلَّها



(١) عدة الصابرين (٢٠٥-٢٠٩).

عاقبة الصابرين

الصبر كله خير، فهو رأس الأمر وأُسُّ نجاحه وعمود فلاحه بإذن الله تعالى، وأمرٌ هذا شأنه حقيق بأن يُوصَلَ صاحبه لرأس كل فضيلة ويفضي به لكل غبطة. فمن أراد الآخرة فعليه بالصبر، ومن أراد الدنيا فعليه بالصبر، ومن أرادهما جميعاً فعليه بالصبر.

وصاحب الأجر من أهل انصباب الأجور عليه شكرياً من الشكور الحميد سبحانه وبحمده. قال الغنيان: «لم يذكر الله جل وعلا في الصبر أن الحسنة فيه بعشر أمثالها أو بسبعمئة ضعف، لا، بل أخبر أنه يُوفِّي الصابر أجره بغير حساب، بدون تضعيف في الأجر أو أن أجره ينتهي إلى عدد معين، وذلك لما يواجهه الصابر من البلاء والامتحان والفتن، ولا يطيق ذلك إلا من تمحّص إيمانه وأيقن بربه جل وعلا، وأصبحت لا تؤثر عليه المصائب التي دون دينه، فكل مصيبة دون الدين يرى أنها ليست بشيء، وأنها سوف تنتهي وتضمحل.

صبرتُ وكان الصبرُ خيرَ مَغَبَّةٍ وهل جزعٌ مُجِدِّ عليٍّ فأجزعُ
ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبكيته عليه ولكن ساحة الصبرِ أوسعُ

ولا شك أن الأمر سريع جدًّا، والدنيا بأسرها زائلة فانية، وإلى الله تعالى الرجعى، فإذا قُدِّرَ أن إنساناً اتبع أمر الله واجتنب نهيه على مشقة ومرارة وآلام ومقاساة، وإنساناً آخر ارتكب مناهي الله ولم يمتثل أمره، وصار يمرح ويفعل ما يريد وما يشاء، فإنَّ أمر هذا وأمر هذا سوف ينتهي سريعاً، ويضمحل عاجلاً كأنَّ لم يكن شيء من ذلك، ثم العاقبة بعد ذلك أن هذا يكون في نعيم لا نهاية له، وهذا

في عذاب لا انقطاع له، إلّا أن يشاء الله تعالى، ويصبح الشيء الذي مرّ نسيّاً كأن لم يكن.

فيكون هذا الذي ارتكب المناهي: هو المغبون الذي باع نفسه، وخسر كل الخسران، والآخر: صَبَرَ ساعة، وانتهت كأن لم تكن، فحمد عقبى صبره، ولقي رضا ربه، وفاز بثوابه الذي لا انقطاع له، وعن هذا المعنى يعبر رسول الله ﷺ بقوله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١).

وهل الحلف هنا من هذين الرجلين على أنه ما مر بهم شيء كذب؟ لا، لأن الأمر بالنسبة لهم نُسيَ نهائياً، وأصبح في طي النسيان، فهم يحلفون على شيء اعتقدوا أنه صحيح وواقع؛ لأنه كحلم المنام فقط، وقد يمر عليك حلم في منامك فتنساه، فهذا مثله، نسوه نهائياً، وأصبح وكأنه ليس له وجود.

لهذا المعنى أيضاً يقول ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ عَلَيْهِ»^(٢). إذا أدخلت أصبعك في البحر ثم رفعته، ماذا ينقص من البحر؟ أو بماذا يأتي أصبعك؟ بلا شيء، يأتي ببِللٍ ينتهي سريعاً،

(١) مسلم ١٣٥/٨ (٧١٩٠).

(٢) مسلم ١٥٦/٨ (٧٢٩٩).

والدنيا هكذا بالنسبة للآخرة.

وليس للمؤمن بُدٌّ من الصبر على مكدرات الدنيا وأذية أهلها، فهذه الدنيا قد طبعت على المكدرات والآلام، وخلقت للابتلاء بتلك المكدرات والآلام، فإن كان المبتلى مؤمناً وصبر؛ فإنه سوف يلقي الجزاء على ذلك، ويصبح صبره حلواً، والآلام التي مرت به يستلذها؛ لأنها وقعت في طاعة الله ومرضاته.

أما الآخر فبالعكس: فالآلام التي تستقبله بالنسبة لما مضى لا يمكن أن تُنسب، لا نقول: حرٌّ مثل حر الشمس بالنسبة إلى حر جهنم، فجهم أشد وأعظم؛ لأن الأولى عبارة عن ساعات نسيت، بعكس الأخيرة.

فإذا الحزم أن يعزم الإنسان على طاعة ربه في هذه الدنيا، ولا يلتفت إلى المؤذيات والمنكدات، سواء من الناس أو من الأقدار التي يقدرها الله عليه أو غير ذلك، وليعلم أن كل ما يصيبه فإنه بسبب معاصيه، والله جل وعلا جعل بحكمته العداء بين أهل الحق وأهل الباطل منذ أبى الشيطان أن يسجد لأبينا آدم، فمن ذلك الوقت والحرب قائمة بين الحق والباطل، ولكل منهما جنود وأنصار، والله يبلو بعضهم ببعض، فأحياناً تظهر بارزة وأحياناً تكون في النفس من الأمور التي يقدرها حتى يظهر ما لدى الإنسان، ومعلوم أن الله جل وعلا علام الغيوب لا يخفى عليه شيء، يعلم الشيء الذي سوف يكون أنه يكون كذا وكذا، كما جاء في الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا كلها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أيسر من هذا، وأنت في صلب آدم؛ ألا تشرك بي ولا أدخلك النار، وأدخلك الجنة،

فَأُيِّتَ إِلَّا الشُّرَكَ»^(١). ومعنى هذا: أن الله علم ما سيفعله هذا المخلوق قبل وجوده، وأنه سيأبى الإيمان، وأنه سيكفر إذا وجد، فكتب الله جل وعلا ذلك قبل أن يوجد الناس وهم في أصلاب آبائهم، كتب ذلك وعلمه، والله جل وعلا لا يؤاخذ على كتابته وعلمه، فلا بد أن يظهر العمل بارزاً مشاهداً فيُعذر من الخلق، ولهذا أرسل الرسل، وأنزل الكتب حتى تقوم الحجة على الناس.

والمقصود: أن الحرب قائمة بين الحق والباطل، ولكل واحد منهما أنصار وجنود، فعلى العبد أن يجتهد كل الاجتهاد أن يكون من أنصار الحق وأعوانه، وألا يتأثر بالباطل ودعاياته، وقد يصيبه أذى من أهله، فإن تأثر من ذلك فإنه سوف يكون على حساب نفسه، إما أن يتكس معهم ويصبح من أهل العذاب، أو يكون ضعيف الإيمان وقد نال منه العدو ما نال؛ فينقص من درجته يوم القيامة ومن ثوابه على أقل تقدير، وقد يناله عذاب في الدنيا وعذاب في القبر وعذاب يوم القيامة حتى يظهر لكونه لم يجاهد في الله.

والجهاد أنواع: منها جهاد الشيطان، وجهاد العدو الخارجي، وجهاد النفس، وهذه هي التي يجب أن يصبر الإنسان فيها ويصابر ويثابر، ولا يتعجل الأمر فهو قريب، وهو أمر عام لكل أحد.

أما ما ذكر في الآية^(٢) فهو أخص من هذا؛ فالله جل وعلا ذكر أنه إذا أرسل

(١) البخاري (١٦٢/٤) ومسلم (١٣٤/٨).

(٢) أي قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ..﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

رسولاً إلى الناس فمنهم من يقول: آمنا بألستهم، ثم إذا وقع لهم أذى من حروب أو خوف، أو أصيبوا بمصائب في أنفسهم إذا هم يتكسون ويرجعون، ويقولون: هذه كلها بأسباب هذا الدين، ما لنا وله، ثم يتركونه، وهذا معنى كونهم جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، يعني: أنهم توقعوا ما يصيبهم من أذى الناس بترك الإيمان، ووافقوهم على مطلوبهم وما يريدون؛ حتى يسلموا من أذيتهم، تصوروا أن هذا فيه السلامة، فتجد أحدهم يلاقي المؤمنين مخبراً لهم بأنه معهم بلسانه، وهو كاذب في قرارة نفسه، فإذا خلا بالمنافقين أصحابه أو بالكافرين صار يضحك معهم ويسخر، ويقول: أنا أستهزئ بأولئك وأوافقهم لآتيكم بأخبارهم، وإلا فأنا معكم قلباً وقالباً، فهذا وأمثاله الذين ذكرهم الله في الآية، ولهذا قال مجاهد وابن عباس: إنه يترك دينه، والمعنى: أنه يترك دينه لأجل الخوف مما يصيبه من أذى الناس، ويتركه موافقة لهم؛ لأنهم لا بد أن يحاربوه.

ثم بعد ذلك ماذا يكون؟ تنتهي الأمور، وتكون العاقبة -ولابد- للمتقين للصابرين الذين صبروا على الأذى، وتحملوا ذلك في طاعة الله جل وعلا، كما أخبر الله جل وعلا في كتابه أن هذه عاقبة المؤمنين دائماً، وأن العاقبة للتقوى، وأن عباد الله هم الذين تكون لهم عقبى الدار، لكن المنافق إذا جاءت النتائج صار يتأسف على ماضى، أو صار يأتي إلى المؤمنين ويقول: أنا كنت معكم -يعني في الظاهر- هذا إذا حصل لهم من المغنم ومن أمور الدنيا جاء إليهم، يقول ذلك حتى يصيب ما يصيب من أمور الدنيا، وإلا فهو في الحقيقة ليس معهم.

والمقصود: أنه تعجل دفع أذية الخلق، ولم يبال بعذاب الله جل وعلا؛ إما لأنه

كان مستبعداً له ويقول: هذا بعيد، والحياة طويلة، ولا يمكن أن تتغير الأحوال، أو أنه يكذب به نهائياً ولا يؤمن به، فإذا كان لا يؤمن به، فهذا معناه أنه لا يرجي له خير أبداً.

أما إذا كان يستبعده، فهناك أمل ضعيف أنه يتوب ويستدرك، والغالب أنه لا يتوب؛ لأن الذنوب بعضها يجز بعضاً، وتتراكم على القلب، ثم يأتي الران الذي يغطي القلوب، ثم يتكس القلب، ويشرب حب المعاصي وكرهية الطاعة، فيصبح هالكاً مستحكماً هلاكه، والغالب أنه يكون بهذه المثابة، ولا يسلم وسوف ينتهي، وربما انقلبت عليه الأمور التي يقدرها وينظر إليها، فيصيبه العذاب من حيث لا يحتسب.

والمقصود: أن الإنسان في هذه الحياة لابد أن يختبر ويمتحن، وعند الاختبار والامتحان يكرم المرء أو يهان إما أن تظهر كرامته أو يظهر هوانه؛ لأن هذا نتيجة عمله فهو يجزى بالعمل، وهذا شيء لابد منه للخلق كلهم في هذه الحياة، والابتلاء والامتحان يكون بأمر الله جل وعلا ونبيه، فمن أطاع أمر الله واتبعه وحرص على ذلك - وإن خالفه القريب والبعيد - فإنه سوف يكون في طمأنينة في نفسه، وإن أوزي واشتد أذاه، ففي مستقبله سوف يكون في غاية السعادة.

أما إن كان على العكس من ذلك فإنه لا يعجز الله، وسوف يأخذه في الدنيا، ثم مصيره إلى عذاب الله، هذه هي حقيقة الأمر للناس كلهم، وقد يعافى الإنسان. ولكن هذا قليل - من الابتلاء في الدين، أو من أذية الناس، وتبقى مصائب الدنيا ومحن القدر التي ليس منها مفر، ولا يسلم منها أحد، فينظر الله هل يصبر على هذه

الأقدار والمصائب أم يعترض ويتضجر؟ وبهذا الامتحان يتخلص المؤمنون ويتطهروا من كل أدناس الذنوب والعيوب، إلا أن مصائب الدين أعظم وأشد وأنكى من مصائب النفس والمال والولد»^(١).

فلا بد من التفقه في الصبر ومعرفة مراتبه وأحواله وثوابه حتى يزداد المؤمن بصيرة بما لا غنى له عنه، قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: «الصبر المحمود أن تكون للنفس اللجوج غلوباً وللأمر المعضلة متحملاً، وللهوى عند الرأي رافضاً، وللحزم عند الهوى مؤثراً، وللهوى عند نازلة الأمور مبارحاً»^(٢).

أبشر فإن اليسر يأتي الفتى أحوج ما كان إلى اليسر
واصبر فما استشفعت في مطلب بشافع خير من الصبر
قال أعرابي لرجل: «كن حلو الصبر عند مر النازلة». وقال آخر: «لا يكشف
منسدل الهم إلا مشمر الصبر»^(٣).

وتأمل تغير الأحوال وتبدل الأمور وتصرف الليالي والأيام ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُذِرُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] قال عبد الملك بن عمير - وأوماً بيده إلى
قصر الإمارة بالكوفة -: «دخلت هذا القصر فرأيت عجباً؛ رأيت عبيد الله بن زياد
جالساً على سريره وبين يديه ترسٌ فيه رأس الحسين بن علي عليهما السلام ولعن

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٨٩-٩٠ / ٤) بتصرف.

(٢) البصائر والذخائر (٢٥٩).

(٣) البصائر والذخائر (٣٨٠).

قاتلها، ثم دخلت هذا القصر فرأيت المختار جالسًا على السرير وبين يديه ترسٌ فيه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت هذا القصر فرأيت مصعب بن الزبير بن العوام وهو جالسٌ على السرير وبين يديه ترسٌ فيه رأس المختار، ثم دخلت القصر فرأيت عبد الملك بن مروان جالسًا على السرير وبين يديه ترسٌ فيه رأس مصعب». فسبحانه الدائم الغني القوي الحي الذي لا يموت.



شرط الصبر

شرط قربة الصبر تجريدُه لله تعالى، فتذكرُ دومًا شرط الصبر وهو إخلاصه لوجه الله وحده، لا حب محمداً أو شهوة ورغبية ولا دفع مذمة أو حظاً دنيوياً، ذلك أن الصبر الذي هو لله معدودٌ من العبادات التي يحبها الله، فاصبر لله واصطبر لعبادته تكن عابداً له بصبرك وعابداً له بعملك، قال جل وعز: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۚ﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤]

[٢٤] فجزاء الصبر الخالص الجنة الخالصة.

أما أمور الدنيا الفانية فإنك إن استصحبت حسن التوجه بنية صبرك للتقوي على عبادة الله فهو أجر وذخيرة وسببٌ معونة وإمداد، أما إن ذهلت عن هذا فهو في ذاته لا لك ولا عليك، لكن فاتك حظك بقدر فوات نيتك، وبالله التوفيق.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ «على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه ورجاء للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص

أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.. وقوله: ﴿يَمَّا صَبَرْتُ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة؛ أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون وفيها فليتنافس المتنافسون»^(١).

فعلم من ذلك أنه لا أجر إلا بنية، فالعبادات مفتقرة للإخلاص، وقد كان النووي رَحِمَهُ اللهُ^(٢) يكتب العلم حتى إذا كَلَّ ألقى القلم وتمثل بقول الأول:

إذا كان هذا الدمعُ يَجْرِي صَبَابَةً على غيرِ ليلٍ فهو دَمْعٌ مُضَيِّعٌ



(١) تفسير السعدي (١/ ٤١٧).

(٢) ورويت عن الشافعي أيضًا رَحِمَهُ اللهُ.

آداب الصبر

طيبُ خلق المؤمن يُفْضي به إلى حسن الأدب مع ربه تعالى وتوقيره وإجلاله، والرضا به وبأقداره مهما اشتدت لأواؤها عليه، فيعلم أنه عبد مملوك مربوب، وأن الله ربه وسيده ومولاه وإلهه، وأن الأمر كله بيده، وأن الخير كله منه، والشر ليس إليه، بل كل شر على العبد فهو من نفسه، بمعنى أنه مستحق له، وأن ذلك الشر إنما هو لأن الله تعالى لبّالغ حكمته قطع عنه مدد توفيقه فتركه في خيبته وخذلانه، فلا يُنسب الشر إلى الله تعالى، فالشر ليس إليه، بل إلى العبد. كما أن الشر إنما هو في مفعولاته سبحانه، وليس في الفعل ولا الفاعل.

فلا ينسب الشر المحض إلى الله عز وجل مطلقاً، بل نقول: الله خالق كل شيء، فهو خالق الجميع، لكن الشر لا ينسبه إلى الله سبحانه؛ لأن الله تعالى منزّه عن الشر المحض الذي لا خير فيه، والله تعالى لم يخلق شرّاً محضاً لا خير فيه بوجه من الوجوه، وإنما يخلق أحياناً لحكمته وعلمه شرّاً غير مُتمحّضٍ، بل يغلب عليه الخير إما في نفسه أو في غايته، وقد يرى الناس طرفاً من ذلك الشرّ، وتغيب عنهم أطراف كثيرة وهائلة من الخير في ذاته أو فيما يحيط به أو فيما يؤدي إليه، وحكمة الله تعالى من وراء ذلك كله، ومن ذلك ظهور آثار صفات جلاله جلّ جلاله.

ومعنى أن الله تعالى لا يخلق شرّاً محضاً ولا غالباً؛ أي: أن كلّ خلقه إما خير محض، أو خير غالب على ما فيه من شرّ، وكلها مفعولاته لا فعله، فالموت والفناء مثلاً شرٌّ من بعض الوجوه لكن ترتّب على ذلك خيرات كثيرة من استمرار سنّة المخلوقات، وعدم ازدهامها، وتقليل عناء دار الابتلاء بتقليل زمن التكليف،

والراحة من شقاء الدنيا وعنائها، والاستعداد لما وراء ذلك من الجزاء والحساب، وابتلاء من بعده بذلك، وغير ذلك، كذلك المرض؛ ففيه شرٌّ من بعض الوجوه لكن ما يترتب عليه من خير كالدعاء وبذل الأسباب والصبر والرضا والإيمان والحمد والشكر والتطهير والتكفير والرفعة والمحاسبة والاستعداد لما وراءه ونحو ذلك أكثر مما فيه من شرٍّ، وكذلك مظالم العباد بعضهم؛ ففيه شرٌّ من وجه، ولكن يترتب عليه خير من وجوه كثيرة أخرى؛ كالابتلاء والأجر وانتظار حسن موعود الله تعالى بالنصر وظهور آثار العزة لله تعالى في الدنيا والآخرة، وغير ذلك كثير، بل حتى خلق أصل الشرِّ في العالم وهو إبليس - أعاذنا الله جميعاً منه - فيه شرور دينية لا تحصى من الكفر والشرك والظلم وغير ذلك، ولكن تترتب على خلقه خير كثير ما كان ليوجد لولا خلق الله تعالى له حكمة لله وعلماً ورحمة وعزّة وسلطاناً ومُلْكاً واقتداراً؛ كت تحقيق الإيمان وشعبه بالمجاهدة والتعلق واليقين والعلم والبرّ والصالح والإصلاح والتعبّد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى والتناهي عن الإثم والعدوان ونحوها، ثم من بعد ذلك حسن الجزاء وجمال العقابة للأبرار المحسنين، وجلال العدل والأخذ في الأشرار المسيئين، وظهور آثار إحسان الله تعالى في خلقه وكرمه ورحمته وعزّته وغضبه وملكه في الدنيا والآخرة، مما لا تحصيه الأقلام، ولا تحوطه الأفهام، والصدُّ يظهر حسنه الصدُّ. والمقصود؛ أنّ الخلق لا يكون كذلك إلا بأن يُخلق شرٌّ يُضادُّ الخير الأعظم ليُظهره ويجلوه ويبلوه.

وبالجملة؛ فالله تبارك وتعالى لا يخلق شرّاً محضاً، وإنما يكون فيه خير، إما في نفسه، وإما فيما يؤدّي إليه من الخير الذي يرجح ويفوق الشرّ الذي فيه، ونحو

ذلك، فلا تخرج مخلوقات الله تعالى عن اثنين: إما خير محض، وإما خير غالب، أي: خير معه شرّ أقلّ منه في ذاته أو في آثاره، فالأول يُظهر لطفه وكرمه ورحمته وإحسانه وجماله، والثاني يظهر عدله وعزّته ومشيتته وملكه وجلاله، وباجتماع الجمال والجلال يكون الكمال، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

وعليه؛ فليس من العدل في الأحكام نسبة الشرّ إليه تعالى ما دام أقلّ من الخير الذي خلقه معه، ورحمة الله تعالى سبقت غضبه، كيف وقد احتوت مخلوقاته على كثير وكثير من الخير المحض من لدن الخلاق العظيم الجميل تبارك وتعالى!

والشرّ وإن دخل في عموم خلق الله تعالى لكنه لا يُنسبُ إليه تأدّباً معه وهي طريقة القرآن، فحيناً يقول الله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] فالشر هنا داخل في عموم مخلوقات الله تعالى كشر إبليس وما نتج عنه من شرور وذنوب. وإذا اجتمع ذكر خلق الخير والشر في موطن فإن القرآن ينسب الخير لله مباشرة دون الشر؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وتأمل أدب الجن في ذلك حينما قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِنَا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] وهكذا، والنبى ﷺ قد مدح ربه تعالى بقوله الشريف: «والشرّ ليس إليك»^(١).

والشر إنّما هو في مفعولاته سبحانه، وليس في الفعل ولا الفاعل، فأفعال الله كلها خير محض، أما مفعولاته فتشتمل على خير وغيره بحسب حكمته البالغة جل وعلا، لأن سنن المدافعة التي أقام عليها خليقته وجعلهم يصطرون لأجلها لا

(١) مسلم (٧٧١).

تكون إلا بأن يكون في مقابل الخير ضداً له وهو الشر، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَّ مَتَّ صَوْمِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَّ جِدُّ ذِكْرِ فِيهَا
أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]
فهو شرٌّ في مفعولاته لا فعله، فإنما وجوده في المفعولات بذاتها وهو منسوب إليها،
وليس في فعل الله سبحانه.

بيان ذلك: أن الإنسان ظلوم جهول، كما وصفه ربه: ﴿وَحَمَلَهَا إِلَّا نَسْنُ إِنَّهُ وَكَانَ
ظُلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فمادة الإنسان فيها ظلم وجهل، فإن أعانه ربه وأمدّه
بلطفه وتوفيقه وهده صابراً خيراً صالحاً رشيداً، أما إن قطع عنه توفيقه؛ فإن مادة
شره تتغلب عليه فيكون شراً^(١). ولا يصيب المؤمن مما يكره إلا كان خيراً له حاشا
الذنوب.

وما يبلغ الإنسان فوق اجتهاده إذا هو لم يملك لما جاء مدفعاً
وبالبلاء معيار الصبر، وعلى قدرهما معاً يكون الميزان، فإن زاد البلاء عن
احتمال الصبر مال بصاحبه للجزع، وإن زاد الصبر على البلاء أدخل صاحبه جنة
الرضا وجنة اليقين وفردوس الحمد، فإن استويا أفضى بصاحبه للصبر الممض
الشاق الذي يرفع المؤاخذه بلا راحة لصاحبه، و«عند حلول البلاء بالعبد يتبين
قوي الإيمان واليقين من غيره، فالعبد الموقن بالله والمؤمن به إيماناً قوياً جازماً

(١) وسيأتي مزيد بسط لها إن شاء الله تعالى.

يلتجئ إلى الله تعالى إذا نزل به البلاء، ويلتزم بآداب الصبر التي جاءت الشريعة الإسلامية بالأمر بها والحث عليها، أو جاءت بالنهي عن ضدها.

وهذه الآداب منها آداب ظاهرة جليلة تظهر على اللسان والجوارح، ومنها آداب خفية قلبية. فمن آداب الصبر الظاهرة:

١ - الصبر عند أول حلول البلاء بالعبد:

فقد دلت النصوص الشرعية أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو^(١) فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبي. - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوايين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٢). قال ابن ناصر الدين الدمشقي: «معناه أن كل ذي مصيبة آخر أمره الصبر، ولكنه إنما يُحمد عند حدوثها وفور شدتها، لأن مصير ذي الجزع إلى السلوان، ولو أقام على قبر ميتة مدة زمان»^(٣).

قلت: وليس معنى هذا أن المؤمن لا يؤجر إلا عند الصدمة الأولى فليس ذلك في الحديث، ولكن الأجر الكبير والذي يستحق أن يسمّى صاحبه صابراً هو ما كان عند الصدمة الأولى، أما ما بعدها فأجره بحسب تجربته مرارات الصبر لله تعالى

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/١٥٠).

(٢) البخاري (٢/٩٣، ٩٩) (١٢٨٣) ومسلم (٣/٤٠).

(٣) برد الأكباد عند فقد الأولاد (١٣، ١٤).

باحتمال ألم المصيبة مهما طال زمنها.

فالنسيان نعمة ولولا أن الله ركب في الناس لماتوا من الغم والحسرة والتفجع، ولكنهم برحمة الله تعالى ينسون الفواجع بتقادمها وتوالي ماجرياتهم بعدها، ومن الناس من إذا فقد حبيباً جزع وناح وخيفت عليه الهلكة والتلف، فما هي إلا سنوات تمضي فإذا هو سالٍ كأن لم يُصب بها، بل ربما ذكر ميتته باسمه دون ترحم عليه نسياناً وسلواناً، وإن كان هذا الفعل مذموم شيمة وخُلُقاً، فشيمة الكرام الوفاء، ولا يهتز للذكريات سوى نبلاء الأخلاق وكبار النفوس وطيبو المعادن.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان نهايات البلاء وبدائيات الصبر: «إذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود؛ فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحق في آخره. وقال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكرام؛ سلا سلو البهائم، فالكريم ينظر إلى المصيبة، فإن رأى الجزع يردّها ويدفعها؛ فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه؛ فإنه يجعل المصيبة مصيبتين»^(١).

وروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور». وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره فقال:

وقال عليّ في التعازي لأشعث وخافَ عليه بعض تلك المآثم
أتصبرُ للبلوى عزاءً وخشيةً فتؤجر أو تسلو سلو البهائم

(١) عدة الصابرين (٤٠).

وقال أوس في وصيته لابنه مالك: «وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة، وشر من المصيبة سوء الخلف، وكلُّ مجموعٍ إلى تلف»^(١). وقالوا: فَقَدْ الصَّبْرُ أَذْهَى الْمُصِيبَتَيْنِ.

يُصَابُ الْفَتَى فِي أَهْلِهِ بِرَزِيَّةٍ وَمَا بَعْدَهَا مِنْهَا أَجَلٌ وَأَعْظَمُ
فَإِنْ يَصْطَبِرَ فِيهَا فَأَجْرٌ مُوقَّرٌ وَإِنْ يَكُ مَجْزَاعاً فَوِزْرٌ مُقَدَّمٌ

٢ - الاسترجاع:

من أعظم آداب الصبر الاسترجاع عند البلاء: وهو قول المصاب: إنا لله وإنا إليه راجعون. وهو تذكير النفس وتشهيد لها بلسانها أنها ملك مطلق لله وحده، وأنها مملوكة راجعة لملكها ملكاً، وراجعة له يوم يقوم الأشهاد ذاتاً.

وقد قال تعالى مثنياً على من فعل ذلك: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ^(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿[البقرة: ١٥٥-١٥٧] فقد جعل عز وجل كلمات الاسترجاع هذه الجامعة لمعاني الخير ملجأ وملاذاً لكل مصاب، وعصمة للمُمتَحنين من الشيطان لئلا يتسلط عليهم فيوسوس لهم بالأفكار الرديئة، والخطرات الدنيئة، فيهيج ما سكن، ويظهر ما كمن.

فإن قوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: إقرار بالعبودية والملك لله، ولله المالك أن يفعل في ملكه

(١) شرح كتاب الأمثال (١/ ٢٤٤).

ما يشاء، ولذا قال النبي ﷺ لإحدى بناته معزياً: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ»^(١). وقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]: إقرار بأن الله يمتتنا ثم يبعثنا، فله الحكم في الأولى وله المرجع في الأخرى، واعتراف بأن المصابين لا بد أن يرجعوا إلى الله فيجازيهم على سخطهم إن سخطوا، وعلى صبرهم إن صبروا^(٢).

وقد تضمنت الآيات الكريمات الآنف ذكرها فوائد عدة، منها: أن الصابرين حقاً هم المسترجعون، فمن لوازم الصبر الاسترجاع. وأخبر النبي ﷺ أن العبد يحصل بالصبر والاسترجاع منزلة عالية في الجنة، كما تقدم من حديث قبض الولد.

ومن ثمرات الاسترجاع كذلك: نيل الأجر والثواب من عند الله، وإخلاف الله للمصاب خيراً مما ابتلي به، فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟! ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ^(٣). قال ابن القيم: «فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول ﷺ والرضا عن الله

(١) البخاري (١٢٨٤).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١٩/٢).

(٣) مسلم ٣٨/٣ (٩١٩) (٦).

إلى ما آلت إليه، وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله»^(١).

لا تأسفن لذاهبٍ أو فائتٍ يُرجى ولا تتبعه وفرة نادِم
واصبر على الحدّثان^(٢) صبر مسلّم متيقّن أن ليس منه بسالم
فغضارة الدنيا كظل زائلٍ والعيش فيها مثل حلم النائم
والناس من لم يصطبر لمصابه صبر الرضا صبر اصطبار الراغم

ويكون سكون اللسان بأمور عدة، منها:

أ- كف اللسان عن الشكوى، فهو من لوازم الصبر، ولذا قيل في تعريف الصبر إنه: الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى. والمقصود هنا اجتناب الشكوى إلى المخلوقين، فهي مما يضاد الصبر وينافيه ويبطله، وإذا شكى العبد ربّه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه. يقول الشاعر:

وإذا عرّتك بليّة فاصبر لها صبر الكريم فإنّه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنّما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

إلا أنه لا يقدر في الصبر - كما يقول العلماء - إخبار المخلوق بالحال للاستعانة بإرشاده أو معاونته للتوصل إلى زوال ضرره، كإخبار المريض الطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم من ينتصر له بحاله، وإخبار المبتلى من كان يرجو أن يكون فرج الله

(١) عدة الصابرين (٨٥).

(٢) الحدّثان: هو الحدث العظيم والخطب الجلل، وهو كثير الترداد على ألسنة الشعراء المتقدمين.

تعالى على يديه ببلائه. وأما الشكوى إلى الله فلا تنافي الصبر، بل هي من جماله وكماله، ولذا قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣] وقال أيوب عليه السلام شاكيًا إلى ربه: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] مع وصف الله تعالى له بالصبر^(١).

ب- كف اللسان عن ندب الميت، أو النياحة عليه.

الندب: تعداد محاسن الميت وما يلقيه المصاب بفقدته بلفظ النداء، كقولهم: وارْجُلَاهُ، وارجُلَاهُ، وانقطاع ظهره، وأشباه هذا.

وأما النياحة: فهي رفع الصوت بالندب على الميت وتعداد فضائله، كقول النائحة: واعداه، وناصره، ونحو ذلك.

فغلبوا الألفاظ في الندب والصوت في النوح، فإن ارتفع الصوت جدًا فهو الصَّلَقُ، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من الصالقة^(٢).

وهذان الأمران - الندب والنوح - محرمان شرعًا ومن الكبائر؛ فقد ورد الوعيد الخاص في النوح، والندب جزء منه بمعناه العام، كما أن فيهما تسخُّطًا من قضاء الله وقدره، وذلك ينافي الصبر ويبطله، قال النبي ﷺ: «اِثْنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَ كُفْرٍ؛ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»^(٣). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الندب

(١) وسيأتي مزيد تفصيل لهذا في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.

(٢) البخاري (١٢٩٦).

(٣) مسلم (٥٧/٢) (٦٧).

والنياحة فنص أحمد على تحريمهما. قال في رواية حنبل: النياحة معصية. وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام. وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه الإمام أحمد، وفي مسنده من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْغِيهِ وَقَالَ: «وَإِنِّيَّاهُ وَإِخْلِيلَاهُ وَاصْفِيَّاهُ». وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا ثَقُلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَارْكَبِ أَبْتَاهُ! فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ»، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبْتَاهُ، أَجَابَ رَبَّاهُ، يَا أَبْتَاهُ، جَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبْتَاهُ، إِلَى جِبْرِيلَ أَنْعَاهُ» (١)(٢).

ج- كف اللسان عن الصراخ والعيول، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَةِ» (٣). والصالقة: هي التي ترفع صوتها عند وقوع المصيبة. والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند وقوع المصيبة. والشاقة: هي التي تشق ثوبها عند وقوع المصيبة.

د- كف اللسان عن الدعاء على النفس أو على الولد، فقد قال ﷺ: «لا تدعوا

(١) البخاري (٤٤٦٢).

(٢) عدة الصابرين (١١٣) وانظر: تسلية أهل المصائب (٨٣).

(٣) البخاري (١٢٩٦).

على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»^(١). والسعيد هو من عود لسانه جميل الكلام عند الملمات حمداً وشكراً وصبراً ورضاً واسترجاعاً وحُسنَ ظنٍّ وطيبَ دعاء.

فاجعله إن همَّ ألمٌ معقلاً واجعله عند النائبات مؤثلاً

٤ - سكون الجوارح:

ويكون سكون الجوارح باجتناّب كل فعل أو سلوك يظهر على الجوارح مما ينافي الصبر ويشتمل على الجزع والتسخط، كلطم الخدود، وشق الثياب والجيوب، وتسويد الوجه أو خمشه، ونتف الشعر أو حلقه، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، ونحو ذلك، فالصابر لا يغير عوائده عند المصيبة، بل ذلك فعل الجازع. وقد أمر رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بالسكون المحمود عند المصيبة ونهى عن ضده المذموم فقال: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(٢).

ويجوز البكاء على الميت حزناً على فراقه إذا كان على سبيل الرحمة به ولم يصاحبه ندب ولا نياحة، فلا يُخرج المصاب عن حد الصابرين ولا عن مقام الرضا بالقدر توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، ما دام القلب مطمئناً بالرحمن، فإن

(١) مسلم (١٣٩ / ١٨).

(٢) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٩ / ٢).

ذلك مقتضى ما أودعه الله عز وجل في الإنسان من شفقة ورحمة، ولذا ذرفت عينا رسول الله ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم، ولما قال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: متعجباً: - وأنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وكذلك لما رُفِعَ إليه ﷺ ابن إحدى بناته ونفسه تقعقع كأنها في شنٍّ؛ فاضت عيناه ﷺ، فقال له سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: متعجباً: - ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢). قال شيخ الإسلام: «البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا يُعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال: «إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت، فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي ضحك وقال: رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أَرْضَى بما قضى الله به، حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع. وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي ﷺ فهذا أكمل، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] فذكر سبحانه

(١) البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٢٤ / ٦) بنحوه.

(٢) البخاري (٧٤٤٨) ومسلم (٩٢٣).

التواصي بالصبر والمرحمة»^(١).

٥ - عدم إظهار أثر المصيبة:

ويكون ذلك باجتناب إظهار المصاب أثر المصيبة عليه، واجتناب تغيير الحال أو تعطيل المعاش، ونحو ذلك لما فيه من إظهار الجزع المنافي للصبر. قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «من حسن الصبر ألا يظهر أثر المصيبة على المصاب»^(٢). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر»^(٣). وقال شيخ حنابلة زمانه البهوتي رَحِمَهُ اللهُ: «وَكُرِّهَ لمصاب تغيير حاله وتعطيل معاشه»^(٤). وروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك»^(٥). وروى الإمام أحمد عن الأحنف بن قيس أنه شكى إليه ابن أخيه وجعاً في ضرسه، فقال الأحنف - في درس تربوي عميق -: «لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد»^(٦)!

وروي أنه مات ابن لأحد قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٧).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٢٩٩).

(٣) عدة الصابرين (٢٧٤).

(٤) الروض المربع (١ / ٣٥٧).

(٥) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (٣٠٠).

(٦) الزهد (٢٨٨).

فقد جزع^(١). وهذا ميزان دقيق وملمح واضح يفصل الصبر عن الجزع.

ولعل أبرز ما يذكر في الالتزام بهذا الأدب؛ أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوجة أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما توفي ولدها منه، وأبوه غائب، فتجلدت وصبرت صبراً جميلاً، حيث غسلت ابنها وكفّته وغطّته ونحّته في جانب المنزل، ولما قدم أبو طلحة جهّزت له طعامه، وتزيّنت له حتى أصاب منها حاجته، ولما سأل عن الصبي أخفت عنه موته، وأجابته بأنه أسكن ما سكون^(٢) وذلك حرصاً منها على عدم إزعاج زوجها بموت ابنه، فلا شيء ليفعله إذ كفّته أمره، ثم أخبرته بأسلوب فقيهة صالحة ناصحة. فلما أصبح غداً على النبي ﷺ فأخبره، فدعا لهما بأن يبارك لهما في ليلتهما. قال سفيان بن عيينة: قال رجل من الأنصار: رأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

٦ - اجتناب إقامة المآتم:

قال الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما المآتم فممنوعة بإجماع العلماء»^(٣). وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة»^(٤). يعني أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يعدون الاجتماع عند أهل الميت بعد دفنه وأكل الطعام عندهم نوعاً من

(١) عدة الصابرين (٢٧٣).

(٢) وصدقت، لكنه سكون الموت، والله المستعان.

(٣) كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي (١٣٧).

(٤) أحمد (٦٩٠٥) وصححه محققو المسند.

النياحة، لما في ذلك من إظهار الجزع بتغيير الحال المعتاد، كذلك الإثقال على أهل الميت وشغلهم مع ما هم فيه من اشتغال الخاطر بموت الميت، وما فيه من مخالفة السنة فلم يكن الصحابة يتكلفون ذلك، ولأن المشروع لهم أن يصنعوا لأهل الميت طعاماً لأنه قد أتاهاهم ما يشغلهم كما أمر رسول الله ﷺ بصنع الطعام لآل جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما استشهد بمؤتة وليس العكس، فخالفوا ذلك وكلفوهم صنعة الطعام لغيرهم، واتفق الأئمة الأربعة على كراهة صنع أهل الميت طعاماً للناس يجتمعون عليه، مستدلين بحديث جرير بن عبد الله المذكور^(١).

وأما إعداد الطعام لأهل الميت وبعثه إليهم فمستحب، قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «يستحب إصلاح طعام لأهل الميت يبعث به إليهم، إعانة لهم، وجبراً لقلوبهم، فإنهم ربما اشتغلوا بمصيبتهم وبمن يأتي إليهم عن إصلاح طعام لأنفسهم. وقد روى أبو داود في سننه بإسناده عن عبد الله بن جعفر أنه قال: لما جاء نعي جعفر، قال رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فإنه قد أتاهاهم أمر يشغلهم»^{(٢)(٣)}.

ولكن إن نزل عليهم ضيف ولم يقيم بضيافته غيرهم؛ فلا بأس أن يضيّفوه بما يناسب مقامه، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ

(١) دراسات في خلق الصبر في ضوء الكتاب والسنة، د. مفرح القوسي، عن: مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ١٧٠) بتصرف.

(٢) أبو داود (٣١٣٢).

(٣) المغني (٤٩٦/٣).

ضيفة^(١). وبهذا أفتى شيخنا ابن باز وغيره.

٧ - اشتغال المصاب بما هو أصلح له في آخرته:

كالتوبة من الذنوب، ورد الودائع، وسداد الديون، وإخراج الزكاة، ورد المظالم لأهلها والخروج والتحلل منها، والتصدق، وكتابة الوصية، والازدياد من الطاعات والعبادات والقربات، ونحو ذلك من أعمال الخير. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيت جمهور الناس إذا طرقتهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى، وتارة بالتداوي إلى أن يشتد عليهم، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى الصالح؛ من وصية، أو فعل خير، أو تأهب للموت، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها، أو عنده ودائع لا يردّها، أو عليه دين أو زكاة، أو في ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها، وإنما حزنه على فراق الدنيا، إذ لا همّ له سواها»^(٢)!

٨ - البقاء في البلدة التي يصيبها وباء:

دلت الأحاديث الصحيحة أن من آداب الصبر أيضًا ولوازمه وواجباته ومكملاته بقاء المسلم في البلد الذي يصيبه وباء وهو مقيم فيه، منها ما رواه البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فقال: «كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للعالمين، ما من عبد يكون في بلد يكون فيه ويمكث فيه لا يخرج من البلد صابرًا محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما

(١) البخاري (٦٠١٨).

(٢) تسليّة أهل المصائب (٣٢).

كتب الله له؛ إلا كان له مثل أجر الشهيد»^(١). وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «إذا سمعتم الطاعون بأرض؛ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها؛ فلا تخرجوا منها»^(٢).

وقيل في الطاعون: «إنه نوع خاص من الوباء، وإنه عبارة عن تقرحات في البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه، وقيل: إن الطاعون وخزٌ في البطن يصيب الإنسان فيموت، وقيل: إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة، كالكوليرا وغيرها، وهذا أقرب»^(٣).

أي: أن جميع الأمراض الوبائية المعدية المسببة للوفاة بإذن الله هي من الطاعون، حتى وإن كان أول ابتداء التسمية مختصاً بالطاعون المسمى عند بعضهم بالأسود، فصار الطاعون الذي ترتبت عليه أحكام الشرع هو اسم جنس لأنواع عديدة بجامع العلة، كالملاريا والكوليرا والتيفوئيد والكورونا وأشباهاها مما له انتشار وبائي قاتل، وهذا أظهر، والله أعلم.

(١) البخاري (٦٦١٩).

(٢) البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣)، ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢).

(٣) شرح رياض الصالحين للعثيمين (٣٥٥/٤).

أما آداب الصبر الخفية فمنها:

١ - الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره:

وذلك بألا يكون في قلبه شيء من الجزع على ما قضاه الله وقدره عليه، وألا ييأس على ما فاتته، ولا يفرح بما جاءه، ويوقن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٣] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣] وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة لما سئل عن هذه الآية: «هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضى لها ويسلم»^(١). وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(٢). وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أبالي بالعسر رميت أو باليسر، لأن حق الله تعالى في العسر الرضا والصبر، وفي اليسر الحمد والشكر»^(٣). وعن سفيان الثوري أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] «المطمئنين الراضين بقضائه

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٠) ووردت ذات العبارة المفسرة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولعله أخذها منه، فهو من أخص الناس به.

(٢) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في السلسلة (١٤٦) (١/ ٢٧٦).

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١/ ١٧٧).

المستسلمين له»^(١).

٢ - الاستعانة بالله والتوكل عليه:

وذلك بأن يستعين المبتلى بالله تعالى في محتته، ويتوكل عليه في مصيبتيه، ويطلب عونه على بلواه، ويستبق ثقته برحمته وقدرته على كشف ضره، ويأمل في عوضه وحسن جزائه، ويرجوه بطيب عاقبته، فعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض، كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها، وظفره بها^(٢).

ومن لوازم الاستعانة بالله والتوكل عليه ألا يفقد المبتلى ثقته في عون الله له مهما اشتد الخطب وعظم البلاء، وألا يقنط من رحمته سبحانه، فإن فعل فما ذلك برافع بلاءه، بل سيفقد به كل نافذة مضيئة، وكل رجاء في الفرج، وسيقطع حبله الواصل إلى السماء، ويكسر سُلَّمه الواصل بالفرج، ويغلق نافذته المفتوحة على الجنة، وسيستبدّ به الضيق، ويكتويه الجزع، وتحتوي فؤاده الشياطين، فيزداد بلاء على بلائه، وكرباً على كربته، وخيبة على فشله، وشقاء على خذلانه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

(١) تسليّة أهل المصائب (٢١٠).

(٢) وانظر: مدارج السالكين (٢/ ١٦٩).

٣ - حسن الظن بالله تعالى:

وذلك بأن يعلم المبتلى أن الذي ابتلاه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، البرُّ اللطيف، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه، ولا ليعذبه به، وإنما ليهذبه، ويرفع درجته، وليمتحن إيمانه وصبره ورضاه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريقاً ببابه، لائذا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً الشكوى بمجموع قلبه ولسانه وجوارحه إليه^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند حسن ظن عبدي بي»^(٢). وسئل القاسم بن محمد عن الجزع، فقال: «القول السيئ، والظن السيئ»^(٣).

ومن حسن الظن بالله أن يوقن المبتلى بأن ما أصابه من بلاء فهو خير له، وإن ظهر له في صورة الشر والسوء مادام البلاء ليس في دينه، فإن الله عز وجل لا يقضي لعباده إلا خيراً، علمه من علمه، وجهله من جهله، فما يقضيه الله من المنع لعبده المؤمن فهو عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه وقصر نظره لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذّب به في العاجل^(٤)، وتمتع به في القريب، وكان ملائماً لطبعه خالياً من الأذى، وما علم أن فيما أصابه من بلاء شحذاً لقواه، وعلواً لهمة،

(١) انظر: تسلية أهل المصائب (٢٢٥).

(٢) البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢ / ١٧).

(٣) عدة الصابرين (٢٧٣).

(٤) والنفس مولعةٌ بحبِّ العاجل.

وتكفيراً لسيئاته، ورفعاً لدرجاته، ومضاعفة لحسناته^(١).

٤ - الإخلاص لله تعالى:

وذلك بأن يجعل المبتلى الغاية من صبره ابتغاء وجه الله ومرضاته، والقرب منه ونيل ثوابه. وألا يشرك مع هذه الغاية أية غاية أخرى من الغايات الدنيوية، كالفخر بالتجلد وقوة التحمل، ونيل مدح الناس وثنائهم، قال عز وجل في معرض بيانه لصفات أولي الألباب الذين وعدهم سبحانه بعقبى الدار: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص الإيمان. وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلّد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة»^(٢).

نعم، فالإخلاص يفرز الصديق من الزنديق، ويفصل الصادق من الكاذب، ويبيّن البرّ من الفاجر، ويميّز المهتدي من الضال، والخبيث من الطيب، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٢) بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١٧).

فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ [الأَنْفَال: ٣٧] ^(١) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتَهُ وَشُرَكَاهُ» ^(٢).

٥ - عدم تمنّي الموت:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضَرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَ فَاعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي» ^(٣) ^(٤).

فالمؤمن خير له أن يطول عمره في طاعة ربه، فكل يوم يزداد رفعة في درجاته فهو بين صلاة وصيام وذكر وقربة وخير، والموت يقطع ذلك عنه، فعن أبي صفوان عبد الله بن بسر الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ

(١) (لِيُمَيِّزَ): بفتح الياء خفيفة، عند ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ حمزة والكسائي: (لِيُمَيِّزَ) بضم الياء والتشديد. وهما بمعنى، فإنك تقول: ميّزته فتميّز، كما تقول: قطعته فتقطع، كما في قوله جل وعز: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] فالتميّز: انفصال بعض الأشياء من بعض. وانظر: الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي ١٥٢/٤

(٢) مسلم (١٨/ ١١٥).

(٣) البخاري (٥٦٧١).

(٤) دراسات في خلق الصبر في ضوء الكتاب والسنة، د. مفرح بن سليمان القوسي. عن: مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ١٨٠) بتصرف.

طال عمره وحسن عمله»^(١).

وعن طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدَمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا جَمِيعًا، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْ صَاحِبِهِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتَشْهَدَ، ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تَوَفَّى، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتَ فِيهَا يَرَى النَّائِمَ كَأَنِّي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِهِمَا وَقَدْ خَرَجَ خَارِجَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأُذِنَ لِلَّذِي تَوَفَّى الْآخَرُ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ فَأُذِنَ لِلَّذِي اسْتَشْهَدَ، ثُمَّ رَجَعَا إِلَيَّ فَقَالَا لِي: ارْجِعْ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدَ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يَحْدِثُ بِهِ النَّاسَ فَعَجِبُوا لَذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ أَيُّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا كَانَ أَشَدَّ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدَخَلَ هَذَا الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا سَجْدَةً فِي السَّنَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَمَّا بَيْنَهُمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢). نَسَأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.



(١) الترمذي (٢٣٢٩) وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦) وللحديث شواهد عن أبي بكره وغيره.
(٢) رواه أحمد (١٤٠٣) وحسنه لغيره محققو المسند، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٢٥)، وابن حبان (٢٩٨٢)، والبيهقي (٣/٣٧١-٣٧٢) وعندهم: «أبعد مما»، وتخرج رواية المسند على أن «ما» الموصولة منصوبة بنزع الخافض.

الشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر

الشكوى إلى الله تعالى عبودية وتوحيد، لأنه من إفراده بالدعاء والطلب والمسألة والاستغاثة، فالله تعالى يُحب أن يُسأل، بل يحب الملحين في الدعاء ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] والرسول يدعون ربهم ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً، فمن أعظم ركائز الدين دعاء المسألة.

قال الله تعالى في ثنائه على رسوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فالمؤمن لا ينفك عن خوف ورهب فيدعو ربه لدفعه أو رفعه، ورجاء ورغب فيدعو ربه لتحصيله والفوز به، وربه سبحانه ركب فيه حب الخير ووعدته إياه إن أطاعه وأمره بسؤاله إياه، فعاد الأمر لتعظيم شأن دعاء المسألة، ومن أفراده الجميلة الشكوى، فالمؤمن يشكو نفسه والناس إلى الله قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] والنبي ﷺ كان يستنصر ربه ويلج عليه، بل ظل ليلة بدر يدعو ربه ويلج عليه حتى سقط رداؤه، فعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: «اللَّهُمَّ أَنْشِدْكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعَبِّدْ بَعْدَ الْيَوْمِ» فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرُ﴾ ٥٥ بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿١﴾ [القمر: ٤٥-٤٦] وأيوب رفع شكايته لربه لما

(١) البخاري (٣٩٥٣).

اشتدت عليه الضراء، فقال: ﴿إِنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وفي هذا غاية الأدب النبوي وشرف العلم بالله وإجلاله وتوحيده ودعائه، فمدحه الله بعد ذلك بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] ويعقوب عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل، والنبِيُّ إِذَا وَعَدَ وفي ولم يُخلف، ثم قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

إنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك! ثم أنشد:

وإذا عرّتك بليّة فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابنِ آدمٍ إنّما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وهل يُسمح بشيء قليل من التنفيس في بيان الحال للناس بدون تبرّم بقدر الله تعالى، ولا اعتراض على قضائه؟

الجواب: أنّ ظاهر النصوص العفو عن ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «وارأساه»^(١). وليس في هذا تنفيس لصدر رسول الله ﷺ من ضيق البلوى؛ فصدره أوسع صدور العالمين صبراً ورضاً وحمداً وشكراً، ولكنه تشريعٌ رحمةٌ لأمته إن بدر شيء من ذلك عند ضيق الصدر عن احتمال وارد البلاء، شريطة عدم التسخّط.

وقد بوّب النووي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي رِيَاضِ الصَّالِحِينَ باباً بعنوان: جواز قول

(١) البخاري ١٥٥/٧ (٥٦٦٦).

المريض: أنا وَجَعٌ، أو شديد الوجع، أو موعوك، أو وارساه ونحو ذلك. وبيان أنه لا كراهة في ذلك إذا لم يكن على سبيل التسخط وإظهار الجزع. ثم ساق حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فمسسته، فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً، فقال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»^(١). وحديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقلت: بلغ بي ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنتي... الحديث^(٢). وحديث القاسم بن محمد، قال: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وارساه! فقال النبي ﷺ: «بل أنا، وارساه»^(٣)!

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] دليل على جواز الاستراحة إلى نوعٍ من الشكوى عند إمساس البلوى ونظيره: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] و﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾^(٤) [الأنبياء: ٨٣] وقوله ﷺ: «ما زالت أكلة خبير تعاودني كل عام، حتى كان هذا

(١) البخاري ١٥٥/٧ (٥٦٦٧) ومسلم ١٤/٨ (٢٥٧١) (٤٥).

(٢) البخاري ٢٢/١ (٥٦) ومسلم ٧١/٥ (١٦٢٨).

(٣) البخاري ١٥٥/٧ (٥٦٦٦).

(٤) هذه الآية شكاية إلى الله تعالى فليست داخلية، ولعله أراد آية إخوة يوسف عليه السلام: ﴿مَسْنَاوَاهَلْنَا الضُّرُّ﴾ وإن كان فيها نزاع لأنها بيان الحال للقادر على كشفه بإذن الله، وليست مجرد نفثة مصدور، وفيما قدم من الأدلة كفاية على جواز ذلك بشرطه، والله أعلم.

أَوَانُ قَطْعِ أَبْهَرِي^(١).

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجددك يا أبا عبد الله؟ قال: «بخير في عافية» فقال: حممت البارحة؟ قال: «إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك لا تخرجني إلى ما أكره». وقال ابن الجوزي: «إذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها فكتماها من أعمال الله الخفية». وقال أيضًا في موضع آخر: «شكوى المريض مخرجة من التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض لأنه يترجم عن الشكوى»، وذكر هذا النص عن أحمد وقال: «فأما وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره» انتهى كلامه.

وقال عبد الله: إن أخت بشر بن الحارث قالت للإمام أحمد: يا أبا عبد الله؛ أنينُ المريض شكوى؟ قال: «أرجو أنه لا يكون شكوى، ولكنه اشتكى إلى الله». وذكر غير واحد في كراهة الأنين في المرض روايتين، ورويت الكراهة عن طاووس، وذكر الشيخ تقي الدين بن تيمية ما ذكر غيره من أن الصبر واجب قال: «والصبر لا تنافيه الشكوى». وقال في مسألة العبودية: «والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق». ثم حكى عن أحمد تركه الأنين لما حكى له عن طاووس كراهته، ثم قال: «وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل».

وقال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ عَلَىٰ يَاسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] «فإن قيل: هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر؟ فالجواب من وجهين أحدهما: أنه شكاً إلى

(١) مسند البزار (٢/ ٤٠١) (٨٠٠٧) وقال: «فيه وسعيد بن محمد، ليس بالقوي، وحدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه، وكان من أهل الكوفة». وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٢٩).

الله لا منه. والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف.

وقال: «قال ابن الأنباري: والحزن ونفور النفوس من المكروه والبلاء لا عيب فيه ولا مأثم، إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم ولم يشك من ربه، فلما كان قوله: ﴿يَا أَسْفَى﴾ شكوى إلى ربه، كان غير ملوم»^(١).

ونقل الذهبي رحمه الله تعالى عن يونس بن عبد الأعلى: أنه دخل على الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، وكان مريضاً حين ذاك، فقرأ عليه يونس آيات من سورة آل عمران، فلما هم بالخروج، قال له الشافعي: «لا تغفل عني، فإني مكروب»^(٢). وكان يونس أثيراً لديه رحمه الله تعالى.

وقال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير آيات خبر أيوب عليه السلام: «ولما كان الصبر والأفعال المرضية عزيزة في العباد، لا تكاد توجد فلا يكاد يُصدق بها، علل سبحانه هذا الإكرام له ﷺ وأكده، فقال ردّاً على من يظن أن الشكوى إليه تنافي الصبر، وإشارة إلى أن السر في التذكير به التأسّي في الصبر: ﴿إِنَّا﴾ أي: على ما لنا من العظمة ﴿وَجَدْنَاهُ﴾ أي: في عالم الشهادة طبق ما كان لنا في عالم الغيب ليتجدد للناس من العلم بذلك ما كنا به عالمين. ولما كان السياق للحث على مطلق الصبر في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠] أتى باسم الفاعل مجرداً على مبالغة فقال: ﴿صَابِرًا﴾ ثم استأنف قوله: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ﴾ ثم علل بقوله مؤكداً لئلا يظن أن

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٤/ ٣٤٠).

بلاءه قادح في ذلك: ﴿إِنَّهُ وَأَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع بكُلِّيته إلى الله سبحانه، على خلاف ما يدعو إليه طبع البشر. قال الرازي في اللوامع: قال ابن عطاء: واقف معنا بحسن الأدب لا يغيره دوام النعمة، ولا يزعجه تواتر البلاء والمحنة^(١).

والشكوى إلى الله تعالى من الدين، ولا يصح في النهي عنه حديث، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أجمع المسلمون على أن العبد المسلم يجوز له أن يشتكي إلى الله تعالى ما ينزل به من الضر، وليس ذلك منافياً للصبر، بل الشكوى إلى الخلق قد تنافي الصبر.

ومن قال إن نبياً من الأنبياء أكله القمل فاشتكى إلى ربه فأوحى الله إليه: لئن اختلج هذا في سرّك لأمحونك من ديوان الأنبياء. فهذا لا ينبغي أن يحكى إما لأنه كذب، أو مخالف لشريعة محمد ﷺ، بل كان الأنبياء يشكون إلى ربهم كيئقوب وأيوب وذو النون ونوح عليهم الصلاة والسلام. فهؤلاء الأنبياء شكوا إلى ربهم، وكشف الله ما بهم من الضر والغم، لكن ينبغي الرضا، وليس هو بواجب في أصح قولي العلماء، بل هو مستحب. وإنما الواجب الصبر ولا ينافي الشكوى، واختلاج السر لا ينافي الرضا بالقضاء باتفاق العقلاء، والرضا يكون بعد القضاء^(٢).

استعمل الصبرَ تجني بعده العسلاً ولازم البابَ حتى تبلغ الأملاً
ومرغ الحَدِّ في أعتابه سحرًا واحمل لمرضاته في الحبِّ كلَّ بَلَا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٦ / ٣٩١)

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١ / ١٤١).

فرق ما بين الإخبار والشكوى

شكوى الله تعالى للخلق من سوء الأدب ومن نقص التوحيد والتوقير والتعظيم والمحبة، ولكن ليس كل إخبار ببلاء يكتب في ديوان الشكوى، فإخبار المريض طبيبه بعلته ليداويه بإذن الله ليست من الشكوى، كذلك إخباره لبعض عواده ليعذروه أو نحو ذلك من المقاصد الصالحة ليست من الشكوى، والأمر بمقاصدها.

وبالجملة؛ فكلما ابتعد المؤمن عما ظاهره الشكاية كان خيراً له وأسلم وأريح وأنجح. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه: «وا رأساه»^(١) وقول سعد: يا رسول الله، قد اشتد بي الوجع وأنا ذو مال^(٢). وقول عائشة: «وا رأساه»^(٣) فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار، لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرماً وتسخطاً كان شكوى منه، فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب بالنية والقصد»^(٤). وبالله التوفيق والاعتصام.



(١) البخاري (٥٦٦٦).

(٢) البخاري (١٢٩٥).

(٣) البخاري (٥٦٦٦).

(٤) عدة الصابرين (١٦٨).

ليس من التصبر المحمود تمنّي البلاء

المؤمن يسأل الله تعالى العافية، فإن نزل به بلاء صبر ورضي وحمد وشكر، فهو متوكل على ربه قبل وقوع البلاء وأثناءه، وراضٍ عن ربه أثناءه وبعد وقوعه، سائل ربه عونه وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف وعده بإجابة من دعاه.

وليس كل من ظنّ بنفسه الرضا وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالتّية قُلُوبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزّب، والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه.

فالموفق من وطّن نفسه على ذلك واستعان بربه في تحصيله وخاف غائلة الخذلان. قال تقي الدين رحمه الله تعالى: «قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] يتضمن الأمر بالرضا والتوكل، والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «اللهم بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق؛ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، اللهم أني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر الى وجهك، وأسألك الشوق الى لقائك، من غير ضراء مضرّة،

ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا، ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فاذا وقع انفسخت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ ﴿٣﴾ [الصف: ٢-٤] نزلت هذه الآية لما قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه.

ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه طاعون، وكما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه «نهى عن النذر» وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»^(٢). وثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها»^(٣). وثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا

(١) أحمد (٢٦٤/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠١).

(٢) البخاري (١٥٥/٨) ومسلم (٧٧/٥).

(٣) البخاري (٧٩/٩) (٧١٤٦) ومسلم (٨٦/٥) (١٦٥٢) (١٩).

تخرجوا فراراً منه»^(١). وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «لا تتمنوا لقاء العدو»^(٢) واسألوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فأصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(٣). وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهداً على أمور، وغالب هؤلاء يُبتلون بنقض العهود!

ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت، ولا ينكل، حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات، ولا بد في جميع ذلك من الصبر.

ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»^(٤).

وبالجملة؛ فليس للمؤمن أن يستدعي البلاء على نفسه. «فالمستع لسيرة المصطفى ﷺ وهو أكمل المؤمنين إيماناً وأقواهم توكلاً يرى أنه لا يستدعي البلاء

(١) البخاري ١٦٨/٧ (٥٧٢٩) ومسلم ٢٩/٧ (٢٢١٩) (٩٨).

(٢) أما تمنى الشهادة فمشروع، فهي أمنية الصحابة والصالحين، بل أمنية سيدهم ﷺ، وقد بلغه الله إياها فميتته شهادة لأنها من أثر السم اليهودي، ومن قتل لأجل دين الله فهو شهيد، فقد بلغه الله تعالى منزلة الخلة والرسالة والنبوة والصدقية والشهادة والصلاح صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله.

(٣) البخاري ٦٢/٤ (٢٩٦٦)، ومسلم ١٤٣/٥ (١٧٤٢).

(٤) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (١/ ٣٠-٣٣).

على نفسه، ولا يترك ما أوجبه الله عليه، وإنما جمع بين التوكل والعمل بالأسباب، فقام بالدعوة إلى الله خير قيام حسب مقتضى الظروف والأحوال المقرونة بحكمة الله وأمره وشرعه، فقد ثبت عنه ﷺ أنه دخل بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدي ليجيره من أذى قريش حتى يبلغ رسالة ربه^(١)، وكان ﷺ يخرج إلى القبائل أيام الموسم ويدعوهم إلى الإسلام ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(٢).

كذلك هجرته ﷺ وهجرة أصحابه الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، تدل دلالة واضحة على أنه لا يجوز للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه، حيث لم يستمر الرسول ﷺ في مواجهة القوم، كما أنه كان يحمي نفسه من الأعداء في المعارك، وينهى الصحابة من تعرضهم للبلاء، وإيجابهم على أنفسهم ما لم يوجبه الله عليهم، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه» قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»^(٣).

وتعوذ ﷺ من فتنة الغنى والفقر والدنيا والنار، وغير ذلك، قال العلماء: أراد ﷺ مشروعية ذلك لأمته^(٤). وهذا لا يسقط الواجب على المسلم، بل عليه أن

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٠).

(٢) الترمذي (٢٩٢٥) وصححه، وأبو داود (٤٧٣٤) وابن ماجه (٢٠١) والدارمي (٣٣٥٤)، وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٤٠٥/٥) و الترمذي (٥٢٣/٤)، وصححه الألباني.

(٤) الترمذي (٢٢٥٤) ابن ماجه (٤٠١٦) أحمد (٤٠٥/٥)، وصححه الألباني في صحيح

يؤدي ما أوجه الله عليه حسب استطاعته، فإن ابتلي صبر واحتسب، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيوان»^(١). فإذا تعيّن على المسلم واجب فعلية أن يسلك السبل التي تعينه على الواجب، ولا يلقي بنفسه في التهلكة، ولا يترك الواجب لشيء دونه؛ فيكون كمن قال الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذَن لِّي وَلَا تَقْتَتِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]^(٢).

فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها؛ لأنه وقع بالمعصية وفرّ من الواجب إلى ما يميل له طبعه وهواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذَن لِّي وَلَا تَقْتَتِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] قال ابن جرير: «قال الجدل بن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك: ائذن لي في القعود ولا تفتني بتعريض لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن. فالذين استأذنوا لهذا السبب وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر، فالفتنة التي فر منها - بزعمه

الجامع (٧٧٩٧).

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٤).

(٢) مسلم (٤٩).

- هي فتنة محبة النساء وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة»^(١).

وقال ابن تيمية: «ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة؛ صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك، بأنه يطلب السلامة من الفتنة»^(٢). «ونفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه، وضعف إيمانه، ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد؛ فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته! والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] فمن ترك القتال الذي أمر الله به لثلا تكون فتنة؛ فهو في الفتنة سقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد، فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر»^(٣).

فالله عز وجل أمر المسلم أن يقوم بالواجب، وأن خوفه من الفتن لا يعفيه منه، كما قال تعالى: ﴿الْمَ ۝ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] ويبيّن سبحانه أن من قام بالواجب أعانه الله عليه، كما

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠ / ١٤٨)، أسباب النزول للواحدي (٢٨٤)، زاد المعاد (٣ / ١٦٩).

(٢) الاستقامة (٢ / ٢٨٧).

(٣) الاستقامة (٢ / ٢٨٩).

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فعلى المسلم أن يسلك سبيل الدعوة إلى الله بالطرق التي بينها الله، وإذا حصل له ضرر فعليه أن يدفعه بكل وسيلة مشروعة، كما تقدم من سيرة المصطفى ﷺ. وعليه أن يصبر ويحتسب فإنه أعظم لأجره^(١).
وعليه؛ فالمؤمن يسأل ربه تعالى العافية، ولا يسأله البلاء، فإن نزل بلاء صبر وانتقى، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٤] وبالله التوفيق.



(١) الفتنة والابتلاء، لعبيد السلمى، عن: مجلة البحوث الإسلامية (٢٥٨/٤٥ - ٢٦١).

الصبر الجميل

من لا يصبر فلن يهنأ بدين ولن يسعد بدنياه، فزاد الدين الصبر وقوام الدنيا به، والصبر درجات ومراتب، وله أحوال حسنة جداً كالصبر الجميل الساكن المطمئن الواثق الذي لا شكاية معه ولا ضجر ولا تسخط، وتدبر كيف سمّاه الجميل سبحانه صبراً جميلاً، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] وقال على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] فليس كل صبر جميل، بل الصبر الجميل هو ما كان لله تعالى على وفق مراده تعالى، «والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فله أن يسأل الله وإليه يشتكي، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل. وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق.

ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاووساً كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى، فما أن أحمد حتى مات^(١)، وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل؛ فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ

(١) وهذا من دقيق ورعه رَحِمَهُ اللَّهُ.

في الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل فمرّ بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف.

ومن دعاء موسى: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١). وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني»^(٢)، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٣).

(١) الطبراني في معجمه الصغير (٢١٢/١) (٣٣٩) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٨٦/١) (١١٥٠) ومعناه حسن جداً، وهو من عظيم الابتهاال والحمد والتوكل.

(٢) يتجهمني: أي يستقبلني بوجهه كربه.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٥٠٥)، والطبراني (١٣٩/١٤) (١٤٧٦٤)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (١١١/٦)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (١٥٢/٤٩) باختلاف يسير. ورجاله ثقات، غير ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن. وابن إسحاق إمام في المغازي ضعيف في الحديث، فإن أخذت الخبر كسائر أخبار السيرة المرسلة فهو كما ترى، وعليه شواهد من جلال وبهاء أنوار النبوة، أما إن عملت الصنعة الحديثية ففي صحته كلام. والحديث قد روي مرسلًا عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري.

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرите مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذاك

وبالجملة؛ الحديث لا يثبت، لتدليس ابن إسحاق، ولإرسال محمد بن كعب القرظي والزهري. وهو حديث مشهور، وضيء النبوة ظاهر عليه، فهو وإن لم يثبت سندًا إلا أن معانيه ثابتة بنصوص أخرى، وفيه ثناء على الله تعالى واقتدار إليه وتمجيده وتوحيده، فهو قبس من مشكاة النبوة، إما تعيينًا بلسانه ﷺ أو شمولًا بتعليمه أمته أدب الدعاء والمناجاة والحمد، وقد تتابع علماء السيرة على ذكره والإفادة منه. وانظر: البيهقي في الدلائل: ٢: ٤١٤ - ٤١٧ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، وهو مرسل، ولم يذكر الدعاء، وأورد السيوطي الدعاء في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني ورمز له بالحسن. وقد ضعفه الألباني في فقه السيرة (١ / ١٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع: ٦: ٣٥: «وفيه ابن إسحاق. وهو مدلس، وبقية رجال ثقات». وذكره ابن هشام في سيرته ٢/ ٤٢٠. وروى مرسلًا: عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)، وتاريخ الطبري (١/ ٣٤٥) والبداية والنهاية (٣/ ١٤٧)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٩٦) وفيض القدير: ٢: ١٥٠ - ١٥١ (١٤٨٣) وكنز العمال (٣٦١٣، ٣٧٥٦). وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٧١).

وكان ابن تيمية وابن القيم يذكرانه من ضمن أدعية النبي ﷺ، وهو دعاء عظيم المعاني، جليل الفوائد، عليه أنوار النبوة. وانظر: العبودية (١ / ٨٦)، ومجموع الفتاوى (٦ / ٣٨٧)، وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٣١).

طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له»^(١).

وعلى قدر الإيمان بالله تعالى والثقة به وتوحيده؛ يكون الصبر الاحتسابي والتوكل المحمود والاستعانة المُجَابَةُ المشكورة، «ولكل امرئ من المؤمنين نصيب بقدر إيمانه؛ فمن تجرد توحيده لله بحيث يجب في الله ويوالي فيه ويعادى فيه ويتوكل عليه فلا يسأل إلا إياه ولا يرجو غيره بحيث يكون عند الحق بلا خلق وعند الخلق بلا هوى قد فنيت عنه إرادة ما سواه بإرادته ومحبة ما سواه بمحبته وخوف ما سواه بخوفه ورجاء ما سواه برجائه ودعاء ما سواه بدعائه، وهو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له منه نصيب، وما من مؤمن إلا وله منه نصيب.

وهذا هو حقيقة الإسلام وقطب رحي القرآن، به بعث الله الرسل وبه أنزل الكتب والله المستعان وعليه التكلان»^(٢). ومن رجز العرب عند الشدائد:

غَمَرَاتٍ ثم ينجلينا... ثم يرُحَنَ فلا يحينا... لو كُنَّ صُمَّ جندلٍ يلينا.



(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠ / ١٨٣).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١ / ١٤٠).

الفتنة كُيرُ القلوب والصبر برهانها

الشدائد مصانع الرجال، والفتن كُيرُ القلوب، وقلوب الرجال معادن، منها الذهب والفضة والنحاس والحديد والزرنيخ وطيب المعادن وخبيثها، وقد يكون معدن المرء خبيثاً أو سيئاً لكنه يصبغه ويطلّيه بصبغة زائفة، فيروج على الناس ذلك التدليس بإظهاره خلاف ما يطن، ولكن حين تشتد الأمور، ويستحكم البلاء، ويثور نقع الفتن؛ فحينها تذوب أقنعة الزيف، ويزول طلاء التزوير، وتنكشف حقائق المعادن، فالذهب يبقى ذهباً مهما صهرته نيران البلايا، بل إنها تجلوه وتزيده لمعاناً وجودة وقوة، أما معادن السوء المزيّفة فتظهر على أقبح مظهر وأخبت مخبر، وكل ذلك أولاً وآخرًا بعلم الله تعالى وإحاطته مهما تلونوا وتخفّوا، ﴿الْأَيْعَلِمَنَّ خَاقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولربما صُرف المرء عما يصلح له بسبب ذنب استهان به، ولربما حُرم خيراً كثيراً لزهده فيما لا ينقصه، ولربما سقط من عين الله لنفخة كبر إبليسية في قلبه، «قال الزجاج: كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام فيمتنع منه لئلا يقال: أسلم قبله من هو دونه، فيقيم على كفره لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل!

ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة؛ أن الفقير يقول: لم أكن مثل الغني، ويقول الضعيف: هلا كنت مثل القوي؟! ويقول المبتلى: هلا كنت مثل المعافي؟! وقال الكفار: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله.

قال مقاتل: نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين نحو بلال وخباب

وصهيب وأبي ذر وابن مسعود وعمار، كان كفار قريش يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ١٠٩ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ١١٠ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١] فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] قال الزجاج: أي أتصبرون على البلاء؟ فقد عرفتم ما وجد الصابرون.

قلت (١): قرَنَ الله سبحانه الفتنة بالصبر ههنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠] فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصّة له ومخلصة من الذنوب، كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة.

فالفتنة كيرُ القلوب، ومحكّ الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها!

فالفتنة لا بد منها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَهُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾ ١٣

(١) أي: ابن القيم رحمه الله.

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿[الذاريات: ١٣-١٤] فالنار فتنة من لم يصبر على فتنة الدنيا، قال تعالى في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣] قال قتادة: لما ذكر الله تعالى هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا: يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر^(١)! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤] فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي غذيت بالنار.

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلاها وأنكالها وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما يعلم لم تُبق عليها النار، وإنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك.

والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخباره سبحانه بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدُّهُم؟! أفيعجز كل مئة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟! فقال أبو الأسد: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل

(١) قالوها تعتاً ومكابرة.

الجنة^(١)! فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا وفتنة لهم يوم القيامة.

والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به. ولهذا سأل المؤمنون ربهم ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا كما قال الحنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿[الممتحنة: ٤-٥] وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] قال مجاهد: المعنى لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك.

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالفريق الآخر فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصود: أن الله سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم، فكل من النوعين فتنة للآخر. فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فبسبيل من هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»^(٢).

(١) ﴿أَفَئِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ﴾ وَتَضَحُّكُونَ ﴿[النجم: ٥٩-٦٠] عيادًا بالله

تعالى من مضلات الفتن والأمن من مكره واتخاذ آياته هزواً.

(٢) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦)، ومسلم ٨/٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧)

فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته، ونفسه الأماره، وشيطانه المغوي المزين، وقرنائيه، وما يراه ويشاهد مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به.

فوالله لولا الله يُسعدُ عبده	بتوفيقه والله بالعبد أرحم
لما ثبتَ الإيمان يوماً بقلبه	على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاعته النفس في ترك شهوة	مخافة نارٍ جمرها يتضرم
ولا خاف يوماً من مقام إلهه	عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات - وهي أعظم الفتنتين - وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحدهما.

النوع الأول: فتنة الشبهات وهي ناشئة عن ضعف البصيرة وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال.

ولا يُنَجَّى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دِقِّ الدين وجلِّه ظاهره وباطنه عقائده وأعماله حقائقه وشرائعه، فيتلقي عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يُثَبِّتُ الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الرضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان.

فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتَلَقَّى إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال.

فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض ما سواه ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قَبِلَهُ لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده ولو قاله من قاله؛ فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة.

النوع الثاني: فتنة الشهوات، وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثْرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩] أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَحُضِبْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول هو البدع وما والاها، والثاني فسق الأعمال، فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة. ففتنة الشبهات تدفع باليقين وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين^(١).

(١) قال الشيخ عبد الله بن صالح القصير حفظه الله تعالى: الإمامة في الدين ليست بمنصب

وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥] فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله، قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والمعرفة بالله. وجاء في حديث مرسل: «إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْبَصَرَ النَّافِذَ عِنْدَ وَرُودِ الشَّبَهَاتِ، وَيَجِبُ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ»^(١). فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

وإذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، بهما سعادته وفلاحه وكماله، وهما الهدى والرحمة. قال تعالى عن موسى

في الدنيا ولا رئاسة ولا مرتبة من مخلوق، بل هي القيام بوظيفة المرسلين علمًا وعملاً وتعليمًا، وتظهر غداً إذا صفّه الله تعالى مع صفوفهم بالقرب من محمد ﷺ.

(١) حديث مشهور على الألسن ولا يصح لفظه، رواه البيهقي في الزهد والقضاعي في مسند الشهاب (١٥٢/٢) (١٠٨٠) عن عمران بن حصين قال: أخذ رسول الله ﷺ بطرف عمامتي فقال: «يا عمران؛ إن الله تبارك وتعالى يحب الإنفاق ويبغض الإقتار، فأنفق وأطعم ولا تصرّ صراً فيعسر عليك الطلب، واعلم أن الله يحب البصر النافذ عند مجيء الشهوات والعقل الكامل عند نزول الشبهات، ويجب السباحة ولو على ثمرات، ويجب الشجاعة ولو على قتل حية». ضعفه الحافظ العراقي في المغني (بهامش الإحياء ٤/ ٤٠١). وقال مروان كجك في تخريج أحاديث مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥٥ / ٥): فيه عمر بن حفص العبدي، وهو متروك.

وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم، وذلك نظير قول أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِّنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا﴾ [الكهف: ١٠] فإن الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به، والرشد والهدى إذا أفرد كل منهما تضمن الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به، وضدهما الغي واتباع الهوى.

والمقصود؛ أن من سلم من فتنة الشبهات والشهوات جمع له بين الهدى والرحمة والهدى والفلاح، قال تعالى عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] (١).

هذا؛ وإن للشهوة أضراراً فادحة على دين المرء وعرضه إذا تركها المرء بلا خطام محكم، فالشهوات غير متناهية لا كمّاً ولا كيفاً، وأكثرها مباح أو مشروع ولكن الإنسان مغرم بالمنوع، وحبّ شيء إلى الإنسان ما منعاً، وتأمل قصة شجرة الجنة!

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٢ - ١٦٩) باختصار.

والمقصود؛ أن الشهوة الحرام لا بد معها من عقل حازم وإلا انفتحت على القلب أنواع الشرور، واستفحلت في سويدائه قوائل الحياة، وحُجِبُ البصيرة، وشبكاتُ التهلكة، وسموم الوسواس الخناس، و«الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجهه الشهوة؛ فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضییع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وأما أن تثلم عرصًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وأما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وأما أن تسلب نعمة بقاؤها ألد وأطيب من قضاء الشهوة، وأما أن تطرق لوضیع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وأما أن تجلب همًا وغمًا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علمًا ذكره ألد من نيل الشهوة، وأما أن تُشمت عدوًا وتحزن وليًا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وأما أن تُحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»^(١).

وأقضيةُ الله عز وجل وتقديراته كلها حكمة ورحمة، أما الشر فمن العبد إذ تسبب بمعصيته في قطع مادة التوفيق عنه من الله تعالى وتركه في أودية الخذلان ومتاهات الخيبات، قال شيخ الإسلام: «وليست البلايا والمصائب تأتي من طاعة الله ورسوله، كما يظن بعض الجهال، فإن هذه جزاء أصحابها خير الدنيا والآخرة»^(٢)...

(١) الفوائد (١/ ١٣٩).

(٢) مراده رَحْمَةُ اللَّهِ: أن من ابتلي بسبب طاعته لله فصبر فإنه يجزي بخيري الدنيا والآخرة، وليس المراد أن المصائب بسبب الذنوب فقط، فقد تنزل المصيبة لمحض النعمة والرفعة كمصائب الأنبياء.

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ وكذلك ما ابتلوا به من السراء والضراء والزلازل، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليميز خبيثه من طيبه، والنفوس فيها شر، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه^(١)؛ لذلك كان من حكمة الابتلاء التمحيص، وهو كما قال الراغب: أصل المحص تخلص الشيء مما فيه عيب^(٢). قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَٰؤُلَاءَ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]«^(٣). والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) وقد بسط رحمه الله تعالى هذا المعنى في رسالة: الحسنة والسيئة، (٤٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (١/ ٤٦٤)

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٥٤).

مراتب الصبر

بما أن الصبر عمل قلبي إرادي؛ فلزم أن يكون له درجات ومراتب بحسب وجوده في القلب، وظهور آثاره على الجسد. وقد اجتهد العلماء في توضيح مراتبها وبيان فروقها، ولهم في ذلك كلام كثير الذبول، والتحقيق: أن بينها اجتماع وافتراق وانفكاك ولزوم بحسب ذاتها ومتعلقها وحالها، بل قد يصعد المرء في ساعة من أدنى المراتب لأعلاها والعكس، وقد يقوى صبره جهة أمر ويضعف عند آخر، وقد يقوى في نفس الأمر في وقت أو حال ويضعف في آخر، وهكذا، ولكن بحسب طول المدى في احتمال الأمر يستحق صاحبه لقباً يضاهيه حتى يتحول عنه علوًّا أو سفولاً.

والمقصود فيما سيعقد من فصول: فرز رتب الصبر وأقسامه لتبيان خطوطها العامة، لأنها تكون جليّة في الذهن حينها، حتى وإن لم يساعد خارج الذهن في ذلك لأن هذا شأن المعنويات، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بعمل قلبي كثير الشعب كالصبر، بل لا تخلو شعبة دينية من صبر، فهو الوقود المحرك للإرادة بإذن الله تبارك وتعالى.

وفي زيادة المبنى المسمّى على أصل ذات الجذر اللغوي دلالة على زيادة المعنى المراد، مثل: مسك، تمسك، استمسك، وهكذا الحال في الصبر، قال الفيروز آبادي: «مراتب الصبر خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبّار.

فالصابر أعمّها، والمصطبر: المكتسب للصبر، المبثلي به، والمتصبر: متكلف الصبر حامل نفسه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره،

والصَّبَّار: الشديد الصبر، فهذا في القدر والكم والذي قبله في الوصف والكيف»^(١)، والله تعالى أعلم وأحكم، وبه التوفيق والعصمة.



(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٨) ومدارج السالكين (٢/ ١٦٥).

أقسام الصبر

الصبر يتنوع بحسب متعلقه، فبحسب الحِلِّ والحرمة: ينقسم لصبر محمود مشروع؛ وهو ما كان لله وفي طاعته أو مباحاته. وصبر مذموم ممنوع؛ وهو ما كان بغير الله اعتماداً أو في غير ما شرعه وأباحه حالاً.

والصبر المحمود ينقسم بحسب اعتباراته لأقسام:

فباعتبار تعلق الصابر بالله؛ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر بالله أي استعانة به، وصبر لله أي خالص لوجهه، وصبر مع الله أي مع أوامر الله ودينه^(١).

وباعتبار أعمال الصبر؛ فهو منقسم على ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره المؤلمة. قال ابن القيم: «الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها»^(٢).

وباعتبار قوته في دفع الهوى وضعفه؛ ينقسم لثلاثة أقسام: أن يغلب الصبر، أو يُغلب، أو يستويان.

وباعتبار موقعه من الأعضاء؛ أقسامه ثلاثة: القلب، واللسان، والجوارح. ولكل منها مقاماته المنقسمة بين الوجوب والاستحباب وما بينهما من المستحبات

(١) قال الفيروز آبادي: «الصبر على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر مع الله، وصبر لله».

البصائر (٣/ ٣٧٦) عن: نضرة النعيم (٦/ ٢٤٤٣).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٦٥)، ودليل الفالحين (١/ ١٣٧).

تأكيدًا.

وينقسم الصبر أيضًا باعتبار اليسر والعسر؛ إلى ما يشق على النفس وما يسهل.
وله أقسام باعتبارات أخرى يأتي بعضها في سياق الشرح بإذن الله. وهذا الإجمال؛
فإلى التفصيل بعون الله تعالى.



أقسام الصبر باعتبار موقعه من الأعضاء، وباعتبار أعماله

قال ابن القيم رحمه الله: «والصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله^(١) فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً ليس له ما يعوّضه ويرد شهوته، وغريباً والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحرّ، والمرأة جميلة وذات منصب^(٢) وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة

(١) أي أقداره المؤلمة.

(٢) من العلماء من فسر «المنصب» المذكور في حديث السبعة الذين يظلهم الله بالنسب. ولعلها تتناول هذا وهذا، فكلاهما منصب أما بالسلالة أو الوظيفة والأملاك الحسية والمعنوية، والله أعلم.

على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار! ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية^(١)»^(٢).

«والمراد بالصبر على الطاعة: الصبر على أداء العبادات والطاعات التي فرضها الله سبحانه على عباده المسلمين؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية^(٣) وذلك لثقل أداء العبادات، ولا سيما عند تسلط الشيطان وغلبة الهوى وحب الركون إلى الراحة والخمول والكسل، فمن العبادات ما يثقل على النفس أداؤها بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يثقل على النفس أداؤها بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يثقل على النفس أداؤها بسببها معًا، كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، وحاجة المسلم إلى هذا النوع من الصبر لا شك حاجة ماسة. وفيه جاء قوله جل شأنه خطابًا لرسوله ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وهذه الصيغة في القرآن

(١) وسيأتي تفصيل ذلك في محله فيما يُستقبل بإذن الله.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٦٧) وحينما قسم بعض المعاصرين اللذات؛ جعل لذة الربوبية والألوهية أعظمها، وهي كذلك عند النفوس الكافرة الفاجرة الجاهلة.

هنا هي صيغة الافتعال من الصبر (اصطبر) وقد جاءت مكان الصيغة المعتادة (اصبر)، لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، فزيادة المبنى تدل في العادة على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها^(١) قال أبو الحسن الماوردي: «الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاز عما نهى الله عنه تخلص به الطاعة، وبخلوص الطاعة يصح الدين، وتؤدي الفروض، ويستحق الثواب...، وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر، ولا نصيب من صلاح. ومن لم ير لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ويدفع عنها عقاباً؛ كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرشاد، حقيقاً بالضلال... وهذا النوع من الصبر^(٢) إنما يكون لفرط الجزع، وشدة الخوف، فإن من خاف الله عز وجل صبر على طاعته، ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره»^(٣).

وقد قص لنا القرآن الكريم قصة عجيبة تمثل نموذجاً فريداً للصبر على الطاعة، وهي قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد رأى خليل الرحمن إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل - ورؤيا الأنبياء وحيٌ - ففهم الإشارة وعرف المراد، فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر قائلاً: ﴿يَبْنِي إِلَيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] فما الموقف الذي اتخذته الفتى إسماعيل وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ونضر

(١) الصبر في القرآن للقرضاوي (٣٩).

(٢) أي: الصبر الضعيف الذي لا يُعني.

(٣) أدب الدنيا والدين (٢٧٧).

شبابه! لقد تمثل موقفه عليه السلام بجملتين قالهما لأبيه خلدتاه في سجل الأنبياء الصابرين، وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين: ﴿قَالَ يَكَّابَتْ أَفَعَلَ مَا تُمَرُّ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢] وصدق العمل القول، وأسلم الوالد ولده، وأسلم الولد عنقه، وتلّه^(١) أبوه للجبين، وتهياً للذبح بالسكين. وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته، وحقق ثمرته^(٢)، حيث نفذ الوالد وولده ما أمرهما الله به دون تردد أو ارتياب، ونجحا في الامتحان، فلا غرو أن جاءت البشرى من السماء بقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي أَهْلُ بَيْتِي فَأَتِيَنِي﴾ [الصفات: ١٠٤-١٠٧] (٣).

وقد كان الهادي الأمين عليه السلام إماماً لأمته، وقدوة في صبره على طاعة ربه، ضرب مثلاً عالياً في جهاده لأعداء الله ودعوة الأمة إلى الصراط المستقيم بعد أن طمس معالم الشرك والوثنية وقوض آطامها الواهية، وغرس بذرة التوحيد قوية الجذور ثابتة الأركان يرفرف عليها لواء العز والنصر والتمكين.

ولا يخفى ما أصاب النبي صلى الله عليه وآله وصحابته الكرام من أذى وتعذيب وتنكيل من

(١) تلّه: أي صرعه وألقاه على وجهه.

(٢) ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] فالعبرة والثمرة بما في القلوب من حقائق الإيمان، أما الجوارح فسبيل لتحصيلها، فلما اكتملت الثمرة وحصل المقصود؛ استغني عن ذبح الجوارح.

(٣) الصبر في القرآن (٧٤، ٧٥).

كفار قريش، ولا سيما في بداية البعثة النبوية، مما اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينهم.

وقد كان بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مضرب المثل في الثبات على الدين، حيث سامه أمية بن خلف سوء العذاب للتخلي عن دينه فصبر وصابر حتى أتاه الفرج من عند الله بإعتاق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له بعد شرائه من أمية بن خلف.

ويحتاج العبد إلى الصبر على الطاعة في ثلاث حالات:

الأولى: قبل الشروع في الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الوفاء بهذه الطاعة.

الثانية: الصبر حال القيام بالطاعة، وذلك بملازمة الصبر عن التقصير فيها، وملازمة استصحاب النية، وحضور القلب بين يدي المعبود.

الثالثة: الصبر بعد الفراغ من الطاعة، وذلك بالصبر عن الإتيان بما يبطلها، والصبر عن النظر إليها بعين العجب والتعظيم، والصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية.

أما الصبر عن المعصية فمعناه: الصبر عما نهى الله عنه من المحرمات والمعاصي، وقمع الشهوات المحرمة^(١)، ومجاهدة النفس عن قربانها، وقهرها عن

(١) أما الشهوات المباحة فالحال مختلف، فقد تستحب إن صاحبها طيب نية كإتيان أهله للاستغفار وطلب الذرية الصالحة، والنوم استعانة على قيام الليل، وأكل شهية الطعام استقواءً لطاعة الله وهكذا.. وقد تستحب مجاهدة النفس حيال الشهوات المباحة تدريباً

هواها، وكبح جماحها عن الوقوع في حمأة الرذائل^(١) قال تعالى في بيان عاقبة الصبر عن المعصية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قال ابن تيمية: «يحتاج المسلم إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى... فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهها كان نهيه عبادة لله وعملاً صالحاً. وثبت عنه رحمه الله أنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»^(٢). فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذاك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد، كما قال رحمه الله: «والمهاجر من هجر السيئات»^(٣). وقال الغزالي: «ما أحوج العبد إلى الصبر عن المعاصي، وقد جمع الله تعالى أنواعها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي

ورياضة لها على التصبر وقوة الإرادة وثبات العزيمة كحال كثير من الزهاد والنساك، وقد تكره أو تحرم الشهوة المباحة إن كانت ملهية عن طاعة أو مفضية لعصيان. والمقصود؛ بيان أن ليس كل شهوة مذمومة، وأقوى الشهوات وأطيبها هي شهوة النفس المطمئنة لطاعة الله والقرب منه والدخول عليه من باب مرضيه، وبالله التوفيق.

(١) الصبر، د. صالح الخزيم (٢٥).

(٢) أحمد في المسند بلفظ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». (٢٣٩٥٨) وصحح إسناده محققو المسند، كما صححه الألباني في السلسلة (٥٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٥، ٦٣٦).

الْقُرْآنَ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴿[النحل: ٩٠] وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها إلا بالصبر، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس»^(١).

ولذا فما أعظم صبر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم حين انتهوا عن شرب الخمر لما نزل تحريمها تحريماً قاطعاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، حيث قالوا: انتهينا انتهينا، وأراقوا ما لديهم من خمر في طرقات المدينة.

أما الصبر على المصائب فمعناه: الصبر على ما يقدره الله سبحانه على عبده من كوارث مفجعة ومصائب مؤلمة، وابتلاء وامتحان مهما كانت أسبابه، ومهما تشكل وتلون، فقد يكون بفقد عزيز، أو بحلول نازلة تحزنه، وقد يكون بفادحة تحتاج ماله، أو علة جسدية مستعصية تعطله عن الحركة، أو فشل ذريع في محاولة خطط عليها مستقبله^(٢) ونحو ذلك من أنواع المحن والبلايا والمصائب التي تصيب البشر، والتي أكد الله عز وجل وقوعها بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٦٧، ٦٨) باختصار وتصرف يسير.

(٢) الصبر، للخزيم (٢٧).

والصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، ويتأكد وقوع البلاء في حق المؤمنين الصادقين، وعلى قدر الإيمان واليقين يكون الابتلاء والمثوبة، فمن أراد أجرًا عظيمًا فليتهيأ لبلاء عظيم، قال ﷺ: «إِنْ عِظَمَ الْجَزَاءُ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١).

ولذا فإن الأنبياء - صفوة البشر - هم أشد الخلق ابتلاء في دار الابتلاء، كما ورد في حديث مصعب بن سعد عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

فالصبر على المحن والمصائب يكفر الله به الخطايا، ويمحو به السيئات،

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه. وكذلك حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

(٢) كثيرًا ما ترد كلمة «حسب»، ومعناها يختلف بحركة السين، فتسكينها «حسب» يكون المعنى: الكفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه كل ما أهمه من أمره. وكذا قوله ﷺ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» رواه مسلم (٢٥٦٤).

وأما بفتح السين «حَسَبَ» فمعناها: أي: باعتبار وبقدر وبقياس وبنسبة، ومن ذلك هذا الحديث الذي بعاليه، أي: على اعتبار قدر دينه يكون قدر البلاء، رحمة من الله تعالى ولطفًا، فلوزاد البلاء على مقدار الاحتمال لانكسر الصبر، ولو نقص لفات صاحبه الأجر.

(٣) أبو داود (٣٠٩٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

ويؤكد ذلك حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ^(١)، ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصَبِّ منه»^(٣). وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ الله عنه خطاياها كما تحات ورق الشجر»^(٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأنَّ الأدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر، وأنَّ الأمراض والأوجاع والآلام - بدنية كانت أو قلبية - تكفر ذنوب من تقع له»^(٥). فالمؤمن ممتحن في دنياه مبتلى فيها بما يطهره من الذنوب والآثام، ويمحسه من الخطايا، وينقيه من أدران المعاصي وأوضار السيئات، قال النبي ﷺ: «عَجَباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان

(١) النَّصَب: التعب. والْوَصَب: المرض.

(٢) البخاري (٥٦٤٥).

(٣) البخاري ١٤٩/٧ (٥٦٤٥).

(٤) البخاري (٥٦٤٧).

(٥) فتح الباري (١٠/١٠٨).

خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»^{(١)(٢)}. كما وردت أجور عظيمة فيمن فقد بصره أو ولده أو ابتلي بأمراض معينة^(٣).

هذا وإن للصبر مجالات تتنظم شمله وتوجه سهمه فمن تلك:

«١ - الصبر على بلاء الدنيا قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] مشقة وعناء وبلاء وفتن، والله تعالى قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٢ - الصبر على مشتهيات النفس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] ولذلك قال بعض السلف: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر! وقالوا: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعافية لا يصبر عليها إلا صديق. والصبر على مشتهيات النفس لابد أن يكون من وجوه أربعة كما قال ابن القيم رحمه الله:

١ - ألا يركن إليها ولا يغتر بها.

٢ - ألا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها.

٣ - أن يصبر على أداء حق الله فيها.

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩).

(٢) دراسات في خلق الصبر في ضوء الكتاب والسنة. د. مفرح القوسي. عن: مجلة البحوث

الإسلامية (٧٥ / ١٣٧ - ١٤٤) باختصار وتصرف.

(٣) ويأتي الكلام فيها بإذن الله قريبًا.

٤ - ألا يصرفها في حرام.

٣- الصبر عن التطلع إلى ما بيد الآخرين، وعن الاغترار بما ينعمون به من مال وبنين، فبعض قوم قارون ما صبروا فقالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص: ٧٩] والله تعالى قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِّن مَّالٍ وَبَنِينَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَفْزَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

٤- الصبر على طاعة الله، وهذا أعظم أنواع الصبر وأشدّه على النفوس ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، اصطربر أكمل وأبلغ من اصبر، فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] على الصلاة وعلى أمر الزوجة بالصلاة، والصبر على الطاعة له ثلاث أحوال:

أ- قبل الطاعة بتصحيح النية وطرده شوائب الرياء.

ب- حال الطاعة ألا تغفل عن الله فيها ولا تتكاسل عن أدائها وتراعي واجباتها وأركانها والخشوع في الصلاة.

ج- بعد الفراغ منها بأن لا تفشي ما عملت وتُعجب به وتُسَمِّع به في المجالس، ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

٥ - الصبر على مشاق الدعوة إلى الله سبحانه، فإنه غير خافٍ على الدعاة حال الناس اليوم من البعد عن الدين، والبعد هذا يستلزم دعوة كبيرة وإنكاراً للمنكرات وصدع بالحق، وصبراً على الأذى فيه، وتواصياً بالحق والصبر، فعمر بن عبد العزيز لما استشعر المسؤولية الكبيرة في تغيير الانحرافات المتراكمة من سنوات طويلة في العهود السابقة قال: إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله.

فنوح عليه السلام صبر هذا الصبر العظيم في الدعوة ٩٥٠ سنة، ألف سنة إلا خمسين عاماً على جميع أنواع الابتلاءات، فقال: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمَّا زِدُهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦]، وهكذا سرّاً وجهاراً ما ترك فرصة إلا قام بالدعوة، ثم الدعوة ليست عملية سهلة لأن الإنسان يجد كيد من الأعداء وحسد حتى من الناس الذين يظنهم معهم والقربين منه على ما آتاه الله من فضله، فيتمنون أن يوقع به ويضر ويتوقف فالحطأة يكيدون بمن يحول بينهم وبين شهواتهم، ولذلك لا بد للداعية أن يصبر في الداخل والخارج، القريين والبعيد، مع الناس الذين هم ضده علناً أو الذين يضمرون له الشر في داخل أنفسهم، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والحل: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، الرسل كان من رأس ما لهم وبضاعتهم الصبر على إيذاء أقوامهم، بل أكدوا على ذلك وقالت الرسل لأقوامهم: ﴿وَلَتَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[إبراهيم: ١٢]، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُم نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] وهكذا يصبر الداعية على طول الطريق وعقباته وبطء النصر وتأخره، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

٦- إن هناك صبراً حين البأس وفي الحرب وعند لقاء العدو والتحام الصفين فيكون الصبر شرط للنصر والفرار كبيرة، ولذلك أوجب الله الثبات فقال سبحانه: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥] وحذر من الفرار وتولي الأدبار وعندما تضطرب المعركة وينفرط العقد فيكون الصبر أشد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وحدثنا الله عن الثلة المؤمنة البقية الباقية بعد عمليات الترشيح المستمرة في قصة طالوت، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وعصوه من قبل ومن بعد، وما بقي معه إلا قليل، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] حتى الذين جاوزوا النهر كان بعضهم استسلاميين فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

عَلَيْتَ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿ [البقرة: ٢٤٩]. لذلك كان المسلمون صُبرًا عند اللقاء، يصبرون وكانوا يتناقلون بينهم عبارة «إنما النصر صبر ساعة»^(١).

والمراغمة والمدافعة الآن بين فريقين، الذي يصبر أكثر هو الذي ينتصر، فأوصى الله عباده بالصبر على ما يلاقونه من ضرر الناس وألا يقابلوا السيئة بمثلها ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالصبر يكون أحيانًا للمعلم على أذى التلميذ، للداعية على أذى المدعو، للمربي على أذى المتربي وهكذا^(٢). وما توفيقنا إلا بإذن الله، عليه توكلنا، وإليه ننيب.



(١) صاح بها القعقاع في القادسية.

(٢) أعمال القلوب للمنجد (٢/ ٥٠ - ٥٣).

درجاتُ الصبر، وتفضيل صبر الإرادة على صبر التسليم، وعدم نسبة الشر إلى الله تعالى

لما كان الصبر يتفاوت بين الناس ويتفاوت في الشخص الواحد كان الجزاء كذلك، فبحسب حقيقة الصبر وقوته وشدة دواعيه ونية الصابر يكون صاحبه مستحقاً للثواب. و«الصبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية، وذلك بمطالعة الوعيد إبقاءً على الإيمان وحذرًا من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً من الرحمن. وللصبر عن المعصية سببين وفائدتين:

أما السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها، والثاني: الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه وأن يبارز بالعظائم.

وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذر من الحرام. فأما مطالعة الوعيد والخوف منه فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر والتصديق بمضمونه، وأما الحياء فيبعث عليه قوة المعرفة^(١) ومشاهدة معاني الأسماء والصفات، وأحسن من ذلك أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبة له.

والإبقاء على الإيمان يبعث على ترك المعصية لأنها لا بد أن تُنقصه، أو تذهب به، أو تُذهب رونقه وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته.

(١) وهي العلم بالله تعالى، وهي خلاصة التوحيد.

وهذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان يعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»^(١).

وأما الحذر عن الحرام: فهو الصبر عن كثير من المباح حذرًا من أن يسوقه إلى الحرام، ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم والنفوس الزكية؛ كان صاحبه أحسن حالًا من أهل الخوف، ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه، ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف. فمن وازعه الخوف قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء قلبه حاضر مع الله!

والخائف مراع جانب نفسه وحماتها، والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان، غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله فنبتت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها علمًا.

الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوائف النعم. فهذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء.

(١) البخاري (٥٥٧٨) مسلم (٤٢).

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخفّ حمل البلاء لشهود العوض، وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصّة العقل تلمّح العواقب ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فعلى قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكريم الكرائم
وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر فيما تتحمّله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار روح الفرج، أي: راحته ونسيمة ولذته، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمة وراحته ما هو من خفي الألفاف، وما هو فرج معجل، وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف^(١).

(١) ومن معاني اللطف: إيصال الخير بطريق خفي.

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ يدقّ خفاه عن فهم الدّكي

والثالث: تهوين البلية، وذلك بأمرين:

أحدهما: أن يَعُدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال، وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا والثاني يوم الجزاء.

والصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل؛ فإن الصبر لله متعلق بإلهيته، والصبر به متعلق بربوبيته، وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته^(١).

ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها والوسيلة مرادة لغيرها^(٢)، ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية^(٣) صبر به، وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد إياك نعبد وإياك نستعين.

(١) لأن متعلقات العبودية هي من خصائص المؤمنين، بخلاف متعلقات الربوبية فعامة لجميع الكائنات.

(٢) الاستعانة عبادة وغاية في نفس الأمر، حتى وإن تضمنت وسيلة لعبودية أخرى.

(٣) أي: آمن بالقدر، بل حتى من لم يؤمن بالقدر، لأنه في الحقيقة راجع إلى خلق الله تعالى الصبر في قواه وعلمه به، حتى مع جحوده ونكرانه.

ولأن الصبر له صبر فيما هو حق له محبوب له مرضي له، والصبر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟!!

وعليه فالصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره، كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام، فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة، وبينهما من البون ما قد عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله، وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا وللصبر لله وبالله أربع مراتب:

إحداها: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون في صبره مبتغياً وجه الله صابراً به متبرئاً من حوله وقوته، فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

الثانية: ألا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخس المراتب وأردأ الخلق، وهو جدير بكل خذلان وبكل حرمان^(١).

الثالثة: مرتبةٌ مَنْ فيه صبرٌ بالله، وهو مستعين متوكل على حوله وقوّته^(٢)، متبرئٌ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله! إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه، فهذا ينال مطلوبه ويظفر به^(٣)، ولكن لا عاقبة له، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية، فإن صبرهم بالله، لا لله ولا في الله، ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم، وهم من جنس الملوك الظلمة، فإن الحال^(٤) كالمثلّك، يُعطاه البر والفاجر والمؤمن والكافر^(٥).

الرابع: مَنْ فيه صبر لله، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به والتوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف عاجز مخذول في كثير

(١) أي يتوكل على الله ويتصبر به لفعل مباح بلا نية احتساب أجر، أو مكروه، أو محرم!

(٢) أي: على حول الله تعالى وقوّته.

(٣) لأن من توكل على الله كفاه، والصبر بالله توكل عليه، لأن الله وعد من توكل عليه بإعانتة، وهذا من أفراد وآثار ربوبيته على العالمين سبحانه.

(٤) أي: خرق العادة. وانظر كتابي: الاستقامة، والفرقان لشيخ الإسلام رحمه الله تعالى، فقد بسط ذلك بما لا مزيد عليه.

(٥) فإن كان مع الإيمان أو لإقامة برهانه فهو الكرامة، وإن كان بخلاف ذلك فهو الاستدراج عياداً بالله تعالى.

من مطالبه؛ لضعف نصيبه من إياك نعبد وإياك نستعين، فنصيبه من الله أقوى من نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف^(١).

وصابر بالله لا لله حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. فصابر لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله^(٢) عاجز محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب ويتبين فيه الخطأ من الصواب والله سبحانه وتعالى أعلم^(٣).

والصبر بالله ولله هو مَدَدُ وعمادُ العلماء به تعالى، وعلى قدر صبره بربه اعتقادًا واستحضارًا وفكرًا ونيةً وحسن معتقد وقوة تعلق وجودة ثقة؛ يكون صبره وفوزه وفلاحه «إن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره.

قال أبو علي: فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) أي: ضعيف التعلق بالله تعالى، قليل البضاعة من كنوز البر وذخائر الخير في قلبه تصبرًا وتوكلًا وتعلقًا وتأهلًا، حتى وإن كان بدنه قويًا وأعماله الظاهرة صالحة. وعجز الثقات من ذلك، والله المستعان.

(٢) أي: ناقص الاستعانة لا معدومها.

(٣) مدارج السالكين ٢/٤٧٥

وها هنا سر بديع؛ وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويجب مقتضى صفاته، وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين، شكور يحب الشاكرين»^(١).

وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..»^(٢).

وقال العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] «أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٣ - ١٧٠) بتصرف واختصار.

(٢) البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٢).

والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان.

وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار.

وكذلك البلاء الشاق، خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة.

وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرافاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا

لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه؛ لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء»^(١).

والعبد في حياته لا ينفك لحظة واحدة عن أقضية ربه تعالى وأقداره، يُسرّاً كانت أو عسراً. قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «أما إذا كان المقضي لا يلائم النفوس كالمريض مثلاً فإن الناس فيه على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة السخط^(٢)، والثانية: مرتبة الصبر، والثالثة: الرضا، والرابعة: مرتبة الشكر^(٣).

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٤ - ٧٥).

(٢) وابتداؤه بالجزع.

(٣) ويدخل في هذه المرتبة الحمد، فالمؤمن يحمد ربه على كل حال، وهو داخل في الشكر بجامع الثناء، فالحمد يتعلق بصفات الجمال الذاتية لله تعالى، فالعبد يحمد الله تعالى على جميل صفاته الكاملة التي لا عيب فيها ولا نقص، كعلمه ورحمته وحكته ولطفه وبرّه، فكل هذه الصفات متعلقة بالمقدور على العبد من جهة أنه صادر عن الله المتصف بهذه الصفات، فيحمده على كماله وجميل صفاته.

أما الشكر فمتعلق بصفات الجمال الفعلية، فالعبد يشكر ربه على فعله الجميل به حتى لو كان ظاهره أحياناً غير ملائم لنفسه، لكن العبد العالم بربه يعلم أن ذلك خير له من جهات عديده؛ كتهذيبه، وتنبيهه، وكسر صولة نفسه، وتكفير خطايا، ورفع درجاته، وتصفية

المرتبة الأولى: السخط: أن يسخط هذا الذي قضاه الله، وعلامة السخط: أن يقول قولاً منكراً أو يفعل فعلاً منكراً، مثال القول: أن يقول: يا ويلاه، واثنوراه، وما أشبه ذلك من الكلمات التي تنبئ عن التسخط، وأما الفعل المنكر: فمثل: لطم الخدود، شق الجيوب، نتف الشعور، القفز حتى يسقط على الأرض، وما أشبه ذلك، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»^(١). فالأولان فعلان، والثالث قول.

المرتبة الثانية: مرتبة الصبر، فيتألم الإنسان نفسياً ولكنه يصبر، لا يشق ثوباً ولا يلطم خدّاً ولا يقول منكراً، وهذه المرتبة واجبة.

المرتبة الثالثة: الرضا، وذلك بأن يكون مطمئناً منشرح الصدر بما قضى الله عز وجل، لا يتألم نفسياً، هو يكره هذا الشيء لا شك، لأنه لا يلائم النفوس، لكنه لا يتألم، لا يتألم نفسياً، يقول: هذا قضاء الله وأنا ملكٌ من جُمْلَةٍ من ملك الله عز وجل له أن يفعل فيّ ما شاء، مطمئن.

وهذه المرتبة اختلف فيها العلماء على قولين فمنهم من قال: إنها واجبة، ومنهم من قال: أنها مستحبة. والصحيح: أنها مستحبة وليست بواجبة، لأنها صعبة على كثير من النفوس.

وعلامة الرضا أنك لو سألته فقلت: هل أنت تأثرت بهذا الذي قضاه الله

جمعية قلبه عليه، وغير ذلك من الفوائد الهائلة التي دخلت عليه من باب المصيبة.

وعليه؛ فلو قيل في هذا المرتبة: مرتبة الحمد والشكر؛ كان حسناً، والله أعلم.

(١) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٩/٢).

عليك لقال: لا، لأنني أعلم أن الله لم يُقَدِّرْ لي شيئاً إلا كان خيراً لي، أنا مؤمن بالله لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيراً له.

المرتبة الرابعة: مرتبة الشكر، هذه المرتبة أعلى من التي قبلها، لأنها رضا وزيادة. فإذا قال قائل: كيف يشكر الله على المصيبة؟

قلنا: يشكر الله على المصيبة؛ لأنه يعلم أن ثوابها وأجرها إذا صبر عليها واحتسب الأجر أكثر من مصيبتها، فيشكر الله على هذا، لأن ما يترتب عليه من الخير أكثر مما يترتب عليه من الأذى، فمن هذه الناحية يشكر الله.

فهذا حكم الرضا بالمَقْضَى، ولكن يجب أن يرضى بقضاء الله عز وجل الذي هو فعله^(١). فإن قال قائل: ماذا تقولون في المعاصي، أواقعة هي بقضاء الله أو لا؟ نقول: بلى، هي واقعة بقضاء الله، كيف ترضون بقضاء الله؟ نقول: نعم، نرضى بقضاء الله وإن كرهنا المقضي، فهذه المعصية لا نرضاها، ونكرها ونؤدب عليها، ولكن نرضى لكون الله قضاها، ولا نعترض على الله عز وجل في قضائها، لا

(١) فالمقدور المؤلم من جهة كونه من الله تعالى وبتقديره وبفعله؛ فالرضا به واجب مهما بلغ، فالخلاص أملاك الله تعالى، والله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل، وكل أمره لحكمة بالغة.

أما من جهته المخلوقية ذاتها؛ فهذا يختلف بحسب نفس ذلك المَقْدَرِ المقضي وآثاره، فإن كان في الديانة: فتكتنفه الأحكام التكليفية الخمس؛ فقد يكون حراماً كالمعاصي، أو مكروهاً، أو مستحباً، أو واجباً، أو مباحاً.

وإن كان في الدنيا: فَتَسْخُطُّه محرم، والصبر حياله واجب، والرضا به مستحب، وقد يكون متأكد الاستحباب، وشكر الله تعالى وحمده عليه كمال. وبالله تعالى التوفيق.

نعترض على الله، فإذا رأينا العصاة مثلاً والفساق وأهل المجون يجب علينا أن نرضى بما وقع منهم باعتباره من قضاء الله، لكن لا يجوز أن نرضى بما صدر منهم باعتباره من فعلهم، فنسخط فعلهم، ونرضى فعل الله الذي هو قضاؤه، وبهذا التفصيل تزول عنك إشكالات كثيرة.

إذا قال قائل: في الخلق شرٌّ، مثل إبليس، إبليس أصل الشر، فهل يجب علينا أن نرضى بإيجاد إبليس، خلق إبليس؟ فالجواب: يجب أن نرضى بإيجاد إبليس بدون تفصيل، لكننا لا نرضى بما يأمر به إبليس، لا نرضى بذلك، لأن إبليس يأمر بالشر والفحشاء والمنكر، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]. إذن نرضى بأن الله خلقه، ونقول: لا شك أن الله خلقه لحكمة، ولكن لا نرضى بما يكون من فعل إبليس من الشر والفساد... إلخ.

وإن قال قائل: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وبين قوله الله ﷻ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١)؟ نقول: الفرق بينهما ظاهر، لأن ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] أضاف الشر إلى المخلوق، أما إلى الله فلا يضاف الشر. ويُتَصَوَّرُ بأن نعتقد أن الله قد قَدَّرَ الشرَّ في مفعولاته، أما تقديره لهذا الشر فهو لحكمة عظيمة يترتب عليها من المصالح ما يجعلها غير مكروهة. فهناك فرق بين المفعول وبين الفعل والفاعل، فالفاعل هو الله عز وجل والمُقَدَّرُ هذا لا شك نحبه على كل حال، وفعله أيضًا خيرٌ على كل حال، ومفعوله فيه خير وفيه شر. والله أعلم.

فهناك فرق بين القضاء والمقضي؛ فالقضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله.

(١) مسلم (٧٧١).

فالواجب على الإنسان الإيمان بالقضاء، أما المقضي ففيه التفصيل؛ فالمقضي شرعاً يجب الرضا به، فإن كان حكماً شرعياً وجب الرضا به، فيجب علينا أن نرضى بوجوب الصلاة ونرضى تحريم الزنا وجوباً، وإذا كان كونياً فإما أن يكون ملائماً للنفس أو مؤلماً للنفس، فإن كان ملائماً فالرضا به طبعي فطري، أما إن كان مؤلماً، فالناس فيه على أربعة مراتب: ساخط، وصابر، وراضٍ، وشاكر.

وإذا كان المقضي شرعياً فهو باعتبار فعل العبد مرضي به إذا كان طاعة، ومسخوط إن كان معصية. فهذا أيضاً يُضافُ إلى المقضي كوناً، يعني ما قضاه الله كوناً من الأمور الشرعية ليس باعتبار فعله وتشريعه، بل باعتبار وقوعه من العبد، فنقول: إذا كان طاعة فهو مرضي، وإذا كان معصية فهو مسخوط يجب السخط به، ولهذا يجب علينا أن ننكر على العاصي، فإذا قال: هذا قضاء الله وقدره، قلنا: نعم نحن نرضى بقضاء الله وقدره، نرضى بأن الله قَدَّرَهُ عليك، هذا من باب إثبات فعل الله لكن باعتبار فعلك لا نرضى به^(١).

ولنا أن نقول: نجعل الأمر الشرعي يُنظرُ فيه من وجهين:

الوجه الأول: باعتباره واقعاً من الله، **الثاني:** باعتباره واقعاً من العبد. لنجعل الكوني لوحده والشرعي لوحده، فنقول: الرضا بالأمر الشرعي من حيث وقوعه من الله واجب بلا تفصيل، أما من حيث وقوعه من العبد فإن كان طاعةً وجب الرضا به، وإن كان معصيةً وجب سخطه، وبهذا نقسم هذا الرضا إلى قسمين:

(١) وهو مسلك عزيز، حريٌّ بالمؤمن التفتن له، وقد بسطت القول فيه وفي مسألة عدم نسبة الشر لله تعالى في كتاب الرضا بالله تعالى.

باعتباره واقعاً من الله فهذا يجب الرضا، وباعتباره واقعاً من العبد فإن كان طاعة
وَجَبَ الرضا به، وإن كان معصية وَجَبَ سَخَطُهُ^(١). وبالله تعالى التوفيق.



(١) شرح العقيدة السفارينية للعثيمين (١/ ٢٨٦ - ٢٩٠) باختصار وتصرف.

أقسام الصبر باعتبار تعلق الصابر بالله تعالى

هنا شرف الصبر وفضيلته وسموه، فالصبر هنا على ثلاثة أنواع: «صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله تعالى».

فالأول: أول الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المُصَبِّر، وأن صَبَرَ العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله تعالى، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحجاد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استقلت مضاربها. فهذا معنى كونه صابراً مع الله أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين. قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيّن على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ وَلَوْ صَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المراقبة، والمراقبة

مفاعلة من الربط وهو الشد، وسمى المرباط مرباطاً لأن المرباطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرباط، ومنه قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»^(١). وقال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرباطة الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان فيملكه أو يخربه أو يشعته.

وقيل: «تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحيأك أحيأك عزيزاً». وقيل: «الصبر لله غناء، وبالله بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء».

وقيل: «الصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج».

وقال ﷺ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»^(٣). وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها، فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به وإعطاؤه فالحامل عليه السماحة، وترك ما نهيت عنه والبعد

(١) ابن ماجه (٤٢٧) وصححه الألباني في التعليق الرغيب (١ / ٩٧) وصحيح الترغيب والترهيب (١٨٨ و ٣٠٩).

(٢) البخاري ٤٣ / ٤ (٢٨٩٢)، ومسلم ٣٦ / ٦ (١٨٨١) (١١٣) و (١١٤).

(٣) أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٩٥).

منه فالحامل عليه الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل، فسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه».

وفي أثر اسرائيلي: أوحى الله إلى نبي من أنبيائه: «أنزلت بعبدى بلائي فدعاني، فمأطلته بالإجابة، فشكاني فقلت: عبادي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك».

وقال ابن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرٍ أَلَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»^(١).

وقال ابن جُزَي رحمه الله تعالى: «ذكر الله للصابرين ثمانية من الكرامات: أولها: المحبة، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والثاني: النصر، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، والثالث: غرفات الجنة، قال: ﴿يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] والرابع: الأجر الجزيل، قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، فمنها البشارة قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والصلاة والرحمة والهداية قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٧-١٥٨) باختصار.

والصبر على أربعة أوجه: صبر على البلاء، وهو منع النفس عن التسخط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها.

وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهراً، وترك الكراهية باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر على المحبة، وكل ما يفعل المحبوب» (١).

قلت: وفوق الرضا الحمد والشكر، فيحمد الله على كل حال، ويشكره في كل حين على كل نعمة ولو نزلت في شكل بلاء. بل إن من معاني البلاء الإحسان والإنعام، ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] كما قال الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] أي: نعمة عظيمة من الله عليكم إذ نجاكم من قتل الفراعنة لأبنائكم واستحياء نسائكم ذليلاً، والعرب تقول: «لقد أبلى فلان بلاء حسناً»، إذا انتهض لأمر خير كبير واجتهد فيه. فتأمل كيف حمل البلاء والمحنة خيراً ونعمة سواء في معناه أو مبناه أو عقباه.



أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

تعتور المؤمنَ أحوالُ قوَّةٍ إرادةٍ وَمَنَعَةٍ صَبْرٍ أو انحلال نية وانفساخ همّة، وذلك بحسب مادة التوفيق الربانية التي يودعها الله تعالى فيمن شاء بالقدر الذي يشاء، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] و«اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر.

والواصلون الى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين، وإياهم ينادي المنادي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة. وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم، فحكّموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى، وأمر من أمور الله، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعَالَمِينَ] [النجم: ٢٩-٣٠].

وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى، وهو غاية الحمق وصاحب هذه الحالة إذا وُعطى قال: أنا مشتاق إلى التوبة، ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إن الله غفور رحيم كريم، فلا حاجة به إلى توبتي!

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها. ومحلّه عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه ألا يُستسخر، وسلط ما حقه ألا يُتسلط عليه.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه. وهذا من المجاهدين يعدّ مثله، لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلُطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] هذا باعتبار القوة والضعف.

ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه؛ فإنه إما أن يغلب

جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض، وتنزيل قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى.

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام، بل هم أضل سبيلاً، إذ البهيمة لم تُخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطّله. فهو الناقض حقاً المدبر يقيناً، ولذلك قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التهام^(١)



(١) إحياء علوم الدين، بتخريج الحافظ العراقي (٣٩٧ / ٥).

أقسام الصبر بحسب سهولته وشدته

معيّارُ الصبرِ احتمالُ الشديدةِ، سواء كانت شديدة حسية: كحمل الثقل، أو احتمال الحرارة، أو العطش، أو الضرب والجلد والقتل، ونحو ذلك، ومنه في العبادات احتمال الجهاد والحج والصيام والصلاة والذكر وطلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر القربات.

أو شديدة معنوية: كاحتمال الشتم، والظلم، وكتمان العشق، واقتحام المخوف، وكتم السرّ، والتحلّم، وكظم الغيظ، ونحو ذلك من ضروب احتمال الأذى المعنوي.

فكما ترى يختلف الحال بحسب المصبور عنه وعليه وإليه، و«ينقسم الصبر باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد، ويسمى ذلك تصبّراً، وإلى ما يكون من غير شدة تعب، بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخص ذلك باسم الصبر.

وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسّر الصبر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الب: ٥-٧].

ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإن الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة، بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد

جهد وعرق جبين، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى.

فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين، ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلّط باعث الدين واستولى وتيسّر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا. فالرضا أعلى من الصبر»^(١).

والصبر المعنوي في الجملة أشق من الصبر الحسي، لأن الصبر الحسي يُدرك بالحس، وبالإمكان التحكم به وتهذيبه ورياضته، أما المعنوي فخفيّ متلّون، فيشق احتماله إلا بجرعات علم وفكر وتدبر وتفكر وتذكر ورياضة واعتياد ومجاهدة ونحو ذلك.

كما أن الصبر المعنوي أشرف في الجملة من الصبر الحسي، بل إن صبر الحس غايته صبر الروح، فصبر الحس وسيلة لتحصيل فضيلة صبر الجسد، فالغاية هي الصبر المعنوي. وإنّما مُدح الصبرُ وأُعْلِي شأنُه بسبب تلك الخصيصة النفسانية الروحانية الصابريّة. فالصبر الصبر تفلحوا. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) الإحياء (٥/ ٣٩٩).

أشَقُّ الصبر على النفوس

الصبر درجات في شدته وسهولته، وقد يقوى داعي الصبر بسبب ضعف الداعي للمعصية، كأن تكون غير مرغوبة في العادة كمعصية غير مشتهاة، أو باستغنائه عنها بغيرها كالمَلِكِ الكَذَّاب، وقد يكون بسبب ضعف الآلة كشهوة الشيخ الكبير، أو عدم داعيها حقًا كالفقير المختال، وقد تكون قوَّة المحل موجودة بلا محفِّز نفساني، كمن يعلم من نفسه قوة الصبر، ولكن لا يجد من نفسه الداعي لاحتماله لضعف الوازع من الإيمان. و«مشقة الصبر على النفوس إنما هي بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد.

فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فُقدًا معًا سهل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفُقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه.

فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو سهل عليه؛ فصبره عنه من أيسر شيء عليه وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله؛ فصبره عنه أشق شيء عليه، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشباب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند الله بـمـكـان.

وفي المسند وغيره^(١) عن النبي ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ

(١) المسند (٤/١٥١) بنحوه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤٣).

صَبَوَةٌ^(١). ولذلك استحق السبعة الذين ذكروا في الحديث الذين يظلمهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإنَّ صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم اظهاره للناس من أشق الصبر.

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والمملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر.

ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك» فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٢) ولا

(١) الصبوة: الميل إلى الهوى، وهي المرة من ذلك.

(٢) الترمذي (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح.

سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورّع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكّه في أعراض الخلق!

وكثير ممن تجده يتورّع عن الدانق^(١) من الحرام والقطرة من الخمر ومثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام! وقد سأل رجل عبد الله بن عمر عن دم البعوض فقال: «انظروا إلى هؤلاء يسألوني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله!».

واتفق لي قريب من هذه الحكاية؛ كنت في حال الإحرام فأتاني قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل المحرم القمل، فقلت: يا عجباً لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام!

والمقصود؛ أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها. وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] قال: «صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه». وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به، والله أعلم^(٢).

(١) الدانق: سدس الدرهم، ويطلق على الشيء القليل المحتقر.

(٢) عدة الصابرين (١٢٥ - ١٢٨) باختصار يسير، وغالبها مستل من إحياء علوم الدين (٦١/٤).

ومن أشق الصبر صبر مكابدة الشوق إلى الأحبة، خاصة إن كانت محبة إيمانية في الله تعالى، فلا يعرف الشوق إلا من يكابده.

ومن ذلك صبر المؤمنين على شوقهم لنبیهم ﷺ، وأعظم منه صبر الشوق إلى الله تعالى ورؤيته في الجنة، لكن يبرد غليل الشوق إلى الله؛ أن الله تعالى مع عبده ما ذكره وتحركت به شفتاه، فهو أنيس وحشته وهو معه بعلمه وإحاطته وقربه ولطفه، فليس على العبد إلا إن يدعو ربه ويناجيه فيقترب منه ويدخل حرم ملكوت قدسه في أي ساعة من ليل أو نهار، فله الحمد والشكر كثيرًا مزيدًا.

ومن صبر صحابة رسول الله ﷺ على تجرع غصص الشوق إلى نبیهم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما ذكرته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاء رجل (١) إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ٦٩ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿[النساء: ٦٩-٧٠] (٢).

(١) هو مولاة ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الطبراني في الأوسط (٤٨٠) والصغير (٥٢) والضياء المقدسي في صفة الجنة كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٥). وقال ابن كثير: «قال الحافظ الضياء المقدسي: لا أرى

وعن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ الرجل يحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب»^(١). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» فلم يذكر كثير أمر، قال: إلّا أنه يحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت»^(٢).

وذكر الرازي^(٣) أن رجلاً وقف على الشبلي، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر لله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله تعالى، قال: لا، قال: فأيش^(٤)؟ قال: الصبر عن الله تعالى، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف.



بإسناده بأسًا». ووافقه ابن كثير. وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٧): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة. وقال السيوطي في لباب النقول (٩١): إسناده لا بأس به.

(١) البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (٢٦٣٩) وقد فرح الصحابة والصالحين من الأمة بهذا الحديث جدًّا، وحق لهم أن يفرحوا بفضل الله تعالى وعظيم كرمه وجوده، فله الحمد كثيرًا.

(٢) مسلم (٢٦٣٩).

(٣) تفسير الفخر الرازي (١ / ١١٠٧).

(٤) أيش: فصيحة، وهي منحوتة عن: ما هو الشيء.

علاقة الصبر بغيره من الأعمال

ثمّة أعمال قلوب متشعبة كبار كالإخلاص، والحب، والرجاء، والخوف، واليقين، والشكر. وإنّ الصبر معدود من أكبرها وأهمها وأكثرها تشعباً ودخولاً في غيره من أعمال القلوب، وهو لتشعبه على بقية الأعمال ولافتقارها إليه فإنه لا يكاد ينحصر لوحده استقلالاً، فكل الأعمال قاطبة لا تقوم إلا به، لذلك قد يُظن أنه ليس بعبادة قلبية منفردة، والصواب أنه منفرد بذاته بالنظر لحقيقته وأصله، وداخل في غيره لتعلقه الشديد بكيان عبادة تُظهره للعيان بقالبها ويُظهرها للعيان بجوهرها وقوّتها، والله أعلم.

فالصبر داخل في كل العبادات بلا مثنوية، قلبية كانت أو قولية أو عملية، حتى قول القلب بيقينيّاته كعقده على أركان الإيمان مفتقراً إلى صبر يُحكم هذا العقد ويجرسه ويزيده بتعلّم وتفكّر ونحو ذلك.

وفي أعماله كالحب الذي قد يكون لأول وهلة غنياً عن الصبر، لكنه في الحقيقة مفتقر بشدّة إليه، لأن الحب هو من أبواب العبادة، ومداخل الشيطان عليه كثيرة، فاحتاج المؤمن لحارس الصبر على أبوابه حتى لا يضعف بقلّة أو يزيغ بانحراف.

وقد قرن الله كثيراً من العبادات بالصبر، والصبر - أحياناً - يظهر كالقوّة لها كالاستعانة قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وأحياناً كالقسيم لها كالشكر، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم: ٥] صبار عند البلاء شكور عند النعماء.

وقد قرنها كذلك قرآنًا بديعًا في سورة إبراهيم عليه السلام، وتدبر كيف ابتداء بالشكر وحذر من ضده، ثم ثنى بحوار الرسل لأقوامهم وتذكيرهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن الله لغني حميد ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سُبُلًا ولنصبرن على ما آذيتُمونا وعلى الله فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿[إبراهيم: ٧-١٢]. فبدأ سبحانه بذكر الشكر وختم بالصبر. وتدبر أيضًا كيف ذكرت الرسل التوكل والصبر، فكما قرنه تعالى بالشكر فقد قرنه بالتوكل.

ولقد قرن الله تعالى الصبر بعمود دينه الصلاة فقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] فليس الأمر بمجرد مطلق الصبر، بل بأعلى درجاته وأكلفها وأشقها وأدومها وهو الاصطبار.

وقرنه سبحانه بذكره فقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]

وهنا لفظة بديعة جدًا وهي أن أعظم مُعينٍ للصبر هو الذكر، فإذا ذكر المؤمن ربه بقلبه وقلبه واستمر ولازم أوراده وأذكاره وابتهل ودعا وألح؛ هانت عليه نفسه وصغرت عليه الدنيا وما فيها واتسعت له الآخرة وانفهمت له الجنة، فساعده ساعدُ الذكر على صبره. وقد نهى الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام عن الضجر والفتور عن ذكره فقال: ﴿وَلَا تَيَافِي فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] وقال تعالى منوهاً بفضيلة الاستغفار مع الصبر وباقي الأذكار: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لَذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] وقال عز وجل لرسوله ﷺ ولكل من سار على نهجه واقتفى أثره: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] وهنا تنويه أيضًا بشأن الصلاة.

واعلم -رحمني الله وإياك- أن كل نعمة محتاجة لشكر وصبر، وكذلك الأمر في الابتلاء، «وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بيّنة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياها، ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها» ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقد قال ﷺ في الحديث: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

وإذا كان هذا وهذا فكلاهما من نعم الله عليه، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩).

إلى الصبر. أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتححتاج إلى الصبر على الطاعة فيها. فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء^(١). كما قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر». وفي الحديث: «أعوذ بك من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى»^(٢). والفقر يصلح عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم.

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون. وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر. لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم؛ اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١].

ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر. فإن صبر هذا وشكر هذا واجب إذا تركه استحق العقاب. وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجباً، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته.

وكذلك صاحب الضراء يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين، وقد يكون تقصيره في الشكر مما يغفر له لما يأتي به من الصبر.

(١) ﴿وَتَبَلَّوْا بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(٢) البخاري (٦٣٧٧).

فإن اجتماع الشكر والصبر جميعًا يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم ويشكر على النعم، وهذا حال يعسر على كثير من الناس.

والمقصود؛ أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه^(١).

ومن تأمل حال وحال الناس؛ علم أن الجمية تحيطهم نعم المنعم الكريم سبحانه من كل جانب، وقد انغمسوا فيها وسبحوا في آلاء الله تعالى، ولا يزال الله تعالى في هذه الدار ينعم عليهم هبة لخير ونعمة أو دفعًا لشر ونقمة، ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. اللهم لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد في كل حين وعلى كل حال يا حميد.



(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٠٤).

الصبر والإرادة

إنَّ للصبر علاقة وطيدة بالإرادة؛ فالإرادة حركة مفتقرة لصبر، وعلى قدر قوة الصبر تكون قوة الإرادة.

بيان ذلك؛ أنَّ الأرادة منبثقة من العلم والشهوة، فالعلم بالشيء جمالاً أو قبحاً أو لذة أو عذاباً ونحو ذلك ينتج عنه الشعور رغباً وشوقاً أو كُرْهاً ونفوراً، فيثمر ذلك الإرادة، وعلى قدر العلم والشعور يكون قدر الإرادة بالعمل أو الترك، وهذه الإرادة المحركة للقلب مفتقرة إلى صبر يوقف قدميها على الطريق أولاً، ثم يثبتها عليه ثانياً حتى يفضي بها إلى مشتهياتها ورغائبها، ويأخذها بعيداً عن مكارها ورهائبها.

والعلم جوهرٌ مفتقر لعقل يحركه ويحسِّمه في مخيلته حتى يحدِّ له تصوره على أقرب ما يكون للحقيقة على قدر سعته وطاقته. وقد سبق الكلام عن الإرادة في باب مستقل مما أغنى عن بسط الكلام حياله، وبالله التوفيق.



الصبر والمحبة

حاجة المحبة للصبر أنه الموصل صاحبها لمحبة، فلا تحصيل لمحبوب إلا على جسر الصبر، وكلما كان المحبوب شريفاً عظيماً نادراً عديماً شاقاً بعيداً؛ كان الحب للصبر أحوج، و«الصبر من أكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها، وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من أكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها وصادقها من كاذبها، فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب تُعلم صحة محبته.

ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاه انخلعوا عن حقيقة المحبة ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاه بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ ثم أثنى عليه فقال: ﴿يَعْمَلُ الْبَدَأُ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثناء،

وَضَمِنَ لَهُمُ أَكْثَرُ الْجَزَاءِ، وَجَعَلَ أَجْرَ غَيْرِهِمْ مُحْصَوًّا وَأَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَقَرْنَ الصَّبْرَ بِمَقَامَاتِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، فَجَعَلَهُ قَرِينَ الْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالتَّقْوَى، وَأَخْبَرَ أَنَّ آيَاتِهِ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أُولُو الصَّبْرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَهْلِهِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْلَمُ عَلَيْهِمْ فِي الْجَنَّةِ بِصَبْرِهِمْ.

وَلَيْسَ فِي اسْتِكْرَاهِ النَفُوسِ لِأَلَمِ مَا تَصْبِرُ عَلَيْهِ وَإِحْسَاسِهَا بِهِ مَا يَقْدَحُ فِي مُحَبَّتِهَا وَلَا تَوْحِيدِهَا، فَإِنَّ إِحْسَاسِهَا بِالْأَلَمِ وَنَفَرَتِهَا مِنْهُ أَمْرٌ طَبْعِي لَهَا، كَاقْتِضَائُهَا لِلْغِذَاءِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَتَأَلُّمِهَا بِفَقْدِهِ.

فَلَوْ أَزَمَ النَّفْسَ لَا سَبِيلَ إِلَى إِعْدَامِهَا أَوْ تَعْطِيلِهَا بِالْكَلِيَّةِ، وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ نَفْسًا إِنْسَانِيَّةً، وَلَا رَتَفَعَتِ الْمُحَنَّةُ وَكَانَتْ عَالِمًا آخَرَ!

وَالصَّبْرُ وَالْمُحَبَّةُ لَا يَتَنَاقِضَانِ، بَلْ يَتَوَاحِيَانِ وَيَتَصَاحِبَانِ، وَالْمُحِبُّ صَبُورٌ، بَلْ عِلَّةُ الصَّبْرِ فِي الْحَقِيقَةِ الْمُنَاقِضَةُ لِلْمُحَبَّةِ الْمَزَاحِمَةُ لِلتَّوْحِيدِ^(١).

وَالصَّبْرُ مُفْتَقِرٌ لِلْمُحَبَّةِ، بَلْ إِنْ الْمُحَبَّةُ هِيَ مَا تَخَفَّفَ أَلَمُ الصَّبْرِ وَتَجَرَّعُ الْقَلْبُ غُصَصَهُ، فَيَهْوَنُ لِأَجْلِ الْحُبِّ كُلِّ صَبْرٍ، وَيَجْمَلُ لِكُلِّ حُبٍّ وَجْهَ كُلِّ مَشَقَّةٍ، وَالْمُحَبَّةُ الْعَظِيمَةُ تَتِمُّرُ الصَّبْرَ الْعَظِيمَ، وَمَنْ لَا حُبَّ لَهُ لَا صَبْرَ لَهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى مَاذَا؟!



(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٢).

الصبر والتوكل

التوكل ضمان الفلاح، لأن التوكل الصحيح يكون بتفويض الأمر بتمامه لمن بيده مقاليد الأمور وتصارييف الأشياء وملاك أزمّة المخلوقات ونواصي الخلائق، مع بذل الأسباب الموصلة لذلك، وهذا البذل مفتقر للصبر، فالتوكل اعتماد القلب بكليته على الخلاق العظيم تبارك وتعالى، وهذا الاعتماد محتاج لصبر يقيم اعتماده ويثبت تعلقه ويحيي قوامه، فلا توكل إلا بصبر، «قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فجمع بينهما لتلازمهما وعدم انفكاكهما، وقدّم التوكل لأنه منتج الصبر وبه يحلو المُر وينكشف الضرّ، فإن النصر مع الصبر، ومن توكل على الله كفاه.

وقيل: «الصبر على ثلاثة أنواع: صبر العوام؛ وهو حبس النفس على ما تكره، وصبر الخواص؛ وهو تجرّع المرارة من غير تعبّس، وصبر خواص الخواص؛ وهو التلذذ بالبلاء، وبه يصل إلى مرتبة الشكر وغاية الرضا بالقضاء»^(١).

فالصبر هو ساق التوكل وعظمه وعصبه، ومن لا صبر له لا توكل له، كما أن الصبر الذي لا توكل معه لا يوصل لمطالب الآخرة لأنه مدخول بالغفلة عن التعلق بالله وتفويض الأمر إليه، كما أنه يلحقه الفشل لأن من لم يتوكل على الله فقد يكله لنفسه التي هي مأوى الجهل والعجز والفشل، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٥ / ٢٠٧).

فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ [التوبة: ٤٦]. وقد تقدم الكلام على التوكل في كتاب سابق ضمن الموسوعة، وبالله التوفيق والاستعانة والتوكل والاعتصام.

الصبر والاستغفار

الذنوب أدناس، والخطايا أحمال، والأوزار رزايا، والمعاصي هلكات، والعبد لا يكاد ينفك في هذا الدنيا عن تقصير ينزله من علياء سماء الطاعة، وخطيئة تلوث ثوب نقائه، والموفق هو من تاب لربه من ذنبه، وتاب عن وزره، وأقلع نادماً عن حوبته، ولم ييأس من رحمة ربه، ولم يأمن مكره، قال ربنا جل جلاله: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فتأمل كيف ناداهم بعبوديتهم له مع إسرافهم في ألوان معاصيه، ثم نهاهم عن القنوط واليأس الناشئ عن سوء ظنهم لثقل أوزارهم، وفتح لهم باب الرحمة الكبير العظيم، ونسب الرحمة له لأنه أرحم الراحمين، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، ولا يهلك عليه إلا هالك، ورحمته سبقت غضبه، ووسعت كل شيء، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، ثم ختم الآية المرجية لكل خاطئ بحسن المتاب، والمُرجية لكل مذنب أن يحسن الظن والعمل لأن له رباً اسمه الغفور الرحيم، وقال الحبيب ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١).

والتوبة الحقيقية هي التي صاحبها ندم وإقلاع وعزم على عدم العود للمخالفة مع تخلص من حقوق العباد، وكل ذلك مفتقر لصبر، كذلك الاستغفار وهو طلب

(١) أحمد (١٩٨/٣) والترمذي (٢٤٩٩)، وقال: هذا حديث غريب. وابن ماجه (٤٢٥١)، وقال الألباني: حسن (٢٠٢٩).

حط الخطايا ومحو الأوزار، وسادة المستغفرين هم أنبياء الله ورسله، فمن رام الفلاح فليسلك سبيلهم وليلج باب الاستغفار، فإنه باب عظيم شريف للدخول على الملك العلام سبحانه وبحمده، ونبينا ﷺ يستغفر في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة، وقد علمنا صيغ استغفار كثيرة وأعظمها سيد الاستغفار، وهذا الأمة أمة مستغفرة، وقد منع الله أن ينزل العذاب على من استغفروه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنّبوا؛ لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم»^(١).

والاستغفار عبادة جليلة جداً والمؤمن الموفق لا ينفك عنها البتة، بل هو دائم اللهج بها بلسانه محرّكاً بها قلبه وجوارحه، وكل ذلك مفتقر - بعد توفيق الله تعالى - لصبر، قال تقي الدين رحمه الله تعالى: «ولا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والاستغفار، ويبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر، فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار كما قيل لأفضل الخلق: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥].

فالمؤمن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب، والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير، فعكس القضية!

(١) مسلم ٩٤/٨ (٢٧٤٩) (١١).

بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها، فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها، وإذا أصابته مصيبة ساءوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه.

ولله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه، وأنقن كل ما صنع. فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية، فهو من الله حسن جميل، وهو سبحانه محمود عليه، وله الحمد على كل حال، وإن كان شرًا بالنسبة إلى بعض الأشخاص^(١).

(١) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «تفسير جزء عم» (ص ١٢٧): «أما ما يقوله بعض الناس: «الحمد لله الذي لا يحمده على مكروهه سواء» فهذا خلاف ما جاءت به السنة، بل قل كما قال النبي ﷺ: «الحمد لله على كل حال» أما أن تقول: «الحمد لله الذي لا يحمده على مكروهه سواء» فكأنك الآن تعلن أنك كاره ما قدر الله عليك، وهذا لا ينبغي، بل الواجب أن يصبر الإنسان على ما قدر الله عليه مما يسوؤه أو يسره، لأن الذي قدره هو الله عز وجل، وهو ربك وأنت عبده، هو مالك وأنت مملوك له، فإذا كان الله هو الذي قدر عليك ما تكره فلا تجزع، بل يجب عليك الصبر وألا تتسخط، لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك، اصبر وتحمل والأمر سيزول ودوام الحال من المحال، قال النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا». صححه الألباني في تحقيق السنة لابن أبي عاصم (٣١٥) فالله عز وجل محمود على كل حال من السراء أو الضراء، لأنه إن قدر السراء فهو ابتلاء وامتحان، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمُ

وهذا موضوع عظيم، فإن الناس - في باب خلق الرب وأمره ولم فعل ذلك - على طرفين ووسط: فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحاً من الأفعال وظلماً؛ فأنكروا عموم قدرته ومشيتته ولم يجعلوه خالقاً لكل شيء، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، بل قالوا: يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء!

ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم - بالقياس على أنفسهم - وتكلموا في التعديل والتجوز بهذا القياس الفاسد الذي شبّهوا فيه الخالق بال مخلوق، فضلّوا وأضلوا.

وقابلهم الجهمية الغلاة في الجبر، فأنكروا حكمة الله ورحمته، وقالوا: لم يخلق لحكمة، ولم يأمر بحكمة، وليس في القرآن «لام كي» لا في خلقه ولا في أمره. وزعموا أن قوله: ﴿وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الحج: ١٣] و﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ

بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. فإن أصابتك ضراء فاصبر فإن ذلك أيضاً ابتلاء وامتحان من الله عز وجل ليلوك هل تصبر أو لا تصبر، وإذا صبرت واحتسبت الأجر من الله فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مختصراً.

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] - وأمثال ذلك - إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وقول القائل: «لِدُوا لِلْمَوْتِ، وابنوا للخراب»!

ولم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلاً بعاقبة فعله^(١)، كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي إليه أمر موسى، أو ممن يكون عاجزاً عن رد عاقبة

(١) جهلهم بأحكام لام العاقبة أوقعهم في ضلال الفهم، وكثير من ضلال المبتدعة قد دخل إليهم من جهلهم العربية، فالعجمة تحول بينهم وبين دقائق المعاني، قال إمام العربية أبو عمرو بن العلاء التميمي لعمر بن عبيد لما احتج بآية وعيد في إنفاذ الوعد: من العجمة أُتيت. وأنشد:

وإني إن أوعدته أو وعَدْتُهُ لمُخْلِيفٍ إيعادي ومنجزٍ موعدي

وقال الحسن عن سبب ابتداء كثير من الناس: «إنما أتوا من العجمة». وقال النحوي: «أكثر زندقة أهل العراق بسبب العجمة». وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٠٧): «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق. وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي». وعليه؛ فإن تعلّم العربية من الدين وتعظيمها من تعظيمه، وانتقاصها انتقاص لوسيلة تعلّمه، وبالله التوفيق.

فعله، كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم، فأما من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهو يريد لكل ما خلق؛ فيمتنع في حقه لام العاقبة التي تتضمن نفي العلم أو نفي القدرة.

والذي جاء به الرسول هو الحق والصدق الذي قال الله فيه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُ لَّيْلًا وَلَا إِلَيمُنْ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] (١).

وعودًا على بدء؛ فمن لا صبر له لا خير فيه ولا فلاح له، والموفق من كان صابرًا بالله وفي الله وإلى الله، ولواعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «يا معشر التائبين ﴿أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَابِطُوا﴾» [آل عمران: ٢٠٠] مكابدة البادية تهون عند ذكر مني، المصحى في بوادي الجوع، والمعشى بوادي السهر، إلى أن تلوح بوادي القبول. إن وَنْتُ في السير ركائبكم فأقيموا حُدَاة العزم تُدلج. يا مطرودًا عن صحبة الصالحين: امش في أعراض الركب» (٢).



(١) مجموع الفتاوى (٩٨/١٧ - ١٠٢) باختصار.

(٢) المدهش (١/١٥٨).

الصبر في الدعوة إلى سبيل الله تعالى

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] تكامل إسلام العقيدة في ديننا بإسلام الشريعة، فتمت به النعمة الإلهية على البشرية.

وبحمد الله تعالى فمعدن الإسلام الأصيل إلهي محفوظ، فهو غير قابل للتغيير والنحت والتبديل، قد يتغير بعض معتنقيه لكن حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى الله من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به، ومن غير وبدل فقد غير دينه لا دين الله.

ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيدته، إلا أن خصومه يعودون منه بأحمال الخيبة، ذلك أنه كامل في ذاته عصي على السقوط بكامله حتى وإن تعثر أهله لجهل أو ضعف عزيمة، فهم في الحقيقة يعلون به ولا يُعلَى عليهم بغيره ما داموا به مستمسكين.

إن حقيقة الإسلام شديدة النضوج، بالغة النصح، فمن ضرب معدنه بحرب مادة وجد بين يديه مادة ثورية تجتثه، ومن رام تبديله بفكر أو خرافة اندهش لرسوخ حقائق العلم والفطرة في أركانه، ومن قارنه بغيره تبين له شموخه وسموه ورفعته عن كل ما عداه من دين مبدل أو فكر محدث. ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلِيَاءُ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومن ابتدائيات الأمور الدعوية أنه لا دعوة إلا بصبر ومصابرة، فداع إلى الله بلا صبر منقطع في أول الطريق أو وسطه، ذلك أن طريق الدعوة هو طريق

المرسلين، وعلى قدر سمو الهدف ورفعة الغاية تكون المشقة لوصولها. وهذا المجال من مجالات الصبر هو من جميل الصبر وجليله وذروة سنامه.

فالداعية الصالح هو من يتفقد نيته أولاً حتى لا يسرقها منه عدوه الرجيم، ثم يراجع سيره ومنهاجه على ضوء إحسان الاتباع لسيد الدعاة والمرسلين صلى الله عليه وعليهم وسلم، ثم يوطن نفسه على احتمال أشد وأقسى وأثقل أعباء الدعوة إلى سبيل ربه تعالى، وليعلم أنه إن صدق فُسِيَّتِلَى في ذات الله تعالى على قدر نفعه للناس وقوته في الحق وأطر نفسه على الطاعة وتعبيد الناس لرب العالمين. فإنما يبتلى الرجل على قدر دينه وتقواه وعمله وإحسانه رفعة له وتمحيصاً، وليتذكر أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأنه في عين الله تعالى يُصْنَعُ ويُحْفَظُ ويعان ويُكْفَى ويُلَطَفُ به ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وليقراً قصص الأنبياء مع أقوامهم وسيرة رسول الله ﷺ منذ ولادته المباركة حتى رحيله عنا ﷺ، وليستلهم العبر والمواعظ والدروس من ذلك، وليشر بعون الله تعالى وتيسيره لأموره إن صبر لله، فاصبر قليلاً تنل كثيراً، والصبر على قدر الشدة، والمدد على قدر الحاجة، والزلفى على قدر إحسان العمل.

ولا يعني هذا أن طريق الدعوة وعُرُّ كله وشاق جميعه، ليس هذا المقصود، فكثير منه سهول ورياض يقطعها الداعية بيسر وسهولة، وقد تمر عليه السنين الطوال وهو لم يبتلى بتلك الابتلاءات التي كان يتوقعها ويراها تصيب غيره، وهذا راجع لأموور منها:

أن مقاليد الأمور كلها بيد الحكيم العليم الرحيم الكريم سبحانه، وهو يقدرها

وفق حكمٍ وغايات لا نعلم كثيرًا منها، لكنها في صالحنا، فقد يحمي الله عبده الداعية إلى سبيله من ابتلاء لا يطيقه، لعلمه أن نفسه أضعف من أن تحتمله فيحمله منه. وربما يهيئه لأمر أكبر من ذلك الابتلاء العابر، وربما أبعد عنه البلاء رحمة بغيره كوالدة أو ولد أو زوج ممن يحبهم الله تعالى ويرحمهم عن مكابدة رؤية البلاء بولد أو والد أو زوج.. وغير ذلك.

ومنها: أن الداعي إلى الله تعالى قد يكون في حياته يعاني أنواعًا من الابتلاءات في نفسه أو ولده أو أحبابه أو ماله مما لا يطرأ على بال الداعي أنه مبتلى بهم لأجل دينه وتقواه.

ذلك أن حقيقة البلاء منها ما يكون مباشرًا في شأن الدعوة إلى الله تعالى وناشئًا عن مجاهدته خلق الله في دعوتهم إلى الله، فيبتلى على أيديهم بسجن أو ضرب أو هجر أو قطع سبب معيشة أو بأذية لمن يحبهم، أو حتى بقتله! وهذا النوع من الابتلاء هو أشرف ما يكون، وعليه تُنزل غالب نصوص الوحي المقدس، فإنما ابتلي المرسلين من جهة دعوتهم الناس إلى الله وحده، ونبذ ما كانوا يشركون، ولقد عرض صناديد قريش على رسول الهدى ﷺ خطة صلح - زعموها - فعرضوا عليه ما شاء شريطة أن يكف عن سب آلهتهم فقط. فأبى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أن يكسر ظهر الإسلام بترك الدعوة الصحيحة له.

وحينما ذهب يدعو أهل الطائف باللفظ خطاب وأجل بيان وأشفق مشاعر جابهوه بأغلظ الكلام وأصم الألفاظ وأعتى الأفعال! فما انكسر ولا جزع ولا ناح، بل صبر ورضي وحمد وشكر، فأعقبه ربه الرفعة والزلفى والسيادة والرضوان

والْحُلَّةُ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت^(١)، فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق^(٢) إلا وأنا بقرن الثعالب^(٣) فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني^(٤) فنظرت فإذا فيها جبريل،

(١) وليس في هذا مذلة طالما أنه ناصح لهم مشفق عليهم ولكنهم لا يعلمون، وكل داع إلى سبيل الله عليه أن يستصحب هذه المواقف العظيمة للقدوة الكامل والأسوة الحسنة رسول الهدى ﷺ، وطالما العبد في سبيل الله فلا ضيعة عليه، فلا تحش عليه سوى نفسه أن تضطرب أو تحيد أو تنحرف، فإن استقامت فقد آوت إلى الركن الشديد والنصر الأكيد والأمر السديد.

(٢) وفيه شدة غمه ﷺ مما لقيه من جهالة وتعنت أولئك، لدرجة أن غاب بذهنه عما حوله بأبي هو وأمي ونفسي وأهلي ﷺ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

(٣) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، ويسمى الآن ميقات السيل، وهو على مرحلتين من مكة قرابة (٨٠) كيلاً وأصل القرن: كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

(٤) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿وَلَقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». رواه أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وذكره أحمد شاكر برقم (٢٨٠٤) وقال =

فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(١)، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(٢). ف صلى الله وسلم وبارك على الشفيق الرحيم الرؤوف بالناس وتبارك من وصفه بقوله الأجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] إنه الرحمة المهداة حقاً، والشفيق النصوح صدقاً، والمحجوب الكامل جداً ﷺ.

وإن الداعي إلى سبيل ربه إنما هو كالأب الشفيق على أبنائه، فعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه^(٣)، وهو

محققه: إسناده صحيح، الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) الأخشبان: جبلا مكة الكبيران.

(٢) البخاري مع الفتح (٦) (٣٢٣١) واللفظ له، مسلم (١٧٩٥) وهو ما كان، فقد أخرج الله من أصلابهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ومعاوية بن أبي سفيان وآخرين من سادة عباد الله الموحدين الأخيار.

(٣) تخيل ذلك المشهد، يدعوهم إلى نجاتهم ويضربونه حتى الإدماء، ثم يعود عليهم بالشفقة الاستغفار لهم.

يمسح الدم عن وجهه، يقول: «اللَّهُم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»^(١).

أما النوع الثاني من الابتلاء: فهو أن يبتلى الداعية إلى الله كما يُبتلى سائر المؤمنين في أنفسهم وأحبابهم وأموالهم، فيكون هذا البلاء لأيمانه أوّلاً ولدعوته تبعاً، وربما يكون مزيداً ليُحصّل الأجر أو فر، كحال نبي الله أيوب عليه السلام، والله أعلم. وبالجملة؛ فلا بد للداعية إلى سبيل الله تعالى أن يوطّن نفسه على البلاء، مستصحباً الصبر في كل أحواله، وليبشر بالأجر والخير، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»^(٢).

وما دام المؤمن متعلقاً بربه، محسناً الظن به، تامّ الطمأنينة بتدبيره، وتفويض أموره إليه؛ فهو - والله - بخير عظيم، وحقيق بغبطة شديدة، وخليق بكرامة يوم القيامة فوق كثير من العالمين، كرامةً من الله الكريم الرحيم، ومِنَّةً من الربّ الحكيم العليم، مهما اشتدّ بلاؤه، وتنوّعت شدّاته، وتتابع لآواؤه!

فلله في ثنايا ابتلائه منحة عظيمة ونعمًا جليلة لا يتصورها إلا من عرف ربه بجميل صفات كماله. وكفى بنعمة الصبر والرضا والشكر والحمد والإيمان نعمة. فلله الحمد كثيرًا.

(١) البخاري ٢١٣/٤ (٣٤٧٧) ومسلم ١٧٩/٥ (١٧٩٢).

(٢) الترمذي (٢٥٠٧)، ابن ماجه (٤٠٣٢) واللفظ له، أحمد في المسند (٥٠٢٢) وقال محققه:

إسناده صحيح.

لقد كان الصبر سمة ظاهرة للنبيين والصديقين والشهداء الصالحين، قال جل من قائل: ﴿وَاسْمِعِلْ وَأَذْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وقال عن أبونا عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكْتَابُ أَفْعَلْ مَا تَوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢] وعن شيخ الصابرين على الضراء أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] ولاحظ ارتباط الصبر على المرض بتحقيق العبودية والتوبة والإنابة.

وتدبر - موقفاً - سورة الصبر، تجد مصداق الضرورة للصبر والمصابرة والتواصي بها في السير إلى الله والدار الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣]. وفي البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالْمَرْحَمَةِ ١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧-١٨] فعاقبة الصبر خيرية المال وحسن العاقبة.

إن الصبر عبادة سنّية شريفة، وقلنا عبادة لأن الله يحبه ويرضاه ويأمر به بل يأمر بإخلاصه له وحده لا شريك قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] ولما كان الصبر عبادة كان سادة هذه العبادة هم النبيون عليهم الصلاة والسلام.

وقد أمر الله تعالى إمام الصابرين بالاهتداء بسلفه الصالح من إخوانه المرسلين إولي العزم والصبر الشديد، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ

الرُّسُلِ ﴿[الأحقاف: ٣٥] وأمره بالصبر مطلقاً فقال: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] اصبر وسبح، وقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩] اصبر وسبح وتهجد، وتذكر المعية المهيبة الباعثة في النفس كل معاني السكينة والطمأنينة والرضا والإنس والقوة، وفي هذا تنبيه لكل داع إلى الله تعالى أن يسلك هذا المسلك النبوي المصطفوي، فالأمر ابتداءً لنبي الله ﷺ، ومن بعده لأتباعه من خُصَّصَ أمته الذين حملوا على أكتافهم همَّ إصلاح أمتهم ورفعتها وسناءها وتقريبها من مرضي ربها العظيم سبحانه وبحمده.

وصالحٌ عليه السلام قد أُمر بالاصطبار، وهو مفاعلة من الصبر، أي صبراً بعد صبر، ذلك أن حمل الرسالة شديد فلا يطيقه إلا ذو الصبر الشديد، فالسبحانه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ﴾. وكانت النهاية أن النصر مع الصبر.

وعلى الداعي إلى سبيل ربه ألا ييأس ولا يستسلم ولا يقنط مهما رأى من مظاهر هزيمة الإسلام وكسر الدعوة وتبديل الشريعة، فللبيت رب يحميه، والإسلام منصور غالب بأمر ربه، وسفيتته ماخرة عباب بحر الظلمات بكل قوة وشموخ وسلامة وسلام، فالسعيد من ركبها والمخذول من تخلف أو يئس أو ركن إلى يابسة العاجلة المفضية به إلى القلة والعطب والهلكة، فالكثرة - على الحقيقة - إنما هي مع من كان مع الله تعالى وشرعه ودينه، وكان من أنصار الله ومن حزبه المفلحين ولو كان لوحده، فهو الأمة وهو الكثرة وهو الحق، فمن كان الله معه فهو

الكثير حقًا، والقوي صدقًا، والمنتصر قطعًا.

فمن كان الله معه فمعه القوة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضلّ، والناصر الذي لا يتخلف، والمعين الذي لا يتأخر، والكافي الذي يكفي، ومن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد.

أما من نكص على عقبي دعوته، وتخاذل عن حمل رسالته، وابتعد عن صراط ربه وهداية كتابه وسنة رسوله ﷺ، فرغب في الزائلة الفانية زهدًا في الباقية الخالدة، فأخلد لِثِقَلَةِ أرضه الدنيّة، دون نفخة روحه العلوية؛ فقد خابت صفقته، وخسر من حيث رام الربح، وخذل من حيث ابتغى المعونة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۖ﴾ [الأعلى: ١٦-١٩].

ويكفينا قول ربنا العليّ: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۖ﴾ [المعارج: ٥-٧] فمعياريّة الزمن والنصر وغاية النهاية إنما يراها بقلوبهم الموفقون المستشعرون معيّة الرحمن وإحاطته بالحفظ والعون والسمع والبصر واللفظ الخفيّ والجليّ: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ثم معيّة المرسلين والمصلحين على جادة دعوته الخالصة لله الواقفة على سنة نبيه ﷺ، وهي السبيل التي لا يراها من غبّشت بصيرته قتائم حظوظ نفسه، وحجبت إدراكه كوامن جهله بربه وسيئات ظنونه بعدله ورحمته ولطفه وصدق وعده.

فعليك أيها الداعي لسبيل ربك بجادة الصابرين، محسني الظن بلطف ربهم، ولا تلتفت لكل مثبّط أو حاسدٍ أو عدو: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ

لَا يُؤْقِنُونَ ﴿[الروم: ٦٠] فالله حق ووعدته حق ونصره حق ولقاؤه يوم القيامة حق، فاصبر على الحق تكن من أهله، والله المستعان، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا ﴿٦١﴾ وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ﴿[المعارج: ٥-٧].

ولا تنس - إن نسيت - احتساب الأجر عند ربك، فما عند الله الغني الكريم البرّ الشكور خيرٌ وأبقى لك مما عند خلقه الضعفاء الفقراء. وكل عمل عمله لله محتسباً أجره وذخره فستلقاه مغتبطاً به ما دمت مخلصاً متبعاً صابراً، ولنعلم الذخيرة تلك الذخيرة ولنعم الكنز ذلك الكنز!

وأتس في جميع ما يصيبك بنبيك ﷺ، فعن جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دُمِيتَ^(١) إصْبَعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إصْبَعٌ دُمِيتَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ^(٢)
فلكل مصلح:

امض لسبيلك، متوكلاً على ربك، مستنّاً بنبيك ﷺ، متأملاً هذا البيان الحاسم من رب العالمين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

وليتدبر الداعية الموفق قصة أصحاب الأخدود، وما فيها من أنواع الصبر والمصابرة في ذات الله تعالى، سواء من الغلام أو الراهب أو المؤمنين حتى نسائهم،

(١) أي: جرحت حتى سال دمها الشريف الزكي.

(٢) البخاري مع الفتح (١٠) (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦) واللفظ له.

لقد استحقت تلك القصة العظيمة الخلود في محكم تنزيل رب العالمين: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨-٩] فلا تخفى عليه خافية مهما دقت أو جلّت، فهو شهيد على المؤمنين الصابرين حافظ لصبرهم في ذاته المقدسة العلية، فصبروا أرواحهم قرباناً لوجهه سبحانه وبحمده، وشهيد على الكافرين وطغيانهم وظلمهم وكفرهم. ومع شناعة جرمهم وفداحة ظلمهم وغلظ كفرهم إلا أن الرحمن قد أشرع لهم باب التوبة على مصراعيه بقوله الأعز اللطيف: ﴿ثُمَّ لَآتُوا بِتُوبَةٍ﴾ [البروج: ١٠] فلا إله إلا الله، ما أعظم حلم الله وأوسع رحمته وأوسع فضله!

وقد فصل حبيبنا ﷺ قصة أصحاب الأخدود، فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمَهُ السَّحْرَ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يَعْلَمُهُ.

وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ^(١) فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ، مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبْسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حَبْسَنِي السَّاحِرَ^(٢) فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ،

(١) وكان موحّداً مسلماً على دين المسيح عليه السلام، ليس من مشركة النصارى.

(٢) لأنه رأى أن مصلحة تخلفه عنده تزيد على مفسدة تلك الكذبة، فهو نظير الكذب لإصلاح الخصمين، أو أنه من باب الكذب لإنقاذ المحترم من التعدي عليه بالضرب.

دليل الفالحين (١/١٨٧).

فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى^(١) فإن ابتليت فلا تدل علي.

وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص^(٢)، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

(١) وهذا من فقه هذا الراهب الصالح، فأمارات التمكين والإمامة في الدين بادية على حال هذا الغلام، ولكن لا تمكين إلا بعد بلاء شديد. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي يظهر علمه في عالم الشهادة. وتأمل كيف أن ورقة بن نوفل أخبر رسول الله ﷺ بابتلائه بإخراج قومه له من حين تبين له أنه نبي. فعند البخاري في خبر بدء الوحي حينما أخبر خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: «فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها - وكان امرئاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال له رسول الله ﷺ: «أَوْ مَخْرُجِيْ هَمْ؟!» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي» رواه البخاري (٣/١ و ٦/٢١٤ و ٢١٥ و ٣٧/٩) ومسلم (١/٩٧ و ٩٨).

(٢) الأكمه: الذي يولد أعمى. والبرص: داء يصيب الجلد ببياض.

فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله تعالى^(١)، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك^(٢) فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله^(٣) فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء

(١) وهذه رسالة لكل طبيب لأدواء الأرواح أو الأجساد أن يعلق العباد بربهم لا بعلمه وخبرته وطبّه، فهو مجرد سبب قد يتخلف لذاته أو لمانع خارج عنه، أما الشافي في الحقيقة فهو الله وحده، قال إمام الحنفاء عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾.

(٢) وفيه الاستثمار الأمثل لكل خبرة وعلم وخير في دعوة الناس إلى الله تعالى. واعتبر ذلك بدعوة يوسف عليه السلام صاحبي السجن إلى الله تعالى بقوله: ﴿يَصْلَحْجِي السِّجْنِ ۖ أَرَأَيْتُ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ۖ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ إِنْ الْكُفْرُ إِلَّا إِلَهُ أَمْرٌ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى، ويقول: «اللهم رب الناس، أذهب البأس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما». رواه البخاري ١٧٢/٧ (٥٧٤٣) ومسلم ١٥/٧ (٢١٩١) (٤٦).

(٣) وتأمل كيف يفعل الإيمان المفعم باليقين والنصح فعله في قلوب الخلق، ويشبه هذا العبد الصالح سحرة فرعون الذين كانوا في بكرة النهار سحرة أشقياء وفي عشيتهم بررة شهداء. وتأمل حال صحابة رسول الهدى ﷺ ورضي عنهم كيف قاموا لله تعالى تلك المقامات المشهودة والمجاهدات المشهورة بعد أن بلغ الإيمان حُشاشة قلوبهم فصقّى كدرها وشدّ ضعفها وبلغ بها مبلغ أكرم الخلق على الله تعالى بعد الأنبياء والمرسلين.

بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل! فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى^(١). فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب.

فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه^(٢)!

ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه!

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذُروتَه^(٣) فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت^(٤) فرجف بهم الجبل فسقطوا^(٥).

(١) وفيه الثبات على الحق، وأن يقوم المؤمن فيه لله تعالى لا يخشى فيه لومة لائم.

(٢) وتأمل كيف هرب هذا الراهب الصالح من الابتلاء فلحقه الابتلاء، فالدور لا مهرب منه، ولعله خير له إن كان بلغه الشهادة العظيمة، وأخرجه من سجن الدنيا لفسحة الجنان وجوار الرحمن جل جلاله بإذن الله تعالى ورحمته. وفيه الصبر العظيم لهذا الرجل فلم يعطهم مرادهم بل صبر حتى قتلوه في الله ولله وإلى الله، ولا إله إلا الله.

(٣) الدُّرَّة -بضم الذال ويصح كسرهما-: رأس الجبل ويقال له: قِمَّةٌ وقُلَّةٌ.

(٤) وفيه غاية التوكل والتفويض وإخلاص الاستنصار بالله تعالى.

(٥) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فهو مجيب لدعوة المضطر مطلقاً

وجاء يمشي إلى الملك^(١) فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى^(٢) فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرُور^(٣) وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقتلوه. فذهبوا به، فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنائتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام^(٤) ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنائته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوق

فكيف بوليّه الداعي إليه المبتلى في ذاته لإعلاء كلمته؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

- (١) وفيه الثقة بوعد الله تعالى ومعيته وتأيبه، فلم يهرب ويختبئ، بل عاد ليدعو ذلك الملك الظالم الضال لعلمه أن في هداية الله له نفعاً عاماً لرعيته بدخولهم في دين الله تعالى.
- (٢) ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.
- (٣) سفينة صغيرة.

- (٤) وفيه نقض لدين هذا الملك الطاغوت، فقد جعل الملك يهدم الشرك الذي بناه في قلوب الناس بهذا الفداء العظيم من هذا الشهيد الشاب الفذ النادر.

في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات^(١)، فقال الناس: آمنا برب الغلام^(٢)! فأُتي الملك فقبل له: أرايتَ ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرِك، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحُذّت وأُضرم فيها النيران^(٣) وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم. ففعلوا.

(١) صدغه: أي ما بين عينه إلى أذنه، ووضع يده عليه لتألمه قبل وفاته رحمه الله تعالى، وبحمد الله فليس ألم القتل في سبيل الله شديداً مهما كانت طريقته، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة» رواه الترمذي (١٦٦٨) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٦).

(٢) وهنا نصر الله المؤزر لدعوة ذلك الغلام الصالح، وفيه أن الداعي إلى الله تعالى قد لا يُمهّل حتى يرى ثمار دعوته الطاهرة، بل قد يسقي الله تعالى بذرته فلا تنمو وتثمر إلا بعد رحيله عن الدنيا إلى ربه تعالى، وهذا الأمر وارد حتى على الرسل الكرام، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ الْحَدِيثُ». رواه البخاري ١٦٣/٧ (٥٧٠٥) ومسلم ١٣٧/١ (٢٢٠) وتأمل قصة أصحاب القرية في سورة (يس) كيف أرسل الله لهم ثلاثة رسل، فكفروا بهم حتى أرسل الله عليهم الصيحة فأهلكتهم، ولم يذكر الله تعالى أن قد آمن لهم سوى رجل واحد!

فعليك -أخي على طريق الحق - بالدعوة الخالصة الناصحة بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الاتّباع للسنّة، أما الثمرة فيكفيك منها رضوان الله تعالى عليك، فإن أنعم عليك بغيرها فهي زيادة فضل وكرامة ونعمة، والحمد لله رب العالمين.

(٣) أي حفر الحفر في الطُّرُق وأوقد فيها النيران.

حتى جاءت امرأة ومعهما صبيُّ لها، فتقاعست^(١) أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه؛ اصبري فإنك على الحق! ^(٢). وهذا الصبي قد يكون مميّزاً فيتكلّم غيره، وقد يكون رضيعاً في مهده، فإن كان الأول فهو مثال جليل على الصبر والمصابرة في ذات الله تعالى، كما قال خبيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلّو ممزّع

وإن كان ناطقاً في مهده فهو معجزة باهرة إذ أنطقه الله تعالى، وكرامة من الله تعالى لتلك الأمّة المؤمنة لربها. والأظهر: أنه لم يكن رضيعاً، لوصفه في هذا الخبر أنه غلام، أمّا أمّه فالأظهر من سياق المدح أنها صبرت واقتحمت النيران، والله أعلم.

أما إن كان رضيعاً فإنه يكون بذلك سابع سبعة نطقوا في المهد، وقد صح الخبر في حصرهم في الثلاثة فقط، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج... وبيننا صبيٌّ يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة.. الحديث»^(٣). وكلُّ أخبار الله حقّ، ويُصدّق بعضها بعضاً، وكلام رسول الله ﷺ وحيٌّ من الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

(١) أي: جينت وخافت وتراجعت.

(٢) مسلم ٢٢٩/٨ (٣٠٠٥).

(٣) البخاري ٢٠١/٤ (٣٤٣٦) ومسلم ٤/٨ (٢٥٥٠).

وبالتبع والاستقراء لما ثبت من كلامهم في المهد، فإنَّ المجموع يبلغ ستة أو سبعة، وذلك بحسب صحة وضعف الأسانيد، والذي ثبت لديّ منهم ستة: عيسى عليه السلام، وصاحب جريج، وصبيّ ماشطة امرأة فرعون، وشاهد يوسف عليه السلام، وصاحب الأخدود، والذي مرّ به صاحب الدابة الفارهة. والله أعلم. وبعضهم زاد إلى تسعة، وزاد السيوطي إلى ثلاثة عشر ونظم أسماءهم، ومن عُدوا بالكلام في المهد أيضًا: نبيّنا ﷺ، و خليل الرحمن، وموسى، ونوح، ويوسف، ويحيى عليهم السلام، ومريم. وكل ذلك مفتقر لدليل ولا أعلمه. وللحصر بالثلاثة عدّة توجيهات^(١):

الأول: إمّا لأنّه قد خص بالذكر ثلاثة من بني إسرائيل دون غيرهم، وهذا مأخذ وجيه، لأنهم أكثر أمة ضربت لنا فيهم الأمثال.

الثاني: أنّه ﷺ أخبر بعدد الثلاثة أولاً، ثم أخبر بزيادته، ولهذا شواهد عديدة في أبواب أخرى من الأخبار، كحديث: «أربعٌ كُلُّهُنَّ فاسقٌ»^(٢) وفي أحاديث أخرى ذكر الزيادة، وغير ذلك.

(١) قال الضَّحَّاكُ رحمه الله تعالى: «تكلّم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبيّ ماشطة امرأة فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج». وانظر: الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية ٢٩٢/١ واللباب في علوم الكتاب ٢٣١/٥ والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري ٣١٤/٦

(٢) مسلم (١١٩٨).

الثالث: أَنَّهُ قَيَّدَ بِمَنْ تَكَلَّمَ فِي مَهْدِهِ، وَلَيْسَ مِنْ عِدَاهُ، فَالْمَهْدُ: أَصْلُهُ مِنْ مَصْدَرٍ مَهَّدْتَ الشَّيْءَ أُمَهَّدَهُ: إِذَا سَوَّيْتَهُ وَعَدَّلْتَهُ. فَمَهْدُ الصَّبِيِّ: كُلُّ مَحَلٍّ يُسَوَّى لَهُ وَيُوطَأُ، وَقَدْ يَكُونُ سَرِيرُهُ، وَقَدْ يَكُونُ حَجَرُ أُمِّهِ، أَمَّا الْغُلَامُ وَالْغُلِيمُ فَمَرَحَلَةٌ تَالِيَةٌ لِلْمَهَادِ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْهَائِلَةِ بَيَانُ الصَّبْرِ الْعَظِيمِ لِذَلِكَ الرَّاهِبِ التَّقِيِّ الصَّالِحِ، وَجَلِيسِ الْمَلِكِ الْمَوْفَّقِ الصَّابِرِ، وَالْغُلَامِ الشَّهِيدِ النَّاصِحِ، فَهُوَ شَيْخُ الْغُلَمَانِ بِحَقِّهِ، وَهُوَ الدَّاعِيَةُ الصَّغِيرُ فِي سُنَّتِهِ، الْكَبِيرُ فِي إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ وَدَعْوَتِهِ وَشَهَادَتِهِ وَتَحْلِيدِ ذِكْرِهِ، فَلَمْ يَرُدَّ هَؤُلَاءِ الشَّهَدَاءُ تَهْدِيدُ الطَّاغُوتِ وَأَعْوَانِهِ وَلَا قَتْلُهُمْ لَهُمْ هَذِهِ الْقَتْلَاتِ الشَّنِيعَةُ عَنْ دِينِهِمْ، فَرَحَّمَهُمُ اللَّهُ وَأَلْحَقْنَا بِهِمْ فِي الصَّالِحِينَ. وَإِنَّمَا تُعْمَرُ الدِّيَارُ وَيُدْفَعُ الْبَلَاءُ بِأَمْثَالِهِمْ، بِدَعَائِهِمْ وَابْتِهَالِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ الْعِبَادَ لِسَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ لِأَمْتِهِ لِتَعْلَمَ الْأُمَّةُ أَنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ يَرْجُوهُ لَا يَرْغُبُونَ لغيره وَيَخَافُونَهُ لَا يَخْشَوْنَ سِوَاهُ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَهُمْ وَرَبَّاهُمْ وَاصْطَفَاهُمْ لِحَمْلِ شِدَائِدِ دِينِهِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ وَأَجْرِهِ فِي الْعُقْبَى.

وَبِنَحْوِ خَبَرِهِمْ جَاءَتْ الْأَخْبَارُ، فَلَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، فَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ خُبَّابِ بْنِ الْأَرْثَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً^(١) لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَأْخُذُ الرَّجُلُ فِيحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يَأْتِي بِالْمَنْشَارِ فَيُوضِعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيَمْشِي بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصْدَهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى

(١) نوع من الثياب كالرداء.

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

فالإنسان عجول بطبعه، وغريزة العجلة جبلة لا يسلم منها إلا القليل، قال عنه خالقه ومسويه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الانباء: ٣٧] وقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الاسراء: ١١]. وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول ما خلق الله من آدم عليه السلام رأسه، فجعل ينظر وهو يُحَلَق، وبقيت رجلاه. فلما كان بعد العصر قال: يا رب؛ اعجل قبل الليل! فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الاسراء: ١١]^(٢).

ولكن هذه الجبلة العجول ليست بعذر في ترك التأني، فلقد أصاب المتأني أو كاد، وأخطأ المتعجل أو كاد، والعجلة أم الندامة، إنما المقصود بيان أن هذه الغريزة النفسانية محتاجة إلى مصابرة حتى تكون منقادة لخلق الأناة وعقل الرزانة. وقد بشر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد القيس بمحبة الله تعالى لأناته وحلمه، وأنه قد جبله عليهما، فعن ابن

(١) البخاري ٢٤٤/٤ (٣٦١٢) و٥٦/٥ (٣٨٥٢).

(٢) الدر المنثور (٢٦٧/٩) وفيها غرابة، لأن نفخ الروح كان بعد زمان طويل نسبياً من خلق البدن، فقد كان تراباً ثم طيناً ثم صلصالاً كالفخار، ثم نفخت فيه الروح، وقد أورد الحافظ بن كثير في البداية قصصاً عن ذلك، ورؤية إبليس له وحسده له قبل نفخ الروح فيه وغير ذلك. فإن صح الخبر عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلعله قد أخذه من روايات بني إسرائيل، فقد صحب ثلاثة من كبار علماء النصارى قبل إسلامه في قصة ملهمة جميلة. والله أعلم.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يَجْبِهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَاءَةَ»^(١).

وتأمل قصة النبي الصديق يوسف عليه السلام، فقد دهمته خمس محن فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمراودة، والسجن، والسلطة والنعيم، ولذة القدرة على الانتقام. لقد مرت كل عواصفها الشديدة الهائلة بجبل إيمانه فثبت ورسخ. فسورة يوسف هي سورة الثبات، كما أنها سورة الفرج بعد الشدة.

هذا وقد يتلى الله عبده ليرفعه وليرحم به غيره في قابل أيامه. وتأمل كيف قدّر الله تعالى أن يباع يوسف وتتوالى ماجريات بلاءاته ليكون - بإذن الله ربه - سبباً في دفع مجاعة عامّة مميتة تتابعت سبعة أعوام في مصر وما حولها. حقاً: إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه.

وبالجملة؛ فعلى المؤمن الذي يبتغي مرضاة الله تعالى ويلحقه شدة بسبب دينه أن يتذكّر أموراً مهمة:

أولاًها: أنه عبدٌ مربوب لسيدته ومالكه وربّه، فكل أفعال الله تعالى وأقداره وأقضيته عليه ليس له حيالها إلا الصبر والرضا والحمد والشكر والتسليم، فهذا هو لباب الإسلام.

ثانيها: أن الدنيا دار محنة وبلاء لا دار خلد وراحة، وإنما يُبتلى الرجل على قدر

(١) مسلم ٣٦/١ (١٧) (٢٥).

ما فيه قلبه من الإيمان والتقوى، ليحظى بمزيد الأجر والفضل والرفعة، ولتُحط عنه الخطايا ويُطَهَّر من أدران الذنوب، وليظهر صادق معدن لإيمانه وصبره وبقينه عند شديديات البلايا وعظيمات الرزايا، فيثبت على ساق إيمانه حين تساقط الضعفاء لوهن أديانهم، والكسالى والبطالون لدناءة همّتهم وخذلانهم، وارتدّ الكذبة لانقطاع حبل كذبهم بسكين البلاء.

وتأمل حديث الرحمة بالبلاء؛ فعن مصعب بن سعد عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»^(١)، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(٢).

فانظر كيف رحمنا الله تعالى بالبلاء على قدر احتمالنا وطاقتنا، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [القرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فله الحمد والمن والفضل، فلو زاد البلاء على قدر الإيمان لربما انفرط عقد الصبر فجزع المرء فهلك! ولو خُفّف بلاؤه أقلّ من دينه واحتماله لفاته حظ الصابرين بقدر ما فاته من احتمال البلاء، قال ﷺ:

(١) إي: ترتيب تنازلي في الرّتب الدينية الإيمانية.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠) والترمذي (٢٣٩٨) وصححه، وأحمد (١٤٩٤)، والدارمي

(٢٧٨٣) باختلاف يسير. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢) وشعيب

الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء ١٦٠/٩

«إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»^(١). وننبه إلى إن البلاء هنا هو بلاء الدنيا لا الدين. ورحم الله البستي حينما قال:

وكلُّ كسِرٍ فإن الدين يجبره وما لكسِر قناة الدين جبرانُ
وقال ابن الجهم:

إنَّ المصائب ما تَخَطَّتْ دينه نِعَمٌ وإن صُعِبَتْ عليه قليلا

ثالثها: أن على المؤمن أن يتقي الله تعالى حسب طاقته سواء في عبادته في نفسه، أو في تعبيد الخلق لله تعالى عبر دعوتهم الحسنی إليه. أما إدراك النتيجة وروية الثمرة فليست شرطاً في نجاحه أو قبوله، فيحزن إن لم يرها، بل عليه بذل السبب وترك النتيجة للمُسبَّب الحكيم سبحانه وبحمده. فله حكم باهرة من وراء هذا كله، لا نحيط بها ولا نقرب من ذلك أصلاً، وعليه فيكفيها الثبوت من صحة مسارنا بتفقد النية والاتباع، ثم نسلم أمرنا لله رب العالمين.

على المرء إن يسعى إلى الخير جَهْدَهُ وليس عليه أن تتم المقاصدُ

رابعها: أن دين الله منصور لا محالة، فليس على الدين خوف حتى وإن تقلص في ناحية أو ضعف تدين الناس في أخرى، فالله ناصر دينه و متم نوره ومظهر سنة نبيه ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

(١) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في السلسلة (١٤٦) (٢٧٦/١).

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٨-٩﴾ [الصف: ٨-٩]. فلا خوف على السفينة، إنما الخوف أن تمضي بدونك!

والدين منصور وممتحن فلا تعجب فهذه سنة الرحمن

فلا بد من الثقة بموعود الله تعالى ومن ذلك وعده بنصر الإسلام، قال جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمْتِي سَبَلَغَ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا^(١). وَأُعْطِيتُ الْكَتْرَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ^(٢). وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمْتِي: أَلَّا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ^(٣)، وَأَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ^(٤). وَإِنْ رَبِّي قَالَ لِي: ﴿[الانشقاق: ٣] يَا مُحَمَّد، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءَ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمْتِكَ^(٥): أَلَّا

(١) أَي: سَطَّحَهَا لَهُ حَتَّى رَأَى أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا، وَفِي الْقِيَامَةِ تَكُونُ الْأَرْضُ الْجَدِيدَةُ مَسْتَوِيَةً لَا كُرْوِيَّةَ كَحَالِهَا الْآنَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

(٢) الْأَحْمَرُ مُلْكُ الرُّومِ لَغَلْبَةِ الدِّينَارِ وَالذَّهَبِ لَدَيْهِمْ، وَالْأَبْيَضُ مُلْكُ فَارِسَ لَغَلْبَةِ الدَّرْهِمِ وَالْفِضَّةِ لَدَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) إِي: لَا يَسْتَأْصِلُهُمْ بَهْلَاكُ عَامٍ بِمَنْعِ الْغَيْثِ، وَالسَّنَةُ هِيَ الْجَدْبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مَرَاتِلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

(٤) بَيْضَةُ النَّاسِ: مَجْتَمِعُهُمْ وَمَعْظَمُهُمْ، وَبَيْضَةُ الْبَلَدِ: وَسْطُهُ. وَالِاسْتِبَاحَةُ أَنْ يَأْخُذَهُمْ كَيْفَ شَاءَ قَتْلًا وَأَسْرًا كَالْمُبَاحِينَ لَهُ.

(٥) أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ بِهَذَا الْأَمَانِ الرَّبَّانِيِّ كَرَامَةً لِنَبِيِّهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبِرَكَاتِهِ عَلَيْهِ.

أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا». رواه مسلم^(١) وزاد أبو داود^(٢): «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين^(٣)، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة^(٤)، ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان^(٥)، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين^(٦)، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

(١) مسلم (١٧١/٨).

(٢) أبو داود (٤٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٣).

(٣) سواء كانوا أئمة دين كعلماء الضلالة، أو أئمة دنيا كطواغيت السلاطين.

(٤) وقد وضع منذ أن قُتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يرفع حتى هذه الساعة، ولن يرفع حتى تقوم الساعة، عيادًا بالله تعالى من مضلات الفتن.

(٥) وقد حدث هذا كله، والله المستعان.

(٦) ظاهرين يراهم الناس عيانًا، فهم ظاهرون بالحجة والبيان، والسيف والسنان، لا يضرهم من خذلهم من إخوانهم المسلمين ولا من عاداهم من الكافرين، وهم في كل زمان، وليسوا في بقعة محددة فقد يتفرقون وقد يجتمعون، وقد يكونون في زمن أظهر منهم في آخر، ولكن علامتهم الفارقة هي ظهورهم على من خالفهم بعزة إسلامهم وسلامة منهجهم معتقدًا وسلوكًا، حتى وإن قل عديدهم وعتادهم، وبظهور حجتهم وبرهانهم، حتى وإن أعوزتهم وسائل الإعلام.

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة^(١)، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها، قال: «إن طالت بك حياة لترين الظعينة^(٢) ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله تعالى». قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَار طيء الذين سَعَرُوا في البلاد؟!^(٣) «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: «كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه^(٤)، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فليقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه، فلا يرى إلا جهنم! وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم!» قال عدي: فسمعت النبي ﷺ يقول: «اتقوا النار، ولو بشق تمر، فمن لم يجد شق تمر فبكلمة

(١) أي: الحاجة الشديدة.

(٢) الظعينة: في الأصل هي المرأة ما دامت في الهودج، ثم سميت المرأة ظعينة وإن لم تكن في هودج ولا مسافرة.

(٣) الدُّعَار: هم قطاع الطرق، وأصل الدُّعْر: الفساد. ومعنى سعروا البلاد: أي ملأوها شراً وفساداً، مأخوذ من استعار النار وهو التها بها. ومنه: مدح رسول الله ﷺ لأبي بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ويل أمه، مسعر حرب، لو كان له أحد». مسند أحمد (١٨٩٢٨).

(٤) بسبب الغنى العام، وقلة الفقر في الناس، لكثرة بركات الأرض، وسهولة تحصيل خيراتها، ولعفاف الناس.

طبية.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز. ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم عليه السلام يخرج^(١).

وقد ذكروا أنه قد تحقق في زمن عمر بن عبد العزيز رحمة الله، وحتى إن لم يكن بذلك القدر من الوقوع، فالمتيقن وقوعه في زمن المسيح عليه السلام. ففي صحيح مسلم^(٢) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال - في حديث طويل وفيه - : «ثم يرسل الله عز وجل مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ^(٣)، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بِقَحْفِهَا^(٤)، ويبارك في الرِّسْلِ^(٥) حتى أن اللَّقْحَةَ^(٦) من الإبل لتكفي الفئام من الناس؛ واللقحة من البقر

(١) البخاري (٣٥٩٥)، وأحمد (٢٥٦/٤) واللفظ له.

(٢) مسلم ١٩٦/٨ (٢٩٣٧).

(٣) الزَّلَقَةُ: المرأة، ورويت بالفاء وهي المرأة كذلك، شبهها بالمرأة لاستوائها ونظافتها.

(٤) بِقَحْفِهَا - بكسر القاف - : أي: بقشرها، وأصل القَحْف ما فوق الدماغ مع الرأس.

(٥) الرِّسْل: اللبن.

(٦) اللَّقْحَةُ: الناقة اللبون، أما الخلقة فهي الحامل، وقد انعكست التسمية بينهما عند كثير من أهل زماننا. فقد كانت الأبل ذوات الدر في عهد رسول الله ﷺ تسمى «لقاح الصدقة» كما في حديث العرينيين وغيره، فعند أحمد (١٢٦٣٩) بسنده عن أنس: «أن ناساً أتوا النبي ﷺ

لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس».

خامسها: أن على الدعاة خصوصاً الانتباه إلى معيارية الزمان الأممي، فإن سنن الله تعالى العامة لا تكون. في الغالب - قرية الوقوع عند وقوع أسبابها مباشرة، لأن الله عند عصيانه العام بلا نكير فإنه يُمهّل ويحلم ويُقيم الحجج ويُعذر إليهم، حتى إذا طال زمانهم واستكبروا وبغوا أخذهم على حين غفلتهم وفرحهم وطغيانهم فمحقهم وسحقهم ودمّرههم وأدال عليهم عدوهم واستبدلهم بغيرهم، والعكس صحيح، فإن أصلحوا أصلح الله حالهم.

هذا في الجماعة والأمة، أما على مستوى الأفراد فتكون نسبة وقوع السنة قرية الزمان نسبياً، متى تكاملت أركانها.

والمقصود؛ أن على الدعاة إلى الله تعالى أن يصبروا صبر الكرام، لا أن يستعجلوا النتائج، ويحرقوا المراحل، فللميزان الزماني مكياله من أعمال بني الإنسان، حتى إذا استتمّ المقدار وتكاملت الأجزاء جاء أمر الله التقدير بنصر أوليائه وأخذ أعدائه، فالعجلة غير المبررة نوعٌ من الجزع! واعتبر ذلك بحال المرسلين عليه السلام مع أقوامهم، وشجر المكاره يثمر المكارم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَحْلُبْ هَذِهِ؟» فَقَامَ رَجُلٌ.. الْحَدِيثُ أَمَّا الْخَلْفَاتُ فَهِنَّ الْحَوَامِلُ، وَمِنْهُ حَدِيثُ الدِّيةِ الْمَغْلُظَةِ قَالَ ﷺ فِيهَا: «وَأَرْبَعُونَ خَلْفَةً، فِي بَطُونِهَا أَوْلَادُهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٥٤١) بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

قال العثيمين رحمنا الله وإياه: «حديث أبي عبد الله خباب بن الارت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي ما وجده المسلمون من الأذية من كفار قريش في مكة، فجاؤوا يشكون إلى النبي ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة. فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن من كان قبلنا ابتلي في دينه أعظم مما ابتلي به هؤلاء، يُحْفَرُ له حفرة ثم يلقي فيها ثم يؤتى بالمنشار على مفرق رأسه ويشق، وأيضاً يُمَشَطُ بأمشاط الحديد ما بين جلده وعظمه، وهذا تعزيز عظيم وأذية عظيمة.

ثم أقسم عليه الصلاة والسلام أن الله سبحانه سيُتِمُّ هذا الأمر، يعني سيتم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الإسلام حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون. أي: فاصبروا، وانتظروا الفرج من الله، فإن الله سيتم هذا الأمر، وقد صار الأمر كما أقسم عليه الصلاة والسلام، ففي هذا الحديث آية من آيات الله حيث وقع الأمر مطابقاً لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام.

وآية من آيات النبي عليه الصلاة والسلام حيث صدقه الله بما أخبر به وهذه شهادة له من الله بالرسالة كما قال الله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَالْمَلَكُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وفيه أيضاً دليل على وجوب الصبر على أذية أعداء المسلمين، وإذا صبر الإنسان ظفر. فالواجب على الإنسان أن يقابل ما يحصل من أذية الكفار بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج، ولا يظن الأمر ينتهي بسرعة وينتهي بسهولة.

فقد يتلى الله عز وجل المؤمنين بالكفار يؤذونهم، وربما يقتلونهم كما قتلوا

الأنبياء. فاليهود من بني إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعظم من المسلمين، فليصبر ولينتظر الفرج ولا يملّ ولا يضجر، بل يبقى راسياً كالصخرة، والعاقبة للمتقين، والله تعالى مع الصابرين.

فإذا صبر وثابر وسلك الطرق التي توصل إلى المقصود، ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة، بل بطريق منظمة، لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطا ثابتة منظمة ويحصلون مقصودهم^(١).

أما السطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يشوروا ويُستَفَرُوا؛ فإنه قد يفوتهم شيء كثير، وربما حصل منهم زلّة تفسد كل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئاً^(٢)! لكن المؤمن يصبر ويتتد، ويعمل بتؤده، ويوطن نفسه، ويخطط تخطيطاً منظماً يقضي به على أعداء الله من المنافقين والكفار، ويفوت عليهم الفرص، لأنهم

(١) فالعلمانية والجاهلية والنفاق والإفساد المنظم محتاجة لإسلام وإصلاح ودعوة منظمة، أما الفوضى فتصنع الفوضى، وتفرض الفشل، وتثمر التنازع، وتلد التفرق، وتذهب الريح، والله المستعان. وتأمل حسن تخطيط النبي ﷺ لأمره في سلمه وحره يتبين لك ذلك. وقد كان العثيمين رحمه الله تعالى مدرسة في حسن التنظيم وإدارة الجودة في شأنه كله، وهذا من لطف الله تعالى به وكرمه وإحسانه إليه، ونتج عن ذلك استمرار فوائده وانتشار علمه في الآفاق بعد رحيله لربه تعالى.

(٢) وهذا تنبيه عظيم من هذا الإمام المجرب الفذ الحكيم، فالعواطف لوحدها بمعزل عن العلم والحكمة هي بمثابة الريح العاصفة القاصفة المبعثرة، التي تسحق وتهدم، لكن الإيمان والعلم والحكمة والإرادة والثبات مقرون بها النجاح بإذن الله تعالى، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً. وللمزيد انظر: «ولا تفرقوا» للمؤلف.

يتربصون الدوائر بأهل الخير، يريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم وقالوا: هذا الذي نريد، وحصل بذلك شر كبير.

فالرسول عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: اصبروا، فالمؤمن فيمن قبلكم - وأنتم أحق بالصبر منه - كان يُعمل به هذا العمل ويصبر، فأنتم يا أمة محمد أمة الصبر والإحسان، فاصبروا حتى يأتي الله بأمره والعاقبة للمتقين.

فأنت أيها الإنسان لا تسكت عن الشر، ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف، وانتظر الفرج من الله، ولا تملّ، فالدرب طويل، لا سيما إذا كانت أول الفتنة، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون، فاقطع عليهم السبيل، وكن أطول منهم نفساً، وأشد منهم مكرًا، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، والله الموفق»^(١).

قلتُ: وثمّ توسط بين الإقدام والإحجام، فقد تبلغ الشجاعة ورغبة ما عند الله ببعض أهل العلم والصلاح حدّ إرادة الاستشهاد كما المقاتلين في سبيل الله، حتى يرون بعض المهتمات الشرعية كصيانة العامة من محن لا طاقة لهم بها وكحفظ النفس من التلف أنها مجرد وساوس شيطان.

بينما تحمل ركائب الجبن، ونجائب إثارة العاجلة آخرين على تمسيع ثوابت شرعية كبرى؛ كأولوية حفظ الأمة عن فتنة الدين، وتأويل النصوص وعسف النظر لمآلات الأحوال الدينية، حتى يلقونها خلفهم ظهرياً بحالهم ومقالهم.

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١/٤٦).

والحق وسط بين باطلين؛ فشجاعة بلا حكمة خطأ يقابل العلم بلا عمل. والعاصفة إن هبت واشتدت وعلم السالك أنه لا طاقة له باحتماها فخير له أن ينكمش عنها شيئاً حتى تنصرف عنه، فلا يرفع رأسه أمامها فتجثته، ولا ينبطح أمامها فتغمره وتدفعه، والهدى هو إيثار الآخرة بأرفق طريق وأصدق وأوضحه، سواء بتلف الأجساد أو حفظها. والموفق من هداه الله سبيله.

هذا والداعي إلى سبيل الله تعالى للصبر مكلف أكثر من غيره بأحمال الصبر، فإصلاح النفوس شاق، ووظيفة الرسل ليست بالهينة، وعلى قدر الحمل يكون الجزاء.

وأجر الداعية الصابر جميل عظيم، قال تقي الدين رحمه الله تعالى: «قال تعالى: ﴿إِنَّهُ وَمَنْ يَقِيَّ وَصَبِرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وهكذا إذا أؤذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان، وإن لم يفعل أؤذي وعوقب، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه؛ إما الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أؤذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلبت منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طُلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه.

وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب

مدة^(١) ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك، ولم يكن أحد يهاجر إلا سرًّا إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد أُلجئوهم إلى الخروج من ديارهم، ومع هذا منعوا من منعه منهم عن ذلك وحبسوه.

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة - وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه - فإن هذا أصيب وأوذى باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد، كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله؛ فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة^(٢) لكن المصيبة تكفر بها خطاياها، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها.

(١) ثلاث سنين.

(٢) وهناك قول أنه يثاب استقلالاً على المصيبة ثواب تكفير، ثم يثاب ثواب تكفير ورفع درجات إن صبر واحتسب، والله أعلم، وقد سبق تفصيله.

والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك جرح أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال؛ هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم، كالمهاجرين الأولين.

فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به، ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعلة يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري، وهي التي يقال لها متولدة.

وقد اختلف الناس؛ هل يقال إنها فعل لفاعل السبب، أو لله، أو لا فاعل لها، والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسباب، ولهذا كتب له بها عمل صالح»^(١).

وعلى الداعي إلى سبيل ربه أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأن الله وليّ الصالحين، وأنه إن رضي عنه فلا عليه ما فاته من غيره، فالخير بحذايره في مرضيه، والنعماء بكمالها بين يديه، وقد وعد - ووعد الحق - أن العاقبة للمتقين.

قال عمر البزار رَحِمَهُ اللهُ فِي المناقب العلية في مناقب ابن تيمية: «ومن قوّته في مرضاة الله وصبره على الشدائد واحتماله إياها، وثبوتته على الحق إلى أن توفاه الله تعالى على ذلك صابراً محتسباً راضياً شاكراً:

كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَعْظَمِ أَهْلِ عَصْرِهِ قُوَّةً وَمَقَامًا وَثْبُوتًا عَلَى الْحَقِّ، وَتَقَرُّيرًا

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٢٢ - ١٢٥).

لتحقيق توحيد الحق، لا يصدده عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل، ولا يرجع عنه لحجة محتج، بل كان إذا وضح له الحق يعصّ عليه بالنواجذ ولا يلتفت إلى مباين معاند، فاتفق غالب الناس على معاداته، وجُلّ من عاداه قد تستروا باسم العلماء والزمرة الفاخرة، وهم أبلغ الناس في الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة!

وسبب عدواتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرئاسة وإقبال الخلق، ورأوه قد رقاّه الله إلى ذروة السنام من ذلك، بما أوقع له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحه بها وهم عنها بمعزل، فنصبوا عداوته، وامتألت قلوبهم بمحاسدته، وأرادوا ستر ذلك عن الناس حتى لا يفطن بهم، فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه والوقوع فيه، خصوصًا عند الأمراء والحكام، وإظهارهم الإنكار عليه ما يفتي به من الحلال والحرام.

فشققوا قلوب الطغام بما اجترحوه من زور الكلام، ونسوا أن لكل قول مقامًا أيُّ مقام بين يدي أحكام الحكام، يسأله هل قلته بحق أو بذاً؟ فيجازي المحق دار السلام والمبطل دار الانتقام.

فبعضهم صبا إلى أقولهم تقليدًا، وصار في حق هذا الإمام جبارًا عنيدًا، وأحسن بذلك من العامة قوم قد أصبحوا للحكام عبيدًا، وتصوروا أن أخذهم بزمام حصول المال يكون شديدًا، فأصبحوا وهم لهم مصدقين، وفي طاعتهم مستبقيين. فاجتمع من هذا التركيب العتيد بحيث عاداه أكثر السادات والعبيد، كلٌّ بحسب غرضه الفاسد.

وهو مع ذلك كلما رأى تحاشدهم في مباينته وتعاضدهم في مناقضته لا يزداد

إلا للحق انتصارًا، ولكثرة حججه وبراهينه إلا إظهارًا. ولقد سجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يولهم دبره فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارًا، وأوسعوا حيلهم عليه إعلانًا وإسرارًا، فجعل الله حفظه منهم له شعارًا ودثارًا.

ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة، فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه أقرّ به عينيه، فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجله ألبسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله، كونه حُبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على قوة في الحق وعزيمة.

هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملاً بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق، كتبًا ورغماً للأعداء أهل البدع المضلة والأهواء، ولطفًا عظيمًا من رب السماء، بخاصة الأولياء أهل المحبة والولاء»^(١).

وكلُّ عسرٍ في إثره يسرٌّ، ولو دخل العسر حجرًا لدخل عليه اليسر حتى يخرج، ومع عسر الدعوة ومشاقها يكون اليسر مصاحبًا لها ولو في ثاني الحال امتحانًا لصبر الداعي إلى سبيل ربه؛ هل يثبت ويُقبل أم يجزع ويدبر. قال جل شأنه في شأن العسر واليسر بعامة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] قال العثيمين رحمه الله تعالى: «هذا بشارة من الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولسائر الأمة، وجرى على الرسول عليه الصلاة والسلام عسر حينما كان بمكة يضيق عليه، وفي الطائف، وكذلك أيضًا في المدينة من المنافقين، فالله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] يعني كما شرحن لك صدرك، ووضعنا

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (١ / ٧٥).

عنك وزرك، ورفعنا لك ذكرك، وهذه نعم عظيمة كذلك هذا العسر الذي يصيبك لا بد أن يكون له يسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] قال ابن عباس عند هذه الآية: «لن يغلب عسر يسرين»^(١)، وتوجيه كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أن العسر ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين.

قال أهل البلاغة: توجيه كلامه أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] العسر الأول أعيد في الثانية بـ«أل»، فـ«أل» هنا للعهد الذكري، وأما يسر فإنه لم يأت معرّفًا بل جاء مُنكّرًا، والقاعدة: أنه إذا كرر الاسم مرتين بصيغة التعريف فالثاني هو الأول إلا ما ندر، وإذا كرر الاسم مرتين بصيغة التنكير فالثاني غير الأول، لأن الثاني نكرة، فهو غير الأول، إذاً في الآيتين الكريمتين يُسران وفيهما عسر واحد، لأن العسر كرر مرتين بصيغة التعريف ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] وهذا الكلام خبر من الله عز وجل، وخبره جل وعلا أكمل الأخبار صدقًا، ووعدته لا يخلف، فكلما تعسر عليك الأمر فانتظر التيسير، أما في الأمور الشرعية فظاهر، ففي الصلاة: صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب، فهذا تيسير، إذا شق عليك القيام اجلس، إن شق عليك الجلوس صل وأنت على جنبك، وفي الصيام: إن قدرت وأنت في الحضر فصم، وإن لم تقدر فأفطر، إذا كنت مسافرًا فأفطر، في الحج إن استطعت إليه سبيلاً

(١) روي مرفوعًا عن جابر ولا يصح، وموقوفًا على عمر وابن مسعود وابن عباس. وذكره الطبري عن الحسن مرسلاً في تفسيره (١٥١/٣٠) وعبد الرزاق في تفسيره (٣٠٩/٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤٣٢/٨) وتفسير السراج المنير (٤٠٧/٤).

فحج، وإن لم تستطع فلا حج عليك، بل إذا شرعت في الحج وأحصرت ولم تتمكن معه من إكمال الحج فتحلل، وافسخ الحج وأهد، لقول الله تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

إذا؛ كل عسر يحدث للإنسان في العبادة يجد التسهيل واليسر. كذلك في القضاء والقدر، يعني تقدير الله على الإنسان من مصائب، وضيق عيش، وضيق صدر وغيره لا يئأس، فإن مع العسر يسراً، والتيسير قد يكون أمراً ظاهراً حسيّاً، مثل: أن يكون الإنسان فقيراً فتضيق عليه الأمور فييسر الله له الغنى، مثال آخر: إنسان مريض يتعب يشق عليه المرض فيشفيه الله عز وجل، هذا أيضاً تيسير حسي، هناك تيسير معنوي وهو معونة الله للإنسان على الصبر هذا تيسير، فإذا أعانك الله على الصبر تيسر لك العسير، وصار هذا الأمر العسير الذي لو نزل على الجبال لدكّها، صار بما أعانك الله عليه من الصبر أمراً يسيراً، وليس اليسر معناه أن ينفرج الشيء تماماً فقط، اليسر أن ينفرج الكرب ويزول وهذا يسر حسي، وأن يعين الله الإنسان على الصبر حتى يكون هذا الأمر الشديد العسير أمراً سهلاً عليه.

نقول هذا لأننا واثقون بوعد الله، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) ﴿وَالِى رَيْكَ فَارْعَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨] أي إذا فرغت من أعمالك فانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، لا تجعل الدنيا تضيق عليك، ولهذا كانت حياة الإنسان العاقل حياة جد، كلما فرغ من عمل شرع في عمل آخر، وهكذا؛ لأن الزمن يفوت على الإنسان في حال يقظته ومنامه، وشغله وفراغه، يسير ولا يمكن لأحد أن يمسك الزمن، لو اجتمع الخلق كلهم لوقفوا الشمس حتى يطول النهار ما تمكنوا، فالزمن لا يمكن لأحد

أن يمسكه، إذا جعل حياتك حياة جدّ، إذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر، إذا فرغت من عمل الدنيا عليك بعمل الآخرة، وإذا فرغت من عمل الآخرة اشتغلت بأمر الدنيا؛ فإذا قضيت الصلاة يوم الجمعة فانتشر في الأرض وابتغ من فضل الله، وصلاة الجمعة يكتنفها عملان دنيويان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] يعني وأنتم مشغولون في دنياكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٩-١٠] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩-١٠] (١).

إن الداعي لسبيل ربه ليس له غنية عن تدبر كتاب ربه آناء الليل وأطراف النهار، فيه الهدى والنور، والعلم والبصيرة، والعزاء والسلوى، والهدف والغاية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] و«يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع؛ والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات؛ والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجتدة القوى، يقظةً للمداخل والمخارج. ولا بد من الصبر في هذا كله. لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقيق لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشُّقة، والصبر على انتفاش

(١) تفسير القرآن للعنمين (٨/ ٣٢-٣٣).

الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الأعراض.

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد؛ قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر؛ فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر الرضا والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة. حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب. حينما يجد الشر نافثاً والخير ضاوياً ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق.

هنا تبدو قيمة الصلاة. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية. إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض. إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود. ومن هنا كان رسول الله ﷺ إذا كان في الشدة قال:

«أرحنا بها يا بلال»^(١) ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليعثر من اللقاء بالله.

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة، والعبادة فيه ذات أسرار. ومن أسرارها أنها زاد الطريق، وأنها مدد الروح، وأنها جلاء القلب، وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر. إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ ۖ فِرَّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ نَصِّفْهُ ۖ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَقِلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا ۖ إِنَّا سُنَلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١-٥] فكان الإعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن. إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.

ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصبر وإلى الصلاة. ثم يحییء التعقيب بعد هذا التوجيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، معهم، يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويهم، ويؤنسهم، ولا يدهمهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمددهم حين ينفذ زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق. وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٥٣] ويختتم النداء بذلك التشجيع

(١) أحمد (٢٣٠٨٨) بلفظ: «يَا بِلَالُ، أَرْحُنَا بِالصَّلَاةِ». قال محققو المسند: رجاله ثقات، لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود (٤٩٨٥) وصححه الألباني في المشكاة (١٢٥٣).

العجيب: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبتها للسياق القرآني هنا في إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها: فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ضَرْبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمُوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١). وعن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُ الَّذِي يَخَالُطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يَخَالُطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٢). وَالْآنَ وَالْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ فِي الْمَدِينَةِ مَقْبَلَةٌ عَلَى جِهَادٍ شَاقٍّ لِإِقْرَارِ مَنْهَجِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَلِأَدَاءِ دَوْرِهَا الْمَقْسُومِ لَهَا فِي قَدَرِ اللَّهِ، وَلِتَسْلَمَ الرَّايَةُ وَالسَّيْرُ بِهَا فِي الطَّرِيقِ الشَّاقِّ الطَّوِيلِ. الْآنَ يَأْخُذُ الْقُرْآنُ فِي تَعَبُّثِهَا تَعَبُّثَ رُوحِيَّةٍ، وَفِي تَقْوِيمِ تَصَوُّرِهَا لِمَا يَجْرِي فِي أَثْنَاءِ هَذَا الْجِهَادِ مِنْ جَذْبٍ وَدَفْعٍ، وَمِنْ تَضَحِيَّاتٍ وَأَلَامٍ، وَفِي إِعْطَائِهَا الْمَوَازِينَ الصَّحِيحَةَ الَّتِي تَقْدُرُ بِهَا الْقِيَمُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الطَّوِيلَةِ تَقْدِيرًا صَحِيحًا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

(١) البخاري ٢١٣/٤ (٣٤٧٧)، ومسلم ١٧٩/٥ (١٧٩٢).

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨) بسند صحيح، وابن الجعد في مسنده (٧٤٥) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٥٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٣٠) وحسنه ابن حجر والمناوي، وصححه الألباني وكذلك الأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار.

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق، شهداء في سبيل الله، قتلى أعزّاء أحبّاء، قتلى كراماً أذكىاء. فالذين يخرجون في سبيل الله، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق؛ هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً، إنهم أحياء. فلا يجوز أن يقال عنهم: أموات. لا يجوز أن يعتبروا أمواتاً في الحس والشعور، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه. فهم لا بدّ أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين. ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقرهما هذه النظرة السطحية الظاهرة. إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد. وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصره الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثر الباقيين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد. فهم ما يزالون عنصراً فعالاً دافعاً مؤثراً في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه هي صفة الحياة الأولى. فهم أحياء أولاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس.

ثم هم أحياء عند ربهم إما بهذا الاعتبار، وإما باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه، وحسبنا إخبار الله تعالى به: ﴿أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود. ولكنهم أحياء.

أحياء، ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها. فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة.

وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعدُ أحياء.

أحياء، فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء. أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء. أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم، ولا يتعاضدها الأمر، ولا يهولنها عظم الفداء.

ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه؛ ففي صحيح مسلم^(١): «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى فناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا. فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى. لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون». وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»^(٢).

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٤]، في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله، في سبيل هذا المنهج الذي شرعه، في سبيل

(١) مسلم (١٨٨٧).

(٢) البخاري ٢٦/٤ (٢٨١٧)، ومسلم ٣٥/٦ (١٨٧٧) و(١٠٨) و(١٠٩).

هذا الدين الذي اختاره، في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار. وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر غير إرادة وجه الله.

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ فقال: «لا أجر له». فأعاد عليه ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا أجر له»^(٢). وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيل الله، لا يخرج إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي؛ فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده؛ ما من كلمٍ يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيتته يوم كُلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده؛ لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله عز وجل أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة فيتبعوني، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»^(٣). فهؤلاء هم الشهداء.

(١) البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) أحمد (٢٩٠/٢) وصححه الألباني في المشكاة (٣٨٤٥).

(٣) البخاري (٣٨٢٠) و(٧٤٩٧)، ومسلم (٢٤٣٢).

هؤلاء الذي يخرجون في سبيل الله، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله.

ثم يمضي السياق في التعبئة لمواجهة الأحداث، وفي تقويم التصور لحقيقة الأحداث: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف.

والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها؛ كانت أعز عليهم وكانوا أضنّ بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها. وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازن والتصورات

ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله؛ الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا ملجأ إلا إليه. والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] إنا لله، كلنا، كل ما فينا، كل كيانا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير، التسليم، التسليم المطلق. هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل. وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]. صلوات من ربهم يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم ورحمة وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون. وكل أمر من هذه هائل عظيم.

وبعد؛ فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات. التعب في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكليف. إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمراً واحداً: صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم

المهتدون.

إنه لا يعدُّهم هنا نصرًا، ولا يعدُّهم هنا تمكينًا، ولا يعدُّهم هنا مغنم، ولا يعدُّهم هنا شيئًا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها. فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية - حتى الرغبة في انتصار العقيدة - كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.

هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها. فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء. جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء. أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين.

يستهدف هذا الدرس تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها التصور

الإيماني الصحيح؛ مع الاستمرار في مواجهة يهود المدينة الذين لا يكفون عن تلبس الحق بالباطل في هذه القواعد؛ وكتمان الحق الذي يعلمونه في شأنها؛ وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها. ولكن السياق يتخذ في هذا الدرس أسلوب التعميم، وعرض القواعد العامة التي تشمل اليهود وغيرهم ممن يرصدون للدعوة، وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التي تترصد لهم في طريقهم بصفة عامة»^(١).

ويبين الله فضيلة الصبر وقيمته وضرورة المؤمن في كل أحواله إليه خاصة في مقامات الشدة كالجهاد في سبيله قتالاً لأعدائه فقال سبحانه وتعالى في تصوير قصة عبده المجاهد داود عليه السلام: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، «فنصرهم الله لما صبروا له وأطاعوا بجلاد أعدائه وقتل حزب عدوه، وكانوا قد أخلصوا له الدعاء كما أخلصوا له الجهاد فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] «هكذا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينه وطمأنينة واحتمالاً للهلول والمشقة، ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ فهي في يده - سبحانه - يثبتها فلا تتزعزع ولا تنزل ولا تميد، ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فقد وضح الموقف؛ إيمان

(١) انظر: الحاوي في تفسير القرآن الكريم، (١٥٠٧)، وتفسير سورة البقرة آية: (١٥٨) وما بعدها، (١/ ١١٢ - ١١٨) باختصار وتصرف.

تجاه كفر، وحق إزاء باطل، ودعوة إلى الله لينصر أوليائه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجج في الضمير، ولا غش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: ﴿فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] ويؤكد النص هذه الحقيقة: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً، ولتوضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه. إن المؤمنين ستار القدرة^(١)؛ يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما

(١) فالله تعالى قد أعطى عبده قدرة واختياراً، فله حريته في القرار ومسؤوليته بعده، ومع ذلك فهو تحت القدر الإلهي العام لا يجري شيء إلا بقدر الله وقضائه. وهذا هو معتقد أهل السنة فزايلاو القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه، والجبرية الذين قالوا: إنه ليس له اختيار ولا إرادة ولا مشيئة البتة. والله تعالى قد أثبت مشيئة العبد التي على ضوئها يحاسبه وأخبر أنها في النهاية لا تخرج عن قدر الله العام، قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فالأولى هدم لمذهب القدرية، والثانية هدم لمذهب الجبرية، وباجتماع الآيتين يكون بناء معتقد أهل السنة الذين لا يضربون كتاب الله ببعضه، بل يؤمنون به كله.

والقدر سر الله في خلقه، فينبغي عدم الإيغال في بحث تفاصيله إلا للحاجة، بل يكفي المؤمن بالعمومات، كالعلم بمراتب القدر الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، ونحو ذلك، دون تتبع ذيول المسائل التي تنقح في الذهن بلا نهاية. فمسلك القدر وعراً جداً فليس لكل أحد سلوكه.

وكل مصائرنا مكتوبة منتهية في علم الله تعالى وكتابه، بينما نحن نسعى في ميدان ابتلاء الحياة،

يختار، بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه. وهي حقيقةٌ خليقةٌ بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.

إنه عبد الله، اختاره الله لدوره المكلف به من قبل ربه، وهذه منة من الله وفضل، وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أتيب. ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق. فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي، إنما هو منفذ لأمر ربه. استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويبرز السياق دور داود: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾، وداود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بطواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو، ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم، ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريده. وقد أراد أن يجعل

وكل منا ميسر لما تؤول إليه نهايته ويتتهي إليه مصيره، وكل منا معه إرادة حرّة يحس بها ولا يطيق لها دفعاً، لهذا فقدر الله تعالى عدل وإحسان، ليس فيه ظلم البتة، والله تعالى لا يسأل عما يفعل، ولو عذب جميع خلقه لم يكن ظالماً لهم، فهم مُلْكُهُ، ومع هذا كله؛ فإنه تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه حجته البالغة، فيعطيه عقلاً ينيط به التكليف، وعلماً يرفع به الجهل، وكتاباً ورسولاً وإرادة وقراراً، وفي النهاية كلُّ ميسر لما خلق له، وتبارك الله رب العالمين.

مصراع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضِعَافٌ يَغْلِبُهُمُ الْفَتِيَّةُ الصَّغَارُ حِينَ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَهُمْ.

وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريد بها الله؛ فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود: ﴿وَوَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكان داود ملكاً نبياً، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى.

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً؛ وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية؛ حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى: إنها ليست المغنم والأسلاب، وليست الأعجاد والهالات، إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاحب الموار. وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسبق وزحام إلى الغايات. ومن ورائها جميعاً

حكمة الله التي تقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء، في نهاية المطاف.

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتغنن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفص عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة. وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الأمة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتل في سبيله ما تحتل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه.

وهنا يمضي الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمها، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتتصر، ذلك أنها تمثل أمر الله في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.

وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢] تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾، الله سبحانه وتعالى هو الذي يتلوها، وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، تحمل معها الحق، ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتنزيلها، وجعلها دستوراً للعباد. وليس هذا الحق لغير الله سبحانه. فكل من يسن للعباد منهجاً غيره إنما هو مفتات على حق الله، ظالم لنفسه وللعباد، مدع ما لا يملك، مبطل لا يستحق أن يطاع. فإنما يطاع أمر الله، وأمر من يهتدي بهدى الله دون سواه، ﴿وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن ثم نتلو عليك هذه الآية؛ ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها، وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحلها، ونورثك ميراث المرسلين أجمعين»^(١).

وخاتمة آل عمران حافلة بذكر الأمر بالصبر ومجالاته، وبخاصة للدعاة إلى سبيله فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] «فالنداء لهم للصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى. وسياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى، يذكران مفردين، ويذكران مجتمعين. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة

(١) السابق (١/ ٢٥٢ - ٢٥٤) باختصار وتصرف.

ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبله، ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة، وإلى المراقبة والتقوى، فيكون هذا أنسب ختام.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطامعها ومطامعها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملاها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للشار! والصبر على تنفّج^(١) الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة؛ من الألم، والغىظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحياناً في الخير^(٢)، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة،

(١) للتَّنَفَّج معان منها الكبر. ومنها: التجشؤ. ومنها: التوسع. يقال: تنفّج فلان، أي: توسع في

جلوسه. ومنه: هو منتفج الجنين. وقال الشاعر الطريف:

وَأُبْغِضَ الضَّيْفَ مَا بِي جَلٍّ مَأْكَلِهِ إِلَّا تَنْفَجَّهُ حَوْلِي إِذَا قَعَدَا

مَا زَالَ يَنْفَجُّ جَنْبِيهِ وَحَبْوَتَهُ حَتَّى أَقُولَ لَعَلَّ الضَّيْفَ قَدْ وَلَدَا

(٢) ضعفاً ونقصاً وملاً وعيياً في النفس البشرية لا في الخير والهدى.

واستقبال الرخاء في تواضع وشكر^(١)، وبدون خيلاء، وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع.

والصبر على هذا كله - وعلى مثله - مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل لا تصوره حقيقة الكلمات، فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة، إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي، فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء. كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه، والمصابرة وهي مفاعلة من الصبر، مصابرة هذه المشاعر كلها، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلّوا من صبر المؤمنين، مصابرتها ومصابرتهم، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة، بل يظلون أصبر من أعدائهم؛ أعدائهم من كوامن الصدور، وأعدائهم من شرار الناس. فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهد بالجهد، والإصرار بالإصرار. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء. وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق^(٢)، فما أجدد الحق

(١) وتأمل حال ومقال وعمل رسول الله ﷺ عند فتح مكة.

(٢) ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

أن يكون أشد إصرارًا وأعظم صبرًا على المضي في الطريق.

والمرابطة: الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء. وقد كان المسلمون لا تغفل عيونهم أبدًا ولا تستسلم للرقاد^(١)، فما هادنهم أعداؤهم قط منذ أن نودوا لحمل أعباء الدعوة، والتعرض بها للناس. وما يهادنهم أعداؤهم قط في أي زمان أو في أي مكان وما يستغنون عن المرابطة للجهاد، حيثما كانوا إلى آخر الزمان.

إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي، منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم. ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم؛ والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة؛ والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة. ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان، ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال، وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار، وينهد لحربها المستهترون المنحلون، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات. ولا بد من مجاهدتهم جميعًا، ولا بد من الصبر والمصابرة، ولا بد من المرابطة والحراسة، كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها

(١) وتأمل قصة عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما كان يحرس جيش المسلمين، ورُمي بعدد أسهم وهو يصلي ويتعبد، فما قطع صلاته، حتى إذا خاف على المؤمنين أن يؤتوا من قبله أيقض صاحبه.

الطبيعيين، الدائمين في كل أرض وفي كل جيل.

هذه طبيعة هذه الدعوة، وهذا طريقها. إنها لا تريد أن تعتدي؛ ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم. وهي واجدة أبداً من يكره ذلك المنهج، ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد، ومن يتربص بها الدوائر، ومن يحاربها باليد والقلب واللسان. ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها، ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!

والتقوى تصاحب هذا كله، فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل؛ ويحرسه أن يضعف؛ ويحرسه أن يعتدي؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك.

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ إلا من يعاني مشاق هذا الطريق؛ ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات»^(١). وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]: «الصبر على الإسلام الخالص، إسلام القلب والوجه، ومغالبة الهوى والشهوة، والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة؛ أولئك يؤتون أجرهم مرتين جزاء على ذلك الصبر، وهو عسير على النفوس، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف. وهؤلاء صبروا عليها جميعاً، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية، وكما يقع دائماً للمستقيمين على دينهم في المجتمعات

(١) السابق (٢/ ٣٦-٣٧) بتصرف يسير.

المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان»^(١).

والداعي إلى سبيل ربه لا بد له من التسليح بما أطاقه من جميل الصبر وحميد المصابرة، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بمدافعة أعدائه بالصبر الجميل فقال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿[المعارج: ٥-٦] وبذلك يدعو الله نبيه ﷺ إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب. والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة، وتكررت لكل رسول، ولكل مؤمن يتبع الرسول. وهي ضرورة لثقل العبء ومشقة الطريق، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية، موصولة بالهدف البعيد، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد.

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن، الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد. صبر الواثق من العاقبة، الراضي بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء، الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به.

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة. فهي دعوة الله، وهي دعوة إلى الله، ليس له هو منها شيء، وليس له وراءها من غاية، فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله. فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة، ومع الشعور بها في أعماق الضمير.

والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون، يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله. ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير؛

(١) السابق (٤٣٣/٥).

فيستعجلون. وإذا طال عليهم الأمد يستريبون. وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود؛ عندئذ يجيء مثل هذا التشيت وهذا التوجيه من الله الخبير: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. والخطاب هنا للرسول ﷺ تشيئًا لقلبه على ما يلقي من عنت المناوأة والتكذيب، وتقريرًا للحقيقة الأخرى: وهي أن تقدير الله للأمر غير تقدير البشر، ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾.

ثم يرسم مشاهد اليوم الذي يقع فيه ذلك العذاب الواقع، الذي يروونه بعيدًا ويراه الله قريبًا. يرسم مشاهدته في مجالي الكون وأغوار النفس. وهي مشاهد تشي بالهول المذهل المنزل في الكون وفي النفس سواء: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]، والمهل ذوب المعادن الكدر كدردي الزيت، والعهن هو الصوف المنتفش. والقرآن يقرر في مواضع مختلفة أن أحداثًا كونية كبرى ستقع في هذا اليوم، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها. ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة. وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية؛ فمن المرجح عندهم أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية، وهي بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل، فلعلها في يوم القيامة ستنتفضي. وقال جل شأنه: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْلُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۖ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلُهمْ قَلِيلًا ۖ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۖ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۖ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَصَّىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ۖ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ

يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ [المزمل: ١٠-١٨].

وهنا التوجيه إلى الصبر، بعد التوجيه إلى القيام والذكر، وهما كثيرًا ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزيادة هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين، وكلاهما شاق عسير. نجد التوجيه إلى الصبر: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مما يغيظ ويحنق، ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة وبخاصة في أوائلها. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير.

والهجر الجميل مع التناول والتكذيب يحتاج إلى الصبر بعد الذكر. والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة؛ ولعباده المؤمنين برسله. وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جُتته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافات وضعفها وشرورها وعجلتها وقنوطها، وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدابيرهم وكيدهم وأذاهم، ومع النفوس عامة وهي تنفصي^(١) من تكاليف هذه الدعوة، وتتفلت، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها. والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبًا!

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وخل بيني وبين المكذبين، فأنا

(١) التنفصي: التخلص.

بهم كفيل: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾، والمكذبون بشر من البشر، والذي يتهدهدهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض بـ(كن) ولا تزيد! ذرني والمكذبين، فهي دعوتي، وما عليك إلا البلاغ، ودعهم يكذبون واهجرهم هجرًا جميلًا. وسأتولى أنا حربهم، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين! إنها القاصمة المنزللة المذهلة»^(١).

وبالجملة؛ فمن أحوج الناس قاطبة لعبودية الصبر لله تعالى هو الداعي إلى سبيل ربه تعالى، فهي وظيفة المرسلين، وقد أودى المرسلون في الله تعالى فكل من يريد السير على نهجهم فليوطن نفسه لأذى شياطين الإنس والجن، وليعتصم بمولاه، وليصبر ويصابر ويرابط لربه الأعلى، وليبشر بالبشرى، فإن الله تعالى معه، والله لا يخيب من صدق معه، ولا يخذل من عمل له، فالصابرون عباد، وهو ربهم الذي صبروا له، وإلههم الذي صمدوا إليه، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه.

الخيرُ يا قوم بين الناس متشترٌّ والفضلُ يُقبل في الساعات مرَّاتٍ
يا ربِّ وفقَّ دعاة الحقِّ قاطبةً وارزقهم الصبرَ في وجه الصُّعوباتِ



(١) السابق (٧/ ٣٣٠، ٣٨١).

الصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد خلقنا الله تعالى وابتلى بعضنا ببعض، فابتلى الصالحين بالعصاة والمؤمنين بالكفرة، بل ابتلى كل إنسان بغيره من البشر سواء ارتفعوا عنه في الدين أو الدنيا أو انخفضوا، فالابتلاء حاصل بالجميع على الجميع، ليلبوا الله تعالى صبرنا وإيماننا، وتظهر حقائق معادننا عند صهرها في تنور معاملة الخلق. قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠]﴾. أما بواطن المعادن فعلمها للذي يعلم السر وأخفى.

وفي الدنيا - للدين والدنيا - نحن محتاجون ضرورة للاحتساب على أهل المنكرات، ومتى ترك الناس هذه الشعيرة العظيمة فقد أودنوا بعذاب ومحق، فعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل عليها فرعاً، يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(١). والخبث: هو الفسق والفجور^(٢).

فلا يكفي وجود الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان أثرهم ضعيفاً لا يُرى، فالعقوبة تعم، والهلاك ينزل، ولكن أهل الإصلاح في عافية منه، فإن

(١) البخاري ٤/ ١٦٨ (٣٣٤٦) ومسلم ٨/ ١٦٦ (٢٨٨٠) (٢).

(٢) النهاية (٦/٢).

أصابهم منه نفحة فهي نفحة ابتلاء، وإن نزل عذاب مهلك بُعثوا على نياتهم. فالمقصود؛ أن الأمة في حاجة ملحة للمحتسبين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهم سبب خيرية هذه الأمة قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والناهي عن المنكر سيواجه شدائد جساماً لأن الفسقة يرونه حائلاً بينهم وبين شهواتهم ومعاصيهم فيؤذونه بما أطاقوا، لذلك كان محتاجاً لصبر المجاهدين أعظم من غيره، حتى القتال في سبيل الله هو جزء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هنا كانت وصية الله تعالى لهؤلاء القائمين على ثغور الشريعة الغراء بإقامة الصلاة والصبر مع قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن للصلاة والصبر شأن أيما شأن في تعبئة وعاء الاحتمال في قلب المؤمن، قال سبحانه: ﴿يَبْنِي أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقم: ١٧]. نعم، هي عزمة صادقة لا يطيقها إلا أحرار الوجوه أشداء الصبر دون عبيد الشهوة ضعاف الهمم.

مَنْ مُبْلِغٍ شَيْخِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً عَنِّي رِسَالَةٌ مُحْزُونٍ وَأَوَّاهٍ
أولى البرايا بحسن الصبر ممتحنًا من كان فتياه توقيعا عن الله

وقد يضعف المرء ويدخل قلبه ريح استكانة للعاجلة، واسترواح للإخلاد للطين؛ فجاء أمر ربنا حاسماً مقتلعا عروق التشويش عن أرض البصيرة: ﴿فَأَصْبِرْ

إِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُكَ لَدَيْكَ وَسَيِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ [غافر: ٥٥] اصبر لوعد ربك الحق فهو أقرب إليك من جلد وجهك ودم قلبك، والزم ذكر ربك بكرة وعشيًّا لعلك أن تلحق بمواكب الصابرين الأوّل المفلحين الفائزين.

وبالجملة فلا بد للأمر الناهي من صبر قبل الأمر وأثناءه وبعده، ذلك أنه حمل ثقل لكنه حافل بالألطاف، وعامرٌ بمعية الجليل سبحانه، ومجزيٌّ صاحبه بالنصر والمعونة في الدنيا وبالرضا والجنة في العقبى.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ «أي: اصبر على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً فلا يصدنك ذلك». ﴿إِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير. ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ [الروم: ٦٠] أي: قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن لم تجعلهم منك على بال وتحذر منهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدكم على هذا وتطلب التشبه والموافقة. وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه. فالأول

بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور، فالله المستعان»^(١).

اصبرْ على مضضِ الإدلاجِ في السحرِ وفي الرواحِ إلى الحاجاتِ والبُكرِ
لا تضجرَنَّ ولا تدخلْكَ معجزةٌ وفي الرّواحِ إلى الحاجاتِ والبكرِ
لا تضجرَنَّ ولا تدخلْكَ معجزةٌ فالنجحُ يتلفُ بين العجزِ والضجرِ
إني رأيتُ الأيامَ تجربةً للصبرِ عاقبةٌ محمودةٌ الأثرِ
وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يطالبُهُ فاستصحبَ الصبرَ إلا فازَ بالظفرِ



(١) تفسير السعدي (١/ ٦٤٥).

الصبر في طلب العلم

للعلم شرفه ورفعته ومنزلته وفضله، ولا يعرف قدر العلم إلا من ذاق حلاوته، فالناس أعداء لما جهلوا، و«العلم لا يعدله شيء لمن صحّت نيّته» كما قاله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «اطلبوا العلم، فوالذي نفسي بيده ليعثنَّ الله يوم القيامة شهداء يتمنون أن الله بعثهم علماء لما يرون من عظيم فضل الله عليهم». وقد كان شيخنا الشنقيطي حفظه الله يكثر أن يقول: «إنَّ من أعظم نعم الله على طالب العلم أن حبَّب إليه العلم». ويكفيينا عن كثير من الوصايا قول ربنا سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

أقول لها والعيسُ تُحْدِجُ^(١) للسُّرى أعدّي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق ريعانَ الشَّيْبَةِ آنفًا على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخـسران أن لياليًا تمرُّ بلا نفع وتُحْسَبُ من عُمرِي

وقدر العلم وشرفه له حديث آخر بإذن الله، إنما يعني هنا بيان فضل الصبر على تحصيله، ولقد ألقى النووي رَحِمَهُ اللهُ كلمةً كاويةً لكل ذي همّة عالية فقال بنصح وإشفاق: «وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الانبياء ثم فوتها». فاجعل غاية همتك الفردوس الأعلى، ومن وصايا السلف: «من نافسك في الدين؛ فنافسه، ومن نافسك في الدنيا؛ فألقها في نحره». لبيك إنَّ العيش عيش الآخرة. وكان

(١) تحدج: يشدّ عليها الحدج، وهو مركب للنساء كالمحقة والمحمل ونحوها.

الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ^(١) يكتب حتى يكلّ، فيلقي القلم وينشد:

إذا كان هذا الدمعُ يجري صَبَابَةً على غيرِ ليلٍ فهو دمعٌ مضِيعٌ
فالقرآن والحديث والسَّير تبعث بإذن الله في القلب حياته، فتعلّم ثم تعلّم،
ومن بعد علمك تعلّم، فتعلّمك دليلُ حياتك، ووقوفك عن التعلم نقص، فسعةُ
العلم سعةُ في الأفق، ومن بعده سعةُ الرحمة بالخلق والحلم عليهم، وكن كأحمد: مع
المحبّة إلى المقبرة. وقال الفربري: «أملَى البخاريُّ يوماً عليَّ حديثاً كثيراً، فخاف
ملائي فقال: طُبْ نفساً، فإنَّ أهلَ الملاهي في ملاهيهم، وأنت مع النبي ﷺ
وأصحابه». وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «لا أعلم بعد النبوة درجة أفضل
من بثِّ العلم».

يا حَسْرَةً من لي بصفقةٍ رابح في مَتَجَرِّ والعِلْمُ رأسُ المالِ
يا ويح أهل العلم كيف تأخَّروا والسَّبقُ كُلُّ السَّبقِ للجُهَالِ
فإِلَى إلهي المُشْتَكَى وبفضله دونَ الأنامِ منوطة آمالي

فاحمد الله تعالى يا طالب العلم على تخصيصِ الله لك ما حرمه أكثر الناس،
فمِن أعظم نعم الله على المؤمن أن يُحِبَّ العلم له ويجعله من أهله. ومن سعادة
الشاب أن يُوفقه الله في مستقبل عمره لمن يأخذه بيده لِحَلَقِ العلم ويحبّه إليه، ويُغذّي
قلبه بالعلم النافع المؤصّل والإيمان الزاكي العميق.

ألا وإنَّ لطلَب العلم والترقي في معارجه مراتب، مِن أعلاها: الشَّغَفُ التَّامُّ

(١) ونسبت كذلك للنووي رَحِمَهُ اللهُ.

به، وتقديمه في الأولويات، مع العمل به، ومن تألم تعلّم. وأدناها: عدم الإعراض عنه، فبعض الناس لا يكتفي بأن لا يرفع بالعلم رأساً، بل يُعرض ويصدّ إن أقبل العلم عليه، وهذا من الخذلان العظيم، والله المستعان.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «تالله ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه المولى، فلا تظنّ أن الشيطان غلب، إنما العاصم أعرض. ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الاعراف: ١٧٦]».

وكان ابن تيمية يعكف على المطالعة والكتابة، فربما أتاه أهله في يوم ربيعي جميل، ورغبوا إليه رفقتهم للنزهة فيعتذر بالعلم، فإذا رجعوا قالوا: فأتك كذا وكذا، فيقول: قد كتبت بعدكم كذا وكذا، فرحلوا وبقي ما كتب. وَلَنِعَمَ ما كتب.

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيفِ ويُبْسُ الخريفِ وبرْدُ الشتاءِ
ويلهيك حسنُ زمانِ الربيعِ فأخذك للعلم قل لي متى

فاحرص -رعاك الله تعالى- على العلم النقيّ، فحُسنُ التّصوّرِ فرع عنه، ثم يليه حسن العمل والسلوك، ثم الثبات عليه قدر وسعك حتى يكون طبعاً وعادة. وإذا تصوّرت الأمور على حقيقتها بدون مبالغة أو قصور فأنت حكيم الرأي، فإن طُبعتَ عادتك بتلك الحكمة فأنت -إن شاء الله تعالى- ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وفي دينك ودنياك: قليلٌ مستمر خير من كثير منقطع، ذلك أن الإنسان ملولٌ بطبعه مهما كان طيب ذلك المملول خلا الإيمان وجنات النعيم، والموفق هو من

يُحَسِّن قِيَادَ نَفْسِهِ بِرَفَقٍ وَصِدْقٍ عَزِيمَةٍ. فَتَأْمَلُ مَوَاطِنَ قَوَّتِكَ وَلَا تُضْعِفَنَّكَ
الْوَسَاوِسَ، وَكُنْ قَوِيًّا بِاللَّهِ، وَأَكْثَرُ مِنْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ
مَكْنُونٌ فِي جَوْهَرِ الْعَقْلِ، وَالْعَمَلُ مَبْنُوثٌ فِي زَوَايَا الْإِرَادَةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ تَوْفِيقُ
اللَّهِ وَفَضْلُهُ (١).

فَالْعِلْمُ شَاقٌّ مِنْ جِهَةٍ تَحْمِلُهُ أَوَّلًا حِفْظًا وَتَفْهِيمًا وَمَجَالَسَةً وَمَدَارَسَةً، ثُمَّ الْعَمَلُ
الذَّاقِي بِهِ ثَانِيًا وَتَطْبِيقُهُ عَلَى النَّفْسِ بِقَلْبِهَا وَرُوحِهَا وَجَسَدِهَا وَرَغَابِهَا وَرَهَائِبِهَا، ثُمَّ
بِتَبْلِيغِهِ حَسَبَ سَنَنِ السَّلَفِ، وَكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ مَفْتَقَرَةٌ لَصَبْرِ عَظِيمٍ،
فَالْعِلْمُ شَاقٌّ لِمَنْ رَامَ أَخْذَهُ بِحَقِّهِ، وَلَكِنْ نِعْمَتُ الْجَائِزَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ فَعَلَ.

جَاءَ فِي إِنْبَاءِ الرِّوَاةِ فِي تَرْجُمَةِ أَبِي نَصْرِ الْقُرْطُبِيِّ قَالَ: «كُنَّا نَخْتَلِفُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ
الْقَالِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ إِمْلَأَتْهُ النُّوَادِرُ فِي جَامِعِ الزُّهْرَاءِ بِقُرْطُبَةٍ وَنَحْنُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ،
قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذْ أَخَذْتَنِي سَحَابَةٌ، فَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَجْلِسِ
أَبِي عَلِيٍّ إِلَّا وَقَدْ ابْتَلَّتْ ثِيَابِي كُلَّهَا، وَحَوَالِي أَبِي عَلِيٍّ أَعْلَامُ أَهْلِ قُرْطُبَةٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَبْتَلًّا
بِالْمَاءِ أَمَرَنِي بِالْذُّنُوبِ مِنْهُ، وَقَالَ لِي: مَهْلًا يَا أَبَا نَصْرٍ! لَا تَأْسُفْ، وَلَا تَأْسُ، وَلَا تَحْزَنْ
عَلَى مَا عَرَضَ لَكَ؛ فَهَذَا شَيْءٌ يَضْمَحِلُّ عَنْكَ بِسُرْعَةٍ، بِثِيَابٍ تَبْدُلُهَا بِغَيْرِ ثِيَابِكَ، لَكِنْ
اسْمَعْ - يَرِيدُ أَنْ يَعْزِيهِ وَأَنْ يَسْلِيَهُ عَلَى مَا أَصَابَهُ - قَدْ عَرَضَ لِي - يَقُولُ أَبُو عَلِيٍّ عَنْ
نَفْسِهِ -: مَا أَبْقَى فِي جِسْمِي نَدُوبًا وَجُرُوحًا تَدْخُلُ مَعِيَ الْقَبْرَ، لَقَدْ كُنْتُ أَخْتَلِفُ فِي
الطَّلَبِ؛ يَعْنِي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى ابْنِ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ آخِرَ اللَّيْلِ
قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ لِأَقْتَرَبَ مِنْهُ لِأَسْتَفِيدَ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي كُنْتُ أَخْرَجُ

(١) وانظر: (ولا تفرّقا) للمؤلف.

منه إلى مجلسه ألفتته مغلقاً، قال وعسر عليّ فتحه، فقلت: سبحان الله! أبكر هذا البكور ثم أغلب على القرب منه، والله لا يكون ذلك، فنظرت إلى سَرَبٍ بجانب الدار ضيق فافتحمته، فلما توسطته ضاق بي ذلك السرب وذلك النفق، فلم أقدر على الخروج منه، ولم أستطع النهوض، قال: فافتحمته بشدة حتى خرجت بعد أن تحرقت ثيابي، وأثر السَّرَبُ في لحمي حتى انكشف العظم، ومن الله علي بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على حالتي هذه، فأين أنت مما عرض لي؟ ثم أنشد يقول:

ديبتُ للمجدِ والسَّاعينَ قد بَلَّغُوا جُهِدَ النُّفُوسِ وَالْقَوَا دُونَهُ الْأُزْرَا
وكابدوا المجدَ حتَّى ملَّ أَكْثَرُهُمْ وعانقَ المجدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبْرَا
لا تحسب المجدَ تمرّاً أنت آكله لن تبلغَ المجدَ حتَّى تلعقَ الصَّبرَا

قال أبو نصر: فسلاّني ما حكاه، وهان عندي ما عرض لي من بلل للثياب بجانب ما أصابه، فلازمته حتى مات، فرحمة الله على الجميع.

هُمُ أسلافنا، وندعي الصلة بهم، فهل مجالسنا مجالسهم، وهمنا همهمهم، وصبرنا كصبرهم؟! والله المستعان.

لَمَّا تَبَدَّلَتِ الْمَجَالِسُ أَوْجُهَاً غَيْرَ الَّذِينَ عَهْدَتْ مِنْ عُلَمَائِهَا
وَرَأَيْتُهَا مُحْفُوفَةً بِسَوَى الْأَلَى كَانُوا وُلاَةَ صُدُورِهَا وَفَنَائِهَا
أَنْشَدْتُ بَيْتًا ثَائِرًا مُتَقَدِّمًا وَالْعَيْنُ قَدْ شَرَقَتْ بِجَارِي مَائِهَا
أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

لله هذه المواقف ما أبلغها! وما أعلى على هام الثريا مواضعها! وهكذا فليكن الطلب وإلا فلا.

إنَّ هذه الصفحة لتذكّر بموقف آخر لابن برهان؛ كما جاء في طبقات الشافعية يوم تراحم الطلاب على بابه حتى صار جميع نهاره، وقطعة من ليله مستوعبًا في التدريس، يجلس من وقت السحر إلى وقت العشاء الآخرة، ويتأخر أحيانًا بعدها إذا دعت الحاجة لذلك. فقد ذكروا أن مجموعة من طلبة العلم سألوه أن يدرس لهم كتابًا فقال: لا أجد لكم وقتًا، فذكروا أوقاتًا معينة فلم يجد إلا في نصف الليل فوافقوا.

وانظر يا أخي كيف نظّم أوقاته للعبادة والطاعة والمنام والمطالعة والحفظ والتدريس والقراءة وهذا شيء مهم جدًا يتمكن به العالم وطالب العلم من بلوغ مرغوباته العلمية جميعًا، فلا يطغى مرغوب على مرغوب.

ثم انظر أخي طالب العلم - رعى الله قلبك - إلى هذا الصبر العجيب من هذا الشيخ الجليل على بث العلم ونشره، والاحتساب في أدائه ونقله، ثم انظر أخرى إلى هذا الشوق والحرص المحرق من أولئك الطلبة المحترقين بالعلم الذين لم يجدوا وقتًا ليقرؤوا عليه إلا نصف الليل، فأتوا مسرورين وظنّوا أنهم محظوظون مكرمون.

ثم انظر لذلك الذي نسي بدنه واقتحم السّرب وعانى حتى خرج اللحم عن العظم ليحظى بالقرب من العالم ليستفيد. فله در أولئك المشايخ! ولله در أولئك الآباء والطلبة الأبناء! ما أشد حب أولئك للطلب! وما أصبر أولئك على إشاعة العلم وإيصاله للمتعلمين! أداءً للأمانة ووفاءً بالعهد، وإنا لله من طلبة هذا العصر الذين يستعجلون دق الجرس ليخرجوا من الدرس المؤقت بخمس وأربعين

دقيقة، في أليْن الأوقات راحة، وأفضلها نشاطاً، وأجمعها ذهنًا، من قاعات مبردة صيفًا مدفأة شتاءً، يخرجون يزحم بعضهم بعضًا كأنها يفرون من حريق، أو ينطلقون من سجن ظالم عنيد، واهًا لهم.

إِذَا مَا عَلَا الْمَرءَ رَامَ الْعُلَى وَيَقْنَعُ بِالْذُّونِ مَنْ كَانَ دُونَا
إِذَا رَأَيْتَ شَبَابَ الْحَيِّ قَدْ نَشِئُوا لَا يَنْقَلِبُونَ مِدَادَ الْحَبْرِ وَالْوَرَقِ
وَلَا تَرَاهُمْ لَدَى الْأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ يَعُونُ مِنْ صَالِحِ الْأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا
فَذَرَهُمْ عَنْكَ وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هَمَجٌ قَدْ بَدَّلُوا بِعُلُوِّ الْهِمَّةِ الْحَرَقَا

يا هؤلاء؛ إنَّما أنتم كأسلافكم، ومن يشابه أبه فما ظلم.

فَانْفُضُوا النَّوْمَ وَهَبُّوا لِلْعُلَى فَالْعُلَى وَقِفْ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمَ
أَفِيقُوا لَا مَجَالَ لْخَامِلٍ وَلَا سَبْقَ إِلَّا لِلَّذِي يَتَقَحَّمُ^(١).



(١) دروس الشيخ علي القرني (١٦ / ١١) بتصرف يسير.

الصبر عند غربة الدين

قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١). وقد فسر الغربة ﷺ بالصالح في بيئة فساد، وفي رواية بالإصلاح لذلك الفساد، فالغريب صالح مصلح، وبينهما تضمّن وتلازم في العادة، فكمال الصلاح يستلزم إصلاح الناس، كما أن إصلاح الناس متضمن لإصلاح النفس.

ولقد ابتدأ الإسلام برسول الله ﷺ وحده، ثم بالرجل والرجلين والمرأة والمرأتين، ثم ازداد الخير شيئاً فشيئاً حتى فشا دين الله تعالى في الناس، وانتشر وظهر حتى قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

والغربة تنزل وتُرفع، وتزداد مع آخر الزمان، ولقد عادت غربة الإسلام كما ابتدأت، لكنها ليست بغربة عامة ولا شاملة، بل في إقليم دون آخر، ووطن دون آخر، تشتد في جهة دون غيرها، ويعظم الكرب منها في أناس دون آخرين، بل قد تكون الغربة لشخص واحد في بيئة لا تعينه على طاعة ربه وعبادته.

وإن «من ظواهر الغربة التي فشت وانتشرت في الأمة فقدان تطبيق سنن النبي ﷺ في الحياة اليومية ليس عند العامة، بل حتى عند بعض طلاب العلم، وقد ذكر النبي ﷺ أن من صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة

(١) مسلم (١٤٥).

إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس»^(١). وروى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جَحْرَهَا، وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأَرْوِيَّةِ»^(٢) مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطَوْبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يَصْلَحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سِتِّي»^(٣). وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ رَحِمَهُ اللهُ: «السَّيِّئَةُ فِي الْإِسْلَامِ أَعَزُّ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ»^(٤). وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «لَيْسَ شَيْءٌ أَغْرَبُ مِنَ السَّنَةِ، وَأَغْرَبُ مِنْهَا مَنْ يَعْرِفُهَا»^(٥).

وَحَسْبُ الْفَتَى إِنْ لَمْ يَنْلُ مَا يَرِيدُهُ مَعَ الصَّبْرِ أَنْ يُلْفَى مَقِيمًا عَلَى الصَّبْرِ

(١) مدارج السالكين (٣/١٩٧).

(٢) الأروى والأروية: واحدة غزلان الجبل كالوعول ونحوها. والمراد: أن الحجاز سيقى قلعة الإسلام ومعقله أبد الدهر، وسيكون الحجاز مأرزه ومعقله مهما ضعف دين ديار الإسلام.

(٣) الترمذي (٢٦٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه ابن العربي في عارضة الأحوذى ٣٠٧/٥ وضعفه الألباني، قال: فيه كثير بن عمرو بن عوف، قال ابن عدى: كثير هذا عامة أحاديثه لا يتابع عليها، وكذلك ضعفه شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح السنة ١/٢١١ لنفس العلة، وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله تعالى أن كثيرًا هذا مجمع على ضعفه.

(٤) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٦٦).

(٥) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، لابن رجب (٢٨، ٢٩).

ولقد تكاثرت أقوال السلف في بيان هذه الغربة في أزمان هي من أفضل الأزمان، وقرون هي أفضل القرون، قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو خرج رسول الله ﷺ عليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة!» وقال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم! وقال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان! وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أعرف منكم ما كنت أعهده على عهد رسول الله ﷺ غير قولكم: لا إله إلا الله». قلنا: بلى يا أبا حمزة، قال: «قد صليتُم حتى تغرب الشمس، أفكانت تلك صلاة رسول الله ﷺ!»^(١) وعن ميمون بن مهران قال: «لو أن رجلاً أنشَرَ فيكم من السلف ما عرف غير هذه القبلة»، وعن سهل بن مالك عن أبيه قال: «ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة»^(٢).

وهذه حقيقة واقعة في هذا الزمن، ليس بين عوام الأمة، بل حتى بين طلاب العلم أحياناً! فإذا ما قام أحدهم بتطبيق سنة من سنن المصطفى ﷺ إذا بنظرات الاستغراب تنهال من كل حذب وصوب. وهذه القضية ليست في عصرنا فحسب، بل حتى في العصور الماضية، فعلى سبيل المثال: يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في الاعتصام: «فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يُغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت عليّ

(١) ويعني بذلك بني أمية حين أماتوا الصلاة بأن أخروها عن وقتها فتبعهم على ذلك كثير من الناس.

(٢) انظر: هذه الآثار وغيرها في كتاب الاعتصام (١/٣٣، ٣٤).

القيامه، وتواترت عليّ الملامة، وفوق إليّ العتاب سهامه، ونُسبتُ إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة»^(١). وكما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدع، وتموت السنن»^(٢).

وعلى هذا فإن من أجل الأعمال إحياء السنن المندثرة، وهي كثيرة للأسف، والسبب ضعف تذاكرها بين طلبة العلم، فإن ذكروها فأقلّهم من يطبقها لبيان السنة. فمن ذلك مثلاً البدء بصلاة ركعتين في المسجد حال وصول المسافر، والحرص على أن يكون السفر غدوة الخميس، والاحتفاء أحياناً، والجلوس والاضطجاع عند الغضب، وإعفاء اللحية، ورفع الثوب عن الكعبين، وإعادة السلام وتكراره إذا حال بينهما شيء ولو يسيراً، والسلام على من عرفت ومن لم تعرف، ولعق الأصابع والصحفة بعد الانتهاء من الطعام، ومسح اللقمة إذا وقعت على الأرض ثم أكلها، وغير ذلك كثير، والله المستعان.

(١) الاعتصام (٣٥/١) كل هذا النكير من الجهال وهو قد أتى الأمر تدريجاً، فكيف لو أتى به جملة؟! والتدريج من الحكمة، وتأمل تدريج المحرمات في القرآن كذا الفرائض، وهذا من حسن سياسة النفوس، وجودة ترتيب الأولويات، فعن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبداً». رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣١٩/١٠).

وللغربة أسباب، منها:

أولاً: الجهل بالسنن: فكما قيل: الإنسان عدو ما يجهل، فينشأ المسلم على أنها سنة من سنن المصطفى ﷺ، فإذا جاء من يحیی السنة قابله بالإنكار، ورماه بالجهل والبوار. قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «سبب الخروج عن السنة الجهل بها والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك حمل على صاحب السنة أنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه والتقبیح لقوله وفعله»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قد غلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل، وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقَلَّ العلماء، وغلب السفهاء، ولكن مع هذا لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، لأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين»^(٢). وقال محمد بن الفضل البلخي رَحِمَهُ اللهُ: «ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون ما لا يعلمون، ويمنعون الناس من التعلّم»^(٣).

ثانياً: التعصب المذهبي: فقد يؤدي التعصب للمذهب إلى مخالفة سنة النبي

(١) الاعتصام (٢٣/١).

(٢) زاد المعاد (٥٠٧/٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٢٥/١٤).

ﷺ، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أمثلة كثيرة على ذلك^(١).

ثالثاً: الانبهار بحضارة الغرب الكافر: أدى هذا السبب إلى ترك بعض السنن النبوية، وخاصة في هذا الزمن الذي غزا الإعلام الغربي ديار الإسلام وهيمن عليها، فأصبح يصور للناس أن ما خالف حضارتهم يعد تخلفاً ورجعية، وتقهقراً ووحشية، ورجوعاً إلى العصور الحجرية، وأن الحضارة المتقدمة هي التي تأكل الميتة والجيف والخنازير، ولا تغسل أقدارها بالماء، وتُشرع زواج اللوطية والسحاقيات، وتحارب الفضيلة، وتقمع الفطرة، وتدعي الصاحبة والولد لرب البريات - تعالى عما يقولون علواً كبيراً - . والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

فإذا بفئام من الناس تستحي أن تطبق سنة النبي ﷺ خشية أن يوصموا بهذه الصفات، ولذلك تلاحظ عندما يذهب بعض المسلمين إلى ديار الكفر أن بعضهم يتخلى عن بعض معالم دينه، فإذا بالمرأة - مثلاً - تدع حجابها لا شيء إلا أنها تخجل من نسبتهم لها بالتدين، ونظرتهم إياها بالتخلف والرجعية، وما هم إلا كخنفساء البعر تتهكّم بعفاف النحل عن القدر، وإذا بالرجل أحياناً يتعمّد حلق لحيته مجارة لهم، ويتخلف عن أداء الصلوات أمامهم، ويستحي من رفع الأذان في المطارات أو في أماكن عامة كالحدائق والمتنزهات، مع نصّ أهل العلم على اشتراط الاعتزاز بشعائر الدين في ديار الكافرين وإلا حرم السفر لهم، والله المستعان ﴿وَمَنْ يُهِنْ اللَّهَ﴾

(١) انظر هذه الأمثلة في كتابه: إعلام الموقعين (٢/٢١٦) وما بعدها.

فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴿[الحج: ١٨].

رابعًا: ضعف تعظيم السنة في القلوب: ولذلك يسأل كثير من الناس عن العمل الذي توجهه إليه: هل هو سنة أم واجب؟ فإذا قلت: سنة؛ قال: الأمر يسير، والدين يسر، والله تعالى غفور رحيم. وهكذا يتساهل بسنة النبي ﷺ حتى تنعدم بين الناس ويعد من يفعلها غريبًا.

خامسًا: خوف العُجب والشهرة: فبعض الناس قد يترك السنة في زمن الغربة خوفاً من فساد نيته بما يدخل عليه من العجب والشهرة المنهي عنها! وهذا من تلبس إبليس على الصالحين، فكأنه يقول: أترك السنة في زمان الغربة خوف الشهرة ودخول العجب. وهذا لا شك خطأ فادح، وود الشيطان لو ظفر بمثل هذا؛ فلو قلنا به لترك كثير من الأحكام الشرعية بحجة خوف العجب والشهرة، وكما قيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك.

سادسًا: عدم وجود من يعمل بها: فيخشى من يطبقها الإنكار عليه، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الشاطبي حينما قال: «كان بعضهم تُسرد عليه الأحاديث الصحيحة في خيار المجلس ونحوه من الأحكام، فلا يجد له معتصماً إلا أن يقول: هذا لم يقل به أحد من العلماء!»^(١).

(١) الاعتصام (٢/٢٧٥).

هذا؛ واعلم أن للتمسك بالسنة في زمن الغربة ثمرات طيبة، فمنها:

أولاً: دخول الجنة: فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي» قالوا: يا رسول الله؛ ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(١).

ثانياً: مضاعفة الأجر والثواب: روى الترمذي وغيره عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً؛ سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام؛ فإن من ورائكم أياماً الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة: قيل: يا رسول الله؛ أجرُ خمسين منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»^(٢).

ثالثاً: أنه لا يُخاف عليه من سوء الخاتمة: من استقام على سنة النبي ﷺ؛ فإنه لا

(١) البخاري (٧٢٨٠).

(٢) الترمذي (٣٠٥٨) وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي (٤٣٤١)، وأبو داود (٣٧٧٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١٥٥) وصححه الألباني في السلسلة (٤٩٤).

يُخَافُ عَلَيْهِ مَنْ أَنْ تَخْتَمَ لَهُ خَاتِمَةُ سَيِّئَةٍ. يَقُولُ عَبْدُ الْحَقِّ الْإِسْبِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ سَوَّءَ الْخَاتِمَةُ لَا يَكُونُ لِمَنْ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ، وَصَلَحَ بَاطِنُهُ. مَا سُمِعَ بِهَذَا قَطُّ، وَلَا عُلِمَ بِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ كَانَ لَهُ فُسَادٌ فِي الْعَقْلِ، وَإِصْرَارٌ عَلَى الْكِبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعِظَائِمِ، أَوْ لِمَنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا ثُمَّ يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهِ، وَيُخْرَجُ عَنْ سَنَنِهِ، وَيَأْخُذُ فِي غَيْرِ طَرِيقِهِ، فَيَكُونُ عَمَلُهُ ذَلِكَ سَبَبًا لِسَوِّءِ خَاتِمَتِهِ، وَشَوْمٍ عَاقِبَتِهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ وَحَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] (١)

رَابِعًا: ثَنَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ: رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» (٢). وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يَصْلَحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ» (٣). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ بِلَفْظٍ: قِيلَ: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ» (٤). أَيْ قَلَّةٌ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، هُمْ صَفَوَتُهَا وَخَيْرَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ.

خَامِسًا: الْهُدَايَةُ وَالتَّوْفِيقُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا؛ فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يَنَادِي بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) انظر: كتاب العاقبة (١٨٠) بنحوه.

(٢) مسلم (١٤٥).

(٣) أحمد في المسند (١٦٢٤٩) وصححه الألباني في السلسلة (١٢٧٣).

(٤) ابن ماجه (٣٩٨٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٩٧٨).

شرع لنبينا ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته؛ لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم^(١). فتأمل كيف جعل ترك السنة ضلالة! فإذا التمسك بها هداية وسعادة.

سادساً: قوة الفراسة، والنطق بالحكمة: قال أبو عثمان الحيري: «من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالبدعة، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾»^(٢). وقال أبو العباس بن عطاء - وهو من أقران الجنيد -: «من ألزم نفسه آداب السنة؛ نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه»^(٣). وقال شاه الكرمانى - وكان من أجود الناس فراسة -: «من غَضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال؛ لم تخطئ له فراسة»^{(٤)(٥)}. وبالله تعالى وحده التوفيق.



(١) مسلم (٦٥٤).

(٢) الحلية لأبي نعيم (٢٤٥/١٠).

(٣) القشيري في رسالته (٢٣، ٢٤).

(٤) أبو نعيم في الحلية (٢٣٧/١٠).

(٥) غربة تطبيق السنة، محمد الهبدان، مجلة البيان (١٦/١٧٠) باختصار وتصرف وزيادة.

الصبر والثبات

إذا كان النبي ﷺ لا يستقلّ بثبوت نفسه على صراط ربه فما بالك بمن سواه! قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فالمعول على توفيق الله وتسديده وحفظه، فاسأله الثبات وخذ بأسبابه.

والحياة الدنيا محوطة بابتلاءات لا تنتهي إلا بالرحيل للآخرة مهما كان المكان والزمان والحال، فحريّ بالمؤمن أن يولي مسألة الثبات على الحق عنايته الكافية الدائمة، وتأمل أنّك تسأل الله تعالى في كل ركعة ذلك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي أرشدنا إليه بالعلم، ووفقنا له بالعمل، وثبتنا عليه حتى نلقاتك به.

وجميل أن يكون لحياتك هدفٌ تسعى لتحقيقه، والأجمل هو أن يكون الهدف مرضاة الله تعالى، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

واثبت ثبات الرواسي الشاخط ولا تركز إلى فشل في ساعة الوهل وكُنْ كَرَضَوَى لما يعرُوكَ من نُوبٍ ولا تكن جازعاً في الحادثِ الجللِ

وللثبات علاقة ماسّة وارتباط وثيق بالصبر؛ فمنه استمداده بإذن الله تعالى، ومعنى الصبر حبس النفس عن الجزع، وصبره إذا حبسه^(١) فالصبر نقيض

(١) انظر: مختار الصحاح للرازي (١/١٤٩) وقد مرّ الكلام على تعاريف الصبر وحدوده.

الجزع^(١) ومعنى الجزع: الململة، كأنه على جمر الملة فهو يتململ. فمعنى الصبر إذاً هو السكون والثبات؛ لأنه عكس الجزع وهو الململة والحركة، ومعنى الثبات: هو السكون والاستقرار. وقد جعل ابن القيم الثبات أصل الصبر فقال: «أصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق»^(٢).

وبعضهم جعل الصبر والثبات بمعنى واحد، قال الثعالبي في قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِشُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]: «لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء»^(٣).

ومن توفيق الله لعبد تثبيته عند المصائب فقد أمر سبحانه بذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يربط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤).

(١) العين، للفراهيدي (٧ / ١١٥).

(٢) عدة الصابرين (١ / ٩٠).

(٣) تفسير الثعالبي (١ / ٥٨) عن: مجلة البحوث الإسلامية (٧٣ / ٣٢٩) الثبات، د. منيرة المطلق.

(٤) عدة الصابرين (١ / ١٣).

إنَّ من المهمات الكبرى: مسألة الثبات على الطريق الطويل للعلم والعمل والتعليم، فالذكاء وحده لا يكفي للتحصيل الكافي، ولا التلمذ على الأكابر يكفي، ولا صرف بضع سنين كاف، بل لا بد - بعد توفيق الله تعالى - من أن تتضح لديك الصورة التي تريد أن تكونها بإذن الله أولاً، فلا بد من وضوح الهدف كي تُحسن السير ولا تنقطع، وبعد وضوحه عليك بالجد في تحصيله، ولا يكون ذلك بغير ثبات على ساق الطلب، وإلا فكثير من الأذكياء انقطعوا قبل الوصول، وهذا من أسرار النفس البشرية فهي ملوثة ونزاعة إلى التغير، ثقیلٌ عليها طول المدى في المسير، فالقلائل من الناس هم من صبروا وصابروا ورابطوا وانتقوا الله في ميدان الطلب حتى بلغوا الرسوخ في العلم والعمل. فاجعل مشروع حياتك الأعظم طلب العلم ونشره ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولا تنقطع ولا تيأس، فالأئمة كلهم قد مروا من هنا، فكن على الأثر.

فلا بد من المجاهدة الطويلة حتى تطمئن النفس للخير، وربما يحتاج التطبّع بالشيء لسنة كاملة حتى يصبح طبعاً راسخاً وعادة متبعة، وهذا شبه مضطرب سواء كان خُلُقاً أو خطيئة أو توبة، وكما قيل: مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

سأصبرُ حتى يعجزَ الصبرُ عن صبري وأصبرُ حتى يحكم الله في أمري
سأصبرُ حتى يعلم الصبرُ أنني صبرتُ على شيء أمر من الجمر

وإن تدبر القرآن من أنجع الأمور على الاصطبار، ذلك أن الله تعالى قد جعل كلامه شفاءً تاماً كاملاً للمؤمنين فقال: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرَّانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ [الاسراء: ٨٢] و﴿مِنْ﴾ هنا بيانية، فليست تبعيضية ولا ابتدائية، فالقرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين.

ومن أنفس الوصايا للتدبر: اقرأ القرآن وكأنك تقرأه لأول مرة في حياتك، مع تذكر أنه رسالة الله تعالى لك. وقد جربها الكثير، ونفعهم الله بها. ذلك أن معانيه متجدده وفوائده لا تنقطع، فلا يشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، يكفيه أنه كلام الله رب العالمين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

والإرادة إنما تُشحذ بتكرار النظر المفيد وتقليب الفكر في ثمرته وتأمل غايته، لهذا أرشد الله تعالى في القرآن كثيراً للتذكر والتفكير والاعتبار. وكلها تأمل للمستقبل على ضوء الحاضر والماضي وعبر سبر أحوال الغابرين ونهاية أمرهم، وهي الأحوال المتكررة في قوالب خَلَفِهِمْ، فسننُ الله لا تتبدل ولا تتحول، وسُنَّته تعالى في الجماعات والأمم تكون أبداً وقوعاً من سننه في الأفراد، ولعل من الأسباب أن إقامة الحجة على الأفراد أسرع، والله أعلم.

والإنسان ضعيف بطبعه، قليل الخيلة، واهنُ الصبر إلا من صبره الله، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة ضعف كبح جماح النفس الغضوب أو الشهوانية أو العابثة؛ أفضى به ذلك إلى التلف والخسار، أو كاد. فواعجباً لذلك المخلوق الصغير، ينكسر لأدنى سبب، ويضعف لأول امتحان، ويفرح ويغضب ويروح ويحيي لأتفه شيء. ألا ما أضعفك يا أيها الإنسان!

واعلم - رعاك الله - أن رسوخ العمل ليس بأقل أهمية من رسوخ العلم، فالْمُؤْمِنُ مفتقر إلى رسوخ قدم قلبه في رياض العبادة، فقيام الليل لا يكون إلا بمكابدة، وصيام الهواجر لا يثبت إلا بمجاهدة، ومع الدُّرْبَةِ تسهل المجاهدة. والتلاوة والأوراد ونحو ذلك من العبادات لا تدوم إلا بمواصلة خطم النفس إليها والمراقبة في حراسة جمعية القلب عليها، وكما قيل: إذا وجدت غباراً على مصحفك فتذكر أن الغبار الذي على قلبك أشد. وليس السؤال: أين وصلت في القرآن، بل أين وَصَلَ القرآن من قلبك. ولما ذكر الله أهل تلاوة القرآن قال: ﴿يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] قال مطرف: «هذه آية القراء».

وتأمل أفضل وصفٍ لأدواء القلب، فقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟ فقال: «لا تعصِه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل». ورأى أحدهم الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللهُ في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم تنفعنا تلك الرسوم، وإنما نفعنا ركعات كنا نقومها بالليل».

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُم فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدنيا هُجُوعُ
لهم تحت الظلامِ وهم سُجُودُ أنينٌ منه تَنفَرُجُ الضُّلُوعُ

وتدبر قول ربنا تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فهي وإن نزلت في الجهاد لكنها تعم كل عملٍ خيرٍ سبقك إليه الأخيار الذين بعثهم ربهم له وخُلِّفَتْ عنه، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والإشارة والإيحاء لهما اعتبارهما لدى المُعْتَبِرِينَ المُتَفَكِّرِينَ. فاحذر أن يكره

الله عبادتك، واستعذ بالله من الشاغل عن طاعته، وردد دومًا: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وعليك بتعظيم أمر الصلاة فهي الحبل الواصل بينك وبين الله تعالى، والباب الذي تدخل منه عليه، وهي أعظم أركان الإسلام العملية، وهي في الحقيقة معيار الإيمان، وقد قال الإمام أحمد: «إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة»^(١). فأعط الصلاة نفيس وقتك وسمينه لا زائده وقليله. وكل مواعيدك مع نفسك والبشر ألغها أو أجلها إذا أقبل موعدك مع الله تعالى.

فاخلع الدنيا مع رفْعِكَ للتكبير، وكبر تكبير من أيقن بأنه لا أكبر من الكبير جل جلاله، وأتل كلامه كمن يخاطبه ويناجيه، واجعل قلبك بين يديك تحرُّكه بالآي والذكر والضراعة، واركع ركوع خاضع لمولاه بقلبه ورقبته وحياته، وارفع رفع حامدٍ شاكِرٍ فَرِحَ بربه تعالى، واسجد سجود من يظن أنه لن يقوم منها إلا للموت، وبعثر همومك وأزل غمومك بسجدة طويلة خاشعة، وصل وسلم على نبيك بعد التشهد كحال من هو بحضرته، وفي جلسة التشهد الأخير قبل السلام لا تعجل، بل اغتنم تلك اللحظات بين يدي ربك عبدًا خاضعًا خاشعًا طالبًا فضله ونواله. فادع واضرع وألح، فوعزة ربك إنها من الهنياهات الجليلة التي تُرجى أن يقال لك فيها: سل تُعط، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فمن ذا الذي دعاه فردّه، أو رجاه فخيّبه، أو لجأ إليه فتركه، أو استنصره فخذله، الخير

(١) نقلها عنه ابن القيم في رسالة الصلاة (١٤١).

كله منه وإليه، فلتفرّ من نفسك إليه.

إِنْ كُنْتَ مُشْتَاقًا لَهَا كَلِفًا بِهَا شَوْقَ الْغَرِيبِ لِرُؤْيَا الْأَوْطَانِ
كُنْ مُحْسِنًا فِيهَا اسْتَطَعْتَ فَرَبًّا تُجْزَى عَنِ الْإِحْسَانِ بِالْإِحْسَانِ
وَأَعْمَلْ لِحَنَاتِ النِّعَمِ وَطَيْبِهَا فَنَعِيمُهَا يَبْقَى وَلَيْسَ بِفَانٍ
أَدِمِ الصِّيَامَ مَعَ الْقِيَامِ تَعَبُّدًا فَكِلَاهُمَا عَمَلَانِ مَقْبُولَانِ

ولا تستوحش فلست وحدك، بل الله في عليائه معك بحفظه وعونه ومدده،
ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه، فالله أنيسه ونصيره وحافظه ومُغْنِيهِ، قال
سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[العنكبوت: ٦٩].

واجتهد على تحصيل ساعات تخلو فيها بربك، ومن ذلك الاعتكاف، فهو جنةٌ
غَنَاءٌ، وسعادة وسرور، دونها قشرةٌ يابسةٌ رقيقة لا تلبث أن تذوب مع أول ساعاتٍ
روحانيةٍ للمختلي بربه العظيم القريب، ولا توصف سعادتها بوصف أجمل من أنها
لا توصف، ومنها يأخذ العبدُ زاده لمكابدة لأواء الدنيا وقسوة ماديتها.

وكن يا صاحبي في دينك صاحب مبدأ ثابت شامخ ومُتَتَهَيٍّ راسخ، واصدق
في قولك وعملك فإن الصدق شعار الإيمان، والكذب أخصّ صفات المنافق،
وبينه وبين نقض الطهارة علاقة معنوية لأنه يلوّث طهارة الروح ويكسر زجاجة
الصدق. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بالصدق، وإن قَتَلَكَ الصدق».
والكاذب مكروه الصُّحْبَة، غير مأمون الغائلة.

وإن استطعت أن يكون باطنك خير من ظاهرك فَنِعْمًا، وإلا فلا أقل من

استوائهما حتى لا تكون مُسمَّعًا مُرائيًا. وكن صادقًا في كل أمرك حتى في الشعر الذي فشا فيه كذب الناس، قال طرفة:

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ يُقال إذا ما قُلتَهُ صدَقَا

وافعل الصواب ولو كنت لوحدك، واجتنب الباطل ولو رأيت عليه الأكابر. فالأُمَّةُ هو من كان على الحقِّ ولو كان لوحده كما كان خليل الرحمن، وخذ الأمر بقوة لا بلعب، وبجد لا بهزل، ولا تكن من ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الاعراف: ٥١] ولا تتعلق ولا ترجُ ولا تخف إلا الله جل جلاله. واعلم أن تكرار لا حول ولا قوة إلا بالله له الأثر النافع جدًّا في قوة الروح والنفس والبدن والإيمان. قد هياؤك لأمرٍ لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

واعلم أنهم يُجيعون ويُطعم الله، ويحبسون ويفرج الله، ويسون ويذكر الله، ويخذلون ويكفي الله، ويعادون وينصر الله، إنه الله وكفى بالله وكيلاً. فلا تحن رأسك لغير خالقك، ولا تذلل رقبك لغير مولاك، فهو الكفاية والهدى والغنى والحفظ والنصر، والله تعالى لا يخلف ميعاده: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ [الانباء: ٩-١٠]. والمؤمن الصالح مهما كيد من مخلوق؛ فهو موقن بأن هناك من يستطيع حمايته وهو متعلق بكلِّيته عليه، مستعين به، قريب منه، وعلى قدر القرب يكون الأمن، أنه القرب من الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الانعام: ٨٢].

ويا صاحبي: أَطْبُ معدنك بالذكر والإيمان، وليكن قلبك ذاك الراضي بربه الشاكر لنعمه الصابر على ابتلائه المستغفر لذنبه. كن كذلك دومًا فلا ضيعة لمن كان مع الله.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فقد بركت على كاهله خمسُ محنٍ شداد فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمرادة، والسجن، ونعيم السلطة، ولذة الانتقام. لقد مرّت كلّ عواصفها الشديدة الهائلة بجبل إيمانه؛ فثبت ورسخ. فخلد الله تعالى ثباته في سورتَه، فسورةُ يوسف هي سورة الثبات والفرج بعد الشدة.

وقد يتلى الله عبده ليرفعه وليرحم به غيره في قابل أيامه. فانظر كيف قدر الله تعالى أن يُباع يوسف وتتوالى ماجريات بلاءاته ليكون - بإذن الله ربه تعالى - سببًا في دفع مجاعةٍ عامّةٍ مميتة، تتابعت سبعة أعوام في مصر وما حولها.

وحقًا: إذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه. وتدبر: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى﴾ [طه:

[٤٠].

ولما وصل الكربُ بيعقوب منتهاه؛ عَلِمَ أن الفرج قريب. وتأمل حاله حينما فقد ابنه الثاني فابتهل إلى الله وشكا إليه حاله وأحسنَ به الظن ثم قال: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٢]. فابتدأ بالأمل في رجوع يوسف الغائب منذ أربعين سنة حتى ذكره قبل أخيه الغائب منذ أيام. وتأمل كيف تنسّم روح الفرج فقال:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] ألا ما أجمل قلوبهم. لذلك: فالمصائب إذا توالى؛ تولّت. وإذا أظلم ليل الابتلاء فقد اقترب فجر الفرج.

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاقَ لما به الصّدرُ الرّحيبُ
وأوطأتِ المكارهُ واطمأنتِ وأرستِ في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشاف الضُّرِّ وجهًا ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ

ولك أن تعلم أن ثابت البناني رحمه الله تعالى قد احتاج لمجاهدة نفسه على قيام الليل عشرين سنة حتى وصل بها لشاطئ النفس المطمئنة، قال: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذتُ به عشرين أخرى». فالطريق طويل لكنه مفضّل برحمة الله إلى بحبوحة نعيم في الدنيا وبحبوحة نعيم في الآخرة، لذا فلا عجب أن ذكر الله الصبر في القرآن أكثر من تسعين مرة، فلا خير في الدنيا والأخرى إلا بصبر، وقال الحبيب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «ومن يستغفِر يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله. وما أُعطي أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١).

وروي عن أبي هريرة وروي مرفوعاً^(٢): «إنّ المؤمن ليُنْضِي شياطينه - أي يُهْزِلها - كما يُنْضِي أحدكم بعيره في السفر». فهو يجاهده ويكابده حتى يجهد الشيطان

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩)، ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤).

(٢) أحمد ٣٨٠/٢ (٨٩٢٧) وضعفه الأرنؤوط من جهة تدليس ابن لهيعة. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٨٦). وروي أيضاً بلفظ: شيطانه.

ويضعف ويهزل. وإذا هبَّتْ على النفوس رياحُ خريفِ التساقط؛ تهاوت الأوراقُ التي انقطع عنها ماءُ الحياة، وثبتت الثمار الصالحة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. اللهم إياك نعبد وإياك نستعين.

ولكم يعز عليّ أن أرى: قَمَّةً ذابت في بركان غضب، وقُلَّةً غرقت في بحر طمع، وشُعلةً أطفأها طولُ مدى، وكنزاً أضاعه رهجُ عجلة: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧٤-٧٥]. ومع انكسار الصفوف؛ يُثَبِّتُ الصادقون دعواهم، ومع خذلان المناصرين؛ يعلو الواثقون بمسعاهم، أخي: لا تلتفت لمن تعثر أو سقط أو رمى، واثبت فإنما أنت جبل، ولا يصحّ إلا الصحيح، ولا يثبت إلا الأصيل.

وهنا شيء من وسائل الثبات للمحتسين والعابدين والدعاة: فمنها العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وعبادته بمقتضاها، وإحسان الظن به تعالى، ومداومة الإلحاح بدعاء الثبات على الدين، والأدعية الماثورة كثيرة ومنها: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا دعاء الراسخين في العلم (١).

وإنَّ من الأسباب الجوهرية للثبات، وهي نابعة من الثقة بوعد الله: المحاسبة الجادة للنفس، ففي الدنيا دخانٌ وغينٌ يحيط بالقلب، ولا تكاد النفوس تسلم منه،

(١) لشيخنا أ.د. عبد الله الدميحي رسالة نافعة بعنوان: وسائل الثبات في زمن المتغيرات.

فتقع في غفلةٍ وركونٍ إلى الخسار وإخلاقٍ إلى الأرض، فإن وفق الله عبده للمحاسبة؛ استيقظ ونفض عن بصيرته وقلبه غبار الغفلة وقطار الظُّلْمة. ولقد تكلم أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ في مداواة النفوس عن تغلبه بعد مجاهدة شديدة على طباعه السيئة من الحقد والشهوة وغيرهما حتى ترقى بها للطمأنينة والسكينة، فالأمر في تناول مَنْ وفقه الله. ورُوي عن نبي الله ﷺ أنه قال: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتق الشر يُوقه»^(١). وربنا تعالى يعد من جاهد فيه بالهدى والمعية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي الوقت الذي يُنتظر فيه من الدعاة المجاهدة لإدراك الكمالات؛ نجد بعض الدعاة لا يزال يجاهد نفسه ضد الموبقات كالزنا والخمر والربا! فضلاً عن بقية الكبائر والذنوب التي أصبحت كالعادات له، كالغيبة، والنميمة مقصودة أو غير مقصودة، والكذب مازحاً وجاداً، إلى شراسة الخُلُق والصِّلَف وتنفير عباد الله من دين الله، وإدخال الغم والحزن عليهم، وسوء ظنه بالمؤمنين، مع علمه بعيوبه واعترافه، إلا أن السنين لم تزد في تيك الأخلاق الرذيلة إلا إيغالاً وانغماساً. فاين الثقة بالله وبموعوده وبلقائه، ومتى يأتي اليوم الذي تطمئن فيه نفسه فتتطبع على أخلاق المؤمنين، وتدور بطبعها المتهذب فيه، حتى تكون من النفوس المطمئنة! فيا صاحبي: إن طال زمانك وأنت تراوح المجاهدة دون تقدّم في مستوى إيمانك؛

(١) الخطيب في تاريخه (٩ / ١٢٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨) والسلسلة الصحيحة (١ / ٦٠٥).

فراجع مساقِي قلبك، فلعل هناك دَغَل شهوة خاطئة في حاجة لعصفٍ وتهذيب، أو شبهة رَدَّتْ عنك بركة العلم والذكر والإيمان. وَمَنْ أَكْثَرُ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ.

وَلَرُبَّ شَهْوَةٍ سَاعَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْ حُزْنَ طَوِيلًا
 إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تَدَبَّرَ قَوْلَ الْعَظِيمِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ
 إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] لتهون في عينه الدنيا وما عليها، فأجلُّ المعاد قريب، وهذه
 الدنيا القريبة الزائلة بمعالمها الفانية لن تلبث إلا أن تكون كسرابٍ بقيعة، بل كطيفِ
 خيالٍ أو كحلمٍ منام، فتذهب مشقة الطاعة والمجاهدة ويبقى الأجر مبدولاً من
 خزائن الحميد الشكور. قال علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرأتُ لأكثر من سبعين سنة،
 فما وجدت حكمةً أجمل من: مشقة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها، ولذة المعاصي
 تذهب ويبقى عقابها». وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اضمنوا لي خصلتين أضمن لكم
 الجنة؛ اعملوا ما تكرهون إذا أحبَّ الله، واتركوا ما تحبون إذا كره الله».

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءٌ
 فاسألِ الله تعالى الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، ومن رام عليين
 فليسلك سبيلها، فَمَنْ تَذَكَّرَ الفردوس هانت عليه مشقة الطريق، أما الدنيا فنهايتها
 حفرة ضيقة مظلمة يستوي فيها الملك والعبد، وسواءٌ قبرٌ مُثَرٍّ ومُقَلٌّ. وإنما العبرةُ
 حقًّا بمنازل الآخرة: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرُفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرُفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وَلَا تَسَلْ عَنِ التَّقِي إِذَا حَلَّ غَدًا بَدَارَ الْكَرِيمِ سُبْحَانَهُ، فَأَسْكَنَهُ دَارًا خَلَقَهَا بِيَدِهِ
 كَرَامَةً لَهُ، ووصفها بالنعيم، فهل وراء هذا للمُوفِّقين مرمى ومُنْتَهَى ومطلب.

لا يَنْبُتُ الْعُشْبُ عَنْ بَرْقٍ وَرَاعِدَةٍ غَرَاءَ لَيْسَ لَهَا سَيْلٌ وَلَا مَطَرٌ



الصبر عند الابتلاء

لا بد للمؤمن أن يُبتلى بنعمة أو محنة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الانبيا: ٣٥] فالدنيا كلها ميدان ابتلاء ودار امتحان ووقت مسابقة للخيرات. والله تعالى حينما أهبط آدم ومعه ذريته ونسله الذين كانوا في ظهره؛ أسكنهم في هذه الدار الصالحة لابتلاء القلوب وتمييز الصالح منها عن الخبيث، فأعطى الإنسان عقلاً وعلماً وإرادة وبعث له الرسل وأنزل له الكتب، وجعل معه قرينه من الملائكة، كما سلط عليه شهوته وهواه وجعله وجهالته وشياطين الإنس والجن والقرين الشيطاني والأمل، وبعد أن ركب في الإنسان هذا الأمور وأمدته بتلك الأشياء من الخير وضده تركه في معترك الابتلاء؛ ليتبين الصادق من ضده والزاهد من ضده والمؤمن من ضده والراغب في الله والدار الآخرة من ضده، فإذا عمل الإنسان ما عمل ظهر علم الله الغيبي على الشهادة، فوافق ما علمه وقدره وكتبه وشاءه على أرض الابتلاء، وبعد الابتلاء فإن العبد يرتحل للآخرة بمنشور عمله الذي كتبه الكرام الكاتبون، فشقي وسعيد. «وينقسم الابتلاء إلى قسمين:

الأول: الابتلاء بالشر، وهو مناط الصبر.

الثاني: الابتلاء بالخير، وهو مناط الشكر.

وفيا يتعلق بالنوع الأول، فإنه يشمل الابتلاء بالمحن والكوارث ونقص الأموال والأنفس والثمرات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ

وَالْجُوعَ وَنَقْصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴿البقرة: ١٥٥﴾، وهنا يكون الصبر والرضا والحمد المقياس الحقيقي للإيمان الصادق»^(١).

والمؤمن لا ينفك عن ابتلاء، إذ حياته كلها ابتلاء، وقد أهبط من الجنة لئبلى أصبح معدنه فيعود أن يخبث فيطرد. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «سأل رجل الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فقال: يا أبا عبد الله، أيهما أفضل للرجل أن يُمَكَّنَ فيشكر الله عز وجل أو يُبْتَلَى بالشر فيصبر؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم ومحمدًا صلوات الله عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة»^(٢).

ولقد كان الصبر نصف الإيمان، ولا زال، فعن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ. فقلت يا رسول الله، من تبعك على هذا الأمر؟ قال: «حرٌّ وعبد». قلت: ما الإسلام؟ قال: «طيب الكلام، وإطعام الطعام». قلت: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة». قال: قلت: أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده». قال: قلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن». قال: قلت: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قال: قلت: أي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره ربك عز وجل»... الحديث^(٣).

(١) نضرة النعيم (٦/ ٢٤٤٧) بتصرف يسير.

(٢) الفوائد (١/ ٢٠٨) وانظر زاد المعاد (٣/ ١٤).

(٣) أحمد (٤/ ٣٨٥) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧٩٤) وأصله الحديث عند مسلم. وقال الألباني في الصحيحة (٢/ ٩١): هذا إسناد ضعيف محمد بن ذكوان وهو الطاحي وشهر

ومن الصبر المحمود الصبر على سكنى البقاع التي يحبها الله تعالى كالشغور وكالحرمين، ولسكنى مدينة النبي ﷺ فضيلة خاصة؛ فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن مولاة له أتته فقالت: اشتد علي الزمان، وإني أريد أن أخرج إلى العراق. قال: فهلاً إلى الشام أرض المنشر واصبري لكأع^(١) فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على شدتها ولأوائها^(٢) كنت له شهيداً أو شفيحاً يوم القيامة»^(٣).

«ومن حكم الابتلاء التمييز بين المؤمنين والكفار. فالتمييز: من مزت الشيء أميزه ميّزاً: عزلته وفرزته، وقد ثبت ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. قال الطبري رحمه الله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ منهم، في قولهم: آمنا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ منهم في قولهم ذلك، والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله الصادق منهم في قوله: آمنا بالله، من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه؛ ليعلم صدقه من كذبه أولياًؤه^(٤). «والله عز وجل بيّن في كتابه عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقضي أن كل من قال: إنه مؤمن،

ضعيفان، لكن الحديث ثبت غالبه من طرق أخرى.

(١) لكأع: يقال امرأة لكأع ورجل لكع، ويطلق ذلك على اللئيم وعلى العبد وعلى الغبي الذي لا يفهم كلام غيره، وعلى الصغير. ومراد ابن عمر التنبيه لبعد رأيها عن الصواب لا التعيير.

(٢) أي: لأواء المدينة. والألأواء: الشدة وضيق العيش.

(٣) مسلم (٤٨١، ٨٤٣، ١٠٠٤).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠ / ١٢٩).

وادعى لنفسه الإيمان؛ أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن ستنه تعالى في الأولين وفي هذه الأمة أن يتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغني والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمن كان عند ورد الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدقه^(١) عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه^(٢). فعلى هذا يكون الابتلاء تخلص الخير من الشر وتمييزه كما قال تعالى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]

(١) الصدف والصرف بمعنى، وكأن الإرادة في الصدف مؤثرة تأثيرًا مباشرًا، بخلاف الصرف، والله أعلم.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦).

وكما قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا، فأَيُّ قلبٍ أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأَيُّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبيْن: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُربَّدًا كالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» (١).

وتأمل كيف وصف الهوى بإشرابه في النفس حتى يتخلَّلها فلا تصبر عنه. ومنه قوله تعالى في وصف عبَاد العجل: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشَسْمَايَاْمُرْكُم بِهِ ۖ إِيْمَنُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] ولا عجب فالهوى يعبد من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] وكما قال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَرَ عَلَى سَمْعِهِ وَفَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إذاً فلا بد من الابتلاء، «فلو كان المؤمنون دائماً منصورين قاهرين غالبين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله

(١) مسلم (١٤٤) والمرياد: قال أبو عبيدة: الرُبْدَةُ لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْغُبَرَةِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّعَامِ رِبْدٌ جَمْعُ رَبْدَاءَ. لِسَانُ الْعَرَبِ (٣/ ١٧٠) وَلَا زَالَ هَذَا جَارِيًّا عَلَى لِسَانِ أَهْلِ نَجْدٍ. وَالْكُوزُ مُجْحِيًّا: أَيُّ الْكُوبِ مَنْكُوسًا وَمَقْلُوبًا.

ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه»^(١). وقد مرّت - ولا تزال - حوادث على الأمة الإسلامية تميز فيها الصادق من المنافق، ومن أبرزها ما حصل في غزوة أحد حين خرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى أحد، قال ابن إسحاق: «حتى إذا كانوا بالشوط»^(٢) بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلاث الناس وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نُقتل هاهنا أيها الناس. فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب»^(٣).

وقد ذكر ابن القيم من الحكم في غزوة أحد فقال: «ومنها أن يتمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطاهم الصيت، ودخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مخبّاتهم، وعاد تلويحهم تصرّحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً»^(٤).

وكما في قصة الأقرع والأعمى والأبرص، التي ميز الله فيها بين الغني الشاكر والكافر، وقد ميز الله بين المؤمنين والمنافقين، وقد بين سبحانه أن المنافقين لا

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢ / ١٩٠).

(٢) اسم حائط، يعني بستاناً في المدينة بينها وبين أحد. معجم البلدان (٣ / ٣٧٢).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٦٨) وانظر المغازي للواقدي (١ / ٢١٩).

(٤) زاد المعاد (٣ / ٢١٩).

يتحملون أي أذى يصيبهم في ادعائهم الإيمان، فهم لا يصبرون ويعدون أي أذى كأنه هو عذاب الله الذي بين سبحانه أنه شديد. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

والناس في الابتلاء ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلى والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والامتحان إلى ربه، وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، فمن حكمة الابتلاء بالنسبة للمؤمنين: تكميل العبودية لله في السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالته والإدالة عليهم^(١)، فله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية، بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب وأضدادها، فتلك المحن والبلى شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع^(٢).

ومن العبودية: أن يشكو العبد إلى ربه ويتضرع إليه ويدعوه، فالله يحب ذلك من العبد، «فهو سبحانه يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كل عبد على قصده ونيته، وقد ذم

(١) إدالته: بأن تكون الدولة والغلبة لهم، أما الإدالة عليهم فتكون الدولة والغلبة لأعدائهم.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (٢ / ١٩٠).

الله تعالى من لم يتضرع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء»^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. «فالله عز وجل يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد، وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بهذه الحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأولى مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره، علم أنه لا يصلح؛ فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث به استغاثة الملهوف، وتعلق تعلق المكروب، ودعاه دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً، فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته، ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه؛ علم أنه موضع لما هو أهل له، فرد أحوج ما هو إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حيثنذ مقداره، فعرض عليه بالنواجذ، وثنى عليه الخناصر، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذ وجدها بعد معاناة الهلاك»^(٢). فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر.

القسم الثاني: «إذا ابتلي الإنسان ولم يرده ذلك البلاء إلى الله، بل شرد قلبه عنه وردّه إلى الخلق، وأنساه ذكر ربه، والضراعة إليه، والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته، وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع

(١) تسليية أهل المصائب (٢١٧-٢١٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٩٦).

من الشر والبطر، والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبليّة هذا وبال عليه، وعقوبة ونقص في حقه»^(١).

والمصائب ليست خاصة بالمؤمنين، بل هي في الكافرين أشد لعدم سلوانهم بالإيمان بالله، فما يرى فيه الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه؛ فهو دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «أما والله لئن طقطقت بهم الهماييج، ووطئت الرجال أعقابهم، إنّ ذلّ المعصية لفي قلوبهم، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله»^(٢).

وقد يشكل على بعض الناس حديث رسول الله ﷺ وهو: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٣). ولكن يزول هذا الإشكال إذا علم أن المؤمن على ما هو فيه بالدنيا من العزة والنصر بالنسبة إلى ما يلاقه عند الله في الجنة من النعيم المقيم كأنه كان في سجن، أما الكافر لما هو فيه في هذه الدنيا على أي حال بالنسبة لما أعدّه الله له من الجحيم والنكال العظيم فكأنه في جنة»^(٤) (٥).

(١) طريق الهجرتين (٩٦٤).

(٢) حلية الأولياء (٢ / ١٤٩).

(٣) مسلم (٢٩٥٦).

(٤) انظر: النووي على مسلم (١٨ / ٩٣).

(٥) مجلة البحوث الإسلامية (٢٥٧ / ٤٥) الفتنة والابتلاء، عبيد السلمي. بتصرف واختصار وزيادة.

وفي هذا الزمان المتلاطمة أمواجُ فتنه، أضحى الحليم حيراناً، والشجاع جبائناً، والعلیم جاهلاً إلا من رحم ربي. ولربما نَزَفَ دُمُ الروح نزفاً لا كتزفِ دم الجسد. فعلى كلِّ حازمٍ مراجعة سجلات عمره، ومنهاج حياته، فالفرصة يتيمة، والمهلة لا تحتمل العود والرجعى.

قد يهون العمرُ إلا ساعةً وتهون الأرضُ إلا موضعاً
لقد خلقنا الله ليبتلينا ويبتلي بنا، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المك: ٢] فالأمر حاسم جدًّا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. إذن فالمسألة مسألة فتنة وابتلاء، فحقيقة الابتلاء هي الفتنة التي تبلو حقيقة معدن المرء أمن ذهب قلبه فيفلح، أم من نحاس فيخسر نفسه!

يا صاحبي، الأمر أقرب مما نتصور، وخطبُ نفوسنا أجلُّ من أن يوصف، والعلاج كله بين أيدينا فهل من معتبرٍ مذكّر. لقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بالشفاء والهدى والبيان والرحمة. فهو الشفاء التام لكل الأدواء، وبخاصة ما كان متعلقاً بالأرواح والأفكار والعلوم والتصورات، فضلاً عن الأجساد ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وإنَّ ههنا إحدى عشرة آية من صدر سورة العنكبوت، وددتُ لو أن كلَّ مؤمنٍ يتلوها في هذا الزمان مراراً، ويكررها سرّاً وجهاً، ويحفر حروفها ومعانيها على جدار قلبه، ويحقنها في شرايينه، ويجعل هداياتها نصب عينيه، ويا حبذا ترديدها

من لُذُنْ الأئمة في الصلوات، ففي القلوب حاجة لها ولأمثالها. إذ قد وصفت الداء كما هو، وعُرت زيف الشبهة والشهوة، وأقامت عمود الضياء الهادي من الضلالة، العاصم من الغواية، حتى عاد الأمر جلياً واضحاً لا تحجبه سوى أهوية النفوس الخاسرة. دعونا يا محبين نقف قليلاً مع شيء من هداياتها:

قال سبحانه: ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَآمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] فمن آمن فلا بد له من الفتنة حتى يُثبت صدقه. لذا فلا بد له من علمٍ بالحق يدفع به عن قلبه عاديّات الشبهات، وإيمانٍ راسخ يذود عنه سبّاع معاصي الشهوات، ولعلّ لأجل ذا أتبع سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أي يظهر علمه في عالم الشهادة، وإلا فهو علام الغيوب، والماضي والحاضر والمستقبل عنده سواء، فهو خالق الغيب وخالق الشهادة سبحانه وهو العليم الخبير.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أي لن يفوتونا. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥] الله أكبر! فيا أيها المحب: هذا ربك قد قطع لك الوعد؛ فتزین له بالصالحات تلقه عنك راضياً. ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] فالله ليس في حاجة أحد، بل العبد هو المضطر إلى مدد ربه وعونه وقبوله وتوفيقه. ودينُ الله محفوظ ومنصور، ولكن السعيد من وُفق لمعيّة حفظته وحملته وأنصاره. قال الحسن: «إنّ الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف».

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] أي بأحسن أعمالهم وهي الطاعات، ومنه برّ الوالدين حتى وإن أمرًا بأعظم خطيئة، فكيف بالمؤمنين! قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] مع هذا فقد بشره ووعد به بأن يجعله في زمرة المفلحين يوم القيامة، وليس مع والديه المشركين، فكيف إذا كانا من المؤمنين! قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ثم ذكر سبحانه حال بعض المخذولين ممن لم يدخل الإيمان بشاشة أفئدتهم، إنما هو الرياء والنفاق، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠] بلى وعزة ربنا. كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠] ففتش قلبك الآن يا صاحبي قبل أن يُحصّل ما فيه.

ثم ختمها العزيز سبحانه بقوله الجليل: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] فالفتن العامة والخاصة تفرز الناس لفسطاطين: فسطاط إيمان وبرٍّ، وفسطاط نفاق وكفر، قال تعالى: ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ

الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

وفي الحديث الصحيح عند أحمد^(١) وغيره قال عليه السلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة فقال: ما أشد حُمَاكَ يا رسول الله! قال: «إنا كذلك، يُشَدُّ علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر» ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء» قال: ثم من؟ قال: «العلماء» قال: ثم من؟ قال: «الصالحون. كان أحدهم يُبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء»^(٢). وقال ابن القيم في الميمية:

فوالله لولا الله يُسعدُ عبده	بتوفيقه والله بالعبد أرحم
لما ثبت الأيمان يوماً بقلبه	على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاعته النفس في ترك شهوة	مخافة نار جمرها يتضرر
ولا خاف يوماً من مقام إله	عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم



(١) أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٨٠) (٣٤٠٣) وصححه. وأصله عند أحمد

(١١٨٩٣) بنحوه دون ذكر العلماء، وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) وأبو يعلى (١٠٤٥).

الفرج بعد الشدة

المؤمن موعود بالفرج؛ وما من كربة إلا ولها نهاية، فعليه بحسن الظن بربه، والصبر على ابتلائه، وله الفرج بعد الشدة، والأجر بعد البلاء برحمة ربه، قال تعالى في سورة الشرح منوهاً بالصبر الجميل والظن الحسن باللطيف الرحيم: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] قال ابن كثير^(١): «قال الحسن: كانوا يقولون^(٢): لا يغلب عسرٌ واحدٌ يسرين اثنين.

ومعنى هذا: أن العسرَ معرّف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر فتعدّد؛ ولهذا قال: فالعسر الأول هو عين الثاني، واليسر تعدّد». ومما يروى عن الشافعي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال:

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَقَ اللَّهُ لَمْ يَنْلُهِ أَدَى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]: «لما أمروا بما يشق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال؛ عولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلًا على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس، والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٤٣٢).

(٢) يعنى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأُطيين؛ حتى تجابوا إلى تحصيل المأرب وجبر المصائب.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام: «كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»^(١). ويجوز أن يراد بها الدعاء. ﴿وَإِنَّهَا﴾: أي: وإن الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضرورياً من الصبر، أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿لَكِبَرَةٍ﴾: لثقل شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]: أي المخبتين، والخشوع: الإخبات، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة، والخضوع: اللين والانقياد، ولذلك يقال: الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب»^(٢).

وحكى أبو عمرو بن العلاء فقال: «هربنا من الحجاج فدخلنا البادية فأقمنا بها دهرًا نتردد من حي إلى حي، فبينا أنا خارج في بعض الأحياء ذات غداة متوزع الخطر مبهم القلب ضيق الصدر، إذ سمعت شيخاً من الأعراب مجتازاً يقول:

صَبْرُ النَّفْسِ يَنْجِلِي كُلَّ هَمٍّ إِنَّ فِي الصَّبْرِ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
رَبِّمَا تَكْرَهُ النَّفُوسُ مِنَ الشَّيْءِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ

(١) المسند (٣٨٨/٥).

(٢) تفسير البيضاوي (٣١٦/١).

فلم يستتم الشيخ إنشاد البيتين حتى رأيت فارسًا من بعيد ينادي: قد مات الحجاج»^(١).

وتأمل عقبى الصبر في ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين الصابرين، قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾.

قال الخازن رحمه الله: «﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: صبروا عن الشهوات وعن المعاصي.

وقيل: حمله على العموم أولى^(٢)، فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات، وجميع أعمال البر، وترك جميع المنهيات، فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات، ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات^(٣) والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب.

(١) تفسير التستري (٢/ ٣٢٤).

(٢) وهو الأولى لظاهر الخطاب، فقد خرج مخرج العموم ولا مخصص له، خاصة أن الصبر على مطلق البلاء من جملة العبادات إن أريد بها وجه الله تعالى.

(٣) أي المحرمة والمكروهة.

وأصل الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع أو على ما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر. وإنما قيد الصبر بقوله: ﴿ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين:

الأول: الصبر المذموم، وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال: ما أكمل صبره، وأشد قوته على ما تحمل من النوازل. وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء^(١). وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلًا تحت قوله: ﴿ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لأنه لغير الله تعالى.

النوع الثاني: الصبر المحمود، وهو أن يكون الإنسان صابرًا لله تعالى راضيًا بما نزل به من الله، طالبًا في ذلك الصبر ثواب الله، محتسبًا أجره على الله. فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله: ﴿ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيمًا لله وطلب رضوانه^(٢).

ويكفي للمؤمن فرجًا انتظار الأجر، وتلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧] «أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متقٍ؛

(١) كقول الشاعر - وقد تصرف في البيت فجعلت بدلًا من «ريب» «شد»، لأن فيه سوء أدب مع الله تعالى بسبب الدهر:-

وتجلّدي للشامتين أريهم أني لشدّ الدهر لا أتضععُ

(٢) تفسير الخازن (٤/ ١٨).

وأنشدوا:

أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوباً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهةً فآل به الصبر الجميل إلى الملك
وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأوّل مفروح به آخرُ الحزن
فلا تيأسنْ فالله ملّك يوسفًا خزائنه بعد الخلاص من السجن
وأنشد بعضهم:

إذا الحادثات بلغت النُّهي وكادت تذوب لهنّ المُهْجُ
وحلّ البلاء وقلّ العزاء فعند التناهي يكون الفرَجُ
والشعر في هذا المعنى كثير^(١).

وقال الثوري عن بعض أصحابه: «ثلاث من الصبر: ألا تُحدّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكّي نفسك»^(٢). وقالوا: «الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج».

وقال ابن تيمية: «ذكر الله تعالى في كتابه: الصبر الجميل، والصفح الجميل،

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

والهجر الجميل. فالصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه^(١). وقال الألويسي في روح المعاني^(٢): «في قوله تعالى: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] دليل على أنَّ الصَّبْرَ قسمان:

أحدهما: جميل، والآخر: غير جميل. فالصَّبْرُ الجميل هو: أن يعرف أن مُنْزَلَ ذلك البلاء هو الله تعالى، ثمَّ يعلم أنَّه سبحانه مالكُ الملِكِ، ولا اعتراض على المالكِ في أن يتصرَّف في ملكه، فيصيرُ استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً من الشَّكَايَةِ.

وأيضاً: يعلم أن مُنْزَلَ هذا البلاءٍ حليمٌ لا يجهل، عالمٌ لا يغفل، وإذا كان كذلك، فكان كلُّ ما صدر عنه حكمةً وصواباً، فعند ذلك يسكتُ ولا يعترضُ.

وأما الصَّبْرُ غير الجميل: فهو الصَّبْرُ لسائر الأغراض، لا لأجل الرِّضا بقضاء الله سبحانه وتعالى. والضَّابِطُ في جميع الأقوال والأفعال والاعتقادات: أنه كلما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً وإلا فلا». وبالله التوفيق.



(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

(٢) روح المعاني (١٣/ ٧٦).

الابتلاء تمحيص وتطهير ورفعته للمؤمن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ [الملك: ١-٢]، فقد خلقنا الله للابتلاء والامتحان، وقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝﴾ [الانبيا: ٣٥] وقال سبحانه: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [يونس: ١٤]، و«إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن؛ فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به.

والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا.

وكانت البلية في هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢١٦] (١).

(١) طريق المهجرتين (١/ ٢٥٩).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ: «في عقولنا قوة التسليم وليس فيها قدرة الاعتراض عليه. وقد يدعو الإنسان فلا يُجاب فيندم، وهو يُدعى إلى الطاعة فيتوقف، فالعجب من عبيد يقتضون الموالي اقتضاء الغريم، ولا يقتضون الغريم، ولا يقتضون أنفسهم بحقوق الموالي!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: ومن تأمل دقائق حكمته ومحاسن صفاته أخرجته حبه إلى الهيمان فيه، فإن المعاني المستحسنة تحب أكثر من الصور، ولهذا تحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لمعانيهم لا لصورهم، فكيف لا تقع المحبة المختصة بالكمال المنزه عن نقص؟ فوا أسفًا للغافلين عنه، ووا حسرتًا للجاهلين به.

ومن نظر إلى أفعاله بمجرد العقل أنكر، فأما من علم أنه مالك وحكيم، وأن حكمته قد تخفى؛ سلّم لما لم يعلم علته بأفعاله مسلّمًا إلى حكمته. وقد قال بعض الحكماء: من لم يحترز بعقله من عقله هلك بعقله!

وهذا كلام في غاية الحسن، فإننا إذا قلنا للعقل هو حكيم قال: لا شك في ذلك؛ لأنني قد رأيت عجائب أفعاله المحكمة فعلمت أنه حكيم، فإذا رأيت ما يصدر ما ظاهره ينافي الحكمة، نسبت العجز إلي، ولو لم يكن في ذلك إلا أن المراد تسليم العقول لما ينافيها، وذلك عبادة العقول. قال: وصار هذا كما خفي عن موسى حِكْمَةُ فِعْلِ الخضر، وقد يخفى على العامي ما يفعله الملك. فقد قال المتنبي: يدقُّ عن الأفكار ما أنت فاعل.

وقال ابن عقيل في الفنون: الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب

والفضة، ودورًا مشيدة مملوءة بالخدم والزينة قال: انظر إلى ما أعطاهم مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم حتى يقول: فلان يصلي الجماعات والجمع، ولا يذوق قطرة خمر، ولا يؤذي الذر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق عن تحاييله أنه لو كانت الشرائع حقًا لكان الأمر بخلاف ما نرى، وكان الصالح غنيًا والفاسق فقيرًا.

ما ذاك إلا لأنه لحظ أن الله أعطى هذا أموال الأيتام والوقوف، بأن يأكل الربا ويفاسد العقود، وهذا افتئات وتجاوز وسخط في غير موضعه. فإن الله كتابًا قد ملأه بالنهاي وحرم أن يأخذ المال الحرام وأكله بغير حق، فلو كان منصفًا لقال له: تدبر، هذا كتاب الله مملوء بالنهاي والوعيد، فصار الفريقان ملعونين، هذا بكفره وهذا بارتكاب النهي.

ومن الفساد في هذا الاعتقاد أنه لا يبقى في العقل ثقة إلى دلالة قامت على شريعة أو حكم. فإن ينبوع الثقة ومصدرها إنما هو من قبيل أنه سبحانه لا يؤيد غير الصادق، ولا يلبس الحق بالباطل. فإذا لم تستقر هذه القاعدة فلا ثقة.

وإذا تأمل المتدين أفعال الخلق في مقابلة إنعام الحق استكثر لهم شم الهواء، واستقل لهم من الله سبحانه أكثر البلاء»^(١). والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٩١ - ٢٩٦) باختصار.

الصبر عند الفتن العامة

في أيام الفتن يعظم شأن الصبر على اتباع السنة والعفاف والورع والتقوى، وقد مرّ معنا حديث أمية الشعباني، قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك - يعني بنفسك - ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»^(١).

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه في آخر الزمان أيام الصبر للعامل فيهن أجر خمسين من الصحابة. وهل نقول إن هذا العامل الذي في آخر الزمان أفضل من الصحابة أو أفضل من الخمسين؟ والجواب: لا، لأن فضله خاص، حيث عمل في هذا الزمان المظلم الذي لا يجد من لا ينصره، بل يجد من يستهزأ به ويسخر به والصحابة كلهم يعملون بالحق، فله أجر خمسين من الصحابة لما يعانیه من القيام بشرائع دينه، وليس أفضل من الصحابة لا شك. فهذه المسألة، ولهذا لو قال قائل: يوجد لعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مناقب ليست لعلي، ولعلي

(١) أبو داود (٤٣٤١) وهذا لفظه، والترمذي (٣٠٥٨) وقال: حديث حسن غريب، وشرح السنة (١٤ / ٣٤٨)، وقال محققه: للحديث شواهد يتقوى بها. وقال الألباني في ضعيف أبي داود (٤٣٠): لكن فقرة أيام الصبر ثابتة.

مناقب ليست لعثمان، ولعمر مناقب ليست لأبي بكر، ولأبي بكر مناقب ليست لعمر، وهكذا، فهل الفضل الخاص يلغي الفضل المطلق العام؟ الجواب: لا، لا يمكن»^(١).

ومن مهمّات فقه الفتن العامة: العلم بأن أهل السنة يؤكّدون على مسألة الوفاء ببيعة الإمام، وعدم الخروج عليه بلا مبرر شرعي، فشق عصا الطاعة يفرّق الأمة ويضعفها والصبر على الأمير الجائر خير من الخروج المفسد المؤدي لاستباحة بيضة الإسلام وتشتت نظام أهل الإيمان.

فلا يحل الخروج على الإمام إلا بشرطين: التحقق من كفره البواح، وغلبة الظن بالقدرة على عزله وإبداله بمن هو خير للإسلام والمسلمين منه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية»^(٢). وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية»^(٣).

والمعصية للإمام بلا مسوّغ من الشريعة نوعٌ مفارقة للجماعة حتى وإن لم يفارق بالبدن، فكيف بمن أعلن العصيان العام ونادى بالتفرّق عنه وحربه بلا

(١) شرح العقيدة السفارينية (١/ ٣٥٤) بتصرف يسير.

(٢) مسلم (١٨٤٩).

(٣) مسلم ٢٢/٦ (١٨٥١) (٥٨).

برهان من القرآن؟! قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ولما كانت الطاعة يلحقها تنازع عند بعض موارد حسم الله تعالى هذا النزاع بالرد إليه عبر كتابه والرد إلى رسوله ﷺ عبر سنته، ولم يرد الأمر إلى شهوة سلطان أو حماس رعية، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] أي خير لكم في عواقبكم كلها في الدنيا والآخرة.

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم»^(١) وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننايذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة. لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»^(٢). فشعار الإسلام الصلاة، وتأمل التأكيد بال تكرار.

هذا وإن وجوب طاعة ولادة الأمر إنما هو في غير معصية الله تعالى، فإن أمروا بمنكر فتحرم طاعتهم فيه، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٣).

(١) أي: تدعون الله لهم ويدعونه لكم.

(٢) مسلم ٢٤/٦ (١٨٥٥) (٦٥).

(٣) البخاري ٧٨/٩ (٧١٤٤)، ومسلم ١٥/٦ (١٨٣٩) (٣٨).

والطاعة مُنَاطَةٌ بالقدرة والاستطاعة، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: «فيا استطعتم»^(١).

ولا ينبغي للمؤمن أن يأنف من طاعة أميره مهما كان، فطاعته إنما هي راجعة لطاعة الله تعالى الذي أمر بها لا لذات الأمير، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(٢). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة»^(٣).

بل حتى في استئثار الأمير بالمال دونك؛ فإنه يلزمك طاعته في غير معصية الله، فتعطيه حقه وتسال الله حقه، ودع أمره لربكما الذي سيحاسبه دونك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك»^(٤).

وفي هذا مراعاة لأمر منها: احتمال أدنى المفسدين لدفع أعلاهما، ومنها: أن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد، فعصيانك لأثرته عليك له تجر عليك أو على مجموع الناس فتناً خيراً لك ولهم ألا تثيرها، والموعود الله.

(١) البخاري ٩٦/٩ (٧٢٠٢) ومسلم ٢٩/٦ (١٨٦٧) (٩٠).

(٢) البخاري ٧٧/٩ (٧١٣٧) ومسلم ١٣/٦ (١٨٣٥) (٣٢).

(٣) البخاري ٧٨/٩ (٧١٤٢).

(٤) مسلم ١٤/٦ (١٨٣٦) (٣٥) والأثرة: هي الاستئثار بالحق.

فالفتن العامة عبر التاريخ تكون - غالبًا - من رعيّة استفزّهم فسادُ أمير أو معاصيه أو ظُلُمه أو استئثاره عن منازل الصبر المتعين عليهم، فتشور حينها غبراء الفتن ويكلح في سماء الدول قتار الاقتتال وظلام التفرّق فتتكسر الشوكة وتضيع الحقوق وتنقطع السبل فلا دينًا أقاموا ولا دنيا حفظوا، فالصبر الصبر الصبر، حتى يستريح برٌّ ويُستراح من فاجر، والله المستعان.

وسأل سلمة بن يزيد الجعفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أرايت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعوننا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم»^(١). وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثرةٌ وأمورٌ تنكرونها!» قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»^(٢). قال العثيمين شارحًا: «أي أنه يستولي على المسلمين ولالة يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاءوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها. والواجب على المسلمين في ذلك السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم، واسألوا الحق الذي لكم من الله»^(٣).

وتأمل هذا الحديث الجليل العظيم الخطر، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

(١) مسلم ١٩/٦ (١٨٤٦) (٤٩).

(٢) البخاري ٢٤١/٤ (٣٦٠٣) ومسلم ٧١/٦ (١٨٤٣).

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/١٢٧).

قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه، ومنا من يتنצל^(١) ومنا من هو في جشّره^(٢) إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة.

فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم. وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها، وتجيء فتنةٌ يرقق بعضها بعضاً^(٣)، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف. وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحب أن يرحل عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه^(٤). ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر»^(٥).

وبالجملة؛ ففي زمن الفتن العامة يعزّ الصبر وتطيش الأحلام وتضيع الحكمة ويُنسى العلم إلا من حفظه الله ووفقه، فعن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ

(١) أي: يرمي بالسهم.

(٢) أي: يصلح أمر دوابه.

(٣) أي: لشدة الفتن المدلهمة المتتالية؛ فتأتي الفتنة فيظن الناس أنها المهلكة، فلا يلبثون بعد انكشافها أن تأتيهم فتنة تنسيهم إياها وتصغرها في أعينهم لشدة التالية وعظم خطرهما! والله المستعان ولا قوة إلا بالله.

(٤) لأن الأثرة في الفتن شديدة وملحة، كالمجاعة أو الخوف أو تغير الأحوال، فلا يسلم منها بنصحه ومحبة الخير للناس إلا من رحم الله تعالى.

(٥) مسلم ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦).

قال: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنُ، وَلَمَنْ ابْتَلِيَ فَصَبَرَ؛ فَوَاهَا»^(١)»^(٢).

ألا وإن بعض البلدان في زماننا منطبق حالها على حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أوصاه رسول الله ﷺ عن الواجب الشرعي تجاه فتن السياسة والدماء! فالكل يدّعي أن الحق معه، والحق ملتبس بينهم، بل قد يكون غير موجود أصلاً لبطلان دعواهما وتلييسهما على الناس بظاهر مما يعرفون وما لا يعرفون، فيطير رعاك الناس في عجاجة الفتن كل مطير، وتحرق نار الفتنة من لم يعتصم بالصبر ويعرض على السنة وينأى عن الفتنة ويضرع لربه بنجاته وسلامة دينه. بل حتى منتسبة العلم؛ فمنهم طلاب علم.. ومنهم طلاب فتنة!

قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك... فذكر الحديث، وفيه: «كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون

(١) قال الخطابي: «واها»: «كلمة معناها التلهف، وقد توضع أيضاً موضع الإعجاب بالشيء». وقال الجوهرى: «إذا تعجبت من طيب الشيء؛ قلت: واها ما أطيبه». إتحاف الجماعة (١/ ٨٣).

(٢) أبو داود (٤٢٦٣) وصححه الألباني، وكذا أيمن صالح في تخريجه لجامع الأصول.

البيت^(١) فيه بالوصيف؟^(٢) قلت: الله ورسوله أعلم - أو قال: ما خَارَ^(٣) الله لي ورسوله - قال: «عليك بالصبر» أو قال: «تصبر».

ثم قال لي: «يا أبا ذر» قلت: لبيك وسعديك، قال: «كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت^(٤) قد غرقت بالدم؟» قلت: ما خَارَ الله لي ورسوله، قال: «عليك بمن أنت منه»^(٥)، قلت: يا رسول الله: أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي^(٦)؟ قال: «شاركت القوم إذا»^(٧) قلت: فما تأمرني؟ قال: «تلتزم بيتك» قلت: فإن دخل

(١) أي: القبر.

(٢) أي: يكون العبد المملوك ثمنًا للقبر. والمعنى: أن الفتن تكثر، فتكثر القتل، حتى إنه ليُشترى موضع قبر يدفن فيه الميت بعد، وذلك بسبب ضيق المكان عنهم، أو قلة من يحفر القبور، مبالغة في كثرة وقوع الفتن، أو أنه لاشتغال بعضهم ببعض وبما حدث من الفتن لا يوجد من يحفر قبر ميت ويدفنه، إلا أن يعطي وصيفًا أو قيمته.

(٣) أي: اختار.

(٤) أحجار الزيت: موضع في حرة المدينة، وقد غرقت وتلطخت بالدم في فتنة أهل الحرة في زمن يزيد.

(٥) أي: ألزم أهلك وعشيرتك، ودع الفتن لا تتبعها ولا تبحث عنها ولا تدخل فيها.

(٦) أي: أقيم الدين بسيفي؟

(٧) لأنها فتنة عمياء لا يتبين الحق فيها إنما هي دماء يحملها على عاتقه من دخل فيها! وقد قال

ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قال أبو بكر: قلت: يا

رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه». رواه

البخاري ١٤/١ (٣١)، ومسلم ١٦٩/٨ (٢٨٨٨) (١٤) و(١٥).

على بيتي؟ قال: «إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف»^(١)، فألق ثوبك على وجهك^(٢)، يئوء بإثمك وإثمه^(٣)»^(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم»^(٥).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتن...» الحديث، وفيه: فقال رجل: يا رسول الله، أرايت إن أكرهتُ حتى يُنطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين، فضر بني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «يئوء بإثمك وإثمك، ويكون من أصحاب النار»^(٦).

وعن خرشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون من

(١) يبهرك: من الضوء الباهر، أي: يغلب عينك ويُعشى بصرها.

(٢) حتى تثبت ولا تقاتله حتى وإن قتلك، وذلك أن ذلك المقاتل يرى أنه على الحق، لشدة ظلام الفتنة وخبطها ألباب الناس!

(٣) أي: يرجع بإثمه السابق مع إثم قتله لك، والمراد: كن ابن آدم المقتول لا القاتل.

(٤) أبو داود (٤٢٦١) (٤٤٠٩) واللفظ له، أحمد (١٤٩/٥).

(٥) أحمد (٤٠٨/٤) بسند صحيح، وأبو داود (٤٢٥٩).

(٦) أحمد (٣٩/٥) بسند صحيح.

بعدي فتنة، النائم فيها خير من اليقظان، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي، فمن أتت عليه فليمش بسيفه إلى صفاة^(١) فليضربه بها حتى ينكسر، ثم ليضطجع لها حتى تنجلي عما انجلت^(٢).

وقال خبير الفتن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص فيها أحد؛ إلا نسفته كما ينسف السيل الدمن، إنها مُشَبَّهة^(٣) مقبلة، حتى يقول الجاهل: هذه تُشَبَّه، وتبين مدبرة، فإذا رأيتموها فاجثموا في بيوتكم، وكسروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم، وغطوا وجوهكم»^(٤).

لهذا قالوا: إن الفتن إذا أقبلت لم يعرفها ويفطن لها إلا العلماء، فإذا ادبرت عرفها الناس. وكان الله في عون العلماء الراسخين علومًا الراجحين عقولًا، فعند ادلهام الفتن يسألهم المتحمسة والعجولون والسفهاء باللسنة حدادٍ متهمينهم فيها بما ليس فيهم من طمع ومداهنة وخرفٍ وخوف وجهل وغير ذلك بسبب نهيهم الناس عن خوض غمرات الفتن، وبسبب مالا يراه الناس من أعمالهم التي يجاهدون بها المبطلين والمفسدين مما يحسن إخفاؤه عن الناس حفظًا للجماعة من الافتراق وحراسة للنية من الإعلان، والله المستعان. ﴿إِنَّهُ وَمَنْ يَقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

(١) أي: صخرة كبيرة.

(٢) أحمد (١٦٩٧٤) وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٣) أي: تشبهه بالحق.

(٤) مصنف عبد الرزاق (٣٥٩ / ١١).

وقال حذيفة أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليأتين على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغرق»^(١). ولا يدعو بدعاء الغرق إلا من عرف خطر الفتنة وخاف استطارتها شُعبَ إيمانه واستطالتها أركان دينه!

وقال البخاري: قال ابن عيينة عن خلف بن حوشب: كانوا^(٢) يستحبون أن يتمثلوا بهاذه الأبيات عند الفتن، قال امرؤ القيس:

الحرب أوّل ما تكون فتيةً تسعى بزینتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشبّ ضرامُها ولّت عجوزًا غير ذات حليل
شمطاء يُنكر لوئها وتغيرت مكروهةً للشّمّ والتقبيل^(٣)

هذا؛ واعلم أن كل تدبير الله لعبده فهو ناشئ عن علم وحكمة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

وتأمل ذكر هذين الاسمين الجليلين ثلاثًا في سورة يوسف عليه السلام: فقد ذكرت في بداية القصة حين قص رؤياه على والده، ثم في وسطها الشديد حينما فقد يعقوب ثلاثة من ولده، ثم في نهايتها حينما سجد له الإخوة والأبوان بمصر وآثر

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٠ / ٢٠١).

(٢) أي: السلف.

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في الفتن، باب: الفتنة التي تموج كموج البحر. وقال الحافظ في الفتح (٥٣/١٣): «وصله البخاري في التاريخ الصغير عن عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا سفيان بن عيينة». وقال أيضًا: «والمحفوظ أن الأبيات المذكورة لعمر بن معد يكرب الزبيدي، كما جزم به أبو العباس المبرد في الكامل».

اللاحق بالصالحين. والله المستعان وهو العليم الحكيم، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.



فقهُ الفتن وحالُ المؤمن حيالها

الناصح لنفسه يخشى مضلات الفتن، ويستعِذ بالله منها، ويفرقُ من تقلبِ القلوب، وتنكس البصائر، واختلاج الأديان، واختلاس العلم والقرآن والإيمان، ويبذل كل جهده الأسباب الموصلة للسلامة منها.

وقد تظافرت الأحاديث المبيّنة لحال المؤمن مع الفتن، ولا بد له منها صغيرة كانت أو كبيرة، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوْ أَنْ يُخْتَلَسَ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ». فَقَالَ زِيَادُ بْنُ كَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ! فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقَرِّئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ: «تَكَلَّمْتُ أَمْلَكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لَأَعِدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟».

قال جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عُبادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لِأَحَدِثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ. يَوْشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا^(١).

وقد سبق حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَائِمُّ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ - قَالَهَا ثَلَاثًا - وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ،

(١) الترمذي (٢٦٥٣) وصححه الألباني.

فَوَاهَا» (١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخاف عليكم فتناً كأثنا الدخان، يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بدنه».

وقال أيضاً وهو المجرب الحكيم العليم بالفتن: «إنها ستكون أمورٌ مشتهيات، فعليكم بالتؤدة، فإنك أن تكون تابعاً في الخير، خيرٌ من أن تكون رأساً في الشر». والتؤدة هي التائي والتمهل والرزانة.

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله إن الرجل ليفتن في ساعة واحدة؛ فينقلب عن دينه»!

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال؛ فتنا كَقَطْعِ اللَّيْلِ المَظْلَمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمِيسِي كَافِرًا، وَيُمِيسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» (٢). أي: كونوا من أهل التحقيق والمداومة على العبادات قبل الفتن المدهمة؛ فالعبادات أمانٌ من الفتن بإذن الله تعالى.

وقال ﷺ مؤكداً هذا المعنى الشريف الجليل في ضرورة وفاقية المؤمن في الفتن للفتن ومداومة العبادة: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصّة أحدكم، أو أمر العامة» (٣).

(١) أبو داود بسند صحيح (٤٢٦٣) وأها: هي كلمة يقولها المتأسف على الشيء المعجب به. وقد مر قريباً.

(٢) مسلم (٧٦/١) (١١٨).

(٣) مسلم (٢٩٤٧) «وخاصّة أحدكم»: هي ما يخصه دون غيره من واردات البلايا، أو المشغلات، أو الموت الذي يخصه ويمنعه من العمل إن لم يبادر به قبله.

وروى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا؛ هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدِّجَالَ فَشْرًا غَائِبٌ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ»^(١).

وقال ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ خَصَالًا سِتًّا: إِمْرَةُ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَبَيْعُ الْحَكَمِ، وَاسْتِخْفَافُ الدَّمِ، وَنَشْوَا يَتَخَذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يَقْدُمُونَ الرَّجُلَ لَيْسَ بِأَفْقَهُهُمْ وَلَا أَعْلَمَهُمْ، مَا يَقْدُمُونَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُمْ»^(٢).

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»^(٣).

وَفَتَنَ الدَّمَاءَ شَدِيدَةً لَا يَسْلَمُ مِنْهَا حِينَ أَوَارَهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِمَّنْ اعْتَصَمُوا بِالْوَحْيِ وَاحْتَكَمُوا إِلَيْهِ وَالْضُّوَاءُ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْدَّعَاءِ الْمُلَحِّ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا، قَالَ خَبِيرُ الْفِتَنِ حَذِيفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا مَنْ دَعَا بِدَعَاءٍ كَدَعَاءِ الْغَرِيقِ»^(٤).

وَقَالَ حَذِيفَةُ أَيْضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِلْفِتْنَةِ وَقَفَاتٍ وَبَعَثَاتٍ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ

(١) الترمذي (٢٣٠٦) وقال: حسن غريب. وحسنه ابن باز في مجموع فتاويه (٣٣٦ / ١٦) والموت المُجْهِز: السريع العاجل.

(٢) أحمد (٤٩٤ / ٣) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢ / ٣٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧١٠ / ٢).

(٣) مسلم (٢٩٤٨).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٠١).

تموت في وقفاتها فافعل».

وسئل: ما وقفات الفتنة، وما بعثائها؟ فقال: «بعثائها سئل السيف، ووقفاتها إغمادُهُ»^(١).

وقال أيضًا: «أتتكم الفتن مثل قطع الليل المظلم، يهلك فيها كل شجاع بطل، وكل راكب موضع، وكل خطيب مُصتقع»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «تكون فتنة، أو فتن تستنظف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف»^(٣).

وقال أيوب السخيتاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل لابن الأشعث: إن أردت أن يقتلوا حولك كما قتلوا يوم الجمل حول جمل عائشة؛ فأخرج معك مسلم بن يسار، فأخرج مسلم مكرهاً»^(٤). وقالوا له كذلك في الحسن البصري؛ فهرب الحسن وتوارى، قال ابن عون: «قالوا لابن الأشعث: أخرج هذا الشيخ، يعني الحسن، فنظرت إليه بين الجسرين عليه عمامة سوداء، فغفلوا عنه، فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار حتى نجا منهم، وكاد يهلك يومئذ». وقال سليمان الربيعي: «لما كانت فتنة ابن الأشعث، انطلق عقبة بن عبد الغافر، وأبو الجوزاء، وعبد الله بن غالب في طائفة فدخلوا على الحسن، فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية. أي الحجاج. الذي سفك الدم الحرام،

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٧٣)، (٣٨٢٩٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٧٤).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٨٠).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٥٣/٧) وسير أعلام النبلاء (٥١٣/٤) والمعرفة والتاريخ (٢/

٨٦) وابن عساكر (٢٤٨/١٦) وخبر ابن عون في سير أعلام النبلاء (٥٨٣/٤).

وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: أرى ألا تقا تلوه، فإنها إن تكن عقوبةً من الله، فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيا فكم، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله، فخرجوا وهم يقولون: نُطِيعُ هذا العِلَجَ! - يعنون الحسن - قال: وهم قومٌ عرب، وخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا»^(١).

وعن أبي التّياح، عن الحسن قال: «والله ما سلّط الحجاج إلّا عقوبة، فلا تعترضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرّع»^(٢).
وقال أيوب السخيتاني في القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: «لا أعلم أحداً منهم قُتل، إلّا رُغِبَ له عن مصرعه، أو نجا إلّا ندم على ما كان منه»^(٣).
وقال ابن عون رَحِمَهُ اللهُ: «لما وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خفّ مسلمٌ فيها، وأبطأ الحسن، فارتفع الحسن، واتّضع مسلم»^(٤).

والعالم والقائد والمتبوع والرئيس يكونون كالأعلام والرايات في الفتن، فيتبعهم الناس ثقة بهم وحسن ظن لعلمهم، أو رهبة ورغبة لمناصبهم وأموالهم، فتعظم حينئذ الرزية بهم أن خفّوا في الفتن، فعن أبي قلابة: «قال لي مسلمٌ بن يسار: إنّني أحمدُ الله إليك، أنّي لم أرمِ بسهمٍ ولم أضرب فيها»^(٥) بسيف، قلت له: فكيف بمن

(١) تاريخ الإسلام (٧/ ٥٤).

(٢) تاريخ الإسلام (٧/ ٥٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٨٨).

(٤) علق الذهبي على ذلك بقوله: «قلت: إنّما يُعتبر ذلك في الآخرة، فقد يرتفعان معاً». سير

الأعلام (٤/ ٥١٣).

(٥) ويعني فتنة ابن الأشعث.

رَأَى بَيْنَ الصَّفَيْنِ فَقَالَ: هَذَا مُسْلِمٌ بَنَ يَسَارَ، لَنْ يُقَاتِلَ إِلَّا عَلَى حَقٍّ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ؟ فَبَكَى وَاللَّهِ حَتَّى وَدِدْتُ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ، فَدَخَلْتُ فِيهَا»^(١).

قال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ يَنْجُ بِالْبَصْرَةِ مِنْ فِتْنَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا رَجُلَانِ: مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ؛ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا بِالْكُوفَةِ إِلَّا رَجُلَانِ: خَيْثِمَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَعْفِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ»^(٢).

وقد كان مطرف بن عبد الله من أئمة اعتزال الفتن، وكان الحسن يحتسب في ردِّ الناس عنها. فكان مطرف يهرب عنها إثارةً لسلامة دينه، وكان الحسن يخطم وجهها بالعلم شفقةً على الناس منها. قال أبو عقيل بشير بن عقيّة: قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير أبي العلاء: ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج؟ قال: «كان يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة؛ حتى ينجلي لهم عما انجلت»^(٣). فقد كان الحسن

(١) ابن عساكر (٢٤٨ / ١٦) وابن سعد (١٨٨ / ٧) والمعرفة والتاريخ (٨٦ / ٢) و (٨٧) وذكر سفيان بن عيينة أَنَّ الحسن البصري لما مات مسلم بن يسار قال: «وَأَمْعَلَهُ». ومسلم رَحِمَهُ اللهُ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ وَشُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُبَّادِ الْمَشْهُورِينَ خَاصَّةً فِي شَأْنِ الصَّلَاةِ، وَالْعَالَمِ الْمُجْتَهِدِ هُوَ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْأَجْرَيْنِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وله ترجمة مسهبة في تاريخ ابن عساكر (٢٤٣ / ١٦).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٣٠٢ / ٧).

(٣) وقد حُفِظَتْ لِمُطَرِّفٍ وَصَايَا نَفِيسَةٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ: مِنْ صِفَا عَمَلِهِ صِفَا لِسَانِهِ، وَمِنْ خُلُطِ خُلُطٍ لَهُ. وَقَالَ: فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ. وَقَالَ: إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الصَّبَّارُ الشُّكُورُ، الَّذِي إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ. وَقَالَ: الْخَيْرُ الَّذِي لَا شَرَّ فِيهِ؛ الشُّكْرُ مَعَ الْعَافِيَةِ، فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرِ شَاكِرٍ، وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَى غَيْرِ صَابِرٍ.

يخالطهم وينكر عليهم، وكان مطرف يُزايِلهم حتى تنجلي.

وعن أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاءٌ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مِنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قالوا: يا رسول الله، أَلَا نَقَاتِلُهُمْ؟ قال: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»^(١).

وقيل لحذيفة: أَكْفَرْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ قال: «لَا، وَلَكِنْ كَانَتْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةُ فَيَأْبُونَهَا، فَيُكْرَهُونَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ فَيَأْبُونَهَا، حَتَّى ضُرِبُوا عَلَيْهَا بِالسِّبَاطِ وَالسِّيفِ؛ حَتَّى خَاضُوا إِخَاضَةَ الْمَاءِ، حَتَّى لَمْ يَعْرِفُوا مَعْرُوفًا، وَلَمْ يُنْكِرُوا مَنَكْرًا»^(٢).

وجاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: متى أضلّ، فقال: «إِذَا كَانَ عَلَيْكَ أَمْرَاءٌ إِنْ أَطَعْتَهُمْ أَضَلُّوكَ، وَإِنْ عَصَيْتَهُمْ قَتَلُوكَ».

وقال حذيفة: «وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصْبِحُ بَصِيرًا، ثُمَّ يُمَسِي وَمَا يَنْظُرُ بِشُفْرِ»^(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبَسْتُمْ الْفِتْنَةَ، يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِنْ غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ؟ قالوا: متى يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إِذَا كَثُرَتْ قَرَاوِكُمْ، وَقَلَّتْ

(١) مسلم (٢٣/٦) (١٨٥٤) (٦٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٩٧).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٨٩).

أُمنّاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة»^(١).
 ألا إن دين الله واحد وشريعته بيّنة وسبيله مستقيم فمن اعتصم به حفظه، فإن كان عالماً مجتهداً فهو بين الأجر والأجرين. قال حذيفة: «من أحبّ منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فليُنظر، فإن رأى حراماً ما كان يراه حلالاً، أو يرى حلالاً ما كان يراه حراماً؛ فقد أصابته»^(٢).

وعن طارق بن شهاب، قال: «جلّد خالد بن الوليد رجلاً حدّاً، فلمّا كان من الغد جلّد رجلاً آخر حدّاً، فقال رجل: هذه والله الفتنة، جلّد أمس رجلاً في حدّ، وجلّد اليوم رجلاً في حدّ، فقال خالد: ليست هذه بفتنة، إنما الفتنة أن تكون في أرض يُعمل فيها بالمعاصي؛ فتريد أن تخرج منها إلى أرضٍ لا يُعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها»^(٣)!

وسأسلطُ الضوء في فقه الفتن هنا على زاوية فتن الاختلاف بين الراعي والرعية لاستضرام نارها في المسلمين، فأقول - وبالله أستعين -: لا بدّ لطالب العلم من التأني في تنزيل نصوص الفتن: قال حفص بن غياث لسفيان الثوري: يا أبا

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٠٥١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣١١) وهي من نفيس الحكم وفريد الوصايا، وعليها من قبس النبوة ضياء.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٤٩٨) وهي ليست مضطردة، فقد يتبين له خطؤه بالأدلة، فالواجب رجوعه للحق، لكنّها إن كثرت؛ فهي علامة على ضرورة مراجعة حال القلب مع الله تعالى، فالشُّبه خطّافَةٌ والقلوب ضعيفة.

عبد الله، إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ فقال: «إن مرَّ على بابك فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه»^(١).

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ بِالذِّجَالِ فَلِينًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ؛ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»^(٢).

وسنقف مع فتنةٍ أصبحت فيصلاً في مذهب أهل السنة والجماعة، إذ استقرَّ مذهبهم بعدها على الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم^(٣).

وهي أشبهُ الفتن بما لحقها من فتن في الدماء في الخروج على أئمة الجور من سلاطين الإسلام، ومع سَبْقِ فتنٍ كبارٍ بين المسلمين كالجمل وصفين^(٤).....

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٣).

(٢) مسلم (٤٨/٨).

(٣) قال ابن تيمية: «ولهذا استقرَّ مذهبُ أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم». منهاج السنة (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠) وانظر: الإمامة العظمى، أ.د. الدميحي (٥١٢).

(٤) وتختلف الجمل وصفين عن غيرهما في أمور، منها: أنها الفتنة الأولى في قتال المسلمين بعضهم بعضاً، وفي جلاله أقدار سادتها من الصحابة المرضيين، وعظيم إيمانهم وعلمهم بالله تعالى وبأحكام شريعته وزهدهم في الدنيا، وفي أَنَّ أمير المؤمنين عليّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمامٌ عدلٌ ولا يجوز بحالٍ نسبته للجور. وفي أَنَّ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه =

لم يبايعوا علياً، إلى غير تلك الفروق، ولكنها بكل حال فتنةٌ سكبت دماء المسلمين وآلمت كل المؤمنين، والله الأمر من قبل ومن بعد.

ومذهب أهل السنة هو السكوت عما شجر بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعدم الخوض فيها إلا لاعتبارٍ أو دفاعٍ ونحو ذلك. وهم فيما شجر بينهم بين الأجر والأجرين والمغفرة، رحمهم الله ورضي عنهم، ولا نذكرهم إلا بخير وبرٍّ. ولما سُئِلَ عمر بن عبد العزيز عن ذلك قال: «عصم الله يدي من دمائهم، أفلا أعصم لساني من أعراضهم». وقال شيخ الإسلام في بيان معتقد أهل السنة والجماعة في عقيدته الواسطية - التي أمهل خصومه ثلاث سنين أن يجدوا فيها حرفاً مخالفاً للكتاب والسنة -: «وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ. ويقولون: إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَةَ فِي مَسَاوِيهِمْ؛ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنَقِصَ وَغَيْرُ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ: هُمْ فِيهِ مَعْدُورُونَ، إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مَصْبُيُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مَخْطُئُونَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَصِغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوْجِبُ مَغْفَرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ، حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ» «وَإِنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ». ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتَلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كَفَّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ بِالْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ؛ إِنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ لَهُمْ. ثُمَّ الْقَدَرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلٍ بَعْضُهُمْ قَلِيلٌ نَزَرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالْهَجْرَةِ وَالنَّصْرَةِ

والعلم النافع والعمل الصالح. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله به عليهم من الفضائل؛ علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى». مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٥-١٥٦).

وكر بلاء^(١) والحرّة^(٢) وابن الزبير^(٣) والنفس الزكية^(٤) لها، لكنها تكررت على الرغم

(١) الحسين السبط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصلى الله وسلم على جدّه لم يبايع يزيد، وخرج لإقامة الشرع عبر تولّيه لإمرة المؤمنين بعدما دعاه أهل الكوفة ثم خذلوه لسيوف جند عبيد الله بن زياد التي رفعته شهيداً لربه تعالى سنة إحدى وستين. وكان قد نهاه محمد بن الحنفية وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم، ولكن قدر الله نافذ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) وقعة الحرّة: هي الواقعة التي كانت بالمدينة في زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين. وسببها أنّ عبد الله بن حنظلة وغيره من أهل المدينة وفدوا إلى يزيد فأروا منه ما لا يصلح، فرجعوا إلى المدينة فخلعوه وبايعوا عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم، وأرسل إليهم يزيد مسلم بن عقبة الذي سمّاه الناس بعدها مسرف بن عقبة، فأوقع بأهل المدينة وقعة عظيمة، وقتل كثيراً جداً من الناس. وسيأتي ذكرها في محلّها إن شاء الله تعالى.

(٣) ذكر ابن سعد في الطبقات (١٤٧/٥) أنّ ابن الزبير لم يدع لنفسه حتى توفي يزيد بن معاوية. وقال ابن الجوزي في تلقيح فهم أهل الأثر (١ / ٦١): «ثم بويع عبد الله بن الزبير لتسع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعه ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة أربع وستين». فمروان إذن هو الذي خرج على الزبير بعدما بويع له بإمرة المؤمنين في أكثر بلاد الإسلام. وقال الذهبي في السير (٣ / ٣٦٤): «بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين، وحكم على الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام. ولم يستوسق له الأمر، ومن ثم لم يعدّه بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعدّ دولته زمن فرقة، فإنّ مروان غلب على الشام ثم مصر. وقام عند مصرعه ابنه عبد الملك بن مروان، وحارب ابن الزبير، وقتل ابن الزبير رحمه الله، فاستقل بالخلافة عبد الملك وآله، واستوسق لهم الأمر، إلى أن قهرهم بنو العباس بعد ملك

ستين عامًا». وقال د. الصلاحي: «بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإنّ هذا لا يكفي للبيعة، والذين بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب. وهذا مع أنّ معاوية بن يزيد لم يعيش طويلاً، وترك الأمر شورى، ولم يستخلف أحداً، ولم يوص إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضاً إلا بعض جهات منها، ولم يكن رافضاً بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وهكذا تمت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام، وأصبح الخليفة الشرعي، وعين نوابه على الأقاليم.. وكان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير، فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فتّ في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يُلْقَ رايته، وظلّ يقاوم حتى النهاية. ولم يضع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير، ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج بن يوسف، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذي كان مرابطاً بوادي القرى أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل. وفي محاولة لإنهاء ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، ثم بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا يسحبون واحداً تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج

الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير. وتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً، وفي الوقت نفسه كان بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير، وشدد على ابن الزبير، وتخرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمئة فارس وراجل؛ فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد، وكان لا يخرج على أهل الباب إلا قرّقههم وبدد شملهم، وهو غيرُ دارعٍ حتى يخرجهم إلى الأبطح ثم يصيح: لو كان قرني واحداً كفيته. فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضاً: إي والله وألف رجل. ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسدٌ ضاري، حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته. وفي آخر يوم من حياته ودّع أمه أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم صَلَّى الفجر بأصحابه فقراً: (ن والقلم) حرفاً حرفاً، ثم سلّم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطبهم وأنشد:

فلمست بُمبتاع الحياة بسُبةً ولا مُرتقٍ من خشية الموت سُلمًا

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فُرْمِي بِأَجْرَةٍ فَأَصَابَتْهُ فِي وَجْهِهِ فَارْتَعَشَ لَهَا، وَدَمِيَ وَجْهِهِ، فَلَمَّا وَجَدَ سَخُونَةَ الدَّمِ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَحِيَّتِهِ، تَمَثَّلَ:

فلسنا على الأعقابِ تدمي كلومنا ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ

وقاتلهم قتالاً شديداً، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة، وله ثلاث وسبعون سنة، وتولّى قتله رجلٌ من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكّر من هذا! فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين. قال: نعم، هو أعذر، لأنّا محاصروه، وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة، يتتصف منّا، بل يفضل علينا في كل موقف،

=

فلما بلغ ذلك عبد الملك صوّب طارقاً. ثم صلب الحجاجُ جثّة ابن الزبير على ثنية كدا عند الحجون، وأرسل رأسه لعبد الملك. ومَرَّ عبد الله بن عمر عليه بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهارك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهارك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهارك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوّماً قوّاماً ووصولاً للرحم، أما والله لأُمّة أنت شرّها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر، فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه؛ فأنزله عن جذعه، ودفن هناك رحمه الله. واجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وأصبح الخليفة الشرعي، وهو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السيف والقتال. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (٢/ ٤٥١) باختصار وزيادات. وانظر: تاريخ الطبري (٧/ ٧٩) والبداية والنهاية (٨/ ٣٦٦).

(٤) قال أبو العباس الناصري في الاستقصاء: «لما صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام مروان بن محمد آخر خلفائهم؛ اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يُقدّمونه للخلافة، فوقع اختيارهم على محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الملقب بالنفس الزكية، فبايعوا له بالخلافة، وسلّموا له الأمر بأجمعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلى بني العباس، فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدّمه فيهم، لِمَا علموا له من الفضل عليهم.

قال ابن خلدون: ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجّان له حين خرج بالحجاز، ويريان أنّ إمامته أصحّ من إمامة أبي جعفر المنصور؛ لانعقاد هذه البيعة أولاً. وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقه، فتأدّت إلى الإمامين المحنة بسبب

ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْفُتَيَا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْقِضَاءِ.

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور؛ قيل له: إنَّ محمد بن عبد الله يروم الخروج عليك، وأنَّ دعاته قد ظهوروا بخراسان. فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المري بحبس عبد الله بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فحبس جماعة من بنيته وإخوته وبني عمه. قال ابن خلدون: في خمسة وأربعين من أكابرهم. وقدم المنصور المدينة في حجة حجها، فساقهم معه إلى العراق، وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم. وجدَّ المنصور في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيّيا فلم يُجْبَسَا في جملة من حبس من عشيرتهم. ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومئة وأرهق محمد بن عبد الله الطلب وأعيت عليه المذاهب؛ ظهر بالمدينة النبوية ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه. واستفتى أهل المدينة الإمام مالك رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْخُرُوجِ مع محمد بن عبد الله وقالوا: في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: إنَّما يبيعتم مكرهين. فتسارع الناس إلى محمد، وأجابوا دعوته، ولزم الإمام ملك بيته. وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله ﷺ، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم، وتسمّى بالمهدي، ولم يتخلّف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل.

وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة؛ فأشفق من ذلك غاية الإشفاق، وكتب إلى محمد كتاب أمان ويعدّه الجميل إن هو راجع الطاعة، فأجابه محمد بعدم قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأفضلية واستحقاق الخلافة. - قلت: وقد سردها ابن كثير في تاريخه، وعلّق عليها. وفيها بيان سعة علم الرجلين، وقوّة حجاجيهما، وجودة قريحتيهما. - وآخر الأمر: أنَّ المنصور بعث لحرب

من ذلك حتى صارت عَلَمًا لما بعدها، وعلى ما فيها وما سَبَقَهَا وَلَحِقَهَا من أَلَمٍ وَأَسَى ومصائب؛ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي طَيِّهِنَّ حِكْمًا لَا يُحِيطُ بِهَا مَخْلُوقٌ، وَمَنْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي فِتْنَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ أَنَّ جَلَّى اللَّهُ تَعَالَى لِلْأَمَةِ خَطَرَ الْإِفْتِرَاقِ وَالنِّزَاعِ وَعَدَمَ الرُّجُوعِ لِتَحْكِيمِ الشَّرْعِ، وَضَرُورَةَ مِرَاعَاةِ الْجَمَاعَةِ فِي نِزَاعِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَةِ.

وقد كان ابن الأشعث قد خلع عبد الملك بن مروان وأخذ البيعة لنفسه، فالتقوا في معارك هائلة شديدة؛ كالزاوية، حتى كان آخرها معركة دير الجماجم المأساوية، وهي المعركة الفاصلة التي جرت بين الحجاج بن يوسف والي عبد الملك بن مروان وجنده وبين عبد الرحمن بن الأشعث ومعه جمع كثيف من

محمد المهدي ابن عمه عيسى بن موسى العباسي، فاستعدَّ المهدي للقتال، وأدار على المدينة الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة. وخرج إليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه، واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأبلى محمد المهدي في ذلك اليوم بلاءً عظيماً، وقتل بيده سبعين رجلاً. ولما اشتد القتال وعان مَخَايِلُ الْإِخْتِلَالِ؛ انصرف فاغتسل وتحنَّط وجمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي كان فيه أسماء من بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده، ثم عاد إلى المعركة وقد تفرَّق عنه جُلُّ أصحابه، ولم يبق معه إِلَّا نَحْوُ ثَلَاثِمِئَةٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: نَحْنُ الْيَوْمَ فِي عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى ضَرَبَ فَسَقَطَ لِرِكْبَتَيْهِ، وَطَعَنَهُ حَمِيدُ بْنُ قَحْطَبَةَ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ احْتَزَّ رَأْسَهُ وَأَتَى بِهِ عَيْسَى بْنُ مُوسَى، فَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْمَنْصُورِ. وَكَانَ مَقْتُلَ مُحَمَّدٍ الْمُهَدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مِثْقَلِ رَمَضَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَةً، وَقُتِلَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ». الاستقصاء لأحمد الناصري (٢٠٤/١-٢٠٦) باختصار يسير.

العلماء والمقاتلين، وقد قُتل فيها وبعدها كثيرٌ من أجلةٍ وسادةِ التابعين وغيرهم، ومختصرها: أنَّ الحجاج كان شديد البغض لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، يقول: ما رأيته قط إلا أردت قتله. ثم إنه أبعدَه عنه وأمره على سجستان بعد موت عبيد الله بن أبي بكرة، فسار إليها ففتح فتوحًا، وسار ينهب بلاد رتبيل التركي ويأسر ويخرب، ثم بعث إليه الحجاج مع هذا كتابًا يأمره بالوغل في تلك البلاد، ويُضعِفُ همَّته ويُعجزه. فغضب ابن الأشعث وخطب الناس، وكان معه رؤوس أهل العراق فقال: إنَّ أميركم كتب إليَّ بتعجيل الوغل بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتُم وآبى إذا أبيتُم. فثار إليه الناس فقالوا: لا بل تأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع، وخلعوا الحجاج وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث. ثم أقبلوا كالسيل المنحدر، وانضم إلى ابن الأشعث جيش عظيم، فعجز عنهم الحجاج، واستصرخ بأمير المؤمنين، فجزع لذلك عبد الملك بن مروان، وجهاز العساكر الشامية في الحال^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «ودخل ابن الأشعث الكوفة، فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان. وتفاقم الأمر، وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك، واشتدَّ الحال، وتفرقت الكلمة جدًّا، وعظم الخطب، واتسع الخرق على الراقع. قال الواقدي: ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية؛ جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرّة بعد مرّة، فقال القراء - وكان عليهم جيلة بن

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٣٤٣).

زحر :- أيها الناس ليس الفرار من أحدٍ بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم. وقال سعيد بن جبير نحو ذلك. وقال الشعبي: قاتلوهم على جورهم واستذلّاهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة.

ثم حملت القراء - وهم العلماء - على جيش الحجاج حملة صادقة، ثم رجعوا فإذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعاً، وانهزم جيش ابن الأشعث. فذهب ابن الأشعث إلى الكوفة فبايعه أهلها. ثم كانت وقعة دير الجماجم إذ جاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم، ومعه جنود كثيرة، وفيهم القراء وخلق من الصالحين.

وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مئة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم، وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام، وخندق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً في كل حين، حتى أُصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم، واستمر هذا الحال مدة طويلة، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يُرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج؛ فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جداً، وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق يقول لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم؛ عزلته عنكم، وبعثت عليكم أعطيائكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون

عليه أميرًا ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان. وقال في عهده هذا: فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك؛ فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك، فقالوا: ننظر في أمرنا غدًا ونردّ عليكم الخبر عشيّة، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث، فقام فيهم خطيبًا وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمارة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج، فنفر الناس من كل جانب وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عددًا وعددًا، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم، وذلّوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبدًا^(١). ثم جددوا خلع عبد الملك

(١) وليتهم قبلوا ذلك فهو ما خرجوا لأجله، ولو علموا ما يستقبلهم في أيامهم من انقلاب الموازين ما ترددوا، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ والحمد لله على كل حال، وله الحكم الباهرة، والعلم التام، والإحاطة الكاملة، والله بالغ أمره.

وقد ندم كثير ممن اندفعوا في الفتنة، قال طلحة بن مصرف رحمه الله: «شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت. ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها». سير أعلام النبلاء (١٩٢/٥) وقال محمد بن طلحة: «رأني زبيد اليامي مع العلاء بن

ونائبه ثانية، واتفقوا على ذلك كلهم.

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمدًا الخبر؛ قالوا للحجاج: شأنك بهم إذا، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، فكانا إذا لقياه سلماً عليه بالإمرة، ويسلم هو أيضاً عليهم بالإمرة، وتولى الحجاج أمر الحرب وتديرها كما كان قبل ذلك، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب. وكان في جيش ابن الأشعث سعيد بن جبير وعامر الشعبي^(١) وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد وغيرهم، وجعلوا يقتتلون في كل يوم، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق والأقاليم من العلف والطعام، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج؛ فهم في أضيق

عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم؛ ما ضحكت، ولوددت أن يميني قطعت من العضد وأني لم أكن شهدت». تاريخ خليفة بن خياط (٢٨٧).

(١) حدث الشعبي عن نفسه لما أتى به إلى الحجاج بعد دير الجماجم، قال: «فلما دخلت على الحجاج قلت: أيها الأمير. وفي ابتدائه بندائه بالإمرة براعة استهلال باستعطافه بعد إقراره بالإمرة والملاح بالبيعة له ولكن خلفه، إن الناس قد أ مروني أن أعذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وإيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مرَدْنَا عليك وحرَضنا وجهَدْنَا، فما كنَّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرَك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرَّت إليه أيدينا، وإن عفوت عَنَّا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحب إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماننا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدنا؟ - وكان الحجاج يَصِلُهُ قبل ذلك. فقلت: أصلح الله الأمير، اكتحلتُ بعدك السهر، واستوعرت السهل، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا شعبي فانصرف». الكامل في التاريخ (١٦٦/٣).

حال من العيش، وقلة من الطعام، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه، وما زالت الحرب وهم على حالهم وقتلهم في كل يوم أو يوم بعد يوم، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين والناس متواقفون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم، والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة، وفي غالب الأيام تكون النصر لأهل العراق على أهل الشام، حتى قيل: إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم، ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذي هو فيه، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحر عدوه، وكان له خبرة بالحرب، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء، لأن الناس كانوا تبعاً لهم، وهم الذين يُجرّضونهم على القتال والناس يقتدون بهم، فصبر القراء لحملة جيشه، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم، وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش؛ فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه قل قليل من الناس، فأتبعه الحجاج جيشاً كثيفاً فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلاً أو أسراً، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم والكور والرساتيق، وهم في أثره حتى وصل إلى كرمان، وأتبعه الشاميون فنزلوا في قصر كان فيه أهل العراق قبلهم. ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمنه وعظمه. عندها كتب الحجاج إلى رتبيل يقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليّ بابن الأشعث

لأبعثنَّ إلى بلادك ألف ألف مقاتل، ولا خربنَّها. فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث، ف قيل: إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج. والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاذ وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح، صعد ابن الأشعث وهو مُقيَّد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفرَّ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزَّه، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج، فأمر فطيف برأسه في العراق، ثم بعثه إلى عبد الملك فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر.

وقد فُقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث، فمنهم من هرب، ومنهم من قُتل في المعركة، ومنهم من أُسرَ ف ضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تَبَّعه الحجاج حتى قتله. وقد سَمَّى خليفةُ بن خياط طائفة من الأعيان، فمنهم: مسلم بن يسار المزني، وأبو مرانة العجلي قتل، وعقبة بن عبد الغفار قتل، وعقبة بن وشاح قتل، وعبد الله بن خالد الجهضمي قتل، وأبو الجوزاء الربيعي قتل، والنضر بن أنس، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي، ومالك بن دينار.

ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى قتلا صبراً بين يدي الحجاج، وعبد الله بن شداد، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، والمعروور بن سويد، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وأبو البختري، وطلحة بن

مُصَرَّف، وزبيد بن الحارث الياميان، وعطاء بن السائب.

والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنما هو كندي من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش^(١)، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين؛ فأبى الصديق عليهم ذلك، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً، ثم رجع عنه.

فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش، ويباعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد! ولهذا لما كانت هذه زلة وفلته؛ نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير، فإننا لله وإنا إليه راجعون^(٢).

ولقد كان هناك جمع من العلماء عارضوا هذه الفتنة أو اعتزلوها اتباعاً للأدلة، «ومن أبرز هؤلاء: أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي، وأبو قلابة الجرمي، وكان يعتب على غيره ممن شارك، ومنهم إبراهيم النخعي، وكان يعيب على سعيد بن

(١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «الأئمة من قريش، إذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وفوا، وإن استرحموا رحموا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١٦٣ / ٢) قال الأرناؤوط والأسد: إسناده صحيح، وأخرجه أحمد (١٢٩ / ٣).

(٢) البداية والنهاية (٩ / ٤٩-٦٩) باختصار. وانظر: الطبري (٨ / ٤٠) وابن الأثير (٤ / ٥٠٢) وابن الأعمش (٧ / ١٥٧).

جبر مشاركتة فيها، ومنهم أيوب السخيتاني، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً
الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى، ومنهم مُطَرِّف بن عبد الله الشَّخِير، ومنهم
مجاهد بن جبر، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي، ومنهم محمد بن سيرين،
ومنهم الحسن البصري^(١).

قال شيخ الإسلام: «وقلّ من خرج على إمام ذي سلطان؛ إلا وكان ما تولّد
على فعله من الشرّ أعظم مما تولّد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة فإنهم
هُزِمُوا وهُزِمَ أصحابهم، فلا أقاموا ديناً، ولا أبَقُوا ديناً^(٢)، والله تعالى لا يأمرُ بأمرٍ
لا يحصل فيه صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. وكان أفاضلُ المسلمين ينهون عن

(١) عن سلم بن أبي الذيال قال: «سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام، فقال:
يا أبا سعيد، ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع
هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟
فغضب، ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع
أمير المؤمنين». الطبقات (١٦٤/٧) عن: الدولة الأموية للصلاحي (١٨/٣).

(٢) أورد الإمام ابن جرير في تاريخه (٢٦٦/٧) بعضاً مما قاله أصحاب ابن الأشعث فيما
بعد، ومن ذلك:

أيا لهفًا ويا حُزناً جميعاً	ويا حرّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً	وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كُنّا أناساً أهل دينٍ	فنصبر في البلاء إذا ابتُلينا
وما كُنّا أناساً أهل دنيا	فنمنعها ولو لم نَرُج دينا
تركنا دورنا لطغام عكّ	وأنباط القرى والأشعرينا

الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد»^(١).

وبعد؛ فعلى المؤمن أن يكون بعيداً عن موارد ومصادر الفتن، معتزلاً لها، ضارعاً إلى ربه من مضلاتها، والفتنة إذا أقبلت عرفها العلماء، حتى إذا تكشفت وانجلت عرفها الناس، ولا عاصم إلا الله.

واعلم-رحمك وحفظك وهداك الله تعالى- أن مراعاة الاجتماع العام للأمة مع النقص أولى من تحصيل بعض السنن الخاصة، وتأمل كيف أتم ابن مسعود خلف عثمان في منى وقال: «الخلاف شر»^(٢).

وصلّى ابن مسعود وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خلف الوليد بن عقبة مع سُكره مراعاةً للاجتماع، فَأُنْكَرَا ولم يُزَايَلَا.

وكذلك فعل أنس لما سأله رجل عن وقت الرمي فأخبره ثم قال: «افعل كما يفعل إمامك»^(٣).

وقد أفتى الإمام أحمد من صلّى خلف من يقنت في الفجر بالمتابعة مراعاةً للاجتماع، فالاجتماع مقصود لذاته، ومن أعظم الاجتماعات الاجتماع على الإمام الأعظم، وتأمل فضيلة تنازل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبط رسول الله ﷺ وريحانته عن

(١) منهاج السنة (٢/٢٤١).

(٢) سنن أبي داود (٢/١٤٥) (١٩٦٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/٢٥٢).

إمارة المؤمنين لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مراعاة لاجتماع المسلمين على إمام واحد، فاغتنب به أهل الإسلام حتى سَمُوا ذلك العام: عام الجماعة.

بل قد يصل الأمر بأن ينقلب المفضول فاضلاً مراعاة لتأليف الناس؛ قال شيخ الإسلام: «ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر، ثم صلى خلفه مُتَمًّا»^(١).

هذا وإن الموفق الحكيم هو من نظر لأُمُور الاختلاف السائغ بسعة علم وبُعد أُفقٍ ودقة فقه، فحواها جميعاً وأدخلها في نطاق قبوله إجمالاً، وردّ مشتبهاً لمحكمها ومجملها لمفصلها، وتبع أرجحها دليلاً وأسعدها برهاناً وعذر من خالفه من أهلها. ولا بأس من عتب بين الإخوة برفق، إثباتاً لدليل أو تبياناً لدلالة، نصحاً لمؤمن وإعذاراً لسفيه وتغمّداً لهفوة.

لذلك فعليك - يا مريد فكاك نفسه غداً - أن تتبّه لمعيار حكمك حتى لا تتناقض، وإذا علمت بأصل صحيح فاطرده ولا تنقضه، واحذر التناقض والانتقائية، وليسع المؤمنين عقلك وعلمك وحلمك.

ومن مسائل الاجتماع: قبول أهل السنة لولاية المتغلب المسلم اضطراراً لا اختياراً، لأن منازعته بعد تمكّنه مفضية إلى مفسدة أكبر من بقاءه، مع استمرارهم في

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٠٧) وانظر: الفتاوى الكبرى (٢/٢٥٢).

مناصحته والاحتساب عليه والدعاء له بالصلاح، والتعاون معه على البر والتقوى ما استطاعوا لذلك سبيلاً. ومن أعظم قواعد الاحتساب: العلم بالحكم، والتثبت من صاحبه قبله، ثم الرفق أثناءه، ثم الصبر الجميل بعده.

ولقد نقل إجماع السلف بالصبر على ولاية المتغلب المسلم غير واحد، فإذا تقرّر هذا فاعلم أن قبول ولاية المتغلب في حقيقته قوّة وليس ضعفاً. أما ما يظنه بعض الناس من خلاف ذلك ونيز السلفية - التي هي الإسلام المحض - بالضعف والخنوع لقولها بانعقاد ولاية المتغلب المسلم، فالجواب من وجهين:

أولاً: أن هذا مقتضى الشرع، والأدلة في ذلك صحيحة صريحة كثيرة متنوعة، وبما أنها كذلك فيكفي المؤمن علمه بها ليستيقن قلبه وتطمئن نفسه، ويعلم أن أمر الله كله خير.

ولكن لا يعني هذا ترك الإنكار على السلطان وإبراء الذمة بنصحه ونصح الأمة، والعمل على إقامة دين الله بحسب الوسع والطاقة. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خير في قوم ليسوا بناصرين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين». وقال ابن الجوزي: «يا أمير المؤمنين: إن تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُ خفتُ عليك، فقول الناصح: اتق الله، خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم».

ثانياً: أن هذا القبول قوة وعزة في الحقيقة وليس بضعف، وهذا جليٌّ لمن تأمله، فالقبول للمتغلب ومبايعته ليس لشخصه، بل لمركزه الذي يحوِّله القيام بأمر الناس، فإن غلبه غيره ببيع المتغلب الآخر، لأنَّ القبول بالأول ليس لشخصه ولا أسرته بل لوظيفته ومكانه ومقامه الذي يُقيم به دين الناس ودنياهم.

وتأمل حال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الرياض في وقت إمارة ابن رشيد للرياض، فقد قاتل بشراسة وأفتى لأهل الرياض بالقتال ضد الملك عبد العزيز حينما أراد دخول الرياض للمرة الأولى إبان معركة الصريف المشهورة. وبعد ذلك لم يعتذر الشيخ، بل قال: قد كانت لهؤلاء بيعة في أعناقنا. فالقضية إذن هي قضية مبدأ ودين، لا رَغَب ورَهَب. وتأمل حال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من الصحابة مع السلطان المتغلب المسلم والتزام بيعته والتشديد في نكثها، حتى لا تروج الفتن في الناس بسبب القتال على الإمرة.

هذا مع الحرص على الاعتزال والكف عن فتنة القتال بين المسلمين التي يكون رائدُها أهواءُ الملوك لا إقامة الشريعة، أو حتى عند أدنى التباسٍ للأمر أو اشتباهٍ في الحكم، لأن أمر الدماء عظيم وحرمتها غليظة.

وقد رجَّح ابن تيمية رحمه الله تعالى كفة من اعتزل إبان فتنة الدماء بين الصحابة، إذ لم يخف للقتال في الطرفين بعامة إلا أقل من الثلاثين، أما السواد الأعظم فقد اعتزلوا وكفوا تماماً عن القتال وهم أكثر الصحابة؛ كسعد بن أبي وقاص وابن عمر وأسامة وسعيد بن زيد وزيد بن ثابت وأبي هريرة وسلمة بن الأكوع وعمران بن حصين وصهيب ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن سلام وأبي بكر وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد بسط الكلام في ذلك في مجموع فتاواه بسطاً مُحَرَّرًا^(١).

وقال في المنهاج: «أئمة السنة يصوبون من ترك القتال، ولم يصوبوا علياً في

(١) مجموع الفتاوى (٤ / ٤٤١ - ٤٥٠).

القتال، لكنهم يقولون: هو أولى بالحق من غيره، ولا يذمّون أحداً منهم»^(١).

والخلاف في المسألة قائم وقديم، وقد رجّح النووي وابن حجر وغيرهما المشاركة بالقتال دون الاعتزال إحقاقاً للحق ونصرة له ودفعاً لصيال الباطل وحفظاً لبيضة المسلمين الواحدة وقتالاً للبغاة حتى لا يظهر الفساد ويستطيل المبطلون، ولأنه من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحملوا أحاديث النهي على الاشتباه فيمن هو صاحب الحق^(٢). وقد نسبا القول للجماهير، مع أنّ الثابت هو أنّ الغالبية الساحقة من الصحابة قد اعتزلوا الفتنة، وهم الجمهور عند الترجيح دون من بعدهم، وهم أسعد بالنصوص النبوية الصحيحة الصريحة. وللمسألة ذيول وضوابط، والمؤكد أن العافية لا يعدلها شيء.

ولا بدّ من التفريق بين مسألة: أيهما أولى بالحق عليّ أم معاوية، ومسألة: حكم قتال الناس مع إحدى الطائفتين أو القعود عنه لأنه قتال فتنة.

فالمسألة الأولى: فقولُ عامّة أهل العلم فيها: أنّ عليّاً وأصحابه أقرب الطائفتين للحق، إذ هو ظاهر النصوص، فقد روى أحمد ومسلم بسنديهما حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَفَرَّقُ أُمَّتِي فِرْقَتَيْنِ، فَمِثْرُ قُ بَيْنَهُمَا مَارِقَةٌ؛ فَيَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ» هذا لفظ الإمام أحمد، ودلالة الحديث ظاهرة.

(١) منهاج السنة (١/٥٣٨).

(٢) انظر: المنهاج للنووي (١٨/١٠) (٢٨٨٨) والفتح لابن حجر (١٣/٣٣-٣٤).

فليس لأحد تقحّم المشاقة وركوب المخالفة، فما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، سمعنا وصدّقنا وأطعنا. فإن رام أحد خلاف هذا المعنى المتبادر؛ فليس له إلا بحديث آخر صحيح صريح فيه معنى يحيل هذا الفهم. ولا أعلمه^(١).
قال شيخ الإسلام: «فهذا الحديث الصحيح دليل على أنّ كلا الطائفتين المقتلتين علي وأصحابه ومعاوية وأصحابه على حق، وأنّ علياً وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه»^(٢).

أما المسألة الثانية: فقد رجّح شيخ الإسلام أنّ الأقرب للصواب هو رأي القعود عن القتال لأنه قتال فتنة، ونسب هذا القول لأكثر أهل العلم من سلف هذه الأمة وخلفها، وقد خالف في ذلك بعض الأكابر من الصحابة ومن بعدهم من المحققين كالإمامين النووي وابن حجر لأدلة قدموها، والمسألة هنا متجاذبة الاجتهاد، والأقربُ تصويب رأي الجمهور في القعود، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام: «وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا لا من هذا الجانب ولا من هذا الجانب، واستدل التاركون للقتال بالنصوص الكثيرة عن النبي ﷺ في ترك

(١) أحمد (١١٧٥٠) وقال محققو المسند طبعة الرسالة (١٨ / ٢٧٤): «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي نضرة: وهو المنذر بن مالك العبدي، فمن رجال مسلم. محمد بن جعفر: هو المعروف بغندر، وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي».

(٢) مجموع الفتاوى (٤٦٧/٤).

القتال في الفتنة وبينوا أن هذا قتال فتنة»^(١).

وقال: «والفقهاء ليس فيهم من رأيه القتال مع من قتل عماراً؛ لكن لهم قولان مشهوران، كما كان عليهما أكابر الصحابة: منهم من يرى القتال مع عمار وطائفته، ومنهم من يرى الإمساك عن القتال مطلقاً. وفي كل من الطائفتين طوائف من السابقين الأولين. ففي القول الأول: عمار، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب. وفي الثاني: سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر ونحوهم. ولعل أكثر الأكابر من الصحابة كانوا على هذا الرأي، ولم يكن في العسكريين بعد علي أفضل من سعد بن أبي وقاص، وكان من القاعدين»^(٢). وقال: «ومنهم من يقول: كان الصواب ألا يكون قتال، وكان ترك القتال خيراً للطائفتين، فليس في الاقتتال صواب، ولكن علياً كان أقرب إلى الحق من معاوية، والقتال قتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب، وكان ترك القتال خيراً للطائفتين، مع أن علياً كان أولى بالحق. وهذا هو قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان»^(٣).

وقد ذكر ابن أبي شيبة في المصنف في «كتاب الجمل» روايات تُذيب مهج المؤمنين أسى وألمًا وكمداً على ما أصاب المسلمين من فتنة وقتل بأيدي بعضهم، فمنها عن الحارث بن جهمان، قال: «لقد رأيتنا يوم الجمل، وإنَّ رماحنا ورماحهم

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٧٧).

(٣) منهاج السنة (٤/٢١٩).

لمتشجرة، ولو شاء الرَّجُلُ أَنْ يَمْشِيَ عَلَيْهَا لَمْشَى، قال: وهؤلاء يَقُولون: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وهؤلاء يَقُولون: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(١).

قلت: وبنحو ذلك - مع الفارق - استدار الزمان في عصرنا لما اقتتل جند الملك عبد العزيز وإخوان من طاع الله - رحم الله الجميع - في وقعة السبلة، وكان الأولون يهتفون: يا أهل الشريعة، والآخرون: يا أهل التوحيد، والدماء بينهم تتصبَّب^(٢)! وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَقَدْ رَأَيْتُهُ - أي علي - يوم الجَمَلِ حين أخذتِ السُّيُوفُ مأخذَهَا يقول: «لَوَدِدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ بَعَشْرِينَ سَنَةً»^(٣).

وعن طلحة بن مصرف أَنَّ عَلِيًّا أَجْلَسَ طَلْحَةَ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ التُّرَابَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى حَسَنَ، فَقَالَ: «إِنِّي وَدِدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا»^(٤).

وقال محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلَغَ الْقَتْلَى يَوْمَ صِفِّينَ سَبْعِينَ أَلْفًا، فَمَا قَدَرُوا عَلَى عَدِّهِمْ إِلَّا بِالْقَصْبِ، وَضَعُوا عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ قَصَبَةً، ثُمَّ عَدُّوا الْقَصَبَ».

وسئل شقيق: أَشْهَدْتُ صِفِّينَ، قَالَ: «نَعَمْ، وَبُسْتُ الصَّفُونِ كَأَنَّتِ». وفي لفظ: «شَهِدْتُ صِفِّينَ، وَبُسْتُ صَفُونِ»^(٥). والآثار كثيرة موجعة أليمة!

(١) المصنف (٣٨٩٤٣).

(٢) وانظر: صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية. فصل: معركة السبلة ومأساة الانشقاق، للمؤلف.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٩٨٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٩٥١).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٩٠١٧) يسميها صَفُونِ تَبْيِيسًا لَهَا، لَشَرِّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وإذا كان سواد الصحابة الأعظم قد اعتزلوا القتال مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه مع كونه أفضل أهل زمانه قاطبة في زمن إمرته، وهو الأمير الزاهد العالم العدل العادل؛ فما الظن في القتال مع من عداه من ملوك الدنيا؟!

ومن جرد مطوّلات التاريخ وقف على أن الكثرة الساحقة من اقتتال سلاطين الإسلام فيما بينهم كان- فيما ظهر من مآلات أفعالهم بعد النصر- لغرض الملك إنشاء أو حفظاً، وليس لأن تكون كلمة الله هي العليا. وإنما تظهر المقاصد بعد النصر في المعارك، وكلمة الله عليا لا تقبل مشاركة الأغراض. ولقد ذهبوا لآخرتهم وتركوها لغيرهم، ولما هم الحجاج بالبطش بالحسن، قال: يا حجاج، كم بينك وبين آدم من الآباء؟ فأطرق الحجاج وخلى عنه. ﴿قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

وتأمل وقارن ما رواه البخاري^(١) عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال: فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، حدثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] فقال: «هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ إنما كان محمد عليه الصلاة والسلام قاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك». ومن جميل كلامه في الفتنة قوله: «من قال حي على الصلاة أجبته، ومن قال: حي

(١) البخاري (٦٦٨٢).

على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله؛ فلا» (١).

والمقصود: أن الولاية - مُلْكًا كانت أو إمرة أو سلطنة - فهي بمنظور الشرع إنما هي تكليف محض شاق يليه حساب شديد يوم الدين، وليست تشريفًا ومغنىً، وإن كانت نعم المرضعة فلبئس الفاطمة.

ولا يُؤلَّى هذا الأمر من طلبه وحرص عليه حتى لا يوكل إلى نفسه وإليه، أما من طُلب إليه وغلب على ظنه القيام فيه لله لا لحظ نفسه؛ فهو موعود بالعون والتسديد من لدن ربه، كذلك من طلبه لرؤيته عدم وجود غيره ممن يقوم مقامه كحال يوسف عليه السلام.

ومن ولي وعدل فإنه يستحق أن يكون من السبعة الذين يكرمهم الله غداً بأن يجعلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، بل لشدة فتنة السلطة والملك وندرة الإخلاص والرغبة في الآخرة فيه ابتدئ بوعد الإمام العادل قبل بقية السبعة المخلصين، ذلك أن ولايات السلطة المطلقة سمّ للروح ناقع، لا يسلم منه إلا من كان شديد التحصين بالإيمان والورع.

هذا، ولخطر مقام السلطان وخطر زعزعته على أمن الناس وسكيتهم ودينهم؛ فقد شدد الشرع في حرمة الخروج عليه أو نقض بيعته أو شق عصاه بلا مبرر ومسوّغ من الشريعة، فلا بد للسلطان من هيبة لعدله، فهو كهف الرعية الذي إليه تأوي بعد الله. والولاية إذا لم يكن لها حراسة من الشرع تناهيتها الأطماع، فأخر

(١) نقله الذهبي في السير (٣/ ٢٢٨).

ما يسقط من رؤوس الصديقين حب الرئاسة. وإن كثيراً من الفتن قد فتح بابها الإنكارُ على السلطان بالسلاح، والخروج عليه، ويسبق الخروج بالسلاح التهيُّجُ باللسان. وقال القاضي عياض بشأن خروج الحسين وأهل الحرة وابن الأشعث وغيرهم من السلف: «وقيل: إن هذا الخلاف كان أولاً، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم. والله أعلم»^(١).

وبالجملة فالمنهج السلفي ليس ابتداءً لأقوالٍ وأفعالٍ ومناهج، بل هو الممثل للإسلام الصافي والسنة النقية من شوائب البدع وغوائل المحدثات، وهو التلاؤم حقاً للأمة.

لذا فلا تعجب من كثرة الخصوم لمنهج السلف وكثرة التغيش حول هدايته؛ فلشموخه ووضوحه ورسوخه وقوة حججه وقرب معانيه؛ لم يبق لهم سوى ضجيج التائهيين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وعلى المؤمن أن يتنبه لمكانه عند افتراق الطرق، فثم وسطٌ بين الإقدام والإحجام. وقد تبلغ الشجاعة ورغبة ما عند الله ببعض أهل العلم والصلاح حدَّ إرادة الاستشهاد كما المقاتلين في سبيل الله، حتى يرون بعض المهمات الشرعية كصيانة العامة من محن لا طاقة لهم بها، وكحفظ النفس من التلف؛ أنها مجرد وساوس شيطان.

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/٤٦٩، ٤٧٠).

بينما تحمل ركائب الجبن ونجائب إثثار العاجلة آخرين على تميع ثوابت شرعية كبرى، كأولوية حفظ الأمة عن فتنة الدين، وتأويل النصوص، وعسف النظر لمآلات الأحوال الدينية، حتى يلقونها خلفهم ظهرياً بحالهم ومقالهم، ورُبَّ منية سببها طلب الحياة.

والحق وسط بين باطلين؛ فشجاعة بلا حكمة قصور يقابل العلم بلا عمل. فخذ الحيلة لدينك؛ فزمان تقضيه في جهاد شامل خير من حبس عنه بشهادة عاجلة، ولقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين وهو أشجع بني آدم طراً.

نعم إن افترق القرآن والسلطان فلا خيار لمن في قلبه إيمان. والهدى هو إثثار الآخرة بأرفق طريق وأصدق وأوضحه، سواء بتلف الأجساد أو حفظها. والموفق من هداه الله سبيله، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الانسان: ٢٧].

هذا، وإن من شديد الفتن وغامضها: أن يغلف الباطل بلبوس حق، فيكون للحق طرف من الأمر المشتبه أو الباطل، كأن يكون للمسألة أكثر من وجه أو حال، أو أنها باطلة لكن يستثنى لها حالات من الحق، ومن هنا يدخل الشيطان للمرء من مطمعه أو مرهبه، فينظر لها تشهياً لهواه لا تطلباً لهدها، فيضل ويضل، ويهلك ويهلك.

مثاله: أن تكون القضية والمسألة مما يهيم السلطان، ويكون له فيها طرف يفرح ذلك السلطان أو يغضبه، وطرف بخلاف ذلك؛ فيطمع الناظر للمسألة أو يرهب، فيركن لطرفها السهل الهنيء دون الوعر الشديد، ويكتفي بما يستظله منها من بعض

حق، دون طرفها الآخر المكمل للحق كله، والذي بدونه تنقلب المسائل وتتكس النهايات، فيُغضي طرفاً عما لا تريده نفسه ولا يتنبه لحقيقتها بمجموعها، وينسى أمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] وتوجيه: ﴿وَيَكُونِ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ [الانفال: ٣٩] وملامة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وتهديد: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] ووعيد: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

ولكن لأن النفس قد ركنت للعاجلة؛ فإن الشيطان قد يلبس عليه بشبهة وافقت هوى، ومن ذلك بعض مسائل طاعة ولاية الأمور، أو الخروج عليهم، أو أحكام المخالفين له ونحو ذلك.

إن من فتن الزمان فتنة السلطان ورعيته حُسبة أو رغباً أو رهباً، ومن سبَر تاريخ الإسلام تبين له أن أكثر فتن الدماء هي من هذا الباب ولا تزال. وإن ظلم الحاكم لا يبرّر الخروج عليه بالسلاح ونقض بيعته وشق عصا المسلمين، ولو جاز ذلك لم تقم ولاية على الإطلاق، فسيزعّم حينها كل من أراد الخروج أن السلطان قد ظلم، ثم سيخرج على من يخلفه من يتهمه بالظلم كذلك.. وهلم جرا، حتى لا يبقى للناس ولاية ولا أمن ولا نظام، وستضربهم فتن الفوضى والافتتال وإدالة العدو وانقطاع السبل ورفع العافية. وإن كثيراً من الفتن قد عظمت واستطالت واستطارت لما هيج الناس على سلطانهم بدون مبرر صحيح جلي من الشرع، وهل تسور أهل الفتنة على أمير المؤمنين عثمان وقتلوه وشقّوا في الإسلام شقاً لم ترفأه السنين حتى اليوم؛ إلا بسبب تهيجهم ضد ما زعموه بمظالم الأمير لرعيته،

واستشاره بالمال والولايات له ولعشيرته! فهل زاد الخير ونقص الشرّ بذلك التهيج، وانظر لفتن القتل في تاريخ المسلمين بقتل الحسين السبط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والنفس الزكية وأهل الحرة وابن الأشعث وأهل السبلة في كثير من الدماء المسلمة المَهْرَاقَة على عتبات الإنكار المسلّح.

وإنّ العرب بطبيعتها تأنّف من الطاعة وتميل عنها، فجاء الإسلام فهذبها لما يُصلحها فالزمها طاعة الأمير بالمعروف، وشدد على نكث البيعة أو شقّ العصا، وبيّن أن طاعة الأمير من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، ولا قوام للناس بعد الله إلا بأمر مجتمعين عليه يسوسهم بالشرع ويقودهم بالعدل ويحوظهم بالرفق ويتعاون معهم على البر والتقوى. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عندكم فيه من الله برهان»^(٢).

(١) البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٢) البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيَّةً»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسْوِسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خَلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «أَوْفُوا بَبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ»^(٢).

وعن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَيَمُوتُ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٣).

إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى ظَلَمِ السُّلْطَانِ لَا يَعْنِي الضَّعْفَ بِحَالٍ، بَلْ هُوَ الْقُوَّةُ كُلُّهَا فِي الْحَقِيقَةِ، وَعَصِيَانُ الْهَوَى وَالصَّبْرُ عَلَى دَفْعِهِ وَرَفْعِهِ أَصْعَبُ وَأَشَدُّ مِنْ عَصِيَانِ النَّاسِ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ، وَلِسَوَادِ النَّاسِ وَضَجِيجِهِمْ عَلَى النَّفْسِ ضَغْطَةً لَا كَضَغْطَةِ السُّلْطَانِ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ، إِلَّا إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ جَبَّارًا. وَالْجَبَّارُ هُوَ الَّذِي يَقْتُلُ عَلَى هَوَاهُ.

لِذَا فَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَصَّى بِهِ أَنْ يُقَالَ: كَمَا أَنَّ لِلْسُّلْطَانِ فِتْنَةً فَلِلْجَمْعِ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدُّ، لِأَنَّ فِتْنَةَ السُّلْطَانِ قَدْ يَسْلَمُ مِنْهَا مَنْ زَهَدَ فِي الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَالْمَنْصَبِ

(١) البخاري (٦٩٣).

(٢) البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٣) البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩).

والحرية، أما فتنة الجمهور فلا يسلم منها - بإذن الله - إلا من زهد في الشاء والجاه وتأثير الخلطة ووطء الأعقاب.

وهذا الصبر على ظلم الولاة لا يمنع المظلوم من رفع شكايته لخالقه وناصره، وما ضاع في الدنيا ونسي فهو موفور في الآخرة ومحفوظ مدخر في وقت أحوج ما يكون المظلوم إليه، فعلام الحزن إذن؟ فما هي إلا بلغة عيش، وأيام دونها أيام، حتى يُتَصر للمظلوم في الدنيا أو في الآخرة، فليس من الحكمة في شيء أن يكسر المظلوم عصا جماعة المسلمين ويُضعفهم أمام أعدائهم بسبب مظلمته الخاصة مهما بلغت، فالصبر الصبر تبلغوا.

قَدْ أَتَانَا مِنْ قَتْلِهِمْ مَا كَفَانَا فَبَحْزِنْ نَبِيتٌ غَيْرَ سُورٍ

ومهما رأى الغيرون على حرمت الله من ضعف الاستقامة في الدين وانتشار الفساد وضعف الاحتساب ووهن الانقياد فعليهم بإحسان الظن بالله والعمل على رفع أسباب الفساد بما شرعه الله لهم من أبواب تغيير المنكر وإقامة المعروف، وألا يرفعوا عذاب الله بعذاب الله، بل بالتوبة والتجرد والاستغفار وحسن الاتباع، وما أكثر الأبواب المقدورة في الواقع، ولكن الكسل والتراخي والإخلال إلى الأرض والعجلة والتواكل مؤذنة للمخذول بقذف الملامة على غيره وتركية نفسه، والله المستعان.

ولقد قال لقمان لابنه: يَا بَنِيَّ، إِيَّاكَ وَالْكُسْلَ وَالضُّجْرَ، فَإِنَّكَ إِذَا كُسِلْتَ لَمْ تَوَدَّ حَقًّا، وَإِذَا ضُجِرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَقٍّ. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾

[مريم: ٨٤].

ومن سنن الله تعالى أن المنكر العام إذا لم يُحتسب في دفعه وإنكاره فإن العقوبة تكون عامة، قال الكبير العظيم سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وقال: ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦].

وهذا زمانُ الصبر مَنْ لَكَ بالتي كقبضٍ على جمرٍ فتنجو من البلاء ولقد كتب ابن تيمية كلامًا نفيسًا في وصف يأسٍ بعض الناس عند رؤية العجز العام عن القيام بأمر الدين: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأثور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه. فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»^(١).

فلا تحزن إن لم يستجب لك من حارب الله بالمعاصي، فإن كتب الله دوام ضلاله فلو قرأت عليه القرآن كله لن ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٩٥).

كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [هود: ٣٦].

والباطل لا يطيق رؤية الحق وأهله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف: ٨٨]، ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

ولكل مصلح: امضِ لسيالك متوكلاً على ربك مستنّاً بنبيك ﷺ متأملاً هذا البيان الحاسم من رب العالمين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقد أحسن من قال: الكفاية على قدر العبودية.

وكلما دهمك همٌّ بما تراه وتسمعه من تسلط أهل الباطل على الحق وأهله فرد متدبراً قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَمِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ولكل قلب أضناه الحزن لعجز يده أو لسانه عن إنكار منكر: أنكر بقلبك، ثم تدبر قول ربك: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وما دام المؤمن متعلقاً بربه، محسناً الظن به، تامّ الطمأنينة بتدبيره، مفوضاً أموره إليه؛ فهو - والله - بخيرٍ مهما اشتد بلاؤه. فلله في ثنايا ابتلائه منحة عظيمة ونعمة جلية، لا يتصورها إلا من عرف ربه بجميل صفات كماله، وكفى بنعمة الصبر والرضا والشكر والحمد والإيمان نعمة، فلله الحمد كثيراً.

ولا تحدثني عن دنياك مهما كانت حالك معها، لكن حدثني عن حال قلبك مع ربك، فهو محور سعادتك لأبد الأبد. ولقد كتب أخ لأحمد بن حنبل أيام المحنة (١):

هذي الخطوبُ ستنتهي يا أحمدُ فإذا جَزَعْتَ من الخطوبِ فَمَنْ لها
الصبرُ يقطعُ ما ترى فاصبرْ لها فعسى بها أن تنجلي ولعلها
فأجابه الإمام:

صَبَّرْتَنِي ووعظتني فأنا لها فستنجلي بل لا أقول لعلها
ويحلُّها من كان يملك عقدها ثقةً به إذ كان يملك حلها

وتذكّر أن الخلق مجرد أسباب يُجري الله تعالى أسباباً للرزق على أيديهم، فلا خوفٌ علينا في أرزاقنا فهي مكفولة مضمونة، لكن الخوف العظيم من نقص أدياننا وتقصير أعمالنا، إذ لم يضمنها الله لنا، بل وعدنا وأوعدنا، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

فاسأل الرازق الغنيَّ ابتداءً وانتهاءً وإفراداً، اسأله أنواعَ الرزاق، واعلم أن خيرها رزق الإيمان والعمل الصالح، وتوكل على الحي الذي لا يموت، وثق بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجَار عليه، ولا تلتفت بقلبك ولا بوجهك لسواه. فكل شدة إلى زوال، وكل كربة إلى ذهاب، وكل هم إلى نهاية، المهم ألا تهتز ثقتك بالله طرفة عين.

ويصلح حالك إذا دبّرت دينك أكثر من تدبير دنياك، فرزقك مكتوب لك، ولو هربت عنه لأدركك، فابذل أسبابه واعمّر آخرتك، ولا تخش الفقر فإن ذلك من لمات الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فلا تَعْتَمِمْ لمستقبل يصنعه من هو أرحم بك منك.

ولا تحزن، فالحزن شعور سلبيّ سوداوي يخالف للسرور والسعادة والاستبشار، وهو مفضّل مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبره، فلا تقف عند أخطائك ولا تجلد بها ذاتك، فلكلّ منّا أخطاؤه الغيبية في الحياة.

وليكن شعارك دومًا حينما تضيق بك الدروب، وتتراكم عليك الخطوب، وتُمنّي بفشل وخيبة: لعل في الأمر خيرة، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

واعلم أنّ كثيرًا من الخيرة مقرون بالكُره، ولم يضع من مالِكَ ما وعظك. والجنة دار اللذائذ، وكما قيل: يا فاكهة موعدي وإيّاك الجنة. وقال ابن عطاء السكندري: «منع الله عطاءً، ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صديق».

وَهَوْنٌ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ أَنِّي أَسَاكِنُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْغَدًا
والله تعالى يحب الخير لعباده، ويدلهم على طريق الفرح، فقال سبحانه: ﴿قُلْ
بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٨٥] ونهى عن

الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]

ومن أجل أعمال القلوب قاطبة: الفرح بالله تعالى. ولو كان للسعادة معياراً حسيّاً؛ لصُعق أهل المال والجاه والسلطان والصحة من افتقارهم لها إزاء غنى الأتقياء بها، ولو علم الناس حقيقة السعادة ما ذهبوا بعيداً، لأنها بين أيديهم لو كانوا يعقلون، إنها في الفرح بالله تعالى، وطريقها الإيمان والقرآن والاستقامة.

حتى مع اليأس لا تحزن؛ فلك أسوةً صالحة، فكم من مؤمنٍ حبيبٍ لله قد مات وحاجته في صدره لم يدركها في دنياه. وبما أن المؤمن بشرٌ مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيّد مشاعره وطبيب روحه؛ فيُرخي لمشاعره الزمام شيئاً بحيث لا يكتبها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. ويا أيها الحزينُ تَصَدَّقْ.

وسئل ابن عيينة رَحِمَهُ اللهُ عَنْ هَمٍّ لَا يُعْرِفُ سَبِيهَ؟ فَقَالَ: «هُوَ ذَنْبٌ هَمَمْتَ بِهِ فِي سِرِّكَ وَلَمْ تَعْمَلْهُ؛ فَجُزِيتَ هَمًّا بِهِ». فَلِلذُنُوبِ عَقُوبَاتٌ؛ السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وليستعمل علمه بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، ولسانُ حال الشارد: لَكَ اللهُ يَا عَذَابَاتِ السَّيْنِ، وَيَا جَرَاحَاتِ الْأَيْنِ، كَمْ لَكَ فِي الْفُؤَادِ مِنْ لَوْعَةٍ تَكْوِي نِدَاءَاتِ الْحَنِينِ. فَيَجِيبُهُ نِدَاءُ الْعَقْلِ بِتِلَاوَةِ مَنْشُورِ الْفَلَاحِ لِلْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وقول العليم الرحيم: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وقال أحد السلف: «تذكر أن كلَّ نعمةٍ دون الجنةِ فانيةٌ، وكلَّ بلاءٍ دون النارِ عافية».

فإن كان الأمر لفوات دنيا؛ فليعلم أن الدنيا بحذاويرها لا تستحق على التحقيق حزن ساعة، لكن لضعفنا البشري المركب وغفلتنا الآنية نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه. والزمن طيب جيد للأحزان. وعن تجربة: فمن أجدى طرق المواساة غير المباشرة للمصاب والمكَلوم؛ إشغاله بأن يواسي مصيبة غيره ممن يحبهم، فينسى - مؤقتاً - مصيبته التي ستبرد قليلاً بالتقادم. وإن من الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة!

تذكّرتُ عَصْرًا قد مَضَى فتهافَتْتُ بناتُ الحشا وانهلّ مني المدامعُ
ونعلمُ أن المُلِكَ لله وحدهُ وأنّ قَضَاءَ اللَّهِ لا بُدَّ واقِعُ

وأما إن كان الحزن للدين؛ فينظر: إن كان لذنوب أو فوات طاعة وقربه؛ فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابياً، بحيث يعوّض ما فاتته، ويستدرك ما فرط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنبه ويلج بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

يا صاحبَ الهمِّ لا تنزعجَ فعماً قليلٍ يكونُ الفرَجُ
فما في سديمِ الدُّنا من ظلامٍ إلا ومنه يكونُ البلَجُ

وأما الحزنُ لدينٍ غيره؛ كتقصير الناس في طاعة الله، وانتشار المنكرات، وضعف حال المسلمين، وضعف تدينهم، وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلاً وسجناً وتشريداً، ونحو ذلك من الحزن السلبي لغلبة الكفار المادية للمسلمين؛ فإنه لا يصنع شيئاً، بل منهى عنه شرعاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ [آل عمران ١٧٦].

وقد يكون حزنه محموداً من جهة رحمته بهم، ولكن لا بد أن يكون حزناً باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات، وبال دعوة إلى سبيل الله تعالى والمجاهدة لأعداء دينه، وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌ ميسر لما خلق له. وليعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين من المؤمنين، وأن غمسةً فيها تُنسي شقاء الدنيا كله.

وثمة بشارة لقلب كل مؤمن: وهي أنه مهما كان مكانك وزمنك وضعفك وعجزك وفقرك وقلَّتْكَ أمام انتفاش الباطل وأهله؛ فاعلم أنهم لا يستطيعون سلب الإيمان من صدرك. وهذه ورِي كافية في برد اليقين وثلج الطمأنينة. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ومن نافع وصاياهم: «عند القَدَرِ لا تجزع، وعند الأمرِ لا تعجز». ومن حقوق

الصحبة تخفيفُ الأُحزان، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠].

وأمرُ المؤمن خيرٌ كُلُّه، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أي ليس عليهم خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي. وليس مع الله ضيعة.

فإذا ابتليت بنكبةٍ فاصبر لها الله حسبي وحده وكفاني
ويا صاحب الهم: أينك عن الملاذ؟ إنه يقينك بالله وثقتك به، انطرح بكليتك
بين رحمته وكرمه، قال ابن مسعود: «الصبر نفسُ الإيمان، واليقين هو الإيمان كُلُّه».
إلهي، أنا لك، وأنا إليك راجع.

تموتُ النفوسُ بأوصالها ولم يدرِ عَوَاذُها ما بها
وما أنصفتُ مهجةً تشتكي أذاها إلى غيرِ أحبائها
فلكل مهموم، أو حزين، أو مريض، أو مُحطَّم الفؤاد، أو متآكل الروح من
فشله أو عثرته أو إحباطه: ثم ربُّ يراك، وإلهٌ يسمع نجواك، ويفرح بضراعتك،
ويُقرِّبك إذا تخلَّى عنك الأقربون. ويذكرك إن نسيك المحبون، ويرحمك إذ قسا
عليك الألدون، ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك، ويشرح صدرك ويسر
أمرك. فأين أين أنت عن طرق بابه، واللياذِ بعظيم جنابه، والالتذاذِ بجميل
خطابه، والانطراح في عبوديته ودعائه! اشكُ نفسك والناسَ إليه، واحذر من أن
تشكوه إليهم، فكيف تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو!

وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

وعليك بجادة الأنبياء: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنَ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]
والبثُّ هو الحزن الذي لا يُطاق. والناس يقولون: لا تكبت همومك في صدرك،
وبُثِّها لصديق يواسيك؛ لأنَّ الصدر إذا نُفِثَ برأ، ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن
صبرٌ.

وأبشْتُ عمراً بعض ما في جوانيحي وجَرَعْتُه من مُرٍّ ما أتجرعُ
ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يُسَلِّيك أو يتوجَّع
وما علموا أنَّ البثَّ النافع هو الشكوى إلى من بيده مقاليد الأمور ومعاهد
الأقدار. فيا نازفاً همُّهُ بدموعه، ومُرسلًا شجنَه بأنينه، وشكايته بزفراته؛ أبشر
ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فُبُثَّ له وحده شجونك وأحزانك
﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:
٨٦].

ودرَّب نفسك ووطنها على أن يكون قلبك أقوى احتمالاً وأرحب مكاناً وأشدَّ
جلدًا لأليم الواردات عليه، فلا تكُ هَشًّا فتكسر كالأواء، فإنَّما أنت في دارِها
فدارِها.

فإنَّ ضاقت بك الأرض يوماً بما رُحِبَتْ؛ فالجأ لمن لا يخيب من دعاه، ولا
يخسر من عامله، ولا ينهزم من توكل عليه، ولا يفتقر من اغتنى به. أمّا من لم يُطَقْ،
ورأى صلاحه في ذلك؛ فلا بأس بشرط الأدب مع الله تعالى، بعدم التبرُّم من
أقداره.

إِذَا لَمْ أَطِقْ صَبْرًا رَجَعْتُ إِلَى الشَّكْوَى وَنَادَيْتُ تَحْتَ اللَّيْلِ يَا سَامِعَ النَّجْوَى
وَكَيْفَ يَنْفَعُنَا الْإِيْمَانُ بِمَرِّ الْقَضَاءِ إِذَا لَمْ تَثْبِتْ عَلَى ثَلَجٍ يَقِينِهِ وَبَرْدِ حُسْنِ الظَّنِّ
بِعَاقِبَتِهِ قُلُوبُنَا عِنْدَ احْتِدَامِ الْكُرْبِ!

وَتَذَكَّرْ أَنَّ أَعْظَمَ مُسْكِنٍ فِي الْعَالَمِ هُوَ جُرْعَةٌ مِنَ الرِّضَا بِمَرِّ الْقَضَاءِ. وَلِكُلِّ
مَصَابٍ وَمَحْزُونٍ وَمَهْمُومٍ: سَيَكُونُ هَذَا يَوْمًا مَا مَجْرَدُ ذِكْرِي مِنَ الْمَاضِي، فَأَرْضِ
رَبِّكَ الْآنَ؛ لَتَسْعَدَ بِالذِّكْرِ غَدًا، فَالدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا لَا تَسَاوِي غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ.

مَا لَلْفَتَى مِنْ حِيلَةٍ فِي الَّذِي يُحِبُّ أَوْ يَكْرَهُ مِنْ أَمْرٍ
وَلَيْسَ مِنْ عَجْزٍ وَلَا قُدْرَةٍ تَجْرِي الْمَقَادِيرُ بِمَا تَجْرِي
فَاشْكُرْ عَلَى مَا سَرَّ مِنْ نِعْمَةٍ وَارْجِعْ بِمَا سَاءَ إِلَى الصَّبْرِ

وَمَنْ فَقَهُ الْفِتْنَ: الْعَمَلُ الْجَادُ عَلَى رَدِّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ رَدًّا جَمِيلًا، فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ
هِيَ وَظِيفَةُ الْمُرْسَلِينَ، وَهِيَ أَعْظَمُ مَا يَبْقَى لِلْمُؤْمِنِ بَعْدَ رَحِيلِهِ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا،
فَاعْمَلْ عَلَى أَنْ تَنْتَظِمَ فِي سَلَكِ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَهْدَى، وَافْرَحْ بِكُلِّ خَيْرٍ
يَصِلُ لِلنَّاسِ مِنْكَ أَوْ مِنْ سِوَاكَ، وَقَدْ تَمَنَّى الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَحُوزَ النَّاسُ
مَا فِي صَدْرِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا يُنْسَبُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، نُصَحًا وَتَجْرِيدًا.

فَالْمَصْلُحُ أَمَانٌ لِمَنْ حَوْلَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ بِتَوْفِيقِ رَبِّهِ آخِذٌ بِأَيْدِي النَّاسِ لِبَحْرِ
رِضْوَانِ الْمَلِكِ الْعَلَامِ سُبْحَانَهُ، حَاجِزٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْبَابِ غَضَبِهِ وَأَلِيمٍ عِقَابِهِ، وَلَا
أَعْلَمُ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ صُرِّفَتْ فِيهَا الْقَوَارِعُ وَصُرِّعَتْ فِيهَا الْأُمَمُ كَسُورَةِ هُودٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ. وَتَأْمَلْ خَتَامَ قِصَصِهَا بِذِكْرِ ضَرُورَةِ النِّهْيِ عَنْ إِفْسَادِ الْأَرْضِ بِالْخَطَايَا:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] أي لو وجد أولئك وأصلحوا ما عذبت أمهم! فلا إله إلا الله. ومصدق ذلك في الآية التالية لها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَادِقُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وقال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١).

وأشدّ عقوبات الذنب أن يُطبع على القلب بسببه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الاعراف: ١٠٠] أي لم يعد لعقولهم فائدة لما يصلح آخرتهم، فالذنوب شرّ متراكم ﴿فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الانفال: ٣٧] وبعضها شرّ من بعض، قال ابن دقيق العيد رحمه الله: أكل الربا مجرّب لسوء الخاتمة. عياداً بالله تعالى.

ولئن كانت محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين مؤذنة بعاجل عقوبة الدنيا مع ما يُدخّر لصاحبها من عذاب الآخرة، فما بالك بمن يجتهد لإشاعتها ويتكبر عند سماع الناصحين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٨) ثانياً عطفه ليُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ^(٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِقِينَ

(١) مسلم (١٤٥).

لِّلْعَبِيدِ ﴿[الحج: ٨-١٠] فهو يجادل ويخاصم لإطفاء نور الله، ويلوي عنقه عن الحق تكبراً وإعراضاً، فحسبه جهنم.

ومانعُ العذاب هو الإصلاح والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] وتدبر كيف اشترط لدفع العقوبة الجماعية الإصلاح فقال: ﴿مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل صالحون، فلا بد من الإصلاح الناشئ عن صلاح، أما مع السكوت أو الإقرار فشم الرجز واللعنة ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

إن انتشار مظاهر الاستقامة في الناس في أرجاء الأمة قبل نحو عقدين من الزمن هو شيء مفرح لكل مؤمن، حتى وإن شاب بعض نواحي ذلك التدين نقص عند بعضهم من جهة ضعف التربية العلمية أو العملية، إذ هو شيء طبيعي لاختلاف مدارك ومشارب وموارد الناس، واختلاف أمزجتهم وبيئاتهم، وسنة الله تعالى في تمايز نسبة التدين بينهم.

أقول: إن انتشار مظاهر الاستقامة قد أغاظ المنافقين ومن في قلوبهم مرض، الذين لا يريدون للدين عزاً ولا لأهله مجداً، فحاربوا رجوع الأمة لربها ويقضتها من سبات الغفلة بكل جهد أطاقوه، وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم وعتادهم وعديدهم. هذا وقد وافق حرب المنافقين لها بعض أهوية الساسة في بلاد الإسلام،

فركبوا الموجة المضادة لها عبر تخفيف منابعها وحرب دعائها وتقليص مناهج التعليم الشرعي ومنع الملتقيات الدعوية والحد من حلق تعليم القرآن ونحو ذلك، ﴿رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوً لَكُمْ﴾ [الانعام: ١٢٨].

وهذا العمل ليس مستغرباً من بعض الجهات والهيئات المعروفة بتوجهها الليبرالي العلماني، ولكن يعظم العجب والدهش حين نعلم أن بعضاً ممن يحمل كبر تلك الحرب العوان وبأساليب غاية في الدناءة واللؤم هم من بعض منتسبة علم الشريعة وطلبة العلم - وكم من لحية تقطر نفاقاً وكبراً وأرداناً تفوح حسداً وبغياً - وحجتهم أن هناك تياراً غير مرضي عنه قد يستفيد من تلك المحاضن الدعوية والتعليمية لدى الشباب، وهذا عين الباطل وأنف حجتهم مكسور، فمنع الخير العام المتيقن بحجة قطع بعض الشر المظنون ليس من الصلاح في شيء، بل هو ضرب من سوء الرأي والتدبير وخصلة من السفة والتقصير.

والحل - إن وُجد ما يقولون ويدعون - ليس بحجب النور والعلم والفضيلة عن فلذات الأكباد العطاش للخير، بل يكون بتنقية الميدان من الكدر ومتابعته وتصفيته، فليس من الحكمة قطع الشجرة المثمرة بسبب تعلق النبتة المتسلقة بها، بل هذا فساد، إنما الحل يكون بقطع الضارة المتسلقة دون الشجرة النافعة. كُلِّ الثَّامَرِ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ.

ومن دروس الفتن: أن ضراوة الفتنة تشتد ويعظم خطرهما حين لا يعلم صاحبها أنه مفتون، وغالب ذلك من فتن السراء، فهي فتنة إلى فتنة، ﴿كُلَّ مَارَدُوا

إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴿[النساء: ٩١] عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتْنِ. فَسَعَةُ الرِّزْقِ قَدْ تَكُونُ بَرَكَةً لِحُسْنِ نِيَّةٍ وَعَمَلِ الْعَبْدِ، وَقَدْ تَكُونُ مَكْرًا مِنَ اللَّهِ وَاسْتِدْرَاجًا، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا يُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٥-٥٦] والقاعدة: أَنَّ كُلَّ مَا قَرَبَكَ مِنْ رَبِّكَ فَهُوَ نِعْمَةٌ، وَكُلَّ مَا أَبْعَدَكَ عَنْهُ فَهُوَ فِتْنَةٌ، ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿[الأنبياء: ٣٥].

واعلم أَنَّ فِتْنَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ تُمَحِّصُ النُّفُوسَ، وَتُمَايِزُ الصُّفُوفَ، وَتُظْهِرُ حَقَائِقَ الْقُلُوبِ، وَيَسْتَبِينَ بِهَا النُّفُوسَ الطَّيِّبَةَ، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِنَّكُمْ تَرْتَقُونَ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿[آل عمران: ١٧٩].

وَمِنْ أَبْوَابِ دُخُولِ الْفِتْنَةِ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ تَجَاوُزُهُ لِمَرْجِعِيَةِ الْوَحْيِ الشَّرِيفِ، فَمَنْ لَمْ يَثِقْ فِي الْوَحْيِ ثِقَةً مُطْلَقَةً فَلَا تَرْجُحَهُ. وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِي غَايَةِ الْخَطَرِ، فَمَصَادِرُ التَّلَقِّيِّ فِي زَمَانِنَا مُتَنَوِّعَةٌ الْمَنَابِعُ مُخْتَلِفَةٌ الْمَشَارِبُ، وَكُلُّهَا كَدْرٌ وَمَرَضٌ إِلَّا يَنْبُوعُ الْوَحْيِ فَهُوَ الْحَيَاةُ. فَالَّذِي خَلَقَنَا هُوَ الْعَالَمُ بِمَا يَصْلُحُ لَنَا وَيُصْلِحُنَا، وَقَدْ فَعَلَ بِالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ إِنْ كُنَّا نَعْقِلُ.

وَلِكُلِّ اجْتِمَاعٍ نِزَاعٌ، وَلَا بَدَ لِكُلِّ نِزَاعٍ مِنْ فَصْلٍ، وَلَا يُمْكِنُ هَذَا الْفَصْلُ إِلَّا بِمَرْجِعِيَّةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الطَّرَفَيْنِ، فَأَهْلُ الْعَقْلِ الْمَادِّيِّ مُخْتَلِفُونَ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْحَسِّ وَالذَّوْقِ وَالرُّؤْيِ وَنَحْوِهِمْ. أَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَرْجِعِيَّةً جَامِعَةً مَانِعَةً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩] والرد إلى الله يكون بتحكيم كتابه، والرد إلى الرسول يكون بتحكيم سنته، والآي والأحاديث في هذا مشهورة معلومة. وفتن الابتلاء نارٌ تُنضج عقول أقوامٍ وتُحرق آخرين.

وتأمل كلام المؤمن الورع الحكيم المجرب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتنة، فقد دعاه بعض الناس للخروج معهم، فأبى عليهم وقال: «لا، إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر فأقتله، وبالمؤمن فأكف عنه. وضرب لهم سعد مثلاً - وهو الذي يعيننا في هذا المقام - فقال: مثلنا ومثلكم؛ كمثّل قوم كانوا على محجة، أي البيضاء الواضحة - فيناهم كذلك يسيرون هاجت ريح عجاجة، فضلوا الطريق، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين، فأخذوا فيه فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: الطريق ذات الشمال، فأخذوا فيه فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: كنا على الطريق حيث هاجت الرياح، فننّيح، فأناخوا وأصبحوا، فذهبت الرياح وتبين الطريق»^(١).

إذن فلنعد بالأمة إلى ما كانت عليه قبل هذا الافتراق والتنازع والترشق وانشغال بعضنا ببعض. والأمر قريب المنال والزمان، فعودوا بنا إليه - يرحمكم الله (٢) - ..

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣٩).

(٢) وانظر: (ولا تنازعوا فتفشلوا) للمؤلف.

لقد أثر هذا الافتراق حتى على دعوة الكفار للإسلام، فالأرض مليئة بمن يحتاجون الدعوة لدين رب العالمين دون أوثان الأرض التي ملأت أرجاءها شركاً ووثنية، وقد سأل أحد الإخوة رجلاً في أمريكا الجنوبية عن الإسلام؟ فأجاب جاداً: لا أعرف، هل هو شركة سيارات! فالله المستعان يا أمة الدعوة لدين الله.

وقد ذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «العلم نقطة كثرتها الجاهلون»^(١). أي: أن أصل العلم الذي فقهه الصحابة رضي الله عنهم كان نزرًا نافعًا، وهو أصول قيّمة ومحكمات جامعة تُرجع إليها المسائل وتُعرض عليها الدلائل، ويفيء طالب العلم بها لبركة الوحي الصافي، ويردُّ بها الحقَّ الوافي، وهو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ وأعماله، وهو ليس بهذه الكثرة المُشتتة، إنما شقق الناس بعدها وتشدقوا وأوغلوا وغالوا. فبركة العلم في صفائه من كدر التكلف، ونقاؤه من دغل المخالفة. والمؤمن متعلق بالدليل لأنَّ الدليل عبارة عن أعلامٍ يهتدي بها في مسيره للأخرة، فإن انحرف عنها؛ انحرف عن الطريق، وإن انحرف عن الطريق لم يصل. والأعلام منها ما هو صحيح وهي نصوص الوحي الصحيحة، ومنها أعلام زائفة وهي ما لم تصحَّ، وبهذا تظهر بركة أهل الحديث الذين حفظ الله بهم أعلام الدين، ودلائل الملة، وعلامات الطريق

دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَخْبَارُ نِعَمِ الْمَطِيَّةِ لِلْفَتَى الْآثَارُ
لَا تُخْدَعَنَّ عَنِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ فَالرَّأْيُ لَيْلٌ وَالْحَدِيثُ نَهْ

(١) ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) وانظر: مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والرد عليها (٥٩/٢٤).

وَلَرُبَّمَا غَلَطَ الْفَتَى سُبُلَ الْهَدَى وَالشَّمْسُ طَالَعَتْ لَهَا أَنْوَارَ

ومن أبواب الفتن؛ حب الرئاسة، فازهد في الرئاسة زهدك في الميتة، فحبُّ الرئاسة من فروع حبِّ الدنيا، وهو آخرُ ما يسقط من رؤوس الصديقين، فترى الرجل من أزهّد الناس في المال والمتاع، حتى إذا هزّه منصبٌ أو رئاسةٌ؛ تهالك على تحصيله تهالك الغريق بالخشبة، ونسي ما كان يُوعظُ به. وسبيل الموت غاية كلِّ حيٍّ.

ولحبِّ الرئاسة علامات، قال شيخ الإسلام: «وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمّه وإن كانت حقاً. والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأنّ الله تعالى يُحبُّ الحقَّ والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم»^(١).

وشتان بين من وصفهم ربهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦] وبين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥] والقبور مليئة بهؤلاء وأولئك، ونحن سراعاً على الأثر. ولكلِّ جيلٍ فتنة.

ولا تفرح بالشهرة، فالأضواء مُحرقّة، وقد كان السلف يغطون المجتهد الخفي. وإنّ الزهد في الدنيا ليس محصوراً في المال فقط، إنّهُ أكثر من ذلك وأشدّ، وأهونُ الزهد هو الزهد في المال، ولكلِّ نفسٍ رُكنٌ تضعف فيه، وبابٌ يولج على حُرمتها منه.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٠٠).

وإبليسُ يشمُّ القلبَ ويُدرِكُ بابَ ضعفه الذي يلج منه، فاحذره. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وكتبَ سفيان الثوري لأخيه له: «واحذرْ حُبَّ المنزلة؛ فإنَّ الزَّهَادَةَ فيها أشدُّ من الزَّهَادَةِ في الدُّنْيَا»^(١).

فازهد في الثناء، وازهد في الرئاسة، وازهد كذلك في المال، وفي كلِّ ما لا ينفع في الآخرة.

ومرَّ رجلٌ بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلاً، فقال له: يا عبد الله، أَرْضَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا بهذا؟ فقال: «أَلَا أدُلُّكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِشَرٍّ مِنْ هَذَا؟» قال: بلى، قال: «مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا عَوْضًا عَنِ الْآخِرَةِ». وكان محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ يُخْرِجُ خَبْزًا يابسًا فيبَلِّهُ بِالماءِ وَيَأْكُلُهُ بِالمَلْحِ ويقول: «مَنْ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بهذا؛ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ». وكان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ: لَهُ أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ، وَاللَّهِ مَا فِي الْبَيْتِ هَفَّةٌ وَلَا سَفَّةٌ، فَقَالَ: «يَا هَذِهِ، إِنَّ بَيْنَ أَيْدِينَا عَقَبَةٌ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا الْمُخَفَّقُونَ»، فَرَجَعَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

قال شيخ الإسلام: «إِخْرَاجُ فَضُولِ الْمَالِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى الْكِفَايَةِ أَفْضَلُ وَأَسْلَمُ وَأَفْرَغُ لِلْقَلْبِ وَأَجْمَعُ لِلْهَمِّ وَأَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

ولقد قال رسول الله ﷺ في بيان جميل كامل ناصح: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ فَفَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٨٧).

(٢) الفتاوى (١١/ ١٠٨).

كانت الآخرة نيته؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

قُمْ فِي الدَّجَى وَاتْلُ الْكِتَابَ وَلَا تَنْمُ إِلَّا كَنَوْمَةِ حَائِرٍ وَلَهَانٍ
فَلَرَبِّهَا تَأْتِي الْمَنِيَّةُ بَغْتَةً فَتُسَاقُ مِنْ فُرْشٍ إِلَى الْأَكْفَانِ
يَا حَبْذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدَّجَى مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِتَانِ
أَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا زَاهِدًا فَالزُّهْدُ عِنْدَ أُولَى النُّهَى زُهْدَانِ
زُهْدٌ عَنِ الدُّنْيَا وَزُهْدٌ فِي الثَّنَاءِ طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى لَهُ الزُّهْدَانِ

ومن أبواب الفتن؛ إشغال النفس بقليل وقال وذهب وجاء وفعل ولم يفعل ونحو ذلك من أحابيل إبليس، فدع ما لا يعينك. فمن انشغل بعيوب نفسه وتحصيل مصالحها؛ اشتغل عن عيب غيره وتتبع أموره. قال طاووس بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ: «نِعَمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ؛ يَكْفِ فِيهَا سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ».

إنَّ عمر الإنسان للدنيا كعمرٍ شهابٍ عابرٍ بالنسبة لعمره، وبعدَ فوات الأوان ستدرك أنَّك قد أهدرت بلا طائل أثمنَ ما لديك: وقتك. وتذكَّر أنَّ صلاحيةَ جسدك قرابةَ السنتين سنة أو السبعين، وهو معرض للتلَف قبلها، ومُعترِكُ المنايا من السنتين إلى السبعين، فمن تجاوز السبعين فهو من القليل. ولو علِمَتِ الوردَةُ قِصَرَ عمرها ما تَبَسَّمتُ.

فهنَّ المنايا أيَّ وادٍ سَلَكَتْهُ عليها طريقي أو عليَّ طريقيها

(١) ابن ماجه (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥) وصححه الألباني في السلسلة (٢/ ٦٧١).

وفي العشرين بدايات نضج العقل حتى الأربعين مع طروء عوارض طيش. ومن الأربعين حتى الستين استحكام العقل والجسد، وغالبُ منجزات البشر قد نحتوها في خريطة الزمان وهم في هذه المرحلة التي تُعدُّ رأس الهرم الإنساني. وحقيقٌ بما بعد الستين أن يُسمّى العمر الجميل، إذ اجتمع فيه الهدوء والسكينة والراحة والحكمة والزهد لمن سلم من آفات الروح. وإن كان هناك أمورٌ تُعكِّرُ صفاء الروح وهدوء النفس في تلك المرحلة النفيسة من العمر، ولكن يمكن تلافيها بالرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً.

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصَّبَا وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكُهَا يَا مَذْنَبُ
وَاحْشَ مَنْاقِشَةَ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ لَا بَدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
لَمْ يَنْسَهُ الْمَلِكُ حِينَ نَسِيَتْهُ بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لَاهٍ تَلْعَبُ
وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أَوْدِعَتْهَا سَتَرَدَّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسَلَبُ

فيا صاحب العشرين والثلاثين: اعلم أن أكثر أهل القبور من الشباب. ويا من طرقت الأربعين والخمسين: هلاً تنبّهت إلى أنك في ثلث عمرك الأخير إن سرت كما رحل الآخرون، ويُسارُّ بك وإن لم تسر، وتأمل طلائع مشيك فهي رسل نضوج ثمرة العمر التي اقترب قطافُها.

ويا أيها الكهل الستيني: أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْكَ أَنْ بَلَّغَكَ السِّتِينَ فَمَا عُدْرُكَ إِلَيْهِ! فيا محطة الرحيل الأخير: أغلqi باب الإقلاع؛ فقد حان السفرُ للآخرة، وقد أنجَدَ من رَأَى حَضَنًا، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨].

قال ابن الجوزي: «أعجبُ خلائقِ الخلائق: محسنٌ في ليل شبابه، فلمّا لاح

الفجر؛ فجر».

أُصْحَتْ خَلَاءً وَأُضْحَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبِّدٍ
وكلّ ذنب - مهما تعلّقت نفسك به - سيأتيك يومٌ وترحلُ عنه للأبد، إن لم يكن
بتوبتك واختيارك؛ فبعجزك أو وفاتك، فاتركه الآن قبل ألا يتركك غداً أمام
الديان. وعند دنو الرحيل؛ تُشرق حقائق الضمائر، فالزخشي الذي قعد لنفي
الصفات الاختيارية عن الله تعالى، لما دنت وفاته؛ لم يرحل إلا وقد طبع الكاغد
بماتع ابتهاله: يا من يرى مدّ البعوض جناحها..

وتفكّر طويلاً في آية طه فهي كافية في تعرية جسد الدنيا وكشف حقيقة زيفها:
﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَقْوَمُ﴾ [طه: ١٣١]. وما بكت العرب على شيء كما بكت على الشباب، وقد بكاه
الفضلاء والعقلاء والعلماء والعُباد.

شَيَّانٍ لَوْ بَكَتِ الدُّمُوعُ عَلَيْهِمَا عَيْنَايَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِّيهِمَا فَقَدْ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

فلماذا هذه اللوعة على مرحلة عمرية مضت؟ الجواب: أن الصالحين يكونونها
لأنها النشاط والقوة لصالح الأعمال، فالشباب يتهجّد ما شاء من الليل، فيتخذ الليل
جملاً يحمله لعلّيين، ولا يشتكي حكة جلده وضعف نفسه ووهن عظامه، ويحفظ
ما شاء من القرآن والأذكار والعلم فلا تخونه ذاكرته بضعفه وتشويشه ونسيانه،
ويصوم ما شاء ولا يشتكي ضعفه وظمأه وهزاه، ويضرب وجوه الكافرين بيده

لا يشتكي عجزه وارتخاءه وزمانته، ويقرأ ما شاء من كتاب الله بقوةٍ بصيرةٍ وصفاء ذهنٍ واستظهارٍ للتدبر والتفكير، وغير ذلك من العبادات التي يساعد عليها التلذذ بها وقودُ الشبيبة. فتلذذ بطاعات مولاك قبل ذبول الجسد وانحناء الظهر وصياح نقيّ العظام من أمراض الشيخوخة.

وَنُحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعِ عَيْنِي فَمَا نَفَعَ الْبُكَاءُ وَلَا النَّحِيبُ
فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

أما من بكى عليه لضياح شهواته؛ فقد خاب وخسر، بل الأولى أن يفرح بها من هذه الحيثية؛ كي لا تشوش عليه مسيره الذي اقتربت نهايته.

وقد سئل شيخ كبير حكيم عن حاله مع كبره فقال بفرح: «الحمد لله، ذهب الشبابُ وشرُّه، وأقبل المشيب وخيرُه، إن قمتُ؛ قلتُ: باسم الله، وإن قعدتُ؛ قلتُ: الحمد لله، فأنا أحب هذا الخير».

ولو عقلنا قيمة وقتنا ما أضعنناه، إن مجموع دقائق اليوم والليلة (١٤٤٠) دقيقة، فكم للآخرة منها؟ كم لكتاب الله منها؟ كم لما ينفعك غداً منها؟ أم نسيت أنك مجموعة أيام؟ وأن كل ثانية تهدم من عمرك ثانية. قال القليل الشاب: طرفةُ بن العبد:

أرى العيشَ كنزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ وما تُنْقِصُ الأيامُ والدَّهرُ يَنْفَدُ

إن الحياة غالية جدًا، ولا تُبذل إلا لما هو أغلى وأحب، والوقت هو الأجزاء المقيمة لهذه الحياة، فلا يُجاد به إلا لما هو أنفس، فيا هذا: وقتك هو حياتك. ألم تر

أن الزمن يمضي أسرع من أن نتأمله! هكذا هي الأعمار، فكلها أيام باقية دونها أيام، ونستكمل رزقنا في هذه الدنيا، ثم نرحل عنها إلى ربنا. ولقد قال السلف: «علامةُ المقت؛ إضاعة الوقت».

وقِفْ قليلاً: هل أنت مستعدُّ للرحيل، هل تعرف لماذا خلقت، وماذا يُراد منك وبك، وكم بينك وبين الآخرة من وقت، ألا تعرف من قد سبقك ورحل عنك. هل رأيت وجه الموت بحادث أو مرض ونحوه ثم توارى عنك؟ اعلم أنها رسالة لك من الدار الآخرة، فاجعلها منك على ذُكْرٍ، وللحميد شاكرًا حامدًا مُجَبَّأً، وتدبر قول رب العزة والجلال في شأن قول ذلك الإنسان وهو يرى جهنم تزفر أمامه: ﴿يَلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] لتعلم أن حياتك الحقيقية إنما هي في الآخرة، أما الدنيا فسراب.

ما أنت إلا كزراعٍ عند خضرته بكل شيء من الآفات مقصودٌ
فإن سلمت من الآفات أجمعها فأنت عند كمال الأمر محصودٌ

إنَّ عالمك الحقيقي هو منزلتك عند الله تعالى، أما الدنيا فلن تتغير بعد موتك، بل ستستمرُّ كما كانت حتى تجتمعوا عند الخلاق العظيم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] قال الحسن: «يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط: ليلةٌ تبيتُ مع أهل القبور ولم تبت ليلةً قبلها، وليلةٌ صبيحتها يوم القيامة». وتأمل ذلك النداء المشفق من عسكرِ الأموات:

كأنك بالمضيِّ إلى سبيلك وقد جدَّ المُجهز في رحيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطنٍ إليهم من كثير أو قليلك

فسوف تجاور الموتى طويلاً فذرني من قصيرك أو طويلك
 وكان السلف يقولون: الأرزاقُ تنزّلُ في البكور، والأعمالُ تُرفعُ آخرَ النهار،
 والذنوبُ تُغفرُ في السّحر، فلا تفوّت هذه الغنائم بغفلة أو نوم. وقد ذمّ الله قومًا
 لحوضهم فيما لم يأذن به، فكان من ندمهم أن قالوا يوم القيامة: ﴿وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ
 الْخَاطِئِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] فلا تكن منهم.

قال عمرو بن قيس الملائي: مرّ رجلٌ بلقمان والناس عنده، فقال له: أَلَسْتَ
 عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى،
 فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: «صدق الحديث، وطول السكوت عما لا
 يعنيني»^(١).

وقال مورّق العجلي: «أمرُّ أنا في طَلَبِهِ منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه ولست
 بتارك طلبه أبدًا، قالوا: وما هو؟ قال: الكفّ عما لا يعنيني»^(٢). فالأمر يستحق
 المجاهدة.

وعن الحسن قال: «مِنْ علامة إِعْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ؛ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيهَا
 لَا يَعْنِيهِ، خَذَلْنَا مِنَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ»^(٣).

وقال سهل بن عبد الله التستري: «مَنْ تَكَلَّمَ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ؛ حُرِمَ الصَّدَق، وَمَنْ

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١١٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١١٦).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١١٦).

شغل جوارحه بغير ما أمره الله به حُرِّم الورع»^(١). وقال معروف الكرخي: «كلام العبد فيما لا يعنيه؛ خذلانٌ من الله عز وجل»^(٢).

فيا طالب العلم والعبادة: احذر قال وقيل، فهي مُذهبة لبركة العلم والعمل، وعليك بركاثر العلم النافع، وأنوار العمل الصالح، واملاً وقتك وصدرك وروحك وعملك بالوحي العظيم. واحفظ لسانك عما لا يعينك، فقد توفي رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ لَا تَدْرِي، فَلَعَلَّه تَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يَغْنِيهِ»^(٣). وجماع ذلك قوله ﷺ: «مَنْ حَسَّنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكُّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٤). فَحَسِّنْ إِسْلَامَكَ -رعاني الله وإياك.. ومن جميل ما قالوا: «تَمْضِيَةُ وَقْتِكَ بِالسَّعْيِ لِإِدْخَالِ نَفْسِكَ الْجَنَّةِ؛ أَوْلَى بِكَ مِنَ السَّعْيِ لِإِثْبَاتِ أَنْ غَيْرَكَ سَيَدْخُلُ النَّارَ».

لذا فمن المهمات: أن ينشغل المؤمن بما ينفعه مما خلق لتحقيقه وهو العبادة، وألا يستغرق وقته فيما لا ينفع، حتى وإن نَزَعَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وحاولت تزيينه في عينيه، فلها مع العقل مسارب وحيل تُبَيِّهُهُ فِيهَا أحياناً، فلا يصحو إلا بعد مضي زمان من نفيس عمره.. فقد ذهبت ليل فما أنت صانع!

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٤/ ٢٦٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١١٦).

(٣) الترمذي (٢٣١٦).

(٤) ابن ماجه (٣٩٧٦)، والترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/

(٤٩)(٤٨٣٩).

ولكم سلبت شبكاتُ التواصل من أوقاتٍ لو صرفت في عمارة آخرة أو حراثة دنيا؛ لكانت ثمارها نافعة، ولكنها فتنة الزمان وهي الثقب الأسود للأوقات. وأشدّ من ذلك السيلُ المغرق بالشبهات والشهوات في هذا العصر.

وإنه لمن الغبن الشديد أن ترى عدوك يشاركك في تربية ولدك رغمًا عنك، فقد دخل بقنواته وأفلامه وأفكاره لداخل غرف نومهم، والله المستعان.

ولك أن تعلم أن العمليّات الذهنية لطلب العلم كالحفظ والفهم والتأمل ونحوها يحتاج العقل فيها نفسًا صافية، غير مزدحمة المشاعر فرحًا أو ترحًا أو غيره، لذلك أرشد الله تعالى لناشئة الليل وقرآن الفجر، لأنّ الذهن فيهما أصفى ما يكون. فأين ذهنك في تلك الأوقات!

ومن ذلك الخذلان: الاشتغال - الزائد - بالسياسة وتتبعها والحديث عنها، وتناول تفاصيل أحداثها مما صحّ وما لم يصح، والطيران مع وكالات الأنباء ومراسلي الأخبار وناقلي الأحداث بعجزها وبجرها وصدقها وكذبها، فالنفس بطبعها متشوّقة لمعرفة أخبار الناس وما جرياتهم، ولكن العقل يلجمها بأنّ أمامها عقبات كؤود لا بدّ لها من اجتيازها بقرايين الصالحات، وليس بتتبع قيل وقال ووُلد ومات. فالاستغراق في تفاصيل السياسة، وتتبع أخبارها، مع العجز عن التثبت، وعن التأثير الإيجابي؛ خطأ منهجي، وهذا الأمر - على نفعه - لا يستحقُّ البتّة مزاحمتَهُ لأُمور العبادة الكبرى، فإنّا لم نُخلق لدهاليز السياسة ووحلها، بل خلقنا لما هو أسمى. وفي تتبع مواضيع أحداث السياسة ونحوها يكفيننا حديث النبي ﷺ: «من

حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). ويدخل فيما لا يعنيه ما لا قدرة له على التأثير فيه.

ولكل منشغل انشغالا زائدا بالسياسة - وهي ليست وظيفته وليس له تأثير في ما جرياتها - اسأل نفسك: هل هذه الأمور داخلية في «قيل وقال» المنهي عنها في حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَرَضِيَ لَكُمْ ثَلَاثًا: رَضِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تَنْصَحُوا لَوْلَاةِ الْأُمَرَاءِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»^(٢).

وفي السياسة المعاصرة للدول غالبًا تظل الحقائق والتوجهات والمنطلقات والبواطن مغيبّة عن العامة، وجُلّ ما نراه من تحليلات إعلامية مبناها على ظنون. وفي السياسة والحرب لا تُصدّق ما تراه بعينك وتسمعه بإذنك، فأنت في زمن التدليس والخداع، والأرض مليئة بالكذبة. ولا تثق بأعداء ربك وإن لبسوا جلود الضأن، فغاية الذئب لا يراها الأعشى، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] فإياك ودجل الإعلام، فكلّ الإعلام مُسيّس، شعرَ الناس أم لم يشعروا، ورسائله المبطّنة أخطر من المباشرة، وقد علمنا مصبّه، ولكن السؤال الكبير: أين منبعه؟! منبعه؟!

وثمة فروق بين الجهل المطبق المَعيب بماجريات السياسة العامة، وبين استغراق العمر في متابعة ومسابقة أخبارها وتحليلاتها. والخير في التوسّط بلا إفراط

(١) الترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني. الروض النضير (٢٩٣ و ٣٢١).

(٢) مسلم (١٧١٥) (١٠).

ولا تفريط. وتكفي المؤمن في معرفة أحداث السياسة المعاصرة: المجملات والأخبار العامة من مصادرها النقية قدر المستطاع، ويستثنى من ذلك من كان له تأثيرٌ فيها؛ فيتَّبَع لينفع. وإنَّ مما يَزْهَدُكَ في السياسة علمُك أنَّ أكثر المتصارعين في الميدان ومعهم جمهرة المتفرجين والمعلّقين والمصوِّرين يتحركون -دون أن يشعروا- ضمن خطة مدير المباراة! هذا ويعيب مواضيع السياسة المعاصرة أمران:

الأول: انتشارُ الكذب وإشاعته، واشتباه الباطل بالحق. وكيف لا يكون ذلك وخمسُ وكالات أخبار غربية هي المسيطرة على قرابة ٩٠٪ من حركة الأخبار حول العالم، وبالطبع فهي توظّفها لمصالحها ولو على حساب الحقيقة. والمؤمن كيّس فطن، وكما قال عمر: لستُ بالخبّ. أي المخادع. ولا الخبُّ يخدعني.

الثاني: تشعُّبُ الأخبار وكثرتها جدًّا بحيث تستغرق زمانًا طائلاً نفيسًا.

ومن الفروع الخطرة للانشغال الزائد بالسياسة: جرفُ الشباب لأُمور لا تطيقها فهمهم ولا تحملها علومهم؛ كتكفير الحكومات، ووصف الولاة بالطواغيت، وجندهم بجند الكفرة، وشعوبهم بالمرتدّين، ونحو تلك المهالك والبواقع التي هي داخلةٌ تحت نهي النبي ﷺ عن التكفير إلا بحقّه، وما هذا بسبيل الربّانيين. ولو أنَّ هؤلاء الشباب انشغلوا بما يُفيدهم في قابل أيامهم، وبما يبني حصون علمهم في مستقبل زمانهم؛ لسلموا بإذن الله من كدر الشقاق ووضرِ الفرقة ودخان الفتن. فالعلم حصن حصين لصاحبه في أزمنة الفتن، فكأَيُّ من فتنَةٍ تروق مرآها حماسات القلوب وبداهات العقول وفورات العواطف، حتى إذا انجلتْ؛ كشفت عن سوء عاقبة وبشاعة مآلٍ.

ولكم يحزّ في نفسي بشدة مرأى شباب في عمر الزهور وميعة الصبا، يتقحّمون أمور الأمة الكبار، التي لا يُصدر فيها إلا عن مجامع فقهية، فيفتون في المسائل العظام رعونة وجهلاً. فخيرٌ لك - يا أيها الموفق - الانصرافُ عن هذه الفتن المدلّمة كافة، والانشغال بالتحصيل النافع والعمل الصالح والعبادة الدائمة.

ومن أعجب بنفسه سقط لأنفِهِ، وقد بدّع الفرزدق بيتاً وحلف بالطلاق أن جريراً لا ينقُضه فقال:

فإني أنا الموتُ الذي هو نازلٌ بنفسِكَ فانظر كيف أنت محاوله

فبلغ ذلك جريراً فقال على البديهة: أنا أبو حُرْزَة طلقِ امرأته:

أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدهرُ خالدٌ فجئني بمثلِ الدهرِ شيئاً يطاوله

وقد قصد بالدهر الزمان.

فعلى المؤمن أن يتحلّى بالعقل الكابح لشهوات نفسه العجلى وبالعلم الباصر بمواطن وطء قدمه في مسيره لربه فلا يهلك حين يهلك الناس.

ويا صاحبي: دع الرغبة وانفذ للصريح، ودع الشعار وافهم الحقيقة، واترك اللبّ واكشف الثمرة، فقد صرح الحقُّ عن محضه، وبيّن الصبحُ لذي عينين.

واعلم أنّ الولع بالردود عيبٌ منهجي في طريق الطلب، وظلمةٌ في مسيرة الروح، وقسوةٌ في حياة القلب، وعثرةٌ في سلوك الصالحين، ويُستثنى من ذلك ما لا بد منه من لدن أهله. ويكفيك من شرِّ سماعه.

وكذلك: لا تحملنّ قضية كلام الناس ما لا تحتمل، والناس لن ترضيهم مهما

فعلت، رضاهم غاية لم يدركها بشر، وكما قال أحد الظرفاء لمن ضاق صدره من كلام الناس فيه: «إنَّ الناس إذا صادفوا نملةً يضع أحدهم أصبعه كي تُغيّر مسارها، أتتوقع أن يتركوك أنت في حالك!»! فيا صاحبي أرعهم أذنًا صماء وعينًا عمياء، وصدّ ببالك عنهم، فمالك ولهم.

ولما قام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنَّ حمّدي زينٌ، وذمّي شينٌ، قال النبي ﷺ: «ذاك الله عزّ وجل»^(١). فكفى بحمد الله وثنائه على عبده مدحًا وثناء، جعلنا الله جميعًا منهم. وقالت أُمّنا الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»^(٢). وليكن شعارك ودثارك مع إلهك:

فليتكَ تحلو والحياة مريرةً وليتك ترضى والأنام غضابٌ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خرابٌ
إذا طاب منك الودُّ فالكلُّ هيّنٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابٌ

وكم قتل الخوفُ من كلام الناس من إبداع، وكم ألمات من همّة، وكم دفن من جميل. وتعجّبتني كلمة قالها غازي القصيبي: «لست مغرورًا، ولكني أعرف مواهبي».

إنَّ حقيقة الخوف من المخلوق أنّه قُمقمٌ مَهُونَةٌ خَلْفَهُ الْعِزَّةُ، وصندوقٌ وحشة

(١) الترمذي (٣٢٦٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) الترمذي (٢٤١٤) وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٢٧٣/٦ والسيوطي في

الدر المنثور ٥٣٥/١٣ والألباني في صحيح الترمذي ٣٢٦٧

من ورائه الأنس، وسجن عبودية خارجة الحرية، فاكسر بخوفك من الله خوفك مما سواه.

وعلى قدر تحقيق التوحيد؛ يضمحل الخوف من الخلق. ولما اشتكى أحد أصحاب الإمام أحمد أنه يخاف السلطان أجابه: «لو حققت لم تخف أحداً». أي لو حققت التوحيد؛ لم تخف غير الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «بالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله»^(١).

وكتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد؛ فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام».

ولكل طالب علم: لا تجعل رأيك هو دين الله، بل ولا رأي شيخك إن لم يكن دليله صحيحاً صريحاً جامعاً مانعاً خال من المعارض الراجح أو المكافئ. فالعبرة - فقط - إنما هي بما جاء عن الله ورسوله، فعليه مدار عقد الإيمان وعهد الشريعة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فالحق المطلق يدور مع الوحي بشقيه الكتاب والسنة، أما غيرهما فيلحقه نقص البشر غير المنفك عنهم، مالم يُجمع السلف على أمر، لأنّ رسول الله ﷺ قد ذكر أنّ الحق لا يخرج عن إجماعهم، قال ﷺ: «سألت الله عز وجل ألا يجمع أمتي على ضلالة؛ فأعطانيها»^(٢).

ومن فروع ذلك: أنّ قول واحد أو اثنين من السلف في مسألة ما؛ لا يجعل هذا القول هو منهج السلف إن كان ثمّ مخالف له. وما أكثر المسائل التي يستشهد فيها

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٥).

(٢) أحمد (٢٧٢٢٤) وصححه الأرنؤوط.

بعضُ الناس بقول واحد من السلف، وقد عَلِمَ مخالفةَ بعض معاصريه له فيها، ثم يُعلن أنها قول السلف، وأنَّ من قال بخلافها؛ فقد خرج عن منهجهم وابتدع وأحدث! فيا صاحبي، وسَّع أفقك، ولينشرح صدرك لغيرك، واعلم أنَّ الأمور لا تؤخذ بهذه الطريقة الضيقة والتحجير الضائع، وكُن حُرًّا، لا مِمَّن يُقرعُ بالعصا.

فلا ثقة مطلقة إلا بالوحي المعصوم، قال ابنُ رفاعه رحمه الله تعالى: «ينبغي لأهل الرأي أن يتَّهَمُوا رأيهم عند ظنِّ يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو نبيُّ حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] فأصاب هنا، ثم لما قالوا له: ﴿إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فلم يُصِبْ» (١).

وعليك بالثقةِ الراسخة بالوحي المنزَّل، فالهدى كل الهدى في الوحي، ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتَ فَمَا يُوحِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] ومن لم يثق في الوحي ثقةً مطلقةً؛ فلا ترجُهِ.

ولتكن من أولوياتك العناية بالنظر المقاصدي للشرع المطهر، وهذا علمٌ شريف حقيقٌ بالتأمل والطلب والمدارسة.

والزم الوسطية في الأمور، فخيرُ الأمور أوسطُها، وقال علي رضي الله عنه: «خيرُ

(١) الباب في علوم الكتاب (١١/٤٦).

الناس هذا التَّمَطُّ الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي»^(١).

ويتبع ذلك: التكامل والتوازن. فكن متوازنًا متكاملًا لا جافيًا ولا غاليًا، فلا تغلّ - مثلاً - في مسألة حقوق ولي الأمر والسمع والطاعة، ولا تنتطع في مخالفته والتأليب عليه، فلكل أصل قدره.

واحرص على الاستمسك بالسنة المحضة في عصر الفتن المدهمة، فثمة منهج ينتهي لمذهب الخوارج في التكفير، ويقابله منهج إرجائي في العمل والمال. والسعيد من جُنِبَ الفتن. وما من عمل إلا وللشيطان منه حظان لا يبالي بأيهما ظفر؛ تحذيل عن طاعة فيقع العبد في التقصير، أو تنطع فيها فيركب قلائص الغلو. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومن التوازن الرشيد: الفرح بالخير من كل مسلم، وكلما زاد خير المسلم ونفعه للناس؛ فلتزد جرعة فرحك له، وأظهر سرورك واحتفاءك.

واعلم أن البشارة الحقيقية هي بشارة: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]. فاجعل - رعاك الله تعالى - أجمل الأمور في عينيك، وأحلاها في صدرك، وأبقاها أثرًا عليك في آخرتك: علمًا تفيده، وضالًا ترشده، وملهوفاً تغيثه، وبابًا من الخير تفتحه، ومحبة لنشر الخير ونفع الناس على يديك ويدي غيرك، فغاية القلب الطيب والروح الطاهرة؛ سرور الناس وإسعادهم، وإسداء الخير لهم، فاعمل ولا تملّ، فالحركات بركات.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣ / ٢٨٢) (٣٥٦٣٩).

وأعظمُ الهدايا؛ الوصايا النافعة، قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما تصدَّق عبدٌ بصدقةٍ أفضلَ من موعظةٍ يعظُّ بها إخواناً له مؤمنين، فيتفرَّقون وقد نفعهم الله بها».

إنَّ من حقوق الإسلام: الفرحُ بداعٍ إلى الله اشتهر في الناس فضله ونفعه وسلامته، حتى وإن كان طرْحُه أو مواضيعه ليست هي الأهم، فنفرح ونُشيدُ به لأنَّه قد تكلم واجتهد فيما يحسنه، وقيمةُ كلِّ امرئ ما يحسنه، وحاجاتُ الأرواح لا تنتهي. وجزى الله خيراً كلَّ من نفع الناس ودعاهم للخير والشرع، ومهما كثر الدعاة وتوالت جهودهم؛ ففي الأمة حاجة، بل ضرورة إلى المزيد، ومن الناس من خلقهم الله غيًّا للناس ورحمة، فيا ورثة الأنبياء أمتكم أمتكم.

ومن الوسطية: وسطيةُ التقوى بين الغلوِّ والجفاء. فمن سنن الله تعالى في خليقته أن نرَّع المدارك، وفضل في المنائح، ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وبثَّهم في هذه الدار امتحاناً وابتلاءً.

كلُّ منهم يحرث أيامه بأعماله، ويستبقُّ أجله مع أنفاسه، حتى إذا بلغ المدى الأخير؛ عادت وديعةُ الروح لصاحبها، ورجعت لخالقها. فإذا أذن الله للحساب؛ ابتعث الأجساد وأقام الأشهاد، وجمع الأولين والآخرين.. حينها يكون تأويلُ الكتاب: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].
وحينها يكون الافتراق العظيم في المصير على قدر الافتراق اليوم في التدين، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿قَآمَآ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآئِ

الْآخِرَةَ قَالُوا لَيْكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤-١٦].

فبما أن الأمر بهذا الخطر؛ فقد وجب على كل ناصح لنفسه أن يراجع صادقاً مسيرته، ويسارع لإصلاح سيرته، ويحاسب نفسه قبل الفوات؛ كي يستعقب في دار المهلة ويؤوب قبل ألا تحين مناص. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١-٥٢] ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۚ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّسِلُونَ ۚ قَالُوا يُؤَيَّلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۚ فَأَزَلْتِ لَكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٥].

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

ومن فروع تلك المحاسبة: ألا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتباع، فركنا قبول العمل: الإخلاص والاتباع. ولا يكفي شرطاً عن مكمله، فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له، ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الاتساء بمن لهج له بالشهادة بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، وهو القائل - بأبي هو وأمي ونفسي وولدي - فيما رواه الشيخان: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١). أي: مردود غير مقبول، وكفى به عن الإحداث زاجراً. فقل لمن لم يُخلص: لا تتعب! وقل لمن لم يتبع لا تجهد، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

(١) البخاري ٢٤١/٣ (٢٦٩٧)، ومسلم ١٣٢/٥ (١٧١٨) (١٧) و(١٨).

رَبِّهِ أَحَدًا ﴿[الكهف: ١١٠].

وشرع الإسلام وسطاً بين الشرائع، قد جمع الله فيه كل كمالاتها، وجعله خاتماً لها ناسخاً ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [أل عمران: ٨٥] وأمة محمد ﷺ وسطاً بين الأمم، عدولاً خياراً شهداء على الناس، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وما من أمر لله إلا وللنفس فيه إفراط أو تفريط، ومن رحمة الله أن جعل منار الدين واضحاً جلياً، وسنة رسوله ﷺ محفوظة نقيّة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الاحزاب: ٢١] فمن رام الفلاح فليبدأ من هنا. لا غلو ولا جفاء.

فابعث نفسك على العمل، واجتهد ولا تقصّر، ثم قف حيث وقف القوم، فلا خير في التقصير ولا خير في الغلو.

والزم صدق الاتّباع. فلا تكن مرجئاً مع السلاطين خارجياً مع الدعاة، ولو بالسلوك والعمل. ولا تكن مداهناً للجمهور باغياً على الولاة. بل حقّق شهادتيك.

وقصّر أملك، فمن طال أمله ساء عمله، ولا تزال تنعى ميتاً حتى تكونه، ومن أراد أن ينظر إلى حال الدنيا بعد رحيله؛ فليُنظر إليها الآن بعد رحيل غيره.

وتذكّر من كان معك فوق الأرض بالأمس صار اليوم تحتها، ولربما هذا التراب الذي تمشي فوقه قد كان جسداً لمن كان يهول في الدنيا كأنها هو من الخالدين!

سِرُّ إِنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُويْدًا لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاكُمِ الْأَصْدَادِ

ولو كُشف لك ما بقي من أَجلك؛ لزهدت فيما بقي من أملك. والفطنُ الحازم هو من يعرف قدر ما أمامه ويفقه ما بين يديه، ولا ينشغل بالفاني على الباقي، ﴿وَإِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

وتأمل مراحل الإنسان ونباته: بذرة ماء، ثم ولادة ورقة، ثم برعم طفولة، ثم زهرة شباب، ثم شدة غصن الكهولة، ثم اصفرار المشيب، ثم كسر حطامه بالموت. ومُشَيِّدٌ دارًا ليسكن داره سَكَنَ الْقُبُورَ وداره لم تُسَكَّنِ
وتأمل لحظة تُغنيك: ماذا لو علمت الآن سنة رحيلك عن الدنيا، ولو كان بعد سنين، ماذا سيتغير فيك؟! تأملها جيدًا وسترى الأثر.

وهل تعلم أنّ الدنيا ستستمرُّ بكل صخبها بعد رحيلك الحزين عنها، سيتذكرك أعبائك زمنًا ثم ينسونك، سيستوي عندك الليل والنهار، فخذ زادك منها الآن. وكلهم زائلون، وكلهم مغادرون، وكلهم فانون، إلا أنت يا الله.

فهل تخيلت يومًا ذلك الزمان الذي ينسى فيه الجميع قبرك، حتى معالم جَدَثِكَ قد اختفت، إذ خَفَقَتْهَا رياح السنين، رحماك يا رب فلا وحشة على من كنت أنيسه.

يا صاحبي إن جُزْتَ قَبْرِي هَائِمًا فانصَحْ لِنَفْسِكَ واعتبر بتجاربي
قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأيُّ موعظةٍ أبلغُ من أن ترى ديار

الأقران، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى يتتبه الغير بك».

ألا وإن حبّ الدنيا مغرورٌ في نفوس البشر، ومُزَيَّن لهم، ولا يلامون على ذلك، فليس حبّها بعيد ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو ألهى عنها، أو قسّى القلب. وليس للمؤمن أن يكون بحالٍ غير حال العبودية حتى يلقي ربه، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وتدبّر - حرسك الله - سوء حال الكافر عند قيامته؛ حتى تزهّد في متاعه الفاني، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَمُنَّ لِأَنَّهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمُنُّ لِيُزَادُوا إِيثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] اللهم رحمتك.

وعليك بالعناية بالأعمال الصالحة والقرب المرضية. فالانحراف عن السنة حتى بمعاصي الشهوات هو خروج عن السنة، إنما شدّد السلف في البدع؛ لأنها تؤوّل إلى التبديل، وليس مقصودهم الاستهانة بمعاصي القلب والجوارح، فكلّ معصية تثلم في التوحيد ثلثة بقدرها.

وكذلك العناية الدائمة والحراسة اليقظة لأعمال القلوب، فهي محلّ نظر الله تعالى، فلا بد من الاهتمام الشديد والمراعاة التامة لأعمال القلوب، فكثيرها موحش بلقع!

أما العزلة التامة عن الخلق فهي ليست من الإسلام في شيء إلا في أزمنة الفتن، وعند خوف المرء على دينه أو نفسه أو أهله، فرهبانية الإسلام هي الجهاد في سبيل الله، أما من انفرد عن الخلق بالكلية دون سبب مشروع؛ فقد سلك هدياً ليس بهدي

النبي ﷺ، بل هو هدي رهبان النصارى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] وخير الهدى هدى رسول الله ﷺ.

والموفق هو من اعتصم بالله تعالى حين احتدام الفتن، ولزم غرز العلماء، فالعلماء للقلوب كالأطباء للأبدان، فالطبيب يداوي علة الجسد من سقمه العارض مع مراعاة صحته العامة، وكذلك العالم يداوي مرض القلب الطارئ مع مراعاة سلامة الدين عامة، والطبيب يوازن مواد الجسد ويدفع كل علة بما يضادها، فالحرارة تدفع بالبرودة والعكس، والرطوبة باليوسة والعكس، والتخمة بالحمية أو الاستفراغ، فيحرص الطبيب على توازن معادن الجسد حتى تستقيم صحته، ويحرص على منع ورفع الطارئ المؤذي المُسقم، كذلك العالم للقلوب والأديان، فيحرص على حراسة الدين ويزيد جهاده في مواطن الثغور التي يلج منها العدو الرجيم لقلوب المؤمنين، واعتبر ذلك بالصحابة لما ركزوا جهدهم وجهادهم على مبدي الدين بإخراج ركنية الزكاة منه إذ فرقوا بين القريتين الصلاة والزكاة، فتاب الناس للدين.

ومر الزمان فوهن جدار فطرة بعض الناس لما فتحوها على قلوبهم نوافذ شبهات الفلاسفة فتزعزع يقينهم وكثفت شبهاتهم فركّز علماءهم كالإمام أحمد وأقرانه على هتك الشبهات الطارئة في هذا الباب وتحصين الناس عبر الكتب والرسائل وعبر الثبات على اللاؤاء والعذاب والتنكيل، فشكر الناس لهم حسن صنيعهم بعد انكشاف الفتنة وانجلاء المحنة.

ثم كثرت ضروب شهوات الأفكار من كل اتجاه فركّز ابن تيمية وأصحابه

على كشف زيفها وهدم بنيانها، ولا زال أهل العلم ينهلون من ثمار علم أولئك الجيل الفريد.

ومرّ الزمان واستدار فسقط بعض الناس في أحابيل الشيطان عبر شرك الأمم الغابرة بالتعلق والتبرك والدعاء والاستغاثة فركّز الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه على هدم صروح شرك العبادة باللسان والسنان فهدى الله الناس بهم، ومرّ الزمان فاستطال الشيطان على أهل الإيمان بُرْباعية الشرّ والمكر وهي شرك الحاكمية وخرافة التصوّف ونجاسة التغريب وكفر الإلحاد، فركّز العلماء على مدافعة ذلك الباطل والمكر ومجاهدته بكل سبيل ولا زالوا^(١)، ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ومن المخارج من الفتن يأذن الله تعالى: الاعتصام بالكتاب والسنة: قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقال النبي: «تركتم فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وستي، ولن يتفرقا حتى يردّا عليّ الحوض»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين

(١) وللمزيد من هذا الفصل يراجع (ولا تنازعوا فتفشلوا) محددات تأصيلية. للمؤلف.

(٢) الحاكم ٩٣/١ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٨).

المهدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(١).
«فالتمسك بالوحيين عصمة من الزلل، وأمان - بإذن الله - من الضلال.

واعلم أن الاعتصام بهما ليس كلمة تتمضمض بها الأفواه من غير أن يكون لها رصيد في الواقع. وإنما هي عمل، واتباع في جميع ما يأتيه الإنسان ويذره. ويعظم هذا الأمر حال الفتن؛ إذ يجب الرجوع فيها إلى هداية الوحيين؛ لكي نجد المخرج والسلامة منها.

ومن المخارج: التوبة النصوح: فهي واجبة في كل وقت، وهي في هذه الأوقات أوجب ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الانعام: ٤٣].

ولنا في قصة قوم يونس عليه السلام عبرة وموعظة؛ فهم لما رأوا نُذُر العذاب قد بدأت تلوح لجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه، فرفع الله عنهم العذاب ومتعهم بالحياة إلى حين مماتهم، وانقضاء آجالهم. فعلى الأمة أن تتوب، وأن تدرك أن ما أصابها إنما هو جارٍ على مقتضى سنن الله التي لا تحابي أحداً كائناً من كان؛ فتتوب من المنكرات التي أشاعتها من شرك، وحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وتقصير في الدعوة إلى الله سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتتوب من المظالم، والربا، والفسق، والمجون، والإسراف، والترف وما إلى ذلك مما هو مؤذن باللعنة، وحلول العقوبة.

(١) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وصححه ابن حبان (٥) وابن تيمية والألباني، وهو حديث صحيح مشهور نافع جداً.

وعلى كل فرد منا أن ينظر في حاله مع ربه، وفي جميع شؤونه؛ لأن ﴿وَمَا أَصْبَكُ
مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومنها الثقة بالله تعالى، واليقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين: فإن من أهم ما
يجب على المؤمن - في هذا الصدد - أن يقوّي ثقته بربه، وأن ينأى بنفسه عن قلة اليقين
بأن العاقبة للمتقين؛ فهناك من إذا شاهد ما عليه المسلمون من الضعف والتمزق،
والتشتت، والتفرق، ورأى تسلط أعدائهم عليهم، ونكايتهم بهم أيس من نصر
الله، وقنط من عز الإسلام، واستبعد أن تقوم للمسلمين قائمة، وظن أن الباطل
سيدال على الحق إدالة دائمة مستمرة يضمحل معها الحق.

فهذا الأمر جد خطير، وهو مما يعتري النفوس الضعيفة، التي قل إيمانها،
وضعف يقينها. وهذا الشعور مما ينافي الإيمان الحق، وهو دليل على قلة اليقين بوعده
الله الصادق، والتفات إلى الأمور المحسوسة دون نظر إلى عواقب الأمور
وحقائقها.

وإلا كيف يُظنُّ هذا الظن والله عز وجل قد كتب النصر في الأزل، وسبقت
كلمته بأن العاقبة للتقوى وللمتقين، وأن جنده هم الغالبون، وهم المنصورون،
وأن الأرض يرثها عباده الصالحون؟

فمن ظن تلك الظنون السيئة فقد ظن بربه السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق
بجلاله، وكماله، وصفاته، ونعوته؛ فإن حمده، وعزته، وحكمته، وإلهيته تأبى ذلك،
وتأبى أن يُذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة والغلبة لأعدائه.

فمن ظن ذلك فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه، وعظمته؛ فلا يجوز في

حقه عز وجل لا عقلاً ولا شرعاً أن يُظهر الباطل على الحق، بل إنه يقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق^(١).

أما ما يشاهد من تسلط الكفار واستعلائهم فإنما هو استعلاء استثنائي، وذلك استدراجاً وإملاءً من الله لهم، وعقوبة للأمة المسلمة على بعدها عن دينها.

ثم إن سنة الله ماضية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وهذه الأمة تذنّب، فتعاقب بذنوبها عقوبات متنوعة منها ما مضى ذكره؛ كي تعود إلى رشدّها، وتؤوب إلى ربّها، فتأخذ حينئذ مكانها اللائق بها.

ثم إن هذه الأمة أمة مرحومة تعاقب في هذه الدنيا، حتى يخف العذاب عنها في الآخرة، أو يغفر لها بسبب ما أصابها من بلاء.

ومنها: لزوم الاعتدال في جميع الأحوال:

فينبغي في ذلك الخضم من الفتن والمصائب ألا يفارقنا هدوؤنا، وسكيتنا، ومروآتنا؛ فذلك دأب المؤمن الحق، الذي لا تبطره النعمة، ولا تقنطه المصيبة، ولا يفقد صوابه عند النوازل، ولا يتعدى حدود الشرع في أي شأن من الشؤون.

ويتأكد هذا الأدب في حق من كان رأساً مطاعاً في العلم، أو القدر؛ لأن لسان حال من تحت يده يقول:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم (٣/٢١٨ - ٢٤١) ففيه كلام عظيم حول هذه المسألة، وحول الحكمة من إدالة الكفار على المسلمين.

قال كعب بن زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في قصيدته المشهورة «البردة»:

لا يفرحونَ إذا نالتَ رماحُهُمُ قومًا وليسوا مجازيعةً إذا نيلوا
فهو يمدح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم لا يفرحون من نيلهم عدوًّا؛ فتلک
عادتهم، ولا يحزنون إذا نالهم العدو؛ لأن عادتهم الصبر والثبات.

وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي رحمه الله تعالى وهو من خيار المجاهدين
من التابعين:

قد عشتُ في الدَّهرِ أطوارًا على طُرُقٍ شتَّى فصادفتُ منها اللَّيْنَ والبَشْعَا
كُلًّا بلوتُ فلا النعماءُ تُبْطِرُنِي ولا تَخْشَعُتُ من لأوائها جَزْعَا
لا يملأُ الهولُ قلبي قبلَ وقعته ولا أضيقُ به ذرعًا إذا وقعَا

هذه الخصال يمثلها عظماء الرجال؛ فلم يكونوا يتخلون عن مروءاتهم
وعاداتهم النبيلة حتى في أحلك المواقف.

وها هو سيد العظماء، وسيد ولد آدم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يضرب
لنا أروع الأمثلة في ذلك؛ فهو يقوم بصغار الأمور وكبارها؛ فلم يمنعه قيامه بأمر
الدين، وحرصه على نشره، وقيادته للأمة، وتقدمه في ساحات الوغى؛ لم يمنعه
ذلك كله من ملاطفة ذلك الطفل الصغير الذي مات طائره، وقوله له: «يا أبا عمير
ما فعل النغير!»^(١).

(١) البخاري (٦١٢٩ و٦٢٠٣) ومسلم (٢١٥٠) عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله
ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال: أحسبه فطيماً، وكان إذا جاء
=

ولم يكن أحد يلهمه عن أحد كائن والد والناس أطفال
فإذا لزم المرء هذه الطريقة؛ فلم يخف عند السراء، ولم يتضعض حال الضراء؛
فأحر به أن يعلو قدره، ويتناهى سؤدده، وأن تنال الأمة من خيره.

وتذكر كتب السير التي تناولت سيرة عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما
دَفَنَ وَلَدَهُ عبد الملك - وهو أبرُّ أولاده، وأكثرهم ديناً وأرجحهم عقلاً - مرَّ بقوم
يرمون؛ فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارموا، ووقف، فرمى أحد الرامين فأخرج^(١).
فقال له عمر: أخرجت فقصر، وقال للآخر: ارم، فرمى فقصر^(٢). فقال له عمر:
قصرت فبلغ. فقال له مسلمة بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين! أتفرغ قلبك إلى ما
تفرغت له، وإنما نفضت يدك الآن من تراب قبر ابنك، ولم تصل إلى منزلك؟ فقال
له عمر: يا مسلمة! إنما الجزع^(٣) قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة فاله عَمَّا نزل

قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، نغرَّ كان يلعب به. وهذا لفظ البخاري. والنَّغْر هو

المسمى في نجد «النُّغَيْرِي»، وفي الحجاز «النُّغْرِي» وهو من أكثر طيور الأرض انتشاراً.

(١) أي: أبعد عن الهدف وتعدّاه فلم يصبه ولم تقترب رميته منه.

(٢) أي: لم يبلغ الهدف بسبب ضعف رميته.

(٣) إنَّ صحت هذه اللفظة بحروفها، فمقصوده رحمه الله تعالى بالجزع: الانصراف والانشغال

الشديد بمعالجة دفع ما اسطاع من آثار مبادئ المصيبة ومقدماتها، فإذا حمَّ الأمر ونزل

القضاء واستحكمت المصيبة؛ فاله حينها عنها بالصبر والرضا والحمد والشكر

والتسليم. وحاشاه رحمه الله تعالى أن يقصد بالجزع إلى معنى التسخُّط والاعتراض وترك

الصبر.

بك»^(١). فمن الجزع عندهم تغيير الهيئة أو الحال عما كان عليه قبل المصيبة.

فالأخذ بهذه السيرة - أعني الاعتدال حال نزول الفتن - ينفع كثيرًا، ويدفع الله به شرًّا مستطيرًا؛ لأن الناس حال الفتن يموجون ويضطربون، وربما غاب عنهم كثير من العلم؛ فلذلك يحتاجون - وخصوصًا من كان عالمًا، أو رأسًا مطاعًا - إلى لزوم السكينة والاعتدال؛ حتى يُثَبِّتُوا الناس، ويعيدوا الطمأنينة إلى النفوس، فيثوب الناس عن جزعهم بالاعتداء الصالح بهم، ولا تقطعهم تلك النوازل عما هم بصدد عمله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا لما مات النبي ﷺ ونزلت بالمسلمين أعظم نازلة نزلت بهم؛ حتى أوهنت العقول، وطيشت الأبواب، واضطربوا اضطراب الأرشية في الطَّوِيِّ^(٢) البعيدة القعر؛ فهذا ينكر موته، وهذا قد أقعد، وهذا قد دهش فلا يعرف من يمر عليه ومن يسلم عليه، وهؤلاء يضجّون بالبكاء، وقد وقعوا في نسخة القيامة، وكأنها قيامة صغرى مأخوذة من القيامة الكبرى، وأكثر البوادي قد ارتدوا عن الدين، وذلت كُفَّاتُهُ^(٣)؛ فقام الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقلب ثابت، وفؤاد شجاع فلم يجزع، ولم ينكل قد جُمع له بين الصبر واليقين فأخبرهم بموت النبي ﷺ، وأن الله اختار له ما عنده، وقال لهم: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ﴿وَمَا

(١) الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز لعمر بن محمد الخضر (٢/٢٣٦).

(٢) جمع رشاء وهو الحبل، والطوي: البئر المطوية بالحجارة.

(٣) أي: صنائده وأبطاله.

مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران:
١٤٤].

فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية حتى تلاها الصديق فلا تجد أحداً إلا وهو يتلوها، ثم خطبهم فثبتهم وشجعهم. قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خطبنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنَّا كَالثَعَالِبِ، فَمَا زَالَ يَشْجَعُنَا حَتَّى صَرْنَا كَالْأَسُودِ».

وأخذ في تجهيز أسامة مع إشارتهم عليه بخلافه، وأخذ في قتال المرتدين مع إشارتهم عليه بالتمهل والتربص، وأخذ يقاتل حتى مانعي الزكاة. فهو مع الصحابة يعلمهم إذا جهلوا، ويقوئهم إذا ضعفوا، ويحثهم إذا فتروا؛ فقوى الله به علمهم ودينهم وقوتهم؛ حتى كان عمر - مع كمال قوته وشجاعته - يقول له: يا خليفة رسول الله؛ تألف الناس، فيقول: «علام أتألفهم؟ أعلى دين مفترى؟ أم على شعرٍ مفتعل؟» وهذا باب واسع يطول وصفه»^(١).

ومنها: لزوم الرفق، ومجانبة الغلظة والعنف:

سواء في الدعوة، أو الرد، أو النقد، أو الإصلاح، أو المحاوره؛ فإن استعمال الرفق، ولين الخطاب ومجانبة العنف؛ يتألف النفوس الناشزة، ويدينها من الرشد، ويرغبها في الإصغاء للحجة. ويتأكد هذا الأدب في مثل هذه الأحوال العصبية التي نحتاج فيها إلى تلك المعاني التي تنهض بالأمة، وتشد من أزر الدعوة.

(١) منهاج السنة النبوية (٨/٨٣-٨٤).

ولقد كان ذلك دأب الأنبياء، قال تعالى في خطاب هارون وموسى عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ولقن موسى عليه السلام من القول اللين أحسن ما يخاطب به جبار يقول لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتأمل امثال موسى لما أُمِر به كيف قال لفرعون: ﴿هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ﴾ ولم يقل: (إلى أن أزيك). فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك. وقال: ﴿إِلَٰهٌ إِلَّا رَبِّكَ﴾ استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه، ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً^(١). ولهذا فإن الكلمة التي تلقى أو تحرر في أدب، وسعة صدر، تسيغها القلوب، وتهش لها النفوس، وترتاح لها الأسماع.

ولقد امتن ربنا جل وعلا على نبينا محمد ﷺ بأن جبله على الرفق ومحبة الرفق، وأن جنبه الغلظة، والفظاظة، فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١٣٢/٣ - ١٣٣).

ولقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام حافلة بهذا الخلق الكريم الذي مَنْ مَلَكَهُ بسط سلطانه على القلوب. وكما كان عليه الصلاة والسلام متمثلاً هذا الخلق؛ فقد كان يأمر به، ويبين فضله. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يَجِبُ الرَّفْقُ، وَيُعْطَى عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعَنْفِ، وَمَا لَا يُعْطَى عَلَى غَيْرِهِ»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يَنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(٢).

ولما بَعَثَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ وَمَعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهَا: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تَنْفَرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(٣).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَأْمُرُ بِالرَّفْقِ وَالْخُضُوعِ، فَإِنْ أَسْمَعُوهُ مَا يَكْرَهُ لَا يَغْضَبُ؛ فَيَكُونُ يَرِيدُ يَتَنَصَّرُ لِنَفْسِهِ»^(٤). وكان يقال: «مَنْ لَانَتْ كَلِمَتُهُ وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ»^(٥). ولقد أحسن من قال^(٦):

لَوْ سَارَ أَلْفُ مَدَجَّجٍ فِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْضِهَا إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَّقُ
وخلاصة القول: أن الرفق هو الأصل، وهو الأجدى، والأنفع، وأن الشدة

(١) مسلم (٢٥٩٣).

(٢) مسلم (٢٥٩٤).

(٣) البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/٤٥٦).

(٥) البيان والتبيين للجاحظ (٢/١٧٤).

(٦) روضة العقلاء (٢١٦).

لا تصلح من كل أحد، ولا تليق مع كل أحد، فقد تلائم إذا صدرت من ذي قدر كبير في سن، أو علم وكانت في حدود الحكمة، واللباقة، واللياقة.

أما إذا صدرت ممن ليس له قدر في سن، أو علم، أو كانت في غير موضعها، وتوجهت إلى ذي قدر أو جاه فإنها - أعني الشدة -؛ تضر أكثر مما تنفع، وتفسد أكثر من أن تصلح.

ومنها: الإقبال على الله عز وجل:

وذلك بسائر أنواع العبادات. قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العبادة في الهَرَج كهجرة إلى»^(١). والهَرَج: الفتن والقتل.

فحري بنا في مثل هذه الأيام أن نزداد إقبالاً على الله ذكراً وإنابة، وصلاة، ونفقة، وبرّاً بالوالدين، وصلة للأرحام، وإحساناً إلى الجيران، وحرصاً على تربية الأولاد، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة.

وجدير بنا أن نكثر من الاستغفار؛ فهو من أعظم أسباب دفع العذاب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٣] وأن نُقْبِلَ على أعمال القلوب من خوف، ورجاء، ومحبة، وغيرها.

وحقيق علينا أن نُقْبِلَ - كذلك - على النفع المتعدي^(٢) من أمر بالمعروف، ونهي

(١) مسلم (٢٩٤٨).

(٢) وتدبر حال موسى عليه السلام، لما كان في أشد الحاجة والافتقار لم يغفل عن نفع الناس، بل العجب أن نفعه للناس ارتد نفعاً من الله تعالى له، وإذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه، فإنَّ

عن المنكر، ودعوة إلى الله، وإصلاح بين الناس، وإحسان إليهم، وما جرى مجرى ذلك.

ومنها: الحرص على جمع الكلمة ورأب الصدع:

فالأمة مثخنة بالجراح، وليست بحاجة إلى مزيد من ذلك. بل هي بحاجة إلى إشاعة روح المودة، والرحمة، ونيل رضا الله بترك التفرق وبند الخلاف. وذلك يتحقق بسلامة الصدر، ومحبة الخير للمسلمين، والصفح عنهم؛ والتجاوز عن زلاتهم والتماس المعاذير لهم، وإحسان الظن بهم، ومراعاة حقوقهم، ومناصحتهم بالتي هي أرفق وأحسن.

وتكون بالتغاضي، والبعد عن إيغار الصدور، وطعن الجراح. قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ومنها: الشورى:

خصوصاً بين أهل العلم، والفضل، والحل والعقد، وذلك بأن ينظروا في

موسى عليه السلام لما سقى للمرأتين المحتاجتين لعونه، لم يطلب منهما جزاءً ولا شكوراً، بل سأل الله الغني الكريم الشكور الوهاب، فأعمال البر وسيلة لفرج في الحاضر، وأجر في المستقبل، ورضا الله رب العالمين، ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

مصلحة الأمة، وأن يقدموا المصالح العليا، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقال عز وجل لنبية ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فقد شرع الله له الاستشارة وهو غني عنها بما يأتيه من وحي السماء؛ تطييباً لنفوس أصحابه، وتقريراً لسنة المشاورة للأمة من بعده.

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العلم بالشرعية، والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا تطاولها العلماء والحكماء، ومع هذا فقد كان لا يُبرم حكماً في حادثة عامة إلا بعد أن تتداولها آراء جماعة من الصحابة^(١).

وهكذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشورى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكان عمر يشاور في الأمور لعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي موسى وغيرهم، حتى كان يدخل ابن عباس معهم مع صغر سنه.

وهذا مما أمر الله به المؤمنين ومدحهم عليه بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. ولهذا كان رأي عمر، وحكمه، وسياسته من أسد الأمور، فما روي بعده مثله قط، ولا ظهر الإسلام وانتشر وعزَّ كظهوره وانتشاره وعزه في زمنه. وهو الذي كسر كسرى، وقصر قيصر الروم والفرس، وكان أميره الكبير على الجيش الشامي أبا عبيدة، وعلى الجيش العراقي سعد بن أبي وقاص، ولم يكن لأحد بعد أبي بكر مثل خلفائه ونوابه وعماله وجنده وأهل شورا^(٢).

(١) انظر: الحرية في الإسلام (٢١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥٨/٨).

وكما كانت هذه هي سيرة الخلفاء الراشدين في الشورى فكذلك كانت سيرة من جاء بعدهم فهذا معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان مضرب المثل في الدهاء والحلم وكياسة الرأي كان يأخذ بسنة الشورى. فقد جاء في الثمار للثعالبي^(١) ما يلي: «دهاء معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ذلك ما اشتهر أمره، وسار ذكره، وكثرت الروايات والحكايات فيه، ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزيد بن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢)، فلما كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحيث هو من الدهاء وبعد الغور - وانضم إليه الدهاة الثلاثة الذين يرون بأول آرائهم أواخر الأمور - فكان لا يقطع أمراً حتى يشهده، ولا يستضيء في ظلم الخطوب إلا بمصاييح آرائهم؛ سلم له أمر الملك^(٣)، وألقت إليه الدنيا أزمته، وصار دهاؤه ودهاء أصحابه الثلاثة مثلاً».

ثم إن للشورى فوائد عظيمة منها تقريب القلوب، وتخليص الحق من احتمالات الآراء، واستطلاع أفكار الرجال، ومعرفة مقاديرها؛ فإن الرأي يمثل لك عقل صاحبه كما تمثل لك المرأة صورة شخصه إذا استقبلها. وقد ذهب الحكماء من الأدباء في تصوير هذا المغزى مذاهب شتى، قال بعضهم:

إذا عن أمرٍ فاستشر فيه صاحباً وإن كنت ذا رأيٍ تشير على الصاحبِ
فإني رأيت العين تجهل نفسها وتدرى ما قد حلَّ في موضع الشهبِ

(١) الثمار، للثعالبي (٦٨).

(٢) قال الذهبي في الميزان: «لا يعرف له صحبة، مع أنه ولد عام الهجرة».

(٣) قال شيخ الإسلام: هو خير ملوك الإسلام.

وإذا كان العالم النحرير، والحكيم الداهية، والقائد الحصيف لا يستغنون عن الشورى؛ فكيف بمن دونهم، بل كيف بمن كان شاباً في مقتبل عمره، ولم تصلب بعد قناته، ولم تُحنَّكه التجارب؟!

ومنها: الصبر:

قال ربنا جل وعلا: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال عز وجل: ﴿لَتَبْلُوتَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

ومن أعظم الصبرِ الصبرُ على هداية الناس، والصبر على انتظار النتائج؛ لأن استعجال الثمرة قد يؤدي إلى نتائج عكسية تضر أكثر مما تنفع؛ فالصبر إذا اقترن بالأمر كان عصمة من الملل واليأس والانقطاع، وتفجرت بسببه ينابيع العزم والثبات. إنه الصبر المترع بأنواع الأمل العريض، وليس صبر اليائس الذي لم يجد بداً من الصبر فصبر.

وبالجملة؛ فإن الصبر من أعظم الأخلاق، وأجل العبادات، وإن أعظم الصبر وأحمده عاقبة الصبر على امتثال أمر الله، والانتفاء عما نهى الله عنه؛ لأنه به تخلص الطاعة، ويصح الدين، ويستحق الثواب؛ فليس لمن قل صبره على الطاعة حظ من

بِرٍّ، ولا نصيبٌ من صلاح.

ومن جميل الصبر: الصبرُ فيما يُخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجل همَّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع.

ومن جميل الصبرِ الصبرُ على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف؛ فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء، وتُسَدِّعُ مكائد الأعداء؛ فإن من قلَّ صبره عَزَبَ رأيه، واشتد جزعه، فصار صريعَ همومه، وفريسة غمومه.

وكما أن الأفراد بأمس الحاجة إلى الصبر فكذا الأمة؛ فأمة الإسلام كغيرها من الأمم؛ لا تخرج عن سنن الله الكونية، فهي عرضة للكوارث، والمحن. قال سبحانه واصفاً أهل الإيمان: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

والأمة في الوقت نفسه مكلفةٌ بمقتضى حكم الله الشرعي بحمل الرسالة الخالدة، ونشر الدعوة المباركة، وتحمل جميع ما تلاقيه في سبيلها برحابة صدر، وقوة ثبات، ويقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين.

وهي كذلك مطالبة بالجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ونشر دين الله، وإزاحة ما يقف في وجه الدعوة من عقبات؛ فلا بد لها من الجهاد الداخلي الذي لا يتحقق إلا بمجاهدة النفس والهوى. وهذا الجهاد لا يتحقق إلا بخلق الصبر،

ومغالبة النفس والشيطان والشهوات؛ فذلك هو الجهاد الداخلي الذي يؤهل للجهاد الخارجي؛ لأن الناس إذا تركوا وطباعهم وما أُودِعَ فيها من حبٍّ للراحة، وإيثارٍ للدَّعة، ولم يُشَدَّ أزرُهُمْ بإرشاد إلهي تطمئن إليه نفوسهم، ويثقون بحسن نتائجه؛ عجزت كواهلهم عن حمل أعباء الحياة، وخارت قواهم أمام مغرياتهما، وذاب احتماؤهم إزاء ملذاتهما وشهواتهما؛ فيفقدون كلَّ استعدادٍ لتحقيق السمو، والعزة، والمنزلة اللائقة.

فهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقل أرواحهم، ويزكي نفوسهم، ويمحص قلوبهم، ويربي ملكات الخير فيهم من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج وغيرها من الشرائع.

ومنها: التفاؤل:

فإن ذلك مما يبعث الهممة، ويدعو إلى اطراح الخور والكسل، ويقود إلى الإقبال على الجِد والعمل؛ فلتثق بالله عز وجل ونصره وتأييده، ولتحذر من كثرة التلاوم، وإلقاء التبعات على الآخرين، ولتحذر من القنوط واليأس، والتشاؤم؛ فالإسلام لا يرضى هذا المسلك، بل يحذر منه أشد التحذير. ثم لتثق بأن في طي هذه المحن منحةً عظيمة.

كم نعمة لا تستقلُّ بشكرها لله في طيِّ المكاره كامنة

ولو لم يأت من ذلك إلا أن الأمة تصحو من رقبتها، وتعود إلى ربها ودينها. ولو لم يأت من ذلك إلا أن هذا الجيل الجديد بدأ يعرف أعداءه، ويطرق سمعه مسائل الولاء والبراء، ويدرك ما يحاك حوله من مؤامرات، ويشعر بأن العزة لله

ولرسوله وللمؤمنين.

ولو لم يأت من ذلك إلا أن المسلمين صاروا يشعرون بروح الجسد الواحد، ويتعاطفون مع إخوانهم في كل مكان، ويجرّصون على تتبع أخبارهم، وتقديم المستطاع لهم، كل ذلك مع ما يواجهونه من التضليل الإعلامي، وما يجاربون به من سيل الشهوات العارم.

وبالجملة؛ فإن التفاؤل دأب المؤمن، وهو سبيل التآسي بالنبي ﷺ خصوصاً في وقت اشتداد المحن؛ وليس أدل على ذلك مما كان في غزوة الأحزاب بالمدينة، وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك كان عليه الصلاة والسلام يبشر أصحابه بمفاتيح الشام، وفارس، واليمن^(١).

ومنها: التثبت مما يقال، والنظر في جدوى نشره، والحرص على رد الأمور إلى أهلها:

فالعقل اللبيب لا يتكلم في شيء إلا إذا تثبت من صحته؛ فإذا ثبت لديه ذلك نظر في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير، واجتماع عليه؛ نشره، وأظهره، وإن كان خلاف ذلك أعرض عنه، وطواه.

ولقد جاء النهي الصريح عن أن يحدث المرء بكل ما سمع. قال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٢). وقال مسلم: «حدثنا محمد بن المثنى قال:

(١) انظر مسند الإمام أحمد (٢٠٣/٤) وسنن النسائي الكبرى (١٨٥٨).

(٢) مسلم (٥).

سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: «لا يكون الرجل إمامًا يقتدى به حتى يُمسك عن بعض ما سمع»^(١).

ويتعين هذا الأدب في وقت الفتن والملمات، فيجب على المسلم أن يتحرى هذا الأدب؛ حتى يقرب من السلامة، وينأى عن العطب. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم؛ أن يثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي، والعلم، والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم؛ فعلوا ذلك، وإن رأوا ما ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته؛ لم يذيعوه. ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

(١) مسلم في مقدمة صحيحه (٩).

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه^(١). وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر حاثاً على الثبت، والتدبر، والتأمل قال: «وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أدب طالب العلم، وأنه ينبغي له أن يتأنى في تدبره للعلم، ولا يستعجل بالحكم على الأشياء، ولا يعجب بنفسه، ويسأل ربه العلم النافع والتسهيل»^(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] هذا إرشاد منه لعباده إذا سمعوا الأقوال القاذحة في إخوانهم المؤمنين رجعوا إلى ما علموا من إيمانهم، وإلى ظاهر أحوالهم، ولم يلتفتوا إلى أقوال القادحين، بل رجعوا إلى الأصل، وأنكروا ما ينافيه^(٣). قال ابن

(١) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للسعدي (١٥٤).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من

القرآن، للعلامة عبد الرحمن السعدي (١٦١).

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (١٦٢).

حبان^(١) رَحِمَهُ اللهُ: «أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

الرفقُ أيمنُ شيءٍ أنتَ تتبَعُه والخرقُ أشأمُ شيءٍ يُقَدِّمُ الرَّجُلَا
وذو التثبِت من حمدٍ إلى ظَفَرٍ من يركبُ الرفقَ لا يستحقُّ الزللا
هذا وسيُضح شيء من ذلك في الفقرة التالية.

ومنها: الشجاعة.

فالشجاعة فضيلة عظيمة، وخصلة من خصال الخير عالية. وهي من أعظم ما ينهض بالأفراد والأمم؛ فالشجاع ينفر من العار، ويأبى احتمال الضيم.

والأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقرُّ بها عين حلفائها إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة. وعزة الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما يسمى شجاعة^(٢).

والشجاعة لا تقتصر على الإقدام في ميادين الوغى، بل هي أعم من ذلك؛ فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، وبالصدع بالحق، وبالاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين.

بل وتكون بالسكوت أحياناً، قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ: «ولأنَّ يسكت العاقل مختاراً في وقتٍ يحسن السكوت فيه؛ خيرٌ من أن ينطق مختاراً في وقت لا يحسن الكلام فيه، وكلُّ نطقٍ تملئها الظروف لا الضمائر تثمر سكتةً عن

(١) روضة العقلاء (٢١٦).

(٢) انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين (١ / ٧٧).

الحق ما من ذلك من بدّ^(١).

وليس من شرط الشجاعة ألا يجد الرجل في نفسه الخوف جملة من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك؛ فذلك شعور يجده كل أحد من نفسه إذا هو هم بعمل كبير أو جديد. بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به الانهزام. قال هشام بن عبد الملك لأخيه المجاهد مسلمة - المسمى ليث الوغى -: يا أبا سعيد! هل دخلك ذعر قط في حرب أو عدو؟ فقال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذعر ينبّه على حيلة، ولم يغشني فيها ذعر سلبني رأي^(٢). قال هشام: هذه هي البسالة.

فالشجاعة - إذا - هي مواجهة الخطر أو الألم أو نحو ذلك عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس. فالشجاعة لا تعتمد على الإقدام والإحجام فحسب، ولا على الخوف وعدمه.

بل ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فقد يكون الخوف فضيلة، وعدمه رذيلة؛ فالخوف عند الإقدام على أمر مهم تتعلق به مصالح الأمة، أو يحتاج إلى اتخاذ قرار حاسم فضيلة؛ وأي فضيلة؛ إذ هو يحمل على الروية، والتأني،

(١) عيون البصائر (١٧).

(٢) أي: أنه لم يسلم من خوف، لكنه خوف إيجابي يحفز ذهنه ويشحذ عقله لقدح أفكار الحيل للتخلص من المخوف، وهو ليس بالخوف الذي يجثم على القلب والعقل فلا ينهضان لحاظر منجد، ولا لفكرة ملهمة، ولا تأمل نافع، ولا تخلص عاجل. فالأمن التام قد يوّلّد البلادة والخوف الشديد قد يعزب بالرأي السديد .

والتؤدة؛ حتى يختمر الرأي، وينضج في الذهن؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيبي المرتجل.

والعرب تقول في أمثالها: «الخطأ زاد العجول»^(١). كما أنها تمدح من يترث، ويتأنى، ويقلب الأمور ظهرًا لبطن، وتقول فيه: «إِنَّهُ حَوَّلَ قَلْبًا»^(٢). ولهذا تتابعت نصائح الحكماء على التريث خصوصًا عند إرادة الإقدام على الأمور العظيمة المهمة، قال المتنبي^(٣):

(١) مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٣٢) ومن أمثالهم: أخطأ المتعجل أو كاد، وأصاب المتأنى أو كاد. وقالوا: رب عجلة تورث ريثًا. وقالوا: العجلة أم الندامة.

(٢) أي: ذو حيلة وتصرف.

(٣) وأجمل ما يكون المتنبي إذا نحت الحكم بأبياته. وما أغزرها في شعره! فغرض الحكمة مضطرد في ديوانه. ولم يصنع شيئًا من عابه بذلك بحجة أن الحكمة ليست بغرض للشعر، لأنها خالية من المشاعر، وهذا جهل بأعمدة أغراض الشعر العربي، فكما أن الهجاء شعورٌ غضب، والمدح شعورٌ رَغَبٍ، والثناء شعورٌ وفاء حزين، والنسيب شعورٌ حبٍّ وشهوة، فالحكمة شعورٌ سكون وتأمل ونصح، فهي عندي في الغاية من الشعور. وإن كانت العرب تُقدِّر الحكيم الناثرة مرة، وفيها تُقدِّر الحكيم الشاعر مرّات. ويكفي في هذا المقام أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً» رواه البخاري (٦١٤٥). ولقد أحسن طرفة بن العبد حينما قال:

وإنَّ أحسنَ قولٍ أنتَ قائِلُهُ قولٌ يُقالُ إذا ما قُلْتَهُ صدَقًا

وبنحوه قال حسان رضي الله عنه:

وإنَّ أشعَرَ بيتٍ أنتَ قائِلُهُ بيتٌ يُقالُ إذا أنشدته صدَقًا

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

وقال:

وكل شجاعة في المرء تُغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وبالجملة؛ فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا هو بالجبان الرعديد الذي يفرق من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والشجاعة ليست هي قوة البدن؛ فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن، وصنعه للقتال، وعلى قوة القلب، وخبرته به.

والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم؛ ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح. فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد»^(١).

وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر: «ومما ينبغي أن يعلم أن الشجاعة إنما فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله، وإلا فالشجاعة إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله؛ كانت إما وبالاً عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإما غير نافعة له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى. فشجاعة

(١) الاستقامة (٢/ ٢٧٠-٢٧١).

علي والزبير وخالد وأبي دجانة والبراء بن مالك وأبي طلحة وغيرهم من شجعان الصحابة إنما صارت من فضائلهم لاستعانتهم بها على الجهاد في سبيل الله؛ فإنهم بذلك استحقوا ما حمد الله به المجاهدين. وإذا كان كذلك فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد، ومنه ما يكون بالحجة والبيان والدعوة^(١).

فما أحوجنا وما أحوج أمتنا إلى الشجاعة المنضبطة المتعقّلة التي تجلب الخير، والمصلحة للأمة، وتنأى بها عن الشرور والبلايا والرزايا.
ومنها: الدعاء:

فالدعاء من أعظم أسباب النصر والسلامة من الفتن، كيف وقد قال ربنا عز وجل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فثمرة الدعاء مضمونة -ياذن الله - إذا أتى الداعي بشرائط الإجابة؛ فحري بنا أن نكثر الدعاء لأنفسنا بالثبات، وأن ندعو لإخواننا بالنصر، وأن ندعو على أعدائنا بالخيبة والهزيمة.

وإذا اشتبه على الإنسان شيء مما اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون؛ اهديني لما اختلف فيه من الحق يا ذنك إنك تهتدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢).

(١) منهاج السنة (٨/٨٦).

(٢) مسلم (٧٧٠).

فإذا انطرح العبد بين يدي ربه وسأله التوفيق والهداية والصواب والسداد؛ فإن الله لن يخيب رجاءه، وسيهديه - بإذنه - إلى سواء السبيل؛ فقد قال تعالى فيما رواه مسلم في صحيحه: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»^(١).

ومنها: البعد عن الفتن قدر المستطاع:

فالفتنه في هذه الأزمان قائمة على أشدها؛ سواء فتنة الشهوات أو الشبهات؛ فالبعد عنها نجاه وسلامة، والقرب منها مدعاة للوقوع فيها. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة، ومن ادعى الصبر وكل إلى نفسه»^(٢). وقال: «فإياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى مع مقاربة الفتنة؛ فإن الهوى مكاييد، وكم من شجاع في الحرب اغتيل فأتاه ما لم يحتسب»^(٣). وقال: «ما رأيت فتنة أعظم من مقاربة الفتنة، وقل أن يقاربها إلا من يقع فيها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»^(٤). وقال ابن حزم رحمه الله تعالى^(٥):

لا تَلُمَنَّ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لِمَا ليس يرضي غيره عند المحن
لا تُقَرِّبْ عَرْفَجًا مِنْ لَهَبٍ ومتى قربته ثارت دُخْنٌ

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (٤١).

(٣) صيد الخاطر (٤١).

(٤) صيد الخاطر (٣٥٠).

(٥) طوق الحمامة لابن حزم (١٢٨).

وقال (١):

لا تُتبع النفس الهوى ودع التعرُّض للمحن
إبليس حيٌّ لم يمت والعينُ بابٌ للفتن

وقال الشيخ أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني (٢) رحمه الله تعالى:

من قارب الفتنة ثم ادّعى الـ عصمةً قد نافق في أمره
ولا يجيز الشرع أسباب ما يورّط المسلم في حظره
فانجُ ودع عنك ضُداً الهوى عساكَ أن تسلم من شرّه

ومما يدخل في ذلك البعد عن مجالس الخنا والزور، ومجالس الجدال بالباطل، ومجالس الوقعة في عباد الله خصوصاً أهل العلم والفضل، خصوصاً في أوقات الفتن التي يكثر فيها القيل والقال؛ فالبعد عن الفتن سبيل للنجاة منها إلا من كان لديه علم يزّمه، وإيمان يردعه، وكان يأنس من نفسه نفع الناس، وتبصيرهم، وكشف الشبه، وبيان الحق؛ فأولى لمثل هذا ألا ينزوي في قعر بيته، ويدع الناس يتخبطون في دياجير الظلم.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: هل الأفضل للسالك: العزلة أو الخلطة؟ فأجاب بقوله: «هذه المسألة. وإن كان الناس يتنازعون فيها إما نزاعاً كلياً وإما حالياً؛ فحقيقة الأمر أن الخلطة تارة تكون واجبة، أو مستحبة، والشخص

(١) طوق الحمامة (١٢٧).

(٢) روضة المحبين لابن القيم (١٥١).

الواحد قد يكون مأمورًا بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة.

وجماع ذلك أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها.. فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ.. وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا، وما هو الأصلح له في كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص» (١)(٢).

وذكر الخطابي في كتاب العزلة: أن العزلة والاختلاط يختلف باختلاف متعلقاتهما، فتحمل الأدلة الواردة في الحُص على الاجتماع؛ على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين، وعكسها في عكسها، وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان، فمن عَرَفَ الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظته دينه؛ فالأولى له الانكفاف من مخالطة الناس، بشرط أن يُحافظ على الجماعة، والسلام والرد، وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة، ونحو ذلك.

والمطلوب إنما هو ترك فضول الصُحبة، لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغداء والعشاء، فيقتصر منه على ما لا بد له منه، فهو أروح للبدن والقلب. والله أعلم.

«والناس في مسألة العزلة والخلطة طرفان ووسط. فالطرف الأول: من اعتزل الناس حتى عن الجمع والجماعات والأعياد ومجامع الخير، وهؤلاء أخطأوا.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٢٥-٤٢٦).

(٢) معالم في التعامل مع الفتن، محمد بن إبراهيم الحمد (١١ - ٢٩) باختصار وتصرف وزيادات.

والطرف الثاني: مَنْ خالط الناس حتى في مجالسِ اللّهُو واللّغوِ والقيلِ والقالِ وتضييعِ الزّمانِ، وهؤلاءُ أخطأوا.

والوسط: مَنْ خالط الناس في العباداتِ التي لا تقومُ إلا باجتماعِ، وشاركتهم فيما فيه تعاونٌ على البرِّ والتقوى وأجرٌ ومثوبةٌ، واعتزالِ مناسباتِ الصّدِّ والإعراضِ عن الله وفضولِ المباحاتِ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] (١).

وههنا مسألة في الصبر على الظلم، فقد جاء الإسلام بإرساء العدل بين الناس وجعلهم في ميزانه كأسنان المشط فليس للمال والنسب والجاه والمنصب والسلطة مدخل في تفضيل كفة بل كلهم سواسية، والمسلم مأمور بدفع الظالم وحجزه عن ظلمه، ولكن إن كان الظالم هو السلطان ويغلب على الظن طروء فتنة بين الناس بسبب دفع ظلمه؛ فالسنة حينئذ هي الصبر عليه، حتى يستريح بر ويُسْتراح من فاجر، ويكون الحساب يوم الحساب، أو يجعل الله للمظلوم فرجاً ونصراً بدون أن يتسبب في تفاقم فتنة تأكل الناس.

قال الشيخ عبد الله الغنيان: «لا يحل دفع الأذى الذي يكون في دفعه فتنة بين الأمة، أو ينتج عنه شر عظيم أو أعظم من الأذى المطلوب دفعه، أو يكون في دفعه ظلم وعدوان، بل المتعين حينئذ الصبر والاحتمال وضبط النفس، فإن ذلك في حق المظلوم ابتلاء وامتحان، وإذا صبر واحتسب كانت العاقبة له، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠] أي يبتلى بعضكم ببعض لينظر من يصبر فيستحق الجزاء الأوفى، في الدنيا

(١) انظر: العزلة، للخطابي (١/ ٥٦) وما بعدها، وانظر: فتح الباري (١/ ٣٣٢ - ٣٣٣).

والآخرة.

وأخبر تعالى عن رسله أنهم قالوا لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [ابراهيم: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فجعلهم أئمة بالصبر واليقين، فبذلك تُنال الإمامة في الدين.

والخطأ يحصل في هذا إما بسبب جزع المظلوم، أو بسبب قلة صبره، أو ضعف رأيه، فإنه قد يظن أن القتال أو نحوه في الفتنة يدفع الظلم عنه، ولا يدري أنه يضاعفه ويزيد الشر كما هو الواقع. والمظلوم وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظِلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] فذلك مقيد بشرطين:

أحدهما: القدرة على ذلك؛ فإنه إذا كان غير قادر زاد ظلمه.

والثاني: ألا يتعدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧] فأخبر تعالى أن الانتصار جائز لمن يقدر عليه ولا يعتدي وأن الصبر أفضل، فإذا لم يتوافر الشرطان لم يجوز.

وهذا كله إذا لم يكن الباغي الظالم هو الإمام الذي له قوة وأتباع، فإذا كان هو

لم يجز الانتصار والانتقام، لما يترتب على ذلك من الشر العريض والفتنة التي فيها من الضرر والفساد أضعاف ما في الانتصار من المصلحة ودفع الظلم.

ولهذا جاءت النصوص عن النبي ﷺ في النهي عن قتال الأئمة الجائرين الظالمين. ففي صحيح مسلم والترمذي أن سلمة بن يزيد الجعفي سأل رسول الله ﷺ قال: يا نبي الله؛ أ رأيت إن قامت علينا أمراء يسألون حقهم ويمنعوننا حقنا؛ فما تأمرنا، فأعرض عنه مراراً. وهو يعيد السؤال. ثم قال: «اسمعوا وأطيعوا، فإنها عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»^(١).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون أثرة وأموراً تنكرونها»، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»^(٢).

وفيهما أيضاً عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»^(٣).

(١) مسلم ١٩/٦ (١٨٤٦) (٤٩).

(٢) البخاري ٢٤١/٤ (٣٦٠٣) ومسلم ٧١/٦ (١٨٤٣) والأثرة: الاستئثار بالمال والسلطة والولايات ونحوها، وكثير من الخارجين إنما خرجوا لأجلها مع وجود النص النبوي الصريح الصحيح على عدم اعتبارها سبباً شرعياً للخروج، لما يترتب عليه من فتن أشد، والله المستعان.

(٣) البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

وفي صحيح مسلم والنسائي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة، في عُسرِكَ ويُسرِكَ، وَمَنَشْطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وأثرُهُ عليك»^(١).

وفي الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً؛ مات ميتة جاهلية»^(٢).

وهذا كله محافظة على الاجتماع، وخوفاً من التفرق الذي يضعف الأمة أمام هجمات الأعداء، ومحافظة على دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم؛ لما يحصل في الخروج على الإمام من الفتن وسفك الدماء وذهاب الأموال وهتك الأعراض؛ كما جرب الناس ذلك وعانوا منه العنت والشر الكثير، والشرع جاء باحتمال أقل الأمرين ضرراً؛ لدفع ما هو أعظم. ولهذا جاءت النصوص عن رسول الله ﷺ بالأمر بقتل من خرج بطلب السلطة، والمسلمون لهم سلطان قائم لما في ذلك من الفتن والتفرق، كما في صحيح مسلم عن عوف بن عرفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هَنَات وهَنَات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع؛ فاضربوه بالسيف كائناً من كان». وفي النسائي، عن أسامة بن شريك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما رجل خرج، يفرِّق بين أمتي فاضربوا عنقه»^(٣).

(١) مسلم ١٤/٦ (١٨٣٦) (٣٥).

(٢) البخاري ٥٩/٩ (٧٠٥٣)، ومسلم ٢١/٦ (١٨٤٩) (٥٥).

(٣) (أحمد ٢٦١/٤) ومسلم (٢٢/٦) بلفظ: «فاقتلوه» والهَنَات: جمع هَنَة، وهي الخصلة من الشر، ولا تقال في الخير.

وفي صحيح مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبيَّة أو يدعو إلى عصبيَّة فُقُتْلَ فَقِتْلَةٌ جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه» (١).

فحذر ﷺ مما يفرق ويوهن الجماعة، وأمر بقتل من يريد أخذ السلطة ممن هي بيده واجتمع عليه المسلمون سواء كان برًّا أو فاجرًا، وأخبر أن من قُتِلَ تحت راية عُمِّيَّة أن قتلته جاهلية، ومن قاتل لعصبيَّة أنه كذلك، وتبرأ ممن يفرق أمتَه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فليس فيه الأمر بالقتال ابتداءً، ولكن إذا حصل القتال بين طائفتين من المؤمنين يجب الإصلاح بينهما بدون قتال ما أمكن ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى، ويكون الإصلاح بالعدل والإنصاف.

وقد تكون إحدى الطائفتين أقرب إلى الحق، فتعان على الحق ويحال بين الأخرى وبين البغي والظلم، فإن أبت إحداهما قبول الصلح والحكم بينهما بالحق، وأبت إلا البغي وركوب العسف والتماذي في الباطل؛ فعند ذلك تقاتل تلك الطائفة منعاً للقتال الذي هو أعظم من قتالها، لأنها إذا لم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله، بل تركت حتى تتقاتل هي والأخرى؛ صار الفساد أعظم، ثم إن الذي يقاتل الطائفة

الباغية غير الطائفة المبغية عليها، فهذا من نصر المظلوم ودفع الفساد العظيم بما هو أقل منه فساداً.

قال ابن جرير: «يقول جل ذكره: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا﴾ أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾، يقول: فإن أبت إحدى الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله لها أو عليها، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه وأجابت الأخرى منهما، ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾؛ أي التي تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّى تَقِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾، أي حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه؛ فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل، يعني الإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه جعله عدلاً بين خلقه»^(١).

وهذا ليس فيه قتال الأئمة الذين بأيديهم السلطة، بل هذا نوع آخر.^(٢) وإنما المأمور به في هذه الآية دفع الفتنة وتقليلها ما أمكن بالإصلاح، أو بالقتال إذا لم يمكن بدونه، فتقاتل الفئة الباغية على الأخرى، حتى تدعن لحكم الله، ويصير

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٩٢).

(٢) كأن الشيخ أراد بذلك أن هذا داخل في قتال الفتنة المأمور بالكف عنه، وقد صرح بذلك كما سيأتي.

الدين كله لله، وكلمة المسلمين مجتمعة.

والمأمور بالقتال هم المؤمنون الذين ليسوا من إحدى الطائفتين، أمر الله تعالى بأن يقاتلوا من بغى على أخيه، وتعدى بقتال، ولم يقبل الصلح بالعدل، فقتال مثل هؤلاء من باب الجهاد، ونصر المظلوم^(١).

أما إذا وقع بغىً ابتداءً بغير قتال مثل أخذ المال أو رئاسة بظلم؛ فهذا لم يأذن الله تعالى بقتالهم على ذلك، بل أمر الرسول ﷺ مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطائهم حقوقهم وأن يطلب المظلوم حقه من الله تعالى، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها قتال فتنة، وحذر من الخروج على الأئمة؛ وإن كانوا ظلمة وجائرين يضربون الظهر ويأخذون المال ويمنعون الحقوق؛ بل نهى عن معصيتهم حيثئذ ونزع يد الطاعة منهم ما لم يأمرُوا بمعصية الله تعالى؛ فعند ذلك لا طاعة لهم ولا يسمع لقولهم، وكذلك إذا ارتدوا عن الإسلام وكفروا به صراحة فلا يجوز أن يكونوا حينذاك أئمة على المسلمين^(٢)، فطاعتهم مقيدة بأن لا يأمرُوا بمعصية الله تعالى، فهم لا

(١) كالقتال بين فئتين أو قريتين أو قبيلتين، كما حصل بين القيسية واليمانية ونحو ذلك.

(٢) وذكر جمع من العلماء اشتراط القدرة أو غلبة الظن بوجودها، مع أن حديث عبادة لم يذكرها، قال: «وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان» رواه البخاري ٥٩/٩ (٧٠٥٥) ومسلم ١٦/٦ (١٧٠٩). ولعلمهم أخذوا بعمومات الاستطاعة والتدرج والمصالح والمفاسد، وأن من أعدّ لعزله بحسب قدرته فقد أدى ما عليه. وبكل حال؛ فالفتنة أشد من القتل، فإن لم يمكن عزله وجب الإعداد =

يطاعون في كل شيء وإنما يطاعون إذا أمروا بطاعة الله أو بما ليس فيه معصية لله تعالى، أما إذا أمروا بمعصية الله تعالى فلا سمع لهم ولا طاعة.

وكذلك النهي عن الخروج عليهم مقيد بكونهم مسلمين مصلين، أما إذا كفروا كفراً صريحاً وارتدوا ردة واضحة جلية؛ فلا يجوز حينئذ أن يكونوا ولاية على المسلمين، وعلى هذا دلت النصوص عن رسول الله ﷺ. فقد جاء في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: أجمعوا لي حطباً، فجمعوا له ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي ويطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فأدخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»^(١).

وفيه أيضاً: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتُنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلّم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»^(٢).

لذلك، وهو من أعظم الجهاد، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

[١٤١].

(١) مسلم (١٨٤٠) (٤٠).

(٢) مسلم (٢٣/٦) (١٨٥٤) (٦٣).

وفيه أيضا عن عوف بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلُّون عليكم وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما يأتي من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية ولا ينزعن يدا من طاعة»^(١).

قال النووي: «أجمع العلماء على وجوب طاعة ولاية الأمور من غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية، نقل الإجماع القاضي عياض وآخرون» قال: «وتجب طاعتهم فيما يشق على النفوس وما تكرهه وغيره فيما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة، كما صرح به في الأحاديث، فتحمل الأحاديث التي فيها إطلاق السمع والطاعة على المقيدة، وفي حديث عبادة قال: «بايعنا رسول الله ﷺ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»^(٢).

ونقل النووي عن عياض أنه قال: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل»^(٣). يعني انعزل حكما، لأنه لا يجوز أن

(١) مسلم ٢٤/٦ (١٨٥٥) (٦٥).

(٢) البخاري (٧٠٥٥) و (٧٠٥٦)، ومسلم (٤٢).

(٣) المنهاج شرح النووي على مسلم (١٢/٢٢٩).

يتولى الكافر على المسلمين، فوليّ الأمور هو الذي يقيم الحدود، ويقود المسلمين في جهاد أعدائهم، ويدود عن بلادهم، فإذا لم يكن على دينهم لا يتوقع منه فعل ذلك. والمقصود؛ أن النبي ﷺ حذر من الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة وذم ذلك وجعله من أمر الجاهلية، لأن أهل الجاهلية لم يكن لهم رئيس يجمعهم وشأنهم التفرق والاختلاف، ويرون السمع والطاعة مهانة وذلة والخروج عن الطاعة وعدم الانقياد عندهم فضيلة يمتدحون بها. فجاء الإسلام مخالفاً لهم في ذلك أمراً بالصبر على جور الولاة والسمع والطاعة لهم في غير معصية والنصح لهم، وبالحجج صلوات الله وسلامه عليه في ذلك حتى قال فيما أوصى به في حجة الوداع: «اسمعوا وأطيعوا لمن ولاه الله أمركم، وإن كان عبداً حبشياً مجذع الأطراف»^(١).

مع أنه ﷺ كان دائماً يأمر بإقامة رئيس حتى في الجماعة القليلة والمدة القصيرة، ويحث على طاعته، كما أمر المسافرين إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا أحدهم، مبالغة في طلب الاجتماع وحرصاً على عدم الفرقة ومخالفة لأمر الجاهلية، وتقدم الحديث الذي في صحيح مسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٢). وهذه أصول الإسلام فإنه بني على عبادة الله وحده، والجن والإنس خلقوا لذلك.

ولهذا صار من أصول أهل السنة صلاة الجمع وغيرها خلف البر والفاجر،

(١) ابن ماجه (٢٣١١) وصححه الألباني في الظلال (١٠٥١).

(٢) مسلم (١٧١٥).

ويرون أن ترك الصلاة خلفهم من سنة المبتدعين، وإذا كان الإمام مستورا فإنه يصلى خلفه بالاتفاق من أئمة المسلمين، ومن زعم أنها غير جائزة فقد خالف الإجماع من أهل السنة، وقد كان الصحابة يصلون خلف الفسقة والظلمة، بل ومن كان متّهماً بالإلحاد كابن أبي عبيد وكان داعياً إلى الضلال، ولم يكونوا يُعيدون الصلاة، وقد أنكر الإمام أحمد على من يعيدها إنكاراً شديداً، وعدّ ذلك من البدع.

والاعتصام بحبل الله يتضمن الاجتماع على الحق والتعاون على البر والتقوى والتناصر على أعداء الله وأعداء المسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وصححه، قال ﷺ: «وأنا أمركم بخمس أمرني الله بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(١).

وفي خطبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهورة التي ألقاها في الجابية، قال: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد». وفيها: «من أراد بحبوة الجنة فليلزم الجماعة»^(٢).

(١) الترمذي (٢٨٦٣) وصححه، كما صححه الألباني في المشكاة (٣٦٩٤) والربقة في الأصل: حبل فيه عرى كثيرة تُشد به الغنم، الواحدة منها ربقة، فاستعار للإسلام ربقة، يعني بها: العروة يشد بها المسلم نفسه من عرى الإسلام.

(٢) الترمذي (٢١٦٥) ابن ماجه (٢٣٦٣) أحمد (١٨/١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦) وبحبوة الجنة: وسطها، وبحبوة كل شيء وسطه وخياره.

والمراد بالجماعة: أهل الحل والعقد من كل عصر. وقال البخاري: «الجماعة هم أهل العلم»، وهذا لا يخالف قول الجمهور من العلماء، لأن أهل العلم يقولون بمقتضى أحاديث رسول الله ﷺ التي تنص على وجوب طاعة الأمراء الذين يتولون أمور المسلمين، وإن كانوا فجرة ما داموا على الإسلام، ولم يخرجوا إلى الكفر الصريح، كما في صحيح مسلم من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصي الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(١).

وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله؛ إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير ستي، ويهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر»، فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «نعم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»، فقلت: يا رسول الله، فما ترى - وفي رواية: فما تأمرني - إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم؟» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت

(١) البخاري ٧٧/٩ (٧١٣٧)، ومسلم ١٣/٦ (١٨٣٥) (٣٢).

على ذلك»^(١).

وفي رواية لمسلم: «قلت: وهل وراء ذلك الخير شرّ؟ قال: «نعم». قلت: كيف؟ قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بستتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان الإنس». قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمر، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فأسمع وأطع»^(٢). وفي رواية قال عن الخير الثاني: «صُلِّحْ على دَخْنٍ، وجماعةٌ على أقداء فيها، وقلوب لا ترجع إلى ما كانت عليه»^(٣).

فالخير الأول: النبوة وما اتصل بها من خلافة ليس فيها فتنة، والشر هو ما حصل من الفتنة بسبب مقتل الخليفة الثالث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتفرق الناس حتى صار حالهم شبيها بحال الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً، ولهذا قال الزهري: «وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية». فبين أنهم جعلوا ذلك غير مضمون كما أن ما يصيبه أهل الجاهلية بعضهم من بعض غير مضمون، لأن الضمان إنما يكون مع العلم بالتحريم، فأما مع الجهل كحال البغاة من أهل القبلة والكفار فلا ضمان، لهذا لم يُضمّن النبي ﷺ أسامة دم الذي قتله بعد ما قال: لا إله إلا الله، مع تغليظه ﷺ في ذلك، وردد عليه قوله: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا

(١) البخاري (٣٤١١) ومسلم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (١٨٤٧) أبو داود (٤٢٤٤).

(٣) أبو داود (٤٢٤٦) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٤٥).

الله!« ثلاث مرات، حتى قال أسامة: فتمنيت أني لم أسلم قبل ذلك.

والخير الثاني: اجتماع الناس على معاوية بعد أن تنازل الحسن له عن الأمر، وكان ذلك صلحاً على أقضاء، ودخن في ذلك الاجتماع حيث لم ترجع القلوب إلى ما كانت عليه زمن النبي ﷺ وخلفائه قبل الفتنة.

والمقصود؛ أن النبي ﷺ أخبر بأنه يكون أئمة لا يهتدون بهديه ﷺ، ولا يستنون بسنته، وأخبر أن فيهم رجالاً قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان الإنس، ومع ذلك أمر بالسمع والطاعة للأمر، وإن ضرب الظهر وأخذ المال، وفي ذلك بيان وجوب طاعة السلطان، سواء كان عادلاً أو ظالماً جائراً، وهذا حماية منه ﷺ للأمة من التفرق، الذي يضعفها ويجعلها نهباً للأعداء، كما هو الواقع من حال المسلمين اليوم لما تفرقوا وأصبحوا دويلات لكل دويلة حدودها واتجاهاتها. وعلاقتها مع أعدائها أوثق من علاقتها مع الدول الإسلامية، وبذلك صار المسلمون غطاء كغشاء السيل ذهبت مهابتهم من قلوب أعدائهم وقذف في قلوبهم الوهن فوصلوا إلى حالة من الشقاق والاختلاف وصاروا فيها من أبعد الناس عن الاتفاق الائتلاف. والواجب عليهم الحذر مما وقع فيه من قبلهم من الاختلاف في دينهم أشد الحذر وقد أكثر الله ورسوله في تحذيرهم من ذلك ورتب تعالى العذاب على الاختلاف.

وهم قد جربوا ذلك بأنفسهم فلما كانوا ممثلين لأمر ربهم بالاتفاق والاعتصام بكتاب الله تعالى، منتهين عن التفرق والاختلاف، كانوا خير أمة أخرجت للناس، فحصل لهم الخير العظيم الذي لم يطرُق العالم مثله، من كثرة الإيمان بالله وانتشار

العدل بين الناس وقوة المسلمين وسيطرتهم على معظم الأرض وقمع الباطل وحزب الشيطان، فلما سلكوا مسالك من تقدمهم من التفرق في الدين وتقليد أعدائهم ذهب ريجهم، ثم لم يزل النقص فيهم إلى أن صاروا أذلة يستجيرون بأعدائهم، مع كثرة عددهم، والله تعالى جعل الاختلاف من طبيعة البشر فلذلك بين علاجه بياناً واضحاً بأن نرد ما اختلفنا فيه إلى كتابه، وسنة رسوله، وبذلك يحصل الاتفاق والاعتصام بحبل الله.

والمقصود؛ أن الله تعالى لم يأذن بقتال الأمراء والولاة، والخروج عليهم لما في ذلك من الفتن والفساد الكبير، والواقع أكبر شاهد لذلك.

وأما إذنه بدفع الصائل بالقتال كما في الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد». ونحو ذلك، فهذا ليس فيه فتنة، ولا هو من دواعي التفرق والاختلاف، فهو مثل قتال اللصوص وقطاع الطرق فليس قتالهم فتنة، إذ الناس كلهم أعوان على قتالهم، فلا يكون في قتال هؤلاء ضرر عام يشمل الظالم والمظلوم وغيرهما، كقتال ولاة الأمور، فإن فيه فتنة وشرّاً عاماً أعظم من ظلمهم، فالمشروع فيه الصبر والاحتمال.

وبهذا تجتمع النصوص وتتفق، ويزول التعارض الذي يتوهمه بعض الناس.

وهذا الأمر مما ينبغي الاهتمام بفهمه، فإن خطره عظيم، والنصوص التي تقدم ذكر بعضها تدل على وجوب الكف عن القتال في الفتنة، ولكن إذا كان الخارج مارقاً من الدين ظاهر الضلال ويتدين بقتال المسلمين كالخوارج والروافض الذين يرون قتل المسلمين من فضائل الأعمال، فإنهم يُقاتلون ويُرغب في قتالهم، كما أمر

الرسول ﷺ بقتال الخوارج ورغب فيه، والروافض أشد من الخوارج.

وما قاله بعض العلماء من وجوب القتال مع من هم أولى بالحق، فالصواب خلافه، أي: وجوب الكف عن القتال؛ لأن القتال فيه من الشر العظيم والفتنة والفساد أعظم مما في ترك القتال كما هو الواقع، لأن القتال في مثل ذلك لأجل ترك واجب مثل الامتناع من طاعة معين والدخول في الجماعة، وفي قتال الممتنعين ما فيه من سفك دماء المسلمين والفتن العظيمة أعظم مما يحصل بتركه، وإن كان غيرهم أولى بالطاعة.

والمقصود؛ أن الله تعالى نهى عن التفرق وعن أسباب الفتن، مما يضعف الأمة ومن تتبع تاريخ المسلمين عرف أن أكثر الاختلاف والتفرق حصل في مسائل الصفات والقدر والإمامة وغالب ذلك مما يدخله الاجتهاد، فهم في ذلك ما بين مجتهد مخطئ، ومخطئ باغ، وباغ من غير اجتهاد، أو مقصر فيما أمر به من الصبر والاحتمال، فحصل بسبب ذلك من القتال والشروع ما هو معلوم لمن نظر في التاريخ والواقع.

وقد قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فأمر تعالى بالصبر على أذى الكفار من اليهود والنصارى والمشركين مع التقوى.

وفي هذا تنبيه على وجوب الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين. والله تعالى قد أمر بالعدل مع الكفار وغيرهم كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فنهى تعالى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على عدم العدل فيهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق مؤمن أو مبتدع متأول، فهو أولى بوجوب العدل معه وألا يحمل بغضه على ظلمه.

والإسلام جاء بتأليف القلوب وجمعها على الحق ومناصرة المؤمنين ومعاونتهم على البر والتقوى قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فأمر بتنمية الخير وتكثيره وبإماتة الشر وتقليله، وأمر بالأسباب التي تجلب الخير ومودة المسلم لأخيه، ونهى عن الأسباب التي تجلب العداوة والبغضاء، مما يدل على أن الإسلام مبني على وجوب التآلف بين أهله والاجتماع عليه، وتحريم الفرقة والاختلاف.

فلهذا حرم السب والسخرية واللمز والتنازع بالألقاب، وما أشبه ذلك مما يسبب الفرقة بجلب العداوة والبغضاء وتنافر القلوب.

وحرم الأفعال الداعية إلى ذلك ففي الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(١). وبالله التوفيق والعصمة والهدى والرشاد.

(١) ذم الفرقة والاختلاف في الكتاب والسنة، للشيخ عبد الله بن محمد الغنيان، وهو بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية (٣١ / ٣٢٠ - ٣٤٠) باختصار يسير. وانظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٨ / ٣١٥ - ٣١٧).

أحكام قتال الفئة الباغية

للقتال في الإسلام أنواع متعددة، ومذهب أهل السنة في القتال مع ولي الأمر للمشركين هو القتال معه أيًا كان عدلاً كان أو فاسقاً، لأنّ في ذلك إقامةً للجهاد في سبيل الله تعالى، وحفظاً لبيضة الإسلام، وكذا الحال مع المحاربين وقُطّاع الطريق وأشباههم.

أما الفئة الباغية، وهم جماعة لهم شوكة خرجوا على الإمام بتأويل، ويقابلهم أهل العدل الذين ثبتوا مع الإمام. فالأصل في شأن البغاة السعي بالإصلاح حتى تُستنفذ جهوده، مع إزالة المظالم والمنكرات، فإن أبوا بعدها إلا الإفساد؛ فيقاتلون حتى يفيئوا إلى أمر الله تعالى.

وقد يشتهر الحال حيالها أحياناً بحسب اختلاف أهلها أو أحوالهم، ومن هنا اختلفت في شأنها أقوال الأئمة بحسب أحوالها، والقول باعتزال القتال مطلقاً حتى مع من هم أولى بالحقّ وجيهٌ جدّاً، وأدلة ذلك من صحيح السنة كثيرة، وقد رجحه كثير من أهل العلم. وقد بسط شيخ الإسلام طائفة واسعة من أدلة ذلك، ورجّحه، ونسبه لجمهور الصحابة وسوادهم الأعظم في المجلدين الثامن والعشرين والخامس والثلاثين من مجموع فتاويه، ومواضع متعدّدة من منهاج السنة، رحمه الله تعالى.

ويعضد ذلك: أنّ أعظم قتال بين طائفتين من المؤمنين هو ما حصل في الجمل وصفين، فسواد الصحابة الأعظم كان معترلاً ذلك القتال.

والقول الثاني في المسألة: هو القول بوجوب نصرة الإمام والقتال معه، وقد رجحه علماء أجلة كالإمامين النووي وابن حجر رحمهما الله تعالى في كثير العلماء، وقالوا: إنه داخل في هذه الآية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَائِزًا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

كما أن في هذا إعمالاً لبقية أدلة الوحي الآمرة بنحو ذلك من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى ونحو ذلك، وأن فرض الأمة القتال مع الإمام المبغي عليه. وقد نسبنا ذلك القول للجمهور. وهو قول وجيه أيضاً، مع التنبيه اللازم لكون ذلك النصر يتضمن التزام الإمام بما ذكره العلماء من الموافقة على طلبات الفئة الباغية التي جاءت بها الشريعة؛ كإزالة المنكرات والمظالم ونحو ذلك ابتداء قبل حرب البغاة، لا أن يُقاتلوا ابتداء حفظاً لملكه دون شرع الله تعالى.

فإن فعل ذلك، ورفع المظالم، وأزال المنكرات، وحكم بالقرآن، ثم بغت عليه الفئة الأخرى بعد هذا كله؛ فالأظهر: وجوب نصره لله تعالى، حفظاً لدينه، وحمايةً لبيضة المسلمين من تلاعب الناس بدعاوى سقطت مبرراتها تحت أقدام العدل، وطاعة للإمام في المعروف، وإلا صار أمر الولاية مائعاً ضعيفاً قصير الجدار لكل متربص وطامع.

علماً أن قتال البغاة يختلف عن غيره، فهو ليس من باب العقوبات، بل هو من باب دفع الصائل، فقتالهم إنما هو لدفع شرهم لا غير، فلا يُستباح من دمهم إلا ضرورة بقدر ما يدفع القتال، والقتال هو آخر الأمر معهم لا أوله، فأخر العلاج

الكَيِّ، فيعمل الإمام على دفع شرهم بالأسهل فالأسهل، فمتى اندفع شرهم بالموعظة والمناظرة وكشف الشبهة لم يجوز قتالهم، وهكذا. فيؤخذ معهم بالتدرّج بسبب تأويلهم، ومحاولة دفع مقالهم بالعدل، وإزالة ما أنكروه من المنكرات والمظالم إن كانت.

أما إذا لم يستجب الإمام لما دُعي إليه من إزالة المظالم والمنكرات؛ فالأظهر: أن الكفّ عن القتال معه هو المتعيّن، فلا يُعان الظالم على ظلمه والمذنب على ذنبه، وهذا هو أحد حاليّ تعيّن الاعتزال والكفّ عن القتال.

أما الحال الثاني: فهو من اشتبه عليه الأمر، ففرضه حينئذٍ الكفّ والاعتزال؛ لأنه قتال فتنة، وعليّ رضي الله عنه إمامٌ عدلٌ بالإجماع، مع ذلك اعتزل القتال معه وكفّ عن نصرته كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؛ لأنهم رأوا أنّ ذلك القتال هو من قبيل قتال الفتنة.

فالاشتباه هنا: هو ما لو خرجت الفئة على الإمام، وطالبت به بأمر من الشرع فاستجاب لهم فيها، أو أنه كان عدلاً فطالبت به بأمر هو غير ملزم بها شرعاً، فاستمرت بقتاله بعد ذلك، فهل يتعيّن حينذاك: الكفّ أم النصر؟ قولان، ولكل قول أدلته العامة والخاصة.

والتحقيق: أنّ الأمر أكبر وأوسع وأخطر من كونه يُقصر على عدالة الإمام من عدمها، بل المناط هو كون القتال قتال فتنة أم لا. فعليّ رضي الله عنه كان إماماً عدلاً بالإجماع، بل هو أفضل أهل الأرض وأصلحهم في عصره، ومع ذلك امتنع جمع من أكابر وسادة وفقهاء الصحابة كسعد وابن عمر وأبي بكر وأسامة وغيرهم عن

القتال معه، لا لكونه ليس إمام عدل وحاشاه، بل لأنهم توقّفوا في حقيقة حال القتال، فهو توقّف لأجل نظر الحال المصلحي من واقع الحال إذ ذاك، لا أصل الحكم الشرعي في الامتناع عن قتال الطائفة الباغية مع الإمام العدل، ومن هنا توقّفوا في شرعية القتال، لأنهم رأوا أنه قتال فتنة، أي أن مشروعية القتال فيها اشتباه لديهم، فرجّحوا الكفّ والاعتزال. أما من اتّضحت لهم المشروعية فلم يتردّدوا لأنّ من حرّم قتال المسلم لأخيه وشدّد جدّاً في ذلك هو من أمر بقتال البغاة تبارك وتعالى، فعاد الأمر إذن لاشتباه الحال لا الحكم لدى أكثرهم.

وعليه؛ فصور قتال الفئات الباغية كثيرة جدّاً، وليست متماثلة الأحوال، ومن ههنا تباينت الأحكام، ولم يُصب من ظن اضطرابها فجعل لها قاعدة واحدة، أو جعل مناطها عدالة الحاكم أو فسقه وجوره، فحقيقة الأمر بخلاف ذلك، وأبعاد المسألة أشمل مما هنالك.

فمن استبان له أرجحية القتال في حادثة ما؛ فهذا فرضه ودينه الذي يلقي به وجه ربه تبارك وتعالى، أمّا من اشتبه عليه الأمر؛ ففرضه الكفّ والاعتزال، ولا يكفي كون الإمام عدلاً حتى تُقاتل معه الفئة الباغية - وإن كان الأغلب لا المضطرب - أنّه لعدالته لن يُقاتل إلا من شرع له قتاله من البغاة بعد استيفاء طرق الإصلاح - فقد يكون عدلاً، ولكن يشتبه حال القتال معه لسبب خارج، لأنّ الإمام غير معصوم، فيكون حينها القتال معه قتال فتنة لمن اشتبه عليه الأمر.

وقد يشرع قتال الفئة الباغية مع الحاكم الجائر إن ترجّحت مصلحة ذلك، وإن كان هذا من النوادر جدّاً - إن كان له وجود أصلاً - ولكن قد تنقذ في قابل الزمان

أحداث وفواجع غريبة يرى المجتهد حيالها أرجحية القتال مع حاكم الجور لغلبة الظن بترتب فتنة كبيرة عامّة على الكف عن القيام معه^(١)، فهو استثناء لا قاعدة، فلا يُعمل به إلا عند الضرورة العامة لا الخاصة، للمصلحة العامة للأمة لا لحظ النفس العجلى، وإنما الأعمال بالنيات، والأعمال بالخواتيم، والعبر بالمآلات، وإن كان هذا نادر الحدوث جدًّا؛ لأن غلبة الظن بشر القتال حينها غالب على الكف والاعتزال كما هو متواتر من أحوال الغابرين، وأن الكف عن القتال أسلم وأعفى وأحكم، ولو اجتمع الجند على ذلك لانطفأت عين الفتنة، وأُخذ كيد الشيطان، لهذا فالمحتّم الكفّ إلا ما ألحّت له الضرورة بعد استيفاء قيودها الشرعية الشديدة، فأمر الدم عند الجبار عظيم، والسعيد من لقي الله تعالى خفيف الظهر سالم الوزر من التّطأخ يمينه بدم حرام، والله المستعان. وقد سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن نحو ذلك فقال: «أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم، وأما غيره فلا، ودعه وما يريد، فينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم الله منهما جميعًا»^(٢). وما ظالم إلا سيّلى بأظلم.

فالحال إذن يختلف بحسب ما يحوطه ويشوبه من أمور، والفقهاء الحكيم ليس هو من علم الخير من الشر فقط، بل هو من علم خير الخيرين، وشر الشرّين، كما أثر عن عليّ رضي الله عنه. والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، ولا أعلم لهذا

(١) وقد نص الشافعية على من خرجوا على الإمام - ولو كان جائرًا - فإنه يجب على المسلمين إعانته ممن قرب منهم، حتى تبطل شوكتهم، ومن حججهم أن من تثبتت إمامته وجبت طاعته. وانظر: حاشية الشبرا ملسي على نهاية المحتاج ٣٨٥ / ٧

(٢) العقد المنظم بحاشية تبصرة الحكام ١٩٥/٢

أمثلة تاريخية، ولكن القسمة تقتضيه، إذ ليس في الشرع نصٌ يمنع منه، لكنها راجعة لمسألة القاعدة الشرعية الكبرى عند ازدحام المصالح والمفاسد: إثثار أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، واحتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، فما غلبت مصلحته مفسدته فهو مصلحة، وما غلبت مفسدته مصلحته فهو مفسدة، والحكمة ضالة أهل العلم والإيمان.

فيما أنَّ المسألة ليست منوطة فقط بكون الإمام عدل، بل هي متعلقة بوضوح مصلحة القتال من عدمها، وهذا هو مسوغها أو مانعها الشرعي، فمتى غلب على ظن المجتهد مصلحة ذلك ودفعها لفتنة أعم وأعظم وأشد فهنا يكون كل شيء بقدره، مع مراعاة عدم خروجها عن الأصول الشرعية المصلحية العامة للأمة، مهما كان اجتهاد المجتهد، كحرمة دماء المسلمين، وحرمة القتال في الفتنة، ووجوب حفظ عصا المسلمين من التفرق، ووجوب قتال الفئة الباغية بشرطه، كما في آية الحجرات ونحو تلك المقاصد الشرعية والأصول المرعية.

ومنا هنا ظهر أنَّ الرعية ليست مُلزمة شرعاً بالقتال مع الإمام إن اشتبهت لديها مسألة مشروعية ذلك القتال، حتى وإن كان إمام عدل، وإن كان إمام العدل في العادة لا يُقاتل إلا عند ظهور مشروعية ذلك القتال. كما أن عدالة الإمام تقتضي عدم إلزامهم بالقتال معه حال توقفهم بسبب اشتباه الأمر عليهم، ولهذا لم يلزم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من اعتزلوا بالقتال معه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «القتال لمن خرج عن الشريعة والسنة، فهذا الذي أمر به النبي ﷺ. وأما القتال لمن لم يخرج إلا عن طاعة إمام معين فليس

في النصوص أمر بذلك»^(١). وقال أيضًا: «ومن رأى أنَّ هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته؛ عَلِمَ أنه قتال فتنة، فلا تجب طاعة الإمام فيه، إذ طاعته إنما تجب فيما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص، فمن علم أن هذا هو قتال الفتنة - الذي تركه خير من فعله - لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق في طاعة أولي الأمر، ولا سيَّما وقد أمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول»^(٢).

وهذه أمثلة لبعض سادة الصحابة الذين برّروا اعتزالهم الفتنة وكف أيديهم عنها، وأن الأمر عائد لاشتباه الحال، وليس التشكيك في ولاية أو عدالة الإمام، فعن ابن سيرين رحمه الله تعالى، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ألا تقاتل، فإنَّك من أهل الشورى، وأنت أحقُّ بهذا الأمر من غيرك؟ قال: «لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان، ولسان وشفطان، يعرف الكافر من المؤمن، قد جاهدت وأنا أعرف الجهاد، ولا أبخع بنفسي إن كان رجل خيرًا مني»^(٣).

وعن الأحنف بن قيس، قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكر رضي الله عنه، فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ - يعني عليًّا رضي الله عنه - قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قال فقلت: أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «لأنَّه قد أراد قتل

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥١).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤٣).

(٣) رواه معمر في جامعه (٢٠٧٣٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٠٦).

صاحبه»^(١).

وعن حرملة مولى أسامة قال: أرسلني أسامة إلى عليٍّ ليعطيني، وقال إنه سيسألك الآن، فيقول: ما خلفَ صاحبك؟ فقل له: يقول لك: «لو كنت في شدِّق الأسدِ لأحببتُ أن أكون معك، ولكن هذا أمرٌ لم أره»^(٢).

وجاء رجلان إلى ابن عمر رضي الله عنهما في فتنة ابن الزبير فقالا: إنَّ الناسَ صنعوا ما ترى، وأنت ابنُ عمر وصاحبُ رسولِ الله ﷺ، فما يمنعُك أن تخرجَ؟ فقال: يمنعني أنَّ الله تعالى حرَّم عليَّ دمَ أخي المسلم، قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] فقال ابنُ عمر: «قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدينُ لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدينُ لغير الله»^(٣).

وعن عُدَيْسَةَ بنت أَهْبَانَ الغفاري، قالت: جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أبي رضي الله عنه فدعاه إلى الخروج معه، فقال له أبي رضي الله عنه: «إنَّ خليلي وابن عمك ﷺ عهد إليَّ إذا اختلف الناس أن أأخذ سيفاً من خشب» فقد اتخذته، فإن شئت خرجتُ به معك، قالت: فتركه^(٤).

(١) البخاري (٣١) ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) البخاري (٧١١٠).

(٣) البخاري (٤٥١٣).

(٤) الترمذي (٢٢٠٣) وصححه الألباني.

يَشْكُ عَلَيْكَ الْأَمْرُ مَا دَامَ مُقْبِلًا وَتَعْرِفُ مَا فِيهِ إِذَا هُوَ أَذْبَرَا

أما الذين بان لهم وجه الحق في القتال، واستبان لهم مشروعية المشاركة في قتال الفئة الباغية فاقتحموها لله تعالى، فمنهم عمار بن ياسر، وسهل بن حنيف، وخزيمة بن ثابت، وغيرهم كثير، رضي الله عنهم، فعمار رضي الله عنه لم يتردد في ذلك، بل كان يعيب على من اعتزلوا، فعن شقيق بن سلمة، قال: كنت جالسا مع أبي مسعود، وأبي موسى، وعمار رضي الله عنهم، فقال أبو مسعود: «ما من أصحابك أحد إلا لو شئت لقلت فيه غيرك، وما رأيت منك شيئا منذ صحبت النبي ﷺ أعيب عندي من استسرا عك في هذا الأمر»، قال عمار رضي الله عنه: «يا أبا مسعود، وما رأيت منك ولا من صاحبك هذا شيئا منذ صحبتما النبي ﷺ أعيب عندي من إبطائكما في هذا الأمر»^(١).

ومنهم من ندم على اشتراكه في أمور القتال الذي ظنّه قتال حق، فعن ابن أبي مليكة قال: قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ما لي ولصفيين! ما لي ولقتال المسلمين! لوددت أنني متُّ قبله بعشر سنين. أما والله على ذلك ما ضربت بسيف، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، وما رجل أجهد مني من رجل لم يفعل شيئا من ذلك»^(٢).

(١) البخاري (٧١٠٥).

(٢) ابن عبد البر في الاستيعاب (٣٤٨ / ٢) وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (١٤٧٥) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٠١ / ٤).

وقد اختلف أهل الشأن: هل أكثر الصحابة رضي الله عنهم شاركوا في القتال أو اعتزلوه؟ قولان لأهل العلم، فمن ذهب إلى أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم اعتزلوا القتال: ابن سيرين، والشعبي، وشعبة بن الحجاج، وابن الجوزي، وابن تيمية، رحمهم الله تعالى.

فعن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما خفّ فيها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين»^(١).

وقال الشعبي رحمه الله تعالى: «لم يشهد الجمل من أصحاب النبي ﷺ غير علي، وعمار، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم، فإن جاوزوا بخامس فأنا كذاب»^(٢).

وعن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أنه قال: «شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً». فقال شعبة: «كذب والله، لقد ذاكرت الحكم بن عتيبة بذلك، وذكرنا في بيته، فما وجدنا شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت رضي الله عنه»^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «اعتزل أكثر فضلاء الصحابة

(١) معمر في الجامع (٢٠٧٣٥) وأحمد في العلل ومعرفة الرجال (٤٧٨٧) وابن شبة في أخبار المدينة (١٣٠ / ٤).

(٢) ابن أبي شيبة (١٥ / ٢٦٣) والسنة للخلال (٧٢٩).

(٣) السنة للخلال (٧٢٦).

رضي الله عنهم»^(١). وقال أيضًا: «أكثر السابقين الأولين كرهوا القتال في هذا، وهذا»^(٢).

وأما من ذهب إلى أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم شاركوا في القتال: سعيد بن جبير، وروي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، والحكم بن عتيبة، ووکیع بن الجراح، والسدي، واختاره النووي^(٣) والعراقي^(٤) وابن حجر^(٥) رحمهم الله تعالى.

فعن عبد الرحمن بن أبزى رحمه الله تعالى قال: «شهدنا مع علي رضي الله عنه ثمان مئة ممن بايع بيعة الرضوان، قتل منّا ثلاثة وستون، منهم عمار بن ياسر رضي الله عنهم»^(٦). وأظن أن في العدد مبالغة على فرض صحة الخبر.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: «ثارت الفتنة الأولى فلم يبق ممن شهد بدراً أحد، ثم كانت الفتنة الثانية فلم يبق ممن شهد الحديبية أحد» قال: «وأظن لو كانت الثالثة لم ترفع وفي الناس طبّاخ»^(٧). ومعنى طبّاخ: أي قوّة. قال الحافظ ابن

(١) منهاج السنة (٨/ ١٤٦).

(٢) النبوات (١/ ٥٦٦).

(٣) انظر: شرح مسلم (١٨/ ١٥).

(٤) طرح الشريب (٧/ ٢٧٨).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٣٣).

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (١٩٦).

(٧) معمر في جامعه (٢٠٧٣٩) وابن شبة في أخبار المدينة (٤/ ١٣٣) والبخاري معلقاً، فتح الباري (٧/ ٣٢٥).

حجر رحمه الله تعالى معلّقًا: «لم تُبق من أصحاب بدر أحدًا، أي: أنّهم ماتوا منذ قامت الفتنة بمقتل عثمان رضي الله عنه إلى أن قامت الفتنة الأخرى بوقعة الحرّة، وكان آخر من مات من البدرين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومات قبلوقعة الحرّة ببضع سنين»^(١).

قال الشيخ أحمد الزومان: «مجموع ما وقفت عليه ممن شاركوا في القتال الحاصل بين الصحابة رضي الله عنهم بمن فيهم من اختلف في مشاركتهم أو صحبتهم (١٦٩) نفسًا.. والذي يظهر لي أنّ أكثر الصحابة رضي الله عنهم شاركوا في القتال، ومن اعتزل القتال قلة، لكن جُلّ من قاتل هم من صغار الصحابة والتابعين، فأهل بدر وبيعة الشجرة قلة مقارنة بعدد المقاتلين»^(٢).

قلت: والأظهر أنّ أكثر من بقي حيًّا من سادة الصحابة وكبارهم وفقهائهم ومشيختهم حال فتنة الجمل وصفين كانوا ممن اعتزلوا، والله تعالى أعلم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «والفقهاء ليس فيهم من رأيه القتال مع من قتل عمارًا؛ لكن لهم قولان مشهوران كما كان عليهما أكابر الصحابة: منهم من يرى القتال مع عمار وطائفته، ومنهم من يرى الإمساك عن القتال مطلقًا. وفي كل من الطائفتين طوائف من السابقين الأولين.

ففي القول الأول: عمار، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب. وفي الثاني: سعد بن

(١) الفتح (٧/ ٣٢٥).

(٢) موقف الصحابة رضي الله عنهم من قتال الفتنة، أحمد الزومان (٣٢)، (٣٦).

أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر ونحوهم. ولعل أكثر الأكابر من الصحابة كانوا على هذا الرأي؛ ولم يكن في العسكرين بعد عليٍّ أفضل من سعد بن أبي وقاص، وكان من القاعدين»^(١).

وقال العلامة ابن باز رحمه الله تعالى: «ولما وقعت الفتنة في عهد الصحابة رضي الله عنهم اشتبهت على بعض الناس، وتأخر عن المشاركة فيها بعض الصحابة؛ من أجل أحاديث الفتن، كسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وجماعة رضي الله عنهم، ولكن فقهاء الصحابة الذين كان لهم من العلم ما هو أكمل قاتلوا مع عليٍّ؛ لأنه أولى الطائفتين بالحق، وناصروه ضد الخوارج، وضد البغاة الذين هم من أهل الشام؛ لما عرفوا الحق، وأنّ عليًّا مظلوم، وأن الواجب أن يُنصر، وأنه هو الإمام الذي يجب أن يُتبع، وأن معاوية ومن معه بغوا عليه بشبهة قتل عثمان. والله جل وعلا يقول في كتابه العظيم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي بَغَتْ﴾ ما قال فاعتزلوا؛ قال: ﴿فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبَغَّى حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فإذا عرف الظالم وجب أن يساعد المظلوم، لقوله سبحانه: ﴿فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبَغَّى حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾. والباغون في عهد الصحابة معاوية وأصحابه، والمعتدلة علي وأصحابه، فبهذا نصرهم أعيان الصحابة، نصروا عليًّا، وصاروا معه كما هو

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/ ٤٥٨).

معلوم»^(١).

مع التنبيه إلى شدة تحريم الخروج على الإمام حتى وإن كان إمام جور لم يرتكب ما يوجب الخروج عليه. فلا يجوز الخروج على الإمام المسلم، سواء كان عدلاً، أو فاسقاً، أو جائراً، ما لم يرتكب كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان، وهذه مسألة محسومة في الشريعة، والأدلة في ذلك كثيرة جداً، فعن جنادة بن أمية قال: «دخلنا على عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مريض فقلنا: حدثنا. أصلحك الله. بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذنا علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسْرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً»^(٢) عندكم من الله فيه برهان» وفي رواية بعد: «أن لا ننازع الأمر أهله» قال: «وعلى أن

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لابن باز رحمه الله تعالى (٦/٨٨).

(٢) قال العلامة العثيمين رحمه الله تعالى: «بواحاً»: أي صريحاً ليس فيه تأويل، فإن كان فيه تأويل ونحن نراه كفراً لكن هم لا يرونه كفراً سواء كانوا لا يرونه باجتهاد منهم أو بتقليد من يرونه مجتهداً؛ فإننا لا ننازعهم ولو كان كفراً. ولهذا كان الإمام أحمد كان يقول: «إن من قال القرآن مخلوق فهو كافر»، والمأمون كان يقول القرآن مخلوق، وكان يدعو الناس إليه، ومع ذلك كان يدعوهم بأمر المؤمنين؛ لأنه يرى أن القول بخلق القرآن بالنسبة له ليس بواحاً، ليس صريحاً، فلا بد أن يكون هذا الكفر صريحاً لا يحتمل التأويل، فإن كان يحتمل التأويل فإنه لا يحل لنا أن ننازع الأمر أهله". شرح صحيح البخاري كتاب الفتن والأحكام، للعثيمين (١/٥٠١).

نقول بالحقِّ أينما كنَّا، لا نخافُ في الله لومةَ لائمٍ»^(١). وعليه؛ فلا بد من القول بالحق في كل حال، فليس من الخروج قول كلمة الحق لا يخشى إلا الله تعالى.

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «خيارُ أئمتِّكم الذين تُحبُّونهم ويحبُّونكم، ويُصلُّون عليكم وتُصلُّون عليهم، وشرارُ أئمتِّكم الذين تُبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنُونهم ويلعنُونكم، قيل: يا رسول الله، أفلا تُنابذُهم بالسيفِ؟ فقال: لا، ما أقامُوا فيكم الصلاة، وإذا رأيْتُم من وُلاتِكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عملَهُ، ولا تنزعوا يداً من طاعة»^(٢).

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّه يُستعملُ عليكم أمراء، فتعرفون وتُنكرون، فمن كرهه فقد برئ، ومن أنكره فقد سلِم، ولكن من رَضِيَ وتابَعَ»، قالوا: يا رسول الله؛ ألا نقاتلُهم؟ قال: «لا، ما صلُّوا»^(٣).

وعليه؛ فمن استبان له الحق بأدلته، واطمأنت إليه نفسه، فليثبت على الحق الذي يرى أنه قد فُتِحَ له، وليقبض عليه، وليؤثره على ما عداه، فهو دينه الذي يلقي الله تعالى به، مع حرصه البالغ جداً ألا يتخوض في دم حرام، وليعذر إخوته فيما اختلف معهم فيه من مثل هذه المسائل المشتبهة على أكثر الناس، وليحذر، ثم ليحذر، ثم ليحذر أن ينهر دم امرئ يشهد ألا إله إلا الله بغير حق صريح كالشمس

(١) البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩)، واللفظ له.

(٢) مسلم (١٨٨٥).

(٣) مسلم (١٨٥٤).

في رائعة النهار مهما ألحّت عليه دواهي الأمور رغباً ورهباً وشبهةً وحرَجاً.

أما من رابه الأمر، أو التبس عليه الحال، أو اشتبهت عليه الأدلة؛ فليعتزل
وليكن طلباً للعافية وإيثاراً للسلامة، ولأنه خال الوفاض من دليل شرعيٍّ أو حاليٍّ
خال من معارض قوي، والسلامة لا يعدلها شيء، والمؤمن المجتهد متردّد بين
الأجر والأجرين، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو المستعان، وعليه التكلان،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق
بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وبالله تعالى التوفيق، والله تعالى
أعلم.



الصبر عند فقد الأحبة

الموت ليس آخر المطاف، بل هو مجرد بوابة لمرحلة جديدة نجتازها في رحلتنا للدار الآخرة، وهو ليس بفكرة مخيفة لمن أحسن العمل واستعد للقاء ربه تعالى، وقد كتب الله تعالى أن الجنة موعد المحبين من المؤمنين، أما الفراق الحقيقي فهو فراق أهل النار عيادًا بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: هي الفرقة التي لا اجتماع بعدها^(١)!

إن الدنيا دارٌ لأواءٍ ابتلاءٍ، وشدة امتحانٍ، ومسابقة ميدانٍ، ولا يزال الناس - مؤمنهم وكافرهم - يتجرعون فيها غُصص الكروب، وفواجع الفقد، ولوائح الحرمان، ولكن يفترق المؤمنون عن الكافرين بأن تلك الشدائد والأحزان والهموم والأسقام إنما هي مكفرة لسيئاتهم ورفعة لدرجاتهم وزيادة في حسناتهم، إما الكافر فيخرج من المصيبة في نفسه وأحبابه بمصيبته في دينه وحرمانه، عيادًا بالله تعالى من خيبات الرغائب.

وحلَّ بي الخطبُ الذي جاءني به سميعٌ فليست تستقرُّ الأضالعُ
فبِتُّ أديرَ الأمرَ والرأيَ ليلتي وقد أخضلتُ خدي الدموعُ التوابعُ
ولم أرَ خيرًا لي من الصبرِ إنه أعفٌ وخيرٌ إذ عَرَّتْني الفواجعُ

هذا ولا يمنع جميل الصبر من إسبالِ عبرات الرحمة ونفثِ زفرات الوفاء، فعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وجبه وابن جبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،

(١) الدرالمشور (١١/٥٨٦).

قال: أرسلت بنت النبي ﷺ إن ابني قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب» فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتيها.

فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فُرفِعَ إلى رسول الله ﷺ الصبي، فأقعده في حجره ونفسه تقعق (١) ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ (٢) فقال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده» وفي رواية: «في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» (٣).

وعن ثابت عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين (٤) وكان ظئراً (٥) لإبراهيم عليه السلام، «فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمّه». ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يحود بنفسه (٦)، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العين

(١) أي: تتحرك وتضطرب ولها حشجة.

(٢) ربما ظن أن البكاء جزع، فبين له ﷺ أنه رحمة في هذا المقام.

(٣) البخاري ١٠٠/٢ (١٢٨٤)، ومسلم ٣٩/٣ (٩٢٣).

(٤) القين: الحداد.

(٥) الظئر: المرأة التي ترضع ولد غيرها بالأجرة، وزوج المرضعة يسمى ظئراً.

(٦) أي: قارب الموت، فكأنه سمح بخروج روحه.

تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١). وقال الأصمعي: أرثى بيت قيل في الجاهلية:

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذِرِينَ قَدْ وَقَعَا

ألا وإن لصدمة المصيبة أحياناً ألماً يُذهل العقول عن رواجح أحلامها، ويُدهش الأبواب عن مواطن رضاها، فإن لم يكن من الله للنفس معونة بإنزال صبره وبُرد رضاه وإلا طاشت في غياهب الجزع واصطلمتها شديداً الخطوب، فعلى المؤمن أن يوطن نفسه ابتداء على احتمال أشد مرارات مصائب الدنيا، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر^(٢)، فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تُصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقل لها: إنه

-
- (١) البخاري (٨٣ / ٢) ومسلم (٧٦ / ٧) قال العيني في شرحه لسنن أبي داود (١٩٤ / ٢): وكان مولد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، قال الواقدي: ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطية، فاشتدت غيرة أمهات المؤمنين منها حين رزقت ولداً ذكراً، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله، فخرجت إلى أبي رافع، فأخبرته، فبشر به رسول الله ﷺ فأعطاه مملوكاً، ودفعه رسول الله ﷺ إلى أم بُردة بنت المنذر من بني النجار، وزوجها البراء بن أوس.. وعن أنس: «توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وهو ابن ستة عشر شهراً، فقال رسول الله: ادفنوه بالقيع، فإن له مرضعاً تتم رضاعه في الجنة». رواه ابن منده، وفي رواية أحمد، وأبي عوانة: «فإن له مرضعاً في الجنة».
- (٢) وفي رواية لمسلم: «تبكي على صبي لها».

النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين^(١) فقالت: لم أعرفك^(٢)، فقال: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٣) والصدمة الأولى هي الأثر الأول لسماع المصيبة ومعرفتها، فكأنها قد صدمته بغتة، كما يصدمه الحائط من حيث لا يشعر. فَإِنْ كَانَ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ لِأَمْثَالِهَا رُجِّي لَهُ أَنْ يَصْبِرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. «وَأَصْلُ الصَّدْمِ؛ الضَرْبُ فِي شَيْءٍ صَلْبٍ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ مُجَازًا فِي كُلِّ مَكْرُوهِ حَصَلَ بَغْتَةً. قَالَ النَّوَوِيُّ»^(٤).

خَلِيلِي صَبْرًا رَاحَةً الْحَرِّ فِي الصَّبْرِ وَلَا شَيْءَ مِثْلِ الصَّبْرِ فِي الْكَرْبِ لِلْحَرِّ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمَصَائِبِ؛ فَعَاقِبَتُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَرِشَادٌ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ أَلَمْ فَقَدْ الْأَحْبَابُ! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ»^(٥) مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ

(١) وهذا لتواضعه ﷺ، وكان هناك - أحياناً - من يقف على بابه من أصحابه للحجابه من تلقاء أنفسهم لمحبتهم له ورغبتهم في خدمته وضمّهم بنفسه عن نفوسهم فداء له وحباً وإيثاراً وإيماناً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

(٢) وذلك لإيمانها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وخشيتهَا سَخَطَ اللَّهُ بِسُوءِ الْأَدَبِ مَعَ نَبِيِّهِ ﷺ.

(٣) البخاري (٩٣/٢ و ٩٩) (١٢٨٣) ومسلم (٤٠/٣).

(٤) عون المعبود (٨/ ٢٧٤).

(٥) قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصفى: من يصطفيه الإنسان ويختاره من ولد، أو أخ، أو عم، أو أب، أو أم، أو صديق. المهم أن ما يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنه ذو صلة منه قوية. فإذا أخذه الله عز وجل، ثم احتسبه الإنسان، فليس له جزاء إلا الجنة». شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١٠١/١).

احتسبه إلا الجنة»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ بصبي لها فقالت: يا نبي الله، ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة! قال: «دفنت ثلاثة؟!» قالت: نعم قال: «لقد احتظرت بحَظَارٍ»^(٢) شديد من النار»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحسبه إلا دخلت الجنة» فقالت امرأة منهن: أو اثنين؟ يا رسول الله! قال: «أو اثنين»^(٤).

وعن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: «إنه قد مات لي ابنان، أفما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث يطيب أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، «صغارهم دعاميص»^(٥) الجنة، يتلقى أحدهم أباه - أو قال: أبويه -، فيأخذ بثوبه، - أو قال: بيده

(١) البخاري ١١٢/٨ (٦٤٢٤).

(٢) احتظرت بحظار شديد: أي احتمت بحمي عظيم وسور كبير من النار يقيها حرها ويؤمنها من دخولها لأنها صبرت على فقد ابنها من النار. والحظار من الحظيرة تعمل للابل والبهاائم من شجر ليقىها البرد والريح ونحوهما.

(٣) مسلم (٢٦٢٦).

(٤) البخاري الفتح ٣ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٢) واللفظ له.

(٥) دعاميص: جمع دعمص، وهي دويبة من دواب الماء، تضرب إلى السواد، ويقال لها الدغاليب. وشبهه الطفل بها لصغره وسرعة حركته.

- كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلَّه القسم»^{(٢)(٣)}.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد»^(٤). فله الحمد، كم للمؤمنين في جنته من بيوت حمد!

تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْفَادِحَاتُ وَلَمْ يَجِدْ عَنْ الصَّبْرِ حَتَّى أَدْرَكَ الْمَجْدَ أَجْمَعَا
مَا زَالَ يُرْخِي لِلنَّوَى مِنْ قِيَادِهِ إِلَى أَنْ أَفَادَ الْحَيَّ شَمَلًا مُجْمَعَا

(١) مسلم (٢٦٣٥).

(٢) قال أيمن صالح شعبان في تحقيقه لجامع الأصول (٩ / ٥٩٢): تحلَّه القسم: هي تحلَّة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ [مریم: ٧١] والقسم قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ﴾ [مریم: ٦٨]. وهذا مثَّل في القليل المفرط القلة، وهو أن يباشر من الفعل الذي يقسم عليه المقدار الذي يبرَّ به، مثل: أن يحلف على النزول بمكان، فلو وقع به وقعة خفيفة أجزأة، فتلك تحلَّة القسم، فالمعنى: لا تمسه النار إلا مئة يسيرة، ومثل تحليل قسم الحالف.

(٣) البخاري الفتح ٣ (١٢٥١)، مسلم (٢٦٣٢).

(٤) الترمذي (١٠٢١) وقال: حديث حسن غريب، وحسن إسناده الألباني (١ / ٢٩٨) (٨١٤).

وانظر بركة الصبر والحمد والاسترجاع؛ فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﷻ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقرة: ١٥٦]، اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مَصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(١). ولقد قالت ذلك حين مات زوجها أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فأخلف الله لها أعظم زوج في البشر وهو رسولنا ﷺ.

ولله أم سليم ما أصبرها وأرضاها! فعن ابنها أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان ابن لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة، قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان»^(٢)

(١) مسلم (٩١٨) وضبط «أَجِرْنِي» معناه: أَجِرْنِي مِنَ الْجَزَعِ أَوِ الْمَعْصِيَةِ جَرَاءِ الْمَصِيبَةِ، وهو هنا متسق مع «أَخْلَفْ لِي» بهمزة القطع. وقد يُضبط بـ«أَجِرْنِي» بمعنى: اكتب لي بالصبر عليها أَجْرًا، وهو متسق مع «أَخْلَفْ لِي» بهمزة الوصل، والثاني أظهر، وكلاهما محتمل، والله أعلم.

(٢) وهذا من التورية والمعاريف الجائزة، وقد أرادت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تهيئه لاستقبال المصيبة وتعينه على نفسه، وهذا من قوة نفسها وإيمانها، وفعلها هذا من باب ترك الجزع. ومن فضائلها ما رواه مسلم (٢٤٥٥) بسنده عن أنس قال: كان النبي ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا أم سليم، فإنه كان يدخل عليها. فقيل له في ذلك فقال: «إني أرحمها، قتل أخوها معي». وله أيضًا (٢٤٥٦) عن أنس عن النبي ﷺ قال: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ خَشْفَةَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمِّ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ». وروى أيضًا (٢٤٥٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْفَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ». قال ابن

فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَتْ: وَارْؤَا الصَّبِيَّ. فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا» فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمْرَاتٍ، فَقَالَ: «أَمَعَهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، تَمْرَاتٍ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ» (١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: قَالَ ابْنُ عِيْنَةَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: «فَرَأَيْتَ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلِّهِمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ». يَعْنِي: مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْلُودِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَاتَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سَلِيمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تَحْدُثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عِشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارَوْا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَمْ يَكُنْ أَنْ

بَطَالٌ فِي شَرْحِهِ لِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ (٣/ ٢٨٦): «لَقَدْ أَخَذْتُ أُمَّ سَلِيمٍ فِي الصَّبْرِ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ، عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ أَرْقُ أَفْعَدَةً، لِأَنَّنَا نَقُولُ: مَا فِي النِّسَاءِ وَلَا فِي الْجِلَّةِ مِنَ الرِّجَالِ مِثْلُ أُمِّ سَلِيمٍ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَسْبِقُ الْكَثِيرَ مِنَ الشُّجْعَانِ إِلَى الْجِهَادِ، وَتَحْتَسِبُ فِي مَدَاوِةِ الْجَرْحَى، وَتُبِتُّ يَوْمَ حَنِينٍ فِي مِيدَانِ الْحَرْبِ وَالْأَقْدَامُ قَدْ زَلَّتْ، وَالصَّفُوفُ قَدْ انْقَضَتْ، وَالْمَنَايَا قَدْ فَغَرَتْ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ وَفِي يَدَيْهَا خَنْجَرٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْتُلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْهَزُمُونَ عَنْكَ كَمَا تَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجَارِبُونَكَ، فَلْيَسُوا بِشَرِّ مِنْهُمْ».

(١) الْبُخَارِيُّ ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، وَمُسْلِمٌ ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣).

يمنعوهم؟ قال: لا، فقالت: فاحتسب ابنك! قال: فغضب، ثم قال: تركتني حتى إذا تلطّختُ، ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله في ليلتكما»، قال: فحملت.

قال: وكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً فدنوا من المدينة، فضر بها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله ﷺ إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبستُ بما ترى، تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد انطلق^(١)، فانطلقنا وضر بها المخاض حين قدما فولدت غلاماً. فقالت لي أمي: يا أنس، لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملته، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال فصادفته ومعه ميسم^(٢)، فلما رأياني قال: «لعل أم سليم ولدت؟» قلت: نعم، فوضع الميسم، قال: وجئت به فوضعت في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت ثم قذفها في في الصبي، فجعل الصبي يتلمّظها، قال: فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حبّ الأنصار التمر»^(٣). قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله^(٤).

(١) أي: أن الله قد استجاب دعوته في تسهيل صحبتته لنبه ﷺ في سفره ذاك.

(٢) الميسم: حديدة تؤسم بها الدواب بعد حميها في النار.

(٣) قالها من باب التبسط والمداعبة لأصحابه ﷺ.

(٤) مسلم (٢١٤٤).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً لم تغادر منا واحدة. فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ. فلما رآها رَحِب. قال: «مرحبا بابنتي». ثم أجلسها عن يمينه - أو عن شماله - ثم سارّها فبكت بكاء شديداً. فلما رأى حزنها سارّها الثانية، فإذا هي تضحك. فقلت لها أنا - من بين نسائه -: خصّك رسول الله ﷺ بالسرّ من بيننا، ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها عمّ سارّك؟

قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه، فلما توفي قلت لها: عزمْتُ عليك - بهالي عليك من الحق - لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم. فأخبرتني. قالت: أما حين سارّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة^(١). وأنه قد عارضني به العام مرتين. ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك». قالت: فبكت بكائي الذي رأيت. فلما رأى جزعي سارّني الثانية قال: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة»^(٢). وفي رواية بزيادة: «وأنك أول أهلي لحوقاً بي». وتأمل صبرها في كتمان أمر خبر الصادق المصدوق بأنها سيدة نساء المؤمنين ومع ذلك تسكت، وهذا من الصبر الذي لا نظير له، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاهَا.

وسبب إفشائها للخبر بعد وفاته ﷺ هو زوال المانع، فإنه إنما سارّها ابتداءً

(١) أي: يدارسه في كل عام مرة واحدة بجميع القرآن الذي نزل.

(٢) البخاري، الفتح (١١) (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) واللفظ له، مسلم (٢٤٥٠).

بخبير خاص وهو ظنه قرب وفاته، فلما قبض ﷺ زال المانع^(١).

ولا بد للمؤمن من جرعات تصبر يقيم بها أود دينه ومروءته.

صبرت فكان الصبر خير مغبة وهل جزع يُجدي عليّ فأجزع
ملكتم دموع العين حتى رددتها إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

وعزى أحدهم رجلاً في ابنه فقال: «إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك، وأنكى الرزيتين لك، والسلام».

وعزى ابن أبي السماك رجلاً فقال: «عليك بالصبر، فيه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع».

وقال عمر بن عبد العزيز: «أما الرضا فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن جعل الله في الصبر معوِّلاً حسناً». ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال: «رحمك الله، لقد كنت لي وزيراً، وكنت لي معيناً. والناس ييكون، وما يقطر من عينيه قطرة».

وأصيب مطرف بن عبد الله في ابن له فأتاه قوم يعزونه فخرج إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: «إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة».

وقال عبيد بن عمير: «ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء».

(١) وبنحو هذا أجاب الطحاوي رحمه الله تعالى في شرح مشكل الآثار (٩ / ١٤).

وقال الحسين بن عبد العزيز الحروزي: «قد مات ابن لي نفيس، فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه واصبري، فقالت: مصيبي أعظم من أن أفسدها بالجزع». وعن عمر بن محمد بن بجير قال: «خرجت في جنازة أحمد بن صالح بمصر فرأيت على قبر مكتوب:

قبرٌ عزيزٌ علينا لو أن من فيه يُغدى أسكنتُ قرّة عيني ومنية النفس لحداً ما صار خلق علينا ولا القضاء تعدّى والصبر أحسن ثوب به الفتى يتردّى^(١)

وعن شيخ من قریش قال: «مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأمير، فكثرت من يعزيه، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع».

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: «كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني، فرآني أطوف بالبيت متقنّاً، فكشف القناع عن رأسي وقال: الاستكانة من الجزع». وقد أنكر اسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه، وقال: هو من الجزع.

وبالجملة؛ فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيّرون شيئاً من زيهم قبل المصيبة، ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله مناف للصبر، والله سبحانه أعلم^(٢).

قلت: والأظهر أنه أمر نسبي، فلا بد لغالب النفوس من تنفيسة نفس، وجرعة

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٠٢٠٢) (٧/٢٥١).

(٢) عدة الصابرين (١٨٦-١٨٧) باختصار يسير.

تأمل، ونفثة ذكري، ودمعة عين، ووقت خالٍ - ولو يسير - للاصطبار، ولعلمهم
قصدوا ترك العمل ونحوه، والعبرة بحال القلب بمنعه من سوء الظنون، وحبس
اللسان عن التسخط، وسكون الجوارح عن الاعتراض.

وعليه؛ فمن صبر فقد أحسن، ومن رضي فقد أبلغ، ومن حمد وشكر فقد
انتهى ووصل، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم.

سأسكتُ صبراً واحتساباً فإنني أرى الصبر سيفاً ليس فيه فلولُ
عذابي أن أشكو إلى الناس إنني عليلٌ ومن أشكو إليه عليلٌ
وإن امرأ يشكو إلى غير نافع ويسخو بما في نفسه لجهولُ



لا تحزن

الحزن شعور سلبي سوداوي مخالف للسُرور والسعادة والاستبشار، وهو مفضّل مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبره. والله تعالى يحب الخير لعباده ويدهم على طريق الفرح ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] ونهى عن الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وبما أن المؤمن بشر مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض، لفوات ملائم، أو طروء مخالف لطبعه، أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيد مشاعره وطبيب روحه؛ فيرخي لمشاعره الزمام شيئاً بحيث لا يكتبها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام، رفقا بحزم، ولطفاً بتؤدة.

وليستعمل علمه بالله تعالى وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، فإن كان الأمر لفوات دنيا فليعلم أن الدنيا بحذافيرها لا تستحق على التحقيق حزن ساعة! لكن لضعفنا البشري المركّب وغفلتنا الآنيّة فإنّا نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه.

وأما إن الحزن للدين فينظر: إن كان لذنوب أو فوات طاعة وقربه؛ فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابياً بحيث يعوّض ما فاتته ويستدرك ما فرط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنوبه ويلج بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

وأما الحزن لدين غيره كتقصير الناس في طاعة الله وانتشار المنكرات وضعف حال المسلمين وضعف تدينهم وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلاً وسجناً وتشريداً؛ فحزنه محمود، ولكن لا بد أن يكون حزناً باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌ ميسر لما خلق له.

قال ابن تيمية: «وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محموداً في حال أحد وإن ارتقى مقامه.

وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع، وإن تعلق بأمر الدين كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥] وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وأمثال ذلك كثير^(١).

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب، كما

(١) والأسى هو الحزن.

قال النبي ﷺ: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم»^(١). وقال ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب»^(٢). ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْصَرَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموماً فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموماً عليه من تلك الجهة وإن كان محموداً من جهة أخرى^(٣). وعلى المؤمن أن يصبر ويتفاءل بثمرات الصبر ولا يجزع ويبأس كحال من قال:

كُتِبْتُ عَلَى جِدَارِ الصَّبْرِ شِعْرِي فَلَمْ يَبْقَ الْقَصِيدُ وَلَا الْجِدَارُ

ومما يسعد المحزون بسبب فقد الحبيب ويسلّيه ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى حيث قال: «ما زلت عن عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل

(١) البخاري (١٠٥/٢) مسلم (٤٠/٣).

(٢) مسند أحمد بسند صحيح (٣١٦/٢٠) (١٣٠١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/١٠).

والأولاد، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان في القبور، فأحزن لذلك، فمرت بي أحاديث قد كانت تمرّ بي ولا أتفكر فيها.

منها قول النبي ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ^(١) إِذَا مَاتَ طَائِرٌ يَلْقَى بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ»^(٢): فرأيت أن الرحيل إلى الراحة، وأن هذا البدن ليس بشيء، لأنه مركَّبٌ تَفَكَّكَ وفسد، وسيبني جديداً يوم البعث، فلا ينبغي أن يتفكر في بلاءه.

ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يبقى كبير حزن، وأن اللقاء للأحباب عن قرب. وإنما يبقى الأسف لتعلق الخلق بالصور، فلا يرى الإنسان إلا جسداً مستحسناً قد نقض فيحزن لنقضه. والجسد ليس هو الآدمي، وإنما هو مَرَكَبُهُ، فالأرواح لا يناها البلى، والأبدان ليست بشيء.

واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك ورميته في حفرة، فهل عندك خبر مما يلقي في مدة حياتك؟ فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس، لا تدري النفس ما يلقي، ولا ينبغي أن تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاءه.

واذكر تنعم الأرواح، وقرب التجديد، وعاجل اللقاء فإن الفكر في تحقيق هذا يهون الحزن ويسهل الأمر»^(٣).

(١) أي: روحه، فهي بفتح الحاء: الروح، أما بتسكينها: فالهبة اللطيفة من الهواء.

(٢) أحمد (١٥٧٧٧) وصححه محققوه الأرناؤوط وأصحابه.

(٣) صيد الخاطر (١/ ٩١).

وَلَحِيرُ حَظِّكَ فِي الْمُصِيبَةِ أَنْ يَلْقَاكَ عِنْدَ نُزُولِهَا الصَّبْرُ

ولقد وقف ابن عمر على جثة ابن الزبير وقد صلب فرأى أنه أساء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين فقال لها معزياً: اتقي الله واصبري، فإن هذه الجثث ليست بشيء، وإن الأرواح عند الله. فقالت: وعلام لا أصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى بغي من بغايا بني إسرائيل!



الشهداء الصابرون كثير سوى القتل في سبيل الله تعالى

الشهيد حبيب الله تعالى، فالله يحبه ويقربه ويلطف به ويأجره قال سبحانه ويحمده: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه؛ ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله عز وجل، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ ثم أقتل، ثم أحيأ ثم أقتل، ثم أحيأ ثم أقتل»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟» قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قُتل يوم أحد وترك عيالاً وديناً. قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيأ أباك فكلّمه كِفَاحًا!»^(٢) فقال: يا عبدي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون». قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) سنن النسائي (٣٠٩٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٠٧٥).

(٢) أي: كلمه مباشرة بلا حجاب ولا ترجمان، نسأل الله الكريم من فضله.

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية (١).

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، أَنْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمَجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، أَهْزِمْهُمْ وَانصِرْنَا عَلَيْهِمْ» (٢). «وَفِي الْحَدِيثِ: أَلَّا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَهَذَا غَيْرُ تَمَنِّي الشَّهَادَةِ، فَتَمَنِّي الشَّهَادَةِ جَائِزٌ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِهِ. وَفِيهِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَاصْبِرْ» (٣).

وَالْعَافِيَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، فَعَنْ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ» فَمَكَّثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ، سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (٤). وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَذْكَارَ طَرْفِي النَّهَارِ رَأَيْتَ حُظُورَ سُؤَالِ اللَّهِ الْعَافِيَةَ فِيهَا، فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَافَاةَ الدَّائِمَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَإِنْ حَضَرَ الْبَلَاءُ فَدَاوَهُ بِالصَّبْرِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ ذُرْوَةُ سَنَامٍ

(١) سنن الترمذي (٥ / ٢٣٠) وحسنه الألباني.

(٢) البخاري ٤ / ٦٢ (٢٩٦٦) ومسلم ٥ / ١٤٣ (١٧٤٢).

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١ / ١٣١).

(٤) الترمذي (٣٥١٤) وقال: حديث صحيح.

الإسلام، ومختصر طريق الجنة، فإن رزقك الله قتلاً في سبيله؛ فاعلم أنه خصك بأمنية النبيين والسابقين المقربين، نسأل الله تعالى تحقيقها بمنه وكرمه وهو الكريم الوهاب.

هذا وإن للقتل في سبيل الله والجهاد في سبيله والموت في سبيله درجات ومراتب، فعن طارق بن شهاب البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرَزِ^(١) أيّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢). وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم: «أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال»، فقام رجل فقال: يا رسول الله! أرايت إن قُتِلْتُ في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، إن قُتِلْتُ في سبيل الله، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟». قال: أرايت إن قُتِلْتُ في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»^(٣). ولعله الدين الذي فرط فيه صاحبه، للتالي:

الأول: أن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً، وقد روى الإمام مسلم في

(١) قال الجوهري في الصحاح (٨٨٨): الغرَز: ركاب رحل البعير من جلد، فإذا كان من

خشب أو حديد، فهو ركاب.

(٢) النسائي (١٦١/٧) وصححه النووي في الرياض.

(٣) مسلم (١٨٨٥).

صحيحه^(١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب، إلا الدين». فالمستثنى هو ذنب الدين لا مطلق الدين، وذنب الدين هو النية السيئة ابتداء بعدم الوفاء، أو مطل الغني، أما الدين لمن عزم على الوفاء فليس بذنب دين، فرسول الله ﷺ قد توفاه الله ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير^(٢). وقد كان يستدين ويوفي وفاء الإحسان ويقضي خير القضاء فاستدان ثلاثين فردها ستين واستدان أربعين فقضاها ثمانين، وفي حديث أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «استسلف رسول الله ﷺ بَكْرًا^(٣)، فجاءته إبل الصدقة، قال أبو رافع: فأمرني رسول الله أن أُعطيَ الرجل بَكْرَه، فقلتُ: ما أَجْدُ إلا جَمَلًا خِيَارًا رِبَاعِيًّا^(٤)، فقال رسول الله ﷺ: «أَعْطِهِ إِيَّاهُ، وَإِنْ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً»^(٥). صلوات الله وملائكته والصالحون وسلامه وبركاته عليه وآله.

الثاني: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها؛ أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها؛ أتلفه الله»^(٦). وتأدية الله عنه

(١) مسلم (١٨٨٦).

(٢) البخاري ٤٩/٤ (٢٩١٦)، ومسلم ٥/٥ (١٦٠٣) (١٢٥).

(٣) البَكْر: الفتى من الإبل.

(٤) الرِّبَاعِي من الإبل: الذي دخل في السنة السابعة، جَمْلٌ رِبَاعٌ، والأنثى رباعية، مخففة.

(٥) مسلم (١٦٠٠).

(٦) البخاري (٢٣٨٧).

إما في الدنيا بتسهيل وفائه حيًّا أو ميتًّا أو بتحليله من دائئه، وإما بتكفُّل الله تعالى دينه بحسنات يعطيها غرماءه يوم الحساب.

فعليه أن يأخذ أمر الدَّين بجدٍّ لا لعب، ووفاء لا خيانة، وصدق لا خُلف فيه ولا كذب، وعزم على الوفاء طاقته، والله لا يخلف الميعاد، ويعطي بلا حساب، وهو نِعَمُ الحُسْب، ونعم الوكيل، ونعم الكفيل، ونعم المغني، ونعم الظهير.

الثالث: حديث جابر الأنفي في والدِه عبد الله، فقد استشهد وعليه دين بلا وفاء، لكن الله أكرمه بأن كلمه كفاحًا دون غيره.

الرابع: أن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد أباح الاستدانة شريطة نيّة الوفاء، فلما أباحها ابتداءً دل على أن من عجز عن الوفاء انتهاءً أنّه لا ذنب عليه، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] وأي عذاب أشد من الحرمان من دخول الجنة لمن استحقها من الشهداء المدينين.

فدل هذا على أن هذا في المفرط، أو المتساهل في الوفاء، أو المماطل المليء، أو من نوى عدم الوفاء ونحو ذلك، ورسول الله ﷺ لم يكن يصلي على من كان عليه دين في أوّل الأمر، ثم صلى عليهم بآخره لما فتح الله عليه الفتوح، ولا يعني ذلك القطع بالسلامة، بل هو محتمل راجح، فلا يتساهل في الوفاء إلا رقيق الديانة، خائب الوجه، ساقطُ الهمة، ذنيءُ الشيمة.

وفرَّق بين من كانت حقوق الناس نصب عينيه، يحسُّ بثقلها على كتفيه،

ويحاول وفاءها على قدر طاقته ووسعه وطوله، وبين من يتمنى الأماني وهو مسرف غافل، يثرّف في أمواله، ويبطر في إنفاقه، منتظرًا كنزًا يجده، أو ذهبًا يُلقى إليه، ويزعم أنه يريد الوفاء! وإنّما لكل امرئ ما نوى، والله أعلم.

والآيات في نعت فضائل الجهاد والشهادة كثيرة جدًا، وما ذاك إلا لكونها أصدق البراهين على تمكن الإيمان من بشاشة القلوب.

ألا وإن بعض أهل الضلالة لينعق زورًا عن ذروة سنام الإسلام الجهاد على أنّه إرهاب مذموم، فيا سبحان الله! أليس الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؟ أليس إمام المجاهدين هو رسول الله ﷺ؟ وقد كان عدد غزواته التي قادها بنفسه سبعمائة وعشرين غزوة، وقاتل في تسع منها، وهي بدر وأحد والأحزاب والمريسيع وقريظة وخيبر ومكة وحنين والطائف، أما بُعوثُهُ وسراياهُ فقد بلغت ستّة وخمسين سرية^(١). صلى الله وسلم وبارك عليه وآله.

(١) المنهاج شرح النووي لصحيح مسلم (٩٥/١٢)، وفتح الباري (٢٧٩/٧ - ٢٨١) (١٥٣/٨) والبداية والنهاية (٣ / ٢٩٦) وقد اتفق أصحاب السير أنّ الغزوة هي الحرب التي يشهدها رسول الله ﷺ بنفسه، وأما البعث أو السرية فهي التي يرسلها بدون ذهابه معها. وقد اختلف أهل السير في عدد غزواته وسراياه. والأظهر أنّه خرج في سبع وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها. وقال ابن سعد: ويقال: قاتل في بني النضير، ووادي القرى، وقاتل في الغابة. وذكر الصالحى أسماء الغزوات في السيرة الشامية (٤ / ١٦) قال: هي: غزوة الأبواء - (ودان) - غزوة بواط - غزوة سفوان - بدر الأولى - غزوة العشيرة - غزوة بدر الكبرى - غزوة بني سليم - (قرقر الكدر) غزوة السوق، غزوة غطفان، غزوة الفرع، غزوة بني قينقاع، غزوة أحد، غزوة حمراء الأسد، غزوة بني

إنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى ماضٍ إلى يوم القيامة، وهو ذروة سنام الإسلام، ولا ينكل عنه إلا مخذول، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(١).

فالمؤمن يُجاهد ويُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْجِهَادِ، بَلْ إِنَّهُ مُوَعِدُ بِمَنَازِلِ الشَّهَدَاءِ إِنْ طَلَبَهَا حَقًّا وَصِدْقًا وَفَاتَتْهُ، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فَرَاشِهِ»^(٢).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا مُرْغَبًا أَهْلَ الْهَمَمِ الْعَالِيَةِ لِلدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْآلِيمِ ۝ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۝ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الصف: ١٠-١٣] وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَاءِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ ۝ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا

الضفير، غزوة بدر الموعود، غزوة دومة الجندل، غزوة المريسيع، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، غزوة بني لحيان، غزوة الحديبية، غزوة ذي قرد، غزوة خيبر، غزوة ذات الرقاع، غزوة عمرة القضاء، غزوة فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف، غزوة تبوك.

(١) مسلم ٤٩/٦ (١٩١٠) (١٥٨).

(٢) مسلم (١٨٨٧).

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٦٩-١٧١] قال: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ - أَي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهَوْنَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نَرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرْكُوا»^(١).

وإنَّ القتالَ في سبيلِ الله جزءٌ من الجهادِ في سبيله، فالجهادُ أعمُّ، قال جل وعز: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] وقال جل ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] وقال سبحانه وبحمده: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]

وفي القرآن المجيد ثلاثة ألفاظٍ يحسُنُ التفريقُ بينها للخلطِ في فهمها عند بعض الناس وهي: القتال والجهاد والشهادة:

فالأول: القتال، وهذا لا يكون إلا في سبيل الله تعالى، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، دون من قاتل حميةً أو شجاعةً أو ليُرى مكانه أو

(١) مسلم ٤٨/٦ (١٩٠٩) (١٥٧).

للمغنم أو غير ذلك من حُطَامِ الفانية.

والثاني: الجهاد، وهو مطلقٌ ومُقَيَّدٌ، فلفظ الجهاد إذا أطلق فالمراد به قتال الكفار بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله تعالى، ولا ينصرف إلى غير القتال إلا بقريئة، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨] فالجهاد هنا هو القتال في سبيل الله تعالى، وهو الأصل عند ذكر الجهاد، أما غيره كجهاد النفس والدعوة ونحو ذلك فيدخل تبعاً أو مقيداً، فاستفراغ الجُهد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه وهداية خلقه جهادٌ كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والثالث: الشهادة، وهي مطلقةٌ ومقيدةٌ، فالمطلقة: هي ما استشهد صاحبها في القتال في سبيل الله تعالى، فهذا هو الأصل في الشهداء، أما المقيدة فهي: ما سُمي صاحبها شهيداً في الشريعة، تفضلاً من الله وتطوُّلاً على هذه الأمة المرحومة تكثيراً لشهداءها.

وبينهما فرق كبير، فالمقيدة بضعةٌ أنواع: كالغريق، والحريق، وصاحب الهدم،

وصاحب ذات الجنب^(١)، والمبطون^(٢)، والمطعون^(٣)، والقتيل ظُلماً^(٤)، وغير ذلك مما سُمِّي صاحبه شهيداً، فكل هؤلاء لهم مسمى الشهداء في الدنيا والآخرة، فوحدتهم شهيدٌ، له مطلق الشهادة دون الشهادة المطلقة، وهي دون الثانية بكثير، فهؤلاء شهداء، لكن لا يُقال لهم شهداء في سبيل الله إلا إن كان ذلك ونحوه بسبب جهادهم في سبيله، كما في حديث نبينا ﷺ قال: «ما تقولون في الشهيد فيكم؟» قالوا: القتل في سبيل الله. قال: «إن شهداء أمتي إذن لقليل. من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغرق شهيد»^(٥).

وقال ﷺ: «الشهادة سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المقتول في سبيل الله

(١) داء في البطن.

(٢) أي: مات بداء البطن كالاستسقاء والإسهال ونحو ذلك.

(٣) أي: مات بالطاعون، وهو داء معروف، وبعضهم يعدّ جميع الأوبئة المميتة طواعين، وهو الأظهر، والله أعلم.

(٤) عند بعض أهل العلم لذكر عمر وعثمان بالشهادة، وليس بظاهر، فشهادتهم لأنهم في سبيل الله تعالى وليس لمطلق المظلومية، ولكن يتوجه ذلك لمن قُتِلَ دون دمه أو أهله أو ماله؛ لصحة الخبر في ذلك، وهو عند أبي داود (٤٧٧٢) والترمذي (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

(٥) ابن ماجه (٢٨٠٣) صحيح الجامع (٥٦٠٢) وبنحوه عند أحمد (٨٠٧٨).

شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة^(١). فهؤلاء إنما وهبهم الله منزلة الشهادة فضلاً منه ورحمة دون قتالٍ منهم في سبيله، فهم شهداء إما لموتهم دفاعاً عن أنفسهم أو عرضهم أو ما لهم، أو لميته شديدة أحلت بهم رحمة الله تعالى كالطاعون والهدم والغرق ونحو ذلك.

أما الشهادة المطلقة - وهي الكمال - فهي منصرفة للشهيد قتيلاً في سبيل الله تعالى، صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبرٍ، ويكون قتاله لتكون كلمة الله هي العليا، فصاحبها هو الذي حاز مرتبة الشهادة الكاملة بخصالها السبع^(٢)، مع الحياة

(١) أحمد (٢٣٧٥٣) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩) والجمع هو: النفاس.

(٢) روى الترمذي (١٦٤٠) عن المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْ خَيْرِ مَا فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَزُوجُ ثَتْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ». وفي رواية: «سبع خصال» بزيادة: «ويُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ» وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٢) وروى أحمد (١٧٧٨٣) عن قيس الجذامي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتُّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ: يَكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَزُوجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُؤَمَّنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ». وحسن سنده محققو المسند الأرناؤوط وزملاؤه، إذن فهي سبع، ولعل هذا راجع إلى أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ عَلَى سِتِّ خِصَالٍ، فَتَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَزَادَهَا إِلَى سَبْعٍ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي السَّنَةِ.

البرزخية الحقيقية، مع جَعْلِ روحه في حواصل الطير الخضر في جنات النعيم. وهذه المرتبة هي غاية آمال المقرّبين بعد مرتبة الصّدّيقية، نسأل الله الكريم من واسع فضله وعميم كرمه وجزيل هباته وعظيم إحسانه، إنه الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.

ألا وإن لأهل القرآن في مواطن الجهاد ما ليس لغيرهم من عظيم البلاء والنية والصبر والصدق، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصّته، لذلك كانوا أولى الناس بالجهاد في سبيل الله، ولما غزا المسلمون المرتدّين استحرّ القتل في القرّاء، أي العلماء بالقرآن، فقد كانوا هم مُقدّمِي البواسلِ إعلاءً لكلمة الله تعالى. فالقرآن يحقن في عروق تاليه حب الاستشهاد في سبيل الله، واسترخاض النفس في ذات الله، واعتبر ذلك بأمر رسول الله ﷺ العباس في حُنين لما انكشف المسلمون أن ينادي: يا أصحاب سورة البقرة، فحملة القرآن قد تغذّت قلوبهم على التنزيل، وارتوت من الذكر الحكيم. وقد صاح بها ثابت بن قيس في اليمامة لما انكشف المسلمون فنادى: يا أصحاب سورة البقرة، قال رجل من طيء: والله ما معي منها آية، وإنما يريد ثابتٌ يا أهل القرآن.

وقد ذكرَ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوماً وقعة اليمامة، ومن قُتل فيها من المهاجرين والأنصار وحملة كتاب الله فقال: «أَلَحَّتْ السيوفُ على أهل السوابق من المهاجرين والأنصار، ولم نجد المَعْوَلَ يومئذ إلا عليهم، خافوا على الإسلام أن يُكسرَ بأبه فَيُدْخَلَ منه إن ظهر مسيلمة^(١)، فمَنَعَ اللهُ الإسلامَ بهم حتى قَتَلَ عدوّه،

(١) أي: خافوا تبديل الدين بظهور مسيلمة الكذاب.

وأظهر كلمته، وقدموا يرحمهم الله على ما يُسرُّون به من ثواب جهادهم مَنْ كَذَبَ على الله وعلى رسوله، ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به.

وجعل منادي المسلمين^(١) ينادي: يا أهل القرآن، فيجيئون المنادي فُراذَى ومثنى، فاستحَرَّ بهم القتل. فرحَمَ الله تلك الوجوه، لولا ما استدرَكَ خليفة رسول الله ﷺ من جَمْعِ القرآن؛ لَخِفْتُ ألا يلتقي المسلمون وعدوهم في موضع إلا استحَرَّ القتل بأهل القرآن^(٢).

قلت: وذلك أَنَّ المسلمين في اليمامة لما انكشفوا بسبب اختلاط الأعراب بالمهاجرين والأنصار فيفرون؛ فيستحَرَّ القتل في أهل السابقة من صحابة رسول الله ﷺ، حتى غلبت حنيفة على الرَّحَالِ، فجعل زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينادي وكانت عنده راية خالد: أما الرَّحَالُ فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال، اللهم إني أعذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن طفيل. وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّمُ بها في نحرِ العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قُتِلَ وقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نُؤْتَى من قِبَلِكَ، فقال: بئسَ حامل القرآن أنا إن أُتِيتُ من قِبَلِي^(٣). ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: الزمها، فإننا مِلاكُ القومِ الراية.

ثم إن سالماً تقدَّم في نحر الكفرة براية المهاجرين، ثم حفر لرجليه حتى بلغ

(١) يعني يوم اليمامة.

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ للإمام المُجَدِّد (١ / ٢٨٨).

(٣) وتأمل ذكره لحمل القرآن لا غير.

أنصاف ساقيه، وحفر ثابت بن قيس لنفسه مثل ذلك، ثم لزمَا رايتهما، وكان الناس يتفرقون في كل وجه منهزمين، وإنَّ سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما، حتى قُتِلَ سالمٌ، وقُتِلَ أبو حذيفة مولاةُ عليهما رضوان الله تعالى، فوجدَ رأسُ أبي حذيفة عند رجلي سالم، ورأسُ سالمٍ عند رجلي أبي حذيفة لقُرب مصرعِ كلِّ واحد منهما من صاحبه، وثباتهما مع شدة القتل.

وتأمل حرص أولئك الأفاذاذ على إدراك الشهادة في سبيل الله تعالى، ومن ذلك أن أبا بكرٍ دعا زيد بن الخطاب ليؤيِّيه إمرة الجيش فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ، قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ، فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإنَّ أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فعرض عليه ذلك فقال مثل ما قال زيد، فدعا سالمًا مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه، فدعا أبو بكر سيفَ الله المسلول خالد بن الوليد فأمره على الناس، وكان خالد للمسلمين فتحًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قُتِلَت الأنصار في مواطن أربعة سبعين، سبعين: يوم أحد سبعين، ويوم بئر معونة سبعين، ويوم اليمامة سبعين، ويوم جسر أبي عبيد سبعين. ألا ما أصبرهم وأصدقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال شريك الفزاري: لما التقينا والقوم^(١) صَبَرَ الفريقان صبرًا لم أر مثله قط، ما تزول الأقدامُ فُتْرَى، واختلفت السيوف بينهم، وجعل يُقبل أهلُ السوابق

(١) أي: بني حنيفة.

والنَّيَّاتِ^(١) فيتقدّمون فيقتلون حتى فنوا، وذلكت فينا سيوفهم طويلاً.

وتأمل حسن بلاء وصدق حامل القرآن عبّاد بن بشر الأنصاري رضي الله عنه^(٢)، ولئن كان بنو حنيفة أولو بأسٍ شديد؛ فما حالهم مع صحابة محمد ﷺ إلا كما قال الأول: إن كنت رجلاً فقد لاقيت إعصاراً. قال ضمرة سعيد المازني وذكر ردة بني حنيفة: لم يلق المسلمون عدواً أشدّ لهم نكاية منهم، لقوهم بالموت الناقع، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل وقبل الرماح، وقد صبر المسلمون لهم، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق، ونادى عبّاد بن بشر يومئذ وهو يضرب بالسيوف قد قطع من الجراح، وما هو إلا كالنمر الجريح، فيلقى رجلاً من بني حنيفة كأنه جمل صئول فقال: هلمّ يا أخا الخزرج، أتحسب قتالنا مثل من لاقيت! فيعمد له

(١) وتأمل سبب إقبال أهل السوابق والنيات؛ لأنّ لهم رصيذاً صالحاً في قلوبهم من الإيمان والعمل الصالح، وقد كانوا يحسنون عبادة الله تعالى في الرخاء؛ فثبت قلوبهم وقت الشدة، وفتح أبواب الخير عليهم عند هبوب ريح الجنة تحت ظلال السيوف وقعقة الرماح.

(٢) وهو من بني عبد الأشهل، وهو الذي أبى أن يقطع صلاته لما رمى بالسهم، ففي مرجع رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيّةً للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبّاداً، وهو قائم يصلي، بسهم فنزعه، ولم يُبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله! هلاًّ نبهتني، فقال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها. الرحيق المختوم (١ / ٣٥٤) فهو معدود من كبار أهل السوابق رضي الله عنه.

عبّادٌ، ويبدّره الحنفي ويضربه ضربة بالسيف فانكسر سيفه ولم يصنع شيئاً، وضربه عباد فقطع رجله وجاوزه وتركه ينوء على ركبته، فناده: يا ابن الأكارم أجهز عليّ، فكرّ عليه عبّادٌ فضرب عنقه. ثم قام آخر في ذلك المقام فاختلفا ضربات وتجاوّلّا، وعبّادٌ على ذلك كثير الجراح، فضربه عبّادٌ ضربة أبدى سحره^(١)، وقال: خذها وأنا ابن وقّش، ثم جاوزه يفرّ في بني حنيفة ضرباً فرياً، فكان يُقال: قتل عبّادٌ يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلاً، وأكثر فيهم الجراح حتى إن حنيفة لتذكر عبّاد بن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضربٌ مجرب القوم عبّاد بن بشر.

صبرنا وكان الصبرُ منا سَجِيَّةً بأسيانا يقطعنَ كفّاً ومعضماً

وقال رافع بن خديج الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدنا اليمامة، فكُنّا تسعين من النبيت^(٢)، فلاقينا عدوّاً صُبراً لوقع السلاح، وجماعة الناس أربعة آلاف، وحنيفة مثل ذلك أو نحوه، فلمّا التقينا أذنَ الله للسيوف فينا وفيهم، فجعلت السيوفُ تحتلي هام الرجال وأكفّهم، وجراحاً لم أر جراحاً قط أبعد غوراً منها فينا وفيهم!

إني لأنظر إلى عبّاد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحنى كأنه منجل، فيقيم على ركبته، فيعرض له رجلٌ من بني حنيفة، فلما اختلفا ضربات؛ ضربه عبّاد بن بشر على العاتق مستمكناً، فوالله لرأيت سحره بادياً، ومضى عنه عبّاد، ومررت بالحنفي وبه رمق فأجهزت عليه، وأنظر بعدُ إلى عبّاد وقد اختلفت السيوف عليه،

(١) أي: ركبته.

(٢) وهم من بني عبد الأشهل من الأوس، وسيدهم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنهم.

وهو يُضْعُ بها ويُبْعَج بطنه فوقه، وما أعلم به مصححاً، وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثر القتل فيهم. قال: وَحَرَّضْتُ عَلَى قَتْلِهِ فَنَادَيْتُ أَصْحَابَنَا مِنَ النَّبِيتِ، فَقَمْنَا عَلَيْهِ وَقَتَلْنَا قَتْلَهُ، فَأَرَأَيْتُمْ حَوْلَهُ مُقْتَلَيْنِ فَقُلْتُ: بَعْدًا لَكُمْ^(١).

إِذَا مَرَرْتَ بِوَادٍ جَاشَ غَارِبُهُ فَاعْقِلْ قُلُوصَكَ وَانْزِلْ ذَاكَ وَادِنَا وَإِنْ عَبَرْتَ بِوَادٍ لَا يَطِيفُ بِهِ أَهْلُ السَّفَاهَةِ فَاجْلِسْ ذَاكَ نَادِنَا

وانظر لحال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ لَمَّا صَافَّ جَيْشَ طَلِيحَةَ فِي حُرُوبِ الرَّدَّةِ؛ حَمَلَ جَيْشُ طَلِيحَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَ فِي مِيمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ كَسْرَةً، فَصَاحَ رَجُلٌ مِنْ طِيءٍ بِخَالِدٍ: يَا خَالِدُ، عَلَيْكَ سَلْمِي وَأَجَأْ، فَصَاحَ فِيهِ خَالِدٌ مُؤَنِّبًا مُجِيبًا: بَلْ إِلَى اللَّهِ الْمُلْجَأُ^(٢)!

وَضَرَسَ خَالِدٌ فِي الْقِتَالِ، فَجَعَلَ يُقْجِمُ فَرَسَهُ وَأَصْحَابَهُ يَقُولُونَ لَهُ: اللَّهُ اللَّهُ، فَإِنَّكَ أَمِيرُ الْقَوْمِ، وَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقْدَمَ. فيقول: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَا تَقُولُونَ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتَنِي أَصْبِرُ، وَأَخَافُ هَزِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَاتِلْ بِسَيْفَيْنِ حَتَّى

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع الكلاعي الأندلسي (٣ / ٥٥).

(٢) وتأمل بركة التوحيد الصادق، واليقين المتحقق، والتعظيم لله تعالى الذي لا عظيم سواه، ولا كبير غيره، فله صحابة رسول الله ﷺ لا كان ولا يكون مثلهم. وهكذا يفعل الأبطالُ إِنْ غَضِبُوا وهكذا يعصفُ التوحيدُ بِالْوَثَنِ

قطعهما، حتى ترادَّ الناس بعد هزيمة كثيرهم، فحمل المسلمون على المرتدين فاقتلعوهم وأنزل الله نصره على عباده. قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نظرتُ إلى راية طليحة يومئذٍ حمراء، يحملها رجل منهم لا يزول بها فِتْرًا، فنظرتُ إلى خالد وقد أتاه فحمل عليه فقتله؛ فكانت هزيمتهم، فنظرتُ إلى الراية تطوُّها الإبل والخيول والرجال حتى تقطَّعت^(١)!

وعنه قال: يرحم الله خالد بن الوليد، لقد كان له غَنَاءٌ وجُرْأَةٌ، ولقد رأيته يوم طليحة يباشر الحرب بنفسه حتى ليم في ذلك، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشدَّ القتال، إن كان مكانه ليتقي حتى يطلع إلينا منبهراً^(٢).

وإنَّا لمعتادو رزايا عظيمةٍ نخاف بأدناهنَّ قاصمةَ الظَّهرِ
يظلُّ لها منَّا رجالٌ كأنَّما تعالى على أكتافها فلق الصَّخرِ
فنصبر حتَّى تنجلي غَمَرائُها إذا لم يكن في الصَّبر عيبٌ على الحرِّ

فلله دُرُّ صحابة رسول ﷺ، وبخاصة المهاجرين والأنصار أهل السوابق والنيات، ولله هُم من كُماةٍ بوايِلَ، قد اعتَجَرُوا البأسَ تحت عجاجِ قَصَفِ الرِّماحِ وقطعِ السيوف، لهم في جمرَةِ الوَعَى تكبيرٌ وتهليلٌ، تجولُ بهم المغيراتُ ضرباً على هامةِ كلِّ ظُلومٍ كَفَّارٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وألحقنا بهم غير خزايا ولا ندامى ولا مُبدلين.

وقد قال عبد الله بن حذف لما حاصر المشركون أهل جواثي المؤمنين:

(١) تلك المكارمُ لا قعبان من كَبِنٍ وهكذا السيفُ لا سيف ابن ذي يَرَنٍ

(٢) الاكتفاء (٣ / ٢٤).

ألا أبلغ أبا بكرٍ رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام قعودٍ في جِوَاثِي مُحْصَرِينَا
كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجٍّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يُعْشِي النَّاظِرِينَ
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا وَجَدْنَا الصَّبْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَ^(١)

ولا تخلو الأمة بحمد الله تعالى من مجاهدين في سبيل الله، ﴿رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الاحزاب: ٢٣] وقد أكرم الله تعالى ابن تيمية بمواقف مشهودة في الجهاد، ومن ذلك وقعة شَقْحَبَ بين المسلمين والمغول^(٢). ولما جاء السلطان^(٣) من مصر إلى شقحب لاقاه وجعل يشجعه ويثبتته^(٤) فلما رأى السلطان كثرة التتار قال: يا لخالد بن الوليد! فقال له: لا تقل هذا، وقل: يا الله، واستغث بالله ربك، ووحدته وحده تنصر^(٥)، وقل: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.

ثم ما زال يُقبلُ تارة على الخليفة^(٦) وتارة على السلطان، ويهدّثهما، ويربط جأشهما، حتى جاء نصرُ الله والفتح. وحكي أنه قال للسلطان: اثبت، فأنت

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٢٨٦).

(٢) وكذلك برزت مواقفه في وقعة كسروان بين المسلمين والباطنية النصيرية.

(٣) وهو السلطان المملوكي الملك الناصر.

(٤) ولما رأى تردد السلطان عن المجيء بالجيش من مصر ذهب إليه وقال: إن لم تنصر أهل الشام فستقيم لهم سلطاناً غيرك، ورغبة في الجهاد. ولما جاء السلطان قال له: كُنْ معنا. فقال: بل تحت راية أهل الشام، فالسنة أن يكون كل مقاتل تحت راية قومه.

(٥) فمع تجريد التوحيد وصدق التوكل والتوبة؛ لا يتخلف النصر بإذن الله تعالى.

(٦) أمير المؤمنين الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان المستكفي بالله.

منصورٌ، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله تعالى، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، فكان كما قال (١).

فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه وبِتُّ أريه الصبر كيف يكون

وقد ساق الحافظ محمد بن عبد الهادي المقدسي في العقود الدرية شهادةً لأحد أمراء الأجناد عن شجاعة الشيخ وبأسه عند قتال الكفار فقال: ولقد أخبرني أمير من أمراء الشاميين، ذو دين متين، وصدق لهجة، معروف في الدولة قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفني موقف الموت! قال: فسقتهُ إلى مقابلة العدو، وهم مُنحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم. ثم قلت له: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرّك شفّتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال. وأما أنا فخيل إليّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة. قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر.

وقد كان شيخ الإسلام على رأس الوفد الذين ذهبوا لغازان في افتكاك أسرى المسلمين وأهل الذمة، وجرت له مع غازان أمور قام بها ابن تيمية كلّها لله تعالى متجرّداً للحق لا تأخذه فيه لومة لائم، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل - ولا

(١) مسالك الأبصار، للعُمري (٣٠٢ - ٣٠٣) والبداية والنهاية للحافظ العماد ابن كثير (١٤ / ٢٧ - ٣٢).

أزكيه على الله تعالى.. ومن ذلك أنه قال لغازان^(١): أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام، وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلتَ فما وفيت!

ثم قرَّب غازانُ إلى الوفد طعامًا فأكلوا إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم، وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس! وغازان مصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه، وبسبب ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والإعجاب بالشيخ؛ سأل: من هذا الشيخ؟ إنِّي لم أر مثله أثبتُّ قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحدٍ منه، فأخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل.

ثم طلب منه غازان الدعاء، فدعا الشيخ قائلاً: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يُقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك؛ فأنصره وأيده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان قد قام رياءً وسمعة، وطلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذلَّ الإسلام وأهله؛ فاخذله، وزلزله، ودمره، واقطع دابره! وغازان يؤمِّن على دعائه، ويرفع يديه. قال الشيخ الصالح الناسك الفقيه أبو عبد الله محمد البالسي. وكان من أصحاب وأحباب ابن تيمية: فجعلنا نجمُ ثيابنا خوفًا من أن تتلوَّث من دم ابن تيمية إذا أمر بقتله، فلما خرجنا من عنده قال كبير القضاة وغيره ممن كان معه: كِدَت أن تُهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وإنِّي

(١) وكان هناك ترجمان يترجم كلام الشيخ.

لا أصحابكم. فانطلقوا عصبه، وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواتين والأمرء أصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، ووالله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه، فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم (١)(٢).

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ رسالة كتبها بعد وقعة شَقَب العظيمة ضد المغول في الشام، التي أبلى فيها المؤمنون بلاء حسنًا، وكان لابن تيمية فيها مواقف جلية من اليقين والشجاعة والثبات وحسن الظن بالله، وحسن تثبيت المؤمنين وتذكيرهم بالله، وحثهم على إحسان الظن بالله، وتحذيرهم من ظن السوء به تعالى وتقدس. وقد شبَّهها رحمه الله تعالى بغزوة الأحزاب وما فيها من عبر للموحدين، وآياتٍ لله رب العالمين، حريٍّ بالمجاهدين في سبيل الله في زماننا أن يطلعوا عليها، وينهلوا من معين علمها الثرِّ وحكمها العالية، فقد جمع الله لهذا الإمام من العلم والفقه والعبادة ومقامات الجهاد والنصح والتجربة ما لا يجاريه أحد من عصره إلى عصرنا بشهادة الأكابر الأفاضل، رحمه الله تعالى (٣). ومما قلتُ في حال أمتنا الآن:

أَلَا مَنْ عَذِيرِي مِنْ نُفُوسٍ تَنْجُ بِسَاحِنَا مَكْرًا تَطَامَى
يَرُومُونَ الدِّيَانَةَ بِانْتِقَامٍ وَثَارَاتٍ مِنَ الصَّحْبِ الْقَدَامَى
لِثَارَاتٍ أَزَالَتْ آلَ كِسْرَى وَأَلْحَقَتِ الْمَجُوسِيَّ اضْطِلَامَا

(١) أي سلبوهم ثيابهم وما معهم.

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٠١ - ١٠٤).

(٣) وانظر رسالة: (وزلزلوا زلزالا شديدا) للمؤلف.

تَغْصُ حُلُوقُهُمْ مِنْ ذِكْرِ سَعْدِ
إِلَهَ الْعَالَمِينَ أَرْخَ فُؤَادِي
أَفَاضَ الثَّكْلَ فِي الْإِسْلَامِ غَدْرًا
وَعَاثَ الْأَبْعَدُ الْأَطْغَى زَمَانًا
فَمُرَّ بِكِتَابَةِ حَمْرَاءَ تَشْفِي
وَتَنِّ إِهْنَا بِصَلِيبِ كُفْرٍ
وَتَلَّتْ بِالْيَهُودِ جُنُودَ مَسْخٍ
إِخَالَ جُمُوعَنَا وَالْحَيْلُ تَجْرِي
سَحَائِبَ جَنْدَلٍ تَرْمِي بِشُهْبٍ
أَوْ الرِّيحَ الدُّبُورَ جَرَتْ بِأَمْرٍ
أَوْ اللَّيْثَ الْهَزْبَرَ يَهُوشُ جَدْيًا
أَوْ النَّيْلَ الْخَضَمَّ يَسُوقُ بَحْرًا
فَإِنْ شِئْتَ الْبُطُولَةَ صَحَّ بِقَوْمٍ
أَصِيحُ بِأَذْهَمِي يَاوَأَفِ أَقْبَلُ
وَصَلَّ إِهْنَا فِي كُلِّ حِينٍ

وَسَيْفِ اللَّهِ أَشْبَعَهُمْ رَغَامًا
فَقَدْ حَزَّ النُّصَيْرِيُّ الْعِظَامَا
وَقَتَّلَهُمْ سُجُودًا أَوْ قِيَامَا
وَأَكْثَرَ فِي جَوَانِبِهَا الْيَتَامَى
صَدُورَ الصَّالِحِينَ دَمًا سِجَامًا
فَدُقَّ عَمُودُهُ الْأَفْرَى رُكَامًا
هُوَ الدَّجَالُ فَاْمَشَقُوا الْحُسَامَا
بِنَا نَحْوَ غُوطَتِهَا الشَّامَا
عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ مَطَرِ حَمَامَا
مِنَ الْجَبَّارِ تَجَثُّ اللَّئَامَا
فَهَلْ يَسْتَبِقُ لِلْجَدْيِ السَّلَامَى
يَدُكَ عُرُوشَهُمْ فَعَدَتْ حُطَامَا
إِذَا كَانَ الْكَلَامُ هُمْ كِلَامَا
فَدُونَكَ مَنْهَلٌ يُرْوِي الزُّوَامَا
عَلَى مَنْ كَانَ لِلْمُسْكَ الْخِتَامَا

وغني عن التنويه أنه ليس من الجهاد في شيء إرهاب المسلمين ولا المعاهدين
ولا ترويعهم ولا قتلهم، إنما ذلك من ضلال الغلاة، فضايع بعض قومي بين حريق
الغلاة وجليد القعدة. وشتان بين من بُعث يوم القيامة وقد أثنى في الكفار قتلاً
وتشريعاً ومن فتك بالمؤمنين قتلاً وترويعاً.

ومن الفتن المدلّمة؛ الجهل بفقهِ الجهاد، كما أن سبب تشديد أهل العلم

المعاصرين في اشتراط إذن الإمام للجهاد أمران:

الأول: حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتِلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُتَّقَى بِهِ»^(١). وهو حديث صحيح صريح. ويستثنى من ذلك الأحوال التي قررها أهل العلم أخذًا بنصوص أخرى خاصة وعامة.

الثاني: أنّ حال الجهاد ليس كالماضي في وضوح الأعداء وسلامة الرايات ونحو ذلك، بل دخله مكر كَبَّارٍ عظيم من أعداء الإسلام، ولمخابرات دول الغرب والشرق حضورٌ وتمكّنٌ في كثير من مفاصل الفِرَقِ المُعلنة للجهاد في سبيل الله لتحصيل أغراضهم الخبيثة؛ إما لكشف أفرادها وقياداتها غير التابعين لهم واغتيالهم، وإما بالتحكم في قراراتها وحرفها عن مسيرتها الشرعية لأخرى على غير سبيل المؤمنين، فيستفيدون إضعاف كتائب الجهاد من جهة، وتفريق المسلمين بإشعال الخلافات والحروب بينهم من جهة ثانية، وتشويه سمعة الإسلام بإثارة شناعات التصرفات المنسوبة للمجاهدين من جهة ثالثة، في سيل مكر كَبَّارٍ وَجَدَ مِنْ بَعْضِ جَهْلَةِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْعَى فِيهِ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾^(١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا^(١٦) فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِيدًا^(١٧) [الطارق: ١٥-١٧].

والسعيد من اتعظ بغيره والشقي من وعظته نفسه، وليس مكر الكافرين لأمة الإسلام بجديد، فالمكر الشيطاني بدسائس الظلام لم ينقطع منذ إشراق شمس

(١) البخاري (٦٠/٤) ومسلم (١٧/٦).

الإسلام، فمن ذلك ما رواه ابن أبي شيبه في مصنفه^(١) في سياق فتنة مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما كَلَّمَهُ المصريون وأقنعهم بصلاح الحال ووعدهم بالخير، قال: «ثم رجع الوفد المصريون راضين، فبينما هم في الطريق إذ براكب يتعرّض لهم، ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويسبهم، فقالوا له: إنَّ لك لأمرًا، ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه، إلى عامل مصر أن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم!»

وبكل حماقة صدّقه أولئك الأغرار الطغام، مع علمهم بسهولة التزوير وبِقَسَمِ أمير المؤمنين ببراءته من ذلك. وهو البر الصادق. ولكن لا مردّ لقضاء الله والحمد لله على كل حال، فلم يبرح أهل الفتنة عنه حتى قتلوه على مصحفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وما أكثر تكرار هذه المأساة عبر تاريخنا، فهل لنا من قلوب تعقل، والله المستعان.

ولا أعلم منذ ابتداء الإسلام عصرًا شوّه فيه مفهوم القتال في سبيل الله كزماننا، لأن المنافقين والكفار قد وجدوا من أخطاء المجاهدين وضلال المنسويين إليهم مادة خصبة جاهزة لتشويه هذه الشعيرة الربانية العظيمة. إنَّ الجهاد ذروة السنام وباق حتى آخر أنفاس المؤمنين، ولكنه الابتلاء، والمؤمن وقّاف متبيّن. وفرض الوقت حراسة ثغور الأمة، والبناء بلا يأس ولا قنوط. وسُنّة المدافعة باقية مادام على الأرض تكليف، والمؤمن يعمل بحكمة وصبر، ويتفائل بالطفاف الله تعالى. والمؤمن الموفق هو المتفائل دومًا بنصر الله وتوفيقه لأهل الحق مهما كانت

(١) مصنف ابن أبي شيبه، ترقيم عوامة (٣٨٨٤٥).

معطيات الواقع سلبية وبائسة. ولا تقل كيف، ولكن تدبر سنن الله ينشرح صدرُك.

وإن من فروع الإسلام الصحيح: الجهادُ في سبيل الله والاحتسابُ السياسي، وقد فعله الأئمة، وجهادُ البيان بمحكمات القرآن لا يقلُّ درجةً عن جهادِ السَّنان، بل قد فاقه في بعض الأحوال، ولا سنان إلا بعد البيان، وربُّ العزة يقول عن القرآن: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: بالقرآن العزيز، فجهاد اللسان لا يقلُّ مرتبةً عن جهاد السنان، والقلم واللسان رُحمان في ميدان وغى العلم والفكر، فاخطم بهما وجوه الباطل، وانصر بهما الحق المبين، ديانةً لله رب العالمين، ومن بنى مواقفه على ثناء الناس أو ذمهم انقطع.

وفي زمن الهوان يُظهر المنافقون ما كانوا يبطنون، ﴿سَلَقُوا كُرُيَالِيْسَةً حَدَادٍ أَشَحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الاحزاب: ١٩] وفي النهاية: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وأن من أكبر أسباب اضمحلال قانون الياسق الذي جاء به المغول لديار الإسلام فتوى ابن تيمية وإخوته العلماء بكفر ذلك القانون وكفر أهله ومن عمل به. فإن من هدي السلف الصالح التركيز على معالم الدين التي تبدأ في الاندراس والغيوبة في حياة المسلمين، سواء في الاعتقاد أو القول أو العمل أو حتى السلوك. وفي بقاع تنحية الشريعة تبرز ضرورة تكرار ذكرها وبيانها والحجاج دونها والإلحاح بذكر أهميتها، والشرك أنواع وصور وسُبُل كلها إلى الضلال هادية وفي النار هالوية، فمن العجز والفشل والخذلان التركيز على بعضها مع ترك أخرى هوت فيها قلوب

فثام من العباد جهلاً، أو غفلةً، أو شهوةً، أو تقليداً، فلبابُ التوحيد هو المحبة والخضوع والتعلق والرغبة والرغبة، فانظر أين اتّجاهها في قلوب الناس، هل هي لرب الناس أم مَكْرَ بهم الوسواس الخناس؟!

وإن من معاول الصبر ومخازنه؛ إحسان الظن بالله تعالى في نصره للإسلام والثقة التامة التي لا يلجلجها ريب ولا يداخلها شك، تصديقاً بالكتاب وإيماناً بمُنزل الكتاب القائل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

إنّ النصر للإسلام ولا بد مهما انتهت إليه ظنونُ الناس، وحقيقةُ النصر هي تدينُ الناس بالإسلام واعتناقهم إياه ودخولهم في حوزته، أما ملكُهُ للأفاق فليست كنصره في النفوس، وإن كنّا - بحمد الله - قد وعدنا بهذا وهذا.

إنّ من المهمات في هذا العصر نشرُ ثقافة التفاؤل بنصر الإسلام، والاستبشار بمستقبله، وحسن الظن بالله تعالى فيه، وعظيم حكمته في أقداره، وحسن عاقبته للمؤمنين. فهو الذي وعد نبيّه بعلو دينه ونصر جنده وعزّ شريعته مهما تكالبت عليها سباع الكفرة وضباع المنافقين.

والتفاؤل بجمال المستقبل ليس ضعفاً إذا كان ناشئاً عن حسن الظن بالله تعالى وليس عن خورٍ وعجزٍ وكسل، فاستفرغ جهدك في نصر دين الله وأحسن الظن بجميل تدبيره.

واعلم أنّ الفرقانُ بين التفاؤل والأمانى هو الجدية والعمل، فالأمل محتاج لعمل. وأعظم الجدّية هي الجدّية في الاستقامة على الإسلام، فدعوة بلا استقامة؛

لا عمود لها ولا ثبات ولا صدقيّة، وإن أردتَ امتحانَ جدية رجلٍ في الاستقامة؛
فارقُب تبكيره لشهود صلاة الجمعة، ألا ما أقلّهم وأكْرَم بقليلهم.

وقد يُظن جهلاً بالمتفائل سداجةً لقوّة تفاؤله، وحقيقته حسن الظن برّبه
ومعرفته بسنن الله في خلقه. فلا تخذل نفسك بالقلق، بل أسعفها بالتفاؤل. ومهما
كبست على صدرك جيوش الهموم وتراكت على روحك أرتال الغيوم؛ فثمّ نورٌ
في آخر النفق، إنّه حسن الرجاء بالله تعالى.

ومهما بلغ حجم جليد الكذب يوماً؛ فشمس الزمان كفيلة بإذابته، حينها
سيحصحص الحق. وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ومع ظلام التحليلات وسوداوية التوقعات، وتتابع الفواجع الدامية في جسد
الأمة؛ تبقى هناك ألطف مدهشة غير متوقعة، ليس لها تفسير سوى لطف الله
المحض، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعلى الداعي إلى سبيل ربه أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأنّ الله ولي
الصالحين، وأنّه إن رضي عنه؛ فلا عليه ما فاته من غيره، فالخيرُ بحذافيه في
مراضيه، والنعماءُ بكمالها بين يديه، وقد وعد - ووعدته الحق - أنّ العاقبة للمتقين.
والحقّ منصوّرٌ ومُتمَحَنٌّ فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد ذكر
الله هذا الحرف في آل عمران وكرره في الأنفال مختتما إياه في الموضعين بذكر اسميه
الجليلين ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] فهو العزيز القوي الغالب، وهو الحكيم

الذي يضع الأمور في مواضعها اللاتقة وله الحُكْم والحكمة، ولا نصر على الإطلاق إلا من الله وحده، فكلما احتجت لنصر - وأنت على الدوام كذلك - فردد بقلبك: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلن تنتصر على نفسك أو على غيرك من الإنس والجن وغيرهم إلا بحبل الله الله الناصر، فنصره حقيقي تام، ونصر غيره هباء فانٍ، فتعلق به وحده واعبده حق العبادة.

لقد وعدنا الله بالنصر إن نصرنا دينه، وبالعز أن اعتصمنا به دون سواه، وبالتمكين إن مكنا عبادته في القلوب والأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ولا يكفي الصبر لإدراك النصر، بل لا بد أن يُقرن بالتقوى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأبشر ببشرى الله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَنَجْعَلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ حُجَّةً بَلَاءٍ ۖ وَنُجْعَلَهُمْ لِلنَّاسِ مَوْزَنًا ۚ﴾ [القصص: ٥-٦] فالعاقبة للتقوى.

نحن الذين إذا وُلدنا بكرًا كُنَّا على ظهر الخيول أصيلاً
فليهدموا كلَّ المآذن فوقنا نحنُ المآذنُ فاسمَعِ التهليلاً
ولسانُ حالِ الباطل: أشغَلْهم بالتوافه، واحشُ جماجمهم بالسفساف، وصبِّ

عليهم سيل الشهوات، واملأ وقتهم بحصد الاشياء، ثم دَعُهُمْ في ضحضاح الخيبة؛ كي لا يدافعوا بالحق باطلك!

وما بات يسقينا سوى الماء وحده وهذا جزأ من بات ضيف الضفادع

وبحمد الله فمهما صلصل الباطل وجلجل؛ فهو تبابٌ ويبقى الحق شامخاً راسخاً، وتدبر: ﴿قَالَ الْقَوَّامُ الْقَوَّاسُ سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] ثم كانت النهاية بأيسر طريق: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنها سنة الصراع ونهايته: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جيشٌ من الكفر مهزومٌ إذا صدقت نياتٌ قومي إلى أعلى أعاليتها

وافرح - أخا الإيمان - ببشارة نبي الإسلام بنصر الله للإسلام، قال النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»^(١). وقال أيضاً: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل به الكفر»^(٢).

وتأمل حال الأمة اليوم، واعلم أن أحاديث آخر الزمان في الفتن جلّها في

(١) مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أحمد (١٦٩٥٧) وصححه الألباني على شرط مسلم في تحذير الساجد (١١٨-١١٩).

العراق، والملاحم جُلّها في الشام، حتى طريق الدجال للحجاز يكون من بينهما، نعوذ بالله من مضلات الفتن، ونسأله جبرّ القلوب بعزة الإسلام في قلوب أهله وميادين الجهاد في سبيله. وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لكلّ طريقٍ مختصراً، ومختصراً طريق الجنة الجهاد».

خَلَقَ اللهُ لِلْحُرُوبِ رَجَالًا وَرَجَالًا لِقَصْعَةٍ وَثَرِيدٍ
ولا تكن - لك الله - من المرجفين ولا البكائين المتشائمين، وفي الصحيح: «إذا قال الرجل: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُمُ»^(١). والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

واعلم أن نصرَ المؤمن وفوزَه لا يلزم منه كسبُ الحرب العسكرية، بل يكفي منه ثباته على الإسلام، وهذا معنى حَسَنٌ تَكَرَّرَ في المجامع والحلوات، فمن ثَبَتَ على دينه فهو المنتصر حقاً حتى ولو كان تحت الأقيّة في الزنازين أو تَوَجَّجَ بالشهادة في سبيل رب العالمين، وتزولُ عن أماكنها الجبال، ولا تزول عن مبادئها الرجال، فالعبرةُ الحقُّ إنما هي بالدين الحق، أما الدنيا فمجرد ممرٍّ للسائرين.

ورضوانُ الله عز وجل أصلُ جميع السعادات، وكلّها راجعة إليه، قال سبحانه لما ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلتكن - رعاك الله - من أصحاب المبادئ لا من أصحاب المصالح، واعلم أن المصالحَ تندثرُ أحياناً بشباب المبادئ، فتجمعُ ضغثاً على إِبالة، وحشفاً وسوءَ كَيْلَةٍ.

(١) مسلم ٣٦/٨ (٢٦٢٣) (١٣٩).

فَإِنْ يَوْمًا ضَعُفَتْ نَفْسُكَ وَحَارَ عَقْلُكَ وَتَحَرَّكَ يَقِينُكَ وَتَزَعَزَعَ جَأَشُكَ؛ فَتَدْبِرْ خَاتِمَةَ الصَّافَاتِ، وَفِيهَا يَقُولُ رَبُّنَا الْأَعْلَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٧٩﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿٨٠﴾ أَفَعِدَّاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَنْتَظِرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٨٣﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿٨٤﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٥﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٦﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٨٢].

أَبْشَرُ خَلِيلِي فَقَدْ أَجَلْتُ لَنَا الْكُتُبُ نَصَرُّ مِنَ اللَّهِ فِي الْكُفَّارِ يَلْتَهَبُ
أَنْجِدْ أُخِيَّ وَلَا تَلَوْ عَلَى ضَعَةٍ وَاشْفِ صُدُورًا شَوَاهَا الْقَهْرُ وَالْكَرْبُ
أَشْرِقْ بِوَجْهِكَ قَدْ حَانَتْ بُوَادِرُهُ وَعِدُّ مِنَ اللَّهِ لِلْأَحْرَارِ يَقْتَرِبُ
تَنْزِيلُ مَرْحَمَةٍ تَنْزِيلُ مَلْحَمَةٍ تَجْنِدُ أَلْوِيَةَ صَمَصَامُهَا النُّجُبُ
نِبْرَاسُهَا الْعِلْمُ وَالتَّقْوَى تَوْجِجُهَا فِرْقَانُهَا سَائِقُ إِنَّ صَاحِبَ النَّوْبُ

وتذكر دومًا تمام النعمة بالإسلام. قال ربنا عز وجل ممتنًا: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وتدبر قوله: ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وهذه أعظم نعمة في الوجود أن هدايا للإسلام ورضيه لنا للوصول إلى مرضاته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةٍ أَبَدًا، وَأَتَمَّهُ فَلَا يَنْقُصُهُ أَبَدًا، وَرَضِيَهُ فَلَا يَسْخَطُهُ أَبَدًا»^(١).

فتذكر دومًا نعمة هداية الله لك بالإسلام ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

(١) ابن جرير (٥١٨/٩).

كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿الرعد: ١٩﴾. وتفكر كثيراً كيف تتم الله عليك النعمة في نفسك، وأراك العبرة في غيرك، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فمن هنا تكامل إسلام العقيدة في ديننا بإسلام الشريعة، فتمت به النعمة الإلهية على البشرية. فالأنبياء على الإسلام الحنيف معتقداً وعلى شرائعهم عملاً، أما محمد ﷺ فقد جمع الله له إسلام العقيدة وإسلام الشريعة، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: «الله عز وجل سماكم». وقال مجاهد: الله عز وجل ﴿سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: الكتب كلها، ﴿وَفِي هَذَا﴾ قال: القرآن^(١). وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات^(٢)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٣).

وبحمد الله تعالى فمعدن الإسلام الأصيل إلهي محفوظ، فهو غير قابل للتغيير

(١) الدر المنثور (١٠ / ٥٣٥).

(٢) لعلات: بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. والمعنى أن الدين الحنيف واحد، وهو أمور المعتقد، أما الشرائع فمختلفة وأكملها الإسلام.

(٣) البخاري (٤ / ١٦٧) (٣٤٤٣).

والنَّحْت والتبديل، قد يتغيَّر بعض معتنقيه لكنَّ حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى الله من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به.

ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيده، إلا أنَّ خصومه يعودون منه بأحمال الخيبة، ذلك أنه كاملٌ في ذاته، عَصِيٌّ على السقوط بكامله، حتى وإن تعثر أهله لجهلٍ أو ضعفٍ عزيمة، لكنهم في الحقيقة يَعْلُونَ به ولا يُعَلَى عليهم بغيره.

وأبشُرُ أخا الإيمان فالفتحُ قادمٌ وإنَّ أجلبَ الشيطانُ كلَّ النّواديا

إنَّ حقيقة الإسلام شديدةُ النُّصوع بالغة النصح، فمن ضَرَبَ معدنه بحربٍ مادية؛ انفجرت بين يديه مادةٌ ثورية فاجتثته، ومن رام تبديله بفكرٍ أو خرافة؛ اندهش لرسوخ حقائق العلم والفطرة في أركانه، ومن قارنه بغيره؛ تبيَّن له شموخه وسموه ورفعته عن كل ما عداه من دين مبدل أو فكر محدث.

والإسلام هو الخصم التقليدي للحضارة النصرانية، أو لنقل الصليبية لأنَّ الشعار الصليبي يجمع ثاراتهم التاريخية علينا، حتى وإن كانوا ملاحدةً بالكلية.

ولا يوجد في الأرض حضارة تضاهي الإسلام بروحيته وعدالته وتساحمه وانسجامه، خاصة وأنهم يشعرون بإفلاس حقيقي عند مضايق المقارنات والمناظرات معنا. لذلك فهم يستमितون في إبقائنا خلف ركب التقدم المادي التجريبي، علَّهم يعوضون شيئاً من تفوّقنا عليهم في السموّ والرقى والحرية والتوازن والحقّ المطلق.

ومعلومٌ لكل عاقل أنَّ الحضارة التي يُفصِّلُها غيرُك، ويُلبسك منها ما يليق

بأيقوناته دون ما يفتح باب منافسته؛ هي في الحقيقة دارٌ عبيدٍ لا فضاءً أحرارٍ.

وليس على الأرض من جميع الأديان والثقافات خصمٌ ثقافي حضاري أخلاقي يقارب الإسلام، لذلك فلا نستغرب توحيد الهجمات المتتابعة عليه، قال تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨] فدين الله نور يكتسح ظلام الجاهليات ويبدد ظلم الشياطين ويهدي للحق المبين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وتدبر معنى الظهور المتضمن للعلو والقهر والغلبة والوضوح، وقال الله تعالى في وصف أثر الإسلام على ظلمات الجهل والظلم والكفر: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فظلمائهم كثيرة، وسوادها كثيف، لكن الإسلام شمسٌ تسطع فتير الأرجاء، وتضيء الأنحاء، وتذيب أقنعة شمع الأعداء، قال المصباح المنير والبشير النذير صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله: «لَنْ يَشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(١). وفي طلعة البدر ما يُغنيك عن زحل.

أيا طولَ يومي ثم يا طولَ ليلتي إذا هيعةٌ ثارت وما كنتُ راميا
فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي فما أطيبَ الآلام إن كنتَ راضيا
لئن عزّ ديني واستبيحت جوارحي فأين مقام العز إلا مقاميا

قال الخطابي رحمه الله تعالى عند قول النبي ﷺ: «إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ

(١) البخاري ١٦/١ (٣٩) و٨/١٢٢ (٦٤٦٣).

فاصبروا»^(١): «قال المهلب: الصبر سبب إلى كل خير، وقد نص الله عليه في غير موضع من كتابه، فأمر النبي ﷺ بالصبر عند لقاء العدو رجاء بركته؛ ولئلا يأنس الناس بالكسل والفشل اللذين هما آفة الحرمان في الدنيا والآخرة، والصبر على مطلوبات الدنيا والآخرة ضمان لإدراكها. وقوله: «فاصبروا» معناه: الحض والندب؛ لأن الفرض الذي فرض الله على المسلمين عند لقاء العدو إنما هو عند المثليين، فما كان أكثر فإنما هو حض وندب والله الموفق.. وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِيَْنَا أَبَدًا»^(٢)

قال المهلب: فيه دليل أن الحفر في سبيل الله والتحسين للديار، ولسد العورة منها أجر كأجر القتال، والنفقة فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى تسعمئة ضعف. وفيه استعمال الرجز والشعر إذا كان فيه إقامة النفوس في الحرب وإثارة الأنفة والعزة. وفيه المجاوبة بالشعر على الشعر، وليس هذا الشعر من قول النبي ﷺ، هو من قول عبد الله بن رواحة، ولو كان من لفظ النبي لم يكن بذلك شعرًا

(١) البخاري (٢٩٦٦) ومسلم (١٧٤٢).

(٢) البخاري (٤٢/٥) ومسلم (١٨٨/٥).

ولا ممن ينبغي له الشعر؛ لأنه قد يقع في تضاعيف كلام العامة كلام موزون، ولا يُسمى ذلك شعراً»^(١).

هذا وإن من اللطف الرباني والرحمة الإلهية أن إصابة المرء بالوباء المميت شهادة، أي أن له أجر شهيد ومكانة شهيد ومبعث شهيد ودرجة شهيد، فيا لله كم عم لطفك الأرجاء وسبغت رحمتك الأنحاء، سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها: «أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد». رواه البخاري بحروفه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٢).

والطاعون المذكور: منهم من خصه بداء معين، واختلفوا في تعيينه، والأظهر أنه كل وباء مميت منتقل عن طريق العدوى، كالحمى الصفراء والكوليرا والملاريا والتيفوئيد وغيرها، فالحديث خرج مخرج العموم في التسمية، فإن العرب وغيرهم في تلك الأزمنة كانوا لا يفرقون بين تلك الأوبئة العامة، بل كانوا يكتفون بإطلاق مسمى الطاعون، وفيه تلك التسمية إشارة إلى نوع ذلك المرض الذي يطعن المرء ختلاً، فلا يشعر به إلا حين يتمكن منه، وهذا عام في الأوبئة المميتة العامة، هذا مع ضمنية ذكر سبب من أسباب الشهادة وهي التضحية بالنفس في سبيل الجماعة،

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥ / ٤٦) (٦٩٣).

(٢) البخاري ٤ / ٢١٣ (٣٤٧٤).

فمن كان في بلد وجاءه خبر انتشار الوباء في ذلك البلد فيإمكانه أحياناً أن ينأ عنه إن خرج من البلد قبل إصابته، ولكن في ذلك خطر على القرى من حوله فقد يحمل الوباء الفيروسي معه من حيث لا يشعر فينشره في الناس، لذلك أمرته الشريعة أمراً مؤكداً أن يبقى في البلد حفظاً وتغليياً للمصلحة العامة على الخاصة، وفي هذا بيان سبق الإسلام للحجر الصحي الآمن بإذن الله تعالى، وبيان فضيلة الفداء بالنفس والمخاطرة بها ولو بالبقاء في مظان التلف في سبيل سلامة الآخرين، وبيان فضل الشهيد وكرامته على الله تعالى.

وفي الحديث التنبيه على إحسان الظن بالله تعالى والرضا بمر القضاء، قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث مثل قوله: «الطاعون شهادة»، «والمطعون شهيد» أنه الصابر عليه المحتسب أجره على الله، العالم أنه لم يصيبه إلا ما كتب الله عليه، ولذلك تمنى معاذ بن جبل أن يموت فيه لعلمه أنه إن مات فيه فهو شهيد، وأما من جزع من الطاعون وكرهه وفر منه فليس بداخل في معنى الحديث»^(١).

ودَعْنَا - أخِي - نمشي ملياً في ساحة هذه البشارات النبوية، فاعلم أن الله تعالى يحب الشهداء وقد أثنى عليهم كثيراً في تنزيله فقال سبحانه: ﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا] [النساء: ٦٩-٧٠] وقال سبحانه: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] وغير ذلك من

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٩ / ٤٢٧).

بيان محبة الله للشهيد.

قال ابن الأنباري في سبب تسميته بالشهيد: «لأن الله تعالى وملائكته عليهم السلام يشهدون له بالجنة، فمعنى شهيد مشهود له، وقيل: سمي شهيداً لأنه يشهد عند خروج روحه ماله من الثواب والكرامة، وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدون فيأخذون روحه، وقيل: لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله، وقيل: لأن عليه شاهداً يشهد بكونه شهيداً وهو دمه فإنه يبعث وجرحه يشعب دمًا. وحكى الأزهري وغيره قولاً آخر: أنه سمي شهيداً لكونه ممن يشهد يوم القيامة على الأمم وعلى هذا القول لا اختصاص له بهذا السبب»^(١).

وتأمل بشارة رسول الله ﷺ لأئمة بكثرة شهدائها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدُّون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل!» قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد»^(٢).

ويجدر التنبيه بل والبشارة بقوله ﷺ: «ومن مات في سبيل الله فهو شهيد» إلى دخول كل من مات بسبب أمر يحبه الله تعالى أنه من الشهداء المرضيين، فسبيل الله يطلق على لسان الشرع ويراد به واحدٌ من أمرين: القتال في سبيل الله تعالى، والعمل

(١) شرح النووي على مسلم (٢ / ١٦٤).

(٢) مسلم (٦ / ٥١).

على وفق دين الله، فلما نص في بداية الحديث على القتل في سبيل الله دلّ على أنّ المراد بسبيل الله هو المعنى الثاني، وقد يُقصد به من مات وهو في طريق القتال في سبيل الله، فحمدًا لك اللهم.

وكذلك المبطون، وهو كل من مات بسبب داء البطن مطلقًا، وبخاصة استطلاق البطن بالإسهال أو انتفاخه بالاستسقاء.

والشهداء كُثِرَ بفضل الله تعالى قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله» وفي رواية مالك في الموطأ^(١) من حديث جابر بن عتيك: «الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله، فذكر المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، وصاحب ذات الجنب، والحرق، والمرأة تموت بِجُمُعٍ». وهذا الحديث الذي رواه مالك صحيح بلا خلاف، وإن كان البخاري ومسلم لم يخرجاه.

فأما المطعون: فهو الذي يموت في الطاعون كما في الرواية الأخرى: «الطاعون شهادة لكل مسلم»، وأما المبطون: فهو صاحب داء البطن وهو الإسهال، وقيل: هو الذي به الاستسقاء وانتفاخ البطن، وقيل: هو الذي يموت بداء بطنه مطلقًا. وأما الغرق: فهو الذي يموت غريقًا في الماء. وصاحب الهدم: من يموت تحته. وصاحب ذات الجنب: معروف، وهي قرحة تكون في الجنب باطنًا. والحريق: الذي يموت بحريق النار. وأما المرأة تموت بجمع: فهو بضم الجيم وفتحها وكسرهما والضم أشهر، قيل: التي تموت حاملاً جامعة ولدها في بطنها.

(١) الموطأ (١٦١) وصححه النووي، وبنحوه عند أبي داود (٢٧٢٣) وصححه الألباني.

قال العلماء: وانما كانت هذه الموتات شهادة بتفضل الله تعالى بسبب شدتها، وكثرة ألمها»^(١).

مع التنبيه لوجوب التحرز وعدم التفريط، ففي الأدب المفرد وصححه الألباني^(٢) عن علي، عن النبي ﷺ قال: «من بات على ظهر بيت ليس عليه حجار؛ فقد برئت منه الذمة». وفيه أيضاً وحسنه الألباني^(٣) أن النبي ﷺ قال: «من بات على أنجار»^(٤) فوق منه فمات؛ برئت منه الذمة، ومن ركب البحر حين يرتج^(٥) فهلك؛ برئت منه الذمة. وعند أحمد^(٦): «من بات فوق بيت ليس له إجار فوق فمات؛ فبرئت منه الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات؛ فقد برئت منه الذمة».

وقال القرطبي في المفهم^(٧) بعد ذكره للغريق وصاحب الهدم والحريق: «وهؤلاء الثلاثة إنما حصلت لهم مرتبة الشهادة لأجل تلك الأسباب؛ لأنهم لم

(١) شرح النووي على مسلم (١٣ / ٦٢).

(٢) صحيح الأدب المفرد (١ / ٤٨٥) (٥٠٦).

(٣) صحيح الأدب المفرد (٩١٣ / ١١٩٤).

(٤) الأنجار: هو السطح الذي ليس عليه ما يرد الساقط، ويسمى حالياً بـ«السترة».

(٥) يعني يهيج ويغتم وتترفع أمواجه.

(٦) أحمد (٤ / ٧٩) وضعفه محققو المسند (٢٠٧٤٨) وصححه الألباني في السلسلة (٢ / ٥٠٠).

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٢ / ٥٩).

يفرّوا بنفوسهم، ولا فرّطوا في التحرز، ولكن أصابتهم تلك الأسباب بقضاء الله وقدره. فأما من غرّر^(١)، أو فرّط في التحرز حتى أصابه شيء من ذلك فمات، فهو عاصي، وأمره إلى الله؛ إن شاء عذب، وإن شاء عفا.

أما قتيل حوادث السيارات فقد ألحقه شيخنا ابن باز رحمه الله تعالى بصاحب الهدم شريطة ألا يكون مفرطاً. أما شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فقد مال لذلك ولم يجزم به، فقال^(٢): «وهل يقاس على صاحب الهدم مثلهم كالذي يموت في حادث، أو في صدم، أو ما أشبه ذلك؟ الله أعلم، قد يقاسون على هذا ويقال: لا فرق بين أن ينهدم الجدار، أو أن تنقلب السيارة، لأن كل حادث مات به الإنسان يحكم على من مات بهذا الحادث أنه شهيد، لكننا لا نجزم به، لأن مسائل الجزاء عقوبة أو مثوبة ليس فيها قياس». والله المستعان.

ثمانية تجري على الناس كلهم ولا بُدَّ للإنسان يلقى الثمانية
سرورٌ وحزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ ويُسرُّ وعسرٌ ثم سُقْمٌ وعافية



(١) غرّر بنفسه: إذا غامر بها.

(٢) شرح رياض الصالحين (١ / ١٥٥٣).

الشهداء ثلاثة

هذا الفصل متعلق بما قبله، لكنه يضيء المسألة من جوانب مختلفة، فحسُنَ إفراده، وكذلك بضعة فصول تالية له.

إن الشهداء في الأجر ومعاملة الدنيا على أقسام ثلاثة بحسب طريقة موتهم وما صاحبها من أحوالهم، قال النووي رحمه الله تعالى: «اعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام:

أحدها: المقتول في حرب الكفار بسبب من أسباب القتال، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو أنه لا يغسل ولا يصلى عليه. وهو حي حياة حقيقية لكن لا نعرف كنهها ولا كيفيتها.

والثاني: شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا، وهو المبطون، والمطعون، وصاحب الهدم، ومن قتل دون ماله، وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً، فهذا يُغسل ويصلى عليه، وله في الآخرة ثواب الشهداء، ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول.

والثالث: من غلّ في الغنيمة وشبهه، ممن وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً إذا قُتل في حرب الكفار، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا فلا يغسل ولا يصلى عليه، وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة، والله أعلم»^(١).

(١) شرح النووي على مسلم (٢ / ١٦٤) وانظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر (١٩ / ٢٠٧).

فالغلول شنيع، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «كان على ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ. فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ». فذهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فوجدوا عَبَاءَةً قد غَلَّهَا»^(١).

وقد أطلق ابن باز رَحِمَهُ اللهُ الثواب كذلك على النوع الثاني من الشهداء كالغريق والحريق ونحوهما فقال: «له ثواب شهيد المعركة على ظاهر الأخبار». وهذا كصنيع النووي وغيره، وإن كان النووي قد ألمح إلى كونه أدنى من شهيد المعركة، وهو الأظهر، فكلاهما شهيد عند الله بشهادة متفاوتة، والنص لم يأت بالتسوية إنما جاء بإطلاق الشهادة، والشهادة درجات، وللشهداء مئة درجة في الجنة وذلك لتفاوت منازلهم، فالشهادة باب واسع جداً، ودرجاتها في الجنة متفاوتة، ومراتبها متباينة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

وبالجملة؛ فالشهادة تختلف بحسب إيمان الشخص وفعله ومقامه وطريقة موته، فأعلاها: مَنْ قَتَلَهُ سُلْطَانٌ جَائِرٌ لِأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ثم أدنى منه مرتبة: مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، ثم أدنى منهما: بقية من كان في سبيل الله مطلقاً، ثم: من مات بأحد تلك الأسباب المذكورة في تكثير الشهداء ونحو ذلك، وحتى تلك الأسباب ليست بدرجة واحدة، فمن أعلاها الطاعون، والله تعالى أعلم.

(١) البخاري (٣٠٧٤).

(٢) البخاري (١٩/٤) (٢٧٩٠).

الشهداء أكثر من عشرين نوعاً

لقد جاءت الأخبار بتعداد أنواع الشهداء عند الله تعالى، فجاوزوا عشرين نوعاً بحمد الله وفضله وكرمه وممّته، ولعلّ الله تعالى كان يُطلع نبيّه على أنواعهم شيئاً فشيئاً لتتم فرحته بتكثيرهم على مدار الزمان، ولحكم يريدّها الله تعالى، فكان ﷺ يخبر صحابته بوحى الله له بأنواعهم على التوالي، أو بما يستجد من مناسبات البيان، والله أعلم.

قال الطبري في حديث سعد في أمر الطاعون: «فيه الدلالة على أن على المرء توقّي المكاره قبل وقوعها، وتجنب الأشياء المخوفة قبل هجومها، وأن عليه الصبر وترك الجزع بعد نزولها، وذلك أنه عليه السلام نهى من لم يكن في أرض الوباء عن دخولها إذا وقع فيها، ونهى من هو فيها عن الخروج منها بعد وقوعه فيها فراراً منه، فكذا الواجب أن يكون حكم كل متق من الأمور سبيله في ذلك سبيل الطاعون. وهذا المعنى نظير قوله عليه السلام: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاصبروا»^(١).

وعن أبي موسى الأشعري: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون الذي وقع في الشام: إنه عرضت بي حاجة لا غنى بي عنك فيها، فإذا أتاك كتابي ليلاً فلا تصبح حتى تردّ إليّ، وإن أتاك نهاراً فلا تمس حتى تردّ إليّ. فلما قرأ أبو

(١) البخاري ٤/ ٦٢ (٢٩٦٦)، ومسلم ٥/ ١٤٣ (١٧٤٢).

عبيدة الكتاب قال: عرفتُ حاجة أمير المؤمنين، أراد أن يستبقي من ليس بباقي! (١)
ثم كتب إليه: إني قد عرفت حاجتك، فحللني من عزمك يا أمير المؤمنين؛ فإني في
جند المسلمين ولن أرغب بنفسي عنهم. فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: توفي
أبو عبيدة؟ قال: لا.

وكان قد كتب إليه عمر: إن الأردن أرض غمقة وإن الجابية أرض نَزْهَة (٢)؛
فاظهر بالمسلمين إلى الجابية. فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال: هذا نسمع فيه لأمر
المؤمنين ونطيعه. فأراد ليركب بالناس فوجد وخزة فطعن (٣)، وتوفي أبو عبيدة
وانكشف الطاعون.

وقالت عمرة: سألت عائشة عن الفرار من الطاعون، فقالت: هو كالفرار من
الزحف (٤).

هذا وإن من الشهداء أيضًا من قُتل مدافعًا عن دينه أو دمه أو عرضه أو ماله،
فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله
أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرأيت إن قاتلني؟

(١) يعني نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كانوا أهل فِرَاسَة ونظر، رضي الله عنهم.

(٢) النَّزْهَة: طَيِّبَة الهواء، وهو الهواء الجاف النظيف، فلا ينتقل معه ميكروب الطاعون
وفيروسه الوبائي كما ينتقل في الهواء الغمق «الرطب». وهذا من حسن سياسة عمر
ونصحه وشفقته لرعيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أي: أصابه الطاعون، وهو طاعون عمواس المشهور.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩ / ٤٢٥ - ٤٢٦) باختصار.

قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»^(١).

وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»^(٢).

ومن خلال ما مضى فالشهداء أكثر من خمسة، وأكثر من سبعة، بل يزيدون، وقد علّل ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فقال: «والذي يظهر أنه ﷺ أعلم بالأقل، ثم أعلم زيادة على ذلك فذكرها في وقت آخر، ولم يقصد الحصر في شيء من ذلك».

وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة، فإن مجموع ما قدمته مما اشتملت عليه الأحاديث التي ذكرتها أربع عشرة خصلة، وتقدم في باب من يُنكَبُ في سبيل الله حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً: «من وقَّصَهُ فرسه أو بعيره، أو لدغته هامةً، أو مات على فراشه على أيِّ حَتَفٍ شاء الله تعالى؛ فهو

(١) مسلم ٨٧/١ (١٤٠) (٢٢٥).

(٢) أبو داود (٤٧٧٢) والترمذي (١٤٢١) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١ / ٤٢).

شهيد^(١)، وصحّح الدارقطني من حديث ابن عمر: «موت الغريب شهادة»^(٢)، ولا بن حبان من حديث أبي هريرة: «من مات مرابطاً مات شهيداً.. الحديث»^(٣). وللطبراني من حديث ابن عباس مرفوعاً: «المرء يموت على فراشه في سبيل الله

(١) سنن أبي داود (٢٤٩٩)، والمستدرک ٢/ ٧٨، وتعقبه الذهبي بأن فيه من لم يحتج به مسلم. وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٣٦١).

قلت: على فرض صحته؛ فلعله أراد بمن كان في سبيل الله تعالى، كما في الحديث الآخر المفسّر له، وإلا فيلزم دخول أكثر الناس في الشهادة بلا سبب ولا تمييز، فالسواد الأعظم أمواتٌ فُرش، أما المذكورين بأوصاف خاصّة شديدة فقد تردّدت أحوالهم بين نيّة صالحة في سبيل الله تعالى، أو ميتة شديدة مؤلمة موجعة.

فإن كان الحديث صحيحاً وعلى إطلاقه؛ فلعل الشهادة فيه قد جاءت بمعنى أنه يشهد عند الله تعالى، لأنّه من أمة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويشهد له حديث علي رضي الله عنه موقوفاً، وحسنه الحافظ في فتح الباري (٤٤/٦): «كل موة يموت بها المسلم فهو شهيد، غير أن الشهادة تتفاضل». وقد يكون الحديث على ظاهرة المتبادر، وليس بمستبعد، بل له أمثال في الشريعة، ففضل الله عظيم، وكرمه واسع، ورحمته هائلة، وسخاؤه غزير، وأمة محمد ﷺ موعودة منه بخير كثير، فضلاً من الله ونعمة وكرماً ورحمة، والله تعالى أعلم.

(٢) قال الدارقطني رحمه الله تعالى في كتابه: العلل الواردة في الأحاديث النبوية ١٢/ ٣٦٧: والصحيح ما حدثناه إسماعيل الوراق، قال: حدثنا حفص بن عمرو، وعمر بن شبة، قالوا: حدثنا الهذيل بن الحكم، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «موت الغريب شهادة».

(٣) عبد الرزاق (٩٦٢٢)، وابن ماجه (١٦١٥) وضعفه الألباني.

شهيد^(١)، وقال ذلك أيضاً في المبطلون، واللديغ، والغريق، والشَّريق^(٢)، والذي يفتسه السبع^(٣)، والخار عن دابته، وصاحب الهدم، وذات الجنب. ولأبي داود من حديث أم حرام: «المائد في البحر الذي يصيبه القيء له أجر شهيد»^(٤).

وقد تقدمت أحاديث فيمن طلب الشهادة بنية صادقة أنه يكتب شهيداً^(٥) والحديث فيمن صبر في الطاعون أنه شهيد، ومن صرعه دابته، وكذلك عند الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح: «أن من يتردى من رؤوس الجبال، وتأكله السباع، ويغرق في البحار؛ لشهيداً عند الله» ووردت أحاديث أخرى في أمور أخرى لم أعرج عليها لضعفها.

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٨٦). قال في المجمع (٥ / ٣٠٠): فيه عمرو بن عطية بن الحارث الوداعي، وهو ضعيف.

(٢) الشريق: قال الأزهري: «من الشَّرِق: وهو الغَصَصُ، أخذته شَرَقَةً فكاد يموت». تهذيب اللغة (٣ / ١٣٧).

قلت: وهنا قد مات شَرِقاً بطعام أو شراب أو غيره. وفي لسان أهل زماننا من أهل نجد التفريق بينهما، فالشَّرِقُ ممّا يُشرب، والغصص ممّا يُؤكل.

(٣) وذكر ابن عساكر عن ابن عباس في تعداد الشهداء: «الشريق، وما أكله السبع». عن: عمدة القاري (٨ / ٢٥٦).

(٤) أبو داود (٢٤٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٤٢).

(٥) فعن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق؛ بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه». رواه مسلم ٤٨ / ٦ (١٩٠٩) (١٥٧).

قال ابن التين: هذه كلها ميتات فيها شدة، تفضل الله على أمة محمد ﷺ بأن جعلها تحييصاً لذنوبهم وزيادة في أجورهم يبلغهم بها مراتب الشهداء.

قلت^(١): والذي يظهر أن المذكورين ليسوا في المرتبة سواء، ويدل عليه ما روى أحمد^(٢) وغيره أن النبي ﷺ سئل أي الجهاد أفضل؟ قال: «من عُقِرَ جواده وأُهرِقَ دمه».

وروى الحسن بن علي الحلواني في كتاب المعرفة له بإسناد حسن من حديث علي بن أبي طالب قال: «كل موة يموت بها المسلم فهو شهيد، غير أن الشهادة تتفاضل»^(٣)، والله أعلم^(٤).

وتأمل كيف كان الصبر هو سلك النظام في تلك الميتات المرضية لرب البرية سبحانه، فبشر الصابرين.

وبالجملة؛ فالشهادة تتفاضل تفاضلاً كبيراً، إنما أدخل الله في دائرة الشهادة الذين ماتوا بتلك الأسباب - وفي خبر علي رضي الله عنه: كل أموات الأمة - رحمة منه وكرماً وفضلاً وامتناناً.

(١) أي: الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى.

(٢) أحمد (٣٨٥ / ٤).

(٣) حسنه محمد الزرقاني في شرح الموطأ (٢ / ١٠٠) وصححه بدر الدين العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١ / ٢٧١) وحسنه الحافظ كما بعاليه، ومراً قريباً.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٦ / ٤٤) مختصراً. وانظر كذلك: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨ / ٢٥٦).

أما القتلى في سبيله؛ فلهم فضلهم الخاص بهم، فهم قد انفردوا عن أولئك ببذلهم نفوسهم باختيارهم أولاً، ثم صبرهم على القتل في سبيل الله ثانياً، ثم إنهم شاركوا الموتى المذكورين في سبيل الله في رضاهم بالله وبقضائه وصبرهم بترك الجزع.

وعليه؛ فالقتلى في سبيل الله تعالى قد فازوا بثلاث: وهي البذل الاختياري لأرواحهم ابتداء، ثم الثبات على ذلك حتى خروج أرواحهم، ثم الرضا والصبر. أما الموتى في سبيله ففازوا باثنتين: وهي التي أهلتهم برحمة الله لدخول دائرة الشهداء؛ وهي حسن نيّتهم في إرضاء الله بعمل صالح ماتوا عليه، وبالرضا والصبر عند الموت.

أما الموتى بشدائد طرائق الموت المذكورة ففازوا بواحدة: وهي رضاهم عن ربهم حال رحيلهم إليه بطريق مؤلم شديد موجه.

وكلهم إلى خير وسعادة، وفضل الله واسع لا تحيطه المدارك ولا تتخيله الألباب، إنما ترا من أطراف فضله أشياء تبهرها حتى تملأ روعها عن متابعة النظر لما بعدها مما هو أكبر وأعظم وأفضل، وتبارك الله الذي عم فضله ونعمائه ما بلغ علمه، ووسع كل شيء رحمة وعلماً.

وإن ترنا هزلي فأعراضنا لنا	مُوفِّرةٌ ممّن يجود ويَبخلُ
وقيناً بحسن الصبر منها أديمها	فصَحَّتْ لنا الأعراض والقوم هزلُ
ومن يفتقر منا يعيش بحسامه	ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
فما ليّنت منا قناة صليبة	ولا عرّضتنا للذي ليس يجملُ

وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوساً كَرِيمَةً تَحْمَلُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ فَتَحْمِلُ
غَضَضْنَا مِنَ الْأَبْصَارِ مَنْ أَنْ نَمُدَّهَا إِلَى مَطْمَعٍ فِيهِ عَلَى الْحُرِّ مَدْخَلُ



حياة الشهيد

قتيلٌ سبيلَ الله تعالى حيٌّ حياةً حقيقية، لا مجازية، ولا رمزية، ولا معنوية، بل هي حياة على الحقيقة بنص القرآن العظيم، لكن لا نعرف كنهها ولا كيفيتها ولا حدودها. وقد ألمح إلى بعضها رسول الله ﷺ في حديث حواصل الطير كما سيأتي. قال البيضاوي رحمه الله في قول الله تعالى في إثبات حياة الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] «أي: لا تعلمون كيف حالهم في حياتهم. وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي.

وعلق الشربيني في السراج المنير بقوله: وهذا ما عليه أكثر المفسرين، قال ابن عاد: ويحتمل أن حياتهم بالجسد وإن لم تشاهد، وأيد بأن حياة الروح ثابتة لجميع الأموات بالاتفاق، فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره، ولم تكن له مزية.

وقد يردّ بأن الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك. وفي الحديث: «أرواحهم في حواصل طيور خضر، تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش»^(١).

وعن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم،

(١) أحمد (٢٦٦/١) (٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) وعند مسلم (١٨٨٧) بلفظ مقارب.

فيصل إليهم الرُّوح. أي: الاستراحة، أي: التلذذ والتنعيم والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوًّا وعشيًّا، فيصل إليهم الوجد والغم.

وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله ومزيد السرور والكرامة، والأرواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت درّاجة^(١)، كما عليه جمهور الصحابة والتابعين ونطقت به الآيات والسنن^(٢).

قلت: وليس قوله عن فرق الشهداء عن غيرهم: «لم تكن لهم مزية» بظاهر، بل لهم مزية الحياة الخاصة المنّمة، لهذا كررت في القرآن في موضعين لشرفها وخصوصيتها وبلغ كونها كرامة خاصة، وإن كانت كيفيتها غائبة عنا، ولعلّ منها أن الأرواح محتاجة لأجساد لتتعم تنعم الأجساد والأرواح، فأعطوا طيرًا جعلت فيها أرواحهم ترد أنهار وثمار الجنة ريثما تعود تلك الأرواح للأجساد الأولى بعد المبعث، على خلاف بقية المؤمنين الذين تكون أرواحهم سارحة في الجنة بلا أجساد، والله تعالى أعلم.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] «يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل مُعلّقة تحت العرش، فاطلّع عليهم ربُّك اطلاعةً، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من

(١) لعله قصد بـ«درّاجة» الإدراك والعقل.

(٢) تفسير السراج المنير (١ / ٩٣).

خلقك؟

ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُترَكُون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تُرَدَّنَا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لِمَا يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبتُ أنَّهُم إليها لا يرجعون^(١).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٢). ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصّصوا بالذكر في القرآن، تشریفاً لهم وتكريماً وتعظيماً^(٣).

وقال أيضاً: «يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. فعن أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدري أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا غاراً مُشْرِفاً على الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يُبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري

(١) مسلم (١٨٨٧).

(٢) موطأ مالك (١ / ٢٤٠) والمسند (٣ / ٤٥٥) وصححه الأرنؤوط، ومعنى: نَسَمَةُ: أي

روح، وتعلّق: أي تأكل.

(٣) تفسير ابن كثير (١ / ٤٤٦).

..: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حياً منهم فاخْتَبَأَ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر مَعُونَةَ، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله.

فخرج إليه رَجُلٌ من كسر البيت بُرْمَحٍ فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامرُ بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: أن الله تعالى أنزل فيهم قرآنا: «بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرْضِي عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ» ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زَمَنًا وأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] (١).

وعن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفسٍ تموت، لها عند الله خيرٌ، يسرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد» (٢)، فإنه يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرةً أخرى لما يرى من فضل الشهادة» (٣).

(١) البخاري (٢٨٠١).

(٢) فأهل الجنة لا يريدون العودة للدنيا خلا الشهيد ليقتل في سبيل الله تعالى مرة أخرى وأخرى وأخرى.. فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»، وفي رواية: «لما يرى من فضل الشهادة». رواه البخاري ٢٦/٤ (٢٨١٧)، ومسلم ٣٥/٦ (١٨٧٧) و(١٠٨) و(١٠٩).

(٣) مسلم (١٨٧٧).

وعن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أما عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: أَرُدُّ إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَضَيْتُ الْحُكْمَ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ»^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر - وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قتل يوم أحد شهيداً. قال ابن المنكدر: سمعت جابراً قال: لما قُتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني والنبى ﷺ لم ينه، وقال النبى ﷺ: «تَبْكِهِ أَوْ مَا تَبْكِيهِ مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنَحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ»^(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَهْوَاجَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِيبِهِمْ، وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مُنْقَلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لَوْلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ»^(٣). فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وما بعدها»^(٤).

(١) المسند (٣/١٢٦) وصحيح مسلم (١٨٧٧).

(٢) البخاري (٤٠٨٠) مسلم (٢٤٧١).

(٣) وتأمل عظيم نصحتهم ومحبة الخير للناس حتى بعد رحيلهم عن الدنيا، رضي الله عنهم.

(٤) المسند (١/٢٦٥) وصححه أحمد شاكر، وحسنه الألباني والأرنؤوط..

وقال جابر بن عبد الله: نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر، ما لي أراك مُهْتَمًا؟» قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك دينًا وعيالًا. قال: فقال: «ألا أُخبرُكَ؟ ما كَلَّمَ اللهَ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا - قال علي: الكفاح: المواجهة -^(١) فَقَالَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ تُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلَ: أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبٍّ: فَأَبْلَغَ مَنْ وَرَائِي. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] ^(٢)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضِرَاءَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» ^(٣).

وكانَّ الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويُعْدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ رواه

(١) وتأمل جلال هذا المشهد الذي يتصاغر عنده كل ما عداه.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢٩٩/٣) وسنن الترمذي (٥ / ٢٣٠) وحسنه الألباني. وقد مرّ.

(٣) أحمد (١/٢٦٦) وجوّد إسناده ابن كثير.

عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن مالك بن أنس الأصبحي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ^(١) عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى^(٢) فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٣).

وفي هذا الحديث: أَنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ. وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان^(٤). وبالله تعالى التوفيق.



(١) سلسلة الذهب.

(٢) أي: يأكل.

(٣) المسند (٤٥٥/٣) وصححها لأرنأؤوط، وقد مرّ قريباً.

(٤) تفسير ابن كثير (٢ / ١٦١-١٦٥) مختصراً.

أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

الصبر ينافي الجزع، والجزع اعتراض على قدر الله تعالى، فالصبر حبس وكف، والجزع إطلاق غرائز الغضب، وحلّ كوامن الحزن بلا قيد شرع ولا حكمة عقل، بل حتى التذمر الشائع بين الناس هو راجع للاعتراض على القضاء والقدر، والله المستعان.

هذا؛ وقد يكون الجزع بالقول أو الفعل أو الحال، وكله منهي عنه، أما مجرد البكاء والندب اليسير الصادق على غير وجه الجزع والتسخط فلا بأس به فهو من الرحمة المحببة. وبيان ذلك كالتالي:

أولاً: البكاء على الميت:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فمن تلك الأمور البكاء على الميت، ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو اسحاق الشيرازي.

وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورفضوا فيه قبل خروج الروح. واحتجوا بحديث جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب، فصاح به فلم يجب، فاسترجع وقال: «غلبنا عليك يا أبا الربيع»، فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله ﷺ: «دعهن، فإذا وجب فلا تبكين باكية» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال:

«الموت»^(١).

قالوا: وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»^(٢). وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمى ميتاً.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهن فقال: «لكن حمزة لا بواكي له!» فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، فاستيقظ فقال: «ويجهن، أتئن هاهنا يبكين حتى الآن، مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم»^(٣). وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة.

قال المجوزون: قال جابر بن عبد الله: أصيب أبي يوم أحد، فجعلت أبكي، فجعلوا ينهونني، ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي فقال: النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعت موه» متفق عليه^(٤).

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر قال: اشتكى سعد بن عباد شكوى له، فأثاه النبي ﷺ يعود مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن

(١) أبو داود (٣١١١) والنسائي (١٨٤٦) وصححه الحاكم في المستدرک (١ / ٣٥٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٩٨).

(٢) البخاري (١٢٦٨) ومسلم (٩٢٨).

(٣) أحمد (٨٤ / ٢) وابن ماجه (١٥٩١) وصححه الألباني.

(٤) البخاري (١٢٤٤) ومسلم (٢٤٧١).

مسعود، فلما دخل عليه وجده في غَشِيَّة^(١)، فقال: «قد قضي؟»^(٢) قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا. وأشار إلى لسانه -أو يرحم»^(٣).

وفي الصحيحين أيضًا من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها شنة، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٤).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا عمر يكنين، وإياكنَّ ونعيق الشيطان» ثم قال: «إنه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة، وما كان من اليد ومن اللسان فمن الشيطان»^(٥).

وفي المسند أيضًا عن عائشة أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: «فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر

(١) أي: غيوبة.

(٢) أي: هل قضي عليه الموت؟

(٣) البخاري (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤).

(٤) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٥) المسند (١٣٣٥) وضعفه الألباني والأرنؤوط.

وأنا في حجرتي»^(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق إلى ابنه إبراهيم، فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال له: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحقن فاجرين: صوت عند مصيبة خمش الوجه وشق الجيوب، ورنة الشيطان»^(٢).

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يُرجى فيكون البكاء عليه حذرًا،^(٣) فإذا مات انقطع الرجاء وأُبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

وقد صح عنه ﷺ: «أنه زار قبر أمه فبكى، وأبكى من حوله»^(٤). وقد صح

(١) المسند (٦/١٤١) وحسنه الألباني في الصحيحة (١/٦٧).

(٢) الترمذي (١٠٠٥) وحسنه. والحاكم في المستدرک (٤/٤٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٦٩) والطيالسي في المسند (١٦٨٣) والطحاوي في شرح المعاني (٤/٢٩) وحسنه الألباني.

(٣) ولعل مقصوده أن البكاء حذرًا مع الدعاء برفع البلاء؛ فيكون مخلصًا مُلِحًا، فهذا نفعه من هذه الحثيثة، أما إن كان بكاءً لمجرد المصيبة فليس هذا بوجيه، فالمؤدى واحد والمُسبب واحد، وكله راجع إلى الصبر والرضا سواء أكان حذرًا مما يُستقبل، أو حزنًا على ما مضى، بل قد يزيد الأمر فيما يُستقبل من جهة الثقة في الله تعالى برفع البلاء ونحوه.

(٤) مسلم (٩٧٦).

عنه عليه السلام: «أنه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه»^(١). وصح عنه عليه السلام: «أنه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان»^(٢). وصح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو ميت وبكى^(٣).

فهذه إحدى عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء، فتعين حمل أحاديث النهي على البكاء الذي معه ندب ونياحة، ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر: «الميت يُعذَّب ببعض بكاء أهله عليه»^(٤). وفي بعضها: «يُعذَّب بما ينح عليه»^(٥).

وقال البخاري في صحيحه: قال عمر: «دعهن يبكين على أبي سليمان - يعني خالد بن الوليد - ما لم يكن نقع أو لقلقة»^(٦). والنقع: حشو التراب، والقلقة: الصوت.

وأما دعوى النسخ في حديث حمزة فلا يصح، إذ معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد. ويدل على ذلك: أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد، منها حديث أبي هريرة، إذ أسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة، ومنها

(١) أبو داود (٣١٦٣) والترمذي (٩٨٩) وقال: حسن صحيح.

(٢) البخاري (٣٦٣٠).

(٣) البخاري (١٢٤١).

(٤) البخاري (١٢٨٧) ومسلم (٩٢٧).

(٥) البخاري (١٢٩١) ومسلم (٩٢٧) وسيأتي الكلام على عذاب الموتى يبكاء الأحياء في

الفصل التالي بإذن الله تعالى.

(٦) البخاري (١٢٩١) معلقاً.

البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة، ومنها البكاء على زينب وكان موتها في السنة الثامنة أيضًا، ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته في الخامسة، ومنها البكاء عند قبر أمه وكان عام الفتح في الثامنة.

وقولهم: إنما جاز قبل الموت حذرًا، بخلاف ما بعد الموت. فجوابه: أن الباكي قبل الموت يبكي حزنًا، وحزنه بعد الموت أشد، فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التي يرجى فيها. وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

ثانيًا: الندب والنياحة:

وأما الندب والنياحة فنص أحمد على تحريمها، قال في رواية حنبل: النياحة معصية، وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام، وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء.

وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد: يكره تنزيهاً، والصواب القول بالتحريم لما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعى بدعوى الجاهلية»^(٢).

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي بردة قال: وجع أبو موسى وجعًا فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها

(١) البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٢) البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣).

شيئاً فلما أفاق قال: «أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ بريء من الصّالقة^(١) والحالقة^(٢) والشاقّة^(٣)»^(٤).

وفي الصحيحين أيضاً عن المغيرة بن شعبة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من ينح عليه يُعَذَّب بما ينح عليه»^(٥). وفي الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت: «أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح، فما وفت منا امرأة إلا خمس نسوة^(٦)»^(٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن»^(٨): الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب،

(١) التي ترفع صوتها عند المصيبة جزعاً.

(٢) التي تحلق رأسها عند المصيبة.

(٣) التي تشق ثيابها عند المصيبة. ولا زال هذا حال بعض أهل الجهل.

(٤) البخاري (١ / ٣٢٦) ومسلم (١ / ٧٠).

(٥) البخاري (١٢٩٢).

(٦) وذلك لضعف النساء وحدائث عهدهن بالجاهلية، ولعله كذلك من الورع الدقيق لأم عطية رضي الله عنها حيث فهمت المنع المطلق حتى ولو بالكلمة اليسيرة على وجه الصدق لا على وجه التسخّط والنياحة، والله أعلم.

(٧) البخاري (١٠٦ / ٢) ومسلم (٩٣٦ / ٢) وفيهما: «قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ألا ننوح، فما وفت منا امرأة إلا خمس: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ».

(٨) وفيه الإخبار والتحذير والبراءة، لا الإباحة والترخيص والموافقة. فهو من الخبر الذي

والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»^(١).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحي، إذا قالت النائحة: وا عضداه، وا ناصراه، وا كاسياه، جُبد»^(٢) الميت وقيل له: أنت عضدها؟! أنت ناصرها؟! أنت كاسيها؟!«^(٣).

وفي صحيح البخاري عن النعمان ابن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول: وا جبلاه، وا كذا، وا كذا، - تُعدّد عليه - فقال حين أفاق: «ما قلت لي شيئاً إلا قيل لي: أنت كذا؟!»^(٤) فلما مات لم تبك عليه^(٥).

وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهي مشتملة على التسخط على الرب،

بمعنى النهي، وهو نهي بليغ.

(١) مسلم (٩٣٤).

(٢) أي: جُذب بقوة. وهو من باب تقديم بعض الحروف على بعض في اللفظ الواحد، وروي أن هذا لفظ تميم، وهو مما تجيزه اللغة، وأمثاله كثير لديهم، كالصاعقة عند قریش والصاعقة عند تميم، وكذا: أيس، ويأس، وأمعن، وأنعم، وغيرها كثير، وربما يكون في تقديم الباء مزيد معنى للشدة، فيكون معنى الجبد أنه جذب بشدة، والله أعلم.

(٣) المسند (٤ / ٤١٤)، الحاكم (٢ / ٤٧١)، وضعفه الألباني في الضعيفة ١٤١ / ٧

(٤) استفهام إنكاري، فالمعین المعيل الحافظ الناصر على الحقيقة هو الله وحده.

(٥) البخاري (٤٢٦٧).

وفعل ما يناقض الصبر، والإضرار بالنفس من لطم الوجه وحلق الشعر وئنفه والدعاء عليها بالويل والثبور والتظلم من الله سبحانه وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه؟! ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا. هذا ولا تعارض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائنًا من كان، ولا تُضرب سنته بعضها ببعض، وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل تأويلًا، وقد انعقد عليها الإجماع، وأما المرأة التي قال لها: «إِلَّا آل فلان»^(١) والمرأة التي سكت عنها^(٢) فذلك خاص بهما لوجهين^(٣):

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سأله ذلك: «لَا إِسْعَادَ فِي الْإِسْلَامِ»^(٤).

والثاني: أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام، وهما لم يميّزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا

(١) البخاري (٤٨٩٢). وفيه: قالت أُمُّ عَطِيَّةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِلَّا آلُ فُلَانٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَسْعَدُونِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُسْعِدَهُمْ. فقال رسول الله ﷺ: «إِلَّا آلُ فُلَانٍ».

(٢) البخاري (٧٢١٥). وفيه: ونهانا عن النياحة. فقبضت منّا امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني، فأنا أريد أن أجزيها. قالت: فما قال لها شيئًا. فذهبت فانطلقت ثم رجعت، فبايعها.

(٣) وانظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي ٤/٤٧٦.

(٤) المسند (٣/١٩٧) والنسائي (١٩٧٩) وصححه الألباني. والإسعاد: هو أن تبكي المرأة وتندب وتنوح على ميّت غيرها، إعانة لهم على احتمال مصيبتهم، وهو من أعمال الجاهلية التي هدمها الإسلام.

يعدوهما إلى غيرهما.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال: «وا نبيّاه، وا خليلاه، وا صفيّاه!»^(١).

وفي صحيح البخاري عن أنس أيضاً قال: لما نُقِلَ على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: «وا كرب أبتاه!» فقال: «ليس على أهلك كرب بعد اليوم» فلما مات قالت: «يا أبتاه، أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه». فلما دفن قالت فاطمة: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»؟!^(٢) وقال النبي ﷺ: «وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»^(٣).

وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور، ولا تسخط على الرب، ولا إسقاط له، فهو كمجرد البكاء.

وقال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»^(٤). قال شيخنا الفوزان حفظه الله تعالى: «والنياحة: رفع الصوت على الميت من باب الجزع والتسخط، وإذا صحبه شقّ

(١) المسند (٣١/٦) وصححه الألباني في الإرواء (١٥٧/٣).

(٢) البخاري (٤٤٦٢).

(٣) البخاري (٣١٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٤) مسلم (٩٣٤).

للثوب، أو لطم للخد، أو تعداد لمحاسن الميِّت، أو نياحة وندب وجزع؛ فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

والواجب عند نزول المصيبة: الصبر والاحتساب لا الجزع والتسخط.

والنياحة دليل على عدم الرضا بقضاء الله وقدره، ودليل على عدم الصبر والاحتساب. وهي من أمور الجاهلية، ويكفي أنها من أمور الجاهلية، لأن أمور الجاهلية محرمة. وقوله: «النائحة إذا لم تتب» يعني: ترجع عن النياحة، وتندم على ما حصل منها، وتعزم على ألا تعود إلى النياحة في مستقبلها.

وهذه شروط التوبة:

فالتوبة لغة: الرجوع، وشرعاً هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعة الله.

وشروطها أربعة: الإخلاص لله، والإقلاع عن الذنب، والندم على ما حصل، والعزم ألا يعود إليه. فإذا توفرت هذه الشروط فالتوبة صحيحة، وإذا اختل شرط منها فهي توبة غير صحيحة^(١).

ودلّ هذا على أن التوبة تمحو المعصية ولو كانت كبيرة، ولو كانت شركاً وكفراً بالله جل وعلا، فالتوبة تجب ما قبلها من النياحة وغيرها.

وفي قوله ﷺ: «قبل موتها» دليل على أنه عند الموت لا تقبل التوبة، فإذا بلغت الروح الحلقوم فحينئذ لا تقبل التوبة.

(١) فإن كان الذنب متعلقاً بحق إنسان فينضاف للأربعة شرط خامس؛ وهو التحلل من المظلمة بردها إن كانت عيناً أو مالاً، وبطلب الاقتصاص أو العفو إن كانت غير ذلك.

وقوله: «تُقام يوم القيامة» يعني: من قبرها. «وعليها سِرْبَال» السِّرْبَال هو: الثوب. «من قطران» هو النحاس المذاب. «ودِرْعٌ من جَرَب» الدرْع كذلك هو: الثوب، والجَرَب: مرض جلدي، يكون في الإبل ويكون في الإنسان. فدلَّ هذان الحديثان^(١) على مسائل:

أولاً: فيه تحريم أمور الجاهلية وذمها عموماً.

ثانياً: فيه أن أمور الجاهلية لا ترتفع بالكلية، بل يبقى منها شيءٌ في بعض المسلمين.

ثالثاً: -وهي مسألة مهمة جدًّا- أن من كان فيه شيء من أمور الجاهلية لا يقتضي ذلك كفره، لكن يكون هذا ذنباً مذموماً يجب عليه التخلّي عنه والتوبة منه، لكنه لا يقتضي الكفر، لأنه قال: «من أمتي»، فمن كان فيه شيء من أمور الجاهلية فهذا لا يقتضي كفره، إلّا إذا بلغ مبلغ المكفّرات كالشرك بالله جل وعلا، أو بلغ ناقضاً من نواقض الإسلام المعروفة فهذا يكفر به.

رابعاً: فيه دليل على تحريم المسائل الأربع المذكورة: «الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وأن هذه الأمور من كبائر الذنوب.

والخامسة: فيه دليلٌ على أن التوبة تمحو ما قبلها.

(١) الحديث الثاني: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية...». رواه مسلم (٩٣٤) وسبق الكلام عليه.

سادساً: فيه أن قبول التوبة محدد بما قبل الموت.

وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت». قوله ﷺ: «اثنان» يعني: خصلتان. «في الناس» في بني آدم حتى ولو كانوا مسلمين فإنه يوجد في بعض المسلمين بعض خصال الجاهلية وبعض خصال الكفر الذي لا يخرج من الملة.

«هما بهم كفر» هو كفر أصغر، لأن الكفر إذا نُكِّر فإنه يُراد به: الكفر الأصغر، أما إذا عُرِّف بـ (الألف واللام) فإنه يُراد به: الكفر الأكبر، كما في قوله: «بين العبد وبين الكفر والشرك: ترك الصلاة»، وليس كل من قام به خصلة من خصال الكفر يكون كافراً خالصاً، وإنما يكون فيه خصلة من خصال الكفر، كما ليس كل من فيه خصلة من خصال النفاق يكون منافقاً خالصاً، وإنما تكون فيه خصلة من خصال النفاق.

فالخصلة الأولى: «الطعن في النسب» تقدم الكلام عليه في باب سابق. والخصلة الثانية: «النياحة على الميت» والنياحة معناها: إظهار الجزع على الميت، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه.

والمطلوب والواجب: الصبر على موت الأقارب أو موت الأحباب.

ولا يمنع هذا أن الإنسان يتألم ويكي، فالبكاء لا مانع فيه، والنبي ﷺ بكى على ابنه إبراهيم، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي

(١) مسلم ١/٥٨ (١) (٦٧) (١٢١).

الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». وهذا من الرحمة، وأيضا هذا لا يستطيع الإنسان حبسه.

فآية دلت على أن الصبر والرضا من خصال الإيمان، والحديث دل على أن الجزع من المصيبة وإظهار الجزع أنه من خصال الكفر؛ فهما متضادان.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١). قوله: «ليس منا» هذه الكلمة كثيراً ما تأتي عن الرسول ﷺ على معاص تصدر من الناس من باب التحذير منها، مثل قوله: «من غشنا فليس منا»، وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا»، ومنه هذا الحديث. وهذه الكلمة «ليس منا» معناها: البراءة ممن فعل ذلك، ولكن ليس معناها أنه يخرج من الإسلام، وإنما معناها: التنفير من هذا العمل. وأحسن ما يقال فيها: أنها من ألفاظ الوعيد، ولا تُفسر، لكن مع اعتقاد أن هذا لا يدل على الخروج من الدين لأدلة أخرى دلت على أن أصحاب الكبائر التي دون الشرك لا يخرجون من الدين. وقوله ﷺ: «من ضرب الخدود» ضرب الخدود جزعاً من المصيبة كفعل الجاهلية. لأن المشروع الصبر، وهذا عكسه، وهذا من باب الغالب. «وشق الجيوب» أي: جيوب الثياب؛ جزعاً من المصيبة. «ودعا بدعوى الجاهلية» يعني: نادى عند المصيبة بالألفاظ التي تقولها الجاهلية، والمراد بالجاهلية: ما كان قبل بعثة الرسول ﷺ في وقت الفترة.

ومن دعوى الجاهلية: أن يتلفظ بألفاظ الجاهلية، كأن ينادي ويقول:

(١) البخاري (١٢٩٤).

واعضداه، وانصيراه، واكذا وكذا. وكذا إثارة العصبية والقوميات والحزبيات، وما إلى ذلك. كل ذلك من دعوى الجاهلية. وكذا التعصب للأقوال والمذاهب التي لا دليل عليها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «المراد بدعوى الجاهلية: كل من تعصّب إلى مذهب، أو تعصّب إلى قبيلة»^(١).

فالعصبية الجاهلية والنخوة الجاهلية كلّه يدخل في دعوى الجاهلية، فلا يجوز للمسلم أنه يتعصّب لأحد العلماء أو لأحد المذاهب ولا يقبل غير هذا المذهب أو لا يقبل غير هذا الرجل من العلماء، فهذه عصبية جاهلية. أو يتعصّب لقبيلته إذا كانت على خطأ، كما يقول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والواجب على المسلم: أن يتبع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا تجوز العصبية للمذاهب، ولا تجوز العصبية للأشخاص، ولا تجوز العصبية للقبائل، وإنما المسلم يتبع الحق مع من كان، ولا يتعصّب، ولا يترك الحق الذي مع خصمه. فالمسلم يدور مع الحق أينما كان، سواء كان في مذهبه، أو مع إمامه، أو مع قبيلته، أو حتى مع عدوه. والرجوع إلى الحق خير من التماهي في

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٤٣١) بمعناه.

الباطل، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَتْ ذَاقُنِي﴾ [الأنعام: ١٥٢]،
والنبي ﷺ يقول: «قل الحق ولو كان مُراً»^(١). والله المستعان.



(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان (٨٠ - ٨٨) بتصرف واختصار.

هل يُعَذَّب الميت بما نِيح عليه؟

هذه المسألة مما اختلف فيها السلف وانتقل الخلاف للخلف، وعمدتها قولُ النبي ﷺ فيما رواه الشيخان^(١): «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِالنِّيَاحَةِ عَلَيْهِ». وكلام رسول الله ﷺ حقُّ كله، والقرآن والسنة كلاهما وحي من الله تعالى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. والوحي يُصدَّق بعُضه بعضاً، ولا يتعارض بحال، فكله من الله العزيز العليم.

علماً أنَّ العذاب غير العقاب، فليس بينهما تلازم، فقد تُعَذَّبُك أي: تؤذيك نسمة الهواء المستكرهة، أو الصوت المزعج، أو الحر، أو البرد، أو الجوع والعطش، وغير ذلك والمقصود؛ أنَّ العذاب ليس كالعقوبة، والضرر ليس كالأذى، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. وقال ﷺ في الحديث الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»^(٢)، وقارنه مع قوله ﷺ في الحديث الآخر الذي يرويه عن ربِّه تعالى: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي

(١) البخاري (١٢٩١) ومسلم (٩٣٣) وله ألفاظ متقاربة في الصحيحين وخارجهما.

(٢) البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦). والمعنى: أن سب الدهر يعود على من خلقه وذبره سبحانه وتعالى، كما وضح في نفس الحديث: «بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فسابُ الدهر دائر بين أمرين، لا بد له من أحدهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله فقد سبَّ الله تعالى». زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٢٤)

فَتَضُرُّوْنِي، وَلَكِنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١). فالأذى غير الضرر.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح، والعذاب يطلق ويُراد به التألم من المؤذي، وهو على درجات، فمنه العذاب اليسير؛ كالتعذب بالعطش اليسير، والبرد اليسير، والكلمة المؤذية اليسيرة، ومنه المتوسط كالعذاب بمشقة السفر، ومن ذلك حديث النبي ﷺ: «السفرُ قطعة من العذاب»^(٢)، ومنه العذاب الشديد، كالقطع والحرق ونحو ذلك، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

ولا يلزم من العذاب أن يكون عقوبة على ذنب، كما لا يلزم من الأذى أن يكون ضرراً، والله تعالى مالك كل شيء، ولا يُسأل عما يفعل تبارك وتعالى.

وعليه؛ فيما أن الحديث صحيح، فمعناه حقٌّ، والبكاء المذموم والمتوعد عليه فيه هو بكاء النياحة، لا البكاء المعتاد للحزين الصابر.

فالمت يُعذبُ ببكاء أهله عليه، كمن يُنقل له خبر يزعجه فيتعذب نفسياً به ونحو ذلك، أي: يتأذى ببكائهم الذي هو بمعنى النياحة، وليس البكاء المعتاد الذي لم يُنه عنه كدمع العين.

وأيضاً؛ فليس معناه أن الميت يُعاقب على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أما إن كان قد أوصى ببكاء النوح أو رضي به في حياته وأقره؛ فإنه يستحق

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) البخاري (٣٠٠١) ومسلم (١٩٢٧).

العقوبة حينها، وهذا من لواحق الذنب وتوابعه، ويكون العذاب هنا عقوبة على ذنبه، لا مجرد عذاب مؤذي.

وعليه؛ فيُحمل عذاب العقوبة على من أوصى أو رضي وأقرّ بكاء النياحة عليه، وعذاب الأذى على من لم يكن عليه وزرّ فيه، مع الإيمان بأنّ الله تعالى له ملك كلّ شيء، وأنّه لا يُسأل عما يفعل، وأنّه لو عذّب خلّائقه أجمعين لعذبهم وهو غير ظالم لهم، سبحانه وبحمده، وبهذا تجتمع الأدلة، والله تعالى أعلم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حيال ذلك: «اختلفت طرق الناس في ذلك:

فقال فرقة: يتصرف الله في خلقه بما يشاء، وأفعال الله لا تُعلّل، ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه، لأن الله خالق الجميع، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل.

وقالت فرقة: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ، وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين، واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت: إنكم لتحدّثون عن غير كاذبين ولا متهمين، ولكن السمع يخطئ، وقالت: إنما مرّ النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: «إن صاحب هذا القبر يُعذّب، وأهله ييكون عليه»^(١). وفي رواية متفق عليها عنها: إنما قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ليزيد الكافر عذاباً يبكاء أهله عليه» وقالت: حسبكم القرآن:

(١) البخاري (١٢٨٩) ومسلم (٩٣٢).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] (١).

وقالت فرقة أخرى: إن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت عادتهم ذلك، وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة:
إذا متّ فانهيني بما أنا أهله وشقي على الجيب يا ابنة معبد
وقول لبيد:

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه أضاع ولا خان الأمين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولًا كاملاً فقد اعتذر

وقالت طائفة: هو محمول على من سئته وسئته قومه ذلك إذا لم ينههم عنه، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به، وهذا قول ابن المبارك وغيره، قال أبو البركات ابن تيمية: «وهو أصح الأقوال كلها، لأنه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضي به وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه؛ فالله أكرم من أن يعذبه بذلك».

وقد حصل بذلك العمل بالآية مع إجراء الخبر على عمومته في كثير من الموارد.

وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعول عليه، فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره، ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد، خصوصًا في حق

(١) البخاري (١٢٨٨) ومسلم (٩٢٩).

خمسة من أكابر الصحابة.

وقوله في اليهودي لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات آخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً بيبكاء أهله عليه» فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذاباً بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية؛ لم يمنع ذلك في حق المسلم، لأن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله أعلم.

ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكاليفات، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره، فإن النبي ﷺ لم يقل: إن الميت يعاقب بيبكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال: «يعذب بذلك» ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذي يحصل له، وهو أعم من العقاب^(١) والأعم لا يستلزم الأخص.

وقد قال النبي ﷺ: «السفرُ قطعة من العذاب»^(٢). وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم وهو البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معروف في نظمهم ونثرهم؛ تألم الميت بذلك في قبره، فهذا

(١) وهذا ما رجحه ابن باز رحمه الله تعالى.

(٢) البخاري (٣٠٠١) ومسلم (١٩٢٧).

التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث^(١)، وبالله التوفيق^(٢). والله أعلم.



(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤ / ٣٧٤).

(٢) عدة الصابرين (١٨٩-٢٠٤) باختصار.

التعزية وأحكامها

من مكارم أخلاق المؤمنين وجميل شيمهم؛ إحساسهم بمصاب غيرهم، وتألمهم لألمه، والوقوف معه في محتته وكربه، وتعزيته في مصابه، فالمؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه.

والتعزية: هي تسليّة المصاب، وتقويته على تحمّل مصيبته، وتذكيره بالله عز وجل والدار الآخرة، وبالأدعية والأذكار والآيات والأحاديث والأخبار الواردة في فضيلة الصبر والرضا والحمد والشكر والتسليم واليقين والاحتساب. قال ابن باز رحمه الله تعالى: «إذا حضر المسلم وعزّى أهل الميت فذلك مستحب، لما فيه من الجبر لهم والتعزية، وإذا شرب عندهم فنجان قهوة أو شاي أو تطيّب فلا بأس كعادة الناس مع زوارهم»^(١).

وقال: «ولا أعلم بأساً في حق من نزلت به مصيبة بموت قريبه أو زوجته ونحو ذلك أن يستقبل المعزين في بيته في الوقت المناسب؛ لأن التعزية سنة، واستقباله المعزين مما يعينهم على أداء السنة، وإذا أكرمهم بالقهوة أو الشاي أو الطيب فكل ذلك حسن»^(٢).

وقال: «ولا نعلم بأساً في السفر من أجل العزاء لقريب أو صديق؛ لما في ذلك من الجبر والمواساة وتخفيف آلام المصيبة، ولا بأس في العزاء قبل الدفن وبعده،

(١) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (١٣ / ٣٧١).

(٢) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (١٣ / ٣٧٣).

وكلما كان أقرب من وقت المصيبة كان أكمل في تخفيف آلامها»^(١).

وتشرع تعزية أهل الميت بما يخفف عنهم من مصابهم، ويحملهم على الرضا والصبر، بما ثبت عنه ﷺ إن كان يعلمه، ويستحضره، وإلا فبما تيسر له من الكلام الحسن الذي يحقق الغرض، ولا يخالف الشرع. وهو مأجور وفعله مشكور، فعن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًّا لها أو ابناً لها في الموت، فقال رسول الله ﷺ: «ارجع إليها فأخبرها: أن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمُرّها فلتصبر، ولتحتسب»^(٢). وهذا من أحسن الألفاظ الواردة في التعزية.

ويلحق بذلك مسائل كالاجتماع للعزاء، وقراءة القرآن العظيم:

اعلم أنه ليس هناك دليل الكتاب ولا من السنة يدل على مشروعية قراءة أي سورة من سور القرآن في سكن الميت، إنما ذلك محدث. قال ابن باز رحمه الله تعالى: «ليس لقراءة القرآن على الميت أو على القبر أصل صحيح، بل ذلك غير مشروع، بل من البدع، وهكذا وضع المصحف على بطنه ليس له أصل، وليس بمشروع»^(٣).

أما الاجتماع لمجلس العزاء مع صنع الطعام ففي مسند أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كُنَّا نَعُدُّ الاجتماع إلى أهل الميت، وصنع الطعام

(١) مجموع فتاوى الشيخ (١٣ / ٣٧٦).

(٢) البخاري (٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ (٨ / ٣٦٢).

بعد دَفْنِهِ مِنَ النِّياحَةِ»^(١).

فالاِجْتِمَاعُ عَلَى الْعِزَاءِ يَكُونُ نِياحَةً إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ أَمْرَانِ:

الأول: أن يكون هناك اجتماع للعزاء عند أهل الميت وجُلوس طویل عندهم.
والثاني: أن يكون هناك صنع للطعام من أهل الميت لإكرام هؤلاء، والتباهي بكثرة من يَمَكُثُ إظهارًا للمصيبة لهذا الميت، وإِعْلَاءَ لِقَدْرِهِ بين الناس، كما كان يفعلُه أهل الجاهلية في نعيهم وعزائهم. وتزيد الحُرمة إذا كان المأتم والطعام من مال الميت.

أما الجلوس للتعزية فقط بدون صنع الطعام؛ فهذا لا بأس به، تسهیلًا للوصول إلى أهل الميت لتعزيتهم، ويشرع صنع طعام لأهل الميت خاصة لا للمُعزِّين، ورخص ابن باز رَحِمَهُ اللهُ صنع الطعام في حال حضور ضيف جرى في العادة صنع الطعام له^(٢). لذا؛ فإن نزل عليهم ضيف طارئ فلا بأس، شريطة ألا يكون الأمر معتادًا، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وليس من السنة تحديد العزاء بثلاثة أيام، أو صنع طعام بعد الأربعين، والأصل والجدّة أن المسلم يُعزَّى في أي مكان سواء في المسجد، أو السوق، أو

(١) المسند (٦٩٠٥) وابن ماجه (١٦١٢)، وصححه ابن باز في مجموع فتاواه، وعدّ صنع الطعام من قبل أهل الميت لأجل العزاء من البدع، (١٣ / ٣٨٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣١٨).

(٢) فتاوى نور على الدرب من موقع الشيخ، بعنوان: حكم صنع أهل الميت الطعام للمعزين.

منزله، أو غير ذلك، بدون مآتم وتراتيب.

ولو أن أهل الميت امتنعوا من استقبال المعزين بعد الظهر وبعد العشاء حسماً للمادة كان حسناً.

والناس في هذا الأمر في زماننا طرفين ووسط، فمنهم من يمتنع تماماً من استقبال المعزين إلا في المسجد أو المقبرة ونحو ذلك ويحتج بفعل الصحابة، وهذا حسن لولا المشقة على الناس بالبحث عن أهل الميت وتتبعهم مع تباعد أماكنهم، والطرف الآخر جعل العزاء شبيهة بالنياحة في صنع الطعام والاحتفاء بالمعزين، ويعظم الأمر إن كان المال من مال الورثة والأيتام، كذلك ما يصحب بعضها من بدع ومحدثات.

والراجح: هو التوسط، فالأرفق بالناس - إن كان عدد أهل الميت كثيراً - استقبالهم في مكان واحد في غير أوقات وجبات الطعام، فيمتنعون عن استقبالهم بعد صلاة الظهر وبعد صلاة العشاء بحسب مواعيد طعام الناس في ناحيتهم، قطعاً لذريعة صنع طعام العزاء الذي ضاهى مآتم أهل الملل الأخرى.

أما إن كان عدد ذوي الميت قليلاً وكذلك عدد المعزين كالقرى الصغيرة والبوادي ونحو ذلك وتيسر للناس لقياهم في المسجد أو المقبرة ونحوها واكتفوا بذلك فهو حسن، والله تعالى أعلم.



حكم زيارة الرجال والنساء للقبور وشد الرحال إليها

حكم زيارتها للرجال مندوب مع امتثال السنة أثناء الزيارة بلا دعاء موتى، ولا استشفاع بهم، ولا طواف بقبورهم، ولا ذبح ونذر لهم، ولا تبرك بتربتهم، ولا اعتقاد خصيصة قبول الدعاء عندهم، وأن تكون الزيارة بقصد الاعتبار والعظة والتذكر، والاستغفار للموتى، والسلام عليهم.

وليس للمقبرة خصيصة لاستجابة الدعاء البتة، بل هي كغيرها من البقاع، وما يعتقده بعضهم من فضيلة الدعاء عندها سوى الاستغفار للموتى؛ فهو من البدع المحدثّة.

أما النساء: ففي أصل زيارتهن خلاف قديم، والراجح فيه: التحريم مطلقاً، للأدلة المحكمة الصريحة في لعن من فعل ذلك منهنّ، ولعله آخر الأمرين في شأن ذلك، رحمة من الله تعالى لهنّ، وحماية لدينهن ولغيرهنّ، لما رُكِبَ فيهنّ من ضعف احتمال وارد رحيل الحبيب والقريب، وقلة صبرهنّ عند فقد الأحبة ومشاهدة أجداثهم وتذكرهم بزيارة قبورهم، وما يُخشى من مفسد زيارتهن يربو على ما يُرجى من مصالح ذلك، والله أعلم.

قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «الصحيح أن زيارة النساء للقبور لا تجوز للحديث المذكور، وقد ثبت عنه رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ «لعن زائرات القبور»^(١). فالواجب على النساء ترك

(١) الترمذي (١٠٥٦) وصححه، وأحمد (٢٢٩/١) (٢٠٣٠) وقال محققو المسند: حسن لغيره دون ذكر السرج. وابن حبان (٣١٧٨)، وله شواهد. وصححه ابن تيمية.

زيارة القبور، والتي زارت القبر جهلاً منها فلا حرج عليها، وعليها ألا تعود فإن فعلت فعليها التوبة والاستغفار، والتوبة تجب ما قبلها. فالزيارة للرجال خاصة، قال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»^(١).

وكانت الزيارة في أول الأمر ممنوعة على الرجال والنساء؛ لأنّ المسلمين حدثاء عهد بعبادة الأموات والتعلق بالأموات، فمُنِعوا من زيارة القبور سدّاً لذريعة الشر وحسماً لمادة الشرك.

فلما استقر الإسلام وعرفوا الإسلام؛ شرع الله لهم زيارة القبور؛ لما فيها من العظة والذكرى من ذكر الموت والآخرة والدعاء للموتى والترحم عليهم.

ثم منع الله النساء من ذلك في أصحّ قولي العلماء؛ لأنهن يفتن الرجال، وربما فُتِنَ في أنفسهن، ولقلة صبرهن وكثرة جزعهن، فمن رحمة الله وإحسانه إليهن أن حرّم عليهن زيارة القبور. وفي ذلك أيضاً إحسان للرجال؛ لأن اجتماع الجميع عند القبور قد يسبب فتنة، فمن رحمة الله أن منعهن من زيارة القبور.

أما الصلاة فلا بأس، فتصلي النساء على الميت، وإنما النهي عن زيارة القبور، فليس للمرأة زيارة القبور في أصحّ قولي العلماء للأحاديث الدالة على منع ذلك. وليس عليها كفّارة، وإنما عليها التوبة فقط»^(٢).

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه لعن

(١) صحيح مسلم الجنائز (٩٧٦).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (٩ / ٢٨٢).

زائرات القبور من حديث ابن عباس، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهم جميعاً. وأخذ العلماء من ذلك أن الزيارة للنساء محرمة؛ لأن اللعن لا يكون إلا على محرم، بل يدل على أنه من الكبائر؛ لأن العلماء ذكروا أن المعصية التي يكون فيها اللعن أو فيها وعيد تعتبر من الكبائر.

فالصواب؛ أن الزيارة من النساء للقبور محرمة لا مكروهة فقط. والسبب في ذلك - والله أعلم - أنهن في الغالب قليلات الصبر، فقد يحصل منهن من النياحة ونحوها ما ينافي الصبر الواجب وهن فتنة، فزيارتهم للقبور واتباعهن للجناز قد يفتتن بهن الرجال، وقد يُفتتن بالرجال.

والشريعة الإسلامية الكاملة جاءت بسد الذرائع المفضية إلى الفساد والفتن، وذلك من رحمة الله بعباده، وقد صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء» متفق على صحته^(١). فوجب بذلك سد الذرائع المفضية إلى الفتنة المذكورة... ومن ذلك ما جاءت به الشريعة المطهرة من تحريم تبرج النساء، وخضوعهن بالقول للرجال، وخلوة المرأة بالرجل غير المحرم، وسفرها بلا محرم، وكل ذلك من باب سد الذرائع المفضية إلى الفتنة بهن.

وقول بعض الفقهاء: إنه استُثني من ذلك قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قول بلا دليل، والصواب أن المنع يعم الجميع، يعم جميع القبور حتى قبر النبي ﷺ، وحتى قبر صاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وهذا هو المعتمد من حيث الدليل.

(١) البخاري (٤٨٠٨) ومسلم (٢٧٤١).

وأما الرجال فيستحب لهم زيارة القبور وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام وقبر صاحبيه، لكن بدون شد الرحل؛ لقوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»^(١).

وأما شد الرحال لزيارة القبور فلا يجوز، وإنما يشرع لزيارة المساجد الثلاثة خاصة؛ لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى» متفق على صحته^(٢) وإذا زار المسلم مسجد النبي ﷺ دخل في ذلك على سبيل التبعية زيارة قبره ﷺ وقبر صاحبيه وقبور الشهداء وأهل البقيع، وزيارة مسجد قباء من دون شد الرحل، فلا يسافر لأجل الزيارة، ولكن إذا كان في المدينة شرع له زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه، وزيارة البقيع والشهداء ومسجد قباء، أما شد الرحال من بعيد لأجل الزيارة فقط فهذا لا يجوز على الصحيح من قولي العلماء... فإذا وصل المسجد صلى فيه ما تيسر، ثم زار قبر النبي ﷺ وزار قبر صاحبيه وصلى وسلم عليه ﷺ ودعا له، ثم سلم على الصديق رضي الله عنه ودعا له، ثم على الفاروق ودعا له، هكذا السنة، وهكذا القبور الأخرى لو زار مثلاً دمشق أو القاهرة أو الرياض أو أي بلد يستحب له زيارة القبور لما فيها من العظة والذكرى والإحسان إلى الموتى بالدعاء لهم والترحم عليهم إذا كانوا مسلمين... وكان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل

(١) مسلم (٩٧٦).

(٢) البخاري (١١٣٢).

الله لنا ولكم العافية، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين»^(١).

هذه هي السنة من دون شد الرحل، ولكن لا يزورهم لدعائهم من دون الله؛ لأن هذا شرك بالله عز وجل وعبادة لغيره، وقد حرم الله ذلك على عباده في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [١٠٢] لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣] فبين سبحانه أن دعاء العباد للموتى ونحوهم شرك به سبحانه وعبادة لغيره، وهكذا قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فسمى الدعاء لغير الله كفرًا، فوجب على المسلم أن يحذر هذا، ووجب على العلماء أن يبينوا للناس هذه الأمور حتى يحذروا الشرك بالله.

فكثير من العامة إذا مر بقبور من يعظمهم استغاث بهم وقال: المدد المدد يا فلان! أغثنى انصرني اشف مريضى! وهذا هو الشرك الأكبر والعياذ بالله، وهذه الأمور تطلب من الله عز وجل لا من الموتى ولا من غيرهم من المخلوقين.

أما الحي فيطلب منه ما يقدر عليه؛ إذا كان حاضراً يسمع كلامك، أو من طريق الكتابة، أو من طريق الهاتف وما أشبه ذلك من الأمور الحسية، تطلب منه ما يقدر عليه، تبرق له أو تكتب له أو تكلمه في الهاتف، تقول: ساعدني على عمارة بيتي

(١) مسلم (٩٧٥) والنسائي (٢٠٣٧).

أو على إصلاح مزرعتي؛ لأن بينك وبينه شيئاً من المعرفة أو التعاون، وهذا لا بأس به كما قال الله عز وجل في قصة موسى: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الآية [القصص: ١٥].

أما أن تطلب من الميت أو الغائب أو الجهاد كالأصنام شفاء مريض أو النصر على الأعداء أو نحو ذلك فهذا من الشرك الأكبر، وهكذا طلبك من الحي الحاضر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى؛ يعتبر شركاً به سبحانه وتعالى؛ لأن دعاء الغائب بدون الآلات الحسية معناه اعتقاد أنه يعلم الغيب أو أنه يسمع دعائك وإن بُعد، وهذا اعتقاد باطل يوجب كفر من اعتقده، يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] أو تعتقد أنه له سرّاً يتصرف به في الكون فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء كما يعتقده بعض الجهالة في بعض من يسمونهم بالأولياء، وهذا شرك في الربوبية أعظم من شرك عباد الأوثان.

فالزيارة الشرعية للموتى زيارة إحسانٍ وترحم عليهم، وذكر للآخرة والاستعداد لها، فتذكر أنك ميت مثل ما ماتوا فتستعد للآخرة وتدعو لإخوانك المسلمين الميتين، وترحم عليهم وتستغفر لهم. وهذه هي الحكمة في شرعية الزيارة للقبور، والله ولي التوفيق»^(١).

وقال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْقَوْلِ الْمَفِيدِ: «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٥ / ٣٣٢ - ٣٣٥).

رواه أهل السنن^(١) قوله: «لعن»، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى «لعن رسول الله ﷺ»، أي: دعا عليهم باللعنة. قوله: «زائرت القبور»، زائرت: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، وهي أنواع:

منها: ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.

ومنها: ما هو بدعة، وهي زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك.

ومنها: ما هو شرك، وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائرت: اسم فاعل يصدق بالمرّة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: «لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور»^(٢). بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة. قوله: «والمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ»، هذا الشاهد من الحديث، أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخذ القبور مساجد له صورتان:

١- أن يتخذها مصلى يصلى عندها. ٢- بناء المساجد عليها. قوله:

«والسرج»، جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهاراً تعظيماً وغلواً فيها.

وهذا الحديث يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، بل على أنه من كبائر

(١) الترمذي (١٠٥٦) وصححه، وأحمد (٢٢٩/١) (٢٠٣٠) وقال محققو المسند:

حسن لغيره دون ذكر السرج. وابن حبان (٣١٧٨)، وله شواهد. وصححه ابن تيمية.

وقد مرّ قريباً.

(٢) الترمذي (٢٩٤) وصححه، وأحمد (١٩٢٦).

الذنوب، لأن اللعن لا يكون إلا على كبيرة، ويدل على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب للعن فاعله. والمناسبة للباب: إن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها، فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مسألة: ما هي الصلة بين الجملة الأولى: «زائرات القبور»، والجملة الثانية:

«المتخذين عليها المساجد والسرج»؟

الجواب: الصلة بينهما ظاهرة: هي أنّ المرأة لرقّة عاطفتها وقلة تمييزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطفًا على صاحب القبر، فلهذا قرّنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وهل يدخل في اتخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

الجواب: أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه، فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حوله، فقد يقال بجوازه، لأنها لا تسرج إلا بالليل، فليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة. ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقًا للأسباب الآتية:

- ١ - أنه ليس هناك ضرورة. ٢ - أن الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك، فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبين لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجًا معهم. ٣ - أنه إذا فتح هذا الباب، فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا

الميت، فمن الذي يتولى قفل هذه الإضاءة؟ الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنه متخذ عليها السرج، فالذي نرى أنه يمنع نهائياً. أما إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه، فلا بأس بإضاءتها لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلية لا تشاهد، فهذا نرجوا ألا يكون به بأس.

والمهم: أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يتعد عنها ابتعاداً عظيماً، ولا يُقدّر للزمن الذين هو فيه الآن، بل يُقدّر للأزمان البعيدة، فالمسألة ليست هينة. وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: «مُهِينَا عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمَ عَلَيْنَا»^(١).

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة التي مرّ النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتني. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ.

(١) البخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٣٨).

فجاءت إليه تعتذر، فلم يقبل عذرهما، وقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١). فالنبي ﷺ شاهدا عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر. ولما ثبت من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ علّمها دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيتُ قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»، وهذا عام للرجال والنساء. ولأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة، أليس النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك. وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويُجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، فمن ذلك:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة، لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١ - تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر، لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها» للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول - وهو الصحيح -، فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا

(١) البخاري (٩٣/٢ و ٩٩) (١٢٨٣) ومسلم (٤٠/٣).

نقول قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط، لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضاً مما يطل النسخ: قوله: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»، ومن المعلوم أن قوله: «والمتخذين عليها المساجد والسرج»، لا أحد يدعي أنه منسوخ، والحديث واحد، فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكماً غير منسوخ.

٢- العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ، لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور: بل قال: «كنت نهيتكم»، والنهي دون اللعن.

وأيضاً قوله: «كنت نهيتكم» خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء، فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذاً، فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

ثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة: أن المرأة لم تخرج للزيارة قطعاً، لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر، مما يدل على أن في قلبها شيئاً عظيماً لم تتحمله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر، لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة، فالحديث ليس صريحاً بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحاً، فلا يمكن أن يعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة، فإنها قالت للرسول ﷺ: ماذا أقول؟ فقال: «قولي:

السلام عليكم»، فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل، فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة، إذا من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحاً، فلا يعارض الصريح^(١).
وأما فعلها مع أخيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها

(١) قال الألباني في إرواء الغليل (٣ / ٢٣٣) (٧٧٥): «حديث أن عائشة زارت قبر أخيها عبد الرحمن رضي الله عنهما». رواه الأثرم (ص ١٨٠) صحيح. أخرجه الحاكم (١ / ٣٧٦) وعنه البيهقي (٤ / ٧٨) من طريق بسطام ابن مسلم عن أبي التياح يزيد بن حميد عن عبد الله بن أبي مليكة: أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر. فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: «نعم، ثم أمر بزيارتها». سكت عليه الحاكم وقال البيهقي: «تفرد به بسطام بن مسلم البصري». قلت: وهو ثقة اتفاقاً. فالحديث صحيح، وكذلك قال النسائي.
وعن عبد الله بن أبي مليكة قال: «توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بـ (حبشي)» [قال ابن جريج: الحبشي: على اثني عشر ميلاً من مكة] قال: فحُمِلَ إلى مكة، فدفن. فلما قدمت عائشة أتت قبر عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت:

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةً حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن نتصدّعا
فلما تفرّقنا كَأَنِّي وَمَالِ الْكَأْ لطول اجتماع لم نبت ليلةً معاً

ثم قالت: «والله لو حضرتك ما دفتك إلا حيث متّ، ولو شهدتك ما زرتك». أخرجه ابن أبي شيبة (٤ / ١٤٠) والزيادة له والترمذي (١ / ١٩٦) وسكت عليه، ولا أدري السبب فإن رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، فهو على طريقته صحيح، ولولا أن ابن جريج مدلس وقد عنعنه لحكمت عليه بالصحة. والله أعلم.

عبد الله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً، لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور، لكننا ننظر بماذا ستجيبه. فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاماً، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك.

ونحن وإن كنا نقول: إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استدلت بلفظ العموم، فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ، على أنه روي عنها، أنها قالت: «لو شهدتك ما زرتك»، وهذا دليل على أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خرجت لتدعو له، لأنها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لكننا نبقي على الرواية الأولى الصحيحة، إذا ليس فيها دليل على أن الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هي، فلا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ (١).

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٩ / ٤٢٦ - ٤٣١) باختصار، وفي هامشه: «إشكال وجوابه للشيخ رحمه الله تعالى، في قوله: «زائرات القبور». ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكرار الزيارة، لأن «زائرات» صيغة مبالغة؟

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك، فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات». والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل، ف«زائرات» يعني: النساء إذا كن مئة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةٍ لَهُمْ أَلْوَابٌ ۝٥٠﴾ [ص: ٥٠] فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف، إذا الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضاً قراءة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ

وللشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ بحث نافع بعنوان: «جزء في زيارة النساء للقبور». وفيه: «عامة العلماء قد رجحوا الدليل الحاضر، كحديث اللعن في هذا المقام على دليل الإباحة كحديث عائشة عند مسلم على احتماله، فمن ادّعى بعد ذلك أنه أبيح بعد المنع فعليه البيان، لاسيما وقد ذكر هذا الوعيد الشديد في جانب المنع، فالمسألة إذاً لا مسرح فيها للاجتهاد، والله أعلم»^(١).

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة في مجموع الفتاوى^(٢) وكذلك ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود^(٣) وبالله التوفيق.



أَبْوَيْهَا ﴿الزمر: ٧٣﴾، فهي مثلها. فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.

(١) جزء في زيارة النساء للقبور (١ / ٢٣).

(٢) الفتاوى (٢٤ / ٣٤٣).

(٣) تهذيب السنن (٤ / ٣٤٨).

الصَّبْرُ عِنْدَ أَلَمِ جَرَحِ الْعَرَضِ وَانْتِهَاكِه بِكَلَامٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ لَمَزٍ وَهَمَزٍ

لن يسلم المؤمن من أذية الناس له وتنقصهم وحسد هم، ذلك أن الابتلاء بهم ماض مكتوب مقدر، ولكن تختلف الأذية نوعاً وقدرًا، كمًا وكيفًا، ومن أشد البلايا: البلية في العرض. وليس هذا مخصوص بطلبة العلم والدعاة والعباد، بل كل مؤمن ومؤمنة قد يدخلان يومًا ما هذا الأتون الشديد الذي يخلص ويمحص ويكفر ويرفع وينتهي برحمة الله بالعافية؛ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فهذا النوع من البلاء - البلاء في العرض والشرف - هو من أعظم التمحيص والتكفير والرفعة، وقد ذاقه حتى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كنبينا وموسى ويوسف صلى الله عليهم وسلم، ومن بعدهم الصالحين الطاهرين العفيفين من عباد الرحمن وإمامته. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] وهذا بلا شك خير لهم ورفعة عند الله، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»^(١). والأجر والتكفير على قدر عظمة المصيبة وشدة البلوى. فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إِنْ عَظُمَ الْجَزَاءُ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمِنْ

(١) الترمذي (٢٤٠١)، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسن إسناده الألباني.

رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط^(١).

ألا وإنَّ على المؤمن المتصدّي لنفع الناس أن يوطّن نفسه لأذاهم وأن يستعد لاحتمال جهل سفهائهم، ففي كل مجتمع وبيئة يكون هناك نُخَالَةٌ بشرٍ لا يراعون الذمام، ولا تصدّهم الشّيم، ولا يزعمهم القرآن، فعلى المؤمن استقبال ذلك برحابة صدر، وسعة بطن، وكبر عقل، ووفرة حلم، وعظيم إيمان، ثقة بالله تعالى، وانتظاراً لحسن موعوده، وصدق حديثه، فلكل طريق نهاية، ولكل غمة فرج، ولكل صابر أجر، ولكل محسن الظن بربه ثواب، ومن كان مع الله كان الله معه، فليثق وليصبر ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وكل المرسلين قد أوذوا في أعراضهم وأبشارهم وأحبابهم واهتمت نياتهم وطعنت مقاصدهم، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم حنين أثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله! فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال، فتغيّر وجهه حتى كان كالصّرف^(٢)، ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!» ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر». فقلت: لا جرّم، لا أرفع إليه بعدها

(١) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في السلسلة (١٤٦)

(١/ ٢٧٦).

(٢) الصّرف: صبغ أحمر.

حديثاً» (١).

أنفق من الصبر الجميل فإنه لم يخش فقرًا منفق من صبره
واحلم وإن سفه الجليس وقل له حسن المقال وإن أتاك بهجره
وفي هذا الحلم النبوي العظيم نبراس هداية لكل مرید للتحلم والتكظم وتجرع
غصص الأذى في سبيل الله تعالى.

والحلم على قدر القدرة، فرسول الله ﷺ كان قادرًا على قتله لو شاء، لكنها
الرحمة المصطفوية، والحلم النبوي، والحكمة الرسالية، والأخلاق المحمدية، وفيه
أيضًا اتساعٌ بإخوته المرسلين من قبله كالكلیم عليه السلام، فقد آذته بنوا إسرائيل
أشدَّ الأذى وأوجعه وأشقَّه، وصبر منهم على أنواع البلوى والتعنت والتحدلق
والتبرم والكبر والمخالفة، بل والكفر والشرك والجهل بالله تعالى مالا يصبر على
أمثاله سوى أولى العزم من كبار المرسلين، واتهموه بالسحر والجنون (٢)، وبهتوا
الكلیم بقتل أخيه الرسول الكريم هارون عليهما السلام، وفي المستدرک عن ابن
مسعود مرفوعاً: «.. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: إن
موسى قتل هارون، وحسده حب بني إسرائيل له» (٣).

وحاولوا تشويه عرضه وتلطيح شرفه والطعن في عفافه، فقد دسَّ عليه قارون

(١) البخاري ٤ / ١١٥ (٣١٥٠)، ومسلم ٣ / ١٠٩ (١٠٦٢) (١٤٠).

(٢) ذكره العيني تمریضاً في عمدة القاري (٢٨ / ١٤٣).

(٣) المستدرک (٢ / ٥٧٧) (٤١٠٩) وقال صحيح علی شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وانظره كذلك في تاريخ الطبري ١ / ٤٣٢

بغياً لرميه بالزنا ليؤذي موسى بذلك^(١).

وقد أخبر موسى نبينا محمداً عليهما الصلاة والسلام بشدة وقسوة قومه ومشقة معالجتهم، ففي حديث الإسراء: «فأقبلتُ حتى جئت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت: فُرضت علي خمسون صلاة. قال: أنا أعلم بالناس منك، عاجلتُ بني إسرائيل أشد المعالجة! وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك فسله..»^(٢).

وقد وصل بهم الحال لأذاه بكلامهم في عورته وتعييب ذكوريته! فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سواة بعض»^(٣) وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر!^(٤)

(١) ذكره ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٣ / ٣٢٩).

(٢) البخاري (٤ / ١٠٩) (٣٢٠٧).

(٣) وهذا منهي عنه شرعاً لوجوب الحياء بستر العورات، فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده - وكانت له صحبة - قال: «قلت: يا رسول الله؛ عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك» قلت: يا رسول الله، فالرجل يكون مع الرجل؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فافعل» قلت: فالرجل يكون خالياً؟ قال: «الله أحق أن يستحي منه الناس». رواه أحمد (٥ / ٣) بسند حسن.

(٤) الأذرة: نفخة مَرَضِيَّة في الخصية، والرجل آدر.

قال: فذهب مرة يغتسل،^(١) فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه^(٢) قال: فجمع موسى عليه السلام يآثره^(٣) يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر^(٤). حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسى^(٥) فقالوا: والله ما بموسى من بأس. فقام الحجر حتى

(١) وفي رواية لمسلم: «فاغتسل عند مويه».

١. (٢) وإذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه، ولو بكسر سنن الخلق، فالله تعالى لم يجعل للحجر - بحكم العادة - مثل هذه الإرادة والقدرة ونحو ذلك مما صار، ولكن جلّت حكمة الله وقدرته أن يُحرّك هذا الحجر في ذلك الوقت الذي نزل فيه الكلم للماء، ووبركضه بتلك السرعة الموازية لسرعة ركض موسى عليه السلام، فلو أبطأ الحجر لخطف موسى ثوبه منه، ولو أسرع كثيراً لربما يأس من لحاقه ونكف عن الركض جهته، كما أمر الله الحجر أن يسير لجهة الناس الذين عابوا رسوله بذلك العيب، فتعالى الله العليم الحكيم اللطيف.

وفي كلّ شيء له آيةٌ تدلّ على أنه واحدٌ
فيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يحده الجاحدُ

ولا عجب في خرق الخلاق العظيم العادة نصراً لأوليائه وحفظاً، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] وقال: ﴿الَّذِينَ يَكْفِي عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] كيف وهذا العبد هو وليّه وحبيبه والوجيه عنده موسى الكليم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

(٣) أي: ركض خلفه.

(٤) أي: قف يا حجر حتى آخذ ثوبي الذي سلبتنيه.

(٥) أي: مذاكيره وعورته المغلظة. وسميت سوءة؛ لأن صاحب الفطرة السليمة يسوؤه نظر

نظر إليه، قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً». قال أبو هريرة: والله إن بالحجر نُدباً - ستة أو سبعة - من ضرب موسى بالحجر (١).

وللبخاري أيضاً بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ موسى كان رجلاً حيّاً ستيراً، لا يرى شيء من جلده، استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده: إما برص، وإما أدرّة، وإما آفة! وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، وجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملائكة بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون. وقام (٢) الحجر؛ فأخذه بثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، (٣) فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه - ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩] (٤).

الناس لها.

(١) البخاري (٧٨١) مسلم (١٨٣/١) (٩٩/٧).

(٢) أي: وقف عن السير. وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] أي: وقفوا.

(٣) غضباً عليه، وليس هذا بعجب لفرط حياء موسى عليه السلام، فناسب أن يعاقب المتسبب بكشف عورته، ولعل في ذلك الحجر إحساساً ما، فلما ركض بهذه الصورة ناسب أن يُعزَّرَ عليها بما يعاقب عليها من يفعل كفعله أو أقل للجماوية، جزاءً وفاقاً.

(٤) البخاري (١٩٠/٤) (١٥١/٦).

والمقصود أن موسى عليه السلام صبر صبر الكرام على قومه الغلاظ، فكان فيه أسوة لرسوله محمد ﷺ وأمته.

ومن نماذج اتهام نبينا الكريم الصادق الأمين ﷺ في أمانته وعدله ونزاهته، واتهامه بمحabbاته لأقاربه، ما رواه عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أبيه: «أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراجِ الحرّة^(١) التي يسقون فيها النخل، فقال الأنصاري: سَرَّحِ الماءَ يَمْرَ، فأبى عليه^(٢) فاختصما عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصاري، ثم قال لرسول الله ﷺ: إن كان ابن عمك؟^(٣) فتلَوْن وجه رسول الله ﷺ^(٤) ثم قال للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى

(١) الحرّة: الأرض ذات الحجارة السود، والشِراج: جمع شرجة، وهي مسيل الماء من الحزن إلى السهل. والحرار كثيرة في المدينة وما حولها، وفي وصفها: أنها أرض ذات نخل بين حرّتين.

(٢) لأن أرضه متقدمة ومرتفعة على مستوى أرض الأنصاري، فله أن يأخذ كفايته ثم يسرّح الماء، ولكن الأنصاري ألحّ في تسريحه قبل اكتفاء نخل الزبير. ولاحظ حرص الرواة على الستر كما في أمثال هذه الأخبار، فلم يذكروا اسم الأنصاري على غلظ كلمته وشناعة مؤداها، فالعبرة إنما هي في أخذ العبرة وسوق الفائدة، لا في التعبير على ذنب ربما يكون قد تاب منه صاحبه، ولو كان معروفاً مشهوراً بالنفاق لم يبهموه، والله أعلم.

(٣) أي: أنك تحاييه لقرابته منك! وحاشاه صلوات الله وسلامه وبركاته عن أدنى مثلبة.

(٤) أي: من الغضب لاتهامه في نزاهته. وكانت مشاعر رسول الله ﷺ تظهر على وجهه الشريف لصدقه وصفائه ووضوحه وعدم تكلفه وغموضه.

الجُدُر^(١)»^(٢). فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَرِّجُوكَ فِي مَآشَ جَرَبٍ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]^(٣). وللبخاري عن عروة قال: «خاصم الزبير رجلاً... وذكر نحوه، وزاد: «فاستوعى»^(٤) رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه. وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ^(٥) الأنصاري رسول الله ﷺ، استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم»^(٦).

وتأمل حديث الإفك واستلهم عبره وفوائده، فإن فيه من كنوز العلم وذخائر الحكمة الكثير، وقد كتبت في ذلك رسالة مطبوعة بعنوان: (حديث الإفك عبرٌ وعبرات) ضمنتها فوائد وفقرًا مما كتبه أهل العلم في ظلال تيك القصة الشديدة الهائلة التي احتبس الوحي في أثنائها شهراً كاملاً والمنافقون ومن تأثر بهم يلوكون

(١) الجدر: جمع جدار، وهو هنا أصل الحائط والجدار، أي: اسق وأغلق القناة حتى يبلغ الماء غاية أصل الجدار ثم أرسله.

(٢) كان قد أمره بالإحسان وإرسال الماء قبل كفايته التامة مراعاة لحال الجار الأنصاري، فلما قال الرجل ما قال، أمره بالعدل الواجب فقط دون الإحسان المستحب، وهو أن يأخذ كفايته تامة تأدياً للرجل.

(٣) البخاري (١٤٥/٣) مسلم (٩٠/٧).

(٤) فاستوعى أي: استوعب واستوفى واستكمل كفايته من الماء.

(٥) أي: أغضبه وأثار حفيظته.

(٦) البخاري (٢٧٠٨).

عرضه الشريف حتى فرّج الله الكربة بأعظم براءة، بما أغنى عن الإعادة هنا.

ولو سلم عرض أحد لسلم عرضه ﷺ، وقد أخرج القصة الأئمة والمحدثون كالشيخين وغيرهما، وسأسردها لك بلسان الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد أخرج أبو عبد الله البخاري في صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت:

«كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، دنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقممت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن.

فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيّمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني، فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت.

وكان صفوان بن المعطلّ السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رأي، وكان رأي قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبائي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه.

وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها فقامت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول. قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نفهتُ فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وكان متبرّزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئس ما قلت، أتسيين رجلاً شهد بدرًا؟!!

فقلت: أي هنتاه، ولم تسمعي ما قال؟ قلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددتُ مرضًا على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي، دخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكَم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأريد أن أستيغن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن عليها. فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟! فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما، ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير،^(١) وسل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟». قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

(١) لم يقلها عن شك ولا ريبة في عائشة حاشاه رضي الله عنه وعنهما، ولكنه غلب مصلحة راحة رسول الله ﷺ من القيل والقال في ابتعاده عن كل ما من شأنه أن يثير القلق من جهة ألسن المنافقين.

فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر، فقال: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذة وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحَيَّان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالتُّ كبدي!

فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستاذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي. فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها. وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب؛ تاب الله عليه».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلصَ دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجبني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة؛ لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة؛ لتصدقوني، فوالله لا أجدي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي براءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

فسرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة أما الله فقد برأك».

فقال لي أُمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢﴾ وَلَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ إِذْ تَقَوَّيْتُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٢٠﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَمَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١﴾ وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٢٥﴾ الْخَيْثُوكُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَبِثُونَ لِلْخَيْثِاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿[النور: ١١-٢٦]. ثم أنزل

الله هذا في براءتي.

وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: «ماذا علمتِ أو رأيتِ؟» قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قُتل، بعد ذلك في سبيل الله» (١).



(١) البخاري، باب: حديث الإفك. (٤١٤١) وقد ذكر قطعاً منه في مواضع، وهذا أو عُبَّها.

الصبر لله في التحلّم وكظم الغيظ

من أصعب مواطن الصبر؛ التصبر والحلم وكظم الغيظ والأناة والعفو في المواقف المستفزة التي تطيش فيها أحلام الحلماء وتعزب عن رأيها عقول الحكماء، حتى إذا هدأت العاصفة وانجلى الغبار وسطعت شمس العقل على أطلال ذلك الحدث الذي صار ماضيًا حينها يقرع من لم يحلم ويكظم ويتأن سن الندم، ويضع كف حيرته على ذقنه متسائلًا: كيف حدث هذا؟!

وعاقبة الصبر الجميل جميلةٌ وأفضل أخلاق الرجال التّفَضُّلُ
ولا عارَ إنْ زالتْ عن المرءِ نعمةٌ ولكنَّ عارًا أن يزولَ التَّجَمُّلُ

وكما أن الصبر صفةٌ جبلةٌ وصفةٌ اكتسابٌ فكذلك الحلم وكظم الغيظ، فقد يحدث أن يكون المرء بجبلته وافر الحلم أصلاً فهو غير محتاج إلى كبير تصبّر في أمر التحلّم وتجرّع مرارات وغصص الغيظ.

وقد يكون المرء بين بين، فحيناً يثبت كالطود الشامخ عند اشتداد هبات مدلهمات طيش المشاعر، وحيناً يسقط صريع الغضب الغادر بسكينة العقل، فيتسرّع منفعلاً بدفع الغضب المتفجّر في صدره؛ فيفقد موقفاً كان أحقّ بكسبه، ويضيع صاحباً أو زوجاً كان أولى بالتحلّم لأجله، وينطق بهجراً كان في هدوئه أبعد الناس منه، ويمسي قد شابته المجانين إذ حُفِظت عليه فعلاً تُهمُّ، وضُبطت عليه ألفاظهم، فالغضب الجامح شعبة من الجنون الرامح، فهذا محتاج لجُرْعَاتِ تحلّمٍ، وتكْظُمٍ، وتَعَقُّلٍ، ودُرِيَّةٍ ورياضةٍ على كلّ ذلك، وأتّى هذا إلا بالصبر بالله والله بإذن الله تعالى، وأكثر الناس من هذا القبيل، والله المستعان.

وقد يكون المرء بطبعه ومزاجه وخلقته عجولاً، غضوباً، ضيق العطن، صغير الصدر، حارّ الدم، سريعاً في اتخاذ قراراته حال غلبة الغضب عليه؛ فهذا أشدّ حاجةً لأن يوطّن نفسه على غمرات الحلم، فالحلم يزداد بالممارسة والتحلّم، فإذا درّب الإنسان نفسه ارتاضت الحلم شيئاً فشيئاً، حتى يكون سجيّة لها.

وسيكون الأمر في ابتدائه شاقاً ومعرّضاً لتجارب فشل غير قليلة، ولكن مع التوكّل على الله تعالى وصدق التفويض له واستمرار الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة به من عدوه الرجيم ودعائه والاستعانة بالصبر والصلاة وإدمان التفكير في عاقبة الحلم والطيش؛ يصل صاحبنا بفضل الله لساحل كظم الغيظ وبرّ الحلم. ولم أر مثلاً الشكر جنة غارسٍ ولم أر مثلاً الصبر جنة لابسٍ والشديد حقاً هو من حكم زمام عقله، فلم يفلته لسطوة غضب، أو لكزة عداوة، أو ركضة استفزاز، أو لوعة فراق، بل ولا لنشوة فرح، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ^(١)، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢).

ولقد وصف الرفيق الشفيق الطبيب العليم ﷺ شفاء ذلك، قال العثيمين رحمه الله تعالى: «بيّن النبي ﷺ أن القوي الشديد ليس بالصُّرْعَةِ، بل القوي في الحقيقة هو الذي يصرع نفسه إذا صارحته وغضب، ملكها وتحكّم فيها؛ لأن هذه هي القوة الحقيقية. ففي الحديث الحث على أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب،

(١) أي: من يصرع الناس كثيراً.

(٢) البخاري ٨/ ٣٤ (٦١١٤)، ومسلم ٨/ ٣٠ (٢٦٠٩) (١٠٧).

فإذا غضب فعليه أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، وإن كان قائماً فليقعد، وإن كان قاعداً فليضطجع، وإن خاف خرج من المكان الذي هو فيه، حتى لا ينفذ غضبه فيندم»^(١).

هذا؛ وإن للاستعاذة بالله تعالى من الشيطان حال الغضب أثرها الفوري العجيب في السيطرة عليه؛ فعن سليمان بن صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبان، وأحدهما قد احمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ذهب منه ما يجد». فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(٣).

وتأمل كيف أبى شيطانه عليه أن يستعيز بالله منه ففي رواية: فقال: «أيرى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب». وفي رواية: قالوا له: «ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون»^(٤).

وعند أبي داود: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً، حتى خِيلَ إِيَّيَّ أَنْ أَنْفَهُ يَتَمَزَّعُ^(٥) من شدة غضبه! فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ١٢٤ - ١٢٥).

(٢) هي ما أحاط بالعنق من العروق، وهما ودجان كبيران على اليمين واليسرة.

(٣) البخاري ٤/ ١٥٠ (٣٢٨٢) ومسلم ٨/ ٣٠ (٢٦١٠) (١٠٩).

(٤) البخاري (٨/ ٣٤) مسلم (٨/ ٣٠).

(٥) أي يتشقق أو يتقطع.

لوقالها لذهب عنه ما يجد من الغضب»، فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم»، قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومَحَك (١) وجعل يزداد غضبًا» (٢).

واعلم أن قوله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد..»، خبرٌ صدق، ووحى حق من الحق، فالواجب العمل به كأمثاله من الأخبار النبوية، تحقيقًا لا تحقُّقًا، ويقينًا لا تجربة.

فالذي خلق الإنسان وأخلاقه والجآن ووسواسه؛ هو من فتح لنا باب النصر أمامه بصدق الالتجاء له، والاستعانة والاستعاذة به من كل شيطانٍ غادر، ونفسٍ بالسوء أمارة، وخُلِقَ بالجهل مهلك، إلا من رحم الرحمن، والله المستعان.

ومن لزم الاستعاذة بربه أعاده، فهو لا يخلف الميعاد، ولا يخيب من وثق به، ولا يخذل من صدَّقه، وللرازي تنبيه لطيف، واستنباط عزيز في ختام سورتي الفلق والناس، إذ قال رحمه الله تعالى: «واعلم أن لهذه السورة لطيفة أخرى: وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة

(١) قال ابن سيده: «المَحَك: اللِّجاج، مَحَكَ يَمَحِكُ مَحَكًا، وقيل المحك: التَّمادي في اللِّجاجة عند المساومة والغضب ونحو ذلك، وقد مَحَكَ مَحَكًا وتَمَاحَكَ التَّيَّعان

والخصمان: تَلَجَّأ». المخصص لابن سيده (٤ / ٧٧).

(٢) أبو داود (٤٧٨٠).

واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين: أنّ الثناء يجب أن يتقدّر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أنّ مضرّة الدين وإن قلت: أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت»^(١).

ومن حسين طرائق التحلّم؛ التفكير في جمال عاقبته، فعن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال: «من كظم غيظاً»^(٢) وهو قادر على أن يُنفِذَهُ؛ دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخَيِّرَهُ من الحور العين ما شاء»^(٣).

وتأمل كيف قصر النبي ﷺ الوصايا على تجنّب الغضب! فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أوصني. قال: «لا تغضب» فردد مراراً، قال: «لا تغضب»^(٤).

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير (٣٧٨ / ٣٢) مع التنبيه إلى أن هذا التفسير وأمثاله لا يقرأه إلا من تمكّن من أصول الدين لكشف الشبه العقديّة التي يوردها المصنفون، والله المستعان.

(٢) قال العثيمين رحمه الله تعالى: «الغيظ: هو الغضب الشديد، والإنسان الغاضب هو الذي يتصور نفسه أنه قادر على أن يُنفِذَ، لأن من لا يستطيع لا يغضب لكنه يحزن، ولهذا يوصف الله بالغضب». شرح رياض الصالحين (١ / ١٢٥).

(٣) أبو داود (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) والترمذي (٢٠٢١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢ / ٤٠٧).

(٤) البخاري ٨ / ٣٥ (٦١١٦).

إنَّ الغضب سلاح ذو حدّين، وقد جعله الله تعالى غريزةً دفاعيةً في الإنسان، يدفع بصولته عنه وعمن يحوطهم عاديّاتِ الخلائق، ولو لم يغضب لم يَصُلْ ولم يحارب ولم يهاجم ولم يدافع، ولكن الخطر الكامن هو أن يتقلب سلاحه ضده حين ينفلت منه زمام تحكمه فيه بطيش عقله غضبًا عن مواقع حلمه وأناته وصفائه، فيشب عليه كالليث العادي الضاري فيفتك به حين يطلق يده أو لسانه بما لا يفعله إبان هدوئه واستحكام عقله، وهذا يكون فيمن لا يملك سلاحه الغضبي، فيرتد راجعًا عليه فيقطعنه في أعلى ما يملك وهو القلب! فقد ذهبت ليلي فما أنت صانع؟ فمن ملك سلاح غضبه وأحكمه بيد الحلم والكظم والعقل والأناة والحكمة؛ كان هو الموفق حقًا.

إذا لم تتسامح بالأمور تعقّدت عليك فسامح وامزج العُسر باليسر
فلم أر أوقى للبلَاء من التُّقى ولم أر للمكروه أشفى من الصبر



عشرون سبباً للحلم والعفو

من رحمة الله تعالى بنا أن ركب فينا أخلاقاً مطبوعة، وغرائزَ كامنة، وعقلاً قابلاً للتعليم بالمعرفة والتجربة، والعقل الموفق هو من سعى لصالح أخلاقه وجميل سجايه، مهما تعثر في ميادين التجارب، وسقط في امتحانات الحياة، فهو عاقل يميز صالحه، وحكيم يُدبر منفعه، ومريد عازم يسير مكملاً ما استطاع من مراضي ربه عنه.

وفي هذه الحياة الشاقة، والأزمة العصية، والبلايا المزرية؛ لا بد للمرء من خلطة الناس، وبما أن الناس ليسوا على خلقٍ واحد، ولا عقل واحد، ولا سجايا واحدة، فلا بد من اختلاف، ومن بعد هذا الاختلاف من نزاعٍ جَلْبًا أو دفعًا، فالاختلاف مع الخلطة مؤدٌ لهذا ولا بد، وليس الاعتزال بحلٍّ ناجعٍ على الدوام، بل الصبر الإيجابي، والخلطة المصلحة، والإحسان الطيب؛ هو ما يميز المؤمن الموفق الكريم على ربه، ممن حُرِّمُوا وخُذِلُوا وتركوا لطبع نفوسهم الجاهلة الظالمة، وعلى قدر إحسان جوارِ الابتلاء اليوم يكون عظيم الجزاء وحسن الثواب غداً، والموفق من وفقه مولاه تبارك وتعالى.

ولقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عشرين سبباً معيناً على الصبر على أذى الخلق ومصابرة الغيظ لله تعالى فقال: «جعل الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بكل منزلة خيراً منه، فهم دائماً في نعمةٍ من ربهم، أصابهم ما يُحِبُّون أو ما يكرهون، وجعل أقضيته وأقداره التي يقضيها لهم ويُقدرها عليهم متاجرَ يربحون بها عليه، وطُرُقاً يصلون منها إليه. ويُعين العبد على الصبر عدةٌ أشياء:

أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالقُ أفعالِ العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشئته، فالعباد آله، فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تستريح من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَرُ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلَّطهم عليه بسببها، عن ذمهم ولومهم والوقعة فيهم. وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقِّه نعمةً. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من جواهر الكلام: «لا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ عَبْدٌ إِلَّا ذَنْبَهُ».

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولما كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: «إِلَّا لِيُقَمَّ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. فَلَا يُقَوْمُ

إِلَّا مِنْ عَفَا وَأَصْلَحَ»^(١). وإذا شهدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء؛ سهَّلَ عليه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش والغُلِّ وطلب الانتقام وإرادة الشرِّ، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أخذ منه درهمٌ فعوَّضَ عليه ألوفاً من الدنانير، فحينئذٍ يفرح بما منَّ الله عليه أعظمَ فرح يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قطُّ لنفسه إلاَّ أورثه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عفا أعزَّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاَّ عزًّا»^(٢). فالعزَّ الحاصل له بالعفو أحبُّ إليه وأنفع له من العزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عزٌّ في الظاهر، وهو يُورث في الباطن ذُلًّا، والعفو ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

السادس: وهي من أعظم الفوائد: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالمٌ مذنب، وأنَّ من عفا عن الناس عفاً الله عنه، ومن عَفَرَ لهم عَفَرَ الله له. فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله

(١) ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس وأنس. انظر: الدر المنثور (٣٥٩/٧).

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويُحَسِّن إليه على ذنوبه، وَيَسْهُل عليه عَفْوُه وصَبْرُه، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع: أن يَعْلَم أنه إذا اشغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرَّق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يُمكن استدراكه، ولعلَّ هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه، وانتصاره لها، فإن رسول الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمهم على الله لم يَنْتَقِمْ لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلَّق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدُها من كلِّ خُلُقٍ مذموم، وأحقُّها بكلِّ خُلُقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن يَنْتَقِمُ لها، فكيف يَنْتَقِمُ أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تُساوي نفسه عنده أن يَنْتَقِمَ لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أُوذِيَ على ما فعله الله، أو على ما أُمِرَ به من طاعته ونهي عنه من معصيته، وجبَ عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أُوذِيَ في الله فأجره على الله. ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبَتْ دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونةً، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلبَ الثمنَ منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنه من كان في الله تَكْلَفُه كان على الله خَلْفُه، وإن كان قد أُوذِيَ على مصيبة فليَرْجِعْ باللومِ على نفسه، ويكون في لومه

لها شُغْلٌ عن لَوْمِهِ لمن آذاه^(١).

وإن كان قد أُؤذي على حظٍّ فليُوطِّن نفسه على الصبر، فإنَّ نيلَ الحُظوظِ دونَه أمرٌ أَمْرٌ من الصَّبْرِ، فمن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجِرِ والأمطارِ والثلوجِ ومشقةِ الأسفارِ ولصوصِ الطريقِ، وإلا فلا حاجةَ له في المتاجر.

وهذا أمرٌ معلوم عند الناس أنَّ مَنْ صدَّقَ في طلب شيءٍ من الأشياءِ بُدِّلَ من الصبرِ في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: أن يشهدَ معيَّةَ الله معه إذا صَبَرَ، ومحبةَ الله له إذا صَبَرَ، ورضاه.

ومن كان الله معه دَفَعَ عنه أنواعَ الأذى والمضراتِ ما لا يدفعه عنه أحدٌ من خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الحادي عشر: أن يشهدَ أن الصبرَ نصفُ الإيمانِ، فلا يبدلُ من إيمانه جزاءً في نُصرةِ نفسه، فإذا صَبَرَ فقد أحرَزَ إيمانه، وصانَه من النقصِ، والله يدفع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهدَ أنَّ صبرَه حكمٌ منه على نفسه، وقهرٌ لها وغلبةٌ لها، فمتى

(١) وهذا معنى شريف ونفيس جداً، قل من يفطن له، فكثير ممن يؤذون في زماننا من أهل العلم والدين سبب أذاهم قيامهم لله تعالى، فهم من جنس المجاهدين في سبيله؛ فلا يُشرع لهم الانتقام، وأجرهم على من قاموا لأجله سبحانه وبحمده وهو الحميد الشكور.

كانت النفس مقهورةً معه مغلوبةً، لم تطمع في استرقاقه وأسره وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها، لم تزل به حتى تُهلكه، أو تتداركه رحمةً من ربه.

فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذٍ يظهر سلطان القلب، وتثبت جنوده، ويفرح ويقوى، ويطرّد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصرُه ولا بدَّ، فالله وكيلٌ من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها. فأين من ناصرُه الله خيرُ الناصرين إلى من ناصرُه نفسه أعجز الناصرين وأضعفه؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيدائه له مستحيًا منه نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُوحَضِّ عَظِيمٍ ﴿فصلت: ٣٤-٣٥﴾.

الخامس عشر: ربّما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شرّ خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا أمّن من هذا الضرر، والعاقِل لا يختارُ أعظم الضررين بدفع أدهما.

وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شرّ عجز صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهب نفوس ورياسات وأموال لو عفا المظلوم لبقيت له.

السادس عشر: أنَّ من اعتاد الانتقام ولم يصبر لأبد أن يقع في الظلم، فإنَّ النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علماً ولا إرادةً، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإنَّ الغضب يخرج بصاحبه إلى حدٍّ لا يعقل ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم ينتظر النضر والعز، إذ انقلب ظالماً ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر: أنَّ هذه المظلمة التي ظلمها هي سبب إما لتكفير سيئته، أو رفع درجته، فإذا انتقم لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

الثامن عشر: أنَّ عفوّه وصبره من أكبر الجُود له على خصمه، فإنَّ من صبر وعفا كان صبره وعفوه مُوجباً لذلِّ عدوّه وخوفه وخشيته منه ومن الناس، فإنَّ الناس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله. ولهذا تجد كثيراً من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يُحبُّ أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثِقلاً كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربّح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولّد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولّد له أخرى، وهلمَّ جرّاً، فلا تزال حسناته في مزيد، فإنَّ من ثواب الحسنة الحسنة، كما أنَّ من عقاب السيئة السيئة بعدها. وربّما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك»^(١).

(١) قاعدة في الصبر، ضمن جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق عزيز شمس (١ / ١٦٥ - ١٧٤).

والعفو لا يذهب هدرًا ولا يضيع مجانًا كما يظنه بعضهم، بل أجره محفوظ وبرُّه مذخور، وعاقبته الحسنى مكنوزة أحوج ما يكون إليها عند من لا يضيع لديه من أحسن عمله وأصلح دينه وتوكل على ربه، فهو الغابن والمغبوط في الدنيا والآخرة، وعفوه عند المقدرة رِفْعَةٌ لا ذلة، «وأما الصبر ففيه أجر عظيم فمن أصيب بجرح ونحوه فعفا عن جرحه؛ كان الجرح مصيبة يكفر بها عنه ويؤجر على صبره وعلى إحسانه إلى الظالم بالعفو عنه، فمن توهم أن بالعفو قد يسقط حقه أو ينقص قدره أو يحصل له ذل فهو غالط، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «ثلاث إن كنت لحالفًا عليهن: ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما نقصت صدقة من مال، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(١).

وهذا ردُّ لما يظنه من النقص والذل أتباعًا للظن وما تهوى الأنفس: من أن العفو مذلة والصدقة تنقص ماله والتواضع يخفضه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله فيتقم لله.

والناس أربعة: منهم من يتنصر لنفسه ولربه، وهو الذي فيه دين وغضب الله. ومنهم من لا يتنصر لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه جبن وضعف دين. ومنهم من يتقم لنفسه لا لربه، وهو شر الأقسام. وأما الكامل فهو الذي يتنصر لحق الله ويعفو عن حق نفسه عند المقدرة»^(٢).

«والفرق بين العفو والذل؛ أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع

(١) مسلم (٢٥٨٨).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية (١ / ٣٦١).

قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود. ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيتهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه؛ نديهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمة.

فإن قيل فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا نديهم إلى العفو. قال بعض السلف في هذه الآية: «كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا»^(١). فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذل وعجز ومهانة. وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩] ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

(١) قاله إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى. البخاري (٢٤٤٦).

لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»^(١). ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا، وأحاطت بهم قدرتك. إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء.

والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو. ولهذا ما انتقم رسول الله لنفسه قط. وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً، بل لا بد من المجاوزة؛ شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرّم الزيادة، وندب إلى العفو.

والمقصود؛ أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الإمارة. ونكتة المسألة: أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه، فإنه حينئذ ينال حظاً من العز الذي قسمه الله للمؤمنين، فإذا بُغِيَ عليه انتصر من الباغي من أجل

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (٢٤)، عن شهر بن حوشب. ورواه أبو نعيم في حلبة الأولياء (٦/ ٧٤) عن حسان بن عطية. وقال الذهبي: إسناده قوي. ووافقه الألباني.

عز الله الذي أعزّه به غيره على ذلك العز أن يُستضام ويُقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يُستدل. فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يُذلُّ مملوكه، ولا يُحب أن يذله أحد.

وإذا كانت نفسه الأمانة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظّها وظفرها بالباغي تشفياً فيه وإذلاًّ له، وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها؛ فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضُرب لذلك مثلاً؛ بعبدین من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه، فنفا المضروب الضرب عن الضارب نصحاً منه لسيده، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد! فلم يحشم سيده عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي على عفوهِ ووقع منه بموقع.

وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجملته وألبسه ثياباً يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعدرة أو مزّقها، فلو عفا عن فعل به ذلك لم يُوافق عفوهُ رأي سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليّ واستخفافاً بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به فذلّ وانكسر قلبه فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظة، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روى عن علي رضي الله عنه أنه مرّ برجل فاستغاث به وقال: «هذا منعني حقي ولم يعطني إياه»، فقال: «أعطه حقه». فلما جاوزهما لجّ الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعليّ فرجع، وقال: «أتاك الغوث!». فقال له: استقدّته^(١)، فقال^(٢): قد عفوتُ يا أمير المؤمنين. فضربه على تسع دور، وقال: «قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان»^(٣). فعاقبه على لما اجتراً على سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «احمليني فوالله لأنا أفرسُ منك ومن ابنك»، وعنده المغيرة بن شعبة فحسر عن ذراعه وصلّ بها أنف الرجل فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالوا: أقدنا من المغيرة فقال: «أنا أقيدكم من وزعة الله؟! لا أقيدكم منه». فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغير وحمية الله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله ﷺ ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه، فترك قودَه لا جترائه على عز الله وسلطانته الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لونٌ والضرب حمية للنفس الأمانة لون.

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به. وهذا بخلاف البله والغفلة؛ فإنها جهلٌ وقلة معرفة، وهذا لا يُحمد إذ هو نقص.

(١) في الأصل «استقدمته»، فلعل الصواب ما أثبتّه، والمعنى: اقدته مني فاقتص مني لطمته، أو أنها «استسمحته» أو «استرضيته»، ونحو ذلك، والقائل هو الظالم.

(٢) أي: أن المظلوم عفا عمّن لطمه لما مكّن من نفسه لاقتصاص لطمته بمثله.

(٣) وهو ما يسمى عرفياً اليوم بالحق العام.

وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه. والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشرِّ سليماً من إرادته، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لست بخبٍّ ولا يخدعني الخبُّ»^(١). وكان عمر أعقل من أن يُخدع وأورع من أن يخدع.

وقال تعالى: ﴿يُوقِرْ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] فهذا هو السليم من الآفات التي تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا^(٢). وبالله تعالى التوفيق.



(١) الخبُّ: المخادع.

(٢) الروح (٢٤٢ - ٢٤٤). وقد عزاه إليه أيضاً ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣٠٢) وهو مروي عن إياس بن معاوية، رواه ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١ / ٣٩٤) ووكيعة في «أخبار القضاة» (١ / ٣٤٨) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠ / ١٩). ولفظ وكيعة: «لست بخبٍّ، والخبُّ لا يخدعني، ولا يخدع ابن سيرين، ويخدع الحسن، ويخدع أبا معاوية بن قرة، ويخدع عمر بن عبد العزيز».

جمرة الغضب!

الناس مختلفون في كمية طاقة هذه الغريزة الحمراء في نفوسهم، فمنهم غزيرها وشديدها، ومنهم دون ذلك، كما يختلفون في درجة احتياها، فمنهم أشدُّ الشكيمة أقوياء الإرادة تجاهها، فيخطمونها بلجام الحلم، ويربطونها بحبال العقل، ومنهم ذووا طيش وضعف عقل فتملكهم وتسبيهم، وتهوي بهم من حلق الحكمة، وتنتهي بهم لحفر الحزن والندم، والله المستعان. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في كلام طويل وسنطيل النفس معه بشيء من الاختصار لنفاسته وندرته، فقد أوتي هذا الفذ فهماً ثاقباً قي علل النفوس وأدوائها وحسن تصويرها: «ومن الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكفّ نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام»^(١).

أقسام الناس في الغضب:

والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء^(٢) سريع الوقود سريع الحمود،

(١) وخير له لو لم يكف نفسه كثيراً حتى لا تبقى جمرة الحقد تأكل روحه وعقله ودينه! والخير كل الخير فيمن ملك نفسه ابتداء وطهر قلبه انتهاء، نسأل الله الكريم قلوباً سليمة بيضاء طاهرة.

(٢) نبات سريع الانتقاد، ينبت غالباً في مجاري الأودية. وهو سريع الضعف عند ييوسه، وأبلغ في المثال لو شبهه المؤلف بخوص جريد النخل؛ فلا أسرع من شوبه وخموده، وقريب من شماريخ يابس العراجين، أي: عذوق النخل.

وبعضهم كالغضا^(١) بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود، وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار^(٢)، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان».

وبالجملة ففوة الغضب محلها القلب، ومعناها: غليان دم القلب بطلب الانتقام. وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها، وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به.

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفریط والإفراط والاعتدال، أما التفریط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له، فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً،

(١) وهو شجر متوسط يستعز في الرمال والكتبان، يشبه الأثل إلا أنه أصغر، والعرب تذكر شدة حرارة جمرته وبطء انطفائها. وهو من الأشجار التي تغنى بها الشعراء في ذكر الأطلال، فهي من شجر بلاد العرب، كذلك في استعارة حر جمرها لحرارة القلوب.

(٢) يقصد أن الغضب غريزة إنسانية محمودة في وقتها، فمن استغضبه الناس في أمر يجب فيه أن يغضب فلم يغضب فهو أبلد من الحمار، فليس الغضب في حينه مذموماً، بل محموداً، شريطة أن يملك الإنسان نفسه عنده، فيكون حليماً كظوماً للغضب، متحكماً فيه، متمكناً من عقله وجأشه وقوله وفعله، فهذا هو الشديد حقاً.

وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال لنبیه ﷺ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب، فلا تفريط ولا إفراط، والإفراط: هو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر.

قبح آثار الغضب:

وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية، فربّ إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب، لأن الغضب من النار، وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سَوْرته، وأما الأسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قومًا يتجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية! فيقول الواحد منهم: أنا الذي لا أصبر على المكر، ولا أحتمل من أحد أمرًا، ومعناه لا عقل في ولا حلم.

ثم يذكره في معرض الفخر بجهله! فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم، فيقوى به الغضب.

ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا وُعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبًا، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فإن معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى

الدماغ يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسودّ عليه الدنيا بأسرها، ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار، فاسودّ جوّه، وحُمي مستقرّه، وامتألت بالدخان جوانبه، وكان فيه سراج ضعيف فانمحي أو انطفأ نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يُسمع فيه كلام، ولا تُرى فيه صورة، ولا يُقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج، بل ينبغي أن يُصبرَ إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق!

فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما تقوى نار الغضب فتُفني الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظًا، كما تقوى النار في الكهف فينشقّ وتنهدُّ أعاليه على أسفله، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه، فهكذا حال القلب عند الغضب.

وبالحقيقة؛ فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالًا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظًا، إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتديرها وينظر لها ويسوسّها، وأما القلب فهو صاحب السفينة، وقد سقطت حيلته إذا أعماه الغضب وأصمّه.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر؛ تغيرُ اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزَبْدُ على الأشداق، وتحمرُّ الأُحداق، وتنقلب المناخر، وتستحيل الخَلَقَةُ، ولورأى الغضبان في حالة غضبه قُبَحَ صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقتة!

وقبْحُ باطنه أعظم من قبْح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً، ثم انتشر قبْحها إلى الظاهر ثانياً، فتغيَّر الظاهر ثمرة تغير الباطن، ففس الثمرة بالمتَّمرة، فهذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان؛ فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبُّط النظم واضطراب اللفظ.

أما أثره على الأعضاء؛ فالضرب والتهجُّم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعَجَزَ عن التشفِّي؛ رجع الغضب على صاحبه؛ فمزق ثوب نفسه ولطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدُوَّ الواله السكران والمدهوش المتحير، وربما يسقط صريعاً لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب، وتصيبه مثلُ الغشية، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلاً على الأرض، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها، ويتعاطى أفعال المجانين فيشتتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول: إلى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلاً! حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه؛ فالحقد، والحسد، وإضرار السوء، والشَّاتة بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر وهتك الستر، والاستهزاء، وغير ذلك من القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط.

عيب من لا يغضب بالمرّة:

وأما ثمرة الحميّة الضعيفة: فقلّة الأنفة مما يُؤنف منه من التعرض للحُرْم والزوجة والأمة، واحتمال الذل من الأخسّاء، وصغر النفس والقماءة، وهو أيضًا مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة، قال ﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد؟! أنا أغير من سعد، والله أغير مني ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله ولا أحب إليه المعاذير، ولذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله، ولذلك وعد الجنة»^(١).
 وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها.

ومن ضعف الغضب؛ الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ^(٢) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه

(١) مسلم (٤ / ٢١١).

(٢) وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفتق في وجهه حبّ الرمان من الغضب. فقال: «بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلك الأمم قبلكم». قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه. أخرجه أحمد ١٧٨ / ٢ (٦٦٦٨) والبخاري في خلق أفعال العباد (٣٠).

عند الميل إلى الشهوات الخسيسة.

كمال الغضب في اعتداله :

ففقّد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضبٌ ينتظرُ إشارةَ العقل والدين،
فينبعث حيث تجب الحميّة وينطفئ حيث يحسن الحلم.

وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو
الوسط وخير الأمور أوسطها^(١) فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه
بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضميم في غير محله؛ فينبغي أن يعالج
نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جرّه إلى التهور واقتحام

(١) قال أيمن صالح شعبان في جامع الأصول في أحاديث الرسول (١ / ٣١٩): «عزاه
الحافظ السخاوي لابن السمعياني في ذيل تاريخ بغداد بسند فيه مجهول عن علي
مرفوعاً، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس بنحوه. وقال العجلوني: قال ابن الغرس:
ضعيف.

قلت: وقفت عليه مقطوعاً من قول مطرف بسند صحيح رواه البيهقي في الشعب
(٦٦٠١) ولم أهتد إليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «وخير الأمور أوسطها»
معناه: أن كل خصلة محمودة، فإن لها طرفين مذمومين، مثل أن السخاء وسط بين
البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل
وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه، والتباعد عنه، فكلما ازداد منه بعداً ازداد منه
تعرياً، وأبعد الجهات والأماكن والمقادير من كل طرفين فإنها هو وسطها؛ لأن الوسط
أبعد الجهات من الأطراف، وهو غاية البعد عنها، فإذا كان في الوسط فقد تعرى عن
الأطراف المذمومة بقدر الإمكان، فلهذا كان خير الأمور أوسطها». أه.

الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله، ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض، فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأله الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير.

هل يمكن إزالة أصل الغضب بالرياضة؟

أعلم أنه قد ظن ظانون أنه يُتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج، وهذا رأي من يظن أن الخلق كالحلق وكلاهما لا يقبل التغيير.

وكلا الرأيين ضعيف، بل الحق فيه ما نذكره: وهو أنه ما بقي الإنسان يجب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يجب ما يوافقه ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك، فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة، إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما هو ضرورة في حق الكافة، كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه، أو أريق ماؤه

الذي لعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن غيظ على من يتعرض لها.

القسم الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكثران، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت، فهذا الجنس مما يُتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه.

فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز ألا يغضب، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودها، ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها.

وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة في العلم، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل، ومن لا يحب ذلك فلا يبالي ولو جلس في صف النعال، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه.

وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محابب الإنسان ومكارهه، فأكثر غضبه، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أخطأ رتبة وأنقص، لأن الحاجة صفة نقص، فمهما كثرت كثر النقص، والجاهل أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن! حتى ينتهي بعض الجاهل بالعادات الرديئة ومخالطة قرنائه السوء إلى أن يغضب لو قيل

له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور، واللعب بالشطرنج، ولا تقدر على شرب الخمر الكثير، وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل.

فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري؛ لأن حبه ليس بضروري.

القسم الثالث: ما يكون ضروريًا في حق بعض الناس دون البعض، كالكتاب مثلاً في حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها، فإنها هو وسيلة إلى الضروري، والمحجوب يصير ضروريًا ومحجوبًا. وهذا يختلف بالأشخاص، وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «من أصبح منكم آمنًا في سربه»^(١) معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها^(٢)»^(٣).

ومن كان بصيرًا بحقائق الأمور وسلمت له هذه الثلاثة؛ يُتصور ألا يغضب في غيرها، فهذه ثلاثة أقسام؛ فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها أمّا:

القسم الأول: فليست الرياضة فيها لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على ألا يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه

(١) أي: قومه، وقيل: نفسه، وفلان واسع السُّرْب، أي: رخيّ البال.

(٢) بحذافيرها: واحدها حذفار، وقيل: حذفور: أي: فكأنما أعطي الدنيا بأسرها. النهاية (٣٥٦/١).

(٣) ابن ماجه (٤١٤١) والترمذي (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨).

العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكَلَّف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن، نعم يمكن كسر سَوْرَتِهِ وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن، ويتهيئ ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً، وهذا حكم القسم الثالث أيضاً، لأن ما صار ضرورياً في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

وأما القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه، إذ يمكن إخراج حُبِّهِ من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر، وأن مستقره الآخرة، وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره، فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه.

ولو كان للإنسان كلب لا يحبه فلن يغضب إذا ضربه غيره، فالغضب تبع للحب. فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب، وهو نادر جداً، وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون.

فإن قلت الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب، فمن له شاة مثلاً وهي قوته فماتت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة، وليس من ضرورة كل كراهة غضب، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجّام.

فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه^(١)، فلا يغضب على أحد من خلقه إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب، ومن وقّع ملكٌ بضرب رقبتة لم يغضب على القلم، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل، فيندفع الغضب بغلبة التوحيد، ويندفع أيضًا بحسن الظن بالله؛ وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة.

وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب، كما لا يغضب على الفصّاد والحجّام لأنه يرى أن الخيرة فيه، فيقول: هذا على هذا الوجه غير محال، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعًا طبيعيًا لا يندفع عنه، ولو تُصوّر ذلك على الدوام لبشّر لتصوّر لرسول الله ﷺ؛ فإنه كان يغضب حتى

(١) أي: وفقه الله تعالى للعلم بتوحيد الربوبية، واليقين بتصرّف الله تعالى وتديره لكلّ أمور الكون والخلقة، فهذه المعاني وإن كانت موجودة لدى كل مؤمن إلا أن استحضارها في أوقات الشدة والحاجة لا يكون إلا لمن وفقه الله تعالى لذلك، وإلا فكثير من الناس تعذب عن أذهانهم وتغيب عن قلوبهم حين اشتداد الأمر واحتدام الكرب، والله المستعان.

وتأمل حديث أنس رضي الله عنه ووصفه لرسول الله ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين، خدمته عشر سنين، فما لامني على شيء قط أُتي فيه على يدي (أي: أهلك وأتلف). فإن لامني لائم من أهله قال: «دعوه فإنه لو قُضِيَ شيءٌ كان». رواه وأحمد (٣/ ٢٣٠)، والبيهقي (٨٠٧٠) وصححه الألباني.

وقال أيضًا: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت». رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

تحمّر وجنتاه، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمّرت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، حتى كأنه منذر جيش»^(١).

وقال ﷺ: «اللهم إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيتما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة، واجعل ذلك كفارة له إلى يوم القيامة»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا! فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»^(٣). فلم يقل: إني لا أغضب، ولكن قال: إن الغضب لا يخرجني عن الحق، أي لا أعمل بموجب الغضب.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: «كان رسول الله ﷺ لا تغضبه الدنيا، ولا ما

(١) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣) وهذا المثال ليس متسق مع ما ذكره لأنه غضب الله تعالى، أما مثاله الثاني فمتسق.

(٢) البخاري (٩٦/٨) ومسلم (٢٦/٨) سبحان الله؛ حتى ما صدر منه ﷺ مما يرى أنه أذى فحشوة الرحمة، وعاقبته المغفرة لمن أؤذي منه، فانقلب الأذى صلاة وزكاة وقربة وكفارة له إلى يوم القيامة! فصلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته وعباده على هذا الرسول النبي البشير الناصح البر الشفيق الرحمة المهداة وآله.

(٣) أبو داود (٢/ ١٢٤ - ١٢٥) وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

كان لها، فإذا تُعَدِّي الحقُّ لم يَقم لغضبه شيء حتى يتصرَّ له، ولا يغضب لنفسه ولا يتصر لها»^(١). فكان يغضب للحق، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله، فلا يمكن الانفكاك عنه.

نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه؛ فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره، فإنَّ استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه، وهذا كما أن سلمان لما شتم قال: «إن خَفَّت موازيني فأنا شرٌّ مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول». فقد كان همُّه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالثتم.

وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال: «يا هذا قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرٌّ مما تقول».

وسبَّ رجلٌ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «ما ستر الله عنك أكثر». فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان، وذلك لجلالة قدره.

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرأئي! فقال: «ما عرفني غيرك». فكأنه كان

(١) العقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ١٩٧)، وابن حبان في الثقات (٢/ ١٤٥)، والطبراني (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، ومختصر الشمائل للترمذي (١ / ٢٠) وضعفه العراقي والألباني.

مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه، فلم يغضب لما نُسب إليه.

وسبَّ رجل الشعبي فقال: «إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك».

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم، ولكنهم لم يشتغلوا به، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم، فإذا اشتغل القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب.

فإنما يُتصوّر فقد الغيظ إما باشتغال القلب بهمهم، أو بغلبة نظر التوحيد، أو بسبب ثالث وهو أن يعلم أن الله يحب منه ألا يغتاض فتطفئ شدة حبه لله غيظه، وذلك غير محال في أحوال نادرة.

وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب هو محو حبّ الدنيا عن القلب^(١)، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها. ومن أخرج حب المزايا عن القلب

(١) لا يُعاب على المؤمن حبّ الطيبات مما أحلّ الله تعالى له، إنما يعاب ويذم من ذلك ما حرم، أو ما ألهى من المباح، ولعل هذا مقصود المصنف رحمه الله تعالى، فيريد بذلك اقتلاع ما حرم، وتهذيب ما أبيع، حتى لا تطغى الوسيلة على الغاية فيقطع المسافر! فمحبّة ما أحلّ الله محبته من متع الدنيا عريضة لا ينبغي إلغاؤها ولا كبتها ولا ذمّها ولا حرّرها، والسير بالعباد بخلاف ذلك كما ينادي به بعض المتصوّفة هو عكسُ للسنة الربانية التي

تخلص من أكثر أسباب الغضب، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه، فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه، إنه على كل شيء قدير، والحمد لله وحده.

الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حَسُمَ مادتها وإزالة أسبابها، فلا بد من معرفة أسباب الغضب.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو، والعُجب، والمزاح، والهزل، والهزء، والتعير، والمهارة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه.

وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها، فينبغي أن تمت الزهو

أجرى عليها نفوس العباد، وقلبٌ للغرائز الإنسانية التي أطلقها بتهذيب شرع الله المجيد.

وأزهد الناس في الدنيا هو نُبينا ﷺ، ومع ذلك فقد أحبَّ شيئاً منها، ويين لنا ذلك وأشهره على الملأ، حتى لا نُصادم بجهلنا ما استقرّ فينا مما أحله الله لنا من محابٍ تعيننا على طاعته، وتزجي أرواحنا ونشط نفوسنا لسلوك منهاجه، فهو يتلو علينا قول ربنا الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]. ويقول: «حُبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» النسائي (٣٩٣٩) واللفظ له، وأحمد (١٣٠٧٩) وصححه ابن الملقن والألباني.

بالتواضع^(١)، وتمت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد، وإنما الفخر بالفضائل^(٢).

(١) ولكل مؤمن ناصح لنفسه:

خير لك ألا ترى ذاتك..

كن في غبراء الناس، إن حضرت لم يأبهوا لك، وإن غبت لم يفقدوك..

اكسر صولة عجبك بتذكر ذنبك..

وتعاطم نفسك بنقصك وفنائك..

وحرصك بحتم قضائك..

وطول أملك باقترابك كل مرحلة من موعد رحيلك..

اللهم اجعلها للفردوس الأعلى بلا حساب.

(٢) من ثمار الكبر الرديئة: الفخر والعدوان، وتأمل كيف اقتلع التواضع الفخر والبغي من جذورهما.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ

عَلَى أَحَدٍ». رواه مسلم (٢٨٦٥) (٦٤). وفي الابتداء بالإخبار بالإيحاء إيماءً إلى عظمة

شأن التواضع.

واعلم أنه لم يكن من عادة الصدر الأول تصدير الأسماء بألقاب التفخيم كسموه،

معاليه، فضيلته.. إلخ

هذا وللفخر فروع لا تنتهي لأن منبعها الإعجاب بالدنيا ومظاهرها؛ فتارة بالمال

وتارة بالرئاسة وأخرى باللون.. وإن من آحاد الفخر الغربية؛ الفخر بالذكورية كأنها

هو من اختار جنسه، فيكثر الحديث ويطول النقاش عند مسألة التفضيل والمساواة

=

والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل، وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟! (١)

وأما المزاح؛ فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر، وتفضل عنه.

وأما الهزل؛ فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة.

وأما الهزاء؛ فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يُستهزأ بك.

وأما التعيير؛ فالحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مرّ الجواب. وأما شدة الحرص على مزايا العيش؛ فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز

بين الذكر والأنثى بما لا طائل ولا ثمرة من ورائه، والذي ينتهي إليه فضلاء العقلاء أن المسألة في جوهرها: تكامل لا تفاضل، والعاقل من اعتنى بتكميل نقصه، لا بإثبات فضله، والموفق من هداه الله صراطه.

(١) عند طروء الحسب والسلالة الطيبة التي عُنيت بمعالج الأمور على قلب العاقل فإنها: تثمر الهمة العالية، وسمو النفس عن سفساف الأمور، والبعد عن كل ما يشين، والتواضع الصادق.

أما إن وردت قلب السفهية، فإنها: تثمر الكبر، والغرور، والتهيه، والدوران حول ذوات قد فنت، والغفلة عما خلق له. والله المستعان.

الاستغناء، وترفعاً عن ذل الحاجة.

وكلُّ خُلُقٍ من هذه الأخلاق وصِفَةٍ من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبورها، ثم المواظبة على مباشرة أضرارها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هيئته على النفس^(١)، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها.

ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال؛ تسميتهم الغضب شجاعةً ورجوليةً وعزةً نفس وكبراً همّةً، وتلقيه بالألقاب المحموده غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه.

وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيح الغضب إلى القلب بسببه، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعةً جهلٌ، بل هو مرض قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس: أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل.

فالرَّذُلُ يَغْضَبُ لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولُبْخِلِه إذا فاتته الحبة، حتى إنه

(١) ابتداء بالعلم بفضائله، ثم العمل على التخلُّق به، ثم الاستمرار واعتياده حتى يصبح خلقاً راسخاً وبنياً متيناً.

يغضبُ على أهله وولده وأصحابه، بل القويُّ من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تُتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسّن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم.

علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يُضطرَّ صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل، أما العلم فهو ستة أمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار التي جاءت في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفئ عنه غيظه. قال مالك بن أوس ابن الحدثان: غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت: يا أمير المؤمنين، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فكان عمر يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان يتأمل في الآية، وكان وقفاً عند كتاب الله مهما

(١) البخاري ٨/ ٣٤ (٦١١٤) ومسلم ٨/ ٣٠ (٢٦٠٩) (١٠٧).

تلي عليه، كثير التدبر فيه، فتدبر فيه وخلق الرجل.

وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فقال: لغلّامه: خلّ عنه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله، وهو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان^(١)، فلو أمضيتُ غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمّر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشّامة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب، وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن تتشوّش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة؛ فيكون مثاباً عليه.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكّر صورة غيره في حالة

(١) ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه (١٦٥٩) عن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: «كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا».

الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويختار نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبه بالأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعو به إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس، فيقول لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبين!

فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يُعظمه عند الله، فما له وللناس؟! وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن. فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟! ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر

رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ^(١). فإن لم يزل بذلك؛ فاجلس إن كنت قائماً، واضطجع إن كنت جالساً، وأقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذلّ نفسك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون؛ فإن سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر أنه كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا: أيكم يورد على أبي ذر، ويحتسب شعرات من رأسه؟ فقال رجل: أنا، فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقّه، وكان أبو ذر قائماً فجلس، ثم اضطجع. فقليل له: يا أبا ذر، لم جلست ثم اضطجعت؟! فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»^(٢). وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وإذا غضبت فاسكُتْ مرتين»^(٣).

-
- (١) متفق عليه من حديث سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه، قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبان، وأحدهما قد احمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب منه ما يجد». فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم». البخاري ٤/ ١٥٠ (٣٢٨٢) ومسلم ٨/ ٣٠ (٢٦١٠) (١٠٩).
- (٢) أحمد (٢٠٣٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤).
- (٣) البخاري في الأدب المفرد (٢٤٥) وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٤٢): صحيح لغيره.

فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض^(١)، وكأنّ هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعزّ الأعضاء من أذلّ المواضع وهو التراب، لتستشعر به النفس الذل، وتزایل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب. وقال عروة بن محمد: لما استعملتُ على الیمن قال لي أبي: أوّليت؟ قلت: نعم. قال: «فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك، ثم عظم خالقهما».

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وذكر ذلك في معرض المدح، وعن ابن عمر قال: قال ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبداً ابتغاء وجه الله»^(٢).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولو لا يوم القيامة لكان غير ما ترون»^(٣). وقال لقمان لابنه: «يا بني لا تُذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، وأعرف قدرك تنفعك معيشتك». وقال أيوب: «حلم ساعة يدفع شرّاً كثيراً».

(١) أولى من ذلك أن يُصَلِّي، فإنه إذا قال بلسانه ومن وراء لسانه قلبه: الله أكبر؛ اضمحل حينها من قلبه كل نار غضب وزال كل عن بصيرته كل دخن دنيا. وتأمل ملياً قوله ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة». رواه أبو داود (٤٩٨٥)، (٤٩٨٦)، وأحمد (٣١٥٤). وصححه الألباني.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٥٧/٨ وهي حروف عمرية شريفة عظيمة جليّة.

واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض، فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع. وقال رجل لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما تقضي بالعدل، ولا تعطي الجزل! فغضب عمر حتى عُرِفَ ذلك في وجهه^(١). فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، ألا تسمع إلى الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فهذا من الجاهلين، فقال عمر: صدقت، فكأنها كانت نارًا فأطفئت.

وقال محمد بن كعب: «ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله: إذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبد الله أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أقدر، قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك.

(١) وهذا كذلك وصف رسول الله ﷺ، لأن وجهه ﷺ كالشمس والقمر، فإذا كره شيئاً كسا وجهه ظل كالغيم على النيرين، فكان لغاية حياته لا يصرح بكراهته، لأنه لا يواجه أحداً بما يكره، بل إنما يعرف في وجهه. ذكر هذا الوصف الجميل والمثال الجميل، عبد الله عبادي اللحجي في منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ٣٧٩/١

فضيلة الحلم

اعلم أنّ الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأنّ كظم الغيظ عبارة عن التحلّم أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدّة صار ذلك اعتيادًا فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي.

وهو دلالة كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل. ولكن ابتداءه التحلّم وكظم الغيظ تكلفًا، قال ﷺ: «إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحرّ الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه»^(١). وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلّم أولاً وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم.

وقال أبو هريرة: إن رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ»^(٢)، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على

(١) الطبراني في المعجم الأوسط (٢٦٦٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥ / ٢٠١). وانظر:

فتح الباري لابن حجر (١ / ١٩٤). والدارقطني في الأفراد، عن أبي هريرة وعن أبي الدرداء. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

(٢) الملّ: الرماد الحار. قال النووي في الرياض (١ / ٢١٢): «أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم».

ذلك» (١).

وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّدْنِي﴾ [آل عمران: ٧٩] أي: حلماء علماء. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] قال: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي حلماء.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» (٢).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى» (٣).

وقال الحسن: «اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم». وقال أكثم بن صيفي: «دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر».

وقال أبو الدرداء: «أدركتُ الناس ورقاً» (٤) لا شوك فيه، فأصبحوا شوكاً لا

(١) مسلم ٨/٨ (٢٥٥٨) (٢٢).

(٢) مسلم ٣٦/١ (١٧) (٢٥).

(٣) وهذه من جواهر الحكم ودرر الكلم.

(٤) يعني رعى الصحابة رضي الله عنهم، فلا يؤذون، ولا يسيئون الظنون، فهم كالورق النافع الهنيء بلا شوك ولا أذى.

ورق فيه، إن عرّفتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك! قالوا: كيف نصنع؟ قال: «تقرضهم عرضك ليوم فقرك»^(١).

وقال علي رضي الله عنه: «إن أول ما عوّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

وقال معاوية رضي الله عنه: «لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم»^(٢).

وقال معاوية لعمر بن الأَتم: «أي الرجال أشجع؟ قال: من ردّ جهله بحلمه، قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه».

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] «هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي».

وقال بعضهم: «شتمتُ فلاناً من أهل البصرة فحلم عليّ، فاستعبدني بها

(١) أي: لا تتبع زلاتهم عليك، بل اعف واصفح، والله يجزي المتصدقين ويحب المحسنين.

(٢) لأن الإرادة مفتقرة إلى العلم، فإذا تقرر العلم واتضحت الصورة عظمت الرغبة وانبسطت لتحصيلها الإرادة، فمردّ الرغائب والإرادات للعلم، لذلك عظم خطر تكدير العلم وتلوّثه بالشبهات وسيء التصورات والمحدثات. وقس أهمية صحة العلم وقوته في قوة إرادات أهل العلم والعبادة والجهاد والتربية ونحوها.

زمانًا» (١).

وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سُدتَ قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فِعْلِي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه. وسبَّ رجل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيتها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين! فقال: ليس تقبل شهادتك (٢).

(١) ويعني باستعباده ملئ صدره بمعروفه حين حلم عليه بعد جهله هو عليه، وهو من طيب معدنه، فالحر الكريم لا يجحد المعروف ولا ينسى مواقف الكرم. والمعروف رِقٌّ، لذا فالكريم يحاول أن يكون حرًّا بسلامته من معاريف الخلق، بعدم وجوده لا بجحوده.

فسبي الأحرار أنما يكون بمواقف الكرم الأصيل لا المتكلف المزدول. وعند بعض بوادينا عرفٌ جميل يسمونه: «أخوة الدم» ومعناه: أن يكون لرجل دم عند آخر فيعفو عنه بلا مقابل، كرمًا وسماحة لا عجزًا وقصورًا، فيكون المعفو عنه أخًا للعافي حافظًا معروفه لديه وذريته. وقد قالوا: ما تركت الآباء لأبنائها خير من كرائم معروف في أعناق الأحرار.. ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا!

(٢) وتدبر رد هود عليه السلام على قومه حينما اتهموه في عقله وخُلِقَ بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فلم يرد =

وعن علي بن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سبَّه رجل، فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودية: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى مدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه، فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل^(١). فقال جعفر: «إنما الذليل الظالم».

وقال الخليل بن أحمد: كان يقال: «من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجزاً من قلبه يردعه عن مثل إساءته».

وقال الأحنف بن قيس: «لست بحليم، ولكنني أتحمّل».

وقال وهب بن منبه: «من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يُغلب، ومن يعجل يخطئ، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المرء يُشتم، ومن لا يكره الشر يَأثم، ومن يكره الشر يُعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتول الله يُمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر

عليهم قولهم بمثله، بل ارتقى وسمى وعلا، فقال بكرم وحلم ورحمة وحكمة:

﴿يَقْوَمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٦٧].

(١) وود الشيطان لو ظفر من الناس بذلك، وبأسف: فلا زال هذا مانعاً لكثير من الناس

عن العفو والصفح، فكيف بالإحسان! ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزِّهِ

الْأُمُور﴾ [الشورى: ٤٣] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

الله يخذل، ومن يستعن بالله يظفر»^(١).

وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء، قال: «أنت إذن أكرم علي من نفسي، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي».

وقال بعض العلماء: «الحلم أرفع من العقل، لأن الله تعالى تسمّى به». وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبّك سبّا يدخل معك في قبرك، فقال: «معك يدخل لا معي»^(٢).

ومرّ المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرًّا فقال لهم خيرًا، فقليل له: إنهم يقولون شرًّا وأنت تقول خيرًا؟ فقال: «كلٌّ ينطق بما عنده»^(٣).

وقال لقمان: «ثلاثة لا يُعرفون إلا عند ثلاث: لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلى عند الحاجة إليه».

ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعامًا، فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق، فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضبًا فتبعه الحكيم وقال له: تذكرُ يوم كنّا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على

(١) وصدق رحمه الله تعالى، وهذا النوع الفريد من الحكّم هو حِكْمُ المقابلة، ولا يكون إلا بعد استقراء وعلم، لذا فلا ينطق بمثله إلا من كان واسع العلم وافر الحكمة متّقد البصيرة.

(٢) وهذا الرد من جميل الفقه ونفيس الوعظ.

(٣) ويأبى الذي في القلب إلا تبيّنًا وكلُّ إناءٍ باللّذي فيه ينضحُ

المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم، قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة، فسُرِّي عن الرجل غضبه وانصرف وقال: صدق الحكيم، الحلم شفاء من كل ألم.

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب، فقليل له في ذلك فقال: «أقامته مقام حجر تعثرت به فذبحتُ الغضب». وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنبٍ	وإن كثرتُ منه عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ	شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومٌ
فأما الذي فوقِي فأعرفُ قدره	وأَتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمٌ
وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عن	إجابته عِرضي وإن لام لائمٌ
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا	تفضّلتُ إنَّ الفضلَ بالحلم حاكمٌ

القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلم أن القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به، قال ﷺ: «المستبَّان ما قالا، فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم»^(١).

وشتَم رجل أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ساكت، فلما ابتدأ ينتصر منه قام

(١) مسلم (٢٠/٨) قال البيهقي رحمه الله تعالى في شعب الإيمان (٥ / ٢٨٣): «قال الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدل على جواز الانتصار ما لم يوجد منه عدوان، وعندي أنه ليس المراد أن يقابله بمثل قذفه أو سبه، ولكنه يكذبه فيما يقول وينسبه إلى الظلم والعدوان بما يقول». قلت: وهو الأحوط، فلا يرد الكذب والفجور بمثله، ومذهب ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ جواز ردِّ كلامه عليه بحروفه، وليس له الزيادة، ويُندب إلى الإحسان.

رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتًا لما شتمني، فلما تكلمت قمت؟! قال: «لأنَّ الملك كان يجيب عنك، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان»^(١).

وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيهه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي به، فأما النسيئة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدًا^(٢) عند سعد فقال سعد: «مه!»^(٣) إن ما بيننا لم يبلغ ديننا». يعني أن يأثم بعضنا في بعض، فلم يسمع السوء. فكيف يجوز له أن يقوله؟! ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على المرء ألا يعاقب أحدًا في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظًا عليه، فيكون متشفيًا لغيظه، ومريخًا نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحبه حطُّ نفسه، فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه.

ورأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سكران فأراد أن يأخذه ويعزّره فشتمه السكران فرجع عمر فقيل له: يا أمير المؤمنين، لما شتمك تركته! قال: «لأنه أغضبني، ولو عزّرتَه

(١) أبو داود (٤٨٩٧)، وأحمد (٩٦٢٤) باختلاف يسير. قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء للعراقي ٢٢٢/٣: «أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلًا ومرسلًا، قال: البخاري: المرسل أصح».

(٢) أي: بسوء.

(٣) وهو أسلوب زجر، بمعنى: انتبه.

لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حمية لنفسي». وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لرجل أغضبه: «لولا أنك أغضبتني لعاقبتك»^(١).

معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التَّشْفِي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا. ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبُغْضَة له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى. فالحقد^(٢) ثمرة الغضب، والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد، وهو أن يملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتمّ بنعمة إن أصابها، وتُسَرِّ بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

الثاني: أن تزيد على إضرار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: أن تُعرض عنه استصغارًا له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحلّ من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر

(١) وقال مرة: «لولا القيامة لأجبتك».

(٢) الحقد يكون على بصيرة القلب كالنظارة المقرّ يمينها المحدّب شمالها: فتري عظام الخطايا صغارًا في سبيل إرضاء غضبها، بينما ترى صغير أفعال الناس وأقوالهم كبارًا إزاء مرض ذاتها. وتأمل إخوة يوسف عليه السلام حينما ضخموا إثارة أبيهم له، وصغروا قتله ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] لذلك كان الحقد أعمى، والله القلب السليم.

وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقّه، من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة.

وكل ذلك حرام، وأقل درجات الحقد أن تحتز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله في الباطن ولا تنهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوّع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له، أو بترك الدعاء له والثناء عليه، أو التحريض على بره ومواساته، فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله.

ولما حلف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا ينفق على مسطح وكان قريبه لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: «بلى والله يا ربنا، إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كان يصنع»^(١).

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة في

(١) البخاري (٤٧٥٧).

للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين، وهو من فضائل أعمال المقربين. فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان، وهو العدل، **الثاني:** أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل، **الثالث:** أن يظلمه بما لا يستحقه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني هو اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجات الصالحين.

واعلم أن معنى العفو: أن يستحقَّ حقًّا فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ، قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُتْهَكَ حرمة الله، فينتقم لله تعالى»^(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم

(١) مسلم ٢١/٨ (٢٥٨٨) (٦٩).

(٢) البخاري ٤/٢٣٠ (٣٥٦٠)، ومسلم ٧/٨٠ (٢٣٢٧) (٧٧).

على النار؟ أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب، هين، لين، سهل»^(١).

ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب، ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء، ولكن يحقد على الدوام!

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بِعِصَادَتِي^(٢) الباب، فقال: «ما تقولون وما تظنون؟» فقالوا: نقول: أخ وابن عم حليم رحيم، قالوا ذلك ثلاثاً. فقال ﷺ: «أقول كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»^(٣).

وقال بعضهم: «إذا أراد الله أن يتحف عبداً قيّض له من يظلمه!» ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه، ويقع فيه، فقال له عمر: «إنك إن تلقي الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها»^(٤).

(١) الترمذي (٢٤٨٨) وقال: حديث حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ١٥٣) (١٧٤٤): صحيح لغيره.

(٢) الْعِصَادَتَان: تثنية الْعِصَادَةِ، وهي من كل شيء ناحيته، وعضادات الباب: جانباه، وهما العمودان من خشب أو غيره، عن يمين الداخل وعن شماله، بينهما الباب إذا صفد.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجواهر النقي (٩ / ١١٨) (١٨٧٣٩).

(٤) وهذا فقه عمرى عميق؛ لأن المقاصّة تكون بين المظلمة وما يقابلها حتى ولو كان كلاماً، فينقص حقّه بقدر ما أخذ من أخيه سواء من ماله، أو جسده، أو نفسه، أو عرضه. وهذا في حال من تعدّى بالكلام، كمن تجاوز وصف الحال والمظلمة إلى

وقال يزيد بن ميسرة: «إن ظلمت تدعو على من ظلمك؛ فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي»^(١).

وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه: «كِلِ الظالمِ إلى ظلمه، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه، إلا أن يتداركه بعمل، وقَمِّنْ ألا يفعل»^(٢)»^(٣).

السب والمنقصة، والله أعلم. ويروى عن الإمام أحمد أنه قال: «من دعا فقد انتصر». أي: أنه قد تسبب في أخذ حقه في الدنيا، ولم يوفره للآخرة حين يستجيب الله دعوته، ويأخذ له ظلامته.

(١) وليس هذا باضطراد، فليس كل مظلوم ظالم، وليس كل ظالم إلى عفو الله. وقد قصد ابن ميسرة ضرب المثال لا التحقيق، وقد عمله بعض الأكابر، والأولى تركه؛ ففيه نَفَسٌ من التآلي على الله تعالى، والله أعلم.

(٢) قَمِّنْ: أي حرِّي به، وذلك لشؤم الظلم.

(٣) وهذه الحروف الثلاثة للتابعي الجليل مسلم بن يسار رحمه الله تعالى هي من نفيس العلم، ومتين الفقه، وجميل النصح، فقله: «فإنه أسرع إليه من دعائك عليه»، لأن الله تعالى قد تكفل بنصر المظلوم ابتداءً، حتى وإن لم ينتصر على ظالمه بالدعاء عليه. وقوله: «إلا أن يتداركه بعمل» استثناء بليغ فقيه؛ لأن من موانع عقوبة الظالم توبته النصوح عن ظلمه وخروجه عن مظلمته بتحليل من المظلوم أو بعمل صالح يقابله فالحسنات يذهبن السيئات، ونحو ذلك من موانع إنفاذ الوعيد في الدنيا والآخرة.

وقوله: «وقَمِّنْ ألا يفعل» لأن ظلام الظلم شديد على القلب والبصيرة، فلا يكاد الظالم يرعوي عن ظلمه، بل يسدر في غيّه حتى يبغته الأجل، إلا ما ندر. وقد يكون هذا من انتصار الله تعالى للمظلوم، كقول موسى عليه السلام: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا

وعن هشام بن محمد قال: أُتِيَ النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه، وقال: «تعفو الملوكة عن العظيم من الذنوب بفضلها، ولقد تُعاقب في اليسير، وليس ذاك لجهلها، إلا ليعرف حلمها ويُخافُ شدة ذلِّها»^(١).

وعن مبارك بن فضالة قال: وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر، قال: فكنت عنده إذ أُتي برجل فأمر بقتله، فقلت: يُقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر^(٢)!

فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أحدثك حديثاً سمعته من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول: «إذا كان يوم القيامة؛ جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد

أَلْعَذَابُ ﴿يونس: ٨٨﴾. وبالله التوفيق.

(١) الذُّحْلُ: الثَّارُ والوتر، ويطلق كذلك على الحقد والكراهة والعداوة، والجمع ذحول، وانه قول الشاعر:

إذا طلبوا ذِحْلًا فلا الذحلُّ فائتُ وإن ظلموا أكفأهم بطل الذحلُّ

والمعنى: أن هم القهر والغلبة على من دونهم، فإذا طلبوا ثارا فلا يفوتهم وإن ظلموا أكفأهم في الحرب فلا يطالبهم أحد بثار لعجزه وقدرتهم.

(٢) وهذه الشيمة من حميته المحمودة لدينه، فالدين يمنع إقرار الظلم والسكوت عنه فيما دون ذلك، فكيف بالقتل، خاصة عند من تساهل في ذلك لِرِقَّةِ دينه، أو قسوة قلبه، أو وجود مُزَيْنٍ من الإنس والجان لا عتباطه دم المسلمين حراماً، حفظاً لملك، أو رعايةً لِعِزَّةِ جوفاء، أو لعباً بحدود الله الجبار العظيم، غروراً به، وأمناً من مكروه، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤٤]، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

حيث يُسمعهم الداعي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصْرَ^(١)، فيقوم مناد فينادي: من له عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا». فقال: والله لقد سمعته من الحسن؟ فقلت: والله لسمعته منه. فقال: خَلَّيْنَا عَنْهُ^(٢).

وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالحلم والاحتمال حتى تتمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال».

وروي أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال: لا، ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه؛ كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد.

وقال بعضهم: «ليس الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظُلم فحلم، حتى إذا قدر عفا». وقال زياد: «القدرة تذهب الحفيظة». يعني الحقد والغضب.

وأُتي هشام برجل بلغه عنه أمر، فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته، فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ

(١) أي: أن المنادي يُسمع القاصي والداني على السواء، وكذلك الناظر يرى أقصاهم وأدناهم، فتستوي الأرض وتُسَطَّح يوم القيامة، وهو من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ٣].

(٢) وكم للسلطين من حاجة ملحة وضرورة فائقة لرفقاء الصلاح، وبطانة الخير، ودعاة الرشد والنصح، فيصحبونهم احتساباً لصلاحهم، لا طمعاً بدنياهم، وهيهات إلا من رحم الله، فمن ذاق مرقاة السلطان أحرقت شفتاه!

تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴿النحل: ١١١﴾ أَفَنَجَادِلُ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا نَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدَيْكَ كَلَامًا؟! قَالَ هِشَامُ: بَلَى وَيْحَكَ تَكَلَّمُ.

وروي أن سارقًا دخل خباء عمار بن ياسر بصِفِّين فقيّل له: اقطعه، فإنه من أعدائنا، فقال: «بل أَسْتُرُّ عليه، لعل الله يستر عليّ يوم القيامة».

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعامًا، فابتاع ثم طلب الدراهم، وكانت في عمامته، فوجدها قد حُلَّت فقال: لقد جلستُ وإنها لمَعِي. فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللَّهُم اقْطَعْ يَدَ السَّارِقِ الَّذِي أَخَذَهَا، اللَّهُم افْعَلْ بِهِ كَذَا، فقال عبد الله: «اللَّهُم إِنْ كَانَ حَمَلُهُ عَلَى أَخَذَهَا حَاجَةً فَبَارِكْ لَهُ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ حَمَلُهُ جَرَاءَةً عَلَى الذَّنْبِ فَاجْعَلْهُ آخِرَ ذُنُوبِهِ»^(١).

وقال الفضيل: ما رأيت أزهّد من رجل من أهل خراسان، جلس إلَيَّ في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف، فُسِرَتْ دنائير كانت معه، فجعل يبكي فقلت: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن مثّلني وإياه بين يدي الله عز وجل، فأشرف عقلي على إدحاض حجته، فبكائي رحمة له!

وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلاً وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن وهو خائف، فدخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج^(٢)، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به أخوته من بيعهم

(١) لكلام ابن مسعود رضي الله عنه دومًا حكمة وعلم ونصح وشفقة وتوفيق بديع.

(٢) لعلمه وثباته ويقينه رحمه الله تعالى.

إياه، وطرحهم له في الحب، فقال: باعوا أخاهم، وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء، ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله؟ قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْيَوْمُ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، يُعْرَضُ للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: فأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم، ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتم تحته.

وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: «فلان هارب من زلته إلى عفوك، لائذ منك بك، واعلم أنه لن يزداد الذنب عظمًا إلا ازداد العفو فضلاً».

وأُتي عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر؛ فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم.

وروي أن زياد أخذ رجلاً من الخوارج فأفلت منه، فأخذ أخاً له فقال له: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك! فقال: أرايت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي؟ قال: نعم، قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى، ثم تلا: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٦-٣٨] فقال زياد: خلوا سبيله، هذا رجل قد لقن حجته.

وقيل: مكتوب في الإنجيل: «من استغفر لمن ظلمه؛ فقد هزم الشيطان».

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود^(١)، ويضاده العنف والحدة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق.

وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه، بحيث يُدهش عن التفكر، ويمنع من الثبت، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال.

ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبألف فيه فقال: «يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٢).

وقال ﷺ: «إذا أحبَّ الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(٤).

وعنها أن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من

(١) والرفق محتاج لصبر، ذلك أن جبلة العجلة والفظاظة والانتقام والحسم محتاجة إلى زمها بجرعات صبر وافر، وحلم باطن وظاهر.

(٢) البخاري ٢٠/٩ (٦٩٢٧) ومسلم ٤/٧ (٢١٦٥) (١٠).

(٣) أحمد (٢٤٤٧١)، وجود سنده العراقي في تخريج الإحياء ٢٢٨/٣، وصححه

الألباني في صحيح الجامع (١٧٠٤).

(٤) مسلم ٨/٢٢ (٢٥٩٣) (٧٧).

شيء إلا شأنه»^(١).

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»^(٢).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»^(٣).

وبلغ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقاً: النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقاً، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله من جهل إمام وحدته، ومن يعمل بالعفو فيما يظهر به تأتية العافية، ومن ينصف الناس من نفسه يُعطى الظفر في أمره، والذل في الطاعة أقرب إلى البر من التعزز بالمعصية».

وقال وهب بن منبه: «الرفق ثنيُّ الحلم»^(٤).

(١) مسلم ٢٢/٨ (٢٥٩٤) (٧٨).

(٢) مسلم ٧/٦ (١٨٢٨) (١٩).

(٣) أحمد (٣٩٣٨)، والترمذي (٢٤٨٨)، وابن حبان (٤٦٩)، والطبراني (٢٨٥ / ١٠)

(١٠٥٦٢)، وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط، وصححه الألباني في صحيح

الجامع (٣١٣٥) وقد مر بنحوه قريباً.

(٤) أي: قرينه ورديفه.

وقيل: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيّمه، والرفق والده، واللين أخوه، والصبر أمير جنوده».

وقال بعضهم: «ما أحسن الإيمان يُزيّنه العلم، وما أحسن العلم يُزيّنه العمل، وما أحسن العمل يُزيّنه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم».

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله: «ما الرفق؟ قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة، قال: فما الحرق؟ قال: معادة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك».

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً أمرانِ فاعمد للأعفّ الأجهلِ
وإذا هممتَ بأمرٍ سوءٍ فاتئدُ وإذا هممتَ بأمرٍ خيرٍ فاعجلِ

وقال سفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: «أن تضع الأمور من مواضعها؛ الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيوف في موضعه، والوسط في موضعه». وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق^(١). كما قيل:

ووضعُ النّدى في موضعِ السيفِ بالعُلا

مضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النّدى

فالمحمود وسطٌ بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت

(١) أي في بابه مع من يستحق، فالرفق أصلٌ والشدة استثناء بقدره، والمعيار الأوحد هو

المصطفى ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]،

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

الطباع إلى العنف والحدة أميل؛ كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محله حسن، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى، وهو ألد من الزبد بالشهد.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: رُوي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني، فكتب إليه معاوية: «أما بعد، فإن الفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتبّت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئاً، وإن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي».

وعن أبي عون الأنصاري قال: «ما تكلم الناس بكلمة صعبة^(١) إلا وإلى جانبها كلمة أليّن منها تجرى مجراها».

وقال أبو حمزة الكوفي: «لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه، فإن مع كل إنسان شيطاناً، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه». وقال الحسن: «المؤمن وقاف متأن، وليس كحاطب ليل».

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق، وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع، ولكن على الدور، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواضع العنف، فيعطي كل أمر حقه، فإن كان قاصر البصيرة

(١) أي: شديدة جارحة.

أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع، فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجح معه في الأكثر»^(١).

وليكن ديدنك البداءة بالرفق، الذي ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. ولا تحتج بخُلُقٍ أحد دون رسول الله ﷺ، فلا تقل: فلان من السلف عنده حِدَّةٌ فلي به أسوة. بل اجعل رُمانة الميزان منصوبةً بمن قال ربه في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا يعني هذا أن يكون الرفق مستمرًّا، فالمعاند المستكبر الذي استبانت له المحجة وقامت عليه الحجة حقيقٌ بقرع شِدَّةٍ تزرجه وتزجرُّ به وتُشردُّ به من خلفه، ولكن تأكدي هنا على أنها استثناء لا أصل، فإن زالت بدعته بالرفق فقد كُفينا.

وفرض الوقت على المؤمنين عند احتدام مشكلاتهم واحتراب أفكارهم وغليان مشاعرهم هو التناصح الصادق الدافئ المشفق، وإصلاح ذات بينهم مع الرفق والاحتساب والصبر، وربنا جل وعز يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] فالينُّ الناس عند إصلاح ذاتِ الين هم الأتقياء. فلماذا التشرذم والتفرُّق والتعادي، وإلى متى هذا التماذي في التماذي؟!

ولمن رام بذل خير العلم والنصح لعباد الله أقول: إنَّ الكلام في الأفكار معضلةٌ شعورية قبل أن تكون إشكالية فكرية، ذلك أن كبار الأفكار - غالبًا - ما

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤ / ٢٨٨ - ٣٢٥) باختصار وتصرف.

تتغلّف بشعورٍ ساخن وعاطفة هائجة وإرادة عاصفة، فلِكَي تدلف لشاطئ الفكرة لشخص ما عليك أن تتجاوز بهدوء الحُجُبَ النفسانية والخواجز الغضبيّة المؤصّلة في وعيه ولا وعيه أولاً.

فالفكرة حينما تكون منحوتةً في العقل الواعي فلا بد أن تكون مرتبطة بحبل سُريّ بالقلب، وهذا سرٌّ من أسرار الإقناع بالأفكار المخالفة، فلا بد أولاً من تحييد الحارس العاطفي بالرفق والملاطفة، وإلا فالباب مغلق دون الولوج لحياض العقل لإعادة ترتيب أولوياته، وتغيير تصوراتهِ، وهزّ قناعاتهِ، وحقنه بمضامين فكرية جديدة عليه.

إن التعصّب للمعتقد والمبدأ دون رحمة وحكمة ورفق وعلم هو نوع من التوحّش وفرع عن الهمجية، ولك أن تعلم أن أثبتّ الناس وأصدقهم في معتقده - وهو رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه - كان أرحم الخلق وأحكمهم وأرفقهم حتى مع غير أهل القبلة، واعتبر ذلك بتعامله مع يهود المدينة ونصارى نجران ووثنيي الأعراب كيف كان لطفه يسبق عُنفه وعفوّه مؤاخذه وحلمه أخذه، رفيقٌ في شأنه كله.

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ كانت بداهته تنبيك بالخبر
فيا صاحبي: لا يكن علمك بغياً، ولا تبشيرك تنفيراً، واستنّ بمن تبعته فهو
الرافة الوارفة والرفق الدافق والرحمة التامة، صلوات الله وملائكته والمؤمنون عليه
وسلامه وبركاته. وفي الأثر أن خالد بن الوليد خرج في سرية فنزل بحيّ، فقال سيد
الحي: صِفْ لنا محمداً ﷺ. فقال: أما إني أفصّل فلا، فقال: أجملُ فقال: «الرسولُ

على قدر المرسل». ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ورضي الله عن

حسان بن ثابت إذ قال:

أَغْرُ، عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ	مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ	إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذَّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّهُ	فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفِتْرَةٍ	مِنَ الرِّسَالِ وَالْأَوْثَانِ فِي الْأَرْضِ تَعْبُدُ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا	يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنَّدُ
وَأَنْذَرْنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً	وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ
وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي	بِذَلِكَ مَا عُمِّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا	سِوَاكَ إِلَهًا، أَنْتَ أَعْلَى وَأَعْجَدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنِّعَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ	فِيَاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

وتأمل الحلم العمري فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «قدم عينه بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومشاورته كهولاً^(١) كانوا أو شباناً،

(١) القراء: جمع قارئ، وهو القارئ للقرآن المتفهم لمعانيه. دليل الفالحين (١/ ٢٣٩) أما الكهل من الرجال فهو من زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين. - قلت: وهو الأقرب. - وقيل: «أراد بالكهل الحليم العاقل». (النهاية ٤/ ٢١٣) قلت: يرد على ذلك قوله: «كهولاً كانوا أو شباناً» فجعل الشاب قسيماً للكهل، فصار بيان ابن عباس هنا السن، لا مطلق العلم والعقل =

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن فأذن له عمر. فلما دخل قال: هي^(١) يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل^(٢) ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى همَّ أن يوقع به^(٣). فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ

والتجربة، أي أن السن غير مؤثر لدى مجلس شورى الفاروق رضي الله عنه، بل كان ميزانه العلم والحكمة والدين.

(١) هي، وكذلك هية: كلمة تأتي للحث وللزجر وللتهديد وللتعجب وللعتب الغليظ، وهي هنا للأخيرة.

(٢) أي: العطاء الكثير.

(٣) وحُقَّ له، لأنه اتهمه في دينه وأمانته وعدله هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالعقوبة هنا هي حفظُ لمقام السلطان عن أن يتجرأ عليه من لا يعرفون قدره، وهو داخل فيما يسمى الآن بالعقوبات التعزيرية للحق العام، فحفظ هيبة السلطان من حفظ هيبة الدولة، وحفظ هيبتها من حفظ رعتها.

ولما تكلم أحدهم بكلام غليظ في الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلاً: «احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك»، وعنده المغيرة بن شعبة فحسر عن ذراعه وصكَّ بها أنف الرجل فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالوا: أقدنا من المغيرة فقال: «أنا أقيدكم من وزعة الله؟! لا أقيدكم منه». ومعنى وزعة الله: جند الله، من الوزع وهو الكف والردع. أي: الذي يزع الناس عن التطاول على شعائر الله تعالى وحدود شرعه، ومن ذلك حفظ مقام وهيبة ولي الأمر. ووزعة جمع وازع. أراد الذين يكفون الناس ويردعونهم عن الإقدام على الشر، ومن ذلك قول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] ^(١) وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى ^(٢).

تَعَوَّدْتُ مَرَّ الصَّبْرِ حَتَّى أَلْفُتُّهُ وَأَسْلَمَنِي حَسَنُ الْعَزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَصَيَّرَنِي يَأْسَى مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا حُسْنُ صَنِيعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

فضيلة التغافل

التغافل هو عدم إشعار الآخر بزلة عليك كأنك لم ترها، ثم التسامح بعدها والعفو والصفح حتى إن علم بعلمك لها، إلا إن غلب على ظنك زيادة شره، وهذا خلق النبلاء العقلاء الكرام.

والتغافل ليس مرادفاً للغفلة، فالغفلة غباوة ونوْكٌ وجهل وكثافة، والتغافل عقل وحلم وصفاء وحكمة ودين.

وقال علي رضي الله عنه: «التغافل يرفع بلاء كثيراً».

ويروى عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لما قيل له: إن سفيان يقول: «تسعة أعشار العقل في التغافل»، فقال رحمه الله: «لا، بل العقل كل العقل في التغافل». ولا بن الوردی:

وتغافل عن أمورٍ إنَّه لم يفرز بالحمد إلا من غفل

(١) قال جعفر الصادق رحمه الله: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه».

دليل الفالحين (٢٤١/١) عن رياض الصالحين، تحقيق د. ماهر الفحل (١ / ٥٩).

(٢) البخاري ٢٤١/٤ (٣٦٠٣)، ومسلم ٧١/٦ (١٨٤٣).

وللمتنبي - ولعلّه عنى بالتغابي التغافل، لأن إظهار الغباء ليس من السؤدد في

شيء :-

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومه لكنَّ سيدَ قومه المتغابي

ولو تغافلنا وتسامحنا لأغلقنا على الشيطان بابًا كبيرًا من أسباب خصوماتنا

وذرائع افتراقاتنا، والله المستعان.

واعلم أنّ أتباعَ العاطفة كثيرًا ما يعقبه الندمُ، فاتَّبِعْ عِلْمَكَ وعقلَكَ ففيهما

الحكمة، أمّا قلبك فأخره قليلًا، فعاطفتي الشهوة والغضب عمياوان، وناصحُ

العقل خيرٌ من ناصح القلب.

وإنّ الاستغراق في التفكير والتأمل؛ صقيعٌ عقلي، كما أنّ ركوبَ متنِ المشاعر

بلا لجام؛ حريقٌ نفسي، والحكمةُ في مزجها بعناية ولطف.

فالنفس تُملي وتتمنى، وتُزيّن وتُسوّل، وتُبدّل وتتأوّل، والعقلُ واعظٌ وناصحٌ

عليهم مشفقٌ حكيمٌ، والقلب بينهما حرونٌ متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ». فمن خاف الله؛ خافَهُ

كُلُّ عَدُوٍّ، واجتنبه كُلُّ تَوَفِيقٍ، واعلم أنّ مصيرك غداً - بإذن الله - هو قرارُك اليوم.

إذا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاغْتَنِمَهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونٌ

وإن دَرَّتْ نِيَاقُكَ فَاغْتَلِبَهَا فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ

ولا تقلق إن احتدَّ مُحَاوِرُكَ في نقاشه، فهذه علامةُ بداية قبوله لفكرتك عند

أكثرهم، لأنّك هتكت حاجز الحُجج العقلية لديه فظهر له عوارها، فتدفعُ عِزَّةَ

نفسه معرّة الرجوع بشيءٍ من لجج الغضب، فاهدأ عليك بالسكينة، وامتنص

غضبه بحلمك ولين كلامك وصدق إشفائك وعدم فَرْحِكَ بِكَسْرِه، ولربما يأتي يوم يثبُتُ معك حين تزول أقدام الأقرين. وتذكّر خبر سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة لما كاد بعضهم أن يرتدّ على عقبيه مع المرتدّين؛ فقام للإسلام مقامًا مشهودًا مشكورًا، وهو الذي أراد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديبية أن يخلع ثيَّته، ولكن أبا الشفيق الناصح صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وأنت مع الناس بين حقّين: عليك فادّه ولا تؤخّره، ولك فلا تطلبه ولا تنتظره.

والتغافل والعفو والمسامحة فضائل الحكماء الصالحين، وكما أن الحلم سيد الأخلاق في البداية؛ فالعفو سيدها في النهاية.

وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير؛ أن يكثر علمك ويعظم حلمك». وقال الأحنف: «من لم يصبر على كلمة؛ سمع كلمات». وقلت: الجاهل في الأغلب محتاج لأحق يستفّزه.

وهناك متلازمة عكسية مطّردة بين الغضب وقوّة العقل، فعلى قدر صعود مستوى الغضب يكون نزول قوة العقل وصفاء الذهن، حتى يبلغ الغضب بالعقل لمرحلة الجنون أو قريبًا منها. وقد قالت العرب: «الغضبُ شعبةٌ من الجنون». وفي الأغلب لا تأت العجلة في العقوبة لصاحبها بخير. وإنّ من الظلم أن يكون الانتقام أشدّ من الذنب. وقال بعض الحكماء: «أذكر عند قدرتك وغضبك قدرة الله عليك، وعند حكمك حكم الله فيك».

فلا تجعل سبع الغضب يفترسك، بل قيده بقيد الحلم، حتى إذا صفى ذهنك؛

انبتق لك شهابُ الحكمة، وأشرقت في قلبك شمسُ البصيرة. فالغضب غريزةٌ جعلها الله في النفس سلاحًا يدفع عنها العاديات، فإن زاد عن حدِّه؛ ارتدَّ سلاحًا يفتكُ بصاحبه، كذلك الخوف سلاح فإن زاد؛ فتك، وعلى سبيلهما البقية.

فبالغافل والسماحة والعفو والتناسي وحسن الظن قوامُ أسباب الوئام بين من دبَّ بينهم داءُ الأمم. ولو أن كلَّ أخوين تحاسبا على كل الأخطاء؛ ما بقيت بينهما أخوة، فهلاً تغافلنا! وأكثر البشر يُحسنون تفصيل الملامة ويسيئون الظن والغفران، والعفو الكبير لا تطيقه سوى النفوس الكبيرة.

وإخوانٍ حسبتهُم دروعًا فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهُم سهامًا صائباتٍ فكانوها ولكن في فؤادي

قال شيخ الإسلام: «الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقه، ومقتصدٌ يأخذ بقدر حقه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقه»^(١). وصدق الفضل بن يحيى حينما قال: «الصبرُ على أخٍ تعتب عليه، خيرٌ من صديقٍ تستأنف مودته».

وفي قول تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] دليلٌ على أن الانتقام يقبح من الكرام. ورُبَّ عفوٍ أشدَّ من انتقام.

وقال النخعي في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى:

٣٩]: «كانوا يكرهون أن يُستذلَّوا، فإذا قدروا عفوا».

هذا؛ ولا تجعل مزاجك حاكمًا لمنهجك، كأن تكون غضوبًا أو عجولًا أو سيء

(١) قاعدة في الصبر، لابن تيمية ٩٦/١

الظن أو متشائماً.. وإلا فما فائدة العلم إذا لم تتخلق به وتتطبع بآدابه وتلتزم بحدوده! وإنّ لدى غير قليل من طلبة العلم أزمة أخلاق، فيا ليت العلماء والقدوات والمربين يولونها عنايتهم الفائقة.

وأكثر الأخطاء التي ندمنا عليها في مسيرة حياتنا مردّها للغضب، وخيراً تفعل لنفسك ولغيرك لو تركت الجواب أثناء الانفعال، دَعِ المشاعر تبرّد؛ حينها ينقشع غيَمُ الغضب عن جوهر الصواب.

وصدّقني: إن سكتَ وسكنتَ وقتَ الغضب والانفعال؛ فستسلم من نصف مشاكلك بإذن ربك. والغاضب لا عقل له، والضّجر لا حلم له، والخائف لا فكر له، والطامع لا صبر له، أي على التمام.

ودوماً؛ تذكر الأجل، واستعدّ للأسوأ، وتفاعل بالأفضل. واعلم أنّ الذكاء نعمة إذا أوصل صاحبه لمسالك حسن الظن، والعكس صحيح، إذ مسارب العقل لا نهاية لها، فهي ساشعة مدهشة، وهنيئاً لمن هداه الله سبيله. ويالك من مستودع للعجائب أيها الإنسان!



الصبر على العيال

العيال هم كل من يعوله عولاً معتاداً بلا عوض، وذلك بأن يكون مسؤولاً عنهم، فهم أهل بيته الذين يعولهم وينفق عليهم كالذرية والزوجات والموالي والوالدين الساكنين معه، والغالب إطلاقها على الذرية والزوجة.

وإن عيال المرء نعمة من الله تعالى عليه، وكلما كثر عيال المرء زاد فضله وأجره وعلت مرتبته عند ربه إن اجتهد في الإصلاح والإحسان، وكل من يعولهم المرء هم عياله ومسؤول عنهم غداً أحفظ أم ضيع؟

وكلما كانت المشقة أشد كان الأجر أكثر، ومن عيال المرء بناته وله أجرهن إن صبر واجتهد في حسن تربيتهن والعناية بهن ورحمتهن من كل أذى، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار»^(١).

ومن الصبر على العيال النفقة عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] وحرّم الله تعالى إضاعتهم بترك النفقة عليهم فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(٢). أي يكفيه إثماً مهلكاً!

والنفقة على العيال أفضل من النفقة على الجهاد والعتق والمساكين؛ لأن نفقتك

(١) سنن الترمذي (١٥٦١) وصححه الألباني، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أبو داود (١٦٩٢) والنسائي في الكبرى (٩١٧٦) وهو حديث صحيح.

عليهم فرض والفريضة أحب إلى الله من النافلة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقة، ودينارٌ تصدقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(١).

وعن ثوبان بن بجدد مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»^(٢).

وعلى الزوجة كذلك فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، قال له: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك». والفِي: الفم^(٣).

والصبر على العيال ليس في النفقة فقط، بل في مكابدة إصلاحهم بكل طاقتك بالدعاء والتربية والتعاهد والمتابعة وحسن الصحبة والدلالة على الخير وحسن القدوة والبشاشة واللين والرعاية وتعليمهم القرآن والخير وتربيتهم على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، ونحو ذلك.

فالذرية في الحقيقة هم مشروع الحياة للوالدين، وقد اغتبط من أصلح الله ذريته ورزقهم الاستقامة والصلاح وأنبتهم النبات الحسن، وبالله التوفيق.

(١) مسلم ٧٨/٣ (٩٩٥) (٣٩).

(٢) مسلم ٧٨/٣ (٩٩٤) (٣٨).

(٣) البخاري ٢١/١ (٥٥) ومسلم ٨١/٣ (١٠٠٢) (٤٨).

عاقبة الصبر عند الضراء والمرض

الله رحمن بعبدته حتى وهو يبتليه، بل إنه يبتليه رحمةً به، فالبلاء عينُ الرحمة في العاقبة لمن وفقه الله تعالى. فينزل عليه البلاء بقدرٍ يطيق احتماله، فلا يزيد فوق طاقته حتى لا يكسر صبره فيجزع ويخسر ثوابه، ولا يُضعفه حتى لا يفوته أجره وذخره، ثم يلهمه صبره ورضاه وحده وشكره وتسليمه ويقينه، ثم يثيبه الأجر والزلفى، فله الحمد كله أوله وآخره وظاهره وباطنه.

وقد جاء في بعض الآثار أن العبد إذا دعا لمبتلى قد اشتدّ بلاؤه وقال: اللهم ارحمه، يقول الرب تبارك وتعالى: «كيف أرحمه من شيء به أرحمه»^(١).

فالابتلاء رحمة منه لعباده، وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعائب»^(٢). «فالبلاء والعقوبة أدوية قدّرت لإزالة أدواء لا تزول إلا بها، والنار هي الدواء الأكبر، فمن تداوى في الدنيا أغناه ذلك عن الدواء في الآخرة، وإلا فلا بد له من الدواء بحسب دائه.

(١) أورده في الإحياء (٦ / ٣١٩)، وفي تفسير المنار (٨ / ٧٧): أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال: «يا رب ارحمه»، فقال تعالى: «كيف أرحمه فيما به أرحمه». أي: أكفّر به ذنوبه، وأزيد في حسناته، وأرفع درجاته.

(٢) ليس له سندٌ ثابت، وكان شيخ الإسلام كثير التردد في مجالسه لهذا الأثر الجليل. وانظر: بيان تلييس الجهمية (٢ / ٢١٤-٢١٥) والسلسلة الضعيفة (٩ / ٣٨٣).

ومن عرف الرب تبارك وتعالى بصفات جلاله ونعوت كماله من حكمته ورحمته وبره وإحسانه وغناه وجوده، وتحييه إلى عباده وإرادته الإنعام عليهم وسبق رحمته لهم؛ لم يبادر إلى إنكار ذلك، إن لم يبادر إلى قبوله»^(١).

وتلَمَّح عاقبة الصبر على الضراء في النفس؛ فقد كانت امرأة تمشي على الأرض وهي تعلم أنها من أهل الجنة لصبرها لله تعالى حينما ابتلاها بالصَّرع، فعن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي. قال: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَعاْفِيكَ» فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف^(٢)، فدعا لها»^(٣).

ذلك أن عاقبة الصبر خيرٌ كلها، فعن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: «مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ^(٤)، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ،

(١) تفسير المنار (٨ / ٧٧).

(٢) طلبت ذلك لفرط الحياء، رضي الله عنها.

(٣) البخاري ١٥٠ / ٧ و ١٥١ (٥٦٥٢) ومسلم ١٦ / ٨ (٢٥٧٦).

(٤) النَّصَب: التعب والمشقة والجهد، أمَّا الوَصَب: فهو السقم والمرض. أما الحَزْن: بفتح الحاء والزاي فهو المشقة، وبضم الحاء وتسكين الزاي فهو ضيق الصدر لتذكر ماضي مؤلم، وهو الراجح ضبطاً؛ لعطفه على الهَمِّ، فالهم مما يُستقبل، أما الحُزْن فعلى الماضي، أما المشقة فيكفي عنها ذكر النَّصَب. كما أنه يصح تفسيرها بضيق الصدر عند

ولا أذى^(١) ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها^(٢).

«فالمصائب تكون على وجهين:

١ - تارة إذا أصيب الإنسان تذكّر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله؛ فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات.

٢ - وتارة يغفل عن هذا فيضيّق صدره، ويغفل عن نية الاحتساب، والأجر على الله فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات، وخط الذنوب بدون أن يحصل له أجر لأنه لم ينو شيئاً ولم يصبر ولم يحتسب الأجر، وإما أن يربح شيئاً كما تقدم. ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة، فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة^(٣).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك^(٤)

فتح الحاء والزاي، إضافة إلى أن الحزن ذاته معدود من أشدّ المشاق، وهي بالفتح أنسق جرّساً وألذّ سماعاً، ومن هنا كانت أكثر استعمالاً.

وبالجملة؛ فالْحَزَنُ والحُزْنُ هنا هما بمعنى واحد، فيصح فيهما الضبطان. والله أعلم.

(١) وهذا عام لكل أذى يقلق النفس ويؤلمها.

(٢) البخاري ١٤٨/٧ (٥٦٤١) ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٣) (٥٢).

(٣) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١/١٠٩).

(٤) الوعك: اشتداد الحمّى.

فقلت: يا رسول الله، إنك توقعك وعكاً شديداً، قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك أن لك أجريين؟^(١) قال: «أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُصِبْ منه»^(٣). دل هذا على أن من لم يُصَبِ الله منه فإنه لم يرد به خيراً، فافرح بالبلاء يا عبد الله، فلعل اللطيف قد أراد بك خيراً ببلائه لك.

ومهما يكن من أمر البلاء والضراء؛ فعلى المؤمن إن يرضى ويسلم، ولا يتمنى الموت بسبب مرضه أو ببلائه إلا بلاء الدين، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(٤).

فالعبد لا يعلم نهاية بلائه فهي خير إن أفضت به للصبر والرضا والحمد والشكر، ولعله إن وافته منيته أن ينقطع عنه خير ذلك البلاء، فعلام الضجر عن احتمال الضرر لتحصيل سعادة الظفر بوافر الأجر من ربنا الكريم الرحيم؟!

(١) وتأمل فقه ابن مسعود رضي الله عنه في استنباط علل الأحوال.

(٢) البخاري ١٤٩/٧ (٥٦٤٨)، ومسلم ١٤/٨ (٢٥٧١) (٤٥).

(٣) البخاري ١٤٩/٧ (٥٦٤٥).

(٤) البخاري ١٥٦/٧ (٥٦٧١) ومسلم ٦٤/٨ (٢٦٨٠) (١٠).

وعن علي رضي الله عنه قال: كنتُ شاكياً^(١) فمرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخراً فارفعني، وإن كان بلاء فصبرني. فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» قال: فأعاد عليه ما قال. قال: فضربه برجله. وقال: «اللهم عافه» أو «اشفه» قال: فما اشتكيت وجعي بعد^(٢).

ومن شديديات البلاء فقد البصر، ولكن لا ضيعة ولا خسارة ولا تلف لمن عوّضه الله الصبر في نفسه، والبصيرة في قلبه، والأجر في صحيفته، ثم الرضا عنه والجنة، فعن أنس رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»^(٣). يريد عينيه.

وإن ثمار فقد البصر خاصة أعجوبة من أعاجيب خلق الله تعالى وإحسانه، وإنك لتعجب لنفاذ بصائر من كفت أبصارهم! ويكأن الله تعالى قد جعل بصره في سمعه وفهمه، ولا يزال الناس يتناقلون دقة سمع وفهم وذكاء أكثر المكفوفة أبصارهم، فسبحان من أخذ وأعطى. ويحدثني أحد أصحابي القدامى وهو الشيخ إبراهيم القرني حفظه الله تعالى - وكان كفيفاً - قال: «إني لا أزال أحمد ربي تعالى على توالي نعمائه وتتابع رحماته، ومنها فقد لي لبصري منذ الصغر، إذ كفّ عني كلّ شرّ وفتنة بصرية سقط فيها الناس، فإن هذا العصر هو عصر فتنة البصر المعمية

(١) أي: مريضاً.

(٢) الترمذي (٣٥٦٤) وقال حديث حسن صحيح، والنسائي (١٠٨٩٧)، وأحمد (٨٤١).

وحسنه ابن حجر والأرنؤوط، وصححه أحمد شاكر.

(٣) البخاري ١٥١/٧ (٥٦٥٣).

للبصيرة، والرافعة للتوفيق عن العبد، وقد أعطاني قوة السمع وحدة الذهن وسرعة الحفظ، فله الحمد على كل حال، وله الشكر في كل حين».

وتأمل حال مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم ومن بعده عبد العزيز بن باز ومن بعدهما عبد العزيز آل الشيخ وعبد الرحمن بن ناصر البراك الذين تسنموا ذروة العلم والفضل والدعوة إلى الله تعالى ببصائرهم التي فتحتها الله، ومن أعطاهم الله تعالى ذكاء ونباهة وحافظة، مع صحة نيّة، وقوة عزيمة، وثبات يقين، وحرقة على الدعوة إلى الله تعالى: شيخي شجاع بن ذعار الشريف - ولا أزكي على الله أحداً - حفظه الله تعالى، وأمتع به، وأحسن عمله وختمه، وكذلك الشيخ النابه النبيه، والفقيه المتفّن الأديب: أبو الوفاء صالح بن محمد بن خالد الرشيد مفتي الرس، وغيرهم كثير كثير في مختلف العلوم والفنون والتخصصات، ولك ان تعلم أن الإمام الترمذي صاحب السنن والعلل كان كفيفاً، ومن قبله المفسر العليم قتادة بن دِعامَة، رحمهما الله تعالى وغيرهما كثير من أجلة السلف.

فإبداع المكفوف يتّضح في مدركات العقل وأحاسيس القلب، العقل بببوسته وصرامته وحكمته، والقلب بدفئه ورهافته وإبداعه، وهما طرفي العلم والأدب وكذا ما يسمّى عرفاً بالفنّ.

فيظهر تميّز المكفوف بجلاء فيما كان مفتقراً لأذنٍ مُرهفة وقلب عقول، فالانتباه المعنوي للكفيف يكون حسّاساً جداً لتفاصيل التفاصيل من مدركات السمع والحفظ والخيال والإبداع والتحليل والتدقيق والجمع والتفريق والتركيب،

ولئن كان هذا واضحاً في الفقه والشرعة؛ فهو كذلك في اللغة والأدب ونحوها، وانظر لتراث أبي العلاء المعري، وبشار بن برد العقيلي وقد كان أكرمهما - أي وُلد أعمى - وطه حسين، ونجيب محفوظ، وعبد الله البردوني، وغيرهم كثير، وكذلك الرسام العجيب أسريف التركي، ومن الأمم الأخرى في مختلف العلوم كثير، من أمثال لويس برايل مخترع برايل للمكفوفين، وهيلين كيلر وقد حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم والفلسفة، والصينية ين هاوتسي مهندسة الطيران.. فلم ينقصهم ذهاب أبصارهم، ولم يرتفع عليهم أقرانهم، إذ عوضهم الله عنها حدة الذكاء، ونفوذ البصيرة، وفولاذية العزم، وجبليّة الإرادة، فسبحان من بيده الفضل والمن والعدل الإحسان والكرم.

وتأمل أن خير الثلاثة المبتلين الأبرص والأقرع والأعمى كان هو الكفيف! فكفّ البصر خير لمن عوضه الله تعالى رضا وإيماناً وعلماً وزكاء.

وتدبر حال الحبر الحبر البحر الشجاع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في علمه وفضله ومقاماته في دين الله تعالى، قال يزيد بن الأصم: «خرج معاوية حاجاً معه ابن عباس فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم». وكان علمه بحرّاً زاخراً وغيثاً واسعاً نافعاً يرتوي منه طلاب العلم في كافة فنون الشريعة والعربية حتى يصدروا عنه بَعْطَنَ.

وقال عمرو بن دينار: «ما رأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال، والحرام، والعربية، والأنساب، والشعر». وقال عبيد الله بن عبد الله: «ما رأيت أحداً كان أعلم بالسُّنة ولا أجَلَّ رأياً، ولا أثقَبَ نظراً من ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ولقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعدّه للمعضلات مع اجتهد عمر ونظره للمسلمين، وكان قد عمي في آخر عمره، فأنشد في ذلك:

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا ففِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورٌ
قَلْبِي ذِكْرِي وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارُمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورٌ^(١)

وكذلك فقد بصره بأخرة إمامُ زمانه في الحج عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى، وبالجملة؛ ففقد البصر سبيل لطول التأمل السالم من المشغلات والصوارف القاطعة، وليس في العلم فقط يُحمد فقد البصر، بل حتى في التأله وحسن التبعّد لله تعالى، وتأمل حال أولئك القوم تر خير الله الذي ساقه لهم، فهي عطية بل عطايا في شكل ثوب حرمان وإزار بلاء، والله الحميد الحكيم الرحيم الكريم المستعان.

قال أبو الفرج رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك، إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعاني، أو لبيان أثر الرضا بالقضاء، وما هي إلا لحظات ثم تنقضي.

وليتفكر المعافي من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها أين هي في زمان العافية؟ ذَهَبَ البلاءُ وحصل الثواب. كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر، ويمضي زمان التسخط بالأقدار، ويبقى العتاب.

وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجزُ النفس عن حملها فتذهب. فليتصور المريض

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٠ / ١٣٣).

وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقي، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المُرّة.

ولا ينبغي أن يقع جزعٌ بذكر البلى، فإن ذلك شأن المركب، أما الراكب ففي الجنة أو في النار. وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلّي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها. فالسعيد من وفق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل في زمن الاغتنام.

وليعلم أن زيادة المنازل في الجنة على قدر التزّيد من الفضائل ههنا. والعمر قصير، والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار. فيا طول راحة التعب، ويا فرحة المغموم، ويا سرور المحزون.

ومتى تخايل اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة»^(١).

يا نفس صَبْرًا على ما قد منيت به فاحرّ يصبرُ عند الحادثِ الجَلَلِ
وقد عقد البخاري رحمه الله بابًا سمّاه: «باب ما يحذر من الضجر وقلة الصبر». وساق بسنده حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعودته، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعودته قال: «لَا بَأْسَ طُهُورٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». قال: قلت: طُهُورٌ، كلا، بل هي حمى تَفُور - أو تثور - على شيخ كبير، تُزيّرُه القُبُور.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَنَعَمْ إِذَا»^(١).

والمؤمن لا ينقطع عمله الصالح بمرضه أو سفره، بل يجري له أجره فضلاً من الله ونعمة، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ الْعَبْدُ عَلَى طَرِيقَةِ حَسَنَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ ثُمَّ مَرَضَ، قِيلَ لِلْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِهِ: اكْتُبْ لَهُ مِثْلَ أَجْرِ عَمَلِهِ إِذَا كَانَ طَلَقًا حَتَّى أَطْلُقَهُ، أَوْ أَكْفَتْهُ إِلَيَّ»^(٣).

فالمؤمن المريض المدنف، ساكن النفس، لاهجٌ بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكن غير الواثقين لا يعلمون حقائق كنوز الرضا وذخائر الثقة. إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفاً للمرضي عنهم: ﴿الْعِيدُوتُ الْحَمْدُوتُ السَّيْحُوتُ﴾ [التوبة: ١١٢] ويتدبر قول ربه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فتتهفو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة.

وكم من مريض أو مكروب أو مضرور يفتح الله له باباً لمناجاته والأنس به حال كربه ومرضه، حتى إذا زال كربه؛ فَقَدْ معه كثيراً من موارد ذلك الأنس

(١) البخاري ٤/٢٤٦ (٣٦١٦) ٧/١٥٢ (٥٦٥٦).

(٢) البخاري (٢٩٩٦).

(٣) أحمد (٢ / ٢٠٥) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨١٠) وصححه الحاكم في مستدركه ووافقه الذهبي والألباني في السلسلة (٣ / ٢٣٢).

والسرور والمناجاة.

اصبرْ تنلْ ما ترتجيه وتفضلْ من جاركْ شأوَ العُلا سَبَقًا وتبريزا
فالتبرُّ أُحرقَ بالنيرانِ مصطبرًا على لظاها إلى أن عاد إبريزا

والمؤمن يرى الأمراض نعمًا لا عذابًا، هو لا يطلبها، بل يسأل ربّه العافية، لكن
إن نزلت به صبر ورضي وحمد وشكر. فأسقامُ الجسد على ثلاثة أنحاء:

الأول: العارض، ومن أعظمه الحمى - أمٌ ملدم - فهي تدخل كل عضو، وتفورُ
في كل مفصل، وتنزل في كل جارحة، فهي كفارة طيبة للخطيئات.

الثاني: أمراض ملازمة تحل معه وترتحل، لا تفارقه في فراشه ولا طعامه ولا
لذته ولا عبادته كالسكر والضغط والعاهة ونحو ذلك من الأسقام التي يسمونها:
الدائمة، فهي نعم الصاحب والرفيق في الطريق للآخرة، فالجسد يتأقلم ويتعايش
معها على طول السنين، فلا يتأذى بها كشدّة العارض النازل، مع ذلك فهي تنظفُ
صحيفته وتُنقيها على مرّ الأيام من الذنوب، حتى إذا وافى العبد ربّه إذ كثير من
خطاياهم قد زالت بسبب تلك الأسقام في دنياه.

والثالث: الأسقام المُفضية للوفاة بإذن الله تعالى، فمنها ما هو شهادةٌ
لصاحبها، ومنها دون ذلك، وكلها خير ونعمة لمن احتسب الأجر ورضي بالله ربًّا
مدبرًا، وحمدَهُ على كل حال، وشكره على كل فضل. وبالجملّة: فالمؤمن يعلم أنّ
المصيبة كفارة للسيئات ورفعة للدرجات، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على
الأرض وليس عليه خطيئة. وقال إبراهيم المقرئ وقد رفته بغلته فكسرت رجله:
«لولا مصائب الدنيا؛ قدمنا على الله مفاليس». ولنجم الدين سليمان بن

عبد القوي رَحْمَةُ اللَّهِ:

فاصبر ففي الصبر ما يُغنيك عن حيلٍ وكلَّ صعبٍ إذا صابرته هانا
ولست تُعَدُّمُ من خَطْبٍ رُميتَ به إحدى اثنتين فأيقنْ ذاكَ إيقانا
تمحيصُ ذنبٍ لتلقى الله خالصةً أو امتحاناً به تزدادُ قرباناً

والمرضُ لا يُقَرِّبُ الأجلَ، ولا الصحةُ تدفعُهُ، إنما هي أسبابٌ مجرّدة، أما
المُسَبِّبُ الخَلَّاقُ الذي يُنزلُ الداءَ ويرفعُهُ ويُحيي ويُميت فهو الله وحده، فالمؤمن
يبدل السبب وقلبه معلق بالله تعالى.

حتى من أصيب بمرضٍ خطيرٍ كالسرطان فهو بين إحدى الحسنيين؛ شفاءً أو
شهادةً بإذن الله العلي، لأنّه إن لم يدخل فيه بالنص كالطاعون والمبطون ومريض
ذات الجنب؛ فهو داخل بالمعنى للعلل التي ذكرها العلماء في توصيفهم لأمراض
الشهادة.

ومن رحمة الله بعبده أن تأتيه رسلُ ربه كالأمراض الخطيرة، فتلمح له بقرب
رحيله إليه، فيستعد للقاء الله ويشتاق بتوبة وعمل، ويتخفف من كدر الدنيا لراحة
الآخرة، وينفض عن ظهره أوزار الخطايا ومظالم العباد، إنما الفاجعة بموت الفجأة،
والله المستعان.

فصبراً فليس الأجرُ إلا لصابرٍ على الدهرِ إن الدهرَ لم يخلُ من خَطْبٍ
هذا وإن المرض لا يقطع الأجر، فنيةُ المؤمن خير من عمله، والله بفضله
يعطي مَنْ نوى أجر من عمل إذا صدق النية وبيّت العزيمة الصالحة، حتى وإن
اخترم عمله قَدْرٌ خارج عن قدرته، كسفر ومرض بل ومنية في بعض الأعمال

كالمرباط، فعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ، قال: «كل ميت يُحْتَم على عمله إلا المرباط في سبيل الله، فإنه يُنَمَّى له عمله إلى يوم القيامة»^(١)، ويؤمن فتنة القبر»^(٢). وقال النبي ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سلكنا واديًا وشعبًا إلا وهم معنا حَبَسَهُم العذر»^(٣).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جاء عن الرسول فيمن كان يعمل شيئًا من الطاعة ثم حبسه عنه مرض أو غيره أنه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح، وكذلك من نام عن حربه نومًا غالبًا كتب له أجر حربه، وكان نومه صدقة عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي: غير مقطوع بزمانة^(٤) أو كبر أو ضعف، ففي هذا أن الإنسان يبلغ بنيته أجر العامل إذا كان لا يستطيع العمل الذي ينويه»^(٥).

(١) قال الهروي رحمه الله تعالى: «أي: يُزاد له «عمله» بأن يصل إليه كل لحظة أجر جديد «إلى يوم القيامة» مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٦).

(٢) أحمد (٢٣٩٥١) و٦/ ٢٠ (٢٣٩٥٤)، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١) والحاكم ٢/ ٧٢ و١٤٤. وقال الترمذي: وحديث فضالة حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢١٨).

(٣) البخاري (٣١/ ٤) (٢٨٣٨).

(٤) الزمانة: السقم والمرض الدائم والعاهة، وكأن طول زمنه معتبر في التسمية والله أعلم. وقد خصصها ابن سيدة بالعاهة كما في مخصصه (١/ ٤٧١) وكذلك الزبيدي في تاجه (١٥٣/ ٣٥).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٤٥).

إذا لم تستطع للرزءِ دَفْعًا فصبرًا للرزيةِ واحتسابا
فما نالَ المُنَى في العيشِ إلا غبيَّ القومِ أو فَطِنٌ تغابى
هي الدنيا نَغَرُّ بها خدوعًا ونورُدها على ظمأٍ سرابا
وهل أحيأونا إلا ترابٌ بظهرِ الأرضِ ينتظرُ الترابا



مِظَانُ الْحَاجَةِ إِلَى الصَّبْرِ

لا يستغني المرء مهما كان دينه وطبعه عن الصبر في تحصيل مصالحه، ذلك أن الدنيا خلقها الخلاق العليم القدير الحكيم على الكدر والمشقة والتعب والأواء، وبالصبر يقوم بدفعها لما يصلحه بإذن الله تعالى، فإنَّ الفشل والخسار والإحباط تحيط بمكابدها غير الصبور، وعلى قدر صبره يكون نواله بحسب سنن الله تعالى بإذن الله تعالى، كذلك غنائم الآخرة من الرضوان والجنة لا تنال إلا بذخائر الصبر، فالصبر كنز في الحال والمآل، وهو قُوَّةُ النوال، بإذن البرِّ الكريم المتعال.

إِذَا خُفَّتْ فِي أَمْرِ عَلَيْكَ صَعُوبَةً فَأَصْعَبْ بِهِ حَتَّى تَذِلَّ مَرَائِبُهُ
وَأَمِّرْ عَلَى مَكْرُوهِهِ قَدْ رَكِبْتَهُ فَكَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ خَيْرًا عَوَاقِبُهُ

فالمؤمن يتسلح في دنياه لأخراه بالصبر الشديد الحسن الجميل، «فالإنسان بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدَّر يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها. وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى المهمات، وكل ما يلقي العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

الأول: يوافق هواه ومراده، والآخر: يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما. أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: ألا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: ألا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحُرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيُسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكّن نفسه من كل ما تريده منها، فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون. قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون». وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»^(١).

ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما في جامع الترمذي عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ

(١) الترمذي (٢٤١٦) عن عبد الرحمن بن عوف، وقال: هذا حديث حسن.

وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوَّالْكُفْرِ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴿[التغابن: ١٤] قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبوه؛ فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوَّالْكُفْرِ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].. الآية» (١).

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده! وفي الحديث: «الولدُ مَبْخَلَةٌ مَّجْبَنَةٌ» (٢).

وعن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبا يقول: كان رسول الله يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمُ وَأَوْلَادُكُمُ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» (٣). وهذا من كمال رحمته ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

(١) الترمذي (٣٣١٧)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ١٢ / ٤٩ وحسنه الألباني.

(٢) أحمد (١٧٢ / ٤) (١٧٧٠٥) وابن ماجه (٨ / ١٦٦) (٣٦٦٦) وصححه الألباني.

(٣) المسند (٥ / ٣٥٤) (٢٢٩٩٥) وأبو داود (١١٠٩) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣ / ٢٢٤) وصحيح ابن ماجه (٣٦٠٠) وحسنه أيمن صالح شعبان في تخريجه لجامع الأصول، وقوى إسناده محققو المسند.

وإنما كان الصبر على السراء شديداً؛ لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشَّبِق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

وأما النوع الثاني المخالف للهوى: فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره، ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه. فهاهنا ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلِّفاً غائب القلب ذاهلاً عنها طالباً لفراقها.

وأما الزكاة فلما في طبعها - أي النفس - من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً.

ويحتاج العبد هاهنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

الأول: قبل الشروع فيها، بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الثاني: الصبر حال العمل، فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه

والتفريط، ويلزم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود وألا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن ألا ينسى الأمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحباً لذكره في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو يحتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الثالث: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضرّ عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرّاً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السرّ، فإن تحدّث به نُقل إلى ديوان العلانية! فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطع العوائد؛ فإن العادة طبيعة خاصة، فاذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى

باعث الدين على قهرهما.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار وليس للعبد حيلة في دفعه، كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها؛ كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك، وهذا نوعان:

أحدهما: ما لا صنع للعبد الآدمي فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله؛ كالسب والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدها: مقام العجز، وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً ودينًا ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر، إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر^(١)، وهو أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد البلية نعمة؛ فيشكر المبتلي عليها.

وأما النوع الثاني وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات ويضاف إليها أربعة أخرى:

(١) لو قال: مقام الحمد والشكر لكان حسنًا، وقد سبق الكلام في ذلك.

أحدها: مقام العفو والصفح.

والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها.

الثالث: مقام شهود القدر^(١)، وأنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه، فالمستحط من أذى الحر والبرد غير حازم، والكل جارٍ بالقدر وإن اختلف طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء، ومقابلة أساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكّن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق؛ أوله اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دفع السكر بعد تناول المسكر، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلمّا فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره وألا يطيع داعي هواه ونفسه.

وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة: وهي أن يخيل إليه أن نيل بعض ما منع منه قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمير

(١) فلو لم يرد الله تعالى هذا الأمر لم يكن، فهو من قدره وقضاه وشاءه وكتبه تبارك وتعالى.

والنجاسة^(١)، وقد أجازته كثير من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل!

فإن هذا التداوي لا يزيل الداء، بل يزيده ويقويه، وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء، بل الدواء النافع لهذا الداء: الصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مفرطاً بتعاطي أسبابه؟ وهل يكون معاقباً على ما تولد منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم، إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره، لأنه جهاد منه لنفسه، وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولد منه؛ فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها.

ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن أتباعهم له تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفلاً من ذنب كل

(١) ويشبه ذلك فكّ السحر بسحر مثله، وهو منكر عظيم وكفر بالله تعالى.

قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟

قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقًا بالغير؛ فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول ﷺ وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل افسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يُخلصوا دينهم لله بدل

إظهارهم رياء وسمعة، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان»^(١).

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «ما أحوج العبد إلى الصبر على مشتبهات الدنيا، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان، فإن ﴿الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيًى﴾^(٢) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْيًى ﴿[العلق: ٦-٧]».

ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر^(٣). وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، ومن العصمة ألا تقدر!

والصبر على الحجاماة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها. فلهذا عظمت فتنة السراء.

والعبد يحتاج إلى الصبر على الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها

(١) عدة الصابرين (١١٤ - ١٢٤) لابن القيم، وهذه الحروف التقسيمية مختصرة عن إحياء علوم الدين (٤ / ٦٩ - ٧٥) للغزالي رحمهما الله تعالى.

(٢) وهذا من تواضعهم وإزرائهم بأنفسهم، وإلا فهم في الجملة قد قاموا بحقوق الشكر، ولعلمهم لعظيم إيمانهم ودقيق ورعهم قد لحظوا نزول القلب عن مرتبته الأولى اللينة العالية لما كان خالياً من مزاحمة فضول الدنيا، إما لحصولها بعد امتناعها، أو لطول ملابستها حتى مع الازورار عنها، وهذا راجع لعظيم فقهم، ودقيق ورعهم، وصدق تدبّيرهم، وجميل خشيتهم، عليهم رضوان الله وتترا رحماته.

تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: «ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿أَنَارُكُمْ أَلْعَلَّى أَنَارُكُمْ أَلْعَلَّى﴾ [النازعات: ٢٤] ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه»^(١). وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره، فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضممار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء. فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً، ثم من العبادات ما يُكره^(٢) بسبب الكسل أو البخل كالزكاة، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد^(٣). ولا بد من صدق النية لله، وقد نبه ﷺ إذ قال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٤). وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

- (١) وفي هذا نظر كبير، والأظهر بطلان هذا القول وإن قال به كثيرون، لمخالفته بداهة الفطر السليمة من استسلامها الفطري لإلهها الحق، وبراءتها من حب التسربل بالربوبية. ولعل الشيخ قصد بعض صفات التسلط والكبرياء ونحو ذلك، وهذه لا يصح إطلاق القول بأنها إضممار ما أظهره فرعون. وبالله التوفيق.
- (٢) أي: الكراهة المَرَضِيَّة الناشئة عن الضعف البشري تجاه نوازع الطينة الجثمانية الكسولة الحريصة، وأزير الحَبْثِ الوسواسي الشيطاني.
- (٣) ما كان لله فلا تتردد فيه ابتداءً، ولا تتندّم عليه لاحقاً. فهو الذخر الباقي، وما سواه فللفناء.
- (٤) البخاري ٢/١ (١) ومسلم ٤٨/٦ (١٩٠٧).

وعليه إلا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ. وهذا أيضًا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ نَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨] أي صبروا إلى تمام العمل.

وكذلك بحراسة عمله بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وكما قال تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٤٦] فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعًا، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

وعلى العبد أن يصبر لله عن المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. والمعاصي مقتضى باعث الهوى، وأشد أنواع الصبر؛ الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، فإن العادة طبيعة خامسة، فاذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدين على قمعها!

ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله؛ كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإضرار والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهرة غيبة وفي باطنه ثناء على النفس، فللنفس فيه شهوتان:

إحدهما: نفي الغير، والأخرى إثبات نفسه، وهذا ضد ما أمر به من العبودية، ولا اجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان، ويصير ذلك معتاداً في المحاورات إذ يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات، حتى بطل استنكارها واستقباحتها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأُنس بها! فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد، ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك، مع ما ورد في الخبر من التشنيع في شأن الغيبة.

ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك؛ فيجب عليه العزلة والانفراد، فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوسواس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة، ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

وعلى العبد أن يصبر على ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أودى بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة، تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة.

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿وَلَصَبِرَ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمْوْنَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [ابراهيم: ١٢] وقسم رسول الله ﷺ مرة ما لا فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فأخبر رسول الله فاحمرت وجنتاه ثم قال: «يرحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَدَعَا أَذُنُهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٩٧-٩٨] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي تصبروا عن المكافأة، ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال ﷺ: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ،

(١) البخاري ١١٥/٤ (٣١٥٠) ومسلم ١٠٩/٣ (١٠٦٢) (١٤٠).

واعف عمن ظلمك»^(١). وكل ذلك أمرٌ بالصبر على الأذى، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

أما ما لا يدخل تحت حصر الاختيار فالصبر عليه من أعلى مقامات الصبر، وكل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين^(٢)، فإن ذلك شديد على النفس، ولذلك قال ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا»^(٣). فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ في خطبته: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه، وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(١) أحمد في مسنده (١٧٤٥٢) وحسنه محققو المسند، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٥٥٢) (٨٩١).

(٢) والعكس هو الصحيح، فالصبر على البلاء صبر فيما لا حيلة في دفعه، أما عن الحرام وعلى الطاعة فهو الشديد، وهو الصبر العبادي الاختياري، وهو أشق على النفس من مصيبة لا حيلة في دفعها. وقارن بين صبر يوسف وأيوب عليهما السلام وصبر محمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فالصبر على طاعة الله تعالى أشرف وأشق من الصبر على أقدره المؤلمة، وفي كل خير.

(٣) الترمذي بنحوه (٣٥٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٣٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨) والأرناؤوط في تخريج رياض الصالحين (٨٣٤).

وروي أن داود قال لسليمان عليهما السلام: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث؛ حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات». ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفي كفه صرة فافتقدها، فإذا هي قد أخذت من كفه فقال: «بارك الله له فيها، لعله أحوج إليها مني»^(١).

وروى عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى^(٢) وبه رمق فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: «جُرّني قليلاً إلى العدو، واجعل الماء في الترس، فإني صائم، فإن عشت إلى الليل شربته»!^(٣) فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فان قلت: فيما إذا تُنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره، فهو مضطر شاء أم أبى؟

فالجواب: أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش

(١) وهذا نوع نادر من الإيثار والعفو والإحسان ومحبة الخير للناس.

(٢) أي: بعد معركة اليمامة الهائلة.

(٣) لعله كان صيام قضاء، أو أنه قد بغته العدو وهو متنفّل فأثر ألا يفطر لقوّته وعدم حاجته للفطر، أو أنه اجتهد منه رضي الله عنه، فهو من قراء الصحابة، أي: فقهاءهم. والسنة هي الفطر في الحرب، حتى لو كان في رمضان. وقبيل فتح مكة وكانوا في رمضان صياماً؛ قال لهم رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ مُصَبِّحُونَ عَدُوَّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا». قال أبو سعيد: وكانت عزمة - أي ليست رخصة - فأفطرنّا». رواه مسلم (٣/ ١٤٤).

والمطعم، وهذه الأمور داخله تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها، ويُظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويبقى مستمرًا على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت.

كما روى عن الرميضاء أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب، فقممت فسجيت في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقممت فهيأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة. ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك، حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا! قال: ما لهم؟ قلت: أُعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عاريةً من الله تعالى، وإن الله قد قبضه إليه. فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لهما في ليلتهما». قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن^(١).

واعلم أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإن الذي كُفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرًا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنًا! فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان، وآلة العبد قلبه، وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به

(١) أصله في البخاري (٢ / ٨٣) (١٣٠٢).

معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون.

هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصوراً عليها، ولا يكون ذلك غالباً، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له.

ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم^(١).

وبالجملة؛ فالمؤمن لا ينفك عن حاجته وضرورته للصبر في شأنه كله، في القيام بمصالحه في الدين والدنيا، وفي احتمال مشاقّ تحصيل الرغائب ودفع ورفع المفاسد والمضار والمخاوف، فمن أراد الآخرة فعليه بالصبر، ومن أراد الدنيا فعليه بالصبر، ومن أرادهما جميعاً فعليه بالصبر، والله مع الصابرين.



(١) الإحياء (٤ / ٦٩ - ٧٥) باختصار واقتصار.

دواء الصبر وما يستعان به عليه

الصبر دواء لأواء الدنيا، ومَرْكَبُ أحمالها، وطريق السير السليم عبرها للآخرة، ولئن كانت لأواء الدنيا أدواء فعقار الصبر بإذن الله تعالى هو الدواء، وتوفيق الله تعالى هو الشفاء، فالقيام بالعبادات وبمصالح الدنيا مفتقر لصبر بقدر ذلك الحمل، وكذا الامتناع عن المحرمات وعن ما يفسد الدنيا، فحب شهوات الدنيا غريزة مغروزة في قلب المرء كغرز عروق الشجرة في الطين، فإن كانت شهوة مباحة فليحسن نيّته في الاستمتاع بها فتكون شهوة وأجرًا، فهي خير وافق هوى، وهي الغنيمة الباردة، وقد تكون شهوة محرّمة فهنا يحتاج المرء لمعول الصبر حتى يقتلعها، فإن لم يستطع فبقطع ماداتها ومواردها حتى يموت غصن حبها فيسقط لوحده مع رياح خريف الزمان.

وأنواع الشهوات كثيرة من شهوة الفرج والبطن والمال والرئاسة والعلوّ والقهر وغير ذلك كثير، وجماعها حب الدنيا، والله يحب الصابرين، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: «اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقًا أو ممتنعًا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل».

فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تُركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج، إذ معنى العلاج: مضادة العلة وقمعها.

فالمؤمن إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً، وقد غلبت عليه الشهوة

بحيث ليس يملك معها فَرْجَه، أو يملك فَرْجَه، ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه، ولكن ليس يملك قلبه! ونفسه إذ تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة.

فالصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر. فَلَزِمْنَا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة، فأما باعث الشهوة فسييل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن تنظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة، من حيث نوعها ومن حيث كثرتها، فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة، إذ النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة. وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، والفرار منها بالكلية.

فالنظرة سهم من سهام إبليس، وهو سهم يسدده الملعون ولا تُرْس يمنع منه إلا تغميض الأجفان، أو الهرب من صوب رميه، فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصُّور، فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه، وهذا هو

العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يجمع الشهوة في حق أكثر الرجال، ولذلك قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١). فأمر ابتداءً بالزواج.

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته، والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها، والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب.

وأما تقوية باعث الدين فإنها تكون بطريقتين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يُكثر فكره في الأخبار الواردة في فضل الصبر والعفاف وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، والصابر بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر.

ومن أسلم^(٢) خسيئاً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف، وهو من الإيمان، فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قويّ قوى

(١) البخاري (٣/٧) ومسلم (٤/١٢٨).

(٢) من بيع السِّلَم، وهو تعجيل الثمن مع تأخير المُثمن (السلعة).

باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً، وإن ضَعُفَ ضَعْفَهُ.

وإنما قوة الإيمان يُعَبَّرُ عنها باليقين، وهو المحرك لعزيمة الصبر. وأقلُّ ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني: أن يُعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيستجري عليها، وتقوى رغبته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال.

ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين، وبالجملة؛ فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأول: يضاهي إطعام المصارع بالخُلعة^(١) عند الغلبة، ووعده بأنواع الكرامة، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَلَا تَكُ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّرِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] (٢).

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه رغبته، فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين، ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

(١) الخُلعة: هدية اللباس الفاخر، وهي كثيرة في هدايا الملوك والسلاطين.

(٢) لو اختار مثلاً صالحاً! وما أكثر الأمثلة بحمد الله تعالى.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر، ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس، ومن استعان بالله وبذل أسباب ذلك حاز رغبته بإذن الله»^(١).

والشهوات التي يحتاج المؤمن حيالها لصبر عظيم كثيرة، فالله تعالى قد خلقنا ليلبونا، وركب فينا الغرائز وسلط علينا الشهوات، وأعطانا العقل والعلم والهدى والإيمان، فمن كان معدنه طيباً فهو حقيق بتناول الشهوات الطيبات، ومن كان دون ذلك فبحسبه، والله المستعان، فالجنة دار الطيبين، والنار مأوى الخبيثين، وكل مُيسر لما خلق له، قال سبحانه وبحمده: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝﴾ * قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝﴾ [آل عمران: ١٤-١٥] ولابن القيم رحمه الله تعالى كتابين نافعين في مجاهدة شهوة الفرج بالصبر هما: عدة الصابرين، والداء والدواء. وبالله تعالى التوفيق.



(١) إحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله تعالى (٥ / ٣٨٢ - ٤١٣) بتصرف واختصار.

الصبر والهوى

أساس الصبر مخالفة الهوى، فالنفس نزاعة للدعة والكسل والبطالة والراحة، وهذا يفوتها مصالحها في الدارين، فهي محتاجة لصبر يحملها على مخالفة تلك الدواعي للهوى والتلف والضياع، وينقسم الصبر بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى إلى ثلاثة أحوال:

«أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين، فيرد جيش الهوى مغلولاً، وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿الْأَخْفَاؤُ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نح: ٣١] نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿[فصلت: ٣٠] وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

قال بعض الصحابة: «إن المؤمن يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أحدكم بغيره في السفر» (١).

(١) القائل أبو هريرة رضي الله عنه، والمعنى: أنه يجاهد شيطانه وقرينه ويكابده حتى يجهد الشيطان ويضعف ويهزل، وفي لفظ «شيطانه». وقد روي مرفوعاً كما عند أحمد (٨٩٤٠) وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢١: فيه ابن لهيعة. وضعفه الأرنؤوط في تخريج المسند، وحسنه الألباني في السلسلة (٣٥٨٦).

الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا.

وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده! وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة^(١). وبالله تعالى التوفيق.



(١) عدة الصابرين (١ / ٢٠).

المؤمن مبتلى في طريق العبودية بشهواته

اعلم أنك تقترب من الله بقدر طاعتك له، وتدبر الكلام المباشر: ﴿وَيَكَادُمُ﴾ [الأعراف: ١٩] كذلك: ﴿وَلَا تَقْرَبْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فاسم الإشارة مؤذن بالقرب منه سبحانه.

وبعد هذا القرب الإلهي؛ أتى الشيطان يوسوس بالقرب منهما ومن الشجرة: ﴿مَا نَهَكَمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبعد اقتراب الشيطان منهما بالوسوسة بالقرب من الشجرة صارت الشجرة محلاً للخطيئة فابتعدا عن الله نسيباً بقدر معصيتهما، فبدلاً من الكلام المباشر جاء النداء: ﴿وَنَادَاهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] وفيه الإيذان بالبُعد.

كذلك أشار للشجرة - محل الخطيئة - بقوله: ﴿الْمَآءُ أَنَّهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولم يقل: هذه الشجرة!

وبالجملة؛ فالقرب من الله مضطرد مع طاعته، وتأمل: ﴿كَأَلَّا لَا تُلْطَعُ وَأَسْجَدُوا قَرَّبَ﴾ [العلق: ١٩].

فالحرص صادر عن شهوة، وأياً ما تكن تلك الشهوة فهي وسيلة ابتلاء للعبد وامتحان لصدق إيمانه وثباته على عهده لربه.

وهل هنا خدعة نفسية وللأسف شيطانية! وهي التي أخرجت أبانا من الجنة، فلنحذر عاقبتها. إنها رغبة الممنوع! وحب شيء إلى الإنسان ما مُنعاً، وقالت العامة: كل ممنوع مرغوب.

وقال ابن مفلح رحمه الله تعالى - وأحسن القول -: «وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه»^(١).

ومن غرائب النفس البشرية أنها بطبيعتها تزهد في المحسوسات فور تحصيلها! ورحم الله من حذب بوصيته:

يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وبعد: فأقول لكل راغب لما سوى الآخرة:

إذا الحياة لغير الله وجهتها فطوها في صميم الأمر نقصان
فدربها ضيعة تُفْضِي لِهَلَكَةٍ وزادها جلمدٌ في شكل عقيان
فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا فالمت والعيش بعد اليوم سيان!

والمقصود؛ أن من استقام على أمر ربه وصبر؛ فقد أفلح وظفر، قال ربنا تعالى في شأنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣] «قال مجاهد: كتب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أمير المؤمنين؛ رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل لها؟ فكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]»^(٢).

فقد أجاب أمير المؤمنين رضي الله عنه سائله بالقرآن، وكأنه يقول: إن من

(١) الفروع وتصحيح الفروع، لشمس الدين ابن مفلح الحنبلي ١٨١/٨

(٢) الدر المنثور (١٣ / ٥٣٥).

ترك الشهوة لله خير ممن لم يشتهها أصلاً. قلت: والأمر كما قال رضي الله عنه، فإن النفوس حيال ذلك على ثلاثة أنحاء:

الأول: من معدنه طيب تأمُّ الطَّيِّب، فليس في قلبه مدخل لشهوة حرام إذ امتلاً فؤاده بحب الله تعالى والتعلق به والدوران مع أمره، حتى شُغل بذلك عن خواطر الدنيا الدنيئة، فهذا قد اطمأن بالإيمان، وارتفع وسما وحلّق في سماء الفضل، وقد كافأه ربه الأعلى بقصر همّه عليه، وصرف أدران الهوى عنه، فواهاً لأمثاله! وهذا لم يُسأل عنه عمر رضي الله عنه، ولم يجب عنه.

الثاني: من كان مؤمناً مجاهداً لنفسه الأمارة، خاطماً إيّاها لأجل ربه تعالى، زاماً أنفها لمرضاة الله رب العالمين، فهو جاهدٌ مجاهدٌ في الله ولله، فهذا هو من عناه عمر رضي الله عن عمر، وهو في المرتبة التالية لمن قبله الذي امتلاً قلبه بإيمان بحيث لم يدع مجالاً ومكاناً لهوى حرام.

الثالث: من لم تُركب فيه الشهوة أصلاً، أو كانت ضعيفة، أو كان ذا شهوة ولكن كان داعيها ضعيفاً، إما لنقص حسننها في عينه وقلبه، أو ضعف رغبته لانشغاله عنها بأمر خارج عن الدين. فهذا قد سلم من نجاسة الخطيئة، وعوفي من وَضَرِها، لكنه محروم من أجر مجاهدتها لله تعالى.

فالمراتب ثلاث: الأول: صاحب النفس المطمئنة بالإيمان، والثاني: صاحب النفس المجاهدة للرحمن، والثالث: صاحب النفس السالية لضعف غريزتها عن العصيان، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الذكر.

قال في طريق المهجرتين: «وقد اختلف أرباب السلوك هنا في هذه المسألة وهي

أيها أفضل: من له داعية وشهوة، وهو يجسها لله، ولا يطيعها حباً له وحياءً منه وخوفاً، أو: من لا داعية له تنازعه، بل نفسه خالية من تلك الدواعي والشهوة، قد اطمأنت إلى ربها، واشتغلت به عن غيره، وامتألت بحبه وإرادته، فليس فيها موضع لإرادة غيره ولا حبه؟

فرجحت طائفة الأول، وقالت: هذا يدل على قوة تعلقه وشدة محبته، فهو يعاصي دواعي الطبع والشهوة، ويقهرها بسلطان محبته وإرادته وخوفه من الله، وهذا يدل على تمكنه من نفسه، وتمكن حاله مع الله، وغلبة داعي الحق عنده على داعي الطبع والنفس.

قالوا: وأيضاً فله مزيدٌ في حاله وإيمانه بهذا الإيثار والترك مع حضور داعي الفعل عنده ومزيد مجاهدة عدوه الباطن ونفسه وهواه، كما يكون له مزيد مجاهدة عدوه الظاهر.

قالوا: والذوق والوجد يشهد لمزيده من الحب والأنس والسرور والفرح بربه عن إيثاره على دواعي الهوى والنفس، والمطمئن الذي ليس فيه هذا الداعي ليس له مزيد من هذه الجهة وإن كان مزيده من جهة أخرى فهي مشتركة بينهما، ويختص هذا بمزيده من الإيثار والمجاهدة.

قالوا: وأيضاً فهذا مبتلى بهذه الدواعي والإرادات وذلك معافى منها، وقد جرت سنة الله في المؤمنين من عباده أن يتليهم على حسب إيمانهم، فمن ازداد إيمانه زيد في بلائه. فإن المؤمن يُبتلى على قدر ما يحمله إيمانه من وراء البلاء.

قالوا: فالبلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع من أشد البلاء؛ فإنه لا يصبر

عليه إلا الصديقون، وأما البلاء الذي يجري على العبد بغير اختياره كالمريض والجوع والعطش ونحوها فالصبر عليه لا يتوقف على الإيمان، بل يصبر عليه البر والفاجر، لا سيما إذا علم أنه لا معول له إلا الصبر، فإنه إن لم يصبر اختياراً صبر اضطراراً!

ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الحب ويبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه، وابتلائه بمراودة المرأة وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها وهي الداعية إلى ذلك فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء.

فإن الشباب داع إلى الشهوة، والشاب قد يستحي من أهله ومعارفه من قضاء وطره، فإذا صار في دار الغربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام، وإذا كان عزباً كان أشد لشهوته، وإذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشد، وإذا كانت جميلة كان أعظم، فإن كانت ذات منصب كان أقوى في الشهوة، فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضاً للطلب، فإن كان الرجل كمملوكها وهي كالحاكمة عليه الآمرة الناهية كان أبلغ في الداعي، فإذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبة للرجل قد امتلأ قلبها من حبه؛ فهذا الابتلاء الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول، بل هو من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده، إذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة

ومفارقة حكم طبعه، وهذا بخلاف البلوى التي أصابت ذا النون والتي أصابت أيوب.

قالوا: وأيضاً فإن هذه هي النكتة^(١) التي من أجلها كان صالح البشر أفضل من الملائكة، لأن الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية، فهي صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق.

واحتج أرباب القول الثاني - وهم الذين رجحوا من لا منازعة في طباعه ولا هوى له يغالبه - بأن قالوا: كيف تستوي النفس المطمئنة إلى ربها، العاكفة على حبه التي لا منازعة فيها أصلاً، ولا داعية تدعوها إلى الإعراض عنه، والنفس المشغولة بمحاربة هواها ودواعيها وجواذبها؟

وأيضاً: ففي الزمن الذي يشغل هذا بنفسه ومحاربة هواه وطبعه؛ يكون صاحب النفس المطمئنة قد قطع مراحل من سيره وفاز بقرب فات صاحب المحاربة والمنازعة.

قالوا: وهذا كما لو كان رجلان مسافرين في طريق، فطلع على أحدهما قاطع اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكن من سيره، والآخر سائر لم يعرض له قاطع، بل هو على جادة سيره، فإن هذا يقطع من المسافة أكثر مما يقطع الأول، ويقرب إلى الغاية أكثر من قربه.

وأيضاً: فإن للقلب قوة يسير بها، فإذا صرف تلك القوة في دفع العوارض

(١) النكتة: الفائدة الدقيقة.

والدواعي القاطعة له عن السير اشتغل قلبه بدفعها عن السير في زمن المدافعة. لأن المقصود بالمقصود الأول إنما هو السير إلى الله، والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره، فالاشتغال بالمقصود لنفسه أولى وأفضل من الاشتغال بالوسيلة.

وأيضًا: فالعوارض المانعة للقلب من سيره هي من باب المرض، واجتماع القلب على الله وطمأنينته به وسكونه إليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض هو صحته وحياته ونعيمه، فكيف يكون القلب الذي يعرض له مرض وهو مشغول بدوائه أفضل من القلب الصحيح الذي لا داء به ولا علة؟!

وأيضًا: فالذي يسير العبد بإذن ربه إنما هو همته، والهمة إذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات، كالطائر إذا علا وارتفع في الجوفات الرماة ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السهام، وإنما تدرك هذه الأشياء للطائر إذا لم يكن عاليًا، فكذلك المهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر، وإنما تلحق الآفات والدواعي والإرادات المهمة النازلة، فأما إذا علت فلا تلحقها الآفات.

وأيضًا: فالواردات الإلهية ترد على القلوب على قدر استعدادها وقبولها، فإذا صادفت القلب فارغًا خاليًا من العوارض والمنازعات ودواعي الطبع والهوى ملأته على قدر فراغه، وإذا امتلأ منها لم يبق لأضدادها وأعدائها فيه مسلك، وإذا صادفت فيه موضعًا مشغولًا بغيرهم من الأغيار لم يساكن ذلك الموضع فيدخل الضد والعدو من تلك الثلمة.

وأيضًا: فدواعي الطبع وإرادات النفس وشهواتها مصدرها إما جهل وإما ضعف، فإنها لا تصدر إلا من جهل العبد بآثارها وموجباتها، أو يكون عالمًا بذلك،

لكن فيه ضعف وعجز يمنع عن محوها من قلبه بالكلية، وما كان سببه جهلاً أو عجزاً لا يكون كمالاً ولا مستلزمًا لكمال، وأما القلب الخالي منها ومن الاشتغال بدفعها فقلب شريف قوى علوي رفيع.

وأيضاً: فإن هذه الدواعي والإرادات إنما تُحمد عاقبتها إذا ردت صاحبها إلى حال السليم منها، فيكون كماله في تشبهه به وسيره معه، فكيف يكون أكمل ممن كماله إنما هو في تشبهه به؟

قالوا: وأيضاً: فالنفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة. والنفس الأمارة هي المطيعة لدواعي طباعها وشهواتها، فمبادئ كونها أمارة هي تلك الدواعي والإرادات فتستحكم فتصير عزمات، ثم توجب الأفعال. فمبدأ صفة الذم فيها تلك الدواعي. وأما النفس المطمئنة فهي التي عدت هذه المبادئ فعدمت غاياتها، فكيف تكون مبادئ النفس الأمارة مما يوجب لها مزية على النفس المطمئنة؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة أيضاً لقولها.

والحق؛ أن كلا الطائفتين على صواب من القول، لكن كل فرقة لحظت غير ملحظ الفرقة الأخرى، فكأنهما لم يتواردا على محل واحد، بل الفرقة الأولى نظرت إلى نهاية سير المجاهد لنفسه وإرادته وما ترتب له عليها من الأحوال والمقامات فأوجب لها شهود نهايته رجحانه فحكمت بترجيحه واستحلت بتفضيله، والفرقة الثانية نظرت إلى بدايته في شأنه ذلك ونهاية النفس المطمئنة، فأوجب لها شهود الأمرين الحكم بترجيح القلب الخالي من تلك الدواعي ومجاهدتها، وكل واحدة

من الطائفتين فقد أدلت بحجج لا تمانع، وأتت بينات لا ترد ولا تدافع»^(١).

والصابر لله تعالى موعود بالمعِية والمحبة والعون من ربه تعالى، ومن اشتكى شهوة الفرج الحرام فعليه بالصبر والمصابرة والمرابطة واتخاذ السبيل المتمم لعفاه وعافيته وسلامته.

فعلى المؤمن أن يحرص على الوصال النقي الحلال دون القدر الحرام، وتعظم ضرورة المجاهدة وبذل أسباب العفاف في زماننا هذا أكثر من غيره لانصباب دواعي الفجور الحرام وتيسيرها وكثرتها، فحفر النار كثيرة في هذا الزمان الشديد والله المستعان.

وقد جعل الله تعالى بحمده وفضله ورحمته في الحلال غنية وكفاية بالمحبة أو حتى بغيرها، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَرِ لِلْمُتَحَايِنِ مِثْلَ النُّكَاحِ»^(٢). فالوصل الحلال؛ يشفي قلب الإنسان ويزيل غلواء شهوته؛ فإذا لم يتمكن من هذه الفتاة فمثلها في النساء كثير، وآلتهم واحدة، ولكن الهوى غلاب، ومزِينٌ للممنوع، حتى إذا تمكّن منه حالاً زهد فيه!

ومهما وجد الإنسان من ألم فراق الشهوة الحرام؛ فعند الله خير وأبقى وأنفع وأبهج، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(٣). ومن ترك

(١) طريق الهجرتين (١ / ٣٨٠ - ٤٠٨) مختصراً.

(٢) ابن ماجه (١٨٤٧)، والحاكم (٢٧٢٤) وصححه الألباني في مصباح الزجاجة (٦٦١).

(٣) البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واليأس راحة والطمع عذاب.

فإن سأل الواشون فيما هجرتها فقل: نفس حُرُّ سُلِّيت فتسلَّت

قال الحافظ رحمه الله تعالى في الصبر عن محارم الله تعالى: «يدخل في هذا المواظبة على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيده، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بمرأى ومسمع؛ فيبعثه ذلك على الكف عما نهى عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالباً تكون سبباً لزوال النعمة، ومنها محبة الله فإن المحب يصبر نفسه على مراد من يجب.

وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج، وقد أثنى الله على الصابرين»^(١).

إنَّ الأمور إذا انسدتْ مسالكُها فالصبرُ يفتحُ منها كل ما ارتجأ لا تياسنَّ وإن طالَّتْ مطالبةٌ إذا استغثتْ بصبرٍ أن ترى فرجا

وبالجملة؛ فالمؤمن عفيف متعفف، والعفاف ضرورة الزمان، وتحقيق بكل مؤمن الحرص الشديد على غرس شجرته في قلبه، وإعلاء جدران بنيانه في قلبه، خاصة في زماننا زمان الشهوات والشبهات.

إنَّ العفاف تاج أخلاق المؤمنين، وشمس صفات المتقين، وقد أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات العالية، ذلك أنه لا يكون إلا

(١) فتح الباري (١١ / ٣٠٣).

لشريف النفس سامي الخلق، مأمون الجوانب الغادرة.

ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّ لهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات؛ لأنهم تساموا بنقاء أرواحهم وحسن تدينهم عن كل ما يشوب ذلك النقاء، أو يחדش جناب الإيمان.

وإنّه خلّق قلبي قبل أن يكون ظاهراً، فالقلبُ العامر بمحبة الله تعالى، والحياء منه، وحسن الرجاء فيه، وعظم الخوف منه، وتمام التوكل عليه؛ لا بد أن يثمر ذلك صحيح العفاف وصريح الشرف. فالعفافُ عملٌ قلبٍ؛ لأنه حركة القلب للصالح والمباح، وكفّه وسكونه عن الحرام، فهو عملٌ من هذه الحيشة، وهو كذلك ثمرة من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظهوره في الثمرة أجلى من العمل.

وحَدُّ العفاف: كَفُّ النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه؛ يقترب صاحبه من كماله في نفسه، ورفعته عند ربه.

هذا والعفة أنواع عديدة، وجماعها الكف عن الحرام، والاستيحاش منه، والازورار بعيداً عن ذرائعه.

وهي منقسمة على الجوارح، وأصولها ثلاثة: عفة الفرج، وعفة اللسان، وعفة البطن، والبقية متفرعة عنها؛ كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر، ونحو ذلك.

وإذا ضبط المرء عفته في أنواع العفة الثلاث؛ فقد انتظمت له سائرهما، وتيسرت له عواقبها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف النقي الناصع الجميل،

وهي كالتالي:

أولاً: العفة عما في أيدي الناس: وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه، أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً؛ وأتكفل له بالجنة». فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً^(١).

ثانياً: كف اللسان عن الأعراض: فيجبُ على المسلم كف لسانه عن أعراض الناس، وألا يقول إلا طيباً، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٢).

ويتبع اللسان القلم والكتابة، فالقلم هو اللسان الثاني، ويلحق به الكف عن الدماء والازورار عن تحوُّضها بلا برهان شريعة، ويتبعه كذلك لحظُ العين، أو حركة اليد، أو غيرهما بازدراء أو همزٍ أو لمزٍ، أو آيةٍ أذيةٍ لأحدٍ كان - حتى لو كان كافراً أو بهيمة أو طيراً - لم يأذن بها الله عز وجل.

ثالثاً: عفة الفرج عما حرم الله تعالى: وهي أن يعفَّ فرجه عن المحرمات

(١) أبو داود (١٦٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣).

(٢) البخاري (١٠).

والفواحش.

وقد اشتدَّت الحاجة في هذا الزمان للتذكير به، والتنويه بشأن أهله، والتحذير من تدنيسه، والله المستعان. والفرج الحرام حفرةٌ إلى الجحيم، وأكثر أهل النار إنما دخلوا منها ومن اللسان، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: «الفم والفرج»^(١).

وإنَّ عمق الإحساس بالجمال قد يسبب أحياناً فساد الأخلاق. لذا فتدعيم ركائز الفضيلة في نفوس أولئك القوم أولى، وأعني بهم أهل الفنون شعراً وقصة ورواية وتصويراً وتشكيلاً وغناء ونحوهم.

ويتبع عفاف الفرج عفافُ رُسله، كالسمع، والبصر، والكلام، وغيرها. ويكفي في خُبث المعصية مسماها، لأنَّها جرأة على مخالفة الجبار جل جلاله، ونوعُ كفرٍ لِنِعْمِهِ التي لا تعدُّ ولا تحصى، فكيف نعصي من لا قوام لنا إلا به!

إنَّ العفاف برهانُ التقوى، ودليل الاستقامة. والدنيا بأسرها امتحانٌ صبرٍ، واختبارٌ صدق، فمن عَفَّ وكَفَّ وصبرَ لله على الاستقامة؛ فهو المؤمن حقاً والفاضل صدقاً.

أَرَى فَاجِراً يُدْعَى جَلِيداً لظُلْمِهِ وَلَوْ كَلَّفَ التَّقْوَى لَكَلَّتْ مُضَارِبُهُ
وَعَفّاً يُسَمَّى عَاجِزاً لِعَفَافِهِ وَلَوْ لَا التَّقَى مَا أَعْجَزَتْهُ مَذَاهِبُهُ

(١) أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١) قال محقق جامع الأصول (١١ / ٦٩٤): رواه ابن حبان في صحيحه، وهو حديث صحيح بشواهده. وابن ماجه (٤٢٤٦).

والعفاف ضرورة الزمان^(١)، لأننا نعيش زماناً عاصفاً بكل المقاييس، فأبواب الشهوات المحرمة مُسرعة على القلوب الضعيفة، بلا رقيب إلا من لدن علام الغيوب.

بل قد تسلطت الشهوات على الشبهات حتى استبطنتها خفية، فصارت الشبهات سلماً لبلوغ حظوظ النفس الأمارة بالسوء والفحشاء.

ففي الأموال - على سبيل المثال - ضَعْفٌ وازعُ الخوف من الربا، بسبب اشتباه معاملات الحلال بالحرام، وساعدَ على ذلك فتاوى لمتفكّهة التيسير - زعموا - الذين يسوّغون للناس أبواباً ما كان الشيطان يحلم بها في الزمن الأول، فابتدعوا للعامة معاملات تدور هي والربا على رحي واحدة، وتصدر من نبع سوء واحد وترجع لآخية واحدة، قد يقترب بعضها حتى يكون ربّاً صريحاً، أو يتأخر قليلاً بحسب حقيقته، لكنه لا يخرج من المشتبه المذموم.

ولا يعني هذا التعميم بحال، لا بأوصاف ولا بأشخاص، فثمّ علماء أهل فضل وورع، وثمّ معاملات أحدثها الناس لا لبس فيها ولا اشتباه، إنما القصد تنبيه النبيه.

وتأمل الورع الدقيق للسلف، فعن عاصم بن كليب الجرمي، قال: حدثني أبي، قال: «حاصرنا توج، وعلينا رجلٌ من بني سليم يقال له: مجاشع بن مسعود، قال: فلما أن افتتحناها، وعليّ قميصٌ خَلِقٌ؛ انطلقتُ إلى قتيْلٍ من القتلى الذين قتلنا

(١) للاستزادة: كتاب العفاف، للمؤلف. وهو ضمن هذه السلسلة.

من العجم، فأخذت قميص بعض أولئك القتلى وعليه الدماء، فغسلته بين أحجار، ودلكته حتى أنقيته، ولبسته ودخلت القرية، فأخذت إبرةً وخيوطاً، فخطت قميصي. فقام مجاشع فقال: يا أيها الناس، لا تغلُّوا شيئاً، من غلّ شيئاً جاء به يوم القيامة، ولو كان مخيطاً. فانطلقت إلى ذلك القميص فنزعته، وانطلقت إلى قميصي فجعلت أفثقه، حتى والله يا بني جعلت أحرق قميصي توقياً على الخيط أن ينقطع^(١)، فانطلقت بالخيوط والإبرة والقميص الذي كنت أخذته من المقاسم فألقيته فيها. ثم ما ذهبت من الدنيا حتى رأيتهم يغلّون الأوساق، فإذا قلت: أي شيء هذا، قالوا: نصيبنا من الفيء أكثر من هذا^(٢).

فمن جعل بينه وبين المشتبهات حاجزاً؛ لم يقع في المحرمات، والمؤمن يحرس دينه بورعه، فيحرس الفرائض بالرواتب، فإنه إن حافظ على الرواتب؛ لم يقصر في الفرائض، ويحرس الرواتب بكثرة النوافل المطلقة، فإنه يشقّ على الشيطان أن يدرك رواتبه بترك لأنّ دونها النوافل المطلقة، وهكذا الحال في المحرمات والمكروهات وترّف المباحات.

وفي الأنكحة؛ اخترع الشيطان للناس طرقاً قذف زُخرفها في قلوب بعضهم، فروّجوها حتى اشتبه السّفاح الذميمة بالنكاح الشريف. وحتى لو خالفه في بعض صوره وشروطه، لكنه باقٍ في قبيل المشتبهات.

(١) إما لأنّ الخيط من الغنيمة، أو من باب الورع؛ لتصرّفه فيما ليس له ابتداءً، ففعله من باب: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ترقيم عوامة (٣٨٩١٢) (١٥ / ٢٤٧).

فإذا استمرَّ العبدُ المشتبه والمكروه؛ سهل عليه خوض الحرام الصريح، إذ ثوبُ الإيمان يتقلَّص عن المؤمن شيئاً فشيئاً مع كثرة اختلاط المشتبهات والمكروهات في قلبه، وينقص حتى لا يطيق مدافعة الباطل، ولا مجاهدة الأُمارة. والمعصوم من عصمه الله تعالى.

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شُبِّه ارتضعت لَبَان الشهوات، فصار دينُ بعضهم شهوةً سلطانه بلسان حاله، فأشبهوا إمامية الرِّفص وطُرُقِية الخرافة.

وفي أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقتار الغفلة ما لا يكاد يُحصى تنظيراً وتطبيقاً. لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة جداً في هذا الزمان.

إنَّ العفيفَ سيّد نفسه، غيرُ مستعبدٍ لهواه وطمعه، بل قد علّق ناصية عبادته على وفق شرع ربه، كلّما هبت على نفسه عواصفُ الشهوات؛ ثبت به العفاف الراسخ في قلبه كالجبل الأشمّ، يسمو ببصيرته صُعداً في مراقي الفلاح، يتسنّم وحي ربه؛ فيتسنّم سبيل رضوانه.

قلْبُه العامرُ بالغنى بربه كفاه عفافاً عمّاً سواه، كان في بداية أمره يجاهد نفسه الأُمارة، حتى رقاها لتكونَ لَوّامة، فما زال بها حتى اطمأنت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أن الغنى - كلّ الغنى - في الاستعفاف عما لا يحل؛ فكانت من المفلحين.

حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلفه من حطام وبهرج، ثم أشاح عنه عازماً على لزوم ذلك المنهج، وأيّ منهج! إنه سبيل الله وصراطه ودينه ورضوانه.

يقرأ قول ربه الحاض على لزوم طريق العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح، وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] فغض البصر يسبقه غض القلب عن خطرات الحرام، فيثمر حفظ الفرج وصيانته. وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر قال الله تبارك وتعالى أمراً أمراً حاسماً جازماً قاطعاً لكل تسويل باطل وتسويغ ذريعته: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] فعليهم العفاف، ولهم من الله لهم الغنى.

والفقر ليس بعذر في الخطيئة: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وقد تكفل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا ﷺ بوعده الله تعالى للمتغففين، وهو الوعد الذي أحقه على نفسه كرمًا وامتنانًا، وهو لا يخلف الميعاد، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقُّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم: الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَكَاتِبُ الَّذِي يَرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يَرِيدُ الْعِفَافَ»^(١).

(١) أحمد (٧٤١٦) والترمذي وحسنه (١٦٥٥) وجوّد إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥).

وتأمل حال النبي الصديق الذي رمى أشد شهوة في الدنيا - شهوة النساء - خلف ظهره صارخاً في وجه الهوى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] فعافاه مولاه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقاؤه وصدق توحيده؛ فصرف حفرة الغفلة عنه عليه السلام.

لقد كانت العفة محوراً من محاور دعوة النبي العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه، فلقد كان العفاف حاضراً في حياته بفعله قبل قوله، فقد كان العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظلوم، فقد كان هو الصادق الأمين، والأمين هو المستأمن على كل ما يُخشى عليه تلف الاستطالة من دم أو عرض أو مال.

ولقد كان العفاف من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان الأمر به واضحاً صريحاً من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهرقل حينما سأله عن أوامر رسول الله ﷺ، ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في شأن كلام هرقل لأبي سفيان ومن معه من رجالات قريش، وفيه: «ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف..»^(١).

والعفيف غني بقناعته، وطيب نفسه، وانشرح صدره، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ إذا كنَّ فيك؛ فلا عليك ما

(١) البخاري، الفتوح ٦ (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

فاتك من الدنيا: حفظُ أمانة، وصدقُ حديث، وحسنُ خليقة، وعِفَّة في طُعْمَة^(١).

لقد كان العفيف الأكبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يعلي قيمة العفة، ويُشنى على الناس بها، إذ كان العفاف من معايير الإيمان لديه. وتأمل حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوصاف أهل الجنة وأهل النار، وكيف كان العفاف ظاهراً جلياً معتبراً، ويكأنه الميزانُ لغيره من الخصال، فحدَّث أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا». وقال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف ذو عيال»^(٢).

وحتى عند أعنف أمرٍ وهو القتل؛ عَفَّافُ الْمُؤْمِنِ حَاضِرٌ هُنَاكَ، فلا يتعدَّى ولا يُمَثَّل، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعَفَّ النَّاسُ قِتْلَةً: أَهْلُ الْإِيمَانِ»^(٣).

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغَنَى»^(٤).

(١) أحمد (١٧٧ / ٢) (٦٦٦١) واللفظ له وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠ / ١٣٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٣٠١) (٨٨٦).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١ / ٣٩٣) (٣٧٢٧) وقال شاكر: إسناده صحيح (٥ / ٢٧٥).

(٤) مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٢٧٢١).

والعفيف موعودٌ على لسان نبيه ﷺ بالجنة، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

واعلم أنَّ من أعظم أسباب العفاف؛ صدقُ الدعاء، والثقة بالعطاء، وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعطاء أحبُّ إليه من المنع، ويفرح إن دُعي وسُئِل واستُعين واستُغيث واستُنصر واستُغني.

وأكرم بهذه البشارة النبوية للمتعفين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ، وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ»^(٢).

فتأمل كيف وصفه بالعفاف والتَّعَفُّف، ذلك أنَّ النفس مهما كانت سامية عن الدنيا؛ فإنَّه لا يزال يعرض لها ما يكاد يصرفها عن استقامتها، فكان العبدُ في حاجة دائمة للمجاهدة بالتَّعَفُّف، وفيه معنى استمرارية المجاهدة بالتَّعَفُّف.

إنَّ العفاف خلق يسموا بالنفس جدًّا، ويرفعها وينزهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدَّ للعفيف من قناعة تُبرِّدُ لواعج حاجته، وتُشبع نهمه فاقتته. فصُن وجهك عن التَّأْكُل به فمأؤه عزيز، فإن كانت لك حاجة ملحة لدى صاحبك؛ فألخ إليها في الأولى، ثم صرَّح في الثانية، ثم كرر التصريح في

(١) البخاري (٦٤٧٤).

(٢) الترمذي (١٦٤٢) وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٢/ ٤٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٨/ ١٣٧).

الثالثة، فإن كانت؛ وإلا أغلق الباب للأبد، فمَاءُ الوجه ماءُ الروح، والله أبي الحسن النعمي إذ يقول^(١):

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكْفُ اللَّئَامِ كَفَتْكَ الْقِنَاعَةُ شَبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا
أَبِيًّا لِنَائِلِ ذِي ثَرَوَةٍ تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَبِيًّا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا

هذا ويتأكد العفاف جدًّا - بمعناه العام - في أزمنة المجاعات أو الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل ويستطيل البشر في الدماء والأموال والأعراض، وثمَّ حديثٌ عزيز جدًّا، حريٌّ بنشره وإشهاره، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال: «يا أبا ذر، أُرِيتَ إنَّ أصاب الناسَ جوعٌ شديدٌ، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «تعفّف». قال: «يا أبا ذر، أُرِيتَ إنَّ أصاب الناسَ موتٌ شديدٌ يكون البيت فيه بالبعد - يعني القبر - كيف تصنع؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر». قال: «يا أبا ذر، أُرِيتَ إنَّ قُتِلَ الناسَ بعضُهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت^(٢) كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك».

(١) سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٤٧).

(٢) حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة، سمّي بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنما طُلّيت بالزيت، والمراد: أنَّ الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد من الدماء.

قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأنت من أنت منهم»^(١) فكن فيهم». قال: فأخذ سلاحه؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف»^(٢) فألقى طرف رداك على وجهك حتى ييؤء بإثمه وإثمك»^(٣). إذن فمن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

وهايك لفظة عظيمة جميلة في شأن العفاف: وهي أن المرء في سيره لإعفاف نفسه ومن يعول؛ فهو مكتوب من أهل سبيل الله، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال: مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه. فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟^(٤) فقال رسول الله ﷺ: «إن كان

(١) أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.

(٢) أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقايل؛ فغط وجهك حتى يقتلك، فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاص في أزمنة الفتن، أما في غيرها فالمدافعة هي السنة، لما رواه مسلم ٨٧/١ (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرايت إن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: أرايت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرايت إن قتلته؟ قال: «هو في النار».

(٣) أبو داود (٤٢٦١) وصححه الألباني (٨٠٣/٣) وابن ماجه (٣٩٥٨) والحاكم (٤/٤٢٤) وأحمد (١٤٩، ١٦٣) واللفظ له.

(٤) قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله، وضمنهم بأشداء الرجال إلا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعزّوا بها دين الله، فأرشدتهم ﷺ بلطفه المعهود إلى أن فضل الله واسع، وأن سبيله يشمل من كان ساعياً في شأن عفافه وعفاف عياله.

خرج يسعى على ولده^(١) صغارا^(٢)؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة؛ فهو في سبيل الشيطان^(٣)»^(٤).

هذا، والعفافُ الخالصُ لله عز وجل من أكبر أسباب كشفِ الكربات بإذن الله تعالى، وتأمل حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار. وفيه: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا؛ فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَخَرَجُوا»^(٥).

وعفيفُ البطن موعود بالفلاح، ولفظُ الفلاح هو أشملُ لفظٍ لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

(٢) يتبعُ الصغار من كان في حكمهم؛ لمرضه، أو إعاقته ونحو ذلك، وخصَّهم بالذكر إخراجاً للأقوياء من الأولاد؛ حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

(٣) فالاعتبار أنما هو بالنيات.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٩ / ١٢٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣ / ٦٣).

(٥) البخاري (٣٤٦٥).

«قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(١). فسر العفاف إذن هو القناعة!

هي القناعة فالزمها تعيش ملكاً لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن
وقال الحسن البصري: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في
دينارهم، فإذا فعل ذلك؛ استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه».

قلت: تصديق ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلّني على عملٍ إذا عملته؛ أحبني
الله، وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك
الناس»^(٢).

ذلك أن المال عزيزٌ بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل
إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري، قال في صفتهم مَنْ خلقهم: ﴿وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

فكما أنه يهيمهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرقهم ويروقهم حفظه، فالشح
مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه؛ قلّوه وأبغضوه، إلا من سخّت
نفسه منهم لأمرٍ خارجٍ عن ذلك؛ كزهد أو غياثٍ أو تحبّبٍ أو صدقة ونحو تلك

(١) مسلم (١٠٥٤).

(٢) ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٣١٣/٤) وحسنه النووي في الرياض.

الرغائب. فأقلُّ الناس أهل القناعة، وأقلُّ قليلهم أهل الزَّهادة.
 إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ فأنتَ ومالكُ الدنيا سواءُ
 واعلم أنَّ فتنة النساء أشدُّ من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح لدى
 آخرين، وكلُّ امرئٍ قد رُكِّبَ فيه ضعفٌ وميلٌ بحُكم بشريّته، فيستحكمُ في جهةٍ
 دون الأخرى، وقد حذّر رسول الله ﷺ أمته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: «ما
 تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»^(١). وقال في فتنة المال: «لكلِّ
 أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»^(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى
 آخرين طمعٌ وجشعٌ وشحٌّ وهلعٌ للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطانُ يشمُّ
 قلبَ عدوّه وابنِ عدوّه آدم، فحيثما وجد ضعفاً ولج منه، سواء من هذين البابين أو
 من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك. وقد جمعها حديث أبي سعيد
 الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حَلْوَةٌ خَضِرَةٌ»^(٣) وَإِنَّ اللَّهَ
 مُسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُوا كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيَا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ»^(٤).

ففتنةُ المال من أوَّليات فتنة الدنيا للعالمين، وكم من ناسك دارت حماليق عينيه

(١) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨/٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) خَضِرَةٌ: غَضَّة نَاعِمَةٌ طَرِيَّة نَضِرَةٌ كالثمرة الطيبة.

(٤) مسلم (٧١٢٤).

جشعًا حين بهره شعاع الأصفرين، نسأل الله العصمة من مساقط محرمات الشهوات ومضلات فتن الشبهات، إله الحق آمين.

قال ابن القيم: «قيل: مَنْ حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلتزم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر ما على تنبيرًا.

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة؛ فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك. والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده. ولهذا قال الشاعر:

كَلَّ الحوادث مبداهها من النظرِ	ومعظم النار من مستصغر الشررِ
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها	كمبلغ السهم بين القوس والوترِ
والعبد ما دام ذا طرف يقلّبه	في أعين الغيد موقوفٌ على الخطرِ
يسر - مقلته ماضر مهجته	لا مرحبًا بسرور عاد بالضررِ

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفريات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا

عن بعضه ولا قدرة لك عليه، قال الشاعر:

وكنّت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلّهُ أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه، فإنّ قوله: لا كلّهُ أنت قادر عليه؛ نفى لقدرة على الكلّ الذي لا يتفنى إلا بنفي القدرة عن كل واحد، وكم من مرسل لحظاته فمن أقلعت إلا وهو يتشحّط بينهن قتيلاً، كما قيل:

يا ناظرًا ما أقلعت لحظاته حتى تشحّط بينهنّ قتيلاً

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل الى المنظور إليه حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر، وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرّحاً فيتبعها جرح على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات.

وأما الخطوات فشأنها أصعب، فأنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم. فمن راعي خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهو له نفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قاده قهراً إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة، ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة،

واستجلبها لنفسه وتحلى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموالِ المفلسين، ومتاجر الباطلين، وهي قوة النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ومن الحقائق بكواذب الآمال، كما قال الشاعر:

أما ني من سعادى رواء على الظما سقتنا بها سعادى على ظمى بردا
منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وهي أضّر شيء على الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفریط والاضاعة والحسرة والندامة^(١).

وبعد؛ فإنّ لك -رعاك الله- ثوبَ إيمانٍ ناصع البياض فلا تلوّثه بسواد الخطايا، والعفافُ نَزْهٌ فنقطة خطيئة فيه تفسد قللاً وأرطالاً من الطُّهرِ، وخطوئةُ الخيانة إليه تلوّثُ أميالاً من العفاف، فكن ذا عَفَّةٍ أعفّك الله.

وأسأل ربك العفاف في أمرك كله، ومن الأدعية الماثورة: «اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»^(٢). ومنها: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»^(٣). فألحّ على ربك أن يحفظك بالعفاف في شأنك كله.



(١) الجواب الكافي (١ / ١٠٦ - ١٠٧) باختصار.

(٢) مسلم ٨ / ٨١ (٢٧٢١).

(٣) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه.

يوسف الصديق بين صبرين

سورة يوسف عليه السلام هي سورة الفرج بعد الشدة وسورة الصبر على أنواع الابتلاء، وتأمل حال يوسف عليه السلام، فقد بركت على كاهله خمسُ محنٍ شداد فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمراودة، والسجن، ونعيم السلطة، ولذة الانتقام.

لقد مرّت كلّ عواصفها الشديدة الهائلة بجبل إيمانه؛ فثبت ورسخ. فخلد الله تعالى ثباته في سورتَه، فسورةُ يوسف هي سورة الثبات. قال ابن عطاء: «من الآيات ألا يسمع هذه القصة محزون مؤمن بها إلا استروح وسُرِّي به ما فيه»^(١).

اخلق بذِي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ وقد يتلى الله عبده ليرفعه وليرحم به غيره في قابل أيامه. فانظر كيف قدّر الله تعالى أن يُباع يوسف وتتوالى ماجريات بلاءاته ليكون - بإذن الله ربه - سبباً في دفع مجاعة عامّة مميتة، تتابعت سبعة أعوام في مصر وما حولها. وحقاً: إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه. وتدبر: ﴿فَرُجِّتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٠].

ولما وصل الكربُ بيعقوب منتهاه؛ عَلِمَ أن الفرج قريب. وتأمل حاله حينما فقد ابنه الثاني فابتهل إلى الله وشكا إليه حاله وأحسنَ به الظن ثم قال: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. فابتدأ بالأمل في رجوع يوسف الغائب منذ أربعين سنة

(١) روح المعاني (١٣ / ٧٦).

حتى ذَكَرَهُ قبل أخيه الغائب منذ أيام. وتأمل كيف تنسّم روح الفرج فقال:
﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] ألا ما أجمل قلوبهم. لذلك:
فالمصائب إذا توالَتْ؛ تولّت. وإذا أظلم ليل الابتلاء فقد اقترب فجر الفرج.

إذا اشتملتُ على اليأس القلوبُ وضاقَ لما به الصّدرُ الرحيبُ
وأوطأتِ المكارهُ واطمأنت وأرستُ في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشاف الضُّرِّ وجهًا ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاكَ على قنوطٍ منك غوثٌ يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ

واعلم أنّ كل تدبير الله لعبده ناشئ عن علمٍ وحكمة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] وتأمل ذِكْرَها ثلاثًا في سورة يوسف عليه السلام:
فقد ذكرت في بداية القصة حين قص رؤياه على والده، ثم في وسطها الشديد حينما
فقد يعقوب ثلاثة من ولده، ثم في نهايتها حينما سجد له الإخوة والأبوان بمصر،
وآثر اللحاق بالصالحين.

وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه، وسهّل له ذرائعه، وتدبر قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] فقد علّم الله
تعالى أنّ يوسف الصديق عليه السلام سيحتاجُ اعترافها بشهادة النساء بعد بضع
سنين؛ فأنطقها على ملأٍ منهن. فثق بربك ولا تبتس ولا تحزن.

واعلم أنّ الحقّ غدار، ودونك أخوة يوسف، فحينما يتمكن الحقّ من المرء
فإنه يستحكم على بصيرة قلبه كالنظارة المُقَرَّرَ يمينها المُحَدَّبَ شمالكها؛ فترى عظام
الخطايا صغارًا في سبيل إرضاء غضبها، بينما ترى صغير أفعال الناس وأقوالهم كبارًا

إزاء مرض ذاتها. وتأمل إخوة يوسف عليه السلام حينما ضخموا إيثار أبيهم له، وصغروا قتله: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] فالحقد أعمى.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فمع ابتلاءاته الكثيرة الشديدة لم يقل ﴿تَوَقَّيْ﴾ إنما قالها بعد تمام النعمة بالملك والعافية والأهل عليه، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] لقد قاده الشوق للقاء الله.

لولا التعلُّل بالرجاء لَقُطِّعَتْ نفسُ المحبِّ صبايةً وتشوقًا
ولقد يكادُ يذوبُ منه قلبُهُ ممَّا يقاسي حُسرةً وتحرقًا

فابحث عن رسائل الشوقِ إلى الله تعالى في القرآن العظيم، وتعاهد بها بقلبك وجوارحك؛ تكن من أهلها بإذن الله تعالى.

فالشوقُ لله عز وجل مِنَّةٌ من الله يمنحها الأبرارَ من عباده، فحسن الظن الراسخ لا يكون إلا بعلم بالله وعَمَلٍ صالحٍ قدَّمه بين يديه قُربانًا إليه. والشوق هو تَوَقُّنُ النفسِ إلى الشيء، فكلما أَحَبَّتْ تحصيله؛ ازداد شوقُها إليه.

والشوق قد يكون لِمَتَّعِ الحس، وقد يكون للروح، وقد يكون لهما معًا. وكلما كان الشيء أحب؛ كانت اللذة بنيله أعظم. وقد كان ابن تيمية يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس، فيتنفَّس الصَّعداء، ويتمثل ببيت قيس وينحو به نحوًا جميلًا جدًّا:

وأخرجُ من بين البيوت لعلني أحدثُ عنكَ النفسَ بالسَّـرِّ خاليا

قال الحسن: «لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه». فأعلى الشوق هو الشوق إلى لقاء الله تعالى. وكما قيل: «من لم ير جمال يوسف؛ لم يدر ما الذي أبكى يعقوب».

ولقد صبر يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته في الحب، وصبر كذلك حينما دعتة امرأة العزيز للفاحشة، وكلاهما صبر حسن جميل عظيم، ولكن أيهما أعظم فضلاً ومرتبة، وهل ثمَّ مرتبة أرفع منها وأجلّ؟

قال شيخ الإسلام: «صبر يوسف عليه السلام عن الفاحشة أفضل مقامًا من صبره على ظلم إخوته له، ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك، ولهذا قال تعالى فيه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب، فالأول أعظم وهو صبر المتقين أولياء الله. قال سهل بن عبد الله التستري: أفعال البر يفعلها البر والفاجر ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق. ويوسف صلوات الله عليه كان صديقاً نبياً. وأما من يُظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثير، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم.

من لم يكن عند البلى صابراً سلا كما يسلو البهيّم صاغراً وكذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظالم وخضع له فغفوه عنه من المحاسن والفضائل، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا، فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة الناس لهم وتأليفهم لقلوب الناس، وكان

معاوية من أحلم الناس، وكان المأمون حليماً حتى كان يقول: «لو علم الناس محبتي للعفو تقربوا إلي بالذنوب»! ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك - وهو عمه إبراهيم بن المهدي - عفا عنه.

وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله لا رجاء لمخلوق ولا خوفاً منه مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة واختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلاً، بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة^(١)، ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفاراً كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم، وإن لم يُذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة والله الحمد، وإنما كانت توباتهم من أمور أخرى حسنة بالنسبة إلى غيرهم، ولهذا لا

(١) قال تعالى عنه: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فعلق الهم على عدم رؤية البرهان وهو صدق الإيمان، فلو لم يكن معه رادع من العلم بالله والإيمان به لهم بها، لذلك لم يصدر منه الهم أصلاً، وقد مال شيخ الإسلام كما ترى إلى وجود الهم ابتداء لكن تركه لله فكتبه الله له به حسنة، والأول أظهر وأولى، وسواء قيل بهذا أو هذا فهي ليست خطيئة ولا ذنب، والله أعلم.

يُعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة وتقواه وصبره في ذلك، وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئها ما تنفق يمينه»^(١).

وإذا كان الصبر على الأذى لثلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوته؛ فكيف بصبر الرسل على أذى المكذبين لثلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟! فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ كان الجهاد مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن الدين كله لله، فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال^(٢)، كما قال النبي ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»^(٣). وهو حديث صحيح، وهو أحب الأعمال إلى الله.

(١) البخاري ١٣٨/٢ (١٤٢٣)، ومسلم ٩٣/٣ (١٠٣١) (٩١).

(٢) وقد كان ليوسف العفيف الصديق عليه السلام نصيباً من ذلك الجهاد لإعلاء كلمة الله، وذلك بدعوته أهل السجن إلى سبيل الله تعالى وصبره في ذلك البلاغ، ﴿يَصْحَبِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿١٠﴾.

(٣) ابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦) وصححه ابن تيمية كما بعاليه.

فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن، والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وصبر المظلوم صبر المصاب.

لكن المصاب بمصيبة سماوية يصبر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمة الناس، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر، بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه، فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه، وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية، ويكون أيضا لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، وليسلم قلبه من الغل للناس.

وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه، وهو مما يكفر الله به سيئاته، ويستغفر ويتوب. وأيضا فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه، وأن الجزع مما يعاقب عليه.

وإن ارتقى إلى الرضا رأى أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم.

وإن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم، فالمصائب السماوية والأدمية تشترك في هذه الأمور، ومعرفة الناس بهذه الأمور

وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده؛ ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيماً.

ثم إذا شهد العبد القدر، وأن هذا أمر قدّره الله وقضاه وهو الخالق له، فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء، وهذا حال الصابر، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي «لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»^(١). وهذا تسليم راض لعلمه بحسن اختيار الله له، وهذا يورث الشكر.

وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة، وإن لم يرَ هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راضٍ غير شاكر.

وقد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته وهو محمود على كل ما يفعله، فإنه عليم حكيم رحيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، وهو مستحق لمحبتة وعبادته وحمده على كل ما خلقه، فهذا تسليم عبد عابد حامد، وهذا من الحامدين الذين هم أول من يُدعى إلى الجنة، ومن بينهم صاحب لواء الحمد وآدم فمن دونه تحت لوائه.

وهذا يكون القضاء خيراً له ونعمةً من الله عليه، لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبدته لاستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له، فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة، وهذا

(١) أحمد (١٢٩٠٦) وأبو يعلى (٤٢١٨)، وابن حبان (٧٢٨)، وصححه القسطلاني وابن كثير وشعيب الأرناؤوط، وأصله في مسلم.

يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله، والإله عنده هو المستحق للعبادة، بخلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيتته وقدرته، أو مجرد إحسانه ونعمته، فإنهما مشهدان ناقصان قاصران.

وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه، كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة، فإن الأول مشهد أولئك، والثاني مشهد هؤلاء.

وشهود ربوبيته وقدرته ومشيتته، مع شهود رحمته وإحسانه وفضله، مع شهود إلهيته ومحبه ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده؛ هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

والمقصود هنا أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بأفعال المؤمنين، فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس، ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا، وأعلى من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعي إليها، فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر، بل وأعظم من الصبر على الطاعة.

ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْمُوتُ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦] فوصفهم بالكرم والحلم وبالإففاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥] فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك ذلك بالكلية؛ فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه المنطق، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١). وفي الحديث: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(٢).

فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة، وكثير منهم يقع في الكبيرة، فيؤمر بالتوبة، ويؤمنون ألا يصروا على صغيرة، فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار. ويوسف ﷺ صبر على الذنب مطلقاً، ولم يوجد منه إلا هم تركه لله كتب له به حسنة.

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات مثل حل السراويل

(١) البخاري (٨/٦٧ و ١٥٦) مسلم (٨/٥٢).

(٢) أحمد (٣/١٩٨) والترمذي (٢٤٩٩)، وقال: هذا حديث غريب. وابن ماجه

(٤٢٥١)، وقال الألباني: حسن (٢٠٢٩).

والجلوس مجلس الخاتن ونحو ذلك لكن ليس هذا منقولاً نقلاً يُصدّق به، فإن هذا لم ينقل عن النبي ﷺ، ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي ﷺ لم يُعرف صدقها، ولهذا لا يجوز تصديقها ولا تكذيبها إلا بدليل^(١).

والله تعالى يقول في القرآن: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء والفحشاء مطلقاً، ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها، والقرآن ليس فيه ذكر توبته، ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صُرف عنه، بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه، والقرآن يدل على خلاف هذا.

وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء، ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك، وهي من النسوة اللاتي شهدن، وقلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] وقالت مع ذلك: ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقالت: ﴿أَنَّا رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وقوله: ﴿سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] نكرة في سياق النفي فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءاً فإن الهم في القلب لم تطلع عليه، ولو اطلعت عليه فإنه إذا تركه لله كان حسنة، ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة ولا سيئة، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو

(١) قالها هنا على سبيل التعميد لطريقة استقبال الأخبار عن بني إسرائيل على العموم كما هو منطوق الحديث الشريف، ولكن بخصوص هذه الأقاويل الباطلة فقد وجد دليل التكذيب كما سيبيته شيخ الإسلام رحمه الله فوجب تكذيبها.

العمل.

وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلک أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعدته ووعدته ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه.

أولئك أولوا العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمام الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر فقليل له: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فقصصهم أحسن من قصة يوسف؛ ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسى، قال الإمام أحمد بن حنبل: «أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى عليه السلام»^(١).

(١) مجموع الفتاوى (١٧ / ٢٤-٣٢) مختصرًا.

وليس للمؤمن بُدٌّ من اضطباره في جهاد الهوى، قال ابن الجوزي: «رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائداً في المقدار، حتى إنها إذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من النصيح.

فصحت بها يوماً وقد مالت بكليتها إلى شهوة: ويحك! قفي لحظة أكلمك كلمات ثم افعلي ما بدا لك. قالت: قل أسمع.

قلت: قد تقرر قلة ميلك إلى المباحات من الشهوات، وأما جُلُّ ميلك في المحرمات. وسأكشف لك عن الأمرين، فربما رأيت الحلوين مرين.

أما المباحات من الشهوات، فمطلقةٌ لك، ولكن طريقها صعب، لأن المال قد يعجز عنها، والكسب قد لا يحصل معظمها، والوقت الشريف يذهب بذلك. ثم شغل القلب بها وقت التحصيل، وفي حالة الحصول، ويحذر الفوات.

ثم ينغصها من النقص ما لا يخفى على مميز، وإن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات، وإن كان شخصاً فالملل، أو الفراق، أو سوء الخلق. ثم ألدّ النكاح أكثره إيهاناً للبدن، إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

وأما المحرمات: فتشتمل على ما أشرنا إليه من المباحات وتزيد عليها بأنها آفة العرض ومظنة عقاب الدنيا وفضيحتها، وهناك وعيد الآخرة، ثم الجزع كلما ذكرها التائب.

وفي قوّة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة. ألا ترين إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً؟ لأنه قُهر. بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قوي القلب، عزيزاً

لأنه قَهَر.

فالخذر الخذر من رؤية المُشْتَهَى بعين الحسن، كما يرى اللص لذة أخذ المال من الحرز، ولا يرى بعين فكره القطع. وليفتح عين البصيرة لتأمل العواقب واستحالة اللذة نُغْصَة، وانقلابها عن كونها لذة، إما لملل أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب. فتكون المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع، فما ردت كَلَبَ الجوع^(١)، بل شهت الطعام.

وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوى مع تأمل فوائد الصبر عنه. فمن وفق لذلك كانت سلامته قريبة منه^(٢).

قال ابن عطاء: «ليس ما باع إخوة يوسف من نفس لا يقع عليها البيع بأعجب من بيع نفسك بأدنى شهوة بعد أن بعثها من ربك بأوفر الثمن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، فبيع ما تقدم بيعه باطل، وإنما باع يوسف أعداؤه، وأنت تبيع نفسك من أعدائك!»^(٣)

عبرات خَطَطْنِ فِي الْحَدِّ سَطْرًا فقرأه من لم يكن قطَّ يقرأ
صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبرًا



(١) كَلَبَ الجوع: شدته واستحكامه وتمكّنه.

(٢) صيد الخاطر (١ / ١٦).

(٣) روح المعاني (١٣ / ٧٦).

مقوياتٌ على الصبر

من رحمة الله تعالى بعباده أن سهّل لهم طرق صلاحهم في دينهم ودنياهم، في استخلاصهم وتمكينهم وابتلائهم، فبين لهم طرق الفوز وسبل النجاة وسنن الفلاح، وكلما كانت حاجتهم لأمر ما أشدّ كان تحصيلها لهم أسهل، سواء في دينهم أو دنياهم، فالدين سهل يسير على من يسره الله له، وطريق الجنة قريب جميل لمن وفقه الله إليه سواء في الإيمان والمعتقد أو الأعمال والسلوك، وحتى في معاشهم نرى ذلك جليًّا؛ فلما كانت أجسادهم أحوج للهواء بثّه لهم في الأرجاء، ثم لما كانت رتبة حاجتهم للماء تليه سهّل لهم أمره جدًّا، وأنزله لهم من السماء عذبًا فرائًا، ثم لما كانت رتبة الطعام المقيم لأود أجسادهم تليهما في الحاجة جعلها تاليةً لهما في اليسر والسهولة، مع رحمته لهم بأن جعل الأقوات الضرورية أسهل تناولًا لهم مما فضل عنها من حاجات ثم كمالات، وهكذا، رحمة من الله ومنّة وفضلًا.

ولما كان الإنسان محتاجًا لصبرٍ يقيم ظهره في دار الابتلاء جعل الله تعالى ذلك ممكنًا له، وسهّل له طرائق تقويته وتعزيزه، قال ابن الجوزي رحمنا الله وإياه: «ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء، ولا فيه أفضل من الرضا به، فأما الصبر: فهو فرض. وأما الرضا فهو فضل».

وإنما صعب الصبر لأن القدر يجري في الأغلب بمكروه النفس، وليس مكروه النفس يقف على المرض والأذى في البدن، بل هو يتنوع حتى يتحيّر العقل في

حكمة جريان القدر^(١).

فمن ذلك أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع بالمال، فهو يصوغه أواني يستعملها. ومعلوم أن البلور والعقيق قد يكون أحسن منها صورة، غير أن قلة مبالاته بالشيعة جعلت عنده وجود النهي كعدمه. ويلبس الحرير، ويظلم الناس، والدنيا منصبة عليه.

ثم يرى خلقاً من أهل الدين، وطلاب العلم، مغمورين بالفقر والبلاء، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم. فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس ويتدنى بالقدح في حكمة القدر! فيحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقي من الضر في الدنيا، وعلى جدال إبليس في ذلك.

وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين. وأبلغ من هذا إيلاء الحيوان، وتعذيب الأطفال، ففي مثل هذه المواطن يتمحص الإيمان. ومما يقوي الصبر على الحالتين النقل والعقل: أما النقل فالقرآن والسنة، أما القرآن فمقسم إلى قسمين:

أحدهما: بيان سبب إعطاء الكافر والعاصي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقَتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

(١) مع التسليم بأن حكمة الله تعالى ورحمته من وراء هذا كله.

والقسم الثاني: ابتلاء المؤمن بما يلقي كقوله تعالى: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

وأما السنة فمنقسمة إلى قول وحال، أما الحال: فإنه ﷺ كان يتقلب على رمال حصيرٍ تؤثر في جنبه، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: كسرى وقصر في الحرير والديباج! فقال له ﷺ: «ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»^(١). وأما القول فكقوله عليه الصلاة والسلام: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

وأما العقل: فإنه يقوِّي عساكر الصبر بجنود منها أن يقول: قد ثبتت عندي الأدلة القاطعة على حكمة المقدر، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خلاً. ومنها أن يقول: ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصي هي قبض في المعنى، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط في المعنى، لأن ذلك البسط يوجب عقاباً طويلاً، وهذا القبض يؤثر انبساطاً في الأجر جزيلاً، فزمان الرجلين ينقضي عن قريب، والمراحل تطوى، والركبان في السير الحثيث.

(١) ابن ماجه (٢ / ٤٠١) وحسنه الألباني (٤١٤٣) في صحيح ابن ماجه، وفي التعليق الرغيب (١١٤ / ٤).

(٢) ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح غريب.

ومنها أن يقول: قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير، وأن زمن التكليف كيباض نهار، ولا ينبغي للمستعمل في الطين إن يلبس نظيف الثياب، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل، فإذا فرغ تنظف ولبس أجود ثيابه. فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة، وعوقب على التواني فيما كلف، فهذه النبذة تقوي أزر الصبر.

وأزيدها بسطاً فأقول: أترى إذا أريد اتخاذ شهداء، فكيف لا يخلق أقوام يسطون أيديهم لقتل المؤمنين، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة؟ وبعلي إلا مثل ابن ملجم؟ أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر؟

ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا^(١) لرأيت المسبب لا الأسباب، والمقدر لا الأقدار، فصبرت على بلائه، إثاراً لما يريد، ومن ههنا ينشأ الرضا، كما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية، فقال: أحبه إليّ أحبه إلى الله عز وجل. إن كان رضاكم في سهري فسلام الله على وسني^(٢)

والرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته رضيت بقضائه. وقد يجري في ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعمها الراضي، أما العارف^(٣) فتقلّ عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة.

فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة؛ صارت مرارة الأقدار حلاوة، كما قال القائل:

(١) العشي: هو ضعف البصر ليلاً.

(٢) الوسن: النعاس، والنوم اليسير، وفي التنزيل المجيد: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

(٣) وهو العالم بالله حتى وإن قل علمه بأحكام شرعه.

عَذَابُهُ فَيْكَ عَذَبٌ وَبُعْدُهُ فَيْكَ قُرْبٌ»^(١)

وقال أيضًا في هذا المعنى الشريف: «وليس في الوجود شيء أصعب من الصبر، إما على المحبوب أو على المكروهات، وخصوصًا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج.

وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد من أجناس، فمنه: تلمّح مقدار البلاء، وقد يمكن أن يكون أكثر. ومنه: أنه في حال فوقها أعظم منها؛ مثل أن يُتلى بفقد ولد وعنده أعز منه، كذلك: علمه بأن الجزع لا يفي، بل يفضح صاحبه، إلى غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر.

فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه، وقد صَبَحَ المنزل»^(٢).

فاصبرْ لضيف بك يومًا نَزَلَا لا يلبثُ النازلُ أن يرتحلا
«وينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا ألا يختلج في قلبه أمر من تأخير الإجابة أو عدمها، لأن الذي إليه أن يدعو»^(٣)، والمدعو مالِك حكيم، فإن لم يُجبْ فعَل ما

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي رحمه الله (١ / ٢٨) باختصار يسير.

(٢) صيد الخاطر (١ / ٥٠) مختصرًا. ومعنى صَبَحَ المنزل: أي أن وصول المسافر قريب، لقرب مسافة الدنيا بالآخرة، فليس بينهما إلا أن تخرج الروح من الجسد، نسأل الله حسن الختام.

(٣) أي: أن غاية تمكينه إنما هي الدعاء، وهو أعظم الوسائل. وليس في هذا نفي اتخاذ الأسباب إنما المراد التنبيه على أن جميع الأمر لله وحده، ومن ذلك إجابة الدعاء.

يشاء في ملكه، وإن أّخر فعل بمقتضى حكمته. فالمعترض عليه في سرّه خارج عن صفة عبد، مزاحم بمرتبة مستحق.

ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه، فربما سأل سيلاً سأل به! فإذا سلّم العبد تحكيماً لحكمته وحكمه وأيقن أن الكلّ ملكه؛ طاب قلبه قضيت حاجته أو لم تقض»^(١).

والعبد لا ينفك عن ابتلاء مهما ظن أنه سالم منه، فقد خلقنا الله ليبتنا فما من ذلك مهرب ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] إذن؛ «لا بد من الابتلاء!

فليس في الدنيا أبله ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض. فأين تكون البلوى إذن؟!

لا والله، لا بد من انعكاس المرادات، ومن توقّف أجوبة السؤالات، ومن تشفّي الأعداء في أوقات. فأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه، والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف، ولا فهم التسليم.

أليس الرسول ﷺ يُنصر يوم بدر، ثم يجري عليه ما يجري يوم أحد؟ أليس يُصد عن البيت ويُقهر بعد ذلك؟

فلا بد من جيد ورديء، والجيد يوجب الشكر، والرديء يحرك إلى السؤال

(١) صيد الخاطر (١ / ٥١).

والدعاء. فإن امتنع الجواب، أُريدَ نفوذُ البلاء، والتسليم للقضاء. وههنا يبينُ الإيمان، وتظهر في التسليم جواهر الرجال.

فإن تحقق التسليم باطنًا وظاهرًا فذلك شأنُ الكامل. وإن وُجد في الباطن انعصارٌ من القضاء لا من المقتضى^(١) فإن الطبع لا بد أن ينفر من المؤذي؛ دل على ضعف المعرفة. فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان، فتلك حال الجهال نعوذ بالله منها.

ولا بد من التصبر؛ فإن من الابتلاء العظيم إقامة الرجل في غير مقامه، مثل أن يُحوَج الرجلُ الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه، وإلى مخالطة من لا يصلح، وإلى أعمال لا تليق به، أو إلى أمور تقطع عليه مراده الذي يؤثره^(٢) فقد يقال للعالم: تردد على الأمير وإلا خفنا عليك سطوته، فيتردد فيرى ما لا يصلح له ولا يمكنه أن ينكر.

أو يحتاج إلى شيء من الدنيا وقد منع حقه، فيحتاج أن يُعرض^(٣) بذكر ذلك، أو يصرّح لينال بعض حقه، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته، بل تشتت همته لتلك الضرورات.

وكذلك يفتقر إلى الدخول في أمور لا تليق به، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته. وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه

(١) أي: بتردد أَلَم النفس في الصدر من كُنْه القضاء والقدر وليس فقط من ملابسة البلاء.

(٢) أي: يرغبه.

(٣) أي: يكتني ويلمّح.

لأجل ما يخالطه من الأكدار^(١).

أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر في إغنائهم، فيدخل في مداخل كلها عنده عزيمة. وقد يتلى بفقد من يحب، أو ببلاء في بدنه، أو بعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه، فيرى الفاسق يقهره، والظالم يذله. وكل هذه الأشياء تكدر عليه العيش، وتكاد تزلزل القلب^(٢).

وليس في الابتلاء بقوة الأشياء إلا التسليم واللجأ إلى القدر^(٣) في الفرج. نرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم، ولا يتغير قلبه، ولا ينطق بالشكوى لسانه. أو ليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول: «من يؤيني، من ينصرني؟» ويفتقر إلى

(١) لأن تفريغ القلب للآخرة شديد، فلا بد للمرء أن يحرق الدنيا لجلب مصالحه، ولكن يكدر عليه أن بعض أبواب الدنيا يدخلها أمور يصعب تنقيتها من دنس المكروه أو الشبهة أو ميل شعبة من القلب معها ونحو ذلك، فتشتت جمعية قلبه بحسب ما شاركه ودخل عليه وكدر صفاءه.

(٢) أي: تذكر أن الأمور تجري بقدر الله النافذ وقضائه المبرم المنعقد الذي لا يتخلف مهما انبسطت قوى العبد في رده، فلا راد لما قضى ولا معطي لما منع.

(٣) مسند أحمد (١٤٤٥٦) عن جابر، قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤيني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟».. الحديث. وإسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة (١/١٣٣) والأرنؤوط في تخريج المسند (١٤٤٥٦).

أن يدخل مكة في جوار كافر؟! (١) ويُلقى السَّلي (٢) على ظهره، ويقتل أصحابه، ويُداري المؤلَّفة (٣)، ويشتد جوعه وهو ساكن لا يتغير (٤). وما ذاك إلا أنه علم أن الدنيا دار ابتلاء، لينظر الله فيها كيف تعملون (٥).

ومما يهون هذه الأشياء علم العبد بالأجر، وإن ذلك مراد الحق. فما الجرح إذا أرضاكم ألم (٦).

وأما الصبر في المحن على أذى الظالمين، وعند النوازل فإن العبد يستجلبه ويستعين عليه بثلاث أشياء (٧):

أحدها: ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا

(١) دخل في جوار المطعم بن عدي إبان عودته من الطائف.

(٢) السلي: مشيمة الجنين. وقد ألقوا عليه سلى جزور ﷺ.

(٣) كما في حنين وغيرها.

(٤) فقد كان يربط الحجرين على بطنه من الجوع، ويمر الشهران وما أوقد في بيته نار! ﷺ.

(٥) قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

(٦) صيد الخاطر (١ / ٩٦ - ٩٩) باختصار. وابن الجوزي من أبرع من عرفت من

المتأملين لكوامن النفس البشرية وغرائزها الداخلية وطبائعها المتقلبة، كالغزالي وابن

حزم وابن تيمية رحمنا الله وإياهم والمسلمين.

(٧) انظر: مدارج السالكين (٢ / ١٦٦ - ١٧٠).

والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة، حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإنه على قدر التعب تكون الراحة. على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحملة باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار الفرج.

أي: راحته ونسيمة ولذته، فإن انتظاره ومطالعة وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرح ونسيمة وراحته ما هو من خفي الألفاظ، وما هو فرج معجل، وبه يفهم معنى اسمه «اللطيف».

والثالث: تهوين البلية، بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها؛ هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه - بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي،

وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال، وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء.

والصبر في الفتنة يجلو عن النفس قنارها وينقيها من أخلاطها، «فعلى وهج النار الملتهبة نار الفتنة بجميع أنواعها تتميز معادن الناس، فينقسمون إلى مؤمنين صابرين، وإلى مدعين أو منافقين، وينقسم المؤمنون إلى طبقات كثيرة؛ بحسب شدة صبرهم وقوة احتمالهم.. فالمراحل التي تمر بها حياة المؤمنين المجاهدين؛ من العلماء والدعاة؛ ممن صدقوا في دعوى الإيثار، واستحقوا أن يمنحهم الله قيادة البشرية بالإسلام؛ هي: الابتلاء، ثم الصبر، ثم العاقبة».

فاعقل أخي المؤمن هذه المراحل والزمها وتعقبها في سير الأولين لتكون على بينة مما نقول واعلم: أن النصر مع الصبر، وأنه لا يتسع الأمر الشديد إلا إذا ضاق، وأن بعد العسر يسراً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُ وَعَالٍ مَّا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَاْ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وهناك أسباب تهوُّن المصائب فمنها:

انتظارُ الأجرِ والمثوبةِ من عند الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ومنها: رؤية المصابين، وقد قالت الخنساء:
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
فالتفت يمنيةً والتفت يسرةً، هل ترى إلا مصاباً أو ممتحناً أو محزوناً! وكما قيل:

في كلِّ وادٍ بنو سعدٍ.

كل من لا قيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

ومنها: أنها أسهلُّ من غيرها، فما من مصيبة إلا ويوجد غيرها أشد منها، فمن ابتلي في عين واحدة أو ابن واحد فغيره قد ابتلى بالعمى أو العقم أو هلاك جميع الذرية وهكذا. ومنها: أنها ليست في دين العبد، وإنما في دنياه. فالمصيبة مصيبة الدين، وكما قال البستي:

وكل كسر فإن الدين يجبره وما لكسر قناة الدين جبران

وقال علي بن الجهم:

إنَّ المصائب ما تخطَّت دينه نَعَمْ وإن صُعِبَتْ عليه قليلاً
والله ليس بغافلٍ عن أمره وكفى برّبك ناصرًا وكفيلاً

ومنها: أنَّ العبودية في التسليم عند المكاره أعظم منها أحياناً في المحاب.

ومنها: أنه لا حيلة في دفعها بعد نزولها فالقدر إذا نزل لا يُرد:

فاتركِ الحيلة في تحويلها إنما الحيلة في تركِ الحيل

ومنها أنَّ الخيرة لله رب العالمين الذي قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال: ﴿فَعَسَى أَنْ

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومنها: أنس الماضي بما فيه، فالاهتمام بما مضى وانتهى ضرب من الحماقة. ولا

تشتغل بالمستقبل، فهو في عالم الغيب، ودع التفكير فيه حتى يأتي، واعلم أن أكثر ما

يُخَافُ لَا يَكُونُ، وَمِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ فَرَجٌ.

ومنها: كثرة ذكر الله تعالى، فالله مع من ذكره ومن كان معه الله فلا عليه ما يفوته من غيره. ومنها: لا تنتظر شكرًا من أحدٍ، بل انتظر أجرَكَ من الله ﴿لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]. ومنها: وطن نفسك فاستعدّ للأسوأ وتفاءل بالأحسن.

ومنها: فكّر في النعم واشكر، أنت بما عندك فوق كثيرٍ من الناس، وبالبلاء يُسْتَخْرَجُ الدعاء. والمصائبُ مراهمٌ للبصائرِ وقوّةٌ للقلوبِ. وإنَّ مع العسرِ يسرًا. ولا تقضِ عليك التوافه. وإن ربك واسعُ المغفرة. ولا تغضب، لا تغضب، لا تغضب.

وقد قيل: الحياةُ خبزٌ وماءٌ وظلٌّ، فلا تكثرْ بغير ذلك، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقد ضمن الله وزقك ولا يضمن عملك الصالح، فلا يشغلك المضمون عما لم يضمن.

ومما يعين على الصبر العزلة. فللعزلة عزها وسلامتها، كما لها آفاتُها وحرمانها، واللييب الفطن الحكيم هو من يعرف قدر حاجته منها فيسير فيها بلا تقصير في حقوق الله ولا خلقه. وهي العزلة عن الشرِّ وفضولِ المباحِ وعمن لا تنفعك خلطته مما يشتهى البال ويستجلب الغم ويستزيد الخطايا، وهي ممّا يشرحُ الخاطر ويُذهبُ الحزن ويجمع القلب على ربه ويفرده لمعبوده تبارك وتعالى.

وإنَّ الصبرَ أرفقُ من الجزعِ، وإنَّ التحملَ أشرفُ من الخورِ، وإنَّ الذي لا

يصبر اختياراً سوف يصبر اضطراراً^(١).

ولا تحزن على ما فتك من الدنيا إن سلم الله لك دينك، فدينك دينك لا تثلمته. وسطر علم تعرف به ربك خير مما طلعت عليه الشمس، وإشراقة وجهك بعمل صالح خير لك من الدنيا وما عليها ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]

و«الإيمان أعظم دواء، يقول أبرز أطباء النفس الدكتور كارل جانغ^(٢): «خلال السنوات الثلاثين الماضية، جاء أشخاص من جميع أقطار العالم لاستشارتي، وقد عاجلت مئات المرضى، ومعظمهم في منتصف مرحلة الحياة، أي فوق الخامسة والثلاثين من العمر، ولم يكن بينهم من لا تعود مشكلته إلى إيجاد ملجأ ديني يتطلع من خلاله إلى الحياة، وباستطاعتي أن أقول: إن كلاً منهم مريض لأنّه فقد ما منحه الدين للمؤمنين، ولم يُشف من لم يستعد إيمانه الحقيقي». وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ

(١) رسائل الغرباء للعودة (٢٠١، ٢٠٥).

(٢) الإنسان الحديث في بحثه عن الروح، د. كارل جانغ (٢٦٤).

الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴿١٥١﴾ [آل عمران: ١٥١] ﴿ظَلَمْتُ بَعْضَهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور:
[٤٠]

قال أبو حازم: «إنما بيني وبين الملوك يومٌ واحدٌ، أما أمسٍ فلا يجدون لذته،
وأنا وهم من غدٍ على وجلٍ، وإنما هو اليومُ، فما عسى أن يكون اليومُ».

فَمَا لَيْتَ مَنَا قَنَاءَ صَلِيْبَةٍ وَلَا ذَلَّلْنَا لَلَّتِي لَيْسَ تَجْمَلُ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيْمَةً تُحْمَلُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمَلُ
وَقَيْنَا بِحَسَنِ الصَّبْرِ مَنَا نَفُوسَنَا وَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هَزَلُ

أَيْنَ سَعَادَةُ قَارُونَ، وَسُرُورُ وَفَرْحُ هَامَانَ؟! فَالْأَوَّلُ مَدْفُونٌ، وَالثَّانِي مَلْعُونٌ،
﴿كَمْثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَلُهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلَمًا﴾ [الحديد:
[٢٠] السَّعَادَةُ عِنْدَ بِلَالٍ وَسَلْمَانَ وَعِمَارٍ، لِأَنَّ بِلَالَ أَذِنَ لِلْحَقِّ، وَسَلْمَانُ أَخَى عَلَى
الصِّدْقِ، وَعِمَارًا وَفِي الْمِيثَاقِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الاحقاف: ١٦] (١).

وبالجملة؛ فالصبرُ هو مُعْوَلُ الْمُؤْمِنِ، وَمُعِيلُ الْحَيِّ، وَمَعِينُ الْعَلِمِ، وَمُعِينُ
الْعَمَلِ، وَوَقُودُ الْإِرَادَةِ، وَسَبِيلُ الْوَصُولِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ: أَنَّهُ مُحِبُّ رَبِّ
الْعَالَمِينَ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].



(١) لا تحزن، عائض القرني (٤٤، ٤٨) باختصار.

مقويات الصبر عند حلول الفقر أو الدين أو مصيبات الجوائح

المؤمن يتقلب في سرير الحمد وينغمس في بحر الرضا ويعب من كأس الشكر، ومهما تقلبت أحواله ورحل أحبّؤه وأدبرت أمواله واستدارت بلائاته، فإن إيمانه بربه يشمخ بإرادته حتى تعلو النجوم العوالي وتبز الجبال الرواسي، وعلمه بالله ينير بصيرته فيجلو ظلم المساري ويهتك شبه المعاني، وهو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعلم أن الله طيبه، وهو العالم بما يصلحه، فلعل السقم والقلة والفقد والفقر والعوز والحاجة خير لقلبه وأسلم لدينه وأبعد له عن مفاتن الحرام، فهو واثق بربه على الدوام مهما اختلفت تصارييف الأحوال.

وهو واثق بموعود الله للصابرين الراضين الحامدين الشاكرين بالرضوان والجنة، ومن كان الله معه فعلام يحيش صدره حزناً على غيره!

إن الثقة بالله هي اتكاء إلى جدار عظيم، واستناد إلى ركن شديد، والسعيد من جاوز بثقته طباق السماوات، ووصل بها بين عالمي الغيب والشهادة، فصار يرى بحسن ظنه وعظيم ثقته بوعد ربه ما لا يراه المتزعزعون.

وقد سأل ابن أباه: يا أبت ما أكثر ديونك؟ فقال: يا بني لا تحزن، فثمّ كفيل كريم مليء غني قد وعدني - ووعدته الحق - أن يقضي عني ديني ويعينني ويغنيني، فإني به لواثق، وبه لمستعين، وعليه متوكل، ولأجله سأبذل جهدي بالوفاء، إنه الله الغني الكريم الوهاب، فقد قال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أداها الله

عنه، ومن أخذها يريد إتلافها، أتلفه الله عز وجل»^(١).

سيفتح الله باباً كنت تحسبه من شدة اليأس لم يُخلق بمفتاح

وقال ﷺ: «اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يُعط بعد اليقين خيراً من

العافية»^(٢). ومواعظ القرآن لا تنفع سوى أهل اليقين بقاء الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ولم أر في متع الدنيا كالعافية، ولم أر أجحد لتلك النعمة من أهلها، حتى إذا تقلص عنهم بعضها؛ عرفوا شأنها!

فالعافية حياة الدين والدنيا، واليقين هو جبل الإيمان الراسخ فيها. ومع اليقين يتبخر البخل، يضمحل الشح، ﴿وَمَنْ يُؤَفَّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] قال الحسن: «من أيقن بالخلف؛ جاد بالعطية». ولما اختصم أصحاب الزهري رحمه الله في حد الزهد قال - وهذا من نفيس مقوله -: «الزاهد هو الذي لا يغلب الحرام صبره، ولا الحلال شكره». أما ابن تيمية فحدّ الزهد بقوله: «هو ترك ما لا ينفع في الآخرة».

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع

فأكرم نفسك عن كل ضعة ودنية، وإن ساقتك إليها رغائبك، ونهدت إليها

(١) البخاري (٢٣٨٧) وأحمد ٢/ ٣٦١ (٨٧١٨).

(٢) أحمد (٧١٢٥) وصححه محققو المسند، وصححه كذلك المحقق أيمن صالح شعبان.

أشواقك، فإن بذل الدين أو الشرف لأجلها خسارة العمر، وخُذ من دنياك ما تهياً
وتيسر بسخاوة نفس وقناعة قلب.

ولعل تسعة أعشار حزازات النفوس ستزول بغياب الطمع، فهنيئاً مريئاً
لأغنياء القلوب. قال ابن الجوزي: «إنَّ المفروح به هو المحزون عليه، غير أن عين
الهوى عمياء، طائر الطمع يرى الحبّة لا الفخ». وللإمام الشافعي:
لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ أرحت نفسي من همّ العداوات

والرضا بالمكتوب لا ينفي صنّع مستقبل أجمل لك وللأجيال القادمة، فكن
متوكلًا لا متواكلاً، وعازماً لا متوانياً، وقد أهبك الله للأرض لتعمرها بالعبادة
وتعبرها بالصالحات وتزود منها بُلغتك لدارك في الآخرة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وسرُّ جمال الحياة
البساطة، فالحياة سهلة وعيشها يسير إن رأيته كذلك، لكنّها شديدة التعقيد إن
تعاملت معها بتعقيد، والإكسير موجود لكنه السهل الممتنع: إنه القناعة.

إن كان لا يُغنيك ما يكفيك فكلّ ما في الأرض لا يُغنيك
والتكلف مُنغصٍ لطيب اللقيا، والمثاليّة قتالة للإبداع. وكم من بيتٍ عامرٍ إلا
من أهله، وآخر مُقلٍ إلا من أنس سكانه ودفء أرواحهم وقرب قلوبهم لقلوبهم.
وإنّ العبرة ليست في مظاهر الدنيا وأقنعتها الجميلة، بل في حقائق القلوب
ورغائبها الأصيلة، وبما أنها تنتهي غداً برضى رب العالمين أو سخطه؛ فعلام الغفلة
عن الأمر الكبير؟!

والكثير من المظاهر الجميلة التي نراها في الناس تخفي تحتها بؤسا لا يطاق،

ولكن الناس يخفون الأسى ويظهرون السعادة، فاحمد الله كثيراً على العافية.
ولا عارَ إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ولكنَّ عاراً أن يزول التَّجَمُّلُ
ومن نعيمك غير المنظور: أنَّ الله قد عزَّ ماء وجهك فلم يُهرق للئيم، فما قطع
عنق كريم كحاجته عند من لا يكرم وفادة سؤاله. وعلى سبيل الراحة؛ تجرَّعِ
القناعة.

لا تَحَرَّصَنَّ فالْحِرْصُ ليسَ بِزَائِدٍ في الرزق بل يُشقي الحريصَ ويُتَعِبُ
وإنَّ نابتك نائبة فاذا ذكر فضل الله عليك ثلاثاً؛ إذ لم تكن في دينك، وكانت أهون
من أختها، ورزقت احتسابها عند الله، كما قال عمر.

وإنَّ من شُكْرِ النعمة؛ أن تحمدَ الله عليها وإن قلَّت، مستشعراً حرمان غيرك
منها، فإن شكوت زوجك؛ فغيرك لا زوج له، وإن أتعبك ابنك؛ فغيرك لا ابن له،
وإن شكوت قلة مالك ودنوّ مرتبة عملك؛ فغيرك لا عمل له وقد كسرت ظهره
الديون، وإن شكوت ضعة نسبك؛ فغيرك لا نسب له ولا يعرف حتى والديه، وإن
شكوت ظلم أحد؛ فاذا ذكر من تقصفهم الطائرات والمدافع وهم بين قتيل وسجين
ومشرد ومفقود ومفتون في دينه، وإن شكوت ضعف صحتك؛ فتذكر من هم على
الأسرة البيضاء ممن لا يُحرِّك أيّ عضوٍ، أو يتجرع الكيماوي لدفع السرطان، أو
يغسل كليتيه كل يومين، أو لا ينام لشدة الآلام، بل تذكر من تحت الأرض قد
اخترمتهم المنون، ولقطتهم المنايا، وحيل بينهم وبين العمل للآخرة، وتذكر ستر
الله عليك وقد هُتِك سترُ غيرك، وحرَّيتك في أرض الله وغيرك قد حُكم عليه
بدفن عمره خلف الزنازين أو تحت الأقبية. فاحمد الله الذي لا يأتي الخير إلا من

قبله، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع ونؤوب، سبحانه وبحمده.

واعلم أن الدنيا إن أقبلت فنتت، وإن أدبرت وعظت، وقد قال خالقها: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر: ٥] وقلما تأخى اثنان فدخلت بينهما دنيا؛ إلا فرقت بينهما شيئاً.

وتأمل كيف تمكّن الرجيم من أبوين بعد أن أسلما قيادهما للحرص: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الاعراف: ٢٢] فكن معتدلاً قنوعاً، لا هلعاً جزوعاً، ولتكن الدنيا في يدك لا قلبك.

تعالى الله يا سَلَمَ بن عمرو أذلّ الحرصُ أعناق الرجال
هَبِ الدنيا تُساق إليك عفواً أليس مصيرُ ذلك للزوال
ولما سئل الإمام أحمد: هل يكون مع الرجل مئة ألف دينار وهو من
الزاهدين؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه».

وإذا أردت أن تعرف هل الدنيا في قلبك أم في لا؛ فانظر حالك مع المشتبهات
وقوعاً أو تورّعاً.

وهل بالإمكان اجتماع الطموح بالقناعة؟ نعم، إن كان الطموح موصولاً
بالدار الآخرة. وقد ذكروا أن النابغة الجعدي أنشد:

بلغنا السماءَ مجدُّنا وجُدُّونا وإنا لنَبْغِي فوقَ ذلكَ مَظْهَراً

فقليل: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة، إن شاء الله.

ومن وسائل التصبر حيال الإملاق وقلة ذات اليد:

«أولاً: الرجوع إلى الله تعالى وتذكر أحكامه والعمل بها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصِمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٠].

ثانياً: الصبر وهو: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش^(١). والصبر هو الأساس الأكبر لكل خلق جميل، والتنزه من كل خلق رذيل، وهو حبس النفس على ما تكره، وعلى خلاف مرادها طلباً لرضى الله وثوابه^(٢).

والعم أن الصبر عبادة غفل عن احتسابها الكثير، لذا فلا بد منه، ويعين عليه استحضار الأجر العظيم، واستذكار الثواب الكبير، الذي أعده الله تعالى للصابرين ومن ذلك:

١ - محبة الله تعالى لهم: قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنْ عَظُمَ الْجَزَاءُ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(٣). فعلى الموفق أن يتذكر محبة الله تعالى للصابرين.

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٦).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام للسعدي (١٠٧).

(٣) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في السلسلة (١٤٦)

٢- أن الصبر سبب لرفع الدرجات وتكفير السيئات قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَوْقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال سليمان بن القاسم: «كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر»^(١). وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»^(٢).

والصبرُ مثلُ اسمه مرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

٣- أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

٤- قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إنه تعالى جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٥٦) وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

وقال بعض السلف - وقد عزي على مصيبة نالته - فقال: «ما لي لا أصبر وقد وعدني

(١) / (٢٧٦).

(١) عدة الصابرين (٥٨).

(٢) البخاري (٥٣٢٤).

الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها»^(١).

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ فَصَاحَ الْمَحَبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرًا
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّنِي صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَ مِنَ الصَّبْرِ

٥ - أنه سبحانه جعل الصبر عوناً، وعدة، وأمر بالاستعانة به، فقال:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فمن لا صبر له، لا عون له^(٢).

ثالثاً: أن نعلم أن الله تعالى هو المعطي وهو المانع، بيده ملكوت كل شيء قال
تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا
مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ
فَاسْتَكْسَوْنِي أَكْسَكُمْ - إلى قوله - يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ
قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي
إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ»^(٣).

رابعاً: أن نعلم أن النبي ﷺ لم يكن يخش الفقر علينا، فعن عمرو بن عوف
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِإِلٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ
فَوَافُوا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْصَرَفَ؛
فَتَعَرَّضُوا لَهُ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُمْ ثُمَّ قَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ

(١) عدة الصابرين (٥٨).

(٢) عدة الصابرين (٥٨).

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟» فَقَالُوا: أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَأَبْشُرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ، أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»^(١).

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلهم وللوحيش في الصحراء والحيوت في البحر

خامساً: أن الدنيا قُلْبٌ بأهلها ولا تدوم على حال:

فيومٌ علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وقال أبو الأسود:

وإن امرئ قد جرب الدهر لم يخف تقلب عصره لغير لب
وما الدهر والأيام إلا كما ترى رزية مال أو فراق حبيب

والاسترجاع عند وقوع المصيبة من العبادات التي نسيها كثير من الناس قال

تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١٥٦)
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٥-

١٥٧﴾ وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون،

اللهم أجرني في مصيبي واخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها»^(٢).

(١) البخاري (٢٩٨٨) ومسلم (٢٩٦١).

(٢) مسلم (٩١٨).

فهذا إخبارُ الله تعالى وإخبار الصادق المصدوق عنه، بأن من قال ذلك سيُعوّضه الله خيرًا مما فقد. لذا فلا بد من التزام ذلك والثقة به، مع عدم الاستعجال، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولْ دَعْوَتُهُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(١). وهذا «يقتضي الإلحاح على الله في المسألة، وألا ييأس الداعي من الإجابة ولا يسأم الرغبة، فإنه يستجاب له، أو يكفر عنه من سيئاته، أو يدخر له»^(٢) فالدعاء تجارة رابحة على كل حال.

وما مسّني عسرٌ ففوّضتُ أمره إلى الملك الجبارِ إلا تيسّر

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى: «متى مرّن العبد نفسه على الصبر ووطّنها على تحمل المشاق والمصاعب وجدّ واجتهد في تكميل ذلك؛ صار عاقبته الفلاح والنجاح.

وقلّ مَنْ جَدّ في أمرٍ يحاولُه واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفر»^(٣)

قال نهشل:

صبرنا له صبرًا جميلاً وإنّا تُفرّجُ أبوابُ الكريهة بالصبرِ

سادسًا: أن نعلم أن الصبر يحتاج إلى مجاهدة وتحمل، فلا يأتي بسهولة ويسر، قال النبي ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ

(١) البخاري (٥٩٨١) ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) الاستذكار ٢/٥٢٦.

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (١٠٨).

الصَّبر^(١).

فصبراً يا بني الأحرارِ صبراً فإنَّ الدهر ذو سعةٍ وضيقٍ
وهذه سنة الله تعالى الكونية في تغير أحوال الناس، كتغير فصول العام، من
غنى وفقر، وصحة، وسقم.

اصبر لدهرٍ نال منك فهكذا مضت الدهور
فرحٌ وحزنٌ تارةً لا الحزنُ دام ولا السرورُ

سابعاً: لا بد أن نعلم أن من أركان الإيمان أن نؤمن بالقضاء والقدر خيره
وشره، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وقال ﷺ لابن عباس
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا غلام- أو يا غليم- ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى.
فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك
في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما
هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم
يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه. واعلم
أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب،
وأن مع العسر يسراً»^(٢).

(١) البخاري (١٤٠٠) ومسلم (١٠٥٣).

(٢) أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وذكره أحمد شاكر برقم (٢٨٠٤) وقال محققه: إسناده صحيح. والترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

لذا ذكر العلماء أن أنواع الصبر ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله^(١). «ولهذا قال غير واحد من السلف، والصحابه، والتابعين لهم بإحسان: «لا يبلغ الرجل حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه». فالإيمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب، والتسليم لذلك هو من حقيقة الإيمان»^(٢)

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا وَلَا قَاصِرَ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

قال الأبشيهي رَحِمَهُ اللهُ: «فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأمنى المواهب، لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسماهم بسبب صبرهم، أولى العزم وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأموهم ومرامهم، فما أسعد من اهتدى بهداهم، واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم، وقيل العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة»^(٣).

ثامناً: أن نعلم أن بعد العسر يسراً قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود من طريق قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عسرٌ يسرين إن شاء

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٦).

(٢) منهاج السنة (٣/ ٢٦).

(٣) المستطرف (٢/ ١٤٩).

الله»^(١). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرج»^(٢).

إذا ضاقت بك الدنيا ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين متى تذكرهما تفرح
وقيل:

أيها البائس صبراً إن بعد العسر يسراً
وقيل:

اصبر قليلاً فبعد العسر تيسيراً وكل أمر له وقت وتدبير
وقيل:

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها وأسى يشتر بالسرور العاجل
وقيل:

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها الرخاء
وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها الرخاء
وقيل:

اصبر لأحداث الزمان فإنها فرج الشدائد مثل حلّ عقال

(١) فتح الباري (٨ / ٧١٢) وقال في تعليق التعليق (٤ / ٣٧٢): «رواه عبد بن حميد من

حديث ابن مسعود موقوفاً بسند جيد».

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (٩٩٧٧).

وقيل:

بالصبر تدرك ما ترجوه من أمل فاصبر فلا ضيق إلا بعده فرج

وقيل (١):

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كل الأمور له كفو
لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه لقد يجتني من بعده الثمر الحلو

تاسعًا: عند حلول المصائب انظر إلى من مصيبتك أعظم من مصيبتك وخسارته
أكثر من خسارتك، فسيهون ذلك عليك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو
أجدر أن لا تزدروا نعمة الله» (٢).

بنا فوق ما تشكو فصبرًا لعلنا نرى فرجًا يشفي السقام قريبًا
أما الجزع عند المصائب فهو من المحرمات. قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

للبكاء النساء عند الرزايا ولحسن العزاء الرجال

وقيل:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله عند الإله وأنجاه من الجزع
من شد بالصبر كفاً عند مؤلمة ألوت يدها بحبل غير منقطع

(١) انظرها جميعاً في المستطرف للأبشيحي رحمه الله (٢/ ١٤٤).

(٢) مسلم (٢٩٦٣).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها»^(١).

ضجرُ الفتى في الحادثات مذمّة والصبر أحسنُ بالرجال وأليقُ

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس مع العزاء مصيبة، وليس مع الجزع فائدة»^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك وأنت مأثوم»^(٣).

واصبر ففي الصبر خيرٌ لو علمتَ به لكنت باركت شكرًا صاحب النعم واعلم بأنك إن لم تصطرَّ كرمًا صبرت قهراً على ما خُطَّ بالقلم

قال يحيى بن زياد رحمه الله تعالى: «أما بعد؛ فإن المصيبة واحدة إن صبرت، ومصائب إن لم تصبر»^(٤).

وقال ابن السّمّاك رحمه الله تعالى: «عليكم بتقوى الله والصبر، فإن المصيبة

(١) العدة (١٩) ومدارج السالكين (١٥٦/٢) وانظر: التحفة العراقية (٥٤) وطريق الهجرتين (٤٠٠) ومؤلفات السعدي (٧٦/١).

(٢) ابن عبد البر في التمهيد (٣٢٥/١٩) وابن عساكر في التاريخ (٣٣٦/٣٠).

(٣) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣٩/٩) وانظر: كنز العمال (٣١٥/١٥) وفيض القدير (٣٧٨/٤).

(٤) تاريخ دمشق (٢٢٢/٦٤).

واحدة إن صبر لها أهلها، وهي اثنتان إن جزعوا»^(١). وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وَأَمْرُ الْمُصَابِ بِأَنْفَعِ الْأُمُورِ لَهُ وَهُوَ الصَّبْرُ وَالْإِحْتِسَابُ، فَإِنْ ذَلِكَ يَخْفَفُ مَصِيبَتَهُ، وَيُوفِّرُ أَجْرَهُ، وَالْجَزَعُ وَالتَّسْخُطُ وَالتَّشْكِي، يَزِيدُ فِي الْمَصِيبَةِ وَيَذْهَبُ الْأَجْرُ»^(٢).

وقال السعدي رحمه الله تعالى: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا بَدَّ أَنْ يَصَابَ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَجْزَعَ وَيُضْعِفَ صَبْرَهُ؛ فَيَفُوتَهُ الْخَيْرُ وَالثَّوَابُ، وَيَسْتَحِقَّ عَلَى ذَلِكَ الْعِقَابَ، وَمَصِيبَتُهُ لَمْ تَقْلَعْ وَلَمْ تَخَفْ، بَلِ الْجَزَعُ يَزِيدُهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْبِرَ؛ فَيَحْظِيَ بِثَوَابِهَا.

وَالصَّبْرُ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَمَّا الصَّبْرُ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى الْإِيمَانِ كَالْتَجَلُّدِ وَنَحْوِهِ، فَمَا أَقَلُّ فَائِدَتِهِ، وَمَا أَسْرَعُ مَا يَعْقِبُهُ الْجَزَعُ. فَالْمُؤْمِنُونَ أَعْظَمُ النَّاسِ صَبْرًا وَيَقِينًا وَثَبَاتًا فِي مَوَاضِعِ الشَّدَةِ»^(٣).

لَا تَيَأْسُنْ إِذَا مَا ضَقَّتْ مِنْ فَرْجٍ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ فِي الرُّوحَاتِ وَالدَّلَجِ
وَإِنْ تَضَاقِقَ بَابٌ عَنْكَ مَرَّتَجٌّ فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ بَابًا غَيْرَ مَرَّتَجٍّ
فَمَا تَجَرَّعَ كَأْسَ الصَّبْرِ مَعْتَصِمٌ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَاهُ اللَّهُ بِالْفَرْجِ»^(٤)



(١) شعب الإيمان (٢٤٨/٧) وحلية الأولياء (٢٠٨/٨).

(٢) مدارج السالكين (١٥٥/٢).

(٣) تيسير اللطيف المنان (٢١٤).

(٤) قراءة في مآسي الأسهم، د. فهد اليحيى (٧٤ - ٩١) باختصار وتصرف.

مقويات الصبر عن المعصية

إن المؤمن الناصح لنفسه الراغب لخيرها وفلاحها وسعادتها حريص على الدوام على كل ما فيه مصالحها وحراستها من كل شر يحيط بها، ولما كان رأس الشر عصيان الرحمن كان على المؤمن التجافي عن الخطيئة قدر طاقته، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

قال الحجاج في خطبة له: «أيها الناس؛ اقدعوا هذه الأنفس، فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأمنع شيء إذا سئلت. فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله! فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه»^(١).

فالمؤمن يتطلب الأسباب الشرعية المفضية لبعده عن المعصية حتى يسلم من غوائل السقوط من عين الله تعالى! قال الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا بد من الصبر عن شهوة المعصية، ولا تنس أنه أول صبر تصادفه في حياتك أن تصبر على نفسك؛ لذلك يقول الشاعر:

إِذَا رُمْتَ أَنْ تُسْتَقْرِضَ الْمَالَ مُنْفَقًا عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَثَرِ صَبْرُهَا عَلَيْكَ وَإِنْظَارًا إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ
فَإِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الْغَنِيِّ وَإِنْ أَبْتَ فكل مَنُوعَ بَعْدَهَا وَإِسْعَ الْعُذْرِ

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم (١ / ٢٧٤).

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة، فأولَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك، وإن تسعَكَ نفسك، فلا عُدْر لأحد بعد ذلك إن منعك»^(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم بعض هاتيك الأسباب المانعة من وقوع العبد في معصية مولاه تعالى فقال:

«أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانةً وحمايةً عن الدنيا والرذائل كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يُعَلَّقَ عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظر الله إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع، وكان حيياً استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمه حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وأعظم النعم الإيمان، وذنوب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاج النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: «أذنبت ذنباً فحُرمت قيام الليل سنة!» وقال

(١) تفسير الشعراوي (٦٩٢٠).

آخر: «أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن»، وفي مثل هذا قيل:
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تُزيل النعم
وبالجملة؛ فإن المعاصي نار النعم، تأكلها كما تأكل النار الحطب عياداً بالله من
زوال نعمته، وتحول عافيته.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده
ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين
ويضعف بضعفهما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]
وقال بعض السلف: «كفى بخشية الله علماً، والاغترار بالله جهلاً».

السبب الخامس: محبة الله، وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته
ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان
اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفرق بين من
يحملة على ترك معصية سيده خوفاً من سوطه وعقوبته، وبين من يحملة على ذلك
حبه لسيده، وفي هذا قال عمر: «نعم العبد صهيبي، لو لم يخف الله لم يعصه»^(١).
يعني أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته.
فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه، يرقى قلبه وجوارحه. وعلامة

(١) ليس له إسناد ثابت، ومعناه صحيح، واشتهرت نسبته لعمر رضي الله عنه. وقد أخرجه

المتقي الهندي في كنز العمال (٣٧١٤٧) ١٣ / ٤٣٧

صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه.

وهل هنا لطيفة يجب التنبه لها، وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنسٍ وانبساطٍ وتذكر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها، ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه! وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم.

فما عمّر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه. وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع من قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناشئ منها؛ من سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شملته، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعرّيه من زيتته، والحيرة في أمره، وتخلي وليّه وناصره عنه، وتوليّ عدوّه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعداً له عنه، ونسيان ما كان حاصلاً له أو ضعفه ولا بد، ومرضه الذي إذا استحكّم به فهو الموت ولا بد، فإن الذنوب تميمت القلوب.

ومنها ذله بعد عزه، ومنها أنه يصير أسيراً في يد أعدائه بعد أن كان ملكاً متصرفاً يخافه أعداؤه، ومنها أنه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في

الخارج، ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة فأخوف الناس أشدهم إساءة، ومنها زوال الأنس والاستبدال به وحشة، وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة.

ومنها زوال الرضا واستبداله بالسخط، ومنها زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده واستبداله بالطرد والبعد منه، ومنها وقوعه في بئر الحسرات فلا يزال في حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعافٍ ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه، فيا لها ناراً قد عذب بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة!

ومنها فقره بعد غناه، فإنه كان غنياً بما معه من رأس مال الإيمان، وهو يتجر به ويربح الأرباح الكثيرة، فإذا سلب رأس ماله أصبح فقيراً معدماً، فإما أن يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير، وإلا فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله.

ومنها نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، ومنها ضعف بدنه، ومنها زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة، فتبدل بها مهانةً وحقارة، ومنها حصول البُغْضِ والنفرة منه في قلوب الناس، ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض منه ولا يعود إليه أبداً.

ومنها طمع عدوه فيه وظفره به، فإنه إذا رآه منقاداً مستجيباً لما يأمره اشتد طمعه وحدث نفسه بالظفر به، وجعله من حربه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق.

ومنها الطبع والرين على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن أذنب ذنباً آخر نكت فيه نكتة أخرى، ولا تزال حتى تعلق قلبه فذلك هو الران، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ومنها أنه يجرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد.

ومنها أن تمنع قلبه من ترحُّله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة، فإن القلب لا يزال مشتتاً مضيقاً حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة، واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبته زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها إعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه، فأعرضت عنه ملائكته وعباده، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه.

ومنها أن الذنب يستدعي ذنباً آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثاً، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعاً وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته! قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنه بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

ومنها علمه بفوات ما هو أحبُّ إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإن الله لا يجمع لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا ولذة ما في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا.

ومنها علمه بأن أعماله هي زأده ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه في قبره، وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها، وأعمال الفجور تهوي به وتجذبه إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث تستقر به، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة، بل أغلقت عنها، وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه؛ فتحت

لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق، فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلى خربة موحشة هي مأوى اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟! ومنها أنه بالمعصية قد تعرض لمحق بركته.

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً، فخير الدنيا والآخرة بحذايره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذايره في معصيته. وفي بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: «من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي، ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي».

السبب الثامن: قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمرع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلّة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يُثقله حملُه ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضول، فإنها تطلب لها مصرّفاً فيضيق عليها المباح، فتتعداه إلى الحرام.

ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد

فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقتته لفاعله، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من ألا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوي سراج الإيمان في القلب وأضاءت جهاته كلها به وأشرق نوره في أرجائه سرى ذلك النور إلى الأعضاء وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعة مذلة غير متثاقلة ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته، فهو كل وقت يترقب داعيه ويتأهب لموافاته، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(١).

فالسُرُّ إذن في ثبات شجرة الإيمان في القلب، وطيب سُقيها من معين الوحي المنزل، وصفاء معدن الإخلاص في الفؤاد الزاكي، والموفق من وفقه الله تعالى، نسأله سبحانه من فضله ونواله.

(١) طريق الهجرتين (١ / ٤٠٢ - ٤١٥) باختصار يسير.

هذا وقد ذكر الإمام ابن القيم أيضًا عشرين سببًا تعين على الصبر عن معاصي الله تعالى وقد جعلها على شكل مشاهد قلبية روحانية، جلّها إضافية على ما سبق مع زيادة إضاءات على ما ذكر، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

المشاهد العشرون التي تعين على الصبر عن المعصية

«لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه ونصب له أسبابًا تمده وتعين عليه، كما أنه ما قدر داءً إلا وقدر له دواء، أو ضمن الشفاء باستعماله.

فالصبر وإن كان شاقًا كريهًا على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان، فلا بد من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية.

فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي؛ أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء.

فمتى فعل ذلك؛ حصل له الصبر، وهانت عليه مشاقه، وحلت له مرارته، وانقلب ألمه لذة.

وأكبر معين على الصبر هو تقوية باعث الدين^(١)، فإنه يكون بأمور:

أحدهما: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه، فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان، فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لثام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائح صاعدة إلى ربه، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة!

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً.

ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان، الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى

(١) فمع زيادة الإيمان تقوى نفس المؤمن ضد نزغات الشيطان.

تبعثها؟!

تذهب الشهوة وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١). قال بعض الصحابة: «يُنزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظُّلَّة»^(٢) فإن تاب رجع إليه»^(٣). وقال بعض التابعين: «يُنزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه»^(٤).

ولهذا رأى النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري^(٥) الزناة في التنور عراة؛ لأنهم تعرّوا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنورًا ظاهرًا يُحمى عليه بالنار.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشیطان له حلاوة ومسرّة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوّه من الآدميين، وأحلى موقعًا وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمدُ عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد، وأعادته إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوّض، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازن بين العوض والمعوّض، فأيهما كان

(١) البخاري (٥٥٧٨) مسلم (٤٢).

(٢) أي: السحابة.

(٣) انظر: الشريعة للأجري (١١٤) وقد رواه أبوداود مرفوعًا (٤٦٩٠).

(٤) رواه ابن حبان في الثقات عن خالد بن معدان (٧ / ٤٢).

(٥) البخاري (١٣٦٨).

أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية، وهو نوعان: معية عامة، ومعية خاصة.

فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفي عليه حاله، والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿اللَّهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته من قضاء وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر، إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل؟!

التاسع: مشهد المغافصة^(١) والمعالجة، وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيُحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرها وما أصعبها! لكن ما يعرفها إلا من جربها.

وفي بعض الكتب القديمة: يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين، ولا يتم له سرور يوم؛ الحذر الحذر!

العاشر: مشهد البلاء والعافية، فإنَّ البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها.

(١) المغافصة: هي الأخذ على غرة. قال الفراهيدي في العين (٤ / ٣٧٣): «غافَصْتُه مُغَافَصَةً، أَي: أَخَذْتُهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبْتُهُ بِمَسَاءَةٍ، وَالْأَسْمُ الْغِفْصَةُ مِثْلُ الْخِلْسَةِ».

فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم.

الحادي عشر: أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً، حتى يدرك لذة الظفر فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله. والاعتیاد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال.

الثاني عشر: كفّ الباطل عن حديث النفس، وإذا مرّت به الخواطر نفاهها ولا يؤويها ويساكنها، فإنها تصير أمانى وهي رؤوس أموال المفاليس.

ومتى ساكن الخواطر صارت أمانى، ثم تقوى فتصير هموماً، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المراد! فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى، وليس المراد ألا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه.

فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله يستعمله لنفسه وهواه ولا بد، فالعلم أن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى، والجاه إن لم يستعمله لله استعمله صاحبه في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته.

فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكير فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه.

وما أعظم غبن من أمكنه ألا يزال محاضراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة فرغب عن ذلك إلى محاضرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن، والله المستعان.

الخامس عشر: التفكير في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أحسن ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط المهمة دنيء المروءة ميت القلب، فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم؟! بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً.

السادس عشر: تعرّضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمنة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات، كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحات، فتعرّضوا لنفحاته، واسألوا الله أن يستر

عوراتكم ويؤمن روعاتكم»^(١). ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يُسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه!

فمن أُعطي منشور الدعاء أُعطي الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما أهتمه الدعاء، كما قيل:

لو لم تُردْ نيل ما أرجو وأطلبُهُ مِنْ جودِ كفِّك ما عودتني الطَّلْبَا

ولا يستوحش من ظاهر الحال، فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله، كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال.

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحُّه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل درجة حتى ينتهي إلى موضعه من سجين.

(١) الطبراني عن أنس مرفوعاً (٧٢٠) وحسنه الألباني بمجموع طرقه وشواهده في الصحيحة (١٨٩٠).

ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل؛ فليُنظر أين روحه في هذا العالم؟

فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا، فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزاءً، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ يَعمَلٍ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمتها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه، وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له.

وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع، ويودع فيها البذور ويتنظر نزول الغيث، فإذا طهر العبد قلبه وفرّغه من إرادة السوء وخواطره وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه؛ كان جديراً بحصول المَعْل (١).

وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة.

(١) أي: الغلة والثمرة.

ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسبابٌ نصبها الله تعالى مقتضيةً لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضيةً إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب، والحس على العقل، ولظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه.

ولو فرَّغ العبد المحل وهياً وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب.

فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها، فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجذبة سَكْرٌ^(١) وسدٌ كثيف، فصاحبها يشكو الجذب والنهر إلى جانب أرضه!

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه. وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف، وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده لأنه يتعقبه ضده، وهو سريع الزوال.

(١) أي: سدٌ ومانع.

فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب، فإنه سريع الزوال عنه.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألد ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم، فإن الزهد في الدنيا مُلْكٌ حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على ألا يصل إليه.

فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقاً، لأن صاحب هذا المُلْك حُرٌّ، والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مُسَخَّرٌ مملوك في زي مالك، يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير! فالغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته مُلْكٌ وباطنه رِقٌّ، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة.

والبصير الموفق يعير نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادئ إلى العواقب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العشرون: ألا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه.

وملاك ذلك: الخروج عن العوائد، فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من

استمر مع عوائده أبداً، ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «من سمع بالدجال فليأمن منه»^(١). فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وهل هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي: أن يُظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير، ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم»^(٢). وبالله العصمة والتوفيق والهدى والرشاد.



(١) مسلم (٤٨/٨) وأبو داود (٤٣١٩).

(٢) عدة الصابرين (١٠٢ - ١١٣) باختصار يسير.

أيهما أفضل: الصبر على الطاعة، أم الصبر عن المعصية؟

اختلف العلماء في ذلك، والأظهر أن التفضيل راجع لحال الأمر وقدره وحجمه، فالصبر على الطاعة العظيمة كالجهاد أفضل من الصبر عن الإثم اليسير، والعكس صحيح.

فالصبر عن المعصية الكبيرة كالقتل والزنا والربا والخمر أفضل وأعظم من الصبر على طاعة يسيرة كصلاة الضحى أو تسبيحة أو صدقة من طرف المال ونحو ذلك، فرجع بنا الأمر أن التفضيل يختلف باختلاف الأحوال.

أما مقارنة فعل الطاعة بترك المعصية والتفضيل بينهما بالجنس فليس بظاهر من حيث الإطلاق لتداخلهما حقيقةً ومعنىً، فكلاهما عبادة مقصودة لذاتها، مع احتواء كل منهما على عبادات لا تُحصى ولا تُعدّ، ومنها الكبير والصغير، فاستعصى حينئذ البتُّ في تفضيل أحدهما على صاحبه، علماً بأن معدن الصبر فيهما واحد، كما أن منبع الهمّ لكليهما هو الإيمان، فهو الباعث للطاعة والزاجر عن العصيان، وهذا يُحسُّ به كل أحد.

وكذلك فجنس عمل الطاعة مبادرة لعملٍ مُرتَّب عليه أجر من جهات عديدة، وكل منها لها نصيبها الخاص من التفضيل والثواب؛ فمنها ما كان بخصوص الامتثال، ومنها ما كان بخصوص نقاء الإخلاص وقوة النية، ومنها ما كان بخصوص بذل الوسع وجودة العمل وحسن الاتباع، ومنها ما كان بخصوص نسبة المشقة المصاحبة غير المقصودة لذاتها، ومنها ما كان بخصوص نوع العمل ومكانه من شعب الدين، ومنها ما كان بخصوص فضل الزمان أو

المكان أو الحال.. وهكذا.

فكل ما ذكرنا متعلق بفضل جنس الطاعة من حيث الأصل، وله وزنه المؤكد في التفضيل من حيث الجنس والنوع، وكذلك جنس ترك المعصية، فأجره مرتَّب من جهات عديدة كجُلِّ ما قدّمنا من جهات عمل الطاعة، مع مزيد من عبادة الخشية، فعمدة وقود الطاعة المحبة والرجاء أما الخوف فتبع، أما ترك المعصية فعمدته المحبة والخشية أما الرجاء فتبع.

فجنس الائتثار: طاعة اختيار وعبادة أداء، وجنس الانتهاة: ترك اختيار وعبادة احترام. فكلاهما ركن كبير وعمود رئيس لبناء الإيمان الذي لا يتم إلا باجتماعهما معاً، فهو بناء قائم على قاعدتين فقط لا ثالث لهما: العمل والترك، فما الدين إلا طاعة لله وترك لمعصيته.

وعلى قدر ضعف أحدهما أو كليهما يكون ضعف المبنى الديني بعامة، أو كماله، أو دماره. فاجتماعهما شرط لصحة التدين، ونقص أحدهما يؤدي لنقص التدين بحسبه، كيفاً وكمّاً، فمنها ما ينهدّ بوجوده أو عدمه الدين، ومنه ما يقل حصوله، نقضاً، أو نقصاً، أو زيادة، أو كمالاً.

فكلاهما عبادة مقصودة لذاتها، وكلاّ منهما قسيم لصاحبه لا يتمّ صاحبه إلا به، ولا يوجد إلا بوجوده، وينعدم بعدمه، فهو شرط وجود وقسيم تحصيل.

ومن هنا كان التفضيل من جهة جنس الائتثار أو الانتهاة متعذراً، فلا نستطيع الإطلاق بتفضيل أحدهما على صاحبه، وبالنهاية فكلاهما إيمان، بل لا إيمان إلا باجتماعهما، كذلك فهما هُما من حيث الحقيقة الذاتية للعبادة، بمعنى أنّ كلّ عمل

طاعةٌ هو متضمنٌ ضرورةً لتركِ معصيةٍ مخالفتِها، فلو أنه لو ترك الطاعة لوقع في المعصية، وكذلك العكس، فكل ترك معصية فهو متضمن لعمل طاعة من جهة امتثال طاعة الله تعالى بترك العصيان، هذا من حيث الابتداء.

فإن كان التفضيل بينهما ولا بد؛ فقد يصح لنا القول: إن عبادة عمل الطاعة تزيد على عبادة اجتناب المعصية بثلاث مزايا: التعظيم، وتعداد العبادات، وحصول المضاعفات.

فأولاهما: التعظيم، وهذا يتضح من جهة أن الائتمار تعظيمٌ مباشر للآمر تبارك وتعالى، فهو بذلُ جهدٍ للوصول لمرضاته، فيُصلي ليرضى ربه عنه، ويذكره ليرضى عنه ويحبه ويأجره ويثيبه ونحو ذلك، وهذا مضطرد في العبادة الصحيحة المشتملة على إخلاصٍ واتباعٍ.

أما جنس ترك المعصية فليس الأمر فيه على هذا النحو على الدوام، فقد يعصي لغلبة الهوى شهوةً كانت أو غيرها، مع بقاء أصل الإيمان، وبقية الوازع، وتأنيب الضمير، وتعكير ركوب الحرام، فيقول بلسان حاله: إلهي؛ ما عصيتك محبة لعصيانك، ولكن لضعف نفسي لجذب الخطيئة، كما أنه لا يصبر في العادة، بل يتوب ويرجع في ثاني أو ثالث أو عاقب الحال.

وحتى نقرب لك المقصود: فلو أن ملكًا أو سيدًا - ولله تعالى المثل الأعلى سبحانه - أمرَ عبيده بأمور ونهاهم عن أمور، ثم راقبهم، فمنهم من عمل المأمور وانتهى عن المحذور، ومنهم من لم يعمل المأمور ووقع في المحذور، ومنهم عمل المأمور ووقع في المحذور، ومنهم من لم يعمل المأمور ولم يقع في المحذور.

فالأول والثاني أمرهما واضح، ولكن الثالث والرابع أيهما أقرب للرضا والسخط؟ فعلى البناء الحُكْمِي بينهما يكون تفضيل جنس العمل أو الترك، فالثالث العمل والأداء، والرابع الترك والاجتناب.

والأظهر: أنَّ الثالث أقرب للرضا وأبعد عن السخط، لأنَّ لسان حاله يقول: إنه بذل جهده للأمر تعظيماً وقرباً، ولكن لضعفه وقع في المحذور ليس استهانة، بل ضعفاً.

أما الرابع، فمع حمده من جهة ترك المحذور، ولكنه يُذَمُّ بشدة من جهة ترك المأمور، فلئن كان الثالث على سبيل نجاة وقرب توبة، فالرابع على سبيل هلكة وتسلب كبر أو جحود. فقد يعفو السيد لضعف عبده تقصيراً في مأمور، أو وقوعاً في محذور، لوجود مادة الطاعة في المقابل، لكن لا يعفو عنه لكبره ورفضه وعناده وكسله، لانعدام مادة الطاعة التي تشفع له تقصيره.

والمقصود؛ أنَّ أصل التعظيم واضح مشاهد في جنس العمل أكثر من جهة الترك، وهذا من حيث الجنس بالطبع، وإلا فالأنواع والأفراد تختلف، فكم من جنس ترك هو أكثر تعظيماً من جنس عمل، فمن ترك السجود لوثن من أجل التوحيد لا يقابله إلا توحيد عظيم من جهة العمل، وكما ترى فكلمة التوحيد ذاتها تبدأ بجنس الترك قبل جنس العمل، فالنفي يسبق الإثبات: لا إله إلا الله.

فلا ينبغي على الإطلاق التهاون في جنس ترك المعصية لأجل تلك المقارنات أو المقاربات أصابت أو أخطأت، فمن الناس من لحقه نوعٌ تهاونٍ بالمعصية، إذ دخل عليه الشيطان من هذه الخيثيات التي قد يظن من لم يفقهها على حقيقتها

التهوين من شأن المعصية، فالمقارنة بين أمرين شيء، والنظر لحقيقة الشيء لوحده شيء آخر، وكما أن الله كريمٌ وهابٌ؛ فهو عزيزٌ شديدٌ العقاب.

وبالجملة؛ فلا يصح الدين إلا باجتماعهما عملاً وتركاً، فالقلب المتجه لعقار الطاعة؛ لا بدّ له أن يحتمي عن نجس الخطيئة، كي لا يلوث صحيفته بقدر المعصية وقتر الذنب. وكذلك فلا بدّ لمن نقي الصحيفة من المعصية أن يكتب فيها ما استطاع من نور الطاعة، فالإيمان ضياءٌ كلّه، فيمينه منشور الطاعة قد امتلأ بطاعة تبيّض وجهه عند ربه، وبشماله منشور السلامة من الخطيئات المخزية لقدّره بين يدي ربه الأعلى. وكم من قدم زلّت بعد ثبوتها وزلقت في النار لأجل معصية لم تقابلها جبالٌ من الحسنات، والله المستعان.

أما من حيث التأسيس: فجنس الطاعة والأداء أقرب تعظيماً من الترك والانتهاز، فالطاعة وجودٌ، والترك عدم.

وثانيها: أنّ العبادات لها أوقات مخصوصة بأقذار مخصوصة، منها ما هو فرض ومنها ما دون ذلك، فكل وظيفة دينية يقوم بها العابد يتحصل عليها أجراً جراً امتثاله، وهي لا تنتهي ولا تنقضي إلا بانقضاء أجله، كالذكر والصلاة والبر وغير ذلك كثير مما لا يحصى بحمد الله تعالى، وهذا مقصود عظيم من جهة الاستخلاف والامتحان في الدنيا، وهذا لا يتأتى في جنس ترك المعاصي إلا من جهتين: الأولى: التفريط في الفرائض، فهي معصية ترك لا معصية فعل، ولكنها من حيث الاحتساب في مسألتنا هنا فهي معصية بكل حال، أما الجهة الثانية فهي أن المؤمن معرض لفتنٍ عارضة كثيرة من جهات الشهوة والحرص والطمع والرغبة

والغضب والعدوان والخوف ونحو ذلك كثير، ولكنه ليس في العادة ككثرة وظائف العبادات العملية والقولية والقلبية، فلو جردنا يومية المؤمن في اليوم والليلة؛ لوجدنا أن وظائف العمل لديه طلباً ووجوداً أكثر من وظائف الترك، وهذا مقصودنا هنا.

وهي عند المتأمل نعمة محضة، ومنة عظيمة، وإحسان ربّاني، وجمال ديني، وهي من النعم التي لا ينتبه لها كثير من الناس، لأن الكريم سبحانه قد فتح لعباده بها كثيراً وعديداً من أبواب البر، ومعارج الرضوان، ووسائل الفلاح، ومناهج الجنة، كرمًا منه، ورحمة من لدنه، فله الحمد كله كما ينبغي له، وكذلك الأمر في التالي من المضاعفة الهائلة للحسنات والأجور.

وثالثها: حصول المضاعفات العظيمة للأجر بعمل العبادات، فقد تصل العبادات لمئة ألف ضعف، وكذا سبعمئة ضعف، وكذا ألف شهر ونحو ذلك مما لم يرد في اجتناب المعاصي، كرمًا من الله ومنة. فمن هنا كان تفضيل جنس الطاعة على جنس ترك المعصية. والله أعلم.

وقد ذكر شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى أطرافاً أخرى وإضاءات جلّت بعض زوايا المسألة كعادته نضر الله وجهه، قال: «وهنا مسألة تكلم فيها الناس وهي: أي الصبرين أفضل: صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ فطائفة رجحت الأول وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصديقين، كما قال بعض السلف: «أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقوى على ترك

المعاصي إلا صديق»^(١).

قالوا: ولأن داعي المعصية أشد من داعي ترك الطاعة، فإن داعي المعصية إلى أمر وجودي تشتهي النفس وتلتذ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة، ولا ريب أن داعي المعصية أقوى.

قالوا: ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب التشبه والمحاكاة وميل الطبع. وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلى المعصية، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت على القلب؟! فأي صبر أقوى من صبر عن إجابتها؟! ولولا أن الله يصبره لما تأتى منه الصبر، وهذا القول كما ترى حجته في غاية الظهور.

ورجحت طائفة الصبر على الطاعة، بناء منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة.

ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم

(١) مشهورة عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى.

والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعاً ونحوه. فهذا فصل النزاع في المسألة، والله أعلم»^(١).

وقال أيضاً: «فإن قيل: أي أنواع الصبر الثلاثة أكمل؛ الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحذور، أم الصبر على المقدور؟

قيل: الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعاً أصبرهم في ذلك. وكل صبر في محله وموضعه أفضل، فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلى الطاعة في محلها أفضل»^(٢).

«لو رأيت المحيين في الدجى تمرّ عليهم زمر النجوم مرّ الوصائف إلى أن تقبل هوادج «هل من سائل».

ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحيين قرار إلا يوم المزيد، فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب، واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله.

أين أنت والمحبة وأنت أسير الحبة، تمسكت بالدنيا تمسك الرضيع بالظئر،

(١) طريق الهجرتين (١ / ٤١٦).

(٢) عدة الصابرين (١ / ٢٧).

والقوم ما أعاروها الطرف. انقسم الصالحون عند السباق، فمنهم من أخذه القلق فكان يقول: ويل لي إن لم يغفر لي، ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال الحبشي كانت زوجته تقول: واحزنه، وهو يقول: واطرباه! غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه. وأها لبلال علم أن الإمام لا ينسى المؤذن.

هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السرى، ولا عبروا إلى مقرّ الراحة إلا على جسر التعب.

لو رأيت أهل القبور في وثاق الأسر فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة، وحيل بينهم وبين ما يشتهون. يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه، ليس في أعدائك أشدّ شرّاً عليك منك!

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه^(١)



(١) بدائع الفوائد (٣ / ٧٣٥) باختصار.

الصبر عن الحسد

الحسد داء للمرء عُضال، وسُقْمٌ للقلب مُميت، وسمٌ يجري في عروق الروح حتى يتلفها إن لم يُحسم بالخوف من لقاء الله تعالى، ويدأوى بجرعات الإيمان به، والشوق إليه، والرضا به، واليقين بصدق موعوده، وتُتلى عليه تبشيرُ حبِّ الخير للناس، ومناشيرُ ألوية السعداء الطيبين، ومباهجُ عواقب تذكّر وعد الله تعالى ولقائه تبارك وتعالى.

وأكثر نزاع الناس - فيما أظن - هو من قبيل الحسد، لكنه يتقنّع بأقنعة أخرى قد تخفى حتى على صاحبها! فشیطان الحسد مكار غدار، فيتصرف الحاسد إزاء محسوده بدافع الحسد، والتشفي، وحبّ الأثرة، والعلو عليه، ونفسه تدغدغ وعيه، وتخدع ضميره، وتمكر بقلبه، وتقلب حقائق علمه؛ بأنّه إنما يفعل للخير، والإصلاح، والحمية السليمة، والنصح البار، والحب الصادق.. ولكن حقيقته تمنّي الشر، وإرادة الأذى!

فالحسدُ خصلة إبليسية خبيثة، ونجاسة شيطانية لصيقة، تدبّ في القلب ديب النمل حتى تهتك ستره، وتكدّر صفاءه، وتنحر برّه، وتبيعه ليدّ الفشل وقدم العذاب مُقيّداً يرسفُ في جبال الدُّلّ، وسلاسل القهر، وأغلال النكد، وسجون النكال، فيظن الحاسد أنه من الأحياء وحقيقته أنه مواتٌ يمشي على قدمين، ونازٌ تحترق بين الكتفين، وخذلان يتعثّر بين الخبيتين، أبى الله تعالى إلا أن يذلّ من عصاه، ويقهر من عانده، ويُحيب من والى عدوّه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً!

ويكون الحسد في الغالب بين أصحاب اللون الواحد، سواء جَمَعَتْهُمْ تجارة، أو صناعة، أو تَكْسُبُّ، أو طلب علم، أو رئاسة، أو قضاء، أو تعليم.. أو أي أمر من أمور الدنيا الفانية أو الباقية التي يكون اجتماعهم فيه على مبنًى في القلب على فضول حظوظ النفوس.

ولشدة خطره على الدين والعقل والعُقبى؛ فعلى المؤمن إزاءه بالتوقّي بالصبر الشديد، فإن لم يطق فبالتصبرّ التليد، والمصابرة الدائمة، حتى يُشفى من أطرافه، ويسلم من قليله وغلوائه، ويعود لربه قلبًا طيِّبًا سليمًا ناصحًا، بريئًا من نجس الخطيئة، طاهرًا من قَدَرِ العصيان. قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يديه والكريم يخفيه.

وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: «ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك؟ ولكن عمّه في صدرك، فإنّه لا يضرّك ما لم تعد به يدًا ولسانًا».

فمن وجد في نفسه حسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه.

وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمّه أحد لم يوافقوه على ذمه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك؛ لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم سيُبخسون حقوقهم فلا يُنصفون أيضًا في مواضع، ولا يُنصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا

هذا المحسود. وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يُعاقب.

ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه؛ كما جرى لزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإنها كانت هي التي تُسَامِي عائشة^(١) من أزواج النبي ﷺ، وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب، لا سيما المتزوجات بزواج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها^(٢).

وبالجملة؛ فمرض الحسد خطير، وأثره على الإيمان شنيع، فوجب على من وجد في نفسه شيء من ذلك الالتجاء إلى من بيده أزيمة القلوب ونواصي النفوس ومقاليد الأمور، وأن يضرع إليه في كشف كربته من مرض قلبه الذي نفث فيه إبليس نفثة حسد سامة، وليعزم على التداوي من سقمه والتشافي بإذن الله من دائه بكل سبيل يطيقه، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) أي: تضاهيها وتقاربها في المنزلة والخطوة والمزايا.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٢٥).

أسباب معينة على الصبر على البلاء

لا يسلم من البلاء أحد، لكن يختلف الناس في استقباله واحتماله، منهم شقي وسعيد، والسعيد من ولد آدم من صبر ورضي وحمد وشكر، وللصبر على البلاء أسباب:

«أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يُخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة، قال علي بن أبي طالب: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة».

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي داء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته، الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الداء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا القائل:

لعلَّ عتبكَ محمودٌ عواقبه وربما صحت الأجسامُ بالعللِ

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليته، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا، فإن ثبت اصطفاؤه واجتباؤه، وخلع عليه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أوليائه وحزبه.

وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبه طرد وصُفِعَ قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة.

وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك

الساعة، والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يُرَبِّي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال.

وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه؛ فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته.

فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الأيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمانٌ يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كثر العبد، ومحك إيمانه، فإما أن يخرج تبرًا أحمر وإما أن يخرج زغلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبيتان ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يُخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية؛ لشغل قلبه ولسانه بشكره، ولقال: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

(١) أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٥٣/٣) وصححه النووي وابن القيم وابن الملقن والوادعي والأرناؤوط.

وكيف لا يشكر من قيّض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيرّه تَبْرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره.

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، وألا يفضحنا بابتلائه، بمنه وكرمه»^(١).

«وعلى الإنسان إذا ابتلي أن يصبر ويثبت، ولا يتكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات. ولا بد في جميع ذلك من الصبر، ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات.

ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه.

وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّجِيمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ ۝١ مَاضٍ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر. ولهذا قال علي: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له».

وأما الرضا، فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء: هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين^(٢).

(١) طريق الهجرتين (١ / ٥٠٢).

(٢) وللرضا كتاب مستقل ضمن السلسلة.

قال عمر بن عبد العزيز: «الرضا عزيز، ولكن الصبر معول المؤمن»^(١).

ومن الأسباب المعينة على الصبر - بإذن الله تعالى -:

«١ - المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا وما جُبلت عليه من المشقة والعناء، وأن الله خلق الإنسان في كبد، وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه، وأن الآلام والتغصص من طبيعة هذه الدنيا والابتلاءات ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾.

جُبلت على كدرٍ وأنت تريدها صَفْوًا من الآلام والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ نارٍ

ومن لا يعرف هذه الحقيقة سيتفاجأ بالأحداث، أما الذي يعرف طبيعة الحياة الدنيا إذا حصل له أي ابتلاء ومنغصات فإن الأمر عنده يهون.

فلا بد للمسلم من المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا، وإن من أهم ما يعينه على الصبر على النوائب والشدائد أن يتصور طبيعة الحياة الدنيا التي يعيشها، ويعرفها على حقيقتها، فليست جنة نعيم، ولا دار خلود، وإنما دار ابتلاء وتكليف. ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها، فالشيء من معدنه لا يستغرب. وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والمشاق، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، كما أشار إلى طبيعة الحياة الدنيا ودوام تغيرها وعدم ثباتها على حال، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ كُفْرٌ فَقَدْ

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٨).

مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبِيتِ النَّاسُ ﴿آل عمران: ١٤٠﴾^(١).

لَا تَيَاسَنَّ إِذَا مَا ضِيقَتْ مِنْ فَرْجٍ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ فِي الرُّوحَاتِ وَالذَّلَجِ
فَمَا تَجَرَّعَ كَأْسَ الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَاهُ اللَّهُ بِالْفَرْجِ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن علاجه^(٢) أن يطفئ نار مصيبيته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرّت يوماً ساءت دهرًا، وإن تمتعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحا»، وقال ابن سيرين: «ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء»^(٣).

وقال الماوردي رحمه الله تعالى: «ومن تسهيل المصائب أن يعلم العبد أن النعم زائلة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا حتى تعقب بفراقها ترحًا، فعلى قدر السرور يكون الحزن.

(١) الصبر في القرآن (٨٥).

(٢) أي المُصاب.

(٣) زاد المعاد (٤ / ١٩٥).

وقد قيل في مثور الحكم: المفروح به هو المحزون عليه. وقيل: من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره، وقال بعض الحكماء: من علم أن كل نائبة إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء»^(١).

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار»^(٢).

٢- الإيمان بأن الدنيا كلها ملك لله تعالى، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ﴿وَمَا يَكْمُنُ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِلَهٌ﴾ [النحل: ٥٣]، ولذلك الإنسان إذا حرم من شيء وابتلي يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فلا يوجد كلمة أبلغ في علاج المصاب وأنفع له عند المصيبة من تذكير العبد نفسه بهذين الأصلين، وهما: أن الدنيا فانية، والعبد وأهله وماله ملك لله، والمال وأولاده جعلوا عنده عارية، وصاحب العارية متى ما شاء استردها، ومصير الناس العودة إلى الله سبحانه وتعالى.

وأم سليم^(٣) لما فقحت هذا كان لها مع أبي طلحة ذلك الموقف المشهور.

٣- معرفة الجزاء والثواب على هذا الصبر واليقين بحسن الجزاء عند الله، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

(١) أدب الدنيا والدين (٢٨٣).

(٢) تسلية أهل المصائب (٣١) عن: دراسات في خلق الصبر. للقوسي، مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ٢٢٦).

(٣) وهي أم أنس بن مالك عنه وعنهما.

فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩]. «ولا نجد في القرآن الكريم شيئاً ضخماً جزاؤه وعظم أجره مثل الصبر، فهو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم فيقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وبين أن الصابرين إنما يجزون أجرهم بأحسن ما عملوا فضلاً من الله ونعمة، حيث يقول تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] كما يصرح بأن أجر الصابرين غير محدود بعد ولا محدود بحد، ولا محسوب بمقدار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فاليقين بحسن الجزاء وعظم الأجر عند الله يخفف من مرارة المصيبة على النفس، ويهون من شدة وقعها على القلب، ويكون باعثاً للمصاب على الصبر لنيل هذا الأجر الكبير»^(١).

قال المنبجي رحمه الله تعالى: «ومن تسليّة أهل المصائب: أن ينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله، فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة»^(٢).

وقال ابن القيم: «على حسب ملاحظة حسن الجزاء والثوق به ومطالعته

(١) الصبر في القرآن الكريم (٨٩، ٩٠).

(٢) تسليّة أهل المصائب (٢٠) وانظر: زاد المعاد (٤ / ١٩٠).

يخفف حمل البلاء لشهود العوض. وهذا كما يخفف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها. ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحسب العاجل. وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات»^(١). وقال أيضًا: «ومن علاج حر المصيبة وحزنها أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه. فلينظر أي المصيبة أعظم؛ مصيبة العاجلة، أم مصيبة فوات بيت الحمد في الجنة»^{(٢)(٣)}.

٤ - الثقة بحصول الفرج، «والله جعل مع كل عسر يُسرّين، رحمة منه عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، فالعسر معرّف بآل، ويسر نكرة، فالعسر هو نفسه ويسر ثانٍ، ولن يغلب عسرٌ يسرين، ولم يجعل سبحانه اليسر بعد العسر أو عقبه بل معه، وذلك لينبه على أمرين:

الأول: قرب تحقق اليسر بعد العسر مباشرة، حتى كأنه معه أو متصل به.

الثاني: أن مع العسر بالفعل يسرًا لا ريب فيه، قد يكون ظاهرًا ملموسًا، وقد يكون خفيًا مكنونًا، وذلك ما يسمى باللطف، ففي كل قدر لطف، وفي كل بلاء

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٧).

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٩٢).

(٣) دراسات في خلق الصبر. د. مفرح القوسي، عن مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ١٢١).

نعمة»^(١). وفيه يقول ابن عطاء الله السكندري: «من ظن انفكاك لطفه عن قَدَرِه، فذلك لقصور نظره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾» [يوسف: ١٠٠] ^(٢).

وأكد النبي ﷺ على فرج الله ونصره فقال: «اعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٣). ولأن الله تعالى جعل اليسر مع العسر وليس بعده؛ فإنه ينزل المعونة على قدر البلاء، والله لا يخلف الميعاد، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، والفجر ينبلج ولو بعد ليل طويل.

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن لي لك بالبلج
يعقوب صبر على فقد يوسف والولد الثاني، وقال: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] لا تسخط فيه ولا جزع، وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

فبعض الناس يصبرون صبراً غير جميل، والصبر الجميل ليس فيه شكوى للمخلوقين، ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وليس إليكم. فاليقين بالفرج أساس الفرج بإذن الله تعالى، فعلى المبتلى أن يُعَزِّزَ في قلبه اليقين بأن

(١) الصبر في القرآن (٩١، ٩٢).

(٢) السابق (٩٢، ٩٣).

(٣) أحمد في المسند (١ / ٣٠٧)، وذكره أحمد شاكر برقم (٢٨٠٤) وقال محققه: إسناده صحيح. والترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

فرج الله آت لا ريب فيه، وأن بعد الضيق سعة، وأن بعد العسر يسراً، وأن ما وعد الله به المؤمنين من النصر، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف لا بد أن يتحقق، كل ذلك جدير بأن يطرد شبح اليأس من القلب، ويبدد ظلمة القلق من النفس، ويضيء الصدر بالأمل في الظفر والثقة بالغد. قال ابن القيم: «انتظار رَوْح الفرج، أي: راحته ونسيمه ولذته، فإن انتظاره ومطالبته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من رَوْح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألفاف وما هو فرج معجل»^(١). ورد أن أبا عبيدة حُصِرَ فكتب إليه عمر يقول: «مهما ينزل بامرئ من شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين»^(٢).

وكان خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسير في الصفوف يذمر الناس ويقول: «يا أهل الإسلام، إن الصبر عِزٌّ، وإن الفشل عِجْزٌ، وإن مع الصبر النصر»^(٣).

ومن أحسن ما قالوه في الصبر قول نهشل بن حري بن ضمرة النهشلي:
 وَيَوْمٌ كَأَنَّ الْمُصْطَلِينَ بِحَرِّهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَارٌ وَقُوفٍ عَلَى جَمْرِ
 صَبَرْنَا لَهُ حَتَّى تَقْضَى وَإِنَّمَا تُفَرِّجُ أَيَّامَ الْكَرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

ودخل ابن الزيات على الأفشين وهو محبوس فقال مخاطبه:
 اصْبِرْ لَهَا صَبْرَ أَقْوَامٍ نَفُوسُهُمْ لَا تَسْتَرِيحُ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (١ / ٤٩٢).

(٣) العقد الفريد (١ / ٢٨).

فقال الأفشين:

لم ينبُجْ مِنْ خَيْرِهَا أَوْ شَرِّهَا أَحَدٌ فاذاكر شوائبها إن كنتَ مِنْ أَحَدٍ
خاضتْ بكِ المنيَةُ الحمراءُ غمرتها فتلك أُمواجهها ترميكِ بالزَّبدِ

وقال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حُبستَ فقلتُ ليس بضائري حبسي وأيُّ مَهْنَدٍ لا يَغْمَدُ
أَوْ ما رأيتُ اللَّيْثَ يَأْلِفُ غِيْلَهُ (١) كَبْرًا وَأوباشَ السَّبَّاعِ تَرَدَّدُ
والبدرُ يدركُهُ السَّرارُ (٢) فتنجلي أيامُهُ وكأنَّهُ متجدِّدُ
والنَّارُ في أحجارها مَخْبِوَةٌ لا تُصْطَلِي ما لَمْ تُثْرَها الأَزْنَدُ
والغيثُ يحظرُهُ الغمامُ فما يُرى إلَّا وريِّقُهُ يراعُ ويُرعَدُ
والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيمُ كعوبها إلَّا الثِّقافُ وجذوةٌ تتوقَدُ
غَيْرُ اللَّيالي بادياتٌ عَوْدُ والمالُ عاريةٌ يقادُ وينفَدُ
ولكلِّ حالٍ معقبٌ ولربما أَجلى لَكَ المَكروهُ عَمَّا يُحْمَدُ
كَمْ مِنْ عَليْلِ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فنجا وماتَ طَبيبُهُ والعَوْدُ
صَبْرًا فَإِنَّ اليَوْمَ يَعقبُهُ غَدُ ويدُ الخِلافَةِ لا تَطاولُها يدُ
والحبسُ ما تَغشاهُ لَدُنِّيَّةُ شِنَعاءَ نَعَمِ المَنزَلِ المَتودِّدُ
بَيْتٌ يَجِدُّ لِلكَرِيمِ كِرامَةً ويُزارُ فِيهِ ولا يَزورُ ويُحْمَدُ

وقال آخر:

إذا سلمتُ نَفْسُ الحَبيبِ تشابَهَتْ خطوبُ اللَّيالي سَهْلُها وشَدِيدُها

(١) الغِيل: عرين الأسد، وكذلك شجر الغابة الملتف.

(٢) السَّرار والإسرار: الليالي غير المقمرة.

فلا تجزعن لما رأيت قيودها فإن خلا خيل الرجال قيودها

وقال أيضاً علي بن الجهم:

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة إلا
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم
ما ضره أن بُز عنه غطاؤه
إن يسلبوه المال يحزن فقده
أو يجسوه فليس يُحبس خالع
إن المصائب ما تخطت دينه
والله ليس بغافل عن أمره
إن تسلبوه وإن سلبتم كل ما
هل تملكون لدينه ويقينه
لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه
كادت تكون مصيبة لو أنكم
إن كان سف إلى الدنية أو رأى

وكتب الحسن بن وهب إلى أخيه:

خليلي من عبد المدان تروحا وفضا صدور العيس حسرى وطلحا
فلا يهنئ الأعداء حبس ابن حرّة إذا نسبوه كان أندى وأسمحا

(١) وجميعهم الآن بين يدي الملك العدل، ذهب اللذة والملك والسطوة والسلطان
للساجن، وذهب معها الحبس والبؤس والألم والقهر عن المسجون، وهم مُحضرون
بين يدي الملك الديان!

وأنهَضَ في الأمرِ الجميلِ بنفسه وأقرَعَ للبابِ الجميلِ وأفتحا
وقولا لهم صبراً جميلاً وأصبحوا فما أقربَ الليلِ البهيمِ من الضُّحى

وقال أبو إسحاق الصابى:

محنُ الفتى تجري على فضلِ الفتى كالنَّارِ مخبرةً بفضلِ العنبرِ

وقال آخر:

والرمحُ ينادِ حيناً ثمَّ يعتدلُ والجمرُ يخمدُ حيناً ثمَّ يشتعلُ

وقال علي بن الرومي:

سلبتهُ الخطوبُ ما في يديه وله من تجميلِ أثوابِ
وإذا الصبرُ والتجملُ داما للفتى الحرَّ هانت الأسلابُ (١)

٥ - الاستعانة بالله تعالى واللجوء إلى حماه وطلبة معونته سبحانه، قالها موسى لقومه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وحاجة الصابرين إلى الاستعانة عظيمة جداً ولذلك كان التوكل جانباً للمعونة من الله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩].

فمن استعان بالله تعالى ولجأ إلى حماه فسيحظى بمعيته سبحانه وسيستعم بحمايته ورعايته، فمن كان في حمى ربه فلن يضام. وفي هذا يقول تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول سبحانه في خطاب رسوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. ومن كان بمعية الله

وبعينه مصحوبا؛ فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره ويجوز نفيس الأمنيات ويسلم من كل ما يكره.

وإذا العناية^(١) لاحظت عيوبها نَمَ فالمخاوف كلهن أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حائلٌ واقتد بها الجوزاء فهي عنانُ

ولما هدد فرعون - مستخدماً سيف القهر والجبروت - موسى عليه السلام وقومه أن يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، قال موسى لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]، وقوله على ألسنة الرسل: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمُْونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

٦ - الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر، وأن يعلم العبد أن

(١) العناية: هذا من الاستعارة بالكناية، وهو باب واسع جميل بديع، وللعرب شغف به لقوة خيالهم واستحكام قريحتهم، ولو أن الشاعر صرح كان أبلغ وأجمل وأحوط وأسلم. أما العنقاء فهي ثمانية المستحيلات في ثلاثية الأديب المشائم الذي صبغ بها الموروث العربي وهي الغول والعنقاء والخل الوفي. والعنقاء طائر خرافي صنعته أخيلة الأمم ويعتقدون أنه يقوم حياً من الرماد بعدما يموت ويحترق. ومقصود الشاعر هنا أن من أراد الله عونه فلا مستحيل أمامه، فالله صادق الوعد وهو على كل شيء قدير. والجوزاء هي البرج النجمي المعروف وهو مشاهد بالعين المجردة، وهو عظيم جداً وكبير وبعيد، وبعض الفلكيين - بلا دليل - يذكر أنه حافة وطرف الكون المعروف، وأن المجرات كلها متجهة صوبه، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قضاء الله نافذ وأن يستسلم لما قضاه وقدره مما لا حيلة له به، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

ثم إن العبد يعلم أن الجزع والهلع والتبرم والاعتراض والتشكي والتضجر لا يجدي شيئاً ولا يعيد مفقوداً فلا حلّ إلا بالصبر، والعاقِل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد سبعة أيام، أي يستسلم»^(١).

وعلى العبد المصاب أن يعلم علم اليقين بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٢)، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

قال ابن سعدي في تفسيره لهاتين الآيتين: «هذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها. وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، وبينوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أنه مكتوب في اللوح المحفوظ لا بد من نفوذه ووقوعه فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم

(١) أعمال القلوب للمنجد (٢ / ٥٣ - ٥٤) بتصرف وزيادات.

(٢) انظر: زاد المعاد (٤ / ١٨٩، ١٩٠).

ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم وودفع النقم»^(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ^(٢) اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٣).

٧- فقه الاسترجاع:

الاسترجاع توحيد محض، وزهد بالغ، وتوفيق ربّاني، وعلم في الغاية من الفائدة إن حقق المسترجع استرجاعه، فقد بشر الله المسترجع بالصلوات منه عليه، وبالرحمة والهدى والتوفيق من لدنه، فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا لِرَبِّنَا أَسْلَمَ^(١٥٦)﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] وتأمل البشرى، واعرف قدر المُبَشِّر، و«الاسترجاع من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد المصاب في عاجله وآجله، فإنه يتضمن أصليين عظيمين إذا استشعرهما العبد تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أ- أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله الله عنده عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٤٢).

(٢) يصح فيها الوجهان فعلاً واسماً: «قَدَرٌ»، و«قَدَرٌ».

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٢١٥).

ب- أن نفسه وأهله وماله وولده محفوفة بعدمين، عدم قبلها، وعدم بعدها. وملكه لها إنما هو متعة معارة في زمن يسير.

ج- أنه ليس هو الذي أوجدها من عدم حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظها من الآفات بعد وجودها، ولا هو الذي يُبقي عليها وجودها، فليس له فيها تأثير ولا ملك حقيقي.

د- أن تصرفه فيها تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف المالك الحقيقي. ولذا لا يباح له من التصرفات فيها إلا ما وافق أمر هذا المالك^(١). وقال لبید: وما المأل والأهلون إلا ودائعٌ ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائعُ

الثاني: أن مصير العبد ومرجه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن خلف الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات.

فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوّله فيه، ونهايته وحاله فيه، فكيف يفرح بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا، أم كيف يأسى على مفقود. ففكرة العبد في مبدئه ومعاده من أعظم علاج المصائب^(٢).

٨- رؤية نعم الله تعالى:

نعم الله تعالى غير محصورة ومهما تأمل العبد فلن يحصيها وكل نعمة داخلية في

(١) زاد المعاد (٤ / ١٨٩) بمعناه.

(٢) تسلية أهل المصائب (١٩، ٢٠).

حشو نعم عديدة فسبحان من أنعم علينا بنعم لا تطيق عقولنا أحصاءها.

وإن «مما يهون أمر المصيبة على المبتلى أن يعد نعم الله وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها وأيس من حصرها؛ هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه - بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر»^(١). قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]

وهذا عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ عندما ذهب إلى دمشق ومعه أكبر أبنائه فمات هذا الابن، ثم بعد ذلك بفترة يسيرة أصابت الأكلة إحدى قدميه فبُترت. فلما قدم إلى أهله في المدينة ورأوا حاله قال لهم: «لا يهولنكم ما ترون، فلقد وهبني الله عز وجل أربعة من البنين، ثم أخذ منهم واحداً وأبقى لي ثلاثة، فله الحمد، وأعطاني أربعة من الأطراف، ثم أخذ منها واحداً وأبقى لي ثلاثة فله الحمد، وإيم الله لئن أخذ مني قليلاً فلقد أبقى لي كثيراً، ولئن ابتلاني مرة فلطالما عافاني مرات».

فمما يهون على المبتلى ما نزل به من بلاء تصوره إمكانية نزول ما هو أعظم منه، فإن كل مصيبة يوجد ما هو أكبر منها، وقد قيل: «بعض الشر أهون من بعض». يقول الماوردي: «ومن تسهيل المصائب أن يعلم المصاب أن فيما وقى من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو أعظم من رزقته وأشد من حادثته، ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع.. وقد قيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين: خير منشور، وشر مستور»^(٢).

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٨).

(٢) أدب الدنيا والدين (٢٨٢).

فالمؤمن المصاب ينظر إلى مصيبتيه بعين بصيرته فيحمد الله تعالى على أمرين:
أولهما: دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر.

وثانيهما: بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل.

فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة، وينظر إلى البلاء المتوقع بجانب نظره إلى البلاء الواقع، ولا ريب أن هذا يُحدث الارتياح والرضا في نفس المبتلى.

٩ - علم المصاب بأن حظّ المصيبة منه مرهون بحسب موقفه منها:

قال ابن القيم: «ومن علاج حر المصيبة وحزنها أن يعلم المصاب أن حظه من المصيبة ما تحدّثه له، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط. فحظه منها ما أحدثه له، فإن أحدث له سخطاً وكفرًا كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدث له جزعاً وتفريطاً في ترك واجب أو فعل محرم كتب في ديوان المفرطين، وإن أحدث له شكاية وعدم صبر كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدث له اعتراضاً على الله وقدحاً في حكمته فقد قرع باب الزندقة أو وجهه، وإن أحدث له صبراً وثباتاً لله كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدث له الرضا عن الله كتب في ديوان الراضين، وإن أحدث له الحمد والشكر كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين، وإن أحدث له محبة واشتياقاً إلى لقاء ربه كتب في ديوان المحبين المخلصين»^(١).

(١) زاد المعاد (٤ / ١٩٢، ١٩٣) بتصرف.

وقال النبي ﷺ: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١).

١٠ - الاقتداء بسالف الصابرين:

ومما يعين على الصبر: التأمل في سير الصابرين وما لاقوه من صنوف البلاء وألوان الشدائد، وبخاصة أصحاب الدعوات وحملة الرسالات من أنبياء الله ورسله المصطفين الأخيار الذين جعل الله من حياتهم وجهادهم دروسًا بليغة لمن بعدهم، ليتخذوا منها أسوة، ويتعزوا بها عما يصيبهم من متاعب الحياة وأذى الناس^(٢). «فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين يصابر الفقر، وقتل عمه حمزة وهو من أحب أقاربه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره»^(٣).

قال الماوردي: «ومن تسهيل المصائب أن يتأسى المصاب بذوي الغير، ويتسلى بأولي العبر، ويعلم أنهم الأكثرون عددًا، والأسرعون مددًا، فيستجد من

(١) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في السلسلة (١٤٦) (١/٢٧٦).

(٢) ينظر: الصبر في القرآن (٩٧).

(٣) تسلية أهل المصائب (٣١).

سلوة الأسي، وحسن العزاء ما يخفف شجوه ويُقلّ هلعه»^{(١)(٢)}. وبالله التوفيق
والعصمة، ومنه العون والهدى، وعليه الاعتماد والتكلان، وإليه المصير المآب
والرجعى، ولا إله إلا الله.



(١) أدب الدنيا والدين (٢٨٣).

(٢) وسنفرد بإذن الله فصلاً للتعزي والتأسي بأخبار الصابرين.

أسباب معينة على الصبر على الطاعة

طاعة الله تعالى هي علة الخليقة قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فعبادة الله طاعته، وهي وسيلة رضوانه وسبيل محبته وطريق جنته، وبما أن الصبر هو العمود الفقري للعمل فليس للمؤمن اليقظ مندوحة عن تحصيل معينات الصبر ومقوياته ومغذياته، مستحضراً إخلاصه لوجه الله تعالى، مستعيناً به متوكلاً عليه، وهو موعود بالمدد من ربه اللطيف الكريم الوهاب: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٩٦]. وإن مما يعين على الصبر على طاعة الله تعالى:

أولاً: تقوية باعث الدين: ويكون ذلك بالأمور التالية:

١ - الإيمان بالله تعالى: فصبر العبد على فعل الطاعة يكون عادة بحسب قوة إيمانه بالله سبحانه، فإذا قوي سراج الإيمان في القلب، وأضاءت جهاته كلها به، وأشرق نوره في أرجائه؛ سرى ذلك النور إلى الأعضاء وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت النفس إلى الله طائعة ذليلة غير متثاقلة ولا كارهة. واعلم أن راحة القلب، وانسراح الصدر، وطمأنينة النفس، وسرور الروح، وصفاء العقل لا تجتمع إلا مع الإيمان بالله تعالى، أمّا مع الخطيئة فالخوف كامنٌ والقلق بالغٌ، ولا قرار على زأرٍ من الأسد.

فيا صاحبي؛ اضرع إلى علام الغيوب، ومن بيده أزمة القلوب، وانطرح بين يديه، وانكسر في سجودك مبتهلاً ضارعاً بكشف سوء عنك وإمدادك بمعونته

للقيام بطاعته وحسن عبادته.

واسجد سجود الذل واطلب نواله فإنَّ إله الحقُّ يُحيي البواليا
واسكُب من العبرات دمعا سواجما فما أقرب الغفران إن كُنتَ باكيا

٢ - محبة الله تعالى: فإن هذه المحبة من أقوى أسباب الصبر على الطاعة، فإن المحب لمن يحب مطيع، «وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة أقوى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. إلا أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال الله تعالى وتعظيمه، فإذا قارنها ذلك أوجبت هذه الطاعة»^(١).

ويا أيها الراحل للآخرة: تذكّر أن لمحبة الله ورسوله ودينه قد ضَعَنْتْ ركائبُ الأبرار، وركضت خيل المقربين، فأدرِكمهم ما دمت قادرا، قبل النومة الطويلة التي صحوتها انشقاق قبرك للحساب.

وكلُّ شيءٍ يُحِبُّ لغيره إلا الله تعالى فيُحِبُّ لذاته. ومن أحبَّ الله؛ أحبَّ كلَّ ما يُحبه الله. وتأمل حُبَّ أبي بكر وأبي طالب للنبي ﷺ، فكلاهما أحبه جدًّا، ولكن الأول أحبه لله، والثاني أحبه لنفسه مع الله، فلما اختلفت الحقيقتان؛ اختلف المصيران.

إنَّ قيمة الحب قيمة إنسانية عظيمة جدًّا، وفي أعمال القلوب هي المقدّمة حتى على الرجاء والخوف، وفي غايتها مع الخضوع تكون العبادة التي هي جوهر

(١) عدة الصابرين (٢٧١).

التوحيد.

ومن الوصايا المهمة لكل مؤمن: الوصية بمراجعة الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله تعالى، وقد ذكرها وفصلها تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ. وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من قرَّت عينه بالله؛ قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات».

وقال شيخ الإسلام: «ما يُبتلى بالعشق أحدٌ إلا لنقص توحيده وإيمانه». وقال أيضًا: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية». وفي النونية:

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه مع ذلَّ عابده هما قطبان
وعليهما فلَكُ العبادة دائرٌ ما دارَ حتى قامتِ القطبان

٣ - الحياء من الله جل جلاله: فمن استحيا من الله حق الحياء منعه ذلك من التقصير في طاعة الله، ودفعه إلى تحمل مشاق العبادة والصبر عليها. يقول الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: «الحياء حالة تتولد من رؤية آلاء الله ورؤية التقصير في حقه تعالى»^(١). ولو كان الحياء رجلًا لكان جميلًا، ولو كان مَرَكَبًا لأفضى مع التقوى لفراديس الجنان.

والحياء من الله عز وجل باب عظيم للدخول عليه منه، ولقد قال عمر في وصف صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «نعم العبدُ صهيب لو لم يخفِ الله لم يعصه». أي أن محبته لله تعالى وحياءه منه كافيان لترك العصيان. ويكفي المؤمن تذكُّر معيَّة ربه سبحانه:

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٩٨).

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] ومن جعل بينه وبين الله باب؛ دخل منه يوماً ما.

واحفظ عهدك وسترك مع الله تعالى واملاً قلبك من مهابته وإجلاله والحياء منه، قال أحمد بن عاصم رَحِمَهُ اللهُ: «أُحِبُّ أَلَا أَمُوتَ حَتَّى أَعْرِفَ مُوَلَايَ، وَلَيْسَ مَعْرِفَتُهُ الْإِقْرَارُ بِهِ، وَلَكِنِ الْمَعْرِفَةُ إِذَا عَرَفْتَهُ اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ». وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ هَتَكَ سِتْرَهُ مَعَ اللَّهِ؛ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ مَعَ النَّاسِ»، ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وتدبر قول الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الانعام: ١٢٠] فقد تنشط النفس لترك الإثم الظاهر، ولكنها لا تنشط لترك الآثام الباطنة وحراسة القلب إلا مع الحياء من الله وخشيته ومراقبته. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

٤ - الخوف من الله تبارك وتعالى: فهو سراج مضيء في قلب المؤمن، يحمله على المسارعة إلى فعل الطاعات والاستزادة منها، «وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله عز وجل إذا خفته هربت إليه»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ^(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ^(٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(٦٠) وَلِلَّهِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

(١) المرجع السابق (١ / ٣٨٧).

وإن العلم النافع هو العلم بالله قبل العلم بشرعه، وإن اجتمعاً في قلب فواهاً. لذا فلم يكن الخبر الحكيم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبالغاً حينما قال فيما رواه أحمد في الزهد: «ليس العلمُ بكثرة الرواية، إنما العلمُ الخشية»، قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وتدبر آخر جملة من سورة البينة.

وسئل الإمام أحمد عن العابد معروف الكرخي: هل كان معه شيء من العلم؟ فقال: «معه رأس العلم خشية الله».

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم خلفه».

وكان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم خوفاً من الله تعالى. فمن كان بالله أعرف؛ كان له أتقى ومنه أخوف.

ثم في الآخرة تزول كل مخاوف المؤمنين، قال ربهم تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وأنشد أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالى في الوصية بالعلم النافع المفضي للخشية والمراقبة والقرب:

وكنز لا تخاف عليه لصاً	خفيف الحمل يوجد حيث كنا
يزيد بكثرة الإنفاق منه	وينقص إن به كفاً شددنا
وإن أوتيت فيه طويل باع	وقال الناس إنك قد سبقتنا
فلا تأمن سؤال الله عنه	بتوبيخ علمت فهل عملنا

فإن مررت على تلك الآيات فردّها وتدبرها وتفكر فيها، ففيها نداء لروحك، وخطاب لفؤادك، وطوق نجاة لمصيرك، ومنشور فلاح لنشرك ومعادك، فبركة العلم والعمل، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح، فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون، فإن ونى قائدّها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدّها، فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك، فغايتة أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه، فهذا حائر لا يدرى أين يسلك مع كثرة سيره، وهذا حائر عن الطريق زائع عنه مع علمه به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] هذا جاهل وهذا ظالم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا إِلَى نَسْنِ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

مع أن الجهل والظلم متقاربان، لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم، والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال: العلماء ثلاثة، فعالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله وبأمر الله. فالعالم بالله الذي يخشاه، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه. قلت: والخشية تمنع اتباع الهوى،

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] (١).

ولقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمنى أنه كان طيراً يؤكل أو شجرة تعضد مع بشارته التامة بالجنة، وبنحو ذلك قال عثمان وطلحة وعائشة وهم بالجنة مبشرون، ومن الناس من يمشي بين الناس آمناً مكر الجبار كأنها قد بُشِّرَ بالجنة!

فإننا يخاف المرء من الله ويخشاه على قدر علمه به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والخشية خوف مع علم.

وإن خوف المبشرين بالجنة؛ إنما هو خوف الهيبة والجلال والخشية، لمعرفتهم عظمة الله وكبريائه وإحاطته وغناه سبحانه، وليس كخوف القانطين. والجمهور على تغليب الخوف وقت العافية والنشاط، وعلى تقديم الرجاء حال المرض، مع الموازنة بينهما.

واحذر غدرات الخطايا الخفيات، فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لأعلمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضاً؛ فيجعلها الله عز وجل هباءً منثوراً». قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا؛ ألا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إثمهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٥٤٤).

انتهكوها»^(١).

ومن رام المكارم اجتنب المحارم. ومن درر الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «أعزُّ الأشياء ثلاثة: الجودُ من قلة، والورعُ في خلوة، وكلمةُ الحق عند من يُرجى أو يُخاف».

واجعل بينك وبين المحرمات حاجزاً من ترك المكروهات حمى لورعك وحفظاً لأمانتك، قال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: «أعمال البرِّ يُطيقها البرُّ والفاجر، ولكن لا يصبر عن المعاصي إلا صديق».

وقال الحجاج بن يوسف: «الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه». والقاعدة المضطردة التي لم ولن تنخرم: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

وتأمل عَقْرَ سليمان عليه السلام خيله غضباً لله إذ ألتهه عن صلاة العصر؛ فعوّضه الشكور الحميد عنها بالريح: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. ولقد قال ﷺ: «كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢). فاحذر أن يكون تيسيرك لعمل أهل الشقاوة!

ولا تأمن مكر الله تعالى، وتذكر صفات جلاله كما تذكر صفات جماله. وتدبر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فقد بُغْتوا

(١) ابن ماجه (٤٢٤٥) وصححه الألباني في السلسلة (٢ / ١٨).

(٢) البخاري التوحيد (٧١١٢) ومسلم (٢٦٤٩).

بعذاب ليس له مقدمات.

يا راقِدَ الليلِ مسرورًا بأوْلِهِ إِنَّ الحوادثَ قد يطْرُقْنَ أسْحارًا

٥ - الرجاء: فلا غناء عنه فهو وقود عزم السالكين لمرضاة رب العالمين، «فهو حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير إلى الله ويحثها عليه ويبعثها على ملازمته»^(١).

ومتى تعلق المؤمن بكليته بربه، وفوض إليه كل أمره، وقطع عن قلبه كل حبال الرجاء بالخلق ويأس منهم ووثق بربه؛ فهو حريٌّ حينها بكرامة الله له ولطفه به، وقد يخرق له العادة محبة وإكرامًا، ككرامات الله لأوليائه في حال احتدام الأمر لإقامة الملة أو إغاثة ملهوفٍ بكسر العادة. فسلم أمرك للسلام.
دعها سماويةً تجري على قدرٍ ولا تُفسدْهَا بأمرٍ منك منكوسٍ
وحسن الظن هو الرجاء بثقة، فمن كان رجاءه جاذبًا إلى الطاعة، زاجرًا عن المعصية؛ فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطلانته رجاءً، ورجاؤه بطلانًا وتفريطًا؛ فهو المغرور.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ طار على أنفه، فقال به هكذا».
وأنس يقول: «إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدقُّ من الشعر كُنَّا نَعُدُّها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

(١) المرجع السابق (٢ / ٢٧).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرите مما سواه، فالحرية الحقيقية هي في تحقيق عبودية الله تعالى. فلقد نفخ الإسلام في موات الناس روح الحرية من أغلال الخلق لفضاء العبودية للمعبود الحق، فأخرجهم من هوان العبيد لهواء الأحرار، فله كُنْ عبدًا تَكُ حُرًّا.

وعليك عليك بوقود الآخرة، واعلم أن الأمل وقود الصابرين، والشوق وقود المحبين، والرجاء وقود العاملين، والخوف وقود الهاربين. وكلُّ شيءٍ تخافه ففر منه سوى الله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وكلُّ شيءٍ يُحِبُّ لغيره خلا الله؛ فإنه يُحِبُّ لذاته، وكلُّ فوزٍ زائلٌ حاشا الفوز بالجنة: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ عُرُورٍ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومهما كثرت الحِكَمُ فلتجد كهذه الثلاثية الربانية الفريدة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

ثانيًا: معرفة حسن عاقبة الطاعة وأجرها العظيم عند الله تبارك وتعالى:

فالله تعالى شكور حميد، يجزل العطاء لأهل الولاية، ويحسن الرِّفْدَ لأهل الطاعة، ويجود بالخير والإحسان لأهل الإيمان، ف«آثار طاعة الله وعواقبها الحسنة كثيرة، فخير الدنيا والآخرة كله في طاعة الله. ومن ذلك: الأُنْسُ بالله، والطمأنينة والسكون إليه، وإقبال الله على العبد المطيع، ومحبتة له سبحانه.

ومن عواقبها الحسنة أيضًا: النور في القلب، والضياء في الوجه، والقوة في البدن، والسعة في الرزق، ومحبة الخلق. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ» (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ» (٢) (٣).

وقد رتب الله سبحانه الأجر العظيم والثواب الجزيل على طاعته والعمل بمرضاته، وأخبر بذلك في آيات كثيرة في كتابه الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]. «فإذا علمت النفس ذلك كله كرهت الراحة والبطالة في دار الفناء، رغبة منها في الحصول على الراحة الأبدية في دار البقاء.

ولا سيما وأن التريث والمصابرة خصلة تتسق مع سنن الكون القائمة ونظمه الدائمة، فالزراع لا ينبت ساعة البذر، ولا ينضج ساعة النبت، بل لا بد من المكث

(١) البخاري (٦٥٢٠).

(٢) وَذَكَرَ فِي الْمَعْصِيَةِ أَضْدَادَ ذَلِكَ.

(٣) مجموع الفتاوى (١٥ / ٦٣٠).

شهوراً حتى يُجتنى الحصاد المنشود. والجنين يظل في بطن أمه شهوراً حتى يستوي خلقه. وقد أعلمنا الله عز وجل أنه خلق العالم في ستة أيام، وما كان ليعجز أن يقيم دعائمه في طرفه عين أو أقل»^(١).

ثالثاً: قصر الأمل:

فمن قصر أمله ورأى سرعة انقضاء أجله؛ كان ذلك أدعى لأن يصبر على فعل الطاعات، فلا يصرف أوقاته إلا فيما ينفعه في آخرته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن تَحْشَعُ قُلُوبُهُمْ لِدَكرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال النبي ﷺ: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(٢).

فالحديث وإن تنوعت ألفاظه وتعبيراته إلا أنها تدور على الحث على اغتنام فرصة الفراغ في الحياة قبل ورود المشغلات، مثل المرض أو الهرم أو الفقر، فالغالب أن هذه الأمور تلهي الإنسان وتمنعه من الاستفادة من أوقاته، فالمرضى يهتم بأسباب عودة صحته واسترداد عافيته، وكذلك مع الهرم - وهو أقصى الكبر - يكون الضعف العام للجسم وبطء الحركة بعكس من كان في مرحلة الفتوة والقوة

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي. (١٣٥).

(٢) الحاكم (٧٨٤٦) وابن المبارك في الزهد (٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٥٥).

والشباب.

ويروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم اثنان: طول الأمل، واتباع الهوى. ألا وإنَّ طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق»^(١).

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ليس الزهد في الدنيا بلبس الغليظ وأكل الجشب»^(٢)، إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل»^(٣).

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنه إذا طال الأمل هاج منه أشياء: ترك الطاعة، والكسل فيها، وترك التوبة وتسويقها، والحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا، وقسوة القلب ونسيان الآخرة»^(٤).

فالحازم يقصر أمله، فقصر الأمل يقطع مفاوز الدنيا دون الركون إليها، فمن طال أمله ساء عمله، ولا تزال تَنْعَى ميتاً حتى تكونه، ومن أراد أن ينظر إلى حال الدنيا بعد رحيله؛ فلينظر إليها الآن بعد رحيل غيره.

وتذكّر من كان معك فوق الأرض بالأمس صار اليوم تحتها، ولربّما هذا التراب الذي تمشي فوقه قد كان جسداً لمن كان يهرول في الدنيا كأنها هو من الخالدين!

(١) سراج القلوب وعلاج الذنوب، للمعيري (١ / ١٧٢).

(٢) وهو الغليظ الخشن من الطعام. انظر: لسان العرب، مادة (جشب).

(٣) سراج القلوب (١ / ١٧٢).

(٤) السابق (١ / ١٧٣).

سِرُّ إِنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُويْدًا لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاكُمِ الْأُضْدَادِ

ولو كُشف لك ما بقي من أَجَلِكَ؛ لزهدت فيما بقي من أَمَلِكَ. والفتن الحازم هو من يعرف قدر ما أمامه ويفقه ما بين يديه، ولا ينشغل بالفاني على الباقي، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]. وتأمل مراحل الإنسان ونباته: بذرة ماء، ثم ولادة ورقة، ثم برعم طفولة، ثم زهرة شباب، ثم شدة غصن الكهولة، ثم اصفرار المشيب، ثم كسر حطامه بالموت.

وَمُشِيدٌ دَارًا لَيْسَ كَنَ دَارَهُ سَكَنَ الْقُبُورَ وَدَارَهُ لَمْ تُسَكَّنِ

وتأمل لحظة تُغْنِيكَ: ماذا لو علمت الآن سنة رحيلك عن الدنيا، ولو كان بعد سنين، ماذا سيتغير فيك؟! تأملها جيدًا وسترى الأثر. وهل تعلم أن الدنيا ستستمر بكل صخبها بعد رحيلك الحزين عنها، سيتذكرك أحباؤك زمناً ثم ينسونك، سيستوي عندك الليل والنهار، فخذ زادك منها الآن. وكلهم زائلون، وكلهم مغادرون، وكلهم فانون، إلا أنت يا الله!

فهل تخيَّلت يوماً ذلك الزمان الذي ينسى فيه الجميع قبرك، حتى معالم جَدَثِكَ قد اختفت، إذ خَفَقَتْهَا رياح السنين، رحماك يا رب فلا وحشة على من كنت أنيسه. يا صاحبي إن جُزْتَ قَبْرِي هَائِمًا فانصَحْ لِنَفْسِكَ واعتبر بتجاربي

قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأيُّ موعظةٍ أبلغُ من أن ترى ديار الأقران، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى يتبهِه الغير بك». ألا وإنَّ حبَّ الدنيا مغرورٌ في نفوس البشر، ومُزِينٌ لهم، ولا يلامون

على ذلك، فليس حبّها بعيب ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو أهى عنها، أو قسى القلب.

وليس للمؤمن أن يكون بحالٍ غير حال العبودية حتى يلقي ربه، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وتدبر - حرسك الله - سوء حال الكافر عند قيامته؛ حتى تزهّد في متاعه الفاني، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَأْتِيَهُمْ لَهْمٌ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] اللهم رحمتك.

رابعاً: الدعاء:

وذلك بأن يدعو المسلم ربه ويلج عليه بأن يهديه ويعينه على فعل الطاعة، فإنه سبحانه هو الهادي والمعين^(١).

وقد وود في السنة النبوية الكثير من الأدعية التي يشرع للمسلم أن يدعو الله بها في هذا الشأن. منها: ما ورد عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ بعدما ذكر له أنه يحبه وأقسم على ذلك - وفي ذلك تنبيه له لأهمية وصيته وجلالته - قال: «أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢). وهي وصية جليلة بدعاء عظيم، فإن أعانك الله

(١) دراسات في خلق الصبر. د. مفرح القوسي. عن مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ٢٠٩).

(٢) صحيح، رواه أحمد (٦ / ٢٤٤ - ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣ / ٥٣) =

على تحصيل ذلك فقد فزت فوز الأبد.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قل: قل: اللهم اهْدني وسددي. وأذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم»^(١).
وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٢). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك»^(٣).
فعليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقُوته وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرع. ومن أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقربه ورحمته.

ومن وصايا طاووس بن كيسان: «إياك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك

وصححه النووي والألباني والأرنؤوط. ومن لطائف الإسناد أنه من طريق عقبة بن مسلم، حدثني أبو عبد الرحمن الحبلي، عن الصنابحي، عن معاذ به. وعند أحمد عقيب الحديث: وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى الصنابحي أبا عبد الرحمن، وأوصى أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم.

(١) مسلم (٢٧٢٥) قال النووي: «سددي: وفقني واجعلني منتصباً في جميع أموري مستقيماً». شرح صحيح مسلم (٣٨/٩).

(٢) مسلم (٢٧٢١).

(٣) مسلم (٢٦٥٤).

أبوابه، وجعل دونك حجَّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة». ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ولتكن مستمتعاً دوماً بتطهير روحك برياض العبادة وبساتين الذكر، وغسل قلبك بالسجود والخضوع والضراعة، وعينك بالتفكير والرقائق والدموع، وصدرك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم، وبطنك بكثرة الصيام والصدقة وأكل الحلال. وواها لمن جمعها.

والموفق هو من أدام الإلحاح على الله تعالى بالدعاء، فهو من أنزل الداء القلبي من ضعفه عند القيام للطاعات وضعفه عند مدافعة محرمات الشهوات، وهو وحده القادر على رفع داء قلبك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

والتوحيد والتوكل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه عما سواه، والحمد لله رب العالمين.



الصوم غذاء للصبر

بين الصوم والصبر علاقة وطيدة، وشهر الصوم (رمضان) هو شهر الصبر، ذلك أن الإنسان حين يقوى على كبح شهوات نفسه ساعات النهار، ويكرر ذلك؛ فإن النفس تنقاد له شيئاً فشيئاً حتى يسهل خطامها بيده، فتكون له ذللاً منقاداً للطاعة ومبتعدة عن العصيان، لذا جاءت الوصية به للشباب رأساً ليكون نعم المعين على العفاف وكسر حدة الغريزة المتأججة فقال ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

وطوبى للصائمين فقد حظوا بنصف الصبر فعن رجل من بني سليم قال: عدّهن رسول الله ﷺ في يدي أو في يده: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله يملؤه، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان»^(٢).

لا جرم؛ فرمضان هو شهر الصبر؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر، صوم

(١) البخاري (٣/٧) مسلم (٤/١٢٨).

(٢) الترمذي (٣٥١٩) وقال: حديث حسن، وكذلك حسنه محقق جامع الأصول أيمن صالح (٥٥٨/٩).

الدهر»^(١). وشهر الصبر هو شهر رمضان، وأصل الصبر الحبس، وسمي الصيام صبراً لما فيه من حبس النفس عن شهواتها.

وتأمل وأنت في زمنٍ كَلَحَ فيه ديجورُ الظلام، واشتدت في كثير من البقاع غربة الإسلام؛ كيف كان الصبر ضياءً ونوراً وإشراقاً، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢).

وكل هذه الأعمال قوامها بمعونة الله لك بتصبيرك حتى تصطر عليها فتكون من أهلها بمن الله وكرمه وإحسانه.

واملاً يدك بهذه البشرى النبوية والأثارة المصطفوية فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غلام - أو يا غليم - ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى. فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن

(١) أحمد (٢٦٣/٢) (٧٥٧٧) وصحح إسناده محققو المسند، والنسائي (٢١٨/٤).

ولابن رجب في اللطائف كلام ماتع طويل حيال العلاقة بين الصيام والصبر وربطهما

بلقب «شهر الصبر».

(٢) مسلم (٢٢٣).

ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً^(١). فالصبر خيرٌ كله، وعاقبته مفضية إلى الفوز والرفعة حتى وإن وجد المرء مشقة وكلفة وشدة كما قيل:

الصبرُ مثلُ اسمه مُرٌّ مذاقُهُ لكن عواقبه أحلى من العسلِ
إن الصيام خيرُ عِدَّةٍ للصبر، كما أنه لا صيام إلا بصبر، فكلاهما يغذي صاحبه، هذا بالتقوية والتعزيز والدربة والرياضة والإيمان، وذاك بالقوة الحازمة اللازمة للكف عن مشتريات المفطرات. لذلك سُمي النبي ﷺ رمضان بشهر الصبر، كما تقدم. فالصيام حبس للنفس شديد عن مشتريات مباحة لها في غير حاله.

وكانوا إذا ذكروا الصيام أثنوا على الصبر ورغبوا فيه، فمقام الصبر عند السلف عظيم، وقد كان للصبر عند السلف أعظم تقدير وأعلى مكان، وقد تضافرت وصاياهم به وفي إعلاء شأنه، فمن ذلك وصية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به حين قال: «وجدنا خير عيشنا الصبر»^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر مطية لا تكبو»^(٣).

(١) أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وذكره أحمد شاكر برقم (٢٨٠٤) وقال محققه: إسناده

صحيح، الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الدر المنثور (١/ ١٦٣).

(٣) عدة الصابرين لابن القيم (١٧).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»^(١).

وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عند ما مات ولد سليمان: أَيْصَبِرُ الْمُؤْمِنُ حَتَّى لَا يَجِدَ لِمَصِيبِهِ أَلَمًا؟ قَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: لَا يَسْتَوِي عِنْدَكَ مَا تَحِبُّ وَمَا تَكْرَهُ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مَعُولُ الْمُؤْمِنِ»^(٢).

وقيل لربيعة بن عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: «يَكُونُ يَوْمَ تَصِيبُهُ الْمَصِيبَةُ مِثْلَهُ قَبْلَ أَنْ تَصِيبَهُ»^(٣).

وقال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته، فإن الله مع الصابرين»^(٤).

هذا؛ وإن للصيام جائزة خاصة يوم القيامة لمحبة الله تعالى لأهل الصيام، فقد ذكر الله للصالحين أعمالاً وبيّن ثوابها خلا الصيام فأخفى ثوابه لعظمته ونسبه إليه لعنايته الخاصة بأهله، فعن محدث الإسلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يَضَاعِفُ، الْحَسَنَةُ بَعْدَ عَشْرٍ أَمْثَالُهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ؛ يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ

(١) الزهد لوكيع بن الجراح (٢/ ٤٥٦) وقال محققه: رجاله ثقات وقد صح وقفه.

(٢) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٧٨).

(٣) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٧٨).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

ريح المسك»^(١). فتأمل خاصية نسسبة الله تعالى صوم عبده له، ولعل مرد ذلك لخلوص الإخلاص في الصيام، والله أعلم.

وللصيام خاصية عجيبة في تربية النفس على امتثال الطاعة لربها الديان، فالصيام مدرسة في التربية والتهذيب، وبرهان للصدق واليقين، ولا غرو أن جعل الله تعالى للصائمين بابًا خاصًا بهم للجنة لا يدخل منه سواههم، وقد سمّاه باب الريان، وتلّمح مطابقة الاسم للمسمى، فكما أنهم أعطشوا أجوافهم في الدنيا لوجهه؛ فناسب أن يدخلهم من باب الريّ من العطش الذي من دخله فلا عطش عليه ولا حرمان. نسأل الله الكريم من فضله.



(١) البخاري ٣/ ٣١ (١٨٩٤) و٣٤ (١٩٠٤)، ومسلم ٣/ ١٥٧-١٥٨ (١١٥١) (١٦٣) و(١٦٤) واللفظ له.

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

لا طيب عيش ولا هناة حياة إلا بالصبر، فالصبر مطية الكرام، وسفينة السعداء، ومعراج النبلاء، ومنتهى منهاج الواصلين.

وما من بد من الصبر؛ فحتى لو لم يصبر المرء صبر الكرام، بل جزع وكلّ وناح وسخط؛ فلا بد من مرور المقدور عليه شاء أم أبى، لكن إن صبر ورضي وحمد ترقى في مدارج العز والكمال والفوز والفلاح، وإن كانت الأخرى فقد باء بخسارة حظه، ولم يسلم من وقع ألم المقدور بل زاد همه وسقمه لعدم ركونه للقدر والتسليم له والرضا بتدبير مولاه مع ما تحمّله من وقع المصيبة ذاتها، و«كل أحد لا بد أن يصبر على بعض ما يكره إما اختياراً وإما اضطراراً، فالكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع، وأنه ان لم يصبر لم يردّ الجزع عليه فائتاً ولم ينتزع عنه مكروهاً! وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يقدر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضرّه أقرب من نفعه.

قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحق بعد شهر»، كما قيل:

وأن الأمر يفضي إلى آخرٍ فيصير آخره أولاً
فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحق في آخره.

وقال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم». فالكريم

ينظر إلى المصيبة؛ فإن رأى الجزع يردّها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين. وأما اللّيم فإنه يصبر اضطراراً، فإنه يحوم حول ساحة الجزع، فلا يراها تُجدي عليه شيئاً فيصبر صبر الموثق للضرب.
إِنِّي أَقُولُ إِذَا مَا خُلَّةٌ صَرَمَتْ هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تُوَلِّعْ بِإِشْفَاقِ

وأيضاً؛ فالكريم يصبر في طاعة الرحمن واللّيم يصبر في طاعة الشيطان، فاللّثم أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم^(١)، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر في تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية، ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أُوذي في الله، بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يُتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته صابراً على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، وهذا أعظم اللّوم!

(١) وهذا معلوم مشاهد، فترى بعضهم يصبر الساعات لأجل كرة أو لعبة أو لهو، وربما قام وقعد وراح وجاء وأنفق، بينما نراه أثقل ما يكون عند كرائم الدين وشعائر الملة وأنوار الإيمان كالصلاة، خاصة إن زاد الإمام بضع آيات عن عادته، أو تأخر عن الإقامة دقائق، أو طلبت منه نفقة لدفع كربة مؤمن ونحو ذلك، والله المستعان، وهي خصائص وألطف ومواهب يكرم الله تعالى من بها من شاء من أوليائه، والحمد لله رب العالمين.

ولا يكون صاحبه كريماً عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رءوس: الاشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم أين المتقون»^(١).

وبالجملة؛ فمعوّل المؤمن الصبر باختياره والفوز بفلاحه، ومصير العاجز الصبر كرهاً والحرمان من تحصيل أجر الله ورضوانه، والله المستعان.



(١) عدة الصابرين (١ / ٩٥ - ٩٦) باختصار يسير.

ومن يؤمن بالله يهد قلبه

هذا وعد رباني من الله تعالى، بأن جزاء الإيمان هدى القلب، فكلما ازداد إيمان المرء زاد هداه، وانفتحت بصيرته، وقويت فراسته، وهُدي لمواطن رشاده. قال الشيخ سليمان آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في شرحه المانع النفيس لكتاب التوحيد: «لما كان ببدیع حکمته ولطیف رحمته قضی أن یبتلی النوع الانسانی بالأوامر والنواهی والمصائب التي قدرها عليهم أمرهم بالصبر على ذلك وافترضه عليهم تسليّة لهم وتقوية على ذلك ووعدهم عليه الثواب بغير حساب، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فعلى هذا يكون الصبر ثلاثة أنواع: صبر على المأمور وصبر على المحذور وصبر على المقدور، ويشملها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

ولما كان الصبر لا يحصل إلا بالله كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] أرشد تبارك وتعالى إلى الجمع بينهما، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً.

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] فقد أخبر تعالى أن ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس إلا بإذن الله، أي بقدره وأمره، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] قال ابن عباس

في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]: إلا بأمر الله. يعني من قدره ومشيتته.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التي هي أصل كل سعادة وخير في الدنيا والآخرة. وقد يخلف عليه أيضًا في الدنيا ما أخذه منه أو خيرًا منه، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قال ابن عباس: «يهد قلبه اليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه». وقال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم». وهذا تفسير باللازم وهو صحيح، لأن هذا لازم للإيمان الراسخ في القلب، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير: يعني يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأن الأعمال من الإيمان وفيها إثبات القدر. وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت». أي: هما بالناس، أي: فيهم كفر. قال شيخ الإسلام: «أي: هاتان الخصلتان هما كفر قائم في الناس، فنفس الخصلتين كفر حيث كانتا في أعمال

(١) مسلم ٥٨/١ (٦٧) (١٢١).

الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا الكفر المطلق حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا حتى يقوم به أصل الإيمان».

وفرق بين الكفر المعروف باللام كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»^(١). وبين كفر منكّر في الإثبات.

والطعن في النسب أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه في ظاهر الشرع.

أما النياحة على الميت: فهي رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله لما في ذلك من التسخط على القدر، والجزع المنافي للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه، واناصره، واكاسياه ونحو ذلك، وفيه دليل على أن الصبر واجب، لأن النياحة منافية له، فإذا حرمت دل على وجوبه، وفيه أن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

ولهما عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية»^(٢). وقوله: «ليس منا» هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر. وقيل: أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، لأن الفاعل لذلك ارتكب محرّمًا وترك واجبًا، وليس المراد اخراجه من الإسلام، بل المراد

(١) مسند أحمد (٢٣ / ٢٢٨) (١٤٩٧٩)، والترمذي (٢٦١٩) وصححه الألباني،

وأخرجه مسلم (٨٢) باختلاف يسير.

(٢) البخاري ١٠٢/٢ (١٢٩٤)، ومسلم ٦٩/١ (١٠٣) (١٦٦).

المبالغة في الردع عن الوقوع في ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: لست مني ولست منك، فالمراد ان فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان.

وقوله: «من ضرب الخدود» خص الخد بذلك لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية البدن مثله. «وشق الجيوب» جمع جيب، وهو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب وكانوا يشقونه حزناً على الميت.

وقوله: «ودعى بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: هو نذب الميت، وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور، وقال الحافظ: أي من النياحة ونحوها وكذا النذب به كقولهم: واجبلاه وكذا الدعاء بالويل والثبور، وقال ابن القيم: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصية للإنسان ومثله التعصب للمذاهب والطوائف والمشايخ وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصية، وكونه منتسباً إليه يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

قلت: الصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله، وقد جاء لعن من فعل ما في هذا، أما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد، لما رواه في مسنده^(١) عن أنس أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: «وانبياه واخليلاه واصفياه!» وكذلك صح عن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها

(١) (٤٠ / ٣٢) (٢٤٠٢٩) وحسنه محققو المسند.

ندبت أباهما ﷺ فقالت: «يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه»^(١).

واعلم أن الحديث لا يدل على النهي عن البكاء أصلاً وإنما يدل على النهي عما ذكر فيه فقط، وكذلك يدل على النهي عما في معناه كالبكاء برّنة وحلق الشعر وخش الوجوه ونحو ذلك، أما البكاء على وجه الرحمة والرقّة ونحو ذلك فيجوز، بل قال شيخ الإسلام: «البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضا بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظّه منه»^(٢).

قلت: ويدل لذلك قوله عليه الصلاة والسلام لما مات ابنه إبراهيم: «تدمع

(١) البخاري ١٨/٦ (٤٤٦٢) وفي الحديث: جواز التوجع للميت عند احتضاره، أما قولها بعد أن قبض فيؤخذ منه أن تلك الألفاظ إذا كان الميت متصفاً بها لا يمنع ذكره بها بعد موته. دليل الفالحين (١/١٨٠).

(٢) قال رحمه الله تعالى مفصلاً ذلك: «وبهذا يعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى الميت وقال: «إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». رواه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣) فإن هذا ليس بكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت؛ فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي ضحك وقال: رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أَرْضَى بما قضى الله به؛ فحاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع. وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي ﷺ فهذا أكمل، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ﴾ [البلد: ١٧] فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة. والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس». مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٧).

العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها شنّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢).

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»^(٣). قال شارح الجامع الصغير: «أي بصبّ البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة، كما يُعلم من مقابله الآتي، ومن فعل ذلك به فقد أعظم اللطف به لأن من حوسب بعمله عاجلاً في الدنيا خف جزاؤه عليه، حتى يكفر بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم يسقط من

(١) أحمد بسند صحيح (٢٠ / ٣١٦) (١٣٠١٤).

(٢) البخاري ١٠٠ / ٢ (١٢٨٤)، ومسلم ٣٩ / ٣ (٩٢٣) قال محقق رياض الصالحين د. الفحل (١ / ٤١): «في الحديث: أن سعداً ظن أن جميع أنواع البكاء حرام، وأن دمع العين حرام، وظن أن النبي ﷺ نسي فذكره، فأعلمه النبي ﷺ أن مجرد البكاء ودمع بعين ليس بحرام ولا مكروه، بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما».

(٣) الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه واستغربه، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣١٦)، والبعثي في شرح السنة (١٤٣٥) وصححه السيوطي والألباني والأرنؤوط.

الكاتب، فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه في دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وفي ولده حتى يلقي الله وما عليه خطيئة»^(٢).

قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة لأنها مكفرات للذنوب، ولأنها تدعو إلى الصبر فيثاب عليها، ولأنها تقتضي الإنابة إلى الله والذل له والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لا بد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب أو الكفر الظاهر أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضررًا في دينه بحسب ذلك، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة لا من

(١) سنن الدارمي (٢ / ٤١٢) (٢٧٨٣). وصححه الألباني وحسنه الأرناؤوط.

(٢) صحيح ابن حبان (٧ / ١٧٦) (٢٩١٣) وحسنه الأرناؤوط.

جهة المصيبة.

كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل رحمةً للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمةً ثانية على صاحبها، وإن اقترن بها للمؤمن معصية فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس كما تتنوع أحوالهم في العافية.

فمن ابتلى فُرُزَق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كَفَّر من خطايا رحمة، وحصل له بشائه على ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، وهذا من أعظم النعم. فالصبر واجب على كل مصاب فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك.

وقوله: «وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه» أي آخر عنه العقوبة بذنبه «حتى يُوافي به يوم القيامة» قال العزيزي: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب.

قلت: وهذا مما يزهد العبد في الصحة الدائمة خوفاً أن تكون طيباته عُجِّلَتْ له في الحياة الدنيا^(١)، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه كما لم يرضها لإثابة

(١) في معنى ذلك كتب الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم (١) /

(٢٩٣): «قال ابن عمر: لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً. خرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد. وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد =

أوليائه، بل جعل ثوابهم أن أسكنهم في جواره ورضي عنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

هذا واعلم أن البلاء للمؤمن من علامات الخير، خلافاً لما يظنه كثير من الناس، قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١).

فلما كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاء، كما في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(٢).

وقد يحتج بقوله: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء» من يقول إن المصائب

بإسناده أن رجلاً دخل على معاوية فكساه، فخرج فمرّ على أبي مسعود الأنصاري ورجل آخر من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فقال أحدهما: خذها من حسناتك، وقال الآخر: خذها من طبيّاتك. وبإسناده عن عمر رضي الله عنه قال: لولا أن تنقص من حسناتي لخالطكم في لين عيشكم، ولكن سمعت الله عير قوماً فقال: ﴿النَّارُ أَذْهَبَتْ طَبِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. وقال الفضيل بن عياض: إن شئت استقلّ من الدنيا، وإن شئت استكثر منها، فإنما تأخذ من كيسك».

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وكذلك حسنه الألباني.

(٢) أبو داود (٣٠٩٠) وصححه الألباني والأرنؤوط.

والأسقام يثاب عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا أن كانت سبباً لعمل صالح كالتوبة والاستغفار والصبر والرضا، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، كما في حديث: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها - أو قال: لم ينلها بعمله - ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبره، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل»^(١). وعلى هذا فيجاء عن الأول: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، أي إذا صبر واحتسب.

وقوله: «وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم» صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله^(٢)، ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأحاب كانوا أشد الناس بلاء، وأصابهم من البلاء في الله ما لم يصيب أحداً لينالوا بذلك الثواب العظيم والرضوان الأكبر، وليأتسي بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يتلي الله أحبابه؟!

قيل: لما كان أحد لا يخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم، كما صحت بذلك الأحاديث، وفي أثر إلهي: «ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب»، ولأنه زيادة في درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة، كما في حديث: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة..» الحديث، ولأن ذلك يدعو إلى التوبة، فإن الله تعالى يتلي العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ

(١) مسند أحمد (٢٢٣٣٨) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٢) وكم من عبودية غرسها الله وأصلحها في قلب عبده بسبب مصيبة في دنياه!

الَّذِي عَمِلُوا لَعَالَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿الرُّومُ: ٤١﴾.

فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه، ولهذا ذم الله من لا يستكين لربه ولا يتضرع عند حصول البأساء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النعمة والتي قبلها من أعظم صلاح الدين، فإن صلاح الدين في أن يعبد الله وحده ويتوكل عليه وألا تدع مع الله إلهاً آخر، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فإذا حصلت لك التوبة التي مضمونها أن تعبد الله وحده وتطيع رسله بفعل المأمور وترك المحذور؛ كنت ممن يعبد الله. وإذا حصل لك الدعاء الذي هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيز به مما تستضر به؛ كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيراً ما يحصل بالمصائب. وإذا كانت هذه النعم في المصائب فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

وقوله ﷺ: «فمن رضي فله الرضا» أي من رضي بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضا من الله جزاءً وفاقاً، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وهذا دليل على فضيلة الرضا، وهو ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولا

يكرهه، وقد وصّى النبي ﷺ رجلاً فقال: «لا تتهم الله في شيء قضاه لك»^(١). فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته وأنه غير متهم في قضائه دعاه ذلك إلى الرضا، قال ابن مسعود: «إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وقال ابن عون: «ارض بقضاء الله من عسر ويسر، فإن ذلك أقل لهلك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك، ولعل ما هويت من ذلك لو وُفق لك؛ لكان فيه هلاكك!

وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا». ذكره ابن رجب قال وهذا كلام حسن^(٢).

وقوله: «ومن سخط..» قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به، أي من سخط أقدار الله فله السخط أي من الله، وكفى بذلك عقوبة! قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ

(١) مسند أحمد (٢٢٧١٧) وقال محققوه: «حديث محتمل للتحسين، وهذا إسناد ضعيف

من أجل ابن لهيعة، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح». وانظر: إتحاف

الخيرة المهرة (١ / ٦٣).

(٢) وانظر: تسلية أهل المصائب (١ / ١٩٨).

أَعْمَلَهُمْ ﴿ [محمد: ٢٨] وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر، وقد يستدل به على إيجاب الرضا كما هو اختيار ابن عقيل، واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: «ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.. قال: وأما ما جاء من الأثر: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي» فهذا إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ» (١). وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها.

واعلم أنه لا تنافي بين الرضا وبين الإحساس بالألم، فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضا والتسليم لأمر الله.

فإن قيل: ما الفرق بين الرضا والصبر؟

فالجواب: قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز والفضيل وأبو سليمان وابن المبارك وغيرهم: إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر. وقال الخواص: الصبر دون الرضا، الرضا: أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأي ذاك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر. قلت: كلام الخواص هذا عزم على الرضا وليس هو الرضا، فإنه إنما يكون بعد القضاء كما في

(١) انظر: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٢ / ٤١٤).

الحديث: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(١). لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء قبل وقوعه فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضي بعد وقوع القضاء فهو الراضي حقيقة، قاله ابن رجب^(٢).

عليك بتقوى الله واقنع برزقه	فخير عباد الله من هو قانع
ولا تلهك الدنيا ولا طمع بها	فقد أهلك المغرور فيها المطامع
وصبراً على نوبات ما ناب واعترف	فما يستوي عبدٌ صبورٌ وجازع
ألم تر أهل الصبر يُجزوا بصبرهم	بما صبروا والله راءٍ وسامع
ومن لم يكن في نعمة الله عنده	سوى ما حوت يوماً عليه الأضالع
فقد ضاع في الدنيا وخيب سعيه	وليس لرزق ساقه الله مانع



(١) النسائي (٥٤ / ٣) وأحمد (٢٦٤ / ٤) وصححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية لابن أبي العز (١ / ١٠١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١ / ٤٥١ - ٤٦٣) مختصراً بتصرف يسير.

ثمرات الصبر

يكفي منها محبة الله للصابرين ومعيته لهم وأمره بالصبر. وهناك ثمرات آتية يجدها المرء في نفسه ويتذوق حلاوتها في حياته العملية، والأعظم منها ثمرات الدار الآخرة من رضوان الله وجنته للصابرين، فمن الثمرات:

ضبط النفس عن السأم والملل، لدى القيام بأعمال تتطلب الدأب والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المستعجل مدة طويلة.

ضبط النفس عن العجلة والرعونة، لدى تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

ضبط النفس عن الغضب والطيش، لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس، ومحرضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتزان في القول أو في العمل.

ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس.

ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها.

ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلما كان في هذا التحمل خير عاجل أو آجل.

دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

يورث هداية في القلب.

يشمر محبة الله ومحبة الناس.

سبب للتمكين في الأرض.

الفوز بالجنة والنجاة من النار.

معية الله للصابرين.

الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

مظهر من مظاهر الرجولة الحقة وعلامة على حسن الخاتمة.

صلاة الله ورحمته وبركاته على الصابرين^(١).



(١) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٦ / ٢٤٧٢)، الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (٣٠٦-٣٠٧).

شؤم العجز وسوء عاقبته

العجز شر كله، وقد استعاذ نبينا ﷺ من العجز مع الثمان الجامعة للخيبة فقال:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»^(١).

قال النووي: «الكسل: هو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه. وأما العجز: فعدم القدرة عليه. وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسوية به، وكلاهما تستحب الإعاذة منه»^(٢).

قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما طلب أحد شيئاً بجِدٍّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كَلَّه نال بعضه». وأنشد أبو يعلى الموصلي:

اصبر على مضض الإدلاج بالسَّحَرِ وبالرواح على الحاجاتِ والبُكَرِ
لا تعجزَنَّ ولا يُضْجِرْكَ مَطْلَبُهَا فالنجحُ يَتَلَفُ بين العجزِ والضَّجَرِ
إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِصَبْرِ عَاقِبَةٍ مَحْمُودَةِ الْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُطَالِبُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العزائم في قلوب أربابها كالنار تشتعل، إنها لتستعمل البدن ولا تحس بالتعب. يغلبني شوقي فأطوي السُّرى..

للعزائم رجال ليسوا في ثيابكم، وطَّئوا النفوس على الموت فحصلت الحياة. لو رَأَيْتَ ذَا الْعَزْمِ قَدْ بَرَزَ فِي بَرَاكِ الْجَدِّ يَمُدُّ عِنَانًا لَمْ تَخْنِهِ الشَّكَايُ، فلما عاين هولاً يلين

(١) البخاري ٩٧/٨ (٦٣٦٣) و٩٨ (٦٣٦٧)، ومسلم ٧٥/٨ (٢٧٠٦) (٥٠).

(٢) شرح صحيح مسلم (٢٦/٩).

له قلب الجبان، حنّ إلى عوده المعجوم من الإصابة، فهو في صف الجهاد أثبت قلباً
من القطب في الفلك، إن جنّ الليل لم تتصافح أجفانه، لا تنتظر لقيامه وقت
السحر، وكيف وغلة الصادي تأبى له انتظار الورّاد.

فما مضى إلا قليلٌ فإذا به على قِمة المجد المؤثّل جالسٌ
من لم يقيم في طلاب المجد لم ينم في ظلال الشرف.

تقول سُلَيْمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أُنّى للمُقام أطوفُ
كلّ الصحابة هاجروا سرّاً، وعمر خرج ظاهراً وقال للمشرّكين: ها أنا اخرج
إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي. فليت رجالاً فيك قد
نذروا دمي..

مذ عزّم عمر على طلاق الهوى أحدّ أهله عن زينة الدنيا، فكان بيته - وهو أمير
المؤمنين - كبيت فقير من المسلمين.
تجمّعت في فؤاده همٌّ مثل فؤاد الزمان إحداها
كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: لئن عشتُ لأدعنّ أراملَ أهل العراق لا يحتجن إلى أحد
بعدي.

لما ولي عمر بن عبد العزيز سُمع البكاء في داره، فقيل: ما لهم؟ قيل: إنه خيّر
النساء والجواري قال: من شاءت فلتقم، ومن شاءت فلتذهب، فإنه قد جاء أمر
شغلني عنكن. واعجباً! أين العزائم؟ إن العجز لشريك الحرمان، وإيثار الراحة
يورث التعب.

وَاهُونَ فِي ظِلِّ اهْوِينَا كَامِنٌ وَجَلَالَةُ الْأَخْطَارِ فِي الْإِخْطَارِ

اغسل وجه الجذ من غبار الكسل، وأنفق كيس الصبر في طريق الفضائل، إن كانت لك عزيمة فليس في لغة أولى العزم ربما وعسى.

لَيْسَ عَزْمًا مَا مَرَضَ الْقَلْبُ فِيهِ لَيْسَ هَمًّا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ»^(١)

«والقلب إنما يسير الى الله بقوّته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيّره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه والله المستعان.

فالذنوب إمّا يميّت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ، وهي الهم والحزن، والكسل والعجز، والجبن والبخل، وضيع الدين وغلبة الرجل.

وكُلّ اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان؛ فإن المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان؛ فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان؛ فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضيع الدين وقهر الرجال قرينان؛ فإن استيلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال.

(١) اللطائف لابن الجوزي (١ / ١٢ - ١٣) باختصار يسير.

والمقصود؛ أن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما إنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشهامة الاعداء، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس وتحوّل عافيته وفُجاءة نقمته وجميع سخطه»^(١).

فلا بد من الصبر عن محارم الله بكل حال، والصبر على طاعته كل حين، والصبر على مُرّ أقدره على الدوام، ومن استصحب الكسل خاب، و«لما وقع الأولياء في ظلمات الدنيا قطعوا بالجهد مفاوز الهوى، فأضاءت لهم سبل السلامة فتعارف القوم في طريق الصحبة، إن أضاء لهم برق الرجاء مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم ليل الخوف قاموا، لو رأيتموهم لقلتم مجانين.

كربُ المحب بالنهار يشتد بمزاحمة رقباء المخاطبة، فبلبل باله في قفص كتمان حاله، فإذا هبت نسائم الأسحار وجدت روحه روحاً يصل من قصر مصر المنى، إلى أرض كنعان الأمل، فقام ركب الشوق يتحسس النسيم من فرج الفرج، وله وله.

إِذَا جِئْتُمَا بَانَةَ الْوَادِيَيْنِ فَأَرْخُوا النَّسُوعَ وَحُلُّوا الْوَضِيْنَا
فَتَمَّ عَلائِقُ مِنْ أَجْلِهَا مِلءُ الدُّجَى وَالضُّحَى قَدْ طَوِينَا
وَقَدْ أَنْبَأْتُهُمْ مِيَاهُ الْجُفُونِ بِأَنْ بِقَلْبِكَ دَاءٌ دَفِينَا

إخواني: نهار الحزين كالليل، وليل المطرود كالنهار، يا أعمى عن طريق القوم، هذا أمر لا ينكشف للقلوب المظلمة برين الهوى، حتى يجلوها صيقل المجاهدة،

(١) الجواب الكافي (١ / ٤٩).

أَرْضٌ مَشْحُونَةٌ بِشَوْكِ الذُّنُوبِ فَلَوْ قَدْ أَسْلَمَتْهَا إِلَى الزَّارِعِ رَأَيْتَهَا قَدْ تَغَيَّرَتْ ﴿يَوْمَ
تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ويحك: بين العجز والتواني نتجت الفاقة. يا مطرودًا ما يشعر بالطرد، إنما يجد
وقع السياط من له حسّ، تالله لو أقلقك الهجر ما سكنت دار الراحة، أنت
والكسل كندماني جذيمة، وليت صوت هذا الهاتف وصل إلى سمع القلب.

سور تقواك كثير الثلم، والأعداء قد أحاطوا بالبلد، صحح نقد عملك، فقد
انقرضت أيام أسبوعك. جوّد قبل الحساب انتقادك، فلا مسامح قبل الوزن.

ويحك! قد دنا رحيلك، وليس في مزود عملك ثمرات تطفئ نار جوعك،
ولا في مزادتك قطرات تسكن وقد هجيرك، فالجد الجد في الاستظهار لطول
الطريق، عش ولا تغتر.

يا منقطعًا في بادية الهوى عن الرفقاء، الحقّ الركب فالأمير يراعي الساقة، سر
من غير توقف ولو تقطعت أقدام الطلب. يا راهب الدير هل مرت بك الإبل..

يَعِزُّ عَلَيَّ فِرَاقِي لَكُمْ وَإِنْ كَانَ سَهْلًا عَلَيْكُمْ يَسِيرًا

يا قوَّام الليل اشفعوا في راقد، يا أحياء القلوب ترخّموا على ميت، يا سفراء

الطلب احملوا رسالة محصر. خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى..

أَيَا رِفْقَةٍ مِنْ أَرْضِ بُصْرَى تَحَمَّلْتُ تَوْمُ الْحِمَى لُقِّيتَ مِنْ رِفْقَةٍ رُشْدًا

إِذَا مَا بَلَغْتُمْ سَالِمِينَ فَبَلَّغُوا تَحِيَةً مِنْ قَدْ ظَنَ أَلَا يَرَى نَجْدًا»^(١)

(١) اللطائف (١ / ٢٩ - ٣٠) باختصار.

ولظالم بن عمر وهو أبو الأسود الدؤلي - وصدق :-

وما طَلَبُ المعيشَةِ بالتَّمنِّي ولكن أَلِقِ دِلْوَك في الدلاءِ
تَجِئُكَ بملئِها يومًا ويومًا تجئُ بِحَمَاءٍ وقليلِ ماءٍ
ولا تَقْعُدْ على كسلِ التَّمنِّي تُحِيلُ على المقادِرِ والقضاءِ
فإنَّ مقادِرَ الرحمن تجري بأرزاقِ الرجالِ من السماءِ
مقدَّرَةٌ بقبضٍ أو ببسطٍ وعجزُ المرءِ أسبابُ البلاءِ^(١)



(١) معجم الأدباء (١ / ٤٩٤).

بين الصبر والشكر، أيهما أفضل؟

أفضلهما أتقاهما. وكلاهما عبادتان مقصودتان، وعملان كبيران من أعمال القلوب الواسعة، فالصبر والشكر من أوسع شعب الإيمان، ومن أعظم أعمال القلوب، بل لا يخلو عمل قلب منهما جميعاً بحال، وبينهما تلازم وتضمن.

وخلاصة القول في التفضيل: أنَّ الحال يختلف بحسب ذات العبادة المشكورة، أو المصبور عليها، فكل عبادة تكتنفها عوارض تحدّد مكانها في قائمة الأفضليات، وهي عوارض يرجع بعضها لذات العبادة، ويرجع بعضها لذات المتعبّد، أو حاله، أو مكانه، أو زمانه، وقد تكون العبادة عملاً وقد تكون تركاً.

وظهور الصبر في الشكر أجلى من عكسه، فكل شكرٍ يظهر فيه الصبر جلياً بحسبه، أما الصبر فمع وجود جوهر الشكر في كل جزء منه إلا أنه ليس بظهور الصبر في الشكر، لأنّ الصابر قد يغيب عن تصوّره حقيقة الشكر، وهي تثبيت النعمة الموجودة، وتحصيل النعمة المفقودة، فسواء كان الصابر يُدافع بلاءً، أو يُجالبُ نِعْماً؛ فَلَبَّ صبره وجوهر عمله محض شكر، حتى وإن لم يظهر وجه الشكر على صفحات الاحتمال الصّبريّ عملاً كان أو كفاً. والمقصود بالشكر هنا حقيقته اللغوية، أما الشرعية فَتَتَخَلَّفُ حال المعصية أو عدم الطاعة، فإن كان طاعة أو اجتناب معصية فالكلام يعمّه كذلك.

والمقصود؛ أن حقيقة كلّ منهما متضمنة لحقيقة صاحبه بالزوم، فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر بحال، فدافع الصبر الأكبر الشكر، لأنه يحتمل الشدّة شُكراً لما مضى، وصلاًحاً للحال، وطمعاً لما لم يحصل، فحقيقة تحصيل الشكر هي الثبات

والنماء والزيادة للموجود، والصيد للمفقود.

كما أنّ الصبر احتمالٌ مُجَرَّدٌ في الأصل والحقيقة، ولكن يختلف ظاهره بحسب اختلاف الدوافع له، والشكر دافع للصبر.

وأيضاً؛ فالوقوف على حقيقة هذين العاملين العظيمين يُجَلِّي الموقف إزاءهما والموازنة بينهما، فجوهر كل منهما مختلف عن الآخر، فحقيقة الصبر كَفٌّ واحتمال، وحقيقة الشكر عملٌ لِمَتْنان، فالصبر عملٌ قلبٍ، وإرادةٌ نفس، واحتمالٌ شديدة، أما بسط الجوارح العملية والقلبية المعنوية فشكرٌ على التحقيق، فالصبر وقود الشكر، والشكر سائق للصبر.

وبالجملة؛ فكل صابر شاكِر، وكل شاكِر صابر، فإن غلب أحد الوصفين فأفضلهما أتقاهما.

وقد فصل الغزالي^(١) وابن القيم^(٢) في ذلك، وبسطا القول فيه، وحَكَيَا أن للناس في ذلك الترجيح أربعة أقوال:

أحدها: أن الصبر أفضل، **والثاني:** أن الشكر أفضل، **والثالث:** أنها سواء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بغيرين؛ ما باليت أيهما ركبت»، **والرابع:** أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

ثم رجح ابن القيم بفصل الخطاب قائلاً: «إذا عرف هذا؛ فكلٌّ من الصبر

(١) انظر: الإحياء (٤/١١٥) وما بعدها. وقد بنى عليهما نحوًا من شطر كتابه.

(٢) انظر: العُدَّة والذخيرة (٢١٠) وما بعدها.

والشكر داخل في حقيقة الآخر، لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يُعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته، والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر.

فان قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وأنها اسمان لمسمى واحد، وهذا محال عقلاً ولغة وعرفاً، وقد فرّق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بينّا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرّد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرًا، وإذا تجرّد الصبر عن الشكر بطل كونه صبرًا، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فإنه إذا تجرّد عن الشكر كان كفورًا، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو ألا يكون كفورًا ولا شكورًا، بل صابرًا على مضض وكراهة شديدة، فلم يأت بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة، لا في الصبر الذي هو تجلّد كصبر البهائم. وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر، كما اندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر.

فمقامات الإيمان لا تُعدم بالتنقل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب، لا أنها

يزولان.

فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر، سواء كان محبوباً أو مكروهاً، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر، وهو أخص به لما فيه من الكراهة، ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة، فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عدّه نعمة يشكر عليها، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عدّه بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب، وعدّ ذلك كله ابتلاء^(١) فقال: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنباء: ٣٥] وقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الأنبياء: ١٥] وأما إذا ما ابتلّاه فقدّر عليه رزقه، فيقول ﴿[الفجر: ١٥-١٦] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدّر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار.

(١) كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة وتأتي^(١) الأسباب أعظم الابتلاءين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»^(٢).

والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يتلى بنعمه وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغني عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالمأمور لا يؤدّي إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذي يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنياً كان أو فقيراً، معافى أو مبتلى، وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟ وللناس فيها أقوال، والتحقيق أن يقال:

(١) أي: تهيؤ.

(٢) نقلت عن عبد الرحمن بن عوف وبنحوها عن سلمان رضي الله عنهما.

أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استوائهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقد قال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى»^(١).

والتقوى مبنية على أصليين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقر لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم؛ كان أفضل.

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم، وشكر الغني أتم؛ فأيهما أفضل؟

قيل: أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله، ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة، فإن الغني قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني في شكره، فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل، ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر، ولا بالعكس، لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما.

بل الواجب أن يقال: أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين كما قال تعالى في الأثر الإلهي: «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»^(٢)، فأَي الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

(١) أحمد (٤١١/٥) (٢٣٤٨٩) وصححه محققو المسند.

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

فإن قيل: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وذلك خمسمئة عام»^(١).

قيل: هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول، فقد يتأخر الغني والسلطان العادل في الدخول لحسابه، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع، كسبق الفقير القافلة في المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل: إن النبي ﷺ قد عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردّها وقال: «بل أشبع يوماً وأجوع يوماً»^(٢) وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنهما قالت: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز البر»^(٣)، «ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله»^(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٥)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها فبعثت إليّ بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟» فقلت: فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك، فبعثت إليّ

(١) أحمد (٣٤٢/٢) والترمذي (٤١٢٢) وقال: حسن صحيح.

(٢) الترمذي (٢٣٤٧) وحسنه.

(٣) أحمد في الزهد (١٨) وبنحوه في مسلم (٢٩٧٠).

(٤) البخاري (١٦٠٣).

(٥) البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥).

بهذا، فقال: «رَدِّيهِ» فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: «يا عائشة، رَدِّيهِ فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة» فرددته^(١).

ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها في مرضاة الله، ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل: احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين^(٢)، والتحقيق: أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيّد الأغنياء الشاكرين، وسيّد الفقراء الصابرين، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه.

ومن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان أصبر الخلق في مواطن الصبر، وأشكر الخلق في مواطن الشكر، وربّه تعالى كمّل له مراتب الكمال، فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين، وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير.

فالله سبحانه جعل نبيّه غنيًّا شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً، فلا تحتج به طائفة

(١) الزهد للإمام أحمد (٧٦) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٨٤).

(٢) ووجه احتجاج القائلين بتفضيل الشكر أن نعيم الدنيا كان بمقدوره ﷺ فرغ عنه شكراً لله تعالى، كذلك الأموال الهائلة التي تأتيه فيخرج منها جميعاً لمصالح الإسلام، فكان غنيًّا شاكراً وفقيراً صابراً صلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته والصالحين عليه.

لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضًا لحالها.

فإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده يمتحن بها صبره وشكره؛ علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما.

ولو خير العبد بين الغنى والفقر فأيهما أفضل له؟

سرُّ المسألة أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر، وطريق الغنى والسعة في الغالب طريق عطب، فإن اتقى الله في ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله، وليس مقصورًا على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع وكسوة العاري وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطر؛ فطريقه طريق غنيمة، وهي فوق السلامة.

فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه، فهو يثاب على حسن صبره على حبسه، وأما الغنيّ فخطره عظيم في جمعه وكسبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه في حقه؛ كان أنفع له.

فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس، والغني المنفق في وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد، ولهذا جعله النبي ﷺ قرين الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، فهو أحد المحسودين الذين لا ثالث لهما، والجهلة يغبطون المنقطع المتخلي المقصور النفع على نفسه، ويجعلونه أولى بالحسد من المنفق والعالم المعلم.

فإن قيل: فأيهما أفضل من يختار الغنى والصدقة والإنفاق في وجوه البر، أم من

يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفّه قلبه^(١) على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا، أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك، بل يختار ما اختاره الله، له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين؟^(٢)

قيل: هذا موضع يختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإففاق وصرفه في وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيس بن سعد يقول: «اللهم إني من عبادك الذين لا يُصلحهم إلا الغنى»، ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبي ذر وجماعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإففاق وثمراته العاجلة والآجلة، والفرقة الثالثة لم تختار شيئاً، بل كان اختيارها ما اختاره الله لها.

وكذلك اختيار طول البقاء في الدنيا لإقامة دين الله وعبادته، فطائفة اختارته وتمتته، وطائفة أحببت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا، وطائفة ثالثة لم تختار هذا ولا ذاك، بل اختارت ما يختاره الله لها، وكان اختيارهم معلقاً بما يريد الله دون مراد معين منهم، وهي حال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنهم قالوا له في مرض موته: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رأيته، فقالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إني فعّال لما أُريد».

(١) ترفيه القلب بالتقلل من الدنيا معنى دقيق بديع.

(٢) وهذا أفضل الأحوال، وهي مرتبة التسليم، كما قال عمران بن حصين رضي الله عنهما وغيره من السلف: «أحبّه إليّ أحبّه إليه». وقد بسطت القول في ذلك في كتاب الرضا.

والأولى حال موسى عليه السلام، فإنه لما جاءه ملك الموت لطمه ففقاً عينه، ولم يكن ذلك حباً منه للدنيا والعيش فيها، ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه، فكأنه قال لملك الموت: أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وأنا في تنفيذ أوامر ربي وإقامة دينه، فلما عرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فإن ربه أرسل إليه يخيره، وكان أعلم الخلق بالله، فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له، فاختار لقاء الله. ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل.

فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً؛ اختار ما اختاره الله له، فكان اختياره في جميع أموره تابعاً لاختيار الله له.

ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذاك الوقت، ووفق هذا المقام حقّه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيار سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التي تقرر الأمر عليها، فكان راضياً بها مختاراً لها مشاهداً اختيار ربه لها، وهذا غاية العبودية، فشكر الله له ذلك، وجعل شكرانه ما بشره به في أول سورة الفتح، حتى هنأه الصحابة به وقالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنأ به بشر صلوات الله وسلامه عليه.

ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلّ الله رسوله ﷺ

في أعلاها، وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجّت بحالهِ فرقة من فرق الأمة - التي تفرّقت تلك الخصال وتقاسمتها - على فضلها على غيرها؛ أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضًا.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف؛ احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلّون عن الدنيا على فضلهم؛ احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر؛ احتج به الغني الشاكر. وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها؛ احتج به العارفون^(١) على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم؛ احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة؛ احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب؛ احتج به أصحاب المدارة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورّعون على الورع المحمود؛ احتج به الميسرون المسهلون

(١) أي: المشتغلون بصلاح القلوب عبر تطهيرها بحسن التفكير والإرادة، ولو قال العلماء به كان أولى.

الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه؛ احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه، فانه بعث لإصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلّق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها؛ احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاهما حقّها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع؛ احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من اخذ بالعفو والصفح والاحتمال؛ احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى الله ووالى الله؛ احتج به من منع الله وعادى الله.

وإذا احتج به من لم يدّخر شيئاً لغد؛ احتج به من يدّخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل؛ احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشواء والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم؛ احتج به من سرد الفطر، فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات؛ احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه؛ احتج به من أدّبهن

وآلمهن وطلق وهجر وخيّرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه؛ احتج به من باشرها بنفسه فأجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام؛ احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء، ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي؛ احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر؛ احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة. وأخبر عن نبي الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبيتها به، فلم يحكم بالاعتراف الذي ظهر له بطلائه بالقرينة.

والمقصود أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بستته وأتبعهم لها، وبالله التوفيق»^(١).

وبالجملة؛ فكما رأيت فأفضلهما أتقاهما بكل حال، وما الغنى واليسر والشدة والفقر إلا لبوس مختلف لما تحته مم الابتلاء، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (٢١٠ - ٥٢٢) باختصار واقتصار واختيار.

وسائل تقوية الصبر

قد مر بنا الكلام على شيء من الوسائل المعينة على الصبر والتصبر في ثنانيا
الفصول الماضية، وفي هذا مزيد بيان وإيضاح وتفصيل.

أولاً: تكرار الحقولة:

لتكرار كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله مع تدبر معناها أثر عجيب في مد القلب
بصبر لا حد له، ومن أراد أن يكون أقوى الناس فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله،
ففيها قوة القلب والروح والجسد والمدد.

ومعناها: لا حيلة ولا انتقال من حال إلى حال، ولا قوة بأي حال إلا
بالاستعانة بالقوي العزيز الذي بيده مقاليد الأمور، وتصارييف الأشياء، وتدبير
الكائنات، والذي خلق الخلق وقواهم ودبر شأنهم كله، ولا يخرجون عن مشيئته
طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

ولقد كان ﷺ يستحضرها دوماً في أذكاره، وعدّها من كنوز الجنة، فعن أبي
موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟»
فقلت: بلى يا رسول الله قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول دبر كل صلاة حين
يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء
قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله

(١) البخاري ١٠٨/٨ (٦٤٠٩)، ومسلم ٧٤/٨ (٢٧٠٤) (٤٧).

الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهمل بهن دبر كل صلاة^(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي؛ وقلة حيلتي؛ وهواني على الناس؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؛ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي؛ غير أن عافيتك أوسع لي؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات؛ وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك؛ أو يحل علي غضبك؛ لك العتبى حتى ترضى؛ ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٢).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرите مما سواه»^(٣).

ويروى أنه كان من دعاء موسى عليه السلام: «اللهم لك الحمد، وإليك

(١) مسلم ٩٦/٢ (٥٩٤) (١٣٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير، وابن جرير في التاريخ، وروى مسلاً عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. انظر: السيرة النبوية (٢/ ٧١)، ومجمع الزوائد (٦/ ٣٥) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦ / ٤٣٥) (٢٩٣٣) وهو حديث مشهور عظيم المعاني، وعليه أنوار النبوة والجلال، وقد سبق الكلام على سنده مفصلاً ص: (١٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٨٥).

المشكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

وكذلك الاسترجاع عند المصائب كما أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. «ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة؛ وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد.

والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصح وتصدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده. لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مدّ البصر، لا قوة إلا قوة الله، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة التي يقوم عليها تصور صحيح. والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: ﴿وَيَشِرَّ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

(١) الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩ / ١٨٠)، وضعفه الألباني في ضعيف

الترغيب والترهيب (١ / ٢٨٦) (١٥٠) ومعانيه حسنة جداً، وكل ألفاظه لها

شواهد صحيحة.

إنا لله، كلنا، كل ما فينا، كل كياناتنا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير، التسليم.. التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير!

هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل، وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] صلوات من ربهم يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم ورحمة وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون، وكل أمر من هذه هائل عظيم»^(١).

و«كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: لا بد للسالك إلى الله من همّة تسيّره وترقيّه، وعلم يبصره ويهديه. وقال: العارف يسير إلى الله عز وجل بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه^(٢) - يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم

(١) في ظلال سورة البقرة (١ / ١١٧) بتصرف.

(٢) قدس الله روحه: طهرها من الذنوب والأكدار، ومعناه صحيح لا بأس فيه، وهو بمعنى الاستغفار له، إنما الممنوع قول بعضهم: قدس الله سرّه، فمعناه أن له سرّاً خفياً مكتوماً عن الخلائق، يدبر به أموراً ليست بمقدور البشر.

أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدّي
وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت،
وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ البريّات	أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرّاتي
وليس لي دونه مولى يدبرني	ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلى الشفيع كما قد جاء في الآياتي
ولست أملك شيئاً دونه أبداً	ولا شريك أنا في بعض ذراتي
ولا ظهير له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً	كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه	فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملأ الكون أجمعه	ما كان منه وما من بعد قد ياتي» ^(١)

(١) المستدرک علی مجموع فتاوی ابن تیمیة (١ / ١٢١).

ثانياً: العلم:

إن سرّ سبق العلماء والصديقين هو العلم بالله وبشريعته الذي حوته صدورهم فعرفوا الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، ونهلوا من معين وحيه فاكتفوا به عما سواه، فواصلوا المسير حين انقطع الناس ووصلوا حين تخلف من سواهم، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. فالعلم الصحيح هو مفتاح كل خير، وزاد كل راكب، ونجم كل سارٍ في دياجير الظلم، ومن شُغِف بشيء أوتي سرّه.

واعلم - رحماني الله تعالى وإياك - أن العلم بالله تعالى وبدينه لا يستغني عنه المؤمن طرفة عين، وبخاصة عند اشتداد الفتن، بل إن هناك علاقة طردية بين توفيق الله تعالى وحفظه لعبده حال الفتن وبين علم العبد به وبشرعه وإيمانه وصلاحه واستقامته، فهو قد آمن عن علم، وعَمِلَ عن صدق، وعَبَدَ عن إخلاص، فهذا - بإذن ربي - هو المفلح السعيد.

ولئن كان الصبر هو معوّل العمل، فإن العلم هو معوّل الصبر. وتدبّر معي هذا الحديث النبويّ المخيف في وصف حالٍ في الغاية من البؤس واليأس والثقل والقنوط لدى بعض الناس في بعض الأحوال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ، فَيَتَمَرَّغَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ، مَا بِهِ إِلَّا الْبَلَاءُ»^(١).

(١) البخاري ٧٣ / ٩ (٧١١٥)، ومسلم ١٨٢ / ٨ (١٥٧) (٥٤).

والمعنى: أنَّ الرجل لِيَأْسِهِ مِنْ صلاح حاله يتمرَّغ على القبر، أي: يتقلَّب في صعيد القبر مُتَمَعِّكًا في ترابه، متمنِّيًا أن يكون هو المدفون تحت التراب!

والمصيبة ليست هنا فقط، فإنَّ هذا الحال قد يَرُدُّ على من خاف فتنة في دينه، فيكون الموت راحة ورحمة وسلامة وعافية مما يخشاه من فتنة الدين، فيكون تمنِّي الموت حينها له وجه خشية على الدين من التلف والفتنة والفشل، ولكن أن يكون التمنِّي خارجًا عن فتنة الدين، بل هو لشديد واردات الدنيا كالعرض القاتل، أو الشرف المسموم، أو الفقر المُجِيع، أو السقم المؤصِّص، أو الخوف المحيط، أو الاكتئاب الأسود، أو اليأس الكاسر، أو القنوط المميت، في طباق من جبال المموم والغموم الدنيوية، فهذا هو المخيف حقًّا، وهو نتاج الجهل بالله تعالى وبقدر الدنيا والآخرة، لأنه مهما يكن حاله، فليس له أن يتمنِّي الموت إلا بأن يدعو بالخير في رحيله أو بقاءه، ومن هنا تظهر الضرورة للعلم النافع الجالي قتام الشكِّ، والصاقل مرءاة البصيرة، والمنير ظلام الدروب عند حيرة الأحلام، أمَّا الجهل فدهليز الخيبة، وحفرة الفشل، وبحر الخذلان.

وبالجملة؛ فالمتعلِّم على سبيل نجاة، والجاهل على سبيل هلكة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنِّين أحدكم الموت من ضرِّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»^(١).

فالمؤمن خير له أن يطول عمره في طاعة ربه، فكل يوم يزداد رفعة في درجاته،

(١) البخاري (٥٦٧١).

فهو بين صلاة وصيام وذكر وقربة وخير، وكذلك في اصطبارٍ على مُرِّ البلاء، وتفنُّنٍ في طُرُقِ الرضا بالقضاء، وإظهارٍ وإبطانٍ عبودية الحمد والشكر لله رب العالمين، والموت يقطع ذلك عنه، ويحرمه بركة الحياة لله تعالى، فعن أبي صفوان عبد الله بن بسر الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»^(١).

والأظهر: أنَّ الحامل لذلك البأس المذكور على تمَنِّي الموت ليس خوفاً على دينه، بل البلاء وكثرة المحن والهرج والفتن وسائر البأساء والضراء، وقد خرج هذا الوصف مخرج الوصف الذميم، وقد سلم من ذلك وعوفي ممَّا هنالك مَنْ حرصه الله تعالى بعلم وإيمان يحجزانه عن تسخُّط الأقدار، والله أعلم.

وقوله ﷺ: «وليس به الدِّين، إلا البلاء»: قال الحافظ رحمه الله تعالى: «اختلف في المراد به: فقيل: إنهم يتمنون الموت؛ لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو الدنيا، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه. وهذا فيه بيانٌ لشدة البلاء، حتى يكون الموت الذي هو أعظم المصائب أهون على المرء فيتمنى أهون المصيبتين في اعتقاده!

ومنه أخذ القرطبي رحمه الله تعالى: أن في الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخفَّ أمر الدين، ويقلَّ الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا

(١) الترمذي (٢٣٢٩) وقال: حديث حسن غريب. وأحمد (١٧٧٣٤) مطولاً. وحسنه ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٨١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦) وحسنه الأرناؤوط في تخريج المسند. وللحديث شواهد عن أبي بكره وغيره.

بأمر دنياه ومعاشه وما يتعلّق به» (١).

وقيل: «لما يرى من تغيير الشريعة، أو لما يرى من البلاء والمحنة والفتنة» (٢).

«ويحتمل أن يكون سببه ما يرى من تغيير الشريعة وتبديل الدين، فيتمنى الموت لسلامة دينه، وقد ذكر الاحتمالين القاضي عياض» (٣).

قال محمد الأمين الهرري رحمه الله تعالى في ذلك: «قال المناوي في الفيض: قوله: «يا ليتني...» إلى آخره؛ أي: أتمنى كوني ميتاً حتى أنجو من الكرب، ولا أرى من المحن والفتن وتبديل وتغيير رسوم الشريعة ما أرى، فيكون أعظم المصائب الأمانى، وهذا إن لم يكن وقع فهو واقع لا محالة، وقد قال ابن مسعود: «سيأتي عليكم زمان، لو وجد أحدكم الموت يباع لاشتراه».

وقال الحافظ العراقي: «ولا يلزم كونه في كل بلد، ولا في كل زمن، ولا في جميع الناس، بل يصدق على اتفاقه للبعض في بعض الأقطار، وفي بعض الأزمان وفي تعليق تمنّيه بالمرور إشعاراً بشدّة ما نزل بالناس من فساد الحال حينئذ؛ إذ المرء قد يتمنى الموت من غير استحضار لهيئته، فإذا شاهد الموتى ورأى القبور نشز بطبعه، ونفر بسجيته من تمنّيه، فلقوّة الشدّة لم يصرفه عنه ما شاهده من وحشة القبور، ولا يناقض هذا النهي من تمنّي الموت لضرّ نزل به؛ لأن مقتضى هذا الحديث

(١) انظر: الفتح (١٣ / ٧٥).

(٢) انظر: شرح الأبي (٧ / ٢٥١).

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب، للحافظ العراقي ٢٥٩/٣

الإخبار عما يكون، وليس فيه تعرض لحكم شرعي».

وقوله: «وليس به الدين» أي: ليس الداعي له على هذا الفعل الدين، وإنما الداعي له البلاء. ومعنى الحديث: أنه لا يتمنى الموت تدينًا وتقربًا إلى الله تعالى وحبًا في لقائه، وإنما تمنّيه لما نزل به من البلاء والمحن في أمور دنياه، ففيه إشارة إلى جواز تمّني الموت تدينًا، ولا ينافيه قوله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت، لضر نزل به» لأنه خاص بما إذا كان التمني لأمر دنيوي؛ كما هو الظاهر.

قال الحافظ في الفتح: «ويؤيده ثبوت تمّني الموت عند فساد أمر الدين عن جماعة من السلف. قال النووي: فلا كراهة في ذلك، بل فعله خلائق من السلف؛ منهم: عمر بن الخطاب .

وقال بعضهم: قوله: «وليس به الدين إلا البلاء» قيل: أراد بالدين: العادة^(١)؛ والمعنى حينئذٍ أي: ليس التمرغ وتمّني الموت من عادته، وإنما حمله عليه البلاء والمشقة.

وقيل: محمول على معناه؛ أي: ليس ذلك التمرغ؛ لأمر أصابه من جهة الدين، لكن من جهة الدنيا ومشاقها، والله أعلم^(٢).

(١) أي: أن معنى لفظ الدين هنا ليس المراد به الإيمان والعبادة، بل المراد دين العادة، كقولهم: من دين فلان كذا؛ أي من عادته وطبعه. قلت: وهذا تكلفٌ وبُعد، والأظهر أنه الدين المعهود، والله أعلم.

(٢) شرح سنن ابن ماجه، للهرري ٢٤٤/٢٤

ومن هنا ظهرت أهمية العلم في أزمنة الرخاء والشدة، شكرًا في العافية والرخاء، وصبرًا ورضًا وحمدًا عند البلاء، والفرح بالله تعالى على كل حال.

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ: «قال ابن عقيل في الفنون: «النعم أضياف وقراها الشكر، والبلايا أضياف وقراها الصبر، فاجتهد أن ترحل الأضياف شاكرة حسن القرى، شاهدة بما تسمع وترى».

وقال: «من أحسن ظني به أنه بلغ من لطفه أن وصّى ولدي إذا كبرت فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ [الإسراء: ٢٣] فأرجو إذا صرت عنده رميمًا أن يرحم؛ لأن أفعاله تشاكل أقواله».

وقال الشيخ تقي الدين: «من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم من الشدة والضر ما يلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجذب أو الضر.

وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين أعظم من أن يعبر عنه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قيل: «يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك».

وقال بعض الشيوخ: «إنه ليكون لي إلى الله حاجة فادعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي أو أن ينصرف عني ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها، وقد قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من

رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا»^(١)»^(٢) «فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعمه أمر يعرفه من حصل له هذا الوجه وهذا الذوق. فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد التوحيد يجذب قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء لله مخلصين له الدين.. وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث به الرسل وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه والله أعلم»^(٣).

فإذا علم العبد أنه وما يملكه لله سبحانه حقيقة؛ لأنه أوجده من عدم ويعدمه أيضًا ويحفظه في حال وجوده، ولا يتصرف فيه العبد إلا بما يتاح له، وأن مرجعه إلى الله ولا بد فردا، كما قال تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذُوا فَتُنَادُوا لَهُمْ عِزًّا ۚ أُولَٰئِكَ سُبُلُ اللَّهِ لَعَنَ اللَّهُ الْفَاسِقِينَ﴾ [النعام: ٩٤]. وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قاله النبي ﷺ^(٤)، وكما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

(١) مسلم (٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٣٦) وانظر: الفتاوى الكبرى (٥ / ٢٨٧) وأمراض

القلوب (١ / ٥٩) كلاهما للشيخ رحمه الله تعالى.

(٤) أحمد (٢٧٤٩٠) وصححه الألباني في السلسلة (٢٤٧١).

وأن الله لو شاء جعل مصيبتَه أعظم مما هي، وأنه إن صبر أخلف الله عليه أعظم من فوات مصيبتَه، وأن المصيبة لا تختص به فيتأسى بأهل المصائب، ومصيبة بعضها أعظم، وأن سرور الدنيا مع قلته وانقطاعه منغص. وقد شاهد الناس من تغير الدنيا بأهلها في أسرع ما يكون العجائب.

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر: «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس، وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حبرة^(١) إلا ملأها عبرة^(٢)»، وبكت أختها حرقه بنت النعمان يوماً وهي في عزها فقيل: ما يبكيك لعل أحداً أذاك؟ قالت: «لا، ولكن رأيت غضارة^(٣) في أهلي، وقلما امتلأت دار سروراً إلا امتلأت حزناً». وقالت حرقه أيضاً: «ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس^(٤)» إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة، إلا سيعقبون بعدها عبرة، وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يجبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف^(٥)

(١) الحبرة: السرور والفرح.

(٢) أي: دمعاً وبكاءً.

(٣) الغضارة طيب العيش ونعيمه ولينه.

(٤) قالته بعد زوال نعيمهم الدنيوي، وهو خير من جهة أنه تقلل من الدنيا وأدعى للزهد فيها بعد كمال أخذ العبرة منها، وأجمع للقلب من التشتت في أوديتها، وكذا الراحة من قلق تغير الحال فما كانت تخشاه قد وقع.

(٥) تنصف: أي خدَم. والسوقة: العامة والرعاك الذين لا يؤبه بهم.

فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمُها تقلّب تاراتٍ بنا وتصرّفُ

وقال الأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا وإلا سلوت كالبهائم»، وعلم العبد أن الجزع لا يرد المصيبة، بل هو مرض يزيدُها، وأنه يسرّ عدوه ويسيء محبه، وأن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها، ومنه بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده واسترجاعه^(١).

وعلم أن الذي ابتلاه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ليمتحن صبره ويسمع تضرعه، ويخوفه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

وإني إذا لم الزم الصبر طائعاً فلا بد منه مكروهاً غير طائع

قال الشيخ محمد بن عبد القادر: «يا بني؛ المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني؛ القدر سبعٌ، والسبع لا يأكل الميتة،

(١) عند فقد ولده أو من يعزّ عليه فراقه من محبيه، وفي الأوّل قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسمّوه بيت الحمد». رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن». وفي المعنى الثاني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة». رواه البخاري ١١٢/٨ (٦٤٢٤).

فالمصيبة كيرُ العبد^(١)، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً كما قيل:
 سبكناه ونحسبه لجيناً^(٢) فأبدي الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ
 وعلم أنه لولا المصائب لبطر العبد وبغى وطغى فيحميه بها من ذلك ويظهره
 مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:
 قد ينعمُ الله بالبلوى وإن عظمَتْ ويبتلي الله بعض القوم بالنِّعمِ
 واعلم أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، والعكس بالعكس، ولهذا قال عليه
 الصلاة والسلام: «الدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر»^(٣). وقال: «حفت الجنة
 بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(٤).

ومعلوم أن العاقل من احتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، وذَلَّ ساعة لعزَّ الأبد،
 هذا من لطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس إلا من عصم الله
 أثروا العاجل لمشاهدته وضعف الإيمان.

وعلم أنه يجب ربه، وأن المُحِبَّ إن أسخطه فهو كاذب في محبته، ولهذا كان
 عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في مرضه: «أحبُّه إليَّ أحبُّه إليه»، وكذا أبو العالية،
 وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به».

(١) الكيرُ: فرن الحدّاد الذي يصهر فيه المعادن. والمقصود أن البلايا تصهر حقائق
 العباد فتُظهر حقائقهم.

(٢) اللجين: الفضة، جاء مصغراً مثل الثريا وكميت.

(٣) مسلم (٢٩٥٦).

(٤) مسلم (١٤٢/٨).

وعلم أن مراتب الكمال منوطة بالصبر والعكس بالعكس، وأقل الأحوال ألا يتَّهم ربه في قضائه له.

فإذا علم العبد هذه الأمور نظر فيها وتأملها صبر واحتساب وحصل له من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، والناس في هذا متفاوتون^(١).

وقال ابن عجيبة رَحِمَهُ اللهُ: «قد شبه بعض الحكماء الدنيا بسبعة أشياء:

شَبَّهَهَا بالماء المالح، يُغْرَق ولا يُرْوَى، ويضر ولا ينفع، قلت: وكذلك الدنيا تغرق صاحبها في حَبِّها، ويموت عطشاناً منها.

وشَبَّهَهَا بظل الغمام، يَغُرُّ ويخذل، قلت: وهو الذي يَغْطِي بعض المواضع فإذا أشرقت الشمس تقشَّع عنه^(٢).

وشَبَّهَهَا بالبرق الخاطف، يعني في سرعة الذهاب والاضطراب.

وبسحاب الصيف، يمر ولا ينفع^(٣).

(١) الآداب الشرعية (٢ / ٢٨٠-٢٨٨) باختصار.

(٢) كقولهم في صفتها:

وِظْلٌ أَرَتْهُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا سَيَقْلُصُ فِي وَقْتِ الزَّوَالِ وَيَفْصِمُ

(٣) لأنهم معتادون أن سحاب الصيف لا يمطر غالباً، وقالوا: سحابة صيفٍ عن قريب

تقشَّع. والأمر بيد الله تعالى وهي سنن كونية علَّمها الناس، وقد وصفوا ادنيا

بسحابة الصيف كقولهم:

وَمُزْنَةُ صَيْفٍ طَابَ مِنْهَا مَقِيلُهَا فَوَلَّتْ سَرِيْعًا وَالْحُرُورُ تَضَرَّمُ

وبزهر الربيع، يغرّ بزهورته، ثم يصفرّ فتراه هشيماً^(١).

وبأحلام النائم، يرى السرور في منامه فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئاً إلا الحسرة^(٢).

وبالعسل المشوب بالسم الرّعاف يغرّ ويقتل.

قال بعضهم: فتأملت هذه الحروف السبعة سبعين سنة، ثم زدت فيها حرفاً واحداً: فشبهتها بالغول^(٣) التي تهلك من أجابها، وتترك من أعرض عنها.

ثم علّل كون الدنيا بهذه الأوصاف من كونها محلاً للأغيار ومعدناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها، قلت: إنما وسم الله الدنيا بهذه الأوصاف من كونها محلاً للأغيار والأحزان ومعدناً لوجود الأكدار والفتن تزهيداً لك فيها فتقبل بكلّيتك عليه، وتتوجه بهمتك إليه، ولتعرض عن الدنيا وتقبل على الآخرة.

قال بعضهم: «إنما مثل الدنيا كالبحر الهائل المحيط والآخرة من وراء ذلك البحر، ولا ينكشف الحجاب عن عين القلب بالنظر إلى الدار الآخرة إلا بعد الجواز

(١) وهذا المثل هو أصدق الأمثلة وأشدّها مطابقة لحال الدنيا، وهو الذي مثل الله به الدنيا في آيات كثيرة منها قول المولى سبحانه: ﴿كَمَثَلٍ عَيْثُ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْلَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

(٢) كقول الشاعر الناصح:

كذا هذه الدُّنيا كأحلامِ نائمٍ ومنْ بعدها دارُ البقاءِ ستَقْدُمُ

(٣) يقصدون بالغول والغيلان: الجن التي تتشكّل وتترأى للمسافرين.

على ذلك البحر في سفن الصبر والرضا، لأنه بحر جُيَّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض، يغشاه موج الشهوات من فوقه موج الغفلات من فوقه سحب الكائنات».

وأيضاً: لو بسطت لك الدنيا لكرهت لقاء الله، فيكره الله لقاءك! ولو بسطت لك العوافي والنعم لركنت الروح إلى هذا العالم، فتبقى دائماً في عالم الأشباح. والمقصود منك هو الرحيل إلى عالم الأرواح، فضيق الحق تعالى عليك هذا العالم السفلي لترحل منه بهمتك إلى العالم العلوي، فهو منه سبحانه إنعام وإحسان، لكنها في قالب الامتحان، فلا يذوقها إلا أولوا البصائر الحسان.

فهذا ما أشار إليه بقوله: «علم أنك لا تقبل النصح المجرد، فذوقك من ذواقها ما سهل عليك فراقها» قلت: قد علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقبل النصح بمجرد القول، فلا يزهد في الدنيا بمجرد سماع الوعظ، إذ كثير من أهل العلم والفهم^(١) يسمعون القرآن يقرعهم عليها، ويحذرهم من غرورها وهم غائبون عن ذلك التذكير، مشغولون بما يوجب لقلوبهم التذكير، فلما أراد سبحانه أن يصطفى لحضرته من شاء من عباده نغصها عليهم، وشدد عليهم البلاء والمحن؛ فاهتموا بآجلها حين اهتم الناس بعاجلها.

والأكوان ظاهرها غيرة وباطنها عبرة، فكل ما ينزل بالولي من هذه التعريفات الجلالية^(٢) التي تغير النفس وتقهرها فهو خير كثير في حقه. فقد قالوا: الامتحان

(١) فكيف بغيرهم من أهل الجهل؟!

(٢) أي: يعرف ربه حين رده إليه بقرع قلبه، وأيقظه من غفلته بشديدته، فالله تعالى يُرَبِّي

بقدر الإمكان^(١)، وكل محنة تزيد مكنة، واختبار الباقي يقطع التباقي، فقد تبقى في القلب بقية من حب شيء من هذا العالم أو ركون لشيء من الدنيا فيسلط عليه من يشوشه عليه وينغصه لديه، كل ذلك عناية به ليرحل من هذا العالم إلى عالم الملكوت، فإذا تحقق رحيله استوى عنده الحلو والمرّ والعزّ والذل والغنى والفقر، لأنه تحقق أن كلا من عند الله تعالى.

وهذا هو العلم الحقيقي النافع الذي ينبسط في الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه. فالعلم النافع هو علم القلوب ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل، ومرجعه إلى التخلية والتحلية^(٢) فيبحث أولاً عن

عبده ويفتح قلبه، ويُجلي لبصيرته حقيقة الدنيا عن طريق النفوذ من المشاق للحقائق، ومن المصائب للفوائد، فيربط الدنيا بالآخرة، ويخرج من كل عبّة بعبرة. ويرى لطف الله تعالى ورفقه وعلمه وحكمته وخيرته في كل أمره، فلم يذهب من مالك ما وعظك، ولم ينقص في أملاكك وخواصك ما زاد إيمانك وثبت دينك.

(١) وأبلغ منه قوله ﷺ حينما سئل: أيّ الناس أشدّ بلاء؟ فقال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». أبو داود (٣٠٩٠) وصححه الألباني والأرنؤوط، وقوله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وكذا حسنه الألباني.

(٢) ثمة مصطلحات محتاجة إلى إعادة نظر ومنها مصطلحُ التَّخْلِيةِ والتَّحْلِيَةِ، وقد انتشر هذان اللفظان بين المتأخرين في بيانهم معنى رُكني الشهادة. وأظنُّ أن لو استبدلتا

بما هو أولى منهما، خاصة أنه يوجد في اشتقاقات جذر كلمة «التخلية» ما هو أولى منها، ككلمة «إخلاء» مثلاً، لدلالاتها على التفرغ والإزالة فقط، أما التخلية فلها معانٍ آخر غير مرادة.

أما «التحلية» فليست سائغة لغةً بهذا المعنى، فليس لها معنى مفهوم في مرادها الموضوعية له في هذا السياق؛ لرجوعها في الأصل للحلية وللحلوى. و«التحلية» المرادة هنا ربّما ظنوا أنّ أصلها كلمة «إحلال»، فصرّفوها على وزن «تحلية» لتواكب التخلية، ولا أظنّ هذا التصريف من العربية في شيء. وعلى القول بإرجاعها إلى الحلوى أو تحلية الطعام، وهي الوجبة الحلوة المقدمة بعد الدّسم؛ فهو إزرار كبير بمعناها! هذا؛ ولم أجد للسلف في التعبير بها حرفاً، وكلّ خير في اتّباع من سلف حتى في مصطلحاتهم، وكأنّ أصلها راجعٌ إلى الطُّرُقِيَّة، ومن ثمّ إلى أرباب السلوك المتأخرين، ويقصدون بها معاني عدة، منها: الذكر الخاص، وأحوال تردّ على قلب المرید والسالك، ونحو ذلك. الشاهد: أنّ هذه الجملة في حاجة لإعادة تقويم ونظر. ولو قيل: الكفر بالطاغوت قبل الإيمان، أو البراء قبل الولاء، أو النفي قبل الإثبات، والأخير كأنه أجود من جهة الإطلاق اللغوي، وبالله التوفيق.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء؛ فهنا وقفة مُصْطَلَحِيَّة أخرى، فإنّ لكل فنٍّ اصطلاحاته التي تعارف عليها أهله، ومن الحدود والتعريفات ما يكون شرعياً؛ أي أنّ تعريفه قد ورد من جهة الشرع، أو لغوياً؛ أي ما تعارف على اسمه العرب، أو اصطلاحياً؛ أي ما تعارف عليه أهل الفنّ المعين أو الصنعة الخاصة. وإنّ من حسن التّأني للمسألة: إحسان معرفة حدودها في اللسان والتصوّر، وسأضرب المثال في شأن تحرير بعض المصطلحات العقديّة الشائعة.

فما زالت - بحمد الله - للغة القرآن جاذبةً يطرّقها من رام الكلام في المعتقد، ذلك أنّ اللغة هي الوعاء للمعاني، والحبل الموصل للمعنى الأصيل من الوحي الإلهي بشقيه؛

=

الكتاب والسنة، فإن اختلَّت اللغة أو ضعفت أو حتى اشتبهت؛ لحقَّ المحتوى بقدر ذلك في ذهن المُتلقِّي. وكم دخل المبتدعةُ حصون السنة عن طريق اللغة، سواء بتفحُّم الأدلة بعُجْمَة؛ ككثيرٍ من أهل الكلام، أو بطبع أصول الديانة بطابعهم - عند أتباعهم - كما فعل المعتزلة، وهم قلةٌ نسبةً لعلماء السنة في العربية، ولم يُصَبَّ من زعم خلافه. وسأقف إزاء نموذجين لقوالب لغويّة مشهورة بين تدوينات وكلمات أهل العلم المعاصرين في مسائل المعتقد: الأول من جهة الاشتباه، والثاني من جهة الخطأ في المعنى والتصريف. وهي قابلة للنقاش على كل حال لأنها من قبيل المصطلحات التي لا مشاحة فيها عند سلامتها معنى ومبنى.

الوقف الثانية: تسميةُ توحيد العبادة بأسماء أخرى (ألوهية، إلهية، عبودية) هي تسميات صحيحة بلا تردد، لا من حيث الاشتقاق ولا من حيث المعنى، لكن هناك ربكةٌ ذهنيّة في فهم مبتدئة طلبة العلم حيال ذلك، وقد لاحظتُها فيهم ابتداءً من المراحل الابتدائية حتى ما بعد الجامعية! فإذا سألت أحدهم عن الفروق بين توحيد الربوبية والألوهية؛ حار في الجواب، للاشتباه في الاشتقاق.

سبب ذلك أنّه بطبيعته العربية سيعيد اللفظ - تلقائياً - إلى اشتقاقه ومصدره، وسيؤدّيه هذا إلى أنّ الربوبية مشتقةٌ من كلمة «الرّب»، والألوهية مشتقةٌ من كلمة «إله»، والكلمتان تشيران إلى ذات واحدة؛ لأنّ اجتياز ذلك المدى المعرفي اللغوي إلى الوصول لمعرفة أصل كلمة «رّب» ورجوع اشتقاقها ومصادرها وفروعها لمعنى الخلق والملك والتدبير، أو أنّ كلمة «إله» راجعة إلى معاني التأله والعبادة، من مألوه بمعنى معبود؛ ليس لعموم طلبة زماننا، فالعُجْمَة فيهم فاشية ظاهرة. فطال تشقُّق الكلام على معنى كُنّا في غنى عن تشييت مبتدئة الطلبة فيه. لذا فلو اكتفى العلماء في تحريرهم وبيانهم أقسام التوحيد الثلاثة على القول بأنّها: الربوبية، والعبادة، والأسماء والصفات والأفعال؛ لكان خيراً، لأمرين:

عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح، وعيوب السرّ، فيظهر كل واحد من عيوبه، فإذا تطهّر من الجميع؛ تحلّى بصفات الكمال؛ كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمجاهدة، وتحلّى أيضًا بالحلم والرافة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة، فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين، وبرد الرضا والتسليم، وحلاوة الإيمان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة، وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة^(١).

إنّ حقيقة الدنيا ظاهرة لكل ناظر، واضحة لكل ذي عينين، ولكن الهوى يغلفها بالأمانى، ويُلَبِّسُها بحُبِّ العاجل، ويطيل الأمل فيها بما يشبه ظن التخليد فيها لولا صدمات المصيبات التي تقصر من أمانيه شيئًا، ووصايا الناصحين الذين أوغلوا في الحكمة وأحكمت عقولهم التجارب، وأبلغ منها بلاغٌ مَنْ عِلْمُ خَالِقِهَا وَخَالِقِهِ، الذي بيّن وأوضح لمن كان يعقل، قال تبارك وتعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فترثه مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

الأول: راحة للطالب من الحيرة، ورحمة به من التشّت.

الثاني: أن لفظ العبادة شرعيّ وليس بمحدث، وإن كانت كلها شرعية، أعني: الألوهية والإلهية، لكن هذا اللفظ أقرب من جهة أنه متعلّق بالعباد ونبيّه وأقواله وأعماله. والله أعلم.

(١) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة (١ / ١٧٣ - ١٧٦) باختصار.

قال المنبجي رحمه الله تعالى: «ومن العجب كل العجب، من يصدّق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور، فمن أحبه الله حماه عن فضول الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء. ولما قالوا لعلي رضي الله عنه: يا أبا الحسن، صف لنا الدنيا؟ قال: أطيل أم أقصر؟ قالوا: بل أقصر، قال: «حلالها حساب، وحرامها النار».

وعنه أيضًا: قالوا: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا؟ قال: «وما أصف لكم من دار؛ من صحّ فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار».

وروي عن يونس بن عبيد، قال: «ما شبّهت الدنيا إلا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه».

وقال الحسن بن علي: «الدنيا ظل زائل».

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا كانت الآخرة في القلب: جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب، لم تزحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة».

وقال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعيد يقول: «والله لكفى به ذنبًا، أن الله تعالى يُزهدّ في الدنيا ونحن نرغب فيها، فزاهدكم راغب، ومجتهدكم مقصّر، وعالمكم جاهل».

واعلم أنّ شرور الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرّت يومًا أو أيامًا ساءت أشهرًا وأعوامًا، وإن متّعت قليلًا منعت

طويلاً، وما حصل للعبد فيها فرحاً وسروراً إلا خبأت له أضعاف ذلك ترحاً وشروراً»^(١).

الدنيا لا تدمر جميعها :

فهذهنا تنبيه لا بد منه، فاعلم-رحمني الله وإياك- أن الدنيا لا تدمر جميعها، فالله تعالى قد اختارها لنا، وجعلها بيتاً نذكره فيه، وتذكراً نذكره بها، وأمداً نسير فيه إليه، ووقتاً نحياه في طاعته وعبادته، وميداناً لنا لمجاهدة عدوه، وقد ملأها تعالى بالخيرات والمباحات والمعينات على ذكره وشكره وحسن عبادته، ولكن المذموم منها هو ما ألهى عن الله تعالى والدار الآخرة، أو أوقع في مهالك غضبه ومواضع سخطه تعالى وتقدس، إما من فضولها الملهي، أو فتورها المطغي، أو محرمها المفسد.

فالمؤمن العاقل الفطن الحكيم هو من يجعل الحياة الدنيا شاهدة له بالطيب والخير، ومنشورة له بالصلاح والاستقامة، ومكتنزة له بالثواب والأجر.

فالدنيا طيبة لأهل الطيب، خيرة لأهل الخير، معونة على البر لأهل البر، وقد أحب منها نبينا ﷺ النساء والطيب والحلوى والعسل واللحم واللبن وغيرها.

فالعاقل هو قد اتخذها ممراً لرضوان ربه، ومعبراً لفلاحه، ومُتَزَوِّداً لسعادته في منقلبه، ويحرس قلبه من ديب حُبِّ حَبِّ الحرام، بما حرّمه ربّه من شهواتها، دون ما أباح وأنعم وأكرم، بتوسط واعتدال وعقلٍ وحزم.

فالله تعالى قد ابتلاه بها حتى ينظر كيف يعمل، وتدبر راشداً قول ربك الأعلى

(١) تسليّة أهل المصائب، للمنبيجي ٢٤٣/١ بتصرف يسير.

في بيان حكمة خلقك وجعلك خليفة من قبلك: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. وسلَّطه على الدنيا وسلَّط الدنيا عليه، فالدنيا مجرد محل ابتلاء، فيها خيرات وفيها شرور، وكلُّ ينال منها ما يوافق طبيعته ومعدنه وحقيقته، فأهل السعادة يتناولون منها الطيبات والمعينات على مرضي خير البريات، فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، وبضدِّهم ما كان بضدِّهم، والله المستعان.

والله تبارك وتعالى يقول في محكم تنزيله وصادق قيله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وروى أبو نضرة قال، قال رجل منا يقال له جابر أو جوير. قال: أتيت عمر بن الخطاب وقد أُعطيت منطقاً، فأخذت في الدنيا فصغرُتها، فتركُتها لا تسوى شيئاً، وإلى جنبه رجل أبيض الرأس واللحية والثياب، فقال: كلُّ قولك مقارب إلا وقوعك في الدنيا، هل تدري ما الدنيا؟ فيها بلاغنا، أو قال: زادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجزى بها. قلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: «هذا سيّد المسلمين أبي بن كعب»^(١).

(١) الأدب المفرد ٤٧٦ و«المستدرک» (٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥) وطبقات ابن سعد ٣ / ٢

٦٠ وقال السيوطي في اللآلئ المصنوعة: ١ / ٤٤٨: «إسناده لا بأس به، وله طرق عديدة». وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد لجهالة «جابر أو جوير». قلت:

فالزهد المشروع هو زهد نبي الله ﷺ وأصحابه، فهو المعيار الوحيد الصحيح، وهو التطبيق العملي للوحي المنزل كتاباً وسنة، لا زهد من جاء بعدهم ممن لم يسلموا من تنطع وزيادة وتحجير واسع.

وبالجملة؛ فذم الدنيا المحمود: إنما هو لما فيها من إلهاء عن الآخرة، أو تقحُّم حُفْرِ النار، وليس بتحريم الطيبات، ومشاقَّة الشرع الحنيف، فتحريم الحلال شنيعٌ كتحليل الحرام، فكلاهما تبديلٌ للشرع، وتقدُّم على المُشرِّع عز وجل ولو بلسان الحال، وقد قال رب العزة تبارك وتعالى متوعداً وناهياً: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

علماً أنَّ التقلُّل من الدنيا، والتَّخَفُّف من أثقالها اختياراً، وطلباً للسلامة والعافية، واغتناماً للراحة منها هنا، ومن أحمالها هناك: ليس مما نحن بسبيله في شيء، فالزهد الحقيقي في الدنيا هو ترك كل ما ألهى عن الآخرة، أما الورع فهو ترك ما تُخشى عاقبته في الآخرة، كما حققه تقي الدين رحمه الله تعالى، وكلاهما عملاَن شريهان وعبادتان عظيمتان.

فالزهد في الدنيا وإيثار الآخرة ولا يتنافى مع أكل الطيبات وكسبها؛ لأنَّ الزهد المشروع إنما هو بجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فمن كان كذلك فقد حقق الزهد فيها بحمد الله تعالى.

والخطب يسير، فمعنى المنقول صواب، سواء صح أم لم يصح، وهو من قبيل الموقوفات لا المرفوعات، وقد جرت عادة الأئمة على التسامح في مثل ذلك.

والمقصود؛ أنَّ الصبر مطيَّة الزهد في الدنيا، ومركوب السير الطيب للآخرة، فلا بلوغ ولا سلامة ولا نجاة من تزيين الشيطان مُحَرَّماتها، وتسويله تناول مسمومٍ مشتهياتها إلا بمعونة من الله تعالى بتصبير عبده ووليه، والمحفوظ المعصوم المحروس هو مَنْ حفظه الله تعالى وعصمه وحرسه.

إذا لم يكن للأمر عندك حيلةٌ ولم تجدي بُدًّا من الصبرِ فاصبرِ

ثالثاً: اليقين:

اليقين جبل الإيمان الراسخ، ومن دعائه ﷺ في سؤاله ربه تعالى: «ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»^(١).

واليقين هو الذي سبق بالصديق رضي الله عنه. قال أبو بكر بن عياش رحمه الله: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، وإنما سبقهم بشيءٍ وقر في صدره». قال ابن تيمية: «حصول اليقين يكون بثلاثة أمور: تدبر القرآن، وتدبر الأنفس والآفاق، والعمل بالعلم».

وإذا كان الإيمان تصديقاً خاصاً وإقراراً؛ فالثقة بالله هي أصله وصلبه، فعلى أساسها يقوم بنيانه. وكل آية إيمانٍ مهما تصرفت فهي متضمنة للثقة بالله سبحانه، فالثقة حركة، واليقين قرار وسكون.

وبالجملة؛ فالمبتلى في دنياه إن رزق الثقة فلا عليه ما يفوته من الحطام، وليعلم أنَّ الفرج أقرب له من مارٍ أنفه، وكفى بالإيمان حظاً، «ألا ترضون أن يذهب

(١) الترمذي (٣٥٠٢) وقال: حديث حسن غريب. والنسائي (١٠٢٣٤)، والطبراني في الدعاء (١٩١١) وحسنه الألباني.

الناس بالشاة والبعر، وتذهبون بالنبي إلى رحالكُم»^(١).

ولم تُخْلَقْ لتعمُرْها ولكن لتعبرُها فجِدَّ لِمَا خُلِقْتَ
وإنْ هُدِمَتْ فزِدْها أنتَ هدمًا وحَصَّنْ أمرَ دينك ما استطعتا
ولا تحزن على ما فات منها إذا ما أنتَ في أحرّاك فُزْتَ

وليس على المؤمن أن يتمنى البلاء، بل عليه أن يسأل الله العافية، فإن نزل بلاء
صَبَرَ ورضيَ وحمد وشكر، فهو متوكل على ربه وراضٍ عنه قبل وقوع البلاء وأثنائه
وبعد زواله، لا تزيده الابتلاءاتُ إلا يقينًا، ولا المصيباتُ إلا صبرًا، ولا المسرات
إلا شكرًا وزهدًا، وهو على الدوام يسأل ربّه عونَهُ وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف
وعده بإجابة من دعاه. وفي دعائك ربّك: لا تنس لا تنس لا تنس: اليقين.

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضا وقت السعة والرخاء يكون كذلك
وقت الضيق والشدة، فالنية قُلْبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزّب، والعزيمة
تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودع نفسك
ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

ولمّا بثّ الله الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء
الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكِرٍ صابرٍ حامدٍ شاكرٍ تائبٍ مستغفرٍ.

واعلم أنّ للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضا بالله تعالى،
فاغمسْ كلّ همّ لك في بحر الرضا بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام.
فليس مرادّه أن يُعذّب، ولكن يَتَلَي لِيُهَذَّب.

(١) البخاري (٢٠٠/٥) ومسلم (١٠٨/٣).

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

واعلم أن قدرك إن لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحق وما سواه باطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلُّجُعَىٰ﴾ [العلق: ٨] فمهما سلكت من دروب الحياة خيرًا أو شرًا، سرورًا أو حزنًا، صحة أو سقمًا، شوقًا أو خوفًا؛ فإليه وحده المنتهى.

واحمد الله تعالى، واشكره كثيرًا على أن فضلك على غيرك تفضيلًا بالعلم به، والفرح به، والأنس به، في وقت ترى فيه من يفر من الله حال شدته وكرهته، فلا يفرع للصلاة والدعاء، بل لسفر، أو لهو، أو مسكر، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولا تقل ليس معي أحد إذا كان معك الأحد الفرد الصمد، ومن لذائد النفوس الاكتفاء برب البرايا والنفوس.

وأنفع طعام للقلب هو جرعة من الاكتفاء بالله تعالى.

وإن القلب إذا استشعر كبر ربه تعالى؛ صغر على إثر ذلك كل شيء، وإذا تذكر جلاله هانت في عينه كل جليلة، وإذا تذكر قدرته علم أن الخلائق ليسوا بشيء، وإذا تذكر غضبه وشدة عذابه ونفوذ مشيئته اشتد خوفه من أخذه وعقوبته، وإذا تذكر مننه وآلاءه بجانب تفريطه وتقصيره واقتراه عظم حياؤه من لقائه، حتى إذا انفلق فؤاده وانصدع صدره خوفًا من ذنوبه، وأظلم باله فرقًا من سوء منقلبه؛ تذكر سعة

رحمة أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ومن كتب على نفسه الرحمة، ومن وسعت رحمته كل شيء، ومن سبقت رحمته غضبه؛ فراقت حينها حياته، وتنهت أنفاسه، وانبلجت أساريره، واندفعت في قلبه سعادته، وفرح بربه كل الفرح، وارتاح شيئاً من قلق الدنيا وخوف الآخرة، وأحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر سواه، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر»^(١).

وتدبر قول الخليل عليه السلام لأبيه صانع الأصنام: ﴿يَأْتِيَنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥] ففيه سعة رحمة الله تعالى، فمن عذب غداً من ﴿الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥] الذي هو أرحم الراحمين، وأرحم للمرء من نفسه ومن والدته؛ فهو غير حقيق بأية رحمة. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتدخلن الجنة كلُّكم إلا من أبى وشرّد على الله شراد البعير»، قيل: يا رسول الله؛ ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ فقال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار»^(٢).

فأقبل واقبل وافرح واسعد وابتهج، وإياك والإباء والشرود. وأحسن الظن بربك، وحاسب نفسك لا تنزل بك عن مقامات العالمين بالله رب العالمين. قال

(١) نقله عنه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، (١/ ٧٧) (٦٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٨٢) مطولاً باختلاف يسير، وابن عدي في الكامل (٨١/ ٦)، والحاكم (١٨٤) باختلاف يسير، وقال الحافظ في الفتح ٢٦٨/ ١٣: إسناده على شرط الشيخين وله شاهد. وبنحوه عند أحمد ٣٤٣/ ١٤ وقال عنه الأرنؤوط: سنده حسن.

ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «أحرص أن ترحل عنك أيام البلاء إلى أرض الجزاء مادحة لا قادحة، واعلم أن للبلايا أوقاتاً ثم تنصرم»^(١).

يا صاحب الهمَّ إنَّ الهمَّ منفرجٌ أبشـر بخيرٍ فإنَّ الفارج الله
اليأسُ يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسنَّ فإنَّ الكافي الله
اللهُ يُحدثُ بعدَ العسرِ ميسرةً لا تجزعنَّ فإنَّ القاسمَ الله
إذا بُليت فثِقْ باللهِ وارضَ به إنَّ الذي يكشفُ البلوى هو الله
والله ما لك غيرُ الله من أحدٍ فحسبُك الله في كلِّ لك الله

رابعاً: الذكر:

الذكر للإيمان كالماء للسّمك، فلا قيام للدين إلا بذكر يبيّنه ويغذوه ويجرسه يقوّيه، وتأمّل كيف قرن الله تعالى بين الذكر والثبات في القتال الذي يتطلب أعلى درجات الصبر وأشدّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

إن دوام الذكر يسكب في القلب على المدى الطّمانينة وأفياء السكون ودفع الأمان، ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وإنّ من أعظم أسباب التوفيق - ومنه التوفيق للصبر -؛ دوام ذكر الله تعالى، فالذكر يملأ فراغ القلب بتعظيم العظيم، ويشغل اللسان بالأمر العظيم، حينها يرى صاحبه نفاسة عمره فيحفظه، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(١) وقد أفردت لليقين كتاباً خاصاً مستقلاً في هذه السلسلة لأهميته.

ولما شكى أحدهم إلى الحسن رحمه الله تعالى قسوة قلبه قال: «أَذْبَهُ بِالذِّكْرِ». وقال: «إذا لم تجد اللذة في ثلاث فاعلم أن الباب مغلق؛ في الصلاة، والقرآن، والذكر»^(١). وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «كلما ازداد المرء ذكراً لله ازداد له محبة»^(٢).

والذكر هو اتصال البال بالله تعالى بأي وجه كان، بالقلب: تذكُّراً وتفكُّراً واعتباراً، وباللسان: بالقرآن والأذكار وقول الخير، وبالأفعال الشرعية. وللذكر مراتب وتفاضل في أنواعه: وأفضلها القرآن والتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والاستغفار والدعاء، وفي أحواله: وأشرفها السجود، وفي أزمنته: وأطيبها السحر وعشية الجمعة وعشية عرفة، وفي أمكنته: وأجلُّها بيوتُ الله وعرفة في يوم عرفة.

والدين كله ذكرٌ، وضدُّ الذكر الغفلة. ولا غنى لمؤمن عن ذكر ربه، وكلما رغب في الآخرة اغترف من بحر الذكر العظيم.

وإنَّ من حقوق العلم مهما قلَّ الدعوة إلى الله تعالى به، ولا بد للداعية من ذكر ربه على الدوام، والله تعالى لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون أوصاهما بلزوم الذكر فقال: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] أي ولا تضعفا عن مداومة ذكري.

(١) أبو نعيم في الحلية (٦ / ١٧١، ١٠ / ١٤٦).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (٥ / ٢٠٥).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قُوَّتُهُ فِي جَسَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُوَّتُهُ فِي عَقْلِهِ، وَخَيْرُهُمْ مَنْ كَانَتْ قُوَّتُهُ فِي قَلْبِهِ.

وَهَاكَ وَصِيَّةٌ تَخْتَصِرُ لَكَ وَصَايَا السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِابْنِ الْفَرَخِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِيَكُنْ هَمُّكَ مَجْمُوعًا فِيمَا يُرْضِي رَبَّكَ، فَإِنْ اعْتَرَضَ عَلَيْكَ شَيْءٌ فَتُبْ مِنْ وَقْتِكَ».

وَقَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلَّ يَوْمٍ تَحْضُرُ مَجْلِسَ الذِّكْرِ يَقِفُ لَكَ الشَّيْطَانُ عَلَى الْبَابِ، فَإِذَا خَرَجْتَ كَمَا دَخَلْتَ قَالَ: فَدَيْتُ مِنْ لَا يُفْلَحُ. فَيَا صَبِيانَ التَّوْبَةِ: هَلَا لَكُمْ خَفِيٌّ، فَدُومُوا عَلَى الْمَعَامَلَةِ يَصِرْ بَدْرًا، وَلَا بَدَّ مِنْ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥]. دَبَّرَ دِينَكَ كَمَا تَدَبَّرَ دُنْيَاكَ، وَلَوْ عُلِقَ بِثُوبِكَ مَسَامَرٌ رَجَعْتَ إِلَى وِرَاءٍ لَتَخَلَّصَهُ، فَهَذَا مَسَامَرُ الْإِصْرَارِ قَدْ نَشَبَ بِقَلْبِكَ، فَلَوْ عُدْتَ إِلَى النَّدَمِ خَطَوَتَيْنِ لَتَخَلَّصْتَ. يَا مَقْهُورًا بِغَلْبَةِ النَّفْسِ، صُلِّ عَلَيْهَا بِسُوطِ الْعِزْمِ، فَإِنَّهَا إِنْ عَرَفَتْ جِدَّكَ؛ اسْتَأْسَرَتْ لَكَ. امْنَعَهَا مَلَذُودَ مَبَاحِهَا؛ لِيَقَعَ الصَّلَاحُ عَلَى تَرْكِ الْحَرَامِ».

وَمَا أَجْمَلَ مَا كَتَبَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: «كَأَنَّكَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ، وَبِالْآخِرَةِ وَلَمْ تَزَلْ، وَالسَّلَامُ». نَعَمْ، فِدْكَرُ الْمَوْتِ كَفِيلٌ بِإِذَابَةِ أَعْتَى مُحَرَّمَاتِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَوْعِدَهُ؛ كَانَ حَرِيًّا بِالتَّجَمُّلِ لَهُ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ.

خَامِسًا: التَّجَرُّبَةُ:

وَهِيَ الْبَذْرَةُ الْأُولَى لِلتَّعَلُّمِ الْإِنْسَانِي، فَالطِّفْلُ يَتَعَلَّمُ وَيَكْبُرُ بِالتَّجَرُّبَةِ، وَلَا يَزَالُ فِي غَمَارِ حَيَاتِهِ يَجْرِبُ وَيَسْتَفِيدُ مِنْ خُبْرَةِ تَجَرُّبَتِهِ، كَذَلِكَ الصَّبْرُ يَتَجَرَّعُ مَرَارَتَهُ رَاضِيًّا حِينَمَا يَرَى لَذِيذَ ثَمَرَتِهِ وَحَسَنَ عَاقِبَتِهِ.

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مَرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

والعلمُ أمانةٌ، والكلمةُ أمانةٌ، والنصحُ أمانةٌ، والتجربةُ أمانةٌ، والدعوةُ إلى سبيلِ الله أمانةٌ. ولكُلِّ أمانةٍ غداً من الديانِ طالبٌ.

وإن من ضعفِ الحكمة، وضيقِ الأفق؛ قلةُ التجربة، وليس الحزم إلا بالتجاربِ.

والحكمة منها ما هو فطري جبلي ومنها ما هو مكتسب مُتعلَّم، قال الحكيم سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٩٦] قال مالك رحمه الله تعالى: «وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمرٌ يُدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك؛ أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتیه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله»^(١).

وقد يضيق الصدر أحياناً لضيق الأفق، فابحث عن مُتنفّسات نقيّة أخرى لبصيرتك.

ولا تُقرّر وأنت في فورة الغضب، ولا تُعدّ وأنت في نشوة الفرح، فالعقل يهتز حينها شيئاً.

وتلمّس الحكمة وتتبعها واصبر على مرارة تجرّعها. واعلم أن الفرق بين الحكمة والذكاء والدهاء: أن الحكمة ذكاءٌ أُفقيٌّ ففيها السعة والشمول والتجربة، والذكاء نفوذ تصورات بارعة بشكل رأسيٍّ، أما الدهاء فذكاء بمكر.

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٠٠).

أَصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْإِدْلَاجِ بِالسَّحْرِ وَبِالرَّوَّاحِ عَلَى الْحَاجَاتِ وَالْبُكْرِ
إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةً الْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُطَالِبُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَارَ بِالظَّفَرِ

قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما طلب أحدٌ شيئاً بجَدٍّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كله نال بعضه»^(١).

نعم؛ فمن شَغَفَ بشيء أَوْقَى سِرَّةً، فما بالك بالعلم والإيمان والعبادة، اللهم من فضلك العظيم يا وهاب يا كريم.
يا صاحبي إن جُزْتَ قَبْرِي هَائِماً فانصَحْ لِنَفْسِكَ واعتبر بتجاربي

سادساً : التَّعَوُّدُ :

النفس موافقة لما اعتادته، فالعادة حينها تكون حسنة هي من أكبر العون على الصبر لله تعالى، وحينها يسهل على النفس ركوب رواحل الصبر وقلائص المصابرة لأنها معتادة عجاج الصعاب أليفة لمكابدة المشاق. وكلُّ امرئٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدَا.

وإنَّها الأخلاق بالتخلُّق حتى وإن كان الطبع راسخاً، فمع الاستعانة بالله تعالى، ودعائه، والمجاهدة للنفس، وطول المدى؛ يسهل الأمر بإذن الله عز وجل.
ولا شكَّ أنَّ الأمر يستحقُّ فبادر أيها الخلق. واعتد طريق الخير؛ يكن لك طبعاً وراحة وِسْمَةً وجِلَّةً، فمن اعتاد شيئاً تطبَّع به، وازداد منه، وثبت عليه، قال

(١) نقله الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٧٩/٢

ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَعَوَّدُوا الْخَيْرَ، فَإِنَّ الْخَيْرَ عَادَةٌ».

وَإِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقَبِيحِ فِعَالُنَا فَمَنْ التَّقِيَّ وَأَيُّنَا الزَّنْدِيقُ

ومن محاسن النفس الإنسانية ضبط وزن ساعتها البيولوجية، ومن ذلك أنها إذا عُوِّدَتْ الاستيقاظ في ساعة معينة لبضعة أيام؛ فإنها تستيقظ لاحقاً بالتدريج في نفس التوقيت بلا منه. والغالب أن الأمر تبدئاً ملاحظته بعد ثلاثة أيام.

ولقد قيل: يومك مثل جمالك، إن أمسكت أوله تبعك آخره. وتذكر أن كل

قبيح يتلاشى مع التعود، حتى قبح المعصية!

وقال موسى بن عبد الله بن علي بن أبي طالب:

إِذَا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلِّ مَا تَكَرَّهْتُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِي عَلَى الدَّهْرِ
إِلَى اللَّهِ كُلُّ الْأَمْرِ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ وَلَيْسَ إِلَى الْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ
تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفُتُهُ وَأَسْلَمَنِي طَوْلُ الْبَلَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلْأَذَى الْأَنْسُ بِالْأَذَى وَإِنْ كُنْتُ أَحْيَانًا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
وَصَيَّرَنِي يَأْسِي مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا لِسُرْعَةِ لُطْفِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي (١)

سابعاً: المحاسبة:

نحن بشر، خُلِقْنَا مِنْ ضَعْفٍ وَعَجَلَةٍ وَطَمَعٍ، لذا؛ فقد ينفلت زمام الصبر جرّاء استفزاز حدث ما، أو استعجاله، أو التوقُّ لتحصيله، فالإنسان ضعيف بطبعه، قليل الحيلة، واهنُّ الصبر إلا من صبره الله تعالى، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة ضعف كبح جماح النفس الغضوب أو الشهوانية أو العابثة أفضى به

(١) زهر الأداب وثمر الألباب (١ / ٩٥).

ذلك إلى العطب والتلف أو كاد، والمرحوم من رحمه مولاه، والخائب من خذله الكريم ولم يرحمه الرحيم، ولا إله إلا الله العلي القدير الحكيم العليم الرحيم العظيم.

وإن من الأسباب الجوهرية الجالبة بإذن الله تعالى للصبر، وهي نابعة من الثقة بوعده الله تعالى: المحاسبة الجادة للنفس، ففي الدنيا دخانٌ وغينٌ يحيط بالقلب، ولا تكاد النفوس تسلم منه، فتقع في غفلةٍ وركونٍ إلى الخسار وإخلاقٍ إلى الأرض، فإنَّ وفقَّ الله عبده للمحاسبة؛ استيقظ ونفض عن بصيرته وقلبه غبار الغفلة وقتار الظلمة. ولقد تكلم أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ في مداواة النفوس عن تغلبه بعد مجاهدة شديدة على طباعه السيئة من الحقد والشهوة وغيرهما حتى ترقى بها للطمأنينة والسكينة، فالأمر في متناول مَنْ وفقه الله. وربنا تعالى يعد من جاهد فيه بالهدى والمعية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فلا بد من المحاسبة الصادقة للنفس. ومن ذلك الحرص على تنقية ثوب إيمانك من درن المعاصي، فلا بد من محاسبة النفس بدقة وحزم وبصيرة وحكمة، وتجديد التوبة على الدوام، فالتوبة تجب ما قبلها، والإسلام يهدم ما قبله.

فلا بد للمؤمن من تجديد توبته وتعاهدها حتى يستحق خلع العبد التائب من الرب التَّوَابِ جل وعلا. ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومن فقه الأسماء الحسنی: أن اسم التَّوَابِ متضمنٌ لأمرين: توفيقُ الله تعالى

عبده للتوبة أولاً، ثم قبولها منه ثانياً، فله الفضل في الأولى والآخرة وفي الأمر كله جل جلاله وتقدّست أسماؤه، كذلك يتضمن اسم الغفور أمران: السّتر والتجاوز، كما يتضمن اسم الحكيم أمران: الحكمة والحكم.

وإنّ تلك المعصية مهما تزيّنت لك، فلا بدّ أن تأتيك ساعة تتركها تائباً أو عاجزاً، بسقم، أو فقر، أو عجز، أو وفاة. اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

والنفس - فاعلم - حُرُونٌ شُرُودٌ، تقوى عند المعصية وتضعف عن الطاعة، فلا بدّ لها من مجاهدة بالعلم والعقل والإرادة بعد الاستعانة لها بمولاها الذي بيده ناصيتها. ومهما يكن حال إيمانك؛ لا تنس نصيبك من الليل.

واعلم أنّ الاستغفار حافظٌ خير الدنيا، جلابٌ خير الآخرة. وقيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه، ثم يعود، ثم يستغفر، ثم يعود، فقال: «ودّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه». فالإيمان والاستغفار قرينان.

قال شيخ الإسلام: «قوام الدين بالتوحيد والاستغفار، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]». وقال أيضاً: «التهليل يمحو أصول الشرك، والاستغفار يمحو فروعه»^(١).

هلا تأمل الأخيار قول ربهم: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ [البقرة: ٧٤] عن ذنب طال به الزمان، أو زلّة صغرت بين ثنايا طاعات، أو ركوب تأويل زيّته النفس الأمّارة، أو

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٦٩٧).

طاعة صادقة!

ولا تحرم نفسك - رحمك الله - من لحظات صفاء وهنيها صدق، تُرَمِّمُ ما
تهاوى منها، وتجهزها لدار قرارها الأبدى بكل ما أوتيت من عزم وإرادة. وحرك
قلبك كثيراً بتريد: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه
خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

ويا أبا الإيمان: أنت بين ذنبين: ذنبٌ تذكره، وذنبٌ قد نسيته، فجدد توبتك
دوماً، وأكثر من الاستغفار بخشوع. قال ابن عون: «لا تثق بكثرة العمل؛ فإنك لا
تدري أيقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك؛ فإنك لا تدري كُفِّرَتْ عنك أم لا، إنَّ
عملك مُغَيَّبٌ عنك كله».

ويا من كان له قلبٌ فانقلب، وحالٌ فاستحال: أَبْصِرْ ثم أَقْصِرْ ثم أَبْشِرْ بفتح
الباب للتائبين المدجلين، فَلِجْه محسناً ظنك بمن يحب التوابين، فالحق برُكبهم، وكُنْ
في معيَّتهم، ولا تستوحش فلا زال في الصدر خير ما دام فيه نفسٌ بين الحنايا يترددُ،
وتذكر أيامك ولياليك التي كنت فيها قريباً من ربك.

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كِبْدِي من خشية أن تصدعا
وفرُق بين الحب الصادق والحب الكامل، فكلُّ المؤمنين يحبون الله حباً
صادقاً، ولكن الشأن في كماله، فلو كُملَ الحب؛ لاستقام القلب تماماً.

وطهارة القلب ذاتية، عصية على التدنُّس، وثمة طهارة مكتسبة، فاعمل كثيراً
كثيراً لأجلها، فالأمر - وربِّي - يستحق! فقد تدرك يوماً منزلة أن يحبك الله تعالى،
حينها لا تسل عن كل نعيم وبهجة وسعادة في انتظار قدومك عليه.

وإنَّ خاصيةَ الوقت والعمر أنَّ ما مضى منه لا يعود. لكنَّ اللطيف سبحانه فتح لعبده بابًا يستطيع أن يلج منه ليغيِّر أثرَ السُّوءِ في ماضيه، إنَّه باب التوبة! ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فمن لم يكُ تائبًا فليس بمفلح.

ومن المحاسبة النافعة؛ حراسةُ زاد الآخرة قبل الرحيل الأخير. وقد بكى النَّخعي رَحِمَهُ اللَّهُ عند الموتِ وقال: «أَنْتَظِرُ رَسُولَ رَبِّي وما أدري أَيُّشْرُني بالجنة أو النار». وقال عبد العزيز بن أبي رواد: دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: أوصني. فقال: «اعمل لهذا المضجع»! (١)

وإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنك بعدها محمولٌ فيا صاحبي عليك بالعبادة، واعلم أنها أمنيَّة الموتى، فبادر قبل أن تغادر. ولما رأى الحسن جنازة قال لمن معه: «أرأيتك هذه هذا المحمول جنازة لو عاد للدينا فما هو فاعل؟» فأجابه الرجل: ليطيعنَّ الله حقًّا، فقال: «فإذا لم يكن هو، فكن أنت». وكانت في حياتك لي عَظَاتٌ فأنت اليوم أوعَظُ منك حيًّا وحينما ترحل للآخرة يبكي الناس على فوات حظهم منك، والقليل من يبكيك لنفسك، فاغنم أولئك القلَّة، واعمل على أن ترحل بسلام لدار السلام بجوار السلام.

وشيع الحسن جنازة فجلس على شفير القبر فقال: «إنَّ أمرًا هذا آخره؛ لحقيقٌ

(١) المجالسة (٢٩٦/٢).

أن يُزهد في أوله، وإن أمراً هذا أوله؛ لحقيق أن يُخاف آخره». وأوصى أحدُ المُحدِّثين ابنه عند احتضاره بقراءة أحاديث الرخص ليُحسن الظن بربه، «أنا عند ظن عبدي بي»^(١).

فيا صاحبي: أوصي نفسي وإياك بالاهتمام الشديد بغذاء الروح، فغذاء الروح أهم وأخطر من غذاء الجسد، والروح تطيبُ وتخبث بحسب غذائها كالجسد، بل أشد. وأمرُ الروح عجيب، فحيناً يُرفرف بشفافيةٍ وسموٍ ونقاءٍ وطهرٍ حتى كأنها يرى الجنة، وأحياناً يتكثف حتى يكون أصلد من الصَّوان، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

والسعيدُ من ولد آدم من أطعم روحه الإيمان، وقلبه ولسانه الذكر القرآن، وجوارحه صالح الأعمال. وحينما اشتكى أحدهم لشيخه أن في قلبه ذبَّان يقتتلان، أحدهما أبيض طيب والآخر أسود شرير، فأَيُّهما سيغلب؟ فأجابه الفقيه الحكيم: «سيغلب مَنْ كنت تُطعمه منهما».

ومن وجد نافذةً من قلبه إلى ربه فليصُنَّها عن عاديّات الشياطين، فقد تُغلق عليه حين تشد فاقته لعصمة ربه، والموفق من هداه الله. وتأمل أيها الراحل حديث رسول الله وخليله وكليمه ﷺ الذي قاله قبل موته بثلاثة أيام: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»^(٢). تأمله ملياً، ففيه من ذخائر انشراح الصدر وبحور إحسان الظن بالله ما لا يحصى، فهي وصيةُ المشفق المحبِّ الراحل إلى مَنْ

(١) البخاري ١٤٧/٩ (٧٤٠٥) ومسلم ٩١/٨ (٢٦٧٥) (١).

(٢) مسلم ١٦٥/٨ (٢٨٧٧) (٨٢).

لم يأت الخير إلّا منه تبارك وتعالى.

فليست لنا أعمالٌ تؤهلنا لدخول الجنة، لكن لنا ربٌّ يستحقُّ أن نحسن الظن به بكل إحسان الظن، وهو عند ظنّ عبده به فليظن به ما شاء. فحسنُ الظن بالله هو مستودع السعادة، وإكسير التوفيق، وينبوع الانشراح.

ومن اطمأنت نفسه بالقرب من ربها الآن؛ اطمئنت عند رحيلها إليه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

واعلم أن إحسان الظن شيمة المؤمنين، ولا يمنع هذا من الاحتراز والحذر في مقام ذلك، ومن الشدّة والتفتيش عند الشبهة، ولكن في الجملة وعند السلامة العامة فعليك بحسن الظن، فهو القاعدة، أما سوء الظن فهو الاستثناء بقدره لمن كان حقيقاً بذلك من أهل السوء والشر.

ومن أحسن الظن استراح، فما يضرّك لو أحسنت الظن بالناس، فإن أصاب ظنك فهذه شيمتك قد صدقها ذلك الإنسان، فحمدت حسن ظنك، وسلمت من عاقبة الخطأ في ذلك، أما إن لم يكن كذلك فأنت تعلم قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

أما من جهة إحسان الظن بالله تعالى، فكيف لا نحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلّا منه، ولا يدفع الشر سواه، وكيف نقلق من مستقبل يصنعه لنا الله الرحمن الرحيم، الذي كتب على نفسه الرحمة، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، ومن علم أسماءه وصفاته استقر قلبه على السكينة والفرح والشوق والإيمان، والحمد لله

رب العالمين.

ثامناً: تدبر القرآن:

وهو من أنجع الأمور على الاصطبار، ذلك أن الله تعالى قد جعل كلامه شفاء تاماً كاملاً للمؤمنين ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] و«من» هنا بيانية ليست تبعية ولا ابتدائية فالقرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين. ومن شفاء القرآن العظيم شفاء النفوس المريضة بضعف الإرادة ووهن العزيمة وصغر النفس فيداويها لتكون عظيمة عزيزة منيعة على الخور والوهن المشبط عن معالي أمور الآخرة والدنيا.

وإذا كان النبي ﷺ لا يستقل بتثبيت نفسه على صراط ربه فما بالك بمن سواه! قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَكِدْتَ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فالمعول على توفيق الله وتسديده وحفظه، فاسأله الثبات وخذ بأسبابه ومن أعظمها الصبر لله وفي الله والله. والحياة الدنيا محوطة بابتلاءات لا تنتهي إلا بالرحيل للآخرة مهما كان مكانه وزمانه وحاله، فحريّ بالمؤمن أن يولي مسألة الثبات على الحق عنايته الكافية الدائمة، وتأمل أنك تسأل الله تعالى في كل ركعة ذلك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي أرشدنا إليه بالعلم، ووفّقنا له بالعمل، وثبّتنا عليه حتى نلقاك به. وجميل أن يكون لحياتك هدف تسعى لتحقيقه، والأجمل هو أن يكون الهدف مرضاة الله تعالى، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]

واثبت ثبات الرواسي الشاخات ولا تركز إلى فشل في ساعة الوهل

وَكُنْ كَرَضَوَىٰ لِمَا يَعْرُوكَ مِنْ نُوبٍ وَلَا تَكُنْ جَازِعًا فِي الْحَادِثِ الْجَلِيلِ
 أَنَّ مِنْ الْمِهْمَاتِ الْكُبْرَى لَطَالِبُ الْعِلْمِ وَمَجْتَهِدُ الْعِبَادَةِ: مَسْأَلَةُ الثَّبَاتِ عَلَى
 الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالتَّعْلِيمِ، فَالذِّكَاءُ وَحَدَهُ لَا يَكْفِي لِلتَّحْصِيلِ الْكَافِي،
 وَلَا التَّلَمُّذُ عَلَى الْأَكَابِرِ يَكْفِي، وَلَا صَرْفُ بَضْعِ سَنِينَ كَافٍ، بَلْ لَا بَدَّ - بَعْدَ تَوْفِيقِ
 اللَّهِ تَعَالَى - مِنْ أَنْ تَتَضَحَّ لَدَيْكَ الصُّورَةُ الَّتِي تَرِيدُ أَنْ تَكُونَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ أَوَّلًا، فَلَا بَدَّ
 مِنْ وَضُوحِ الْهَدَفِ كَيْ تُحَسِّنَ السَّيْرَ وَلَا تَنْقَطِعَ، وَبَعْدَ وَضُوحِهِ عَلَيْكَ بِالْجِدِّ فِي
 تَحْصِيلِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ بَغَيْرِ ثَبَاتٍ عَلَى سَاقِ الطَّلَبِ، وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنَ الْأَذْكَيَاءِ
 انْقَطَعُوا قَبْلَ الْوَصُولِ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ فَهِيَ مَلُولٌ وَنَزَاعَةٌ إِلَى
 التَّغْيِيرِ، ثَقِيلٌ عَلَيْهَا طَوْلُ الْمَدَى فِي الْمَسِيرِ، فَالْقَلَاتِلُ مِنَ النَّاسِ هُمْ مَنْ صَبَرُوا
 وَصَابَرُوا وَرَابَطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي مِيدَانِ الطَّلَبِ حَتَّى بَلَغُوا الرِّسْوَخَ فِي الْعِلْمِ
 وَالْعَمَلِ. فَاجْعَلْ مَشْرُوعَ حَيَاتِكَ الْأَعْظَمَ طَلَبَ الْعِلْمِ وَنَشْرَهُ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِكَ
 سَبِيلًا، وَلَا تَنْقَطِعَ وَلَا تَيْأَسَ، فَالْأُئِمَّةُ كُلُّهُمْ قَدْ مَرُّوا مِنْ هُنَا، فَكُنْ عَلَى الْأَثَرِ.

فَلَا بَدَّ مِنَ الْمَجَاهِدَةِ الطَّوِيلَةِ حَتَّى تَطْمَئِنَّ النَّفْسَ لِلْخَيْرِ، وَرَبِمَا يَحْتَاجُ التَّطَبُّعُ
 بِالشَّيْءِ لِسَنَةِ كَامِلَةٍ حَتَّى يَصْبِحَ طَبْعًا رَاسِخًا وَعَادَةً مُتَّبَعَةً، وَهَذَا شِبْهُ مُضْطَرِّدٍ سِوَا
 كَانُ خُلُقًا أَوْ خَطِيئَةً أَوْ تَوْبَةً، وَكَمَا قِيلَ: مَفَاوِزُ الدُّنْيَا تَقْطَعُ بِالْأَقْدَامِ، وَمَفَاوِزُ الْآخِرَةِ
 تَقْطَعُ بِالْقُلُوبِ.

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجَزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي وَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِي أَمْرِي
 سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّي صَبِرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَ مِنَ الْجَمْرِ

ومن أنفس الوصايا للتدبر: اقرأ القرآن وكأنك تقرأه لأول مرة في حياتك، مع تذكر أنه رسالة الله تعالى لك. وقد جربها الكثير، ونفعهم الله بها. ذلك أن معانيه متجدده وفوائده لا تنقطع، فلا يشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، يكفي أنه كلام الله رب العالمين، ﴿لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾ ٤١ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]

والإرادة إنما تُشحذ بتكرار النظر المفيد وتقليب الفكر في ثمرته وتأمل غايته، لهذا أرشد الله تعالى في القرآن كثيراً للتذكر والتفكير والاعتبار. وكلها تأمل للمستقبل على ضوء الحاضر والماضي وعبر سبر أحوال الغابرين ونهاية أمرهم، وهي الأحوال المتكررة في قوالب خَلَفِهِمْ، فسننُ الله لا تتبدل ولا تتحول، وسُنَّته تعالى في الجماعات والأمم تكون أبداً وقوعاً من سننه في الأفراد، ولعل من الأسباب أن إقامة الحجة على الأفراد أسرع، والله أعلم.

والإنسان ضعيف بطبعه، قليل الحيلة، واهنُ الصبر إلا من صبره الله، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة ضعف كبح جماح النفس الغضوب أو الشهوانية أو العابثة؛ أفضى به ذلك إلى التلف والخسار، أو كاد. فواعجباً لذلك المخلوق الصغير، ينكسر لأدنى سبب، ويضعف لأول امتحان، ويفرح ويغضب ويروح ويحيي لأتفه شيء. ألا ما أضعفك يا أيها الإنسان.

واعلم - رعاك الله - أن رسوخ العمل ليس بأقل أهمية من رسوخ العلم، فالمؤمن مفتقر إلى رسوخ قدم قلبه في رياض العبادة، فقيام الليل لا يكون إلا بمكابدة، وصيام الهواجر لا يثبت إلا بمجاهدة، ومع الدُّربة تسهل المجاهدة.

والتلاوة والأوراد ونحو ذلك من العبادات لا تدوم إلا بمواصلة خطم النفس إليها والمراقبة في حراسة جمعية القلب عليها، وكما قيل: إذا وجدت غبارًا على مصحفك فتذكر أن الغبار الذي على قلبك أشدّ. وليس السؤال: أين وصلت في القرآن، بل أين وصل القرآن من قلبك. ولما ذكر الله أهل تلاوة القرآن قال: ﴿يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] قال مطّرف: «هذه آية القراء».

وتأمل أفضل وصف لأدواء القلب، فقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصِف لي دواء؟ فقال: «لا تعصِه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل». ورأى أحدهم الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللهُ في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم تنفعنا تلك الرسوم، وإنما نفعنا ركعات كنا نقومها بالليل».

إذا ما الليلَ أظلمَ كابدوه فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُمُ فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدنيا هُجُوعُ
لهم تحت الظلامِ وهم سُجُودُ أنينٌ منه تنفِرُجُ الضُّلُوعُ

وتدبر قول ربنا تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فهي وإن نزلت في الجهاد لكنها تعم كل عمل خيرٍ سبقك إليه الأخيار الذين بعثهم ربهم له وخلفته عنه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والإشارة والإيحاء لهما اعتبارهما لدى المعتبرين المتفكرين. فاحذر أن يكره الله عبادتك، واستعذ بالله من الثاقل عن طاعته، وردد دومًا: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

واعلم أن كل تدبير الله لعبده ناشئ عن علمٍ وحكمة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ

رَبِّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٦﴾ وتأمل ذِكْرَهَا ثلاثًا في سورة يوسف عليه السلام: فقد ذُكرت في بداية القصة حين قص رؤياه على والده، ثم في وسطها الشديد حينما فقد يعقوب ثلاثة من ولده، ثم في نهايتها حينما سجد له الإخوة والأبوان بمصر، وآثر اللحاق بالصالحين.

ولقد آل أمرُ المنافقِ لأن يكون أرذل العالمين وشرُّ ولد آدم أجمعين لخيانته وكذبه في الثقة بربه ولقائه ووعده، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ] ﴿الروم: ٦-٧﴾.

وقال إبراهيم بن عبد الواحد موصيًا الضياء المقدسي لما أراد الرحلة للعلم: أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. قال الضياء: فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي.

وسبحان من جعل في القرآن عزاءً لكل أحد مهما كان نوع حزنه أو همّه أو خوفه، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فتدبر الرحمة واستنزلها وافرح بها.

ومن نارِ الألم يشرقُ الأمل، ومن ليلِ الهموم ينشقُّ ضياءُ الفرح، فيا مثقلاً بأحزانه أفق، فحُزن الدنيا لا يستحق. وتذكر قول السلف: لولا الابتلاء لارتبنا الطريق!

فعلى قدر إيمانك ويقينك بالقرآن؛ يكون انتفاعك به، وعلى قدر تسليمك

وانقيادك لهداياته؛ يكون فلاحك في الدارين. ذلك أن القرآن العظيم حقٌ مطلق لا مزية في حرفٍ منه، فحروفه ومعانيه هي من لدن حكيم خبير.

قد حَفِظَهُ من تكلّم به، وَكَتَبَ أَنَّ السَّلامَةَ والعافية مع من دار مع أمره مهما حَرَنْتَ نفسه، ووقف معه مهما جمحت، ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] لا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

وفي هذا الزمان المتلاطمة أمواجُ فتنه، أضحى الحليم حيراناً، والشجاع جبائناً، والعليم جاهلاً.. إلا من رحم ربي. ولربّما نَزَفَ دُمُ الروح نزفاً لا كنزف دم الجسد. فعلى كلّ حازمٍ مراجعة سجلات عمره، ومنهاج حياته، فالفرصة يتيمة، والمهلة لا تحتمل العود والرّجعى.

قد يَهُونُ العَمْرُ إِلَّا سَاعَةً وَتَهُونُ الْأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعًا
فَكُنْ من أهل الله وخاصّته أهل القرآن المبارك العظيم، فأَنْفُسُ ما تصدقت به على نفسك أن تُعَوِّدَهَا رياض القرآن حتى يختلط بدمك وعصبك وأنفاسك. وخيراً نفعل إن أصغينا إلى مواعظ القرآن ونصائح الزمان، ففي كُرُورِ الأيام عبْرٌ، وفي تدبّر الأحداث على ضياء القرآن هدى ونور ورشد. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «ويكره أن يؤخّر ختمة القرآن أكثر من أربعين يوماً». وقال القرطبي رحمه الله تعالى: «والأربعين مدّة الضعفاء وأولي الأشغال». فالله المستعان يا أمة القرآن! فمتى عهدك بختم القرآن العظيم؟ وهل لك وردٌ منه كسلفك الصالح؟ ألا نخجل من تلك الشكوى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنَّ قَوْمِي

أَتَّخِذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠] وكان الصحابة يُعلِّون قدر الناس على قدر حملهم للقرآن، وقال الشافعي: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ».

وإذا أردت أن تتلذذ بغروب شمس كل يوم؛ فاجعل لنفسك مع القرآن وردًا لا تخرمه ولا تتخلف عنه، فإن استطعت فاعمل بتحزيب السلف الأسبوعي. فقد كان وردهم كالتالي: ففي اليوم الأول ثلاث سور (البقرة وآل عمران والنساء) وفي الثاني خمس سور على نفس الترتيب، وفي الثالث سبع، وفي الرابع تسع، وفي الخامس إحدى عشرة، وفي السادس ثلاث عشرة، وفي السابع المَفْصَّل. فيختمون كل أسبوع، وكثيرهم يختم كل عصر جمعة، وكان طاووس رَحِمَهُ اللهُ إذا صلى عصر الجمعة استقبل القبلة ولم يكلم أحدًا حتى تغرب الشمس. والخير عادة، والنفس على ما طُبعتها عليه، فكيف إن كان القرآن الكريم؟! نسأل الله الكريم من فضله.

فهناك جَنَّةٌ لمن تفضل الله عليه تتقاصرُ دونها العبارات، وإذا لم يكن لك وردٌ يوميٌّ من القرآن؛ فلا تسلَّ عن ضيق صدرك، وتنكّد عيشك ووحشة روحك، ذلك أن القرآن حياة. وكما أن الصحراء تُعْطِشُ الحيوان فهو يرد الماء يوميًّا ليحيا، فكذلك الزمان يُعْطِشُ القلب فيحتاج أن يرد القرآن يوميًّا ليحيا. فكيف ورَدُ قلبك لماء حياته!

قال ذو النورين: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». وقال الحسن: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَرُونِ الْقُرْآنَ رِسَائِلَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهُ بِاللَّيْلِ وَيَتَفَقَّدُونَهُ بِالنَّهَارِ». أي يتعجّدون ويعملون به. وخرابٌ ذلك القلب الذي لا قرآن فيه، ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أُوْفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

وجميلة هي الاستقامة الإيمانية إذا رافقها استقامة علمية وفكرية، والقرآن فيه كل ذلك لمن وفقه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فكل داءٍ روحي أو علمي أو فكري أو نفسي أو جسدي فأصول الشفاء منه موجودة في القرآن العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن جعل نفيس وقته للقرآن؛ رأى البركة في سائر أموره. فمرّر معاني القرآن على قلبك، فنفعه حقاً حين يلامس فؤادك.

واعلم أنّ هدايات القرآن ربّانية وأخباره قطعية، فيستوي فيها الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٩] لقد كان الله تعالى هناك بعلمه وإحاطته وربوبيته، وأحكامه هي العافية للأفراد والأمم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ يُوَفُّونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويا طالب العلم: لا تتشعبن بك سُبُلُ الطلب، فسيّد العلوم كلها هو القرآن العظيم حفظاً وتفسيراً وتدبراً وعملاً ودعوة.

وكل الطرق الصحيحة لطلب العلم تبدأ وتنتهي بالقرآن العظيم، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد العلم؛ فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين». وربُّ العزة والجلال يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وتدبر: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩] بلى وعزتك.

فالموفق المريد نهضة أمته لا تتشعب به طرق النهوض بالأمّة، بل يختصر طريق إصلاحها بالرجوع للينبوع التالد الأصيل القرآن المجيد. ومن ذلك أنّ كلّ أدوات مدافعة النفاق والشرك والكفر والتغريب وغيرها من الشر موجودة بالتفصيل في القرآن العظيم، فعُد إليه وحرّك كنوزه وفُز بنفيس ذخائره، ﴿وَيَسِّرْ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وإن أردت أن تعرف حقيقة اليهود فقد بسطها الله تعالى لك في مئة وسبع آيات من البقرة (٤٠ - ١٤٦) فهي أُمَّة غريبة أطوارها، غليظة أكبادها، متين كُفْرها. وفي البقرة فضيحة اليهود، وفي المائدة فضيحة النصارى، وفي التوبة فضيحة المنافقين. ثم في بقية سور القرآن مزيد للثلاث طوائف: الغضب والضلال والفسق، فإذا اجتنبت صفات اليهود وصفات النصارى وصفات المنافقين؛ فقد اجتنبت الشر كله. ولقد فصل الله تعالى صفاتهم كي نجنبها فنكون من الحنفاء المرضيين. ومن توضيح الواضحات أنّ عدااء الرافضة واليهود والنصارى والمشرّكين لأهل الإسلام لا يزال ما بقي على الأرض مسلم، لكن معاملتهم تختلف بحسب الأحوال.

ومن حكمة المربي والعالم أن يحرص على تلقين القرآن طلابه ومُتربّيه، فعَلَّمَهُم القرآن والقرآن سيعَلِّمَهُم كل خير، ومن الموقّنين من يُذهل بعلو هَمَّتِهِ لحفظ القرآن، ومن أمثلة ذلك ما يرويهِ الشيخ فهد الحميّن رَحِمَهُ اللهُ عن نفسه مع شيخه محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، فإنّه لما رحل إليه من بلدته الزلفي طلب إليه أن ينظمه في سلك طلابه، فسأله الشيخ: هل حفظت القرآن؟ قال: بعضاً منه، قال:

أحفظه كله ثم عُدُّ إلي. قال عن نفسه: بعد ذلك ذهبت إلى مسجد ابن مفيريج وجلست فيه، وكان لي مسكنًا في الليل والنهار، ومكثتُ ستة أشهر حتى حفظت القرآن، ثم مكثت ستة أشهر أخرى أراجع وأثبت الحفظ، حيث كنت أقرأ كل يوم من حفظي عن ظهر قلب خمسة عشر جزءًا، وأختم كل يومين ختمة مدة ستة أشهر. ثم بعدها ذهبت إلى الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ، وأخبرته أنني أتممت حفظ القرآن، فقال لي: الآن يا فهد اقرأ كيفما شئت.

واعلم أنَّ العقل البشري فيه عجيبةٌ، فإنك إن شُغِفْتَ بأمرٍ ووليت وجهك ونباهتك ووقتكَ إليه؛ نشط نشاطًا مُضاعفًا وأدهشك بقوّته وصفاءه، وهنيئًا لمن كان في الله ولله، ومن ذلك قول الشيخ الحميّن: «ابتدأتُ حفظ سورة الأعراف من بعد صلاة العصر وأتممتُ حفظها مع أذان المغرب، وكان في وقت الصيف حيث كان العصر طويلًا، ولم أكن أحفظ هذه السورة من قبل».

لقد رَكَّبَ الله فيك أيها الإنسان طاقات هائلة كامنة تنتظر منك تحديد أيِّ هدف تريده، فكن واضح الهدف، حسن التخطيط لبلوغه، متحليًا بالجدية والانضباط، مع ثقة بالله، وتوكل عليه، واستعانة به، ثم إرادة عازمة، ثم انطلق، فكل من وصل ليس لديه شيء زائد عنك. فألِّق العلم وحدها ليست كافية، بل الصمصامة محتاجة لذراع عمرو:

وَمَا تَنْفَعُ الْحَيْلُ الْكِرَامَ وَلَا الْقَنَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْكِرَامِ كِرَامٌ

واعلم أنها سنين ستطوى سريعًا من تحت قدميك، وسيترتب عليها مصير مستقبلك في حياتك، فأنت من تُفَصِّلُ الثوب الذي ستلبسه غدًا بإذن الله.

والحكيم الناصح هو من تنبّه لانحسار الحياة عنه شيئاً فشيئاً، فما هي إلا أيام - وإن طالت يسيراً - حتى تطويهُ كما طوت أسلافه، ولن يتبقى له منها سوى صالحات القُرب.. فاللهم رحمتك وتوفيقك وغفرانك.

وما هي إلا ساعةٌ ثم ساعة ويوم إلى يوم وشهرٌ إلى شهرٍ
مطايا يقربنَ الجديدَ إلى البلى ويُديننَ أشلاءَ الصحيحِ إلى القبرِ

وكثيرٌ من سور القرآن العظيم تُختم بمواعظ عميقة ترقق قسوة القلوب، فما ظنك بختام القرآن كله وهو قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] فما أعظمه من وداع، وما أجملها من خاتمة، وهي آخر عهدٍ نزل من السماء، وآخر وصية لي ولك من الله العظيم، فتأملها وتدبرها وتفكّر فيها، فأنّت المعنيُّ بها.

قال عمر بن مرّة: قدم وفدٌ من أهل اليمن على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقرأ عليهم القرآن فبكوا، فقال أبو بكر: «هكذا كنّا حتى قست القلوب». وكان يقول: «طوبى لمن مات في نأنة الإسلام». أي: بدء الإسلام، وقلة عدده وعدده، وطراوة الدين، وصفوة القلوب من كدر الدنيا، لما كان أهله قلةً مُستضعفين. والله تعالى قد عاتب الصحابة في نحو هذا فقال سبحانه: ﴿الْمَرْيَأَنَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فالقرآن يؤسس الأصول ويطلق العقول، فمن تدبره ازداد علماً وبصيرةً ويقيناً بأنه لا صلاح للناس إلا به مهما كان زمانهم ومكانهم.

ومن تدبر سورة العصر؛ عرف قيمة العصر، قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد

كان أصحاب رسول الله ﷺ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم. روى الطبراني^(١) بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحُصَيْن الأنصاري - من التابعين - أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر». أي سلام التفريق وهو سنة أيضاً مثل سلام القدوم^(٢). وعن الشافعي: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم». وفي رواية عنه: «لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم». وقال غيره: «إنها شملت جميع علوم القرآن». قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] فأقسم الله تعالى بالعصر قسمًا يراد به تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن. والمقسم به من مظاهر بديع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرته وسعة علمه. وللعصر معانٍ يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتعين إما بإضافته إلى ما يُقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد، وأيًا ما كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة أو عصر معين مبارك.

(١) المعجم الأوسط (٥ / ٢١٥) (٥١٢٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨).

(٢) دليله ما حدث به أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». رواه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦) وحسنه، والنسائي في الكبرى (١٠٢٠١) وصححه أيمن صالح في تخريج جامع الأصول (٦ / ٥٩٤).

وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علّم بالغلبة لوقتٍ ما بين آخر وقت الظهر وبين حقائق الهدى وعقائد الصواب وإراضة النفس على فهمها بفعل المعروف وترك المنكر.

والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام أيضاً، وإن كان خصوصه خصوصاً من وجه؛ لأن الصبر تحمّل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق.

وحقيقة الصبر أنه: منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيهِ أو من محاولة تحصيله إن كان صعب الحصول، فيترك محاولة تحصيله لخوف ضر ينشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور، أو لرغبة في حصول نفع منه، كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في الثواب، والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك. ومن الصبر الصبر على ما يلاقيه المسلم إذا أمر بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به أو من أذاهم بالقول كمن يقول لأمّره: هلاًّ نظرت في أمر نفسك، أو نحو ذلك.

وأما تحمل مشقة فعل المنكرات كالصبر على تجشّم السهر في اللهو والمعاصي، والصبر على بشاعة طعم الخمر لشاربها، فليس من الصبر^(١)؛ لأن ذلك التحمل منبعث عن رجحان اشتها تلك المشقة على كراهية المشقة التي تعترضه في تركها. وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] على

(١) الأظهر أنه صبر فاسد.

إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر.

والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها؛ فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكه لمن راض نفسه عليها، كما قال عمرو بن العاص:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَتْرُكْ طَعَاماً يُحِبُّهُ وَلَمْ يَنْهَ قَلْبًا غَاوِيًا حَيْثُ يَمَّمَا^(١)

تاسعاً: التفكير.

إن من أعظم مقويات الصبر التفكير، فإذا تأمل المؤمن حاله وضعفه وفناءه وتلاشيه أمام قوة الله تعالى وبقائه وقيوميته وصمديته انصرف بكليته للتعلم التام به فأنمر هذا التعلق النفيس زاداً لا ينضب من القوة المعنوية والحسية، فالصبر قوة روح، وهذه القوة تنمو وتزداد وتكبر بهذه المعاني الروحانية السامية الكبيرة. قال أبو سعيد الخراز: «العلم ما استعملك، واليقين: ما حملك».

إن التفكير السليم يثمر التذكر النافع. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، ويُناطقون القلوب حتى نطقَتْ». وقال أبو عبد الله الأنصاري: «والتذكر فوق التفكير؛ لأن التفكير طلب، والتذكر وجود»^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٣٢ - ٥٣٣).

(٢) كلاهما عن: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٥٦٨).

فَقِفْ هنيهاتٍ، لا بل ساعات وأيامٍ، مفكِّراً في جردِ أولوياتك في مسيرتك،
واعلم أن هناك نِعَمٌ قد سربلك الله بها، فاعرف قدرها واشكر مُسديها عز وجل،
واعلم أنها سبعُ نعمٍ كبار!

تركوا التفكر في أمور فلاحهم فكأنهم بجمودهم أصنامُ
العاقل الحازم الرشيد، المريد لنفسه الخلاص ثم الفلاح وحسن العاقبة لا بد
له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها مِن رَّبِّه وآلاءَ معبوده. ولقد وجَّه
الله عبادة للتدبر في آياته: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وأرشدهم للتفكر
في الخليفة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] والنهاية:
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال
حكيم الصحابة أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفكّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ». فيا لك، كم
تحت هذه الكلمة من كنوز علمٍ وذخائرِ حكمة.

ألم تعلم أنك منغمسٌ حتى شعر رأسك في نعمٍ لا تستطيع إحصاءها.. مع هذا
فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوب الشكر على قدر
وسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله. واعلم أن شكر النعمة محتاج لشكر
نعمة أخرى، وسائر النعم على هذا المنوال، فلا ينفك العبد عن حاجته لشكر النعم
مع عجزه عن إحاطتها أولاً، ثم عن شكرها ثانياً.

وشكر النعماء مفتقر لصبر لا يقل عن صبر اللاأواء، بل قد يكون أشق، لذلك
قال تعالى بعد ذكر حال الإنسان مع كفر النعم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أي على الشكر بحسن العبادة.

قف الآن متذكراً بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك، فالله يجب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه. ثم سبع نعم كبار:

أولاهها: نعمة الخلق.

إنها نعمة مذهشة عجيبة، فأحضر عقلك بين يديك، وعُدْ بذاكرتك لأبعد ما تستطيع، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنةً بعد سنة.. حتى تقفَ عند عتبة زمنية، لا تستطيع بذاكرتك اختراق حاجزها ولا كشف سترها. ومن ذلك المكان الزماني؛ اقفز بمُخيلتك إلى ما قبل خلقك. وهناك في ذلك العالم السحيق لن تجد نفسك، فقد وُجدَ الكونُ وأنتَ غيرُ موجود. ليس لك ذرّة وجودٍ فيه، لا جسداً ولا روحاً. ليس هناك منك -أيها الفاني- سوى العدم! مرّت أزمانٌ وأزمان وأحداثٌ في هذا الكون وأنتَ غيرُ موجودٍ فيه.. لا إله إلا الله. ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

بعد ذلك خلقك ربُّكَ، وفطرك وبرأك، وسوّاك وأوجدك ولم تُكْ شيئاً. فاحمد الله واشكره على نعمة خلقك، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها غافلون.

ثانية النعم: نعمة الاصطفاء الانساني.

لما خلقك ربُّكَ اختارك لتكون مخلوقاً مُميّزاً فاضلاً كريماً، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٤]. وتأمل ضدّ ذلك، ما ذا لو أن الله قد خلقك شجرة تُرعى وتُقطع وتُرمى للنار، أو خلقك صخرة تهوي وتُكسر، أو قطرة ماء في بحر، أو ذرّة هواء، أو حيواناً بهيماً، أو طيراً حائراً، أو حشرة تائهة! لقد اصطفاك الله من جميع

أجناس مخلوقاته لتكون بشراً مُميّزاً كريماً، تستحقُّ رضاهُ وحبّه، وكرامته وجنته، إن شكرته وأطعته.

ثالثةُ النعم: نعمةُ الإسلام.

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرت قدرَ هذه النعمةِ فلن تطيق قدرها، وكيفيك أن ترى شؤمَ الكفر وظلمة الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمتقلب.

ألم تعلم أن نسبة دخول البشر للجنة هي واحد من كل ألف! اللهم سلّم سلّم. ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربّنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يا ربّ، وما بعث النار؟ قال: من كلّ ألف تسع مئة وتسعة وتسعين. فحيثُ تَضَعُ الحامل حملها ويشيب الوليدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُمْ سُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] (١). إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وَقَاتَبَعُوهُ الْإِفْرِيقَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] فهل أنت منهم؟!

واعلم أن الله تعالى سيغضبُ في ذلك اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.. فماذا أعددت لغضبه من صالح العمل.

(١) البخاري (٤٧٤١).

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ.

وأبشّر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتمِ الكامل، فأسعد الآن وابتهج، فأنت من الأمة المرحومة، فلهذه الأمة من المزايا والخصائص ما ليس لغيرها، من مضاعفة الأجر والحسنات، والتجاوز عن الخطايا والسيئات، ورحمة الله لها ورفع الدرجات، كرامةً لسيدها نبيّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهو الإنسان الوحيد المغفورة ذنوبه مُقدِّماً، ومع ذلك كان سيِّداً للشاكرين الحامدين الخاشعين المستغفرين التائبين.

ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجل كلّ نبيّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعاً عند ربك يوم القيامة، فكن من أهل الإخلاص والاتباع تنلها بإذن ربك. وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمّةً من محمد ولا طلعت شمسُ النهار على امرئٍ تقيٍّ نقيّ كالنبي محمد ولا لاحت الجوزاءُ شرقاً ومغرباً بأطيب من طيب النبي محمد

ولولا أن الله أرسله ووفقه لكنت أنت ووالديك وكلّ من تحب من حطب جهنم، لكن الله استنقذكم به من عمّاية الضلالة لنور الإسلام والايان، فاحمد الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألحّ عليه، ألحّ عليه بأن يُثبتك على الحق حتى تلقاه وهو راض عنك. فصلّى الله وسلم وبارك على من ازدانت به الدنيا، وسعدت به الخليقة، وسما به السمو، وتضوعت بأرجه الأرجاء، ورضي الله به هادياً وشافعاً وبرسالته ديناً ﷺ.

إنك إنسان محظوظٌ متميِّزٌ بكونك من أتباع هذا النبي المُمَيِّز. فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ. فَقَالَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ. فَقَالَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أُمته ثلثي أهل الجنة^(١). وثبت عنه ﷺ أنه قال: «أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئةُ صَفٍّ، أنتم منهم ثمانون صَفًّا»^(٢).

ومن رحمته ﷺ بأُمته أنه كان يتلو قولَ الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه قائلاً: «اللَّهُمَّ أُمِّي أُمِّي» وبكى، فقال الله عز وجل - وهو أعلم -: «يا جبريل اذهب إلى محمد فسله: «ما يبكيك؟» فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبي ﷺ، فقال الله تعالى: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك»^(٣)، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

عليك بتأمل سيرته ﷺ، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنك كلما استوعبت سيرته كلما ازدادت به شغفاً، وله حباً، وإليه شوقاً. إنه يُحبك ويشواقُ

(١) البخاري ١٣٦/٨ (٦٥٢٨) ومسلم ١/١٣٨ (٢٢١) (٣٧٧).

(٢) أحمد (٤٣٢٨) وصححه الألباني في المشكاة (٥٦٤٤).

(٣) مسلم ١/١٣٢ (٢٠٢) (٣٤٦).

لك، فهل لك مهجة تُطيق الصدود يا صاح.
 تسلى الناس بالدنيا وإنا لعمر الله بعذك ما سألينا
 والذي نفسي بيده لو استغرقت عُمرُكَ في الصلاة والسلام عليه ما أديت
 معشَرَ حقِّه عليك، مع ذلك فأكثر من الصلاة والسلام عليه ما اسطعت. ولقد
 روي أنه قد أوصاك وبشرك بقوله: «إن أولاكم بي يوم القيامة أكثركم عليّ
 صلاة»^(١).

وقد سمعت الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللهُ يذكر عن نفسه أنه يصلي على
 رسول الله ﷺ كل يوم ثلاثة آلاف مرة، وفي ليلة ويوم الجمعة يصلي عليه سبعة
 آلاف مرة.

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي - علينا الأسى لولا تأسّينا
 إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاتكم ويكفينا
 خامسة النعم: نعمة الهداية للسنة.

إذ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفرقة والبدعة، وهل هناك
 أجمل من أن تبيت على مُعتقد رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار.

إن مُعتقد أهل السنة موافق للفطرة مريحٌ للنفس مبهجٌ للروح مغدٌّ للعقل،

(١) مسند أبي يعلى (٥٠٨٠) ومسند البزار (١٤٤٦) وشعب الإيمان للبيهقي

(٢٧٧٣) والديلمي في مسند الفردوس (٥ / ٢٧٧)، وضعفه الألباني. قلت: وفي
 معناه في الجملة أحاديث صحاح، وفي الباب أحاديث كثيرة تؤيده. وقد ذكر العباد
 في شرح سنن أبي داود ٤٧ / ٣١ أن الحافظ قد جوّده في الفتح.

فليس فيه خرافةٌ ولا دجلٌ ولا شعوذةٌ، ولا تعقيدٌ ولا قرمطةٌ ولا سفسطةٌ. بل هو الزُّلَّالُ الصَّافِي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة، والمهيَّعُ السهلُ المثيرُ للجنة، فاستمسك به، وافرح به، واثبت عليه، رعاكَ الله.

سادسةُ النعم: نعمةُ الصَّلاح والاستقامة.

فما كُلُّ من عرف الحقَّ عمل به، ولا كُلُّ من عَلِم الهدى اهتدى، ولا كُلُّ من اهتدى ثبت. فافرح بصلاحك واستقامتك وورعك وعفافك، واسأل ربَّكَ المزيدَ من فضله، وتوفيقه، ورحمته، وتوحيته، وغفرانه.

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق.

تفكّر في نعمة العقل والإدراك وما فيه من الآلاء والمنح، وفي الجسد وما فيه من العجائب والحكم، تأمل القلبَ ونبضَه، والدمَ وجريانه، والعظمَ وإحكامه، والعصبَ ودقَّته، والنفسَ وراحته، والبصرَ ومُتعتَه، والسمعَ وضرورته، والخيالَ وسعته، والعقلَ ودقَّته، والمشاعرَ وعجائبها. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

أبحرْ بخشوع في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد، واهتف بقلبك: آمَنْتُ بك يا ربي، حنانيك خذ بيدي. واسبح في بحر التأمل لنعم الكريم عليك، واحمده حمد من عَرَفَ وخَضَعَ وخشَعَ، وامتلاً فؤاده بالمحبة والشكر والامتنان لله هب الكريم الرحمن ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

[فصلت: ٥٣].

والآن: قد عرفتَ فالزم. وانتشِ بهذه النعم، واغبط وافرح بها، ولا فرح كالفرح بالله، نعم لا فرح كالفرح بالله، ولا أنس كالأنس بالله. واشكره وسله المريد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

قد يهونُ العُمرُ إلَّا سَاعَةً وَتهونُ الأرضُ إلَّا موضِعًا وإنَّ حلاوة الأُنسِ بالله لا تحصلُ إلَّا بالاشتغالِ بذكره ودوامِ عبادته، والبعدِ عن القواطع والشواغلِ التي تُقسِّي القلب وتحول بينه وبين التفكير في آلاء الله، والتذكرِ لنعمائه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ للإيمان حلاوةً وطعمًا، وأخبر أنَّ عينه تقرُّ بالعبادة ويرتاحُ بها بدنه، فهو في الصلاة ينقطع عن الخلائق ويُقبل بقلبه وقالبه على ربه، ويلتذ بذكره ومناجاته، ويتقلب بنعيم جميلٍ في أنواع العبادات من حال إلى حال، من روضة قرآن لبستان صلاة لحلاوة مناجاة إلى غير ذلك، يجد في كلٍّ منها الأُنس بالعبادة. قال قتادة رحمه الله تعالى: «من تفكر في خلق نفسه، ولين مفاصله؛ عرف أنَّها خُلِقَ للعبادة».

فمن وسائل تحصيل الأُنس بالله تعالى: الذكرُ الدائم، ورطوبة اللسان بذلك، ولهجُهُ لربه بدعاء الثناء والمسألة، وصرفُ طاقات الجوارح في مرضي ربِّه الكريم الوهاب، بالصلاة بعد الصلاة، وبالقرآن تلاوة وتدبرًا، وبالصدقة، وبالصيام، وبما أطاق من الباقيات الصالحات، وتحصيل العلم النافع والعمل به. فولاية الله مهرُها عسفُ النفوس، وإن تصدَّق الله يَصْدُقْكَ.

قال ابن الحاج رحمه الله تعالى في محاورته الشهيرة: «رأس أمر العباد العقل، ودليلهم العلم، ونورهم الإيمان، وسائقهم العمل، ومقربهم الصبر.

فمن لم تكن له قوة على الصبر ضعف، ومن ضعف لم يعمل، ومن لم يعمل لم يتم له أمره ونوره، وبقي في ظلمة، ومن ذهب عنه النور عمي وحاد عن الطريق، ومن لم يبصر فليتبّع الدليل وهو القرآن، ومن اتبع العلم الذي هو النجاة من الهول العظيم وعمل له وصبر عليه صار إلى غاية العلم والأدب.

فقال له: قد بصّر تني من فضل الصبر قوّته، وعلمتني ما رغبتني فيه وقواني على العمل به مع ثقله علي، فصّف لي أمراً أزداد بالصبر تبصراً وفيه رغبة وعليه حرصاً. فقال: صبرك على الطاعة ويبيّن لك فضلها، قال: قد شرحت لي أمر الصبر وفضله فزدني به تبصراً. فقال له: هذا الدليل والإمام كتاب الله هو الذي يبيّن لك فضل الصبر ويرغبك في لزومه، فإن الله تبارك وتعالى وصف أعمال العباد وذكر ثوابهم، فلم يذكر ثواباً يعدل ثواب الصبر، فإنه ذكر أنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فهو الدليل على فضل الصبر مع ما ذكر من ثوابه في مواضع من كتابه.

فقال له صاحبه: قد دلني العلم وكتاب ربي على ما ذكرت من فضل الصبر وثوابه، فزادني بفضله تبصراً وازددت عليه حرصاً وفيه رغبة وبه تمسكاً وعليه اعتماداً، مع شدة مني علي وثقل وصبر علي خلاف ما أشتهي وحمل نفسي على ما أكره لطلبي فيه الأجر والفضل وابتغاء العمل والأدب، فصّف لي أمراً يخف به علي مؤنة الصبر ويسهل علي لزومه ويخف علي احتماله وتذل صعوبته.

فقال له: أراك للخير مريداً وللفضل طالباً وعليه حريصاً، وتحب أن تكون قد

قويت على ما ذلك عليه العلم بنفاذ من الصبر وقوة من العمل، وذلك من علامات السعادة، فإن العبد كلما ازداد علماً وفيه تفهماً ازداد للخير طلباً وعليه حرصاً فخفف عليه الثقل وقرب عليه البعيد ولها في الدنيا عما يريد، وإنما الثقل والعسر تمثل الدنيا في قلب العبد، وهي مرصد إبليس وسلاحه، فإذا قطع عنه ذلك استنار القلب وخرجت الظلمة منه فلم يكن للشيطان به احتمال قوة ولا له فيه نصيب، ووصل من الأمر إلى ما يريد.

فقال له: زدني ما يسهل به علي ثقل احتمال الصبر ويخففه علي. فقال له: الأمر الذي يسهل عليك ثقل احتمال الصبر ويخففه عليك الرضا عن الله تبارك وتعالى بكل ما صنع بك واختاره لك وساقه إليك.

فقال له صاحبه: فأوضح لي كيف يهون علي مؤنة الصبر برضائي عن الله ويخفف علي احتماله. فقال: أأست تعلم أنك إنما انتسبت إلى الرضا وسميته صبراً لأن الأمر الذي نزل بك مكروه عليك، وإن هواك ونفسك ينازعانك إلى غيره، فاحتجت إلى الصبر فتدبرت واعتبرت، فصرت من ذلك إلى موضع رضاه، ثم يتجاوز بك الأمر حتى تصير إلى موضع السرور، حتى ترى لو صرف ذلك الأمر عنك لصرت منه إلى تقوية نفسك وعلمت أن ما صرف عنك عقوبة لبعض ما أحدثت من ذنوبك أو قصرت فيه عن شكر ما أنعم الله به عليك، فصرت منه إلى الدرجة الرفيعة ومنازل أهل الرضا، وإنما يوصل إلى ذلك بالمعرفة بالله، وبمعرفة ينظر إليك، فتعلم أنك لا نظرك من نفسك فترضى بما رضي به وترغب فيما رغبه وتزهد فيما زهده، والزهد من الرضا.

قال: قد علمتُ فضل الرضا، ووضح لي أمره، فصف لي كيف يهون علي أمر الصبر في الزهد، وكيف مأخذه، فقد أراني مع ما أصير إليه من الزهد مقيماً على الصبر، وأزداد أيضاً مع زهدي في الدنيا أموراً أحتاج فيها إلى الصبر مخالفة لهواري ورفضاً لشهواتي وما تنازعني نفسي من لذاتي، فقد أراني ازدادت ثقلاً وضجراً. قال: أراك لا تقبل من الأمور إلا أصلحها، ولا ترضى لنفسك إلا واضحها، ولا تختار منها إلا أرشدتها، وذلك من الأمور التي أرجو لك بها القوة والنجاح لحاجتك والظفر بطلبتك وبلوغك أقصى الغاية من إرادتك، فافهم قولي وتدبر نصحي فإن الحجة في ذلك واضحة والأمر فيه بَيِّن.

ألست تعلم أن الدنيا كانت باقية في قلبك وأن حبها غالب عليك وأن سرورها فرح لك وأن مكروهاها شديد عليك، فحملت نفسك على قطع ذلك مع حبك لها وإيثارك لها مع طلبك الفضل من احتمال الصبر، وحملت نفسك على المكروه من أمر دنياك وصبرت عليها لشدة منه عليك، لأن مكروهاها عندك مكروه، ولأن سرورها عندك سرور، فثقل عليك الصوم لقطعك الشهوة عن نفسك من الأكل والشرب، وثقلت عليك الصلاة والاشتغال بها لما تسره إليك نفسك من اللهو والحديث في الباطل، وثقلت عليك الزكاة والصدقة لما تحب أن تصرفه فيه من لذاتك، وثقل عليك التواضع لما ترى من تصغير شأنك ودناءة منزلتك عند أهل الدنيا، وثقل عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يعاديك الناس أو ينقطع رجاؤك منهم أو يُسمعونك ما تكره فيدخل عليك التنغيص في سرورك، وثقل عليك القنوع والرضا لعظيم موقع الدنيا من قلبك وحبك الإكثار منها وحرصك عليها، وكراهيتك للموت ونعيم ما بعده مع أشياء

كثيرة يطول وصفها، وكل ذلك إنما صار شدته عليك لحب الدنيا.

وإنما ثقل عليك الصبر وملته وضيق الشيطان عليك المذاهب من أجل ذلك، لأن سلاحه الذي به يقوى وكيده الذي يصل به إلى أهل الدنيا الرغبة فيها وطلبها، فإذا أنت زهدت في الدنيا ورفضتها ورغبت في الآخرة وطلبتها سهل عليك الأمر فأثرت الآخرة وطلبتها ورغبت فيها، وأدبرت عنك الدنيا وثقلها وتولت عنك هاربة ببلائها وأتتك بمنافعها وصرفت عنك شرورها برغم منها، وانقطع رجاء الشيطان وصغر كيده وولى وقلّ سلاحه، فلا قوة له بك، ونجوت بعصمة الله وتوفيقه من الضيق والتعسير والهلكة، وصرت إلى النعمة والسرور والراحة، وخرج حب الدنيا من قلبك فلزمت الصيام وخف عليك لأنه لم تكن نفسك تنشرح إلى الأكل والشرب وغيرهما من الشهوات، ولزمت الصلاة واشتغلت بها لأن نفسك لم تكن تنازعك إلى اللهو أو الخلوة إلى حديث في باطل، وخفت عليك الزكاة والصدقة لأنك أعددت ما قدمته أمامك ولا تريد منه شيئاً يبقى خلفك، وخف عليك التواضع لأن الإيأس قد خرج من قلبك، وهان عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الناس قد استوا عندك فلم ترج أحداً غير ربك ولم تخف شيئاً غيره، وخف عليك القنوع لأنك رضيت من الدنيا باليسير ولم تنازعك نفسك إلى غير البلاغ والكفاية، وخف عليك الجهاد لأن الدنيا قد أخرجتها من قلبك وكرهت البقاء فيها، وأحببت الموت لما ترجو من النعيم والسرور والحياة الدائمة التي أمامك.

فالزهد في الدنيا راحة للقلب والبدن، وهو جماع الخير وقمامه، وليس شيء من

أعمال البر إلا وله ضد من غيره، فما قصر بك عنه فارفضه وازهد فيه يسلم لك عملك ويخف عليك ثقله»^(١).

وإنَّ «مما يشرحُ الصَّدرَ، ويزيحُ سُحبَ الهمِّ والغَمِّ، السَّفرُ في الديارِ، وقَطْعُ القفارِ، والتقلُّبُ في الأرضِ الواسعةِ، والنظرُ في كتابِ الكونِ المفتوحِ لشاهدِ أقلامِ القدرةِ وهي تكتبُ على صفحاتِ الوجودِ آياتِ الجمالِ، لترى حدائقَ ذاتِ بهجةٍ، ورياضاً أنيقةً وجناتٍ ألفافاً.

اخرج من بيتك وتأمل ما حولك وما بين يديك وما خلفك، اصعد الجبال، اهبط الأودية، تسلق الأشجار، عب من الماء النмир، ضع أنفك على أغصان الياسمين، حينها تجد روحك حرة طليقة، كالطائر الغريد تسبح في فضاء السعادة، اخرج من بيتك، ألق الغطاء الأسود عن عينيك، ثم سر في فجاج الله الواسعة ذاكراً مسبحاً.

إنَّ الانزواء في الغرفة الضيقة مع الفراغ القاتل طريق ناجح للانتحار، وليست غرفتك هي العالم، ولست أنت كل الناس فلم الاستسلام أمام كتائب الأحزان؟ ألا فاهتف ببصرك وسمِعك وقلبك: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، تعال لتقرأ القرآن هنا بين الجداول والخمائل، بين الطيور وهي تتلو خطب الحب، وبين الماء وهو يروي قصة وصوله من التل.

إنَّ الترحال في مسارب الأرض متعة يوصي بها الأطباء لمن ثقلت عليه نفسه،

(١) المدخل لابن الحاج (٣ / ٨٧ - ٩٠).

وأظلمت عليه غرفته الضيقة، فهيّا بنا نسافر لنسعد ونفرح ونفكر ونتدبر:
﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل
عمران: ١٩١] فصبرٌ جميلٌ، فالتحلي بالصبر من شيم الأفاضل الذين يتلقون المكاره
برحابة صدرٍ وبقوة إرادةٍ، ومناعةٍ أبيّة.

وإن لم أصبر أنا وأنت فماذا نصنع؟! هل عندك حلٌ لنا غير الصبر؟ هل تعلم
لنا زادًا غيره؟

كان أحدُ العظماء مسرّحًا تركّض فيه المصائبُ، وميدانًا تتسابق فيه النكباتُ،
كلما خرج من كربّة زارته كربّة أخرى، وهو متترسّ بالصبر، متدرّع بالثقة بالله.
هكذا يفعلُ النبلاء، يُصارعون الملماتِ ويطرحون النكباتِ أرضًا. ودخلوا على أبي
بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مريضٌ، قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيبُ قد رآني. قالوا:
فماذا قال؟ قال: يقول: إني فعّالٌ لما أريدُ.

واصبر وما صبرك إلا بالله، اصبر صبرًا واثقًا بالفرج، عالم بحُسن المصيرِ،
طالب للأجر، راغب في تكفير السيئاتِ، اصبر مهما ادلهمت الخطوبُ، وأظلمتِ
أمامك الدروبُ، فإنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وإنَّ مع العسرِ
يسرًا.

قرأتُ سير عظماءٍ مروا في هذه الدنيا، وذهلتُ لعظيم صبرِهِم وقوةِ احتمالِهِم،
كانت المصائبُ تقعُ على رؤوسِهِم كأنّها قطراتُ ماءٍ باردةٍ، وهم في ثباتِ الجبالِ،
وفي رسوخِ الحقِّ، فما هو إلاّ وقتٌ قصيرٌ فتشرقُ وجوهُهُم على طلائعِ فجرِ الفرجِ،
وفرحةِ الفتحِ، وعصرِ النصرِ. وأحدّهم ما اكتفى بالصبرِ وحدهُ، بل نازَلَ

الكوارث، وصاح في وجه المصائب.

اصبر على سُود الليالي وادّرغ بعزيمة كالطود إن خطب نزل
فالصبر مفتاح النجاح ولم نجد صعباً بغير الصبر يبلغه الأمل

ويا أيها الموفق: لا تحمل الكرة الأرضية على رأسك. فمن الناس من تدور في
نفوسهم حربٌ عالميّة، وهم على فُرش النوم، فإذا وضعت الحرب أوزارها غنموا
قُرحة المعدة، وضغطَ الدمّ والسكرى. يحترقون مع الأحداث، يغضبون من غلاء
الأسعار، يثورون لتأخر الأمطار، يضجّون لانخفاض سعر العملة، فهم في انزعاج
دائم، وقلقٍ واصبٍ، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ونصيحتي لك ألا تحمل الكرة الأرضية على رأسك، دع الأحداث على
الأرض ولا تضعها في أمعائك. إن بعض الناس عنده قلبٌ كالإسفنجة يتشرب
الشائعات والأراجيف، ينزعج للتوافه، يهتز للواردات، يضطرب لكل شيء، وهذا
القلب كفيّل أن يحطم صاحبه، وأن يهدم كيان حامله.

أهل المبدأ الحقّ تزيدهم العبر والعظات إيماناً إلى إيمانهم، وأهل الخور تزيدهم
الزلازل خوفاً إلى خوفهم، وليس أنفع أمام الزوابع والدواهي من قلبٍ شجاع،
فإن المقدام الباسل واسع البطان، ثابت الجأش، راسخ اليقين، بارد الأعصاب،
منشرح الصدر، أما الجبان فهو يذبح نفسه كلّ يوم مرات بسيف التوقعات
والأراجيف والأوهام والأحلام، فإن كنت تريد الحياة المستقرّة فواجه الأمور
بشجاعة وجلد، ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون، ولا تك في ضيقٍ ممّا يمكرون،
كن أصلب من الأحداث، وأعتى من رياح الأزمات، وأقوى من الأعاصير.

وارحمته لأصحاب القلوب الضعيفة، كم تهزُّهم الأيام هزًّا، ﴿وَلَتَجِدَنَّهْمَ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ [البقرة: ٩٦]، وأما الأباة فهم من الله في مدد، وعلى الوعد في ثقة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

ولا تحزن مما يتوقع وقد وجد في التوراة مكتوبًا: «أكثر ما يخاف لا يكون». ومعناه: إن كثيرًا مما يتخوفه الناس لا يقع، فإن الأوهام في الأذهان أكثر من الحوادث في الأعيان.

وإذا جاءك حدث، وسمعت بمصيبة، فتمهل وتأن ولا تحزن، فإن كثيرًا من الأخبار والتوقعات لا صحة لها، إذا كان هناك صارفٌ للقدر فيبحث عنه، وإذا لم يكن فإين يكون؟! ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [فوقه الله سيئات ما مكروا] [غافر: ٤٤-٤٥]

ولا تأس من نقد أهل الباطل والحساد؛ فإنك مأجورٌ. من نقدهم وحسدهم. على صبرك، ثم إن نقدهم لا يساوي قيمتك، ثم إن الناس لا ترفس كلبًا ميتًا، والتافهين لا حساد لهم:

إن العرانيين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال الآخر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً ومقتاً إنه لزميم

وقال زهيرٌ:

حُسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا

وقال آخرُ:

هُمْ يَحْسِدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَا أَسْفَا حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنْ الْحَسِدِ

وقال الشاعرُ:

وَشَكَوْتَ مِنْ ظَلَمِ الْوَشَاةِ وَلَنْ تَجِدَ ذَا سَوْدٍ إِلَّا أَصِيبَ بِحُسَدِ
لَا زِلْتَ يَاسِيطَ الْكَرَامِ مُحْسَدًا وَالتَّافَهُ الْمَسْكِينُ غَيْرُ مُحْسَدِ

سأل موسى ربَّ أن يكفَّ ألسنةَ الناسِ عنه، فقال الله عزَّ وجلَّ: «يا موسى؛ ما اتخذتُ ذلكَ لنفسِي، إني أخلَقُهُم وأرزُقُهُم، وإنهم يسُبُّونِي ويشتمُونِي» وصحَّ عنه عليه السلام أنه قال فيما يرويه عن ربه تعالى: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(١).

إنك لن تستطيع أن تعتقل ألسنةَ البشرِ عن فري عِرْضِكَ، ولكنك تستطيع أن تفعلَ الخيرَ، وتجتنبَ كلامهم ونقدهم. قال حاتمُ:

وَكَلِمَةُ حَاسِدٍ مِنْ غَيْرِ جَرَمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مَرِّي فَاَنْفَذِينِي
وَعَابَوْهَا عَلَيَّ وَلَمْ تَعْبِنِي وَلَمْ يَنْدِ لَهَا أَبَدًا جَبِينِي

وقال آخرُ:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى السَّفِيهِ يُسَبُّنِي فَمَضَيْتُ ثَمَّةً قُلْتُ لَا يَعْنِينِي

(١) البخاري (٤٥٤٩) ومسلم (٢٢٤٦).

وقال ثالث:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فخيرٌ مِنْ إجابته السكوتُ
 إِنَّ التَّافِهِينَ وَالْمَبْخُوسِينَ يَجِدُونَ تَحْدِيًّا سَافِرًا مِنَ النَّبَلَاءِ وَاللَّامَعِينَ وَالْجَهَابِذَةِ.
 إِذَا مُحَاسَنِي اللَّائِي أدَلَّ بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعذر؟!
 أَهْلُ الثَّرَاءِ فِي الْغَالِبِ يَعِيشُونَ اضْطِرَابًا، إِذَا ارْتَفَعَتْ أَصْهُمُ انْخَفَضَ ضَغْطُ
 الدِّمِّ عِنْدَهُمْ، ﴿وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ﴾ ١ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ
 مَا لَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُنْبَذَتَ فِي الْحُطْمَةِ ﴿[الهمزة: ١-٤].

يقولُ أحدُ أدباءِ الغُربِ: «افعل ما هو صحيحٌ، ثم أدرَ ظهرك لكلِّ نقدٍ
 سخيٍّ». ومن الفوائدِ والتجاربِ: لا تردَّ على كلمةٍ جارحةٍ فيك، أو مقولةٍ أو
 قصيدةٍ، فإنَّ الاحتمالَ دفنُ المعايِبِ، والحلمُ عزٌّ، والصمتُ يقهرُ الأعداءَ، والعفو
 مثوبةٌ وشرفٌ، ونصفُ الذين يقرؤون الشتمَ فيك نسوهُ، والنصفُ الآخرُ ما
 قرؤوه، وغيرهم لا يدرون ما السبُّ وما القضيةُ! فلا تُرسِّخْ ذلك أنت وتعمِّقه
 بالردِّ على ما قيل.

يقولُ أحدُ الحكماءِ: الناسُ مشغولون عني وعنك بنقصِ خبزِهِم، وإنَّ ظمأَ
 أحدهم يُنسيهم موتي وموتك. ويبتُّ فيه سكينَةٌ مع خبزِ الشعيرِ خيرٌ من بيتٍ مليءٍ
 بأعدادٍ شهيةٍ من الأطعمةِ، ولكنه روضةٌ للمشغبة والضجيجِ.

ولا تحزن: فإنَّ المرضَ يزولُ، والمصابَ يحولُ، والذنبَ يُغفرُ، والدينَ يُقضى،
 والمحبوسَ يُفكُّ، والغائبَ يقدمُ، والعاصي يتوبُ، والفقيرَ يغتنى.

لا تحزن: أما ترى السحاب الأسود كيف ينقشع، والليل البهيم كيف ينجلي، والريح الصَّـرَّـصَرَّ كيف تسكن، والعاصفة كيف تهدأ؟! إذا فشداؤك إلى رخاء، وعيشك إلى هناء، ومستقبلك إلى نعاء.

لا تحزن: هيبُ الشمس يطفئه وارفُ الظل، وظمأُ الهاجرة يُبرِّده الماء النмир، وعَصَّةُ الجوع يُسكِّنها الخُبزُ الدافئ، ومعاناةُ السهر يعقبه نومٌ لذيذ، وآلامُ المرض يُزيلها لذيذُ العافية، فما عليك إلا الصبر قليلاً والانتظار لحظةً.

لا تحزن: فقد حار الأطباء، وعجزَ الحكماء، ووقفَ العلماء، وتساءلَ الشعراء، وبارت الحيل أمام نفاذِ القدرة، ووقعَ القضاء، وحتميةُ المقدور، عسى فرجٌ يكون عسى. ولأهل السنة عند المصائب ثلاثة فنون: الصبر، والدُّعاء، وانتظارُ الفرج. وقال الشاعر:

سقيناهم كاساً سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبراً

وقال الشاعر الصابر:

دبت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرأ
وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إن المعالي لا تُنال بالأحلام، ولا بالرؤيا في المنام، وإنما بالحزم والعزم.

لا تحزن من فعل الخلق معك وانظر إلى فعلهم مع الخالق

لا تحزن من تعسر الرزق، فإن الرزاق هو الواحد الأحد، فعنده رزق العباد، وقد تكفل بذلك، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فإذا كان الله هو

الرزاق فلم يتملّق البشر، ولم تُهان النفس في سبيل الرزق لأجل البشر؟! قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وقال جلّ اسمه: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ﴾ [فاطر: ٤] ﴿١﴾.

تعوّدت من الضرّ حتّى ألفته وأخرجني حسن العزاء إلى الصبر
إذا أنا لم أقبل من الدهر كلّما تكرّهت منه طال عتبي على الدهر
وعن المدائني قال: ما سمعت كلاماً قط أحسن من قول عمر بن الخطاب
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أن الصبر والشكر بغيران ما باليت أيهما أركب». وقال ابن ضبارة:
«إنا نظرنا؛ فوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله»^(٢). وقال
أعرابي يمدح قومًا:

إذا افتقروا عضّوا على الصبر حسبةً وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر
يقول: يعطون ما عندهم حتى يصيروا إلى الفقر. وقال علي بن أبي طالب
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعرف الحق لمن عرفه لك شريفًا أو وضيعًا، واطرح عنك واردات
الهموم بعزائم الصبر»^(٣).

شرهتُ فلسْتُ أرضى بالقليل وما أنفكُ من حدّث جليل
وما أنفكُ من أملٍ مضرٍّ وما أنفكُ من قال وقيل

(١) مقتطفات متفرقة من «لا تحزن» لعائض القرني، مع تصرف يسير.

(٢) الأثران عن: المجالسة وجواهر العلم (٤ / ٣٧٦).

(٣) المجالسة (١٧٠٨) (٤ / ٤٨٥).

وما أنفك من شهوات نفس أجارهنَّ عن محض السبيل
لئن عوفيتُ من شهوات نفسي لقد عوفيت من شرّ طويل
ألا يا عاشق الدنيا أطعني كأنك قد دعيت إلى الرحيل
وللدنيا دوائر دائرات لتذهب بالعزیز وبالذليل
وللدنيا يد تهب المنايا وتختلس الخليل من الخليل
يدور على القرون بها رحاها لتطحنهنَّ جيلاً بعد جيل
رمته الحادثات بكل سهم من الأمل المقصّر والمُطيل
كلانا في تصرّفه عليل وقد يشكو العليل إلى العليل
دع الدنيا وكلّ أخ عليها يسومك ودّه سوم البخيل
وما لك غير عقلك من نصيح وما لك غير عقلك من دليل
وما لك غير تقوى الله مال وغير فعالك الحسن الجميل
وقارّ الحلم يقرع كلّ جهل وعزم الصبر ينهض بالثقل

وقال المازني: قال بعض الأشراف: «الصبر على حقوق المروءة أشد من الصبر على ألم الحاجة، وذلة الفقر مانعة من عز الصبر، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف»^(١).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالجهاد في سبيل الله، فإنه باب من أبواب الجنة، يُذهبُ الله به الغمّ والهَمَّ»^(٢). «وأما تأثيرُ

(١) المجالسة (٢١٠٩) (٥ / ٢٦٩).

(٢) أحمد ٣١٩/٥ (٢٣٠٩٤) وحسنه محققو المسند بإشراف الأرناؤوط، كما صححه الألباني بطرقه في السلسلة (١٩٤١).

الجهاد في دفع الهمِّ والغمِّ، فأمر معلومٌ بالوجدان، فإنَّ النَّفس متى تركتْ صائلِ الباطلِ وصولته واستيلاءه، اشتدَّ همُّها وغمُّها، وكرَّها وخوفُها، فإذا جاهدته لله، أبدل الله ذلك الهمَّ والحزنَ فرحًا ونشاطًا وقوةً، كما قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبُ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]. فلا شيء أذهب لجوى القلبِ وغمه وحزنه من الجهاد، والله المستعان. قال الشاعر:

وإني لأغضي مقلتي على القذى وألبس ثوب الصبر أبيض أبلجا
وإني لأدعو الله والأمر ضيق عليّ فما ينفك أن يتفرجاً
وكم من فتى سدت عليه وجوهه أصاب لها في دعوة الله مخرجاً

وللمؤمن مسارحٌ في النظر في الملكوت، فإنَّ من طُرُق الارتياح وبسطة الخاطر، التَّطلُّع إلى آثارِ القدرة في بديع السماوات والأرض، فتستلذ بالبهجة العامرة في خلقِ الباري جلَّ في علاه في الزهرة، في الشجرة، في الجدول، في الخميعة، في التلِّ والجبل، في الأرضِ والسماء، في الليلِ والنهار، في الشمسِ والقمر، فتجد المتعة والأنس، وتزداد إيماناً وتسليماً وانقياداً لهذا الخالق العظيم، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. يقول أحدُ الفلاسفة ممن أسلموا: «كنتُ إذا شككتُ في القدرة، نظرتُ إلى كتابِ الكون، لأطالع فيه أحرفَ الإعجاز والإبداع، فأزدادُ إيماناً».

ومن مُذهبات الحزن: فرحة الإنجاز، فالخطوات الجادة المدروسة نافعة وإن قلت. يقول الشوكاني: «أوصاني بعض العلماء فقال: لا تنقطع عن التأليف ولو أن

تكتب في اليوم سطرين. قال: فأخذت بوصيتته، فوجدت ثمرتها». وهذا معنى الحديث: «أحب العمل إلى الله ما دام عليه صاحبه وإن قل»^(١). والقطرة مع القطرة تجمع سيلًا عظيمًا.

أما ترى الحبل بطول المدى على صليب الصخر قد أثرًا وإنما يأتينا الاضطراب من أننا نريد أن نفعل كل شيء مرة واحدة، فنمَلُّ ونتعب ونترك العمل، ولو أننا أخذنا عمَلنا شيئًا فشيئًا، ووزعناه على مراحل، لقطعنا المراحل في هدوء، واعتبر بالصلاة، فإنَّ الشرع جعلها في خمسة أوقات متفرقة، ليكون العبد في استجمام وراحة، ويأتي لها بالأشواق، ولو جمعت في وقت، لمَلَّ العبد، وفي الحديث: «إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^(٢). ومن يأخذ العمل على فترات، يُنجز ما لم يُنجزه من أخذه دفعة واحدة، مع بقاء جذوة الروح وتوقد العاطفة.

وإنَّمَا يسعدك في حياتك: الوسطية، الوسطية في عبادتك: فلا تغل فتنهك جسمك وتقضي على نشاطك ومداومتك، ولا تجف فتطرح النوافل وتخدش الفرائض وتركن إلى التسويف. وفي إنفاقك: فلا تتلف أموالك وتهلك دخلك فتبقى حسيرًا مُملقًا، ولا تمسك عطاءك وتبخل بنوالك، فتبقى ملومًا محرومًا.

(١) البخاري (١٨٦٩) مسلم (٧٨٢).

(٢) المسند (١٣٠٧٤) شعب الإيمان (٣٨٨٥) سنن البيهقي الكبرى (٤٥٢٠) وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٨٤: اختلف في إرساله ووصله. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع: (٢٠٢٢).

ووسطُ في خُلُقِكَ: بين الجدِّ المفرطِ واللِّينِ المتداعي، بين العبوسِ الكالِحِ والضحكِ المتهافِ، بين العزلةِ الموحشةِ والخلطةِ الزائدةِ على الحدِّ.

إنَّه مِنْهَجُ الاعتدالِ في أخذِ الأمورِ، والحكم على الأشياءِ، ومعاملة الآخرين، فلا زيادة يطفو بها كَيْلُ القيمِ، ولا نقص يضمحلُّ به أصلُ الخيرِ، لأنَّ الزيادة ترفُّ وسرفٌ، والنقص جفاءٌ وحفاءٌ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

إنَّ الحسنه بين السيئتين: سيئة الإفراط وسيئة التفريط، وإنَّ الخير بين الشرَّين: شرُّ الغلوِّ وشرُّ المجافاة، وإنَّ الحقَّ بين الباطلين: باطلُ الزيادة وباطلُ النقص، وإنَّ السعادة بين الشقاءين: شقاء التهور وشقاء النكوص.

ويقول مطرّف بن عبد الله: «شرُّ السَّيْرِ الحَقِيقَةُ». وهو الذي يجتهد في السير حتى يضرَّ بنفسه ودابته. وفي الحديث: «إِنَّ شَرَّ الرُّعَاءِ الحُطَمَةُ»^(١). وهو الذي يتعسّف في ولايته لأهله أو من ولاه الله شأنه.

إنَّ الكرم بين الإسرافِ والبخلِ، وإنَّ الشجاعة بين الجبنِ والتهورِ، وإنَّ الحلم بين الحدة والتبلد، وإنَّ البسمة بين العبوس والضحك، وللغلوِّ دواءٌ هو التخفيفُ من هذا الغلوِّ، وإطفاءُ شيءٍ من هذا اللهبِ المحرق وللجفاءِ دواءٌ هو سوطُ عزمٍ، وممضةٌ همة، وبارقةٌ من رجاءٍ، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧].

(١) أحمد ٥/ ٦٤ (٢٠٩١٣) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٨٥).

وليس في الوجود شيءٌ أصعبُ من الصبرِ، إما عن المحبوبِ، أو على المكروهاتِ. وخصوصًا إذا امتدَّ الزمان، أو وقع اليأسُ من الفرجِ. وتلك المدةُ تحتاجُ إلى زادٍ يُقطعُ به سفرُها، والزادُ يتنوعُ من أجناسٍ:

فمنه: تلمُّحُ مقدارِ البلاءِ، وقد يمكنُ أن يكونَ أكثرَ. ومنه: أنه في حالِ فوقها أعظمُ منها، مثل أن يُبتلى بفقدِ ولدٍ وعنده أعزُّ منه. ومن ذلك: رجاءُ العوضِ في الدنيا. ومنه: تلمُّحُ الأجرِ في الآخرة. ومنه: الأجرُ من الحقِّ عزَّ وجلَّ. إلى غيرِ ذلك من الأشياءِ التي يقدِّحُها العقلُ والفكرُ، فليس في طريقِ الصبرِ نفقةٌ سواها، فينبغي للصابرِ أن يشغلَ بها نفسه، ويقطعَ بها ساعاتِ ابتلائه^(١).

وإن من التفكيرِ النافعِ الامتلاءَ بروحِ التفاؤلِ بلطفِ الله تعالى له وللمسلمين، فحال الأمة المزري يقود إلى الأسى المُمضِّ، لكن التفاؤلُ الإيجابي المشتمل على العملِ النافعِ مفضل بإذن الله لسبيلِ فلاح، «فإن ذلك مما يبعثُ الهمة، ويدعو إلى اطراحِ الخور والكسل، ويقود إلى الإقبالِ على الجد والعمل؛ فلتثق بالله عز وجل ونصره وتأييده، ولنحذر من كثرة التلاوم، وإلقاء التبعات على الآخرين، ولنحذر من القنوط واليأس، والتشاؤم؛ فالإسلام لا يرضى هذا المسلك بل يحذر منه أشد التحذير. ثم لثق بأن في طي هذه المحن التي أصابت الأمة منحةً عظيمة.

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طيِّ المكاره كامنة

ولو لم يأت من ذلك إلا أن الأمة تصحو من رقدها، وتعود إلى ربها ودينها. ولو لم يأت من ذلك إلا أن هذا الجيل الجديد بدأ يعرف أعداءه، ويطرق سمعه

(١) مقتطفات متفرقة من لا تحزن، للقرني. باختصار يسير.

مسائل الولاء والبراء، ويدرك ما يحاك حوله من مؤامرات، ويشعر بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولو لم يأت من ذلك إلا أن المسلمين صاروا يشعرون بروح الجسد الواحد، ويتعاطفون مع إخوانهم في كل مكان، ويحرصون على تتبع أخبارهم، وتقديم المستطاع لهم، كل ذلك مع ما يواجهونه من التضليل الإعلامي، وما يحاربون به من سيل الشهوات العارم.

وبالجملة فإن التفاؤل دأب المؤمن، وهو سبيل التأسي بالنبي ﷺ خصوصاً في وقت اشتداد المحن؛ وليس أدل على ذلك مما كان في غزوة الأحزاب بالمدينة، وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك كان عليه الصلاة والسلام يبشر أصحابه بمفاتيح الشام، وفارس، واليمن.

وإذا تحدث عن الفأل، والحث على نشره فإن ذلك لا يعني القعود، والهمود، والهمود؛ كحال من يؤملون الآمال العراض، ويفرطون في الأماني بحجة أن ذلك من الفأل، وهم كسالى قاعدون، لا يتقدمون خطوة، ولا ينهضون من كبوة. لا ليس الأمر كذلك؛ بل إن الفأل المجدي هو ذلك الذي يحرك صاحبه، ويبعثه على الجد، ويشعره بالنجح، ويقوده إلى إحسان الظن، ويبشر بحسن العواقب^(١).

فمن الخير لكل مؤمن بثُّ روح التفاؤل في الأمة وأنه ليس وقت فشل وتهور وانزлам وانتحار، فهذا من مفاتيح الصبر بإذن الله رب العالمين.

وفي القرآن والسنة والسيرة والتاريخ والواقع شواهد لا تحصى بحمد الله

(١) معالم في التعامل مع الفتن، محمد الحمد (٨ - ١٢) باختصار.

تعالى، ومن قلبٍ وجدَ شَرَحَ صدره وقرّة عينه، وأمُتُّنا موعودةً من لدُنْ ربِّها بالرفعة والسَّناء والتمكين إنْ بذلت أسباب ذلك، وعد الله ولا يخلف الله الميعاد، والواجب تصحيح المسيرة كُلُّ مع نفسه ثم مع من يليه.

ومن وسائل تقوية الصبر: التفكير فيما غنمه وما فاتته جرّاء صبره أو فقده.

ذلك أن الإرادة إنَّما تُشحذ بتكرار النظر المفيد وتقليب الفكر في ثمرته وتأمل غايته، لهذا أرشد الله تعالى في القرآن كثيراً للتذكر والتفكير والاعتبار.

وكلها تأمُّل للمستقبل على ضوء الحاضر والماضي وعبر سبر أحوال الغابرين ونهاية أمرهم وهي الأحوال المتكررة في قوالب خلفهم، فسنن الله لا تتبدل ولا تتحول ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فسننُ الله لا تتبدل ولا تتحوّل، وسُنَّته تعالى في الجماعات والأمم تكون أبداً وقوعاً من سننه في الأفراد، ولعل من الأسباب أن إقامة الحجة على الأفراد أسرع، والله أعلم.

وكم من مفقود ظاهراً وهو في الحقيقة مغتنمٌ باقٍ، ولكن تراه البصيرة في الدنيا والبصرُ في الآخرة، وتدبر التالي بتؤدة: فعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: من أذهبت كريمته، ثم صبر واحتسب، كان ثوابه الجنة»^(١).

(١) أحمد (١٤٠٢١) وقوى سنده محققوه، والكريمتان: العينان، أي أخذ بصره فاحتسبه. وفي الزهد لهناد (١ / ٢٣٠) (٣٨١) عن مكحول قال: يقول الله تعالى: «من أخذت كريمته وهو بهما ضنين فحمدني عند ذلك؛ لم أرض له ثواباً دون الجنة».

ودخل على أبي بكر قوم يعودونه قالوا: يا خليفة رسول الله ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك، قال: «قد نظر إليّ الطبيب»، قيل له: فأى شيء قال لك؟ قال: «قال لي: إني فعال لما أريد». وقيل للربيع بن خثيم: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: «أنظروني»، فتفكر ثم قال: ﴿وَعَادَا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، فذكر من حرصهم على الدنيا ورغبتهم التي كانوا فيها، قال: «فقد كانت فيهم أطباء، وكانت فيهم مرضى، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوى، هلك الناعت والمنعوت، له لا حاجة لي فيه»^(١).

وعن داود قال: أصاب الربيع بن خثيم فالج^(٢) فكان بكر بن معز يقوم عليه ويدهنه ويغسل رأسه ويفليه، فينما هو يغسل رأس الربيع ذات يوم إذ سال لعاب الربيع، فبكى بكر، فرفع رأسه إليه فقال: «ما يبكيك؟ والله ما أحبُّ أنَّهُ بأعتى الديلم على الله»^(٣).

وعن أبي اسحاق قال: خرجت بإبهاهم شريح قرحة، فقالوا: يا أبا أمية؛ لو أريته الطبيب، قال: «الطبيب فعل بي هذا». وعن مسلم البطين قال: قلت لسعيد بن

(١) وقد أحسن من قال:

مات المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى!

(٢) الفالج: الشلل.

(٣) وهذا من التلذذ بالبلاء، وهي مرتبة قليل من ينالها، والله المستعان. والديلم من شعوب العجم المختلطة بالفرس، ويقال: إن سلالتهم أهل جيلان حالياً في شمال إيران.

جبير: الشكر أفضل أو الصبر؟ قال: «الصبر والعافية أحب إلي»^(١).

وعن جندب البجلي يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكب فقال:

هل أنت إلا أصبغ دُميت وفي سبيل الله ما لقيت^(٢)

وقال ﷺ: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها - أو قال: لم ينلها بعمله -

ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبره، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل»^(٣).

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند

الله، فما يبلغها بعمله حتى يتلى ببلاء في جسده فيبلغها بذلك البلاء»^(٤).

ومن رَحِم الشدة تنبثق النعمة، ومن جميل ما ذكره «دليل كارنيجي» في كتابه

«دع القلق وابدأ الحياة» ما ساقه عن رجل باع كل ما يملك، وأخذ ما جمعه فاشترى

به أرضاً في غرب أمريكا، حين كانت أرضها بكرًا، فطمع أن تكون أرضاً خصبة

يستثمرها بزراعتها، ويجمع المال من ثمرتها، فلما بلغها رآها مملوءة بالحيات

والثعابين، كلما قتل واحداً منها رأى عشرة، فكاد يفقد من هول الصدمة عقله

(١) الزهد لهناد، والآثار منتقاة من (٣٨٣) إلى (٣٩٩) (١٢٣٠ - ٢٣٧).

(٢) مسلم (١٨١ / ٥) (٤٦٧٧).

(٣) أحمد (٢٢٣٣٨) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٤) الزهد لهناد (٤٠٠) وفي مجمع الزوائد (١٣ / ٣) (٣٧٤١): «ذكره الهيثمي عند أبي

يعلى ووثق رجاله». وهو حديث ذو معانٍ حسنةٍ وجميلةٍ جداً، نسأل الله الكريم من

فضله.

ويهيئ على وجهه مجنوناً، أو يعلق حبلاً في شجرة فيشنق به نفسه، ثم قعد يفكر فرأى أن هذه النعمة يمكن أن تنقلب نعمة؛ لأنه ما في الدنيا شيء إلا وفيه بعض بالنفع، فهده الله بتفكيره إلى أن يجعل الأرض لتربية الحيات والثعابين، يبيع منها لمن يربّيها ويهتم بشأنها، وجاء بخبراء يأخذون جلودها لتصنع منها الحقائب والأحذية، ويستخرجون سمّها ليصنع منه ترياق فيه الدواء بعد أن كان منه الداء، فاعتنى من ذلك!

وفي قوت القلوب: «وصف الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر وأخبر أن الناس كلهم في خسران إلا من كان من أهل الحق والصبر وعظم الصبر فأفرده بإعادة التواصي به، ومن الصبر حبس النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وصبرها على القناعة وعلى صنع الرزاق، ومن الصبر كفّ الأذى عن الخلق، وهو مقام العادلين ويدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المحسنين ويدخل في قوله: ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾.

ومن الصبر الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المنفقين ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ومنه الصبر على الفحشاء وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء، والصبر عن البغي وهو التناول والغلو ومجاوزة الحدّ بالكبر والإسراف في أمور الدنيا، فهذه الآية كلها جامعة لمعنى الصبر وهي قطب القرآن،

ثلاث منها وهي الأول الصبر على العدل والإحسان والإعطاء، وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغي. وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أجمعُ آية في كتاب الله عز وجل لأمر ونهي هذه الآية»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦] الذين صبروا فما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر وما أكرم رزقهم ووصفهم حتى مدحهم بالصبر، والصبر يحتاج إليه قبل العلم، ومعه وبعده، يحتاج في أول العمل أن يصبر على تصحيح النية وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح الأعمال، لأن النبي عليه السلام قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٢)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وحقيقة النية الإخلاص، ولأن الله تعالى قدّم الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، والصبر: التأنى في العمل حتى يتم ويعمل، لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ ^(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿[العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

والصبر بعد العمل هو الصبر على كتفه وترك التظاهر به والنظر إليه، ليخلص من السمعة والعجب فيكمل ثوابه كماخلص من الرياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وقال تعالى في

(١) تفسير الطبري (١٤ / ١٠٩) وتفسير ابن كثير (٤ / ٥٩٦).

(٢) البخاري ٢ / ١ (١)، ومسلم ٤٨ / ٦ (١٩٠٧).

مثله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال بعض السلف: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكتمه».

ومن الصبر كتمان المصائب والأوجاع وترك الاستراحة إلى الشكوى بهما فذلك هو الصبر الجميل، قيل: «هو الذي لا شكوى فيه ولا إظهار».

وقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] قال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره من الأئمة: «أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القدر»، ويقال: «من علامة اليقين تسليم القضاء بحسن الصبر والرضا»^(١).

فأما اشتراط الصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فلأنه يقال: إن كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشتراط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل صغرها، وهي في صدمة القلب أول ما ييغته الشيء، فينظر إلى نظر الله تعالى فيستحي، فيحسن الصبر، كما قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وهذا مقام المتوكلين على الله تعالى.

والصبر أيضاً عن إظهار الكرامات وعن الإخبار بكشف القدرة والآيات داخل في حسن الأدب من المعاملات، وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحيين لله تعالى وهو حقيقة الزهد، ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة.

(١) وللرضا كتاب مستقل حافل ضمن هذه السلسلة.

ومن الصبر صبر على العيال في الكسب لهم والإنفاق عليهم والاحتمال للأذى منهم، فإن في العيال طرقاً إلى الله تعالى أدناها الاهتمام بهم، وأعلىها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها الإنفاق وحبس الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أن أكثر معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، أو قلة الصبر على ما يكرهون، وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير والمحبة بالشر في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والصبر أيضاً حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلا الصبر عليه، ولأن الشيء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه وإلا انقطع ذلك القليل.

وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له، لأنه لو قوي يقينه كان الأجل من الوعد عاجلاً إذا كان الواعد صادقاً، فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء. ولا يصبر العبد إلا بأحد معنيين: مشاهدة العوض وهو أدناها، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين، أو النظر إلى المعوض وهو حال الموقنين ومقام المقربين، فمن شهد العوض غني بالصبر، ومن نظر إلى المعوض حمله.

ولا يخرج العبد من الصبر كراهة النفس ولا وجدان المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابراً، لأن هذا وصف البشرية لما ينافي طبعها، ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفي السخط لحكم المولى، لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة

التوكل، وهذان من أعلى مقامات اليقين.

وفقد مراتب اليقين لا يخرج عن حدّ الصبر، والذي يخرج عن حد الصبر ضده وهو الجزع وإظهار السخط وكثرة الشكوى وظهور الذم والتبرّم.

ومن رياضة النفس على التصبّر وهو مقام المتصبرين: أنّ النفس الأمارّة إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتك إلى مطالبة متقدم العادات أن تمنعها حاجتها من كل شيء، فيشغلها منع الحاجة ووجود الفاقة ممّا لا بدّ منه عن طلب فضول الشهوات، فإذا رُضتْها بالمنع ومنعتها محبوبها بالتصبّر عن الحلال انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكون تاركة لشهوة بعوض عاجل من مباح، وتكون صابرة عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركة للهوى طمعاً في نوال الحاجة من الغذاء.

وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات، وفيه فضل الأقوياء من المتصبرين الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة، ولم تنقذ بالجوع والظمأ، فأما الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة، لا من الأوّلين أهل الصوم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبر النفس عن الحاجة كما لا تصبر نفوسهم عن الشهوة، فرياضة هؤلاء لنفوسهم أن يقطعوها من كل حرام ومن كل شهوة مهلكة»^(١).

وبالجملة؛ فالتفكر بأنواعه من أوسع الأبواب المعينة على الصبر بإذن الله

(١) قوت القلوب (١ / ٣٢٩ - ٣٣٤) باختصار واقتصار.

تعالى، والموفق من وفقه الله.

عاشراً: الدعاء.

إلهي، كم عودتني لطفك ورحمتك وإحسانك، أجبَت الدعاء، وأسديت الرزق، ورفعت البأس، وسترَت العيب. أنا عبدك الآثم الآبق، وأنتَ ربي الكريم الرحيم.

أيُّ أَخِي - رعاكَ الله - عليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقُوته وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرَّع، وما أمرنا ربنا تبارك وتعالى بالدعاء إلا لأنه يحبه ويحب إجابته، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فله الحمد كثيراً مزيداً.

واعلم أن من أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقربه ورحمته.

ومن وصايا طاووس بن كيسان: «إياك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك أبوابه، وجعل دونك حجَّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة». ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

واعلم أن من أعظم أسباب التوفيق؛ صدق الدعاء، والثقة بالعتاء، وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعتاء أحب إليه من المنع، ويفرح إن دُعي وسُئل واستُعين واستُغيث واستُنصر واستُغني.

وعليك بالإلحاح على الله تعالى في الدعاء، فهو من أنزل الداء وهو وحده

القادر على رفعه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. والتوحيد والتوكل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه عما سواه.

ونعم سلاح المؤمن الدعاء ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وإنما تكفل ربك بإجابة الدعاء، أي الدعاء المستكمل لشروطه، والمتفتية موانعه، حتى يستحق أن يسمى دعاء. فهناك استحضر قول الفاروق رضي: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا جاء الدعاء فإن الإجابة تكون معه».

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في علة الإبطاء في إجابة الدعاء: «رأيت من البلاء العجاب أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء وتطول المدة، ولا يرى أثراً للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي احتاج إلى الصبر. وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب.

ولقد عرض لي من هذا الجنس، فإنه نزلت بي نازلة، فدعوت وبالغت، فلم أر الإجابة، فأخذ إبليس يحول في حلبات كيده. فتارة يقول: الكرم واسع، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟ فقلت: اخسأ يا لعين، فما أحتاج إلى تقاضي، ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو لكفي في الحكمة. قالت: فسألني عن

تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة. فقلت:

الأول: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة والحق أن الحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب، من أشياء تؤذي في الظاهر بقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرّة، وقد قال النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل. يقول: قد دعوتُ ربي، فلم يستجب لي»^(١).

والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزداد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه. روي عن أبي يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه نزل بعض الأعاجم في داره - وكان الأعجمي جندياً يصعب إخراجَه - فجاء، فرآه فوقف بباب الدار، وأمر بعض أصحابه فدخل، فقلع طيناً جديداً قد طينّه، فقام الأعجمي وخرج. فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال: «هذا الطين من وجه فيه شبهة، فلما زالت الشبهة زال صاحبها».

وعن إبراهيم الخواص رحمة الله عليه أنه خرج لإنكار منكر، فنبحه كلب له

(١) البخاري ٩٢/٨ (٦٣٤٠)، ومسلم ٨٧/٨ (٢٧٣٥) (٩٠) و(٩١) و(٩٢) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/٤٦: «في الحديث أنه ينبغي إدامة الدعاء، ولا يستبطن الإجابة».

فمنعه أن يمضي، فعاد ودخل المسجد، وصلى ثم خرج، فبصص الكلب له فمضى، وأنكر فزال المنكر. فسئل عن تلك الحال فقال: «كان عندي منكر، فمنعني الكلب، فلما عدت تبت من ذلك، فكان ما رأيتم».

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما تفقدينه سبباً للوقوف على الباب واللجأ، وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسؤول. وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة ما رأيته على باب اللجأ.

فالحق عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالنعم عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طي البلاء. وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه ففيه حياتك.

وقد حكى عن يحيى البكاء أنه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال: يا رب كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال: «يا يحيى؛ إني أحب أن أسمع صوتك».

وإذا تدبرت هذه الأشياء تشاغلت بها هو أنفع لك، من حصول ما فاتك من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب.

ومن نزلت به بلية، فأراد تهوينها، فليتصورها أكثر مما هي تهن. وليتخيل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها، ير الريح في الاقتصار عليها. وليتلمح سرعة زوالها، فإنه لولا كرب الشدة، ما رجيت ساعات الراحة.

وليعلم أن مدة مقامها عنده، كمدة مقام الضيف يتفقد حوائجه في كل لحظة،
فيا سرعة انقضاء مقامه، ويا لذة مدائحه وبشره في المحافل، ووصف المضيف
بالكرم.

فكذلك المؤمن في الشدة، ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال
النفس، ويتلمّح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط،
فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء، ومُدح الساري بقطع الدُّجَى، فما
طلعت شمس الجزاء، إلا وقد وصل إلى منزل السلامة^(١).
وإني لأرجو الله حتى كائنني أرى بجميل الظنّ ما الله صانعٌ

حادي عشر: دوام العبادة.

دوام العبادة هو القنوت الذي مدح الله أهله، والعبادة للقلب كالماء الطيب
للسمكة، والهواء النقي للإنسان، والشمس المضيئة للأغصان، فلا راحة للروح
كعبادة بارئها وفاطرها، ولا هناء للقلب إلا بتمام عبوديته لخالقه وهاديه، والمؤمن
ما دام في رياض العبادة فهو محوط بالعناية، ومحشوّ بالفرح، وموعد بالجنة،
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. «والصلاة أفعال وأقوال، فلذلك ثقلت
على غير الخاشعين، ومن أسرارها أنها تعين على الصبر لما فيها من الذكر والدعاء
والخضوع، وكلها تضاد حب الرياسة وعدم الانقياد للأوامر والنواهي.

وجاء عن ابن عباس أنه نُعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحّى
عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام وهو يقول:

(١) صيد الخاطر (١ / ٢٠-٢١) بتصرف يسير.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] أخرجه الطبري في تفسيره بإسناد حسن، وعن حذيفة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه أبو داود بإسناد حسن^(١). والعبادات أمانٌ من الفتن بإذن الله، وفيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»^{(٢)(٣)}.

وقال حذيفة رضي الله عنه: «ليأتين على الناس زمانٌ لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغريق»^(٤).

واعلم أن راحة القلب، وانسراح الصدر، وطمأنينة النفس، وأمان الفؤاد، وسرور الروح، وابتهاج الصدر، وصفاء العقل لا تجتمع إلا مع الإيمان بالله تعالى، أما مع الخطيئة؛ فالخوفُ كامنٌ، والقلقُ بالغٌ، والخيبة متوقعة، والوعيدُ حاضر، ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد!

(١) سنن أبي داود (١٣١٩)، وحسنه ابن حجر في الفتح، وضعفه أيمن صالح، ومسند أحمد (٣٨٨/٥) وضعفه محققوه. ومعناه صحيح، وكان ﷺ يقول لبلال: «يا بلال أرحنا بالصلاة». رواه أبو داود (٤٩٨٥) وأحمد (٣٧١/٥) قال محققوه: «رجاله ثقات، لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده، فرواه عن النبي ﷺ، ورواه مرسلًا».

(٢) مسلم (٢٩٤٨).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٧٢ / ٣).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٠١).

فيا صاحبي؛ اضرع إلى علام الغيوب، ومن بيده أزمّة القلوب، وانطرح بين يديه، وانكسر في سجودك مبتهلاً بدعاء حبيبنا ﷺ: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). وأحضر قلبك في ضراعتك، وتفكر في كل مرة تدعو ربك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالهدى هو العلم بالحق والعمل به.

واسجد سجود الذلّ واطلب نواله فإنّ إله الحقّ يُحيي البواليا
واسكُب من العبرات دمعا سواجما فما أقرب الغفران إن كُنتَ باكيا

ومن جدير مسائل التوازن: أنّ على المؤمن ألا يستغرق كثيرا في نفع غيره على حساب حظّ نفسه من فرائض ونوافل العبادة والعلم، بل لا بد من التوازن وتقديم الأولى، وخاصة إن كان غير مؤثّر بعلمه أو ماله أو جاهه، كمن يترك وِرده وأذكاره ومراجعة محفوظه وحظّه من عبادته الخاصة لأمر ليس له فيها أثر نافع بين، مع وجود من يكفيه تلك المؤنة. فبعضهم قد يزهد في أذكار يومه أو مراجعة حربه ليتابع أخبار المسلمين في أقصى الأرض، مع كونه لا يد له مؤثّرة فيهم.

نعم إنّ الاهتمام بأمر المسلمين جيّد ومحمود وفضيلة، ولكن الأجود والأحمد والأفضل والأحتم ألا يكون ذلك على حساب تزكيتك لنفسك بالذكر فهو روح الحياة، وبالمحاسبة فهي ضبط المسير، وبالتأمل فهو جمال العقل، وبالعلم فهو رجم الشيطان، وبالعبادة فهي حياة الروح.

(١) مسلم (٧٧٠).

فينبغي لمن رام حمل أثقال الناس أن يبدأ بحمل ثقل نفسه، فإن أطاقهم بعدها فَنِعِمَّا ذلك، وأبدأ بنفسك فاغزها وجاهدها في ذات الله، واحملها إلى ربها برفق.

وتذكر أن الاستغراق في عبادات النفع المتعدي كالتعليم والدعوة والإغاثة ونحوها مع الغفلة العبادات الخاصة كالذكر والتلاوة والدعاء والصلاة والتفكير مدعاة لنضوب مَعِينِ العمل المتعدي أو انحرافه، ووَدَّ الشيطان لو ظفر بذلك.

ولا يعني هذا بحال التزهيد في فضل الأعمال المتعدية، بل إن من توفيق الله تعالى لعبده أن يهديه لعمل لا ينقطع بموته، فلا يزال يصعد درجات الجنة حتى بعد رحيله عن دنيا العمل، بكلمة علمها، أو نفس أسعدها، أو جوعة أشبعها، أو علة داواها، أو بئر حفرها، أو جلد أدفأه، أو ظلام بدّده، أو طريق عبّده، أو نفع سبّله، أو مسجد بناه، ونحو ذلك من مراضي رب العالمين، إنها المقصود مراعاة رأس المال قبل تحصيل الربح، فإن ذهبت العبادة الخاصة فما تلاها أولى بذهاب.

وعليك ببناء علمك بالطلب فهو بداية الوصول، والتلاوة فهي عطر الروح، والتدبر فهو مفتاح العقل، والحفظ فهو كنز العلم، والمراجعة فهي تأكيد الفائدة، والمداينة فهي لقاح المعرفة، والعلم الذي لا يُدرس يُندرس.

وعليك، ثم عليك، ثم عليك بالدعاء؛ فهو زاد المؤمن وقوته وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرّع، والله تعالى يحب الداعين، ويقرب المتضرّعين، ويحب السائلين، وما فتح باب السؤال إلا وهو يريد الإجابة، فسَلْ سؤال الصالحين تُعْطَ من لدن كريم قريب مجيب رحيم ودود، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وإنَّ منَّ أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقُربُه ورحمته.

ولتكن مستمتعا دوماً بتطهير روحك برياض العبادة وبسائين الذكر، وغسل قلبك بالسجود والخضوع والضراعة، وعينك بالتفكر والرقائق والدموع، وصدرك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم، وبطنك بكثرة الصيام والصدقة وأكل الحلال، وواها لمن جمعها.

لكن من لم يُطق أو خاف ميل الميزان لشهوة نفسه التي ظنَّها أفضل فهو محتاج لزمِّها وأطرها حتى تلتذ بالشرع، لا بالهوى المغلف، أو لنقل: فاضل ومفضول. فإنَّ من تلبس الرجيم أنه إن لم يسطع إبعاد المومن عن الخير شغله بالمفضول عن الفاضل، فتنبه لذلك - رعاك مولاك - وكن سراجاً يضيء لنفسه ولغيره، ولا تكن شمعة تضيء لغيرها بإذابة واضمحلال نفسها، ولا صخرة صماء لا لنفسها ولا لغيرها. والموفق من وفقه الله تعالى.

وإن تنس فلا تنس: عمارة روحك بتحقيق التوحيد، وجسدك باتباع السنَّة، وقلبك بالذكر والإيمان. واعلم أن علة خلقك العبادة، فكن له عبداً؛ يكن لك محباً، وعنك راضياً، ولك بالأجر مجازياً.

واحذر على الدوام تلبس إبليس، وشبهات شياطين العدو والأنيس، واتباع خطوات الخطيئات، فإنها دحضة زلقة، وحفرة إلى النيران مُفضية، ولا عاصم إلا الله، ولا حافظ سواه، ولا هادي إلا إياه.

وتذكر أننا نحن المسلمون لدينا كلفة مطلقة، لا تقبل الجدل والتمحك، ولا الضبابية والتّمحّل، تلك هي محوريّة تحقيق العبادة لله جل وعلا. فهذا القدر الكلي مجمعٌ عليه، لذا فمنه - دومًا - المنطلق في الحوار وإليه العود في الترجيح، فمهما جادلت وجودلت، مع نفسك أو غيرك؛ فاجعل محور الترجيح لها، وميزان الاتّباع إليها، ومعيّار الحق معها، فهل الحق المحض إلا مع الوحي كتابًا وسنة؟!

وعليه؛ فموضوع الغاية من الخلق محسومٌ بآية الذاريات، إنّما الشقاق يكون بالقفز الفكري أو الشعوري خارجه. لذلك فطريقة القرآن هي ردُّ الناس إلى هذه الغاية مهما تلوّنت سبلهم وأسبابهم، فيستحيل أن يتعدّد الحق في نفسه، إذن فلا بد من مرجعية مهيمنة وحاسمة، وتلك بلا تردد هي حاكميّة الوحي المنزل.

ودعنا - أخي القارئ الكريم - نقفُ على أمثلة متنوّعة الألوان والرسوم، حتى ندرك خداع النفس الأمارّة لصاحبها حينما تتلفّع له بقناع النصح والوداد المخفي لما تحته من وجه الحقيقة الآثمة.

هذا؛ وكما أن الإيمان لا يصح دون علم؛ فكذلك العلم لا ينفع دون إيمان، وتأمل كيف جمعها ربنا بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]. فإحسان العبادة غاية الصديقين، والرفق بالنفس مع الحزم معها وسيلة تحقيق هذا المقصد الأعلى بإذن ربنا الأعلى. ومتى طغت الوسيلة على الغاية هلكت الراحلة والراحل، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

إن من المهمات الجليلة العناية التامة والحراسة الدائمة لجنان تعظيم رب العالمين والخوف منه وخشيته، وتذكر لقاءه والوقوف بين يديه، وتدبر قوله

سبحانه: ﴿مَنْ كَانَتْ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ٥-٦] فاستبشر خيراً بربك، وظنّ به كلّ خير، وافرح به بكلّ كيانك، وأحبّه من كلّ قلبك، وشوّق نفسك للقاءه، واستحي منه حقّ الحياء، واعبده حقّ العبادة.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الطويل كنتُ مع الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحراء ومعنا أقارب وأصحاب، فأراد رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَعِظَنَا؛ فتلى علينا آيةً واحدةً، كانت كافية لمن كان له قلب، وهي قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فلم يفسرها ويشرحها ويعلق عليها، بل اكتفى بتلاوتها، واكتفينا بتدبرها وقرع أفئدتنا بها. وكفى بها هدى وموعظة!

وعليكَ عليكِ بالافتقار التام لله تعالى^(١)، فعلى قدر افتقارك إليه يكون غناك به، واعلم أنه لا يوجد في الناس غنيٌّ متفردٌ، بل كلهم فقراء إلى غنى مولاهم، فهم مفتقرون ضرورة تامّة دائمة إليه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ [فاطر: ١٥].

ومن أفراد توحيد العبادة: عبودية الاحتياج والفاقة لله وحده. ومن استغنى بالله حقّ الاستغناء أغناه الله تمام الغنى. ففرّ مما سوى الله إلى الله، وكما قال السلف: كلّ أحد إذا خفته هربت منه إلا الله فإنك إذا خفته هربت إليه، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٠].

(١) وقد أفردت له باباً في هذه السلسلة لأهميته البالغة.

ويا أُخيّ؛ ادخل جنة الأنس بالله عز وجل^(١)، فمن ولجها لم يخرج منها، لأنها متصلة بجنة الآخرة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

إنّ الإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللّهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، ثواب عاجل، وجنة حاضرة، فهو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة. وإنّ للأنس بالله ثماراً حلوة، وينايع عذبة، يتذوقها المؤمن بلسان قلبه، ويُسبغ بها بطن روحه، فلا كانت الدنيا إذا لم يكن أنس بالله تعالى.

قال أويس القرني رحمه الله: «ما كنت أرى أنّ أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره». وقال بعض السلف: مساكينُ أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذّة ما فيها، قيل: ما لذّة ما فيها؟ قال: «الأنس بالله، والتلذذ بخطابه والوقوف بين يديه». قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه، ولين مفاصله؛ عرف أنّها خلق للعبادة».

واعلم أنّ العبادة هي روح العلم وحياته، فلا ينفع العلم بلا عمل، وقد استضاف الإمام أحمد أحد طلابه، فوضع عنده الماء بعد صلاة العشاء، ثم نام الإمام أحمد، فلما كان الفجر وجد الماء لم يتغير، فقال متأسفاً متعجباً: «طالب علم لا يقوم الليل»!

(١) وقد أفردت له كتاباً، وكذلك الافتقار والغنى.

وعليك بالتقليل من الطعام، فهو انشط للعبادة وأصفى للفكر وأرق للقلب، ولقد قال لقمان لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة». وقال أبو حامد الغزالي: «سبب هلاك الناس: حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم عليها: البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج: شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الشرور».

وفي البحر المديد: «فإن منعك من ذلك حبّ الرئاسة والجاه، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة؛ فإنّ الصبر عنوان الظفر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير، إلا من خلص إلى مناجاة العلي الكبير، فإنّ الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق»^(١).

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَثَراً لِّمَنْ يُهْدُونَ بِأَمْرِ النَّاصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]: «وأنت إذا تأملت؛ وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر؛ فإنّ فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحس الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحداً من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة، وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة. فإذا صار الصبر خلقاً لصاحبه هوّن عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان. فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرع عنه بالصبر، فإنّه

(١) البحر المديد (١ / ٨٥).

خُلِقَ يَفْتَحُ أَبْوَابَ النُّفُوسِ لِقَبُولِ مَا أَمُرُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ.

وأما الاستعانة بالصبر؛ فلأن الصلاة شكر، والشكر يذكر بالنعمة فيبعث على امتثال المنعم. على أن في الصلاة صبراً من جهات: في مخالفة حال المرء المعتادة، ولزومه حالة في وقت معين لا يسوغ له التخلف عنها ولا الخروج منها، على أن في الصلاة سرّاً إلهياً لعلّه ناشئ عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي، فلذلك نجد للصلاة سرّاً عظيماً في تجلية الأحزان وكشف غم النفس، وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين.

والمراد بالكبيرة هنا الصعبة التي تشق على النفوس، وإطلاق الكبر على الأمر الصعب والشاق مجاز مشهور في كلام العرب لأن المشقة من لوازم الأمر الكبير في حمله أو تحصيله قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَكِبْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥] الآية. وقال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] «(١)».

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: «وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدّاً فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍ هَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية. وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٧٩).

إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿[الشورى: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْخَشِيعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] الخاشعون جمع خاشع، وهو المتواضع. والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع. وقال قتادة: «الخشوع في القلب، وهو الخوف وغض البصر في الصلاة». والخشعة: قطعة من الأرض رخوة. وبلدة خاشعة: مغبرة لا منزل بها»^(١).

ولقد «خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها. وعن عبد الله بن عباس أنه نُعي إليه أخوه قثم - وقيل بنت له - وهو سَفَرٍ فاسترجع وقال: «عَوْرَةٌ سَتَرَهَا اللَّهُ»^(٢)، ومُؤَنَّةٌ كَفَّاهَا اللَّهُ، واجِرٌ ساقه الله»، ثم تَنَحَّى عن الطريق وَصَلَّى، ثم انصرف إلى راحلته، وهو يقرأ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية.

وقال مجاهد: «الصبر في هذه الآية الصَّوم»، ومنه قيل لرمضان: شهر الصَّبْرِ، فجاء الصَّوم والصَّلاة على هذا القول في الآية متناسباً في أن الصَّيَامَ يمنع من الشَّهَوَاتِ، ويزهد في الدنيا، والصَّلاة تنهى عن الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وتخشع، ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر الآخرة.

وإنما قدم الصَّبْر على الصلاة؛ لأن تأثير الصَّبْرِ في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير

(١) الجامع لأحكام القرآن (١ / ٣٧١ - ٣٧٢) مختصراً.

(٢) على القول بأنها ابتته.

الصَّلَاة في حصول ما ينبغي»^(١).

وبالجملة؛ فدوام العبادات بأنواعها تفكرا وذكرًا ودعاءً وصلاةً وصيامًا وقراءة القرآن والصدقة والبر والإحسان والحج والعمرة ونحو ذلك هو من أقوى الأمور المعينة على الصبر والتصبر، فالعبادة وقود الصبر.

ثاني عشر: صحبة الصابرين.

وفي صحبتهم خير كثير والنفوس مجبولة على التشبه بأصحابها أيًا كانوا، لذلك فاز الصحابة بصحبة إمام الصابرين ﷺ فأضحوا سادة الصبر وأئمة التضحية، والموفق الحازم الناصح لنفسه هو من يحرص بشدة على صحبة من فاقوه في العلم والإرادة والزكاء والعمل، فالنفس تعلو لمرتبهم شيئًا فشيئًا عبر النظر والاعتبار والعمل والمداومة والصبر والمصابرة.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح والعكس صحيح تمامًا، فمن صحب من هم أدنى منه تلوثت نفسه بأشياء من أخلاقهم، ودناءة همهم، وسعة بطالتهم، وثقل غفلتهم، وطول أملهم، وبالجملة؛ قل لي من تصاحب؛ أقل لك من أنت.

ومن جليل الوصايا: احرص بشدة على اختيار الرفقة الطيبة الصالحة، فإنهم من ذخائر القيامة وكنوز الحساب بإذن الله تعالى، وتأمل حال البائس في جهنم وهو يولول: ﴿فَمَالَنَّا مِنْ شَفِيعِينَ﴾^(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿[الشعراء: ١٠٠-١٠١].

(١) الباب في علوم الكتاب (٢ / ٣٢) باختصار يسير.

وتذكر حديث الشفاعة وكيف يناشد الأصحاب رب العالمين في أصحابهم، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «فما أنتم بأشدّ مناشدة في الحقّ قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم. فيقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم»^(١). فاستمسك بأصحابك الصالحين فهم نور في الدنيا ودُخْر في الآخرة، وقد كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لأدعو لأربعين من إخواني في سجودي، أسميهم بأسمائهم».

فعليك بحسن انتقاء أصحابك من أهل الديانة والورع والشهامة والمروءة وحب العلم والعمل والبرّ، الذين يعينونك إن عملت، ويذكرونك إن غفلت، ويستغفرون لك إذا للآخرة رحلت، قال أيوب السخيتاني: «إذا بلغني موت أخ لي؛ فكأنّها سقط عضو مني».

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر ومن خاف الله؛ لا تخف شره. ولن تعرف قيمة صديقك حتى تتعرّ أو تسقط، فالعافية تجمع الجميع، والشدائد تُمايزهم.

جزى الله الشدائد كلّ خيرٍ عرفتُ بها عدوّي من صديقي

ومن وصايا الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «تواصلوا مع أصحابكم، فالصاحب الوفيّ مصباحٌ مضيء، قد لا تُدرك نُوره إلا إذا أظلمت بك الدنيا». ويحكون أن ليبدأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو المسلم الوحيد من أصحاب المعلّقات - لم ينشد بعد إسلامه سوى

هذا البيت البديع:

ما عاتب الحرّ الكريمَ كنفسِهِ والمرءُ يصلحُه الجليسُ الصالحُ
وليكن أصحابك أهلَ شيمَةٍ ومروءةٍ وكرامةٍ ونبيلٍ وتقى، ولما ذكر الشرفُ
عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كُلُّ شَرَفٍ دونه لَوْمْ؛ فاللَّوْمُ أولى به، وكلُّ لَوْمْ دونه
شرفٌ؛ فالشرفُ أولى به». وهذا من فاخر المعاني وجميل المقاصد، لا جرم؛ فهي مَنْ
هي في عميق العلم، ومعالي الأدب، ونادر الحكمة، رضي الله عنها وأبيها.
واعلم أنَّ الصديقَ الأحق كالطبيب الجاهل، يريد أن ينفعك فيضرك. ولا
أسوأ ممن استودعته سرًّا فأذاعه.

واعلم أنَّ أفضلَ الحسبِ شرفُ الأخلاق، ولا بدّ للكاتب أو المقاتل من
خصلتين: الشجاعة والشرف. فالأولى تحجز عنه الجبن، والثانية تُردّه عن الجور
على الضعفاء. فليكن أصحابك كذلك. ومن دُرر شوقي:
ومن العقولِ جداولٌ وجمالٌ ومن النفوسِ حرائرٌ وإماءُ
وصاحبُ خيارِ الناس واجتنب أراذلهم، ولا تغترّ بجمالٍ ظاهرٍ قد طوى قبحَ
باطن، وليكن صاحبك ممن قيل فيه: لا يَظِلُّ حتى يضلّ النجم، ولا يهاب حتى
يهاب السيل، وكان خيرَ ما يكون: حينَ لا تظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً. وجماعُ ذلك:
التقيُّ النقيُّ، الرفيق الأديب، الصدوق النصوح، المطبوع على كريم السجايا ونبيل
الأخلاق.

وأصبرُ من عودٍ وأهدى إذا سرى من النجم في داجٍ من الأرض غيبُ
وكن معتدلاً في خُلطة الناس، واجعل مسافةً كافيةً بينهم وبين مشاعرك؛ حتى

لا تتحكم فيك أهوية العاطفة، ورغائب الفؤاد حبًّا وكُرْهاً، فالاعتدال مطلبٌ،
 واهتمامك الزائد بالناس قد يُفقدك في يومٍ كرامتك. والحياء زينٌ كُلُّه، ولا بن ميادة:
 بنفسِي وأهلي مَنْ إذا عَرَضُوا له ببعضِ الأذى لم يدرِ كيف يُجيبُ
 ولم يعتذرْ عُذرَ البريِّ ولم يزلْ له سكتةٌ حتَّى يُقال مُريبُ
 وتوسط في مشاعرك لا تفلت زمامها، قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا يكن حبُّك
 كَلْفًا، ولا بُغْضُك تَلْفًا». فسئل عنها فقال: «إذا أحببتَ كَلَفْتَ كَلْفَ الصبي، وإذا
 أبغضتَ أحببتَ لصاحبك التلف».

وإن استبان لك يومًا سوادُ قلبٍ مَنْ ظننته أبيضًا؛ فدعه يذهب بهدوء كيما
 يأخذ معه غطاء عينيك، وليكن سالف طيب معشرك وأيامك الصادقة معه ثَمَنَ
 تركك له.

ومتى ما عشت وقتًا طيبًا مع أحدٍ، ثم رأيت منه جفاءً وإساءة في حقك بلا
 مبررٍ ولا عذرٍ سوى الملال أو النسيمة؛ فلا تنسِ حُسن ماضيه معك، واعلم أن
 حُسن العهد من الإيمان، وهو سِمَةُ النبلاء الكرام. وأنسلَّ عنه، ثم اسحب عليه
 ثوب النسيان، فلو أرادك ما قَبِلَ فيكَ النائم، ولا استروح في عرضك بغية، فدعه
 يذهب، فالدنيا أقلُّ من وقوفك ساعة تحتمله، ولتكن ذكرى الصفاء عزاءً، ولتغفر
 ما تسمعه.

وإذا جفاك خليلٌ كنتَ تَأْلَفُهُ فاطلب سواه فكلُّ الناسِ إخوانُ
 وإن نبت بك أوطانُ نشأت بها فارحل، فكلُّ بلاد الله أوطانُ

واقترَب ممن أحبَّ قربك من الطيبين، فإن أحسست بثقلك عليه؛ فابتعد عنه

بهدهوء، ذاكرًا زمانه بخير وستر، فكريم النفس خفيفٌ على الروح قُرْبُهُ، سليمٌ من الأذى بُعْدُهُ.

وقلِّمًا يخطئ الحُدْسُ إن أحسنت الإصغاء إليه، واحذر أن تنقل من تُحِبُّ من الخوف عليك إلى الخوف منك. ولا تُعطِ أحدًا أكثر من قدره فيطغى، ولا أقلَّ فيرحل.

واعلم أنَّ صِدْقُ المودة ليس ببذل عذب الكلام، ولكن بصناعة مواقف تثبت صدقها. وإذا رسخت المحبة في القلب؛ ثبتت العلاقة أمام عواصف الخلاف، فالمودة الصادقة بحرٌ تغرق فيه كلُّ الأشياء غير الجميلة. وللقلب على القلب دليلٌ حين يلقاه.

فإن كُنْتُ مأكولًا فكنْ خيرَ آكلٍ وإلا فأدركني ولمَّا أَمَزَّقْ وما أجمل من أن تُنعم على أحدٍ بخصوصية التفاتية، وكان الرجل إذا نظر إليه رسولُ الله ﷺ؛ ظنَّ أنه أحبُّ الناس إليه، من تدفق المشاعر عبر النظرات المبتسمة الحانية. ولا تخجل من بوح خلا من عيب، ولا تأنف من بثِّ يُريح صدرك إن لم تُطق احتماله، فالهروبُ من البكاء بكاءً، ويا لك من فصيحٍ أيُّها الصمتُ.

لكنَّما اللَّوعَاتُ حينَ أوارُها	تجثوا على القلبِ القويِّ فيهمدُ
تتهشَّمُ الأضلاعُ من رَجْعِ الصَّدَى	مِنْ أَنَّةٍ مكلومةٍ تتردَّدُ
يا مُقلتي ما عدتُ أقوى صابراً	جودي ببحرٍ زاخرٍ يتجددُ
بحرٌ خَصَمٌ سُخِنَتْ أمواجهُ	مِنْ نارِ كبدي والضلوعُ تُقدِّدُ

ومن أنكى معاول هدم العلاقات: المقارنات، وهي في الأغلب ظالمة، فالناس

يظهرون أحسن ما لديهم، ويطوون المثالب فيما بينهم.

ولا تَكُ ضَجْرًا مَحَبًّا لجلد المحبين، فثَمَّتَ عَجِيبةً إنسانية: وهي أَنَّ بعض النفوس لديها مِيلٌ لمحبة الإحساس بألم الظلم، فتستروح أَلَمَ المظلومية، ولربما فَرِحَتْ في باطنها بظلمهم لها كيما تعتب وتحنن! وفَرَّقَها عن «متلازمة ستوكهولم» - ويعنون بها تعاطف الضحية مع عدوها وظالمها -: أنها هنا بمثابة حُبٍّ خفيٍّ للشعور بالمظلومية، وهي موجودة بكثرة عند من مُرُّوا بمرحلة قهرٍ واستضعاف، فهم سريعو العتب بلا مبرر.

وجميلةٌ هي تلك النفوس التي لا تُنكر المعروف ولا تنسى خيرَ الصاحب مهما هاجت بينهما رياحُ الخلاف، ودبَّت بينهما دَوَابُّ الفراق. ولا بأس بعتبِ صديقٍ عند انسداد أوجه محاسن الظن، لأنه أبقى للمودة، لكن بقدر الحاجة عند الحاجة، وبلا إلحاح، أو تحقيق، أو تكرار، أو تجريح.

إذا ذهبَ العِتَابُ فليس وُدٌّ ويبقى الودّ ما بقي العِتَابُ

ولا تبقى مع سوء الظنون للأخوة بقيّة، فإن دخل سوء الظن أو فَقَدَ الثقة مع الباب؛ خرجت المودة مع النافذة، وعينُ البُغْضِ عوراءٌ، وقد قيل:

إذا كان المحبُّ قليلَ حظٍّ فما حسنائه إلا ذنوبُ

ولقد اختصَّ الله عز وجل بعض عبادة بخصلة جميلة نفيسة نادرة، وهي أنهم يرون أفضل ما في الناس، ويعاملونهم بحسب ذلك. فكن لطيفاً بشوشاً دمثاً، ولا بأس ببعض مزاح يزيل ثقلَ التكلف وزمانة الجديّة، لكن لا يكن ديدناً ولا مؤذياً، والفكاهة في غير أوانها ضربٌ من الحماسة.

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً فلا خير في ودّ يجيء تكلفاً

وكن جواداً سمحاً سخياً، باذلاً للمعروف، غير منتظرٍ للشكر والثناء، واعلم أنّ الاعتذار مع الاقتدار طرّفٌ من البخل، وسادةُ الدنيا الأسخياء، وسادةُ الآخرة الأتقياء. وقالت العرب: الكرمُ يُقَرِّبُ للرجل أضدادَه، والبخلُ يكرِّه فيه أولادَه. وإن كثرت عيوبُك في البرايا وسرّك أن يكون لها غطاءٌ تسرّ بالسخاء فكلّ عيبٍ يُغطّيه كما قيل السخاءُ واعلم أنّ الأصحاب على ثلاثة أنحاء: فمنهم من يُقَرِّبك من الله بقوله وعمله وسَمَتِه؛ فاحرص عليهم حرصك على نور عينيك.

ومنهم من يُبعدك عن الله ويُقسّي قلبك ويجلب غفلتك ويطيل أملك؛ ففرّ منهم فرارك من الطاعون، فضُحْبَةُ السوء طاعون الأديان، وحقيقٌ بهم ضربُ غرائب النوق، وإبعادُهم خلفَ العيوق، وأغلق البابَ عن الذباب.

ومنهم من صحبتهم تنفع معاشك ولا تخدش معادك، إنّما تحتاجهم لصالح دنياك، وهم لا ينفعون لآخرة ولا يُبعدون عنها إلّا إن أكثرَت خلطتهم، وأولئك هم أهل البطالة ودنوّ الهمة والزهادة في معالي أمور الآخرة، وهم أكثر الناس؛ فلتكن خلطتك بهم على قدر حاجتك، مع بذل الجهد لنفعهم في الدارين، مع الحذر الشديد من تآكل همّتك للدار الآخرة، فالصاحبُ صاحب، وللأخلاق مُدْرِكٌ. وعند الله للأتقى مزيدٌ.

فعليك بالأصحاب الجادّين دون البطالين، واعلم أن أعظم وصية في اختيار الأصحاب هي وصية الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يَرِيدُونَ وَجَهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]. واعلم أن كثافة الأرواح أثقل من كثافة العقول. فأبعد عن جنابك الكذابين ورقاق الديانة والمتملقين، فأشد مهيجات الغثيان التملق.

صَحْبُكَ إِذْ عِني عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلْوْمَهَا
وليكن سلامك لإخوانك لمتنهي استحقاقهم بدون نفاقهم، ومن مدحك
اليوم بما ليس فيك؛ سيدمك غداً بما ليس فيك، ذلك أن بضاعة الكذب واحدة.
وعليك بانتقاء أطايب الكلام وأحاسن الحديث، ولتكن أطراف كلماتك
للناس لينة هنيئة، واجتنب حادها وخشنا.

وثمة فرق بين جرأة الرأي وجرأة اللفظ، تجنب الثانية قدر استطاعتك،
فتجنبها هو اللباقة، ولا يعني هذا الغموض بحال، لكنه لطف الكلام. واللباقة هي
فن الحديث المتوسط بين الصراحة والمجاملة، فإن جنح الحديث نحو المجاملة؛
فيخشى من الكذب، وإن بالغ في الصراحة بدون لطف مجاملة؛ فهي الوقاحة
والصفاقة. وقد قالوا وصدقوا: من كمل عقله حسن لفظه.

واحفظ كلامك من خدش قلوب من صحبوك ومن أحبوك، ويا صاح؛ لا
تهدم القصر الذي لك في صدر صاحبك بكلمة لم تعبأ بها، لكنها عاثت في مدينة
قلبه أسى وحسرة، وشطت روحه بين شواطئ الدهشة والحيرة والندم.
واحرض على حفظ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعب
وكما يُحمد الرجل على جميل إبداعه وإنشائه في كل أمره؛ فكذلك اختياره،

فَحُسْنُ الاختيار دليل على قوّة العقل وجمال الذوق ورهافة الحس. فليس الإبداع والإنشاء شرطاً للنباهة أو السمو العقلي، إنّما يكفيك أن تُحسن انتقاءك، فاخيار المرء قطعة من عقله كما قيل، فإن أمدك الله بمنحة ذاتٍ فخيرٌ.

فالانتقاء - إنشاءً أو نقلاً - مسبارُ الذوق، ورونقُ الأدب، وميزانُ العقل، قال زياد بن أبيه: «ما قرأتُ كتابَ رجلٍ قطُّ؛ إلا عرفتُ عقله فيه».

والعقلُ جوهرة فريدة، وكنزٌ مذخور، ونعمة مكفورة لدى أكثر الخلق. ويقال: إنّ الإنسان في العادة يموت ولم يستخدم سوى بعض عقله، فاشكر النعمة بحمدٍ مُسديها.

وهل تساءلت يوماً: ما هو الجمال التام الكامل الذي كلّ ما سواه عدم؟ إنّهُ جمالُ الله تبارك وتعالى، فهو الجميلُ، ومن أسمائه الجميل، وما أُعطي أهلُ الجنة نعيمًا كروية وجهه تبارك وتعالى. وثلاثٌ إن وُفِّقتَ لهنّ فأنت بخير: حُبُّ العلم، ودوامُ العبادة، وصالحُ الأخلاق.

وليكن معدنك الأخلاقي أصيلاً، فمنَ البشرِ مَنْ معدنه كالذهب، لا يصدأ مهما تقادم عهده، ولا تزيده الخطوبُ إلا لمعاناً وجمالاً ومضاءً.

وكم نحن بحاجة في زمن الترف والعجلة إلى شيء من الوعي والتّعقُّل، فمن يريد ألا يخسر أي شيء؛ سيخسر كل شيء، وقيل: إذا لم يكن ما تُريدُ؛ فأرد ما يكون. وقد قال المعري:

وعاقبة الصبر محمودةٌ ولكن أخو الحرِّق مستعجلٌ

وحافظ على طهارة قلبك من دَغَلِ سافلِ الأخلاق، ولتعتنِ بذلك الطفل
البريء بداخلك، ولتُحسِنِ رعايته، فإنَّه على الفطرة والمكارم جُبِلَ.

وانتقِ لحديثك أطيبَ الكلامِ لأطيبِ القلوب الضامئة، وليكن لسألك عليها
كأنثارٍ وبِلٍ على يبابٍ صادي.

واعلم أنَّ أفضلَ القلوب قلبٌ طاهرٌ من الغِلِّ، وأفضلُ الناس من لا ينسأكَ
لأنه يحبك في الله، وأفضلُ الأيام يومٌ يمرُّ بك بلا ذنب، وأفضلُ إهداءٍ دعاءٌ يُرفع
لك وأنت لا تعلم، ومن البشر من إذا ذكرته شهق قلبك شوقاً.

فمن النفوسِ نفوسٌ إن استقبلت روحَكَ ملأتها انشراحاً وبشراً، ووجوهٌ إن
تذكرتَ قسماتها ارتمت ذاكرةُ الجمالِ خجلى على أهدابها، وأحاديثٌ يجتني التذكار
منها ما تمنى، تلك زينة الدنيا.

وبعض الوجوه يكفيك النظر لمُحيّاها لتسكن إلى قربها، طيبةٌ وضياءٌ وبشراً
وإيماناً، فإذا نظرتَ إليها ذكرت الله عز وجل.

في وجهه شافعٌ يمحوُ إساءتهُ من القلوبِ وجيهٌ حيثُ ما شفعَا

ومنهم من تودُّ أن يكون سعيداً بعيداً، فإن بُليت بهم فاغمس ضجرك
وغيضك في بحر جمال حلمك وكريم سجياك. ولقد قال علقمة بن لبيد في وصيته
لابنه: «يا بني، إن نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة؛ فاصحب من إذا صحبتهُ
زائنك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصةٌ أعانك، وإن رأى منك حسنةً
عدّها، وإن بدت منك ثُلْمَةٌ سدّها».

وإن امرؤٌ أهدي إليك صنيعةً من جاهه فكأثها من ماله

ويا صاحبي: لا تصحب شرَّ الناس ذا الوجهين، فيأتيك بوجه ويدبرُ بآخر، قال رسول الله ﷺ: «تجدون شرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(١). ولو تدبر ذو الوجهين حاله مع اطلاع العليم الخبير عليه؛ لاستبصر شناعة حاله، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَلََّكَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

والكذب والغيبة فشلٌ وجبنٌ وآفةٌ مهما تأول المتأولون، خلا ما أباحه الشرع، وتأمل وصف الصحابة بالنفاق لمن خالف وجهيه حتى عند السلطان، فعن محمد بن زيد أن ناسًا قالوا لجده عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم. قال: «كنا نعدُّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ»^(٢).

والرجل حقًا هو من كان وجهه واحدًا مهما تقلبت أيامه. قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إياك والتلون في دين الله، فإنَّ دينَ الله واحد».

حرامٌ على أرماحنا طعنٌ مُدبرٍ وتندقُّ قُدَمًا في الصدورِ صدورها
مُحرمةٌ أعجازُ خيلي على القنا مُحللةٌ لُبائها ونُحورها

وعليك باعتزالٍ من تضرَّك خلطته. فاحذر مصاحبة بعض النفوس التي لا تستطيع العيش والتنفس إلا في أجواء التفرُّق والشقاق وانتشار الضغائن، فهي

(١) البخاري ٢١٦/٤ (٣٤٩٣)، ومسلم ١٨١/٧ (٢٥٢٦) (١٩٩).

(٢) البخاري ٨٩/٩ (٧١٧٨).

كدغاليب المستنقعات، يغذيها الكدر، ويقتلها النقاء والصفاء، لا تصحبن أولئك لك الله - فالمصاحبة ذريعة المشاكلة.

ومن خالط الناس وصبر على أذاهم لنفعهم فهو أفضل وأولى، أما من خاف على دينه وفي الناس كفاية عنه فالعزلة أحتم، والعافية لا يعدلها شيء. وليس أروح من أنفاس لا تخالطها معصية.

واعلم أن شيطان الإنس أشد فتكاً بالدين من شيطان الجن، وتأمل تقديم ذكره في الشيطنة في عداوته الأنبياء وأتباعهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [النعام: ١١٢].

وَمَنْ أَطْعَمَكَ دُنْيَاهُ لِيُطْعَمَ مِنْ دِينِكَ؛ فَأَلْقِ دُنْيَاهُ فِي وَجْهِهِ، وَانْفُذْ بِعَافِيَتِكَ، فَدِينُكَ دِينُكَ لَا تَتْلَمَنَّهُ، وَرَأْسُ مَالِكَ هُوَ الْإِيمَانُ وَلِتَحْقِيقِهِ خُلِقْتَ.

وأوصى الإمام الشافعي تلميذه الربيع رحمه الله تعالى فقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَيَرْزُقَهُ الْعِلْمَ؛ فَعَلِيهِ بِالْخُلُوةِ، وَقِلَّةِ الْأَكْلِ، وَتَرْكِ مَخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ إِنْصَافٌ وَلَا أَدَبٌ»^(١).

والصاحبُ صاحبٌ إما للحق والهدى وإما للشر والردي، ومن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالطُّباعُ سَرَّاقَةٌ، والأخلاقُ نَزَّاعَةٌ، والنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثر بالصحبة خيراً كانت أو شراً. ومن الأصحاب

(١) ذكره في المجموع شرح المذهب (١ / ١٣) وبستان العارفين (١ / ١٨) وكلاهما للنووي رحمه الله تعالى.

ذبابٌ طمع فلا تنخدع بهم ولا تحفل بقرهم.
 وكان بنو عمِّي يقولون مرحبًا فلما رأوني مُعَدِّمًا مات مرحبٌ
 والمحبةُ النافعة هي ما كانت لله، وفي الله، وعلى طاعة الله، وفي مرضاته، وما
 سواها للزوال، بل للوبال. فليكن ثوبك نقيًا من لوثات الهوى، وصحيفتك بيضاء
 بطيب عملك.

وتأمل فضيلة النقاء بتأمل حال أبونا عليهما السلام، فلما كان الأبوان نقيين؛
 ذكر الله تعالى كلامه لهما بصيغة القرب: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]
 ولكن بعد الذنب كان بصيغة النداء، إشعارًا بنوع بُعد: ﴿وَنَادَاهُمَا يَهُمَّا﴾ [الأعراف: ٢٢]
 فالعلياء نقاء. أما مع إبليس: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾
 [الأعراف: ١٣] لأن الملاء الأعلى لا يليق به متكبر، بل مكانه: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾
 [الأعراف: ١٣] فما تكبر على الحق إلا لصغره وصغاره، فاستحق البعاد لحالك الظلم.

ثالث عشر: معرفة سير الصابرين.

ففي صحبة سيرهم محفز للاقتداء بهم، وقد ازدهى الإسلام بنماذج باهرة
 لأهل الصبر الجميل الجليل الكبير.

وإن من أمتع ساعات المرء تصفحه لسير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ
 دمشق لابن عساكر، وطبقات ابن سعد، ووفيات ابن خلّكان وما شابهها من
 السير، ففيها يسير المرء بعقله مستمتعًا يطوي فداد القرون بين صحائف القوم
 الراحلين الذين عمروا الأرض بإقامة دين الله رب العالمين، ويرى فيها مشاهد
 ربوبية الله تعالى في خليقته إذ خلقهم، وأعانهم، ورزقهم، ولطف بهم، وصبرهم،

واصطفى من شاء منهم، ورفع قومًا وخفض آخرين، ثم قبضهم إليه جميعًا، وجعلهم ينتظرون الآن نفخة الفزع للقيام بين يدي الملك الرحيم العدل الديان في يوم الحساب، فلا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ويا مُعين الصابرين!

وسأجلو لك شيئًا من أخبار أهل الصبر الجميل، والعزم التليد، والإيمان النقي، واليقين الراسخ، ولا أزكي على الله أحدًا، فإلى شريف مطلوبنا يا ابن الأكرمين.



من أخبار الصابرين

إمام البشر الصابرين بإطلاق هو سيدهم محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فقد ابتلي بالشدائد والمشاق والكربات والمصائب القاسية بكل أجناسها وأنواعها التي لم تجتمع على غيره، فخرج منها كأصفى ما يكون وأنقاه وأشرفه وأسماه. «فنبينا محمد ﷺ ابتلي بأنواع البلايا والمحن، فقد ابتلي بوفاة عمه أبي طالب الذي كان يسانده ويحميه وينافح عنه، كما كان بمثابة الحصن الحصين الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء.

وبعد وفاة عمه بشهرين أو ثلاثة ابتلي بوفاة زوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي عاشت معه ربع قرن تحن عليه، وتسري عنه، وتخفف آلامه، وتؤازره في أحواله، وتواسيه بنفسها ومالها.

وابتلي ﷺ بوفاة جميع أولاده في حياته ما عدا ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كما ابتلي بمقتل سبعين من أصحابه في غزوة أحد، وكان من بينهم عمه وحبيبه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كذلك مقتل السبعين أهل بئر معونة، هذا بالإضافة إلى ما لحقه من صنوف الأذى من كفار قريش، من تكذيبه، وتأنيبه، وسبه، والاستهزاء به، وتخويفه، وتهديده، ورميه بالجنون، وإلقاء القاذورات عليه وهو يصلي وعلى باب منزله وفي بُرْمَةِ طعامه، ومطاردته، وتحريض السفهاء عليه، وتعذيب أصحابه وقتلهم، ومحاولة اغتياله، وإصاباته في غزواته وكسر رباعيته وشج وجهه الشريف... كذلك أنواع الأذى النفسي والجسدي من المنافقين واليهود وتسميم طعامه، واتهام عرضه الشريف المصون، وسوء أدب الأعراب معه، ونحو ذلك.

فصبر على ذلك كله صبر المؤمن بربه الواثق بنصره، المتوكل عليه، والراضي بقضائه، فمن الله عليه بالنصر والتمكين وإعزاز الدين، وإظهاره على كل دين، ونشر سنته في العالمين، وشروق شمس رسالته ما بين الخافقين، وقرع آذان وقلوب بني الإنسان بناموسه الأكبر العظيم، وقمع الجاحدين وأهل الكتاب والمنافقين والكفرة والمشركين.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام امتحن أولاً بفقد مهجة فؤاده وأحب أبنائه إليه يوسف عليه السلام، إذ كاد له إخوته وطرحوه في الجب، وجاءوا إلى أبيهم بدم كذب كدليل مقنع بأن الذئب أكله.

ولم يكن الفراق بين يعقوب وابنه كأي فراق آخر بين حبيين يعرف كلاهما أين يقيم صاحبه، ويرجو أن ينتهي الفراق يوماً ما بلقاء قريب، وإنما كان فراقاً بعد مؤامرة انتهت إلى انقطاع كلي بين الابن وأبيه، كما لم تكن هذه المؤامرة من غرباء موتورين، وإنما كانت كيداً رخيصاً من إخوة لأخيهم، وكذباً من أبناء على أبيهم، علمه الوالد الحنون في قراره نفسه، فقال صابراً محتسباً مسلماً أمره لمولاه: ﴿قَالَ بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم امتحن ثانياً بفقد ابنه الآخر، الشقيق الأصغر ليوسف وهو بنيامين^(١)، وبفقد ابنه الثالث الذي بقي في مصر خجلاً من والده لما أخذ بنيامين، فقال كما قال في المرة الأولى: ﴿بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

(١) جاءت تسميته في التوراة المحرفة.

ورجا ربه بلسان صادق وقلب ينتظر فرج الله ولطفه وعونه برجوع ابنائه الثلاثة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

وإني لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع واشتد به الحزن وأخذ منه الأسى كل مأخذ، فقد هاج فقد ولده الثاني - بنيامين - ذكرى فقد ولده الأول - يوسف - والأسى يبعث الأسى، والشجى يتبع الشجى . وامتحن ثالثاً بفقد بصره، حيث ابيضت عيناه من شدة الحزن، فهو كئيب حزين ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، مما حدا بأبنائه إلى الشفقة عليه، فقالوا: - رفقا به - لا تكاد تفارق ذكر يوسف حتى تضعف قواك أو تهلك، فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فهو الذي يكشف الضر ويحيب دعاء المضطر، وإليه المشتكى وبيده إجابة الدعاء. وفي هذا يقول عز وجل: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ٨٤ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوَتْ كُرْيُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ٨٥ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٤-٨٦].

وانتهى به الحال بعد سنين من الصبر والتحمل إلى كشف الضر عنه، حيث ردّ الله إليه بصره، وجمعه بأبنائه جميعاً، واستقر به المقام مع أهله بمصر آمنين من الجهد

والقحط»^(١).

ومن أئمة الصابرين على البلاء أيوب عليه السلام، وقد نَوَّعَ الله قصة صبره ورضاه عن ربه الأجل في غير ما آية من كتابه، ليكون أنموذجاً صالحاً يأتسي به أهل البلاء في صبره، ورضاه، وحمده، وشكره.

روى ابن جرير عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ^(١٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿﴾ [ص: ٤٣-٤٤] أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان. فقال أحدهما لصاحبه: تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به^(٢)! فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.

(١) دراسات في خلق الصبر، مفرح بن سليمان القوسي. عن مجلة البحوث الإسلامية (٧٥ / ١٥٥ - ١٥٧) بتصرف وزيادات.

(٢) وروي في الأثر عن العباس رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب..» هذا - والله أعلم إن صح - فإنما هو في البلاء العامة لا الخاصة، فالخاصة قد تكون رحمة محضة يرفع الله بها درجات المؤمن، ولو من غير سبب ذنب، فداود عليه السلام إنما نزل البلاء به رفعة له ورحمة به ورضى عنه، ونبي الله محمد ﷺ وأهل العزم من المرسلين ابتلوا ابتلاءات شديدة ليست جرّاء ذنوب، بل رفعة من الله تعالى لهم، وتعظيماً لأجورهم، وتقريباً لهم

فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أنني كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل، فأرجع إلى بيتي فأكفرّ عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام أن: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان.

فلما رآته قالت: أي، بارك الله فيك^(١)؛ هل رأيت نبي الله هذا المبتل؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. قال: وكان له أندران^(٢)؛ أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض^(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه

من مولا هم الحق تبارك وتعالى، فالبلاء يجمع بين العبد وربّه، والعافية تجمع بينه وبين نفسه، ويا ابن آدم؛ لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

(١) وهذا من أدب بيوت النبوة.

(٢) أي: وعاءان كبيران مبنيان.

(٣) تفسير الطبري (٢٣/١٠٧) ورواه البزار في مسنده (٢٣٥٧) وقال الهيثمي في المجمع

(٢٠٨/٨): «رجال البزار رجال الصحيح».

جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثُو فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣] قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرَجُ والمخرجُ والراحة»^(٢).

وقد ذكر وهب بن منبه رحمه الله قصة أيوب عليه السلام تفصيلاً، وهي من أخبار بني إسرائيل التي لا تخالف ما جاء في وحي الله تعالى لنبينا ﷺ فقد أخرج أحمد^(٣) بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا حَرَجَ». فهي إذن مما يُعتبر به ويستأنس بما فيه، خاصة أن فيها حكماً إلهية ربانية بابتلاء نبي مصطفى كريم، وقد ذكرنا من الخبر ما ظننا فائدته وطوبى ما عداه، قال رحمه الله^(٤):

(١) البخاري (٢٧٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٧٥).

(٣) المسند (٢ / ٤٧٤).

(٤) السراج المنير (٢ / ٥٦٠ - ٥٧٣) باختصار وتصرف.

«كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم^(١) وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمّه من ولد لوط بن هاران، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا.

وكانت له الثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران من أرض الشام^(٢) كلّها سهلها وجبلها، وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيول والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة.

وكان له خمسمئة فدان، يتبعها خمسمئة عبد، لكل عبد امرأة وعبد وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان، لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك.

وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء، وكان براً تقيّاً رحيماً بالمساكين يطعمهم، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله، مؤدياً لحق الله تعالى، قد امتنع من عدو الله إبليس أن

(١) لأن الروم هم أبناء عيصو بن إسحاق على المشهور. وقيل: إنه التوأم الأكبر ليعقوب عليه السلام، لذا سمي يعقوب بذلك لأنه نزل وهو آخذ بعقبه، وقد لُقّي الكتبة الكذبة للتوراة المحرفة أخباراً طويلة شنيعة كاذبة عنه وعن يعقوب وأمه كما هي عاداتهم في الكذب على أنبياء الله تعالى. ومن أسماء رسول الله ﷺ العاقب. فقد قال ﷺ: «وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي». رواه البخاري (٢٢٥ / ٤) ومسلم (٨٩ / ٧).

(٢) أي: أنه لم يذهب لمصر مع آل يعقوب، أو أنه قد ذهب وعاد ولم يبق معهم، بل عاد لأرض أجداده بالشام، إذ لم يخرج سوادهم من مصر بعد استقرارهم في عهد يوسف عليه السلام إلا في عهد موسى عليه السلام، قيل: بنحو أربعمئة سنة. والله أعلم.

يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرّة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا.

وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه؛ رجل من اليمن يقال له اليفن، ورجلان من بلده يقال لأحدهما بلدد، والآخر صابر، وكانوا كهولاً، وكان إبليس لا يُحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهنّ حيثما أراد، حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام، فحجب من أربع، فلما بعث محمد ﷺ حجب عن السموات كلها إلا من استرق السمع، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب عليه السلام، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه، فقال: إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب، فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال^(١) عما هو عليه من شكرك وعبادتك، ولخرج من طاعتك؛ قال الله تعالى: «انطلق فقد سلطتك على ماله».

فانقض عدو الله إبليس حتى وقع على الأرض، ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين^(٢) وقال لهم: ماذا عندكم من القوة، فإني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة، والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال؟ فقال عفريت من الشياطين: أعطيت من القوة ما إذا شئت تحوّلتُ إعصاراً من نار، وأحرقت كل شيء آتي عليه؛ قال إبليس: فأت الإبل ورعاتها، فأتى الإبل، وقد وضعت رؤوسها ورعت في

(١) أي: تحوّل وتغيّر وانقلب حاله من الشكر لكفر النعمة.

(٢) العفريت: هو الكبير القوي من الجان، والمارد: هو كثير الشرّ منهم.

مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها أحد إلا احترق، فأحرق الإبل ورعاتها حتى أتى على آخرها.

ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قبيحة على قعود^(١) إلى أيوب، فوجده قائماً يصلي فقال: يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك، فأحرقتها ومن فيها غيري، فقال أيوب: الحمد لله الذي أعطانيها، وهو أخذها، وإنها مال الله أعارنيها، وهو أولى بها، إذا شاء تركها وإذا شاء نزعها، وقديماً كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء.

قال إبليس: فإن الله ربك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت، فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها؛ منهم من يقول: ما كان أيوب يعبد شيئاً، وما كان أيوب إلا في غرور، ومنهم من يقول: لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه!

فقال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود في التراب، وعرياناً أحشر إلى الله عز وجل، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله على عاريتي، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيراً؛ لنقل روحك مع تلك الأرواح، وصرت شهيداً، ولكنه علم منك شراً فأخرجك.

فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً، فقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم^(٢) قلبه؟ قال عفريت: عندي من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا

(١) هو الفتى الذكر من الإبل.

(٢) أي: لم أخرج فؤاده بمصيبة تذهله وتؤلمه.

يسمعهـا ذو روح إلا خرجت روحه؛ قال إبليس: فأت الغنم ورعاتها، فانطلق حتى توسطها، ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً من عند آخرها، وماتت رعاتها.

ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة^(١) إلى أيوب وهو يصلي^(٢) فقال له مثل القول الأول، فردّ عليه أيوب مثل الردّ الأوّل، ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال: ماذا عندكم من القوّة، فإني لم أكلم قلب أيوب؟

فقال عفريت: عندي من القوّة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل شيء تأتي عليه، قال: فأت الفدّادين^(٣) والحرث، فانطلق حين شرع الفدّادون في الحرث والزرع، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن.

(١) القهرمان: كبير الخدم المسؤول عنهم، وهي فارسية مؤلّدة.

(٢) وتأمّل ارتباطه بالصلاة عليه السلام، واستمداده قوة إيمانه من ينبوعها السماوي، وحبلها الإلهي، ونعمت المفزع! وأكرم بها من مهرب من هموم الحياة الفانية لحياة الآخرة الباقية.

(٣) قال الأصمعي: الفدّادون: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم وأموالهم ومواشيهم، يقال: فدّ يَفدّ فديداً: إذا اشتدّ صوته. وقال أبو عبيدة: الفدّادون: هم المكثرون من الإبل، وهم جفاة أهل خيلاء، ويكون معنى فدّاد في هذا كـمعنى بزاز، وعطار، أي: أنه منسوب إليه معروف به، وقال أبو العباس: الفدّادون: الجمّالون، والرعيان، والبقّارون، والحمّارون. أهـ. وأخرج الشيخان البخاري (٥/٢٢٠) ومسلم (١/٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفخر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم، والإيمان يمان، والحكمة يمانية».

ثم جاء إبليس متمثلاً بقهر مان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل قوله الأول، فردّ عليه أيوب مثل ردّه الأول، وجعل إبليس يهلك أمواله مالا مالا حتى مرّ على آخره، كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى، وأحسن الثناء عليه، ورضي عنه بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاء، حتى لم يبق له مال.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء؛ صعد سريعا حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال: إلهي، إنّ أيوب يرى أنك ما متعته بولده، فأنت تعطيه المال^(١)، فهل أنت مسلّطي على ولده، فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال^(٢). قال الله تعالى: «انطلق، فقد سلّطتك على ولده»، فانقضّ عدوّ الله إبليس حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم، فلم يزل يزلله بهم حتى تداعى من قواعده، وجعل جدره يضرب بعضها بعضا، ويرميهم بالحشب والحجارة حتى مثّل بهم كل مثلة، ورفع القصر فقلبه، فصاروا مُنكبين^(٣).

وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلّم الذي كان يعلمهم الحكمة، وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه، فأخبره وقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا

(١) أي: أنه يكتفي بنعمة الولد عن نعمة المال الذي يعود بعد ذهابه.

(٢) تأمل فقد نبينا ﷺ لجميع أبنائه وبناته - خلا فاطمة - وعظيم صبره ورضاه وحمده وشكره وإيمانه ويقينه، بأبي هو وأمي وولدي ونفسي وما أملك صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(٣) أي: صرعى على وجوههم.

منكبين على رؤوسهم تسيل دماؤهم^(١)، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت
أمعائهم لقطع قلبك!

فلم يزل يقول هذا أو نحوه حتى رقق قلب أيوب وبكى وجزع^(٢)، فاغتنم

(١) يقول هذا ليستخرج كامل شففته بينيه ليعظم مصابه.

(٢) وبعضهم ذكر بعض مظاهر جزعه عليه السلام، ولا أراها تصح، بل لا أظنه جزع أصلاً،
فهذا مما ينزه عنه الأنبياء عليهم السلام، إلا إذا كان جزعاً يسيراً لا يخرج عن دائرة
الصغائر، أو أن هذا الحكم مختلف في شريعته، أما استغفاره وسجوده فإله أعلم به، ولا
يلزم من وقوعه تصحيح هذه الرواية الكتابية التي يعتورها كثير من موارد الشك لعدم
سلامة السند، ويتبعه عدم القطع بسلامة المتن.

وعلى فرض حملها على الصحة: فلعله بكى شفقة عليهم ورحمة ويشهد لهذا قوله: «حتى
رقق قلب أيوب وبكى»، وقد مر معنا أن البكاء هنا ممدوح لا مذموم، لأنه من تمام
الرحمة، لا من قبيل الجزع، كما هو حال نبينا ﷺ، فظن الشيطان أن دموعه دموع جزع
ففرح وطار بها. ولكن يعكر على ذلك صعود الملائكة بتوبته فلعله - إن صح - قد ذهل
لحظة عن مقامات الرضا والحمد لمرتبة أقل منهما، ولكن لقوة حاله وكمال إيمانه
وطيب معدنه عد ذلك نقصاً لكمال، أو لعله - إن صح - قد جزع جزعاً يسيراً لا يخرج
عن دائرة الصغائر، وتاب من فوره - وهذا هو ظاهر الخبر على فرض صحته، ولا أظن
صحة هذا الحرف ..

وبالجملة؛ فالأنبياء غير معصومين من صغائر ذنوب لا يُصرون عليها، ولا يُقرّون عليها من
رهبهم تعالى، وليست من جهة البلاغ، فعصمتهم إنما هي عن الكبائر، وعن الإصرار
على الصغائر، وعن الخطأ من جهة البلاغ. قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في
مجموع الفتاوى (٤ / ٣١٩): «إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون

إبليس ذلك، فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته، فسبقت توبته إلى الله عز وجل^(١)، وهو أعلم، فوقف إبليس خاسئاً ذليلاً.

وقال: إلهي إنما هوّن على أيوب المال والولد إنه يرى أنك ما متعته بنفسه، فإنك تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلطي على جسده؟ فقال الله عز وجل: «انطلق فقد سلطتك على جسده»، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله^(٢)، وكان الله عز وجل أعلم به، لم يسلطه عليه إلا رحمة لأيوب

الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر أبو الحسن الأمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول». وبالله التوفيق.

- (١) أي: سبقوا إلى ربهم بتوبته السريعة إبليس، حتى لا يشمت الخبيث به عند ربه تعالى.
- (٢) مهما بلغ الشيطان من كيد للمؤمن فإنها لا تعدو أن تكون مجرد وساوس وخطرات يلقيها الرجيم، سرعان ما تتبخر إن ذكر العبد مولاه، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]. وليس له سوى الوسوسة، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ أَنِّي أَنفَسْتُ﴾، ووسوسته تضمحل عند ذكر الله تعالى فيخنس ويخرس ويفشل ويخزي، ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، ووسواسه لا يضر المؤمن الذاكر؛ لأنه سريع الفئدة لربه تعالى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾،

ليعظم له الثواب، ويجعله عبرة للصابرين، وذكرى للعالمين في كل بلاء نزل بهم، ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب.

فانقَضَ عدوُّ الله سريعاً فوجد أيوب في مصلاًه ساجداً، فعَجَلَ قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه، فنَفَخَ في منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده، فخرج من قرنه^(١) إلى قدمه ثآليل مثل آليات الغنم^(٢) ووقعت فيه حكة، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح^(٣) الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها حتى بقل لحمه، وتقطع وتغيّر وأنتن.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أي: ما على من رأسه، وهي قُلة الرأس.

(٢) الغنم والشيء لفظان يطلقان على جنسي الضأن والماعز، والمقصود هنا نواحي الشحم المكتنز في أدبار الضأن.

(٣) أي: الجلود. ووصف جبرائيل في حديث الإسراء بالجلس اللاطي، فعند ابن خزيمة بسنده في كتاب التوحيد ص: (١٣٧) وصححه سننه أحمد شاكراً في تحقيقه شرح الطحاوية (٢ / ٢٣٣) لابن أبي العز، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا جالسٌ إذ جاء جبرائيل، فوكز بين كتفي، فقامت إلي شجرة مثل وَكْرِي الطير، فقعدت في إحداهما، وقعدت في الأخرى، فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب بصري، ولو شئت أن أمس السماء مسيت، فنظرت إلى جبرائيل كأنه جلس لاطي، فعرفتُ فضل علمه بالله عليّ». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٨٠): رجاله رجال الصحيح. وضعفه الألباني في تخريجه شرح العقيدة الطحاوية (١ / ٣٤٨) (٣٤٨) وضعفه الأرناؤوط في تخريج شرح الطحاوية: (٤٢٢). والحديث أخرجه أيضاً البزار (٧٣٨٩)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦٢١٤) باختلاف يسير.

وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كُناسة^(١) وجعلوا له عريشًا^(٢)، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهي رحمة^(٣) بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه^(٤).

ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصابر ما ابتلاه الله تعالى به؛ اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه، فبكتوه^(٥) ولا موه، وقالوا له: تب إلى الله تعالى من الذنب الذي عوقبت عليه^(٦).

(١) الكناسة: هي المزبلة، وتأمل كيف ابتلى الله تعالى نبيه أيوب عليه السلام بابتلاءات هائلة في ماله وولده وجسده لا يطيقها آحاد البشر، مع أنه كان أكرم الناس في زمانه على ربه، لكنه الابتلاء الرباني، ليعلم من بعده من المؤمنين أن البلاء لا يعني سخط الله على عبده، وليس بالضرورة كونه عقوبة، بل قد يكون معراج رضا، وإذا أحب الله عبدًا أصاب منه، وإذا أحب قومًا ابتلاهم، والله تعالى في ثنايا بلائه حكمًا وأطافًا وأنعمًا لا تُحصى، وكم من بلية أفضت لحسن عاقبة.

(٢) أي: أعوادًا سقفتها من جريد النخل، ويسميه العامة: «عِشَّة».

(٣) ولها من اسمها نصيب، رضي الله عنها، وليس هذا بمستغرب من بنات الأنبياء عليهم السلام فهي حفيدة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

(٤) أي: لا تفارقه.

(٥) أي: أغلظوا له القول.

(٦) ظنوا كلامهم له ووعظهم القاسي نصحًا وإصلاحًا وصوابًا لجهلهم، عفا الله عنهم ورحمهم.

قال: وحضره معهم فتى حديث السنّ قد آمن به وصدّقه، فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول^(١) وأنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم^(٢)، ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذي قلتم^(٣)، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذّمام^(٤) أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حقّ من انتقصتم، وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟

ألم تعلموا أنه أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئاً من أمره منذ ما آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا أنه نزع شيئاً منه من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا^(٥).

(١) الكهل: مَنْ تجاوز الشباب ولم يصل للشيخوخة، وهي من الأربعين للستين تقريباً، وهي مرحلة الأشدّ التي يبعث فيها الأنبياء، إذ يكتمل فيه عقل المرء وتجربته وقوّته، وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فينبغي على كل من وصل الأربعين أن يُلَظَّ بهذا الدعاء القرآني الجامع.

(٢) وهذا من حسن أدبه.

(٣) فالحق لا يُكتم لصغر سنّ صاحبه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما على صغر سنه مستشاراً مقدّماً لعمر مع الكهول والأشياخ لعقله وعلمه رضي الله عنهم.

(٤) أي: الحرمة.

(٥) وهذه الحروف الموفقة دالة على علم الشاب ومنبهة إلى تمام عقله؛ لأنه استدل بالنبوة

فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم؛ فقد علمتم أن الله تعالى يتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك على سخطه عليهم، ولا لهوانه لهم، ولكنها كرامة وخبرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة^(١) إلا أنه أخ آخيثموه على وجه الصحة؛ لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء، ولا يعيّر بالمصيبة، ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين^(٢)، ولكنه يرحمه ويبكي معه، ويستغفر له، ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا.

فالله الله أيها الكهول! فقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن الله عبادة أسكتتهم خشيته من غير عي^(٣)، ولا بكم، وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم،

والوحي وبطول الصحبة على حسن المعدن، وصحة التدنن، وصدق الإيمان، وطيب الجوهر المبتلى.

(١) وهذا تنزيلاً منه بالخطاب لأجل قوة الحجاج، وإلا فظاهر حاله اليقين بنبوة أيوب عليه السلام. وهذا كقوله تعالى في حجاج المشركين على ألسن سادة المؤمنين: ﴿وَأَنَّا أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلَّاهْدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(٢) وهذا معنى شريف من حقوق الصحبة، فمن حسن المعشر تأجيل العتاب لما بعد المصاب.

(٣) العي: العجز عن الكلام أو ضعفه بسبب عجز نفساني أو ضعف في الآلة. وفي الأمثال: أعيا من باقل.

وطاشت عقولهم إعظاماً لله وإجلالاً له، فإذا استفاقوا من ذلك استَبَقُوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدّون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأبرار براء، ومع المقصرين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء^(١).

فقال أيوب: إن الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى ثبتت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان، وليست تكون الحكمة من قِبَلِ السنِّ والشَّيْبَةِ، ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء^(٢)، وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة.

ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام^(٣) يعني الثلاثة وقال: أتيتموني غَضَاباً! رَهَبْتُمْ قَبْلَ أَنْ تُسْتَرْهَبُوا، وبكيتم قبل أن تُضْرَبُوا، فكيف بي لو قلت: تصدقوا عليّ بأموالكم لعل الله أن يخلصني، أو قَرَّبُوا قَرَبَاناً لعل الله أن يتقبله ويرضى عني^(٤)، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم، وظننتم أنكم عوضتم بإحسانكم، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم، ثم صدقتم لو جدتم لكم عيوباً قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم^(٥). وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي

(١) ولا أنفع للنفس الشريفة من الإزراء بها لله تعالى، وقطع طمعها في ثناء الخلق وديانهم.

(٢) كحال ابن عباس عند عمر رضي الله عنهم.

(٣) وفي الإعراض حال الكلام رسائل العتب اللطيف والهجر الأنيق.

(٤) وهذه حال البشر إلا من رحم الله تعالى، فقبضة الطين تأبى إلا الإخلاد الثقيل والسكينة الباردة.

(٥) وهذا حرف عظيم جدير بالتذكّر والتذكير به. ومن حكم واعظ الإسلام ابن الجوزي

مَتَّصِفٌ مِنْ خَصْمِي، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ وَلَيْسَ لِي رَأْيٌ وَلَا كَلَامٌ^(١)، وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ مَصِيبَتِي^(٢)، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُمْ أَيُّوبُ، وَأَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ مُسْتَعِينًا بِهِ^(٣) مُسْتَغْفِرًا مُتَضَرِّعًا إِلَيْهِ^(٤).

وتعرض إبليس لرحمة^(٥) على صورة طيب ناصح فقال لها: لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يُسَمَّ عليه لعوفي مما به من البلاء، وروي أنه قال: أنا أدأويه بشرط أن يُنسب الشفاء إليَّ إن عُوفي. فأخبرت أيوب فغضب وأقسم أن يجلدّها - إن عُوفي -

رحمه الله تعالى: «لا يغرنك أعجاب الناس بك، فإنما غرهم جميل ستر الله عليك». بمعناه.

(١) ومما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى من جميل اللفظ المنظوم والمعنى المستحسن:

جَزَى اللَّهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ وَإِنْ كَانَتْ تُغْصِّصُنِي بِرِيقِي
وَمَا شُكْرِي لَهَا حَمْدًا وَلَكِنْ عَرَفْتُ بِهَا عَدَوِّي مِنْ صَدِيقِي

(٢) فخذلان القريب على النفس شديد، كما قيل:

وِظْلَمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مُضَاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمَهْنَدِ

(٣) وصدق الله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

(٤) ثم ذكر كلاماً طويلاً ومناجاة لعلها لكثير من أحاديث وأحداث هذا الخبر من تصرف وهب رحمه الله تعالى بحكم الترجمة وغيرها، أو تصرف غيره ممن سبقه أو لحقه، والله أعلم.

(٥) زوجة أيوب عليه السلام.

مئة جلدة^(١). وعند ذلك قال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ وأشدّه أَنْ طمع الشيطان في ديني ودين امرأتي ﴿وَأَنْتَ﴾ أي: والحال أنت ﴿أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ فافعل بي ما يفعل الرحمن بالمضرور، وهذا تعريض بسؤال الرحمة، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرّح، فكان ذلك ألطف في السؤال، فهو أجدر بالنوال.

قال الشريبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويُحكى أَنَّ عَجُوزًا تعرّضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشيت جردان بيتي على العصا^(٢)، فقال لها: ألطفت في السؤال، لا جرم، لأردّها تثب وثب الفهود، وملأ بيتها حبًا.

ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها، وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضِغْثًا^(٣) يشتمل على مئة عود صغار،

(١) وزعم بعضهم أشياء شنيعة بكونها همّت بالكفر بالله والشرك به والسجود لغيره كي يُشفى زوجها! والأصل سلامتها مما اتهمّت به بلا برهان من الوحي المنزل، خاصة من امرأة زوجها نبي وأجدادها الأربعة أنبياء وأبوهم خليل الرحمن عليهم السلام، فالعهد بالنبوة قريب. فقصارى ما ذكر في القرآن المجيد أن أيوب عليه السلام كان قد أقسم على جلدها. ولعله كان غاضبًا منها لله تعالى لأنها كادت أن تسمع لإبليس في مشورته وتطبيبه المبعد عن الله تعالى أيًا كان. فقال الله تعالى له بعد شفائه رحمة به وبزوج، وإبرارًا ليمينه البارة وتحلة لها: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضِغْثًا فَأَضْرِبِي بِهِ وَلَا تَحْنَثِي﴾.

(٢) أي: من الهزال كأنما تتعكز على العصي.

(٣) الضِّغْثُ: هو قَبْضَةٌ حشيش مختلط رطبها بياسها، ويقال ملء الكفّ من قُضبان أو

فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَحُذِّبِذِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ﴾ [ص: ٤٤].

وروي أن إبليس اتخذ تابوتاً^(١) وجعل فيه أدوية، وجلس على طريق امرأة أيوب يداوي الناس^(٢)، فمرت به امرأة أيوب، فقالت: إن لي مريضاً أفتداويه؟ قال: نعم، ولا أريد شيئاً إلا أن يقول إذا شفيت: أنت شفيتني! فذكرت ذلك لأيوب فقال: هو إبليس قد خدعك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مئة جلدة.

وقال وهب وغيره: «كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتحييه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئماها الناس فلا يستعملها أحد، فالتمست له يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً، فجرت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به، فقال لها: أين قرنك؟ فأخبرته، فحينئذ قال: مسني الضر».

حشيش أو شماريخ، وفي التنزيل: ﴿وَحُذِّبِذِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ﴾، قيل: كان حُرْمَةً من أسل فيها مئة عود، وهو قضبان دقاق لا ورق لها يعمل منه الحُصْر، يقال: إنه حلف إن عافاه الله ليجلدنها مئة جلدة، فرخص الله له في ذلك تحلة ليمينه، ورفقاً بها، لأنها لم تقصد معصية. والأصل في «الضغث» أن يكون له قضبان يجمعها أصل، ثم كثر حتى استعمل فيما يجمع. و«أضغاث» أحلام: أخلاط منامات، واحدها ضِغْثٌ حُلْمٌ، لأنه يشبه الرؤيا الصادقة وليس بها. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٣٦٢).

(١) أي: الصندوق المغطى لحفظ ما فيه. ومنه تابوت التوراة وتابوت الموتى. وقال المناوي في التعاريف (١ / ١٥٥): «التابوت: وعاء ما يعزّ قدره. وسُمي القلب تابوت الحكمة، وسفط العلم، وبيته».

(٢) فعل ما ظاهره الخير ليصل لبغيته من الشر، نعوذ بالله منه ومن أمثاله.

وقال قوم: «إنما قال ذلك حين قصد الدود إلى قلبه ولسانه، فخشي أن يمتنع عن الذكر والفكر».

وقال حبيب بن أبي ثابت: «لم يدعُ الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء:

أحدها: قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره، فجاءا إليه ولم تبق إلا عيناه، ورأيا أمرًا عظيمًا فقالا: لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا.

والثاني: أن امرأته طلبت طعامًا، فلم تجد ما تطعمه فباعته ذؤابتها وحملت إليه طعامًا.

والثالث: قول إبليس: إني أداويه على أن يقول: أنت شفيتني».

وقيل معناه: مسني الضر من شماتة الأعداء^(١).

فإن قيل: كيف الله تعالى سماه صابرًا، وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله: أني مسني الضر، ومسني الشيطان بنصب؟

أجيب: بأن هذا ليس بشكاية إنما هو دعاء، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] والجزع إنما هو الشكوى إلى الخلق، وأما الشكوى إلى الله تعالى فلا يكون جزعًا ولا تركً صبر، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]

(١) وقيل غير ذلك مما لا إحاطة بحقيقته، ولا طائل من وراء تتبعه.

وقال سفيان بن عيينة: «من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى؛ لا يكون ذلك جزعاً، كما قال ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها حين قالت: واراأساه: «بل أنا واراأساه»^(١).

وروي أن امرأة أيوب قالت له يوماً: لو دعوت الله. فقال لها: كم كانت مدة الرخاء، فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي. ثم تسبب عن الإجابة قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ بأن أمرناه أن يركض برجله فتنبع له عين من ماء كما قال تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] ^(٢).

ولقد قص الله تعالى قصة جليلة عن نبي جليل كريم من أولي العزم وهو موسى الكليم عليه السلام، وهو من أئمة الصبر في ذات الله تعالى، فهو صاحب المقامات المحمودة المشهورة في ذات الله تعالى، ولقد تأسى به نبينا صلى الله عليه وسلم حين أؤذي في الله تعالى، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم حنين

(١) البخاري ١٥٥/٧ (٥٦٦٦).

(٢) تفسير السراج المنير (٢/ ٤٠٧ - ٤١١) باختصار.

آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة^(١)، فأعطى الأقرع بن حابس^(٢) مئة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن^(٣) مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب، وآثرهم

(١) وهذا راجع لعلمه وحكمته ﷺ، فهو ينظر للأمور البعيدة ويعطي الناس على قدر مكانهم في الحرب، فليس المقاتل الواحد كالرئيس الذي يطيعه الألوف، فالعبرة بنصر الإسلام عن طريق كسب قلوب ودفع شرور ما أمكن من الناس. وسهم المؤلف قلوبهم من الزكاة يُعطاه حتى الكافر نصرًا للإسلام لتأليفه أو دفع شره، لا محبة فيه. قال العثيمين رحمه الله تعالى: «في الحديث دليل على أن للإمام أن يعطي من يرى في عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره، إذا كان في هذا مصلحة للإسلام، ليست مصلحة شخصية يحابي من يحب، ويمنع من لا يحب، لا، إذا رأى في هذا مصلحة للإسلام وزاد في العطاء؛ فإن هذا إليه وهو مسؤول أمام الله، ولا يحل لأحد أن يعترض عليه، فإن اعترض عليه فقد ظلم نفسه». شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/١١٦).

(٢) سيّد من سادات تميم، وفي ظني أنه لا يقال حينها سيد تميم بإطلاق إلا لقيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه الذي سوّده رسول الله ﷺ على البوادي، أما غيره من سادة تميم فهم سادة على بطونهم كالأقرع والزبرقان وغيرهما، فعن قيس بن عاصم قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «هذا سيّد أهل الوبر». قال الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٣٧١) (٧٣٤/٩٥٣): «حسن لغيره». وكان قيس رجلاً حليماً كريماً عاقلاً مُمدّحاً، قيل للأحنف بن قيس: ممّن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم. ولما مات قال عبدة بن الطبيب يرثيه بالأبيات الذائعة:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحمها
تحيّة من أوليته منك نعمة	إذا زار عن شحط بلادك سلّمًا
فما كان قيسٌ هُلكه هُلك واحدٍ	ولكنّه بُنيان قوم تهَدَمًا

(٣) بن حذيفة بن بدر، سيد فزارة الذيبانية الغطفانية العدنانية.

يومئذ في القسمة.

فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال، فتغيّر وجهه حتى كان كالصّرف^(١). ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!». ثم قال: «يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر». فقلت: لا جرّم، لا أرفع إليه بعدها حديثاً^{(٢)(٣)}.

(١) الصّرف: صبغ أحمر.

(٢) البخاري ١١٥/٤ (٣١٥٠) ومسلم ١٠٩/٣ (١٠٦٢) (١٤٠).

(٣) وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي وهو باليمن إلى النبي ﷺ بذهية في تربتها، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع، وبين عيينة بن بدر الفزاري، وبين علقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب، وبين زيد الخيل الطائي ثم أحد بني نبهان. فتغيّط قريش والأنصار فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا! قال: «إنما أتألفهم» فأقبل رجل غائر العينين نأتى الجبين كث اللحية مشرف الوجنتين محلوق الرأس فقال: يا محمد اتق الله! فقال النبي ﷺ: «فمن يطيع الله إذا عصيته، فيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟!». فسأل رجل من القوم قتله -أراه خالد بن الوليد- فمنعه النبي ﷺ. فلما ولى قال النبي ﷺ: «إن من ضئضي هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». متفق عليه، البخاري (١٢٧ / ٩) (٣٣٤٤) (٤٦٦٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٣).

وفي هذا من الفوائد: بيان خطر الخوارج على الأمة، وأن على أهل العلم والدعوة والخير التفطن لخطرهم، وحراسة ثغور الأمة من شرهم فكرًا ومعتقدًا وعملاً. وتأمل وصفه =

هذا؛ ومع إمامة موسى عليه السلام في الصبر إذ كان مدرسة كاملة ونسيج وحده، فمن يطبق لأواء بني إسرائيل كطاقة موسى عليه السلام، ومع ذلك الصبر العظيم لموسى فقد تلّهف رسولنا ﷺ على أن لو زاد صبره مع الخضر حتى نزداد علمًا وحكمة، فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. قال فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه^(١). فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك^(٢).

قال موسى: أي رب! كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتًا^(٣) في مِكتَل^(٤) فحيث

ﷺ لهم في أحاديث صحاح بصغر السن، وقلة العلم، وضعف التجربة، وسفه العقل، فروئ الشيخان عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قومٌ حدثاءُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة». رواه البخاري (٦٩٣٠) وهذا لفظه، ومسلم (١٠٦٦) ثم اعتبر ذلك بحال الغلاة في هذا العصر، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

(١) وهذا من أبرز معالم هذه القصة المباركة، فموسى قال ما علّمه مما علّمه الله له، فهو في حياته كان أعلم البشر بالله تعالى وبدينه، لكن كان الأكمل له أن يُسند العلم لله تعالى. فهفوة العظيم كبيرة، فالخدش اليسير في المرأة الصقيلة الصافية ليس كخدش غيرها.

(٢) أي: بعلمه علومًا لا تعلمها ولم تحط بها.

(٣) أي: سمكة.

(٤) وهو الزنبيل أو القُفّة.

تفقد الحوت^(١)، فهو ثمَّ^(٢).

فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون^(٣)، فحمل موسى عليه السلام حوتًا في مكّتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه. فاضطرب الحوت في المكّتل حتى خرج من المكّتل فسقط في البحر. قال: وأمسك الله عنه جَرِيَّةَ الماء^(٤) حتى كان مثل الطّاق^(٥) فكان للحوت سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا^(٦).

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسي صاحب موسى أن يخبره. فلما أصبح

(١) أي: لا تجده معك وبحوزتك.

(٢) أي: فهو هناك حيث فقدت حوتك. وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] أي: إذا رأيت ما هنالك.

(٣) وهو نبي كريم، فتح الله على يديه بيت المقدس بعد موت موسى وهارون عليهم السلام، وهو النبي الذي أوقف الله له الشمس عن الغروب عشية الجمعة حتى يتم له الفتح، وكانت قبيل ليلة السبت التي يحرم عليهم فيها القتال.

(٤) أي: جريان الماء لمحل سيره فيه.

(٥) وهو عقد البناء، والمراد أن سيره في عمق الماء صار أثره خلفه مثل النفق المبنى، فصار نفقًا في البحر، والله أعلم.

(٦) قال السعدي: «قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًّا».

تفسير السعدي (١ / ٤٨١).

موسى عليه السلام قال لفتاه: آتينا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً^(١). قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أمر به^(٢). قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَلَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. قال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]. قال: يقصّان آثارهما حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجياً^(٣) عليه بثوب.

(١) أي: تعباً.

(٢) وهي من آيات الله الربانية في هذه القصة العجيبة، وإذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه.

(٣) أي: مُغطّى.

فسلم عليه موسى^(١). فقال له الخضر: أتى بأرضك السلام؟!^(٢) قال أنا

(١) وههنا مسألة: هل السلام من خصائص هذه الأمة؟

قلت: قال بهذا جمع من العلماء، ومنهم الحافظ ابن حجر والشوكاني، والأظهر أنه ليس من خصائصها، بل هو من عهد آدم عليه السلام واستمر مع الأنبياء من بعده. وآية ذلك هذا الحديث الصحيح المصرّح بالسلام، فقد ذكر السلام ولو كان غيره لذكر التحية، ويشهد لذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم ﷺ، قال: اذهب فسلم على أولئك. نفر من الملائكة جلوس. فاستمع ما يحيونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله». رواه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١).

أما حديث عائشة الذي رواه أحمد (٤١ / ٤٨٢) والبخاري في الأدب المفرد (٩٨٨) وابن ماجه (٨٥٦) وصححه الألباني أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين». فلعل السلام كان من شريعة موسى عليه السلام التي تركها اليهود وبدّلوها بغيرها مما بدلوا، ونسوها مع طول العهد وبعد الأمد، بدليل سلام موسى عليه السلام على الخضر، فلما جاء الإسلام ظنّوها من خصائصه فحسدوا أهلها.

أما ما احتج به الحافظ في فتح الباري (١١ / ٤) من حديث أبي ذر الطويل عند مسلم في قصة إسلامه قال: «وجاء رسول الله ﷺ، فذكر الحديث وفيه: «فكنت أول من حياه بتحية الإسلام، فقال: «وعليك ورحمة الله»؛ فليس فيه ذكر تخصيص الأمة بالسلام، وقصاراه أنه أول من حياه من هذه الأمة بهذه التحية.

وأما ما ذكره من حديث الطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة رفعه: «جعل الله السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا». فقد ضعفه المناوي وقال: «ضعيف لضعف بكر بن سهل وغيره». التيسير بشرح الجامع الصغير (١ / ٥٠٣) وعلى فرض صحته؛

=

فليس فيه تصريح بالخصوصية، أنها جاء ذكره في معرض الامتنان كغيره من نعم الله على هذه الأمة، ولا يلزم من الامتنان معنى التخصيص.

وأما ما احتج به مما جاء عند أبي داود من حديث عمران بن حصين: «كنا نقول في الجاهلية: أنعم بك عينا، وأنعم صباحا، فلما جاء الإسلام نهينا عن ذلك». فقد ذكر الحافظ انقطاعه، فهو من قبيل الضعيف، كما أنه لم لا يدل على التخصيص، لأنهم كانوا أهل جاهلية وأوثان، وليسوا بأهل كتاب.

فائدة من حديث: «لما خلق الله آدم قال: اذهب فسلم على أولئك..» الحديث. قال ابن بطال في شرح البخاري (٩ / ٥): «قال المهلب: هذا الحديث يدل أن الملائكة في الملأ الأعلى يتكلمون بلسان العرب، ويحيون بتحية الله، وأن التحية بالسلام هي التي أراد الله أن يتحيّا بها. وفيه: الأمر بتعليم العلم من أهله والقصد إليهم فيه، وأنه من أخذ العلم ممن أمره الله بالأخذ عنه فقد بلغ العذر في العبادة وليس عليه ملامة، لأن آدم أمره الله أن يأخذ عن الملائكة ما يحيونه، وجعلها له تحية باقية، وهو تعالى أعلم من الملائكة، ولم يعلمه إلا لتكون سنة». أه.

قلت: ولا يلزم من ذكر السلام من آدم للملائكة عليهم السلام أن يكون بالعربية فضلا أن تكون هي لغة الملأ الأعلى، وإن كان فيه احتمال، لجواز أن يسلم بغير العربية، كسائر كلام وخطاب الملائكة وغيرهم، والله تعالى لما حكى عن الأمم أقوالهم لم يلزم من ذلك أن يكونوا قد تكلموا بنفس الأحرف. ولكن مثل هذا يستأنس به أن تكون بالعربية لأمر، منها: أنها الكاملة الخاتمة، والحاملة للقرآن العظيم، والله أعلم.

(٢) قالها متعجبا لأنه في بلد شرك ووثنية فاستغرب السلام. وقال النووي في المنهاج

(١٥ / ١٤٠): «أي: من أين لك السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام».

وقال القرطبي في المفهم (١٩ / ١١١): «معناه: من أين تعرف السلام بهذه الأرض

التي أنت فيها؟! وهذا يحتمل وجهين:

=

موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: إنك على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه. وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه.

قال له موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ٦٨

أحدهما: أن ذلك الموضع كان قفراً لم يكن به أحدٌ يصحبه، ولا أنيس فيكلمه، ويحتمل أن يكون أهل ذلك الموضع لا يعرفون السلام الذي سلم به موسى عليه، إما لأنهم ليسوا على دين موسى، وإما لأنه ليس من كلامهم.

و«أنى» تأتي بمعنى: حيث، وكيف، وأين، ومتى. حكاها القاضي. وفي هذا من الفقه: تسليم القائم على المضطجع، وهذا القول من الخضر كان بعد أن ردّ عليه السلام، لا قبله، كما قد ذكرناه، ومساق هذه الرواية يدل على أن اجتماع موسى ﷺ بالخضر كان في البر عند الصخرة، وهو ظاهر قوله: «حتى إذا أتى الصخرة فرأى رجلاً مسجياً»، وفي بعض طرق البخاري: «حتى أتى الصخرة، فإذا رجل مسجياً»، فعطفه بالفاء المعقبة، وإذا المفاجئة، غير أنه قد ذكر البخاري ما يقتضي أنه رآه في كبد البحر، وذلك أنه قال فيها: «فوجد خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجياً بثوبه، وجعل طرفه تحت رجله، وطرفه تحت رأسه». و«كبد البحر»: وسطه. وهذا يدلّ على أنه اجتمع به في البحر، ويحتمل أن موسى مشى على الماء، وتلاقيا عليه، وهذا لا يستبعد على موسى والخضر، فإنّ الذي خرق لهما من العادة أكثر من هذا وأعظم. وعلى هذا فهذه الزيادة تُضم إلى الرواية المتقدمة، ويجمع بينهما بأن يقال: إن وصول موسى للصخرة، واجتماعه مع الخضر كان في زمان متقارب، أو وقت واحد لطيّ الأرض، وتسخير البحر، والقدرة صالحة، وهذه الحالة خارقة للعادة؛ ولما كان كذلك عبّر عنها بصيغ التعقيب والاتصال، والله تعالى أعلم».

قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٦﴾ [الكهف: ٦٦-٦٩]. قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].
قال: نعم.

فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر. فمرّت بهما سفينة فكلّمهما أن يحملوهما. فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ^(١)، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فمزقه، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهما فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا؟^(٢) قال: ﴿قَالَ الْمَرْأَقُلُّ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [٧٢] قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ [الكهف: ٧٢-٧٣].

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله. فقال موسى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [٧٤] قَالَ الْمَرْأَقُلُّ لَكَ

(١) أي: بغير أجرة.

(٢) ومن طريق آخر من رواية أبي بن كعب كذلك بزيادة نافعة وفيها مناسبة لهذه الرحلة الرسولية العجيبة، قال: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلّموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نَوْلٍ، فجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر». البخاري (٣٤٠١) ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) أي: عظيما.

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥]. قال: وهذه أشد من الأولى. قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ٧٦ ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٥-٧٦] يقول: مائل، قال الخضر بيده هكذا فأقامه. قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يضيّفونا، ولم يطعمونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرا. ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]. قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر، حتى يقصّ علينا من أخبارهما»^(١).

قال السعدي رحمه الله: «رجعا يقصان أثرهما إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت فلما وصلا إليه، وجدا عبدا من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبدا صالحا، لا نبيا على الصحيح»^(٢).

﴿إِذْ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الكهف: ٦٥] أي: من عندنا علما، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصا في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من

(١) البخاري الفتح ٦ (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٢) قلت: والأظهر أنه كان نبيا؛ لأنه ما كان ليعمل هذه الأمور المتعلقة بالغيب من التخريب والقتل والإقامة إلا بوحي من الله تعالى، ولا يكفي لها الإلهام والتحديث، وإن كان محتملا كصنيع أم موسى عليه السلام بإلقائه في اليم، فالراجح أنه كان نبيا لغير بني إسرائيل، فحيث كان الوحي فثمت النبوة، والله أعلم.

المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨] أي: كيف تصبر على أمرٍ ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعدته أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فَانْظُرْ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١] أي: اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك، سيبيته، فلم يصبر موسى عليه السلام لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانًا فقال: ﴿لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] أي: لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَانْظُرْ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ أي: صغيرًا ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية حين قتل غلامًا صغيرًا لم يذنب. ﴿قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ وأيُّ نُكْرٍ مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدًا؟! وكانت الأولى من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيان، ولكن

عدم صبر^(١).

فقال له الخضر معاتبًا ومذكرًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فقال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَلِّحْنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر، أي: بناه وأعاده جديدًا. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره وأنت تقدر عليها؟ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت عليّ، وأنبئك بما لي في ذلك من المأرب، وما يؤول إليه الأمر.

(١) وقال بعضهم: إن هذا الإنكار كان واجبًا على موسى عليه السلام. قلت: وليس الأمر كذلك، فالله تعالى قد أخبره سلفًا بأمر هذا العبد الصالح، وأن لديه من العلم ما ليس له عليهما السلام، كما أنه قد وافق على شرط عدم السؤال قبلاً، حتى يكشف له وجه الفعل تاليًا، وأيضًا فإن الأمر الذي رآه منكراً قد انقضى، وليس بمُدافع حتى يتردد في الدخول من عدمه. لذا: فالسبب هو ما ذكره الخضر في توقّعه ابتداء، سواء أكان موسى عليه السلام أم غيره: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]. والله أعلم.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة بهم. ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام قد قُدر عليه أنه لو بلغ لأرهمق أبويه طغيانًا وكفرًا، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يحدّهما على ذلك، أي: فقتلته لاطلاعي على ذلك سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟

وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولدًا صالحًا، زكيًا، واصلاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافة بهما ورحمتها، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضا بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلهذا هدمت

الجدار واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاناً.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله عبده الخضر
﴿وَمَا فَعَلْتُهُ وَعَنِّ أَمْرِي﴾ أي: ما أتيت شيئاً من قبل نفسي ومجرد إرادتي، وإنما ذلك
من رحمة الله وأمره.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسره لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفي هذه القصة
العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون
الله (١):

فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه
السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل،
لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

(١) يتميز تفسير السعدي رحمه الله تعالى بمزايا: منها سلامته، فهو على معتقد السلف
فيقرأ المسلم بطمأنينة وأمان. ومنها: بلاغته وجزالته وفصاحته ووضوح بيانه. ومنها:
دقة استنباطاته وثرائها كما ترى فيما بعاليه من قصة موسى والخضر عليهما السلام.
ومنها: اختصاره، فيورد المعنى المراد بإيجاز غير مخل، بلا استطراد وإطناب، وقد
مررت على تفسير بعض الآيات في كتب كثيرة وكلما عدت لتفسير السعدي رأيت أنه
قد وقف عليها جميعاً، واستخلص مضمونها، وخرج بزبدتها المأثورة والمستنبطة، ثم
خطها بإيجاز يشبه الإعجاز، ويكأنه يكتب بقلم شيخ الإسلام رحمة الله عليهما، وهو
بكل حال غير معصوم، كغيره من كتب العلماء، أبى الله تعالى العصمة إلا لكتابه المبين.
لذلك فيوصى بقراءة هذا التفسير للعامة والخاصة والطلبة والشيوخ، ففيه من المعاني
خير كثير. وبالله التوفيق.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتهاه ﴿إِنِّي أَتَاكَ خَفَا﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه ينتهي قصده.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك؛ أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر: إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرى، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فحُبْرًا ﴿فَجَعَلَ الْمَوْجِبَ لِعَدَمِ صَبْرٍ عَدَمَ إِحَاطَتِهِ خَبْرًا بِالْأَمْرِ﴾.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير، وتراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما. فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظن أنه خير؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانها خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما وإقامة جدارهما أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وقالت الجن:

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] مع أن الكلّ بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب ألا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته حتى يُعْتَبَهُ^(١)، ويُعَذَّرَ منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرها جداً، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة^(٢).

والمؤمن دائر بين الابتلاء والتمكين ولشدة والفرج والعسر واليسر، ولم يخرج من ذلك حتى سيد البشر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على

(١) أي: يزيل أثر العتب والملام وموجبه، ومنه: «لك العُتْبَى حتى ترضى».

(٢) تفسير السعدي (١ / ٤٧٨ - ٤٨٢) بتصرف واختصار.

وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(١)، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلّنتي، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم^(٢) عليّ، ثم قال: يا محمد؛ إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين^(٣)، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(٤). فتأمل لطفه ورحمته ونصحه وشفقته ونقاؤه وصبره وحسن ظنه وبقينه بربه تعالى صلوات الله وملائكته والصالحون وسلامه وبركاته التامات الكاملات الطيبات عليه، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعند الطبراني بإسناده^(٥) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شهدت النبي

(١) قال النووي: «قرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، على مرحلتين من مكة».

شرح صحيح مسلم (٦/ ٣٣٤) ويسمى الآن: السيل الكبير.

(٢) وهذا شاهد لما ذكرناه من أن السلام تحية سماوية أرضية قديمة.

(٣) الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة. والأخشب: الجبل الضخم الغليظ.

(٤) البخاري ٤/ ١٣٩ (٣٢٣١)، ومسلم ٥/ ١٨١ (١٧٩٥) (١١١).

(٥) المعجم الكبير (٦/ ١٦٢) (٥٨٦٢) وبنحوه في صحيح ابن حبان (٣/ ٢٥٤) (٩٧٣).

قال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كُسرت رِبَاعِيَّتُهُ وجرح وجهه وهشّمت البيضة^(١) على رأسه، وإني لأعرف من يغسل الدم عن وجهه، ومن ينقل عليه الماء، وماذا جعل على جرحه حتى رقأ الدم؟ كانت فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ تغسل الدم عن وجهه، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينقل الماء إليها في مِجَنَّة^(٢).

فلما غسلت الدم عن وجه أبيها أحرقت حصيراً حتى إذا صارت رماداً أخذت من ذلك الرماد فوضعت على وجهه حتى رقأ الدم، ثم قال يومئذ: «اشتد غضب الله على قوم كَلَمُوا وجه رسول الله ﷺ». ثم مكث ساعة ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ،

(١) البيضة: هي الخوذة على رأس المحارب وقاية له وحماية بإذن الله تعالى.

(٢) المِجَنَّة: الترس الذي تتقي به أسلحة العدو في الحروب. ويسمى الحَجَفَةُ، والدَّرَقَةُ.

وهو يمسح الدم عن وجهه، يقول: «اللَّهُم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»^(١) «(٢)».

وعند أحمد بسند صحيح^(٣) عن عروة عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله ﷺ فيما كانت تُظهر من عداوته؟ قال: حضرتهُم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله

(١) وتأمل السلك الناظم النبوي الرسالي، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. قال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٢١): «يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي ﷺ ذكر لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله، وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شجَّ وجهه وجرى الدم منه، فاستحضر في تلك الحالة قصة ذلك النبي الذي كان قبله، فذكر قصته لأصحابه تطييباً لقلوبهم».

وقال النووي رحمه الله تعالى في المنهاج (٤/ ٤٣٤): «قوله «يحكي نبياً من الأنبياء» فيه: ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والتصبر، والعفو والشفقة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنائهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون. وهذا النبي المُشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا ﷺ مثل هذا في أحد».

(٢) البخاري ٢١٣/٤ (٣٤٧٧)، ومسلم ١٧٩/٥ (١٧٩٢) وقد قالها في أحد لما شجَّ المشركون وجهه، وقالها مرة أخرى في حنين لما قَسَمَ غنائم حُنين بالجِعرانة وازدحموا عليه. كما في الأدب المفرد (١/ ٢٦٦) وحسنه الألباني. وقد أشار الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٨٢) إلى ما جرى لرسول الله ﷺ في غزوة أحد، ثم قال: «وعند أحمد من رواية عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود أنه ﷺ قال نحو ذلك يوم حنين لما ازدحموا عليه عند قسمة الغنائم».

(٣) أحمد (٧٠٣٦) واللفظ له، وصححه أحمد شاكر، وحسنه الأرناؤوط. وخرجه البخاري (٣٦٧٨) بنحوه مختصراً، والنسائي (١١٤٦٢) مختصراً.

ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا على هذا الرجل! سَفَّهَ أحلامنا، وشتَمَ آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّقَ جماعتنا، وسبَّ آلهتنا. ولقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم، أو كما قالوا، فبينما هم في ذلك إذا طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول، قال فعرفتُ ذلك في وجه رسول الله ﷺ^(١)، ثم مضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتُ ذلك في وجهه، ثم مضى فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال: «أسمعون يا معشر قريش؛ أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»^(٢)!

قال: فأطرق القوم حتى ما منهم رجلٌ إلا كأنما على رأسه طائرٌ واقع، حتى إن أشدَّهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرَفَّاهُ^(٣) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول:

(١) من كمال صدقه وصفائه ﷺ، أن وجهه الشريف كان كتاباً مفتوحاً على مشاعره ﷺ، فقد كان لكمال خلقه وجميل سجايه صادقاً واضحاً في إبداء مشاعره على قسمات وجهه الكريم، فكان يُعرف منه الرضا والفرح والحب والسخط والغضب ونحو ذلك ﷺ. وكان إذا تكلم تكلم بكامل سمات وجهه وليس بغمه فقط كما يفعله الغامضون أو المتكبرون.

(٢) وصدق ﷺ، فقد ذبح سُرَّاتهم في بدر. فهو الضحك القتال، وهو نبي الرحمة ونبي الملحمة.

(٣) قال ابن سيده في المخصص (٥ / ٢٤): «الرِّفَاءُ: الاتفاقُ والاتِّئامُ، ومنه قولهم: بالرِّفَاءِ والبَيْنِ، يكون على معنيين؛ يكون بالاتفاق وحُسن الاجتماع، ومنه أخذ رَفءُ الثوب لأنه يُرَفَأُ فيضمُّ بعضه إلى بعض ويُلاَمُّ بينه، ويكون الرِّفَاءُ من الهدوء والسكون، قال أبو خراش الهذلي:

=

انصرف يا أبا القاسم راشداً فوالله ما كنت جهولاً.

قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما كنتم تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»^(١).

قال فقد رأيت منهم رجلاً^(٢) أخذ بمجمع رداءه. قال: وقام أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دونه يقول وهو يبكي: ويلكم؛ أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله!^(٣) قال: ثم انصرفوا عنه. فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط.

ورضوان الله على الصديق الأكبر في هذه الأمة والفدائي العظيم بين ساداتها، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً؛ ألح أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر أنا قليل».

فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُسْرِعْ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هُمْ هُمْ».

(١) وهذا موقف هائل في الغاية من الشجاعة والجسارة والثبات.

(٢) وهو عقبة بن أبي معيط، وقد قتله الله في بدر.

(٣) قال السندي: «فقد وافق أبو بكر مؤمن آل فرعون، وزاد عليه حيث خاصم باليد واللسان، بخلاف مؤمن آل فرعون، فإنه خاصم باللسان فقط، رضي الله تعالى عنهما».

المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا الى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوه في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة^(١) فجعل يضربه بنعلين مخصوصتين ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رَضَوَاللَّهُ عَنْهُ، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم^(٢) يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة^(٣) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسّوا منه بالستهم وعذلوه^(٤)، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه.

فلما خلت به ألحّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله

(١) وقد عقره الله في بدر مبارزة على يد أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) وهم رهط الصديق وعشيرته. وهم بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

(٣) والد الصديق، وقد أسلم علم الفتح رضي الله عنه، وكل أهل بيت أبي بكر قد أسلموا، ولا نعلم أنها قد اجتمعت لغيره من الصحابة رضي الله عنه وعنهم.

(٤) رضي الله عنه ما أوفاه وأنصحته وأحبه وأطيبه!

فإليك عذلي فإنّ مسامعي ما للَمَلامِ بطُرُقِهَا إلمامٌ
أَيُرُومُ سلواني الوشاةُ بِنُصَحِهِمْ كَلّا وإن قعدوا لذاك وقاموا

مالي علم بصاحبك. فقال: اذهبي الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل؛ فقالت: إن أبا بكر سألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحين أن أذهب معك الى ابنك.

قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً ذنباً^(١)، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع^(٢)، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالمٌ صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم^(٣). قال: فإن لله عليّ ألا أذوق طعمًا ولا أشرب شرابًا أو^(٤) آتي رسول الله ﷺ!

فأمهلنا^(٥) حتى إذا هدأت الرّجلُ وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتهما على رسول الله ﷺ، فقال: فأكبّ عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكبّ عليه المسلمون، وركّ له رسول الله ﷺ رقةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا

(١) المُدْنِف: من اشتد مرضه أو وجعه.

(٢) لأنها لم تكن أسلمت إذ ذاك، وهذا من احتياط الصحابة رضي الله عنهم وحزمهم وأخذهم بالعقل والجد دون الطيش والعاطفة، وتقديمهم سلامة رسول الله ﷺ على كل شيء سواه، رضي الله عنهم، لا كان ولا يكون مثلهم.

(٣) وكانوا يجتمعون فيه سرًا.

(٤) أو (هنا): بمعنى حتى.

(٥) أي: انتظرتا.

رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمِّي بَرَّةٌ بولدها^(١) وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت^(٢)»^(٣).

ورضي الله عن عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقد قام إلى شبيبة بن ربيعة ليبارزه في بدر، قال الزهري^(٤): «قام إليه عبيدة بن الحارث وهو يومئذ أسنُّ أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب شبيبة رجل عبيدة بـذباب السيف فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرَّ حمزة وعليُّ على شبيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فجاءا به إلى الصف، ومنح ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله ألسْتُ شهيداً؟ قال: «بلى» قال: أما والله لو كان أبو طالب^(٥) حيًّا لعلم أنا أحق بما قال منه حين يقول^(٦): كذبتُم وبيتُ الله يُبْزَى^(٧) محمدٌ ولما نطاعن دونه ونناضل

(١) البرُّ هو الإحسان في المعاملة، لذلك يصح لغة نسبة البر للوالد بولده، والمرء بالناس، وهكذا.

(٢) وهذا من بركة ابنها عليها رضي الله عنهما بحسن الاستفادة من هذا الموقف العظيم المؤثر الحاني المبكي الصادق.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩-٤٤١) والبداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٤) وهو أخوه، وقد قال ذلك لأن أخيه قد مات على الشرك.

(٥) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٠ / ٤١٥).

(٦) وهي من لامية أبي طالب المشهورة، قال عنها ابن كثير: إنها لا تقل فحولة عن المعلقات.

(٧) يُبْزَى: أي: يُقهر ويغلب، وأراد لا يُبْزَى، فحذف لا من جواب القسم وهي مرادُّه، أي

ونسلمه حتى نُصَرِّعَ دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وكان عتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز قام إليه أبو حذيفة يبارزه^(١)، فقال له
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اجلس».

ورضي الله عن طلحة بن عبيد الله لمقامه العظيم يوم أحد، قال طلحة: لما
جال المسلمون تلك الجولة ثم تراجعوا، أقبل رجل من بني عامر بن لؤي بن
مالك بن المضر بجحر محملاً له على فرس كميت أغر مدججاً في الحديد يصيح: أنا
أبو ذات الودع^(٢) دلوني على محمد، فأضرب عرقوب فرسه فانكسعت، ثم أتناول
رحمه فوالله ما أخطأت به عن صدقته، فخار كما يخور الثور، فما برحت به واضعاً
رجلي على خده حتى أزرتة شعوب^(٣).

وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلبة^(٤)، ضربه رجل من المشركين

لا يقهر ولم نقاتل عنه وندافع. لسان العرب (٧٣/١٤).

(١) هم بمبارزة والده وقتله، تحقيقاً لأمر الله تعالى بالبراء التام من أعدائه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

(٢) يعتزي بابنته كحال العرب إلى اليوم، إذ يعتزون ببنايتهم وأخواتهم دلالة على حمى
الذمار والدفع عن العرض. والودع: خرز بيض من البحر. كما في القاموس المحيط
(٩٢/٣). ولا بأس به للتجمل، أما للتبرك فمحرم.

(٣) الشعوب: الموت والمنية.

(٤) أي: صارت الضربة كالصليب لاختلافها في ذات الموضوع. وانظر: النهاية (٣/٢٧٠).

ضربتني؛ ضربة وهو مقبل، والأخرى وهو معرض عنه، وكان قد نزف منها الدم. قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ فَقَالَ: «عَلَيْكَ بَابُنِ عَمِكَ»^(١). فَأَتَيْتُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَدْ نَزَفَ الدَّمَّ، فَجَعَلْتُ أَنْضَحُ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ وَهُوَ مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقُلْتُ: خَيْرًا، هُوَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، كُلُّ مَصِيبَةٍ بَعْدَهُ جَلَلٌ^(٢).

وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول: نظرت إلى طلحة بن عبيد الله، قد حلق رأسه عند المروة في عمرة، فنظرت إلى المصلبة في رأسه. فقال ضرار: أنا والله ضربته هذه، استقبلني فضربته، ثم أكرّر عليه وقد أعرض فأضربه أخرى^(٣).

وقد حازت المسلمات قصب السبق مع الرجال في عظيم صبرهم ووفائهم وإيمانهم ويقينهم ودينهم، فعن ثابت عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة قالوا: قُتِلَ مُحَمَّدٌ! حتى كثرت الصواريخ في ناحية المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار متحزّمة، فاستقبلت بابنها وأبيها وزوجها وأخيها^(٤) لا أدري أيهم استقبلت به أوّل، فلما مرّت على آخرهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجك، ابنك. تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟^(٥) يقولون: أمامك.

(١) فكلاهما تيمّي.

(٢) الجلل: من الأضداد، وهو هنا بمعنى الهين اليسير.

(٣) مغازي الواقدي (١ / ٢٥٥).

(٤) أي: كل جهات قرابتها الماسّة!

(٥) لاحظ اتفاقهم رضوان الله عليهم على المعنى واللفظ، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ١٠٧].

حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذ سلِمْتَ مِنْ عَطَبٍ! (١)(٢)

وخرجت السميراء بنت قيس إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب ابنها مع النبي ﷺ بأحد، فلما نُعيَا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله صالح على ما تحبين. قالت: أرونيه أنظر إليه. فأشاروا لها إليه فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جَلُّ. وخرجت تسوق بابنيها بعيراً تردّهما إلى المدينة، فلقيتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: ما وراءك؟ قالت: أمّا رسول الله بحمد الله فبخير لم يمت، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. قالت: من هؤلاء معك؟ قالت: ابناي، حلّ، حلّ (٣)(٤).

الله أكبر، فحتى في سياق إخبارها بفاجعتها قدّمته على ابنها رضي الله عنهم، ولقد رأينا في هذا الزمان بحمد الله تعالى من أهل غَزَّة العِزَّة وأكناف بيت المقدس شيئاً شبيهاً لهذا من الفداء العظيم لدين الله رب العالمين، وبذل الشهداء من أبناء وأزواج وإخوة وآباء، والفرح بتقديم أقرب الناس وأحبهم إلى الله تعالى شهداء،

[٧٢].

(١) ولا أعلم كلمة قيلت في الفداء صدقاً كهذه.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٧ / ٢٨٠) (٧٤٩٩).

(٣) حلّ حلّ: زجر الإبل لحثها على السير.

(٤) مغازي الواقدي (١ / ٢٩٢).

ولا عجب فهم أهل الشام، وأهل بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس، من سبقت لهم بشارة رسول الله ﷺ بالخيرية، والنصر، والعز، والتمكين.

لا جرم؛ فإنما هو دين الله عز وجل، من اعتز به وأعزه أعزه الله العلي العزيز القدير، ومكنه، وأداله، ورفع، وأسعده، وحفظه، وشفأ صدره، وأفرح قلبه، وتقبله، ومن خذله خذل، وفشل، وتنكبت به سبل الندم، ولات حين مندم، مهما كان مولده ونسبه وبلده وعلمه وولده وتلاذه، والحمد لله رب العالمين.

فمعيار الصواب، ولُباب الحقيقة، ونور البصيرة، وعين الهدى، وباب التوفيق؛ إنما هو فيما جاءنا من ربنا تبارك وتعالى، فكن على الحق، واثبت عليه، ولو كنت لوحدك، فإنما أنت بالدين جبل، ولا عليك ما فاتك من رغائب الفانية، ولا ما أصابك من لأواء كير الابتلاء، ولا تنخذل من تساقط الصرعى في شباك العدو الرجيم.

لا تلتفت لترى الرماة فرَّبًا فُجعَ الفؤادُ لرؤية الرامينا

ورضي الله عن الفاروق الصابر المجالد، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما أسلم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تعلم قريش بإسلامه فقال: أيُّ أهل مكة أنشأ للحديث؟^(١) فقالوا: جميل بن معمر الجمحي. فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمتُ، قال: فوالله ما ردّ عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن

(١) من الناس من يحبون نقل الأخبار، ولا يطيقون كتمها، أو لجم نفوسهم عن إشاعتها، وهذا من ضعف النفس والعقل.

الخطاب قد صَبَأ!

فقال عمر: كذب، ولكنني أسلمتُ وآمنتُ بالله وصدّقتُ رسوله. فثاوروه، فقاتلهم حتى ركبت الشمس على رؤوسهم، حتى فَتَرَ عَمْرُ وجلس، فقاموا على رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنّا ثلاث مئة رجل لقد تركتموهما لنا أو تركناها لكم.

فبينما هم كذلك قيام عليه إذ جاء رجل عليه حلّة حرير وقميص قومي فقال: ما بالكم؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صَبَأ، قال: فَمَهْ^(١)، امرؤ اختار ديناً لنفسه، أفتنظنون أن بني عدي تسلم إليكم صاحبهم؟ قال: فكأنما كانوا ثوباً انكشف عنه. فقلت له بعدُ بالمدينة: يا أبت، من الرجل الذي ردّ عنك القوم يومئذ؟ فقال: يا بني، ذاك العاص بن وائل^(٢).

إن مرور النظر في سير الصابرين يحقن في القلب مواد صبر تعينه بإذن الله تعالى على السير في سبيل الصابرين، وانتهاج طريق الموفّقين، والوصول لشاطئ العزّ المبين. قال المنجد حفظه الله تعالى: «إنّ التأمل في قصص الصابرين لمن أعظم الأسباب المعينة على الصبر:

فهذا نوحٌ عليه السلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام ألف سنة إلا خمسين عاماً جاهد ودعوة، وصبر على الإيذاء والسخرية، اتهموه بالجنون والسحر

(١) مَهْ: كلمة زجر، وأمر بالانصراف عن الأمر.

(٢) صحيح ابن حبان (١٥ / ٣٠٢) (٦٨٧٩) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

والضلال وهو يقابل ذلك بالصبر حتى قالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وصبر إبراهيم عليه السلام تعرض لمحنة عظيمة ويصبر صبر الموحد الموقن
بوعده الله، حتى لما ألقى في النار قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:
١٧٣]، حتى لما أُمر بذبح ولده صبر وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين وأضطجع
الولد استسلاماً لأمر الله، والله ابتلاه بهذا الأمر فصبر.

وموسى عليه السلام واجه التهديد والإيذاء من قومه وقوم فرعون قبلهم،
فصبر على دعوة أمّتين^(١).

وإبراهيم لما أُمر بترك ولده وهو حديث عهد ولادة، بعدما كان عقيماً، جاءه
اسماعيل بعد سنوات طويلة جداً وهو شيخ كبير، وجاءه الأمر من الله أتركه وأمه
في وادٍ غير ذي زرع.

ما نال الخليل هذه المرتبة من شيء قليل، فمضى ولم يلتفت ولم يتحسر ولم
يتردد، حتى قالت هاجر: لمن تتركنا؟ الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجع للشام
ورزقه الله من سارة بإسحاق ومن ورائه يعقوب.

وعيسى عليه السلام عانى من بني إسرائيل من التهم الباطلة، تأمروا على قتله
وصلبه وصبر حتى رفعه الله إليه.

وخاتم الأنبياء ﷺ كم تعرض للأذى والاضطهاد، قالوا عنه مجنون ساحر

(١) أي: بني إسرائيل والقبط.

كذاب خائن، وأشدّ شيء على الصادق أن يتهم بالكذب، أشدّ شيء على العاقل أن يقال عنه مجنون، وأشدّ شيء على الأمين أن يتهم بالخيانة، وأشدّ شيء على المؤمن أن يقال عنه شاعر ساحر به جنّة، وهو أكمل الخلق وأصدقهم وأعقلهم، ووضعوا الشوك وأخرجوه من بلده.

وذهب للطائف يعرض نفسه على القبائل، وأحسّ بالاضطهاد وخرج من مكة لا يدري من الهم لم يستفق إلى في قرن الثعالب، حتى تأمروا على قتله ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقتلوا بعض أصحابه وعذبوا بعضهم، وأشدّ شيء على النبي أن يرى أتباعه يضطهدون ويقتلون أمامه.

وهكذا صبر ﷺ حتى أتاه اليقين من ربّه، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة حتى لما ذهب للمدينة صبر.

فلا تظنّ أن مجالات الصبر قد خفّت عليه، لأنه عانى من المنافقين معاناة عظيمة، يكفي حادثة الإفك، وصبر على كيد اليهود، ووضعوا له السم، وكانت نوبات الحمى تتتابه حتى مات في آخر نوبة منها فكان في ذلك أجله وهكذا أصحابه، بلال، سمية، صهيب، عمار، خباب.. صهروهم في الشمس وعذبوهم. وهذا الصحابي خبيب، يسجن ليقتل ويصلب ويقول:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وتلك المرأة التي قُتل أبوها وأخوها وزوجها في يوم أحد فصبرت على ما حصل لها من هذه الأقدار، فماتوا في رفعة الدين ونصرة الدين وجهاد الكفار، وهكذا سار على هذا المنوال التابعون وتابعو التابعين.

عروة بن الزبير من أفاضل التابعين وأخيار التابعين، كان له ولد اسمه محمد من أحسن الناس وجهًا، دخل على الوليد في ثياب جميلة فقال الوليد: هكذا تكون فتیان قريش، ولا دعا بالبركة فقالوا: لعله أصابه بالعين، فخرج محمد بن عروة بن الزبير من المجلس فوقع في اصطبل للدواب فلا زالت الدواب تطأه حتى مات، ثم مباشرة وقعت الأكلة (الغرغرينا) في رجل عروة وقالوا: لا بد من نشرها بالمنشار وقطعها حتى لا تسري لأماكن الجسد فيهلك، ولما أرادوا قطعها قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلاً تشعر بالوجع؟

فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري، أفأعارض أمره؟! فنشروها، فلما وصل المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدّر من وجهه وهو يهلل ويكبر ويذكر الله، فأخذها وجعل يقلبها ويقبلها في يده وقال: «أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله»، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين.

فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يزد عليه. ثم قال: لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة، أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصره بالعقيق فأقام هنالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبا لسانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقي الله

أكثرُك؛ عقلك ولسانك وبصرُك ويداك وإحدى رجلِك^(١)، فقال له: يا عيسى ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيتني به.

وهذا أبو قلابة ممن ابتلي في بدنه ودينه، وأريد على القضاء، فرفض وهرب إلى الشام فمات بعريش مصر^(٢)، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره، وهو مع ذلك حامد شاكر.

وذاك أحمد بن بنصر الخزاعي من كبار علماء السلف، كان قوَّالاً بالحق، أمراً بالمعروف، نهياً عن المنكر، ثبت في محنة خلق القرآن، حملوه إلى سامراء فجلس مقيداً، وعرض عليه الرجوع عن القول بأن القرآن كلام الله المنزل، وعرض عليه القول بخلق القرآن فرفض، وقاموا عليه بحرب نفسية وجسدية، فيقوم القاضي

(١) فمن الناس من يوفق عند اشتداد الكروب لكلمات كالبلسم لروح المصاب، وهو محض توفيق الكريم سبحانه.

(٢) وهو من عبّاد التّابعين وزُهّادهم، واسمه عبد الله بن زيد الجرّمي، جرم قضاة. ومن نافع وصاياه: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تحادثوهم، فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون». وعن أيوب، عن أبي قلابة، قال: «إذا حدث الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال. قلت أنا: وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلّ فيه، فإن جنت منه، فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرّك على صدره، واقرأ عليه آية الكرسي، واخنقه». رحمه الله تعالى. وانظر: سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٧٢).

عند خليفة السوء فيقول: إنه حلال الدم، ووافقه من كان حاضراً، وأحمد بن أبي دؤاد قال: شيخ كبير - يتظاهر بالشفقة عليه - فقال الخليفة: ما أراه إلا مؤدياً لكفره، فأخذ السيف وقال إني أحتسب خطاي^(١) إلى هذا الكافر، فضرب به عنقه بعد أن مدّوا رأسه بحبل، ونُصب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد.

يقول جعفر بن محمد الصائغ: رأيت أحمد بن نصر الخزاعي حين قُتِل قال رأسه: لا إله إلا الله! وهذا من كراماته رَحِمَهُ اللهُ، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عنه: جاد بنفسه في سبيل الله.

والإمام أحمد نفسه كيف صبر في محنة خلق القرآن؟! حُمِلَ هو ومحمد بن نوح وهو شاب وليس عالماً لكن صبر مع الإمام أحمد، فحُمِلَ إلى المأمون، يشاء الله أن محمد بن نوح يمرض ويوصي الإمام أحمد: أنت إمام وأنا أموت ولا أحد يأبه لي، فاصبر. ويموت محمد في الطريق، ويؤخذ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ مقيداً.

ودخل عليه بعض الناس قبل الدخول على الخليفة قائلاً: هناك أحاديث في التقيّة، والمرء عند الشدة يمكن أن يورّي حتى تمضي العاصفة! قال: كيف تصنعون بحديث خبّاب؟ إنه من كان قبلكم يُنشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه؟! فيئسوا منه وتركوه، وقال: اللهم لا تريني وجه المأمون. فمات المأمون قبل أن يصل أحمد.

(١) نعوذ بالله من الضلال، وهذا من شؤم جلساء السوء من الجهمية المعتزلة وكتب الفلسفة والإلحاد!

يُقتضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ووصل الخليفة الذي بعده والمحنة ما زالت مستمرة، فيقول له: يا أحمد؛ إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف^(١)، ولكن يضربك ضرباً بعد ضرب حتى تموت، فصبر.

ثم ناظر ابن أبي دؤاد، فأسكتته بالحجة وقال: هاتوا شيئاً من القرآن أقول به، هاتوا شيئاً من السنة أقول به. فلا يأتون بدليل.

فيقول الخليفة لأحمد: تعرف صالح الرشيدي؟ قال: سمعت باسمه، قال: كان مؤدّبِي، فسألته عن القرآن فخالفني، ولما خالفني وأصر على أن القرآن غير مخلوق أمرت به فوطيء وسحب حتى مات.

ثم قال: هاتوا العقايين والسياط، ثم قال: إيتوني بغيرها، ثم قال الخليفة للجلادين: تقدموا واضربوه، وربطوا الإمام أحمد، وكل فرد منهم يضرب سوطين بأقوى ما عنده، ويقول الخليفة للجلاد: شدّ يدًا قطع الله يدك، لينال أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ أعظم العذاب بالضرب على أيديهم، ثم يقول الخليفة: علام تقتل نفسك؟! إنّي عليك لشفيق.

وجعل ذلك القائم على رأسه الحارس ينخسه بالسيف، وذاك يقول: ويحك يا أحمد ما أجبتني، أجبني إلى أي شيء يكون لك فيه فرج حتى أطلقك. فيقول: يا أمير المؤمنين؛ أعطني شيئاً من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.

(١) يخوفونه من الخلق، وهو الذي كان يوصي ويقول معاتباً مَنْ خاف غير الله تعالى: «لو حققت لم تخف أحداً». أي: سوى الله جل وعلا القائل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

ثم يأتي الجلاد ويضرب، ويضرب، حتى قال: ذهب عقلي، فأفقت والأقياد في يدي، فقال لي رجل: كبيناك على وجهك، وجعلنا فوقك حصيراً، ووطئنا عليك! فقال: ما شعرت بذلك، فأتوه بطعام فقال: لا أفطر، وكان صائماً.

ثم جاؤوا به والدم يسيل في ثوبه فصلّى، فقال أحدهم: صليت والدم يسيل في ثوبك؟! فقال أحمد: صلي عمر وجرحه يشعب دمًا، ثم مكث في السجن ثم خُلّي عنه بعد ٢٨ شهرًا، ثم جُعِل في الإقامة الجبرية، في بيته، وليس هناك أصعب على العالم من أن يتوقف عن نشر العلم.

وسئل أحدهم عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ فقال: رجل هانت عليه نفسه في سبيل الله فبذلها، كما هانت على بلال نفسه، لولا أحمد لذهب الإسلام.

فيا ضعيف العزم الطريق طويل، تعب فيه آدم، وجاهد فيه نوح، وألقي في النار إبراهيم، واضطجع للذبح إسماعيل، وشُق بالمنشار زكريا، وذبح الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، واتَّهم بالسحر والجنون نبي الله الكريم وكسرت رباعيته وشج رأسه ووجهه، وقُتل عمر مطعونًا، وذو النورين، وعلي، والحسين، وسعيد بن جبير، وعذب ابن المسيب ومالك.. فالشاهد أنه في النهاية لا سبيل إلا الصبر»^(١).

قال الإمام علي بن المديني رحمه الله تعالى: «أعزَّ الله الدين بالصدق يوم الرِّدَّة، وبأحمد يوم المحنة»^(٢). قلت: وبابن تيمية يوم البدعة، وبابن عبد الوهاب يوم

(١) أعمال القلوب للمنجد (٢ / ٥٦ - ٦١) بتصرف يسير.

(٢) سير الأعلام (١١ / ٩٦).

الشرك والفتنة.

ولا يزال الله تعالى يستغرس لهذا الدين أقوامًا يستعملهم في طاعته، ويبعث على رأس كل مئة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

فاشدّد يديك بحبل الله مُعتصِمًا فَإِنَّهُ الركنُ إن خانتك أركانُ

ومن الصابرين شهيد الدار ذو النورين عليه من الله الرحمة والرضوان، قال الشيخ إبراهيم الحمد حفظه الله: «في المحن والبلايا، والفتن والرزايا؛ معرفة عزّ الربوبية وقهرها، وذلة العبودية وكسرها ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتديره، وقضائه وتقديره، لا مفر لهم منه، ولا محيد لهم عنه^(١).

والمؤمن يُبتلى بالشر كما يبتلى بالخير، وتصيبه الضراء كما تصيبه السراء؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط، وإذا انقشعت سحابة المحن، وسكنت عاصفة الفتن كان في الناس مأجور وموزور، وسالم وموتور، وأعظم الوثر الوثر في الدين، ثم الوثر في النفس، ثم في الأهل والمال.

وأمر المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَرَ في نفسه، وَوُتِرَ به أهله بعد شدة شديدة، ومحنة عظيمة، وبلوى كبيرة؛ أخبره عنها النبي ﷺ قبل أن يفارق أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فوقع الأمر كما أخبر بعد أكثر من ربع قرن من إخباره عليه الصلاة

(١) انظر: فوائد البلوى والمحن للعز بن عبد السلام ص: (٩).

والسلام^(١).

روى أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أستاذن بالدخول على النبي ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي موسى: «اُئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، قال أبو موسى: فجئته فقلت له: أدخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك» رواه الشيخان، وفي رواية: قال أبو موسى: «فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال: ففتحت وبشرته بالجنة، قال: وقلت الذي قال، فقال: اللهم صبراً، أو الله المستعان» وفي رواية أخرى: «أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حمد الله تعالى ثم قال: الله المستعان»^(٢).

وهذه البلوى التي أخبره بها النبي ﷺ أصابته في آخر حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو شيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وتحمل من أمور الأمة ما تحمل؛ فقابل بلواه بثبات عجيب، وصبر جميل، فلم يتزحزح عن إيمانه، ولا جزع من مصابه، فرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وجعل دار الخلد مأواه.

(١) ذلك أن راوي الحديث أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو بواب النبي ﷺ في ذلك اليوم، والأشعريون رضي الله عنهم قدموا عام خير سنة سبع من الهجرة؛ فالنبي ﷺ قال هذا الحديث بين العام السابع والعاشر، وعثمان رضي الله عنه قتل سنة خمس وثلاثين للهجرة، فوقع إخباره عليه الصلاة والسلام بعد ثمان وعشرين سنة، أو بعد خمس وعشرين سنة، أو بينهما، والله الأمر من قبل ومن بعد، وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصدق من ربه بالبراهين الصادقة والآيات الهادية، ورضي عن صحابته الغر الميامين، الذين قالوا بالحق وبه يعدلون.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩٢) ومسلم (٢٤٠٣).

بداية الفتنة:

كانت بداية هذه البلوى العظيمة لهذا الخليفة الراشد بفتنة منكرة، أطلت برأسها في آخر خلافته، أشعل نارها المنافقون، وجعلوا خطبها الجهلة والرعاع من نَزاع القبائل، وسفلة الأطراف والأراذل، قد امتلأت بالفتنة قلوبهم، وتواصوا بالشر فيما بينهم، فتراسلوا وتكاتبوا يسبون أمير المؤمنين، ويملؤون صدور العامة عليه وعلى ولاته؛ جرّاء سياسات انتقدوها، وأفعال نقموها؛ كان الحق فيها مع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكنهم قوم يستعجلون، وأوباش إلى الفتنة يسارعون^(١).

فاستفحل أمرهم، واستطار شرهم، فما عادت تكفيهم المراسلات والمكاتبات، ولا أشبعت قلوبهم المفتونة الأقوال والمشاتبات، فانقلبوا إلى التجمعات والخروج المسلّح؛ فسار المفتونون، يقودهم المنافقون، ساروا من مصر إلى المدينة النبوية، عاصمة الخلافة، وموطن الخليفة.

فوصلوها وقد أضمر رؤوسهم الشر، وتشرب أتباعهم الفتنة، ف وقعت أمور عظام، وكثرت الأقاويل والشتائم التي أودي فيها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إيذاءً شديداً، حتى وقفوا عليه يوم الجمعة وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ، فقاطعوه في خطبته بالسب والشتيمة^(٢)، ثم حصبوه بالحصى فشجّوه وأدموه، وخرّ مغشياً عليه

(١) كان مبتدأ ذلك من الكوفة، ثم امتد إلى البصرة، حتى وصل إلى مصر. وتأمل تفريخ الفتن في العراق. وانظر تفصيل ذلك في: تاريخ الطبري (٤-٢٥١) وتاريخ خليفة (١٥٧) والكامل لابن الأثير (٣-٨٢) وغيرها.

(٢) وهو البار الصادق، والمؤمن الصالح، والإمام العادل، والصاحب الوفي، رضوان الله

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحمل إلى بيته، وهو إمام المسلمين في وقته^(١) فطمع فيه الخوارج أكثر من ذي قبل، ولا سيما أن أكثر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا في الحج وفي الثغور، والبقية الباقية منهم في المدينة لا تكفي لرد عدوان الخوارج.

ذكر ابن كثير في الجواب عن عدم منع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المدينة الخوارج من قتل عثمان أوجهًا عدة قال في الوجه الثالث منها: «إن هؤلاء الخوارج لما اغتتموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لما اقترب مجيئهم انتهزوا فرصتهم قبحهم الله، وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم»^(٢).

فعلهم بعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حاصر الخوارج عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيته، ومنعوا عنه الماء الحلو، فشرب الماء المالح في حصاره، وحالوا بينه وبين الصلاة في المسجد، وهو إمام المسلمين! أيفعل ذلك بعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو المبشر بالجنة، وقد زوجه النبي ﷺ ابنته الواحدة تلو الأخرى، وجهز جيش العسرة من خالص ماله حتى قال النبي ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»^(٣). ولكنها الفتنة!

تعالى عليه.

(١) تاريخ الطبري (٤-٣٥١) والبداية والنهاية (٧-١٤٢١٤١) وسير أعلام النبلاء «الخلفاء الراشدون» (١٩٣).

(٢) البداية والنهاية (٧-١٥٨).

(٣) أحمد في المسند (٥-٦٣) والترمذي (٣٧٠١)، وقال: حديث حسن غريب، =

لقد منعوه الماء والصلاة في المسجد وهو شيخ كبير قد جاوز الثمانين، وهو إمامهم وولي أمرهم، وله عليهم السمع والطاعة، ولكنهم قوم مفتونون، قد أعمت الفتنة أبصارهم، ورائت على قلوبهم، فلم يميزوا بين رعاي وإمام، ولا عرفوا للصحابة فضلهم وهو من كبار الصحابة، بل من أوائلهم إسلامًا وهجرة، وجهادًا ودعوة!

أُطلَّ عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من داره وهو محصور، وقد أحاطوا به شاهرين أسلحتهم، متربصين به، فناقشهم وجادلهم، ووعظهم وذكرهم وقال لهم: «أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله فقال: من يشتري هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كالمسلمين وله خير منها في الجنة»^(١)؛ فاشتريتها من خالص مالي فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين، ثم قال: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا رومة فقال رسول الله ﷺ: «من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين، وله خير منها في الجنة»^(٢)؛

والحاكم (١١٠-٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

(١) الترمذي (٣٧٠٣) وحسنه، وصححه أحمد شاكر في تخريج المسند (٥٥٥).

(٢) الترمذي (٣٦٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي (٦-٢٣٦) وأخرج البخاري بعضه معلقًا مجزومًا به (٢-٨٢٩) ووصله من حديث أبي عبد الرحمن السلمي. وقال الحافظ في الفتح (٣٧/٥): روي موصولًا. وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح السنة ٨/٢٨٨-٢٨٩: فيه يحيى بن أبي الحجاج، وهو لين، وسعيد بن إياس الجريري، وقد اختلط.

فاشتريتها من خالص مالي، وأنتم تمنعوني أن أشرب منها. فأقروا له بذلك لكنهم ما استجابوا ولا سمعوا!

طال حصاره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قارب أربعين ليلة، وعلم الخوارج أن الصحابة عائدون من الحج، وأن أهل الأمصار قد بلغهم ما يجري في المدينة، فسيروا الجيوش لنصرة الخليفة، فاستعجلوا قتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل قدوم الحجاج، ووصول الجيوش من الأمصار^(١).

عن أبي عون مولى المسور بن مخرمة قال: «ما زال المصريون كافين عن القتال حتى قدمت أمداد العراق من عند ابن عامر، وأمداد ابن أبي سرح من مصر، فقالوا: نعاجله قبل أن تقدم الأمداد»^(٢).

بشائر لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

في آخر يوم من عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى في المنام أنه إن قاتلهم بمن معه من المهاجرين والأنصار وأبنائهم فهو منصور، وإن تركهم قدم على النبي ﷺ، فاختار القدوم على النبي ﷺ؛ فقال لمن كانوا يحمونه من الصحابة وأبنائهم: «أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده، وأن ينطلق إلى منزله» ثم قال لرفيقه: «من أغمد منكم سيفه فهو حرّ»^(٣).

(١) البداية والنهاية (٧-١٥٠).

(٢) ابن سعد في الطبقات (٣-٧١) والطبري في تاريخه (٢-٦٧٨).

(٣) البداية والنهاية (٧-١٤٦) ومروءة الجنان (١-٩١) وشذرات الذهب (١-٤).

وعن أبي الصلت قال: «أغفى عثمان بن عفان في اليوم الذي قتل فيه فاستيقظ فقال: لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدّثكم، قال: قلنا: أصلحك الله، حدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا فقال: إنك شاهد معنا الجمعة» (١).

وروى أبو يعلى وعبد الله بن الإمام أحمد عن مسلم أبي سعيد مولى عثمان ابن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ عثمان أعتق عشرين مملوكًا، ودعا سراويل فشدّها (٢) لم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر وأنها قالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقتل وهو بين يديه» (٣).

وثبت من غير وجه: أن أول قطرة من دمه سقطت على قول الله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧) ويروى أنه وصل إليها في تلاوته حين دخل عليه الخوارج الأشقياء (٤).

(١) ابن شبة في أخبار المدينة (٢-٢٥٤) (٢١٥٨) والبخاري في البحر الزخار (٤١٢) والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) حياءً أن تنكشف عورته رضي الله عنه، وكانوا لا يلبسون السراويل إلا نادرًا للحاجة.

(٣) زوائد المسند لعبد الله بن الإمام أحمد (١-٧٢) وفي فضائل الصحابة (٩٠٨) وصححه الشيخ أحمد شاكر (٥٢٦).

(٤) كما في حديث أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه، أخرجه عبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة (٧٦٥ ٧٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٧-٥٢٠) (٣٧٦٩٠) والطبري (٢-٦٧٢٦٧١).

وروى ابن سعد أنه لما طعن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بسم الله، توكلت على الله، وإذا الدم يسيل على لحيتي، فقطر والمصحف بين يدي، فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل على المصحف حتى وقف الدم عند قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] (١)

(١) وقد انتقم الله تعالى من ظالميه أجمعين بالقتل فيما يروى، فلم يمت أحد منهم حتف أنفه، بل قَعَصًا بالسيوف، وطعنًا بالرماح، حتى سلَّط سبحانه على من بقي منهم زمن عبد الملك أفتك الولاية الحجاج بن يوسف، فتبَّعهم قتلاً قتلاً. قال الذهبي رحمه الله تعالى: «عامّة من سعى في دم عثمان قُتِلُوا، عسى القتل خيراً لهم وتمحيصاً».

ولعل من نافلة الحديث الممتع الشيق النافع العجيب ذكر ما نقله ابن الأثير رحمه الله تعالى في الكامل في التاريخ (٣/ ٤٢٠ - ٤٢٤) باختصار يسير، مما يخصّ ابتداء ولاية الحجاج بن يوسف العراق، إذ قال: «ثم دخلت سنة خمس وسبعين. وفي هذه السنة ولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق دون خراسان وسجستان، فأرسل إليه عبد الملك بعهدته على العراق وهو بالمدينة، وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثني عشر ركباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، وقد كان بِشْرٌ قد بعث المهلب إلى الخوارج، فبدأ الحجاج بالمسجد، فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزّ حمراء. فقال: عليّ بالناس. فحسبوه وأصحابه خارجيّة، فهمّوا به وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم، فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطل السكوت، فتناول محمد بن عمير حصباء وأراد أن يحصبه بها، وقال: قاتله الله، ما أغباه وأذمه! والله إني لأحسب خبره كروائه. - أي منظره وشكله - فلما تكلم الحجاج جعلت الحصباء تنثر من يده وهو لا يعقل به!

قال: ثم كشف الحجاج عن وجهه وقال:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا متى أضع العِمَامَةَ تعرّفوني

أما والله إني لأحمل الشرَّ محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت
وقد حان قطافها، إني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي! قد شَمَرَتْ عن ساقِها
تَشْمِيرًا.

هذا أَوَّانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدَّي زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٌ
لَيْسَ بِرَاعِيِ إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَصَمٌ

ثم قال:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَضَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ
لَيْسَ أَوَّانَ بَكْرَةِ الْخِلَاطِ جَاءَتْ بِهِ وَالْقُلُوصُ الْأَعْلَاطِ
تَهْوِي هُوِيٍّ سَابِقِ الْغَطَاطِ

إني والله يا أهل العراق؛ ما أغمز كتغماز التين، ولا يقعقع لي بالشَّنان، ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء،
وجريت إلى الغاية القصوى.

ثم قرأ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وأنتم أولئك، وأشباه أولئك؛ إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته، فعجم
عيدانها، فوجدني أمرها عودًا، وأصلبها مكسرًا، فوجهني إليكم، ورمى بي في نحوركم، فإنكم
أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسنتم سنن الغي،
فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأمرينكم به حتى تدثروا، ولألحوتكم لحو
العود، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تذلوا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا
العصيان وتنقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلبنوا، إني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أخلق
إلا قرئت، فإياي وهذه الجماعات، فلا يركبن رجل إلا وحده، أقسم بالله لتقبلن علي
الإنصاف، ولتدعن الإرجاف، وقيلاً وقالاً، وما تقول وما يقول، وأخبرني فلان؛ أو لأدعن

لكل رجل منكم شُغلاً في جسده!

فيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمنَّ على الحق، أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامي، والولدان يتامى، حتى تَذَرُوا السُّمَّهَى، وتُقْلِعُوا عن ها وها، ألا إنَّه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُيِّ فيء، ولا قوتل عدو، ولعُطِلَّت الثغور، ولولا أنهم يَغْزُونَ كُرْهاً ما غَزَوْا طوعاً! وقد بلغني رفضكم المهلَّب، وإقبالكم على مِصرِكم عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه، وأنهيت داره!

ثم أمر بكتاب عبد الملك، فقرأ على أهل الكوفة، فلما قال القارئ: أما بعد، سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم، قال له: اقطع، ثم قال: يا عبيد العصا، يُسَلِّم عليكم أمير المؤمنين فلا يردُّ رادُّ منكم السلام! أما والله لأؤدِّبنكم غير هذا الأدب! ثم قال للقارئ: اقرأ، فلما قرأ سلام عليكم؛ قالوا بأجمعهم: سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم دخل منزله لم يزد على ذلك، ثم دعا العُرفاء وقال: ألحقوا الناس بالمهلب، واتوني بالبراءات بموافاتهم، ولا تغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضي هذه المدة.

فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيراً في السوق، فخرج حتى جلس على المنبر، فقال: يا أهل العراق، وأهل الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق! إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يُراد به وجه الله، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة، وعبيد العصا، وأبناء الأيامي، ألا يربع رجل منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه، ويعرف موضع قدمه! فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها، وأدباً لِمَا بعدها.

فقام عمير بن ضابئ الحنظلي التميمي فقال: أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث، وأنا شيخ كبير عليل، وابني هذا أشبَّ مني. فقال الحجاج: هذا خير لنا من أبيه، ثم قال: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ. قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم. قال: ألسن الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى. قال: يا عدو الله، أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً؟ وما حملك على ذلك؟ قال:

=

وأطبق المصحف، وضربوه جميعاً ضربة واحدة»^(١).

عاقبة القتل الظالمين:

أقسم بعض السلف بالله تعالى: «أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً، أصابتهم دعوة سعد بن أبي وقاص حين دعا عليهم وهو مجاب الدعوة فقال: اللهم

إنه حبس أبي، وكان شيخاً كبيراً. قال: أولستَ القائل:

هممْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني تركْتُ على عثمان تبكي حلائله

إني لأحسب أن في قتلِكَ صلاحَ المَصْرَيْن. وأمر به فُضِرَتْ رقبته، وأُنهَبَ ماله. وأمر منادياً فنادى: ألا إن عمير بن ضائبٍ أتى بعد ثلاثة، وكان سمع النداء فأمرنا بقتله، ألا إن ذمة الله بريئة ممن لم يأت الليلة من جند المهلب. فخرج الناس فازدحموا على الجسر، وخرج العرفاء إلى المهلب، وهو يرأهمز، فأخذوا كتبه بالموافاة. فقال المهلب: قدم العراق اليوم رَجُلٌ ذَكَرُ، اليوم قوتل العدو».

قال ابن الأثير: «قوله: أنا ابن جلا، فابن جلا هو الصبح لأنه يجلو الظلمة. وقوله: «فاشتدي زيم»، هو اسم للحرب. والحطم: الذي يحطم كل ما مر به. والوضم: ما وقى به اللحم عن الأرض. والعصلي: الشديد. والأعلاط من الإبل: التي لا أرسان عليها. وقوله: فعجم عيدانها، أي عَصَّها واختبرها. وقوله: لأعصبنكم عصب السلمة، فالعصب القطع، والسلم شجر من العضاء. وقوله: لا أخلق إلا فريت، فالخلق التقدير، ويقال: فريت الأديم إذا أصلحته. والسَّمَّي: الباطل، وأصله ما تسميه العامة مخاط الشيطان. والغَطَّاط: ضرب من الطير».

(١) ابن سعد في الطبقات (٣-٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩-٤١٣) وانظر: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان لأبي بكر المالقي الأندلسي (١٤٢).

أندمهم ثم خذهم»^(١)، وعن يزيد بن حبيب رحمه الله تعالى قال: «ما مات أحد منهم حتى جُنَّ»^(٢).

وعن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قال: «كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي! فقلت: يا عبد الله، ما سمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت الله عهداً^(٣) إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل وضع على سريره في البيت، والناس يجيئون فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه فلطمته وسجّيته، وقد يبست يميني، قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود»^(٤).

لقد كان أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيهاً صابراً حافظاً لوصية رسول الله ﷺ حتى تلفت نفسه لأجلها، قال له ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَعَلَهُ يُقِمُّكَ قِمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ أَحَدٌ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ»، ثلاث مرات، قال النعمان بن بشير لعائشة: يا أم

(١) ابن عساکر في تاريخه (٣٩-٤٤٠) وانظر: البداية والنهاية (٧-١٥٢).

(٢) الطبراني في الكبير (١-٤٥) برقم (١٣٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: وإسناده حسن (٩-٩٤).

(٣) وبس ما عاهد ونوى وفعل، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) [فاطر: ٨] نعوذ بالله تعالى من مضلات الفتن.

(٤) اللالكائي في السنة (٧-١٣٢٩) (٢٣٦٢).

المؤمنين، فأين كنت عن هذا الحديث؟ فقالت: يا بني، والله أنسيته^(١).

وروت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ دعا عثمان يوماً فتنحى به، فجعل يُسارُهُ ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر فيها قلنا: يا أمير المؤمنين، ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً، وإني صابر نفسي عليه»^(٢).

لقد كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسدداً في رأيه، موقفاً في اختياره، وتجاوز الفتنة بأقل الخسائر، وأكبر المكاسب؛ فلقي الله عز وجل وقد حفظ عهد رسول الله ﷺ ووصيته، ولم تتلطح يده بدماء معصومة محرمة، بل لم يسفك حتى دماء أعدائه الخارجين عليه، وهم يستحقون ذلك، وقُتل ظلماً وعدواناً يجد عقبى ذلك يوم القيامة.

إن استمساكه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة حتى آخر قطرة من دمه، مع عدم القتال عليها؛ كان الخيار الحسن بين شرّين عظيمين، فلو قاتل عليها لسفكت دماء كثيرة من ضمنها دمه، فكانت الخسائر أكبر.

ولو تنحى عن الخلافة لما وفي بعهد رسول الله ﷺ إليه، وفي تنحيه عنها فتح لباب شرٍ كبير على الأمة؛ إذ يتولى شؤونها الرعاع والدهماء، يقودهم أصحاب النوايا السيئة من المنافقين والمفسدين، فيعزلون من شأؤوا، ويولّون من شأؤوا

(١) أحمد (٦-١٤٩) والترمذي (٣٧٠٥)، وقال: حديث حسن غريب، وابن أبي عاصم في السنة (١١٧٢) وصححه ابن حبان (٦٩١٥).

(٢) أحمد (٦-٢١٤٥١) وابن ماجه (١١٣) والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٣-١٠٦).

حسب أهوائهم، ومنصب الإمامة الكبرى ليس ألعوبة في أيدي السفهاء والدهماء، بل هو شأن كبراء الأمة وعقلائها وعلمائها من أهل الحل والعقد»^(١).

وبحمد الله تعالى فلم يشترك في دم عثمان رضي الله عنه أحد من

وقد سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: «كانوا أعلاجاً من أهل مصر»^(٢). وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولا أحد من السابقين الأولين دخل في قتل عثمان»^(٣). والحمد لله رب العالمين.

ومن أخبار الصابرين قصة أبي قلابه رحمه الله تعالى في الصبر على البلاء^(٤) وفي هذا قصة رواها الإمام ابن حبان في كتاب الثقات عن الإمام أبي قلابه الجرمي: «عن عبد الله بن محمد قال: كنت مرابطاً بعريش مصر فمررت على خيمة فإذا أنا برجل ذهب يده ورجلاه وبصره، وثقل سمعه، فسمعتة يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فقلت: سبحان الله! ما هذا الذي يقوله الرجل، أعلم علمه؟ والله لآتين هذا الرجل، فأتيته فقلت: يا عبد الله! سمعتك تقول كذا

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، ووقعها على الصحابة والتابعين، إبراهيم الحقييل (١) - (١٢) باختصار وتصرف.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط. ص: (١٧٦).

(٣) منهاج السنة، لشيخ الإسلام (٣١٣/٨).

(٤) وقد مر معنا نزرٌ نافع من أخباره رحمه الله تعالى.

وكذا، أي شيء تحمد الله عليه؟!

قال: يا عبد الله! لو أرسل الله الجبال فدمرتني، وأرسل إلي البحر فأغرقني؛ ما ازددت لربي إلا شكرًا على هذا اللسان الذاكر، وهذا القلب الشاكر.

ثم قال: إن لي ولدًا كان يوضّئني، وكان يطعمني، ويقوم على أمري، وقد افتقدته منذ ثلاثة أيام، فابحث لي عنه.

فقلت: والله ما سعى إنسان في حاجة آخر أفضل منك، قال: وذهبت أبحث عن الولد، فما مضيت غير بعيد إلا ووجدت عظامه بين كثران من الرمل قد افترسه سبع، قال: فركبني الغم، وقلت: ماذا أقول للرجل، وهو في هذا البلاء العظيم؟ قال: فجعلت أفكر ماذا أقول له، فتذكرت أيوب عليه السلام؟ قال: فجئت فسلمت عليه، قال: ألسنت بصاحبي؟ قلت: بلى.

قال: ما فعل ولدي، قلت: يا عبد الله! أتعرف أيوب عليه السلام؟ قال: نعم. قلت: ما تعرف عنه؟ قال: ابتلاه الله ثمانية عشر عامًا، قلت: فكيف وجدته؟ قال: وجدته صابرًا، وليس هذا فحسب، إنما ابتلاه بأهله وابتلاه بماله، فوجده صابرًا، فقل ماذا تريد؟ قلت: احتسب ولدك، فإني وجدت عظامه بين كثران الرمل، قال: فشهو شهوة وقال: الحمد لله الذي لم يخلق مني ذرية إلى النار، ومات.

قال: فركبني غم، وقلت: ماذا أفعل بالرجل؟ فلا أملك له شيئًا، إن تركته أكلته السباع، فمرّ قطاع طرق^(١)، فوجدوني أبكي بعدما سجّيته فقالوا: مالك وما

(١) فلا يزال في الناس خير، فلا تحقرن أحدًا، ولا تتألّ على الله تعالى ألا يغفر له، أو أن

قصتك، ومن هذا الرجل، فكشفوا عنه فإذا هو أبو قلابة الجرمي، فقالوا: بأبي عينٍ طالما غَضَّتْ عن محارم الله، وبأبي جسمٍ طالما عانا في طاعة الله، قال: فسجيتُه ودفنناه، وذهبت إلى رباطي، فلما نمت رأيتُه في منامي في أحسن حالة، فقلت له: ألسنت بصاحبي؟ قال: بلى. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني الجنة، وقيل لي: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وأبو قلابة الجرمي رَحِمَهُ اللهُ هو أحد الأئمة الثقات، من الرواة عن أنس بن مالك، ثقة، حافظ. فهذا البلاء المنوط بالأولياء هو نعمة من الله سبحانه وتعالى عليهم كما هو واضح في قصة أبي قلابة الجرمي^(١).

وتأمل ما كان فيه علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من ضيق العيش مع استصحابه الصبر الجميل. فعن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن علياً قال: «كانت لي شَارِفٌ^(٢) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارقاً من

يهديه، وقد حكوا أن الفضيل رحمه الله كان من كبار قُطَّاع الطريق على الناس، فصار من كبار قُطَّاع الطريق إلى ربِّ الناس، وكان من علماء العباد رحمه الله تعالى، ولا أَرْكَى على الله أحداً، ولكن قد شهدت له الأمة بالخير والزكاء رحمه الله تعالى. وقد قال قائل في يوم ما: «لو أسلم حمار الخطاب لما أسلم عمر»، فهدى الله عمر، حتى صار وزير الإسلام، ومُحَدِّثُ الأمة، وخير الأمة بعد نبيها ﷺ وصديقها، رضي الله عنهما.

(١) دروس الشيخ أبي إسحاق الحويني (٥٣ / ٧).

(٢) أي: الناقة المسنة الكبيرة، وتسمَّى في نجد بالفاطر، أي فطر نابها، أي شق اللَّثَّة، ومنهم من لم يزل يسمِّيها شارف. وكانت العرب تسمي الجمل المُسنَّ الكبير: البازل، وجمعه بزل. واليوم يسمونه في نجد بالهَرَش، وجمعه هُرُوش.

الحُمُس يومئذ، فلما أردت أن أبني^(١) بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعته من الصواغين، فأستعين به في وليمة عرسي، فبينما أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاني مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، أقبلت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاني قد جُبَّتْ أَسْنِمَتُهُمَا، وَبُقِرَتْ خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر منهما، فقلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة، وهو في هذا البيت في شَرْبٍ^(٢) من الأنصار، غَتَّتْ قِينَةُ^(٣) وأصحابه، فقالت في غنائها: أَلَا يَا حَمْرُ لِلشُّرْفِ النَّوَاءِ^(٤).

فوثب حمزة إلى السيف فاجتَبَ أَسْنِمَتَهُمَا، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما. قال علي: فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة، قال: فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقيت، فقال: مالك؟ قلت: يا رسول الله، ما رأيت كالיום قط، عدا حمزة على ناقتي فاجتَبَ أَسْنِمَتَهُمَا، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شَرْبٌ، قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتدى، ثم انطلق

(١) الابتناء بالعروس: الدخول بها. وأصله: أنهم كانوا إذا أرادوا أن يدخلوا بالعروس بنوا عليها خباءً، فسمي الدخول ابتناءً مجازاً.

(٢) أي: مجتمعون على شرب الخمر، ولم تحرم يومئذ.

(٣) القينة: المغنية مهما كان لونها.

(٤) اللام في الشُّرْفِ لام الجر، وهي متعلّقة بفعل محذوف دلّ عليه الحال؛ أي: انفض للشُّرْفِ، أو: قُم لها. تُحَرِّضُهُ على نحرها، ولذلك قام حمزة فنحرها. والنَّوَاء: السَّمان. يقال: نوت الناقة، تنوي، فهي ناوية، وجمعها: نواء.

يمشي، واتبعته، أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن، فأذن له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل^(١) محرمة عيناه، فنظر إلى رسول الله ﷺ فصعد النظر إلى ركبتيه ثم صعد النظر إلى سُرته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقري^(٢)، وخرج، وخرجنا معه. وذلك قبل تحريم الخمر^(٣).

ولله صبر فاطمة وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الجوع والمسغبة، فعن سهل بن سعد أن علي بن أبي طالب دخل على فاطمة وحسن وحسين يكيان، فقال: ما يبكيهما، قالت: الجوع! فخرج علي فوجد دينارًا بالسوق فجاء إلى فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان اليهودي فخذ دقيقًا، فجاء اليهودي فاشترى به دقيقًا، فقال اليهودي: أنت ختن^(٤) هذا الذي يزعم أنه رسول الله؟ قال: نعم. قال: فخذ دينارك ولك الدقيق.

فخرج علي حتى جاء فاطمة فأخبرها فقالت: اذهب إلى فلان الجزار فخذ لنا بدرهم لحمًا، فذهب فرهن الدينار بدرهم لحم فجاء به، فعجنت ونصبت وخبزت وأرسلت إلى أبيها فجاءهم، فقالت: يا رسول الله أذكر لك، فإن رأيت له لنا حلالًا

(١) أي: غطت الخمر عقله.

(٢) أي: خرج ووجهه إليهم ولم يدبر.

(٣) البخاري (٣/٧٨ و ٤/٩٥ و ٥/١٠٥ و ٧/١٨٤) ومسلم (٦/٨٥).

(٤) الختن: زوج البنت.

أكلناه وأكلت معنا، من شأنه كذا وكذا. فقال: «كلوا باسم الله». فأكلوا، فبينما هم مكانهم إذا غلام ينشد الله والإسلام الدينار، فأمر رسول الله ﷺ فدُعي له فسأله، فقال: سقط مني في السوق. فقال النبي ﷺ: «يا علي اذهب إلى الجزار فقل له: إن رسول الله ﷺ يقول لك: أرسل إليّ بالدينار، ودرهمك علي». فأرسل به فدفعه رسول الله ﷺ إليه (١).

وعن ابن أبي ليلى قال: حدثنا علي أن فاطمة رضي الله عنها شكت ما تلقى من أثر الرّحا (٢) فأتى النبي ﷺ سبي، فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم فقال: «على مكانكما»، فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتاني؛ إذا أخذتما مضاجعكما تكبرا أربعاً وثلاثين وتسبحا ثلاثاً وثلاثين وتحمداً ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم» (٣).

وعند أبي داود (٤) قال علي لابن أعيد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت من أحب أهله إليه، وكانت عندي؟ قلت: بلى. قال: إنها جرّت بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها،

(١) أبو داود (٢ / ٦٨) (١٧١٨) وحسنه الألباني.

(٢) صخرتان ثقيلتان مستديرتان بهما مجرى خاص تطحن بينهما الحبوب.

(٣) البخاري (٣٧٠٥) ومسلم (٨ / ٨٤).

(٤) (٥٠٦٣) بسند صحيح.

وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم، فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً؟ فأتته فوجدت عنده خُداً^(١)، فرجعت، فأتاها من الغد، فقال: ما كان حاجتك؟ فسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله: جرّت بالرحى حتى أثرت في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاء الخدم، أمرتها أن تأتيك، فتستخدمك خادماً يقيها حرّ ما هي فيه، قال: «اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعلمي عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعتك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فتلك مئة، فهي خير لك من خادم»، قلت: رضيت عن الله وعن رسوله.

وفي رواية: وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت^(٢) ثيابها، وأصابها من ذلك ضرر، فسمعنا أن رقيقاً أتى بهم النبي ﷺ. وفيها: فغدا علينا ونحن في لفاعنا^(٣) فجلس عند رأسها، فأدخلت رأسها في اللفاع حياء من أبيها، قال: «ما كانت حاجتك أمس إلى آل محمد؟» فسكتت، مرتين، فقلت: أنا والله أحدثك... وذكر نحوه. قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات

(١) خُداً: القوم يتحدثون، وهو جمع لا واحد له من لفظه.

(٢) أي: تغير لونها للسواد.

(٣) اللفاع: ثوب يغطي به أو لحاف.

(٤) وتأمل حزمه مع نفسه في مواظبة أوراده.

لم يأخذه إعياء فيما يعانیه من شغل ومن غيره»^(١). وقال ابن القيم في فضائل الذكر: «الحادية والستون: أن الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه. وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر. وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يذكر أثراً في هذا الباب ويقول: «إن الملائكة لما أُمرُوا بحمل العرش قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما قالوا حملوه». حتى رأيت ابن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم أن أول ما خلق الله عز وجل - حين كان عرشه على الماء - حملة العرش قالوا: ربنا لم خلقتنا؟ قال: خلقتكم لحمل عرشي، قالوا: ربنا ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم. فأعادوا عليه ذلك مراراً فقال لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحملوه.

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك ومن يُخاف، وركوب الأهوال، ولها أيضاً تأثير في دفع الفقر»^(٢).

(١) الوابل الصيب (١ / ١٣١) وانظر: المستدرک علی مجموع الفتاوى (١ / ١٥٧).

(٢) الوابل الصيب (١ / ١٠٦).

وصح عن أسماء أنها قالت: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس وكنت أسوسه، وكنت أحتش له، وأقوم عليه. وصح عنها أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء، وتخز الدلو وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ»^(١). وقد أعفاها بأخرة عن الأخيرة غير أن يراها الرجال.

وعنها رضي الله عنها، قالت: «تزوجني الزبير، وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوك، ولا شيء، غير ناضح، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غرْبَه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكُنَّ نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعاني ثم قال: «إخ إخ» ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أنني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله ﷺ، وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني»^(٢).

(١) زاد المعاد (٥ / ١٨٧).

(٢) البخاري (٣٥ / ٧) (٥٢٢٤) ومعنى: مملوك: عبد أو أمة. ناضح: بعير يُستقى عليه. أخرز: من الحَرَز، وهو خياطة الجلود ونحوها. غربة: الدلو الكبير. سياسة الفرس: ترويضها وتدريبها.

ومن ثقة عمر بن عبد العزيز برّبه وصيّته أبناءه بالصبر والحلال، فإنه لما حضرته الوفاة دعا بنيه، وكانوا أحد عشر ابنًا وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، ولم يَخْلُفْ غير بضعة عشر دينارًا، فأمر أن يَكْفَنَ ويشرى له موضع يدفن فيه بخمسة دنانير، ويفض الباقي على ورثته. فأصاب كل ابن نصفًا وربع دينار. فقال: يا بني؛ ليس لي مال فأوصي فيه، ولكنني قد تركتكم وما لأحد قبلكم تبعة، فلا تقع عين أحد منكم على أحد إلا ويرى له عليكم حقًا. قال له مسلمة: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو، قال: هذه ثلاثمئة ألف دينار فرّقها فيهم، وإن شئت فتصدق بها. قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ قال: وما هو؟ قال تردها إلى من أخذتها منه، فإنها ليست لك بحق^(١). فقال له مسلمة: رحمك الله يا أمير المؤمنين حيًا وميتًا، فقد ألت منّا قلوبًا قاسية، وذكرتها وإن كانت ناسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرًا^(٢). فيقال: إنه ما روي قط أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز إلا وهو غني. ولقد شوهدهم وقد جهز من خالص ماله مئة فارس على مئة فرس في سبيل الله.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة خلف أحد عشر ابنًا كما خلف عمر،

(١) وهذا فقه صحيح، وورع واجب، حري بنشره والعمل به، فليست الرياسات بمبيحةٍ لأكل أموال الناس بالباطل، والتأثّل من بيت مال المسلمين بغير حق، ولكلّ حقٍّ له من الله غداً طالب، فمعتق أو موبق.

(٢) وكان مسلمة بن عبد الملك - وهو عمّ عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله من المشهورين بالصلاح وبالجهد في سبيل الله تعالى.

فأوصى فأصاب كل واحد من البنين ألف ألف دينار^(١). فيقال أنه لم ير أحد منهم قط إلا وهو فقير، وقد شوهدهم أحدهم وهو يوقد في أتون الحما^(٢) على ملء بطنه^(٣).

وقد ذكر القاضي التنوخي في كتابه المستجد أخباراً شريفة في الصبر منها قوله: «خرج رجلان من المدينة يريدان عبد الله بن عامر بن كُريز للوفادة عليه. أحدهما من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري، والآخر من ثقيف.

وكان عبد الله عاملاً بالعراق لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فأقبلا يسيران حتى إذا كانا بناحية البصرة قال الأنصاري للثقيفي: هل لك في رأي رأيته؟ قال: اعرضه. قال: ننيخ رواحلتنا ونتوضأ ونصلي ركعتين نحمد الله عز وجل فيهما على ما قضى من سفرنا. قال: نعم هذا الرأي الذي لا يُرد. قال: ففعلا ثم التفت الأنصاري إلى الثقيفي فقال له: يا أخا ثقيف؛ ما رأيك؟ قال: وأي موضوع رأي هذا، قضيتُ سفري، وأنصيتُ بدني، وأتعبت راحلتي، ولا مؤمل دون ابن عامر، فهل لك من رأي غير هذا؟ قال: نعم، قال: وما هو؟

قال: إنني لما صليت، فكّرت فاستحييت من ربي أن يراني طالب رزق من عند غيره. ثم قال: اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك، ثم ولّى راجعاً إلى المدينة.

(١) أي: مليون دينار لكل واحد منهم. وهي ثروة ليست سوى لآحاد البشر على وجه الأرض في ذلك الحين.

(٢) أي: يوقد فرن حمام المغتسلين بلا أجره سوى طعامه.

(٣) المستجد من فعلات الأجواد الدارقطني (١ / ٥٣) وكأن في خبر أبناء هشام مبالغة.

ودخل الثقفى إلى البصرة فمكث على باب ابن عامر أيامًا، فلما أذن له، دخل عليه، وكان كُتِبَ إليه بخبرهما، فلما رآه رحب به وقال: ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك؟ فأخبره ما كان منهما، فبكى ابن عامر وقال: والله ما قالها أشراً ولا بطراً، ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة، فعلم أن الله هو الذي فعل ذلك، فسأله من فضله. ثم أمر الثقفى بأربعة آلاف درهم وكسوة وطُرف، وأضعف ذلك للأنصاري، فخرج الثقفى وهو يقول:

أَمَامَهُ مَا سَعَى الحَرِيصِ بَزَائِدِ
خَرَجْنَا جَمِيعًا مِنْ مَسَاقِطِ رُؤُوسِنَا^(١)
فَلَمَّا أَنْخَنَا النَّاعِجَاتِ بِبَابِهِ
وَقَالَ سَتَكْفِينِي عَطِيَّةٌ قَادِرِ
فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَى الْعِرَاقَ ابْنَ عَامِرِ
فَلَمَّا رَأَى قَالَ أَيْنَ ابْنُ جَابِرِ
فَأَضْعَفَ عَبْدَ اللَّهِ إِذْ غَابَ شَخْصُهُ
فَتِيلاً وَلَا عَجْزُ الضَّعِيفِ بَضَائِرِ
عَلَى ثِقَةٍ مَنَّا بِجُودِ ابْنِ عَامِرِ
تَأَخَّرَ عَنِّي الْيَثْرَبِيُّ ابْنُ جَابِرِ
عَلَى مَا يَشَاءُ الْيَوْمَ لِلْخَلْقِ قَاهِرِ
لَرَبِّي الَّذِي أَرْجُو لَسَدَ مَفَاقِرِي
وَحَنٌّ كَمَا حَنَّتْ ضِرَابُ الْأَبَاعِرِ
عَلَى حِظٍّ لَهْفَانٍ مِنَ الْحَرَصِ فَاعِرِ

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: «لا تجعل بينك وبين الله مُنْعِمًا عليك. إذ سألت فاسأل الله أن يُنعم عليك، ولا تسأل المخلوقين، وعدّ النعم منهم مغرمًا».

ورأى فضيل بن عياض رجلاً يسأل في موقف عَرَفَةَ، فقال له: «أفي هذا الموضع تسأل غير الله عز وجل!»

(١) في البيت كسر، ولعله من تصرف الرواة، وينجبر بتسكين طاء مساقط.

ورأى الثوري رجلاً عند قوم يشكو ضيقه، فقال له الثوري: «يا هذا شكوت من يرحمك، إلى من لا يرحمك». وفي هذا المعنى أنشدوا:

وَإِذَا عَرَّتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا صَبَرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكُوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: سَلْ حَوَائِجَكَ. فقال: «قد رفعتها إلى من لا تُتَحَنَّلُ دُونَهُ الْحَوَائِجُ».

وقال الفضيل بن عياض في قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]، «المخلوق يرزق، فإذا سخط قطع رزقه، والله تبارك وتعالى يسخط ولا يقطع رزقه».

تُكَلِّفْنِي إِذْلالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أَهَانَ لُتْكَرَمَا
تَقُولُ سَلِ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ فَقُلْتُ سَلِيهِ رَبِّ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَا

وقيل: لما تفرَّق الأمر على مروان الجعدي^(١) وأيقن بزوال ملكه وغلبه بنو هاشم عليه، قال لعبد الحميد بن يحيى كاتبه: أُنِي قَدْ احْتَجَجْتُ أَنْ تَكُونَ مَعَ عَدُوِّي، وَتُظْهِرَ لَهُمُ الْغَدْرَ فِيَّ، فَإِنَّ إِعْجَابَهُمْ بِأَدَبِكَ، وَحَاجَتَهُمْ إِلَيْكَ يَدْعُوهُمْ إِلَى حَسَنِ الظَّنِّ بِكَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْفَعَنِي فِي حَيَاتِي وَأَلَّا تَعْجِزَ عَنْ حِفْظِ حَرَمَتِي بَعْدَ وَفَاتِي. فقال عبد الحميد: إِنْ الَّذِي أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْفَعُ الْأَمْرَيْنِ لَكَ وَأَقْبَحُهُمَا بِي. وما عندي إلا الوفاء حتى يفتح الله لك، أو أُقْتَلَ مَعَكَ، ثم قال:

(١) نسبوه للجعد بن درهم مؤدبه، وتأمل شؤم المبتدعة، فقد زال ملك بني أمية الذين كان آخرهم مروان الجعدي، ويقال له كذلك: مروان الحمار لصبره وجلده.

أَسِرُّ وفاءً ثم أَظْهَرُ غَدْرَةً فَمَنْ لِي بعذر يوسعُ الناسَ ظاهِرُهُ^(١)

وفي الحروب يكون المعوّل بعد الله على صبر الصناديد ساعةً من نهار، فهناك ساعة ينفذ فيها صبر أحد الفريقين، فإذا حَلَّتْ وقعت الهزيمة على من عجز عن صبر تلك الساعة، ومن أمثلة ذلك القادسية، فقد «صَبَّحَ المسلمون في اليوم الرابع وهم يقاتلون، فسار القعقاع بن عمرو في الناس فقال: إن الدَّبرَةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فأثَّروا الصبر على الجزع.

فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح، ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال، فقام قيس بن عبد يغوث، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كَرِبٍ، وابن ذي السَّهمين الخشعمي، وابن ذي البُردين الهلالي، فقالوا: لا يكونن هؤلاء^(٢) أجراً على الموت منكم، ولا أسخى أنفساً عن الدنيا.

وقام في ربيعة رجال فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس، وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجراً مما كنتم، وهكذا يضيف القعقاع بن عمرو مآثرة جديدة في مآثره الكثيرة، فقد جمع الله له بين الشجاعة النادرة، والبسالة الماجدة، والرأي السديد، وقوّة الإيمان، فسخر ذلك كله لنصرة الإسلام والمسلمين، وكان قدومه في هذه المعركة فتحاً للمسلمين، لقد أدرك القعقاع أن

(١) المستجاد من فعلات الأجواد (١ / ٥٥) فالعرب لا تحب الكذب وتمقته، حتى جاء

الإسلام فعده نفاقاً.

(٢) يعني أهل فارس.

الأعداء قد نفذ صبرهم بعد قتال استمر يوماً وليلة دون انقطاع، وقبل ذلك لمدة يومين مع راحة قليلة، وعُرف بثاقب فكره وطول تجربته - بعد توفيق الله تعالى له - أنَّ عاقبة المعركة مع مَنْ صَبَرَ بعد هذا الإجهاد الطويل، واستطاع القمعاق ومَنْ معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة في قلب الجيش الفارسي، حتى وصلوا قريباً من رستم مع الظهيرة، وهنا تنزل نصر الله تعالى، وأمدَّ أوليائه بجنود من عنده؛ فهبَّت ريح عاصفٌ وهي الدَّبُور، فاقتلعت طيَّارة رستم عن سريه، وألقتها في نهر العتيق، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدفاع ونصر الله الإسلام»^(١).

ومن أخبار الصابرين المعاصرين خبر صاحبي العزيز الشيخ غزاي بن منصور الشريف رحمه الله تعالى، وقد كتبت يوم وفاته التالي:

عبدُ حفظ الله فحفظه الله:

لقد سُمِّي الإنسان من الاستئناس فهو مدني بطبعه، يستوحش في الوحدة ويأنس للجليس، فلا بد له إذن من أنيس وخليط يشاركه في ميوله، ويقاربه في رغباته، ويتحدَّث إليه بمكنون نفسه، وبالطبع سيتأثر به لا محالة، ومن هنا شدَّد الشرع في شأن الجليس، إذ الطباع سراقاة والجلبات نزاعة!

ومن بعض مداخل ذلك الباب ذكر الله تعالى قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين في كتابه للالتساء والاستئناس والاعتبار، فحتى وإن لم تدركهم بحاضرك؛ فأنت معهم بتاريخهم وأخبارهم وآثارهم. لذلك كان ذكر سير

(١) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١ / ٣٩٩). وانظرها مفصلة في تاريخ الطبري (٣/ ٥٦٤).

الصالحين من محفزات الأعمال الصالحة ومن موقدات كوامن الهمم لدى من يسمعها ويتلوها.

ومن هنا جاءت هذه الوقفة الحزينة المودعة لرجل عرفته من قديم، فليست أحر في للتأين ولا العزاء. وإن سالت مقلة الروح على أسلة القلم بلا قصد فللمحبة أحكام. والمؤمن في حاجة للملمة شتات قلبه في هذه الدنيا المروعة، ومن سبل تحصيل ذلك الاعتبار بسير الراحلين من الصالحين.

دَعْ عَنْكَ عَذْلِي يَا مَنْ كَانَ يَعْذِلُنِي لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا بِي كُنْتُ تَعْذُرُنِي

لقد كان الراحل الفاضل ينقش في لوحة الذاكرة أجمل خطوط الذكريات، وأبهى صور الماضيات، ذلكم هو سليل بيت النبوة وفرع الدوحة النبوية الشيخ غزاي بن منصور الشريف رَحِمَهُ اللهُ، وفي الله خلف من كل مفقود، واللجنة ملتقى كل حبيب من المؤمنين بحبيبه.

ألا مَنْ لي بأنْسِكَ يا أَخِيَا	ومن لي أن أبثّك ما لديّا
طوتك خطوبٌ دهرٍ قد توالى	لذاك خطوبه نشراً وطياً
كفى حُزناً بدفنك ثم إني	نفضتُ تراب قبرك من يديّا
وكانت في حياتك لي عظات	وأنت اليوم أوعظ منك حيّا
فيا أسفي عليك وطول شوقي	إليك لو أن ذلك ردّ شيّا

لكل إنسان ملمحٌ راسخ وصفة تعلو ما سواها، وتتنظم ما عداها، مهما كان جامعاً لأبواب برٍّ، وسالكٍ لطرق ثواب وزلفى وقربى، وأحسب أن تلك الصفة الكاشفة لفقيدنا غزاي هي: الصرامة والحزم مع النفس، والجد الذي لا يلين على

مدى ستين عامًا، فمن شرح شبابه حتى شيخوخته وهو مضرب الأمثال في الجدة في معالي الآخرة! لذلك فلا عجب إذن من تنوع توفيق الله له بفتح أبواب الإعانة له في العبادات على مدى هذه السنين - ولا نزكيه على الله - ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

نعم، لا يخلو المؤمن من أويقات تهفو نفسه فيها لفضل عبادة أو علم أو صدقة أو ما سوى ذلك من أسهم البر، فلكل عابد شِرة، ولكل شِرة فترة، ولكن أن يشرع المؤمن في ورع دقيق، وتتبع للسنة للعمل والتطبيق، وطلب للعلم جاد، وصدقات هائلة، وإصلاح بين الناس، وعبادة طويلة، وذكر دؤوب، وورد للقرآن لا يتخلف عنه حتى مماته؛ فهذا محض توفيق رب العباد، وهو منزل الخُلص من عباد الرحمن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وقد قال ابن الفرخي رَحِمَهُ اللهُ في وصية تختصر وسائل السير إلى الله تعالى: «ليكن همك مجموعاً فيما يرضي ربك، فإن اعترض عليك شيء فتب من وقتك». وكما أوصى حاتم أحد خاصته: «كل شيء تخشى الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضررك متى مت»!

ومن أراد الاستقامة فسيبيلها بفضل الله أمران: البصيرة والإرادة، فالبصيرة تهديه والإرادة تقويه، وعلى قدر تحصيله لهما يكون توفيقه بإذن ربه.

إن التوفيق للعبادة والصبر عليها لا يأتي بعد فضل الله تعالى إلا بصلاح القلب وسلامته واستقامته، مع الدأب الجاد على المصابرة في ذات الله عز وجل، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ولطالما ذكرني عزم الفقيد بجواب الإمام أحمد لمن سألته: متى الراحة؟ فقال:

«عند أول قدم تضعها في الجنة»! ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ﴾ [الأعراف: ٤٣].

بدأ الشيخ غزالي رَحِمَهُ اللهُ بنفسه فغزاها في سبيل الله فانقادت، وجاهدها في ذات الله فاستقامت، برّز على كثير من لِدَاتِهِ وبزّهم بعلوّ همّته. قد نحتت عقود السنين على محيّا معالم القنّاة التي لا تلين لرغائب الفانية. قد كان الزهد حشو إهابه، والورع ملء ثيابه، ولطالما ذكرني حاله قول ثابت البناني رحمه الله تعالى: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، فتلذذت به عشرين أخرى».

هو عبدٌ من عباد الله الصالحين المصلحين - أحسبه والله حسبيه - جمع الله له بين العلم والعمل، كفّ الله تعالى بصره وفتح بصيرته، فحبّب إليه الصلاة والقرآن والذكر والدعاء والنسك والصدقة والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتلك أبواب خير لا تنال باهويني، فلا بدّ دون الشهد من إبر النحل، وقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجِينَ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يَدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ

(١) أي: ألحق صدقة بأخرى، أو أتبع عمل صالح بآخر من جنسه.

كلها؟ فقال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(١).

بدأت بواكير صلاحه بحب القرآن العظيم، وقد كان شيخه محمد الدميحي رَحِمَهُ اللهُ حازماً جاداً. ولعله أفاد منه تيك السجية - فكان يأمره بعقد خمسين عقدة، ثم يشرع في مراجعة حزبه المحفوظ، وكلما أنهى عرضة حلّ عقدة حتى رسخ القرآن في قلبه، وقد كان شيخه يعقد لنفسه في صباه مئة عقدة، فأثمر ذلك أنه كان يقرأ القرآن كله في جلسة واحدة عن ظهر قلب!

وقد بلغ من وفاء الشيخ غزاي لشيخه محمد أن جمعه مع والديه في كل دعاء لهما في سجوده، رحمهم الله جميعاً. فحدثوني عن مثل هذا الوفاء في ذا الزمان؟!

إذن فبداية خيط الصلاح هي العيش والحياة مع القرآن الكريم وبه، وكفى بالقرآن توفيقاً، ولصاحبه مصلحاً وشافعاً، وللجنات معراجاً، ولأهله شهيداً، فهو وربّي نعم الأنيس، والسعيد حقاً من حفظ له حقه.

ولو كان للسعادة معيار حسّي لصُعِقَ أهل المال والجاه والسلطان والصحة من افتقارهم لها إزاء غنى بعض أصدادهم منها! فلا تذهب بعيداً في البحث عنها فهي بين عينيك، فخذها واشكر ولا تكفر، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحل: ٩٧].

لقد قد كان للقرآن شأن خاص عنده رَحِمَهُ اللهُ، فكان يتلوه آناء الليل وأطراف

(١) البخاري ٣/ ٣٢ (١٨٩٧)، ومسلم ٣/ ٩١ (١٠٢٧) (٨٥).

النهار الساعات الطويلة في صلاته وورده في بيته وبيت ربه، وعند الحميدي عن محمد بن المنكدر قال: «إن الله عز وجل ليحفظ بحفظ الرجل الصالح ولده وولد ولده ودويرته التي فيها والدويرات حوله، فما يزالون في حفظ وستر من الله عز وجل». حدّث عنه الشيخ فيحان بن ماجد الشريف أنه قد سمعه يتلو القرآن وهو في غيبوته التي لم يفق منها، وكان يتلو قول ربه - وتأمل توفيقه للآيات -: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] يا إخوتاه: إن للإخلاص شأنً عظيم، فاجتهدوا رحمكم الله في تحقيقه.

لقد كان بناء بيوت الله ودور تعليم كتابه وكفالة معلميه من أولوياته رَحْمَةُ اللَّهِ، مع حرصه على طلب كتمان اسمه في سجل المتصدقين في الدنيا، وقد بنى المساجد وساهم في عمارتها في بلده وخارج بلده شرقاً وغرباً، مع العناية بتعليم القرآن فيها. وقد بشر النبي ﷺ بُنَاةَ المساجد ببشارة جزيلة فقال: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١). وإذا بنى الله لك بيتاً في الجنة أسكنك إياه بفضله.

وقد بشر الله تعالى في سورة يونس أهل القرآن بقوله الجليل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ۚ ﴿[يونس: ٥٧-٥٨].

كما كان رَحْمَةُ اللَّهِ حريصاً على تطيب المسجد بالبخور كل ليلة. وعن أم

(١) مسلم (٥٣٣).

المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تُطَيَّب، وتنظف»^(١).

وقد لزم مكة حرسها في أخريات سنينه في شهر رمضان، أما الحج فلا أعلم أنه قد فوّته قط، ولم يكُ يحج لو حده، بل كان يحمل معه من شاءوا الحج مجّاناً، وتلك سجيّة العظماء، وعادة النبلاء، وسادات العادات عادات السادات.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم بضع ساعات من الليل لا يتخلف عنها حضراً ولا سَفْراً، ولحرصه على صلاح ذريته فكان مع إلحاحه بالدعاء لهم يأخذ أبناءه ومن بعدهم أحفاده لصلاة الفجر، ويتفقد أهل بيته حتى يتبهاوا للصلاة.

أما جلوسه في مصلاه بعد الفجر حتى ارتفاع الشمس وقبل الغروب فتلك سنة دائمة له رَحِمَهُ اللَّهُ. وكان يُدرّس من رغب تصحيح تلاوته بعد الفجر ويصبر على تلقينهم وتصحيح تلاوتهم بلا ضجر ولا تشاغل، وفي الصحيحين عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه»^(٢). إنها زكاة، وقد أداها طيبة بها نفسه فيما أحسب، تقبّلها الله ورفع بها.

كان يرفض ركوب السيارة للمسجد، ويرحب بمن يقوده على قدميه ابتغاء فضل الخطى، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وما من رجلٍ يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد؛ إلا كتب الله له بكل

(١) الترمذي (٥٩٤) أبو داود الصلاة (٤٥٥) وصححه الألباني في الصحيحة (٦ / ٢٢٣).

(٢) البخاري (٤٧٣٩).

خطوةٍ يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة»^(١).

وقد كانت خاتمة حسنه طيبة، إذ أُصيب في حادث سير وهو سائر ليشهد صلاة ربه، فكتب ربُّه أن يكمل مسيره إليه، فسقط وهو يقرأ القرآن حتى غشي عليه، ثم ردّد الآي في غيبوبته، حتى أجاب رُسُل ربه، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، وصاحب الهدم شهيد، فاللهم اجعلها الحسنَى وزيادة.. إله الحق آمين.

كان الفقيه معظماً للعلم مجاًلاً لأهله، حريصاً على التعلّم حتى رحيله، يحضر دروس العلم بعقله وفؤاده، فإن طُلب منه طبع كتاب أو تأمين مكتبة كان جوابه الاحتفاء والإحسان.

وقد كان من ورده الذي يردده بعد القرآن عن ظهر قلب: كتاب التوحيد، والأصول الثلاثة، والقواعد الأربع.

ويا صاحبي: إن من أعظم النعم والنعيم: تحبيب الله إليك العلم، والآن قد تيسر أمر التعلم، ولكن الشأن كل الشأن في التوفيق لطلبه، فاسأل الله أن يحبب العلم لقلبك، وأن يعظم رغبتك فيه، وأن يعلمك ما ينفعك، وأن يزيدك علماً، إنه هو العليم الحكيم. وقد قال الإمام أحمد: وتأمل الشرط جيداً: العلم لا يعدله شيء لمن صحّت نيته.

قد شُرح في المسجد قبل سنين كتاب التوحيد للإمام المجدد، فطلب قبل نحو سنة ونصف السنة بإعادة الشرح مرة أخرى فشرع فيه حتى ختم الشرح قبل أيام

(١) مسلم (١٠٤٦) موقوفاً، وله حكم الرفع، لأنه لا يقال بالرأي.

من رحيله، وكذلك الحال معه في كتاب سيرة النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فقد رحل الجميع، فاللهم ألحقنا بهم في الصالحين.

إن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ومن شُغِفَ بشيء أَوْقَى سِرَّهُ، وتأملها في حياة الناس بين مكثِرِ ذكرِ التجارة، أو الكُرة، أو الإبلِ والشاء، أو الغناء، أو السفر، أو المجالس، أو اللعب ونحوها.. وبين مكثِرِ ذكرِ الله رب العالمين!

ولقد كان الشيخ من نوادر الذاكرين، وقد أوتي جَلَدًا ليس إلا للقليل رَحْمَةُ اللَّهِ. وله في عشية الجمعة شأن عجيب، فكان لا يخرج من المسجد بعد العصر، وليس هذا بعجيب، فكثير من الصالحين حالهم هكذا، ولكن العجب كيف كان يطيق رفع يديه في دعائه حتى الغروب، وليس هذا في جمعة أو جمعتين، بل هذا دأبه فيم غالب ما رأيت حتى رحل لربه! إنه التوفيق، فاسألوا الله من فضله. ومتى صلح القلب، ولانت الجوارح بالذكر فلا تسل عن لذة ما هنالك. وعن قتادة رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الذاريات: ٢١]: قال: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهَا لَيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ».

لقد كان الشيخ غريباً عن هذه الدنيا التي لم يحفل بحطامها، وأمثاله فيها قليل، والله المستعان، لقد كان في وادٍ يأنس فيه بخلوته بربه، ويلتذ بمناجاته، تاركاً خلفه الناس في غفلاتهم سادرون، وإلى ملذاتهم يُهرعون! ومن وجد الله؛ فما ذا فقد!

كان يؤذِنُ للعشاء أحياناً، فإن كان درس العشاء عن سيرة نبي الله ﷺ فلا يكاد فقيدنا يكمل الإقامة من التهذج والتأثر لذكر الحبيب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ

قال: «من أشد أمتي لي حبًا ناسٌ يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»^(١).

كان محبًا للناس ناصحًا لهم يسره إسعادهم، نحسبه والله حسيبه من أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

لم يكتف رحمه الله بالصدقة للأقارب، بل شمل كثيرًا من فقراء أهل بلده ثم ديار المسلمين وتشهد له نفوس ترفع أكفها بالضراعة لمولاها برحمته إذ رحمتهم، فلکم أطعم جائعًا، وكفل يتيمًا، وفطر صائمًا، وحتى عامل المسجد لم ينسه من الإحسان، فقد تكفل بإطعامه من طعامه وطعام عياله، والكریم تبارك وتعالى يُبَشِّرُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] وعلى قلة موارده إلا أن الله قد بارك له فيها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

كان - رحمه الرحيم الرحمن - لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولو كان القريب والعزيز، بل كان يبدأ بهما لتجرده - ولا أزكيه على الله - لهذا كان لنصحه قبول عند الناس.

لقد كثر المصلون عليه والمشيِّعون، وهذه من عاجل بشراه بإذن الله، فعند مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجلٍ مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون لا يشركون بالله شيئًا؛ إلا شفعهم

الله فيه»^(١).

أحسبه ممن وضع الله لهم القبول في الأرض، ولما رحل أصبح الناس يُعزي بعضهم بعضاً فيه، فمصائبهم بفقده كبير. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض»^(٢). نسأل الله الكريم من فضله.

ولا أشك أن لكل من خالطه خبر خاص أو أكثر عن سريرة هذا العابد العطرة الطاهرة، والمؤمنون شهود الله، وليس راءٍ كمن سمع! ولعل له عبادات سرّاً لا يعلمها سوى علام الغيوب^(٣).

هذا وإن الحب شعور كامن، لذيد أحياناً وفي أخرى أليم! ومن الإيلام: ألا تشعر بقدر حبك لشخص حتى يرحل عنك، وهو ما يُعبر عنه العامة بقولهم: «الله لا يبين غلاك» ولقد كان الفقيد على شدة حبي له، من أولئك الذين ظهر «غلاهم»! نعم، فالمحبة لا تشتري بالمال، بل بجميل السجايا، وكريم الخصال، وأيدي المعروف، وعاطر الذكريات. وقد أحسن أمل دنقل حينما قال:

أترى حين أفقاً عينيك..

(١) مسلم (٩٤٨).

(٢) البخاري (٣٢٠٩).

(٣) وانظر: من سير الراحلين، للمؤلف.

ثم أثبت جوهرتين مكانهما..

هل ترى؟

هي أشياء لا تشتري.

شيخنا: يبكيه مسجد لطالما صفّ قدميه فيه لله، ورفع يديه فيه داعيًا، وأنفسًا
قد أحبته بصدق وفقدته بعمق والتهبت أحشاؤها من لوعة فراقه!

فلله قدمان لطالما صفتا بي يدي الله، ورجلان قد حفرتا جادةً في السير
لشعيرة الله، وكفّان قد ارتفعا بالضراعة للملك الديان وبالصدقة على عباد الرحمن،
ولسان طالما لهج بالذكر والاستغفار والأذان والقرآن، وجوف قد أعطشه الصيام
طلبًا لرضا المنان، ورغبة في ولوج باب الريان، ورأسًا قد كُشف للنسك في مشاعر
البلد الحرام، وآذانًا قد أنصتت لدرس علمٍ وقرآن، وعينان قد احتسبهما منذ صباه
عند الرحمن، وخرّج الترمذي^(١) بسند صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
رفعه إلى النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: من أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ^(٢) فصر
واحتسب، لم أرض له ثوابًا دون الجنة».

جبر الله قلوبنا بفراقه، وعوضنا عنه الأجر، وعوّضه عنا الرضوان. ولقد كان
فقيدنا من الخمسة الذين يُبكي عليهم.
إذا ما مات ذو عـلم وتقوى فقد ثلّمت من الإسلام ثلّمة

(١) الترمذي (٢٤٠١) وقال: حسن صحيح.

(٢) أي بصر عينيه.

وموت الحاكم العـدل المولـى	بحكم الشرع مـنقصةً ونقمة
وموت العـابد القوام لـيلاً	يناجي ربـه في كل ظلمة
وموت فتى كثير الجود محض	فإن بـقائه خيرٌ ونعمة
وموت الفارس الضـرغام هدم	فكم شهدت له في الحرب عزمة
فحسبك خمسةً يـكـى عليهم	وباقى الناس تخفـيفٌ ورحمة
وباقى الناس هم همج رعاء	وفي إيجادهم لله حكمة



آفات في طريق الصبر

لكل طريق خير موانع صادة عن سلوكه، وعوائق تصعب طريقه، وقواطع تُميل السالك عنه، منها عارض، ومنها ملازم، ومنها شديد، ومنها هيّن، لكننا الصابر لا يبالي بتلك ما دام الله معه، وهو به ولأجله، فالجنة قد حفت بالمكاره، والنار قد حفت بالشهوات، ومن المستحسن ذكر تلك الآفات فمنها:

١ - العجلة.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ومحاولة حرق المراحل، وتعجيل الثمرات، فالإنسان يجب أن يصبر ويتأني، والثمرة تأتي ولو بعد حين، ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ولقد باءت دعوات بالفشل، لماذا؟ لأن أصحابها لم يصبروا. والعجلة في حاجة لحلم وأناة وتؤدة، وكل ذلك مفتقر لصبر بحسب نسبة الحاجة إليه، وقد أصاب المتأني أو كاد، وأخطأ التعجل أو كاد. ومن المستحسن التواصي بالصبر كما أمر الله تعالى، ومن ذلك صبر التأني ودع الاستعجال في كل أمر لا يحسن فيه، وأكثر الأمر كذلك.

٢ - الغضب.

فهو ينافي الصبر، ولذلك لما خرج يونس مغاضباً قومه ابتلاه الله بالحوث، فتعلم الصبر في بطن الحوت ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ولولا أنه كان من المسبّحين قبل أن يبتله الحوت للبت في بطنه إلى يوم يبعثون.

لذلك العبادة في وقت الرخاء تجلب الفرج في وقت الشدة، وتعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، ولذلك لما نادى يونس في بطن الحوت؛ عرفت الملائكة صوته لأنها كانت تسمعه وهو يذكر الله في حال الرخاء.

وإن أكثر الأمور الغبية التي نندم عليها مردّها لجمرة غضبٍ لم تُطفأ بماءِ أناة، والله المستعان.

٣- اليأس.

وهو من أعظم عوائق الصبر، وقواطع الفلاح، وكواسر ظهر النجاح، فالفاقرة تكون حيث كان اليأس، والله تعالى قد أمرنا بالتفاؤل وإحسان الظن به وتبديره تعالى حتى في أحلك الظروف.

وإن الشيطان ليأخذ من ابن آدم حاجته حال يأسه، ويخنس حال قوّته بربه حال استعاذته منه بقلبه وقالبه، فاليأس سوداوية وفشل وهزيمة، والتفاؤل وسيلة للعمل والإنتاج وإحسان التعبّد والعمل.

والحياة لا تطيب إلا بتفاؤل، وحسن ظن، وجدّية، واليأس يهدم ذلك كله. ولذلك حذر يعقوب عليه السلام أولاده منه ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، فإضاءة شمعة الأمل دواء اليأس، والاستعانة بالله هي الأمل، لأن الله لا يخيب من دعاه، ولا يضيع من رجاءه، ويأتي الفرج ولو بعد حين.

ولذلك يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أدركنا أفضل عيشنا بالصبر». يعني ما طابت الحياة إلا بالصبر مع ما فيها من المنغصات والشدائد، فهو العمل القلبي الذي تطيب معه الحياة، ولا تطيب بدونه، ولذلك ينبغي على العبد ألا يفعل شيئاً ينافي الصبر، مثل شكوى الخالق للمخلوق، والتبرّم، والتضجر، فأما أن يخبر الإنسان الطبيب بعلته ليداويه؛ فلا بأس.

والأئين وهو ما يحدث من صوت من المريض المتألم، فهناك أئين استراحة وتفرّج فلا يكره، وأئين شكوى فيكره وسبق تفصيله.

ومما ينافي الصبر ما يحدث من النائحات وغيرهن، وحتى من الرجال الآن من لطم الرأس والخذ، وضرب الوجه باليدين والكفين، وشق الجيوب، وتكسير الأواني والأثاث، والنياحة والندب كقولهم: واويلاه، واثيراه! ونحو ذلك.

ولذلك فإن المسلم عليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى، وأن يسلك سبيل الصابرين، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا هذا الخلق الكريم، إنه جواد كريم^(١).

٤- الجزع.

الجزع نقيض الصبر، فلا يجتمعان على التمام، فعلى قدر الصبر يندفع الجزع ويتلاشى، حتى إذا امتلأ القلب صبراً امتنع جزعه.

وكانت العرب تكره الجزع، وتعيّر به لأنه أمانة الضعف والوهن وقلة الصبر.

(١) أعمال القلوب للمنجد (٢ / ٥٥، ٦٠) بتصرف وزيادات.

أما الصبر فإنه رأس المكرمات.

وصبراً فإن الصبر خير طريقة ويا فوزاً من قد كان للصبر يرجع

ومن جميل الوصايا العُمرية وصية عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما أراد أن يبعثه بقوله: «إني قد وليتكَ حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كره لا يُخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، فلا تزهّد في التجبّب، فإن النسيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبداً حبّه، وإذا أبغض عبداً بَغْضه، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممن يشرع معك في أمرك.

والصبر الصبر، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية، والأجر قدر الحسبة، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية، وأكثرُوا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

وفي تلك الغزاة المباركة أوصى ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه بقوله: «إن

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٩٥)، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٣٥٦).

الله قد هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر راحة، فعوّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولا تعوّدوها الجزع فتعتادوه»^(١).

سنصبرُ بعد اليسر للعسر طاعةً لعلّ جميل الصبر يعقبنا يُسرا

وقال ابن حزم رحمه الله تعالى في رسائله: «إظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم، لأنه عجز مظهره عن ملك نفسه فأظهر أمرًا لا فائدة فيه، بل هو مذموم في الشريعة، وقاطع عما يلزم من الأعمال، وعن التأهب لما يتوقع حلوله، مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذي عنه حدث الجزع.. فلما كان إظهار الجزع مذمومًا كان ضده محمودًا، وهو إظهار الصبر، لأنه ملك النفس، واطّراح لما لا فائدة فيه، وإقبال على ما يعود ويتنفع به في الحال وفي المستقبل»^(٢).

وقال أيضًا رحمه الله: «وأما سؤالك: البلاء أفضل أم العافية، والفقر أفضل أم الغنى؟ فسؤال فاسد، إنما الفضل للعباد بأعمالهم، وباختصاص الله تعالى إياهم، وباختصاص الله تعالى ما شاء مما خلق بالتفضيل.

ونحن نسأل الله تعالى العافية والغنى ونعوذ بالله من البلاء والفقر، وإنما الفضل بالصبر والشكر. وقد جاء عن النبي ﷺ تفضيل الصبر، والقرآن أيضًا، والله تعالى يعلم مقادير ذلك، وسنردُّ ونعلم، وإنما كُلفنا العلم والعمل بما نعلم، ولم نكلف علم ما عنده تعالى من المقادير، وإنما علينا التسليم لقوله فقط، ونهينا عن

(١) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٣٨٠).

(٢) رسائل ابن حزم (١ / ٤٠٦).

التكلف» (١).

ألا فاصبر على الحدث الجليل	وداؤ جَوَاكَ بالصبر الجميل
ولا تجزع فإن أعسرت يوماً	فقد أيسرت في الدهر الطويل
ولا تظنن بربك ظنَّ سوءٍ	فإن الله أولى بالجميل
فإن العسرَ يتبعه يسارٌ	وقولُ الله أصدقُ كلِّ قيلٍ
فلو أن العقولَ تجرُّ رزقاً	لكان الرزق عند ذوي العقولِ
فكم من مؤمنٍ قد جاع يوماً	سيروى من رحيق السلسيلِ



(١) رسائل ابن حزم (٣ / ٢٢٩)، وهي ضمن الأخلاق والسير في مداواة النفوس (٨٧ / ١).

قالوا عن الصبر

لما كان خُلِقَ الصبر بهذا الحجم الباسق بين مكارم الأخلاق، وتلك المنزلة العالية بين سجايا الكرام، بل كثيُرُها عائِدُ ضرورةً إليه، لأنه ينبوعها وعمودها وساقُها ومستمدُّها، لذا فقد أولاهُ الحكماء مدادَ عقولهم، وحسينات بُكاءِ يراعاتهم، وإضاءات بصائرهم، وصادق وصاياهم، نصحًا للخلق، ومحبة وإشفاقًا. وستقطف من ثمار فوائدهم في هذا الفصل ما حَسُنَ إيراده، وراق مذاقه، والله نرتجي، وعونه نريد، وقبوله نسأل، ورضوانه نقصد، وهو الموفق الهادي الكريم اللطيف الرفيق، فمن ذلك:

عن عمر بن الخطاب قال: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله»^(١).

وعن شريح قال: «إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمدته إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمدته إذ رزقني الصبر عليها، وأحمدته إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيها من الثواب، وأحمدته إذ لم يجعلها في ديني». وهذا فقه عظيم.

وعن ابن عباس أنه كان في مسير له فنُعي إليه ابن له؛ فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع وقال: «فعلنا كما أمرنا الله فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾

(١) الدرالمشور (١/ ٣٤٩).

[البقرة: ٤٥] «(١)».

وعن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال: لما حضرت عبادة الوفاة قال: «أُحَرِّجُ على إنسان منكم يبكي، فإذا خرجت نفسي فتوضؤوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلي، ثم يستغفر لعباده ولنفسه، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ثم أسرعوا بي إلى حفرتي» (٢).

وفي الصبر في القتال في سبيل الله تعالى: «قال موسى عليه السلام: يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يقاتلون في سبيلك صفوفاً زحواً، يفرغ عليهم الصبر إفراغاً، فمن هم؟ قال: تلك أمة أحمد» (٣).

وعن عمير بن حبيب - وكانت له صحبة - أوصى بنيه فقال: «يا بني، إياكم ومجالسة السفهاء، فإنَّ مجالستهم داء، إنه من يلحم عن السفية يسرَّ بحلمه، ومن يجبه يندم، ومن لا يقترّ بقليل ما يأتي به السفية يقترّ بالكثير، ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب، وإذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، وليثق بالثواب من الله، ومن يثق بالثواب من الله لا يجد مسَّ الأذى».

وتأمل جواب أبينا إسماعيل عليه السلام لأبيه لما سأله في رؤيا ذبحه، فذكر

(١) الدر المنثور (١/ ٣٥٩).

(٢) الدر المنثور (١/ ٣٥٩).

(٣) الدر المنثور (٦ / ٥٧٧).

التفويض والصبر والتسليم والانقياد لأمر الله، لا لمواراته لدفع أمر الله تعالى فقال: ﴿يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢] قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والتفويض هو الصبر، والتسليم هو الصبر، والانقياد هو ملاك الصبر، فجمع له الذبيح جميع ما ابتغاه بهذه اللفظة اليسيرة».

وعن فضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: «أضجعه ووضع الشفرة، فأقلب جبريل الشفرة، فقال: يا أبت، شدني فإني أخاف أن يتضح عليك من دمي! ثم قال: يا أبت حُلني فإني أخاف أن تشهد علي الملائكة إني جزعت من أمر الله تعالى» (١).

وقال الثوري: «ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا ترك نفسك» (٢).

ألا أيها الأخوان صبراً فإني أرى الصبرَ للمقدور خيراً وأنفعاً وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]: «هذه سَجِيَّةُ الأَثَابَاتِ، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأنَّ المقدور كائن لا محالة، وتَلَقَّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها» (٣).

(١) الدر المنثور (١٢ / ٤٤٣).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١ / ٢٧٧) أي: فكَّ قيادي حتى أسلم نفسي صبراً ورضاً لا كرهاً وربطاً.

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٦).

وقال بعض الفرس: «الصبر ربيع القلب».

وقال آخر: «الصبر يقلّم أظفار الخطوب. والصبر مرٌّ، لا يتجرّعه إلا حرٌّ».

وقال الفضيل بن عياض: «يا ابن آدم؛ إنّما يفضلك الغني بيومك، أمس قد خلا، وغداً لم يأت، فإن صبرت يومك أحمد أمرك، وقويت على غذك، وإن عجزت عن يومك ذمت أمرك وضعفت عن غذك. وإنّ الصبر يورث البرء، وإنّ الجزع يورث السقم، وبالسقم يكون الموت وبالبرء تكون الحياة»^(١).

ولابن المقفع: «إذا تراكمت عليك الأعمال؛ فلا تلتمس الروح في مدافعتها والرواغ فيها، فإنّه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يحققها، والضجر منها هو الذي يراكمها. عليك إذا ورد عليك شغل وأنت في آخر قبله فلا تكدر عليك الأول تكديراً يفسده، وليكن معك رأيك، فاختر أولى الأمرين فاشتغل به حتى يفرغ، ولا يعظمّن عليك تأخير ما تأخر إذا أعملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه»^(٢).

إذا ضيّعت أوّل كلّ أمرٍ أبست أعجازه إلا التواء
وإن سومت أمرك كلّ وغدٍ ضعيفٍ كان أمركما سواء

وقال الحسن: «ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على

الأذى»^(٣).

(١) التذكرة الحمدونية (١ / ٤٦).

(٢) التذكرة الحمدونية (١ / ١٠٣).

(٣) التذكرة الحمدونية (١ / ١٨٣).

خليليّ قد رضيتُ الزمانَ وراضني على عدمِ طورًا وطورًا على وفّر
فما ازدادَ إلا ازددتُ بذلاً لطالبٍ ولا عَصْنِي إِلَّا عَضَضْتُ على الصبرِ

ويُحكى عن أنوشروان^(١) أنه قال: «جميعُ المكارِه في الدنيا تنقسمُ على ضربين: فضربٌ فيه حيلةٌ، فالاضطرابُ دواؤه، وضربٌ لا حيلة فيه، فالاصطبارُ شفاؤه». وكان بعضُ الحكماء يقول: «الحيلةُ فيما لا حيلة فيه، الصبرُ».

وكان يقال: «من اتَّبَعَ الصبرَ، اتَّبَعَهُ النصرُ».

ومن الأمثالِ السائرة: الصبرُ مفتاحُ الفرجِ، ومن صَبَرَ قَدَرَ، وثمرَةُ الصبرِ الظَّفَرُ، وعند اشتدادِ البلاءِ يأتي الرَّخاءُ.

وكان يقال: «خَفِ المضارَّ من خللِ المسارِّ، وارْجُ النفعَ من موضعِ المنعِ، واحرصْ على الحياةِ بطلبِ الموتِ، فكم من بقاءٍ سببه استدعاءُ الفناءِ، ومن فناءٍ سببه البقاءُ، وأكثرُ ما يأتي الأمنُ من قبلِ الفزعِ».

والعربُ تقول: «إِنَّ فِي الشَّرِّ خِيَارًا». قال الأصمعيّ: «معناه: أَنَّ بعضَ الشَّرِّ أهونُ من بعضٍ». وقال أبو عبيدة: «معناه: إِذَا أَصَابَتْكَ مَصِيبَةٌ، فاعلمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ أَجَلٌ مِنْهَا، فلتَهِنْ عَلَيْكَ مَصِيبَتُكَ».

قلت: ولعل المراد أَنَّ مَنْ هَمَّ بِشَرٍّ فَإِنَّ لَهُ فِي الصَّبْرِ إِزَاءَ الشَّرِّ خِيَارًا هو الأناة والكفّ والتعقّل والمراجعة والازدجار، وأتّى ذلك إلا على متن الصبر. والعرب تطلق الشَّرَّ أحيانًا على كل هجمةٍ بأسٍ، سواء أكانت عُدوانًا وابتداءً، أو ردًّا

(١) الفُرس مشهورون بالحكمة.

لعدوان.

وقال بعض الحكماء: «عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فربّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مغبوط بنعمة هي دأؤه، ومرحوم من داء هو شفاؤه».

وكان يُقال: «رُبَّ خيرٍ من شرٍّ، ونفعٍ من ضرٍّ». قلت: أي بما ترتب عليه في ثاني الحال من خير^(١)، كما قال سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقال وداعة السهمي، في كلام له: «اصبر على الشرِّ إن قدحك، فربّما أجل عما يُفرحك، وتحت الرغوة اللبن الصريح».

ويأتي الله بالفرج والفرج عند انقطاع الأمل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن يسير بن عمرو أن أبا مسعود الأنصاري لما قُتل عثمان رضي الله عنه احتجب في بيته، فدخلت عليه فسأل عن أمر الناس، فقال: «عليك بالجماعة، فإن الله لن يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى يستريح برٌّ، ويستراح من

(١) وقد تمّ تفصيل مسألة الشر، وأن الشر ليس إلى الله تعالى، وأن الله تعالى لا يخلق شراً محضاً، ونحو ذلك في كتاب: الرضا بالله تعالى، وكتاب: مسائل مُلحّة في القدر.

فاجر».

وكان الحسن يقول: «ابن آدم؛ لا تؤذ، وإن أوذيت فاصبر».

وعن ربيعة الجرشي قال: «لو كان الصبر من الرجال لكان كريماً». قلت: وهذه الحكمة هي من دلائل جمال أخيلة العرب، وإحكامهم مجامع الجمال الأدبي واللفظي والعقلي والأخلاقي، لا جرم؛ فخير البرية منهم ﷺ.

وعن إبراهيم التيمي قال: «ما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى وصبراً على البلاء وصبراً على المصائب؛ إلا وقد أوتي أفضل ما أوتيته أحد بعد الإيمان بالله».

وعن ميمون قال: «ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر».

وعن سليمان بن القاسم قال: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر».

وعن محمد بن ميمون في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: «فقال بيديه هكذا وبسطهما غَرْفًا غَرْفًا».

وعن عمر بن عبد العزيز يقول على المنبر: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]».

وعن أبي عمران الجوني في قول الله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] قال: «على دينكم فنعم ما أعقبتكم من الدنيا الجنة».

وعن ضمرة بن حبيب قال: «الحلم زين، والتقى كرم، والصبر خير مراكب الصعب».

وعن البطال الخثعمي قال: «سمعت الأوزاعي يسأل خصيلة بنت واثلة بن الأسقع: ما سمعت أباك يقول لما حضرته الوفاة؟ قالت: دعاني فأخذ بيدي فقال: يا بنية؛ اصبري، حتى عدّ أصابعي الخمس، ثم أخذ بيساري فقال: يا بنية؛ اصبري، حتى عدّ أصابعي الخمس!»!

وقال لقمان الحكيم: «حقيقة اليقين الصبر، وحقيقة العمل النية». قلت: لأن اليقين ثبات ورسوخ، والصبر حبس لذلك عن التزعزع والحركة.

وقال أبو الدرداء: «إن الدنيا خوّانة، لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجائعها، ومن يعيش يُبتلى، ومن يتفقد يفقد، ومن لا يعدّ صبراً لفجائع الأمور يعجز».

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله؛ كيف لنا أن ندرك جماع الصبر ومعرفته؟ قال: «اجعلوا عزمكم في الأمور كلها بين يدي هواكم، ثم اتخذوا كتاب الله إماماً لكم في دينكم».

ومرّ رسول الله ﷺ بياسر وبعمار بن ياسر وأم عمار وهم يؤذون في الله فقال رسول الله ﷺ: «صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»^(١).

(١) أحمد (١ / ٤٩٣) والحاكم (٣ / ٣٨٨ - ٣٨٩) وقال: صحيح على شرط مسلم،

وقال زياد بن عمرو: «كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكننا نتفاضل بالصبر».

وعن أبي بكر بن عياش قال: قيل للبَطَّال^(١) ما الشجاعة؟ قال: «صبر ساعة». وأنشد الحسين بن عبد الرحمن:

إذا لم تسامح في الأمور تعقّدت عليك فسامح وأخرج العسرَ باليسر -
فلم أر أوفى للبلاء من التّقى ولم أر للمكروه أشفى من الصبر

وعن سالم بن أبي الجعد قال: سمع عمر رجلاً يقول: اللهم استنق مالي وولدي في سبيلك. فقال عمر: ألا يسكت أحدكم، فإن أعطي شكر وإن ابتلي صبر^(٢).

وقال الحسن^(٣): «إن الله - وله الحمد لا شريك له - رفع عن هذه الأمة الخطأ، والنسيان، وما استكروها عليه، وما لا يطيقون، وأحل لهم في حال الضرورة كثيراً مما حرم عليهم، وأعطاهم خمساً:

الأولى: أعطاهم الدنيا قرضاً، وسألمهم إياها قرضاً، فما أعطوه عن طيب نفس منهم فلهم به الأضعاف الكثيرة من العشرة إلى سبع مئة ضعف إلى ما لا يعلم علمه

وأقره الذهبي. وصححه الألباني في فقه السيرة (١٠٣).

(١) من شجعان المسلمين، وصناديد فرسانهم، ونوادير بواصر الرجال، واشتهر بقهر الصليبيين، وأخذهم، وقتلهم، حتى طار صدهاء فيهم فيذكرون أن نساءهم كنَّ يخوفن صبيانهنَّ منه كما تخوف الأمهات صغارهن من الغيلان والوحوش.

(٢) لأن العبد لا يدري أيثبت عند البلاء أم يجزع، والعافية لا يعدلها شيء.

(٣) إذا أطلق الحسن فهو البصري رحمه الله تعالى.

إلا الله تبارك وتعالى، وذلك قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والثانية: ما أخذ منهم كرهاً فصبروا واحتسبوا فلهم به الصلاة والرحمة وتحقيق الهدى، وذلك لقوله جل وعز: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ١٥٦ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

والثالثة: إن شكروا أن يزيدهم، وذلك لقوله جل ثناؤه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والرابعة: أن أحدهم لو عمل من الخطايا والذنوب حتى يبلغ الكفر، ثم تاب أن يتوب عليه ويوجب له محبته، وذلك لقوله جل وعز: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والخامسة: لو أعطى جبريل وميكائيل عليهما السلام وجميع النبيين لكان قد أجزل لهم العطاء حيث يقول: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال الحسن بن صالح: «لقد دخل التراب من هذا المصر قوم قطعوا عنهم الدنيا بالصبر على طاعة الله، وبين لهم هذا القرآن غير الدنيا قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٦] ثم بكى حسن ثم قال: إذا جاء الموت وسكراته لم يغن عن الفتى ما كان فيه من النعيم واللذة، ثم مال مغشياً عليه!

وعن محمد بن الحسين قال حدثني خلف بن إسماعيل - وكان الجُذَامُ قد قطع يديه ورجليه وعامة بدنه - قال خلف: وسمعت رجلاً منهم يقول: «إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا ابْتَلَيْتَنِي لِتَعْرِفَ صَبْرِي؛ فَأَفْرَغْ عَلَيَّ صَبْرًا يَبْلُغُنِي رِضَاكَ عَنِّي، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا ابْتَلَيْتَنِي لِتَشِينَنِي وَتَأْجِرَنِي وَتَجْعَلَ بِلَاءَكَ لِي سَبَبًا إِلَى رَحْمَتِكَ بِي؛ فَمَنْ مِنْ عِبَادِكَ أَعْظَمَ نِعْمَةً وَمَنَّةً مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ، إِذْ رَأَيْتَنِي لَا خِتَبَارَكَ لَهَا أَهْلًا، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَأَنْتَ أَهْلُ كُلِّ خَيْرٍ وَوَلِي كُلِّ نِعْمَةٍ». قال: فلما كان بالعشي مات، رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال خلف: وسمعت رجلاً مبتلى يقول: «الصبر على منن الرجال أشد من الصبر على ما بي من البلاء».

قال خلف: وسمعت أبا سليمان داود الجواربي يقول يوماً وأقبل عليّ فقال: «يا أبا إسماعيل، قل لأصحابك: أهل البلاء اغتنموا الصبر، فكأنكم قد بلغت مدته». قال خلف: فذكرت ذلك لرجل منهم يكنى أبا ميمون وكان عاقلاً فقال: «يا أبا إسماعيل إن للصبر شروطاً». قلت: ما هي يا أبا ميمون؟ قال: «إن من شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر، ولمن تصبر، وما تريد بصبرك، وتحتسب في ذلك، وتحسن النية فيه، لعلك إن يخلص لك صبرك، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك ثم هداً فهدأت، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت، ولا هي صبرت ولا عرفت النعمة حين هداً ما بها فحمدت الله على ذلك وشكرت»!

وعن وهب بن منبه قال: «لم يكن الذي خرج بأيوب أكلة، بل كان الذي يخرج به من أمثال ثدي النساء ثم يتفطر».

وعن الحسن قال: «مكث أيوب عليه السلام ملقى على زبالة سبع سنين، يمرّ به الرجل فيمسك على أنفه، حتى مرّ به رجلان فقالا: لو كان لله في هذا حاجة لما بلغ هذا منه! فعند ذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]».

وقال الحسن: «إذا شئت رأيت بصيراً لا صبر له، فإذا رأيت بصيراً ذا صبر فهناك». قلت: وهذه نفيسة فلنأخذها من حكيم.

ونظر الحجاج بن يوسف إلى ظفر له قد كان أعور فعولج فخرج سليماً فقال: «ما أحسن عاقبة الصبر!» وأنشد أحمد بن يحيى:

مفتاح باب الفرج الصبرُ وكلّ عسر معه يسرُ
والدهر لا يبقى على حاله والأمر يأتي بعده الأمرُ
والكره تفنيه الليالي التي يفنى عليها الخير والشرُ
وكيف يبقى حال من حاله يسرع فيها اليوم والشهرُ

ومن وصايا المسيح عليه السلام: «يوشك أن يُفْضِيَ بالصابر البلاء إلى الرخاء، وبالفاجر الرخاء إلى البلاء».

وعن سفيان قال: «كان يقال: يحتاج المؤمن إلى الصبر، كما يحتاج إلى الطعام والشراب».

ولما أدخل إبراهيم التيمي سجن الحجاج رأى قومًا مقرّنين في الأغلال، يقومون جميعًا ويقعدون جميعًا فقال: «يا أهل بلاء الله في نعمته، ويا أهل نعمته في بلائه: إن الله قد رآكم أهلاً أن يختبركم، فأروه أهلاً أن تصبروا له». فقالوا: من أنت رحمك الله؟ قال: «من ينتظر من البلاء مثل ما نزل بكم». قالوا: ما نحب أن نخرج

من موضعنا. قلت: وتأمل بلسم كلامه على قلوبهم رحمه الله تعالى.

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: «إذا رأيت أمراً لا تستطيع غيره؛ فاصبر وانتظر فرج الله».

وقال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأصبر على الكلمة لهي أشد علي من القبض على الجمر، ما يحملني على الصبر عليها إلا التخوف من أخرى شر منها».

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ثلاث يدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة: الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والدعاء في الرخاء».

تعزّ إذا أصبت بكل أمرٍ من التقوى أمرت به مُصاباً
فكل مصيبة عظمت وجلّت تخفّ إذا رجوت لها ثواباً

وعن سعد بن إبراهيم قال: «مروا برجل يوم القادسية وقد قطعت يده ورجلاه وهو يضحك ويقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فقيل: ممن أنت رحمك الله؟ قال: امرؤ من الأنصار».

وعن هشام بن محمد: أن زيد بن صوحان أصيبت يده في بعض فتوح العراق، فتبسّم والدماء تشخب، فقال له رجل من قومه: ما هذا موضع تبسّم! فقال زيد: «ألم حلّ هونه ثوابُ الله عليه، أفأردفه بألم الجزع الذي لا جدوى فيه، ولا دريكة لفائت معه؟ وفي تبسّمي عزية لبعض المؤتسين من المؤمنين». فقال الرجل أنت أعلم بالله مني.

وعن مسعر قال: مُرَّ برجل يوم اليمامة وقد نثر قُصْبُه^(١) في الأرض وهو يقول لبعض من مرَّ به: «ضُمَّ إِلَيَّ منه، لعلِّي أدنو قيد رمح أو رحمين في سبيل الله»!

وروي أن الحجاج قال لحطيط: اصدقني. قال: سلني، فقد عاهدت الله إن خلوت لي لأقتلنك، وإن عذبتني لأصبرن، وإن سألتني لأصدقن. فقال: ما قولك في عبد الملك؟ قال: ما أسفهك، تسألني عن رجل أنت خطيئة من خطاياها، وقد ملأت الأرض فساداً؟! قال: فهل خلوت لك؟ قال: مرة واحدة، فحال بيني وبينك شيء منعني منك. قال: كأني قد عرفت، أما الثالثة فلا تصبر عليها. قال: ما شاء الله. قال: دونك يا معد، قال: فعذبه بكل شيء، ثم جاء فقال: ما يبالي! فقال الحجاج: أله حميم؟ قالوا: أم وأخ. قال: فوضع على أمه الدهق^(٢) فقال حطيط: يا أمه، اصبري اصبري. قال: فقتلها!

قلت: وفي ظني أنه لا يصح تعذيب أمه بحال، فإن الحجاج مع بطشه وسفكه للدماء إلا أنه لا يأخذ الأم بجريرة الابن بالغاً ما بلغ من الجرم في عينه، فليست من أخلاق الحجاج فيما أعلم، والله تعالى قد أمرنا بالعدل في شأننا كله ومع الناس أجمعين.

وعن حميد الثقفي - وكان من حرس الحجاج - قال: لما أتى بحطيط، فكلمه

(١) الواحد من أمعائه.

(٢) الدهق: خشبتان يُعصر بهما الساق للتعذيب، وأصل الدهق متابعة الضغط على الشيء بشدة وعنف. الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢ / ٨٠٠٨) والمخصص لابن سيده (٣ / ١٥٩).

الحجاج، أمر به ليعذب قال: فأخرجه صاحب عذابه فقال: يا حطيظ، قد علمت الذي أمرني به فيك الأمير، فماذا أعددت له؟ فقال له حطيظ: «تكلتك أمك، أنت تطيعه في معصية الله، وتبيع آخرتك بدينه، أنت ممن خسر الدنيا والآخرة، فتباً لك آخر الدهر»!

قال: ما أعددت لذلك يا حطيظ لما أمرني به فيك؟ فلما أكثر عليه قال: «تكلتك أمك، أعددت لذلك ما وعد الله عليه تكملة الأجور بغير حساب، أعددت والله لذلك الصبر حتى ينفذ في قضاء الله وقدره». قال: فعذب بأنواع العذاب، فما نبس بكلمة، حتى إذا قرب أن تخرج نفسه أخرج فرمي به على مزبلة، فاجتمع عليه الناس فجعلوا يقولون له: يا حطيظ قل: لا إله إلا الله. فجعل يحرك شفثيه بها ولا يبين الكلام، ثم فاضت نفسه رَحْمَةُ اللَّهِ.

وعن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: جعل حطيظ يقول - وهو يعذب -: «اللهم إنك تُفرغ الصبرَ إفراغاً، فأفرغ الصبر على عبدك حطيظ».

خليلي إن الدهر ما تريانه فصبراً وإلى أي شيء سوى الصبر عسى الله أن يرتاح لي منه فرجةً يجيء بها من حيث أدري ولا أدري

وعن عبد الله بن المبارك أن الحجاج قطع يد رجل ورجله، ثم أمر به أن يحمل إلى الكوفة فيصلب على بابها. قال: فحمل في سفينة حتى إذا قاربوا الكوفة وكان فيهم رجل كأنه سمع خشخشة فقال: ما لكم؟ قالوا: هذا الموضع الذي أمرنا فيه بصلبك، فنخاف أن تلقي نفسك في الماء. قال: أنا ألقى نفسي! فوالله إن الذباب ليقع على يدي أو رجلي فأكره أن أحكه مخافة أن أعين على نفسي. قال: وسمعه

يدعو: «اللهم إني أعوذ بك أن أفرّ من بأس الناس إلى بأسك، وأعوذ بك أن أجعل فتنة الناس كعذابك، وأعوذ بك أن يرى الناس فيّ خيراً ولا خيراً فيّ، اللهم أَرِدْ بي خيراً وافعله بي إنك فعّال لما تريد».

وعن الحسن قال: «إنما يصيب الإنسان الخير في صبر ساعة».

وعن يونس بن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما مُتَّهِى^(١) الصبر؟ قال: «أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبلها».

وقال صالح المري: «لو كان الصبر حلواً؛ ما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿أَصْبِرْ﴾ [ص: ١٧]، ولكن الصبر مُرٌّ».

وعن مجاهد: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، قال: «ما وعد الله من ثوابه الصابرين».

عن الحسن قال: سبّ رجل رجلاً من الصدر الأول، فقام الرجل وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يتلو: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. قال الحسن: «عقلها والله وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون».

وعن محمد بن سوقة قال: كان يقال: «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

وقال عبد الله بن المبارك: «من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع».

(١) أي: كماله المستحب.

وعن سالم بن عمر قال: صلى سالم الهلالي على جنازة، ثم قعد في ظل قصر أوس، فقال لأصحابه: ألا إن كل ميتة على الفراش فهي ظنون. ثم قال: هل تدرون ما كان حال أختكم الشجاء؟ قالوا: وما كان حالها؟ قال: قطع ابن زياد يديها ورجليها وسمل عينيها فما قالت حس^(١)، فقبل لها في ذلك فقالت: شغلني هول المطلع عن ألم حديدكم هذا!

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ	وليس على شِدِّ الزمانِ معوَّلُ
فلو كان يغني أن يُرى المرءُ جازعًا	لنازلةٍ أو كان يُغني التذللُ
لكان التعزِّي عند كُلِّ مصيبةٍ	ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ
فكيف وكلُّ ليس يعدو حمامه	وما لأمري مما قضى الله مزحلُ

ومن نفائس وصايا ابن السماك: «من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومن أجمع اليأس استغنى عن الناس، ومن أهَمَّتْه نفسه لم يولِّ مَرَمَّتْها غيره، ومن أحب الخير وُفِّقَ له، ومن كره الشرَّ جُنِبَ، ومن رضي بالدنيا من الآخرة حظًّا فقد أخطأ حظ نفسه، ومن أراد الحظ الأكبر من الآخرة سعى لها سعيها، وأعمل نفسه لها، وهانت عليه الدنيا وجميع ما فيها. والصبر عن الدنيا رأس الزهد فيها، والصبر عن المعاصي هو الكره لها، والصبر على طاعة الله فرع الخير وتمامه».

وعن بعض حكماء الهند: «الصبر قوة من قوى العقل، وبقدر مولد العقل ينمي الصبر». وأنشد أبو العتاهية:

صبرتُ ولم أبْدِ اكتئابًا ولن تَرى أخا جزعٍ إلا يصيرُ إلى الصبرِ

(١) حس: نوع تأوه من الألم، وعند العامة يعبرون عن مثله بقولهم: أح، وكلاهما بمعنى.

وإني وإن أبديتُ صبرًا لَمُنْطَوٍ على حَزَنٍ منه أَحَرٌّ من الجمرِ
وأملكُ من عيني الدموعَ وربِّها تبادرَ عاصٍ من سوابقها يجري
وقال ابن عمر حين أتنه بيعة يزيد: «إن كان خيرًا رضىنا، وإن كان بلاء
صبرنا».

وعن القاسم بن عبد الواحد أن زيادًا أتى بذي الثَّنَاتِ فقطع يديه ورجليه،
وقال: كيف تجدك؟ فقال: «أفسدت علي دنياي، وأفسدت عليك آخرتك».

ودخلوا على سويد بن شعبة - وكان من أفاضل أصحاب عبد الله بن مسعود
- وأهله تقول له: نفسي فداؤك، ما نطعمك ما نسقيك؟ فأجابها بصوت له ضعيف:
«بليت الحراقف، وطالت الضجعة، والله ما يسرني أن الله نقصني منه قلامة ظفر».

وللدينا مُنى فاحذرُ مُناها مُنى الدنيا مراتعها وخيمة
دع الدنيا لراضي الرّتع فيها يعيشُ برتعه عيشَ البهيمة
وما زالت صروفُ الدهر تجري فمُقلقةٌ ومُقعدةٌ مُقيمة
وغيَّبَ الصبرُ عافيةً وروحَ وليس الصبرُ إلا بالعزيمة

وعن منصور عن إبراهيم: أن أم الأسود أقعدت من رجليها، فجزعت ابنة لها
فقالت: «اللهم إن كان خيرًا فزد».

وعن ابن أبي رواد قال: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شقَّ
عليّ منها، فقال: أتدري ماذا لله علي في هذه القرحة من النعمة؟ فسكت، فقال:
«حين لم يجعلها على حدقتي، ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذكري». قال:

فهانت علي قرحته^(١).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر مَلَكُ الإِيْمَانِ، ولو أَنَّ الصبر والشكر بغيران لم أبال أيهما ركبت».

وقال أيضًا: «نِعَمَ العَدْلَانِ ونِعَمَتِ العِلَاوَةُ للصَّابِرِينَ». ويعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى. والعلاوة: ما يُحْمَلُ فوق العدلين على البعير، وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

عوّل على الصبر واتخذ سببًا إلى الليالي فإنها دُوّل
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بني الإسلام على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهد، والعدل»^(٢).

وقال: «الصبر من الإِيْمَانِ بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إِيْمَانِ لمن لا صبر له».

وقال: «الصبر مطيئة لا تكبو»^(٣).

وقال: «الصبر على أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهد، والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن

(١) مقتطفات متفرقة من الصبر والثواب عليه، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا.

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٥٩).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٧٦).

زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات»^(١).

وقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أهل الإسلام؛ إن الصبر عزٌّ، وإن الفشل

عجز، وإن النصر مع الصبر»^(٢). ولعبد الله بن الأحرص:

يقولون لي صبرًا وإني لصابرٌ على نائباتِ الدهرِ وهي فواجعُ
سأصبرُ حتى يقضيَ الله ما قضي وإن أنا لم أصبرُ فما أنا صانعُ؟

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر نصف الإيمان»^(٣).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أفضل العدة الصبر على الشدة»^(٤).

تلقَّ بالصبرِ ضيفَ الهمِّ حيثُ أتى إن الهمومَ ضيوفُ أكلها المَهْجُ^(٥)
فالخطبُ إن زادَ يومًا فهو منتقصُ والأمرُ إن ضاقَ يومًا فهو منفرجُ
فروحِ النفسِ بالتعليلِ ترَضُ به واعلمْ إلى ساعةٍ من ساعةٍ فرجُ

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا

بالقدر»^(٦).

وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ثلاثٌ يدركُ بهن العبدُ رغائبَ الدنيا

(١) الصبر والثواب عليه، ص: (٢٥).

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (١ / ٢٥٨).

(٣) قوت القلوب للمكي (١ / ١٩٤).

(٤) أدب الدنيا والدين (٢٧٦).

(٥) المَهْجَة: القلب. وتطلق المهجة ويُراد بها شعور القلب.

(٦) إحياء علوم الدين (٤ / ٥٩).

والآخرة: الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والدعاء في الرخاء»^(١).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده».

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر مَعْقِلٌ»^(٢).

صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى مَا نَابَ مِنْ حَدِثٍ وَالصَّبْرُ يَنْفَعُ أَحْيَانًا إِذَا صَبَرُوا
الصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الزَّمَانِ إِذَا مَا مَسَّكَ الضَّرُّ

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ يُعْطِ الْعِبَادُ أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ، بِهِ دَخَلُوا الْجَنَّةَ».

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللهُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ وَهَبَهُ اللهُ لَهُ صَبْرًا عَلَى الْأَذَى، وَصَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ، وَصَبْرًا عَلَى الْمَصَائِبِ؛ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ أَفْضَلَ مَا أُوتِيَهِ أَحَدٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ».

وقال أبو طالب المكي: «التقوى والصبر معنيان، أحدهما منوطٌ بالآخر، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرم على الله تعالى هو الأفضل.. وقد شَرَّفَ اللهُ تعالى الصبر بأن أضافه إليه بعد الأمر به، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:

(١) الصبر والثواب عليه (٦٥).

(٢) معقل: أي حصن وعصمة بإذن الله تعالى.

١٢٧]، وقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

واعلم أن الصبر سبب دخول الجنة وسبب النجاة من النار، لأنه جاء في الخبر أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات^(١)، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر عن الشهوات لينجو من النار.

والصبر مقام أولي العزم من الرسل، أمر النبي ﷺ بالقدوة بهم، وباهى الله تعالى بهم عباده، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وجعل الله تعالى الصبر من العزائم في قوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] (٢).

(١) روى مسلم (١٤٢/٨) أن رسول الله ﷺ قال: «حُفَّتْ الجنة بالمكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات». وروى أحمد (٢٣٣/٢) (٨٣٧٩) بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها. قال: فرجع إليه قال: فوعزتك؛ لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها. فأمر بها فحُفَّتْ بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك؛ لقد خفت ألا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك؛ لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها. فأمر بها فحُفَّتْ بالشهوات، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها فقال: وعزتك؛ لقد خشيت ألا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها».

(٢) قوت القلوب (٢٠٠).

اصبر قليلاً فبعد العُسْرِ تيسيرٌ وكُلَّ أمرٍ له وَقْتُ وتدبيرٌ
وللمهيمن في حالاتنا نظرٌ وفوق تقديرنا لله تقديرٌ

وعن عبد الوهاب الواسطي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: جاء رجل إلى وهب بن منبِّه رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: إني قد حدثت نفسي ألا أخالط الناس، فما ترى؟ قَالَ: «لا تفعل، إنه لا بد للناس منك، ولا بد لك منهم، لهم إليك حوائج، ولك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً، أعمى بصيراً، سَكُوتًا نَطُوقًا»^(١). وقال حاتم الطائي:

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ وَاسْتَبِقْ وَدَّهْمَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَ
وَعَوْرَاءَ قَدْ أَعْرَضَتْ عَنْهَا فَلَمْ تَضُرْ وَذِي أَوْدٍ قَوْمُتُهُ فَتَقَوَّمَا
وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ اصْطِنَاعَهُ وَأَعْرِضْ عَنِ ذَاتِ اللَّيْمِ تَكْرُمَا

قال عبد الرحمن بن أبي بكرة: «من حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالْبَقَاءِ فليُوطِنْ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ».

وقال ابن عيينة في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجد: ٢٤] قَالَ: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء».

وكان ابن شبرمة رَحِمَهُ اللهُ، إِذَا نَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ قَالَ: «سَحَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشُ».

وقيل: «الصبر على الطلب عنوان الظفر، والصبر في المحن علامة الفرج».

وقيل لمحزون: «لا يغلبنَّ على قلبك إذا اغتممت ما تكره دون ما تحب، فلعل العاقبة تكون بما تحب، وتُوقِي ما تكره، فتكون كمن يستسلف الغمَّ والخوف».

(١) أي: خالطهم على قدر الحاجة ولا تزد.

فقال: أما إنك قد فرجت عني ما أنا فيه.

وكان يقال: «العاقل لا يذل بأول نكبة، ولا يفرح بأول نعمة، فربما أقلع المحبوب عما يضر، وأجلى المكروه عما يسر. ومن ساعة إلى ساعة فرج».

ويشبه هذا ما روي عن بزرجهر بن البختكان الحكيم، الذي كان وزير أنوشروان، فإنه حبسه عند غضبه، في بيت كالقبر ظلمة وضيقاً، وصفده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر ألا يزداد كل يوم على قرصين خبزاً شعيراً، وكفّ ملح جريش، ودورق ماء، وأن تحصي ألفاظه، فتنقل إليه، فأقام بزرجهر شهوراً، لا تُسمع له لفظة. فقال أنوشروان: أدخلوا إليه أصحابه، ومروهم أن يسألوه، ويفاتحوه في الكلام، واسمعوا ما يجري بينهم، وعرفوني.

فدخل إليه جماعة من المختصين. كانوا - به، فقالوا له: أيها الحكيم، نراك في هذا الضيق، والحديد، والصوف، والشدة التي وقعت فيها، ومع هذا، فإن سُحنة وجهك^(١)، وصحّة جسمك، على حالهما، لم تتغيرا، فما السبب في ذلك؟ فقال: «إني عملت جوارشاً^(٢) من ستة أخلاط، آخذ منه كل يوم شيئاً، فهو الذي أبقاني على ما ترون. قالوا: فصفه لنا، فعسى أن نُبتلى بمثل بلواك، أو أحد من إخواننا، فنستعمله ونصفه له.

قال: الخلط الأول: الثقة بالله عز وجل، والخلط الثاني: علمي بأن كل مقدر

(١) أي بشرة وجهك.

(٢) الجوارش: «نوع من الأدوية المركبة، يقوّي المعدة ويهضم الطعام. وليست اللفظة عربية». النهاية في غريب الأثر (١ / ٨٤٥).

كائن، والخلط الثالث: الصبر خير ما استعمله الممتحنون، والخلط الرابع: إن لم أصبر أنا فأني شيء أعمل، ولم أعين على نفسي بالجزع، والخلط الخامس: قد يمكن أن أكون في شرٍّ مما أنا فيه، والخلط السادس: من ساعة إلى ساعة فرج». قال: فبلغ كسرى كلامه، فغفا عنه.

ويأتي الله بالفرج عند انقطاع الأمل^(١) واستبهام الحيل. قال إسحاق العابد: «ربما امتحن الله العبد، بمحنة يخلصه بها من الهلكة، فتكون تلك المحنة، أجلاً نعمة».

قال: «من احتمل المحنة، ورضي بتدبير الله تعالى في النكبة، وصبر على الشدة، كشف له عن منفعتها، حتى يقف على المستور عنه من مصلحتها».

وقال عبد الله بن المعتز: «ما أوطأ راحلة الواثق بالله، وأنس مشوى المطيع لله»^(٢).

وقال الفضل بن سهل: «إنَّ في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرُّض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكاء بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار».

وقال الحسن البصري: «الخير الذي لا شرَّ فيه، هو الشكر مع العافية، والصبر

(١) أي: من الناس.

(٢) انظر ما سبق في الفرع بعد الشدة للتنوخي (١ / ٢٢).

عند المحنة، فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم مبتلى بمحنة وهو غير صابر». فقلت للقلب لما ضاق مضطرباً وخانني الصبر والتفريط والجلد دُعها سماويةً تجري على قدرٍ لا تعترضها بأمر منك تنفسدُ

وعن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ قال: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياها، والرضا قليل، ومُعَوِّل المؤمن الصبر». قلت: وهذه حروف من درر الحكم وغرر الوصايا.

وقال: «ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها»^(١).

قال شيخ الإسلام: «ولهذا كان الصبر واليقين اللذين هما أصل التوكل يوجبان الإمامة في الدين، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»^(٢).

الصبرُ أولى بوقارِ الفتى من قلقِ يهتك ستر الوقارِ
من لزم الصبرَ على حالةٍ كان على أيامه بالخيارِ

وعن عمر بن السكن قال: كنت عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من أهل بغداد فقال: يا أبا محمد؛ أخبرني عن قول مطرف: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن ابتلى فأصبر، أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيت لنفسي ما رضيت لي؟ قال: فسكت عنه سكتة ثم قال: قول مطرف أحب إلي. فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟ فقال سفيان: إني قرأت القرآن

(١) الطبقات الكبرى (٥ / ٣٧٢) ولجده لأُمّه الفاروق رضي الله عنه نحو ذلك.

(٢) العقود الدرية (١ / ١٦٠).

فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فاستوت الصفتان، وهذا معافى، وهذا مبتلى، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحبَّ إلي من البلاء مع الصبر»^(١).

وقال نعمان الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ فتوح الغيب: «من أراد السلامة في الدنيا والآخرة، فعليه بالصبر والرضا، وترك الشكوى إلى الخلق، وإنزال حوائجه بربه عز وجل، ولزوم طاعته، وانتظار الفرج منه سبحانه، والانقطاع إليه.

فحرمانه عطاء، وعقوبته نعماء، وبلاؤه دواء، ووعدته حال، وقوله فعل، وكل أفعاله حسنة، وحكمه مصلحة، غير أنه طوى عز وجل علم المصالح عن عباده، وتفرد به، فليس إلا الاشتغال بالعبودية، وأداء الأوامر واجتناب النواهي، والتسليم في القدر، وترك الاشتغال بالربوبية، والسكون عن لم وكيف ومتى. وتسند هذه الجملة إلى حديث ابن عباس قال: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ إذ قال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وجفّ القلم بما هو كائن، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله تعالى لم يقدرُوا عليه. فإن استطعت أن تعمل لله تعالى بالصدق في اليقين فاعمل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. واعلم أن النصر

(١) تهذيب الكمال (١١ / ١٩٣).

مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة قلبه، وشعاره ودثاره وحديثه، فيعمل به من جهة حركاته وسكناته، حتى يسلم في الدنيا والآخرة، ويجد العزة برحمة الله تعالى عز وجل»^(٢).

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد؛ ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة»، فقال الرجل: يا أبا سعيد؛ فما الصبر والسماحة؟ قال: «الصبر عن معصية الله، والسماحة بأداء فرائض الله عز وجل»^(٣).

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفُتُهُ وَأُحَوِّجَنِي طَوْلُ الْبَلَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَقَطَّعْتُ أَيَّامِي مِنَ النَّاسِ آيَسًا لِعَلَمِي بِصَنْعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أُدْرِي
وَأِنِّي لَصَبَّارٌ عَلَى مَا يَنْوِبُنِي وَحَسْبُكَ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ
وقال الأبشيهي: «يا بني؛ العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء.

يا بني؛ زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر.

يا بني؛ لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية.

(١) أحمد في المسند (١/ ٣٠٧) (٢٨٠٤) وقال محققه: إسناده صحيح. والترمذي

(٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (٢/ ٤٠).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ١٥٦).

يا بني؛ الحرص مفتاح التعب، ومطية النَّصَب»^(١).

كسوتُ جميلَ الصبرِ وجهي فصانهُ به الله عن غشيان كلِّ بخيلٍ
فما عشتُ لم آتِ البخيلَ ولم أقمُ على بابه يوماً مقامَ ذليلٍ
وإنَّ قليلاً يسترُّ الوجه أن يُرى إلى الناس مبدولاً لغيرِ قليلٍ

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان؛ لأنَّ إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة». واستعمل الصبرَ لا تحزن ولا تفرح وإن ضاق صدرك ففكر في ألم نشرح وقيل: «الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح».

وقيل: «من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه».

وقيل: إن معاوية رضي الله تعالى عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارَةَ الكلبي، وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية: يا عبد العزيز؛ أتاني نعيُّ سيد شباب العرب، فقال له: ابني أو ابنك؟ قال: لا، ابنك. قال: «للموتِ تلدُ الوالدة».

ومما قيل: «اصبر لحكم من لا تجدُ مَعُوَلاً إلا عليه، ولا مفزوعاً إلا إليه». وهو

الله تبارك وتعالى. وقال سويد السدوسي^(٢):

فأوصيكما يا ابنيَّ سدوس كلاكما بتقوى الذي أعطاكمَا ويراكمَا
بشكرٍ إذا ما أحدثَ الله نعمةً وصبرٍ لأمرِ الله فيما ابتلاكما

(١) المستطرف (١ / ١٧٩).

(٢) المستطرف (٢ / ٥٨١).

وقال:

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب العلا وترقى إلى العلياء غير مُزاحم
عليك بحسن الصبر في كلِّ حالةٍ فما صابرٌ فيما يرومُ بنادمٍ

وحدث الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقالت: «نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للعالم مُدلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مُعزاً بإقبالك عليها. ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ، وأكبر الأحداث بعده؛ فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر فأقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك توديع غير قالية^(١) لحياتك، ولا رازئة على القضاء فيك^(٢)».

هو الدهرُ قد جربته وبلوته فصبراً على مكروهه وتجلداً

ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه فوجده ميتاً، وكان موته فجأة وعياله يبكون عليه، فقال: «ما لكم؟! والله ما ظلمناه ولا قهرناه، ولا ذهب لنا بحق، ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا في مثله». ولما وضعه في حفرته قال: «رحمك الله يا بني، وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيتُ عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً، ولي نافعاً، وكنتُ لك محبباً، وما بي إليك من وحشة، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن

(١) أي: غير كارهة.

(٢) المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين الألبشيحي ٥٠٤/١

الحزن عليك.

يا ذرّ؛ لولا هول المطلع لتمنّيتُ ما صرّت إليه، فليت شعري؛ ماذا قلت وقيل لك».

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللّهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللّهم وقد وهبتُ ما جعلت لي من الأجر إلى ذرّ صلة منّي، فلا تحرمني ولا تحرمه، وتجاوز عنه، فإنك رحيم بي وبه.

اللّهم قد وهبتُ لك إساءته لي فهب لي إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم. اللّهم إنك قد جعلت لك عليه حقًا، وجعلت لي عليه حقًا قرنته بحقك، فقلت: ﴿أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، اللّهم إني قد غفرتُ له ما قصّر فيه من حقي؛ فاغفر له ما قصّر فيه من حقك، فإنك أولى بالجوّد والكرم.

فلما أراد الانصراف قال: يا ذرّ؛ قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعنّاك»^(١).

فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يودّ لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة، وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثوابًا عظيمًا إذا صبر صاحبها واحتسب، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١٠٨/٥

وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ١٥٥﴾ الآية، اللَّهُمَّ أَرْضْنَا بقضائك، وصبرنا على بلائك، واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يارب العالمين»^(١).

وقال القلقشندي^(٢): «قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعتبر عزمه بحِمِّيته، وحزمه^(٣) بمتاع بيته».

ومدار جميع الأحوال المحموده على الصبر، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر.

وقالوا: «لما صار ثقل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر؛ صار الشكر من نتاج الصبر».

وكما أنه لا بد للحلم مع كرم الحلم من الصبر؛ فكذلك لا بد للشكر مع كرم الشكر من الصبر. فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحموده كما يجري الهوى مع جميع الأفعال المذمومة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات»^(٤).

عَشْ مُضْلِحًا مُخْلِصًا لَا تَيَأْسُنْ أَبَدًا وَاصْبِرْ فَإِنَّكَ بَعْدَ الصَّبْرِ تَنْتَصِرُ

(١) المستطرف (٢ / ٥٨٢).

(٢) صبح الأعشى (١٤ / ١٩٨).

(٣) العزم: قوة الإرادة. والحزم: حسن التدبير.

(٤) مسلم (٨ / ١٤٢).

وقال أسامة بن منقذ:

أقولُ لنفسي حينَ جدَّ نزاعُها عليكِ بحسن الصبر إن أمكن الصبرُ
وبالله الهدى والعصمة والتوفيق، وإليه الرَّغْبُ والرجاء والمُنْفَعُ، وهو وحده
المستعان، وعليه لا غيرُه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سبحان
ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى
الله وسلم وبارك على النبي الأمي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين عدد الخلائق بلا
انقطاع.



﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فيا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة؛ قد رُفِعَ لك علم فشَمِّرْ إليه، فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة مَنِّه ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقى مشهَدُ النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول: هذه منجيتي من عذاب السعير. ما المعوّل إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير.

أَبُوؤ لكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، أَنَا الْمَذْنُوبُ الْمُسْكِينُ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ. ما تساوي أعمالك لو سلمت مما ييطلها أدنى نعمة من نعمه عليك، وأنت مرتين بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رعايتها بالله حق رعايتها وهي في تصرفك وطوع يديك، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور.

نَهَجَ لِلْعَبْدِ طَرِيقَ النِّجَاةِ، وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَهَا، وَعَرَّفَهُ طَرِيقَ تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ وَأَعْطَاهُ أَسْبَابَهَا، وَحَذَّرَهُ مِنْ وَبَالِ مَعْصِيَتِهِ، وَأَشْهَدَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ شَوْمَهَا وَعَقَابَهَا، وَقَالَ: إِنْ أُطِعْتُ بِفَضْلِي وَأَنَا أَشْكُرُ، وَإِنْ عُصِيَتْ بِقُبْضَائِي وَأَنَا أَغْفِرُ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

أزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعِذ به من العجز والكسل، ووعد أنه يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، أعطاه ما يشكر عليه، ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه، ووعد على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياها إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

يجود على عبده بالنوال قبل السؤال، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلق به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

تعرف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في

معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمّن الكتاب الذي كتبه أنّ رحمته تغلب غضبه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، يطاع فيشكر، وطاعته من توفيقه وفضله، ويُعصى فيحلم، ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح، فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من أهله، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حساب، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسواء عطاءه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، لا يُلقَى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور، وإذا أقمت على معصيته وهو يمدّك بنعمته فاحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور، وبُشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته إنه غفور شكور. مَنْ عَلِمَ أن الرب شكور اجتهد في معاملته، ومن عرف

أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنی وصل إليه، ومن أحبه أحبَّ أسماءه وصفاته وكانت أثر شيء لديه.

حياة القلوب في معرفته ومحبه، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته والقيام بعبادته، والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته، فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طيبهم، يتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب، إنه غفور شكور»^(١).



(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم (١ / ٢٤٣ - ٢٤٤) بتصرف يسير.

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي
موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

- | | | | |
|------|-------------------------------|------|-------------------------|
| ١ - | مقدمات في أقوال وأعمال القلوب | ١٥ - | الافتقار إلى الله تعالى |
| ٢ - | التوحيد والإخلاص | ١٦ - | الاستغناء بالله تعالى |
| ٣ - | العبودية | ١٧ - | التعلق بالله تعالى |
| ٤ - | الصدق مع الله تعالى | ١٨ - | الالتجاء إلى الله تعالى |
| ٥ - | محبة الله تعالى | ١٩ - | الاعتصام بالله تعالى |
| ٦ - | الشوق إلى الله تعالى | ٢٠ - | سلامة الصدر |
| ٧ - | الأنس بالله تعالى | ٢١ - | العفاف |
| ٨ - | الإرادة | ٢٢ - | الصبر |
| ٩ - | العزم | ٢٣ - | الرضا بالله تعالى |
| ١٠ - | الرجاء | ٢٤ - | شكر الله تعالى |
| ١١ - | الرغبة | ٢٥ - | حمد الله تعالى |
| ١٢ - | التوكل على الله تعالى | ٢٦ - | الفرح بالله تعالى |
| ١٣ - | حُسن الظن بالله تعالى | ٢٧ - | |
| ١٤ - | الثقة بالله تعالى | | |

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|---|
| ١ - محمد رسول الله ﷺ. | ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ. |
| ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ. |
| ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة. | ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البايبل). |
| ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية. | ١١ - العقائد النصرانية في الميزان. |
| ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام. | ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليها السلام. |
| ٦ - يا سائلًا عن بني إسرائيل. | |
| ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب. | |

كتب متنوعة

- | | |
|---|---|
| ١٣ - دموع على سفح الفؤاد. | ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات. |
| ١٤ - نَظَرَاتُ فِي أَعْمَاقِ النَفْسِ
الإنسانية. | ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر). |
| ١٥ - أزمة الفكر المادي. | ٣ - لله درّك يا كعب. |
| ١٦ - السِّلَفِيَّةُ مُحَضُّ الإسلام العتيق. | ٤ - إذا ذُكِرَ الصالحون فحيهلاً بعمر. |
| ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان
(في حجاب الوجه). | ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية. |
| ١٨ - رقائق المتقين. | ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة
العربية (إخوان من طاع الله). |
| ١٩ - شعاعُ الفكر (١) مقالات
شرعية. | ٧ - (ويكون الدين كله لله). |
| ٢٠ - شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية
وأدبيّة. | ٨ - نافذة على قصة الحضارة
لديورانت. |
| ٢١ - رياضُ الأُنسِ. منتخبات نافعة
من البداية والنهاية، للشيخ محمد
الدميجي رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق
وتعليق). | ٩ - المدهشات. |
| | ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون
أنموذجاً. |
| | ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل
القدر. |
| | ١٢ - وقد يجمع الله الشيتين. |

- ٢٢- دمعُ الغمامِ مِنْ مَحَايِرِ الأعلامِ.
حكم وفوائد ووصايا وقصائد،
جمع الشيخ محمد الدميحي
رَحِمَهُ اللهُ (تحقيق وتعليق).
- ٢٣- الحنيفيَّة، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام
٢٤- مِنْ سِيرِ الرَّاحِلِينَ.
٢٥- انفساخُ العزائمِ وانتقاضُ
الدَّعَائِمِ
٢٦- مقدِّمةُ الحمويَّة.. طلعَ الصَّباحُ
فَأُطْفِئُوا الْقِنْدِيلَا.
٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي
الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة
النفوس).
٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ فِي الْقَدَرِ.
- ٢٩- من هو الماهر بالقرآن الكريم.
٣٠- مباحث فقهية.
٣١- معالم التوحيد والحنيفية في سيرة
خير البرية ﷺ.
٣٢- إرشاد الحفاظ في متشابه الألفاظ
للقرآن الكريم.
٣٣- الإعجاز الرباني في اليهود.
٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ.
٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفات،
(على شرحي الإمامين النووي
وابن حجر للصحيحين).
٣٦- الإقليدس.. مفاتيحُ للعلم،
والعبادة، والدعوة، والسلوك.

- ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجَّانًا بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمل مجَّانًا مؤلفات إبراهيم الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. **وهذا باركود التحميل المباشر لها:**



رابط التحميل المباشر:

حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميّجى، من هنا

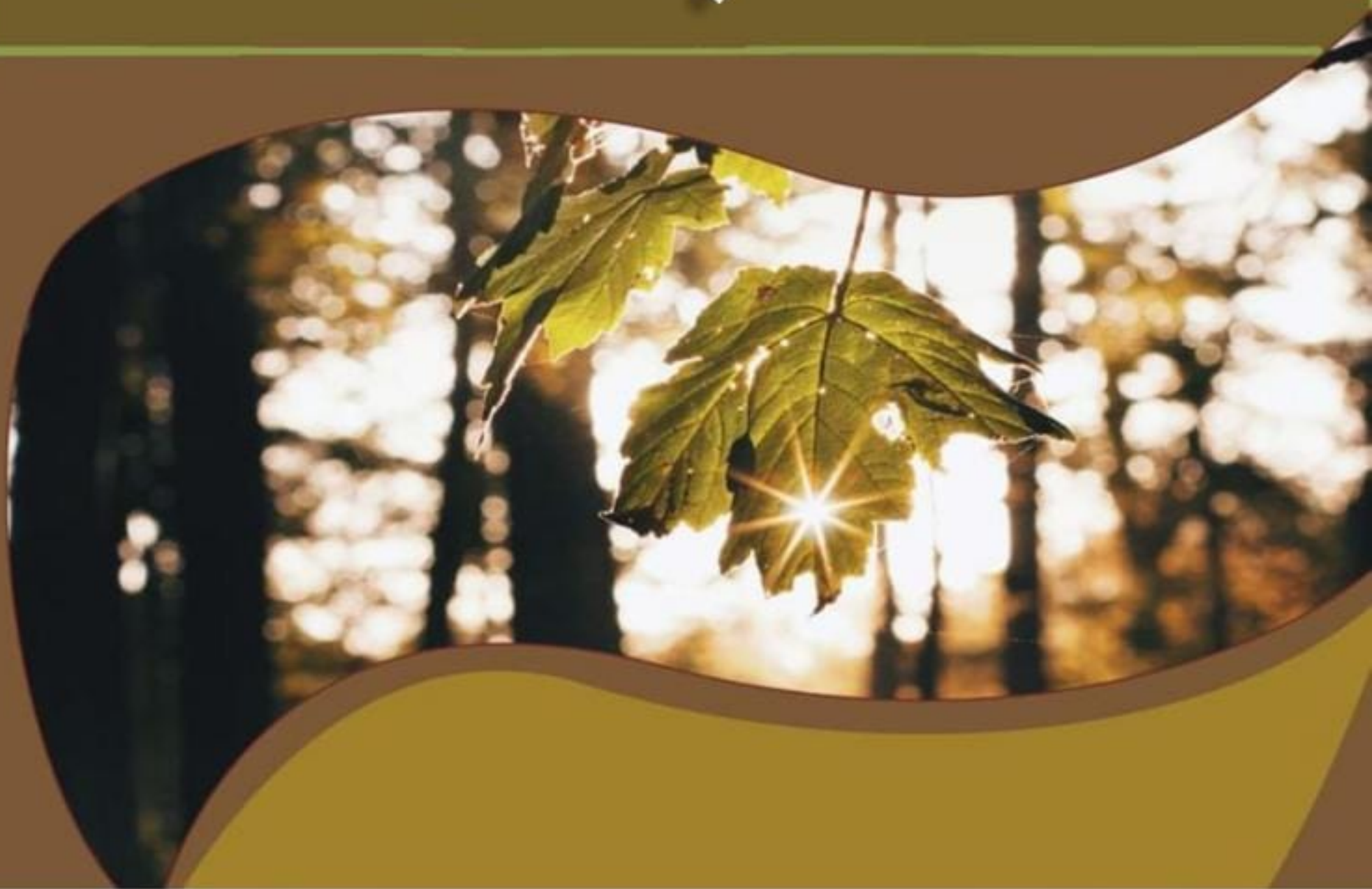
الصفء والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة - جوال : 0502543917

لميس الغديري

lameesalghadeery@gmail.com

☎ ٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩

الرضا بالله تعالى



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الزبيجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

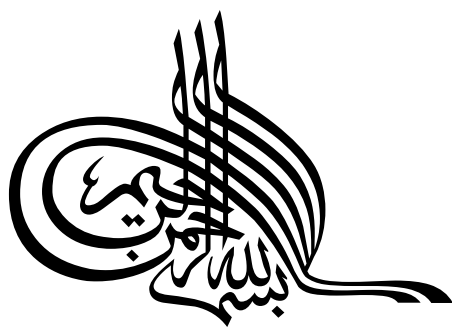
الكتاب رقم (٢٣)

الرَّضَا بِاللَّهِ نَعَالَى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه والمسلمين





فهرس المحتويات

التعريف	١٢
الرّضا من صفات الله تبارك وتعالى	١٨
الفرق بين الرّضا بالله والرّضا عنه سبحانه	٢٩
علاقة الرّضا بأعمال القلوب الأخرى	٣١
فضل الرّضا بالله تعالى ومنزلته	٤١
درجات الرّضا بالله تعالى	٧٨
عموم الرّضا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال الدنيا	٨٢
حكم الرّضا	٩٨
القدر والشّرْع	١٣٦
القدر والعقل	١٧٩
من السلامة ترك التعمّق في بحث تفاصيل القدر	١٩٢
متى يُشرع البحث في تفاصيل القدر؟	٢٠٧
جفّ القلم بما هو كائن	٢٦١
هل كلّ القضاء خيرٌ للمؤمن؟	٢٩٥
كيف يريد الله تعالى أمراً لا يرضاه؟	٣١١

- ٣٤١..... «فحجّ آدم موسى»
- ٣٦٤..... شروط الرّضا بالله تعالى
- ٤١٩..... العزم على الرّضا لا يستلزم الرّضا
- ٤٢٤..... الرضا بالله ربّاً وإلهاً
- ٤٥١..... الرضا بالإسلام ديناً
- ٤٨٢..... الرضا بمحمد ﷺ رسولاً
- ٤٨٥..... الرضا بعلم السلف والاكتفاء به في أمور الشرع
- ٥٣٣..... آداب الرّضا بالله تعالى
- ٥٦٧..... إثارة رضا الله تعالى على رضا غيره
- ٥٨٢..... علامات ومظاهر الراضين بالله تعالى
- ٦٨٠..... الرضا والبلاء
- ٧٣٤..... أحكام تمنّي الموت خشية الفتنة أو غيرها
- ٧٦١..... ثمار الرّضا بالله تعالى
- ٧٨٥..... الرضا بالله تعالى والتفاؤل
- ٧٩٩..... علو الهمة بالرّضا
- ٨١٣..... طرق تحصيل الرضا بالله تعالى
- ٨٦٣..... هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟
- ٨٨٥..... هل الدعاء على الظالم فضيلة؟



٩٠٣.....	الدعاء لرفع نازلة الدين
٩٣٤.....	حكم التداوي، وهل يقدح في الرضا؟
٩٥١.....	هل الرضا بالله تعالى موهبي أم كسبي؟
٩٥٥.....	هل للسن علاقة بطيب الرضا؟
٩٥٨.....	هل عدم الألم شرط للرّضا بالله تعالى؟
٩٧١.....	هل ينافي الرضا بالبكاء على الميت؟
٩٧٧.....	﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾
٩٧٩.....	عوائق الرّضا
١٠٤٦.....	أخطاء في فهم الرضا أو تطبيقه
١١٠٠.....	انفساخ العزائم وانتقاض الدّعائم
١١٣٣.....	كيف تتخطى مرحلة ال(لو)
١١٥٧.....	﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾
١١٧٥.....	﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾
١١٨٨.....	والنفس ذات إقبال وإدبار
١١٩٠.....	من أخبار الراضين بالله رب العالمين
١٢٩٤.....	قالوا عن الرّضا بالله تعالى
١٣٠٨.....	حمد وتسبيح وابتهاال

تمنّيه

الحمد لله كثيرًا كما ينبغي له وهو الحميد الغفور الجميل الودود، تبارك وتعالى ربُّنا معبودُ الأئدة وقبلة القلوب، كلُّ شيء يُحِبُّ لغيره إلا هو وحده فهو لذاته المحبوب، ذو الرضا العظيم الكبير المرغوب، والحمد التام والجمال الكامل والجلال المرهوب، يعفو ويغفر سيئات الخطايا ومهلكات الذنوب، يملي ويمهل كرمًا ورحمةً لعلّ العاصي يتوب والخطيئ يؤوب، يرحم ويرفق ويلطف بعبد الجاهل المسلوب، يكرم ويُعطي جودًا وطيبًا ويحبُّ المطلوب، يُطعم ويُسقي ويُنعّم ويشفي ويستّر العيوب، يُغني ويكفي ويعصم ويؤوي ويكشف الكروب.

أحمده تبارك وتعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته وكما ينبغي لعظيم جلاله وجماله ورحمته وكرمه ولطفه وألوهيته وربوبيته وكماله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّه من لغوب، يُضِلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويُقلِّب الأبصار والبصائر والنيات والقلوب، يسمع النداء ويُجيب الدعاء وما لعطاياه من تأخّر ولا قلة ولا عبث ولا نضوب.

السعيد من رَضِيَهُ فأرضاه، وأحبّه وقربه وأدناه، فسعد سعادة أبد الأبد، فهو في نعيم الرضوان مكتوب، والشقي من سخطه ومقتته وقلاه، فهو بالخذلان والحرمان والعذاب مضروب.

إليك، وإلا لا تُشدُّ الركائبُ ومنك، وإلا فالمؤمِّلُ خائبُ
وفيك، وإلا فالزَّمانُ مُضَيِّعُ وعنك، وإلا فالمُحدِّثُ كاذِبُ
لديك، وإلا لا قرارَ يطيَّبُ لي إليك، وإلا لا تسيلُ السواكِبُ

وأشهد أن نبينا محمداً عبده ونبيه ورسوله، الخليلُ الكريمُ المحبوبُ، مَنْ خُلِقَ مكارمُ الأخلاق، ونورُ شرعه أضاء الآفاق، خيرُ البرية، ومصطفى البشرية، جاء من عند الله تعالى بشريعة هي نور الأرجاء وضياء الدروب، مَنْ أطاعه فقد أطاع الله، ومن تبع نهجه فقد أرضاه، له لواءُ الحمد والشفاعةُ العظمى والحوضُ المورود، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه عدد الرمال والحصى، وكلما أطاعه عبد أو غفل أو عصى، ونورُ بصلاتنا عليه بصائرنا والقلوب، ربنا ثبتنا على ملتته، ووفقنا لشرعته، واهدنا سببته، وألهمنا حجته، وابعثنا على محبته، واحشرنا في زمرة، واجمعنا تحت لواء حمده، وأوردنا حوضه، وارزقنا شفاعته، وأدخلنا ووالدينا والمسلمين معه جناتك جنات النعيم في الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، واجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام. اللهم توفيقك وعصمتك وحفظك ومعونتك وعفوك ومغفرتك ورحمتك وكرمك ورضاك والجنة، إله الحق آمين.

أسيرُ خلفَ الرِّكابِ النُّجَبِ ذا عَرَجٍ مؤملاً غير الذي يُفْضي به عَرَجِي
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لربِّ السَّما في ذاك من فرجٍ
وإن بقيتُ بظهرِ الأرضِ منقطعاً فما على أعرجٍ في ذاك من حرجٍ

أما بعد: فإن الرضا بالله رباً مدبراً عليماً قديراً مالكاً برّاً حكيماً رحيماً وإلهاً قريباً شهيداً حسيباً محيطاً هو الأمن التام والطمأنينة الوارفة والسكينة الطيبة والسعادة الأبدية والكفاية الكاملة بكل صنوف الكفاية.

إن الرضا بالله تعالى هو شعار المؤمنين به، ودثار المسلمين له، ولا يستقيم الدين إلا بالرضا عن الله تعالى رباً وإلهاً ومقدراً ومدبراً، ولا جرم أن المؤمن في كل صبح وعشية يهتف بقلبه من وراء لسانه ثلاثاً: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وهادياً وخليلاً، صلى الله وسلم وبارك عليه عدد خلق الخلاق العظيم^(١).

إن الرضا بالله هو البحر الدافئ الذي تنغمس فيه كل صنوف البلايا، وتتلاشى فيه كل أجناس الرزايا، فلا يبقى في صدر الراضي بربه حرارة غضب، أو جمره قهر، أو برد خوف، أو جليد فزع، أو ضغط مُلِمة، أو تشعب شتات، أو طعنة ندم، أو كسرة أسى، أو عصفة حزن، أو لوعة فراق، ذلك أنه بحرٌ عذبٌ فراتٌ محيطٌ بقلب المرء السعيد من جميع جهاته الست وسابعها جوف الفؤاد فيغمره سكينه وطمأنينه وشوقاً وإيماناً، فهو محض رحمة الرحيم

(١) قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة». رواه أحمد (١٨٩٦٧) (٣٣٧/٤) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

الرحمن، ورقيقةٌ من لطائف الملك الرفيق المنان، وهو الكريم الوهاب لمن شاء أن يغمس فيه من عباده الموفِّقين وأوليائه المحبين، فلا يُبقي ذلك الرضا العجيب في الصدر والقلب والروح مكانًا لأي ألم أو حزنٍ أو عنَتٍ أو ندمٍ ليقينه وثقته وتعلقه بحسن تدبير ربه، ولطف إلهه، ورحمة سيده، وقرب مولاه، ورسوخ يقينه بلقائه، ولمحبته التامة ورجائه الكامل لمن لا يأتي الخير إلا من قبله، كيف لا يكون كذلك وهو يذوق لذائد وحلاوة طعم الإيمان بلسان قلبه التقوي النقي الطاهر، فعن العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا».^(١)

وتأمل تعجب أبي سعيد رضي الله عنه من عظمة وجزالة العطية الإلهية والمنحة الربانية للمؤمنين حين قال رسول الله ﷺ: «من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا وجبت له الجنة». فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».^(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الحفظ الشهير: أن رسول الله ﷺ أوصاه بقوله: «احفظ الله يحفظك...» إلى أن قال: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا

(١) رواه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣).

(٢) مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (١٩/٦ - ٢٠).

كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً^(١).

حَيَّا الْحَيَا تِلْكَ الْمَنَازِلَ وَالرُّبَى وَسَقَى الْوَلِيَّ مَوَاطِنَ الْآلَاءِ
واعلم أن الرضا من حيث الترتيب الزمني للواردات على القلب عند
الحوادث - محبوبة كانت أو غير ذلك - هو الثاني، فأولهن انتصاباً للمقادير:
الصبر، ثم الرضا، ثم الحمد والشكر. وبعضهن مرتّب على بعض، فلا وصول
للرضا إلا على راحلة الصبر، ولا بلوغ للحمد والشكر إلا على مركبي الصبر
والرضا، فالرضا هو المرتبة التالية للصبر، والسابقة للحمد والشكر. أما من
حيث الأفضلية وعلو المرتبة فالرضا فوق الصبر ودون الحمد والشكر، والله
أعلم. جعلنا الله جميعاً من أهل رضوانه ورحمته وكرامته.

إِلَهِي لَقَدْ أَحْسَنْتَ رَغْمَ إِسَاءَتِي إِلَيْكَ فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ الشُّكْرُ
فَمَنْ كَانَ مُعْتَذِرًا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ فَعُذْرِي إِقْرَارِي بِأَنْ لَيْسَ لِي عُذْرٌ

(١) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٧/٤) وصححه أحمد شاكر، والأرنؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه القرطبي في التفسير (٣٣٥/٨) وقال ابن رجب في الجامع (٤٥٩/١): حسن جيد. وضعفه الألباني في السلسلة (٥١٠٧) وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

أَلَا وَإِنَّ أَعْظَمَ جُرْعَةٍ مُسَكَّنٍ لِلْأَلَمِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِإِطْلَاقٍ هِيَ جُرْعَةٌ فِي الْقَلْبِ مِنَ الرِّضَا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَلَا أَجْلَدَ مِنْ عَيْشِ الصَّابِرِينَ، وَلَا أَطْيَبَ مِنْ عَيْشِ الرَّاظِينَ، وَلَا أَهْنَأَ مِنْ عَيْشِ الْحَامِدِينَ، وَلَا أَسْعَدَ مِنْ حَيَاةِ الشَّاكِرِينَ.

وَإِنَّ الرِّضَا بِاللَّهِ جُنَّةٌ مُحْكَمَةٌ وَدَرْعٌ سَابِغٌ وَحَصْنٌ حَصِينٌ مِنْ تَحَبُّطَاتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِالْجُفَّالِ السَّاطِخِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وهذه - أخي في الله تعالى - حروف يسرها الله تعالى في بيان هذا الباب وحدوده وفضله وأطرافه ودلائله وطرق تحصيله وموانعه ومتعلقاته وأحوال أهله وبعض أخبارهم، فعن غير مدح الله تعالى وما يُحِبُّهُ فَلْتُحْرِقِ الْكُوَاغِدُ وَلْتُهَرِّقِ الْأَمِدَّةُ وَلْتُكْسِرِ الْأَقْلَامُ! سَائِلًا رَبِّي الْأَعَزَّ الْأَجَلَ الْمَلِكَ الْعَلَامَ الْعَوْنَ والتوفيق والقبول والتسديد والإلهام، لائِدًا به في كُلِّ أَمْرِي، عَائِدًا به من كلامٍ عن هوى، وخوض في غَيٍّ، إن ربي قريبٌ ودودٌ مُجِيبٌ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

كَلَّمَ الشُّهَادُ جُفُونَهُ فَتَبَادَرَتْ عِبْرَاتُهُ مَمْرُوجَةً بِدِمَاءِ
أَهْدَى لَنَا أَرْوَاحَ نَجْدٍ عَرَفُهُ فَالْجُؤُ مِنْهُ مُعْنَبِرُ الْأَرْجَاءِ
وَرَوَى أَحَادِيثَ الْأَحَبَّةِ مُسْنِدًا عَنْ إِذْخِرِ بِأَذَاخِرِ وَسِخَاءِ

والحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليُّ من الدُّل، والله أكبر كبيرًا، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٤١ / ٦ / ١

aldumaiji@gmail.com

٠٥٠٥١١٩٦٤٥

التعريف

الرضا: هو طيب إحساس القلب نحو غيره، وشعوره بقبوله والاطمئنان إليه، وعدم سُخطه والنفور منه. وإذا كُمُل فهو امتلاء القلب به.

والرضا: مصدر رضي يرضى، وهو مأخوذ من مادة (ر ض و) التي تدل على خلاف السخط. وقال النبي ﷺ: «لن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط». (١)

وقيل في حده كذلك: هو سرور القلب بمرّ القضاء. وقيل: الرضا: ارتفاع الجزع في أي حكم كان، وقيل: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا.

وقيل: استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنه اختار له الأفضل، وهو ترك السخط. وقال المناوي: «الرضا طيب نفسيّ للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التغيّر، وقول الفقهاء: «يشهد على رضاها»، أي: إذنها، فجعلوا الإذن رضا لدلالته عليه». (٢)

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣).

(٢) التعريفات للجرجاني (١١١)، مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٨٥)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (١٧٨) نضرة النعيم (٦/ ٢١٠٣)

والرضوان: هو الرضا الكثير، ولما وصف الله ما أعدّه لأوليائه في الجنة نبّه إلى رضوانه - أو أنّ جزءاً من رضوانه^(١) - أعظم من الجنة وما فيها، فالجنة كلّها جزء من رضوان الله عز وجل؛ لأنها ثمرة رضاه عن أوليائه، وتدبر قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢]، وتأمل تأكيد الفوز بـ«هو». نسأل الله الكريم من فضله.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم

(١) كما قرره الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ الذي جدّد وجاهد في زمانه حتى دفع الله به غربة فئام من أهل السنة والمتسنة في بقاع من القطر اليماني العزيز، بل في كثير من سواد أركان الأرض، قال في شأنه الشيخ المحقق حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشوكاني صاحب علم وسياسة، استطاع أن يسلك بالزيدية طريق السنة». ثم قال: «الشوكاني المحدث الكبير الذي خدم الحديث خدمة لا مثيل لها في ذلك الزمن». رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المدارج (٢/٢٠٨) في هذا المعنى العزيز: «إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢]».

بعده أبداً». متفق عليه.^(١) ولعل هذا سبب تخصيص الصحابة بالدعاء بالرضا وغيرهم بالرحمة؛ لأن الرضا أرفع وأكمل، ففيه تضمّن للحُبّ والقبول، ولا يُشترط ذلك في حدّ الرحمة؛ لأنها إنالة المقصود والحفظ من المخوف، فهي - وإن تضمّنت حبّاً وقبولاً - لكنها ليست بذلك الظهور والكثرة في الرضا، والله أعلم.

أما عن إملائها؛ فإنّ الأqed والأشبه في كتابة الرضا أن تكتب بالألف الطويلة (رضا) وليس (رضى) لأنّ أصل هذه الألف هو الواو وليس الياء، فتقول: رضي يرضى رضا ورضواناً. وتثنية رضا: رِضَوَانٌ إذ أنّ أصلها واو (رضو). وفي الأمر سعة بحمد الله، فكلاهما صحيح ولا مشاحة في ذلك،^(٢) فهي من الأفعال الواوية والياءية التي تكتب ألفها ممدودة ومقصورة، وقد قال الفراء في كتاب المنقوص والممدود: «الحما والرضا يكتبان بالألف والياء، لأنّ الكسائي سمع العرب تقول: حِمَوَانٌ وِرِضَوَانٌ، وِحِمَيَانٌ وِرِضَيَانٌ».^(٣) أي في تثنية الرّضا، فمن العرب من يقولها بالياء على الأصل، والواو أكثر. قال ابن قتيبة: «وإذا ورد عليك حرف قد ثني بالياء وبالواو عملت على الأكثر الأعمّ، نحو رَحَى؛ لأنّ من العرب من يقول (رَحَوْتُ الرَّحَا) ومنهم من يقول (رَحَيْتُ الرَّحَى)، وأن تكتبها بالياء كان أحبّ إليّ؛ لأنها اللغة العالية، وكذلك

(١) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩)، ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩).

(٢) ولا بأس بالترخص بدليله في اللغة نحواً وصرفاً ودلالة تسهياً للناس، خاصة مع انتشار العُجمة.

(٣) انظر: لسان العرب (١٤/٣٢٣).

(الرِّضَا) من العرب من يثنيه (رِضْيَانٍ) ومنهم من يثنيه (رِضْوَانٍ) وأن تكتبه بالألف أَحَبُّ إِلَيَّ لأن الواو فيه أكثر وهو من (الرِّضْوَانِ)». ^(١) إذن فكلاهما عربيَّةٌ صحيحة على الجادة، فلا تثريب.

فإن كانت على سياق المصدر راضا رضاءً بمعنى المراضاة فتكتب (رضاء). وقال ابن فارس: «(رضي) الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدلُّ على خلاف السُّخْط. تقول: رضي يرضى رِضًى. وهو راضٍ، ويقال: إنَّ أصله الواو؛ لأنَّه يقال منه رِضْوَان. قال أبو عبيد: راضاني فلانٌ فرَضُوته». ^(٢)

وقال الأزهري: «قال الليث: رضي فلان يرضى رِضًى. والرِّضْيُ: المرَضِيُّ، والرِّضْيُ مقصورٌ. قلت: وإذا جعلت الرِّضا مصدر راضيته رضاءً ومراضاةً فهو ممدود، وإذا جعلته مصدر رَضِي يَرْضَى فهو مقصور. والقراء كلهم قرأوا الرِّضْوَان - بكسر الراء - إلا ما روى عن عاصم أنه قال: رُضْوَان، وهما لغتان. ويقال: فلان مَرَضِيٌّ، ومن العرب من يقول: مَرَضُو، لأنه من بنات الواو، والله أعلم». ^(٣) ونقل ابن سيده عن ابن جني: «والرِّضاء مصدر راضيته رِضاءً، وأنشد:

لم تُرَحِّبْ بِمَا سَخِطْتَ ولكنْ مَرَحَّبًا بِالرِّضاءِ منك وأهلًا

(١) أدب الكاتب (١ / ٢٠٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢ / ٤٠٢).

(٣) تهذيب اللغة (٤ / ١٦٧).

وإنما لم يُعَادِلْ به الرّضَى المقصُور لِقَلَّةِ مدِّ الرّضَى^(١). وقال ابن دريد: «والرّضى: ضد الغضب. والرّضاء، ممدود: مصدر راضيته مراضاة ورّضاء»^(٢).

أما ابن خلدون فقد بسطه كعادته فمما قال: «الرّضا مقصورٌ ضدّ السّخَطِ، وفي حديث الدعاء: «اللّهم إني أَعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وبمُعَافَاتِكَ من عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بك منك، لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٣). وَرَضَيْتُ عَنْكَ وَعَلَيْكَ^(٤) رِضَى مقصورٌ مصدرٌ مُحَضَّرٌ، والاسمُ الرّضاء ممدودٌ. عن الأخفش قال القُحَيْفُ العُقَيْلِي:

إِذَا رَضَيْتَ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا
وَلَا تَنْبُو سُيُوفُ بَنِي قُشَيْرٍ وَلَا تَمْضِي الْأَسِنَّةُ فِي صَفَاهَا
عَدَاهُ بـ «عَلَى» لِأَنَّهَا إِذَا رَضَيْتَ عَنْهُ أَحَبَّتْهُ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ، فَلِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ عَلَى بِمَعْنَى عَنْ. قال ابن جني: وكان أَبُو عَلِيٍّ يَسْتَحْسِنُ قَوْلَ الْكَسَائِيِّ فِي هَذَا

(١) المخصص (٤/ ١٠٤).

(٢) جوهرة اللغة (٢/ ١٠٠).

(٣) مسلم ٥١/٢ (٤٨٥) قال ابن الأثير: «فإنما قدم الاستعاذة بالرّضا على السّخَطِ لِأَنَّ الْمُعَافَاةَ مِنَ الْعُقُوبَةِ تَحْصُلُ بِحَصُولِ الرِّضَا، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا لِأَنَّ دَلَالَةَ الْأُولَى عَلَيْهَا دَلَالَةٌ تَضْمَنُ، فَأَرَادَ أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلَالَةً مُطَابِقَةً؛ فَكُنِيَ عَنْهَا أَوَّلًا ثُمَّ صَرَحَ بِهَا ثَانِيًا، وَلِأَنَّ الرَّاظِيَّ قَدْ يَعْاقِبُ لِلْمَصْلَحَةِ أَوْ لاسْتِيفَاءِ حَقِّ الْغَيْرِ».

(٤) والثانية مشهورة على ألسنة العامة وهي كما ترى صحيحة، لأن لفظ الرضا يتعدّى بعن وبعلى، فتقول: رضي الله عنك، ورضي عليك.

لأنه لما كان رَضِيْتُ ضِدَّ سَخِطْتُ عَدَى رَضِيْتُ بَعْلَى حَمَلًا لِلشَّيْءِ عَلَى نَقِيضِهِ
كما يُحْمَلُ عَلَى نَظِيرِهِ.

وَأَرْضَاهُ: أَعْطَاهُ مَا يَرْضَى بِهِ. وَتَرْضَاهُ: طَلَبَ رِضَاهُ. وَالرَّضِيُّ الْمَرْضِيُّ.
وَرَضِيْتُ الشَّيْءَ وَارْتَضَيْتُهُ فَهُوَ مَرْضِيٌّ. وَقِيلَ: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الفارعة :
١٧: أَي مَرْضِيَّةً، أَي ذات رَضَى] ١٤)

وهناك كلمات تأتي بمعنى الرضا أو تقاربه، مثل القناعة، فالقانع: هو
الراضي باليسير. وأقنعه: أرضاه. وكذلك الركون وهو السكون برضى، كما في
قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] أي لا
ترضوا أعمالهم. وقد يأتي الحمد بمعنى الرضا، كقولك: بلوته فحمدته، أي:
اختبرته فرضيته، وإن كان في الحمد مزيد إظهار للممدوح وتنويه بها. وبالله
التوفيق وعليه المعول.



(١) لسان العرب (١٤ / ٣٢٣) مختصراً.

الرّضا من صفات الله تبارك وتعالى

شرفُ كل علمٍ بمتعلّقه، لذلك فعلم الأسماء والصفات لله تعالى هو أشرف العلوم بإطلاق، لتعلقه بأسماء الله تعالى وصفاته المقدّسة، والقرآن العظيم من كلام الله تعالى، وأعظم الهدى هو هُدى الله عبده إليه، فيعلم العبدُ أسماءَ ربه وصفاته وأفعاله، وحقوقه التي هي الدين الذي خلقه لإقامته ووعده معونته إن صدق معه. وعليه فالضلال في هذا الباب خذلان عظيم وخيبة كبيرة؛ لأنه لم يهتد لأعظم أمر وهو أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وحقوقه. وقد خاب من أولاد آدم من ضلّ عن معرفة ربه الأجل!

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا
والقرآن العظيم والسنة المطهرة مليئان بذكر تفاصيل هذا الباب الشريف، فالأسماء والصفات والأفعال متعلقة بحُسن التصوّر وسلامة الاعتقاد من العبد لربه تعالى ابتداءً، أما الحقوق فمتعلّقة بها مع صحّة الاعتقاد حُسن التعبّد لله جل جلاله.

ولما كان حُسن المعتقد وسلامته هو أصل الأصول فقد دارت في ميدانه رحى الحرب بين أولياء الرحمن وجند الشيطان، فأخذ العدو الرجيم يفتل قلائد كيده حول أعناق قلوب أهل الإيثار، ويعقد عُقد شبهه وأباطيله في صدورهم، وينفث فيها بكل شبهة وشهوة وجهل وخرافة وقرمطة وسفسطة؛ فراجت أباطيله على فئام من المسلمين كُثُر، إذ فتحوا عقولهم للشبهات، ولم

يستضيئوا بنور الوحي المنزل، ولم يكتفوا بما فيه من علم وعصمة، وغناء للقلب والعقل والروح. فإن عرضت لهم شبهة عرضوها على أصول خائبة ليست من الوحي المعصوم في شيء، فانهارت بهم أصولهم لقعر الضلالة وحبوبة الغواية! وتدبر قول العليم الحكيم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] العنكبوت: ٥١، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهُ وَمَن يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَلَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. بلى وعِزَّة ربي!

أما أهل العلم والإيمان والفطر السليمة فقد كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله واستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فحفظهم ربهم لما حفظوا أسباب هدايتهم له، وآثروا صفاء وحيه على ضلالات آراء البشر. فأمنوا بالكتاب كله ولم يضربوا بعضه ببعض، وردُّوا متشابهه لمحكمه، واعتصموا بهدأيته عن أوهام العقول وأخطاء العلوم وزلات الأفهام، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧ - ٨]

والعلم زينة أهلِه بين الورى سيَّان فيه أخو الغنى والمعدم

وعليه؛ فزمانُ التكليفِ حالُكَ الظُّلْمَةِ، خَطِرُ المساربِ، مفتوح على كلّ سابلةٍ لا تبلغ غايتها بصائرُ المُكَلِّفِينَ، بيد أنَّ الرّبَّ كريماً في عظمتِهِ، رحيماً في تكليفِهِ، حكيمٌ في تشريعِهِ، قشع غَيْنِ الضلالِ بوحِيهِ، وفقاً عَيْنَ فتنة الشيطانِ بذكرِهِ، وأضواءِ ظلامِ الزمانِ بقرآنِهِ وسنة نبيه ﷺ.

أهبط الإنسان للميدان الذي منه تعرج ساميةٌ مضيئةٌ أعمالُ أوليائه منهم، وتصعد منه أرواحهم لمقعد الصدق الأبدي السعيد، وتتحطم في ساحها أكثرُ أحلام بني آدم، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ممن خُذِلُوا وتُركوا لجهلهم وظلمهم وشؤم حوبتهم، إذ خذلتهم أمانيتهم، وكذّبهم من ظنّوه حليفَ صدقٍ وناصرَ هدى، كما كان أقسم فاجراً لأبويهم الصالحين: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

إنَّ زماننا ينوءُ بأمواجِ فتنٍ شبهاتٍ وشهواتٍ أعشت بصائرَ من كانوا حكماء، وفلّت عزائمَ من كانوا أقوياء، ونكبت سُبُلَ من كانوا أسوياء، قد احتار فيها الحلماء، وقلّق من أجلها العلماء، وفزعت من لأواءِ كيدها وهسيسِ همسِها ودخنِ نفسِها قلوبُ قوَّامِ الليالي الظلماء! عمَّ شرُّها وطار شرُّها.. بيد أنها لم تكن ببدعٍ من اختلافِ خلائقِ الأممِ واحتدامِ مدافعةِ الفريقين، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٢٧]. ورحمة الله تعالى ولطفه وحكمته وعدله من وراء ذلك كله، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإشراء: ١٧] ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. والسعيدُ من هدى الله، ﴿يَهْدِي اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧].

مَرَّ زَمَانٌ قَدْ حَسَحَسَتْ نَارَ الْجَهْلِ أَرْكَانَ الْبَسِيطَةِ، وَاصْطَلَمَتْ حَنَادُسُ الظُّلَمِ بِقَاعِ الْمَعْمُورَةِ؛ فَلَمْ تَذَرْ لِرَاجِ الْهُدَى دَرْبًا لِلْسَّلَامَةِ إِلَّا أَوْحَادًا أَوْحَادًا عَلَى بَقَايَا آثَارِ أَنْبِيَاءٍ ضَاعَتْ فِي بَيْدِ السِّنِينَ رِسَالَتِهِمْ، حَتَّى أَذِنَ الْحَكِيمُ الرَّحِيمُ بِالْفَجْرِ الصَّادِقِ وَالشَّعَاعِ الْمُضِيِّ أَرْكَانَ الْمَعْمُورَةِ وَسَقَائِفَ الْمَرْفُوعَةِ؛ فَبَعَثَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِلْمُرْسَلِينَ خَاتِمًا وَسَيِّدًا وَإِمَامًا مَبِينًا، وَلِلْعَالَمِينَ نَاصِحًا مُبَلِّغًا وَسَرَاجًا مُنِيرًا، وَلِأَسْبَابِ سَعَادَتِهِمْ مَبَشِّرًا، وَعَنْ سُبُلِ شِقْوَتِهِمْ نَذِيرًا، وَإِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ دَاعِيًا، فَأَضْحَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ شَاهِدًا، وَلِرَبِّهِ شَهِيدًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ وَنِعْمَاؤُهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا دَامَتِ الْخَلَائِقُ، وَازْدَانَتْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْخَوَافِقُ.

فَكَانَ مَنْ أَرَادَ قَبْسًا مِنْ هُدًى فِي طَرِيقِ سِيرِهِ لَتَحْقِيقِ عِلَّةِ الْخَلِيقَةِ رَشَفَ بِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ وَعِلْمِهِ مِنْ مَعِينٍ وَحِي التَّنْزِيلِ كِتَابًا وَسُنَّةً، فَانْبَلَجَتْ لِعَيْنِ بِصِيرَتِهِ يَقِينَاتُ الْعِلْمِ فَرَسَخَ فِيهِ وَانْتَفَعَ، فَكَانَ - بِإِذْنِ رَبِّهِ - شَمْسًا تَجْلُو دِيَاجِيرَ ظُلَامِ الْجَهْلِ، وَتَطْهَرُ الْبَقَاعَ مِنْ أَدْنَسِ الْخَطِيئَاتِ وَنَجَاسَاتِ الْجَهَالَاتِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ أَعْرَضَتْ عَنْهُ أُمْدَادُ التَّوْفِيقِ، وَانْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْهُدَى، وَضَاعَ عَنْ سَنَنِ الْفَلَاحِ، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ط وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِرٌ : ٤٣].

وَشَاءَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ إِقَامَةَ نَامُوسِهِ الْأَعْظَمِ عَلَى سُنَّةِ الدَّفْعِ بَيْنَ الْحَقِّ الْهَادِي وَالْبَاطِلِ الْهَازِي، وَجَعَلَ الْأَيَّامَ دَوْلًا بَيْنَ عَدُوِّهِ وَوَلِيِّهِ. وَعَدَّ مَطِيعَهُ بِالرِّضَا وَالْجَنَانِ، وَأَوْعَدَ عَاصِيَهُ بِغَضَبِهِ وَالنِّيرَانِ، وَجَعَلَ مِنْ دَلَائِلِ حَسَنِ عِبَادَتِهِ تَعْظِيمَ شَرْعِهِ وَإِجْلَالَ وَحْيِهِ، وَمِنْ بَرَاهِينِ ذَلِكَ فِي نَفُوسِ الصَّادِقِينَ: الثَّقَةُ

الكاملة بالوحي، فهو دينٌ كامل لا نقص فيه، ووعدٌ صدق لا خُلف فيه، وعلمٌ مُترعٌ صحيحٌ كافٍ لا جهل معه ولا ضلال، ويقينٌ راسخٌ ثبوتاً ودلالة لا ظنٌ متزعزعٌ وحيرةٌ واضطرابٌ، وحقيقةٌ صريحةٌ لا مجازٌ وتعطيلٌ، وإشباعٌ تامٌ منسجمٌ متكاملٌ لرغائب الروح وحاجات النفس وغرائز الجسد وجوْعة العقل، لا تناقض فيه البتة، ولا يحتاج أهلُه لمائدةٍ سواه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. وكتب ربنا جل وعلا أن قواعد دينه ومباني شريعته محفوظة محروسة بمن اصطفى تعالى من صالحى عباده وصادقي أوليائه، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

ومن رحمته تعالى بعباده أن كتب ألا يجمع الأمة على ضلالة أبدًا، فسارت الأمة على ذلك المنهاج القويم، وهي موعودة بالوصول عبر لجج بحر الابتلاء لبرِّ الأمان وفي الآخرة دار السلام، مهما تساقط من سفينة فلاحها من شاء الله تبارك وتعالى. والموفق من هداه الله تعالى، والعقل الصحيح السليم وزيرٌ خير وناصحٌ هدى، قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «نِعَمَ وزير العلم العقل»، والنفس الطيبة حقيقةٌ بفوز الدنيا والآخرة.

والأصل النافع في ذلك والخط الدافع فيما هنالك هو منهجُ أهل السنة القويمُ الأصيل، ونبعُ مشربهم النقيِّ النَميرِ العميم، دون كَدَرٍ ونَجَسٍ مشارِبِ الدَّعيِّ الدخيل، وأهوية الضياع في سُبُلِهِ، ومهالكِ طرقه، ومراقِدِ فتنه، مهما تزيَّفَ بشمع علم، أو تُلَفَّعَ بحجاب حكمة، سواء كان غابراً من الأقدمين أو

طارفًا من المُحدثين، ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِْلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٦١].

وَإِذَا طَلَبْتَ الْعِلْمَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَمْلٌ فَأَبْصُرْ أَيَّ شَيْءٍ تَحْمِلُ
وَإِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُتَفَاضِلٌ فَاشْغَلْ فُؤَادَكَ بِالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ

ومذهب أهل السنة والجماعة - وهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان - في باب الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه، أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، بلا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل ولا تحريف.

فلا يمثلون الله بغيره ولا يمثلون غيره به، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ولا يكييفون صفاته، أي أنهم ينفون العلم بالكيفية، أما أصل معنى الصفة فمعلوم، وهو المعنى الأولي المتبادر للذهن حيالها، كالوجه واليد والرحمة والغضب والاستواء والنزول ونحو ذلك، ولكن كيفيتها مجهولة، كما قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ لما سئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(١). أي السؤال عن الكيف وليس المعنى. فأضحت هذه القاعدة المالكية جامعة مانعة مباركة فاذة. رضي الله عن مالك ومن نحا نحو مالك، إله الحق آمين.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/٣٩٨)، والأسماء والصفات للبيهقي

(٤٠٨-٤٠٩)، وشرح السنة للبغوي (١/١٧١)

وعلى هذه الطريقة والنهج حَذَّوْا وأَعْمَلُوا جميع صفات ربنا تبارك وتعالى الذاتية والفعلية والسمعية النقلية والعقلية الفطرية بلا استثناءٍ ولا تَشَوُّشٍ ولا تَحْيِيرٍ ولا تَرَدُّدٍ، فلم يُمَثِّلُوا ولم يُعْطَلُوا ولم يُكَيِّفُوا ولم يَحْرَفُوا، بل أثبتوا لله تعالى ما أثبتته الله تعالى لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفوا عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٧].

فأهل السنة يثبتون الصفات الثابتة بالوحي، قاعدتهم: إثباتُ بلا تمثيل، وتنزيهُ بلا تعطيل. فهم ينزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته، كما ورد عنه تبارك وتعالى، وليس كما تخيَّله واخترعه بعض الناس من نفيهم لأسمائه وصفاته ظناً منهم أنهم ينزهونه وهم في الحقيقة ينفون عنه صفات كماله التي أثبتها في كتابه فعطلوها، ثم سَمَّوْا نفيهم تأويلًا وتنزيهًا، وهو في حقيقته إلحادٌ فيها وتحريف لها! ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [التور: ٤٠].

واعلم أنَّ صفاتِ الله تعالى تنقسم إلى قسمين: صفات ذات وصفات فعل. فالصفات الذاتية: هي التي لا تنفك عن ذات الله تعالى، وهي على نوعين: صفات قائمة بنفسها؛ كالوجه واليد والإصبع والقدم ونحو ذلك مما جاء في الوحي، وصفات معانٍ قائمة بالذات؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر.

أما الصفات الفعلية: فهي المتعلقة بمشيئته سبحانه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل؛ كالحب والبغض والرضا والغضب والعداوة والولاية والضحك ونحو ذلك مما ورد.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية؛ كالكلام، فهي صفة ذات من جهة أصل الصفة، مرتبطة بذات الله تعالى غير منفكة عنه، وصفة فعل من جهة ارتباطها بمشيئته جل وعلا، فإن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم، جلّ وعزّ، فما أثبتته الله في كتابه وسنة رسوله أثبتناه، وما نفاه نفينا، وعلى هذا؛ فمن صفاته تبارك وتعالى التي نطق بها كتابه وسنة رسوله ﷺ صفة الرضا. فهي صفة ثابتة لله تعالى، قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً». (١) وقال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها». (٢)

(١) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩)، ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩)

(٢) مسلم (٢٧٣٤)

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد على قوله ﷺ: «فمن رضي فله الرضا»،^(١) «أي: من الله تعالى، والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه، كقول الله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَذْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة : ٨]، ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر»^(٢). قال الشيخ الغنيان حفظه الله معلّقاً: «أي: أنه لا يجوز أن تُفسّر صفة الله جل وعلا بلازمها ولا بأثرها، لا بأثر الصفة ولا بلازم الصفة. بل يجب أن يوصف الله جل وعلا بها، فإذا أخبر أنه يسخط فيثبت هذا له، فإنه يسخط على من يشاء من أهل المعاصي والكفر، وليس سخطه هذا ظلمًا، وكذلك ليس سخطه المصائب التي يصاب بها الإنسان، وكذلك الرضا، فإنه جل وعلا يرضى عمن يشاء من عباده. ورضاه صفة له، ولا يجوز أن يفسر الرضا بأثره أو بلازمه من محبة الطاعة أو الإثابة، فإن كونه يشيب هذا من لازم صفة الرضا، وكذلك الطاعة سبب من أسباب رضا الله جل وعلا.

فيجب أن تثبت الصفات لله جل وعلا كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل، والتحريف: يقصد به التأويل الباطل الذي يفعله أهل الكلام

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠) ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٣٦٧/١)

كالأشاعرة ونحوهم، أنهم يحرفون تحريفاً يذهب بالمراد نهائياً، الله جل وعلا يخبر أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١]، فلا يجوز للإنسان إذا قيل له: إن الله يسخط، وإن الله يرضى ويغضب ويضحك ويفرح ويعجب أن يجعل هذا من جنس الشيء الذي يعرفه من نفسه، لا يجوز ذلك؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١]، في ذاته تعالى، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في حقوقه، الحق الذي له لا يجوز أن يكون مثله للمخلوق، وقوله وفعله لا يجوز أن يكون مثل قول المخلوق وفعله ووصفه، كما أن نفسه تعالى وتقدس ليست كالمخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١].

فيجب أن تكون هذه قاعدة نسير عليها، وهذا الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وكان عليه أتباعهم إلى اليوم على هذا الشيء، ومن خالف في هذا فهو ضال قد ضل في دينه». (١)

النور في قلبي وبينَ جوانحي فعَلامَ أخشى السَّيرَ في الظلِّماءِ

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «ويستفاد من حديث: «إِنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ» (٢). إثبات المحبة والسخط والرضا لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن «إِذَا» في قوله: «إِذَا أَحَبَّ

(١) شرح فتح المجيد للغنيمان (٩٤ / ١)

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

الله قَوْمًا» للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية. والله تعالى يجب العبد عند وجود سبب المحبة، ويغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوبًا إلى الله وفي آخر مبغضًا إلى الله، لأنّ الحكم يدور مع علّته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله عز وجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل. ويجب في كل صفة أثبتها لنفسه أمران: إثباتها على حقيقتها وظاهرها. والحذر من التمثيل أو التكييف»^(١) وبالله التوفيق.



(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٧٩)

الفرق بين الرضا بالله والرضا عنه سبحانه

أكثر النصوص إنما تذكر الرضا بالله تعالى، فهو الأصل، فإذا رضي العبد بالله اندرج الرضا عنه في الرضا به، ولهذا اكتفي بذكره في الأغلب. ولا ينال القيم رَحْمَةُ اللَّهِ تَعْلِيلَ لطيف وتفريق جميل، فقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «الرضا بالله ربًّا متعلّق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به خالقًا ومدبّرًا وأمّارًا وناهيًا وملكًا ومعطيًا ومانعًا وحَكَمًا ووَكِيلًا ووليًّا وناصرًا ومعينًا وكافيًا وحسيًّا ورقبيًّا ومبتليًّا ومعافيًّا وقابضًا وباسطًا.. إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إياه. ولهذا إنّما يجيء في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]. والرضا به أصل الرضا عنه، والرضا عنه ثمرة الرضا به. وسرُّ المسألة: أنّ الرضا به متعلّق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه متعلّق بثوابه وجزائه»^(١).

«وقال ابن عطاء: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به. قلت: وهذا رضا بما منه، وأما الرضا به فأعلى من

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨٦)

هذا وأفضل. ففرق بين من هو راض بمحبوبه، وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه. والله أعلم»^(١)



(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٥)

علاقة الرضا بأعمال القلوب الأخرى

أعمال القلوب بينها ترابط شديد، وتناسق بديع، وتشابك مدهش، وبناء كلي، فيغذي ويقوي وينمي بعضها بعضًا بحسب مرتبتها في الدين وقوتها في القلب، فكلُّ منها لبنة بحسب قدرها، منها ما ينهد البناء لفقده، ومنها ما ينقص كماله، ومنها أعمدة وأركان تقوم عليها قوى اللبنة حتى يصبح البناء الإيمان في القلب تامًا.

وقد نستطيع تشبيهها بعروق الدم، فمنها الودجان والوتين والأخدع والنياط والأبهر والأكل، ومنها أصغر من ذلك، ومنها شعب دموية رقيقة جدًا لا تُرى إلا بالمجهر، ومجموعها جميعًا وعاء القلب، فمنه تصدر وإليه تردُّ، ومنها ما يتلف البدن بتلفه، ومنها ما ليس كذلك.

كما أنها تشبه الشجرة العظيمة، فلها عروق ترسخ قرارها، وساق تقوم به، وجذوع تدعمها وأغصان وأوراق، وثمرات تنضج عند أوانها، فالشمس والتراب والسماد والماء والهواء أغذيتها، والتقليم وإزالة العوالق ومتسلقات الحشائش وحراستها من القطع ونحو ذلك حماية لها.. كذلك شجرة الإيمان وتكوينها وغذاؤها وطعامها وثمرتها واختلاف أهمية كل جزء منها عن غيره، وتكامل تعاونها فيما بينها من الأجزاء، مثلًا بمثل.

فكذلك الحال لأعمال القلوب، فمنها ما يزول الإيمان بزوالها، ومنها ما ينقص تقصًا شديدًا، ومنها دون ذلك. وإن كان لا يتصور زوال شيء منها

بالكلية لأنها متصلة بقاعدة واحدة وأصل واحد هو الإيمان، ولكنها قد تضعف حتى لا تكاد تُرى.

وإنّ من رحمة الله تعالى وكرمه وجوده وإحسانه ولطفه ورفقه وبرّه أن جعل أعمال القلوب ملازمةً لصاحبها على الدوام، فالتاجر الصالح مثلاً تراه في البيعة الواحدة يصعد له عدّة أعمال لقلبه حتى وإن لم يستشعر كيفية ذلك، كالصدق والورع والخشية والإخلاص والتوكل والتعلق والزهد والرغبة في الآخرة ونصح الناس ومحبة الخير لهم ورحمتهم وترك الغش والظلم والحرام ديانة، كذلك الفلاح تجري على قلبه ينايع أعمال القلب الطيبة كالتوكل والتفكير واليقين والصبر والرضا والشكر والحمد وغيرها كثير، وكذا الوالدان مع ذريتهما، وتأمل كمّية أعمال القلوب المصاحبة لحسن تربية الأطفال، وكيف تثور في قلوبهما صالحات الأعمال كالرحمة بهن والشفقة عليهن وحب خالقهن المنعم بهن وشكره وحمده والاستعانة به على إصلاحهن ودعائهن لهم والخوف عليهن من عذاب أرحم الراحمين، ﴿يَتَأَبَّتْ إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مَرْيَمَ: ٤٥] فمن عذبه أرحم الراحمين فليس بمستحق لأدنى رحمة!

وكذلك حسن الظن بالله تعالى والثقة به والتوكل عليه في حسن رعايتهم وجلب رزقهم ونحو ذلك. واعتبر ذلك مع المعلم وطالب العلم والأجير والمجاهد وسائر الناس، حتى للمرء مع نفسه، فثمّ أعمال بر قلبية غزيرة دائمة وثمرات قلبية حلوة هائلة.

وبالجملة؛ فأعمال القلب لا تكاد تتوقف عن القلب إلا في حال النوم أو الغفلة أو ركوب المعصية، بل حتى حال المعصية قد لا تغيب بالكلية فترتفع

عنه مع إيمانه كالظلمة بقدر العصيان، لكن يبقى لها ظلٌ وجذور في أصل الفؤاد، فثمَّ وازعُ الخشية والقلق والمحبة والخوف واليقين بالبعث والحياء من الله والشفقة من لقائه بمعصية وغير ذلك، ويظهر هذا من نفور نفسه اللوامة من دَرَنِ المعصية، ووزع عقله وروحه من تمام استلذاذه بها، وتأنيب ضميره إياه من جرّائها، وتكدّر مزاجه بسبب ركوبها مهما حاول دفن ذلك أو تناسيه أو أغفاله عن خاطره، وهذا من بقية الخير في قلبه.

فدَعْ عنك سوءات الأمور فإنّها حرامٌ على نفس التقيِّ ارتكابها

أما مع ممارسة الحياة المعتادة، بله العبادات المحضة؛ فإن كنوز البرّ من سحائب أعمال القلوب لا تزال تسحّ الخير والبرّ ديمًا وهُطلاً على صحيفة المؤمن الصالح! فيآله من دين وياها من نعمة، وياله من ربّ عظيم لم نعبدَه حقّ عبادته، ولم نشكره حقّ شكره، سبحانه وبحمده، وتدبر: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، إذن؛ فحياتنا هذه ليست بالحياة التي تستحق، والله المستعان!

فإلى شيء من بيان ذلك الترابط بين الرضا وغيره من أعمال وأقوال

القلوب:

الرّضا والصّبر

الصبر أساس الرضا ومنبعه، والرضا من ثماره مع غيره، وبينهما فروق. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «والفرق بين الرضا والصبر: أَنَّ الصّبر: كَفُّ النَّفْسِ وَحَبْسُهَا عَنِ التَّسَخُّطِ مَعَ وَجُودِ الْأَلَمِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ، وَكَفُّ الْجَوَارِحِ عَنِ الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى الْجَزَعِ، وَالرَّضَا: انْشِرَاحُ الصَّدْرِ وَسَعَتُهُ بِالْقَضَاءِ، وَتَرْكُ تَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ الْمُؤَلَمِ، وَإِنْ وَجَدَ الْإِحْسَاسَ بِالْأَلَمِ، لَكِنِ الرَّضَا يُخَفِّفُهُ لَمَّا يَبَاشِرِ الْقَلْبَ مِنْ رَوْحِ الْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ^(١) وَإِذَا قَوِيَ الرَّضَا، فَقَدْ يَزِيلُ الْإِحْسَاسَ بِالْأَلَمِ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا سَبَقَ». (٢)

الرّضا واليقين والثقة

لا رضا إلا بيقين، ولا يقين إلا بعد الثقة، فالراضي إنما استشعر حلاوة الرضا لما أيقن بالخير، إما بذات المرضي أو بحسن الخلف عنه. وكل ذلك ثقة وإيماناً بربه تعالى.

الرّضا والغنى

الرضا بحد ذاته استغناء، فغنى الراضي إنما جاءه من جهة غناه بمن افتقر إليه وهو الغني الكريم سبحانه وبحمده. ومن استغنى عن شيء غني عنه. قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

(١) المعرفة عندهم هي العلم بالله تعالى، وظهور آثار العلم على صاحبه من المحبة والرجاء والخشية والحياء ونحو ذلك.

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٥ / ٢١)

غنيُّ بلا مالٍ عن الناس كلِّهم وليس الغنى إلا عن الشيء لا به

الرضا والعلم

العلم قول القلب لا عمله، وهو القول المؤثر مباشرة في جميع أعماله، فلا يُتصوّر عمل قلب بلا علم، ومن هنا فالرضا بكل مراتبه مفتقر إلى علم، ومن هنا أيضاً تتضح أهمية صفاء العلم ونقاء المعلومات وصحة التصورات، فأكثر الانحرافات منبعها علمٌ مدخول، وهذا المنبع كدر مشوب بأخلاط رديئة وبعضها سمّ نافع!

لذا شددت الشريعة في شأن الإحداث في الدين؛ لأنه مُبدّل لصحة العلم والعمل، كما أنها رفعت شأن العلم بما لا مزيد عليه؛ لأنه النبع الوحيد والنور الفريد المصحح لصحة التصور ونقاء مصدر التلقي، فالعلم الصافي النقي مضمون المحتوى من قِبَلِ العليم سبحانه، لأن مصدره الوحي بشقيه الكتاب والسنة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. أما آراء الخلق فتبقى علوم خلق.

الرضا والتعلق

بما أن الرضا اكتفاء، فهذا المكتفَى به وهو الله تعالى قد صمّد إليه وجهه وقلب الراضي وتعلّق به، فلمّا تعلق به رضي به دون ما سواه، فكفاه ربه وهو الشكور الحميد سبحانه. والراضي دائم التعلّق بمن رضي به تبارك وتعالى.

الرضا والإيمان بالقدر

بينهما علاقة واضحة حتى ربما اشتبهها ببعضهما لشدة لصوق أحدهما بالآخر، بيد أن العلاقة بينهما هي علاقة الكل بالجزء، فالرضا بالقدر يأتي بعد الإيمان به، ومن بعد ذلك فالرضا بالقضاء والقدر هو جزء من منظومة الرضا بالله تعالى وبدينه. فالرضا بالله ينظم أطراف شجرة الرضا ومنها الرضا بالإسلام والرضا بالرسول ﷺ والرضا بالقضاء والقدر.. وهكذا.

الرضا والحمد والشكر

الحمد والشكر أرفع مرتبة من الرضا، وكلها مقامات شريفة سنية، ذلك أن الصبر يورث الرضا، والرضا يورث الحمد والشكر، فهما الغاية وهو الوسيلة إليها، وإن كان هو في نفسه رغبة شريفة وقمة فاضلة منيفة في الغاية من السمو والرفعة، كما تقدم في بيان فضله.

فالرضا كالدرج العالي المنيف الموصل إلى مرتبة الحمد والشكر، والشكر ينتظم الرضا تمامًا، ذلك أنه لا يكون القلب حامدًا شاكراً إلا بعد امتلائه بالرضا.^(١)

قال صاحب البصائر: «واعلم أن الشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة الرضا، فإنه يتضمن الرضا وزيادة، والرضا مندرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان. وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره،

(١) وللحمد والشكر كتابان فيما يُستقبل إن شاء الله تعالى.

ووعَدَ أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته». ^(١) وبالله تعالى التوفيق.

الرضا والمحبة

لا رضا إلا بمحبة، والرضا من ثمار المحبة، فالحبة مَيْلٌ وتوجّه، والرضا اكتفاء بما مال إليه وأحبّه. قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا: ضده السخط. ^(٢)

الرضا والفرحُ بالله تعالى

أجملُ أعمال القلوب وأحلاها وأبهجها هما محبة الله تعالى والفرح به، وهما الغاية - على التحقيق - التي ليس وراءها غاية، والمطلب الذي ليس فوقه مطلب، والرغبة التي من حصّلها فقد فاز الفوز الأعظم وحاز المرتبة الأعلى. فالرضا بالله سبحانه وتعالى سببٌ للفرح به، والفرح بالله جل جلاله معراج لتمام الرضا وغيثٌ لكمالهِ، فالفرح أعلى رتبة من الرضا وموصل للمزيد والمزيد منه، والرضا داخل في الفرح. فمن فرح بالله - وقد صحّ معتقده وحسن عمله - فقد وصل، وتدبر: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، إي وربي!

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادي (١ / ٩٥٥)

(٢) انظر: المفردات: الرضا (٢٨٦)، المحبة (١٥١)، التعريفات: الرضا: (١١٦).

الرضا والزهد والقناعة

القناعة هي العتبة الموصلة للرضا بإذن الله تعالى، فلا رضا بدون قناعة. فالقناعة غنى للقلب يثمر الرضا بالله تعالى. فالقناعة تفضي لأوّل الرضا، والرضا يثمر كمال القناعة، فبينهما تكامل وتعاون وتداخل وبركة اجتماع وتفرّع واستمرار.

كما أن الزهد والقناعة من ثمار أعمال القلوب، والرضا بعد الصبر هو الموصل لهما بإذن الله، فالصبر ابتداءً لأن لهما مشقة شديدة في فطم النفس وكبح جماحها عما لا يجمل من غريزتها ومشتهاياتها، والرضا انتهاء بعد التفكير في الحال واجتياز تجربة الصبر معهما. وحين يصل الزاهد للرضا فقد ارتاح، ومن عرف الناس والدنيا استراح. ومما أثر عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في القناعة:

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسُ الْغِنَى فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُتَمَسِّكٌ
فَلَا ذَا يَرَانِي عَلَى بَابِهِ وَلَا ذَا يَرَانِي بِهِ مُنْهَمِكٌ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ أُمِرُّ عَلَى النَّاسِ شَبَهُ الْمَلِكِ

والسعيد هو من لم تطغه الدنيا ولم تشغله عن الآخرة التي هي الحيوان لو كنا نعقل، ومن جميل وصايا الصالحين: ستمكثون تحت الأرض زمناً لا يعلم مداه إلا الله! لن تتمكنوا فيه من أي عمل تنتفعون به ولو تسييحة، فخذوا من حياتكم لموتكم. واعلموا أن بينكم عبادة لله بسطاء يعيشون معكم على الأرض، لا مال ولا جاه ولا منصب في هذه الدنيا الفانية. ولكن أملاكهم في

السماء عظيمة، قصورهم تبنى وبساتينهم تزرع. فأكثرُوا من خبايا العمل الصالح، فكل خبيئة صالحة من وراء صاحبها يوم القيامة، والخبايا للخبايا! تقنّع بما يكفيك واستعمل الرضا فإنك لا تدري أتصبح أم تسي

الرضا والتوكل

بما أن التوكل تفويض فأعلى درجات التفويض الرضا بما يقضيه المقوِّض الأمر إليه تبارك وتعالى، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرضا أعلى درجات التوكل، بل هو باب الله الأعظم، كما قيل، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين ونعيمهم، وحياة المخبتين، وقرة عيون المشتاقين»^(١). فالرضا ثمرة التوكل، والتوكل نصف الإيمان، وهما من أعلى مقامات الإحسان التي هي أعلى المندوبات.

وقد قيل: «إن حقيقة التوكل: الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته وموجبُه، استدِلَّ له عليه استدلالاً بالأثر على المؤثر، وبالمعلول على العلة، لا أن التوكل هو الرضا، أو الرضا التوكل»^(٢).

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. وكيف قرن الرضا بالتوكل، فبينهما تضمّن ولزوم. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

(١) المدارج (١٧٢/٢)

(٢) طريق المحجرتين (١ / ٥٠٠)

«والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه».^(١) وبالله التوفيق.



(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٧)

فضل الرضا بالله تعالى ومنزلته

فقلتُ للفكر لما صار مضطرباً وخانني الصبرُ والتفكيرُ والجَلَدُ
دَعَهَا سَماوِيَةً تجري على قَدَرٍ لا تعترضُها بأمرٍ منك تنفِيسُ
فَحَفَّنِي بخَفِيِّ اللطَفِ خالقنا نعم الوكيلُ ونعم العونُ والمددُ

إنَّ الرضا بالله تعالى هو البحر الهائل الذي ينغمر فيه كل ألم، وتضمحل فيه كل مشقة، وتذوب فيه كل كريمة. ذلك أن الرضا التام بالله تعالى يثمر سربال الصبر وثلج اليقين وبرد الحمد، فمهما هبَّت على القلب رياح الألم، وادهمت على النفس كبار الخطوب، وتصاكت على الصدر ألوية الهموم والغموم؛ فإن الرضا بالله تعالى ربًّا وليًّا مدبرًا حافظًا ناصرًا رازقًا هاديًّا، والرضا به إلهًا معبودًا؛ يصير تلك الأمور الصاخبة المزعجة لأحوال أخرى طيبة ساكنة وادعة مريحة، فحال المؤمن الموفق في الجملة هو حال ذلك العبد الصالح عليه الصلاة والبركات والسلام: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وعليه؛ فنستطيع اختصار موضوع الرضا بكلمة واحدة تنتظم أطراف الرضا وهي: السَّلام.

فالراضي بربه يعلم علم يقين أنه بيد من هو أرحم به من والديه ومن نفسه التي بين جنبيه، فحينها لا يأتيه شغل القلب وكدره وهمه وبلاؤه إلا حين يغفو القلب هنيهات ويغفل الفؤاد لحظات عن هذه المعاني الهائلة الجميلة، فهو حال لطيف تستلذه نفوس العلماء بربهم وإن قلَّ علمهم بأحكام شرعه

ودلائله، ومعنى جميلٌ تميل النفوس بأعماقها إليه، وتلقي القلوب بأزمّتها عليه، سلكنّا الله جميعاً ووالدينا وأحبّابنا والمسلمين في سلك من رضي عنهم ورضوا عنه، إله الحقّ آمين.

والرضا بالله تعالى سهل يسير بحمد الله جلّ وعزّ، فهو يقين وثبات وقرارٌ ورسوخ وسكينة وطمأنينة. وقد يظنّ بعض العباد مشقّته في ابتداء الأمر، فما هو إلا أن يسيروا في أفيائه قليلاً قليلاً حتى تتكشف لهم سهولة الجادة وجمال الطريق، ثم لا تلبث حقيقته الناصحة الرضيّة السهلة أن تلوح في بصائرهم مشرقة ناصعة بيّنة، فيرتشف رحيق الرضا وينهله ويتعلّله في سيره لمن رضيّه ربّاً وإلهاً.

فَشَرِبْنَا غَيْرَ شَرِبٍ وَاعْلٍ وَشَرِبْنَا عَلَلاً بَعْدَ نَهْلٍ
إنّ الرضا بالله تعالى يشدُّ ما وهى من أعمدة بنيان الإيمان، ويبنى ما انهدّ من جدران الثقة، ويحرس أرجاء بيضة اليقين، ويا رب هل إلا عليك المعوّل. ولقد أحسن أيّما إحسان من سمّى الرضا: حسن الخلق مع الله.

خليليّ روحا راشدين فقد أتتْ ضريّة من دون الحبيبِ ونيرُها
وقد تذهبُ الحاجات يطلبُها الفتى شِعاعاً وتخشى النفس ما لا يضيرُها

فالقلب يبحرُ في بحر الرضا حاملاً معه علمه التام ويقينه الراسخ بأن اختيار الله له خير له من اختياره لنفسه، فلا خير في الوجود إلا منه، ولا شرّ مدفوع إلا من لدنه، وحينها يباشِرُ الإيمانُ شغاف قلبه، ويجلُّ الإحسانُ أرجاء روحه وأركان ذاته وجميع نفسه، فيملؤها سعادة وسكينة وسروراً، وطمأنينة

وراحة وحبوراً، مصداقاً لقول الصادق المصدوق عليه السلام: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»^(١). فكيف يقلق ورثته الطيب الرفيق الرحيم الكريم اللطيف ينسج له قدره، ويصنع له مستقبله، ويدبر له أمره، وهو أعلم وأرحم به من نفسه ووالديه، فلا إله إلا الله اللطيف الكريم، العليم الحكيم، الحق المبين.

وتدبر كيف وعد الله رسوله عليه السلام بالرضا لا بغيره لأنه غاية وصول المؤمنين فقال جل وعلا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. ومن أَرْضَى الله أرضاه الله، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وتدبر شرط الآية الكريمة إخلاص العمل لمرضاة الله لا غيره، فالعبد يتبغى وجه الله ورضوانه معرضاً عن كل ما يشوش نيته ويكدر إخلاصه، حريصاً كل الحرص على عبادة الرضا بالله تعالى ابتغاء رضوانه، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَّتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فمرضاة الله غاية السابقين، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَّتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] * لا خير في كثير من نجوتهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤]

(١) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

قال التابعي الصالح أبي قلابة رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أحدث الله لك علماً؛ فأحدث لله عبادة، ولا يكن همك أن تُحدثَ به الناس». ^(١) ونعمة العلم بالله تعالى والرضا به مُستحَقَّتَانِ على العبد أعلى مراتب الشكر لربه تعالى.

ألا وإن الله تعالى قد امتن علينا بأتم نعمة وأعظم منّة وأكبر كرامة وهي الإسلام العظيم، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ [التور: ٥٥]، فيا لسعادة وفوز وكرامة أهل الإسلام الذين اعتنقوا ورضوا ما رضىه ربهم لهم سُلماً لمرضاته تبارك وتعالى.

ومن تطلّب مرضاة ربه فهو المهدى حقاً والفائز صدقاً، قال الله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة: ١٦]

وكيف لا يكون الرضوان هو غاية الغايات ومنتهى المطالب بعد رؤية وجهه تبارك وتعالى في الجنة، فمن رضي الله عنه فلا تسل عن سعادته وفلاحه وحبوره وسروره ونعيمه، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله

ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١). قد ابيضت وجوههم لما رأوا محبوبهم، ونظرت أبصارهم لما نظرت أبصارهم، فيا لك من هذا النعيم!

لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ عَنْ خَلَاتِهِ فِي وَجْهِهِ شَاهِدٌ عَنِ الْخَبَرِ

ويا خيبة من لم يك عن ربه راضياً ولا له مرضياً، فتعجل الخطام الخسيس وباع الباقي النفيس: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] فأين تعزب عقولهم عن إدراك وتيقن واعتقاد أن الله تعالى هو الأحق أن يرضوه، ومرضاة رسوله تبع لمرضاته، قال ابن الجوزي رحمه الله: «إذا كان معنى فعل الاثنين واحد جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]»^(٢)

وقال البغوي رحمه الله: «قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولم يقل: (يرضوهما) لأن رضا الرسول داخل في

(١) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩)، ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩)

(٢) زاد المسير (١ / ٧٠)

رضا الله تعالى»^(١) وهذا من دقائق التوحيد؛ لأن مرضاة الرسول ﷺ إنما شرعت لمرضاة الله تعالى استقلالاً، فمرضاة الله تعالى هي المقصودة، أما مرضاة الرسول ﷺ فتبع لها، وهي مقصودة كذلك، فما لا يرضاه الرسول لا يكون مرضياً لله تعالى. ورسول الله ﷺ عبدٌ لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب، بل يطاع ويتبع، ولا يوصلُ إلى مرضاة الله تعالى - بعد بعثته - إلا عن طريقه، فما جاء به فهو الهدى الموصل إلى الرضوان، وما لم يأت به فهو الضلال المبين والخسران المقيم، وتأمل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة : ٦٧].

والمقصود أن مرضاة رسول الله ﷺ دين وشرع وعبادة لله تعالى ومطلوبة من كل مؤمن، وهي عينها مرضاة الله تعالى، لأن الله تعالى - وهو المقصود بالإرضاء - قد عصم رسوله أن يرضيه ما لا يرضي الله تعالى، فعاد الأمر كله إلى إرضاء الله تعالى، وكل مرضاة لرسوله ﷺ فهي عائدة إلى مرضاة الله جل جلاله.

والدين المرضيُّ لله العليُّ أسُّهُ ثابت، وأصله عتيق، وقواعده راسخه، أما غيره من الأديان فسييلُ الشقوة والخسران، وطريق الضيعة والهوان، قال ربنا تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ

(١) تفسير البغوي (١ / ٨٩)

بُنَيْنَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ [التوبة : ١٠٩]. وقال سبحانه: ﴿أَقْمِنِ أَتَّبِعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٦٢﴾ [آل عمران : ١٦٢].

والصادق حقاً هو من أسلم وجهه لله ابتغاء مرضاته وفضله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ [الحشر : ٨] ومن رضي الله عنه فلا عليه ما فاته من حطام الدنيا وما عليها من ظل زائل ومتاع فانٍ، وقد بين حالها من خلقها فقال جل وعز في تنزيله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ ﴿١٨٥﴾ [آل عمران : ١٨٥]، ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٣٨﴾ [التوبة : ٣٨].

واستمع بقلبك لهذا النبأ العظيم من لدن العزيز العليم: ﴿قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَاحٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٥﴾ [آل عمران : ١٥] فليس وراء رضوان الله لأولي الأبواب غاية!

فإن سألت من هو المتبّع رضوان الله؛ فهو المُقَدَّم مرضاة ربه على رغائب ورهائب الخلق؛ نفسه ومن وما بعدها، ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٤﴾ [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] فتلمح وتسمع وتبصر شأنهم عند ربهم بالأمس والآن وغداً، نسأل الله الكريم من واسع فضله وكريم نواله

وجزيل عطائه، فلم ير مثلاً الولي إذا حلّ بالكريم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [١٠] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١١﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٢] ﴿[التوبة: ٢٠ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرٰى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٣] ﴿[التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٧٢] ﴿[التوبة: ٧٢]. فلا أكبر من رضوان الله تبارك وتعالى وتقدس.

وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضٰى﴾ [١٣] ﴿[طه: ١٣٠]، ولعلّ وعسى من الله موجبتان نافذتان بفضل الكريم تبارك وتعالى،

فهما تفيدان التحقيق فضلاً من الله ونعمة، «قال سيويه: لعل وعسى حرفا ترجّ، وهما من الله واجب»^(١). فحرف القرآن مفيد بهما للإيجاب والتحقيق.

(١) تفسير البغوي (١ / ٧٢) وقال بدر الدين الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٤/٢٨٨): «وروى البيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «كُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ فِيهِ وَاجِبَةٌ»، وقال الشافعي: «يُقَالُ: عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ».

وقد فرق السَّهْلِيُّ بين الترجي في كلام الله تعالى بـ «بلعل» و«عسى»، فقال في الروض الأثف (٦/٢٢٩): «إن الترجي بعسى واجب الوقوع وبلعل ليس كذلك، ونصه عند الكلام على آية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٢] في توبة أبي لبابة في غزوة بني قُريظة. فإن قيل: إن القرآن نزل بلسان العرب، وليست عسى في كلام العرب بخبر، ولا تقتضي وجوباً، فكيف تكون واجبةً في القرآن، وليس بخارج عن كلام العرب؟ وأيضاً فإن لعل تعطي معنى الترجي، وليست من الله واجبة، فقد قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٧]، فلم يشكروا وقال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، فلم يتذكر ولم يخش، فما الفرق بين لعل وعسى حتى صارت عسى واجبة؟! قلنا: لعل تعطي الترجي، وذلك الترجي مصروف إلى الخلق، وعسى مثلها في الترجي، وتزيد عليها بالمقاربة، ولذلك قال: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٧٩]، ومعنى الترجي مع الخبر القرب، كأنه قال: قَرَّبَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ، فالترجي مصروف إلى العبد كما في لعل، والخبر عن القرب والمقاربة مصروف إلى الله تعالى، وخبره حق، ووعد حتم، فما تضمنته من الخبر فهو الواجب، دون الترجي الذي هو محال على الله تعالى، ومصروف إلى العبد، وليس في لعل من تضمن الخبر مثل ما في عسى، فمن ثَمَّ كانت عسى واجبة الوقوع إذا تكلم بها، ولم تكن لعل كذلك».

وقد علّق محمد الخضر الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كوثر المعاني (١/١٩) على كلام السهيلي بقوله: «وهو كلام تُشَدُّ له الرحال، مبين عدم الإطلاق الوارد عن العلماء في كون

ولك أن تتأمل نعيم الصالحين الراضين من عباد الله تعالى، فحيثما وجهت وجهك رأيت نعيمًا وفضلًا من الله عليهم عظيمًا، فمنهم المهاجر الصالح فهو موعود بالرضا سواء استشهد أو مات على فراشه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [٥٨] لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ [الحج: ٥٨ - ٥٩] والسكينة لمن رضي الله عنه فوز مُعَجَّل وغنيمة باردة وأعطية طيبة، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]

=

الترجي في كلام الله تعالى للوقوع، فإنه بين اختصاص ذلك بعسى دون لعل، وأظهر الفرق الواضح.

قلت: والمسألة فيها سعة إن شاء الله، والراجع: أن «عسى» و«لعل» تفيدان التحقيق في القرآن الكريم إما على الفور لفظًا وإما على الغاية سياقًا، والأقوال في المسألة آيلة إلى معانٍ متقاربة، فمن قال بعدم اضطراد الوجوب والتحقيق؛ فقد علل ذلك بآيات لم يقع موجبُهنَّ، وقد أجيب عن ذلك بالإيراد بأنهن معلقات بشروط لم تقع. كما في قوله تعالى عن يهود: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ [الإسراء: ٨] ولم يرحمهم، قيل: لأنه علق الرحمة على شرط لم يوفوه، فهو قد قال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وكذلك آية التحريم: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ﴾ [التحریم: ٥]، ولم يبدله، فالجواب: أنه معلق على شرط فراقهن، والشرط لم يقع، فلم يفارقهن ﷻ. ولعل مقصودهم بأنها واجبة أن فيها معنى الوعد، والله لا يخلف الميعاد. والله أعلم.

وذو الرأي الراجح والحكمة الواسعة والتدبير الحسن والمتلّح للعاقبة هو من بسط الدارين في عقله، وقارن بين الخزف الفاني الحطام والذهب الباقي مع الرضوان، وقد رسم الله تعالى ذينك السيلين أمامنا وأمرنا بإطلاق عقولنا في تأملهما حالاً ومالاً فقال جل اسمه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَتُهُ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأبي عبد لك لا ألما

وأهل الولاء والبراء قد نص ربهم تبارك وتعالى على رضوانه عنهم وإرضائه لهم، فلنعم العقبى عقباهم، ولنعم الدار دارهم، ولنعم الاختيار اختيارهم، ولنعم المولى مولاهم، قال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

وأهل الرضا عيشتهم غداً راغدة مرضية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢١]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: مرضية». ^(١) وقال جلال

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٢١٤)

الدين: «في الجنة، أي ذات رضى بأن يرضاها، أي مرضية له»^(١). ووجوه المؤمنين المرضيين يومئذ ناعمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾ [الغاشية: ٨ - ١٠] فإنه لما اطمأنت نفوسهم بالإيمان ورضيت بالرحمن أرضاها البر المجيب العلام وشكرها الشكور الحميد المنان: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أُرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ۖ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]

لك الحمد والنعماء والخير كله لك الحمد يا رباً عظيماً نواله

ومن أخلص الدين لله فقد أَرْضَى الله، وهو موعود بإرضاء الله له في دار الرضوان المقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ﴾ [البينة: ٧ - ٨]، فهي ثواب رضوان الله عن وليه الصالح، فالجنة دار الرضوان، وخازنها اسمه رضوان كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا نحن حول رسول الله ﷺ إذ قال: «أتاني جبريل في يده كالمراة البيضاء، في وسطها كالنكتة السوداء، قلت يا جبريل: ما هذا؟ قال: هذا يوم الجمعة يعرضه عليك ربك ليكون عيداً لك ولأمتك من بعدك، قلت يا جبريل: فما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيد أيام الدنيا، ونحن ندعوه يوم المزيد، قلت يا جبريل: ولم تدعونه يوم المزيد؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى اتخذ في الجنة وادياً أبيض من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل ربنا تبارك وتعالى على كرسية

(١) تفسير الجلالين (١ / ٨١٩)

إلى ذلك الوادي، وقد حُفَّ الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر، وقد حفت تلك المنابر بكراسي من نور.

ثم يؤذن لأهل الغرفات فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب، عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب الحرير حتى يتناهوا إلى ذلك الوادي، فإذا اطمأنوا فيه جلوساً؛ بعث الله إليهم ريحاً يقال لها: المثيرة، فثارت^(١) ينابيع المسك الأبيض في وجوههم وجباههم وثيابهم، وهم يومئذ جُرْدٌ^(٢) مُكْحَلُونَ^(٣) أبناء ثلاث وثلاثين، على صورة آدم عليه السلام يوم خلقه الله عز وجل، فينادي ربُّ العزة رضوان - وهو خازن الجنة - فيقول: يا رضوان، ارفع الحجب بيني وبين عبادي. فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هبّوا سجوداً، فيناديهم بصوته: ارفعوا رءوسكم، فإنما كانت العبادة لي في الدنيا وأنتم اليوم في دار الجزاء والخلود، سلوني ما شئتم، فأنا ربُّكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محل كرامتي فسلوني ما شئتم!

فيقولون: ربنا، وأيّ خير لم تفعله بنا؟ أألسّ الذي أعتتنا على سكرات الموت، وأنست بنا الوحشة في ظلمة القبر، وبعثتنا بعد البلاء بحسن وجمال، وأمّنت روعتنا عند النفخة في الصور؟ أألسّ أقلت عثرتنا، وسترّت علينا القبيح في أمورنا، وثبّت على جسر جهنم أقدامنا؟ أألسّ الذي أدنيتنا من

(١) ثار: هاج وظهر، أو انتشر. وثارَت الريح: إذا هبّت.

(٢) الأجرد: الذي لا شعر على جسده.

(٣) الكحل: سواد في أجفان العين خِلقة.

جوارك، وأسمعتنا من لذاذة منطقتك، وتجلّيت لنا بنورك، فأيّ خير لم تفعله بنا؟

فيعود فيناديهم بصوته فيقول: أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محلّ كرامتي فسلوني، فيسألونه حتى تنتهي أنفسهم، ثم يسألونه حتى تنتهي مسألتهم، ثم يقول: سلوني، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، ثم يسألونه، ثم يقول: سلوني. فيقولون: رضينا ربنا، وسلّمنا.

فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته، ومزيد زهرة الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيكونون على ذلك مقدار منصرفهم، قال: كقدر الجمعة إلى الجمعة. ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى، معهم الملائكة والنيون، ثم يؤذن لأهل الغرفات فيعودون ويرجعون إلى غُرفهم وهما: غُرفتان من زمردتين خضراوين، وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى يوم الجمعة لينظروا إلى ربهم وليزيدهم من فضله وكرامته. قال أنس: فهذا الحديث سمعته من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد. (١)

(١) ابن أبي شيبة (٥٥٦٠) والحاثر في المسند (١٩٦) وأبو يعلى (٤٢٢٨) قال ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١ / ٢٦١): «قال البزار: لا نعلم أحداً رواه عن أنس عن عثمان بن عمير - أبو اليقظان - وعثمان بن صالح، هكذا قال. وقد روينا: من طريق زياد بن خيثمة، عن عثمان بن سلم، عن أنس: فذكر الحديث بطوله مثل هذا السياق أو نحوه. وتقدم في رواية الشافعي عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عنه فقد اختلف الرواة فيه، وكان بعضهم يدلّسه لثلاث يعلم أمره، وذلك لما يتوهم من ضعفه، والله أعلم. وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: عن شيبان بن فروخ، عن الصعق بن حزن،

هذا، وإن رضا الله عز وجل هو أعلى مطلب للنبيين وأتباعهم، فهذا
 زكريا عليه السلام يدعو الله لولده قبل خلقه بأن يجعله راضياً عنه: ﴿يَرْثُنِي
 وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مَزِيم: ٦]، وإسماعيل عليه السلام
 قد شرفه ربه برضوانه عنه فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مَزِيم: ٥٥]
 وموسى عليه السلام يسارع لمرضاة ربه تبارك وتعالى قائلاً بكل إيمان
 وتقوى وشوق: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] فقد عجل ليرضى
 ربه.

=
 عن علي بن الحكم البناني، عن أنس، وذكر الحديث وهذه طرق جيدة عن أنس، شاهدة
 لرواية عثمان بن عمير. وقد اعتنى بهذا الحديث الحافظ أبو حسن والدارقطني فأورداه
 من طرق. قال الحافظ الضياء: وقد روي من طريق جيد: عن أنس بن مالك، ورواه
 الطبراني، عن أحمد بن زهير، عن محمد بن عثمان بن كرامة، عن خالد بن مخلد القطواني،
 عن عبد السلام بن حفص، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، فذكره. وقد رواه غير
 أنس من الصحابة. وقال شعيب الأرنؤوط في تخريج العواصم من القواصم: «روي
 بإسناد ضعيف، وروي من طريق آخر فيه محمد بن خالد بن خلي، صدوق، ومن فوقه
 من رجال الصحيح». أه.

وقد أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٧٩)، ٨ / ١٥٤، (٩٤٤) مختصراً، (٢ / ١٩٧)
 وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد»، وقال
 الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ٤٣٥): «حسن صحيح»، وقال في موضع
 آخر في صحيح الترغيب والترهيب (٣ / ٥٢٥): «حسن لغيره».

وسليان عليه السلام يلهج بدعاء الله تعالى بأن يوفقه للصالحات المقربة لمرضاته جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٩].

ونوه سبحانه بشأن كل مؤمن صالح يدعو ربه بعد إبلاغه أربعين ربيعاً أن يلهمه العمل الذي يرضاه سبحانه وأن يعينه عليه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] وصحابة محمد ﷺ ورضي عنهم جللهم ربهم تبارك وتعالى مديحته العظيمة بوصفهم بالعمل الصالح ابتغاء الرضوان، فجمعوا قوة النية الصالحة وجلال العمل القويم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ وَفَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ورضا الله تعالى عن المشفوع له أحد شرطي قبول الشفاعة فيه، قال سبحانه وبحمده: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [١٧٩] طه: ١٠٩، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [التَّجْم: ٢٦].

هذا وإن آخر أهل الجنة دخولاً ينتظره نعيم هائل وسرور مقيم، فيرضيه الله تعالى حتى يرى أنه أنعم الناس طُراً، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرّةً ويكبو^(١) مرةً. وتسفعه^(٢) النار مرةً. فإذا ما جاوزها التفت إليها. فقال: تبارك الذي نجاني منك. لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين!

فترفع له شجرة. فيقول: أي ربي، أدنني من هذه الشجرة، فلاستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا بن آدم، لعلني أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يا رب، ويعاهده ألا يسأله غيرها. وربّه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه^(٣) فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى. فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها. فيقول: يا بن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ فيقول^(٤): لعلني أدنيتك منها تسألني غيرها؟، فيعاهده ألا يسأله غيرها. وربّه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه. فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها.

(١) يكبو: أي يسقط على وجهه.

(٢) تسفعه: تضرب وجهه وتسوده وتؤثر فيه أثراً، وفي التنزيل: ﴿كَأَلَّا لَيْنَ لَمْ يَنْتَه لَنْسَفَعًا﴾ [النَّاصِيَةِ ١٥] [الْعَلَق: ١٥]

(٣) أي: لا صبر له على ترك تناولها لضعفه البشري.

(٤) القائل هنا هو المولى عز وجل، وفي الكلام إيجاز بحذف قول ابن آدم: «بلى: يا رب».

عن: نضرة النعيم (٦ / ٢١١٥)

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا بن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب، هذه لا أسألك غيرها. وربّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها.

فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب، أدخلنيها، فيقول: يا بن آدم ما يَصْرِيْنِي منك؟^(١) أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أستهزئُ مني وأنت رب العالمين». فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أستهزئُ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئُ منك، ولكنني على ما أشاء قادر».^(٢) والضحك صفة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، نُشِبَتْهُ ونعتقده ونؤمن به، ولا نؤوله ولا نمثله ولا نكيّفه، ليس كمثله شيء تبارك وتعالى.

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه؛ قال: سأل موسى ربه: «ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة. فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا

(١) أي: ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك؟ وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه: الشاة المصراة، وهي التي جُمع لبنها في ضرعها بسبب تأخر حلبها عن المعتاد.

(٢) مسلم (١٨٧)

أخذاتهم؟^(١) فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مِلْكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله. ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت رب.

قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت^(٢)، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر.^(٣) قال: ومصادقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٧].^(٤)

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟». قال: فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟». قال: فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك؛ ما المسلمون في الكفار إلا كشجرة بيضاء في ثور أسود، أو كشجرة سوداء في ثور أبيض».^(٥)

(١) وأخذوا أخذاتهم: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم.

(٢) أردت: اخترت واصطفيت.

(٣) أي: لم يخطر على قلب بشر ما أكرمهم به وأعدته لهم، فهو نعيم جديد تمامًا، وليس من جنس نعيم الدنيا المذكور بنعيم الآخرة، حتى لو من جهة اسمه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

(٤) مسلم (١٨٩)

(٥) مسلم (٢٢١)

وقد أَرْضَى اللهُ نَبِيَهُ ﷺ بأن يصلي عَشْرًا على مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ واحدة من أُمَّتِهِ المحظوظة باتباعه، والسلام كذلك، فعن أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقلنا: إنا لنرى البشرى في وجهك. فقال: «إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلِكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يَرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يَصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يَسْلَمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا». (١) فلله الحمد كثيرًا كثيرًا.

والمؤمن يتقلب في نعيم الرضا مهما تقلبت أحواله، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للمؤمن، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمْدُ رَبِّهِ وَشُكْرُهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمْدُ رَبِّهِ وَصَبْرُهُ. المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فِي امْرَأَتِهِ». (٢)

وعن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شُكْرُ فَكَانَ خَيْرًا

(١) النسائي (٣/ ٤٤)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٤٢٠) وصححه ووافقه الذهبي. وقال محقق جامع الأصول (٤/ ٤٠٥): وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن أو الصحيح.

(٢) أحمد (١/ ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨) وشرح السنة (١٥٤٠) وقال مخرجه: إسناده حسن والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦) والهيثم في المجمع (٧/ ٢٠٩) وقال: رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح.

له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١) وتأمل خصوصية المؤمن بذلك. وكل هذا من بركات الرضا بالله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بعد كلامه عن تفويض الأمر إلى الله تعالى: «فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة؛ انتقل منها إلى درجة الرضا، وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها فإنما فسرَه بأجلى ثمراته وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢) يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا. قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم». فهذا توكل وتفويض، ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب». فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذه هي حاجته التي سألها.

(١) مسلم (٢٩٩٩)

(٢) إذا أطلق ابن القيم شيخه فهو ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له فقال: «واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّنِي به». (١)

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل والتفويض وعلامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له؛ فتفويضه معلول فاسد!

وهذا معنى قول بشر الحافي: «يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به». وقول يحيى بن معاذ وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: «إذا رضي بالله وكيلاً». (٢)

وما كان أمراً قبل أمرٍ إلّٰهنا فإن أذكر المقدور زال حذارياً وقد اشتمل دعاء الاستخارة هذا على خزائن رضا عميم، وتأمل كيف أبدل الله حال الناس بالإسلام خيراً، فخيرٌ لهم لو أسلموا دينهم كله لله رب العالمين، «فعوّض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عمّا كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين يطلبون بها علم ما قُسم لهم في الغيب، ولهذا سُمّي ذلك استقساماً، وهو استفعال من القسم، والسين فيه للطلب، وعوّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار وعبودية وتوكل وسؤال لمن بيده الخير كله،

(١) البخاري ٧٠/٢ (١١٦٢).

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٢٤) باختصار.

الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه.

فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد،^(١) طالع أهل السعادة والتوفيق الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون.

(١) هذا الضرب من الحروف هو من قبيل الوجوه والمشاركات اللفظية، بمعنى: اتحاد اللفظ واختلاف المعنى بحسب السياق، ومراد الشيخ بلفظ الطالع سليم، وقد وضحه في سياقه وبسطه في سباقه، وأنه - وإن اشترك لفظاً - فإنه ليس بالمعنى المذموم الذي يفهمه أهل الشرك والكهانة. ولعل الشيخ رحمه الله قد قصد بذلك قرع الألباب بالتنبيه إلى خطورة اعتقاد معنى الطالع الشرقي وتأثيره على أصل معتقد أهل الإيثار والحنيفية. ولعمله هذا نظائر قد ارتأها، منها الموافق في سياقه دون إفراذه: كاستخدامه لفظ الطريقة المحمدية رداً على مُحسِنِي التلقب بالطرق الصوفية، فلهذا اللقب أساس شرعي بمعنى الطريق والسييل، والشيخ رحمه الله يذكره في معرض دحضه لشبههم بتأسيسهم لألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، ثم يُركَّبون عليها التحزب لغير سنة رسول الله ﷺ.

ومنها ما فيه نظر من حيث اللفظ لا المعنى: كقوله بالفناء الشرعي عما سوى مرضاة الله تعالى نفيًا للمعاني الأخرى الباطلة أو غير المحمودة أو ما سوى المطلوبة، وغير ذلك مما ارتضاه أمثالاً.. وهذا الضرب نافع جداً في بابه حواراً ومناظرة وبياناً لمن يُحسن إيرادَه عند من يفهمه كما أراد واضعه، وهو باب من البيان عزيز، وفائدته إثبات أن تزيين المعنى الشين باللفظ الزين لا يغني عن الحق ذرة ولا يغير من الحقيقة شيئاً.

=
وبالجملة؛ ففي ألفاظ الشرع كفاية ومقنع ونهاية وكمال لا مزيد عليه، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي
الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤]. وعلى قدر تجاوز
لفظ الشرع يكون الخطأ بقدره، وقد يكون صواباً إن جاء بضوابطه وقت حاجته.
فالشريعة قد أباحت للمحتاج البيان ممن يحسن أداء المعنى ولو بخلاف اللفظ إلا ما
استثنى. ولغة الشرع حرمتها الكافة الفاظة المانعة، فهي اللغة المرتضاة من أنزل الوحي
بها، واختيار اللفظ المحدد فيها ليقوم بحمل المعنى المراد بها له اعتباره وعظمته
وحرمته.

بيان ذلك: أن المعنى الذي جاء الشرع بقولته في لفظه لا ينبغي أن نتجاوزه لغيره إلا
لحاجة خارج البيان الأصلي؛ كتصحيح فهم ما قد تواطأت فئة ما عليه، أو ترجمة المعنى
للغة أخرى، أو الإلزام في المناظرات وقدر فروق المعاني في المتقابلات وغير ذلك من
القُصود الشريفة بالطرائق المشروعة، ولعل هذا المعنى الثالث هو ما أراد شيخنا ابن
القيم رحمنا الله تعالى جميعاً وإياه.

وعلى كل حال؛ فلو أن الشيخ اجتنب كلمة «طالع» بالكلية لكان خيراً، دفعاً لتوهم من
لم يفقه مراده، ففيها شيء. ولو من طرف خفي. من مشابهة أهل الجهل ولو بالمسمى
واللقب، ذلك أنهم يقصدون به طالع النجم الذي يتلمسون عنه خبراً أو تديراً! ولا
زال بعض الناس عن غفلة أو جهل يذكرون كلمة الطالع بمعناها الجاهلي فيقولون: من
يؤمن الطالع اليوم أن حصل كذا وكذا، وفلان ميمون الطلعة، بمعنى وُلِدَ في وقت نجم
أو برج مبارك.. ونحو ذلك من الضلال. وعليه؛ فلو استبدلت بكلمة «سبب» أو
نحوها مما يؤدي الغرض ولا محذور معه.

ولغة القرآن بحمد الله ثرية غنية بكل ما يعبر عن مكنون الضمير ويترجم عين قصد
القلب، كيف لا وقد تكلم بها الرحمن جل جلاله!

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق^(١). وقال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا توفي العبد المؤمن؛ أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان، ورب عنك راض». وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدها: أنه عند الموت. وهو الأشهر، قال الحسن: «إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها ورضيت عن الله فيرضى الله عنها». وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة، وعطاء، والضحاك، وجماعة. وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٨] تقال لها عند الموت، والكلمة الثانية وهي: ﴿فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾ وأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠] تقال لها يوم القيامة. قاله أبو صالح.

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٠٤)

مطمئنة إلى الله وفي جنته، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذ يكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته يوم القيامة.^(١)

ومن فقه حقيقة الرضا أحسن عمله به، فاستسهل من العمل ما كان على غيره كؤوداً، وارتقى من معالي المقامات الشريفة ما كان على سواه منيعاً، وإن بلوغ مقام الرضا لا يكون بالتحلي ولا بالتمني، وليس بالادعاء والكبرياء، كما في قصة قارون لما وعظه قومه بشأن ماله، فقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. فليس المال وكثرته هو الذي يبلغ به العبد درجة الرضا، فكم ملك قارون؟ وما أغنى عنه شيئاً، وما رضي عن الله، ولا بقضائه.

لقد تمنى من تمنى ممن رأى قارون في زينته، وماله، وجبروته، أن يحصلوا على ما حصل عليه فقالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] وظنوا أنه بلغ مقام الرضا، ولكن الله أخبر أن المال ليس بدليل على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة سبحانه، والحجة البالغة.^(٢)

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٩)

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٣٦٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه

ولهذا لما أدرك المتمنون ما حصل لقارون، وأنه بعيد كل البعد عن رضا الله أولاً، والرضا بما أعطاه قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القَصص: ٨٢]، فلولا لطفُ الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به!

والرضا حال من أحوال أهل الجنة، لا يفارق صاحبه المتحلّي به في الدنيا ما دام مع أمر الله، راضياً بقضائه في الدنيا وفي الآخرة. فالرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر، وهو لباس قلوب أهله وبستان صدورهم ونعيم أرواحهم وجنة دينهم من حين نزولهم لدار الابتلاء إلى قرارهم في دار البقاء.

والرضا غاية يسعى لها المؤمن الصادق، فهو من مقامات الإحسان التي هي من أعلى المندوبات، ومرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين، كما في حديث جبريل عليه السلام المشهور. وروى أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

=

الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يُسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جأزه بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عَشمه وظلمه. ولا يكسِبُ عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدّق به فيُقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إنّ الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إنّ الخبيث لا يمحو بالخبيث». ورواه الحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وضعفه محققو المسند والألباني، ورجّح الدارقطني في العلل (٢٧١/٥) وقفه.

«ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب».

ومقام الرضا أعلى من مقام الصبر. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى، كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب، لا أنّهما يزولان»^(١).

ثم إن الرضا من المقامات التي توصل للطمأنينة؛ لأنها مقام جامع للإجابة والتوكل والرضا والتسليم، فهي معنى ملتبس من هذه الأمور، إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة، وما نقص من هذه الأمور نقص من الطمأنينة. وكم يتمنى العبد الحصول على الطمأنينة، فالرضا من الأمور التي تسبب في وصول العبد إليها، فهو باب الله الأعظم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحييين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين»^(٢). وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «الرّضا عن الله درجة المقربين، ليس بينهم وبين الله تعالى إلاّ روح وريحان». وقال ذو النون: «ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء،

(١) عدة الصابرين (١ / ١٢٤)

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٧٤)

وهيجان الحب في حشو البلاء». وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة. فقال: «رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من أتكل على حسن اختيار الله له؛ لم يتمنَّ غير ما اختار الله له». وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنَّى فوق منزلته».

هذا، وإنَّ مرتبة الرضا فوق الصبر ودون الشكر - كما مر - علماً بأن كل مرتبة لا تقوم إلا على ما قبلها، فلا رضا بدون صبر، ولا شكر بدون رضا. قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سئل عمَّن يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟ فأجاب: «الناس حال المصيبة على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: التسخط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يتسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

النوع الثاني: أن يكون التسخط باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وهذا حرام.

النوع الثالث: أن يكون التسخط بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام منافٍ للصبر الواجب.

المرتبة الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

والصبرُ مثل اسمه مرّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحمّله، وهو يكره وقوعه ولكن يحميه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده، وهذا واجب لأن الله تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبة الثالثة: الرضا، بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء، فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملاً ثقیلاً، وهذه مستحبة وليست بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر، لأن المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، أما التي قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صبر عليها.

المرتبة الرابعة: الشكر: وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وربما لزيادة حسناته، قال عليه السلام: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها حتى الشوكة يشاكها»^(١).

ومن الكلام الحسن في فضل الرضا وبيان منزلته، ما روي عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر». وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأنّ الراضي لا

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١٠٩/٢) والحديث رواه أحمد (٣٠٨٥) وأصله في الصحيحين كما عند البخاري ١٤٨/٧ (٥٦٤١) ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٣)

يتمنى فوق منزلته». وسئل أبو سهل محمد بن سليمان عن الشكر والصبر أيهما أفضل؟ فقال: «هما في محل الاستواء، فالشكر مطية السراء، والصبر فريضة الضراء». قال: «وقيل: الصبر أسنى الأمرين؛ لأن الشكر استجلاب واستدعاء، والصبر استكفاء وارتضاء، وموضع الرضا يفضل موضع الدعاء». ومما قيل في فضل الرضا بالقضاء:

وما لي من عبدٍ ولا من وليدةٍ وإني لفي فضلٍ من الله واسعٌ
ومن يجعل الرحمن في قلبه الرضا يعيش في غنى من طيب العيش راتعٌ
ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، قال سبحانه:
﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٦٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٦١﴾﴾ [الْقِيَامَةُ : ٢٠ - ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٦٧﴾﴾ [الْإِنْسَان : ٢٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا يحصل لكل أحد، فإنَّ الإنسان مدنيّ بالطبع، لا بدَّ له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصوّرات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حلّ بين قوم فُجّار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرّهم في الابتداء، ثم يتسلّطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بدَّ أن يُهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كلّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله

لم يغنوا عنه من الله شيئاً»^(١) ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هرباً من عقوبتهم، فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شرّ نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرّم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما كانت للرسول وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحى الولاة والتجار وغيرهم»^(٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «السعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم الله، فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكفّ عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم. كما جاء في الأثر: «ارْجُ الله في الناس، ولا ترج الناس في الله، وخفِ الله في الناس، ولا تخف الناس في الله». أي: لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقُرب لأجلهم لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمّهم، بل ارْجُ الله ولا تخفهم في الله فيما تأتي وما تذر، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه.

وفي الحديث: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، أَوْ تَذَمُّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ». ^(٣) فَإِنَّ الْيَقِينَ يَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ، وَيَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَإِذَا أَرْضَيْتَهُمْ

(١) الترمذي (٦٧/٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١١) بنحوه.

(٢) الزاد (١٧-١٦/٣)

(٣) شعب الإيمان (١٧٦/١) والحلية (١٢٢/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع

(٢٠٠٩)

بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرَكَ ورزقَكَ وكفاكَ مؤنتهم، فأرضائهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يُقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذمّتهم على ما لم يقدر؛ كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمده الله ورسوله ﷺ فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله ﷺ فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم: يا محمد، أعطني، فإن حمدي زينٌ وإنّ ذمي شينٌ. قال رسول الله ﷺ: «ذاك الله عز وجل». (١) وكتبت عائشة إلى معاوية وروي أنها رفعتة إلى النبي ﷺ: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً». (٢) هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس

(١) الترمذي (٣٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وضعفه أيمن صالح. ورواه أحمد

(١٥٩٩١) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو سلمة بن عبد الرحمن - وهو ابن

عوف القرشي - لم يثبت سماعه من الأقرع بن حابس.

(٢) الترمذي (٦٧ / ٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١١) بنحوه.

له دائماً»، هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين. والمرفوع أحق وأصدق، فإن من أَرْضَى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق : ٢ - ٣]. فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه؛ فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبَيَّنَتْ لهم العاقبة.

ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، كالظالم الذي يعصّ على يده يقول: ﴿يَلَيِّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يُؤَلِّتُ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الْفُرْقَان : ٢٧ - ٢٨]، وأما كون حامده ينقلب ذاماً: فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم، وهو سبحانه أعلم^(١).

وأعجز الناس وأجهلهم هو من أعطى الدنيا أكثر من حقّها وأكبر من حجمها رغبةً واهتماماً ورضاً وسخطاً، فضع الدنيا - رحمك الله - حيث وضعها الله، وارفع الآخرة إذ رفعها الله تعالى. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الزاد في تعزية الله عباده المؤمنين بأن الحياة الدنيا قصيرة: «ولما كان الألم لا محيص منه البتّة؛ عزّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الْعَنَكَبُوت : ٥] فضرب لمدة هذا الألم أجلاً لا بدّ أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتدّ

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٥٢)

العبد أعظم اللذة بما تحمّل من أجله وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمّل من الألم في الله والله.

وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليّه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به! ولهذا سأل النبي ﷺ ربّه الشوق إلى لقائه فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة^(١) اللهم زيننا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين». (٢)

فالشوق يحمل المشتاق على الجدّ في السير إلى محبوبه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة

(١) أي أنه سأل الله أن يجعل سبب شوقه إلى لقائه هو محض الشوق إليه، والإيمان به، وحسن الظن به، وعظيم الرجاء، وصادق المحبة، وهذا هو الشوق الصادق الجميل، لا هرباً من مشقة الدنيا أو فتنة الدين.

(٢) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦) ولفظ النسائي: «اللهم بعلمك الغيب.. الحديث».

أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوالٌ وأعمالٌ هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام : ٥٣]

فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام : ٥٣] ثم عزّاهم تعالى بعزاء آخر؛ وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم، وأنه غنيّ عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذى في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله، وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله، كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان!

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، وفرّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله! فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغبن كلّ الغبن؛ إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود؛ أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس وابتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، ولیمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكبر الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كبر جهنم، فإذا هُذّب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة»^(١).

ألا ما أجمل الرضا، وأحلى مذاقه، وأرق أوقاته، وأينع ثماره، اللهم رفقة
الراضين بك والراضيات، إله الحق.

فَلَا تَجْزَعْ وَإِنْ أَعْسَرْتَ يَوْمًا	فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَيْأَسْ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ	لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيلٍ
وَلَا تَظُنَّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءٍ	فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَلَا تَظُنَّنْ بِنَفْسِكَ قَطًّا خَيْرًا	فَكَيْفَ بَظَالِمِ جَانٍ جَهْلٍ
وَظُنَّنْ بِنَفْسِكَ السَّوْءَ تَجِدُهَا	كَذَلِكَ خَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تَقَى فِيهَا وَخَيْرٍ	فَتَلِكِ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ
وَلَيْسَ لَهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ	مِنْ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ



(١) الزاد (٣/ ١٦-١٧) باختصار.

درجات الرضا بالله تعالى

الرضا بحر واسع، ودرجاته متفاوتة باعتبارات عدّة، فمن حيث أنواعه؛ فأجلّها: الرضا بالله ربّاً وإلهاً لا شريك له، فهو راضٍ برّبّه لذاته المقدّسة، وكماله المطلق، وفضله الذي لا يُحصَر، ولا يستحق العبادة سواه.

ومن أنواع الرضا: الرضا بدينه الذي شرعه وأنزله ورضيه طريقة للتعبّد به إليه، ويتبع ذلك الرضا بمشقّات الطاعات ومرارات اجتناب المحرمات المشتهاة، حتى تترقّى النفس للرضا التام والتلذّذ الوافر بذلك، لوصول النفس حينها لدرجة النفس المطمئنة.

ومن أنواعه: الرضا بالمقادير الكونية المؤلمة، فمنها السهل المتيسّر، ومنها الصعب الشديد المُضْض.. وهكذا. وكلها جارية على العبد لا محالة، ومن تائية ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

فما شاء مولانا الإلهُ فإنّهُ يكون، وما لا، لا يكون بحيلة قال الشيخ المنجد: «الرضا مقاماتٌ؛ فمنها: الرضا بما قسم الله وأعطاه من الرزق، وهذا ممكّنٌ يحمّده بعض العوالم. والمرتبة الأعلى: الرضا بما قدّره الله وقضاه. ومرتبّةٌ أعلى من هذه وهي أن يرضى بالله بدلاً من كل ما سواه.

هذه منازل قد يأتي البعض بواحدةٍ ولا يقدر على الأخرى، وقد يأتي البعض بجزءٍ من الدرجة ولا يحقق كل الدرجة. قد يرضى عن الله فيما قسم له من الزوجة ولا يرضى بما قسم له في الراتب مثلاً، وقد يصبر على سرقة المال ولا يصبر على فقد الولد، وأما أن الإنسان يرضى بالله عن كل ما سواه، معني

ذلك أن يهجر كل شيء لا يؤدي إلى الله (ملاه . ألعاب . أمور مباحة لا تقود إلى الله) فالمشتغل بها لا يعتبر أنه رضي بالله عن كل ما سواه. فهذه حالة خاصة لشخص مع الله دائماً، كل شيء أي عمل أي حركة أي سكون كلها طريق إلى الله تؤدي إلى مرضاة الله.

وللرضا درجات: منها الرضا بالله رباً وتسخط عبادة ما دون الله، وهذا قطب رحا الإسلام لا بد منه، أن ترضى بالله ولا ترضى بأي إله آخر (بوذا.. ما يعبد المشركون.. اليهود.. النصارى) لم يتخذ غير الله رباً يسكن إليه في تدبيره، وينزل به حوائجه. وهذا محروم منه غلاة الصوفية المشركون بعباد القبور، فينزلون حوائجهم بالأولياء والأقطاب، ويسألونهم ويستغيثون بهم ويتوكلون عليهم ويرجون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله!

لو آمنوا بالله حقاً لطلبوا المدد من الله ولم يذهبوا إلى المخلوقين في قبورهم، يقولون: يا فلان المدد، يا فلان أغثنا! ثم يأتي الصوفية ويقولون: نحن متخصصون بالقلوب وقد ضيعوا الأساس! ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني سيّداً وإلهاً، فكيف أطلب رباً غيره وهو ربُّ كل شيء؟!».

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَ﴾ [الأنعام : ١٤]، ولياً من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، يعني: أغير الله أتخذ معبوداً وناصرًا ومُعِينًا وملجأً؟! ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام : ١١٤]، هل أَرْضَى بِحَكَمٍ آخر يحكم بيني وبينكم غير الله بكتابه وسنة نبيه ﷺ؟! فلو قال أحدهم: أنا أَرْضَى بالقانون الوضعي يحكم بيننا. هذا لا

يمكن أن ينطبق عليه أنه يؤمن بالله ربًّا. إذا هناك أناسٌ يدّعون الرضا بالله ثم يخالفون في تعاملاتهم قاعدةً وأساسًا من أعظم الأسس، فإذا رضيت بالله ربًّا يجب أن ترضى به حكمًا، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام : ٥٧]، ومن خصائصه سبحانه أن التحكيم والحكم له سبحانه وحده.

ثم إذا تأملت هذه الأمور عرفت أن كثيرًا من الناس يدّعون الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، ثم هنا يخالفون حكم الله ويرضون بحكم غيره، ويخالفون السنّة، وهناك يميلون ويوالون أصحاب دياناتٍ أخرى، فأين هم من هذه الثلاثة؟!

والقرآن مليءٌ بوصف المشركين أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، فإن من تمام الإيمان صحة الموالاة. ومدار الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة الله وحده ويسخط عبادة غيره.

والفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله ^(١): الرضا بالله بأنه الله وأنه المعبود فقط لا غيره، وأن الحكم له فقط لا لغيره، وأن نرضى بما شرع. ولا يمكن أن يدخل فيه المؤمن والكافر معًا، لا يكون إلا للمؤمن. أما الرضا عن الله: فهو أن ترضى بما قضى وقدر. تكون راضيًا عن ربك فيما أحدث لك وخلق من المقادير. ويدخل فيه المؤمن والكافر.

(١) الأظهر أن الرضا بالله يتضمّن الرضا عن الله، لأن من رضي بالله فقد استكمل أطراف الرضا بالله تعالى دون غيره، فقد رضي به ربًّا خالقًا مالكًا مدبّرًا مقدّرًا وإلهًا معبودًا، وبدينه دون ما سواه، وببنيه دون غيره، وعليه؛ فمن رضي بالله حقًا فقد وصل.

فلا بد من اجتماع الأمرين معاً: الرضا بالله والرضا عن الله، والرضا بالله أعلى شأنًا وأرفع قدرًا؛ لأنها مختصة بالمؤمنين. والرضا عن الله مشتركة بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر، فقد تجد تصرّف كافر فتقول: هذا راضٍ بالقضاء ومسلّم ولا اعتراض عنده، لكنه لم يرضَ بالله ربًّا.

فالرضا بالله ربًّا أكد الفروض باتفاق الأمة، فمن لا يرضى بالله ربًّا لا يصح له إسلامٌ ولا عملٌ». (١)



(١) أعمال القلوب، محمد المنجد (٢٨) باختصار يسير

عمومُ الرّضا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال الدنيا

الله تعالى أرحم بعبده من نفسه، وأعلم بما يصلحه في دينه ودنياه، فهو وكيله وربّه وسيدّه ومولاه ورازقه وخالقه ومالكه ومدبّر أمره، فلا خير وأصل للعبد إلا من ربه، ولا شر مدفوع إلا بفضلّه، فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجع، ولو وكل الله عبده لنفسه لباءت بالخسران، ورجعت بالخيبة، وانقلبت بالفشل والضيعة.

فعلى العبد العاقل الموفق الحازم أن يرضى بكل تفاصيل حياته المقدّرة من الله تعالى له، فيرضى بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحواله، فهو إنما صلح على هذه الأمور في دينه ودنياه، ولو وكله ربّه إلى نفسه أو إلى خلقه لانقطعت عنه أسباب السلامة والعافية ورفعت عنه حبال التوفيق والسعادة، فلو كان في زمان غير زمانه، أو أوجد في مكان أو بلد غير ما خلّق فيه، أو زوج وولد وأقارب وجيرة وزملاء وأحباب غير من اختيروا له واختير لهم، أو كان ماله زائدًا أو ناقصًا عمّا لديه، أو لونه أو جسده أو جنسه أو نسبه مغايرًا، أو أنه قد جُنّب ذلك المرض أو السجن أو الظلم ونحو ذلك؛ لربّما أفضى به ذلك إلى معاطب لم يتخيّلها، وسار به ذلك الحال المخالف لمهالك لم تكن لتقع لو أنه كان على تلك الحال التي اختارها مولاه له، ورُبَّ أمرٍ يتمنّاه العبد وفيه شؤمه.

فليرض كل عبد بقسم الله له، فلربما لو سار به قدرُ الله في غير مساره الذي مشاه لكان حاله في أدرك بؤس وأعنت عيش وأشقى مصير!

وبما أن الأمر الذي يتمنى لو كان عليه لم يحدث أصلاً فهو غيب وعدم، والله وحده يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال سبحانه في المتخلفين عن تبوك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقال في أهل النار حين يتمنون العود للدنيا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فعلمه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء ووسع كل شيء، وقد جعل سبحانه قدره سرّاً من أسرار خلقه، فالقدر هو عمادُ خلق الله تعالى لأنه متعلّق بعلمه وكتابه ومشيته وخلقهِ جل جلاله، فقد قدر الله تعالى مقادير كلّ الخلائق بكل تفاصيلها قبل خلقها، ورتّب الأمور على بعضها تدبيراً محكماً لا تشوبه أدنى شائبه ولا ينقصه شيء، وأمورُ خلقه مرتّبة على بعضها بإتقان وإحكام كامل، وكل أمر مرتب على سبب قبله، وهو سبب لغيره، فبين المقادير تسلسل وترايط شديد التعقيد كامل الإحكام، وقد يربّ على حدث اليوم أمراً سيكون بعد ألف سنة، ولو اختلف مساره قليلاً لتغيّرت أمور لا تحصى متعلقة ببشرٍ لا يحصون!

فلو أن فلاناً - مثلاً - لم يلتق بفلان في ذلك الزمان والمكان؛ ما صارت بينهما معرفة وصحبة، وما تمّ بينهما مصاهرة، وهي التي سيكون منها ذرية من نسلٍ يتكاثر في بيئة كذا ومجتمع كذا ومتعلّق بكذا وكذا من أمور حياة فئام كثيرة من الناس، فينشأ أحد ذريته بين أخواله أو أعمامه، وبعدها يكون لحفيده شأن في الناس، فيكون إمام هدى أو داعية ضلال، مجدّد للأمة أو من فراعنتها،

وربما حكمت هذه الأسرة بقاعاً من الدنيا فأقام الله بها شرعه وأنهض برجالها دينه، وربما كانت من شياطين حزب عدوّه.

وليس الأمر في هذه الأمور الكبار فقط، بل حتى في أدنى التفاصيل، فلو أن فلاناً تأخّر عن مكان كذا بثانية أو ثانيتين ما حصل ذلك الحادث، ولو أنه ما التفت ببصره لكذا لم يحدث كذا، ولو أن فلاناً ما وقع منه القلم ما صار كذا وكذا، فربّ حدث يسير جدّاً ترتبت عليه أمور كبار جدّاً، ولهذا نهينا عن كلمة «لو» إن كانت من باب التحسّر أو الاعتراض، لأنها فتح بابٍ للتحسّر على أمر قد كتبه الله تعالى وجعله من ضمن ناموسه الكوني الذي لا يتغيّر ولا يتبدل بعدما كُتب في اللوح المحفوظ، فالنظر فيه تحسّراً أو اعتراضاً فيه منازعة للمُقدّر تبارك وتعالى في قضائه وقدره، في كتابته ومشيّته وخلقه، فالله تعالى عالمٌ بكل شيء قبل وقوعه وقد كتبه وشاءه وخلقه، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الْقَمَر : ٤٩]، وفيها كذلك فتح بوابة القلب للشيطان الرجيم، فيلججه في مدينته فساداً وخراباً وظلمةً وألماً وشروراً وسوء ظنٍّ بمن كلّ الخير منه وحده. فشريعة الله الكاملة قد سدّت منافذ الشيطان وحسّمت مواد فساده وأغلقت ذرائع مكره، فمن خالف وعصى فقد فتح على نفسه الوسوس والشكوك والضيق والعنت والاعتراض على الله رب العالمين.

وعلى ذلك؛ فيما أنّ مسارك الذي تتمنى أنك أوجدت فيه غيبٌ لا يعلمه إلا الله، وعدمٌ لم يخلقه الله، وأن الله تعالى - الذي هو أرحم وأعلم بك من نفسك - قد اختار لك هذا الزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وغير ذلك مما تقوم به حياتك وابتلاؤك؛ فاعلم علمَ يقينٍ

راسخ لا شك فيه أن الله سبحانه قد اختار لك ما هو أفضل لك من اختيارك لنفسك، أما الذين تمنى أن تكون كحالهم فقد خلقهم الله تعالى في حال لعلك إن أعطيت شقيت شقاء الأبد، ولو أنهم أعطوا حالك لم يسعدوا، وكل ميسر لما خلق له، فهل عسيت إن أعطاك الله نعمة ألححت في طلبها ألا تنفي ببعض حقها من الشكر، وقد تنقلب بك في ثاني حالك وبالا في دينك! فانغمس بكل قلبك في بحر الرضا وثلج اليقين وبرد الحمد وأنهار الشكر.

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خَرْتُ لِي فِي انْصِرَافِهِ وَمَا زِلْتُ بِي مِنْ بَرٍّ وَأَرْحَمَا
والشرع بحمد الله لم يغفل شيئاً، ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨]، لذا كان السلف الصالح يهتمون كبار الأمور عند ورودها، ويحسنون استقبالها بالعمل والتوكل وحسن الظن، حتى إذا خرجت من أيديهم إما بإتمامها ونجاحها أو وقوعها دون الرغبة المتوقعة أو انحرافها أو فشلها سلموا لله بها، فيحتملونها عند الورود ويسلمون بها عند الصدور، فلا هم بمتواكلين وكسالى عند ابتداء الشدائد، بل يعملون بجوارحهم ويتوكلون بقلوبهم، ولا جزعين عند وقوعها، بل يصبرون ويرضون ويحمدون ويشكرون.

وهذا هو المنهج الإسلامي الرباني الصحيح، حتى عند ما يسمى بعلم النفس الحديث، فأصله من التوكل وحسن الظن والتسليم والصبر والرضا والحمد، وتمامه العلم والإيمان.

ومن مصالح الرضا بالله وأقداره أن المرء يستريح من عنت الترقب وكآبة المقارنة وقلق الأماني وسوداوية النظر للحال، فيعيش متأدباً مع جناب ربه،

متصالحاً مع نفسه، متعايشاً مع حاله، رضيّ المحيّا حسن الأخلاق مع الناس، فلا شيء من الدنيا في نظر الراضي بالله يستحق العناء، والدنيا بحذايرها مُغيّاةً بالابتلاء، والآخرة مكتنزة بالكرم والرحمة والعدل وحكمة الجزاء.

ولنقف عند مثال شديد الوضوح لأعلى أمنية زمانية عند أكثر المؤمنين، وهي صحبة خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولنزّ توجيه الصحابي الجليل المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١) حيال ذلك؛ فقد روى أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد^(٢) عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرّ به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله، لوددنا أنّا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب، فجعلتُ أعجب، ما قال إلا خيراً!

ثم أقبل عليه فقال: «ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه؟ لا يدري لو شاهده كيف يكون فيه؟ والله، لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ

(١) هو المقداد بن عمرو الكندي، واشتهر بالمقداد بن الأسود، لأنه قدم إلى مكة وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبناه الأسود، فصار يقال له المقداد بن الأسود، تزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، قال عنه عاصم بن زرّ: أوّل من قاتل على فرس في سبيل الله المقداد بن الأسود. مات المقداد في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، وهو ابن سبعين سنة، رضي الله عنه وأرضاه. وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر (٦/ ٢٠٢-٢٠٣)

(٢) المسند (٢٣٨١٠) والأدب المفرد (٨٧) وصححه الألباني.

كَبَّهْمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ؛ لَمْ يَجْبُوهُ وَلَمْ يَصَدِّقْهُ. أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ، فَتُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفَيْتُمْ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ.

والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعثَ عليها نبيٌّ قطَّ، في فترة وجاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرّق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان، ويعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقرّ عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها لتي قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ﴾ [الفرقان : ٧٤]. فله الحمد كثيراً الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وتدبر قول الله تعالى في بيان أحوال بعض خلقه ممن تمنّوا أشياء ولم يعلموا أن الله قد حفظهم عنها رحمة بهم: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ [القصاص : ٧٩ - ٨٢]، وتدبر رحمة الله تعالى بمن يبكي لفراق شخص كان ذهابه خيراً لهما من بقاءه: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝﴾ [الكهف : ٨٠]

واعلم - رحمني الله وإياك - أنّ الألم الذي يحتوي فؤادك - أيّا كان - إنّما هو محض ابتلاء يُمَحِّص دينك وينقيّ صحيفتك ويرفع درجتك ويُعلي مقامك عند ربك إن أحسنت استقباله وأكرمت بالحمد وفادته، فاشكره واحمده وارض به وبقضائه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»،^(١) والأمثل هو الأشرف والأعلى رتبةً في الدين. ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أخرج الشيخان^(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كنّا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار». ^(٣) فقلت: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء». وهو أكرم الخلق على الله تعالى.

واعلم أنّ الله تعالى يعطي ويمنع عبده بما يصلحه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى : ٢٧]. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ^(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ^(٧٧) [التوبة : ٧٥ - ٧٧] وذكر الحافظ ابن

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦).

(٢) البخاري ٢٠١/٣ (٢٥٦٧)، ومسلم ٢١٨/٨ (٢٩٧٢) (٢٨).

(٣) أي تمرّ عليهم ثلاثة أشهر وهم لا يطبخون شيئاً.

رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ الْوَلِيِّ^(١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،
عَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ قَالَ: «.. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي
الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ يَسْأَلُنِي الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ، وَلَوْ أُعْطِيَتْهُ إِيَّاهُ لَدَاخِلُهُ
الْعُجْبُ وَأَفْسَدُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ
أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ
أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ
أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا السُّقْمُ وَلَوْ
أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدُهُ ذَلِكَ. إِنْ أُدْبِرْتُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنْ عَلِمْتُ خَيْرٌ». وَفِي
رَوَايَةٍ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، رَبُّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنَّ مِنْ
عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَكَفَرَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا
يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْقِلَّةُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَكَفَرَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا
بِالسُّقْمِ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَكَفَرَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْحَحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالصَّحَّةِ
وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَكَفَرَ»^(٢).

(١) (١ / ٩٤)

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا مطولاً في أول كتابه الأولياء (١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٩)،
والكلاباذي في المعاني (٣٧٧ / ١) والبغوي في شرح السنة (٢١ / ٥) والطبراني
(٢٦٤/٨) وابن عساكر (٩٥/٧) وأخرجه الخطيب (١٤/٦) وقال ابن الجوزي في
العلل المتناهية (٣١/١): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١/٧٥).
والرواية الثانية أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٥٠٣ / ٦) ومدارها على يحيى بن
عيسى الرملي وهو ضعيف، فالحديث ضعيف. وللحديث ألفاظ متقاربة، ولم أقف على

فليس معيار التفضيل رخاء الحال أو رقته، ولا طول الجسد أو لونه أو شكله أو قوته أو جنسه أو ذكاؤه أو سلالته أو زمانه أو مكانه أو مجتمعه، والأرض لا تقدس أحداً والعصر لا يزكيه، إنما يزكيه ويرفعه ويكرمه إيمانه وتقواه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ٣٧] وقد علّق الكلاباذي رحمه الله على الحديث، بقوله: «وقوله: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، لو أفقرته لأفسده ذلك»، هذا من نصيحته له، وذلك أن الله تعالى إنما أحبّ المؤمن لإيمانه؛ لأنه لما أحبه كتب في قلبه الإيمان، وحبّه إليه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو سبحانه يصرفه عما يخلّ بإيمانه؛ لئلا يخرج في حبه إياه شيء».

وقد خلق الله عباده على طبائع مختلفة وأوصاف متفاوتة، فمنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الرقيق، ومنهم الكثيف، ومنهم الوجيه، ومنهم الشريف. فمن علم الله تعالى من قلبه ضعفاً لا يحتمل الفقر أغناه، إذ لو أفقره

=

شيء منها صحيح خلا بعض ألفاظه، وإن كانت معانيها صحيحة، وهي صالحة للاعتبار، وقد استشهد بها الأئمة، كالبعوي وابن تيمية وابن القيم وابن رجب وابن كثير وغيرهم.

إياه فهو سبحانه يغنيه، فيقرّبه بذلك منه، ويدنيه، فيصونه بغناه من أن ينصرف بحاجته إلى سواه... فإذا كان الفقر لبعض الناس مُنْسِيًا، صرف الحق عمن عرف ذلك منه الفقر؛ لأنه لا يجب أن ينساه حبيبه، وكذلك من علم أن لا يُصلح إيمانه إلا الفقرُ أفقره؛ لأنه تعالى يعلم أن الغنى يطغيه، وأن الفقر لا ينسيه، بل يشغل لسانه بذكره، والثناء عليه، وقلبه بالتوكل عليه، والالتجاء إليه.^(١) وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ: «فَالْغَنِيُّ رَبًّا يَطْغَى بِغِنَاهُ وَيَسْتَكْثِرُ، وَالْفَقِيرُ رَبًّا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَيَسْتَحْسِرُ وَيَسْتَبْعِدُ الْفَرَجَ، فَيَكُونُ الْأَوَّلُ فَاسِدًا بِطُغْيَانِهِ، وَالثَّانِي فَاسِدًا بِيَأْسِهِ وَقُنُوطِهِ».^(٢)

وتأمل دعاءه ﷺ وتسليمه لربه ورضاه به في قوله: «مَاضٍ فِي حَكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ».^(٣) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ قَدْ يَكُونُ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ مَصْلَحَةٌ لِلْعَبْدِ أَوْ مَفْسَدَةٌ لَهُ، وَأَنَّهُ إِنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَذَلِكَ كَانَ مَصْلَحَةً لَهُ، وَإِنْ عَصَاهُ كَانَ مَفْسَدَةً لَهُ؛ تَبَيَّنَ أَنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ:

منهم من يكون صلاحه على السَّراءِ، ومنهم من يكون صلاحه على الضَّرَّاءِ، ومنهم من يصلح على هذا وهذا، ومنهم من لا يصلح على أحدٍ منها. والإنسان الواحد قد يجتمع له هذه الأحوال الأربعة في أوقاتٍ أو وقتٍ واحدٍ،

(١) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار (٣٨٢-٣٨٣)

(٢) تفسير العثيمين، سورة سبأ (٢٢٧/١)

(٣) أحمد (٤٣١٨) وابن حبان (٩٧٢) وصححه الأرنؤوط.

باعتبار أنواع يُبتلى بها^(١). وتأمل كذلك دعاء الاستخارة وما تضمّن من معاني الخير الإلهية لعبده كما مرّ.

هذا؛ وقد بيّن النبي ﷺ المعيار الصحيح للمفاضلة عند الله كما في المسند^(٢) من حديث أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحر على أسود، ولا أسود على أحر، إلا بالتقوى».

قال ابن رجب في تفسيره: «قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجرّه إلى النار. وقال الحسن - وذكر أهل المعاصي -: هأنذا عليه، فعصوه، ولو عزّوا عليه لعصمهم. وقال ابن مسعود: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيسر له. فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظلّ يتطيّر يقول: سبقني فلان دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل^(٣).

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طيّ الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرّني ما كنت أحذرُهُ وربّما ساءني ما كنت أرجوهُ

(١) قاعدة في المحبة (١ / ١٧٠)

(٢) المسند (٢٣٤٨٩) وصححه محققوه.

(٣) تفسير ابن رجب (٢ / ٣١٤)

وتأمل نعم الله العديدة عليك حتى لا تقع في سوء ظن به عز وجل،
واعلم أنك مهما اجتهدت في عدها فلن تستطيع إحصائها كما قال سبحانه:
﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التخل: ١٨].

واعلم أن الخيرة كلها إنما هي فيما اختاره الله عز وجل لك، وأنت إن
ابتليت بما به تأملت أو ضاق له صدرك أو نفرت عنه نفسك فهو خير لك وإن
جهلت العاقبة، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا
وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] صدق الله؛ فالله يعلم
ونحن لا نعلم. لا نعلم ما يصلحنا على التفصيل، ولا نعلم ما يترتب على
أفعالنا وأحوالنا في قابل الأيام وعقابل الزمان.

ما مسني قدرٌ بكرهٍ أو رضى إلا اهتديت به إليك طريقاً

ففي المال مثلاً - وهو غالب محطّ الأمنيات العاجلة لأكثر بني الإنسان - لا
يعلم المرء أين الخير فيه بالضبط، فلربما زاد فأفضى إلى البطر والأشر والمعاصي
والطغيان، ولربما نقص فطرح صاحبه على ساحل القنوط وسوءات الظن
بالحكيم الرحيم المنان، وتدبر بقلبك قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ
الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ
بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، قال العلامة ابن سعدي مفسراً هذه الآية الكريمة: «أي
لغفلوا عن طاعته، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الانكباب
على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً» (١).

(١) تفسير السعدي (١ / ٧٥٨)

ومما قاله مجرب خبير: «المال يشتري السرير ولا يشتري النوم، المال يشتري الساعة ولا يشتري الوقت، المال يشتري الدواء ولا يشتري الشفاء، المال يشتري الكتب ولا يشتري العلم والمعرفة، المال يشتري الطعام ولا يشتري الشهية، المال يشتري منزلاً ولا يشتري أسرة، المال يشتري المنصب ولا يشتري الاحترام، المال يشتري مرافقين ولا يشتري الأصدقاء. بل ربما أحياناً لا يجلب المال السعادة، ولكن الإيمان والرضا والمودة والرحمة والإحسان هي من تجلب السعادة، والعبرة إنما هي بتوفيق الله سبحانه وتعالى».

واعلم - رضي الله عني وعنك - أنّ المتعة ليست هي السعادة، فالمتعة منشؤها الحسّ، ومنه المال والطعام والشراب والنكاح وبقية شهوات الأنفس، أما السعادة فمصدرها القلب والصدر، فالسعادة إحساس نفسي جميل بالسرور والفرح والراحة والطمأنينة وحصول المأمول ونحو ذلك، فهي معنوية نفسانية، لا تُرى، بل يُشعر بها، وهي في الحقيقة هي الغاية والمعنى الذي يطلبه عامّة بني الإنسان، ولكنهم عن أسبابها غافلون، إلا من رحم الرحمن.

هذا؛ وإنّ أطول أجبولةٍ لإبليس لصيد بني آدم هي المتعة الوقتية السريعة الزائلة الفانية، سواء مُتّع الشهوة أو الغضب أو الرئاسة، أما السعادة فمع أهل التقوى والرضا والإيمان.

ولا نعني بذلك أن مُتّع الحسّ مرذولة، كلا، بل قد جعلها الحكيم العليم سبحانه سبباً لبقاء نوع بني الإنسان لصالح ذواتهم ونسلهم ونحو ذلك مما

تقوم به حياتهم، ولكنها مقرّرة ميسّرة وفق ناموس شرعي لتكون سبباً
لتحصيل سعادتهم العظمى بتحصيل رضوان الله تعالى في الدار الآخرة، لا
نُبهةً بخطيئةٍ لشهوةٍ حرامٍ سريعةٍ الزوال، تذهب مُتعتها ولذّتها، ويبقى وزرّها
وتَبَعَتها.

بل إنّ من نعيمِ أنفُسِ المؤمنين استمتاعهم بمتع الدنيا على هُدى من الله
تعالى، فنومهم لهم صدقة، وأكلهم وشربهم لهم حسنة، وتناولهم النكاح لهم
أجر، واستمتاعهم بالدنيا تقويّاً على أزواد الآخرة لهم ذخّر، وسائر متع الدنيا
المباحة التي تركوا حرامها هي لهم رفعة وفضيلة وكرامة.

بل - والذي نفسي بيده - إنّ مُتّع الدنيا بحذافيرها لا تحلو ولا تصفو ولا
تطيب ولا تزين إلا ما كانت على هُدي من شرع الله تعالى، وإلا فتنغيصها
وضيقها ونكدها وتبعثها وحشرتها وحسرتها لا تنفك عنها، مهما زعم راكبها،
وأعنى راكضها، واستغفل ملتحفها. أبى الله تعالى إلا أن يُذلّ من عصاه،
ويؤدّب من خالف أمره، ويعظ بالرفق من غفل عنه، ويزجر عن دار الفناء
قلائص الساكنين. فتبارك الله أرحم الراحمين. ورضي الله عن أبي الدرداء إذ
قال:

يريد المرء أن يُؤتى مناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وتدبّر مُسدّداً قول ربك الأعلى في شأن الذين يرون ظواهر الأمور دون
حقائقها، وعواجلها دون عواقبها، وبداياتها دون نهاياتها، قال تبارك وتعالى

مرشدًا للرضا بأمره الشرعي والقدري، منوِّهاً بأهل العلم والإيمان، مُظهرًا الحقَّ العيان حتى صار شاهداً للعيان في شأن الناس مع قارون، وكم بيننا من قارون ومغرورٍ بقارون! ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ [الْقَصَص : ٧٩ - ٨٤] فبعد أن اختار الله الرحيم الحكيم لهم النجاة والعافية خلاف ما كانوا يستعجلون من الأمان قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا﴾ [الْقَصَص : ٨٢].

فارض بالله تعالى وبتدبيره كل الرضا، فهو أرحم بك من نفسك، وكم قد زوى عنك حبل حتفك، وفيه لو أُجِبْتَ هلاكك، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦].

وأجمل بردّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ على من بكّته بأنه قد أفقر ولده من بعده: فعن هاشم قال: «لما كانت الصّرة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مَسْلَمَةُ بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عِيْلَةً لا شيء لهم، فلو وصّيت بهم إليّ، وإلى نظرائي من أهل

بيتك. قال: فقال: أسندوني، ثم قال: أما قولك إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فو الله إني ما منعتهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين. بني أحد الرجلين، إما رجل يتقي الله، فسيجعل الله له مخرجاً، وإما رجل مكب على المعاصي، فإني لم أكن أقوى على معاصي الله.

ثم بعث إليهم، وهم بضعة عشر ذكراً، قال: فنظر إليهم فذرقت عيناه، ثم قال: بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلة لا شيء لهم، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بني؛ إن أباكم مثل بين أمرين: بين أن تستغنوا، ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا، ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار. قوموا عصمكم الله». (١)

ضع الكف في كفي إلى الله سيرنا فليس لنا فيما سوى الله مطمئ
نسير معاً والله يحفظ سيرنا وحفظك يا رحمن أقوى وأمنع
إذا ما تفرقنا ففي الله نلتقي وإن عزت اللقيا ففي الخلد مجمع



(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٧١)

حكمُ الرّضا

الرضا أنواع: فمنها الرضا بالله ربًّا ومعبودًا. وهذا أساس الإيمان، ولا يصح دين المرء بدونه، ومن توابع ذلك: الرضا بالإسلام، وبالرسول ﷺ، وبالقرآن، ونحو ذلك مما جاء عن الله تعالى. ومن ذلك: الرضا بقضاء الله وقدره. وهو منقسم لنوعين:

أحدهما: الرضا بالقضاء، وهذا تابع للنوع الأول؛ فهو واجب وفريضة وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها.

الثاني: الرضا بالمقضي، أي مفعولات الله تعالى بعبد، فليس المراد هنا فعل الله أنها مفعوله، أي ليس هو صفة الله التي هي الخلق والتقدير، إنما هو مخلوقُ الله تعالى الذي هو نفسُ المصيبة، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدره؛ فهذا هو النوع الأول، وهو القضاء. والثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألم منه، فهذا هو المراد هنا، وهو المقضي.

وهذا النوع - أي الرضا بالمقضي - قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقًا بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب - وهو الراجح - لانفكاك جهته تصوّرًا في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، وأيضًا لمشقة احتمال هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على كثير منهم، والشرعية لا تأتي بالحرج، قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ

يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

ومما تلزم معرفته في الدين؛ أن الله تعالى قد اقتضى كماله وحكمته ألا يخلق شرًا محضًا لا خير فيه بوجه من الوجوه، فهو منزّه عن ذلك جل وعلا، أما الشيء الذي فيه جانبان أحدهما شرٌّ من جهة المخلوق وخير من جهة حكمة الخالق فهو ليس بشرٍّ محض، فما فيه من إمضاء حكمة الله وحسن تدبيره وتقديره فهو خير، وما فيه من قطع مدد الخير عنه فهو شر.

واعلم أنه لا يوجد في المخلوقات البتّة شرٌّ محض، بل لا شرّ إلا وفي ثناياه خير عِلْمَه وعلم بعض حكمته من عِلْمَه، وجَهْلَه من جهله، ولتوضيح ذلك: فأصل الشرور والذنوب والمعاصي والخبائث في هذا الكون هو إبليس أعاذنا الله منه، ولا شر في الوجود أشرّ منه، ومع هذا ففي خلق الله له حكم سامية وخير كثير، ومن أعظم ذلك إقامة الدين على سنّة التكليف والابتلاء، فبتّ الله الإنس والجن وأمدّ من شاء منهم بفضله وهدايه وتوفيقه فعملوا بطاعته فنالوا مرضاته، وخذل من شاء منهم فتحركت نفوسهم الخالية المحرومة من توفيق الله للشر.

والمقصود؛ أن كل شرّ فإنه يقصّر دون شرّ إبليس الرجيم، ومع هذا ففي خلق الله له جهةٌ خيرٍ ومنافع ما كانت لتكون بأمر الله لو لم يوجد هذا الشرّ الإبليسي، وبهذا فلا يوجد في الوجود شرٌّ محض.

وبهذا يتبين لنا معنى حديث رسول الله ﷺ: «والشرُّ ليس إليك»،^(١) فالشر داخل في جملة مخلوقات الله تعالى، فينسب إليه في جملة عموم خلقه، ولا يُضاف إليه أفرادًا وقصدًا لاستقلال اللفظ، فلا يقال: الله خالق الشر، ومقدّر الشر، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرُّم: ٦٢]، بل يُؤتى بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، وكقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، فأضاف الشرَّ إلى الخلق، ولم يصفه إلى الله تنزيهًا له، مع أن كلها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»،^(٢) ولم يقل: من الشر الذي خلقه الله.

وعليه؛ فالشر داخل في عموم مخلوقات الله تعالى، لكنه لا يُنسب إلى الله تعالى لأمرين:

الأول: الأدب مع جناب الله تبارك وتعالى، كما جاء في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر. ومنه وقوله تبارك وتعالى في فاتحة الكتاب: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

(١) مسلم ٨٥/٢ (٧٧١) (٢٠١)

(٢) مسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٩)

وانظر لأدب الخليل عليه السلام حينما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٨٠]، فنسب المرض إلى نفسه، وأضاف الشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه سبحانه وبحمده. وتدبر أيضًا حسن الوصف في خبر الخضر عليه السلام بإضافة إرادة التعيب إلى نفسه والرحمة إلى ربه، فقال فيما أخبر الله تعالى عنه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف : ٧٩]، ولما ذكر إرادة الخير والرحمة باليتيمين أضاف ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الكهف : ٨٢].

الثاني: عدم وجود الشرِّ المحض أصلاً في المخلوقات، والشر المحض هو الذي لا حكمة في تقديره، فكيف تنسب شيئاً لله تعالى وهو غير موجود على الإطلاق؟! فما من شر في الخلق إلا وفيه جانب خير اقتضته حكمة الخلاق العليم الخبير الحكيم سبحانه.

وهذا يتبين أنَّ الشرَّ أمرٌ نسبيّ، أما حقيقة فعل الله تعالى وقضائه وقدره فإنه ليس بشرٍّ، لأن فيه خير باعتبار آثاره الحميدة. والشرور الموجودة في دار التكليف هي شرور بالنسبة للعبد، فالكفر والنفاق والشرك والمعاصي هي شرٌّ نسبيّ بالنسبة إلى العبد الذي فعلها، لكنّ هذا الشرُّ بالنسبة إلى الله تعالى فإنه يضاف إليه إضافة خلق، بمعنى أنها من جملة مخلوقات الله تعالى، فالله خالق كل شيء، وما من شيء إلا والله وحده خالقه تبارك وتعالى، فالله تعالى قد قدر الكفر والشرك لحكمة، فهي بالنسبة إلى الله خير؛ لما ترتب عليها من حكم عظيمة؛ كانقسام الخلائق إلى سعداء وأشقياء، وقيام سوق الجنة والنار، وقيام

ساق الابتلاء والمجاهدة، وظهور آثار صفات الجلال والكمال لله تعالى كالعزة والغضب والانتقام من أعدائه، ونفاذ كمال القدرة وجمال الخليفة وإحكام الحكمة وإعجاز التقدير بخلق المتضادات والمختلفات والمتقابلات، وغير ذلك كثير.

ومن هذا الباب جاء الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشره، والمراد بالشر في القدر هنا هو شر المقدور، أي المخلوق والمقضي، فالشر فيه إنما هو باعتبار المفعول لا باعتبار الفعل، وكذلك القضاء فمن حيث هو فعل الله فكله خير محض، ومن حيث هو المقضي ففيه جهتان منفكتان:

الأولى: جهة خيرٍ للحكم الحميدة المترتبة عليه أيًا كان، فكل فعل الله خير، **والثانية:** قد يكون فيه خير لإمداد الله له بالخير، وقد يكون فيه شرّ بسبب قطع أسباب الخير من الله عنه. ومن ذلك دعاء رسول الله ﷺ: «وقنا شر ما قضيت»^(١)، فالقضاء هنا هو القدري الكوني،^(٢) وهو المقضي، فمن حيث هو قضاء الله فهو خير، ومن حيث هو المقضي ففيه شرٌّ غير متمحض، فالعبد يسأل ربه أن يقيه ذلك الشر.

(١) أحمد (١٩٩/١) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٣٢٨/٢) وصححه الألباني.

(٢) القضاء الشرعي خير كله، أما القضاء الكوني فإن القضاء الذي هو فعل الله فخير كله، أما القضاء بمعنى المقضي - أي ذات المقدور المخلوق - فقد يكون خيرًا محضًا، وقد يكون له جهتان: جهة شرّ بذاتها لقطع أسباب الخير وأمداد التوفيق عنها، وجهة خير لما تُقضي إليه من خير وآثار حميدة.

هذا؛ وإن من المهمات جدًّا في هذا الباب الشائك معرفة أن قدَّر الله تعالى ليس متعلق بالمستقبل فقط، بل هو أيضًا هذا الحاضر الذي عليه تُبنى أمور المستقبل بتدبير الله الحكيم سبحانه، فالماضي قدَّر، والحاضر قدَّر، والمستقبل قدَّر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً كَلَمَجٍ بِالْبَصَرِ ۖ﴾ [القمر: ٤٩]

[٥٠ - ٤٩]

وإن من أنواع الرضا عند التقسيم الذهني: الرضا بالمعاصي والفساد. وهو النوع يحرم الرضا به، فلا يُشرع الرضا ولا يحلُّ إلا بما رضىه الله تعالى، حتى وإن كان داخلًا في عموم خلقه له. ولا يردُّ علينا أن الله تعالى أراد، ذلك أن إرادة الله تعالى منقسمة لقسمين:

أحدهما: إرادة دينية شرعية. وهي مرتبطة بالأمر لا بالقدر، كالصلاة والصيام والذكر والدعاء، فهي محبوبة شرعًا وقدَّرًا، وحكم الرضا بها واجب.

والثانية: إرادة كونية قدرية. وهي مرتبطة بالقدر لا بالأمر، فقد يُقدِّر الله تعالى شيئًا وهو لا يحبه شرعًا، ككفر أبي جهل مثلاً، وقد يقدر الله شيئًا وهو يحبه شرعًا، كإسلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحكم: أن نرضى بما يحبه الله تعالى، ونسخط ما يكرهه سبحانه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - وتأمل كيف أخرج الرضا بالمعاصي من التقسيم العام لأنه قصد إلى الرضا المشروع دون الممنوع وهو جادة مطروقة -: «الرضا نوعان: أحدهما: الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ محظور. وهذا الرضا واجب، كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا

رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ [التَّوْبَةُ : ٥٨ - ٥٩]

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل. فهذا رضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب. والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: «الرضا عزيز، ولكن الصبر معول المؤمن»^(١). وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرَّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا»^(٢).

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الرُّم: ٧] ﴿اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البَقَرَة : ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التَّوْبَة : ٩٦].^(٣) وقال أيضًا: «أكثر العلماء على أن الرضا بالمصائب مستحب وليس بواجب؛ لأن الله أثنى على أهل الرضا

(١) ورويت كذلك عن عمر بن العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وهما قرينان رحمهما الله، فلعل أحدهما قد أفادها من صاحبه.

(٢) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. والزهد لهناد (١ / ٣٠٤ / ٥٣٦)، وشعب البيهقي (٧ / ٢٠٣ / ١٠٠٠٠) والطبراني في الكبير (٣ / ١٢٦ / ٢) وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٨٢)

بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] وإنما أوجب الله الصبر، فإنه أمر به في غير آية، ولم يأمر بالرضا بالمقدور، ولكن أمر بالرضا بالمشروع، فالمأمور به يجب الرضا به^(١). «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان، وهو من توابع المحبة»^(٢).

وههنا ملحظ دقيق جداً بخصوص مشروعية الرضا بالمعاصي من جهة كونها خلقاً وقدراً لله تعالى، دون كونها في ذاتها معصية له مسخوطة منه ومن أوليائه سبحانه وتعالى، ولكن لا يُحسن فهم هذا كل أحد، وعليه؛ فقد لا يحسن إيراد هذا على ما يخشى عليهم عدم فقهه، أو حمله على غير محمله، أو توسيع مُضيّقه، أو تجاوز ضوابطه، حتى لا يكون لهم فتنة. نعوذ بالله من فتن العلم والعمل^(٣). فيضِلُّون بالرضا بالمعاصي لذاتها، فيركبونها مع زمر الضلال، زعمًا

(١) منهاج السنة النبوية (٣ / ١٢٠)

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٠)

(٣) إن مما يميّز منهج السلف الصالح للأمة حسن تقديرهم لأمر التربية والتعليم وتأثيرهم للحكمة في عرض المسائل، فما كل ما يُعلم يقال، وما كل ما يقال حَصْرُ أهله، فمن العلم ما يكون فتنة لمن لم يحمله على ما وضع له. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم؛ إلا كان لبعضهم فتنة». رواه مسلم في مقدمته (٥). قال ابن وهب رَحِمَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ: «وذلك أن يتأولوه غير تأويله، ويحملوه على غير وجهه». ذكره الشاطبي في الاعتصام (١ / ٤٨٩).

وقد ترجم البخاري رَحِمَهُ اللهُ: باب من خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا. وقال علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتعجبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله». وفي رواية: «ودعوا ما يُنكرون». أي: من المشتبهات التي لا يفهمونها على وجهها أو لا

=
تَحْتَمِلُهَا عُلُومُهُمْ أَوْ فَهْمُهُمْ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١ / ٩). قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١ / ٤٢٤): «وَمَنْ كَرِهَ التَّحْدِيثَ بِيَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ أَحْمَدُ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا الْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَانِ، وَمَالِكٌ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ، وَأَبُو يُونُسَ فِي الْغُرَائِبِ. وَمَنْ قَبْلَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فِي الْجَرَّائِنِ، وَأَنْ الْمُرَادُ: مَا يَقَعُ مِنَ الْفِتَنِ، وَنَحْوِهِ عَنْ حَذِيفَةَ. وَعَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَنْكَرَ تَحْدِيثَ أَنَسٍ لِلْحِجَابِ بِقِصَّةِ الْعَرَنِيِّينَ لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا وَسِيلَةً إِلَى مَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ بِتَأْوِيلِهِ الْوَاهِي. وَضَابِطُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَقْوِي الْبِدْعَةَ، وَظَاهِرُهُ فِي الْأَصْلِ غَيْرُ مُرَادٍ. فَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِظَاهِرِهِ مُطْلُوبٌ». أَهـ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمَعْلَمَ وَالْمُرَبِّيَّ وَالْمُفْتِيَ وَالْوَاعِظَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرَاعُوا أَحْوَالَ النَّاسِ وَاخْتِلَافَ أَفْهَامِهِمْ، فَلَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ غُرَائِبُ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الرَّاكِسُونَ فِي الْعِلْمِ، كَمَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ: «وَمَا يُؤْمِنُكَ أَتَى لَوْ أَخْبَرْتُكَ بِتَفْسِيرِهَا كَفَرْتَ بِهِ؟» أَيْ جَحَدْتَهُ، وَأَنْكَرْتَهُ، وَكَفَرْتَ بِهِ. ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٣٨٦) وَابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ (٦ / ٤٣) وَرَوَى الْبُخَارِيُّ (٦٨٣٠) أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيَّ أَجْلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاَهَا فَلْيَحْدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَلَّا يَعْقِلَهَا فَلَا أَحْلَ لَأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ..» الْحَدِيثُ. وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ (١ / ٥٣٩) عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ قَطُّ لَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُهُ؛ إِلَّا كَانَ ضَلَالًا عَلَيْهِ». فَمِنْ الْعِلْمِ مَا يَكُونُ فِتْنَةً. وَهَذَا إِذَا نُقِصَ مِنْ مَعْنَاهُ، أَوْ أُوِّلَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ.

منهم بالجرى معها رضا بإرادة الله الكونية حتى وإن سخطها الله تعالى شرعاً وديناً!

وقد حرّر الأملعي اللوذعي ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ذلك بقوله الدقيق وفقهه العميق: «أما المعاصي فترضى من جهة كونها مضافة الى الله خلقاً وتُسخط من جهة كونها الى العبد فعلاً وكسباً. وهو سبحانه إنما قدّر الأشياء لحكمة، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يُحِبُّ من أحدهما ويُكره من الآخر»^(١). «وفرق بين ما يُحِبُّ لنفسه، وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضاً من

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (٦ / ٥٩): «لما دعت الحاجة إلى تفریع الأعمال وكثرة فروعها، وذلك مستلزم لوقوع النزاع .. اطمأنت القلوب فيها إلى النزاع بخلاف الأمور الخبرية؛ فإن الاتفاق قد وقع فيها على الجمل؛ فإذا فُصلت بلا نزاع فحسن؛ وإن وقع التنازع في تفصيلها فهو مفسدة من غير حاجة داعية إلى ذلك.. ومما يتصل بذلك: أن المسائل الخبرية العلمية قد تكون واجبة الاعتقاد، وقد تجب في حال دون حال، وعلى قوم دون قوم، وقد تكون مستحبة غير واجبة، وقد تستحب لطائفة أو في حال كالأعمال سواء. وقد تكون معرفتها مُضِرَّة لبعض الناس؛ فلا يجوز تعريفهم بها». وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره (٤ / ٥٠٠) عند قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى : ٩]: «ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله». وقد استنبط الإمام المجدد في كتاب التوحيد على حديث معاذ: «أفلا أبشر الناس..» جواز كتمان العلم للمصلحة. وبالله التوفيق.

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٣) بتصرف يسير.

جهة أخرى، فإن الأمر الواحد يُراد من وجه ويكره من وجه آخر؛ كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه، فإنه يبغض الدواء ويكرهه، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب، لا لأنه في نفسه محبوب. وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بدّ له منه»^(١). فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت؛ كان هذا مقتضياً أن يكره إماتته، مع أنه يريد إماتته لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى.

فالأمر التي يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تُحب ولا تُرعى، لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها لما له في ذلك من الحكمة، فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها؛ لا ينبغي أن تُحب ولا تُرعى، كما لا ينبغي أن تُبغض.

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً. وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله، إذ له الحمد على كل حال، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خَلَقَ لأجلها ما خلق، وإن كنا نُبغض ما يبغضه من المخلوقات. فحيث انتفى الأمر الشرعي، أو خفي الأمر الشرعي؛ لا يكون الامتثال والرضا والمحبة كما يكون في الأمر الشرعي، وإن كان ذلك مقدوراً.

(١) البخاري (٤ / ٢٣١)

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلاً عن عامتهم. ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له، فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له؛ فهذا تكون حاله أحسن ممن يقصر عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له. ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية، ويبقى واقفاً مع هواه والقدر. ومن هؤلاء من يموت كافراً، ومنهم من يتوب الله عليه، ومنهم من يموت فاسقاً، ومنهم من يتوب الله عليه.

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدريّة، معرضين عن الأمر الشرعي، ولا بد مع ذلك من اتباع أمرٍ ونهيٍ غير الأمر الشرعي، إما من أنفسهم، وأما من غير الله ورسوله، إذ الاسترسال مع القدر مطلقاً ممتنع لذاته، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.

وقول من قال: أن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عن أحد من المسلمين، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع، ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه فلا بد أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه». (١)

والله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، وله الحكمة التامة في أفعاله حتى وإن خفيت عنا، وقد يقضي بالأمر الذي لا يحبه شرعاً لما يترتب عليه من خير

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٨٤ - ٤٨٥)

عظيم يعلمه ولا نعلمه، فله الخلق والأمر سبحانه. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قيل: فكيف يكون الله ساخطاً مبغضاً لما قدّره وقضاه؟!»

قيل: نعم، فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يفعله لما له في ذلك من الحكمة، وأن ما يضر الناس من المعاصي والعقوبات يخلقها لما له في ذلك من الحكمة. والإنسان قد يفعل ما يكرهه كشربه الدواء الكريه لما له فيه من الحكمة التي يجلبها كالصحة والعافية، فشرب الدواء مكروه من وجهٍ محبوب من وجه.

فالعبد يوافق ربه فيكره الذنوب ويمقتها ويبغضها لأن الله يبغضها ويمقتها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجلها، فهي من جهة فعل العبد لها مكروهة مسخوطة، ومن جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة. والعبد فعلها وهي ضارّة له موجبة له العذاب، فنحن ننكرها ونكرها وننهي عنها كما أمرنا الله بذلك، إذ كان هو أيضاً سبحانه يسخطها ويبغضها، ونعلم أن الله أحدثها لما له في ذلك من الحكمة، فنرضى بقضائه وقدره، فمتى لحظنا أن الله قضاه وقدرها رضينا عن الله وسلّمنا لحكمه، وأما من جهة كون العبد يفعلها فلا بد أن نكره ذلك وننهي عنه ونجتهد في دفعه بحسب إمكاننا، فإنّ هذا هو الذي يحبه الله منّا.^(١)

والله تعالى إذا أرسل الكافرين على المسلمين فعلياً أن نرضى بقضاء الله في إرسالهم، وعلينا أن نجتهد في دفعهم وقتالهم. وأحد الأمرين لا ينافي

(١) وهذا من دقيق العلم وعميق الفقه ونعم التوفيق.

الآخر.^(١) وهو سبحانه خلق الفأرة والحية والكلب العقور وأمرنا بقتل ذلك، فنحن نرضى عن الله إذ خلق ذلك، ونعلم أن له في ذلك حكمة، ونقلهم كما أمرنا، فإن الله يحب ذلك ويرضاه.^(٢) وهذه الحروف النفيسة مما يُسافر لتحصيلها، فرحم الله ابن تيمية.

غَايَةُ مَضَامِرِهَا الْغَوْصُ عَلَى دُرْرِ الْعِلْمِ بِفِكْرِ الْأَلْعِي
فَاطْلُبِ الْحِكْمَةَ مَا عِشْتَ وَدَعِ زُخْرُفَ الدُّنْيَا لِعُمْرٍ أَوْ غَيْبِي

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الرضا. وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلى القول باستحبابه، قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروي من الأثر: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربًّا سواي».^(٣)

(١) وهذا واضح عند التأمل، ويفهمه ينكشف سر المسألة، فمن جهة خلق الله لها وإفضائها لغاية حكيمة لله تعالى فهي مرضية، ومن جهة سخطه سبحانه لها ونهيه عنها وعدم رضاه شرعاً بها فهي مسخوطة لنا.

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٠٤ - ٢٠٩) مختصراً.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) (٨٠٧)، وانظر المجروحين (١/ ٣٢٧)، والمجمع (٧/ ٢٠٧)، ولسان الميزان (٤/ ١٦٧)، وقال زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٧١٢): إسناده ضَعِيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٥٤)، وقال في الضعيفة (٥٠٥): ضعيف جداً.

فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضة، فكيف يؤمر به وليس مقدورًا عليه.

وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، فعلى هذا يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه. والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس كسبيًا للعبد، بل هو نازلةٌ تحل بالقلب كسائر الأحوال. والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.^(١) وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة، فأوله مقامٌ ونهايته حال.

واحتج من جعله من جملة المقامات بأن الله مدح أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه، فدل ذلك على أنه مقدور لهم، وقال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».^(٢) وقال: «من

(١) أي أن المقام يكتسب عن طريق الرياضة والدُّربة والاجتهاد في العبادة حتى يكون مَلَكَه لصاحبه. أما الحال فهو موهبة ربّانية قد تولد مع صاحبها كالغريزة كسائر خِلاله وصفاته، وقد توهب لصاحبها أثناء عمره لطفًا من الله تعالى بلا قصدٍ تحصيلها بالمجاهدة، فالمقام كسبي والحال موهبي.

(٢) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

قال حين يسمع النداء: رضيْتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا؛
غُفرت له ذنوبه»^(١).

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا
الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه
والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة؛ فهو الصديق حقًا. وهي سهلة
بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما
إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها.

والتحقيق في المسألة: أن الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، موهبيٌّ باعتبار
حقيقته. فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس
شجرته؛ اجتنى منها ثمرة الرضا، فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في
التوكل والتسليم والتفويض؛ حصل له الرضا ولا بد.

ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجب الله
على خلقه رحمة بهم وتخفيفاً عنهم، لكن نديهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن
ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجنان وما فيها، فمن رضي
عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو
محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضا
بعده هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا،

(١) البخاري ١٥٩/١ (٦١٤)

ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين»^(١).

قلت: وقد يستقيم القول بعكس ما قرره الإمام رَحِمَهُ اللهُ وإن كان له وجه وجيه، فأقول: إن ابتداء الرضا موهبي وأوساطه ونهايته مكتسب، بمعنى أن ابتداءه محض إنعام بلا تطلّب من العبد، حتى إذا ذاقه وأحبه تطلّب موارده وازداد من اكتسابه مستعيناً بربه حتى يرقّيه معارج علوّه شيئاً فشيئاً، وكلٌّ من عند الله.

ولا بدّ أن يُعلم أن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي - كما مرّ معنا - وأنه لا تلازم بين الإرادتين الشرعية والقدرية، فالشرعية تابعة للمحبة، والقدرية تابعة للمشيئة، وكلاهما لحكم حميدة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والذي يكشف هذه الغمّة ويبصّر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة؛ إنها هو التفريق بين ما فرّق الله بينه وهو المشيئة والمحبة، فإنهما ليسا واحداً ولا هما متلازمين، بل قد يشاء ما لا يحبه، ويجب ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه. والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كلّه وكان جميعه، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٢ - ١٧٤) باختصار.

فإذا تقرر هذا الأصل وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاء؛ زالت الشبهات وانحلت الإشكالات والله الحمد، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدق القدر، وكل منهما يحقق الآخر.

إذا عرف هذا؛ فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥]، فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﷺ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً. وهذا حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان^(١) واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية

(١) للإيمان بشاشة وللقلب بشاشة، والبشاشة هي الانشراح والطلاقة والفرح، فيصح أن تقول خالط الإيمان بشاشة القلب، ويصح أن تقول: خالط القلب بشاشة الإيمان. وقال أبو العباس القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٠٥/٣) عند حديث أبي سفيان وهرقل في مسلم (١٢٨٩): «وقوله: «وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب»؛ هكذا وقعت هذه الرواية هنا، وفي البخاري: «حين تخالط بشاشته

واعدة، وتلقّى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم؛ فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله ﷺ.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنّة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وألا يُعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبه مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان. وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحرّ والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب

=

القلوب»، وهي أوضح. وأصل البشاشة: التلطف والتأنس عند اللقاء. يقال: بش به، وبشبهش. ومعنى هذا: أن القلوب المنشركة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشّت له، ورحّبت بلقائه، كما يفعل بالغائب عن اللقاء، ثم إذا حلّ الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتى يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار.

ويغضه، فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء»^(١) وقوله: «باختياره» أي: باختيار العبد للمعصية.

وهذا تتضح عقدة المسألة وينكشف خيطها، ويتمكن المرء حينها من التفريق بين مشاعره من الداخل تجاه الفعل الواحد وهو المعصية، وكيف يرضاه من جهة الخلق ويكرهه من جهة عصيان الأمر، فلا تناقض وإبطال، ولكن تناغم وإيمان، فيرضى بخلق ربه وتقديره وحكمته، ويسخط فسق نفسه ومعصيته، ويؤمن بالكتاب كله.

ولذلك قالوا: «من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويُمقت، ولتوضيح ذلك: لقد لعن الله سُبْحَانَهُ وتعالى الكافرين، ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وذمهم في مواضع كثيرة، والمؤمن في ذاته ليس ملعوناً، وليس مغضوباً عليه في ذاته، فقد يفعل من الأفعال ما هو ملعون أو مغضوب عليه، أو غير مرضي لله سُبْحَانَهُ وتعالى سواءً في الأفعال أو في الذوات أو في الأعيان، منها ما يغضه الله ولا يرضاه، ونحن إذاً لا يجوز لنا أن نرضى بكل شيء.

فهناك فرق بين القضاء والمقضي، وهذا الموضوع فيه دقة، وقد اختلف أهل السنة والجماعة مع الأشعرية، فالأشعرية جبرية جهمية، لكنهم لم يقولوا: إن الإنسان كريشة في مهب الريح، ولم يستطيعوا أن يصرحوا بالجبر.^(١)

وقد اختلف أهل السُّنَّة والجماعة مع الأشعرية في مسألة أفعال الله سبحانه، فقال أهل السُّنَّة والجماعة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وهو قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي، وهذا معروف بالبدئية، فلو فكرت لوجدت أن القضاء غير المقضي، فقضاء الله فعله، والمقضي أثر القضاء، وآثار قضائه يدرکها العقل والفطرة فيقول: «قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعله ومشيتته، وما قام به بذاته واتصف به سبحانه وتعالى، وأما المقضي فمفعوله المبين له المنفصل عنه، وهو المشتمل على الخير والشر، فقضاؤه كله حق، والمقضي منه حق، ومنه باطل»^(٢).

فمن حيث إن الله سبحانه وتعالى خلق إبليس، وخلق الكفر، وخلق الشر، وأن الله قضى ذلك فهذا حق، لكن من حيث إن هذه الأعيان أو هذه

=

(١) وهروباً من ذلك قالوا بالكسب وهو آيل للجبر، غير منفك عنه. هذا إذا تنزلنا لمقصوده، وإلا فليس تحت قوله حقيقة على التحقيق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في النبوات (١٤٣): «رأس الجبرية يقول ليس للعبد فعل البتة، والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، ولكن يقول: هو كاسب، وجههم لا يثبت له شيئاً. لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس: إنه لا يعقل فرق بين الفعل الذي نفاه والكسب الذي أثبتته. وأنشدوا:

مما يقال ولا حقيقة عنده معقولة تدنو إلى الأفهام
الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٩)

الأفعال مذمومة أو ملعونة شرعاً فهذه من جهة الشرع فيها الحق وفيها الباطل، ومنها ما يحمد ومنها ما يُذم، ومنها ما نرضى به ومنها ما نكرهه، لكن من حيث اتصاف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه هو الذي يقضي، وله القضاء، وله الأمر فهذا حق، فالقضاء كله حق، لكن المقضي هو أثر القضاء أعياناً أو أعمالاً، فمنها ما يُرضى ومنها ما يُسخط، ومنها ما هو حق ومنها ما هو باطل، بميزان الأمر والشرع. فهنا قال السلف هذا القول، فجاء الأشعرية وقالوا: القضاء هو عين المقضي، والفعل هو عين المفعول، ولهذا وقعوا في الجبر، أو لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا السؤال، ومنهم أبا بكر الباقلاني، شيخهم وإمامهم الأكبر.

وقول القائل: إذا كَانَ الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟ فهذا عجز، لأن القائل لا يفرق بين القضاء وبين المقضي، لكن أهل السُنَّة والجماعة يفرقون، ولهذا يقولون: نَحْنُ نؤمن بالقضاء، ونحب قضاء الله، لكن نكره المقضي الذي هو الكفر، فهنا أمران: قضاء الله، وهو: فعل قائم بذات الله. ومقضيٌّ وهو: المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله. والمقضي قسمان: منه ما يرضى. والقضاء الذي قضاه الله له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تَعَالَى ونسبته إليه فمن هذا الوجه يُرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يُرضى به، وإلى ما لا يُرضى به. ولهذا قال الله تَعَالَى لنبية ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فَاطِر: ٨].

ومن هنا أمر النبي ﷺ بأن يصبر من جهة أن الله يدخل من يشاء ويهدي من يشاء، ولا يعني ذلك أن يرضى بكفرهم، فلم يأمره ربه بذلك وحاشاه ﷺ، بل هو الذي جاهدهم واستمر في جهادهم، لكن مع المجاهدة لم يؤمنوا؟ لأن الهداية والضلالة بيد الله تعالى، فقد كتب عليهم الشقاوة فليكونوا كذلك، فعليك أن تسلم بما كتب الله، ولهذا جاء في سورة الأنعام ما هو أشد من ذلك، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] فلا يستطيع ذلك ولن يفعل.

وإنما هذا زيادة في تثبيت النبي ﷺ على عدم اليأس والتحسر، وإنما عليه البلاغ وهذا له مقام آخر، وذكر المصنّف رَحِمَهُ اللهُ مثلاً على ذلك فقال: لو قتل إنسانٌ نفساً. القتل له اعتباران: من حيث قدّره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، وهذا أمر كتبه الله وقدّره قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فلا مبدل لقدر الله ولا معقب لحكمه، فنرضى به من هذه الجهة، لكن لا نرضى عن القاتل، ولا نرضى عن فعله، فيقال: من حيث إن القاتل صدر منه القتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله؛ نسخطه ولا نرضى به.^(١)

(١) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١ / ١٥٥٤-١٥٥٨) باختصار وتصرف. وانظر نص

كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في مدارج السالكين (١ / ٢٥٧)

هذا؛ واعلم أن الله تعالى حكماً يستحق الحمد التام عليها في كل أمر قدره مهما تقاصرت أفهامنا عن إدراك بعضها، وقد ندرك طرفاً منها عند التفكر فضلاً من الله، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمن الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء، ولا من صلات الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرض للإذلال، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين: أحدهما: قمع إعجابهم بهذا الإذلال، والثاني: نفع أولئك بثوابهم.

ثم أمعنت الفكر فتلمّحت نكتة لطيفة، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك؛ لم تسكنها بالقلب، ونبت عنها بالعزم، ورأت أقرب الأشياء شبهاً بها مزبلة عليها الكلاب، أو غائطاً يؤتى لضرورة. فإذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار لم يكن للقلب بها متعلق متمكّن؛ فتهون حينئذ». (١)

وقال الشيخ الغنيان حفظه الله عن الرضا بالمصائب: «الإلزام بهذه المنزلة صعب، أي: كون الإنسان يرضى بالشيء الذي وقع له من المصائب؛ لأن الرضا معناه أن يغتبط بهذا الشيء ويفرح به، فهذا لا يستطيعه إلا الأفاضل، ولكن الواجب هو الصبر وعدم الاعتراض، أما الرضا فإذا وصل إليه الإنسان فهو فضل عظيم، وإن لم يصل إليه فلا يكلف به. قال شيخ الإسلام: «ولم يحى الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء ثناؤه على أصحابه». وقال: «وأعلى

من ذلك - أي: من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها^(١). قال د. سالم القرني: «والصحيح أن المصائب هي قضاء الله ومنسوبة إليه على وجهين:

الأول: كونها فعل الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرضا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عدل الله، وحكمته، وقدرته، وعلمه سبحانه وخلقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المقضي المنفصل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومعائب^(٢) فالمعائب لا شك أنه يحرم الرضا بها.

وأما ما يصيب الإنسان فقسمان - أيضًا -: فما كان من صحة وغنى ولذة وغيرها من النعم، وهذا القسم يجب الرضا به، وأنه فضل وإحسان من الله يحمد عليه ويشكر. وأما ما يصيب العبد المؤمن من فقر، ومرض، وجوع، وأذى، وحر وبرد، وغير ذلك مما يكرهه ويبغضه العبد، فيستحب الرضا به، ولو عمل الأسباب لتغييره إلى ما هو أحسن^(٣).. أما الرضا بالمعاصي فمحرم. والمعاصي والمنكرات أمور مضرّة للعاصي ولغيره، ومع ذلك يبقى بعض

(١) شرح فتح المجيد للغنيان (٩٤ / ٦)

(٢) المصائب: أي البلاءات المقدرة على الإنسان المؤلمة له بغير اختياره، أما المعائب فهي المعاصي والذنوب. ومن ذلك الاحتجاج بالقدر، فيُشرع عند المصائب ويحرم عند الذنوب والمعائب.

(٣) أي يدافع قدر الله بقدر الله سبحانه.

الناس معها ومع طبعه وذوقه، وينسلخ عن دين الله، ورُبِّما دخل في الشرك الأكبر.

وبعض الناس يبرّر ما هو عليه من معاصٍ بادعاء أن الإيمان في القلب. ومنهم من يتعبد الله بما حرمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقربة، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وحاله في ذلك شرٌّ من حال مَنْ يعتقد ذلك معصية وإثمًا. وقد تتمكن المعصية من القلب فيرضى بها صاحبها، بل ويغلو في ذلك، وذلك على حساب دينه وصحته وعقله.

وإيواء أهل المعاصي هو رضا بالمعصية، وتعاونًا عليها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فمن نصر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يقتصص منه؛ فقد رضي بفعله. فالإيواء فيه الرضا به والصبر عليه.

وإذا رضي أحد بالبدعة، وأقرّ فاعلها، ولم ينكرها، فقد آواه، وخالف بذلك أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ. فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة». (١) معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم، وأدّى وظيفته، ومن أنكر بحسب

(١) مسلم ٢٣/٦ (١٨٥٤) (٦٣)

طاقته فقد سلم من هذه المعصية،^(١) ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي. فقلوه: «ولكن من رضي وتابع» دليل على وجوب ترك الإيواء أو الرضا بالمعصية.

وقريب من هذا معاشرة أهل البدع، وأهل الفسق والعصيان، ومنادمتهم، وتقريبهم، وإقصاء أهل الإيوان، وأهل الطاعة، وهذه تسمى مداينة. وعلى المسلم ألا يداهن أهل العصيان، ويرضى بما هم عليه من الفسوق، ويسكت سكوت راض بما هم فيه من غير إنكار.

صحيح أن مداراة الناس، وخفض الجناح لهم، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، من أقوى أسباب الألفة، وقبول الحق، وهي مندوبة، كما في النصوص الشرعية الموضحة لذلك، كقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك؛ أمر مطلوب مستحب.

(١) والإنكار أرفع من مجرد الكراهية، لأن فيه مدافعة لها بحسب الإمكان، فجوزي بالسلامة التي هي أرفع، وكأن فيها إيماء لوعده بدار السلام، فالسلامة التامة إنما هي بدخول الجنة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، نسأل الله الكريم من فضله، والله أعلم.

أمّا الرضا بوقوع المعصية من العبد، والسكوت على ذلك، وتأنيده ولو بغير تصريح، فإن هذا من الرضا بمعصية الله، وهذا مخالف لأمر الله، وأمر رسوله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «إذا عملت الخطيئة في الأرض؛ كان من شهدها فكرها؛ - وقال مرة: فأنكرها؛ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فريضها؛ كان كمن شهدها». (١)

وهذه مسألة عظيمة؛ لأن الرضا بالمعصية معصية، فقد جاء رجل إلى الشعبي فحسن عنده مقتل عثمان رضي الله عنه، فقال الشعبي: «شركت في دمه». فجعل الرضا بالقتل قتلاً. وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٤٠]. فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا ظهر منهم منكر، وهذا عدم الرضا بالمعصية؛ لأن من لم يمتنعهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٠] فكل من جلس في معصية ولم ينكرها يكون مع أهلها في وزرهم، فينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية، أو عملوها، فإن لم يستطع الإنكار، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

يروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أخذ قومًا يشربون الخمر، ف قيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب، (٢) وقرأ هذه الآية:

(١) سنن أبي داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني في المشكاة (٥١٤١)

(٢) أي: عاقبه تعزيرًا له.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النِّسَاء : ١٤٠] ^(١) أي: إن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا بأجمعهم. ^(٢) ولا شك أن هذه المماثلة ليست في جميع الصفات، لكن إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة. فتجنب أهل الأهواء والبدع واجب لغير الناصح والمعلم لهم، وليس مثلهم في الأهواء والبدع، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٦٩].

فعلى المسلم أن لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان؛ لأن الله لا يرضاه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧]. ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وقد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله، ونهى عن المنكر، وأمرنا أن ننهى عنه ونبغضه

(١) تفسير القرطبي (٥ / ٤١٨)

(٢) وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر»، رواه أحمد (١ / ٢٠) وغيره وجود سنده ابن حجر في الفتح (٩/٢٥٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٧ / ٦). وقال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تدخل وليمة فيها طبل ولا معزاف». رواه أبو الحسن الحربي في الفوائد المتقاة (٤/٣/١) بسند صحيح عنه. وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ في المغني (٧/ ٢٧٩): «إذا دعي إلى وليمة فيها معصية كالخمر والزمر والعود ونحوه وأمكته الإنكار وإزالة المنكر؛ لزمه الحضور والإنكار، لأنه يؤدي فرضين؛ إجابة أخيه المسلم وإزالة المنكر. وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر. وإن لم يعلم بالمنكر حتى حضر أزاله، فإن لم يقدر انصرف».

ونسخطه ونبغض أهله، ونجاهدهم بأيدينا وألستنا وقلوبنا، فكيف نتوهم أنه ليس في المخلوقات ما نبغضه ونكرهه، وقد قال الله تعالى لما ذكر من المنهيات: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، فإذا كان الله يكرهها وهو المقدر لها فكيف لا يكرهها ويبغضها العبد المأمور بذلك؟ وقال الله تعالى: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَصْلَخْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [التور: ٥٥]، فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به، فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة.

وهذا التفصيل يبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مفرق طرق بين الناس»^(١).

هذا؛ ولا بد من التفريق بين إرادة الله الشرعية المستلزمة للرضا على الدوام وبين مشيئته الكونية التي في الرضا بها تفصيل، حتى ننزل الرضا منزلته. قال د. الحوالي: «أما الرضا بالقدر على المصائب فله تفصيل. لأن الرضا بالدين معروف، لكن هناك أقدار قضاها الله سبحانه وتعالى. فإذا وقع القدر وكان مما لا يرضينا أو مما نكره، فالذي أمرنا به هو الصبر، ولو أمرنا بالرضا لكان في ذلك مشقة علينا.

(١) الرضا بالقضاء. د. سالم القرني عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٤١٥ - ٤١٩) مختصراً.

لكن الذي أمرنا به فضلاً من الله تعالى هو الصبر، فالكراهة: أمرٌ جبلي خلقي طبعي لا نستطيع أن نتخلص منه. لكن أن نسخط أو أن نقنط فهذا مما لا يجوز: والعبد يستطيع أن يصبر، كما فعل ذلك النبي ﷺ عندما رفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة^(١) ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». ^(٢) فليس هناك أحد أكثر رضاً بالقدر من النبي ﷺ أو أعلى منه منزلةً، وهل هذا الصبر منعه من أن تدمع عينه لما مات ابنه إبراهيم وقال: «إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا». ^(٣) فهذا هو حال المؤمن، وليس معنى ذلك أن يغيّر طبيعته كما فعل ذلك بعض المتصوفة عندما مات ابن له فحلق لحيته، وأخذ يضحك أمام الناس، ويقول: «أُرَاغَم نفسي وأرضى بقدر الله وقضائه» فهذا عصى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعل من

(١) أي قرينة بالية، والمراد خشخشة الروح في صدر الصبي إيذاناً بخروجها.

(٢) البخاري ١٠٠/٢ (١٢٨٤) ومسلم ٣٩/٣ (٩٢٣).

(٣) صححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (١ / ١٥) عن أنس، وقد روي بلفظ آخر عند أحمد وأبي داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣١) قال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». أما لفظ الصحيحين فهو: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون». رواه البخاري ١٠٥/٢ (١٣٠٣) ومسلم ٧٦/٧ (٢٣١٥) (٦٢)

نفسه أمثلة؛ لأنه إلى ما قبل القرن العشرين كان حلق اللحية مثلة، عقوبة يُعاقب بها، فإذا أُريد أن يعاقب أحد حتى في الدول الكافرة تحلق لحيته.

وكانت بعض الأمم الممسوخة - كما كان بعض المجوس - يفعلونه، ومنهم الذين قدموا على النبي ﷺ، وهذا مسخ للفطرة، ولهذا أنكره النبي ﷺ، والشاهد أن هذا الصوفي لما فعل ذلك جعل نفسه مثلة، وأضحك الناس عليه، وهو بزعمه يظن أنه يراغم النفس ويرضي الله؛ لأن ابنه قد مات، والنبي ﷺ أكمل الناس يقول: «إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له»^(١) فهو ﷺ أعلم الناس بالله وأتقاهم له، ومع ذلك حزن قلبه، ودمعت عينه، فنحن مأمورون بالصبر»^(٢).

وقال تقي الدين رحمه الله: «ما يقع في الوجود من المنكرات هي مرادة لله إرادة كونية داخلية في كلماته التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وهو سبحانه مع ذلك لم يردّها إرادة دينية، ولا هي موافقة لكلماته الدينية، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، فصارت له من وجه مكروهة^(٣) ولكن هذه ليست بمنزلة قبض المؤمن فإن ذلك يكرهه^(٤) والكرهية مساءة المؤمن، وهو يريد

(١) البخاري (٢٠) بنحوه وأحمد (٢٤٩٥٦) بلفظ: «والله إني لأعلمكم بالله عز وجل، وأخشاكم له». قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٥٥٣)

(٣) أي مكروهة لله تعالى من جهة أنه شاءها كوناً وقدرًا لحكمته، ولم يردّها ولم يجبها شرعاً.

(٤) ويعني بذلك حديث الولي الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء

لما سبق في قضائه له بالموت فلا بد منه، وإرادته لعبده المؤمن خير له ورحمة به؛ فإنه قد ثبت في الصحيح: «إن الله تعالى لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيراً له»^(١).

وأما المنكرات فإنه يبغضها ويكرهها؛ فليس لها عاقبة محمودة من هذه الجهة إلا أن يتوبوا منها فيُرحموا بالتوبة، وإن كانت التوبة لا بد أن تكون مسبقة بمعصية^(٢) ولهذا يجاب عن قضاء المعاصي على المؤمن بجوابين: أحدهما: أن هذا الحديث لم يتناولها وإنما تناول المصائب.

والثاني: أنه إذا تاب منها كان ما تُعقبه التوبة خيراً، فإن التوبة حسنة، وهي من أحبّ الحسنات إلى الله، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشد ما يمكن أن يكون من الفرح. وأما المعاصي التي لا يُتاب منها فهي شرٌّ على صاحبها. والله سبحانه قدّر كل شيء وقضاه؛ لما له في ذلك من الحكمة، كما

=
أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». رواه البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٢).

(١) مسلم (٢٩٩٩)

(٢) والتقصير في الطاعة من قبيل المعاصي.

قال: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧] فما من مخلوق إلا والله فيه حكمة. والمقصود: التنبيه على أن الشيء المعين يكون محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه، وأن هذا حقيقة التردد، وكما أن هذا في الأفعال فهو في الأشخاص. والله أعلم^(١).

وبالجملة؛ فحكم الرضا بالقضاء والقدر واجب وفرض لأنه فعل الله تعالى، أما حكم الرضا بالمقضي والمقدور فهو فضيلة مستحبة على الراجح، ولكن لا يحل النزول فيها عن الصبر إلى ما دونه من التسخط، أما الرضا بالمعاصي فمحرم، بل تبغض وتسخط من جهة فعل العباد لها لا من جهة تقدير الله تعالى، وبالله التوفيق.

وبعد؛ فتأمل - رحماني الله وإياك - عمق مذهب السلف، وكيف حاز الكيف والكم والكمال من الحق، فمذهبهم بحمد الله تعالى متسق في كل المسائل، متكامل في سائر الشؤون، لأنه باختصار عين مذهب الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، فهو المنهج النقي الصافي من كدر وأغلاط وانحراف مذاهب الأمم الضالة من أهل الشرق والغرب وعباد الهوى والشيطان، فهم في ضلالتهم طرائق قِدَدًا، ومذاهب مختلفة، وضلالات متنوعة، أما منهج الرسول ﷺ فهو وحده الصراط المستقيم والنور المبين، وكل خطأ يقع فيه منتسب إلى السنة فخطؤه مردود عليه، والسنة بريئة من

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٣٤)

خطئه مهما علا شأنه وطار صيته وعظم في الناس شأنه، والمنصف الخبير - حتى من المخالفين - يعلم صدق ذلك.

وبحمد الله تعالى فالعامة الذين لم يتلوّثوا ببدع أهل الأهواء هم من أهل السنة والجماعة في الجملة، وكل من وافق الكتاب والسنة فهو على منهج السلف الصالح بقدر موافقته، وبعيد عنه بقدر مباعده، فهو الميزان وهو البرهان وهو الصراط المستقيم والنور المبين. ومن وافق ذلك فهو السُّنِّي حَقًّا والسُّلَفِيَّ صدقًا حتى وإن لم يتلقب بذلك، ومن ناقضه فليس منها في شيء، فالألقاب لا تُزَكِّي أحدًا ولا تغني عن الحق شيئًا، ولكن ما جعله الشرع لقبًا كالإسلام والإيمان والسُّنَّة ونحو ذلك فهو مُعَظَّمٌ وفاضل، وفيه كفايةٌ وغنى ومقنعٌ عما سواه من الألقاب المُحدثة.

ولنعبر ذلك بهذه المسألة المُعقَّدة الشائكة التي اختلفت فيها أنظار النظار من مختلف الفرق، وقد ظهر توفيق الله لأهل السنة فيها كما في سائر المسائل من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وكما أن الأمة وسط بين الأمم فأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق، فمذهبهم قد استوعب مسائل القدر بأطرافها فآمنوا بالكتاب كله، بالقضاء والقدر الشرعي والكوني والإرادة والمشية والقضاء والمقضي وخلق الخير والشر وتعلق ذلك بأسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العلی.. وغير ذلك، فلم يُردُّوا من الوحي شيئًا، ولم يضربوا مسائله ببعض، ولم يبطلوا شيئًا منها أو يتأولوها على غير محلها، ولم يتحيروا ويتهوَّكوا، ولم يفترضوا التناقض فيها، ولم يمسكوا بطرف دون آخر، بل قد ألهمهم الله تعالى الإيمان بها جميعًا، لا على التقليد؛ بل على الاقتناع بالبراهين

الشرعية والأدلة العقلية والسلطان الفطري، فكل مسألة حَدُّوا لها أبعادها اللائقة بها، وضمّوا أمثالها ونظائرها، وفرّقوا بين حقائق مختلفاتها، وقسّموا أنواعها، وأقاموها في نفوسهم وعلومهم ودعوتهم مقامها اللائق بها، وتمكّنوا - بفضل من الله وحده - أن يصلوا لمرحلة الشمولية إجمالاً وتفصيلاً عبر إمكان الرؤية الصحيحة للأمر الواحد من أكثر من جانب، فينظرون للمسألة من جانبها هذا ويقررون مسائلها وحدودها بالبراهين الواضحة، ثم نراهم في ذات المسألة عينها ينظرون لها من جانب آخر فيلبسونها ما يناسبها بأدلتها الراسخة ويجرونها ويقررون ما فيها بحسب حقيقتها، ثم ينظرون لها من جهة ثالثة فيوضحون أطرافها ويكشفون غوامضها ويحلّون عُقَدَها ويجرّون مسائلها ويستدلون بالوحي في كل تفصيل لها خاصاً كان أو عاماً، مطلقاً أو مقيداً، فيتمكن القارئ والسامع والمتدبر من فهمها من جميع جوانبها، فلا تشبه عنده حينها، بل تغدو مشتبهاتها في بصيرته كالمحكمات، ومحكماتها كجَارِ العادات، قد استضاء طريقه على نور من الشرع ساطع، واستبانت محجّته على ضياء حُجّته المبيّنة، فسار - بعون ربه - واثقاً مهدياً.

بخلاف غيرهم من الفرق المخالفة التي ضربت كتاب ربها ببعض، وتمسكت بطرفٍ ونفت طرفاً لعجزها عن استيعاب الكل بجمع ما تفرّق من أجزائه، أو استعجام فرعٍ عن إلحاقه بأصله، فبتروا ذلك النصّ، ولووا عنق الآخر، وضعّفوا ما صحّ، وصحّحوا ما ضعف، وقالوا بالنسخ في غير محلّه، وبالردّ بغير برهانه، وبالتحريف الباطل الذي سمّوه تأويلاً، والتجهيل الذي

لقبوه تفويضًا، وخالفوا إجماع السلف، وهكذا الأمر إذا وسّد غير أهله، لا جرم فهذا شأن البدع.

حتى إن صحّت النية في بحث المسألة؛ فالصواب مفتقرٌ لاثارة الوحي الإلهي الذي جاء به الرسول ﷺ، فعدم الإخلاصِ شركٌ، وعدمُ الاتباع ابتداءً، ذلك أن الله تعالى قد حكّم: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [١١٠] ﴿الْكَهْف: ١١٠﴾ وَقَضَى: ﴿فَأَمَّا يَا تِينَ كُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [١٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى [١٢٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى [١٢٦] [طه: ١٢٣ - ١٢٦]، والله المستعان. (١)

أخيرًا تأمل كلام الإمام ابن القيم رحمه الله الذي حُقّ له أن يكتب بمداد العيون: «إذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم، طالب للدليل، مُحكّم له، متّبع للحق حيث كان، وأين كان، ومع من كان؛ زالت الوحشة، وحصلت الألفة. ولو خالفك فإنه يخالفك ويعذرُك، والجاهل الظالم يخالفك بلا حجة، ويكفّرُك أو يُبدّعُك بلا حجة، وذنبك رغبتك عن طريقته الوخيمة وسيرته الذميمة. فلا تغترّ بكثرة هذا الضرب، فإن الآلاف المؤلّفة منهم لا يعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يُعدل بملء الأرض منهم!

(١) وانظر بسط ذلك في رسالة «ويكون الدين كله لله» للمؤلف.

واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض»^(١) ومما يعين العالم زهده في الثناء والمال والجاه وسائر المتع الزائلة، ومن تحسّى مرقة السلطان أحرقت شفّتيه.

ومن جميل النظم ودقيق العلم وفائق الفقه وعظيم الحمد لله تعالى في القدر ما ذكره الربيع بن سليمان رحمه الله: سئل الشافعي رحمه الله عن القدر، فأنشأ يقول:

ما شئتُ إن لم تشأْ لم يكنْ	وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكنْ
خلقت العباد على ما علمتْ	ففي العلم يجري الفتى والمسنْ
على ذا مننتْ وهذا خذلتْ	وهذا أعنتْ وذا لم تُعنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ	ومنهم قبيحٌ ومنهم حسنٌ ^(٢)



(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٠٨)

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٤٨)، واعتقاد أهل السنة للالكائي (١٣٠٤).

الْقَدَرُ وَالشَّرْعُ

القدر هو تقدير الله تعالى للأشياء، والشرع هو دينه الذي ارتضاه. فمن أطاع الله تعالى وعبدته فقد اجتمع في حقه الأمران القدر والشرع، وهو مستحق للأجر والثوبة. ومن عصاه فقد تحقّق فيه القدر دون الشرع، وهو مستحق للسخط والعقوبة. وقد ضل بعض الناس في هذا الباب إذ ظنوا أن القدر ملازم للشرع على الدوام، وهذا باطل، فإن الكفر داخل في جملة مقادير الله تعالى، وقد قال في كتابه: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٢٧]، وسرّ المسألة؛ أن الله تعالى حكماً عظيمة جليّة في الابتلاء الذي لا يكون إلا بوجود الصراع والدفع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، فلو لم يوجد شرّ في المخلوقات لم تظهر خيريّة الخير، وتعطلت كثير من الأمور التي يحبها الله تعالى كالتناهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والقيام لله تعالى في شديداً الأمور ونحو ذلك، فالضدّ يظهر حسنه الضد، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والشرّ ليس إلى الله تعالى، بل هو راجع إلى نقص المخلوق وخذلان الله له من جهة قطع إمداد الخير عنه. قال ﷺ: «والشرُّ ليس إليك»^(١). فأفعال الله تعالى لا توصف أبداً بالشرّ؛ لأنها عدل أو إحسان، وكلاهما خير، وأفعال

(١) أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (٢١٥ / ١)

الله كلّ غاياتها طيبة محمودّة؛ أما ما يُضَافُ للعبد فإنه قد يكون شرًّا بالنسبة له؛ أما بالنسبة لقدر الله فهو خير. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في رسالته النفيسة «العبودية» وفي ظني أنه لم يُكتب على نسيجها مثلها حتى من الشيخ نفسه في بقية مؤلفاته، قال: «عنوان التوحيد لا إله إلا الله، والإله: الذي يأله القلب بكمال الحب والإجلال. وهذه العبادة متعلقة بإلهيته تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله، بخلاف من يقرّ بربوبيته ولا يعبدّه، أو يعبد معه إلهًا آخر. فالإله الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك. وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله. وأما العبد بمعنى المُعَبَّد سواء أقرّ بذلك أو أنكره؛ فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يُعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، التي يحبها ويرضاها، ويوالى أهلها ويكرمهم بحسبها، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، فالذي اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض أو في مقام أو حال؛ نقص في إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المتسبين إلى التحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السرّ والإعلان. وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رَحِمَهُ اللهُ فيما ذكر عنه: «بأن كثيرًا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء

والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ^(١) فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ^(٢). والرجل مَنْ يكون منازعاً^(٣) لا من يكون موافقاً للقدر.

(١) الرَّوْزَنَةُ: الكُوَّةُ والنافذة، سواء كانت في الجدار أو في السقف، والثاني أكثر استعمالاً.
(٢) الحق: هو الله تعالى. بالحق: أي بالصواب المبني على دلائل الوحي. للحق: أي مخلصاً في ذلك لله تعالى. ومنه قول ابن القيم في نونيته:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أَعْنِي طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

فلواحد: أي أخلص عملك للواحد وهو الله تعالى. واحداً: أي لا يضررك قلة السالكين لسبيل الرسل ولو كنت وحدك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [التَّحْلِ ١٢٠]. في واحد: هو الصراط المستقيم خلافاً لطرائق الضلال وسبل الزيغ.

(٣) ولا يقصد بالنزاع اللفظ الموحش بالمحاربة، بل قصد رَحْمَةُ اللَّهِ مدافعة القدر الذي لا يوافق الشرع بقدر موافق للشرع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٥١]، فيدفع الله تعالى بأهل الصلاح والاستقامة أهل الفساد والزيغ والاعوجاج. ومثاله في النفس: لو أن معصية عرضت له واشتهتها نفسه؛ فهذا قدرٌ مقبل عليه - وإن كان لا يعلم غايته، فقد يكون أو لا يكون - فيدفع هذا القدر المظنون بالقدر الذي يُرضي الله تعالى، فيردع نفسه عن الحرام، فإن وفق لذلك فقد وافق قدره شرع ربه، وإن خُذِلَ عن بلوغه فقد تخلفت نفسه عن وارد الشرع فعصت واستحقت عقوبة المذنبين، والله المستعان، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: ٤٩].

وقد قصد الشيخ عبد القادر بهذا الرد على الذين قالوا: لا نردُّ القدر، بل نماشيهِ ونركب ما اتفق لنا منه طاعة كانت أو معصية، جريئاً معه وشهوداً له!

فرَدَّهم إلى وجوب التفريق بينهما، وأن كلاً بقدر الله، وأن المعصية إذا لم يفعلها الإنسان فهي غير مقدَّرة عليه أصلاً لأنها لم تقع، فكيف يحتجون بأمر لم يقع بعد، فإن وقع الذنب فلا

والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله، لكن كثيراً من الرجال غلطوا، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك ديناً وطريقاً وعبادة، فيضاهون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

ولو هُتِدوا لعلوا أن القدر الذي أُمِرنا أن نرضى به، ونصبر على موجهه إنما هو في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

=

حجة في القدر معه؛ لأن العبد قد علم من نفسه القدرة التي حباه الله تعالى بها لمدافعته ابتداء لو أراد، فوقعه في الذنب دليل على تخلف الإرادة منه لأنه مكلف، والله لا يكلفه سوى طاقته ووسعه، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر الله ويتوب من صنوف المعاييب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال يوسف: ﴿إِنَّهُ وَمَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، ويجب في الله ويبغض في الله، تعالى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الْمُنْتَحَنَةِ: ١] إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الْمُنْتَحَنَةِ: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْجِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [الْمُجَادَلَةِ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [الْقَلَم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الْحَاجِيَةِ: ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [١٩] وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا

الْأَمْوَاتُ ﴿فَاطِر: ١٩-٢٢﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. (١)

وَقَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ.

وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدْرِ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: مَجُوسِيَّةٍ، وَمُشْرِكِيَّةٍ وَإِبِلِسِيَّةٍ.

فَالْمَجُوسِيَّةُ: هُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدْرِ اللَّهِ وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَعَلَاتِهِمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَةَ، (٢) وَمَقْتَصِدُوهُمْ أَنْكَرُوا عَمُومَ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقَهُ وَقُدْرَتَهُ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَّةُ: الْمُشْرِكِيَّةُ: وَهُمْ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدْرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ. وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فَيَمْنُ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ.

(١) العبودية (٨-١٣) باختصار.

(٢) وَهُمْ الْقَدَرِيَّةُ الْأُولَى الَّذِينَ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ابْنُ عَمْرِو بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والفرقة الثالثة: الابليسيّة: وهم الذين أقرّوا بالأمرين، لكن جعلوا هذا تناقضاً من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا في حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مُقدّمهم، كما نقله أهل المقالات ونقل عن أهل الكتاب.^(١)

والمقصود؛ أن هذا مما يقوله أهل الضلال، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علماً، وكل شيء أحصاه في إمام مبین. ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشيتته ووحدانيته وربوبيته، وأنه خالق كل شيء وربّه ومليكه ما هو من أصول الإيمان.

(١) كما ذكروا عن أبي العلاء المعري أنه قال مُتَأَبِّلِسًا مُعْتَرِضًا على قطع يد السارق مع كون ديتها نصف دية إنسان:

يَدُ بَخْمَسٍ مَّئِينٍ عَسَجَدٍ وَدِيَتْ مَا بِالْهَأُ قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ
تَنَاقُضُ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَنَسْتَعِيدُ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
وما التناقض إلا في عقله وقلبه، وقد ردّ عليه الشيخ عبد الوهاب المالكي رَحِمَهُ اللهُ بقوله:

قُلْ لِلْمَعْرِيِّ عَارٌ أَيُّمَا عَارٍ جَهْلُ الْفَتَى وَهُوَ عَنْ ثَوْبِ التَّقَى عَارِي
عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا، وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي
لَا تَقْدَحَنَّ بَنُودَ الشَّرْعِ عَنْ شُبِّهِ شَرَائِعُ الدِّينِ لَمْ تُقْدَحْ بِأَشْعَارِ

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فأخبر أنه يفعل بالأسباب.

والمقصود؛ أنه لا بد من الإيمان بالقدر، فإن الإيمان بالقدر من تمام التوحيد، كما قال ابن عباس: «هو نظام التوحيد»، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده.

ولا بد من الإيمان بالشرع، وهو الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه. والإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا، فإنه لا بد له من حركة يجلب بها منفعة، وحركة يدفع بها مضرتة، والشرع هو الذي يميز بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تضره، وهو عدلُ الله في خلقه، ونوره بين عباده، فلا يمكن الأدميين أن يعيشوا بلا شرع يميزون به بين ما يفعلونه ويتركونه.

وليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الإنسان المنفرد لا بد له من فعل وترك، فإن الإنسان همام حارث، كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارثٌ وهمام»^(١) وهو معنى قولهم: متحرك بالإرادات. فإذا

(١) أبو داود (١٠٥٤) وصححه الألباني.

كان له إرادة فهو متحرّك بها، ولا بد أن يعرف ما يريد له هو نافع له أو ضار، وهل يصلحه أو يفسده. وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضهم يعرفونه بالاستدلال الذي يهتدون به بعقولهم، وبعضهم لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم.^(١)

وفي هذا المقام تكلم الناس في أن الأفعال هل يُعرف حسنُها وقبحُها بالعقل؟ أم ليس لها حسن ولا قبح يعرف بالعقل؟ وقد اتفقوا على أن كون الفعل يلائم الفاعل أو ينافره يعلم بالعقل، وهو أن يكون الفعل سبباً لما يحبه الفاعل ويلتذّ به، وسبباً لما يبغضه ويؤذيه.

وهذا القدر يُعلم بالعقل تارة، وبالشرع أخرى، وبهما جميعاً أخرى. لكن معرفة ذلك على وجه التفصيل ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الدار الآخرة لا تعرف إلا بالشرع. فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفاصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جمل ذلك^(٢). وهذا التفصيل الذي يحصل به الإيمان وجاء به الكتاب، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن

(١) فمصادر العلوم ثلاثة: فطريّ غريزيّ، وتجريبيّ كسبي، وموقوف على الوحي الإلهي.

(٢) أي: يعرفون بفطرتهم وعقولهم أن للكون ربّاً خالقاً مالكاً مدبراً قديراً مألوهاً مستحقاً للعبادة دون سواه. أما تفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله فموقوفة على السمع.

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى : ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٣﴾﴾ [سبأ : ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء : ٤٥]»^(١).

وبهذا يتبين لنا أن العبد الموفق هو من آمن بالشرع والقدر، وعقد قلبه عليهما، ولم يُلغِ شرعاً ولم يُبطل قدراً، ويدفع ما يخافه من الأقدار بما يلائمه منها على وفق شرع الله رب العالمين، ويفوض كل أمره إلى الله عز وجل، قال ابن القيم رحماً الله وإياه: «إذا وقف العبد على حسن تدبير الله تعالى، واستغنى القلب به؛ لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف إن لم ينضم إليه المسالمة للحكم، وهو الانقياد له، فإن المنازعة للحكم إلى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار، وذلك دالٌّ على فقر صاحب الاختيار إلى ذلك الشيء المختار، ومن كان فقيراً إلى شيء لم يردده الله؛ لم يطلق عليه اسم الغني بتدبير الله، فلا يتم الغنى بتدبير الله سبحانه لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره.

ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه، فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيراً إلى حظٍّ من الحظوظ

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١١١-١١٥) مختصراً.

يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه؛ لا يطلق عليه اسم الغنيّ حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليّه وقيومه ومتولّي تدبيره.

فمتى سلّم العبدُ من علّة فقره إلى السبب، ومن علّة منازعته لأحكام الله سبحانه، ومن علّة مخاصمته للخلق على حظوظه؛ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه، مفضّلاً إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئاً من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه. فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: «اللّهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت»^(١). فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه، ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه^(٢)، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه

(١) البخاري ٦٠/٢ (١١٢٠)، ومسلم ١٨٤/٢ (٧٦٩) (١٩٩) وقمامه: «.. فاغفر لي ما قدّمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المقّدم، وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت».

(٢) كما ذكر عن عليّ رضي الله عنه أنه صرع رجلاً من المشركين وطرحه وبرك عليه ليقتله، فبصق الرجل عليه فقام عنه وتركه، ولمّا سئل عن ذلك قال: «إنّه لما بصق في وجهي اغتظت منه فخفت إن قتله أن يكون للغضب والغيط نصيب في قتله، وما كنت أن أقتله إلا خالصاً لوجه الله تعالى». وانظر: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي (٤٩/١).

قط»^(١). فهذا صبر الرسول ﷺ على ما يؤذي، وهذا غيرته وانتقامه لمحارم الله، وهذا لتكميل عبوديته.

ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمر أن يكفر به. ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحُكْمَ لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر. والحكم نوعان: حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني، بل الأحكام ثلاثة^(٢):

حكم شرعي ديني، فهذا حقه أن يُتلقَى بالمسألة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

فإذا تلقى بهذا التسليم والمسألة إقرارًا وتصديقًا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذًا وعملاً، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع

(١) البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧) بلفظ: «ما انتقم رسول الله ﷺ قط لنفسه، إلا أن

تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله».

(٢) قصد بذلك تقسيم الحكم القدري الكوني إلى قسمين: الأول: ما كان باختيار العبد، والثاني ما كان بغير اختياره، فهما راجعان إلى القسم الأول.

بِخَلْقِهِ^(١) كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خَلْقُهُ تحت الأمر، واضمحل خوضه في معرفته بالحق، فاطمأن إلى الله معرفةً به ومحبة له وعلمًا بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني.

الحكم الثاني: الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويغضه ويذمّ عليه، فهذا حقه أن يُنَازَعَ ويدافع بكل ممكن، ولا يسالم البتة، بل ينزع بالحكم الكوني أيضًا، فينازع حكم الحق بالحق للحق، فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي^(٢): «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي رَوْزَنَةً، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والعارف من يكون منازعًا للقدر، لا واقفًا مع القدر». فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه؛ فتأمل قول عمر بن الخطاب وقد عوتب على فراره من الطاعون ف قيل له: أتفرّ من قدر الله؟ فقال: «نفرّ من قدر الله إلى قدره».

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالته، ودفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا

(١) الخلاق: النصيب. ومراده: أنه لم يصرف نعم الله في معاصيه. قال تعالى: ﴿فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]
(٢) ويقال كذلك: الجيلاني، والكيلاني، وكلها صحيحة.

يستسلم له ويسالنه ويتلقاه بالإذعان، بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفى قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض.

فحقُّ هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم. وبهذا أمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية؛ ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟! وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه.

ولو أن عدوًّا للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعًا لقدر الله بقدره. فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية، اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده؛ فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث:

وهو الحكم القدرى الكونى الذى يجرى على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له فى منازعته. فهذا حقُّه أن يُتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به

المركب في لُجَّةِ البحر، وعجز عن السباحة وعن سبب يدينه من النجاة؛ فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات آخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزّة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جفّ القلم بما يلقيه كل عبد، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحلّ في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزّته وعلّمه وملكه العادل، فهو مُوجِبُ أسمائه الحسنی وصفاته العلی^(١)، فله عليه أكمل حمد وأتمّه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره.

وإن كان حظ العبد من هذا القدر الذمّ؛ فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح^(٢)؛ لأنه مُوجِبُ كماله وأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وهو مُوجِبُ

(١) أي: أن كمال أسماء الله تعالى وصفاته يقتضي حدوث آثارها، ومن ذلك اسم الحكيم وصفته الحكمة، فمن آثار الحكمة تقدير ذلك الأمر المُعَيّن على عبده، فهذا المقدور هو مُوجِبُ حكمة الله تعالى التي نزلت منزلتها اللائقة بها فيه.

(٢) بين المدح والحمد قدرٌ مشترك، فيجمعها الثناء. وقد يكونان بمعنى واحد على الدوام، وأن الفرق مجرد تقديم حرف على حرف، ومن أمثال ذلك قولهم: صاعقة وصاقعة، وأطيب وأيطب ونحو ذلك. والله تعالى أهلّ أن يُمدح ويُحمد، وعند مسلم (٦٠٧٤)

نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه، فاققسم الرب والعبد الحظين في هذا القدر، وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن، والعبد حظه الذم واللوم والإساءة واستحقاق العقوبة.

استأثر الله بالمحامد والفضلِ وولَّى الملاممة الرِّجُلَا

=

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه».

ولبعض أهل العلم رأي آخر في التفريق بينهما، فمن ذلك ما نقله الطيبي في حاشيته على الكشف (٧١٧/١) قال: «المدح أعم من الحمد؛ لأن المدح يحصل للعاقل وغيره، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان والفضائل». وقال الراغب في المفردات (١٣١): «كل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً». أهد. وعليه؛ فالحمد: أخص من المدح وأعم من الشكر؛ فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يكون منه وفيه غير اختياره كالنسخير وأصل الخلقة. فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والمدح يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة: فكل شكر حمد وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً. وانظر: نضرة النعيم (١٧٥٤/٥). وزاد ابن القيم اشتراط محبة المثنى عليه ليكون حمداً فقال في بدائع الفوائد (٩٣/٢): «الفرق بين الحمد والمدح أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن الممدوح مع حبه وإجلاله وتعظيمه». والله أعلم.

ويتبين هذا المقام في أربع آيات: إحداها: قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والثانية: قوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علماً ومعرفة، وقام بموجبها إرادة وعزماً وتوبة واستغفاراً؛ فقد أدى عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدرٌ زائد على مجرد التسليم والمسألة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١). وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «إِنَّ وَرَثَةَ الرُّسُلِ وَخُلَفَاءَهُمْ لِكَمَالِ مِيرَاثِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ آمَنُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحُكْمِ وَالْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي أَعْمَالِ الرَّبِّ وَأَوَامِرِهِ، وَقَامُوا مَعَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَصَدَّقُوا بِالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ».

فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصَدَّقُوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما، كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر. وكانوا أسعد الناس وأقربهم

(١) طريق المهجرتين (١/٦٣ - ٧٠) مختصراً.

عصبة في هذا الميراث النبوي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولُبِّ العالم، وليس الشأن في الإيمان بألفاظ هذه المسميات ووجد حقائقها، كما يفعل كثير من طوائف الضلال.

والمقصود؛ أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل وورثتهم. والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «الْقَدَرُ قُدْرَةُ اللهِ». واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: «إنه شفى بهذه الكلمة، وأفصح بها عن حقيقة القدر».

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه، وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنی، والحكمة من صفاته العُلى.

والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة: هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به، فكل هذا يسمى حكمة. وفي

الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن»^(١). وفي الحديث: «إن من الشعر حكمة»^(٢). فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيتته؛ فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشرٍّ حمداً استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره، فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة. والله أعلم»^(٣). «فإن قيل: فكيف تصنعون بما يُشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات، ومن هو خارج عن التكليف، ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى، وصفاته كمال، وأفعاله حكمة ومصلحة، وله كل ثناء وكل حمد ومدحة. وكل خير فمنه وله وبيده، والشر ليس إليه بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن كان في مفعولاته فهو خير بإضافته إليه، وشرٌّ بإضافته إلى من صدر عنه ووقع به. فتمسك بهذا الأصل ولا تفارقه في كل دقيق وجليل، وحكمه على كل ما يرد عليك، وحاكم إليه، واجعله آخيتك^(٤) التي ترجع إليها، وتعتمد عليها.

(١) روي مرفوعاً ولا يصح. فهو عند الترمذي (٥١ / ٥) (٢٦٨٧) وضعفه الألباني.

(٢) البخاري (٨ / ٣٤) (٦١٤٥)

(٣) طريق الهجرتين (١ / ٨٨ - ٩٣) مختصراً.

(٤) الآخية، واحدة الأواخي: عمود ينصب وتربط فيه الدابة، فمهما اتجهت فعودها إليه ودورانها عليه. وهو أيضاً عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه

واعلم أن لله خصائص في خلقه ورحمة وفضلاً يختص به من يشاء، وذلك مُوجِبُ ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى وسوسة شياطين الإنس والجن والنفس الجاهلة الظالمة: إنه هلاً سوى بين عباده في تلك الخصائص، وقسمها بينهم على السواء؟ فإن هذا عين الجهل والسفه من المعارض به، وقد بينا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه. ولكن اعلم أن الأمر قسمة بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا.

فالطيون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكلُّ مستعملٍ فيما هو له مُهيئاً وله مخلوق، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته؛ فكذلك لا تضرهم الأدواء ولا السموم، بل متى وسوس لهم العدو واغتا لهم بشيء من كيد أو مسهم بشيء من طيفه تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون.

=

كالعروة تشد إليه الدابة. انظر: لسان العرب (٣٢/١) وتاج العروس (١٠/١٠) ولشيخ الإسلام عبارة مشهورة في ذلك وهي قوله: «التورق آخية الربا». وهي من المسائل التي خالفه فيها تلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله تعالى.

وإذا وقعوا في معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة^(١)، وانقلب في حقهم دواء، وبُدِّلَ حَسَنَةُ بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، لأنه سبحانه عرّفهم بنفسه وبفضله، وبأن قلوبهم بيده، وعصمتهم إليه، حيث نقص عزماتهم وقد عزموا ألا يعصوه، وأراهم عزّته في قضائه، وبرّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه واقتقارهم وذلمهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبدًا، فإنهم لما أعطوا من أنفسهم العزم ألا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبهم، ثم عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره، وجميل ستره إياهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرته لهم، وبرّد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حلیم ذو أناة، ورحيم سبقته رحمته غضبه، وأنهم متى رجعوا إليه بالتوبة وجدوه غفورًا رحيمًا حلیمًا كريماً، يغفر لهم السيئات، ويقللهم العثرات، ويودّهم بعد التوبة ويحبهم. فتضرّعوا إليه حينئذ بالدعاء، وتوسّلوا إليه بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه، ويسّرهم للتوبة والإنابة، وأقبلوا بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه

(١) وهذا الكلام التالي للإمام ابن القيم معدود من أنفس ما سطره أهل العلم بإطلاق، وحقيق أن يسجد لله شكرًا من وفقه الله للوقوف عليه وفهمه وصبّ سلسيله على نياط قلبه القريح من خوف العاقبة، ففيه من مفاتيح أبواب الرجاء للتائبين ما لا يُحاط به، فرحمة الله وسلامه ورضوانه على ابن القيم ووالديه وأحبابه وشيوخه والمسلمين جزاء ما قام لله تعالى بتلك المقامات العلمية السنية الشريفة.

معاصيهم وجنایاتهم من عطفه عليهم وبرّه لهم وإحسانه إليهم، فتاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلما تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه؛ تعرّف إليهم تعرّفاً آخر فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبرّه وامتنانه وكرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع^(١) في طرق معاصيه، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم وكرمه في أن خلّى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمه^(٢) وإعانتته، ثم لم يُخلّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يرجى معه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمر معهم لأفضى إلى الهلاك.

ثم تداركهم برّوح الرجاء فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظم الجنایة وقبح المعصية وغضبه ومقتته على من عصاه فقط؛ لأورثهم ذلك المرض القاتل والداء العضال من اليأس من رَوْحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي تُوجِبُها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمةً لهم وسبباً إلى علوّ درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده.

(١) الإيضاع: الإسراع.

(٢) فالجوارح من نعمه، وكذلك القدرة، والإرادة، وهجوم الخواطر الصالحة والمحابّ المستحسنة، وتهيئة الأسباب، وردّ الموانع ونحو ذلك، فهي بحدّ ذاتها نعمة، ولكن العبد الجاهل يعصي ربّه بنعم ربه! فما أوسع حلم الله، وما أرحمه وأبرّه وألطفه وأجمله!

فأشهدهم بالجناية عزّة الربوبية وذلّ العبودية، ورقّاهم بآثارها إلى منازل قُربه ونيل كرامته، فهم على كل حال يربحون عليه، ويتقلّبون في كرمه وإحسانه. وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير، به يسوقه إلى كرامته وثوابه، وكذلك عطاياه الدنيوية نِعَمٌ منه عليهم، فإذا استرجعها أيضًا وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة، كما قيل: «إن الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت عطايا الآخرة».

والرب سبحانه قد تجلّى لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضيّ مشيئته وعظيم سلطانه وعلوّ شأنه وكرمه وبرّه وإحسانه وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلى حيث احتملته القوى البشرية، ووراء مما لم تحمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خَلَدٍ^(١) مما لا نسبة لما عرفوه إليه!

فاعلم أن الذين كان قِسْمُهم أنواع المعاصي والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلّب في غضبه وسخطه، وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصي والكفر، مقرّة بأن له الحجة عليهم، وأنّ حقّه قبلهم، ولا يذكر أحد منهم النار إلا وهو شاهد بذلك مقرّ به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد، فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم، والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباؤوا بها

(١) خَلَدَ مفرد، ومعناه: البال والنفس والقلب. وجمعه أخلاق. أما الخُلْد فهو طول الإقامة.

وانظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/٦٧٦)

لكانت رحمته أقرب إليهم من عقوبته، فيشهدون أنهم عبيده وملكه، وأنه أوجدهم ليظهر بهم مجده، ويُنفذ فيهم حكمه، ويُمضي فيهم عدله، ويُحق عليهم كلمته، ويُصدق فيهم وعيده، ويُبين فيهم سابق علمه، ويُعمر بهم ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته.

وشهد أولياؤه عظيم ملكه، وعزّ سلطانه، وصدق رسله، وكمال حكمته، وتمازى نعمته عليهم، وقدر ما اختصهم به، ومن أي شيء حماهم وصانهم، وأي شيء صرف عنهم، وأنه لم يكن لهم إليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها إليه ألا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين، وشهدوا له سبحانه بأن ما كان منه إليهم وفيهم مما يقتضيه إتمام كلماته من الصدق والعدل والقول وتحقيق مقتضى أسمائه فهو محض حقه، وكل ذلك منه حسن جميل، له عليه أتم حمد وأكمله وأفضله، وهو حُكمٌ عدل وقضاءٌ فصل، وأنه المحمود على ذلك كله، فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد، وكمال أظهره في حقه، وعزُّ أبداه، ومُلْكُ أعلنه، ومراد له أنفذه، كما فعل بالبُدنِ وضروب الأنعام أتم بها مناسك أوليائه وقرايين عبادته، وإن كان ذلك بالنسبة إلى الأنعام هلاكًا وإتلافًا، فأعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن تكون دماؤهم قرايين أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله^(١)، كما قال حسان بن ثابت:

(١) كما قيل:

لئن قَرَّبَ العَبَادُ للهِ أنْعَمًا وَضَحَّوْا لمولاهم بغيرًا فما ليا

يتطهّرون يرونه قربائهم^(١) بدماء من علقوا من الكفار
وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القسري^(٢) بشيخ المعطلة الفرعونية
جعد بن درهم، فإنه خطبهم في يوم أضحى، فلما أكمل خطبته قال: «أيها
الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم^(٣)، إنه زعم أن

=

فاربّ فاقبلها قرايين راحتي فثأماً من الكفار أضحت بوالياً

(١) وفي رواية مشهورة: يتطهّرون كأنه نسك لهم.

(٢) الأمير خالد بن عبد الله القسري، والي الكوفة، ونائب الخليفة هشام بن عبد الملك فيها.
وكان يُلقب: قصاب الزنادقة. والزندقة: هي النفاق. وما أكثر زنادقة اليوم المحتاجة
رقابهم لقصب، نسأل الله تعالى أن يعزّ دينه وأن يُعلي كلمته وأن ينصر عباده المؤمنين،
وأن يبرم لهذه الأمة أمراً رشداً.

(٣) الجعد بن درهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣ / ١٤٨): «هو أول من قال بخلق
القرآن، سكن دمشق، وكان من أهل خراسان من ترمذ، وكان صاحب خصومات.
ضال مبتدع.. وكان يتردّد على وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ.. وكان يكثر المسائل في الصفات،
فنهاه وهب وقال له: «ويلك يا جعد أقصر المسألة، إنّي لأضنك من الهالكين. لو لم
يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا ما قلنا ذلك، وأن له عينًا ما قلنا ذلك».. تطلّب بنو أميّة،
فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقية الجهم بن صفون، فتقلّد هذا القول.. - قلت يعني
القول بخلق القرآن - ثمّ قتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى، بالكوفة،
وذلك أن خالدًا خطب الناس فقال في خطبته تلك: «أيها الناس، ضحوا تقبل الله
ضحاياكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم
موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً». ثمّ نزل فذبحه في أصل المنبر بيده.

=

الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى عما يقول الجعد علواً كبيراً». ثم نزل فذبحه، فكان ضحيته.

وذكر ذلك البخاري في كتاب «خلق الأفعال». فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداءه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يُقرّون به. ولو شهدوه وأقرّوا به لأدركهم حنانه ورحمته، ولكن لما حُجبوا عن معرفته ومحبه وتوحيده وإثبات أسمائه الحسنی وصفاته العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به؛ صاروا أسوأ حالاً من الأنعام، وضربوا بالحجاب، وأبعدوا عنه بأقصى البعد، وأخرجوا من نوره إلى الظلمات، وغُيبت قلوبهم في الجهل به

=

أثابه الله تعالى، وذلك في أيام هشام بن عبد الملك، وقد كان هشام طلبه بدمشق حين أظهر ما أظهر، ثم إنه هرب بعد ذلك، فكتب إلى نائبه خالد بن عبد الله القسري أن يقتله فقتله». أه. وقد شكره ابن القيم في نونيته بقوله:

شَكَرَ الصَّحِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سَنَةٍ اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ أَخِي قِرْبَانٍ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٧١): «إننا نفق أمره عند الناس بعض الشيء لأنه كان مُعلّم مروان بن محمد وشيخه، ولهذا كان يسمى مروان الجعدي». أه. ومروان بن محمد هذا آخر خلفاء بني أمية، ويلقب بمروان الحمار لقوّة جلدّه وصبره في حروبه. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله لَيَرَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وما هو إلا الوحي أو حدُّ مُرهفٍ تُزِيلُ ضُبابَهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ
فهذا شفاءٌ للقلوبِ مِنَ الْعَمَى وهذا شفاءُ الْعِيِّ مِنْ كُلِّ جَاهِلٍ

وبكماله وجلاله وعظمته في غيابات، ليتّم عليهم أمره، وينفذ فيهم حكمه، والله عليهم حكيم»^(١).

ومن لطف الله تعالى بعباده أنه يزعجهم عن رغبة القرار في الدنيا ليرغبوا إلى الآخرة ويعملون لها عملها، فجعل الدنيا مستمتعّ مسافر، وزاد راكب، وميدان امتحان، وتكليف تشریف، فلم يكتب لها الخلد ولم يجعل لها السلامة من الآفات، فحلالها منغص فكيف بحرامها، فإن غفل وليّه بحلالها وقسى قلبه بالانغماس فيها لسع الحكيم قلبه بحرمان أو آفة أو مرض أو خوف أو مصيبة تقرع قلبه الغافل لينتبه من غفلته لعقله، ويثب من سقطته لصهوة عزمه، ويقوم من رقدته لفلاح آخرته، فيسعى للدرجات العلى من الجنة والرضوان المقيم. هذا في شأن المنغمس في المباح، أما العاصي فيزعج قلبه بسوط أشدّ، فيفسد عليه ما عصى به ربّه، لعلّه يفهم الرسالة، ويتدارك الفوات، ويلحق بركب التوابين، فإن لم يفعل فسد قلبه وعلاه الرّان، ولا إله إلا الله، والله المستعان. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله قاعدة مطردة في ذلك فقال: «وهذه القاعدة مطردة في كل شيء عصى الربّ به، فإنه يُفسده على صاحبه، فمن عصاه بهاله أفسده عليه، ومن عصاه بجاهه أفسده عليه، ومن عصاه بلسانه أو قلبه أو عضو من أعضائه أفسده عليه وإن لم يشعر بفساده.

فأيّ فساد أعظم من فساد قلب خرب من محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس به والفرح بالإقبال عليه،

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٣٥ - ١٤٠) باختصار.

وهل هذا القلب إلا قلبٌ قد استحکم فسادَه والمصاب لا يشعر، وأيُّ فساد أعظم من فساد لسان تعطل عن ذكره وما جاء به وتلاوة كلامه ونصيحة عباده وإرشادهم ودعوتهم إلى الله، وأيُّ فساد أعظم من فساد جوارح عطلت عن عبودية فاطرها وخالقها وخدمته والمبادرة إلى مرضاته. وبالجملَة؛ فما عُصيَ اللهُ بشيءٍ إلا أفسده على صاحبه.

ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتابه ووحيه الذي هدى به رسوله وأتباعه والمعارضة بينه وبين كلام غيره، فأَيُّ فساد أعظم من فساد هذا العقل؟! وقد أرى الله سبحانه أتباع رسوله من فساد عقل هؤلاء ما هو من أقوى أسباب زيادة إيمانهم بالرسول وبما جاء به، وموجباً لشدة تمسكهم به^(١).
والمؤمن يعلم أن لعقله مدى ينتهي إليه فلا يزيغ بعُجب، ولا يطغى بكبر. وقد أحسن المعلمي رَحِمَهُ اللهُ في توصيفه عجز العقل، وأن له حاقّة ينتهي إليها مهما بلغت حدّته ونبوغه: «وليعلم العاقل أن عقله قوّة من قواه المخلوقة له، كالسمع والبصر والشمّ والذوق وغيرها. فكما أن كلّ قوّة من هذه لها حدٌّ لا تتجاوزه، فكذلك العقل. وكما أن للحواسّ أغلاطاً معروفةً كرؤية الواحد اثنين والصغير كبيراً وعكسه، وتوهّم بعض الناس أنه يسمع كلاماً في حال أن الذين بجانبه لا يسمعون شيئاً، واستطابة الروائح الكريهة في بعض الأمراض، وطعم الماء العذب مرّاً في بعضها وطعمه كأنها مُزج بالسكر بعد تناول بعض الأدوية المرّة؛ فكذلك للعقل أغلاطٌ أدقُّ وأخفى. وقد روي عن الإمام

(١) الصواعق المرسلة (١/٥٢٥)

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لِلْعَقْلِ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ كَمَا أَنَّ لِلْبَصَرِ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ» (١) (٢).

(١) توالي التأسيس في معالي ابن إدريس ص: (٧٢) وانظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢) / (١٨٧)

(٢) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٣٠٧/٢) وقال رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رسالة فِي حَقِيقَةِ التَّأْوِيل (١/٧٤-٧٦): «وَقَدْ جَرَّبْنَا أَنَّ مِنْ كَلْفٍ بَصَرُهُ إِدْرَاكُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ إِدْرَاكُهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَدْرِكُ ذَلِكَ، فَكَمْ مَرَّةً تَرَاءَى النَّاسُ الْهَلَالَ فَرَأَيْتُهُ مَعَهُمْ، فَإِذَا حَدَّقَتْ وَأَمَعَنْتَ فِي النَّظَرِ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ، وَلَكِنَّهَا خُطْفَةٌ لَا تَثْبُتُ، ثُمَّ أَيَّاسٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، فَأَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ تِلْكَ الْخُطْفَةَ هِيَ صُورَةٌ خَيَالِيَّةٌ لِمَا أَتَخَيَّلُهُ تَبَرُّزٌ إِلَى الْعَيَانِ؛ لِقُوَّةِ التَّخْيِيلِ وَكَدِّ الْبَصَرِ. فَكَثِيرًا مَا يُعْرَضُ لِلْعَقْلِ مِثْلُ هَذَا إِذَا كُفِّفَ إِدْرَاكُ مَا لَا يُدْرِكُ، وَالْفَرْقُ أَنَّ خَطَأَ الْبَصَرِ يَنْتَبِهُ لَهُ الْعَقْلُ، وَلَا يَكَادُ يَنْتَبِهُ لَخَطَأِ نَفْسِهِ.

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِيقَ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي وَكَثِيرًا مَا يَدْرِكُ الْعَقْلُ خَطَأَ مَا تَصَوَّرَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَبْأَسُ، فَلَا يَزَالُ فِي أَخْذٍ وَرَدٍّ إِلَى أَنْ يَكَلَّ وَيَمَلَّ؛ يَسْمَعُ بِذَهَابِ تَعْبِهِ سَدَى فَيَقْنَعُ بِالشَّبْهَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا، وَمِثْلُهُ مِثْلُ مُسَافِرٍ يَأْبَى أَنْ يَنْزِلَ لِيَسْتَرِيحَ إِلَّا فِي مَوْضِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، وَلَيْسَ أَمَامَهُ مَوْضِعٌ كَذَلِكَ، فَلَا يَزَالُ كُلَّمَا أَتَى عَلَى مَوْضِعٍ لَمْ يَرِهِ عَلَى الشَّرْطِ حَتَّى يَعْقِلَهُ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ؛ فَيَنْزِلُ وَيَسْلِي نَفْسَهُ وَيَغَالِطُهَا، يَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ حَسَنٌ وَجَمِيلٌ. وَأَنْتَ إِذَا كُنْتَ قَدْ وَقَفْتَ عَلَى بَعْضِ الْكُتُبِ الْمَطُولَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ وَتَدَبَّرْتَهَا تَحَقَّقْتَ هَذَا الْمَعْنَى، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ شَبْهَةً عَقْلِيَّةً قَدْ قَرَّرَهَا أَحَدُهُمْ عَلَى أَنَّهَا بَرَهَانٌ قَاطِعٌ إِلَّا وَجَدْتَ غَيْرَهُ قَدْ نَقَضَهَا، ثُمَّ يَجِيءُ ثَالِثٌ فَيُدْفَعُ هَذَا النِّقْضُ، فَيَجِيءُ رَابِعٌ فَيُردُّ ذَلِكَ الدَّفْعُ، وَهَكَذَا.

وقد كان الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «العقل مع نصف العلم، خير من نصف العقل مع العلم». وهذا فقه عظيم من هذا الإمام، لأن آلة الإدراك هي العقل، فقليل العلم يتتفع به العقل لأنه يُحَسِّنُ الاغْتِذَاءَ بِهِ، لمعرفة حدود العلم والفهم، ومهارته في استخراج كنوز المعارف من جواهر العلوم، واقتباس أنوار الهدى من مشكاة العلم الصحيح، فهو يُمَيِّزُ ويقارن ويقيس ويمزج ويحلل، فيأخذ زبدة العلم بصفائه وَحِدَّتِهِ. ولكن إن ضَعُفَ العقل فقد تكون علومه ضارّة، لأنه سيضعها في غير محلّها، ويفهمها على غير وجهها، فينقلب العلم جهلاً، وخير له لو لم يعلم، فإذا انضاف لذلك عَجَبٌ وكبر فهي الفاقرة! والله الحافظ العاصم الموفّق.

ويشهد لذلك ما ذكره أبو حَيَّان التوحيدِي رَحِمَهُ اللهُ^(١) قال: «قال أبو العباس: الناس في العلم على ثلاث درجات، فواحد يُلْهَمُ فَيُعَلِّمُ فيصير مبدأً، والآخر يتعلّم ولا يُلْهَمُ فهو يُوَدِّي ما قد حفظ، والآخر يُجْمَعُ له بين أن يُلْهَمُ وأن يتعلّم. فيكون بقليل ما يتعلّم مُكثَرًا بِقُوَّةٍ ما يُلْهَمُ.. وقال سولون^(٢):

حَجَجٌ تَهَاوَتْ كَالزَّجَاجِ تَهَاوَتْهَا حَقًّا وَكُلُّ كَاسِرٍ مَكْسُورٌ».

(١) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدِي (١٨٦/١)

(٢) سولون أو صولون Solon (٥٦٠ - ٦٤٠ ق.م. تقريبًا)، مفكّر وسياسي ومشرّع وشاعر ورجل قانون يوناني، له حِكْمٌ ذائعة. قام بسنّ مجموعة من القوانين الإصلاحية التي تعارضت مع نظام الدولة المتّبع آنذاك. وقد عُرِفَ سولون بقلب مؤسس الديمقراطية. وقد انتُخب رئيسًا للقضاة في أثينا، ثم حاكمًا على أثينا. وقد قام بعد تولّيه

العلم صغير في الكميّة، كبير في الكيفيّة. قال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملته على وجهه كان له إثناءً ونفعٌ فائض، ودرّ سائح، وغاية محمودة، وأثرٌ باق. وهذه كلّها كميّات من تلك الكميّة.

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وصية نافعة في التعامل مع الشبهات فقال: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السّفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمرّ الشبهات بظاهرها ولا تستقرّ فيها، فإراها بصفائه، ويدفعها بصلابته. وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمرّ عليك؛ صار مقرّاً للشبهات» وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ معلّقاً على ذلك: «فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»^(١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ مبيناً أن الرضا بالله تعالى إنما هو الرضا بمحابه سبحانه دون مكروهاته، وأنه لا يجوز الرضا بالمعاصي، وأن الدعاء وإنكار المنكرات غير مناقض للرضا: «اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقرّبين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعّل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي! وانخدع

=

الحكم بوضع أحكام عرفت باسم «قانون صولون»، وكان الهدف منها أن تكون دستوراً يحكم به البلاد.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٤٣)

بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى.

واعلم أن من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر، فأما الرضا فلا يتصور؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة. فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به؛ فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب فإنه حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بالألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يَحْجُمُ رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ الحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟! من حبيبه؟!

وشُغِلَ القلب بالحب من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف؛ تُصَوَّرَ في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضاً يُتَصَوَّرُ تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة.

وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه؛ فقد يبهره بحيث يدهش فلا يحس بما يجري عليه. وكان سهل رَحِمَهُ اللهُ به عِلَّةً يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقليل له في ذلك فقال: يا دوست^(١)، صَرَبُ الحبيب لا يُوجع.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحسّ به ويدرك ألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له - أعني بعقله - وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به، وراغب فيه، ومتقلد من الفَصَاد به مِنَّةً بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك المسافر في طلب الربح؛ يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طَيَّبَ عنده مشقة السفر، وجعله راضياً بها. ومهما أصابته بليّة من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاتته؛ رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه^(٢). هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً.

وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تَوَاصَفَهَا المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة

(١) دوست: الحبيب، بلسان فارس.

(٢) شُكِرَ اللهُ تعالى وحَمْدُهُ على المصائب غايةً المقرّين السابقين، وهي مرتبة فوق الصبر والرضا، ولا تُنال إلا بعدهما.

الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار، بدايته من نقطة مذرة، ونهايته جيفة قدرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرًا، فترى الصغير كبيرًا والكبير صغيرًا، والبعيد قريبًا والقيح جميلًا! فإذا تصور استيلاء هذا الحب؛ فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله، المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها الغلط^(١)، ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت؟ حية عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت.

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهب عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت!»!

وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم، والكلب يجرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحًا فقال: عسى

(١) لأنها بصيرة العلم المعتمدة بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أن يكون خيرًا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبي من حولهم وبقوا هم. قال: وإنما أُخِذَ أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى^(١). فإذا من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال.

وقطع عروة بن الزبير رَحْمَةُ اللَّهِ رجليه من ركبته، من آكلةٍ خرجت بها، ثم قال: «الحمد لله الذي أخذ مني واحدة. وإيْمُكَ^(٢) لئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيت، ولئن كنتَ ابتليتَ فقد عافيت»، ثم لم يدع وِرْدَهُ تلك الليلة.

(١) ويشبه هذا ما حكى لنا من أن نفرًا مسافرين، وكان بصحبته رجل صالح لا يترك قول: «لعل في الأمر خيرًا»، كلما نابه أمر فيه كراهة له أو لهم. ثم إنهم اتفقوا على أن يُخفوا راحلته في شعب من الشعاب لما كانوا يستريحون من عناء الطريق. فلما فعلوا أتاه بعضهم ليؤمهم بفقدها لوحدها عن سائر رواحل أصحابه؛ فقال بثقة المؤمن بربه: «لعل في الأمر خيرًا من الله». فكان كما قال؛ إذ هجم عليهم قوم فاجتاحوا رواحلهم، ولم يتركوا لهم سوى بعض زاد يحملونه فوق ظهورهم، فعرفوا صاحبهم بفعلمهم وأنه كان اختبأً منهم له، فعاد تأديبًا من الله لهم وإظهارًا لكرامة من توكل عليه ووثق به، وهالتهم خيرة الله لصاحبهم، فحملوا متاعهم على راحلة ذلك الواثق بربه، والله المستعان.

(٢) أي: قَسَمًا بك يا الله.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الفقر والغنى مطيَّتان ما أبالي أيتها رُكبت، إن كان الفقر فإنَّ فيه الصبر، وإن كان الغنى فإنَّ فيه البذل».

وقد كان عمران بن الحصين رضي الله عنهما قد استسقى بطنه، فبقي ملقًى على ظهره ثلاثين سنة، لا يقوم ولا يقعد - قد نُقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته - فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لماذا تبكي؟ قال: لأنني أراك على هذه الحالة العظيمة! قال: «لا تبك فإنَّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي».

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة - وقد كان كُفَّ بصره - جاءه الناس يُهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعوا لهذا ولهذا - وكان مجاب الدعوة - قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفتُ عليه فعرفني وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردّ الله عليك بصرَكَ. فتبسم وقال: «يا بني، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري».

وقال بعض السلف: «لو قُرَّضَ جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه».

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت - قطعاً - أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم؛ كان ممكناً في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً.

وإمكانه من وجهين:

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء.

والثاني: الرضا به لا لحظٍّ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب ورضاً له، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد الحب في مراد المحبوب، فيكون ألدّ الأشياء عنده رضا محبوبه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل: فما جُرح إذا أرضاكم ألم.

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يُدهش عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقدته من نفسه، لأنه إنما فقدته لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه. وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع، وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشقٍ بلا موت
ثم رمى بنفسه الأرض، فحملوه ميتاً^(١). فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق، والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق

(١) نعوذ بالله تعالى من مصارع السوء، وسيئات الخواتيم. والحب الحقيقي النافع هو حبُّ الله تعالى وحبُّ دينه ورسله وأوليائه، وركنا العبادة هما الحب والتذلل، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته العظيمة:

من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضًا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب^(١)!

واعلم أن الدعاء غيرُ مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضًا. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترّين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء؛ فقد تعبّدنا به، وكثرت دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام - على ما نقلناه في كتاب الدعوات - تدل عليه. ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وعبادة الرحمن غاية حبه	مع ذلّ عبده هما قطبان
وعليهما فلک العبادة دائر	مادار حتى دارت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله	لا بالهوى والنفس والشيطان

(١) وهذه حروف عزيزة وجميلة جدًا.

وأما إنكار المعاصي وكرهاتها وعدم الرضا بها؛ فقد تعبّد الله به عباده وذمّهم على الرضا به فقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا﴾ [يونس : ٧]، وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الزّوّة : ٨٧].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به».

وقد أمر الله تعالى بالمنافسة في الخيرات وتوقّي الشرور فقال تعالى: ﴿خَتَمْنَاهُ بِمِسْكٍِّ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ : ٢٦]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والآنهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيئ مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في حقّه، فقال رجل: ليتني أوتيئ مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل»^(١).

وأما بغض الكفار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٢٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة : ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام : ١٢٩]. وقال ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٢).

(١) البخاري (٢٣٦/٦)

(٢) البخاري (٤٨/٨) ومسلم (٤٣/٨)

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو مُحَالٌ وهو قاذح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقامًا من مقامات الرضا، وسمّوه حُسْنَ الخُلُق، وهو جهل محض.

بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضًا عدو بعض أعدائك وساعٍ في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك. وكذلك المعصية لها وجهان: وجهٌ إلى الله تعالى من حيث إنه اختياره وإرادته، فيرضى به من هذا الوجه تسليماً لذلك المثلک إلى مالك الملك، ورضا بما يفعله فيه، ووجهٌ إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله وبغيضاً عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أُميّز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته

واتخذته عدوّاً لي، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي. ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحقُّ على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة؛ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك، وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقّه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجّم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك - إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم - فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك. وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك، وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوه عدوّاً.

وأما بغضه لك فأني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلّطت عليه دواعي البغض، ولكنني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمّفته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك،

وبغضه ومقته لك أيضًا عندي مكروه من حيث إنه وصفه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي.

وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي، ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه؛ فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يُكره من وجه ويُرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصى، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [التَّحَلُّ: ٦٠].

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله، ويمقت من مقته الله، ويعادي من أبغده الله عن حضرته، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة. وبهذا يُعرف أيضًا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب وسبباً لتواتر مزايا اللطف^(١). ومن جميل كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتَ سِرْبَالَ الدُّنْيَا قَدْ تَقَلَّصَ عَنْكَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ لُطِفَ بِكَ؛ لِأَنَّ الْمُتَعَمِّمَ لَمْ يَقْلَصْهُ عَلَيْكَ بَخْلًا أَنْ يَتَمَزَّقَ، لَكِنْ رَفَقًا بِالْمَاشِي أَنْ يَتَعَثَّرَ، أَحْرَمَ عَنِ الْحَرَامِ بِنَزْعِ مَخِيطِ الْهَوَى لَعَلَّ جَذْبَ التَّوْفِيقِ يَقَارِنَ ضَعْفَ كَسْبِكَ»^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٥ - ٤٤٥) بانتقاء واختصار وتصرف.

(٢) المدهش (١/ ٤٥٣) بتصريف يسير.

وبما أن الدعاء الخالص هو أعظم الأسباب في تحصيل الخير ودفع الشرّ فينبغي على الداعي أن يراعي جهة العبوديّة بدعائه، وأنّه يتقرّب إلى ربه بعبادة يحبها الله تعالى، قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب، أو دفع مرهوب، أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخّ العبادة وخُلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ومثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجاهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليّة ووسائل جميلة لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسّلوا إليها، والله الموفق»^(١). والله المستعان.

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخبُّ



(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدى رَحِمَهُ اللهُ (ص: ٧٤).

الْقَدْرُ وَالْعَقْلُ

جعل الحكيم القدير سبحانه للعقل البشري سُورَه الذي يحمي له سلامته، وَحَدَّهُ الذي يستحيل عليه اجتيازه، وسقفه الذي يعجز مهما قويت حدّته وَذَكَتْ قريحته من اختراقه، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق : ٣]. فالمُدركاتُ أكثر وأعظم وأخفى وأوسع من أن يحيط بها ذِيّك العقل الإنساني، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء : ٨٥]، رحمةً من الله تعالى لذلك العقل العظيم إن هو آمن بربه واتّبع هديه ولم يكن من الكافرين الذين سخفت عقولهم وصغرت أحلامهم وانقلب إدراكهم فأهوى بهم للدركات. ومع ذلك فلا يزال غرور كثير من الناس يكابر في ذلك، ﴿يَنَاقِثُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٧﴾ [الانفطار : ٦ - ٧].

فأعظم ما في الإنسان عقله وقلبه، فالعقل جوهره في الغاية من النفاسة، والنهاية في الإعجاز، والقلب سيّد مُختار، يتلقّى من عقله ما يُعينه على مراده، بهما علِمَ المرء وكُلف وعَمِلَ وحرث وجرى في دار ابتلائه بما جرّت به مقاديره. وَهَبَهُ رَبُّهُ عقلاً يُمَيِّزُ به الطريقين، وقلباً يختار به أيّ السبيلين، وقدرًا يحُوطه في الدارين، قد نُسجت حياته على منواله، وَخُبِّتْ قَابِلُ أعماله تحت ستار غيبه، إرادته في خِياريه تامّة، ومشيتّه في طريقه مكتوبة، وهو بكلّ ذلك تحت مظلة قَدَرِهِ، يُيسِّرُ لإدراكه، ويعملُ مُختارًا بموجبه، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۝٧﴾

إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ [النمل : ٨٨]. و«كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» (١). وَيُلْهِمُ
لِلتَّقْوَى أَوْ يُحْذِلُ لَفَجْوَرِهِ، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾ [الشمس : ٨]، ﴿فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَأَسْتَعْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل : ٥ - ١٠]. فَقَدَّرَ اللَّهُ
تعالى سابق، وعمل عبده لاحق، وحُجَّتْهُ على عبده قائمة، فلا يعذَّب أحدًا إلا
بعمله لا بمجرد قدره، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿٦١﴾ [فصلت : ٤٦].

إن دراسة مباحث علم القضاء والقدر لا بد فيها من مزيد حذر وتحفظ
وتحرّز واحتراس، فهو مَزَلَّةٌ أَقْدَامٍ لِأَقْوَامٍ لم يتأدّبوا بأدب التواضع لجهلهم
الطبيعي بمساربه وغموضه وحدوده التي لا يُرام ما وراءها، ولا تنكشف
أستار أطرافها إلا على نور الشرع لا غير. لأن القدر سرُّ الله تعالى، وقد أذن لنا
سبحانه بأن بيّن لنا قدر ما نحتاجه من هذا العلم المقدس الشريف، وقلنا
بشرفه وقدسّيته لتعلقه بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله كالعلم والخلق
والحكمة والمشیئة والإحاطة والرحمة والعدل واللفظ والبر والرزق وغيرها،
بل قد جعله الله تعالى ركنًا سادسًا للإيمان لا ينعقد دين المرء ولا يصح إسلامه
إلا بالإيمان به.

فمن رحمة الله تعالى بنا أن بيّن لنا قدر ما نحتاجه من هذا العلم دون ما لا
حاجة لنا به في هذه الدار، ويكفيها فيه: معرفته، وحسن التصوّر لمراتبه الأربع
العلم والكتابة والمشیئة والخلق، وما يستتبع ذلك من مباحث كتلمّس بعض

الحكم الربانية في المقادير، وقضية عدم وجود الشر المطلق في العالم، ورحمة الله السابقة غضبه، وعدله المطلق، وملكه التام، وخلقه كل شيء، ونحو تلك المباحث والحواشي دون التعمق الممنوع في أنفاق علوم لم يأذن سبحانه لنا بها، مع ما يتبع مُخالف ذلك من عقابيل عقلية، ومهالك فكرية، ومزالق إيمانية، فالله تعالى أرحم بنا من أنفسنا الأمارة.

وإذا أغلق الله تعالى عنا باباً فليس مردّ ذلك حرماننا من شيء يقربنا إليه، بل حقيقته حشو كرامة ربانية علمها وقضى بها مَنْ خَلَقْنَا وَحَدَدَ مداركنا وقوانا، فحَرَسْنَا بذلك وحفظنا من مزالق لا تقوى على الثبات فيها عقولنا ولا أفئدتنا.

وليست علوم القدر بمعزل عن غيرها من علوم كثيرة يستحيل على العقل البشري احتمالها؛ إما لأنها تفوق قدرة مدارك العقل الإنساني، أو أنها متعلقة بعالم غير عالمنا وإن تعلق بعضها بعالمنا ونحو ذلك. واعتبر ذلك بما هو أشرف من هذا كله ألا وهو احتجاب الله تعالى عنا في الدنيا لعدم قدرتنا على احتمال رؤية وجهه تبارك وتعالى في الحياة الدنيا حتى لا تحرقنا سُبحات وجهه الجميل الجليل تبارك وتعالى وجلّ وتقدس، ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل

النَّهَارَ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا
انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

وعن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسولَ الله
ﷺ لسألتُه. فقال: عن أي شيء كنتَ تسأله؟ قال: كنتُ أسأله: هل رأيت
ربك؟ قال أبو ذر: قد سألتُ فقال: «رأيتُ نورًا»^(٢). أي نور الحجاب. أما في

(١) مسلم (١١١/١)

(٢) مسلم (١٧٨/١) وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي الزَاد (٣/ ٣٦ - ٣٨): «وَاخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ
هَلْ رَأَى رَبَّهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَمْ لَا؟ فَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ، وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَأَى
بِفُؤَادِهِ. وَصَحَّ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ إِنْكَارَ ذَلِكَ، وَقَالَا: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
أُخْرَى﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ [النَّجْم: ١٣ - ١٤] إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ.

وصح عن أبي ذر أَنَّهُ سَأَلَهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، أَي: حَالِ بَيْنِي وَبَيْنَ رُؤْيَيْهِ
نُورٌ، كَمَا قَالَ فِي لَفْظٍ آخَرَ: «رَأَيْتُ نُورًا». وَقَدْ حَكَى عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ اتِّفَاقَ
الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: «وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضاً
لهذا، ولا قوله: «رآه بفؤاده»، وقد صح عنه أنه قال: «رأيت ربي تبارك وتعالى»، ولكن لم
يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم
أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه
الله تعالى وقال: نعم رآه حقاً؛ فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. ولكن لم يقل أحمد رَحِمَهُ اللهُ:
إنه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه،
ومرة قال: رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض
أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك. وأما قول

=

الآخرة فإن أعظم نعيم الجنة هو التمتع والتلذذ برؤية الله تبارك وتعالى، فعن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُصَامُونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»^(١).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»^(٢). نسأل الله الكريم من فضله.

ومن فروع هذا الباب الشريف معرفة أن فهمه يكون بأداة التفكير فيه وهي العقل الذكي المتحفظ الملتزم بحدوده التي بينها له الوحي فلا يقول فيها

=

ابن عباس: إنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٥٠٩ / ٦) و«منهاج السنة» (٣٨٤ - ٣٨٧) و«مسألة في رؤية النبي ﷺ ربه» ضمن «جامع المسائل» (١٠٣ / ١ - ١٠٨).

(١) البخاري ١٤٥ / ١ (٥٥٤)، ومسلم ١١٣ / ٢ (٦٣٣) (٢١١)

(٢) مسلم ١١٢ / ١ (١٨١) (٢٩٧)

بهوى، ولا يخوض فيها بغيٍّ؛ فيزيغ عنها فيهلك، لأن موارد العقل اثنان لا غير:

الأول: المكنة والجوهر والآلة الإدراكية المميزة لحدود التصورات، وإحسان المقارنات، وهضم المعلومات، وكشف المجهولات، بالعلم بحقائقها وحدودها ونحو ذلك.

الثاني: حقيقة الأمر كما فهو، وحقائق الأمور سواء أكانت معنوية أم مادية لا تكون مُتيقّنة إلا ما أذن الشرع بإدراكها بالحواس إما على سبيل التجربة والتأمل والاختبار والاستمرار، أو عن طريق الإخبار الشرعي ابتداءً. فمهما علا كعب العقل واشتدّ في حدّته وتاه في غروره واتّسع في مداركه فهو يَظَلُّ في كثير من الأمور - ولا بدّ - طفوليّاً ساذجاً جاهلاً بتفاصيل ومآلات الحقائق المادية المعنوية الدنيوية، بله الحقائق الغيبية والأخروية، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإِسْرَاءُ : ٨٥].

ويُلحق بذلك معرفة العقل الذي توزن به الأمور في الشرع، فهل هو عقلُ فلان أو عقل فلان، أم هو العقل المنتظم لدى العقلاء الذي لا يختلفون على تقريراته، ولا يتنازعون في أحكامه؟

هو الثاني بلا ريب، لأن عقل الإنسان الواحد يعتريه الضعف، ويلحقه النقص، ويدركه العجز، ويعترض له الوهم، ويمكر به الهوى، ويغطيّه النسيان، وغير ذلك من نواقصه ونواقضه! بل يعتريه تبدّل الآراء في ثاني الحال، فيجد أن ما قرّره اليوم هو عين ما نفاه غداً، وما ظنّه يوماً واجب التصديق بوزن المناطقة - البعيد عن عصمة الوحي المنزل - إذ به يرى خللاً فيه

ينزله عن رتبة الواجب للجائز، وقد ينزل بأخرة للمستحيل! ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء : ٣٧].

لله في الآفاق آياتٌ لعلَّ
والكون مشحونٌ بأسرارٍ إذا
أقلها هو ما إليه هداك
حاولت تفسيراً لها أعياك
ربي لك الحمد العظيم لذاتك
حمداً لك، ليس لواحدٍ إلاك
إن لم تكن عيني تراك فإنني
في كل شيء استئينُّ علاك
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي
بالله جل جلاله أغراك

إن مشكلة العقل الكبرى ومعضلته العظمى أنه كائنٌ معنوي لا حسي، فالحاسة مادة تُحسّ وتدرك بأمثالها ومتقابلاتها من الحواس، ولئن كان ميزان الحسيات مادياً فإن الاتفاق على حدوده سهل يسير، لذا فقد جعل البشر مكاييل وموازن وأطوال ومقادير حسية لكل مادة بحسبها منها الثقيل كالصخر والحديد والرمل، ومنه الخفيف كالمعادن النفيسة والجواهر الغالية ونحوها، فصار لكل مادة محسوسة إجمالاً ميزاناً واضحاً متفقاً عليه في الجملة.

ولكن الأمر ليس كذلك في المعنويات، فميزانها ليس بوضوح موازين الحس لصعوبة ضبط حدودها، لأنها مجرد معنى في الذهن لا في خارجه من الحس المادي، لذلك تقاس المعنويات بأمثالها أو أشباهها من المعنويات، فالصبر والاحتمال والحب والبغض والتوكل والإيمان والفرح والذكاء والرأي والحفظ والأمل والذكرى والألم واللذة والطموح والكسل والرغبة والجوع

والحنين والخوف والغبطة والرحمة والأسى ونحو ذلك مما لا يكاد يتناهى تنوعاً واختلافاً وتباعداً واقتراباً، فليس ثمَّ ضابط محدد يضمن اتحاد ذهنين فأكثر على تقدير معنّى ما، لأنها غير منضبطة حسّاً من جهة، ولدخول الخيال والوهم فيها من جهة أخرى.

مع التنبيه إلى أن الإحكام في حسن التصور في الفطريات وما يتبعها كالإيمان بالله وربوبيته ووحدانيته أوضح وأحكم وأتمّ من موازين الحسّ طرّاً، لأن الوهم والخيال والتداخل والخطأ والخداع والنسيان والاشتباه والخداع ونحو ذلك يدخل فيها ما لا يدخل في هذه الإيانيات اليقينية القاطعة، ما لم تُشبّ بخلل عقدي يتنكّب بها عن سابلة الحق وطريق الهدى ونهج السعادة والفلاح، فيقينيّات كهذه أوضح وأصدق وأجلى وأثبت من يقينيّات الحسّ عند جملة العقلاء الذين أوتوا حظّاً من إيمان متيقّن بالله واليوم الآخر، والله المستعان.

إذا تقرّر ذلك؛ فما هو العقل، أو القواعد، أو الحدود، أو الميزان الذي يصح أن يكون ميزاناً يُتّحاكم إليه عند اختلاف العقول؟

والجواب: أن العقل بمفهومه العام منقسم إلى عقليّن:

فالعقل الأول: هو العقل الخاص بالفرد الواحد، وهو العقل الذي عليه مناط التكليف الشرعي، فيقال: فلان عاقل وفلان غير عاقل.

والعقل الثاني: هو الأحكام العقلية التي اجتمع عليها جملة العقلاء. فالعقل الذي يرجع إليه العقلاء عند اجتماعهم أو اختلافهم، ويشيرون إليه

بالأمور التي يقبلها ويقرّها العقل الصحيح أو يردّها ويحيلها ونحو ذلك: فهو العقل المنتظم لمجمل آراء العقلاء، وهو القانون الذي انتظم عقولهم إجمالاً أو أغلبياً ساحقاً، فهو كالقواعد والموازن والحدود والقوانين التي اجتمعت عليها عقول عامّة العقلاء، أو سوادهم الأعظم في بعض الأمور، فإن خالفها أحدٌ يوماً قالوا: قد خالف العقل وشذّ بالرأي.

وبهذا سار الناموس الرباني على بني الإنسان، فلم يتركهم هملاً ولم يخلقهم سُدى، ولم يجعلهم أفراداً منعزلين لكل منهم نظامه وقانونه ومزاجه وطيشه وبهيميته وشهوته في كل شيء، بل قد جمع قرائحهم وألف عقولهم على جملة من الأمور التي تنتظم أمورهم الكبار التي لا يقوم معاشهم إلا بها، فاصطلحوا وتواطؤوا وتوافقوا - عفويّاً - بأمر ربهم الكوني وتقديره الإلهي ورحمته الأزليّة السرمديّة على حدودٍ عقليّة ومدارك معرفيّة بها يفقهون الحد الأدنى من الأمور الحيّاتيّة والمعاشيّة والمصيريّة تسهيلاً لحياتهم الدنيا إذ المعرفة أساس حياة العقلاء. ولعل من أسباب مراعاة الشريعة العرف العام السليم غير المتعدّي حدود الشرع هو من هذا الباب، ولو من وجه.

واعلم أنّ من ثبت منهم على حدّ العقل الصحيح فلم ينفلت - بإذن الله تعالى - عقلاً عقله؛ فإنه ولا بدّ سينتظم له أمور حياته الأبدية الأخروية أيضاً، لذا كرّر الله تعالى توبيخ من لا يُعمل عقله فيما ينفعه في آخرته بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وإنما يكون العقل وسيلة هدى لصاحبه إن عامل عقله بإنصاف فلم يتبع عنه هواه، ويتضح ذلك بأمرين:

أولاهما: أنها تدله ضرورة على أمور الفطرة الأولى التي لم تنحرف بسيول ضلالات الآخرين. فلا زال في باطن كل عقلٍ علمٌ كامنٌ يقتضي اعترافه وإيمانه بربوبية وإلهية الله تعالى ما لم ينحرف بمؤثر خارجي يُنجس علمه ويعكّر فهمه ويُظلم معرفته.

إضافة إلى أن ذلك الحد الأدنى من الحاجة المعرفية من الكلام والعلم والحياة والتدين والحرث والانتفاع بخير الأرض والسماء بإذن الله تعالى للاستخلاف الآدمي في الأرض هو موجود معهم من حينهم، لأن الله تعالى قد علّم آدم أسماء كل شيء، ويسّر له أسباب المعاش في الأرض له ولذريته، فتعاقب نسله على قبول أحكام ما اجتمعت بداهتهم عليه وعلى ما أثروه عن سبقتهم من آبائهم.

وعليه؛ فهذا التوافق والتواطؤ العقلي والحضاري على كبريات ومحتّمات ومسلمات أمور الحياة الدنيا والأخرى لم يبدأ صدفة، بل ابتداءً بتعليم الله تعالى لآدم الذي نقلها لخلفه فسارت في الأجيال حافظة لهم أسباب اجتماعهم وتفاهمهم وتعاونهم، ثم نُسي بعضها وبقي بعضها، وتراكت خبراتهم وتجاربهم في كل جهة من جهات الحس والمعنى مما يطبقون.

والمقصود أن العقل الصحيح إن سلم من مؤثر من خارج فهو يرجع بصاحبه إلى الفطرة الصحيحة والعقيدة النقية الأولى، ﴿فَظَرَّتْ أَلَلَهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ أَلَلَهُ ذَلِكَ أَلَلَدِينُ أَلَقِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم: ٣٠].

وثانيهما: أنها تلزمه الاكتفاء بنبع الهدى الوحيد المتمثل بما جاء به المرسلون. وهذا جليّ ظاهر لا يتردد فيه إلا جاهل أو مكابر، برهان ذلك: أن العاقل كلما قوي عقله واتسعت مداركه أيقن أن ما يجهره أكثر مما يعلمه، وأن وراء هذا الكون المشهود والخلق البديع والجمال الباهر والتناسق المعجز والدقة العجيبة والعظمة الهائلة أن وراء ذلك كله ربًّا قديرًا وإلها يستحق توحيدَه بالتأله والعبادة، وأن العبد مهما وصل من قوة أو إرادة أو علم فهو فقير بكنيته لعون وتربية وحفظ وهداية سيده ومولاه مهما شطّت به ظعائن الهوى، ونَدّت منه كبائر الجحود، وهجمت عليه خواطر الشيطان، فإذا تدبر حاله ذلك علم أن محدوديّة عقله مهما بلغت حدّته وسعته فإنها تُلزمه الاكتفاء بما جاء من المصدر الوحيد الموثوق، الذي لا تنتهي أطرافه في هذه الدار الدنيا من علوم الشرع المنزل، وهو العلم المحكم الكامل الفاذّ الجامع المانع، فإن بَحَثَ بجدٍّ وإخلاص للحقيقة وَجَدَ أن العهد السماوي الأخير هو عهد الشريعة المحمدية الخاتمة، وأن الإسلام هو الدين الوحيد اللائق بعهد الله تعالى للبشر، لما فيه من براهين عقلية ودلالات فطرية ولوازم معرفية تقوده للإيمان بالرسول محمد ﷺ الذي جاء بالهدى من الله تعالى، فإذا كان كذلك سلّم معاهد التسليم وأزمنة الانقياد للشرع الإلهي الحنيف، ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

واعلم - رحماني الله وإياك - أن المعيار الضابط لهذا العقل العام هو الشرع المطهر المصون، فما قرّره الشرع صريحًا صحيحًا علمنا أن العقل العام للعقلاء

يقبله، وما نفاه الشرع أو منع منعه ونحو ذلك فحينها نعلم يقيناً أنه مخالف للعقل الصحيح، ومحضلة هذا أمران:

الأول: أنه لا تعارض البتة بين النص الصحيح الصريح وبين العقل الصحيح، فإن ظهر تعارض فالأمر عائد إما لعدم صحة النص (الكتاب والسنة) وإما لعدم صراحته، وبالتالي الخطأ في فهمه، وإما خطأ التقرير العقلي أصلاً، فإن كان النص صحيحاً صريحاً كنصوص الإيمان والصفات واليوم الآخر والقدر والنبوات ونحو ذلك؛ فحينها يكون الخلل في التصور العقلي للشخص الذي ظنّ وجود تعارض، إذ لا تعارض البتة بين ما قاله الله تعالى وبين ما خلقه، فالعقل خلقه والشرع أمره، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثاني: أن معيار العقل السليم ومسبار الإدراك العميق هو الشرع الصحيح، ومن زعم التعارض بين دلائل الشرع وموارد العقل فعليه أن يراجع ميزان دلائل وتصورات عقله مع ذلك العقل المنتظم للعقلاء، وهو ما تبيّنه الشريعة الغراء، فإن هذا العقل الصحيح يستحيل أن يخالف الشرع، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الشك: ٣].

وبالجملة؛ فالعقل العاقل هو ذلك العقل المستضيء بالعلم المعصوم من الزيغ، أما العقل المنفلت من عقاله فهو ما نقص إدراكه بجهل، أو تعكّر تصوّره بكبر، أو تساقطت قوّته بفساد قصد، أو انحرفت معرفته بتنكّب الوحي لما سواه، ففساد الماء بالمياح، وفساد الجدول بتلوّث ينبوعه، وفساد

القصد ملوّث للبصيرة، فكما أن صلاح القلب له تأثير مباشر على سلامة التصوّر وذكاء القرينة فالضدّ بالضدّ، فالزكاء مورد الذكاء، وتدبر راشداً مُسَدِّداً مهدياً قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الرّوم: ٥٦]، فاللهم غُفِّراً إله الحق.



من السلامة ترك التعمق في بحث تفاصيل القدر

مسائل القدر العميقة شديدة الوعورة، كثيرة الاشتباه، خطيرة الفهم على غير هدى من الله، أما ابتدائياته وأصوله ومحكماته فيسيرة واضحة بحمد الله تعالى، وهي كافية شافية لكل مؤمن، فيكفي المؤمن حسن التصور لمراتب القدر الأربع: العلم والكتابة وعموم المشيئة وعموم الخلق، وأن الله تعالى يخلق كل شيء لحكمة بديعة تتقاصر وتعجز عن إدراكها عقول البشر مهما بلغت حدتها وصفت قريحتها، وأن الله تعالى قد وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه، وأنه يحب أوليائه ويثيبهم، ويبغض أعداءه ومعاصيهم ويتوعدهم، وأنه على كل شيء قدير، ونحو ذلك من الأصول المعروفة التي اهتم بتفصيلها أئمة أهل السنة.

وأما ما زاد عن ذلك من مسائل لم يرد في الشرع بياتها، إنما وقع في التعمق فيها بعض المتهوكة والخياري والجهلة - مهما أوتوا من ظاهر علم - من المبتدعة القدرية والجبرية ومن تأثر بهم؛ فضربوا كتاب الله بعرضه ببعض، وأساءوا الأدب معه تبارك وتعالى، وانتهى بعضهم للشك وبعضهم للإلحاد المطلق! فعلى المؤمن الإمساك عنها حفظاً لإيمانه وبقينه، فلم يشرع الله تعالى سلوك ذلك الطريق والتعمق في بحثه على غير هدى من الله.

ويُدعى خصومُ الله يوم معادِهِم إلى النار طُراً معشَرَ القدرية

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال لمن نازعه في القدر: «القدر سرُّ الله فلا تكشفه»^(١). أي لا تبحث عنه ولا تحاول كشفه، فلا يعلمه غير الله. فالقدر مبني على علم الله وحكمته ومشيتته وربوبيته، والعبد - مهما كان حاله - عاجز عن إدراك ذلك.

وتأمل قصة موسى والخضر عليهما السلام ففيها ثلاث مسارات للقدر في قصة واحدة، وكلها خير ورحمة، فقدّر قد يُظنُّ لأول وهلة أنه شرٌّ، ثم لا تلبث خيريّته أن تنكشف في ثاني الحال، كما في قصة أصحاب السفينة. وقدّر تبقى طوال عمرك لا تعلم حقيقة تفاصيل خيريّته وهو خير ورحمة من الله تعالى، وينجلي هذا في خبر قتل الغلام، فأفراط المسلمين في الجنة بإذن الله تعالى، ولو بقي الغلام إلى سنّ التكليف لأرهب حياة والديه بطغيانه وكفره، ثم صار في المال من أصحاب الجحيم، لذا كان قتله خيراً له أولاً ليكون فرطاً بإذن الله تعالى، وخيراً لوالديه ليشفع لهما، وليكون سبباً لأجرهما، وليُبدلها ربهما خيراً منه إيماناً وأوصل رحماً، مع هذا كله فلعلهما قضيا عمرهما حزناً على الفقيد الذي كان فقده خيراً للجميع! فهذا هو المسار الثاني العجيب لقدر الله الحكيم العليم البر الرحيم.

أما الثالث - وهو العجب العجيب -: فهو مسار قدر الخير الذي لا ولن تعلم عنه شيئاً ما حييت، ولم ولن تنتبه لوجوده أصلاً، وهو محيط بك من جميع جوانبك عن طريق صرف الأمور السيئة عنك وسوق الأشياء الجميلة إليك

(١) الطحاوية (٩٣)

سوقاً رقيقاً رفيقاً لطيفاً جميلاً خفياً بدون علمك، وهذا من معاني أسماء الله اللطيف والمحيط والوليّ والحميد والبرّ والرفيق والرحيم والكريم، ويُمثّل هذا القَدَر المدهش خبر جدار اليتيمين، فلم يعلما تدبير اللطيف سبحانه بذلك الجدار، والله الحكمة البالغة وهو اللطيف الخبير.

فقدّر الله تعالى صادر عن علمه وحكمته وقدرته سبحانه، وحكمته صفة من صفات جلاله وجماله، فكيف للعبد أن يدرك إلا ما أذن الله تعالى له به. وعليه أن يتدبر قول الحكيم العليم الرحيم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فعلى المؤمن - الناصح لنفسه - أن ينكمش على علمه الذي أذن الله له بمعرفته، وأن يقنع به ولا يحاول تجاوزه حتى لا يكله الله تعالى إلى نفسه العاجزة الجاهلة القاصرة، فيضل ويعطب ويهلك.

ولقد نصحنا ورفق بنا ورحمنا من نهانا عن ذلك ﷺ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرّ وجهه، حتى كأننا فُقئ في وجنتيه الرّمان، فقال: «أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»^(١). وتدبر تعيينه ﷺ لسبب هلاك

(١) الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣/٢)

السابقين في تنازعهم في هذا الأمر تحديداً وهو القدر! وسيأتي بسط ذلك في فصل قادم إن شاء الله تعالى.

والمقصود؛ أن للعقل الإنساني حدّه ومنتهاه الذي لا يُسمح له شرعاً ولا قدراً بتعديه مهما كابر وظن أنه كذلك. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كُفي ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق^(١)، وما كان مثله في القدر»^(١).

(١) يعني حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». رواه البخاري ١٦٥/٩ (٧٤٥٤) ومسلم ٤٤/٨ (٢٦٤٣) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في المنهاج (١٩٢/١٦) معلقاً على هذا الحديث الجليل بكلام مبشّر مفرح: «هذا قد يقع في نادرٍ من الناس، لا أنه غالب فيهم، وذلك من لطف الله وسعة رحمته، فإن انقلاب الناس من الشرِّ إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشرِّ ففي غاية الندور، والله الحمد والمنة على ذلك». أه. فالله شكور سميع الدعاء ورحمته سبقت غضبه، والعفو أحب إليه من العقوبة وهو اللطيف الخبير تبارك وتعالى.

وقال أبو المظفر السّمْعاني: «سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلّ وتاه في بحار الخيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأنّ القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، اختصّ العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»^(٢). وقال الأجرّي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم «الشريعة»: «لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأنّ القدر سرٌّ من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق»^(٣).

وقال الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته المشهورة: «وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يُطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]»^(٤). ولقد تناول

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٥٧)

(٢) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١ / ٤٧٧)

(٣) الشريعة للأجري (١٤٩)

(٤) الطحاوية (٩٢)

العلماء عقيدة الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ بالشرح والتعليق والتعقيب، لما فيها من مهيات المعتقد ومحكماته.

قال الشيخ صالح آل الشيخ على كلام الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ الآنف: «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ...»: «هذه الجمل من كلام العلامة الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ فيها إشارة إلى القدر، مع عدم ذكر معتقد أهل السنة والجماعة على وجه التفصيل فيه.

ويعني بقوله: «أَصْلُ الْقَدَرِ سِرٌّ» أَنَّ الْقَدَرَ مِنَ الْأَسْرَارِ فِي كِمَالِ دَرَجَاتِهِ وَمَرَاتِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَكْشِفْ قَدْرَهُ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ لِأَحَدٍ؛ بَلْ هَذَا عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا «لَمْ يَطْلَعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ» وَإِذَا كَانَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ الْمُقَرَّبُونَ لَمْ يَطْلَعُوا عَلَى الْقَدَرِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ الَّذِينَ هُمْ صَفْوَةُ عِبَادِ اللَّهِ لَمْ يَطْلَعُوا عَلَى ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ؛ فَإِنَّ التَّعَمُّقَ وَالنَّظَرَ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ لِلْخِذْلَانِ.

وذريعة الخذلان يعني وسيلة من وسائل سلب التوفيق؛ لأنَّ اللَّهَ مَنَعَ الْعِبَادَ عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْبَحْثِ فِي هَذَا وَلَا بِالتَّعَمُّقِ فِيهِ. وَإِذَا كَانَ الصَّفْوَةُ لَمْ يُطْلَعُوا عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يَطْلَعُوا عَلَيْهِ فَإِذَا الْبَابُ مَغْلَقٌ، وَإِذَا لَا تَحَاوُلَ كَشْفًا لِلْقَدَرِ. وَمَعْنَى كَشْفِ الْقَدَرِ مَا ذَكَرَهُ فِي جُمْلِهِ بِأَنْ يَحْذِرَ الْمُسْلِمُ مِنَ التَّفَكِيرِ فِي تَقْدِيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأَشْيَاءِ نَظَرًا فِي الْعِلَلِ وَفِكْرًا فِي الْحُكْمِ وَوَسُوسَةً فِي لَمْ فَعَلَ ذَلِكَ؟ وَلَمْ حَصَلَ؟ وَلَمْ قُدِّرَ كَذَا؟ وَلَمْ وَفَّقَ هَذَا، وَلَمْ خِذَلَ ذَلِكَ؟ وَلَمْ حَصَلَ كَيْتَ وَكَيْتَ؟ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنْامِهِ، وَلِذَلِكَ نَهَاهُمْ عَنْ تَطَلُّبِهِ قَالَ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فإذا تبين ذلك؛ فإيماننا بقدر الله عز وجل إيمانٌ بما جاء في النصوص من تفصيل ما يجب علينا أن نؤمن به. ثُمَّ إيمان إجمالي وهو ركن الإيمان؛ لأن كل شيء فإنه بتقدير الله عز وجل، لأن من أركان الإيمان، الإيمان بالقدر خيره وشره. يعني أن نؤمن بأن ما حصل من الخير والشر بالنسبة إلينا فإنه بتقدير الله عز وجل.

يعني لم نحصل الأشياء ابتداءً دون تقدير من الله وعلم وكتابة ومشية وخلق لله عز وجل، بل الله الذي عَلِمَهَا وَكَتَبَهَا وَقَدَّرَهَا وَشَاءَهَا، فلم يحصل شيء ولا يحصل شيء إلا بتقدير الله عز وجل وإذنه الكوني.

إذا تبين ذلك؛ فإن الإيمان الإجمالي لما ذكرت هو ركن الإيمان، لا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بهذا القدر، وهو أن كل شيء بِقَدَرٍ، وأن الأشياء يُقَدَّرُهَا الله عز وجل فيما سبق.

ثُمَّ الإيمان التفصيلي بما عِلِمَ تفصيلاً من نصوص الكتاب والسنة بما يدخل في بحث القدر. فإذا جاءه الدليل أن من القدر عِلِمَ الله السابق فإنه يؤمن بذلك، وإذا جاءه الدليل أن الله خالق كل شيء فيؤمن بهذا العموم؛ عموم خَلَقَ الله عز وجل للأشياء بما في ذلك طاعة المطيع ومعصية العاصي، إذا عِلِمَ عموم مشيئة الله عز وجل وأن مشيئة العبد لا تستقل بإحداث الأشياء، بل لا بد من مشيئة الله عز وجل آمن بذلك على وجه التفصيل، فيكون ذلك من الإيمان الواجب لأنه عِلِمَ الدليل الذي يجب عليه الإيقان به^(١).

(١) شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١ / ٢٣٧)

ولا بدّ للقلب من قوّة إيمان تحمله على تسليم كل أمره لربه تعالى، فكلما ورد وارداً سلّمه لمن أمره بذلك، فلا يزال العبد بخير ما دام على ذلك، و«المطلوب من العبد أن يؤمن بالغيب، وأن يؤمن بكل ما أخبر الله به، وأن يسلم، وأن يقوّي ذلك الإيمان بكل ما يستطيع أن يقويه به من الأدلة وبالْحجج القرآنية وآثارها، ونعني بها الحجج الكونية العقلية النفسية، وأن ينظر بتدبر في ملكوت السموات والأرض، ويتفكر في أحوال الناس، وفي تدبير الله سبحانه له وتصريفه لهذا الكون وتديره للخلق، فيزداد إيماناً و يقيناً، ويدفع عن نفسه الشبهات إذا وردت، لأن دفع الشبهات يكون بالاعتصام بالله والاستعاذة من الشيطان الرجيم، والإعراض عن الشبهة، فإن تمكّنت في قلبه فليدفعها بسؤال أهل العلم لتكشف عنه تلك الشبهة ويندفع عنه البلاء.

وأمر هذا الدين مبنيّ على الاستسلام، وإنما يثبت الإسلام على قدم الاستسلام لما أخبر به الله ورسوله ﷺ، لكن من قدر له أن أعطاه الله سبحانه وتعالى العلم، ومكّنه من الرسوخ فيه، ومقاومة الشبهات، والذبّ عن هذا الدين، فهذا كطبيب يتعمق في معرفة الأمراض لا حرصاً منه على معرفه المرض، ولكن لكي يعالج الناس، أو يتعمق في معرفة الأدوية ليداوي نفسه ويداوي غيره.

وكل إنسان يأخذ من هذا الدين ومن أمر اليقين بقدر ما يوفّقه الله ويؤهّله سبحانه وتعالى، ولو أراد أحد أن يتجاوز قدره لسقط ولهلك، فالتعمق والنظر في أمور القدر الخفية الدقيقة من إنسان لا يعرف الأدلة، ولا يعرف كلام أهل العلم ولا يستطيع أن يفقه في المسألة هذا ذريعة الخذلان.

وينبغي علينا أن نكفّ العوام عن الخوض في القدر، فإن كَانَ ولا بد إذا وجدنا من أحدهم شبهة راسخة كشفناها بالدليل، ولكن لا يعني ذلك أن نعرض تعاريف القدر على العامة، أو نرضى أن يخوض العامة في تفصيلات القدر وغير ذلك من أمور الإيثار؛ لأن الخوض في ذلك مَزَلَّة الأقدام، فهو بحر لا يستطيعون أن يبحروا فيه، لكن من كَانَ لديه استعداد للفهم من الكتاب والسنة وكلام العلماء فينبغي له أن يزداد علماً، لأنه بذلك يزداد إيماناً ويزداد فهماً، وعندما ترد عليه شبهة سرعان ما يدفعها لما لديه من علم؛ وينبغي أن يقيد بهذا كلام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وأن نعرف المقصود من كلامه، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان». فهذا هو الذي يجب أن يفهم.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فسألوه: «إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به». فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ شكوى مجملّة، فقال ﷺ: «أو قد وجدتموه؟» وجواب النبي هذا يدل على أنه كان منتظراً منهم هذا السؤال، وهذه بشرى لحديثي العهد بالتمسك^(١)، وفي رواية أخرى قالوا: «لأن يصبح أحدنا حُمَمَة محترقة»، كيف يكون حال هذا الإنسان الذي يود لو أصبح فحمة محترقة ولم يتكلم بهذه الشكوك والخواطر، هذا قويّ الإيمان، فلهذا يقول ﷺ:

(١) لأن الغالب أن أكثر تسلّط الوسواس إنما هي على حديث العهد بالاستقامة والجديّة في التدين، أو حديث العهد بالإسلام. وتزول مع الوقت مع الاستعاذة بالله من الشيطان وحسن الظن بالرحمن وعدم الالتفات لها.

«ذلك صريح الإيمان»^(١). وفي رواية ابن مسعود: «ذلك محض الإيمان»^(٢)^(٣). ومعنى حديث أبي هريرة وسوسة النفس أو مدافعتها، أي أن الحديتين هما في الحقيقة وَرَدَا في موضع واحد أنه سئل عن الوسوسة. فيقول المصنف: «فإنّ وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين الاثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان»، ويمكن أن يحمل الحديث على أحد الأمرين:

الأمر الأول: أن يكون المشار إليه بأنه الموصوف «محض الإيمان» هو المدافعة، أي أنكم ما دتم تدافعونها فهذا دليل على قوة إيمانكم، فلا تيأسوا. وهذه بشرى وخير لكم وليس شرّاً كما تظنون، والمدافعة والمجاهدة هذه هي محض الإيمان لأنها مترتبة عليه وناشئة عنه.

الأمر الثاني: أن يكون محض الإيمان هو وجود الوسوسة، لأنك في حالة قبل الاهتداء لم تكن تجد شيئاً، فلمّا اهتدت وجدت، فوجودها دليل على وجود الإيمان، وإذا وُجد الإيمان أراد الشيطان أن يبارزه في الشكوك، إذا أنت في هذه الحالة والحمد لله على خير، وهذا يدل على أن الإيمان قد نما في قلبك عندما تجد

(١) مسلم (١٣٢) (٢١٠) أحمد (٩١٤٥)

(٢) أي أن صريح الإيمان ومحضه هو الذي يَمْنَعُكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم من الوسواس، فلا تتمكن في قلوبكم. وليس معناه: أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، لأنها من فعل الشيطان ونفته.

(٣) مسلم (٨٣/١) وأحمد (٩٦٩٤)

تلك الوسوس، ولذلك يقول الرّسول ﷺ: «ذلك محض الإيمان» أو «ذلك صريح الإيمان»^(١).

واعلم - رحماني الله تعالى وإياك - أن من فروع ذلك؛ ألا يذيع علماً عند من لا يفقهه كي لا يحمل على غير وجهه، فلربما افتن الناس بعلم لم يفهموه، وبكلام لم يتبينوه، وبمعنى لم يُقصد إليه، لذا فمن المتحتّم اللازم عدم إلقاء جوهر العلم الدقيق إلا لمطيقه من أهل جودة الأفهام وقوّة القرائح وزكاء الأنفس، فكما أن من الطعام صعب الهضم للمعدة فكذلك من العلم ما هو صعب الهضم للعقل، فمن العلوم ما لا يهضمها ولا يستوعبها إلا أهل القرائح المتوقّدة الحادّة، ومن ذلك بعض مسائل القدر المحيرة لبعض الأذهان التي لم تستوعب كامل معانيه، ولم تتبين حدود مراميها ونهايات مسموحات معلوماته، ولم تتضح لها تفاصيله، ولا يعني هذا أن من الناس من تُكشَفُ له أمور من علوم الشرع على غير هدي من الوحي المنزل كخرافات بعض المتصوفة والباطنية الذين يتوهمون أن لهم أسراراً وعلومًا استقوها من غير مشكاة النبوة لا يطلع عليها غيرهم إما بمنام أو كشفٍ أو هاتفٍ أو غيره.. فجرّهم الشيطان بوساوسه إلى مباءات ضلال ومراقد فتن حتى دفنهم في أتون جهلها ووحول خبيتها!

إنما المقصود أنّ من العلوم غوامض لا يفقهها كل أحد، ومعانٍ تكون باعتبارات مشروطة لفهمها على وجهها، فلا يحسن عرضها لكل أحد حتى لا

(١) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١/ ١٥٦٢ - ١٥٦٤) باختصار.

يحملها على غير وجهها، فهي من باب: «حدّثوا الناس بما يعرفون...»، وانظر كيف استمرأ بعض الناس الأمن من مكر الله تعالى لأحاديث لم يفهموها على سياقها، وخيرٌ لهم لو لم تبلغهم، فمن العلم ما يكون فتنة! وقد مر التنبيه لذلك، وقد قال الغزالي في ذلك وهي تحتل المعنيين، وقد أشار في إحيائه إشارات غير موفقة إلى معانٍ لها باطلّة، ولكن نحسن في الشيخ أبي حامد الظن:

تَرَكْتُ هَوَى سُعْدَى وَلَيْلٍ بِمَعَزَلٍ وَعُدْتُ إِلَى مَصْحُوبٍ أَوَّلِ مَنْزِلٍ
عَزَلْتُ هُمْ غَزَلًا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ لِيْغَزَلِي نَسَاجًا فَكَسَّرْتُ

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «العلم لا يوضع إلّا في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فإنها تُكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في المحذور، فإن النبي ﷺ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذاً^(١)، لأن معاذاً من الجهابذة، ومن خواص العلماء، فدلّ على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا

(١) يعني حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». رواه البخاري ٣٥/٤ (٢٨٥٦) ومسلم ٤٣/١ (٣٠) (٤٩)

كان يترتب على إيضاح بعض المسائل للناس محذور: بأن يفهموا خطأً، أو يتَّكَلَّوا على ما سمعوا، فإنهم لا يُجَبِّرون بذلك، وإنما تلقى هذه المسائل على خواص العلماء الذين لا يُخْشى منهم الوقوع في المحذور^(١)، فأخذ العلماء من هذا الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة.

وإنما أخبر معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلغه للناس، كما في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّبَ الله ورسوله»^(٢)، يعني: لا يُلقَى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يُخْفَى عليهم معناها، أو تشوُّش عليهم، وإنما يُلقَى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نوادر المسائل، وخواص المسائل، فهذه تُلقَى على طلبة العلم، والمتفكِّهين المتمكِّنين، وهذا من الحكمة ووضع الشيء في موضعه، فإنك إذا كنت أمام عُصاة يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون، فقلت: الله غفور رحيم، الله قريب مجيب، الله سبحانه وتعالى يغفر ويسمح، فإنهم سيزيدون في الشرور، لكن حين تقول لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعَّد الزناة بالعذاب وتوعَّد على السرقة وعلى المعاصي بالعذاب الشديد، فتذكر لهم نصوص الوعيد، من أجل التوبة. ولو أتيت عند متمسِّكين وطيبين فذكرت لهم آيات الوعيد، فهذا ربما يزيدهم وسواساً، أو تشدِّداً، فأنت تذكر لهم آيات التيسير، وأحاديث التيسير،

(١) ومن هؤلاء المبشرون بالجنة، فقد أخبرهم لعظيم إيمانهم الذي لن تزيده هذه البشارة إلى إيماناً بالله تعالى وإقبالاً على طاعته وزهداً في الدنيا، والله أعلم.

(٢) البخاري (١٢٧).

والتسهيل، والرحمة، والفرج، إلى غير ذلك، من أجل ألا يزيدوا ويشتدوا ويغلّوا، فكل مقام له مقال، وتوضع الأمور في مواضعها، هذا هو الميزان الصحيح. والناس ليسوا على حد سواء، كل يخاطب بما يستفيد منه ولا يتضرر به، فلا تأتي بآيات الوعد والرجاء عند المتساهلين، ولا تأتي بآيات الوعيد عند المتشددين، بل تكون كالطبيب تضع الدواء في موضعه المناسب، هكذا يكون طالب العلم.

إذا كانت هناك أمور غامضة، لا يعرفها العوام، ولا تتسع لها عقولهم من المسائل العلمية، فلا تُلقى على العوام، وإنما تُلقى على طلبة العلم، وعلى الناس الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: «ما أنت بمحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(١)، وقال علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»^(٢).

فالحاصل؛ أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يُلقى عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة سهلة يتدرّجون بها شيئًا فشيئًا، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في صحيح البخاري، لأنه لم يصل إلى هذا الحد لكن لقّنه

(١) مسلم في مقدمته (٥)

(٢) البخاري (١٢٧).

الأربعين النووية، والأحاديث القرية، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، وإنسان مبتدئ بعلم العربية، لا تأمره بقراءة كتاب سيبويه، لكن تأمره بقراءة الآجروميّة، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو شيئاً فشيئاً، ولذلك ألف العلماء المختصرات والمتوسّطات والمطوّلات، من أجل إن طالب العلم يمشي مراحل، شيئاً فشيئاً، الحاصل: أن كل شيء له شيء، وكل مقام له مقال»^(١).

نسأل الله تعالى الفقه والدين، والعصمة من الشيطان الرجيم، وبلوغ رضوانه في جنات النعيم، فالسعيد من ولد آدم من رضي عنه الله تعالى، فهداه سبيله، وأنار طريقه، وجنبه موارد سخطه، وعلمه وأعمله بما علم، وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٍ سَارِي
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيََتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ مُنْقَادَةٌ بِأَرْزَمَةِ الْأَقْدَارِ
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ



(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٥٠ - ٥٣).

متى يُشرع البحث في تفاصيل القَدَر؟

إنَّ علم القضاء والقدر علم شريفٌ، وركنٌ إيمانيٌّ مُنيفٌ، أَمَرَ اللهُ تعالى بمعرفته واعتقاده والإيمان به، وجَعَلَ ذلك ركنًا للإيمان لا يصحُّ إلا به، فعلم القَدَرِ كسائر علوم الشريعة التي أمرنا الله تعالى بالعلم والإيمان بها وعَقْدُ القلب عليها، لذلك جاء التأكيدُ عليه وتكرارُ الإخبار به في القرآن العظيم وتعليمنا إيَّاه في حديث جبرائيل الشهير الذي جعله ركنًا لا يصحَّ عَقْدُ الإيمان إلا به، ولا زال العلماء يُقرِّرون مباحثه، ويبينون مراتبه، ويكشفون غوامضه، ويُقيمون معانيه من أدلته في قلوب الأمة، ويبينون لها آداب واحترافات طَلَبِهِ؛ من عدم المنازعة والجدال فيه، وترك الخوض فيما لم يُؤذن لنا فيه مما طوى اللهُ علمه عَنَّا لِحَكَمِ رَبَّانِيَةِ عَظِيمَةٍ يستحقُّ عليها ربُّنا كلَّ حمدٍ وشكرٍ.

فعلم القضاء والقدر هو علم كغيره من علوم الشرع، ولكن لما كان هذا العلم مرتبطًا مباشرة بحياة الناس بالكلية، مُحِيطًا بمصائرهم في الدنيا والآخرة، مع ما جُبِلَ عليه البشرُ من القلق والترقب والضجر حيال ما يمسُّ أحوالهم مباشرة، وكذا هَوَسِهِم بِاللقاء اللوم على غيرهم حين نزول الضرر بهم أو فوات الخير عنهم، وَهَنًا في العزم، وَعَيْلًا في الصبر، ونَقْصًا في العلم، وَضَعْفًا في الإدراك، وَأَيْضًا عَجَلَتِهِمْ في كُلِّ قضاء يَخْصِمُهُمْ، فيخاصموا وينازعوا فيما يعينهم وما لا يعينهم، وما يدركونه وما لا يدركونه، إضافة إلى رَغْبَتِهِم الكامنة في معرفة المستقبل واختراق حواجز الغيب الموصد أمامهم، إلا من رحم الله

تعالى، مع ضميمة ارتباط القدر بأسماء وصفات وأفعال الله تعالى كالعلم والخلق والحكمة والرحمة ونحوها.

فلأجل هذه الغرائز الأربع في جملة البشر: القلق، وإلقاء اللائمة، والعجلة، ورغبة كشف الغد، مع ارتباط العلم والإيمان به بصفات الربوبية - والله أعلم ؛ كان لمسائل القدر خاصية عن غيرها، لذا وجب أخذها بحذر، وتعاطيها بتؤدة، وتناولها بإتقان، لأنّ الزيغ فيها مفضٍ لعطب سريع وهلاك عظيم، فالانحراف فيه يؤدي لسوء الأدب مع رب العالمين، لأن القدر مرتبط بصفات الربوبية، فالقدر أمره الكوني الربّاني. وهذه الغرائز الأربع مردّها لاثنتين: الكفر والجهل، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢]، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس : ١٧]. فيكفر نعم ربه تعالى جهلاً وجَهَالَةً، ومتى سلّم الإنسانُ منهما أفلح وأنجح بإذن ربه تبارك وتعالى.

فباب القدر على شرفه خطير جدّاً، وسعيدٌ من أهل الإسلام من لم تزغ قدمه فيه، وبحمد الله تعالى فعامة عقائد العوامّ فيه سليمة كسائر عقائد الإيمان، لأنها باقية على الفطرة، ولأنها تعتقد ظواهر الآيات والأحاديث التي تمرّ بها بلا تكلف ولا تعقيد ولا تحريف، فتؤمن بها كما يتبادر للذهن من معانيها، فتسمع القرآن وتفهم بسليقتها معناه المباشر بلا قيود كلامية ولا قوانين فلسفية، فهو قد نزل بحروف عربية واضحة مبينة، فما تبادر للذهن من معاني الكتاب والسنة فهو الحقّ الذي نزل لإقامته في القلوب، فهي تؤمن بظواهر تلك المعاني المباشرة مع قطع طمعها عن الإدراك والإحاطة والتكييف، وهذا مضطرد في أفعال الله تعالى وصفاته، فعقيدة العامة في باب

القضاء والقدر على الجادة السليمة ما دامت سالمةً من قُطَاعِ الطريق إلى الله تعالى صافٍ مشربها من كَدَرٍ وَلَوِثِ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ.

ومن آتاه الله علماً مُفَصَّلاً فيه فهو على خير وهدى ورفعة في الآخرة، وبحمد الله تعالى فالقَدَرُ المبسوط منه في القرآن والسنة نافعٌ كافٍ، فهو علم ظاهر واضح، وليس بعلم أسرارٍ مخفيةٍ، ولا أمورٍ مُغَيَّبةٍ، ولا حبالٍ مُقَطَّعةٍ، خلا ما كان خارج نطاق العلم والإدراك المأذون لنا فيه، فالمؤمن يتوقَّفُ عنده حين تنتهي به أطراف الأدلة الشرعية وأدوات المعرفة الإنسانية، ويسعه ما وسع سلفه الصالح، فيؤمن بما لديه ويُسلم ما طوي عنه لربه علام الغيوب تبارك وتعالى.

ولكن الخطر يجري على مَنْ تَنَاولَهُ بنقصٍ في آلة العلم أو زيغ في قصد القلب! فينشأ عن ذينك أو أحدهما تساهلٌ أو تجاوزٌ في تعاطي مُعضلات هذا العلم. فإلى تلك الحَتَلَاتِ جَرَّتِ الإشاراتُ إلى سدِّ بابهِ عَمَّنْ لم يتأهَّلوا له. فقد ذَهَبَتْ لُبْنِي فما أنت صانعٌ؟!

وكلَّ إنسان بحكم قيام حياته على المقادير لا بدَّ أن ترد عليه خواطر إيمانية أو شيطانية فيه بحسب مَسَاقِي قَلْبِهِ علماً وإيماناً وتوفيقاً وهدى وسعادة، أم جهلاً وكفراً وخذلاناً وضلالاً وخيبة.

وكل البشر باختلاف نحلهم لهم معتقد في هذا الباب، إما بالإقرار به على اختلاف معتقداتهم فيه، أو بإنكاره كلياً أو جزئياً، ولكن الجميع يتفق على ذلك الشيء المنتظم للحياة وجوداً أو عدمًا، ومتفقون على أن الحياة في الغاية من

الاتّساق والانتظام حتى وإن اتّسمت نظراتهم بسوداوية، أو سوء ظنٍّ، أو قولاً بتناقضٍ، أو كفرٍ بالله عظيم.

وغالب اتجاه إنكار القدر أنه يكون من جهة الإحساس بالشقاء والحرمان والظلم ونحو ذلك، لهذا كانت الضرورة ملحةً جدًّا للعلم بالمعتقد الحقّ في القضاء والقدر، فإنّ معتقد أهل السنة فيه هو في الغاية من الأحكام الشرعي والأتزان العقلي والاتساق الروحي والسلام النفسي والحركة المباركة ضرباً في الأرض وعملاً ليوم العرض، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥].

فليس للناس سكينه لقلوبهم وسلامة لتصوراتهم وراحة لعقولهم إلا بالعلم اليقيني أن حياتهم كلها ومصيرهم مرتبط بعلم الله الرحيم تعالى وكتابه وعموم مشيئته وخلقه، ولولا ذلك لم تقم لدينهم قائمة، فحتى الأديان المحرفة نجد أن نظام القدر فيها قائم سامق حاضر في أذهانهم مع غبشٍ غير قليلٍ في تصوّره لهم، وأن أمرهم كله متعلق بقدر الله تعالى واختياره وقضائه. لأن الإيمان بالقدر سلوى وعزاء وأمل ورجاء، واتّكاء على ركن شديد من لأواء الحياة. لذا قال بعض مفكريهم الشكوكيّين: لو لم يوجد مفهوم القدر لدينا لأوجدناه ضرورة!

فالإيمان بالقدر مرتبط بالدنيا والآخرة، ومنتظم لكل أمر الدين والدنيا، لهذا وصفه ابن عباس رضي الله عنهما بنظام التوحيد، فقال: «القدَرُ نظام

التوحيد، فمن وحّد الله وكذّب بالقدر؛ نقض تكذيبه توحيده»^(١). فكيف يقوم توحيد الأمر - أي: العقيدة والشريعة علمًا وعملاً - لدى من يكذب بتوحيد الخلق؟! فمشكاتها واحدة، ومعينها واحد، وتوحيد الربوبية ومنه القَدَر أساس لتوحيد العبادة وهو اتباع الأمر، فمن كذب بالقدر فقد كذب بالعلم والكتابة والمشية والخلق والحكمة والإرادة وغير ذلك مما يقتضي بطلان توحيد الإلهية ونقض الأمر لديه، فالإيمان بالقدر هو سلك نظام عقائد التوحيد، فمن كذب بالقدر انتقض دينه.

فمعنى كلام ابن عباس رض الله عنهما: أن الإيمان بالقدر مرتبط بأصول الدين وعلمياته وعملياته وبشعب الإيمان وأمور الشريعة كلها مثل ما ينتظم السلك خرزات السبحة، فمن كذب بالقدر انتقضت معتقده وتناقضت تصورات وتناثرت في بيداء الضياع حظوظه وأمنيته، لأنه قد قطع السلك الناظم لها وهو إيمانه بالقدر. لذلك كانت النعمة من الله تعالى عظمة جدًا بتعليمنا القدر الكافي من القدر، ولك أن تتخيل ضد ذلك حتى تعلم قدر النعمة الربانية عليك بمعرفته والعلم به والإيمان به، والصدُّ يُظهرُ حسنه الصدُّ، وإنها يعرف قدر النعمة من فقدوها، فله الحمد كله كما ينبغي له.

(١) اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ٦٨٩/٢ (١١١٢، ١٢٢٤)، وعبد الله ابن أحمد في كتاب السنة ٤٢٢/٢ (٩٢٥، ٩٢٨)، والآجري في الشريعة ص: (٢١٥).

إنَّ علم القضاء والقدر^(١) علمٌ فاضل شريف كسائر علوم الشريعة، بيدَ أنَّ مُتَنَاولَه يلزمه العناية الشديدة احترازًا وحذرًا من أمرين: الضلال العلمي والزيف السلوكي الأخلاقي.

فالأول: الضلال العلمي في القَدَر: وهو منقسم لنوعين، ضرب الكتاب ببعضه، ورجم بالغيب، وتفصيلهما كالتالي:

الأول: الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، أو الانحراف عن مفهوم الأدلة فيه، ومن ذلك الكلام في القدر بالهوى والرأي المجرد معارضة للدليل. كما أنه ينشأ عن الإيمان ببعض الكتاب دون بعض تنكُّبٌ مُؤَدَّى الأدلة الشرعية

(١) قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في الفرق بين القضاء والقدر: «هاتان الكلمتان مترادفتان إن تفرّقتا، ومتباينتان إن اجتمعتا. فإذا قيل: القضاء بدون أن يقترن به القدر كان شاملًا للقضاء والقدر، وإذا قيل: القدر دون أن يقترن به القضاء كان شاملًا للقضاء والقدر أيضًا. وهذا كثير في اللغة العربية: أن تكون الكلمة لها معنى عام عند الانفراد، ومعنى خاص عند الاقتران. فإذا قيل: القضاء والقدر جميعًا صار القضاء: ما يقضي به الله تعالى من أفعاله أو أفعال الخلق، والقدر: ما قدّر الله تعالى في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ، وذلك لأن المقدور سبقه تقدير في الأزل، أي: كتابة بأنه سيقع، وقضاء من الله تعالى بوقوعه فعلاً. وإن شئت فقل: الكتابة قَدَرٌ والمشية قضاء، والله تعالى يكتب الشيء، بل كتب الشيء في اللوح المحفوظ، ثم يشاؤهُ سبحانه وتعالى في الوقت الذي تقتضي فيه حكمته وجوده فيه، الثاني قضاء والأول قدر. فصارت هاتان الكلمتان إن انفردت إحداهما عن الأخرى شملت معنى الأخرى، وإن اجتمعتا صار لكل واحدة منهما معنى». فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٢/٤).

التي جاءت بالعلم التام والبيان الكامل والحق الكافي صافياً نقيّاً كما هو، فحدّدت مراتب القدر وفصلتها، وأظهرت أحوال أهل الإيمان بالقضاء والقدر على الإجمال والتفصيل. فمن قَصَرَ مَشْرَبَهُ عَلَيْهَا سَلِمَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَدَرِ مَشَارِبِ الْأَهْوَاءِ.

وتأمل كيف ضلّ في هذا الباب القدرية والجبرية ومن لحقهما، فإنهم ضربوا الكتاب ببعضه، فأمنوا ببعض وكذبوا بعضاً، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، فكل فرقة أخذت بجانب فيه، وقبضت عليه، وكفرت بجانب آخر منه، فكان أن قبضوا على الريح، جزاءً وفاً! فكمال الحق في مجموعه لا في تفريقه، والضلال فيه بإنكار جزء منه، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فالقدرية أنكرت بعض علم الرب تعالى وكتابه وعموم مشيئته وعموم خلقه، على اختلاف بينهم كثير، فمنهم من أشبه الدهرية، ومنهم الغلاة، ومنهم ما دون ذلك بأن أقر ببعض المراتب كالعلم والكتابة دون بعض. أما الجبرية فأمنوا بقدر الله تعالى إيماناً مُشَوَّهاً بأن نفوا مشيئة الإنسان التي ذكرها الله في محكم القرآن، وإن أسماها بعضهم بالكسب ونحو ذلك، وهذا من ختل الفكر وخطل العلم لأنها آيلة لإنكار ما جاء صريحاً في القرآن العظيم وبداهة العقول من إعطاء الله تعالى عبده إرادة يحاسبه عليها، فهو ميسر لما خلق له، والله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البالد: ١٠]، ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ

الْآخِرَةِ ﴿آل عَمْرَان : ١٥٢﴾ ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُم أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [التَّكْوِير : ٢٨ - ٢٩].

ومن أسباب ضلالهم في باب القدر تسويتهم بين مشيئة الله تعالى ومحبته، وعدم تفريقهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، ومما تفرّع عن ذلك الضلال العلمي الرضا بالمعاصي، وهذه ضلالة للدين فاقرة، وأمثلتها في المنسلخين من الأمر تطول، ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّعْد : ٣٣].

ولاحظ أنّ هذا الضلال العلمي ناشئ عن الزيغ المسلكي كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف : ٥٠]، وأنّ الذنب سبب لتسلط العدو الرجيم، قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُم يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عَمْرَان : ١٥٥]، وقال سبحانه وبحمده: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [النَّاسِ : ٤٩]، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّسَاء : ٧٩]، والذنوب جِرَاحَاتٌ، ورُبَّ جرح وقع في مقتل، فخطأ الخطايا سلاسل لختوف الأديان.

فلو أنهم تأدّبوا مع كتاب الله تعالى وأجلّوه وعظّموه، وآمنوا بالكتاب كله بالفعل والتطبيق لا بمجرد التلفظ والدعوى؛ لهداهم سبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿١٢٣﴾ [طه : ١٢٣]»^(١)، فعلى قدر الإعراض يكون الضلال.

(١) الحاكم في المستدرک (٣٨١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وقال سبحانه مبيناً أن الهدى - كل الهدى - في كتابه العظيم: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فأقفال القلوب تفتح بالتدبر المخلص الصادق المتبع، والقرآن العظيم يستجيش القلوب إلى الإيمان، ويضيء لها عمود النور في عتَمَاتِ الفتن، فيقفو أثر الرسول ﷺ إلى رياض رضوان الملك العلام. قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي أن يُعرف أنَّ عامة من ضلَّ في هذا الباب، أو عجز فيه عن معرفة الحق؛ فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلُّوا»^(١).

النوع الثاني من الضلال العلمي: الكلام في باب القدر بلا علم، والرجم فيه بالغيب، وذلك بأن يتناول بذهنه إلى ما ليس له، ولم يؤذن له فيه، لأن بعض علوم القدر مطوية عنّا، إما بطي الخبر الغيبي أو بالعجز عن إدراكه، فهي من الغيب الذي استأثر الله تعالى به أو بمن أذن له، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَكَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١١).

وَالشَّهَادَةُ ﴿[الأنعام : ٧٣]، ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن : ٢٦ - ٢٧].

ويلحق بهذا النوع ما زاد من العلوم عن حدّه المُقدَّر لنا أن نطلّع عليه، فمن ذلك علاقة القَدَرِ المُعلَّقِ بالقَدَرِ المُبرَمِّ، ومن أمثلته ما صحّ في السنّة من دفع البلاء بالدعاء، وإطالة العمر بالبرّ والصلة ونحو ذلك مما استفاضت به الأحاديث، فالله تعالى قد قدّر الأقدارَ، وجعل منها قدرًا مُحكَّمًا مقضيًّا مُبرَمًّا لا يدخله تغيير البتّة، وهو ما كتبه في اللوح المحفوظ فهو قضاء مُبرَمٌّ، وكلّ الأقدار راجعة إليه في النهاية.

وجعل هناك أقدارًا معلّقة بأسبابها لحكمة بالغة، فهذه يدخلها التغيير بأمر الله تعالى، كالتقدير العُمريّ عند نفخ الروح في الجنين، والتقدير السنوي عند ليلة القدر، والتقدير اليومي، ونحو ذلك مما في صحف الملائكة، فهي أقدارٌ تتغيّر مع وجود أسبابها كالدعاء والبرّ، وهذه الأقدار المعلّقة تجري مجرى الحياة العامة وكدح الناس وأعمال برّهم وفجورهم، وتعلّقها بمصائرهم، فالله تعالى قد جعل الإيمان والعمل الصالح سببًا لرضوانه والجنة، وجعل الكفر سببًا لسخطه والنار، فالخلق يسعون ويعملون، وكلّ ميسّر لما خُلق له، فكما أن العمل الصالح سبب فكذلك الدعاء سبب والصلة سبب، وإن كان للدعاء والبرّ مزيدٌ خصيصة اهتمام لتخصيص ذكرهما في هذا الباب، لكنهما كسائر الأسباب المعلّقة بها أقدار الله تعالى، فإن وُجدت أسبابها وقعت مُسبباتها بإذن الله، وإن تخلّفت لم تقع بإذن الله، والذي سيكون هو المطابق أزلًا لما سُطر من القَدَرِ المُبرَمِّ في اللوح المحفوظ.

فهناك أقدار ماضية مُبرمة لا تتغير، وهناك أقدارٌ مُعلّقة بأسباب مرتّبة عليها. فالأعمال الحسنة والأفعال السيئة لهما أثرٌ بإذن الله تعالى في الأقدار المُعلّقة، ولعلّ هذا من حِكَمِ التكاليف الشرعية والابتلاء الربّاني لبني الإنسان بأن أعطاه قُدرةً حقيقية، وإرادةً حرّةً، واختيارًا واضحًا، يستحق بحسبه الجزاء يوم المعاد، ومهما كان ذلك الخيار فهو داخلٌ في دائرة القدر المُبرم المحتوم، يُساقُ إليه عن طريق التيسير، فهو مُيسّرٌ لما خُلق له. وهذا من آيات الله تعالى الباهرة، وقدرته الهائلة، ومشيتته النافذة، وحكمته الكاملة، وغناه التام، وعدله المبين، ورحمته التي وسعت كل شيء، وخَلَقَ المُحكّم، وقَدَرَهُ المُتسق، ودينه الشافي الكافي. ومن اتضح له ذلك انكشفت له المسألة بإذن الله تعالى. فإلى هنا ينتهي علمنا بهذا القدر من القدر، أمّا ما وراءه فهي أسرارٌ ربّانية في القدر قد طوى الله علمها عن أنامه، وتعبّدهم بالتسليم له بها، والإقرار بشمول علمه وعموم مشيئته وعظيم حكمته وعدله ولطفه وبرّه ورحمته.

والمقصود؛ أنّ العلم بكيفيّة وتفاصيل رجوع القدر المُعلّق للمُبرم، وأنه وإن أمرنا بالسعي فيه لأنّ له أثرًا لا نُحيط به، ومع هذا فهو لا يختلف عما في اللوح في النهاية، فهو وإن كان من جهة التيسير ابتداءً فنهاياته وغاياته مما لم نُحِطْ به خُبْرًا، فهو ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، فمن ظلم النفس إقحامها فيما ورأيتاته، فالغيوب يبقى علمها لعلّامها تبارك وتعالى، فمّا لنا فيها إذن ولا علم، والله المستعان.

وإنّ من القدر الغيبي علمُ الله تعالى بالأُمور الغيبية في الأزل والحاضر والمستقبل، وهذا غيبٌ محض، فالخوض في أُمور القدر بلا أثّارة من الوحي

قَوْلُ بِالظَّنِّ، وَرَجْمٌ بِالْغَيْبِ، وَخِيَّةٌ لِلرَّجَاءِ، وَاتِّبَاعٌ لِسَنَنِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التَّوْبَةُ : ٦٩].

ومن توابع ذلك الضلال العلمي قياس أفعال الله تعالى بأفعال المخلوقين، فيُحَسِّنُونَ وَيُقَبِّحُونَ بآرائهم، وهذا من أكبر أسباب الضلال. ومن فروعه الأثيمة القدح في حكمة الله تعالى، وهذا ضلال وزيف وسوء أدب مع جناب من لا يأتي الخير إلا منه، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام : ٩١]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لُقْمَانَ : ٢٠]، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فَاطِر : ٤٥].

ومن الضلال العلمي تطبيق مقاييس البشر القاصرة ومفاهيمهم الناقصة على قضاء الله وقدره الرباني الإلهي، وهذا من أكبر ضلال من ضل في هذا الباب، وهو من أسباب اعتراض المخدولين على الأقدار والأرزاق ونحوها، ولهذا قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقَدَرُ رِيَاضُ الزَنْدَقَةِ؛ فَمَنْ دَخَلَ فِيهِ هَمَلَجٌ»^(١)، ﴿يَنَاءِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار : ٦].

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٨٤/٢) والهملجة: السير في سرعة وبخثرة، ويقال: شاة هملاج أي: لا مُخَّ فيها. انظر: لسان العرب (٨٣١/٣).

مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
[الرّخُف: ٣٦ - ٤٠].

فخواطر السوء ليست مجرد أفكار نفسية ذاتية شريرة، بل بعضها وسوسة حقيقية من مخلوق حقيقيّ مكلف شرير، له القدرة بإذن الله على الوسوسة والأزّ في طريق الشرّ تسليطاً وابتلاء، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مَرْيَم: ٨٣]، وهذا من مقابلة الغافل بما فعل وفرط وأعرض واستغنى، فلو أنه أقبل على ربه لأمدّه بملائكة كرام بررة، يربطون على قلبه، ويهدّونه لفلاحه بإذن الله تعالى.

فالله تعالى قد يسّر لعبده أمورَ سدّادٍ منها القرين الملائكي في مقابل القرين الشيطاني، فعليه أن يُحسن سياستها بحُسن وفادة الملك الكريم والاستعاذة من الشيطان الرجيم، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]. ولهذا تعيّن على المؤمن أمران: كثرة الاستعاذة، ودوام الذكر واليقظة.

والجدل الباطل علامة خذلان فعن أبي أمانة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ»، ثُمَّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الرّخُف: ٥٨].^(١)

(١) المسند (٢٥٦/٥) والترمذي (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وتفسير الطبري (٥٣/٢٥) وحسنه الألباني.

ولكن الجدَل بالهدى والحق لإقامة الحق محمود مشكور من الله الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التخل : ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦].

ولا يدخل في التنازع المذموم منازعة ومجاهدة الفرق الضالة من المشركين وأهل القبلة ومجادلتهم بالحق؛ بل هو من الجهاد العالي، وهو جهاد اللسان والبيان، وهو جهاد المرسلين، والله تعالى قد أمرنا به، ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٢]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج : ٦٢].

ومن الزيغ السلوكي في هذا الباب أيضاً: أسئلة التعنت في القدر، والله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣]، ﴿وَهُمْ يُجَدِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣].

ومنه أيضاً: الاحتجاج بالقدر على المعصية كقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام : ١٤٨].

ومن الزيغ السلوكي في باب القدر أيضاً: الاعتراض على القضاء والقدر واللدُّ والمخاصمة والمهارة كفعل المشركين، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٣] أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف : ٣١ - ٣٢].

وأول من خاصم ربه في القدر إبليس أعادنا الله منه، فإنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر : ٣٩]، فمن خاصم في القدر فشيخه أبو مرة الرجيم، ﴿كَذَلِكَ

يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٧]. قال معاذ العنبري رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت عمرو بن عبيد يقول - وذكر حديث الصادق المصدوق -: «لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا ما أجبتُهُ، ولو سمعتُ عبدالله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله تعالى يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا!»^(١) تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، عائذاً بربي من الاغترار بحلم جلّ جلاله وكرمه، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [٣٦] كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ [يونس: ٣٣ - ٣٤]، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]،

(١) تاريخ بغداد (١٧٠/١٢) للخطيب البغدادي، وتهذيب التهذيب (٧١/٢٤) لابن حجر، وميزان الاعتدال (٢٧٨/٣)، وقال عبد الله بن سلمة الحضرمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت عمرو بن عبيد يقول: لو شهد عندي عليٌّ، وطلحة، والزبير، وعثمان، على شراك نعلٍ؛ ما أجزتُ شهادتهم». ميزان الاعتدال (٢٧٥/٣). وعن عمرو بن النضر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سئل عمرو عن مسألة وأنا عنده فأجاب، فقلت: ليس هكذا يقول أصحابنا، قال: ومن أصحابك لا أبا لك؟! فقلت: أيوب، ويونس، وابن عون، وسليمان التيمي، قال: أولئك أرجاسُ أنجاسٍ، أمواتٌ غير أحياء». نعوذ بالله من العجب والضلال، والشر من معدنه لا يُستغرب. وانظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٩٩/٥) لابن عدي، وتاريخ الإسلام (٨٤/٣).

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعُتَىٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦ -

[١٤٧].

هذا؛ وإن من المخالفات المسلكية في هذا الباب الأغلوطات، ولقد كان السلف يزجرون عن الأغلوطات ومعناها: السؤال عن عُضَلِ المسائل والمشكلات على وجه التعجيز لا الاستهداء، فيُغالط بها العلماء ليزلوا فيها، وكذلك المسائل التي لم تقع بعد، كذلك ما لا يُحتاج إليه من كيف وكيف. فجامع الأغلوطات: السؤال على غير نية الهداية، والله المستعان^(١).

(١) وقد روى أحمد (٢٣٦٨٨) وأبو داود (٣٠٦٦) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نهى عن الغلوطات» وضعفه الألباني والأرنؤوط. لجهالة عبد الله بن سعد الصنابحي. وقال الساجي: ضعفه أهل الشام. والغلوطات: بفتح الغين: غلوط، كشاة حلوب، وناقرة ركوب، ثم يجعل اسمًا بزيادة التاء، فيقال: غلوطه، وهي المسألة التي يُغلط بها العالم، فيستزل بها، وقيل: الصواب بضم الغين، والأصل فيها الأغلوطات، فطرحت الهمزة وألقت حركتها على الغين. ومن رواها الأغلوطات فهو الأصل.

قال أبو عبيد الهروي: «الغلوطات الأصل فيه الأغلوطات، ثم تركت الهمزة. كما تقول: جاء الأحمر وجاء الحممر بطرح الهمزة». وفي نسخة: «جاء الحمر». الغريين في القرآن والحديث ١٣٨٢/٤. والنهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٨/٣. قلت: ولا تزال لغة

=

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْرِمَ عَبْدَهُ بَرَكَهَ الْعِلْمِ؛ أَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْمَغَالِيطَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ أَقَلَّ النَّاسِ عِلْمًا»^(١).

ولما سأل رجل أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ مسألة فيها غموض، قال له: «هل كان هذا بعد؟»، قال: لا، قال: «أمهلني إلى أن يكون»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «سَلُونِي»، فسأله ابن الكواء، فقال: «ويلك سَلْ تَفْقُهَا، وَلَا تَسَلْ تَعْتَبُهَا»، وفي موضع آخر قال له: «إِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التَّيِّهِ، سَلْ عَمَّا يَنْفَعُكَ أَوْ يَعْزِيكَ»^(٣).

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «شِرَارُ عِبَادِ اللهِ يَنْتَقُونَ شِرَارَ الْمَسَائِلِ يُعْمُونَ بِهَا عِبَادَ اللهِ»^(٤).

وإذا تأملت غُلُوطَاتِ النَّاسِ تجد أن سوادها التَّعَنُّتُ فِي الْقَدْرِ لَغَمُوضٍ بَعْضُ مَسَائِلِهِ وَاتِّصَالُهَا بِحَيَاةِ الْعَامَّةِ.

إسقاط الهمزة في بعض السياقات معمولاً بها في نجد، فيقولون: أحمر وحمَر، وأخضر وخَضَر.

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (٢/ ٢٠، ٣٠٣)، والشرعية للآجري (١/ ٤٨٦).

(٢) معالم السنن (٤/ ١٧٢).

(٣) جامع بيان العلم (٧٢٦).

(٤) جامع بيان العلم (٢٠٨٤).

وبالجملة؛ فالعلم بالقَدَر ضروري للإيمان، وركن فيه، إذ هو من أصول الإيمان التي يجب تعلّمها، فمن مسائل القَدَر ما يكون العلم والإيمان به ركنًا للإيمان، ومنها ما يكون العلم والإيمان به كمالًا للإيمان لتعلّقه بعلم الشريعة وأفعال الرحمن، ومنه مسائل لا فائدة علميّة ولا عبادة عمليّة ولا تزكية إيمانيّة تُرجى من خوضها وبحثها؛ فالأصل عدم الدخول فيها إلا للحاجة كردّ شبهة ونحو ذلك.

أما القَدَرُ المنهيُّ عنه في مسائل القَدَر فهو على نوعين:

أولاهما: غيب لا يعلمه الا الله تعالى، فالخوض في ذلك رجم بالغيب وتكلّف ما لا علم لنا به.

والثاني: التنازع والمِرَاء وضرب النصوص ببعضها. فمتى سلّم المرء من تناول هذين المحذورين؛ شرع له بحث مسائل القضاء والقدر، وساغ له الكلام فيه بإيمان وعلم وأدب.

هذا؛ وإن مراعاة هذين الأمرين وإن كانت مضطردة في سائر مسائل الشريعة إلا أنها في باب القضاء والقدر أشدّ حضورًا لتعلّقها المباشر بحياة وفكر ومصائب ورغائب ومصائر الناس من جهة، وارتباطها الوثيق بأمور الدين كلها من جهة أخرى، فبذلك تمّ ربطُ الدنيا بالآخرة، والعلم بالعمل، والتكليف بالمصير، والابتلاء بالديانة، وحرث العبد بأمر الربّ؛ فمن هنا كان نزاعُ الناس فيها كثيرًا، واضطرابهم حيالها عظيمًا، لذلك جاء التشديد في الخوض والتنازع والمخاصمة فيها ما لم يأت في غيرها، والله أعلم.

هذا؛ وقد يكون بحث بعض نوازل مسائل القدر الحادثة فرضاً على بعض الأعيان إذا قام سبب ذلك. وقلنا بمشروعيته في عويص مسائل القدر الحادثة لمن كان من أهل العلم حين وجود سببه؛ لأنّه من جهاد الدفع العلمي الكفائي عبر توضيح الحدود الشرعية الحقيقية للمسألة بأدلتها وشواهداها، وصدّ شبهات الضلالة، وردّ إيرادات العمّاية، ودفع الصيال العادية، من شبهات الخاطفة والأهواء الضلالة والنوازل الحاضرة عن الأمة، وهي شبهات يثيرها فئامٌ قد تقلدوها عمّن غبر من أهل الأهواء المضلّة، فلكلّ بدعة وارث.

واعلمن يا محبّ - رحمني الله وإياك - أنّ طريقة دفع عامّة الشبه في تلك المسائل الحادثة في باب القدر وغيرها إنما يكون بتوضيح حقيقتها وإزالة ما التبس من تمويهها، فالحق يبقى حقاً، والدين ليس في حاجة لعلم جديد مستأنف، فهو كامل تامّ مرّضي لا يشادّه أحدٌ إلا غلبه.

فالمقصود - وهذا مهم جداً - هو أنّ بيان ضلال المسائل في هذا الباب عبر بحث المسائل ليس لتثوير علم جديد فيها، فلا جديد في علم الشرع؛ إنما الغرض منه إفراد الدخيل عن الأصيل، وتمييز الحقّ المكين من الباطل المدّعى، فمتى رُدّت المسألة النازلة لأصلها الشرعي وحدودها وحقيقة معناها وكشف أغلاط مناطاتها فإنها تسقط تلقائياً، فالحق في القرآن العظيم واضح بحمد الله تعالى، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

فالحقّ شمسٌ والعيونُ نواظرٌ لكنّها تخفى على العميان

ولتقريب المعنى؛ فلو أنّ مسألة ما قد بُنيت على حديث باطل؛ فإنّ بيان بطلان سنده كافٍ عن بحث متعلّقات المسألة في معناه، لأنّ ما بُني على باطل فهو باطل.

وكذلك لو أنّها بنيت على نصّ صحيح لكنها فُسّرت على فهم مغلوطة لا يحتمله النص؛ فإنّ إثبات عدم احتمال المعنى المُحدَث لذلك النص كافٍ في إسقاطها.

وكذلك لو كانت الشبهة مبنية على أغلوطة فكرية أو مظنونة عقلية ثم سيقّت للناس على أنها قطعية عقلية، فيسوّق الوهم بصورة يقين، وأشياء أقلّ ما يقال فيها أنها ظنية لا قطعية؛ فدفع ذلك يكون عبر تمييز الحدود الفاصلة القطعية لليقينيّة العقلية عنها، فإذا ظهرت الحقيقة اليقينية واتّضحت سقط ما ألصق فيها من أوهام واضمحّل ما خالطها من خاطئ الإرادات وغالط الأفهام، وانماغ شعّ الزيف عبر نار تحقيق المناط وتحريره وتنقيحه، وانقشع بحمد الله غيّن الهوى بشمس الهدى، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [يونس : ٣٢]. وهذا ما يسمّى عند الأصوليين بتنقيح المناط، أي: تنقية الأمر المعين وتخليصه من غيره، فيُنزع عنه ما ليس منه، وذلك بأن ينص الشارع على حكم عقيب أوصاف معينة، فتُلغى الأوصاف غير المؤثرة في الحكم، ثم يعلّق الحكم على ما بقي مما هو معتبر لها، وهذا مرادنا هنا، لأنّ الباطل يسقط بنفسه حين كشف حقيقته، فيذوب حينها ثلج الضلال ويستبين فوقه مرّج الحقّ، فيإيراده مردودًا بالبراهين الشرعية يهتك ستار تدليسه ويكشف قناع تلبيسه عن وجه الحقيقة الأبلج الناصع المبين.

والشبهة إذا زالت فإن الإيـمان يدفع ما بعدها بإذن الله تعالى. فإن ساعد على ذلك صلاحُ ذي الأمر وقوّته اجتماع خيرهما بإذن الله تعالى، كما قال أبو تمام:

فما هو إلّا الوحيُّ أو حدُّ مُرْهَفٍ تُمِلُّ ظُبَاهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ
فهذا دواءُ الدّاءِ من كُلِّ عالِمٍ وهذا دواءُ الدّاءِ من كُلِّ جاهِلٍ^(١)

والحاصل؛ أن بحث هذه المسائل الشائكة إنما يكون في الغالب بهذه الطريقة، وهي كما ترى مفتقرة إلى معرفة الحدود الشرعية للمسألة الواحدة بفهمها السليم أوّلاً حتى لا يُدخل فيها ما ليس منها، أو يُنفي عنها ما كان منها، ثم استيعاب أدلتها، وربط معانيها بها، واحترازاتها، ثم يلي ذلك دفع إيراداتها، وإبطال توهماتها.

(١) الوحي: أي القرآن المجيد، وبيان الرسول ﷺ. حَدُّ مُرْهَفٍ: أي: حدُّ سيفٍ مرهف. والمرهف المَسْنُونُ ذو الشفرة الرقيقة. ظُبَاهُ: الطُّبَّةُ حَدُّ السيف والسَّنان والخنجر ونحوها وجمعها ظُبًا وظُباة وظُبُون. أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ: الأخدعُ أحد عرقيْن في جانبي العنق، وهما الأخداعان. وانظر: المثل السائر ٢/٢٩٥ وروى:

فهذا شفاءٌ للقلوبِ مِنَ الْعَمَى وهذا شفاءُ الْعِيِّ من كُلِّ جاهِلٍ
والمقصود؛ أن من الناس من يكون ضلالة لشبهة انقدحت له، فكشفها يكون بالوحي قرآنًا وسنةً، ومنهم من يكون متكبرًا على الحق راغبًا فيما سواه؛ فيردّ إليه راغمًا بالسيف، فالأول أتي من جهله، والثاني من جهالته، وإن الله ليَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما قاله عثمان رضي الله عنه.

فبتحرير محلّ المخالفة فيها عبر بيان الحقّ المذهب لما يُظنّ من ضلالةٍ شيبَ بها حقٌّ، فيميز الحق حينها من الباطل، حتى يبقى الباطل عارياً واضح الضلال، فيسقط من عيون الخلق وتنفره قلوبهم، وبهذا يسقط أساس الباطل وينهار بناؤه بفضل الله تعالى، فالباطل مهما تلّون وانتشر فهو ضعيف في نفسه ينهار تحت معاول الحق، لذلك فلم يُصب من منع من ذلك بإطلاق، أو فتح بحثه بإطلاق، فليس في الأمر مع التحرّز والحذر والتؤدة إبطال حقٍّ أو تمريرٍ لباطل أو تضييعٍ لفاضل، والمؤمن كيّس فطن، وكلّ ميسّر لما خُلِقَ له.

وإذا علمت بأنه متفاضلٌ فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل
وكم من نجاسة فكرية رُوّجت على العقول حتى ألفتها، وضلالةٍ كرّرت
على النفوس حتى صدّقت بها، وفتنةٍ علم تساهل بها صاحبها حتى أوبقته، ولو
أنها كشفت ابتداءً لسقطت كالسقط التالف.

ومن فروع ذلك؛ بيان أن الضلالة الفتانة لا تكون ضلالاً محضاً وإلا لم
تُغر مؤمناً، لكنها تتزين ببعض الحقّ تسويقاً لباطل خلفه. فمكمنُ خطر
الضلالة وسبب انتشارها هو أنّها ضلالة بُنيت على شيء من حقٍّ، ثم غيّرت
وجهته واسترسل في لوازم ليست له، وأُحيل معناه الجميل الصحيح لباطل
قبيح. ولو كان الباطل خالصاً لم يَرُج في سوق أفكار البشر، ولكنه كالسارق
الذي يلبس ثوب صاحب المنزل، وكمن يبيع العنب لمن يعصره خمرًا، ﴿وَإِنَّ
مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٨].

ولو تأملت مذاهب أهل الأهواء قاطبة لوجدتها لا تخلو من حق يقلّ أو يكثر. وكلما كان حيّز الحق والهدى أكثر كلما راجت شبهتهم واشتد كلبها في الناس، فالخير في الناس يسوقهم لطلب الهدى حيث كان.

لذا كان من شريف الجهاد العلمي دحر هؤلاء عن حياض العلوم نصحاء للأمة من غشش القول وغيايات البدع، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

ومن هذا الباب فإن بحث مسائل القدر التي شاع بين الناس الكلام فيها بفهم على غير حقيقتها، وفقه على غير هداها، حتى زلزلت قلوب بعض المتقين، وغبشت بصائر قوم مؤمنين، وكدرت صفاء آخرين، وخيف من ضلالهم فيها أن تستريب قلوبهم وتستشك أفئدتهم ويتزعزع بالله تعالى يقينهم؛ فحينئذ يكون فتح ذرائع بحثها مشروعاً لا ممنوعاً، ولكن على قدر الحاجة بلا مزيد خوض فيما لا طائل منه، فالقلوب ضعيفة والشبه خطافة، والعمل كثير والعمر قصير، والسلامة مطلبٌ والعافية لا يعدلها شيء.

وعليه؛ فمن خاف على دينه من شبهة ففرضه الإعراض عنها، أو سؤال أهل العلم عما أشكل عليه من فهمها، أما إعناقه في حباثلها وخوضه في مشتبها فضولاً وحُب استطلاع؛ فهو مغامرة بالدين واقتحام للمهلكة ورحلة للعطب، كساع إلى الهيجا بغير سلاح.

ولكن من كان من أهل العلم والتخصص، وأخلص الوجه لله تعالى، واعتصم بالوحي؛ فلن تزل بإذن الله قدمه، وسيشكر بإذن ربه سعيه، ولكل

حال لبؤس، ولكل مقام مقال، ولكل لواء أهله. ومن طرق الأمور من أبوابها
أوشك أن يفتح له، ومن عزم في الجواد وصل.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها
وعليه؛ فقد يكون بحث أحاد بعض المسائل النازلة فرضاً على بعض
الأعيان، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لو أن الناس كلما استصعبوا
أمراً تركوه ما قام للناس دين ولا دنيا»^(١).

وحراسة ثغور العلم والإيمان أولى من حراسة ثغور الأرض والبلدان،
وكلما جدّد أعداء الله بدعة أقام الله لهم من يهدمها بأمره، ولا يزال في الأمة
قائمين لله بالحجة والبرهان، وبالسيف والسنان.

إذا كان حلم المرء عوناً عدوّه عليه فإن الحزم أغنى وأنفع
فلم يزل الله تعالى بحمده وفضله ومنته يستغرس في الأمة من يقوم له
بالحجة تبياناً للمحجة، منافحاً عن قواعد الملة، حارساً لحياضها، مجاهداً لله
فيها، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ومن هذا الباب الحارس الحامي بإذن الله تعالى تكلم الأئمة في مسائل
أحدثت في زمانهم، فأنعم النظر فيما كتبه الإمام أحمد وطبقته ومن سبقهم في
مسائل لم تك فيمن قبلهم، ثم استجدت نوازل لمن بعدهم من أئمة الأمة،

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨٨/٤

وكان شيخ الإسلام يكتب ويذكر أنه لو لم تكن الحاجة لمثل هذا وأن أهل الباطل نازعوا فيه ما كتب فيه، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فمسائل القدر سهلة يسيرة وواضحة مُبَيَّنَةٌ في الجملة، وهي كافية للإيمان، ومن آمن بها أغنته وكفته وصحَّ بها معتقده، وهي مبثوثة في ثنايا القرآن والسنة، مُعَزَّزَةٌ بالعقل والفطرة، وهي نَزْرَةٌ قليلة تامة كافية شافية لولا تشقيق الناس لمسائل أبعدوا فيها عن نُجعة السلامة والهدى، بيد أن بعض أبواب القدر - وهي زائدة عما ذكرنا - شائكةٌ عسيرة، ولها حدود وأطراف في الغاية من العمق والدقة، وتشبه على كثير من الناس، وإنما يفهمها الراسخون، الذين يُنزلون علمها منزلته اللائقة ومكانه الصحيح.

ثم من بعدها أطرافٌ من علم القدر لا يعلمها بشرٌ، لأنها فوق استيعابهم وإدراكهم وأفهامهم، وأوسع جدًّا من أن تحيطها علومهم، فالإقدام عليها عَطْبٌ للعقل، وضياغٌ للدين، واستفراغٌ لجهدٍ كان الواجب أن يُبذل فيما سواه، فلم يأذن الله تعالى بأن تكون معلومة لنا في هذه الدار رحمة وحكمة وابتلاء، وحتى يَمَيِّزَ اللهُ الْمُؤْمِنَ الْمُوقِنَ الْمُسْلِمَ مِنَ الْمُتَهَوِّكِ الْمُرتَابِ المُكذِّبِ، فهي مسائل تُحَيِّرُ العقولَ ولا تُحِيلُهَا، فالعقول تقبلها وتقول بإمكانها ولكن لا تفهم أطرافها على التفصيل، بل أحيانًا حتى على الإجمال، لأنه بعد مَرَمَى إدراكها وفوق إطاقَةِ قُوَّتها.

وكلّ هذا راجعٌ لحكمة الله تعالى وربوبيته وأسرار خلقه ورحمته ولطفه وابتلائه لعباده، لذلك كان حتمًا على المؤمن الوقوف دون أسوارها، وعدم الاقتراب بفكره من أرباضها، والنزوع عن التلصص بوهمه في مسارها

وأنقابها، حتى لا يزيغ فهمه، ولا يضلّ علمه، ولا يخيب سعيه، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

وعليه فاعلم - رحماني الله وإياك - أنّ مسائل القدر على أربعة أضرب:

الأول: مسائل جاءت الشريعة بها وبأدلتها على الإجمال والتفصيل، وهذا الضرب فيه علوم لا يقوم الإتيان إلا بها، كالإيمان بعلم الله تعالى، وكتابته، وعموم مشيئته لكل شيء حتى طاعة المطيع ومعصية العاصي، وخلق له للأشياء كلّها ومنها أفعال العباد. وحكمته ورحمته وعدله وإرادته وابتلائه ونحو ذلك من المسائل، وهي العلوم الضرورية في باب القضاء والقدر.

الثاني: علوم جاءت بها الشريعة في باب القضاء والقدر على وجه التكميل، فهي قدرٌ زائد عن العلوم التي لا يقوم الدين إلا بالعلم بها واعتقادها، وهي أشبه ما تكون بتفصيل ما أُجمل في الضرب الأول، والعلم بها شرفٌ مندوبٌ مستحبٌ محمودٌ، وحالها كحال بقية مباحث علوم الشريعة الأخرى التي يعلو عند الله تعالى من كان بها أعلم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وهذا هو باب المسابقة إلى الله تعالى عن طريق طلب العلم من أبوابه التي أشرعتها الشريعة، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

الثالث: علوم نهى الشرع عن بحثها، وزَجَرَ عن الخوض فيها، وهي سياقات بحوث القَدَر التي ليس تحتها عمل، ولا تنتهي لعلم متعلّق بدليل، بل هي افتراضات وتحكّيمات متعلّقة بعلم الغيب، فلا تُدرك إلا بالخبر من الله تعالى، وإذ لم يوجد الخبر، فمعناه أن هذا العلم مغلق عنّا، وهذا نابع عن إيماننا التام بكمال الشرع، وعدم نقصه بأيّ وجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأَنْعَام: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائِدَة: ٣]، وقال ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(١)، وقال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ، وَلَا شَيْئًا يُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ»^(٢).

فلَمَّا كان الشرع كاملاً أوّلاً، ثم لم يورد الشرع هذه المسألة بعينها ثانياً؛ دلّ هذا على أن هذه المسألة هي خارج سياق الشرع والدين.

وإذا كانت كذلك فلا خير في بحثها، ولا حاجة لنا بها، لأنها لو كانت مغنماً لأبداها الشرع لنا، كما أنّ معرفتها على التحقيق مُحَالَةٌ علينا، لأن طريق العلم اليقيني بها محصورٌ بخبر الشرع لا غير. ومن ذلك علم سرّ القدر،

(١) أحمد (١٧١٤٢) وابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني والأرنؤوط.

(٢) الحاكم (٥/٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، وابن راهويه كما في إتحاف الخيرة (٢٧٢٢)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١، ٤١١٣)، وغيرهم. وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١ / ٦٢٢) والألباني في الصحيحة (١٨٠٣).

ومعرفة العلل الغائية له على التفصيل والتحقيق، ولماذا خلق الله تعالى كذا وكذا، وعلام أفقر فلاناً وأغنى فلاناً، وأصح هذا دون ذاك، وأمات هذا وأحيا ذاك، وأضلّ وهدى، وشاء واختار.. ونحو ذلك، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ [القصص: ٦٨ - ٧٠].

لذلك فالإقرار بالجهل بسرّ القدر يقطع وارد النزاع والشقاق والاحتجاج بالقدر على المعاصي، ويورثُ العقل الراحة من مُشاغبة الأفكار الغيبية في الأمور الغيبية، ويحقن في القلب التسليم لله تعالى في الشأن كله، ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١) [الأنعام: ٧١].

وقال ربنا جل جلاله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) [الأنعام: ٣٥]، فلا يكن حالك حال أهل الجهل بربهم تعالى، فلا تطلب للقدر سرّاً قد طوي عنك مرامه، فله تعالى في غوايتهم حكمٌ لم يخبرك بها، فسلم أمرك لعلام الغيوب، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) [يونس: ٦١].

وثمة أمور من القدر فيها دقة وعمق لا يفقهها ولا يستوعبها كل أحد، وإن كانت واضحة لأهل العلم، ولا يحسن إيرادها خشية الإلباس، وثمة أمور قدرية غير مكشوفة للخلق أصلاً ولا تدركها عقولهم ولا تُطبقها أفهامهم، قد حُجِبَتْ عنهم لحكم ربانية لا نعلمها والله يعلمها، ومع ذلك نؤمن أنّ الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، وأنهم بين فضله وعدله، وأنه حكيم في أفعاله، وأنّ

رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق مؤاخذته، وأنه محمودٌ حمداً كاملاً على كل أقداره وأوصافه وأفعاله، وأنه قد وسع كل شيء رحمةً وحكمةً وعِلماً.

والمؤمن المتدبّر لآيات الله الشرعية والكونية حقيق بخشوع قلبه لجلال رب العالمين، فالملك كله لله وحده، فهو الملك الحق المبين، يفعل ما يشاء، يعذب من يشاء، ويلقي من يشاء في النار ولا يُبالي، ويرحم من يشاء، ويخلق للجنة خلقاً لم يعملوا خيراً قط، ولا يسأل عما يفعل، فله الملك والملكوت والعزّ والجبروت والغنى والعلم والحكمة والقهر والتدبير، فهو ذو القوة التامة المتين. فمن أنت يا بُنَيَّ آدم حتى ترى أن لك الحق في معرفة ما لم يأذن لك فيه، أو أن تستدرك عليه، أو أن تتعنّت وتجادل وتخاصم، ألا ما أحلم الله!

قال رب العزة والجلال تبارك وتعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [التين: ١]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [التين: ٢]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى

بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»^(١).

وقد نُهِينَا عن التَّكَلُّفِ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»^(٢).

وعن أبي ثعلبة الحُسَيْنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَتَهَكَّوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»^(٣).

قال عبيد بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ حَلَالًا، وَحَرَّمَ حَرَامًا، وَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ؛ فَحَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ قِسْمٌ فِيهِ أَحْكَامُ اللَّهِ أَرْبَعَةٌ أَقْسَامٌ: فَرَائِضُ، وَمَحَارِمُ، وَحُدُودُ، وَمَسْكُوتٌ عَنْهُ، وَذَلِكَ يَجْمَعُ أَحْكَامَ الدِّينِ كُلِّهَا»^(٤).

(١) البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨) واللفظ له.

(٢) البخاري (٧٢٩٣).

(٣) الدارقطني في سننه (٤٣٩٦) وحسنه النووي في رياض الصالحين (٥١١)، وحسنه

ابن حجر في المطالب العالية (٤١٦/١٢) وحسنه ابن باز في شرح رياض الصالحين

(٥٧٤)، وحسنه الألباني في الإيمان (ص: ٤٤) وضعفه في المشكاة (١٩٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (٧٠ / ٢) الحلية لأبي نعيم (٣ / ٢٦٨).

وقال الإمام أبو بكر بن السّمعاني رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث أصلٌ كبيرٌ من أصول الدّين.. وحُكي عن بعضهم أنّه قال: ليس في أحاديث رسول الله ﷺ حديثٌ واحدٌ أجمع بانفراده لأصول العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة.. فمن عمِلَ بهذا الحديث، فقد حاز الثّواب، وأمنَ العقاب؛ لأنّ من أدّى الفرائض، واجتنب المحارم، ووقف عند الحدود، وترك البحث عمّا غاب عنه، فقد استوفى أقسامَ الفضل، وأوفى حقوق الدّين؛ لأنّ الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث»^(١).

وبعد؛ فأنعم النّظر، وأمعن الفكر، وأطلّ التدبّر، واستنطق القلب، واستحلب الذّهن، واستنزع المعاني العجيبة من قول الله تعالى في هذا الباب الهائل الغامض المدهش: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وإذا كانت مدارك الناس تختلف بحسب علومهم وأفهامهم؛ فكيف بعلم الله تعالى؟! ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. قال ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: «العادة قد استمرت على وجوب الاختلاف في الأحكام عند التّفاضل في العلم والحكمة، وذلك يُوجب استقباح الجاهل لبعض أفعال الأعلّم على قدر ما بينهما من التّفاوت، فأولى وأحرى أن يُوجب استقباح الجاهل لبعض أفعال الأعلّم.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٨١٩).

ولما كان التَّفَاوُت بين علم المخلوقين وعلم خالقهم سبحانه لا يُقدَّر بمقدار، ولا يتَوَهَّم بقياس؛ وَجَبَ أن يكون بَيْنَهُم في التحسين والتقبيح لتفاصيل الأحكام أعظم الاختلاف وجوبًا عاديًّا يَسْتَحِيلُ خلافه... فلمَّا جاء السَّمْعُ بالمتشابه عليهم على القاعدة المألوفة والعادة المعروفة في أن الأَعْلَمُ إذا تَمَيَّزَ شَيْئًا قَلِيلًا عن أَجْناسه وأشباهه لم يكن بُدًّا من أن يَأْتِيَ بما لا يعرفون، ويفعل ما لا يقولون، ويستحسن بعض ما يستقبحون، حتَّى قيلت في هذا الأشعار وَضُرِبَتْ فيه الأمثال، وحتى قيل: إِنَّ الاجْتِمَاعَ في الخَفِيَّاتِ محالٌ مثلما أَنَّ الاختلاف في الجَلِيَّاتِ محالٌّ. وقد أجاد في هذا المعنى من قال:

تسلَّ عَن الْوِفَاقِ فَرُبُّنَا قَدْ	حكى بين الملائكة الخصامًا
كذا الحَضِرُ المَكْرَمُ والوجيه	المُكَلَّمُ إِذْ أَلَمَّ بِهِ لِمَا مَا
تكدَّرَ صفوُ جَمْعِهِمَا مَرَارًا	وعجَّلَ صاحبُ السَّرِّ الصَّرَامَا
فَفَارَقَهُ الكَلِيمُ كَلِيمَ قَلْبٍ	وقد ثَنَّى على الحَضِرِ المَلَامَا
فَدَلَّ على اتِّسَاعِ الأَمْرِ فِيهَا	الكِرَامِ فِيهِ خَالَفَتْ الكِرَامَا
وما سَبَبُ الخِلَافِ سِوَى اخْتِلَافٍ	العُلُومِ هُنَاكَ بَعْضًا أَوْ تَمَامَا
فَكَانَ مِنَ اللِّوَازِمِ أَنْ يَكُونَ	الإِلَهُ مُخَالَفًا فِيهَا الْأَنَامَا
فلو لم نجهل الأسرارَ عَنْهَا	بلغنا مثله فِيهَا المَرَامَا
فَصَارَ تَشَابُهُ الْأَحْكَامِ مِنْهُ	عَلَيْهِ شَاهِدًا وَلَنَا لَزَامَا

فَلَا تَجْهَلْ لَهَا قَدْرًا وَخُذْهَا شُكُورًا لِلَّذِي يُحْيِي الْعِظَامَا»^(١)
 ويُلحق بهذا النوع من المسائل في القَدَر المنهي عن الخوض فيها: التنازع
 والخصام والمرء والمجادلة بالباطل فيه، وكذلك ضرب الكتاب ببعض
 بالتعنّت اللدود، والتشقيق الرديء، والتنقيص الجهول، وحمله على أهواء
 المبتدعة، ونقص اليقين بأنه حقٌّ مطلقٌ ونحو ذلك. وعلى هذا يُحمل الأمر
 الوارد بالإمساك عن القَدَر، والعزّمة النبوّية الشريفة بعدم التنازع فيه، ﴿فَإِنْ

(١) إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير محمد بن إبراهيم اليماني (١٩٩/١) ويعني
 بالخصام بين الملائكة ما جاء في قصة آدم وفي حديث اختصاص الملائكة الأعلى وغير
 ذلك. وقوله: «الوجه المكلّم» هو موسى عليه السلام. وقوله: «تكدّر صفو جمعهما
 مراراً» أي: باعتراضات موسى عليه السلام الثلاث المذكورة في سورة الكهف. فلمّا
 لم يف موسى عليه السلام بالشرط بينهما عجل صاحب السرّ وهو الخضر. ويعني
 بالسرّ: مقاصد أفعاله المستغربة لأن وراءها أسراراً معلّلة ذكرها في آخر الخبر.
 والصّرام هو الفراق من الصّرم أي: القطع. ففارقه الكليم عليه السلام وقد «ثنى»
 أي: كرّر الاعتراض. وقوله: «وما سبّب الخلاف سوى اختلاف العلوم» أي: من
 نظر إلى الأمر من جهة واحدة لا يرى غيرها فسيختلف مع من يراه من جميع جهاته
 وسوابقه ولواحقه ولوازمه وتوابعه ومكملاته ومناقضاته.. إلخ، فليسلم من جهل
 شيئاً لمن علمه، والله المثل الأعلى.

وهذا البيت هو مقصود المنظومة، أي: أن الله تعالى علماً وحكمة في الأقدار التي لا نرى
 إلا طرفاً صغيراً من غايتها. وعليه؛ فمن لوازم الربوبية أن تكون أقدار الإله سبحانه
 وتعالى غير مُحاطة بعلم المخلوقين وأنها أحياناً تكون مخالفة لما اعتادوه، فهذا من
 براهين الربوبية للإله الحق المبين سبحانه، الذي وسع كل شيء حكمة وعلماً.

عَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتْكُمْ بِهِءَ فَقَدِ اهْتَدَوْا^ط وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة: ١٣٧].

هذا؛ وإن من جدير التنبيه حول مسألة أسرار الأقدار، أن الطُّرُقِيَّة وأهل
الخرافة كثيراً ما يدورون على لفظ السرّ، ويُجَوِّرون دلالته لتتماشى مع
اعتقاداتهم الباطلة في شيوخمهم ومُقدّمهم بأن لهم أسراراً وكشفاً وعِلماً لدُنْيَا
خاصّاً، ووصولاً للحقيقة واليقين بطريقٍ غير شريعة الرسول ﷺ، لهذا نرى
بعض المتصوفة كثيراً ما يردّدون مصطلح السرّ؛ لأنه يدعم أقولاً لهم بلا
برهان.

ونقول: إنَّ القدر سرُّ الله في خلقه، فهو خاصٌّ بالله سبحانه، وقد أخبرنا
ربُّنا جلّ جلاله أنَّ الدين المرتضى الوحيد للسعادة والفلاح والفوز عنده هو
الإسلام الذي ابتعث به نبيّه محمداً ﷺ، فقال سبحانه حاسماً كلَّ نزاع وقاطعاً
كلَّ جدل ومُبطلاً كلَّ خطّة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، والإسلام هو الشريعة المحمدية لا
السبل الأخرى المدّعاة، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣]،
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُو عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وعليه؛ فمن ادّعى علماً بالله تعالى من غير جهة الرسول ﷺ فعلمه
جهلٌ، وأمره إلى تبابٍ، فلا علم على التحقيق إلا ما جاء من مشكاة الوحي،

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [التَّحْلُ: ٨٩]، وقال ﷺ: «وقد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله»^(١).

ومن توابع الضلال في مسألة كشف الأسرار الربانية لأحدٍ بطريق غير طريق الشريعة قول بعضهم: «حدّثني قلبي عن ربي». أي: أنه ليس بحاجة للكتاب والسنة اكتفاء بالكشف اللدني بزعمه. وكذلك قول الآخر في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحِجْر: ٩٩]، فيزعم أنّ معناها: «اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت عنك العبادة». فهذا ضلال محض وكفر مبين. وكذلك قول الآخر بلوثة جبريّة: «من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مَقْتَهُم، ومن نظر لهم بعين الحقيقة عَذَرَهُم، فالعارف مستبصر بسرّ الله في خلقه». فهذا باطل وضلال، لأن فيه إبطال للشرع والتماس العذر للمنحلّين من الدين، فليس للعباد عُدْرٌ بالمعاصي بعد البلاغ، ولا حُجَّة لأحد بعد الرُّسل، ﴿لَا نَذِرُكُمْ بِهِ﴾ [الْأَنْعَام: ١٩]، ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الْأَخْفَاف: ٣٥].

وكل ما سقتُ لك من أمثلة فآخِيَةُ الضلالِ فيها قوهُمُ بحصول كشفٍ لخاصّتهم من الأسرار الربانية دون الوحي الإلهي للرسول ﷺ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرَّعْد: ٣٣].

(١) مسلم (١٢١٨).

والمقصود؛ أن من القدر أسرار ربانية لم يأذن الله تعالى بكشفها لا شرعاً ولا كوناً لحكمة ربانية لا ندرك أطرافها، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الرابع: مسائل في القَدَرِ فهمها بعض الناس على غير حقيقتها التي جاء بها الشرع، فحرّفوا معناها فضلّوا وأضلّوا، وفي ظني أن أكثر الانحراف في الأمة من قديم فبابه الانحراف عن المفهوم الصحيح للقَدَر، فكشف باطل هؤلاء فرض على الكفاية على من وهبه الله قدرة عليه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمٌ اتَّخذ الناس رؤوساً^(١) جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»^(٢).

(١) رؤوس: جمع رأس، وفيه التحذير من اتخاذ الجهال رؤساء. شرح النووي على صحيح مسلم، (١٦/ ٤٦٥).

(٢) البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (١٣، ٢٦٧٣). قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ في فيض القدير (٢٧٣/٢): قوله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه» أي محوًا من الصدور. «ولكن يقبض العلم بقبض العلماء» أي: بموتهم فيقبض العلم بتضييع التعلّم، فلا يوجد فيمن بقي من يخلف من مضى. «حتى إذا لم يبق عالمٌ»، عبّر بـ«إذا» دون «إن» إيهاء إلى أنه كائنٌ لا محالة بالتدرّج. «اتَّخذ الناس رؤوساً جهالاً» جهلاً بسيطاً أو مركباً، «فسئلوا فأفتوا بغير علم»، وفي رواية: «برأيهم» أي: استكباراً وأنفةً عن أن يقولوا لا نعلم، «فضلّوا» في أنفسهم، «وأضلّوا» من أفتوه.

فهذا الضرب من المسائل وأشباهها هو محلُّ بركة البحث والاحتساب والجهاد بالبيان فيها، وقَمِنُ بإذن الله أن يُفتح فيها لمن بَحَثَهَا رجاء الهدى له وللناس لا إرادة العلوّ في الأرض، ويُثاب ويؤجر لأنه لم يَرْمِ خوض بحثها ابتداء، إنما ساقه الواجب، وأجأه إليها من خفّ حلمه من طُلاب الشُّبه ومثيري فتن العلم والجهل، ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٢].

فالعلماء كالنجوم في الظلماء زينة للعالم طُرّاً، وعلامات يُهتدى بها في التَّيه بَرّاً وجَوّاً وبَحْراً، ورجوماً للمُبطلين احتساباً للدين وبرّاً.

ولقد حذر السلف من الكلام في الدين بالباطل، أو بلا علم، كما كرهوا الجدل والمراء فيه، وحثُّوا على الحميّة للحق احتساباً، قال ابن عبد البر معلقاً على كلام الإمام مالك رحمهما الله تعالى حين قال: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه؛ نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحبّ إلي؛ لأنّي رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»، قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «قد بين مالك رَحِمَهُ اللهُ أنّ الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده؛ يعني العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أنّ الكلام في الدين نحو القول في صفات

=

وهذا تحذير نبوي شريف من ترئيس الجهلة، وأنّ الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذمّ من يُقدم عليها بلا علم. وأن قبض العلم موت حملته لا محوه منهم.

الله وأسمائه، وضرب مثلاً فقال نحو قول جهم والقدر، والذي قاله مالك رَحِمَهُ اللهُ عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة، فعلى ما قال مالك رَحِمَهُ اللهُ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ أَحَدٌ إِلَى الْكَلَامِ فَلَا يَسَعُهُ السَّكُوتُ إِذَا طَمَعَ بَرْدُ الْبَاطِلِ، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالَ عامّةٍ، أو نحو هذا»^(١).

ولما كانت هذه المسائل من الغموض والصعوبة والاشتباه بمكان؛ كان كثير من العلماء يجتنبون بحثها ديانةً وورعاً وخوفاً أن تزيع بهم عن سواء السبيل، ولكن كان الواحد بعد الواحد منهم مَنْ يأخذ الله تعالى بقلبه ويهديه للبحث فيها جهاداً بعلمه، وغزواً للشيطان بِمَدَادِهِ، فيستفرغ وسعته ويقوّي عزمه ويجدد إخلاصه ويجرد توكله على ربه فيفتح له فيه، حتى يُوقِفَ الناس على حدود الشبهة وحقيقتها، ويهتك سترها، ويكشف بإذن الله تعالى لهم ضلالها، ويبيّن حدّ الشرع فيها، وحقيقة العلم الصحيح بها، فيمتاز الحق فيها من الضلال، ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

(١) جامع بيان العلم وفضله (٩٥/٢) ولابن تيمية كلام في هذا الباب نفيس انظره في: درء تعارض العقل والنقل (١/٤٦ - ٤٨).

الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ [الرَّغَد : ١٧]. ويقوم ذلك المبارك حيالها بفرض الكفاية عن الأمة. وهذا أصل في الشرع محفوظ.

والناس ألف منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إن أمرٌ عَنَّا
واعتبر ذلك بمباحث وجود الشرّ في الخلق ومسألة التعليل ومسألة التحسين والتقيح العقلي للإمام القيم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، فهي مسائل واضحة في الأصل، غير محتاجة لخوض بعض تفاصيلها، ولكن لما تنازعتها أقلام أهل الأهواء واعتورتها منابر أهل الضلالة؛ استعان رَحِمَهُ اللهُ بربه فَسَلَّ يَرَاعَةَ العلمِ المبينِ لنسف شبه المبتدعين، فأثمرت تلك المقامات السَّنيَّة السَّنيَّة حروفاً في الغاية من الشرف والمتانة والعمق والنفاسة، فإذا قرأها العامي فضلاً عن طالب العلم ازداد في الحق بصيرة وإيماناً، فلم يزد ابن القيم فيها علماً من لدنّه، إنما كشف حقيقة المسائل، وَحَدَّ أبعادها، وأقامَ تصوّرَ بنائها، وأزال الباطل الملتبس بها عن الحق الأصيل فيها، وردّ مشتبهاتها لمحكماتها، فاستقامت جادة حروفه فيها على مهيع الهدى والسنة بحمد الله تعالى، وعلى هذا فُقِسَ هذا الأمر واعتبر بذلك الأثر.

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابتٍ
ومن هذا الباب كانت أكثر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كالاستقامة ونقض التأسيس ونقد المنطق والعقل والنقل ومنهاج السنة وشرح الأصفهانية وغير ذلك، قال العلامة البزار عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى ومؤلفاته النافعة في هذا الباب وغيره: «ولقد وجب على كل من وقف

عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام.

حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء الممّعين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب وتمييز القشر من اللباب أنّ كلاً منهم لم يزل حائرًا في تجاذب أقوال الأصوليين^(١) ومعقولاتهم وأنه لم يستقرّ في قلبه منها قول، ولم يبن له من مضمونها حق، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل، وجُلّها ممعن بتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفًا على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل، حتّى من الله تعالى عليه بمطالعة مؤلفات هذا الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقلات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها فرآها موافقة للعقل السليم، وعلمها حتّى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ولقد أكثر رحمه الله من التصنيف في الأصول فضلًا عن غيره من بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نصّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه:

(١) أي: المتكلمة في أصول الدين والمعتقد والعلميات، لا أصول الفقه التي تُعنى بالعمليات.

الْفُرُوعَ أَمْرَهَا قَرِيبَ، وَمَتَى قَلَّدَ الْمُسْلِمَ فِيهَا أَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْمُقَلِّدِينَ جَازَ لَهُ الْعَمَلُ بِقَوْلِهِ مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ خَطَأَهُ، وَأَمَّا الْأُصُولُ^(١) فَإِنِّي رَأَيْتُ أَهْلَ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأَهْوَاءِ كَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْمَلَا حِدَةِ وَالْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَالْدَهْرِيَّةِ وَالْقَدْرِيَّةِ وَالنَّصِيرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ وَالْمَعْطَلَّةِ وَالْمَجْسَمَةِ وَالْمُشَبَّهَةِ وَالرَّائِدِيَّةِ وَالْكَلَّابِيَّةِ وَالسَّلْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ قَدْ تَجَاذَبُوا فِيهَا بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ، وَبَانَ لِي أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِنَّمَا قَصَدَ إِبْطَالَ الشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ الظَّاهِرَةِ الْعَلِيَّةِ عَلَى كُلِّ دِينٍ، وَأَنَّ جُمْهُورَهُمْ أَوْقَعَ النَّاسَ فِي التَّشْكِيكِ فِي أُصُولِ دِينِهِمْ، وَلِهَذَا قُلَّ أَنْ سَمِعْتَ أَوْ رَأَيْتَ مَعْرُضًا عَنِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ مُقْبَلًا عَلَى مَقَالَتِهِمْ إِلَّا وَقَدْ تَزَنَّدَقَ أَوْ صَارَ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ فِي دِينِهِ وَاعْتَقَادِهِ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ؛ بَانَ لِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ شُبُهَتِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ وَقَطْعِ حُجَّتِهِمْ وَأَضَالِيلِهِمْ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ لِيُكْشِفَ رِذَائِلَهُمْ، وَيُزَيِّفَ^(٢) دَلَائِلَهُمْ ذُبًّا عَنِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ وَالسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ الْجَلِيلَةِ.

وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِمْ أَحَدًا مِمَّنْ صَنَفَ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَادَّعَى عُلُوَّ الْمَقَامِ؛ إِلَّا وَقَدْ سَاعَدَ بِمُضْمُونِ كَلَامِهِ فِي هَدْمِ قَوَاعِدِ دِينِ الْإِسْلَامِ! وَسَبَبُ ذَلِكَ إِعْرَاضُهُ عَنِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ، وَعَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ الْكَرَامُ عَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاتِّبَاعُهُ طَرِيقَ الْفَلَسَفَةِ فِي الْأَصْطِلَاحَاتِ الَّتِي سَمَّوْهَا بِزَعْمِهِمْ حُكْمِيَّاتٍ وَعَقْلِيَّاتٍ، وَإِنَّمَا هِيَ جَهَالَاتٌ وَضَلَالَاتٌ، وَكَوْنُهُ التَّزَمُّهَا مَعْرُضًا عَنْ غَيْرِهَا

(١) أي: أصول المعتقد من الإيمانيات.

(٢) أي: يكشف الزيف، فإذا كشفه صار زائفًا.

أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتخبّط حتى خبط فيها خبط عشواء، ولم يفرّق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفًا بعباده من ألا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبتته، ويبطل الباطل وينفيه. ولكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال.

وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل. ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال: إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟! هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [التور: ٤٠].

فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنّي صرفت جُلّ همي إلى الأصول، وألزماني أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية^(١).

وهكذا يفعل الأبطال إن غضبوا وهكذا يعصف التوحيد بالوثن
والمقصود؛ أن دراسة بعض نوازل المسائل المحدثّة للقدر لِمَن آتاه الله علماً وعقلاً واحتراراً ممّا يُحترزُ فيه ومنه، من بعض عويص مباحثه ومتشابه مسائله ومجهولات علومه، مشروعةٌ من جهة قصد دفع الشبه القائمة، وليس رغبة

(١) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبخاري. (٣٥-٣٦).

استكشاف المباحث غير المطروقة فيه، فهي لا تُبحث ابتداءً إنما يُجرى إليها أهلها على النُدرة دفعًا لجهالة، وردًا لشبهة، وكفًا لعادية، فهي من جملة جهاد الدفع العلمي، فأبوابُ القدر التي لم يأت فيها علم من الشرع هي مغلقةٌ بأمر الشرع، فالواجب أن تبقى موصدة، أتباعًا لأمر الرسول ﷺ، نصحاءً للأمة من أمور لا تطبيقها أفهامهم، وعلوم لم يتعبدوا بطلبها، فيبقى بابُ الفكر فيها مُغلقًا دون مهاوي مسائل تفتح على الناس أفكارًا كانوا سالمين من حتوفها، ومعاطب من مزالق فكرية يزينها الشيطان في عقول لم تنضج بعلوم الوحي السالم من كل خطأ، الحافظ بإذن الله لمن اعتصم به من كل زيغ. وعلى ذلك؛ فما في تشوير هذه المسائل من خير يُرجى، ولو كان كذلك لم يتركه أئمة الأمة على مر العصور، وقد روى الآجري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ ابن عمر رضي الله عنهما سُئِلَ عن القدر، فقال: «شيءٌ أراد الله عز وجل ألا يُطلعكم عليه، فلا تُريدوا من الله عز وجل ما أبى عليكم»^(١).

ولا يعني ذلك إغلاق باب التعلم في مسائل القضاء والقدر، ليس الأمر كذلك، فالإيمان بالقدر من أصول الملة، والإيمان بالقضاء والقدر فرْعٌ عن العلم به، فلا إيمان إلا بعد علم، والله تعالى قد بين ذلك في محكم تنزيله، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الْقَمَر : ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الْأَنْزَاب : ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(١) الشريعة (٢٣٥).

[التغابن: ١١]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٢] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ -

[٢٣].

وبلغ ﷺ عن ربه أمور القدر لنعلمها ونعتقد بها ونؤمن بها، فمن ذلك قوله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه»^(١). وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث، ويؤمن بالقدر»^(٢)، وقال ﷺ: «كل شيء بقدر؛ حتى العجز والكيس»^(٣).

كما كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن القدر استرشادًا وتعلمًا لا اعتراضًا وخصومة، فمن ذلك أن سراقه بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير». قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكلُّ مُيسر».

(١) الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١) وصححه الألباني.

(٣) مسلم، (٢٦٥٥). قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكيس ضد العجز، وهو النشاط، والحِذْق بالأمور، ومعناه: أن العاجز قد قُدر عجزه، والكيس قد قُدر كيسه». إكمال المعلم (٨/١٤٣).

وفي رواية: «كُلُّ عَامِلٍ مُّيسَّرٌ لِّعَمَلِهِ»^(١)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم». قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: «كُلُّ مُّيسَّرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢).

وكان الصحابة يعلمون من جاء بعدهم مسائل القدر، ويمتحنون فهم حُذِّقَهُمْ لها، فهن أبي الأسود الدَّيْلِيُّ، قال: قال لي عمران بن الحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْذَحُونَ فِيهِ^(٣)، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بل شيء قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قال: فقال: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قال: فَفَزَعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ وَمَلَكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فقال لي: يَرَحِمَكَ اللَّهُ، إِنِّي لَمْ أَرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزَرَ عَقْلَكَ^(٤). إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُّزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْذَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ. وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشَّمْسُ: ٧ - ٨]

(١) أحمد (٢٩٢/٣)، ومسلم (٢٦٤٨) (٨).

(٢) البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤).

(٣) الكدح: هو السعي في العمل سواء أكان للآخرة أم للدنيا، وفي التنزيل: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الأنشاق: ٦].

(٤) أي: لأختبر عقلك وأمتحن فهمك ومعرفتكَ، وأتأكد أنك تفهم القضية فهمًا صحيحًا.

«(١). قال د. محمد العلي: «ومما يؤكد أهمية تعلم مسائل القضاء والقدر: ارتباط هذا الركن العظيم بالكون كله؛ فحين ننظر إلى هذا الكون ونشأته وخلق الكائنات فيه نجد أن كل ذلك مرتبط بالإيمان بالقدر؛ قال ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أُكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢). ولو غفل الناس عن تعلّم مسائل القدر، مع الحاجة الشديدة إليه؛ لجهلوه، وتخبّطوا في دياجير الظلام؛ إذ تعجز العقول عن معرفة ذلك إلا بالاهتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وبتلك الغفلة عن تعلّمه يفتح الباب لأهل الأهواء والبدع لينصروا مذاهبهم ويشوّشوا على المسلمين عقيدتهم»(٣).

فعلى المؤمن أن يتعلم من أمور دينه ما يدفعُ جهله ويرفعُ قدره عند ربه تعالى، مع التأدّب بأدب العلم، ومنه التسليم التام لله تعالى امتثالاً لأمره وتصديقاً لخبره، وترك الخصومات والنزاع والمراء، والحذر من ضرب الكتاب ببعضه، ويشتدّ الأمر إن كانت بخصوص القدر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر(٤)، فغضب حتى احمرّ

(١) مسلم (٢٦٥٠).

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

(٣) ضرورة تعلم مسائل القدر والنهي عن الخوض فيه. د. العلي (٢٧).

(٤) أي: نتحدّث في أمر القضاء والقدر ونختلف فيه على وجه المنازعة.

وجهه، حتى كأنّما فُقي في وجنتيه الرّمان^(١)، فقال: «أبهذا أُمّرتُم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنّما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عَزَمْتُ عليكم ألاّ تنازعوا فيه»^(٢). أي: أوجبْتُ عليكم وأكّدتُ عليكم ألاّ تنازعوا في القدر، لأنّ الشيطان قد استجرّ مَنْ قبلكم للتنازع فيه حتى هلكوا، وهذا من شفقتِه ﷺ بأمتِه كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨].

وهذا النهي إنّما هو في المنازعة والمخاصمة والمُهاارة، أما النقاش العلمي المؤدّب لتعلّم مسائل القدرِ وكيفية الإيمانِ الصّحيح به؛ والتصنيف فيه كما فعل أئمة السّلف رحمهم الله فليس داخلاً في هذا النهي، بل هو من العلمِ المأمورِ بتعلّمه وتعلّمه، فهو من أصول الدين وأركان الإيمان، وقد علّمه الرسولان الكريمان رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام الأئمة عن طريق السؤال والجواب كما هو مشهور معلوم في حديثٍ من أعظم أحاديث الإسلام^(٣).

فالجدالُ والمنازعةُ بغير علمٍ بابُ ضلالةٍ، وحفرةُ نارٍ، ودهليزُ خذلانٍ، وهولةُ خيبةٍ، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) أي: أنه غضب حتى ظهرت علامات الغضب في وجهه الشريف ﷺ، حتى كأنّما فُقي وُثِر في أعلى خديّه حبُّ الرّمانِ الأحمر، وهي كناية عن احمرار وجهه من شدة الغضب شفقة على أمتِه ﷺ من أن يتنازعوا في القدر فيهلكوا كما هلك من قبلهم.

(٢) الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣/٢).

(٣) وهو حديث جبريل المشهور رواه مسلم ٢٨/١ (٨).

وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّרِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ [الحج: ٣-٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: ٨-٩].

ولا بد للمؤمن من أطرٍ لنفسه على الجدِّ والعمل والتفائل والإيجابية، دون الهزل والكسل والسوداوية والسلبية، وإشغالها بما يعينها من كريم الأمر، ففيه ملءٌ لوقتها لو عَقَلَتْ، فيحسن إسلامها ويزكو دينها، أما الخصومات والمراء فليست بسبيلٍ لمؤمن، والانتهاض لمجرد الاعتراض من سيء الأمراض. وكم من متساهلٍ في بواجر المراء وهبَّات الخصام، حتى ربضت في قلبه الفتنة، وانسحب واعطى الله من قلبه، وقحطت عيناه، فكان من الغافلين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأننا يُفَقُّ في وجهه حبُّ الرُّمان من الغضب، فقال: «بهذا أُمِرْتُمْ؟! أو لهذا خُلِقْتُمْ؟! تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هَلَكَتِ الأُمم قبلكم». قال: فقال عبد الله بن عمرو: «ما غبطت نفسي بمجلس تخلَّفْتُ فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلَّفِي عنه»^(١).

وعلى المؤمن أن يحذر من أن يستجريه الشيطان بحبائل الشبه الفكرية، وما أكثرها في هذا الزمان، خاصة مع تسهيل تواصل الأفكار بين الأمم

(١) ابن ماجه (٨٥) وقال الألباني: حسن صحيح.

فعلى المؤمن الحذر الشديد من كل ما كان من طرق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

(٤) وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ في غريب الحديث (٣/٢٦٤): معناه: لا يتخذنكم الشيطان جَرِيًّا، والجَرِيُّ: الأجير أو الوكيل، ويروى أيضًا: «لا يَسْتَجِرُّكُمْ».

ولا جرم، فقد أقسم الرجيم لأبويننا كذبًا وزورًا ومكرًا وخديعة، فكان من أمرهما ما كان، والله الأمر من قبل ومن بعد: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ٢١ فدلّهما بغرورٍ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناديهما ربهما ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكم عدوٌ مبينٌ ٢٢ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ٢٣ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتنعٌ إلى حين ٢٤ [الأعراف: ٢١ - ٢٤].

فيا أيها الإنسان: ﴿كَأَلَا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ١٩ ﴿العلق: ١٩﴾

واعلم بأنك عبدٌ لا فكاك له والعبد ليس على مولاه يعترض قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «وأصل القدر سرُّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل» (١). وقال ابن عبد البر رحمه الله: «وجملة القدر أنه سرُّ الله لا يدرك بجдал، ولا نظر، ولا تشفي منه خصومة، ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يكون شيء دون إرادته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، ﴿الخلق والأمر﴾ [الأعراف: ٥٤]، لا شريك له، نظام ذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفر: ٤٩].

وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم، وقد تظاهرت الآثار في التسليم بالقدر،

(١) شرح الطحاوية (١/٢٤٩).

والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له، والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مُقدِّره وحكمته»^(١).

وجملة ما ذكرنا من محاذير المتكلمة في القدر هي ما قصد إليها السلف بمنعهم من الخوض فيه، قال أبو محمد البربهاري رَحِمَهُ اللهُ: «والكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأنّ القدر سرّ الله، ونهى الرب جل اسمه الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى النبي ﷺ عن الخصومة في القدر، وكرهه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وكرهه العلماء وأهل الورع، ونهوا عن الجدل في القدر، فعليك التسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ في جملة الأشياء، واسكت عما سوى ذلك»^(٢).

وقال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في مسألة الخوض في القضاء والقدر: «هذا باب خاضه الأولون وغلط فيه من غلط، والواجب الحذر، فعلى كل مؤمن وكل مؤمنة التسليم لله، والإيمان بقدره سبحانه، والحرص على الأخذ بالأسباب النافعة الطيبة، والبعد عن الأسباب الضارة كما علم الله عباده، وكما جعل لهم قدرة على ذلك بما أعطاهم من العقول والأدوات التي يستعينون بها على طاعته وترك معصيته. وينبغي عدم الخوض في هذا الباب، والإيمان بأن الله قدّر الأشياء وعلمها وأحصاها، وأنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

(١) التمهيد (٣/١٤٠).

(٢) شرح السنة. ص: (٣٦).

وأنه الخلاق العظيم القادر على كل شيء، وأن جميع الموجودات بخلقه وتقديره سبحانه، وأن الله أعطى للعبد عقلاً وأسباباً وقدرة على الخير والشر كما يأكل ويشرب ويلبس وينكح ويسافر ويقيم وينام ويقوم إلى غير ذلك يطيع ويعصي.. وعلى كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يحذر الخوض في ذلك بغير علم كما خاض المبتدعة فضّلوا، وإنما الواجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يُسلم لله بذلك، ويعلم بأن الله قدّر الأشياء وعلمها وأحصاها، وأن العبد له إرادة وله مشيئة وله اختيار، لكنه لا يخرج بذلك عما قدره الله تعالى»^(١).

ونختم الكلام في هذا بأمٍ في غاية الأهمية: وهو من أعظم أسباب تسهيل التسليم بحكمة الله تعالى في أقداره، والاستسلام لعظيم اقتداره، والاطمئنان به، والسكينة إليه، والأمن التام به، والفرح المطلق بالفوز بمعرفته والإيمان به. وهذا الأمر إذا عَقَلَهُ المرءُ فلن تبقى حَسَكَةً في قلبه، ولا كَعَّةً في عقله، ولا تردُّدٌ في صدره، ولا اضطرابٌ في نفسه، حِيَالُ أيّ شيء من أمر سرِّ القدر الرباني، وحكمة الله تعالى فيه، وذلك الأمر العظيم هو أن يتذكّر العبد أن كيفية صفات الله تعالى غائبة عنه، وإن كانت معانيها معلومة لديه، لكن حقائق الكيفية مُحْتَبَسٌ علمها عن علومنا، فإذا تقرر ذلك؛ فإن سرَّ القدر يجري مجرى بقية صفات الله تعالى التي لا ندركها مهما أوتينا من قوة وطاقه وعلم، وأنّى لنا ذلك!

(١) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز ٣٧٣/٢٨.

فسرّ القدر متعلّق بعلم الله الذي لا يمكن لنا تحيّل كيفيته، وكذلك الكتابة الهائلة في اللوح العظيم التي لا ندرك كنهها ولا كنهه، وكذا المشيئة المتعلقة بالربوبية والقهر والعلو والحكمة والإرادة والقدرة وغير ذلك كثير، وكذا صفة الخلق المتعلقة بأشياء غائبة عنّا، وكثير منها خارج عن هذا العالم المحدود الصغير المقيد، إلى آخر تلك الأمور التي من تدبّرها تذكّر وادّكر، واتّعّص وسلّم، وآمن واطمأنّ، وسجد بقلبه وقالبه لله رب العالمين، الذي قضى وقدر وهو العليم الحكيم، ووعد وأنذر وهو الغفور الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على من بعثه الله رحمة للعالمين، ومناراً للسالكين، وحجة على الناس أجمعين، اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنَا لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١).



(١) روت هذا الدعاء العظيم عن رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وقد خرّجه الإمام مسلم (١/ ٥٣٤) (٧٧٠).

جفَّ القلمُ بما هو كائنُ

من المعلوم أن الركن السادس من أركان الإيمان هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهو أصل عظيم به افترق المؤمنون عن الكفار، ومن جمال الإيمان بالقدر أن الكفار المؤمنين بالقدر - مع شركهم وكفرهم وتشويش مفهوم القدر في قلوبهم - هم أطيب عيشًا وأهنأ حياةً وأجلد صبرًا من غير المؤمنين به، فالإيمان بالقدر سلوان للنفوس وعزاء للقلوب وريحان للأرواح، بل إنه مورث للشجاعة مُوقدٌ للإقدام.

حتى إن مُنظري فكرهم ينادون بأهميّة ذلك الإيمان حتى وأن لم يكن تحته حقيقة - تعالى الله عما يقولون - وذلك لرؤيتهم أثره في الحياة، من احتمال الرزايا واقتحام الشدائد، قال المفكر الفرنسي الشهير فولتير: «لو لم يكن الدين موجودًا فمن الضروري أن نخترعه، وإذا لم يكن في صدور الناس دين؛ فلا بدّ أن نصنعه لهم، فلا غناء لهم عنه»، ولديورانت في قصة الحضارة كلام كثير في نفع هذا لهم، ومنها قوله هو عن نفسه: «أفضلُ عقار مُسكّن في الطبيعة جرعةٌ مما هو فوق الطبيعة»^(١).

فإذا كان هذا أثره الطيّب في حياتهم؛ فكيف يكون مع أهل الإسلام والإيمان والإحسان والملة المحمّدية المهدية، فبالإيمان بقضاء وقدر الله اتّسعت صدورهم وقرّت عيونهم وانقطعت عنهم واردات آلام فوائت

(١) انظر: نافذة على قصة الحضارة (١٥، ٥٧) للمؤلف.

الرجائب، وسواد غموم حلول المصائب، وأقدموا على الكريهات والمخوفات إقدام الكهامة البواسل، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سواه، ولا يتوكلون إلا عليه، ويعلمون أنّه المدبّر القاضى للأمور: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، وذلك لعقد قلوبهم على الإيمان بأن ما قضاه الله كان وما لم يقضه لن يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وتأمل أثره في جسارة عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ قال:

أَيُّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ أَوْ يَوْمٌ قُدِرَ
يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ لَا أَحْذَرُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُغْنِي الْحَذَرُ
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: «يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى. فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه، واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» (١)، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

(١) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونؤمن باللوحي والقلمي، وبجميع ما فيه قد رقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدرُوا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه؛ ليجعلوه كائنًا لم يقدرُوا عليه، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدّر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا، ليس فيه ناقض ولا معقّب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عَقْدِ الْإِيمَانِ، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وبربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الْفُرْقَان: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الْأَنْزَاب: ٣٨]. فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً»^(١).

فكل شيء قضاه الله في أزل طُرّاً وفي لوحه المحفوظ قد سُطِرَا

قال شيخنا العلامة صالح آل الشيخ حفظه الله: «هذه الْجُمْلُ من كلام الطحاوي بَسَطَ فِيهَا جُمْلًا من آداب الْإِيمَانِ بِقَدَرِ اللَّهِ، والقدر سرُّ الله تعالى

(١) العقيدة الطحاوية، مع تخريج الألباني (٥٣/١)

وغيبه الذي لم يُطْلَعْ عليه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل. ولهذا أمر نبيُّنا ﷺ بأنه إذا ذَكَرَ الْقَدْرَ أَمْسَكْنَا، فقال ﷺ: «وَإِذَا ذَكَرَ الْقَدْرَ فَأَمْسِكُوا»^(١).

قال الطحاوي: «فَعِلْمُ الْقَدَرِ نوعان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود». أراد أن العلم بالقدَر على نوعين:

علم في الخلق موجود: وهو ما عَلَّمَنَا اللهُ تعالى إياه في كتابه وما علمنا رسوله ﷺ، وهذا كما قال: «فإنْكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ»، إذا تبين أنه من عند الله تعالى وليس ثَمَّ شبهة ولا تأويل؛ فإنَّ إنكار العلم الموجود كفر؛ لأنه تكذيب لله تعالى ولرسوله ﷺ. والعلم الموجود في القَدَرِ كما رأيت مما جاء في الكتاب والسنة يَعْلَمُهُ الراسخون في العلم، وأما من ليس بذي رُسُوخٍ في العلم فإنه في مسائل القَدَرِ لا يزال على اشتباه وعلى عدم وضوح.

فالواجب على من لم يكن من الراسخين في العلم من عامة أهل الإيمان أن يقول: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧]، كما وصف الله تعالى الراسخين، مع علمهم أنهم قالوا ذلك لِيَقْتَدِيَ بِهِمُ النَّاسُ فيما لم يعلموا، قال سبحانه: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧]، يعني آمنا بِالْمُحْكَمِ وَآمَنَّا بِالْمُتَشَابِهِ كُلِّ مَنْ عِنْدَ اللهِ تعالى، لا نفرق بين كلام

(١) الطبراني في معجمه الكبير (١٤٢٧) عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا». قال الألباني في تخريج الطحاوية (١ / ٥٠): «وهو حديث صحيح، روي عن جمع من الصحابة، وقد خرجته في الصحيحة (٣٤) يعني: أمسكوا عن الخوض فيه بما لم تُوفَّقُوا فيه على علم».

الله. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧]، هم أهل الثُّبُوت والقوة في العلم الموروث عن النبي ﷺ، لأنَّ الرسوخ هو الثبات والاستقرار والقوة والتمكُّن. فهؤلاء يعلمون لأنَّ وُصفهم بكونهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون؛ لأنَّ الذي لا يعلم لا يُوصَف بالرسوخ في العلم، وهم متميزون عن غيرهم بالعلم والإيمان. والرُّسُوخُ في العلم هو الرُّسُوخُ في أنواع العلم الثلاثة: العلم بالتوحيد، والعلم بالفقه، والعلم باليوم الآخر والغيبات^(١).

فهؤلاء هم الراسخون في العلم، وقد يكون الرُّسُوخُ في العلم يتنوع أيضًا، ولكن من لم يصحَّ علمه بالتوحيد فإنه ليس بذي رسوخ في العلم مهما كان، لأنَّ أصل الأصول هو الاعتقاد، أصل الأصول هو التوحيد الذي معه يصحُّ الفقه، يصحَّ العمل، تصحَّ العبادة، يصحَّ الحكم والإفتاء إلى آخره. فإذا أهل الرسوخ في العلم يعلمون أنَّ العلم - ممَّا في القَدَر - علمان: علم في الخلق

(١) قال ابن القيم في النونية:

والجهلُ داءٌ قاتلٌ وشفاؤه	أمران في التركيب متفقان
نصُّ من القرآن أو من سُنَّةٍ	وطيبُ ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث مالهـا	من رابعٍ والحق ذو تبيان
علمٌ بأوصاف الإله وفعلـه	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنة التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان
والله ما قال امرؤ متحدِّقٌ	بسواهما إلا من الهذيان

موجود، يعني جعله الله موجودًا في الخلق بما أنزل في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وشيء كثير من مسائل القَدَر حجبها الله تعالى. لهذا فإنّ أهل الرسوخ في العلم ييسطون من مسائل القَدَر بما جاء في الأدلة، ويطوون من مسائل القَدَر ما لم يأت في الأدلة.

ولذلك كل ما لم يكن مبسوطًا عند أهل العلم الراسخين من أهل الحديث والسنة والجماعة، فإنّ هذا العلم - يعني الذي تكلم فيه الآخرون - ينبغي ألا يتكلم فيه كل أحد. لأنّ ما طوى الله تعالى عنّا علّمه فإنّ الخير في ألا نبحت فيه، لهذا قال المصنف: «والتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ» يعني في النوع الذي هو من العلم المفقود «ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسَلَمُ الْحَرَمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنْامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ».

وقوله: «وَادَّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ»، لأنه غيبي، ومن ادّعى الغيب الذي اختصّ الله به فإنه كافر، وذلك لقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. فهذه الخمس اختصّ الله تعالى بها. لهذا علم

الْقَدَرُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَعِلْمُ الْغَيْبِ عَامٌ يَشْمَلُ الْقَدَرَ وَيَشْمَلُ غَيْرَهُ. لِهَذَا قَالَ: «وَلَا يَثْبُتُ الْإِيْمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ».

وقال: «وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ». اللوح والقلم تَعَلَّقَ بِالْقَدَرِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْقَدَرَ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيْمَانِ بِهِ الْكِتَابَةِ. وَالْكِتَابَةُ كَانَتْ بِالْقَلَمِ فِي اللَّوْحِ، وَلِهَذَا لَا يَتِمُّ الْإِيْمَانُ بِالْكِتَابَةِ إِلَّا بِالْإِيْمَانِ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [الْقَلَمُ: ١]. هَذَا هُوَ الْقَلَمُ الَّذِي كُتِبَ بِهِ الْقَضَاءُ، كُتِبَ بِهِ الْقَدَرُ فِي أَحَدِ وَجْهَيْ التَّفْسِيرِ. وَاللَّوْحُ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ [فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ] [الْبُرُوجُ: ٢١ - ٢٢]. وَسَمَّاهُ سُبْحَانَهُ كِتَابًا مَكْنُونًا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [٧٨] لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [الْوَاقِعَةُ: ٧٨ - ٧٩]. وَسَمَّاهُ أَمَّ الْكِتَابِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرَّغَدُ: ٣٩]. وَسَمَّيَ لَوْحًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْبَهَاءِ وَالنُّورِ وَالْإِضَاءَةِ لِأَنَّهُ يَلُوحُ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَظْهَرُ وَيَبِينُ لِمَا فِيهِ مِنَ النُّورِ. فَالْإِيْمَانُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ مِنَ الْإِيْمَانِ بِكِتَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى. إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فِي مَسْأَلَةِ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ عِدَّةُ مَسَائِلَ:

المسألة الأولى: أَنَّ اللَّوْحَ جَاءَ وَصْفُهُ فِي حَدِيثٍ حَسَنُهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَيَحْتَاجُ فِي بَحْثِ إِسْنَادِهِ إِلَى مَزِيدٍ نَظَرَ فِيهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «خَلَقَ اللَّهُ اللَّوْحَ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ»^(١). وَوَصَفَهُ بِأَنَّ حَافَتَيْهِ الدَّرَّ وَالْيَاقُوتَ؛ يَعْنِي غَطَاءَ

(١) يَعْنِي حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَوْقُوفًا، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَنَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، قَلَمَهُ نُورًا، وَكِتَابَهُ نُورًا، عَرَضَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ

هذا اللوح أو دَفَّتَا هذا اللوح من دُرٍّ وياقوت، وصفحات هذا اللوح حمراء. جعل الله تعالى هذا اللوح كما وصفه بعض السلف على يمين العرش، وهو بين جبين إسرافيل لا يَنْظُرُ فيه. وجاء أيضًا: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقَلَمَ وجعله من نور،

=

والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويزل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٩]. رواه الحاكم في المستدرك (٣٧٧١) والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٠٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٢٥/١). وقال الشيخ محمد أبو شهبه رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين» (٢٠٦/١) في ذلك: «لم يصح عن النَّبِيِّ ﷺ في تفصيل ذلك حديث مرفوع، وإنما هي آثار عن بعض الصحابة والتابعين، والواجب أن نؤمن بوجود اللوح المحفوظ، وأن الله دَوَّنَ فيه كل ما كان وما يكون. أما ما وراء ذلك مما ورد في وصفه وكيفيته والقلم الذي كتب به فلا، والأقرب فيما ورد عن ابن عباس وغيره في هذا أنه من الإسرائيليات التي أخذت عن أهل الكتاب، ورُويت لغرابتها، ولا سيما وأنه ليس في القرآن ما يصدّقها ولا ما يكذبها، فبقيت روايتها على أصل الإباحة». وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها: «فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه المقادير كالتفصيل من التقدير السابق. وفي ذلك دليل على كمال علم الربّ وقدرته وحكمته، وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه». أه. شفاء العليل (١ / ٦١ - ٧٤)

وَأَنَّ طَوْلَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ اللُّوحَ الْمَحْفُوظَ طَوْلُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَرْضُهُ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(١).

وهذا كما ذكرتُ لك يحتاج إلى مزيد بحث، لكن يذكره العلماء من أهل السنة وتتابعوا عليه في حديث رواه - يعني في أصل وصف اللوح والقلم - رواه الطبراني وغيره وحُسنُ إسناده كما ذكرت لك، وقد ساقه أو ذكر الحديث شارح الطحاوية وغيره.

المسألة الثانية: أَنَّ الْقَلَمَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْقَدَرَ كُتِبَ بِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْعَالَمِ. يعني كُتِبَ بِهِ الْقَدَرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كما جاء في الحديث الصحيح حديث عبد الله بن عمرو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَدَّرَ اللَّهُ مُقَادِيرَ الْخَلَائِقِ^(٢) قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٣). فالقلم متعلقة كتابته في اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى قِيَامِ السَّاعَةِ.

المسألة الثالثة: أَنَّ الْقَلَمَ لَمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كما جاء ذلك في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَجَمَاعَةٌ بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةٍ، وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) مثل هذا التفاصيل التي ليس عليها دليل ثابت فإنها تُذكر أحياناً من باب العلم بأنها قيلت، ولكن لا يُعقد الإيمان بها في القلب إلا بعد ثبوتها عن رسول الله ﷺ.

(٢) أي: كتب أقدار الخلائق.

(٣) مسلم (٢٦٥٣)

قال: «إِنَّ أَوَّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجري بما هو كائن إلى قيام الساعة». وهذا لفظ أبو داود^(١) وغيره. وجاء أيضا بلفظ: «أَوَّلَ ما خلق الله القلم قال له: اكتب. فجري بما هو كائن إلى قيام الساعة»^(٢). ولهذا اختلف العلماء هنا في هل هذا الحديث على ظاهره في أنَّ أول المخلوقات القلم؟ أو أنَّ هذا الحديث له معنى آخر؟ وجعلوا هذا الحديث وحديث عبد الله بن عمرو من الأحاديث التي ينبغي الجمع بينها، وهذا هو المسألة الرابعة وهو الجمع ما بين الحديثين.

المسألة الرابعة: تلحظ أنَّ حديث عبد الله بن عمرو فيه قال: «قدّر الله مقادير الخلائق». ولما قدّر - يعني كتب - كان عرشه على الماء. وفي حديث عبادة قال: «إِنَّ الله أَوَّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب»، فيقتضي حديث عبادة أنَّ الأمر بالكتابة كان مُرْتَبًا على ابتداء خلق القلم. وتقدير القدر كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والعرش على الماء.

فدل حديث عبد الله بن عمرو على وجود تقدير، وعلى وجود العرش - خلق العرش - وعلى خلق الماء. ودلَّ حديث عبادة على أنَّ خَلَقَ القلم تَبَعَهُ قول الله تعالى للقلم: «اكتب، فجري بما هو كائن إلى قيام الساعة». وهذا الترتيب جاء في حرف الفاء الذي يدل في مثل هذا السياق على أنَّ هذا بعد هذا دون تراخٍ زمني.

(١) أبو داود (٤٧٠٠) وبنحوه عند الترمذي (٣٣١٩) وصححه الألباني.

(٢) المسند (٢٢٧٥٩) وصححه محققوه، مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)

ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة في الجمع بين هذين الحديثين هل القلم هو أوّل المخلوقات؟ أم العرش^(١) خُلِقَ قبله؟ على قولين للسلف فمن بعدهم:

القول الأول: إنّ العرش قبل القلم، وكذلك الماء قبل القلم. وهذا قول جمهور السلف، كما نسب ذلك إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

القول الثاني: أنّ القلم هو أوّل المخلوقات، والعرش والماء بعد ذلك، وهو قول طائفة من أهل العلم.

والترجيح ما بين هذين القولين: هو أنّ الأحاديث يجب الجمع بينها وعدم تعارضها. وحديث عبادة بن الصامت في قوله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَكْتُبْ»، يقتضي أنّ الكتابة كانت بعد خلقه. وحديث عبد الله بن عمرو يقتضي تقدّم وجود العرش والماء على حصول الكتابة. فدلّ هذان الحديثان على أنّ العرش والماء موجودان قبل، وأنّ خلق القلم تبعته الكتابة.

ولهذا نسبته شيخ الإسلام إلى جمهور السلف بأنّ القلم موجود بعد العرش والماء. وهذا تدلّ عليه رواية «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ أَكْتُبْ»، يعني حين. ف«أَوَّلَ» هنا بمعنى حين. أي حين خَلَقَهُ قَالَ لَهُ: أَكْتُبْ. وهذا هو معنى

(١) قال الضحاك، عن ابن عباس: «إِنَّمَا سُمِّيَ عَرْشًا لارتفاعه». تفسير ابن كثير (٥ / ٤٨٩)

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ»^(١)، لَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ أَوَّلَى مِنْ تَعَارُضِهَا.

(١) فحملوا هذه الرواية على التي قبلها وفسروها بها، فصار معناها: حين خلق الله القلم قال له.. ف«أَوَّل» هنا بمعنى الحينية وليست بمعنى الأولية، وهذا شائع في كلامهم فتقول لصاحبك: أَوَّلَ ما رأيته تذكرت فلاناً، بمعنى حينما رأيته تذكرته. والراجع هو قول الجمهور، وبه تجتمع الأدلة، وإن مما يساعد على تصوّر هذه المسألة والترجيح فيها العلم بأن الله خلاق، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٨١) [يس: ٨١]، والخلاق مبالغة من الخلق وأنه يخلق ما يشاء، فهو قادر على خلق شيء بعد شيء سبحانه وتعالى، وأسماء الحسنی تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضى الموجب لموجبه ومقتضاه، فلا بد أن تظهر آثارها في الوجود، والله تعالى ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(٨٢) [البروج: ١٦]، ففيه صفة المبالغة بالفعل بعد الفعل، وهكذا.

والشرع لم يمنع أن يكون لله تعالى مخلوقات قبل السماوات والأرض وما فيهن، ولم يمنع أن يخلق الله مخلوقات أخرى وعوالم أخرى بعد نهاية الدنيا واستقرار أهل الآخرة في دورهم الخالدة، والله على كل شيء قدير، ولم يمنع أن يكون هذا الكون المشهود الذي انتهى إليه علمنا إنما هو جزء يسير جداً من مخلوقات الله تعالى، قد سبقه مخلوقات لله تعالى لا تتصوّر عقول البشر ولا تستوعب كثرتها وعددها وبعدها زمنها وتفصيل أخبارها، ولم يمنع أن يلحق هذا الكون مخلوقات لله تعالى ومخلوقات لا يعلمها إلا الله تعالى.

وإن هذه السماوات والأرض وما بينهما وما فيهن ليست بشيء عند عظمة وحجم العرش العظيم الكريم المجيد الذي هو أكبر مخلوقات الله المشهودة لدينا، فنسبتها إليه كنسبة حلقة ألقيت في فلاة!

=

وخلاصة البحث هو ما ذكرت لك من التقدير، فإن قوله: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، هنا برفع القلم يكون خبر «إِنَّ». يعني: إِنَّ أَوَّلَ الذي خلق الله، إِنَّ أَوَّلَ المخلوقات القلم، فقال له: اكتب. وإذا كان أَوَّلَ المخلوقات؛ فكيف يُفسَّرُ مع حديث: «وكان عرشه على الماء»؟ فقلوه: إِنَّ أَوَّلَ المخلوقات، أو أَوَّلَ ما خلق الله أو أَوَّلَ الذي خلقه الله، يُفهم على أن القلم جرى بما هو كائن إلى قيام الساعة قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فالقلم متعلق بما كُتِبَ في اللوح المحفوظ، مُتَعَلِّقًا بما يحدث في هذا العالم المخصوص، لا في مطلق الأشياء، ولهذا علِّقَ بأنه إلى قيام الساعة.

فإذا يُفهم لما كان تعلق الكتابة بهذا العالم الذي جرى التقدير عليه إلى قيام الساعة، يُفهم أن القلم لما تَعَلَّقَ بهذا العالم كتابةً لِتَقْدِيرِهِ وَلِقَدَرِهِ وَلَا جَالَهُ إِلَى آخِرِهِ؛ فإنه من هذا العالم؛ لأنَّ العوالم أجناس، والله تعالى جعل لمخلوقاته أقدارًا وأجناسًا^(١).

=

والمقصود؛ أن كتابة القلم لها بداية، كما أن لها أمدً ينتهي بقيام الساعة، ولا يعني هذا نهاية مخلوقات الله تعالى التي لا نعلم عنها شيئًا. وبالله التوفيق.

(١) أي على تقدير صحة القول بأولية القلم على سائر المخلوقات؛ يكون المعنى حينها: أن لله تعالى عوالم مخلوقة متعددة، وأن منها عالمنا هذا المشهود بما فيه من السماوات والأرض، وأن أول مخلوقات عالمنا هذا القلم. أما العرش والماء فهي من عالم آخر غير عالمنا هذا.

فإِذَا يُفْهَمُ قَوْلُهُ: «إِنْ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، يَعْنِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. فَالْقَلَمُ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ وَقَبْلَ الْأَرْضِ وَقَبْلَ الدِّخَانِ الْمُتَعَلِّقِ الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ مَا يَتَّصِلُ بِهَذَا الْعَالَمِ الْمُرْتَبِي الْمُشَاهَدِ، فَالْقَلَمُ هُوَ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، أَمَّا الْعَرْشُ وَالْمَاءُ فَلَيْسَا مُتَعَلِّقَيْنِ بِهَذَا الْعَالَمِ^(١).

(١) ظَنَّ بَعْضُ الْفَضَلَاءِ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَوَّلِيَّةِ الْعَرْشِ أَوْ الْقَلَمِ يَهْدِمُ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ حَوَادِثٍ لَا أَوَّلَ لَهَا، وَأَنَّ التَّسْلُسَ يَكُونُ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَقَدْ بَسَطَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَكْثَرَ مِنْ قَبْلِهِ لِكَثْرَةِ الْمُخَالَفِينَ فِيهَا فِي زَمَنِهِ، وَلَا شُبُهَاءَ الْهَدْيِ بِالضَّلَالِ فِيهَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَاضَ فِيهَا فِي وَقْتِهِ. وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّسْلُسِ الْمَشْهُورَةِ. فَظَنَّ بَعْضُ الْأَفْضَالِ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَوَّلِيَّةِ الْعَرْشِ أَوْ الْقَلَمِ يَنْقُضُ ذَلِكَ، وَهَذَا لَيْسَ بِصَوَابٍ، لِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ قَالُوا: إِنَّ أَوَّلِيَّةَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ إِنَّمَا يَرَادُ بِهَا مَخْلُوقَاتُ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ، أَيْ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَعْلُومَةِ الْمَخْصُوصَةِ الَّتِي عَلِمْنَاهَا وَحَدَّثَنَا الْوَحْيُ عَنْهَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّهَا أَوَّلُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ مُطْلَقًا. وَانْظُرْ: الصَّفَدِيَّةُ (١ / ١٧) (٢ / ٢٢٤) وَالرِّسَالَةُ الْعَرْشِيَّةُ (١ / ٨) وَمَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (١٨ / ٢١٠ - ٢٤٣).

ثُمَّ تَدْبِرُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٩ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٠ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۝٩١﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٤ - ٨٩]. فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْأَرْضَ، ثُمَّ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ الْعَرْشَ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمَشْهُودَةُ مَعَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ الْمَلَكِيَّةُ الْمَطْلُوقَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَإِمَّا أَنَّهُ أَرَادَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَوْ أَنَّهُ قَصَدَ التَّأَكِيدَ لِلْمَلَكِيَّةِ مَا سَبَقَ مِمَّا ذَكَرَ، أَوْ أَنَّهُ أَوْمَأَ لِمَخْلُوقَاتِهِ الْأُخْرَى غَيْرَ الْمَعْلُومَةِ لَدِينَا وَأَنَّهَا مُلْكُهُ، سِوَاءِ قَبْلِ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ أَوْ بَعْدَ دُخُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْهُمْ، فَقَدْ

فإذا إعمال الحديثين مع ما يتفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة واضح لا إشكال فيه، فيكون ذلك هو تقرير هذه المسألة. وقد لخص ابن القيم المسألة في نونيته وبحثها مفصلاً في كتابه التبيان في أقسام القرآن، وفي غيره فقال في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي كُتِبَ القضاء به من الدِّيانِ
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمداني
والحقُّ أنَّ العرش قبلُ لأنَّه عند الكتابة كان ذا أركانٍ

وهذا القول كما ترى من تقريره مع دليله هو الصحيح، وهو الموافق لفقه النص وفقه خلق العالم وآثار فعل الله تعالى في ملكوته، ومتفق مع القول بأن الله تعالى فعَّال لما يريد، وأنَّ قبلَ هذا العالم ثمَّ عوالم أخرى، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، وأنَّه ثمَّ أشياء أخرى بعد قيام الساعة، والقلم مُتَقَيِّدٌ بما خلقه الله تعالى له، والله سبحانه له الأمر كله يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد.

المسألة الخامسة: جاء في حديث أنس الذي رواه البخاري وغيره في قصة الإسراء أنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ عروجه إلى الله تعالى ليلة المعراج، ثم قال في

=

ذكرها تعالى بترتيب أولويٍّ من الأقلِّ للأكثر، وهو الخلاق العظيم سبحانه وبحمده.
والله أعلم.

وصف ارتفاعه: «ثم إنّي رُفِعْتُ لمستوى أسمع فيه صريف^(١) الأقلام» (٢). وهذه الأقلام غير القلم الذي كُتِبَ به القَدَرُ، فإنّ ذلك القلم من نور كُتِبَ به القَدَرُ في اللوح المحفوظ. وأما هذه الأقلام فهي التي بأيدي الملائكة، وهي أقلام يُكْتَبُ بها وحي الله تبارك وتعالى إلى ملائكته مما يُوكَّلُونَ به من الأشياء. فهم يكتبون أمر الله تعالى، وله سبحانه وتعالى كلمات لا تنقضي كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] فالله تعالى كلماته الكونية لا تنفذ، يأمر وينهى في ملكوته والملائكة تكتب، فهذه الأقلام نوع آخر. ولك أن تقول: هذا هو النوع الثاني، وهي أقلام الوحي التي بأيدي الملائكة يكتبون ما يوحى الله به في سمائه.

قال بعد ذلك: «فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ - يعني في اللوح - أَنَّهُ كَائِنٌ؛ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ؛ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ». وهذه العقيدة هي حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر. هي أن يعلم العبد أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لو فعل ما فعل

(١) الصريف في اللغة: هو صوت احتكاك أسلّة القلم بالورقة حين الكتابة. ويقال صرير أيضًا.

(٢) البخاري (٣٤٩) مسلم (١٦٣)

فإنه لن يَحْجِبَ قضاء الله تعالى وقدره، لأنه لا يمكن أن يفعل خلاف ما قَدَّرَ الله، لهذا وجب التسليم لله تعالى في أمره، ووجب في أمرِ المصائب التي لا اختيار للعبد فيها أن يُسَلِّمَ لله تعالى ذلك، وأن يؤمن بقضاء الله تعالى الذي يقضيه.

قال: «وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقِّبٌ»، يعني ليس له ناقض ولا معقب. «وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا نَاقِضٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ»، يعني مما يجب أن يُعَقَّدَ عليه القلب إيمانًا به، وقال: «عَقْدُ الْإِيمَانِ»، يعني مما يجب في الإيمان يكون عقيدة يؤمنُ به.

«وَالْإِعْتِرَافُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ»، يريد بتوحيد الله تعالى في هذا الموطن توحيد الله تعالى في تَصَرُّفِهِ فِي مُلْكِهِ وفي عبادته، فإنَّ العبد إذا اعترف بأنَّ الله هو المتَصَرِّفُ في ملكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو المدبر وهو الرب فإنه يُوحِّدُ الله في قَدَرِهِ، ويُوَحِّدُ الله تعالى في أفعاله كما يُوحِّدُ الله تعالى في ربوبيته بعامة.

ففي الحقيقة من تأمل توحيد الربوبية وآمنَ حَقًّا بربوبية الله تعالى فإنه يؤمن بالقَدَر؛ لأنَّ الإيمان بالقدر من ثمرات الإيمان التام بربوبية الله تعالى، فإنَّ المؤمن بالربوبية، بأنَّ الله تعالى هو الرب المتصرف في ملكه، هو السيد المطاع، هو الذي لا معقب لحكمه ولا رادَّ لأمره، هو الذي ما شاء كان، هو الذي لا يُغَالَبُ في ملكه، هو الذي يعطي ويمنع ويخلق ويرزق ويميت ويحيي، من آمن

بالربوبية على تفاصيلها؛ فإنه لن يجادل في القدر؛ لأنه يعلم أنه مربوب مستسلم لله تعالى^(١).

ولا شك أن الإيمان بالعرش والكرسي حق على ما جاء في ظاهر الأدلة. ومعتقد أهل السنة والجماعة أن العرش غير الكرسي، فالعرش شيء والكرسي شيء آخر، وكلاهما حق.

فالعرش حق لأن الله تعالى ذكره في كتابه في آيات كثيرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ووصف العرش بأنه عظيم، فقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] ووصف عرشه بأنه مجيد، وبأنه يُحْمَلُ فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧]، ووصف عرشه أيضًا بأنه يستوي عليه، وأن عرشه موصوف بصفات العظمة التي فاق بها سائر العروش. وجاء في السنة مزيد في وصفه بأن العرش له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ «يُصْعَقُ النَّاسُ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفَيَّقُ، فَإِذَا بِمُوسَى بَاطِشٌ - أَوْ قَالَ آخِذٌ - بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ»^(٢).

(١) فشجرة الإيمان في قلب المؤمن تثمر اليقين بالقدر، وتنفي حرج النفس عند ثوران الوسوس، وتدفع وحر الصدر عند نزول أفضية الرب تعالى شرعية كانت أو كونية، ولا يزال من يقين إلى يقين حتى يلقي ربه حق اليقين، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمنون هم العجاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون: ربنا ربنا؛ حتى استجيب لهم».

(٢) البخاري (٤/١٨٧، ٦/٧٤ و ٩/١٦ و ١٥٤)

فالعرش إذا مخلوق من مخلوقات الله تعالى العظيمة، ومن عِظَمِهِ أنه قال فيه: «مثل السماوات السبع للعرش كمثل حلقة ألقيت في فلاة، ومثل الكرسي للعرش كذلك»^(١). يعني كحلقة ألقيت في فلاة، وهذا الحديث صححه وقواه

(١) ابن حبان (٣٦١) وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩) بلفظ: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض». ورواه المستدرک (٢/ ٢٨٢) موقوفاً، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال شيخنا الجبرين رَحِمَهُ اللهُ في شرح العقيدة الطحاوية (٢ / ١٧٩): «قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ: وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، روى ابن أبي شيبة في كتابه صفة العرش والحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى»، وقد روي مرفوعاً، والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وقال السُّدِّي: «السماوات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش». وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض». وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش.

وإنما هو كما قال غير واحد من السلف: «بين يدي العرش كالمراقبة إليه». هذا الكلام على الكرسي الذي ذكر الله أنه وسع السماوات والأرض، وهو كالمراقبة بين يدي العرش، أو أن الكرسي موضع القدمين، وبكل حال فهو مخلوق، وقد ذكر الله أنه وسع

جمع من أهل العلم، وروي من طرق كما ذكر الإمام ابن تيمية، والبحث يقتضي ذلك.

وَصُفُّ العرش في النص جاء بأنه مجيد؛ يعني أنه ذو سَعَة، وأنه ذو جمال، وجاء بأنه عظيم؛ يعني أنه أعظم من غيره، وجاء في وصف العرش أنه كريم؛ يعني أنه فاق جنس العروش والمخلوقات في البهاء والحُسْنِ والعظمة؛ لأنَّ لفظ كريم في اللغة تعني أنه فاق غيره في الأوصاف التي يُحْمَدُ فيها، فقول العرب للإنسان الجواد الذي يبذل الندى ويبذل الطعام للأضياف أنه كريم داخلٌ في قاعدةٍ كبيرة في معنى كلمة كريم في لغة العرب. ولهذا من فاق غيره في الأوصاف فإنه كريم، ومن أسماء الله تعالى الكريم الذي بلغ المنتهى في علو صفاته وحُسْنِ أسمائه بحيث لا يشابهه ولا يماثله شيء فيها وُصِفَ به.

=

السموات بأكملها: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٥]، فإذا كان الكرسي قد وسع السموات والأرض؛ فكيف بالعرش؟ هذا هو القول الصحيح: وهو أن الكرسي مخلوق، وأنه غير العرش. وهناك قول بأن الكرسي هو العرش، والصحيح أنه غيره؛ هذا هو المشهور، فالكرسي مقدمة العرش أو مرقاة بين يديه.

وهناك قول ثالث، ولكنه ضعيف: وهو أن الكرسي هو العلم، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي: علمه، وهذا القول - وإن روي عن ابن عباس - فإنه لا يثبت عنه، والصحيح القول الأول عنه، ولعل هذا من أقوال بعض المبتدعة الذين يريدون أن يُؤَلَّوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أولوا العرش بأنه الملك، أولوا الكرسي بأنه العلم؛ حتى يبتطلوا الصفات التي وردت في النصوص، والتي تتعلق بالعرش والكرسي، والتي الإيمان بها من الإيمان بالغيب.

فهذا عرش الرحمن، ووُصِفَ في الأدلة في الكتاب والسنة بهذه الأوصاف، وأنَّ العرش يُحْمَلُ، وأنَّ له قوائم، وأنه يُدَارُ^(١) حوله من الملائكة، وأنه مُقَبَّبٌ كالقبة فوق السماوات، كما جاء في الحديث الذي في السنن واعتمد ما دلَّ عليه في جهة العرش أهل العلم لما جاء عن الصحابة في تقوية ذلك بأنَّ «عرشه على سماواته هكذا» وأشار بيديه مثل القبة^(٢)(١).

(١) أي: يطاف حوله كالقبة.

(٢) أبو داود (٤٧٢٦) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، جَهِدَتِ الْإِنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقَى اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْحُكَ، أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ، حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَكْثَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحُكُّ، أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا»، وَقَالَ بِأَصْبَعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَأَنَّهُ لَيَطُتُ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». وَضَعَهُ الْأَلْبَانِي فِي تَحْرِيجِ الطَّحَاوِيَةِ (٣١٠) مِنْ جِهَةِ تَدْلِيْسِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ عَنَعَنَ.

ولكن وإن ضعف هذا الحديث فيغني عنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري (٧٤٢٣) أن رسول الله ﷺ قال: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فِلسُوهُ الْفَرْدُوسِ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مَبِينًا ذَلِكَ: «وَالْأَوْسَطُ لَا يَكُونُ الْأَعْلَى إِلَّا فِي الْمُسْتَدِيرِ...» وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ. الرِّسَالَةُ الْعَرْشِيَّةُ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ (١ / ١٣) وَانْظُرْهَا فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (٥٥٦ / ٦)

فقال أهل العلم: إن العرش مُقَبَّب. وكونه مُقَبَّب لا يعني أنه أصغر كما يدل عليه النظر العقلي، مثل تقبيب سطح الأرض على مستوى النصف فيها فإنه مُقَبَّب عليها وهو أعظم منها فكيف بالعرش^(٢).

=

(١) نقل الدكتور محمد عمارة عن الشيخ محمد عبده أنه قال عن ابن تيمية: إنه أعلم الناس بالسنة، وأشدّهم غيرة على الدين. وأنه هو الذي أشار بطبع كتابه درء التعارض ومنهاج السنة. وختم د. محمد عمارة مقالته القيمة بقوله: «إبداعاته هي لباب الشريعة الإسلامية، ولقد عاش شاهداً ومات شهيداً، وكان نجماً ساطعاً وشمساً مشرقة في سماء الإسلام».

د. محمد عمارة: لماذا المهجوم على شيخ الإسلام؟ مقالة في صحيفة هوية بريس ١١ نوفمبر ٢٠١٦.

(٢) قال العلامة أحمد شاكر في شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٨١): وفي صحيح البخاري (٢٨/٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن». يروى «وفوقه» بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سمّوه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: «فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور». البخاري (٤/١٨٧) (٣٢١٧)

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وليس هو فلكاً، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما

=

وللإيمان بالعرش والكرسي أثر عظيم، فالمؤمن إذا آمن بأنَّ عرش الله تعالى حق، وأنَّ هذه التي ذُكرت هي صفة العرش، وأنَّ عرش الله عظيم جدًّا، وأنه مجيد وأنه كريم، وأنَّ النبي ﷺ حَدَّثَ عَنْ أَحَدِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ بِأَنَّ مَسِيرَةَ مَا بَيْنَ عَاتِقِهِ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنِهِ مَسِيرَةُ خَمْسَمِئَةِ عَامٍ^(١)، وأنَّ السموات بالنسبة للكرسي

=

نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات. فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مَجَّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبَّنَا فِي السَّمَاءِ أَسَى كَبِيرًا
بِالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي يَهْرُ النَّاسُ وَسَوَى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
شَرَجَعًا لَا يَنَالُهُ بَصَرُ الْعَيْنِ تَرَى حَوْلَهُ الْمَلَائِكُ صُورًا

والصُّور هنا: جمع «أصور»، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرح: هو العالي المنيف. والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، الذي عرَّضَ بِهِ عَنِ الْقِرَاءَةِ لَامِرَاتِهِ حِينَ اتَّهَمَتْهُ بِجَارِيَتِهِ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مِثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةُ شَدَادٍ مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَا

(١) الذي في السنن سبع مئة عام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِئَةِ عَامٍ». رواه أبو داود (٤٧٢٧) وسكت عنه. وصححه سننه الذهبي في العلو (٩٧) وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٦٦٥): إسناده على شرط الصحيح، وصححه الألباني.

كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وأنَّ الكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، وأنَّ الكرسي موضع قدمي الرحمن، فلا شك أنَّ هذا يؤوَّلُ بالمؤمن الحق إلى اعتقاد عظمة الله تعالى، وإلى أنَّ الله سبحانه تتناهى المخلوقات عنده في الصَّغر، وأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرَّؤْمَرُ: ٦٧]، وجاء في الأثر في تفسير ذلك أنه يرمي بها يوم القيامة كما يرمي الصغير بالكرة فيقول: «أنا الله الواحد أنا الملك.. إلى آخره»^(١).

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب أن يُعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرَّؤْمَرُ: ٦٧]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟». وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟».

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟». وفي لفظ في الصحيح عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي أن النبي ﷺ قال: «يأخذ الله سماواته وأرضه بيده، ويقول: أنا الملك»، ويقبض أصابعه ويبسطها: «أنا الملك»، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه

حتى إني أقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟ وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه». وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ويقول: «أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً، أنا الذي أعدتها. أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟» وفي لفظ: «أين المتكبرون؟»، ويميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟ والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضاً. وفي بعض ألفاظه قال: قرأ على المنبر: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الرؤم: ٦٧] الآية، قال: «مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة» وفي لفظ: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده، فيجعلها في كفه، ثم يقول بها هكذا كما تقول الصبيان بالكرة: أنا الله الواحد». وقال ابن عباس: «يقبض الله عليهما فما ترى طرفاهما بيده» وفي لفظ عنه: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم». وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل من اليهود فقال: يا محمد؛ إن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرؤم: ٦٧] الآية.

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبين أن السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله

فمعرفة صفة الكرسي وصفة العرش، وابتدئ المرء من نفسه التي يُعَظِّمُهَا، وكيف هو على هذه الأرض العظيمة جدًا وهو صغير جدًا جدًا، هذه الأرض، حتى إنَّ المدن الكبار إذا صعدت بالطائرة تراها صغيرة جدًا وهي تحوي ملايين الناس، فكيف بالفرد؟! والأرض هذه بالنسبة للسموات صغيرة، والسموات السبع على سعتها وعِظَم ما فيها من الأفلاك والنجوم والسيارات بالنسبة للكرسي صغيرة كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، والله تعالى فوق العرش مستغن عن العرش، وكل شيء محتاج إليه، والله سبحانه محيط بكل شيء إحاطة سعةٍ وقدرةٍ وذاتٍ وشمولٍ، جلَّت صفاته وتقدَّست أَسْمَاؤُهُ، فإنَّ المرء ولا شك يصيبه بل يحصل له في قلبه نوعٌ عظيم من الذل لله تعالى، ونوع عظيم من احتقار النفس ومعرفة قدر الإنسان كيف هو، وأنه شُرِّفَ أعظم تشريف أن جعله الله تعالى عبدًا له سبحانه، ولهذا ينظر المرء إلى عِظَم المخلوقات هذه ويؤمن بها فيُعَظِّمُ الله تعالى.

حقيقة الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته يُثْمِرُ ثمراتٍ عملية في القلب من وَجَلِ القلوب، من إجلال الله تعالى، وحبِّ القلوب لجمال الله تعالى، وأنواع ما يحدث في القلب من الإيمان، ومدارج الإيمان التي تتصل بالإيمان بالأسماء

تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تُدَحَّى الكُرَّة». مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٩ - ٥٦٠)

والصفات، كذلك الإيمان بالجنة والنار، كذلك الإيمان بالعرش والكرسي لمن تأمله فإنه يجعل القلب خاضعاً لربنا ويجعل القلب مُحِبّاً مُنِيباً لله تعالى، فإن غَفَلَ جاءه تعظيمه وإيمانه وعقيدته بالإنابة السريعة بالاستغفار الحق.

إذاً حين نبحث هذه المباحث في العقيدة ليست كما يبحثها أهل الكلام المذموم في كونها أشياء لا ثَمَرَةَ لها على الإيمان والعمل الصالح وتَعَبُّد المرء لله تعالى، فإن كل شيء وَصَفَهُ الله تعالى لنا من الأمور الغيبية لم يُقَصِّد إيماننا به واعتقادنا له من جهة الوجود دون جهة الإيمان وما يُثْمِرُ منه؛ بل قَصِدَ الإيمان به - يعني بوجوده وأثر الإيمان الذي يُجَدِّثُهُ في النفس - لأنَّ المقصود إصلاح القلوب.

وهذا يجعل المرء على الحقيقة يتصور كيف هذه المخلوقات جميعاً، والأرض هذه الكبيرة وما فيها، ثُمَّ السماوات، ثم الكرسي بعد ذلك، ثم العرش، ثم الملائكة الحافين من حول العرش؛ لا شك يُجَدِّثُ له أنواعاً من الإيمان والوجل والخوف وحبَّ الله تعالى وتعظيمه والإنابة إليه، وهذا لا شك كَلَّهُ من المقاصد الشرعية. فإذا؛ الإيمان بهذه يحتاج منك إلى تأمل وتدبر في أن تُعْمَلَ في قلبك هذه الأشياء وتذكر عظمة الله تعالى»^(١).

قلت: وسوقُ هذه المباحث في كتاب الرضا راجعٌ لتأثيرها المباشر على حال العبد من قبوله ورضاه وتسليمه بربه وأقداره، وحمده على كل حال، وشكره كل حين، فهي أمور في الغاية من العظمة والمهابة والجلال، فإذا عقلها

(١) شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١ / ٢٥٧ - ٢٦٤ مختصراً).

العبد؛ صارت زادًا لإيمانه، وضياءً لمعرفته، وحاديةً لعزمه، وصاحبةً لسفره، فعظمتُ الخلق من عظمة خالقه جل وعلا، فكيف لا يرضى العبدُ المربوبُ الضعيفُ الظلومُ الجهولُ الفاني بالربِّ الخلاقِ العظيمِ الحكيمِ الرحيمِ الباقي، سبحانه وبحمده.

إنَّ الحديث عن عظمة الله تبارك وتعالى من خلال بيان عظمة مخلوقاته يُصَبُّ في القلب المهابة والإجلال وتَمَامُ الرضا بالله ربًّا خالقًا مالكًا مدبّرًا وإلهًا مفردًا بالعبادة، فإذا انعقد القلب على ذلك امتلأ بالتعظيم والإجلال والمهابة والحياء والزهد فيما سوى الله والدار الآخرة، حينها لا تسئل عن رضاه التام وراحته الكبرى وسعادته السابغة بتدبير مولاه الحق مهما نهت نفسه ببعض لوازم ضعفها الإنساني، ومهما تعثّر في حياته بالمشاق، وطُرِحَتْ في دربه العقبات؛ فمسيره لربه ثابت ساكن مطمئن بالإيمان، ذلك أنَّه يُحدِّث قلبه على الدوام أنَّ هذه الدنيا بأسرها محض ابتلاء وتمحيص، فما دامت المصائب قد تحطّت دينه فإنّه لا يعدّها مصائب، بل رحمت وألطف، فهي بين درجة ترفعه وخطيئة تكفرها وحسنة صبر يُحصّلها، ويعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين المؤمنين.

قال الشنقيطي حفظه الله: «وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض السلف لما مرض بالطاعون يقول: «اطعني، فوعزتك وجلالك إني لأتلذذ بما يصيبني منك»، وهذه هي منزلة الرضا عن الله عز وجل»^(١). وقال

(١) شرح زاد المستقنع (١١/٣٤٨)

الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ عَلَى حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئْهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ»^(١). : «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ وَضَرٍّ، وَأَنَّ اجْتِهَادَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَى خِلَافِ الْمَقْدُورِ غَيْرُ مُفِيدٍ الْبَتَّةَ؛ عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، الْمُعْطِي الْمَانِعُ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ تَوْحِيدَ رَبِّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَإِفْرَادَهُ بِالطَّاعَةِ، وَحِفْظَ حُدُودِهِ، فَإِنَّ الْمَعْبُودَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِعِبَادَتِهِ جَلْبَ الْمَنَافِعِ وَدَفْعَ الْمَضَارِّ، وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ مَنْ يَعْبُدُ مَنْ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُغْنِي عَنْ عَابِدِهِ شَيْئًا، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ غَيْرُ اللَّهِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ إِفْرَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسُّؤَالِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِدُعَاءِ، وَتَقْدِيمِ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَأَنْ يَتَّقِيَ سَخَطَهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ سَخَطُ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَإِفْرَادَهُ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالسُّؤَالِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي حَالِ الشَّدَّةِ وَحَالِ الرَّخَاءِ، بِخِلَافِ مَا كَانَ الْمَشْرُكُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِخْلَاصِ الدُّعَاءِ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَنِسْيَانِهِ فِي الرَّخَاءِ، وَدُعَاءِ مَنْ يَرْجُونَ نَفْعَهُ مِنْ دُونِهِ، قَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

[الزُّمَرُ: ٣٨].

(١) أحمد (٤٤١ / ٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٠)

وقوله ﷺ: «واعلم أنّ في الصّبر على ما تكره خيراً كثيراً»، يعني: أنّ ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها، كان له في الصبر خيراً كثيراً. وفي رواية عمر مولى غفرة وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام، وهي: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرّضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع، فإنّ في الصّبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(١).

ومعنى هذا أنّ حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يُعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرّضا بالمقدور فليفعل، فإن لم يستطع الرّضا، فإنّ في الصّبر على المكروه خيراً كثيراً.

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:

إحدهما: أن يرضى بذلك، وهذه درجة عالية رفيعة جداً، قال الله عز وجل: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» [التغابن: ١١]. قال علقمة: «هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنّها من عند الله، فيسلّم لها ويرضى». وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً

(١) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١). وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(٢).

ومما يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبي ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له؛ إن أصابته سرّاً شكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراً صبر كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(٣). وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فسأله أن يُوصيه وصيةً جامعةً موجزةً، فقال: «لا تَتَّهِمُ اللهَ في قضائه»^(٤).

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللهَ إِذَا قَضَى قَضَاءً أَحَبَّ أَنْ يُرْضَى بِهِ»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللهَ بِقَسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرِّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي اليَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الِهْمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»، كذا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا^(٥). وقال عمر بن عبد العزيز: «أصبحت ومالي سرورٌ

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

(٢) ابن أبي شيبة (٢٩٤٦) وابن أبي عاصم في السنة (١٢٨) (٣٧٨) والبخاري في البحر الزخار (١٣٩٢) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) والحاكم (١/٥٢٤-٥٢٥) وصححه الحويني في الفتاوى (١/ ٢٦٢)

(٣) مسلم (٢٩٩٩)

(٤) خلق أفعال العباد (١٦٣)، والجهاد لابن أبي عاصم (٢٥) وضعفه محقق جامع العلوم. وبنحوه عند أحمد (٣١٨/٥) بسند صححه ابن كثير في جامع المسانيد والسنن.

(٥) شعب الإيمان (٢٠٧) عن أبي سعيد الخدري به، وزاد في أوله: «إن من ضعف اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله، وأن تحمدَهم على رزق الله».

إلا في مواضع القضاء والقدر». فمن وصل إلى هذه الدرجة، كان عيشه كله في نعيم وسرور، قال الله تعالى: ﴿عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧]. قال بعض السلف: «الحياة الطيبة: هي الرضا والقناعة»^(١). وقال عبد الواحد بن زيد: «الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُستراح العابدين»^(٢).

وأهل الرضا تارةً يلاحظون حكمة المُبتلي وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متهم في قضائه، وتارةً يُلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فيُنسيهم ألم المقتضي به، وتارةً يُلاحظون عظمة المُبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصلُّ إليه خواصُّ أهل المعرفة والمحبة، حتى ربّما تلذّذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: «أوجدَ لهم في عذابه عذوبة».

وسئل بعضُ التابعين عن حاله في مرضه، فقال: «أحبُّه إليه أحبُّه إليّ»^(٣). وسئل السريّ: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقال: لا. وقال بعضهم:

عَذَابُهُ فِيكَ عَذَابٌ وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبٌ

(١) أثرت عن علي رضي الله عنه، كما عند الطبري في تفسيره (١٦٥٢٦) كذلك رواهما عن ابن عباس والحسن.

(٢) الحلية (١٥٦/٦)

(٣) وهي كلمة شريفة قالها الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنهما لما سأله التابعي الجليل مطرف بن عبد الله عن حاله في مرضه. وانظر الطبراني في الكبير (١٩٣ / ١٨)

وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حُسْبِي مِنَ الْحُبِّ أَنِّي لِمَا تُحِبُّ أَحِبُّ

والدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضل مندوبٌ إليه مستحب، والصبر واجبٌ على المؤمن حتم، وفي الصبر خيرٌ كثير، فإن الله أمر به، ووعد عليه جزيل الأجر. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. قال الحسن: «الرضا عزيز، ولكن الصبر معول المؤمن» (١).

ثم تأمل - رحماني الله وإياك - عاقبة تسخط نعم الله تعالى في قصة سبأ، ذلك أنهم كانوا في نعيمٍ رغيد وأمنٍ سابلة وتقاربٍ بلاد وإدراجٍ أرزاق وعيشةٍ رخيّة؛ فبدّلوا رضاهم سخطاً وشكرهم كفرًا؛ فأبدل الله حالهم، وقلب عليهم زمانهم، وجزاهم بكفر نعمته عذابًا، جزاء وفاقًا، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا بِعَمَلِ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فقال تبارك وتعالى في شأن سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١ - ١٩٥) مختصرًا.

الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ [سَبَأَ : ١٥ - ١٩]. والله المسؤول أن يعصمنا من مضلات الفتن ومصارع السوء وخواتيم الهلاك، إله الحق آمين.

وَلَرُبَّ نِعْمَةٍ فِي ثَوْبٍ مَحْنَةٍ، وَكَمْ مِنْ كَرَامَةٍ فِي شَكْلِ بَلَاءٍ، وَلَطْفٍ خَفِيِّ عَنْ النَّاظِرِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُوَفَّقُونَ الْمُبْصِرُونَ بِنُورِ قُلُوبِهِمْ مُوَاطِنِ قَطْرِ النَّعْمِ! وَهَلْ يَجِبُ سَعْيٌ مِنْ رِضَى بَرِّهِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ؟ اللَّهُمَّ كَلَّا.

ولمحمود الوراق رَحِمَهُ اللَّهُ مَبِينًا غُرُورَ الْإِنْسَانِ، وَنَسِيَانَهُ نَعْمَ الْمَنَانِ:

تَعْصِي الْإِلَٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمَحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَلِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ



هل كلُّ القضاء خيرٌ للمؤمن؟

أقضية الله تعالى كلها حكمة، وكلها خير من جهة الله تعالى، والله لا يخلق شرًّا محضًا^(١)، أما من جهة العبد فكلها خير إلا ما كان معصيةً لله تعالى

(١) ومن هنا بطلت نسبة الشر إليه سبحانه، فالشر ليس إليه، لأن الشر المطلق غير موجود في مخلوقاته، فما من شر إلا فيه خير إما في ذاته أو بما يفضي إليه من حكم غائية خيرية. وقال شيخنا عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: «الأشياء المخلوقة فيها خير وشر، والله خالق الخير والشر، أما فعل الرب سبحانه: حكمه وقضاؤه وتقديره؛ فكله خير، ليس فيه شر، والشر لا يضاف إلى الله اسمًا، ولا صفةً، ولا فعلًا. فالشر لا يكون في أسمائه فكلها حسنى، ولا في صفاته فكلها صفات كمال وحمد، ولا في أفعاله فكلها أفعال عدل وحكمة، وإنما يكون في مفعولاته، أي: مخلوقاته، وهذا ما فُسر به قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك».

فالله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا؛ بل كل الشر الذي في المخلوقات شر نسبي ليس شرًّا محضًا، وهذا يرجع إلى الإيمان بحكمته سبحانه وتعالى، وأنه حكيم، ما خلق شيئًا عبثًا، لم يخلق شيئًا إلا لمصالح وحكم يعلمها سبحانه، وليس من شرط ذلك أن تكون عائدة للعبد، بل قد يكون فيها شر لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق؛ فالله تعالى منزّه عنه». أهـ. شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٧).

فالمعصية في ذاتها شرّ كلها، ورجس كلها إلا ما أفضت بصاحبها لأموال محمودة شرعًا، والمقصود أن الخير قد يلحق بها إن وفق الله مجتريها لتوبة نصوح، فهنا سرّ المسألة ومقصودها، وليس في هذا تزيين لها أو تسهيل أو تصغير.

خَلا إن أفضت في ثاني الحال لمصالح في دينه كالتوبة والإنابة والانكسار والاستغفار وكسر العجب وإكثار الحسنات الماحية ونحو ذلك^(١).

فلا بدّ للمؤمن من حسن التصوّر لمفهوم القضاء والقدر في الإسلام، فلقد وصل الحال ببعضهم لانحرافهم عن المفهوم الشرعي الصحيح للقدر وضلالهم عنه إلى دهاليز جهل وضلال لا تخطر على بال موحد، ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فقال واصفاً بعض أحوالهم الشنيعة، التي تنبو عنها فطر المؤمنين، وتستقذرها نفوس الشرفاء الحنفاء: «صعد رجل يوماً على سطح دار له فأشرف على غلام له يفجر بجاريته، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك! فقال: لَعَلُّكَ بالقضاء والقدر أحبّ إليّ من كل شيء، أنت حرّ لوجه الله!

(١) ولقد استجرى الشيطان فئامًا من الناس فظنوا أن الإيمان بالقدر يستلزم الرضا بالمعاصي، وهذا ضلال مبين. فلا يجوز الرضا بما يُسخط الله تعالى وينهى عنه إلا من جهة ما يفضي به للعبد لأمر صالح وأحوال فاضلة. إن كانت - كالتوبة وتوابعها، ومن جهة الشرع لأحكام عادلة أو مراحم إلهية. وقد سأل ابن القيم شيخه رحمهما الله تعالى عن حديث رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن». رواه مسلم (٢٩٩٩) قال: «فسألت شيخنا - أي ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك». الفوائد (١ / ٩٤)

ورأى آخر يفجر بامرأته؛ فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة وهي تقول: القضاء والقدر! فقال: يا عدوة الله؛ أترنين، وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أو تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس؟! فتنبّه ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها وقال: لولاكِ لضللتُ! ورأى آخر رجلاً آخر يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره. فقال: الخيرة فيما قضى الله!

وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونونه، فقال: إلى متى هذا اللوم، ولو خُيَّ لسجد، ولكن مُنِع. وأخذ يقيم عذره. فقال بعض الحاضرين: تبّاً لك سائر اليوم؛ أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

وَيُدْعَى خَصْمُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرّاً مَعشَرَ الْقَدَرِيَّةِ
سواء نفوه، أو سعوا ليخاصموا به الله، أو ماروا به للشريعة

وسمعه يقول: القدرية المذمومون في السنة على لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته، وهم القدرية المجوسية، والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام : ١٤٨]، وهم القدرية المشركية، والمخاصمون به الرب سبحانه، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر، فقال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر : ٣٩]، ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم. فمن أقر

بالذنب وباء به ونزّه ربه فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن برّاً نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس» (١).

فالمعصية في ذاتها شرٌّ، ولكن قد يترتب على ارتكابها حسنات أكبر منها، وتأمل حال أبينا آدم عليه السلام فقد كان حاله بعد التوبة من الخطيئة أفضل من حاله قبل الخطيئة، وذلك لأن حسنة التوبة وما بعدها قد رجحت على الخطيئة، ولم يستحق وصف التائب إلا بعد توبته. وكما قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نُصبَ عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها».

وعلى ذلك؛ فقضاء الله لعبده كله خير من جهة الله تعالى، وكلها خير من جهة أقضيته الشرعية، وكله خير من جهة أقضيته الكونية القدريّة إن أفضى بالعبد إلى خير، أما إن أفضى لشر؛ فشرّه من ذات العبد لا من جهة فعل ربه، لأنه الله تعالى إنما قطع عنه مدد توفيقه ووكله إلى نفسه الظالمة الجاهلة. والله تعالى محموداً في كل أقضيته وأقداره، فهي من جهته تبارك وتعالى خير موافق لحكمه سبحانه، والشرّ ليس إلى الله تعالى. أما من جهة العبد؛ فالعاقبة الحسنة هي ميزان الخيرية له. بيان ذلك: أن قضاء الله تعالى قسمين:

(١) طريق الهجرتين (١/١٥٣-١٥٧) باختصار.

الأول: قضاء شرعيٍّ أمرِيٍّ، وهي الأوامر والنواهي التي جاءت بها الشريعة ونطق بها الوحي؛ فهذا خير كله، وأمره واضح.

الثاني: قضاء كونيٍّ قدرِيٍّ، وهي ما تسمى بالأقدار، حسنة كانت أو غير ذلك، فالعبرة في خيريتها ليست في ملذوذات النفوس ومشتهيات القلوب ومستراح الأرواح منها، بل العبرة بحقيقتها في ذاتها - أوَّلاً - من حيث إنها محبوبة لله تعالى، فما كان لله محبوباً فهو الخير، حتى وإن كانت بداياته أو مظاهره ليست كذلك لبعض البشر. ومن أمثلتها: طاعات العبد لربه، فهي جارية على القدر وموافقة للشرع؛ فهذا خير محض، فهي نعمة في حقيقتها.

ثم العبرة - ثانياً - بما أفضت إليه وآلت، فقد يبارك الله تعالى في النعمة فيثبتها لعبده ويزيدها له ويتقبلها منه فتكون نعمة مفضية إلى نعمة أخرى؛ فهذا خير محض أيضاً. أما إن أفضت لعُجب، أو كبر، أو تعاضم، أو تألَّ على الله تعالى، أو رؤية العمل، أو الإضرار بالناس، أو لحقها محبط من محبطات الأعمال، أو كانت عاقبتها ومآلها مكروهة لله تعالى، فهذه ليست بخير غائيٍّ، أي ليست بخير من جهة غايتها وعاقبتها. هذا في جانب الأقضية المسماة بالنعم الدينية.

أما النعم الدنيوية: كالمال أو المنصب أو القوة في الجسد أو برُّ الولد به أو التوفيق لزوج صالحٍ ومسكن واسعٍ ومركب هنيءٍ ونحو ذلك؛ فهذه لا يحكم بخيريتها في ذاتها - وإن كانت نعمة من الله تستحق الشكر له ويستحق عليها الحمد - وإنما يحكم بخيرتها بحسب ما آلت إليه؛ فإن أفضت إلى شكر وأعانت

على طاعة فهي خير، أما إن آلت لطغيان وغفلة ومعصية وركون للدنيا ونسيان الآخرة واستغناء عن المغني سبحانه؛ فهي ليست بخير في عاقبتها.

وكذلك الحال في مصائب الدين والدنيا، فإن أفضت مصيبة الدين - كعجز عن القيام بالعبادة كالصيام أو صلاة الجماعة أو تلاوة القرآن ونحو ذلك - إلى طاعة كزيادة في العبادة أو إحسان لما استطاع منها أو عوّض نقصها بذكر ودعاء وانكسار لله وافتقار وتعلق ونحو ذلك فهي خير، أما إن أفضت لجزع وتسخط أو قنوط أو تحسر أو فتور عن الذكر والعبادة ونحو ذلك فهي ليست كذلك - أي: من جهة العبد لا جهة الرب -.

وإن أفضت مصيبة الدنيا؛ كموت حبيب أو جائحة في المال أو مرض في البدن أو ظلم من الناس له ونحو ذلك؛ فإن أفضت لخير كصبر وتسليم وتفويض وتوكل ورضا وشكر وحمد ومزيد عبادة وذكر وإنابة وتوبة فهي خير، والله تعالى يقول: ﴿وَبَلَّوْهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وتدبر يا من أصبت في دنياك قرعاً لقلبك لتنتفح بصيرة عيناه في أحوال أخراك، وتلمح - رحمك مولاك - فائدة التوبة، وعظيم النعمة بها، ووافر جزاء أهلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوَىٰ وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ

أما إن أفضت المصيبة لجزع وتسخط وتلوّم وترك عبادة ونحو هذا من أمور يكرهها الله تعالى فهي ليست كذلك - كما سبق -.

وبالجملة؛ فأمر المؤمن كله خير، لأن باستطاعته توجيه أموره كلها لأن تكون خيرًا له، وذلك بتوجيهها على ضوء الشرع ونور الوحي، وطاعة الحي القيوم تبارك وتعالى، والدوران بها مع أمر الله، فهنا نقول: إن أمره كله خير - بلا مشيئة - لأنها تُفضي به لساحل إرضاء المولى عز وجل الذي كل أسمائه وصفاته وأفعاله خير.

واختيار الله تعالى لعبده وهو العليم الحكيم الرحيم خير من اختيار العبد لنفسه الظالمة الجاهلة العجلى. والنعم والمصائب كلاهما خير للمؤمن؛ فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمَنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمَنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). وأكثر النعم مستورة بخمار جهلنا بها، حتى إذا فقدناها رأيناها، كما قال الكاساني رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّعْمُ مَجْهُولَةٌ، فَإِذَا فُقِدَتْ عُرِفَتْ».

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وذكرهما في أربعة مواضع من

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩)

كتابه. فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له. ولهذا أجيب من أورد هذا على ما يُقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين:

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد، لا ما فعله العبد، كما في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] أي من سراء ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي من ضراء. وكقوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي بالسراء والضراء، كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا﴾ [آل عمران: ١٢٠] فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار، ويراد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصّبر الشكور. والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة^(١). فمن قُضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير^(٢): إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

(١) وكذلك آدم عليه السلام، فحاله ودرجته بعد توبته أفضل منهما قبل خطيئته.

(٢) وجاءت كذلك عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الأعمال بالخواتيم»^(١).
والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً، أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ^(٢)، أو يتلى الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يتلى في البرزخ بالصعقة^(٣) فيكفر بها عنه، أو

(١) البخاري (٦٤٩٣) و (٦٦٠٧) ومسلم (٧٤/١ و ٤٩/٨)

(٢) كذلك غيره ﷺ من الشفعاء كالشهداء والأفراط والأصحاب والملائكة وغيرهم مما جاءت به السنة.

(٣) لعله قصد عذاب القبر في الجملة، أو أنها مصحفة عن ضغطة - أي ضغطة القبر - لأن الصعقة هي نفخة الصور. وقد صح الحديث بذكر الضغطة والضممة. فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِياً مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ». رواه أحمد (٥٥/٦، ٩٨) وجود سنده العراقي في تخريج الإحياء (٢٥٩/٥) وصححه محققو المسند، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن معاذ رضي الله عنه حين توفي: «هَذَا الَّذِي تَحْرُكُ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةٌ ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ». رواه النسائي في السنن (٢٠٥٥) (١٠٠/٤) وسكت عنه، وبوب عليه بقوله: «ضممة القبر وضغطته»، وصححه الألباني في صحيح النسائي. وعن أبي أيوب رضي الله عنه: أن صبيّاً دفن، فقال ﷺ: «لَوْ أَفْلَتَ أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ الْقَبْرِ

يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم
الراحمين^(١).

لَأَفْلَتَ هَذَا الصَّبِيِّ». رواه الطبراني في الكبير (١٢١/٤) وصححه الهيثمي في المجمع
(٤٧/٣) والألباني في الصحيحة (٢١٦٤).

وهذه الضمة والضغطة هي من آخر شدات المؤمن، وهي تُخَفَّفُ عليه ويُهَوَّنُ، ويليهما
أمور أخرى كفزع القيامة والحشر وإدناء الشمس والموازين وتطاير الصحف وورود
جهنم على الصراط، ونحو ذلك، فالراحة التامة والسعادة الكاملة والأمان كله إنما هو
عند دخول الجنة.

والله تعالى يرفق ويلطف ويرحم ويهَوِّنُ ويسر على عبده المؤمن ابتداءً من سكرات
الموت حتى دخوله الجنة. فَيُخَفَّفُ ضَمَّةَ القبر ويزيل وحشته على عبادة بحسب رحمته
لهم وولايتهم له، ويؤمّنهم حال الفزع الأكبر لغيرهم، ويرفق بهم حين الشدة على من
خالفهم، ويرحمهم وقت عذاب أعدائه، ومن ذلك أن زمان الموقف يوم القيامة طويل
على الناس فمقدار اليوم خمسين ألف سنة، لكنه يخفف على المؤمنين بقدر ما بين صلاتي
الظهر والعصر، وكذلك إظلال الله تعالى من شاء من المؤمنين في ظل عرشه، وورودهم
حوض نبيهم ﷺ ليشربوا من نهر الكوثر، ونحو ذلك من الألفاف الربانية والرحمات
الإلهية، فله الحمد والشكر والثناء الحسن، إن ربي رحيم لطيف رقيق ودود.

(١) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وغيره في خبر الجهنمين الطويل
المخرّج في الصحيحين، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «... حتى إذا خلص المؤمنون من
النار؛ فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحق من
المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. وفي رواية: فما أنتم بأشدّ مناشدة في
الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون:

=

ربنا؛ كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقية وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا؛ ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها خيرًا». وكان أبو سعيد الخدري يقول «إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾» [النساء : ٤٠]، فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا هُمًّا. أي فحما من حرق النار لهم عيادًا بالله تعالى. فيلقاهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟ فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه. أي بعد التوحيد والإيمان إعمالاً لبقية النصوص. ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا؛ أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين! فيقول: لكم عندي أفضل من هذا! فيقولون: يا ربنا؛ أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا». رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) واللفظ له. نسأل الله الكريم من فضله العظيم، ونسأله رضوانه والجنة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢].

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروي عنه
رسوله ﷺ: «يا عبادي؛ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن
وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١).

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صبوراً شكوراً، أو كان قد
استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له؛
كان قد رضي بما هو خير له. وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال:
«إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». ففي
هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل
القضاء، وهذا أكمل من الضراء والصبر، فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفي هذا
الصبر.

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له؛ فكيف مع الرضا؟! ولهذا جاء في
الحديث: «المصاب من حرم الثواب» في الأثر الذي رواه الشافعي في مسنده:
أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول: «يا آل بيت رسول الله؛ إنّ في الله
عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت. فبالله فثّقوا،
وإياه فارجوا، فإنّ المصاب من حرم الثواب». ولهذا لم يؤمر بالحنن المنافي
للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرّة، لكنه عُفي عنه إذا لم
يقترن به ما يكرهه الله.

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول وهو: الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه، مع قطع العبد النظر عن حظّه، بخلاف المأخذ الثاني وهو: الرضا لعلمه بأن المقضيّ خير له.

ثم إن المحبة متعلقة به، والرضا متعلق بقضائه، لكن قد يقال: إن المحبة لله نوعان: محبة له نفسه، ومحبة له لما فيه من الإحسان. وكذلك الحمد له نوعان: حمدٌ له على ما يستحقه نفسه، وحمد على إحسانه إلى عبده. فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة.

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة، ولهذا ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان كما ذكر في المحبة وجود حلاوة الإيمان، وهذان الحديثان الصحيحان هما أصلٌ فيما يُذكر من الوجد والذوق الإيماني الشرعي دون الضلالي البدعي، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا»^(١). وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»^(٢).

(١) مسلم (٦٠)

(٢) البخاري ١٠/١ (١٦) ومسلم ٤٨/١ (٤٣) (٦٧)

وبالجملة؛ فكلُّ قضاءٍ لله خيرٌ للمؤمن المُسَدَّد، فمن جهة أنه قضاء الله وفعله فهو خير، ومن جهة ما يترتب عليه ويفضي به إلى مرضي الله تعالى من الصبر والرضا والشكر والحمد عند البلاء والتوبة والإنابة من الذنوب ونحو ذلك فهو خير أيضاً، فكل قضاء الله خير.

وبعد؛ فتدبر قول ربنا تبارك وتعالى في آية تسكب على القلب ماء السكينة، وتُروي ظمأَ الروح بكؤوس الطمأنينة، وتَهْمِي على النفس العطشى غيوث الشوق لمدارج الرجاء ومدارك اليقين: ﴿قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢]، فتدبر كيف عطف جمعنا يوم القيامة على كتابته الرحمة على نفسه! فَمَنْ أخطأته ألطافُ هذه الرحمة الهائلة وأعطافُ هذه المرحمة الإلهية العظيمة؛ فهو أخسر الخلق طرّاً، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، لماذا؟ والجواب: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، هذا حالهم ومآلهم. ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

وأنعمَ نَظَرَكَ طويلاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران : ٢٦]، فختمَ تعالى القول بعد ذكر الملك وإيتائه ونزعه وإعرازه وإذلاله بقوله الأجل: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران : ٢٦]، ولم يقل بيدك الشر، وهو من ذكر العام بعد الخاص؛ إشارة إلى أن الشر هو

=

الحرمان من الخير الذي هو بيد الله وحده، ثم ختمها ببيان قدرته الشاملة المحيطة بكل شيء.

فَمَنْ فَاتَهُ خَيْرُ رَبِّهِ فَلَا فَلَاحَ لَهُ، وَنَفْسُهُ بِظُلْمِهَا وَجْهَلِهَا حَقِيقَةُ بِالْشَّرِّ لَانْقِطَاعِهَا عَنْ أَسْبَابِ ضِدِّهِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ، فَاجْعَلِ الْمُرَادَ وَاحِدًا، وَالرَّجَاءَ وَاحِدًا، وَالْقَصْدَ وَاحِدًا، وَالْوَجْهَةَ وَاحِدَةً، وَكُنْ سَاقِطَ الْهِمَّةِ إِلَّا فِي مَعَالِي الْآخِرَةِ، وَأَبْشِرْ فَتَمَّ كُلُّ خَيْرٍ لِمَنْ هَدَى اللَّهُ تَعَالَى.

فِيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ الْفَوْزُ يُرْتَجَى وَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْوَلُ

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عِمْرَان : ٢٦] أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يُضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله، وقاله رسوله. وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهمٌ محضٌ، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا^(١).

(١) تفسير السعدي (١ / ٩٦٥)

فإن آمنت أن الخير كله من الله وحده، وليس إليه شرّ البتّة، وأن قضاءه
للمؤمن خيرٌ كلّهُ؛ فعَلامَ الهمّ والغمّ؟! والحمد لله رب العالمين، وبالله
التوفيق.



كيف يريدُ الله تعالى أمراً لا يرضاه؟

بمعرفة إجابة هذا السؤال الكبير تزول أكبر إشكالات هذا الباب، ذلك أن كثيراً من الناس يجعلون باب الإرادة الشرعية والإرادة القدرية واحداً، فيلتزمون بلازم باطل لهذا الفهم الباطل - وما بني على باطل فهو باطل - فيقولون: إن كل ما خلقه الله تعالى قد رضىه وأحبه، وهذا ضلال بين، فالمحبة إنما تتبع الإرادة الشرعية لا المشيئة الكونية، فالله يحب الإيَّان والمؤمنين، ويكره الكفر والكافرين، والقائل تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الْقَمَر : ٤٩] هو ذاته الذي قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر : ٧]. وهو حكيم في كل أفعاله، ويستحق عليها تمام الحمد.

فالله تعالى لا يقدرُ أمراً إلا لما فيه من الخير ذاتاً أو غاية، أي لما في الأمر من خيرية في ذاته، أو لما يفضي به إلى الخير، فالله تعالى لا يخلق شراً محضاً، إذ الشر العَدَمِيّ معدوم في مخلوقاته، فخلقه إما خيراً محض، أو خير من بعض الوجوه لحكم في الخلق والأمر والتكليف عظيمة، أو شرٌّ مترتب عليه خير في العاقبة. وعليه؛ فقد يكون الخير متمحّضاً في الشيء، وقد يكون شراً يترتب عليه خير يحبه الله تعالى، ومن هنا انتفت نسبة الشر إلى الله تبارك وتعالى.

وبهاتين الإرادتين - الشرعية والقدرية - قام التكليفُ، وانتهض الابتلاء، واستقام الأمر والنهي، واكتمل امتحان القلوب في ميدان الإيَّان والكفر ومجاهدة النفس والخلق في ذات الله تعالى، وعلا سوق الجهاد باللسان والسنان، ودُعي إلى سبيل الله تعالى، وأمر بالمعروف ونُهي عن المنكر، وقام

سوق الجنة والنار. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمرًا لا يرضاه ولا يحبه، وكيف يشاؤه ويكوِّنه، وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فِرَقًا، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمُريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلّقيهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدًا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟! فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سببًا إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثاله: أن الله سبحانه خلق إبليس^(١) الذي هو مادةٌ فساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما

(١) وهذا المثال هو أوضح أمثلة مسألة خلق الشر.

يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له، لعنه الله ومقتته وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محابِّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودها أحب إليه من عدمها^(١).

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرّها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير^(٢)، فتبارك الله خالق هذا وهذا.

(١) فوجود الطاعات الإيمانية الناشئة عن المجاهدة أحب إلى الله تعالى من عدم أصل الشرّ إبليس، وبهذا علمنا أن الله تعالى لا يخلق شراً محضاً، وأن الشر المحض الذي لا يترتب عليه خير معدوم في الخلاق، والله الحكمة البالغة تبارك وتعالى.

(٢) لعله يقصد أن المادة الملكية هي الطاعة المطلقة بلا عصيان لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦٦]، وهذه هي مادة كل خير على الحقيقة. ولو قال «من أشرف الذوات المخلوقة» لكان حسناً، تعظيماً لجنان رب العالمين، وحسناً للأدب معه تبارك وتعالى، كما أنه بذلك يخرج من الخلاف القائم في تشريف جبريل على محمد ﷺ أو العكس أو تساويهما.

والراجح تفضيلُ رسولنا محمد ﷺ على رسولنا الملكي جبرائيل عليه السلام، وهذا مذهب ابن القيم نفسه كما نص عليه. ومن شواهد الترجيح: أنه قد ارتفع وبلغ ليلة المعراج مدى لم يبلغه جبريل عليهما الصلاة والسلام، ورفعُ الذات من دلائل تفضيل المعنى، كما أن الله تعالى قد اتخذ خليلاً، وغير ذلك من الفضائل الهائلة الجليلة. قال الناظم:

وأفضلُ الخلق على الإطلاق نبيُّنا فمِلْ عن الشّقاقِ

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْمَنَهاجِ (٣٧ / ١٥) فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ مُسْلِمٍ (٤٢٢٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..» الْحَدِيثُ. قَالَ: «وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ لِتَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْآدَمِيَّينَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ ﷺ أَفْضَلُ الْآدَمِيَّينَ وَغَيْرِهِمْ». وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (١ / ١٤٥): «وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ ﷺ أَعْظَمُ الْخَلْقِ جَاهًا عِنْدَ اللهِ، لَا جَاهَ لِمَخْلُوقٍ أَعْظَمَ مِنْ جَاهِهِ، وَلَا شَفَاعَةَ أَعْظَمَ مِنْ شَفَاعَتِهِ».

وَقَدْ تَوَارَدَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ كَالشَّافِعِيِّ وَالنَّوَوِيِّ وَابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَابْنِ الْقَيْمِ وَابْنِ حَجَرٍ وَابْنُ عَاشُورَ وَالسَّعْدِيُّ وَالشَّنْقِيطِيُّ وَابْنُ بَازٍ وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ. وَبِذَلِكَ أَفْتَتِ اللَّجْنَةُ الدَّائِمَةُ لِلْإِفْتَاءِ كَمَا جَاءَ فِي فِتَاوَى اللَّجْنَةِ (٣٥/٢٦): «جَاءَ فِي نَصُوصٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَيَانُ عَظَمِ قَدْرِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَفْعَةِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ تَعَالَى مِنْ خِلَالِ الْفَضَائِلِ الْجَلِيلَةِ وَالْخِصَائِصِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي خَصَّه اللهُ بِهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللهِ وَأَعْظَمُهُمْ جَاهًا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ... فَمِمَّا ذُكِرَ وَغَيْرُهُ يَتَبَيَّنُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، بَلْ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ، وَأَعْظَمُهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ مَعَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وَالْخِصَائِصِ الْعَظِيمَةِ فَإِنَّهُ ﷺ لَا يَرْقَى عَنْ دَرَجَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَلَا يَجُوزُ دَعَاؤُهُ وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِ مِنْ دُونِ اللهِ عِزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الْكَهْفُ: ١١٠]، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ».

=
وقد رجّح بعض أهل العلم تفضيل جبريل بناء على قولهم بتفضيل جنس الملائكة، والخلاف في المسألة قديم، وتوقف آخرون، ومن توقف العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ كما في لقاءات الباب المفتوح (١١/٥٣) بحجة أنه لم يرد نص أن النبي ﷺ أفضل الخلق مطلقاً في كل شيء.

ومسألة التفضيل بين جنس الملائكة وصالحى البشر مشهورة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الصواعق (٣/ ١٠٠٢): «إنَّ الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحى البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نوراً، ومادة البشر تراباً»، وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في فتاوى نور على الدرب (٨/ ٦): «المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم.. والقول الراجح: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإن الله سبحانه وتعالى يؤدّي لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم يدخلون عليهم من كل باب يهتئونهم: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل؛ لأنهم خلقوا من نور، وجبلوا على طاعة الله عز وجل والقوة عليها، كما قال الله تعالى في الملائكة ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَكِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [سَبْحُونَ: ١٩] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠-١٩] هذا هو القول الفصل في هذه المسألة».

ولقد أحسن ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ حينما ذكر ذلك النص بزيادة «من» في نقله عن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للطحاوية. وقد شرح أكثر أبوابها من كتب ابن تيمية وابن القيم مع إبهام اسميهما حتى يروج علمهما في وقت كانت كتبهما تحرق وتُحارب، وهذا من

=

فقيهه ونصحہ رَحْمَةُ اللَّهِ - فقال في (١ / ١٦٧): «من أشرف الذوات». ولعلها كانت في الأصل المخطوط لابن القيم فأسقط الناسخ «من». والله أعلم. وقال الحوالي في شرحه للطحاوية (١ / ١٤٩٤-١٤٩٦): «جبريل عليه السّلام مادة كل خير من جهة أنه رسول الله تبارك وتعالى الملكي إلى رسله من البشر، ولهذا كان التمثيل بجبريل عليه السّلام، ولم يكن التمثيل بمحمّد ﷺ؛ لأن جبريل هو الذي بلغ الوحي إلى محمّد ﷺ، وكذلك بلغه إلى موسى وإلى عيسى وإلى من قبله.

حتى إن ورقة بن نوفل لما جاءته خديجة وأخبرته بشأن النبي ﷺ قال: «هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى» ولهذا قال اليهود: إن عدوهم هو جبريل، قالوا: يا محمّد من الذي يتنزل عليك بالوحي؟ قال: «جبريل عليه السّلام» قالوا: ذاك عدونا من الملائكة. (حديث حسن، رواه أحمد (٢٥١٤) والنسائي (٩٠٢٤) وغيرهما). - عيادًا بالله. ولهذا قال الله تعالى فيهم في سورة البقرة: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فهذا يدل على أن اليهود من جنس إبليس عيادًا بالله، من نفس المادة - مادة الشر - بل الله تبارك وتعالى سمى اليهود شياطين، كما سمى الشيطان شيطانًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، أي: إذا خلى المنافقون إلى اليهود قالوا: إنا معكم، فهم شياطينهم؛ لأن الشيطان يمد الإنسان بالشهوات والشبهات، واليهود أيضًا يمدون الإنسانية بالشهوات والشبهات، فانتشار القمار، والزنا، والربا في كل مكان وفي كل عصر على أيدي هؤلاء.

فكانوا يأتون إلى المنافقين ويقولون: نبيكم محمّد فيه كذا وكذا؛ لأنهم يعتبرون أن عندهم علم من الكتاب وأولئك أميون، فالمنافقون إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى اليهود، أي: ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

=

=

فالغرض من ذلك هو دقة تعبير المُصنّف رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا قَالَ: «التي هي من أشرف الذوات» فلم يقل: «جبريل أشرف الذوات»، حتى لا يُفهم أنه يقول: إن ذات جبريل أفضل من ذات مُحَمَّدٍ ﷺ، لأن العلماء اختلفوا، هل هذا أفضل أو هذا أو هما سواء، وليس هذا مراد المُصنّف هنا، وإنما مراده أن يخرج من الخلاف. فيقول لك: إن أصل مادة الشر هو إبليس، وأصل مادة كل خير هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأن ما جَاءَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ من الخير والرسالة هو عن طريق جبريل، وكذلك كل ما أتى جميع الأنبياء هو عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، قال: «فتبارك خالق هذا وهذا»، فتبارك الله الذي خلق أصل كل شرٍّ وخلق أصل كل خير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هكذا اقتضت حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ يقول: «كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار» كيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا النهار سرمدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وكيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا الليل سرمدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ لا تصلح الحياة، لكن الله جعل الليل وجعل النهار، فاستقامت الحياة والمصالح، وانتظمت أمور العباد، وهذا دليل على حكمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى في خلق هذين الضدين الدواء والداء. فلو كانت الدنيا كلها أدواء لما صلحت الحياة، ولو كانت كلها دواء، أو لا مرض فيها ولا داء، فإنها تفوت حكم عظمة، لكن حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أنها أدواء ومعها الدواء، ولذلك انتظمت مصالح ومعاش كثيرة لأناس كثير، فمرض هذا نفع لذلك، فإن كَانَ الذي مرض بالداء شَرِيرًا، استراح الخلق من شره، وأما إذا كَانَ المريض طيبًا، فيستفيد الأطباء من ذلك، وأيضًا مساعدة هذا المريض والإحسان إليه يحصل بسبب ذلك الأجر من الله تعالى.

وكمثال آخر: أن الله يبتلي بعض عباده بالفقر مع أنه مكروه لذاته - فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكره أن يفقر عبده الصالح - لكن هناك حكم كثيرة وراء ذلك، فيبتليه ليرفع درجته، وكذلك الإحسان إليه يكون سببًا في تحصيل الأجر من الله.

=

=

وهكذا أمور كثيرة نجد أن لها حكماً عظيمة، يعجز العقل البشري عن حصرها، فتظهر بوجود هذه المتضادات المتقابلات، والله تَعَالَى هو العليم بكل شيء. قوله: «والحياة والموت»، وأيضاً الموت له حكم عظيمة، فإما أن يموت شرير فيستريح الخلق من شره، كما قال النبي ﷺ: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، رواه البخاري (٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) فلو كان فرعون وماركس وغيرهما - عياداً بالله - أحياء لما وجد الناس راحة في حياتهم، فيكفي أن الأمم والشعوب عانت من شرهم مدة حياتهم، فلما ماتوا استراح الناس من شرهم.

وكذلك موت الأخيار أيضاً فيه حكمة. فأفضل خلق الله مُحَمَّدٌ ﷺ، فله عزّ وجلّ حكمة في موت النبي ﷺ. ومنها: أنه بشر فلا يُعبد من دون الله ولا يؤلّه، وليقوم الناس من بعده بالدين، وليعلموا أن مسؤولية هذا الدين عليهم. ولهذا أعلنها الصديق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فقال: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت». وارتد من ارتد من العرب، وتبقى الصفوة المختارة المؤمنة لتردّ الناس إلى الدين، وهذه حكمة عظيمة جداً، عرفنا بها أنّ ديننا من مسؤوليتنا وأن نشره يكون على أيدينا، فالله تَعَالَى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكن حكمة الله اقتضت أن نبذل الجهد، فكم خرج من المسلمين، وكم قتل منهم في معارك الفرس والروم، وكم فُتح من البلاد، وأسلم بسبب ذلك أناس كثيرون. فكان في ذلك كثير من الحكم والمصالح، ومع ذلك فإن موته ﷺ مصيبة، فأعظم مصيبة حصلت في هذه الأمة فقدته ﷺ، ولا تعدلها أي مصيبة على الإطلاق، ومع ذلك فيها حكمة، بل حكم مما نعلم وما لا نعلم وهكذا». أه. وعلى ذكر موت الأخيار فقد روى الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في تاريخ الإسلام (٨٣١/٢) عن سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللهُ قال: «عَرَضْتُ عائشة على أبيها رؤيا - وكان من أعبّر الناس - قالت: رأيت ثلاثة أقمار وقعن في حجرتي. فقال: إن صدقت

كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر، وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابَلَ بعضها ببعض، وسلَّط بعضها على بعض، وجعلها محالَّ تصرّفه وتديّره وحكمته، فخلوَّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرّفه وتديّره مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار^(١) وشديد العقاب وسريع الحساب وذو البطش الشديد والخافض والمذل، فإن

=

رؤياك دُفن في بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قبض النبي ﷺ، قال: يا عائشة، هذا خير أقدارِك. صلى الله عليه وآله وسلم وبارك ورضي وأنعم.

(١) أسماء الله تعالى توقيفية، فلا يثبت منها شيء إلا بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة. علمًا أن باب الإخبار عن الله تعالى أوسع من باب الأسماء والصفات، فإذا لم يثبت الاسم وكان معناه صحيحًا فيجوز حينها الإخبار به عن الله تعالى، وعلى ذلك فلا يُعبد بهذا الاسم، فلا يقال: عبد النافع وعبد الضار ونحوهما لأن التسمية بهما لم تثبت، والمنع من التسمية بعبد النافع ونحوه لا لأنه يوهم نقصًا، ولكن لأنه لم يثبت بالنص أنه من الأسماء الحسنى، أما التسمي بعبد الضار فلا يجوز بحال، وفيه سوء أدب مع الله تعالى وسوء ظن به عز وجل.

=

=

ولما كان الإخبار عن الله تعالى بأنه الضار فإنه قد يوهم نقصاً، فقد نص أهل العلم على أنه لا يُذكر إلا مقروناً بالإخبار عنه بأنه النافع، كما هو الحال في القابض الباسط والخافض الرافع والمعزّ المذل ونحوها.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي مجموع الفتاوى (١ / ٩٣) في تعليقه على حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦) مرفوعاً: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..»، الحديث. قال: «فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ولا يضر غيره». وقال شيخنا العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: «الضار ليس من أسماء الله تعالى، بل من أسمائه التي ورد ذكرها في بعض الروايات «النافع الضار»، يعني الكلمتان اسم واحد، فهو سبحانه النافع الضار؛ لأنه سبحانه هو خالق كل شيء، خالق الخير والشر». أه. ضمن جواب لسؤال في موقع طريق الإسلام. وقصد بالاسم الواحد الازدواج والتقابل، فهو اسم مركب من لفظين، فاسم الضار يكمله اسم النافع، واسم المانع يكمله اسم المعطي وهكذا، وهذا في الإخبار عن أفعاله تعالى، ويستقيم كذلك عند من صحّحوا الحديث في سرد الأسماء. وبنحوه قال شيخنا العثيمين كذلك في لقاءات الباب المفتوح، اللقاء رقم: (٦).

قلت: والحديث الذي عدّ النافع والضار من أسماء الله الحسنى رواه أبو هريرة رضي الله عنه وأخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وضعفه الألباني وآخرون من جهة رفع الأسماء الحسنى المسرودة. وقد ذهب جماعة من الحفاظ كابن كثير وابن حجر إلى أن سرد الأسماء الحسنى فيه مدرج في الحديث.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَأْصِيلاً نافِعاً في هذا الباب فقال في بدائع الفوائد (١ / ١٧٧): «أسماء الله تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً ومقترباً بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزیز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفرداً ومقترباً

=

هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلّقها. ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمّنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبّيده، فلو لا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء؛ لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(١).

=

بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حلّيم، يا غفور، يا رحيم. وأن يفرد كل اسم. وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الأفراد والجمع. ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع المتقم العفو المعزّ المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًا، وعفوًا وانتقامًا.

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تحيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه. فلو قلت: يا مذلّ يا ضارّ يا مانع، وأخبرت بذلك؛ لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابله.

(١) مسلم ٩٤/٨ (٢٧٤٩) (١١)

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به. فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له؛ لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقها، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شرٌّ من حصول تلك الأسباب. فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر؛ لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب. وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعافُ أضعافٍ ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لثلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين؛ لتعطلت هذه العبودية وتوابعها

من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم، فلو عَطَلَت الأسباب التي يُتَاب منها؛ لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها^(١).

ومنها: عبودية مخالفة عدوّه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه، وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحبُّ من وليّه أن يغيظَ عدوّه ويراغمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس^(٢).

(١) لا يخلو مؤمن من الحاجة للاستغفار على الدوام، وسيّد المستغفرين صلى الله عليهم وسلم كان دائم الاستغفار، وهو من قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وفي المسند (٤٧٢٦) بسند على شرط الشيخين عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنْ كُنَّا لَنَعْدُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الْغَفُورُ» مِئَةَ مَرَّةٍ. فَالاستغفار مرهم للروح، وتنظيف للصحيفة، وحفظ للعهد مع الله تعالى. فلكل مؤمن فاقة وحاجة دائمة للاستغفار والتوبة، لأنه لا يخلو من تقصير في واجب أو زلة لمحرّم. وكثير من الناس يتحرّز من كبائر ذنوب الجوارح ويغفل عن كبائر ذنوب القلب، كالكبر والحسد ونحو ذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرِ الْأَيْمِ وَبَاطِنَةُ﴾ [الأُنْعَام: ١٢٠]، والله المستعان.

(٢) الأكياس جمع كَيْس، والكَيْس: هو العقل والحزم.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة به من عدوه، وسؤاله أن يُجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة المملّكية إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته^(١).

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوّاً من أكبر أنواع العبودية وأجلّها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: ٦]، فاتخاذه عدوّاً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلّق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوّة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوّة إلى الفعل^(٢)، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من

(١) أي: مخالفة الشيطان لمتابعة رضا الرحمن.

(٢) القوّة: أي: الغريزة أو الصفة الخلقية، وهي كامنة في معدن المكلف، واستخراجها هو الفعل، فهي لا تكفي للثواب أو المؤاخذه ما لم تخرج إلى الفعل قولاً أو عملاً أو نيّة. فأصل وجودها هو القوّة، وحركتها هو الفعل.

الخير الكامن فيها لتترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر لتترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق^(١).

=

والمقصود؛ أن غريزة الشر كانت موجودة في نفوسهم، فكان الشيطان سبباً لأن تتحرك هذه الغريزة الشريرة فتستيقظ من سباتها وتتحرك من سكونها بمباشرة أسباب شرها فتظهر على القلب واللسان والجوارح بعدما كانت مجرد غريزة كامنة ساكنة، كمثل الكبريت الذي يشتعل بحكه بمادة مهيجة له.

وكذلك الحال في ضد ذلك من الخير ونُقلته من السكون والكمون إلى الحركة من الاعتقاد الحسن والقول الكريم والفعل الجميل، ومن هنا جاء الأدب الشرعي بصون النفس عن ذرائع الخطايا ومقدمات الذنوب، والحذر خطوات الشيطان، والبعد عن كل سبب يورد مهلكة في الدين وعطياً في الامتثال، فلا يزال المرء في عافية حتى مع أزيز خواطره وحسيس أفكاره وحسيس شهواته - ما لم يتكلم أو يفعل أو يعزم ما دام مجاهداً نفسه لله تعالى في دفعها - ومن حَزَمَ المؤمن وفطنته وتوفيقه ابتعاده عن مواطن الفتن حفظاً لسلامة دينة من لوث شبهة أو نجس شهوة محرمة، والله المستعان.

(١) فعِلْمُ الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل، فإذا وقع الأمر في الحاضر صار مُصَدِّقاً لعلمه الماضي، كما أن ما أخبر به في الماضي عن المستقبل يُصَدِّقُهُ ما يحدث في الحاضر. فعلمه محيط بكل شيء، بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا تخفى عليه خافية، تبارك وتعالى وتقدس، وقد أحسنَ حملة العرش ومن حوله إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧].

وإنَّ من محبة الله تعالى للعذر أنه لم يكتف بعلمه السابق الغيبي ليعذب أعداءه، ولو عذبهم اكتفاءً بسابق علمه بهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن الحَكَمَ العدل سبحانه

=

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قَالَ إِنَّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [البقرة : ٣٠] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحِكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية

=

أقام عليهم الحجة وبين لهم المحجة، حتى إذا خالفوا أمره في الشهادة جعلهم حينها مستحقين لعذابه، فالله تعالى يحب العذر، بل لا أحد أحب إليه العذر منه، كما روى مسلم (٦٨٢١) رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»، وقال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] .

وعن ابن الديلمى، قال: لقيت أبي بن كعب، فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدثني بشيء، لعله يذهب من قلبي. قال: «لو أن الله عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتُ جَبَلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تَوْثِقَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُئِكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبِكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ». قال: فأتيت حذيفة، فقال لي مثل ذلك، وأتيت ابن مسعود، فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت، فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك. رواه أحمد (٢١٥٨٩) وقوى سنده محققوه، وأبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٨ - ٩] فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلًا بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضًا، هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة والحكمة النامة والملك الكامل، وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيقٌ لذلك الكمال وموجب من موجباته، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة؛ فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيتته أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل، إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه^(١)، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تُفضي إليه من الحكم؛ فهل تكون مرضيةً محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟

قلت: هذا السؤال يورد على وجهين أحدهما: من جهة الرب سبحانه وتعالى، وهل يكون مُحِبًّا لها من جهة إفضائها إلى محبوه وإن كان يبغضها لذاتها، والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضًا. فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشرّ كله يرجع إلى العَدَم^(٢)، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شرّ، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشرّ بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أُعِينت

(١) الملزوم هو النتيجة، واللازم هو الوسيلة، من باب: الموجود المفعول والمؤجد الفاعل. وبنحوه القضاء والمقضي وهكذا.

(٢) وتأمل هذه الأحرف النفيسة، فإن فيها كشفٌ لكثير من مشكلات المعضلات، وثلجٌ يقين يبدد تساؤلات النفوس، وضياءٌ علمٍ لظلامٍ حيرتها في قضايا القدر والحكم والتعليل والخير والشرّ، وقد بسط ابن القيم ذلك وشفى وكفى في سفره السمين الثمين الماتع الرائع «شفاء العليل».

بالعلم وإلهام الخير^(١) تحركت، وإن تُركت^(٢) تحركت بطبعها إلى خلافه. وحركتها من حيث هي حركة خير، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هي حركة^(٣).

والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية. ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيراً في نفسها وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي

- (١) أي: العلم الذي يدفع الجهل، أما إلهام الخير فهو إرادته والعزم الجازم لتحصيله.
- (٢) وهذا من الأدب مع الله تعالى، وهذا شأن العلماء الربانيين الراسخين، ومنه قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر، وتدبر فاتحة الكتاب: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، حيث أسند النعمة إليه مباشرة بخلاف غيرها، وتأمل الأدب الإبراهيمي مع ربنا سبحانه في قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [٨٠] [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] فنسب الهداية والإطعام لله، ولم ينسب المرض أدباً وإجلالاً وتوقيراً.
- (٣) معنى كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ خَلَقَ إِبْلِيسَ - وَغَيْرَهُ مِنَ الْكُفْرَةِ - لَيْسَ شَرًّا فِي الْأَصْلِ، لَكِنْ لَمَّا قُطِعَ عَنْهُ الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ بِإِلْهَامِ الْخَيْرِ تَحَرَّكَ بِطَبْعِهِ لِلشَّرِّ، وَمِنْ هُنَا تُسَبِّبُ الشَّرُّ لَهُ وَلَطَبْعُهُ الشَّرِيرَ، لِأَنَّ قُطْعَ مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهُ عَدَمٌ لَا وَجُودَ لَهُ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ أَصْلًا؛ فَلَا يُنْسَبُ لِلرَّحْمَنِ، مَعَ أَنَّ إِرَادَتَهُ وَفَعْلَهُ وَحَرَكَتَهُ وَمَعْصِيَتَهُ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ. هَذَا مِنْ جِهَةِ شَرِّهِ هُوَ، أَمَّا مِنْ جِهَةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ وَقُطْعِ مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهُ وَجَعْلِهِ سَبَبًا لِلْمَعَاصِي فَهُوَ خَيْرٌ بِالنِّسْبَةِ لِفَعْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ لَمَّا أَفْضَى ذَلِكَ لِحُكْمٍ كَبِيرَةٍ كَثِيرَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

حلّت به لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرّاً بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه.

فإنه سبحانه لا يخلق شرّاً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإنّ حكمته تأبى ذلك، بل قد يكون ذلك المخلوق شرّاً ومفسدة ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات آخر أرجح من اعتبارات مفسده، بل الواقع منحصر في ذلك، فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرّاً، فتأمّله. فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيّر شرّاً^(١).

(١) أي: أنا إذا نظرنا للشر المعين كالمعصية مثلاً كشرب الخمر أو قتل النفس المعصومة ونحو ذلك فينبغي أن يكون لنظرنا جهتان: الأولى: من جهة أن هذا الأمر مقدّر بقدر الله فهو خير، فالله لا يُقدّر إلا لحكمة إلهية ربانية فله تعالى فيه حكمة، سواء علمناها أو لم نعلمها. والثانية: من جهة أن العبد عصى الله تعالى وانتهك حرمة وخالف أمره فهو شر. وبالجملة فأقدار الله خير، ومعاصي العبيد شر.

واعلم أنّ الفعل غير المفعول، والفعل راجع إلى الله فهو كالصفة له، أما المفعول فهو الأثر عن الفعل، فخلق السماء مثلاً له جهتان: فعل ومفعول، والفعل هو خلق الله تعالى لها وإيجادها، أما المفعول فهي السماء ذاتها، فله تعالى أفعال ومفعولات فليس هذا هو ذاك، وقس على ذلك كالقضاء والمقضي، فالقضاء أمره وقدره، والمقضي هو الأثر لذلك

=

فإن قلت: لم تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشية؟

قلت: هو من هذه الجهة ليس بشرّ، فإنّ وجوده هو المنسوب إليه، فهو من هذه الجهة ليس بشرّ، والشرّ الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد. فهذه هي الخيرات وأسبابها، فإيجاد السبب خير وهو إلى الله، وإعداده خير وهو إليه أيضًا، وإمداده خير وهو إليه أيضًا. فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشرّ^(١) بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده.

فإن قلت: فهلا أمدّه إذ أوجده؟

قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجده ويمدّه، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته ولم يمدّه بحكمته. فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

=

القضاء ملائمًا كان أو غير ملائم، فيجب أن ترضى بالقضاء لأنه أمره ويستحب أن ترضى بالمقضي لأنه خلقه. وبالله التوفيق.

(١) أي: خلى الله بينه وبين الشرّ إذ لم يمدّه بالخير ويوفّقه له.

فإن قلت: فهلاً أمدّ الموجودات كلها؟

قلت: فهذا سؤال فاسد، يظن مُورِدُه أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت^(١)، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت. فإن اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعْهُ وجاوزه إلى ما تستطيعُ

كما ذكر أن الأصمعي اجتمع بالخليل بن أحمد وحرص على فهم العروض منه فأعياه ذلك، فقال له الخليل يوماً: قطعْ لي هذا البيت وأنشده: إذا لم تستطع شيئاً.. البيت. ففهم ما أراد^(٢)، فأمسك عنه ولم يشتغل به.

(١) التفاوت: هو التباين وعدم التناسب. ومقصود المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ الحكمة أنها تكون في تناسب الاختلاف، وليس اتّحاد الموجودات على نمط واحد مكرور، فمخلوقات الله تعالى متناسبة متّسقة، واختلافها فيما بينها هو عين الحكمة؛ ليحصل التدافع والتمايز والتكامل والانفعال فيما بينها ونحو ذلك، فكل خلق الله تعالى تامّ كامل لا قصور فيه ولا نقص في أصل الخلقة، وهذا هو الإيجاد، أما تفاوتها فيما بينها ما بين كمال ونقص فهو عائد إلى عدم إمداده بالتوفيق، وهذا العدم عدم، والعدم ليس بشيء، ولا ينسب لأحد، لأنه عدمٌ لا وجود.

(٢) وهذا من لباقة الخليل بن أحمد وحسن خلقه ولطف تأتّيه ولودعيّة قريحته. مع التنبيه إلى أن الأصمعي رَحْمَةُ اللَّهِ إمام في علوم كثيرة منها اللسان والأدب والشعر، ولكنَّ شأن

وسرّ المسألة: أن الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها. بل حقيقة العبودية: أن يوافق عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به، ويسخط منها ما سخطه.

فإن قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة، فكيف يمكن العبد أن يرضى بعقوبته له؟

قيل: لو وافقه في رضاه بعقوبته؛ لانقلبت لذة وسرورًا، ولكن لا يقع منه ذلك، فإنه لم يوافق في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرة العين وحياة القلب، فكيف يوافق في محبته للعقوبة التي هي أكره شيء إليه وأشق شيء عليه؟! فإنه لما كان كارهاً لما يحبه من طاعته وتوحيده فلن يكون راضياً بما يختاره من عقوبته.

=

تيسير بعض العلوم لأنواع العقول مدهش عجيب، وسبحان الله وبحمده، سبحانه الله العظيم. وقد ذكروا أنّ أبا سعيد الضرير قال لأبي تمام: يا أبا تمام، لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له: يا أبا سعيد، لم لا تفهم ما يُقال؟ وقد نظم المتنبي نحو هذا المعنى فقال:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذان منه على قدر القرائح والعلوم

فإن قلت: فكيف يجتمع الرضا بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته؟

قلت: لا تنافي في ذلك، فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يجب، ويكرهه من جهة تألمه به، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به وكراهته له.

فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضى بها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ومفوّتاً لمصلحة راجحة^(١).

(١) ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ رجلاً من الصالحين كان يلجّ على الله تعالى زمناً أن يجعله غازياً في سبيله، ولا يرى إجابة! فبات ليلة مهموماً وأتاه آت في منامه وقال له: «أي فلان؛ إنك إن غزوت أسرت، وإن أسرت تنصرت!». أھ. صيد الخاطر (١٧١/١) وفي موسوعة ابن أبي الدنيا (٤٣٣/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الرجل ليُشرف على الأمر من التجارة أو الإمارة، حتى يرى أنه قد قدّر عليه، ذكره الله فوق سبع سموات، فيقول للملك: «اذهب فاصرف عن عبدي هذا، فإنّي إن أيسره له أدخله جهنّم»، فيجيء الملك فيعوقه فيُصرف عنه، فيظّل يتطير بجيرانه إنه دهاني فلان، سبقني فلان، وما صرّفه عنه إلا الله». وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «استخبروا الله ولا تحيّرُوا عليه، فكم من عبد تحيّر لنفسه أمراً كان هلاكه فيه! أما رأيتموه سأل ربّه طرُسوس، فأعطِيها فأسّر فصار نصراًنيّاً». ذكره في عيون الأخبار (٧٣١/٢).

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٧].

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسوله للغزو وهو طاعة وقربة وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبَّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاصل التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً وشرّاً ﴿وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ﴾ أي: سعوا فيما بينكم بالفساد والشر، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾

=

وطرسوس: بلد بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، وكان المجاهدون والزهاد والصالحون يقصدونه للمرابطة في سبيل الله تعالى لأنه من ثغور المسلمين.

وَرُبَّ مُلْحٍ عَلَى بُغْيَةٍ وفيها مَنِّيَّته لو شَعَرَ

فالله أرحم بعبده وأعلم وأحكم وأبَرُّ وألطف وأرفق سبحانه وبحمده. وفي مسألة الإجابة ثم قضية غاية في الأهمية: وهي أن إجابة الدعاء غير تحقيق الطلب وتحقيق عين السؤال. فالله وكيل على عبده وليس وكيلاً عنه، وبينهما فرق، فالوكيل عنك هو من ينقذ طلبك كما طلبته، أما الوكيل عليك فهو القائم عليك بما يصلحك، فإن طلبته وسألته نظر لمصلحتك أولاً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢]

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]. بل تدبر قوله تعالى في المصيبة:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]، فقال: ﴿لَنَا﴾ ولم يقل: (علينا)

لأن مصائب الدنيا في حقيقتها نعم لنا لا علينا لو كنا نعقل، والله المستعان.

[التَّوْبَةُ : ٤٧] أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشرّ ما هو أعظم من مصلحة خروجهم؛ فاقترضت الحكمة والرحمة أن مَنَعَهُم من الخروج وأقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب وقس عليه.

فإن قلت: قد يتصور لي هذا في رضا الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق؟

قلت: وهو متصوّر ممكن، بل واقع، فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيتته وإذنه الكوني فيه، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه^(١)، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان^(٢)، وطائفة أخرى رأوا كراهة ذلك مطلقاً وعدم الرضا به من كل وجه. وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك، فإن العبد إذا كرهها مطلقاً؛ فإن الكراهة إنما تقع على الاعتبار المكروه منها، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيتته وإلزامه حكمه الكوني، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وأبغضها لأجله. وسرّ المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط.

(١) أي: من نفس العبد.

(٢) أي: أهل المعرفة ممن اهتموا باستقامة السلوك وصفاء النفوس، واعتنوا كثيراً بأعمال القلوب حتى عرفوا بذلك.

فإن قلت: ليس إلى العبد شيء منها.

قلت: هذا هو الجبر^(١) الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق. والقدرى أقرب إلى التخلص منه من الجبري. وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين.

فإن قلت: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشية النافذة؟

قلت: هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشية والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك! وقيل:

(١) الجبري: هو الذي يزعم أن العبد لا اختيار له البتة في أفعاله وأقواله وإراداته، بل هو كالريشة في مهب الريح، وعلى هذا المذهب الباطل فالعبد عندهم غير مؤاخذ؛ لأنه في النهاية ليس بفعله على الحقيقة.

ويقابله القدرى: وهو الذي يزعم أن العبد يخلق فعل نفسه، فيضع نفسه خالقًا مع الله - تعالى الله وتقدس - لذلك وُصفوا بأنهم مجوس الأمة؛ لقولهم بالخالقين.

وكلاهما مذهب خبيث باطل، والحق أن الله خالق كل شيء، وأنه لا شيء يخرج عن قدر الله تعالى، وأن الله تعالى قد أعطى العبد قُدرة ومشية واختيارًا يحسّه من نفسه ويطبقه بقدرته ويفهمه بعقله، وهذا الاختيار الإرادي للعبد كافٍ وافٍ لأن يحاسبه ربه به على أفعاله وأعماله ومقاصده حسنة كانت أو سيئة، وهو لا يخرج بحال عن قدر الله تعالى. قال سبحانه: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ۝﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

أصبحتُ منفعلاً لما تختارُهُ منّي ففعلتُ كلّه طاعات
وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية،
فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشئّة، ولو كانت موافقة القدر
طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله، وكان قوم نوح وعاد وشمود
وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له! فيكون قد عذبهم أشدّ العذاب على
طاعته، وانتقم منهم لأجلها، وهذا غاية الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته
وأفعاله.

فإن قلت: ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة، وبين مشهد القيومية
والحكمة.

قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه
وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين؛ كان بالله في هذه الحال لا
بنفسه. فوقع الذنب منه لا يتأتّى في هذه الحال البتّة، فإنّ عليه حصناً حصيناً
من: «فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي»^(١).

(١) حديث الولي: «من عادى لي ولياً..» الحديث. رواه البخاري (٦٥٠٢) أما زيادة: «فبي
يسمع..» الحديث. فليست في البخاري، وقد ذكرها الحافظ في الفتح (١١ / ٣٤٤) نقلاً
عن الطوفي، ولم يعزها لأحد. وقد ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الحديث بزيادته في الفتاوى
(١٨ / ١٢٩ - ١٣١) ولعله وهم في الزيادة، أو أنه قد وقف على رواية أخرى، ثم قال:
«هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء».

فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال. فإذا حُجب عن هذا المشهد وسقط إلى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه؛ استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك وشرك من تلك الأشراك، وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه، فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المقتضي ويضعف المانع وتشتد الظلمة وتضعف القوى، فأنتى له بالخلاص من تلك الأشراك والشبّاك. فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي، وإنجاب ظلامه، وزال قتامه، وصرت بربك ذاهباً عن نفسك وطبعك:

بدالك سرُّ طالَ عنكَ اكتتائُهُ ولاح صباح كان منك ظلامُهُ
فإن غبتَ عنه حلَّ فيه وطنبتُ على منكِبِ الكشفِ المصونِ خيامُهُ
فأنتَ حجابُ القلبِ عن سرِّ غيبِهِ ولولاكَ لم يُطبعْ عليه ختامُهُ
وجاء حديثٌ لا يَمَلُّ سماعُهُ شهيقٌ إلينا نثرُهُ ونظامُهُ
إذا ذكّرتهُ النفسُ زال عناؤها وزالَ عن القلبِ المعنى قتامُهُ^(١)

(١) الأبيات لأبي حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، وقيل: إنها للحلاج وقيل: غيرهما، وقد نسبها العماد الأصبهاني في خريدة القصر وجريدة العصر (٤٣٦ / ٢) للقاضي المرتضى الشهرزوري. ومقصود الأبيات أنه مع العلم النافع الذي يصفّي النفس من كدر الدنيا ومتعلقاتها وشهواتها وشبهاتها؛ تنكشف للقلب معانٍ جميلة من الأئس بالله تعالى

فهناك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية بنفسه محجوبًا فيها عن ربه وعن طاعته، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه. وإذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه، وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق»^(١).

وهذه الأحرف من ابن القيم كافية شافية في هذا الباب الشائك والمورد الشديد والمعتك الصعب والميدان المزدحم، ومجملها - بحمد الله تعالى - معلوم ظاهر لمن تدبر القرآن العظيم والسنة الشريفة، وسَلِمَ من شبه المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَتَذَكَّرُوا الْأَحْبَابَ عِنْدَ دُعَائِكُمْ فَالْحُبُّ بَيْنَ الصَّادِقِينَ دُعَاءُ



=
والشوق إليه والتعلق به والاكتفاء به عما سواه، وأشرقت في نواحي نفسه وجوانح قلبه تلك المعاني الطاهرة الجميلة النافعة.

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٩١ - ٢٠٤) باختصار.

«فحجّ آدمُ موسى»

الراضي بالله تعالى لا يتردد في قبول ماء الوحي الطهور، فيغسل به قلبه، ويشرح به صدره، ويستضيء بنوره، ويستترشد بهداه، ويُحْكِمُ به عقله. هذه جادة أهل الإيمان والتوفيق والسداد.

وقد يُبتلى المؤمن بطائف من وسواس شيطاني يُعكّر عليه شيئاً من صفائه، ويشوّش عليه بعضاً من جمعيّة قلبه على ربه، ومن بركات الوحي الشريف أن يذهب هذا الوسواس، فما إن يقترب من حمى الصدر حتى يضمحلّ ويتبخر دون أسوار العلم المبنية بالدلائل المرفوعة بالبراهين المحروسة بتوفيق مَنْ وَعَدَ - ووعد الحق -: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه : ١٢٣]، لا يضل هنا ولا يشقى هناك، فله الحمد كما ينبغي له.

ومن ذلك ما قد يختلج في قلوب بعض الأخيار من ترددٍ في فهم الحاجة الشهيرة بين النبيين الكريمين آدم وموسى عليهما السلام، مع أنها واضحة كالشمس لمن تأملها سالماً من لوثات أهل البدع ابتداءً. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على تلك القصة من احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت! فقال آدم لموسى: أنت الذي كلّمك الله، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فهل تجده مكتوباً عليّ قبل أن أُخلق؟

قال: نعم، قال: فحجّ آدمُ موسى، عليهما السلام»^(١): «ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة، فقال له: لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبًا وتاب منه، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يُلام وقد تاب منه أيضًا، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعائب.

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم^(٢).

فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل؛ صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي؛ فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم؛ ذكر لهم القدر»^(٣).

(١) البخاري ٦/١٢٠ (٤٧٣٦) ومسلم ٨/٥١ (٦٨٤١).

(٢) وروي هذا الحرف عن علقمة وهو من خاصة ابن مسعود، وفيما يظهر أنه أخذه منه.

(٣) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١ / ٧٨)

ومقصده رَحْمَةُ اللَّهِ: أنه يحقّ لوألدهم أن يحتج بالقدر على مصيبة الفقر، وليس له أن يحتج بالقدر على ذنبه، بناء على قصة احتجاج النبيين الكريمين عليهما السلام، كما أن ولد هذا الفقير إن لاموه وقد تاب فإنه لا يُشرع لهم لومه على ذنب قد تاب منه، وظهرت أمارات صدق توبته، ولكن قد يكون لهم بعض ملام على المصيبة التي تسبب بها باختياره وإضاعته وفعله وتفريطه وهي الفقر، وإن كان الأفضل لهم ترك ذلك الملام لأنه القدر، وقدر الله ماضٍ، وقضاؤه نافذ، ومن الضياع مدافعة قدر قد مضى وانقضى.

ولم يكن رسول الله ﷺ يلوم على الأقدار، وقال عنه خادمه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد ذكر خدمته له -: «فما قال لي شيء فعلته: لم فعلت كذا وكذا، وما قال لي شيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا»^(١).

وإنما تُشرع مدافعة القدر في المستقبل - وإن كان هذا لا يغيّر ما في اللوح المحفوظ، ولكن مما دُوّنَه كصحف الملائكة ونحوها، والذي يقع آخرًا هو ما دُوّن في اللوح المحفوظ - فدفعُ القدر بالقدر شريعة ماضية، وجادة رسولية، فمن قدر الأقدار هو من شرع لنا دفعها بأقدار مقابلة، وقد أتاح لنا مدافعتها وفق شرعه، فتبطش الجوارح بالأسباب المانعة والرافعة والجالبة بإذن مسببها تبارك وتعالى، ويتعلّق القلب بالله تعالى وحده ويتوكّل عليه ويرضا به وبأقداره حيثما توجّهت به، وأحاطت به، ونزلت عليه، فإن وُفق لدرك مقصوده حمّد الله وشكر وصبر على أداء حق شكره قدر طاقته، وإن كانت

(١) أحمد (١٢٧٨٤) والبُخاري ١٧/٨ (٦٠٣٨) ومسلم ٧٣/٧ (٦٠٧٧).

الأخرى صبر ورضي وحمد وشكر كذلك، لأن الله لا يختار لعبده الصادق إلا ما فيه خيرته وصلاحه في عاقبته، وكل قضاء الله تعالى لعبده خير. فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصَحَبْتُ، عَلَى مَا أَحَبُّ، أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ، لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ فِيمَا أَحَبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ»^(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - وتأمل هذا الحرف - قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَسْتَخِيرَ اللَّهَ فَيَخْتَارَ لَهُ، فَيَتَسَخَّطُ عَلَى رَبِّهِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعَاقِبَةِ، فَإِذَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ»^(٤).

وكلُّ قدر يكرهه العبد ولا يُلائمه لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به الممرض

(١) أحمد في مسنده (٥ / ٢٤) وجود سنده شعيب الأرنؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (١ / ٤١٤).

(٤) موسوعة ابن أبي الدنيا (١ / ٤٣٢). وفي رواية: «فَإِذَا هُوَ قَدْ خَارَ لَهُ». أي: اختار له ما يصلحه.

إلى الهلاك وأفضى به للعطب. وإما أن يكون سبباً لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه^(١).

والرضا يُفرِّغ قلب العبد، ويُقلل همّه وغمّه، فيتفرَّغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا، خالي من همومها، سالي عن غموها^(٢).

ومن أمثلة مدافعة القدر بالقدر قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي عبيدة والصحابة رضي الله عنهم مع طاعون عمواس^(٣) في الشام وهم على مشارفِهِ، وقد اختلفوا هل يعودون للمدينة أم يدخلوا الشام، فنادى عمر في الناس بعد المشاورة: إني مُصبحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن

(١) وانظر: حياة السلف، للطيار (١/٤٥٧)

(٢) مدارج السالكين (٢/٥٠٧ - ٥١١) بتصرّف.

(٣) قال الزبيدي في تاج العروس (١٦/٢٨٦): عمواس: هكذا قيده غير واحد، وهو بسكون الميم، وأورده الجوهري في «عمس» وقال: طاعون عمواس أول طاعون كان في الإسلام بالشام، ولم يزد على ذلك، وفي «العباب» عمواس: كورة من فلسطين، وأصحاب الحديث يحركون الميم، وإليه ينسب الطاعون، ويضاف فيقال: طاعون عمواس، وكان هذا الطاعون في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سنة ثمان عشرة، ومات فيه جماعة من الصحابة، قال: وقرأت في «الروض» للسهيلي عن أبي إسحاق أن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات في طاعون عمواس، قال: هكذا مقيد في النسخة بسكون الميم، وقال البكري في كتاب «المعجم»: من أسماء البقاع «عمواس» محرّكة، وهي قرية بالشام، عرف الطاعون بها، لأنه منها بدأ، وقيل: إنها سمي طاعون عمواس لأنه عمّ وآس، أي جعل بعض الناس أسوة بعض. وانظر: معجم البلدان لياقوت (٤/١٥٧)، ولسان العرب مادة: «عمس» (٤/٣١٠٦).

الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها أبو عبيدة! - وكان عمر يكره خلافه - نعم نَفَرُ من قدر الله إلى قدر الله، رأيت لو كانت لك إبل، فهبطت واديًا له عَدُوتان^(١): إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيبًا في بعض حاجاته - فقال: إن عندي من هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فرارًا»، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف^(٢).

كذلك ما ورد في شأن فضل الدعاء، وأنه لا يردّ القضاء إلا الدعاء، وأن البلاء والدعاء يعتلجان بين السماء والأرض، وكذلك ما ورد في فضل صلة الرحم من زيادة الرزق والأجل وغير ذلك، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام أيضًا في قصة الحاجة بين آدم وموسى عليه السلام: «الصواب في قصة آدم وموسى: أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص، ولهذا قال: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»؟ ولم يقل: لماذا خالفت الأمر، ولماذا عصيت؟»

(١) العَدُوَّة: جانب الوادي.

(٢) البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣)، ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢).

والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التَّغَابُن: ١١].. فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة ألا ينظر إلى القدر، ولا يتحسّر بتقدير لا يفيد، ويقول: قدر الله وما شاء فعل. ولا يقول: لو أني فعلت لكان كذا، فيقدر ما لم يقع يتمنى أن لو كان وقع! فإن ذلك إنما يورث حسرة وحزنًا لا يفيد. والتسليم للقدر هو الذي ينفعه^(١)، كما قال بعضهم: الأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور، وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي.

فلو أن رجلاً أنفق ماله في المعاصي حتى مات ولم يُخلّف لولده مالاً، أو ظلم الناس بظلم صاروا لأجله ييغضون أولاده ويحرمونهم ما يعطونه لأمثالهم؛ لكان هذا مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب. فإذا قال أحدهم لأبيه: أنت فعلت بنا هذا. قيل للابن: هذا كان مقدورًا عليكم، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم، والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير، ملوم على ذلك لا يرتفع عنه ذم الله وعقابه بالقدر السابق؛ فإن كان الأب قد تاب توبة نصوحًا وتاب الله عليه وغفر له^(٢) لم يجز ذمه ولا لومه

(١) قال الإمام إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع عقلاء كل أمة أن من لم يجز مع القدر لم يتهنّ بعيشه». البداية والنهاية لابن كثير (١١ / ٧٩).

(٢) ووجه الشاهد بالعلم بتوبة الله هنا أن الله تعالى أخبرنا بتوبته على آدم عليه السلام.

بحال، لا من جهة حقّ الله؛ فإنّ الله قد غفر له، ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله، إذ لم يكن هو ظالمًا لأولئك، فإن تلك كانت مقدّرة عليهم.

وهذا مثال قصة آدم: فإن آدم لم يظلم أولاده، بل إنّها وُلدوا بعد هبوطه من الجنة، وإنّما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال: إنّ ذنبهما تعدّى إلى ولدهما^(١). ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد، فلم يكن آدم قد

(١) وهذه المسلّمة الواضحة واليقينية القطعية قد عكسها النصارى الضالون فبنوا عقيدتهم عليها، فقالوا بالخطيئة الأزلية والفداء الإلهي، ويعنون أن آدم عصى ربه فكتب الهلاك عليه وعلى ذريته كلهم، وأن كل ذريته خطأً هالكون بسبب خطيئة والدهم الأزلية! لكن الرب (ويسمونه الأب والآب تعالى وتقدس سبحانه) ويزعمون أن الله تعالى ابنًا بزعمهم وظلمهم وشناعتهم وضلالتهم، تعالى الله أن يكون له صاحبة ولا ولد ولا شريك، وأنه افتدا خطيئة آدم الأزلية بإهباط ابنه ووحيده عيسى (ويسمونه الابن ويسوع وجيسس) وأنه سلّمه لأعدائه اليهود الذين صلبوه على الخشبة، وطعنوه بالرمح، وتركه لهم ليقتلوه، فهو بزعمهم قد قتل ابنه شفقة على بني آدم، فافتدى من ليس لهم ذنب بمن ليس له ذنب على ذنب قد تاب منه صاحبه!

ويعتقدون أنّ من آمن بهذا المعتقد (الوثني الضال) فهو مع الإله الابن في ملكوت الجنة، ومن كفر به كان من الكافرين الهالكين. وقالوا بالتثليث وهو ما يسمونه بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، وأن كل واحد منها إله مستقل بذاته وفي نفس الوقت فكلها مظاهر إله واحد! تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً. إلى آخر استجرار الشيطان لهم، فصار الضلال طابعهم إلى يوم الدين، حتى ينزل المسيح عليه السلام فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، ويرأى الله تعالى من كل

ظلم أولاده ظلمًا يستحقون به ملامه. وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمرٌ كان مقدّرًا عليهم لا يستحقون به لوم آدم، وذنوب آدم كان قد تاب منه، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۝﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وقال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] فلم يبق مستحقًا لدم ولا عقاب.

وموسى كان أعلم من أن يلومه لحق الله على ذنب قد علم أنه تاب منه، فموسى أيضًا قد تاب من ذنب عمله، وقد قال موسى: ﴿أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وآدم أعلم من أن يحتاج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه، فكيف وقد علم أن إبليس قد لعنه الله بسبب ذنبه، وهو أيضًا كان مقدّرًا عليه، وآدم قد تاب من الذنب واستغفر، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له عند ربه لاحتج ولم يتب ويستغفر.

وأيضًا فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له؛ فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض؟ فإن قيل: هو قد تاب، فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عملٌ صالح يعملُه فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

=

من عبده وأشركه مع الله تعالى. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت سل ربنا بالحق. ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ [الإخلاص: ١-٤]. وللمزيد انظر سلسلة: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ للمؤلف.

رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٨٩]، في التائب من الردة، وقال في كاتم العلم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة : ١٦٠] وقال: ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الْأَنْعَام : ٥٤] وقال في القذف: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٨٩].

ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر رسول الله ﷺ المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة، وقال النبي ﷺ في الغامدية لما رجما: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، وهل وَجَدْتُ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ» (١). وقد أخبر الله عن توبته على بني إسرائيل حيث قال لهم موسى: ﴿يَقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البَقَرَة : ٥٤].

وإذا كان الله تعالى قد يتلى العبد بالحسنات والسيئات والسرّاء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره، أم كفره وجزعه، وطاعته أم معصيته؛ فالتائب أحق بالابتلاء. فآدم أهبط إلى الأرض ابتلاء له، ووقفه الله في هبوطه لطاعته، فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط، وهذا بخلاف ما لو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له، فإنه لا يكون عليه ملام البتّة، ولا هناك توبة تقتضي أن يُتلى صاحبها ببلاء.

(١) مسلم (١٦٩٦).

وأيضاً؛ فإن الله قد أخبر في كتابه بعقوبات الكفار مثل قوم نوح وهود وصالح وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه ما يعرف بكل واحدة من هذه الوقائع ألا حُجّة لأحد في القدر. وأيضاً؛ فقد شرع الله من عقوبة المحاربين من الكفار وأهل القبلة وقتل المرتد وعقوبة الزاني والسارق والشارب ما فصل.

فقد تبين أن آدم حجّ موسى لما قصد موسى أن يلوم من كان سبباً في مصيبتهم. وبهذا جاء الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التَّغَايُن: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وسواء في ذلك المصائب السمائية والمصائب التي تحصل بأفعال الأدميين، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [الزُّمَر: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال في سورة الطور بعد قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [٢٩] أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُل تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ ﴿٣١﴾ [الطور: ٢٩ - ٣١]، إلى قوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى في سورة (ن): ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [٤٦] أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿[القلم: ٤٦ - ٤٨]﴾. وقد قيل في معناه:

اصبر لما يُحَكِّمُ به عليك، وقيل: أصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت، والأول أصح.

وحكم الله نوعان: خلق وأمر: فالأول: ما يقدره من المصائب، والثاني: ما يأمر به وينهى عنه. والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا، فعليه أن يصبر لما أمر به ولما نُهي عنه، فيفعل المأمور ويترك المحذور، وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه^(١). وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَلَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والعبد لا يخلو من ابتلاء وفتنة تُظهر خبيثته وتجلبو إيمانه، والسعيد هو من عافاه الله وسلّمه وحفظه، ولم يخذله بأن يكله لنفسه أو خلقه، فقد روى أبو داود^(٢) عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وأيم الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنِ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهَا».

وتأمل هذا الكلام المخيف لشيخ الإسلام، فقد بيّن أنّ على المؤمن ألا يأمن مكر الله تعالى وأن يسأله الهدى والسلامة والحفظ والعافية، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن العافية لا يعدلها شيء، وأن ضعيف الإيمان خير له ألا يُبتلى حتى لا يذهب دينه فيهلك، وأنه لو عوفي من الامتحان لكان على سبيل نجاة، لكن الامتحان صار سبباً لهلاكه نسأل الله السلامة والعافية، قال

(١) مجموع الفتاوى (٨ / ٣٠٣ - ٣٢٥) بانتقاء واختصار.

(٢) السنن (٤ / ١٦٤) (٤٢٦٥) وصححه الألباني.

رَحِمَهُ اللَّهُ: «عامّة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل. ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلُّون لا إلى اليقين، ولا إلى الجهاد، ولو شكُّوا لشكوا! ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا! وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال.

وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة. وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب رييهم؛ فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب؛ وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. وكذلك إذا تعيّن عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد.

ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامّة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَبَسُوا دُونَهُمْ لَكُمْ مِنَ الشَّيْءِ مَا لَمْ تَحْكُمُوا لَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ

حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أطمأنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١]. (١)

فلا تكن - حرسك الله - ممن يعبد الله على حرف، كحال ذلك الأعرابي الذي يقيس صلاح الدين بصلاح دنياه، فإن نَتَجَتْ ناقته وفرسه وصحّ بدنه فالدين عنده خير، وإلا ارتدّ على عقبيه كفقراء يهود، خسر الدنيا والآخرة.

وعلى العبد الراضي ألا يغفل عن سلاح المؤمن بحال وهو الدُّعاء، وبخاصة في مواطن الفتن والبلاء، فالمؤمن مع الذكر والدعاء كالسمكة في الماء، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فهل أملاً يديك من عطايا ومواهب الكريم الوهاب الرزاق سبحانه، واستدفع بلاءات الدين الدنيا بدعائه تبارك وتعالى، فعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ». (٢)

فالقضاء والقدر على قسمين:

الأول: المُبرّم، وهو الذي قد فرغ منه، فهذا لا يتغيّر، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، فلا يعلمه أحد إلا الله تعالى، والذي لا يتغيّر ولا يتبدّل.

(١) الإيمان لابن تيمية (١/٢١٣).

(٢) أحمد (٢٢٣٨٦) والترمذي (٢١٣٩) وابن ماجه (٩٠) وقال الألباني: حسن. وقال الأرنؤوط: حسن لغيره. وقال ابن باز: لا بأس به. وروي وعند أحمد وابن ماجه بزيادة ضعفها الألباني والأرنؤوط: «وإنَّ العبدَ ليُحرَمُ الرِّزْقُ بالدُّنْبِ يُصِيبُهُ».

والثاني: المعلق، وهو الذي في صُحف الملائكة التي تنزل بالأقدار، وهو الذي يتغيَّر ويتبدَّل ويُمحى بإذن الله تعالى وحكمته، قال سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرَّعْد : ٣٩]. فقضاء معلق على أسباب، والدعاء من أعظم الأسباب لجلب الخير ودفع الشر.

والقَدَرُ المكتوب في اللوح المحفوظ هو قضاء مُبرمٌ لا يتغيَّر بحال، أمَّا ما سواه ممَّا في صحف الملائكة وليلة القدر والتقدير العمري والسنوي واليومي ونحوه فهذه مقادير معلقة يدخلها التغير عند وجود أسبابها التي قضاها الله تعالى كالدعاء والبرِّ وصلة الرحم ونحو ذلك ممَّا ثبت في القرآن والسنة من المحو والإثبات وزيادة العمر والرزق ونحو ذلك.

وراء هذا القَدَرُ المعلق حكم هائلة يقوم عليها ناموس الكون والتكليف، فكل الأسباب المذكورة من كونها مؤثرة بإذن الله تعالى في المقادير المعلقة هي من قبيل التكليف الشرعية المحبوبة إلى الله تعالى، فعاد الأمر بالأوامر الشرعية إلى تأثيرها في الأقدار الكونية غير المبرمة من جهة، وإلى وجودها أصلاً في القدر المُبرم المحفوظ، فالله تعالى يعلم ما سيكون مما سيختاره عبده المكلف الذي هداه النجدين.

فما علَّق به سببٌ فحقيقته لن تتغيَّر أصلاً؛ لأنه قد كُتِبَ في المحفوظ وجود ذلك السبب أو عدمه، ومن ثمَّ حصول المُسبَّب الذي علَّق بالسبب وجوداً وعدمًا.

فالأمر كما تشاهد مرتبط ببعضه، وإذا فهمته فهمت على أثره كتابة مصير الإنسان في اللوح المحفوظ، ثمَّ تعليق ذلك المصير بأفعال الإنسان المستأنفة في

حياته التي تطابق ما كُتب في اللوح المحفوظ، فهو يسعى في الحياة بإرادته واختياره موافقاً للقَدَر المُبرم في اللوح، فأعماله الصالحة - ومنها الدعاء والصلة - وكذلك السيئة هي أسباب عُلق بها مصيره. فيظهر حينها علم الله تعالى في الشهادة مطابقاً لعلمه في الغيب، وهذا العلم الشهودي هو الذي أقام الله تعالى به حجته على عباده، فهو لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة الرسالية ويعمل الخطيئة عالماً مختاراً، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وهذا من رحمته تبارك وتعالى، ولو عذّبه على ما سبق من علمه لم يكُ ظالماً، ولكن الله تعالى يحبّ العذر، بل لا أحد أحب إليه العذر منه، كما روى مسلم^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»، وقال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وما سوى ذلك من هذا الباب فهو من أسرار القدر المطوية عنا، فليس لأحدٍ على الله حُجَّةٌ، ومن خَاصَمَ غُلبَ، وليغلبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَابِ، ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكَلَّا تَبَرَّأْنَا تَتَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]. وبالله التوفيق.

(١) مسلم (٦٨٢١).

وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في حديث: «لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء»^(١): «الحديث لا بأس به، ومعناه أن الدعاء من أسباب عدم وقوع المكروه، والله تعالى قدّر الأقدار، وجعل لها أسباباً، فهناك أقدار ماضية لا حيلة فيها، كالموت، والهزم، ونحو ذلك. وهناك أقدار لها أسباب مرتبة معلّقة عليها، فهذا معلّق موته بالسفر إلى كذا، وهذا معلّق موته بمرض كذا، وهذا معلّق موته بأكل كذا، وهذا معلّق موته بكذا وكذا، لها أسباب معلّقة، وهذا معلّق موته بأنه إذا دعا بكذا؛ سلم من كذا، وإذا دعا بكذا؛ سلم من كذا، فلهذا جاء في الحديث أنه: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وأن العبد يحرم الرزق بالذنوب يصيبه»، كل هذا جاءت به الأحاديث عن النبي ﷺ^(٢).

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «قول السائل: هل الدعاء يرد القضاء؟ فجوابه: أن الدعاء من الأسباب التي يحصل بها المدعو، وهو في الواقع يردّ القضاء ولا يردّ القضاء؛ يعني له جهتان، فمثلاً هذا المريض قد يدعو الله تعالى بالشفاء فيُشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقّي مريضاً، لكن بالدعاء شُفي، إلا أننا نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن هذا المرض يُشفى منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاء يرد القدر ظاهرياً، حيث إن الإنسان يظن أنه لولا الدعاء لبقّي المرض، ولكنه في الحقيقة لا يردّ القضاء؛ لأن

(١) ابن ماجه في السنن (٤٠٢٢) وحسنه السيوطي وابن باز والألباني والأرنؤوط.

(٢) انظر: فتاوى نور على الدرب لابن باز (٤/٢٥٥).

الأصل أنّ الدعاء مكتوب، وأنّ الشفاء سيكون بهذا الدعاء، هذا هو القدر الأصلي الذي كتب في الأزل، وهكذا كل شيء مقرون بسبب فإنّ هذا السبب جعله الله تعالى سبباً يحصل به الشيء، وقد كتب ذلك في الأزل من قبل أن يحدث». أهـ. (١)

فعلى المؤمن ألا يترك الدعاء النافع بخير دينه ودنياه، وأن يلجّ على ربه بصلاح العقبي وسلامة المنقلب وحسن الختام، فعن أبي عثمان النهدي رَحِمَهُ اللهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَبْكِي، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي بِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَالذَّنْبِ فَأُخْجِنِي وَأَثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْمَغْفِرَةِ؛ فَإِنَّكَ تَمَحُّو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ» (٢).

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السُّعْدَاءِ فَأَثْبِتْنِي فِيهِمْ، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي الْأَشْقِيَاءِ فَأُخْجِنِي مِنَ الْأَشْقِيَاءِ وَاكْتُبْنِي فِي السُّعْدَاءِ؛ فَإِنَّكَ تَمَحُّو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ» (٣).

وقد سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]، وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعْمَرٍ

(١) مجموع فتاوي ورسائل العثيمين (٩٣/٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٤ / ١٣)، وصححه الألباني في الضعيفة (٧٦٤ / ١١) بالمتابعة.

(٣) تفسير الطبري (٥٦٤ / ١٣)، وصححه الألباني في الضعيفة (٧٦٤ / ١١) بمجموع طرقه.

وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿فَاطِر: ١١﴾، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرَّعْد: ٣٩]. هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى عَرْشِهِ.. الحديث» (١). وقد جاء: «جَفَّ الْقَلَمُ» (٢). فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟ وهل شرع في الدعاء أن يقول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي كَذَا؛ فامحني واكتبني كذا، فإنك قلت: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرَّعْد: ٣٩]؟ وهل صحَّ أن عمر كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحمد لله رب العالمين، أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الْأَنْعَام: ٢٠]، فالأجل الأول: هو أجل كل عبد الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾. فَإِنَّ وَقْتَ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ مَلِكٌ مُّقْرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ، كَمَا قَالَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٧]، بخلاف ما إذا قال: ﴿مُسَمًّى﴾ كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده، فقد يعرفه العباد. وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله

(١) البخاري (٥٢٢/١٣) (٧٥٥٤) ومسلم (٢١٠٧/٤) (٢٧٥١) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ

كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فهو مكتوب عنده فوق العرش».

(٢) أحمد (١٧٦/٢) (٦٦٤٤) والحاكم (١ / ٣٠) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٦).

وشقيّ أو سعيد. كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُبعثُ إليه الملك، فيؤمّرُ بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح»^(١). فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يُعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو.

وأما قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ [فاطر: ٢٨]، فقد قيل: إنّ المراد الجنس، أي: ما يُعَمَّر من عمر إنسان ولا ينقص من عمر إنسان. ثم التعمير والتقصير يُرادُ به شيان: أحدهما: أنّ هذا يطول عمره وهذا يقصر عمره، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره، كما أنّ التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر. وقد يُراد بالنقص: النقص من العمر المكتوب، كما يراد بالزيادة: الزيادة في العمر المكتوب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَاطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً»^(٢). وقد قال بعض الناس: إنّ المراد به: البركة في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمل به غيره إلا في الكثير. قالوا: لأنّ الرزق والأجل مقدّران مكتوبان. فيقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل والنفعة هي أيضاً مُقدّرةٌ مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء.

(١) البخاري ١٦٥/٩ (٧٤٥٤) ومسلم ٤٤/٨ (٢٦٤٣).

(٢) البخاري ٧٣/٣ (٢٠٦٧)، ومسلم ٨/٨ (٢٥٥٧) (٢١).

والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ «أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته، فأراه إياهم. فرأى فيهم رجلاً له بصيص، فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة. فكتب عليه كتاباً وشهدت عليه الملائكة. فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة. قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك، فأخرجوا الكتاب. قال النبي ﷺ: فني آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته»^(١). وروي أنه كمل لآدم عمره، ولد داود عمره^(١). فهذا داود

(١) الترمذي (٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني. وأخرجه أبو يعلى (٦٦٥٤) وصححه حسين سليم أسد. ولفظ الترمذي: «لما خلق الله آدم مسح ظهره؛ فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصن من نور. ثم عرضهم على آدم. فقال: أي رب؟ من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه. فقال: أي رب؟ من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. فقال: رب؟ كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب؟ زده من عمري أربعين سنة. فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت. فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم؛ فجحدت ذريته، ونسي آدم؛ فنسيت ذريته، وخطئ آدم؛ فخطئت ذريته». قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ».

كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين. وهذا معنى ما رُوي عن عمر أنه قال: «اللّهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت». واللّٰه سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علّمهم اللّٰه، واللّٰه يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها.

فلهذا قال العلماء: إنّ المَحْوَ والإِثْبَاتَ في صحف الملائكة، وأمّا علم اللّٰه سبحانه فلا يَخْتَلِفُ، ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات. وأمّا اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم^(٢). وبالله التوفيق.

لجاجة قلب ما يُفِيق غُرُورها وحاجة نفس ليس يُقْضَى سِيرُها
وعينٌ إلى الأطلال تُزجّي سحابها إذا لوعة الأحشاء هبّ زفيرُها

=

(١) هذه الرواية في مسند أحمد (١/ ٢٩٨) (٢٧١٣) ومصنف ابن أبي شيبة (١٧/٧) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٤٧)، من حديث ابن عباس رضي اللّٰه عنهما عن النّبي ﷺ قال: «كَانَ عُمَرُ أَدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عُمَرُ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَالَ أَدَمُ: أَيُّ رَبِّ زِدُهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَكْمَلَ لِأَدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ وَأَكْمَلَ لِدَاوُدَ مِئَةَ سَنَةٍ». قال الهيثمي (٢٠٦/٨): «رواه أحمد والطبراني. وفيه على بن زيد. وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات».

(٢) مجموع الفتاوى (١٤ / ٤٨٩-٤٩٢).

أكلّفها هطلاً على كلّ منزلٍ فلو أنها أرض لغارت بحورُها
وما تجمع العينُ التوسّمَ والبكا فهل تعرفانِ مقلّةً أستعيرُها
وقفنا صفوفاً في الديار كأنها صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها
اللّهم اجعلنا جميعاً من الصابرين الراضين الشاكرين الحامدين، إله الحق
آمين.



شروط الرّضا بالله تعالى

لا يكون الرضا مشكوراً إلا بعد استيفاء شروطه، فليست الأمانى والدعاوى كافية في تحصيله، بل لا بد من مكابדתه واحتماله وتقبله حتى يكون رضاء صادقاً، وحينها تكون ثمرته اليانعة التلذذ به وذوق حلاوة الإيمان به.

وإن الشرط العام بإطلاق للعبادات هو الإخلاص، لأنه داخل في كل عبادة قلبية كانت أو جارية أو مالية، فقل لمن لا يخلص: لا تتعب. أما الشرط العام للرّضا فهو أن يكون القلب ساكناً مطمئناً لتدبير الله له، وكل ما عداه من الشروط فهي منبثقة منه وعائدة إليه.

وقد اجتهد بعض أهل العلم في تحديد الشروط بعد تأملهم هذه العبادة القلبية الجليلة، وقد قصدوا بالشروط: أن الرضا لا يكون رضاء في الحقيقة إلا إذا استوفاهما، فعادت الشروط التي قيدوها راجعة لتصوّرهم حقيقة الرضا، وهذا في حقيقته الحدّ والتعريف، بمعنى أن من قام في قلبه الرضا فهو راضٍ، وعلى قدر تحصيله يكون وجوده، ومن ثمّ ثمرته وثوابه. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لكلام الهروي رَحِمَهُ اللهُ في شروط الرضا وقوله: «ويصح بثلاثة شرائط: باستواء الحالات عند العبد، وسقوط الخصومة مع الخلق، والإخلاص من المسألة والإلحاح». قال: «يعني أن الرضا عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة، فإن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النعمة والبلية في رضاه بحسن اختيار الله له، وليس المراد استوائها عنده في ملاءمته ومنافرتة، فإن

هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني^(١). وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضا بهما لوجوه:

أحدها: أنه مُفَوَّض، والمفوض راض بكل ما اختاره له مَنْ فَوَّضَ إليه، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهو يعلم أن كلاً من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حتم.

الثالث: أنه عبد محض، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها كلها بالرضا به وعنه.

الرابع: أنه محب، والمحب الصادق هو من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور وسيّده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها فهو جاهل ظالم، وربّه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعافُ أضعافِ مصلحته فيما يحب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

(١) لاشتراك الإنسان مع أمم الحيوان في الإحساس المريح بالملائم المُسعد وبالكره للمنافر المؤلم.

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

السابع: أنه مُسَلِّم، والمسلم من قد سلَّم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارفٌ بربه، حَسَنُ الظن به، لا يَتَّهِمُهُ فيما يجريه عليه من أفضيته وأقداره. فحَسَنُ ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضا وسخط فلا بد له منه، فإن رضي فله الرضا وإن سخط فله السخط.

العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخفَّ عليه حملة، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكلُّه، ولم يزد إلا شدة، فلو أن السخط يجدي عليه شيئاً لكان له فيه راحة أنفع له من الرضا به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(١).

(١) صحيحه الألباني في تخريج شرح الطحاوية لابن أبي العز (١ / ١٦٣) (١٦٣) والصحيحة (١٤٧). وأصله في صحيح مسلم (٨ / ٢٢٧) (٢٩٩٩) وأحمد (٤ /

الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يجب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته من الصبر والتوكل والرضا والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترصّاه وتملّقه.

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه في الرضا عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات، فإن الرضا باب الله الأعظم ومستراح العارفين وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وألا يستبدل بغيره منه.

=
 ٣٣٢، ٣٣٣، ٦ / ١٥): «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد...» الحديث. وفي رواية لأحمد: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ ضحك فقال: «ألا تسألوني ممّ أضحك؟» قالوا: يا رسول الله وممّ تضحك؟ قال: «عجبتُ لأمر المؤمن...» الحديث، (١٨٩٣٩) وسنده على شرط مسلم.

الرابع عشر: أن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضا يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

السادس عشر: أن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده تنزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات.

السابع عشر: أن الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل^(١)، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشدّ رضاء كان قلبه أسلم، فالحبث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبرّه ونصحه قرين الرضا. وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غلٌ لخيار المؤمنين». منهاج السنة (١/ ٢٢)

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلون العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يُزِيل التلون عن العبد شيء مثل الرضا.

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه، فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً، فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان، وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره: «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(١).

العشرون: أن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ

(١) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٧/٤) وصححه أحمد شاكر. والأرنؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه القرطبي في التفسير (٣٣٥/٨) وقال ابن رجب في الجامع (٤٥٩/١): حسن جيد. وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله»^(١).

الحادي والعشرون: أن الرضا يوجب له ألا يأسى على ما فاتته ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان، أما عدم أساه على الفائت فظاهر، وأما عدم فرحه بما آتاه فلا أنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد^(٢).

(١) أحمد (١٤٤٤) والترمذي (٢١٥١) وضعفه محققو المسند والألباني في السلسلة (١٩٠٦) لأنه من طريق محمد بن أبي حميد إبراهيم الأنصاري الزرقى، متفق على ضعفه. ومعنى الحديث صحيح.

(٢) ربما قصد الشيخ أنه ما من شيء من متاع الدنيا إلا وهو زائل، وما من حبيب إلا ومفارق، وليس مقصوده تقديم ألم المصيبة قبلها، ولو بعدم سروره بنعمة الله تعالى عليه، فليس هذا من شكر المنعم، ولأن فيه نوعاً من سوء الظن وقدر من سوداوية، فالمقصود بالذم هنا - والله أعلم - هو فرح البطر، إما من جهة نفسه فيكون فرحاً كثيراً زائداً بدنيا مزاحمة للآخرة، أو من جهة ثمرته فيكون فرحاً غير مصحوب بشكر الله. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره (٨ / ٢٧) عند قول الله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]: «أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً».

الثاني والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر؛ ملأ الله صدره غنى وأمنًا وقناعة، وفرغ قلبه لمحبتة والإجابة إليه والتوكل عليه، ومن فاته حظُّه من الرضا؛ امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه. فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

الثالث والعشرون: أن الرضا يثمر الشكر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المنعم، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون: أن الرضا ينفي عنه آفات الحرص والكَلْب^(١) على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأصل كل بلية وأساس كل رزية، فرضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه مادة هذه الآفات.

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيما إذا استحكم سخطه فإنه يقول ما لا يرضي الرب ويفعل ما لا يرضيه وينوي ما لا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا لَفَرَاكُ يَا إِبْرَاهِيمَ لِمَحْزُونُونَ»^(٢).

(١) من التكالب، وهو المنازعة بشدة لتحصيل الشيء.

(٢) البخاري ١٠٥/٢ (١٣٠٣)، ومسلم ٧٦/٧ (٢٣١٥) (٦٢).

فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلمون بما لا يرضي الله ويفعلون ما لا يرضيه إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى، ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض روي في الجنازة ضاحكاً ف قيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه. فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن القلب يحزن والعين تدمع وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يعدّ هذا من مناقب الفضيل؟

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتسع لتكميل جميع المراتب من الرضا عن الله والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرضا ومقام الرحمة ورقة القلب، والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرحمة، فلم يجتمع له الأمران، والناس في ذلك على أربع مراتب:

أحدها: من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطفل، فدمعت عيناه رحمة والقلب راض.

الثاني: من غيبه الرضا عن الرحمة، فلم يتسع للأمرين، بل غيبه أحدهما عن الآخر.

الثالث: من غيَّته الرحمة والرفقة عن الرضا فلم يشهده، بل فني عن الرضا^(١).

الرابع: من لا رضا عنده ولا رحمة، وإنما يكون حزنه لفوات حظّه من الميت، وهذا حال أكثر الخلق! فلا إحسان ولا رضا عن الرحمن، والله المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضا، والثاني دونه، والثالث دون الثاني، والرابع هو الساخط^(٢).

السادس والعشرون: أن الرضا هو اختيار ما اختاره الله لعبده، والسخط كراهة ما اختاره الله له، وهذا نوع محادة فلا يتخلص منه إلا بالرضا عن الله في جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضا يُخرج الهوى من القلب، فالراضي هو اه تبح لمراد ربه منه، أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه، فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبداً، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منهما.

(١) ولا يعني هذا تسخّطه، ولكنه لم يستحضر رضا ولا سخطاً لاستيلاء مشهد الرحمة على قلبه، فلم يتسع لغيرها.

(٢) وقال ابن القيم أيضاً رَحْمَةُ اللَّهِ في المدارج (٢ / ١٧٨): «الرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بها قسمه الله وأعطاه، ورضا الخواص بما قدره وقضاه، ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه».

الثامن والعشرون: أن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه كما تقدم بيانه في الرضا به، فإن الجزاء من جنس العمل وفي أثر إسرائيلي: أن موسى سأل ربه عز وجل: ما يديني من رضاه؟ فقال: «إن رضائي في رضاك بقضائي»^(١).

التاسع والعشرون: أن الرضا بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَأْتِيَتْهَا النَفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٢٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً^(٢٨) فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي^(٢٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي^(٣٠) [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

الثلاثون: أن الراضي متلقٍ أوامر ربه الدينية والقدرية بالانسراح والتسليم وطيب النفس والاستسلام، والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه وإرادته منها، وقد بينّا أن الرضا بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه؛ فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه، فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه لا بربه عن ربه.

الحادي والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلها أصلها من الرضا، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

(١) ذكره الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي الإِحْيَاءِ (٦ / ٤٣١)

الثاني والثلاثون: أن عدم الرضا يفتح باب البدعة، والرضا يغلق عنه ذلك الباب، ولو تأملت بدع الروافض والنواصب والخوارج لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني أو الديني أو كليهما.

الثالث والثلاثون: أن الرضا معقد نظام الدين ظاهره وباطنه، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع: فتقسم قسمين: دينية وكونية، وهي مأمورات ومنهيات ومباحات، ونعم مُلَذَّةٌ وبلايا مؤلمة، فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله فقد أخذ بالخط الوافر من الإسلام، وفاز بالقدح المَعْلَى.

الرابع والثلاثون: أن الرضا يُخَلِّص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية، فلو رضي لم يمسح من الحقيقة الملكية إلى الحقيقة الشيطانية الإبلسية^(١).

الخامس والثلاثون: أن جميع ما في الكون أوجبه مشيئة الله وحكمته وملكه، فهو مُوجِبُ أسمائه وصفاته، فمن لم يرض بما رضي به ربُّه؛ لم يرض بأسمائه وصفاته؛ فلم يرض به ربًّا.

السادس والثلاثون: أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إما أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إيَّاه بالدواء لترامي به المرض إلى الهلاك، أو يكون سبباً لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع، فإذا

(١) فقد رجع الرجيم لأصله الشيطاني لما ابتلي.

شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره.

السابع والثلاثون: أن حُكِّمَ الرب تعالى ماضٍ في عبده وقضاؤه عدل فيه، كما في الحديث: «ماضٍ في حُكْمِكَ، عدلٌ في قضاؤِكَ»^(١).

ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور، وقوله: «عدل في قضاؤِكَ» يعم قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضاائه عز وجل، وهو أعدل العادلين في قضاائه بالذنب وفي قضاائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر، وأما عدله في قضاائه بالذنب فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه وإعراض قلبه عنه، فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليّه ونقص إخلاصه استحق أن يُضرب بهذه العقوبة، لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة، وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره يستحيل صدور الذنب كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢) [يوسف : ٢٤].

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه محققوه من جهة الجهالة بأبي سلمة الجهني، وأنه راوٍ آخر غير أبي موسى الجهني. وصححه أحمد شاكر، وكان الأرناؤوط قد صححه في تخريج ابن حبان ثم تراجع عنه هنا، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقال: «ليس في الرواة من اسمه موسى الجهني إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم».

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه ونسيانه إياه وعدم إخلاصه
عقوبة على ماذا؟

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يُرد الخير بعبده خلّ بينه وبين نفسه وطبعه وهواه، وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان وعدم الإخلاص واتباع الهوى^(١)، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام وفوات الخيرات واللذات كافتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

(١) هناك ملحظ دقيق خطير، لا بد أن يتنبه له كل من يُعنى بالحديث في هذا الموضوع، لأنه يشتهر بمسألة خلق أفعال العباد، فمعنى كلام المصنف وشيخه هنا وهناك بأن الشر طبع النفس وشأنها وأن الشر ليس إلى الله تعالى كما في الحديث، وإنما الخير هو بإمداد الله لها به؛ فكل هذا لا يعني بحال أن النفس تخلق صفاتها، بل إنّ الله تعالى هو الذي خلقها بهذه الصفة، ثم جعلها مفتقرة للخير، فإن شاء ربّها أمدّها به، وإن شاء خذلها وتركها نهبا لطبعها الظالم الجاهل كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهي في الأصل قالب فارغ له معدن كامن، فإن أمدّه خالفه بلطفه ومعونته وهده استضاء وصلح وسعد، فإن تركه على أصل طبعه تناهته معادن الشر الكامنة فيه من الجهل والظلم، ويجمعها عدم الخير أو نقصه بقدر نقص الإمداد، فالنفس كالأرض البياض التي إن أغاثها الله بوابل مبارك حيّت وازدانت كالأشجار وعشبًا وزهرًا وخيرًا، وإن تركها بقيت كاسدة ميتة لا خير فيها.

وكل شيء خلقه الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وهذا منسحب على كل شر في الوجود، ويتضح لك ذلك بتأمل خلق الله تعالى لإبليس، فهو من خلقه للنار أصلًا، ثم ركّب فيه أدوات التكليف من العلم والإرادة والقدرة، ثم خذله، وكذلك الحال في الكفرة الفجرة، فعُدّهم في نهاية الأمر كصخرة في النار كلّفها

فإن قلت: فهلاً خلقه على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلاً خلقه ملكاً لا إنساناً؟

=

لحكمته البالغة، وكتب نهايتها في النار عدلاً تاماً، فقد خلق الله للجنة أهلها وللنار أهلها، وأعطى كلّاً منهما علماً وإرادة وقدرة، ثم كلفهم بما يطبقون من العلوم والأعمال، وجعل لهم مشيئة خاصة بهم، يُحسّون ويشعرون بها، وينفعلون ويفعلون بها، ويتحرّكون بها، وهي تحت مظلة مشيئة الله تعالى وقضائه وقدره لا تخرج عن ذلك، فلا إله إلا الله ما أعزّه وأعظمه وأكبره وأغنائه وأقدره، وما أشدّ خوف العالمين به، وما أعظم فرقهم منه وخشيتهم له وحياءهم منه، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨]، وحق لهم ذلك، فإنه مالك الملك ومدير الأمر وله العزة والبطش والقهر، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣].

ويكفيك أن تعلم أنّ أعلم الناس به وأحبهم إليه وأعلمهم بصفات رحمته وعفوه ومغفرته ولطفه ورفقه كان أخوف الناس منه وأشدّهم خشية له وحياء منه؛ لأنه كان أعلمهم به وبصفات جلاله وجبروته وسطوته وعزّته وغضبه وعقابه وانتقامه، قال ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله عز وجل، وأعلمكم بما أتقي». رواه مسلم (١١١٠) فنسأل الله تعالى برحمته التي وسعت كل شيء أن يرحمنا، فإن رحمته أرجى من أعمالنا، ومغفرته أوسع من ذنوبنا، ونستغفره ونتوب إليه فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو الغفور الرحيم.

فإن التبس عليك الأمر يوماً؛ فسلّم لحكمته وعلمه ورحمته ومشيتته، فالخلق خلقه والحكم حكمه والأمر أمره، واهتف لنفسك: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣].

فإن قلت: فهل أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هل سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة، وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكوته لخلق ذلك.

الثامن والثلاثون: أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

التاسع والثلاثون: أن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، قال أبو الدرداء رضى الله عنه: «ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر».

الأربعون: أن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضا، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى، ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا.

الحادي والأربعون: أن الراضي واقف مع اختيار الله له، معرض عن اختياره لنفسه، وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم، وأما اليوم فوددت أني ميت! فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لِمَا أَخَوِّفُ مِنَ الْفِتْنَةِ^(١).

فقال يوسف: لكنني لا أكره طول البقاء، فقال الثوري: ولم تكره الموت؟ قال: لعلّي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً. فقبل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً، أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللَّهِ. فقبل الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة^(٢)! فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت، وقف مع اختيار الله له منهما، وقد كان وهيب رَحِمَهُ اللَّهُ له المقام العالي من الرضا وغيره^(٣).

(١) فللخوف من الفتنة شأنه وأحكامه.

(٢) لعله قصد بالروحانية أنها من صفات أهل الرُّوح والريحان من المقربين لله تعالى المبشرين برضوانه، كما في آخر سورة الواقعة، أو من صفاء الروح بدوام الطاعة والذكر والفكر ونقائها قدر طاقتها من لوث الخطايا ورجس المعاصي وكدر الغفلات.

(٣) وهيب بن الورد بن أبي الورد القرشي، أبو عثمان، ويقال: أبو أمية المكي، مولى بني مخزوم، واسمه عبد الوهاب، وهيب لقب. وكان ابن المبارك يقول: ما جلست إلى رجل أنفع مجالسة من وهيب بن الورد. وعن سفيان بن عيينة عن وهيب بن الورد قال: بينا أنا واقف في بطن الوادي إذا أنا برجل قد اخذ بمنكبي فقال يا وهيب خف الله لقدرته عليك واستحيي منه لقربه منك قال فالتفت فلم أر أحداً.

وعن زهير بن عباد قال: كان فضيل بن عياض وهيب بن الورد وعبد الله بن المبارك جلوساً فذكروا الرطب، فقال وهيب: أو قد جاء الرطب؟ فقال عبد الله بن المبارك: رحمك الله، هذا آخره، أو لم تأكله؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال وهيب: بلغني أن عامة أجنّة

الثاني والأربعون: أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء وابتلاءه إياه عافية. قال سفيان الثوري^(١): «منعه عطاء، وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم، وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر». وهذا كما قال، فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، ساء ذلك القضاء أو سرّه، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاءً وإن كان في

مكة - أي: جنانها وهي البساتين - من الصوافي والقطائع فكرهتها - أي: أنه لا يستحل الأكل من ثمار بساتينها الصوافي، وهي: الأراضي التي أخذت من الكفار فاستصفاها الخليفة له، وقد يضعها في بيت المال، وتسمى كذلك: القطائع وتسمى الآن الإقطاعات؛ لأن الخليفة كان يوزع بعضها إقطاعات على من يشاء من المقرين له - فقال عبد الله بن المبارك: يرحمك الله؛ أوليس قد رخص في الشراء من السوق إذا لم تعرف الصوافي والقطائع منه، وإلا ضاق على الناس خبزهم، أو ليس عامّة ما يأتي من قمح مصر إنما هو من الصوافي والقطائع، ولا أحسبك تستغني عن القمح، فسهلّ عليك! قال: فصّعق. قال فضيل لعبد الله: ما صنعت بالرجل؟ فقال ابن المبارك: ما علمت أن كل هذا الخوف قد أعطيه! - ولاحظ كيف اختار الإمام لفظ العطاء، لعلمهم أن الخوف من الله تعالى هو محض الكرامة الإلهية واللفظ الرباني والنعمة الجليلة..

قال: فلما أفاق وهيب قال: يا ابن المبارك، دعني من ترخيصك، لا جرم لا آكل من القمح إلا كما يأكل المضطر من الميتة. فزعموا انه نحل جسمه حتى مات هزلاً. وكان سفيان الثوري إذا جاء الناس في المسجد الحرام وفرغ قال: قوموا إلى الطبيب. يعني وهيباً. وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/٤٢٠).

(١) الأشهر أنها لشيبان الراعي، وهو عابد معاصر لسفيان، وقد روي أنه قد وجه هذا الكلام لسفيان، رحمهما الله، فربّما نقله عنه سفيان فنُسبت له شهرته.

صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بليّة، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذّب به في العاجل وكان ملائماً لطبعه، ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعدّ المنع نعمةً والبلاء رحمةً، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلّة أعظم شكرًا من حال الكثرة، وهذه كانت حال السلف.

فالعاقل الراضي من يعدّ البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنى. وأوحى الله إلى بعض أنبيائه: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنبٌ عجّل عقوبته»^(١).

فالراضي: هو الذي يعدّ نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه، كما قال بعض العارفين: «يا ابن آدم؛ نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب».

وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقد قال بعض العارفين: «ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك

(١) ذكره في المغني عن حمل الأسفار (٢ / ١٠٨٦) عن أبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء مرفوعاً ولم يسمع منه، ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف. وهو في كنز العمال (١٦٦٥١/٦) وعلى كل حال فهو من أحاديث بني إسرائيل التي يستأنس بها اعتباراً واتعاضاً لا تصديقاً ولا تكذيباً.

إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أملكك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه».

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمظهر لكل شيء، والمالك لكل شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يُشرك في حكمه أحداً، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو سبحانه الذي اختار وجوده، واختار أن يكون كما قدره له وقضاه من عافية وبلاء وغنى وفقر وعز وذل ونباهة وخمول، فكما تفرّد سبحانه بالخلق تفرّد بالاختيار والتدبير، وليس للعبد شيء من ذلك، فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران : ١٢٨] فإذا تيقّن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له معوّل بعد ذلك غير الرضا بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ٧٢] وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات لم يتخير عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل

ذكره في محل سؤاله، بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره وبلوغ رضاه، فهذا يُعطى أفضل ما يعطاه سائل، كما جاء في الحديث: «من شغله ذكرى عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١). فإن السائلين سألوه فأعطاهم الفضل الذي سألوه، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم. ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات، فإن عجز العبد عنه حطّه إلى المقام الوسط، كما قال: «اعبد الله كأنك تراه»^(٢). فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فحطّه عند العجز عن المقام عن المقام الأول إلى المقام الثاني وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء، وكذا الحديث الآخر: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(٣). فرفعه إلى أعلى المقامات،

(١) البخاري في خلق أفعال العباد (٦٩) وفي التاريخ أيضاً، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب، ونقل السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢ / ٢٨٨) تحسين الحافظ ابن حجر للحديث في أماليه. وقد ليّنه في فتح الباري (١١ / ١٣٤)

(٢) البخاري (١٩ / ١) مسلم (٣٠ / ١)

(٣) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٧ / ٤) وصححه أحمد شاكر، والأرنؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه

ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى، فالأول: مقام الإحسان، والذي حطّه إليه: مقام الإيمان، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.

السابع والأربعون: أنه أثنى على الراضين بمُرّ القضاء بالحكم والعلم والفقهاء والقرب من درجة النبوة^(١).

الثامن والأربعون: أن الرضا آخذ بزمام مقامات الدين كلّها، وهو روحها وحياتها، فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المحب، ودليل صدق المحبة، وروح الشكر ودليله، قال الربيع بن أنس: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره، وعلامة الدين الإخلاص لله في السر والعلانية، وعلامة الشكر الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه». وقال أحمد بن أبي الحواري: ذاكرتُ أبا سليمان في الخبر

=

القرطبي في التفسير (٣٣٥/٨) وقال ابن رجب في الجامع (٤٥٩/١): حسن جيد. وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

(١) وقد استدلل المصنف رَحِمَهُ اللهُ عَلَى ذلك بحديث لا يثبت، وهو حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ فقال: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. فقال: «ما علامة إيمانكم؟» فقالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمُرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشبهة بالأعداء. فقال: «حكّاء علماء، كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء». ذكره الغزالي في حلية الأولياء (٢٩١/٩) وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٥٣/١) وقال الألباني في الضعيفة (٢٦١٤): «منكر».

المروي: «أول من يُدعى إلى الجنة الحمّادون»^(١). فقال: ويحك! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصّى عليك، إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين، إنما الحمد أن تحمده وقلبك مسلّم راضٍ^(٢). فصار الرضا كالرُّوح لهذه المقامات والأساس الذي تنبني عليه، ولا يصح شيء منها بدونه البتة، والله أعلم.

التاسع والأربعون: أن الرضا يقوم مقام كثير من التعبّات التي تشقّ على البدن، فيكون رضاه أسهل عليه وألذّ له وأرفع في درجته، وقد ذُكر في أثر إسرائيلي: «إن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا فأُري في المنام: أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة. فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها»^(٣)، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظلّ صائمًا وتظلّ مفطرة، فقال لها:

(١) تمامه: «فتقوم زمرة فيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة» قيل: ومن الحمّادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كل حال»، وفي لفظ آخر: «الذين يشكرون الله على السراء والضراء». قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٨ / ١٨٦) (٣٦٨٦): «أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور».

(٢) وهذا تحكّم وتشديد بلا دليل، وفضل الله - بحمد الله - واسع، فمن حمّد الله بلسانه ولم يجزع فهو من الحامدين حتى وإن تألم قلبه، أما إن كظم جزعه ولم يحمد فهو من الصابرين، والله أعلم.

(٣) وليس في الخبر أنّ بينهما خلوة، أو أنه كان ينظر لها مباشرة، فلعله استضافها ووكّل إحدى محارمه تنظر إلى عملها، أو أنه كان مباحًا في شريعتهم.. مع أن الأثر إسرائيلي، فليس له ثبوت، والمقصود من ذكره الاعتبار بحال العابدة مع الرضا بأقدار الله تعالى.

أما لك عمل غير ما رأيت؟ قالت: ما هو والله إلا ما رأيت، لا أعرف غيره. فلم يزل يقول لها: تذكّري، حتى قالت: خُصيلةٌ واحدة هي فيّ، وذلك: أني إن كنت في شدة لم أتمنّ أني في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنّ أني في صحّة، وإن كنت في الشمس لم أتمنّ أني في الظل. قال: فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خُصيلة! هذه والله خُصيلةٌ عظيمةٌ يعجز عنها العباد»^(١).

الخمسون: أن الرضا يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حسن الخلق من الرضا، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلغ صاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

الحادي والخمسون: أن الرضا يشمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واعتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته.

(١) ذكره في إحياء علوم الدين (٦ / ٤٣٤)

ولهذا سمّي بعض العارفين الرضا: «حسن الخلق مع الله»^(١) فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه، فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر، ولا يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء والعيال همّ وغمّ، ولا يُسمّي شيئاً قضاءه الله وقدّره باسم مذموم، إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى، فإنّ هذا كله ينافي رضاه.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «أصبحتُ ومالي سرور إلا في مواقع القدر». وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الفقر والغنى مطيّتان، ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل». وقال ابن أبي الحواري أو قيل له: إنّ فلاناً قال: وددتُ أن الليل أطول مما هو. فقال: «قد أحسن، وقد أساء. أحسن حيث تمنّى طوله للعبادة والمناجاة، وأساء حيث تمنّى ما لم يرده الله، أَحَبَّ ما لم يُحِبَّه الله». وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيّت من شدّة أو رخاء». وقال يوماً لامرأته عاتكة أخت سعيد بن زيد وقد غضب عليها: والله لأسوأئك! فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله له؟ قال: لا، فقالت: فأئيّ شيء تسوءني به إذًا؟! تريد أنها راضية بمواقع القدر لا يسوءها منه شيء إلا صرّفها عن الإسلام، ولا سبيل له إليه.

(١) وهذا الوصف الجميل للرضا في الغاية من نفاسة العلم وجودة الفقه وحسن الأدب مع الله تعالى.

وقيل: «أكثر الناس همًّا بالدنيا أكثرهم همًّا في الآخرة، وأقلهم همًّا بالدنيا أقلهم همًّا في الآخرة». فالإيمان بالقدر والرضا به يُذهب عن العبد الهمَّ والغمَّ والحزن.

الثاني والخمسون: أن أفضل الأحوال الرغبة في الله ولوازمها، وذلك لا يتم إلا باليقين والرضا عن الله. ولهذا قال سهل: «حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر رغبتهم في الله».

الثالث والخمسون: أن الرضا يخلصه من عيب ما لم يعبه الله، ومن ذم ما لم يذمه الله، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعاييب وذمه بأنواع المذام، وذلك منه قلة حياء من الله، وذم لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه، وذلك يسقط العبد من عين ربه، ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعبته وذمته؛ لكنت متعرّضاً لمقتته وإهانته، ومستدعيًا منه أن يقطع ذلك عنك. وقد قال بعض العارفين: «إن ذم المصنوع وعيبه إذا لم يذمه صانعه غيبة له وقدح فيه».

الرابع والخمسون: أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء، كما في المسند والسنن: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك

الكريم، وأسألك الشوق إلى لقاءك^(١)، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيننا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين^(٢). فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه^(٣) يقول: «سأله الرضا بعد القضاء؛ لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضا، وأما الرضا قبله فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه، وإنما يتحقق الرضا بعده»^(٤). قال البيهقي: وروينا في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر»^(٥).

الخامس والخمسون: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله، وأن يذمهم على ما لم يؤته الله، وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله، فيكون ظالماً لهم في الأول وهو رضاهم وذمهم، مشركاً بهم في الثاني وهو حمدهم، فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم، فخلصه الرضا من ذلك كله. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

(١) أي: أسألك شوقاً إليك لذات الشوق والمحبة والرجاء، لا تخلصاً من مضرة ولا هرباً من فتنة، والله أعلم.

(٢) أحمد (٢٦٤/٤) والنسائي (٥٤/٣) وصححه الألباني.

(٣) قدس الله روحه: أي طهرها من الذنوب، وهو بمعنى غفر الله له. أما الممنوع فهو قول: قدس الله سره، لأنهم يقصدون بذلك أن له سرّاً يتصرف به في تدبير الكون! وإن كان كثير من العامة لا يقصدون ذلك المعنى الشرعي، ولكن يُمنع حسماً للمادة، وسداً للذريعة، وحُسناً للأدب، وحفظاً لمقام ألفاظ الشرع.

(٤) الاستقامة (٢ / ٨٧)

(٥) شعب الإيمان (٨١٨١) والأدب المفرد (٣٠٧) وضعفه الألباني.

من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كره كاره. وإن الله بحكمته جعل الرّوح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشكّ والسخط»^(١).

السادس والخمسون: أن الرضا يفرّغ قلب العبد ويقلّل همّه وغمّه، فيتفرّغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. قال بشر بن بشار المجاشعي رَحِمَهُ اللهُ - وكان من العلماء - قال: قلت لعابد: أوصني، قال: «ألّق نفسك مع القدر حيث ألقاك، فهو أخرى أن يفرّغ قلبك ويقلّل همّك، وإياك أن تسخط ذلك؛ فيحلّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به، فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم».

وقال بعض السلف: «ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش، فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم». وقال أبو العباس بن عطاء رَحِمَهُ اللهُ: «الفرح في تدبير الله لنا، والشقاء كله في تدبيرنا». وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: «من لم يصلح على تقدير الله؛ لم يصلح على تقديره نفسه». وقال أبو العباس الطوسي رَحِمَهُ اللهُ: «من ترك التدبير عاش في راحة». وقال بعضهم: «لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور». وقال: «الرضا ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد».

(١) شعب الإيمان (١٧٦/١) والحلية (١٢٢/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩)

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها إِرْبٌ^(١) إلا في مواقع قدر الله». وكان كثيرًا ما يدعو: «اللَّهُم رَضِّنِي بِقَضَائِكَ، وبارك لي في قَدَرِكَ، حتى لا أحب تعجيل شيء آخرته، ولا تأخير شيء عَجَلته». وقال: «ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل». وقال يونس بن عبيد رَحِمَهُ اللهُ: «ما تمنيت شيئًا قط»^(٢).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «الراضي لا يتمنى فوق منزلته». وقال ذو النون رَحِمَهُ اللهُ: «ثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضا، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء. وثلاثة من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض على الحكم. وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤية كل شيء من الله، وقبول كل شيء عنه، وإضافة كل شيء إليه». وقال بعض العارفين: «أصل العبادة ثلاثة: لا تردّ من أحكامه شيئًا، ولا تسأل غيره حاجة، ولا تدّخر عنه شيئًا».

وسئل ابن شمعون عن الرضا فقال: «أن ترضى به مُدَبَّرًا ومُخْتَارًا، وترضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا». وقال بعض العارفين: «الرضا ترك الاختيار، وسرور القلب بمرّ القضاء، وإسقاط التدبير من النفس

(١) بكسر الهمزة، أي: حاجة ورغبة، وفي التنزيل: ﴿غَيْرِ أُولَى الْأَرْزِيَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [التور: ٣١]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند الترمذي (٧٢٩) وغيره: «أنه كان يباشرني وهو صائم، وكان أملككم لإِربه».

(٢) أي أنه لم يتكلم برغبته في أمر دنيا.

حتى يحكم الله لها أو عليها». وقيل: «الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها». والله در القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفي اختيار سواه اللوم والشوم^(١)

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير إما بقلبه وإما بقلبه وحاله، ولوم المقادير لومٌ لمقدِّرها، وكذلك يقع في لوم الخلق، والله والناس يلومونه، فلا يزال لائمًا ملومًا، وهذا مناف للعبودية.

قال أنس رضي الله عنه: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي شيء فعلته: «لم فعلته؟» ولا شيء لم أفعله: «ألا فعلته؟» ولا قال لي شيء كان: «ليته لم يكن»، ولا شيء لم يكن: «ليته كان». وكان بعض أهله إذا لامني يقول: «دعوه، فلو قضي شيء لكان»^(٢). وقوله: «لو قضي شيء لكان»، يتناول أمرين، أحدهما: ما لم يوجد من مراد العبد، والثاني: ما وجد مما يكرهه، وهو يتناول فوات المحبوب وحصول المكروه، فلو قضي الأول لكان، ولو قضي خلاف الآخر لكان، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء؛ فعبودية العبد أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه. وهذا موجب العبودية ومقتضاها. يوضحه:

(١) مسهلة عن الشؤم لضرورة الوزن.

(٢) أحمد (١٣٠٣٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وهو في مصنف عبد

الرزاق (١٧٩٤٦)

الثامن والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضا الرب تعالى؛ فهذا رضىه لعبده فقدّره، وهذا لم يرضه له فلم يقدره؛ فكمال الموافقة أن يستويا بالنسبة إلى العبد، فيرضى ما رضىه له ربّه في الحالين.

التاسع والخمسون: أن الله تعالى نهى عن التقدّم بين يديه ويدي رسوله في حكمه الديني الشرعي، وذلك عبودية هذا الأمر، فعبودية أمره الكوني القدرى ألا يتقدّم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك، فيكون التقدّم أيضًا بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضه الصبر أو نديه، أو فرضه الرضا، حتى ترك ذلك؛ فقد تقدّم بين يدي شرعه وقدره.

الستون: أن المحبة والإخلاص والإنابة لا تقوم إلا على ساق الرضا، فالمحب راض عن حبيبه في كل حاله، وقد كان عمران بن حصين رضى الله عنه استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره مدّة طويلة لا يقوم ولا يقعد، وقد نقب له في سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مُطَرِّفُ بن عبد الله الشَّخِير فجعل يبكي لما رأى من حاله! فقال له عمران: لم تبكي؟ فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة، فقال: لا تبك، فإنّ أحبّه إليّ أحبّه إليه! (١)

وقال: أخبرك بشيء لعلّ الله أن ينفعك به، واكتم عليّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فأنسُ بها، وتُسَلِّم عليّ فأسمع تسليمها (٢).

(١) وهذا توحيد عظيم وإيمان هائل له رضى الله عنه، وهو الذي كانت تسلم عليه الملائكة حتى اكنوى فتركت سلامه، فلمّا ترك الكيّ عادت إليه بالسلام، عليها وعليه السلام.

(٢) نقله في الإحياء (٦ / ٤٣٩)

ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه إلى مكة وقد كفّ بصره، جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم، فجعل يدعو لهم، قال عبد الله بن السائب: «فأتيته وأنا غلام فتعرّفتُ إليه فعرفني، فقلت: يا عم؛ أنت تدعو للناس فيُشفون، فلو دعوت لنفسك لردّ الله عليك بصرك، فتبسّم ثم قال: يا بني؛ قضاء الله أحبُّ إليّ من بصري!»^(١) (٢).

وقال بعض العارفين: «ذنبُ أذنبته أنا أبكي عليه ثلاثين سنة! قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء قضاه الله: ليتَه لم يكن». وقال بعض السلف: «لو قرّض لحمي بالمقاريض كان أحبَّ إليّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليتَه لم يقضه». وقيل لعبد الواحد بن زيد: «ههنا رجل قد تعبّد خمسين سنة»^(٣). فقصده فقال له: حبيبي؛ أخبرني عنك، هل قنعتَ به^(٤)؟ قال: لا، قال: فهل أنسْتَ به؟ قال:

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ٣٦٩)

(٢) لا إله إلا الله، ما أعظم دينهم وأجود تحقيقهم! رضوان الله عليهم.

(٣) أي: أنّه اجتهد في العبادة منذ خمسين سنة، ولا يعني ذلك الرهبانية بحال، فلا رهبانية في الإسلام. وقد كانوا ولا زالوا يحرصون على لقاء الصالحين من أهل العلم والعبادة، لترقى قلوبهم وتزيد علومهم ويقتربوا لربهم بمجالسة أهل الاجتهاد في طلب ولايته، فمن الناس من إذا رأيتَ سَمْتَه وأبصرتَ هُدْيَه رَقَّ قلبُك ولانت عريكة نفسك وزهدت في حطام الفانية كأنها ترى ببصيرتك الدار الآخرة، فذكرت الله تعالى وازدادت إيماناً.

(٤) أي: بالله تعالى، واكتفيت به عن خلقه.

لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنّما مزيدك منه الصوم والصلاة^(١)؟ قال: نعم، قال: لولا أنّي أستحي منك لأخبرتكَ: أنّ معاملتك خمسين سنة مدخولة!^(٢) يعني أنّه لم يقربّه فيجعله في مقام المقربين فيوجدّه مواجيد العارفين^(٣)، بحيث يكون مزيده لديه أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب. لأن القناعة حال الموفّق، والأنس به مقام المحب، والرضا وصف المتوكل. وقوله: «إن معاملته مدخولة» يحتمل وجهين: أحدهما: أنّها ناقصة عن معاملة المقربين التي أوجبت لهم هذه الأحوال، الثاني: أنّها لو كانت صحيحة سالمة لا علة فيها ولا غشّ لأثمرت له الأنس والرضا والمحبة والأحوال العلية، فإنّ الرّبّ تعالى شكور، إذا وصل إليه عمل عبده جمّل به ظاهره وباطنه، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله، فحيث لم يجد له أثرًا في قلبه من الأنس والرضا والمحبة؛ استدل على أنّه مدخول غير سالم من الآفات.

(١) أي: أنّه ليس معك إلا الهياكل الظاهرة للعبادة دون جوهرها وروحها ولبّها، ولم تجد آثارها على قلبك.

(٢) الإحياء (٦ / ٤٤٠) قال الغزالي: «ومعناه: أنّك لم يُفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنّما أنت تُعدّ في طبقات أصحاب اليمين، لأنّ مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم».

(٣) أي: يعطيه ويتفضّل عليه بالطفاف المواهب الربانية لقلوب أوليائه من المحبة والشوق والأنس ونحوها.

الحادي والستون: أن أعمال الجوارح تُضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح لها حدّ تنتهي إليه وتقف عنده، فيكون جزاؤها بحسب حدّها^(١)، وأما أعمال القلوب فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضي لا تفارقه أصلاً وإن توارى حكمها، فصاحبها في مزيد متّصل، فمزيد المحب الراضي متصل بدوام هذه الحال له، فهو في مزيد ولو فترت جوارحه، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام، وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع^(٢).

(١) أي: بقدرها.

(٢) كما قيل: ربّ قائم محروم، ونائم مرحوم! وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسّسه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلده من خشية الله إلا كان مثله مثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحات عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتت عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم! ولمثقال ذرة من برّ مع تقوى ويقين، أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين». وانظر: حلية الأولياء (١/٢١١).

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيداً^(١) نائم بالله، وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم، لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد همته وإرادته، فمن لا يرضيه غير الله ولو أعطي الدنيا بحذافيرها له شأن، ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن، وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة، وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن^(٢) في مسألة، وهي: هل للرضا حدٌ ينتهي إليه؟

فقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: ثلاث مقامات لا حدَّ لها: الزهد والورع والرضا. وخالفه سليمان ابنه - وكان عارفاً حتى إن من الناس من كان يقدمه على أبيه - فقال: بل من تورّع في كل شيء فقد بلغ حدَّ الورع، ومن زهد في غير الله فقد بلغ حدَّ الزهد، ومن رضي عن الله في كل شيء فقد بلغ حدَّ الرضا^(٣).

(١) أي: أن الله تعالى يزيده من فضله أعمال قلب صالحة وأجرًا مذكورًا.

(٢) أي: المهتمين بالسلوك والاجتهاد في التعبّد وأعمال القلوب تنظيراً وتطبيقاً.

(٣) من دقائق الزهد عدم التوسع في المباح لأمر؛ منها الخوف من تعجيل الطيبات، وكان الصحابة هم سادة الزاهدين الورعين الراضين الصالحين، وقد أخرج ابن أبي شيبة رَحِمَهُ اللهُ (٢٤٥٢٤) أن عمر رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ويده لحم قد اشتراه قال: ما هذا؟ قال: اشتريته بدرهم. فقال: «أو كلما قام أحدكم اشترى بدرهم لحماً!» وفي رواية: «كلما انتهيت اشتريت! أما سمعت الله يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك وهي: أهل مقامات ثلاثة^(١)، أحدهم: يحب الموت شوقاً إلى الله ولقائه، والثاني: يحب البقاء للخدمة^(٢) والتقرب، وقال الثالث: لا أختار، بل أَرْضَى بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني وإن شاء أماتني. فتحاكموا إلى بعض العارفين^(٣) فقال: صاحب الرضا أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولاً، وأقربهم إلى السلامة.

=

الَّذِينَ ﴿الْأَخْفَافُ : ٢٠﴾، أما تخافون أن تكونوا منهم؟ وانظر أيضاً: تفسير السمعاني (٥) /

(١٥٧)

(١) «الفرق بين الحال والمقام: أن الحال معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمّد، والمقام يتوصّل إليه بنوع كسب وطلب. فالأحوال عندهم مواهب، والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأما الحال فمن عين الجود». مدارج السالكين (٢ / ٤٤٧)

ولاحظ أنهم جعلوا للمقام معنى القيام، وفيه تكلف القيام، فهو بجهد واكتساب، أما الحال فهو طبيعة وجبلة، ومحض فضل ديني من اللطيف سبحانه، فليس فيه معنى الاكتساب. وتدبر، وأطرب قلبك، وأزقل رجاءك، وأزج رغبتك، وأنش روحك بقول الحق الأعز الأكرم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يُوسُف: ١٠٠]. اللهم رحمتك ولطفك وكرمك وجودك إله الحق.

(٢) لو قال: «للعادة»، فهي أسلم من جهة لفظها شرعاً ومعنى.

(٣) أي: أهل المعرفة بالله، ويعنون بذلك العلم بالله تعالى. والأمر في هذه التسمية واسع إن شاء الله لسلامة لفظها ومعناها، وفي التنزيل: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ : ٦٩]، فالمعرفة هي العلم، ولفظ العلم أشرف لأن الله تعالى

=

=

يوصف بالعلم ومن أسمائه العليم، وقد جاء الثناء في الشرع على العلماء، والعلماء في لسان الشرع هم أهل العلم بعلم الآخرة القرآن والسنة، لا علوم أهل الدنيا. وقد جاء النص بلفظ المعرفة عند الشيخين في حديث إرساله معاذًا إلى اليمن - إن صحّ هذا اللفظ بحروفه دون معناه، لأن أكثر الرواة رواه بألفاظ أخرى - كما في البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩): «فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم: أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات..» الحديث. قال الحافظ في الفتح (١٣ / ٣٥٤): «الاحتجاج به يتوقّف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة، وفيه نظر، لأن القصة واحدة، ورواة هذا الحديث اختلفوا هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره، فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لا يتم الاستدلال. وقد بينت في أواخر كتاب الزكاة أن الأكثر رواه بلفظ: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك..» ومنهم من رواه بلفظ: «فادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك..» ومنهم من رواه بلفظ: «فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله..».

ووجه الجمع بينها: أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: «فإذا عرفوا الله»، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطوعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة، وبالله التوفيق». أه.

وهم قد أرادوا بقولهم: «العارف» أن يخصوه بمن له إحسان تعبّد لله تعالى ومزيد تألّه وتعلّق وعلم بالله تعالى، فيقولون: إنّ العارف هو العالم بالله، أما العالم فهو العالم بشرع الله. ولا يقصدون بذلك أن العالم بالشرع ليس عالمًا بالله تعالى، ولكن يقصدون أن من علماء الشريعة من ليس لهم كبير اهتمام بالعلم بالله تعالى وصفاته والتقرب إليه بخفي العبادة والتفكير والزهد والمناجاة والأنس به والشوق إلى لقائه ونحو ذلك من أعمال

=

ولا ريب أن مقام الرضا فوق مقام الشوق والزهد في الدنيا، بقي النظر في مقامي الآخرين أيهما أعلى؟ فرجّحت طائفة مقام من أحب الموت؛ لأنه في مقام الشوق إلى لقاء الله ومحبة لقائه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ورجّحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالى، واحتجوا بأن الأول محب لحظه من الله، وهذا محب لمراد الله منه، لم يشبع منه ولم يقض منه وطراً.

قالوا: وهذا حال موسى صلوات الله وسلامه عليه حين لطم وجهه ملك الموت ففقأ عينه، لا محبةً للدنيا، ولكن لينفذ أوامر ربه ومراضيه في الناس، فكأنه قال: أنت عبده وأنا عبده، وأنت في طاعته وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره. وحينئذ فنقول في الوجه:

=

القلوب الزاكية المؤكّبة، وأنه يوجد من الناس من قلّ علمه بالعلم بتفاصيل العبادات والمعاملات في الشريعة لكنه قريب من الله بقلبه وقالبه دائم القنوت له والتقرب لمرضاته فسموه لذلك: العارف، وواها لمن جمعهما.

ولا منافاة في الحقيقة بينهما، فقد يفتح الله تعالى لعبده من هذا أو هذا، وقد يجمعها له، فأحق الناس بالعلم بالله هم العالمون بشرعه، فهم يأخذون علمهم من معدن الوحي الكتاب والسنة، وهما فقط سبيل العلم بالله تعالى، ومع كثرة طرق نصوص الوحي للقلب فإنها تثمر الإيمان وزيادته ويقينه وثواره وتزكّيته وتلك هي عين مرادهم من المعرفة. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: قلت لأبي: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال لي: «يا بني؛ كان معه رأس العلم، خشية الله تعالى». ذكره عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٢٣٦).

الثاني والستين: إن حال الراضي المسلّم يتنظم حاليهما جميعاً مع زيادة التسليم وترك الاختيار، فإنه قد غاب بمراد ربه منه من إحيائه وإماتته عن مراده هو من هذين الأمرين، وكلُّ محبٍّ فهو مشتاق إلى لقاء حبيبه، مؤثّرٌ لمراضيه. فقد أخذ بزمام كل من المقامين واتصف بالحالين، وقال: «أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ، لَا أَتَمْنَى غَيْرَ رِضَاهِ، وَلَا أَتَخَيَّرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَا يَجِبُهُ وَرِضَاهُ».

ثم ساق ابن القيم كلام الهروي في منازل السائرين في بيانه لشروط الرضا وشرحها فقال: «قال^(١): الثاني: سقوط الخصومة عن الخلق. يعني أن الرضا إنما يصح بسقوط الخصومة مع الخلق، فإن الخصومة تنافي حال الرضا، وتنافي نسبة الأشياء كلها إلى من بيده أزمّة القضاء والقدر، ففي الخصومة آفات:

أحدها: المنازعة التي تضادُّ الرضا.

الثاني: نقص التوحيد بنسبة ما يُخَصِّصُ فيه إلى عبدٍ دون الخالق لكل شيء.

الثالث: نسيان المَوْجِبِ والسبب الذي جرَّ إلى الخصومة، فلو رجع العبد إلى السبب والموجب؛ لكان اشتغاله بدفعه أجدى عليه وأنفع له من خصومة من جرى على يديه، فإنه وإن كان ظالماً فهو الذي سلَّطه على نفسه بظلمه، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فأخبر أن أذى عدوِّهم لهم وغلبتهم لهم إنما هو بسبب ظلمهم، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) أي: الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل؛ انسَدَّ عنه باب خصومة الخلق إلا فيما كان حقاً لله ورسوله، فالراضي لا يُخاصم ولا يُعاتب إلا فيما يتعلق بحق الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ، فإنه لم يكن يخاصم أحداً ولا يعاتبه إلا فيما يتعلق بحق الله، كما أنه كان لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، فالمخاصمة لحظ النفس تطفئ نور الرضا، وتذهب بهجته، وتبدل بالمرارة حلاوته، وتكدر صفوه.

قال: الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح^(١). وذلك لأن المسألة فيها ضرب من الخصومة والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضر والنفع إلى من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه، وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافاً فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله، ولكن لا يلحفون^(٢) فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف لا مطلق السؤال.

(١) أي: الإلحاح عليهم بقضاء حوائجه.

(٢) الإلحاف هو الإلحاح والإصرار والتقصي في الطلب.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا كَانَ عِنْدَهُ غَدَاءٌ لَمْ يَسْأَلْ عِشَاءً، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ عِشَاءٌ لَمْ يَسْأَلْ غَدَاءً». وقالت طائفة منهم الزجاج والفراء وغيرهما: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً، لأنهم وُصفوا بالتعفف والمعرفة بسيماهم دون الإفصاح بالمسألة، لأنهم لو أفصحوا بالسؤال لم يحسبهم الجاهل أغنياء. ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال فيقع إلحاف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَلَةُ الشَّلْفِيعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، أي لا تكون شفاعاة فتتفع، وكما في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أي لا يكون عدل فيقبل، ونظائره قال امرئ القيس: «على لاحبٍ لا يهتدي بمناره»^(١). قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون البتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف، فيجري هذا مجرى قولك: فلان لا يرجى خيره، أي ليس له خير فيرجى. وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم، لأن المعنى: ليس منهم مسألة فيكون منهم إلحاف، قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

(١) تمامه: إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيَّ جَرَجَرًا.

واللاحب: هو الجادة، أي: الطريق الواضح الذي لحبته الحوافر حتى أثرت فيه فاتضح للسنائر، وهو فاعل بمعنى مفعول أي ملحوب. والمنار: علامات الطريق التي يضعها الناس، ومعنى سافه: أي شمه، والعود: هو الجمل المسنن، ولا زالت دارجة في إطلاقها على البشر، والأنثى عودة وهي فصيحة. والنباطي هو الضخم أو المنسوب للنبط وهم عجم الشام، وجرجر: رغا البعير وضج. والمراد: أي ليس له منارٌ يهتدي به، فليس فيه علم ولا منار.

لا تُفزعُ الأرنبَ أهواها ولا ترى الضبَّ بها ينجر
أي ليس بها أرنب فتفزع لهوها ولا ضبَّ فينجر، وقال الفراء: نفى
الإلحاف عنهم وهو يريد نفى جميع السؤال.

والمسألة في الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة لأنها ظلم في
حق الربوبية، وظلم في حق المسؤول، وظلم في حق السائل، أما الأول: فلائته
بذل سؤاله وفقره وذله واستعطاءه لغير الله، وذلك نوع عبودية، فوضع
المسألة في غير موضعها وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيدِه وإخلاصه وفقره إلى
الله وتوكله عليه ورضاه بقسمه، واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب
الناس، وذلك كله يهضم من حق التوحيد ويطفئ نوره ويضعف قوته.

وأما ظلمه للمسؤول: فلائته سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه
حقاً لم يكن له عليه، وعرضه لمشقة البذل، أو لوم المنع، فإن أعطاه أعطاه على
كراهة، وإن منعه منعه على استحياء وإغماض، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما
إذا سأله حقاً هو له عنده فلم يدخل في ذلك ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه، وذلل لغير خالقه، وأنزل نفسه
أدنى المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحاليتين، ورضي بإسقاط شرف نفسه وعزة
تعففه وراحة قناعته^(١)، وباع صبره ورضاه وتوكله وقناعته بما قسم له

(١)

وقد ترك الأسدُ البلادَ تنزهاً إذا ما كلابُ الحيِّ لجَّ هريها

واستغناؤه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه، إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل شرفها، ووضع قدرها، وأذهب عزّها وصغرّها وحقرّها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم»^(١). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس أموالهم تكثر؛ فإنما يسأل جمرًا فليستقلّ أو ليستكثر»^(٢). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «لأنّ يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «لأنّ يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس؛ خير له من أن يسأل رجلاً، أعطاه أو منعه، ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول»^(٤).

(١) البخاري ١٥٣/٢ (١٤٧٤) ومسلم ٩٦/٣ (١٠٤٠) (١٠٣)

(٢) البخاري ١٥٣/٢ (١٤٧٤) ومسلم ٩٦/٣ (١٠٤٠) (١٠٣)

(٣) البخاري ١٥٢/٢ (١٤٧٠) ومسلم ٩٧/٣ (١٠٤٢) (١٠٧)

(٤) البخاري (١٤٧٠)

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناسًا من الأنصار^(١) سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه

(١) رجال الأنصار الذين اصطفاهم الله على الناس لنصرة نبيه، واحتضان دعوته، وحرب الأحمر والأسود دونه، لهم حق عظيم على الأمة، ولهم سابقة جليلة لا يلحقون إليها، وهم شعار رسول الله ﷺ إذ كان الناس دثاره، وهم من أتقى الناس، وأشجع الناس، وأكرم الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس، وأطيب الناس، قال ابن عباس رضي الله عنهما في الأنصار رضي الله عنهم: «ما استلت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة». يعني الأوس والخزرج. ذكره في غرر الخصائص الواضحة (١ / ١٧٦).

والأوس والخزرج من بني عمرو بن عامر، من الأزد. وهم من وُصفوا بأنهم يكثرُونَ عند الفزع، ويقلُّون عند الطمع. قال كعب بن زهير يمدحهم، وصدق رضي الله عنه وعندهم:

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل	في مقنّب من صالح الأنصار
تزنُ الجبال رزائّةً أحلامهم	وأكفهم خلف من الأمطار
الباذلين نفوسهم لنبيهم	يوم الهياج وسطوة الجبار
والناظرين بأعينٍ مُحَمَّرَة	كالجمر غير كليلّة الإبصار
والمكرهين السّمهريّ بأذرع	كصواقل الهنديّ غير قصار
يتطهّرون كأنّه نسلُ لهم	بدماء من علقوا من الكفار
والذائدين الناس عن أديانهم	بالمشرفيّ وبالقنا الخطّار
والباعثين نفوسهم لنبيهم	للموت يوم تعانق وكرار
وإذا حلّلتَ ليمنعوك إليهم	أصبحت عند معاقل الأعقار

فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكونُ عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يُعِفِّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يُصَبِّرْه الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» (١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف والمساءلة: «اليَدُ العليا خير من اليَدِ السفلى، فاليد العليا هي المُنْفَقَة، واليد السفلى هي السائلة» (٢).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حَكِيم، إِنَّ هذا المَال خِصْرَةٌ حُلُوةٌ،

=

وَهُمْ إِذَا خَوَّتِ النُّجُومُ فَإِيَّاهُمْ	لِلطَّائِفِينَ السَّائِلِينَ مَقَارِي
وَهُمْ إِذَا انْقَلَبُوا كَأَنَّ ثِيَابَهُمْ	مِنْهَا تَضَوُّعٌ فَأَرَاةَ الْعَطَّارِ
وَالْمُطْعَمُونَ الضَّيْفَ حِينَ يَنْوِيهِمْ	مِنْ لَحْمٍ كَوْمٍ كَالْهَضَابِ عِشَارِ
وَالْمُنْعَمُونَ الْمُفْضِلُونَ إِذَا شَتَوْا	وَالضَّارِبُونَ عِلَاوَةَ الْجَبَّارِ
وَرَثُوا الْمَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ	إِنَّ الْكَرَامَ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ

والمشرفية: نسبة إلى مشارف من أرض العرب، والخطار: الرمح حين يهتز لارتفاعه وانخفاضه. والمعقل: الملجأ. والأعقار: الأسد. وفأرة العطار: حويصلة غزال المسك التي يستخرج منها المسك بعد خلطه بمواد أخرى.

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩) ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤)

(٢) البخاري ١٣٩/٢ - ١٤٠ (١٤٢٩) ومسلم ٩٤/٣ (١٠٣٣) (٩٤)

فمن أخذه بسَخَاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم: أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي^(١).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تباعون رسول الله؟». وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تباعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تباعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله»، وأسرّ كلمة

(١) البخاري ١٥٢/٢ (١٤٧٢) ومسلم ٩٤/٣ (١٠٣٥) (٩٦) ومعنى يرزأ: أي لم يأخذ من أحد شيئًا، وأصل الرزء: النقصان، أي: لم ينقص أحدًا شيئًا بالأخذ منه، وإشراف النفس: تطلّعها وطمعها بالشيء. وسخاوة النفس: أي: عدم الإشراف إلى الشيء والطمع فيه والمبالاة به والشره.

خفيّة: «ولا تسألوا الناس شيئاً». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه^(١).

وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسألة كدٌّ يكذب بها الرجل وجهه، إلّا أن يسأل الرجل سلطاناً أو في أمرٍ لا بدّ منه»^(٢). وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يتقبّل لي بواحدة، وأتقبّل له بالجنة؟» قال: قلت: أنا، قال: «لا تسأل الناس شيئاً». فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد: ناولنيه، حتى ينزل هو فيتناوله^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له»^(٤) برزق عاجل أو آجل»^(٥).

وعن سهل بن الحنظلية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على رسول الله عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس فسألاه، فأمر لهما بما سألاه، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا، فأما الأقرع فأخذ كتابه فلفّه في عمامته وانطلق، وأما عيينة فأخذ كتابه

(١) مسلم ٩٧/٣ (١٠٤٣) (١٠٨)

(٢) الترمذي (٦٨١) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢٢٤٠٥) وصححه محققوه.

(٤) أي: أسرع له.

(٥) أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وأحمد

(٣٨٦٩) وحسنه محققوه.

فقال: أراني حاملاً إلى قومي كتاباً لا أدري ما فيه، كصحيفة المتلمس! ^(١) فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار»، وفي لفظ: «من جمر جهنم» قالوا: يا رسول الله؛ وما يغنيه؟ وفي لفظ: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة؟ قال: «قدر ما يغديه وما يعشيه» ^(٢). وفي لفظ: «أن يكون له شبع يوم وليلة» ^(٣).

(١) صحيفة المتلمس: لها قصة مشهورة عند العرب، والمتلمس شاعر جاهلي، كان قدم هو وطرفة ابن العبد الشاعر على الملك عمرو بن المنذر، فأقاما عنده، فنقم عليهما أمراً إذ هجاه طرفه، فكتب لهما كتابين إلى عامله بهجر، يأمره بقتلهما، وقال لهما: إني قد كتبت لكما بصلة، فاجتازوا بالخير، فأعطى المتلمس صحيفته صبيّاً فقرأها فإذا فيها يأمر عامله بقتله، فألقاها في الماء، وذهب وقال لطرفه: افعل مثل فعلي؛ فإن صحيفتك مثل صحيفتي، فأبى عليه، ومضى بها إلى عامل الملك، فأمضى فيه حكمه وقتله. وانظر خبرهما مفصلاً في: وقد يجمع الله الشيتين. للمؤلف.

(٢) قوله: «ما يُغديه وما يعشيه» قال البغوي في شرح السنة (٨٦/٦): قال بعضهم: من وجد غداء يومه وعشاءه لم تحل له المسألة، على ظاهر الحديث، وقال بعضهم: إنما هو فيمن وجد غداءه وعشاءه على دائم الأوقات، وقال بعضهم: هذا منسوخ بأحاديث كحديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٧٥) وحسنه محققوه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه؛ جاءت يوم القيامة خدوشاً، أو كدوشاً في وجهه»، قالوا: يا رسول الله، وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً، أو حسابها من الذهب».

(٣) أحمد (٧٦٣٥) وصححه محققوه، وأبو داود (١٦٢٩) وصححه الألباني، وعند أحمد أن الذي ذكر صحيفة المتلمس هو الأقرع.

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلتُ حمالة^(١) فأتيت النبي ﷺ أسأله فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فأمر لك بها» ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَى^(٢) من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش. فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحَتْ يأكلها صاحبها سحتًا»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سرّحتني أُمّي إلى رسول الله أسأله، فأتيتُه فقعدت قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعفّ أعفّه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». فقلت: ناقتي هي خير من أوقية، ولم أسأله^(٤).

وعن خالد بن عدي الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «من جاءه من أخيه معروفٌ من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»^(٥). فهذا أحد المعنيين في قوله: إن من شرط الرضا: ترك

(١) أي: تحمّل دينًا في سبيل الإصلاح بين المتخاصمين، ديةً أو سواها.

(٢) أي: من ذوي الألباب ممن عُرفوا برجاحة العقول من قومه العارفين بشأنه.

(٣) مسلم ٩٨/٣ (١٠٤٤) (١٠٩)

(٤) أبو داود (١٦٣٠) وحسنه الألباني. ومعنى ألحف: ألحّ وأسرف من غير ضرورة.

(٥) أحمد (١٧٩٣٦) وصححه محققوه.

الإلحاح في المسألة، وهو أليق المعنيين وأولاهما، لأنه قرّنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقّه، ولا يطلب منهم حقوقه. والمعنى الثاني: أنه لا يلحّ في الدعاء ولا يبالغ فيه، فإن ذلك يقدر في رضاه، وهذا يصح في وجه دون وجه، فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة، وأما إذا ألحّ على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه فإن ذلك لا يقدر في مقام الرضا أصلاً. وفي الأثر: «إن الله يحب الملحّين في الدعاء»^(١).

(١) قال في كشف الخفاء (١ / ٢٤٦): «رواه الطبراني وأبو الشيخ والقضاعي عن عائشة مرفوعاً». وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٩٥): «بسند رجاله ثقات، إلا أن فيه عنعنة بقبّة عن عائشة مرفوعاً». أهد. وقد قالوا: عنعنة بقبّة غير نقية! وحكم عليه الألباني في إرواء الغليل (٣ / ١٤٣) (١٦١) بالوضع. والمؤلف لم يرفعه، بل ذكره أثراً، ومعناه صحيح. قلت: والأظهر أنّ الإلحاح على الله تعالى حتى بحظوظ المرء العاجلة المباحة لا ينافي الرضا ولا يُنقصه ما دام محرّكاً قلبه بأن الخيرة فيما اختاره الله وأنه راض بالله وبما قسم الله، لأنّ الدعاء بذاته عباده، والله يحب الملحّين بالدعاء الملطّين بالابتهاال، فهذا الدعاء بأمر دنيا. وإن كان دون دعائه بمعالي الآخرة. إلا أنه عبادة، كما أنه وسيلة لتقرّغ القلب عن شغله الذي تلبّسه من حاجة شوّشت عليه جمعيته، أو بليّة بلبت باله، أو رغبة يراها موصلة لمرضاة الله، أو دافعة لذريعة سخطه، ونحو ذلك. فما دام قلبه راضٍ بربه في دعائه فهو على خير عظيم حتى وإن كان يدعو في جلب ملح طعامه أو رتق قربته أو شفاء جرحه أو تيسير دراسته وعمله ونحو ذلك، مع استحضار ألا يكون الدين إلحاحاً في أمور الدنيا دو الدين والآخرة فهذا حرمان وخسران وميل ميزان، فالدنيا كلها وسيلة لا غاية، فكيف يلحّ في الوسيلة ويُجمل في الغاية، إنّ هذا هو الحرمان المبين والخذلان العظيم والخيبة المخوفة والغبن الفاحش والصفقة الخاسرة، فالموفق من ولد

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم بدر للنبي ﷺ: «يا رسول الله، قد ألححت على ربك، كفاك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١). فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيا لرضاه.

وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه في رضاه، بل الذي ينافي الرضا أن يلح عليه متحكماً عليه متخيئاً عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح على ربه في ولاية شخص أو إغنائه أو قضاء حاجته، فهذا ينافي الرضا لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

=

آدم من رفع عماد الآخرة في قلبه إذ رفعها الله تعالى ووضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى، فهذه هي جامعة الوصايا للسالكين.

كما أن القول بذلك قد يُغلق دون الناس باباً قد شرعه لهم مولاهم ليدعوه ويسألوه، فهم خلقه ومماليكه ومحاوليه ومواليه وعبيده وضعفائه ومساكينه وفقراؤه ومربوبوه ومرحوموه، وهو خالقهم ومالكهم وسيدهم ومولاهم وربهم ومربيهم ومنعمهم ومكرمهم وواهبهم وراحمهم وحافظهم ورازقهم وكافلهم وصمدهم وقيومهم تبارك وتعالى، فمن نقصان المرء استحساره عن الدعاء.

وبالجملة؛ فمهما كان الإلحاح فهو فرع عن الدعاء، فإن قبلت الأصل؛ فلتقبل فرعه ما دام القلب مطمئناً بالرضا عن ربه وبه. وسيأتي بسط ذلك فيما يُستقبل إن شاء الله تعالى.

(١) أحمد (٤٤٢/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨) والترمذي (٥ / ٤٥٦) (٣٣٧٣)

وحسنه الألباني.

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجة يُباح له سؤاله إياها، فيلجّ على ربه في طلبها حتى يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله والذلّ بين يديه وتملّقه والتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وتفريغ القلب له وعدم تعلّقه في حاجته بغيره ما لم يحصل له بدون الإلحاح، فهل يكره له هذا الإلحاح وإن كان المطلوب حظاً من حظوظه؟ قيل: ها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: أن يفنى بمطلوبه وحاجته عن مراده ورضاه^(١)، ويجعل الرب تعالى وسيلة إلى مطلوبه، بحيث يكون أهمّ إليه منه، فهذا ينافي كمال الرضا به وعنه.

الثاني: أن يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله ومحبته والذلّ له والخضوع والتملّق ما ينسيه حاجته، ويكون ما فُتح له من ذلك أحبّ إليه من حاجته، بحيث يجب أن تدوم له تلك الحال، وتكون أثر عنده من حاجته، وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عَجَّلت له وفاته ذلك، فهذا لا ينافي رضاه^(٢).

(١) أي: أن يَغيبَ أو يضعفَ شهودُ معيّة الله ومناجاته وقربه عن قلبه بسبب انسدادهِ بشرهِهِ لدرك حاجته الدنيوية.

(٢) فوسيلته أحبّ إليه والذلّ وأنفع وأطيب من غايته، كما قيل: «يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك». وقيل: «يا ابن آدم، البلاء يجمع بينك وبين الله، والعافية تجمع بينك وبين نفسك».

وقيل: «كلّ كسرٍ أَلْجَأَكَ إلى الله فهو جبر وإن أوجعك». فالرجوع بالقلب إلى الله إقبالاً على مرضاته هو الهدف، ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]

وقال بعض العارفين: «إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها، فيفتح عليّ من مناجاته ومعرفته والتدليل له والتملّق بين يديه ما أحبّ معه أن يؤخر عنيّ قضاءها، وتدوم لي تلك الحال». وفي أثر: «إن العبد ليدعو ربه عز وجل، فيقول الله عز وجل لملائكته: اقضوا حاجة عبدي وأخروها، فإنّي أحبّ أن أسمع دعاءه. ويدعوه آخر فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجته وعجلوها، فإنّي أكره صوته»^(١)»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء»^(٣). وروى أيضا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ليسأل أحدكم ربه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»^(٤). وفيه أيضا

=

وكل نعمة لا تقربك إلى الله فهي نقمة، وكل مصيبة قربتك إلى الله فهي نعمة، ومن استشعر موازين الآخرة تغيّرت نظرتة للنعم والمصائب، واعتدلت له الموازين.

(١) أي: دعاءه.

(٢) الدعاء للطبراني (٨٧) والمعجم الأوسط (٨٤٤٢) بنحوه. وضعفه الألباني في السلسلة

(٥ / ٣٢١) (٢٢٩٦)

(٣) الترمذي (٥ / ٤٦٢) (٣٣٨٢) وحسنه الألباني.

(٤) الترمذي (٢٢٥٢) وحسنه الألباني في المشكاة وضعفه في الجامع. وقال الحافظ ابن

حجر في الزوائد: (٣٠٥): «إسناده حسن». وصوّب أيمن صالح شعبان في تخريج

جامع الأصول (٤ / ١٦٦) إرساله. وقد جاء بنحوه عند أبي يعلى (٣٤٠٣) بدون ذكر

=

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما سئل الله شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية، وإن الدعاء لينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»^(١). وإذا كانت هذه محبة الرب تعالى للدعاء فلا ينافي الإلحاح فيه الرضا^(٢).

الثالث: أن ينقطع طمعه من الخلق، ويتعلق بربه في طلب حاجته، وقد أفرد بالطلب، ولا يلوي على ما وراء ذلك. فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب وإفراد الرب بالقصد، والفرق بينه وبين الذي قبله: أن ذلك قد فتح عليه بما هو أحب إليه من حاجته، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظفره بما فتح عليه. وبالله التوفيق»^(٣).

واعلم يا مُحِبَّ - رحماني الله وإياك - أنك لن تبلغ حقيقة الرضا حتى تكون مع نفسك كنوح مع سفينته التي أطلقها في اللجة مُسَلِّماً راضياً وبالله فرحاً مستبشراً؛ فاهتف معه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ فَجَرَّهَا وَمُرْسَلَهَا﴾ [هود: ٤١]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، ﴿إِنَّ

=

الملح، وقال عنه حسين سليم أسد: إسناده صحيح، على شرط مسلم، وكذلك صححه سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد (١ / ١٨٤).

(١) الترمذي (٣ / ١٧٧) (٢٨١٣) وصححه الألباني.

(٢) الإلحاح بالدعاء عبادة، والعبادة وسيلة الرضا، فالإلحاح إلى الله تعالى بدعائه هو من وسائل الرضا وأسبابه.

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٥ - ٢٤٠) باختصار.

رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هُود : ٦١]، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ﴾ [هُود : ٨٨].

أَيَا صَاحٍ فَاسْمَعْ مِنْ وَصَايَايَ عِبْرَةً	وَكُنْ ثَابِتًا فِي الدِّينِ كَالطُّودِ رَاسِيَا
وَادْعُ إِلَهَ الْحَقِّ يُعْطِيكَ مِيتَةً	بِكَبْدِ الْوَعَى شَعْنًا صَرِيحَ الْعَوَادِيَا
بَعِيدًا وَنَائِي الدَّارِ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ	خَرَجْتَ سَلِيمَ الْقَلْبِ تَتْلُو الْمَثَانِيَا
فَمَنْ يَطْلُبِ الْعُلْيَا بَيْتُ مُسَهَّدًا	وَلَيْسَ بِمَيْتِ الْقَلْبِ لِلَّهِو سَارِيَا
وَيُصْبِحُ صَوًّا كَثِيرًا دُعَاؤُهُ	إِلَى اللَّهِ يَمْضِي وَهُوَ لِلشَّرِّ قَالِيَا
يُحْنُ تُرَابُ الْأَرْضِ مِنْ صِدْقِ دَمْعِهِ	وَيُشْبَهُ حِينَ الْوَتْرِ إِحْدَى السَّوَارِيَا
سَخِيًّا بِذِي الدُّنْيَا ضَمِينًا بِدِينِهِ	سَحَابًا كَمَا الْأَطْوَادِ سُودًا غَوَادِيَا
وَلَا تَكْسَلَنْ جَبِّي عَنِ الْعِلْمِ سَاعَةً	وَمَا فَاتَ وَلِيَّ فِي لِيَالٍ خَوَالِيَا
وَسَارِعْ إِلَى الْقُرْآنِ حِفْظًا وَفِكْرَةً	وَمَنْ ثُمَّ فَاعْكَفْ لِلْأَحَادِيثِ جَاثِيَا
وَاسْأَلْ إِلَهَ الْعَرْشِ يُخَيِّكَ عَالِمًا	فَمَنْ ذَاقَ شَهْدَ الْعِلْمِ عَافَ الْغَوَانِيَا



العزمُ على الرِّضا لا يستلزم الرِّضا

زمن العزم متقدم على زمن الرضا، فالعزم سابق ماضٍ والرضا آنٍ حاضر، لذا فقد يعزم الإنسان على أمر من الأمور كالرضا أو غيره فيعرض له عارضٌ عجزٍ أو ملال أو تغيرٌ قناعة أو نسيان أو استغناء أو طروء أمر جد له فتتفسخ عزمته وتبرد إرادته خاصة مع طول المدى وامتداد الزمن، لذلك كان القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، والديمُّ خيرٌ من القاشِع، وعلامةُ صدق العزيمة ثباتها، وبرهانُ صدق الرغبة ديمومة حضورها، والثبات والاستمرار على العمل الصالح محض توفيق الرب الرحيم سبحانه، فأنت ترغب وتريد والله يفعل ما يريد، والمُوفِّقُ من عباد الله هو مَنْ أثبت الصالحات كيما تعتادها نفسه ويألفها طبعه وتكون جزءاً من شخصيته وتكوينه، وبالمقابل يقتل رغبات المحرمات من جذورها حتى لا تستحكم فيصعب جهادها، وتثقل التوبة عنها، فيُثبت الصالحات بالمداومة عليها، ويُنجي عن صحيفته ومنهاجه الخطيئات قدر وسعه وطاقته. والسعيد من ثبته هاديه على هداه.

فبما أنَّ القلبَ قُلْبٌ والنفسَ حُرُونٌ والرُّوحَ شُرُودٌ؛ فقد يعزم المرء على الرضا حتى إذا نزلت به النازلة عجز عن احتمال ورودها فخارت عزمته ونقض ما كان أبرمه من عزمه على الرضا، فكسرت المصيبةُ ساقَ عزمه المُبتَغى، وفَلَّت البليةُ رضاه المظنون، وانتقض من هِمَّتِه ما رَامِه في ابتداء، وانفسخ عن قلبه ما كان يرجو من وفاء، والله المستعان. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه

والرضاء بعد وقوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «اللّهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق؛ أحييني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. اللّهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، اللّهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة، اللّهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا، ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء، فإذا وقع انفسخت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ أَلْمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] [الصف: ٢-٣] نزلت هذه الآية لما قالوا: «لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه»، فأنزل الله آية الجهاد، فكرهه من كرهه.

ولهذا كُره للمرء أن يتعرّض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه

(١) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦)

طاعون، كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه: «نهى عن النذر، وقال: إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»^(١).

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنتَ عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٢).

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»^(٣).

وثبت في الصحيحين أنه قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(١).

(١) البخاري (١٧٦/٨) مسلم (٧٧/٥) (٧٨)

(٢) البخاري ٧٩/٩ (٧١٤٦)، ومسلم ٨٦/٥ (١٦٥٢) (١٩)

(٣) البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣) ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢) قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

«قال بعض أهل العلم: إنه نوع خاص من الوباء، وإنه عبارة عن تقرحات في البدن

تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه، وقيل: إن الطاعون وخز في

البطن يصيب الإنسان فيموت، وقيل: إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة،

كالكوليرا وغيرها، وهذا أقرب». شرح رياض الصالحين (٣٥٥/٤)

وقد ذكر ديورانت في قصة الحضارة أن الطاعون كان يُطلق في أوروبا على كل وباء مُعدي إلى

عام (١٥٠٠ م) وبعدها فصلوا الأمراض الوبائية القاتلة كالجدري والحصبة والتيفوئيد.

وانظر: نافذة على قصة الحضارة (١٨) للمؤلف.

وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء فيبخل بالوفاء، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهدًا على أمور، وغالب هؤلاء يُبتلون بنقض العهد.

وينبغي أن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت، ولا يكلّ، حتى يكون من الرجال المؤفين القائمين بالواجبات^(٢). «وما أكثر انفساخ العزائم، خصوصًا عزائم الصوفية، ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم»^(٣).

ومن حسنت نيته وعظمت همته وصدق حاله؛ فإن الله تعالى لا يجيبه في إراداته وعزائمه، فهو على خير وإلى خير بإذن الله تعالى، ولكن خبث المعدن وسوء الطوية وضعة المهمة أسباب لرفع المعونة الربانية عنه.

(١) تمامه: ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم». رواه البخاري ٦٢/٤ (٢٩٦٦) ومسلم ١٤٣/٥ (١٧٤٢) قال العثيمين: «في الحديث: ألا يتمنى الإنسان لقاء العدو، وهذا غير تمنّي الشهادة، تمنّي الشهادة جائز بل قد يكون مأمورًا به. وفيه أن يسأل الله العافية والسلامة، وإذا لقيت العدو فاصبر، وينبغي لأمر الجيش أن يرفق بهم ويختار الوقت المناسب من الناحية اليومية والفصلية، وفيه الدعاء على الأعداء بالهزيمة». شرح رياض الصالحين (١٣١/١)

(٢) أمراض القلوب (١ / ٥٣-٥٤) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٧-٣٩)

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٨٩) وانظر: انفساخ العزائم وانتقاض الدعائم. للمؤلف.

والله تعالى عند ظن عبده به، فمن ظن به خيراً وجدَّ له وجده، ومن ظن به سوءاً فهو وما ظنّه، وقد أفلح محسنو الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، تبارك وتعالى ربنا الأعلى العظيم.

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِئًا وَالْبُخْلُ مِنْ سَوْءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ



الرضا بالله رباً وإلهاً

للإيمان بالله خُلِقْنَا، ولأجل تحقيق عبادته أوجدنا، ومعيار الفوز والخسار يوم الدين على وفق ذلك، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الدَّارِيَات: ٥٦]، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الْعُرُورِ ١٨٥] [آل عمران: ١٨٥].

والرضا بالله متأكد أكثر من الرضا عن الله؛ لأنه مُصَحِّحُ الإيمان، ولا يصدر إلا من مؤمن، فقد يرضى الكافر بالقضاء، ولكن لا يرضى بالله إلا مؤمن موحد، ومن رضي بالله لزم أن يرضى عن الله، فاستحق أن يرضى عنه الله كرمًا من الله تعالى.

ألا وإنَّ للإيمان حلاوة وطلاوة ونعيمًا وسعادة وراحة ولذة لا تشبه سواها من لذائد العقل ومشتهيات الجسد ومتع الروح، يجدها من ذاقها، فنَهَلَ وَعَبَّ من بحر الرضا بالله وبدينه وبرسوله ﷺ، فوها لتيك المنازل!

وإنَّ رضا العبد بربه موصل لرضا ربه عنه سبحانه، فمن رضي بالله ربًّا أذاقه الله تعالى إيمانًا يجد حلاوته في قلبه. قال رسول ﷺ: «ذَاقَ طَعَمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» (١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالرضا بإلهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه

(١) رواه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به. فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني: يتضمن رضاه بما يُقدَّر عليه.

وأما الرضا بنبيِّه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقَّى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكمُ إلا إليه، ولا يُحكَّمُ عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه. لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غداء المضطر إذا لم يجد ما يقوته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى: رضي كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلَّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلّده وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرّد، فإنّه والله عينُ العزّة والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به والرضا به ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلّما وجد مسّ الاغتراب وذاق حلاوته وتنسّم روحه قال:
اللّهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأنسًا بك. وكلّما ذاق حلاوة هذا
الاغتراب وهذا التفرد؛ رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والدّلّ عين العزّ
بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد
برسومهم وأوضاعهم.

فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم
فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا
انقطعت الأسباب وحقّت الحقائق وبُعِثَ ما في القبور وحصل ما في الصدور
وبُليت السرائر ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر؛ تبين له حينئذ
مواقع الربح والخسران، وما الذي يخفّ أو يرجح به الميزان، والله المستعان
وعليه التكلان.

والرّضا بالله ربًّا: أن لا يتخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به
حوادثه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيدًا وإلهًا». يعني فكيف أطلب ربًّا
غيره وهو ربّ كل شيء.

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١٤﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالات التي
تتضمّن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني

وبينكم فتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحُكَّام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا ولا يبغي ربًّا سواه لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا، بل يوالي من دونه أولياء ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاته خواص الملك، وهذا عين الشرك! بل التوحيد ألا يتخذ من دونه أولياء.

والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء. وهذا غير موالاته أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته. فموالاته أوليائه لونٌ واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه ربًّا ولا إلهًا ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه^(١). هذا هو الرضا بالله إلهًا، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا، فمن أعطى الرضا به ربًّا حقَّه سخط عبادة ما

(١) دونه: أي غيره وسواه.

دونه قطعاً؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

ولا بدّ أن يكون الله عز وجل أحبّ شيء إلى العبد. وهذه تُعرف بثلاثة أشياء:

أحدها: أن تسبق محبته إلى القلب كل محبة، فتتقدم محبته المحابّ كلها.

الثاني: أن تقهر محبته كل محبة فتكون محبته إلى القلب سابقة قاهرة، ومحبته غيره متخلفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبته.

الثالث: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبته، فيكون هو المحبوب بالذات والقصد الأول، وغيره محبوباً تبعاً لحبه، كما يطاع تبعاً لطاعته، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب. وهذه الثلاثة في كونه أولى الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضاً.

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب المُعظّم المطاع، فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه. ومتى أحبّ معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه فهو مشرك، ومتى أفردّه وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد.

والرضا بالله أكّد من الرضا عن الله؛ فإن الرضا بالقضاء يصحّ من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرضا به ربّاً وإلهّاً ومعبوداً؟!

وأيضاً فالرضا به ربّاً فرض، بل هو من أكد الفروض باتفاق الأمة، فمن لم يرض به ربّاً لم يصحّ له إسلام ولا عمل ولا حال، وأما الرضا بقضائه فأكثر

الناس على أنه مستحب وليس بواجب، وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرقٌ ما بين الفرض والندب، وفي الحديث الإلهي^(١) الصحيح: يقول الله عز وجل: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه»^(٢). فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضًا فإن الرضا به ربًّا يتضمن الرضا عنه ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه ويقسمه له ويقدره عليه ويعطيه إياه ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به ربًّا من جميع الوجوه، وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها، فالرضا به ربًّا من كل وجه يستلزم الرضا عنه ويتضمّنه بلا ريب.

وأيضًا فإن النبي ﷺ علّق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًّا، ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً»^(٣). فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيّه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها.

(١) يسمّى حديث إلهي وقديسي وربّاني لإضافته إلى الله تبارك وتعالى.

(٢) البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٢) وهو حديث الولي المشهور، وللحافظ ابن رجب فيه رسالة لطيفة.

(٣) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

وأيضاً فالرضا به ربّاً يتضمّن توحيده وعبادته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه، والشكر على نعمه يتضمّن رؤية كلّ ما منه نعمة وإحساناً وإن ساء عبده، فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله والرضا بمحمد ﷺ رسولاً يتضمّن شهادة أن محمداً رسول الله، والرضا بالإسلام ديناً يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضاً فالرضا به ربّاً يتضمّن اتخاذه معبوداً دون ما سواه واتخاذه وليّاً ومعبوداً وإبطال عبادة كل ما سواه، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَغْيِرْ اللَّهُ أَبَتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغْيِرْ اللَّهُ أَتَّخِذُ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغْيِرْ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضا به ربّاً.

وأيضاً فإنه جعل حقيقة الرضا به ربّاً أن يسخط عبادة ما دونه، فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة حبّاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وإجلالاً فقد تحقق بالرضا به ربّاً الذي هو قطب رحي الإسلام.

وإنما كان قطب رحي الدين لأن جميع العقائد والأعمال والأحوال إنما تُبنى على توحيد الله عز وجل في العبادة وسخط عبادة ما سواه، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رَحَى تدور عليه، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرَّحَى ودارت على ذلك القطب، فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام، فتدور رحي إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضاً فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفاً على كون المرضي به ربّاً سبحانه أحبّ إلى العبد من كل شيء وأولى الأشياء بالتعظيم

وأحق الأشياء بالطاعة، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية وينتظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب؛ كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه، وكلما كان الميل أقوى كانت الطاعة أتمّ والتعظيم أوفر، وهذا الميل يلزم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولُبُّه، فأَيُّ شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما في الصحيح عنه أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»^(١).

فعلّق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا، وعلّق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد هو ورسوله ﷺ.

ولما كان هذا الحبّ التام والإخلاص الذي هو ثمرته أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه؛ كانت ثمرته أعلى وهي وجد حلاوة الإيمان، وثمره الرضا ذوق طعم الإيمان، فهذا وجد حلاوة، وذلك ذوق طعم، والله المستعان.

(١) البخاري ١٠/١ (١٦) ومسلم ٤٨/١ (٤٣) (٦٧)

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده ربًّا والبراءة من عبودية ما سواه وميل القلب بكليته إليه وانجذاب قوى المحب كلها إليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به، فمن رضي بالله ربًّا رضي الله له عبدًا، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه إن لم يرض به ربًّا وبنبيِّه رسولًا وبالإسلام دينًا، فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبودًا وإلهًا، ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا كما قال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمَسَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحَمَّدٍ رسولًا، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النَّازِعَاتِ: ١١٩]، وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المُجَادَلَةِ: ٢٢]، وقال في آخر سورة «لم يكن»: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [الْبَيْتَةِ: ٨].

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٣٣٧/٤) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

فتضمّنت هذه الآيات جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائهم وعدم ولايتهم؛ بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا وبمحمد نبيًّا وبالإسلام دينًا^(١).

ومن أراد الغنى فليرض عن قسمة ربّه له مهما تصرّفت به الأحوال، وكم من عاقبة حميدة اجتلبها بلاءٌ شاقٌّ، وإنّ العبد إذا اتّخذ الله ربًّا له ومعبودًا لا شريك له؛ فإنّ ربّه يشكره ويغنيه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات، فيعمل بهن، أو يُعلّم من يعمل بهن». فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعدّ خمسًا، وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(٢).

وإنّ الرضا بالله ربًّا يقتضي التسليم لأمره، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين^(٣) وكان ظئرًا^(٤) لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبراهيم يجود بنفسه - فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٢ - ٢٤٢) مختصرًا.

(٢) أحمد في المسند (٢ / ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥) واللفظ له وحسنه الألباني. وقال محقق

جامع الأصول (١١ / ٦٨٧): حديث حسن.

(٣) القين: الحداد.

(٤) الظئر: المرضعة ولد غيرها واللفظ له. وزوجها ظئر لذلك الرضيع.

عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله. فقال: «يا ابن عوف إنّها رحمة». ثم أتبعها بأخرى. فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنّها روحٌ تذوب فتقطرُ
والرضا بالله تعالى حقيقته تسليمٌ مطمئنٌ له ساكنٌ إليه واثقٌ به مستسلم
له فرحٌ به مهما تصرّفت أحواله، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب الصحيح: هو
الذي همّه كله في الله، وحبّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له،
ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم
على مراضيه ومحابّه، والخلوة به أثرٌ عنده من الخلطة؛ إلا حيث تكون الخلطة
أحبّ إليه وأرضى له، قُرّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كما وجد من
نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، فهو يُردّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من
ربه يوم لقائه؛ فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية،
فتصير العبودية صفة وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي
المحب المتيمّم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

فكلما عَرَضَ له أمر من ربه أو نهي أحسّ من قلبه ناطقًا ينطق: لبيك
وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليّ الحنّة في ذلك، والحمد فيه عائد
إليك.

(١) البخاري، الفتوح ٣ (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥)

وإذا أصابه قَدَرٌ وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تُصبرني، ولا قوة لي إن لم تحمِلني وثَقَوْنِي، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكلِّيته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمةً أُهْدِيَتْ إليّ، ودواءً نافع من طبيب مشفق، وإن صُرِفَ عنه ما يجب قال: شرٌّ صُرِفَ عني:

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خَرْتُ لِي فِي انْصِرَافِهِ وَمَا زِلْتُ بِي مِنْ بِي أَبْرَ وَأَرْحَا
فكل ما مسّه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

مَا مَسَّنِي قَدَرٌ بِكُرِّهِ أَوْ رِضًا إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقًا
أَمْضِ الْقَضَاءَ عَلَى الرِّضَا مِنْ بِي إِنَّي وَجَدْتُكَ فِي الْبَلَاءِ رَفِيقًا
فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها، ولا سيّا يوم تُبْلَى السرائر!
سَيَبْدُو لَهَا طِيبٌ وَنُورٌ وَبَهْجَةٌ وَحُسْنُ ثَنَاءٍ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

تالله لقد رُفِعَ لها عَلمٌ عَظيمٌ فشَمَّرتْ إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى؛ فلم تستجب له، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه»^(١).

وإن من تمام الرضا تمام التسليم وحسن التبعّد، وثمرّة العلم العمل، والعلم بالله يقرب البعيد ويزهد في الدنيا ويوصل إلى الله، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «قال أحمد بن حنبل: «وهل يُراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟».

تأملت حالاً عجيبة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة. فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته، ولطيف حكمته. ثم عاد فنقضها فتحيّرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سرّ ذلك الفعل. فأعلمت أنها ستُعاد للمعاد، وأن هذه البنية لم تُخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة، وتتجرّ في موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك.

ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه، مثل احترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه. وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبويه يتململان. ولا يظهر سرُّ سلبه، والله الغني عن أخذه، وهما أشد الخلق فقراً إلى بقاءه. وأظرف منه إبقاء هَرِمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيه إلا مجرد أذى. ومن هذا

(١) إغاثة اللهفان (١/١٢٢).

الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسعته على الكافر الأحمق. وفي نظائر لهذه المذكورات يتحيرّ العقل في تعليلها، فيبقى مبهورًا! (١)

فلم أزل أتلّح جملة التكاليف، فإذا عجزت قُوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل، علّمت قصورها عن درك جميع المطلوب، فأذعنت مُقرّة بالعجز. وبذلك تؤدي مفروض تكليفها.

ثم هتف بي هاتف من باطني: دعني من صبر على الأقدار، فإني قد اكتفيت بأنموذج ما شرحت، وصِفْ حال الرضا، فإني أجد نسيماً من ذكره فيه روح للروح.

فقلت: أيها الهاتف اسمع الجواب، وافهم الصواب: إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته رضيت بقضائه، وقد يجري في ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعمها الراضي. أما العارف فتقلّ عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة. فإذا ترقّى بالمعرفة إلى المحبة، صارت مرارة الأقدار حلاوة، كما قال القائل:

عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبٌ

(١) وتأمل قول الله تعالى في الخس على الرضا بالمعاش والرزق والخط: ﴿تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب : ٥١] ، فقرّ العيون وشفاء المحزون في الرضا بقضاء الحكيم العليم البر الرحيم.

وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِي مِنَ الْحَبِّ أَنِّي لِمَا تُحِبُّ أَحِبُّ

وقال بعض المحبين في هذا المعنى:

ويقبَحُ مِنْ سِوَاكَ الْفَعْلُ عِنْدِي فَتَفْعَلْهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ
فصاح بي الهاتف: حدثني بماذا أَرْضِي؟ هبْ أَنِي أَرْضِي فِي أَقْدَارِهِ بِالْمَرَضِ
والفقر، أَفَأَرْضِي بِالْكَسْلِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَالبعد عَنْ أَهْلِ مَحَبَّتِهِ؟ فَيَبِّينْ لِي مَا الَّذِي
يَدْخُلُ تَحْتَ الرِّضَا مِمَّا لَا يَدْخُلُ.

فقلت له: نَعَمْ مَا سَأَلْتَ، فَاسْمَعْ الْفَرْقَ سَمَاعٍ مِنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ
شَهِيدٌ: ارْضَ بِمَا كَانَ مِنْهُ، فَأَمَّا الْكَسْلُ وَالتَّخَلُّفُ فَذَاكَ مَنْسُوبٌ إِلَيْكَ، فَلَا
تَرْضَى بِهِ مِنْ فَعْلِكَ. وَكُنْ مُسْتَوْفِيًا حَقَّهُ عَلَيْكَ، مُنَاقِشًا نَفْسَكَ فِيهَا يَقْرَبُكَ مِنْهُ،
غَيْرَ رَاضٍ مِنْهَا بِالتَّوَانِي فِي الْمَجَاهِدَةِ.

فأما ما يصدر من أَقْضِيَّتِهِ الْمَجْرُودَةِ الَّتِي لَا كَسْبَ لَكَ فِيهَا؛ فَكُنْ رَاضِيًا بِهَا،
كَمَا قَالَتْ رَابِعَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا^(١) وَقَدْ ذَكَرَ عِنْدَهَا رَجُلٌ مِنَ الْعُبَادِ يَلْتَقِطُ مِنْ

(١) أم عمرو رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، الزاهدة، العابدة، الخاشعة. ولاؤها
للعتكين. ولها سيرة في جزء لابن الجوزي.

قال خالد بن خدّاش: سمعت رابعة صالحًا المرّي يذكر الدنيا في قصصه، فنادته: «يا
صالح، من أحب شيئًا أكثر من ذكره». وعن حماد، قال: دخلت أنا وسلام بن أبي مطيع
على رابعة، فأخذ سلام في ذكر الدنيا، فقالت: «إنما يذكر شيئًا هو شيء، أما شيء ليس
بشيء فلا». ومن كلامها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم». وعن جعفر بن

مزبلة فيأكل، فقيل: هَلَّا سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا؟ فقالت: «إن الراضي لا يتخير». ومن ذاق طعم المعرفة؛ وجد فيه طعم المحبة، فوقع الرضا عنده ضرورة.

=

سليمان قال: سمعت رابعة تقول لسفيان الثوري: «إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم، فاعمل». وعن عبدة بنت أبي شوال، وكانت تخدم رابعة العدوية، قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر، هجعت هجعة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول: «يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا ليوم الشور». وقد اشتهرت بالصلاح والزهد والعبادة ونُطِقَ الحكمة على لسانها. كما نقل عنها شطحات لا توافق عليها، وقد لا تصح نسبتها إليها. قال أبو سعيد بن الأعرابي: أما رابعة، فقد حمل الناس عنها حكمة كثيرة، وحكى عنها سفيان وشعبة وغيرهما ما يدل على بطلان ما قيل عنها. قيل: عاشت ثمانين سنة. وتوفيت سنة ثمانين ومئة. وانظر: (سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤٣) وفيات الأعيان (٣ / ٢١٥)، شذرات الذهب (١ / ١٩٣)

وقال ابن مهيويه: «دخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم، وهو يقرأ على الناس كتاب (الجرح والتعديل) فحدثته بقول يحيى بن معين: إنا لنطعن على أقوام، لعلمهم قد حطوا رحالهم في الجنة من أكثر من مئة سنة. فبكى، وارتعدت يداه، حتى سقط الكتاب، وجعل يبكي، ويستعيدني الحكاية». وقال الذهبي معلقًا: «أصابه على طريق الوجل وخوف العقابة، وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النصيح لدين الله، والذب عن السنة». سير أعلام النبلاء (١٣ / ٢٦٨).

فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في العبادة، لعل ذلك يورث المحبة. فقد قال سبحانه وتعالى: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبّه، فإذا أُحِبّته؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» (١). فذلك الغنى الأكبر.. ووافقراه! (٢).

ولشيخنا محمد المختار الشنقيطي وصايا نافعة في الرضا عن الله تعالى عند نزول المصائب، قال حفظه الله تعالى: «الوصية الأولى: الرضا عن الله.

أول وصية أوصيك بها إذا فُجعت في نفسك أو أهلك وولدك أن ترضى عن الله، فوالله ما رضي عبد عن الله إلا أرضاه الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ» (٣). فمن رضي عن الله أرضاه الله في دنياه وآخره.

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يوصيه ويذكر له تلك الوصية النافعة؛ فاستفتح كتابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «أما بعد: فاعلم أن الخير كله في الرضا عن الله»، إن الخير كله أن ترضى عن الله.

(١) البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٢)

(٢) صيد الخاطر (١/ ١٢، ٣٠) بتصرف يسير.

(٣) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

اعلم أخي في الله؛ أنه إذا أصابك البلاء فرضيت عن الله أرضاك الله في الدنيا والآخرة، وأقرّ الله عينك وأثلج صدرك، فكم من مصيبة عادت نعمة على العبد إذا رضي عن الله تبارك وتعالى، وكم من بلايا رضي أصحابها فزادتهم من الله قربًا ومن الله رضا وحبًّا.

أول وصية: أن ترضى عن الله تبارك وتعالى، ولهذا الرضا دلائل: أولها: طيب الكلام، وحسن الظن بالله تبارك وتعالى، ومن ثم قال العلماء: «إن العبد إذا رضي عن الله وهبه اليقين في مصيبته»، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التَّغَايُن: ١١]، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَهْدِ قَلْبَهُ» [التَّغَايُن: ١١]: أن يهبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». فإذا كان الإنسان راضيًا عن الله تبارك وتعالى، وعنده الإيمان واليقين الذي ربّى النبي ﷺ عليه أصحابه، ثبت الله جنانه، ولذلك كان بعض السلف إذا أصيب بالمصيبة أظهر الرضا لله.

قام أحدهم بين أناس فجالت يده فقطعت فضحك، قالوا: سبحان الله! تصاب في يدك فتضحك، قال: «إني ذكرت ثوابي عند الله عز وجل فضحكت».

وسار الفضيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جنازة ابنه، فلما سار معهم تَبَسَّمَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قالوا: لم تبسمت رحمك الله؟! قال: احتسبت مصيبتني عند الله، فذكرت ما لي عند الله فسلوت وضحكت^(١).

فكلما كان اليقين في قلب العبد وجدته أثبت جناً، وأشرح لله عز وجل صدرًا، والله ما رضي عبد عن الله إلا جعل له من كل همٍ فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا.

الوصية الثانية: العلم بأنه لا يدفع البلاء إلا الله. فإذا حصل الرضا فإن بعد الرضا أمرٌ مهم لا بد من وجوده؛ وهو علمك بأنه لا يدفع البلاء إلا الله، وأنه لا يدفع هذا العناء الذي تجده إلا الله.

كان النبي ﷺ يوصي أصحابه؛ فأوصى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أوى إلى فراشه أن يقول: «إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي

(١) وعلق على ذلك شيخ الإسلام بما مؤداه: أن حال النبي ﷺ حينما دمعت عيناه عند موت ابن ابنته هو الكمال، لأن قلبه قد اتسع للرضا عن الله تعالى مع الرحمة والإشفاق على الصبي.

أنزلت، ونييكَ الذي أرسلت. فإنك إن متَّ من ليلتك متَّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيرًا»^(١).

أول ما يحسّ الإنسان بالبلاء إذا أراد أن يفرج الله كربَه وهمه، أن يحسّ من أعماق قلبه أنه لا ينجيه أحد من هذا البلاء إلا الله عز وجل.

الوصية الثالثة: تذكّر جزاء الضارعين إلى الله عند البلاء.

قال بعض العلماء: ما أصاب الكرب والخطب عبدًا فضرع إلى الله تبارك وتعالى إلّا أعطاه تفريج الكرب، ومع تفريج الكرب زيادة فضلٍ من الله؛ ولذلك تجد بعض الناس يُفجع بأهله ويفجع بولده، فيعوّضه الله حلاوة إيمانٍ تبقى معه إلى لقاء الله عز وجل.

أصيب رجل بولده، وكان ذلك الرجل من أفجر خلق الله والعياذ بالله، تاركًا للصلاة منتهكًا للحدود والمحارم، أقسى ما يكون قلبًا والعياذ بالله، فشاء الله يومًا من الأيام بعد صلاة العشاء، جاءه ابنه يضحك ويسلو، وشاء الله تبارك وتعالى أن يودّعه ذلك الابن فتكون آخر عهده بذلك الابن، فخرج الابن وما هي إلا لحظات حتى جاءه الخبر بأن ذلك الابن انتقل إلى جوار الله.

(١) البخاري ٧١/١ (٢٤٧) و١٧٤/٩ (٧٤٨٨)، ومسلم ٧٨/٨ (٢٧١٠) (٥٧)

و(٥٨) وفي رواية في الصحيحين: «واجعلهنَّ آخرَ ما تقول». قال النووي: «في الحديث ثلاث سنن مهمة مستحبة، ليست بواجبة: الوضوء عند إرادة النوم، والنوم على الشق الأيمن، وذكر الله تعالى؛ ليكون خاتمة عمله». شرح صحيح مسلم ٣١/٩ (٢٧١٠)

وهذه حال الدنيا، تتمتع بالنظر إلى الابن في الصباح فإذا بك تفجع به في المساء، وتتمتع بالنظر إلى الأب في المساء فإذا بك تفجع به مع بزوغ الصباح، وسبحان من هذا ملكه! وسبحان من هذا أمره! فلما فجع بذلك الابن طاش عنه عقله وعزب عنه رشده، فشاء الله تبارك وتعالى أن يقيّض له طالب علم موفق، فذكره بالله بالكلمة تلو الكلمة حتى شرح الله صدره، وأنس الله قلبه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم شاء الله تبارك وتعالى أن يخشع يوماً فيوماً، حتى سمعته ذات يوم يقول: والله إني أصبت بابني وإنها نعمة من الله عليّ إذ ابتلاني بذلك الابن، عرفت الله وكنت له منكراً، واقتربت من الله وكنت منه بعيداً، وآويت إلى الله وكنت منه طريداً، في كلام هذا معناه، مصيبةٌ قربتني من الله تبارك وتعالى.

فالله منه العوض، ما رجاه أحد فخاب، ولا أيقن عبد بربه فخسف الله به الأرض من تحت قدمه أبداً. ولذلك قال بعض العلماء: «إذا أراد الله أن يجمع للعبد بين المصيبتين؛ ابتلاه وسلبه اليقين فيه» والعياذ بالله، إذا ابتلى الله العبد ولم يلتجئ إلى الله بعد البلاء فاعلم أنه والعياذ بالله مُستدرج، ولذلك البلاء كل البلاء على الكافر الذي إذا أصابته المصيبة لا يدري أين يذهب، ولا يدري أين يتجه، ولكن المؤمن له باب يقرعه ورب لا يخيب من يرقوه. فلذلك أحبتي؛ كان من لوازم البلاء اليقين في الله عز وجل.

أصيب بعض السلف بمصيبة وعظمت عليه هذه المصيبة وكانت آفةً في جسده، وما زال يعرض نفسه على الناس رجلاً بعد رجل حتى يأس من علاج هذا الداء، وقنط أن يشفى من ذلك البلاء، فدخل يوماً من الأيام فإذا رجل

يتلو كتاب الله فسمعه يتلو قول الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [التَّمَلُّ: ٦٢] فقال: اللهم إني مضطر وأنت مجيب، فما قام من ساعته إلا وهو معافي! إذا دخل اليقين إلى قلب العبد لا يمكن أن يبرح وحاجته في قلبه، بل إن بعض الناس يسمي المساء وحاجته تضايقه، وكربته تؤلمه فيتضرع إلى الله بالدعوة الصادقة حتى يعز على الله أن يصبح وحاجته في قلبه فيفرج عليه قبل أن يصبح؛ وهذا من عظيم لطف الله بالعباد.

الوصية الرابعة: حسن الظن بالله أهمّ باعث لليقين بالله.

ومن الأمور التي تبعث باليقين^(١) حسن الظن بالله تبارك وتعالى، والله ما أحسن عبد ظنه بربه إلا كان الله عند حسن ظنه، إذا أصابتك المصيبة فأحسن الظن بالله، وقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار، من قالها فقد أوجب الرضا من الله تبارك وتعالى، ولذلك أحرص ما يكون الشيطان في بداية المصيبة أن يسيء ظنك بالله عز وجل، ولذلك إذا جاءت المصيبة في النفس، أو جاءت في المال، أو جاءت في الولد، جاءك الشيطان فقال لك: لو كان الله يحبك ما ابتلاك! ولو كان الله يحبك ما أصابك بابتك فلذة كبك! ولو كان الله يحبك ما أفقدك مالك على كبر سنك! ولو كان الله ولو كان الله.. فهو أحرص ما يكون على أن تكون على سوء ظن بالله عز وجل.

(١) ولليقين كتاب سابق مستقل.

فالله الله أن يسوء ظنك بالله عز وجل، بل قل: الحمد لله، وليكن قلبك مطمئنًا بالفرج من الله تبارك وتعالى، فمن اتقى الله جعل له من كل همّ فرجًا ومن كل ضيقٍ مخرجًا.

أخي؛ المثلّك لمن؟ والكون لمن؟ والتدبير لمن؟ من الذي يجير ولا يجار عليه؟ ومن الذي يغيث ولا مغيث سواه؟ والله لو علم المكروب سعة رحمة الله عز وجل ما تألّم من كربته، ولو أيقن المكروب بحلم الله به لا يمكن أن يصيبه بلاء في نفسه.

وأضرب لك مثلاً يسيراً: لو أنك يوماً من الأيام سئلت عن أرحم الناس بك وأحلمهم عليك؟! لقلت: أبي وأمي، ولكان في قلبك يقين أن لا أرحم في الناس من أبيك وأمك، والله ثم والله لرحمةٌ والديك بك لا تأتي مثقال ذرة في رحمة الله عز وجل بك، وللطّف الله عز وجل وحنانه وحلمه ورحمته وأنت تقاسي الآلام وتكابد الأسقام، أشدّ من رحمة والديك بك، ولكن يريد أن يرفع درجتك، ويحطّ عنك خطيئتك، ويريد أن تخرج من هذه الدنيا وأنت صفر اليدين من السيئات والخطايا، حتى إذا وافيته وافيته بوجه أبيض مشرقٍ من تلك البلايا، وإنّ من عباد الله من هو والله حبيب لله، لا يبتليه الله عز وجل إلا لكي يدنو منه، يبتليه لكي يسمع صوته: يا رب، يا رب، إلهي سيدي مولاي، يسمع إخبائته وإنابته، فتكون أصدق شاهدٍ على توحيده لله تبارك وتعالى.

الوصية الخامسة: تفكّر في سرّ ابتلاء الله تعالى لعباده.

هذه البلايا وهذه الفتن والرزايا بُسِطَتْ لك لكي تكون سلّمًا إلى رحمة الله عز وجل، شعرت أو لم تشعر، وكان بعض السلف إذا نزلت به المصيبة ووهبه الله اليقين عليها والصبر عليها تسلّى بالدعاء، حتى أثر عن بعضهم أنه كان يكثر الدعاء ويلجّ في المسألة حتى يقول: يا ليت أن الله لا يفرج عني كربى حتى تستديم هذه الخلاوة لمناجاته ومناداته.

فإذا دخل اليقين إلى القلوب هانت عليها البلايا والخطوب، إذا دخل اليقين إلى الأفئدة تعلق بالله وحده لا شريك له، ما ابتلاك الله لكي تفزع إلى زيد وعمرو لا والله، وما ابتلاك بالأسقام حتى تتعلق بغيره سبحانه وتعالى، فوالله لو صُبَّتْ البلايا على العبد لا يمكن أن يجد الفرج والمخرج إلا بالله سبحانه وتعالى، فلذلك يكون الإنسان على يقين بالله تعالى، فلا ملجأ ولا منجى من الله تبارك وتعالى إلا إليه.

وقع أحد الناس في ضائقة واشتدت عليه هذه الضائقة، كان مبتلى بمسّ، وكان هذا المسّ يقلقه ويزعجه ويؤلمه واشتد عليه ذلك الخطب، وفي يوم من الأيام جاء إلى أحد طلاب العلم واشتكى إليه مما يجده، وقال: والله يا شيخ قد عظم علي البلاء وإني أصبحت مضطّرًّا أفلا يجوز لي أن أذهب إلى إنسان يفكّ عني هذا البلاء الذي أجده؟! ألا تُرَخِّص لي في ساحرٍ أو كاهنٍ يعلم ما أصابني فيكشف عني ما أصابني؟! يقول ذلك وهو في حرقة وألم وشدة وشجن لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، فوفّق الله طالب العلم فقال له كلمات ثبّت الله بها جنان ذلك المؤمن، وقال له كلمات شرح بها صدر ذلك العبد

المبتلى فقال له في آخر الكلام: إني لأرجو من الله عز وجل إن استعنت بأمري
أن يفرج عنك الكرب والبلاء: أحدهما الصبر والثاني الصلاة.

يقول الرجل - وهو أيضًا من طلاب العلم -: فقيمت من عنده بيقين قوي
في الله عز وجل فصليت ركعتين أحسست أني مكروب، وأنه قد أحاطت بي
الخطوب، فاستعذت بالله واستجرت، وإذا بي في سجودي أحس بحرارة
شديدة في قدمي ما إن سلمت إلا وكأنه لم يك بي من بأس.

أخي في الله؛ هل الساحر يغيثك من دون الله؟! هل الكاهن يحيرك من
دون الله؟! الأمر أمره، والقدر قدره، خطّ عليك هذا البلاء قبل أن تكون
وقبل أن توجد، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ
بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٠]. كتب الله البلايا قبل أن يخلق العباد، قال النبي ﷺ:
«أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: يا رب؛ ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو
كائن وما يكون إلى قيام الساعة، فجرى القلم بما هو كائن وما يكون إلى قيام
الساعة»^(١).

ولقد ركب عبد الله بن عباس مع النبي ﷺ ذات يوم، فأراد النبي ﷺ
أن يهديه هدية، وأن يمنحه تلك العطية فقال ﷺ: «يا غلام؛ ألا أعلمك
كلمات؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده مُجَاهَك، إذا استعنت فاستعن
بالله، وإذا سألت فاسأل الله، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك
بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن

(١) أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

يضررك بشيء لم يضررك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأعلام وجُفَّت الصحف»^(١).

فَمَنْ هذا الساحر ومن هذا الكاهن الذي يستطيع أن يتخطى أمر الله عز وجل؟ ومن هذا العبد الذي يستطيع أن يقضي الوطر لنفسه قبل أن يقضيه لغيره من خلق الله عز وجل؟ فالله الله أن ينظر الله عز وجل عليك في البلاء، وقد رفعت كفك إلى غير الله. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد تعلقت بغيره جل في علاه. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد صرفت شعبة من شعب قلبك تعتقد فيها في أحدٍ سواه. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد تعلقت بغيره وعُذت بأحد سواه. وكم من أقوام استعاذوا واستجاروا بغير الله ففرّج الله عنهم الكربات امتحانًا واختبارًا، واستدرجهم منه علمًا وحكمةً واقتدارًا، ثم ابتلاهم بالبلاء الذي هو نهايتهم من حيث لا يحتسبون!

ذكروا عن رجل أنه كان يقربُ ساحرًا، وكان يثق بهذا الساحر ثقةً عمياء، وكان هذا الساحر يزعم ذلك المبتلى يفرّج همّه، وينفّس كربّه، والله يستدرجه اليوم تلو اليوم، حتى قوي اعتقاد ذلك الرجل في ذلك الساحر - والعياذ بالله - وقوي اعتقاده في ذلك الكاهن من دون الله - نسأل الله السلامة والعافية - فشاء

(١) الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني. ومعنى «رفعت الأعلام وجُفَّت الصحف»: أي فرغ من الأمر وجُفَّت كتابته، كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد. ذكره في دليل الفالحين (٢٨٨/١)

الله عز وجل لما عظم يقينُ هذا العبد أن يسلّط عليه الساحر فيؤذيه والعياذ بالله بسحره.

فلذلك أحبتي في الله؛ من وثق بالله، وأيقن بالله تبارك وتعالى، أحسّ في قرارة قلبه أن لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، إن فقدت الأموال فإنك لم تفقد ربّها، وإن فقدت الأبناء والبنات فإنك لم تفقد من أوجدها ومن خلقها، وإن فقدت الآباء والأمهات فإنك لم تفقد من جَبَل قلوبهم إلى الحنان فأحسنوا إليك ووهبوا يد المعروف إليك. فالله الله أن يخيب ظنّك في رجائه، أو تكون من عباده الذين ضلّ سعيهم بالرجاء في غيره»^(١). وبالله التوفيق، ومنه العون، وإليه المرجع والمصير.



(١) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٩ / ٤٩) باختصار وتصرف يسير.

الرضا بالإسلام ديناً

أعظم نعمة بإطلاق هي نعمة الإسلام، فلا تضاهيها منّة ولا تقاربها نعمة، فهي أفضل الآلاء وأجمل الهبات من لدن الولي الحميد سبحانه، فقد تفضّل الله علينا وأتمّ النعمة به، بل قد رضيه سُلماً لمرضاته، ودَرْجاً لمحَبته، ومنهاجاً للفوز لديه، وطريقاً وحيداً للفلاح والفرح والسعادة عند لقائه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنِ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، فله الحمد كله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي لجلال وجهه وعزّته وعظمته وكماله وجماله وجلاله.

إنّ على المؤمن الناصح لنفسه المبتغي الدرجات العلى والنعيم المقيم والجوار الكريم أن يُصلح ما وهنَ من دينه، ويرفع ما وهى من تقواه، ويرفأ شقوق ثوب إيمانه، ويشدّ حبله الوثيق مع ربه بالعلم واليقين وخالص العبادة وصادق الدعاء. ويزداد الأمر ضرورة حين يغلب الفساد أكثر الناس، وتشتدّ غربة الدين، وتتقوّض بعض مُسلّمات الملة لدى سواد الجُمّ الغفير، ويصبح صاحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منفورًا مطرودًا شريدًا غريبًا غير

مرغوب لدى أكثر ناسه، والعابد القانت نادراً غريباً مستوحشاً لا يكاد يجد من الناس من يعينه ويؤنسه ويقوّيه ويؤازره، ولكن لا ضيعة مع الله ولا وحشة ولا هزيمة ولا انقطاع ولا ندم! فمن كان الله معه فلا عليه من الخلائق مهما التقوا وتعصّبوا وتقلقلوا، فمن كان مع الله؛ فمعه القوة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل من استهدى به، فهو الركن الشديد، والرب العظيم، والإله الحق المبين، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وتأمل هذا الحديث الصحيح ويدك على قلبك، واسأل ربك العفو والعافية، فعن مرداس الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل، ويبقى حُثالة كحُثالة الشعير أو التمر، لا يبالِيهم الله بَالَةً»^(١).

(١) البخاري (٦٤٣٤) قال البخاري عقب تخريجه الحديث: «يقال: حُفالة وحُثالة». وفي رواية: «لا يبالِيهم الله بَالاً».

وأزمة الفتن فرصة لحصد أجور لا تتأتى في غيرها، فأزمة الفتن ليست شرّاً محضاً، ففيها للعابدين الصابرين الثابتين والدعاة المخلصين المتّبعين خيراً كثيراً، والعابد المحسن في زمن الفتن له أجر خمسين من الصحابة المرضيين.

قال البغوي في شرح السنة (١٤ / ٣٩٣): «حفالة التمر: رذالته، ومثلها الحثالة، والفاء والثاء يتعاقبان، كقوله: ثوم وفوم، وحدث وجدف. وقوله: «لا يبالِيهم الله بَالَةً» أي: لا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً، يقال: باليت بالشيء مبالاة وبالية وبالة، يقال: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه». وبنحوه في النهاية في غريب الأثر (١ / ٤١١)

وتم رسالة نفيسة جد نفيسة بعنوان: «فضل الإسلام» للإمام المجدد لمعالم الحنفية محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وسأنتخب منها ما ألح إيراده فكلها قيمة نافعة، مع ذكر بعض تعليقات شيخنا العلامة ابن باز عليها:

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ.

فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟! قَالَ: هَلْ نَقَصْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»^(١). وفيه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ. فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(٣).

(١) البخاري (٢٢٦٨)

(٢) مسلم (٨٥٦)

(٣) أحمد (٢١٠٧) وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسسه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلده من خشية الله إلا كان مثله مثل شجرة ييس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحات عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتت عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة».

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يا حبذا نوم الأكياس^(١) وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم! ولمثقال ذرة من برٍّ مع تقوى ويقين، أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين».

وجوب الدخول في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال مجاهد: «السُّبُل: البدع والشبهات». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» أخرجاه، وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

(١) الأكياس: جمع كَيْس، وهو العاقل الفطن الحازم.

(٢) البخاري (٢٤١/٣) مسلم (١٣٢/٥)

وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى!» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(١).

وفي الصحيح عن ابن عباس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلِّبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيْقَ دَمَهُ»^(٢). قال ابن تيمية: «قوله «سنة الجاهلية»: يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي: في شخص دون شخص، كتابية أو وثنية، أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون»^(٣).

وفي الصحيح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»^(٤). وعن محمد بن وضاح أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول: فذكره.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس عامٌ إلا والذي بعده شر منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يَحْدُثُ أَقْوَامٌ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِأَرَائِهِمْ؛ فَيُهْدمُ الْإِسْلَامَ وَيُثْلَمُ».

(١) البخاري (١١٤/٩) (٧٢٨٠)

(٢) البخاري (٦٤٨٨)

(٣) اقتضاء الصراط (١/ ٧٩)

(٤) البخاري (٦٨٥٣)

تفسير الإسلام

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وفي الصحيح عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»^(١).

وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصَّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصَّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخَذُ

(١) مسلم ٢٨/١ (٨) (١)

(٢) البخاري (١٠)

وَبِكَ أُعْطِيَ»^(١). فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥]

الاستغناء بمتابعة كتاب الله تعالى عن كل ما سواه

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩]. ورأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون»^(٢) يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًّا واتبعتموه وتركتموني ضللتكم». وفي رواية: «ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أتباعي». فقال عمر: «رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»^(٣).

الخروج عن دعوى الإسلام

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج : ٧٨] وعن الحارث الأشعريّ حدثه عن النبي ﷺ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْفَارِقُ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ؛

(١) أحمد (٣٦٢/٢) (٨٧٢٧) قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. وقال الهيثمي في المجمع (٣٤٨/١٠): فيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة، وبقيه رجال أحمد رجال الصحيح. وصححه أحمد شاكر في المسند (٣٠٢/١٦) وضعفه الألباني في السلسلة (٥٧٨٠) والأرنؤوط في المسند (٨٧٤٢)

(٢) التهوك: الشك والتردد والحيرة.

(٣) أحمد (١٥١٥٦) قال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٨ / ١)

فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ» (١) (٢).

وفي الصحيح: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةً جَاهِلِيَّةً» (٣). وفيه: «أَبْدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» (٤). قال أبو العباس (١): «كل ما خرج

(١) مسند أبي يعلى (٣ / ١٤٠) (١٥٧١) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والترمذي وحسنه (٢٨٦٣) وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩٤) والتعليق الرغيب (١ / ١٨٩ - ١٩٠)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شرح كتاب فضل الإسلام (١ / ٢٢): «وهذا تحذير من دعوى الجاهلية يا آل فلان، يا آل فلان. لا، يا أهل التوحيد يا أهل الإيمان، كلهم إخوة، إذا جاء الحرب لا يتسبون: يا آل فلان، يا قحطان، يا بني كذا يا بني كذا، لا، هم شيء واحد، فالمسلمون شيء واحد، ولا يحتجّون بدعوى الجاهلية. ولهذا لما قال: يا للمهاجرين، وقال الآخر: يا للأنصار، قال ﷺ: «أَبْدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ». رواه البخاري (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤) فالواجب الدعوى بالإسلام، أيها الإخوة، أيها المسلمون هكذا، عند الاستغاثة والحث يحثهم على القتال باسم الإسلام، وباسم الإيمان».

(٣) مسلم (١٨٤٩، ١٨٥١)

(٤) رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن شيخ مبهم لم يسمه، والواحد من مرسل عكرمة. ولكن صحّ بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه المتفق عليه قال: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فاجتمع قوم ذاء، وقوم ذاء، وقال هؤلاء: يا للمهاجرين! وقال هؤلاء: يا للأنصار! فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «دعوها، فإنها

عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية. بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصاري: يا للأنصار! قال ﷺ: «أَبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» وغضب لذلك غضبًا شديدًا. (٢)(٣)(١)

مُسْتَنَّةٌ ثم قال: «ألا ما بأل دعوى أهل الجاهلية؟! ألا ما بأل دعوى أهل الجاهلية?!»
رواه البخاري (٣٥١٩) ومسلم (٢٥٨٤) (٦٤)
(١) هو ابن تيمية.

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية (١ / ١١٣)

(٣) سبب نفيه وغضبه ﷺ مع أن هذه النسبة المهاجرين والأنصار قد ذكرها الله تعالى في القرآن في معرض المدح: أنها قد رفعت مضاهاة لأخوة الإسلام، فشابهت دعاوى الجاهلية بالتعصب والتحزب لجماعة - مهما كان مسماها - لا للدين، فالعبرة بالحقائق والمعاني لا المسميات والألفاظ والمباني، ولا أشرف من الانتساب للإسلام والإيمان، ﴿هُوَ سَمَلُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨].

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثَالِ أَكْفَاءُ	أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مُشَاكَلَةٌ	وَأَعْظَمُ خُلِقَتْ فِيهَا وَأَعْضَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ هُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ	يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ	عَلَى الْهُدَى لَكِنْ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدَرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ	وَلِلرِّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ أَسْمَاءُ
وَضِدُّ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ	وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَقَزَبَ عِلْمٌ وَلَا تَطْلُبُ بِهِ بَدَلًا	فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه^(٢)

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ

=

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصود أن الدعاوى التي بغير الإسلام؛ يا أهل مكة، يا أهل الطائف، يا أهل نجد، يا أهل ... هذا من دعوى الجاهلية. بل يقول: أيها المؤمنون، أيها الإخوة، يا أنصار الله، يا عباد الله هكذا. هذا هو الواجب وهذا الذي يحثهم يحرك القلوب، فعند لقاء العدو يحثهم على اللقاء والصبر بدعوى الإيمان وبدعوى الإسلام، أيها المسلمون، يا جند الله، يا عباد الله، أيها المسلمون، يا أنصار الله، هكذا يشجعهم ويحثهم بالاسم العام».

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «هذا هو الواجب الدخول في الإسلام كله وليس ببعضه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]: يعني في الإسلام، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠]. فالواجب هو الدخول في الإسلام كله. يعني: الواجب أن يلتزم المسلم في الإسلام كله صلاة وزكاة وصياماً وحجاً جهاداً، ما يقول: بس أنا أصلي ولا أركي، أركي ولا أصوم، لا، يجب أن يلتزم بالإسلام كله».

وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران : ١٠٦]: «تبيضُ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً؛ لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ!

وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً». قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

وليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله، كلام الصادق المصدوق^(٢) في هذا المقام خصوصًا قوله: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة! والحديث رواه الترمذي، ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصححه، ولكن ليس فيه ذكر النار، وهو في حديث معاوية عند أحمد وأبي

(١) الترمذي (٢٦٤١) واستغربه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٢٩) والتحقيق الثاني للصحيحة (١٣٤٨) وضعفه أيمن صالح شعبان في جامع الأصول (٧٤٩١) من جهة عبد الرحمن بن زياد الإفريقي.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: يعني: «يلزم الحق ويستقيم على ما سار عليه الصحابة وأتباعهم بإحسان، وأن يحذر أقوال أهل البدع والفرقة والاختلاف: «ثنتان وسبعون فرقة كلها في النار»، ما بين كافر وما بين مبتدع وفاسق، لكن أهل السنة والجماعة هم الذين ساروا على نهج الصحابة واستقاموا على الدين، فهؤلاء لهم الجنة والكرامة. أما بقية الفرق فيهم الكافر والمبتدع، وفيهم المخالف للشرع الذي لم يلتزم بالحق».

داود وفيه: «أَنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»^(١). وتقدم قوله: «وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٢)

البدعة أشد من الكبائر^(٣) (١)

(١) أحمد (١٦٩٣٧) قال محققو المسند: إسناده حسن، وحديث افتراق الأمة منه صحيح بشواهده. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٧) وغيره. قال ابن باز: أسانيده مجتمعة تصل إلى درجة الحسن.

(٢) البخاري (٦٤٨٨)

(٣) قَسَمَ الشَّاطِطِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْإِعْتَصَامَ (٣٦٧/١) الْبَدْعَةَ إِلَى قَسْمَيْنِ: حَقِيقِيَّةٍ، وَإِضَافِيَّةٍ. فَالْحَقِيقِيَّةُ: هِيَ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِي، لَا مِنْ كِتَابٍ، وَلَا مِنْ سُنَّةٍ، وَلَا مِنْ إِجْمَاعٍ، وَلَا اسْتِدْلَالٍ مَعْتَبَرٍ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، كِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، أَوْ تَحْلِيلِ الْحَرَامِ، اعْتِمَادًا عَلَى شَبْهِ بَاطِلَةٍ وَبَلَا دَلِيلٍ شَرْعِي.

أَمَّا الْبَدْعَةُ الْإِضَافِيَّةُ فَهِيَ مَا لَهَا شَائِبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: مَا كَانَ لَهَا مِنَ الْأَدْلَةِ مُتَعَلِّقٌ، فَلَا تَكُونُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ بَدْعَةً.

وَالْأُخْرَى: مَا لَيْسَ لَهَا مُتَعَلِّقٌ إِلَّا مِثْلُ مَا لِلْبَدْعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، أَيْ أَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ لِإِحْدَى الْجِهَتَيْنِ سُنَّةٌ لَا اسْتِنَادَ لَهَا إِلَى دَلِيلٍ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْجِهَةِ الْأُخْرَى تَكُونُ بَدْعَةً، لِأَنَّهَا مُسْتَنَدَةٌ إِلَى شَبْهِ لَا إِلَى دَلِيلٍ، أَوْ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُسْتَنَدَةٍ إِلَى شَيْءٍ. وَسُمِّيَتْ إِضَافِيَّةً لِأَنَّهَا لَمْ تَخْلُصَ لِأَحَدٍ الطَّرَفَيْنِ، لَا بِالمُخَالَفَةِ الصَّرِيحَةِ، وَلَا بِالمُوَافَقَةِ الصَّرِيحَةِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْبَدْعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْإِضَافِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى الْإِضَافِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْأَصْلِ قَائِمٌ، وَمِنْ جِهَةِ الْكَيْفِيَّاتِ، أَوِ الْأَحْوَالِ، أَوِ التَّفَاصِيلِ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْغَالِبَ وَقُوعُهَا فِي التَّعْبِيدِيَّاتِ، لَا فِي الْعَادِيَّاتِ الْمُحْضَةِ.

=

=

ومن أمثلتها: ذكر الله تبارك وتعالى على هيئة الاجتماع بصوت واحد، فالذكر مشروع، بل يكون واجبًا ومستحبًا، لكن أدائه على هذه الكيفية غير مشروع، بل هو بدعة مخالفة للسنة، وعليه يحمل قول ابن مسعود رضي الله عنه للجماعة الذين كانوا يجتمعون في المسجد وفي أيديهم حصى، فيسبحون ويكبرون بأعداد معينة حيث قال لهم: «والله لقد جئتم ببدة ظلمًا، أو فضلتهم أصحاب نبيكم علمًا».

ومن أمثلته أيضًا: تخصيص يوم النصف من شعبان بصيام، وليلته بقيام، وإفراد شهر رجب بالصوم أو عبادة أخرى. فهذه العبادات مشروعة، ومنها الصوم، لكن يأتي الابتداع من تخصيص الزمان، أو المكان، إذا لم يأت تخصيص ذلك في كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ.

والبدعة الإضافية أشد خطورة من الحقيقية من حيث الشبه التي يستند إليها المبتدع في فعلها، فإنك إذا سألته عن دليل ذلك قال: إنه يذكر الله، ويصوم لله، فهل الذكر والصيام محرمان؟ ومن ثم يستمرئها، ويداوم عليها، وقد لا يتوب منها في الغالب، ذلك أن الشبهات أخطر الأمور على الدين، فهي أخطر من الشهوات وإن كان الجميع خطيرًا، لأن إبليس لما يئس من تضليل المسلمين بالمعاصي دخل عليهم من باب العبادة، فزين لهم البدع بحجة التقرب إلى الله. وهنا مكنم الخطر. وانظر: البدعة الإضافية، للشيخ فهد العماري.

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «والمعنى: أن البدعة أكبر من الكبائر لأنها تنقص للإسلام، وإحداث في الإسلام واتهام للإسلام بالنقص، فلهذا يتدع ويزيد. وأما المعاصي فهي اتباع للهوى وطاعة للشيطان، فهي أسهل من البدعة وصاحبها قد يتوب ويسارع ويتعص، أما صاحب البدعة فيرى أنه مصيب وأنه مجتهد فيستمر بالبدعة نعوذ بالله، ويرى الدين ناقص فهو بحاجة إلى بدعته. ولهذا صار أمر البدعة أشد وأخطر من المعصية. قال تعالى في أهل المعاصي: ﴿وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فأهل

=

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء : ٤٨]. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١٤٤]. وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [التَّحْل : ٢٥]. (١)

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد» (٢). وفيه أنه: «نهى عن قتال أمراء الجور» (١) (٢).

=

المعاصي تحت المشيئة، وأما أهل البدع فذنبهم عظيم وخطرهم شديد، لأن بدعتهم معناها التنقص للإسلام وأنه محتاج لهذه البدعة، ويرى صاحبها أنه محق، ويستمر عليها، ويبقى عليها، ويجادل عنها. نسأل الله العافية.

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ [التَّحْل : ٢٥] «يعني: عليه مثل أوزار من تبعه في بدعته، نسأل الله العافية».

(٢) البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦) وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «لئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد» لعظم بدعتهم، لأنهم شبهوا على الناس، فاجتهدوا في القراءة والصلاة حتى قال النبي ﷺ: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ». رواه البخاري (٦١٦٣) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨) ثم حملوا على المسلمين وقتلوهم، هذا من جرأتهم الخبيثة، وقتلوا علياً، وقتلوا عمرو بن خارجة، وقتلوا جمعاً غفيراً، كله بسبب بدعتهم وضلالهم، حتى أعان الله علياً عليهم فقتلهم. فالخوارج شرهم عظيم لأنهم يرون أنهم مصيبون في قتلهم للعصاة من الأمراء وغير الأمراء. وهذا من جهلهم وضلالهم، ولهذا قال فيهم ﷺ: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم». رواه البخاري (٦٩٣٠) ومسلم (١٠٦٦) وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». رواه البخاري (٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٣)

=

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ

=

وسئل الشيخ رحمه الله: هل البدعة تدخل تحت المشيئة إذا لم تكن مكفرة؟ فأجاب سماحته: «ما تدخل في الذنوب، لأنه متوعد عليها في النار والعياذ بالله، إلا أن يتوب نسأل الله العافية، ولكن إن كانت دون الشرك يرجى لصاحبها، لأنها تدخل في المعنى من جهة المعاصي، لكنها غير داخلية في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [التيساء : ٤٨] في الجملة. لكن إذا كان المبتدع بدعته دون الشرك فهي لها حكم المعاصي من جهة أنه لا يخلد في النار إن دخل النار». أهـ.

(١) ومن ذلك ما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه ستكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلّم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلّوا لكم الخمس». رواه مسلم (١٨٥٤) (٦٤)

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خياركم وخيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشراركم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم!» قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلّوا لكم الخمس، ألا ومنّ عليه وال، فرآه يأتي شيئاً من معاصي الله، فليكره ما أتى، ولا تنزعوا يداً من طاعته». رواه أحمد (٢٣٩٩٩) وجوّد الحديث محققو المسند.

(٢) قال ابن باز رحمه الله: «يعني: الأمراء وإن جاروا وظلموا ما داموا ملتزمين بالإسلام، لا يجوز جهادهم، ولكن ينصحون، أما إذا أتوا كفراً بواحاً وجب جهادهم على من قدر إذا كان هناك قوة تقدر».

بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (١) (٢). وله مثله من حديث أبي هريرة ولفظه: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» (٣).

(١) مسلم (٦٢/٨، ٨٦/٣)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا معناه: أحياها وأظهرها، ليس المراد به البدعة، وإنما المراد هنا: إحياء السنة وإظهارها لأنه ﷺ رأى قومًا فقراء، فلما رأى فقرهم خطب الناس وحثهم على الصدقة، ورغبهم فيها، وقال: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ ذَرَاهِمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِبُصْرَةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

وسئل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: عن الذي يُثْنِي على أهل البدع ويمدحهم هل يلحق بهم؟ فأجاب سماحته: «نعم، ما فيه شك، من أثنى عليهم ومدحهم وهو داع إليهم، هو من دعائهم، نسأل الله العافية».

(٣) البخاري (١٦٨/١) و(١٢٥/٨) ومسلم (٩٣/٣).

احتجاز التوبة عن صاحب البدعة^(١)

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «المقصود بيان خطر البدعة، وأن من أخطار البدعة: أن صاحبها لا يوفق للتوبة، يرى أنه مصيب ويستمر على الباطل هذا من أخطارها وبلائها، فالواجب الحذر من البدع لأنها شر عظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله». وسئل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: عن صحة الحديث: «إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة»؟ فأجاب سماحته: الحديث يحتاج إلى تأمل ونظر في سنده. لكن إنما يخشى عليهم، وذلك أن الغالب عليهم أنهم يستحسنون آرائهم وييقنون عليها. نسأل الله العافية. وإلا فإن كثيراً من أهل البدع تابوا وتاب الله عليهم. وإن صحَّ الحديث فهو من باب الوعيد والتحذير نسأل الله العافية. مثل ما قال رَحِمَهُ اللهُ في المدينة: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رواه مسلم ٨٤/٦ (١٩٧٨) (٤٣) هذا من باب الوعيد، وإلا من تاب تاب الله عليه.

وهذا هو الحق: أن الله احتجب التوبة عن صاحب البدعة، ومعناها: أنه يستحسنها ويرى أنه مصيب، ولهذا فالغالب أنه يموت عليها والعياذ بالله، لأنه يرى أنه مصيب. بخلاف صاحب المعصية الذي يعرف أنه عاص وأنه مجرم وأنه مخطئ، فيتوب وقد يتوب الله عليه، لكن صاحب البدعة على خطر لأنه يستحسنها ويتبع هواه، ولهذا فهو على خطر فيحجب عن التوبة لاستحسانه للبدعة، وظنه أنه على هدى واعتقاد أنه على حق.

أما إذا هداه الله وتبصر وتاب تاب الله عليه، وجميع الذنوب إذا تاب منها العبد تاب الله عليه حتى الشرك الذي هو أكبر من البدعة، فالكفر بالله إذا تاب منه العبد تاب الله عليه، والكفار من قريش وغيرهم لما تابوا تاب الله عليهم، وهكذا سحرة فرعون لما

وقال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠] وقال تعالى ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحْل: ١٢٣].

. [١٢٣]

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ مِنْهُمْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَخَلِيلُ رَبِّي»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٦٨] (١)

[٦٨] (١)

=

تابوا تاب الله عليهم، وهكذا صاحب البدعة إذا بَصَّرَهُ الله وتاب منها تاب الله عليه، فهو من باب الوعيد.

وذكر ابن وضاح عن أيوب قال: «كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه، فأتيت محمد بن سيرين فقلت: أشعرت أن فلاناً ترك رأيه؟ قال: انظر إلى ماذا يتحوّل؟ إن آخر الحديث أشدّ عليهم من أوله. «يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، ثم لا يعودون إليه». والمرفوع رواه مسلم (١٠٦٧) وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك فقال: «لا يُوفّقون للتوبة». أه. قلت: وحديث: «إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة» قد صححه الألباني في السلسلة (١٦٢٠).

(١) أحمد (٣٨٠٠) والترمذي (٢٩٩٥) وصححه أحمد شاكر بناء على تصحيحه لزيادة الثقة، وكذلك صححه الألباني. وضعفه محققو المسند من جهة انقطاعه، قالوا: أبو

=

ولهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْنِ خَيْلٍ دُهِمٍ، بِهِمْ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رَجُلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُخَّاءُ سُخَّاءُ» (١) (٢).

وللبخاري: «بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ: هَلُمَّ. فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ! قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ازْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْفَهْقَرَى. ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ - فذكر مثله - قال: فَلَا أَرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلٍ النِّعَم» (٣).

=

الضحى - وهو مسلم بن صبيح - لم يدرك ابن مسعود، وبقيّة رجاله ثقات. والذين رواه منقطعاً أثبت في سفيان من غيرهم وأكثر، ولذا رجح أبو زرعة وأبو حاتم والترمذي الرواية انقطاعه.

(١) البخاري (١٤٨/٩) (٦٥٨٣، ٦٥٨٤). مسلم (٦٥/٧) (٦٠٣٢، ٦٠٣٣)

(٢) علق ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ!، أَي: بُعْدًا بُعْدًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وهذه علامة أمته غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، أمة محمد المستجيبين له عليه الصلاة والسلام».

(٣) البخاري (١٥٠/٨) (٦٥٨٧)

ولهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فأقول كما قال العبد الصالح»: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الْمَائِدَة : ١١٧]. (١) (٢)

(١) البخاري (١٦٩/٤) (٣٣٤٩) ومسلم (١٥٧/٨) (٢٨٦٠) (٥٨)

(٢) وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن الفاسق: هل يرد الحوض؟

فأجاب: «ظاهر الحديث يعمّه لأنه ليس بمرتد، لكن عليه خطر، جاء في بعض الروايات بالوعيد، فينبغي الحذر. الوعيد إنما هو في المرتدين أنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، أما العاصي فليس بمرتد، هو ناقص الإيمان ضعيف الإيمان فيخشى عليه فينبغي له الحذر».

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهل البدع، هل هم ممن يُذادون عن الحوض؟

فأجاب: «أهل البدع فيهم تفصيل، فيهم كافر وفيهم مسلم، أما المبتدع الكافر لا يرد نسأل الله العافية».

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن الرافضة، هل هم من الاثنين والسبعين فرقة؟

فأجاب: «هم داخلون فيهم، لكن فيهم الكافر وفيهم المسلم، فالرافضة عبّاد غير الله كُفْرَة، والرافضة الذين يفضلون عليّاً على عثمان أو على الصديق فهو لاء ليسوا بكفار لكنهم مبتدعون، أما من دعا عليّاً أو أهل البيت وغلا فيهم، فإنه يكون كافراً، أو قال: إن النبوة لعلّي لكن خان جبرائيل هذا كافر مرتد، نسأل الله العافية».

والثنتان والسبعون فرقة فيهم الكافر وفيهم العاصي، وفيهم المبتدع الضال والمبتدع الذي ليس بكافر، لكنهم كلهم يجتمعون في إجابة النبي ﷺ، فهم من أمة الإجابة. أما أمة الدعوة كثيرون اليهود والنصارى من أمة الدعوة لا قيمة لهم، فهم من أهل النار. لكن هذه الثلاث والسبعون الذين استجابوا، الذين زعموا أنهم من أتباع النبي ﷺ، زعموا أنهم أجابوا دعوته؛ الناجي منهم السالم: الفرقة الناجية الذين تابَعُوا النبي ﷺ

=

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمِيَاءٌ، وَدُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسَانِ»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَرِزْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعْصِ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

=

وساروا على نهجه، وأما الشتان والسبعون ففيهم الضال وفيهم الكافر وفيهم العاصي، وفيهم المبتدع الضال، على درجات متوعدون بالنار كلهم نسأل الله العافية.

وسئل عن الرافضة في العذر بالجهل؟

فأجاب: «من دعا غير الله واستغاث بغير الله كافر مطلقاً، لأنهم بين المسلمين وقد بلغهم القرآن وبلغتهم السنة، الله جعل القرآن نذارة وبلاغ: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فمن كفر مع وجوده بين المسلمين واستغاث بغير الله أو عبد البدوي أو غيره، سواء من الرافضة له حكم الكفار، نسأل الله العافية».

أخرجاه^(١). وزاد مسلم: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ، فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وَزُرُّهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وَزُرُّهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: «ثُمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ».

قال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تنحرفوا عن الصراط يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواء»^(٢).

تأمل كلام أبي العالية رَحِمَهُ اللَّهُ هذا، ما أجَلَّه، واعرف زمانه الذي يحذر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب، يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ [البقرة: ١٣١]. وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وأشبه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة، وبمعرفتها يتبين معنى الأحاديث في هذا الباب وأمثالها، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهاها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظن أنها في قوم كانوا فبادوا، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وعن ابن مسعود قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) البخاري (٢٤٢/٤) ومسلم (٢٠/٦)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: ابتعد عن الأهواء، والأهواء هي البدع احذروها، والزموا الطريق».

يَوْمًا خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّلَكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٣] (١) (٢)

(١) أحمد (٤١٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. قال الهيثمي: عاصم ثقة وفيه ضعف. والحاكم (٣١٨/٢) ووافقه الذهبي.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يبين أن الواجب على المؤمن الحذر وألا يغتر بالكثرة، وأن يعتني بالسنة والدليل، وأن يخاف على نفسه ولا يأمن لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١٩] [الأعراف: ٩٩]، يعمل ويجتهد في الطاعة وهو خائف وجل غير مطمئن، بل يُحَذِّرُ البدع ويحذر المعاصي ويتبع أهل الحق ويسير معهم ويتعد عن أهل الباطل وصحبته، هكذا المؤمن دائماً على حذر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ أَحْسَنُ رَبُّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٧ - ٨]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فيجب الحذر وعدم الطمأنينة لرأي فلان ورأي فلان حتى تعلم الدليل من الكتاب والسنة».

غربة الإسلام، وفضل الغرباء

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود : ١١٦]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١). وفيه: مَنْ الغرباء؟ قال: «النَّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»^(٢). وفي رواية: «الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»^(٣). وللترمذي من حديث كثير بن

(١) مسلم (١٤٥)

(٢) وهذه الزيادة عند أحمد (٣٩٨/١) قال محققوه: إسناد أحمد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص - وهو عوف بن مالك بن نضلة الجشمي - فمن رجال مسلم.

قال البيهقي: «النَّزَّاعُ: جمع نزيع ونازع، وهو الغريب الذي نزع من أهله وعشيرته، وأراد بقوله: «طوبى للغرباء» المهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله عز وجل». قلت: والأظهر أنه عامٌّ لكل غربة في الله تعالى حتى وإن كان في وطنه، بل قد تكون لبعض الناس أشدَّ من الهجرة بالبدن، فالغربة غربة الدين بانفراد صاحبه بأمر قام لله فيه وخالفه من حوله، وتزيد غربته إن آذوه لدينه، لذلك فالمهاجر لله داخل في معنى الغربة دخولاً أولياً، وبالله التوفيق.

(٣) أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٢٥ / ١) وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٣)

عبد الله عن أبيه عن جده: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُتِّي» (١).

وعن أبي أمية قال سألت أبا ثعلبة فقلت له: يا أبا ثعلبة؛ كيف تقول في هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٥]؟ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بَلْ اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُّطَاعًا، وَهَوًى مُّتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ زَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرِ فِيهِنَّ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ». قلنا: «مِنَّا أَمْ مِنْهُمْ؟»، قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ». (٢) (١)

(١) الترمذي (٢٦٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الألباني في سنن الترمذي (٥ / ١٨): ضعيف جداً.

(٢) البخاري في خلق أفعال العباد (١٥٥) وأبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٩٩ / ٤) قال الألباني في السلسلة (٩٤ / ٣) (١٠٢٥): وقال الترمذي: حديث حسن غريب. كذا قال، وفيه عندي نظر، فإن عمرو بن جارية وأبا أمية لم يوثقهما أحد من الأئمة المتقدمين غير ابن حبان، وهو متساهل في التوثيق كما هو معروف عند أهل العلم، ولذلك لم يوثقهما الحافظ في «التقريب»، وإنما قال في كل منهما: «مقبول» يعني عند المتابعة، وإلا فليّن الحديث كما نص عليه في «المقدمة» من «التقريب».

ثم إن عتبة بن أبي حكيم فيه خلاف من قبل حفظه، وقال الحافظ فيه: صدوق يخطئ كثيراً، فلا تطمئن النفس لتحسين إسناد هذا الحديث، لا سيما والمعروف في تفسير الآية

التحذير من البدع

=

يخالفه في الظاهر، وهو ما أخرجه أصحاب السنن وأحمد وابن حبان في صحيحه (١٨٣٧) وغيرهم بسند صحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قام فحمد الله، ثم قال: يا أيها الناس؛ إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [النَّاسِ: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَا يَغِيرُونَهُ يَوْشِكُ أَنْ يَعْصِيَهُمْ بِعِقَابِهِ». وقد خرجته في الصحيحة (١٥٦٤). لكن لجملة «أيام الصبر» شواهد خرجتها في الصحيحة أيضًا، فانظر تحت الحديثين (٤٩٤ و ٩٥٧)

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «هذا فيه الحث على الاستقامة في الغربة، وأنه ينبغي للمؤمن أن يستقيم ويحرص على الاستقامة عند غربة الناس، ولا يغتر بكثرة الهالكين، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما تلا الصديق هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [النَّاسِ: ١٠٥] قال: يقول النبي ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُنْكِرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ». (قلت: رواه أحمد (١ / ١٧٧) وغيره، وهو أول حديث في مسند الصديق عند أحمد، وصححه الألباني). وقوله: «لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»: من الهداية، الأمر بالمعروف، ولا يضر الناس من ضل إذا استقاموا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، بعض الناس يظن أنه إذا اهتدى يعني: إذا أدى الطاعات الخاصة، وهذا غلط، فمن الهداية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هؤلاء هم الغرباء الذين يصلحون عند فساد الناس ويصلحون ما أفسد الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتمسكون بالقرآن حينما يتركه الناس، فالغرباء هم: أهل الصلاح والاستقامة وتنفيذ الأوامر والدعوة إلى الله عند فساد الزمان وتغير أهله».

عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ كَأَنَّهُمْ مَوْعِظَةٌ مَوْدَعٌ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (١) (٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَلَا تَتَعَبَّدُوهَا، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعَ لِلْآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ، وَخَذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». وعن عمر بن يحيى قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشِينَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَخْرِجْ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدَ؟ قُلْنَا: لَا. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آتِفًا

(١) أبو داود (٤٦٠٧) وابن حبان (١ / ١٧٨) وصححه الأرنؤوط.

(٢) قَالَ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا فِيهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الْبِدْعِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْحَذَرُ مِنْهَا، وَهَذَا حَذَرُ مَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا وَعَظَهُمُ الْمَوْعِظَةَ الْبَلِيغَةَ. فَالْوَاجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَأَنْ يَحْذَرُوا مَا أَحْدَثَهُ النَّاسُ مِنَ الْبِدْعِ، وَهَذَا قَالَ لَهُمْ حَذِيفَةُ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَلَا تَتَعَبَّدُوهَا، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعَ لِلْآخِرِ مَقَالًا»، لِأَنَّ الصَّحَابَةَ قَدْ بَيَّنُّوا، وَسَأَلُوا نَبِيَّهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلَيْكُمْ بِالتَّائِسِي بِهِمُ وَالسَّيْرِ عَلَى مِنْهَا جَهْمًا».

أمرًا أنكرته، ولم أرَ - والحمد لله - إلا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا جُلُوسًا، ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كَبَرُوا مئة، فيكبرون مئة، فيقول: هَلَّلُوا مئة، فيقول: سَبِّحُوا مئة، فيسبحون مئة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتَ لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمنتَ لهم ألا يضيع من حسناتهم شيء؟

ثم مضى، ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلقة، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ فقالوا: يا أبا عبد الرحمن؛ حصى نعدّها التكبير والتهليل والتسبيح، فقال: فعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة محمد ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبَل، وأنيته لم تُكسر. والذي نفسي بيده إنكم لعلّ ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة!

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن؛ ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مرید للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم؛ وأيم الله لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة:

رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهر وان مع الخوارج» (١) (٢) (٣).

(١) من آفة الاندفاع بلا علم ولا حكمة - وبخاصة في أزمنة الفتن - أنَّ المنفعل ببعض أحكام نصِّ وعيدٍ أو وعيدٍ نراه في العادة يستعجل تطبيق فهمه لفحوى النص على من حوله، وتضييق نفسه عن دفع زمن مضمونه، فيصّر على تطبيقه في واقع من حوله بالرمي بالفسق والابتداع والخروج عن السنة أولاً، ثم يخرج على أمة محمد ﷺ فيضرب وجوههم بالسيف آخرًا بعدما رماهم بالطعن في ديانتهم ابتداءً. وحينما يذودهم عالمٌ بالله وبدينه عن غيِّهم يتدثّون به، فينهرون دمه على عرضه المثلوم بدنايا كذبهم، وينحرون دينه المطعون بحراب إفكهم، ولا يكاد شرهم ينكفي إلا بقوة سلطان، أما القرآن فقد ألقوا أحكامه خلف ظهرانيهم، وإن عكفوا على تلاوته بألسن بلا فقه ولا علم ولا ورع، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

(٢) الدارمي (٢٠٤) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٠٥)

(٣) قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «هذا من البدع في كونهم يفرقون أحزابًا، كل واحد يقول: افعل كذا وكذا، وإنما الواجب النصيحة والتذكير بالله، قال الله وقال رسوله هذا هو الواجب، أما أن يجعلوا حلقًا ويقولون: عدّوا حسناتكم، خذوا الحصى، عدّ يا فلان! هذا مما أحدثه الناس من البدع، ولهذا يقول ﷺ في خطبته: «أما بعد؛ فإن خير الكلام كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». رواه مسلم (٨٦٢) (٣٥) فما أحدثه الناس من القربات هو من البدع، والبدع تكون بالقُرب، فما تقرب به الناس مما لم يشرع، هذا من البدع، فالواجب الحذر منها، وليس فيها تفصيل، بل كل بدعة ضلالة.

وأما قول بعض الناس: إن البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام، فهو قول غلط ممن قاله، والصواب: أن كل بدعة ضلالة، والبدعة هي القربة التي يتقرب بها الناس ولم يشرعها الله تعالى، مثل ما فعل هؤلاء في عهد ابن مسعود، ومثل بدعة الموالد، ومثل بدعة البناء

فلا خوف على حسناتك من ضياع أو نسيان، فربك حافظها لك ما دمت بعهدته قائماً، ﴿وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣٥] .

ونعوذ بالله من الضلال ومن حال أهل النار، وإن أعظم الخيبات أن يركض المرء فيما يُبعده عن مقصده لجريه خلاف جهته، وهكذا الحال في كلّ بدعة وضلالة ودين مُبدّل، قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزّين: ١١٣] ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] .

وتدبر قول الله تعالى وقارن حال الخوارج بها وستراهم يدخلون فيها دخولاً أوليّاً، نسأل الله العافية والسلامة، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [الأنعام: ٢٥] وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ [البقرة: ٢٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْأَمَّادُ﴾ [البقرة: ٢٥ - ٢٦]، وهي ليست خاصة بالخوارج، بل بكل ما انطبق عليه وصفها الغليظ من المنتسبين للإسلام والخارجين عنه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة لا به.

=

على القبور، وتخصيص القبور والكتابة عليها، كل هذا مما أحدثه الناس من البدع، فالواجب الحذر من ذلك، وأن يتقيد المؤمن بما شرع الله وما درج عليه أصحاب النبي ﷺ في العبادات، وأن يحذر أن يزيد شيئاً فيما شرعه الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فالله أكمل الدين، فليس لأحد أن يزيد فيه.

فالحمد لله كما ينبغي له على أن هُداًنا للإسلام والسنة، ونسأله تبارك وتعالى أن يحينا ويميتنا على ما امتنَّ به علينا من هُداًنا، إنه سميع قريب مجيب.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٩]



الرضا بمحمد ﷺ رسولاً

الفرح برسول الله ﷺ قطب رحي محبته، وعمود التدين بالشهادة له، ومن تأمل جميل صفاته، وكمال سجاياه، وشرف أخلاقه، ورضي سميته، وموفور أدبه ورحمته وشفقته وحلمه وجلالة أعماله، وعظمة الدين الذي بعثه الله به، وشديد المشاق التي احتملها ليصلنا الدين كما أمره ربه؛ عِلِمَ عِلْمَ اليقين أنه الإنسان الذي لا تُضاهي محبته إنسان لا نفساً ولا ولداً ولا والدًا، ولفرح الفرح المطلق به وبدينه، وهو الفرح المثمر لكمال الرضا به نبياً رسولاً.

وتأمل فوز أنصار الله به في هذا الخبر، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حَنْينَ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ. فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي رَجُلًا مِنْ قُرَيْشِ الْمِئَةِ مِنَ الْإِبِلِ. فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ. يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرَكُنَا وَسَيُوفُنَا تَقَطَّرُ مِنْ دِمَائِهِمْ! قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ. فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ. فَجَمَعَهُمْ فِي قَبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ^(١) فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا حَدِيثٌ بَلَّغْنِي عَنْكُمْ؟».

فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا، يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً. وأما أناس منّا حديثه أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أعطي رجالاً حديث

(١) قبة من آدم: هي القبة من الخيام: وهي بيت صغير مستدير. وهو من بيوت العرب. والأدم هي الجلود. وهو جمع أديم بمعنى الجلد المدبوغ. ويجمع أيضاً على آدم.

عهد بكفر أتألفهم^(١) أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكُم^(٢) برسول الله؟! فوالله، لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به»^(٣) فقالوا: بلى. يا رسول الله، قد رضينا. قال: «فإنكم ستجدون أثرة شديدة»^(٤) فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. فإني على الحوض» قالوا: سنصبر^(٥).

ونبي الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه هو سيد الراضين بالله وعن الله ودين الله تعالى، فعن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَاطِيطِ - وَرَبَّمَا قَالَ: فِي الْحِجْرِ - مُضْطَجِعًا، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ». فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثَغْرَةٍ نَحَرَهُ إِلَى شِعْرَتِهِ ... الْحَدِيثُ. وَفِيهِ: «ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَمْتِكَ. ثُمَّ فَرَضْتُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتَ؟

(١) أتألفهم: أي: أستميل قلوبهم بالإحسان ليشبثوا على الإسلام، رغبة في المال، وهم من

المؤلفة قلوبهم الذين يعطون من الزكاة.

(٢) أي: منازلكم وبيوتكم.

(٣) وصدق بأبي وأمي وولدي ونفسي وما أملك.

(٤) أي: سيأتي من يستأثر عليكم بالمال والسلطان، ويُفَضِّلُ عليكم غيركم بغير حق، وهذا

من دلائل نبوته ﷺ، فقد وقع ما قال.

(٥) البخاري (٣٧٩٣)، مسلم (١٠٥٩) واللفظ له.

قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله. فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أَرْضِي وَأَسْلَمْ. قال: فلما جاوزتُ نادى مناد: أمضيْ فريضتي، وخفِّقْ عن عبادي»^(١).

ففي هذا الخبر الجليل تمام رضا النبي ﷺ عن ربه، وبركة الرضا بالتخفيف عن أمته، وكرامة الله تعالى له، وكرامة أمته به إكرامًا له، وعظيم حظهم منه ببركته، وفيه أيضًا عظيم نصح موسى كليم الرحمن بهذه الأمة، وحرصه على تيسير الله تعالى لهم عبادتهم. والحمد لله رب العالمين.



(١) البخاري، الفتحة ٧ (٣٨٨٧) واللفظ له، ومسلم (١٦٤)

الرضا بعلم السلف والاكتفاء به في أمور الشرع

الكلام عن الرضا بمذهب السلف الصالح وعلمهم وعملهم هو خلاصة الكلام عن الرضا بالإسلام دينًا، ذلك أن علم السلف هو خلاصة الإسلام ولُبَّ الشريعة، وطريقة السلف أعلم وأسلم وأحكم وأتقى وأورع. فهي المَهْيَعُ القويم، والجادة المستقيمة، والسُّنَّةُ المرضيَّة، والسبيل الأمثل لدرك الحق وتحقيق العلم.. طلع الصباح فأطفئوا القنديلا.

وكثير من الناس يظنون أن عبارة «مذهب السلف» أن لهم بذلك طريقة خاصة بهم غير طريقة عامة المسلمين، وأن لهم أوضاعًا وتراتب مشابهة لتراتب الطريقة ونحوها، وهذا باطل، فطريقة السلف هي محض الإسلام وزبدة الرسالة وخلاصة الملة الحنيفة، فمن عمل بالقرآن والسنة فهو سلفي صميم وسني مستقيم، فهو لا ينتسب سوى للإسلام ﴿هُوَ سَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وكانت الأمة جمعاء على ذلك الطريق حتى حدثت البدع وخرج فئام من الناس عن جادة سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين، فأقاموا لهم قواعد وتراتب وأنماط ومناهج على غير سنة النبي ﷺ، بل بقعوا بمفاهيم وتصورات محدثة غريبة مستوردة من هلكى أمم الأوثان لم يأت بها رسول الله ﷺ الذي لم يرحل للرفيق الأعلى حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة وارتضى به الإسلام.

وكان صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قد أكد مرارًا على خطورة الإحداث والابتداع في دين الله تعالى، وحذر مخالفته سنته بزيادة أو نقص، لأن

جوهر البدع تبدل الدين إمّا جملةً وإمّا شيئاً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» أخرجاه، وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١). أي مردود على صاحبه، فالدين دين جماعة لا شذوذ عنها بالمحدثات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال مجاهد: «السُّبُل: البدع والشبهات».

ومذهب السلف هو شرع رسول الله ﷺ المتلقى من الوحي المعصوم كتاباً وسنةً، ومذهبهم هو عين وصية رسول الله ﷺ، لأنه قد علم أن الناس سيختلفون من بعده، فأرشدتهم إلى خير سبيل، وأزكى نهج، وأقوم طريقة وهي السنة الرسالية والمحنة المحمدية التي مشى على أثرها السلف الصالح قولاً وعملاً واعتقاداً وسمّاً وخلقاً وديانةً، فعن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهُا مَوْعِظَةٌ مَوْدَعٌ فَأَوْصَنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأْمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبْشِي، وَإِنَّهُ مِنْ يَعْشَ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ

(١) البخاري (٢٤١/٣) مسلم (١٣٢/٥)

الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛
فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

والتمسك بالسنة خيرٌ كله، وصحة المعتقد رافعة للدرجة عند الله تعالى،
فأول خطوة في القبول سلامة التصوّر واستقامة العلم. والضلال كل الضلال
في اعتقاد ما يخالف اعتقاد رسول الله ﷺ الذي جاء بالدين من عند الله
أبيض نقيّاً صافياً واضحاً لا غش فيه ولا خفاء ولا شك ولا غموض. قال
ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]: «أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان،
فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله عزّ ذكره فلا ينقصه أبداً، وقد رضى
الله فلا يسخطه أبداً»^(٢).

وهذه الحروف العبدية عليها من ضياء النبوة إشراقة، ولا جرم؛ فهي
نتائج بركة دعوة الرسول ﷺ له بالفقه في الدين وعلم التأويل. فاستقم يا عبد
الله على صراط الله كما أمرت، لا كما اشتهيت ورغبت، وأبشر بحسن العقبى
وفوز المقلب إن تقبلت مولاك في الصالحين.

قال ابن القيم رحمه الله: «أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم
عقائدهم، وأهل البدع إذا قامت بهم أعمالهم قعدت بهم عقائدهم». وقال:

(١) حديث ثابت مشهور، رواه أحمد (١٢٦/٤) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦)

وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥)

والنواجذ: الأنياب، وقيل: الأضراس. والمراد الخض على شدة الاستمساك بالسنة.

(٢) تفسير الطبري (٥١٨ / ٩) (١١٠٨٠)

وهذه النعمة المطلقة هي التي يُفرح بها في الحقيقة، والفرح بها مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يحبّ الفرحين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته الإسلام والسنة. وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قبله أشدّ فرحاً، حتى إن القلب إذا باشر روح السنة ليرقص فرحاً أحزن ما يكون الناس.

فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضة وجوههم إذا اسودّت وجوه أهل البدعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة والاتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق».

وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداية وفوزه، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلّمه، وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الايمان، وجعل ضدّهما صفة من خرج عن الايمان. فإن القلب الحيّ المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ وآله.

والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم.

وهذه الظلمة هي التي خُلق فيها الخلق أولاً، فمن أراد الله سبحانه وتعالى به السعادة أخرجته منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ» (١) (٢).

(١) أحمد (١٧٦/٢) (٦٦٤٤) والحاكم (١ / ٣٠) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٦)

(٢) ودل ربط جفاف القلم على علم الله تعالى أن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبداً، ولا يدخله نسخ.

فائدة: دل قوله ﷺ: «وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» على جواز وصف العامة البقعة التي لم تُغث بالمطر: «أخطأها المطر.. ونحوه». فهذا الحديث أصل الجواز، والمعنى: أنه أصاب غيرها ولم يصبها.

وكان النبي يسأل الله تعالى أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظامه ودمه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا، فطلب النور لذاته ولأبعاضه ولحواسه الظاهرة والباطنة ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور». وهذا النور بحسب قوّته وضعفه، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامهم وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار. فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة!

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبينا ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره.

والله سبحانه وتعالى سمّى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلأأ، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]. وقد

فسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنی.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله. فالأول كقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه».

وهذا الذي قاله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنه منور السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق: أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم^(١) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور، لو كشفه لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سألت رسول الله هل رأيت ربك قال: «نورٌ أنى أراه»^(١). فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «معناه: كان ثمَّ نورٌ، وحال دون رؤيته نور، فأنى أراه». قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت نوراً»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «مذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعاً عند أهل السنة والجماعة، فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم»^(٣).

إنّ مذهب السلف جليل طيّب مُحْكَم واضح، فهو ما توافقه الفطرة، ويرتضيه العقل، ويزكو به القلب، وتسمو به الروح، ويسعد به الجسد، به اجتماع الناس، وعليه افتراقهم، فهو امتحانٌ لإسلام المرء الدين لله رب العالمين. وإن من أعلام الأمة الكبار رجل صالح وإمام مجاهد وعابد قانت ولا أزكي على الله أحداً، ذاكم هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، شيخ الإسلام، وقد صار امتحاناً وكبيراً وعلمياً في بيان منهج

(١) مسلم (١٧٨)

(٢) مسلم (١٧٨)

(٣) منهاج السنة (٢/ ٦٠١)

السلف الصالح والذب عنه، لذلك كان غصة في حلوق المبتدعة، فحاولوا بكل طريق صد الناس عن علمه ودعوته، ويأبى الله!

فَأَنْتُمْ عَلَى أَكْبَادٍ قَوْمٍ حَرَارَةٌ وبردٌ على أكبادنا وسلامٌ

ألا وإنَّ العلمَ رَحِمٌ بين أهله، ولا يعرفُ الفضلُ لأهلِ الفضلِ إلا ذُو الفضلِ، والمؤمنُ أخو المؤمن، والسعيدُ مَنْ وَلَدَ آدم هو من اصطفاه الله تعالى بإيمانٍ يُقَرِّبُهُ إليه، وعِلْمٍ يرفعه لديه، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الرُّوم: ٥٦]، فَإِنْ لَمْ يَكُ عَالِمًا فَلْيَكُنْ طَالِبَ عِلْمٍ، فَإِنْ قَصَرَ عَنْ ذَلِكَ فَلْيَكُنْ لِأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ مُحِبًّا، فالمرءُ مع مَنْ أَحَبَّ.

وتدبر قوله تعالى في بيان ثبات أهل العلم والإيمان حتى في أعظم الأفرع، وهو فزع يوم البعث: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٦]، يُقيمون على الناس حجة الله في الآخرة وبرهان صدق وعده كما أقاموها في الدنيا، فاسأل الله تعالى أن يسلك بك سبيلهم، فإنهم ورثة الأنبياء، وأكرم بميراث النبوة عند الله فضلاً وكرامةً ورفعةً، فاكشف بالعلم بصيرتك وبالإيمان حُجَّتَكَ قبل أن يحقَّ العذاب بأهل التَّباب، ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فهي بصيرةٌ ليست في إبانها، فقد فات أوانها، ﴿فَتَقَبُّوا فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، ولكن لا تحين مناص. وَجَادَتْ بَوَصلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ!

ألا وإنّ أبا العباس ابن تيمية علّم من أعلام أمة أحمد ﷺ وبارك، وإمام من أئمة المسلمين، ومجاهدٌ كبيرٌ تشهد له ميادين الوغى، ومنابر المساجد، وساحات المناظرات، وطروس العلم، ودواوين السلاطين بقوله الحق لا تأخذه فيه لومة لائم، ولا إشفاق عاذل، ولا تهديد كاشح، وتشهد لإمامته حلق الدّرس، وقلوب أهل السنّة العتيقة، والفطرة السليمة، والقرائح القويمة، الناطقة بحبّه، اللاهجة بالدعاء له، المثنية عليه، الشاهدة له بالخير والهدى، المسبّحة بحمد الله تعالى للطّيفه وكرمه وهبّاته ورفقه وألطفه، المتعبّدة الله تعالى بحبه وأمثاله من نجوم العلم والعمل والجهاد والهدى والتقوى والإحسان، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]. تلك المكارم لا قعبان من لبن.

إنّ من منن الله تعالى العظيمة وآلائه الكبرى على الأمة أن قيض لها أئمة يدعون إليه بعلمهم وعملهم وحسن سمّتهم، فما أحسن أثرهم على الناس!

أَوَاهُ مَا أَرَوَعَ الْأَبْطَالِ إِذْ حَمَلُوا هَمَّ الدِّيَانَةِ إِنْ خَافُوا وَإِنْ سَغَبُوا
مَا قَالَ وَاحِدُهُمْ هَمِّي الْخُطَامُ فَقَدْ صَاغَتْ مِبَادِيئُهُمْ طَهَ فَمَا انْقَلَبُوا
تَنَازَرَ الْعِلْمُ شَهَدًا مِنْ تُغُورِهِمْ أَكْرَمَ بِهِ مُنْبَعًا لِلدِّينِ يَنْسَكِبُ

أَتَمَّا نَعْمُ رَبَّانِيَّةٌ تَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ، وَتَسْتَنْطِقُ الْحَمْدَ، وَتَسْتَنْزِلُ الْمَزِيدَ الْعَظِيمَ
 مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ
 كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [٧] ﴿إِبْرَاهِيمَ : ٧﴾.

ولقد أجرى الله تعالى للأئمة على يد ابن تيمية خيراً كثيراً، فجمع الله
 تعالى فيه ما تفرّق في كثير من الأئمة بعمله وقوله لساناً وبناناً، فهو ممن اتفق
 البعيد والقريب على الْمُعِيَّتِهِ، وَتَفَرُّدِهِ، وَجَهَادِهِ، وَوَاسِعِ عِلْمِهِ، وَثَبَاتِ مَبَادِئِهِ،
 وَوُضُوحِ مُسَلَّمَاتِهِ، وَعُلُوِّ مَقَامَاتِهِ فِي شَتَّى مَيَادِينِ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَآيَاتُ
 التَّنْزِيلِ تَجْرِي عَلَى يَرَاعَتِهِ يَقْتَبِسُ هُدَاهَا، وَأَحَادِيثُ وَأَخْبَارُ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ ﷺ
 بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَقْتَضِفُ جَنَاهَا، مَنْ صَحَبَهُ أَحَبَّهُ لِلَّهِ دِيَانَةً، وَمَنْ عَادَاهُ أَجَلَّهُ مَهَابَةً،
 وَمَنْ طَالَعَ سِيرَتَهُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ شُكْرًا لِلَّهِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلَ فِي الْأُمَّةِ
 مِثْلَهُ، وَلَا نَزَكِيهَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ سَدَادُ الْفَحْلِ الْجَهْدِ وَالْبَحْرِ الرَّخَّارِ
 وَالسَّيْلِ الْجَرَارِ ابْنَ الْقِيمِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ بِفَضْلِ اللَّهِ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ سِوَاهُ؟!

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَاَنْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ

وَلَا يَضُرُّهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِسَوْءٍ، وَلَا يُشِينُهُ مَنْ طَعَنَ عَلَيْهِ مُعْتَقِدُهُ، أَوْ طَارَدَ
 قَالَاتِ الْبَهْتَانِ إِلَيْهِ، أَوْ هَمَزَهُ أَوْ لَمَزَهُ أَوْ غَمَزَهُ؛ فَلَمْ يَسْلَمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَهُ،
 وَلَا الصَّالِحِينَ بَعْدَهُ، فَخُصُومَاتُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
 ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
 زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢].
 نَامُوسُ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ وَاقْتِدَارُهُ، وَشَرِيعَتُهُ وَلُطْفُهُ وَابْتِلَاؤُهُ، ﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ
 أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإِسْرَاءُ : ٧٧].

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَا تَقُولُ عَذَرْتُكَ
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ

ولقد كتب الشيخُ وناظر وحاجج، وقامَ وركب، وحلَّ وارتحل، وأوذي وامتحن، وطُردَ وسُجنَ وعُذِّبَ، وحاولوا غيلته مرارًا، وراموا قتله جهارًا، وهو في كلِّ ذلك يصبرُ لله بالله تعالى ويصابر، ويقوم له مجاهدًا ويُرابط، لأجل العلم النافع ونشره والعمل به، والدعوة الحُسنى، وإضاءة ما يستطيع من بَقاع تَقَلَّصَ عنها شيءٌ من نورِ الوحي العظيم، واندَرَسَتْ في مَهَامِهَا بعضُ آثار الرسول الكريم عليه الصلوات والبركات والتسليم، وهذه مُهمَّةُ أهلِ العلم كافة في كلِّ زمان ومكان، ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ لَوْلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. فهل مِنْ ناقمٍ عليه بحقٍّ.. اللَّهُمَّ كَلَّا!

وَلَمْ تَزَلْ قَلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ
وإنَّ مشكلةَ بعض من انحرف عن هذا الإمام، أو هجم عليه، أو ضلَّله؛ راجعة إمَّا إلى ثِقَةِ المخذولِ في مُقَدِّمِي طائفته الذين حالوا بينه وبين هدايات الله تعالى بعلوم ذلك العالم الرباني، فالتقليدُ الأعمى بلا بصيرة آفة قديمة لدى الجُهاال أو المتعصبة أو الكسالى.

وإمَّا أن يكون راجعًا إلى سوء الهضم العقليِّ المعرفيِّ لبعض ما حوته خزائنُ حروف شيخ الإسلام من نواذر الذخائر العلمية المتينة، وإمَّا لسوء المعتقد أو خبث الطويَّة التي لم تَغِبْ عن علم ربِّ البرية، ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ

وَنَسُوهُ» [المُجَادَلَة : ٦]، فما دهاهُ حتى حَلَّ عَقَالَ عَقْلِهِ! وإلى العقابيل تُرْمَى شِرَارُ
الأفئدة، وكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ وابنُ هَالِكٍ.. فليَهْنِهِمْ صَيْدُهُمْ ولنا العَزَاءُ!

فاظْلِمُ كَمَا شِئْتَ لَا أَرْجوكَ مَرْحَمَةً إِنَّا إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْحَشْرِ نَحْتَكِمُ
وبالْتَّبَعِ؛ فَجُلَّ مَنْ عَابَ دَقَائِقَ تَحْرِيرَاتِهِ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ، بل تجد أَنَّ كلامه
يَأْتِي مُرْسَلًا محلُولِ الْعِقَالِ بلا ضابطٍ ولا برهانٍ ولا دليل، ولا إنصافٍ ولا
إحكامٍ ولا إحسانٍ تعليل، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء :
٥٨]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾
[النَّاسِ: ٨]. ومن جهل شيئًا عَابَهُ، وَمَتَى اسْتَرَابَهُ عَادَاهُ.

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
فليته قنع بالسكوت إذ وَسِعَهُ إن كان جاهلاً، أو تذكّر لقاء الدِّيَانِ أن كان
عالمًا، وقد قال إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجتمعنا ذات يومٍ في مسجدٍ، فما منَّا
أَحَدٌ إِلَّا تَكَلَّمَ، إِلَّا إبراهيم بن أدهم، فَإِنَّهُ سَاكِتٌ، فقلتُ: لِمَ لَا تَتَكَلَّمُ، فقال:
الكلامُ يُظْهِرُ حَقَّ الْأَحْمَقِ، وَعَقْلَ الْعَاقِلِ»^(١).

وأبلغ من ذلك قول رسول الله أحمد^(٢) ﷺ: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١). وربُّ العِزَّة يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ

(١) حلية الأولياء (٢٠/٨).

(٢) من أسمائه صلى الله عليه وسلم أحمد، ولا بأس أن تسميه بذلك بنسبة النبوة والرسالة له إذا
أمن اللبس، فإنَّ الله تعالى سمّاه في القرآن العظيم أحمد، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقال ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ،

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولقد أتنك بحائِنِ رجلاه، ومن صادق مقول أبي العلاء المعري:

أَلُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشَدُّ وَتَنَأَى عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ

قال الحافظ ابن الزمكاني رَحِمَهُ اللهُ: «لم يأت قبل ابن تيمية بخمسمئة سنة مثله». أي: بعد الإمام أحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ. قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ مُعَلِّقًا: «ولا نعلم إلى عصرنا هذا من قد أتى مثله، رَحِمَهُ اللهُ». قلت: فمنذ ١٢٠٠ سنة لم يأت أحد كهذا الإمام المجدد الصديق، ومع هذا فليس بمعصوم، فهل يُلام من أحبه ووثق بنصحه وعلمه. ونقول فيه كما قال ابن عمر رضي الله عنهما في ابنه سالم:

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ

ومن طعن في الإمامين ابن تيمية أو ابن عبد الوهاب فاتّهمه على الإسلام، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيت الرجل يَغْمِزُ حماد بن سلمة؛ فاتّهمه

وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»، رواه البخاري (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) وزاد: «وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ ﷺ».

(١) الترمذي (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

على الإسلام، فإنه كان شديداً على المبتدعة»^(١). فإنهما قد قاما للدين حق القيام، وجدّد الله بهما ما اندرس من معالم الإسلام. قال العلامة عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى في شرحه لبلوغ المرام كتاب الصلاة: «وقد سئل الشيخ محمد رشيد رضا عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ هل هو أعلم من الأئمة الأربعة، أم هم أعلم منه؟ فأجاب بجواب موفق فيما أحسب، قال: باعتبار أن شيخ الإسلام تخرّج على كتب الأئمة الأربعة، وكتب أتباعهم فلهم الفضل عليه من هذه الحيشة، وباعتباره جمع بين ما قالوه وأحاط بها كتبه، يعني إحاطة بشرية لا يعني هذا أن شيخ الإسلام أحاط بكل ما كتب أو ما قيل، نعم، فهو من هذه الحيشة أشمل منهم علماً، هذا كلامه. وهناك أمر ينبغي أن نتنبه له وهو فضل علم السلف».

ولد شيخ الإسلام سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٢٨ وله ٦٧ سنة و ١٠ أشهر، بعدما أروى الله به أكباداً عطاشاً لدفع الشبهات بالعلم الفرات، وأشبع به أنفُساً جِيعاً لِعِصِّ العلم من مَعِينِ ورثة الأنبياء، وأدَمَى الله به نواصي أهل الزيغ والإحداث والإضلال، رَحِمَهُ اللهُ. ولا فضل إلا بالتقوى، وتمامها العلم والإيمان. وعلى مثل ذا فابك إن كنتَ باكياً^(٢). والله أبو حيان النحوي إذ قال:

قام ابنُ تيمية في نصرِ شرعنا مقامَ سيّدِ تيمٍ إذ عصتْ مُصْرُ
فأظهرَ الدينَ إذ آثارُه درَسَتْ وأخذَ الشركَ إذ طارتْ له شَرَرُ

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٠).

(٢) ويكون الدين كله لله، للمؤلف. ص: (١٠).

وإن من عجيب لطف الله تعالى بعبده أن يسوق له الهدى من أبعد باب يتوقعه، كمن تكون هدايته على يد من كان يراه عدوّه، ومن ذلك الشيخ العلامة محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ، وكان أستاذًا في الفلسفة والمنطق من جامعة الأزهر، وكان معاديًا لتراث شيخ الإسلام ابن تيمية، فقصد نقض كتبه بالرد عليها وجمع بعضها، وعكف يدرسها ثلاثة أشهر تمهيدًا لنقضها؛ فما انقضت دراسته لها حتى تبين له أنه لم يفهم الإسلام حقًا إلا بعد دراسته هذه الكتب المباركة لذلك العالم المبارك، فقام من بعدها بالانتصار لشيخ الإسلام، وأصبح من كبار علماء السنة في زمانه، وشرح الواسطية شرحًا ممتعًا نافعًا، لذلك فمن واجب طلبة العلم والدعاة إلى سبيل الله تعالى بيان حقيقة الدين غصًا كما هو، مع بسط حسن الخلق للعالمين، فإنَّ أحد أسباب تكبير الناس خطأ المنتسب للسلفية لأنهم يرون أنها منهج النبي ﷺ، وعليه فتعظم من منتسبٍ إليها أدنى مخالفة سواء في الخُلُقِ أو العلم ونحوه. ورحم الله من قام له بحق.

لقد رفع التوحيد أسًّا وغايةً ومن كان ذا دوماً فللحق هاديا

وكذلك حال الشيخ خليل سليمان حيدرية، فحدث عن نفسه أنه كان متصوفاً وله زوايا، فلطف الله تعالى به - لما أراد هدايته - بأن أهده أحد شيوخ المتصوفة كتاب مجموع فتاوى ابن تيمية طالبًا منه الرد عليه، فقرأه لينقضه؛ فغدى صائد الضلالة مصيد الهدى بحمد ربه، إذ فتح الله قلبه بذلك المجموع المبارك، فغدا داعيًا لعقيدة السلف منافعًا عنها، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه.

فَمَا لِأُخُوَّةٍ فِي اللَّهِ مَعْنَى إِذَا كَانَ الصَّدِيقُ هُوَ الْإِدَامَا

وكان الكتاني رَحِمَهُ اللَّهُ ممن شنعوا على ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ جهلاً به، وبعد أن اطلع على تصانيفه قال بإنصاف عزيز: «فصدر مني ما صدر من التوغل والإفراط في ذم ابن تيمية.. فلما طالعت كتبه علمت أن الرجل عديم النظر في الإسلام، وقرة عين أهله.. ويستخرج شواهد القرآن.. وكأنه ما حفظ أحد القرآن إلا هو».

يَا قاصداً ثَبَجَ الْبَحَارِ إِلَّا ارْعَوِ فَلَكُمْ تَجَنَّدَلْ فِي الْمُحِيطِ الصَّارِبِ

وبالجملة؛ فحال الرجل وعلمه المبتوث قد طار في الآفاق، وقد انصرف صفوة العلماء الذين وقفوا على كتبه إلى علمه وتحرايرته كالعنق الواحد، عليه رحمة الله وسلامته ورضوانه والمسلمين، وجزاه عنا خير ما جزى العلماء الصديقين، وألحقنا به جميعاً ووالدينا وأحبابنا والمسلمين، غير خزايا ولا ندأمي، إله الحق آمين.

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ

هذا؛ وإن سبب رقم هذه الأحرف هو الإعلام بمقدمة رسالته القيمة الحموية لمن فاته علو قدرها، لا بقصد الإشادة فهي تُنبئ عن فحواها، ولا الإشارة ففي صدور أكابر العلماء معناها، وما مثلي بمثلها يشيد ويشير، اللهم غفرًا!

والمقصود هو تنبيه القارئ النبيه إلى أن من حق هذه الرسالة التيمية بالذات نشرها في هذا الزمان الذي ادهمت فتنه، وتعلقت بقلوب فئام من

الشيبة شبهاته، واستطار شر أهل الأهواء في الناس مع وسائل الاتصال الحديثة. فكان لزامًا على كل قادر سد باب الشر من جهته، وحسم مادة الفتنة من قبله، وحراسة ثغر الأمة طاقته، وغزو قلاع الشيطان بسلح العلم بالقرآن، ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، و«المؤمن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف»^(١).

وقد خط الشيخ الصالح أحمد بن مري رسالة إلى تلاميذ شيخ الإسلام بعد وفاته يوصيهم بكتب الشيخ وعلمه، ويبشرهم بحسن العاقبة للمتقين، ومنها: «فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا.. ووالله إن شاء الله ليقمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائب، رجالاً هم إلى الآن في أصلاب آبائهم»^(٢).

وقد أبرّ الله تعالى قسمه، وليس راءٍ كمن سمع. وقد نشر الله في الناس علمه، وأعلى بين الأنام ذكره، فانتشرت كتبه ورسائله، منها ما هو مهور باسمه، ومنها ما أبهم حفظاً لها من عاديّات الجهلاء، كصنيع ابن أبي العزّ والألوسي رحمهما الله تعالى، وغيرهما كثير.

ولما سأله تلميذه البارُّ البزار رحمهما الله تعالى عن سبب كثرة تأليفه في العلميات وأصول الدين دون كثيرٍ من مسائلِ العمليّات، والتّمَسَ مِنْهُ تأليف

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) قطعة من مكتوب ابن مري الحنبلي. ص: (١٨).

نَصَّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليَكُونُ عُمْدَةً في الإفتاء؛ أجابه بقوله: «الْفُرُوعُ أَمْرُهَا قَرِيبٌ، وَمَتَى قَلَّدَ الْمُسْلِمَ فِيهَا أَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْمُقَلِّدِينَ جَازَ لَهُ الْعَمَلُ بِقَوْلِهِ مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ خَطَأَهُ، وَأَمَّا الْأَصُولُ فَإِنِّي رَأَيْتُ أَهْلَ الْبَدْعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأَهْوَاءِ قَدْ تَجَاذَبُوا فِيهَا بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ، وَأَنَّ جُمْهُورَهُمْ أَوْقَعَ النَّاسَ فِي التَّشْكِيكِ فِي أَصُولِ دِينِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ؛ بَانَ لِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ شُبُهَتِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ وَقَطْعِ حُجَّتِهِمْ وَأَضَالِيلِهِمْ أَنْ يَبْذُلَ جُهِدَهُ لِيَكْشِفَ رِذَائِلَهُمْ، وَيُزَيِّفَ دَلَائِلَهُمْ ذَبًّا عَنِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ وَالسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ الْجَلِيلَةِ»^(١).

يَا غَائِبًا فِي الثَّرَى تُبْلَى مُحَاسِنُهُ اللَّهُ يُولِيكَ غُفْرَانًا وَإِحْسَانًا

وبالجملة؛ فالشيخ لم يترك شاذة من كبريات شبهات المبطلين في عصره إلا وكتب ما يهدمها من أساسها بحمد الله تعالى، سواء من الفرق المنتسبة للإسلام أو الخارجة عنه. والذي يدعو إليه، ويلج فيه، ويجاهد له، ولا يتراجع عنه؛ هو إقامة المعتقد الصحيح الذي لا لبس فيه ولا اشتباه، وحينما خاصموه في رسالته الواسطية، ورغبوا إليه - مكرًا - بعدم الحسم بها في مسائل المعتقد، ولوَحُّوا والمُحَوِّوا، وأرعدوا وأبرقوا، وأرغَبُوا وأرْهَبُوا، وصرَّحوا أنهم سيقبلون بها على أنها رسالة مذهبية حنبلية؛ أبى ذلك بكل حزم ووضوح وشموخ، فالْحَقُّ يَعْْلُو ولا يُعْلَى، فَصَدَحَ على رؤوسهم، وصرَّخَ بمشهد من جموعهم أنَّهَا مُعْتَقَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وصحابته، وأنظرهم ثلاث سنين ليثبتوا

(١) الأعلام العلية، للبزار. (٣٥-٣٦) باختصار.

حرفاً منها مخالفاً للقرآن والسنة، وأنّى لهم ذلك! ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨].

ونحسب أن ابن تيمية قد جعله الله تعالى من قذائف الحق، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـَـلْمُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ : ٤٨]، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَيِّنَ﴾ [البقرة : ١٤٧]، ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٦١]، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل
عمران : ٢٠٠].

فالْحَقُّ شَمْسٌ وَالْعِيُونُ نَوَاطِرٌ لَكِنَّهَا تَخْفَى عَلَى الْعَمِيَانِ

فالأمر إذن ليس خلافاً مذهبياً يسوغ فيه الخلاف، بل هو معني بملة
محمد وإبراهيم والمرسلين صلى الله عليهم وسلم، قال شيخ الإسلام رحمه الله
في منهاج السنة: «مذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن
يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقّوه
عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعاً عند أهل السنة والجماعة، فإنهم
متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم»^(١).

وَشَمَائِلُ شَهِدِ الْعَدُوِّ بِفَضْلِهَا وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ

(١) منهاج السنة (٢/ ٦٠١).

أما عن هذه الرسالة الحموية فهي من رسائله الراسخة الشاهقة، وكان الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ يوصي بها ولو أن تُقرأ مئة مرة، لعظيم نفعها. ومقصودنا هنا مقدمتها، والرسالة واضحة البيان، وليست طويلة الذيل، ومعلوم أن أصعب التصنيف وأشق التأليف هي المختصرات؛ لأنها اعتصارٌ للفكر، واختزالٌ للعلم، وجمعٌ للمتفرق، وتسويرٌ للشوارد، وإحاطةٌ بمهمات ذلك العلم، واجتذاب أطراف أصول ذِيَاكَ الفنِّ، فالمصنّف في المختصرات كماش على حبلٍ دقيقٍ كما يوصل للقارئ علمه المراد بإيجاز تامّ المعنى، بلا إغلاقٍ للألفاظ ولا إخلالٍ بالمعاني، أمّا المطوّلات فإنّ المصنّف فيها يصوغ فيها مرتاحاً ما شاء من معاني بما شاء من حروف، ويسبحُ في بحر فكره بلا تقيّد بضوابط الإيجاز، والقرآن العظيم موجزٌ معجز.

وقيمة هذه المقدمة لرسالة لعقيدة الحموية ظاهرة في التالي:

- ١- تأصيل مرجعية الوحي.
- ٢- عنايتها بتأصيل أشرف العلوم على الإطلاق وهو علم أسماء وصفات الله تعالى، وشرفُ كلِّ علم بشرف متعلّقه.
- ٣- احتوت على جرعات سُنيّة من التحرير العلمي والاستعلاء الإيماني بالوحي على من تنكّب جادّته، والاستعزاز بالمنهج النبوي المشرق على سبيل أهل الأهواء المظلمة، والطوائف المنحرفة، والملل الضالة. وإنّ حقنَ هذه المضامين الكليّة في نفوس الناس في الغاية من الأهمية، وخاصة في هذا الزمان الذي اشتدّت فيه غُربةُ السُنّة في الناس، ولا زال أهل السّنة

غرباء بين الأنام في كثير من بقاع الإسلام، والمُشتكى إلى الله الملك العلام.

٤- أنها بمثابة رصدٍ مُحَقَّقٍ، من خبيرٍ مُدَقِّقٍ، وتحليلٍ مُوَفَّقٍ لأصول ضلالات البدع وابتدائها منذ بزوغ قرونِ فِتْنِهَا الأولى حتى عصر الشيخ في القرن السابع، فهي حروف نافعة مركّزة في ردّ فروع البدع الباطلة لأصولها الوثنية الضالة، وهي الأصول الخائبة التي نبغت من قديم، فتقلّدها متهوِّكٌ خالِفٌ عن غابرٍ تالِفٍ، في سلسلةٍ نَكِدَةٍ مسمومةٍ برُقيّةٍ إبليس أعادنا الله جميعاً منه. ففي هذه المقدمة سرٌّ موجز لتاريخ البدع عامة، وفي ضلالات أهل الأهواء في الصفات الإلهية خاصة. مع بيان أن ذلك هو أعظم أسباب الافتراق في الأمة، ولكلُّ خُبْرٍ وارثٌ.

لكلّ ساقطةٍ في الأرضٍ لاقطةٌ وكلّ كاسدةٍ يوماً لها سُوقٌ

٥- هدم للأصل المُحدث من افتراضهم الباطل بتعارض النقل والعقل. وقد توسع الشيخ في كتابه الكبير العقل والنقل بما لا مزيد عليه، فهو معدود عالمياً من أنفس الوثائق العلمية التي ناقشت القضايا العقلية، بل أربت عليها بأن أثبتت بساطع البراهين اتساق العقل الصحيح مع النص الصحيح الصريح، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١].

٦- حوت المقدمة عملياً الطريقة الصحيحة للتعامل مع وافد الأفكار المخالفة، ومنهج التعاطي مع الضلالات الفكرية بعامة، وتضمينها جملة

صالحة من الإلزامات المحكمة العقلية والفطرية، بل والأخلاقية المسلكية.

٧- الوضوح والبيان والجزالة والاقتضاب الإيجابي غير المُخِلّ.

٨- تتضح فيها شواهد الولاء والبراء للوحي، والوفاء الأصيل له.

وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوْلُونَا فَلَا شَيْءَ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ

٩- لا أعلم رسالة موجزة من رسائل علماء الإسلام في هدم أصول المبتدعة إجمالاً كهذه المقدمة الهائلة، فهي حقيقةٌ جدًّا وقمينةٌ دومًا بالدرس والتكرار والنشر، ويكأنّها عليها قبس من ضياء النبوة، لا جرم فهي معنية بردّ الأمة للمعين الصحيح الأوحد القرآن والسنة.

١٠- هي صالحة لتأصيل طلاب العلم عقديًا في بدايات الطلب.

ولعلها تصل لمن بيده الأمر، سواء أكان طالب علم في مكتبته، أو شيخًا في مسجده، أو أستاذًا في جامعته، أو مسؤولًا في وزارته، فأقول: يا ليت هذه المقدمة النورانية تُجعل كمتطلب جامعي في كلّ كلية شرعية بعدما تشرح شرحًا متوسطًا، ففيها من بناء أصول البصيرة وحراستها ما لا يحيط به وصفٌ على إيجازها ووضوحها.

ولو وضعت رسالته الأخرى العبودية كذلك لكان أحرى، فهي في ظني أسبَكُ وأمتن ما كتبه الإمام من رسائله في هذا الباب، ولعله ألفها في أخريات حياته الحافلة المباركة، وليس في بابها مثلها فيما أحسب، فرسالة العبودية تُعنى بالبناء الإيماني الداخلي وإحسان التعبد لله تعالى، أما مقدمة الحموية فهي للتحصين العلمي الخارجي، فهما مُكمّلتان لبعضٍ. ففحوى رسالة العبودية

أعمال القلوب، وتأصيل الاعتقاد في الأسماء والصفات الإلهية. فمضمون الرسالتين توحيد المعرفة والإثبات، أعني توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وعلى غرارهما كتاب التوحيد وكشف الشبهات للإمام المجدد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في توحيد الإرادة والقصد، أعني توحيد العبادة، فقد أُلْفَ كتاب التوحيد لبناء ونَسَجِ عَقْدِ القلب على سلامة الإخلاص والاتباع في الداخل، وأما رسالة كشف الشبهات فملتصحين من الخارج.

وأما رسالة العقيدة الواسطية على إيجازها فهي جامعة، إذ هي واسطة عَقْدِ تأصيلاته العقدية، وزبدة مؤلفاته العلمية رَحِمَهُ اللهُ، وهي أوسع من الحموية وأشمل في تقرير توحيد المعرفة والإثبات، وإنما قصدت هنا مقدمة الحموية فقط، وكلّ مصنفات شيخ الإسلام جليلة النفع، غزيرة العلم، مباركة المأخذ، أينما وجهتها وجدت خيرًا فاضلاً.

تلك عشرة كاملة من أسباب تخصيص هذه المقدمة بمزيد عناية لدى أهل الشأن، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود : ٨٨]. وبالجمل؛ فمقدمة الحموية تأصيلية بنائية فريدة لا كالمقدمات.

نَبْرَاسُهَا الْعِلْمُ وَالتَّقْوَى تُوجَّجُهَا فُرْقَانُهَا سَائِقُ إِنْ صَاحَتِ النُّوبُ

فيا أهل السُّنَّةِ؛ إِنَّ الْمَدَّ الْخُرَافِي وَالْكَلَامِي فَضلاً عن الإلحادي الدّهري آخِذٌ في الانتشار شَبْرًا فذراعاً فباعاً فمميلاً عبر قنوات رسمية مُنظّمة، سواء في ميادين العلم والدراسة، أو حِلَقِ الذكر والمساجد، أو المؤلفات واللقاءات

والمواقع والمنتديات والتدوينات وقنوات التواصل الحديثة، فينبغي أن يُجابه ذلك بالاعتصام بحبل الله المتين، والتوكل عليه، وتجريد القصد لوجهه، والقيام له برص الصفوف السنّية المؤسّسية، حفظاً لبيضة الدين، وغزواً لِقلاع التّمويه، ومراقِدِ الفتن، وضَعائِنِ ضَعائِنِ الأهواءِ المُضَلّة.

أَخَوْكَ الَّذِي إِنَّ تَدْعُهُ لِمِلَّةٍ يُحِبُّكَ وَإِنْ تَغْضَبَ إِلَى السَّيْفِ يَغْضَبُ^(١)

ففرّض الوقتِ الدعوةُ إلى الله تعالى بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة : ١٥٠]. دون تهوّر، ولا طيش، ولا حظوظ النفس الأمارّة، وذلك عبر رأب الصدوع، ورتق الخروقي، ورص الصفوف العلمية، والدعوية، والتربوية، والإعلامية، والعبادية، والتعاون على البر والتقوى، وترك الإثم بين الأقران، والعُدوان على هداياتِ فلذاتِ الأجيال، وردمِ الهوّة بين بعض أهل السنة، والتناصح بين أهل القبلة والإسلام، ويا بَعْضِي دَعْ بَعْضِي، وإطفاء ما استطعنا من حرائق الشيطان في أخبية اجتماعهم، وسدّ ما وهى من أبنية اعتصامهم بحبل الله جميعاً، فالشيطانُ يرقصُ فرحاً طرباً فوق قلوبِ مَنْ جرّهُم للشحناء، وصدورِ مَنْ وسوسَ لهم بالفرقة الرّعناء، لإحْنِ نفوسٍ كرّعتْ في خطيئة الهجرِ والقطيعة، إمّا أَخْذاً بِظَنّة بلا تحقيق، أو قبُولِ حَمالة حطب النميّة بلا تقوى، أو مسّ حسدِ الأقران، وما أدراك ما ذاك، أو طمع في لُعاةِ دنيا دنيئةٍ عن قريب يفارقها أو تفارقه.

ذَكَرَ أَخَاكَ إِذَا تَنَاسَى وَاجِبًا أَوْ عَنِّي فِي آرَائِهِ تَقْصِيرُ

(١) وهي حميّة الدين العظيم، لاهميّة الجاهلية للدنيا الزائلة.

فالرأي يصدأ كالحُسامِ لِعَارِضٍ يطرأ عليه وصقله التذكير
فالواجب المحتّم هو الاجتماع على السّنة، إرضاءً لله تعالى واتباعاً للسّنة،
فبذلك تفرح قلوب أهل الإخلاص والتوحيد، وينجأ عن محيائهم قتام
عصف اليد، وينجلي الحق لمبتغيه وتقوم الحجّة على أهل التنديد، وتفقو عين
فتنة الشيطان، وتفسح أسودة غين السّخام. فالاجتماع لردّ عاديّات شياطين
الإنس والجان فرض الزمان، وقد يكون من فروض الأعيان في بعض المواطن
والبقاع والأشخاص والمواقف عند تعدّد القيام بالفرض هنالك^(١).

وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم، يقرع بعدها سنّ نادم
أرى أمّتي لا يشرّعون إلى العدى رماحهم، والدين واهي الدعائم
وليس المقصود طعان أهل الإسلام بالرّماح، بل طعان الأهواء المضلّة
برماح الحجب القرآنية، وضرب وجوهها بسيوف البراهين السّنية، وخطم
أنوفها بمحكّمات التنزيل، ﴿لأنذركم به﴾ ومن بلغ ﴿الأأنعام : ١٩﴾، خلا من بسط
الله يده من سلطان، فلكلّ حال قدره وأهله.

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كلّ سؤال عن هلّ يلّم
وهلمّ بنا الآن إلى المقدمة المقصودة: قال شيخ الإسلام رحمه الله في مقدمته
للفتوى الحموية - وهي حروف في الغاية من العلم والحكمة والجودة والنفاسة
والمتانة والعمق والبهاء والسمو - وقد سئل عن مسألة في الصفات:

(١) وانظر في ذلك كتاب: (ولا تفرقوا) للمؤلف.

«الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يُوسُف : ١٠٨].»

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة. وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأئمة دينهم، وأتمّ عليهم نعمته، محالّ مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به مُلتبسًا مشتبهاً، ولم يميّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدرسته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكّموا هذا الباب اعتقادًا وقولاً.

ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علّم أمته كل شيء حتى الخِزاة وقال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» (١).

وقال فيما صح عنه أيضًا: «ما بعث الله من نبيٍّ إلا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شرٍّ ما يعلمه لهم» (٢).

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يُقلّب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا». وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه» (٣).

(١) ابن ماجه (٤٣) والحاكم (١ / ٩٦) وأحمد (٤ / ١٢٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٦٤٨).

(٢) مسلم ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦). تمامه: «إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرٍّ ما يعلمه لهم. وإنّ أمتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة يرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحبّ أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

(٣) البخاري (٣١٩٢)

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت؛ أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية. فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام؟

ثم إذا كان قد وقع ذلك منه؛ فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصرُوا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك: إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه، أعني بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته^(١).

وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يُتصور مع قيام هذا المقتضى الذي

(١) لأن معرفة الكيفية مستحيلة في الدنيا، وإنما يعتقدون بالمعنى العام المتبادر من نصوص الوحي الشريف لصاحب الفطرة السليمة والعقل القويم.

هو من أقوى المقتضيات؛ أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم؟! عصورهم؟! عصورهم؟!

هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق وأشدّهم إعراضاً عن الله، وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله تعالى، فكيف يقع في أولئك؟! وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائلية فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم.

ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها: من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم. فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفصلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بالفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأتيين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة : ٧٨]، وأنّ طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الاسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلّوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلّت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما

اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى؛ بقوا مترددين بين الايمان باللفظ وتفويض المعنى - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ إلى معاني بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف.. فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل، والكفر بالسمع. فإنّ النفي إنّما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع^(١) حرّفوا فيه الكلم عن مواضعه.

فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين؛ كانت النتيجة استجهاال السابقين الأولين واستبلاهم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أمينين، بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحّروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطّنوا لدقائق العلم الإلهي، وأنّ الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله!

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيّما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية أقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلّها وسيّرت طرُفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعًا كفّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعًا سنّ نادم

(١) السمع: هو أدلّة الوحي ونصوص الشريعة كتابًا وسنة.

وَأَقَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا قَالُوهُ مُمَثِّلِينَ بِهِ أَوْ مَنْشئينَ لَهُ فِيهَا صَنْفُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ، كَقَوْلِ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمْ:

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عَقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جَسْمَانَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عَمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطَّرِيقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَنَاهَجَ الْفَلَسَفِيَّةَ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيًّا وَلَا تُرَوِّي غَلِيًّا، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطَّرِيقَ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، وَمِنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرَّبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي.

وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: «لَقَدْ خَضْتُ الْبَحْرَ الْخِصْمَ، وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وَخَضْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ إِن لَمْ يَتَذَكَّرْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ، فَالْوَيْلُ لِفُلَانٍ، وَهِيَ أَنَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي».

وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: «أَكْثَرُ النَّاسِ شَكًّا عِنْدَ الْمَوْتِ أَصْحَابُ الْكَلَامِ».

ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُخَالَفُونَ لِلْسَلَفِ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ لَمْ يَوْجِدْ عَنْدهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَخَالِصِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبْرٌ، وَلَمْ يَقْعُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ، كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُحْجُوبُونَ الْمَفْضُولُونَ الْمَنْقُوصُونَ الْمَسْبُوقُونَ الْحَيَارَى الْمُتَهَوِّكُونَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَمَ فِي بَابِ ذَاتِهِ وَآيَاتِهِ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصاييح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر اتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة؟!

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركون وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!

وإنما قدّمتُ هذه المقدمة لأن من استقرّت هذه المقدمة عنده عرف طريق الهدى أين هو في هذا الباب وغيره، وعلم أنّ الضلال والتّهوُّك^(١) إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً من البينات والهدى، وتركهم البحث عن طريقة السابقين والتابعين، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه، وبشهادة الأمة على ذلك، وبدلالات كثيرة. وليس غرضي واحداً معيّنًا، وإنما أصفُ نوع هؤلاء ونوع هؤلاء.

(١) التّهوُّك: التحير.

وإذا كان كذلك؛ فهذا كتاب الله من أوّله الى آخره وسنة رسوله ﷺ من أوّلها الى آخرها، ثم عامّة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو: إمّا نصّ وإما ظاهر في أنّ الله سبحانه وتعالى هو العليّ الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء.. فلئن كان الحقّ ما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إمّا نصّاً وإما ظاهراً؛ فكيف يجوز على الله تعالى ثم على رسوله ﷺ ثم على خير الأئمة أنهم يتكلّمون دائماً بما هو إمّا نصّ وإما ظاهر في خلاف الحق؟! ثم الحقّ الذي يجب اعتقاده لا يبوحدون به قط، ولا يدلّون عليه لا نصّاً ولا ظاهراً حتى يجيء أنباطُ الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبيّنون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها؟!!

لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلّمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب، وهم مع ذلك أحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم، وأن يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دلّ عليه الكتاب والسنة نصّاً أو ظاهراً؛ لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدي لهم وأنفع على هذا التقدير، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين! فإنّ حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء أنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل وما يستحقّه من الصفات نفياً وإثباتاً لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأئمة، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن، وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به!

ثم هم ههنا فريقان: أكثرهم يقولون: ما لم تثبت عقلكم فانفوه، ومنهم من يقول: بل توقّفوا فيه، وما نفاه قياس عقولكم الذي أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافاً أكثر من جميع من على وجه الأرض فانفوه، وإليه عند التنازع فارجعوا، فإنّ الحق الذي تعبدتكم به، وما كان مذكوراً في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا أو يثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم فاعلموا أنّي امتحنكم بتنزيله لا لتأخذوا الهدى منه، لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذ اللغة ووحشي الألفاظ وغرائب الكلام، أو أن تسكتوا عنه مفوضين علمه إلى الله مع نفي دلالة على شيء من الصفات! هذا حقيقة الأمر على رأي هؤلاء المتكلمين.

وهذا الكلام قد رأيته صرّح بمعناه طائفة منهم، وهو لازم لجماعتهم لزوماً لا محيد عنه، ومضمونه: أنّ كتاب الله لا يهتدى به في معرفة الله! وأنّ الرسول ﷺ معزول عن التعليم والإخبار بصفات مَنْ أرسله! وأن الناس عند التنازع لا يردّون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية، وإلى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين!

وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة، ولا يرتفع الخلاف به، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا إليهم، وقد أمروا أن يكفروا بهم، وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٥١﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ [النِّسَاء : ٦٠ - ٦٢].

فإن هؤلاء إذا دُعُوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول، والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته؛ أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إننا قصدنا الإحسان علماً وعملاً بهذه الطريق التي سلكناهما، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية!

ثم عامّة هذه الشبهات التي يسمونها دلائل إنما تقلّدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين أو الصابئين أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان، أو عمّن قال كقولهم لتشابه قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٦٥]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة : ٢١٣]. (١)

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البَقَرَة : ٢١٣] قال: «على الإسلام كلهم». وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة

ولازم هذه المقالة ألا يكون الكتاب هدى للناس، ولا بياناً، ولا شفاء لما في الصدور، ولا نوراً، ولا مردداً عند التنازع؛ لأننا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلفون أنه الحق الذي يجب اعتقاده لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصاً ولا ظاهراً، وإنما غاية المتحذلق أن يستتج هذا من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مزيم : ٦٥]. وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دلّ الخلق على أن الله ليس على العرش ولا فوق السماوات ونحو ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [٦٥] فقد أبعد النجعة، وهو إما مُلَغِّزٌ وإما مُدَلِّسٌ لم يخاطبهم بلسان عربي مبين! ولازم هذه المقالة أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيراً لهم في أصل دينهم، لأن مرددهم قبل الرسالة وبعدها واحد، وإنما الرسالة زادتهم عمى وضلالة!

يا سبحان الله! كيف لم يقل الرسول يوماً من الدهر ولا أحد من سلف الأمة: هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه، ولكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم، أو اعتقدوا كذا وكذا فإنه الحق، وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره، أو انظروا فيها فما وافق قياس عقولكم فاقبلوه، وما لا فتوقفوا فيه أو أنفوه؟!

=

قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». الدر المشور (٢ / ٤٩٦)

ثم رسول الله قد أخبر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة^(١) فقد علم ما سيكون، ثم قال: «إني تارك فيكم ما ان تمسكنم به لن تضلوا؛ كتاب الله»^(٢). وروي عنه أنه قال في صفة الفرقة الناجية: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(٣).

فهلّا قال: من تمسك بالقرآن، أو بدلالة القرآن، أو بمفهوم القرآن، أو بظاهر القرآن في باب الاعتقادات فهو ضالّ، وإنّا الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم وما يُحدّثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة في هذه المقالة، وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين.

ثم أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل للصفات - إنّما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشرّكين وضلال الصابئين، فإنّ أوّل من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأنّ معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت ليبد بن الأعصم،

(١) أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود (٤٥٩٦) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة». وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٧٨٨) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني.

(٣) الترمذي (٢٦٤١) وقال ابن تيمية: «حديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد». الفتاوى (٣/٣٤٥)

وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ.

وكان الجعد بن درهم هذا - فيما قيل - من أهل حرّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود، والكنعانيين الذين صنّف بعض المتأخرين في سحرهم، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين، كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس، وفرعون ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة، وبطليموس ملك اليونان، وقيصصر ملك الروم، فهو اسم جنس لا اسم علم. فكانت الصابئة إلا قليلاً منهم إذ ذاك على الشرك، وعلماءهم هم الفلاسفة. وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً بل مؤمناً بالله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، لكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين، كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدّلوا وحرفوا وصاروا كفاراً أو مشركين، فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كانوا كفاراً أو مشركين، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب أنه ليس له إلا صفاتٌ سلبية أو إضافية أو مركبة منهما، وهم الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة. وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حرّان وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره الإمام أحمد وغيره لما ناظر السّمنية بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما

سوى الحسّيات. فهذه أسانيد جهّم^(١) ترجع إلى اليهود والصابئين والمشرّكين، والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشرّكين.

ثم لما عُرِّبَت الكتب الرومية واليونانية في حدود المئة الثانية زاد البلاء مع ما أَلْقَى الشيطان في قلوب الضُّلّال ابتداءً من جنس ما أَلْقَاهُ في قلوب أشباههم. ولما كان في حدود المئة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته، وكلام الأئمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف والشافعي وأحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم كثير في ذمّهم وتضليلهم.

وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر ههنا إلا قليلاً منه مثل: كتاب السنن للالكائي، والإبانة لابن بطة، والسنة لأبي ذر الهروي، والأصول لأبي عمرو الطلمنكي، وكلام أبي عمر بن عبد البر، والأسماء والصفات للبيهقي، وقبل ذلك السنة للطبراني، ولأبي الشيخ الأصبهاني، ولأبي عبدالله بن منّده ولأبي أحمد العسّال الأصبهانيين، وقبل ذلك السنة للخلال، والتوحيد لابن خزيمة، وكلام أبي العباس بن سريج، والردّ على الجهمية لجماعة مثل البخاري وشيخه عبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي، وقبل ذلك السنة لعبد الله بن أحمد، والسنة لأبي بكر بن الأثرم،

(١) وقد قيل فيه:

عجبتُ لمن يدعو الناس جهراً إلى النارِ واشتقَّ اسمه من جهنّم

والسنة لحنبل وللمروزي ولأبي داود السجستاني ولابن أبي شيبة، والسنة لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري، وكتاب الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهم. وكلام أبي العباس عبد العزيز المكي صاحب الحيدة في الرد على الجهمية، وكلام نعيم بن حماد الخزازي، وكلام غيرهم، وكلام الإمام أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ويحيى بن سعيد ويحيى بن يحيى النيسابوري وأمثالهم، وقبل لعبد الله بن المبارك وأمثاله، وأشياء كثيرة.

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، فإذا كان أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل والتأويل - مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود؛ فكيف تطيب نفس مؤمن، بل نفس عاقل أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم أو الضالين، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟! انتهى^(١).

ورحم الله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني فقد أحسن حين قال: «وقد توسّع من تأخّر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام الفلاسفة، وجعلوه أصلاً يُردّون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان

(١) الحموية، من ضمن مجموع الفتاوى (٧/٥ - ٢٥) مختصراً. واعلم أن التحريف يكون في النصوص، والتعطيل يكون في المعتقد، والتكييف والتثيل يكونان في الصفة، إلا أن التمثيل أخص، فكل ممثل مكيف ولا عكس.

مستكرّها، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنّ الذي ربّوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأنّ من لم يستعمل ما اصطّلحوا عليه فهو عامّي جاهل، فالسعيد من تمسّك بها كان عليه السلف واجتنّب ما أحدثه الخلف»^(١).

وتدبر - رعاك مولاك - قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء : ٨٠ - ٨٢].

وقال الحافظ المتفنن ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَكَرَ اللهُ تعالى في كتابه العلم تارة في مقام المدح وهو العلم النافع، وتارة في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع. فأما الأول فمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨]. وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علماً ولم ينفعهم علمهم، فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة : ٥]، وقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ۝١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦].

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له؛ فقوله في السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

(١) فتح الباري (١٣ / ٢٥٣).

﴿خَلَقَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ [الرؤم: ٧].

وأنّ مما أنكره أئمة السلف: الجدل والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أحدث ذلك بعدهم، كما أحدثه فقهاء العراقيين^(١) في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية، وصنّفوا كتب الخلاف، ووسّعوا البحث والجدال فيها، وكل ذلك محدث لا أصل له، وصار ذلك علمهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع.

قيل لمالك: الرجل يكون عالماً بالسنن، يجادل عنها؟ قال: «لا، ولكن يجبر بالسنة، فإن قُبِلَ منه وإلا سكت». وقال: «المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم». وقال: «المراء في العلم يُقْسِي القلب، ويورث الضغن».

وكان يقول في المسائل التي يسأل عنها كثيراً: «لا أدري». وكان الإمام أحمد يسلك سبيله في ذلك.

وقال الأوزاعي: «العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ، فما كان غير ذلك فليس بعلم». وعلوم الصوفية الباطلة من العلوم التي أحدثت، وليست بعلم إطلاقاً، كعلومهم المتعلقة بالرأي والذوق والكشف والإلهام ونحو ذلك. ويقولون: شيخنا يقرأ من اللوح المحفوظ، وأنتم تأخذون علمكم ميتاً عن ميت!

(١) العراقيين: البصرة والكوفة.

والعلم النافع يدل ويقود إلى أمرين: **أولاً:** إلى معرفة محبة الله، وما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلاء. **ثانياً:** يقود إلى المعرفة بما يحبه الله ويرضاه من الاعتقادات والأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

فالعلم النافع هو ما عرف به العبد ربه، واستدل عليه، وأنس به واستحيا منه، واقترب إليه وخشع له، وهذا علم بحد ذاته، ولذلك جاء في الأثر: «أول ما يُرفع من الناس الخشوع»^(١).

وكان السلف يقولون: العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله: يخشى الله، ويعرف الله، ويعرف أحكام الله. وعالم بالله وليس بعالم أمر الله، يخشى الله لكن لا يعلم الحلال والحرام والأحكام. وعالم بأمر الله وليس بعالم بالله، أي:

(١) الطبراني (٢٦٣٧) والترمذي (٢٦٥٣) من كلام عبادة رضي الله عنه، وتماحه: عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «هذا أوان يُختلس العلم من الناس، حتى لا يقدرُوا منه على شيء». فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منّا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنقرأه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟».

قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء. قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدّثك بأول علم يرفع من الناس؛ الخشوع. يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٦) وفي صحيح تخريج اقتضاء العلم العمل (٨٩).

يعرف الأحكام والفقه، لكن لا يخشى الله. وقال الحسن: «العلم علماً: فعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع».

وإنَّ من علامات صاحب العلم النافع: قبول الحق والانقياد له. ومن علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلى الجهل وتقصصهم ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقبح الخصال وأرذلها وأرداها.

ومن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدل والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيًّا ولا جهلاً ولا قصوراً، وإنَّما كان ورعاً وخشية لله واشتغالاً عما لا ينفع بما ينفع.

فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يُقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة مُحَصِّلَةٌ للمقاصد. وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه».

فالسلف أقل الناس كلاماً وتوسعاً في العلوم، لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك. وهذا هو الفقه المبارك والعلم النافع، فأفضل العلوم هو ما كان في تفسير القرآن العظيم

ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام مما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم، فإنهم كانوا أعلم منكم». وما روي عن أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم كابن المبارك، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، واسحق، وأبي عبيد، ونحوهم في ذلك أفضل العلم، مع تفهّمه وتعقّله والتفقه فيه، وما حدث بعدهم من التوسّع لا خير في كثير منه، إلا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق من كلامهم.

وما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة. ولا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمّله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدى إليه من بعدهم ولا يلزم به.

وقد قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] فأخبر أن قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق الله، وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيهِ بعد أن أخذ عليهم موثيق الله وعهوده ألا يفعلوا ذلك. فنتج عن قسوة قلوب القوم أمران: قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين إحداهما: تحريف الكلم من بعد مواضعه. والثانية: نسيانهم حظًا مما ذكروا به.

وما أحسن قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ وقد سئل عن علقمة والأسود أيهما أفضل؟ فقال: «والله ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفضل بينهم!» وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يقول عن معروف الكرخي: «معه أصل العلم؛ خشية الله».

فأصل العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه. وقال بعضهم: «من خشي الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل». وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً. قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً».

وقال وهيب بن الورد: «ربّ عالم يقول له الناس عالم، وهو معدودٌ عند الله من الجاهلين». وقال الجنيد: «علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في علمنا هذا»^(١).

فأسأل ربك التوفيق والإخلاص في شأنك كله، قال بعض السلف: «ما نزل من السماء أعزُّ من التّوفيق، ولا صعدَ من الأرض أعزُّ من الإخلاص»^(٢).

والمقصود؛ أنّ الرضا بالله يستلزم الرضا بالإسلام وبني الإسلام، وهما يستلزمان الرضا بعلم السلف الذي هو التزام الشرع ظاهراً وباطناً. والحمد لله وحده على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن والرسول والسنة، والحمد لله

(١) فوائد من فضل علم السلف على الخلف لا بن رجب، عن موقع الكلم الطيب، بتصرف وزيادات.

(٢) التعبير شرح التحرير، للمرداوي. (٦٢/١)

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق. والله أعلم.

بُعِثَ النَّبِيُّ وَأُوتِيَ التَّنْزِيلَ
 طَلَعَ الصَّبَاحُ فَأُطْفِئُوا الْقِنْدِيلَ
 شَمْسُ الْهُدَايَةِ أَشْرَقَتْ مِنْ نُورِهِ
 لَا تَذْكُرُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 نَزَلَتْ عَلَى الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَبَعْدَهُمْ
 قَدْ حُرِّفَتْ وَتَبَدَّلَتْ تَبْدِيلًا
 لَوْ كَانَ مُوسَى وَالْمَسِيحُ وَأُمُّهُ
 فِي عَصْرِ أَحْمَدَ لَا صُطْفَوْهُ خَلِيلًا
 وَلَا مَنُوا أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
 مَبْعُوثُ رَبِّ الْعَالَمِينَ رُسُلًا
 هَذَا النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى مِنْ أُمَّةٍ
 خَيْرِيَّةٍ مِنْ آلِ إِسْمَاعِيلَ
 وَصَلَ الْقُلُوبَ بِرَبِّهَا يَوْمَ التَّقَى
 فِي الْغَارِ بَعْدَ تَأْمُلِ جَبْرِيلَ
 تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ
 قَدْ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ تَفْصِيلًا
 إِعْجَازُهُ لَا يَنْقُضِي وَحُرُوفُهُ
 لَا تَقْبَلُ التَّخْرِيفَ وَالتَّبْدِيلَ
 يَعْلُو بِكُلِّ فَضِيلَةٍ مَحْمُودَةٍ
 شِعْرَ الْفَحُولِ وَكُلِّ مَا قَدْ قِيلَ
 خَشَعَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَوْلِهِ
 وَالصَّخْرُ بِالْقُرْآنِ لَانَ ذَلِيلًا
 وَاسْتَغْلَقَتْ بَعْضُ الْقُلُوبِ تَعَتُّيًا
 لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَرُونَ دَلِيلًا
 عُمِّي الْبَصِيرَةَ كَالْبَهَائِمِ شَأْنُهُمْ
 بَلْ هُمْ أَضَلُّ طَرِيقَةً وَسَبِيلًا

آداب الرضا بالله تعالى

فرقُ الآداب عن الشروط؛ أنَّ الرضا لا يصح إلا بشروطه، أما الآداب فهي لتكميله، ولا يكون الرضا تامًّا إلا بها. فالرضا بالله بحرٌ جميل لا تُدرَكُ سواحله، وعلى قدر تحقيق الآداب، وامتنال الأصول، ومراعاة حسن الأخلاق مع الخالق وخلقِه؛ يكون تحصيل أطرافه والتمكُّن من أهْدابه، والآداب راجعةٌ لحفظ القلب واللسان والجوارح، وحراستها من حظِّ الشيطان ومَسِّه وِلْمِه، وبالله التوفيق.

فمن آداب الرضا: حفظ اللسان عما لا يليق بالراضين بالملك العلام وتدييره وحكمته، حتى في أدقِّ الأمور، فمن تمام الرضا ألا تقول عند الألم المفاجئ: حسَّ أو آحَّ، فعند النسائي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال: لما كان يومُ أحدٍ وولَّى الناسُ، كان رسولُ الله ﷺ في ناحيةٍ في اثني عشر رجلاً من الأنصار، فيهم طلحةُ بنُ عبيد الله، فأدركهم المشركون، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ، فقال: «مَنْ للقوم؟» فقال طلحةُ: أنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «كَمَا أَنْتَ»، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسولَ الله، فقال: «أَنْتَ»، فقاتل حتى قُتل، ثم التفتَ فإذا المشركون، فقال: «مَنْ للقوم؟» فقال طلحةُ: أنا، قال: «كَمَا أَنْتَ»، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسولَ الله^(١)،

(١) وتأمل فداء الأنصار لرسول الله ﷺ، وصدقهم الله ما عاهدوه، حتى استشهد منهم أحد عشر رجلاً، إذ قام كل واحدٍ منهم بلا تردّد كأنها يرى موعود الله رأي عين، فاستقبل المشركين بصدّره، حتى صرَّعوا أبطالاً بين يدي نبيهم ﷺ، رضوان الله

فقال: «أنت»، فقاتل حتى قُتل، ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجل من الأنصار، فيقاتل قتالَ مَنْ قَبْلَهُ، حتى بقيَ رسولُ الله ﷺ وطلحةُ بن عبيد الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ للقوم؟» فقال طلحةُ: أنا، فقاتل طلحةُ قتالَ الأَحَدِ عَشَرَ^(١)، حتى ضُربت يده، فَقُطعت أَصابِعُه، فقال: حَسَّ، فقال رسولُ

=

عليهم، فلا كان ولا يكون بعد النبيين كالمهاجرين والأنصار والصحابة السابقين والأبرار.

وُنُسِلِمَه حتى نُصَرَّعَ حَوَلَه وَنُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل وَلَعَلَّ الله تعالى قد أطلع نبيه ﷺ على مصارعهم وبقاء طلحة، فلم يُجَلِّ رسولُ الله ﷺ بينهم وبين القَدَرِ الرباني الجميل مِنْ وفائهم لِمَا عاهدوا الله تعالى عليه من نصرَةِ نبيه ﷺ بتلك البطولة المختمة بالشهادة الصادقة الهائلة الجليلة.

(١) في عمدة القاري (٢٥ / ٣٦٦): «ذكر الحاكم في (الإكليل) من طريق موسى بن طلحة: أن طلحة جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين، وشُلَّتْ أَصْبَعُه، أي السبابة والتي تليها». أه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر إذا ذكر أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة! وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، القرشي أبو محمد التيمي. أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين نصَّ عليهم عمر، وقال: توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. وأحد الخمسة الذين أسلموا من سادات الصحابة على يدي أبي بكر رضي الله عنه، وهم: عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص. كان يقال له ولأبي بكر: القرينان، لأن نوفل بن خويلد بن العدوية أخذهما، فقرنهما في جبل واحد حين بلغه إسلامهما، ولم يمنعهما بنو تيم،

=

الله ﷺ: «لو قلت: بسم الله؛ لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»، ثم ردّ الله المشركين^(١).

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قالها ذات مرّة حينما لَسَعَتِ البُرْمَةُ أو الحَزِيرَةُ أصابعه حينما قدّمها خولة بنت قيس بين يديه، فعند أحمد والنسائي: أنّ حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوّج خولة بنت قيس بن قهد الأنصارية من بني النجار^(٢) قال: وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها^(١)، وكانت تحدّثه

=

وكلاهما من بني تيم. وكان يقال له: طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدرًا، فإنه كان بالشام، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

وأبلى يوم أحد بلاء حسنًا، وأصيبت يده يومئذ، ورقاها رسول الله ﷺ، وكان جماعة من الصحابة يقولون عن يوم أحد: ذاك يوم كله لطلحة، ولما طأطأ لرسول الله ﷺ لينهض على تلك الصخرة يوم أحد قال: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ». قُتِلَ رضي الله عنه يوم وقعة الجمل في العاشر من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقد استكمل من العمر يومئذ أربعًا وستين سنة. وانظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٣-٤٠).

لقد ذاق منه الكفر صاعًا مضاعفًا فقد كان للإسلام سيفًا مُداويا

وما كان أمرٌ قبلَ أمرِ إلهنا فإن أذكِرَ المقدورَ زالَ حذاريا

(١) النسائي (٢٩/٦) وحسنه الألباني في السلسلة (٢١٧١)

(٢) وهم أخوال عبد المطلب، فقد كان هاشم يمكث في المدينة حين ذهابه في تجارة قريش لغزّة - التي صارت غزّة هاشم - ثم خطب إليهم ابنتهم فزوجه فولدت عبد المطلب بن هاشم، وولد لعبد المطلب عبد الله والد رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته

=

عنه ﷺ أحاديث، قالت: جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تُحدِّث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا إلى كذا، قال: «أجل، وأحبُّ الناس إليَّ أن يَرَوِيَّ منه قومك»^(٢). قالت: فقدّمت إليه بُرْمَةً فيها خبزة، أو خزيرة^(٣) فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت

=

عليه، فصار بنو النجار بذلك أحوال رسول الله ﷺ، لهذا فقد نزل رسول الله ﷺ عندهم حينما هاجر للمدينة حفظاً لرحمهم وصِلَةً لهم، بتدبير الله تعالى لناقته حتى ساقها لمكان المسجد فبركت فيه، ثم قامت ومشّت، ثم عادت فبركت في ذات البقعة تأكيداً لها من الله تعالى، ثم أقبل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه - وهو من بني النجار - فحمل رحل رسول الله ﷺ وذهب به لبيته، فنزل عليهم رسول الله ﷺ، وهو أكرم ضيف نزل على أحد طراً. وبنو النجار أحوال عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ، والنجار هو تيم اللات بن ثعلبة بن عمرو بن الحَزْرَج وهم بطون كثيرة، سمي بالنجار؛ لأنّه اختتن بالقدوم. وروى مسلم (٢٥١١) عن أبي أُسَيْدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ».

(١) أي: يزور حمزة بن عبد المطلب في بيت زوجته خولة.

(٢) أي: الأنصار رضي الله عنهم، وقد وعدهم بقوله: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض».

رواه البخاري (٣٧٩٢)

(٣) وفي لفظ: أو حريرة. أما الخزيرة: فهي لحم يقطع صغاراً ويصبّ عليه ماء كثير، فإذا نضج ذرّت عليه النخالة، أمّا إن ذرّ عليه الدقيق فهي الحريرة، وهي أرقّ وأشهى، فإن لم يكن لحم فهي عصيدة. وانظر: اللسان، مادة: (خزر).

أصابه، فقال: «حَسَّ»^(١)، ثم قال: «ابن آدم، إن أصابه البردُ قال: حَسَّ، وإن أصابه الحرُّ قال: حَسَّ»^(٢).

وتوجيه ذلك: إما أن هذا قبل خبر طلحة^(٣)، وهذا ظاهر لأن حمزة أصيب في أحد، وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، ثم جاء النذب إلى

(١) حَسَّ: وتروى أيضًا بكسر الحاء، وهي صوت الإحساس بالألم مثل: أْح، ومثل: أوه ونحو ذلك، وتقال عند الفجاءة بالألم أو الضعف عن احتمالها، وكلاهما ضعف صبر، إلا من رسول الله ﷺ فلعلها رحمة بالأمة لأجل بيان الإباحة ورفع الحرج عنهم، وليبان بشريته ﷺ وأنه يصيبه ويؤلمه ما يصيبهم، وقد أشار لذلك في نهاية حديثه الشريف ﷺ في بيان ضعف تكوين بني آدم وضعف صبره، حتى يكسر صولة عزته، ويقذ عِزَّامته، ويضع كِبَره، والله أعلم. قال ابن منظور في لسان العرب (٦ / ٤٩) مادة: (حسس): «قال الأصمعي: ضربه فما قال حَسَّ، قال وهذه كلمة كانت تُكره في الجاهلية. وحَسَّ مثل أَوْه». وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٩٥٨): «هي بكسر السين والتشديد: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مَصَّه وأحرقه غَفْلَةً كالجُمرة والضربة ونحوهما».

(٢) أحمد (٢٧٣٥٧) وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات، رجال الصحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠ / ٣٦١) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) مسمًى على واحدة الطلح: وهو شجر ضخام من شجر البراري، وكانت العرب ولا زالت تسمي أولادها ببيئتها كالنبات مثل طلحة وسمرة وسلمة ورمثة ومُرارة، أو بأحوال مطرها كغيث ومطر ووابل وهتان وسحاب ومزنة، أو حيوانها كذئب وثعلب وكلب وجرو وحمار وجحش، أو بأسلحتها كسيف وسهم ورمح، أو بأوانيها كما في

=

ترك هذا الكلمة بعد ذلك^(١)، أو أنه قالها من باب الإخبار الفعلي بالإباحة، وأن ترك ذلك هو من ترك الأولى - وهو دون الكراهة - وإما أنه قصد بها بيان ما بعدها، فمثل بحاله ﷺ حال ابن آدم وضعفه في الجملة حينما يصيبه حرٌّ أو برد. والله أعلم.

والمقصود؛ حفظ اللسان من كل ما يחדش الرضا بأيّ وجه كان، فحفظ اللسان من أصول حفظ الدين، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»^(٢). وقد يتساهل المرء في كُليّاتٍ وهمهاتٍ وتأوّهاتٍ بطريق الضّجر أو برائحة الاعتراض لا يحسب لها حسابًا، بينما هي تُنزله من علياء الراضين السابقين لِسَاحِ المُخَلِّطِينَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [النّساء : ٣٦]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في

=

عصرنا من تسميتهم فنجال ومحاس وبيز ونجر ومشوط.. وغير ذلك. وبعضهم كان يسمي أبناءه بالأسماء الشرسة الشديدة كصخر وأسد ونحوها ويسمى مواليه بالأسماء الرقيقة، ويعلمون ذلك بأن أسماء أبنائهم لحرب أعدائهم أما مواليتهم فلهم.

(١) ولا يُصار إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر الجمع، لأن فيه إلغاء لمعنى أحد الحديثين.

(٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٤)

المصلحة؛ فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجّر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢). وتأمل حديث معاذ وكيف ربط حفظ الدين العظيم كله بحفظ جارحة اللسان وحدها! لأنها الرشا الذي يخرج ما في بئر القلب من الضمائر المخفية المعفوة إلى الحقائق الظاهرة المؤاخدة، فعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل». ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٣) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧]. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟»^(٤) قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال:

(١) رياض الصالحين (٢ / ١٧٥)

(٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٥) ومسلم ٤٩/١ (٤٧) (٧٤)

(٣) ذروة سنامه: سنام الناقة: معروف، وذروته أعلاه، والمراد: أعلى موضع في الإسلام وأشرفه. ومنه: ذروة الجبل: أي أعلاه، والذروة بكسر الهمزة وتشديد الذال المعجمة وتأني بضمها أيضاً.

«أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!»^(١) قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائدُ^(٢) ألسنتهم؟»^(٣). وآه من حصائدِ الألسنِ إن لم يرحمنا الله! اللهم رحمتك التي وسعت كل شيء.

ومن حرس قلبه حرس لسانه، ومن رضي بربه لم يقل عنه وعن تدبيره إلا خيراً، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الجاهل يشكو الله الى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكوّ والمشكوّ اليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم. ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: يا هذا؛ والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك! وفي ذلك قيل:

وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنَّما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

(١) بملاك ذلك: ملاك الأمر: قوامه، وما يتم به، بفتح الميم وكسرها.

(٢) الحصائد: جمع حصيدة، وهي ما يحصد من الزرع، وهذا من التشبيه البليغ جدًّا، إذ شبهَ ﷺ اللسان وما يقطعُ به من القول بحدِّ المنجل وما يقطع به من النبات، إن خيراً فخير، أو شراً فشرّ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦].

(٣) أحمد (٢٢٠١٦) وقال محققوه: صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي (٢٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٥١٣٦)

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظرٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أحسنها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه^(١).

ومن ذلك سبّ الدهر لأنه راجع لمدبره، وهذا في الغاية من سوء الأدب مع من لا يأتي الخير إلا منه!

تالله ما جَارَ الزَّمانُ وما قَضَى حَكَمَ الإلهُ وكلّنا مأمورٌ
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن ذلك أن تطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها، فمثل نهيه ﷺ عن سبّ الدهر وقال: «إِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٢). وفي

(١) الفوائد (١ / ٨٨)

(٢) البخاري (٦١٨٢) قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله في إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٩ / ١): «قوله في الحديث القدسي: «وأنا الدهر» لا يفهم منه أن الدهر من أسماء الله تعالى؛ بل يعني أن الذي سبّ الدهر وقعت مسبته على الله تعالى؛ لأن الله هو الذي يُصَرِّف الدهر كيف يشاء.

إذا تبين ذلك وقد ذكرنا مراراً أن وصف الدهر بأوصافٍ مما يقع فيه من الأوصاف المشينة ليست مسببةً للدهر، فقول القائل: هذا يوم أسود، أو هذا الشهر شهر نحس، أو نحو ذلك، فإن هذا ليس بمسببةٍ للدهر، لأن هذا وصفٌ لما يقع في الدهر، لما يقع في

حديث آخر يقول الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، فيسبّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»^(١). وفي حديث آخر: «لا يقولنّ أحدكم: يا خيبة الدهر»^(١). وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

اليوم، أو لما وقع فيه، لما يقع في الشهر، أو لما وقع فيه، وهذا كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ مُمْسِجِينَ﴾ [القمر: ١٩] وقال سبحانه: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنَذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦] فوصف الله تعالى الأيام التي عذب بها الكفرة أنّها أيام نحيسة، فمثل هذا ليس بسبّ للدهر؛ لأنه وصف لما وقع فيه بالإضافة إلى المخلوق». أهـ.

قلت: والفرق بين وصف الدهر بما يقع فيه وبين سبّ الدهر أنّ الوصف ذكرٌ لأمر خلقه الله كالحرّ والبرد والجذب والشدة والوباء ونحو ذلك، أما السبّ فوصفه أو تهمته بقبیح ليس فيه كالظلم والكفر، أو بلعنه ونحو ذلك، أما وصفه بالنحس والشؤم فالأظهر المنع، خلافاً لشيخنا، وذلك أنّ النحس والشؤم وصفٌ لأمر لا تُدرى عاقبته، ولا يُعلم مآله، وفيه نوعٌ تألّ على الله تبارك وتعالى، خلا ما علمنا أنه عذابٌ بسبب الذنوب والكفر والفسوق كما قصّ الله علينا من أخبار من غبر. فإن احتجّ أحد بقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخَسُ مُمْسِجِينَ﴾ [القمر: ١٩] فلا يردّ ذلك علينا هنا، لأنّ الخلق مفتقرون لعلم حقائق ومآلات الأمور، أما الله تعالى فهو بكل شيء عليم. وبالله التوفيق.

(١) البخاري (٤٨٢٦) مسلم (٦٠٠٠) قال ابن تيمية: «فقوله في الحديث: «بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار» يبيّن أنه ليس المراد به أنّه الزمان، فإنه قد أخبر أنه يقلّب الليل والنهار، والزمان هو الليل والنهار؛ فدلّ نفس الحديث على أنه هو يقلّب الزمان ويصرّفه، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ»

إحداها: سبُّه من ليس بأهل أن يُسبَّ، فإنَّ الدهر خلق مُسَخَّر من خلق الله، منقاد لأمره، مذلَّل لتسخيره، فسأبه أولى بالذمِّ والسبِّ منه.

الثانية: أنَّ سبَّه متضمَّنٌ للشرك، فإنه إنَّما سبَّه لظنِّه أنه يضرُّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرَّ من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان. وهو^(٢) عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعارُ هؤلاء الظلمة الخونة في سبِّه كثيرة جدًّا. وكثير من الجهال يصرِّح بلعنه وتقييحه.

الثالثة: أنَّ السبَّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتَّبَعَ الحقَّ فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه. وفي حقيقة الأمر فربَّ الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعزَّ المذلَّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمُسبِّتهم للدهر

مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ [التور: ٤٣]. وإز جاء السحاب: سَوَّقُهُ، والودق: المطر. الفتاوى (٢ / ٤٩١)

(١) الموطأ (٦٠٩) وأحمد (٣٩٤/٢) (٩١٠٥) والأدب المفرد (٧٦٩) وصححه الألباني في الجامع (٧٧٦٨) وللفائدة: اعلم أنَّ كل ما في الموطأ من المرفوعات صحيح. أما سوى ذلك من البلاغات والموقوفات ونحوها ففيها الصحيح وما دونه.

(٢) أي: الدهر.

مسببة لله عز وجل، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى^(١) كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»^(٢).

فسابَّ الدهر دائر بين أمرين لا بدَّ له من أحدهما: إمَّا سبَّه الله أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسبُّ من فعله فقد سبَّ الله. ومن هذا قوله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ يَتَعَاضَمُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، فَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ. وَلَكِنْ لِيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَتَصَاغَرُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(٣). وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَلْعَنُ مُلْعَنًا»^(٤).

(١) والأذى غير الضرر، فالضرر منفي، وفي الحديث القدسي: «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي

فَتَضُرُّونِي». مسلم (٦٧٣٧)

(٢) البخاري (٤٨٢٦) مسلم (٦٠٠٠)

(٣) أبو داود (٤٩٨٢) وصححه الألباني.

(٤) لم أجده مرفوعاً، ولكن وجدته عند أبي نعيم في حلية الأولياء (٥٩/١) بسنده عن الأوزاعي قال حدثنا حسان قال: «إِنَّ الْعَبْدَ..». وقد سئل عنه الدارقطني في العلل (١٩٣٨) ورجَّح وقفه على أبي هريرة.

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا حرج في لعنه، ولكن التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ أَحْسَنُ، التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَفْضَلُ، وَإِنْ لَعَنَهُ فَلَا بَأْسَ، فَقَدْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ: جاء في الحديث الصحيح أَنَّ الشَّيْطَانَ تَفَلَّتَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ لَهُ: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ»، فَإِذَا لَعَنَهُ فَلَا

=

بأس، وإن استعاذ بالله من شره فذلك أفضل، وكلاهما جائز». أه. من موقعه جواباً على سؤال: ما حكم سب أو لعن إبليس؟

وفي مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٣/ ٩٣): سئل فضيلة الشيخ برقم (٤٩١): عن حكم لعن الشيطان؟ فأجاب بقوله: «الإنسان لم يؤمر بلعن الشيطان، وإنما أمر بالاستعاذة منه كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى في شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢١٤): «اختلف فيها أهل العلم على قولين:

القول الأول: منهم من أجاز لعنه بعينه لقول الله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، وما جاء في الآيات في لعن إبليس وطرده عن رحمة الله.

القول الثاني: أنه لا يلعن إبليس ولا الشيطان لما صحَّ في الحديث أن النبي ﷺ نهى عن لعن الشيطان أو عن لعن إبليس وقال: «لا تلعنوه فإنه يتعاضم». المسند (٢٣١٤١) رواه تمام في فوائده وغيره بإسناد جيد، قالوا: فهذا يدل على النهي عن اللعن، وهذا متجه في أن اللعن عموماً في القاعدة الشرعية أن المسلم لا يلعن؛ لأن اللعن منهى عنه المؤمن بعامة، ومن أعظم ما يكون أثراً للعن أن اللعان لا يكون شفيحاً ولا شهيداً يوم القيامة». قلت: والأحوط اجتناب لعنه لصراحة النهي وتعليقه بتعاضمه، أما لعنه ﷺ للشيطان فكأنه خاص به ﷺ، فاللعن منه ليس كغيره، فهو دعاء عليه من أحب الخلق لرب العالمين، فلا وجه لتعاضمه وقد علم مقام رسول الله ﷺ عند الله تعالى.

ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشيطان، وقبح الله الشيطان، فإن ذلك كله يُفرحه ويقول: علم ابن آدم أني قد نلت به بقوّتي، وذلك مما يعينه على إغوائه، ولا يفيد شياً! فأرشد النبي ﷺ مَنْ مَسَّهُ شَيْءٌ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى، ويذكر اسمه، ويستعيز بالله منه؛ فإن ذلك أنفع له، وأغيظ للشيطان.

ومن ذلك نهيه ﷺ أن يقول الرجل خبثت نفسي، كما في حديث: «لا تقولن أحدكم: خَبِثْتُ نفسي، ولكن ليقُل: لَقِسْتُ نفسي»^(١). ومعناها واحد، أي: غَثَّتْ نفسي، وساء خلقها، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحَسَنِ وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه.

(١) البخاري ٥١/٨ (٦١٨٢) مسلم (٢٢٥١) قال النووي في رياض الصالحين (٢ / ٢٦٨): لقست نفسي من الشيء: إذا غثت، وإنما كره «خبثت» هرباً من لفظ الخبث. ونقله عن أبي عبيد والخطابي. كما نقل ذلك ابن حجر في فتح الباري (١٠/٦٩٢). وانظر: معالم السنن (٤/١٢١) وقال الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١ / ٣٢٠): «منع من ذلك لأن وصف النفس بالخبث وصف لها بالفسق، ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَيِثُوتُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيِثُونَ لِلْحَيْثِينَ﴾ [التور: ٢٦] فكان مكروهاً للرجل أن يُفسق نفسه إذا لم يكن منها ما يوجب ذلك عليها، وكان محبوباً له أن يقول مكان ذلك: لَقِسْتُ نفسي، وإن كان معناها معنى واحد وهو الشراسة وشدة الخلق، كذلك معناها عند أهل العربية، ومنه قول عمر رضي الله عنه في صفة الزبير: إنه وعقة لقس، يعني هذا المعنى».

ومن ذلك نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: «لو أني فعلت كذا وكذا»، وقال: «إنَّ لو تفتح عمل الشيطان»^(١). وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة وهو أن يقول: قدر الله وما شاء فعل، وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كذا وكذا؛ لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعت فيه. كلام لا يُجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره، وغير مستقبلٍ عشرته بـ«لو». وفي ضمن «لو» ادّعاء أنَّ الأمر لو كان كما قدره في نفسه لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه، فإنَّ ما وقع ممَّا يتمنى خلافه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيتته، فإذا قال: لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع فهو محال، إذ خلاف المُقدَّر المُقْضَى محال، فقد تضمَّن كلامه كذبًا وجهلاً ومُحالًا، وإن سلم من التّكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا لدفعت ما قدر الله عليّ.

(١) مسلم (٥٦/٨) عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان». ويصحُّ: قدر الله، وقدر الله. قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «يصح أن يقال: «قدر الله» وهو الأقرب والأولى، والمعنى: هذا قدر الله».

وقوة القلوب هي المقصودة، أما الجوارح فتبع لها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في إغاثة الالهفان (١٧): «القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعها إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته».

فإن قيل: ليس في هذا ردٌّ للقدر ولا جحد له، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها أيضًا من القدر. فهو يقول: لو وقفت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر، فإن القدر يُدفع بعضه ببعض، كما يدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر.

قيل: هذا حقّ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيلٌ إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله: لو كنت فعلته، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به، أو يخفف أثر ما وقع، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجزٌ محض، والله يلوم على العجز، ويجب الكيس، ويأمر به. والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانى الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان، فإن باب العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كلّ شرّ، ويصدر عنهما الهمّ، والحزن، والجبن، والبخل، وضيع الدين، وغلبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها: «لو». فلذلك قال النبي ﷺ: «فإنّ لو تفتح عمل الشيطان». فالتمنّي من أعجز الناس وأفلسهم، فإنّ التمني رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كلّ شرّ.

وأصل المعاصي كلّها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشرّ وفروعه ومبادئه

وغاياته وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثنائي خصال كل خصلتين منها قرينتان، فقال: «أعوذ بك من الهم والحزن»^(١). وهما قرينان فإن المكروه الوارد يكون سببه أمرًا ماضيًا فهو يُحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمرٍ مستقبل فهو يُحدث الهم، وكلاهما من العجز، فإن ما مضى لا يُدفع بالحزن، بل بالرضا والحمد والصبر والإيمان بالقدر وبقول العبد: قدر الله وما شاء فعل.

وما يُستقبل لا يُدفع أيضًا بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه، وإما ألا تكون له حيلة في دفعه فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهفته اللاتقة به، ويستجنّ بجُنّة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له، والرضا به ربًّا في كل شيء، ولا يرضى به ربًّا فيما يُحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا لم يرض به ربًّا على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدًا على الإطلاق.

فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بل مضرّتهما أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء، أو يعوقانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمّر إليه وجدّ في سيره، فهما حملٌ ثَقِيلٌ على ظهر السائر.

(١) البخاري (٢٨٩٣) ومسلم (١٣٦٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي طلحة: «التمس غلامًا من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خير». فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال». ويصح باللفظين: الحزن، والحزن.

بل إن عاقبه الهمّ والحزن عن شهواته وإراداته التي تضرّه في معاشه ومعاذه انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلّط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه الفارغة من محبته وأُرِيدَ بها الخير؛ كان هذا حظّها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله والأنس به، وجعل محبته في محل ديب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالى وحبّه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره هو المستولي على القلب الغالب عليه، الذي متى فقدّه فَقَدَ قُوَّتَهُ الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يُوصِلُ إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدلّ عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيّأه له، فمنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان فبحمده أقامه فيه، وبحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره، ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع.

ولا يمنع عبده حقّاً هو للعبد فيكون بمنعه ظالماً له، بل إنّها منعه ليتوسّل إليه بمحبّته ليعبده وليتضرّع إليه ويتذلّل بين يديه ويتملّقه، ويعطي فقره إليه حقّه بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقّة تامّة إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده العبد، فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلاً منه، ولا نقصاً من خزائنه، ولا استئثاراً عليه بما هو حقّ للعبد، بل منعه ليردّه إليه، وليعزّه بالتذلّل له، وليغنيه بالافتقار

إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خِلعة العبودية، ويولّيه بعزله أشرف الولايات، وليُشهِده حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبره ولطفه في قهره، وأنّ منعه عطاءً، وعزله توليةً، وعقوبته تأديب، وامتحان محبة وعطيّة، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه به إليه^(١).

وبالجملة؛ فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطّاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [الأنعام : ١٢٤]، ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام : ٥٣]. فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل ومحالّ التخصيص ومحالّ الحرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلى الافتقار إليه، والتذلل له، وتملّقه؛ انقلب المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه؛ انقلب العطاء في حقه منعا.

فكلّ ما شغل العبد عن الله فهو مشؤوم عليه، وكلّ ما رده إليه فهو رحمة به، والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه، فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائماً، واتخاذ السبيل إليه،

(١) وهذه حروف شريفة من نوادر الكلم، ودرر نفيسة من جواهر العلم، ففيها برّد سكينته، ودفع طمأنينة، وطيب يقين، وسلام إيمان، رحم الله الإمام ابن القيم، وأكثر أمثاله في العالمين، فما نحن نقطف من ثمار كتبه، ونستقي من قليب علمه، ونشيم بارقة أدبه، ونردّ ساحل بحره، ونستوكف قطر مُزنه، جمعنا الله جميعاً ووالدينا به في دار كرامته.

وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيتته لنا، فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

فإن كان مع العبد روح أخرى^(١)، نسبته إلى روحه كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلاً، وإلا فمحله غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء رجع بالحرمان، ولا يلومنّ إلا نفسه!

والمقصود؛ أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان، فإن تخلف كمال العبد وصلاحه عنه إما أن يكون لعدم قدرته عليه فهو عجز، أو يكون قادراً عليه لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير، وحصول كل شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع بدنه وهو الجبن، وعن النفع بماله وهو البخل، ثم ينشأ له بذلك غلبتان: غلبة بحق وهي غلبة الدين، وغلبة بباطل وهي غلبة الرجال.

وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله

(١) أي: روح الإيمان واليقين.

ونعم الوكيل»^(١). فهذا قال حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكيس الذي لو قام به لُقِضَ له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كَيْسًا، ثم غلب فقال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوّه وألقوه في النار قال في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، ف وقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثّرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها.

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران : ١٧٣] فتجهّزوا وخرجوا للقاء عدوّهم وأعطوهم الكيس من نفوسهم، ثم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) مسند أحمد (٢٣٩٨٣) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف بقية بن الوليد، وجهالة سيف، فقد تفرد بالرواية عنه خالد بن معدان، وقال النسائي: لا أعرفه، وكذا قال الذهبي في الميزان: لا يعرف، وتساهل العجلي وابن حبان فوثقاه. وأخرجه أبو داود (٣٦٢٧) وسكت عنه، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٢٦). وضعفه الألباني في الجامع (١٧٥٩) وصحح إسناده أحمد شاكر في عمدة التفسير (٤٤١/١).

وقوله: «حسبي الله ونعم الوكيل» أشار به إلى أن المدّعي أخذ ماله باطلاً. ومعنى «يلوم على العجز» أي: لا يرضى العجز، والمراد به ضد الكيس، وهو التيقّظ في الأمور والاهتداء إلى التدبير، والمصلحة بالنظر إلى الأسباب، واستعمال الفكر في العاقبة، يعني كان ينبغي لك أن تتيقّظ في معاملتك، فإذا غلبك الخصم قلت: حسبي الله، وأما ذكر «حسبي الله» بلا تيقّظ كما فعلت، فهو من الضعف فلا ينبغي، والله تعالى أعلم. وانظر: عون المعبود (٤٠ / ١٠)

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران : ١٧٣] فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٢-٣]. فجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة : ١١].

فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجزٌ محض، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس:

إحدهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعطّلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطّلوا من الأسباب، وضعّف توكلهم من حيث ظنّوا قوّته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهمّ كلّه وصيروه همّاً واحداً، وهذا وإن كان فيه قوّة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلّمّا قوي جانب التوكل بإفراده أضعفه التفريط في السبب الذي هو محلّ التوكل^(١) فإنّ التوكل

(١) محلّ التوكل، أي: الأسباب التي جعلها الله كوناً أسباباً مفضيةً لحصول المطلوب، أما قبلة التوكل فهو المسبّب سبحانه، وهو القادر على خرق العادة بإحداث أمرٍ بدون أسبابه كرامة لوليّه الذي أفرده بالتوكل واضطرّ لدركٍ مطلوبه، ولم يترك السبب كسلاً، بل عجزاً عن تحصيل السبب الظاهر، أو لإقامة حجة دينية أو غير ذلك. علماً بأنّ التوكل على الله وحده هو أعظم الأسباب على الحقيقة.



محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله فيها، وهذا كتوكل الحرّاث الذي شقّ الأرض وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعهِ وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقّه، ولم يُضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بُوراً، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جدّه في السير، وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهدهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حسب من قام به.

وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسب صاحبه، فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: هي التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدرًا، وأعرضت عن جانب التوكل. وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته؛ فليس لها قوّة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم وكفايته إيّاهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوّة كلّ القوّة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: «من سرّه أن يكون أقوى الناس؛ فليتوكل على الله». فالقوّة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحقّقه بهما لا بدّ أن يجعل الله له مخرجاً من كلّ ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكافيه.

والمقصود؛ أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه، أن يحرص على ما ينفعه ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسُّبُ وقول: حسبي الله ونعم الوكيل. بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه^(١).

وهل ينفع الجيش الكثيف التفافه على غير منصورٍ وغير مُعانٍ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «تفكّرت في قول شيبان الراعي^(٢) لسفيان: «يا سفيان؛ عدّ منع الله إياك عطاءً منه لك؛ فإنه لم يمنعك بخلاً، إنما منعك لطفاً». فرأيت كلام من قد عرف الحقائق، فإنّ الإنسان قد يريد المستحسّنات الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له؛ لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه، إما بحفظهن، أو بالكسب عليهن، فإن قوي عشقه لهن؛ ضاع عمره، وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهن، فإن لم يردنه، فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطقها؛ كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطء وهو عاجز؛ فربما أهلكنه أو فجرن، وإن مات معشوقه؛ هلك هو أسفاً. فالذي يطلب الفائق يطلب سكّيناً لذبحه، وما يعلم^(٣). وقد أحسن أبو الطيب إذ قال:

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٨ - ١٧٣) باختصار.

(٢) شيبان الراعي: أبو محمد، عابد مشهور، عاش في القرن الثاني الهجري، عاصر سفيان الثوري.

(٣) صيد الخاطر (١/ ٣٢٨)

مما أضرب بأهل العشق أنفسهم هَوُوا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
 تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن
 هذا؛ وإن من آداب الرضا السباحة واليسر في المال أخذًا أو خزنًا أو
 إعطاءً، اطمئننا من القلب بربه، وثقةً به، ورضا بتدبيره، ومن بركات السباحة
 الدخول تحت دعوة النبي ﷺ لِمَنْ هذا وصفه، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول
 الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(١).

وإن من أسباب البركة في الرزق عدم التدقيق في النفقة والصرف
 وحساب الصدقة اتكالا على الله وحسن ظن به - ما لم تكن ريبة - وهذا إنما
 يكون لمن عظم توكله على الله تعالى، أما من كان دون ذلك فلا بأس من
 مراعاة ريع تجارته أو راتبه وتقسيمه مقدماً بحسب حاجاته ونفقاته وصدقاته،
 فتدبير المعيشة أمر مهم، حتى لا يقع في خلل من جهة قوت عياله ونحو ذلك،
 فلا حرج في التدبير والتنظيم لماله، وقد قالوا: «الكمال في ثلاثة: العفة في
 الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة». وقيل لحكيم: فلان
 غني. فقال: «لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره في ماله»^(٢).

إنما المقصود ترك زيادة الحرص، وتخفيف شدة التدقيق في النفقات،
 فالعبد يأخذ بالأسباب بدون تشدد فيها وتعلق بها، مع الاتكال على مسبب

(١) البخاري ٧٥/٣ (٢٠٧٦)

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٣٢٩)

الأسباب سبحانه، وقد روى البخاري ومسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تُوِّفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكَلَّتُهُ فَفَنَيْ». قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَأَلَتْ عَائِشَةُ الطَّعَامَ نَازِرَةً إِلَى مَقْتَضَى الْعَادَةِ، غَيْرَ مَتَلَمَّحَةٍ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْحَةِ الْبَرَكَةِ، فَرُدَّتْ إِلَى مَقْتَضَى الْعَادَةِ، كَمَا رُدَّتْ زَمْرَمٌ إِلَى عَادَةِ الْبُئْرِ حِينَ جَمَعَتْ هَاجِرَ مَاءِهَا»^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْفَتْحِ^(٣): «وَحَدِيثُ عَائِشَةَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهَا كَالَّتِهِ لِلْإِخْتِبَارِ، فَلِذَلِكَ دَخَلَهُ النِّقْصُ، وَهُوَ شَبِيهِه بِقَوْلِ أَبِي رَافِعٍ لَمَّا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الثَّالِثَةِ: «نَاوِلْنِي الذَّرَاعَ»، قَالَ: وَهَلْ لِلشَّاةِ إِلَّا ذِرَاعَانِ؟ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَقُلْ هَذَا؛ لَنَاوَلْتَنِي مَا دَمْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ». فَخَرَجَ مِنْ شَوْمِ الْمَعَارِضَةِ انْتِزَاعَ الْبَرَكَةِ.. وَلَا تُنْزَعُ الْبَرَكَةُ مِنَ الْمَكِيلِ بِمَجْرَدِ الْكَيْلِ مَا لَمْ يَنْضَمَّ إِلَيْهِ أَمْرٌ آخَرُ كَالْمَعَارِضَةِ وَالْإِخْتِبَارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». وَقَالَ أَيْضًا: «وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْخُصُوصِيَّةِ لِعَائِشَةَ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ، وَوَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مَزُودِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِتَمْرَاتٍ فَقُلْتُ: ادْعُ لِي فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ، قَالَ: «فَقَبْضُ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: خُذْهُنَّ، فَاجْعَلْهُنَّ فِي مَزُودٍ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُنَّ فَادْخُلِي يَدَكَ فَخُذِي، وَلَا تَنْثُرِي مِنْهُنَّ نَثْرًا»،

(١) البخاري (٣٠٩٧) ومسلم (٢٩٧٣)

(٢) كشف المشكل (١٢١٠)

(٣) فتح الباري (٤ / ٣٤٦)

فحملت من ذلك كذا وكذا وسقاً^(١) في سبيل الله، وكنا نأكل ونطعم، وكان المزود معلّقاً بحقوي لا يفارقه، فلما قتل عثمان انقطع. وفي رواية: «فأدخل يدك فخذ ولا تكفى فيكفاً عليك»، ونحوه ما وقع في عكّة المرأة وهو ما أخرجه مسلم^(٢) أن أم مالك كانت تُهدي للنبي ﷺ في عكّة لها سمناً، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم^(٣)، فتعتمد إلى العكّة فتجد فيها سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته. فأتى النبي ﷺ فقال: «لو تركتها ما زال قائماً».

وقد استشكل هذا النهي مع الأمر بكيل الطعام وترتيب البركة على ذلك كما تقدم في البيوع بلفظ: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه»^(٤)، وأجيب: بأن الكيل عند المبايعة مطلوب من أجل تعلّق حق المتبايعين، فلهذا القصد يُندب، وأما الكيل عند الإنفاق فقد يبعث عليه الشح، فلذلك كره. ويؤيده ما أخرجه

(١) الوسق: بفتح الواو وكسرهما، والفتح أشهر. وهو مكيلة معلومة، وقيل: هو حمل بعير، وجمعه أوساق.

قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (١٠ / ٣٧٨): «الوسق ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ، وهو - أي الصاع - خمسة أرتال وثلث». ومقدار الوسق ١٣٠ كيلو ونصف. توضيح ذلك: الصاع = ٢١٧٥ جراماً، والوسق = ٦٠ صاعاً. وعليه فالعملية كالتالي: $٢١٧٥ \times ٦٠ = ١٣٠٥٠٠$ جراماً $\div ١٠٠٠$ (لأن الكيلو = ١٠٠٠ جرام). والنتيجة: ١٣٠ كيلو جرام و٥٠٠ جراماً.

فانظر لبركة دعوة النبي ﷺ لتمر أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٢٢٨٠)

(٣) وهي جمع إدام.

(٤) البخاري (٨٨/٣)

مسلم^(١) عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسقٍ شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيّفهما حتى كاله. فأتى النبي ﷺ فقال: «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ، وَلَقَامَ لَكُمْ»^(٢).

قال القرطبي: سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل - والله أعلم - الالتفات بعين الحرص مع معاينة إدراك نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة. ويستفاد منه أن من رُزق شيئاً أو أكرم بكرامة أو لُطف به في أمر ما؛ فالمتعين عليه موالاة الشكر ورؤية المنّة لله تعالى، ولا يحدث في تلك الحالة تغييراً، والله أعلم». أهـ.^(٣)

قلت: ومن ذلك أن من فتح الله تعالى له بركةً في رزقٍ مباحٍ من باب خفيٍّ على غير العادة؛ كزيادةٍ في تجارته، أو بركة زائدة في محصول زرع، أو ترقٍّ في وظيفته، أو قوة على غير العادة في نشاطه وبدنه، أو تسهلاً له في معاشه بطرقٍ لا يُبصرها ولا يعيها ونحو ذلك؛ فليقنع به، وليشكر الله عليه، ولا يُدقق في حسابه، ولا يتعلق بتفتيش طريقة وصوله له، اكتفاءً ببركة الله تعالى، ورزقه، وكفايته، وحسن ظنه به، ولعل هذا من معاني الإجمال في الطلب الموصى به في الحديث الشريف.

(١) مسلم (٢٢٨١)

(٢) أي: لكفاكم.

(٣) الفتح (١١ / ٢٨٠)

وبالجملة؛ فالتدبير والاقتصاد حسن، من غير زيادة تنطع أو تشدد أو تعلّق زائد للقلب بالأسباب، بل عليه أن يجعل مدار الأمر على فضل الله وبركته التي قد تخالف حساباته وتوقعاته، وعليه أن يعلّق قلبه بربه فهو رازقه ووليّه، وأن يكون بما عند الله أوثق ممّا في يده. فينبغي ألاّ يشتدّ حرص المرء على التدقيق فيما أعده للنفقة والصدقة ونحو ذلك، ولا يمنع ما أحبّ الله إنفاقه، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال لي النبي ﷺ: «لا تُوكي فيوكي عليك»، رواه البخاري^(١)، وفي رواية له: «لا تُحصى فيحصى الله عليك»، وفي رواية له أيضًا: «لا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت»، وفي رواية أخرى في البخاري^(٢) أنها قالت: يا رسول الله، ما لي مألٌ إلا ما أدخل عليّ الزبير فأتصدّق؟ قال: «تصدقي، ولا توعي فيوعي الله عليك»، وفي رواية: «أنفقي، ولا تحصى فيحصى الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك»، وفي رواية لمسلم^(٣): «انفحي»، أو «انضحّي»، أو «أنفقي، ولا تحصى فيحصى الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك».

ويقال: أوعيت المتاع في الوعاء، إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء إذا حفظته. ومعناه أن الله يجازي العامل بمثل عمله، وفيه فضل النفقة بلا حساب، قال سبحانه: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التّخل : ٩٦]. ومعنى «توعي»:

(١) البخاري (١٤٣٣)

(٢) البخاري (٢٥٩٠)

(٣) مسلم (١٠٢٩)

تُمْسِكِي، والوعاء: الظَّرْفُ يُحْبَأُ فِيهِ، يقال منه: أَوْعَيْتَ الْمَتَاعَ فِي الْوَعَاءِ أَوْعِيَهُ، قَالَ:

وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ فِي زَادٍ

وقوله: «ارْضُخِي»: الرضخ هو العطاء اليسير، أي بحسب قدرتك وبحسب ما آتاك الله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٧].

قال الحافظ في الفتح: «والمعنى: لا تجمععي في الوعاء وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك. وفيه: الحث على النفقة في العطاء، والنهي عن الإمساك والبخل، وعن ادخار المال في الوعاء، وعن الإحصاء لمقدار الصدقة وعدّها». وقال أيضًا: «الإيكاء: شدّ رأس الوعاء بالوكاء، وهو الرباط الذي يربط به.

والإحصاء: معرفة قدر الشيء وزناً، أو عدّاً، وهو من باب المقابلة، والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاذ؛ فإن ذلك أعظم لأسباب قطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقّه أن يُعطي ولا يحسب، وقيل: المراد بالإحصاء عدّ الشيء؛ لأنه يدخر ولا ينفق منه، وأحصاه الله: قطع البركة عنه، أو حبس مادة الرزق أو المحاسبة عليه في الآخرة»^(١).

(١) الفتح (٣/ ٣٠٠)

وقال الشيخ سعيد بن وهف القحطاني رَحِمَهُ اللهُ: سمعت شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللهُ يقول: «الإحصاء هو عدّ ما أظهره من الصدقة»^(١).

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَائِتُهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ
ومن جميل ما أنشده أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، وهي القصيدة الموسومة
بالمُنْفَرِجَةِ وهي من بحر المتدارك، وقد أُلْصِقَتْ بها بعض الأبيات ذات
التوسلات البدعية، والإشارات الباطنية، التي لا أظن أن نسبتها تصح عن
الإمام الغزالي، وقد ضربتُ عنها صفحًا:

الشَّدَّةُ أودت بالمُهْجِ	يارب فعجّل بالفرجِ
والأنفُسُ أَمَسَتْ فِي حَرَجِ	وبإذنك تفريجُ الحَرَجِ
هاجَتْ لُدْعَاكَ خَوَاطِرُنَا	والويلُ لَهَا إِنْ لَمْ تَهْجِ
يَا مَنْ عَوَّدَتْ اللَّطْفَ أَعْدُ	عَادَاتِكَ بِاللَّطْفِ الْبَهْجِ
أَغْلَقَ ذَا الضِّيقِ وَشَدَّتْهُ	وافتح ما شَدَّ مِنَ الْفَرْجِ
عُجْنَا لَجَنَابِكَ نَقْصَدُهُ	وَالْأَنْفُسُ فِي أَوْجِ الْلَهْجِ
وإلى أَفْضَالِكَ يَا أَمَلِي	يَا ضَيِّعَتَنَا أَنْ لَمْ نَعِجِ
مِنَ الْمَلْهُوفِ سَوَاكَ يُغِثُ	أَوِ الْمَضْطَرِّ سَوَاكَ نَجِي

(١) الزكاة في الإسلام (١/٣٣٥)

وإساءتنا أن تقطعنا عن بابك حتى لم نلج
 يا سيّدنا يا خالقنا قد ضاق الحبل على الودج
 وعبادك أضحوا في ألم ما بين مكيريب وشجي
 والأعين صارت في لجج غاصت في الموج مع المهج
 والأزمنة زادت شدتها يا أزمنة علّك تنفر جي
 جئناك بقلب منكسر ولسان بالشكوى لهج
 وبخوف الزّلة في وجل لكن برجائك مُتّزج
 فكم استشفى مذكوم الذنب بنشر الرحمة والأرج
 وبعينك ما نلقاه وما فيه الأحوال من المَرَج
 والفضل أعم ولكن قد قلت ادعوني فلنبتهج
 يا ربّ ظلمنا أنفسنا ومُصيبتنا ما حيث نجى
 يا ربّ خلّقنا من عجل فلذلك ندعو باللّجج
 يا ربّ وليس لنا جلد أتى والقلب على وهج
 يا ربّ عبيدك قد وفدوا يدعون بقلب منزعج
 يا ربّ ضعاف ليس لهم أحد يرجون لدى الهرج

أضحوا في الشدة كالهجم	يارب فصاح الألسن قد
يعدو يسبقه ذو العرج	السابق من صار إذا
جلت عن خيف أو عوج	وحكمة ربي بالغنة
فأغثنا باللفظ البهج	والأمر إليك تدبره
والخيلة إن لم تندرج	أدرج في العفو أساءتنا
إلا مولاك له فعجي	يا نفس وما لك من أحد
ولباب مكارمه فلجي	وبه عوذي وبه فلذي
كي تنسطي كي تبتهجي	كي تنصلي كي تنشري
أضحوا في الحندس كالشرج	ويطيب مقامك من نفر
من بيع الأنفس والمهج	وفوا لله بما عهدوا
ذو الرتبة والعطر الأرج	فهم الهادي وصحابته
عمت وظلام الشرك دجي	جاءوا للكون وظلمته
والظلمة تمحي بالبلاج	ما زال النصير يحفهم
الدين عزيزا في بهج	حتى نصرؤا الإسلام فعاد
مر الأيام مع الحجاج	فعلهم صلى الرب على

الشّدّة أودتْ بالمُهْجِ يا ربّ فعجّلْ بالفرجِ



إيثارُ رضا الله تعالى على رضا غيره

إيثار مرضاة الله تعالى على غيره في باب الرضا له جهتان، فمن جهةٍ دافعه فهو تابع للإرادة والمجاهدة، ومن جهةٍ سكينَةٍ صاحبه على الأمر المرضي لله فهو عينُ الرضا. ومرتبَةُ الرضا هنا لديه تكون بقدر سكينَةِ قلبه عليها، ولعلَّ أكثر العُباد يتردّدون بين الدرجات الدنيا والمتوسطة من الرضا، أما الخُلص فلهم التّام الخالص، نسأل الله تعالى من فضله وكرمه، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرَّحْمَنُ : ٦٠].

وعليه؛ فإيثار مرضاة الله تعالى أعمّ من مجرّد الرضا لاشتماله على الإرادة والمجاهدة، فالرضا سكون، وطمأنينة، وراحة، وأنس بالله وبتدبيره تبارك وتعالى، أما إيثار مرضاته وخاصة عند غلبة الهوى، ونزاع النفس الشديد، وجهاد وسواس الشيطان، واقتلاع العادة المستحكمة، فالسكون بعد ذلك عند اختيار الجانب الصعب الشديد فإنّه نوع خاص جميل من الرضا.

ومن الناس من يطوي مراحلهِ سريعاً، ومنهم من يحتاج لزمان طویل، ومنهم بين ذينك، ومنهم السابق الفاذّ وهو الذي لا تنازعه نفسه أصلاً لطمأنيتها لأمر ربها، والتذاذها ابتداءً ورضاها التام بأمره الشرعي يحصل بالائتمار بأمره، أما القدري فبالسكون والطمأنينة، فهي مُؤثِّرةٌ في ثوبٍ راضيةٍ.

وهذا في الحقيقة راجع لجوهر الرضا ولُبابه، لأنّ معدن الرضا هو الدوران مع أمر الله تعالى، فله تعالى أمران: قدريّ، وشرعيّ، فالائتمار الشرعيّ هنا هو الإيثار، وهو أشقُّها وأفضلُها، لأنّ القدري نافذٌ لا محالة، وهو غالباً رضا بما

مضى وقُدِّر، فهو يرضى اضطرارًا ولو في ثاني وثالث الحال، وإنما يتفاوت
الراضون هنا بحسب سرعة الرضا عند نزول مُرِّ القضاء، أما الشرعي فهو
غالبًا لما يُستقبل من الأمور، فهو يرضى اختيارًا، لهذا فهو أثقل على النفس؛
لأن الأمر بالنسبة لها لم يُفرغ منه من جهتها - لا من جهة الله تعالى -.

ولا تخلو حركة ولا سكونٌ في هذا العالم إلا والله تعالى فيهما حُكْمٌ
وحِكْمَةٌ، والموفق من عباد الله هو من دار مع أحكام شريعة ربنا حيث دارت،
وتبعها حيثما ذهبت، ويمّم وجهتها حيثما استقلّت، ولزمها أينما حلت، وهو
موعودٌ من لدن ربه بالكرامة، ﴿يَأْتِيَنَّهَا أَلْفُ تُسْعٍ مِّنْ الْمَظْمِنَةِ ۖ﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

والناس في تحقيق الرضا، والامتلاء به، وتقديمه، على درجات متفاوتة
كثيرة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال صاحب المنازل رَحِمَهُ اللهُ: «الإيثار:
تخصيص واختيار، والأثرة: تحسُّنٌ طوعًا وتصحُّ كرهًا» فرّق الشيخ بين الإيثار
والأثرة، وجعل الإيثار اختيارًا، والأثرة منقسمة إلى اختيارية واضطرابية،
وبالفرق بينهما يُعلم معنى كلامه.

فإن الإيثار هو البذل وتخصيصك لمن تُؤثره على نفسك، وهذا لا يكون
إلا اختيارًا، وأما الأثرة فهي استئثار صاحب الشيء به عليك وحوزه لنفسه
دونك، فهذه لا يُحمد عليها المستأثر عليه إلا إذا كانت طوعًا، مثل أن يُقدِرَ على
منازعة ومجادبته فلا يفعل، ويدعه وأثرته طوعًا فهذا حسن، وإن لم يقدر على
ذلك كانت أثره كُره.

ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كُرْهاً، ولكن إنما تحسُنُ إذا كانت طوعاً من المستأثرِ عليه. فحقيقة الإيثار: بذل صاحبه وإعطاؤه، والأثرُ: استبداله هو بالمؤثرِ به، فيتركه وما استبدل به إما طوعاً وإما كرهاً، فكأنك أثرته باستشاره حيث خلّيت بينه وبينه ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرَ علينا، وألا ننازع الأمرَ أهله»^(١).

قال الهروي: «وهو على ثلاث درجات؛ الدرجة الأولى: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يجرم عليك ديناً، ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يفسد عليك وقتاً». يعني: أن تقدّمهم على نفسك في مصالحهم؛ مثل أن تطعمهم وتجوّع، وتكسوهم وتعري، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدّي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ

(١) أحمد (٢٢٧٠٠) قال محققوه: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد توبع». قال السندي: قوله: «على السمع والطاعة» صلة بايعنا، بتضمين معنى العهد، أي: على أن نسمع كلامك ونطيعك في مرامك، وكذا من يقوم مقامك من الخلفاء من بعدك. «ومنشطنا ومكرهنا» مفعّل، بفتح ميم وعين، من النشاط والكراهة، وهما مصدران، أي: في حالة النشاط والكراهة، أي: حالة انشراح صدورنا وطيب قلوبنا وما يضاد ذلك، أو اسماً زمان، والمعنى واضح، أو اسماً مكان، أي: فيما فيه نشاطهم وكراهتهم، كذا قيل، ولا يخفى أن ما ذكره من المعنى على تقدير كونها اسمي مكان بعيد. «وأثرَ علينا» أي: على تفضيل غيرنا علينا، والمراد: أي على الصبر إن فضل أحد علينا، فالمطلوب الصبر عند الأثرة، لا نفس الأثرة. و«الأمر»، أي: أمر الإمارة، أو كل أمر. و«أهله» الضمير للأمر، أي: إذا وكل الأمر إلى من هو أهله، فليس لنا أن نجرّه إلى غيره، سواء أكان أهلاً أم لا. عن تحقيق مسند أحمد، طبعة الرسالة (٢٤ / ٤١٤)

لا يجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك، وتقعد كلاً مُضطرباً مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك إثثارهم بكل ما يُحرّمه على المؤثر دينه؛ فإنه سَفَهٌ وعجز يُذمُّ المؤثر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: «ولا يقطع عليك طريقاً» أي لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى؛ مثل أن تؤثر جليستك على ذكرك وتوجّهك وجمعيّتك على الله، فتكون قد آثرتَه على الله، وآثرتَ بنصيبك من الله ما لا يستحقّ الإيثار، فيكون مثلك كمثّل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه وأخذ يحدّثه ويلهيه حتى فاته الرّفاق، وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى، فيإثثارهم عليه عينُ الغبن، وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره، وما أقلّ المؤثرين الله على غيره!

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيحٌ أيضاً، مثل أن يؤثر بوقته ويفرّق قلبه، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمّه على الله، فيفرّق قلبه عليه بعد جمعيّته ويشتّت خاطره، فهذا أيضاً إثثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهمّاتهم ومصالحهم التي لا تتعيّن عليك على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تحفى، بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم، وكلّ سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله؛ فلا تؤثر به أحداً، فإن آثرتَ به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم! وتأمل أحوال أكثر الخلق في إثثارهم على الله من يضرّهم إثثارهم له ولا ينفعهم، وأيّ جهالة وسفه فوق هذا؟!

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب وقالوا: إنه مكروه أو حرام، كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يجرمه نفسه ويرفعه عليه فيفوز به دونه.

وتكلموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدفنه عند رسول الله ﷺ في حجرتها، وأجابوا عنه: بأن الميت ينقطع عمله بموته، فلا يتصور في حقه الإيثار بالقرب بعد الموت، إذ لا تقرب في حق الميت، وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولى به منها، فالإيثار به قربة إلى الله عز وجل للمؤثر، والله أعلم.

قال الهروي: «ولا استطاع إلا بثلاثة أشياء: بتعظيم الحقوق، ومقت الشح، والرغبة في مكارم الأخلاق». ذكر ما يعين على الإيثار فيبعث عليه، وهو ثلاثة أشياء:

الأول: تعظيم الحقوق، فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدّها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها.

الثاني: مقت الشح، فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار، فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق، وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره، لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق.

قال: «الدرجة الثانية: إثثار رضا الله على رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطَّوُّلُ والبدن». إثثار رضا الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسول عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا ﷺ. فإنَّه قاوم العالم كلّهُ، وتجرّد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كلّ وجه، ولم يأخذه في إثثار رضاه لومة لائم، بل كان همّه وعزمه وسعيه كلّهُ مقصوداً على إثثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمّت نعمته على المؤمنين، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: «وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن». فإن المحنة تعظم فيه أولاً ليتأخّر مَنْ ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدّم انقلبت تلك المحن منحةً، وصارت تلك المؤن عوناً، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنَّه ما آثر عبداً مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمّل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محتته؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمةً ومسرّةً ومعونةً بقدر ما تحمّل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً، ومظانُّ عَطْبِهِ نجاةً، وتعبه راحةً، ومؤنته معونة، وبلّيته نعمة، ومحتته منحة، وسخطه رضا، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلّة المتهيبين!

هذا وقد جرت سنّة الله التي لا تبديل لها^(١) أنّ من أثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يُسخط عليه من أثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محتته على يديه، فيعود حامدًا دائمًا، ومن أثر مرضاته ساخطًا؛ فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحقهم.

هذا مع أنّ رضا الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور، فهو مستحيل، بل لا بد من سخطهم عليك، فلأنّ يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحبّ إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض، فإذا كان سخطهم لا بد منه على التقديرين فآثر سخطهم الذي يُنال به رضا الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا؛ وإلا فأهونُ شيء رضا من لا ينفك رضاه ولا

(١) فقه السنن فقه شريف، يحوزه بإذن الله من وفقه الله تعالى ببسط علمه وتجربته وفكره، فالله قد خلق الكون وفق نواميس أقامها له، وجعلها قوانين يمشي عليها، وأسبابًا تُفضي لمُسبباتها، فيتفرّس المؤمنُ الموفق للبدائيات وهو يرى النهايات إجمالاً قياساً على مشابهاها لاتحاد العلل، واستشراقاً لعواقبها علماً بالسنن، لظهور الأسباب لديه وارتباطها بالعواقب لديها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ﴾ [فاطر: ٤٣].

ولا يكسر سبحانه هذه النواميس والسنن إلا لحكمة ربّانية، وهذا الكسر يكون وفق سنن ونواميس أخرى جعلها الله كذلك، كنصر عاجلٍ لدينه، وانتصارٍ لمظلومٍ في حالٍ يقتضيه، وإغاثةٍ لمضطّرٍّ ملجٍ بالدعاء، وغير ذلك، ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يضرّك سخطه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك، فإنّ ضرّك في أمر يسير في الدنيا فمضرّة سخط الله أعظم وأعظم.

وخاصّة العقل احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازن بعقلك، ثم انظر أيّ الأمرين وأيّهما خير فآثره، وأيّهما شرّ فابعده، فهذا برهان قطعيّ ضروريّ في إثبات رضا الله على رضا الخلق.

هذا مع أنه إذا أثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا أثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه. قال بعض السلف: «لَمَصَانَعَةُ وَجْهِ وَاحِدٍ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ مَصَانَعَةِ وَجْهِ كَثِيرَةٍ، إِنَّكَ إِذَا صَانَعْتَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْوَاحِدَ كَفَاكَ الْوُجُوهُ كُلُّهَا».

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه». ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها على غيره، ولقد أحسن أبو فراس^(١) في هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعا ولا ضررا:

(١) أبو فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي، أبو فراس. شاعر أمير، فارس، ابن عم سيف الدولة. له وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويحله، ويستصحبه في غزواته، ويقدمه على سائر قومه، وقلده منبج وحران وأعمالها، فكان يسكن بمنبج ويتنقل في بلاد الشام. جرح في معركة مع الروم، فأسروه وبقي في القسطنطينية أعواما، ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبي: كانت له منبج، وتملك حمص وسار ليمتلك حلب فقتل في

فليتك تحلو والحياةُ مريرةً وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الودَّ فالكلُّ هيِّنُ وكلّ الذي فوق التراب ترابُ

ثم ذكر الشيخ^(١) رَحِمَهُ اللهُ ما يُستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن فقال:
«يستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود، وحسن الإسلام، وقوّة الصبر».

من المعلوم أنّ المؤثر لرضا الله متصدّدٌ لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم في
إتلافه ولا بدّ، هذه سنّة الله في خلقه وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين
يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله الذابّين عن كتابه وسنة رسوله
عندهم؟!!

فمن أثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالةُ العالمِ وسَقَطُهُمْ وَغَرَثَاهُمْ^(٢)
وجُهاَلُهُمْ، وأهلُ البدع والفجور منهم، وأهلُ الرياسات الباطلة، وكلّ من
يخالف هديّه هديّه، فما يُقدّم على معاداة هؤلاء إلا طالبُ الرجوع إلى الله،

=

تدمر، وقال ابن خلّكان: مات قتيلاً في صدد (على مقربة من حمص)، قتله رجال خاله
سعد الدولة. دواوين الشعر العربي على مر العصور (١ / ٥٠)

(١) أي: أبو إسماعيل عبد الله الهروي الحنبلي، صاحب منازل السائرين، وذمّ الكلام وأهله.
(٢) من الغرث: وهو الجوع. ومنه قول حسان في لاميّته في مدح الصديقة رضوان الله عليها:
«وتصبحُ غَرَثِي من لحومِ الغَوَافِلِ». وقصد ابن القيم بالغرث هنا: جوعها عن البهتان،
أي: سلامتها من أكل لحوم الغافلات المؤمنات.

عاملٌ على سماع خطاب: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر : ٢٧ - ٢٨] ومَن إسلامه صلب كامل لا تزغزه الرجال ولا تقلقله الجبال، ومَن عَقْدُ عزيمة صبره مُحْكَمٌ لا تُجْلُهُ المحنُّ والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء، فما ضَعُفَ من ضعف وتأخَّرَ من تأخَّرَ إلا بحبِّه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرتة من ذمِّهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين تأخَّرت عنه العوارض كلّها، وانغمس حينئذ في العساكر^(١).

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحّة اليقين وقوّة المحبة، وملاك هذين بشيئين أيضًا: بصدق اللجأ والطلب، والتصدّي للأسباب الموصلة إليهما، فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم. والتوفيق بعدُ بيد مَن أَرَمَهُ الأمور كلها بيده، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنََّّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الإنسان : ٣٠ - ٣١].

قال^(٢): «الدرجة الثالثة: إيثارُ إيثارِ الله، فإنَّ الخوض في الإيثار دعوى في الملك، ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله، ثم غَيْبَتِكَ عن التَّرك». يعني بإيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرّد بالإيثار لا أنت،

(١) أي: مدد الله له ونصرته.

(٢) يعني الشيخ أبا إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللهُ.

فكأنَّكَ سلَّمت الإيثار إليه، فإذا أثرت غيرك بشيء فإن الذي أثره هو الحق لا أنت، فهو المؤثر حقيقة، إذ هو المعطي حقيقة.

ثم بين الشيخ السبب الذي يصحَّ به نسبة الإيثار إلى الله وترك نسبته إلى نفسك فقال: «فإن الخوض في الإيثار دعوى في الملك» فإذا ادَّعى العبد: أنه مؤثر فقد ادَّعى ملك ما أثر به غيره، والمُلك في الحقيقة إنما هو لله الذي له كلُّ شيء، فإذا خرج العبد عن دعوى المُلْك فقد أثر إيثار الله، وهو إعطاؤه على إيثار نفسه، وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه، وأمَّا من لا ملك له فأَيُّ إيثار له؟!!

وقوله: «ثم تركُ شهود رؤيتك إيثار الله»، يعني: أنك إذا أثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثار إليه بقيت عليك من نفسك بقية أخرى لا بد من الخروج عنها؛ وهي أن تُعرِّض عن شهودك رؤيتك أنك أثرت الحق بإيثارك، وأنك نسبت الإيثار إليه لا إليك، فإنَّ في شهودك ذلك ورؤيتك له دعوى أخرى هي أعظم من دعوى المُلْك، وهي أنك ادَّعيت أن لك شيئاً أثرت به الله، وقدَّمته على نفسك فيه بعد أن كان لك، وهذه الدعوى أصعب من الأولى، فإنها تتضمن ما تضمَّنته الأولى من المُلْك، وتزيد عليها برؤية الإيثار به. فالأول: مُدَّعٍ للملك مؤثر به، وهذا مُدَّعٍ للملك ومُدَّعٍ للإيثار به. فإذا نجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار، فلا يعتقد أنه أثر الله بهذا الإيثار، بل

الله هو الذي استأثر به دونك، فإن الأثرة واجبة له بإيجابه إيّاها بنفسه لا بإيجاب العبد إيّاها له^(١).

وقوله: «ثم غَيَّبْتُكَ عَنْ التَّرك». يريد: أنك إذا نزلت هذا الشهود وهذه الرؤية بقيت عليك بقية أخرى وهي رؤيتك لهذا التَّرك المتضمنة لدعوى ملكك للتَّرك، وهي دعوى كاذبة، إذ ليس للعبد شيء من الأمر، ولا بيده فعل ولا ترك، وإنما الأمر كله لله^(٢).

(١) وهذا من تمام شهود توحيد الربوبية

(٢) وليس تصوّر هذا وتحديث النفس به شرطاً لسلوك الصراط المستقيم، لأن العبد إذا آمن أن الله خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومدبر كل شيء؛ فإنه بذلك ينتظم كل توجهات وتصوّرات وأعمال قلبه، وهذا كافيه في الحقيقة، وهذه التفاصيل المسلكية الدقيقة إنما تصلح لمن شغل نفسه بهذا، وانهمك فيه، وانغمس في مجاهدات القلب به. وقلت: تصلح له؛ لأن المشتغل بذلك إن لم يوفق لتفصيل شيخ مُسدّد، وإلا فيخشى عليه من أمرين: أحدهما: متالف الوسوس، حين يخلو بفكره مع نفسه بلا قيد علم. والثاني: مزلق الأباطيل، حين يأخذ بيده شيخ خرافة أو سالك بدعة.

فمن الناس من يتشدّد في شأن الوسوس والخطرات، ويتكلّف حراسة النية وملاحظتها بشكل ينغص عليه عيشه وعيش من حوله، ويشتت جمعية قلبه على الله تعالى من حيث أراد جمعها.

هذا، وبيان خداع النفس وخطراتها وتلييسات الشيطان وتسويلاته فيها ومداخله في النيات ونحوها مقصد طيب، وعلم مبارك، وعمل فاضل، لكن لا بد من العلم والحكمة والأناة في تناولها تأصيلاً وتطبيقاً، فقد يوفق الكاتب في ذلك فيجלו للقارئ

=
رَيْنًا عن قلبه، أو غَيْنًا عن بصيرته، أو يدفع شبهة محيرة لعقله، أو حَظْرَةً مقلقةً لِلْبُهِ،
فِيُريح قلبه من ثقلِ هَمٍّ ليس مكلفٍ به، وكم من حرفٍ أراح صدرًا!
وفي المقابل قد تقصر أفهام بعض الناس عن إدراك مقصود المؤلف، وقد يفوت
المصنّف قيّد أو تبيان ونحو ذلك، بل قد لا يُوفّق أصلاً للهُدى في تععيده وتأصيله
وتطبيقه، فيُضِلُّ ويُضِلُّ!

ومن ذلك أن الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ لما صنّف كتابه الرعاية في الخطرات
والوساوس قرأه فتأمّن من أهل الاجتهاد والإخلاص؛ فشوّش عليهم جمعيّة قلوبهم؛ لأنّه
فتح أذهانهم وأشغل أفئدتهم بمجاهدةٍ وتحقيقٍ وتدقيقٍ وتنقيحٍ ووسوسةٍ ودفعٍ أمور
عاديةٍ تجري على كلّ الناس مما لم يكلفهم الله بها، فاجتهدوا فوق طاقتهم بمراقبة تلك
الخطرات والوساوس وتنقيحها وتقليب النظر فيها، فعاد عليهم ذلك بالقنوط واليأس
والفشل والكآبة، وتشتّت جمعيّتهم، وتفرّقت نيّاتهم، وتشوّشت صدورهم، فانقطع كثير
منهم عمّا كانوا فيه من الخير والنسك ولذّة التعبّد قبل دخول ذلك الكتاب عليهم!
وقد تنبّه الإمام أحمد لذلك فمنع من الحارث وكتبه، بل ومن مصاحبته. وقد ذكر ابن
الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في تلبس إبليس (ص: ١٦١) أنّ أبا زرعة سئل عن المحاسبي وكتبه،
فقال للسائل: «إيّاك وهذه الكتب، بدع وضلالات، عليك بالأثر؛ فإنك تجد فيه ما
يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة! فقال: من لم يكن له في كتاب الله
عبرة فليس له في هذه عبرة. بلغكم أنّ مالكا أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنّفوا
كتبًا في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟!».

وعليه؛ فإنّ التدقيق والتعمّق المتكرر الشديد في النية وطبيعة النفس ووسواسها قد
يوصل المرء للحيرة والاضطراب، ومن ثمّ الانقطاع والفشل، بل والحَبَل أحيانًا عند
بعض من يقصر فهمه عن دفع وارد فكره.

وقد تبين في الكشف والشهود والعلم والمعرفة أن العبد ليس له شيء أصلاً، والعبد لا يملك حقيقة، إنما المالك بالحقيقة سيده، فالأثرة والإيثار والاستئثار كلها لله ومنه وإليه، سواء اختار العبد ذلك وعلمه أو جهله أم لم يختره، فالأثرة واقعة كَرِهَ العبدُ أم رضي، فإنها استئثار المالك الحق بملكه تعالى، وقد فهمت من هذا قوله: فَإِنَّ الأثرة تحسُنُ طوعاً، وتَصِحُّ كرهاً، والله سبحانه وتعالى أعلم^(١). ولعروة بن حزام:

هوى ناقتي خلفي وقُدَّامي الهوى وإنِّي وإيَّاهُا لمختلفان

=

وتأمل هذين الحرفين النفيسين للشيخين النفيسين: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في أقسام النفوس وطبائعها وانقسام الناس بالنسبة إليها: «وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن هذه المسألة، وقطع الآفات والأشغال بتنقية الطريق وتنظيفها. فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس - وهو جُبُّ القَدَرِ والبيَّارة - كلما نبشتَه ظهرَ وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوِّزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيَّات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ولم يمكنه السير قط، ولكن لتكن همَّتكَ المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً وأثنى على قائله». وانظر: المدارج (٢/ ٣١٣، ٣١٤)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٧٩)، المستدرک على مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢٩) وبالله التوفيق.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٦ - ٣٠٤) باختصار.

هَوَايَ أُمَامِي لَيْسَ خَلْفِي مُعَرَّجٌ	وشوقُ قلوصي في الغدوِّ يَمَانِ
هَوَايَ عِرَاقِيٍّ وَتَنِي زِمَامَهَا	لِبَرْقِ إِذَا لَاحَ النُّجُومُ يَمَانِ
مَتَى تَجْمَعِي شَوْقِي وَشَوْقَكَ تُثْقَلِي	وَمَا لَكَ بِالْعَبِّ الثَّقِيلِ يَدَانِ
يَقُولُ لِي الْأَصْحَابُ إِذْ يَعْذِلُونَنِي	أَشَوْقُ عِرَاقِيٍّ وَأَنْتَ يَمَانِ
وَلَيْسَ يَمَانٌ لِلْعِرَاقِ بِصَاحِبٍ	عَسَى فِي صُرُوفِ الدَّهْرِ يَلْتَقِيَانِ



علامات ومظاهر الراضين بالله تعالى

فرق ما بين العلامات والثمرات: أنّ الثمرات حقائقٌ وغاياتٌ ينتهي إليها الراضي بربه تعالى، فهي كالمكافآت الربّانية لمن رضي بإلهه تبارك وتعالى، أما العلامات والمظاهر فهي كالرداء الذي يلبسه الراضي عن ربه، فيراها الناس عليه في وجهه وإشراقه وضيائه وسمّته وأطرافه وخليجاته ولحظاته وكلماته وأفعاله وأحواله.. فهو مظهرٌ دالٌّ على ما تحته من معاني البرّ، وذخائر القُرب، وحشايا السعادة، وثلج اليقين، نسأل الله الكريم من فضله العميم.

هذا؛ وإنّ بين الثمرات والعلامات الصادقة - لا الخدّاعة - علاقة تلازم، فالله شكور حميد سبحانه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، فإذا صدق العبد معه باطنًا وظاهرًا في رضاه به وعنه ولّه؛ فإن الله يكافئه بإلباسه من نور الراحة، وهالة الأمن، وعطر الحبّ لمن رآه، وضياء السرور، وإكليل المودّة لمن عامله، وبهاء الهيبة، وجلال الثقة لمن عرفه، وهذه علامات وثمرات، ثم يأخذ إحسانُ ربّه بيدَ توفيقه لمزيدٍ من كرائمٍ منحه وجسائم عطاياه الدينية، فالحسنة تجلب أختها برحمة الله وكرمه ومنته وحمده، ولا يزال العبد يترقى في درج الرضا ومعارج القبول حتى يرحل عن الدنيا للرفيق الأعلى راضيًا مرضيًا.

فمن العلامات:

١ - السكينة:

وكيف لا تسكنُ نفسٌ سبحت في بحار الرضا عن ربها، فخضعت له ربًّا، وخشعت له إلهًا، ورضيت به معبودًا، وفرحت به مألوفًا لها، فهي تجري في فضاء حُبِّه، وتسبحُ في الثقة بِلِقائه، والسكون إلى تدبيره، واليقين بموَعوده، والتعلق بفضله. قد وقف بها حُبُّه عن حب ما سواه، ووثقت بوعده فاكتفت به عمَّن عداه، وفوّضت أمرها بين يديه، إحسانًا لظنّها فيما لديه، واستسلمت لقضائه استسلامًا ليقينها بحسن تدبيره ولطفه ورفقه وحكمته وعدله ورحمته وعلمه وبرّه^(١).

ومن رَجَزِ الصحابة المرضيين يوم الخندق وفيهم رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يرفع صوته بكلمة «أَيُّنَا، أَيُّنَا»^(٢):

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قِينَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَنَا

(١) وللسكينة والطمأنينة كتابان مستقلّان بإذن الله تعالى.

(٢) بالفاظ عند البخاري (٢٨٧٠) وغيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْنَى السَّكِينَةِ: «السَّكِينَةُ فَعِيلَةٌ مِنَ السَّكُونِ، وَهُوَ طَمَآنِينَةُ الْقَلْبِ وَاسْتِقْرَارُهُ، وَأَصْلُهَا فِي الْقَلْبِ، وَيُظْهِرُ أَثَرَهَا عَلَى الْجَوَارِحِ. وَهِيَ عَامَةٌ وَخَاصَّةٌ»^(١).

وَمَنْ أَمْتَعَ وَأَعْظَمَ جَوَالِبَ السَّكِينَةِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَدَبُّرُ آيَةِ الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر : ٢٩ - ٣٠]. فَتِلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ مِنْ مَدَارِجِ السَّكِينَةِ وَمُتَنَزِّلَاتِهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا غَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «لا يشترط لنزول الملائكة وغيرهم أن تكون القراءة أو الذكر في جماعة، فيحصل ذلك للشخص الواحد، روى البخاري ومسلم

^(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠١).

^(٢) مسلم (٢٦٩٩) وقد ذكر لي الشيخ محمد بن سعود الحمد فائدة شريفة استنبطها بتوفيق الله من هذا الحديث الرباني الجليل: قال: «وأرجو أن يكون من ألف كتاباً فيه ذكرٌ لله تعالى أن يكون ممن وُعدوا بذكر الله تعالى لهم في الملائ الأعلی، لأن الملائ الذي ذكر العبد ربه عندهم قد يكونون حضوراً شهوداً لديه في مجلسه فيسمعونه، وقد يكونون متفرقين في الأمصار يشهدون ذكره لربه في كتابه». وقد أصاب في هذا الاستنباط الشريف بإذن الله تعالى، فإن القلم أحد اللسانين، ويتبع ذلك كل مكتوب برسالة ورقية أو إلكترونية أو في وسائل التواصل الاجتماعي وكل ما كان بهذه المثابة، والله تعالى أعلم.

حديث أُسَيْد بن حُضَيْر الذي كان يقرأ القرآن في مَرَبْدِه^(١) وبجواره ولده وفرسه^(٢)، وجاء فيه: فإذا مثل الظِّلَّة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج، عرجت في

(١) المَرَبْد والبيدر: الموضع الذي يُوضع فيه التمر حين يُصْرَم ليَجْفَ، وهو من رَبَدَه: إذا حبسه، ومنه مَرَبْد الأبل، وقيل مَرَبْد البصرة لأنهم كانوا يحبسون فيه الإبل. ومنه حديث أنس في الصحيحين لما ذهب بأخ له ليحنكه رسول الله ﷺ فوجده في مَرَبْدِه يَسْمُ شاة في أذنها. وقيل: المَرَبْد للتمر والبيدر للحنطة. وانظر: الفائق في غريب الحديث والأثر (١ / ١٦٦) وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٣٥٤) وحسن سنده ابن كثير في تاريخه (٦ / ٩٥) عن ابن المسيب عن أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري قال: استسقى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: «اللَّهُم اسقنا، اللَّهُم اسقنا». فقام أبو لبابة فقال: يا رسول الله إن التمر في المَرَبْد، قال: وما في السماء سبحانه نراه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسدّ ثعلب مَرَبْدِه بإزاره».

قال: فاستهلت السماء فأمرت وصى بنا رسول الله ﷺ، قال: ثم طافت الأنصار بأبي لبابة يقولون له: يا أبا لبابة، إن السماء والله لن تقلع أبداً حتى تقوم عرياناً فتسدّ ثعلب مَرَبْدِك بإزارك كما قال رسول الله ﷺ. قال فقام أبو لبابة عرياناً فسدّ ثعلب مَرَبْدِه بإزاره، قال فأقلعت السماء. قال أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث: (٣ / ٩٦) «المَرَبْد: هو الذي يجعل فيه التمر عند الجذاذ قبل أن يدخل إلى المدينة ويصير في الأوعية. وثعلبه: هو جحره الذي يسيل منه ماء المطر، أي أصاب التمر».

(٢) وقال الحافظ في فتح الباري (٩ / ٦٤): «وفي رواية أبي بن كعب المذكورة أنه كان يقرأ على ظهر بيته وهذا مغاير للقصة التي فيها أنه كان في مَرَبْدِه، وفي حديث الباب أن ابنه كان إلى جانبه وفرسه مربوطة فخشي أن تطأه، وهذا كله مخالف لكونه كان حيثئذ على ظهر البيت إلا أن يُراد بظهر البيت خارجه لا أعلاه فتتحد القصتان».

الجو حتى ما أراها! فقال له رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم» (١) (٢).

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار الدابة، فجعلت تنفر، فسلم، فإذا ضبابة أو سحابة غشيت؛ فذكره للنبي ﷺ، فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة، نزلت للقرآن. أو تنزلت للقرآن» (٣). قال العيني في العمدة: «الرجل هو أسيد بن حضير.. والضبابة المذكورة هي السكينة، واختلفوا في معناها فقل: هي الملائكة وعليهم السكينة، والمختار: أنها شيء من مخلوقات الله تعالى فيه طمأنينة ورحمة، ومعه ملائكة يستمعون القرآن» (٤). وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث أسيد وذكر رواياته: «قوله: وفي رواية: قال ﷺ: «اقرأ يا بن حضير»، أي كان ينبغي أن تستمر على قراءتك، وليس أمراً له بالقراءة في حالة التحديث، وكأنه استحضر صورة الحال فصار كأنه حاضر عنده لما رأى ما رأى، فكأنه يقول: استمر على قراءتك لتستمر لك البركة بنزول الملائكة واستماعها لقراءتك. وفهم أسيد ذلك فأجاب بعذره في قطع القراءة وهو قوله: «خفت أن تطأ يحيى» أي خشيت إن استمريت على القراءة أن تطأ الفرس ولدي.

(١) مسلم (٧٩٦) وللفظ له، وعلقه البخاري (٥٠١٨) بصيغة الجزم.

(٢) أسباب رفع العقوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١ / ٤٧)

(٣) البخاري (٣٦١٤) ومسلم (٧٩٥)

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤ / ١٨٢) باختصار.

ودل سياق الحديث على محافظة أسيد على خشوعه في صلاته لأنه كان يمكنه أول ما جالت الفرس أن يرفع رأسه، وكأنه كان بلغه حديث النهي عن رفع المصلى رأسه إلى السماء فلم يرفعه حتى اشتد به الخطب. ويحتمل أن يكون رفع رأسه بعد انقضاء صلاته فلهذا تمادى به الحال ثلاث مرات. وفي رواية قال ﷺ: «دَنْتُ لَصَوْتِكَ تَسْتَمِعُ لَكَ»، وفي رواية: «وكان أسيد حسن الصوت» وفي رواية قال ﷺ: «اقرأ أسيد، فقد أوتيت من مزامير آل داود». قال النووي: «في هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة للملائكة». كذا أطلق وهو صحيح، لكن الذي يظهر التقييد بالصالح مثلاً والحسن الصوت. قال: «وفيه فضيلة القراءة، وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة». وفي آخر الحديث «ما تتوارى منهم». إشارة إلى الملائكة لاستغراقهم في الاستماع، كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم.

وفيه منقبة لأسيد بن حضير، وفضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل، وفضل الخشوع في الصلاة، وأن التشاغل بشيء من أمور الدنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير، فكيف لو كان بغير الأمر المباح^(١). والنبى ﷺ أمر عائشة أن تُمِطَ الْقِرَامَ عَنْ قِبْلَةِ صَلَاتِهِ، وَعَلَّلَ أَمْرَهُ بِأَنَّهُ أَذْكَرُهُ الدُّنْيَا!

واعلم - يا محب - أن من أعظم جوارب السكينة للمؤمن تدبر كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، فكتاب الله تعالى زاد لا ينقص، وسقاء لا ينضب، وبحر لا يغيض، بل يفيض على القلب والروح حتى تحلق وتسمو في

(١) فتح الباري (٩ / ٦٤) باختصار.

سَاءَ لَيْسَتْ بِسَاءِ دُنْيَا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَفِي الْقُرْآنِ أَمْرٌ عَجِيبٌ؛ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَلَاهُ بِتَدَبُّرٍ وَجَدَ فِيهِ حَلًّا لِمَشْكَلَاتِهِ، وَزَوَالَ لَجْهَالَاتِهِ، وَبَلَسًا لَجِرَاحَاتِهِ، وَبَصِيرَةً لِمَنْهَاجِهِ. فَكُلُّ مُشْكَلَةٍ فِي الْعَالَمِ فَحَلُّهَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَكُلُّ تَسْأُولٍ فِي الْخَلِيقَةِ فَجَوَابُهُ فِيهِ إجمالًا أَوْ تفصِيلًا أَوْ دلالةً، وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾ [مُحَمَّدٌ: ٢٤].

فَتَجِدُ النَّفَرَ يَتْلُونَ آيَاتٍ وَاحِدَةً، أَوْ يَسْتَمْعُونَهَا بِتَدَبُّرٍ، فَتَصْنَعُ فِي صَدُورِهِمُ الْأَعَاجِيبَ، فَهَذَا يَجِدُ فِيهَا لُجَانِبٌ مِنْ حَيَاتِهِ نَبَّهَتْهُ إِلَيْهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ يَجِدُ عِزًّا لِفَقْدِهِ، أَوْ لِحِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْ بَعْضِ مُشْتَهِيَاتِهَا، أَوْ لِمَا تَجَرَّعَتْهُ مِنْ غُصَصِ آلَمِهَا، وَآخِرُ يَجِدُ بَرَهَانًا لِفِكْرَةٍ تَحِيطُ بِهِ وَلَمَّا يَتَوَقَّعُ مِنْهَا، وَغَيْرُهُ يَرَى إِنْذَارًا لَتَفْرِيطٍ وَقَعَ فِيهِ، وَتِلْكَ تَسْتَمِعُ لآيَةٍ أَنْسَتْهَا فَأَنْسَتْهَا هَمًّا أَلَمَ بِهَا، وَشَوَّقَتْهَا اللَّهُ تَعَالَى وَالْدارُ الْآخِرَةُ، بَلْ أَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَقْرَأُ الْآيَةَ مَرَارًا وَيَجِدُ فِي كُلِّ تَدَبُّرٍ مَعْنَى جَدِيدًا، وَسَعَادَةً حَادِثَةً، وَهَدَايَةً غَضَّةً طَرِيَّةً تُثْرِي عِلْمَهُ بِرَبِّهِ تَعَالَى.

ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ عِلْمُ الْعُلُومِ، وَمَرْجِعُ الْمَعَارِفِ، وَمَأْرِزُ الْأَفْهَامِ، فَهُوَ كِتَابٌ شَافٍ وَافٍ كَامِلٌ شَامِلٌ، وَهُوَ «الْفَصْلُ وَلَيْسَ بِالْهَزْلُ»، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَارِ قِصَمِهِ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ،

ولا تنفسي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هُدي إلى صراط مستقيم، لم تنته الجن إذ سمعته، حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢] (١).

فلا إله إلا الله، ما أعظم الله، وأعظم كلامه، وأكبر نعمته علينا به! ومن أراد العلم فليثور القرآن كما وجه به ابن أم عبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتدبر قول ربنا الأكرم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ [علق: ٣]، فاستجلب عطايا ربك الكريم بتلاوة كتابه الكريم.

واعلم أن الأشياء إذا تركتها ذبلت، إلا القرآن العظيم فإنك إذا تركته ذبلت أنت! فهو الغذاء، والرواء، والحصن، والسعادة، والفلاح، والله المستعان.

وهل هنا سؤال لطيف في هذا الباب، وهو: لماذا يحب أكثر الناس تلاوة القرآن العظيم وسماعه بالحدرد أكثر من الترتيل والترسل؟

والجواب ذو مطالب:

الأول: أن كليهما مشروع بحمد الله تعالى، فمن رتل فقد أحسن، ومن حدّر فقد أحسن. والترتيل أفضل. والترتيل هو أحد مراتب الأداء الثلاث: الترتيل، والحدّر، والتدوير.

(١) ورد بالفاظ متقاربة عند الترمذي (٢٩٠٦)، وقال: حديث غريب، والدارمي (٣٣٣١)، وأحمد (١ / ١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٥٤). ومعناه نوراني صحيح.

فالترتيل: هو القراءة بتؤدة وترسُلٍ وتمهّلٍ واطمئنان، ومراعاة أحكام التجويد. وأما الحدر: فهو الإسراع في القراءة مع المحافظة على قواعد التجويد ومراعاتها. وأما التدوير: فهو القراءة بسرعة متوسطة بين الترتيل والحدر، مع المحافظة أيضًا على قواعد التجويد. وأفضل المراتب: الترتيل، ثم التدوير، ثم الحدر^(١). قال صاحب تذكرة القراء:

الحَدْرُ والترتيلُ والتدويرُ والأوسطُ الأتمُّ فالأخيرُ

وقد جعل بعض العلماء المراتب أربع فأدخل التحقيق قبل الترتيل، وجعل فيه مزيد ترسُل^(٢).

ونحن آخرون - وهو الأظهر لدي - إلى أن المراتب ثلاث: التحقيق (وهو الذي يُسمّى الترتيل) والتدوير والحدر، أما الترتيل فهو ينتظم هذه المراتب جميعًا، وبخاصة ما كانت قراءةً على مُكثٍ وترسُلٍ لإتاحة التدبّر للقارئ والسامع، وإنما خرجت عن الترتيل قراءة الهذّ. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإشراء: ١٠٦]، والمكث هو الترسُل والبطء والترتيل.

وقال عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وكان ﷺ يتأوّل ذلك فيرتل القرآن كما أمره ربه. وكان يمدُّ قراءته حرفًا حرفًا، ويقف على

(١) وانظر لمراتب القراءة وتجويدها: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح المرصفي (٥٠/١) وهو سفر نفيس، رحم الله راقمه.

(٢) انظر: إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم. لعبد السلام مقبل المجيدي ٢٦٢/١

رؤوس الآي، ويقرأ السورة حتى تكون أطول من أطول منها. بمعنى أن قراءته أبطأ من القراءة المعتادة لغيره من الناس.

وكلُّ هذا لتحصيل المقصود الأعظم وهو تدبر التلاوة التي من معانيها العمل بالقرآن، وهو ما فُسر به قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يصدّقون بما فيه من أخبار، ويعملون بما فيه من أحكام.

ولا يتأتّى العمل بالقرآن إلا بعد العلم بمعانيه، ووسيلته الكبرى - بعون الله تعالى - هي التدبر. لهذا قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «اقرأ في ثلاث، فإنه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»^(١). أي لا يستطيع تدبره كما ينبغي له. وإلا فالتلاوة المجردة مع نوع تدبرٍ مقدورة، وقد أتوا بها في ركعة كما ثبت عن عثمان وتميم الداري رضي الله عنهما وكذا سعيد ابن جبير وابن باز رحمهما الله في كثير من العباد.

لذا زجر السلف عن هذّ القرآن، أي: الهذّ الذي يصل إلى الهذمة، فتتداخل الحروف وتضطرب الكلمات لشدة الإسراع، أما ابتداء الهذّ وأعني به الهذّ المعتدل الملتزم بأركان الترتيل بمعناه العام فقد جاء الإذن به في الحديث، فعن بريدة رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «... ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان

(١) البخاري (٥١/٣) ومسلم (١٦٣/٣)

أو ترتيلاً»^(١). قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى معلّقاً على الحديث: «يدل على جواز قراءة الهذّ، والحديث حسن»^(٢).

أما الإسراع المفرط فقد نهوا عنه، قال ابن إمّ عبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تَهْذُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرَ، وَلَا تَنْشُرُوهُ نَشْرَ الدَّقْلِ، وَقِفُوا عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرُ السُّورَةِ». وتدبّر آخر جملة والله المستعان.

والهذّ الذي زجر عنه ابن مسعود وغيره هو الإسراع الذي يفوق الحذر فيكون كالهذّرمّة، أما الإسراع الذي لا يحرف القراءة فلا بأس به ما دام مقيماً لإحسان القراءة، وقد جاء عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بشارته لأهل القرآن: «.. وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك! فيقول: أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإنّ كلّ تاجرٍ من وراء تجارتك، وإنّك اليوم من وراء كلّ تجارة، فيُعْطَى الْمَلِكُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ

(١) أحمد ٥ / ٣٤٨ (٢٣٣٣٨). والدارمي (٣٢٥٧)، وحسنه الخضير. وفي سننه بشير بن المهاجر، وثقه ابن معين، وغيره، وتكلّم فيه بعضهم، فهو حسن الحديث، وقد صحّ الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة (٦ / ٧٩٢) وقال محققو المسند بإشراف الأرنؤوط: «إسناده حسن في المتابعات والشواهد من أجل بشير بن المهاجر الغنوي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وحسنه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦٢/١، ولبعضه شواهد يصح بها». وحسنه محقق مسند الدارمي الشيخ حسين سليم أسد.

(٢) شرح كتاب التوحيد، عبد الكريم الخضير (٧/٧).

الوقار، ويُكسى والداه حُلَّتَيْنِ لا يقومُ لهما أهلُ الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان، أو ترتيباً^(١). ولقد كانت قراءة الفضيل كما وصفوها: بطيئة حزينة شهية، رحمن الله وإياه.

الثاني: أن جمال الصوت وجودة نغماته تتأتى بشكل أسهل عند الحذر لتنوع صعود ونزول مستوى أصوات الحروف. ولكن ذلك يشق - نوعاً ما - عند الترتيل إلا مع الدُّرْبَة، ولكن هذا كله يزول، بل ينقلب لصدّه إذا كان السامع يسعى بقلبه لتدبر المعاني من غير الوقوف الطويل مع جماليات التغني بالصوت الجميل، وواها لمن جمعهما.

وهي يسيرة بحمد الله تعالى، خاصة إن كانت قراءةً حزينةً مُترسلةً مُتدبِّرةً، ومعلومٌ أنَّ أشهى الترانيم للأذان هي ترنيمةُ الأحران، فالتلاوة بتخزُّنٍ أدعى للخشوع، واستدرارِ الدموع، وهجرِ الهُجوع، وتَشَنُّفِ الأُفئدةِ بكل سَمْعِهَا لتدبُّرِ المثلِّ العَظيمِ العَزيزِ، وأمكن للروح أن تُحَلِّقَ في ملكوتِ التدبُّرِ، وسماهِ الرِجاءِ، وفَضاءِ الحُبِّ، وضياءِ الإيمانِ، ولذَّةِ سلطانِ القرآنِ، فلا تملك القلوب حينها إلا أن تُلقِيَ أزمَّةَ أسعائها إليه، راشفةً مُتَلدِّدةً مهتديةً شاهدةً مُصيخةً لعهدِ الله الأخير لبني الإنسان ومن تبعهم من الجنِّ، وهذه القراءة

(١) أحمد ٥ / ٣٤٨ (٢٣٣٣٨). والدارمي (٣٢٥٧)، بسند حسن. وقد مرّ مزيد تخريجه في

المرتلة هي عامّة قراءة الصحابة والسلف رضي الله عنهم، وقد ينزلون عنها لعارض، وكلها خير بفضل الله تعالى.

وبالجملة؛ فالصوت وسيلة لا غاية، وإن كان تزيينه من سنن القراءة، فهو عبادة مقصودة لذاتها حتى وإن كانت في نفسها وسيلة لطيفة وطريقة حسنة للبلاغ الإلهي الكريم العظيم الجليل الجميل.

وإنّ الملائكة لتطربُ للصوت الجميل بالقرآن، كما في خبر أسيد بن الحضير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حتى إنها كادت أن تتبدّى للناس عيانًا لا تحتجب عنهم بالستور الملائكية، كلُّ ذا لاستغراقها في سماع كلام ربّها بحلاوة المزامير الداودية، وإخواننا من الجنّة أسلموا لما سمعوه من فيّ رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ومن فرحهم بالقرآن وبالرسول ﷺ ازدحموا بشدّة لسماع القرآن منه كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

وتدبر كذلك صدر سورة الجن وغيرها من فرحهم بالقرآن والتوحيد والإسلام. ولربّما دخل بعض صالحهم المساجد وبيوت الإنس رغبة في سماع القرآن الكريم، وأخبار الناس في هذا الباب كثيرة مشتهرة.

بل إنّ رب العزة جل جلاله يحبُّ أن يسمع القرآن من عبده بصوت جميل، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ

ما أذن لنبي أن يتغنّى بالقرآن»^(١). وفي رواية: «لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»، وفي رواية: «لنبي يتغنّى بالقرآن يجهر به»^(٢). وعن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «من لم يتغنّ بالقرآن فليس متًّا». قال عبد الله بن أبي يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ لابن أبي مليكة: يا أبا محمد؛ أرايت إن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع^(٣). وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٤).

فتزيين الصوت وتحسين نغماته بالتلاوة مطلب شرعي ومرضاة للرحمن، وتدبّر القرآن مقصودُ التلاوة والسَّماع، فخيرٌ لك، وأولى لك، ثم أولى أن تجمعهما، فاستغرق همتك لهما مدى حياتك، والموعود الجنة، ﴿يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَبُورَ﴾^(٥) [فاطر: ٢٩].

الثالث: أن في نفوس الناس نزعة إلى العجلة والإسراع لضعف صبرها، ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾^(٦) [الأنبياء: ٣٧]، ولو جاهدناها لأضحت بإذن الله تعالى مطمئنة للترتيل، لا تكاد تسكن إلا إليه. وذلك أن المقصود الأعظم للتلاوة وسماعها هو التدبر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

(١) يقال: أذن إلى الشيء وللشيء، يأذن أذنًا، أي: استمع له. والتغنّى: تزيين الصوت بالقراءة والتحبير.

(٢) البخاري (٢٣٥/٦، ١٧٣/٩) ومسلم (٢١٩٢/٢)

(٣) أبو داود (١٤٧١) وجوّد سنده النووي في الرياض (١ / ٤٩٨)

(٤) النسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.

ووسيلة التدبر هي الترتيل، والترسل، والترجيّع، والبطء، والتأمل، والتفكير، والتسبيح، والسؤال، وإلحاح الدعاء، والاستعاذة، والاستجارة، والاعتصام، والاستغفار، والتوبة، ونحو ذلك عند مروره بالآيات المقتضية ذلك، وكذلك إعادة آيات التنبيه والوعظ والذكرى مرارًا، واسترجاعها تكرارًا، والدعاء أثناءها، وتحريك مشاعر القلب بها، واستنزاع فوائد الفكر في تلاوتها، والعمل بمقتضاها، فيناجي بها ليلاً، ويتفقدتها في قوله وعمله ونيته نهارًا.

وتأمل حالك حتى وأنت تنظر للمصحف بلا قراءة ابتغاء تحصيل معنى تقصده وتفتش عنه، فستجد نفسك بلا جهد ولا قصد ترسل وتبطئ وتدبر، فالقرآن معجز، وهداياته لا تنضب، وفوائده لا تنتهي، ومعين أجره لا يزول ولا يفنى، بل إلى رضوان الله يقرب ويرفع ويوصل صاحبه للدرجات العلى من جنات النعيم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٠٥].

[البقرة : ١٠٥].

ولا يعني ذلك أن الحذر ليس فيه تدبر، بل فيه بحمد الله نزر نافع صالح مبارك، ولكنه ليس كغيث التدبر حينما تنهمر المعاني بتفجر ينابيع الآيات مع كثر النظر تلو النظر، وتدبر العقل بمعول الفكر، وتأمل النظر ببصيرة العقل، وكل هذا مفتقر لبطء وترسل لا عجلة وإسراع.

وقد يكون الحذر والتدوير لدى بعض الناس أسهل للتدبر من الترتيل، لمشقة الترسل عليهم واردة تدبرية أو دنيوية لا يطيقون دفعها، أو دفعًا للنعاس، فيحدرون، ويملئون أيديهم من خير الله العميم بالقرآن الكريم.

وفضّل الله واسع، ودينه يسر، وجنته لها ثمانية أبواب، ورحمته وسعت كل شيء، فله الحمد كما ينبغي له (١).

وإنّ من مزايا الحدر كثرة الحروف المتلوّة، كذلك كثرة توارّد معانيها العامة مع كثرة الآيات المقروءة، فيرسم تالي الكتاب في قلبه لوحة ذهنية عامة تجمع ما تفرّق من شوارد المعاني المبثوثة في ثنايا الآيات والسور المتباعدة، وتربط ما تشابه منها فتُحكّمه بابًا واحدًا هو عمود نور المتدبّرين، وهذا يكون بحسب كثرة المقروء، وهو من التدبّر المحمود بلا شكّ.

والمقصود؛ أنّ الحدر والترتيل مشروعان، وكذلك التدوير، ولكن الأصل هو الترتيل بغرض التدبر والعمل. ومن العلماء وغيرهم من كانت له أكثر من ختمة واحدة للترتيل المتدبّر جدًّا جدًّا، حتى إنه ربما بقي في الختمة الواحدة بضع سنين يرتل ويتدبر، ويُرجّع ويرجع، ويردد الآية ويدعو ويبتهل، ويجعل لهذه الختمة وردًا خاصًّا يقطع له أصفى حالات نفسه، وأنقى ساعات يومه، وأجود أوّيات عمره، كما أنّ له ختمة أخرى يرتلها كعادة الناس، حتى لا يغيب عن تمام القرآن بهجر بعضه. وقد مثل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ متدبر القرآن المترسل كمُهّدي الجوهرة الجميلة الكبيرة، ومثل الحادر بالقرآن بمُهّدي عدة جواهر صغار، فالترتيل المتدبر كيف، والحدر كم.

(١) وانظر: من هو الماهر بالقرآن. للمؤلف.

ومتى جاهد المرء نفسه على التدبر تدفقت في قلبه معاني القرآن التي يدهش لّبه من عظمتها وجلالها، فهو كتاب الله تعالى الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

ولاحِظِ الأصل اللغوي لكلمة تلاوة، فتلى معناها: تَبَعَ. ومنه قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يَتَّبِعُونَ القرآن حق اتّباعه. فالغرض من تلاوة القرآن اتّباع أوامره، واجتناب نواهيه، والاهتداء بهدَاياته، وتَفَقُّدُهُ في الحياة. فالتالي يتبع هدايات القرآن، ويتفقدُها في قلبه ولسانه وعمله ورجائه وخوفه وإراداته وعزماته وعلومه، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الأنعام: ١٩]، واعلم أن أهدى وألطف وأجمل وأسد وأحكم المواعظ هي مواعظ القرآن، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فالقرآن حياة أيّما حياة، بل الحياة كل الحياة.

وبكلٍّ؛ فالترتيل والتدوير والحدُر كلّها وسائل لتحصيل علم القرآن، وفهمه، والاهتداء به، وكلّ ميسّر لما خُلِقَ له، فمن النفوس من يصلح لها هذا، ومنهم ذاك أو ذاك، فلا يتكلفن أمرؤ مركبًا له عنه مندوحة، ولا يرهقنّ نفسه في تلاوتها كلام ربها بما دون مشتهاها المقدور المشروع، إلا على سبيل الكرّة بعد المرّة، حتى تعتاد ما هو أصلح لها في معادها، فالنفس كالراحلة تنشط وتنهّج وتمشي سريعةً طربًا لحاديها، ورغبةً في تحصيل منهاها عند هاديها، وتارة تكلّ وتنفّه وتملّ وتحرنّ، وقد تنقطع عن المسير إن لم تُدر بحزم واقتدار،

وَتُسَايِسُ بِرَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ النُّفُوسِ فِيهَا أَحْسَبُ تَصْلَحَ عَلَى أَدَاءِ الْحَدْرِ، فَلَا تُحْجَرَنَّ عَلَى نَفْسِكَ مَا وَسَّعَهُ رَبُّهَا عَلَيْهَا.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ الْحَدْرُ أَوْ التَّدْوِيرُ أَنْسَبَ لَطَرِيقَةِ قِرَاءَتِهِ، وَتَتَابَعِ أَنْفَاسِهِ، وَتَوَارِدِ أَفْكَارِهِ، وَمَسَابَقَةِ وَسْوَاسِهِ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ يَشْكُو عِزْوَ بَ الْفِكْرِ وَشُرُودِ الْبَالِ إِنْ هُوَ رَتَّلَ، لَكِنَّ قَلْبَهُ يَجْتَمِعُ عَلَى الْإِسْرَاعِ شَيْئًا. فَمَثَلُ هَذَا التَّالِيِ رَبَّمَا يَكُونُ الْحَدْرُ خَيْرًا لَهُ، لِأَنَّ غَايَةَ هِيَ التَّفْهَمَ وَالْإِهْتِدَاءَ وَتَحْصِيلَ الْأَجْرِ، فَأَيُّ طَرِيقٍ أَوْصَلَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّهِ، وَمِنَّةٌ مِنْ هَادِيهِ، وَنِعْمَةٌ مِنْ مَوْلَاهُ.

وَعَلَيْهِ؛ فَإِنْ وَجَدَ التَّالِيِ نَفْسَهُ فِي التَّرْتِيلِ فَتَمَّ بَابٌ وَاسِعٌ لِلْفَهْمِ، وَمَهَيَّجٌ جَمِيلٌ لِلْإِعْتِبَارِ، وَمَنْهَاجٌ عَرِيضٌ لِلْهُدَى، وَمُتَتَّعٌ لِلْغَايَةِ خَصِيبٌ لِعَنْاءِ الرُّوحِ، وَغِذَاءٌ الْقَلْبِ، وَإِشْبَاعُ الْعَقْلِ، وَإِسْعَادُ النَّفْسِ، فِي كُنُوزِ ذَخَائِرٍ لَا تُحْصَى مِنْ عَظِيمِ الْمُثُوبَةِ وَوَافِرِ الْأَجْرِ، وَإِنْ وَجَدَ الْقَارِئُ نَفْسَهُ فِي الْحَدْرِ فَخَيْرٌ فَضِيلٌ، وَأَجْرٌ كَثِيرٌ، وَحِظٌّ مِنَ اللَّهِ كَبِيرٌ، وَإِنْ وَجَدَهَا فِي التَّدْوِيرِ فَهُوَ وَسْطٌ بَيْنَهُمَا، يُحْصَلُ بِيَدَيْهِ طَرَفِي هَذَا وَهَذَا، فَيَجْمَعُ غَنِيمَةَ التَّدَبُّرِ فِي تَوْدَةِ التَّدْوِيرِ، وَكَثْرَةَ الْحُرُوفِ فِي تَرْسُلِهِ شَيْئًا. وَكُلُّهَا خَيْرٌ وَبَرٌّ وَهُدَى وَنَعِيمٌ، وَمَدَارِجُ سَامِقَةٍ لِمَرْضَايِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَالْتَّرْتِيلُ لِأَهْلِهِ، وَالْحَدْرُ لِأَهْلِهِ، وَالتَّفَاضُلُ يَكُونُ بِحَسَبِ حَالِ الْقَارِئِ، وَمَوَاهِبِ اللَّهِ الْقِرَائِيَّةِ وَالتَّدَبُّرِيَّةِ لَهُ، فَالْحَدْرُ كَمِّيَّةٌ، وَالتَّرْتِيلُ كَيْفِيَّةٌ مَعَ اتِّحَادِ زَمَنِ الْقَارِئِ بِهِمَا، وَكُلُّ خَيْرٍ، وَإِنْ كَانَتِ الْكَيْفِيَّةُ أَهْدَى سَبِيلًا.

فَسَبْحَانِ مَنْ خَلَقَ وَفَرَّقَ وَمَايَزَ الطَّرِيقَ، وَجَمَعَ السُّبُلَ كُلَّهَا فِي سَبِيلٍ وَاحِدٍ هُوَ الْإِعْتَصَامُ بِكِتَابِهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلُ مَنْ

حكيم حميد، وتدبر فرحاً بفضل الله عليك أن جعلك من أهل القرآن قول
الرحمن تبارك وتعالى، وخصك بين الأمم به: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) [يونس: ٥٨].

وَنَعِيمًا هَنِيئًا لَكُمْ يَا مَنْ جَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ بَعْضُهُ فِي صُدُورِكُمْ، ﴿بَلْ هُوَ
ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. فهو أصل العلم
وجذره وجماله وكماله وشاهده ومصححه، والله المستعان.

وتدبر - راشداً - حال صحيفة فارغة رُقمت عليها آيات الكتاب العزيز؛
كيف شرفتها ونقلتها لُقَدسية ألا يمسّها إلا طاهر! فكيف بقلب مؤمن نُقِشت
عليه آيات الكتاب العظيم؟! نسأل الله الكريم من فضله العميم، وتأمل شاهد
ذلك في حديث عِصْمَةَ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ
جُمِعَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أُحْرِقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ» (١).

وهذا من مُبَيِّنَات فضيلة حفظ ما تيسر من القرآن الكريم عن ظهر قلب،
ومشروعك العُمريّ - فاعلم - هو أن يجمع الله تعالى لك القرآن المجيد في
صدرك. وأكثر أهل المقابر كانت أمنيّتهم الكبرى أن يحفظوه، ولكن تقطعت
آجالهم عن إدراك أمانيتهم تسويفاً أو انشغالاً بالخسيس الفاني عن النفيس
الباقى، ومنهم المعذور المأجور، ومنهم الواصل المشكور، والموفق من وفقه
الله تعالى.

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣٩٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٦٦).

فبما أنك في دار العمل فاعمل، فالدرجات العالية محتاجة لعمل عظيم متقبَّل، فكيف بمن يلقي ربه وقد جمع القرآن في صدره خالصاً عاملاً مؤمناً صالحاً! فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهرُ بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتَعَتُّعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ؛ له أجران»^(١). والماهر: الحاذق بالقراءة، والسفرة: الملائكة^(٢)، ومعنى يتتَعَتُّعُ: أي: يتردّد في قراءته، ويتبدّل فيها لسانه^(٣).

فالماهر بالقرآن هو الضابط له حفظاً ولفظاً. فإن ضَعُفَ الحفظُ أو نقصَ إتقانُ اللفظِ؛ كان نقصُ المهارة بقدر ذلك.

ونبه إلى أنّ كثيراً من أهل الخير وطلبة العلم يظنون أنّ المهارة بالقرآن محصورة في مهارة التلاوة فقط، وذلك بإقامة الحروف والوقوف، فاقصروا على إتقان الأداء دون إتقان الحفظ، وهذا قصور شديد، فالحفظ مطلب شرعيٌّ، وهو داخلٌ ابتداءً في المهارة المذكورة في الحديث، فالمهارة الممدوحة فيه جامعة بين مهارتي الأداء والحفظ، وَوَاهَا لمن جمعها!

وعلى قدر نقص جودة الأداء أو الحفظ يكون نقصُ المهارة بقدره، فاجتماعهما هو أعلى المراتب، ويليه إتقان الأداء والمهارة فيه، ثم يليهما إتقان الحفظ والتحمّل والجمع، والله المستعان، فسلعة الله غالية، وَمَنْ يَطْلُبِ

(١) البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٦).

(٢) النهاية ٤ / ٣٧٤.

(٣) النهاية ١ / ١٩٠.

الحسنة لم يُعْطِ المَهْرُ.

اللّهم اجعلنا جميعًا ووالدينا وأهلينا وأحبابنا من أهل القرآن الذين هم
أهلك وخاصّتك يا كريم يا رحمن، إله الحق آمين.

وإذا افتقرت إلى الذّخائر لم تجدْ ذُخْرًا يكون كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ

والمقصود أنّ القرآن العظيم هو أصل كل علم نافع، فهو أصل مُحْكَم
العلم بإطلاق، وما نزل لهذا العالم ولن ينزل أعظم منه، وقد تكلم الله تعالى به
بحرف وصوت، فحروفه ومعانيه من الله تبارك وتعالى. وإنّ مما أسف عليه
كثير من أهل العلم عند موتهم أنهم لم يعطوا القرآن العظيم الوقت الكافي
لإشباع نهمة نفوسهم للعلم والبركة والخير منه، وشيخ الإسلام ابن تيمية
رَحِمَهُ اللهُ قد أبدى أسفه بين يدي وفاته أنّه أمضى كثيرًا من القول والعلم في غير
تدبر القرآن وتثوير علومه ورشف بركته، مع أنّه كان جاهدًا مجاهدًا بعلمه أهل
الأنواء المضلّة، ولكن للقرآن وتدبره خصائص فريدة محكورة عليه، لا تُتناول
إلا عنه، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وكلّ ما جاء في القرآن وصفه بأجرٍ كبيرٍ، وأجرٍ كريمٍ، ورزقٍ كريمٍ، فهو
الجَنَّةُ، نسأل الله الكريم فضله العظيم.

وواغْبِطَةَ من كان لقلبه وردُّ قرآنٍ لا يتركه آناء الليل وأطراف النهار حتى
يلاقي مولاه، ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]،
﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فيراوحُ
المُوقِفُ بآتزان واعتدالٍ بين الحفظ والمراجعة والتلاوة والتفسير والدعاء،

والنفس على ما اعتادت عليه، ولا تستصعب أمرها وإن كبر عمرها فإن مواضع القرآن تُقَرَّبُ بعيدها، وتُذَيَّبُ جليد غفلتها، وتُليَّنُ قاسيها. فلا تغفلنَّ عن سَوِّقِها إلى ربها ولو بالسلاسل، بذكره وحُبِّه ودعائه والتوبة إليه واستغفاره والتوكل عليه، واليقين بلقائه ووعدده ووعيدده، وإحسان الظن به، واعلم أنه عند ظنك به، فظنَّ به ما شئت من خير تجده إن أحسنت عبادته، سبحانه وتعالى.

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا عَدَلْتَهَا اعْتَدَلَتْ وَلَا تَلِينَ إِذَا كَانَ مِنَ الْخَشَبِ

والعادة خيراً أو شراً - فاعلم - لها أربع مراتب: تبدأ في الثبات بعد ثلاثة أيام، ثم عشرة، وتستحكم بعد أربعين يوماً، ولا يكون من أهلها حتى يتم السنة.

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَرَكْتَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَتْ يَنْفَطِمِ

وعوداً إلى مطلبنا في السكينة؛ فاعلم أن من ألطاف الله تعالى بعبده رحمته بسكينة المنام، فثمَّ سكينة ربَّانِيَّةٍ عند المنام، فثمَّ يا عبدَ الله وعينُ الله ترعاك، قال ﷺ: «من قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه لم يزل عليه من الله حافظ، لا يقربه شيطان حتى يُصبح»^(١). فكيف يكون حال وسكينة المتقلب نائماً في فراشه وعينُ الرحمن تحفظه وكَلَامُهُ تحرُّسه!

(١) البخاري (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) تعليقاً بصيغة الجزم.

هذا؛ وإنّ السكينة إذا استقرت في القلب وتمكّنت من الفؤاد فاضت على الجوارح بحُسْنِ السَّمتِ شِعَارًا، وبِهَاءِ الإيمانِ دِثَارًا، فالسكينةُ من خصال المؤمنين، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «كان المسلمون على عهد نبيهم وبعده لا يُعرفون وقت الحرب إلا بالسكينة وذكر الله تعالى، قال قيس بن عباد وهو من كبار التابعين: «كانوا^(١) يستحبّون خفض الصوت عند الذكر، وعند القتال، وعند الجنائز».

وكذلك سائر الآثار تقتضي أنهم كانت عليهم السكينة في هذه المواطن، مع امتلاء القلوب بذكر الله وإجلاله وإكرامه، كما أن حالهم في الصلاة كذلك. وكان رفع الصوت في هذه المواطن الثلاث عادة أهل الكتاب والأعاجم، ثم قد ابتلي بها كثير من هذه الأمة^(٢).

والمخالطة مجانسة، فاليئة، والناس، بل والبهايم لها أثر في سكينة ورزانة وهدوء المرء، كذلك في رعونته وعجلته وطيشه، «ففي الجنس الخاص^(٣) كان التفاعل فيه أشدّ، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط^(٤)، فلا

(١) أي: الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) اقتضاء الصراط (١ / ١١٩)

(٣) أي: الإنسان مع الإنسان، فإن صاحب ساحب، والأخلاق نزاعة.

(٤) بجامع الحياة والطعام والنوم والمشاعر والرغبة والرغبة ونحو ذلك.

بد من نوع تفاعلٍ بقدره، ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلاً^(١)، فلا بد من نوعٍ ما من المفاعلة.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثير والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة. وكذلك الآدمي إذا عاش نوعاً من الحيوان اكتسب من بعض أخلاقه، ولهذا صارت الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمالون والبغالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلابون، وصار الحيوان الإنسي^(٢) فيه بعض أخلاق الإنس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة. فالمشابهة والمشكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي.

(١) وهي مؤثرة شيئاً ولو من بعيد، فزارع الورد على سبيل المثال الذي يصبح ويمسي على رعاية الياسمين والفل والأزاهير العطرية الجميلة ليس كمن يزرع النباتات الشديدة المراس كريمة الرائحة ونحو ذلك.

والمؤثر بصورة أكبر من النباتات هو البيئة التضاريسية، فساكن الجبل قد تكون في أخلاقه شدة وانقباض أكثر من ساكن السهل، وأشد منه ساكن المدينة؛ فأخلاقه تضيق أكثر من القروي. مع استبعاد عامل الثقافة والتعليم، ويتضح ذلك فيما لو تعلم القروي وتثقف. ونحو ذلك.

(٢) أي: المستأنس سواء كان في أصله ضارياً كالفهد والقط ونحوهما، أو كان مستأنساً مأكولاً كبهيمة الأنعام والدجاج والحمام ونحوها.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفراً من غيرهم^(١)، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جَرَّدَ الإسلام^(٢). والمشاركة في الهدي الظاهر توجب أيضاً مناسبة وائتلافاً وإن بَعُدَ المكان والزمان، فهذا أيضاً أمرٌ محسوس^(٣).

وأهل السكينة أهل ذكر، والملائكة تحبهم وتدعو لهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحقّونهم بأجنحتهم^(٤) إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم -

(١) وقد ذكر أسامة بن منقذ في الاعتبار أمثلة كثيرة من ذلك في تأثر نصارى الشام بالمسلمين في أخلاقهم وغيرتهم على أعراضهم ونحو ذلك.

(٢) أي: لم يخالط المشركين.

(٣) اقتضاء الصراط (١ / ٢٢٠) ثم قال بعد ذلك: «فمشابهتم في أعيادهم ولو بالقليل هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، وما كان مظنة لفساد خفي غير منضبط علّق الحكم به ودار التحريم عليه.

فنقول: مشابهتم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة، بل في نفس الاعتقادات. وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله لو تفتن له. وكل ما كان سبباً إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يجرمه كما دلت عليه الأصول المقررة».

(٤) جاءت الأخبار في فضل أهل العلم أن الملائكة تضع أجنحتها تواضعاً لهم وإجلالاً، وتحفّهم، حراسة لهم وحفظاً بأمر الله تعالى.

وهو أعلم :- ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويمجدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»^(١).

(١) البخاري ١٠٧/٨ (٦٤٠٨)، ومسلم ٦٨/٨ (٢٦٨٩) (٢٥) ومن العبر اللطيفة أن رجلاً كان حاضراً لأحد دروس العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ، فسأله الشيخ عن مسألة قد بسطها في درسه ليُحرزَ علمه بها ويقظته في درس الشيخ، على عادة الشيخ الحسنة في تنبيه طلبته، وإعادة أذهانهم إليه، فلم يجد عند الرجل من مسألتها شيئاً، وتبين للشيخ أنه رجلٌ أميٌّ لا يفقه عميق الفقه في الدرس، فسأله: «لماذا حضرت الدرس إذا؟» فأجابه: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم! فتأثر الشيخ جداً، ودعا له بخير، وقال: «وَعَظَنَّا =

أما ضدّهم من أهل مجالس الغفلة والمعصية والتّره فتحضرهم الشياطين، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا السماعُ المُحدَث^(١) تحضره الشياطين، كما رأى ذلك من كُشف له، وكما توجد آثار الشياطين في أهله، حتى إن كثيراً منهم يغلب عليه الوجدُ فيُصعق كما يصعق المصروع، ويصيح كصياحه، ويجري على لسانه من الكلام ما لا يُفهم معناه، ولا يكون بلغته كما يجري على لسان المصروع، وربما كان ذلك من شياطين قومٍ من الكفار الذي يكون أهلُ ذلك السماع مشابهين لقلوبهم»^(٢).

وأهل السكينة أهل استقامة وتقوى، ومن كان من أهل الاستقامة فإن الله تعالى يسدّده، ويحفظه، ويحوطه بالتوفيق والإصابة، ويسدّده حتى بالسكينة الملائكية، «وكان عمر قد جعل الله الحقَّ على قلبه ولسانه، وما كان يقول لشيء: إني لأراه كذا وكذا إلا كان كما يقول. وكانت السكينة تنطق على لسانه»^(٣).

الرجل⁼. ولما سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عن علم معروف الكرخي أجاب: «مع رأس العلم؛ خشية الله تعالى».

(١) كالذي يفعله المتصوفة من طقوس التراقص والتصفيق والترنم بنية ذكر الله تعالى! وهذا بعينه مأخوذ من أمم الخرافة والأوثان ومن السحرة والكهان، كما هو واضح للعيان لمن تتبع ذلك أو شاهده، والله المستعان.

(٢) الاستقامة (١ / ٣١٣)

(٣) الجواب الصحيح (٢ / ٤٠٢)

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا نتحدثُ أنَّ السكينة تنطقُ على لسانِ عمر، وقال النبي ﷺ: «إن الله ضرب الحقَّ على لسانِ عمر وقلبه» (١) (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر». قال ابن وهب: «مُحدثون» (٣)، أي: مُلهمون. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: جَزَمَ بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلَّق وجودهم في هذه الأمة بـ «إن» الشرطية مع أنها أفضل الأمم؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالتها، فلم يُجِجِ الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها. والمحدث هو الذي يُحدث في سرِّه وقلبه بالشيء فيكون كما يُحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه سلَّم قلبه وسرِّه وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عمَّا منه (٤). قال: وكان هذا المحدث يعرض ما

(١) أحمد (٥٣/٢، ٩٥) والترمذي (٣٦٨٣) وإسناده صحيح، وله شاهد من حديث أبي

هريرة عند أحمد (٤٠١/٢)

(٢) الفتاوى الكبرى (٤٥١ / ٣) وانظر: إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمر. للمؤلف.

(٣) البخاري ٢١١/٤ (٣٤٦٩)

(٤) أي: استغنى بتصديق معدن النبوة عمَّا يردُّ من التحديث.

يُحَدِّثُ بِهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؛ فَإِنْ وَافَقَهُ قَبْلَهُ وَإِلَّا رَدَّهُ. فَعُلِمَ أَنَّ مَرْتَبَةَ الصَّدِيقِيَّةِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّحْدِيثِ.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: «حدثني قلبي، عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عن من؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: حدثني قلبي عن ربي، كان مُسْنَدُ الْحَدِيثِ إِلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ حَدَّثَهُ بِهِ، وَذَلِكَ كَذِبٌ.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوّه به يوماً من الدهر، وقد أعاده الله من أن يقول ذلك؛ بل كتب كاتبه يوماً: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، فقال: «لا، أمّهُ»، وكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريئان»، وقال في الكَلَالَةِ: «أقول فيها برأبي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»^(١).

وقد أنزل الله تعالى آيات السكينة في كتابه، والقرآن كله يبعث السكينة في القلب والروح، فقراءة آيات السكينة أنسّ وحراسة وأمان بإذن الملك الرحمن. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ

سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٤٨].

(١) المدارج (١/٣٩، ٤٠) المستدرک علی مجموع الفتاوى (١/ ١١١)

الثاني: قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

[التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا

إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

[الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ

الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات

السكينة. وسمعتة يقول في وقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن

حملها - من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة - قال:

فلما اشتد عليَّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة. قال: ثم

أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قلبه^(١).

(١) القلبُ: المرض. وأصله داء يكون بالإبل فاستعمل في كل داء. وفي حديث اللديغ:

«فَانْطَلَقَ يَتَغَلَّلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» [الفاتحة: ٢] فكانما نشط من

وقد جرّبتُ أنا أيضا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرُدُّ عليه؛ فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرُدُّ عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات. ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب؛ كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رؤوسهم لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيوم حنين، حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية، حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن حملها وهو عمر، حتى ثبته الله بالصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كلّ سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة». وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جِلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

=

عقال، فَأَنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ». وانظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢) /

إِنَّ الْأُولَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَٰمُ
قال: ثم يمدّ صوته بآخرها «(١)» (٢).

ومن سكن قلبه سكنت جوارحه في صلاته، قال شيخ الإسلام: «فمن
المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] لا بد أن يتضمن الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المراد
الخشوع خارج الصلاة لفسد المعنى، إذ لو قيل إن الصلاة لكبيرة إلا على من
خشع خارجها ولم يخشع فيها؛ كان يقتضي أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها،
وتكبر على من خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية فثبت أن الخشوع واجب في
الصلاة.

ويدل على وجوب الخشوع فيها أيضاً قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾
الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٥﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يَحَافِظُونَ ﴿٨﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١٠﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]. أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون
فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم.

(١) البخاري (٤١٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٧/٥)

(٢) مدارج السالكين (٢/٥٠٢، ٥٠٣) وانظر: المستدرک علی مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣)

وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها، لأن الجنة تُنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب.

وإذا كان الخشوع في الصلاة واجباً فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعاً. ومنه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث رأى رجلاً يعبث في صلاته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه»، أي: لسكنت وخضعت^(١). «فإذا كان منهياً عن السرعة والعجلة في المشي، مأموراً بالسكينة وإن فاته بعض الصلاة مع الإمام حتى يصلي قاضياً له؛ فأولى أن يكون مأموراً بالسكينة فيها. ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر في كتابه بالسكينة والقصد في الحركة والمشى مطلقاً فقال: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [الْقَنَان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٣]. قال الحسن وغيره: «بسكينة ووقار». فأخبر أن عباد الرحمن هم هؤلاء.

فإذا كان مأموراً بالسكينة والوقار في الأفعال العادية التي هي من جنس الحركة؛ فكيف الأفعال العبادية؟ ثم كيف بما هو فيها من جنس السكون كالركوع والسجود؟ فإن هذه الأدلة تقتضي السكينة في الانتقال؛ كالرفع والخفض والنهوض والانحطاط. وأما نفس الأفعال التي هي المقصود بالانتقال كالركوع نفسه والسجود نفسه والقيام والقعود أنفسهما - وهذه هي

(١) القواعد النورانية الفقهية (١ / ٤٢)

من نفسها سكون - فمن لم يسكن فيها لم يأت بها، وإنما هو بمنزلة من أهوى إلى القعود ولم يأت به، كمن مدّ يده إلى الطعام ولم يأكل منه، أو وضعه على فيه ولم يطعمه»^(١).

والسكينة للمؤمن حاضرة حتى في مواطن الزحام، والضيق، والتدافع، وإسراع الناس كالحج، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «يا أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع»^(٢).

والسكينة ظاهرة على المسلمين حيثما كانوا، و«كان الميت على عهد رسول الله ﷺ يخرج به الرجال يحملونه إلى المقبرة، لا يُسرعون ولا يُبطئون، بل عليهم السكينة، لا نساء معهم، ولا يرفعون أصواتهم، لا بقراءة ولا غيرها، وهذه هي السنة باتفاق المسلمين»^(٣).

والسكينة في القلب هي محض فضل المولى تبارك وتعالى، «فليس كل ما فَضِّلَ به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه، فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يَقْدِرُ عليه كثير من الناس، بل ولا أكثرهم. فهؤلاء يدخلون الجنة وإن لم

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٢ / ٥٦٥)

(٢) البخاري ٢٠١/٢ (١٦٧١)، ومسلم ٧٠/٤ (١٢٨٢) (٢٦٨) والبر: الطاعة.

والإيضاع: الإسراع.

(٣) المستدرک على مجموع الفتاوى (٣ / ١٤٦)

يكونوا ممن تحقّقوا بحقائق الإيمان التي فضّل الله بها غيرهم، ولا تركوا واجباً عليهم وإن كان واجباً على غيرهم.

ولهذا كان من الإيمان ما هو من المواهب والفضل من الله، فإنه من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مَرْيَم: ٧٦]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الْفَتْح: ٤].

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة؛ ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ [النِّسَاء: ٦٦]، كما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، وكما قال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]، ولهذا قيل: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم. وهذا الجنس غير مقدور للعباد؛ وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضاً بفضل الله وإعانتة وإقداره لهم؛ لكن الأمور قسمان: منه ما جنسه مقدور لهم لإعانة الله لهم كالقيام والقعود، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم^(١).

والسكينة التي يجدها المؤمن في قلبه هي من ثمرات التوحيد، والناس كلهم لا تسكن نفوسهم إلا به، و«لا يجوز أن يصلح حالهم إلا بأن يكون الله إلههم ومعبودهم، وتكون حركاتهم لأجله عبادة له، تجمع كمال محبته وكمال الذل له، فإن العبادة تجمع كمال الحب وكمال الذل، وهذا شأن المراد لذاته المقصود لذاته، وكل ما سواه فمفتقر إلى هذا المراد المحبوب المعبود لذاته، فلا يكون هو مرادًا محبوبًا لذاته، فإن محبته مستلزمة محبة محبوبه ومعبوده الذي هو أكمل منه، بل هو معبود له. والفساد أن يكون كل من الشيئين محبوبًا، والتابع لغيره محبوب لذاته، والمتبوع محبوب لغيره!

وهذا الأصل هو أصل أصول الشرائع والملك، فإن الرسل جميعهم إنما بعثوا لأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وكما أنه مبرهن بالمعقول والقياس والنظر، فهو أيضًا معروف بالوجد والإحساس والذوق، فإن العبد يُحسُّ من قلبه فقرًا ذاتيًا إلى ذكره وعبادته، غير فقره إليه من جهة إعطائه سُؤله، وجلب المنافع له، ودفع المضار عنه، فإن الفقر إليه من هذا الوجه هو أظهر في الابتداء، ولكن الإنسان يجد نفسه إلى أيٍّ موجودٍ توجَّهَ بقلبه وذكره، لا يجد الطمأنينة ولا السكينة حتى يذكر الله ويوجَّهَ قلبه إليه، فإنه يجد الطمأنينة والسكينة، فلا يبقى عنده منازعة إلى شيء آخر^(١).

(١) وأنت حين يضيق صدرك تجد نفسك تبادر بالإلهال بالتوحيد فتجأ بصوتك: لا إله إلا الله. فتسكن نفسك وتأمين وتطمئن.

فكما أن السائل الداعي الراغب في قضاء حاجته إذا توجه إلى الله بصدقٍ اطمأنّ طمأنينة من وصل إلى من نال منه المطالب والحاجات، فكذلك المريد المحب السائل لما يطمئن إليه إذا توجه إلى الله بصدقٍ؛ اطمأنّ طمأنينة من حصّل بُغيته ووجد محبوبه ومألوهه وطلبته، وهذا الأصل إنما يستقر لأهل الملل أتباع ملة إبراهيم، أهل الحنيفية، فأما غيرهم فلا»^(١).

والمؤمن أماراً بالسكينة داع لها، يجبها للناس كيما تسعد أرواحهم وتطيب نفوسهم في دنيا الكبد، قال ﷺ: «يسرّوا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا»^(٢).

وَأَهَا عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطِيهِهِ أَيَّامَ كُنْتُ مِنَ اللُّغُوبِ مُرَاحًا
وللإمام ابن القيم كلام نفيس عن تلك السكينة للمؤمنين، كنزها في إعلام الموقعين، فمن ذلك:

سكينة الأنبياء

سكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخصّ مراتب السكينة، وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد أُلقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

(١) جامع المسائل لابن تيمية (٦ / ١٢٢)

(٢) البخاري (٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤) وفي رواية عند مسلم (١٧٣٢): «بشّروا ولا تنفّروا، ويسرّوا ولا تعسّروا».

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا، وهذا فرعون خلفنا، وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداءً وإيجاءً كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مُبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه، وقد رأى حبال القوم وعصيتهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لآههما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكاذب - ولا سيما على الله تعالى - أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشدّه اضطراباً في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

السكينة الخاصة

وأما السكينة الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله تعالى على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤١﴾ [الْفَتْح : ٤١]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب، وذلك يوم الحديبية قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٢﴾﴾ [الْفَتْح : ٤٢] لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت، ولم تطق الصبر؛ فعلم تعالى ما فيها فثبَّتْها بالسكينة رحمةً منه ورأفةً ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبه ومحبته وسوله؛ فثبَّتْها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الْفَتْح : ٢٦]، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها؛ جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجه به حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظُّ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم،

وحظُّ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيّد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقاً وإيقاناً، وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدعُ شبهةً تعارض الخبر، ولا إرادةً تعارض الأمر، فلا تمرُّ معارضات السوء بالقلب إلا وهي مُجتازةٌ من مرور الوسوس الشيطانية التي يُبتلى بها العبد ليقوى إيمانه ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردّها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله تعالى.

السكينة عند القيام بوظائف العبودية

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على الله تعالى، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب.

أسباب السكينة

سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جلّ جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها

كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١). فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود؛ أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوسوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوسوس والخطرات القاذحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي لا يُعبر فينقلب ترحًا وحزنًا، وكم ممن أنعم الله عليه بما يُفرحه فجمع به مركب الفرح وتجاوز الحد، فانقلب ترحًا عاجلاً، ولو أُعِين بسكينة تُعدّل فرحه لأريد به الخير، وعند هجوم الأسباب المؤلمة على اختلافها الظاهرة والباطنة، فما أحوجه إلى السكينة حينئذ، وما أنفعها له وأجداها عليه وأحسن عاقبتها. والسكينة في هذه المواطن علامة على الظفر وحصول المحبوب، واندفاع المكروه، وفقدتها علامة على ضد ذلك، لا يخطئ هذا، ولا هذا، والله المستعان^(٢).

وقال رحمه الله: «السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهجر وكل باطل.

(١) البخاري (٥٥)، ومسلم (٨)

(٢) إعلام الموقعين (٦ / ١٠٧ / ١١١) باختصار.

وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه، ويستغربه هو من نفسه كما يستغرب السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه. وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين. ومن جرب هذا عرف قدر منفعته وعظمتها، وساء ظنه بما يُحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس»^(١).

واعلم - رحماني الله وإياك - أن السكينة هي من السمات الحسن التي جاء وصفه بأنه جزء من النبوة، فقد روى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ في سننه^(٢) عن عبد الله بن سرجس المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالْاِقْتِصَادُ جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءاً من النبوة». قال المباركفوري في تحفته: «قوله: «السَّمْتُ الْحَسَنُ» أي: السيرة المرضية والطريقة المستحسنة، قيل: السمت الطريق، ويستعار لهيئة أهل الخير. وفي الفائق: السمت: أخذ المنهج ولزوم المحجة. والتُّؤَدَةُ: التأني في جميع الأمور. والاقتصاد: التوسط في الأحوال، والتحرّز عن طرقي الإفراط والتفريط.

وقوله: «جزء» أي: كلها، أو كل منها «من أربعة وعشرين جزءاً». والمراد بالعدد المذكور التكثير لا التحديد، ففي حديث بن عباس عند أبي داود أن

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥٠٦)

(٢) الترمذي (٢٠١٠) وصححه الألباني.

النبي ﷺ قال: «إنّ الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزءاً من النبوة»^(١). على أنه يمكن الاختلاف بحسب اختلاف الكمية والكيفية الحاصلة في المتّصف به. وقوله: «من النبوة»: أي: من أجزائها. قال الخطابي: الهدى والسمت: حالة الرجل ومذهبه، والاقتصاد: سلوك القصد في الأمور، والدخول فيها برفق على سبيل يُمكن الدوام عليها. يريد أنّ هذه الخصال من شمائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها جزء من أجزاء فضائلهم، فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم عليها، وليس معناها أنّ النبوة تتجزأ، ولا أنّ من جمع هذه الخصال كان نبياً، فإن النبوة غير مكتسبة، وإنما هي كرامة ينحص الله بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته. ويحتمل أن يكون معناه أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ودعا إليها الأنبياء»^(٢).

٢- الطمأنينة:

الراضي عن ربه مطمئن النفس، هادئ البال، رخيّ الفؤاد، حنيف الوجه لربه عما يُقلقل قلوب عبّاد الدنيا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [٢٩] وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴿٣٠﴾ الفجر: ٢٧ - ٣٠. قال ابن القيم رحمه الله: «الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: «الصدق

(١) سنن أبي داود (٤٧٧٨) وحسنه الألباني.

(٢) تحفة الأحوذى (٦ / ١٢٧)

طمأنينة، والكذب ريبة^(١). أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله: «البرُّ ما اطمأنَّ إليه القلب»^(٢). أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه»^(٣).

وجملة الكتاب؛ إن أردت تلخيص موضوع الرضا بكلمة واحدة تنتظم أطرافه فهي: السَّلام. نسأل الله السَّلامَ سلاماً في الدنيا، ولقاءه في دار كرامته دار السَّلام، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

٣- السهولة وعدم التكلف:

إن من مظاهر الرضا بالقضاء عدم التكلف، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنَّ الحادثات المقدَّرة - مرغوبة كانت أو مرهوبة - فالتكلف إن لم يضرَّ فهو لا ينفع. والمستريح من الناس هو النمط الأوسط البسيط، غير المتكلف الشيطي.

والتكلف: هو أن تتكلف حالاً ليس لك، كأن تنزيهاً بهالٍ غيرك، أو تدعي علماً أنت تجهله، أو فهماً أكبر من عقلك، أو تطلب ما ليس لك، أو تتعدى

(١) الترمذي (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح. عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي

طالب رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا

يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة». وصححه الألباني.

(٢) أحمد (١٨٠٠١) وضعفه محققوه.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٥١٢)

المباح للإسراف. قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي تعريفه: «هو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة»^(١).

قال الله تعالى ناهياً عن التكلف: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٨٦) [ص: ٨٦] وعن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نُهينا عن التكلف»^(٢). ومن التكلف المذموم الفتيا بغير علم، فعن مسروق رَحِمَهُ اللهُ قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم، فإنّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٨٧) ص: ٨٦^(٣). وما عاش مرتاحاً ولا صادقاً المتزمت المتكلف.

والراضي بالله تعالى ليس من أهل التكلف والتصنع، وقد ذُكر عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «العلم نقطة كثّرها الجاهلون»^(٤). أي: أنّ أصل العلم الذي فقّهه الصحابة رضي الله عنهم كان نزرًا نافعًا، وهو أصول قيّمة، ومُحكّيات جامعة، تُرجعُ إليها المسائل، وتُعرض عليها الدلائل، ويفيُّ طالبُ العلم بها لبركة الوحي الصافي، ويردُّ بها الحقّ الوافي، وهو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ وأعماله. وهو ليس بهذه الكثرة المُستتة، إنّما شقق الناس

(١) رياض الصالحين (٨٦)

(٢) البخاري (٧٢٩٣)

(٣) البخاري (٤٨٠٩)

(٤) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) وانظر: مجموع مؤلفات عقائد الرافضة

والرد عليها (٥٩ / ٢٤)

بعدها وتشدّقوا وأوغلوا وغالوا. فبركة العلم في صفائه من كَدَرِ التكلف، ونقائه من دَغَلِ المخالفة.

والرضا بالمكتوب لا ينفي صُنْعَ مستقبلٍ أجمل لك وللأجيال القادمة، فكن متوكّلاً لا متواكلاً، وعازماً لا متوانياً، ووفياً لا ناقصاً، ووفياً لا ناكثاً، وصابراً لا متسخطاً، وراضياً لا متردّداً، وحامداً شاكراً لا كافراً جحوداً. فقد أهبّك الله تعالى للأرض لتعمرها بالعبادة، وتعبّر بها بالصالحات، وتزود منها بُلغتك لدارك في الآخرة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجّة : ١٠].

وسرّ جمال الحياة البساطة، فالحياة - يا مُحِبَّ - سهلة وعيشها يسير إن رأيتها كذلك، لكنّها شديدة التعقيد إن تعاملت معها بتعقيد، والإكسير موجود لكنه السهل الممتنع: إنه القناعة.

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلدّه

والتكلف مُنْغَصٍ لطيب اللقيا، والمثاليّة قتالة للإبداع. وكم من بيت عامرٍ إلا من أهله، وآخر مُقِلٌّ إلا من أنس سُكّانه، ودفع أرواحهم، وقرب قلوبهم لقلوبهم. وإنّ العبرة ليست في مظاهر الدنيا وأقنعتها الجميلة، بل في حقائق القلوب ورغائبها الأصيلة، وبما أنها تنتهي غداً برضا رب العالمين أو سخطه؛ فعلام الغفلة عن الأمر الكبير.

وإنّ الكثير من المظاهر الجميلة التي نراها في الناس تخفي تحتها بؤساً لا يطاق، ولكن الناس يخفون الأسى ويظهرون السعادة، فاحمد الله كثيراً على العافية.

ولا عارَ إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ولكنَّ عاراً أن يزول التجمُّلُ
ومن نعيمك غير المنظور: أن الله قد عزّ ماء وجهك فلم يُهرق للثيم، فما قطع عنق كريم كحاجته عند من لا يُكرم وفادة سُؤله. وعلى سبيل الراحة؛ تجرّع القناعة.

لا تحرّصنْ فالحرّصُ ليس بزائدٍ في الرزق بل يُشقي الحريصَ ويُعيبُ
ولقد اختصّ الله عز وجل بعض عبادة بخصلة جميلة نفيسة نادرة، وهي أنهم يرون أفضل ما في الناس، ويعاملونهم بحسب ذلك. فكن لطيفاً بشوشاً دمثاً، ولا بأس ببعض مزاح يزيل ثقل التكلّف وزمانة الجدّة، لكن لا يكن ديدناً ولا مؤذياً، والفكاهة في غير أوانها ضربٌ من الحماقة.

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً فلا خيرَ في ودٍّ يجيء تكلفاً
والأخلاق - فاعلمن - جزءٌ كبير من المنهج النبوي، ومن قصّر فيها؛ ففيه نقص من تلك الجهة بقدر نقصه، فليستعن بالله في هدايته لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو. فكن - وفقك الله - دمث الأخلاق، رقيق الحاشية، سهل العريكة، بهي الابتسام، طلق المُحيّا، لينّ الخطاب، وقد قالت العرباء: الكلامُ اللينُ يغلبُ المنطقَ البينَ، ومن لانت كلمته وجبت محبته، وما تشاتم اثنان إلا غلبَ الأملُهما.

وَكُنْ كَمَا أَنْتَ عَلَى سَجِيَّتِكَ وَطَبِيعَتِكَ وَعَفْوِيَّتِكَ بَلَا تَكْلَفْ، وَعَشْ سَهْلًا حَنُونًا فَهِيَ سُنَّةُ نَبِينَا ﷺ، أَمَّا تَصْنَعُ الرِّزَانَةَ فِي الْعَلَاقَةِ بِالنَّاسِ الْأَقْرَبِينَ؛ فَحَقِيقَتُهُ وَضَعُ جَدْرَانِ عَالِيَةٍ بَيْنَ الْمُتَرَزِّنِ وَبَيْنَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ التَّصْنَعِ النَّكِدِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ إِخْلَالُ الْمَرْوَةِ، بَلْ دَفْعُ التَّعَالِي، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا. وَلَا تَدَّعِي زِيَادَةَ عِلْمٍ، أَوْ تَقَى، أَوْ ذَكَاءً، أَوْ مَالًا، وَإِيَّاكَ وَتَصْنَعُ الْمَثَالِيَةَ.

وَرَوَّحْ عَنْ نَفْسِكَ حِينًا، وَقَدْ قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا اللَّذَّةُ؟ قَالَ: «طَرَحُ الْمَرْوَةِ». وَقَالَ الْمَأْمُونُ: «مَا بَقِيَتْ لِي لَذَّةٌ إِلَّا وَجُودُ أَخٍ أَضْعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَوْنةُ التَّحَفُّظِ». وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «أَثْقُلُ إِخْوَانِي عَلَيَّ مَنْ يَتَكَلَّفُ لِي وَأَتَحَفِّظُ مِنْهُ، وَأَخْفَهُمْ عَلَيَّ قَلْبِي مَنْ أَكُونُ مَعَهُ كَمَا أَكُونُ لَوْحَدِي». وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَيْسَ بِأَخِيكَ مَنْ احْتَجَجْتَ إِلَى مَدَارَاتِهِ». وَسُئِلَ ابْنُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ يَضْحَكُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ الْجِبَالِ». وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَمَازَحُونَ، حَتَّى يَتَبَادَحُونَ بِالْبَطِيخِ، فَإِذَا كَانَتْ الْحَقَائِقُ؛ كَانُوا هَمَّ الرِّجَالِ».

جَمَاعُ ذَلِكَ؛ كُنْ كَمَا أَنْتَ بَلَا تَكْلَفْ وَلَا تَصْنَعْ، وَأَرْسِلْ نَفْسَكَ عَلَى سَجِيَّتِهَا، وَكُنْ بِطَبِيعَتِكَ، وَلَا تَدَّعِي لِنَفْسِكَ إِيْمَانًا أَزْكَى، وَلَا صَدْرًا أَصْفَى، وَلَا ذَكَاءً أَحَدَّ، وَلَا عِلْمًا أَغْزَرَ، وَلَا مَالًا أَكْثَرَ، وَلَا مَقَامًا لَيْسَ لَكَ.

فَأُولُ دَرَجَةٍ فِي سَلَمِ الرَّاحَةِ أَنْ تَكْشِفَ نَفْسَكَ كَمَا هِيَ، فَلَا تُعْلِيهَا وَلَا تُدْنِيهَا إِلَّا تَوَاضَعًا، وَلَيْسَ الْإِزْرَاءُ بِأَشَدَّ مِنَ الْاسْتِعْلَاءِ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ. وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَسَوِّطَهَا بِسِيَاطِ الْكِبْتِ وَالْهَضْمِ لِمَا لَهَا فِيهِ سَبَبُ فَلَاحٍ وَلَطِيفَةُ فَرَحٍ، فَنَفْسُكَ أَسِيرُكَ فَارْحَمْهَا رَحِمَكَ الرَّحْمَنُ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا.

والن جانبك للمؤمنين، وأطلق مُحْيَاك وابسط تباشير وجهك البسّام لهم،
وكن كما قال ربك: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الْمَائِدَة : ٥٤].

٤- الصدق:

الراضي بربه تعالى يهفو لبلوغ مرتبة الصديقية التي تلي النبوة وتعلو
الشهادة، يقول الصدق ولو قتله الصدق، يطابق باطنه ما ظهر من قوله
وعمله، مؤمن بربه تعالى مصدّق لرسوله ﷺ. ومن صدق الله صدقه الله،
﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٤٧].

هو غير محتاج لكذب يذبُّ به عن نفسه أو يهجم به على ما ليس له، فهو
يدور مع قدر الله مسلماً قياد فؤاده لمن بيده مقاليد الأمور، يدافع القدر بالقدر
مع التسليم في الأمرين للقادر سبحانه، يحرثُ عمره بإخلاص، ويبني حياته
بصدق، ويُقبل على آخرته بيقين، يقول الصدق وبه يعمل، ليس من الكذبة في
شيء لا ظاهراً ولا باطناً، ممتثلاً أمر ربه الأكرم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التَّوْبَة : ١١٩].

وَمَنْ صَدَقَ الْجَبَّارَ يَجْبَرُ كَسْرَهُ وَمَنْ نَصَرَ الْمَوْلَى لَهُ النَّصْرُ سَاعِيَا

٥- الخلق الحسن:

حسنُ أخلاق المؤمن نابع من رضاه بمولاه، قد باع نفسه لربه، فهو لله
وإلى الله ولا يرجو إلا الله. طابت سيرته فحسنت علانيته، يترقى درج
حَسَنِي الأخلاق ليفوز بقرب مجلسه يوم القيامة من حبيبه وقره عينه رسول
الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول

الله ﷻ قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلَسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفِيهَقُونَ». قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفِيهَقُونَ؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُونَ» (١) (٢).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ حَسَنِ الْخَلْقِ: «هُوَ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى».

أُبْنِي إِنَّ الْبِرَّ أَمْرٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ
 إِنْ مِنْ صِفَاتِ الرِّضَى حَسَنَ الْخُطَابِ وَلَيْنَ الْكَلَمِ، فَمِنْ حَسَنِ الْخُطَابِ
 أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا لَنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١١١]
 وَوَصَفُوا أَتْبَاعَهُ بِذَلِكَ وَبِالْغَوَا فِي الْاسْتِهْجَانِ؛ لَمْ يَسْكُتْ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى
 الْبَاطِلِ، بَلْ وَصَفَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِأَحْسَنِ وَصْفٍ فَقَالَ بِلُطْفٍ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١١٤]، أَمَا سَابَّيْهِمْ فَلَمْ يَسْبَهُمْ، بَلْ أَبْطَلَ الْبَاطِلَ بِهَدْوٍ وَقُوَّةٍ
 حُجَّةٍ وَحِكْمَةٍ.

وَلَمَّا اتَّهَمُوهُ بِالضَّلَالِ لَمْ يَتَّهِمَهُمْ بِمِثْلِهِ تَلَطُّفًا فِي الْخُطَابِ لَعَلَّهُ أَنْ يَصِلَ
 لِقُلُوبِهِمْ فَيَهْتَدُوا فَيَفْلَحُوا، ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

(١) الترمذي (٢٠١٨) وقال: حديث حسن. وابن حبان (٥٥٥٧) وصححه الأرنؤوط.

(٢) الثرثار: هو كثير الكلام تكلّفًا. والمتشدّق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصّحًا وتعظيمًا لكلامه. والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه، ويُغرب به تكبرًا وارتفاعًا على الناس. وقد خاب المتكبرون.

الْعَلَمِينَ ﴿٦٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ [الأعراف : ٦١ - ٦٢]. وقال هود عليه السلام لما سفّهوه: ﴿قَالَ يَتَقَوْمَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف : ٦٧]. وتدبر الشبه الكبير في بيان عظمة قصة هود عليه السلام وقصص أولي العزم الخمسة - على القول بتحديدهم - وقد ذكرت آية: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] في سورة الأحقاف التي ورد فيها قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف : ٢١] وهو هود عليه السلام.

ومن التلطف في الخطاب قوله تعالى في سياق محاجة الرسل لمخالفهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ : ٢٤ - ٢٥].

وقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بلطف الخطاب لأعتى الكفرة فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه : ٤٤]، فلما حقّت عليه الضلالة وانقطع أمل الهدى صاح به الكليم: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَثْبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء : ١٠٢]. وأمرنا الله تعالى بالجدال الحسن إلا من عتّى وظلم وبغى وكابر وأصرّ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت : ٤٦]. وتكفيننا على الإطلاق وصية ربنا الأعز الأكرم: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة : ٨٣].

وإياك وجدال ثلاثة: الأحمق والمستكبر والجاهل. كما قيل: «المجادلة مع الأغبياء تُشبه قتل بعوضة وقفت على خدك، قد تقتلها، وقد لا تقتلها، لكن في كلتا الحالتين سينتهي بك الأمر لأن تصفع نفسك!»!

وكن داعياً إلى سبيل ربك بكل ما آتاك ربك، حتى وإن عاداك الناس أو ظلموك أو بطروا ما جئت به من الحق إليهم، فجزاؤك عند من دعوت لسبيله لا مخلوقاته، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وبالجملة؛ فالراضي بربه يُجِلُّهُ الخلق الحسن، والصدر الطاهر، واللسان العاطر، والقلب المخموم، ومن رضي عن ربه وبربه ولربه أرضاه ربُّه، ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، نسأل الله الكريم من فضله العميم.

٦- القناعة:

الراضي بالله قانع بما آتاه الله، فالقناعة تدخل دخولاً أولياً في معاني الرضا، والمسلم القنوع مفلح حقاً وسعيد صدقاً، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(١). وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع»^(٢).

ومهما تراكمت أموال المترفين فإنهم في الحقيقة فقراء ما لم يدركهم فضل الله بالقناعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(٣). والعرض هو المال.

(١) مسلم (١٠٢/٣)

(٢) أحمد (١٩/٦) بسند حسن.

(٣) البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) (١٢٠)

إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ فأنتَ ومالكُ الدنيا سواءُ
وقد وعد الله المؤمنين الصالحين بأن يملأ قلوبهم قناعة فقال سبحانه:
﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]
وقد فسر جمعُ من السلف الحياة الطيبة بالقناعة، كعلي بن أبي طالب، وابن
عباس رضي الله عنهم، والحسن البصري، وزيد بن وهب، ووهب بن منبه،
رحمهم الله تعالى^(١).

وَمَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَقَنَعَ بِرِزْقِهِ لَهُ، وَاشْرَأَبَّ بِجَدِّ إِلَى مَعَالِي دَرَجَاتِ
الْجَنَّةِ؛ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَسْعَدَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَعَنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ فَفَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ
أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ
الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ؛ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»
(٢). وَمَا نَسَبَ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَلَا يَا نَفْسُ إِنِّي تَرْضِي بِقَوْتٍ فَأَنْتِ عَزِيزَةٌ أَبَدًا غِنَى
دَعَا عَنْكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِي فَكَمْ أَمْنِيَّةٍ جَلَبَتْ مَنِيَّةً

(١) وانظر: تفسير الطبري (١٧ / ٢٩٠) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ١٧٤)

والدر المشور للسيوطي (٩ / ١٠٩)

(٢) ابن ماجه (٤٠٩٥) وصححه الألباني، وانظر: الصحيحة (٩٥٠)

إنَّ القناعة مال لا تضيعه النفقة، ولا يُفقد مع مضي الزمان، ولا تناله السَّرَاق، كما قيل - ولا يصح حديثاً -: «القناعة كنز لا يفنى ومال لا ينفد». وكما أنَّ الحرص والشره سجنٌ للقلب، وغُلٌّ في اليد والعنق، وقيد في الرَّجل؛ فالقناعة حُرِّيَّةٌ تامةٌ من ذلك كله، فلا أسَرَ له سوى مولاه، قال إبراهيم بن شيبان رَحِمَهُ اللهُ: «الشرف في التواضع، والعزُّ في التقوى، والحُرِّيَّةُ في القناعة».

ولقد تأملتُ حال أقوى من عرفتُ من الناس؛ فوجدت الزهد في الدنيا زاد قوَّتَهُم بأمر الله تعالى، فليس في قلوبهم من حطام الدنيا ما يخسرونه إزاء رغائب الآخرة. ولقد قال وهب رَحِمَهُ اللهُ: «خرج الغنى والعزُّ يجولان فلقيا القناعة فاستقرا».

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ وهل عزُّ أعزَّ من القناعة
فصيرَّها لنفسك رأسَ مالٍ وصيرَّها مع التقوى بضاعة

وإنَّ القناعة - فاعلم - هي أولى درجات الرضا، فلا رضا بدون قناعة بها يُرضى به، قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: «الورع أول الزهد، كما أنَّ القناعة أول الرضا». وقال ابن عطاء رَحِمَهُ اللهُ: «القناعة في الرزق والرضا بالقضاء». وقال سهل^(١): «حرثُ الدنيا القناعة، وحرثُ الآخرة الرضا». وروي^(٢) أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: «لأنتم أغنى من الملوك». قالوا: كيف يا

(١) تفسير السلمى (٢ / ٢٢٧)

(٢) تفسير الثعلبي (٣ / ٤٥)

روح الله ولسنا نملك شيئاً؟ قال: «أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونها، وعندهم أشياء ولا تكفيهم».

إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيكَ
والقناعة لا بد لها من كَيْسٍ حتى لا تنحرف بصاحبها ذات اليمين بتفريط
أو الشمال بإفراط، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا انحرفت عن القناعة انحرفت:
إما إلى حرص وكَلْبٍ، وإما إلى خِسَّةٍ ومهانة وإِضَاعَةٍ»^(١).

والعادل بين الناس هو القنوع، قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «النعم التي تقتضي
شكر الله وعبادته على كل أحد كثيرة، فإن الخلق والرزق وما يحتاج إليه
وتتوقف مصالحه عليه حاصل للكل، غاية ما في الباب أن حال الناس في
الإتراف متقارب، فيقال في حق البعض بالنسبة إلى بعض: إنه في ضرر، ولو حمل
نفسه على القناعة لكان أغنى الأغنياء. وكيف لا والإنسان إذا نظر إلى حالة
يجدها مفتقرة إلى مسكن تأوي إليه، ولباس الحرّ والبرد، وما يسد جوعه من
المأكول والمشروب، وغير هذا من الفضلات التي يحمل عليها شح النفس.

ثم إن أحداً لا يُغلب عن تحصيل مسكن باشتراء أو اكتراء، فإن لم يكن
فليس هو أعجز من الحشرات، لا تفقد مُدْخَلًا أو مغارة. وأما اللباس فلو
اقتنع بما يدفع الضرورة كان يكفيه في عمره لباس واحد، كلما تمزق منه موضع
يرقع من أي شيء كان.

بقي أمر المأكول والمشروب، فإذا نظر الناظر يجد كل أحد في جميع الأحوال غير مغلوب عن كسرة خبز وشربة ماء، غير أن طلب الغنى يورث الفقر؛ فيريد الإنسان بيتاً مزخرفاً، ولباساً فاخراً، ومأكولاً طيباً، وغير ذلك من أنواع الدواب والثياب، فيفتقر إلى أن يحمل المشاق. وطلب الغنى يورث فقره، وارتياذ الارتفاع يحط قدره، وبالجملة شهوة بطنه وفرجه تكسر ظهره.

على أننا نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥] لا شك أن أهل القبور لما فقدوا الأيدي الباطشة، والأعين الباصرة، وبانت لهم الحقائق؛ علموا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [٤٥] بالنسبة إلى تلك الحالة^(١). والترف المذموم هو ما ألهى عن الآخرة.

وإن من غرائز النفس المحتاجة لتهديب: الطمع في الممنوع، وتذكر اشتهااء شجرة الخلد.

رَأَيْتُ النَّفْسَ تَكْرَهُ مَا لَدَيْهَا وَتَطْلُبُ كُلَّ مَمْنُوعٍ عَلَيْهَا
والقناعة راحة من نصب الغنى، ومكابدة المال، وحراسة الغلات. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفرع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتيباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته.

(١) تفسير الرازي (٢٩/٤١٥)

ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره، وتبرمه بأفضيته. ولهذا سمي بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه، فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر، ولا يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال همّ وغمّ، ولا يسمّي شيئاً قضاءه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى، فإن هذا كله ينافي رضا.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر» وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الفقر والغنى مطيتان، ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل». (١).

ومن البحر المديد: «اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلّت في قلب عبد؛ فإن ذلك العبد يُعظّم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل إنسان يعظّم ما اشتتهت نفسه. وهذه صفة عبيد الدنيا وعبيد أهوائهم. وهي صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الفَصَص: ٧٩]. فكل محب للدنيا، مستغرق في حبها، فهو لاحق بالذين تمنوا زينة قارون.

واعلم أن الدنيا إذا رسخت في القلب واستوطنت؛ ظهر ذلك على جوارح العبد بتكالبه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة،

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٢٠)

ويمنعه سياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع. لو ملك الدنيا بحذافيرها. لم يشبع.

وقال بعض الحكماء: «القناعة هي الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين». ومآل الراغبين في الدنيا هو مآل قارون من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إِنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى الدُّنْيَا وَزِيَّتَهَا فَانْظُرْ إِلَى مَالِكَ الْأَمْوَالِ قَارُونَ
رَمَّ الْأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادَتَهَا وَسَخَّرَ النَّاسَ بِالتَّشْدِيدِ وَاللَّيْنِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ الْأَشْيَاءَ غَالِبَهُ وَمُكِّنْتَ قَدَمَاهُ أَيَّ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَنَايَا رَوْحَةً تَرَكْتَ ذَا الْمُلْكِ وَالْعِزِّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطِّينِ^(١)

وتدبر سورة الزخرف وهي سورة الذهب، ومسمى الزخرف أبلغ؛ لأنه وصف للذهب في أجمل حالاته في الخيال، وأحلى أشكاله في العين، وأرغب شهوات النفس له، أقول: تأمل كيف أحاط الله تعالى آيات ذكر الزخرف بآيتين تنسفان كل لوعة دنيا، وآيات ذكر الزخرف هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. فقد قال تبارك وتعالى قبلها: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال بعدها: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (ت: ١٢٢٤) (٥ / ٢٨٩)

ثم بعد سرّد آيات تقلّبات أهل الدنيا فيها ذكر زُخرف الجنة المستحقّ إعلاء الهمم لتحصيله، وأن زخرف الدنيا ليس بشيء إزاءه فقال جل شأنه: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الرّحُف: ٦٨ - ٧٢].

وميزان المؤمن - فاعلم - دقيقٌ جدًّا في تدبير أمر الدارين، فالكفة الراجحة هي دار أبد الأبد، لا دار الفناء والخراب، بل إنه ليجعل الدنيا مطيّةً صالحةً يرحل بها لدار الكرامة في جوار الرب الكريم سبحانه، قال تعالى ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القَصص: ٧٧]، أي، أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القَصص: ٧٧] اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: «لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها»، فالكلام على هذا التأويل شدّة في الموعظة.

وقال الحسن وقتادة: معناه: «لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلal وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك». فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النّبوة من الشدة، قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وعن الحسن: «قدم الفضل، وأمسك ما يبلغ». وقال مالك: «هو الأكل والشرب بلا سرف» وقيل: «أراد بنصيبه الكفن». فهذا وعظ متصل، كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداء ان تُلَوَّى فيهما وحنوطُ
وقال آخر:

وهى القناعة لا تبغ بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن
قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: «ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا. وما أحسن هذا! ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القَصص: ٧٧]، أي أطع الله وأعبدته كما أنعم عليك»^(١). وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعاً، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وإن نابتك نائبة فاذكر فضل الله عليك ثلاثاً؛ إذ لم تكن في دينك، وأنها أهون من أختها، وأنت رزقت احتسابها عند الله، كما قال عمر. وإن من شكر النعمة؛ أن تحمد الله عليها وإن قلت، مستشعراً حرمان غيرك منها، فإن

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣ / ٣١٤)

شكوت زوجك؛ فغيرك لا زوج له، وإن أتعبك ابنك؛ فغيرك لا ابن له، وإن شكوت قلة مالك ودنو مرتبة عملك؛ فغيرك لا عمل له وقد كسرت ظهره الديون، وإن شكوت ضعة نسبك؛ فغيرك لا نسب له ولا يعرف حتى والديه، وإن شكوت ظلم أحد؛ فاذا ذكر من تقصفهم الطائرات والمدافع وهم بين قتيل وسجين ومشرّد ومفقود ومفتون في دينه، وإن شكوت كلام الناس في عرضك؛ فتذكر من تُغتصب كريمته بين يديه قهراً، وإن شكوت ضعف صحتك؛ فتذكر من هم على الأسرة البيضاء ممن لا يُحرّك أيّ عضو، أو يتجرع الكيماوي لدفع السرطان، أو يغسل كليتيه كل يومين، أو لا ينام لشدة الآلام، بل تذكر من تحت الأرض قد اخترمتهم المنون، ولقطتهم المنايا، وحيل بينهم وبين العمل للآخرة، وتذكر ستر الله عليك وقد هُتك ستر غيرك، وحرّيتك في أرض الله وغيرك قد حُكم عليه بدفن عمره خلف الزنازين أو تحت الأقبية.

كُلُّ مَنْ تَلَقَّاهُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

فاحمد الله الذي لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع ونؤوب، سبحانه وبحمده، وتبر ملياً قول ربك الأعزّ الأكرم: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

هِيَ شَدَّةٌ يَأْتِي الرَّخَاءُ عَقِبَهَا وَأَسَى يُبَشِّرُ بِالسُّرُورِ الْعَاجِلِ

واعلم أنّ الدنيا إن أقبلت فَنَنَتْ، وإن أدبرت وَعَظَتْ، وقد قال خالقها:
﴿يَنَّايُهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
الْغُرُورُ﴾ [فاطر : ٥٠].

وقلما تأخى اثنان فدخلت بينهما دنيا؛ إلا فرقت بينهما شيئاً. وتأمل كيف
تمكّن الرجيم من أبوين بعد أن أسلما قيادهما للحرص: ﴿فَدَلَّيْهُمَا بِغُرُورٍ﴾
[الأعراف : ٢٢] فكن معتدلاً قنوعاً، لا هلعاً جزوعاً، ولتكن الدنيا في يدك لا قلبك.

تعالى الله يا سَلَمَ بن عمرو أذلّ الحرصُ أعناق الرجال
هَبِ الدنيا تُساق إليك عفواً أليس مصيرُ ذلك للزوال
ولما سئل الإمام أحمد: هل يكون مع الرجل مئة ألف دينار وهو من
الزاهدين؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه». وإذا أردت أن تعرف هل
الدنيا في قلبك أم لا؛ فانظر حالك مع المشتبهات وقوعاً أو تورّعاً.

وهل بالإمكان اجتماع الطموح بالقناعة؟ نعم، إن كان الطموح موصولاً
بالدار الآخرة. وقد ذكروا أنّ النابغة الجعدي أنشد:

بلغنا السماءَ مجدُّنا وجُدُّونا وإنّا لنَبْغِي فوقَ ذلكَ مَظْهَراً

ف قيل: إلى أين المظهر يا أبا ليل؟ قال: الجنة، إن شاء الله.

هذا والقناعة من أعظم روافد العفاف، وإنّ العفاف خلق يسمو بالنفس
جداً، ويرفعها وينزهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدّ
للعفيف من قناعة تُبْرِدُ لواعج حاجته، وتُشبع نهمة فاقته. فصن وجهك عن

التَّكَلُّ به فماؤه عزيز، فإن كانت لك حاجة ملحة لدى صاحبك؛ فآلُحْ إليها في الأولى، ثم صرّح في الثانية، ثم كرّر التصريح في الثالثة، فإن كانت؛ وإلا أغلق الباب للأبد، فمَاءُ الوجه ماءُ الروح، فسِرُّ العفاف إذن هو القناعة! والله أبي الحسن النعماني إذ يقول:

إذا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللُّئَامِ كَفَّتْكَ الْقَنَاعَةُ شِبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتْهُ فِي الثَّرِيَّا
أَيُّهَا لِنَائِلِ ذِي ثُرُوءٍ تَرَاهُ بَمَا فِي يَدَيْهِ أَيُّهَا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا

وقال الحسن البصري: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك؛ استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه». قلت: تصديق ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلّني على عملٍ إذا عملته؛ أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»^(١).

ذلك أنّ المال عزيزٌ بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] فكما أنّه يهّمهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم ويروّقهم حفظه،

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٣١٣/٤) وحسنه النووي في الرياض.

فالشَّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه؛ قَلَّوه وأبغضوه، إلا من سَخَتْ نفسه منهم لأمرٍ خارج عن ذلك؛ كزهد أو غياثٍ أو تحببٍ أو صدقة ونحو تلك الرغائب. فأقلُّ الناس أهلُ القناعة، وأقلُّ قليلهم أهلُ الزَّهادة.

واعلم - حفظ الله قلبك - أنَّ فتنة النساء أشدُّ من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح لدى آخرين، وكلُّ امرئٍ قد رُكِّب فيه ضعفٌ وميلٌ بحُكم بشريته، فيستحكم في جهةٍ دون الأخرى، وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»^(١). وقال في فتنة المال: «لكلُّ أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»^(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمعٌ وجشعٌ وشُحٌّ وهلعٌ للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطان يشمُّ قلبَ عدوِّه وابنِ عدوِّه آدم، فحيثما وجد ضعفاً ولج منه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك. وقد جمعها حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ»^(٣) وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا فِتْنَةَ

(١) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨/٨٩ (٢٧٤٠)

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) خَضِرَةٌ: غَضَّة نَاعِمَةٌ طَرِيَّة نَضْرَةٌ، كالثمرة الطيبة.

الدنيا وفتنة النساء، فإنّ أول فتنة بني إسرائيل في النساء»^(١). ففتنة المال من أوّليات فتنة الدنيا للعالمين.

وإنّ لك - يا صاحبي - ثوب إيمانٍ ناصع البياض فلا تلوّثه بسواد الخطايا، والعفاف نَزْهٌ ناصع شديد الصفاء، فنقطة فجور تفسد أرطالاً من الفضيلة، وخطوة خيانة تلوّث أميالاً من العفاف. فأسأل ربك العفاف في أمرك كله، ومن الأدعية الماثورة: «اللّهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»^(٢). ومنها: «اللّهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»^(٣). فألحّ على ربك أن يحفظك بالعفاف في شأنك كله. ووطن نفسك القناعة تكن - بإذن الله - من المفلحين^(٤).

٧- الصبر:

طبع الراضي الصبر، لأنه مستسلم للقضاء حلوه ومرّه، فلا جزع ولا اعتراض، بل صبر وتسليم، فإن ضعف الصبر في صدرك؛ فراجع مساقى الرضا في قلبك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) مسلم (٧١٢٤)

(٢) مسلم ٨١/٨ (٢٧٢١)

(٣) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه.

(٤) (ولا تفرقوا) (٣٤٤-٣٤٦) للمؤلف.

فالإنسان ضعيف بطبعه، قليل الحيلة، واهن الصبر إلا من صبره الله، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة التساهل بكبح النفس الغضوب، أو الشهوانية، أو العابثة؛ أفضى به ذلك إلى التلف.. أو كاد.

فواعجباً لذلك المخلوق الصغير، ينكسر لأدنى سبب، ويضعف لأول امتحان، ويفرح ويحزن، ويضحك ويغضب، ويروح ويحيى لأتفه شيء.. ألا ما أضعفك يا أيها الإنسان!

سأصبرُ حتى يعجزَ الصبرُ عن وأصبرُ حتى يحكم الله في أمري
سأصبرُ حتى يعلم الصبرُ أنني صبرتُ على شيء أمر من الجمرِ
أي أخي؛ اصبر وارض واحمد واشكر، وافعل الصواب ولو كنت لوحده، واجتنب الباطل ولو رأيت عليه الأكابر. فالأمة هو من كان على الحق ولو كان لوحده كما كان خليل الرحمن، وخذ الأمر بتفاوت لا بقنوط، وبقوة لا بلعب، وبجد لا بهزل، ولا تكن من ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] ولا تتعلق ولا ترج ولا تخف إلا الله جل جلاله. واعلم أن تكرار لا حول ولا قوة إلا بالله له الأثر النافع جداً في قوة الروح والنفس والبدن والإيمان.

قد هياؤك لأمرٍ لو فطنتَ له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل
واعلم أنهم يُجيعون ويُطعم الله، ويحبسون ويفرج الله، وينسون ويذكر الله، ويخذلون ويكفي الله، ويعادون وينصر الله، إنه الله وكفى بالله كيلاً.
فلا تحن رأسك لغير خالقك، ولا تذلل رقبتك لغير مولاك، فهو الكفاية والهدى والغنى والحفظ والنصر، والله تعالى لا يخلف ميعاده: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ

الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ [الأنبياء : ٩ - ١٠].

والمؤمن الصالح مهما كيد من مخلوق؛ فهو موقن بأن هناك من يستطيع حمايته وهو متعلق بكلّيته عليه، مستعين به، قريب منه، وعلى قدر القرب يكون الأمن، وعلى قدر إحسان العبادة يكون تحقيق معية الحفظ والتمكين، فالقريب من الله قريب من عونه ونصره وهداه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٨٢]. [الأنعام : ٨٢].

ومهما كادك الخلق بسوءاتهم ومكائدهم فتذكر ثلاث صفات لربك الأعلى تُبَدِّدُ عَنْكَ كل ضيق ومخافة: علمه، وقدرته، وعدله.

وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَيْتُ فَمَقْرُونٌ بِهَا الْفَرْجُ الْقَرِيبُ
ويا صاحبي: أَطْبُ معدنك بالذكر والإيمان، وليكن قلبك ذاك الراضي
بربه الشاكر لنعمه الصابر على ابتلائه المستغفر لذنبه. كن كذلك دومًا فلا
ضِيعَةٌ لمن كان مع الله.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فقد بركت على كاهله خمسٌ محنٍ شداد
فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمرادة، والسجن،
ونعيم السلطة، ولذة الانتقام. لقد مرّت كلّ عواصفها الشديدة الهائلة بجبل
إيمانه؛ فثبت ورسخ. فخلد الله تعالى ثباته في سورته، فسورة يوسف هي سورة
الثبات. والمؤمن مأمور بأخذ أسباب الثبات على دين الله تعالى، فيشدُّ ما وهى

من أعمدة بنيانه، ويبني ما انهدّ من متين جدرانه، ويحرس أرجاء بيضة دينه رأس ماله.

وقد يتلي الله عبده ليرفعه وليرحم به غيره في قابل أيامه. فانظر كيف قدّر الله تعالى أن يُباع يوسف وتتوالى ماجريات بلاءاته ليكون - بإذن الله ربه - سبباً في دفع مجاعة عامة مميتة، تتابعت سبعة أعوام في مصر وما حولها. وحقاً: إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه.

والقدر سرّ الله تعالى في خلقه، ومسالكه في غاية الدقة والإحكام والغموض والخفاء، وبعضها مرتبط برقاب بعض بشكل مدهش هائل عجيب، وأنّى لبشر أن يدرك ذلك، لأنها غيوب كتبها وقدرها العليم الحكيم.

فلولا أن الله تعالى قدّر على يوسف عليه السلام أن يُلقى في البئر؛ ما دخل بيت العزيز في مصر، ولولا أنه قدّر له أن يدخل السجن؛ ما قابل ساقى الملك، ولولا أنه قدّر للملك أن يرى الرؤيا العجيبة ما انتهى يوسف عليه السلام لأعظم وزارات مصر فيكون هو عزيز مصر، ثم رحيل آله لمصر وسكناهم إياها. إنها القصة المذهلة التي ابتدأت بحُلْم وانتهت بتحقيقه بعد معاناة أربعين سنة^(١)، فهي سورة الفرج بعد الشدة لمن أحسن بالله ظناً وسورة الثبات على دين الله عند أعتى الملمات. فتأمل ما في تلك القصة العجيبة من أمور بدت لأول وهلة مصيبة لكنها قد استبطنت فواتح الفرج ونعيم السرور.

(١) نقل ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣١٩/١) عن سلمان رضي الله عنه قال: «كَانَ يَبْنِي الرُّوْيَا وَتَأْوِيلُهَا أَرْبَعُونَ سَنَةً». وعن الحسن: «ثَمَانُونَ سَنَةً».

ولما وصل الكربُ يعقوبُ منتهاه؛ علِمَ أن الفرج قريب. وتأمّل حاله حينما فقد ابنه الثاني فابتهل إلى الله وشكا إليه حاله وأحسنَ به الظن ثم قال: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [يُوسُفَ : ٨٧].

فابتدأ بالأمل في رجوع يوسف الغائب منذ أربعين سنة حتى ذكره قبل أخيه الغائب منذ أيام. وتأمّل كيف تنسّم روح الفرج فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨٣﴾ [يُوسُفَ : ٨٣] ألا ما أجمل قلوبهم!

لذلك: فالمصائب إذا توالّت تولّت. وإذا أظلم ليل الابتلاء فقد اقترب فجر الفرج، فمن نار الألم يشرق الأمل، ومن ليل الهموم ينشق ضياء الفرج، فيا مثقلاً بأحزانه.. أفقّ فحزن الدنيا لا يستحق!

يا من عرفتُك بالتماسكِ مُولَعًا حُرِّيَّةُ الجدرانِ أن تتصدّعا
ثم تدبّر قوله الأعزّ الأجل في خبر كليمه وما دبّره الحكيم سبحانه بأقداره
المترابطة المتتابعة: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ ﴿٤٠﴾ [طه : ٤٠].

إذا اشتملتُ على اليأسِ القلوبُ	وضاق لما به الصّدرُ الرّحيبُ
وأوطأتِ المكارهُ واطمأنت	وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشافِ الضّرّ وجهًا	ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غوثُ	يؤمنُ به اللطيفُ المستجيبُ

ولك أن تعلم أن ثابت البُناني رَحِمَهُ اللهُ قد احتاج لمجاهدة نفسه على قيام الليل عشرين سنة حتى وصل بها لشاطئ النفس المطمئنة، قال: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذتُ به عشرين أخرى».

فالطريق طويل لكنه مفضٍ برحمة الله إلى نعيمٍ في الدنيا ونيعمٍ في الآخرة، لذا فلا عجب أن ذكر الله الصبرَ في القرآن أكثر من تسعين مرة، فلا خير في الدنيا والأخرى إلا بصبر، وقال الحبيب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «ومن يستغفِرَ يعفِّهِ اللهُ، ومن يستغِنَ يغنِّهِ اللهُ، ومن يتصَبَّرَ يصبِّرْهُ اللهُ. وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً خَيْرًا وأوسع من الصبر»^(١).

ولا يمنع جميلُ الصبر من إسبالِ عِبراتِ الرحمة ونفثِ زفراتِ الوفاء، لكنه يعلم أن في الله خَلْفٌ عن كل مفقود، وأن الجنة ميعاد المحبين المؤمنين.

وَهَوْنٌ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ أَنَّنِي أَسَاكِنُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا
فحينها تهشُّ نفسه، ويهدأ جأشه، ويعظم رضاه وحمده وشكره، فينعمت السلوى جزاء الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين، ولنعم العزاء الجنة، ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾^(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا^(٦٣) [مَزِيم: ٦١ - ٦٣].

أَكْرِمَ بَجَنَاتِ النِّعَمِ وَأَهْلِهَا إِخْوَانُ صَدَقَ أَيُّهَا إِخْوَانُ

(١) البخاري ١٥١/٢ (١٤٦٩) ومسلم ١٠٢/٣ (١٠٥٣) (١٢٤)

جيرانُ ربِّ العالمين وحزْبُهُ أَكْرَمَ بهم في صفوة الجيرانِ
هم يسمعون كلامَهُ ويرونَهُ والمُقلتان إليه ناظرتانِ
وعلى كثرة مفردات الألم والبؤس والشدة إلا كلمة «الوداع» لها وقعٌ
مُمَيِّتٌ للفؤاد، ولا يُحْيِيهِ سوى معاني: الحمد لله على كل حال.

ودّعته وبودّي لو يُودّعني طيبُ الحياة وأني لا أودّعهُ
ولولا انتظار موعودِ رب العالمين بلقيا الأحباب في دار الكرامة؛
لتقطّعت نفوسُ المُحِبِّين من حشرات الفراق!

عزائي نبيُّ الله من كل ميّتٍ وحسبي ثوابُ الله من كلِّ هالكٍ
إذا ما لقيتُ الله عني راضياً فإنَّ سرورَ النفسِ فيما هنالكِ
واهمُّ مَنْ ظنَّ أنَّ الموت هو الفراق، فالفراق ليس هنا بل هناك: ﴿وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الرُّوم: ١٤] قال قتادة: «فرقة لا اجتماع بعدها». اللهم
رضاك والجنة ولقيا الأحبة محمداً وحزبه. وفي وداع البارودي لأمه
رحمها الله وقد جاءه خبرها وهو في منفاه في سرنديب (سيرلانكا):

فوالله لا أنساك ما ذرّ شارقٌ وما حنّ طيرٌ بالأراكِ مُهيناً
عليك سلامٌ لا لقاءَ بعده إلى الحشر إذ يلقي الأخيرُ المُقدّماً
وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضا وقت السعة والرخاء يكون
كذلك وقت الضيق والشدة، فالنية قُلُبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزّب،

والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودع نفسك ومن تحب من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

وليس الوصل في اللقيا ولكن وداؤ في القلوب بلا جفاء
فكم من حاضرٍ قد غاب عنا وكم من غائبٍ زاهي اللقاء
واعلم أن الله تعالى لما بث الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان
ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكِ صابر حامد شاكر تائب
مستغفر. واعلم أن للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضا
بالله تعالى، فاعمس كل هم لك في بحر الرضا بالله، حينها تنطفئ نيران
المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُه أن يُعذَّب، ولكن يبتلي ليُهذَّب.

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ إلى حالٍ
واعلم أن قدرك إن لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله،
وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحق وما
سواه باطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ الرَّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨].

فمهما سلكت من دروب الحياة خيراً أو شراً، سروراً أو حزناً، صحة أو
سقماً، شوقاً أو خوفاً؛ فإليه وحده المنتهى. قال بعض الحكماء: «الدنيا بحر،
والمركب التقوى، والآخرة الساحل».

واحمد الله تعالى واشكره كثيرًا على أن فضّلك على غيرك تفضيلًا بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكربته، فلا يفرح للصلاة والدعاء، بل لسفر أو هو أو مسكر، أما أنت فاختصك بسفرك إليه بذكره ودعائه فهو مفرّج الهارين، ومأوى الشاردين، ومهوى المشمرين، وقبلة القاصدين، ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَظْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرّعد : ٢٨].

ولا تقل ليس معي أحد إذا كان معك الأحد الفرد الصمد، ومن لذائذ النفوس الاكتفاء برب البرايا والنفوس. وأنفع طعام للقلب هو جرعة من الاكتفاء بالله تعالى.

أصبر على مضض الإدلاج بالسحر وبالرّواح على الحاجات والبكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودّة الأثر
وقل من جدّ في أمرٍ يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
قال الجنيد رحمه الله: «ما طلب أحدٌ شيئاً بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كله نال بعضه». وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟ فقال: «بالمصباح، والجلوس إلى الصباح». وللموصلية:

عند الصّباح يحمّد القوم السرى وتنجلي عنهم غيابات الكرى
قال شيخ الإسلام: «الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقّه، ومقتصد يأخذ بقدر حقّه، ومحسن يعفو ويترك حقّه». وصدق الفضل بن يحيى حينما قال: «الصبر على أخٍ تعبت عليه، خيرٌ من صديقٍ تستأنف مودّته».

وفي قول تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] دليل على أن الانتقام يقبح من الكرام. ورُبَّ عفو أنكى من انتقام.
وقال النخعي في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]: «كانوا يكرهون أن يُستذلّوا، فإذا قدرُوا عَفَوْا».

والعفو النافع هو ما كان عن مقدرة، وكان لأهله، أي ما فيه صلاحهم وأمنُ غائلتهم، وإلا فكما قيل في شأن من يضرّ العفو عنه وعن جذوره وفروعه:

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا
هم جرّدوا السيف فاجعلهم له جُزْراً وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطباً
والعتب الظريف على الأحيان يزيل أكدار سوء الأفهام، ولا بأس
بالعتاب بين الأحباب.. هذا عتابك إلا أنه مِقَّةٌ.

ودوماً؛ تذكر الأجل، واستعدّ للأسوأ، وتفاءل بالأفضل. واعلم أن
الذكاء نعمة إذا أوصل صاحبه لمسالك حسن الظن، والعكس صحيح، إذ
مسارب العقل لا نهاية لها، فهي شاسعة مدهشة، وهنيئاً لمن هداه الله سبيله..
ويا لك من مستودعٍ للعجائب أيها الإنسان.

والوفاء الوفاء، وإن كانت معه الوفاة:

يميلون في شقّ الوفاء مع الردى إذا كان محبوب البقاء مع الغدر

واجعل بينك وبين المحرمات حاجزاً من ترك المكروهات حمى لورعك وحفظاً لأمانتك، قال سهل بن عبد الله رحمه الله: «أعمال البرّ يطيقها البرّ والفاجر، ولكن لا يصبر عن المعاصي إلا صديق». وقال الحجاج بن يوسف: «الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

والقاعدة المضطربة التي لم ولن تنخرم: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. وتأمل عقّر سليمان عليه السلام خيله غضباً لله إذ ألهته عن صلاة العصر؛ فعوّضه الشكور الحميد عنها بالريح: ﴿تَجْرَى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝﴾ [ص: ٣٦].

والراضي عن ربه ساخط للمعصية محتسب عليها، فكنّ أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فجمال العلم والعبادة الأمر بتقوى الله تعالى. وكن مبتدئاً بنفسك، مستتاً بنبيك ﷺ، وعليك بالعلم قبل الإنكار، وبال حلم والرفق أثناءه، وبالصبر بعده، فمن أنكر فإنه سيؤذى في الله، فهي سبيل المرسلين وأتباعهم الصادقين، لهذا أمر بالله بالصبر في هذا الموطن: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝﴾ [لقمان: ١٧].

فكن - رعاك الله - من البقية السابقين البررة: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً فقد صاروا أقلّ من القليل
وويل لمن تعجل بعلمه خطاماً فانياً، ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝﴾ [المائدة: ٦٣].

وتزداد أهمية الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم عند انتشار الفساد وتفشي الغفلات وغلبة المنكرات.

وإن الناهي عن المنكر دافعه أمران: براءة ذمته، ورحمته بالناس، ﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤) الأعراف: ١٦٤. قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «كلما أضيعت السنة؛ كان فعلها ونشرها بين الناس أوكد؛ لئلا تُترك وتموت».

يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهٖ فَسَادٌ وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم؛ فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارهم المتحزّن المتلمّظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله؛ بذلّ وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه!

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهي موت القلوب، فإن القلب كلّما كانت حياته أتمّ؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل» (١).

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٧) وقال ابن عقيل في الفنون: «من أعظم منافع الإسلام وأكد قواعد الأديان الأمر بالمعروف والنهي والتناصح؛ فهذا أشقّ ما يحمله المكلف؛ لأنه مقام الرسل، حيث يثقل صاحبه على الطّباع، وتنفر منه نفوس أهل اللذات، ويمقتته

أَيَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ جِدُّوا وَأَدِجُوا فَإِنَّ عَرِينَ اللَّيْثِ قَدْ بَاتَ خَالِيَا
لَنْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ قَوْمٌ وَدَوْلَةٌ فَهَذَا أَوَانٌ لِلنُّهُوضِ بِدَالِيَا

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «يا من هو من عسكرِ الرسول، أيجسُنُ بك كلَّ يوم هزيمة! فيا أقدام الصبر احملي، فقد بقي القليل». وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: أين تجد الراحة؟ فقال: «في سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب»، وصدق رَحِمَهُ اللهُ، فمن سَجَدَ وَجَدَ، والسجدة الطويلة تجلو همّ الثقيل، وما استُجلبت عطايا الكريم بمثل السجود الخالص الخاشع.

واعلم أن جزاء الصبر الخالص الجنة الخالصة: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرَّعْد : ٢٤] وكما قيل: العمل للدين قرينُ الانتماء إليه. قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «ما أغبط أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء»^(١). أي أمر العمل في سبيل رضوان الله تعالى.

يهونُ علينا أن تُصابَ جُسُومنا وتسلم أعراضُ لنا وعقولُ
وكن عند اشتداد الخصومات واجتماع أسباب الشرور كالنبهاني إذ يقول:
فَمَا لَيِّنَتْ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيْبَةٍ وَلَا ذَلَّلَتْنا لَلتِي لَيْسَ تَجْمُلُ

=
أهل الخلاعة، وهو إحياء السنن وإماتة البدع». نقله السفاريني في غذاء الألباب في

شرح منظومة الآداب (٢١٣/١)

(١) كتاب المحن، لأبي العرب التميمي (٢٨٣)

ولكن رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كَرِيمَةً تُحْمَلُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ
وقينا بحسن الصبر منا نُفُوسَنَا فَصَحَّحْنَا لَنَا الْأَعْرَاضَ وَالنَّاسُ هُزَلُ
فعلبك - أcha الإيمان - بالصبر والمصابرة والمrapطة في ذات الله (١)، فاصبر
وتصبر وصبر، واهتف لنفسك وإخوتك بقول ربكم: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا
بِاللَّهِ﴾ [التخل: ١٢٧] وقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]
وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وتدبر سورة العصر، فالإسلام دين الصابرين. وأر الله تعالى منك ما
يرضيه؛ حتى يعطيك ما يرضيك. فأئي دين كهذا الكمال والجمال، وأئي
مستودع للصبر والأمل كهذا سعة وعظمة وسموا.

وأسعد الناس من يحيا على أمل وأتعس الناس ميال إلى الألم
وليس كل صبر مستحق للثواب، فالصبر على الطاعة وعن العصيان
وعلى البلوى مفتقر إلى إخلاصه لوجه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا
أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢].

وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نووماً فإن الحر ليس بنائم

(١) وانظر: الصبر. ضمن هذه السلسلة.

٨- التوازن:

الراضي بربه متّزن العقل، متوازن النظر، لا يعطي أمراً فوق حجمه ولا ينقصه عن قدره، قدر رفع الآخرة إذ رفعها الله تعالى، ووضع الدنيا حيث وضعها الله. قد فتح الله بصيرته فرأى بعيني قلبه حقيقة الدنيا فزهد فيها زهادة أهل القبور، فجعلها معبراً وممرّاً وزاداً لرحلته للدار الآخرة ومستمتعاً بالخير إلى حين.

لَوْ لَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيِّعٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ
والراضي بربه يعلم أنّ من أجلّ المهمات لبصيرته وعمله وحكمته ومصيره: الحاجة الملحة للتوازن في النظر للأمور وتقدير أحجامها المعنوية بلا وكسٍ ولا شطط. وسيّدة قواعد التوازن هي أن الذي يستحق أن تقلق لأجله هو الآخرة؛ درجاتها ودركاتها، أما الدنيا فمفروغ منها، رزقك وعمرك.

فالعابد الناسك لا يترهب ولا يتبتل، كما أنه لا ينشغل بالدنيا عن الدين ولا يغفل عن زاد التقوى، بل يحرث الأرض بالإحسان كما أمره ربه، فيعمل لآخرته ولا ينسى نصيبه من الدنيا. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رَأَيْتُ سَبَبَ الْهَمُومِ وَالْغُمُومِ؛ الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الدُّنْيَا. وَكُلَّمَا فَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَعَ الْغَمُّ لِفَوَاتِهِ.

فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح؛ لأنه يستغني بالرضا بالقضاء، فمهما قدّر له رضي. وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض، لأنه مملوك مدبّر فتكون همته في عبادة الخالق.

ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال، ولا مخالطة الخلق ولا الالتذاذ بالشهوات. لأنه إما أن يكون مقصرًا في المعرفة فهو مقبل على التعب المحض، يزهّد في الفاني لينال الباقي. وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل^(١).

فتراه متأدبًا في الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، راضيًا بما يقدر له. فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره. فأما من لم يرزق هذه الأشياء، فإنه لا يزال في تنغيص متكرر العيش، لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة، نسأل الله عز وجل أن يستصلحنا له فإنه لا حول ولا قوة إلا به^(٢).

ومن مسائل التوازن لطالب العلم: تقدير العالم وإجلاله، فقد جفا عن حقّه وجلاله أقوام - وبخاصة حدثاء الأسنان - وجعلوا كلمته ورأيه وفتواه كفتوى آحادهم التي تلقفوها من الكتب مباشرة أو من فهمهم القاصرة أو من شبكات مجهولة سائرة، وغفلوا عن كبار أمور لا تُدرَك إلا بعد النضج العلمي الطويل، وسهّوا عن مرتبة إجلال حَمَلَةِ الشريعة وتعظيم العلم الذي في صدورهم. فإن المعلومة التي يتأملها الإنسان أربعين سنة ويسقيها عصارة

(١) فينشغل بمحبة الله تعالى والشوق إليه والأنس به وتلّح إحسانه ولطفه ورفقه وبرّه والحياء منه ومخافته وذكره ودعائه وإحسان التعبّد له، فيتنظم له الزهد في الدنيا وأهلها تبعًا.

(٢) صيد الخاطر (١ / ١١١) بتصرف يسير.

تجاربه ويُمَرِّ عليها دلائل الوحي ليست كالتى تنطبع في ذهن غيره في ساعات،
فيضمحل صفوها لكَدَرٍ ثانٍ الحال.

وَفِي غَابِرِ الْأَيَّامِ مَا يَعِظُ الْفَتَى وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ تَعْظُهُ التَّجَارِبُ
ومن مهمات مسائل التوازن العقلي للمؤمن: الانتباه لتلبسات إبليس في
الأوامر والمناهي الإلهية، فإن الشيطان الغادر قد يَلْبَسُ جُبَّةَ الشيخ الناصح،
وما بالك بمن عُمُرُهُ أطول من عمر البشرية كلها، وتجاربه مع بني آدم لا
تُحْصَى، فهو خبيرٌ نفسي، وعدوٌّ ماهر، ومُخَالِطٌ غادر، نافثٌ خَطَرَاتٍ، ومُزَيِّنٌ
شبهات.

والموفق من عصمه الله من كيده وإغوائه، وكان بمعزل في التقوى عن
خطواته، فإنه يبدأ بالخطوة ليمشي بالمرء أُمَيَّالًا، ويهْوَنُ عليه الأمر لينكسر
حاجز المناعة ضد الخطيئة، ويوسوس للمرء بالأمر حرصًا على بلوغ غيره
وهكذا، وتأمل خبره مع برصيصا العابد.

وحدَّثني من كان يضع صورة القائد خُطَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ في محفظته، حتى إذا
فَرَّ نظره إليها. والآخر عُلِّق صورة والده المتوفى، فكان يُحْيِي الصورة كلما دخل
المنزل، وبعد مدة زاد مع التحية ركوعٌ. فيا سبحان الله، حذو القذة بالقذة،
وهل هلك قوم نوح ومن بعدهم إلا بذرائع الشرك في لبوس الصلاح، فاللهم
غُفْرًا. فالتصوير والنحت هو ذريعة التعظيم والعبادة، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ
آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [٢٣ - ٢٤] وقد أضلُّوا
كثيرًا ﴿[نوح: ٢٣ - ٢٤] فيحرم تعليق صور ذوات الأرواح مطلقًا، ويغلظ التحريم

إن كانت لذي سلطانٍ على القلوب سواء لمحبه كالوالد، أو لعلمه كالعلماء، أو لعبادته كالصالحين، أو لملكه كالسلاطين والملوك.

طَاوَعْتُمْ فِيهِ الْعَدُوَّ وَكُنْتُمْ لَوَشَيْتُمْ فِي مَعَزِلٍ وَقَرَارٍ
ولكن الشيطان بحمد الله ضعيف صغير حقير أمام مَنْ حَفِظَ أَمْرَ رَبِّهِ
وتعلق به واستعاذ واعتصم، فهو مجرد أَرَاذٍ، يوسوس في الصدر فيؤز (١)
الإنسان لمعصية الرحمن، ولكن لا سلطان له على قلبه وعقله وإرادته
وجوارحه، إنما هو مشير سوء ومسعر فتنة لا حول له ولا طول ولا قوة إلا
بالوسوسة، ويخنس حال ذكر الله تبارك وتعالى، فهو كما قال أبو
حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشيطان وما الشيطان! أُطِيعَ فلم ينفع، وعُصِيَ فلم يضر».
وربنا جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال
تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فهو مجرد وسواس يخنس عند ذكر الله العظيم جلّ وعزّ، فالشيطان الجنّي
والإنسيّ وسواس خناس، فالمؤمن يخشى الله وحده ويحذر كيد عدوّه وقد
أجلى العليم عداوة الخبيث فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فالاعتصام بحبل الله نجاة وحسن الرجاء بفضله فلاح.

(١) أي: يهيج ويغري ويزين.

من يتق الله يُحمّد في عواقبه ويكفه شرّ من عزّوا ومن هانوا
والراضي بربه إذا آتاه الله حظاً من علم وأثارة من سبيل النبي ﷺ شديد
العناية بفقّه الأولويات والتوازنات وقواعد المصالح والمفاسد من التقديم
والتأخير والتحصيل والاحتمال والدفع والرفع على ضوء المحكمات الشرعيّة،
فلا يمنع الرضا بالله من إعمال العقل وإتباع الفكر في جلب مصالح الدنيا
والآخرة ودفع مضارّهما، ذلك أن الذي أمرك بالرضا هو من أمرك بتحصيل
مصالح الزّمانين ومدافعة بلايا الدارين، ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ
وَالْيَهُ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وبالله التوفيق والعصمة والهدى والسداد.

٩- القنوت:

القنوت: هو دوام العبادة كالذكر والصلاة والصيام، ومنها كثرة الدعاء
بأنواعه الثناء والمسألة، ومن القنوت الخضوع والخشوع والاستكانة والتبّتل
بدوام التعبد، فالقنوت تعلّق القلب بمحراب العبادة حتى وإن كان الجسد في
أودية الدنيا.

وإنّ الراضي بربه دائم العبادة بكل أنواعها وأحوالها المستطاعة له، فهو
بين عبادة مقصودة لذاتها كالذكر والتفكير والدعاء والتلاوة والصلاة والصيام
والصدقة، وبين عبادة مقصودة لغيرها كالنوم والطعام وإجمام النفس وترويح
الروح لتنشيطها لعبادات الغايات، ودوام العبادة هو قنوت محبوب لله تعالى،
فالقنوت هو دوام القيام بوظائف العمر.

عن سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ [الرَّؤْمَرُ: ٩] قال: «يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ»^(١). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الرَّؤْمَرُ: ٩]، أي: أَمَّنْ هُوَ هَكَذَا كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرَّؤْمَرُ: ٩]^(٢).

والقنوت من أشرف أعمال القلوب والجوارح، «والقانت: المطيع. وبهذا فسرهُ ابن عباس رضي الله عنهما. والقنوت في الكلام يقع على القراءة، وعلى طول القيام في الصلاة، وبهذا فسرهُ ابن عمر رضي الله عنهما. قال الفخر: قيل: إن المراد بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ عثمان بن عفان لأنه كان يحيي الليل، والصحيح أنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفة، وفي هذه الآية تنبيه على فضل قيام الليل. انتهى. وروي عن ابن عباس أنه قال: «من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة؛ فليره الله في سواد الليل ساجداً وقائماً»^(٣).

قَدَّمْ لِنَفْسِكَ تَوْبَةً مَرْجُوءَةً قَبْلَ الْمَمَاتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الْأَلْسُنِ
بَادِرْ بِهَا عُلُقَ النُّفُوسِ فَأَتَّهَا ذُخْرٌ وَغَنَمٌ لِلْمُنِيبِ الْمُحْسِنِ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ / ٣٧)

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٠٢)

(٣) تفسير الثعالبي (٤ / ٤٩)

وللمؤمن وظائف في اليوم والليلة حريّ به مداومتها حتى يرحل لربه تعالى راضياً مرضياً. فللموفق الصالح كلّ يوم وليلة أعمالٌ صالحة ترفع للسّماء، بعضها واجب وبعضها مستحب، هي درجاتٌ في مراتب الجنّات، فمستقلٌّ ومستكثر من فضل رب البريات، قد جعلها الله وظائفَ لعمر المؤمن، يزيد بها أجره ويُقرّبُها بها من مرضاته وجنته.

يُذَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمْشِي أَوَائِلُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مَقْبَلَةٌ النَّوَاحِي كَحِيلِ بِالْجَنَادِلِ وَالرَّمَالِ
والمومن الموفق يبدأ يومه بصلاة الفجر جماعة مع المسلمين في بيت الله تعالى، فحينما تسمع الأذان انهض مباشرة واحذر من نزغات الشيطان التي تدعوك للكسل عن الصلاة. فمن صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء : ١٤٢]. فإن بادرت للمسجد قبل الأذان فأنت من خير مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ.

اذكر ربك من حين انتباهك من نومك وأسبغ وضوءك وامش إلى المسجد بسكينة ووقار، ولك بكل خطوة درجةً وتكفيرٌ خطيئة، كما في الصحيحين^(١).

وعند دخولك المسجد قدّم رجلك اليمنى وقل: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم افتح لي أبواب رحمتك»^(١).

(١) البخاري (١٨٨٧) ومسلم (٦٦٤) (٢٧٩)

وهناك سنة راتبة بين الأذان والإقامة، وهي ركعتان خفيفتان، ومما ورد في فضلها قوله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(٢). وما كان رسول الله ﷺ يدعها حضراً ولا سَفْراً، وهي الرغبة، وإذا كان هذا فضل سنة الفجر، فما بالكم بصلاة الفجر؟! ومن السنة أن تقرأ في الركعة الأولى سورة الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد، أو في الأولى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية. وفي الثانية: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلَكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. ومن فاتته سنة الفجر قبل الصلاة فيشرع أن تُقضى بعد ارتفاع الشمس وإن بعد صلاة الفجر فلا بأس.

واعلم أخي المسلم: إن لصلاة الفجر شأنًا عظيمًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإشراء: ٧٨]، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى

=

(١) أبو داود (٤٦٦) وصححه الألباني. وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ (٥٣٢/٨): «قال الحسين بن أحمد الصَّفَّار الشيرازي: لما مات أحمد بن منصور الحافظ، جاء إلى أبي رجل فقال: رأيته في النَّوم، وهو في المحراب واقف، في جامع شيراز، وعليه حُلَّة، وعلى رأسه تاج مكلَّل بالجواهر، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأكرمني، وأدخلني الجنة، فقلت: بماذا؟ قال: بكثرة صلاتي على رَسُولِ اللهِ ﷺ. اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ عَدَدَ مَا خَلَقْتَ مِنَ الْخَلَائِقِ.

(٢) مسلم (٧٢٥) (٩٦)

البردين دخل الجنة»^(١). والبردان هما الفجر والعصر. ومنها أن «من صلى الفجر فهو في ذمة الله»^(٢).

ومن أدلة أهمية صلاة الفجر أن الصحابة كانوا يرون أن التخلف عنها من علامات النفاق، كما قال ابن مسعود: «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق». هذا؛ «ولصلاة الفجر على وجه الخصوص تأثير عجيب في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات.. فإن كل من له ذوق سليم وأدّى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونوراً وراحة»^(٣).

أخي في الله: يشرع لك بعد الفجر أن تبدأ صباحك بأذكار الصباح الواردة عن نبينا ﷺ التي تجعل قلبك يعيش في رياض الإيمان، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرَّغْد : ٢٨] فالذكر للروح كالماء للسمك، وقال ﷺ: «مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثلي الحي والميت»^(٤).

وإذا صليت الفجر فاذا ذكر أذكار الصلاة، ثم أتبعها بأذكار الصباح، ولا تقم حتى ترتفع الشمس ففيها أجر عظيم، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

(١) البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥)

(٢) مسلم (١٤٦٧)

(٣) تفسير الرازي (٣٨٥ / ٢١)

(٤) البخاري ١٠٧/٨ (٦٤٠٧)، ومسلم ١٨٨/٢ (٧٧٩) (٢١١)

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»^(١).

ويا عبد الله: لا بد أن يكون لك ورد يومي من القرآن لا يقل عن جزءٍ قدر استطاعتك، فلا تهجر كلام ربك فتدخل في شكاية الرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. فليكن لك ورد لا يقطعه إلا الموت، فالأبل ترد الماء لتحيا، وكذلك القلب يرد القرآن ليحيا، فأحيه بالقرآن ولا تُقسِّم بهجره، فأبعد القلوب عن الله القلب القاسي.

والموفق يعتني بصلاة الضحى، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوْتِرَ قَبْلَ أَنْ أُنَامَ»^(٢). ويبدأ وقتها بعد طلوع الشمس بنحو ربع ساعة حتى قبيل الظهر بعشر دقائق، وأقلها ركعتان، ولا حدًّا لأكثرها.

فإذا أُذِّنَ لصلاة الظهر فيستحب لك صلاة أربع ركعات بسلامين قبلها لأنه وقتٌ تُفتح فيه أبواب السماء، فعن عبد الله بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ

(١) الترمذي (٥٨٦) وحسنه، ووافقه ابن باز، وكذلك الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤)

(٢) البخاري (١١٧٨) ومسلم (١٥٨/٢)

الله ﷺ كان يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»^(١).

ثم صل الفريضة واذكر أورادها، ثم صل ركعتين بعدها، كما جاء في الحديث: «من صلى ثنتي عشرة ركعة بنى له الله بيتاً في الجنة»^(٢). وهي أربعٌ قبل الظهر، واثنان بعده. وإن صلى بعدها أربعاً فحسن، فعن أم حبيبة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حرّمه الله على النار»^(٣). ولاحظ عبارة «حافظ» المشعرة بالديمومة قدر المستطاع. واثنان بعد المغرب في البيت واثنان بعد العشاء في البيت، واثنان قبل صلاة الفجر.

يا عبد الله؛ بادر وبكر للصلاة فإنك لا تزال في صلاة ما كنت في انتظارها، فإذا صليت فإن الملائكة تستغفر لك ما دمت في مصلاك ما لم تنصرف أو تُحدث، كما صح عنه ﷺ. فلا تستعجل الخروج من المسجد بعد الصلوات، واعمر وقتك بالذكر فأنت في رياض الجنة.

(١) أحمد ٤١٨/٥ (٢٣٩٤٧) وقال محققوه: صحيح لغيره. الترمذي (٤٧٨) والنسائي في

الكبرى (٣٣١)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أحمد (٢٦٧٧٤) والنسائي (١٧٩٩) وصححه الألباني.

(٣) أبو داود (١٢٦٩)، وابن ماجه (١١٦٠)، والترمذي (٤٢٧) وقال: «حديث حسن

غريب». وصححه الألباني.

فإذا دخل وقت العصر استحبَّ لك صلاة أربع ركعات بسلامين قبل الفريضة، قال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ امراً صلى قبل العصر أربعاً»^(١).

وصلاة العصر جدُّ عظيمة، قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٣٨] والمراد بالوسطى هي العصر. وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ»^(٢).

فإذا صليت العصر وذكرت أذكاريها فلا تقم حتى تذكر أذكاري المساء، فإنك أن قمت أنستك مشاغل الدنيا غنائم الآخرة! والمؤمن حازم فطن، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

وتحرَّم الصلاة بعد العصر حتى غروب الشمس مما ليس له سبب، وأما الصلوات التي لها سبب فتجوز في أوقات النهي على الراجح، كصلاة الجنابة والاستخارة والطواف والوضوء وتحية المسجد ونحو ذلك، فيجوز فعل كل ذلك حتى في أوقات النهي؛ لأنها من ذوات الأسباب. ولكن إذا اقترب وقت الغروب أو الشروق أو الزوال فلا تُصلّى حتى ذوات الأسباب، وذلك لورود التشديد في النهي عن الصلاة فيها، فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ثَلَاثُ سَاعَاتٍ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَصَلِّيَ فِيهِنَّ أَوْ نَدْفِنَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ

(١) أبو داود (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

(٢) البخاري ١٤٥/١ (٥٥٣)

الشمس بازغةً حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل، وحين تضيّف الشمس للغروب حتى تغرب»^(١).

فإذا غربت الشمس استُحِبَّت ركعتان قبل صلاتها، قال ﷺ: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرَبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرَبِ» وقال في الثالثة: «لَمَنْ شَاءَ»^(٢). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ كِبَارَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِيَ عِنْدَ الْمَغْرَبِ»^(٣).

فإذا صليت المغرب فصل ركعتين، والأفضل أن تصلّيها في بيتك، قال ﷺ فيها: «هَذِهِ صَلَاةُ الْبُيُوتِ»^(٤).

وصلاة العشاء معظّمة في الإسلام، قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»^(٥). وقال ﷺ: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ

(١) مسلم (٨٣١). و«قائم الظهيرة»: أي: قيام الشمس وقت الزوال، وذلك عند بلوغها وسط السماء.

(٢) البخاري ٧٤/٢ (١١٨٣)

(٣) البخاري ١٣٤/١ (٥٠٣) قال ابن حجر في فتح الباري (١٤١/٢): «يتدرون: أي: يستبقون، والسواري جمع سارية، كأن غرضهم بالاستباق إليها الاستتار بها ممن يمرّ بين أيديهم لكونهم يصلون فرادى».

(٤) أبو داود (١٣٠٢) وقال الألباني: قلت: حديث حسن، واستحسنه أحمد، وصححه ابن خزيمة.

(٥) مسلم ١٢٥/٢ (٦٥٦) (٢٦٠)

يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا»^(١). وبعد الفراغ من الصلاة يستحب لك صلاة ركعتين، وهي من السنن الرواتب.

واعلم أن السنن التي تسقط عن المسافر هي راتبة الظهر والمغرب والعشاء فقط، أما ما سوى ذلك كراتبة الفجر، أو النوافل المطلقة، أو ذوات الأسباب، أو صلاة الضحى، أو الوضوء، أو قيام الليل ونحو ذلك فهي باقية في حق المسافر كالمقيم.

وإن من أحب الأعمال إلى الله - فاعلم - الصلاة في جوف الليل، فصلاة الليل هي أفضل الصلوات بعد الفريضة، وصلاة الليل هي زاد المؤمن وراحته وجنته وجنته، ومن أسباب الأمن يوم القيامة قيام الليل، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝﴾ [الإنسان : ٢٥ - ٢٧]، وتدبر رحمك الله قول الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [السجدة : ١٦ - ١٧].

فَمَنْ يَطْلُبُ الْعُلْيَا يَبْتَ مُسَهَّدًا وليس بميت القلب للهو ساريا
ويصبح صوًّا كثيرًا دعاؤه إلى الله يمضي وهو للهو قاليا
يُحْنُ تراب الأرض من صدق دمه ويشبهه حين الوتر إحدى السواريا

(١) البخاري ١٥٩/١ - ١٦٠ (٦١٥)، ومسلم ٣١/٢ (٤٣٧)

سخياً بذى الدّنيا ضنيناً بدينه سحاباً كما الأطوادِ سُوداً غَوادِيا
يا صاحبي؛ إنّ في الجنة نعيماً ليس من جنس نعيم الدنيا، بل هو جديدٌ
بكل تفاصيله وأسمائه، وليس في الدنيا ما يعبرُّ عنه به حتى ولو على سبيل
التقريب والتشبيه، ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل:
أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على
قلب بشر. اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة : ١٧]»^(١). فلم يخطر ذلك النعيم على قلب أصلاً،
نسأل الله الكريم من فضله. قال بعض السلف: «أخفوا لله العمل فأخفى الله
لهم الجزاء، فلو قدّموا عليه لأقرّ تلك الأعين عنده».

وقال الله عن أهل الجنة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْآلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الدَّارِيَات :
١٧] وقال ﷺ: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأبُ الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله
تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد»^(٢).
وتأمل كلمة «دأب» أي أنها من سماتهم وصفاتهم وأفعالهم المستمرة التي
يدأبون عليها حتى يرحلون إلى الله تعالى بخيرها، وقال ﷺ: «أتاني جبريلُ
فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه،

(١) البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢)

(٢) الترمذي (٢٨١٤) وحسنه الألباني، وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين

(٢ / ١٩٥): ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن، وقال

الترمذي: إنه أصح.

واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»^(١). ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ولا تنس لا تنس لا تنس أن تذكر الله وتدعوه في الثلث الأخير من الليل، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»، وفي رواية: «حتى ينفجر الصبح»^(٢). فالغنائم أيها النائم.

ومن أراد الخير فليعمل بأسبابه ورأسها الاستعانة بالله تعالى وتقواه، وذكر عند رسول الله ﷺ رجلاً نام ليله حتى أصبح فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»^(٣). متفق عليه، وهذا فيمن فاته قيام الليل؛ فكيف بمن فاتته فريضة الفجر؟! اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا. ولما اشتكوا للحسن ضعفهم عن التهجد قال: «قيدتكم خطاياكم». وللسلف مع قيام الليل أخبار شريفة.

والمؤمن لين رحيم سهل دمث رفيق، وهو كذلك حي يقض حازم صارم في حينه، بصير بما يصلحه، حذر مما يسقطه، قال الشيخ العلامة المعلمي رحمه الله: «إياكم والشبهة، فإن النفوس تَوَاقَةُ إلى اللذات والشهوات، فإن

(١) الطبراني في الأوسط (١ / ٦١ / ٢) والحاكم (٤ / ٣٢٤ - ٣٢٥) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٣٣٠)

(٢) البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) (١٧٠)

(٣) البخاري ٦٦/٢ (١١٤٤) ومسلم ١٨٧/٢ (٧٧٤) (٢٠٥)

جُوهَدْتُ عَنِ الصَّغَائِرِ قَنِعْتُ عَنِ الْكِبَائِرِ الْمَوْبِقَاتِ، وَإِنْ سَوَّيْتُ عَنْ الشُّبُهَاتِ وَقَعْتُ فِي الْحَرَامِ. فَجَاهِدُوا نَفُوسَكُمْ حَقَّ الْمَجَاهِدَةِ، وَعَاهِدُوا بِالتَّحَرُّزِ أَشَدَّ الْمَعَاهِدَةِ؛ فَإِنَّ عُرَاهَا سَرِيعَةُ الْإِنْفِصَامِ. وَعَلَيْكُمْ بِالْفَرَائِضِ، فَإِنَّهَا أَسَاسُ الدِّينِ. وَإِيَّاكُمْ وَتَرَكَ السُّنَنَ، فَإِنَّهَا شُهُودُ الْيَقِينِ. وَمَنْ تَرَخَّصَ فِي السُّنَنِ سَهَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ تَرَكَ الْفَرَائِضِ الْعِظَامَ»^(١).

فطلاقة الجبين، وبشاشة الوجه، وحسن الحديث، هي من أخصّ أخلاق الرسول ﷺ، فعليك بذلك، وعُدّه من صالح أعمالك، وقيم كنوزك يوم معادك، وعظيم ذخائر عند ربك.

أخي في الله: إن من توفيق الله لعبده أن يهديه لعمل صالح لا ينقطع بموته، فلا يزال يصعد درجات الجنة حتى بعد رحيله عن دنيا العمل، بكلمة علمها، أو نفس أسعدها، أو جوعة أشبعها، أو علة داواها، أو بئر حفرها، أو جلد أدفأه، أو ظلام بدّده، أو طريق عبّده، أو نفع سبّله، أو مسجد بناه، ونحو ذلك من مراضي رب العالمين، إنما المقصود مراعاة رأس المال قبل تحصيل الربح، فإن ذهبت العبادة الخاصة فما تلاها أولى بذهاب. والسعيد من كان للرحيل مستعداً.

والناس غداً فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى : ٧]، فهل علمت مكانك في أيهما حتى تغفل عن زاد مسيرك للحسنى؟! قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (١٠٩/٢٢).

الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ فَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ [الحجّية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السّجدة: ١٨] نعم لا سواء، والله المستعان. وحكوا عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله:

تَمَّتْ أَنْاسُ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتَ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَهِيًّا لِأُخْرَى مِثْلَهَا وَكَأَنَّ قَدْ
وعليك ببناء علمك بالطلب فهو بداية الوصول، والتلاوة فهي عطر
الروح، والتدبر فهو مفتاح العقل، والحفظ فهو كنز العلم، والمراجعة فهي
تأكيد وإنهاء الفائدة، والمدارسه فهي لقاح المعرفة، والعلم الذي لا يُدرس
يُندرس.

وقال إبراهيم بن عبد الواحد موصياً الضياء المقدسي لما أراد الرحلة
للعلم: «أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه ييسر لك الذي تطلبه على قدر
ما تقرأ». قال الضياء: فرأيت ذلك وجربته كثيراً، فكنت إذا قرأت كثيراً ييسر
لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم ييسر لي. وتدبر قول الله
تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] ففيه الكفاية والشفاء^(١).

(١) وانظر: ولا تفرقوا، للمؤلف (٦٠٧).

وعليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقوّته وقوّته وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرّع. ومن أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقُربُه ورحمته.

ومن وصايا طاووس بن كيسان اليماني: «إياك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك أبوابه، وجعل دونك حجّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة»، ويكفينا قول الكريم الوهاب: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠.

وتدبر هذا الخبر: فعن ابن عباس، أنه قيل لعمر رضي الله عنهم: حدثنا من شأن العسرة. فقال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا. قال: «أَتَحِبُّ ذَلِكَ؟ قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت، فملاؤا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جازت العسكر»^(١).

(١) المستدرک (١/ ٢٦٣) وقال الحافظ الذهبي: حديث حسن قوي. وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٧٦).

ولتكن مستمتعاً دوماً بتطهير روحك برياض العبادة وبساتين الذكر،
وغسل قلبك بالسجود والخضوع والضراعة، وعينك بالتفكر والرقائق
والدموع، وصدرك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم،
وبطنك بكثرة الصيام والصدقة وأكل الحلال. وواها لمن جمعها، وطابت حياة
الراضين.

ولا تنس أن ترضى عن الله دائماً فقد فاز عند الله من كان راضياً
وسابق إلى الطاعات تُعطى رضاءهُ وَمَنْ يَرْضَ عَنْهُ اللَّهُ حَازَ الْمَعَالِيَا
اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكِرْهُ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ واجعلنا من الراشدين، اللَّهُمَّ ارزقنا حسنَ عبادتك آناء الليل
وأطراف النهار. اللَّهُمَّ صل على محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.
﴿الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الحائِثِيَّة : ٣٦ - ٣٧].



الرضا والبلاء

معيّارُ الرضا هو البلاء، وإلا فالنعيم مرضيّ على كل حال، أما البلاء فالغريزة تمنع الرضا به ما لم يأتها دافع من خارجها يُحبّب لها الرضا، ويقلّب مرارته حلاوة، فالدواء كرهه المأخذ رضيّ الغاية، وابتغاء الأجر والتقلّب مع مراد الحبيب حيثما أراد، فأحبّه إليه أحبّه إليه، والعاقبة: «فمن رضيّ فله الرّضا»^(١).

وروى الطبراني في الكبير أن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشتكى، فدخل عليه جاره، فاستبطّاه في العيادة، فقال له: يا أبا نجيد، إن بعض ما يمنعني من عيادتك ما أرى بك من الجهد. قال: فلا تفعل، فإنّ أحبّه إليّ أحبّه إلى الله، فلا تبتسّ لي بما ترى، أرايتَ إذا كان ما ترى مُجازاةً بذنوب قد مضت، وأنا أرجو عفو الله على ما بقي، فإنه قال: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].^(٢)

ومن البشارات للعبد الصالح المريض أو العاجز عن صالحات أعماله كان قد اعتادها لمرض، أو سفر، أو حبس، أو غيره أنّ ثوابها يجري له وإن لم يعمل، كرامة من الله وجوداً، قال ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وصححه الألباني.

(٢) الطبراني في الكبير (١٩٣)

كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(١). فعلى المريض ومن في حكمه أن يصبر ويرضى ويحمد ويشكر الله على هذا البلاء، فإن تلك المقامات من أعلى عبوديات الضراء.

وخيراً للمؤمن أن تُعجل عقوبته في الدنيا - إذا لم يكتب له ربه مغفرة لها وعفواً عنها - ويعظم التكفير، ويجلّ الجزاء، بحسب حجم الابتلاء، ودرجة وقوعه على العبد، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به»^(٢) يوم القيامة. وإنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(٣). قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ شارحاً: «الأمور كلها بيد الله عز وجل وإرادته،

(١) البخاري (٢٩٩٦)

(٢) الموافاة هنا هي الاستيفاء، أي: أخذ الحق كاملاً مستوفياً، والمراد: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفى الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب، عياداً بالله تعالى.

(٣) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي. وأخرجه ابن ماجه (٤٠٣١) باللفظ الثاني فقط. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الزاد (٥٠٦ / ٣): «يؤدّب الله عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عينه، وهان عليه؛ فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث الله له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة، التي لا عافية معها».

لأن الله يقول عن نفسه: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [النُّجُوم: ١٦] ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] فكل الأمور بيد الله، والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، إما بهاله، أو بأهله، أو بنفسه، أو بأحد ممن يتصل به.

المهم أن تُعَجَّلَ له العقوبة، لأن العقوبات تكفر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة وكفر الله بها عن العبد؛ فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب، قد طهرته المصائب والبلايا، حتى إنه لِيُشَدِّدَ على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

لكن إذا أراد الله بعبده الشر أمهل له، واستدرجه، وأدرّ عليه النعم، ودفع عنه النقم، حتى يبطر ويفرح فرحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه، وحينئذ يلاقي ربّه وهو مغمور بسيئاته؛ فيُعاقب بها في الآخرة. نسأل الله العافية!

فإذا رأيت شخصًا يبارز الله بالعصيان، وقد وقاه الله البلاء، وأدرّ عليه النعم؛ فاعلم أن الله إنما أراد به شرًّا؛ لأنّ الله أخر عنه العقوبة حتى يوافي بها يوم القيامة.

ثم ذكر في هذا الحديث: أنّ عظم الجزاء من عظم البلاء، يعني أنه كلما عَظُمَ البلاء عَظُمَ الجزاء، فالبلاء السهل له أجر يسير، والبلاء الشديد له أجر كبير؛ لأن الله عز وجل ذو فضل على الناس، إذا ابتلاهم بالشدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير، وإذا هانت المصائب هان الأجر.

وإن الله إذا أحب قوم ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط. وهذه بشرى للمؤمن إذا ابتلي بالمصيبة، فلا يظن أن الله سبحانه يبغضه، بل قد يكون هذا من علامة محبة الله للعبد، يبتليه سبحانه بالمصائب، فإذا رضى الإنسان وصبر واحتسب فله الرضا، وإن سخط فله السخط.

وفي هذا حثٌّ على أن الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرضا من الله عز وجل، والله الموفق»^(١). وقال رَحِمَهُ اللهُ أَيْضًا في القول المفيد: «قد تكون المصائبُ أكبرَ من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا: فعليه السخط، مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فَصَلَتْ: ٤٦]. فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى «على»، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرَّغَد: ٢٥] أي: عليهم اللعنة. وقال آخرون: إن اللام على ما هي عليه، فتكون للاستحقاق، أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرَّغَد: ٢٥]؛ أي: حَقَّتْ عليهم

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١ / ٤٨)

باستحقاقهم لها، وهذا أصح^(١). وفي المعتصر: «وإذا أراد الله بعبده الشر»: «عبده هنا مثل عبده الأول، لكنه المسرف على نفسه بالمعاصي. وهل معنى الحديث أن الله يريد الشر؟ وكيف نوفق بينه وبين قوله ﷺ: «والشرُّ ليس إليك»^(٢)؟ هنا سمى الإمساك عن العقوبة شرًّا باعتبار العبد، وإلا باعتبار فعل الله فعديل^(٣).

ومعنى: «أمسك عنه بذنبه»: الممسوك عنه هي البلايا والعقوبة. بذنبه: الباء سببية، بمعنى أنه ما عاقبه بسبب ذنوبه، ولكن أمسك عنه العقوبة، وقد تكون بمعنى الاستحقاق أي مع أنه مستحق بذنبه. ونسب الذنوب إلى العبد: لأنها كسبه. وهذه الذنوب هي ما دون المكفّرات. أما حتى هنا فهي لانتهاة الغاية، أي: إلى غاية أن يوافي به يوم القيامة.

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٧٩)

(٢) أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (١ / ٢١٥)

(٣) قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: حديث: «والشرُّ ليس إليك» يعني أن أفعال الله تعالى لا توصف بالشر؛ بل كلها عدل، أو فضلٌ وخير، لما فيها من الغايات المحمودة؛ لكن ما يُضاف للعبد يكون شرًّا بالنسبة له؛ لكن بالنسبة للقدر هو خير.

مثلاً: أصيب فلان بفقد والده، أصيب بفقد ماله؛ فهذا بالنسبة له سوء وشر؛ لكن بالنسبة إلى القدر وفعل الله تعالى هو خير؛ لأنّه لا يُنظرُ إلى المسألة بمجرد ما؛ بل إلى الغاية المحمودة من ورائها، والغاية المحمودة من ورائها أن يتتلي العباد بذلك، يتتلي الحي، يتتلي الميت ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٠]. فإذا أفعال الله تعالى كلها خير، وأما ما يضاف إلى العبد فينقسم إلى الخير والشر. إتخاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٨ / ١٧)

وهل كل مصيبة علامة خير؟ لا. إلا إن وُفق إلى الصبر فهي علامة خير، وإن لم يصبر فهي علامة شرّ.

وقوله: «إن عظم الجزاء»: فإذا نظرت إلى هذه الكلمة «الجزاء» وآخر الحديث تبين لك أن في هذا الحديث دلالة على أن المصائب رافعة للدرجات. «مع عظم البلاء»: المعية هنا ليست معية مقترنة، وإنما الجزاء يأتي بعد البلاء؛ لأنه مترتب عليه.

وهل الجزاء مع كل بلاء مطلقاً؟ لا. ليس كل بلاء معه جزاء إلا بشرطه، وشرطه هنا: أقله اثنان وأكثره ثلاثة: إما الصبر والرضا، أو الصبر والرضا والشكر^(١).

وقوله: «مع عظم البلاء»: أي أن عظم البلاء معه عظم جزاء. هل هو باعتبار الكمية أو الكيفية؟ قد يكون هذا وقد يكون هذا. «وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً»: فيه إثبات أن الله يحب. والمعطلة لا يشتون المحبة لله تعالى. وقوله «قوماً»: هنا نكرة، والمقصود بقوم: أي المؤمنين. والدليل: أن الله لا يحب الكافرين، وهؤلاء القوم محبوبون. وقوله «ابتلاهم»: أي: أصابهم ببلايا

(١) الأظهر أن أقلّه واحد وهو الصبر، لأنه واجب، والعبد مستحق للأجر بأداء الواجب، أما الرضا ففضيلة، وأعني به الرضا بالمقضي. أما أكثره فأربعة بزيادة الحمد لأن الحمد غير الشكر، فالحمد أعم من جهة أسبابه، والشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد عبادة جليلة وهي داخلة في هذا الباب دخولاً أولياً، والله أعلم.

ومصائب، ورزقهم ما يشبههم عليها ويثبتهم. ويدل هذا الحديث بالمفهوم أن قلة الجزاء مع قلة البلاء.

قوله «فمن رضي»: هنا ذكر الرضا فهو يدل على الصبر وزيادة. وقوله: «فله الرضا» هذا جزاء رضائه أن يرضى الله عنه، فيترتب على ذلك كثرة الثواب. «ومن سخط» أي: كره، وما تبع الكراهة من أعمال الجوارح. «فله السخط» فهذا جزاءً وفاقاً، فلما سخط سخط الله عليه، فيترتب على ذلك العقوبة. ودل الحديث على فضل الرضا، وأنه يزيد في الدرجات، ويزيد في التوحيد^(١).

وهنا سؤال كبير: كيف يميز العبد في المقضي المؤلم (المصيبة) بين العقوبة والابتلاء؟

والجواب: أن بينهما عموم وخصوص، فما كان على ذنب فهو عقوبة، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] وقوله جل شأنه: ﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء : ٦٢] وقوله عز اسمه: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٩]. ومالم يكن على سالف ذنب، أو كان مغفوراً فهو محض الابتلاء، فقد كان رسول الله ﷺ مغفور الذنوب سالفها ولاحقها ومع هذا فقد كان من أشد الناس بلاء، وهو القائل: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الإنسان على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في

(١) المعتصر شرح كتاب التوحيد للخضير (١ / ٢١٩) باختصار وتصرف يسيرين.

بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفِّفَ في بلائه»^(١). وقد تكون المصيبة مستغرقة للعقوبة والابتلاء، فتستنفذ الذنب وتدخل في الابتلاء.

وكل المصائب خير للمؤمن خلا مصيبة الدين، فالمصائب مُمَحَّصَةٌ، مُكْفَّرَةٌ، رافعة للدرجة، مقربة من الله، مُزَهِّدَةٌ في الدنيا، مُرَغِّبَةٌ في الآخرة، فالبلاء يجمع بين العبد وربّه، والعافية تجمع بينه وبين نفسه. ويا بن آدم: لقد بُورِكَ لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وصدق أبو الفتح البستي رَحِمَهُ اللهُ إذ يقول:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبِرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاقَةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وقال الغنيان حفظه الله في قوله ﷺ: «إذا أراد الله بعدة الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا»: أي: يصبّ عليه البلاء والمصائب؛ لما فرط من الذنوب منه فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح

كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع؛ حصل له من النفاق، والجزع، ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات، وفعل بعض المحرمات، ما يوجب له ضررًا في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها»^(١).

ظاهر قول الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّهُ يرى أن المصائب تكفر الذنوب، وهذا هو الظاهر، أما حصول الثواب والأجر فهو بأسباب أخرى، كأن يكون بالصبر عليها، وكونها تحدث للإنسان إنابة إلى الله، وذل، وتعلّق به، ودعاء إليه، فهذا أمر آخر، أما المصيبة نفسها فهي كفارة فقط، تكفر ما وقع منه، وليس فيها أنه يكتب له فيها الثواب، وإنما يكفر عنه بها ما وقع من المعاصي وترك الطاعات الواجبة عليه إذا اتصل بها شيء، سواء كان مما يدعو إلى الإنابة والتوبة والاستغفار والدعاء فهذا أمر آخر يثاب عليه، أما إذا كانت سببًا للإعراض والتضجر والاعتراض على الله جل وعلا والسخط مما قضاه عليه؛ فإنها تكون مصيبة أخرى ليس له فيها كفارة، وربما وقعت منه مصيبة أكبر من المصيبة التي أصيب بها! فهذا يقع فيه كثير من الناس.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠ / ٤١، ٢٨ / ٤٦٠)

وبعض الناس يكون المرض الذي يقع فيه غير مُنبّهٍ له، بل يبقى على حالته التي هو عليها حتى تجده يترك الصلاة؛ لأن كونه مريضاً لا يستطيع أن يتوضأ ولا يستطيع أن يصلي، وهذا يوجد في كثير من المرضى، وهذا خطر عظيم ومعصية كبيرة، بل قد تكون كفراً، نسأل الله العافية.

فالصلاة لا تسقط عن الإنسان بحال من الأحوال، وإذا مرض الإنسان فينبغي له أن يحرص على أداء الصلاة على حسب حاله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن لا يترك الصلاة، وإن استطاع أن يتوضأ وتوضأ، وإن استطاع أن يصلي قائماً صلى قائماً، وإن لم يستطيع الوضوء تيمم، فالتيمم ليس صعباً، فإذا لم يكن عنده من يوضئه ويعينه على وضوئه تيمم، فإن كان عنده من يفعل ذلك فإنه يجب عليه ذلك، أما إذا كان لا يستطيع أن يخرج فيوضع له قليل من التراب في إناء ويتيمم فيمسح وجهه ويديه، وإذا لم يستطع هو ذلك فالذي عنده يفعل به ذلك وييممه، فيأخذ بيديه ويضعها على التراب، ثم يسمح بها وجهه وكفيه، ثم يقول له: صل، فيصلي على حسب حاله، ولو بالإشارة يشير برأسه.. فما دام العقل عنده صاحباً فلا تسقط عنه الصلاة بحال، ولا يجوز أن يترك الصلاة، فقد يموت قبل أن يُشفى، فيكون موته وهو تارك للصلاة، نسأل الله العافية، فهذا خطر عظيم يجب أن ينبه عليه الناس، فمثل هذا يكون المرض - وهو مصيبة - قد سبب مصيبةً أخرى أكبر منها، نسأل الله العافية.

فالمسألة: أن الناس يختلفون في البلاء الذي يصيبهم، فمنهم من يرجع إلى الله بسببه وينيب، ومنهم من يتعدى عن الله جل وعلا ويكون سبباً في تضجره

وتسخطه على الله، ويقول: أنا لا أستحق هذا الشيء - يعني: أن الله ظلمه عيادًا بالله - وأنا ما عملت شيئًا، أنا أصلي وأنا أفعل كذا، وأنا وأنا ولكن ما أدري من أين جاءت هذه المصيبة؟! هكذا نسمع بعضهم يقول! والذي لا يقول هذا بلسانه يمكن أن يقول في قلبه شيئًا من ذلك، وإذا كان في قلب الإنسان شيء من ذلك فإنه يكفي في هلاكه؛ لأن الله جل وعلا يحكم بالعدل، ولا يصاب من مصاب إلا بسبب أمر تركه أو ذنب ارتكبه، كما أخبر الله جل وعلا.

ويجب أن يتّعظ الإنسان بالمصائب، فتكون المصيبة موعظة له، فيتعظ ويحاسب نفسه، ويتعد عن المعائب التي يُعاب عليها دينًا، فيتعد عنها ويستغفر ربه منها، فمثل هذا تكون المصيبة قد طهرته من الذنب، وكفرت عنه ذنبه، ولهذا يوجد من الناس من إذا وقع في مصيبة يخرج منها كأنه ليس عليه شيء، كأن لم يعمل ذنبًا، كيوم ولدته أمه، وهذا من فضل الله ورحمته بالعبد، فلهذا العبد لا يسوؤه أنه يُصاب بشيء، لا ينبغي أن تكون هذه السيئة تسوؤه، فليعلم أن هذا فضل من الله وعدل، ثم لينزجر ويتعظ، ويكثر الرجوع إلى الله، وليجعل ذلك سببًا لرجوعه وتعلقه بالله جل وعلا؛ لأن الإنسان ضعيف، فلو جوزي مثلاً بما يعمل أو جمع كل ما يعمل حتى يوافي به يوم القيامة فقد يهلك، يمكن أن ترجح سيئاته على حسناته فيكون من الخاسرين.

فيجب على الإنسان أن يحمد ربه، وهذه صفة المؤمن، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر

فكان خيرًا له، وإن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»
(١).

أما المنافق والكافر فهو مثل البعير الذي يُعقل ثم يُطلق عقالُه، ولا يدري لماذا عُقِلَ، ولا يدري لماذا أُطلق عقالُه! فالمؤمن ينبغي أن يكون بهذه الصفة: إذا أصيب بشيء يكره صبر واحتسب، وصار هذا سببًا في خضوعه وذهابه ورجوعه إلى الله واستغفاره، وإن أصيب بنعم حمد الله وشكره وأوجب ذلك له زيادة طاعة الله جل وعلا، حيث أحدث له نعمًا فيحدث لله طاعة.

قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ (٢): «فمن ابْتَلِيَ فُرْزَقَ الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كُفِّرَ من خطايا رحمة، وحصل له بثناؤه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك». انتهى ملخصًا. أي: أنه يمثل الآية، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ومعنى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: نحن ملك له وعبيد له يتصرف فينا كيف يشاء، لا نملك لأنفسنا شيئًا، فإذا أصابنا شيء فهو إليه جل وعلا، ولا يجوز لنا أن نعترض على شيء من ذلك، إنا لله مُلْكًا وعبيدًا، يفعل بنا ما يشاء، ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، أي:

(١) مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩)

(٢) أي: صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، وهو عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ. (ت: ١٢٨٥)

مرجعنا إليه فيجازينا على أعمالنا، فإن كان الإنسان شاكراً جازاه خيراً، وإن كان كافراً لا يلقى إلا جزاء عمله فقط، ولا يظلم شيئاً، والشاكرون هم الذين يقول جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وصلاة الله على عبده أن يثني عليه عند الملائكة، ومن أثنى الله عليه عند ملائكته أحبته الملائكة وصارت تدعو له بسبب بذلك، ملائكة الله جل وعلا الذين في السماء يستغفرون له ويدعون الله له، فيكتسب عملاً ما كان يعمل هو استغفار الملائكة، وهذه الصلوات صلوات الله، وأما الرحمة فأمر آخر: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ثم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه العبد إذا أصيب بشيء أن يقول هذا، لعله يتحصّل على هذا الفضل العظيم، وهو صلاة الله ورحمته جل وعلا، ولو لم يكن في المصيبة إلا هذا لكفى أن يرتبط الإنسان به.

وكون الإنسان يكون معافى دائماً ينبغي أن لا يفرح، فقد يكون دليلاً على أن الله لا ينظر إليه، وأنه مُعرّض عنه، نسأل الله العافية! قال الشارح رَحْمَةُ اللَّهِ: قوله: «وإذا أراد بعبده شراً أمسك عنه بذنبه» أي: أخر عنه العقوبة بذنبه. «حتى يُوافي به يوم القيامة» وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بـ«حتى» مبنياً للفاعل، قال العزيزي: وهذه الجملة هي آخر الحديث. فأما قوله: وقال النبي ﷺ: «إنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ» إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء، وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

الابتلاء سنة ماضية، يُبتلى الناس على قدر دينهم، فمن تَخَنَ دينه اشتدَّ بلاؤه، ومن قلَّ دينه قلَّ بلاؤه، وأشدُّ الناس ابتلاء هم الأنبياء عليهم السلام. والواجب عند نزول البلاء هو الصبر والرضا وعدم التسخط، فمن صبر ورضي أجر على مصيبته، وكُفِّرَ بها من سيئاته، ومن سخط وقعت عليه مصيبته، ولم يؤجر عليها، وليعلم أن عظم الجزاء مع عظم البلاء.

وظاهر حديث: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ» هو أصل المسألة التي ذكرنا: أن البلاء والمصائب عليهما جزاء، فمعناه: إذا كان الإنسان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم وأكبر، فيدل على أن المصيبة يُجزى بها الإنسان.

وقد جاء صريحاً في حديث ابن مسعود: لما دخل على النبي ﷺ وهو مريض، قال له: إِنَّكَ لَتَوَعَّكَ وَعَكًّا شَدِيدًا، قال: «نعم»، أو قال: «أجل، كما يُوعَّكَ اثْنَانِ مِنْكُمْ»، وقال: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قال: «نعم» يعني: إذا كان هذا مرضه أشدَّ فيكون أجره أكثر، وهذا الحديث صريح في ذلك، وهذا هو الصواب أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة إن كان له ذنوب كفَّرت بها، مقابل ذلك، ولا يخلو أحد من الذنوب أبداً. «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١).

(١) الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٢٤٥١). وحسنه الألباني.

وفي الحديث الصحيح: «لو لم تذنبوا لذهب الله، بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم»^(١). لأن الله جل وعلا من أسمائه الغفار والعفو والرحيم والتواب، فلا بدّ أن تظهر آثار أسمائه جل وعلا على خلقه، فهذا مقتضى خلقه وأسمائه وصفاته تعالى وتقدس، فكل بني آدم والجن - وهم المكلفون - يقعون في أخطاء كثيرة، وخيرهم الذي إذا أخطأ تاب، ثم الملائكة خلقوا للعبادة، أي: أنه خلص خلقهم للعبادة وكلفوا بذلك، ولهذا لا يوجد عندهم ما عند بني آدم من العصيان: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٦]، دائماً وأبداً، فهم جنس آخر من غير جنس بني آدم.

فإذا كان الإنسان خطؤه عظيماً فتكون المصيبة مقابل الخطأ، فإن كانت أكبر وأشد من خطئه صار منها ما هو مُكَفَّرٌ، ومنها ما هو في رفعة درجاته عند الله، وفي الأثر: «إِنَّ الْإِنْسَانَ تَكُونُ لَهُ دَرَجَةٌ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ، فَيَبْتَلِيهِ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِالمَصَائِبِ حَتَّى يَبْلُغَ تِلْكَ الدَّرَجَةَ».

وهذا القول هو الصواب من أقوال العلماء: أنه يختلف الناس فيها، إذا اشتد البلاء والإنسان ليس له من الذنوب ما يقابل ذلك فإن هذا رفعة لدرجاته، وزيادة في حسناته، ولهذا فإن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم يُبْتَلَوْنَ بتكذيب قومهم وبأذيتهم، وربما بقتلهم.

(١) مسلم ٩٤/٨ (٢٧٤٩) (١١) وفيه قد ابتدأ الخبر بالقسم فقال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا...».

ومعلوم أنهم خير الخلق، فخير بني آدم هم الأنبياء والرسل: «أشدُّ الناس بلاءَ الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الإنسان على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقةٌ خُفِّف في بلائه» (١).

فتكون بلواه على حسب ما عنده من الدين، وهذا من رحمة الله جل وعلا، لأنه لو زيد في بلاء الإنسان الذي دينه ضعيف لَقَدَّم دينه دون عرضه حتى يسلم، فالله جل وعلا لطيف بعباده، وهو حسب مصالحهم، فإنه إذا أراد الخير بعبده هياً له أسباب ذلك بفعله هو، وإن لم يكن من فعله ما يصل به إلى الدرجة العالية وقد أراد الله له تلك الدرجة ابتلاءه بالمصائب، سواء كانت مصائب قدرية أو مصائب بسبب الناس، وإن كانت كلها بالقدر، فما يقع شيء إلا بقدر الله جل وعلا، ولكن الأسباب قد تكون أثراً من آثار الناس الذين يفعلون ذلك وهم مسئولون عن أفعالهم، وإن كان أمرهم مقدراً؛ لأن العاقل والمكلف لا بد أن يُطالب بأعماله، وليس لأحد حجة بالقدر، فيقول: هذا مقدَّر عليّ، أنا فعلت الشيء المُقدَّر عليّ! لأنَّ الإنسان مكلف بأعمال محددة من الطاعات، ومنهيٌّ عن أعمال محددة من المعاصي يستطيع أن يتركها، والطاعات يستطيع أن يفعلها، وقد علم بذلك وقيل له: هذا طريق الخير فاسلكه، وهذا طريق الشر فاجتنبه.

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

فإذا ارتكب شيئاً من المناهي بعد ذلك فاللوم عليه، وليس له أن يقول: إن الله قدّر عليّ ذلك، فهو الذي فعله، وما يدريك أنه قدّر عليك قبل أن تفعل ذلك، فعليك أن تجتهد، فإذا وقعت في ذنب فلا تقل: هذا مقدّر، ولكن قل: أستغفر الله وأتوب إليه، فاستغفر واسترجع، وعُد على نفسك باللوم، أما إذا قال الإنسان: أنا وقعت في القدر، فمعنى ذلك: أنا أجعل اللوم على القدر لا على نفسي، يبرئ نفسه من ذلك، ويجعل اللوم على ربه، فهذا يكون مقتدياً بإبليس عندما قال لربه: ﴿يَمَّا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] الله أغواه، أم هو الذي أغوى نفسه؟ هو الذي اختار الغواية، ولما قيل له: اسجد، أبى وقال: أنا خير منه وهناك سجدت الملائكة، ولكنه أبى هو باختياره، فهو الذي غوى بفعله.

فلا يحتجّ بأن الله قدّر ذلك، الله جل وعلا قدّر كل شيء؛ لأنه هو المالك لكل شيء، ولكن أعطاك القدرة على الفعل الذي كلّفك به، وأعطاك القدرة على ترك الأفعال التي حرمها عليك، فإذا امتثلت الأمر كنت موافقاً للقدر وموافقاً للشرع، وإذا لم تمتثل الأمر كنت عاصياً، وإن كنت لا تخرج عن مقدور الله جل وعلا، فلا أحد يخرج عن مقدور الله، ولكن العقلاء كلّفوا بعدما أعطوا العقل بالشيء الذي يستطيعونه.

أمّا حديث: «إذا أحبّ الله قوماً ابتلاهم..» فقد قال بعض العلماء: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح كالصبر والرضا والتوبة

والاستغفار، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء..» أي: إذا صبر واحتسب.

على كل؛ الحديث مطلق، والأحاديث التي ذكرنا مطلقة، فكوننا نقيّد الأحاديث بشيء لم يقيدها به رسول الله ﷺ هذا ليس وارداً، والمفهوم شيء، والمنطوق شيء آخر.

ومعلوم أن النصوص يجب أن يؤخذ بظاهرها إلا إذا جاءت نصوص أخرى تخالفها؛ لأن النصوص من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله ﷺ لا تتعارض، بل يصدق بعضها بعضاً.

هذا؛ وإن ابتلاء الأنبياء والأولياء دليل على أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، «وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم»^(١)، ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أيُّ الناس أشدَّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل..»، وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله؛ عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرّم قصدهم والرغبة إليهم لقضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠) ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

هذا واضح وجلي، فقد ابتلي بعض الناس - نسأل الله العافية - بالتعلق بدعاء المخلوق والشرك به، ويوجد كثير من الناس يعبدُ رسولَ الله ﷺ، ويعبدُ الأولياء، ويتلمّس لذلك الأدلة، مع أن كتاب الله جل وعلا ودعوة الرسل كلها جاءت بوجوب إخلاص العبادة لله وحده، وأنّ الإلهية له وحده، ولكن الشيطان لا يزال بالإنسان حتى يحرف الأمور الواضحة الجلية، فيجعل العبادة غير العبادة، ويجعل التعلّق في قالب آخر، فإذا جاء الشر صريحاً صار يؤوله^(١).

والمعروف أن كثيراً من الناس يتعلقون بمن يسمّونهم أولياء، مع أن الولاية أمرها خفيّ، فقد يظهر للإنسان أنّ فلاناً صالحٌ أمام الناس، وهو في نفسه فاسد ليس صالحاً، وليست المسألة مسألة ما يظهر للناس، وإنما هو الشيء الذي يكون عند الله للإنسان، فقد يري الناس مثلاً أنه مطيع ومن الفضلاء، فإذا توارى عن الناس عصى الله تعالى، وهذا يوجد بكثرة، وقد يكون هذا المرض واضحاً عند كثير من الناس. فكون هذا ولياً أمر لا يعلمه

(١) تأمل ثناء الله تعالى في سورة الأنعام على ثمانية عشر رسولاً ونبياً في سياق واحد مُتّصل، ثم ختم الثناء العظيم بقوله الحاسم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] وقال في سورة الإخلاص الكبرى «الزمر» للنبي الخاتم ﷺ: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] فلا مساحة في نقض التوحيد. فالشرك ينقض العمل كله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢].

إلا الله، إلا أن يخبرنا الرسول ﷺ عن إنسان بعينه، وكونهم مثلاً يتعلقون به أمر محرم. هذا أمر.

الأمر الثاني: أن الدين الإسلامي جاء بوجوب الإخلاص لله وحده، ووجوب متابعة الرسول ﷺ في مثل هذين الأمرين، فكون العبادة كلها لله خالصة ليس فيها شيء لغيره، وكون العبادة جاء بها رسول الله ﷺ لا تكون بالاختيار، أو بالنظر، أو بالاستحسان، أو بما يتعارف عليه الناس ويصطلحون عليه كالموالد وما أشبه ذلك من الأمور التي يفعلونها ثم يبحثون عن الأدلة من بعيد، ويتعلقون بأشياء عجيبة، فيقولون: إنها مشروعة، كيف كانت مشروعة وهي أول ما أحدثت في القرن السادس؟! هل احتفل الرسول ﷺ بمولده؟! وهل احتفل به أحد من صحابته؟!!

هذا لا يثبت إلا كذاب مكابر، فكيف يكون بعد ذلك عبادة؟! وفيها هوى النفوس واستيلاء الجهل عليها، وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وهذا مثال فقط.

ثم كون العمل مقصود به وجه الله وحده فقط، ثم إذا دخله شيء من الإرادات والمقاصد؛ فإنه إما أن يفسد فيصبح حابطاً، وإما أن يكون ناقصاً على الأقل كما سيأتي. وإن ذهب بعضه وبقي بعضه إذا كان شيئاً واحداً فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له، وبعد هذا كله كيف يكون مخلوق مكلف خلقه الله ليتعبده، كيف يكون شريكاً لله في الإلهية أو في العبادة؟ والأمور في هذا واضحة، ولكن الذين يحبون الشرك ويدعون إليه يُغالطون.

الله جل وعلا لما أخبر عن الملائكة أنهم عباد مكرمون، وأنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ﴾ [الأنبياء : ٢٩]، ماذا يكون؟ ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء : ٢٩]، يصلى جهنم.

فالقرآن كله ودعوات الرسل كلها تصب في هذا الأصل العظيم الذي ضل عنه كثير من الناس، وصار يغالط ولا يعتمد إلا على رؤيا كقولهم: رأيت كذا، وفلان رأى كذا، أو على حكايات وقصص خرافية، كقولهم: إن فلاناً دعا الولي الفلاني أو تعلق به فحصل له كذا وحصل له كذا، أو على أحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ، أو على تحريفات كتحريفات اليهود الذين حرفوا النصوص تحريفات واضحة، ثم يستاء بعد ذلك أن يقال: إن بلوى الرسل وما يصابون به دليل على أنهم عباد، وأنهم ليس لهم من الربوبية مع الله شيء، وليس لهم من الإلهية مع الله شيء! احتج على القول لشدة الجهل والعناد، وشدة ترك ما جاء به الرسول ﷺ من بعض الناس.

ومعلوم ما وقع فيه سيد الخلق رسول الله ﷺ من أعدائه، لقد أُخرج من مكة، ثم لم يستطع الدخول إلا بجوار رجل مشرك، وذهب إلى الطائف فرموه بالحجارة حتى أدموا عقبيه صلوات الله وسلامه عليه، وردوا عليه ردّاً من أسوأ ما يكون، ثم قال جاهل من ثلاثة من كبارهم وساداتهم كانوا مجتمعين فعرض عليهم أمر الله ودعاهم فقال أحدهم: ما وجد الله أحداً غيرك حتى أرسلك؟! بهذه السخرية والتهكم، والآخر قال: إنه يسرق كسوة الكعبة إن كنت رسولاً، وهذا استهزاء صريح، والآخر قال: لا أكلمك كلمة، لئن كنت صادقاً فلأنت أعظم من أن أردّ عليك، ولئن كنت كاذباً فلأنت أحقر

من أن أكلمك! أهذا جواب الذي جاء بالبينات والهدى الواضحات؟! ثم بعد ذلك يُغَرَى به السفهاء والصبيان، فيرمونه بالحجارة ويضربون عقبه حتى يخرج منه الدم صلوات الله وسلامه عليه، ثم يخرج ولا يدري إلى أين يتجه صلوات الله وسلامه عليه، قد ذهب فكره، فلم يفق إلا وهو بقرن الثعالب الذي يسمى: السيل العالي من الطائف، وهناك رجع إلى فكره ودعا بالدعوة المعروفة المشهورة وقال فيها: «إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي»^(١). فيقول: كلُّ مصيبة تصيبني بها لا أبالي ما دام أنها بأمرك ولطاعتك، فيحمد الله على ذلك.

ثم كذلك يوم بدر قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله؛ هل مرّ بك يوم أشدّ من يوم أحد؟ قال: «يا عائشة؛ لقد لقيتُ من قومك...»^(٢). وذكر يوم الطائف.

(١) الطبراني في الكبير (١٣/٧٣/١٨١) وضعفه الألباني في السلسلة (٦ / ٤٨٧) من جهة تدليس وعنينة ابن إسحاق.

(٢) البخاري ١٣٩/٤ (٣٢٣١) ومسلم ١٨١/٥ (١٧٩٥) (١١١) وتامه: عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال،

ويوم أحد شُجَّ في وجهه صلوات الله وسلامه عليه، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟!»^(١). ثم بعد ذلك أنزل الله جل وعلا عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٨]، فالأمر كله لله، فامثل أمر سيدك، وامض حيث أمرت وكلفت، ثم بعد هذا يأتي قائل ويقول:

يا أكرم الخلق ما لي من الودُّ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلا فقل يا زلَّة القدم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلَّى باسم منتقم
يقول: إذا غضب الله يوم القيامة فأنا أستجير بك من الله! - نسأل الله العافية - ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلم
إذا كان من جملة جود النبي ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح الذي كتب فيه كل شيء، والقلم الذي كتب كل شيء، فماذا بقي لله؟ ما أبقى لله شيئًا، نسأل الله العافية! ثم يصبح هذا الكلام نصًّا، ويُحفظ كما تحفظ

=

فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

(١) البخاري (٤٠٦٨) ومسلم (١٧٩١) بنحوه.

الفاخرة؛ بل بعض الناس يقرؤه مساءً وصباحًا، ويجعله وردًا كآية الكرسي والمعوذتين وما أشبه ذلك.

وليس هذا إلا انحرافًا واضحًا، وتعلّقًا بالمخلوق وتركًا للخالق جل وعلا الذي بيده أزمّة الأمور وكل شيء، ومن الذي يزين هذه الأمور؟ يزينها شياطين الجن والإنس، ويحسنونها ويجعلونها بقلاب تعظيم النبي ﷺ ومعرفة حقوقه.

يؤخذ خالص حق الله جل وعلا ويوضع في المخلوق، فإنه لو كان رسول الله ﷺ مواجهًا لهم لقاتلهم أشدّ من قتاله لكفار قريش؛ لأنهم خالفوه صراحة، وجاءوا بما لم يأت به مشرك من المشركين، نسأل الله العافية.

وعلى العبد أن يرضى بالقضاء وبالقدر وأن يسلم أمره لله، ولا يعترض ولا يتضجر، بل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أصابنا شيء إلا بإذن ربنا، وله الحمد على ذلك، فيكون عبدًا صحيحًا، فيسلم وينقاد، لا يعترض ولا يتضجر، ولا يتوجع، ولا ينافي هذا كونه يتعالج إذا كان مريضًا، أو كونه يصف المرض ويقول: أنا عندي كذا وكذا، وأجد كذا وكذا لمن يكون عنده شيء من العلاج، فهذا لا ينافي كونه يُسلم وينقاد لعدم الاعتراض، كما أنه لا ينافي التسليم كونه يئنّ في مرضه، وبعض العلماء يقول: الأئين شكاية، كما روي عن طاووس رَحِمَهُ اللهُ، ولهذا لما بلغ ذلك الإمام أحمد وهو في مرضه صار لا يئنّ حتى مات رَحِمَهُ اللهُ، ولكن كون المريض يجد في أئنيه شيئًا من الراحة فلا بأس، وليس معناه أنه يشتكي أو يتوجع.

فالمقصود: التسليم والرضا، وهو أن يسلم وينقاد، وألا يكون قلبه متسخطاً أو متوجعاً من ربه، فإذا تعالج أو وصف مرضه فإنه لا يكون منافياً لذلك؛ لأن العلاج سبب من الأسباب التي وضعها رب العالمين، والأسباب أمر الله جل وعلا أن نبذلها كما جاء في الحديث لما قالوا للنبي ﷺ: هل نتداوى؟ قال: «نعم. تداووا عباد الله، فإن الله ما وضع داءً إلا ووضع له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا داءً واحداً وهو الهرم»، وفي رواية: «الموت»^(١). لأن هذه الحياة لا بد أن تنتهي.

قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ: «ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانسباطاً، محبةً لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّ الله بِقِسْطِهِ وعدله جعل الرُّوحَ والفرحَ باليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزن بالشكِّ والسخط»^(٢)»^(٣). «وإنَّ الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمناً، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال: آمناً؛ امتحنه ربّه وابتلاه وفتّنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمناً فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

(١) ابن ماجه (٣٤٢٧) وصححه الألباني. وأحمد (١٨٤٥٥) بلفظ: «إلا الموت والهرم». وحسنه محققوه.

(٢) شعب الإيمان (١٧٦/١) والحلية (١٢٢/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩)

(٣) شرح فتح المجيد للغنيمان (٩٤-١٠٣ / ١) مختصراً.

وكيف يفرّ المرء عنه بذنبه إذا كان تُطَوَّى في يديه المراحل
فمن آمن بالرسول وأطاعهم عاداه أعداؤهم وأذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم
يؤمن بهم ولم يُطعهم عُوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا
المؤلم له أعظم ألماً وأدوم من ألم اتّباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس
آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم
تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً
ثم يصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: أيُّ أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال: «لا
يُمكن حتى يُبتلى». والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلمّا صبروا مكّنهم،
فلا يظنّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول،
فأعقلهم من باع ألماً مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهاهم من باع الألم
المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر. فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل:
الحامل له على هذا النقد والنسيئة^(١) والنفس مُوَكَّلَةٌ بحبّ العاجل^(٢).

وللمؤمن الصالح موقف ثابت مع الابتلاء، فعليه أن يعلم أنّ المصائب
والبلاء امتحانٌ من الله تعالى له، لصبره ورضاه وحمده وشكره، بل وإيمانه،
وهي علامة حبّ الله له؛ فهي كالدواء، فإنّه وإن كان مُراً إلا أنّك تُسديده على

(١) النقد هو العاجلة أي: متاع الدنيا الزائل، أما النسيئة فهي التأخير، والمراد الآجلة وهو
أجر الآخرة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١١)

مرارته لمن تُحِبُّ، وتتجرَّعه على كراهة مذاقه، والله المثل الأعلى. كيف وعبداه
يُلِظُّ حينها بيا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام! ﴿فَسْتَبْصِرْ وَيُبْصِرُونَ﴾^(١)
بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ [القلم: ٥٠-٦٠].

تالله ما الدَّعَوَاتُ يهزمها الرَّدَى يوماً وفي التاريخ برُّ يميني
ضع في يديَّ القيدَ، ألهب أضلعي بالسوطِ، ضَعْ عُنْقِي على السَّكِينِ
لن تستطيع حصارَ فكري ساعةً أو نزعَ إيماني ونورَ يقيني
فالنورُ في قلبي، وقلبي في يَدَيَّ ربِّي، وربِّي ناصري ومُعيني
سأعيشُ مُعْتَصِماً بحبلِ عقيدتي وأموتُ مبتسماً ليحيَا ديني
ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدْخِرَ له العقاب في الآخرة - وأن كانت
العافية خير - وكيف لا وفيه تُرفعُ درجاته وتكفَّرَ سيئاته. قال الحسن
البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لا تَكْرَهُوا البَلَايَا الواقعة، والنِّقَمَاتُ الحادثة، فَلَربَّ أَمْرٍ
تَكْرَهُه فيه نجاتك، وَلَربَّ أَمْرٍ تَوَثَّرَ فيه عَطْبُكَ»^(١).

وقال الفضل بن سهل: «إن في العلل لِنِعَمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها،
فهي تمحيص للذنوب، وتَعَرُّضٌ لثواب الصبر، وإيقاظٌ من الغفلة، وتذكيرٌ
بالنعمة في حال الصحة، واستدعاءٌ للتوبة، وحُضٌّ على الصدقة».

تَذَكَّرْ هَذَا اللهُ يَوْمَ قِيَامَةٍ بِهِ النَّارُ تُذَكَّى مِنْ حُومِ الطَّوَاغِيَا

(١) أي: هلاكك.

أَمَّا عَرَفَ الْمَسْكِينُ شِدَّةَ حَرِّهَا فَيَا وَيْحَ وَاحْشِرًا لِمَنْ كَانَ عَاصِيَا
والمؤمن يجتهد لمراضي ربه تبارك وتعالى، فهو يبحث في العافية عن مزيد
الشكر، والبلاء عن عظيم الأجر، ولا سبيل إليه إلا بالصبر، وفوقه الرضا
والحمد والشكر، ولا سبيل إلى ذلك بعد توفيق الله إلا بعزيمة إيمانية وإرادة
بالله قوية. فهلّم للرضوان، ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ ٣٤ ﴿ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ ٣٥ [القيامة :
٣٤ - ٣٥].

الْكُفْرُ بِالنَّعْمَةِ يَدْعُو إِلَى زَوَالِهَا وَالشُّكْرُ أَبْقَى لَهَا
وما أجمل تلك اللحظات التي يفرّ فيها العبد إلى ربه، ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾
[الدَّارِيَات : ٥٠] ويعلم أنه وحده هو مُفَرِّجُ الْكَرْبِ، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل : ٦٢] وما أعظم الفرحه إذا أنزل الله الفرج بعد الشدة،
قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ١٥٧ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧].

وَكُلُّ شَدِيدَةٍ نَزَلَتْ بِقَوْمٍ سَيِّئَاتِي بَعْدَ شِدَّتِهَا رَخَاءٌ
وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم
أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت:

فلما مات أبو سلمة قلت: أيّ المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها^(١) فأخلف الله لي رسول الله ﷺ^(٢).

إنّ المؤمن يسأل ربه العافية على الدوام، فإن نزل البلاء صبر ورضي وحمد وشكر، فعن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله عز وجل. قال: «سل الله العافية». فمكثت أياماً ثم جئتُ فقلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله، فقال لي: «يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة»^(٣).

وربّ بلاءٍ مبارك! فمن البلاء ما يكون سبباً لدخول الجنة والنجاة من النار إن وفق الله صاحبه لحسن التعامل معه ظاهراً وباطناً، قال ﷺ: «يودُّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أنّ جلودهم كانت قرّضت بالمقاريض»^(٤).

(١) اتباعاً للسنة، فحقق الله لها أعظم ما لم يخطر ببالها، ليقينها وتصديقها وحسن ظنها بربها سبحانه.

(٢) مسلم (٩١٨)

(٣) الترمذي (٣٥١٤) وقال حديث صحيح، وكذلك صححه الألباني.

(٤) الترمذي (٢٤٠٤) وحسنه الألباني (٢٨٧/٢)

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عاد مريضاً ومعه أبو هريرة، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يقول: هي ناري أُسْلَطَها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظّه من النار في الآخرة»^(١).

ومن بركات البلاء ردُّ العبدِ إلى كَنَفِ ربه ولطفِ مولاه، وتذكيره بمعصيته وإيقاظه من غفلته وشرّاده، فيكون هذا البلاء سوطاً للقلب يردّه لسيده، ويسوقه لمولاه، ويحدوه لمغفرته، ويدخله على ربه من أوسع أبوابه. فمن فوائد البلاء مرضاً أو حبساً أو قلةً أو مظلمةً أو غيرها أَنَّهُ يردُّ العبدَ الشارد عن ربه إليه، ويذكره بمولاه بعد أن كان غافلاً عنه، ويكفّه عن معصيته بعد أن كان منهمكاً فيها، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) [التور: ٣١].

ومن غايات الابتلاء الربانية والطفاه الرحمانية الخفية أَنَّ العبد قد تكون له منزلة عظيمة عند الله تبارك وتعالى، وليس للعبد من صالحات الأعمال ما تبلّغهُ إياها، فلا يزال به ربُّه الرحيم يبتليه بالبلاء تلو البلاء، ويُنزِل عليه المصائب، ويتابع عليه الكربات، ويقرعُ فؤاده بالملِّمات؛ حتى يبلغ المنزلة بألمه وصبره، وقد يُوفِّق للرضا والحمد والشكر، قال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ

(١) أحمد (٩٦٧٦) وجود إسناده محققه. وأبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني في الجامع

من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى»^(١).

وإذا دخل أهل الجنة الجنة؛ انقطع التكليف، وارتفعت الستور، وزال الابتلاء، وانتهى الامتحان، وحلّ عليهم الرضوان، وأعطاهم الله ما يشتهون من ألوان النعيم، وأعظمه النظر لوجه الجميل الكريم سبحانه وبحمده، فلا إله إلا الله.

ومن نعيمهم أن أباح لهم بعض ما حرم عليهم في الدنيا ابتلاء وحفظاً، جزاء طاعتهم وصبرهم، مع أنه لا مقارنة بين ما في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الخمر، قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣] وقال تعالى: ﴿بَيِّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾^(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ^(٤٧) [الصافات: ٤٦ - ٤٧] وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾^(٤٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ^(٤٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ^(٤٩) [الواقعة: ١٧ - ١٩].

فيا أيها المبتلى تفاءل بخير ربك، وأحسن الظن بمن لا يأتيك الخير إلا من عنده، ولا يندفع الضرر إلا به.

ألا وإن مواطن الابتلاء كثيرة، فهي لا تنحصر في الأمراض والمصائب ونحوها من حالات الضراء، بل هناك أيضاً فتنة السراء، وكما قد يُبتلى العبد بالضراء ليُختبرَ أيرضى أم يسخط، فإنه قد يُبتلى بالسراء ليُختبرَ ويُمْتَحَنَ أيُشكر

(١) أبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني.

أم يكفر. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء : ٣٥]، وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل : ٤٠]، فليس بلازم أن يُبتلى العبد بالضراء.

وقد أخرج الترمذي عن رجلٍ كان يخدم عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَضَرْتُهُ أَتَى بِطَعَامٍ لَيْلاً، وَكَانَ ظَلَّ يَوْمَهُ صَائِماً، فَبَكَى، وَقَالَ: «ذَهَبَ الْأَوَّلُونَ، لَمْ تَكَلِّمْهُمْ»^(١) الدنيا من حسناتهم شيئاً، وَإِنَّا ابْتُلِينَا بِالضَّرَاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَاءِ فَلَمْ نَصْبِرِ^(٢)، وَكَفَى لَامِرِيٍّ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي أَمْرِ»^(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «نعمة الضراء احتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتححتاج إلى الصبر على الطاعة فيها. فَإِنَّ فِتْنَةَ السَّرَاءِ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الضَّرَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى»^(٤). وَالْفَقْرُ يَصْلُحُ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَالْغِنَى لَا يَصْلَحُ عَلَيْهِ إِلَّا أَقَلُّ مِنْهُمْ. وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَسَاكِينُ، لِأَنَّ فِتْنَةَ الْفَقْرِ أَهْوَنُ، وَكِلَاهُمَا يَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ

(١) الكلم: الجرح، والمراد لم يتحدث الدنيا دينهم.

(٢) قالها إزاء على نفسه وتواضعاً، لَأَنَّهُ قَارَنَ حَالَهُ بِأَخْرَجَ بِحَالِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَّا فَهُوَ مُشْهُودٌ لَهُ بِالْبِرِّ وَالشُّكْرِ وَالْإِحْسَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الترمذي (٢٤٦٤) وحسنه.

(٤) البخاري (٦٣٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ».

والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم؛ اشتُهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَ لَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ [هود: ١٠-١١]. ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر، فإن صبر هذا وشكر هذا واجب إذا تركه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجباً، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يُغفر له ما يغفر من سيئاته. وكذلك صاحب الضراء يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين.

وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغفر له لما يأتي به من الصبر. فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس.

والمقصود هنا؛ أن الله تعالى منعمٌ بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه.

وأما ذنوب الإنسان فهي من نفسه، ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة^(١)، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان. ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: «اللهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحداً أسعد بما علّمتني مني»^(٢).

وفي دعاء القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ٨٥] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الْمُنْتَحَنَة : ٥] كما فيه ﴿وَأَجْعَلْنَا لِّلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الْفُرْقَان : ٧٤] أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم^(٣)، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى. و«الآلاء» في اللغة: هي النعم، وهي تتضمن القدرة. قال

(١) نعمة في حق من أورثته توبة وإنابة، فأبدلها بالحسنات الماحية والطاعات الوازنة، فأدم عليه السلام ارتفع مقامه بعد توبته فصار بعد التوبة خيراً منه قبل الذنب. والتوبة عبادة مقصودة لذاتها، وهي باب الدخول الأعظم على الله تعالى في حق كل مذنّب، وكلنا كذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تدبر أصول الشرع علم أنه يتلطّف بالناس في التوبة بكل طريق». تفسير آيات أشكلت (٥٩٥/٢).

(٢) ذكره ابن بطة في الإبانة من دعاء مطرف بن عبد الله. قال: كان مطرف بن عبد الله بن الشخير يدعو بهؤلاء الدعوات الخمس الكلمات: «اللهم إني أعوذ بك من شر الشيطان، ومن شر السلطان، ومن شر ما تجري به الأقلام، وأعوذ بك من أن أقول حقاً هو لك رضى أبغني به حمد سواك، وأعوذ بك من أن أترين للناس بشيء يُشِينِي عندك، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن يكون أحد هو أسعد بما علّمتني مني». الإبانة (٢ / ١١ / ٢٨٠ / ١٩١٥). وهو دعاء لتحصيل التحصين من خيبة العمل، وهو دعاء حسن جامع.

(٣) وهي إمامة الدين والقدوة الحسنة.

ابن قتيبة: لما عدّد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه، وذكر عباده آلاءه ونبّههم على قدرته؛ جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين، لتفهم النعم، ويقرّروهم بها.

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى، وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق فهو نعمة ودليل على قدرته وعلى حكمته، لكن نعمة الرزق والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يستدل بها كما في سورة النحل، وتسمّى سورة النعم، كما قاله قتادة وغيره.

وعلى هذا فكثير من الناس يقول: الحمد أعمّ من الشكر من جهة أسبابه، فإنّه يكون على نعمة وعلى غير نعمة^(١)، والشكر أعمّ من جهة أنواعه، فإنه يكون بالقلب واللسان واليد^(٢).

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة، والحمد لله على كل حال، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده^(١)، لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم، والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا^(٢).

(١) لأنّ الحمد هو الثناء على من يستحق الثناء لجمال صفاته، حتى وإن لم يُحسن إلى الحامد، أما الشكر فهو الثناء على من أحسن إلى الشاكر.

(٢) كما قيل:

أفادتكمُ النعماءُ منّي ثلاثةً يدي ولساني والضميرُ المحجّبَا

=

(١) فكل قضاء الله لعبده خير ما لم يبعده عنه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٠٦ - ٣٠٨) باختصار. وقد بين رحمه الله سبب ضلال الجهمية والجبرية والقدرية هنا فقال إتماماً لما سبق: «والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا، وكذلك القدرية الذين يقولون: لا تعود الحكمة إليه؛ بل ما ثم إلا نفع الخلق، فما عندهم إلا شكر، كما ليس عند الجهمية إلا قُدرة، والقدرية المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد، وحقيقة مذهبهم أنه لا يستحق الحمد؛ فله ملك بلا حمد، كما أن عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك، وعند السلف له الملك والحمد تامين، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فله الوجدانية في إلهيته، وله العدل وله العزة والحكمة، وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نقص الرب بعض حقه.

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته، والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلاً ولا عزة ولا حكمة، وإن قال: إنه يثبت حكمة ما ومعناها يعود إلى غيره، فتلك لا تكون حكمة، فمن فعل لا لأمر يرجع إليه، بل لغيره؛ فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم. وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر، فهو أول الشكر والحمد. وإن كان على نعمة وعلى حكمة فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر.

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر، ولم يُعظم أمر الحمد مجرداً إذ كان نوعاً من الشكر، وشرع الحمد الذي هو الشكر مقولاً أمام كل خطاب مع التوحيد، ففي الفاتحة الشكر مع التوحيد، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد. والباقيات الصالحات نوعان: فسبحان الله وبحمده فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله أكبر

=

وقد عقد شيخ الإسلام الثاني ابن القيم فصلاً بديعاً في مفتاح دار السعادة وذكر فيه شيئاً عن حُكْمِ الله تعالى في ابتلاء أوليائه فقال: «وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكمال كماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنحة في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة، تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان»^(١).

=

فيها التوحيد والتكبير، وقد قال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]. «مجموع الفتاوى (٨/ ٢١١-٢١٢)

وعليه؛ فقد رجع الحمد إلى الشكر، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من الحامدين الشاكرين المقرّين السابقين، إله الحقّ أمين. وبالله التوفيق.

(١)

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ	يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذِّكْرِ
وَكَمْ يُسِرُّ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرِ	فَفَرَّجَ كُرْبَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
وَكَمْ أَمْرٍ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحًا	وَتَأْتِيكَ الْمَسَرَّةُ بِالْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْأَحْوَالُ يَوْمًا	فَثَقَّ بِالوَاحِدِ الْفَرْدِ الْعَلِيِّ

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه - وهي إخراجهم من الجنة وتوابع ذلك - لما وصل الى ما وصل إليه، فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح عليه السلام، وما آلت اليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها، حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الارض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمدًا عليه السلام أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث^(١) إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم^(١) وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته

(١) قال تعالى: ﴿مَلَأْنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] فإبراهيم عليه السلام أب للعرب الإسماعيليين من جهة النسب، وأب للمسلمين كافة من جهة أبوة النبوة، وأبوة النبوة هي لنبينا أصالة وللمرسلين تبع، وهي بمعنى أبوة الروح، وهي أعظم من أبوة الجسد والنسل، وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٣٨١): رُوِيَ عَنْ أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا قَرَأَ: «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبُّ لَهُمْ»، وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ مَعَاوِيَةَ، وَمَجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَالْحَسَنِ: وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ. حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ، وَاسْتَأْنَسُوا عَلَيْهِ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ..» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٨) وَالْحَاكِمُ (٣٥٥٦). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَكُونَنَّ هَجْرَةٌ بَعْدَ هَجْرَةٍ إِلَى

وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه، ونصره دينه؛ إلى أن اتخذ الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبّهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده^(٢) فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل.

=
مُهاجر أبيكم إبراهيم.. رواه أحمد (٨٤/٢) وجوّد سنده الحافظ في الفتح (٣٨٠/١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا بدّ من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: «إنكم لن تلجؤوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين» ولذلك كان النبي أباً للمؤمنين كما في قراءة أبي: «النبّي أُولَى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبّ لهم» ولهذا تفرّع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإنّ أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادةً أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدت حقائق آخر وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿الرَّ كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].
طريق المهجرتين (١ / ٣٥)

(١) بمعنى أن العالم ليس له قيام بدون الملة المنسوبة إليه وهي الحنيفية، كما قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ١٧٨].

(٢) قال الشربيني رَحِمَهُ اللهُ: «وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره».

=

فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم

=

أولها: أنه اعتزل عن الخلق على ما قال: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].
ثانيها: أنه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، لا جرم سماه الله أباً المسلمين فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].
ثالثها: تلّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، لا جرم فداه الله تعالى على ما قال: ﴿وَقَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

رابعها: أسلم نفسه فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، فجعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه فقال: ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].
خامسها: أشفق على هذه الأمة فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات في دعائهم: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم».
سادسها: وفي قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [التجم: ٣٧]، لا جرم جعل موطن قدميه مباركاً، و﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].
سابعها: عادى كل الخلق في الله فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، فاتخذ الله خليلاً كما قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. تفسير السراج المنير (٣٤١ / ٢) باختصار يسير. وأصلها من تفسير الرازي (٢٩٩١ / ١)

بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضاءً منها وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبحٍ عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله. وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤوا الأرض، فإنَّ المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [الصَّافَّاتُ : ١٠٠]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ [إِبْرَاهِيم : ٤٠]. فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام، وما آلت اليه محنته وفُتُونُهُ من أوَّل ولادته إلى منتهى أمره^(١)، حتى كلمه الله تكليماً، وقربه منه، وكتب له

(١) قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَفَتَّنَكَ فُتُونًا﴾ [طه : ٤٠] فقال بعضهم: ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختباراً. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَفَتَّنَكَ فُتُونًا﴾ يقول: اختبرناك اختباراً. وقال: ابتليت بلاء. وعن قتادة: ابتليناك بلاء. وقال الضحاك: هو البلاء على إثر البلاء. وقال آخرون: معنى ذلك: أخلصناك. وعن مجاهد ﴿وَفَتَّنَكَ فُتُونًا﴾: أخلصناك إخلاصاً. وكذلك عن سعيد بن جبير. قال أبو جعفر: وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا معنى الفتنة، وأنها الابتلاء والاختبار. تفسير الطبري (١٨ / ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١) مختصراً.

وقال السعدي: ﴿وَفَتَّنَكَ فُتُونًا﴾ «أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه» تفسير

التوراة بيده، ورفعته إلى أعلى السماوات، واحتمل له مالا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون، وجره إليه، ولطم وجهه ملك الموت ففقأ عينه.. وربّه يحبّه على ذلك كلّهُ، ولا سقط

=

السعدي (١ / ٥٠٤) وقال البيضاوي: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ «وابتليناك ابتلاء أو أنواعاً من الابتلاء، على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجرة وبدرة، فخلّصناك مرّة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألف، والمشي راجلاً على حذر، وفقد الزاد، وأجر نفسه.. إلى غير ذلك». تفسير البيضاوي (١ / ٥٠) وقال الشربيني في تفسير السراج المنير (٢ / ٥٠١): «فإن قيل: إنه تعالى عدّد أنواع منّته على موسى في هذا المقام، فكيف يليق بهذا الموضع: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾؟ أجيب بجوابين:

الأول: فتناك أي: خلّصناك تخليصاً، من قولهم: فتنتُ الذهب إذا أردت تخليصه من الفضة أو نحوها.

الثاني: أن الفتنة تشديد المحنة، يقال: فتن فلان عن دينه، إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُودِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢٥] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ [العنكبوت: ٣٠-٣١]. ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عدّه الله تعالى من جملة النعم.

فإن قيل: هل يصح إطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقاً من قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]؟ أجيب: بأنه لا يصح، لأنه صفة دم في العُرف، وأسماء الله تعالى توقيفية، لا سيما فيما يوهّم ما لا ينبغي». أه.

شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه، ثم بني إسرائيل وما آذوه به، وما صبر عليهم لله؛ لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله وما تحمله منهم، حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلبهم ملكهم وخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ، وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه؛ من سلم وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه، وظعن عنه وتركه الله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يؤذ نبي ما أؤذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعا. وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات.

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه

من الدنيا حظٌّ مَنْ خُلِقَ لها وَخُلِقَتْ له، وَجُعِلَ خَلَاقُهُ وَنَصِيْبُهُ فيها! فهو يأكل منها رَغْدًا، وَيَتَمَتَّعُ فيها حتَّى يَنَالَهُ نَصِيْبُهُ من الكتاب.

يُمْتَحَنُ أوليَاءُ الله وهو في دَعَاةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ، وَيَخَافُونَ وهو آمِنٌ، وَيَحْزَنُونَ وهو في أهله مَسْرُورٌ، له شَأْنٌ وَلَهُمْ شَأْنٌ، وهو في وادٍ وَهُمْ في وادٍ. هُمُّهُ ما يَقيِمُ به جَاهَهُ، وَيَسْلَمُ به مَالَهُ، وَتُسْمَعُ به كَلِمَتُهُ، لَزِمَ من ذلك ما لَزِمَ، وَرَضِيَ من رَضِي، وَسَخَطَ من سَخَطَ. وَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ إِقَامَةُ دِينِ الله، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ، وَإِعْزَازُ أوليائِهِ، وَأَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ له وَحْدَهُ، فَيَكُونَ هو وَحْدَهُ المَعْبُودَ لَا غَيْرَهُ، وَرَسُولُهُ المَطَاعَ لَا سِوَاهُ، فَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ من الحُكْمِ في ابْتِلَائِهِ أنبياءَهُ وَرسلَهُ وعبادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ما تَتَقَاصِرُ عقولُ العَالَمِينَ عن معرفته، وَهَلْ وَصَلَ من وَصَلَ إلى المَقَامَاتِ المَحْمُودَةِ والنِّهَايَاتِ الفَاضِلَةِ إِلَّا على جِسْرِ المَحَنَةِ والابْتِلَاءِ؟!

كَذَا المَعَالِي إِذَا مَا رُمْتَ تَدْرِكُهَا فَاعْبُرْ إِلَيْهَا على جِسْرِ من التَّعَبِ

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الحِكْمَةَ البَاهِرَةَ في هَذَا الدِّينِ القَوِيمِ والمِلَّةِ الحَنِيفِيَّةِ والشَّرِيعَةِ المَحْمُودِيَّةِ الَّتِي لَا تَنَالُ العِبَارَةَ كِمَالَهَا، وَلَا يَدْرِكُ الوَصْفَ حَسَنَهَا، وَلَا تَقْتَرِحُ عقولُ العُقَلَاءِ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ وَكَانَتْ على أَكْمَلِ عقلِ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَوْقَهَا، وَحَسَبُ العُقُولِ الكَامِلَةِ الفَاضِلَةِ إِنْ أَدْرَكَتْ حَسَنَهَا، وَشَهِدَتْ بِفَضْلِهَا، وَأَنَّ مَا طَرَقَ العَالَمَ شَرِيعَةً أَكْمَلُ وَلَا أَجَلُّ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهَا، فَهِيَ نَفْسُهَا الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ له، وَالْحُجَّةُ وَالْمُحْتَجَّجُ له، وَالدَّعْوَى وَالْبَرْهَانُ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ الرِّسُولُ بِبَرْهَانٍ عَلَيْهَا لَكَفَى بِهَا بَرْهَانًا وَآيَةً وَشَاهِدًا على أَنَّهَا من عِنْدِ الله، وَكُلُّهَا شَاهِدَةٌ

له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة، والبر، والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، ومَن ارتضاهم لها، فلهذا امتنَّ على عباده بأن هداهم لها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤]، وقال معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهمها، بل يُتمّها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليّها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقاً، وهم قابِلُوها. وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خُصّوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بعلَى المؤذنة بالاستعلاء والاشتغال والإحاطة، فجاء: (أتممت) في مقابلة: (أكملت)، و(عليكم) في مقابلة (لكم)، و(نعمتي) في مقابلة (دينكم).

وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [الْمَائِدَة : ٣] وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دينٍ لو أنَّ
له رجالاً^(١).

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٣٠١ - ٣٠٤) مختصراً. رَحِمَهُ اللهُ ما أنفع كتبه. وقد قال عنه
الإمام الشوكاني البدر الطالع (١ / ١٤٤): «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف،
وله من حسن التصرف في الكلام، مع العذوبة الزائدة، وحسن السياق، ما لا يقدر عليه
غالبُ المصنفين؛ بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب،
وليس له على غير الدليل معوّل في الغالب، وقد يميل نادراً إلى مذهبه الذي نشأ عليه،
ولكنه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة؛ كما يفعله غيره من
المتمذهبين، بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف، والميل مع الدليل
حيث مال، وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث، وطول
ذيله، أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما تشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن
الدليل، وأظنه سرت بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء، والقيام معه في
محنة ومواساة بنفسه، وطول ترده إليه، فإنه ما زال ملازماً له من سنة ٧١٢ إلى تاريخ
وفاته.

وبالجملة: فهو واحدٌ من قام بنشره السنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثّة أعظم جُنة،
ف رَحِمَهُ اللهُ، وجزاه عن المسلمين خيراً. وحكي عنه قبل موته بمدة: أنه رأى شيخه ابن
تيمية في المنام، وأنه سألَه عن منزلته؟ فقال: إنه أنزل فوق فلان. وسمى بعض الأكابر -
وقال له: أنت تلحق به، ولكن أنت في طبقة ابن خزيمة، ومات في ثالث شهر رجب
سنة ٧٥١. رَحِمَهُ اللهُ.

هذا؛ وإنّ في صبر النبي ﷺ على أذى المشركين أمثلة رائعة يجدر بالدعاة إلى الله تعالى، بل بعموم المسلمين أن يقفوا عندها ويتأملوها، ليتأسّوا بالنبي ﷺ، فهو خير أسوة لخير أمة، ومن ذلك: ما كان مشركو مكة يُلقون على عتبة النبي ﷺ من الأنتان والأقذار، وقد كان صابراً محتسباً، وما كان يزيد على قوله: «يا بني عبد مناف؛ أيّ جوار هذا؟!»^(١).

وبعد أن اشتدّ أذى قريش للنبي ﷺ عقب وفاة عمه أبي طالب، خرج النبي ﷺ إلى الطائف للدعوة وطلب النصرة من ثقيف، ولكنهم لم يستجيبوا له، بل كفروا به، وأمروا صبيانهم وسفهاءهم أن يصطفّوا على الطريق صفّين، وأن يرموه بالحجارة، فرجموه ﷺ بالحجارة حتى أدموا عقبه الشريف. قال ابن إسحاق رحمه الله: «ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يؤمّنون سادته ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة عبدُ ياليل بن عمرو ومسعود بن عمرو وحييب بن عمرو، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على

(١) سيرة ابن هشام، (٤١٦/١) وتاريخ الطبري، (٣٤٣/٢)

الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو^(١) يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلّمك أبداً، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنّ أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يس من خير ثقيف. وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني». وكره رسول الله ﷺ يبلغ قومه عنه فيذترهم ذلك عليه.

فلم يفعلوا، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلّة من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي

(١) يعني نفسه، ولكن لورع الراوي وإجلالاً للكعبة أن يذكر ما يؤهمّ السوء على نفسه حيالها لم يذكرها كما قالها، بل قال «هو» بدلاً من «أنا»، ومثل هذا رواية وفاة أبي طالب حينما روى الراوي قوله: «أنا» إلى «هو على ملة عبد المطلب». رواه البخاري (١١٩/٢). ولا زال هذا على الألسن دارج، وهو سائغ بليغ جميل شريف.

غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٥٠٥)، والطبراني (١٣٩/١٤) (١٤٧٦٤)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (١١١/٦)، وابن عساکر في (تاريخ دمشق) (١٥٢/٤٩) باختلاف يسير. ورجاله ثقات، غير ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن. وابن إسحاق إمام في المغازي ضعيف في الحديث، فإن أخذت الخبر كسائر أخبار السيرة المرسلة فهو كما ترى، وعليه شواهد من جلال وبهاء أنوار النبوة، أما إن أعملت الصنعة الحديثية ففي صحته كلام. والحديث قد روي مرسلًا عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وبالجملّة؛ الحديث لا يثبت، لتدليس ابن إسحاق، ولإرسال محمد بن كعب القرظي والزهري. وهو حديث مشهور، وضياء النبوة ظاهر عليه، فهو وإن لم يثبت سندًا إلا أن معانيه ثابتة بنصوص أخرى، وفيه ثناء على الله تعالى وافتقار إليه وتمجيده وتوحيده، فهو قبس من مشكاة النبوة، إما تعيينًا بلسانه ﷺ أو شمولًا بتعليمه أمته أدب الدعاء والمناجاة والحمد، وقد تتابع علماء السيرة على ذكره والإفادة منه. وانظر: البيهقي في الدلائل: ٢: ٤١٤ - ٤١٧ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، وهو مرسل، ولم يذكر الدعاء، وأورد السيوطي الدعاء في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني ورمز له بالحسن. وقد ضعفه الألباني في فقه السيرة (١ / ١٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع: ٦: ٣٥: «وفيه ابن إسحاق. وهو مدلس، وبقيّة رجال ثقات». وذكره ابن هشام في سيرته ٢/ ٤٢٠. وروي مرسلًا: عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)، وتاريخ الطبري (١/ ٣٤٥) والبدایة والنهاية (٣/ ١٤٧)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٩٦) وفيض القدير: ٢: ١٥٠ - ١٥١ (١٤٨٣) وكتر العمال (٣٦١٣، ٣٧٥٦). وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٧١).

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما؛ فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «باسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى» فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي». فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عدّاس قالوا له: ويلك يا عدّاس! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي؛ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما

=

وكان ابن تيمية وابن القيم يذكرانه من ضمن أدعية النبي ﷺ، وهو دعاء عظيم المعاني، جليل الفوائد، عليه أنوار النبوة. وانظر: العبودية (١ / ٨٦)، ومجموع الفتاوى (٦ / ٣٨٧)، وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٣١). ومعنى يتجهّمني: أي: يستقبلني بوجه كره.

يُعلمه إلا نبيّ. قالوا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

قال: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جنّ أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأخفاف: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرُّكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأخفاف: ٣١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة^(١).

فصلى الله وملائكته وصالح عباده وسلّم وبارك على هذا النبي الشفيق الكريم، وقد أحسن جهاد جحا حينما أنشد:

وَلَرُبَّ حَاجَاتٍ تَعَسَّرَ نَيْلُهَا	وَالْحَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي تَعْسِيرِهَا
كُنْ وَاثِقًا بِاللَّهِ فِيمَا قَدْ قَضَى	وَاتْرُكْ أُمُورًا قَدْ دَعَاكَ لِغَيْرِهَا
وَاجْعَلْ حَيَاتَكَ كُلَّهَا بِيَدِ الَّذِي	لَوْلَاهُ لَنْ تَقْوَى عَلَى تَدْبِيرِهَا
وَاتْرُكْ هَوَاكَ لِأَمْرِ رَبِّكَ وَاحْتَسِبْ	لَا تَلْتَفِتْ لِنَفْسٍ عِنْدَ زَيْبِهَا

(١) تهذيب سيرة ابن هشام (١/ ١٢٣ - ١٢٤)

مَنْ يَتَّقِ الرَّحْمَنَ يَلْقَ سَعَادَةً يَعْيا لِسَانُ الْخَلْقِ عَنْ تَفْسِيرِهَا

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرّيته مما سواه؛ فكما أنّ طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] (١).

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عُدَّةً أَتَتْهُ الرِّزَايَا مِنْ جَمِيعِ الْمَطَالِبِ

ومن جميل ما هتفت به يراعة الشاعر الأندلسي أبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي المتوفى سنة ٥١٣ هـ وتسمى «القصيدة المنفرجة» وهي على روي منفرجة الغزالي الأنفة، قال ابن النحوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) العبودية، ابن تيمية (١ / ٨٧)

اشْتَدَّيْ أَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ
 وَظَلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ
 وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الْإِبَّانُ تَجِي
 وَفَوَائِدُ مَوْلَانَا جَمْلٌ لِسُرُوحِ الْأَنْفُسِ وَالْمُهْجِ
 وَلَهَا أَرْجٌ مُحْيِي أَبَدًا فَاقْصُدْ مَحِيَا ذَاكَ الْأَرْجِ
 فَلَرُبَّمَا فَاضَ الْمَحِيَا يَبْحُورِ الْمَوْجِ مِنَ اللَّجَجِ
 وَالْخَلْقُ جَمِيعًا فِي يَدِهِ فَذُوو سِعَةٍ وَذُوو حَرَجِ
 وَنَزُوهُمْ وَطُلُوْعُهُمْ فَعَلَى دَرْكِ وَعَلَى دَرَجِ
 وَمَعَائِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ لَيْسَتْ فِي الْمَشْيِ عَلَى عَوَجِ
 وَرِضًا بِقَضَاءِ اللَّهِ حَجَّيْ فَعَلَى مَرَكُوزَتِهِ فَعُجِ
 وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدَى فَاعْجِلْ لِحَزَائِنِهَا وَلِجِ
 وَمَعَاصِي اللَّهِ سَمَاجَتُهَا تَزْدَانُ لِيَذِي الْخُلُقِ السَّمِجِ
 وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحِ مُنْبَلَجِ
 وَاتْلُ الْقُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي حَزَنٍ وَبِصَوْتٍ فِيهِ شَجِي
 وَصَلَاةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا فَاذْهَبْ فِيهَا بِالْفَهْمِ وَجِي

وَتَدَبَّرْهَا وَمَعَانِيَهَا تَأْتِ الْفَرْدَوْسَ وَتَنْفَرِجُ
 وَكِتَابُ اللَّهِ رِیَاضَتُهُ لِيُقْوَدَ الْخَلْقَ بِمُنْدَرِجِ
 وَخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاهُمُ وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ
 وَإِذَا كُنْتَ الْمَقْدَامُ فَلَا تَجْزَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ



أحكامُ تَمَنِّي الموتِ خشيةَ الفتنَةِ أو غيرها

جعل الله تعالى الموت راحةً لَوَلَّيْهِ من وَصَبِ الدنيا وَنَصَبِ لأوائِها، ونهايةً سعيدةً لعبده من ضيقها وَعَنْتِهَا وَكَدَرِهَا وَعَنَائِهَا، ومعبرًا وحيدًا للوصولِ إليه تعالى ولقائه ورؤيته وسَلَامِهِ في دار السلام، قال ﷺ: «تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ»^(١). والرب تبارك وتعالى يُبَشِّرُ عباده بـلقياه في الدار الآخرة بقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ : ٥٠].

وإذا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا لم تَجِدْ لقضائه رَدًّا ولا تَبْدِيلًا

فالموت هو الباب الوحيد للقاء وليِّ الله تعالى ربّه تعالى، وهو طريق الوصول للجنة والدار الآخرة، ولقاء الأحاب كرسول الله ﷺ والمرسلين والصحابة والسابقين، وكأحاب المؤمنين من خاصته الذين سبقوه كوالديه أو أجداده أو زوجه وذريته وأقاربه وجيرانه وأحابه الذين فَرَطُوهُ بالرحيل للدار الآخرة، لذلك قال غير واحد من الصحابة عند موتهم: مرحبًا بحبيب جاء على فاقة^(٢)! فهذا معاذُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول عند احتضاره: «مرحبًا بالموت مرحبًا! زائرٌ مُغَبٌّ، وحبيبٌ جاء على فاقة»^(٣)، وكذلك بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين قالت

(١) مسلم (١٦٩، ٤/٢٢٤٥)

(٢) الفاقة: هي الحاجة الشديدة.

(٣) الزهد. لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/٢٣٩).

زوجته عند موته: واكرّباه! قال: «لا، بل واطرباه! غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه»^(١). وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين احتضر: «جاء حبيب على فاقة، لا أفلح من ندم»^(٢). يعني على التمني. وقال عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصفين: «اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه»^(٣). وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحبُّ الموت اشتياقاً إلى ربي»^(٤). فالجوارُ الذي يُحرّصُ عليه هو الجوار في جنات النعيم، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٥) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴿٧٠﴾ [النِّسَاء : ٦٩ - ٧٠].

جاورتُ أعدائي وجاورَ ربُّهُ شتّانَ بينِ جِواره وجِواري
أما الكافر فحين يأتيه موته فلا شيء يكرهه أكثر مما أمامه، فيضيقُ واسعُه،
ويستوحشُ أنسه، ويخاف حينَ لات مأمِن، ويهلك حين يفوته النجاء، ولاتَ
حين الذي يرجو، ويوقن حينها بأن الله هو الحق المبين، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ﴿١٨٥﴾ [آل عمران : ١٨٥].

فنفسك لم، ولا تلم المطايا ومُت كمدًا، فليس لك اعتذارُ
وقد يأخذه ابتداء وهمه إلى لقيا أحبته الغابرين، لكن هيهات فلا سعادة في
الآخرة لكافر، فإنهم يتبرؤون من بعضهم، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ

(١) الشفاء (٢/ ٥٦٩).

(٢) الحاكم في المستدرک (٤/ ٥٤٧).

(٣) البزار في مسنده (١٤١٠).

(٤) أبو داود في الزهد (٢٣٧)، والبيهقي في الشعب (٩٦١١).

لِبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الرُّحْف: ٦٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٢]، ولما من رسول الله ﷺ على اليهودي الزبير بن باطا القرظي بشفاعة خطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس ليد كانت لليهودي عليه في الجاهلية، فوهبه نفسه وأهله وماله، وبعد أن توثق من ذلك كله سأل عن أحبابه من اليهود الذي دُبحوا، فأخبره، فقال بكل خيبة وخذلان وحسرة: «إني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة»! فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق، قوله: «ألقى الأحبة»، قال: «يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلداً»^(١).

إذا الحياة لغير الله وجهتها فطولها في صميم الأمر نقصان
فدربها ضيقة تُفضي لمهلكة وزادها جلمد في شكل عقيان
فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا فالموت والعيش بعد اليوم سيان!
وبعد؛ فكثير من الناس يسأل عند كثرة الفتن واضطراب أحوال الفرد أو الجماعة سؤالاً يدل على حرصهم على لقاء ربهم تبارك وتعالى وهم أنقياء أتقياء معافون، فيقول القائل منهم: هل تمنّي الموت من رخص الفتن؟

(١) الخبر بطوله في سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٣). والناضح: الحبل الذي تستخرج بواسطته المياه من البئر بالسانية، والمراد بقوله: «فتلة دلو ناضح»، هو مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت فيصبها في الحوض، يفتلها أو يردّها إلى موضعها.

والجواب: أن الأصل للمؤمن تَمَيُّ بقاءه في الحياة ليعبد ربه ويستكثر من خيره، فكل يوم يمرّ عليه يزيد فضله وأجره وذخره إلى منقلبه، وتقربه قرايين قبوله إلى رضوان ربه، فقد قال ﷺ: «خيرُكم من طال عمره وحسن عمله» (١).

والمؤمن مسلمٌ أمره إلى ربه ووليّه، فيرضى بما قضى الله له بالبقاء أو الرحيل، ويجاهد نفسه على إرضاء ربه تبارك وتعالى على كل حال وفي كل حين، وهو يعلم بكل أحواله أن الموت غاية كل حي.

ألا يا ابنَ الذين فنُّوا وبَادُوا أما والله ما ذَهَبُوا لَتَبْقَى

بيد أنه يَرُخَّص في الفتن ما لا يُرَخَّص في غيرها، وذلك لأن الفتن العامة والخاصة سببٌ في اضطراب الأمور، وانقلاب القلوب، وانتكاس الأحوال، واختلال الأديان، واخترام العزائم، وإظلام البصائر إلا من عصم الله تعالى بحياة صالحة رشيدة، أو موت مُسلمٍ مُذهبٍ، فقد روى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ (٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في حديث اختصام الملأ الأعلى: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ..» الحديث، وقد حمل الإمام مالك (٣) دعاء عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اللهم كبرت سنِّي، وضعفت قوَّتِي، وانتشرت رعتي؛ فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفترط» الذي رواه عنه في

(١) أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرناؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٢٣٣) وصححه الألباني.

(٣) كما في الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٨٢).

موطئه فقال: «ولا أرى عمر دعا على نفسه بالشهادة إلا أنه خاف التحوّل من الفتن، وقد كان يحب البقاء في الدنيا»، وكان من دعائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر عمره: «اللّهُمَّ ارزقني شهادة في سَبِيلِكَ، واجعل موتي في بلدِ رسولك. قالت حفصة: فقلت: أنى يكون هذا؟ قال: يأتيني به الله إذا شاء»^(١). وقد استجاب الله دعاءه، فتوفاه صديقاً شهيداً راضياً مَرْضِياً.

من لم يمُت بالسيف مات بغيره تنوّعت الأسباب والموت واحدٌ وعليه؛ فلا يُشرع تمنّي الموت عند الضرر إلا إن خاف المؤمن على دينه، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنّ أحدكم الموت لضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللّهُمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(٢). وفي رواية قال أنس: لولا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت»، لتمنّيته^(٣).

فدل الحديث على النهي عن تمنّي الموت لأجل مصائب الدنيا، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على المقدّر، وعدم الرضا بالقضاء، وهذا من رقة الدين، وضعف اليقين في الأغلب.

ولا يلزم من وجود ذلك ضعف الإيمان لكل من تمنّى الموت لضرر الدنيا، بل قد يكون سبب تمنّيه جهله بالحكم الشرعي وعدم بلوغه النهي، أو نسيانه

(١) البخاري (١٨٩٠).

(٢) البخاري ١٥٦/٧ (٥٦٧١) ومسلم ٦٤/٨ (٢٦٨٠) (١٠).

(٣) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

وغيبته عن باله حين أمنيته، سيما والغالب اختلال المزاج عند من تمَيُّ هذه الأمر الشديد جداً.

كم من هُموم أحرقت كبدي التي بجوانحي لكتني أتجلد
أواه دمعِي لا تبُحِ سري الذي أكنّته قلباً حزينا يكمد
لكنما اللوعات حين أوارها تجثوا على القلب القوي فيهمد
تتهشم الأضلاع من رجع الصدى من أنة مكلومة تتردد
يا مقلتي ما عدت أقوى صابراً جودي ببحرٍ زاحرٍ يتمدد
بحرٍ خضم سُخنت أمواجه من نار كبدي والضلوع تُقدد

وعلى كل حال؛ فالمؤمن مُقْتَنٌّ تَوَّابٌ، وقد يرد على قلب المؤمن أحياناً عوارض من ذلك بلا استمرار، بسبب واردٍ غير مُحتمل، أو مزاجٍ تَكَدَّرَ، أو قلبٍ غَضِبَ، أو نفسٍ نَفَهَتْ، أو غفلةٍ تَمَكَّنَتْ، كتب الله النقص والخطأ والخطيئة على عباده عليهم إليه يرجعون، والله تعالى يغفر لعباده ويعفو عنهم ما داموا غير مُصِرِّين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١]، والطائف: لله الشيطان ووسوسته وتغطيته ذكر القلب على وجه السرعة والمباغطة بنسيان أو غفلة أو ضعف إرادة ونحو ذلك.

وتدبر كيف وصفهم سبحانه في ثاني الحال بقوله الأكرم: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: فأتى بـ«إذا» الفجائية المقتضية سرعة تنبيههم من غفلتهم

ويقظتهم من سِتِّهم واغتسالهم بالذكر من دَرَنِ الغفلة وتطهّرهم بالتوبة من نَجَسِ الخطيئة.

وكما أن المرء يلتفت غريزياً للوراء استطلاعاً إن عثرت قدمه بشيء؛ فكذلك المؤمن العاقل الحازم الفطن اليقظ، فإنّه يقف متأملاً حاله حين تلبّسه بالعصيان حتى يعلم من أين أتى، وكيف استلب. ومعلوم لكل ذي لب أن بيئة المعصية مُشهِية لأمثالها لدى مَنْ عاقرها. فكان من حزم المؤمن هجر مكان الغفلة، والهرب من بقعة الخطيئة، وقطع أواصر نفسه الضعيفة مع مَنْ كانوا هُداة للضلال والإباق، قال تبارك وتعالى موجّهاً عبده التائب بترك أسباب المعصية، وقطع ذرائعها وحسم مادّتها: ﴿وَمَا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والهجرة بالأبدان وسيلة للهجرة بالقلوب.

احذَرِ حَلَّ السُّوءِ لَا تَنْزِلْ بِهِ وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ

وعن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أكتوى سبع كَيّات في بطنه، فقال: لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»^(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله

(١) مسلم (٤ / ٢٠٦٤) (٢٦٨١).

(٢) مسلم (٤ / ٢٠٦٥) (٢٦٨٢).

ﷺ: «لا يتمنّين أحدكم الموت، إما محسن، فلعله يزداد خيراً، وإما مسيء لعله يستعقب» (١).

أَتَتْ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَجَادَتْ بَوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ
والرحيل حتم لا زب مهما لوينا أعناقنا عنه هرباً أو إليه طلباً، ﴿وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. اللهم حسن الختام،
وطيب المنقلب، ورضاك، والجنة.

ويا ربّ عاملني بما أنت أهله فذنب عظيم والرحيل دنالياً
وقد تمنّاه بعض الصحابة خوفاً على دينهم، فعن عليم قال: كنا جلوساً
على سطح معنا رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال يزيد: لا أعلمه إلا عبساً
الغفاري، والناس يخرجون في الطاعون، فقال عبس: يا طاعون خذني، ثلاثاً
يقولها، فقال له عليم: لم تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يتمنّى
أحدكم الموت، فإنه عند انقطاع عمله، ولا يردّ فيستعقب» فقال: إني سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «بادروا بالموت ستاً: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط،
وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشواً يتخذون القرآن مزامير
يقدمونه يغنيهم، وإن كان أقلّ منهم فقهاً» (٢).

(١) أحمد (٧٥٧٨) وصححه محققوه والألباني.

(٢) أحمد (١٦٠٤٠) وصححه محققو المسند والألباني في الصحيحة (٢/ ٦٧٢ / ٩٧٩).

وقد تمنّى سيّد الأوس سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الموت ودعا لنفسه به بشرطه، ولعله قد نوى الدعاء بالشهادة لأنّ إصابته كانت في المعركة، ولعله كذلك خشي أن يضعف إيمانه مع طول الأمد بعد نهاية حرب قريش، فأحبّ أن يلقي ربه وهو في الغاية من الإيثار، فالجهاد يغذي جذوة إيمان القلب ما لا يُلحق به في السّلم، ولعلّ منادي الشوق قد ناجاه قلبه بدعوته مولاه، فعن عائشة رضي الله عنها أن سعداً أصيب يوم الخندق في أكحله^(١) فحسّمه^(٢) رسول الله ﷺ بيده بمشقص، وضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب.. الحديث، وفيه: أن سعداً قال: «اللّهم إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحبّ إليّ أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللّهم فإني أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أجاهدكم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجّرهما، واجعل موتي فيها، فائفجرت من لبيته - وفي لفظ: من ليلته -، فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها»^(٣). رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لئن عزّ ديني واستبيحت جوارحي فأين مقام العزّ إلا مقاميا

(١) وهو عرق في وسط الذراع يكثر فصدّه.

(٢) أي: قطع سيلانه بكيه.

(٣) البخاري (٤١١٧) ومسلم (١٧٦٩).

فسعد رضي الله عنه إنما تمنّى الشهادة في سبيل الله لأنه قد جرح هذا الجرح الذي دعا به في المعركة، وهذا حسن مطلوب؛ لأنه طلب الشهادة هو ذروة الإيمان، وهو دليل على الصبر والثبات والرضا بما يصيبه في ذلك مما يقدره الله عليه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، وددتُ أني أقاتل في سبيل فأقتل، ثُمَّ أحيَا، ثُمَّ أقتل، ثُمَّ أحيَا، ثُمَّ أقتل»^(١).

فيا رب هل إلّا بك النصر يُتَغَى عليهم، وهل إلّا عليك المعوّل

وحال المؤمن محبة الحياة على طاعة الله تعالى، فلا يزال صدره بستاناً من ذكر ربه، وقلبه منشراً بدعاء مولاه، مستأنساً بقرب إلهه، يرتفع عند ربه مع امتداد أعماله في الحياة، ويزداد أجره بتوالي الصالحات، ويعمر عمره بالقربات، قد شامت بصيرته أعالي الجنات، فرفع همته لأعلى الدرجات، ووضع الدنيا حيث وضعها ربه، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ۖ﴾ [النساء: ٧٧]. فالحياة هي القالب الذي يسعى به العبد للقربات، والمحل الذي يفوز منه برضوان رب البريات تبارك وتعالى.

ولما حضرت معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة قال: «انظروا أصبحنا؟»، فأني فقيـل: لم تُصبح، فقال: «انظروا أصبحنا؟»، فأني فقيـل له: لم تُصبح، حتى أتني في بعض ذلك فقيـل: قد أصبحت، قال: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالمت مرحباً! زائرٌ مُغَبٌّ، وحيبٌ جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك،

(١) البخاري (٧٢٢٦).

فأنا اليوم أرجوك، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أنني لم أكن أحبُّ الدُّنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً لهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَقِ الذِّكر»^(١).

وقد كان معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن أوتوا العلم والإيمان والحكمة ومحبة رسول الله ﷺ الذي أقسم على محبته، فهنيئاً لمعاذٍ تلك الخصوصية النبوية. ومن مواعظه الجليلة قوله الرضيُّ لأبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّكَ تَجالسُ قَوْمًا لَا مُحَالَةَ يَخُوضُونَ فِي الْحَدِيثِ، فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ غَفَلُوا، فَارْغَبْ إِلَى رَبِّكَ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ رَغْبَاتٍ»^(٢).

ولقد أوصى ابنه وصية حادٍ ناصح مشفق: «يَا بُنَيَّ، إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةً، فَصَلِّ صَلَاةً مُودِّعٍ: لَا تَظُنُّ أَنَّكَ تَعُودُ إِلَيْهَا أَبَدًا، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَمُوتُ بَيْنَ حَسَنَتَيْنِ: حَسَنَةٍ قَدَّمَهَا، وَحَسَنَةٍ أَخَّرَهَا»^(٣).

فالحياة بالإيمان هي الحياة التي تستحق أن تُسمَّى حياة، ثم تكمل بنعيم الجنة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٤].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٣٩).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٣٦).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٣٤)، وقد ورد هذا الحرف: «صَلِّ صَلَاةً مُودِّعٍ» في حديث مرفوع، لكن لا يثبت سنده.

ووعدُ الآخرة قريب، ومهما عاش المرء فهو إلى الوفاة يسير، ﴿مَا تُوْعَدُونَ
لَأَتِيَنَّ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. إليك.. وإلا لا تُشدُّ الركائبُ.

يحبُّ الفتى طولَ البقاء وإنه على ثقة أن البقاء فناء

وتأمل الرغائب العُمريّة في الحياة، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لولا
ثلاثٌ في الدنيا لما أُحِبَّتُ البقاء فيها؛ لولا أن أحمل أو أجهّز جيشاً في سبيل
الله، ولولا مكابدةُ هذا الليل، ولولا مجالسةُ أقوام ينتقون أطيبَ الكلام كما
يُنتقى أطيبُ الثمر؛ لما أُحِبَّتُ البقاء»^(١).

وتأمل اتفاق أسباب حبه للحياة مع أسباب معاذ وأبي الدرداء، لا جرم
فالقَبْسُ واحدٌ، رضي الله عنهم.

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ دُنْيَاكَ عَنْ أَسْبَابِ دُنْيَانَا
فتبارك من جعل الدنيا لا تطيب إلا بطاعته، والآخرة إلا برضوانه، وله الحمد
في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع.

وَحَيْرُ أَمْتِنَا الصِّدِّيقُ طُرّاً بِهِ صَارَ الْكُفُورُ فِرْهُلَامَا

كَذَا الْفَارُوقُ أَكْرَمُ مَنْ نَسِجَ بِهِ شَدَّ الْإِلَهُ لَنَا الْحِزَامَا

هُمُ الصَّحْبُ الرَّضِيُّ نُجُومٌ لَيْلٍ فَأَنْعَمَ بِالَّذِي مَدَحَ الْكِرَامَا

(١) ابن المبارك في الجهاد (٢٢٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١١٧). ونقلت عن
أبي الدرداء كذلك رضي الله عنه كما عند أحمد (١٣٥)، وابن المبارك (٢٧٧) كلاهما في
الزهد.

فَقَدْ خَابَ الْمُؤْمَلُ غَمَزَ صَحْبٍ وَأَهْلَ الْبَيْتِ أَسْيَادِ تَسَامَى
فَالْأَلْبَيْتِ تَيْجَانٌ وَطُهُرٌ تَحْمَلُ يَا مُحِبُّ هُمْ سَلَامًا
بَرُّنَا لِلَّذِي خَلَقَ الْبَرَائَا مِنَ الرَّفْضِ الْمُحِيقِ بِهِمْ خَطَامًا
وَقَدْ عَادَ الظُّلُومُ يُنَوِّهُ حِمْلًا بِأَوْزَارٍ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَا
أَلَا مَنْ عَذِيرِي مِنْ نَفُوسٍ تَنْجُ بِسَاحِنَا مَكْرًا تَطَامَى
يَرُومُونَ الدِّيَانَةَ بِانْتِقَامٍ وَثَارَاتٍ مِنَ الصَّحْبِ الْقَدَامَى
لِثَارَاتٍ أَزَالَتْ آلَ كِسْرَى وَأَلْحَقَتْ الْمَجُوسِيَّ اضْطِلَامَا
تَغُصُّ حُلُوفُهُمْ مِنْ ذِكْرِ سَعْدٍ وَسَيْفِ اللَّهِ أَشْبَعُهُمْ رَغَامَا
إِلَهَ الْعَالَمِينَ أَرْحَ فُؤَادِي فَقَدْ حَزَّ النَّصِيرِيُّ الْعِظَامَا
أَفَاضَ الثَّكَلَ فِي الْإِسْلَامِ غَدْرًا وَقَتَّلَهُمْ سُجُودًا أَوْ قِيَامَا
وَعَاثَ الْأَبْعَدُ الْأَطْغَى زَمَانًا وَأَكْثَرَ فِي جَوَانِبِهَا الْيَتَامَى
فَمُرْ بِكَيْبَةِ هَمْرَاءَ تَشْفِي صَدُورَ الصَّالِحِينَ دَمًا سِجَامَا
وَتَنْ إِهْنَا بِصَلِيبِ كُفْرِ فَدُقْ عَمُودَهُ الْأَفْرَى رُكَامَا
وَتَلَّتْ بِالْيَهُودِ جُنُودَ مِسْخٍ هُوَ الدَّجَالُ فَاْمَتَشَقُّوا الْحَسَامَا
إِخَالُ جُوعَنَا وَالْحَيْلُ تَجْرِي بِنَا نَحْوَ غُوطَتِهَا الشَّامَا

سَحَائِبَ جَنْدَلٍ تَرْمِي بِشُهْبٍ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ مَطَرٍ حَمَامَا
أَوِ الرِّيحِ الدَّبُورَ جَرَتْ بِأَمْرِ مِنَ الْجَبَّارِ تَجَثُّ اللَّئِمَا
أَوِ اللَّيْثِ الْهَزْبَرِ يَهُوشُ جَدِيًّا فَهَلْ يَسْتَبِقُ لِلْجَدِيِّ السَّلَامَى
أَوِ النِّيلِ الْخِضَمِّ يَسُوقُ بَحْرًا يَدُكَ عُرُوشَهُمْ فَغَدَتْ حُطَامَا
فَإِنْ شِئْتَ الْبُطُولَةَ صَحَّ بِقَوْمٍ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ هُمْ كَلَامَا
أَصِيحُ بِأَذْهَمِي يَا وَافٍ أَقْبَلُ فَدُونَكَ مِنْهَلْ يُرَوِّي الزُّوَامَا
وَصَلِّ إِلَهَنَا فِي كُلِّ حِينٍ عَلَى مَنْ كَانَ لِلْمِسْكِ الْخِتَامَا

ولما اشتكى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام الفتح في مكة، وعاده رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله؛ أُخْلِفُ بعدَ أَصْحَابِي^(١) قال: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ»^(٢).

(١) أي: أموت في مكة وقد هاجرت منها! وقال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ في الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣١/٨): «كَأَنَّهُ أَشْفَقَ مِنْ مَوْتِهِ بِمَكَّةَ بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ مِنْهَا وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، فَخَشِيَ أَنْ يَقْدَحَ ذَلِكَ بِهَجْرَتِهِ أَوْ فِي ثَوَابِهِ عَلَيْهَا، أَوْ خَشِيَ بَقَائِهِ بِمَكَّةَ بَعْدَ انْصِرَافِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَخَلَّفَهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ الْمَرَضِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ الرُّجُوعَ فِيهَا تَرْكُوهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «أَخْلَفَ عَنْ هَجْرَتِي» أَوْ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ طَوْلِ عَمْرِهِ وَبَقَائِهِ بَعْدَ أَصْحَابِهِ».

(٢) مسلم ١١/٨ (٢٥٦٤) (٣٤).

فتدبر هذه البشرى لكل من عاش على الإيمان، وفيه: فضيلة طول العمر للازدياد في العمل الصالح، وقوله ﷺ: «وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ»، أي: يطيل الله عمرك، وكذلك كان، فإنه عاش بعد ذلك أزيد من أربعين سنة، بل قريباً من خمسين عاماً، أذ كنت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وهو المشهور، فيكون قد عاش بعد حجة الوداع خمساً وأربعين، أو ثمانياً وأربعين. وقوله ﷺ: «حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ»، أي: ينتفع بك المسلمون بعلمك وعملك ودعوتك ودعائك وجهادك في سبيل الله تعالى، فعاش حتى فتح الله به وبمن معه العراق وغيره، وانتفع به أقوامٌ في دينهم ودنياهم.

وفي الحديث آية وبرهان لنبوة النبي ﷺ، فقد أخبر بطول عمره وبعمله الصالح ونفعه المتعدّي قبل وقوعه بكل هذه السنين. وقد قالها وسعدٌ في غمرة المرض الشديد الذي خشي على نفسه منه، ففي صدر الحديث قال: «عادي رسول الله ﷺ في حجة الوداع في وجع أشفيئ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال..» الحديث.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «في هذا الحديث فضيلة طول العمر للازدياد من العمل الصالح، والحثُّ على إرادة وجه الله تعالى بالأعمال»^(١). لذلك كان شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللهُ يقول بمشروعية الدعاء بموجب هذا الحديث فيقول الداعي: اللهم أطل عمري في طاعتك - ونحو ذلك - فالدنيا مزرعة الآخرة

(١) شرح النووي على مسلم (٧٨/١١).

حتى آخر رمق فيها، وقد ذكروا أنّ الجنيد رَحِمَهُ اللهُ كان يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: «وَمَنْ أَحَقُّ مِنِّي بِذَلِكَ، وَهَا هِيَ تُطَوِّى صَحِيفَةً عَمَلِي»، ثم كَبَّرَ ومات رَحِمَهُ اللهُ^(١).

لَهْفِي عَلَى عَمْرِ تَقْضَى غَافِلًا وَتَرَكْتُ لِلنَفْسِ السَّفِيهِةِ غَارِبِي
يَا صَاحِبِي إِنْ جُزْتَ قَبْرِي هَائِمًا فَانْصَحْ لِنَفْسِكَ وَاعْتَبِرْ بِتَجَارِبِي

وعن أبي سلمة رَحِمَهُ اللهُ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رجلان من بلي من قضاة أسلم مع النبي ﷺ، واستشهد أحدهما، وأُخِّرَ الآخر سنة. قال طلحة بن عبيد الله: فأريت الجنة، فرأيت فيها المؤخر منها أُدخل قبل الشهيد! فعجبت لذلك، فأصبحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أليس قد صام بعده رمضان، وصلى ستة آلاف ركعة^(٢)، أو كذا وكذا

(١) العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحق الإشبيلي (١٣٣).

(٢) فعدد الركعات المفروضة سبع عشرة ركعة في اليوم واللييلة، وعدد أيام السنة ٣٥٤ يومًا، وحاصل ضربهما ٦٠١٨ ركعة. والعرب فصحاء بلغاء يلغون في البيان ما زاد من العدد الكبير إن كانت الزيادة أو النقص يسيرين، وهو ما يسميه بعضهم حذف الكسور. وهذا العدد المذكور إنما هو فيما لو اقتصر على الفريضة فقط، وهذا هو الحد الأدنى المفروض على كل مسلم. فإن أضفنا الرواتب ١٢ ركعة والتهجد ١١ ركعة فمجموعها ٤٠ ركعة في اليوم واللييلة؛ وعلى ذلك فعدد ركعات السنة الواحدة ١٤١٦٠ ركعة! وعدد سجوداتها يقارب الثلاثين ألف سجود، فكم لله من منح وألطف وهبات ورحمات في صلاة العبد وسجوده! فله الحمد والشكر والمِنَّة.

=

وهذا ما سوى بقية النوافل من ذوات الأسباب والمطلقة، نسأل الله الكريم من فضله، وتدبر كيف سمّى ﷺ الركعة سجدة، ولعل مرد ذلك لما فيهما من مشترك معنى السجود العام بالركوع والخاص بالسجود.

وضمّ لقلبك -رحمني الله وإياك- ما جاء في صحيح مسلم (٤٨٨) بسنده عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحبّ الأعمال إلى الله. فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنّك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة».

وكذا ما جاء عن ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ، ومن أهل الصّفة رضي الله عنهم قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتته بوضوئه وحاجته، فقال: «سَلِّني» فقلت: أسألك مُرافقتك في الجنة! فقال: «أَوْ غيرَ ذلك؟»، قلت: هو ذاك، قال: «فَأَعِنِّي على نفسك بكثرة السُّجود». رواه مسلم (٤٨٩). وأهل الصّفة: هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد رسول الله ﷺ.

قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح رياض الصالحين (١٠٣/٢): «وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام؛ لأن كل صلاة في كل ركعة منها وسجودان، فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام، وذكر السجود دون غيره، لأن السجود أفضل هيئة للمصلي، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وإن كان المصلي قريباً من الله؛ قائماً كان، أو راکعاً، أو ساجداً، أو قاعداً، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد. وفي هذا دليل على فضل السجود». أهـ.

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ركعة صلاة السنّة»^(١). وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»^(٢).

وبالجملة؛ فالناس في تمنّي الموت على خمسة أقسام:

الأول: من يتمناه لينال الشهادة في سبيل الله تعالى. فهذا مشروع محمود، ولكن لا يلزم من ذلك الاستعجال به، بل الأولى له أن يسأل ربه أن يمنّ عليه بأن يستكثر من صالحات الأعمال والقرب والعلم والذكر والجهد، ثم يختم له بالشهادة في سبيله، فيجمع بين مرتبتي الصّدّيقية والشهادة.

أيا مُبْتَغِي الفردوس عَجِّلْ بِصَارِمٍ وَكُنْ صَادِقَ الْإِقْبَالِ عِنْدَ التَّلَاقِ
فإن تحيَ عِشْتَ العِزَّ في كل لحظةٍ وإن كانت الأخرى سَتَلْقَى المَرَاقِيا

الثاني: من يتمناه شوقاً إلى ربه. وهذا مشروع، لأنّ قلق الشوق لا مدفع له عند بعض النفوس إلّا باللقاء، فكيف إن كان لقاء رب العالمين تبارك وتعالى!

وقد سبق ذكر قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَحَبُّ المَوْتِ اشتياقاً إلى ربي»، فشوقه قد ساقه لتمنّي عبور الباب للمحجوب سبحانه وبحمده. وتأمل أيضاً حال معاذٍ وبلالٍ وحذيفة وعمّار في كثير من السلف رضي الله عنهم حين

(١) مسند أحمد (٨٣٩٩) وحسنه محققوه، ومسند أبي يعلى الموصلي (٦٤٨) وصححه محمد سليم أسد.

(٢) ابن ماجه (٣٨٦٩) وصححه الألباني.

حضرتهم منايهم فقد كانوا يطربون لذلك ويبتهجون ويستبشرون ويشتاقون، ويهتفون: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه. وهم لم يسألوا ربهم الموت لكنهم فرحوا بنزوله، لأنه الباب الوحيد للوصول للدار الآخرة التي يلقون الله تعالى فيها ثم نبيه ﷺ وأصحابه وأحبابه.

إذن فتمني الموت شوقاً إلى الله تعالى مشروع، ولكنه مشروط بأمرين:

الأول: ألا يكون دافعه التائي على الله تعالى، والإعجابُ بعمله، والثقةُ بقبوله، والأمنُ من مكر الله تعالى، ونسيانُ صفات جلاله تبارك وتعالى، فهذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]. بل الموفق هو من يبسط الرجاء على حسن ظنه بربه تعالى لا بعمله مهما بلغ، فالقبولُ غيبٌ، والخاتمةُ غيبٌ، والمصيرُ غداً غيبٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ولولا انتظار المؤمنين لقاء ربهم يوم القيامة لتقطعت نفوسهم حَسرات! لذلك كان عامة من ورد عنهم مثل ذلك من السلف إنما يصرحون بالشوق للقاء الله تعالى عند الاحتضار أو قبيله حين نزول أمارات الرحيل لله والدار الآخرة، والله المستعان.

ترقبوا يا صَفْوَةَ النَّاسِ الْهَلَالَ وهكذا الدُّنْيَا حُلُولٌ وَارْتِحَالٌ

واعلم أن كل أمنية فهي بعين الله تعالى وعِلْمِهِ جل جلاله، وكم من مؤمن يموت وحاجته في صدره لم يبلغها وهي عند الله مُدْخَرَةٌ محفوظة، وخير له ادّخارها، فسبحان اللطيف الخبير علام الغيوب، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا

تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١]، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٩٨﴾ [طه: ٩٨]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّاحٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٢٨]، ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦﴾ [هود: ٦].

الثاني: أن يكون قلقه مفضياً به إلى الخشية من نقص دينه عبر تشوش قلبه بواردات لا يطيق لها دفعاً، أو قسوة قلبه مع طول المدى، وهذا في الحقيقة آيل إلى معنى تمنّي الموت عند الخوف من الفتن.

ورسول الهدى ﷺ قد وضح ذلك غاية الوضوح بقوله: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(١).

وتأمل تعليق الدعاء بالحياة والوفاة بالخيرة الإلهية من جهة، وبالرضا باختيار الله له من جهة أخرى، فصار الداعي مُحاطاً بخير الله من جميع جهاته. وهذا من حرص الشفيق ﷺ على حماية قلوب أمته من استجرار العواطف

(١) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

غير الموفقة لها، فسدّ ذريعة الخطأ أولاً ثم فتح باب الأمل من جميع الجوانب، ولا غرو فقد مدحه ربه تبارك وتعالى بقوله الأكرم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التَّوْبَةِ : ١٢٨)، بل رحمته عامّة، قال سبحانه فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الْأَنْبِيَاء : ١٠٧)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله ﷺ ادع الله على المشركين. قال: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً» (١). وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَّهْدَاةٌ» (٢). فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله ومن تبعه بإحسان.

الثالث: من يتمناه خوفاً من فتنة تحول بينه وبين رضا ربه. وهذا مشروع كما مرّ معنا، مع تسليم الأمر لله والدعاء بما ورد به الخبر.

الرابع: من يتمناه جزعاً من الدنيا. وهذا مذموم بكل حال، وقد يُفْضِي به ذلك للالتحار وهو من أكبر الذنوب عياداً بالله تعالى. فالواجب الصبر على لأواء الدنيا وتقوى الله فيها، والاستعانة به في دفع ما يضره من بلاء الدين والدنيا.

(١) مسلم (٢٥٩٩).

(٢) الحاكم في المستدرک (٣٥ / ١) واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. ورواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٩٢) والبيهقي في الدلائل (١ / ١٥٩) مرسلاً، وصحح الألباني إسناده مع إرساله في السلسلة (٤٩٠). وله شواهد متصلة لا بأس بها.

الخامس: من يتمناه مَلَالَةً من الدنيا واكتفاءً بما عاشه من عمره. والغالب أن هذا يكون عند تقدّم السن وضعف الأعضاء واعتلال الجسد وموت الأقران والإحساس بثقله على أهله، فهذا حكمه حكم غيره، فهو يختلف باختلاف حاله ودافعه وموجهه، فيكون مذموماً إن كان زهداً في صالح الأعمال، ومَلَالاً من القربات لرب البريّات، ومشروعاً إن خاف نقص دينه بتقصير في فريضة، أو وقوع في خطيئة، أو زيغ في فتنة ونحو ذلك. قال الرّبيع بن بزة رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّمَا يُحِبُّ الْبَقَاءَ مَنْ كَانَ عُمُرُهُ لَهُ غُنْماً، وَزِيَادَةٌ فِي عَمَلِهِ، فَأَمَّا مَنْ غُيِّنَ عُمُرُهُ وَاسْتَرْزَلَهُ هَوَاهُ، فَلَا خَيْرَ لَهُ فِي طُولِ الْحَيَاةِ»^(١). ومن شواهدهم في مَلَالِهِم حياتهم قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

سَيِّئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامٍ
وقال آخر:

إِذَا عَاشَ الْفَتَى سَبْعِينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ وَالْفَتَاءُ
وقال ليبدُ العامريّ بعد أن بلغ الثلاثين ومئة سنة فيما يُحكى:
وَلَقَدْ سَيِّئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالَ هَذَا الْخَلْقِ كَيْفَ لَبِيدُ
وقول أوس بن ربيعة الخُزَاعِيّ:
لَقَدْ عَمَّرْتُ حَتَّى مَلَّ أَهْلِي ثَوَائِي عَنْهُمْ وَسَيِّئْتُ عُمْرِي

(١) الزهد الكبير للبيهقي (٢٤١/١).

وقال زهيرُ بن جنابٍ الكلبيّ:

لَقَدْ عَمَّرْتُ حَتَّى لَا أَبَالِي أَحْتَفِي فِي صَبَاحٍ أَوْ مَسَاءٍ

وقال المتنبيّ:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفَّ فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضُّعْفَ مَلًّا

أَلَّةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّى عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

وقال أبو العتاهية ونُسب إلى أبي محمد التيمي:

إِذَا مَا مَضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ خَمْسِينَ حِجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٌ

ولله ما أجمل رد ذلك الشيخ ولذيذ عيشه بالرضا والذكر، فقد دخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق، فرأى شيخاً، فقال: يا شيخ، أيسرُّك أن تموت؟ فقال: لا والله، قال: ولم، وقد بلغت من السنِّ ما أرى؟ قال: مضى الشبابُ وشرُّه، وبقي الشَّيبُ وخيرُه، فأنا إذا قعدتُ ذكرتُ الله، وإذا قُمتُ حمدتُ الله، فأحبُّ أن تدوم لي هاتان الحالتان^(١).

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧٣/٦٨).

ومن رقيقِ نصيح الشيخ عبد العزيز السلّمان رَحِمَهُ اللهُ قوله النفيس: اعلم أن طول العمر محبوب ومطلوب إذا كان في طاعة الله، لقوله ﷺ: «خيرُكم من طال عمره، وحسنَ عمله»^(١).

وكلّما كان العمر أطول في طاعة الله؛ كانت الحسنات أكثر والدرجات أرفع. وأما طوله في غير طاعة، أو في المعاصي، فهو شرّ وبلاء، تكثر السيئات وتضاعف الخطيئات.

ومن زعم أنه يجب طول البقاء في الدنيا ليستكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى فإن كان مع ذلك حريصاً عليها ومشتمراً فيها، ومجانباً لما يشغل عنها من أمور الدنيا فهو بالصادقين أشبه، وإن كان متكاسلاً عنها ومسوّفاً فيها - أي الأعمال الصالحة - فهو من الكاذبين المتعلّلين بما لا يغني عنه، لأن من أحب أن يبقى لأجل شيء وجدته في غاية الحرص عليه مخافة أن يفوته ويُحال بينه وبينه، ولا سيّما والعمل الصالح محلّه الدنيا، ولا يمكن في غيرها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل.

فتفكر يا أخي في ذلك عسى الله أن ينفعنا وإياك، واستعن بالله واصبر واجتهد وشمر، وبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يُحال بينك وبينها فلا تجد إليها سبيلاً، وكن حذراً من مفاجأة الأجل فإنك غرض للآفات، وهدف منصوب لسهام المنايا، وإنما رأس مالك الذي يمكنك إن وفقك الله أن تشتري به سعادة الأبد هو هذا العمر. قال الله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ

(١) أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرنؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.

مَنْ تَذَكَّرَ ﴿فَاطِر: ٣٧﴾. فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْفِقَ أَوْقَاتَهُ وَأَيَّامَهُ وَسَاعَاتِهِ وَأَنْفَاسَهُ فِيهَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ، فَيَطُولَ تَحَسُّرُكَ وَنَدَمُكَ وَحُزْنُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

إِذَا كَانَ رَأْسُ الْمَالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرِزْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ^(١)

ويا عبد الله؛ احذر من صولة العبادة، والإدلال بالعمل، والإعجاب بالنفس، فالعجب تلف، ومحبط للعمل، ومحرق لجميل الماضي.

فالحسنات أعظم الذخائر الحقيقية بالحراسة من عدوك الرجيم حتى أوان عرضها يوم يقوم الأشهاد.

فيا من ترى من نفسك صلاحًا اشكر ربك على هذه النعمة، واسأله المزيد من فضله منها، وكن على الدوام من التوايين. وتدبر قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحِمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٥٤]. فالأمر أمره، والمشية مشيئته، والحكم حكمه، والدين دينه، تبارك وتعالى، فليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله، والله وحده، وإليه وحده.

قال أحد الصالحين: كنت أقتات عقودًا من عمري على حرف قاله واعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «لا يعجبنيك ثناء الناس عليك، فإنما غرهم جميل ستر الله عليك».

فكلُّ أعلم بغدراته وفجراته وتروكه واجتراره، وأنت بين حسنة لا تعلم قبولها، وذنب لا تعلم قبول توبتك منه، فعلام الإعجاب بحال كهذا؟!!

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار. عبد العزيز السلطان (٢٦٨/٣).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مُدح في وجهه يقول: «اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»^(١).
فلئن كان هذا مقول الصديق الأكبر، فما الظن بي وبك؟! والله المستعان.
وأجل بالأول وبنا قوله:

يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِن لَّمْ تَعْفُ عَنِّي

وقال العابد الزاهد محمد بن واسع رحمه الله تعالى: «لو كان للذنوب رائحة؛ ما استطاع أحدٌ أن يجالسني»^(٢). فالحمد لله على جميل ستره، ونسأله برد عفوه ومغفرته ورحمته. وقد قيل في ذلك مما نحن أحق به من العُجب والتألي والإدلال والغرور:

وَاللَّهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ جَرِيرَتِي لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

والمقصود؛ أن على المؤمن إحسان الظن بربه تعالى أولاً ثم إحسان الظن بالناس ثانياً، أما مع نفسه فإنه يحسن سياستها بالشرع، فلا يرفعها رفعا يغرّها، ولا يخفضها خفضاً يضرّها، مع ميل إلى أن يسيء الظن فيها شيئاً احتياطاً لها، بحيث يكون بحكمة واعتدال، فلا يصل للقنوط واليأس والفشل والتوقف، بل يفرح بفضل الله ورحمته، ويعظم رغبته فيما عنده، ويحسن الظن به، إنما

(١) البخاري في الأدب المفرد (٧٦١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٨٩).

(٢) شرح حديث «ما ذئبان جائعان» لابن رجب ٨٧/١

المراد كسر صولة العجب القاتلة، لا قتل محرك الإيوان، فما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل.

ولولا الرجاء بالرضوان وحسن الظن بالرحمن ما عمل العاملون، ولا اجتهد المشمرون، ولا تسابق المتنافسون، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

الشَّوْقُ فِينِي جَذْوَةٌ لَا تَحْمَدُ	وَالْعَيْنُ تَبْكِي لِلْفِرَاقِ وَتَسْهَدُ
وَالرَّوْحُ تَحْدُو لَا تُغَيِّرُ خَطْوَهَا	دَوْمًا إِلَيْكَ فَأَنْتَ أَنْتَ الْأَوْحَدُ
تَحْدُو إِلَيْكَ بِكُلِّ ثَقَلٍ كُلِّهَا	وَبِكُلِّ ضَعْفٍ كِيَانَهَا تَتَخَدَّدُ
رَبِّاهُ تَعْلَمُ مَا يَجُولُ بِخَافِقِي	آلَامُ شَوْقٍ حَايِرَةٌ لَا تَرُشِّدُ
وَجَّهَ فُؤَادِي نَحْوَ دَرْبِكَ إِنَّهُ	دَرْبُ الرَّشَادِ وَدُونَهُ أَتَشَرَّدُ
وَارْحَمْ هَشَاشَةَ خَافِقِي يَا خَالِقِي	أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّاحِمُ الْمُتَفَرِّدُ
وَأَمْدُ فُؤَادِي بِالْهَدَايَةِ وَالْهَدَى	فَأَنَا الْفَقِيرُ وَأَنْتَ أَنْتَ الْأَجُودُ



ثَمَارُ الرِّضَا بِاللَّهِ تَعَالَى

الإسلام تسليماً واستسلاماً، وهذا محض الرضا وصافيه وخلاصته ولُبُّه، فالرضا هو استسلام المتوكلين على ربهم قبل نزول القضاء، وإسلام الأمر والقلب لله بعد نزوله، وإسلام الوجه لله إخلاصاً لكل عبادة وقصد، وإسلام الاتِّباع لرسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه عند كل حركة وسكون، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هُود : ١٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٨].

وإنَّ ثمرة الرضا مباركة طيِّبة، وكيف لا تكون كذلك وهي استناد إلى ركن سعادة الدنيا والآخرة، وهي الثقة بتدبير الحي القيوم البر اللطيف، وانغماس في بحر الطمأنينة لتدبير العليم القدير الحكيم الرحيم، وارتواء بالفرح والغبطة والسرور بالله تبارك وتعالى.

وإنَّ من مُتَمِّع الأرواح، ولذائذ الأنفس، والنعيم الذي لا ينفد، وقرّة العين التي لا تنقطع؛ الرضا بالله تعالى. وتدبر قوله الأعز - وكلّ قوله أعزّ -: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢]، فانظر كيف كان القدر اللطيف هو نسيج الخلق كله، فلم يخرج منه شيء، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفرقان : ٢٩].

فيا صاحبي؛ تأمل ما عندك لا ما ليس عندك، فإنَّ ما عندك من جود ربك الوهاب الكريم، وما ليس عندك فهو من حكمة ربك اللطيف الرحيم. وكن من أهل الحياة الطيبة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧]، وهي الإيَّان

والقناعة، وقد مات حبيبك ﷺ ودرعه مرهونة. ففوّض أمرك إلى من بيده مقاليد الأمور، وأعنته النواصي، ومفاتيح الأرزاق، واعلم أنّه أرحم وأعلم وألطف وأرفق وأحكم بك من نفسك، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المُلْك : ١٤].

وإذا البشائر لم تحن أوقائها فليحكممة عند الإله تأخرت
سيسوقها في حينها فاصبر لها حتى وإن ضاقت عليك وأفقرت
وغداً سيجري دمع عينك فرحة وترى السحائب بالأمانى أمطرت
وترى ظروف الأمس صارت بلسماً وهي التي أعيتك حين تعسرت
وتقول سبحان الذي رفع البلاء من بعد أن فقد الرجاء تيسرت

والمؤمن الصالح راضٍ ومَرْضِيٌّ عنه حال رحيله لربه تعالى، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قالت عائشة - أو بعض أزواجه -: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذلك، ولكنّ المؤمن إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أَحَبَّ إليه ممّا أمامه، فأحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أَكْرَهَ إليه ممّا أمامه،

فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ثمرة الرضا: الفرحُ والسُرور بالرب تبارك وتعالى»^(٢).

وما لي من عبدٍ ولا من وليدةٍ وإني لفي فضلٍ من الله واسعُ

هذا وإن الرضا بالله تعالى يورث الشوق العظيم إليه، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر؛ فقال: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ؛ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»، فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له. وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو الْمُخَيَّرُ، وكان أبو بكر هو أَعْلَمُنَا بِهِ. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمْنٍ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ^(٣) إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»^(٤). وَحَقُّ لِلصَّدِيقِ ذَلِكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَرَضِي عَنْ حَسَانٍ إِذْ قَالَ:

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتَقَاهَا وَأَعْدَلُهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا

(١) البخاري، الفتوح ١١ (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)

(٢) المدارج (١٧٣ / ٢)

(٣) الخوخة: هي الباب الصغير بين البيتين أو الدارين.

(٤) البخاري، الفتوح ٧ (٣٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٢)

الثَّانِي التَّالِي الْمَحْمُودُ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرُّسُلَا
 هذا، وَإِنَّ مِنْ ثَمَارِ الرِّضَا الطَّيْبَةِ أَنَّ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَحْبَةِ
 كَالْوَلَدِ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ
 لِنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبَهُ إِلَّا دَخَلَتْ
 الْجَنَّةَ». فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَوْ اثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَوْ اثْنَيْنِ»^(١).

وَالِاسْتِرْجَاعُ مَعَ الرِّضَا مُؤْذِنٌ بِخَلْفٍ طَيِّبٍ، فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا
 أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَصْبِيهِ مَصِيبَةٌ فَيَقُولُ
 مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مَصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا
 مِنْهَا. إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(٢).

وَمَنْ حَمَدَ اللَّهَ تَعَالَى وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ فَهُوَ مُوَعِدٌ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ، وَإِذَا
 بَنَى اللَّهُ لِعَبْدٍ بَيْتًا أَسْكَنَهُ إِيَّاهُ، وَلَا حَمْدَ وَلَا اسْتِرْجَاعَ إِلَّا عَلَى مَتَنِ الرِّضَا وَجَنَاحِ
 التَّسْلِيمِ، فَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا
 مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ:
 قَبِضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ
 وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(٣). أَيْ:

(١) البخاري، الفتح ٣ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٢) واللفظ له.

(٢) مسلم (٩١٨)

(٣) الترمذي (١٠٢١) وحسن إسناده الألباني.

أَنَّهُ كُوفِيَ بِهَذَا الْبَيْتِ لَمَّا حَمَدَ اللَّهُ عَلَى قَدْرِهِ، فَهَذَا بَيْتُ فُلَانٍ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِهِ رَبُّهُ لَمَّا حَمَدَهُ.

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا
لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا
الْجَنَّةَ»^(١). وَالصَّفِيُّ هُوَ الْحَبِيبُ الْمُصَافِي سَوَاءٌ أَكَانَ قَرِيبًا فِي النِّسْبِ أَمْ لَا. وَلِلَّهِ
قَرِيحَةٌ سَوْسَنُ الدَّعِيسِ إِذْ كَتَبْتُ:

شوقًا؛ فَأَغْرَقَتِ الدَّمْعُ مَحَاجِرِي	ذَكَرْتُكَ عِنْدِي فِي حَدِيثٍ عَابِرٍ
مَنِّي، فَأَسْكَبُهَا كَغَيْثٍ مَاطِرٍ	وَدُهِشْتُ مَالِي وَالدَّمْعُ غَزِيرَةٌ
وَكَأَنَّهُ شَوْقٌ غَفَا فِي خَاطِرِي	ذَكَرْتُكَ فَاسْتَيْقَظَتْ فِي مَشَاعِرَا
حَيًّا؛ وَلَنْ أَلْقَاكَ بَيْنَ نَوَاطِرِي	فِي لَحْظَةٍ أَدْرَكْتُ أَنَّكَ لَمْ تَعُدْ
جَمَدَتْ بَوَاقِعُهُ جَمِيعُ مَشَاعِرِي	وَكَأَنَّهُ خَبْرٌ أَتَانِي صَدْمَةً
تَقَرَّحْتُ مِنْ سَيْلِهَا الْمُنَاطِرِ	عَجَبًا، أَلَمْ أَبْكِكَ قَبْلًا، وَالْعَيُونُ
إِلَّا حَنِينًا جُرْحُهُ لَمْ يَنْبِرِ	مَضَتْ السُّنُونُ وَلَمْ أَزِدْ بِمُضِيِّهَا
فِي الْقَلْبِ حَلْمٌ غَدٍ وَشَوْقٌ الْحَاضِرِ	لَا زِلْتُ مُشْتَاقًا، وَلَا زِلْتَ الَّذِي
فِي جَنَّةٍ؛ أَجَرَ الْفَوَادِ الصَّابِرِ	فَلَعَلَّنَا وَلَعَلَّ لَقِيَانَا غَدًا

(١) البخاري، الفتح ١١ (٦٤٢٤)

وإن من ثمار الرضا بالله تعالى: أنها سببٌ لمحبة الله ورضاه وتجنب سخطه، والنبى ﷺ كان أَرْضَى الناس بالله، وأَسْرَّ الناس بربه، وأَفْرَحَهُمْ به تبارك وتعالى.

والرضا دليلٌ على طيب الإحسان، وزيادة الإيمان، وحسن الإسلام، وحبلٌ متين للفوز بالجنة والنجاة من النار، ومظهرٌ من مظاهر صلاح العبد وتقواه. وصاحبها موعود بالبرى في الآخرة، وهي دليل حسن ظن العبد بربه، وطريق إلى الفوز برضوان الله تعالى، فالرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله عز وجل شكور حميد، وإذا ألححت عليه وطلبتَه وتذَلَّلْتَ إليه؛ أقبل عليك وأجابك وقربك وابتدأك وأعطاك.

والرضا - فاعلم - يضيف على الإنسان المسلم راحة نفسية وسكينة روحية، ويجنبه - بإذن الله - الأزمات النفسية من قلق زائد وتوتر وعجلة وانفعال وغضب، كما أنها طريق واضح إلى تحقيق السلام في مجتمعات الناس، فإن المجتمع مكون من لبنات أفراد، فإن استقاموا استقام.

كما أن الرضا يخلص من الهم، والغم، والحزن، وضيق الصدر، ووَخَرِهِ، وشتات القلب، وكسَفِ البال، وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يُفْتَحُ بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وراحته وبرّده وسكونه وقراره، بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وقلقه وانزعاجه وضيقه وعدم قراره.

فالرضا ينزل على قلب العبد سكينةً لا تتنزل عليه بغيره، ولا أنفع له منها؛ ومتى ما نزلت على قلب العبد السكينة استقام، وصلحت أحواله، وصلح

باله، وكان في أَمْنٍ، ودَعَا، وطيبَ عيشٍ، ورَعَدَ حياة، ومتعة روح، وسعادة حال، كما قيل: «من قرَّت عينه بالله تعالى؛ قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله؛ تقطَّع قلبه على الدنيا حسرات».

وقد تأملت سبب الهم والحزن في الدنيا فوجدته راجع لأحد أمور أربعة:

الأول: أن المبتلى بذلك قد أعطى الأمر الذي أحزنه أو أهّمّه أكبر من حجمه، مع أن الدنيا بأسرها لا تستحق ذلك، فهي تافهة لا تستحق تقطيب الجبين لأجلها، ولا زفرات الحزن لفقدائها، ولا اللهث لتحصيل ترفها، وهي دار الأحزان والآفات، ومجمع الهموم والنكبات، لمن لم يصحبها بطاعة الله وذكره والفرح به واليقين به والرضا به وعنه، فعلام نعطيها أكبر من حجمها؟!!

فالعاقل هو مَنْ وَضَعَهَا حيث وضعها الله تعالى، ولم يرفعها فوق همّته لآخرته وعقباه، ولم يزاحمها بها همًّا وإرادة ورغبة واشتغالا ونظراً وتدبيراً واستعداداً، فهي دار ممرٍّ ومعبر لا بقاء ومقرّ، فنحن - وإن حزناً لأجلها لضعفنا أحياناً - فينبغي أن يكون حزناً عارضاً سريع الزوال، مشفوعاً بمزوجة بالرضا بالقضاء واليقين بحكمة الله وعلمه ولطفه ورحمته، والفرح بالله تعالى الذي إن حصل فكل ما سواه زائل.

الثاني: قد يكون ذلك بسبب تقصير العبد في أمر الله تعالى، وتساهله في مناهيه، فقد يكون مقصّراً في ذكر ربه، ومن أعظم الذكر الصلاة، قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه : ١٤]، ومن أعرض عن الصلاة وقصّر فيها فلا يستغرب ضنك عيشه وضيق نفسه وكدر حاله، فأَيّ حياة بلا صلاة! ولربّما

أمسى صدره لإعراضه عنها أضيق من بياض الميم وصدر اللئيم كما قيل، قال سبحانه: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه : ١٢٤]. فليراجع نفسه من قريب، وليتب إلى الله تعالى من فوره، وليعلم أن الله تعالى يفرح بتوبة عبده وأوبته بعد إباقه وحويته، وقربه وازدلافه بعد بُعده واستيحاشه. وكم ضجّ الناس بأمرٍ وهو يسيرٌ، وكم ألقوا خلفهم أمرًا وهو عظيم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [التور : ١٥].

وهذا الألم النفسي الحاصل من حزن على الماضي، أو همّ بحاضر ومستقبل؛ فهو من سياط تأديب العبد الآبق من سيده الرحيم المحب اللطيف الرفيق إلى حبال عدوّه الماكر المبغض الكاره، فيأذن الحكيم تعالى بدخول الألم قلب عبده لينفضّ عن قلبه غبار الإدبار، وغَيّن الغفلة، ويقشع عن بصيرته غيم الذنوب، ويجلو عن نفسه وعقله وروحه وصحيفته كدر الأوزار ووسخ الخطايا وقتر الغفلات!

فحينها يتبّه العبد فيرجع مستكينًا خاضعًا ذليلاً تائبًا معترفًا بالمنة لمولاه، عائدًا إلى كنف خالقه ورحمة سيده ولطف إلهه سبحانه وبحمده، وهو الحكيم اللطيف الخبير، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى : ١٩].

الثالث: قد يكون الهمّ والحزن لطف من الله محض للعبد كيما يرفع به درجته في المهديين المرضيين، فقد قال الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه

وبركاته عليه: «ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حزنٍ، ولا أذى، ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفرَ الله بها من خطاياها»^(١).

لذا فقد يكون الابتلاء - ومنه الهم والحزن - مُسَبِّبًا على ذنب سابق، وقد يكون لمحض الرحمة والفضل، فحتى أكمل الخلائق ﷺ لم يسلم من ذلك ليرفع الله تعالى درجته ويجزل مثوبته.

الرابع: الحزن لأجل دين الله تعالى، إما لتفويت طاعة، أو وقوع في خطيئة، أو تألم وتوجع لحال المسلمين المكलومين، وهو حزن الصالحين، وفيه تفصيل، وسيأتي بسطه قريبًا إن شاء الله تعالى، وعليه التكلان وإليه المرجع والمآب.

(١) البخاري ١٤٨/٧ (٥٦٤١) ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٣) والنَّصَبُ: هو التعب والمشقة، أما الوَصَبُ: فهو المرض. قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح رياض الصالحين ١/١٠٩ (١٠٩) معلقًا على هذا الحديث المبشِّر العظيم: «المصائب تكون على وجهين: فتارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات. وتارة يغفل عن هذا فيضيِّق صدره، ويغفل عن نيّة الاحتساب والأجر على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر، لأنه لم ينو شيئًا ولم يصبر ولم يحتسب الأجر، وإما أن يربح شيئًا كما تقدم. ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة، فليذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة».

هذا وإنَّ «الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية والمقادير، فإبليس مثلاً لما أُمر بالسجود أبنى^(١) ولم يرض، كيف أسجد لبشرٍ خلقته من ترابٍ؟ فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعتراضٍ على أمر الله. فإذا منافقو عصرنا الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعدد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمة مع الرب سبحانه لماذا؟ لأنّ كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا. فالرضا يخلص الإنسان من هذه المخاصمة^(٢).

(١) وصف الله تعالى معصية آدم بالعصيان ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] لأنها نتاج الضعف البشري الغريزي أمام سلطان الشهوة، لذلك كان قريب الفئته، سريع التوبة من الحوبة، أما إبليس فوصفه بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤] لأن سبب معصيته هو الكبر، فسلب النعمة، وباء بالخيبة، ورمي بالخذلان، وعوقب بالطرد، وسيم باللعنة، نعوذ بربنا منه ومن حاله وحال أهل النار.

(٢) روى مسلم (٥٢/٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: جاء مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَدَرِ، فَتَزَلَّتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يُبْطِل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]

والثاني: من يُنْكَر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله، قال عوف: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدّر أقداراً، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى».

ونهي».

=

والرضا من العدل، إذ الرضا يُشعر العبد بعدل الرب، ولذلك كان ﷺ يقول: «عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ»^(١). والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائر ظالم، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات. فقطع يد السارق عقوبةً، فالله عدل في قضائه وعقوباته، فلا يُعترض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته.

وعدم الرضا راجع إلى فوات شيء أخطأك وأنت تحبه وتريده، أو لشيء أصابك وأنت تكرهه وتسخطه. فيحصل للشخص الذي ليس عنده رضا قلبي واضطراب إذا نزل به ما يكره أو فاته ما يحب فيصيبه الشقاء النفسي، أما إن كان راضياً فلو نزل به ما يكره أو فاته ما يحب فلا يشقى ولا يتألم؛ لأن الرضا يمنع عنه هذا الألم، فلا هو يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما أوتي، ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، لأنه مقدر مكتوب.

والرضا يفتح باب السلامة من الغش والحقد والحسد؛ لأن المرء إذا لم يرض بقسمة الله سيبقى ينظر إلى فلان وفلان، فتبقى دائماً عينه ضيقة وحاسدة

وقال الإمام أحمد: «الْقَدَرُ قُدْرَةُ اللَّهِ» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين. وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها. وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم. شفاء العليل (١) / (٢٨)

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه الأرنؤوط. وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقد مرّ تفصيل ذلك، وأنه بناء على اختلافهم في تعيين الراوي الجهني.

ومتمنّ زوال النعمة عن الآخرين. والسخط يدخل هذه الأشياء في قلب صاحبه^(١).

(١) من أعظم نعيم الأنفس سلامة الصدر، وطيب القلب، وصفاء السريرة، تجاه عباد الله تعالى، فهذا من النعيم المُعجّل في هذه الدار، مع ما يترتب عليه من أجور يتقاصر دونها الخيال إن امتنّ الله تعالى بقبولها، وقد ضمن صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أعلى الجنة لمن حسن خلقه، ومن أجمل الأخلاق سلامة الصدر للعباد، فاسأل ربك الكريم الأعلى أن يصطفيك منهم، فهي جنة قبل الجنة، ولو لم يكن فيها إلا السلامة من آثار دغل القلب، ووَحر الصدر، وضغطات الحسد، وشؤم التبعة، وموت الإنسانية، وظلام الظلم، وحيرة التّيه، وكُرّه الخلق، وحرّق الحسنات لكفى به مغنماً، كيف وهي سلّم مرضاة ودرج مرقاة لعلّيين.

فعليك - رحم الله محيّاك ومحيّاك - بإرضاء الله تعالى، وإن ساءت بك ظنون الناس، ووصل إليك أذاهم، فستفوز برضوان الله وهو كافٍ شافٍ، ولن تُعَدَم من الناس. شاكراً، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ٢٢٠] فافعل الصواب وليكن بعده ما يكون، ومن كان بالله فلا ضيعة عليه.

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامَ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِئَامُهَا

واعلم - رحمني الله وإياك - أنّ سلامة الصدر، ونقاء القلب، وطيب السريرة محض فضل الله تعالى ولطفه وكرمه، لم تكتسبه بنفسك وكذلك وكّد أهلك، فهو اصطفاء إلهي لمن شاء من عباده، فقد خصّك الله تعالى بما حُرِمَ منه غيرك من المخدولين، فإن من أصناف الناس نوعٌ ثقيل الروح، سأمُ الأنفاس، تننُ الظنون، قد كثفت دغائل نفوسهم كأنها قُدُوم من أحجار النار!

ولا أدري كيف يتنفّسون الهواء بقلوبٍ سوداء كالحقّ حقدُها، والغُ صغنُها، وكيف يمشون على أقدام تحمل كل هذا الثقل من الغلّ والوزر من الحقد. فلم يرضوا بقضاء الله لهم

=

والرضا يجعلك لا تشكّ في قضاء الله وقدره وحكمته وعلمه ورحمته وعدله، فتكون مستسلماً لأمره معتقداً أنه حكيمٌ مهما حصل. لكن الإنسان الساخط يشكّ ويوسوس له الشيطان: ما الحكمة هنا وهنا؟! ولذلك فالرضا واليقين أخوان مصطحبان، والسخط والشكّ توأمان متلاصقان، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٥٤]،

=

ولا بقضائه لغيرهم، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]،
نعوذ بالله من الخسار والتباب.

وما المسخُ في الإنسان تغيُّرُ صُورَةٍ وَلَكِنَّهُ سَلْبُ اللَّطَافَةِ وَالْأُنْسِ فلا تكن - حرسك الله - ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، ولا ممن رَضُوا حطامَ الفانية، وتفكر - ويدك على قلبك - في حال من خسر صفقة دينه وإيمانه، فاشتري حفرة الجحيم بإنفاذ غيظٍ غشومٍ لتصديق بهتانِ نفسٍ ظلوم، فعاد الخائبُ أخسرَ من سَلَمِ الخاسر الذي باع مُصحفاً واشترى بثمانه طنبوراً! وأغبنَ صفقةً من أبي غبشان الذي باع مفتاح الكعبة بِزِقِّ خمرٍ! أخلاقُهُم بالية، وأحلامُهُم ذاوية، وألبابُهُم خاوية، وأفعالُهُم غاوية، كأنما عناهم أبو تمام الطائي:

مَسَاوٍ لَوْ قَسَمَنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَّا أُمْهِرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ
فَإِنْ مَرَرْتَ بِنَادِيهِمْ فَاضْرَعِ لِرَبِّكَ حَامِداً مَبْتَهَلاً شَاكِراً: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاههم به،
وفضّلني على كثيرٍ من خلقٍ تفضيلاً. وتذكر أمر ربك الأعلى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الدِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

[٢٦٨]، وَأَكْرِمَ بِمَنْ كَانَ الرَّحْمَنُ قَبْلَتَهُ، وَأَخْسِرَ بِصَفْقَةِ صَاحِبِ الشَّيْطَانِ، ﴿لَبِئْسَ الْأَمْوَالُ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

ألا وإن من أطيب ثمرات الرضا: أنه يثمر الشكر، فصاحب السخط لا يشكر. فهو يشعر أنه مغبون، وحقه منقوص، وحظه مبخوس، لأنه يرى أنه لا نعمة لديه أصلاً! فالسخط نتيجة كفران المنعم والنعم، والرضا نتيجة شكران المنعم والنعم.

والرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يرضي الرب، والسخط يجعل الإنسان يتكلم بما فيه اعتراض على الرب، وربما يكون فيه قدح في الرب عز وجل.

وصاحب الرضا متجرد عن الهوى، وصاحب السخط متبع للهوى. ولا يجتمع الرضا واتباع الهوى، لذلك الرضا بالله وعن الله يطرد الهوى بإذن الله. وصاحب الرضا واقف مع اختيار الله، يحس أن عنده كنز إذا رضي الله عنه أكبر من الجنة، لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، فرضا الله إذا حصل فهو أكبر من الجنة وما فيها. والرضا صفة الله، والجنة مخلوقة. وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. فرضا الله أكبر من الجنة.

والرضا يخلص العبد من سخط الناس، لأن الله إذا رضي عن العبد أَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس. أما إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاء. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أيَّ حسابٍ ولن يتعب نفسياً. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيه نفسياً، ولن يبالي ما دام الله راضياً عنه^(١).

والله يعطي الراضي عنه أشياء لم يسألها، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط ما دام في مصلحته^(٢).

(١) قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فهو مجرد أذى نفسي لا ضرر حقيقي، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] فلا ضرر على المؤمن ما دام متقياً صابراً.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غصاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكُلُّ هين وكل الذي فوق التراب تراب

(٢) فالله تعالى طيب عبده ووليّه وربّه، يسدي له الخير، ويلطف به، ويرفق به، ويرحمه، شعر العبد أم لم يشعر، ويوصل الخير إليه من طرق أكثرها خفي، وهو يوالي عليه هذه النعماء شكر العبد أم قصر، علم أم جهل. ومتى استشعر المؤمن هذه المعاني الهائلة التي تتقاصر دونها تعابير الخلائق؛ امتلأ قلبه بحب الله ربّه، وتهللت روحه فرحاً واستبشاراً بإلهها ومعبودها، وأشرق أرجاؤه سروراً واغتناباً بسيدها البر الرحيم.

والرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة، فهو في صلاته خالٍ قلبه من الوسوس^(١)، في الطاعة غير مشتّت الذهن^(٢)، فيستفيد من العبادة. فالرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة.

والرضا له شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة، فأجره لا ينقطع وليس له حدٌّ، بخلاف أعمال الجوارح، فأجرها له حدٌّ تنتهي بمدّة معينة. فعمل الجوارح محدودٌ، لكن عمل القلب غير محدودٍ. فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلومٍ محسوبٍ، أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها. كيف؟

إنسانٌ راضٍ يفكر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه، عرضت له مسألةٌ حسابيّةٌ فانشغل ذهنه بها. العلماء يقولون: أجر الرضا لا ينقطع وإن شُغل الذهن بشيءٍ ثانٍ؛ لأن أصله موجودٌ حتى ولو انشغل القلب بشيءٍ ثانٍ الآن.

إنسانٌ يخاف الله، أحياناً يحصل له بكاءٌ ووجلٌ نتيجة هذا الخوف، لو انشغل باله مع ولده يضمّد جراح ولده ونسي موضوع التأمل في الخوف وما

(١) وهذا من أعظم ثمرات الرضا بالقضاء، فالعبد متوكل على الله قبل نزول القضاء، راضٍ به بعد نزوله. فأطيب الناس عيشاً المتوكلون الراضون.

(٢) فعلام يتشتّت الذهن وصاحبه قد فوّض كل أمره لمن بيده مقاليد الأمور وإليه يرجع الأمر كله، وهو أرحم بالعبد من والدته ومن نفسه، وكيف لا يطمئن لمن لا يأت الخير إلا من قبله عز وجل.

يوجب البكاء والخشية، فلا زال أجره على الخوف مستمرًا؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركّزٌ في الداخل لم ينتهِ أجره، بل هو مستمرٌّ. وهذا من عجائب أعمال القلوب. وهذا يمكن أن يوضّح لماذا أجر أعمال القلوب أكثر من أجر أعمال الجوارح، مع أنه لا بد من أعمال الجوارح طبعًا، لأنه إذا لم يكن هناك أعمال جوارح فالقلب خربٌ»^(١).

ومن لطائف حكمة الله تعالى ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري عن شاب من أهل ألبانيا: أنه ابتعث إلى ألمانيا للدراسة، ولما أقبلت الاختبارات النهائية أراد الاختلاء بدروسه في جزيرة، فذهب قبل الاختبار بيوم وحجز تذكرة على العبّارة، ووضع عفشه في العبّارة، ثم خرج يتنزّه حولها حتى يحين الانطلاق. فرأى زهرة فقطفها، فأخذته الشرطة وحبسته ليلة، ولم تطلعه إلا بعد ظهر اليوم التالي وقد فاته الاختبار!

فلما خرج ذهب للعبّارة ليأخذ كتبه وشنطته فإذا شاطئ البحيرة كله مآتم؛ إذ غرقت العبّارة ومات كل ركاها، وأعلنوا أنه لم ينج منهم أحد، ولكن للقدر قول آخر بأمر ربه، إذ سلّم الله ذلك الشاب الذي حبسه عنها رحمة به. قال الإمام أحمد: «القدر سرُّ الله في خلقه»، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].

ومن ثمار الرضا بالله تعالى أنه وسيلة لدفع البلاء ورفعته، فعن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: كيف تصوم؟ فغضب رسول الله ﷺ. فلما رأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غضبه قال: رضينا بالله ربًّا،

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٣١-٣٢) بتصرف.

وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. نعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله. فجعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يردّد هذا الكلام حتى سكن غضبه، فقال عمر: يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر كله؟ قال: «لا صام ولا أفطر؟»^(١). أو قال: «لم

(١) أي: لم يحظ بأجر الصيام لأنه على غير سنّة، ولم يحظ بترف الفطر وراحته. وفي الديباج على مسلم (٣ / ٢٤٦): «قال العلماء: سبب غضبه أنه كره مسألته لأنّ حاله لا يناسب حال النبي ﷺ في الصوم، فكان حقّه أن يقول: كيف أصوم؟ ليجيبه بما هو مقتضى حاله، كما أجاب غيره. وقيل: لأن فيه إظهار عمل السرّ. وقوله: «لا صام ولا أفطر» نفى الأول شرعًا والثاني حسنًا. وقوله: «وددتُ أنّي طوّقتُ ذلك» أي: أقدرتُ عليه. قال القرطبي: يشكّل مع وصاله وقوله: «إني أبيتُ أطعم وأسقى» قال: ويرتفع الإشكال بأنّ هذا كان منه ﷺ في أوقات مختلفة، ففي وقت يواصل الأيام بحكم القوة الإلهية، وفي آخره يضعف فيقول هذا بحكم الطباع البشرية. قال: ويمكن أن يقال: تمّنّى ذلك دائمًا بحيث لا يخلّ بحقّ من الحقوق التي يخلّ بها من أدام صومه من القيام بحقوق الزوجات واستيفاء القوّة على الجهاد وأعمال الطاعات».

قلت: والأظهر أنه قال: «وددتُ أنّي طوّقتُ ذلك» في سياق الإشفاق على الأمة، وأنه منهم وأنهم منه، وأنهم بحكم بشريتهم لا يطبقون كل ما يريدون، وأنّ حسن التدبّر لديهم إنّما يكون بحسن الامتثال لا بطرد رغائب العمل.

وقال الصنعاني في سبل السلام (٢ / ١٧٢): «قال ابن العربي: إن كان معناه الدعاء فيا ويح من أصابه دعاء النبي ﷺ! وإن كان معناه الخبر فيا ويح من أخبر عنه النبي ﷺ أنه لم يصم! وإذا لم يصم شرعًا؛ فكيف يكتب له ثواب؟

وقد اختلف العلماء في صيام الأبد، فقال بتحريمه طائفة، وهو اختيار ابن خزيمة لهذا الحديث وما في معناه، وذهب طائفة إلى جوازه وهو اختيار ابن المنذر، وتألّوا أحاديث النهي عن صيام الدهر بأنّ المراد: من صامه مع الأيام المنهي عنها من العيدين وأيام التشريق،

يصم ولم يفطر». قال: كيف من يصوم يومين ويفطر يوماً؟ قال: «ويطيق ذلك أحد؟». قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يوماً؟ قال: «ذاك صوم داود عليه السلام». قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يومين؟ قال: «وددت أني طَوَّقْتُ ذلك». ثم قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله. صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده. وصيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»^(١).

=
وهو تأويل مردود بنهيه ﷺ لابن عمرو عن صوم الدهر، وتعليقه بأن لنفسه عليه حقاً، ولأهله حقاً، ولضيفه حقاً، ولقوله: «أما أنا فأصوم وأفطر، فمن رغب عن سبتي فليس مني» فالتحريم هو الأوجه دليلاً، ومن أدلته ما أخرجه أحمد والنسائي وابن خزيمة من حديث أبي موسى مرفوعاً: «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم» وعقد بيده. قال الجمهور: ويستحب صوم الدهر لمن لا يضعفه عن حق، وتأولوا أحاديث النهي تأويلاً غير راجح، واستدلوا بأنه ﷺ شبهه صوم ست من شوال مع رمضان، وشبهه صوم ثلاثة أيام من كل شهر بصوم الدهر، فلو لا أن صاحبه يستحق الثواب لما شبه به.

وأجيب بأن ذلك على تقدير مشروعيته، فإنها تُغني عنه كما أغنت الخمس الصلوات عن الخمسين التي قد كانت فرضت، مع أنه لو صلاها أحد لوجوبها لم يستحق ثواباً، بل يستحق العقاب». وقيل غير ذلك. وانظر كلام الخطابي في غريب الحديث (١ / ٥١٩) والزرقاني في شرحه (٢ / ٢٤١)

(١) مسلم (١١٦٢)

إنَّ من أعظم ثمار الرضا ذلكم النعيم الروحي، والسكينة القلبية، والطمأنينة النفسية للراضي بربه تعالى. ومن جميل كلام الشيخ سعود الشريم: «إنَّ الطمأنينة والاستقرار النفسي مطلب البشر قاطبةً وإن اختلفوا في تحديد معاييرها وسبل الوصول إليها، وربما ضاقت بعض النفوس عطناً في نظرتها لمثل هذا المعنى الرفيع، فحصرته كامناً في المال وتحصيله، ونفوسٌ أخرى حصرته في الجاه والمنصب، ونفوسٌ غيرها حصرته في الأهل والولد. وهذه المفاهيم وإن كانت لها حظوة في معترك الحياة الدنيا، إلا أنها مسألةٌ نسبيةٌ في الأفراد ووقتيّةٌ في الزمن، والواقع المشاهد أن الأمر خلافُ ذلكم، فكم من غنيٍّ لم يفارق الشقاء جنبيه، ولم يجد في المال معنى الغنى الحقيقي؛ إذ كم من غنيٍّ يجد وكأنّه لم يجد إلا عكس ما كان يجد، وكم من صاحب جاهٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ لم يذق طعم الأُنس والاستقرار في وردٍ ولا صدر، ولا لاح له طيفه يوماً ما، وكم من صاحب أهلٍ وولدٍ يتقلّب على رمضاء الحزن والقلق والاضطراب النفسي وعدم الرضا بالحال، بينما نجد في واقع الحال شخصاً لم يحظَ بشيء من ذلكم البتّة؛ لا مال ولا جاهٍ ولا أهل ولا ولد، غير أن صدره أوسع من الأرض برمتها، وأنسه أبلغ من شقاء أهلها، وطمأنينته أبلغ من قلقهم واضطرابهم، لماذا؟

لأنّ تلكم الأصناف قد تباينت في تعاملها مع نعمة كبرى ينعم الله بها على عبده المؤمن، نعمةٍ إذا وقعت في قلب العبد المؤمن أرتته الدنيا واسعةً رحبةً ولو كان في جوف حجرةٍ ذرعها ستة أذرع، ولو نزعَت من قلب العبد لضاقت

عليه الواسعة بما رَحِبَتْ ولو كان يتقلَّب بجنيبه في حجر القصور والدور الفارحة.

إنها نعمةُ الرضا، نعم نعمة الرضا، ذلكم السلاح الفتاك الذي يقضي بحده على الأغوال الهائلة التي ترعب النفس فتضرب أمانها واطمئنانها بسلاح ضعف اليقين والإيمان؛ لأن من آمن عرف طريقه، ومن عرف طريقه رضي به وسلكه أحسن مسلكٍ ليلبِّغ ويصل، لا يبالي ما يعرض له؛ لأن بصره وفكره متعلقان بما هو أسمى وأنقى من هذه الحظوظ الدنيوية. ولا غرو أن يصل مثل هذا سريعاً؛ لأنَّ المتلقِّت لا يصل ولا يُرجى منه الوصول، يقول المصطفى ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً» (١). وقال: «من قال: رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً؛ وجبت له الجنة» (٢).

إنَّ للرضا حلاوةً تفوق كلَّ حلاوة، وعذوبةً دونها كلُّ عذوبة، وله من المذاق النفسي والروحي والقلبي ما يفوق مذاق اللسان مع الشهد المكرَّر. فهذان الحديثان عليهما مدار السعادة والطمأنينة، وباستحضارهما ذكرًا وعملاً تتمكَّن النفس من خوض عُباب الحياة، مهما خالط ذلك من مشاقٍّ وعنت؛ لأنَّ الحديثين قد تضمَّنَا الرضا بربوبية الله سبحانه وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له، فأخِلِقَ بمن جمع هذه الدعامات الثلاثة

(١) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣).

(٢) أبو داود (١٥٢٩) وصححه الألباني.

في قلبه أن يحيا هنياً ويعيش رضىً؛ لأن هذه الدعامات مقاصد مشروعة مضادة لما يخالفها من الهوى والشبهة والشهوة التي تعترض المرء ما دام حياً، وهي معه في سجال معتركٍ بين الحق والباطل والزين والشين والرضا والسخط، ومن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ولا يظلم ربك أحداً.

إن الأمة في هذا العصر الذي تموج فيه الفتن بعضها ببعض، وتتلاقح فيه الشرور والنكبات هي أحوج ما تكون إلى إعلان الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.

نعم، إنها أحوج ما تكون إلى إعلان ذلكم بلسانها وقلوبها وجوارحها؛ لأن ما تعانيه الأمة المسلمة اليوم يصدق فيه قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ حينما سئل: من أين أتى هذا الخلق؟ قال: «من قلة الرضا عن الله»، قيل له: ومن أين أتى قلة الرضا عن الله؟ قال: «من قلة المعرفة بالله». ولا جرم أننا نسمع مثل هذا الإعلان على الألسن كثيرًا، بيد أن هذا ليس هو نهاية المطاف ولا غاية المقصد، بل إننا أحوج ما نكون إليه في الواقع العملي ليلامس شؤوننا المتنوعة في المأكل والمشرب والملبس والعلم والعمل والحكم والاقتصاد والاجتماع والثقافة والإعلام وسائر نواحي الحياة^(١).

وإن من ثمار الرضا: نقاء الصحيفة من دَرَنٍ خطايا اللسان، وذلك بسلامة الكلام حتى على من مسك أذاه، وهذا من جميل الرضا وهو من الحكمة أيضًا،

(١) من خطبته في الحرم المكي الجمعة (١٨ / ٢ / ١٤٣٠)

فأكبر الحنية وأعظم الغبن: أن تُهدي أغلى ما لديك أبغض من لديك. فهذه
الثمرة الحنظلية للغيبة!

لَعَمْرُكَ مَا وَدَّ اللِّسَانُ بِنَافِعٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَصْلُ المودَّةِ فِي الصَّدْرِ
وقد قيل: أحق الناس بالشفقة رجلٌ نصب خيمته على رصيف السالكين،
يمرّون خفافاً إلى المعالي، ويُفني عمره وهو يصف أحوالهم، ويتتقد مسيرهم،
فيا ضيعة الأعمار راحت سهلاً! فلا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهُوْا بِدِينِهِمْ، والله
المستعان.

وبما أنك لن تُرضي الناس - ولو حرصت - فاكثف بإرضاء رب الناس
وهو من سيكفيك الناس سبحانه وبحمده. فاقصده وحده تَصِلْ، واكتف بمن
قلوب العباد بيده، ومشاعرهم بأمره، وتصرفاتهم بقدره، فارض برّبك،
وارض بقسمه وقضائه، وثق بحكمته ورحمته، وقد أحسن ابن دريد في وصف
خية من رام إرضاء الناس فقال:

وما أحدٌ من ألسنِ الناسِ سالماً ولو أنه ذاك النبيُّ المطهَّرُ
فإن كان مقدماً يقولون أهوجٌ^(١) وإن كان مفضلاً يقولون مُبذِرُ
وإن كان سَكِيئاً يقولون أبكمٌ وإن كان منطيقاً يقولون مهذّرُ^(٢)
وإن كان صوّماً وبالليل قائماً يقولون زرافٌ^(١) يُرائي ويمكرُ

(١) الأهوج: من كان فيه تسرع وحماسة.

(٢) المهذّر: كثير الكلام فيما لا ينفع.

فلا تحتفل بالناس في الذمّ والثناء ولا تخش غير الله، فالله أكبر
وللرضا ثمرات وثمرات جامعها الفوز والنجاة والسعادة والفلاح في
الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق.

يَا مَنْ تَرَفَّعَ لِلدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا لَيْسَ التَّرَفُّعُ رَفَعَ الطَّيِّينَ بِالطَّيِّينِ
إِذَا أَرَدَتْ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلَّهُمْ فَإِنظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مِسْكِينٍ
لَا تَخْضَعَنَّ لِخَلْقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَلِكَ وَهْنٌ مِنْكَ فِي الدِّينِ
وَاسْتَرْزِقِ اللَّهَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ فَإِنَّ ذَاكَ لَهُ بِالْكَافِ وَالنُّونِ
أَلَا تَرَى كُلَّ مَنْ تَرَجَو وَتَأْمَلُهُ مِنْ الْبَرِيَّةِ مِسْكِينِ ابْنِ مِسْكِينِ
أَرَى أَنْاسًا بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالْدُونِ
فَاسْتَغْنِ بِالْدِينِ عَنِ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا اسْتَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ



(١) زرف في الكلام: زاد فيه وكذب.

الرضا بالله تعالى والتفاؤل

طبيعة الإيمان تفاؤل، لأنّ المؤمن ساكن النفس، مطمئن القلب، رخيّ البال، مرتاح الفكر؛ فعلمه بربه وبذله وسعه لمرضاته حافز للاستبشار والسرور وحسن الظنّ بمن لا يأتي الخير إلّا من عنده، ولا يُستدفع الشر إلّا به، تبارك وتعالى وجلّ وعزّ.

فالمؤمن يعلم أنّ أمره كلّ خير، وأنّ تدبير ربه له خير من تدبيره وتدبير غيره له، يتعبّد ربّه بمقتضى أسمائه وصفاته كالربّ والكريم والحكيم والرفيق واللطيف والبرّ والرحمن والرحيم والوهاب والعدل والحَيّ والقيوم وغيرها من أسماء وصفات الجمال والجلال، ويؤمن بالقضاء والقدر، وأنه حتم لازب وقضاء نافذ، ويدافع القضاء بالقضاء على وفق الشرع، فلا يعجز عند الأمر، ولا يجزع عند المُرّ، قد انسجمت روحه وقلبه وعقله وجثثانه مع علمه برّبّه وشريعته.

وبالجملة؛ فالمؤمن متفائل بمستقبله ومستقبل أحبابه ومجتمعه وأُمته على الدوام، مهما كان الامتحان بشدائد البلايا وكبريات الرزايا، فمهما اشتدّ البلاء فالفرج على إثره، وكل مصيبة - خلا الدين - فهي يسيرة وزائلة لأنها مصيبة دُنيا، وهموم الدُنيا - على التحقيق - لا تستحق، فإنّ زوال الدُنيا بأسرها ليس بشيء في جناب ساعة من ساعات الآخرة، وقد قال صلوات الله وسلامه

وبركاته عليه: «لغدوة في سبيل الله - أو روحه - خير من الدنيا وما فيها، ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(١).

وميزان الدنيا مع الآخرة صفر كمًّا وكيفًا بحسب المنطق؛ ذلك أنك لو وزنت عددًا محدودًا مهما بلغ طوله بما لا حدَّ له ولا نهاية فالنتيجة صفرية، وتأمل آيات الكتاب والسنة في أمر الدنيا تجد أنها ليست بشيء أمام الآخرة! وأن كل حطامها فانٍ، وكل متاعها زائل، وكل عيشها منغص ومقطوع، وكل عقائد أهلها الباطلة وأخلاقهم السافلة هي في النهاية هباء زائل ووزر جاثم وزاد باطل مهما زيّفتها شياطين الإنس والجان، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ عَظِيمٍ﴾ [المائدة: ٦٨].

وتأمل معي؛ لو أن ميتًا نُشر من قبره الساعة، ثم خُير بين أمرين: مُلك الدنيا أو تسييحه واحدة، فماذا سيختار؟

سيختار التسييحه قطعًا، لأنها زاد الآخرة، وقد عَلِمَ شأنها وشأن الدنيا الزائلة، فإذا كانت الدنيا بأسرها لا تساوي تسييحه واحدة؛ فكل ما فاتك منها شيء فسبِّح تكن غانمًا فائزًا فالحًا مستريحًا، وكما قال ابن حزم وقد اشتهى فاكهة أمامه وكان صائمًا: يا فاكهة؛ موعدني وموعدك الجنة، برحمة الله. ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ مَيِّتَةٌ مِنْ تَوَى قَتِيلًا كَلِيلًا مِنْ قَتَالِ الْبَوَاغِيَا

(١) أحمد (١٥٥٦٣) وصححه محققوه الأرناؤوط وأصحابه.

ومن مات مثل الكلب من شُبْع بطنه وقد مات خَوَّارًا جَبَانًا ولاهيا
فَمَنْ ذَا يبيع المُسْتَهَام جنانه فقد نادتِ الفردوسُ من كان ساميا
قال شيخنا عبد الله الدميحي حفظه الله تعالى: «كان السلف يتواصون:
أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس، وأصلح سريرتك
يصلح الله علانيتك، واجتهد في إصلاح أمر آخرتك يصلح الله أمر دنياك
وآخرتك». أهـ.

ومن نظر إلى نعيم الآخرة هانت عليه نفسه في أودية عذابات الدنيا، ومن
علم أن الله يحب عباده المؤمنين به ويبتليهم، وأنه على قدر ولايتهم يكون
صَبَّ البلاء وصب الصبر والرضا والحمد والشكر لمن وفقه منهم، وأن الله
تعالى أقرب ما يكون من عبده حال مرضه، أو فاقته، أو مظلمته، أو فقد
أحبابه، أو تبدل أحواله ونحو ذلك؛ فلن ييأس أو يحزن أبدًا، وفي ذلك تحصينٌ
وبناء وعلاج ودواء؛ لأن الحزن واليأس يزيدان المرض والحسرة والألم
والضيق.

هذا؛ وإنّ الجزع أو السوداوية أو سوء الظن بالله في المرض خاصة
يضعف مقاومة الجسم للأمراض، فتضعف مناعته، بل تنهار وتنهزم عن
مقاومة المرض، وهذا ما أثبتته الطب حديثًا، فالروح المعنوية القوية من أقوى
عوامل دفع الداء بإذن الله تعالى.

وإن مما يقوى الجهاز المناعي للمريض ويرفع به عنه الداء بإذن الله تعالى
رضا المريض بربه وقضائه وثقته به وحسن ظنه ورجائه، وهو نافع كذلك في

دفعه قبل نزوله، فالذي خلق الداء هو من ابتلى به، فلا تذهب عنه فشمت العافية. وقد أصيب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ زَمَنًا في بصره فأوصاه الطبيب بالامتناع عن القراءة حينًا ريثما تطيب عيناه، فأبى ذلك ابن تيمية وحاكمه إلى طِبِّهِ بأن أقرّه أن قوة الروح في بسط رغبتها فيما تحبّ معين بإذن الله تعالى في رفع الداء، فأقرّه الطبيب على ذلك.

وإنّ من الأطباء - هداهم الله - من يُقنط المريض من الشفاء بحجة عرض الحقائق بزعمه، علمًا أن المستقبل علمٌ اختص الله بتديره والعلم به، فمهما اتّفقت وجهات نظرهم وأجهزة علمهم فهي ليست يقينية، وكم فلَجَّهُمُ الشافي سبحانه بشفاء مرضى قد يئسوا وأيسوا من شفائهم، فأبى الله ذلك سبحانه وبحمده.

وفعلهم هذا مخالف لهدي رسولنا صلى الله عليه فقد كان من هديه ﷺ تنفيس المريض، وإراحته، فهو بحقّ سيد المتفائلين، وكان إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا»^(١). ويختار من رسله ذوي الأسماء والوجوه والمظاهر الحسنة.

ولا بد أن نعلم أن عقيدتنا كمسلمين في المرض مختلفة عن نظرة الكفرة له، فيشيع في بلاد الشرق والغرب أنّ هناك أمراضًا لا شفاء لها، وهذا مخالف لمعتقد الحنفاء؛ فقد قال الهادي البشير ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالِدَوَاءَ،

(١) مسلم (١٧٣٢)

فتداووا ولا تتداووا بحرام»^(١). وقال ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»^(٢). وقال ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»^(٣).

واعلم أيها المريض أن المرض مقدر لك من عند الله، الذي هو أرحم وأعلم وأحكم وألطف وأرفق بك من والديك ومن نفسك، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١]. وتدبر قوله سبحانه: ﴿لَنَا﴾ [التوبة : ٥١] مع أن المتبادر أن يقول: (علينا)، وذلك لأنها في الحقيقة هبة ربانية ورحمة إلهية على شكل مصيبة دنياء، فاحمد الله واشكره، لأن المصيبة إن نزل معها صبر ورضا وحمد وشكر فهي نعمة سابعة تامة، أما إن كان معها الجزع والتسخط فهي مصيبتان: مصيبة دين بالسخط والوقوع تحت طائلة غضب الله وعقوبته، ومصيبة دنياء بحسب ما فاتته ووقع عليه، والله المستعان.

وقال الرحيم الرحمن تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢]. وقال ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض

(١) الطبراني في الكبير (٦٤٩) ووثق رجاله صاحب المجمع (٨٢٨٨) وحسنه الألباني في السلسلة (١٦٣٣)

(٢) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «علمه من علمه...» فإنها عند أحمد (٢٧٨ / ٤) وحسنه محققوه، والحاكم (١٩٦ / ٤)

(٣) مسلم (٢٢٠٤)

بخمسين ألف سنة»^(١). وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي وجدت صبياً فأخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا وهي تقدر ألا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

وتذكر أن الله تبارك وتعالى قد أراد بك خيراً بمرضك وبلائك، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه»^(٣). أي يتليه بالمصائب ليشبه عليها. والابتلاء بالمرض وغيره من أمارات محبة الله لعبده؛ قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(٤).

واعلم -رحمني الله وإياك- أن هذه الدار فانية ومتعتها زائلة، وأن هناك داراً أعظم منها خطراً، وأجلّ منها قدراً، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ

(١) مسلم (٢٦٥٣)

(٢) البخاري (٥٩٩٩)

(٣) البخاري (٥٦٤٥)

(٤) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي. وأخرجه

ابن ماجه (٤٠٣١) باللفظ الثاني فقط.

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [فاطر: ٢٠].

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البحرين^(١) يأتي بجزيته، فقدم بهال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ^(٢) فلما صلى رسول الله ﷺ، انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟» فقالوا: أجل، يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم^(٣)، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم^(٤)».

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم

(١) البحرين هي ما تسمى الآن بالمنطقة الشرقية في السعودية، وهي من الأحساء غرباً حتى شاطئ وجزر الخليج العربي شرقاً.

(٢) لأن بعضهم كانت منازلهم بعيدة عن مسجد رسول الله ﷺ ولهم مساجد في دورهم، فصلوا معه ذلك اليوم حين سمعوا بقدوم أبي عبيدة.

(٣) فالرزق مكفول مضمون، ولكن العمل والجنة ليسا كذلك والله المستعان، والمال غرّار فتان إلا من أخذه بحقه.

(٤) البخاري ١١٧/٤ (٣١٥٨) ومسلم ٢١٢/٨ (٢٩٦١) (٦)

من زهرة الدنيا وزيتها»^(١). وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»^(٣). وعنه عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله: فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله»^(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»^(٥). وقال ﷺ: «يؤتى بأנعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٦).

(١) البخاري ١٤٩/٢ (١٤٦٥) ومسلم ١٠١/٣ (١٠٥٢) (١٢٣)

(٢) مسلم ٨٩/٨ (٢٧٤٢)

(٣) البخاري ١٠٩/٨ (٦٤١٣) ومسلم ١٨٨/٥ (١٨٠٥) (١٢٧)

(٤) البخاري ١٣٤/٨ (٦٥١٤) ومسلم ٢١١/٨ (٢٩٦٠) (٥)

(٥) البخاري ١٢٧/٨ (٦٤٨٨) والشّراك: أحد سيور النعل.

(٦) مسلم (٢٨٠٧). والصبغة: أي: يغمس غمسة.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ناصحًا:

ومن يذُقِ الدنيا فاني طِعْمَتُهَا وسيقَ الينا عَذْبُهَا وَعَذَائِبُهَا
فلم أرَهَا إِلَّا غُرُورًا وبَاطِلًا كما لاح في ظهر الفلاة سَرَابُهَا
وما هي إِلَّا جيفةٌ مُستَحيلةٌ عليها كلابٌ هَمَّهْنٌ اجتذَابُهَا
فان تَجَنَّبَهَا كُنْتَ سَلَمًا لِأَهْلِهَا وأنْ تَجْتَذِبَهَا نازعتكَ كِلَابُهَا
فطوبى لِنَفْسٍ أُولِعَتْ قَعَرَ دارِهَا مغلَّقةُ الأبوابِ مُرَخًى حجابُهَا

وعليه؛ فالمؤمن يرضى بتدبير مولاه الرحيم الرفيق البر اللطيف، ولا بد للمؤمن أن يستبشر في كل أحواله، شاهدًا برضاه بقسمة مولاه، متخذًا من بلائه مطية لبلوغ مرماه الآخروي، وتحقيق هدفه السماوي، فعجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا، كما أخبر رسول الله ﷺ عن حال المؤمن الصابر الراضي بقضاء الله تعالى. وقديما قال لبيد:

فاقنع بما كتبَ المَلِكُ فإنما قَسَمَ الخلائقَ بيننا عَلامٌ

ودومًا: تفاعل بالأحسن، وانتظر الأفضل، وكن على استعداد للأسوأ حتى لا تنكسر، وكن حسن الظن بمن كل الخير منه.

سيفتحُ اللهُ بابًا كُنْتَ تحسبهُ من شدّة اليأسِ لم يُخلَقْ بمفتاحٍ

وقال الشيخ عائض القرني: «إنَّ في المصائبِ مسائل: الصبرَ والقدرَ والأجرَ، وليعلم العبدُ أنَّ الذي أخذ هو الذي أعطى، وأنَّ الذي سلب هو الذي منح.

لا تعصِ الله من أجل من أحببت؛ فقلْبُ من أحببتَ بيد من عصيتَ، وتذكر بأن الخذلان دائماً يأتيك من الجهة التي عصيت الله لأجلها.

ولا بد للعسر من يسر، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [الشَّرْح: ٥ - ٦]^(١). وهذه سنة الله تعالى في خلقه. ما جعل عسرًا إلا جعل بعده يسرًا، والأمراض مهما طالت وعظمت لا بد لأيامها أن تنتهي، ولا بد لساعاتها - بإذن الله - أن تنجلي يقول الشاعر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرجُ
ضاقَت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرجُ

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء

(١) قاعدة لغويّة أصوليّة: النّكرة إذا أعيدت معرفة كانت الثّانية عين الأولى، وإذا أعيدت نكرة كانت الثّانية غير الأولى.

والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثّانية عين الأولى، وإذا أعيدت نكرة كانت الثّانية غير الأولى. وانظر: موسوعة القواعد الفقهيّة، محمد صدقي آل بورنو (١١/١٢٥٠)

وصاحب الرخاء ينتظر البلاء»^(١). وقال عبدُ بنُ حميدٍ لرجل يشكو إليه العسرة في أموره:

ألا يا أيها الذي في عسره أصبح إذا اشتدَّ بك الأمرُ فلا تنسَ (ألم نشرح)^(٢)
قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرِينَ»^(٣).
وروي أنَّ أبا عبيدة حُصِرَ بالشام فكتب إليه عمرُ يقول: «مهما ينزل بامرئ شدةً
يجعل الله بعدها فرجاً، وإنَّه لن يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرِينَ، وإنَّه يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾» آلَ عَمْرَانَ :
[٢٠٠].»^(٤)

(١) لا تحزن (٢ / ٤٣)

(٢) وقال محمد عبد الله القاضي شاعر عذبة:

والله وَعَدَ عسر الليالي بيسرها جانا دليل ب(ألم نشرح) وهو كافي

(٣) أحمد (٢٢٨/٢) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ١٤٩) (٢٠٧٩): «رواه الحاكم والبيهقي في الشعب عن الحسن مرسلاً، ورواه الطبراني عن معمر والعسكري في الأمثال وابن مردويه عن جابر بسند ضعيف». وضعفه الألباني في الجامع (٤٧٨٤) وقال محمد الحوت في أسنى المطالب (١ / ٢٣٠): «روي عن الحسن مرسلاً، وله طرق ضعيفة. قال العراقي: مراسيل الحسن عندهم كالريح. ورفع لم يصح وإن ذكره المفسرون».

(٤) مالك في الموطأ برواية الليثي (١٢٨٨) وابن أبي شيبة (٣٣٨٤٠) وحسنه الحافظ في تغليق التعليق (٤ / ٣٧٢)

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى، وحصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلّق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكّل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلَبُ بها الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكّل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطّلاق: ٣].

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلَا

وعن محمد بن إسحاق قال: جاء مالك الأشجعي إلى النبي ﷺ، فقال: أُسِرَ ابني عوف! فقال له: «أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تُكثِرَ من قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله»، فأتاه الرسول فأخبره، فأكبَّ عوف يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وكانوا قد شدّوه بالقِدِّ فسقط القِدُّ عنه، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها، فأقبل فإذا هو بسرح القوم الذين كانوا شدّوه، فصاح بها، فأتبع آخرها أوّلها، فلم يفاجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف وربّ الكعبة، فقالت أمه: واشوقاه! وعوف كيف يقدم؛ لما هو فيه من القدِّ؟! فاستبق الأب والخادم إليه، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً. فقصّ على أبيه أمره وأمر الإبل، فأتى أبوه رسول الله ﷺ، فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله ﷺ: «اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعاً بإبلك»،

ونزل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].^(١)

قال الفضيل: «والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً، لأعطاك مولاك كل ما تريد».

رَبِّمَا تَجَزَعُ النُّفُوسُ لِأَمْرِ وَلَهَا فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ

وأيضاً فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرُّعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إِنَّمَا أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكَ، ولو كان فيك خيرٌ لأُجِبْتُ. وهذا اللوم أحبُّ إلى الله من كثيرٍ من الطَّاعَاتِ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهلٍ لإجابة الدعاء، فلذلك تُسْرِعُ إليه حينئذٍ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

قال وهب: «تعبَّد رجل زماناً، ثم بدت له إلى الله حاجةٌ، فصام سبعين سبئاً، يأكل في كُلِّ سببٍ إحدى عشرة ثمرة، ثم سأل الله حاجته فلم يُعْطَهَا، فرجع إلى نفسه فقال: منك أُتِيتُ، لو كان فيك خيرٌ أعطيت حاجتك، فنزل إليه عند ذلك مَلَكٌ فقال: يا ابنَ آدَمَ سَاعَتُكَ هَذِهِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ الَّتِي مَضَتْ، وَقَدْ قَضَى اللَّهُ حَاجَتَكَ»^(٢). ولبعض المتقدمين في هذا المعنى شعرٌ:

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٤٦) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٩٧٢)

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٩٤/١)

عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى له فرجاً ممّا ألحّ به الدهر
 عسى فرج يأتي به الله إنّه له كلّ يوم في خليقته أمر
 إذا لاح عُسر فارح يسراً فإنّه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر»^(١)



(١) جامع العلوم والحكم (٢١ / ٣٩ - ٤٢) باختصار.

علوُّ الهمة بالرضا

قد يبدو لغير المتأمل أن الرضا يضاد علوَّ الهمة، والحق أنه لا تعارض بينهما البتة، ذلك أن الرضا لا يمنع العمل في جلب مصالح العبد في دينه ودنياه، والرضا يحوط زمن العمل من جهاته الثلاث؛ قبله وأثناءه وبعده: فيكون الرضا سابقاً له بتوطين النفس عليه واعتقاده أولاً، ويكون مصاحباً له باستشعاره في تفاصيل العمل والقضاء ثانياً، ثم باستقرار وسكون القلب على ما بعده ثالثاً، فيكون العبد الموفق قد ركب سفينة الرضا ودثّر قلبه بلباسه في كل مرحلة.

فالرضا لا يعني ترك المنافسة في خيرات الآخرة وخيرات الدنيا، فالرضا بالله لا يمنع التاجر ولا الفلاح ولا الموظف ونحوهم من الازدياد من توسيع معاشهم شريطة ألا يسخطوا تدبير الله تعالى لهم، قال سبحانه: ﴿فَأْمْسُوا فِي مَنَاقِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧]. فالله تعالى قد جعل الدنيا وسيلة لتحقيق رغائب الآخرة، والموفق الحازم هو من لم يركن إليها، إنما يجعلها وسيلة ومعبراً لتحصيل رضا ربه والدرجات العلى من الجنة.

هذا؛ وقد تعلقو همة الراضي بربه حتى يكتفي بأمور الآخرة عن فضول دنياه، ويكتفي من الدنيا ببلغة تعينه على الطاعة، فيضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى، ويرفع الآخرة حيث رفعها سبحانه. فمُحَرِّكُ الزهد في الدنيا هو تمام الرضا بالله، فإن العبد لما اكتمل رضاه بربه اكتفى به عما سواه. ومن هنا كان

الرضا بالله أعظم سبب في رفع الهمة الصحيحة حقًا، فالولوغ في السفساف ليس من الهمة في شيء، والتخوض في المعاصي ليس منها، إذ حقيقة الهمة: السعي لتحصيل معالي الأمور. ووظيفة الرضا هنا: تصويب مسار البصيرة، ورفع سقف الرغبة. فأغمض عينيك برهةً، كيما تتأمل حقيقتك، وكن كما قيل: كيف يرى هؤلاء الذين لا يُغمضون عيونهم؟! والمهدي من هداه الله.

وَلَوْلَوْ تَانِ فِي قَلْبِي تَرَى مَا لَا تَرَى الْأَحْظَاظُ

وبما أن الهمة مشتقة من الهم - وفيه من الإزعاج والمشقة والثقل ما فيه - فإن الرضا هو العقار المريح لقلق الترقب، فالقلب والجوارح تعملان بجهد لتحصيل معالي الأمور، والمسارة في أنواع القرب؛ والمنافسة على منازل الجنة العالية، والمسابقة لرضوان الله تعالى، والقلب في كل ذلك مطمئن بربه، ساكن إليه وبه، راضٍ تمام الرضا بتقديره، لعلمه أن ما يختاره ربه له خير مما يختاره لنفسه، لأنه قد بذل وسعه في مرضاته ورضي به وعنه.

كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخُلُقِ السَّنِيِّ وَلَا مَسَاءٌ

قال ابن الحاج رحمه الله: «اعلم أن القوم لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه؛ لم يغتروا بدار الغرور، ولم تكن لهم رغبة إلا خوف فوات ما شوق إليه وعد القرآن ووعيده من الخلود في دار النعيم أو دار الهوان، إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين.

إنما دعا إلى دار السلام مَنْ خَلَقَهَا وَزَيَّنَهَا وَجَلَّاهَا، فحُضْ أَيْهَا الْمُرِيد

الغمرات شوقاً إلى نعيمها، وأجب الداعي الصادق الوفيّ إلى ما وعد ودعاك إليه، فإنه قد حذرك نفسك وهواك، وأنذرك حلول دار سخطه.

فاجعل الموت ضجيعك، والزهد قرينك، والجدّ سلاحك، والصدق مركبك، والإخلاص زادك، والخوف من الله على مقدّماتك، والشوق إلى الجنة صاحب لوائك، والمعرفة على ميمنتك، واليقين على ميسرتك، والثقة على ساقتك، والصبر أمير جندك، والرضا وزيرك، والعلم مشيرك، والتوكل درعك، والشكر خليلك؛ ثم انفر إلى عدوك وصافقه بجميع ما ذكرت لك، وطب نفساً عن دار الهموم والأحزان إلى دار البقاء والسرور مع الخيرات الحسان، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

فلينظر العبد إلى الله تعالى في كل أمره، فإنه من نظر إلى نفسه أو إلى أحد من المخلوقين بأمل رجاء منفعتة كان عزوياً لقلبه عن الله، وكان منقوصاً عن منزلة الواثقين المؤيدين، وقد قال الله عز وجل لداود عليه السلام: «يا داود إني قد آليت على نفسي ألا أثيب عبداً من عبادي إلا عبداً قد علمت من طلبته وإرادته وإلقاء كنفه بين يدي أنه لا غنى له عني، وأنه لا يطمئن إلى نفسه بنظرها وفعالها إلا وكلته إليها. أضف الأشياء إليّ، فإني أنا مننتُ بها عليك» (١).

(١) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي (١/١٠٦) (٢٤٨) وهو من أحاديث بني إسرائيل.

واعلم أنّ العباد قد تفاوتوا وتباينوا، فباختيارهم نظر الله تعالى على اختيار أنفسهم زادهم ذلك سرعة وقرباً من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسهيله عليهم، وبالسّهو عنه واختيارهم أنفسهم على نظر الله تعالى زادهم ذلك بطئاً وبعداً من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسهيله عليهم، فكن في نظرك إلى ربك ناظراً بأن لا تؤمل غير صنعه ولا ترجو غير معونته، واثقاً باختياره، فإن ذلك أقرب وأسرع في معونته لك.

فإن الذين قلّدوا أمورهم ربّهم ووثقوا به ولجأوا إليه قد أमतوا من قلوبهم تدبير أنفسهم، وجعلوا الأمور عندهم أسباباً مع قيامهم بها والمحافظة عليها، فأولئك ذهبوا بصفو الدنيا والآخرة لسكون قلوبهم إليه، فوجدوا بذلك الرّوح والراحة، فهم حماة الدين والعلماء بالله، قد فاقوا على من سواهم باطمئنانهم به وسكونهم إليه، فأوجب لهم صنعه^(١) وأقام قلوبهم على منهاجه، فما تقلّبوا فيه من الأمر فعلى الرضا والطمأنينة، ومن سواهم من الخلق في مؤنة وتعب من أنفسهم حيث اختاروها وتوكلوا عليها؛ فأورثتهم الهم والغموم.

وأما أهل العبودية لله فهم الذين قلّدوه أمورهم وخرجوا عن طباع العباد لما تبين لهم من خطأ من اختار نفسه، فجعلوا اختيارهم الرضا بما صيرهم إليه مولاهم من أمورهم؛ فزالت الغموم عن قلوبهم؛ فأوجب لهم الصنع والتوفيق في أحوالهم، وأورثهم الغنى والعز في قلوبهم، وسد عنهم أبواب الحاجات إلى المخلوقين، وأتتهم لطائف الله من حيث لا يحتسبون،

(١) أي: فضله وممّته.

وقام لهم بما يكتفون به، ونزّه أنفسهم عما سوى ذلك إكرامًا لهم عن فضول الدنيا، وطهارة لقلوبهم عن التشاغل بما أغناهم عنه، فحصنهم من كل دنس، وأمشاهم في طرقات الدنيا طيِّبين موالين له، فهم في السموات أشهر منهم في الأرض، ولأصواتهم هناك دوي ونور يُعرفون به ويحيون عليه، قد رفع أبصار قلوبهم إليه^(١) وحببهم إلى ملائكته وسائر خلقه.

فهؤلاء قد ملأ الله أسماعهم وأبصارهم وجوارحهم من حبه، فأدّبوا أنفسهم بالعبودية له والدخول في محبته، وذلك أن تأديب الرجل نفسه في مطعمه ومشربه وملبسه يزيد في صلاح قلبه، وتنقاد جوارحه لقلبه، ويقوى عزمه ويقهر هواه، فيقوم عند ذلك مقام أهل القوة، إلى أن يرفعه الله إلى منزلة فوقها حتى يستوي عنده الأخذ والترك، فلا يأسفون على ما فاتهم ولا يفرحون بما آتاهم للغنى الذي وقر في قلوبهم، يزدادون له محبة ومودة وشكرًا له في العلم به والمعرفة به، فعند ذلك رقت قلوبهم وانقادت أهواؤهم إلى ما قلّ من الدنيا وكفى، فهي لا تطلع إلى غير ذلك، ناظرين إلى ربهم في أمورهم كلها لا إلى الأسباب، نظرهم من غير تفريط في إقامة الأسباب الخالصة من أعمال البر، فإن لبسوا خشنًا أو لينًا أو حسنًا أو قبيحًا أو أكلوا طيبًا أو كريهًا أو حلّوا أو مرًا أو حامضًا أو قليلًا أو كثيرًا لم يغير ذلك من قلوبهم عن الحال التي هي عليها من ذكر ربهم وتعظيمه، وذلك أن قلوبهم عامرة من ذكر الخالق وليس لشيء سواه في قلوبهم ثبوت إلا بالخاطر من غير أن يرسخ أو يثبت، فلم يقم الناس

(١) وهي البصائر، والغالب إطلاق البصر لما في الرأس والبصيرة لما في القلب.

مقاماً أشرف من أن يعلقوا قلوبهم بربهم، ولا أولى بهم من ذلك، لأنهم أشد الناس محافظة على جمع همومهم في صلاتهم، وجمع ما يتقربون به من ربهم.

إن قاموا عرفوا بين يدي من هم قيام له، وكذلك إن ركعوا أو سجدوا أو تلوا القرآن أو دعوا ربهم، لا تعزب قلوبهم عن ذلك، فبه زكت أعمالهم وصوّبت عقولهم، فهو يتعاهدهم بلطفه ويسوّسهم بتوفيقه؛ فقلّ عند ذلك خطؤهم وكثر صوابهم، فمن كان يريد الدخول في محبة طاعة الله فلا يكن له ثقة إلا الله، ولا غنى إلا به، ولا أمل غيره، يرجوه ويتخذة وكيلاً في أموره كلها، راضياً بقضائه فيما نقله إليه من أموره، راضياً باختيار الله له، متهمّاً رأيته ولما تسوّل له نفسه، مسلماً راضياً عن الله، غير متجبر ولا متملك فيما أحدث الله من مرض أو صحة أو رخاء أو شدة مما أحب أو كره.

وليكن قلبه بذلك راضياً لموضع الثقة بربه وحسن الظن به، فإذا كان العبد كذلك ورث قلبه المحبة له والشوق إليه، وصار إلى منزلة الرضا بما كفاه وحماه من الدنيا وإن قل، وأخرج من قلبه مطامع المخلوقين، فاستغنى بالله فجعله الله من أولي الألباب، ثم ألهمه مولاه علماً من علمه فعرفه ما لم يكن يعرفه، وعلمه ما لم يكن يعلم، فعن الله أخذ علمه وبأمر الله جلّ ذكره، تأدب فطهرت أخلاقه لما أثر أمر الله ولجأ إليه، فتمت عليه نعمة الله في الدنيا والآخرة.

إِذَا أَدْنَى اللَّهُ فِي حَاجَةٍ أَتَاكَ النَّجَاحُ بِهَا يَرْكُضُ

فأولئك المحبوبون في أهل السماوات المعروفون فيها، خفي أمرهم على أهل الأرض وظهر أمرهم لأهل السماوات، لكلامهم هناك دويّ، ولبكائهم

حين تقعقع له أبواب السماء من سرعة فتحها إجابةً لدعائهم، فأعظم بهم عند الله جاهًا ومنزلةً، وأعظم بهم خوفًا من الله وحسن ظن به، فهم مسرورون برهم قريرة أعينهم طربةً قلوبهم بذكره مشتاقة ساكنة مطمئنة إليه، تقدموا الناس وانقطع الناس عنهم، وأشرفوا على الناس واشتغل الناس عنهم، فعجبوا من الناس وعجب الناس منهم!

انقطعوا إلى الله بهومهم وأهوائهم وتعلقوا به، ولجئوا إلى الله لجأ المستغيثين به المتوكلين عليه، قد تخلصت إليه عقولهم بالمودة؛ فأنزلوا نسيانه معصية محرمة عليهم، فقبلهم واجتباهم ونعمهم وخصهم وكفاهم وآواهم وعلمهم وعرفهم^(١) وأسمعهم وبصرهم، وحجبهم عن الآفات وحجب الآفات عنهم، وأقامهم مقام الطهارة، وأنزلهم منازل السلامة، وأقام قلوبهم بذكره، فلم يريدوا به بدلًا ولا عنه حَوْلًا، صيانةً لديه، وطربًا واشتياقًا إليه، قد أذاقهم من حلاوة ذكره، ليس لهم مسكن غيره، تضطرب قلوبهم عند فقدته حتى ترجع إلى موضع حنينها.

ولهم في كل يوم وليلة منه هدايا مجددة، فتارة يغلب على قلوبهم تعظيم رهم وجلاله، وتارة يغلب على قلوبهم قدرته وسلطانه، وتارة يغلب على

(١) ذكر العلم بالله والمعرفة به وكلاهما بمعنى واحد إن افترقا. والجادة استعمال لفظ العلم، وهو مغني كافٍ شافٍ، ولا بأس بلفظ المعرفة، وقد ورد في السنة فلا اشكال فيه. وعليه؛ فعند أهل السلوك أنهما إن اجتمعا فيراد بلفظ العلم بالله: العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، ويراد بالمعرفة به: سلوك القلب مع ربه وأدبه وحاله معه، فالعلم هنا قول القلب، والمعرفة عمله، والله أعلم.

قلوبهم آلاؤه ونعمائؤه، وتارة يغلب على قلوبهم تقصيرهم عن واجب حقّه، وتارة يغلب على قلوبهم رأفته ورحمته. ولهم في كل تارة دمة ولذة، وفي كل دمة ولذة فكرة وعبرة، وقلوبهم مستقلة به عما سواه. فهم يُسقون من كل تارة مشرباً سائغاً يذيقهم لذته، ولهم في كل مقام علمٍ زيادةٌ يعرفهم ما يحدث لهم في قلوبهم من الزيادة، فلو رأيتهم وقد انقطعت آمال الخلق عنهم، وأفضوا إلى الله جل ذكره بجميع رغباتهم، وانزاحت الأشياء الشاغلة عن قلوبهم، فصمت عنها أسماعهم، وانصرفت أبصار قلوبهم إليه، حتى إذا جنّهم الليل وزجرهم القرآن بعجائبه من وعده ووعيده وأخباره وأمثاله شربوا من كل نوع كأساً من الزجر والتحذير والأخبار والأمثال والوعد والوعيد، ووجدوا حلاوة ما شربوا.

حتى إذا صفا يقينهم ارتفعوا إلى عظمة سيدهم وجلال مولاهم، فخضع كل عضو منهم لله، وخشعت كل جارحة منهم لسكونها إليه، غير منتشرة عليهم همومهم، بل كل ذلك لذاذة لاستماعه، فقد كشف لهم القرآن عن أموره، وكشف لهم عن عجائبه فيفهمونه.

فهم يزدادون لله ذكراً ومودة ومحبة في كل ما امتحنهم به من أمر الدنيا والآخرة، فقد أعرضوا عن كل نعيم عاجل أو آجل، واشتغلوا عن النعيم بذكر مولاهم، وكل ذلك منّة منه وتفضّل عليهم، فهم أدلاء لعباده، وأعلام في بلاده، فهم بركة بين ظهرانينا، يحبّون الله ويحبّون ذكره، أقاموا مشيئتهم فيما وافق محبة ربهم، يغضبون لغضبه، ويحبّون لمحبهته.

خَفَّتْ عليهم مؤنة الدنيا فلم ينافسوا فيها أحداً، فتلك حالاتهم في المطعم والملبس ما تهياً أكلوه ولبسوه، ورثوا نور الهدى فأبصروا مواضع حيل إبليس ومكره، فكسروا عليه كيده، ودلّوا الناس على مواضع مكره، فهم نصحاء الله في عباده، وأمناؤه في بلاده، ثم أسكن محبتهم في ملكوت السماوات في عليين، فأحبهم وحببهم إلى ملائكته»^(١).

وقال بعض العلماء: «من أعظم ما مُدحت به الجنة قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، لأن الإنسان لو هَيَّأ قصراً في الدنيا من ذهب؛ وجمع فيه كل ما يحبه ويملاً عينه ويسرّ قلبه؛ وأقام في ذلك المكان بعينه مدة؛ فإنه يملّه ويودّ لو انتقل إلى هيئة أخرى من التلذذ، إلا منزلته في الجنة؛ فإنه لِفَرَطٍ ما هو فيه من النعيم الذي لا يُمل ولا يبلى، والسرور الذي لا يُسأم ولا يفنى، فإنه لا يبتغي عن منزلته حِوَلًا، ولا عنها بدلاً»^(٢).

وتأمل هذه الأحاديث الثلاثة: ففي صحيح البخاري^(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في

(١) المدخل لابن الحاج (٣ / ٣٢ - ٣٩) مختصراً.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم للسخاوي (١ / ٥٠٤)

(٣) البخاري (٤ / ١٦) (٢٧٩٠)

سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة».

وفي صحيح مسلم^(١) قال ﷺ: «يا أبا سعيد؛ من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدّها علي يا رسول الله، ففعل. قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وفي صحيح البخاري^(٢): إن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سراقه - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله؛ ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرّب^(٣) - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة؛ إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». قال ابن تيمية: «فقد بين في الحديث الأول أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وأنّ في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها، والحديث الثاني

(١) مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (١٩/٦ - ٢٠)

(٢) البخاري ٢٤/٤ (٢٨٠٩)

(٣) أي: مجهول المصدر، يقال: سَهْمٌ غَرِبٌ: لما لا يُدْرَى راميّه، والجمع: غُرُوب.

يوافقه في وصف الدرج المئة، والحديث الثالث يوافقه في أن الفردوس أعلاها»^(١).

نمشي حفاة على الرَّمضاءِ تأسُرُنَا فردوسُ ربِّي فلا الدنيا تدانيها
فَشَمَّرَ ذَيْلَ الْعِزِّمِ عَنْ سَاقِ الْحَزْمِ، لَكَ اللَّهُ!

وارحمِ اللَّهُمَّ ابنَ المباركِ إذ قالَ حاثًّا على الجهادِ مرغبًا عِلِّيَّاتِ النفوسِ
لِعِلِّيِّينَ، عسى سامعه أن يستمدَّ عزماً نبأ، ويستردَّ قوةً عزبت، فينهض لفلأحه
نُهوْضًا لا قُعُودَ بعده:

يا عابِدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلَعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَخُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّيْحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا رَهَجُ السَّنَابِكِ^(٢) وَالْغُبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيَّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذَبُ
لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ^(٣)

(١) الرسالة العرشية (١ / ١١) مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٥)

(٢) الرَّهَجُ: الغبار، والسَّنَابِكُ: جمع سنبك، طرف حافر الخيل وجانباه من قدام.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢ / ٢٥٦) والنسائي (٦ / ١٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يُكْذِبُ

فقرأه الفضيل وبكى، ثم قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح»^(١).
وعلى المؤمن أن يكون حسن الظن بنصر الله تعالى لدينه مهما ادلهمت
الخطوب، وتكاثرت الحشود، وتنادت كتائب الضلال، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

أبشر خليلي فقد أجلت لنا الكُتُبُ	نصر من الله في الكفار يلتهبُ
أَنْجِدْ أَخِي وَلَا تَلَوْ عَلَى ضَعَةٍ	واشفْ صُدُورًا شواها القهرُ
أَشْرِقْ بوجهك قد حانت بوادره	وعد من الله للأحرار يقتربُ
تنزيلُ مرحمةٍ تنزيلُ ملحمةٍ	تَجْنِدُ أَلويةً صَمَصَامُهَا النُّجُبُ
نبراسها العلم والتقوى تؤججُها	فرقائُها سائقٌ إن صاحتِ النَّوْبُ
أَوَاهُ مَا أروعَ الأبطال إذ حَمَلُوا	همَّ الديانةِ إن خافوا وإن سَغَبُوا
ما قال واحدُهم همي الخطام فقد	صاغتْ مبادئُهم طه فما انقلبوا
تناثر العلمُ شهدًا من ثغورهم	أكرم به منبعا للدين ينسكبُ
إن تُبَلَّ معركةٌ تلقَ الكرام بها	في ساعة الحربِ دوما غيلُهم أَشْبُ

=

جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشُّعْ والايان في قلب عبد أبدا». وصححه ابن

حبان (١٥٩٧)، وحسنه الأرناؤوط.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨ / ٣٧٨ - ٤٢١).

إذا المبادئ لم تُحمَلْ مُكرّمة على الرقاب فلا العلياء تُرتقبُ

حتى في أمور التعامل مع أراذل الخلق فيحسن الرضا بقضاء الخالق،
والتفاؤل بحسن اختيار الله تعالى لعبده في سابق وقادم أيامه، قال أبو القاسم
الشابي رَحِمَهُ اللهُ وقد أصابه مرض خطير مُتلف، وكان قد ابتلي بمن يعاديه
ويؤذيه، وتأمل شمم وعزة وغنى من اكتفى بالله عن سواه:

سَأَعِيشُ رَغَمَ الدَّاءِ والأَعْدَاءِ	كَالنَّسْرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّمَاءِ
أَمْشِي بروحِ حَالِمٍ متَوَهِّجٍ	في ظُلُمَةِ الآلامِ والأَدْوَاءِ
النُّورِ في قلبي وبينَ جوانحي	فَعَلَامَ أَخشى السَّيْرِ في الظُّلَمَاءِ
أَمَّا إِذَا خمدتَ حياتي وانقضَى	عُمْري وأخرستَ المنيَّةَ نائي
وخبا هيبُ الكونِ في قلبي الَّذي	قد عاشَ مِثْلَ الشُّعْلَةِ الحَمراءِ
فأنا السَّعيدُ بَأَنِّي مُتَحَوِّلٌ	عن عالمِ الآثامِ والبغضاءِ
وأقولُ لِلجَمْعِ الَّذِينَ تَجَشَّموا	هَدْمِي وودُّوا الوِخْرُ بنائي
ورأوا على الأشواكِ ظِلِّي هَامِدًا	فتخيَّلوا أَنِّي قضيتُ دِمَائِي
وغدوا يَشُبُّونَ اللَّهيبَ بكلِّ ما	وجدوا ليشوُّوا فوقَهُ أَشْلَائِي
ومَضَوْا يَمُدُّونَ الخَوَانَ ليأكلوا	لحمي ويرتشفوا عليه دِمَائِي
إِنِّي أقولُ لَهُمْ ووجهي مُشرقٌ	وعلى شفاهي بَسْمَةٌ استهزاءِ

إِنَّ الْمَعَاوِلَ لَا تَهْدُ مَنْ كَبِي
وَالنَّارَ لَا تَأْتِي عَلَى أَعْضَائِي
فَارْمُوا إِلَى النَّارِ الْحَشَائِشَ وَالْعَبْوَا
يَا مَعْشَرَ الْأَطْفَالِ تَحْتَ سَمَائِي
وَإِذَا تَقَصَّفَتِ الْعَوَاصِفُ وَانْتَشَى
بِالْهُولِ قَلْبُ الْقَبَّةِ الزَّرْقَاءِ
وَرَأَيْتُمُونِي طَائِرًا مَتَرْنِمًا
فَوْقَ الزَّوَابِعِ فِي الْفَضَاءِ النَّائِي
فَارْمُوا عَلَى ظِلِّي الْحَجَارَةَ وَاخْتَفُوا
خَوْفَ الرِّيَّاحِ السُّودِ وَالْأَنْوَاءِ
وَهَنَّاكَ فِي أَمْنِ الْبُيُوتِ تَطَارَحُوا
عَثَّ الْحَدِيثِ وَمَيَّتَ الْآرَاءِ
وَتَرْنَمُوا مَا شِئْتُمْ بِشَتَائِمِي
وَالشَّمْسُ وَالشَّفَقُ الْجَمِيلُ إِزَائِي
أَمَّا أَنَا فَأُجِيبُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
لَمْ يَحْتَفَلْ بِحِجَارَةِ الْفَلْتَاءِ
مَنْ جَاشَ بِالْوَحْيِ الْمُقَدَّسِ قَلْبُهُ



طرقُ تحصيلِ الرضا بالله تعالى

من لطف الله تعالى بعباده أن يسّر لهم طرق الخير وسهّل ميادين البرّ، ومن أعظم ذلك الرضا به تبارك وتعالى، فما أمر الله بشيء إلا وقد هيا في المبدأ قوةً كامنة في نفوس البشر أجسادًا وعقولًا وأرواحًا على إطاقته، ولكن الموفقون منهم هم من اختاروا فعله إرادة منهم وطاعة وبرًا، فدينه - بحمده - يسير، قال تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال نبيه ﷺ: «إِذَا نَهَيْتَكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتَكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (١) (٢).

(١) الاستطاعة نوعان: استطاعة قوى عليها مناطُ التكليف، ومنها هذا الحديث، واستطاعة توفيق وإمداد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠] وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، كما أن الهداية نوعان: هداية إرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، وهداية توفيق، ومنه ومما قبله قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١٧٨]

(٢) البخاري ١١٦/٩ (٧٢٨٨)، ومسلم ٩١/٧ (١٣٣٧) (١٣١) فائدة نفيسة: قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث في الجامع: «قوله ﷺ: «إِذَا نَهَيْتَكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهي أشد من الأمر؛ لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه، والأمر قيّد بحسب الاستطاعة، وروى هذا عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشبه هذا قول بعضهم: «أعمال البر يعملها البر الفاجر، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق». وروى =

=
عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال له: «اتق المحارم تكن أعبد الناس». (رواه الترمذي ٢٣٠٥ وحسنه الألباني في الصحيحة ٩٣٠) وقالت عائشة رضي الله عنها: «من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب». وقال الحسن: «ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه».

والظاهر: أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات إنما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات؛ لأن الأعمال مقصودة لذاتها، والمحارم مطلوب عدمها ولذلك لا تحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، وكذلك كان جنس ترك الأعمال قد يكون كفرًا كترك التوحيد وكترك أركان الإسلام أو بعضها على ما سبق، بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضي الكفر بنفسه. ويشهد لذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لَرَدُّ دَانِقٍ مِنْ حَرَامٍ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفٍ تَنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وعن بعض السلف قال: «ترك دائق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمئة حجة». وقال ميمون بن مهران: «ذكر الله باللسان حسن، وأفضل منه أن يذكر الله العبد عند المعصية فيمسك عنها». وقال ابن المبارك: «لأن أرد درهماً من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف ومئة ألف حتى بلغ ستمئة ألف». وقال عمر بن عبد العزيز: «ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله، فإن كان مع ذلك عمل فهو خير إلى خير». أو كما قال، وقال أيضاً: «وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أؤدي الزكاة ولا أتصدق بعدها بدرهم، وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يوماً أبداً، وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبداً، ثم أعمد إلى فضل قوتي فأجعله فيما حرم الله علي فأمسك عنه».

وحاصل كلامهم يدل على اجتناب المحرمات وإن قلَّت فهي أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات؛ فإن ذلك فرض وهذا نفل». جامع العلوم والحكم (١ / ٩٦)

فمن طرق تحصيل الرضا بالله تعالى:

١ - التفكير النافع في لطف الله تعالى في اختياره لك.

فكل مصيبة أخطأت دينك فلا تعدّها مصيبة، بل هي نعمة في ثوب محنة، وتطهير في سربال بلاء، ورفعة في شكل خفض.

وإنّ ههنا ملحظاً جيّداً في تهوين البلاء على المؤمن، وهو أن يقيس لنفسه ويُقدّر أنّ الله تعالى قد قضى بنزول بلاءات بأعداد محددة، وشدّات مختلفة، وأزمان متباينة، منها الكبير الثقيل الشديد الطويل، ومنها السهل اليسير السريع، منها ما هو فتنة في الدين، ومنها ما هو شدة في الدنيا في النفس أو العرض أو الأحبة أو المال ونحو ذلك، وقضى أن تنزل هذه البلايا على أشخاص بأعيانهم، فهذا المؤمن قد نزل اسمه في صحيفة البلاءات، وقد اختار الله له أن تكون مصيبته في دنياه لا دينه، ثم جعلها أهون من غيرها من المصائب التي نزلت على غيره من الناس.

قال المنجد حفظه الله: «هناك عباراتٌ أحياناً ترد على القلب فإذا آمن بها وصل إلى المطلوب. وهناك مقاماتٌ إيمانيةٌ يبلغها الإنسان بقلبه ويأخذ بها أجراً عظيماً يرتقي بها عند الله، وهي عبارةٌ عن تفكّراتٍ يفكّر فيها فيتهدي إليها فيأخذ بها فيحصل على المطلوب، فلم يبذل جهداً، بل هي أشياء تأمليةٌ. فالتفكّر من أعظم العبادات، فإذا تفكّر العبد أن ما يختاره له ربه هو الأحسن والأفضل فقد وصل. فإذا آمن بها الإنسان رضي.

وتحصيل الرضا غير معقّد، وهو أن تؤمن بأن ما اختاره الله لك وقدره عليك هو أحسن شيء لك، سواء كان موتٌ ولدٌ أو مرضٌ أو تركٌ وظيفَةٍ. لكن أنت قد تجهل لماذا هو أحسن شيء، أنت لا تعلم لماذا لو أعطاك فليس في صالحك. أنت في حال الفقر لا تعلم لماذا ليس في مصلحتك أن تحصّل المال.. وهكذا. فنتيجة اعتراف العبد بجهله وإيمانه بعلم ربه وأن اختياره له أولى وأفضل وأحسن من اختياره لنفسه هي الوصول إلى الرضا.

فطريق المحبة والرضا تسير بالعبد وهو مستريح، فهناك أناس يعملون ويجهدون وصاحب الرضا بعبادته القلبية يسبقهم بمراحل وهم من خلفه، مع أنه على فراشه وهم يعملون؛ لأنه راضٍ عن الله ويتفكّر في هذا الأمر ويؤمن به؛ فيقترب من الله. وأناس لم يصلوا لهذا المستوى ويعملون ويجهدون!

لذلك أعمال القلوب مهمة جدًّا؛ لأن المرء يمكن يبلغ بها مراتب عند الله وهو قاعدٌ، وهذا لا يعني ألا يعمل ولا يصلي. فأبو بكر ما سبق أهل هذه الأمة لأنه أكثرهم صلاةً وقيامًا في الليل، فهناك أناس أكثر منه في عمل العبادات والجوارح، لكن سبقهم بشيءٍ وقرّ في نفسه»^(١).

٢- إغلاق باب الوسوس في تصرّف الرب بالكلية.

فمن أسرار بركات الرضا أنه يُسلّم صاحبه من آفات وسوس العقل، فهو مفوّض أمره لربه بالكلية، قد أغلق قلبه دون واردات إبليس وخبث وسوسه ونجاسات خواطره، فهو راسخ اليقين قوي الإيمان عظيم الرضا،

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢/ ٢٦-٢٧) بتصرف.

حتى إذا جاءه الرجيم بخواطر سوء من قبيل: كيف لفلان كذا مع فجوره ولك أو لغيرك كذا وكذا، ونحو ذلك، فإنه يدفعها بالاستعاذة منه وبالرضا بربه تعالى. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فيمن ينظر إلى من: يلبس الحرير، ويظلم الناس، والدنيا منصبة عليه. ثم يرى خلقاً من أهل الدين، وطلاب العلم، مغمورين بالفقر والبلاء، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم. فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس ويتبدى بالقدح في حكمة القدر!

فيحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقي من الضرّ في الدنيا، وعلى جدال إبليس في ذلك. وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين. وأبلغ من هذا إيلاام الحيوان، وتعذيب الأطفال، ففي مثل هذه المواطن يتمحص الإيمان.

ومما يقوّي الصبر على الحالتين النقل والعقل. أما النقل فالقرآن والسنة، أما القرآن فمنقسم إلى قسمين، أحدهما بيان سبب إعطاء الكافر والعاصي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

والقسم الثاني: ابتلاء المؤمن بما يلقي كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ

وَزُلْزِلُوا [البَقَرَة : ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التَّوْبَة : ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

وأما السنة فمنقسمة إلى قول وحال^(١). أما الحال: فإنه ﷺ كان يتقلب على رمالٍ حصيرٍ تؤثر في جنبه، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: كسرى وقصر في الحرير والديباج، فقال له ﷺ: «أفي شك أنت يا عمر؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»^(٢). وأما القول فكقوله ﷺ: «لو أن الدنيا تساوي عند

(١)

فهو المُفسِّر للكتاب وإنما نطق النبي لنابيه عن ربه

(٢) روى مسلم روايتين لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سياق هذا الخبر وسأذكرهما لما فيهما من عظيم العبر: الأولى (١٤٧٩): عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد، فإذا الناس يكتون بالحصي ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم. قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر؛ أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: مالي ومالك يا بن الخطاب، عليك بعيتك.

قال: فدخلت على حفصة بنت عمر، فقلت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة.

فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أسكفة المشربة، مدلي رجله على نقيير من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئاً.

=

=

ثم قلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فأني أظنّ أنّ رسول الله ﷺ ظنّ أنّي جئتُ من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربنّ عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليّ: أن ارقه.

فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعر نحو الصاع، ومثلها قرطاً في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلّق. قال: فابتدرت عينا!

قال: «ما يبكيك يا بن الخطاب؟» قلت: يا نبيّ الله، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك! فقال: «يا بن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت: بلى.

قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله، ما يشقّ عليك من شأن النساء، فإن كنت طلقتهن؛ فإنّ الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلنا تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدّق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التَّحْرِيم: ٥] ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التَّحْرِيم: ٤]. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: «لا» قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون يكتنون بالحصي يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقتهن؟ قال: «نعم، إن شئت». فلم أزل أحدثه حتى تحسّر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن

=

=

الناس ثغراً. ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلتُ أتشبّث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنها يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله، إنّما كنت في الغرفة تسعة وعشرين؟ قال: «إنّ الشهر يكون تسعاً وعشرين».

فقمّت على باب المسجد فنّاديت بأعلى صوتي: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِءٌ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز وجل آية التخيير.

وروى مسلم كذلك (١٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التخريم: ٤] حتى حجّ عمر وحججتُ معه، فلما كنّا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرّز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المراتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التخريم: ٤] قال عمر: واعجباً لك يا بن عباس! قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتبه، قال: هي حفصة وعائشة، ثم أخذ يسوق الحديث قال:

كنّا معشر قریش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة؛ وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، فتغضبْتُ يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تُنكرُ أن أراجعك؛ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل؟!

فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟! فقالت: نعم، فقلت: أتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل؟! قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر، أفتأمنّ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكت!

=

=

لا تُراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يعزّرك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، يريد عائشة.

قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً، وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدّث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثم ناداني فخرجتُ إليه، فقال: حدث أمر عظيم! قلت: ماذا، أ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلّق النبي ﷺ نساءه! فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظنّ هذا كائناً.

حتى إذا صليت الصبح، شددتُ عليّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في هذه المشربة، فأتيته غلاماً له أسود، فقلت استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فانطلقت حتى انتهيت إلى المنبر فجلست، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد، ثم أتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فولّيت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، فقد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أطلقك يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليّ وقال: «لا».

فقلت: الله أكبر، لو رأيته يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نساءهم فتغصّبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلك! فتبسّم رسول الله ﷺ.

=

الله جناح بعوضة^(١) ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

وأما العقل: فإنه يقوّي عساكر الصبر بجنود منها أن يقول: قد ثبتت عندي الأدلة القاطعة على حكمة المقدّر، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنّه الجاهل خللاً.

ومنها أن يقول: ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصي هي قبض في المعنى، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط في المعنى، لأن ذلك

=

فقلت: يا رسول الله، قد دخلتُ على حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم منك وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسّم أخرى. فقلت: أستاذيسُ يا رسول الله؟ قال: «نعم».

فجلستُ فرفعت رأسي في البيت؛ فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر إلا أُهباً ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: «أفي شكّ أنت يا بن الخطاب؟! أولئك قومٌ عَجَلت لهم طيِّباتهم في الحياة الدنيا». فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عز وجل.

(١) وهذا الحديث يدل بمفهومه على عظمة الآخرة، وإن الدنيا ليست بشيء إزاءها. ولشيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله جملة مشهورة في ذلك، فكان إذا ذكر الحديث قال: «فكم سيُقسم لك من هذا الجناح يا من تعطي الدنيا همك؟!»

(٢) ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب». وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٠)

البسط يوجب عقابًا طويلاً، وهذا القبض يؤثر انبساطاً في الأجر جزيلاً، فزمان الرجلين ينقضي عن قريب، والمراحل تطوى، والركبان في السير الحثيث.

ومنها أن يقول: قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير، وأن زمن التكليف كيباض نهار، ولا ينبغي للمستعمل في الطين إن يلبس نظيف الثياب، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل، فإذا فرغ تنظف ولبس أجود ثيابه. فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة، وعوقب على التواني فيما كلف، فهذه النبذة تقوّي أزر الصبر.

وأزيدها بسطاً فأقول: أترى إذا أريد اتخاذ شهداء، فكيف لا يخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة؟ وبعلي إلا مثل ابن ملجم؟ أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جباراً كافراً؟ ولو أنّ عين الفهم زال عنها غشاء العشا؛ لرأت المسبّب لا الأسباب، والمقدّر لا الأقدار، فصبرت على بلائه، إثاراً لما يُريد، ومن ههنا ينشأ الرضا. كما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية، فقال: أحبه إليّ أحبّه إلى الله عز وجل.

إن كان رضاكم في سهرى فسلامُ الله على وسّني^(١)

٣- مقارنة الفائت بالباقي.

وذلك أن ينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقي عليه مثله أو أفضل منه، وادّخر له إن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

فما يفيد المصاب أن ينظر إلى ما أبقي الله عليه من النعم، فينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقي عليه مثله أو أفضل منه وادّخر له - إن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

٤- التأسي بأهل المصائب.

على المبتلى أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب. ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وليعلم أنه في كل واد بنو سعد^(١)، وأنه لو فتّش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى؛ إما بفوات محبوب، أو

(١) ذكر الضبي في الأمثال قصة ذلك المثل وهو أن الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان يرى من قومه وهو سيدهم بغياً عليه وتنقصاً له! فقال: ما في جماعة هؤلاء خير، ففارقهم وسار بأهله حتى نزل بقوم آخرين، فإذا هم يفعلون بأشرافهم كما كان يفعل به قومه من التنقص له والبغي عليه، فارتحل عنهم وحلّ بآخرين، فإذا هم كذلك، فلما رأى ذلك انصرف وقال: ما أرى الناس إلا قريباً بعضهم من بعض، فانصرف نحو قومه وقال: أينما أوجّه ألقى سعداً! فأرسلها مثلاً. ومعنى ألقى سعداً: أي: أرى مثل قومي بني سعد. وقال: في كل واد بنو سعد. الأمثال للضبي (٢٧) وانظر جمهرة العسكري (١/ ٦١) والبيان والتبيين (٣/ ٢٩٤)

حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرّت يوماً ساءت دهرًا، وإن متّعت قليلاً منعت طويلًا، ولا سرّته بيوم إلا خبأت له ضده، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لكل فرحة ترحه، وما مليء بيت فرحًا إلا مليء ترحًا». وقال ابن سيرين: «ما كان ضحكٌ قطُّ إلا كان من بعده بكاء!».

وقالت هند بنت النعمان: «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس. وأنه حقّ على الله ألا يملأ دارًا حَبْرَةً^(١) إلا ملأها عِبْرَةٌ». وسألها رجل أن تحدّثه عن أمرها فقالت: «أصبحنا ذا صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا!».

وبكت أختها حرقه بنت النعمان يومًا وهي في عزّها فقيل لها: ما يبكيك، لعل أحدًا أذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت غَضَارَةً في أهلي، وقلما امتلأت دار سرورًا إلا امتلأت حزنًا. قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يومًا فقلت لها: كيف رأيت عِبَرَ الملوك؟ فقالت: «ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حَبْرَةٍ إلا سيعقبون بعدها عِبْرَةٌ، وأنّ الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه». ثم قالت:

فبينما نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحنُ فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصِّفُ

(١) أي: سرور وحبور.

قلت: والأمر في حقيقته ليس بهذه السوداوية التي قد تطرأ على من لم يتأمل أقوالهم، وليس هذا مراد السلف من تلك العبارات، إنما قَصَّاراه التنبيه على عدم الركون للدنيا، وإن لها حتوفاً تأخذ من اغتر بها، وأشد ما تكون إيلاًماً حينما تأتي بغتة على غفلة! والمؤمن يسأل ربه السلامة والبركة والعافية، ويحسن الظن بالله تعالى في ذلك.

فالدنيا تطيب بطاعة الله تعالى، بل لا تطيب إلا بذلك، ويلتذ بها في رياض الأنس بالله وذكره وما أباح لعباده مما يعين على مرضاته المؤمنون الراجون الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة. وعن ثابت عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبُّ إِلَى النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وعن طلحة بن يحيى قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فدخل عليه عبد الأعلى بن هلال فقال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيراً لك، قال: «قد فرغ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة، وتوفاك مع الأبرار». والله المستعان.

وكافية الوصايا في ذلك قوله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٢).

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَلَا تَكُنْ عَلَى حَالَةٍ إِلَّا رَضِيتَ بِدُونِهَا

(١) النسائي (٣٩٤٠) وصححه الألباني.

(٢) البخاري ١٢٨/٨ (٦٤٩٠) ومسلم ٢١٣/٨ (٢٩٦٣) (٨) (٩)

٥- أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة، بل يضاعفها.

فالجزع في الحقيقة هو من تزايد المرض وخيبة الرجاء، فيجتمع عليه مُرُّ المصيبة وحسرة فوات الأجر، بل قد يحمل أحياناً الوزر. ومما يُنسب عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ^(١)، وهي من بحر الوافر:

(١) لا أظن صحة نسبة القصيدة: «دع الأيامَ تفعلْ ما تشاء» بتمامها إلى الشافعي رحمه الله تعالى، بسبب ما فيها من ملاحظة عقدية في البيت الأول والآخر، ولن تحفى عن إمامنا المحقق المحرر الشافعي رَحِمَهُ اللهُ. وما أكثر ما ينسب لعلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والشافعي رَحِمَهُ اللهُ من القصائد ما لا يصح عنهما - وقد يصح توجيه البيت الأول، ولكن الأخير صريح في سبِّ الدهر، والحديث في النهي عن هذا صحيح كما عند مسلم، باب: النهي عن سبِّ الدهر (١٧٦٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر». أما البيت الأخير فلا شك في تحريمه، وحاشا الإمام الشافعي أن يفوه به، فإما أنه مقحم في القصيدة من غيره، وإما أن القصيدة بتمامها ليست له، والبيت الأخير هو قوله:

دع الأيام تغدرُ كلَّ حينٍ فما يُغْنيني عن الموتِ الدواءُ
أما البيت الأول فهو قول الشاعر:

دع الأيام تفعلْ ما تشاء وطبَّ نفساً إذا حكمَ القضاءُ
وقد سئل العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في لقاء الباب المفتوح (٢٣ / ١٢٩) عن حكم هذا البيت فأجاب: «نعم، لا شك أن فيه شيئاً في الشطر الأول؛ لأن الأيام ليست تفعل، إنما الذي يفعل هو: الله تعالى. لكن قد يُعَبَّرُ بالزمن عن الفاعل وهو الله تعالى، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»، فقد يريد الشاعر بقوله: «دع الأيام تفعل ما تشاء» يريد بذلك الرب تعالى، بمعنى أنه يقول: ارضَ بقضاء الله كما يَبِّنُ ذلك في الشطر

ولا تجزع لحادثَةِ الليالي	فما لحواذِثِ الدُّنيا بقاءُ
وكن رجلاً على الأهوالِ جَلداً	وشيمتكَ السَّماحةُ والوفاءُ
وإن كثرت عُيوبُكَ في البرايا	وسرَّكَ أن يكونَ لها غِطاءُ
تستّر بالسَّخاءِ فكلُّ عيبٍ	يُعطّيه كما قيل السَّخاءُ
ولا تُرِ للأعادي قَطُّ ذُلًّا	فإن شِمةَ الأعداءِ بلاءُ
ولا ترجُ السَّماحةَ من بَخيلٍ	فما في النارِ لِلظَّمانِ ماءُ
ورزقُكَ ليس يُنقِصُهُ التَّأني	وليس يزيِدُ في الرِّزقِ العناءُ
ولا حُزنٌ يَدومُ ولا سُروُرٌ	ولا بُؤْسٌ عَلَيْكَ ولا رِخاءُ
إذا ما كُنْتَ ذا قَلْبٍ قَنوعٍ	فأنتَ ومالكُ الدُّنيا سِواءُ
وأرضُ اللهِ واسِعَةٌ ولكِن	إذا نَزَلَ القضا ضاقتُ الفضا

=

الثاني: «وطب نفساً إذا حكم القضاء». فعلى كل حال: الشاعر له وجهة نظر في الشطر الأول، أما الشطر الثاني فلا غبار عليه؛ لكننا نقول: لا ينبغي للإنسان أن يقول هكذا، وأن يضيف الحوادث إلى زمنها.

٦- أن يعلم أن فوات ثواب الجازع أعظم من ذات المصيبة.

ففوات ثواب الصبر والتسليم - وما فوق ذلك من الرضا والحمد والشكر - وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة.

٧- أن يعلم أن الجزع يضعف الحال والمرتبة في الدارين.

فُشِمَتْ عدوّه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

وإذا صبر واحتسب؛ أَرْضَى ربه، وسرّ صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزّاهم هو قبل أن يعزّوه. فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور^(١).

٨- تذكّر الرجعى إلى الله تعالى.

قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العَلَق : ٨]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في بيان هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها: «قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة : ١٥٥ - ١٥٧]. وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله

(١) انظر: الزاد لابن القيم (٤/١٨٩-١٩٥)

وإنّا إليه راجعون، اللهم أجزني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أجاره الله في مصيبيته، وأخلف له خيراً منها»^(١).

فإذا إذا تحقق العبد بأنه لله وأن مصيره إليه تسلي عن مصيبيته. وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلي عن مصيبيته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

وأيضاً فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضاً فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه حتى يكون ملكه حقيقة، بل الله تعالى.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ويحيى ربه فرداً كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته؛ فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود؟! ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء»^(٢).

(١) أحمد (٢٦٦٣٥) ومسلم ٣٧/٣ (٩١٨) (٤)

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٧٤)

٩ - اليقين بالقدر.

فمن أعظم العلاج أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لَّكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٣]. قال ابن الديلمى: أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسى شيء من القدر! فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي. فقال: «لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا لدخلت النار». قال ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك^(١).

١٠ التلذذ بالصبر، وتذكر بيت الحمد.

ومن علاجها: أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده ربّه واسترجاعه. فليُنظر أي المصيبتين أعظم: مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد؟ وفي الأثر:

(١) أحمد (٢١٥٨٩) وقوى سنده محققوه، وأبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

«يودّ ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تُقرّض بالمقاريض»^(١) في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء»^(٢).

وقال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس». وللصبر لذّته، وللرضا لذّته، وللحمد والشكر لذّتهما. ومن جدّ وجد، وأول الغيث قطرٌ ثم ينهمر.

لَيْنَ شَابَ الْقَذَالُ فَمَا فُؤَادِي سِوَى طِفْلِ يُدَافِعُ ذَا الْفِطَامَا

١١- ترويح القلب برجاء الخلف من الله تعالى.

فعلى المصاب أن يروّح قلبه بروّح رجاء الخلف من الله، فإنه من كل شيء عوض إلا الله فما منه عوض، كما قيل:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَعْتَهُ عَوَضٌ وَمَا مِنْ اللَّهِ إِنْ ضَيَعْتَهُ عَوَضٌ

١٢- تذكّر أنّ حظّه من المصيبة بقدر ما تحدّثه له.

فيذكر نفسه أن من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط. فحظّه منها ما أحدثته له، فليختر خير الحظوظ أو شرّها، فإن أحدثت له سخطاً وكفراً

(١) المقاريض: جمع مقراض وهو المقصّ.

(٢) روى ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٧٥١) بسند فيه مبهم عن ابن مسعود، قال: «ودّ أهل البلاء يوم القيامة، أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض». ورواه (٣٦٠٢٧) بسنده عن مسروق. قال السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢ / ٣٣٤): «وروى الطبراني بسند جيد عن ابن مسعود موقوفاً».. وذكره.

كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب أو فعل محرم كتب في ديوان المُفَرِّطِينَ، وإن أحدثت له شكاية وعدم صبر كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له اعتراضًا على الله وقدحًا في حكمته فقد قرع باب الزندقة أو وجهه، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضا عن الله كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر كتب في ديوان الشاكرين وكان تحت لواء الحمد مع الحمّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه كتب في ديوان المحبين المُخْلِصِينَ المُخْلِصِينَ.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١). زاد أحمد: «وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»^(٢).

١٣ - علمه بالسُّلُوِّ المحتوم.

فعليه أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته فأخر أمره إلى صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثاب، قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم. قال ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٣).

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١) وصححه الألباني.

(٢) المسند (٢٣٦٢٣) وحسنه محققوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٠٦).

(٣) البخاري ٩٩/٢ (١٢٨٣)، ومسلم ٤٠/٣ (٩٢٦) (١٥).

وقال الأشعث بن قيس: «إنّك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلوت سلوَّ البهائم».

١٤ - علمه أنّ أنفع الأدوية موافقة الله فيما أحبه.

فأنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرّها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه وتمقّت إلى محبوبه. وقال أبو الدرداء: «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به». وكان عمران بن حصين يقول في علّته: «أحبه إليّ أحبه إليه». وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يمكن لكلّ أحد أن يتعالج به، فالمحبة ترياق السعادة، وسرّ السرور، ومن لم ير جمال يوسف؛ لم يدرك ما الذي أبكى يعقوب، وهل ساق العبودية إلا الحبّ المكين، وواهاً لمرافقة قوافل المحبين الصالحين.

١٤ - علمه أنّ لذة التمتع بثواب الله أعظم من لذة التمتع بالسلامة مما أصيب به.

فعلى المؤمن أن يوازن بين أعظم اللذتين والمتعتين وأدومهما: لذة تمتعه بسلامته مما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له. فإن ظهر له الرجحان فأثر الراجح فليحمد الله على توفيقه، وإن أثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبتَه في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبتَه التي أصيب بها في دنياه.

١٥ - أن يتذكر أنه في دار امتحان.

فيتذكر ابتلاء الله العبد لامتحان صبره، فمن علاج المصيبة أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه به ولا ليجتاحه، وإنما ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريقاً باباه لائذاً بجانبه مكسور القلب بين يديه رافعاً قصص الشكوى إليه. قال الشيخ عبد القادر^(١): «يا

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني (ويقال: الكيلاني، والجيلي) مشهور بالعبادة والفضل والزهد والحكمة، وقد غلا فيه بعض الناس جهلاً منهم بحقيقة التوحيد أولاً، ثم ببراءته من أكثر ما ينسب إليه ثانياً. فقد نسبوا إليه أشياء غير قليلة كذباً وزوراً هو منها بريء، ومن أباطيلهم في شأنه اعتقادهم بتصرّفه بعد موته في الكون، وفضيلة استقبال قبره عند الدعاء، واعتقاد السرّ فيه وغير ذلك مما لا يصح عنه رَحْمَةُ اللَّهِ.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (٢ / ٤٣٤): «وأما قول القائل: من قرأ آية الكرسي، واستقبل جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَّم عليه، وخطا سبع خطوات يخطو مع كل تسليمة خطوة إلى قبره قضيت حاجته، أو كان في سماع فإنه يطيب ويكثر تواجده، فهذا أمرُ القربة فيه شرك برب العالمين.

ولا ريب أن الشيخ عبد القادر لم يقل هذا، ولا أمر به، ومن يقل مثل ذلك عنه فقد كذب عليه، وإنما يُحدث مثل هذه البدع أهل الغلو والشرك المشبهين للنصارى من أهل البدع الرافضة الغالية في الأئمة، ومن أشبههم من الغلاة في المشايخ».

وقد وصفه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١ / ١٧٥) بقوله: «الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه».

بنِي؛ إِنْ الْمَصِيبَةُ مَا جَاءَتْ لَتَهْلِكَكَ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لَتَمْتَحَنَ صَبْرُكَ وَإِيمَانُكَ، يَا
بَنِي الْقَدَرِ سَبْعٌ، وَالسَّبْعُ لَا يَأْكُلُ الْمَيِّتَةَ».

والمقصود؛ أَنَّ الْمَصِيبَةَ كَثُرَ الْعَبْدُ الَّذِي يُسَبِّكُ بِهِ حَاصِلَهُ، فَإِذَا أَنْ يَخْرُجَ
أَحْمَرٌ، وَإِذَا أَنْ يَخْرُجَ خَبِيثًا كُلَّهُ، كَمَا قِيلَ:

سَبَبُكَ نَاهُ وَنَحَسَّ بِهِ لُجَيْنًا فَأَبْدَى الْكَثِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

فَإِنْ لَمْ يَنْفَعِهِ هَذَا الْكَثِيرُ فِي الدُّنْيَا فَبَيْنَ يَدَيْهِ الْكَثِيرُ الْأَعْظَمُ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ
إِدْخَالَ كِيرِ الدُّنْيَا وَمَسْبِكَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْكَثِيرِ وَالْمَسْبِكِ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ
أَحَدِ الْكَثِيرِينَ؛ فَلْيَعْلَمْ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ الْعَاجِلِ.

=

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَنْسَبُ إِلَى الصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ مِنْ شِنَاعَاتِ هُمْ مِنْهَا سَالِمُونَ وَعَنْهَا غَافِلُونَ، أَمَّا
الْكَاذِبُونَ ف﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزُّحُرْفُ : ١٩]. وَمَا صَحَّ مِنْهَا فَنَعْتَذِرُ لَهُمْ
عَنْهَا وَلَا نَتَابِعُهُمْ عَلَيْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا بِشَرِّ سِوَى مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ: ﴿وَمَا
ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحُشْرُ : ٧] ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النِّسَاءُ : ٥٩] فَمَعْيَارُ الشَّرِيعَةِ الْوَحْيِ، وَإِلَيْهِ الْمُرَدُّ عِنْدَ التَّنَازُعِ، وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ. وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ:

كُلُّ إِمَامٍ لَيْسَ قَوْلُهُ بِحُجَّةٍ إِلَّا الَّذِي مِنْ صَاحِبِ الْمَحَجَّةِ

صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ كُلَّ حِينٍ فَفِي هِدَاةٍ شَرَعَتِي وَدِينِي

قَالَ الْإِمَامُ الدَّارِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ (١١٨/١): «إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ الشَّدُوذَ عَنْ
الْحَقِّ يَتَّبِعُ الشَّاذَّ مِنْ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ، وَيَتَعَلَّقُ بِزَلَّاتِهِمْ، وَالَّذِي يُؤْمِنُ بِالْحَقِّ فِي نَفْسِهِ، يَتَّبِعُ
الْمَشْهُورَ مِنْ قَوْلِ جَمَاعَتِهِمْ، وَيَنْقَلِبُ مَعَ جُمْهُورِهِمْ، فَهُمَا آيَتَانِ بَيِّنَتَانِ يُسْتَدَلُّ بِهِمَا عَلَى اتِّبَاعِ
الرَّجُلِ، وَعَلَى ابْتِدَاعِهِ».

١٦ - علمه أنَّ المصيبة تورثه التواضع الرافع.

فالمصيبة كاسرة لداء الكبر وقسوة القلب، فعليه أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب^(١) والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقدده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء وحفظاً لصحة عبوديته واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم بالبلوى وإن عَظُمَتْ ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء؛ لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه أهله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه.

(١) قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٠ / ٢٧٧): وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراف بالخلق، والعجب من باب الإشراف بالنفس، وهذا حال المستكبر. فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] خرج عن الإعجاب. وفي الحديث المعروف: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه». أه. والحديث رواه البزار ١٠-١٥ - (٢ / ٢٩٠) والبيهقي في الشعب (٦٤٩١) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٠٢)

١٧ - علمه بأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة.

فيعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق عليه السلام: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١). وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم أثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إثارة العاجلة ورفض الآخرة^(٢)، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة ويجاوزه إلى العواقب والغايات فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم والسعادة الأبدية والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي

(١) مسلم (٢٨٢٢)

(٢) وتدبر الآيات: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾^(٢٧) [الإنسان: ٢٧]، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾^(٢٨) أَمَّنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ^(٢٩) [الفصص: ٦٠ - ٦١]: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٣٠) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٣١) [الأعلى: ١٦ - ١٧] وفي القرآن ذكر كثير لهذا المعنى الهام جدًا لكل عاقل.

والعقاب والحشرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق^(١).

وأذكر أن أحد أصحابي اشتكى من علة تعاوده وتؤرقه، ففحصه الطبيب ثم أخبره بأنه مصاب بالسرطان، فخرّ صاحبي على الفور ساجداً لله تعالى، قائلاً: مرحباً بباب الجنة! ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٥].

١٨ - ملازمة الذكر.

ومن أعظم وسائل تحصيل الرضا ملازمة الذكر ورطوبة اللسان به وإدمان القلب عليه، والذكر هو اتصال البال بالله تعالى بالقلب واللسان والجوارح، ومن أمثل الأذكار ههنا ذكر الرضا بالله وبدينه ونبيه ﷺ طرفي النهار، فعن أبي سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خادم النبي ﷺ - عن النبي ﷺ، قال: «ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد، يقول، حين يمسي، وحين يصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً؛ إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»^(٢).

(١) من الطريقة الرابعة وما بعدها عن: زاد المعاد (٤/ ١٧٣ - ١٨٠) بتصرف واختصار.

(٢) ابن ماجه (٢/ ٣٨٧٠) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَمَنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ذَكَرَ اللَّهِ»^(١). وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا دُمْتُ تَذْكُرُ اللَّهَ فَأَنْتَ فِي صَلَاةٍ وَإِنْ كُنْتَ فِي السُّوقِ». فَكُنْ ذَاكِرًا تُذَكَّرُ.

١٩ - العلم بالله تعالى.

علم الشرع على نوعين: علم بالله وعلم بأمر الله؛ وأشرفهما هو العلم بالله، لذلك قالوا: شرف كل علم بشرف مُتَعَلِّقِهِ، وأشرف العلوم العلم بالله تعالى، وعليه فعلم الأسماء والصفات لله تعالى هو أشرف العلوم بإطلاق، وعلم القرآن داخل في ذلك ابتداءً لأن القرآن كلام الله، وكلامه من صفاته تبارك وتعالى، وهو بيان لأسماء الله وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى.

وقيدنا العلم بالشرع لأنه موقوف على الوحي، وهو علم الآخرة بخلاف علوم الدنيا، وإذا أطلق العلم في الشريعة فهو هذا، وهو علم غاية، أما غيره فعلم وسيلة، ويلحق به - بمرتبة أقل - ما كان وسيلة إليه كعلوم الآلة الموصلة لعلوم الغاية.

أما علم الدنيا فهو مقيد، فلا يقال عالم ولا علماء في علوم الدنيا إلا بتقييد العلم المنسويين إليه؛ فيقال عالم فلك وعالم طب وعالم نحو وعالم لغة وعالم

(١) الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠ / ٢) واللفظ له وصححه الألباني، صحيح ابن

كذا.. أما العالم بالشرع فيكفي أن يقال عالم. فعلم الشرع مطلق وعلم الدنيا مقيد، وعلم الآلة في برزخ بينهما فهو فوق علم الدنيا ودون علم الآخرة، والموفق من وفقه الله.

هذا؛ والقسمة في علم الشرع رباعية؛ فالناس - باختلاف مشاربهم - لا يخرجون عنها فمستقل ومستكثر، وهم كالتالي:

عالم بالله وبأمر الله فهو السابق الأفضل، وعالم بالله وهو دون ذلك في علمه بأمره فهو التالي، وعالم بأمر الله لكنه دون ذلك في العلم بالله وهو تاليهما، والرابع المغبون الخاسر وهو الجاهل بالله وبأمره.

والعالم بالله هو ما يسميه بعضهم بالعارف، ويسمون العلم بالله المعرفة، ولا مشاحة، والجادة استعمال لفظ العلم لا المعرفة. وكأنهم يقصدون بالمعرفة عمل القلب وبالعلم علمه.

وبالجملة؛ فالعلم بالله تعالى هو جنة الدنيا في الحقيقة، وهو معراج القلوب والأرواح للملكوت الأعلى وحضرة القدس، فمن كان بالله عالمًا على منهج رسول الله ﷺ وصحابته والسلف الصالح في المعتقد وسلامة التصور وإثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف، ويحفظ أسماء الله الحسنى التي جاءت في الشرع ويعلم معانيها ويعبد الله تعالى بمقتضاها، قد امتلأت جوانح صدره بمحبة الله تعالى، وتعلقت عُرى قلبه بربه تبارك وتعالى، ودارت روحه وجوارحه وقلبه مع أمر الله تعالى حيث دار؛ فهو السابق

والمقرب والموفق والمُختار، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الرّؤف : ٨٤].

وإذا طلبت العلم فاعلم أنّه حِمْلٌ فأبصر أي شيء تحمّل
وإذا علمت أنّه مُتفاضلٌ فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «إذا طلب العبد العلم ليعمل به كسره علمه، وإذا طلبه لغير العمل زاده كبراً». وقال ابن الحاج رَحِمَهُ اللهُ: «إن العبد كلما ازداد علماً وفيه تفهماً ازداد للخير طلباً وعليه حرصاً، فخفف عليه الثقل وقرب عليه البعيد ولها في الدنيا عما يريد، وإنما الثقل والعسر تمثال الدنيا في قلب العبد، وهي مرصد إبليس وسلاحه، فإذا قطع عنه ذلك استنار القلب وخرجت الظلمة منه، فلم يكن للشيطان به احتمال قوة ولا له فيه نصيب، ووصل من الأمر إلى ما يريد.

فقال له^(١): زدني ما يسهل به علي ثقل احتمال الصبر ويخففه علي. فقال له: الأمر الذي يسهل عليك ثقل احتمال الصبر ويخففه عليك: الرضا عن الله تبارك وتعالى بكل ما صنع بك واختاره لك وساقه إليك.

فقال له صاحبه: فأوضح لي كيف يهون علي مؤنة الصبر برضائي عن الله ويخفف علي احتماله. فقال: أأست تعلم أنك إنما انتسبت إلى الرضا وسميته

(١) أي محاور ابن الحاج وسائله، وهو من باب ضرب الأمثال، فهو حوار نافع في ذهن الشيخ، لا في الخارج.

صبراً لأن الأمر الذي نزل بك مكروه عليك، وإن هواك ونفسك ينازعانك إلى غيره، فاحتجت إلى الصبر فتدبرت واعتبرت فصرت من ذلك إلى موضع رضاه، ثم يتجاوز بك الأمر حتى تصير إلى موضع السرور حتى ترى لو صرف ذلك الأمر عنك لصرت منه إلى تقوية نفسك، وعلمت أن ما صرف عنك عقوبة لبعض ما أحدثت من ذنوبك أو قصرت فيه عن شكر ما أنعم الله به عليك فصرت منه إلى الدرجة الرفيعة ومنازل أهل الرضا.

وإنما يوصل إلى ذلك بالمعرفة بالله، وبمعرفة ينظر إليك، فتعلم أنك لا نظر لك من نفسك، فترضى بما رضى به وترغب فيما رغبه وتزهد فيما زهده، والزهد من الرضا»^(١).

والعلم مفتقر إلى إخلاص وتواضع وعزم وثبات وتؤده، ومن حصل العلم النافع فليحمد الله كثيراً فقد خصه بما حُرِم منه أكثر البشر، وتأمل جمال التواضع للعلم والثبات على المحبرة حتى المقبرة، فعن الشيخ فهد المشيقح حفظه الله تعالى أنه قال: «كنتُ أدرسُ بعد الفجر على والدي، وكنتُ أنا ووالدي ندرس بعد الظهر على الشيخ صالح الخريصي، وكنتُ أنا ووالدي والشيخ الخريصي ندرسُ بعد المغرب على العلامة الشيخ عبد الله ابن حميد رحمهم الله».

(١) المدخل لابن الحاج (٣ / ٨٧ - ٨٨)

والعلم رَحِمَ بين أهله، وهم أهل وفاء نادر، قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ حفظه الله تعالى: «حججتُ عن الإمام النووي، وابن حزم، والمُنذري، وابن عبد البر، وفاء لهم واعترافاً بفضلهم عليّ وعلى الأمة».

وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوْلُونَا فَلَا شَيْءَ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ
إن الوفاء النادر الجميل ليهزّ أهل المروءات هزّاً، ولا يهتزّ لطيب الذكرى سوى ابن الأكرمين، قال الربيع بن سليمان رَحِمَهُ اللهُ: سمعت الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ينشد - وتأمل فخامة الأبيات وجمال معانيها وسموّ فحواها :-

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أُرْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَرَلَّتْ
هُمْ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا إِلَى حُجَرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظْلَلَتْ
أَبَوْا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمَّنَا تُلَاقِي الَّذِي يَلْقُونَ مِنَّا مَلَلَتْ
وَقَالُوا هَلُمُّوا الدَّارَ حَتَّى تَبَيَّنُوا وَتَنْجَلِيَ الْغَمَاءُ عَمَّا تَجَلَّتْ
وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا لِسَلَمَى وَأَهْلِهَا عَيْدًا وَمَلَّتْنَا الْبِلَادُ وَمُلَّتْ^(١)

والأبيات لِطُفَيْلِ بْنِ مَالِكٍ الْغَنَوِيِّ الْجَاهِلِيِّ وَهِيَ مِنْ غُرَرِ الْقَرِيضِ الْعَرَبِيِّ فِي جَمَالِ الْمَعْنَى وَفَخَامَةِ الْمَبْنَى وَنَدْرَةِ الْقَافِيَةِ.

(١) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (١/٢١٢).

٢٠- الدعاء الخالص الملحّ الدائم.

إن من أعظم وأنجع الوسائل لتحصيل الرضا: الدعاء الخالص والضراعة الملحّة، فيرضى هو عن الله، ويسأل الله أن يرضى عنه، فالمؤمن يلتمس رضا مولاه بدعائه وإلحاحه أن يرضى عنه مولاه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة في الفراش، فالتمسته ف وقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد^(١) وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك^(٢) أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣).

وإنّ عظمة تحصيل رضوان الله تعالى تتجلى حينما يبشر الله تبارك وتعالى عباده في جنته بإحلاله رضوانه عليهم فلا يسخط عليهم أبداً!^(٤) اللهم نسألك من فضلك العظيم وكرمك العميم إله الحق، لذلك فقد كان من أدعية نبينا

(١) المقصود بالمسجد ههنا: أي: في السجود، أو في الموضع الذي كان يصلي فيه في حجّته.

عن: نضرة النعيم (٦ / ٢١٢٣)

(٢) لا أحصي ثناء عليك: أي: لا أحصي نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

(٣) مسلم (٤٨٦)

(٤) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩) ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩)

ﷺ: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَآكِرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِر عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا»^(١).

فدعاء الله بتيسير العمل الموصل لرضوانه حبلٌ لتحصيل الرضا؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرّنين»^(٢) وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا، واطوِّرْ عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء^(٣) السفر، وكآبة^(٤) المنظر، وسوء المنقلب^(٥) في المال والأهل. وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن «آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون»^(٦).

وهاك أدعية مأثورة يُستدفع بها البلاء بإذن الله تعالى، واعلم أنّ الابتلاء حتمٌ لازمٌ بكل مؤمن؛ لأن الدنيا كلها قائمة عليه، فسرُّ الإهباط الآدمي من الجنة العلوية فرزٌ عباد الله وأوليائه عن غيرهم، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ

(١) الترمذي (٣١٧٣)، والنسائي (١٤٤٣) ومسنَد أحمد (٢٢٣) وحسنه عبد القادر

الأرنؤوط في تحقيقه لجامع الأصول (٨٨٤٧)

(٢) وما كنا له مقرّنين: أي ما كنا نطبق قهره واستعماله لولا تسخير الله تعالى إياه لنا.

(٣) وعثاء: المشقة والشدة.

(٤) الكآبة: هي تغير النفس من حزن ونحوه.

(٥) المنقلب: المرجع.

(٦) مسلم (١٣٤٢).

الطَّيِّبِ ﴿[الأنفال : ٣٧]، وعلى قدر التدبُّين يكون قدر البلاء. قال الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ [العنكبوت : ٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ [البقرة : ١٥٥].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ». وقال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يَبْتَلِي الْإِنْسَانَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ فِي بَلَائِهِ» (١).

وعليه؛ فالمؤمن مبتلى، وهو مع ذلك يسأل ربه العافية، فالعافية لا يعدها شيء، لأنه ليس كل مبتلى يوفق لاحتمال البلاء في ذات الله، فأكثر الناس جزعون، والله المستعان، فعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وإيَّمُ الله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ»، قالها ثلاثاً، «وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ، فَوَاهَا» (٢).

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦).

(٢) أبو داود (٤٢٦٣) وصححه الألباني وأيمن صالح. فواها: واها: كلمة يقولها المتأسف على الشيء المتلف له.

فعلى المؤمن أن يُنظّم نفسه في سلك الراضين، وحزب المتوكلين، وجادة المرسلين، الذين هتفوا لنا: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وأما الأدعية التي يُدفع بها البلاء بإذن الله تعالى، فمنها: سؤال الله العافية، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لم يكن يدع هؤلاء الكلمات حين يمسّي وحين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» قال وكيع: يعني الخسف^(١).

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه قال: «اللهم خلقت نفسي وأنت توفأها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللهم إني أسألك العافية»^(٢).

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال النبي

(١) أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢٥/٢) (٤٧٨٥) وصححه الألباني وأيمن صالح شعبان.

(٢) مسلم (٢٧١٢).

ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١).

وعن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال: «سلوا الله العافية» فمكثت أياماً، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال لي: «يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة»^(٢). وعن سليمان بن بريدة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى على المقابر قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم»^(٣).

وعن أوسط البجلي قال: خطبنا أبو بكر فقال: خطبنا رسول الله ﷺ عام الأول - ثم بكى أبو بكر - فقال^(٤): «سلوا الله العافية، فإن الناس لم يعطوا

(١) البخاري ٦٢/٤ (٢٩٦٦)، ومسلم ١٤٣/٥ (١٧٤٢) قال العثيمين: «وفي الحديث: ألا يتمنى الإنسان لقاء العدو، وهذا غير تمني الشهادة، فتمني الشهادة جائز، بل قد يكون مأموراً به. وفيه أن يسأل الله العافية والسلامة، وإذا لقيت العدو فاصبر، وينبغي لأمر الجيش أن يرفق بهم ويختار الوقت المناسب من الناحية اليومية والفصلية، وفيه الدعاء على الأعداء بالهزيمة». شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١٣١/١) عن تحقيق الفحل للرياض.

(٢) الترمذي (٣٥١٤) وقال: حديث صحيح، وأحمد (١٧٨٣) وصححه الألباني.

(٣) النسائي (٢٠٤٠) وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) أي قاله رسول الله ﷺ، وفي بعض الروايات بدون ذكر بكاء أبي بكر.

في الدنيا بعد اليقين شيئاً أفضل من المعافاة. ألا وعليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار، ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله»^(١).

وعن أبي ظبيان قال: كنت جالساً عند ابن عمر، قال: فسمع رجلاً يتمنى الموت، قال: فرفع إليه ابن عمر بصره فقال: «لا تمنّ الموت فإنك ميّت، ولكن سل الله العافية»^(٢). وصدق الله الأعلى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الرّؤم: ٣٠].

وقد كتبَ الرحمنُ مُذْ شَاءَ خَلَقَهُ عليه حمّام الموت تيك الليالي ومنها هذه التعوذات النبوية فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «تعوذوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرْكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»^(٣). ومن الأدعية التي يستدفع بها البلاء بإذن الله تعالى هذه التسمية التَّعَوُذِيَّة العظيمة؛ فقد روى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا

(١) مسند أبي يعلى (١ / ١١٢) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٣٧)

(٣) البخاري ١٥٧/٨ (٦٦١٦) ومسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٧) (٥٣)

يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ إلا لم يضرّه شيء»^(١).

وروى أبو داود في سننه^(٢) عن أبان بن عثمان يقول سمعت عثمان - يعني ابن عفان - يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قال بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي». قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج^(٣)، فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال له: ما لك تنظر إلي؟ فوالله ما كذبت على عثمان، ولا كذب عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبتُ فنسيْتُ أن أقولها. زاد ابن ماجه^(٤): ولكني لم أفله يومئذ ليُمضي الله عليّ قدره^(٥).

(١) أبو داود (٥٠٨٨) و (٥٠٨٩) وابن ماجه (٣٨٦٩) والترمذي (٣٣٨٨) وقال: حديث

حسن صحيح غريب. وصححه الألباني.

(٢) (٥٠٩٠) وكذلك أصحاب السنن وأحمد، وصححه الألباني.

(٣) وهو الشلل، وخصّه بعضهم بشلل الشق الأيمن أو الأيسر طولاً.

(٤) (٣٨٦٩) وصححه الألباني.

(٥) والأخبار والقصص من أمثال ذلك كثيرة، وإذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه.

ومنها حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(١).

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك»^(٢).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ علمها هذا الدعاء - وتذكر محبته لها ﷺ -: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيت له لي خيراً»^(٣).

(١) مسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٨) (٥٤).

(٢) مسلم ٨٨/٨ (٢٧٣٩) (٩٦).

(٣) أحمد (٢٥١٣٧) وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩)، وصححه الألباني. وقوى رجاله الأرنؤوط.

ومنها قول رسول الله ﷺ: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»^(١). والأدعية كثيرة والموفق من حرص عليها ولزمها، والله المستعان.

٢١- تقديم محاب الله على محاب النفس.

فالمؤمن يحرص على الدوام على تقديم مرضاة الله تعالى على رضا الناس، وعند غلبات الهوى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»^(٢). وهذا من أعظم أسباب محبة الله تعالى لعبده، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في أسباب محبة الله تعالى لعبده: «ومنها: إثارة محابته على محابك عند غلبات الهوى، والتسليم إلى محابته، وإن صعب المرتقى»^(٣).

(١) أحمد (٢٠٤٣٠) والبخاري في الأدب المفرد (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) وصححه

الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨)

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٩٦٧) وهو في الصحيحة (٢٣١١).

(٣) مدارج السالكين (٣ / ١٧) وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في الفتاوى (١٠ / ٧٣):

«اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم، التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن».

٢٢- الحمد الدائم للحميد سبحانه وبحمده.

فيحمد الله تعالى على كل حال، عند مواطن السرور يحمده، وعند منازل الشدائد يحمده، وفي أحوال المصائب وأنواع المشاق يحمده، فلسانه دائم اللهج بحمده، وقلبه ممتلئ بحمده، فهو حامد ربه على كل حال على الدوام.

ومن ذلك تجدد النعم، ومنها نعمة الطعام والشراب؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ^(١) فِيْحَمْدِهِ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فِيْحَمْدِهِ عَلَيْهَا»^(٢).

٢٣- توحيد الله تعالى والاعتصام به.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا. فِيرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ^(٣) جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا. وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ^(٤) وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ^(٥) وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٦).

(١) الأكلة: بفتح الهمزة، وهي المرة الواحدة من الأكل، كالغداء والعشاء.

(٢) مسلم (٢٧٣٤).

(٣) الاعتصام بحبل الله: التمسك بعهدته واتباع كتابه والتأدب بآدابه.

(٤) قيل وقال: هو الخوض في أخبار الناس.

(٥) كثرة السؤال: المراد به التنطع في المسائل والإكثار من السؤال عما لا يقع ولا تدعو إليه الحاجة.

(٦) مسلم (١٧١٥)، وبعضه عند البخاري (٥٩٧٥)

٢٤- برّ الوالدين.

فبر الوالدين والإحسان لهما وتحصيل وتطلب مرضاتهما سبيل لرضا الله تعالى، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»^(١). والوالد أوسط أبواب الجنة.

٢٥- الشهادة في سبيل الله تعالى - أسأله الله لي ولك..

يريدونَ بذلاً للنفوسِ وقد سَمَتَ بهم همَّ نحوَ الجنانِ العَوَالِيَا
فمن قُتِلَ في ذاتِ الله تعالى وفي سبيله فهو حقيق برضوان الله تعالى عليه
وبإرضائه له، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعا رسول الله ﷺ على
الذين قتلوا أصحاب بئر معونة^(٢) ثلاثين صباحاً، يدعو على رِغْلٍ وذَكْوَانٍ
ولِحْيَانٍ وعُصَيَّةٍ عصت الله ورسوله. قال أنس: أنزل الله عز وجل في الذين
قُتِلُوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسَخَ بعدُ: «أَنْ بَلَغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا
فِرْضِي عَنَا، وَرَضِينَا عَنْهُ»^(٣).

فأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِعِيدًا عَنِ الْأَوْطَانِ لِلشَّرِّ غَازِيَا

(١) الترمذي (١٨٩٩) وصححه الألباني، صحيح الترمذي (١٥٤٩)، وقال محقق جامع الأصول (١/ ٤٠١): إسناده صحيح.

(٢) بئر معونة: في أرض بني سليم فيما بين مكة والمدينة.

(٣) البخاري، الفتح ٦ (٣٠٤٦). مسلم (٦٧٧) واللفظ له. وعند البخاري: «فِرْضِي عَنَا وَأَرْضَانَا». ثم رفع ذلك بعد.

فخذُ من دمائي يا سميعاً لدعوتي فما أطيّب الآلام إن كنت راضياً

٢٦- تصديق الحالف بالله إعظاماً للمحلف به سبحانه.

إن من طرق تحصيل الرضا تصديق الحالف بالله تعالى إعظاماً لله، وضد ذلك بضده؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه. فقال: «لا تحلفوا بأبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله»^(١).

٢٧- السواك.

وهي خصلة إيمانية، وسنة نبوية، ومسلك فطري طيب، فمن أسباب الوصول لرضا الرحمن سبحانه مداومة التسوُّك، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»^(٢).

٢٨- إحسان الظن بالله تعالى.

من وسائل تحصيله إحسان الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه تبارك وتعالى، ومن ذلك فقد الأحبة والأصفياء، وكفى بالجنة للمؤمنين الراضين، ومن علم

(١) ابن ماجه (٢١٠١)، وقال البوصيري في الزوائد: رجال إسناده ثقات. وحسنه الحافظ في الفتح (٥٣٦/١١).

(٢) النسائي (١٠/١) وصححه الألباني، صحيح الجامع (٣٦٩٥)، وصحيح سنن النسائي

(٥) وقال الحافظ الدميّاطي: رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان، والبخاري معلقاً

مجزوماً.

أن حبيبه وصفيه قد نالها فحريّ به الحبور والسرور والسعادة له، فكيف بمن نال الفردوس - نسأل الله الكريم من فضله وكرمه ورحمته - فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أصيب حارثة يوم بدر - وهو غلام - فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب. وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك، أَوْ هَبِلَتْ»^(١) أَوْ جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»^(٢).

٢٩ - ملازمة الاستخارة في المهمات.

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم صحابته الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، والاستخارة تشرع في الأمر كله، وبخاصة جليل الأمور، ورب يسير أمر ترتب عليه الأمر الجلل.

وروى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عاجل

(١) هَبِلَتْ: أفقدت عقلك بفقد ابنك حتى ظننت أن الجنان جنة واحدة؟

(٢) البخاري، الفتح ١١ (٦٥٥٠)

أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني». قال: «ويسمي حاجته». وفي رواية: «ثم رضني به»^(١).

«ففي هذا الحديث: بيان لحاجة العبد إلى فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده، وعلم ما فيه مصلحته، وتيسير الله له ما قدره له من الخير، فهو القادر سبحانه وتعالى على كل شيء، والعبد عاجز إن لم ييسر الله له ما فيه مصلحته، ولذلك أرشده النبي ﷺ إلى طلب فضله سبحانه وتيسيره، ثمّ إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلى البقاء عليه، وثبوت هذا الفضل ونموه، ثمّ إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه، فإنه قد يهيب له ما يكرهه فيظل ساخطاً والخيرة فيه»^(٢). والخيرات خفياّت.

ويكتب الله خيراً أنت تجهله وظاهر الأمر حرمان من النعم
فلاستخارة خير كلها، وما خاب من استخار، وما ندم من استشار،
والموفق من وفقه الله. وبكل حال يا مؤمن: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَمْرًا ۝﴾ [الطلاق: ١].

(١) البخاري (١١٦٢).

(٢) الرضا بالقضاء. عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٤٢٠).

٣٠- التفقه في معاني الرضا.

الرضا بحر من بحار العلوم، فمسائله كثيرة، وغوامضه ليست قليلة، وقد حوى في عمقه دررًا لا يناها إلا من غاص تحت طباق معارفه، وأعانه مولاه فميز بثاقب نظره حقّه من باطله، وفيه مسائل متشابهة ظاهريًا لا يكاد يُفطن لها، مع أن ما بينها في الحقيقة أبعد مما بين الخافقين، فتجد الأولى هدى ونور، والأخرى مدخل للشيطان الغرور، والله تعالى يمتن على من شاء من عباده بالبصيرة في الدين والحكمة والتوفيق في القول والعمل. ولا يعني هذا مشقته الشديدة، ولا بُعد معانيه عن التقاط العقول لها، بل هي - بحمد الله - متاحة لمن تدبر القرآن والحديث، وأجال بصائر فكره في غُررهما، وحرّك دوافق فؤاده في رياضهما، وأرسى نوابض قلبه على ساحلتهما، والله تعالى يقول: ﴿اتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] فلا يضل علمه ولا يشقى بعمله. وهي سيرة على من وفقه الله تعالى.

قال الإمام الرباني ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مَبِينًا أهمية الفقه فيه وأنه يسير على من يسره الله عليه، مع ضرب أمثلة لبعض مهماته: «طريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدًا، موصلة إلى أجل غاية، ولكن فيها مشقة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همّة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على كل ما يردُّ عليها من الله تعالى.

ويسهل ذلك على العبد؛ علمه بضعفه وعجزه ورحمة ربّه وشفقته عليه وبرّه به، فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه ويرضى به وعنه،

وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه؛ فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه، ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحنة مُبتلاة بأصناف البلايا والمحن!

فطريق الرضا والمحبة تسير بالعبد وهو مستلقٍ على فراشه، فيصبح أمام الركب بمراحل. وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى. ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في المنام، وكأني ذكرت له شيئاً من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: «أمّا أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرور به». أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله. لكن قد قال الواسطي: «استعمل الرضا جهدك، ولا تدع الرضا يستعملك، فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع».

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم، ومقطع لهم، فإن مساكنة الأحوال والسكون إليها والوقوف عندها استلذاً ومحبة؛ حجاب بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم^(١)، وهي

(١) فتتحول الوسيلة لديهم لغاية، وهذا من مداخل الشيطان وتزيينه، وليس المقصود بالتحذير ترك التلذذ بالبلاء فهذا فضيلة وعمل قلبي جليل، إنما المقصود ألا يقف عند هذا العمل، بل عليه أن يتقدم به للأمام فيشهد الغايات من هذا البلاء، وإطلاع مولاه، وحسن ظنه بوعده، والشوق إليه، وتعظيمه، ونحو ذلك، وهي مضطردة في كثير من أعمال القلب كالصبر، والتوكل، والمحبة، والأنس، والصدق، وغيرها.

عقبة لا يجوزها إلا أولو العزائم. وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة شديد التنبيه عليها، ومن كلامه: «إياكم واستحلاء الطاعات فإنها سموم قاتلة»^(١).

فهذا معنى قوله: «استعمل الرضا جهداً ولا تدع الرضا يستعملك». أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضا، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه، بل اجعله آلة لك وسبباً موصلاً إلى قصدك ومطلوبك، فتكون مستعملاً له، لا أنه مستعمل لك.

وهذا لا يختص بالرضا، بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية التي يسكن إليها القلب، حتى إنه أيضاً لا يكون عاملاً على المحبة لأجل المحبة وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب ولا يقف عندها، فهذا من علل المحبة»^(٢).

(١) لا يقصد التمتع بحلاوة الإيمان، فهي من أبواب التوحيد وهي من أسباب زيادة الإيمان واليقين، وهي مكافأة من الله تعالى لعبده في الدنيا لعمله الصالح، إنما مقصوده - كما مر - التحذير من الوقوف عندها، فغاية المؤمن بعبادته إرضاء الله تعالى، فهي غاية الغايات وليس وراءها مرمى، والله تعالى إذا رضي عن عبده أرضاه وأكرمه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [النَّاسِ: ١١٩]، فإذا وقفت غاية العبد وقصده بالعمل الصالح عند تحصيل لذة العبادة فقد قصر عن الغاية، وهذا كما مر في التلذذ بالرضا بالبلاء سواء بسواء، والله المستعان.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٠١ - ٢٠٤) مختصراً.

والمقصود؛ ضرورة العبد للتفقه في معاني الرضا وإحسان تصوّره وحدوده ولوازمه كيما يحسن تطبيقه ليفوز بثوابه، وأن يسأل الله العافية على الدوام، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمُجَذَّمِينَ، فَقَالَ: «أَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ يَسْأَلُونَ الْعَافِيَةَ؟»^(١) وبالله التوفيق.



(١) الدعاء للطبراني (٤٩) وصححه الألباني في الصّحيحة: (٢١٩٧) والمُجَذَّمُونَ هم من أصابهم مرض الجذام، وهو مرض جلدي بكتيري معدي، يظهر على شكل تقرّحات جلدية شديدة، تتفاقم لتتسبب بإذن الله ب تلف في الأعصاب في الذراعين والساقين ومناطق الجلد حول الجسم، بالإضافة إلى ضعف العضلات.

هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟

إن السؤال هنا محدد محصور، وهو بصيغة أخرى: أيهما أفضل: الدعاء برفع البلاء الدنيوي لا الديني، أم ترك الدعاء برفعه، والسباحة في بحر الرضا؟ مثاله: من نزل به مرض أو سلب مال، أو أصيب بجائحة، أو ظلم بمظلمة.. ونحو ذلك من خطوب الفانية؟ هل يدعو أو يكفّ؟

علمًا أنّ الدعاء ليس كالتداوي - وإنّ جَامَعَهُ بطلب الاستشفاء - لأنّ الدعاء عبادة محضة، وطلب الاستشفاء به تبع لها، ومن ذلك رقية الإنسان نفسه، أما التداوي الحسّي فأمر خارج عن ذلك، لذلك لا يدخل ترك الدعاء في مسألة أفضلية ترك التداوي رضا بالقضاء، والله أعلم.

وهذه المسألة دقيقة، بل إنها في الغاية من الدقة، وإنك إن تأملتها وجدت أنّ السؤال فاسدٌ في الأصل! ومكمنُ فساد السؤال هو في افتراضه وجود الشيء ونقيضه أو نقيضه هنا، أي: أنه افتراض مسبقًا استحالة الجمع بينهما على صفة الوجود أو الكمال، وليس الأمر كذلك، فلا مانع من اجتماعهما على صفة الكمال، ونعم خلق المؤمن الرضا، ونعم ملاذ المؤمن الدعاء.

وعليه؛ فيُتَصَوَّرُ امتلاء القلب بالرضا والتسليم، واتساعه ببرد الحمد واليقين، مع لهجه برفع البلاء، فهذا شيء وذاك شيء، فليس الرضا بالبلاء ملازم لعدم الدعاء برفعه، ذلك أن كليهما عبادة مستقلة منفردة عن الأخرى. نعم؛ قد يُرى - في ابتداء النظر - تلازم الأمرين بسبب أنّ طلب الرفع مناقض - أو مُنْقِصٌ - للرضا به، وهذا مُتَصَوَّرٌ في أمور العباد فيما بينهم، لكنه ليس كذلك

في أعمال قلوب المؤمنين مع ربهم، ذلك أن بحر الرضا واسع جدًا، فتغمس فيه جميع أنواع وأفراد بلاءات الدنيا، فحين تصيب النازلة والرزية قلبًا هذا حاله؛ فإنها تنقلب بردًا وسلامًا على ذِيَاك الفؤاد المؤمن الراضي، بيد أنه ببصيرته وعلمه يتلمّح ركن التعلّق الأعظم وهو الدعاء، فيدعو مَنْ أمره بالدعاء، ويوقن أن مَنْ أمره بالرضا بالقضاء هو مَنْ أمره بإلحاح الدعاء، وأنه ابتلاه لحِكمٍ عظيمة، لعلّ منها أن يكسر صولة نفسه، ويسمع ضراسته ومسكنته ومناجاته، ويملاً قلبه وجوانحه بخالص عبادة الدعاء والرجاء والرَّغْب والرَّهَب، وتلتذّ نفسه الراضية المسلمة بالانغماس المطمئن الساكن في جريان المقدور، فيدعو المؤمن الراضي المُبتلى ضارعًا ربه أن يختار له الخيرة حيثما توجّهت، لعلمه أن الغيب سرّ مكتوم، وأن الخيرة معلقة بلطف الله وعلمه وحكمته وتدبيره وكرمه ورحمته ورفقه وبرّه، فلا خير في العجلة، ولا عجلة في الخير.

فهو يدعو بكل قلبه مُضمّنًا توكله - ومن أفراد توكله تفويض أزمّة الأمور وطلب خيرها إليه سبحانه - وهذا عينُ تضمينِ الدعاء الملحّ بخير الأمر وحسن العاقبة، حينها يملأ صدره بدفع وسكينة الرضا، وقلبه يئمن وغنيمة الدعاء، فيحرس الذخيرتين، ويجوز الغنيمتين، ويُحرز الفضيلتين، ويعود بالأجرين: الرضا والدعاء.

وبالجملة؛ فعلى المؤمن أن يدعو برفع البلية في دنياه مضمّنًا دعوته بقلبه - وإن شاء بلسانه كذلك - تفويض الخيرة إليه، فيدعو ربه أن يكشف البلوى إن كان في ذلك خير لدينه، مع تذكّر فضل بلاء الدنيا من التكفير والأجر والذخر

ونحو ذلك. وتشتد أهمية تفويض الخيرة برفع البلاء عند اشتباه الأمور أو استغلاق النفوس، فعند الشيخين^(١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموتَ لضرٍّ ينزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي». وبهذا تجتمع أعطاف النصوص القرآنية والنبوية وحتى الصحابية، ولا تتعارض البتة، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أنّ المؤمن في دعائه ربّه غير محتاج للتلفّظ بتفويض الخيرة لربه في كل دعوة خلا الاستخارة أو شدة الضرّ، فرسول الله ﷺ قد وجه إليه في دعاء الاستخارة أو طلب خيرة الحياة أو الموت لشدة البلاء، ولعل من أسباب ذلك التوجيه إلى طلب الخيرة في الاستخارة - كما هو ظاهر من مسأها - ما يترتب على استئناف المرء لخيارٍ لحقّه فيه نوعٌ خيرةٍ من المضيّ أو الترك، فهو على مفترق خيارات يترتب على مضيّه في أحدها مصير يهّمه، فهو يسأل ربه العليم الرحيم الحكيم أن يحرك له إرادته فيما فيه خيرته، ويبارك له فيما يختاره، ويصرف عنه السوء ويصرف نفسه عنه، وكذلك في الدعاء عند شدة الضر من سؤال ربه أن يختار له إبقاءه في الدنيا أو الرحيل إليه عنها.

أما مطلق الدعاء بجلب الخير أو دفع الضرّ فالعبد غير محتار فيه ابتداءً إلا من جهة جهله بالعاقبة، وهي غيب محض، وبما أن ربه قد أمره بالدعاء فيكفيه أن يدعو مضمناً تفويض الخيرة إليه بالقلب، فمن الحسّن تحريك القلب بهذا

(١) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)

المعنى الإيمانى مع استقراره فى القلب أصلاً، وإنّ ذهل عن هذا المعنى اللطيف حال دعائه فلا بأس، فربُّه أعلم بما يُصلحه ويصلح له. والرضا بالله تعالى كامن فى قلب الداعي على الدوام، مع علمه أنّ ماهية الإجابة عامة بالأمر الثلاثة: إما أن يُعجّل الله تعالى له دعوته فى الدنيا، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. فعلى العبد السؤال، والله تعالى يستجيب له بما يصلحه، ويختار له ما يسعده، وهو سبحانه أعلم بما يكون خيراً له، وبهذا يستقيم أمره.

وبالجملة؛ فما عدا دعاء الاستخارة ونحوه كالدعاء بتفويض خيرة الحياة أو الموت للضرّ الشديد - كما فى حديث أنس الآنف - فليس على العبد فى دعائه ربه بخير الدنيا ودفع بلائها ورفع التلّفظ بذكر الخيرة، وإنّ فعل فلا بأس، فهي من جملة الدعاء على كل حال، إلا فى دعائه بالمأثور فلا يزد عليه لأنه الكمال، وليس عليه مُستدرك، ولم تكّ جادّة رسول الله ﷺ التزام ذكر تفويض الخيرة فى جُلّ أدعيته.

وأما الدعاء بخير الآخرة فغير وارد ذكر تفويض الخيرة فيه هنا؛ لأنّ باب الخيرة فيه واحد وهو الرضا والجنة، والنجاة من السخط والعذاب، وهي دار جزاء لا عمل، فلا يُعقل أن يقول الداعي: اللّهم اغفر لي إن كان خيراً لي، أو أدخلني الجنة إن كانت خيراً لي! ونحو ذلك. وعليه؛ فطلب الخيرة إنّما هو فى أفعال المكلفين فى الدنيا وما يترتب عليها فى دينهم ودنياهم، أما الآخرة وسُبُلها المحضة فلا ترُدُّ هنا.

أما مسألة الاستثناء في الدعاء بالمشيئة كقول العبد: اللهم اغفر لي إن شئت ونحو ذلك؛ فهي ليست داخلية في هذا المبحث، وليس لها تعلق به، وهي غير جائزة، وهي من سوء الأدب مع الله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيَّناً خيرته وعاقبته مغيبية عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدءاً فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة^(١)، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره. وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً على طاعته، وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته»^(٢).

والنبي ﷺ وهو سيد الراضين وإمام المسلمين لأمر الله رب العالمين كان يسأل الله العافية، ويدعو بكشف البلية عن نفسه، كما قد علم أمته ذلك، فمن دعائه: «اللهم إني أسألك العافية»^(٣). وقال: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»^(٤). وتأمل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سَجَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُجِيلُ

(١) الخيرة: بسكون الياء من الخير، وهي المقصودة هنا، أما بفتح الياء فهي من الخيار، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الفَصَص: ٦٨].

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٦٩)

(٣) مسلم (٢٧١٢).

(٤) البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢).

إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله^(١)، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «أَشَعَرْتُ^(٢) أَنْ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي^(٣) أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مُطْبُوبٌ^(٤) قَالَ: وَمَنْ طَبَّهَ^(٥)؟ قَالَ: لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ^(٦)، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ وَجُفٍّ طَلَعَةٍ ذَكَرَ^(٧) قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بئرِ ذَرْوَانَ». فخرج

(١) أي: إتيان النساء. ففي رواية أخرى للبخاري، وفيها: «كان رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن». قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا.

(٢) أشعرت: أي هل علمت، وهو أسلوب تنبيه ليعي المخاطب ما سيُقال له بعد.

(٣) وفي لفظ: «فيما استفتيته» وكلاهما بمعنى، أي: شفاني حين دعوته بالشفاء.

(٤) أي: مسحور. سمي بذلك تفاؤلاً بالطب الذي هو العلاج، كما قيل للدغ: سليم، تفاؤلاً بالسلامة، وللصحراء الشاسعة مفازة تفاؤلاً بالفوز بتجاوزها بالسلامة، وللمسافرين الكثير على الجمال قافلة تفاؤلاً بالقول وهو الرجوع.. وهكذا.

(٥) أي: من سحره؟

(٦) وفي رواية: أنه رجل من بني زريق حليف لليهود، وكان منافقاً. وقيل: بل هو يهودي. وقال الحافظ في فتح الباري (١ / ٣٢٩) «حديث عائشة: سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، ذكر ابن سعد في الطبقات أن مُتَوَلَّى السحر أخوات لبيد، وكُنَّ أسحر منه، وأنه هو الذي دفنه. وفيه: «أتاني رجلان» في رواية الطبراني بلفظ: «أتاني ملكان» ويحتمل أن يكونا جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام كما في حديث سعد بن أبي وقاص».

(٧) وفي رواية: «ومُشَاطة» بدلاً من «ومُشَاقَّة» وكلاهما بمعنى. قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩ / ٤٤١): «قال الليث وابن عيينة عن هشام: «في مشط ومُشَاقَّة»

قال أبو عبد الله - وهو البخاري -: يقال المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مُشِطَ، والمُشَاقَّةُ من مشاققة الكتان. قال المهلب: والجُفَّ: غشاء الطلع، وقال أبو عمرو الشيباني: الجفَّ: شيء يُنْقَرُ من جذوع النخل».

فالجُفَّ: وعاء طلع النخيل وغشاؤه الذي يُكِنُّه، ويسمى في زماننا: الكُم. والمقصود أن الساحر الفاجر قد عَقَدَ عَقَدَ السحر بشعرات رسول الله ﷺ التي كانت تتساقط وتجتمع في المشط من تسريحه لشعره الشريف، ثم جعل ذلك في داخل الجفَّ أو الكُم، ثم وضع الجفَّ تحت راعوفة بئر ذروان. وذروان: بئر في بني زريق، والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتُفرت، توضع ليجلس عليها مستقي الماء حين يمتحه ويغرفه من قاع البئر، كذلك إذا أرادوا تنقيتها فيجلس المنقي عليها. وكل ذلك إمعاناً في إخفاء سحره وشره، ولعل في تعمده جعل السحر قريباً من مجرى الماء الأسفل في الأرض سرّاً شيطانياً يختص به السحرة، قاتلهم الله تعالى. فكبيرهم إبليس يضع عرشه على الماء مضاهية لرب العزة جل جلاله، وأنّى له ذلك، وتعالى الله وتبارك وتقدس.

والسحر قد يتسلط على العقول فيخيّل لها أشياء على غير حقيقتها، وقد يتسلط على الأبدان فيمرض ويقتل، لكنه لا يحيل الذوات لغيرها، كأن يقلب الرجل لحيوان، أو الخشب لذهب ونحو ذلك، فهذا محال، وهو من خصائص الربوبية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. قال شيخنا عيسى السعدي حفظه الله: لا شك في حقيقة السحر، وأنه ليس مجرد تخيّل، ولكن لا يمكن أن يصل تأثيره إلى درجة إحالة الذات إلى ذات أخرى؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليه أحد إلا الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٢٣]، وفي الصحيح: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة». رواه البخاري: (٧٥٥٩).

إليها النبي ﷺ، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنه رؤوس الشياطين!» فقلت: استخرجته؟ فقال: «لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا»، ثم دُفنت البئر^(١). وفي رواية: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها، وعليها نخل، قال: ثم رجع إلى عائشة، فقال: «والله لكأن ماءها ثِقَاعَةُ الحِئَاءِ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»، قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: «لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شرًّا»، وأمر بها فدفنت.

فتأمل وصف عائشة له بإلحاحه ﷺ على ربه بشفائه بقولها: «دعا ودعا». وهذا الحديث في الصحيحين قاطع في المسألة، وحاسم لموارد نزاعها، فهو صريح في إلحاحه ﷺ على ربه في طلب شفائه، مع كونه إمام الراضين المسلممين الحامدين ربهم قاطبة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولا يرد علينا أن هذا البلاء في الدين، لأن الرسل معصومون من جهة البلاغ، فيستحيل أن يبلغ السحر فيه لمواطن البلاغ من العلم والإرادة والجوارح السالمة من خلل التأدية الكاملة، مع ضميمته تصريح أم المؤمنين بحصر ذلك في أمر إتيان النساء.

وكان من هديه ﷺ عند عيادة المريض أن يقول: «اللَّهُمَّ أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبِّ النَّاسِ، وَاشْفِ فَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»

(١) البخاري (٣٢٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٩).

(١). وقال لعُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ لما جاءه يشكو ألماً يجده في بدنه فقال رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» (٢).

والدعاء برفع البلاء جادة المرسلين والأنبياء والصالحين، قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الفَصَص : ٢١]، وقال عن داود عليه السلام: ﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤]، وقال تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧]، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]، والمرأة الصالحة آسية جارت لربها: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ﴾ [التَّحْرِيم : ١١]. فهذه جادة عباد الرحمن.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في كلامه على حديث رسول الله ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» (٣): «في هذا الحديث أدب من آداب الدعاء؛ وهو أنه يلزم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتى قال بعض السلف: «لأنا أشد خشية أن أُحرم الدعاء من أن أُحرم الإجابة».

(١) الترمذي (٣٥٦٥) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (٢٢٠٢).

(٣) البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

قال الداودي رَحِمَهُ اللهُ: «يُخْشَى عَلَى مَنْ خَالَفَ وَقَالَ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي؛ أَنْ يُحْرَمَ الإِجَابَةُ وَمَا قَامَ مَقَامُهَا مِنَ الدَّخَارِ وَالتَّكْفِيرِ!»! وإلى ذلك أشار ابن الجوزي بقوله: اعلم أن دعاء المؤمن لا يُردّ، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوّض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغي للمؤمن ألا يترك الطلب من ربه، فإنه مُتَعَبِّدٌ بالدعاء، كما هو متعبّد بالتسليم والتفويض^(١). وتأمل آخر جملة من حروف ابن الجوزي رحمنا الله وإياه.

والمقصود؛ أن الله تعالى قد أمرنا بدعائه والتضرع إليه لكشف الكرب: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ودعاؤه عبادة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وشاهد الكلام؛ أن الله تعالى قد أمرنا بالدعاء وبالصبر والرضا، ووعد المثوبة للصابرين فقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وبالجملة؛ فليس المُلْحُ على ربه بكشف كربهِ بمعتزٍ على قدرهِ، ولا بناقضِ الرضا بتدبيرهِ، فالذي قضى هو من أمر بالدعاء، وهو من أمر باتخاذ الأسباب المشروعة، وهو من جعل الدعاء سبباً موصلاً لمرضاته، ولإعطاء عبده رغبته طلباً أو هرباً أو دفعاً أو رفعاً أو جلباً أو إعصاماً، فالأمرُ أمرُهُ، والخلقُ خلقُهُ، والعبدُ عبْدُهُ، والدينُ دينُهُ، ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ

(١) فتح الباري (١١/ ١٤١) باختصار.

لَهُمُ الْخَيْرَةُ ﴿[الْقَصَص : ٦٨]﴾، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء : ٢٣]،
﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى : ١٩].

فالدعاء ثباتٌ على طريق بلوغ المراد ضمن الأسباب المشروعة، والدعاء أحدها، بل من أعظمها وأقواها، وهو سيما العبودية، وختم الإيمان. والدعاء شفاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء»^(١).

وعليه؛ فليس بين الرضا بالبلاء والدعاء برفعه تعارض حتى يُلجأ فيه إلى الترجيح، فالسؤال فاسد أصلاً، لأنَّ جهتيَّ الأمرين في الحكم منفكتان، فيمكن للعبد الدعاء لرفع البلاء مع رضاه التام به.

ولكن هذا يحتاج لسعة نظر وجمال تأمل، لأنه مشتبه على كثير من الناس، ومن هنا جيء بالسؤال - على ما فيه - لاشتباهه، ومن ثمَّ الإجابة عليه.

ونزيد التوضيح فنقول: لا تعارض في الحقيقة بينهما، لأنَّ المؤمن مأمور بتحصيل خيري الدنيا والآخرة ودفع شرِّهما عن نفسه، كما أننا قد أمرنا بالأخذ بالأسباب، ومن أعظمها التوكل والدعاء، فهما قطبي التحصيل بإذن الله، وهما سرِّي نفوذ البركة لأصحابهما بإذن الله، ويدخل في ذلك الدعاء برفع النازلة الخاصة والإلحاح فيها خاصة إنَّ خاف أن تشوَّش عليه جمعيَّة قلبه مع ربه تبارك وتعالى.

(١) الجواب الكافي (٢٥).

وتزيد أرجحية الدعاء برفع النازلة الخاصة في حال مزاحمة حملها للدين، أو تشويش الجمعية، أو إشغالها عن أمور يغلب على ظنّ المُبتلى أنها خير له من مجرد الرضا بالنازلة، كمن يدعو بشفاء جسده ليجاهد في سبيل الله، أو لإعانتته على تذوّق حلاوة التهجد والمناجاة، أو ليقوم على والديه المحتاجين له، أو نفع الناس في دينهم ودنياهم، ونحو ذلك، مع الرضا التام والتسليم المطلق؛ لأنه يعلم أنه بعين من يعلم العواقب، ويرحم عبده، ويرفق ويلطف به، ويختار خيرته، لذا: فأحبه إليه أحبه إلى الله عز وجل، كما جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنهما وغيره، ولعل عمران قد قصد بذلك تعليق الدعاء لشفائه بالخيرة، قال الحسن: «وكان في مرضه تسلّم عليه الملائكة، فاكتوى ففقد التسليم، ثم عادت إليه، وكان به استسقاء، فطال به سنين كثيرة وهو صابر عليه، وشقّ بطنه وأخذ منه شحم، وثقب له سرير، فبقي عليه ثلاثين سنة، ودخل عليه رجل^(١) فقال: يا أبا نجيد، والله إنه ليمنعني من عيادتك ما أرى بك! فقال: يا ابن أخي فلا تجلس^(٢)، فوالله إن أحبّ ذلك إليّ أحبه إلى الله عز وجل»^(٣).

يَهْنُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ

(١) وهو مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، وكان من خاصته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أسد الغابة، لابن الأثير (١ / ٨٦٩) (١٣١٤).

(٣) المرقاة (٨ / ٣٥٢).

مع التنبيه إلى أن الدعاء يكون بالثناء - وهو الأشرف - وبالسؤال، وكلاهما عبادة مقصودة. علماً بأن المؤمن عند النازلة لا يكتفي بالدعاء برفعها فقط، بل يدعو ويدعو ويتفنن في طرائق الدعاء، لأمر:

الأول: أن كثيراً من الدعاء هو دعاء الثناء كالحمد والشكر والتسبيح والتكبير والقرآن ونحو ذلك. قال في مرقة المفاتيح^(١): وقال أمية بن الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَبَاءُكَ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَبَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرَأُ يَوْمًا كَفَاهُ مَنْ تَعَرَضَكَ الثَّنَاءُ

قال سفيان بن عيينة: «فهذا مخلوق حين نُسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق!»! والدعاء قد يكون صريحاً، وقد يكون تعريضاً، فإن الثناء على الكريم يتضمن الدعاء، والسؤال تعريضاً باللفظ إيماء كمدح السائل والشاعر^(٢).

الثاني: أن دعاء المسألة وبخاصة جوامع الدعاء يستغرق صلاح الدين والدنيا - ومن ضمنه كشف تلك النازلة - وصلاح العاقبة بالمغفرة والرحمة

(١) المرقاة (٨ / ٣٥٢).

(٢) أما حديث: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». فالأكثر على تضعيفه. قال الحافظ في الفتح (٩ / ٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٣٥).

والرضا والجنة، وما إلى ذلك. فتأمل دعوة المؤمن بقوله: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(١).

وقوله: «اللهم إني أسألك من الخير كلّ عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرّ كلّ، عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شرّ ما عاذ به عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب منها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيتَه لي خيراً، اللهم إني أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»^(٢).

وقوله: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(٣).

(١) البخاري (٦٣٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩٠) عن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

(٢) ابن ماجه (٣٨٤٦) عن عائشة: أن رسول الله ﷺ علّمها هذا الدعاء. ورواه ابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١ / ٥١٢ - ٥٢٢) وصححه الألباني.

(٣) أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢٥/٢) (٤٧٨٥) وصححه الألباني.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجَبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ»^(١). ونحو تلك الجوامع الدعائية.

(١) البخاري (٢٨/٤، ٩٨/٨) ومسلم (٧٥/٨) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «الْتَمَسْ غُلَامًا مِنْ غُلَامَانِكَ يَخْدُمْنِي». فخرج أبو طلحة يُرِدْفَنِي وراءه، فكنْتُ أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، فكنْتُ أسمعُه يكثر أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجَبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ». ومعنى ضَلَعَ الدِّينِ: الضلع: الاعوجاج، والمقصود ثقل الدِّين حتى يميل صاحبه عن الاستواء.

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (٢٦/٩): «الكسل: هو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه. وأما العجز: فعدم القدرة عليه، وقيل: هو ترك ما يجب فعله، والتسويف به، وكلاهما تستحب الاستعاذة منه.. وأما استعاذته من الجبن والبخل، فلما فيهما من التقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى وإزالة المنكر.. وبالسَّلامة من البخل يقوم بحقوق المال وينبعت للإِنفاق والجود ولمكارم الأخلاق». وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٠٧/١١): «الضلع هو الاعوجاج، والمراد به هنا ثقل الدِّين وشدته، وغلبة الرجال: أي: شدة تسلطهم كاستيلاء الرعاع هرَجًا ومرَجًا». وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤٣٣ / ٢) «فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان:

فألم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سَمِيَ حزنًا وإن تعلق بالمستقبل سَمِيَ همًّا.

ومما يلحق بذلك: أنه لا حرج على من ترك الدعاء برفع بليّة الدنيا تسليماً للقضاء، ولكنه خلاف الأفضل، فهو وإن حاز مرتبة الرضا لكنه قد فوّت على نفسه حظها من دعاء العبيد ربهم في شؤون دنياهم، فالله تعالى حيّ قيّوم صمّد يقوم بمصالح عباده ويصمد لهم بقضاء حوائجهم، وهذا من مقتضيات ربوبيته تبارك وتعالى، وإذا كان الله تعالى يُحبُّ أن تُؤتى رُخصه؛ فكيف بكشف كُربةٍ وليّه!

كَمْ كُربَةٍ طَرَقَتْ جُنْحَ الظَّلَامِ تَنفَسَ الصُّبْحُ حَتَّى فَرَجَ اللَّهُ

كما أنّ الدعاء داخل في توحيد الربوبية والعبادة، فالربوبية من جهة أن دعاءه متضمّن الإيمان بمُلك الله المطلق، وتديره التام الذي لا يشاركه فيه غيره، والعبادة من جهة استجابته لأمر ربه جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

=

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب؛ فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذّوات عظيمة، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه دونها أيضاً، فهذان الخُلُقَان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها، أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين، والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال، وأيضاً فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

[غافر: ٦٠]. وعن أبي ذر جندب بن جنادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم»^(١).

قال الحافظ ابن رجب: «الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة، وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شُسع نعله إذا انقطع»^(٢) وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته.. فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأل من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله، وذاك يحبه الله، وكان بعض السلف يستحي من الله أن يسأله شيئاً من مصالح الدنيا، والافتداء بالسنة أولى»^(٣). أي: أن السنة سؤال الله تعالى كل أمور الآخرة والدنيا. وسؤال الله تعالى أمور الدنيا معين على أمور الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القَصص: ٧٧]، ولكن عند المزاحمة في الدعاء كحال الصلاة أو أوقات الإجابة المضيق فينبغي أن يتوجه العبد لرغائب الآخرة دون الدنيا، إلا ما كان مُلِحاً عليه أو مشوشاً لجمعية قلبه على ربه ونحو ذلك.

(١) مسلم (٢٥٧٧)

(٢) الترمذي (٣٦٨٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٢٥).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في شأن ترك الأسباب المشروعة: «ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك.

فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتّلوا له من الغلوّ في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همّته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة، والتوجه في علم صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتّله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه»^(١).

ومقصوده رَحِمَهُ اللهُ؛ أن أولوية صرف الهمة القلبية من التوكل ونحوه للأمور الكبار أولى مما سواها؛ ذلك أن للنفس قدر محدود من الطاقة مهما كانت قوتها، ومتى صرف شيء من الهم القلبي لغير الأمور الكبار تشتت قوّة همّته وطاقة قلبه، ونقص عمل قلبه ذلك - أيّا كان - بقدر ما صرف من تشتت طاقته، أي: أن رصيد الطاقة القلبية في التوجّه قد نقص بمقدار ذلك الشتات، فإذا صرف كل همّة قلبه علماً وعملاً وأعملها في مصالح آخرته صفت قوّة من كدر الأمور اليسيرة، فصار كل توجّهه لتحصيل عمّار قلبه بالإيانيات وآخرته برفيع الدرجات، ثم انتظمت له مع هذا النعيم سائر أمور حياته صغيرها وكبيرها، لأن الله وليّه وكافيه تبارك وتعالى، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الرّمز: ٣٦، بلى وعزّتكَ.

(١) الفتاوى الكبرى (١ / ١٠٩).

وبعد هذا؛ فالمحصلة أنّ القسمة رباعية: فالأكمل: الرضا والدعاء - علمًا أنّ الدعاء لا يُنقص الرضا - ويليه الرضا وترك الدعاء برفع النازلة المعيّنة، ويليهما الدعاء برفعها مع نقص الرضا بالقضاء، وأما الرابعة فمرتبة المخدولين فلا رضا ولا دعاء.

وسبب تقديم الرضا في المرتبة الثانية على الدعاء برفع النازلة (وهي المرتبة الثالثة) لأن الرضا عبادة مقصودة لذاتها، وهو من أصول الإيمان ومن مكملاته كذلك التي لا ينفك عنها بحال، فوجوده أصل في الدين وكمال له من كمالاته، أما الدعاء برفع النازلة المعيّنة فهي - وإن كانت في مرتبة عالية في الدين والإيمان - إلا أنها مرجوحة هنا إن وزنت بالرضا لأنها دعاءٌ لتحصيل دنيا، وزوال الرضا بالقضاء هنا محرم^(١)، أما ترك الدعاء برفعه فالعبد فيه بالخيار؛ إن

(١) فالرضا بالقضاء واجب وفريضة، وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلّا بها. أما الرضا بالمقضيّ فمستحبّ. والمقضيّ هو مفعولات الله تعالى بعبد، فليس المراد هنا فعل الله، بل المقصود مفعوله، أي ليس صفة الله التي هي الخلق والتقدير، بل هو مخلوق الله تعالى الذي هو نفس المصيبة. فالقضاء أمر الله والمقضيّ خلقه، والقدر أمر الله والمقدور خلقه، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدره؛ فهذا هو النوع الأول وهو القضاء والقدر، الثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألم منه، فهذا هو المراد هنا، فهو المقضيّ والمقدور.

وهذا النوع - أي الرضا بالمقضيّ - قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقًا بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب لانفكاك جهته تصوّرًا في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، كذلك لمشقة هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على كثير منهم، والشرعية لا

شاء دعا وهو الأفضل والأكمل، وإن شاء اكتفى بالرضا مع تفويض الأمر كله لله تعالى.

علمًا أنّ الدعاء بحد ذاته هو عبادة شريفة من أجلّ العبادات، وهذا ملحظ عظيم؛ فالداعي لكشف الكرب عليه أن يُحرّك قلبه بتنبيهه لشأن عبادة الدعاء مع رجاء كشف الضراء، فعلى المرء أن يتذكّر أن دعاءه عبادة بذاتها، فليذكّر قلبه بذلك عند رفع يديه ضراعةً لخالقه لطلب رغبته وكشف ضرّه، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مهروب، ألا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حالته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة.

ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء وحصول مطلوبه فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة

=

تأتي بالخرج بل برفعه، ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها، والله الموفق»^(١).

مسألة: هل ينسحب هذا التقرير على الدعاء للغير برفع نازلة دنياهم؟
أي: هل يدخل في ذلك الدعاء برفع البلاء عن الغير.

الجواب: نعم، مثلاً بمثل سواء بسواء، بَيِّنْ أَنَّ الدعاء برفع البلاء عن النفس تكون فيه معاني العبودية - غالباً - كالرضا والإخلاص والاضطرار والتعلق أظهر وأشدّ، أما الدعاء برفع البلاء عن الغير فإن فيه مزيد الإحسان للناس وهي عبادة لله محبوبة، ففي الدعاء للغير تحقيق محض النصيحة له ومحبة، وهما من حقوق الإسلام وأخلاق أهل الإيمان، فالدين النصيحة، فعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢).

ومن مكملات الإيمان محبة أهله، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٣). كما يتبع ذلك دعاء الملائكة للداعي بمثل ما دعى به، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك:

(١) الفتاوى السعدية (١٥).

(٢) مسلم (٥٥).

(٣) البخاري ١٠/١ (١٣)، ومسلم ٤٩/١ (٤٥) (٧١).

ولك بمثل»^(١). وهم خلُق كرام على الله تعالى محبوبون له حَرِيّون أن يُستجاب لهم. وبالله التوفيق ومنه الهدى. وقد أحسن الشاعر فاضل أصفر حين صدح:

وأصعبُ الجرحِ جرحُ الروحِ	وأهونُ الجرحِ سيّالُ بعضِ دمِ
وأعظمُ الصبرِ صبرُ المرءِ يتبعه	حمدٌ وشكرٌ وتسليمٌ لذي الكرمِ
كم من فقيرٍ صحيحٍ طابَ مرقدُه	وكم ثريٍّ من الأوجاعِ لم ينمِ
وكسرةُ الخبزِ في أكنافِ عافيةٍ	ألذُّ طعامٍ من السلوى مع السّقمِ
وسائلُ الناسِ متروكٌ لخيّتهِ	وسائلُ الله لم يُحرَم من النّعمِ



(١) مسلم ٨/٨٦ (٢٧٣٢) (٨٦) ومعنى بمثل: أي أعطاك الله مثل ما دعوت لأخيك.

هل الدعاء على الظالم فضيلة؟

إن كانت النازلة مظلمة فيشرع الدعاء برفعها من جهة أنها ابتلاء، أما الظالم فيُستحب الدعاء له بالهداية والمغفرة مع قطع شره عن نفسه وعن الناس، وهذا أفضل من الدعاء عليه، وإن كان ذلك جائزاً لأنه من طلب الاقتصاص الذي هو من فروع العدل، أما العفو فمن فروع الإحسان وهو أفضل وأكمل، وربنا جل وعز يقول: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ويقول: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ويقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فليس من سيما المؤمنين شفاء صدورهم لأجل دنيا، بل لأجل الدين، كما قال تعالى في نصره لدينه: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ١٤ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

إذا كنت في أمرٍ فكن فيه مُحسناً فَعَمَّا قَلِيلَ أَنْتَ مَاضٍ وَتَارِكُهُ والدعاء انتقام، ونبي الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما انتقم رسول الله ﷺ قط لنفسه، إلا أن تُتْهَكَ محارمُ الله، فإذا انتُهكت محارمُ الله لم يَقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله» (١).

(١) البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبَتْ فادع الله عليها! فقيل: هلكت دوس فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دوسًا وائت بهم»^(١). والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما قيل له في الدعاء على ظالمه أجاب: «وما ينفعك أن يُعَذِّبَ الله أحدًا بسببك».

فالمؤمن لا يتشقى للدنيا، بل ينصح لكل المؤمنين ويعفو عنهم إن كان في عفوهِ إصلاحًا، ويدعو بكف شر الظالم عن نفسه وعن الناس. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والناس أربعة؛ منهم من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي فيه دين وغضب لله، ومنهم من لا ينتصر لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه جبن وضعف دين، ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه، وهو شر الأقسام، وأما الكامل فهو الذي ينتصر لحق الله ويعفو عن حق نفسه عند المقدرة»^(٢). وقال في الصبر على أذى الناس وترك الانتقام منهم: النوع الرابع: ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًا، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصدّيقون.

(١) مسلم (٢٥٢٤).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية (١ / ٣٢٥).

وكان نبينا ﷺ إذا أُوذِيَ يقول: «يَرْحُمُ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبْرٌ»^(١). وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربَه قَوْمُهُ، فجعل يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢). وقد رُوي عنه ﷺ أنه جرى له مثَلُ هذا مع قومه، فجعل يقول مثَل ذلك^(٣). فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون.

وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والهدى والسرور والأمن، والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له، وزيادة العلم. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقى العبد في درجات السعادة بفضل الله تعالى، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

(١) البخاري (٣١٥٠، ٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢). وتامل قولهم له عليه السلام - وهي المقالة التي لا تكاد تخطئها أذن دأب إلى الله سبيل تعالى على مر الأزمنة -: ﴿مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فعلى الدعاة إلا يحزنوا، فأجرهم على الله العظيم، لا على مخلوقاته الفانية، ومن كان في الله تَلَفُهُ؛ كان على الله خَلْفُهُ. والله أبي الطيب حين قال:

وإذا أتتكَ مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بآئي كامل

(٢) البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩) ومسلم (١٧٩٢).

(٣) الطبراني عن سهل بن سعد، كما في مجمع الزوائد (١١٧/٦). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣١) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤ - ٣٥].

وَيُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى هَذَا الصَّبْرِ عِدَّةُ أَشْيَاءَ:

أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالقُ أفعالِ العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرّة إلا بإذنه ومشيئته، فالعباد آله، فانظر إلى الذي سلّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترخ من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) [الشورى: ٣٠]. فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلّطهم عليه بسببها عن ذمهم ولومهم والوقعة فيهم.

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقّه نعمةً. قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمةً من

جواهر الكلام: «لا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ عَبْدٌ إِلَّا ذَنْبَهُ»^(١). وَرُوي عنه وعن غيره: «ما نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتُوبَةٍ»^(٢).

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عَفَا وَصَبَرَ، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولما كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه، ذَكَرَ الأقسامَ الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: «إِلَّا لِيُقَمَّ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٣). فلا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ. وإذا شَهِدَ مع ذلك فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء، سَهَّلَ علمه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عَفَا وأحسنَ أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونَقَّاه من الغشِّ والغِلِّ وطلب الانتقام وإرادة الشر^(١)، وحصل له

(١) انظر شرحها في مجموع الفتاوى (١٦١/٨ - ١٨٠).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥٩ / ٢٦) من دعاء العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما استسقوا به في عام الرمادة، بلفظ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُكْشَفْ إِلَّا بِتُوبَةٍ...». وإسناده ضعيف جداً.

(٣) ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس وأنس. انظر: الدر المنثور (٣٥٩/٧) عن: محقق جامع المسائل.

من حلاوة العفو ما يزيد لذّته ومنفعته عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤]، فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أخذ منه درهم فَعُوْضَ عليه ألوفاً من الدنانير، فحينئذٍ يفرح بما منّ الله عليه أعظم فرحاً يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قطّ لنفسه إلاّ أورثه ذلك ذللاً يجده في نفسه، فإذا عفا أعزّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً»^(٢). فالعزّ الحاصل له بالعفو أحبّ إليه وأنفع له من العزّ الحاصل له بالانتقام، فإنّ هذا عزٌّ في الظاهر، وهو يُورث في الباطن ذللاً، والعفو ذلٌّ في الباطن، وهو يورث العزّ باطناً وظاهراً.

السادس - وهي من أعظم الفوائد :- أن يشهد أن الجزء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالمٌ مذنب، وأنّ من عفا عن الناس عفاً الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له. فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويُحسن إليه على ذنوبه، ويسهّل عليه عفوه وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

=

(١) ذكر أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١ / ١٩٦) أنّ رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال له:

نكتبُ عن فلان؟ فقال: إذا لم تكتب عنه فعمّن يكون ذلك؟! قالها مراراً. فقال له

الرجل: إنه يتكلّم فيك. فقال الإمام أحمد: رجلٌ صالح، ابتلي فينا، فماذا نعمل!

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه مالا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه، ورسولُ الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلّق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرّها، وأبعدّها من كلّ خُلُقٍ مذموم، وأحقّها بكل خُلُقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تُساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يُوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أُوذي على ما فعله الله، أو على ما أمر به من طاعته وُهي عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنّه قد أُوذي في الله فأجره على الله^(١).

(١) وهذا ملحظٌ عظيم جدًّا، حريٌّ بكل داعٍ إلى سبيل ربه أن يتأمله، وأن يحويه في صدره، فسبيل الأنبياء وأتباعهم مليء بأذى الناس الذين يعادون ويصاولون عن شهواتهم المحرمة من أراد حجزهم عنها لمرضاة الله تعالى، كما قال جل وعز: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام : ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢١﴾﴾

ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبَتْ دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونةً، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنه من كان في الله تَلَفُهُ كان على الله خَلْفُهُ، وإن كان قد أُؤذي على مصيبة فليَرْجَعْ باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شُغْلٌ عن لومه لمن آذاه، وإن كان قد أُؤذي على حَظٍّ فليُوطِن نفسه على الصبر، فإنَّ نيلَ الحُظوظِ دونه أمرٌ أَمْرٌ من الصبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجِرِ والأمطارِ والثلوجِ ومشقةِ الأسفارِ ولصوصِ الطريقِ، وإلا فلا حاجةَ له في المتاجر.

وهذا أمر معلوم عند الناس أنَّ مَنْ صدَّق في طلب شيء من الأشياء بُدِّل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: أن يشهد معيَّة الله معه إذا صَبَرَ، ومحبَّة الله له إذا صَبَرَ، ورضاه. ومن كان الله معه دَفَعَ عنه أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفعه عنه أحدٌ من خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

=

[الفُرْقَان : ٣١]، والمقصود؛ أن من أوقف نفسه لله فلا يُشرع له الانتقام لنفسه إن أؤذي من أجل الله، فهو لله وبالله وإلى الله، وفي سبيل الله، وضامن على الله، وأجره على الله تعالى.

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزاءً في نصرة نفسه، فإذا صبر فقد أحرز إيمانه، وصانه من النقص، والله يدافع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهد أن صبره حكمٌ منه على نفسه، وقهرٌ لها، وغلبةٌ لها، فمتى كانت النفس مقهورةً معه مغلوبةً، لم تطمع في استرقاقه وأسرِه وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها، لم تزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمةٌ من ربه. فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذٍ يظهر سلطان القلب، وتثبت جنوده، ويفرح ويقوى، ويطرُد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصرُه ولا بُدَّ، فالله وكيلٌ من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها. فأين من ناصرُه الله خيرُ الناصرين إلى من ناصرُه نفسه أعجز الناصرين وأضعفُ؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوعَ خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيدائه له مستحيًا منه نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤ - ٣٥].

الخامس عشر: ربما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شرِّ خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر

وعفا أَمِنَ من هذا الضرر، والعاقِلُ لا يَخْتَارُ أَعْظَمَ الضَّرَرَيْنِ بِدَفْعِ أَدْنَاهُمَا. وكم قد جلبَ الانتقامُ والمقابلةُ من شَرِّ عَجَزَ صَاحِبِهِ عن دَفْعِهِ، وكم قد ذهبتْ نفوسٌ ورِثَاسَاتٌ وأموالٌ لو عفا المظلومُ لَبَقِيَتْ لَهُ.

السادس عشر: أَنَّ من اعتَادَ الانتقامَ ولم يَصْبِرْ لا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِي الظلمِ، فَإِنَّ النفسَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى قَدْرِ الْعَدْلِ الْوَاجِبِ لَهَا، لَا عِلْمًا وَلَا إِرَادَةً، وَرَبَّمَا عَجَزَتْ عَنِ الْاِقْتِصَارِ عَلَى قَدْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ الْغَضَبَ يَخْرِجُ بِصَاحِبِهِ إِلَى حَدٍّ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ، فَبَيْنَمَا هُوَ مَظْلُومٌ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ وَالْعِزَّ، إِذَا انْقَلَبَ ظَالِمًا يَنْتَظِرُ الْمَقْتَّ وَالْعُقُوبَةَ.

السابع عشر: أَنَّ هَذِهِ الْمَظْلَمَةَ الَّتِي ظَلَمَهَا هِيَ سَبَبٌ إِمَّا لِتَكْفِيرِ سَيِّئَتِهِ، أَوْ رَفْعِ دَرَجَتِهِ، فَإِذَا انْتَقَمَ وَلَمْ يَصْبِرْ لَمْ تَكُنْ مُكْفِرَةً لِسَيِّئَتِهِ وَلَا رَافِعَةً لِدَرَجَتِهِ.

الثامن عشر: أَنَّ عَفْوَهُ وَصَبْرَهُ مِنْ أَكْبَرِ الْجُنْدِ لَهُ عَلَى خَصْمِهِ، فَإِنَّ مَنْ صَبَرَ وَعَفَا كَانَ صَبْرُهُ وَعَفْوُهُ مُوجِبًا لَذُلِّ عَدُوِّهِ وَخَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنْهُ وَمِنْ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَسْكُتُونَ عَنْ خَصْمِهِ، وَإِنْ سَكَتَ هُوَ، فَإِذَا انْتَقَمَ زَالَ ذَلِكَ كُلُّهُ. وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِذَا شَتَمَ غَيْرَهُ أَوْ آذَاهُ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَوْفِيَ مِنْهُ، فَإِذَا قَابَلَهُ اسْتَرَاحَ وَأَلْقَى عَنْهُ ثِقْلًا كَانَ يَجِدُهُ.

التاسع عشر: أَنَّهُ إِذَا عَفَا عَنْ خَصْمِهِ اسْتَشْعَرَتْ نَفْسُ خَصْمِهِ أَنَّهُ فَوْقَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ رَبَحَ عَلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يَرَى نَفْسَهُ دُونَهُ، وَكَفَى بِهَذَا فَضْلًا وَشَرَفًا لِلْعَفْوِ.

العشرون: أَنَّهُ إِذَا عَفَا وَصَفَحَ كَانَتْ هَذِهِ حَسَنَةً، فَتَوَلَّدَ لَهُ حَسَنَةٌ أُخْرَى، وَتِلْكَ الْأُخْرَى تَوَلَّدَ لَهُ أُخْرَى، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَلَا تَزَالُ حَسَنَاتُهُ فِي مَزِيدٍ، فَإِنَّ مِنْ

ثواب الحسنة الحسنة، كما أنَّ من عقاب السيئة السيئة بعدها. وربِّما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك^(١).

ومن عجائب شيخ الإسلام ابن تيمية التي تدل على سمو أخلاقه العالية وسلامة صدره ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ من أنَّ شيخ الإسلام لما ألف كتابه «الاستغاثة» وهو المعروف بالرد على البكري^(٢) ترصد له ابن البكري الصوفي على الطريق ومعه جماعة من أصحابه، وضربوا شيخ الإسلام ضرباً شديداً حتى طرحوه على الأرض، ثم هربوا.

فاجتمع كثير من محبيه بعدها ومعهم الجند وطلبوا من شيخ الإسلام أن يأذن لهم بالانتقام من ابن البكري فرفض شيخ الإسلام وقال لهم: «إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله؛ فإن كان لي فهو في حلٍّ، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم، وإن كان لله فالله يأخذ حقه كيف شاء متى شاء».

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم؟ قال: «هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه»! فقالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق، فإذا كنت تقول إنهم مأجورين فاسمع منهم ووافقهم على قولهم. فقال

(١) جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق عزيز شمس (١/١٦٨ - ١٧٤) بتصرف يسير.

(٢) وهو كتاب غزير الفوائد عظيم النفع، وبخاصة في زماننا، لأنه في رد شبه القبورية عن توحيد العبادة لله تعالى. وقد لخصه ابن كثير في كتاب «تلخيص كتاب الاستغاثة».

لهم: «ليس الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر»^(١).

لكنهم لم يكثرثوا لكلامه، وسعوا في طلب ابن البكري في كل مكان، وضيّقوا عليه حتى لم يجد مكانًا يختبئ فيه إلا بيت شيخ الإسلام، فأواه شيخ الإسلام وخبأه وشفع له عند السلطان فعفا عنه السلطان!^(٢)

(١) وهذا معنى بديع، وقصد شريف، ونباهة نادرة لهذا الإمام، وبخاصة في هذا المقام، ذلك أنّ النفوس تضعف عند فوران قدر الغضب، والحكمة تعزب حين عصف سوء الظن بالناس.

ومن نماذج حسن الظن الجميل في الناس ما نقله الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في أدب الدنيا والدين (١٨٠/١) عن بنت عبد الله بن مُطِيعٍ أَنَّهَا قَالَتْ لِزَوْجِهَا طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ الزُّهْرِيِّ، وَكَانَ أَجْوَدَ قَرِيشٍ فِي زَمَانِهِ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَلْأَمَ مِنْ إِخْوَانِكَ! قَالَ: مَهْ، وَلَمْ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِذَا أَيْسَرْتَ لِزُمُوكَ، وَإِذَا أَعْسَرْتَ تَرْكُوكَ. قَالَ: هَذَا وَاللَّهِ مِنْ كَرَمِهِمْ، يَأْتُونَنَا فِي حَالِ الْقُوَّةِ بِنَا عَلَيْهِمْ، وَيَتْرَكُونَنَا فِي حَالِ الضَّعْفِ بِنَا عَنْهُمْ. فَاَنْظُرْ كَيْفَ تَأْوَلُ بِكَرَمِهِ هَذَا التَّأْوِيلَ حَتَّى جَعَلَ قَبِيحَ فَعْلِهِمْ حَسَنًا، وَظَاهِرَ جَفَائِهِمْ وَفَاءً. وَهَذَا مُحَضُّ الْكَرَمِ وَلُبَابُ الْفَضْلِ، وَبِمِثْلِ هَذَا يَلْزَمُ ذَوِي الْفَضْلِ أَنْ يَتَأَوَّلُوا الْهَفَوَاتِ مِنْ إِخْوَانِهِمْ.

وإنّ الذي حانت بفلسج دماؤهم هم القومُ كلُّ القومِ يا أم خالد

(٢) انظر: البداية والنهاية (٧٦/١٤)، وذيل طبقات الحنابلة (٤٠٠/٢)، والعقود الدرية (ص ٢٨٦)، والكواكب الدرية (ص ١٣٩) وفي ذكره خبر إصلاحه بين الحنابلة والأشعرية مجموع الفتاوى (٢٢٧/٣).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الفتنة التي كانت بينه وبين ابن مخلوف^(١): «وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير. وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) والسبب وراء هذه المحنة أن السلطان بيبرس الجاشنكير طلب ابن تيمية إلى مصر يوم الخامس من رمضان عام ٧٠٥ فتوجه إليها ابن تيمية فدخلها يوم ٢٢ رمضان، فعُقد له مجلس بالقلعة، وقد اجتمع فيها القضاة وأكابر الدولة، وفي المجلس أراد ابن تيمية الكلام إلا أنه لم يُسمح له، وادّعى عليه ابن مخلوف المالكي (قاضي المالكية وكان من أشد خصوم ابن تيمية) ومعه نصر المنبجي (الصوفي الضال الحلولي الاتحادي، وكان صاحب حظوة ووجاهة عند أمير مصر بيبرس الجاشنكير)؛ حيث ادّعى ابن مخلوف على ابن تيمية أنه يقول: «إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت»، فسأله القاضي عن ذلك، فأخذ ابن تيمية يبدأ حديثه في حمد الله والثناء عليه، فقليل له: «أجب، ما جئنا بك لتخطب»، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة، فقال: «ومن الحاكم في؟» قيل له: «القاضي المالكي»، فقال له الشيخ: «كيف تحكم في وأنت خصمي؟»، فغضب غضباً شديداً وانزعج، فأصدر حكمه عليه، وحُبس ابن تيمية في برج أياماً، ثم نُقل مع أخويه: شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن إلى الحبس المعروف باسم «الجُبِّ» في ليلة عيد الفطر.

ثم استطاع الملك الناصر محمد بن قلوون أن يستعيد ملكه ثانية، ويخرج ابن تيمية من محبسه ويستشيريه في قتل ابن مخلوف والمنبجي وغيرهم، فرفض ابن تيمية ورده عما هم به من البطش بهم. ومرت الأيام ثم حبسه الناصر الحبسة السابعة حتى مات في حبسه رَحِمَهُ اللهُ. وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٤٣/١٤).

هذه نيتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجاً لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زوراً والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخير في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإجابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

وقال^(٢): «إني قد أحللتُ السلطانَ الملكَ الناصرَ من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مُبلغه، والله يعلم أنه بخلافه، وقد أحللتُ كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدواً لله، ورسوله»^(٣).

ولما استشاره الملك الناصر محمد بن قلاوون في قتل القضاة الذين آذوه وكانوا قد أفتوا بقتله، وكان قد أخرج من جيبه فتاوى لبعضهم في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، قال ابن تيمية: «ففهمت مقصوده، وأنّ عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير. فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حلّ من حقي ومن جهتي، وسكنت ما عنده

(١) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٧١).

(٢) في سجنه الأخير.

(٣) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٨٢).

عليهم». فكان القاضي ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبْق مُمكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»^(١).

ومن كلامه النفيس جدًا فيمن آذوه، في رسالة كتبها لأصحابه رَحِمَهُ اللهُ: «فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلٍّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم وإلا فحكم الله نافذ فيهم. فلو كان الرجل مشكورًا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سببًا في هذه القضية؛ لما ترتب عليها من خير الدنيا والآخرة»^(٢)، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم»^(٣).

كَأَنَّ نَسِيمَ ذِكْرَاهُ سُحِيرًا نَسِيمَ الرُّوضِ تَقْبَلُهُ الْقُبُورُ
إِذَا وَافَى أَنْوَفَ الرِّكَبِ قَالُوا سَحِيقُ الْمَسْكِ أَمْ عِطْرُ مَهِيلُ
أَيَّاقِمَرِ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي أَبْنِي لِي كَيْفَ عَاجَلَكَ الْأَفُولُ

(١) العقود الدرية (ص: ٢٩٨).

(٢) أي: من كونهم سببًا في خلوته بالله تعالى وأنسه به، والتفكر في الآلاء، والتدبر في الآيات، والتأمل في الحياة وبعد الممات، بعيدًا عن الصوارف والمشغلات.

(٣) العقود الدرية (ص: ٢٨١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله تعالى ورضي عنه» (١).

وإن القبول في قلوب الناس منحة ربانية يهبها من يشاء من عباده الصالحين، ونحسب أن ابن تيمية منهم ولا نزكي على الله أحداً، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ؛ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلُ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» (٢).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٥).

(٢) البخاري ١٣٥/٤ (٣٢٠٩)، ومسلم ٤٠/٨ (٢٦٣٧) (١٥٧) وقوله: «وإذا أبغض..» الحديث، من زيادات مسلم. وأخرجه الترمذي (٣١٦١) مثل مسلم، وزاد: «فذاك قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿٦٦﴾ [مزيم:

وعن انس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مُرَّ بجنّازة، فَأُثْنِيَّ عليها خَيْرٌ، فقال النبي ﷺ: «وَجِبْتُ، وَجِبْتُ، وَجِبْتُ»، وَمُرَّ بجنّازة، فَأُثْنِيَّ عليها شَرًّا، فقال نبيُّ الله ﷺ: «وَجِبْتُ، وَجِبْتُ، وَجِبْتُ»، فقال عمر: فِدَى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بجنّازة فَأُثْنِيَّ عليها خَيْرٌ، فقلتَ: «وَجِبْتُ، وَجِبْتُ، وَجِبْتُ»، وَمُرَّ بجنّازة فَأُثْنِيَّ عليها شَرًّا، فقلتَ: «وَجِبْتُ، وَجِبْتُ، وَجِبْتُ»؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «من أثنيتُم عليه خَيْرًا وَجِبْتُ له الجنّة، ومن أثنيتُم عليه شَرًّا وَجِبْتُ له النار، أنتم شهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداءُ الله في الأرض»^(١).

وإنَّ عامّة الناس لا يُجاملون في العادة لا ثناء ولا ذمًّا، أنما يصنع ذلك من كان له غرضٌ وحظٌّ خاصٌّ، أمّا سواد الناس وهم الأعمّ الأغلب ممن يحيط بذلك الإنسان من قريب وبعيد فلا تخطئ أَلستهم إحدى هذه الثلاث: إما الثناء بخير، أو بشر، أو السكوت عنه، وعدم رفع الرأس بأمره.

فإنَّ بَسْطَ ألسنة المؤمنين بالثناء العامّ على إنسان هو محضُ الطّافِ ربّانية، يختصّ الله تعالى بها من شاء من صالحِي عباده، فهي من عاجلِ بشراه في حياته، ومن أسبابِ فلاحه في معاده بشهادة المؤمنين له بين يدي ربهم تبارك وتعالى، وعكسها عاجل عذابٍ بسببِ السُّمعة عيادًا بالله تعالى إن كان ثناء شَرًّا بحق، فقد يكون محض ابتلاء من الله تعالى ببهت بعض رؤوس الناس له فتتبعهم العامة بثناء الشّرّ، وإن كادت القلوب لا تكاد تتواردُ على بُغضه.

(١) البخاري ١٢١/٢ (١٣٦٧) ومسلم ٥٣/٣ (٩٤٩) (٦٠) واللفظ له.

فالسعيد من رحل عن الدنيا وقلوب المؤمنين له محبة وألستهم له عند الله شاهدة، فلا يستنطق القلوب بثناء الألسن إلا القبول العام، مِنَّةٌ من الله تعالى ورحمةٌ وكرامةٌ لعبده، وقبولٌ حسنٌ من لدنه، والعكس كذلك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأحسنُ الناسِ مَنْ للناسِ أنفعُهُم وأسوأُ الناسِ زهَّادُ بني رَحِمِ
وأصدقُ الصَّحْبِ مَنْ في العُسْرِ تبصرُهُ وأكذبُ الصَّحْبِ مَنْ في الضيقِ عنكَ عَمِ



الدعاء لرفع نازلة الدين

رأس مال المؤمن دينه وإيمانه وإسلامه، لذا فإن كانت البلية والرزية في الدين فلا ينبغي أن يكون تردّد أو خلاف في أمر الدعاء برفع تلك البلية، فما خلقنا إلا لإقامة الدين، وما لكسر قناة الدين جبراً، ولئن ساغ الرضا بمُرّ القضاء والمقدور في رزايا الأمور الدنيوية مع ترك الدعاء برفعه؛ فلا يسوغ ذلك بأي حال في بلاء الدين، لأنها ذنوب وخطيئات، والعبد مأمور بالاحتراز منها في الابتداء، وبالتخلص منها ومن أدرانها وآثارها إن التّطخّ بها، أما ما يفعله بعض الجهلة في انغماسهم في الرضا بالذنوب والردائل والخطايا زعماً بأنهم جارين مع الرضا بالقضاء، والسير مع القدر، وخلطوا بين الإرادتين الشرعية والكونية؛ فهذا محض الجهل، ودهليز الخرافة، وسابلة الضلال، ورشا الرقاب لحتوف الجحيم، وقد سبق الجواب عليه وكشف شبهاته فيما سبق.

إيرادٌ وجوابه: ورد حديثان بخصوص هذا الموضوع قد يُساء فهمهما وتنزيلهما على غير محلّهما، وهما حديثا المرأة التي كانت تُصرع والرجل الضرير. وقد يظنّ بعض الأفاضل أنّ فيهما فضيلة ترك الدعاء لرفع البلاء وليس كذلك؛ لأن دعوة الرسول ﷺ لهما في أمرهما هذا مستجابة، لإخباره لهما بذلك^(١)، فخرج بهذا الفارق عن مناهج مسألتنا، لأن الدعاء عبادة مستقلة

(١) مسألة: هل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كله مستجاب؟

=

الجواب: المسألة فيها تفصيل: فدعاء الثناء كله مُجاب - بمعنى الثواب - أما دعاء المسألة فهو على قسمين:

الأول: الإجابة العامة، بمعنى أن الله تعالى يستجيب دعاءهم كله بالمعنى العام، وهو أنه يعجل تحقيقها لهم، أو يؤخرها لحكمة، أو يدفع من البلاء بقدرها، أو يدّخرها أجراً وذخراً، فمن هذه الحثية كل دعاءهم مجاب لأنهم كُمل البشر، وأقومهم عبودية لله تعالى، وأحبّ الخلائق إلى الله سبحانه، وهم أدعى الناس للإتيان بشروط إجابة الدعاء واستكمال آدابه، مع قيامهم بحق الله تعالى وإقامة دينه، وقد وعد الله من هذا شأنه بالإجابة، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

الثاني: الإجابة الخاصة، بمعنى تحقيق المطلوب وتنجزه، فالأصل إجابة دعوتهم بتنجزها إلا لحكمة يريد بها الله تبارك وتعالى اقتضت ذلك، فليس بمضطرّد تحقيق ذلك، وإن كانوا هم أرجى الناس لتحقيق الله لهم ذلك، إلا ما خصّه الله لهم من ذلك، كما في شفاعته ﷺ لأمته يوم القيامة، قال ﷺ فيما رواه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (١٩٩) واللفظ له عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيّ دعوةٌ مستجابة، فتعجل كلُّ نبيّ دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»، وفي رواية: «لكل نبيّ دعوة دعا بها في أمته فاستجيب له، وإني أريد إن شاء الله أن أؤخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في المنهاج - وهو شرحه على مسلم - (٣ / ٧٥): «هذه الأحاديث يفسر بعضها بعضاً، ومعناها أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب. وذكر القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون المراد لكل نبي دعوة لأمته. وفي هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، ورأفته

=

=

بهم، واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخر النبي ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم.

وفي عمدة القاري (٣٣ / ٤٤): «فإن قلت: وقع للكثير من الأنبياء عليهم السلام من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا، وظاهره أن لكل نبي دعوة مجابة فقط. قلت: أوجب بأن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة. وقيل معنى قوله: «لكل نبي دعوة» أي: أفضل دعواته، وقيل: لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته إما بإهلاكهم وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب. قلت: لا يحسن أن يقال في حق نبي من الأنبياء أن يقال: من دعواته ما لا يُستجاب، والمعنى الذي يليق بحالهم أن يقال: من دعواتهم ما يستجاب في الحال، ومنها ما يؤخر إلى وقت أراد الله عز وجل أن يختبأ - أي أدخر - وجعلها خبيثة». أه.

قلت: ولو قال: أجابهم بالمعنى العام كان أصوب؛ لأن منها ما لم يستجب له مُنَجَّزًا ولا مُؤَخَّرًا. أي: بالإجابة الخاصة المُنَجَّزة، وإن كان قد استجاب له إن شاء الله الإجابة العامة ومنها الإثابة كدعائه ﷺ على أناس بأعيانهم فهداهم الله للإسلام - وسيأتي بإذن الله تعالى -.

وقال في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧ / ٦٨٣): «وقيل: معناه إن لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَ﴾ [مريم: ٥]، وقول سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] ص: ٣٥. حكاه ابن التين». أه.

وقد دلت السنة على هذا، فمن ذلك ما رواه البخاري (٤٢٣/٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث

=

مطلوبة بذاتها، ولم يرد في الشرع مشروعية تركها بحال، وليس في الحديثين أمرهما بترك الدعاء، هذا أوَّلاً. ثانياً: قد ترد خصوصية لكل منهما، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: حديث المرأة التي كانت تُصرَع:

عن عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السُّودَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَصْرَعُ، وَإِنِّي أَتُكْشَفُ، فَادْعَ اللَّهَ تَعَالَى لِي. قَالَ: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَعَافِيكَ» فَقَالَتْ: أَصْبِرْ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتُكْشَفُ فَادْعَ اللَّهَ أَلَا أَتُكْشَفُ، فَدَعَا لَهَا^(١). وفي الحديث تخيير

=

بن هشام» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٢٨]، وفي رواية الترمذي (٣٠٠٤) وصححه الألباني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللَّهُمَّ الْعَنِ أَبَا سَفْيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٢٨] فتاب عليهم فأسلموا، فحسن إسلامهم.

(١) البخاري ١٥٠/٧ و ١٥١ (٥٦٥٢) ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٦) وعند البخاري في رواية عن عطاء: «أنه رأى أم زفر تلك المرأة الطويلة السوداء على ستر الكعبة» وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦ / ٣٣٧٥) عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟» قال فأراني حبشية صفراء عظيمة، يقال: هذه شقيرة.

المرأة بين الصبر وضمان الجنة، وبين الدعاء لشفائها الناجز^(١)، فاختارت ما عند الله رضي الله عنها، وهذا الحديث ليس مما نحن بسبيله من عدم التعارض

(١) مباحث في الصرع:

الصرع - بتسكين الراء -: هو علة في الجهاز العصبي، تصحبها غيبوبة وتشنج في العضلات. وهو منقسم على الروح والجسد، فصرع الروح علته قوى خفية كتلبس الجن للمصروع، فيؤثر على الجسد فيصرعه. ودواء هذا النوع بالتوكل على الله تعالى وبالرقية والدعاء والاستغفار.

أما صرع الجسد فهو علة في الأعصاب لها أنواع سببها - بإذن الله تعالى - خلل في الجهاز العصبي، ودواء هذا النوع هو عين دواء النوع الأول مع زيادة أدوية الأطباء الحسية؛ كوخزات الكهرباء، أو بالأدوية والعقاقير المعتادة، ومع تقدم العلوم الطبية في مجال أمراض الدماغ والأعصاب عرفت أنواع عديدة من الصرع تعود إلى خلل في كهرباء الدماغ يؤثر في أعضاء البدن، ولها أدوية تنظم كهرباء الدماغ فتمنع الصرع بإذن الله. وكذلك لبعض أنواعه علاج بالجلسات النفسية أحياناً.

والصرع بنوعيه من جملة الابتلاء الإلهي كبقية الابتلاءات بالأمراض وغيرها التي تستوجب رجوعاً لله تعالى، وتعلقاً به سبحانه، وانطراحاً بين يديه، وانكساراً لعظمته، وتذللاً لعزته تبارك وتعالى، مع بذل الوسع في رفع البلاء بالدعاء دوماً، وباستحباب الدواء أحياناً.

وقد كثر خوض الناس في هذا الزمان في مسألة تلبس الجن بالإنسان، وهذه المسألة مبنية على أسس:

أولاهما: وجود الجن، فهذا أمر معلوم متيقن منه، ومُنكِرُ الجن كافرٌ لتكذيبه صريح القرآن والسنة المتواترة، فقد ذكرهم الله تعالى في آيات عديدة، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الدَّارِيَات: ٥٦]، بل أنزل سورة سميت باسمهم،

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن : ١]. وعدم رؤيتنا لهم لا ينفي وجودهم، فقد جعل الله لهم خاصية الاختفاء عن أعيننا، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُلْكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف : ٢٧]، وذكر سبحانه وتعالى أصل خلق الجن فقال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر : ٢٧]، وقال النبي ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ من نور، وَخُلِقَ الجانُّ من نار، وَخُلِقَ آدَمُ مما وُصف لكم»، رواه مسلم (٥٣١٤)

ولا يوجد في طوائف المسلمين من ينكر وجود الجن، بل حتى الكفار من اليهود والنصارى يؤمنون بوجودهم، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (١٠/١٨): «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم. وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين.. وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترا معلوماً بالاضطرار». وقال في الرد على المنطقيين (٤٧٠): «عامّة أساطين الفلاسفة كانوا يقرون بهذه الأشياء، وكذلك أئمة الأطباء كأبقراط وغيره يقرّ بالجن، ويجعل الصرع نوعين: صرعاً من الخلط، وصرعاً من الجن».

الثاني: دخول الجن لجسد الآدمي، ومنه التلبّس، فهذا ثابت، لكنه ليس كثبوت وجود الجن، وعليه من أنكر التلبّس فقد أخطأ وضلّ وكذب ما ثبت في الأدلة الشرعية والواقع المتكرر وجوده. ولكن لخفاء هذه المسألة لا يُكفّرُ المخالف فيها، ولكن يُخطأ ويضلل؛ لأنه لا يعتمد في إنكار ذلك على دليل، ولم يتعمّد تكذيب الوحي، وإنما يعتمد على عقله القاصر عن فهم كثير مما يحيط به في حياته، وهذا خذلان وضلال، مع أن العقل الصحيح لا يتعارض البتة مع النص الصحيح الصريح.

=

وقد ذكر تلبس الجان للإنسي في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا على هيئة المصروع المسوس. وقد جاء في السنة ذكر المس كذلك - وهو التلبس - فعند ابن ماجه (٢ / ١١٧٤) (٣٥٤٨) وصححه الألباني عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي! فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ابن أبي العاص؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «ما جاء بك؟» قلت: يا رسول الله، عرض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أصلي. قال: «ذاك الشيطان. ادنّه»، فدنوت منه، فجلستُ على صدور قدمي. قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال: «اخرج عدو الله!» ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «الحق بعملك». قال: فلعمري ما أحسبه خالطني بعد». وفي رواية: «فقلت: يا رسول الله، إن القرآن ينفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: «يا شيطان، اخرج من صدر عثمان». فما نسيت شيئاً أريد حفظه». أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥ / ٣٠٨)، وقال الألباني في السلسلة (٦ / ٩٩٩): إسناده صحيح.. وفي الحديث دلالة صريحة على أن الشيطان قد يتلبس الإنسان ويدخل فيه ولو كان مؤمناً صالحاً، وفي ذلك أحاديث كثيرة منها حديث يعلى بن مرة، وذكر فيه خبر أم الصبي التي اعترضت رسول الله ﷺ بابنها في سفره، وفيه: وأتته امرأة فقالت: إن ابني هذا به لم منذ سبع سنين يأخذه كل يوم مرتين، فقال رسول الله ﷺ: «أدنيه». فأدنته منه فتفل في فيه وقال: «اخرج عدو الله، أنا رسول الله». ثم قال لها رسول الله ﷺ: «إذا رجعنا؛ فأعلمينا ما صنع». فلما رجع رسول الله ﷺ؛ استقبلته ومعها كبشان وأقط وسمن، فقال لي رسول الله ﷺ: «خذ هذا الكبش فاتخذ منه ما أردت». فقالت: والذي أكرمك؛ ما رأينا به شيئاً منذ فارقتنا.. الحديث.

=

=

وفي الختام أقول: ليس غرضي مما تقدم إلا إثبات ما أثبتته الشرع من الأمور الغيبية، والرد على من ينكرها. ولكنني من جانب آخر أنكر أشد الإنكار على الذين يستغلون هذه العقيدة، ويتخذون استحضار الجن ومخاطبتهم مهنة لمعالجة المجانين والمصابين بالصرع، ويتخذون في ذلك من الوسائل التي تزيد على مجرد تلاوة القرآن مما لم ينزل الله به سلطاناً، كالضرب الشديد الذي قد يترتب عليه أحياناً قتل المصاب، كما وقع هنا في عمّان وفي مصر، مما صار حديث الجرائد والمجالس. لقد كان الذين يتولون القراءة على المصروعين أفراداً قليلين صالحين فيما مضى، فصاروا اليوم بالمئات، وفيهم بعض النسوة المتبرجات، فخرج الأمر عن كونه وسيلة شرعية لا يقوم بها إلا الأطباء عادة، إلى أمور ووسائل أخرى لا يعرفها الشرع ولا الطب معاً.. وقد ورد خبر آخر عن الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٥/٥) (٥٣١٤) في قصة الوازع، ولكن الخبر لا يثبت. أه. مختصراً.

وقد روى البخاري (٢٠٣٥) ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي»، فقالا: «سبحان الله يا رسول الله!» فقال ﷺ: «إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً، أو شيئاً». فدل هذا على وجود الجن في مسالك عروق الإنسان.

ومن الأدلة كذلك ما رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كَبَّرَ، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك»، ثم يقول: «الله أكبر كبيراً»، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من

=

=

همزه، ونفخه ونفته. رواه أبو داود (٧٧٥) وصححه الألباني. وقال في إرواء الغليل (٢ / ٥٦) بعد ذكر الروايات والشواهد: «وأما حديث أبي أمامة فلفظه: كان رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة من الليل كبر ثلاثاً، وسبح ثلاثاً، وهلل ثلاثاً، ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه وشركه»، وفي رواية: «ونفته» بدل «وشركه». أخرجه أحمد (٢٥٣/٥).. ثم استدركت حديثاً مرسلاً آخر، وفيه تفسير الألفاظ التي وردت في هذه الزيادة، وهو من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفته ونفخه»، قال: وكان رسول الله ﷺ يقول: «تعوذوا بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفته»، قالوا: يا رسول الله وما همزه ونفخه ونفته؟ قال: «أما همزه فهذه الموتة التي تأخذ بني آدم، وأما نفخه فالكبر، وأما نفته فالشعر». أخرجه أحمد (١٥٦/٦) بإسناد صحيح إلى أبي سلمة، وفيه رد على من أنكر من المعاصرين ورود هذا التفسير مرفوعاً.

وبالجملة؛ فهذه أحاديث خمسة مسندة، ومعها حديث الحسن البصري، وحديث أبي سلمة المرسلين إذا ضم بعضها إلى بعض قطع الواقف عليها بصحة هذه الزيادة، وثبتت نسبتها إلى النبي ﷺ، فعلى المصلي الإتيان بها اقتداء به ﷺ. وأما الزيادة الأخرى وهي «السميع العليم» فصحيحة أيضاً، وقد ورد فيها أحاديث. أه.

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «نفته: الشعر، ونفخه: الكبر، وهمزه: الموتة». قال ابن كثير (٦١/١): «فهمزه الموتة، وهو الخنق الذي هو الصرع». وقال ابن منظور (لسان العرب (٩٣/٢): «الموتة: جنس من الجنون والصرع، يعتري الإنسان فإذا فاق عاد إليه عقله». وقد ذكر القاضي أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١٠٨ - ١٠٩) أن الإمام أحمد بن حنبل كان يجلس في مسجده فأنفذ إليه الخليفة العباس المتوكل صاحباً له يعلمه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي

=

=

خشب بشارك من خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له، وقال له: «امض إلى دار أمير المؤمنين، وتجلس عند رأس الجارية وتقول له - يعني الجان - قال لك أحمد: أيّا أحب إليك: تخرج من هذه الجارية، أو تصنع بهذه النعل سبعين؟» فمضى إليه، وقال له مثل ما قال الإمام أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد ألا نقيم بالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخرج من الجارية وهدأت ورزقت أولادًا، فلما مات أحمد عاودها المارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المروزي وعرفه الحال، فأخذ المروزي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية، ولا أطيعك، ولا أقبل منك، أحمد بن حنبل أطاع الله، فأمرنا بطاعته.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قومًا يقولون: إن الجن لا يدخل في بدن المصروع من الإنس، فقال: «يا بني يكذبون، هو ذا يتكلم على لسانه». وانظر: مجموع الفتاوى (١٢/١٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الرد على المنطقيين» (٤٠٧): «إن دخول الجنى بدن الإنس، وتكلّمه على لسانه بأنواع الكلام وغير ذلك أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة..». وقد عالج ابن تيمية الإنسان المصروع بسبب الجنى مرات كثيرة، وحدّث عن نفسه في ذلك فقال: «كما قد فعلنا نحن هذا، وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين». وانظر: مجموع الفتاوى (١٩ / ٦٠) وبنحوه قال الحافظ ابن حجر، وقبلهما ابن حزم في كثير من أهل العلم.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في زاد المعاد (٦٦، ٧٠/٤): «الصَّرْعُ صرعان: صَرَعٌ من الأرواح الحبيثة الأرضية، وصَرَعٌ من الأخلاط الرديئة. والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه.

=

=

وأما صَرَعُ الأرواح، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به، ولا يدفعونه، ويعترفون بأنَّ علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك «أبقراط» في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة. وأما الصرع الذي يكون من الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج.

وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة، فأولئك يُنكرون صَرَعَ الأرواح، ولا يُقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحس والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها.. وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً، فمتى تخلّف أحدهما لم يُغنِ السلاح كثير طائل، فكيف إذا عُدِمَ الأمران جميعاً: يكون القلب خراباً من التوحيد، والتوكل، والتقوى، والتوجه، ولا سلاح له. والثاني: من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله: «اخرج منه»، أو بقول: «بسم الله»، أو بقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، والنبي ﷺ كان يقول: «اخرج عدو الله، أنا رسول الله».

وشاهدتُ شيخنا يُرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ: اخرجي، فإن هذا لا يحل لك، فيفريق المصروع، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب، فيفريق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن

=

=
وغيرنا منه ذلك مرارًا. وكان كثيرًا ما يقرأ في أذن المصروع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم، ومدّ بها صوته. قال: فأخذتُ له عصا، وضربتُ بها في عروق عنقه حتى كَلَّتْ يداي من الضرب، ولم يَشْكُ الحاضرون أنه يموتُ لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت: أنا أُحِبُّه، فقلتُ لها: هو لا يحبك. قالت: أنا أريد أن أُحَجَّ به. فقلتُ لها: هو لا يُريدُ أن يُحَجَّ مَعَكَ، فقالت: أنا أدعُهِ كَرَامَةً لَكَ، قال: قلتُ: لا ولكن طاعةً لله ولرسوله، قالتُ: فأنا أخرجُ منه، قال: فقَعَدَ المصروعُ يَلْتَفْتُ يمينًا وشمالًا، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ؟! قالوا له: وهذا الضربُ كُلُّه؟ فقال: وعلى أي شيء يَصْرِبُني الشيخ ولم أذنب، ولم يَشْعُرْ بأنه وقع به الضربُ البتة. وكان يعالجُ بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع، ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين.

وبالجملة؛ فهذا النوعُ من الصَّرْع، وعلاجه لا يُنكره إلا قليلُ الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثرُ تسلُّطِ الأرواح الخبيثة على أهلِهِ تكون من جهة قِلَّةِ دينهم، وخرابِ قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذِّكر، والتعاوِذ، والتحصُّنات النبوية والإيمانية، فتَلْقَى الروحُ الخبيثةُ الرجلَ أعزَلَ لا سلاح معه، وربما كان عُريَانًا فيؤثر فيه هذا. ولو كُشِفَ الغطاء، لرأيتَ أكثرَ النفوسِ البَشَرِيَّةِ صَرَعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسْرِها وقبضَتِها تسوقُها حيثُ شاءت، ولا يُمكنُها الامتناعُ عنها ولا مخالفتُها، وبها الصَّرْعُ الأعظمُ الذي لا يُفِيقُ صاحبه إلا عند المفارقة والمعاناة، فهناك يتحقَّقُ أنه كان هو المصروعَ حقيقةً، وبالله المستعان.

وعلاجُ هذا الصَّرْع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرُّسُل، وأن تكون الجنة والنارُ نُصَبَ عَيْنِهِ وَقِبْلَةَ قَلْبِهِ، ويستحضر أهل الدنيا، وحلول المُثُولَاتِ والآفاتِ بهم، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر، وهم صَرَعى لا يُفِيقون، وما

أشدّ داء هذا الصرع، ولكن لما عمّت البليّة به بحيث لا يرى إلا مصروعاً، لم يصّر مستغروباً ولا مستنكراً، بل صار لكثرة المصروعين عَيْنَ المستنكرِ المستغروبِ خلافه. فإذا أراد الله بعيد خيراً أفاق من هذه الصّركة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم، فمنهم مَنْ أطبق به الجنون، ومنهم مَنْ يُفَيّق أحياناً قليلة، ويعود إلى جنونه، ومنهم مَنْ يُفَيّق مرةً، ويُجَنُّ أخرى، فإذا أفاق عمِلَ عمِلَ أهل الإفاقة والعقل، ثم يُعاوِذه الصّرعُ فيقعُ في التخبّط».

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح رياض الصالحين (١ / ٤٠ - ٤١): «والصرع نعوذ بالله منه نوعان: صرع بسبب تشنج الأعصاب وهذا مرض عضوي يمكن أن يعالج من قبل الأطباء بإعطاء العقاقير التي تسكّنه أو تزيله بالمرّة. وقسم آخر بسبب الشياطين والجن، يتسلط الجنّي على الإنسي فيصرعه، ويدخل فيه، ويضرب به على الأرض، ويغمى عليه من شدة الصرع، وهذا النوع من الصرع له علاج يدفعه، وله علاج يرفعه. فهو نوعان:

أما دفعه فبأن يحرص الإنسان على الأوراد الشرعية الصباحية والمسائية، وهي معروفة في كتب أهل العلم، منها آية الكرسي فإن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح. ومنها سورة الإخلاص والفلق والناس، ومنها أحاديث عن الرسول ﷺ، فليحرص الإنسان عليها صباحاً ومساءً، فإن ذلك من أسباب دفع أذية الجن.

وأما الرفع فهو إذا وقع بالإنسان فإنه يقرأ عليه آيات من القرآن فيها تحويف وتذكير واستعاذة بالله عز وجل حتى يخرج». أه باختصار. وقد كتب في ذلك كتب ورسائل منها ما كتبه د. صالح الرقب بعنوان: الأدلة الشرعية في إثبات صرع الشيطان للإنسان، والرد على المنكرين.

بين الرضا والدعاء برفع البلاء، فظاهره خصوصية تلك المرأة بذلك، ومن ذا الذي يرفض هذا العرض الهائل بضمّان الجنة؟!

لذلك فقد يتوجّه القول بأن خبر هذه المرأة السوداء قضية عين من جهة البشارة إنّ وفّت الصبر، لا مطلق الثواب لمن فعل مثلها، وكذلك الحال للضرير، بدليل خطابها المباشر بالوعد بالجنة مع وجود أصحاب عاهات وعلل وعمى في المدينة، ولم يرد أنه وعدهم بخصوصهم بذلك، مع احتمال أنّ ذلك بسبب أنهم لم يطلبوا دعاء ﷺ لشفائهم، وفضل الله واسع بكل حال.

وقد يكون لهذه المرأة خبيئة صالحة رضي الله عنها بها فكافأها بعاجل بشرائها بالجنة على لسان رسوله ﷺ إنّ وفّت ما تبقى من عهد الصلاح بالصبر على البلاء، فخصوصيتها إنما هي عاجل البشارة، أما ترتيب الثواب فالأظهر عمومته لكل من صبر على مثل بلائها لله، فإنّ الأصل أن خطابه صلى الله عليه وسلم لأحاد أمته على جهة التشريع هو خطاب لكل أمته إلا بمُخصّص يُخرج ما عداها، ولم يرد المخصّص هنا بحمد الله وكرمه وفضله وامتنانه، فبقي الأمر على جادة العموم بفضل الله تعالى.

وعليه؛ فترك التداوي لمن علم من نفسه تمام الصبر والرضا خير من التداوي، إلّا إن ترتب عليه فوات فضائل إيمانية أرجح من ذلك، وبخاصة ما تعدّى نفعه كالقيام على العيال، أو الجهاد في سبيل الله بالعلم والقتال والدعوة والإغاثة ونحو ذلك. وعلى المتداوي وتارك الدواء الدعاء بكشف البلاء إن كان في كشفه خيراً. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على حديث المرأة السوداء: «وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي، وأنّ علاج

الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا»^(١).

وعليه؛ فترك الدعاء غير داخل هنا بالمرّة، إنما قصّاره ترك التداوي للصابر. وعلى هذا فيستقيم لنا القول: إن الدعاء برفع البلاء هو الأصل في الدين، وهو جادة المرسلين، ولا يُشرع تركه بحال.

أما من قال: إني دائر مع قضاء ربي، ولن أسأله رفع بلاء اختاره لي، قلنا له: إن من ابتلاك هو من أمرك بدعائه، والضراعة إليه، والانكسار بين يديه، والافتقار التام إليه في آيات كثيرة من كتابه، ولست بخير ولا أكمل تفويضاً وحسن عبادة وكمال تعلق من نبينا ﷺ والمرسلين من قبله، وقد كانوا يدعون الله تعالى برفع البلاء وكشف الضراء وإسبال العافية في الدين والدنيا.

واعلم أن من أعظم حكم البلاء إدمان دعاء من يفرح بعبده إذا دعاه، ويغضب عليه إن ترك سؤاله، قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال نبيه ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه»^(٢).

والدعاء برفع البلاء كالمرض، أو الفقر، أو الحبس، أو المظلمة ونحو ذلك لا يחדش التوكل، ولا يمنع كمال التعلق، إنما الكلام في ترك بعض

(١) زاد المعاد (٤ / ٧١)

(٢) أحمد (٩٧٠١)، ومسنند أبي يعلى (٦٦٥٥) وحسنه حسين سليم أسد، والترمذي (٥ / ٤٥٦) وحسنه الألباني.

الأسباب الظاهرة كالدواء للمريض، وطلبِ المعونة لرفع مظلمة، ونحو ذلك، تعلّقًا بالمُسبّب سبحانه؛ فهذا هو الفاضل لمن غلب على ظنّه عظيم الصبر على ذلك البلاء وواسع الرضا به، عبادةً لله تعالى، وتلذُّدًا بالصبر في ذاته سبحانه، وبالرضا والحمد والشكر له. وقد كان الحنيف عليه السلام يدعو ربه، ويخبر بأنه الشافي وحده، مُخْلِصًا دينه له: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشّعراء : ٨٠].

ففضيلة الترك للكُمل هو تركهم أسبابًا ظاهرة تعلّقًا بالمُسبّب سبحانه، وليس بترك دعائه أن يكشف البلاء عنهم، لأنّ الدعاء - وهو أعظم الأسباب مع التوكل - مقصودٌ لذاته، أما الأسباب الظاهرة فوسيلة دنيا لا غير. فافترقا من هنا، وعليه: فادع الله بكل أحوالك لرفع كل أدوائك وابتلاءاتك، وبالله التوفيق، والله أعلم.

قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ بعد إيراد حديث المرأة السوداء: «وفيه: فيه فضل الصرع، وفيه أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه أنه يطيق التهادي على الشدة ولا يضعف عن التزامها»^(١). وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحديث أن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة، وفيه دليل على ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك

(١) شرح صحيح البخاري (٩ / ٣٧٦) كذلك ذكره العيني في عمدة القاري (٣١ / ٢٥٤).

وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، ولكن إنما ينجع بأمرين: أحدهما من جهة العليل وهو صدق القصد، والآخر من جهة المداوي وهو قوة توجهه وقوة قلبه بالتقوى والتوكل»^(١).

وتأمل حال أيوب عليه السلام، فإنه صبر ورضي طويلاً حتى إذا بلغ به الأمر دعا: ﴿أَنِّي مَسْنَى الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فالعبد دائرٌ في رَحَى العبودية، فإن غلب على ظنه صلاح حاله بالعافية، وقوّته على العبادات، وانشرح صدره بالذكر ونحو ذلك فليدع بخصوص أمره وكشف ضره وبتفويض الخيرة لله تعالى له، وإن غلب على ظنه تلذذه بالصبر والرضا والحمد والشكر فليلزمه طاقته، وليسأل ربه العافية بكل حال، فإن ضَعُفَ لعارضٍ أو طول مدى فليدع ربه، فكلّا الأمرين خير وبرّ وعبادة، والعافية مع الشكر سبيلٌ عظيم للجنة، كما أنّ الصبر والرضا سبيلان لها أيضاً، وكلها مجتمعة في الأمر الواحد للمؤمن الواحد إن وفقه الله تعالى لفقهها والعمل بمقتضاها. ونبينا ﷺ يقول: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

(١) فتح الباري (١٠/١٤٣).

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

ثانيًا: حديث الضَّير: وقد رواه أحمد وغيره^(١) عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَاكَ، فَهُوَ خَيْرٌ». وفي رواية: «وإن شئت صبرت

(١) المسند (١٧٢٤٠) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصححه الألباني في التوسل (١ / ٦٩) وقال: ورواه الترمذي (٤ / ٢٨١ - ٢٨٢ بشرح التحفة) وابن ماجه (١ / ٤١٨) والطبراني في الكبير (٣ / ٢ / ٢) والحاكم (١ / ٣١٣) كلهم من طريق عثمان بن عمر: أن شعبة عن أبي جعفر المدني قال: سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان به. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب» وفي ابن ماجه عقبه: «قال أبو إسحاق: حديث صحيح». ثم رواه أحمد: ثنا شعبة به. وفيه الرواية الأخرى، وتابعه محمد بن جعفر ثنا شعبة به. رواه الحاكم (١ / ٥١٩) وقال: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي. وقد أعلّه بعضهم كصاحب (صيانة الإنسان) وصاحب (تطهير الجنان ص: ٣٧) وغيرهما بأن في إسناده أبا جعفر، قال الترمذي: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وليس الخطمي». فقالوا: هو إذن الرازي، وهو صدوق، ولكنه سيء الحفظ.

قلت: ولكن هذا مدفوع بأن الصواب أنه الخطمي نفسه. وهكذا نسبه أحمد في رواية له (٤ / ١٣٨) وسماه في أخرى: (أبا جعفر المدني) وكذلك سماه الحاكم والخطمي هذا - لا الرازي - هو المدني، وقد ورد هكذا في (المعجم الصغير) للطبراني، وفي طبعة بولاق من سنن الترمذي أيضًا. ويؤكد ذلك بشكل قاطع أن الخطمي هذا هو الذي يروي عن عمارة بن خزيمة، ويروي عنه شعبة كما في إسناده هنا وهو صدوق، وعلى هذا فالإسناد جيد لا شبهة فيه. أه

قلت: وقد رجح شيخ الإسلام الإمام الناقد أبو العباس ابن تيمية أن أبا جعفر هو الخطمي لا الرازي في مجموع الفتاوى (١ / ٢٦٦)

فهو خير لك». فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني توجّعت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم شفّعه في» (١).

(١) مباحث في التوسّل:

تنبيه مهم: يتشبث الخرافيون والقبوريون بهذا الحديث زعمًا أن فيه دليلًا على مشروعية التوسل الشركي الذي يقوم عليه بنیان طرائقهم. وقد تكلم العلماء في كشف شبهتهم، وهتك تلبسهم، وبطلان تعلقهم بها وهموه. ومن تكلموا في ذلك ابن تيمية في الرد على البكري، وفي قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، وابن عبد الهادي في الصارم المُنكي - وهو نفيس جدًا في هدم شبه القبورين بعامة - وحمد بن ناصر آل معمر في الرد على القبوريين، وسليمان بن سحمان في الصواعق المرسلة الشهابية، وعبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين في تأسيس التقديس في كشف تلبس داود بن جرجيس، ومحمد نسيب الرفاعي في التوصل إلى حقيقة التوسل، والألباني في التوسل أنواعه وأحكامه، وغيرهم كثير، وسنلخص بعض ما كتبه لعظيم البليّة على من تعلّق به في شركه مما لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله ﷺ، فالله تعالى قد أمر بالتوسل المشروع لا الممنوع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد روى الترمذي حديثًا صحيحًا عن النبي ﷺ أنه علّم رجلًا يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللهم شفّعه في».. فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء.

فمن الناس من يقول: هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقًا حيًّا أو ميتًا... وقول هؤلاء باطل شرعًا وقدرًا، فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله.

=

ومن الناس من يقولون: هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها، والفرق ثابت شرعاً وقدرًا بين من دعا له النبي ﷺ وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يُجعل أحدهما كالآخر.

وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ؛ فلهذا قال في دعائه: «اللهم فشفعه في»، فعلم أنه شفيع فيه، ولفظه: «إن شئت صبرت، وإن شئت دعوتُ لك» فقال: ادع لي. فهو طلب من النبي ﷺ أن يدعوا له، فأمره النبي ﷺ أن يصلي ويدعو هو أيضًا لنفسه ويقول في دعائه: «اللهم شفّعه في»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد» أي: بدعائه وشفاعته، كما قال عمر: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توصلنا إليك بنبيك فتسقينا».

فالحديثان معناه واحد: فهو ﷺ علّم رجلاً أن يتوسل به في حياته كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجذبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلاً عنه.

فلو كان التوسل به حيّاً وميتاً سواء، والمتوسّل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول؛ لم يعدلوا عن التوسل به، وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليهم وسيلة، إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله.

وكذلك لو كان الأعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدوهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت الضرورة ومخمصة وجذب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلّكوه دون ما تركوه.

=

=

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حيًا هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم وهذا مشروع، فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم، وأما بعد موته فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء لا عند قبره ولا عند غير قبره، كما يفعل كثير من الناس عند قبور الصالحين، يسأل أحدهم الميت حاجته، أو يقسم على الله به ونحو ذلك». أه. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١ / ٣٢٥) مختصرًا. وانظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١ / ٥٢٨).

وقال رحمه الله في الاقتضاء: «وقوله: «يا محمد، يا نبي الله» هذا وأمثاله نداء يُطلب به استحضار المنادي في القلب فيُخاطَبُ لشهوده بالقلب، كما يقول المصلي: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا يخاطب من يتصوره في نفسه إن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة، فيُراد به التسبب به لكونه داعيًا وشافعًا مثلاً، أو لكون الداعي محببًا له - أي لرسول الله ﷺ - مطيعًا لأمره مقتديًا به. فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته». أه. اقتضاء الصراط (١ / ٤١٥ - ٤١٦) وانظر أيضًا: الاستغاثة، وتسمى كذلك: الرد على البكري (١ / ١١٤) قلت: ومن شواهد استحضار الغائب في القلب بلا عبادة قول الشاعر:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب
وقال الألباني رحمه الله في التوسل: «يرى المخالفون أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرًا.

=

=

وأما نحن فنرى أن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع الذي أسلفناه، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه. والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة وأهمها:

أولاً: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له وذلك قوله: «ادع الله أن يعافيني»، فهو قد توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره. ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جأه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: «اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني وتجعلني بصيراً». ولكنه لم يفعل. لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة يذكر فيها اسم المتوسل به، بل لا بد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له.

ثانياً: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: «إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك». وهذا الأمر الثاني هو ما أشار إليه ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيتيه - أي عينيه - فصبر؛ عوضته منهما الجنة». رواه البخاري (٥٦٥٣)

ثالثاً: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: «فادع»، فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خير من وفي بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصر عليه، فإذن لا بد أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد.

وقد وجه النبي ﷺ الأعمى - بدافع من رحمته وبحرص منه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه - إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع

=

=

له الخير من أطرافه. فأمره أن يتوضأ، ويصلي ركعتين، ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له، وهي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله سبحانه وتعالى وقربة إليه ليكون الأمر مكتملاً من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى. وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء - كما هو ظاهر - وليس فيها ذكر شيء مما يزعمون.

رابعاً: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: «اللهم فشفعني في»، وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ أو جاهه أو حقه، إذ أن المعنى: اللهم أقبل شفاعته ﷺ في، أي اقبل دعاءه في أن ترد علي بصري. والشفاعة لغة: الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخص من الدعاء، إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمراً فيكون أحدهما شافعاً للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره.

خامساً: إن مما علم النبي ﷺ الأعمى أن يقوله: «وشفعني فيه» أي اقبل شفاعتي - أي دعائي - في أن تقبل شفاعته ﷺ - أي دعاءه - في أن ترد علي بصري. هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه، وهذه الجملة صحت في الحديث أخرجها أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وهي وحدها حجة قاطعة على أن حمل الحديث على التوسل بالذات باطل.

سادساً: إن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ.

=

=

إذا تبين للقارئ الكريم ما أوردناه من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول التوسل بدعائه ﷺ، وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذات؛ فحيث يتبين له أن قول الأعمى في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتُوسَلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ» إنما المراد به: أتوسل إليك بدعاء نبيك أي: على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يُوسُف: ٨٢] أي أهل القرية وأصحاب العير. ونحن ومخالفونا متفقون على ذلك، أي على تقدير مضاف محذوف، وهو مثل ما رأينا في دعاء عمر وتوسله بالعباس، «إني أتوجه إليك بـ(دعاء) نبيك»، و«يا محمد إني توجهت بـ(دعاء) لك إلى ربي». فأما تقديرهم (بجاهه) فليس لهم عليه دليل لا من هذا الحديث ولا من غيره، إذ ليس في سباق الكلام ولا سياقه تصريح أو إشارة إلى لذكر الجاه أو ما يدل عليه إطلاقاً، كما أنه ليس عندهم شيء من القرآن أو من السنة أو من فعل الصحابة يدل على التوسل بالجاه، فبقي تقديرهم من غير مرجح فسقط من الاعتبار، والحمد لله.

وثمة أمر آخر جدير بالذكر وهو أنه لو حُمل حديث الضرير على التوسل بالذات لكان معطلاً لقوله فيما بعده: «اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِي، وَشَفِّعْنِي فِيهِ» وهذا لا يجوز كما لا يخفى، فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها. وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء، فثبت المراد وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات، والحمد لله. أهـ.

التوسل للألباني (١ / ٧٠ - ٧٦) مختصراً.

وقال عبد الرحمن دمشقية: «.. وقبول الشفاعة أي قبول الدعاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة كلهم يشفعون له إلا شفّعوا فيه». رواه مسلم (٩٤٧) فمعنى «شفّعهم الله فيه» أي قبل دعائهم له. فيكون معنى «شفّعني فيه» أي اقبل دعائي بأن تستجيب دعاءه.

=

=

ومن الصحابة من أصيبوا بالعمى بعد مماته كابن عباس وابن عمر، ولم يُعهد أنهم استعملوا هذا الدعاء، بل تركوا التوسل به، فهذه جادتهم. وهكذا فهم الصحابة التوسل، فقد تركوا التوسل به إجماعاً، كما في قصة عمر يوم أجذبوا وسألوا الله بدعاء عمه العباس. وانظر: جلاء العينين (٤٥٥).

فقوله: «يا محمد إني توجّهت بك إلى ربي» أي أتوجّه بدعائك الذي وعدتني به حين قلت: «إن شئت دعوت لك». وهذا ما فعله الرجل، فإنه توجه إلى النبي وطلب منه أن يدعو له. فهو يُشهد الله أنه توجه إلى نبيه، وذهب إليه ليسأل الله له، وكأنه يقدم هذه الشهادة بين يدي سؤاله ربه، ومثل هذا كثير في الدعاء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِأَنَّكَ تَاجِرُ فَتَغْفِرْ لَنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وتقديم أصحاب الغار عملهم الصالح بين يدي دعائهم لله. وهذا التوجه هو حكاية حال، يحكي فيه أنه توجه وذهب إلى النبي ﷺ فطلب منه أن يدعو ربه. ولم يسأله في غيابه كما يفعل أهل البدع.

وهؤلاء يفهمون من قوله ﷺ: «إِنَّ الْمِيضَاءَ» وكأن معناه عندهم: اذهب إلى بيتك! ولم لا تكون الميضأة قريبة منه ﷺ كما يفهم من سياق الرواية، وليس هناك دليل على أن الأعمى ذهب إلى مكان آخر وصلى ثم دعا بهذا الدعاء؟! وبتقدير أن يكون كلامه من بعيد. فيكون التوجه خطاباً لحاضر في قلبه وليس استغاثة، كما نقول في صلواتنا: «السلام عليك أيها النبي»، وكما يقول أحدنا اليوم: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله»، وكما قالت فاطمة حين مات ﷺ: «وا أبتاه: أجب رباً دعاه». ودليل ذلك قوله في نهاية الدعاء: «اللهم فشفعه في» أي اقبل دعاءه في.

وقوله: «يا محمد»: ليس دعاء، وإنما هو تكلم مع حي حاضر. بدليل أن الأعمى لم يستغث بالنبي من بعد. وبدليل أن الصحابة لم يفعلوا، ولم يكونوا يخاطبون النبي بقولهم: يا محمد. بل الثابت عدول عمر عن قبر النبي ﷺ وتوسله بالعباس رضي الله عنهما.

=

=

فأما التوجه الذي يفهمه الأحباش أي التوجه إلى النبي ﷺ إلى جهة قبره بعد موته كما علمهم محمد بن حسن الصيادي الرفاعي: أن من أصابته ضراء فليتوجه نحو قبر الرفاعي ويخطو ثلاث خطوات ويسأله حاجته (قلادة الجواهر ٤٣٤ و ٢٣٩). فهذا من سنن النصارى.

أما سنة نبينا فقد كان ﷺ يستقبل القبلة في دعائه، ويسأل الله وحده، وكان يقول في دعاء الاستفتاح في الصلاة: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». رواه مسلم (٧٧١) فالتوجه إلى الله بالدعاء هو الملة الحنيفية، ودعوتكم الناس إلى التوجه إلى مقابر الأنبياء والأولياء هو ملة الشرك.

فإنه توجه بدعاء النبي ﷺ. وهذا ما حدث حقاً. فقد توجه إلى النبي ﷺ ليدعوه له فوعده بذلك. ولذلك قال في آخر دعائه: «اللَّهُمَّ فَشْفَعْنِي فِي»، أي اللهم اقبل دعاءه في. والرجل يحكي ما فعله، وليس في صيغة كلامه ما يستدل به على جواز قول المشركين: «شيء لله يا رسول الله!» والدليل على ذلك أن ننظر: ماذا قال الأعمى بعد قوله «يا محمد»، هل قال: أغثني أعد إلي بصري؟ لقد قال: «يا محمد» لكنه لم يسأله، وأنتم إذا قلتم: «يا محمد» تقولون: أغثنا أمدنا بإمدادك، تعطف تكرّم تحنّ علينا بنظرة! فإن كان سأل بعد قوله: «يا محمد» فقد قامت حجتكم، وإن كان لم يسأله فقد قامت الحجة عليكم. فالحديث حجة عليكم لا لكم.

وليس كل خطاب لغير الحاضر استغاثة به، وإلا فقد خاطب عمر بن الخطاب الحجر الأسود قائلاً: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك». رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠). أه. أحاديث يحتج بها الشيعة (١ / ١٠٦ - ١١٠) باختصار. وانظر: غاية الأمانى للألوسي، والتوصل إلى

=

وقد عَلَّمَ ﷺ أَنَّ دعاءه للمرأة وللضير مستجاب؛ لكنه أرشدهما إلى خيرٍ لهما من ذلك وهو الصبر على البلاء، على رجاء أن يعوّض الله صاحبه ما هو خير وأبقى جنةً عرضها السماوات والأرض، فأخذت بإرشاده المرأة، واستعجل الرجل بُشراه، فطلب الدعاء بكشف البلاء، فكان لهما ما طلبا. ولا يعني ذلك أن يترك العبد الدعاء لنفسه لكشف البلاء؛ فإن الدعاء بذاته مستوجبٌ للأجر والثواب سواء رُفع البلاء أو بقي؛ لقوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١).

ولا يظهر أنَّ الأمر بالصبر مع بقاء البلاء في هذا الحديث مخصوص بذلك الرجل فيكون قضية عين، ولكن ربّما يكون مخصوصًا بجملة العُميان للفضيلة الخاصة بالصبر على فقد البصر، فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيتيه^(٢) فصبر عوّضته منهما الجنة»^(٣).

وهذا الفضل الخاص هو ما أشار إليه ﷺ بقوله في حديث الضير: «وإن شئت صبرتَ فهو خير لك». فقد يكون العمى مخصوصًا بهذا الحديث، والأمر

=

حقيقة التوسل (١ / ١٣٧) وما بعدها. وشرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١ / ١٢٠٩ - ١٢١١).

(١) أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وصححه الألباني.

(٢) أي: عينيه.

(٣) البخاري ١٥١/٧ (٥٦٥٣) من حديث أنس.

محتمل. وقد لا يكون مُخَصَّصًا أصلاً وهو الأظهر لعدم الدليل القاطع الصارف للتخصيص، وبكل حال فليس في الحديث توجيه للأعمى بترك الدعاء، فاتسق بذلك مع ما سواه من الأحاديث الدالة على فضيلة الحُسنيين حسنة الرضا وحسنة الدعاء، وبالله التوفيق.

وبعد؛ فمن الحسن الآن تبيان التوسل المشروع من الممنوع، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥]، قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه».

والتوسل المشروع هو الذي أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، وعمل به الصحابة، وله أنواع عديدة أهمها:

١. التوسل بالإيمان: قال تعالى يحكي توسل عباده بإيمانهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣].

٢. التوسل بتوحيد الله تعالى: كدعاء يونس عليه السلام حين ابتلعه الحوت: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [٨٨] [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨].

٣. التوسل بأسماء الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠]. ومن دعاء الرسول ﷺ قوله: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ» (١).

٤. التوسل بصفات الله تعالى: كقوله ﷺ: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» (٢).

٥. التوسل بالأعمال الصالحة: كالصلاة وبر الوالدين وحفظ الحقوق والأمانة والصدقة والذكر وتلاوة القرآن والصلاة على النبي ﷺ، وحبنا له ولأصحابه... وغيرها من الأعمال الصالحة، فقد ثبت في صحيح مسلم قصة أصحاب الغار الذين حُبسوا فيه، فتوسّلوا إلى الله بحفظ حقّ الأجير والإحسان للوالدين وعفاف الفرج؛ ففرّج الله عنهم.

٦. التوسل إلى الله بترك المعاصي: وقد توسّل أحد أصحاب الغار الذين حُبسوا فيه بتركه الزنا ففرّج الله عنه.

وبعض المسلمين - هداهم الله - تركوا العمل الصالح والتوسل به، ولجؤوا إلى التوسل بأعمال غيرهم من الأموات، مخالفين هدي الرسول ﷺ. أما التوسل الممنوع فهو الذي لا أصل له في الدين، فيأتي على أنواع:

(١) أحمد (٤٣١٨) وصححه الألباني في السلسلة (١٩٩).

(٢) الترمذي (٢٧٩٦) وحسنه الألباني.

التوسل بالأموات: وطلب الحاجات منهم، والاستعانة بهم، كما هو واقع اليوم من الجهلة، ويسمون شركهم تقرّبا، ووثنيّتهم توسّلا، وليس كذلك، لأن التوسل المشروع هو الطلب من الله بواسطة مشروعة كالإيمان والعمل الصالح وأسماء الله الحسنى، أما دعاء الأموات فهو إعراض عن الله تعالى، وهو من الشرك الأكبر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، والظالمون هنا هم المشركون. ومن توسّل بالأموات فدعاهم لكشف الكربات فقد أشرك وخرج من ربقة الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

١- **التوسل بجاه الرسول ﷺ:** كقول بعضهم: «يا رب، بجاه محمد اشفني» فقوله هذا بدعة وضلالة وإحداث في الدين وذنب يستحق عليه المؤاخذة إن لم يتب منه، وليس بمُخرج من الملة؛ لأنه أخلص الدعاء لله، لكنه ابتدع في دين الله ما لم يأذن به الله من التوسل إلى الله تعالى بجاه مخلوق. والصحابة لم يفعلوه، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توسل بالعباس حيّا بدعائه ولم يتوسل بالرسول ﷺ بعد موته عندما طلب نزول المطر، أما حديث: «توسّلوا بجاهي» فهو باطل لا أصل له كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. وهذا التوسل

البدعي قد يؤدي للشرك، وذلك إذا اعتقد أن الله محتاج لواسطة كالأمير والحاكم، لأنه شبه الخالق بال مخلوق^(١).

وما أعظم الإخلاص وأحسن طيبات الخبايا، قال المروزي رحمه الله: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له»^(٢). نسأل الله حُسنَ المعتقد، وسلامةَ العمل، وسدادَ الاتِّباع، وصلاحَ الدين، وإخلاصَ النية، وحُسنَ الختام، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَلَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٣] [الأنعام : ١٥٣].



(١) انظر: منهاج الفرقة الناجية (١ / ٤٤ - ٤٨). وانظر كلام شيخ الإسلام في ذلك في الرد على البكري (١ / ٢٦٦) وقاعدة جلية في التوسل والوسيلة (٢ / ٢٨٠) ومجموع الفتاوى (١ / ٣٢٣).

(٢) صفوة الصفوة (٤ / ١٤٥، ١٤٦).

حكمُ التداوي، وهل يقدرُ في الرضا؟

الأصل في التداوي الجواز، وقد يكتنفه ما يحيله إلى الوجوب، أو الاستحباب، أو الكراهة، أو التحريم. ولا يقدرُ التداوي في الرضا إلا بما يقدره في التوكل؛ كالاكتفاء بالقلب على السبب دون المُسبّب سبحانه، وكالتداوي بمكروه كالكيّ، وإلا فالأصل أنّ التداوي ليس بقادرٍ لأنّه من تناول الأسباب التي أباحها الله، وبما أنها مأذونة شرعاً فهي غير قاذحة شرعاً، ولا بمنزلةٍ صاحبها من تمام الرضا وكمالهِ بإذن الله، وإن كان الأكمل لمن وثق بقلبه تركه، لصحة ما ورد في ذلك عن رسول الله ﷺ أولاً، ولأن العادة في الأسباب جارية على أن دفع الداء بالأدوية دون مرتبة دفع الجوع والعطش بالطعام والشراب، كما قد يترتب على الدواء ضرر في نفس المرض أو غيره، وقد يصاحبه نقصٌ في التوكل واليقين والرضا ونحو ذلك بسبب ضعف القلب أمام واردات آلام الأدوية ورجاء الأسباب المادية المشروعة للشفاء، ولأن ترك الاستشفاء بالأدوية - خلا النبويّة - فيه مزيد اعتماد وتفويض ورضا بتدبير الله تعالى.

بيان ذلك: أنّ الاستشفاء هو من قبيل جلب المصلح للبدن ودفع المفسد بإذن الله، وهو في ذلك يجري مجرى الطعام والشراب والاستدفاء ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بحفظ البدن فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقد كان من هديه ﷺ التداوي في نفسه، والأمر لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ومن أدلة ذلك قوله ﷺ: «ما أنزل الله من

داء إلا أنزل له شفاء، عَلِمَهُ من علمه وجهله من جهله»^(١). وقال عليه السلام: «لكل داء دواء، فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءِ برأ»^(٢) بإذن الله»^(٣). وعند أحمد: «فإذا أصبت دواءَ الداءِ، برأ بإذن الله تعالى»^(٤).

لذلك فلا يخرج من هذا العموم أي مرض حتى الإيدز والسرطان والكورونا ونحوها، ولكن علاجها لا زال في طيّ علم علام الغيوب سبحانه، فإذا أذن لعباده أن يعلموه يسّر لهم أسباب ذلك. وقال ابن القيم على الحديث الأنف: «فيه تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على طلب ذلك الدواء،

(١) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «عَلِمَهُ من علمه...» فإنها عند أحمد (٢٧٨ / ٤) وحسنه محققوه، والحاكم (١٩٦ / ٤).

(٢) قال ابن الملك في شرح المصابيح (٩١ / ٥): «برأ: بفتحين، يقال: برأت من المرض أبرأ برءاً بالفتح، فأنا بارئ، وأبرأني الله منه، وعن أهل الحجاز: برئت بالكسر، برءاً بالضم».

(٣) مسلم (٢٢٠٤) قوله: «فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءِ» أي إذا أصاب المريض الدواء المناسب شُفي بإذن الله تعالى، وفيه إشارة إلى أهمية دقة التشخيص للمرض، وحسن اختيار الدواء المناسب، من حيث النوع والكم، وتقصي أقل الأعراض الجانبية حدوثاً. قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٣٥٧ / ٩): «فإذا أصاب المريض دواء الداء المناسب له، سواء أصابه بتجربة أو أخبار عارف، واستعمله على القدر الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي؛ برأ بإذن الله تعالى، لأن الشيء يُداوى بضده غالباً، لكن قد تدق حقيقة المرض وحقيقة طبع الدواء، فيقلّ الفقه بالمتضادين، ومن ثم أخطأ الأطباء، فمتى كان مانعاً بخطأ أو غيره؛ تخلف البرء، فإن تمت المضادة حصل البرء، فصحت الكلية واندفع التدافع، وهذا أحد محملي الحديث».

(٤) المسند (١٤٥٩٧) وقال محققوه: حديث صحيح، إسناده على شرط مسلم.

والتفتيش عليه»^(١). وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «هذه كلمة صادقة العموم؛ لأنها خبر عن الصادق عن الخالق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الملك: ١٤، فالداء والدواء خلقه، والشفاء والهلاك فعله، وربط الأسباب بالمسببات حكمته وحكمه، وكل ذلك بقدر لا معدول عنه»^(٢).

وعن أسامة بن شريك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب^(٣) فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد» قالوا: ما هو؟ قال: «الهَرَم»^(٤).

قلت: فعاد الأمر بجملته إلى حال المرض والمريض ونوع الدواء، ويختلف الأمر من شخص لآخر ومن حال لآخر حتى لنفس الإنسان. فإن وثق بيقينه وتوكله وحسن ظنه بربه وثقته به وعظيم صبره ورضاه وعدم انتقاص أمور دينه، واكتفى برقيته على نفسه، وتلذذ بالرضا بمُرّ القضاء؛ فالأفضل له ترك التداوي الحِسِّي إلا من زمزم والعسل والحبة السوداء ونحو ذلك مما جاء في

(١) الزاد (١٧ / ٤).

(٢) عن: فيض القدير للمناوي (٥ / ٣٦١).

(٣) وقد كان الصحابة يفرحون بهم ليتعلموا من أجوبة رسول الله ﷺ لهم، وفي هذا بيان جمال خلق الصحابة مع نبيهم ﷺ، وهيبته لهم، وتوقيره، رضوان الله عليهم.

(٤) أحمد (٤ / ٢٧٨) وأبو داود (٣٨٥٧) وصححه الألباني. وأخرجه الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه ابن حبان في الموارد (١٣٩٥) والبوصيري في الزوائد (١٩٢٤) وصححه الألباني.

الوحي الإرشاد إليه. وعليه؛ فتركه للتداوي غير النبوي أفضل تسليماً ورضاً. أما من لم يجتمع له ذلك فالتداوي في حقه أكد، ولا يسع أكثر الناس إلا ذلك، وليس في دين من تداوى بالمباح منقصة من ذلك بحال، بل هو مُتَّبِعٌ للشرع، مطيعٌ للرب.

وعلى ذلك؛ فقد يكتنف المرض أحوال تُرجحُ أفضلية التداوي؛ كقيام المريض على أمور ضرورية للناس تحتلُّ بمرضه، أو أن يخشى ضيق نفسه بالمرض، أو نوع تضجّر، أو ضعف صبر، واضطراب، وتشويش جمعية قلبه بانشغاله بمدافعة الألم والمرض عن عبادات أنفع لقلبه، أو انشغال عما هو أولى كمصالح المسلمين العامة ونحو ذلك، فيستحبُّ له التداوي جلباً للمصلحة الأعلى.

أما إن خشي على نفسه التلف والهلكة؛ كنزيف يحتاج لرتق أو كيٍّ، وجرت العادة بنفع ذلك الدواء، كذلك من خشي إيذاء غيره؛ كمن به مرض مُعدٍ ولا يتمكّن من الاحتراز من نقل العدوى، ولا يستطيع عزل نفسه، أو خشي على دينه من الجزع والتسخط فالواجب في حقه التداوي. أما إن استوى الطرفان فهو على الإباحة. علماً أنَّ التداوي بالكي مكروه، وأما التداوي بالحرام كالخمر والخنزير والدم والنجاسات والميتة فحرام. والله أعلم.

وقد اختلف أهل العلم في الجملة في حكم التداوي، هل هو مباح وتركه أفضل؟ أم مستحب؟ أم واجب؟ فالمشهور عند أحمد الأول، وعند الشافعي الثاني، وذكر النووي أنه مذهب جمهور السلف والخلف، وعند أبي حنيفة أنه مؤكّد حتى يُداني به الوجوب، وعند مالك استواء الطرفين. أما الرقية

فمستحبة من الإنسان لنفسه ولغيره، أما الاسترقاء - وهو طلب الرقية -
فخلاف الأولى.

والجمهور على أنّ التداوي مباح، وإن اختلفوا هل الأولى فعله أو تركه.
وفعل النبي ﷺ للتداوي دليل على أصل الإباحة. أما تخيرته ﷺ للمرأة
التي كانت تصرع بين الصبر^(١) والدعاء لها بالشفاء مع ضمان الجنة لها فهو دليل
على عدم وجوب التداوي، وقد ترك التداوي جماعة من السلف. قال شيخ
الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولست أعلم سالفاً أوجب التداوي، وإنما كان
كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضّلاً واختياراً لما اختار الله
ورضي به وتسليماً له»^(٢). وقد نقل الذهبي رَحِمَهُ اللهُ الإجماع على عدم وجوب
التداوي^(٣).

ولما قيل لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو في مرض الموت -: ألا نأتيك
بطبيب؟ قال: «قد رأيته». قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إني فعّال لما
أريد»^(٤).

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد تكون المشقة الداخلة على المكلف من خارج
لا بسببه، ولا بسبب دخوله في عمل تنشأ عنه؛ فههنا ليس للشارع قصد في بقاء

(١) ولازمه ترك التداوي على الأظهر.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٦٤/٢١).

(٣) الطب النبوي (٢٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٩٧ / ١٩) وتفسير ابن كثير (٣٧٢ / ٨).

ذلك الألم وتلك المشقة والصبر عليها، كما أنه ليس له قصد في التسبب في إدخالها على النفس، غير أن المؤذيات والمؤلمات خلقها الله تعالى ابتلاء للعباد وتمحيصاً، وسلطها عليهم كيف شاء ولما شاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣]، وفهم من مجموع الشريعة الإذن في دفعها على الإطلاق، رفعاً للمشقة اللاحقة، وحفظاً على الحظوظ التي أذن لهم فيها^(١).

والتداوي هو من جملة الأقدار، فعن أبي خزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أرايت رُقى نسترقها، ودواء نتداوى به، وثُقا^(٢) نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قَدَرِ الله»^(٣). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يردّ قدره بقدره، وهذا الردّ من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كردّ قدر الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها، وكردّ قدر العدو بالجهاد، وكلّ من قدر الله، الدافع والمدفوع والدفع»^(٤).

(١) الموافقات (٢ / ٢٦٠).

(٢) الثّقا: ما يُتوقّى به الضرر، كالدرع والترس ونحو ذلك، لذلك فالتقوى جُنّة من غضب الله وعذابه.

(٣) أحمد (٣ / ٤٢١)، الترمذي (٢٠٦٦).

(٤) الزاد (٤ / ١٤).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ: «يُبَاحُ التداوي، وتركه أفضل، نصَّ عليه^(١) قال في رواية المروزي: العلاج رخصة، وتركه درجة أعلى منه. وسأله إسحاق بن إبراهيم بن هانئ في الرجل يمرض يترك الأدوية أو يشربها قال: إذا توكل فتركها أحب إليّ.

وذكر أبو طالب في كتاب التوكل عن أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: أَحَبُّ لِمَن عقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره. وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله، وقَدَّمه ابن تميم وابن حمدان، وهو قول ابن عبد البر، وحكاها عمن حكاها لقوله ﷺ في حديث ابن عباس: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب^(٢)، هم الذين لا يسترقون،

(١) أي: الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) ومن فضل الله ورحمته وكرمه أن جعل مع كل واحد من السبعين ألف سبعين ألفًا أيضًا، فيكون مجموعهم أربعة مليارات وتسعمئة مليون مؤمن: (٧٠٠٠٠ × ٧٠٠٠٠ = ٤٩٠٠,٠٠٠٠٠٠) والظاهر أن الأعداد هنا مقصودة بذاتها، وليست على سبيل المبالغة كعادة العرب في المبالغة بالسبعين، لأنَّ جادة العرب في المبالغة بالعدد أنهم يكتفون بذكره وحده بلا إضافات عليه، كقولهم رأيت سبعين مرة ونحو ذلك، أما في هذا الحديث فقد رُتِّبَت أعداد لاحقة على أعداد سابقة فمع كل ألف سبعين ألفًا، أو مع كل واحد سبعين ألفًا، أما الحثيات الربانية فلا يقدر قدرها إلا الله تعالى، ومثُل هذا العدد المقصود حديثُ رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مع كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا»، رواه مسلم (٢٨٤٢) والله أعلم. فعند أحمد (٢٢) وأبي يعلى في مسنده عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم

=

على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً». وقال الهيثمي في المجمع (١٨٧١٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيهما المسعودي وقد اختلط، وتابعيه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». وصححه البوصيري والألباني في الصحيحة (١٤٨٤) وقال بعد ذكره كلام الهيثمي الأنف: لكن الحديث صحيح، فإن له شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة، وفاته حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سألت ربي عز وجل، فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً فقلت: أي رب؛ إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي، قال: إذن أكملهم لك من الأعراب». أخرجه أحمد (٣٥٩ / ٢) عن زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

قلت: وهذا إسناد على شرط مسلم، لكن زهير هذا وهو أبو المنذر الخراساني فيه ضعف من قبل حفظه. والحديث قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٣٤٥): «رواه أحمد والبيهقي في «البعث» من رواية سهل بن أبي صالح...، وسنده جيد، وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني، وعن حذيفة عند أحمد، وعن أنس عند البزار، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم، فهذه طرق يقوي بعضها بعضاً». قلت: وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عند أحمد أيضاً (١ / ١٩٧). أه.

وقد جاء في حديث آخر: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي». فعددهم في هذا الحديث أربعة ملايين وتسعمئة ألف (٤,٩٠٠,٠٠٠) مع زيادة حثيات الكريم الرحيم الوهاب تبارك وتعالى. فلعل الله تعالى قد بشره أولاً بسبعين ألف مع كل ألف، ثم زاده سبعين ألفاً مع كل واحد، وفوق ذلك كله الحثيات الإلهية الثلاث، أي يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب بقدر حثياته الثلاث تبارك وتعالى وتقدس، وهي حثيات عظيمة، ولا يقدر قدرها إلا الله تعالى. والله أعلم كم قدر الحثية، والحثية في اللغة: هي

=

ولا يتطيرون، ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون». متفق عليه^(١). وقال رسول الله ﷺ: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل». رواه أحمد وغيره وإسناده ثقات وصححه الترمذي^(٢)»^(٣)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإن الناس قد تنازعوا في التداوي هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟ والتحقيق: أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب. وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، كما يجب أكل الميتة عند الضرورة، فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وقد قال مسروق: «من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار». فقد يحصل أحياناً للإنسان إذا استحرّ المرض ما إن لم يتعالج معه مات، والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكاستخراج الدم أحياناً»^(٤). وقال أيضاً: «وليس التداوي بضرورة لوجوه:

ملء الكفين. نسأل الله الكريم أن يجعلنا جميعاً ووالدينا وأحبابنا منهم، آمين. ومعلوم حبور النفس وفرحها بتتابع البشارات تلو البشارات بخصوص البشارة الأولى وزيادتها ومباركتها، فله الحمد كل الحمد.

(١) البخاري ١٦٣/٧ (٥٧٠٥)، ومسلم ١٣٧/١ (٢٢٠) (٣٧٤)

(٢) أحمد (١٨٢٢١) وحسنه محققوه، والترمذي (٢٠٥٥) وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣٥٩/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٢).

أحدها: أن كثيراً من المرضى أو أكثر المرضى يُشفون بلا تداوٍ لا سيّما في أهل الوبر والقرى والساكنين في نواحي الأرض، يشفيهم الله بما خلق فيهم من القوى المطبوعة في أبدانهم الرافعة للمرض، وفيما ييسره لهم من نوع حركة وعمل، أو دعوة مستجابة، أو رقية نافعة، أو قوة للقلب وحسن التوكل، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة غير الدواء. وأما الأكل فهو ضروري ولم يجعل الله أبدان الحيوان تقوم إلا بالغذاء، فلو لم يكن يأكل لمات، فثبت بهذا أن التداوي ليس من الضرورة في شيء.

وثانيها: أن الأكل عند الضرورة واجب، والتداوي غير واجب. ومن نازع فيه خصمته السنة في المرأة السوداء التي خيرها النبي ﷺ بين الصبر على البلاء ودخول الجنة وبين الدعاء بالعافية، فاختارت البلاء والجنة. ولو كان رفع المرض واجباً لم يكن للتخير موضع كدفع الجوع. وفي دعائه لأبيّ بالحمى، وفي اختياره الحمى لأهل قباء، وفي دعائه بفناء أمته بالطعن والطاعون، وفي نهيه عن الفرار من الطاعون.

وخصّمه حال أنبياء الله المبجلين الصابرين على البلاء حين لم يتعاطوا الأسباب الدافعة له مثل أيوب عليه السلام وغيره. وخصّمه حال السلف الصالح؛ فإن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قالوا له: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: قد رأي، قالوا: فما قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد. ومثل هذا ونحوه يروى عن الربيع بن خثيم المُخْبِتِ المنيب الذي هو أفضل الكوفيين أو كأفضلهم، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الهادي المهدي، وخلق كثير لا يحصون عدداً.

ولست أعلم سالفًا أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضلاً واختياراً لما اختار الله ورضي به وتسليماً له، وهذا المنصوص عن أحمد وإن كان من أصحابه من يوجبه، ومنهم من يستحبه ويرجحه، كطريقة كثير من السلف استمسكاً لما خلقه الله من الأسباب، وجعله من سنّته في عباده.

وثالثها: أن الدواء لا يُستيقن، بل وفي كثير من الأمراض لا يظن دفعه للمرض؛ إذ لو اطرّد^(١) ذلك لم يمت أحد، بخلاف دفع الطعام للمسغبة والمجاعة فإنه مستيقن بحكم سنة الله في عباده وخلقه.

ورابعها: أن المرض يكون له أدوية شتّى، فإذا لم يندفع بالمحرّم انتقل إلى المحلّل^(٢)، ومحال ألا يكون له في الحلال شفاء أو دواء، والذي أنزل الداء أنزل لكل داء دواء إلا الموت. ولا يجوز أن يكون أدوية الأدوية في القسم المحرم، وهو سبحانه الرؤوف الرحيم. وإلى هذا الإشارة بالحديث المروي: «إن الله لم

(١) يصح لغة: اضطرّد واطرّد.

(٢) لعل في العبارة قلب، فيكون الكلام: «إذا لم يندفع بالمحلّل انتقل إلى المحرّم»، أي قياساً على أكل الميتة لمن خاف على نفسه الهلكة، ولا يقصد بذلك بيان الحكم - فهو لا يقول به - إنما قصد التدرج في القياس لإبطاله بسبب عدم اتحاد العلّتين، مع بيان الفرق بينهما، هذا هو الأظهر. أما إن لم يكن ثمّ قلب فقد يكون قد قصد التقسيم العقلي الملجئ بالقسمة الثنائية، فالدواء إما بالحلال أو الحرام، وبما أن الشارع قد حرّم الحرام، ويبيّن أنه ليس فيه شفاء، فيلزم من ذلك أن الدواء الشافي بإذن الله محصور في الحلال، والله أعلم.

يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها»^(١). بخلاف المسغبة فإنها وإن اندفعت بأي طعام اتفق إلا أن الخبيث إنما يباح عند فقد غيره، فإن صوّرت مثل هذا في الدواء فتلك صورة نادرة؛ لأن المرض أندر من الجوع بكثير، وتعيّن الدواء المعين، وعدم غيره نادر فلا يتنقض هذا. على أن في الأوجه السالفة غنى.

وخامسها - وفيه فقه الباب :- أن الله تعالى جعل خلقه مفتقرين إلى الطعام والغذاء لا تندفع مجاعتهم ومسغبتهم إلا بنوع الطعام وصنفه، فقد هداونا وعلمنا النوع الكاشف للمسغبة المزيل للمخمصة.

وأما المرض فإنه يزيله بأنواع كثيرة من الأسباب ظاهرة وباطنة روحانية وجسمانية، فلم يتعيّن الدواء مزيلاً. ثم الدواء بنوعه لم يتعيّن لنوع من أنواع الأجسام في إزالة الداء المعين. ثم ذلك النوع المعين يخفى على أكثر الناس، بل على عامتهم دركه ومعرفته، والخاصة المزاولون منهم هذا الفن أولو الأفهام والعقول يكون الرجل منهم قد أفنى كثيراً من عمره في معرفته ذلك ثم يخفى عليه نوع المرض وحقيقته، ويخفى عليه دواؤه وشفاءؤه، ففارقت الأسباب المزيله للمرض الأسباب المزيله للمخمصة في هذه الحقائق البيئة وغيرها، فكذاك افترقت أحكامها كما ذكرنا»^(٢).

(١) ابن حبان في صحيحه (٤ / ٢٣٣) وأبو يعلى في المسند (١٢) وشرح ثلاثيات المسند (٨٢٥/١) وقال السفاريني: صحيح. وصححه كذلك في كشف اللثام (٦ / ٢٠٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ٨٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا حسان بن مخارق، وقد وثقه ابن حبان».

(٢) مجموع الفتاوى (٢١ / ٥٦٣ - ٥٦٦).

وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «التداوي لا بأس به، ولا حرج فيه، ولا ينقص الإيمان، يقول النبي ﷺ: «عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام»^(١). ويقول النبي ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»^(٢). لكن ترك طلب الاسترقاء هو الذي جاء في الحديث: «ولا يسترقون»^(٣). أي: لا يطلبون من يرقى لهم ويقرأ عليهم «ولا يكتون»، فترك

(١) الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «علمه من علمه...» فإنها عند أحمد (٢٧٨ / ٤) وحسنه محققوه، والحاكم (١٩٦ / ٤).

(٣) البخاري ١٦٣/٧ (٥٧٠٥)، ومسلم ١٣٧/١ (٢٢٠) (٣٧٤) وجاءت عند مسلم بلفظ «لا يرقون» وقد ردها المحققون للشذوذ. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «زاد مسلم وحده «ولا يرقون» فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «لا يرقون» لأن الراقي محسن إلى أخيه، وقد قال ﷺ حين سئل عن الرقى: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه». رواه أحمد (٣٠٢/٣) ومسلم (١٨٦/١٤) وقال ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً». رواه أبو داود (٣٨٨٦) وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ. رواه مسلم (١٧٠/١٤) والفرق بين الراقي والمسترقى: أن المسترقى سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع». المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ٢٧) وانظر: مفتاح دار السعادة (٥٨٠) وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «لا يرقون» كلمة غير صحيحة، ولا تصح عن النبي ﷺ؛ لأن معنى «لا يرقون» أي: لا يقرؤون على المرضى، وهذا باطل، فإن الرسول ﷺ كان يرقى المرضى». شرح رياض الصالحين (١/٢٩٠).

الكيّ أفضل إلا عند الحاجة فلا بأس^(١)، يقول النبي ﷺ: «الشفاء في ثلاث: كيّة نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم»^(٢). فإذا دعت الحاجة إلى الكيّ أو الاسترقاء أو نحو ذلك فلا بأس به، فالتداوي مطلوب «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء». لكن مع التداوي يعتمد على الله، ويسأل ربه الشفاء، ويعلم أنه سبحانه هو الشافي وبيده الأمر.

والتداوي من الأسباب، فالعلاج عند الأطباء أو عند القراء كلها أسباب، والتوفيق والشفاء بيد الله جل وعلا^(٣). وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «إذا غلب على الظن نفع الدواء مع احتمال الهلاك بتركه فالتداوي واجب. وإن غلب على الظن نفع الدواء، ولكن ليس هناك احتمال للهلاك بترك الدواء، فالتداوي أفضل. وإن تساوى الأمران فترك التداوي أفضل»^(٤).

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على مَنْ تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإنَّ فعله يدلُّ على جوازِهِ، وعدم محبته له لا يدلُّ على المنع منه، وأما الثناء على تاركِهِ فيدلُّ على أنَّ تركَهُ أولى وأفضل، وأما النهيُّ عنه، فعلى سبيل الاختيار والكرهية، أو عن النوع الذي لا يُحتاجُ إليه، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء. والله أعلم». زاد المعاد (٤) / (٦٥).

(٢) صححه ابن باز في المجموع (١ / ٢٠٦) والألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٤) أما لفظ البخاري فبسند عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة؛ في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كيّة بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي».

(٣) دروس للشيخ عبد العزيز بن باز (١٧ / ١٢).

(٤) كتب ورسائل العثيمين (٢١٥ / ١).

وكم من مريض استعجل شفاؤه بمحرم كان فيه هلاكه، فأراد العاجلة
ولات حين شفاء!

وقد ييسّر الله تعالى الشفاء من المرض العضال برؤيا صالحة، وقد ذكروا
أن عائشة رضي الله عنها لما سحرتم جاريتها رأت في منامها أن اغتسلي من
ثلاثة آبار يمد بعضها من بعض، فاستقي لها فاغتسلت فبرأت بإذن الله^(١).
وأُسند البيهقي رَحِمَهُ اللهُ عن اللَّيْث بن سعد رَحِمَهُ اللهُ قال: رأيتُ إسماعيلَ بن
عقبة بصيراً، ثُمَّ رأيتُهُ قد عمي، ثُمَّ رأيتُهُ قد أَبْصَرَ، فَقُلْتُ لَهُ: «رَأَيْتُ
رَجُلًا فِي الْمَنَامِ قَائِمًا، فَقَالَ لِي: قُلْ. قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: «يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ،
يَا سَمِيعَ الدُّعَاءِ، يَا لَطِيفُ لِمَا يَشَاءُ، رُدِّ عَلَيَّ بَصَرِي، فَقُلْتُهَا فَأَبْصَرْتُ»^(٢).

هذا؛ وإنّ الإخبار بالمرض - لحاجة - ليس من الشكوى ولا يقدر في
الرضا، فعن أبي سعيد الخدري: أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك،
عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة. فقال أبو سعيد: ما
أشدَّ حَمَاكَ يا رسول الله! قال: «إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا
الأجر». فقال: يا رسول الله! أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم
الصالحون، وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العبادة يجوبها»^(٣)

(١) الجامع لمسائل المدونة لابن يونس الصقلي (٨٤٥/٧) وقد ذكرها ابن القيم في الروح
(١٩١/١).

(٢) شعب الإيمان (٣٥٦/٢).

(٣) «يجوبها»: الجوب: الخرق والقطع.

فيلبسها، ويُتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء، من أحدهم بالعطاء»^(١).

وقد بَوَّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ في الأدب المفرد باب: هل يكون قول المريض: «إِنِّي وَجِعٌ» شكاية؟ وساق الحديث عن هشام، عن أبيه قال: «دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء - قبل قتل عبد الله بعشر ليال - وأسماء وَجِعَةٌ. فقال لها عبد الله: كيف تجدينك؟ قالت: وَجِعَةٌ. قال: إني في الموت. فقالت: لعلك تشتهي موتي، فلذلك تتمناه؟ فلا تفعل، فوالله ما أشتهي أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، أو تُقتل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقرّ عيني، فيأبك أن تُعرض عليك خُطَّة، فلا توافقك، فتقبلها كراهية الموت. وإنما عنى ابن الزبير ليقتل فيحزنها ذلك»^(٢). وبالله التوفيق.

أما إن لم يكن هناك حاجة من الإخبار فالكف عنه أولى وأجمل وأسلم وأحمد، وليكن حاله كحال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي﴾ [يُوشَف: ٨٦]، ولا يكن كالشاكين ربههم لخلقهم!

وقد نظر أعربي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرّ فقال: «يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟». والله من قال:

(١) الأدب المفرد (١٧٩/١) وشعب الإيمان للبيهقي (٢٢٧/١٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٥) وعند أحمد بنحوه في المسند (٣/ ٩٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧).

(٢) الأدب المفرد (٥٠٩) وصححه الألباني.

وإذا عَرَّثَكَ بليّةٌ فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلمُ
وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ



هل الرضا بالله تعالى موهبي أم كسبي؟

أي: هل يُوهَبُ من الله كالغريزة، وهو ما يسمونه بالحال، أم يمكن للعبد تحصيله؟ ويسمونه المقام. أي: هل هو فطري، أم لا يُحصل إلا بالمجاهدة ورياضة النفس؟

والجواب: أنه هذا وهذا، فأصله موجود في معدن المرء وجبَلته وغريزته، مُخْتَلِفٌ وجودًا وعدَمًا، قوَّةً وضعفًا من شخص لآخر، كما أنَّ للعلم بالوحي الشريف مع الدربة والمجاهدة أثر أصيل في إيجاده - بإذن الله تعالى - إن كان معدومًا، وفي حفظه وزيادته وتقويته إن كان موجودًا، وكلما زاد العلم بالله وشرعه في القلب ازدادت موارد الرضا به تبارك وتعالى، وكلما تقلَّص العلم به أو نُسي بَرَكَ الجهل بكلِّه على كاهله، فأخذ جذوته، وأطفأ نوره، وأضعف قوَّته، كذلك إذا داوم العبد على تحريك قلبه به - إذ هو منقسم على علم القلب وعمله - فتفكَّر فيه، ومارسه، وحيا به، وتذكَّره آناء الليل وأطراف النهار وعند نومه بقوله بلسانه المواطئ قلبه: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا» (١).

(١) قال النبي ﷺ: «ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد، يقول حين يمسي وحين يصبح: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا؛ إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة». رواه ابن ماجه (٢/ ٣٨٧٠) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

ويُخَطِّرُ تلك المعاني الطاهرة الجميلة المُفَعِّمة على نياط قلبه كلما لاحت مناسبتُهُ، حينها يقوى رضاه بربه، فلا يزال في زيادة علمٍ مباركٍ حتى يلقي الله تعالى يوم يقوم الأشهاد.

وبالجملة؛ فالرضا مبنيٌّ في الأساس على علوم وأعمال أخرى كالعلم بصفات الله تعالى وأفعاله، وكالتوكل والتفويض والتسليم والمحبة والإخلاص، فعلى قدرها يكون غناء التوكل وضعفه بضعفها. وعليه؛ فالرضا موهبيٌّ كسبيٌّ، وهو محض فضل الله تعالى على عبده بإيجاده في قلبه ابتداءً، وبحراسته وعمارته وإمداد عبده وإعانتة بطرائق تحصيله ووسائل زيادته وحبال حفظه انتهاءً.

قال المُتَجَدِّ حفظه الله تعالى: «الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، موهبيٌّ باعتبار حقيقته. فإذا تمكن العبد في أسباب الرضا وغرس شجرة الرضا في قلبه جنى الثمرة. لأن الرضا آخر التوكل. فبعدما يعجز التوكل يأتي الرضا. والذي ترسخ قدمه في طريق التوكل ينال الرضا. لأن بعد التوكل والتسليم والتفويض يحصل الرضا، وبدونها لا يحصل الرضا.

ولذلك لو قال أحدهم: نريد تحصيل الرضا، نقول له: يجب أن يكون لديك توكلٌ صحيحٌ وتسليمٌ وتفويضٌ، ثم ينتج الرضا بعد ذلك. ولذلك لم يُوجِبِ الله على عباده المنازل العالية من الرضا؛ لأن ذلك شيءٌ صعبٌ جدًّا، وأكثر النفوس ربما لا يحصل لها ذلك.

فالله ندب إليه ولم يوجبه - ليس أساس الرضا وإنما ما فوق ذلك - فإذا حصل للعبد شيءٌ فإنه لا بد أن يكون محفوفًا بنوعيه من الرضا: رضا قبله،

ورضاً بعده. وكذلك الرضا من الله عز وجل عن العبد، إنما هو ثمرة رضا العبد عن الرب سبحانه، فإذا رضيت عن الله رضي الله عنك.

والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومُسْتَرَا ح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين، وهو من أعظم أعمال القلوب. قال يحيى بن معاذ لما سئل: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ قال: «إذا أقام نفسه على أربعة أصول يُعامل بها ربه: يقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبتُ».

والرضا إذا باشر القلب؛ فإنه يدل على صحة العلم، وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف، فمن الفروق: أن أهل الجنة مثلاً لا يخافون في الجنة ولا يرجون مثل رجاء الدنيا، لكن لا يفارقهم الرضا أبداً. فإن دخلوا الجنة فارقهم الخوف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ففي الدنيا هناك خوف، فإذا دخلوا الجنة زال الخوف، أما الرضا فلا يزول خارج الجنة وداخلها.

فالخوف والرجاء في الدنيا ليس موجوداً عند أهل الجنة في أحوال^(١)، أما الرضا فلا يفارق العبد لا في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة ولا في الجنة. ينقطع عنهم الخوف؛ لأن الشيء الذي كانوا يخافونه أمنوه بدخولهم الجنة، وأما

(١) قال ابن القيم في التفرقة بين الرجاءين: «لكنه ليس رجاء مشوباً بشكٍّ، بل هو رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون». مدارج السالكين (٢ / ١٧٥).

الشيء الذي كانوا يرجونه فقد حصل لهم، أما الرضا فإنه لا يزال معهم وإن دخلوا الجنة. معيشتهم راضيةٌ وهم راضون، ورضوا عن الله، وراضون بثوابه وما آتاهم في دار السلام»^(١).



(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢ / ٢٤-٢٥) بتصرف يسير، وانظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين (٢ / ١٧٣) وما بعدها.

هل للسنّ علاقة بطيب الرضا؟

من أسباب الرضا التقدم في العمر وكبر السن وبلوغ النضج العقلي، وههنا سؤال: هل كبر السن النسبيّ - كعمر الستين - له دور في حسن الأخلاق وقوة الاحتمال وحسن المعشر والبشاشة وطيب الرضا بالقضاء ونحو ذلك؟

الجواب: أن هذا هو الأصل ما لم يُغلب من مورد آخر ذاتي، كضغوطٍ حياتية أو معيشية خاصة تسبب ضجره وضيق عطنه، أو أمراض معينة وبخاصة العصبانية، أو المؤذية، أو حتى المزمنة كالضغط والسكري ونحوه.

وقلنا إن الأصل هو أن التقدم العمر في الأغلب مفض لطيب الرضا لأنّ متعلّق الرضا هو العلم والعقل، وهذان يُفترض اتساعهما مع العمر، خاصة بعد بلوغ النضج العقلي في الأربعين، أما العلمي فهو متراكم على مرّ السنين، حتى يصل العمر إلى مراحل النسيان وبدايات الخرف ونحوه، فقوة العقل واتساع العلم من أسباب طيب الرضا وقوّته بإذن الله تعالى، لأنّ الإنسان يصل في هذه الأعمار إلى رؤية حقيقة الدنيا، وتحتّم فنائها، وضرورة الزهد في حطامها، ويرى الغلالة الرقيقة بين الدارين، ويبصر العلاقة الحقيقية بين الأشياء، ويقارن المواقف والتجارب مع حصيلته العمرية من العلوم والمعارف.

لذا فالغالب عند من تجاوز الستين أن نفسه تتغيّر فيه للأحسن، ويطيب عيشه المعنوي والإيماني والروحاني، ويميل بأخوّرة إلى التأمل الجميل، والمعايشة الهادئة، والأذكار الطيبة، والخلق الدمث، لأنّه يرى ببصيرته معالم

بدايات الآخرة، وقربه الزماني - في العادة - منها. هذا إن سلم من غوائل الحرص، ودغائل طول الأمل، وأسقام حب الدنيا، وسمّ التهالك على تحصيلها.

والمقصود؛ أن العمر الجميل والسنّ الهادئ والعقد الراضي هو سن الستين، فهو سن الهدوء والتأمل، والرضا والحب، والسلام والتسليم، والاستعداد الجميل ليوم الرحيل ولقاء الجليل الجميل تبارك وتعالى.

وبالجملة؛ فالأصل أن تقدم العمر سبب لطيب الرضا ما لم يعرض ذلك غفلة إيانية أو شروذ علمي، أو سوءة مزاجية، وبالله التوفيق.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء فإن منتصف العمر عند الأطباء يكون عند الأربعين، وهناك مرحلة يسمونها بأزمة منتصف العمر، ولكنها في القرآن العظيم هي مرحلة الأشد، واستجماع القوى، واستحكام الرأي، ونضوج العقل.

أما منتصف العمر في الحقيقة فهو الثلاث والثلاثون، لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ. وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»^(١).

وعليه؛ فنصف معترك المنايا ومنتصفها على التقريب هو الخمس والستون، ونصفها الثلاث والثلاثون تقريباً، ومنه تبدأ رسل النضج والوقار،

(١) الترمذي (٢٨١٥) وابن ماجه (٤٢٣٦) وصححه الألباني.

وهي علامات المشيب، وهو عمر أهل الجنة حين يدخلونها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا مَكْحَلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً»^(١). نسأل الله الكريم من فضله.



(١) أحمد (٨٥٠٥) الترمذي (٢٥٤٥) وصححه الألباني. ومعنى «جردًا»: الأجرد هو الذي لا شعر على جسده. «مُردًا»: الأمرد هو الشاب الذي لا لحية له.

هل عدم الألم شرط للرضا بالله تعالى؟

يسمع بعض الناس عن أحوال بعض الصالحين من الأنبياء والصحابة وغيرهم أنهم يتلذذون بالبلاء في ذات الله تعالى، كحال صبر أيوب عليه السلام سنيناً كثيرة، وما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة. فقال أبو سعيد: ما أشدَّ حُمَاكَ يا رسول الله! قال: «إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر». فقال: يا رسول الله! أي الناس أشدَّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها، فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشدَّ فرحاً بالبلاء، من أحدهم بالعطاء»^(١). وكما نقل عن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سئل: كيف كنت تصبر على عذاب حرِّ الرمضاء؟ فقال: «والله أما إنِّي كنتُ أجِدُ ألماً عظيماً، ولكنني مزجتُ حرارةَ الألمِ بلذَّةِ الرضا فيما أرجوه من الله؛ فغلب ذلك ما أجِدُ من آلامها».

بِعَيْنِكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ وَلِلشَّوْقِ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ

(١) الأدب المفرد (١٧٩/١) وشعب الإيمان للبيهقي (٢٢٧/١٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٥) وعند أحمد بن حنبل في المسند (٩٤ / ٣)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧). ومعنى «يجوبها»: من الجَوْبِ، وهو الخرق والقطع.

فيظن من سمع أمثال تلك المواقف أن عدم الإحساس بالألم شرط لكمال الرضا، أو أن التلذذ بالألم بعد الإحساس به شرط له!

وهذا ظنٌ غير صحيح، فليس شرطاً بحمد الله تعالى، ولا يسع الناس إلا ذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالشعور بالألم حتمي في العادة، ولا يُحمد صاحبه ولا يذم، إنما يحمد ويذم على انفعاله بالمؤلم، أيرضى أم يجزع. فالرضا اختياري أما الألم فليس بالاختيار، لذلك فالجهة منفكة، ولولا الألم ما كان للرضا بالمصائب وجه، فكيف يرضى بمصيبة لا تؤلمه، والامتحان إنما هو بفعل الطاعة وترك المعصية مع مشقتها على النفس، والمشقة هي عين الألم.

ويوضح هذا ما ذكره الإمام أحمد في كتاب الزهد بسنده قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين؛ رجلٌ لا يشتهي المعصية ولا يعملُ بها، أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ المعصية ولا يعملون بها» ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَتَّقُوا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. (١)

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٦٨) وعزاه للأحمد في الزهد وساق سنده، وكذلك السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٥٥٢)، والأثر في كنز العمال للمتقي الهندي (٢ / ٤٦٠٩). ولعل هذا الأثر مما اندثر من الأصل، فلم أجده في الزهد المطبوع، ولكن حفظه الله في بطون كتب أخرى، وهذا من ألطاف الله تعالى في حفظ العلم.

وَلَذَّةُ سَاعَةٍ ذَهَبَتْ وَوَلَّتْ وَأَبْقَتْ بَعْدَهَا حَسَرَاتٌ دَهْرٌ
 وَيَتَبَيَّنُ هَذَا إِذَا عَرَفْنَا مَعْنَى الرِّضَا الْعَامِ، فَالرِّضَا دَوْرَانُ بَرَاةِ النَّفْسِ
 وَطَمَآنِينَةِ الْقَلْبِ مَعَ أَمْرِ اللَّهِ مُفْرَحًا كَانَ أَوْ مُؤَلِّمًا. وَعَلَيْهِ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ
 الرِّضَا عَدَمُ الشُّعُورِ بِالْأَلَمِ، وَالْأَلَمُ تَارَةٌ يَكُونُ حَسِيًّا وَتَارَةٌ مَعْنَوِيًّا وَهُوَ الْأَشَدُّ،
 بَلْ إِنَّ سَادَةَ النَّاسِ وَهُمْ الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا يَتَأَلَّمُونَ، وَلَكِنْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ
 رَاضِيَةً تَمَامَ الرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ
 يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرِّجَالَانِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ
 ﷺ فِي مَرَضِهِ فَمَسَسْتُهُ وَهُوَ يُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا! فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوَعَكُ وَعَكًا
 شَدِيدًا، وَذَلِكَ أَنْ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ، وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَصِيبُهُ أَذَى إِلَّا
 حَاطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»^(١).

وَقَالَ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُتَبَلَى الْإِنْسَانُ
 عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صِلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رَقَّةٌ
 خُفِّفَ فِي بَلَائِهِ»^(٢).

(١) البخاري (٥٣٣٧) «تَحَاتُّ»: مضارع تحاتّ على وزن تباعد، وأصلها: تحاتت فأدغمت
 التاء تسهياً. يقال: حاتّ الورق إذا تناثر. وفي الرواية الأخرى بلفظ مقارب: «أَجَلٌ، مَا
 مِنْ مُسْلِمٍ يَصِيبُهُ أَذَى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحَطُّ الشَّجَرَةُ
 وَرَقُهَا». رواه البخاري (٥٦٤٧) ومسلم (٢٥٧١).

(٢) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح
 الجامع (٩٩٦).

وإذا نزل البلاء ومعه الصبر والرضا والحمد والشكر فهو رحمة ونعمة، حتى وإن ظنّ الناس خلاف ذلك، ولكن إن كان معه الجزع والسخط فهو عذاب ونقمة، نسأل الله العافية. قال المنجد حفظه الله تعالى: «ليس من شروط الرضا ألا يحسّ العبد بالألم والمكاره، بل من شروط الرضا عدم الاعتراض على الحكم، وألا يسخط، ولذلك فإن الرضا لا يتناقض مع وجود التألم وكراهة النفس لما يحصل من مكروه. فالمرضى مثلاً يرضى بشرب الدواء مع أنه يشعر بمرارته ويتألم لمرارته، لكنه راضٍ بالدواء مطمئنٌ بأخذه، مقبلٌ على أخذه، لكنه في ذات الوقت يطعم مرارة الدواء، والصائم راضٍ بالصوم وصام وسرّ بذلك لكنه يشعر بألم الجوع، فهل بشعوره بألم الجوع يكون غير راضٍ بالصيام؟! لا بل هو راضٍ بالصيام ويشعر بالجوع. والمجاهد المخلص في سبيل الله راضٍ عند الخروج للجهاد ومُقدِّمٌ عليه، لكن يحسّ بالألم والتعب والغبار والنعاس والجراح، وهكذا.

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالٌ

إذا لا يشترط أن يزول الألم والكراهية للشيء إذا حصل الرضا، لكن بعض أصحاب المقامات العالية جداً يستلذّون بالألم إذا حصل في الجهاد أو الصيام. لكن لا يشترط أن الفرد إذا أحس بالألم في العبادة أن يكون غير راضٍ^(١).

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢/ ٢٦-٢٧) بتصرف يسير.

وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ جواب لطيف على ذلك، قال رَحِمَهُ اللهُ: «يظن بعض الناس أن من شرط الرضا ألا يحسّ بالألم والمكاره، وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنّما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهة وهما ضدان؟ والجواب من وجوه:

الأول: أنه لا تناقض بينهما، فوجود الألم، وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

الثاني: أن طريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جدًّا، موصلة إلى غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنّما عقبتها همّة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرُدُّ عليها من الله. ويسهّل ذلك إذا وطّن نفسه على الرضا بما قدره الله عليه، ولم يتكلف من الأسباب ما لا طاقة به له. وهذا القسم من الكوني أيضًا على نوعين:

النوع الأول: ما للعبد فيه استطاعة واختيار وإرادة في منازعته ومدافعته بكل ممكن، ومثاله الجوع والعطش أو البرد ونحو ذلك، فإن العبد يترك الانقياد له، ومسالته، ويدفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس ونحوه. فإذا وقع حريق - مثلاً - في دار أو متجر أو مركب، فهذا بقدر الله تعالى، والعبد لا يستسلم له ويسأله ويتلقاه بالإذعان، بل عليه أن ينازعه ويدفعه بالماء والتراب وغير ذلك ممّا يطفى الحريق، وما خرج في ذلك عن قدر الله.

بل يجب أن يفعل الأسباب في عدم حصول ذلك أصلاً، كما في الحديث: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حُذِّث بشأنهم النبي ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارُ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نَمْتَم فَأُطْفِئُهَا عَنْكُمْ»^(١). ومن ذلك تغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها، وإطفاء السرج عند النوم، وكفّ الصبيان والمواشي بعد المغرب»^(٢).

والإحساس بالمؤلم لا يمنع الرضا به، والرضا بالمؤلم لا يمنع دفعه بما شرع الله تعالى، فهو خالق السبب والمسبب، ومن ذلك: إذا أصاب المؤمن مرض، فهذا بقدر الله تعالى وقضائه الكوني، فإن له أن يدافعه وينازعه بقدر الله أيضاً، فيستعمل الأدوية الدافعة للمرض، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، كما في قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقوله عندما عُوتِبَ على فراره من الطاعون، وعدم دخوله أرض الشام بمن معه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم جميعاً فقالوا له: «أفراراً من قدر الله؟» فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أ رأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عَدَوَتَانِ^(٣):

(١) البخاري ٨١/٨ (٦٢٩٤) ومسلم ١٠٧/٦ (٢٠١٦) (١٠١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢ / ١٧٦) وما بعدها. وعند مسلم (٢٠١٣) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُرْسِلُوا فَوَاشِيَكُمْ وَصِيَّانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذَهَبَ فَحَمَةُ الْعِشَاءِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبُعُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذَهَبَ فَحَمَةُ الْعِشَاءِ».

(٣) العَدْوَةُ: جانب الوادي.

إحداهما: خَصِيَّة، والأخرى جَدْبَة، أليس إن رعى الخَصِيَّة رعىها بقدر الله، وإن رعى الجَدْبَة رعىها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان متغيّياً في بعض حاجته - فقال: إنَّ عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: «فحمد الله عمر، ثُمَّ انصرف»^(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن لم يستبصر من هذه المسألة ويعطها حقّها؛ لزمه التعطيل للقدر أو الشرع، شاء أو أبى. فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه، وأسباب معاشه، ومصالحه الدنيوية، ولا ينازع أقداره في حق مولاه، وأوامره ودينه، وهل هذا إلا خروج عن العبودية، ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه»^(٢).

وعلى هذا، فإنه لا بدّ للعبد أن يرضى بالمقضي إن أرادَ نَظْمَ نفسه مع حزب الله الراضين، ولا يجزع، ولا يعترض على قدر الله وقضائه وإن كره أو تألّم، أو طلب تغيير المقدور إلى ما هو أحسن، مع علمه بأنه قد يكون ما أصابه من ذلك خيراً ممّا يجب أن يصيبه، ممّا ظاهره الخير، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذه الآية هائلة جدّاً في الكشف والإجلاء والتسليم والرضا والراحة والأمن والثقة واليقين.. في معانٍ لا تنحصر من مواد الإيوان الجميلة الرائعة، نسأل الله الكريم من فضله وبره وإحسانه.

(١) البخاري ١٦٨/٧ (٥٧٢٩) ومسلم ٢٩/٧ (٢٢١٩) (٩٨).

(٢) طريق المهجرتين (١ / ٦٨).

النوع الثاني: ما ليس للعبد فيه اختيار ولا طاقة، ولا حيلة في منازعته ومدافعته. وهذا ما أشار إليه حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك».. الحديث^(١). فهذا لا تنفع فيه المنازعة ولا المدافعة، فهذا يقابل بالرضا والاستسلام، وترك المخاصمة والسخط، والعلم والإيمان بأن الأمر والحكم والقضاء لله من قبل ومن بعد، وأنه سبحانه له حكمة في ذلك هو يعلمها سبحانه، وهو عدل في قضائه، والقدر المقضي ينزل مواقعه، ويحل محله لا رادّ له، وذلك أوجب للرب سبحانه عدله وحكمته وعزته وملكوته وموجب أسائه وصفاته، فله عليه أكمل الحمد وأتمه، والرضا والتسليم^(٢).

ومتى تفكّر العبد في عظمة خلق الله تعالى وصلّ لعظمة قدره تبارك وتعالى وقدرته.

دَحَوْتَ الْبِلَادَ فَسَوَّيْتُهَا وَأَنْتَ عَلَى طَيْهَا قَادِرٌ

ولقد قال الشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب رَحِمَهُ اللَّهُ (١٩٢٦. ١٩٦٤م) قصيدة جميلة في مرض موته، وقد ابتلي بنوع شللٍ ألزمه فراشه حتى أصابته قرح الفراش، وشحب لونه، وهزل جسده، وقد ختم بها حياته، وعسى أن تكون توبة له نصوحاً، فالعبرة بالخواتيم كما قال النبي ﷺ: «الأعمال

(١) أبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

(٢) وانظر: طريق المهجرتين وباب السعادين (٣٩/١) وسبق بسطه في فصل: الشَّعْرُ والقَدَر.

بِالْحَوَاتِيمِ»^(١). وقال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا، كَالْوِعَاءِ: إِذَا طَابَ أَعْلَاهُ طَابَ أَسْفَلُهُ، وَإِذَا خَبُثَ أَعْلَاهُ خَبُثَ أَسْفَلُهُ»^(٢).

ولقد مرّ السيّاب بمحطات حياتية فكرية بعضها شديد الانحدار، لكنه - كما قيل - قد رجع لربه قبل مماته وتاب وأناب وألف كتابه «كنتُ شيعوياً».

وقد قال في مرض موته هذه القصيدة^(٣) وقد ضمّن حشوها جميل الحمد والحب والصبر والرضا واليقين، وفيها بعض الشكوى التي ليتها سلم منها، وقد وسمها بـ«سفر أيوب»^(١):

(١) البخاري (٦٦٠٧).

(٢) ابن حبان (٣٣٩) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) وهي من قصائد التفعيلة، أو ما يُسمّى بالشعر الحرّ غير الملتزم ببحور أشعار العرب، إن صح أصلاً أن نسمي ما خلا الشعر العمودي شعراً، وليس كذلك فيما أحسب إلا إن جعلناه في مرتبة تالية للشعر المعروف أوّلاً والرجز المألوف ثانياً. فقد يُقبل ذلك إذن تجوّزا لا إقراراً، لأن له نوعٌ جَرَسٍ لذيذ للأذن، ونوع وزن للكلم، وإن كان مفكّكاً وغير مضطرد، لذلك وسّموه بالشعر الحرّ من قيد العروض، وهذا مأخذٌ سهولته لدى الكثير، وكذلك تستحليه كثير من القرائح لمن يحسنه - فقد صار بأخرة مركّباً لكثير من هُزْلي المتشاعرين - كما قد ضُمّن كمّاً كثيراً من معاني ونبض الشعر الأصيل، وجزالة لفظه، وسلاسة جرسه، وبهاء رونقه، وطراوة مائه، وعذوبة مأخذه، ونبيل مقاصده، ورقة أهدابه.. وعلى كلّ فلا مشاحة في الاصطلاح سواء أدخلوه في الشعر أو أخرجوه، وليس هو من التنزيل حتى يلزم التشديد، ففي الأمر سعة إن شاء الله تعالى.

لَكَ الْحَمْدُ مَهْمَا اسْتَطَالَ الْبَلَاءُ
وَمَهْمَا اسْتَبَدَّ الْأَلَمُ
لَكَ الْحَمْدُ، إِنَّ الرِّزَايَا عَطَاءُ
وإنَّ الْمَصِيبَاتِ بَعْضُ الْكَرَمِ
أَلَمْ تُعْطِنِي أَنْتَ هَذَا الظَّلَامَ
وَأَعْطَيْتَنِي أَنْتَ هَذَا السَّحَرِ^(٢)
فَهَلْ تَشْكُرُ الْأَرْضُ قَطْرَ الْمَطَرِ
وَتَغْضَبُ إِنْ لَمْ يَجِدْهَا الْغَمَامُ^(٣)
شَهْوَرٌ طَوَّالٌ وَهَذِي الْجَرَّاحُ
تَمَزَّقُ جَنْبِيَّ مِثْلَ الْمُدَى

=

(١) وفي هذا تشبُّه بأهل الكتاب بتسمية القصيدة بأسفار كتابهم المحرف، وإن كان قصد الشاعر الإشارة بذلك إلى شبه حاله بشيء من حال نبي الله الصابر الراضي الكريم أيوب عليه السلام، ولكن كان الأولى خلاف هذا المُسمَّى.

(٢) يقصد أن الظلام عطية ربانية له، وبخاصة وقت السَّحر، فيخلو فيه عن الخلق بربه، ويبيته ما تفيض به نفسه المتألِّمة من زَمَانَةِ السقام وشوق اللقاء وبرْد الرضا، وانكسار التائب المنيب.

(٣) أي: أنه ثابت على الرضا والحمد والشكر في العطاء والمنع، واليسر والعسر.

ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالرّدى^(١)
ولكنّ أيّوبَ إن صاح صاح:
لك الحمد، إنّ الرّزايا ندى
وإنّ الجراح هدايا الحبيب
أضمّ إلى الصّدر باقاتها^(٢)
هداياك في خافقي لا تغيب
هداياك مقبولة هاتها
أشدّ جراحي وأهتفُ بالعائدين
ألا فلانظروا واحسدوني

(١) كأنه يلمح إلى أنّ خواطرًا بتمني الموت تأتيه ليلاً حتى تمسح ألم طعن سكاكين جراح القروح، وتمني الموت لضرر دنيا خطيئة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنّ أحدكم الموت لضرّ ينزل به، فإن كان لا بدّ متمنّيًا فليقل: اللهمّ أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي». رواه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٢) فمن رضاه بربه وحمله شكره على ابتلائه صارت البلايا عليه كباقات الورود المهداة، لما تضمّنته من معاني التكفير والتطهير ورفعة الدرجات.

فهـذى هـدايا حـيـي
جـمـيـلٌ هـو السّـهـدُ أرعى سَمَك
بـعـيـنـيَّ حـتـى تـغـيـبَ النـجـوم
وـيـلـمـس شُبَّـاكُ دارى سَنـاك^(١)
جـمـيـلٌ هـو الـلـيـلُ
أصـدأ بـوم
وأبـواقُ سـيـارةٍ مـن بـعيد
وأهـاتُ مـرضى، وأمُّ تُعـيد
أسـاطـيرَ آبائـها للولـيد
وغـابـاتُ لـيـل السّـهـاد
الغـيومُ تحـجـبُ وجـهَ السـماء

(١) لأنه كسيح طريح الفراش، مشلول لا يمشي هنا وهناك، بل مقابل لنافذته التي يراعي فيها نجوم السماء وأحوال الأرض، ومن جمال الأدباء أن خيالهم المترع بالجمال يصور لهم المعاني متجسدة، فيتذوقونها بقلوبهم، ويشمونها بأرواحهم، ويتناولونها بعقولهم، وإن كانت عن الحس بعيدة، بل حتى الشيء الذي يراه بعض أهل الكثافة في الغاية من الوحشة - كصوت البوم - نراه يصوره كنغم جميل لقيثارة ناعمة، وذلك للطف روحه، ورقة طبعه، ورهافة إحساسه، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وتجلّوه تحت القمر

وإن صاح أيوب كان النداء

لك الحمد يا راميًا بالقدر

ويا كاتبًا بعد ذاك؛ الشّفاء

هل ينافي الرضا البكاء على الميت؟

هذا سؤال من الأهمية بمكان، فقد اشتبه على كثير من الناس لاشتباه صُورِهِ، وتداخل أطرافه، وصعوبة تصوُّره، حتى جعله بعضهم بابًا واحدًا، وضربًا متَّحدًا، وأنَّ كلَّ بالكٍ جازع، وهذا غلطٌ بَيِّن.

فنقول وبالله التوفيق: إنَّ دمع العين لا بأس به، بل هو محمود محبوب، لصدوره عن لِينِ القلب بالرحمة، فهو غير منافٍ للرضا ما لم يصحبه محذور كأقوالٍ وأفعالٍ أهل الجزع. وقد كان سيد الراضين ﷺ يبكي رحمة بالميت مع امتلاء قلبه بالرضا والحمد لربه تعالى، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فعن أنس بن مالك، قال: «شهدنا دفن بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال: «هل منكم من أحدٍ لم يقارف الليلة؟» فقال أبو طلحة: أنا. فقال: «انزل في قبرها» فنزل في قبرها»^(١). وعنه أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يُجودُ بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن

(١) البخاري (١٢٨٥) (١٣٤٢).

عوف، إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ ابنةً له تَقْضِي^(٢)، فاحتضنها، فوضعها بين يديه، فماتت وهي بين يديه. فصاحت أمُّ أيمن، فقال: يعني رسول الله ﷺ: «أتبكين عند رسول الله»^(٣)؟ فقالت: ألسْتُ أراك تبكي؟ قال: «إني لستُ أبكي»^(٤)، إنما هي رحمة، إنَّ المؤمن بكل خير على كلّ حال، إنَّ نفسه تُنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله تعالى»^(٥).

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أرسلتُ بنتَ النبي ﷺ^(٦): إنَّ ابني قد احتَضَرَ فاشْهَدْنَا. فأرسل يُقَرِّئُ السلام ويقول: «إنَّ لله ما أخذ، وله ما

(١) البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٢) تقضي: تشرف على الموت. زاد النسائي في روايته: «صغيرة» وهي بنت بنته زينب من أبي العاص بن الربيع، رضي الله عنهم. وروي أنها أشرفت على الموت، ولم تمت حينئذ، بل عاشت بعده ﷺ حتى تزوجها علي بن أبي طالب، ومات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنها.

(٣) أي: بكاءً محظوراً مقترناً بالصياح دالاً على الجزع. أما بكاء الرحمة فحسن، فعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قَبْلَ عثمان بن مظعون، وهو ميّت، وهو يبكي. رواه الترمذي (٩٨٩) وصححه الألباني.

(٤) أي: لست أنوح.

(٥) أحمد (١/ ٢٦٨) والترمذي في الشئائل (٣٢٤)، وصححه الألباني في مختصر الشئائل (٢٧٩).

(٦) قيل: إنها زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ.

أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرفع إلى النبي ﷺ الصبي، فأقعدته في حجره ونفسه تقعقع، قال: كأنها شنُّ، وفي رواية: تقعقع^(١) كأنها في شن^(٢) ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب من شاء من عباده، إنها يرحم الله من عباده الرُحماء»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت، حتى رأيت الدموع تسيل». ولفظ الترمذي: «أن النبي ﷺ قبل عثمان بن مظعون، وهو ميت وهو يبكي، أو قال: عيناه تذرفان»^(٤).

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفرًا للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فُتح عليهم»^(٥).

(١) تقعقع: تضطرب وتتحرج، أي أن روح الصبي تخرج من جسده.

(٢) الشنُّ: القرية البالية.

(٣) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٤) أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وصححه الألباني.

(٥) البخاري (٤٢٦٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «اشتكى سعد بن عبادَةَ شكوى له، فأُتاه النبي ﷺ يعودُه مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل عليه وجده في غاشية أهله^(١) فقال: «قد قضي؟» قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: «ألا تسمعون؟ إنّ الله لا يُعَذِّبُ بدمع العين، ولا بحُزن القلب، ولكن يُعَذِّبُ بهذا^(٢)» - وأشار إلى لسانه - أو يرحم^(٣)» (٤). (٥)

واملاً فؤادك رحمةً لذوي الأسي لا يرحم الرحمن من لا يرحم

قال شيخ الإسلام: «ولهذا لم نؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون مضرة، لكن يُعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه^(٦)».

(١) غاشية أهله: أي: الذين يغشونه للخدمة وغيرها. عن: فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٧٥).

(٢) «ولكن يُعَذِّبُ بهذا»: أي: إن قال سوءاً. عن: فتح الباري (٣/ ١٧٥).

(٣) «أو يرحم»: أي: إن قال خيراً. فتح الباري (٣/ ١٧٥).

(٤) البخاري (١٣٠٤)، ومسلم، (٩٢٤).

(٥) وانظر: رحمة للعالمين، لسعيد بن وهف القحطاني رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٨١ - ٨٤).

(٦) فالمحمود بكاء الرحمة بالميت، لا بكاء فوات حظ نفسه منه.

وبهذا تعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال: «إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ»^(١). وأنّ هذا ليس كبكاء من يبكي لِحَظِّهِ لا لرحمة الميت، وأن الفضيل بن عياض لما مات ابنه عليّ ضحك وقال: «رَأَيْتُ أَنَّ اللَّهَ قَضَى فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرْضَى بِمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ». فحالُه حال حسنٌ بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي ﷺ فهذا أكمل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ﴾ [البَلَد: ١٧]، فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة. والناس أربعة أقسام:

منهم من يكون فيه صبرٌ بقسوةٍ، ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بجزعٍ، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزعُ، والمؤمن المحمود الذي يصبرُ على ما يصيبه ويرحمُ الناس^(٢). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ذكر في مناقب الفضيل ابن عياض أنه ضحك يوم مات ابنه علي فسئل عن ذلك فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى بِقَضَاءٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرْضَى بِقَضَائِهِ». وهدي رسول الله أكمل وأفضل، فإنه جمع بين الرضا بقضاء ربه تعالى وبين رحمة الطفل، فإنه لما قال له سعد بن عباد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هَذِهِ رَحْمَةٌ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ». والفضيل ضاق عن الجمع بين الأمرين، فلم يتسع للرضا بقضاء الرب وبكاء الرحمة للولد. هذا جواب شيخنا سمعته منه^(٣).

(١) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٢) أمراض القلوب (١ / ٥٨) وانظرها في مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٧).

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (١ / ١٠٦).

وعلى الباكي أن يتذكّر الرضا، ويحرّك به قلبه حتى لا تأخذه زفّراتُ الحزن
لشيء من الاعتراض وهو لا يشعر.

قُلْ لِقَوْمٍ يَسْتَنْزِفُونَ الْمَآقِيَ	هَلْ شَفَيْتُمْ مِنَ الْبُكَاءِ غَلِيلاً
مَا أَتَيْنَا إِلَى الْحَيَاةِ لِنَشْقَى	فَأَرْجُوا أَهْلَ الْعُقُولِ الْعُقُولَا
كُلُّ مَنْ يَجْمَعُ الْهَمُومَ عَلَيْهِ	أَخَذَتْهُ الْهَمُومُ أَخْذًا وَبِيلاً

﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

فلذة الكبد روح رقيقة تمشي بين يدي والديها، ورياسة أنيقة تتهادى بين روحيهما، وأمنية وضيفة أسعد الله بها قلبيهما، حقيق بهما الابتهاال لرّبها بصلاحها، وقد كانت دعوة زكريا عليه السلام لولده الذي لم يولد بعد: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ﴾ [مَزَيَم : ٥ - ٦]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «رضيًّا: أي: مرضيًّا عندك وعند خلقك، تحبه وتحبّه إلى خلقك في دينه وخلقه»^(١). وكان يسأل ربه الذرية الطيبة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٣٨]، فأجاب رب العالمين دعاءه بولد نبي رضي مرضي سيّد حصور لم يُسمَّ أحدٌ على اسمه قبلاً، ﴿يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ﴾ [مَزَيَم : ٧]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيَىٰ﴾ [الْأَنْبِيَاء : ٩٠]. وكان من دعاء الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۖ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٤٠].

وبركة صلاح الوالد تدرك الولد بإذن الله تعالى ولو بعد حين، ﴿وَكَانَ

أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الْكَهْف : ٨٢].

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢١٤).

فذرية المرء هي رأس ماله الباقي بعده، وهم امتداده بعد رحيله، ومفرّحه في قبره بصلاحهم واستقامتهم، ويوم القيامة بأمانهم وسعادتهم، والله المستعان. ولحطّان بن المعلّى في وصف ولعهِ ببنّياته:

لَوْ لَا بُنَيَّاتُ كَزُغْبِ الْقَطَا رُدْدُنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرِبٌّ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ بِالطُّولِ وَبِالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَتَنَّا أَكْبَادُنَا تَمَثِّي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي عَنِ الْغَمَضِ

وما أجمل الذرية إن استقامت لربها، فهي الزينة والبهجة والسرور والامتداد والذخر والخير المستمر الباقي، اللهم أصلحنا ووالدينا وذرياتنا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين، واجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا، ربنا وتقبل دعاءنا وهبنا اللهم لنا من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، إله الحق آمين، وصل اللهم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.



عوائق الرضا

أمرٌ بهذا القدر في أعمال القلوب حقيق بالتنقيب عن كل ما يعمره في القلب ويدفع ضده، والله تعالى قد بنى ابتلاء الدنيا على سُنَّةِ الدفع والمُدافعة، فالباطل يُدفع بالحق، والشرُّ يُدفع بالخير، والضلالُ يُدفع بالهدى، والجهلُ يُدفع بالعلم، والمنكرُ يُدفع بالمعروف.. والسَّخَطُ يُدفع بالرضا مهما اشتدت عقباته، وتلوّنت تلبيساته، وتكاثرت أعباؤه، فالجائزة - برحمة الله تعالى - هي الحُسنى وزيادة! قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وإنَّ للراضي بره خِصالٌ شريفة، وأخلاقٌ مليحة، وشيِّمٌ مشهورة، ومقاماتٌ لله محمودة، فالمؤمن بالقضاء، الراضي به، صبور متجلد، يتحمل المشاق، ويتصلع بالأعباء، وخاصة في العصور المتأخرة، فكيف بالوقت الذي يكون «القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر»^(١).

أمَّا ضعيف الرضا بالقضاء، الذي لا يقوى على احتمال المصائب، ولا يصبر على أدنى شيء منها، فهذا لضعف إيمانه، ورخاوة نفسه، وانزعاجها العظيم للشيء الحقير، فما أن يصاب بالتأفة من الأمر حتى تراه حرج الصدر، فتقشّر مضجعه، وتؤرق جفنه، وهي - وأكبر منها - لو وقعت لمن هو أقوى منه

(١) الترمذي (٢٢٦٠) وصححه الألباني.

إيماناً ورضاً بالقضاء لم يُلق لها بالاً، ولم تحرك منه نفساً، ولنام ملء جفونه رضيّ البال، قرير العين بالله رب العالمين.

فالذي يجزع لأتفه الأسباب، قد يصل إلى الجنون، أو الوسوسة، أو تعاطي المسكرات على اختلاف مستوياتها، أو قتل النفس، أو الانتحار. وما أكثر هذه الأمور في المجتمعات التي لا ترضى بقضاء الله تعالى. فالذي لا يرضى بما يصيبه من المصائب؛ يدبّ إلى روعه القنوط، ويظن أنها قاصمة الظهر، ونازلة النوازل، ويرمي نفسه في وحل اليأس، وسجن الاكتئاب.

أمّا المؤمن بالقضاء والقدر، الصابر على المصيبة، وعن المعصية، فلا تراه إلّا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من الله، مؤقناً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً، وأن العاقبة للمتقوى، وأن قضاء الله نافذ لا محالة، فلا يأس، ولا قنوط، ولا كسل، ولا هوان، ولا تهاون، تسمو به الحال فيصل إلى منزل الرضا، فيرضى عن الله، ويرضى الله عنه^(١).

والعسرُ مهما قسا فاليسرُ يتبعه وعدٌ من الله هذا الوعدُ يكفينَا وأمرُ الله نافذٌ مهما هرب العبد منه، وقدره كائنٌ مهما حاول العبد تغييره، وقضاؤه واقعٌ مهما زيف القلب بصيرته بمصيره.

وقد كان الصاحب بن عباد يقول: «بَدِئَ الشعرُ بِمَلِكٍ، وهو امرؤ القيس، وخُتِمَ بِمَلِكٍ، وهو أبو فراس الحمداني». ومن شعره:

(١) الرضا بالقضاء، سالم القرني، مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٥٠) بتصرف يسير.

إِذَا اللَّهُ لَمْ يُحَرِّزْكَ مِمَّا تَخَافُهُ فَلَا الدَّرْعُ مَنَاعٌ وَلَا السِّيفُ قَاضِبٌ

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يكون كيّساً فطناً نبيهاً لمداخل الشيطان على
خبايا قلبه الذي هو موضع نظر ربه، فمن عوائق الرضا
١ - الاعتراض على قضاء الله الشرعي:

والاعتراض قد يكون على قضاء الله الديني الشرعي، وقد يكون على
قضاء الله الكوني القدري، وبخاصة الأقضية التي تخالف ما يجب العبد
ويهوى. فالاعتراض مُعَارِضٌ لقول المسلم: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، فكيف لا ترضى
بأمرٍ وقضاءٍ مَن رَضِيتَهُ رَبًّا؟! فعلى المؤمن أن يُحِبَّ ما أَحَبَّ اللَّهُ، ويبغض ما
أبغضه الله، ويرضى بما قَدَّرَهُ الله، ويسلم لحكم الله.

إِنَّ الْمُؤْمِنَ حَفِيٌّ بِأَمْرِ رَبِّهِ مَهْمَا تَقَلَّبَتْ بِهِ أَعْطَافُ أَقْدَارِهِ، وَأَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ
عَوَاصِفُ قَضَائِهِ، فَيَسْتَقْبِلُ قَاصِفَ الْقَدَرِ بِجَبَلِ التَّسْلِيمِ الرَّاسِخِ، وَيُؤَاجِهَ
بَرْقَ شَدِّ الْقَضَاءِ بِجَبِينِ الرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ، فَتَنْكَسِرُ عَنْ قَلْبِهِ الِاعْتِرَاضَاتُ
الشَّيْطَانِيَّةُ، وَتَرْتَدُّ عَنْ صَدْرِهِ الْمَخَاصِمَاتُ الْإِبْلِيسِيَّةُ، فَهُوَ مُسْتَسَلِّمٌ لِرَبِّهِ،
مَفَوَّضٌ لِإِلَهِهِ، مُسْتَرِيحٌ الْبَالِ، قَرِيرُ الْعَيْنِ، قَدْ اِمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْيَقِينِ، وَالْحُبِّ،
وَالثِّقَةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالتَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ.

أما الكافر فخائبةٌ صفقته، غابرةٌ حُفْرَتُهُ، نَاجِزَةٌ هَلَكَتُهُ، حَاضِرَةٌ نَدَامَتُهُ،
مَكْتَمَلَةٌ أَرْكَانُ عَذَابِهِ، فَلَا سَلَامَ مِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا، وَلَا أُجِيرَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ،
﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فَأَعْظَمَ الْخِذْلَانِ هُوَ حَالُ مَنْ كَرِهَ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٢٨].

وتأمل هذا الحديث المخيف الذي أخرجه الشيخان^(١) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالسَّأَلِ^(٢)، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ فَقَالَ: «سَلُونِي، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّتَهُ لَكُمْ». فلما سمع ذلك القوم أَرْمَوْا^(٣) وَرَهَبُوا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ أَمْرِ قَدْ حَضَرَ!

قال أنس: فجعلتُ أَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَأْفُ رَأْسِهِ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي^(٤)، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ كَانَ يُلَاحِظُ^(٥) فَيَدْعِي لغير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أَبُوكَ حَذَافَةٌ». فَبَرَكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، عَائِذًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ

(١) البخاري (٧٠٨٩) ومسلم (١٨٣٢ / ٤) (٢٣٥٩) واللفظ له.

(٢) أي: أكثروا سؤاله فيما ليس لهم أن يسألوه.

(٣) أي: سكتوا.

(٤) ولفظ البخاري: «فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ». رضي الله

عنهم وأرضاهم، ألا ما كان أخشعهم لله تعالى وأرهبهم وأتقاهم وأعلمهم وأزكاهم

وأرضاهم، اللَّهُمَّ أَلْحِقْنَا بِهِمْ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نِدَامَى، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ.

(٥) يُخَاصِمُ.

الفتن^(١). فقال رسول الله ﷺ: «لم أرَ كالיום قطّ في الخير والشر، إني صُورْتُ لي الجنة والنارُ فرأيتُهما دون هذا الحائط».

وفي رواية البخاري: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: «النار»! فتأمل كيف كان الرضا بالله تعالى والجأر بذلك من أسباب حفظ الله عبده من الفتن ومواقع السخط.

واعلم أنّ أكثر من يسبُّ القدر ويعترض على القضاء هم الشعراء الذين قال الله فيهم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٤] فإن كان تابعهم غاويًا فكيف بهم؟! نعوذ بالله من الغواية عن الهداية، ومن الجهل بعد الحلم، ومن الحور بعد الكور.

وتأمل حال الناس معهم الآن وكيف يستفزّون أحلام الناس بأبيات تسير بينهم كالنار في الهشيم، ورُبَّ بيتٍ شعرٍ فرّقَ شملَ فتامٍ من الناس كثير!

وانظر الى اجتماع الناس حولهم فيما يسمّونه حفلات وعروضات ومحاورات وأمسيات، وكيف يفقد بعض من كانوا محسوبين من أهل العقل رزانتهم، فيتمايلون ويرقصون ويصفقون ويصيحون ويرمون العمام، وأعجب من ذلك بعض كبار السنّ الذين يرقصون الليل طربًا، ويهزّون الأرض

(١) وهذا فقه عظيم من المحدث الملهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالصدع بالرضا في هذا المقام، والتعوذ بالله تعالى من سوء الفتن كان - بإذن الله تعالى - من أسباب تخفيف غضب رسول الله ﷺ. ففي الرواية الأخرى لمسلم: قال: «فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك».

بأقدامهم هزًّا، حتى إذا صَفَّ أقرانُهم للصلاة بين يدي ملك الملوك قعدوا في صلاتهم على كراسيهم كسلاً، والله المستعان، ولو امتلأت قلوبهم بتعظيم الصلاة والقرآن والحياء والتوقير للرحمن لما رأوا لها سلوةً وفرحاً سواها.

ثم انظر كيف يتقَصِّفُ الناس على قصائد الغزل بالمعازف والأوتار، ثم يقصدون أن تُغْنَى بأجمل وألين وأرخم الأصوات الخالبة أفئدة السامعين المصِخِّين والسامعات الحالمات، حتى تفعل في ألبابهم فعل الراح المُعْتَقِّ، فيهذي سامعها كالسكارى، ويتميل كالعدارى، ثم يبكي كاليتامى، مِقْتًا أو فِرَاقًا أو شوقًا لغير الرحمن!

والمخذول من خذله الله تعالى، فكم من قلب عامر بالإيمان خرَّبتَه وقسَّته وأمرضته وأغفلته وأنكسته، وعن التلذذ القرآن العظيم وتدبره أبعده، ويكفي أنه مزمار الشيطان وحاده، ومطيته وناديه. قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: ٦-٧] قال أكثر المفسرين: «معنى لهو الحديث في الآية الغناء»، وقال جماعة آخرون: «كلُّ صوتٍ منكَّرٍ من أصوات الملاهي، فهو داخل في ذلك: كالزممار، والرَّبابة، والعود، والكمان، وأشباه ذلك، وهذا كله يصدّ عن سبيل الله، ويُسبب الضلال والإضلال^(١).

(١) وانظر: مجموع فتاوى ابن باز (١٥٠/٢١).

والله تعالى عدل مقسط، فلمّا ذمّ الشعراء بيّن سبب ذلك، واستثنى من لم يكن من أهل ذلك الوصف، فقال جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٥]، أي: أنهم يتكلمون في كل أمر بلا وازع من الأخلاق، ولا رقيب من الديانة، ولا أنثرة من علوم الأنبياء، إن رضوا مدحوا وغلوا وكذبوا، وإن سخطوا هجوا وظلموا وبهتوا، يتسوّلون الحطام بأبياتهم كما تأخذ البقرة الكلاً بلسانها، ويبدّلون الحقائق بقصائدهم، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٦] وهذا محض الكذب، ومصنع الزيف، ومِهَادُ دعاوى نفخ الذوات الفارغة بأوهام أقنعة الخداع وألبيسة التضليل!

ثم استثنى الله عز وجل من اتقى منهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٧] أي من آمن بالله واتقاه، وعمل الصالحات، وعمر قلبه بالإيمان، وطهر لسانه بالصدق والتقوى، وعطر صدره باليقين والرضا، وصقل روحه بالإكثار من ذكر الله تعالى، وانتصر من بعد ما ظلم، وبخاصة من انتصر لله تعالى، وذبح عن دينه، وجاهد بلسانه أعداء الملة، فهو من الشعراء الصالحين المصلحين البررة المجاهدين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٧]. وفي تنوير المقباس^(١): ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ كحسان بن ثابت وأصحابه﴾ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الطَّاعَاتِ فِيما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فِي الشُّعْرِ ﴿وَانْتَصَرُوا﴾ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ بِالرَّدِّ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿مِنْ

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي (٣١٥/١)

بَعْدَ مَا ظَلَمُوا ﴿ هَجَوْا هَجَاهُم الْكُفَّارَ ﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿ هَجَوْا النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ ﴾ أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿ أَيُّ مَرْجِعٍ يَرْجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَهِيَ النَّارُ، يَعْنِي إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾.

ولا يعني هذا تعميم المذمة في الاعتراض على القضاء على الشعراء، فمن الشعراء بحار علم وجبال إيمان، فمنهم أهل إيمان عظيم، ويقين راسخ، ورضاً نادر، وجهاد كبير، ولهم أبيات في نفع الناس سائرة، ومواعظ في تنبيه قلوب الغافلين شائعة، وقصائد في نصر دين الله ذائعة، وأبيات صدّحوا بها الله تعالى وصرخوا بها بين أركان العالم فكان أن شقّت حناجرهم بأيدي طواغيت الإنس لتصعد أرواحهم المؤمنة لرحاب الآخرة شهيدة سعيدة مُرْتَضَاة، فالمجاهد بيانه وأبياته أحد المجاهدين، وكُرِبَ قصيدة تهدم أبنية الكفر، وتقصف هام العدو أشد من وقع النبل والرصاص والقنا الحطّار.

إِذَا قِيلَ مَهْلًا قَالَ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ
وقد كان حسان بن ثابت يهجو قريشاً بأمر رسول الله ﷺ وروح القدس معه، بل وكان جبرائيل عليه السلام يُلقّنه بعضَها إلهاماً كما ورد في الآثار. والمقصود؛ أنّ العادة قد جرت على كثير من الشعراء في ذلك الأمر المردول جهلاً وغفلة وتساهلاً، والحمد لله رب العالمين.

٢- التهاون في أمر التوكل على الله تعالى:

التوكل شرط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التَّائِبَةُ : ٢٣]، وإذا رضي العبد بربه حقاً تعلق قلبه بحوله وطوله وقوته ومدده

دون أسباب الخلاق، والتوكل الصحيح موصل بإذن الله تعالى للرضا الصحيح، لأنه إذا صدق التوكل على الله تعالى ترتب عليه علم القلب بأن تدبير الأمور بيد الله تعالى، وأنه لا راد لما قضاه ولا معقب لحكمه فيرضى ويسلم.

وبالجملة؛ فالتوكل هو العيش بالله والإخلاص هو العيش لله، فبهما وصل من وصل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الكريم الرحيم.

٣- التسخط:

السَّخَطُ ضد الرضا ونقيضه وحريبه، وفيه شقاوة الساخط وخذلانه وخساره. وقد جعل الله تعالى الهم، والغم، والحزن، في التسخط، والتبرم من أمر الله تعالى، وكتب على صاحبه شتات القلب، ومرض الروح، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، وضعف اليقين بموعد الله. وأما الرضا فيفرغ القلب لربه، ويقلل همه وغمه بدياه، فيتفرغ لعبادة الله بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغموها.

والسخط من سوء الخلق؛ لأن الساخط مخاصم لله تعالى فيما لم يرض به من أحكام شرعه وأحكام قدره، من أمره ونهيه، أو قضائه ورزقه وتدبيره، وما يصيبه من نوائب ومصائب.

وهذه المخاصمة هي أصل منهج إبليس مع ربه، فقد كان منهجه عدم الرضا بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية القدريّة، فلو رضي لم يُمسَخ من المُصافّة الملكية العلويّة رجماً إلى الحقيقة الشيطانية الإبلسية.

والسخط يفتح باب الشك بالله تعالى، وقضائه وقدره وأمره وحكمته وعلمه، فقلّ أن يسلم الساخط من شك يُداخل قلبه، ويُزِيلُ يقينه، وإن كان لا يشعر به، لكن لو فتش نفسه غاية التفتيش، واختبرها، لوجد إيمانه معلولاً، وتصديقه مدخولاً، ورضاه منقوصاً، ويقينه منقوصاً، فإن الرضا واليقين صاحبان لا يكادان يفترقان، كما أن السخط والشك قرينان لا ينفكان.

والسخط يوجب اضطراب قلب العبد وريبته وانزعاجه وعدم قراره، كما أنه يوجب تلوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تتحقق عبوديته لله تعالى.

فإذا ابتلى الله سبحانه وتعالى عبده في رزقه أو غير ذلك من أمور حياته، فإنما ذلك امتحان له: أيرضى أم يسخط. يدل على ذلك آيات منها: ﴿قَآمَآ الْإِنْسَٰنُ إِذَا مَا أُنْبِلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا أُنْبِلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ ۝﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]. لأن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق، فقد يُوسَّعُ على الكافر لا لإكرامه، بل لاستدراجه، ويضيق على المؤمن لا لإهنته، بل لإكرامه في حاله وعاقبة أيامه، ولحكمة هو يعلمها سبحانه، وقد يكون منعاً له من شرّ الغنى حميةً له وحفظاً.

هذا؛ ومن الناس من تمنى أنه لم يُخلق! وهذه الأمنية تختلف بحسب مقصد قائلها، فإن حمله على ذلك الخوف من الحساب والعقاب، والخشية من التَّبَعَة، والحياء من تقصيره في جناب ربه تبارك وتعالى؛ فتلك أمنية محمودة.

وعلى ذلك يُحمل ما ورد عن تمَنِّي بعض الصحابة أنهم لم يُخلقوا، كما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا ليتني كنت شجرة تُعَصَّدُ ثم تُؤْكَلُ». وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول - وقد أخذ تبنة من الأرض -: «يا ليتني كنت هذه التَّبنة، يا ليتني لم أَلُ شَيْئًا مذكورًا، يا ليت أُمِّي لم تلدني». وقال عثمان رضي الله عنه: «وددتُ أني إذا مِتُّ لا أُبعثُ». وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «وددتُ أني كنت كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحَسَّوا مرقِي». وقالت عائشة رضي الله عنها: «يا ليتني كنت نسيًّا منسيًّا». وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح»^(١).

وأما إن كان الحامل عليه التسخُّط والاعتراض وردَّ القضاء والتبرُّم بقدر الله تعالى فهي من الأمنيات المحرمة والكلمات المذمومة التي تنافي خلق المؤمن وصبره واحتسابه ورضاه وحمده وشكره لله تعالى.

وبالجملة؛ فالسخط يهدم بنيان الرضا فلا يجتمعان لأنهما نقيضان، وعلى قدر نسبة وجود السخط في القلب يرتفع منه ويخرج بقدره من الرضا، وتلك لَعَمْرُ اللَّهِ الفاقرة، نعوذ بالله منها.

٤ - الحزن غير المشروع:

أكثر الحزن مذموم، إما لجهته وموضوعه، أو قدره وكميته، فإياها الراضي بالله: لا تحزن، فالحزن شعور سلبيّ سوداوي مَرَضِيّ، مخالف للسرور

(١) ولمزيد أمثلة انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (١/٣١٣).

والسعادة والاستبشار والصحة، وهو مفضٍ مع الاستمرار في سردابه للكآبة، والقنوط، وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبرّه، فلا تقف عند أخطائك، ولا تجلد بها ذاتك، فلكلّ منّا أخطاؤه الغيبية في الحياة، وللعبد فُرص ما دام قلبه ينبض بالحياة، وله مخارج من نكباته مهما كانت في دينه ودنياه إن كان مع الله تعالى.

وليكن شعارك دومًا حينما تضيق بك الدروب، وتتراكم عليك الخطوب، وتمتنى بفشل وخيبة: لعل في الأمر خيرة، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. نعم؛ إنّ الله يعلم ما لا نعلمه، فيرى تمام العاقبة مهما تقاصرت عنها بصائرنا، وأمور المؤمن خير لأن الله تعالى نفسه من يصنعها ويُقدّرهما، فكن على الدوام في كل حال واثقًا بالله علام الغيوب، ومدبر الأمور، وهو الرحيم الغفور، كن دومًا قويًا به، متوكّلاً عليه، راضٍ به، فما خاب من استمسك بعراه، وأخلص له وجهه، وكفر بكل معبودٍ سواه.

فأخلص وجهك على الدوام لله تعالى، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [الحل: ٥٢] أي: له الطاعة والإخلاص دائمًا ثابتًا واجبًا، فإخلاص العباداة على الدوام لله وحده لا شريك له، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢٣]، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، ومن أشرك معه شيئًا تركه وشركه، فلا ربحت صفقات المرائين، ولا نامت أعين المشركين!

وَلَا أَرَدَلْ مَنْ قَامَ مُظْهِرًا قِيَامَهُ لِلَّهِ، مُبْطِنًا قِيَامَهُ لِحَظِّ نَفْسِهِ، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ
 اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤) ﴿[الْعَلَق : ١٤]، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى
 مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ ﴿[الْقِيَامَة : ١٤ - ١٥] .

ثم تدبر هذه الوصية الربانية وتفقدّها في نفسك على الدوام: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ
 اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
 حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴿[الطَّلَاق : ٢ - ٣]، تبارك
 وتعالى.

واعلم أنّ كثيراً من الخيرة مقرون بالكثرة، ولم يضع من مالك ما وعظك.
 والجنة دار اللذائذ، وكما قيل: يا فاكهة موعدي وإياك الجنة. وقال ابن عطاء
 السكندري: «منع الله عطاءً، ولكن لا يفهم العطاء في المنع الا صديق»، أي أن
 أكثر الناس لا يدركون مصالح منع الله لهم مشترياتهم، فهذا المنع في حقيقته
 عطاء كبير وآلاء جسيمة ومنن كثيرة لم تكن لو أعطاهم الله عاجل رغبتهم،
 وقد تكون لو عجلت لهم فساداً عريضاً عليهم في دينهم ودنياهم، ولو كشفت
 لهم بعض حكمته في منعهم لحثروا له سجداً شاكرين حامدين. فالحمد لله رب
 العالمين على منعه وعطائه وعلى كل حال.

والمرض لا يقرب أجلاً والصحة لا تدفع محتوماً، بل هي أسباب إن شاء الله تعالى أمضاها وإن شاء ردّها، وقد ذكر ابن عبد ربّه في العقد الفريد^(١) أنّ أعرابياً خرج هارباً من الطاعون، فبينما هو سائر إذ لدغته أفعى فمات، فقال أبوه يرثيه:

طافَ يبغي نجوةً من هلاكٍ فهلك
والمنابرُ صُودُ للفتى حيثُ سلك
ليت شعري ضلّةً أيُّ شيء قتلَكَ
كلُّ شيء قاتلٌ حين تلقى أجلك

وأبلغ وأصدق وأحكم من ذلك قول ربّ العزة تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة : ٨]. ولما احتضر أبو بكر رضي الله عنه، تمثّلت عائشة رضي الله عنها بقول الشاعر:

لعمرك ما يُغني الشراءُ عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
فقال: يا بنيّة، ليس كذلك، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق : ١٩]. والله المستعان.

(١) العقد الفريد (٢١٨/٣) والنجوة: هي النجاة، وضلّة: من الضلال، أي عدم علمي به. والمشهور أنّ الأبيات لأُمّ تَابُطَ شراً، وهو السّليك بن السّلكة، وقد فقدته حينما قتل، والله أعلم.

ولا تكن - لك الله - ممن ينتهج إبعاد الأحبة، وطرد الأصدقاء، والازورار عن النصحاء، حتى إذا رحل الجميع اشتكى الوحدة، وعانى الوحشة.. يده أَوْكَّتْ وفوه نفخ، ومع كل حال: فليس مع الله وحشة، ولا مع عبده ضيعة. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الرَّؤْم: ٣٦].

ومن جميل المقول: «بطريقة ما ستدرك أن الطريق الذي اختاره الله لك كان أفضل ألف مرة من الطريق الذي أردته لنفسك، وأن الباب الذي أغلق في وجهك ألف مرة كان وراءه شرٌ محض، وأن اليد التي أفلتت لم تكن تناسبك منذ البداية، وأن البلاء الذي أنهك لم يكن سوى رحمة مُهداة، وأن انهيار الأسباب من حولك لم تكن بالقسوة التي ظننت، وإنما هي سنة الله في خلقه، وأن الأمر الذي جفاك النوم من أجله لم يكن يستحق كل هذا، وأنك قلقت أكثر مما ينبغي.

ويومًا ما ستدرك أنك لست مالك أمرك، وأن أمرك إن ضاق واستضاق فله ربُّ هو أولى به مني ومنك ومنهم ومنهن، وأن الله رحيم يُنجينا من شرور البشر، ومن أنفسنا حين لا نقوى عليها». ويا أيها الحزين: تَصَدَّقْ.

اعلم - رحمني الله وإياك - أن الله تعالى يحب الخير لعباده، ويدلهم على طريق الفرح، فلقد قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونُس: ٥٨] ونهى عن الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ الحجر: ٨٨.

ومن أجلّ أعمال القلوب قاطبة: الفرح بالله تعالى. ولو كان للسعادة معيارٌ حسيّ؛ لصُعق أهل المال والجاه والسلطان والصحة من افتقارهم لها إزاء غنى الأتقياء بها، ولو علم الناس حقيقة السعادة ما ذهبوا بعيداً، لأنها بين أيديهم لو كانوا يعقلون، إنّها في الفرح بالله تعالى، وطريقها الإيمان والقرآن والاستقامة.

حتى مع اليأس لا تحزن؛ فلك أسوةٌ صالحة، فكم من مؤمنٍ حبيبٍ لله قد مات وحاجته في صدره لم يدركها في دنياه. وبما أنّ المؤمن بشرٌ مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيّد مشاعره وطبيب روحه؛ فيُرخي لمشاعره الزمام شيئاً بحيث لا يكتبها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. ونبيّ الهدى ﷺ لم يسلم من الحزن العارض، فقد قال في ابنه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقلبه عامر بالرضا والحمد: «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١). وسئل ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ عن هَمٍّ لا يُعرف سببه؟ فقال: «هو ذنبٌ هممت به في سرّك ولم تعمله؛ فجُزيت همّاً به». فللذنوب عقوبات؛ السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية، والله المستعان.

وعليك بخبيئات الصالحات، فالخبايا للخبايا، فإن وهبك الله تعالى من ذخائر الإيمان وخبايا الأنس وألطف القرب فلا عليك ما فاتك من الدنيا وأهلها.

(١) البخاري ١٠٥/٢ (١٣٠٣) ومسلم ٧٦/٧ (٢٣١٥) (٦٢).

يظنّ به المغرورُ ظنَّ سفاهةٍ ولا عجباً فالكنزُ في القلبِ خافيا
سيعلمُ من قد فاز فوزاً ورفعةً إذا جُندلَ المخدولُ تحتَ السّوافيا

وليستعملُ الموفقُ علمه بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه
من دوافع حزنه، وروافع بلائه، وأسباب سلوانه، ولسان حال الشارد: لك
الله يا عذابات السنين، ويا جراحات الأئين، كم لك في الفؤاد من لوعة تكوي
نداءات الحنين. فيجيئه نداء العقل بتلاوة منشور الفلاح للمتقين:
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ -
١٥٧] وقول العليم الرحيم: ﴿قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَّجُ مُطَهَّرَةً وَرِضْوَانٌ مِّن
اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مزيم: ٩٦]. قال أحد السلف: «تذكر أن
كلّ نعمةٍ دون الجنةِ فانيةٌ، وكلّ بلاءٍ دون النارِ عافية».

فإن كان الأمر لفوات دنيا؛ فليعلم أن الدنيا بحذافيرها لا تستحقّ على
التحقيق حزن ساعة، لكن لضعفنا البشري المركّب، وغفلتنا الآنيّة، فإنّا
نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه. والزمن طيب جيّد للأحزان.
وعن تجربة: فمن أجدى طرقِ المواساة غير المباشرة للمُصابِ والمكلوم؛
إشغاله بأن يواسي مصيبةَ غيره ممن يحبهم، فينسى - مؤقتاً - مصيبته التي ستبرد
قليلاً بالتقادم. واعلم بأن من الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة!

تذكّرتُ عَصْرًا قد مَضَى فتهافَّتْ بناتُ الحشا وانهلّ مني المدامُ
ونعلمُ أنّ الملِكَ لله وحدهُ وأنّ قَضَاءَ الله لا بُدَّ وَاقِعُ

وأما إن كان الحزن للدين؛ فينظر: إن كان لذنْبٍ أو فوات طاعة وقُربِهِ؛
فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابيًا، بحيث يعوّض ما فاتهُ،
ويستدرك ما فرّط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنْبه ويلجّ بدعاء ربه
بقبول توبته والعفو عنه.

يا صاحبَ الهمِّ لا تنزعج فعما قليل يكونُ الفرجُ
فما في سديمِ الدُّنا من ظلامٍ إلا ومنه يكونُ البَلَجُ

وأما الحزنُ لِدِينٍ غيره؛ كتقصير الناس في طاعة الله، وانتشار المنكرات،
وضعف حال المسلمين، وضعف تدينهم، وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلاً
وسجناً وتشريداً، ونحو ذلك من الحزن السلبي لغلبة الكفار المادية
للمسلمين؛ فإنّه لا يصنع شيئاً، بل منهيٌّ عنه شرعاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْزُكَ
الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقد يكون حزنُهُ محموداً من جهة رحمة بهم، ولكن لا بدّ أن يكون حزناً
باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه
المنكرات، وبالدعوة إلى سبيل الله تعالى، والمجاهدة لأعداء دينه، وبالرضا
بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في
سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلّ ميسر لما خلق له.

وليعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين من المؤمنين، وأن غمسة فيها تُنسي شقاء الدنيا كله.

أقول وقولوا معي يا أباةً بصوتٍ يطولُ أعالي القممِ
إذا الدينُ أضحى ينادي رجالاً فلا خيرَ فينا إذا لم نقمِ
ولا خيرَ فيمن يصيحُ به الدينُ صيحةً غوثٍ فلم ينتقمِ

واعلم أنّ من الأدب مع الله تعالى أن تقول في إنكارك على من جاهر بالمنكر، أو عاند، أو حارب، أو حادّ عن جادة المرسلين، أو حادّ شرع الله العظيم أن تقول: ما أغرّ فلاناً بالله! ولا تقل: ما أجرّ فلاناً على الله، فقد تكون موهمة لشيء من قدرة المخلوق على الخالق تعالى وتقدس، وهذا معنى فاسدٌ مُحال، ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦]؟!

وراية الكفر إن طالّت سلامتها لا تياسن فإن الكسر لاقيها
وثمة بشارة لقلب كل مؤمن: وهي أنه مهما كان مكانك وزمانك وضعفك وعجزك وفقرك وقِلَّتْكَ أمام انتفاش الباطل وأهله؛ فاعلم أنهم لا يستطيعون سلب الإيمان من صدرك. وهذه وربي كافية في برد اليقين وثلج الطمأنينة، والشيطان نفسه لا يملك قدرة عليك، ولا تسلطاً على إرادتك، إنما هي أمانٍ ووساوس وكيد ضعيف، وهو القائل لأوليائه يوم الدين: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فكن قوياً بربك، واثقاً منه، موقناً به، متعلقاً به، طائعاً له، مخبتاً تائباً منيباً.

ومن نافع وصاياهم: «عند القدر لا تجزع، وعند الأمر لا تعجز».

فَتَبْ وَاثْقًا بِاللَّهِ وَثَبَةً مَّاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ
واحذر صحبة الأشرار، ومصادقة الفُجَّار، واعلم أنَّ معيار الشرِّ نقصُ
التَّدِينِ، وضعفُ وازع الإيمان، وعدمُ رفعِ الرأسِ بشعائرِ الشريعة، والمصيرُ
غداً هو البراءةُ بين كلِّ صحبٍ خلا المؤمنين، فيجأُ الكافر من قعرِ الجحيمِ،
ويصيحُ الهالكُ من أغلالِ سِجِّينَ: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الْفُرْقَانُ : ٢٨].
ومن حقوقِ الصحبة تخفيفُ الأحزان، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التَّوْبَةُ : ٤٠].
واعلم أنَّ أمرَ المؤمن خيرٌ كُلُّهُ، واللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَةُ : ٢٨] أي ليس عليهم خوف من
المستقبل، ولا حزن على الماضي. وليس مع الله ضيعة.

فإِذَا ابْتَلَيْتَ بِنَكْبَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا اللَّهُ حَسْبِيَ وَحْدَهُ وَكَفَانِي
ويا صاحبِ الهم: أينك عن الملاذ؟ إنَّه يقينك باللَّهِ وثقتك به، انطرح
بكلِّيتك بين رحمته وكرمه، قال ابن مسعود: «الصبر نفسُ الإيمان، واليقين هو
الإيمان كُلُّهُ». إلهي، أنا لك، وأنا إليك راجع.

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَالِهَا وَلَمْ يَذَرْ عُوَادُهَا مَا بِهَا
وَمَا أَنْصَفَتْ مَهْجَةً تَشْتَكِي أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا
فلكلِّ مهموم، أو حزين، أو مريض، أو مُحْطَمِ الْفُؤَادِ، أو متآكلِ الرُّوحِ من
فشله أو عثرته أو إحباطه: تَمَّ رَبُّ يَرَاكَ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَجْوَاكَ، ويفرح
بضراعتك، وَيُقَرِّبُكَ إِذَا تَخَلَّى عَنْكَ الْأَقْرَبُونَ. ويذكرك إن نسيتك المحبون،

ويرحُّك إذ قسا عليك الألدُّون، ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك،
ويشرح صدرك وييسر أمرك. فأين أين أنت عن طرق بابه، واللياذِ بعظيم
جنابه، والالتذاذِ بجميل خطابه، والانطراح في عبوديته ودعائه!

اشكُّ نفسك والناس إليه، واحذر من أن تشكوه إليهم، فكيف تشكو من
لا يأتي بالخير إلا هو!

وَإِذَا شَكَّوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ
وعليك بجادة الأنبياء: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦] والبتُّ
هو الحزن الذي لا يُطاق.

والناس يقولون: لا تكبت همومك في صدرك، وبُئها لصديق يواسيك؛
لأنَّ الصدر إذا نفث براً، ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن صبرٌ.

وَأَبْثْتُ عَمراً بَعْضَ مَا فِي جَوَانِحِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ مَا أَتَجَرَّعُ
ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يُسَلِّيك أو يتوجَّع
وما علموا أنَّ البتَّ النافع هو الشكوى إلى من بيده مقاليد الأمور ومعاهد
الأقدار.

فيا نازفاً همُّه بدموعه، ومُرسلًا شجنه بأنيته، وشكايته بزفراته؛ أبشر
ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فُبَّتْ له وحده شجونك وأحزانك،
وقل كما قال العبد الصالح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨٦] [يُوسُف: ٨٦].

ودرّب نفسك على أن يكون قلبك أقوى احتمالاً وأرحب مكاناً وأشدّ
جلدًا لأليم الواردات عليه، فإن ضاقت بك الأرض يومًا بما رحبت؛ فالجأ لمن
لا يخيب من دعاه، ولا يخسر من عامله، ولا ينهزم من توكل عليه، ولا يفتقر
من اغتنى به.

أمّا من لم يُطِق، ورأى صلاحه في بث بعض شكواه لمن وثق به؛ فلا بأس،
بشرط الأدب مع الله تعالى، بعدم تسخّط أفضيته والتبرّم من أقداره.

إذا لم أطق صبرًا رجعتُ إلى الشكوى وناديتُ تحت الليل يا سامع النجوى
وكيف ينفعنا الإيّاك بمرّ القضاء إذا لم تثبت على ثلج يقينه وبردِ حُسنِ
الظن بعاقبته قلوبنا عند احتدام الكرب والهموم، وارتدام البلايا والغموم!
وتذكّر أنّ أعظم مُسكّن في العالم هو جرعة من الرضا بمرّ القضاء.

ولا بأس حين تفيضُ كأسُ النفسِ المترعة بالأحزان من بوحٍ لذي دين
وعقل وجب ونصح، إذا لم يكُ وافرٌ صبرٍ، كما قال أبو تمام:

شَكَوْتُ وَمَا الشَّكْوَى لِمِثْلِي عَادَةً وَلَكِنْ تَفِيضُ الْعَيْنِ عِنْدَ امْتِلَائِهَا

ولكل مصاب ومحزون ومهموم: سيكون هذا يومًا ما مجرد ذكرى من
الماضي، فأرض ربك الآن؛ لتسعد بالذكرى غدًا، فالدنيا، كلّ الدنيا لا تساوي
غمسةً في الجنة.

ومن لم يتجرّع الرضا تقطعت نفسه عند المصيبات، قال الأصمعي رحمه الله: أقبل مُتَمِّم بن نويرة التميمي إلى العراق، فجعل لا يرى قبراً إلا بكى عليه، ف قيل له: يموت أخوك بالملأ وتبكي أنت على قبر بالعراق؟ فقال:

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لِتَذْرِافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
فَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ؟ لَقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالِدَكَادِكِ
فَقُلْتُ: لَهُ إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وكن - يا صاحبي - دائم الحياء من ربك، ويعظم الحياء في القلب بتذكر صفات الله تعالى، والتفكر في عظمته، والتدبر في كتاب كلامه المنزل لك، وفي كتاب خلقه المسطور أمامك في الكون الفسيح والكون الصغير، وتذكر عظيم نعمائه عليك، وتتابع ألطافه، وتراكم آلائه، فمهما صنعت لتؤدي شكرها لم تفلح، لكنه شكور حميد يقبل منك القليل، ويثيبك عليه الثواب الجزيل، ويفرح بقربك منه وهو المتفضل عليك، وهو المعين لك في الأولى والمعطي لك في الأخرى، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وهو الولي الحميد.

فإذا تدبرت ذلك، وغموض مآلك، ونقص أعمالك، وتقلب حالك؛ أبصرت نقصك وضعفك وعظيم جريرتك وحثم الرجعى إليه، وحينها يُطْرَقُ قلبك حياءً ووجلاً من الله تعالى. واعلم أن الحياء قرين الإيمان، فقد قال

الصادق المصدوق عليه السلام: «إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»^(١).

هَبِ الْبَعَثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسُلُهُ وَجَاحِمَةُ النَّارِ لَمْ تُضَرَمَ
أَلَيْسَ بِكَافٍ لَذِي فِكْرَةٍ حَيَاءُ الْمُسِيِّ مِنَ الْمُنْعَمِ
وَكُنْ مَعَ الْقُرْآنِ يَكُنِ اللَّهُ مَعَكَ، وَأَنْزِرْ أَرْجَاءَ بَيْتِكَ بِتِلَاوَتِهِ، وَجَوَانِحَ رَوْحِكَ
بِتَدْبِيرِهِ، وَرَبِيعَ عَقْلِكَ بِتَعَلُّمِهِ، وَسَمَاءَكَ بِأَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ، قَالَ الْحَبِيبُ عليه السلام:
«وَلِأَنَّ الْبَيْتَ لِيُتْلَى فِيهِ الْقُرْآنُ؛ فَيَتَرَاءَى لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لِأَهْلِ
الْأَرْضِ»^(٢).

وعن يحيى بن عون: قال: دخلت مع سَحْنُون^(٣) على ابن القصار وهو مريض، فقال: «ما هذا القلق»؟ قال له: الموت والقُدُوم على الله. قال له

(١) أبو نعيم في الحلية (٤ / ٢٩٧)، والحاكم (١ / ٧٣)، والبيهقي في الشعب (٧٧٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٠).

(٢) أخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٦-٢٧) من طريق السراج: حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد: حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة عن النبي عليه السلام قال... فذكره. وأخرجه أحمد (٦ / ٦٥): ثنا حسن: ثنا ابن لهيعة به. قال الألباني في السلسلة الصحيحة ١-٩ - (١٠ / ٢): وهذا إسناد جيد؛ لأن قتيبة صحيح الحديث عن ابن لهيعة، ولهذا قال الذهبي عقب الحديث: «هذا حديث نظيف الإسناد، حسن المتن.. وله شاهد من طريق آخر».

(٣) قاضي القيروان، وصاحب «المدونة». قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي السَّيَر (١٢ / ٦٤): «سمع من: سفيان بن عيينة، والوليد بن مسلم، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم،

سحنون: «أَلَسْتُ مُصَدِّقًا بِالرَّسْلِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنْ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يُرَى يَوْمَ

=

وَوَكَيْعِ بْنِ الْجِرَاحِ، وَأَشْهَبُ، وَطَائِفَةٌ. وَلَمْ يَتَوَسَّعْ فِي الْحَدِيثِ كَمَا تَوَسَّعَ فِي الْفُرُوعِ. وَقَدْ لَازَمَ ابْنَ وَهْبٍ، وَابْنَ الْقَاسِمِ، وَأَشْهَبُ، حَتَّى صَارَ مِنْ نَظَائِهِمْ. وَسَادَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ فِي تَحْرِيرِ الْمَذْهَبِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِئَاسَةُ الْعِلْمِ. وَعَلَى قَوْلِهِ الْمَعُولُ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَتَفَقَّهَ بِهِ عِدَدٌ كَثِيرٌ.

وَعَنْ أَشْهَبَ قَالَ: مَا قَدِمَ عَلَيْنَا أَحَدٌ مِثْلَ سَحْنُونٍ. وَعَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: سَحْنُونُ سَيِّدُ أَهْلِ الْمَغْرِبِ. وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَسْكِينٍ: سَحْنُونُ رَاهِبُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَالِكٍ وَسَحْنُونٍ أَحَدٌ أَفْقَهُ مِنْ سَحْنُونٍ.

وَكَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: «إِنِّي حَفِظْتُ هَذِهِ الْكُتُبَ، حَتَّى صَارَتْ فِي صَدْرِي كَأَمْ الْقُرْآنِ». وَكَانَ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِ مَغَازِي ابْنِ وَهْبٍ تَسِيلُ دُمُوعَهُ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الزُّهْدُ لَابْنِ وَهْبٍ يَبْكِي. وَمِنْ أَقْوَالِ الْإِمَامِ سَحْنُونٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَحَبَّةُ الدُّنْيَا أَعْمَى، لَمْ يَنْوِّرْهُ الْعِلْمُ». وَقَالَ: «كَانَ بَعْضُ مَنْ مَضَى يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ، وَلَوْ تَكَلَّمَ بِهَا لَانْتَفَعَ بِهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَيَحْبِسُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمَ بِهَا مَخَافَةَ الْمُبَاهَاةِ. وَكَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ الصَّمْتُ تَكَلَّمَ»، وَقَالَ: «أَجْرُ النَّاسِ عَلَى الْفِتْيَا أَقْلُهُمْ عِلْمًا». وَقَالَ: «مَا وَجَدْتُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ إِلَّا الْمَفْتِيَّ». وَعَنْهُ: «سُرْعَةُ الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ».

تَوَفَّى الْإِمَامُ سَحْنُونُ فِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَلَهُ ثَمَانُونَ سَنَةً، وَخَلْفَهُ وَلَدُهُ مُحَمَّدٌ. وَقَالَ أَبُو الْعَرَبِ: اجْتَمَعَتْ فِي سَحْنُونٍ خِلَالُ قَلْبًا اجْتَمَعَتْ فِي غَيْرِهِ: الْفَقْهُ الْبَارِعُ، وَالْوَرَعُ الصَّادِقُ، وَالصَّرَامَةُ فِي الْحَقِّ، وَالزُّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّخَشُّعُ فِي الْمَلْبَسِ وَالْمَطْعَمِ، وَالسَّمَاحَةُ. وَلَمْ يَكُنْ يَهَابُ سُلْطَانًا فِي حَقِّ، شَدِيدًا عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، انْتَشَرَتْ إِمَامَتُهُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى فَضْلِهِ. رَحِمَهُ اللَّهُ، وَعَلَى مِثْلِ ذَا فَاكِ بْنِ كَنْتَ بَاكِيا.

القيامة، وأنّه على العرش استوى، ولا تخرج على الأئمة بالسيف، وإن جاروا؟ قال: إي والله! فقال: «مُتْ إِذَا شِئْتَ، مُتْ إِذَا شِئْتَ»^(١).

ولكل قلب أضناه الحزن لعجز يده أو لسانه عن إنكار منكر: أنكر بقلبك، ثم تدبر قول ربك: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وما دام المؤمن متعلقاً بربه، محسناً الظن به، تامّ الطمأنينة بتدبيره، مفوضاً أموره إليه؛ فهو - والله - بخيرٍ مهما اشتد بلاؤه. فله في ثنائه ابتلائه منحة عظيمة ونعمة جلية، لا يتصورها إلا من عرف ربه بجميل صفات كماله، وكفى بنعمة الصبر والرضا والشكر والحمد والإيمان نعمة، فله الحمد كثيراً.

ولا تحدثني عن دنياك مهما كانت حالك معها، لكن حدثني عن حال قلبك مع ربك، فهو محور سعادتك لأبد الأبد. ولقد كتب أخ لأحمد بن حنبل أيام المحنة:

هذي الخطوبُ ستنتهي يا أحمدُ فإذا جَزَعْتَ مِنَ الخطوبِ فَمَنْ لها
الصبرُ يقطعُ ما ترى فاصبرُ لها فعسى بها أن تنجلي ولعلها
فأجابه الإمام:

صبرتني ووعظتني فأنا لها فستنجلي بل لا أقول لعلها

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٦٧).

وَيَحُلُّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ عَقْدَهَا ثَقَّةً بِهِ إِذْ كَانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا

وتذكر أن الخلق مجرد أسباب يُجري الله تعالى أسباباً للرزق على أيديهم، فلا خوفٌ علينا في أرزاقنا فهي مكفولة مضمونة، لكن الخوف العظيم من نقص أدياننا وتقصير أعمالنا، إذ لم يضمنها الله لنا، بل وعدنا وأوعدنا، فرزق الدنيا مضمون كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ (١) نَفَثَ فِي رُوعِي (٢) أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا» (٣). ولكن رزق الآخرة غير مضمون، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

فاسأل الرازق الغني ابتداءً وانتهاءً وإفراداً، أسأله أنواع الرزاق، واعلم أن خيرها رزق الإيمان والعمل الصالح، وتوكل على الحي الذي لا يموت، وثق بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجَار عليه، ولا تلتفت بقلبك ولا بوجهك لسواه. فكل شدة إلى زوال، وكل كربة إلى ذهاب، وكل هم إلى

(١) «روح القدس»: القدس: الطهارة، وروح القدس: اسم جبريل عليه السلام أي: الروح المقدسة الطاهرة.

(٢) «نفث في روعي»: النفث: النفخ بالفم، والرُّوع بضم الراء: القلب، والمعنى: ألقى في قلبي، وألهمني. أما الرُّوع بفتح الراء فهو الفزعُ. وانظر: الصحاح للجوهري (١٢٢٣/٣).

(٣) ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (٣٢٣٩)، والحاكم (٤/٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥).

نهاية، المهم ألا تهتز ثقتك بالله طرفة عين، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : ٣].

لبستُ ثوب الرّجاء والناس قد رقدوا وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلتُ: يا عدّتي في كلّ نائبةٍ ومن عليه لكشف الضرّ أعتمدُ
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي بالذلّ مُعترفًا إليك يا خيرَ مَنْ مُدَّتْ إليه يدُ
فلا تردّنها ياربّ خائبةً فبحرُ جودك يُروي كلّ من يردُ

ويصلُحُ حالُك إذا دبّرت دينك أكثر من تدبير دنياك، فرزقك مكتوب لك، ولو هربت عنه لأدركك، فابذل أسبابه واعمر آخرتك، ولا تخش الفقر فإن ذلك من لّات الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٨]. فلا تغتم لمستقبل يصنعه من هو أرحم بك منك.

واعلم أنّ الحزن الذي لا يُخرج الإنسان من كونه صابراً راضياً، أي كان قلبه مطمئناً فإنه لا يؤاخذ عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، بل قد يكون فيه مضرة، لكنه عفي عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله»^(١).

(١) أمراض القلوب (٥٨)، مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٦).

ويا أيها الحزين؛ أينك عن هذا الحديث العظيم الهائل المبدد سحب
الأحزان والمبيد عواصف الهموم، ولكم أفادني في أحيان كثيرة، فما أن تضيق بي
نفسي بكرب بالدنيا وأحزانها الفانية حتى ألهج لربي به، فإذا أنا في جنة الأنس
والسلوى بحمد ربي اللطيف الرحيم، فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:
قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبداً هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك،
وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك،
أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته
أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع
قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه
وغمه، وأبدله مكانه فرحاً». قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى،
ينبغي لمن سمعن أن يتعلمهن»^(١).

يا من يُرَجِّى في الشدائدِ كلَّها يا من إليه المُشْتَكى والمفزعُ
مالي سوى قرعي لبابك سُلمًا فإذا رددتْ فأنيُّ باب أقرعُ

٥ - النياحة:

ومما يضاد الرضا وينافيه النياحة، سواء كانت صادرة من النساء أو
الرجال، وإن كان المعتاد أن يكون من النساء في المآتم، وعند القبور، وعند
نزول المصائب، لضعف صبرهن ووهن احتمالهن إلا من رحمها الله منهن

(١) أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢) وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط - وإذا أطلقت
الأرناؤوط فهو شعيب رَحِمَهُ اللَّهُ..

فسكّنت قلبها بالصبر، وسلّته بالرضا، وأسعدته بالحمد والشكر. والنياحة من كبائر الذنوب لأنها منافية للرضا والتسليم، وهي من الجزع والاعتراض على القضاء قال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١).

والنياحة ضلال عظيم، تتضمن فعل ما نهى الله عنه، وترك ما أمر به، ففيها ترك الصبر، وفيها الجزع، وقول الهُجْر.

والنائحة متوعّدة بالعذاب، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ في أمّتي من أمر الجاهليّة^(٢) لا يتركونهنّ: الفخر في الأحساب^(٣)، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سُرْبَالٌ من قِطْرَانٍ، وِذْرُغٌ من جَرَبٍ»^(٤).

(١) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٣) (١٦٥).

(٢) في نسبه هذه الأربع لأمر الجاهلية مذمة كافية، فأمر الجاهلية موضوع، وما نسب إليها على لسان الشرع فهو مذموم.

(٣) الأحساب: هي ما افتخر بها من أمور معنوية كالنسب والجاه والمنصب. فالأنساب داخلة في الأحساب، ولما كان الفخر تارة يكون بها وتارة بغيرها كالمنصب والجاه والمال ونحوها عمّم ذلك، أما الطعن فلا يكون عادة إلا في النسب فخصّه، والله أعلم.

(٤) مسلم ٤٥/٣ (٩٣٤) (٢٩) والسربال هو القميص أو الثوب. أما الدرع فهو ما كان لاصقاً بالبدن.

فالنِّياحة وما يُحْفَظُهَا ويَقْتَرَنُ بِهَا من المَخَالَفات الشرعية تنافي الرضا بالقضاء، وهي أيضًا من التَّسَخُّط الذي هو ضد الرضا.

أَمَّا البكاء على الميت حين وفاته على وجه الرحمة فحسن، فقد قال ﷺ في ذلك، وقد بكى على مَيِّتِهِ: «إِنَّهَا رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرَحِمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحَمَاءُ» (١).

ولا زال أهل الوفاء ييكون أحبَّتهم رحمة وشوقًا، وإن كانت قلوبهم بالله راضية. قال إسحاق بن أحمد: كنا عند البخاري، فورد عليه كتاب فيه نعي الدارمي، فنكس رأسه ثم رفع واسترجع، وجعل تسيل دموعه على خديّه، ثم أنشأ يقول:

إِنْ تَبَقَّ تُفْجِعُ بِالْأَحَبَّةِ كُلَّهُمْ وفناءُ نفسِكَ لا أبا لَكَ أَفْجِعُ
أَلَا مَا أَعَزَّ الْوَفَاءَ، وَأَعَزَّ أَهْلَ الْوَفَاءِ! قال عوف بن النعمان الشيباني، وكان في الجاهلية، وقد أدرك النبي ﷺ: لَأَنْ أَمُوتَ عَطْشًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكُونَ مُخْلَافَ الْمَوْعِدَةِ.

أَشَدُّ يَدِيكَ بِمَنْ بَلُوتَ وَفَاءَهُ إِنْ الْوَفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ عَزِيزُ

(١) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

٦- تمّني الموت لبلاء الدنيا:

فالذي خلقك وأحياك ورزقك وربّاك هو من قدّر عليك تلك المصيبة، ومهما كان وقعها على قلبك فلا تجزع خلا مصائب الدين، لأن الله تعالى وإن قدّرها كونًا فهو لا يحبها شرعًا، فعليك فورًا بالتوبة منها، ومباعدة أسبابها، وعدم الفرح بها والركون إليها والانبساط عند ورودها، أما مصائب الدنيا فهي هباء وفناء، فلا عليك ما فاتك منها، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضَرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَ مَتَمِنًا الْمَوْتَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»^(١).

فدل الحديث على النهي عن تمّني الموت بسبب بلاء، أو محنة، أو خشية ذلك من عدو، أو مرض، أو فاقة، أو نحوها من المصائب التي تصيب الإنسان في حياته، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على المقدر، وعدم الرضا بالقضاء.

وتمّني الموت لا يقرب مواعده ولا يباعد أجله، ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأنعام: ٥٨]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وهذا بخلاف تمّني الشهادة في سبيل الله، فإنّ هذا حسن مطلوب؛ لأنه ذروة الإيمان، وهو دليل على الصبر والثبات والرضا بما يصيبه في ذلك مِمَّا يقدره الله عليه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي

(١) البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

نَفْسِي بِيَدِهِ، وَدَدْتُ أَنِي أَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتَلُ»^(١).

فَإِنْ شِئْتَ الْبُطُولَةَ صَحَّ بِقَوْمٍ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ هُمْ كَلَامًا

٧- الجزع والهلوع:

عند الأمر لا تعجز، وعند المصيبة لا تجزع، فالمصيبة إذا هجمت على القلب الغافل أورثته شيئاً من الجزع بحسبها وبحسب القلب الواردة عليه، فإذا تذكر العبد أن هذه المصيبة وسببها مقدور مكتوب؛ صبر على قدر الله، وسلم لأمره؛ فإن هذا من جملة ما أمره الله به؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التَّغَايُن: ١١]، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم».

والجزع ضعف في النفس، وخوف في القلب، تمده شدة الطمع والحرص، وهو متولد من ضعف الإيمان بالقدر، وصاحبه معاقب به، فيحرمه الراحة التي يرتاحها العابدون الراضون، ويخرب القلب الذي حقه عمارة اليقين والرضا والإيمان، ويذهب بخيرية العبد واستقامته وصدق تدينه.

(١) البخاري (٧٢٢٦).

والهلع أفحش الجزع، والهلع له معان منها: الحرص، والشح، والضجر، والبخل، والشره، والإمساك، والذي لا يشبع، وضيق العطن، والعجلة، وهذه المعاني كلها تنافي الرضا بالقضاء.

والجزع ضد الصبر الآيل إلى الرضا، فلا خير في العجز ولا في الجزع، كما نجده في حال كثير من الناس حتى من بعض المتدينين، فنراهم إذا ظلموا أو رأوا منكراً أو عدواناً لا يتصرون ولا يصبرون، بل يعجزون ويجزعون إلا من رحم الله.

وفي صحيح مسلم^(١) عن الأعرج عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدَّر الله^(٢) وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

فمن أراد بلوغ مقام الرضا فليحبس نفسه عن الجزع، والهلع، والتشكي، والتسخط، وأن يسأل ربه ثبات قلبه على الأحكام القدريّة والشرعية. وليس المراد أن يقسو قلبه ويمتنع عن الانفعال والتأثر بالنوازل، فمن لم يتأثر بها

(١) مسلم (٥٦/٨).

(٢) يصحُّ: قدَّر الله، وقدَّر الله.

لِغَلْظِ قَلْبِهِ وَقِسَاوَتِهِ لَا لَصَبْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ فَلَيْسَ مِنَ الرَّاظِينَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ^(١).
كما قيل:

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نُبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبْلِ
وهل هنا مسألة غريبة ولولا كثرة دورانها على ألسنة الناس ما أوردتها
لوضوح أمرها وتبيانها، كما أنَّ في ثنايا جواب الشيخ لها نفائس نادرة، والمسألة
هي حكم قتل المريض الميئوس منه بطلب منه من قبل الطبيب ونحوه. فقد
أجاب شيخنا الشنقيطي حفظه الله تعالى عنها بقوله: «هذه مسألة خطيرة جدًّا،
وهي التي يسمونها: مسألة قتل الرحمة، ولذلك - والعياذ بالله - من غرائب هذا
الزمان أنَّ الحرام في هذا الزمان لا يسمى باسمه؛ بل يصدق عليه قول الله:
﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، وهذا من تزيين الشيطان لعصاة بني
آدم، فهناك قتل يقولون عنه: قتل الرحمة، ويسمونه بهذا الاسم، وصدق عليهم
قول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وهذا القتل الذي يسمونه بقتل الرحمة يكون المريض ميئوسًا من علاجه،
فيقولون: لماذا يتعذب؟ يعطى إبرة تقضي عليه فيرتاح من عذاب المرض، ومن
آلام المرض، وهذا لا شك أنه اعتداء وقتل عمد، وسيأتينا - إن شاء الله - في
مسألة القتل بالسّم، فحقن المواد السامة في جسم الإنسان التي يقتل مثلها
يعتبر قتل عمد، والطبيب إذا فعل ذلك فإنه يعتبر قاتلاً.

(١) وانظر: الرضا بالقضاء، سالم القرني، مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٥٣-٣٦٧).

وللعلماء كلام في مسألة من قال لغيره: اقتلني، فإذا قال لغيره: اقتلني، فله صورتان: الصورة الأولى: أن يُكرهه على قتله، فيقول له: إن لم تقتلني سأقتلك، ففي هذه الحالة لا قصاص ولا دية على القاتل؛ لأنه في هذه الحالة هدهد، وله الحق أن يدفع عن نفسه، ولم يستبح نفساً محرمة، وسقط القصاص لوجود الإذن بالقتل، وسقطت الدية لأنه مستتبع لحكم القصاص.

وعلى كل حال: هذا القتل لا يجوز، وقد قالوا: إنما ذلك لأجل أن الشخص يتعذب بالآلام، بل توسع الأمر إلى درجة - والعياذ بالله - أنهم نظروا في الأشخاص المتخلفين عقلياً، ووجدوا أنهم عبء على أهليهم وعبء على ذويهم، فيحقنونهم بمواد تقضي عليهم، وهذا لاشك أنه من الاعتداء على حدود الله عز وجل، والإنسان وصفه الله عز وجل وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهناك قاعدة يضعها طالب العلم، بل يضعها كل مسلم نصب عينيه، وهي أن الطب له جانبان إن خرج عنهما فليس بطب، ولا تأذن له الشريعة أبداً:

الجانب الأول: علاج الأسقام ومداواة الجروح ونحو ذلك، وهو إصلاح الفاسد في الجسد.

الجانب الثاني: بذل الأسباب التي تحول بين الإنسان وبين الوقوع في المرض والسقم، وهو الذي يسمى بالطب الوقائي، فالأول يسمى: الطب العلاجي، والثاني يسمى: الطب الوقائي، فإن فَعَلَ الطبيبُ أيَّ فعلٍ في الآدمي

خارج عن العلاج، أو خارج عن الوقاية؛ فهذا ليس بطب، وقد خرج عن رسالة الطب، وخرج عن الإذن الشرعي بالطب.

فإذا قال: إن هذا مريض يتألم ويحصل له كذا وكذا، فنقول له: أنت طبيب تداوي، فإن أمكنك أن تداوي بذلت ما في وسعك، وإذا لم يمكنك أن تداوي فلا تدخلن بين المخلوق والخالق، فإن هذا ليس إليك، ولست أنت الذي ترحم، وليس بيدك الرحمة، إنما هي بيد الله سبحانه وتعالى الذي وسعت رحمته كل شيء، ولا تكن كمن قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦]، فلست أنت الذي تعلم الله من هو الذي يرحم والذي لا يرحم. ارحم بشيء تملكه، وشيء لا تملكه ليس من صنعك، وقد تكون هناك درجات من درجات العلى في الجنة جعلها الله لولي من أوليائه بعذابه في المرض والسقم.

وقد يجعل الله عز وجل في قرارة قلبه من اليقين ما يتلذذ به بهذا السقم والمرض، وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض السلف لما مرض في الطاعون كان يقول: «اطعني فوعزتك وجلالك إني لأتلذذ بما يصيبني منك»، وهذه هي منزلة الرضا عن الله عز وجل.

فلست أنت الذي تتدخل بين المخلوق والخالق، فهذه أشياء لا دخل للإنسان فيها، وليست من رسالة الطبيب، فإن حدود الطبيب محصورة، والله عز وجل بعزته وجلاله وقدرته وعظمته وكماله جعل كل شيء لغيره محدودًا قاصرًا، فمهما بلغ من القوة ومهما بلغ من المنزلة في العلم والإدراك للأشياء، فإنه يقف عند حد معين، ليقف ذليلاً أمام عزة الله جل جلاله، مهاناً أمام كرامة الله، يقف مكتوف اليدين أمام الله الذي علمه، وعندها يعلم علم

اليقين أنه لا حول له ولا قوة، ولذلك مهما تقدم الطب فسيصل إلى درجة لن يستطيع أن يتقدم عندها؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥]، وسيقولون: إن هذا لا علاج له عندنا، لكي يعلم كل أحد أن الله سبحانه وتعالى وحده الذي يشفي من المرض، كما قال ﷺ: «واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك» (١).

هنا تظهر عظمة الله عز وجل، فيعيش المريض يئن ويتألم في المستشفى، والأطباء واقفون، حتى يدخل كل شخص إلى المستشفى فيعلم أن الطبيب لا يملك له مثقال خردلة ولا أقل من ذلك من دون الله عز وجل، فهذا كله فيه أسرار وحكم، ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وهذه أشياء ما كان يعرفها المسلمون، فما كان المسلمون كلما مرض مريض حقنوه بحقنة وقضوا عليه، ما كانوا يفعلون هذا أبدًا، ولكن بحكم الاتصال بالكفار وسهولة المعرفة كما يقولون، أصبح شيئًا مألوفًا، وإلا فالمسلمون يعرفون الرضا، والتسليم بقضاء الله وقدره، ويعيش المريض ويأتي شخص ويقول لك: هذا المريض جالس عند أهله سنة أو سنتين وقد عذبهم وما يدريك أن هذه السنة والسنتين كم أصلحت من قلب كان فاسدًا، وكم قومت من شخص كان معوجًا، وكم سددت من شخص كان تائبًا بعيدًا عن الله سبحانه وتعالى، فقد يعيش مريض في البيت ويئن ويتألم فإذا بالشاب

(١) البخاري (٥٧٥٠) مسلم (٢١٩١).

السوي القوي يتذكر أنه إذا شاب وهرم سيئول إلى هذا المآل، فيخاف من معصية الله عز وجل.

فهناك حكم وأسرار كثير من الناس لا يعقلها ولا يعلمها، وأشياء لا يتدخل فيها الإنسان، أما الطب فله حدوده إذا رأى مفسدة أن يزيلها، أما حكم ومصالح ذلك المرض فلا يعلمها إلا الله عز وجل، والله أرحم بخلقه من خلقه بأنفسهم، قال ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١).

المقصود: أن هناك حدودًا ينبغي الوقوف عندها، وإذا خرج الطب عن هذه الأمانة والمسئولية من مداواة الأجساد، ووضع الأسباب، والحيلولة بين الأجساد والأسقام بقدرته الله عز وجل؛ فإنه ليس بطب، وإنما هو العبث، ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يزن الطب بهذا الميزان، قال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله ما وضع داءً إلا ووضع له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا داءً واحدًا وهو الهرم»، وفي رواية: «الموت»^(٢).

فنحن نقول: لا يجوز هذا الأمر، وهو حقن المريض بما يؤدي إلى موته، ولو كان مرضه ميئوسًا منه، ولو كان قد استنفذت مقاتله، فيسلم الأمر لله

(١) البخاري (٥٩٩٩).

(٢) ابن ماجه (٣٤٢٧) وصححه الألباني. وأحمد (١٨٤٥٥) بلفظ: «إلا الموت والهرم» وحسنه محققوه.

سبحانه وتعالى، فلا يجوز للطبيب ولا يجوز لأولياء المريض ولا للمريض أن يأذن بهذا الأمر الذي لا يُحِلُّه الله ولا رسوله، والله تعالى أعلم»^(١).

وبعد؛ فينبغي للمؤمن أن يكون على الدوام راسخ اليقين بربه تعالى، عظيم حُسن الظن به، كبير الثقة به، متذكراً على الدوام رَحْمَاتِهِ وَهِبَاتِهِ وَالْطَّافِهِ وَابْتِدَاءَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، فَإِنْ نَزَلَ عَنْ تِيكَ الرُّتْبِ الْعَالِيَةِ فَلَا أَقْلَ مِنْ ثَبَاتِهِ عَلَى هَضْبَةِ الصَّابِرِينَ، وَهِيَ لَعَمْرُ الْحَقِّ عَظِيمَةٌ مَبَارَكَةٌ حَافِظَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ نَزَّالَهَا، يَقُولُ رَبُّ الْعِزَّةِ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الزُّور: ٤٨]، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عَطِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الْآيَةُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَرَّرَ بِهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّهَا تُفَسِّحُ مَضَاقِقَ الدُّنْيَا»^(٢).

سَنَظُلُّ فِي جَبَلِ الرُّمَاءِ وَخَلْفَنَا صَوْتُ النَّبِيِّ يُهْرُنَا: لَا تَبْرَحُوا



(١) شرح الزاد للشنقيطي (١١ / ٣٤٨).

(٢) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ١٩٤).

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

وَرُبَّ بَاكِ فَوَاتٍ حَاجَتِهِ وَفِي الْفَوَاتِ النِّجَاةُ مِنْ عَظْبِهِ
 إِنَّ الْمُؤْمِنَ رَاضٍ مُسَلِّمٌ لِأَمْرِ رَبِّهِ تَعَالَى، لِيَقِينَهُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَلُطْفِهِ
 وَرَفْقِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَنْ مَا يَخْتَارُهُ مَوْلَاهُ لَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَخْتَارُهُ هُوَ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ أَرْحَمُ بِهِ
 مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ وَالِدِيهِ لَهُ، فَهُوَ رَاضٍ سَعِيدٌ بِتَدْبِيرِ رَبِّهِ وَاخْتِيَارِهِ مَعَهَا كَانَ حَالُهُ
 الظَّاهِرُ بَائِسًا، فَاخْتِيَارَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ
 وَأَرْحَمُ وَأَحْكَمُ وَالْطُّفُّ وَأَرْفَقُ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، فَعِلَامُ يَتَبَرَّمُ الْعَبْدُ بِفِعْلِ مَوْلَاهُ.

وتدبر مراراً قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦]،
 ولاحظ كيف وصف الله تعالى الأمر الذي كرهته بعض النفوس بالخير لها
 وهي لا تعلم، وكيف وصف الأمر الذي أحبته بالشر لها، فلم يذكر أن غيره
 خير منه ونحو ذلك، بل وصفه بالشر، مع أنها - لجهلها بالعاقبة - تُحِبُّه! فإنها
 لجهلها تحب ما فيه حتفها وهلاكها، وتكره ما فيه نجاتها وفلاحها.

ثم قف كثيراً عند خاتمة الآية وسلم لربك كل أمرك: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦]، فعلم الله كامل تام مستغرق لكل أمرك ماضيه
 وحاضره ومستقبله، ومحيط بكل تفاصيله، ويعلم كل ما يكتنف أمرك من
 أمور أخرى تغير حقيقته أو مساره، ففوض أمرك إليه، وسلمه له، وارض به
 كل الرضا، واعلم أنه لا يخيب مع ربه من هذا دين قلبه.

ومن عرف حقيقة الدنيا والآخرة هانت نفسه لله تعالى، وقرّت عينه به، واكتفى به عما سواه، ولم يلتفت لما فاتته من حطام الدنيا ما دام دينه مُعافى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية. فما أستطيع أن أسأله هيبة له.. الحديث وفيه: فقلت^(١): يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»^(٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف، فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا وسأل بلوغ غرض؛ تعبّد الله بالدعاء، فإن أُعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلحّ في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومن أعظم الجهل أن يمتعض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، أو ربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب. وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة.

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يُكدر؟! هذا آدم، طاب عيشه في الجنة، وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسحاق

(١) القائل هنا هو عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري، الفتح ٨ (٤٩١٣) واللفظ له، مسلم (١٤٧٩).

بالذبح^(١) ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا. وأما ما لقي نبينا محمد ﷺ

(١) الصواب وعليه الأكثر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وآيات الكتاب بهذا شاهدة. قال شيخ الإسلام رحمه الله في مسألة تعيين الذبيح: «النزاع فيها مشهور، لكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل، وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة، وهو الذي تدل عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.. ومما يدل على أنه إسماعيل: قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليماً. وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]؟

وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم، وذلك لعزّة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] لأن الحادثة شهدت بحلمهما: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتَّبِعْ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] - إلى قوله - ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]. فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه:

أحدها: أنه بشره بالذبيح، وذكر قصته أولاً، فلما استوفى ذلك قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٣ - ١١٢]، ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، فبين أنهما بشارتان؛ بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق، وهذا بين.

الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع، وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة، كما في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا

=

بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ [هُود : ٧١] ، فلو كان الذبيح إسحاق لكان خُلُفًا للوعد في يعقوب.

الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حلیم، ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع.

والتخصيص لا بد له من حكمة، وهذا مما يقوّي اقتران الوصفين، والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خُلُقُ الذبيح. وإسماعيل وُصف بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٥] ، وهذا أيضًا وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: ﴿قَالَ يَتَابِتْ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين، ووصف الله تعالى إسماعيل أيضًا بصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم : ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوق به.

الوجه الرابع: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي﴾ [الحجر : ٥٤] ، وقالت امرأته: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هُود : ٧٢] ، وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته. وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عليه السلام، وامتحن بذبحه دون الأم المُبَشِّرة به.

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالى قال: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود : ٧١] فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة بيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب. ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب، بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم عليه السلام، وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب.

=

=

ومما يدل على ذلك أن قصة الذبيح كانت بمكة، والنبي ﷺ لما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة، فقال النبي ﷺ للسادن: «إني آمرك أن تُحْمَرُ قرني الكبش، فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يُلهي المصلي» [قلت: رواه أبو داود (٢٠٣٠) بنحوه، وصححه الألباني. والخمار: الغطاء. وقد احترق القرنان حينما أحرق الحجاج الكعبة الشريفة - بلا قصد، وإن كان لا يخلو من تهوّر وتفريط ونقصٍ لتعظيم شعائر الله تعالى - برميها بالمنجنيق الملتهب نارًا، حينما كان ابن الزبير رضي الله عنهما متحصنًا منه في مسجد الكعبة.] ولهذا جُعِلت مِنى محلًّا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما اللذان بنايا البيت بنص القرآن. ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم، لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبيح كانت بالشام فهذا افتراء؛ فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لُعرف ذلك». مجموع الفتاوى (٤ / ٣٣١ - ٣٣٥) مختصرًا.

وتأمل صفة الحلم فهو في الأصل ذاتي غريزي لمن فضله الله بذلك، أما العلم فمكتسب خلا علوم الفطرة، ومهمة العلم تركية أخلاق القلب، والحليم بطبيعته زكي القلب من جهة الحلم، والغاية أكرم من الوسيلة إن استوتتا، أما ما زاد كالعلم بالله تعالى وشرعه فلا يدرك ولا يقارب فضلًا وكرامة، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ﴿لَا نَفِرُكَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والموفق من ألحَّ على ربه بتكريمه بالعلم والحلم. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والناس هاهنا أربعة أقسام فخيرهم من أوتي الحلم والعلم، وشرارهم من عدمهما، الثالث من أوتي علمًا، بلا حلم، الرابع عكسه، فالعلم زينة العلم وبهاؤه وجماله وضده الطيش والعجلة والحدة والتسرع وعدم الثبات فالحليم لا يستفزه البدوات، ولا يستخفه الذين لا يعلمون، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل، بل هو وقور ثابت ذو أناة يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه، ولا تملكه أوائلها وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعي الغضب والشهوة فبالعلم تنكشف له

=

من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم، فالدنيا وضعت للبلاء، فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراء فطُفُ^(١)، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا، كما قيل:

طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ^(٢)

=
مواقع الخير والشر والصالح والفساد، وبالعلم يتمكن من تثبيت نفسه عند الخير فيؤثره ويصبر عليه وعند الشر فيصبر عنه، فالعلم يعرفه رشده والحلم يثبت عليه، وإذا شئت أن ترى بصيرًا بالخير والشر لا صبر له على هذا ولا عن هذا رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا على المشاق لا بصيرة له رأيته، وإذا شئت أن ترى من لا صبر له، ولا بصيرة رأيته، وإذا شئت أن ترى بصيرًا صابرًا لم تكد، فإذا رأيته، فقد رأيت إمام هدى حقًا فاستمسك بغرزه والوقار والسكينة، ثمرة الحلم ونتيجته». إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٠٧/٦).

(١) أي أن العبد إذا أعطاه الله مراده فإن هذا على خلاف سنة الدنيا المكذبة، إنما هو محض كرم الله تعالى ولطفه به.

(٢) صيد الخاطر (٣٩٩) والبيت الذي ختم به خاطرته مأخوذ من قصيدة أبي الحسن التهامي في رثاء ابنه، وهي من الكامل، مع التحفظ على قوله: «حكم المنية» فالحكم لله لا لمخلوقاته، وقد يكون قصد بذلك حكم الله تعالى بأن جعل سُنَّته أن المنية - وهي الموت - جارية على جميع الناس، فبهذا التوجيه يكون البيت صالحًا. ومنها:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارٍ
يُنْأَيِّرُ الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الآية: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. «في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فان العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فان الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. وأوجب له ذلك أمورًا منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شقَّ عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام، وأحزان، وشرور، ومصائب.

وخاصَّةُ العقل تحمّل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظرُ الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خُلِطَ فيه سمّ قاتل، فكلَّمَا دعتَه لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السمّ، ويرى الأوامر كدواء كربه المذاق مُفَضِّ إلى العافية والشفاء، وكلَّمَا نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطّن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤول إليه عند الغاية.

فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم^(١)، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه^(٢).

ومنها: أنه يريجه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرّغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا

(١) لا يمنع هذا من دعاء ربه ما فيه صلاحه وقيامه من جلب الخير الخاص ودفع ضده، فالعبد على الدوام يسأل ربه كل حاجته، فما هو إلا به، وأنا له إلا عليه، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

(٢) وتظهر هذه المعاني الجميلة في دعاء الاستخارة الذي كان رسول الله ﷺ يعلمه أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.

خروج له عما قدّر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به، فيصير بين عطفه^(١) ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره ولطفه يهون عليه ما قدّره. وإذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيّل في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي ربّه^(٢).

وتأمل دعاء الاستخارة تجد فيه راحة الصدر وقرة العين ورسوخ الثقة وثلج اليقين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعلّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلّم السورة من القرآن، يقول: «إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم يسمّيه بعينه - خيراً لي في عاجل أمري وآجله - أو قال: - في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت

(١) العطف هنا هو الرحمة والحنان.

(٢) الفوائد (١٣٦/١ - ١٣٨) مختصراً.

تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصر فني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضّني به»^(١).

ومن الرضا والتفويض الإكثار من الحوقلة وما شاء الله، لأن التوكل موصل للرضا. ومن أدامهما كُوفئ بنخل الجنة وقوّة الدنيا. قال الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ: «قول ما شاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله. قالها الإمام مالك لمن سأله كيف حصلت هذا العلم؟ وهذا الدعاء فيه شبه إجماع من أهل العلم أن من افتتح به الدرس يُفتح عليه»^(٢).

ومن صيد خواطر ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ أنه قد عقد فصلاً سمّاه: الندم على ما فات، قال فيه: «تأملت أحوال الفضلاء، فوجدتهم - في الأغلب - قد بُخسوا من حظوظ الدنيا، ورأيت الدنيا - غالباً - في أيدي أهل النقائص.

فنظرت في الفضلاء، فإذا هم يتأسّفون على ما فاتهم ممّا ناله أولو النقص، وربما تقطّع بعضهم أسفاً على ذلك. فخاطبت بعض المتأسّفين فقلت له: ويحك تدبّر أمرك، فإنك غالط من وجوه:

أحدها: أنه إن كانت لك همّة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها تربح التأسّف على فوتها، فإن قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك، مع قصور اجتهادك غاية العجز.

(١) البخاري، الفتح ١٣ (٧٣٩٠).

(٢) المجموع (ص: ٤٨٢).

والثاني: أن الدنيا إنما تُراد لتُعبَّرَ لا لتُعمَرَ، وهذا هو الذي يدلُّك عليه علمُك وبيْلغُه فهمُك. وما يناله أهلُ النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم.

فإذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقدٍ ما فقدُه أصلُح لك، وكان تأسفُك عقوبةً لتأسفِكَ على ما تعلم المصلحة في بُعْدِه، فاقنع بذلك عذابًا عاجلاً، إن سلمت من العذاب الآجل.

والثالث: أنك قد علمت بخس حظ الآدمي في الجملة من مطاعم الدنيا ولذاتها، بالإضافة إلى الحيوان البهيم، لأنه ينال ذلك أكثر مقدارًا مع أمن، وأنت تناله مع خوف وقلة مقدار. فإذا ضوعف حظك من ذلك كان ذلك لاحقًا بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل^(١).

وتخفيف المؤن يحث صاحبه على نيل المراتب. فإذا آثرت - مع قلة الفضول - الفضول، عدت على ما علمت بالإزراء، فشئت علمك، ودللت على اختلاط رأيك^(٢).

فَلَا تَجْزَعْ وَإِنْ أَعْسَرَتْ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرَتْ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَيْأَسْ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيلٍ

(١) أي: لا يكن حظك كحظ الحيوان الذي غاية همته طعامه ولذته، لأنك إن زدت في همتك لتحصيل ما حصَّله كنت شبيهًا له فيما يُحصَّله وفيما حُرِّمَ منه من فضائل الدين والعقل، وحرمت لذلك ما أُعطيه أهل الفضائل مع نقص لذائذ دنياهم الحسية.

(٢) صيد الخاطر (١ / ٥).

وَلَا تَظُنُّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءٌ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

وعلى الداعي تصديق الوعد بالإجابة، فلا يحمل همّها ما دام مستجمعاً أسباب قبولها، عالماً معاني إجابتها على ما يصلح للعبد؛ بالتعجيل، أو التأجيل، أو كفاية الشرّ بقدرها، أو ادّخارها حسنات مكنوزة ليوم يقوم الإشهاد. فقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن تُعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمّا أن يُصرف عنه من السوء مثلها»، قالوا: إذا نُكثِر. قال: «الله أكثر»^(١). وينبغي لمن وقع في شدّة ثم دعا ألا يختلج في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة أو عدمها. لأنّ الذي إليه أن يدعو، والمدعوُّ مالك حكيم، فإن لم يُجِبْ فَعَلَّ ما يشاء في ملكه، وإن أَخَّرَ فَعَلَّ بمقتضى حكمته. فالمعترض عليه في سرّه خارج عن صفة عبد، مزاحم بمرتبة مستحقّ.

ثم ليعلم أنّ اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه. فربما سأل سيلاً سأل به! وروي أنّ أحد السلف كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف^(٢): «إنك أن غزوت أُسرت، وإن أُسرت تنصّرت».

(١) أحمد (١٠٧٤٩) وجود سنده محققه. والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، والحاكم (٤٩٣ / ١) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.

(٢) الهاتف: صوت غير مُشاهد، وقد يكون في النفس وقد يكون في الخارج، وقد يكون ملكاً وقد يكون من الجنّ، ولا يؤخذ منه يقين، لكنه يستفيد منه من كان عليماً خبيراً في

ذلك، غير متهاكك على تَطَلُّبِ الكرامات، ولا منخدع بخداع ومكر الشياطين، وقد أشار شيخ الإسلام لذلك في كلامه عن أنواع الوحي في الكيلانية (١ / ٥٠) ومجموع الفتاوى (٣٩٨ / ١٢). قال رَحِمَهُ اللهُ: «الوحي هو الإعلام السريع الخفي: إما في اليقظة، وإما في المنام. فإن رؤيا الأنبياء وحيٌّ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في الصحاح. وقال عبادة بن الصامت - يروى مرفوعًا -: «رؤيا المؤمن كلامٌ يكلمُ به الربُّ عبده في المنام». وكذلك في اليقظة، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم مُحَدِّثُونَ، فإن يكن في أمتي فعمر»، وفي رواية في الصحيح: «مُكَلِّمُونَ». وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصاص: ٢٧]. بل قد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء، ويكون يقظةً ومنامًا.

وقد يكون بصوت هاتِفٍ، يكون الصوتُ في نفس الإنسان ليس خارجًا عن نفسه يقظةً ومنامًا، كما قد يكون النور الذي يراه أيضًا في نفسه. فهذه الدرجة من الوحي التي تكون في نفسه من غير أن يسمع صوتَ مَلَكٍ في أدنى المراتب وآخرها، وهي أولها باعتبار السالك». أه. وانظر تفصيل الشيخ في المكاشفات والمشاهدات في مجموع الفتاوى (١١ / ٦٣٦) في كلام متين مركز.

ومن جميل الأخبار في هواتف الجنَّ ما ذكره الشيخ في الصارم المسلول (١ / ١٥٦) في بيان انتقام بعض صالحِي الجن من جنِّي فاجر قد سبَّ رسول الله ﷺ، قال رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذكروا أنَّ الجن الذين آمنوا به كانت تقصد من سبَّه من الجنِّ الكفار فتقتله، قبل الهجرة وقبل الإذن في القتال لها وللإنس. فيُقرُّها على ذلك، ويشكر ذلك لها. قال سعيد بن

=

يحیی الأموي في مغازیه: حدثني محمد بن سعيد - يعني عمه - قال: قال محمد بن المنكدر:
إنه ذكر له عن ابن عباس أنه قال: هَتَفَ هاتِفٌ من الجنِّ على جبل أبي قبيس فقال:

فَبَحَّ اللهُ رَأْيَكُمْ آلَ فَهْرٍ	مَا أَدَقَّ الْعُقُولَ وَالْأَحْلَامَ
حِينَ تُغْضِي لِمَنْ يَعْيبُ عَلَيْهَا	دِينَ آبَائِهَا الْحُمَاءَ الْكِرَامَ
حَالَفَ الْجَنِّ جَنَّ بُضْرَى عَلَيْكُمْ	وَرَجَالَ النَخِيلِ وَالْأَطَامَ
تُوشِكُ الْخَيْلُ أَنْ تَرَوْهَا نَهَارًا	تَقْتُلُ الْقَوْمَ فِي بِلَادِ التَّهَامِ
هَلْ كَرِيمٌ مِنْكُمْ لَهُ نَفْسٌ حُرٌّ	مَاجِدُ الْجَدَّتَيْنِ وَالْأَعْمَامِ
ضَارِبًا ضَرْبَةً تَكُونُ نَكَالًا	وَرَوَاحًا مِنْ كُرْبَةٍ وَاعْتِمَامِ

قال ابن عباس: فأصبح هذا الشعر حديثًا لأهل مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول الله ﷺ: «هذا شيطانٌ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْأَوْثَانِ، يُقَالُ لَهُ مِسْعَرٌ، وَاللَّهُ مُخْزِيهِ». فمكثوا ثلاثة أيام، فإذا هاتِفٌ يهتِفُ على الجبل يقول:

نَحْنُ قَتَلْنَا فِي ثَلَاثٍ مِسْعَرًا إِذْ سَفَهَ الْحَقَّ وَسَنَّ الْمُنْكَرَا
فَنَعْتُهُ سَيْفًا حُسَامًا مُبْتَرًّا بِشَتْمِهِ نَبِيَّنَا الْمُطَهَّرَا
فقال رسول الله ﷺ: «هذا عفريتٌ من الجنِّ اسمه سمحج. آمن بي، سمَّيته عبد الله. أخبرني أنه في طلبه منذ ثلاثة أيام». فقال عليٌّ: جزاه الله خيرًا يا رسول الله. وانظره أيضًا في الدلائل لأبي نعيم (٣٠ / ١) كما ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣٤٨ / ٢).

والشيء بالشيء يذكر؛ فمن جميل الهواتف الجنية ما روته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فيما نقله السهيلي رحمه الله في الروض الأنف (١٨٥ / ٤): «قال ابن إسحاق: فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنهما، أتانا نفرٌ من

=

=

قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، فَوَقَفُوا عَلَى بَابِ أَبِي بَكْرٍ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ؛ فَقَالُوا: أَيْنَ أَبُوكَ يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: لَا أَدْرِي وَاللَّهِ أَيْنَ أَبِي. قَالَتْ: فَرَفَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ، وَكَانَ فَاحِشًا خَبِيثًا، فَلَطَمَ خَدِّي لَطْمَةً طَرَحَ مِنْهَا قَرطِي. قَالَتْ: ثُمَّ انصَرَفُوا.

فَمَكَّنْنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَا نَدْرِي أَيْنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْجَنِّ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، يَتَغَنَّى بِأَبْيَاتٍ مِنْ شَعْرِ غِنَاءِ الْعَرَبِ، وَإِنَّ النَّاسَ لَيَتَّبِعُونَهُ، يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ وَمَا يَرَوْنَهُ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ حَلًّا خِيَمَتِي أُمَّ مَعْبَدٍ
هُمَا نَزَلَا بِالْبَرِّ ثُمَّ تَرَوَّحَا فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدٍ

فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَهُ عَرَفْنَا حَيْثُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ وَجْهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَسَأَلَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْجَانِّ الْمُؤْمِنِينَ: هَلْ هُمْ مَخَاطِبُونَ بِفُرُوعِ الْإِسْلَامِ كَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ؟ أَوْ هُمْ مَخَاطِبُونَ بِنَفْسِ التَّصَدِيقِ لَا غَيْرَ؟

فَأَجَابَ: لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِأَعْمَالٍ زَائِدَةٍ عَلَى التَّصَدِيقِ، وَمَنْهُيُونَ عَنْ أَعْمَالٍ غَيْرِ التَّكْذِيبِ. فَهُمْ مَأْمُورُونَ بِالْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ بِحَسْبِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِمِثَالِ الْإِنْسِ فِي الْحَدِّ وَالْحَقِيقَةِ، فَلَا يَكُونُ مَا أَمَرُوا بِهِ وَنَهَوْا عَنْهُ مَسَاوِيًا لِمَا عَلَى الْإِنْسِ فِي الْحَدِّ، لَكِنَّهُمْ مُشَارِكُونَ الْإِنْسِ فِي جَنْسِ التَّكْلِيفِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ. وَهَذَا مَا لَمْ أَعْلَمْ فِيهِ نِزَاعًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَتَنَازَعُوا أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ مِنْهُمْ يَسْتَحَقُّونَ لِعَذَابِ النَّارِ كَمَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْآدَمِيِّينَ؛ لَكِنْ تَنَازَعُوا فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ؛ فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ إِلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَرَوَى فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ: «أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ، يَرَاهُمُ الْإِنْسُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ».

=

=

وقال العلامة ابن مفلح في كتاب الفروع: «الجنّ مكلفون في الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النار إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة وفقاً لمالك والشافعي رحمهم الله، لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم، وأن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما». لوامع الأنوار البهية (٢٢٢٢-٢٢٣) وانظر: شرح النووي على مسلم (٤١٦٩).

وقال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «قد يظهر الجن لبعض الناس، والجن ثقل مستقل غير الإنس، والمشهور عند العلماء: أنهم أولاد الشيطان، كما أن آدم أولاده الأُنس، فالشيطان الذي هو الجان، الذي امتنع من السجود لآدم هو أبو الجن، فمؤمنهم طيب، وكافرهم مثل كافر الإنس خبيث، فيهم الفاسق، وفيهم الكافر، وفيهم المؤمن الطيب، وفيهم العصي، فهم أقسام مثل الإنس، وقد يتصل بعض الناس بهم، وقد يكلمهم ويكلمونه، قد يراهم بعض الناس، لكن الأغلب أنهم لا يرون، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ يَرُوكُمْ هُمْ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] يعني يروننا من حيث لا نراهم، وليس معنى أننا لا نراهم قد نراهم، لكن من حيث لا نراهم قد يروننا، يروننا فيها ما نراهم فيها، لكن الجنّي قد يبدو لبعض الناس في الصحراء وفي البيوت، قد يخاطب، وقد حدثنا جماعة من العلماء أنه وقع عليه كثير من هذا؛ لأن بعض الجن حضروا مجالس العلم، وسألوا عن بعض العلم وإن كانوا لا يرون، وبعض الناس قد يراهم ويتمثلون في الصحراء وفي غير الصحراء.

لكن لا تجوز عبادتهم من دون الله، ولا الاستغاثة بهم، ولا الاستعانة بهم على إضرار المسلمين، ولا سؤالهم عن علم الغيب، بل يجب أن يحذروا». ضمن جوابه على سؤال منشور في موقعه رَحِمَهُ اللهُ نصه: هل يظهر الجن لبعض الناس، ويعقد صداقات معهم، وهل الجنّي هو الشيطان؟

فإذا سلّم العبد تحكيماً لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه؛ طاب قلبه، قُضيت حاجته أو لم تقض. فإذا رأى يوم القيامة أن ما أُجيب فيه قد ذهب، وما لم يُجب فيه قد بقي ثوابه، قال: ليتك لم تجب لي دعوة قط. فافهم هذه الأشياء، وسلّم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال^(١).

فالحمد لله العليم القدير الحكيم اللطيف البر الرفيق، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومما يعين على الرضا والتسليم؛ اليقين بأن تدبير الله للعبد أجدى وأنفع من تدبير العبد لنفسه، وأن العاقبة غيب لا يعلمه إلا مولاه، فخير له أن يرضى بتدبير من هو أرحم به من نفسه، وتدبر راشداً قصة الخضر مع موسى عليهما السلام في السفينة والغلام والجدار، وما تحتها من معان عظيمة في الرضا والتسليم والحمد والشكر لله رب العالمين، وهي قصة تختصر كثيراً من معاني القدر الجميلة، فتارة يُبتلى المرء بمصيبة تكون دافعة لمصيبة أشدّ وأشق وأعظم كأصحاب السفينة، فلولا كسرهما لصودرت ونهبت، وربما قُتل أصحابها، وتارة يُبتلى العبد بمصيبة - ظاهراً - لكنها في الحقيقة هي الباب الذي يؤدي إلى منح ونعم والطف ودفع بأس كقتل الغلام الذي لو بقي لأرهق والديه بكفره وطغيانه، ولكن رحيله كان رحمة به أولاً، ثم بوالديه ثانياً لأنهم عوّضوا عنه بذرية طيبة صالحة حتى ورد أنها كانت بنتاً فتزوجها نبيٌّ فولدت له نبياً! ولو

(١) صيد الخاطر (١ / ٥١) بتصرف يسير.

بقي أخوها لاختلاف الحال، وثالثاً رحمة بالذرية الجديدة، فالحمد لله على كل حال في حكمته ولطفه ورحمته وعلمه وتدبيره، وله الحكمة البالغة واللطف التام والعلم الشامل والمنّة الكاملة على كل خلقه.

وتارة يلطف الله تعالى بعبده وينعم ويرفق ويرزق ويكرم ويدفع بلاءات عديدة بدون مسّ عبده بمصيبة من تلك الجهة كجدار الغلامين، وهذا هو الأكثر والأغلب والأعمّ من فعل الله تعالى بعباده، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى : ١٩]، فهم محوطون بنعم لا يحصونها ولا يتبهنون لها ولا يعلمونها مع أنهم منغمسون فيها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤]^(١)، فالحمد لله على كل حال في حكمته ولطفه ورحمته وعلمه وتدبيره، وله الحكمة البالغة واللطف التام والعلم الشامل والمنّة الكاملة على كل خلقه.

وسنذكر ما تيسر من أخبار وفوائد تلك القصة الهائلة مع شرح الإمام البغوي لها في تفسيره القيم، قال في قوله تعالى: ﴿فَأَنْظَلْنَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف : ٧١]، قال: ﴿فَأَنْظَلْنَا﴾ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «مرّت بهم سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول^(٢) فلما لججوا البحر أخذ الخضر

(١) وسيأتي تفصيلها في كتاب الشكر بإذن الله تعالى.

(٢) أي: مجّأ بلا أجرة.

فَأَسَا فخرق لوحًا من السفينة»^(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ قال له موسى: ﴿أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ﴾^(٧١) أي: منكرًا، والإمر في كلام العرب: الداهية، وأصله: كل شيء شديد كثير. وقال القتيبي: ﴿إِمْرًا ۖ﴾^(٧١) أي: عجبًا. وروي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾^(٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ﴾^(٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾^(٧٤) [الكهف: ٧٢ - ٧٤]، قال أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا»^(٢). ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾^(٧٤) [الكهف: ٧٤] في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلامًا ظريفًا وضيء الوجه، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهًا، وكان وجهه يتوقد حسنًا. قال ابن عباس: كان غلامًا لم يبلغ الحنث. وهو قول الأكثرين. قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: ﴿قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ إلا وهو صبي لم يبلغ.

(١) البخاري (١ / ٢١٨).

(٢) البخاري: (٥ / ٣٢٦)، مسلم (٤ / ١٨٤٧ - ١٨٥٠).

وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً»^(١). ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾^(٧٤) أي: منكرًا. قال قتادة: النكر أعظم من الأمر؛ لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا﴾ [الكهف: ٨٠] أي: فعلمنا، ﴿يُرْهَقُهُمَا﴾ يغشيها ﴿يُرْهَقُهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٨٠) قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملها حبه على أن يتابعه على دينه. ﴿فَارْدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ [الكهف: ٨١] أي: صلاحًا وتقوى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾^(٨١)، قال قتادة: أي: أوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال الكلبي: أبدلها الله جارية، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمة من الأمم.

قال مطرف: فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٨٢) [الكهف: ٨٢].^(٢)

(١) مسلم (٢٦٦١).

(٢) تفسير البغوي (٥/ ١٩٠-١٩٤) باختصار.

ومن هذا الباب الجليل قد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فائدة نفيسة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويجب المواجهة والمشاركة وهذا المحبوب شرّ له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لو صف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويجب المرأة لو صف من أوصافها وله في إمساكها شرّ كثير لا يعرفه!

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرّ الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له؛ فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته؛ فكل ما هو فيه من محبوب هو شرّ له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح

والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. فعامّة مصالح النفوس في مكروهاها، كما أن عامّة مضارّها وأسباب هلكتها في محبوباتها.

فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهدّها بالسقي والإصلاح، حتى إذا أثمرت أشجارها أقبل عليها يُفصّل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خلّيت على حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك.

ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطّشها وقتاً ويسقيها وقتاً، ولا يترك الماء عليها دائماً وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعتمد إلى تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها، كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضائها بالحديد ويلقي عنها كثيراً من زيتها وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحیوان لتوهّمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بضع جلدّه وقطّع عروقه وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاؤه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، وكان ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه؛

لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فسادِه وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواته حمية له ومصلحة، لا بخلاً عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم إذا أنزل بهم ما يكرهون؛ كان خيرًا لهم من ألا ينزله بهم، نظرًا منه لهم وإحسانًا إليهم ولطفًا بهم، ولو مُكِّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملاً، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا.

فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك على الجهلة به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحُكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبهها فيها إلا نعيم الآخرة، فإنه لا يزال راضيًا عن ربه. والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يُجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينته إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتة، كما قال

في الدعاء المشهور: «اللّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، وغمّي. ما قالها أحد قط الا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا» قالوا: أفلا نتعلّمهنّ يا رسول الله؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»^(١). والمقصود قوله: «عدل فيّ قضاؤك» وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده من عقوبة أو ألم وسبب ذلك، فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب، وهو عدل في هذا القضاء، وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(٢). فسألت شيخنا^(٣) هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال:

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه محققوه من جهة الجهالة بأبي سلمة الجهني، وأنه راوٍ آخر غير أبي موسى الجهني. وصححه أحمد شاكر، وكان الأرناؤوط قد صححه في تخريج ابن حبان ثم تراجع عنه هنا، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/١٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقال: «ليس في الرواة من اسمه موسى الجهني إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم».

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

(٣) أي: ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

نعم بشرطه. فأجمل في لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك»^(١).

ومن يحمد الدنيا لعيش يسرُّه فسوف ورَّي عن قليل يلومها والله الأمر من قبل ومن بعد، فإننا نكتب هذا الآن في (شعبان / ١٤٤١) والعالم أجمع يكتسحه بأمر الله تعالى وباء قاتل يسمونه كورونا (كوفيد ١٩) وقد غصت مشافي بعض الدول بالحالات الحرجة، وفاضت ثلاثيات الموتى بعشرات الآلاف من جثث المتوفين حتى وضعوها في صالات التزلج الواسعة، وعطلت الجمعة والجماعة في أكثر بلاد الإسلام، وصار حظرٌ للتجوال على مدار اليوم والليلة. والناس في استغفار وتوبة وجوار بالدعاء وقنوت وابتهاال، فهم في كرب لا يعلمه إلا الله، ولا نعلم كيف ستنجلي، ولكننا على يقين بأنها خير للمؤمن فهو تكفير وتمحيص وأجر يعقبه إما شهادة أو عافية، والحمد لله على كل حال.

سائلاً المولى الرحيم أن يرفع الوباء والبلاء، وأن ينزل رحمته ولطفه وعافيته إنه سميع قريب مجيب رجيم ودود، ولا يبعد أن يكون لعمالة شركات الأدوية أو الماسون يدٌ في ذلك، والله من وراء ذلك كله بتدبيره ومشيئته وقضائه وقدره وعلمه وإحاطته وقدرته ورحمته ولطفه وعزّته واستدراجيه.

ومهما يكن من أمر فأمر الله كله خير، وكل مصيبة ليست في الدين فخطبها يسير مقارنة بمصائب الأديان. والخيبة كل الخيبة ظنُّ المبتلى في دينه أنه معافى.. ﴿فَأَنسَلْهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وكل كسرٍ فإنَّ الدينَ يجبرُهُ وما لكسرِ قناة الدين جبرانٌ
ولله في ذلك حكم باهرة لا نعلمها والله يعلمها وهو العليم الخبير، آمنا
وسلمنا وإلى الله أنبنا وإلى الله المصير. ومن حكم ذلك أنها قرعت قلوب
الناس فدفعتهم للتوبة من الحوبة، وللأوبة من الشوبة، وللاستيقاظ من رقدة
الغفلة، والاستعداد ليوم النُّقْلة.

ومن حكمها التي رأيناها عياناً بياناً أنها ردّت جبابرة الملاحدة للتواضع
والانكسار والافتقار التام، وحتت جباههم خضوعاً وأذلت أعناقهم خشوعاً
خوفاً من سوء مصير الدنيا، فهم من أحرص الناس على الحياة، لأنها في أعينهم
حياة واحدة، وقد جاءهم ما لا قبْلَ لهم به، وأفزعههم فيروسٌ لا يرى بالعين،
ولا ترده الأسلحة ولا المييدات، فبينما هم يزعمون أنهم أصبحوا - عياداً بالله
تعالى - آلهة تخلق وتدبر؛ إذ هم يصيحون فشلاً، ويكون حيرة وخيبة، ويهلعون
رعباً ومخافة ويأساً، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ
أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِلَٰهُ تَدْعُونَ
فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام : ٤٠ - ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤٦﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف : ٤ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص : ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف : ٩٦ - ٩٩].

وتأمل خبر تلك النملة التي قالت لقومها ناصحة: ﴿ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ [النمل : ١٨] فقد صارت اليوم عادًى الثانية وطغاة العالم وجبابرة البشر يصيحون في أقوامهم: ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ذلك الفيروس الذي لا يرى، قالوا هذا وهم بالأمس يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] فسبحان من لا يدوم سواه، ولا باقي إلا إياه، عز جاره، وجل ثناؤه، ولا إله غيره، وأستغفر الله الذي لا أله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

خَلَعْنَا شِقْوَةَ ذَهَبَتْ بِوَيْلٍ وَبِالتَّهْلِيلِ أَيْقَظْنَا النَّيَامَا

أخطاء في فهم الرضا أو تطبيقه

الرضا باب عظيم من أبواب الدين، وهو من أعمال القلوب الكبار، وداخل في لباب الإسلام، إذ أصل الإسلام تسليم واستسلام لله تعالى بتوحيده وطاعته، وعين الاستسلام الرضا، فالرضا هو محض التسليم، وكهف السكينة، وإكسير الانقياد، وموقد الهمة للعبادة. ولما كان الرضا بهذه الأهمية؛ كان حتماً على كل موفق فهم حدوده للوصول لغاياته، دون روغان عن جادته، ولا زيغ عن محجته.

والخطأ في الرضا راجع لواحد من أمرين: وهما القصور في العلم أو التقصير في العمل فالأول هو الخطأ في التصور والعلم والفهم والتنظير، وهذه آفة الجهل، وشفأؤها العلم النافع، أما الثاني فهو التفريط في العمل والسلوك والتطبيق، وهذه آفة فساد الإرادة، وهي راجعة إما لسوء القصد أو لضعف العزيمة، وشفأؤها الإيثار بالله تعالى ووعظ القلب ومجاهدة النفس في الله تعالى. والهدى أن يأخذ الله بيد عملك وعين بصيرتك فينيرك بالعلم والإيمان، فاللهم اهدنا الصراط المستقيم.

فمن الأخطاء في باب الرضا:

الأول: نقص الفقه في معانيه الشرعية:

ذلك أن ميدان الرضا خصيب بالمعاني التي تحملها المفردات المترادفة والمتباينة، فيلزم من أراد فهم الرضا أن يتفقه في مقاصد ألفاظ الشرع، حتى لا يقع التباس يُحيل الباطل في عينه لحق يتوهمه؛ فيُضلل ويُضلل، قال ابن

القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، ومن ذلك: اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبد مما يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به، وذلك شيء والحقيقة شيء آخر، كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: «أرجو أن أكون أُعْطِيتُ طرفاً من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذا عزم منه على الرضا وحديث نفس به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء». وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته»^(١).

هذا؛ ولبعض المتعبدة الجهال عجائب في فهم الرضا آلت ببعضهم للمروق من الشريعة عياداً بالله تعالى من مضلات الفتن وعمّيات الجهل، قال ابن الجوزي رَحْمَةُ اللَّهِ: «ليس في الوجود شيء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عُدِم وقع الضلال.

وإن من خفيّ مكائد الشيطان أن يزيّن في نفس الإنسان التعب ليشغله عن أفضل التعب وهو العلم، حتى إنه زيّن لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر. وهذا قد ورد عن جماعة. وأحسن ظني بهم أن أقول: كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبّوا انتشاره. وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه؛ كان رميها إضاعة للمال.

وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل تلامذتهم المحابر، وهذا من خفي حيل إبليس، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٥) باختصار.

ظَنَّهُ ﴿سَبَا: ٢٠﴾^(١). وقال أيضًا: «اعلم أن أول تلبس إبليس على الناس صدهم عن العلم، لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء. وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكُلفٍ، فحسّن عندهم الراحة، فلبسوا المراقع، وجلسوا على بساط البطالة! قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُسِّسَ التَّصَوُّفُ عَلَى الْكَسَلِ». ومقصود الإمام بهذا أن مقصود النفس الولايات، وأما استجلاب الدنيا بالعلوم فإنه يطول ويتعب البدن، وقد يحصل المقصود أو لا يحصل. والصوفية قد تعجلوا الولايات، فإنهم يُروْن بعين الزهد واستجلاب الدنيا، فإنها إليهم سريعة.

ومن الصوفية من ذم العلماء، ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة. وإنما رأوا بُعْدَ الطريق في طلب العلم، فقصّروا الثياب، ورقّعوا الجباب، وحملوا الرّكاء، وأظهروا الزهد.

والثاني: أنه قنّع قوم منهم باليسير منه، ففاتهم الفضل الكثير في كثرته. فافتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كله رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذة.

وكشف هذا التلبس أنه ما من مقام عالٍ إلا وله فضيلة وفيه مخاطرة، فإن الإمارة والقضاء والفتوى كلها مخاطرة، وللنفس فيه لذة، ولكنها فضيلة عظيمة كالشوك في جوار الورد، فينبغي أن تُطلب الفضائل ويُتَّقَى ما في ضمنها

(١) صيد الخاطر (١/٣١).

من الآفات. فأما ما في الطبع من حب الرياسة فإنه إنما وُضع لتُجلب هذه الفضيلة، كما وضع حب النكاح ليحصل الولد.

وبالعلم يُتقوّم قصدُ العالم، كما قال يزيد بن هارون: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون لله»^(١). ومعناه: أنه دلنا على الإخلاص. ومَن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه.

والثالث: أنه أُوهم قومًا منهم أن المقصود العمل، وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال. ثم إن العالم وأن قصر سير عمله فإنه على الجادة، والعابد بغير علم على غير الطريق.

والرابع: أنه أرى خلقًا كثيرًا منهم أن العلم هو ما اكتسب من البواطن، حتى إن أحدهم تتخايل له وسوسةٌ فيقول: «حدّثني قلبي عن ربي»^(٢)، وكان الشُّبلي^(٣) يقول:

(١) ورويت كذلك عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟!

(٣) الشُّبلي من أهل القرن الثالث، وكان فقيهاً مالكيًا فترك التعليم ولبس الخرق وتصوف، وله أقوال حسنة رائقة، وأخرى قبيحة لا يتابع عليها. قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «صحاب الشُّبلي الجُنْد وغيره، وصار من شأنه ما صار. وكان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة. وقال الشعر، وله ألفاظٌ وحكمٌ وحالٌ وتمكُّنٌ، لكنّه كان يحصل له جفافٌ دماغٍ وسُكْرٌ، فيقول أشياء يُعتذرُ عنه فيها لا تكون قدوة. وكان رَحِمَهُ اللهُ لهجاً بالشعر الغزل والمحبة. وله ذوقٌ في ذلك، وله مجاهداتٌ عجيبةٌ انحرفَ منها مزاجه».

إِذَا طَالِبُونِي بِعِلْمِ الْوَرَقِ بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الْخِرَقِ
 وَقَدْ سَمَّوْا عِلْمَ الشَّرِيعَةِ عِلْمَ الظَّاهِرِ، وَسَمَّوْا هَوَاجِسَ النُّفُوسِ الْعِلْمَ
 الْبَاطِنِ.. وَمَنْ يَتْرَكَ الْعِلْمَ، وَيَقُولُ إِنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِلْهَامِ وَالْخَوَاطِرِ فَلَيْسَ هَذَا
 بِشَيْءٍ، إِذْ لَوْلَا الْعِلْمُ النُّقْلِيُّ مَا عَرَفْنَا مَا يَقَعُ فِي النَفْسِ أَمِنْ الْإِلْهَامِ لِلْخَيْرِ أَوْ
 الْوَسْوَسةِ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ الْإِلْهَامِي الْمُلْقَى فِي الْقُلُوبِ لَا يَكْفِي عَنْ الْعِلْمِ الْمَنْقُولِ،
 كَمَا أَنَّ الْعُلُومَ الْعَقْلِيَّةَ لَا تَكْفِي عَنِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَبِيَدِهِ مَحْبَرَةٌ وَكِتَابٌ، فَقَالَ لِسَهْلٍ: جِئْتُ
 أَنْ أَكْتُبَ شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ: «اكَتُبْ، إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ وَبِيَدِكَ
 الْمَحْبَرَةُ وَالْكِتَابُ فَافْعَلْ»، قَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ أَفَدْنِي فَائِدَةً. فَقَالَ: «الدُّنْيَا كُلُّهَا
 جَهْلٌ إِلَّا مَا كَانَ عِلْمًا، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ حِجَّةٌ إِلَّا مَا كَانَ عَمَلًا، وَالْعَمَلُ كُلُّهُ مَوْقُوفٌ
 إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَقُومُ السُّنَّةُ عَلَى التَّقْوَى». وَمِنْ أَقْوَالِهِ:

=

سِيرُ الْأَعْلَامِ (١٥ / ٣٦٥-٣٦٧) بِاخْتِصَارٍ وَانْتِقَاءٍ. وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «يُرْوَى عَنْ
 الشُّبْلِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُ اللَّهُ». فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ
 أَمُوتَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ. وَهَذِهِ مِنْ زَلَّاتِ الشُّبْلِيِّ الَّتِي تَغْفِرُ لَهُ لَصَدَقَ إِيمَانُهُ وَقُوَّةُ
 وَجْدِهِ وَغَلْبَةُ الْحَالِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَانَ رَبِّهَا يُجِنُّ وَيُذْهِبُ بِهِ إِلَى الْمَارِسْتَانِ، وَيَحْلِقُ لِحْيَتَهُ. وَلَهُ
 أَشْيَاءٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ الَّتِي لَا يَجُوزُ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ فِيهَا؛ وَإِنْ كَانَ مَعْذُورًا أَوْ مَاجُورًا، فَإِنْ
 الْعَبْدُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَمَاتَ قَبْلَ كِمَالِهَا لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ شَيْئًا، إِذْ الْأَعْمَالُ
 بِالنِّيَّاتِ، بَلْ يَكْتُبُ لَهُ مَا نَوَاهُ». مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (١٠ / ٥٥٦).

«احفظوا السواد على البياض، فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق». وقال: «ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة؛ تهت في الظلام أربعين صباحًا».

وعن أبي بكر الدقاق قال: سَمِعْتُ أبا سَعِيدٍ الْخَرَّازَ يَقُولُ: «كل باطن يخالف ظاهرًا فهو باطل».

وقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء فقال: «من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان».

وقال ابن عقيل: «جعلت الصوفية الشريعة اسمًا، وقالوا: المراد منها الحقيقة. قال: وهذا قبيح، لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعبدهاتهم، فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع».

ولما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم^(١) وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد، وسمّوا ذلك العلم العلم الباطن؛ ونهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر!

(١) ذكر بعض أهل العلم أن طلب العلم يلزم بالشروع فيه كالجهاد والحج، ولعل هذا مما قصده سفيان بن عيينة بقوله الشريف: «من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل».

اغْتَنِمِ فِي الْفَرَاغِ شُغْلَ عُلُومٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْثِقَ بَغْتِهِ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهُ

=

قال جعفر الخلدي: «لو تركني الصوفية لجئتكم بإسناد الدنيا^(١)، لقد مضيت إلى عبّاس الدوري وأنا حَدَثُ^(٢) فكتبت عنه مجلسًا واحدًا، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحابه من الصوفية فقال: أيش هذا معك؟ فأريته إياه، فقال: ويحك، تدع علم الحِرَقِ وتأخذ علم الورق! ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي فلم أعد إلى عبّاس».

وقال أبو سعيد الكندي: كنت أنزل رباط الصوفية، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يومًا من كُمِّي^(٣) فقال لي بعض الصوفية: أستر عورتك!^(٤)

وقال الحُسَيْن الصفار: «كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: غيّب سوادك عني يكفيني سواد قلبي».

وإن من أكبر المعاندة لله تعالى الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل لله العلم؛ لأنه دليل على الله وبيان لأحكام الله وشرعه وإيضاح لما يحبه ويكرهه،

=

(١) يقصد علو الإسناد الذي أدركه بكتابته، ثم فاته بإتلاف سنده.

(٢) أي: يافعٌ صغير السن.

(٣) وهو ما يسمى الآن بجيب الثوب، والمُخْبَأ.

(٤) والناس أعداء لما جهلوا، ومن جهل شيئاً عابه، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾

[يونس: ٣٩]

يُقْضَى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فالمنع مِنْهُ معاداة الله ولشرعه، ولكن الناهين عَنْ ذلك ما تفتنوا لما فعلوا. قال عبد الله بن خفيف: «اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا: لا تفلح! ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك».

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: «هذه سُرُجُ الإسلام». وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه، فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله؟ فقال: «مع المحبرة إلى المقبرة». وقال في قوله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١). فقال أحمد: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم». وقيل له: إن رجلاً قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء! فقال أحمد: «هو زنديق». وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنني رأيت رجلاً من أصحاب رَسُولِ اللهِ ﷺ».

واعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم وانفردوا بالرياضات على مقتضى آرائهم؛ لم يصبروا عن الكلام في العلوم، فتكلموا بِوَاقِعَاتِهِمْ^(٢)، فوَقَعَتِ الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلمون في تفسير القرآن، وتارة في الحديث، وتارة في الفقه، وغير ذلك. ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا

(١) أحمد (١٠٧٦) والترمذي (٣٠ / ٢) وصححه الألباني في الصحيحة (١ / ٦٨٨)

(٢) جمع واقع، أي: واقعهم وما جَرَّياتهم وأحوالهم وأحداث حياتهم.

به، والله سبحانه لا يُخْلِي الزمان من أقوام قَوَّامٍ بشرعه، يردّون على المتخرّصين، ويبينون غلط الغالطين»^(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إذا جاءت عصا الشريعة المحمدية ابتلعت ما صنعه الخارجون عنها من السّحر المُقْتَرَى، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]». ^(٢)

فلا تركننّ أخي إلى العازفين عن العلم، الراغبين عن التعلّم، فالعلم وقود العمل، ونور الطريق، ومنار المنهاج، وعمل بلا علم وبأل وحسرة، وفي أمر أعمال القلوب ترد على النفوس وساوس قترات وسموم خَطَرَاتٍ لا تنقمع بإذن الله إلا بنور ساطع من علم الشريعة يجلو الله تعالى به دياجير ظلمات الجهالات ويقشع به عن القلب سموم الرّيب، وصدق الله تعالى إذ قال في محكم التنزيل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ولعلّ من حَكَمِ الله تعالى بإفقار كثير من أهل العلم صيانةً لحَرَمِ العلم، حتى لا يكون تعلّم علم الشرع سُوقًا لطلّاب الدنيا، بل مُتَجَرًّا للراغبين في الله والدار الآخرة، فترى الناس تُعْطَى وتهدي وتوظّف وترفع وترقع أهل الدنيا دون كثير من أهل العلم، فنتج عن ذلك ألا يتّجه للعلم إلا من أحبّ العلم لذاته لأنه مقرب إلى الله تعالى، فأحبّ طلب العلم لله لا للناس، ولو أنّ الناس

(١) تلييس إبليس (٢٨٤-٢٩١) مختصرًا.

(٢) جامع المسائل لابن تيمية، المجموعة الخامسة (١/٢٢٦)

أعطوا أهل العلم بالشرع على علمهم لتصدّر للعلم طُلاب الدنيا لا الدين، ولأصبح لفتاوى العلماء أسعار في بورصة البيع والشراء بحسب أهواء المشترين، لكنّ الحكيم سبحانه صان العلم عن الطامعين، ولعل هذا من حِكم أنّ الوظائف الدينية كالقضاء والحسبة والتعليم ونحوها لا يُعطى أصحابها أجرًا بل رزقًا ومكافأة تكفيه من بيت المال ما يقوم حاله وعياله. ولعل من هذا الباب أن جعل أشرف البقاع واديًا غير ذي زرع وهي مكة، وحرّة صحراوية شديدة وهي المدينة كي لا يسكنها إلا من طلب معالي الآخرة ولو بلاأواء الدنيا، فطاب فيها من طاب له الإيوان، والله المستعان.

هذا؛ وإن طلب العلم سلاح ذو حدّين، فإنّ طلبه لله تعالى رفعه وأدناه من ربّه وأوشك أن يكون مع الصديقين، أما إن طلبه للدنيا فقد خاب وخسر. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»^(١).

(١) أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) وصححه الألباني. قوله: «لم يرح»؛ قال الكسائي: «هو بضم الياء؛ من قوله: أرحت الشيء، فأنا أريحه إذا وجدت ريحه». وقال أبو عمرو: «لم يرح» بكسر الراء؛ من رُحت أريح إذا وجدت الريح». وقال غيرهما: «بفتح الياء والراء، والمعنى واحد، وهو شم الرائحة». أه. من صحيح الترغيب والترهيب (١٥٧/٣). وفي رواية: «لم يجد عَرَفَ الجنة». قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «عَرَفَ الجنة، الرائحة، مبالغة في تحريم الجنة، لأن من لم يجد ريح الشيء لا يتناوله قطعًا». عون المعبود (٩٨/١٠).

وبركة العلم لا يحوطها وصف، ولو لم يجد في العلم إلا حراسة صحة
تصوره لكفاه فضلاً وشرفاً، واعجب ممن حُرِّموا نوره كيف يتخبَّطهم الشيطان
في كلِّ مَهْمَةٍ وَمَهْلِكٍ!

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أَخْبَارًا عن تحبُّط الشياطين بخواطر العباد
كيما يفتنهم عن الاستقامة، فمن ذلك قوله رَحِمَهُ اللهُ: «كما إن كثيراً من العباد
يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشاً عظيماً وعليه صورة عظيمة، ويرى
أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة، ويظن أن تلك الصورة هي الله تعالى
وتقدس، ويكون ذلك شيطاناً!

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس، فمنهم من عصمه الله
وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر^(١) في حكايته المشهورة، حيث قال:
كنت مرة في العبادة، فرأيت عرشاً عظيماً، وعليه نور، فقال لي: يا عبد القادر؛
أنا ربك، وقد أحللت لك ما حرمت على غيرك. قال: فقلت له: أنت الله الذي
لا إله إلا هو! اخسأ يا عدو الله. قال: فتمزق ذلك النور وصار ظلمة، وقال:
يا عبد القادر؛ نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك، وبمنازلاتك في
أحوالك^(٢) لقد فتننت بهذه القصة سبعين رجلاً. ف قيل له: كيف علمت أنه
الشيطان؟ قال: بقوله لي: أحللت لك ما حرمت على غيرك. وقد علمت أن

(١) وهو الجيلاني رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أي: مجاهدتك نفسك في مرضي الله تعالى.

شريعة محمد ﷺ لا تُنسخ ولا تُبدل، ولأنه قال: أنا ربك. ولم يقدر أن يقول: أنا الله الذي لا إله إلا أنا.

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة، ومستندهم ما شاهدوه. وهم صادقون فيما يخبرون به، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان.

وهذا قد وقع كثيرًا لطوائف من جهال العباد يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا، لأن كثيرًا منهم رأى ما ظن أنه الله، وإنما هو شيطان»^(١).

الثاني: ترك معونة الناس بحجة الرضا بالقضاء:

إن من المهمات: معرفة أن الرضا محرّك إيجابي، ودافع لإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وإغناء المسكين، ونصر المظلوم، وفكّ العاني، والقيام لله في ذلك كله، وليس معناه الإعراض عنهم، والتوليّ عند حاجتهم، والإدبار عن نفعهم بحجة الرضا، فافعل الخير وارزُج الله خلفًا مباركًا في دينك ودنياك:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعَدِّمْ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فليس من الرضا ترك فعل الخيرات، بل ادفع قدر الضرر بقدر النفع بإذن الله تعالى، وَكُنْ كَنَبِيَّكَ ﷺ، والله في عونك ما دمت في عون أخيك، ومن كان الله في عونه فلا ضيعة عليه.

صَمْتُ الْفَقِيرِ بَكَاءٌ لَا يُحْسُّ بِهِ فِي ضَجَّةِ الْكُونِ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهِ

يبكي بُكاءً مريراً لا دموعَ لهُ إذ أنه عن عيون الناس يُخفيه
لأنه مُعَدِّمٌ لا مال في يدهِ سوى التَّعَفُّفِ في أسمى معانيه
لا يسأل الناس إلحافاً ولا طمعاً وفيه من حسرة الإملاق ما فيه
ذاك الذي يستحق العون فانتبهوا ولا تقولوا غناء النفس يكفيه
ففتَّشوا الآن في الأحياء عنه ولا يستصغر الأجر عند الله مُعْطيه

الثالث: تمني البلاء:

من الأخطاء في باب الرضا: تمني البلاء. فيتمنى العبد بلاء كي يرضى به، وهو منه أصلاً في عافية، ولا يدري عاقبته في نفسه، ولا مدى احتماله له، ولا يدري عن توفيق الله له بتثبيت عزمه على الرضا، فكم انفسخت في الناس من عزيمة، وبطلت من همّة، واضمحلت من إرادة!

وليس من سنة الرسل تمني البلاء وإن التذوّا به حين يقع لعظيم إيمانهم وقوّة علمهم وعصمة الله تعالى لهم، ونبي ﷺ كان يسأل ربه العافية، ويوصي أمته بذلك، وكلُّ الهدى في سنته، والسلامة لا يعدلها شيء. قال المباركفوري رحمه الله: «قوله ﷺ: «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم»^(١): المقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه، لا الترغيب في طلبه للنهي عنه»^(٢).

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

(٢) تحفة الأحوذى (٦٦/٧)

ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «أيها الناس؛ لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»^(١). فنهانا ﷺ عن تمنّي البلاء، وأمرنا أن نسأل الله أن يعافينا منه كذلك، كما أمرنا بالصبر عند وقوعه.

وقال ﷺ: «تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»^(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»^(٣). وفي صحيح مسلم^(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ^(٥) فصار مثل الفرخ^(٦)، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إياه؟» قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه»^(٧). أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟ قال: «فدعا الله له فشفاه».

(١) البخاري ٦٢/٤ (٢٩٦٦)، ومسلم ١٤٣/٥ (١٧٤٢)

(٢) البخاري ١٥٧/٨ (٦٦١٦) ومسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٧) (٥٣)

(٣) البخاري (٩٣/٨) ومسلم (٧٦/٨)

(٤) مسلم (٢٦٨٨)

(٥) أي: ضَعُفَ جداً. ويقال: خَفَتَ الصوت، إذا ضعف وسكن.

(٦) أي: في ضعف ولد الطير.

(٧) وهذا من رفقته ورحمته وشفقته ونصحه ﷺ.

ففي هذه الأحاديث وأمثالها استحباب التعوذ من البلاء، وكراهة تمنّيه. والخطأ ليس في سؤال الله العافية وتمني عدم البلاء، بل الخطأ في سؤال الله إيّاه وقد عافاه، وتمنّيه وقد نهاه، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النِّسَاء : ١٤٧]. وقد مرّ الكلام عن ذلك.

وتأمل تفسير الحسن البصري لآية الحسنة فقد قال في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة : ٢٠١] هي العلم والعبادة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة : ٢٠١] هي الجنّة^(١). نسأل الله الكريم من فضله. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «هذا من أحسن التفسير؛ فإنَّ أجلَّ حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح»^(٢). وهذا تفسير للشيء ببعض معناه، أو بالمهم من تأويله، وإلا فحسنات الدنيا الشرعية والدينية المباحة لا تُحصى بفضل الله وكرمه، وبالله التوفيق.

الرابع: اشتراط عدم الإحساس بالألم:

ليس من شرط الرضا فقد الإحساس بالمؤلم، فهذا ممتنع على الطبيعة، بل إن الكمال أن يكون الرضا مع الألم حتى يتجرّد ذلك العمل القلبي الجميل من حظوظ النفس. وقد مضى الكلام على هذا.

الخامس: ترك الأسباب بحُجّة الرضا بالقضاء:

العبد دائرٌ في عبوديته بين مأمور بفعله، ومحذور بتركه، فوظيفته فعل المأمور واجتناب المنهي، وهو بهذا يفعل الأسباب المأمور بها، ويترك المنهي عنها.

(١) الطبري في التفسير (٤ / ٢٠٥)، وابن عبد البر في الجامع (١ / ٢٢٩)، وغيرهما.

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ٣٣٩)

ومن الأسباب التي لا بد له من فعلها - أي هو مأمور بها -: ما يحفظ حياته من الطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، وكذلك الأسباب الموجبة لبقاء نوع الإنسان من النكاح، وما يحافظ على عقله، وماله، وغير ذلك من ضرورات الحياة. وإن تعطيل شيء مما أمر الله به، أو الوقوع فيما نهى الله عنه يفسد حياته وآخرته.

وفعل الأسباب ليس مانعاً من الرضا، بل ذلك من الرضا بقضاء الله وقدره، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلا بفعل الأسباب المأمور بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ﴾ [البينة: ٧ - ٨]. وقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وغيرهما من الآيات الكثيرة التي تدل على أن فعل الأسباب من الإيمان والعمل الصالح بكل أنواعه وكيفياته، ومنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحب في الله، والبغض فيه وله، والجهاد في سبيل الله، وابتغاء الرزق الحلال من غير جشع أو طمع، والإنفاق في وجوه الخير، وغير ذلك من

العبادات الواجبات والمسنونات والمستحبات. وكما قيل: «من أراد أن يبلغ محلّ الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»^(١).

ومن قال أو ظن أو فهم أن الرضا ترك التدبير أو ترك الأسباب؛ فقد طعن في الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، فالله عز وجل يقول: ﴿فَأْمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ وَبَلَدُهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سج: ١٥]، وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، والغنيمة: اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] فهذا عمل، وقد هاجر ﷺ مستخفياً، كما ظاهر في الحرب بين درعين فيما هو أَرْضَى الخلق طراً برهم ﷺ.

فالرضا والتسليم لله، والإيقان بأن قضاء الله ماضٍ نافذ، واتباع سنة الرسول ﷺ في السعي فيما لا بد منه من الأسباب، من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو، وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة؛ هو الحق والصواب، والخير والفلاح للعبد في ذلك^(٢)، وبالله التوفيق.

السادس: ترك الدعاء أو الإلحاح فيه بحجة الرضا:

وهذا باطل، فالدين وعاء الدعاء، والله يجب أن يُدعى، وقد أمر كثيراً بالدعاء. والدعاء الملحّ بصلاح أمور الدين واضح المشروع مؤكّد

(١) نقلها القشيري في «الرضا» عن النصر آبادي.

(٢) وانظر: المنهاج (٣/ ٩١) وإكمال المعلم (٢/ ٩٠٣ - ٩٠٤. ٤) والبحر المحيط الشجاع في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد آدم الأثوي (٥/ ٥٣٦).

الاستحباب، أما في أمور الدنيا فم شروع كذلك مع ضرورة سكون القلب بما قسم الله له حال الدعاء. وربنا تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، والآيات في هذا كثيرة.

وفي صحيح مسلم^(١) بسنده عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدّه الله تعالى بالملائكة.

(١) مسلم (١٧٦٣)

وقال عليه السلام: «من لا يسأل الله يغضب عليه»^(١). فإذا كان سؤال الله يرضيه؛ لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه، بل هو من المبالغة في الإرضاء والاجتهاد في لبّ العبودية.

أمّا سؤال العباد، وإهراق ماء حياة الوجه تحت لعانتهم، فذلك عيب في صدق التدين، فإنه يُطفئ الرضا، ويذهب بهجته، ويبدّل حلاوته مرارة، ويكدر صفوه شوباً دينياً.

فإن إراقَةَ ماءِ الحَيَاةِ دُونَ إراقَةِ ماءِ المُحَيَّا ومن قال: إن الدعاء بكشف البلاء يقدر في الرضا والتسليم. فالجواب عليه: إن الطلب من الله ليس ممنوعاً، بل هو عبادة من أجلّ العبادات التي أمر الله بها، وكرّر أمره به وأبدأ فيه وأعاد، لأهميته، بل لضرورة العبد له. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].^(٢) ومن مآثور الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

(١) أحمد (٩٧٠١)، ومسنند أبي يعلى (٦٦٥٥) وحسنه حسين سليم أسد، والترمذي (٥) / (٤٥٦) وحسنه الألباني.

(٢) وانظر: الرضا بالقضاء. د. سالم بن محمد القرني. عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٤١ - ٣٥٠)

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما تدري بما صنع الدعاء
 سهام الليل لا تخطي^(١) ولكن لها أمد وللأمد انقضاء
 واعلم أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة، وأن الأفكار والتصورات
 والعلوم لها واردات عقلية إن لم يك صاحبها محصناً بآثاره من علم الوحي،
 معتصماً بأثر الرسول المعصوم ﷺ، مقتفياً آثار السلف الصالح في معتقده
 وسلوكه وهديه وسمته وقصده وقوله وعمله؛ فهو على شفا جرف هار،
 والمحفوظ الموفق من حفظه الله ووفقه.

فادع الله تعالى أن يُنجيك من شبكة الشبهات، وادع دعاء الغريق لعله
 أن ينظر إليك نظر رحمة وإجابة وقبول، فينجيك من شر نفسك وشر الشيطان
 وشركه، ويتداركك من حفر النار في العلم والإرادة والعمل.

وتأمل وصية ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ ومَرَّهَا على عقلك، واضعاً يدك على
 قلبك، لهجاً بدعاء ربك أن يعصمك من سوء الفتن. قال رَحِمَهُ اللهُ: «إن
 البصراء لا يأمنون من أربع: ذنب قد مضى لا يُدرى ما يصنع فيه الرب عز
 وجل، وعمر قد بقي لا يُدرى ما فيه من الهلكة، وفصل قد أُعطي العبد لعله

(١) أصلها: تخطي، ولكن سهلت مراعاة للروية، وهذا شائع سائغ في الشعر واللغة.

مَكْرٌ واستدراج، وضلالةٍ قد زُيِّنَتْ يراها هُدى، وزيفِ قلبٍ ساعةً، فقد يُسَلَبُ المرءُ دينه ولا يشعر»^(١)

وسئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عما ذكر القشيري في باب الرضا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: «الرضا ألاَّ يسأل الله الجنة، ولا يستعيز من النار»، فهل هذا الكلام صحيح؟ فأجاب بجواب تأصيلي من جهة الثبوت أولاً من نسبة هذا الكلام لمن نسب إليه، ثم فنّد هذا الباطل بدلائل القرآن والسنة والبراهين العقلية، وسألخص مهمّاته مستعيناً بالله تعالى، قال رَحِمَهُ اللهُ: «الحمد لله رب العالمين، الكلام على هذا القول من وجهين:

أحدها: من جهة ثبوته عن الشيخ، والثاني: من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يُعلم أن الأستاذ أبا القاسم^(٢) لم يذكر هذا عن الشيخ أبي سليمان^(٣) بإسناد، وإنما ذكره مرسلًا عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته فيه الصحيح والضعيف والموضوع كحال غيره.

(١) شعب الإيمان (٢/٢٦٠) وسير أعلام النبلاء: (٨/ ٣٥٩). ولعله لو قال خمس كان أولى، ولعله قصد أن زيف القلب مبني على الضلالة، وأظن أن «وزيف» مصحفه عن «فزيغ» فتكون «زيف» بيانية لا مستأنفة. والله أعلم.

(٢) هو القشيري رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) هو الداراني رَحِمَهُ اللهُ.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين، كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: «كيف تقول في دعائك؟» قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار. أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ! فقال: «حولها ندندن» (١). فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراشدين بالمدينة في حياة النبي ﷺ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!!

وقد ثبت في الصحيح (٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً. ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد. فمن سأل الله لي الوسيلة؛ حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة». فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من

(١) وفي رواية: «حولها ندندن». والحديث عند أحمد (٤٧٤/٣) بسند صحيح، وأبو داود (١) / (٢٩٢) (٧٩٢) وصححه الألباني. وقال العيني في شرح أبي داود (٣ / ٤٥٠): «دندنتك» الدندنة: قراءة مبهمّة، غير مفهومة، والهينة مثلها، أو نحوها. وقوله: «حولها» أي: حول الجنة والنار، «ندندن» أي: في طلبها، من دندن الرجل إذا اختلف في مكان واحد مجيئاً وذهاباً. وقال ابن رجب في فتح الباري (٥ / ١٨٩): «حولها ندندن»: وهذا يشعر بأنه يجوز الدعاء بمصالح الآخرة بأي لفظ كان. قلت: وبرواية الأفراد: «حولها» أي الجنة، وهو متضمّن النجاة من النار.

(٢) مسلم ٤/٢ (٣٨٤) (١١)

عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد، وهي درجة في الجنة. فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. فيسألهم ربهم - وهو أعلم -: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويمجدونك، ويُمجّدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشدّ لك تمجيّداً، وأكثر لك تسييحاً.

فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً، وأشدّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً، وأشدّ لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم

جليسهم»^(١). فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهر بهم من النار.

والنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين اتبعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم. قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهلكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة». قالوا: مَدَّ يدك، فوالله لا نُثْقِلُكَ ولا نَسْتَقِيلُكَ^(٢).

فهؤلاء الذين هم من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، وقد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة. فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب، بل وفي الحقيقة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسّه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده. فالجنة فيها هذا وهذا^(٣)، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا

(١) البخاري ١٠٧/٨ (٦٤٠٨) ومسلم ٦٨/٨ (٢٦٨٩) (٢٥)

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١ / ٣٨٤)

(٣) أي: فيها مما هو معروف ومتصور لنا في الدنيا من المتع واللذائذ. مع الفارق - وفيها أيضاً ما ليس له جنس في الدنيا من لذائذ خاصة بالجنة، فليس لها أمثال في الدنيا حتى بالاسم، فلا يتصورها ولا يتخيّلها البشر، نسأل الله الكريم من فضله.

يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الرَّحْف: ٧١]. ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال ﷺ: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١). وهذا باب واسع.

فإذا عرفت هذه المقدمة؛ فقول القائل: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وأنت لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار؛ فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول، وذلك أن الرضا الذي لا يُسأل؛ إنما لا يسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبته له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله؛ فكأنه قال: يرضى ألا يرضى، وهذا جمع بين النقيضين! ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عقله.

يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألماً ومرارة، فكيف يُتصور أن يكون راضياً وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة

(١) البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢)

المكارة^(١). وإنما هذا من جنس كلام السكران، والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه.

وإن أراد بذلك ألا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك؛ فقد غلط من وجهين: من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة، وهو أعلى نعيم الجنة. ومن جهة أنه أيضاً أثبت أنه طالب مع كونه راضياً. فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه.

ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر. فتبين تناقض قوله.

وأيضاً فإذا لم يسأل الله الجنة ولم يستعذ به من النار؛ فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما ألا يطلبه. فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك؛ فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى.

وإن كان الرضا ألا يطلب شيئاً قط ولو كان مضطراً إليه، ولا يستعذ من شيء قط وإن كان مضراً؛ فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل

(١) كما أثر عن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سئل عن احتماله العذاب في مكة قال: مزجت مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ففاقت حلاوة الإيمان المرارة فاحتملتها. أو نحو هذا.

به ذلك، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك. فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيز بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم، فلا يعدل عنه. وإن كان معرضاً عن جميع ذلك؛ فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضارّه بذلك.

والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشرّكاً مذموماً، فضلاً عن أن يكون محموداً، وإن قال: لا أحبه ولا أطلبه ولا أريده لا من الله ولا من خلقه؛ قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألاّ يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس. ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله. فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام.

وأما في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضياً عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟! وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه وينهى عنه؟! وبيان هذا: أن الرضا المحمود إما أن يكون الله يحبه ويرضاه، وإما ألاّ يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه، لم يكن هذا الرضا مأموراً به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، فإن من الرضا ما هو كفر؛ كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٢٨]، فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْخَطِيئَةَ إِذَا عُمِلَتْ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ غَابِ عَنْهَا وَرَضِيهَا كَمَنْ حَضَرَهَا، وَمَنْ شَهِدَهَا وَسَخَطَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَأَنْكَرَهَا» (١). وقال ﷺ: «سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ وَتَنْكَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرَأَ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» (٢).

وقال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٦) [التوبة: ٩٦]. فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣٨) [التوبة: ٣٨]، فهذا رضا قد ذمه الله. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٧]، فهذا أيضاً رضا مذموم، وسوى هذا وهذا كثير.

فمن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره؛ فليس هو متبعا لرضا الله، ولا هو مؤمن بالله، بل هو مُسَخَطٌ لربه، وربه غضبان عليه، لا عن له، ذام له، متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون إنما هي الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته. فمن أمر، أو استحَب، أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه، وينهى عنه، ويعاقب أصحابه؛ فهو عدو لله، لا ولي لله، وهو يصد عن سبيل الله، وطريقه ليس بسالك لطريقه وسبيله. وذلك أن الرضا نوعان:

(١) أبو داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني.

(٢) مسلم (٣/١٤٨١) (١٨٥٤).

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ إلى المحظور كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٩]، وهذا الرضا واجب. ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [٥٨] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٩ - ٥٨].

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل؛ فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح: أن الواجب هو الصبر، كما قال الحسن: «الرضا غريزة، ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن».

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان؛ فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٩٦].

فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه، بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم؛ فكيف يُشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه.

والمقصود هنا أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال: «من أراد أن يبلغ محل الرضا؛ فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض». وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق. وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته»، كلام حسن، لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل.

وكذلك ما ذكره معلقاً قال: «قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق الصدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء». فإن هذا من أحسن الكلام. وكان الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّد الطائفة ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً. وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة لا كلمة استرجاع. وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً. فالجنيد أنكر على الشبلي في سبب قوله لها إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه^(١).

ومثل ما ذكر القشيري أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد؛ فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر». فهذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده. وإذا تبين أن فيما

(١) فلو قالها من باب طلب معونة الله تعالى والتقرب إليه بذكره كان قولها مشروفاً محموداً.

ذكره مسنداً ومرسلًا ومعلّقًا ما هو صحيح وغيره؛ فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلّة. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة؛ فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف، فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه. والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسنداً حيث قال: «قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد؛ لقد أوتيتُ من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً». فهذا الكلام مأثور عن أبي سليمان بالإسناد، ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن، بخلاف تلك الكلمة، فإنها لم تُسند عنه، فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها، فإنه قبل أن يرويها قال: وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء»^(١)، فقال: «لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا». فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: «أرجو أن أكون قد عرفت طرفاً من الرضا؛ لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً!» فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان

(١) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦)

ليس هو رضا، وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء. وإن كان هذا عزمًا فالعزم قد يدوم، وقد يفسخ. وما أكثر انفساخ العزائم، خصوصًا عزائم الصوفية^(١)، ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: «بفسخ العزائم ونقض الهمم».

وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ أَلْمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا (٤) [الصف: ٢ - ٤]، وفي الترمذي: أن بعض الصحابة

(١) وهو غالب لا مضطرد كما قال، فمنهم من يثبت في عزمته كالجبال الرواسي لعظيم إيمانه وقديم دُرْبته وقوة أطر نفسه على الاستقامة، وكان فسخها غالبًا لديهم بالخصوص لأن إرادتهم غلبت علمهم، فعلمهم بالله تعالى وبشرعه ليس على المستوى المطلوب لإيمانهم، فيبتدئ المرید بقوة عزيمة رغبًا ورهبًا ومحبة وشوقًا، لكنها لا تلبث أن تضعف أو تضمحل في ثاني الحال، فيخبو شعاع الروح تحت كثافة الطين، وينطمر العزم تحت ثقلته؛ لأن تلك العزيمة المشوشة كانت مبنية على وهج رغبة وطرف من علم، فعادت دعوى غير مُحَقَّقة.

أما إن ساعدها علم فقيه بطريق الرسول ﷺ في أعمال الجوارح وأحوال القلوب وما يصلح لها وما يقيمها وما يقوِّمها لاختلاف الحال، إلا من مانع من خارج، كفساد نية، أو ضعف تدبُّن، أو خذلانٍ مقدور، والله أعلم.

قالوا للنبي ﷺ: لو علمنا أيّ العمل أحبّ إلى الله لعملناه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء : ٧٧]. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبّوه؛ فلما ابتلوا به كرهوه، وفروا منه. وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟! ومثل هذا ما يذكرونه عن سمّنون المحب، أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظٌ فكيفما شئتَ فاخترني
فأخذه الحسر من ساعته، أي حُصِرَ بوله^(٢)، فكان يدور على المكاتب^(٣)،
ويفرّق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمّكم الكذاب^(٤).

وحكى أبو نعيم الأصبهاني أن سمّنون قال: يا رب، قد رضيتُ بكل ما تقضيه عليّ. فاحتبس بوله أربعة عشر يومًا. فكان يتلوى كما تتلوى الحيّة، يتلوى يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: رب قد تبتُ إليك.

(١) الترمذي (٥ / ٤١٢) (٣٣٠٩) وصححه الألباني.

(٢) كأنه أُصيب بفشل كلوي مؤقت أو حَجَرٍ سدّ مسالكه.

(٣) أي: طلاب الكتاتيب.

(٤) لأنهم لم يُقارفوا ذنوباً، فعمدُ الطفل خطأً، ومن رحمة الله تعالى بهم أن يحتسب لهم الحسنات دون السيئات.

قال أبو نعيم: فهذا الرضا الذي ادّعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى، مع أن سمنوناً هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور. وقد ذكر القشيري في باب الرضا عن رويم المقرئ رفيق سمنون قال: قال رويم: إن الراضي لو جعلت جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره! فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئت فامتحنني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون النار عن يمينه؟!

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء، وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحبي لك إلا فرجت عني؛ ففرج عنه.

ورويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون إنه رجع إلى الدنيا، وترك التصوف، حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال: من أراد أن يتكتم سرّاً فليفعل كما فعل رويم؛ كتم حب الدنيا أربعين سنة^(١)، فقليل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: ولي إسماعيل

(١) من غرائز النفوس التي لا تكاد تنفك عنها حب الدنيا، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقد أرشد سبحانه بعد بيان حالنا الضعيف مع زينة الدنيا إلى ما ينبغي لنا حقاً أن نرتقي إليه، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقال سبحانه مُعَرِّياً غريزة بني آدم: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال سبحانه مبيّناً حقيقة الدنيا وحال الغافلين معها: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ

بن إسحاق القاضي قضاء بغداد، وكان بينهما مودة أكيدة فجذبه إليه، وجعله وكيلاً على بابه، فترك لبس التصوف، ولبس الخزر والقصب والديقي، وأكل الطيبات^(١) وبني الدور، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها

=
يَبْنِيكُمْ وَتَكَثَّرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴿٢٠﴾ [الحديد : ٢٠]، ثم نقل الوصف مباشرة للآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحديد : ٢٠] أي: اختاروا مصيركم، واحرثوا لآخرتكم، واعملوا لمنازلكم غداً.

وتدبر قوله تعالى ورجمته بنا حين زوى كثيراً من ترف الدنيا عنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقُوطًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف : ٣٣]
قال الحسن رحمه الله: «لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟! ذكره الطبري في تفسيره (٥٩٨/٢١).

وبالجملة؛ فلعل مقصودهم بكتمان حب الدنيا: أي حبّ المبالغة في زيتها والتنافس في حطامها الذي يقسي القلب فيغفل عن معالي الآخرة. وبما قصدوا - وهذا أظهر -: ترك مظاهر التصوف التي أصّلها المتصوفة لأنفسهم من غير هدى من الله، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد : ٢٧]، فاشتروا زياً معيناً من الصوف والخرق البالية زعماً أنه من لوازم الطريق، وما هو من لوازمه، ولكن من اكتفى به زهداً في الدنيا بدون شهرة أو تعظيم أو قصد أنها سنة متبعة فلا بأس، حفظاً للنفس من غيلة الترف، والله أعلم.

(١) لعل قصده الترفه والتنعم لا مطلق الطيبات، فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ

ظهر ما كان يكتُم من حبِّها. هذا مع أنه رَحِمَهُ اللهُ كان له من العبادات ما هو معروف، وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال^(١) لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها، لا تُجْعَلُ طريقة ولا تُتخذ سبيلاً، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق^(٢)، وما يقدر عليه من التقوى والصبر.

والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً، وإن لم يكن عاصياً^(٣) أو فاسقاً أو كافراً.

الْقِيَمَةُ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف : ٣٢]. وفي صحيح البخاري معلقاً (٢٦٤/١٠) ووصله النسائي: قال النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة». وللقسطلاني رَحِمَهُ اللهُ تحرير نافع في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣٣٣/١).

(١) أي: انه استغرق بمشاعر قلبه الدينية وخواطر روحه الإيمانية بلا قيود عقلٍ يحجزه عن تجاوز أو تبين حقائق الأمور على ضوء العلم الشرعي، فهو إحساس وإرادة بلا كفاية علم وبصيرة.

(٢) أي حقوق سلوك التنسك والتعبد، فليس حِمًّا مباحاً لكل من أراد، بل هو مشروط بشروط الشرع، كالإخلاص والاتباع والعلم والتوكل والمجاهدة والتثبت ونحوها.

(٣) لجهله، ويُعتذر عنه إن كان ثم تأويل، ولا يُتابع على خطئه.

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ، فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء؟»^(١) قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فاجعله في الدنيا. فقال: «سبحان الله، لا تستطيعه ولا تطيقه»، هلاً قلت: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»^(٢). فهذا أيضاً حمّله خوفه من عذاب النار، ومحبه له لسلامة عاقبته، على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئاً في ذلك غلطاً. والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً، فليس من شرط وليّ الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط، بل ولا من الذنوب، وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له لما عَبَرَ الرؤيا: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»^(٣).

(١) وهذا من فراسته ﷺ، ومعرفته بنفوس أصحابه وطبائعهم، أو من وحي الله تعالى له.

(٢) مسلم (٦٨/٨) وفي رواية: «فقالها، فشفاه الله».

(٣) رواه البخاري (٤٣/٩، ٥٥) ومسلم (٥٥/٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفّفون منها فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانتقطع ثم وُصل.

فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت، والله لتدعني فأعبرها. فقال النبي ﷺ: «اعبر» قال: أما الظُلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطف

ويشبهه - والله أعلم - أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة: «لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً»، أن يكون بعض الناس حكاة بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار.

وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان - مع أنها لا تدل على رضاه بذلك - ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر، بل ينفسخ، وأن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها (١)

=

فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه؛ تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله، بأي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»، قال: فوالله لتحديثي بالذي أخطأت. قال: «لا تُقسم».

قلت: ولعله حدثه لاحقاً عنها إبراراً لقسمه، ولم يشهد ابن عباس ذلك، والله أعلم. والظلة: هي السحابة تظل من تحتها، وقد يطلق على الجبل، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوُجُّ كَالظِّلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] ومعنى تنطف: أي تقطر. ومعنى يتكففون، من التكفف وهو مدّ الأيدي للأخذ. والسبب هو الجبل، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، وكل ما يتوصل به إلى ما يتعذر الوصول إليه، فهو سبب. وعبرَ الرؤيا وعبرتها - بتخفيف الباء - بتشديدها كذلك: إذا أخبر بما يؤول إليه أمرها.

(١) إنصاف عظيم ولطف بالغ من هذا الإمام الجليل. وهذا من حفظ مقامات أهل الفضل، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل. قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠) /

=

=

(٢٧٨): «أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا. وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة». وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (١٥ / ٢٥٣): «قال الجنيد: قال أبو سليمان: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. وقال: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صداد، وصداد نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: أصل كل خير الخوف من الله، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال أبو سليمان: إذا تكلف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم. وقال أحمد: رأيت أبا سليمان حين أراد أن يلبي غشي عليه، فلما أفاق قال: بلغني أن العبد إذا حج من غير وجهه، فلبى قيل له: لا لبيك ولا سعديك حتى تطرح ما في يديك، فما يؤمننا أن يقال لنا مثل هذا! ثم لبى.

وقال الجنيد: شيء يروى عن أبي سليمان أنا أستحسنه كثيرا، قوله: من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس».

وقال ابن القيم في روضة المحبين (١ / ٤٣٩): «قال ابن أبي الحواري رَحِمَهُ اللهُ: سئل أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ وأنا حاضر: ما أقرب ما يُتقرب به إلى الله عز وجل؟ فبكى، ثم قال: مثلي يسأل عن هذا، أقرب ما يتقرب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو». وقال (١ / ٤٤١): «قال أبو سليمان الداراني: من صفا صُفِّي له، ومن كدر كُدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه». وقال في المدارج (٢ / ٢٢): «قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا».

وبالجملة؛ فالشيخ أبو سليمان الداراني مشهور بالعلم والعبادة والورع والفضل والوعظ والخير والحروف النافعة، رَحِمَهُ اللهُ.

وأنها مُستدرَكة^(١)، كما استدركت دعوى سمنون ورويم، وغير ذلك. فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقاً عظيماً؛ فإن تلك الكلمة مضمونها: أن من سأل الجنة واستعاذ من النار لا يكون راضياً! وفرقٌ بين من يقول: أنا إذ فعل كذا كنت راضياً، وبين من يقول: لا يكون راضياً إلا من لا يطلب خيراً، ولا يهرب من شرٍّ.

وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجَلَّ من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة، حتى إنه قال: «إنه لتمرُّ بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة»^(٢). فمن لا يقبل نكتة قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور، بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسنّة، فكيف أبو سليمان!

وتمام تركية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في المقام الثاني؛ وهو قول القائل كائناً من كان: «الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار». ونقدم قبل ذلك مقدمة نبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب. وذلك أن قوماً كثيراً من الناس من المتفكّهة، والمتصوّفة،

(١) أي: محتسبة محفوظة عليه من جمل أخطائه.

(٢) وقد استشهد شيخ الإسلام بهذا الحرف الداراني في مواطن كثيرة في مؤلفاته، ومن أسباب ذلك أنّه من أجلاء المتصوّفة، وله قبول رحيب لديهم، من باب شاهد الأهل، رحمهما الله تعالى.

والمتكلمة وغيرهم، ظنّوا أن الجنة هي التّنعّم بالمخلوق، من أكل، وشرب، ونكاح، ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشمّ روائح طيبة، ولم يُدخلوا في مسمى الجنة نعيمًا غير ذلك.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق إثبات تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما في الحديث الذي في النسائي^(١) وغيره، عن النبي ﷺ: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرّد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيننا بزيّنة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

وفي صحيح مسلم^(٢) وغيره، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد: يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُبَيّض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويمرنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه. فما أعطاهم شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه».

(١) سنن النسائي (٣ / ٥٤) (١٣٠٥) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (٢٩١)

وكلما كان الشيء أحب، كانت اللذة بنيله أعظم. وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق. كما روي عن الحسن البصري أنه قال: «لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه». وكلامهم في ذلك كثير.

وطوائف من المتصوفة، والمتفجرة، والمتبتلة وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم فيها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله، والتنعم بالنظر إليه، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: «ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك، وإجلالاً لك»^(١).

وأمثال هذه الكلمات، ومقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب، والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة.

وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة. وسبب ذلك أن همّة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوه ومعبوده تنفيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوه.

(١) مروية عن العابدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى، إن صحّ النقل عنها.

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وجدٌ صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك، لكن أخطئوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة، نظير ما ذكره عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فصرخ، وقال: أين يريد الله؟ فيُحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله، وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله؟! ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سئل مرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].^(١) قال: فإذا كان الأنفس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

(١) يرد في القرآن العزيز لفظ شري واشترى وما تفرع عنهما، والفرق في المعنى أن ما جاءت بحرف التاء (يشري، اشتراه، ليشتروا..) فهي الأخذ- وهو المسمى عرفاً بالشراء- أما ما خلت من التاء (يشري، شروا، وشروه) فهي بمعنى البيع. ومعنى الآية هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ [البقرة: ٢٠٧]، أي: يبيع نفسه.

والواجب أن يُعلم أن كل ما أعدّه الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه، وما سوى ذلك هو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة : ١٧].

وإذا علم أن جميع ذلك داخل في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة، كما قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإِسْرَاء : ٢١]. وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة. وطلب الجنة، والاستعاذة من النار، طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين»^(١).

وبعد؛ فعلى المؤمن ألا يستحسر عن الدعاء، وإلا يستهين به، فهو من أعظم أسباب التوفيق في الدنيا والآخرة، وألا يزيغ بظن عدم جدواه، أو أنه معارض لرضا القلب، بل عليه أن يسأل ربه ما شاء من مطالب الدنيا والآخرة، وأن يُعلي همته في مطالبه، وألا ينكل عن سؤال ربه ما يؤرق راحته ويكدّر صفوه من أمر الآخرة والدنيا، فإن الروح إذا كلّت عميت أو كادت، ورب أمر صغير تُبنى عليه كبريات الأمور، والله المستعان.

(١) الفتاوى الكبرى (٢ / ٤٠١ - ٤١٢) باختصار. وسيأتي بسط موضوع انفساخ العزائم في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

فيا نازفاً همّه بدموعه، ومُرسلاً شجنه بأنينه، وبأثا شكايته بزفراته؛
أبشر ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

السابع: الظن بأن التنعم بالمباحات ينقص الرضا.

وهذا ظن باطل، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والنبي ﷺ قد حُبب الله إليه النساء والطيب، وكان لا يردّ موجوداً ولا يتكلّف مفقوداً، وربّ مباح أعان على طاعة ورَدّ عن شهوة حرام. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ما زال جماعة من المتزهدين يُزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات. والذي يحملهم على هذا الجهل. فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم.

وهذا لأن الطباع لا تتساوى، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو.

غير أن لنا ضابطاً هو الشرع، فيه الرخصة وفيه العزيمة. فلا ينبغي أن يُلام من حصر نفسه في ذلك الضابط. ورب رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها.

ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى، فتنبت القلوب من خوفه، وتنحلّ الأجسام للحذر منه؛ فوجب التلطفُ حفظاً لقوة الراحلة. ولأن آلة العلم والحفظ القلب والفكر، فإذا رُفِّهت الآلة جاد العمل، وهذا أمر لا يُعلم إلا بالعلم.

فلجehl المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان، وإنضاء الرواحل، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج إلى راحة مقاومة، كما قال القائل: «روّحوا القلوب تعي الذكر»^(١).

ولكن لا يعني هذا أن تكون الدنيا هي المقصد، فقد خاب من أولاد آدم من كان سعيه لها دون الدار الحيوان الآخرة، قال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود: ١٥ - ١٦]. وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار، والدرهم، والقטיפه، والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض»^(٢). اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا.

أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ نُسْكًَا	وَعَلَى الْمَنَقُوشِ دَارُوا
وَلَهُ صَامُوا وَصَلُّوا	وَلَهُ حَجَّوْا وَزَارُوا
وَلَهُ قَامُوا وَقَالُوا	وَلَهُ حَلَّوْا وَسَارُوا
لَوْ غَدَا فَوْقَ الثَّرِيَّا	وَهُمْ رِيَشٌ لَطَارُوا

(١) صيد الخاطر (١ / ٣٠)

(٢) البخاري ١١٤/٨ (٦٤٣٥) والقטיפه: كساء له خمل، والخميصة: ثوب خز أو صوف

معلّم. النهاية (٢/٨١، ٤/٨٤)

والمقصود؛ أن تنعم المؤمن فيما آتاه الله تعالى مما أباحه لا ينافي الرضا ولا ينقصه، وقد كان حال النبي ﷺ قائم على القناعة وإحسان سياسة النفس بما تيسر من الطيبات، فالموجود لا يردّه، والمفقود لا يطلبه، وكان يحب الطيبات من النساء والطيب والحلواء والعسل والدّبّاء واللحم وغيرها، ولم يهتد به من منع نفسه اللحم ظاناً أن هذا من هدي الشريعة، فقد كان ﷺ يأكله، بل وذكر حبه له، ورسول الله لا يحب إلا طيباً، ففي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أضافه وقدم له اللحم قال ﷺ: «كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ حُبَّنَا لِلْحَمِّ»^(١).

فإن من كماله ﷺ أنه يحب من الطعام الطيبات التي يحبها سائر الناس، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون غذاءُ الآدميين تبعاً لما تقوم به أجسادهم، فجعلها من مشترياتهم من الطيبات، فميل النفوس لما يلائمها مما اقتضته سنة الله تعالى في خلقه هو من الكمالات، وضده نقص، وإن من أطيب وأنفع وأقوى ما يقوم به الجسد اللحم.

وعليه؛ فقد أحب رسول الله ﷺ طيبات اللحم كما أحب العسل والحلواء والدّبّاء^(٢) وغير ذلك مما نقل من محبته له، ولعلّ رسول الله ﷺ قد

(١) أحمد في مسنده (١٥٢٨١) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العنزي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة.

(٢) روى البخاري (٥٤٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يُحِبُّ الْحُلُوءَ وَالْعَسَلَ». وروى أيضاً (٢٠٩٢) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ خِيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَطْعَامَ صَنْعِهِ، قَالَ أَنَسُ: فَذَهَبَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَبْزًا مِنْ شَعِيرٍ وَمَرَقًا فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، قَالَ أَنَسُ:

قصد بذكر محبته للحم تطيب قلب جابر وإدخال السرور عليه لما قدّمه من أيّ طعام كان سواء أكان لحمًا أو غيره من الطيبات، خاصة وأن في تقديم اللحم للأضياف كلفته في ذلك الزمن، كما أن رسول الله ﷺ قد ذكر المحبة بلفظ الجمع «حبنا للحم»، فلعلّ فيه إشعار بأن من معه هم كذلك، وأنه قد أدخل نفسه معهم في تلك المحبة، كذلك فالبشر على العموم محبون لهذا اللون من الطعام، بل لعله في رأس السّلم الغذائي في رغائب موائدهم سواء أدركوا حاجتهم منه أم لم يدركوها، وتأمل تقديمه في الولائم لمن كان قادرًا، كما في أمره ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تزوج فقال: «أولم ولو بشاة»^(١)، وكان ﷺ يأكل لحم الإبل والغنم والدجاج والصيد والسمك وضحّى عن نسائه بالبقر، وقد أضاف إبراهيم عليه السلام الملائكة عجلًا مشويًا، وقد ذكر الله تعالى اللحم طعامًا لأهل الجنة فقال سبحانه: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(٢) [الواقعة : ٢١] ، وأخرج مسلم^(٣) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سؤالات اليهودي لرسول الله ﷺ وفيه: قال اليهودي: فما تُحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال:

فرايت رسول الله ﷺ يتبع الدّباء من حوالي الصّحفة، فلم أزل أحبّ الدّباء من يومئذ. والدّباء هو اليقطين وهو القرع. أما القديد فهو اللحم المقدّد المشرّح المملّح، يقطع طوألًا ويملّح ويحفف في الشمس، وفائدة الملح أن يخرج الرطوبة من اللحم سريعًا، ويُعلّق في مكان جافّ حتى لا تدركه العفونة، وتبقى بعض بكتيريا نافعة تنضج اللحم على الوقت الطويل. وهي تقنية للطعام قديمة عند أكثر الشعوب.

(١) البخاري (٥١٥٥) ومسلم (١٤٢٧)

(٢) مسلم (٣١٥)

«زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «يُنَحَّرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ، الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا»^(١)، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا».. فذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي: لقد صدقتَ، وإنَّكَ لَنَبِيٌّ. وانصرف.

وروى الشيخان^(٢) حديثاً عجيباً عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ»^(٣) كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خَبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ^(٤)، نُزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ^(٥)، فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: «بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلَا أَخْبَرَكَ بَنْزَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «تَكُونُ الْأَرْضُ خَبْزَةً وَاحِدَةً». كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا، ثُمَّ ضَحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ^(٦): «أَلَا أَخْبَرَكَ بِإِدَامِهِمْ؟»^(٧) قَالَ: «إِدَامُهُمْ بِالْأَمِّ وَتُونٌ»، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ^(٨): «ثَوْرٌ

(١) ولعلَّه الثور الوحشي، وهو من أطيب الصيد عند العرب.

(٢) البخاري (٢٧٩٢) ومسلم (٢٧٩٢).

(٣) أي: يقلبها ويميلها بيده لإصلاحها وإنضاجها.

(٤) وتسمى خبزة الملة.

(٥) أي: ضيافة لهم حين ينزلونها.

(٦) أي: اليهودي.

(٧) أي: ما يؤكل به الخبز.

(٨) أي: اليهودي.

ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً». والنون هو الحوت، أما باللام فقد بيّنه حين استفهموه بأنه الثور^(١).

وقد سبق وأخبرهم النبي ﷺ بذلك كما في حديث ثوبان الأنف، فجاء هذا الخبرُ فصدّقه في كل ما قال، وهذا من دلائل نبوّته ﷺ، وفيه أنّ الأرض ستصبح بقدرة الله تعالى خبزة واحدة ورغيفاً عظيماً وطعاماً طيباً نزلاً من الله تعالى لأهل الجنة، فسبحان من بيده أمر كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

(١) ولعله الثور. وفي مصابيح الجامع للبدر الدماميني (٤٤٩/٩): «حكى السفاقي عن الخطابي أنه قال: أما النون، فهو الحوت، وأما باللام، فإنه شيء مبهم دلّ الجواب من اليهودي على أنه اسم للثور، وهو ما لم ينتظم، فيشبه أن يكون اليهودي أراد أن يعي الاسم بتقطيع الهجاء، وقدم أحد الحرفين، فقال: بالام، وإنما هو في حق الترتيب؛ لا با هجاء لأى على وزن لعى؛ أي: ثور، فصحّف فيه الرواية: «بالام»، فأشكّل واستبهم. قال: وهذا أقرب ما يقع لي فيه، إلّا أن يكون ذلك بغير لسان العرب، فإن المخبر يهودي، فلا يبعد أن يكون إنما عبّر عنه بلسانه». أهـ.

قلت: وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بتحفتهم في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثابت في مسلم (٣١٥) في سؤالات اليهودي، وإجابات رسول الله ﷺ، ومنها: «تحفتهم يوم يدخلون الجنة زيادة كبد النون». قال: ما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يُنحر لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شربهم على إثرها؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». ولا يبعد أن يكون الثور هو بقر الوحش الذي يسمّى المها والوضيحي، فهو من شُرَد الصيد، وتستطيعه العرب جدّاً، وإن كان هو والحوت من حيوان الجنة الذي ليس في الدنيا منهما سوى الاسم، وبالله التوفيق.

ولعلّ من حكم ذلك حتى يوقن أهل الجنة أن لا عودَ إلى الدنيا بعد فناء الأرض التي أكلتهم أوّلاً فأكلوها آخرًا، فيزداد نعيمهم بالخلود.

وعلى المؤمن أن يوقن بصدق كل ما ثبت عن النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]. أما المراد من الضحك في هذا الحديث فهو كمال التبسم، وإنما ضحك سرورًا بأن شهد له الخبر الإسرائيلي بما في التوراة بتصديق ما أخبر أصحابه به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمٰٓؤُا۟ بَنِي إِسْرَءٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وبالجملة؛ ففي هذا إثبات محبته ﷺ للحم على خلاف من امتنعوا منه قصداً ممن يُسمّون بالنباتيين الذين خالفوا فطر الناس. قال ابن حجر رحمه الله في الفتح ^(١): «وكان ذلك لقلة الشيء عندهم فكان حبهم له لذلك.. وأما ما ورد عن عمر وغيره من السلف من إثارة أكل غير اللحم على اللحم، فإما لقمع النفس عن تعاطي الشهوات والإدمان عليها، وإما لكرهية الإسراف والإسراع في تبذير المال لقلة الشيء عندهم إذ ذاك». وكفى بهذه الآية الفاذة الجامعة، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ۗ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

هذا؛ ومن فُتح له باب زهد فليحمد الله تعالى عليه، ولكن لا يحمل الناس على مذهبه، ولا يجبرهم على اختياره، ولا يسيرهم راغمين على مساره،

ولا يلزمهم ما لم تلزمهم به الشريعة، وكلُّ ميسر لما خلق له، فقد يكون مَنْ ظاهره الترف أعلى درجة عند الله ممّن ظاهره الزهد، فقد تكون تلك المظاهر مُعينة له على ضبط إيمانه بسياسة نفسٍ حكيمة، وبطرائق منهجية مشروعة، وله خبايا لا يعلم بها إلا الله تعالى.

ولقد كان زين العابدين علي بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ - فيما ذكره الذهبي عن ابن إسحاق - يُبخل، لأنّه كان يُنفق سرّاً ويظن أهله أنه يجمع الدراهم. فما مات فقداه أهل مئة بيت في المدينة لم يكونوا على علم بمن يضع لهم الطعام عند أبوابهم ليلاً حتى رحل لربه رَحِمَهُ اللهُ، ولما غسّلوه وجدوا بظهره أثراً مما كان ينقل الجُرْبَ بالليل إلى منازل الأرامل! فالاعتبار ليس بالظاهر.

والمقصود؛ أن الزهد عبادة عزيزة لكنها جارية على الأحكام التكليفية الخمس، فزهد واجب عن الحرام، ومستحبّ عما يشغل عن الآخرة، ومكروه في حال إشغاله عن عبادة أرجى في الميزان منه، ومباح فيما استوى طرفاه، ومحرم فيما لو ترتّب عليه تفريط في واجب أو وقوع في حرام، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فليس لأحد أن يحمل الناس على أمرٍ شَدّةٍ ولهم فيها سعة في دين الله تعالى، فمن الناس من يُلزم أهله وولده وأسرته بأمور من الزهد هي من الفضائل لا من العزائم، بل قد يقع بعضهم في تحريم حلالٍ بين الحِلِّ، وقد يؤوّل الأمر بهم بسبب الإلزام لخلاف مقصده الناصح ونيّته الصادقة، لكن إن وُفّقَ للين وحكمة فعرضها عليهم عرضاً مُقنعاً مناسباً لطيفاً رفيقاً كان ذلك أدعى لقبولهم، لكن بلا اخشيشانٍ خُلِقَ، ولا إلزامٍ بعيشٍ لم يلزمهم به الدين.

وعن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: جاء رجل إلى وهيب بن الورد رَحِمَهُ اللهُ، فجعل كأنه يذكر الزهد، قال: فأقبل عليه وهيب فقال: «لا تحمل سعة الإسلام على ضيقة صدرك»^(١).

وقال أيوب رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ زَهَدَ رَجُلٌ فَلَا يَجْعَلَنَّ زُهْدَهُ عَذَابًا عَلَى النَّاسِ»^(٢).

وَلَمَنْ زُوي عنه شيءٌ يُريده من رزق الله تعالى: أَبْشِرْ، فَإِنَّكَ بِعَيْنِ الله تعالى وعلمه، فقد خار لك صالحك، وسوف يسوق رزقك المناسب لك في أوانه المناسب لك، فهو القائل: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، وتدبر عموم: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣)، فلا تخفى عليه خافيتك يا عبده، فهو عليم بك وبحاجتك ورغبتك وبما يصلح دينك ودنياك، فأنت فقيره وضعيفه وكسيره وعبده ومملوكه ومرحومه، فاحمد واشكره وارض عنه وأرضه، والحمد لله رب العالمين.

أَلَا يَا صَبَا نَجِدَ مَتَى هِجَتَ مِنْ وَجْدٍ فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكَ وَجْدًا عَلَى وَجْدِي
أَلَا إِنَّ هَتَفَتْ وَرَقَاءً فِي رَوْنَقِ الضُّحَى عَلَى فَنَنِ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ
بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ تَكُنْ جَلِيدًا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تُبْدِي
وَحَنَّتْ قُلُوصِي مِنْ عَدَانٍ إِلَى نَجْدٍ وَلَمْ يُنْسِهَا أَوْطَانَهَا قَدَمُ الْعَهْدِ

(١) تهذيب الحلية (٣/ ٣٥)

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/ ١٩١)

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا يَمَلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشَفْ مَا بَنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ



انفساخ العزائم وانتقاض الدّعائم

وَكَمْ مِنْ هَمَّةٍ فِي النَّفْسِ قَدْ خَدَتْ مِنْ بَعْدِ مَا زَجَلَتْ حُلُمًا بِعَالِيهَا
 إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ فَيَجْلُو عَنْهَا
 غَيْنَ الْجَهَالَةِ، وَغَيْمَ الْعَمَاةِ، وَقَتْرَةَ الضَّلَالَةِ، وَسُخَامَ الْهَوَى، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ
 الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ، وَعَدَّ الشَّاكِرِينَ بِالْمَزِيدِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سَبَأَ : ٤٧]، هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ السَّمِيعُ الْمُجِيبُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
 يُرِيدُ﴾ [الْحَجَّ : ١٤]، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ اللَّطِيفُ الرَّفِيقُ، ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ
 وَيُعِيدُ﴾ [الْبُرُوجِ : ١٣]، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَجَلَّ وَعَزَّ وَحَمْدٌ وَسُبْحٌ، الْخَلْقُ
 خَلَقَهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالدِّينُ دِينُهُ، وَهُوَ الدِّينُ الْحَقُّ الرَّشِيدُ، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ
 رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَنِي تَوْفَكُونَ﴾ [غَافِرَ : ٦٢].

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مَزِيحًا أَمْشَاجًا يَبْتَلِيهِ، وَسَوَّاهُ حَيًّا سَمِيعًا بَصِيرًا عَاقِلًا رَشِيدًا
 لِمَا يُصْلِحُهُ وَيُقِيمُهُ وَيَحْمِيهِ، رَكَّبَهُ مِنْ جَسَدٍ يَحْمِلُهُ، وَعَقْلٍ يُرْشِدُهُ، وَرُوحٍ
 تَحْكُمُهُ، وَأَقَّتْ لَهُ مَوْعِدًا لَا يَجُوزُهُ، وَأَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ، وَقُدْرَةً مَبْسُوطَةً لَهُ،
 وَقَدْرًا مَا لَهُ عَنْهُ مَحِيدٌ، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الَّذِي خَلَقَكَ
 فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ] ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الْإِنْفِطَارَ : ٦ - ٨].

خَلَقَهُ - لِحَكْمٍ عَظِيمَةٍ - عَلَى أَصْلِ الضَّعْفِ وَوَهْنِ الصَّبْرِ وَقِلَّةِ الْحِيلَةِ،
 ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاءَ : ٢٨]، وَجَعَلَ لَهُ غَرِيزَةً تُحِبُّ الْجَدَلَ، وَتَنْسَى
 الْعَهْدَ، وَتَنْقُضُ الْعَزْمَ، وَتُؤَثِّرُ الْعَاجِلَةَ، فَهُوَ خَاسِرٌ لَا مُحَالَةَ إِلَّا إِنْ آمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا وَتَوَاصَى بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَأْنِ الْإِنْسَانِ: ﴿وَكَانَ

الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ [الكهف : ٥٤]، قال الحافظ: «فالإنسان كثيرُ
المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره
لطريق النجاة»^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ
نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه : ١١٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنما سُمِّيَ الإنسانُ
لأنَّه عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ. وقال مجاهد والحسن: نَسِيَ، أي: تَرَكَ»^(٢).

أكرمه ربُّه العظيمُ بالعلم والإيمان، والعقل واللسان، وحبَّ الخيرِ
والحنان، والإرادة والاختيار المنعقدَيْن في سُويداء الجنان، وحكمته وعدله
وعلمه ورحمته وإحاطته من وراء ذلك كله، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾﴾
[البقرة : ٢١٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف : ٣٠]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا
بَنِي آدَمَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الإسراء : ١٧٠]، وأسجدَ له خلقه الثورانيَّينَ العُظماء الملائكة الكُرماء
تكرِّمَةً له، ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة : ٣٤].

فعلى قَدَرِ إيمانِ الإنسانِ وعلمه ويقينه وعمله تكونُ رفعتُه وسموُّه وزكاته
وطيبه، وعلى قدر جهله وكفره وشركه وظلمه ونفاقه يكونُ اتِّضاعُه ونزوله
وخسرانه وهلاكه، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة : ١١]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِن يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل :
٩٣]، ﴿وَمَن يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج : ١٨]،

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ١٧١)

(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٢٠)

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

وإنّ من عجائب القدرة فقد العزم بعد انقياده، وحلّ قيده بعد انعقاده، وعزّوبه بعد إنشائه، فلا إله إلا الله العليمّ القدير المدبّر الحكيم، فقد يريد المرء أمرًا ساميًا، ويطمح لغاية فضلى، ويشمر عازمًا بلوغها، حاله:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا

ثم - فجأة - لأمر غير مفهوم، وعلة غير معلومة، وسبب خفي غير ظاهر، نراه ينكص عنها القهقرى، راغبًا عنها لا إليها، راجعًا معرضًا مدبرًا زاهدًا، بل كارها قاليًا، وما من بأس سوى ضجرٍ وصرفٍ لا يجد له مدفعًا، ولا يرضى عنه مفتحًا، إنما يرتاح عنه بالبعاد، فإن رام عودًا لما مضى من سبيله إذ الصّرف قد عاد، حال عزيمته: وَجَادَتْ بَوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ!

فتبارك الله خالق هذا وهذا، فهو المدبّر المتصرّف الحكيم العليم. وكما قيل: أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد.

وقال يوسف بن عبد الأحد: «قلت للمزني: معنى قول الشافعي: يَتَرَوَّحُ الرَّجُلُ بَيْتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ، ما هما، فأشددني:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا

يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا^(١)

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (١٥١/٩)

إنَّ انفساخَ العزائمِ على الدوامِ، وانصرافَ الرغائبِ كُلِّ حينٍ، وهجومَ الملألِ قبلَ التَّمامِ، وانتقاضَ الإراداتِ للقممِ، وانتقاضُ الدَّعائمِ للهَمَمِ؛ معدودٌ من براهينِ ربوبيةِ الله تعالى، وعجيبُ صُنْعِهِ في خَلْقِهِ. وقد سئل حكيم: بماذا عرفت ربَّكَ؟ قال: «بنسخِ العزائمِ ونقضِ الهَمَمِ».

فإنَّ العبدَ يهَمُّ بالأمرِ ذي البالِ، ويشدُّ عزمَهُ إليه، راغباً مريداً، فإذا هو في ثاني الحال - بلا سبب ظاهر - راغباً عنه، منصرفاً لغيره، فاتراً في شأنه، قد انطفأتِ مُحَرِّكَاتُ قُدْرَتِهِ بأمرٍ ما! كما قال صاحب النوادر: «الآدمي يفكر ويدبّر ويعزم، وتدبيرُ الله تعالى من ورائه بإبطالِ ذَلِكَ، وتكونُ تِلْكَ الأُمُورُ على غير ما فُكِّرَ ودبِّرَ»^(١).

لقد كُتِبَ النقصُ والنقضُ والانقطاعُ والملألُ على أهيلِ هذه الدارِ في مجملِ عاداتهم، ما لم يثبت واحدُهم بعد واحدِهِم على أمرٍ خيرٍ يشدُّ الله فيه عزمته، ويقبضُ عليه إرادته، ويفتحُ له نياط قلبه، ويفتلُ له حبال رسوخه، ويَتِمُّمُ له به مرادَهُ، ويَحَقِّقُ له عن طريقه مأمولَهُ من رغائبِ الدنيا ونعيمِ الدين، حتى يبلغَ الجنةَ التي لا ملألَ فيها ولا سامةَ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾^(١٨).
[الكهف: ١٠٨].

فالإنسان في الدنيا ملولٌ بطبعه، منقطعٌ دون بلوغ أمانيه، لأنه ضيق الأفق، قليلُ العلم، شَرُّودُ العزيمة، خَوَارُ النفس، مُغْرَمٌ بالحظِّ العاجلِ السَّهلِ،

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي (١٠٧/٢)

مُولَعٌ بِالنَّائِلِ الْقَرِيبِ الْيَسِيرِ، كَمَا وَصَفَهُ خَلَاقَهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝﴾ [الإِسْرَاءُ: ١١]، أَي: ضَجِرًا لَا صَبْرَ لَهُ.

وَقَالَ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٧]، فَهِيَ غَرِيزَةٌ خَلْقِيَّةٌ لَا يُلَامُ عَلَيْهَا مَا دَامَتْ فِي حُدُودِ الشَّرْعِ، وَكَلِمًا هَذَّبَهَا حَسَنَ حَالِهِ، وَاسْتَقَامَتْ سَبِيلَهُ، وَنَهَضَتْ مَصَالِحَهُ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿كَأَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٠ - ٢١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝﴾ [الْإِنْسَانُ: ٢٧] وَالدُّنْيَا كُلُّهَا عَاجِلَةٌ. وَالْمَرْءُ هَلُوعٌ جَزُوعٌ جَمُوعٌ مَنُوعٌ إِلَّا الْمُصَلِّينَ.

ضَجِرَ الْفَتَى فِي الْحَادِثَاتِ مَذْمُومَةً وَالصَّبْرُ أَحْسَنُ بِالرِّجَالِ وَالْيَقُ
وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ الْإِشَادَةُ بِالْحَلَمِ لِأَنَّهُ ضِدُّ الْجَهْلِ، وَبِالْأَنَاءَةِ لِأَنَّهَا نَقِيضُ
الْعَجَلَةِ، وَتَأَمَّلْ خُلُقِي الْخَلِيلِينَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةَ السَّلَامَ تَجِدُهُمَا خَيْرَ مَنْ تَخَلَّقَ
بِهِذَيْنِ الْخُلُقَيْنِ السَّامِيَيْنِ، وَالسَّجِيَّتَيْنِ السَّامِيَتَيْنِ، وَسَائِرِ أَخْلَاقِ الْجَمَالِ، لَا
جَرَمَ؛ فَهُمَا هُمَا!

وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا
اللَّهُ تَعَالَى: الْحَلَمُ وَالْأَنَاءَةُ» (١).

فَالْإِنْسَانُ - لِعَجَلَتِهِ، وَقَلَّةِ صَبْرِهِ، وَضِيقِ أَفْقِ مَعْرِفَتِهِ - يَرْفَعُ الْأَمْنِيَةَ لِمَا فَوْقَ
الْقُدْرَةِ، أَوْ يَجْعَلُ أَمَدَ مِضْمَارِ الْمَسَابِقَةِ دُونَ طَوْقِ مِسَارِعَتِهِ. فَتَضَيِّعُ نَفْسُهُ بَيْنَ

(١) مسلم ٣٦/١ (١٧) (٢٥)

عَمَارَاتٍ فَشَلَّ الْأَمْنِيَّاتِ، إِلَّا مِنْ رَحِمِ اللَّهِ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا نَقَصَ الْإِنْسَانَ، حَتَّى لَا يَرْكُنَ لِنَفْسِهِ، أَوْ يُعْجَبَ بِقُدْرَتِهِ، أَوْ يَزْهَوْ بِعُلُوِّهِ، أَوْ يَقْنَعَ بِعَاجِلِ حَظِّهِ، فَاللَّهُ وَلِيُّهُ وَطَبِيبُهُ وَمُرْشُدُهُ وَهَادِيهِ. وَمَنْ يَتَحَرَّ الْحَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ.

وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ سُوءٍ فَاتَّذُنْ وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ خَيْرٍ فَاعْجِلْ
وإن المرء ليقصد أحياناً لأعمالٍ خيرةً وأشياءَ فاضلة، ويرسم له منهجاً بجديّة وعزم، فما هو إلا زمنٌ ليس بالطويل؛ إلا والإرادة التي قد كانت سامقة صلبة بالأمس؛ قد عادت اليوم للوراء مُثْنِيَّة، وللخلفِ راجعة، فاستبدلتِ القهقري بالتقدم، وضربتِ جمعيّة الهَمِّ بالتشرذم، أمّا العزمُ الذي كان بالأمس مَضَاءً شديداً؛ فلقد أضحى اليوم بالكسل مسلوباً، وبالفتور منهوباً! (١).

وقد ترى ذلك في كثير من أصحابك ولِدَاتِكَ، ولربما شكاه لك تواضعاً بعضُ مشايخك، وقد تلمسه في خلق بعض تلامذتك ممن كنت تعدّهم للرسوخ في العلم والعمل، عبر اصطبارك الطويل لهم في الطلب والتحصيل والعبادة، إذا أعطاهم الله تعالى خصوصيات ذهنية عالية، وقدرات عقلية حادة، وألباب نبيهة، مع وافر أخلاق نبالة وكرم وشهامة، وقد رسمت في ذهنك لوحة جميلة لمستقبل ذلك اليافع وذاك في ميادين العلم والسلوك والعمل. وهم في ذلك قد قطعوا في التعلّم أشواطاً، وساروا في العلم أميالاً، وثنوا الركب وحفظوا ودرسوا بتؤدة وعناية وحسن تعاهدٍ ومتابعةٍ ورفقٍ، مع إعطاء نفوسهم حظوظها المباحة حتى لا يكلُّوا، فما هو إلا زمان ليس بالطويل

(١) وانظر: (العزم) للمؤلف، ضمن سلسلة أعمال القلوب.

حتى يبدأ انقطاع همّة أكثرهم بالتدريج، فتَنَحَّلُ حُمَةُ عَزَمَاتِهِمْ عَرَاءً، وتنهلُ سَدَى إراداتهم هَبَاءً، ويبدأ ذلك النزول لدرك البطالة عبر تعلُّلهم بأدنى سبب للغياب وأيسر مندوحة وأقلّ عذر، ثم يطول بهم الأمر شبرًا فذراعًا فباعًا فميرًا فانقطاعًا. حتى يتحوّلوا عما كانوا عليه من الجدية في العلم والعمل، فيرغبون عن المعالي للسفساف، وعن النوائف للأسافل، عائذًا بالله العظيم من الحور بعد الكور، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٧٦] [آل عمران : ٧٤]، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصاص : ٦٨].

وينبغي التنبّه إلى أن الأمور قد لا تكون حقائقها على ظواهرها، ولا غاياتها على مبادئها، فقد يكون الله تعالى - وهو الحكيم اللطيف الحميد العليم - قد صرف عبده لأمرٍ خير مما صُرف عنه مهما بدا لنا خلافه، أو أنه قد دفع السوء عنه من حيث يعلم العبد ذلك أو لا يعلم، إنما هو محض لطف الرب جل جلاله، فهو الحكيم الحميد سبحانه، فلا يخرج شيء البتة عن حكمة الله تعالى ورحمته وعلومه ولطفه، حتى في أمر العلم والعبادة، تبارك الله، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦]، ومن ذلك أن من تعلّم العلم وكتّمه فخير له لو لم يتعلمه؛ فلجام النار وعيده، وكذلك من تعلّمه وخالفه مستكثرًا حجج الجبار عليه، والله المستعان.

والمقصود؛ أن ليست كلّ الأمور على ما يبدو من ظواهرها، فله حكم وأسرار في أقضيته وأقداره هي في الغاية من الحكمة والرحمة، وهو محمود على

أفعاله وأقداره وتديره بكلّ حال. ولقد قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَهُمُّ بِالْأَمْرِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْإِمَارَةِ حَتَّى يُيَسِّرَ لَهُ. فَيَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: اصْرِفُوهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ يَسَّرْتُهُ لَهُ أَدْخَلْتُهُ النَّارَ، فَيَصْرِفُهُ اللَّهُ عَنْهُ، فَيُظِلُّ يَتَطَيَّرُ يَقُولُ: سَبَقَنِي فَلَانٌ دَهَانِي فَلَانٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا فَضْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خَرْتُ لِي فِي انْصِرَافِهِ وَمَا زِلْتُ بِي مِنْ بِي أَبْرَّ وَأَرْحَمَا
وَإِنَّكَ لَتَجِدُ بَعْضَ مَنْ اشْتَهَرُوا صِبْغًا عَلَى مَسْتَوَى الْإِقْلِيمِ أَوْ الدَّوْلَةِ أَوْ
الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِقُوَّةِ حَافِظَاتِهِمْ، وَحَذَقِ نِبَاهَاتِهِمْ، وَجُودَةِ قِرَائِحِهِمْ، وَحِدَّةِ
عَقُولِهِمْ، وَانْتَظَرْنَا هُمْ لِيَكُونُوا أَئِمَّةً لِلدِّينِ سَابِقِينَ، وَنَجُومَ هُدًى لِلْخَيْرِ
نَاشِرِينَ، وَلَكِنَّا لَمْ نَسْمَعْ لَهُمْ مِنْ حِينِهَا رِكْزًا، وَلَمْ يُرْصَدْ لَهُمْ خَبْرٌ وَلَوْ هَمْسًا، فَلَمْ
يَلْبَثُوا أَنْ طَوَاهُم النِّسْيَانُ، فَلَا نَدْرِي أَعُيَّبُوا تَحْتَ التَّرَابِ فِي مَلَا حِدِهِمْ، أَمْ غَابُوا
فَوْقَ التَّرَابِ بَانْطِفَاءِ أَلْقِهِمْ، وَخَبُوءِ شُعْلَتِهِمْ، وَنُضُوبِ عَزْمِهِمْ، إِمَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَتَلَقَّهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ بِصَبْرِ وَحِكْمَةٍ وَتَوَدَّةٍ، أَوْ أَنَّ عَزَمَاتِهِمْ قَدْ تَاهَتْ فِي بَيْدِ
رَغَائِبِ الدُّنْيَا الْمُذْيِبَةِ شَمْعَ هِمَمٍ أَكْثَرَ الْفَتَيَانِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَإِنَّهُ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ أَمْسَى تَأَلَّقَهُمْ مِنْ مَاضِي طِفُولَتِهِمْ، لَا حَاضِرَ
شَبِيبَتِهِمْ، وَلَا قَابِلَ كَهُولَتِهِمْ، وَهَذَا مَنَارٌ بِسَبِيلِ حُرُوفِنَا هَذِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
وَالِيهِ الْمُسْتَكِي وَالْمَفْزَعُ وَالْمُعْتَصِمُ.

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ وَإِنْ تَحَالَقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينٍ

(١) تفسير ابن رجب (٢/٣١٤)

وفي أمور تدبير الدنيا فإنّ انفساخ العزائم حاضراً أيضاً؛ لأنّه غريزة إنسانية، وإنّك لترى الرجل قد أوغل في باب تجارة أو وظيفة وقد كتب الله له فيه خيراً، ويسّر له به أسباب بركة رزق، ورغد عيش، ثم يفجؤك بعد مدة برغبته عن ذلك الباب لغيره، وي؛ كأنّما صرّف عنه صرّفاً!

وإنّ من جذور أخلاقه العجلة، كما قال ربه وفطره: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء : ٣٧]، فهو غرّ عجول، لا يطيق صبراً كيما يريح القليل على القليل حتى يكثّر بإذن الله مع الوقت الطويل والصبر الجميل، بل تضيق نفسه الطفولية إلّا بالكثير العاجل وبالجهد القليل، ألا ما أعجبك وأعجلك وأجهلك أيها الإنسان، إلّا من رحم الرحمن.

لذلك رحم الله المؤمن بأن عجل بعض نعيم الجنة له في الدنيا كالفرح به تعالى، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتلذذ بمناجاته وذكره ودعائه وتلاوة كلامه، وذوق لذة الإيمان ووحد حلاوته ونحو ذلك من نعيم الأنفس ورقائق جنّان النعيم التي اختصّ الله تعالى بها المؤمنين، فالنفس عجول حرون محتاجة لشيء من عاجل حظّها حتى لا تنقطع عن المسير لمرضاة ربها تبارك وتعالى وتقدس، كما قيل:

إني لأرجو منك شيئاً عاجلاً والنفس موعلة بحبّ العاجل

وقال سبحانه في شأن ذاك المخلوق العجيب في حاله، والمحبوب المكرّم في أصله، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨]، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإِسْرَاءُ : ٨٥]، فجسده ضعيف، وعزمه ضعيف، وعلمه قليل، إلا من رحم الله تعالى.

واعلم أنّ المللَ عدوُّ الإنجازِ، والتسويفَ علامةُ ابتدائه.

وإنّك إذا تتبعتَ قصصَ النجاحِ العلميّةِ والعمليةِ والإيمانيةِ والعباديةِ والتربويةِ والتجاريةِ وغيرها وجدتَ أنّ العاملَ المشتركَ بينها هو ثباتُ صاحبِها على قدر - ولو يسير - منها، مُدَّةً طويلةً من الزمن، وهو ما يسمّى بالمشابرة. وتأمّل شقَّ الماءِ صلادةَ الصخر مع لطفِ الماءِ ولينه ورقته وصلابةِ الصخر وقساوته وخشونته وقوته، لكنها المشابرة والإصرار! وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة مع مشابرة.

ومن وصايا ناصحي التُّجَّارِ الصالحين: عليك بعد تقوى الله تعالى والتوكُّلِ عليه بملاحظة شيتين: لا تَمَلَّ، ولا تُوكِّل. لأنَّ المرءَ إذا مَلَّ فَقَدَ الشَّغفَ، وفاتته أسرار المهنة التي لا تفتح خزائن معارفها إلا لمن ثبت فيها مدّةً طويلة، فَمَنْ ثَبَتَ نَبَتَ، كذلك لا توكِّل على أمرِك أحداً بلا حاجة ملحة، فإنك إن سَلِمْتَ من خيانتِه؛ فقد خسرتَ خبرةَ الميدانِ أيّاً كان!

ولقد صدق جفرسون إذ قال: «فيما يتعلّق بالأسلوب اسبح مع التيار، وفيما يتعلّق بالمبدأ اثبت كالصخرة».

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف : ٢٣ - ٢٤]. قال الشيخ المصفي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ، وَكُلَّ

نأمة، بل كل نفسٍ من أنفاس الحيّ، مرهون بإرادة الله. وسُجفُ الغيبِ مُسبَّلٌ يحجبُ ما وراء اللحظة الحاضرة. وعينُ الإنسان لا تمتدّ إلى ما وراء السّتر المُسدّل، وعقله مهما عَلمٍ قاصرٌ كليلٌ، فلا يقل إنسان: إني فاعلٌ ذلك غداً، والغدُ في غيب الله، وأستأرُ غيبِ الله دون العواقب!

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له، وأن يعيش يوماً بيوم، لحظة بلحظة، وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله، كلاً. ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره، وأن يعزم ما يعزم، ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله تدبيرٌ غير تدبيره، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم، وجرت مشيئة الله بغير ما دبر؛ لم يحزن ولم ييأس؛ لأن الأمر لله أولاً وأخيراً!

فليفكر الإنسان وليدبر، ولكن ليشر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمدّه الله من تفكير وتدبير، ولن يدعو هذا إلى كسل، أو تراخ، أو ضعف، أو فتور، بل على العكس يمدّه بالثقة، والقوّة، والاطمئنان، والعزيمة، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير الله غير تدبيره، فليقبل قضاء الله بالرضا والطمأنينة والاستسلام، لأنّه الأصل الذي كان مجهولاً فكشف عنه الستار!

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلبَ المسلم، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر، ولا يحسّ بالغرور والتبطّر وهو يفلح وينجح، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفتل ويُنْفِق، بل يبقى في كل أحواله متصلاً

بالله، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مسلماً بقضائه وقدره، غير مُتَبَطِّر ولا قَنُوطٍ». (١).

والمُوفِّق من عباد الله تعالى هو من حرص على حسنة الآخرة، ثم حسنة الدنيا، لأنَّ حسنة الآخرة تنتظمها وتيسرها بأمر الله تعالى، قال الله تعالى في وصف حال ومقال المؤمنين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣) [البقرة: ٢٠١ - ٢٠٢]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» (٤). ثم قنع بما تنتهي عنده أقدارُ ربِّه عند نهاية بذله وسعته فيما ينفعه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» (٥) اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ (٦) اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ» (٧).

(١) الجامع الصحيح للسيرة النبوية، د. سعد المرصفي (٩١٩/٤)

(٢) البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠) وفي رواية لمسلم: «اللَّهُمَّ بدل: «ربنا»، والباقي مثله.

(٣) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٣٨٢/٨) (٢٦٦٤): «معناه: في كل من القوي والضعيف خير، لا اشتراكهما في الإيثار».

(٤) قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَدَرُ الله وما شاء فعل»، وبعضهم ضبطها «قَدَر الله وما شاء فعل» أي: قدر الشيء الواقع، والمعنى الأول أظهر، أي: أن هذا الواقع هو قدر الله،

وتأمل جلالَ ونصحَ وحكمةَ خبرِ جبير بن نفير رَحِمَهُ اللهُ قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرَّ به رجلٌ فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ. لَوَدَدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فاستغضب، فجعلتُ أعجبُ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال:

ما يحملُ الرجلُ على أن يتمنّى مُحَضَّرًا غَيْبَهُ اللهُ عنه، لا يدري لو شَهِدَهُ كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامَ أَكْبَهُمُ اللهُ على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفِيتُمُ البلاءَ بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعِثَ عليها نبيٌّ من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية، ما يَروْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ من عبادة الأوثان.

فجاء بفِرْقَانٍ فَرَّقَ به بين الحقِّ والباطل، وفَرَّقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجلُ ليرى والده وولده، أو أخاه كافرًا، وقد فتح اللهُ قُلُوبَهم للإيمان، يعلمُ أَنَّهُ إن هلك دخل النار، فلا تَقَرُّ عينُهُ وهو يعلمُ أَنَّ حَبِيبَهُ في النار، وإِنَّهَا

=

أي: مقدورُ اللهِ، وما شاء اللهُ فعل. شرح كتاب التوحيد: ص: (٢٥٠). وكذلك رَجَّحَهُ شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(١) مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤) وفي الفصل القادم بسط الكلام في ذلك إن شاء اللهُ تعالى.

التي قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الْفُرْقَان : ٧٤] ^(١).

ويا ليتَ عَقَدَ إِصْرَارِنَا عَلَى الذُّنُوبِ تَنْفَسَخَ عَنْ قُلُوبِنَا حَتَّى نَكُونَ مِنْ أَهْلِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّحْرِيم : ٨]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلَمَّ شَعَثَ التَّائِبِ وتجمعه، وتكفِّه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

وقال الثوري، عن سِمَاك، عن النعمان، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه». وعن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يتوب ثم لا يعود». ولهذا قال العلماء: «التوبة النصوح: أن يُقْلَعَ عن الذنب في الحاضر، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي، ويعزمَ على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي رَدَّه إليه بطريقه».

وكان الحسن يقول: «التوبة النصوح: أن تُبْغِضَ الذنبَ كما أُحِبِّبَتْه، وتستغفر منه إذا ذكرته». فأما إذا حَزَمَ بالتوبة، وصَمَّمَ عليها؛ فإنها تَجِبُ ما

(١) المسند (٢٣٨١٠) وصححه محققوه، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٦) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧) وصححه الألباني.

قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يَجِبُ ما قبله، والتوبة تجِبُ ما قبلها» (١). (٢).

ومن هنا جاء التأكيد على شأن الثبات على الخير قدر الطاقة، فمن ثَبَتَ نَبَتَ، ومن رَفَقَ وَفَقَ، ومن شَدَّ انقطع، ومن شَدَّ ضاع، فالمُنْبَت لا ظهراً أَبْقَى ولا سيراً قطع، والبطل الكسلان لا خيراً حَصَلَ لنفسه ولا للناس نَفَع، ومن جُمِلَ ما جاء في السنة النبوية في هذا الشأن ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان للنبي ﷺ حَصِيرٌ (٣)، وكان يُحَجِّرُهُ (٤) بالليل فيُصلي فيه، وَيَسْطُهُ بالنهار، فَيَجْلِس عليه، فجعل النَّاسُ يَثُوبُونَ إلى النَّبي ﷺ، يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، حَتَّى كَثُرُوا. فَأَقْبَلَ، فقال: «يا أَيُّهَا النَّاسُ؛ خُذُوا من الأَعْمَالِ ما تَطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» (٥) وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى الله ما دَامَ وَإِنْ قَلَّ، زادَ في

(١) مسلم (١٢١)

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ١٦٨) باختصار.

(٣) أي: نسيج من خوص النخل في المسجد.

(٤) يُحَجِّرُهُ: حَجَرَهُ يُحَجِّرُهُ، أي: يَتَّخِذُهُ حُجْرَةً وِسْتَرَةً ينفرد عليه فيها. وقال الفَتْنِي رَحِمَهُ اللهُ

في مجمع بحار الأنوار (١/٤٥٤): «هو من التحجير، احتجر، أي: حفظ موضعاً من

المسجد لئلا يمرّ عليه مارٌّ، ويتوقّر خشوعه، ثم تركها وعاد إلى البيت لخوف مفسدة».

وانظر: شرح النووي على مسلم (٦/٦٩)

(٥) سئل شيخنا عبد الرحمن البراك حفظه الله تعالى عن دخول (الرَّدْدِ والمَلَكِ والظِّلِّ) في

صفات الله تعالى؟ فأجاب بتحرير نفيس فقال:

«الحمد لله، هذه الألفاظ لا شك أنها وردت مضافة إلى الله في أحاديث صحيحة، ولكن دلالة

الأحاديث على اعتبارها صفة لله أو غير صفة مختلفة، فأما التردد فإنه بالمعنى الذي ورد

=

في الحديث القدسي: «وما ترددتُ في شيء أنا فاعله تردُّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بدُّ له منه». هو صفة فعلية، ومعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تعارضُ إرادتين: إرادةُ قبضِ نفس المؤمن، وكراهة الله لما يسوء المؤمن، وهو الموت.

وليس هذا التردُّد من الله ناشئاً عن الجهلِ بمقتضى الحكمة، والجهلِ بما ينتهي إليه الأمر، فهذا تردُّدُ المخلوق. بل هو سبحانه العليم الحكيم، فهذا التعارض بين إرادتيه سبحانه تردُّدٌ مع كمال العلم بالحكمة، ومنتهى الأمر، ولهذا قال في الحديث: «ولا بدُّ له منه». فتردُّد المخلوق الناشئ عن جهله نقصٌ، بخلاف التردُّد من الله فلا نقص فيه، بل هو متضمَّن للكمال: كمال العلم، وكمال الحكمة.

وأما الملل المذكور في قوله ﷺ: «اكلفوا من العلم ما تطيقون، فإنَّ الله لا يملُّ حتى تملُّوا»، فالعلماء مختلفون في دلالة الحديث على إثبات الملل صفة لله تعالى، فقال بعضهم: إنَّه لا يدلُّ على إثبات الملل، وأنَّه من جنس قول القائل: فلانٌ لا تنقطع حجته حتى ينقطع خصمه. لا يدلُّ على إثبات الانقطاع.

ومنهم من قال: إنَّه يدلُّ على إثبات الملل، وتأوُّله بقطع الثواب، فمعناه: أنَّ الله لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العمل، ففسروا اللفظ بلازمه.

ويمكن أن يقال: إنَّه يدلُّ على إثبات الملل صفة لله تعالى في مقابل ملل العبد من العمل بسبب تكلفه وإشقاقيه على نفسه، والملل من الشيء يتضمَّن كراهته، ومعلوم أنَّ الله تعالى يحبُّ من عباده العمل بطاعته ما لم يشقُّوا على أنفسهم، ويكلفوها ما لا تطيق، فإنه الله يكره منهم العمل في هذه الحال، والله أعلم بالصواب.

وأما الظلُّ المضاف إلى الله بقوله ﷺ: «سبعة يظلُّهم الله في ظلِّه»، فالصواب عندي أنه ليس صفة لله تعالى، بل هو ظلُّ العرش، كما جاء في رواية، أو أيُّ ظلٍّ يقي الله به من شاء من حرِّ الشمس في ذلك اليوم؛ كظلِّ الصدقة كما في الحديث: «المؤمن في ظلِّ صدقته يوم

=

رواية: «وَاكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ»^(١). وفي رواية: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»^(٢)، واعلموا أنّه لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَذْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ، وفي رواية: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ: «أَذْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»، متفق عليه^(٣)، وزاد أبو داود^(٤): «وكان إذا عمل عملاً أثبتته»، وفي أخرى له عن علقمة قال: سألت عائشة: كيف كان عملُ رسول

=

القيامة». فعلى هذا تكون إضافة الظلّ إليه من إضافة المخلوق إلى خالقه، ولم أفق على كلام في هذا لأحدٍ من أئمة السنة المُتَقَدِّينَ بهم. والله أعلم. لقاءات ملتقى أهل الحديث بالعلماء (٣٠/٢)

(١) أي: تحمّلوا من العمل ما تطيقون المداومة والثبات عليه. قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: في كشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ (١٠٨/١): «يقال: كَلِفَ بكذا من باب فَرَحَ: أي: أُولِعَ وأَحَبَّ، وحذف باء الجر من قوله: «ما تطيقون» فُعْدي الفعل بنفسه على طريقة التوسع؛ أو لأنه ضمن «اَكْلَفُوا» معنى اعملوا، فعبر عن العمل بالكلف؛ لأن العمل من لوازم المحبة؛ إذ لا يفعل الطائع فعلاً إلا هو عن محبة؛ إذ لا إكراه عليه. وفي هذا التضمين نكتة بديعة وهي الإشارة إلى علة النهي التي قدمناها، وهي أن الشأن أن يكون عمل المتطوع عن محبة وإقبال، فعبر عن اعملوا بـ«اَكْلَفُوا» ببداعة بليغة».

(٢) «سَدِّدُوا»: اقصدوا السداد من الأمر، وهو الصواب. «وقاربوا»: اطلبوا المقاربة، وهي القصد في الأمر الذي لا غلو فيه ولا تقصير.

(٣) البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٢)

(٤) أبو داود (١٣٦٨) وصححه الألباني.

الله ﷻ؟ هل كان يُخَصَّ شيئاً من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله دِيَمَةً^(١)، وأَيْكُمْ يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟»

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وفي السنن^(٢) عنه أنه قال: «لكلِّ عاملٍ شِرَّةٌ^(٣)، ولكلِّ شِرَّةٍ فترة^(٤)»، فمن كانت فترته إلى سُنَّةٍ فقد اهتدى، ومن أخطأها فقد ضلَّ». وفي لفظ: «ولكلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ؛ فإن كان صاحبها سَدَّدَ وقارب فارجوه، وإن أُشِيرَ إليه بالأصابع فلا تُعَدُّوه».

ف قيل للحسن البصري لما رَوَى هذا الحديث: إنَّك إذا مرَّرت بالسُّوق فإنَّ النَّاسَ يُشِيرُونَ إِلَيْكَ؟ فقال: «لم يُرَدِّ ذلك، وإنما أرادَ المُبْتَدِعَ في دينه والفاجرَ في دنياء». وهو كما قال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإنَّ من النَّاسِ من يكون له شِدَّةٌ ونشاطٌ وحدةٌ واجتهادٌ عظيمٌ في العبادة، ثم لا بُدَّ من فُتُورٍ في ذلك. وهم في الفِتْرَةِ نوعان:

منهم: من يلزم السُّنَّةَ فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نُهي عنه، بل يلزم عبادة الله إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ٩٩]

(١) الدِيَمَةُ: المطر الدائم في سكون، مبالغة من الدوام أو الديمومة، ويسمى الهَتَّان، شَبَّهَتْ عمله في دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر.

(٢) الترمذي (٢٤٥٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقال: «حسن صحيح غريب». وأخرجه أحمد (١٨٨/٢)

(٣) أي: نشاط ورغبة.

(٤) أي: فتور وتراخ.

: [٩٩]، يعني الموت، قال الحسن البصري: لم يُجْعَل الله لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت.

ومنهم: من يخرج إلى البدعة في دينه أو فُجُور في دنياء حتى يُشير إليه الناس، فيقال: هذا كان مجتهداً في الدين ثم صار كذا وكذا. فهذا مما يخاف على من عدل عن العبادات الشرعية إلى الزيادات البدعية. ولهذا قال أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: «اقتصادٌ في سُنَّة خير من اجتهدٍ في بدعة»^(١).

ومع هذا فجنس الجهاد أفضل، بل قد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعبٍ فيه عُيُنة من ماءٍ عَذْبَةٍ فَأَعْجَبَتْهُ. فقال: لو اعتزلتُ الناس، فأقمتُ في هذا الشَّعب، ولن أفعلَ حتى أستاذنَ رسولَ الله ﷺ^(٢)، فذكرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإنَّ مُقامَ أحَدِكُم في سبيلِ الله أفضلُ من صلاتِهِ في بيته سبعينَ عاماً، ألا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم وَيُدْخِلَكُم الْجَنَّةَ؟ اغْزُوا في سبيلِ الله، مَنْ قَاتَلَ في سبيلِ الله فَوَاقَ نَاقَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٣). وفَوَاقُ النَّاقَةِ: ما بين الحلبتين.

(١) السُّنَّة، للمروزي. ص: (٣٠)

(٢) وهذا من أناته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُسن متابعتِه، وطيب تديُّنِه، وحكر اهتدائه على الوحي المبين، دون الخواطر الجاحمة أو المدخولة، أو تزيينات النفس على غير هدي الرسول ﷺ، لذلك بارك الله له بالنصح الرَّسُولِيَّ له ألا يفعل.

(٣) أحمد (٤٤٦/٢، ٥٢٤) والترمذي (١٦٥٠) وحسنه الترمذي والألباني.

وجماع الأمر ما قاله الفضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢٢]. قال: أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ، قالوا يا أبا علي؛ ما أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ؟ قال: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠]. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لَوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لَأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْمَشْرُوعُ، وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يَكُونُ الرَّجُلُ بِهِ مُحْسِنًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [البقرة : ١٢٥]. وَقَالَ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ١٢٢]. (١)

لَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ الدِّينِ يَتَوَاصُونَ بِحُسْنِ الْمَتَابَةِ وَالْاِقْتِصَادِ فِي السُّنَّةِ وَالْاِقْتِصَارِ عَلَيْهَا وَالْعِصْ عَلَى نَهْجِهَا مَا اسْتَطَاعُوا لِذَلِكَ سَبِيلًا، فَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّ اِقْتِصَادًا

(١) جامع المسائل لابن تيمية، (٥ / ٣٧٥-٣٧٧) باختصار.

في سنّةٍ وسبيل، خيرٌ من اجتهادٍ في غير سنّةٍ وسبيل، فانظروا أعمالكم؛ فإن كانت اقتصادًا واجتهادًا، فلتكن على منهاج الأنبياء وسُنَّتِهِمْ»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اقتصادٌ في سنّةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في بدعة؛ إِنَّكَ أَنْ تَتَّبِعَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْتَدِعَ، وَلَنْ تَخْطِيَ الطَّرِيقَ مَا اتَّبَعْتَ الْأَثَرَ»^(٢).

وقال أيضًا: «يا حَبْدًا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفَطْرُهُمْ، كَيْفَ يَسْبِقُونَ سَهَرَ الْجَاهِلِينَ وَصِيَامَهُمْ»^(٣).

وقال بعضهم: «كم من مستغفرٍ محروم، وساكِتٍ مرحوم، هذا مستغفرٍ وقلبه فاجر، وهذا ساكتٍ وقلبه ذاكِرٌ»^(٤).

وقال بعضهم: «ليس الشَّأْنُ فِيمَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِيمَنْ يَنَامُ عَلَى فِرَاشِهِ ثُمَّ يَصْبَحُ وَقَدْ سَبَقَ الرِّكْبَ». وفي ذلك قيل:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمَدَلَّلِ تَمَثَّيْ رَوِيدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ^(٥)
لذا؛ فكلنا - بلا استثناء - مُتَحَاجُونَ لَأُمُورٍ تَعِينُنَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى اجْتِيَازِ قَنْطَرَةِ الدُّنْيَا بِسَلَامٍ، فَمَا هِيَ إِلَّا مُهَلٌّ قَصِيرَةٌ فِي دَارِ الْإِمْتِحَانِ، وَسُنَيَّاتُ تَكْلِيفٍ يَسِيرَةٌ فِي دُنْيَا الْإِبْتِلَاءِ، فَاصْبِرْ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ قَلِيلًا، فَالْسَّنِينَ تُطَوِّى سَرِيعًا حَتَّى

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٢٤ / ٧) باختصار.

(٢) السُّنَّةُ، للمروزي. ص: (٣٢)

(٣) أحمد في الزهد (١٣٧) وأبو نعيم في الحلية (١ / ٢١١)

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٢ / ٢٩٣) ونسبها ليحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) مجموع رسائل ابن رجب (٤ / ٤١٧)

يلحق باقيك من أعضائك بسابقيك من أحبابك، والمرجو من الله البرّ الكريم الرحمن الرحيم أن يكون الملتقى في ظلال عرش الرحمن جل جلاله - رحماني الله وإياك ..

فلا تغرّنك الآمال فإنّها الآجال تقتنص الآمال، ومنايا تحترم الأمانى، وساعات رحيل إلى لقاء الله تعالى، والسعيد من رضي عنه الله تعالى، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥]، ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت : ٥٠].

وإنّ الحاجة ماسة بيننا لتعاون في التالي: أن نتواصى بيننا بالحق وبالصبر وبالمرحمة، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ٣]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البعد : ١٧]، ومن ذلك التواصي المستمر الدائم بالإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ، ومحاسبة النفس على الدوام في ذلك.

وكذلك التناصح والتواصي والتعاون على البرّ والتقوى، وعلى تفقّد الإخوان حتّى لا يستحوذ عليهم الشيطان، فيطوي على قلوبهم كشحه السام، ويُغطي بصائرهم بمكره الفتان، فيسري بهم لباءات الهلاك، ويسوقهم لمراقيد الغفلات، ثم يلقاهم في شباك الفتن والخطيئات.

وإنّ المؤمن ضعيف بنفسه مهما كان حاله، قويّ بإخوانه، واجتماعهم، وتعاونهم، وتناصحهم، وتعاضدهم، وتوادهم، وتفقد خللات بعضهم، ورأب صدوعهم، ورّفء شقوقهم، والأخذ بأيدي بعضهم إلى سعة رضوان الله

تعالى ونعيم الجنة، وكلُّ بقدره وطاقته، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فعلیها بذلُّ الوسع حتى تبلغ الغاية، وإنما يأكل الذئب القاصية.

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَالَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بَغِيرِ سِلَاحٍ
ومما نحتاجه كذلك: المجاهدة للنفس، وحسن سياستها، والرفق بها، وإنَّ من الرفق بها الحزمُ معها في كلِّ ما من شأنه خيرها. وإنَّ من المهمَّات العظيمة في إحسان سياسة النفس ضرورة المحافظة على المسار الوسط من جهتين:

الأولى: رسم طريق الهدي النبوي لها، حتى لا تُفَرِّط في غُلُوٍّ، ولا تُفَرِّط في أمرٍ أو نهْيٍ، فهو النهج الوسط، بلا وكسٍ ولا شَطَطٍ.

الثانية: - وإليها قصدنا هنا - ألا تنزَل عن الحدِّ الأدنى لمطالب الشرع الحنيف. فثمَّ حدُّ أدنى لا يجوز النزول عنه بحال، وهو حدُّ الحرام، فيبقيها بعيدة عن حمى حدِّ المحرمات، ولكن يطاوعها على الندرة في التوسع في المباحات، بل قد يولجها أحياناً لعلَّةٍ مُلْجِئَةٍ بعض أبواب المكروهات وترك المستحبات ونحو ذلك، بدون أن تكون عادة، لأنَّ العادة الغافلة الرديئة تُسْقِطُ أسوار المجاهدة دون حصن القلب، فله حمَاه الذي متى اجتازه عدوه اقترب للقلب بقدره.

والمقصود؛ أن يكون ذلك بأقلِّ الممكن حتى لا تستمرئ النفس الدَّعة والكسل، فسائس الفرس أعلم بمزاجه، وأحرص على عافيته ونشاطه، فلا يرخي له الطَّول دوماً ولا يشدُّه دوماً، بل برفق حازم، وإقبال على مهل، ومن لم يقدمه عزمه أخره عجزه.

ومع هذا كله فهداها بيد هاديها، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٢٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصاص : ٥٦].

فالفتور سمة وغريزة وخلق في الإنسان، والنفس يعتريها ما ينوبها من فتور وتقصير تسكن إليه حيناً، فمن حسن سياستها الترفق الحكيم معها حين ضعفها، فسوط زاجر الموعظة في حال فتور النفس وتعبها قد يرتد على خلاف ما وضع له، ورسول الله ﷺ قد بعثه الله بشيراً ونذيراً، فإن حَرَنْتَ عن وعظِ المَخَافَةِ أو خِيفَ عليها مِسْكَةً من قُنُوطٍ عن الوعظ فَاخْذُهَا بِالِشَّارَاتِ، وأرخ لها عنانها شيئاً، وخذ بها لسهول مُتَعِ الإباحة، ثم ارتق بها درج الجدِّية، فالخُرُوقُ مَفَاوِزُ الشُّرُوقِ.

وبالجملة؛ فأنسط لنفسك حبل مسرّتها بساعة وساعة، بلا ركون طويل وعكوف دائم، حتى لا يكون الاستثناء أصلاً، فهذه مرتبة البطالين، ولكن لا بأس أن تشتغل بها النفس من باب الترويح المباح استعداداً وتقويّاً على الجدِّ الفاضل، بحيث لا يطول ذلك الفتور فيستحكم كعادات السوء.

واعلم أن من شروط سلامة المسير إراحة الراحلة، وتأمل فقه عليم الأمة معاذ حينما تحدث مع أبي موسى رضي الله عنهما وسأله عن أمر ينبغي أن يكون هو شغلنا وهمنا ومردّ سؤالاتنا، قال: «يا أبا موسى كَيْفَ تَفْعَلُ بِالْقُرْآنِ؟»، قال: أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، أَقْرَأُ عَلَى فَرَاشِي، وَفِي صَلَاتِي، وَعَلَى رَاحِلَتِي، ثُمَّ قَالَ: أَبُو مُوسَى: كَيْفَ تَفْعَلُ أَنْتَ يَا أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟، قَالَ مُعَاذٌ: سَأُنَبِّئُكَ كَيْفَ أَفْعَلُ، أَمَّا أَنَا،

فَأَبْدَأُ فَاتَّقَوْا بِنَوْمِي عَلَى قَوْمِي، فَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمِي، كَمَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمِي»^(١).

وإنّ من رحمة الله تعالى أن جعل هناك محطات للتزود بالتقوى زمانية كالجمعة ورمضان والحج، ومكانية كالمساجد وحلق العلم، فحقيق بالحازم استغلالها فيما يزيد إيمانه بمولاه، ويرفع درجاته في عقابه. وكلما خبت همّتُك شيئاً فتذكر أن نار الله الموقدة لا تحمد لمن لم يهرب إلى الله منها، ﴿خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإشراء: ٩٧].

هذا؛ ومشروعك الأعظم - فاعلم - الذي ينبغي أن يكون نصب عينيك، وأن تعمل لأجله سواد ليلك وبياض نهارك، وتهتم لأجله في يقظتك ومنامك، وفي شرخ شبابك وكهولتك وهرمك حتى رمقك الأخير ونفسك الخاتم ولحظتك النهائية في هذا العالم الامتحاني حتى تصنع لك أعظم قصة نجاح: هو بلوغك رضوان الله تعالى. فاعمل بكلك لتحصيله والفوز به، وليكن بعد ذلك ما يكون.

لَهُ هَمٌّ لَا مُتَهَيِّ لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ
فاسأل الله تعالى الثبات على الهدى حتى الممات، وقد ورد من دعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(١). والله

(١) صحيح ابن حبان (١٢ / ١٩٦). ومستخرج أبي عوانة (٥ / ١٠٠) وصححه الألباني والأرنؤوط.

تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ولا يُحْيِبُّ من أحسن فيه ظَنَّهُ، وأَعْلَى عِنْدَهُ رَجَاءُهُ، وَأَعْظَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَغِيْبَتُهُ، فهو عند حسن ظنِّ عبده به، فاعمل عمل

(١) مسند أحمد (٢٨ / ٣٣٨) (١٧١١٤) والحاكم (٥٠٨/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. والحديث حسن بطرقه. قال الإمام أحمد: حدثنا روح، قال: حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية، قال: كان شداد بن أوس، في سفر، فتزل منزلاً، فقال لغلامه: اتنا بالسفرة نعبثُ بها، فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزممها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها عليّ، واحفظوا مني ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَثُرَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْتَبُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حَسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ».

وهو حديث عظيم المعاني، جمَّ الفوائد، غزير الفرائد، حريّ بتدبره وحفظ حروفه ودعاء الله بها، وفي تحريجه قال محققو المسند بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط: «حديث حسن بطرقه، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، حسان بن عطية لم يدرك شداد بن أوس. ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين». وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣ / ٣١): «أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٥/٧ - ٣٣٦)، ومن طريقه: أبو نعيم في الحلية (٢٦٦/١)، وكذا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢٧/١٦) من طريقين عن سليمان بن عبد الرحمن: ثنا إسماعيل بن عياش: حدثني محمد بن يزيد الرحبي عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس قال: قال لي رسول الله ﷺ: .. فذكره. قلت: وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر».

الراغبين حتى تكون من الرّاجين، ولا تقعدنّ مع الكسالى فالكسل أعدى من الجرب، ولا تركننّ إلى البطّالين المتّمينّين على الله الأمانى، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النِّسَاء: ١٢٣]، ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [٢٤] فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ [التَّجْم: ٢٤ - ٢٥].

واحذر ارتهان نفسك بالسيئات، فلا فكّك بعد رحمة الله إلا بالتوبة والصالحات، فلا يكن حالّك كحال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ٧٠]، واسأل ربك الخير كلّهُ، ومن أعظمه حسن الخاتمة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وعن شهر بن حوشب رحمه الله، قال: قلت لأُمّ سلمة رضي الله عنها: يا أمّ المؤمنين؛ ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دُعائه: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قالت: قلت: يا رسول الله؛ ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك؟ قال: «يَا أُمّ سلمة؛ إِنَّهُ لَيْسَ أَدْمِي إِلَّا وَقْلُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ». فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قال: قلنا يا رسول الله؛ آمناً بك وبما جئتَ

(١) الترمذي (٣٥٢٢) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني.

به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها»^(١).

وعن سالم عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كثيرًا مما كان النبي ﷺ يحلف: «لا، ومقلب القلوب»^(٢)، وفي رواية: كانت يمين النبي ﷺ: «لا ومقلب القلوب»^(٣) فليكن لسانك لهجًا على الدوام بهذا الدعاء العظيم.

ولنا وقفة لا بد منها ههنا؛ فإن المؤمن الموفق هو من كشف الله له زيف الجهل عن جوهر العلم، فلا بليس - أعاذنا الله تعالى منه - تسويلات وتزيينات وتليسات وترويعات وتحزينات لا تكاد تنتهي عند من لم يستعذ بالله منه، ويتبصر حاله معه، ويتخذ عدوًا كما أمره ربه، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦٠].

ألا وإن انفساخ العزائم عن طلب ذخائر الآخرة ومعالي همم المتقين والعمل الصالح والقول الطيب مؤذنٌ باستلاب حب الدنيا قلب المرء بخراب دينه، إن لم يتداركه ربه بعونه وتوفيقه وحفظه وهدايته.

فإن من غرائز النفوس التي لا تكاد تنفك عنها حب الدنيا، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقد أرشد سبحانه بعد

(١) أحمد (١٢١٠٧) وقال محققوه: إسناده قوي، على شرط مسلم.

(٢) البخاري (٦٦١٧)

(٣) البخاري (٦٦٢٨)

بيان حالنا الضعيف مع زينة الدنيا إلى ما ينبغي لنا حقاً أن نرتقي إليه، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُؤْتِبُكُم بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]. وقال سبحانه مُعَرِّياً غريزة بني آدم: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال سبحانه مبيناً حقيقة الدنيا وحال الغافلين معها: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم نقل الوصف مباشرة للآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: اختاروا مصيركم، واحرثوا لاخرتكم، واعملوا لمنازلكم غداً.

وتدبر قوله تعالى ورحمته بنا حين زوى كثيراً من ترف الدنيا عنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الرّحرف: ٣٣]. قال الحسن رحمه الله: «لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟!»^(١).

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٥٩٨/٢١).

وروى أحمد^(١) بسند جيد أن رسول الله ﷺ قال: «حُبُّ إِيَّيْ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قُرَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وروى البخاري^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْحُلُوءَ وَالْعَسَلَ». ونحو هذا من الطيبات المعينة على عبادة الله تعالى.

فحبُّ الدنيا غريزة هذبتها الشريعة، وأكثرها محتاج لمجاهدة قلب حتى يكتفي منها بالبلغة للوصول لغايته في الدار الآخرة، والعاقل هو من لم يُحِبَّ الدنيا لذاتها بل بما تفضي به إلى مرضاة الله. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي الصَّفَدِيَّةِ: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ أَعْظَمَ مِنْ لَذَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «حُبُّ إِيَّيْ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قُرَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»»^(٣)، هكذا لفظ الحديث، لم يقل: حُبُّ إِيَّيْ ثَلَاثَ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا اثْنَانِ، وَجُعِلَتْ قُرَةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ ذِيْنِكَ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مِنَ الدُّنْيَا.

ومن أمثلة محبة العلم أَنَّ ابْنَ هَطِيلٍ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ مُوَلَّعًا بِشَرْحِ الرِّضِيِّ عَلَى كَافِيَةِ ابْنِ الْحَاجِبِ، لَا يَفَارِقُهُ فِي أَغْلَبِ أَوْقَاتِهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ طَلَبَ هَذَا الشَّرْحَ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ:

تَمَتَّعْتُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيِّ مِنْ عَرَارٍ

(١) أحمد (١٤٠٣٧) والنسائي (٦١/٧) وسنده جيد.

(٢) البخاري (٥٤٣١).

(٣) الصَّفَدِيَّةُ (٢/ ٢٧٢).

أما عن الترفّه، فالمذموم منه ما ألهى عن الآخرة لا ما أراح النفس بالمباح من وعشاء الدنيا، ولكن تقصّد الترفّه والتنعم والانغماس في لذائذ الجسد ليس للمتقين بسبيل سلامة ولا بطريق عافية، أما مطلق الطيبات فطيبة حسنة، فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي صحيح البخاري معلقاً مجزوماً به^(١) باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]: قال النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة». وقال ابن عباس: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة».

وأخرج البيهقي^(٢) أنّ ابن عباس لما ذهب لمناظرة الخوارج قالوا له: مرحباً بك يا أبا عباس فما هذه الحلة؟ قال: قلت: ما تعيرون علي؟! لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولنا في الأنبياء أسوة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُريَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَخْتَبِي فِي ثَوْبِهِ،

(١) البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٢٦٤/١٠). وقد وصله النسائي (٢٥٥٩) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (١٧١٨٦).

فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أُغْنِيكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(١). قال القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «ولكن لا غنى بي عن بركتك»: أي: خيرك، واستنبط منه فضل الغنى لأنه سبب بركة، ومحال أن يكون أيوب صلوات الله عليه وسلامه أخذ هذا المال حباً للدنيا، وإنما أخذه كما أخبر هو عن نفسه لأنه بركة من ربه تعالى لأنه قريب العهد بتكوين الله تعالى، أو أنه نعمة جديدة خارقة للعادة، فينبغي تلقاها بالقبول، ففي ذلك شكر لها وتعظيم لشأنها، وفي الإعراض عنها كفر بها، وفيه جواز الاغتسال عرياناً؛ لأن الله تعالى عاتبه على جمع الجراد، ولم يعاتبه على الاغتسال عرياناً»^(٢). وعليه؛ فالدنيا لا تُذم لذاتها، بل بما ترتب على التعامل معها، فما قَرَّب إلى الله تعالى فهو محمود ممدوح طيب كريم، وما أبعد عنه فالمذموم المَطْرَح.

وبكل حال؛ فلا يزال الحزن^(٣) والرجاء، والفرح والأمل، والترقب والانتظار، والشوق والتوق، والحلم والحقيقة، والجلب والقبض، والدفع والرفع، والعزم والفسخ، والقتل والنقض، والإنشاء والهدم، يعتلج في أفئدة أهل الإيمان واليقين، مهما بلغت موعدهم لأنفسهم، أو وصل علمهم وفهمهم، أو قويت عزماهم واشتدت إراداتهم، وأينما تعطفت بهم دنياهم في بطاح الترف، وأمواج الرغائب، وسحاب الأمنيات، وأودية الضنك، وسبل

(١) رواه البخاري (٢٧٩).

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٣٣٣/١) باختصار.

(٣) وإن كان غير محمود.

الكَدِّ، وأروقة المعرفة، فالدنيا قد طُبِعَتْ على الكَدْرِ، والإنسانُ خُلِقَ في كَبَدٍ، وَكَمْ من مُؤْمِنٍ يَمُوتُ وحاجته في صدره لم تُيسَّرْ له، لحِكْمَةِ ربّانية ولطفٍ إلهيٍّ، فأمر المؤمن كله خير بإذن الله تعالى، والله الحمد في كل حال وعلى كل شيء.

فقد يثوبُ الإنسانُ - أحياناً - لأصلِ طبعه الضعيف، فيعزُبُ - شيئاً - عن رواسخِ يقينه، وسوَاطِعِ بصيرته، وثوابتِ عقله حينَ تراكمِ أسبابِ الأحزان، وتواردِ أسرابِ الهموم، وتتابعِ كتائبِ الغموم؛ يَبْدُو أنَّ الإيمانَ عمود نورٍ ليقينه، وَرَوْحُ مريحٍ لروحِهِ، وعزاءٌ تامٌّ لفؤادِهِ، وسكينةٌ وارفةٌ لقلبه المطمئنِّ بربه، الراضي به، الموقنِ ببلقائه، القويِّ به، الحسنِ ظناً به، الواثقِ على الدوامِ به، المتوكلِ بكليته عليه، الفرحِ كُلِّ الفرحِ به.

وَمَنْ كَانَ هذا حاله فلا ضيعةَ عليه، ولا خوفٌ ولا حزنٌ، فالله تبارك وتعالى لا يُضَيِّعُ أهله، ولا يُخْلِفُ ميعاده، ولا يُخَيِّبُ مَنْ صَدَقَ معه، وبالله التوفيق. والحمد لله أولاً وأبداً وسرّمدًا، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.



كيف تتخطى مرحلة الـ(لو)

إنّ (لو) أحبولة الشيطان، يصطاد بها ضيقي الصدور، أو ضعيفي البصائر، فلا يستطيع الشيطان بلوغ مآربه من المرء في هذا إلا من باب الجهل بالشرع أو الجهالة فيه، أي ضعف العلم أو وهن اليقين والإرادة، لذلك نوه الله تعالى للجمع بين العلم والإيمان، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الرّوم: ٥٦]، فالعلم نور والإيمان مَرَكَبٌ، فبالنور تصل سفينة الإيمان شاطئ النعيم بإذن الله تعالى، فالنور لا يكفي والراحلة لا تكفي، بل لا بد من اجتماعهما للوصول لعلّيين برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى.

فما أحوج الناس في هذا الزمان للتواصي بالحق والصبر فيه عبر طَرَق هدايات الشريعة هذا الموضوع الذي لا تنفك أسبابه عن هجومها على أفئدة الناس وعلى صدورهم على الدوام عند أدنى عثرة فُجاءة، أو تلاشي أمنية، أو فوات رغبة، فلو اعتنقته أفئدتهم على وفق الشرع ورَضُوا ما آتاهم الله تعالى لأراحوا أنفسهم من زفرات الحيات، وحسرات الفوائت، وجرعات الغيظ، وزعزعة سكينه القلوب. ذلك أنّ الإنسان في مراحل حياته وسيرورة أيامه يمرّ ولا بد بمنعطفات حرجة في حياته، ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق : ١٩] وحالاً بعد حال، فيترتب على اختياره لمنعطفاته الحياتية أمور كبار أو صغار بحسب حجم هذا الأمر، وكم من أمر صغير تترتب عليه العظام!

لذلك شرع الله تعالى المشاورة والاستخارة والتوكل، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن..»^(١). وقال ﷺ: «احِرْصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»^(٢).

ولا جرم في شأن تقديم الشريعة أمر الرضا بالله تعالى في كل أمر، فإن الفرح بتحصيل المرغوب، أو دفع المرهوب، أو الحزن، أو الحسرة، أو الغضب لفواته لها أثر مباشر في سكينته الإنسان، وراحته، وطمأنينته، مهما كانت جهة المُقَدَّرِ الرّبّاني، أو الاختيارِ الإنساني، سواء أكان ذلك الأمر فقد حبيب، أو خسارة مكتسب، أو تسلط ظالم، أو مرض عضال، أو اختيار قسم الدراسة، أو العمل، أو الزواج، أو المسكن، أو السفر، أو إجراء صفقة ما، أو اختيار ما.. ونحو ذلك. ولا يكاد ينفك أحد عن ذلك، فقطب رحي الراحة في الرضا. والدنيا إنما هي مزرعة وحرث وميدان عمل.

(١) البخاري (٦٣٨٢)

(٢) مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤)

والمقصود؛ بيان أن لفظ ومعنى (لو) لها استدعاء وحضور في حياة أكثر الناس، وأكثر استعمالاتها شيوعاً التحسّر والتلهّف والتسخط على ماضٍ انقضى اعتراضاً على القدر، وهذا هو المذموم.

وبالجملة؛ فلفظ (لو) له أحوال:

الأول: أن يقولها اعتراضاً على القدر وتسخطاً له، فهذا محرم.

الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي مباحة في الأصل، ولكن يختلف حكمها بحسب صدق الخبر أو كذبه.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات من الطاعات من غير تسخط، فهذا مشروع.

الرابع: أن يقولها للتمني في المستقبل، فهي بحسب ما تمنّاه من خير أو شرّ.

بيان ذلك: أن لفظ (لو) له أحوال قد بينها الكتاب وفصلتها السنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

(١) مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤)

وعليه فالحال الأول للفظ (لو) هو أن يقولها اعتراضاً على القدر وتسخطاً، فهذا من عمل الشيطان. وكثير ممن يقولونها إنما يقولونها تسخطاً واعتراضاً على القدر وذمّاً للمقضي، وهذا هو الممنوع المذموم، وهو لا يغني عن صاحبه شيئاً سوى ألم الحسرة ووزر الذنب، فلا هو بالذي سلم من المؤلم، ولا هو بالذي تقلد مكرمة الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين.

والاعتراض على القضاء وتسخطه من خصال المنافقين، ولا غرور؛ فليس لهم زادٌ من رضا يسافرون به في تخوم ابتلاءات الدنيا كحال المتقين الفائزين الحائزين رضا الآخرة برضاهم في الدنيا. فقلب المنافق فارغ من الرضا بالله تعالى، لهذا فمن وسائل طرد النفاق عن حمى القلب ترديد ذكر الرضا طرفي النهار قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»^(١).

قال الله تعالى ذامّاً للمنافقين واصفاً مقالمهم وحالمهم مع مُرّ المقادير وشديدات الأقضية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] فهم يعترضون على مواقع القدر بهذا، وفيه من سوء الأدب مع الله

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٤/٣٣٧) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

تعالى ما فيه، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. قال ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «قوله ﷺ: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» يعني تفتح عن العبد عمل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، فينبغي للمؤمن ألا يستعملها حتى لا يقع في حبال الشيطان ووساوسه وتشكيكه، وإملائه ما لا يبغي، فإن الأمور بيد الله تعالى، هو الذي قدرها جل وعلا، فإذا فعل المؤمن ما شرع الله من العلاج، من السفر، ومن الإقامة، ومن الأكل ومن غير ذلك من الأسباب التي تعاطاها، ثم غلبه القدر؛ فليقل: قدر الله، وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فليس الأمر بيده، بل بيد الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، وقال النبي ﷺ: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبي، واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبيته، وأخلف له خيراً منها»^(١)، فالمؤمن هكذا تحت القدر، لكن لا يمنع القدر من تعاطي الأسباب، يفعل الأسباب التي يستطيعها، فإذا قدر أن الأسباب لن تنفع؛ فلا يجزع، ولا يقل: لو لو، بل يقول: قدر الله وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، مثلاً ذهب المريض إلى الطبيب الفلاني، أو المستشفى الفلاني، أو المستوصف الفلاني فلم يقدر نفع الأسباب؛ فلا يقل بعد موته: لو أني سافرت به إلى الخارج، لو أني ذهبت إلى المستشفى الآخر، لو أني ذهبت إلى فلان، هذا

ما ينفع قد مضى الأمر، والله تعالى لو شاء ذلك لوقع، لكن هذه المنية انتهت، والأجل قد تم، فلا ينبغي الاعتراض بقول: لو لو.

أما إذا كان قول (لو) لبيان ما ينبغي، مثل ما قال ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت»^(١). هذا ليس للاعتراض، ولكن لبيان الأفضل، مثل لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا، مما يبين للناس أنه الأفضل وأنه الأحرى، ولو علمت أن فلاناً موجوداً لزرته، ولو علمت أن فلاناً مريضاً لعدته، أو ما أشبه ذلك مما يسفر عن أسفه على ما فات عليه، ليس على سبيل الاعتراض، هذا لا خلاف في هذا الباب، وإنما الممنوع هو الاعتراض على القدر، وأما إخباره وأنه لو كان كذا لفعل كذا، لو كان فلاناً موجوداً لقرأت عليه، لو كان العالم موجوداً لقرأت عليه، لو علمت أن فلاناً مريضاً لزرته، لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سمرت إلى كذا، وما أشبه ذلك، ليس هذا من باب الاعتراض»^(٢). وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ ﷺ: «فَإِنْ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»: «كَلِمَةُ (لَوْ) فِي هَذَا الْمَقَامِ إِنَّمَا تَفْتَحُ بَابَ النَّدَمِ وَالْحُزَنِ، وَلِهَذَا نَهَى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَحْزُونًا وَمَهْمُومًا بَلْ يَرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مَنْشَرِحَ الصَّدْرِ وَأَنْ يَكُونَ مَسْرُورًا طَلِيقَ الْوَجْهِ، وَنَبِهَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِهَذِهِ النِّقْطَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الْمُجَادَلَةُ: ١٠]. وَالْمَهْمُ أَنْ الشَّرْعَ يَجِبُ مِنَ الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا فِي سُرُورٍ، وَدَائِمًا فِي

(١) البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

(٢) شرح كتاب التوحيد (٦٤) باب ما جاء في (لو)

فرح ليكون متقبلاً لما يأتيه من أوامر الشرع؛ لأن الرجل إذا كان في ندم وهم وفي غم وحزن لا شك أنه يضيق ذرعاً بما يلقي عليه من أمور الشرع وغيرها، ولهذا يقول الله تعالى لرسوله دائماً: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [التل: ٧٠]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَآثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

وهذه النقطة بالذات تجد بعض الغيورين على دينهم إذا رأوا من الناس ما يكرهون تجدهم يؤثر ذلك عليهم، حتى على عبادتهم الخاصة، ولكن الذي ينبغي أن يتلقوا ذلك بحزم وقوة ونشاط، فيقوموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة إلى الله على بصيرة، ثم إنه لا يضرهم من خالفهم^(١).

ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في توجيهه النافع الشهير: «كثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكَلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهى عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن يؤمن بأن العاقبة للتقوى، كما قال رب العزة جلا وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التل: ١٢٨]». ^(٢)

الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي بحسب الخبر إن صدقاً وإن كذباً. كقوله: لو كنت متفرغاً للقيتك، أو لو مررت ببلدتك لزرتك ونحو

(١) كتاب مجموع فتاوى ورسائل العثيمين. المناهي اللفظية (٤٩٥)

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨ / ٢٩٧)

ذلك. فإن (لو) هنا هي لمجرد الإخبار، فهذه لا بأس بها، وهي بحسب الخبر إن صدقًا وإن كذبًا، فيجوز إلا إن كان كاذبًا في خبره. مثاله قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي اليماني معاتبًا قومه إذ لم يصدقوا في الحرب فلم يستحقوا مدحته:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقن ولكن الرماح أجرت^(١)

(١) وهو من الطويل، وهذه الأبيات معدودة هي من جزيل قصائد الحماسة، وهي عشرة أبيات، قال عمرو:

ومرد على جرد شهت طرادها	قيل طلوع الشمس أو حين ذرت
صبحتهم بيضاء يرق يوضها	إذا نظرت فيها العيون ازهرت
ولما رأيت الخيل زورًا كأنها	جداول زرع أرسلت فاسطرت
وجاشت إلى النفس أول وهلة	فردت على مكروهاها فاستقرت
علام تقول الرمح يثقل عاتقي	إذا أنا لم أطعن إذا الخيل ولت
عقرت جواد ابني دريد كليهما	وما أخذتني في الختونة عزتي
لحا الله جرماً كلما ذر شارق	وجوه كلاب هارشت فازبأرت
ظللت كائي للرماح دريئة	أفانل عن أبناء جرم وفرت
فلم تغن جرم نهدها إذ تلاقنا	ولكن جرماً في اللقاء ابدعرت
فلو أن قومي أنطقني رماحهم	نطقن ولكن الرماح أجرت

وكان من قصة هذه الأبيات أن جرماً ونهداً - وهما قبيلتان من قضاة - كثرت بطونهم فتلاحوا فاقتلوا وتفرقوا وتشتت أمرهم، وحرش الشيطان بينهم فقطعوا أرحامهم ووقع الشر بينهم، فلحقت نهد بن زيد ببني الحارث بن كعب فحالفوهم، ولحقت جرم بن ربان

=

ببني زبيد فحالفوهم، ثم وقعت الحرب بين الحارث وبني زبيد واستتبع ذلك أن تحارب نهْدُ جرْمًا، فتحاربت بنو الحارث وبنو زبيد في الحرب التي كانت بينهم فالتقوا، وعلى بني الحارث عبد الله بن عبد المدان، وعلى بني زبيد عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فتعبي القوم، فاستعدت جرم لنهد، وتواقع الفريقان، فاقتتلوا، فكانت الدبرة يومئذ على بني زبيد وانهزموا، وقد قرّت جرم عن حلفائها من زبيد، فهزمت بنو زبيد قوم عمرو بن معدي كرب، وانخذلت عنها جرم التي لم ترع حق الحلف. فهتف عمرو بهذه الأبيات الشاخنة الخامسة المتألّة الأبيّة، وروّيها الرائق الماتع الفريد.

والمرّد: جمع أمرّد. الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. الطراد: هو مطاردة الفرسان بأن يجعل بعضهم على بعض في الحرب. ذرّت الشمس: طلعت وظهرت أول طلوعها. صبحتهم: جئتهم بالكتيبة صباحًا. بيضاء: يريد كتيبة بيضاء عليها بياض الحديد. يئُضها: قلانس الحديد على رؤوسها، واحدها بيضة. ازمهّرت: احمرت من الغضب. الزور: جمع أزور وزوراء؛ وهو المعوجّ العنق. ورويت «رهوًا»: أي سرعًا متتابعة. الجداول: الأنهار الصغار. اسبطرت: امتدّت في سرعة. جاشت: ارتفعت من فزع، وهذا ليس لكونه جبانًا، بل هو بيان حال النفس، ونفس الجبان والشجاع سواء فيما يدهمها عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان، فالجبان يركب نفرتة، والشجاع يدفعها فيثبت. لذلك قال: فرّدت على مكروهاها: أي ردّتها على الشدة. ومن ذلك قول ابن الإطنابة:

أَبْتُ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي	وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْثَمَنِ الرَّيِّحِ
وَأَجْشَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي	وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ	مَكَانَكَ، تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي
لِأَدْفَعِ عَنْ مَآثِرِ صَالِحَاتٍ	وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرَضِ صَاحِحِ

=

=

أما الختونة التي ذكرها عمرو فهي من الختن أي المصاهرة، والختن: أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل ما كان من قبل امرأته، والاسم الختونة. وقد ذكر الله القرابات في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٤] فالقرابات بالنسب عصبه وخؤولة، وصهرا بالنكاح، ورضاعاً.

أما قوله: لحاه الله: أي أهلكه، وهو دعاء، وأصل اللحو نزع قشر العود. ذرّ شارق: طلعت الشمس. وجوة: بالنصب على الذمّ والشم، أو بدل من «جرماً». هارشت: من المهارشة، وهي تقاتل الكلاب. ازبأرت: انتفشت حتى ظهر أصول شعرها وتجمعت للوثب. الدريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها، فقوله: «ظلمت كأني للرماح دريئة» أي: بقيت في نهاري منتصباً في وجوه الأعداء والطعن يأتيني من جوانبي أذب عن جرم، ويجوز أن يكون المعنى: كأني للرماح صيد. نهّد: قبيلة. لم تغنها جرم: لم تقاومها ولم تكفها، ولكنها فرّت منها. وأضاف نهداً إلى ضمير جرم لاعتقادهم الاكتفاء بها. ابذعرت: تفرقت وتبددت. أجزرت: الإجرار: أن يشق لسان الفصيل ويوضع فيع عويد لثلاً يرضع. يقول: لو أن قومي قاتلوا وأبلوا لذكرت ذلك وفخرت بهم، ولكن رماحهم أجزرتني، أي: قطعت لساني عن مدحهم لفرارهم، أراد أنهم لم يقاتلوا. وقال الجاحظ في البيان والتبيين (١٥٤/٢) «الجرار: عود يعرض في فم الفصيل أو يشقّ به لسانه لثلاً يرضع أمه. فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثني عليهم، ولكنهم فروا فأمسكت كالفصيل الذي في فمه جرار». وانظر: شرح الأصمعيات: (١٢١-١٢٢) ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري (٤١/١).

وأقول: لعلّ سبب جرم سيوفها عن نهّد تذكّر الأرحام، فمعاداة الأقارب شر وبلاء، الرابع فيها خاسر، والمتنصر مهزوم، كما قال البحري في صلح بني تغلب وهي في الغاية من وصف آلام الصّلة الجميلة التي اغتالها فتائل الغضب وقلائد الشيطان:

وَفُرْسَانٍ هَيَجَاءٍ تَحِيْشُ صُدُورَهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيْقُ دُرُوعُهَا

=

والإجرام: هو شقُّ لسان الفصيل لئلا يرضع أمه، ويجعل في لسانه عود صغير ليمنعه من خُلفِ أمه. يقول: لو أنهم أبلوا في الحرب بلاء حسناً لمدحتهم وذكرت بلاءهم، ولكن قصرُوا فأجرُّوا لساني فما أنطق بمدحهم.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات، فهذا مشروع لأنه خال من الاعتراض على المقادير. فتكون هنا للتأسف على فوات قربة وطاعة، فهذه محمودة إن كانت لتربية النفس وتأديبها وزجرها عن تفويت خير الآخرة فيما يُستقبل مع الرضا بالقضاء الذي قد نفذ، فهو يقولها لتربية لنفسه فيما يُستقبل لا

=

تُقْتَلُ مِنْ وَثَرٍ أَعَزَّ نُفُوسَهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيقُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتْ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قَطُوعُهَا

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تكاد تطاوع وثره، والدماء تفيض على الثرى، والدموع تسيل على المآقي، والرماح تقطع علائق الأرحام. والله المستعان.

والشاعر هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. ويكنى أبا ثور، من الشعراء المخضرمين، ولد سنة ٥٢٥ م، أي حوالي مئة سنة قبل الهجرة، وتوفي سنة ٦٤٢ / ٢١ هـ، في فارس اليمن المشهور، وصاحب غارات مذكورة، وفد على المدينة سنة ٩ هـ، في وفد مدحج في عشرة من بني زبيد، فأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وفقد فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية، وكان عصي النفس، أياً. وشهد القادسية وهو ابن مئة وست سنين فيما يزعمون، وأبلى فيها بلاء عظيماً. واختلف في وفاته، ف قيل في القادسية وقيل بعد وقعة نهاوند.

في تسخّطها على ما فات. وكذلك لو قالها لبيان ما ينبغي، وكذا لبيان فضل العمل الفائت، أو أن يقولها تطيباً لقلوب أصحابه وحثاً للناس على فعله للائتساء والاقتداء، ويحمل عليه قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة»^(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن النبي ﷺ لم يقل: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة» لأجل أن الذي فعله مفضل، ففعله هو الأفضل، وإنما أراد تطيب قلوب أصحابه لما شقّ عليهم أن يخلّوا من إحرامهم، وفي هذا تأليف للقلوب، فجمع الله له الأجرين: أجر فعل الأفضل، وأجر ما اختار من موافقتهم على ما أمرهم به لولا سوق الهدي، وذلك لأن في سوق الهدي من تعظيم شعائر الله ما ليس في التمتع والتحلل والإحرام ثانياً، فيكون القارن الذي ساق الهدي أفضل من المتمتع الذي لم يسق الهدي.^(٢)

الرابع: أن يقولها للتمني في المستقبل، فهي بحسب ما تمنّاه من خير أو شرّ. فتكون محمودة إن كانت عن صادق أمنية صالحة، ومن ذلك قوله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته،

(١) البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

(٢) وانظر: الفتاوى (٢٦ / ٨٩ - ٩٢)

فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالا، ولم يرزقه علما^(١)، فهو يخبط في ماله^(٢) بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل^(٣) وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء^(٤).

فالنية تدرك ما لا يدرك العمل، «إنما الأعمال بالنيات»^(٥). ومرد ذلك إلى أن الغرض من التقوى هو صلاح القلب، حتى وإن خلت اليد من مال يثبت به حبه لربه تعالى بإنفاقه في مرضاته، أو عجز الجسد عن الوقوف بين يديه ليقوم في صلاته، أو لم تطق صحته صيام هاجرة، أو منعت المرأة من صلاة لعذرهما الشهري، أو عجز العبد عن الوصول لمشاعر الحج أو الجهاد باللسان أو باليد ونحو ذلك، فالعبرة بما في القلب، كما قال ﷺ: «التقوى ههنا»^(٦).

(١) أي: علماً نافعاً يحجزه عن الحرام ويدفعه للإحسان والتقوى.

(٢) لاحظ وصف فعله في ماله بالخبط، إشارة لعدم أو ضعف الاتزان والاقتصاد والتحرّز والتورع.

(٣) وذلك لخبط طويته، وخسة، طبيته وسوء معدنه، فإنه قد تمّنّى الحرام حتى وإن لم يكُ متمكّناً منه.

(٤) أحمد (١٨٠٣١) بسند حسن من حديث أبي كبشة الأنماري، وله شاهد صحيح من حديث أبي هريرة، ذكره الأرناؤوط. ورواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٥) البخاري ٢/١ (١) ومسلم ٤٨/٦ (١٩٠٧)

(٦) مسلم (٦٤٨٢)

فالعبرة والمعول على ما في القلب، أما الجوارح فأعوان لهذا القلب، وجنود له،
ينفذ القلب بواسطتها ما يريد، قال تبارك وتعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا
دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فهياكل العبادات قوالب لإحسان العبودية لله تعالى، وإذا تدبرت الوحي
وجدت أن صلاح القلب هو الغاية لكل عبادة بدنية أو مالية أو غيرها، فتلك
العبادات تصقله وتهذبه وتصفيه وتنيره وتطيبه، فلا غنى عنها، ولا قوام لها إلا
به، فهي أركان عملية للعبادة مقصودة لذاتها، فهي عبادة، وثمرتها صلاح
القلب، لذلك فالعبادة تكون فاسدة في حال فسد القلب فيها كالرياء.

ومن هنا كان أمر أعمال القلب في الغاية القصوى والأمد الغائي لكل
مؤمن موفق، فترى صاحب أعمال القلب العظيمة يسبق بمراحل من دونه في
مراتب أعمال القلوب وإن كان المسبوق أكثر اجتهادًا في أعمال البدن، ﴿ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

والإيمان في القلب والجوارح كالشجرة، فأصولها القلب وفروعها
الجوارح، فإذا فسد جذع الأصل فسيظهر عرق فساد في الفروع والأغصان
والأوراق والثمار، وإن طاب طابت، ومتى رأينا فسادًا في ثمرة أو غصن
استدللنا بذلك على فساد في الجذع بحسبه، وفي هذا ردّ على من زعم أن فساد
الظاهر لا علاقة له بفساد الباطن، كلا؛ بل لولا فساد في الباطن ما ظهر فساد
الظاهر، ولا عكس، فقد يفسد الباطن ويبقى الظاهر مزيّنًا إلى حين،
﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

ونحن قد أمرنا بمعاملة الناس بحسب ما ظهر منهم، وما أبدوه لنا من صفحاتهم، ونكل حقائق ما في قلوبهم لعلام الغيوب، فلا ننقب العيوب ولا نزكيها.

قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى: «إذا ظهر على الجوارح شيء من المخالفات هل يمكن أن يحتج هذا المخالف بأن التقوى ههنا؟ نقول: لو كان في هذا المخفي شيء، أو أن التقوى موجودة في هذا القلب لظهرت على الجوارح؛ لأن ما ظهر على الجوارح من المخالفات برهان على تكذيب الدعوى التي هي التقوى، لما استدل الصحابي بقوله جل وعلا: ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ [المائدة : ٩٣] قال: يشرب الخمر وهو تقي، قال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخْطَأْتُ أَسْتُكَ الْحَفْرَةَ، لَوْ اتَّقَيْتَ وَآمَنْتَ وَعَمِلْتَ الصَّالِحَاتِ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ»^(١).

(١) نقلها ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤٠٥/١١) وقوله: «أَخْطَأْتُ..» مثل يُضْرَبُ لِمَنْ لَمْ يَصِبْ مَوْضِعَ الصَّوَابِ.

وهذه الحادثة لها فوائد جمة فقهية ومسلكية، وقد جرت لقدامة بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أحد الصحابة الأخيار، إذ جلس يوماً مع بعض الصحابة يتذكرون القرآن، فتلوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ [المائدة : ٩٣]. فقالوا: «الحمد لله، نحن ممن آمن، ونحن على صلاح وتقوى، وليس علينا جناح فيما طعمنا»، فجاءوا بالخمر فشربوها ظناً أنها حلال لهم. فعلم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخبرهم، فجاء بقدامة ومن كان معه، وجمع لهم الصحابة، فسألوا قدامة

وهذا الذي تظهر عليه علامات الفسوق يخلق لحيته، ويشرب ما يشرب علناً، ويسبل ثيابه، أو عنده مخالفات، يقول: التقوى ههنا! هذا لو اتقى الله ما حصلت منه هذه الأمور، فقد كذب دعواه بفعله، وليس في هذا مستمسك للعصاة المعلنين بمعاصيهم أن يقولوا: التقوى ههنا، لو اتقى الله، جل وعلا، ما فعل هذه المعاصي»^(١).

هذا؛ ومما يلحق بذلك لفظ (لولا) فهي (لو) المنفية، قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «إسناد الشيء إلى سببه ينقسم إلى أقسام:

الأول: قسم يكون شركاً أكبر، مثل أن يقول: لولا الولي فلان لهلك، والولي فلان هذا مدفون مقبور لا ينفع أحداً شيئاً، فلا يصدر هذا القول إلا من

=

بن مضعون لم؟ فتأول لهم الآية، فقال له عمر بن الخطاب: «أخطأت أستاذك الحفرة، لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر».

ثم قال لمن حوله من كبار الصحابة: سلوهم فإن شربوها مستحلّين كفروا، وإن شربوها متأولين جلدوا، فأقيم عليهم الحدّ، وفي هذا دليل على منع التكفير بالتأويل والشبهة.

وبقي قدامة بن مضعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دهرًا يبكي على نفسه، حتى خشي أن يصل به الأمر إلى اليأس من رحمة الله تعالى، فجاء به عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرة أخرى، ثم قال له: لا أدري أيّ ذنبك أعظم: استحلالك الخمر؟ أم يأسك من رحمة الله؟ وتلا عليه أول سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢) غافر: ٢٣ فذهب ما به وصلح حاله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن عمر.

(١) شرح الأربعين النووية عبد الكريم الخضير (٢١/١٤)

شخص يعتقد أنّ لهذا الوليّ المدفون تصرّفًا في الكون، فيكون شركًا أكبر مخرجًا عن الملة.

الثاني: أن يضيف الشيء إلى سببه المعلوم شرعًا أو المعلوم حسًا. فهذا جائز ولا بأس به، مثل أن تقول: لولا أنّ فلانًا توضع لم تصح صلاته، هذا صحيح واقع، لو لم يتوضع لم تصح صلاته هذا السبب الشرعي.

أما السبب الحسي فكأن يسقط في بئر فيخرجه رجل آخر فيقول: لولا فلان أخرجني لهلك، فهذا أيضا صحيح، لكن لا يعتقد أنّ فلانًا هو الذي استقلّ، لكن يسره الله له فأنقذه، ومنه قول الرسول ﷺ في عمه أبي طالب حيث أخبر أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه قال: «ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١) هذا جائز، لأنّه صدر من الرسول ﷺ، وهو في كلام العلماء كثير من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم حسًا أو شرعًا^(٢).

الثالث: أن يضيفه إلى السبب مع الله مقرونًا بالواو، فهذا لا يجوز، بل هو من الشرك، لكنه شرك أصغر، إلا أن يعتقد أنّ الثاني الذي مع الله له تصرّف كتصرف الله فيكون شركًا أكبر، مثل أن يقول: لولا الله وفلان لحصل كذا

(١) البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٨)

(٢) ولا شك أن الأكمل والأجمل أن يقول: لولا الله، أو لولا أن الله يسّر بفلان ونحوه، فهذا أفضل وأحسن، أما الحديث ففيه بيان الجواز، والله أعلم.

وكذا، فهذا لا يجوز، حتى وهو يعتقد أن الله فوق كل شيء، بل يقول: لولا الله ثم فلان.

أما إن اعتقد أن الله وفلان سواء في التأثير فهذا شرك أكبر، وعلى هذا فإذا كان خبراً فإنه لا بأس به، أو إذا كان مستنداً إلى سبب صحيح فإنه لا بأس به»^(١).

وشاهد المقال: أن الناس حيال فوات مرغوبهم أو حصول مرهوبهم على درجات ودركات؛ فقد يجزعون، وقد يصبرون، وأقلهم من يرضون، وأقل قليلهم من يحمدون ويشكرون، ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ] ﴿٧٤﴾ [آل عمران: ٧٣ - ٧٤].

والآن حان وقت إجابة السؤال الكبير: كيف تتخطى مرحلة ال(لو)؟ وسأوجز الجواب في عشرة أمور:

الأول: تحريك نَوَابِهِ القلب لرسوخ يقينية نفاذ القضاء والقدر، وأن ما قضاه الله فهو لا بد كائن، قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [المز: ٤٩]، وقال ﷺ: «واعلم

(١) لقاء الباب المفتوح (٢٩) وانظر: شرحه لكتاب التوحيد (٤٦) فتاوى ابن عثيمين (١٣٠/٣)

أَنْ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ»^(١). فقدر الله ماضٍ، وقضاؤه نافذ، مهما كابر الإنسان.

الثاني: العلم اليقيني بأن اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك، وأنك مهما أوتيت من علم وحكمة وقدرة فلن تختار الطريق الأنسب لك لا بعلمك وحكمتك ولا بإرادتك وعملك.

الثالث: العلم بأن صواب الاختيار والمسار ليس محصوراً في ذلك الإطار الضيق من تحقيق مشتهى نفسك العجلى ونظرتها القاصرة، بل هو عبارة عن لوحة كبيرة تدرج فيها أمور كثيرة متشابكة من مصير دينك ودنياك، ومع اجتماع كل عناصر اللوحة ينبثق الاختيار الأصوب والأفضل، فميزان الاختيار الصائب ضخم جداً ودقيق جداً، فلا يهمل أي أمر من أمورك مهما صغر أنياً في عينك، أو عزب عن ذاكرتك، أو نحو ذلك، وليس هذا لأحد إلا لعلام الغيوب سبحانه.

الرابع: العلم بأن الأمور المؤلمة في ابتدائها فإنها تؤول إلى سعادة في نهايتها لمن اتقى الله تعالى، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، والعبرة بكمال النهايات لا نقص البدايات، ومن كانت بداياته محرقة كانت نهاياته مشرقة بإذن الله تعالى. فكل أمور الدين والدنيا يعتريها ما يعتريها من المشاق والآلام، فإذا علمت أن أشرف الخلق وأكملهم وأطيبهم قد صُبت عليه صنوف البلايا من موت البنين والبنات والوالدين والأعمام والزوجة المحبة، وابتلي بقاطعي

(١) أبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

الأرحام، ومؤذي الجيران، والماشين بالبهتان، والمحاريين له في نفسه وعرضه وأصحابه، فصبر وصابر، ورَضِيَ فأَرْضِيَ، وحمد فحمد، وشكر فشكر، فكان سيد ولد آدم طراً، ومقدمهم يوم يقوم الأشهاد، فمن تأمل سيرته علم أن البلاء رَحِمُ الفرح، والامتحان معراج العلى، واليقين سلّم الفلاح، والرضا باب الجنة، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحي: ٥٠].

الخامس: العلم بحقيقة الدنيا، فإن ذلك يثمر الزهد فيها، ويتبين لك أنها لا تستحق، فحينها تستحيل لواجع الحسرات إلى مرهم وترياق، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [التخل: ٩٦]، ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال ﷺ: «لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١). وقال صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «لغدوة في سبيل الله - أو روحه - خير من الدنيا وما فيها، ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

(١) ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب». وصححه

الألباني في الصحيحة (٩٤٠)

(٢) أحمد (١٥٥٦٣) وصححه محققوه الأرناؤوط وأصحابه.

ولما تعجّب الصحابة من نعومة وجمال جبة سندس كانت لأكيدر دومة^(١) قال ﷺ: «أتعجبون من هذه؟ فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها»^(٢).

وعليه، فالدنيا ليست بشيء في عين المبصر الحقيقي ببصيرته وهدى الله له، لا بعجلته وطيشه وطفولة رغباته وصغر أمنيته. ومن كان كذلك فلن يأس على فائت، ولن يفرح باطلاً بمؤتّى، وستدوب لوعاته كندى الصباح عند تذّكر الرجعى، وسيوقن حينها أنّ الدنيا لا تستحق الغضب لأجلها، والحزن من أحوالها، والخوف من أهوالها، والأسى منها ولها. فرضوان الله تعالى هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وسقف الرغبات، فمن وجد الله فما ذا فقد؟ ومن فقد رضوانه فما ذا وجد؟!

والمقصود؛ أنّ الميزان الحقيقي هو ميزان الآخرة، فمن ضبط رمانة ميزانه على ذلك استقامت له جادة السعداء، ولاحت له رفقة الأنبياء، واتبع الرسول بإحسان، فكان من الفائزين.

السادس: انتظار الأجر بالرضا بالقضاء، فالراضي موفور الحظ مغدوّ النصيب، قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين

(١) أي: حاكم دومة الجندل، وقد أسرته خيل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمر الرسول ﷺ أثناء غزوة تبوك في قصة جميلة حوت كثيراً من دلائل نبوته ﷺ.

(٢) البزار في مسنده (٢٥٧/٣ - ٢٥٨) قال الألباني لما ساق سنده: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم. السلسلة الصحيحة (٣٣٤٦)

يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»^(١). فكيف لعاقل ألا ينتظر كنوز العطايا وذخائر المزايا؟! وعند الله للأتقى مزيدٌ.

وَرَبِّكَ مَا مَالُ الْفَتَى بِذَخِيرَةٍ وَلَكِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الذَّخَائِرِ
السابع: التلذذ بالبلاء الذي لا بد منه، ولا حيلة في دفعه، فان كان لدنيا فهو الصبر والرضا والحمد والشكر، وإن كان للدين فهو أعظم وأعلى وأجلى وأسعد، كان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء، يقول: إن الله لا بد أن يتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].^(٢)

الثامن: العيش بحسن الظن بالله تعالى، فالله عند ظن عبده به فليظن به ما شاء، فأحسن الظن كل الحسن بربك تعالى الذي لا يأتي بالخير إلا هو، لا يدفع الشر إلا هو، ولا إله إلا هو. واعلم أن انتظار الفرج عبادة المتوكلين

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٣٣٧/٤) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

(٢) خرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٤٧٤، ٦٦٠) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٤٣)، وأبو العرب التميمي في المحن (٢٩٧) وورد بنحوه عن عمر بن عبد العزيز وكذلك الإمام أحمد رحمهم الله تعالى.

الموقنين، وكل عسر يتبعه فرج ويسر، فما ابتلى لِيُعَذِّبْ، ولكن لِيُهَذِّبْ، والبلاء يجمع بينك وبين الله والعافية تجمع بينك وبين نفسك، ويا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك سبحانه.

فَإِنَّ اللَّهَ أُولَى بِالْجَمِيلِ فَلَا تَظْنَنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءًا
وَلَا تَظْنَنَّ بِنَفْسِكَ قَطًّا خَيْرًا فَكَيْفَ بَظَالِمِ جَانٍ جَهُولٍ
وَتُظْنَنَّ بِنَفْسِكَ الشُّوْءَ تَجِدُهَا كَذَلِكَ خَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقَى فِيهَا وَخَيْرٍ فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ
وَلَيْسَ لَهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

التاسع: مجاهدة النفس لله تعالى، فإن النفس جزوع هلوع حرون جهول لعوب، محتاجة لزمها على التقوى، وجرها لمراتع الهدى، والرفق بها، حتى تذوق فتعرف فتعترف فتشتاق فتسير فتعتاد وتثبت فتصل بإذن الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. فجاهد نفسك في الله تعالى، واحزم معها، وارفق بها، ودارها، وراعها، ومن ثبت نبت، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الحج: ١٩].

العاشر: العلم بأنك قد بذلت وسعك بالاستخارة والاستشارة وبذل الوسع والتوكل على الله تعالى والاستعانة به وحسن الظن به، وهذا أقصى ما عليك، فلم يبق إلا ثلج اليقين بحسن الحلف، وبحر الرضا بتدبير المولى.

على العبد أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المقاصد
وإنني لكثير الوقوف والاستدعاء والتأمل والتلذذ والتعلّم من كلام
لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف تسليم رسول الله ﷺ لربه في الأقدار، قال أنس:
«والله لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا،
أو لشيء تركته هلاًّ فعلت كذا وكذا»^(١).

فأيّ تسليم ورضاً وراحة كهذا، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤]،
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]، «أيها الناس، إنّما أنا رحمة
مهداة»^(٢). والرحمة المهداة للبشرية من لدن الرحمن الرحيم لا تكون إلا كاملة.
وإذا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ هذان في الدُّنيا هُما الرَّحْمَاءُ
صلوات الله وبركاته وسلامه ورحماته عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه
بإحسان، وبالله وحده التوفيق، وعليه التكلان، وإليه المآب.



(١) مسلم (٢٣١٠)

(٢) الحاكم (١٠٠)، والدارمي (١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٥)
والصحيحة (٤٩)

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

ليس وراء رضوان الله لأهل الإيمان مطلب، فنسأل الله تعالى بوجهه الأكرم واسمه الأعظم أن يُجِلَّ علينا جميعاً ووالدينا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين رضوانه الذي لا سخط بعده، إنه سميع قريب. قال تبارك وتعالى مبشراً مُرغِباً واعدداً أهل الإيمان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ : ٧٢] «جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، لا ييغون عنها حولا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، قد زُخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، يَحِلُّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿أَكْبَرُ﴾ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، فَإِنْ نَعِمْتُهُمْ لَمْ يَطْبُ إِلَّا بِرُؤْيَا رَبِّهِمْ وَرِضْوَانِهِ عَلَيْهِمْ، وَلِأَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي أَمَّهَا الْعَابِدُونَ، وَالنِّهَايَةُ الَّتِي سَعَى نَحْوَهَا الْمُحِبُّونَ، فَرِضَا رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، أَكْبَرُ مِنْ نِّعَمِ الْجَنَّتِ. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)، حَيْثُ حَصَلُوا عَلَى كُلِّ مَطْلُوبٍ، وَانْتَفَى عَنْهُمْ كُلُّ مُحْذُورٍ، وَحَسُنَتْ وَطَابَتْ مِنْهُمْ جَمِيعُ الْأُمُورِ، فَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا مَعَهُمْ بِجُودِهِ» (١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لِيَبِّكَ رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٢).

فَرِضَا اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا سَخَطَ بَعْدَهُ أَفْضَلُ مِنْ جَنَّةٍ بَلَا دَوَامَ رِضَا، فَلَا نَعِيمَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا بَعْدَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا بَيَّنَّ لَهُمْ تَعَالَى إِعْطَاءَهُمْ رِضَاهُ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرِجِ فِي تَرْقِي نَعِيمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ لِلأَعْلَى وَالْأَجْمَلِ وَالْأَفْضَلِ، وَبِأَنَّ رِضَاهُ عَنْهُمْ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ، وَفِي هَذَا غَايَةُ الْأَمْنِ وَالْحُبُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

(١) تفسير السعدي (١ / ٣٤٣).

(٢) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩)، ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩).

الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ [التَّوْبَةُ : ٧٢]، فالرضا جزء من نعيم الجنة، والجنة لا يدخلها إلا من رضي الله عنه، فالجنة ثمرة الرضا.

وقد يكافئ السيد عبده وهو غير راض عنه، أما الرضا فله شأن ثان، وقد يرضا عنه في وقت دون آخر، أما ديمومة الرضا فلا مثيل لها، والله المثل الأعلى. والجنة إنما طابت برضوان الله تعالى على أهلها.

ثم لما كان الرضا قد أقرَّ عيون أهل الجنة بالفرح السابغ والأمن الدائم الخالد؛ أعطوا فوقه نعيمًا زائدًا، وأيُّ نعيم؟! نسأل الله الكريم من فضله، إنه النظر لوجه الرحمن، إنه الزيادة. فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»^(١).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح في كلامه على حديث: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك..»: «وفيه تلميح بقوله تعالى: ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكل من عَلِمَ أَنَّ سيِّده راض عنه؛ كان أقرَّ لعينه واطيب لقلبه من كل نعيم، لما في ذلك من التعظيم والتكريم. وفي هذا الحديث: أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه»^(٢). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان

(١) مسلم ١١٢/١ (١٨١) (٢٩٧).

(٢) فتح الباري (١١ / ٤٢٢).

الذي لا يتعقبه سخط أبداً، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط. وفي الصحيحين في حديث الشفاعة يقول كلُّ من الرسل: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»^(١). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وتأمل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢]، كيف جاء بالرضوان مبتدأً منكرًا مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسرُ شيء من رضوانه أكبر من الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حَوَتْه»^(٣). نسأل الله الكريم من فضله.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مُحَفِّزاً همم الصالحين التواقين لمعالي عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٩]^(٤): «خلق الله دارين، وخصَّ كل دار بأهل،

(١) البخاري ١٦٣/٤ (٣٣٤٠) و١٠٥/٦ (٤٧١٢)، ومسلم ١٢٧/١-١٢٨ (١٩٤) (٣٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧ / ٤٤٤).

(٣) بدائع الفوائد (٢ / ٣٩٣).

(٤) عليون: من أبنية المبالغة في وصف العلوِّ والارتفاع، فهو أعلى الأمكنة وأشرف المراتب وأقربها من الله تعالى، فالله تعالى في أعلى العلوِّ كما وصفه رسوله ﷺ في دعائه: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء». رواه مسلم (٢٧١٣). وتحت مخلوقاته، فأقربها منه أشرفها، فلفظ عليين من أبنية المبالغة في العلوِّ. فأعلى عليين هي منزلة الوسيلة لرسول الله ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علي؛ فإنه من صلَّى علي صلاة صلى الله

=

عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة». رواه مسلم (٣٨٤). فإن كانت الوسيلة من الفردوس الأعلى فهي أعلاه، وإن كانت منفصلة عنه فهي فوقه، والمتبادر إلى الفهم أنها منزلة في أعلى الفردوس الأعلى من جنة الرحمن، وفي معنى الوسيلة القرب، وهي هنا القرب من الرحمن جل جلاله مكانًا ومكانةً.

والفردوس الأعلى في المرتبة الأعلى من عليين - وقد يكون عليون مختصّ بالفردوس في بعض إطلاقاته - فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان؛ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشّر الناس؟ قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة». رواه البخاري (٢٧٩٠).

فالجنة مُقَبَّبةٌ، وأوسطُ القبة أعلاها كُراعُ الكُراع، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سراقة - أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال: «يا أم حارثة، إنها جنّانٌ في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». رواه البخاري (٢٨٠٩).

ومراتبُ الجنة العُلَى - كأهل الغُرف - عليّون بالنسبة لمن دونهم من أهل الجنة، فمراتب أهل الغرف عالية، وقد يكونون هم أهل الفردوس، وقد يكونون أدنى منهم لأن مراتب الجنة كثيرة جدًا وساشعة المسافات وهائلة الأبعاد. فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا

=

=

رسول الله؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

والجنة كلها عليّون بالنسبة لما تحتها، كما في الحديث الطويل للبراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «فيقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض». أخرجه أحمد (١٨٧٣٣) وأبو داود (٣٢١٢) و٤٧٥٣ وصححه الألباني. فالجنة كلها عليّون بالنسبة لأهل الأرض، والأبرار المقتصدون هم من المؤمنين الذين يُكتب كتابهم في عليين، كما قال سبحانه: ﴿كَأَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ۝﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٨]، وإن كان السابقون المُقَرَّبون أعلى منهم منازل.

وقد جاء عن السلف في معنى «عليّين» أقوال، منها: السماء السابعة، وقائمة العرش اليمنى، والجنة، وعند سِدْرَةِ الْمُتَهَيّ، وقيل: في السماء عند الله تعالى. وقيل: هو اسمُ لِدِيَوَانَ الملائكة الحَفَظَةِ، تُرَفَّعُ إليه أعمالُ الصالحين من العباد، وقيل: أراد أعلى الأمكنة وأشرف المراتب من الله في الدار الآخرة. قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٢٤ / ٢٩٣): «فيّين أن قوله: ﴿لَفِي عِلِّيَّينَ ۝﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٨] معناه: في عُلُوِّ وارتفاع، في سماءٍ فوق سماء، وعُلُوِّ فوق عُلُوِّ. وجائز أن يكون ذلك إلى السماء السابعة، وإلى سِدْرَةِ الْمُتَهَيّ، وإلى قائمة العرش اليمنى، ولا خبرَ يَقْطَعُ العُدْرَ بأنه معنيٌّ به بعضٌ دون بعض. والصواب أن يقال في ذلك كما قال الله جل ثناؤه: إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاع إلى حدٍّ قد عَلِمَ الله جلَّ وعزَّزَ منتهاه، ولا علمَ عندنا بغايته، غير أن ذلك لا يقصُرُ عن السماء السابعة؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك». أهد. هذا وقد وردَ في بعض طرق حديث البراء بن عازب: «اكتبوا كتاب عبي في عليّين في السماء السابعة». وانظر: زاد المسير (٥٧/٩)، وتفسير ابن كثير (٣٧٤/٨) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢ / ١٢٤) وقال ابن الأثير في النهاية (٢٩٤/٣): «ويعرب بالحروف والحركات كقنّسرين وأشباهها على أنه جمع أو واحد».

=

والله سبحانه مع كونه خالق كل شيء فهو موصوف بالرضا والغضب والعطاء والمنع والخفض والرفع والرحمة والانتقام، فاقترضت حكمته سبحانه أن خلق

=

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٥ / ١٨٣): «قال أبو مطيع البلخي في كتاب «الفقه الأكبر» المشهور: سألت أبا حنيفة عَمَّن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض. قال: قد كفر؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وعرشه فوق سبع سماواته. فقلت: إنه يقول: على العرش استوى، ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض، فقال: إذا أنكر أنه في السماء كفر؛ لأنه تعالى في أعلى عليين؛ وأنه يُدعى من أعلى لا من أسفل». وقال في فتاويه (٦ / ١٢): «والمقربون هم فوق أصحاب اليمين الأبرار الذين كتبهم في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ١٥ كَتَبَ مَرْفُوعٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٥ خِتْمُهُ مِسْكَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: ١٩ - ٢٨] قال ابن عباس: يشرب بها المقربون صُرْفًا، وتُزج لأصحاب اليمين مزجًا».

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مسلم (١٥ / ٢٠٨): «قوله ﷺ (٢٤٤٤): «اللهم اغفر لي وارحمني وألحطني بالرفيق»، وفي رواية: «الرفيق الأعلى»، الصحيح الذي عليه الجمهور أن المراد بالرفيق الأعلى الأنبياء الساكنون أعلى عليين، ولفظة رفيق تطلق على الواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿وَحَسِّنْ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقيل: هو الله تعالى، يقال: الله رفيق بعباده، من الرفق والرأفة، فهو فعيل بمعنى فاعل، وأنكر الأزهري هذا القول. وقيل: أراد مُرتَفَقَ الجنة. وقال ابن القيم في الروح (١ / ٤٥): «هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى، في أعلى عليين، مع أرواح الأنبياء». والله أعلى وأحكم.

دارًا لطالبي رضاه، العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين بمحبّته؛ وهي الجنة.

وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ، وجعل الخير بحذافيره فيها، وجعلها محلّ كل طيّب من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق دارًا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لمراضيتهم وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله؛ وهي جهنم، وأودعها كل شيء مكروه، وسجنها مليء من كل شيء مؤذ ومؤلم، وجعل الشرّ بحذافيره فيها، وجعلها محلّ كل خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار، وخلق دارًا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزوّد المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثم أخرج إليها من أثار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابهما، وما يستدل به عليهما، حتى كأنهما رأي عين، ليصير للإيمان بالدارين وإن كان غيبًا وجهٌ شهادة تستأنس به النفوس، وتستدل به.

فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الشار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة، وسائر ملاذ النفوس ومشتهياتها، ما هو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال. فإذا رآه

المؤمنون ذكّروهم بما هناك من الخير والسرور المقيم، والعيش الرخيّ الهنيّ
الرغيد، كما قيل:

فإذا رآك المسلمون تيقّنوا حور الجنان لدى النعيم الخالد
فشمّروا إليه، وقالوا: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، وأحدثت لهم
رؤيته عزمات وهمماً وجداً وتشميراً، لأن النعيم يُذكر بالنعيم، والشيء يذكر
بجنسه، فإذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: موعدك
الجنة^(١) وإنما هي عشية أو ضحاها.

فوجود تلك المشتريات والملذذات في هذه الدار رحمة من الله، يسوق
بها عباده المؤمنين إلى تلك الدار التي هي أكمل منها، وزاد لهم من هذه الدار
إليها، فهي زادٌ وعبرة ودليل وأثر من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار،
فالمؤمن يهتز برؤيتها إلى ما أمامه، ويثير ساكن عزماته إلى تلك، فنفسه ذواق
توّاقة إذا ذاق شيئاً منها تاقت إلى ما هو أكمل منه، حتى تتوق إلى النعيم
المقيم في جوار الرب الكريم^(٢).

(١) رويت عن ابن حزم، وأنه قالها لفاكهة وكان صائماً: «يا فاكهة موعدك الجنة». ورويت
عن فقير قالها، لشدة فقره، وقوة صبره ويقينه.

(٢) نقل ابن الجوزي رحمه الله في المدهش (١ / ٢٢٨) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال:
«خُلِقْتُ لِي نَفْسٌ تَوَّاقَةٌ، لَمْ تَزَلْ تَتَوَقَّ إِلَى الْإِمَارَةِ، فَلَمَّا نَلْتُهَا تَاقَتْ إِلَى الْخِلَافَةِ، فَلَمَّا نَلْتُهَا
تَاقَتْ إِلَى الْجَنَّةِ».

وأخرج سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يستدل بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، ومن ذلك آثار النَّفْسَيْنِ الشتاء والصيف اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما، فاقتضى ذانك النفسَان آثارًا ظهرت في هذه الدار كانت دليلًا عليها وعبرة. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَهَا تَذْكِرَةً وَمَتْنًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (الواقعة : ٧٣). تذكرة تُذكرُ بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقي والقوى، وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده - والله أعلم بمراده من كلامه - على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

والمقصود؛ أنه سبحانه أشهد في هذه الدار ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشرٍّ، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياتًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرةً، وتنبيهًا.

ولما كانت هذه الدار ممزوجةً خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها؛ اقتضت حكمةً أحكم الحاكمين أن خلص خيرها من شرها، وخصه

بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة، ودار السرور المحضة، فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط، وخلط فيها بين الفريقين، وابتلى بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض فتنة. حكمة بالغة بهرت العقول، وعزّة قاهرة، فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه. بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر، وسلّط بعضه على بعض؛ ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك.

فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط، أعقبه بالتمييز والتخليص، فميّز بينهما بدارين ومحلّين، وجعل لكل دار ما يناسبها، وأسكن فيها من يناسبها. وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداه الكافرين لنقمته، والمخلّطين للأميرين، فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النعمة، وهؤلاء أهل النعمة والرحمة.. وأظهر حكمته الباهرة، ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنه يضع ثوابه موضعه، وعقابه موضعه، ويجمع بينهما في المحل المقتضي لذلك، ولا يظلم أحداً، ولا يبخسه شيئاً من حقه ولا يعاقبه بغير جانيته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة إلى العبيد أنفسهم من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج كمالهم الكامنة في أنفسهم من القوة إلى الفعل، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسر كل شيء بمقابله، ومصادمته بضده؛ لتظهر عليه آثار القهر

وسِمَات الضَّعْف والعِجْز، وَيَتَيَقَّن العَبْد أَن القَهَّار لَا يَكُون إِلَّا وَاحِدًا، وَأَنَّهُ يَسْتَحِيل أَن يَكُون لَهُ شَرِيك، بَل القَهْر والوَحْدَة مُتَلَازِمَان، فَالْمَلِك والقُدْرَة والقُوَّة والعِزَّة كُلُّهَا لِلَّهِ الْوَاحِد الْقَهَّار، وَمَنْ سِوَاه مُرَبُّوب مَقْهُور، لَهُ ضِدٌّ وَمَنَاف وَمُشَارِك.

فَخَلَق الرِّيح، وَسَلَّطَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تُصَادِمُهَا وَتَكْسِرُ سُورَتَهَا وَتَذْهَبُ بِهَا، وَخَلَقَ الْمَاءَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ الرِّيحَ تَصْرِفُهُ وَتَكْسِرُهُ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا الْمَاءَ يَكْسِرُهَا وَيُطْفِئُهَا، وَخَلَقَ الْحَدِيدَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ النَّارَ تَذْيِيهِ وَتَكْسِرُ قُوَّتَهُ، وَخَلَقَ الْحِجَارَةَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا الْحَدِيدَ يَكْسِرُهَا وَيُفْتَتِّتُهَا، وَخَلَقَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ، وَخَلَقَ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ يَشْرُدُونَهُمْ كُلَّ مَشْرَدٍ، وَيَطْرُدُونَهُمْ كُلَّ مَطْرَدٍ، وَخَلَقَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ وَالشِّتَاءَ وَالصَّيْفَ، وَسَلَّطَ كِلَا مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ يَذْهَبُهُ وَيَقْهَرُهُ، وَخَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَهَرَ كِلَا مِنْهُمَا بِالْآخَرِ، وَكَذَلِكَ الْحَيَوَانُ عَلَى اخْتِلَافِ ضَرْبِهِ مِنْ حَيَوَانِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، لِكُلِّ مِنْهُ مَضَادٌّ وَمُغَالِبٌ.

فَاسْتَبَانَ لِلْعُقُولِ وَالْفِطْرِ أَنَّ الْقَاهِرَ الْغَالِبَ لَذَلِكَ كُلِّهِ وَاحِدٌ، وَأَنَّ مِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ إِيجَادُ الْعَالَمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَرَبْطُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَإِحْوَاجُ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ، وَقَهْرُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَابْتِلَاءُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَامْتِزَاجُ خَيْرِهِ بِشَرِّهِ، وَجَعْلُ

شرّه لخيره الفداء، ولهذا يُدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له: «هذا فداؤك من النار»^(١).

وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداء له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضاً، فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر؛ تتبين له حكمة اللطيف الخبير»^(٢).

مع التنبيه إلى ضرورة المؤمن للمسارعة في الخيرات، والتوبة النصوح من الزلات، علّ الله تعالى أن يجيب الدعوات، وينيل الرغبات، ويغفر الخطيئات، أنه سميع قريب مجيب. قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طريقها بالذنوب»^(٣).

نحن ندعو الإله في كلِّ كربٍ ثمّ ننسأه عند كشف الكروبِ
كيف نرجو إجابةً لدعاءٍ قد سدّنا طريقها بالذنوبِ
ومن توابع ذلك أن على المؤمن الابتعاد عن مواطن الظلم لعباد الله، فهو ديوانٌ لا يُترك منه شيء، وليكثر ما استطاع من الحسنات المرجّحة لميزانه،

(١) في المسند (١٩٦٧٠) ومسلم (٢٧٦٧) (٤٩) عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دُفع إلى كلِّ مؤمن رجل من أهل الملل، فقال له: هذا فداؤك من النار».

(٢) طريق الهجرتين (١/ ١٣٤-١٤٠) مختصراً بتصرف.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥).

وليزاحم السيئات الغابرة بالحسنات الماحية، ولا يحقرن من المعروف شيئاً، وليعلم أن السيئة الكبيرة محتاجة إلى حسنة كبيرة عند الميزان إن لم يعف الرحمن، فلا يعلم أي حسنة يحتاج إليها غداً لرجحان ميزانه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «حَقُّ الْآدَمِيِّ يُعْطَاهُ مِنْ حَسَنَاتٍ مَنْ ظَلَمَهُ، فَمِنْ تَمَامِ التَّوْبَةِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ الْعَبْدُ مِنَ الْحَسَنَاتِ لِيُؤَفِّيَ غُرْمَاءَهُ، وَتَبْقَى لَهُ بَقِيَّةٌ يَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ» (١). ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وإن من نعم الله تعالى علينا أن جعل لذنوبنا مكفرات كالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب ودعاء المؤمنين ومحض العفو الرباني، والله تعالى جعل شرعه الشريف يتشَنَّف إلى توبة العباد لربهم تعالى على الدوام وبكل طريق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تدبَّر أصول الشرع علم أنه يتلطف بالناس في التوبة بكل طريق» (٢).

وإن من فضل الله تعالى أن الحسنة الكبيرة تكفر السيئة الكبيرة بإذن الله تعالى ورحمته، وهذا موطن حريّ بالوقوف التأملي عنده، وطول التدبر لجليل معانيه، ورؤية دِقَّة الميزان مع فضل الرحمن وعدله، وفتح باب المكفرات وموازنات الطالحات بالصالحات حتى ترجح الكفة بالرحمات، وحمد الله تعالى على فضله وكرمه وإحسانه، وجلال عدله وعظمته وكبريائه، وهو محمود على

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٣١٧).

(٢) تفسير آيات أشكلت (٢/٥٩٥) وانظر أيضاً كلاماً محرراً عن التوبة في مجموع الفتاوى (٢٢/٢١).

كل أسماؤه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى تمام الحمد وأكمّله وأوفاه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على قصة جَسَّ حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكْفَرُ بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ^(١) من حاطب مُكْفَرًا بشهوده بدرًا، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمّنته من محبة الله لها ورضاه بها، وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجَسِّ من المفسدة وتضمّنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف، فأزاله، وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، المُوجِبِينَ لصحة القلب ومرضه، وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن، فإن الأقوى منهما يقهر المغلوب، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف، فهذه حكمته في خلقه وقضائه، وتلك حكمته في شرعه وأمره.

وهذا كما أنه ثابت في محو السيئات بالحسنات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله ﷺ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»^(٢)، فهو ثابت في عكسه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله:

(١) أي: التجسس، فحاطب قد أرسل ظعينة للمشركين يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ولقد شفع له مقامه في بدرٍ عند ربه فغفر له، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الترمذي (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني والأرنؤوط.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢]. وقول عائشة عن زيد ابن أرقم أنه لما باع بالعينة^(١): «إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»^(٢)، وكقوله ﷺ: «من ترك صلاة العصر حبط عمله»^(٣)، إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تدافع الحسنات والسيئات، وإبطال بعضها بعضا، وذهاب أثر القوى منها بما دونه، وعلى هذا مبني الموازنة والإحباط.

وبالجملة؛ فقوة الإحسان ومرض العصيان متصاولان ومتحاربان، ولهذا المرض مع هذه القوة حالة تزايد وتراكم إلى الهلاك، وحالة انحطاط وتناقص، وهي خير حالات المريض، وحالة وقوف وتقابل إلى أن يقهر أحدهما الآخر، وإذا دخل وقت البُحران^(٤) وهو ساعة المناجزة، فحظّ القلب أحد الخطيتين:

(١) بيع العينة: أن يبيع سلعة بثمان مؤجل، ثم يشتريها من المشتري بثمان أقل منه نقداً، وهي من الربا، وحيلة عليه، أما إن كانت من ثلاثة أطراف وذلك بأن يبيع الأول على الثاني سلعة بثمان مؤجل، ثم يبيعها الثاني على طرف ثالث بثمان حالّ فهي التورق، وهي جائزة على الراجح، وقد أفتى بحلّها ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، والله أعلم.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٤٨١٣)، وسنن الدارقطني (٥٢/٣) بنحوه. والبيهقي (٣٠٠/٥) والحديث لا يثبت للجهالة، قال الدارقطني: أم محبة وعالية مجهولتان لا يحتج بهما. وانظر: نصب الراية (٤٦٧/٤).

(٣) البخاري (٥٩٤).

(٤) البُحران - بضم الباء -: هو منعطف صحي يحدث فجأة للمريض إما للعافية أو للعطب. فهو تغير يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحُميّة الحادّة، ويصعبه عرق غزير،

إما السلامة وإما العطب، وهذا البُحْرَان يكون وقت فعل الواجبات التي توجب رضى الرب تعالى ومغفرته، أو توجب سخطه وعقوبته، وفي الدعاء النبوي: «أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ»^(١) «^(٢)»، وقال عن طلحة يومئذ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»^(٣)، ورفع إلى النبي ﷺ رجل وقالوا: يا رسول الله؛ إنه قد أوجب، فقال: «أَعْتَقُوا عَنْهُ»^(٤) وفي الحديث الصحيح «أَتَدْرُونَ مَا الْمَوْجِبَتَانِ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «مَنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(٥)، يريد أن التوحيد والشرك رأس الموجبات

=

وانخفاض سريع في الحرارة، وهو تغير عظيم يحدث في المرض فيدفعه إلى الصحة أو إلى العطب. وقيل: إنَّ البحران لفظ يوناني معرب، وهو في لغة اليونان الفصل في الخطاب، أي: الخطاب الذي يكون به الفصل بين الخصمين، أعني الطيبة والمرض. قال جالينوس: «هو الحكم الحاصل لأنه به يكون انفصال حكم المرض إما إلى الصحة وإما إلى العطب».

(١) أي: ما يوجب الرحمة من الأعمال الصالحة والطاعات.

(٢) الحاكم (٥٢٥/١) وابن ماجه (١ / ٤٤١) (١٣٨٤) وقال الألباني: ضعيف جداً.

(٣) الترمذي (٢٠١ / ٤) (١٦٩٢) وحسنه الألباني. وابن حبان (٦٩٧٩) وقال الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٤) أحمد (١٦٠١٢) وصححه محققوه، وابن حبان (١٠ / ١٤٥) (٤٣٠٧) وصححه الأرنؤوط. وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى أوجب: عمل عملاً تجبُّ له به النار. ويقال: إنه كان قتل قتيلاً». جامع العلوم والحكم (١ / ١٧٢) أي: قتله بغير حق.

(٥) مسلم (٩٣) وقال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مستخرجه: «الموجبتان: الخصلتان اللتان توجبان الجنة والنار». المستخرج (١ / ١٦٨).

وأصلها، فهما بمنزلة السم القاتل قطعاً، والترياق المنجّي قطعاً^(١). اللهم
نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، ونسألك العفو والعافية
والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، وأعذنا اللهم من كلّ ظلم لأنفسنا
وغيرنا، إله الحق.

وَقَدْ عَادَ الظُّلْمُ يَنْوِءُ حِمْلًا بِأَوْزَارٍ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَا



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٤٢٣ - ٤٢٥).

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾

في البلايا من النعم خفايا، وفي الأقدار عجائب الأسرار، ومستودعات
الأنوار والرحمات، وفي الرضا بالحكيم العلام قبضات البرِّ ومخازن الخير
ومعارج لا يرقى لها فهم الأنام، فقدَرَه أوسع من حديد عقولهم، وقضاؤه أرفع
من جميع علومهم، فإليهم الرحمة والتكريم، وعليهم الإيمان والتسليم، ﴿إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٠].

إن المتأمل لتلك القصة العجيبة التي استهل الله تعالى لها أجمل استهلال
بقوله الأعز الأكرم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، يجد فيها
ترياق روحه من أسقام الدنيا، وطهارتها من أفتارها، وصقلها من خدشها،
وإشراق نورها بعد إظلامها، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]،
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]. ففي قصة يوسف عليه السلام كمال
الرضا بتدبير الرحمن تبارك وتعالى، وعزّ التوحيد، وتمام التسليم، وعظيم
الحمد، وجزيل الشكر، وكبير التعظيم، وروائع الفرح بالله تعالى.

إنها قصة كاملة جميلة لذيدة، لها صوت حزين، وترنيم خاشع، ووصايا
جليلة، وقلوب بالله واثقة، ونتائج بفضل الله سعيدة، لها خاتمة للآي شهية
للقلوب، رائقة للأرواح. ابتدأت بحلم وانتهت بتعبيره عبر سنين طويلة، إنها
سورة الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر.

فيها تبيان عظمة التوحيد، وشرف الصبر، وقيمة الرضا، وعزّ الحمد،
وثمرة الشكر. فيها حياة بالله متوكلة، وحياة لله مخلصه، فهي بالله والله في كل

حال. فيها إعلاءٌ معالي الأمور، وإطراح سَفَسَافِها. فيها نبْلُ الأخلاق، ومعالي الشيم. فيها إظهارُ رفِقِ الله تعالى بأوليائه، ورعايته وعنايته ورحمته ولطفه لهم. فيها حواراتُ أنبياء، ودمعاتُ أصفياء، وابتهالاتُ لسادة الأولياء، ومصابرة لأواء.

فيها مجاهدةُ نفوسٍ بالسوء أُمارة، ومرابطة على حدِّ العفاف والفضيلة، ورفعةٌ للصابرين الراضين الحامدين الشاكرين. فيها مَشَاهِدُ جمال، وألطف من رب السماء تنهال، فيها عَقْدُ قصةٍ للعين مبكية، لكنها لا تلبث أن تُتْبَعَ دمع السخونة ابتزادًا بالفرح، فتقلب البرحاء راحة، والحزنُ سرورًا، والكربُ فرجًا، والخاتمةُ ضراعةُ نبيٍّ كريم إلى ملك الملوك ورب الأرباب أن يُلْحَقَه في الذين مضوا على الخير من سادة الصالحين، فلا إله إلا الله كم في هذه السورة من صورة، وكم بين ثناياها من خفقاتٍ للقلب ترقُّبًا، وتأثُّرًا، وشوقًا، وفرحًا، وحنانًا، وسرورًا. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف : ٣].

لَوْ تَدْرِ فِيمَ عَذَلْتَنِي لَعَذَرْتَنِي خَفَضَ عَلَيْكَ وَخَلَّنِي وَطَرِيقِي
إِنَّ لأخبار المرسلين شوق ولهفة، إذ في جنبات طريقها تنبت عروقُ البرِّ، وتزهو أغصانُ الإيمان، وتُغَسَّلُ أدرانُ الخطايا ونجاساتِ الذنوب، ويرْقَعُ بتأملها واستشعارها واتّباعها ما اخلولق من ثوبِ الإيمان، وتُبنى بها في الفؤاد مدينةُ الإحسان.

وأذكرُ أيام الحمى ثم أنثني على كِبَدي من خشية أن تصدعا

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف : ٧٦]^(١)، فمهما فكّر البشر وقدرّوا ثم فكّروا وقدرّوا فغايتهم الفشل والخيبة مالم بأخذ الله تعالى بأيديهم

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في الفتاوى الكبرى في وجه مناداة إخوة يوسف عليه السلام بالسارقين (٦ / ١٢٧): «قد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين: أحدهما: أنه من باب المعارض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيّبوه عنه بالخيالة التي احتالوها عليه وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المشهور حتى إن الخونة من ذوي الديوان يسمّون لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف عليه السلام. قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصاع في رحل أخيه، ثم قال بعض الموكلين بالصيعان - وقد فقدوه ولم يدروا من أخذه منهم -: ﴿أَتَيْتُهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يُوسُف : ٧٠] على ظنّ منهم أنهم كذلك، ولم يأمرهم يوسف بذلك. فلم يكن قول هذا القائل كذباً كان في حقّه وغالب ظنه ما هو عنده، ولعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء قد سرقوا، وعنى بسرقة من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع وهو صادق في قوله: ﴿نَفَقْدُ صُوعِ الْمَلِكِ﴾ [يُوسُف : ٧٢]، فإن يوسف لعله لم يطلع على أن الصواع في رحالهم ليتّم الأمر؛ فنادى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يُوسُف : ٧٠] بناء على ما أخبر به يوسف، وكذلك لم يقل: سرقتم صاع الملك، إنما قال: نفقده، لأنه لم يكن يعلم أنهم سرقوه، أو أنه اطلع على ما صنعه يوسف فاحترز في قوله فقال ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يُوسُف : ٧٠]، ولم يذكر المفعول ليصح أن يضمّر سرقته يوسف، ثم قال: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعِ الْمَلِكِ﴾ [يُوسُف : ٧٢]، وهو صادق في ذلك، وكذلك احترز يوسف في قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعْنَا عِنْدَهُ﴾ [يُوسُف : ٧٩] ولم يقل إلا من سرق. وعلى التقدير فالكلام من أحسن المعارض.

تبارك وتعالى. والسعيد من كان الله معه. وتدبر قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام كيف كفاه أمره، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الرَّؤْم: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦].

قال الرازي الجصاص: «وفيما حكى الله تعالى من أمر يوسف وما عامل به إخوته في قوله ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ [يُوسُف: ٧٠] إلى قوله ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦] دلالة على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح واستخراج الحقوق؛ لأن الله تعالى رضي ذلك من فعله ولم ينكره، وقال في آخر القصة ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦]. ومن نحو ذلك قوله تعالى ﴿وَاخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤] وكان حلف أن يضربها عددًا، فأمره تعالى بأخذ الضَّغْثِ^(١)، وضربها به ليبر في يمينه من غير إيصال ألم كبير إليها.

ومن نحوه: النهي عن التصريح بالخطبة وإباحة التوصل إلى إعلامها رغبته بالتعويض^(٢). وقال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٧٦]: ﴿فَبَدَأَ﴾ أي فتى يوسف ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾، أي ففتشها ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، أي بنيامين، نفيًا للتهمة، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾، أي السقاية، ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾. ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي دبّرنا لتحصيل غرضه، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، أي: شرعه وقانونه. والجملة استئناف وتعليل

(١) الضَّغْثُ: مجموعة من شوايخ قنوق النخل.

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٧٦).

لذلك الكيد وصنعه. أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى إربه، رحمة منه وفضلاً. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا لاستبدّ بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته، ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (دينا) لها، والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته، حتى جرى الأمر وفق المراد^(١). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾^(٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ^(٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ^(٧٦) [يُوسُفَ: ٧٣ - ٧٦]: عن ابن عباس: ﴿صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٧٧) [يُوسُفَ: ٧٠] فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾^(٧٨) قَالُوا نَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ^(٧٩) [يُوسُفَ: ٧١ - ٧٢] أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حُمِلْ بِهِ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾^(٨٠) وهذا من باب الضمان والكفالة.

(١) تفسير القاسمي «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٤).

ولما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يُوسُف: ٧٣] أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ [يُوسُف: ٧٤] أي: السارق، إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [٧٥] أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٧٥].

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يُدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتّشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ أَسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِي﴾ [يُوسُف: ٧٦] فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦] ^(١) وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يجبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

(١) معتقد أهل السنة والجماعة إثبات صفة الكيد والمكر على حقيقتها بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١١/٧) في ردّه على من زعم أن في القرآن مجازاً: «وكذلك ما ادّعوا أنه مجاز في القرآن؛ كلفظ: المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمّى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظلماً له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله؛ كانت عدلاً؛

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِإِيَّاخُدَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يُوسُفَ : ٧٦] أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره. وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ [يُوسُفَ : ٧٦] كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الْمُجَادَلَةُ : ١١]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُفَ : ٧٦] قال الحسن البصري: ليس عالمٌ إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا روي عن سعيد بن جبير. ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُفَ : ٧٧].

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أُخرج من متاع بنيامين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يتنصّلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام.

=

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُفَ : ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يُوسُفَ : ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطَّارِقُ : ١٥]. وقال في التدمرية (٢٦): «وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال : ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] وأَكِيدُ كَيْدًا [١٦] [الطَّارِقُ : ١٥ - ١٦]، وليس المكر كالمكر ولا الكيد كالكيد». وقد فصل الكلام عليها ابن القيم في المدارج (٤١٥/٣)، وانظر أيضًا: مختصر الصواعق المرسلة (٣٢/٢-٣٤).

وقوله: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾، يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبد له، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منشورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ قال: أسر في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧). (١)

ولابن تيمية استنباطات لطيفة من هذه القصة الجميلة الجليلة، ومن كيد الله تعالى لوليه ونبيه يوسف عليه السلام فقال: «فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكيد الله سبحانه وتعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: هو الأغلب؛ أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الفعل قدراً محضاً ليس هو من باب الشرع» (٢)، كما كاد الذين كفروا بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات. وكذلك كانت قصة يوسف؛ فإن يوسف أكثر ما قدر أن يفعل أن ألقى الصواع في رحل أخيه وأذن المؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) [يوسف: ٧٤] أي جزاء السارق ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ (٧٥) [يوسف: ٧٥] أي

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٠١-٤٠٣) باختصار.

(٢) أي: من باب الخلق والتقدير والإرادة الكونية، لا من باب الأمر والتشريع والإرادة الشرعية.

جزاءه نفسُ نفسِ السارق يستعبده المسروق إما مطلقاً أو إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

وقوله: ﴿وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه هو خبر المبتدأ، وقوله بعد ذلك: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ جملة ثانية مؤكدة للأولى. والتقدير في جزاء هذا الفعل نفس من وجد في رحله، فإن ذلك هو الجزاء في ديننا كذلك يجزي الظالمين. والثاني: أن قوله ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ فهو جَزَاؤُهُ جملة شرطية هي خبر المبتدأ، والتقدير جزاء السارق هو أنه من وجد الصاع في رحله كان هو الجزاء، كما تقول جزاء السرقة ممن سرق قطع يده، وإنما احتمل الوجهين لأن الجزاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الواصل إلى المعاقب. فلما تكلموا بهذا الكلام كان إلهام الله لهم هذا كيذاً ليوسف خارجاً عن قدرته، إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: ألا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب حكم السارق. وقد كان يوسف عليه السلام عادلاً لا يمكنه أن يأخذهم بغير حجة، أو يقولون: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلون بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر فيما ذكره المفسرون أن السارق يُضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزمه غيرهم. ولهذا قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يُوسُفَ : ٧٦] أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر لأن دينه لم يكن فيه طريق إلى أخذه ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء

الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلاً بأن يهيم الله سبحانه سبباً آخر بطريق يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل في دين الملك يُعتقل بها.

فإذا كان المراد بالكيد فعلاً من الله سبحانه بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك فإن هذا خارج عن الحيل الفقهية، فإننا إنما تكلمنا في حيل يفعلها العبد لا فيما يفعله الله سبحانه، بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيداً محرماً فإن الله يكيد.

وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة، فإنه لا يبارك له في هذه الحيل كما هو الواقع.

وفيه تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق فإن الله يكيد له ويتنصر له بغير حول منه ولا قوة، وعلى هذا فقوله بعد ذلك: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يُوسُف: ٧٦] قالوا: بالعلم.

وفيه تنبيه على أن الحَقِيقَ الذي يتوصل به المقاصد الحسنة مما يرفع الله به الدرجات، وفيه دليل على أن يوسف كان منه فعل، فيكون بهذا العلم هو ما اهتدى به يوسف إلى أمرٍ توكل في إتمامه على الله، فإن اهتداه لإلقاء الصاع واسترجاعهم نوعٌ فعلٍ منه، لكن ليس هذا وحده هو الحيلة. والحيل الفقهية^(١) بها وحدها يتم غرض المحتال لو كانت حلالاً.

(١) عرّف الشاطبي رحمه الحيل الفقهية في الموافقات (٤/ ٢٠١) بقوله: «حقيقتها المشهورة: تقديم عمل ظاهره الجواز لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر». أه.

النوع الثاني من كيده لعبده: هو أن يلهمه سبحانه أمراً مباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون هذا على إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضاً. وقد دل على ذلك قوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ فإن فيه تنبيهاً على أن العلم الدقيق الموصل إلى المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يُحصَمُ به المُبطل صفة مدح. حيث قال في قصة إبراهيم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [الأَنْعَام: ٨٣]. وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تُستحل به المحرمات، أو تسقط به الواجبات فإن هذا كيد لله، والله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يُكاد دينه.

ولم تُعرف الحيل في عهد النبوة ولا في عهد الصحابة، بل إن النبي ﷺ قد أقفل بابها بمثل قوله: «لا يُجمع بين متفرق، ولا يُفرق بين مجتمع خشية الصدقة»، رواه البخاري (١٤٥٠) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي إِعْلَامِ الْمُوقَّعِينَ (٣ / ١٥٩): «وهذا نص في تحريم الحيلة المفضية إلى إسقاط الزكاة، أو التنقيص منها بسبب الجمع والتفريق، فإذا باع بعض النصاب قبل تمام الحول تحيلاً على إسقاط الزكاة أو التنقيص منها بسبب الجمع أو التفريق، فقد فرق بين المجتمع فلا تسقط الزكاة عنه بالفرار منها. ومثل: لعنه ﷺ للمُحَلِّلِ والمُحَلَّلِ له». أه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى (٧٩/٦): «أما الإفتاء بها وتعليمها للناس، وإنفاذها في الحكم، واعتقاد جوازها؛ فأول ما حدث في الإسلام في أواخر عصر صغار التابعين بعد المئة الأولى بسنين كثيرة، وليس فيها والله الحمد حيلة واحدة تُؤثِّرُ عن أصحاب رسول الله ﷺ، بل المستفيض عن الصحابة أنهم كانوا إذا سُئِلُوا عن فعل شيء من ذلك أعظموه وزجروا عنه».

وأيضاً؛ فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يُقصد به غير مقصوده الشرعي، ومحال أن يشرع الله لعبد أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له. وأيضاً فإن الأمر المشروع هو عام لا يخص به شخص دون شخص، فإن الشيء إذا كان مباحاً لشخص؛ كان مباحاً لكل من كان على مثل حاله، فإذا؛ من احتال بحيلة فقهية محرمة أو مباحة لم يكن له اختصاص بتلك الحيلة لا بفهمها ولا بعلمها، لأن الفقهاء كلهم يَشْرَكُونَه في فهمها، والناس كلهم يساوونه في عملها، وإنما فضيلة الفقيه إذا حدثت حادثة أن يتفطن لاندراج هذه الحادثة تحت الحكم العام الذي يعلمه هو وغيره، أو يمكنهم معرفته بأدلتها العامة نصّاً أيضاً واستنباطاً، فأما الحكم فمقرر قبل تلك الحادثة.

فإذا؛ احتياج الناس إلى الحيل لا يجدد أحكاماً شرعية لم تكن مشروعة قبل ذلك، بل الأحكام مستقرّة وجدت تلك الحاجة أو لم توجد، فإن كان الشارع قد جعل الحكم يتغير بتغير تلك الحاجة؛ كان حكماً عاماً وجدت حاجة ذلك الشخص المعين أو لم توجد، وإن لم يكن جعل لتلك الحاجة تأثيراً في الحكم، فالحكم واحد سواء وجدت تلك الحاجة مطلقاً أو لم توجد.

والله سبحانه إنما كاد ليوسف كيّداً جزاءً منه على صبره وإحسانه وذكره في معرض المنّة عليه، فلو لم يكن ليوسف عليه السلام اختصاص بذلك الكيد لم يكن في مجرد عمل الإنسان أمر مباح له ولغيره منّة عليه في مثل هذا المقام، فعُلم أن المنّة كانت عليه في أن ألهم العمل بما كان مباحاً قبل ذلك، فإنه قد يلهم العبد ما لا يلهمه غيره، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿كَدْنَا﴾ صنعنا، وبعضهم قال ألهمنا يوسف. ومن احتال بعمل هو مباح في نفسه على

الوجه الذي أباحه الشارع فهذا جائز بالاتفاق، وإنما الكلام في أنه هل يباح له ما كان محرماً على الإطلاق مثل الخيانة والغلول، أو يباح له فعل المباح على غير الوجه المشروع مثل الحيل الربوية؟ يوضح ذلك: أن نفس الأحكام مثل إباحة الفعل لا يجوز أن تسمى كيداً، وإنما الكيد فعل من الله ابتداءً، أو فعل من العبد يكون العبد به فاعلاً، وعلى التقديرين فليس هذا من الحيل الشرعية.

وهذا الذي ذكرناه في معنى الكيد إنما انضم إليه معرفة الأفعال التي فعلها يوسف عليه السلام، والأفعال التي فعلها الله له؛ تيقن اللبيب أن الكيد لم يكن خارجاً عن إلهام فعلٍ كان مباحاً، أو فعلٍ من الله تمّ به ذلك الفعل، وأن حاجة يوسف لم تُبَحِّ له فعل شيء كان حراماً على الإطلاق في الجملة قبل ذلك، وهذا هو المقصود، والله أعلم^(١).

إِذَا مَا سُهِِّلَ أَبْرَزَتْهُ غَمَامَةٌ	عَلَى مَنْكِبٍ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ يَلْمَحُ
دَعَا بَعْضُنَا بَعْضًا فَبِتْنَا كَأَنَّنَا	رَأَيْنَا حَبِيبًا كَانَ يَنَأَى وَيَنْزَحُ
وَذَلِكَ أَنَّا وَاثِقُونَ بِقُرْبِكُمْ	وَأَنَّ النَّوَى عَمَّا قَلِيلٍ تَزْحَرُ

(١) الفتاوى الكبرى (٦ / ١٣٣ - ١٣٤).

والنفس ذات إقبال وإدبار

النفس عجيبة مدهشة، غريبة مبهرة، تارة تسمو فوق السحاب إلى السماء، وحيناً تثاقّل إلى طينة الأرض السفلى، وما بين ذينك فهي في اضطراب واضطرام، وحركة وثبات، وعزم ونقض، وزلزلة ورسوخ، حيناً تحسن وآخر تظلم، وما بين ذينك تعدل، لها رغائب خائبة تُضعفُها النفسُ وتنفيها إن أُلهمت رُشدَها وغلبت عقلها، وتقهرها الطباعُ تارة وتكسرُها إن علت على عقلها صولة شهوة إرادتها، لها قرينان مصاحبان ملكيّ بالخير يُسدّدها ويهديها، وشيطانيّ للشرّ يعدها ويُمْنِيها، تارة أمّارة، وحيناً لوّامة، وخيرُها المطمئنة، تبارك وتعالى من خلقها وسوّاها، وبارك فيها وأعلاها، وألهمها خطأها وخطيئتها ورشدّها وتقواها، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشّمس: ٧-١٠]، وقال في محكم تنزيله مبيناً تكريمه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

نفس المؤمن العابد لربه طاهرة، وللخير تواقّة، وللمعالي نزاعة، وللبركات والفلاح حائزة، أما من تجرّ وعتى؛ فنفسه خبيثة خائبة خاسرة، والموفق من أخذ الله بيده للحسنى وزيادة.

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةً قَذَفَتْ بِهَا صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ
تَمَّتْ أَحَالِيْبَ الرَّعَاءِ وَخِيْمَةً بَنَجِدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَّتِ
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعِضَاهِ وَطَيْبَهُ وَبَرَدَ الْحَصَى مِنْ بَطْنِ خَبْتٍ أَرْنَتْ

بِأَعْظَمَ مَنَى لَوْعَةً غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَعُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجَنَّتِ
وَكَانَتْ رِيَّاحُ تَحْمُلُ الْحَاجَ بَيْنَنَا فَقَدْ بَخَشَلَتْ تِلْكَ الرِّيَّاحُ وَضَنَّتِ
فِيهَا أَيُّهَا النَّفْسُ تَفَكَّرِي، وَبُهْدِي اللَّهُ اسْتَهْدِي، فَكَمْ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ مِنْ
أَنْعَامٍ خَفِيَّةٍ، وَأَلْطَافٍ سَابِغَةٍ، وَكَرَامَاتٍ وَاصِلَةٍ، لَكِنْ أَيْنَ شُكْرُكَ لِلْحَمِيدِ
الشُّكُورُ؟! ^(١) ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾^(١٥)
[سَبَّأٌ : ١٥]

والمقصود؛ أن للنفس مع الرضا تقلب واضطراب واضطراب يليه رسوخ
للموفقين، وتحليق في سماوات الفائزين، ودخول في زمر السعداء المفلحين
لأبواب عليين، بفضل الحميد الرحيم المنان الكريم.

فكن - رحمك الله - منهم تفرّ، وخذ بأسباب ذلك، واهتم بما هنالك، علّك
للخير تحزّ، فكل نعمةٍ ونعيمٍ وفضلٍ في الدنيا والدين هو محض فضل ورحمة
الله الكريم لا شريك له.

بَكَيْتُ عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطِيَّهِ وَكُلُّ فَتَى لَا شَكَّ يَوْمًا سِيرَ حُلًّا



(١) وللشكر كتاب آتٍ بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه.

من أخبار الراضين بالله رب العالمين

للراضين برب العالمين صحائفٌ بالعطر مسطورة، وأخبار بالفوز مشهورة، ومقاماتٌ لعلّين - برحمة الله - مبرورة. ففي القرآن ميعادهم، وفي السنة بشاراتهم، وفي السنن العالمين عبّق أخبارهم. كتب الله أن من حفظ دينه حفظه، ومن صدق عهد الله صدقه، ومن رضي به وأرضاه رضي عنه وأرضاه، ومن أحسن عمله كان عند الله من الفائزين، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢]، فشمر يا عبد الله للفردوس فقد رفعت سُهْمَانَهَا لِلْمُقَرَّبِينَ، ونشرت راياتها للمشمرين، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [التل : ٧٩].

يا حَبْذا رنْدُ العقيقِ وبأْنُهُ سُقِيَ العقيقُ وأَهْلُهُ وزمَانُهُ
راقَتْ خمائلُه ورقَّ نسيْمُهُ وصَفَتْ على حصْبائه غدرَانُهُ
وشَكَتْ تباريحُ الصَّبابَةِ وُرُقُهُ وتمايلت يَدِ الصَّبا أَفْنَانُهُ
يا مُفْرَدًا في حَسْنِهِ ذَا مُدَنَفٍ في حُزْنِهِ لَعِبَتْ به أَشْجَانُهُ
صَبًّا إِذَا ذَكَرَ العقيقَ وأَهْلَهُ صَابَتْ مدامعُه وَجُنَّ جَنَانُهُ

أخبارهم نثر العبير، ونثر المسك الذرير، يَضُوعُ في الآفاق، من كل عطر فاق، ويجمع السالف التليد بالشاهد المقيم، ذلك أن أخبار الراضين للصالحين مُرَضِيَّة، ولِقْلُوهُمْ - بإذن الله - رابطة، فالسالك يفرح لأثر السابق، يشدُّ بسيرته

أَزَرَ فُؤَادَهُ إِذَا لَمْ تَرَ عَيْنُهُ الْمُؤَنِّسِينَ، ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود : ١٢٠].

وصلوات الله وسلامه وبركاته ونعمائه على إمام الراضين، وقائد الشاكرين، وسيّد الصابرين، وأطيب الحامدين، ومُقدّم الفرحين برب العالمين، رسول الرحمة والهدى، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. لولا أن الله ابتعثه للناس رحمة ما نجا من نجا من أمته، ولا وصل من رام الفلاح حين الحشر من نُقلته، فله حقوق عظيمة وصنائع جسيمة في عنق كلّ مؤمن إلى يوم القيامة.

عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ وَعَمَّ مَصَابِيهُ فَالْنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورٌ
رَدَّتْ صَنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورٌ
إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ أَوْقَاتُ الشَّدَائِدِ وَالْفِتَنِ، وانشرح الصدر بالرضا بالله تعالى مطالعة سير المرسلين.

وَجَاءَ حَدِيثٌ لَا يَمْلُ سَمَاعُهُ شَهِيٌّ إِلَيْنَا ثَرُهُ وَنَظَامُهُ
ومن أولئك الخليل إبراهيم عليه السلام، وتدبر وصف الله تعالى له عليه السلام بكونه أمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [التَّحَلُّ : ١٢٠].

وتأمل كيف كانت صفة الرضا بالله وعن الله معلماً واضحاً من معالم شخصيته وآثار سيرته عليه السلام، وكيف كان إمام المستسلمين لأمر الله، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البَقَرَةُ : ١٣١].

وكيف أتمّ الكلمات التي ابتلاه الله بها، ﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكيف سلّم أمره وابنه تمامًا لربّه تعالى، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّوْا لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، ثم جاهد في الله حق جهاده في الدعوة والجهاد باللسان والحجة واليد - بكسر الأصنام - والصبر العظيم والرضا العجيب والحمد الكبير لربه حينما كان يُبتلى فيه بحرقه في النار وبالأذى فيرضى ويسلّم، ويجاهد لوحده أمة كافرة جبّارة جائرة لوجه ربه تبارك وتعالى.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٠] شاكراً لأنعمه أجتنبهه وهدّاه إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَعَاقِبَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ [التخل: ١٢٠ - ١٢٣]. قال الإمام المجدد رحمنا الله وإياه في الكلام على هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: «لثلاث يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾، لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾، لا يميل يميناً ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٠]، خلافاً لمن كثّر سوادهم وزعم أنّه من المسلمين» (١).

ثم تدبّر كيف نسب الله كل نبي في سورة الشعراء لقومه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦١]، خلا ثلاثة

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب،

أنبياء، ولكل منهم سبب، وهم الخليل وموسى وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

أما موسى عليه السلام فلعل من الأسباب؛ ابتداء خبره ببدء ربه تعالى له فقال جل شأنه: ﴿نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وهذه التقدمة الهائلة شرف ما بعده شرف، وبهذا فكأنه خرج عن هذا العالم إلى عالم الملكوت السماوي الرباني برفعه لرتبة أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة مع وجود الحجاب^(١). وحُقَّ له أن يكون وجيهاً عند الرحمن، ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

(١) أما بدون حجاب فهو الكِفَاح، وهو الكلام مع المواجهة والرؤية، ومنه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لَقِينِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُهْتَمٌّ، فقال: «ما لي أراك مُنْكَسِراً؟» قلتُ: اسْتَشْهِدَ أَبِي يَوْمَ أُحُدٍ، وترك عيالاً ودِيناً، فقال: «أَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قلتُ: بلى، قال: «ما كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وإنه أَحَبُّ أَبَاكَ، فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فقال: يا عبيدي؛ تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قال: يا رَبِّ، تُخَيِّنِي فَأُقْتَلُ ثَانِيَةً، قال سبحانه: قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ»، فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألباني وأيمن صالح شعبان. وفي النهاية لابن الأثير (٤/ ١٨٥): «قوله: «فكلمه كِفَاحًا»: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول». وقال السيوطي في شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٧): «وفي الحديث إشكال، وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. فالجواب: أن الآية مخصوصة بدار الدنيا، فلا يتصور في الدنيا كلام الله تعالى مع عبده مواجهة، لأن أجساد الدنيا كثيفة لا يليق بها التجلي الذاتي، لأن الله تعالى لما تجلّى للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً، وأما في الآخرة

وأما شعيب عليه السلام فلعل ذلك راجع إلى وصف الله تعالى لأمته بأصحاب الأيكة، والأيكة: هي الشجر الملتف، وهي الغيضة، وقيل إنها من الدوم^(١)، وقيل من المقل^(٢)، فلما عبدوا الشجرة من دون الله؛ نسبهم الله إليها، ثم نزه الله رسوله عن الانتساب إليهم وإليها، صيانة لاسمه عن فعلهم ووصفهم. قال ابن جزي رَحِمَهُ اللهُ فِي قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ﴾ [الشُعَرَاء : ١٧٧]: «لم يقل هنا أخوهم كما قال في قصة نوح وغيره، وقيل: إِنَّ شُعَيْبًا بُعِثَ إِلَى مَدِينٍ، وَكَانَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَأِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأَعْرَاف : ٨٥]، [هُود : ٨٤]، [العَنْكَبُوت : ٣٦]، وَبُعِثَ أَيْضًا إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ أَخُوهُمْ، فَكَانَ شُعَيْبًا - عَلَى هَذَا - مَبْعُوثًا إِلَى الْقَبِيلَتَيْنِ.

=
فالتجليات تحصل للأرواح أو للأجساد المثالية لأجساد الجنة». وقال مُلَّا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٨ / ١٢١): «فيه إيحاء إلى أنه بخصوصه أفضل من سائر الشهداء الماضية، حيث ما كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَى : ٥١] مَقِيدٌ بِالدُّنْيَا لِقَوْلِهِ: «وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا»، أَيِ مُوَاجَهَةً عَيْنًا». وَقَالَ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ الْبِرَاكِ فِي شَرْحِ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ لِابْنِ رَجَبٍ (١٣٦ / ١) «كَلَّمَهُ كِفَاحًا»: يَعْنِي أَنَّهُ كَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وَهَذَا فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ، وَلَيْسَ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا». وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) وهو شجر كالنخيل لكن ثمره قليل النفع، ويكثر في السباح.

(٢) وهو السدر، ويسمى كذلك النبق.

وقيل: إِنَّ أصحاب الأيكة مدين، ولكنه قال: ﴿أَخُوهُمْ﴾ حين ذكرهم باسم قبيلتهم، ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها، تنزيهاً لشعيب عن النسبة إليها^(١).

وفي نفس السياق وذات السورة كذلك ذَكَرَ الله تعالى تكذيب الأمم بأعيانها، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ١٤١]،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١ / ١٣٠٥).

(٢) عاد قد أهلكت بالريح وبالصيحة كذلك. قال تعالى في فصلت: ﴿مِثْلَ صَٰعِقَةٍ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣]، وهي الصيحة الصاعقة للقلب. كذلك فقد ذكر الله في سورة المؤمنون بعد ذكر قوم نوح أمة تفصيل أمرهم مشابه لقوم عاد، وهو يتلون عاد في توالي الذكر وفي الزمن، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿[المؤمنون: ٣١ - ٣٢] إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٤١]. وفي العنكبوت ذَكَرَ الله تبارك وتعالى تتابع الأمم، ثم ذكر تتابع المثلاث عليهم، فذكر جميع عقوباتهم بقوله: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وهم قوم لوط ﴿مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ومن المعلوم أن ثمود أخذتهم الصيحة. وقد ذكرهم هنا مقرونين ببعضهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، فلعل في هذا إيحاء إلى أن الصيحة كانت لهما جميعاً. وقد اكتفى في هود بذكر وصف غلظ عذابهم فقال ممتناً على هود عليه السلام ومن معه: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [هود: ٥٨]. أما في سورتَي القمر والحاقة فقد ذكر عقوبتهم بالريح الصرصر، عياداً بالله من النار ومن حال أهل النار. ﴿مِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وهو قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١٦٠]، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١٧٦]، أما إبراهيم عليه السلام فلم يذكر ذلك في قومه، كذلك موسى عليه السلام.

أمّا موسى عليه السلام فلعلّ السبب راجعٌ إلى إرساله إلى أُمّتي القبط وبني إسرائيل، فأصالةً لبني إسرائيل، وتبعاً لمن تيسّر له من الفراعنة، وإن كان هو رسولٌ خاصٌّ بقومه بني إسرائيل، فقد ذكّر القبط بالله تعالى وخوفهم نِقْمه، كما في دعوته للملأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٢٦]، وإن كانت هذه في مقام المناظرة والمُحاجة ليُرسل فرعونُ معه بني إسرائيل، وقال لسحرة فرعون يخوفهم عقوبة الله للمفترين: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه : ٦١]، وإن كانت هذه مُسببة بالسبب الأول كذلك، وقد أسلموا بحمد الله على يديه. فرسالته إنما كانت لبني إسرائيل خاصّة كما في حديث رسول الله ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثَ إِلَى النَّاسِ

=

[الْعَنْكَبُوتُ : ٤٠]، وهما فرعون وهامان وقومهما. وفي الأعراف قطع الدابر: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾

[الأعراف : ٧٢]، وقطع الدابر هو الاستئصال بإهلاك الجميع، والدابر بمعنى الآخر. وبالله

التوفيق.

عامّة»^(١). ولكن لأنّه عالِج الأمتين أشدّ المعالجة، وقد كان لبثه بينهم، فصار له نوعٌ من دعوة القبط إلى الإسلام، والله أعلم.

(١) البخاري واللفظ له (٤٣٨، ٣٣٥) ومسلم (٥٢١) بلفظ: «وُيُعْتَثُّ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ». قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي الْفَتْحِ: وأما قوله: «وُيُعْتَثُّ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»، فوقع في رواية مسلم: «وُيُعْتَثُّ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ»، الإنس والجن، وعلى الأول التنصيص على الإنس من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه مرسل إلى الجميع، وأصرح الروايات في ذلك وأشملها رواية أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مسلم (٧٢٣): «وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً». أهـ.

وقال عبد الحق الدهلوي في لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (٢٢٦/٩): «قوله: «وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً» قيل: لم يكن في زمن نوح عليه السلام نبي فيكون مبعوثاً إلى أهل ذلك الزمان كافة، وأيضاً دعا على جميع من في الأرض بإهلاكهم بالغرق، وهو دليل على أنه كان مبعوثاً إليهم، ولم يمثلوا أمره، وسليمان عليه السلام كان يسير في الأرض، ويأمر الناس بالإسلام كالبلقيس وغيرها، ويهددهم بالقتال، وذلك دليل على عموم الرسالة. وأجيب بأن عموم رسالة نوح لم يكن من أصل البعثة، بل إنما اتفق بالحادث، وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما دعاؤه على جميع من في الأرض فمن جهة أن دعوته قومه إلى التوحيد بلغ سائر الناس بطول مدته، فتمادوا على الشرك فاستحقوا العذاب، ذكره ابن عطية.

وقال ابن دقيق العيد: يجوز أن يكون التوحيد عامّاً في بعض الأنبياء، والتزام فروع شريعته لم يكن عامّاً، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرساله إلا قومه، فبعثته خاصة بهم لكونها إلى قومه، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم، ولكن إن اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثاً إليهم.

=

ونقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام في الحديث عن الإشكال بحال سليمان أنه قال: معنى الرسالة خاصة، أي: في الواجبات والمحرمات، أما في المندوبات فهم مأمورون بها، وأما التهديد بالقتال الذي هو من خصائص الواجب في بادي الرأي فلا نقول: إنه من خصائصه، بل العقاب في الدار الآخرة، كذا نقل عن السيوطي في حاشيته على النسائي (١/ ٢١١). وقيل: يحتمل أن يقال: إن تهديد بلقيس وقتاله مع الناس على التوحيد لأجل ملكيته لكونه ملكاً على الدنيا، لا لأجل رسالته وبعثته على الناس كافة، فلا إشكال، كذا نقل عن الشيخ، فتدبر». أه. وقال محمد الأمين الهرري في تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٤/ ٣٣٠): «كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة، قال تعالى في حقه: ﴿لَتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ ولم يقل: لتخرج قومك كما قال في موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أُخْرِجَ قَوْمَكَ﴾ [إبراهيم: ٥] وخصّص. وقال هنالك: ﴿يَا ذِي رَبِّهِمْ﴾ وطواه هنا؛ لأن الإخراج بالفعل قد تحقق في دعوته ﷺ، فكانت أمته أمة دعوة وإجابة، ولم يتحقق في دعوة موسى، إذ لم يجبه القبط إلى أن هلكوا، وإن أجابه بنو إسرائيل». أه.

وأما كيفية وصول رسالته إلى الجن، فقد بينها القرآن، وذلك باستماع بعض الجن للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢]. الآيات.

وقد ثبت في صحيح مسلم (٤٥٠) بسنده قال علقمة: قلت لابن مسعود: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منّا أحد، ولكنّا كنا معه ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا يا رسول الله: فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، قال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن». فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله

=

أما خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والبركة والسلام فله شأن آخر في ذلك كله، فابتداء لم ينسبه ربه إلى قومه كبقية إخوته الأنبياء، كما لم يذكر قومه بنفس ذكر بقية الأقوام وتكذيبهم المرسلين، والله أعلم بمراده من ذلك، ولعل من الأسباب أنه كان أمة وحده تقتدي به من بعده جميع الأمم برسلهم وأنبيائهم، وإليه تنسب الملة الحنيفية، فهو لهم جميعاً إماماً، فهو شيخ الأنبياء وإمام الحنفاء ووالد من بعده من المرسلين، حتى ختم الله أنبياءه ورسله بالنبي الرسول الأمة الحنيف الخاتم الإمام محمد ﷺ، الذي ساد كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين، والذي صلى بجميع الأنبياء إماماً في المسجد الأقصى ليلة الإسراء والمعراج، وقد أخذ الله على جميع الأنبياء والمرسلين عهداً باتباعه ولم يستثن في الآية أحداً، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ

عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم»، فقال ﷺ: «فلا تستنجوا بها فإنها طعام إخوانكم». وفي رواية (٤٥٠): «وكانوا من جن الجزيرة». وعن زر عن عبد الله قال: «هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة، فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا سبعة - وفي رواية تسعة - أخذهم زوبعة، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأخفاف: ٢٩] الآية، إلى ﴿صَلَّى مُبِينٍ﴾ [الأخفاف: ٣٢]. رواه الحاكم في المستدرک (٤٥٦ / ٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (٢ / ٢٢٨)، وقال الهيثمي (١٠٩ / ٧): رواه البزار، ورجاله ثقات. وقال سليم الهلالي: قلنا: وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وفي عاصم كلام معروف لا ينزل عن رتبة الحسن.

لَمَّا آتَيْنِيكُمْ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ [آل عمران : ٨١ - ٨٢]. والإصرُ: هو العهد والميثاق. وقد قال علي بن أبي طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنَّه»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أتى رسول الله بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله ﷺ! فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني»^(٢).

(١) جامع البيان (٥٥٥/٦)، وتفسير القرآن العظيم (٥٦/٢)، والدر المنثور (٢٥٢/٢).

(٢) الدارمي (١٢٦/١) (٤٣٥)، وأحمد (٣٨٧/٣)، وابن أبي عاصم (٢٧/١) (٥٠) وصحح إسناده الحافظ ابن كثير من رواية أحمد، وقال: «تفرّد به أحمد، وإسناده على شرط مسلم». البداية والنهاية (١٢٣/٢).

وكان ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما السلام خَلْقًا وَخُلُقًا. فمحمدٌ مجدّدٌ لدين إبراهيم وزيادة، صلى الله عليهما وآلهما وسلّم وبارك.

والمقصود؛ أن الله تعالى قد وصف الله خليله عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [التَّحْلُ: ١٢٠]، فإبراهيم عليه السلام معروفٌ نسبه في أُمّته، وقد بُعث فيهم رسولاً عظيماً، ولكن لما كان إبراهيم عليه السلام بهذه المثابة في التأسّي بمِلّته وإمامته صار انتساب خيارِ الأُمم إليه بدلاً من مجرد قومه.

وتأمل كيف طلب الخليل أن يلحقه الله بالصالحين فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِلِصْلِحِينَ﴾ [الشُّعْرَاء: ٨٣]، والحُكْم هو النبوة، ولم يُذكر أن قد سبقه أصلح منه، فلا أخير منه سوى ابنه رسولنا محمد صلى الله عليهما وسلم، فلا حظّ تواضعه، ولا حظّ محبته للصالحين.

وتدبّر وَصَفَ الله تعالى الأُمم القديمة كنوح وعاد وثمرود بتكذيب جميع المرسلين، ف«أل» في المرسلين استغراقية فتعمّ جميع الرسل، وسبب نسبة كفرهم برسلٍ لم يُخلقوا أصلاً إلا بعد قرون من فناء تلك الأُمم؛ لأنّ من كفرَ بنبيٍّ واحد فهو كافر بجميع الأنبياء والمرسلين.

ولنمض قليلاً في هدايات سورة الشعراء - وهي أولى الطواسين - وما فيها من أخبار المرسلين أئمة الراضين بالله رب العالمين، فمن ذلك: تواضع الكليم عليه السلام للحق، فحينما ذكره فرعون بقتله القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشُّعْرَاء: ١٩] وكان المقام مقام حجاج وإفحام خصم، لم يتلکأ عليه السلام أو ينكر أو يحيد بل قال بكل ثبات ورباطة جأش على الحق: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعْرَاء: ٢٠]. ومن وضوح حجته أن

أَقَرَّ بِالْفِعْلِ لَكِنَّهُ لَمْ يَقَرَّ فِرْعَوْنُ عَلَى وَصْفِهِ بِالْكَفْرِ، فَقَدْ أَقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يُؤَفَّقْ لِلصَّوَابِ بِقَتْلِهِ الْقَبْطِيِّ، وَكَانَ قَصْدُ فِرْعَوْنَ كُفْرَ النِّعْمَةِ، وَلَكِنْ لَعَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْمُنْعِمَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ مَجْرَدُ سَبَبٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْضَاهُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِفِرْعَوْنَ إِذْلالُ مُوسَى بِذَلِكَ، وَلَمَّا أَقَرَّ بِالْخَطَا وَلَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِهِ دُهِشَ فِرْعَوْنَ بِهَذَا الْجَوَابِ الْمَلِيءِ بِالثَّقَةِ وَالتَّوَاضُعِ. ثُمَّ قَلَبَهَا مُوسَى عَلَيْهِ حِينَمَا وَسَّعَ مِيدَانُ النَّظَرِ كَثِيرًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢]؟! أَيُّ: هَلْ لَأَنَّكَ غَذَوْتَ وَاحِدًا نَسِيتَ اسْتِعْبَادَكَ وَاسْتِسْخَارَكَ قَوْمَهُ! أَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَعُدُّهَا مَعَ عِلْمِكَ بِأَنَّكَ إِنْ وَضَعْتَ الْأَمْرَيْنِ فِي الْمِيزَانِ اسْتَبَانَ الْفَرْقَ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ.

فَلُطِمَ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ لِدَرَجَةٍ أَنْ فَتَحَ بَابَ التَّسَاوُلِ وَالْمَنَاظَرَةِ فِي الرَّبُوبِيَّةِ، فَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، مَعَ أَنَّهُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النَّمْلَ : ١٤]، فَلَيْسَ مَجْرَدُ عِلْمٍ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ الْوَهْيِيَّةِ وَرَبُوبِيَّةِ، بَلْ يَقِينٌ مُسْتَقَرٌّ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكِنْ رَدَّهُمُ الظُّلْمَ وَإِرَادَةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

قَالَ فِرْعَوْنَ مُتَسَائِلًا مُسْتَبْعِدًا مَكْذِبًا: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٣]؟! وَهَذَا تَظْهَرُ الْعِظَمَةُ الرَّسَالِيَّةُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَتَجَلَّى عَظِيمُ صَبْرِهِ، وَوَافِرُ حِلْمِهِ، وَغَزِيرُ عِلْمِهِ، وَإِحْكَامُ مَنْطِقِهِ، وَجَمِيلُ مَنْطُوقِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٤] مُوقِنِينَ بِعُقُولِكُمْ وَبِالسَّمَاءِ الَّتِي تُظْلِكُمْ وَالْأَرْضِ الْمُقَلَّةِ لَكُمْ، فَابْدُؤَا بِهَذِهِ الْيَقِينِيَّاتِ الَّتِي تَبْنُونَ عَلَيْهَا الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ وَالسُّلْطَانَ الْعِلْمِيَّ الْوَاضِحَ، فَاسْتَدَلَّ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ

بمخلوقاته العظام، وهزّ يقينياتهم وحركها علّها أن تثور من عقال كفرها وكبرها لفطرتها الأولى وتوحيدها السابق، فهزئ فرعونُ به قائلاً للملئ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشُعَرَاء : ٢٥]، أي ألا تعجبون للعجب العُجاب من هذا الإنسان الذي يقول كلاماً ليس تحته حقائق. فأجابه الكليم مباشرة مُصرّاً على مبدئه القويم وحجته المستقيمة وبرهانه الساطع، غير آبه بترّهات الخصم الذي ذهب لأودية شتى من سخرية وتشيت وإخراج محلّ الخلاف عن دائرة تركيز النظر، وكلّ هذا خلاف ما أقيمت المناظرة لأجله، فقال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشُعَرَاء : ٢٦]، فعاد إليهم بعبارة أشدّ وحجّة أدحض، وخلاصتها: أنّك يا فرعون مريبوب لست برّب، وأنت ولدٌ لآباءٍ سبقوك، إذن فلست بخالق ولا مالك ولا مُدبّر ولا ربّ ولا إله، وكذلك حال الملأ الذين يسمعون هذه المناظرة وحال آبائهم السالفين.

هنا غضب فرعون واشتدّت غطرسته وتيهه وكبره فلجأ إلى حيلة الجهلة ضعفاء العقول والعلوم والنفوس على مرّ الأزمان، وهي الحيدة عن محلّ المناظرة وعين النقاش لأمر لا تتصل به، بل يروم الضغط على خصومه بتهديدهم بها جهلاً وجهالة، فديدنه وأمثاله عند انقطاعهم اتّهام المُصلحين في عقولهم وعلومهم وأديانهم، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشُعَرَاء : ٢٧]! أي: إنه يقول ما لا يعقله العقلاء. وهل استُفزّ الكليم الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بذلك؟ كلا، بل كان رابط الجأش، ثابت الفؤاد، شديد الشكيمة، وافر الحلم، رَحِبَ الخُلُق والفطنة والعلم والحكمة، فعاد إلى نفس الحُجّة المباركة، ونفس الهدف الدعويّ الرساليّ،

ونفس المعنى المقصود بدعوته أَوَّلًا، لكن بعبارات أخرى ومعنى أوسع، فقال بعدما اتَّهم بالجنون: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٢٨]، فأراد تحريك ذلك الشيء الجوهرى المطمور في غمرات قلوبهم ودفائن رؤوسهم الذي اهتموه بفقدانه وهو العقل، فاستفز بقوة قريحتهم بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٢٨]. فإن كنت يا فرعون تتهمني بالجنون؛ فأولى بك أن تتأكد من سلامة عقلك وصحة ذهنك وملئك كذلك، أما هذه المناظرة فهي لإقامة التوحيد لله رب العالمين وحده لا شريك له.

هنا سقطت حجة فرعون في الأرض، وتمرَّغ منطقة تحت الأقدام في التراب، وأسقط في يده، وعاد خاسئًا حسيرًا في مقام الحجاج، فعاد لُجُحِر أخلاق الجبابرة وسرداب رذائل الجهلة؛ فأعلن الوعيد بالعذاب لمن خالفه، فقال كقول من سبقه ولحقه من أزواجه وأشباهه وأقرانه: ﴿لَئِنْ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٢٩].

فهل استفز ذلك موسى أو أخافه؟ كلا، لم يستفز طيشه، ولم يهز شيئًا من كيانه ولا قلبه ولا إيمانه ولا يقينه، ولا علمه بربه، ولا تعلُّقه به، فكان خوفه من الله لا من غيره، فهو مُحَقِّق للتوحيد، ومن حَقِّقه فلا يخاف إلا ربه، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأَحْزَاب : ٣٩].

فلما توعده هذا الطاغية الجبار بالسجن طوى ما مضى من سجلات الحجاج، ثم عرض عليه بالطف أسلوب وأجل بيان وأحسن أداء وأقرب بلاغ فقال عارضًا مُشَدَّدًا حازمًا جازمًا مشرقًا واضحًا: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ

بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٣٠]، فطوى حِجَاجَ المعاني الذهنيّة ليخلي الميدان للبراهين الحسيّة، والمعاني الذهنية هي الأقوى لدى العقلاء، لأنها مبنية على قطعيات يقينية مُركّبة على مرّ عمر عقل المرء وتأمّلاته لعلاقة الأشياء ببعضها، وأكثرُ براهين القرآن من ذلك القليل، فدلائله وبيّناته وتوجيهاته تشدّد القرينة العقلية للنظر والتدبّر والتفكّر، كذكر ابتداء الخلق، وأنّ مَنْ خلقهم من عدم قادر على بعثهم بطريق الأولى، ثم تُثَنِّي بحفزِ نظراتٍ حسيّة لبلوغ مآلاتها العقلية وغاياتها الذهنية، من التفكّر في عظمة المخلوقات، وكبرها، واتّساعها، واتّساقها، وجودة صنعها، وإحكام تدبيرها ونحو ذلك، وتُردِّفها بمثال حسيّ نافذٍ للذهن السليم وهو التفكّر في المطر والنبات ومراحله وهشيمه، ومقارنة نبتة الزرع ومراحلها بنبتة الجنين، وأنّ خالق الاثنين واحد وهو الرب القادر المدبر والإله العظيم العليم، ثم تثلّت بالشعور والعاطفة بالتذكير بالفطرة التوحيدية الأولى للإنسانية بل للمخلوقات، ثم بعد ذلك بشحن عواطف بني الإنسان بجنة الوعد ونار الوعيد، فتصفو حينها الروح من القروح، فتسمو صعداً في السماوات، مرتّلة أجمل آيات التوحيد والإيمان.

وبالجملة؛ فقد أحسن موسى عليه السلام أيّما إحسان في المناظرة بجميع مراحلها، وكيف لا يكون كذلك وهو من هو ﷺ؟! فقال بعد إتمام المقاصد الذهنيّة الصادقة التي يغلب عليها العقل إلى المقاصد البرهانيّة الواضحة التي يغلب عليها الحسّ الذي قد استبطنه العقل السليم الصحيح، لأنّ ذات البرهان حقيقة محسوسة مشاهدّة، وليست فقط خيال ذهنيّ صحيح، فهي عند قسامين من الناس أوقع أثراً وأفلج نظراً؛ وهم أهل كثافة الفهم وزمّانة الكبر،

وحقيقٌ بفرعون وملئه أن يكونوا منهم. فقال عليه السلام: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٣٠]، أي: آية حسّية واضحة لكل أحد، غير ما أسلفت لك من الكلام النظري البرهاني الصحيح.

فالقسم الأول من المناظرة مفتقرٌ لقياس عقليٍّ من قِبَلِ المناظر، مع ضمنية ما استودع في فطرته من معانيٍ صالحة وأصول توحيدية مستقيمة، وهذا ما رفضه الفراعنة ابتداءً فخذلهم الله تعالى لسوء ما دّتهم، وخبث معدنهم، وشرّ طبيعتهم، ثم فلّ جمعهم، وقطع دابرهم، وجعلهم أمثلة العالمين، كما قال تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٦]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٥].

أما القسم الثاني فهو ملموس حسّاً فيراه المناظرٌ بجارحة عينه، ويسمعه بأذنه، بل ويلمسه بيده إن شاء، فالأولى تُدرك بالتأمل والتفكير والقياس، والثانية بالمشاهدة والسمع والحسّ، فانتقل الكليم عليه السلام من تغليب المعنى لتغليب الحسّ، حتى يُفرغَ على عدوّ الله كلّ الحجج الكبار، ويصبّ على بنيانٍ أباطيله وابلّ الأحجار، ويُبطل عذره بالجهل، فلا يبقى سوى العناد والاستكبار.. وهو ما كان!

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٣٠]، واضح على صدق دعوتي، وثبات كلمتي، واستقامة حجّتي، فأجابه الفرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٣١]. ولا حظ استمرار التكذيب والسخرية من هذا

الطاغية الجبار. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [٣٢] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٣٢ - ٣٣]، فعاد فرعون لشبهة من سبقه ولحقه من سفهاء الرؤساء فزعم قائلاً: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٤] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴿٣٥﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٣٤ - ٣٥].. الآيات.

وتدبر ما ورد في قصة فرعون وطبقها على الطغاة الجبابرة في كل مكان وزمان، إذ بضاعة المفسدين واحدة، وزاملة المبطلين مشاكلة، ومآلات الفاسقين مشابهة، وقد قال ربنا تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [٨٣] فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ [مَرْيَمَ : ٨٣ - ٨٤]..

فتأمل كلام فرعون وهتافه الشقي بقوله وهو على سرير غفلته، وعرش طغيانه، وأبهة جبروته، وراحلة خذلانه، وحفرة سوء منقلبه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [٥٤] وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٥٤ - ٥٦]، فوصف الصالحين والمُصلحين بالشرذمة، والشرذمة: الطائفة القليلة من الناس، وخصّها بعضهم بالحقراء والأخسَاء والسفلة منهم، وقصد بذلك أنهم بمنزلة العبيد والخدم لي ولكم.

وذكر عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «هم يومئذ ستّ مئة ألف، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون». ولعل في هذا العدد مبالغة. وأظهر فرعون غيظه وغضبه، وألزم أتباعه بفعل فعلته، ولبس لأمة حرب الصالحين، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٥٥]، آخذين أهبتنا مستعدين لتدميرهم، فما هي نتيجة ذلك الطغيان: أنها الاستئصال! والله الأمر من قبل ومن بعد، قد هانوا عليه فخذلهم وعذبهم، ولو عزّوا عليه لعصمهم وأكرمهم.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشُّعْرَاء : ٥٧ - ٥٩]، فساق الله مال أعدائه لبني إسرائيل، سنة ماضية، وآية باقية، وناموس ثابت: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝٤٥﴾ [فَاطِر : ٤٣ - ٤٥] .

ألا وإن من مهمات الأمر: معرفة سُنَّةِ الاستخلاف للأتقياء. فإن الله تعالى لما أورث بني إسرائيل أرض فرعون وملئيه وكنوزهم كانوا أتقياء بررة، كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشُّعْرَاء : ٥٩]، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ۚ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۚ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأَعْرَاف : ١٣٧]، والأرض المباركة هي الشام بعد الفراعنة والعمالقة، وقد كانت الشام تتبع حُكَّام مصر إذ ذاك، والأزمة تُطَوَّى في القرآن العظيم لأنه من علم الله تعالى الذي يستوي لديه غابر الزمان بحادثيه ومستقبله، تبارك وتعالى عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وقد أورثها الله تعالى لهم بِمَهْلِكٍ مَّن كَانَ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِقَةِ، ولا يمنع أن يكون لهم حكم كذلك في مصر، ولكن الأظهر أنه محصور بالشام الأرض المباركة، وقد جاء في بعض كتب مؤرخي يهود أن موسى عليه السلام قد حكم

بَعْدَ فِرْعَوْنَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي مِصْرَ، وَالشَّامَ تَبَعَ لِمِصْرَ حِينَهَا، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٦﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [الْقَصَص: ٥٠-٦٠]، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وإِنَّمَا أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى دَوْلَةَ فِرْعَوْنَ وَمِلَّةَهُ لِأَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا أَهْلَ إِيْمَانٍ وَقَتَهَا، بَلْ كَانُوا أَفْضَلَ أَهْلَ زَمَانِهِمْ، وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ تَكْذِيبَ الْأُمَمِ رَسُلَهُمْ: لَمْ يَذْكُرْ تَكْذِيبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ مِنْ كَذِبِهِ هُمُ الْقَبِيضُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَقَرَّرًا سُنَّتَهُ الْقَدْرِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ فِي الْاِسْتِخْلَافِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨] فَعَاقِبَةُ الْاِسْتِخْلَافِ هِيَ لِمَنْ اتَّقَى.

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَفَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنَّبِيِّ الْخَاتَمِ الْمُبَشِّرِ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ أَوْرَثَ اللَّهُ أَرْضَهُمْ لِعِبَادِهِ الْأَتْقِيَاءِ أَتْبَاعِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، فَحَالَ عَنْهُمْ بِكْفَرِهِمْ مَا كَانَ اسْتِحْالَ إِلَيْهِمْ بِإِيْمَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿١٧﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وَقَالَ

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] فكتب الله تعالى في كتب الأنبياء ومنها زبور داود وتوراة موسى من بعد اللوح المحفوظ أن الأرض الدنيا وأرض الجنة هما ميراث الصالحين من عباده، فالجنة خالصة والدنيا مشوبة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٢].

وبقاء هذه الأرض الموروثة للصالحين في الدنيا مشروطة بصلاحهم، وإلا: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [مُحَمَّد : ٣٨]، فوراثة أرض الله إنما هي لإقامة شرع الله من أي أحد كان، فلا نسب ولا لون ولا عرق ولا غيره من علائق الدنيا له ميزة في هذا الاستخلاف، إنما هي التقوى لا غير، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣]، والله المستعان.

أَعَزَّ إِلَهَ النَّاسِ أُمَّةَ أَحْمَدٍ فَقَدْ سَامَهَا الْكُفَارُ ذُلًّا مُصَالِيَا
فلا حولَ عندي يا إلهي وقوَّةً ومن أنزلَ الحاجاتِ باللهِ ناجيا

ومن هدايات سورة الشعراء كذلك أن البلاء موكل بالمنطق، بيان ذلك أن قوم شعيب عليه السلام لما كذبوه وتعنتوا عليه بقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء : ١٨٦ - ١٨٧]، أي قطعاً من السماء، فإنظر كيف يتحينون عذابهم، ويستجلبون هلكتهم بألستهم! فأحاله الرسول الكريم إلى علام الغيوب ومن بيده مقاليد الأمور وتصاريق الأقدار قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٨٨]، فما ذا كان جواب الله تعالى لهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٨٩]. وأخرج ابن المنذر عن السُّدِّي قال: «فتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فغشيهم من حرِّه ما لم يطيقوه، فتبرّدوا بالماء وبما قدروا عليه، فبينما هم كذلك إذ رُفعت لهم سحابة فيها ريح باردة طيبة، فلما وجدوا بردها ساروا نحو الظُّلَّة، فأتوها يتبرّدون بها، فخرجوا من كل شيء كانوا فيه، فلما تكاملوا تحتها؛ طبّقت عليهم بالعذاب»! (١)

وقد فعلت قريش فعلتهم، فلما التقى القوم في بدرٍ قال أبو جهل: «اللَّهُم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف؛ فأحنه الغداة»، فكان ذلك استفتاحًا منه، فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال : ١٧٩] (٢)، أي النصر، لكنّه عليكم لا لكم! فأحنوا وقتلوا وأسروا وهُزموا، نعوذ بالله من النار وحال أهل النار.

ومن هدايات هذه السورة الجليلة الجميلة: حسنُ الخطاب، ومن ذلك أن الكفرة لما قالوا لنوح عليه السلام: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٨١]، فوصفوا أتباعه بالردالة والدناءة؛ لم يسكت على الباطل، بل مدح أتباعه فوصفهم بأحسن وصف للإنسان؛ وصف الإيمان، فقال عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٨٤]، أمّا الكفرة السبابة فقد أعرض عنهم

(١) الدرالمشور (١١ / ٢٩٢)

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢)

ولم يسبّهم. ولما وسموه بالضلالة؛ لم يردّ العدوان بمثله، بل اكتفى بهذا الجمال والبهاء والسكينة والثقة والنصح والشفقة فقال: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦١) أَبْلَغَكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ [الأعراف: ٦١ - ٦٢].

وهذا القول الحسن سلوك راسخ في الرسل الكرام، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٧]. وتدبر ملياً قوله الأكرم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) [سبأ: ٢٤]، وهذا الأسلوب مفيد جداً في المناظرات من جهتين:

الأولى: الأدب وحسن الخطاب وجمال التأتّي، مما يزيل وحشة صدر المخالف، ويوقد من عَرامِهِ، ويكسر من أنْفَتِهِ، ويُجَلِّج وجهه، ويستنهض كرامته، ويقربه بعد البعاد.

الثانية: قوّة الإلزام، وسطوة الحجاج، وسطوع البرهان، وشدة الإلجاء المبيد غشاوة الحيّدات ومهارب الإلزامات.

وقد ختم ربنا تعالى سورة الشعراء بذكر غواية الشعراء! وكثير منهم من أبعد الناس عن مواطن الرضا، بل إنّ كثيراً من تسخّط البشر إنّما يأتي على أفواههم، ويجري على ألسنة أبياتهم، فيسبون الدهر والزمان والأيام، ويسيرُ سبُّهم وتسخطهم بين العالمين مسير الشمس، فيتبعهم الناس ويتناقلون

سخطهم وجزعهم وسبهم للدهر، لما ظنوه من حكمتهم إذ أرسلوا أبياتهم فذاغت، وبين الورى قد طارت، قال سبحانه: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٤]، نعوذ بالله من الغواية عن الهداية، ومن الجهل بعد الحلم، ومن الحور بعد الكور، وكفى بحرمانهم من التعرّف على أعظم وأجمل وأحقّ مطلوب خسارة وغبنًا، فالعلم بالله هو أشرف وأجمل وألذ العلوم بإطلاق. وقد ذكر الله تعالى في ذات السورة - الشعراء - جزاء الغاوين فقال: ﴿وَبُرِرَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٩١]، فَوَاغَبَنَ السَّاحِطِينَ، وَخَسَارَةُ الْغَاوِينَ، ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الْفُرْقَان : ١٤].

ولكن من اتقى الله في شعره فهو عن الغواية بمعزل، وللهداية بمُرتقى، وللجهاد للذروة برمي سهام قصيده في أعين الكفرة وقلوبهم وأكبادهم، وفي بناء معاني الصلاح بالأبيات الهادية، وتنشئة مرابع الاستقامة بالأبيات القويمية، ورَفْدِ محاضن التربية بالقريض النافع، وتسهيل علوم الشريعة بنظمها للراغبين، وترقيق القلوب بأبيات الحنين والشوق للدار الآخرة، وما يتبع ذلك من الصالحات، والحمد لله رب العالمين.

فلقد قال سبحانه مستثنيًا أولئك البررة الأثبات: ﴿لَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢٢٧]. وقد أيد الله حسنًا في شعره بروح القدس، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اهجؤا قريشًا، فإنه أشدُّ عليها من رَشَقِ النَّبْلِ». فأرسل إلى ابن رَوَاحَةَ، فقال: «اهجهم»، فلم يُرض، فأرسل إلى كعب ابن مالك فلم يُرض، ثم أرسل

إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضاربِ بِذَنبِهِ، ثم أذْلَعَ لسانه، فجعل يُحرِّكُه، فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينَّهم بلساني فريَّ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يُخلص لك نسبي».

فأتاه حسان، ثم رجع، فقال: والذي بعثك بالحق، لأُسلنَّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة رضي الله عنها: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن رُوحَ القُدُس لا يزال يُويِّدُك ما نافحتَ عن الله ورسوله». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هَاجَهُم حسان، فَشَفَى واشتفى». فقال حسان:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجِبْتُ عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا تَقِيًّا	رَسُولَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي	لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	تُثِيرُ النَّقْعَ مَنْ كَفَى كَدَاءُ
يُبَارِينَ الْأَعْنَةَ مُضْعِدَاتِ	عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتِ	تُلَطِّمُهُنَّ بِالْحُمُرِ النَّسَاءُ
فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنَّا اعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ
وإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ يَوْمِ	يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وقال الله قد أُرْسِلْتُ عَبْدًا	يقول الحق ليس به خفاءُ

وقال الله قد يَسَّرْتُ جَنْدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتَهَا اللَّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَمَنْ يَهْجُوا رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُوهُ وَيَنْصُرُوهُ سَوَاءٌ
وَجَبْرِيْلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ^(١)

فهنيئاً لأبي الوليد ما شفى من صدر الحبيب ﷺ، وما نافع عن رسول
الهدى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته. ولما أنشدت قريش شعر حسان
قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة! لعلمهم بتفوقه في الأنساب
والأيام والأخبار. وجعل بعضهم يقول: «لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا».

وفي المستدرک بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما وصححه، قال: لما
دخل رسول الله ﷺ مَكَّةَ رأى النِّسَاءَ يَلْطَمْنَ وُجُوهُ الْخَيْلِ بِالْخَمْرِ، فَتَبَسَّمَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «كَيْفَ قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ يَا أَبَا بَكْرٍ؟»
فَأَنشَدَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَدِمْتُ بَنِيَّ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُشِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَيْفِي كِدَاءِ
يَنَازِعُنِ الْأَعْنَةَ مَشْعَفَاتٍ تُلْطَمُهُنَ بِالْخَمْرِ النِّسَاءُ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَيْثُ قَالَ حَسَانٌ». فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
مِنْ كِدَاءِ أَعْلَى مَكَّةَ^(٢).

(١) البخاري (٢٢٥/٤) (١٥٤/٥) ومسلم (٢٤٩٠) واللفظ له.

(٢) المستدرک (٧٢ / ٣) (٤٤٤٢) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وورد أنّ حساناً رضي الله عنه حينما جاء لمفاخرة تميم برسول الله ﷺ والإسلام؛ أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال: «والله يا رسول الله؛ إنه ليخيّل لي أنّي لو وضعت على حجر لفلقته، أو على شعر لحلقته»^(١).

وفي الصحيح عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه، فإذا يفاخر عن رسول الله ﷺ، وإما يُنافح. ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاحر عن رسول الله»^(٢).

وفي الترمذي أنّ عائشة رضي الله عنها سُئِلَت: هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة، ويتمثل ويقول: «ويأتيك بالأخبار من لم تُزود»^(٣).

وروى البخاري^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول في قصصه يذكر رسول الله ﷺ: «إن أخواكم لا يقول الرفث»^(٥). قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

(١) الروض الأنف للسهيلي (٤ / ٣٤١)

(٢) البخاري (٤/٢٢٥) معلقاً، ومسلم (٧/١٦٣)

(٣) أحمد (٦/١٣٨) والبخاري في الأدب المفرد (٨٦٧) والترمذي (٢٨٤٨) وصححه الألباني.

(٤) البخاري (٢ / ٦٨)

(٥) يعني بذلك عبد الله بن رواحة. والرفث: هو فحش القول.

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قاله واقع
 بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استقلت بالكافرين المضاجع
 ويذكر أن ابن رواحة أنشد أبياته هذه لما غاضبته امرأته حينما رآته
 خارجاً عن جاريته، واتهمته بجماعها فأنكر. فقالت: إذن فأتل من القرآن^(١)
 فاحتال بأن أنشد لها الأبيات الآتية، فزال ما بها.

وخرج مسلم^(٢) عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أردفني رسول الله
 ﷺ فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قال: نعم. قال:
 «هيه». قال: فأنشدته بيتاً فقال: «هيه». قال: فأنشدته حتى بلغت مئة بيت. وفي
 رواية أنشدت النبي ﷺ مئة قافية من قول أمية بن أبي الصلت. كل ذلك
 يقول: «هيه، هيه». ثم قال: «إن كاد في شعره ليُسلم».

وقد كان يهجو المشركين ثلاثة من الأنصار؛ حسان بن ثابت، وكعب بن
 مالك، وعبد الله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم
 بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، ويرميهم كعب بتخويفهم
 بالحرب، ويثلمهم حسان بالقدح في أنسابهم، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم
 بالكفر. فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون

(١) لأن الجنب ممنوع من تلاوته.

(٢) مسلم (٢٢٥٥)

القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان شعر ابن رواحة أشدّه عليهم.

وعند الشيخين عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله؛ هل سمعت النبي ﷺ يقول: «يا حسان؛ أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس»؟ قال أبو هريرة: نعم^(١).

وعن سعيد بن المسيب، أن عمر مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ، فمر به عمر فلحظه^(٢)، فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك^(٣). فانطلق عمر^(٤). وخبر المفاخرة مع بني تميم في عام الوفود من السنة التاسعة يُظهر منزلة الشعر والخطابة في العهد النبوي، وأصل الخبر عند ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بأسانيدهما، وجيّد سياق أبي الفرج في أغانيه بسنده عن محمد بن الضحاك عن أبيه.

ومن مآثر الشعر ما ذكره ابن سيرين رحمه الله بقوله: بلغني أن دوساً إنما أسلمت فرقاً من كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ حيث يقول:

قضينا من تهامة كلّ ريبٍ وخيبر ثم أجمنا السيوفاً

(١) البخاري (٤٥٣) ومسلم (٢٤٨٥)

(٢) أي: نظر إليه بغضب.

(٣) يعني رسول الله ﷺ.

(٤) أحمد (٢١٩٣٩)

نُخِرَهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاضِيَهُنَّ دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا

وفي التاريخ الكبير للبخاري^(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لكعب بن مالك: «أيا كعب؛ ما نسي ربك - وما كان ربك نسيًا - بيتًا قلته». قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أنشدته يا أبا بكر» فأنشده أبو بكر:

زَعَمْتُ سَخِينَةً^(٢) أَنْ سَتَغْلِبَ رَبِّهَا وَلَيَغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَابِ

وذكر ابن عبد ربه في عقده^(٣) أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن رواحة: «أخبرني ما الشعر يا عبد الله؟» قال: شيءٌ يَحْتَلِجُ في صَدْرِي فيَنْطِقُ بِهِ لساني. قال: «فأنشدني» فأنشده شعره الذي يقول فيه:

(١) التاريخ الكبير (٣٥٥) والنسيان يأتي في لغة العرب على معنيين:

الأول: الغفلة وذهاب الوهل وعزوب العلم، وهذا منفي عن الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] كذلك: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

الثاني: الترك. وهذا غير منفي عن الله تعالى، بل من أفعاله الترك لمن يستحق ذلك، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: تركهم في غفلتهم وخيبتهم وضلالهم، ولم يوفقهم للهدى والرشاد.

(٢) السخينة: هي طعام حارٌ يتخذ من دقيق وسمن، وقيل: دقيق وتمر، أغلظ من الحساء، وأرق من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعُيرت بها، حتى سموا سَخِينَةً.

(٣) العقد الفريد (٦ / ١٢٨)، وأخرجه البرهان فوري في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٣ / ٤٥١)، والخبر بنحوه في طبقات فحول الشعراء (٢٢٥ - ٢٢٦)، وطبقات ابن سعد (٣ / ٥٢٨)، وتهذيب الآثار (٩٧٧)، والمعجم الكبير للطبراني (١٣ / ٤٣٧)، وسير أعلام النبلاء (١ / ٢٣٤)

فثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ثَبَّيْتُ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلِيَاكَ ثَبَّتَ اللهُ، وَلِيَاكَ ثَبَّتَ اللهُ». فثَبَّتَهُ اللهُ حَتَّى مَاتَ
شَهِيدًا.

وكان الذي هاج فتح مكة أن عمرو بن مالك الخزاعي، أحد بني كعب،
خرج من مكة حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكانت خُزاعة في حلف
النبي ﷺ وفي عهده وعقده، فلما انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم
ما أصابوا، أقبل عمرو بن مالك الخزاعي بأبيات قالها. فوقف على رسول الله
ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس فقال (١):

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَيْنَا وَأَيُّهُ الْأَنْلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلَدًا وَكُنَّا وَالِدًا	ثَمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
إِنَّ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رَصَدًا	وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلَلُ عَدَدًا	هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَدَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا	فَانصُرْ هَذَاكَ اللهُ نَصْرًا أَيَّدَا
وَأُدْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدًا	فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا

(١) وتأمل تماثل قافيتي الصدر والعجز في اشتراكٍ راقصٍ بديع، وهذا ما ميّز الأراجيز
واستحلاها من أفواه الحداة.

إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ». ثُمَّ عَرَضَ عَارِضٌ
مِنَ السَّاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ هَذِهِ السَّحَابَةُ تَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بَنِي
كَعْبٍ»^(١).

هذا؛ ولقد كان الشعر ميسورًا على سليقة العرب وسجيّتهم وصفاء
قريحتهم، وقال سعيد بن المسيّب: كان أبو بكر شاعرًا، وعُمر شاعرًا، وعليُّ
أشعر الثلاثة. ولما نظم حسان قوله:

نَسُوذُ ذَا الْمَالِ الْقَلِيلِ إِذَا بَدَتْ مَرُوءَتُهُ فِينَا وَإِنْ كَانَ مُعْدَمًا
أَعْجَبَ بِهِ، فَصَعِدَ أَطْمَةً، وَنَادَى: وَاصْحَابَاهُ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُهُ إِلَيْهِ، وَقَالُوا:
مَا وَرَاءَكَ؟ فَأَنشَدَهُم الْبَيْتَ!

وقال أنس بن مالك خادِمُ النَّبِيِّ ﷺ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا
فِي الْأَنْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ الشَّعْرَ. قِيلَ لَهُ: وَأَنْتَ أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ: وَأَنَا^(٢).

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٩ / ٢٣٣) ومعنى ناشد: طالب، وذكر. الأتلد: القديم. نصرًا
أعتدًا: أي حاضرًا. المدد: العون. تجردًا: شمر، وتهبًا لحربهم. سيم خسفًا، معناه: طلب
منه، وكلّفه. ترَبَّدَا: تغيّر. عن: حاشية سيرة ابن هشام، (٤ / ١١)

(٢) وانظر للمزيد من بيان مكانة الشعر في الإسلام: وقد يجمع الله الشيتين. للمؤلف.

محمد رسول الله ﷺ

أعظم الناس رضا برب الناس هو خير الناس محمد ﷺ، فقد كان المثل البشري الأعلى للرضا بالمولى الحق سبحانه وبحمده، وتأمل سيرته العطرة، وكيف كان حاله الكامل الشريف مع طوارق المحن، وترادف الشدائد والفتن، وضغط الصعوبات، وموت الناصر من القربات، وقلة المعينين من البشر والمعينات، فأطبقت على كاهله الشدائد؛ ولكن كل ذلك لا شيء بالنسبة لرضاه عن رب البريات، ومالك الأرض والسموات، وقاضي الأمور والحاجات، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [النمل: ٦٢].

لقد كان نبينا ﷺ نسيج وحده في كل كمالات الصفات اللائقة بالبشر، فما من خلق إلا وقد حاز كماله، لقد خلقه الله تعالى وهياًه لأعلى المنازل وأسمى الرتب، فجلّله بأكمل الفضائل وأجمل السجايا حتى كان خلقه القرآن، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فأبى شرف فوق هذا الشرف، وأبى مديحة تعلوه، فصلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته والصالحون من

عباده عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، صلاة دائمة متعاقبة لا تنقطع على مرّ الدهور والأزمان^(١).

أَنْتَ الَّذِي لَمَّا رُفِعْتَ إِلَى السَّمَاءِ بِكَ قَدْ سَمَتْ وَتَزَيَّنْتَ لِلِقَاكَ
 نَادَيْتَ أَشْجَارًا أَتَتْكَ مُطِيعَةً وَشَكَا الْبَعِيرُ إِلَيْكَ حِينَ رَاكَ
 وَالْمَاءُ فَاضَ بِرَاحَتَيْكَ وَسَبَّحَتْ صُومُ الْحَصَى لِلَّهِ فِي يُمْنَاكَ
 وَالْجَذْعُ حَنَّ إِلَيْكَ حِينَ تَرَكْتَهُ وَعَلَى سِوَاهُ أَوْقَفْتَ قَدَمَاكَ
 قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وُخِّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ أَكْمَلَ
 الْأَخْلَاقِ. وَقَدْ كَانَ مِنْ خَلْقِهِ أَنَّهُ لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، فَإِذَا انْتَهَكَتَ مُحَارِمُ اللَّهِ لَمْ يَقَمْ
 لَغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَقِمَ لِلَّهِ، فَيَعْفُو عَنْ حَقِّهِ وَيَسْتَوْفِي حَقَّ رَبِّهِ.

والناس في الباب أربعة أقسام: منهم من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي
 يكون فيه دين وغضب. ومنهم من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه
 جهل وضعف دين. ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه، وهم شر الأقسام. وأما
 الكامل فهو الذي ينتصر لحق الله ويعفو عن حقه، كما قال أنس بن
 مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أَفٍّ قَطُّ. وَمَا
 قَالَ لِي لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لَمْ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: لَمْ لَا فَعَلْتَهُ؟ وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِهِ

(١) وانظر: محمد رسول الله ﷺ. للمؤلف.

إذا عتبنى على شيء يقول: «دعوه، لو قُضي شيء لكان». (١) «(٢) فقد كان ﷺ تجسيدا للرضا بالله تعالى، فمهما ابتلي في دنياه وجسده وروحه وأحبابه وأصحابه فإنه ثابت الجنان في الرضا، راسخ الفؤاد فيه، لا تزيده الخطوب إلا رضا عن ربه ويقينا به، وعبودية حقّة له.

إبراهيم الخليل ﷺ

وإنّ من أعظم خَلْقِ الله رضا بالله خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام والبركات، فهو بحق أنموذج كامل للرضا بالله تعالى بعد نبينا محمد صلى الله عليهما وسلم، ومن تأمل سيرته الشريفة وما مرّ به من أهوال تتضعع دون بعضها أعظم قلوب الرجال، ويتقاصر دونها صبرهم، ويبعد رضاهم، وينزوي حمدهم؛ نراه في ذلك كله بحرًا واسعًا ساكنًا تذوب فيه كل بليّة، وتذوي فيه كل قاصفة، وتنكمش لأجله كل عاصفة، وينكسر أمام عظمة دينه وإيمانه وتقواه كلّ شيطان مريد.

قال شيخنا محمد المختار الشنقيطي حفظه الله تعالى: «هذا نبيُّ الله إبراهيم ﷺ، أُوذي في الله فصبر، فجمع له قومه ذلك الوادي العظيم من النار، حتى إذا تأجّج ذلك الوادي بناره، واصطلى بجحيمه وسعيره، أُلقي

(١) البخاري ٢٣٠/٤ (٣٥٦١)، ومسلم ٨١/٧ (٢٣٢٩) (٨٢) أما زيادة «وكان بعض

أهله..» فهي عند أبي نعيم، وأوردها شيخ الإسلام في رسالة الاحتجاج بالقدر (١) /

(٤٣) وصححها الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠/٣٦٩)

ﷺ، حتى إذا صار مقبلاً على ذلك البلاء العظيم، مسلماً لله عز وجل فيما ابتلاه، فلما قدم قال له جبريل: هل لك من حاجة؟

ذلك الملك الذي لو أذن الله له لخسف الأرض ومن عليها بجناحه، قال: يا إبراهيم؛ هل لك من حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، وأما إلى الله، فحسبي الله ونعم الوكيل»، فقال الله تعالى: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٦٦]، قال بعض العلماء: «لو قال الله يا نار كوني برّداً لأهلكته من بردها» (١)، ولكن قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

ثم خرج ﷺ طريداً عن قومه، مهاناً من عشيرته، وحيداً لا مال لا بنون لا إخوة لا أصحاب لا أحباب، فخرج من داره مؤذى في الله مضطهداً، فلما ولى وجهه قال ﷺ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدِينَ ۖ﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠٠].

فخرج من دار فعوّضه الله أطهر من الدار التي خرج منها، عوّضه الله الأرض المقدسة، وجعل ذريته ذرية النبوة والصلاح، وجعل فيها ميراث الأنبياء ﷺ، وكل ذلك باليقين بالله. فكل إنسان أصابته مصيبة فعلم أنه لا ينجيه منها إلا الله عز وجل فرّج الله همّه وغمّه.

ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يخرج بهاجر مع صبيها ورضيعها، أن يخرج من دارٍ كلها جنات وأنهار إلى دارٍ لا ماء فيها ولا أشجار، فجاء فوضعها في ذلك الوادي الذي لا أنيس فيه ولا جليس، فتعلقت به تلك المرأة المفجوعة،

(١) وقالوا: ولو لم يخصص إبراهيم بذلك ما انتفع أحد بحرّ نار بعدها.

وقالت: يا إبراهيم، إلى من تدعنا؟! فولى وجهه ﷺ قبل الدابة، فتعلقت به ثانية وقالت: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟ امرأة ضعيفة وصبي ضعيف ليس معهم أحد، تقول له وتتعلق به: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟! فلما كانت المرة الثالثة، تعلقت به وألحّت فقالت: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟! فقال: «لله»، فقالت: إذاً لا يضيعنا الله، ورجعت إلى صبيها وقلبها كله يقين بالله تبارك وتعالى، فتولى ﷺ حتى إذا نزل في الوادي وتغيب عن نظرها رفع كفه إلى الله فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] الله أكبر! إلى يومنا هذا والقلوب تحنّ وتئنّ إلى رؤية البيت العتيق، إلى يومنا هذا والنفوس تشتاق إلى رؤية البيت العتيق، فلما جلست تلك المرأة المفجوعة مع صبيها، وعانيت ما هي فيه من البلاء، جاءت تلك الساعة التي صاح فيها الصبي يطلب الماء، وعندها خرجت لكي تلتمس الأسباب، فرقت على الصفا فصاح صبيها فلم تر أحداً، ثم مضت إلى المروة وتعلّقت بالله عز وجل تدعوه وترجوه، حتى إذا كانت المرة السابعة؛ أبى الله إلا أن يفرّج همّها بالصبي نفسه، فجعل تفريج الكرب من تحت قدم الصبي الذي دحس برجله الماء! من أيقن بالله تعالى جعل الله فرجه في نفسه قبل أن يكون بعيداً عنه^(١).

ومن جميل أخبار الراضين بالله تعالى خبر آل إبراهيم عليه السلام، كأمنّا هاجر رضي الله عنها، وكذا ما ورد في قصة إسماعيل وأبيه عليهما السلام

(١) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٩٤ / ٧)

وزوجتيه. فعن سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوَّلُ ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً^(١) لتُعفي أثرها على سارة، ثُمَّ جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثُمَّ قَفَى^(٢) إبراهيم منطقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم؛ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً،

(١) المِنْطَقُ: النِّطاق، وجمعه: مَنَاطِقُ. وهو أن تَلْبَسَ المرأةُ ثوبها، ثم تَشُدَّ وَسَطَها بشيء، وتَرْفَعَ وَسَطَ ثوبها وتُرْسِلَهُ على الأسفل عند مُعَانَاةِ الأَشْغالِ لئلا تَعَثُرَ في ذَيْلِها. وبه سُمِّيَتْ أسماء بنت أبي بكر ذات النِّطَاقَيْنِ، لأنها كانت تُطَارِقُ نِطَاقاً فوق نِطَاق. وقيل: كان لها نِطَاقان تَلْبَسُ أحدهما وتَحْمِلُ في الآخر الزادَ إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما في الغار. وقيل: شَقَّتْ نِطَاقَها نصفين، فاستعملت أحدهما، وجعلت الآخر شِداداً لِزَادِها. وفي حديث عائشة: «فَعَمَدَنَ إلى حُجَزِ مَنَاطِقِهِنَّ فَشَقَّقْنَهَا واخْتَمَرْنَ بها». النهاية في

غريب الأثر (٥ / ١٦٦)

(٢) أي: أدبر، وولى لهم قفاه.

وجعل لا يلتفت إليها^(١) فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا^(٢).

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية^(٣) حيث لا يرونه^(١)؛ استقبل بوجهه البيت^(٢) ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ

(١) وتأمل صعوبة الموقف وشدته وثقله على قلبه لولا أنه كان مطمئنًا بربه الذي أمره، راضيًا كل الرضا به، واثقًا تمام الثقة به، عليه السلام، لذلك مدحه ربه تبارك وتعالى بأنه أنتم كلمات الله عليه فصيحه إمامًا للعالمين: ﴿وَإِذْ أَبَتَىٰ إِِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

(٢) وصدقت هذه الوليّة التّقية المؤمنة البارّة الرّاشدة، فالله لا يضيع أوليائه ولا يخلف وعده، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان؛ خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدرّ لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحه، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيتُ بالله». رواه البخاري (٣٣٦٥) وفي رواية: «قالت: رضيتُ بالله، ثم رجعت». والشنة: القرية الصغيرة. فلما رضيت بالله أرضاها الله في الدنيا بالأمن والرزق وبرّ الولد النبي الصالح، وفي الآخرة رضوان الله والجنة، ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

(٣) الثنية: الطريق في العقبة، وقيل: هو المرتفع من الأرض فيها.

مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
[إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها^(٣)، وجعلت تنظر إليه يتلوى^(٤)، أو قال: يتلبط^(٥). فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي، تنظر هل ترى أحداً، فلم تر

=

(١) إمعاناً في الإخلاص، كذلك لم يردها أن تراه يدعو لها حتى لا ينقطع تعلقها التام بالله وحده، فإنها لما قطعت حبال الخليقة وتعلقت بمولاه؛ ظهر إخلاصها لربها وتوحيدها وإيمانها وثقتها ورضاها.

(٢) وفيه استحباب استقبال القبلة عند الدعاء، وكان نبينا ﷺ يفعل كما عند مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم في غزوة بدر: فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، وكما في حديث ابن بن عمر رضي الله عنهما في صفة حجته ﷺ: «أنه كان يرمي الجمرة الأولى بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، ثم يتقدم فيقوم مستقبلاً القبلة قياماً طويلاً فيدعو ويرفع يديه»، رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٨٧) قال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: حديث صحيح إسناده قوي.

(٣) لجفاف ثديها لما عطشت.

(٤) وهو موقف شديد جداً على الأمهات لما جبلهن الله تعالى من عظيم الرحمة والشفقة بأولادهن.

(٥) التلبط: الاضطراب والتقلب ظهراً لبطن.

أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرفَ دَرْعِهَا^(١)، ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود^(٢)، حتى جاوزت الوادي، ثُمَّ أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه - تريد نفسها - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعُ إن كان عندك غوث^(٣). فإذا هي بالملك^(٤) عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه^(٥)، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما

(١) أي: ثوبها.

(٢) أي: أجهدت نفسها في السعي مخافة تلف ابنها جوعًا وعطشًا، فبذلت السبب وقلبها معلق بالمسبب تبارك وتعالى.

(٣) فطلب الغوث من المخلوق الحاضر القادر جائر، ومن ذلك: ﴿فَأَسْتَعِثُّهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [الفَصَص: ١٥]. أما الشرك الوخيم والذنب العظيم فهو الاستغاثة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق جل جلاله، أو بمخلوق غائب، كمن يستغيثون بأهل القبور أو الجن أو الغائبين، ولا يعلم الغيب إلا الله. وهذا شرك ناقل عن ملّة الإسلام، والمشرِك مَخْلُدٌ في الجحيم، حرام عليه جنة النعيم، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المَائِدَة: ٧٢].

(٤) هو أمين الوحي وسيد الملائكة جبريل عليه السلام.

(٥) تحوضه: أي تجعل له حوضًا يجتمع فيه الماء.

تغرف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً مَعِيناً»^(١). قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيْعَةَ^(٢)، فإن هاهنا بيت الله، يَبْنِيهِ هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضَيِّعُ أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرايية^(٣)، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كَدَاءَ^(٤)، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاتِفاً^(١)،

(١) المَعِين: الماء الظاهر الجاري الذي لا يتعدَّر أخذه.

(٢) الضيعة: الضياع والحاجة.

(٣) الرايية: المرتفع من الأرض.

(٤) ثم ثلاثة أماكن في مكة في أسمائها تشابه، كَدَاءَ في أعلاها (الحجُّون حالياً)، وكُدَى في أسفلها جهة المدينة (الشبيكة حالياً)، وكُدَى - بالياء - أسفل مكة من جهة اليمن، وفيها حالياً مواقف سيارات كُدَى.

فكَدَاءَ، بالفتح والمدّ: الثنية من أعلى مكة مما يلي المقابر، وكُدَى بالضم والقصر: من أسفلها مما يلي باب العمرة، وكُدَى بالياء من أسفلها جنوباً. وقال الشيخ عبد الله بن جاسر رَحِمَهُ اللهُ في مفيد الأنام (٢٥٧/١): «ثنية كَدَاءَ بفتح الكاف والdal مع المد، وهي التي تسمى بالحجُّون بأعلى مكة، وبها باب المعلاة مقبرة أهل مكة، وهي التي أشار إليها حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصيدته المشهورة وجعلها موعد خيل المسلمين في قوله:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعداً كَدَاءَ

ودخل منها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وقال ﷺ: «ادخلوها من حيث قال حسان». وقال ابن حجر في الفتح: ثنية كدَاءَ بفتح الكاف والمد، وهذه الثنية هي التي ينزل منها

فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء؛ لعهْدُنَا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَيْنِ^(٢)، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأُمُّ

=

إلى المعلاة مقبرة أهل مكة، وهي التي يقال لها الحُجُون بفتح المهملة وضم الجيم، وكانت صعبة المرتقى فسَهَّلَهَا معاوية ثم عبد الملك ثم المهدي، على ما ذكره الأزرقى، ثم سَهَّلَ في عصرنا هذا منها سنة إحدى عشرة وثمان مئة موضع، ثم سَهَّلَتْ كلها في زمن سلطان مصر الملك المؤيد في حدود العشرين وثمان مئة، وكلَّ عقبة في جبل أو طريق عال تسمى ثنية». أهد

قلت: ثم سَهَّلَتْ في زمن الشريف الحسين بن علي في حدود الثلاثين وثلاث مئة وألف، ثم سهلت في زمن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، ثم سهلت تسهلاً كاملاً بعده.

وسنَّ خروجَ من مكة من أسفلها من ثنية كُدَى بضم الكاف والتنوين، دون ذي طوى من جهة مكة بقرب شعب الشافعيين، وهي الثنية التي تسمى ثنية الشافعيين، وتعرف الآن بريع الرسام، وهي التي خرج منها رسول الله ﷺ، ويقال لها باب شبكة، لقول ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يدخل من الثنية العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنية السفلى» متفق عليه. قال: هي ثنية كُدَى بضم الكاف كهْدَى وقُرَى، لا ثنية كُدَى كَسْمَى بالتصغير، لأن هذه لمن خرج من مكة إلى اليمن.

(فائدة): وأهل مكة يقولون: ادخل وافتح، واخرج وضم. وهذا ضابط طريف. أهد بتصرف يسير.

(١) أي: يدور في السماء حول شيء في الأرض.

(٢) أي: الأجير أو الوكيل، وسمي به لأنه يجري مجرى موكله.

إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نزل عندك؟^(١) فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء^(٢) قالوا: نعم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس»، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام^(٣)، وتعلَّم العربية منهم، وأنفَسَهم^(٤) وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوجه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل، يطالع تَرَكَته^(٥)، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يتبغي لنا^(٦). ثُمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٌّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه^(٧).

(١) وهذا من أدبهم وحسن شيمتهم وعفافهم، فهي امرأة وحيدة في صحراء خالية.

(٢) أي: إلا بإذني.

(٣) أي: إسماعيل صادق الوعد الرسول النبي عليه السلام.

(٤) من النفاسة وهي السبق إلى الطيب والخير. والمراد: صار عندهم نفيساً مرغوباً فيه.

(٥) أي: أهله الذين تركهم في مكة.

(٦) أي: يجلب لهم ما يصلحهم من طعام ونحوه.

(٧) فلم ترض بقضاء الله تعالى لهم، ولم تكن على الله تعالى خيراً، ولم تحمده، وزادت فشكت الحال إلى إبراهيم عليه السلام.

وَإِذَا اعْتَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا صَبَرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَرْحَمُ
وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

وسلام الله على يعقوب إذ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغيّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم. جاءنا شيخ، كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء^(١)؟ قالت: نعم؛ أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقني بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثمّ أتاهم بعدُ، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله^(٢). فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: الماء، قال: اللّهم بارك لهم في اللحم

(١) وهذا من فطنته عليه السلام.

(٢) تأمل الفارق بين المرأتين، فمع اتحاد العيش إلا أن قلب الثانية راض بالله تعالى مسرور به، قانع مكتف بالبلغة من هذه الدنيا. ومن سرور ابن آدم زوج صالح، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ». رواه مسلم (١٤٦٧)، والمرأة الصّالحة: هي الصّالحة في دينها، ونفسها، والمُصلِحَةُ لحال زوجها. وهذا كما قال في الحديث الآخر: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟» قالوا: بلى. قال: «المرأة الصّالحة؛ التي إذا نظر إليها سرّته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته». رواه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (٤٠٨ / ١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وصحح إسناده العراقي في تخريج الأحياء (٣٦ / ٢) وضعّفه الألباني في الضعيفة (١٣١٩).

والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب^(١)، ولو كان لهم دعا لهم فيه»، قال: «فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه»^(٢). قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبّت عتبة^(٣) بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه^(٤)، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله. ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة^(٥) قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك

(١) أي: زراعة.

(٢) دعا عليه السلام لأهل مكة بالبركة في اللحم والماء، فكانوا يقتصرون عليهما دون أن يتضرروا منهما، وأصبح ذلك خاصاً بمكة دون غيرها من البلاد، فإنه لا يقتصر أهل بلد عليهما إلا تضرر منهما. وعليه؛ فلو اقتصر أهل مكة على اللحم والماء كفاهم، وأما غيرهم فلا. والمقصود: أن المداومة عليهما لا يوافق الأمزجة إلا بمكة، وهذا من جملة بركاتهما وأثر دعاء إبراهيم عليه السلام، لذلك دعا نبينا ﷺ لأهل المدينة في الزرع والكيل والوزن ﷺ.

(٣) وكانوا يسمّون العتبة الأسكفة. وقد استفاد أهل التعبير من هذا أن العتبة في المنام هي الزوجة.

(٤) فأثنت عليه خيراً في غيابه، وهذا من حسن خلقها وطيب معدنها.

(٥) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها^(١)، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر^(٢)، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. قال: فجعلوا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].^(٣)

موسى عليه السلام

قد مضى بعض الحديث عن الكليم عليه السلام، وقد كرر الله تعالى وثني قصته وأخباره في القرآن العظيم تنويهاً به وليستن المؤمنين، وإن من أجمع ما ذكر من سيرته الشريفة خبر الفتون، وإن حديث الفتون حديث مشهور، وفيه عبر لكل مؤمن، وقد رأيت إيراداً لمناسبته حال المؤمن في رضاه عن ربه تعالى وهو يقلبه بين ثنايا قدره ورحمته وأعطاف قضائه، وحكمته وأكناف لطفه وبره. وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، ولعله نقل كثيراً منه عن كعب الأحبار مما أورده عن بني إسرائيل مما لم يكذبه شرعنا، فعند أحمد وأبي

(١) الأكمة: ما ارتفع من الأرض كالراية.

(٢) وهو مقام إبراهيم عليه السلام، قال أبو طالب في لاميته:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعلٍ

(٣) البخاري (٣٣٦٤)، (٣٣٦٥)

داود (١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ». وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ: «مَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُجِيزُ التَّحَدِّثَ بِالْكَذِبِ، فَالْمَعْنَى: حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبَهُ، وَأَمَّا مَا تَجَوَّزُونَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّحَدِّثِ بِهِ عَنْهُمْ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تَصَدِّقُوهُمْ، وَلَا تَكْذِبُوهُمْ» (٢).

وبما أن السند لابن عباس رضي الله عنهما جيّد (٣) فابن عباس حبرٌ بحرٌ يعلم النافع فيرويه وغيره فيطويه، وهو الناصح العليم والناقد البصير رضي الله عنه.

(١) المسند (١٠١٣٠) وأبو داود (٣٦٦٢) وصححه الألباني.

(٢) نقله عنه الحافظ في فتح الباري: (٦/٣٨٨).

(٣) حديث الفتون قد أخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) والإمام الطبري (١٢٥/١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد صحح سنده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٣٤/٦) وصححه سليم الهلالي في صحيح الأنباء (٤٩٨/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦٦/٧): «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان». وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/١٩٦) وبنحوه في تفسيره بعد سياق الحديث بطوله: «هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً، والله أعلم».

والحديث بطوله عن سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه : ٤٠]، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفُتُونِ؟ فَقَالَ: اسْتَأْنَفَ النَّهَارَ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ؛ فَإِنَّ لَهَا حَدِيثًا طَوِيلًا. قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ لَأَنْتَجِزَ مَا وَعَدَنِي مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ، فَقَالَ:

تَذَاكَرَ فِرْعَوْنُ وَجُلَسَاؤُهُ مَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ مَا يَشْكُونَ فِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالُوا: لَيْسَ هَكَذَا كَانَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ فِرْعَوْنُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ؟ فَاتَّمَرُوا، وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا بِالشَّفَارِ، يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يَجِدُونَ مَوْلِدًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا أَنْ رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِأَجَالِهِمْ، وَالصَّغَارَ يُذَبِّحُونَ، قَالُوا: أَتَوْشِكُونَ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَصِيرُوا إِلَى أَنْ تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّتِي كَانُوا يَكْفُونَكُمْ؟ فَاقْتُلُوا عَامًّا كُلَّ مَوْلِدٍ ذَكَرٍ، فَيَقْلَ نَبَاتُهُمْ، وَدَعُوا عَامًّا، فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَشِبَّ الصَّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُونَ، فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَنْ يَفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ، فَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ، فَاجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَحَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الْعَامَ الَّذِي لَا يُذْبَحُ فِيهِ الْغِلْمَانُ، فَوَلَدَتْهُ عَلَانِيَةً، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ حَمَلَتْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ. فَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ، مَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي دَهْوِ بَطْنِ أُمِّهِ مِمَّا يُرَادُّ بِهِ،

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصص : ٧].

وَأَمَرَهَا أَنْ إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ، ثُمَّ تُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا وَلَدَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ بِهِ، فَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا أَتَاهَا الشَّيْطَانُ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: مَا فَعَلْتُ بَابْنِي؟! لَوْ دُبِحَ لِبَثٍ عِنْدِي فَرَأَيْتَهُ وَكَفَّنْتَهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقِيَهُ بِيَدِي إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحِيتَانِهِ!

وانتهى الماء به حتى أرفأ به عند فُرْضَةِ مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذَنَّهُ، فَهَمَّ مَنْ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ، فَقَالَتْ بَعْضُهُنَّ: إِنَّ فِي هَذَا مَالًا، وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لَمْ تُصَدِّقْنَا امْرَأَةُ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ، فَحَمَلَنَّهُ بَهِيئَةً لَمْ يُجَرِّكَنَّ مِنْهُ شَيْئًا، دَفَعَنَّهُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا فَتَحْتَهُ رَأَتْ فِيهِ غُلَامًا، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَحَبَّةً لَمْ تُلَقْ مِثْلُهَا عَلَى الْبَشَرِ قَطُّ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَمِعَ الذَّابِحُونَ بِأَمْرِهِ أَقْبَلُوا بِشِفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِيَذْبَحُوهُ - وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ - فَقَالَتْ لِلذَّابِحِينَ: أَقْرُوهُ؛ فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى آتِي فِرْعَوْنَ فَأُسْتَوْهَبَهُ مِنْهُ، فَإِنْ وَهَبَهُ لِي كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ لَمْ أَلْكُمْ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكَ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي أَحْلَفُ بِهِ، لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتْ امْرَأَتُهُ، لَهْدَاهُ اللَّهُ بِهِ كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأَتَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ».

فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا، مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ، تَخْتَارُ لَهَا ظِئْرًا، فَجَعَلَ كُلُّهَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ، فَتَرَضَعُهُ، لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا، حَتَّى أَشْفَقَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ

يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِهِ، فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ وَتَجَمَّعَ النَّاسُ، تَرَجُّو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا يَأْخُذُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالهَةَ، فَقَالَتْ لِأُخْتِهِ: قُصِّيهِ - يَعْنِي: أَثَرَهُ - واطْلُبِيهِ، هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا؟ أَحْيِ ابْنِي أُمِّ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ؟ وَنَسِيتَ مَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرْتُ بِهِ أُخْتَهُ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَالْجُنْبُ: أَنْ يَبْصُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى الشَّيْءِ الْبَعِيدِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ لَا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُم الظُّوَارُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [الْقَصَصُ: ١٧].

فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: مَا يُدْرِيكَ مَا نُصَحُّهُمْ لَهُ؟ هَلْ يَعْرِفُونَهُ؟ حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ - فَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ - فَقَالَتْ: نَصِيحَتُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَةً فِي صَهْرِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءَ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَاَنْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا، نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا، فَمَصَّهُ حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا.

وَانْطَلَقَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لَابْنِكَ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهَا، فَأَوْتَيْتُ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ، قَالَتْ لَهَا: امْكُثِي عِنْدِي؛ تُرَضِّعِي ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَحْجِبْهُ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْعَ بَيْتِي وَوَلَدِي، فَيَضِيعَ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكَ أَنْ تُعْطِيَنِيهِ، فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِي، فَيَكُونُ مَعِيَ لَا آلُوهُ خَيْرًا فَعَلْتُ، وَإِلَّا فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي، وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهَا، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَيَقَنْتُ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْجِزُ مَوْعُودَهُ، فَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا بِابْنِهَا مِنْ يَوْمِهَا،

فَأَنْبَتَهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، وَحَفِظَهُ لِمَا قَدْ قَضَى فِيهِ، فَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْقَرْيَةِ مُتَمَتِّعِينَ يَمْتَنِعُونَ بِهِ مِنَ السُّخْرَةِ مَا كَانَ فِيهِمْ.

فَلَمَّا تَرَعَرَ عَ قَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَأُمِّ مُوسَى: أُرِيدُ أَنْ تُرِينِي ابْنِي، فَوَعَدَتْهَا يَوْمًا تُرِيهَا فِيهِ إِيَّاهُ، فَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِحُزَّانِهَا، وَظُؤُورَتِهَا، وَقَهَّارِمَتِهَا: لَا يَبْقَيْنَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ؛ لِأَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُخْصِي مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةُ وَالنَّحْلَةُ، تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا بِجَلَّتْهُ، وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ، وَأَعْجَبَهَا، وَنَحَلَتْ أُمُّهُ؛ لِحُسْنِ أَثَرِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا تَيْنَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَلْيَنْحَلَّنَّ، وَلْيُكْرِمَنَّ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ، جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ، فَتَنَاولَ مُوسَى لَحِيَةَ فِرْعَوْنَ، فَمَدَّهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ الْغَوَاةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَرْثُكَ، وَيَعْلُوكَ، وَيَصْرَعُكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى الدَّبَّاحِينَ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ، بَعْدَ كُلِّ بَلَاءٍ ابْتَلَى بِهِ، أَوْ أُرِيدَ بِهِ فُتُونًا.

فَجَاءَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تَسْعَى إِلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: مَا بَدَأَ لَكَ فِي هَذَا الْغَلَامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي؟ قَالَ: أَلَا تَرَيْنَهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي؟ قَالَتْ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا تَعْرِفُ فِيهِ الْحَقَّ؛ إِنَّتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلَوْلُوتَيْنِ، فَقَرَّبَهَا إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّلُوتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ وَلَمْ يُرِدِ اللَّوْلُوتَيْنِ، عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤَثِّرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللَّوْلُوتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ، فَقُرَّبَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَتَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ، فَانْتَزَعُوهُمَا مِنْ يَدِهِ، وَخَافَتْ أَنْ يَحْرِقَا يَدَيْهِ،

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَلَا تَرَى؟! فَصَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْغَا فِيهِ أَمْرَهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَصَارَ مِنَ الرِّجَالِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلَا سُخْرَةٍ، حَتَّى امْتَنَعُوا كُلَّ الِامْتِنَاعِ. فَبَيْنَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، إِذْ هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ؛ أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِيٌّ، وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَغَضِبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضَبًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحَفَظَهُ لَهُمْ، لَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا أُمُّ مُوسَى، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَطْلَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. فَوَكَّزَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْفِرْعَوْنِيَّ، فَقَتَلَهُ، وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؛ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [الْقَصَصُ: ١٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الْقَصَصُ: ١٦]. ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [الْقَصَصُ: ١٨] الْأَخْبَارَ.

فَأُتِيَ فِرْعَوْنُ فَقِيلَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ قَتَلَتْ رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَخُذْ لَنَا بِحَقِّنَا، وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ، فَقَالَ: ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمِهِ، لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقَيَّدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَلَا تَبَتَّ، فَاَنْظُرُوا فِي عِلْمِ ذَلِكَ أَخْذُ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَا هُمْ يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ شَيْئًا، إِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ رَأَى فِي الْغَدِ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ آخَرَ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا

كان منه، فكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي - لما فعل أمس واليوم -: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص : ١٨].

فنظر الإسرائيلي إلى موسى عليه السلام بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل به الفرعوني، فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [١٨] إياه أراد، ولم يكنْ أراد، إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي، فحاجز الفرعوني، فقال: ﴿يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص : ١٩] ؟ وإنما قال ذلك؛ مخافة أن يكون إياه أراد موسى عليه السلام أن يقتله، فتنازعا. فانطلق الفرعوني إلى قومه، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص : ١٩].

فأرسل فرعون الدبّاحين ليقتلوا موسى عليه السلام، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى عليه السلام، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعه موسى عليه السلام من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى عليه السلام فأخبره. فذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى عليه السلام متوجّها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له علم بالطريق إلا حُسن الظنّ برّبه عزّ وجلّ، فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص : ٢٢]. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ﴾ [القصص : ٢٣] إلى ﴿تَذُودَانٍ﴾ [القصص : ٢٣]، يعني بذلك: حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قُوّة نزاحم القوم،

وإنما ننتظرُ فُضُولَ حياضهم، فسقى لهما، فجعلَ يغْرِفُ بالدَّلْوِ ماءً كثيرًا، حتّى كانتا أوّل الرّعاء فراغًا، فانصرَفتا بغيرهما إلى أبيهما، وانصرَفَ موسى عليه السّلامُ، فاستظلَّ بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصص : ٢٤]، فاستنكرَ أبوهما سرعةَ صُدورِهما بغيرهما حُفلاً بطانًا، فقال: إنّ لكما اليومَ لَشَأْنًا، فأخبرتاه بما صنعَ موسى عليه السّلامُ، فأمرَ إحداهما أنْ تدعوهُ له، فأتَتْ موسى عليه السّلامُ فدعته، فلمّا كلّمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾ [القَصص : ٢٥]، ليس لفرعونَ ولا لقومه علينا سلطانٌ، ولسنا في مملكتِهِ.

قال: فقالت إحداهما: ﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَتَأَبَتِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القَصص : ٢٦]، فاحتملته الغيرةُ على أنْ قال: وما يُدريك ما قوّته؟ وما أمانته؟ قالت: أمّا قوّته: فما رأيْتُ في الدّلْوِ حين سقى لنا، لم أرَ رجلًا قطُّ في ذلك المَسْقَى أقوى منه، وأمّا أمانته: فإنّه نظرَ إليّ حين أقبلتُ إليه وشخصتُ له، فلمّا علِمَ أنّي امرأةٌ، صوّبَ رأسه لم يرفعه، ولم ينظرُ إليّ حتّى بلغته رسالتك، ثمّ قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، لم يفعلْ هذا إلّا وهو أمينٌ، فسرّيتُ عن أبيها وصدّقها، وظنّ به الَّذي قالت له. فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ﴾ [القَصص : ٢٧]، إلى قوله: ﴿مَنْ الصّٰلِحِينَ﴾ [٢٧]. [القَصص : ٢٧]، ففعل.

فكانت على نبيِّ الله موسى عليه السّلامُ ثمانيَ سنينَ واجبةً، وكانت سنتانِ عِدَّةً منه، فقضى الله عزَّ وجلَّ عنه عِدَّته فأتمَّها عشرًا. قال سعيدٌ: فلقيني رجلٌ من أهلِ النّصرانيّةِ من علمائهم، فقال: هل تدري أيَّ الأجلينِ قضى موسى

عليه السَّلام؟ قلتُ: لا، وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقيتُ ابنَ عَبَّاسٍ، فذكرتُ ذلك له، فقال: أما عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًّا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلامُ وَاجِبَةً، لَمْ يَكُنْ نَبِيُّ اللَّهِ لِيَنْقُصَ مِنْهَا شَيْئًا، وَتَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ قَاضِيًّا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ عِدَّتَهُ الَّتِي وَعَدَ، فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ. فَلَقِيتُ النَّصْرَانِيَّ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتَهُ فَأَخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ؟ قلتُ: أجل، وأولى.

فَلَمَّا سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ بِأَهْلِهِ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّارِ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ، وَأَمْرَ الْعَصَا وَيَدِهِ، فَشَكَا إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ، وَعُقْدَةَ لِسَانِهِ، فَآتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُؤْلَهُ، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، وَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ، وَانْدَفَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ بِعَصَاهُ، حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا حِينًا عَلَى بَابِهِ لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا، فَقَالَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ، قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟

فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: فَمَا تُرِيدَانِ؟ وَذَكَرَهُ الْقَتِيلَ، وَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَأَنْ تُرْسِلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَبَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: ائْتِ بَايَةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ، فَازَعَتْهُ، فَاغْرَتْهُ فَاهَا، مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنُ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَكْفِهَا عَنْهُ، فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ، فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، فَرَدَّهَا، فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ.

فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [طه: ٦٣] الآية، والمثل: مُلْكُهُمَّ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْعِيشُ. فَأَبَوْا عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِّمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لِهَما السَّحْرَةَ؛ فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ كَثِيرٌ، حَتَّى نَغْلِبَ سِحْرَهُمَا، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ، فَحُشِرَ لَهُ كُلُّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا عَلَى فِرْعَوْنَ، قَالُوا: مَا يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟ قَالُوا: يَعْمَلُ الْحَيَّاتِ، قَالُوا: فَلَا وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ السَّحْرَ وَالْحَيَّاتِ وَالْحِبَالَ وَالْعِصْيَ الَّذِي نَعْمَلُ، فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، وَأَنَا صَانِعُ إِلَيْكُمْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْبَبْتُمْ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى.

قال سعيد: فحدّثني ابنُ عباسٍ: أَنَّ يَوْمَ الزَّيْنَةِ الْيَوْمَ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةَ هُوَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا، فَتَتَخَبَّرْ هَذَا الْأَمْرَ، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٤٠]، يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ اسْتَهْزَأَ بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى - لِقُدْرَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِسِحْرِهِمْ - إِمَّا أَنْ تُتْلِقَنِي، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُتْلِقِينَ، قَالَ: بَلِ الْقَوَا.

﴿فَالْقَوَا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٤٤]، فرأى موسى عليه السَّلَامُ مِنْ سِحْرِهِمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ، فَلَمَّا أَلْقَاهَا، صَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا فَاعْرَةً فَاهَا، فَجُعِلَتِ الْعِصْيُ بِدَعْوَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَلْتَسُّ بِالْحِبَالِ، حَتَّى صَارَتْ جُرْزًا إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبَلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ. فَلَمَّا عَرَفَ

السَّحَرَةُ ذَلِكَ، قالوا: لو كان هذا سِحْرًا لم يَلُغْ مِنْ سِحْرِنَا كُلِّ هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، آمَنَّا بِاللَّهِ رَبَّنَا وما جاء به مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ. وَكَسَرَ اللَّهُ ظَهَرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطَنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَأُظْهِرَ الْحَقَّ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَعُلبوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ.

وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَدِّلَةٌ تَدْعُو بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ، فَمَنْ رَأَاهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظَنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا تَبَدَّلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَلَمَّا طَالَ مُكُثُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا جَاءَهُ بِأَيَّةٍ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسَلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ الطُّوفَانَ، وَالْجَرَادَ، وَالْقُمَّلَ، وَالضَّفَادِعَ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفِّهَا عَنْهُ، وَيُؤَاثِّقَهُ عَلَى أَنْ يُرْسَلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ عَنْهُ، أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وَنَكَثَ عَهْدَهُ.

فَأَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا، أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، فَتَبِعَهُمْ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، وَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْبَحْرِ: أَنْ إِذَا ضَرَبَكَ مُوسَى بِعَصَاهُ، فَانْفِرْ لَهُ لِهَاتَيْنِ عَشْرَةِ فِرْقَةٍ، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ التَّمَّ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، فَنَسِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِالعَصَا، فَانْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ وَلَهُ قَصِيفٌ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ غَافِلٌ، فَيَصِيرَ عَاصِيًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فلَمَّا تراءى الجمعانِ وتقاربَا، قال أصحابُ موسى: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ، افْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَكْذِبْ وَلَمْ تُكْذِبْ، فقال: وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَتَيْتُ الْبَحْرَ، انفَرَقَ لِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً حَتَّى أُجَاوِزَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَصَا، فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ الْبَحْرَ، وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ، التَقَى عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ كَمَا أُمِرَ.

فلَمَّا جَاوَزَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَحْرَ، قال أصحابُهُ: إِنَّا نَخَافُ أَلَّا يَكُونَ فِرْعَوْنُ قَدْ غَرِقَ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ، فدعا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فأَخْرَجَهُ لَهُ بِيَدِهِ حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهَلَاكِهِ. ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ. ﴿وَجَلَّوْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إِلَى ﴿وَبَطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ، وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ، وَمَضَى.

فَأَنْزَلَهُمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَطِيعُوا هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَأَجَلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فِيهَا، فَلَمَّا أَتَى رَبَّهُ وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ، وَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرِيحٌ فَمِهِ رِيحٌ فَمِ الصَّائِمِ، فَتَنَاولَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ شَيْئًا فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ لَقَاهُ: لِمَ أَفْطَرْتَ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِي طَيْبِ الرِّيحِ، قَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنْ رِيحَ فَمِ

الصَّائِمِ أَطِيبُ عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ؟ ارْجِعْ حَتَّى تَصُومَ عَشْرًا ثُمَّ أَتِنِّي، فَفَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أُمِرَ بِهِ.

فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ لِلْأَجَلِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ، وَكَانَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ خَطَبَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ وَلِقَوْمِ فِرْعَوْنَ عِنْدِي عَوَارِي وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَحْتَسِبُوا مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ، وَلَا أَحَلَّ لَكُمْ وَدِيعَةً اسْتُودِعْتُمُوهَا، وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا نُمْسِكِيهِ لَأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ، فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا، وَلَا لَهُمْ.

وَكَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ جِرَانٍ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ اخْتَمَلُوا، فَقَضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثْرًا، فَأَخَذَ مِنْهُ بَقْبُضَتَهُ، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فَقَالَ لَهُ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدَيْكَ؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ الْبَحْرَ، وَلَا أُلْقِيهَا لَشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُو اللَّهَ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ تَكُونَ مَا أُرِيدُ، فَأَلْقَاهَا، وَدَعَا اللَّهَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا، وَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحُفْرَةِ مِنْ مَتَاعٍ لَهُ، أَوْ حِلْيَةٍ، أَوْ نَحَاسٍ، أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجُوفَ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، لَهُ خَوَارٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتُ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ.

فتفرَّق بنو إسرائيل فِرَقًا؛ فقالت فِرْقَةٌ: يا سامريُّ، ما هذا فأنت أعلمُ به؟ قال: هذا ربُّكم عَزَّ وَجَلَّ، ولكنَّ موسى عليه السَّلامُ أَضَلَّ الطَّرِيقَ. وقالت فِرْقَةٌ: لا نُكذِّبُ بهذا حتَّى يرجعَ إلينا موسى، فإنَّ كان ربَّنَا لم نَكُنْ ضَيَّعْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لم يَكُنْ رَبَّنَا، فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ موسى عليه السَّلامُ. وقالت فِرْقَةٌ: هذا عَمَلُ الشَّيْطَانِ، وليس برَبَّنَا، ولا نُؤْمِنُ، ولا نُصَدِّقُ. وَأُشْرِبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ التَّصَدِيقَ بما قال السَّامريُّ فِي الْعَجَلِ، وَأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ، فقال لهم هَارُونُ عليه السَّلامُ: ﴿يَقُومُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ [طه : ٩٠]، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ هَكَذَا، قالوا: فما بِالْ موسى عليه السَّلامُ؟ وَعَدْنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفْنَا، فهذه أَرْبَعُونَ قَدْ مَضَتْ؟! فقال سُفَهَاؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبَّهُ، فهو يَطْلُبُهُ وَيَتَّبِعُهُ.

فَلَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عليه السَّلامُ وقال له ما قال، أَخْبَرَهُ بما لَقِيَ قَوْمُهُ بَعْدَهُ. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ [طه : ٨٦]، وقال لهم ما سَمِعْتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنَ الْغَضَبِ، ثُمَّ عَذَرَ أَخَاهُ بَعُذْرَهُ، واستغْفَرَ لَهُ، وانصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ، فقال له: ما حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قال: قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنَ أَثَرِ الرَّسُولِ وَفَطِنْتُ لَهَا، وَعُمِّيتَ عَلَيْكُمْ، فَقَذَفْتُهَا؛ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قال: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ [طه : ٩٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿نَسْفًا﴾ [طه : ٩٧]، ولو كان إلهًا لم يُخْلَصْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ. فاستيقنَ بنو إسرائيل بِالْفِتْنَةِ، واغْتَبَطَ الَّذِينَ كان رأيهم فِيهِ مِثْلَ رأي هَارُونَ عليه السَّلامُ، فقالوا بِجَمَاعَتِهِمْ لِمُوسَى عليه السَّلامُ: سَلْ لَنَا رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ

نصنعها؛ فيَكْفَرُ عَنَّا مَا عَمِلْنَا، فاختار موسى عليه السَّلامُ قومه سبعين رجلاً لذلك - لا يألو الخير - خيار بني إسرائيل، ومن لم يُشرك في العجل.

فانطلق بهم ليسأل لهم التَّوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبيُّ الله ﷺ من قومه ووفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف : ١٥٥]، وفيهم من قد كان الله عزَّ وجلَّ اطلع على ما أشرب قلبه من حُبِّ العجل وإيمانه به؛ فلذلك رجفت بهم الأرض. فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] إلى: ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧]، فقال: رَبِّ سَأَلْتُكَ التَّوبَةَ لقومي، فقلت: إِنَّ رَحْمَتِي كَتَبْتُهَا لقومٍ غير قومي، فليتك أخرتني حين تُخْرِجُنِي حياً في أُمَّةٍ ذلك الرَّجُلِ المرحومة، فقال الله له: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ أَوْ وَلَدٍ، فيقتله بالسَّيفِ لا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الموطن، وتاب أولئك الَّذِينَ كان خَفِيَ على موسى وهارونَ عليهما السلام ما اطلع الله عليهم من ذُنُوبِهِمْ، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أُمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السَّلامُ مُتَوَجِّهاً نحوَ الأرضِ المقدَّسة، وأخذَ الألواحَ بعدما سَكَتَ عنه الغضبُ، وأمرهم بالَّذي أُمِرَ به أَنْ يُبَلِّغَهُمْ من الوظائفِ، فثقلَ ذلكَ عليهم، وأبوا أَنْ يَقْرَؤُوا بها، فتنقَّ الله عليهم الجبلَ كأنَّه ظِلَّةٌ، ودنا منهم حتَّى خافوا أَنْ يَقَعَ عليهم، فأخذوا الكتابَ بأيديهم وهم يَصْغُونَ ينظرونَ إلى الجبلِ والأرضِ، والكتابَ بأيديهم وهم يَنْظُرُونَ إلى الجبلِ؛ مخافةً أَنْ يَقَعَ عليهم، ثم مَضَوْا إلى الأرضِ المقدَّسة، فوجدوا مدينةَ قومِ جَبَّارِينَ خَلَقَهُمْ مُنْكَرٌ، وذكرَ من ثَمَارِهِمْ أمراً عَجَباً من عِظَمِهَا، فقالوا: يا

موسى، إنّ فيها قومًا جبّارين لا طاقةَ لنا بهم، ولا ندخلُها ما داموا فيها، فإنّ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قال رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ مِنَ الْجَبَّارِينَ: آمَنَّا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَرَجَا إِلَيْهِ، فَقَالَا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِقَوْمِنَا، إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعَدَدِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلَا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. ويقولُ أَنَاسٌ: إِنَّمَا مِنْ قَوْمٍ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَزَعَمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّهَا مِنَ الْجَبَّارِينَ آمَنَّا بِمُوسَى، بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [الْمَائِدَة : ٢٣] إِنَّمَا عَنِ ذَلِكَ: مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [الْمَائِدَة : ٢٤]!

فَأَغْضَبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ، وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، فَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسِقِينَ، فَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ؛ يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي النَّهْيِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لَا تَبْلَى، وَلَا تَتَسَخَّرُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظَهْرِهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا، وَأَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثَةُ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سَبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا، فَلَا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْحَجَرَ مِنْهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ أَمْسَ. وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِينَا وَعَلَى مُوسَى وَالنَّبِيِّينَ.

أيوب عليه السلام

ومن أعظم الراضين بالله رب العالمين، الصادقين في دعواهم، الشاكرين في بلواهم، نبي الله أيوب عليه السلام، الذي قد ضرب الناس به المثل في الصبر والرضا بما قدره الله تعالى عليه^(١). قال الشنقيطي حفظه الله تعالى: «نبي الله أيوب عليه السلام مكث طريح الفراش أكثر من سبع سنين، كان ذا مال وثروة ونعمة وجاه، قال إبليس: اللهم سلطني على عبدك أيوب، فسلطه الله على ماله فأحرق جميع ماله، فلما رأى ذلك البلاء في ماله قال: الحمد لله، حمد الله تبارك وتعالى، وقال في كلام معناه: اللهم وهبني المال، وأنعمت علي بالمال حتى شغلني عن ذكرك، فهذا أنت قد فرغتنني لذكرك وشكرك، فلك الحمد رب العالمين!

رضي عن الله تبارك وتعالى، وشاء الله تبارك وتعالى أن لا يبقى البلاء عند هذا، وإذا بذلك العدو يسأل الله أن يسلطه على أهله وولده، وشاء الله تبارك وتعالى أن يُمكنه من ذلك، ففقد فلذات كبده وفقد أهله واحداً تلو الآخر حتى فجع بهم جميعاً إلا زوجةً واحدة، بقيت هذه الزوجة مع ذلك النبي المصاب، ومع ذلك العبد المبتلى توأسيه وتسلييه، فقال ﷺ: الحمد لله رب العالمين، وشكر الله على البلاء الذي أصابه، فقال إبليس عليه لعنة الله: اللهم سلطني على نفسه، فقال: لك كل شيء إلا لسانه وقلبه، فبقي ﷺ لا يمكن أن يفتر له

(١) وقد ذكرتُ نزرًا نافعًا من أخباره عليه السلام في كتاب الصبر.

لسان عن ذكر الله تبارك وتعالى، ولا يمكن أن يفتر له جنان عن حسن الظن بالله تبارك وتعالى.

تولّى عنه الناس حتى أصبح أنتن ما يكون رائحة، وتركوه إلى جوار المزابل - كما ورد في الأخبار - ولم يبق معه إلا زوجته التي بقيت معه تهتم به، فلما بلغ به الأذى مبلغه، وأصابه ما أصابه من الضر والبلاء؛ عندها تذكر الله تبارك وتعالى، وأحس بعظيم البلاء الذي يجده، فقال الله تعالى يصور ساعة اليقين من ذلك القلب الموقن: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤] ولما أراد الله أن يفرج كربته أمره بكلمة واحدة: ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ [ص : ٤٢] ما أمره أن يقوم وما أمره أن يذهب إلى أحد، وما أمره أن يسأل أحداً أن يفرج كربته، ولكن أمره بأمر واحد: ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ [ص : ٤٢] فجعل تفريج كربته من تحت قدمه، فلا إله إلا الله رب العالمين!

في طرفة عين تفجّرت العين، ثم اغتسل منها؛ فما بقي به مرض في جسده، وما بقيت به عاهة في بدنه، فقام ﷺ قوياً سويّاً من لحظة وساعته، الله أكبر! ما أيقن أحد بالله فخاب في يقينه، ولا رجاه أحد فخاب في رجائه.

ثم أعاد الله تبارك وتعالى عليه أهله وذريته، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أعاد إليه الأهل والذرية بأعيانهم، فردّ عليه الزوجات وردّ عليه الأبناء والبنات، ثم ردّ عليه أضعاف ما كان فيه من النعمة»^(١).^(٢)

أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ومن أئمة الراضين بالله تعالى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أول من دافع عن رسول الله ﷺ، فلما أراد المشركون أن يضربوا رسول الله ﷺ أو يقتلوه بمكة دافع عنه الصديق طاقته فضربوه حتى كادوا أن يقتلوه، فعن عروة بن الزبير قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾» [غافر: ٢٨]^(٣). وفي حديث أسماء رضي الله عنها: «فأتى الصريخ»^(٤) إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك. قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع^(٥)، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!!

(١) تفسير الطبري (١٨ / ٥٠٦) بنحوه.

(٢) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٨ / ٤٩)

(٣) البخاري (٤٥٣٧)

(٤) الصريخ: المغيث، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ [يس: ٤٣]، ويأتي بمعنى الصارخ المُنذر، وهو المراد هنا.

(٥) الغدائر: هي الجدائل وقرون شعر الرأس.

فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا رجع معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(١). فتأمل طمأنينته بالله ورضاه عنه وهو يثني عليه وهو في حاله هذا.

وعن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يحاذيه، وهذا يتلته»^(٢)، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويُجاهد هذا، ويتلثل هذا، وهو يقول: ويلكم، «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» [غافر: ٢٨]، ثم رفع عليُّ بردهً كانت عليه، ثم بكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم. ثم قال: ألا تحيوني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتُم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»^(٣).

وتأمل هذا الموقف الهائل المليء بالفداء والمحبة والرضا بالله تعالى ورسوله ﷺ ودينه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «لما أسلم أبو بكر قام خطيباً، فكان أول خطبته دعا إلى الله ورسوله، فثار المشركون على أبي بكر، فضربوه ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويجرفهما بوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف أنفه من وجهه.

(١) أبو يعلى (٥٢) وحسنه ابن حجر في فتح الباري (١٦٩ / ٧)

(٢) يتلته: من التلّ، وهو الجذب المنكر المتكرر العنيف.

(٣) البداية والنهاية (٢٧٢ / ٣)، وعزاه إلى البزار. وانظر: تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين

السيوطي، (٣٧)

فجاءت بنو تيم فحملت أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، لا يشكون في موته، وجعل أبوه وبنو تيم يكلمونه، فأجابهم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فنالوا منه بالسننهم وعدلوه وفارقوه، فلم يزل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى حمل إليه، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ يقبله، ورقَّ عليه رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذه أمي، وأنت مبارك، فادع لها، وادعها إلى الإسلام، لعل الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله تعالى فأسلمت»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]. قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا، فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»^(٢).

وُسُمِّيتَ صِدِّيقًا وَكُنْتَ مُهَاجِرًا سِوَاكَ يُسَمَّى بِاسْمِهِ غَيْرُ مُنْكَرٍ
وَبِالْغَارِ إِذَا سُمِّيتَ بِالْغَارِ صَاحِبًا وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ
سَبَقْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيسًا بِالْعَرِيشِ الْمُشَهَّرِ

وحين مات رسول الله ﷺ لم يزلزل عقله هذا الخطب المهول، بل ثبت قلبه في جبل الرضا بالله تعالى، فسلم أمره لله رب العالمين، فلما أتاه الخبر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٧٤٣٦)

(٢) الماوردي في تفسيره (٢٧٣/٦)، وابن أبي حاتم بسند حسن، وابن مردويه، والضياء في المختارة.

حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيّم رسول الله ﷺ وهو مُغشّى^(١) بثوب حَبْرَة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت لك فقد مُتَّها، ثم خرج أبو بكر - وعمر يُكلم الناس - فقال: أيها الحالف على رسلي، وقال: اجلس يا عمر، فأبي عمر أن يجلس، فلما تكلم أبو بكر أقبل الناس إليه وتركوا عمر، فجلس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأنّ الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرتُ حتى ما تُقلّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات. وقال الراوي: فتلقاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، ونشج الناس ييكون^(٢).

لا يلبث الأحابُّ ان يتفرّقوا ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارٌ

(١) أي: مُسجّى ومُغطّى.

(٢) البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٧، ٤٤٥٤)، وانظر: البداية والنهاية (٥ / ٢٤١،

(٢٤٢)، وحلية الأولياء (١ / ٢٩)

صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيَّرُوا وَالطَّيِّبُونَ عَلَيْكَ وَالْأَبْرَارُ
ولا يمكن احتمال هذا الخطب الثقيل المزعزع الجسيم إلا لمن امتلأت
نفسه بالرضا عن الله تعالى، فدار مع أمره وقضائه حيث دارا، فالتنظير
والتأطير والقول يسيرٌ على الناس، ولكن حينما تحقق الحقائق، وتجمم الخطوب،
وتترزل أفئدة الرجال؛ حينها يظهر الراضي التام حقا وصدقا.

ولقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سادة الرضين بالله تعالى، وكان يكثر من حمد
الله على البلاء، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: «ما أُصِبت ببلاءٍ إِلَّا كَانَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهِ
أربع نعم: أَنَّهُ لم يكن في ديني، وَأَنَّهُ لم يكن أكبر منه، وَأَنِّي لم أُحَرِّم الرضا
والصبر، وَأَنِّي أرجو ثواب الله تعالى عليه».

زَمَانُكَ لَوْ تَدْرِي زَمَانُ زَعَاذِعَ	فَكَانَ ثَابِتًا فِي الدِّينِ كَالطُّودِ رَاسِيَا
فَصَلَبًا عَلَى الْبَاغِي رَحِيمًا بِمُؤْمِنٍ	كَثِيرِ النَّدَى سَمَحًا وَلِلْمَالِ حَاشِيَا
فَمَنْ كَانَ صَلَبَ الدِّينِ صَحَّ فَوَادُهُ	وَمَنْ كَانَ رُخْوًا فَهُوَ لِلدَّوْنِ سَاعِيَا
اذْكُرْ نَعِيمَ الْعَدَنِ وَاذْكُرْ لَطْفَ لَطْفِي	وَاحْذَرِ فَقْدَ يُلْقِيكَ مَنْ لَا يِبَالِيَا
وَاسْكُبْ مِنَ الْعَبْرَاتِ دَمْعًا سَوَاجِمًا	فَمَا أَقْرَبَ الْغُفْرَانِ إِنْ كُنْتَ بَاكِيًا
وَاسْجُدْ سَجُودَ الذُّلِّ وَاطْلُبْ نَوَالَهُ	فَإِنَّ إِلَهَ الْحَقِّ يُحْيِي الْبَوَالِيَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ تَوْحِيدُ رَبِّنَا	فَوَحِّدْ وَكُنْ دَوْمًا حَنِيفًا وَدَاعِيَا
وَلَا تَنْسُ أَنْ تَرْضَى عَنْ اللَّهِ دَائِمًا	فَقَدْ فَازَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ رَاضِيَا
وَسَابِقُ إِلَى الطَّاعَاتِ تُعْطَى رِضَاءُهُ	وَمَنْ يَرْضَ عَنْهُ اللَّهُ حَازَ الْمَعَالِيَا

عائشة الصديقة رضي الله عنها

هذا وإن من سادة الراضين بالله تعالى الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، المبرأة من فوق سبع سماوات، التي جعلها الله فرقاناً بين أهل الإيمان والإحسان والسنة وأهل النفاق والرفض والبدعة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها فقال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله؛ عَلِمَ معرفتها وقوة إيمانها وتوليبتها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها. قالت ما قالت إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعت موضعاً. والله ما كان أحبها إليه^(١) حين قالت: «لا أحمد إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي». والله ذلك الثبات والرزانة منها، وهو أحب شيء إليها، ولا صبر لها عنه، وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً، ثم صادفت الرضا وقربه، مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة»^(٢).

الصحابة والصحابيات رضوان الله عليهم

إن الرضا بالله تعالى قد اختلط بأرواح الصحابة رجالاً ونساءً، وكل مصاب بين أعينهم يصغر إزاء مصيبة الدين بفقد الرسول ﷺ، فعن سعد بن

(١) أي: إلى رسول الله ﷺ.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٣١)

أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها»^(١) مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟، قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رآته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة»^(٢).

ومن جميل الأخبار لأهل الرضا واليقين خبر جابر وأبيه وزوجه رضي الله عنهم، فقد روى الإمام أحمد بسنده في مسنده^(٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين ليقاتلهم، وقال لي أبي عبد الله: يا جابر، لا عليك أن تكون في نَظَّاري^(٤) أهل المدينة، حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي، لأحببت أن تقتل بين يدي^(٥).

(١) أي: قتلوا جميعًا.

(٢) سيرة ابن هشام (٩٩ / ٢) والدلائل للبيهقي (٣ / ٣٠٢)

(٣) المسند (١٥٢٨١) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العنزي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة.

(٤) قال السندي: قوله: «نَظَّاري أهل المدينة» بفتح نون وتشديد ظاء، أي: في جملة النظَّارين لعاقبة الأمر من أهل المدينة.

(٥) أي: ليس المقصود الضَّنُّ بك، وإنما المقصود الشفقة على البنات، بأن تكون لهن بعدي بعد الله تعالى.

قال: فبينما أنا في النظّارين إذ جاءت عمّتي بأبي وخالي، عادلتُهما على ناضح^(١)، فدخلتُ بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: «ألا إنّ النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها في مصارعها حيث قُتلت»، فرجعنا بهما فدفنّاهما حيث قُتلا، فبينما أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان؛ إذ جاءني رجل فقال: يا جابر بن عبد الله، والله لقد أثار أباك عمّال معاوية^(٢)، فبدا فخرج طائفةً منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفتته، لم يتغيّر إلا ما لم يدع القتل^(٣)، فواريته^(٤).

(١) أي: جعلت كل واحد منهما في جهة من البعير. وفيه عظيم صبر نساء الصحابة، ووفور عقولهن، ورضاهن بالقضاء، وقوة شكيمتهن عند مرارات البلاء.

(٢) أي: خرجت جثة والدك جرّاء عملهم حين أجرى معاوية رَضَائِلَهُ عَنهُ العين لأهل المدينة.

(٣) أي: إلا ما غيّر القتل.

(٤) أي: دفتته في قبره. وروى البيهقي عن جابر أيضًا، أنه قال: «لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة، استصرخناهم إليهم، فأتيّناهم فأخرجناهم، فأصابَت المسحاة قدم حمزة بن عبد المطلب فانبعث دمًا»، وفي رواية ابن إسحاق: «فأخرجناهم كأنّهم دفنوا بالأمس». وفي رواية الواقدي عن جابر أيضًا: «فحفرنا عنهم فوجدتُ أبي في قبره كأنّما هو نائم على هيئته، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه، فأزيلت عنه فانبعث جرحه دمًا!»

وجاء في الاستيعاب لابن عبد البر: أن بعض أهل طلحة بن عبيد الله رآه في المنام يقول: «ألا تريحوني من هذا الماء، فإني قد غرقت». ثلاث مرات يقولها، فنبشوه من قبره أخضر كأنه السلق، فنزفوا عنه الماء، ثم استخرجوه، فإذا ما يلي الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض، فاشترؤا دارًا من دور أبي بكرة فدفنوه فيها. وقال ابن إسحاق في

=

المغازي: حدثني أبي عن أشياخ من الأنصار: «لما ضرب معاوية عينه التي مرّت على قبور الشهداء، انفجرت العين عليهم، فجئنا فأخرجناهما يعني - عمرًا وعبد الله - وعليهما بُردتان قد غطّي بهما وجوههما، وعلى أقدامهما شيء من نبات الأرض، فأخرجناهما يتثنّيان تشنّيا كأنهما دفنا بالأمس». وروى ابن الجوزي في صفوة الصفوة عن جابر قال: «لما أراد معاوية أن يُجري عينه التي بأحد، كتبوا إليه: أنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: انشؤهم، قال: فرأيتهم يُحملون كأنهم قوم نيام، وأصابَت المسحاة رجل حمزة فانبعثت دمًا».

وروى ابن سعد في الطبقات (٣ / ٥٦٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل قتل من المسلمين يوم أحد، فصلّى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة، وقال رسول الله ﷺ: «ادفنوا عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح في قبر واحد؛ لما كان بينهما من الصفاء»، وقال: «ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد»، قال: وكان عبد الله بن عمرو رجلاً أحمر، أصلع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح رجلاً طويلاً مفرقاً، فدُفنا في قبر واحد، وكان قبرهما مما يلي السيل، فدخله السيل فحفر عنهما وعليهما نمرتان، وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على جرحه، فأميّط يده عن جرحه فانبعث الدم، فُرِدَّتْ يده إلى مكانها فسكن الدم»، قال جابر: «فأريت أبي في حفرة كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير»، فقليل له: فأريت أكفانه؟ قال: «إنما كُفّن في نمرة، خُمّر بها وجهه، وجعل على رجله الحرمل، فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجله على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة»، فشاورهم جابر في أن يطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «لا تُحدِثوا فيهم شيئاً»، وحول من ذلك المكان إلى مكان آخر، وذلك أن القناة كانت تمرّ عليهما، وأخرجوا رُطْبًا يتثنون.

=

=

ومن ذلك ما ذكره الشيخ حمود التويمجري رَحِمَهُ اللهُ في قصص العقوبات والعبر والمواعظ، قال: «ومن القصص ما أخبرنا به الشيخ عبد الرحمن بن فارس بن عبد العزيز الفارس، وهو من سكان مدينة الرياض، قال: جاء سيل عظيم في وادي حنيفة، في سنة تسع وخمسين وثلاثمئة وألف من الهجرة، فجَرَفَ الناحية التي تلي قبور الصحابة الذين قُتِلوا يوم اليمامة في سنة إحدى عشرة من الهجرة، فحصلت فرجةٌ في أحد القبور مما يلي الوادي، وبدا جسد الميت الذي كان في ذلك القبر.

قال الشيخ عبدالرحمن: فبلغني ذلك وأنا في ناحية الجبيلة، فجئت مسرعاً فإذا موضع القبر مرتفع في جانب الوادي لا يوصل إليه إلا بسلم. قال: فجئت بأخشاب وأسندتها إلى موضع القبر وصعدت عليها، فرأيت الميت في قبره لم يتغيّر منه شيء، وكأنه نائم، وقد كُفِّنَ في شَمْلَةٍ بيضاء - والشَّمْلَةُ: كساء من صوف أو شعر - ورُبِطَت الشَّمْلَةُ عليه بخص النخل، وقد بدا وجهه وعينه وأسنانه ورجلاه، وخرجت عقيصةٌ من عقائص رأسه طولها نحو ذراع، فتدلّت خارج القبر. قال: فرفعتها وأدخلتها في الكفن، ووضعت يدي على صفحة وجهه وكأني وضعتها على رجل نائم! قال: ووجهه أبيض يميل إلى السمرة، وما بدا من شعر لحيته فهو أشمط، وعينه مفتوحتان قليلاً، وقد بقي الخوص الذي رُبِطَ به الشَّمْلَةُ على لونه أخضر إلا أنه يابس.

قال: ولما علم به أهل الجبيلة ومن حولهم جعلوا يأتون إليه وينظرون إليه. فذهب إمام أهل الجبيلة ورئيس هيئة الأمر بالمعروف عندهم إلى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فأخبراه بذلك، فأمرهما أن يأخذا معها رجالاً ونعشاً يحملون الميت عليه، وأمرهم أن يحفروا له في الليل قبراً في وسط القبور ويدفنوه ويعموا موضع قبره، لئلا يفتتن به الناس، ففعلوا.

قال الشيخ حمود: لا شك أن هذا الميت من الشهداء الذين قتلوا في المعركة التي كانت بين الصحابة وبين أصحاب مسيلمة الكذاب. فيحتمل أنه من الصحابة رضي الله عنهم،

=

=

لأنه قد اشتهر عند الناس أن القبور التي في ذلك الموضع قبور الصحابة. ويحتمل أنه من الذين كانوا يقاتلون مع الصحابة وليس منهم. والاحتمال الأول أقرب، والله أعلم. وقد كان بين معركة اليمامة وبين ظهور هذا الميت ألف وثلاثمئة وثمان وأربعون سنة. ومع هذه المدة الطويلة فقد بقي الشهيد على حاله لم يتغير منه شيء، ولم يتغير كفنه، ولا الخوص الذي رُبط به الكفن. وفي هذا عبرة لأولي الألباب والعقول السليمة.

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعُ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ». رواه ابن ماجه (٢٧٩٩) وغيره، وصححه الألباني. وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفْتَنُونَ في قبورهم إِلَّا الشهيد؟ قال: «كَفَى بِبَارِقَةِ السَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً». رواه النسائي (٢٨٩ / ١) وصححه الألباني في أحكام الجنائز، (ص: ٥٠) ومعنى «يُفْتَنُونَ»: أي: بسؤال الملكين وهي فتنة القبر، والله المستعان. وعن مسروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ آل عمران: ١٦٩ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ؟ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضِر، لها قناديل مُعَلَّقة بالعرش، تُسْرَح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلّاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نُسْرَح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوأ من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن نردّ علينا أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا». رواه مسلم (١٨٨٧).

=

=

وبحمد الله تعالى فمن فضله العظيم أن الشهادة ترجى لمن سألها مخلصاً من قلبه، ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة، بدليل قوله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ». رواه مسلم (٤٩ / ٢).

أَيَا مُبْتَغِي الْفِرْدَوْسِ عَجَّلْ بِصَارِمٍ وَكُنْ صَادِقَ الْإِقْبَالِ عِنْدَ التَّلَاقِ
فَإِنْ تَحْيَ عِشْتَ الْعِزَّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى سَتَلْقَى الْمَرَاقِيا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ (٢ / ١٩٤): «ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أسير الميتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفارّ يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الْأَنْزَاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه». ومما قلته قديماً في ثامر السويلم رحمه الله تعالى وتقبّله، المشهور بالقائد خطاب:

وَقَدْ مَاتَ سَيْفُ اللَّهِ بِالْأَمْسِ خَالِدٌ وَقَدْ خَاضَ زَحْفًا بِلْ حُرُوبًا ضَوَارِيَا
وَقَدْ قَالَ قَوْلًا يَقْدَحُ النُّورَ فِي النَّهْيِ فَلَا نَامَ مِنْ أَمْسَى جَبَانًا وَسَالِيَا
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ مَيِّتَةٍ مَنْ تَوَى قَتِيلًا شَهِيدًا مَنْ قَتَالَ الْبَوَاغِيَا
وَمَنْ مَاتَ مِثْلَ الْكَلْبِ مِنْ شَبَعِ بَطْنِهِ وَقَدْ مَاتَ خَوَّارًا جَبَانًا وَلَا هِيَا
فَمَنْ ذَا يَبِيعُ الْمُسْتَهَامَ جَنَانَهُ فَقَدْ نَادَتْ الْفِرْدَوْسُ مَنْ كَانَ سَامِيَا

=

=

فإن مات خطّابُ فما مات ربُّنا
لئن فقد الإسلامُ للحربِ قائداً
لئن مات خطّابُ فقد مات قبله
لئن رحل الخطّابُ عن دارِ غُربةٍ
ألا لا تُزكِّي فتاناً وإنما
عسى جدُّ يحوي عظاماً لحبنا
لقد كان خطّابُ كَأَلْفِ تَكَاتُفُوا
فإن كان خطّابُ شَرَى الموتَ بالبقا
لقد أُبْرِدَ الأَكْبَادَ حَقّاً بفعلِهِ
جَزَى اللهُ شيخاً حَبَبَ السُّبُلِ للعلی
لك الحمدُ يا ربّاً عظيماً نوالُهُ
وكم من وليٍّ للالهِ قد ارتوى
يقومُ فيدعو والأنامُ بغفلةٍ
جَهَلْنَا له اسماً! ما عرفنا مكانه!
ومات وما نعلمُ له من علامةٍ
ونُفْتَحُ أبوابُ السماءِ رِضاً به
يطيرُ ويعلو في الجنانِ مُخَلِّداً
لئن نثرَ الكفارُ كلَّ سهامِهِم
ومات وما نعلمُ له من علامةٍ

فَمَنْ أوجَدَ الخطّابَ إذ كان فانيّا!
فلن تُعَقِّمَ النِّسوانِ إِنْجَابَ ثانيا
أُسودَّ لدى الصّولاتِ طِبُّ الدّواهِيا
فرُبَّ شهيدٍ في الجنانِ العواليّا
تجيشُ شجونٍ في الصُّدورِ القواليّا
رياضُ جنانٍ مُرَعَّاتٍ سَواقِيا
ورُبُّالِ غيلٍ من أشدِّ الصّواريّا
فَسَاوِمٍ بِذاكِ البيعِ إن كنتَ شاريّا
فقد كان خطّابُ ثَمالَ الصّواديّا
جِنانِ نعيمٍ لم تُعَبِّ بزواليّا
يَبْعَثُكَ جُنْدًا في زمانِ التَّهاويّا
تَرى الأرضِ من كَلَمٍ لَهُ ويُقاسِيا
ويصبحُ صَنديداً هُصُوراً مُصاليّا
وقد عَلِمَ المَنانُ وهو المُكافيّا
سوى وَجْهِه بَدْرٍ مُستنيرٍ ودَاميّا
ويكي ترابُّ الأرضِ من فَقْدِ دَاعيّا
ويَنّا بِحُورٍ من حِسانِ الجَوارِيا
فما ينصرُ الإسلامَ غيرَ إلهيّا
سوى وَجْهِه بَدْرٍ مُستنيرٍ ودَاميّا

قال: وترك عليه دينًا من التمر، فاشتدّ عليّ بعض غرمائه في التقاضي، فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، إن أبي أصيب يوم كذا وكذا، وترك عليه دينًا من التمر، وقد اشتدّ عليّ بعض غرمائه في التقاضي، فأحبُّ أن تعينني عليه لعلّه أن يُنظرني طائفةً من تمره إلى هذا الصّرام المقبل^(١)، فقال: «نعم، آتيك إن شاء الله قريبًا من وسط النهار»، وجاء معه حوارِيُّوه^(٢)، ثم استأذن، فدخل وقد قلت لامرأتي: إن النبي ﷺ جاءني اليوم وسط النهار، فلا أرينك، ولا تؤذي رسول الله ﷺ في بيتي بشيء، ولا تكلميه، فدخل ففرشت له فراشًا ووسادة، فوضع رأسه فنام، قال: وقلت لمولى لي: اذبح هذه العناق^(٣)، وهي داجن سمينه، والوحا^(٤) والعجل، افرغ منها قبل أن يستيقظ رسول الله ﷺ، وأنا معك، فلم نزل فيها حتى فرغنا منها، وهو نائم، فقلت له: إن رسول الله ﷺ إذا استيقظ يدعو بالطهور^(٥)، وإني أخاف إذا فرغ أن يقوم، فلا يفرغن من وضوئه حتى تضع العناق بين يديه، فلما قام قال: «يا جابر، اتّني بطهور»، فلم يفرغ من طهوره حتى وضعت العناق عنده، فنظر إلي فقال: «كأنك قد علمت حبنا للحم، ادع لي أبا بكر»، قال: ثم دعا حوارِييه

(١) أي: يؤخر مطالبتها إلى جذاذ التمر في السنة الآتية.

(٢) أي: خاصة أصحابه وأحبّائه.

(٣) وهي أنثى المعزى الصغيرة، وتسمى: الجفرة.

(٤) الوحّا: من ألفاظ الحثّ والأمر بالعجلة والإسراع. يُمدّ ويقصر، وهو دومًا منصوب على الإغراء.

(٥) عرفوا عاداته وصفاته وسنته لما اشتدّ حبهم له واتباعهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

الذين معه فدخلوا، فضرب رسول الله ﷺ بيديه وقال: «بسم الله، كلوا»، فأكلوا حتى شبعوا، وفضل لحم منها كثير قال: والله إن مجلس بني سَلَمَةَ^(١)، لَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وهو أحبُّ إليهم من أعينهم^(٢)، ما يقربه رجل منهم مخافة أن يؤذوه، فلما فرغوا قام، وقام أصحابه فخرجوا بين يديه، وكان يقول: «خَلُّوا ظَهري للملائكة»^(٣)، واتبعتهم حتى بلغوا أُسْكُفَةَ الباب^(٤)، قال: وأخرجت امرأتي صدرها^(٥)، وكانت مستتره بِسَفِيفٍ^(٦) في البيت، قالت: يا رسول الله صلِّ عليَّ وعلى زوجي^(٧) صلَّى الله عليك. فقال: «صلَّى الله عليك وعلى زوجك».

ثم قال: «ادع لي فلاناً» لغريمي الذي اشتدَّ علي في الطلب، قال: فجاء فقال: «أَيُّسِرُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»^(٨) طائفةً من دينك الذي على أبيه إلى هذا الصَّرام

(١) أي: قبيلته الأذنون منه في مجلسهم وناداهم.

(٢) أي: من قلة اللحم حينها.

(٣) أي: تتبعه ملائكة الرحمن بأمر الله تعالى فتحفّه وتشيعه وتحرسه.

(٤) أي: عتبة الباب التي يوطأ عليها والجمع: أُسْكُفَاتٌ.

(٥) أي: تقدمت قليلاً للنبي ﷺ لتُسمِعَهُ كلامها.

(٦) السَّفِيف: ما يُنسَج من الخوص.

(٧) الصلاة من الله تعالى الثناء، ومن عباده الدعاء، وفيه جواز الصلاة على الشخص بقول:

صلّى الله عليك، ولكن بلا مداومة، إنما المداومة والالتزام تكون لرسول الله ﷺ.

(٨) أي: أنظره إلى وقت الصرام المقبل.

المقبل»، قال: ما أنا بفاعل، واعتلّ^(١) وقال: إنما هو مال يتامى، فقال: «أين جابر؟» فقال: أنا ذا يا رسول الله، قال: «كُلْ له، فإنَّ الله سوف يُوفِّيه»، فنظرتُ إلى السماء، فإذا الشمس قد دَلَكَتْ^(٢)، قال: «الصلاة يا أبا بكر»، فاندفعوا إلى المسجد، فقلت: قَرَّبَ أوعيتك، فكلتُ له من العَجوة فوقاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا، فجئتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ في مسجده، كأني شرارة^(٣). فوجدتُ رسول الله ﷺ قد صَلَّى^(٤)، فقلت: يا رسول الله ألم تر أني كلت لغريمي تمره، فوقاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا، فقال: «أين عمر بن الخطاب؟» فجاء يهرول، فقال: «سل جابر بن عبد الله عن غريمه، وتمره» فقال: ما أنا بسائله قد علمتُ أن الله سوف يوفِّيه، إذ أخبرت

(١) أي: تعلل بحجة أن المال مال أيتام.

(٢) أي: زالت، وقت صلاة الظهر، وفي التنزيل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

(٣) أي: من الإسراع والفرح بقضاء دينه، وبإجراء دليل النبوة على يديه، فقد كان ميزانه يرجح بخرق العادة له ببركة دعاء الرسول ﷺ.

(٤) لأن منازل بني سلمة بعيدة عن مسجده ﷺ، فهم يصلّون في مسجدهم، ولما أرادوا القرب منه بالمنازل أمرهم بالبقاء في منازلهم حمايةً لشجر المدينة. فعند مسلم (٦٦٤) من حديث جابر قال: أراد بنو سلمة أن يتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تتقلوا قرب المسجد؟» فقالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «بني سلمة، دياركم، تُكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». أي: الزموا دياركم لتكتب خطواتكم إلى المسجد.

أن الله سوف يوفيه^(١)، فكرر عليه هذه الكلمة ثلاث مرات، كل ذلك يقول: ما أنا بسائله، وكان لا يُراجع بعد المرة الثالثة^(٢)، فقال^(٣): يا جابر؛ ما فعل غريمك وتمرك؟ قال: قلت: وفاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا. فرجع إلى امرأته، فقال: ألم أكن نهيتك أن تكلمي رسول الله ﷺ؟ قالت: أكنتَ تظنُّ أن الله يوردُ رسولَ الله ﷺ بيتي، ثم يخرج، ولا أسأله الصلاة عليّ وعلى زوجي قبل أن يخرج^(٤).

وعن نافع قال: اشتكى ابن لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاشتدَّ وجْدُهُ عليه^(٥)، حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ أن يحدث بهذا الغلام حَدَثًا، فمات الغلام. فخرج ابن عمر في جنازته، وما رجل أشدَّ سرورًا منه، فقبل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان رحمةً له، فلما وقع أمر الله رضيانا به^(٦).

(١) ليقينه بالصادق في حاله ومنطوقه، المصدوق من ربِّه وخليله صلى الله عليه وآله وسلم وبارك.

(٢) أي: رسول الله ﷺ.

(٣) أي: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) وهذا من محبتها له ﷺ، وتبركها باتباعه ودعائه لها رضي الله عنهما، واغتنامها فرصة خلوه ﷺ لها عن سائر الناس، ونصحها لزوجها بسؤاله ﷺ الدعاء له ولها.

(٥) أي: عظم خوفه وشفقته من شدة محبته له.

(٦) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٤٥٧)

من أخبار رضا التابعين ومن بعدهم بالله تعالى

وخبر عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللهُ عَجِيبٌ فِي شَأْنِ الرِّضَا بِاللَّهِ تَعَالَى، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ لَمَّا خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ مَتَوَجِّهًا إِلَى دِمَشْقَ لِيَجْتَمَعَ بِالْوَلِيدِ، وَقَعَتِ الْآكَلَةُ^(١) فِي رِجْلِهِ فِي وَادٍ قَرِبَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَبْدُؤُهَا هُنَاكَ، فَظَنَّ أَنَّهَا لَا يَكُونُ مِنْهَا مَا كَانَ، فَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ، فَمَا وَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ إِلَّا وَهِيَ قَدْ أَكَلَتْ نِصْفَ سَاقِهِ! فَدَخَلَ عَلَى الْوَلِيدِ، فَجَمَعَ لَهُ الْأَطْبَاءُ الْعَارِفِينَ بِذَلِكَ، فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَقْطَعْهَا أَكَلَتْ رِجْلَهُ كُلَّهَا إِلَى وَرِكَه، وَرَبِمَا تَرَقَّتْ إِلَى الْجَسَدِ فَأَكَلَتْهُ. فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِنَشْرِهَا.

وَقَالُوا لَهُ: أَلَا نَسْقِيكَ مُرَقَّدًا حَتَّى يَذْهَبَ عَقْلُكَ مِنْهُ؟ فَلَا تُحْسِ بِأَلَمِ النِّشْرِ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا يَشْرَبُ شَرَابًا أَوْ يَأْكُلُ شَيْئًا يَذْهَبُ عَقْلُهُ! وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ لَا بَدَ فَاعِلِينَ فَافْعَلُوا ذَلِكَ وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ، فَإِنِّي لَا أَحْسُ بِذَلِكَ، وَلَا أَشْعُرُ بِهِ^(٢).

قَالَ: فَنَشَرُوا رِجْلَهُ مِنْ فَوْقِ الْآكَلَةِ، مِنَ الْمَكَانِ الْحَيِّ؛ احتياطًا أَنَّهُ لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يَصِلِي، فَمَا تَضَوَّرَ وَلَا اخْتَلَجَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ

(١) وَهِيَ مَا تَسْمَى الْيَوْمَ بِالْغُرْغُرِيْنَا، وَهِيَ مَوْتُ أَنْسَجَةِ الْجَسْمِ، إِمَّا لِنَقْصِ تَدْفُقِ الدَّمِ إِلَيْهَا، وَإِمَّا لِإِصَابَتِهَا بَعْدَى بَكْتِيرِيَّةٍ خَطِيرَةٍ. وَتَصِيبُ الْغُرْغُرِيْنَا عَادَةً الْأَطْرَافَ بِمَا فِيهَا أَصَابِعُ الْقَدَمِينَ وَأَصَابِعُ الْيَدِينَ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَصِيبُ أَيْضًا الْعِضَلَاتِ وَالْأَعْضَاءَ الدَّاخِلِيَّةَ مِثْلَ الْمَرَارَةِ.

(٢) لَا اسْتِغْرَاقَهُ فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، (١٣٢١) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

عزّاه الوليد في رِجله. فقال: اللّٰهُمَّ لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً، فلئن كنتَ قد أخذتَ فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت، وعلى ما عافيت.

قال: وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد، وكان أحبّهم إليه، فدخل دار الدوابّ فرفسته فرس فمات، فأتوه فعزّوه فيه، فقال: الحمد لله، كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت.

فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة. قال: فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده، ولا شكاً ذلك إلى أحد، حتى دخل وادي القرى، فلما كان في المكان الذي أصابته الآكلة فيه قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه، ويُعزّونه في رجله وولده، فبلغه أن بعض الناس قال: إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه. فأنشد عروة في ذلك أبياتاً لمعن بن أوس يقول فيها:

لعمرك ما أهويتُ كَفِّي لريّةٍ	ولا حمكتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قاذني سمعي ولا بصري لها	ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولستُ بماشٍ ما حييتُ لمنكّرٍ	من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثّر نفسي على ذي قرابة	وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي

وأعلم أنّي لم تصبني مصيبةٌ من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي»^(١)
وعن مغيرة قال: اشتكى ابن أخي الأحنف إلى الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللهُ
وجع ضرسه، فقال له الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها
لأحد^(٢). وهذا الصنيع العزيز بالكف عن الشكوى لغير الله تعالى هو امتثال
لقوله تعالى في شأن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾
[يُوسُف : ٨٦].

ولله تلك العائلة المُعَادِيَّة الطَّيِّبَة، فعن شهر بن حوشب رَحِمَهُ اللهُ قال:
طعن عبد الرحمن بن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٣)، فدخل عليه أبوه فقال له:
كيف تجددك أي بني؟ قال له: يا أبت: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ﴾ [البَقَرَة : ١٤٧] فقال له معاذ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ﴾ [الصَّافَّات : ١٠٢].^(٤)

وعن الحسن رَحِمَهُ اللهُ قال: عاد نفرٌ من الصدر الأول رجلاً، فوجدوه في
الموت، فقال له بعض القوم: ما عندك في مصرعك هذا؟ قال: «الرضا»^(٥).
وكفى به للمؤمنين من العاديات ملاذاً.

(١) البداية والنهاية (٩ / ١٢٠، ١٢١)

(٢) صفة الصفوة (٣ / ١٤٠)

(٣) أي: أصيب بمرض الطاعون.

(٤) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥ / ٣٤١)

(٥) عن: حياة السلف بين القول والعمل، أحمد الطيار (١ / ٤٦٠)

وإن رويتُ أحاديثَ الذين مضوا فعن نسيم الصِّبا والبرقِ إسنادي هذا؛ ولإمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ مواقف عاطرة طاهرة جميلة في رضاه بأقدار مولاه سبحانه، ودورانه مع أمره، والسباحة في بحر الرضا به، والسكون في دار الطمأنينة بإلهه تبارك وتعالى.

ولما قضى الله تعالى أمره، وأراد رفعته كتب في اللوح أن يكتوي مع أصحابه في كَيْرِ فتنة القول بخلق القرآن العظيم، ثم وفقه بأن ثبته على الحق فيها، فأخرجه منها ذهباً خالصاً إبريزاً، وجبلاً شامخاً عظيماً، وعِلْماً للمُؤْتَمِنِينَ بسنة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فمن بداية الفتنة، ثَبَّتَ الله سبحانه قلب الإمام أحمد، وعَصَمَ لسانه من النطق تَقِيَّةً بخلق القرآن، وأصرَّ على رفض هذه المقولة، وأعلن السنة: «القرآن غير مخلوق». والدولة من ورائه من سُدَّتْها العليا إلى أخلاف السوء. فهذا ظهور للسنة وأهلها من أول يومها، وكسر للبدعة والضلالة وأهلها.

ولهذا ساق ابن الجوزي بسنده إلى ابن أبي أسامة قال: «حُكِيَ لَنَا أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ قِيلَ لَهُ أَيَّامَ الْمَحَنَةِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَا تَرَى الْحَقَّ، كَيْفَ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ؟ فَقَالَ: كَلَّا، إِنَّ ظَهْرَ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ أَنْ تَنْتَقِلَ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ، وَقُلُوبُنَا بَعْدُ لَازِمَةٌ لِلْحَقِّ»^(١). ثم أظهر الله تعالى أحمد السنة على أحمد البدعة، بالبرهان والحجة، وسقوط أحمد البدعة، وتهافت شبهه، واضمحلال

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٤٢١/١)

مقالته، وهلك ابن أبي دؤاد ببغداد، ولم يشهد جنازته مخلوق^(١). وصدق ابن
المديني رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «أَعَزَّ اللهُ هذا الدِّينَ برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر
الصدّيق يوم الردّة وأحمد بن حنبل يوم المحنة»^(٢).

ثم ابتلاه الله تعالى بالمحنة الثانية، وهي مكيدة يديرها الحاقدون بعد
ثلاث سنين من إخماد محنة القول بخلق القرآن، فأشعل المفتونون حينها محنة
ثانية للإمام أحمد، من باب الكيد له، خلاصتها: أن المتوكل كان يكره
العلويين، ومن يؤويهم، فأعلن أخلافُ السوء أن الإمام أحمد كان يؤوي علويًا
من خراسان في داره، واستطاعوا بهذا تحريك المتوكل ضده سنة (٢٣٧ هـ)
فبعث له المتوكل بواسطة واليه على بغداد، فريقًا من الرجال والنساء، فكبسوا
عليه داره ليلاً، يُفْتَشُون عن وجود ذاك العلوي في داره، فخاب الفاتنون،
وظهرت براءة أحمد، ففَرَحَ المتوكل.

ثم ابتلاه ربه بالمحنة الثالثة وهي محنة الدنيا، فقد بعث المتوكل للإمام
أحمد جائزة الظهور بالحجة على ابن أبي دؤاد، وهي عشرة آلاف درهم، مع

(١) نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣٧٧/١٠) عن يحيى الجلاء أَنَّهُ رأى كأنَّ أحمد
بن حنبلٍ في حلقةٍ بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤادٍ في حلقةٍ أخرى، وكان رسولُ الله
ﷺ واقفٌ بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ [الأنعام : ٨٩]
وَيُشِيرُ إِلَى حَلَقَةِ ابْنِ أَبِي دُؤَادٍ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام : ٨٩]
ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه.

(٢) رواه الخطيب في تاريخه (٤١٨ / ٤) وابن أبي يعلى في الطبقات (١٣ / ١) ونحوها عن
المزني كما في السير للذهبي (٢٠١ / ١١)

مندوبه، بكتاب رقيق العبارة واعتذار، وإجلال للإمام أحمد، وتأكيده عليه بقبول الجائزة، ودعوته للمجيء إليه. فوقف أحمد حيران، ثم فُتح له بقبولها، لكن ما طلع الفجر إلا وقد وزَّع الدراهم كُلِّها على أولاد المهاجرين والأنصار وفقراء عامة المسلمين.

ثم ابتلاه الله تعالى بالمحنة الرابعة، وهي محنة الدنيا الثانية، فقد خرج الإمام أحمد إلى المتوكل إجابة لدعوته، وفي طريقه - لما علم المتوكل بخروجه - بعث بعشرة آلاف درهم لأولاد الإمام أحمد، ورغب إليهم عدم إخبار أحمد بها. واستقبل قصر المتوكل الإمام أحمد، بما فيه من حَشَمٍ وخَدَمٍ ووزراء، والعيون تنظر إليه بالتقدير والحب والإجلال، في قصص يطول ذكرها. لكن الإمام أحمد يرى أنه إن كان بالأمس - أيام محنة القول بخلق القرآن - في سجن البدن، فهو اليوم في سجن الروح، فهو يتمنى الخلاص والإذن له بالعودة إلى داره في بغداد، والإمام يرفض العطاء، ويرفض السكنى عند المتوكل، ويرفض قبول شراء دار له في بغداد. ويبعث بالكتاب بعد الكتاب لولده في بغداد بعدم قبول الجوائز والصلات، ويوصيه بالحرص على الزهد والقناعة.

وأحمد رَحِمَهُ اللهُ يصبر ويحتسب ويرضى بقضاء الله تعالى أمام هذه المواجهات والمحن والفتن، وما زال في رفعة وعلو، وجلالة قَدَرٍ مَلَأَتْ قلوب الناس، وصار لقلوبهم مثل العافية لأبدانهم. وما أجود ما قاله الذهبي حينما امتحن الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ في مسألة أيمان البيعة: وهذا ثمرة المحنة المحموده؛ أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا،

ويعفو الله عن كثير، «ومن يُرد الله به خيراً يُصِبْ منه»^(١). وقال النبي ﷺ: «كل قضاء المؤمن خير له»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [مُحَمَّد: ٣١] وأنزل في وقعة أحد قوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، فالمؤمن إذا امتحن؛ صبر واتعظ واستغفر ولم يتشاغل بدم من انتقم منه، فالله حكم مقسط، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له»^(٣). (٤)

وتمنّ شاكراً حامداً ربك في مقالة الكاتب الغربي المشهور (ر. ن. س. بودلي) بعنوان: «عشتُ في جنة الله» قال: «في عام ١٩١٨ م ولّيتُ ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممتُ شطر أفريقيا الشمالية الغربية؛ حيث عشت

(١) البخاري (١٠ / ٩٤) وأكثر العلماء ضبطوا الصاد بالكسر. قال أبو عبيد الهروي: «معناه: يبتليه بالمصائب ليُشَبِّهه عليها».

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٢٤) من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له». وسنده جيد. قاله شعيب الأرنؤوط رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) السير (٧٣/٨)

(٤) عن المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد لبكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ (١/٤٠٠) باختصار وتصرف يسير.

بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وأكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألقت كتابًا عن محمد عنوانه (الرسول).

وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحَل من أمتع سنيّ حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلّمتُ من عرب الصحراء كيف أتغلّبُ على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدتهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذًا سهلًا هينًا، فهم لا يتعجلون أمرًا، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهمّ قلقًا على أمر. إنهم يؤمنون أنّ ما قدّر سيكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلاً. ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هبّت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمّت بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأسي يتزعزع من منابته؛ لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القیظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكن العرب لم يشكّوا إطلاقًا، فقد هزّوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: قضاءٌ مكتوب.

لكنهم ما إن مرّت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبّحوا صغار الخراف قبل أن يودي القَيْظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى. قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا؛ فإن لدينا نحو أربعين في المئة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ من جديد.

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يومًا، فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضر إطار احتياطي، وتولّاني الغضب، وانتابني القلق والهَم، وسألت صجلي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟ فذكّرني بأنّ الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلًا، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق. ومن ثمّ درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفّت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ. وهنالك أيضًا لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيرًا على الأقدام.

وأقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرّحل أن الملتأين ومرضى النفوس والسّكيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساسًا لها، إنني لم أعان شيئًا من القلق قطّ وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا.

وخلاصة القول: إنني بعد انقضاء سبعة عشرة عامًا على مغادرتي الصحراء ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير الطبية. فاليوم يصرف أطباء النفس المسكنات والعقاقير، ولو يوجد أطباء قلوب يصرفون أشياء تؤدي بهؤلاء إلى الإيمان بعقيدة القضاء والقدر^(١).

والعجيب أن من الذي نقل هذا المقال هو ديل كارنيجي في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» وهو أكثر الكتب في الإنسانيات انتشارًا في التاريخ كما يقال، ومع كل هذا فقد هلك كافرًا منتحرًا عياذًا بالله تعالى، فهل يعني هذا أنه قد ألّف كتابه هذا لنفسه ليتدع القلق وتبدأ الحياة التي قضى عليها بيده! فمع تأليفه لهذا الكتاب الرائع والذي أفاد منه الشيخ السعدي في رسالته القيمة «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» فمع ذلك لم يصل للسكينة والطمأنينة والأمن والسلام القلبي، بل أعلن فشله بانتحاره، وحاله حال الكثير من الحيارى الذي ضل سعيهم عن سعادة أبد الأبد وهو الإيمان بالله تعالى، والاهتداء بوحية العظيم الذي يحوي قواعد السلام في القلب عبر بناء الإيمان بالغيب، والوعد الأخروي، والرضا بالقضاء، والمعتقد السليم، والقول الحسن، والعمل الصالح. نسأل الله تعالى حسن الختام.

(١) أوردها ديل كارنيجي في كتابه الشهير: دع القلق وابدأ الحياة. ص: (٢٩١_٢٩٥)

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ
لَنْ تَبْلُغَ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وتأمل معدلات الانتحار اليومي في دولة من أترف دول العالم وأرفهها
وأرغدها وهي السويد، فجوهر السعادة هو المعنى لا المادة. هذا وقد نشرت
منظمة الصحة العالمية معدل الانتحار في العالم فكانت النسبة مهولة ومروعة،
فينتحر شخص كل ٤٠ ثانية، بمعدل ثلاثة أشخاص كل دقيقتين، وقراءة
٧٠٠٠٠٠ كل عام! والجدير بالذكر أن الخمسين دولة من الدول الأولى في
نسب الانتحار ليس منها دولة إسلامية واحدة خلا كازخستان - ولعلها
لأسباب خاصة - بحمد الله تعالى ومنتته.

كما أن الدول المتقدمة في نسب الانتحار ليست من الدول الفقيرة
والمعوزة والجاهلة بالتقنية وأسباب الترف، بل هي ذاتها الدول المتقدمة في
أسباب الحضارة المادية، ولك أن تعلم أن دولة صغيرة ككوريا الجنوبية
تجاوزت نسبة الانتحار فيها ٤٠ حالة يوميًا!

ولعل من أسباب انتشار الانتحار عند بعض الشعوب الآسيوية
بخصوصها اعتقادهم بالتناسخ، وأنّ الميت سيُبعث من جديد في جسد آخر،
فينتحر كيما يهرب من هذه الحياة طمعًا أن يكون أحسن حالًا في غيرها، ولم
يعلم المسكين كُنْه ضلاله، ولا ما هو قادم إليه متوجه له، ولا حول ولا قوة
ولا هدى ولا فلاح إلا بالله العلي العظيم.

حتى وإن كانت بعض عقائدهم في هذا تمنع من تَقَمُّص شخصية أفضل
إن اختار صاحبها الانتحار في حياته السابقة المزعومة. والقول بالتناسخ قد
انبت عليه عقائد ومفاهيم وأعمال في الغاية القصوى من الضلال.

لذلك فلا تعجب من انكسار، بل انهيار من لا يؤمنون، فعلى قدر نسبة
الإلحاد في بقعة تتصاعد معها نسبياً نسبة الانتحار. فالإيمان سعادة وأمان،
والكفر وحشة وخوف وضلال.

لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ لَقُطِّعَتْ نَفْسُ الْمُحِبِّ صَبَابَةً وَتَشَوُّقًا
وَلَقَدْ يَكَادُ يَذُوبُ مِنْهُ قَلْبُهُ مِمَّا يَقَاسِي حَسْرَةً وَتَحَرُّقًا
حَتَّى إِذَا رَوَّحَ الرَّجَاءُ أَصَابَهُ سَكَنَ الْحَرِيقُ إِذَا تَعَلَّلَ بِاللِّقَا

وأقول بتعجب وأسف: كيف يطيب عيش من لم يؤمن بالله، واليوم
الآخر، والقدر؟!

نعم؛ فبضدها تتميز الأشياء، فتخيل شخصاً خلواً من ذلك النعيم
والأمان، فالإيمان سلوى وعزاء وانتظار لموعود رب العالمين، فالإيمان بالله
تعالى، أمان تام، وسعادة غامرة، وراحة مؤكدة، وحبور مبین، أما الإيمان باليوم
الآخر فهو بلسم عزاء بلقاء الأحبة الذين مضوا، بل بلقاء رسول الهدى ﷺ
وصحابته والسابقين والملائكة الطاهرين النورانيين، بل بلقاء الله تعالى الجميل
الجليل الكريم رب العالمين، وكذلك بتحصيل أجر المصاب الصابر الراضي
الحامد الشاكر، أما الإيمان بالقضاء والقدر فلكي يصرف عنه وساوس

الشیطان بحسرات فوائت الرغائب، أو حلول شديديات المصائب، والحمد لله
أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، والحمد لله على كل حال.

فالحمد لله كثيرًا على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن والعلم والبصيرة في
دين الله تعالى، والإيمان بالقضاء والقدر، والرضا بالتدبير الرباني، فهو حقًا سرّ
صمود المؤمن تجاه بلاءات الدنيا ولأواها وشديدياتها. فلا إله إلا الله وحده،
والحمد له وحده، والمنة له وحده، والشكر له وحده، والدين له وحده،
والحمد لله كثيرًا كثيرًا على نعمة الإسلام، وصدق الله ومن أصدق من الله
قيلًا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى﴾ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى ١٢٦ [طه : ١٢٤ - ١٢٦]. وما أعظم واجب أهل
الإسلام في دعوة غيرهم إليه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٣٣ [فصلت : ٣٣].

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ كُنْزَ الْغِنَى فَصُرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكًا
فَلَا ذَا يَرَانِي عَلَى بَابِهِ وَلَا ذَا يَرَانِي بِهِ مُنْهَمِكًا
وَصُرْتُ غَنِيًّا بِلَا دَرَاهِمٍ أَمَرْتُ عَلَى النَّاسِ شِبْهَ الْمَلِكِ

وهل هنا موقف معاصر في الغاية من الجمال لمن كان بالله راضيًا، يقول
الشيخ حسن حبّكه الميداني - وهو والد شيخنا عبد الرحمن رحمهما الله تعالى -:
«كنتُ عائداً إلى بيتي قبل المغرب بساعة في يوم من أيام رمضان، فاستوقفني
رجلٌ فقيرٌ من الذين يتردّدون على درسي في المسجد تردّد الزائر، فسلم عليّ

بلهفةٍ أَدَمَعَتْ عَيْنِيَّ، وقال لي: أَسْتَحْلِفُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَفْطِرَ عِنْدِي الْيَوْمَ! يقول الشيخ: عقدتُ لِسَانِي لَهْفَتِهِ، وَطَوَّقْتُ عَنْقِي رَغْبَتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي، الْأَهْلُ بَانْتَظَارِي وَظُرُوفِي لَا تَسْمَحُ، وَلَكِنْ!

يقول الشيخ: وَجَدْتُ نَفْسِي أَتْبَعُهُ إِلَى بَيْتِهِ الَّذِي لَا أَعْرِفُ مَكَانَهُ، وَلَا أَعْرِفُ ظَرْفَهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْحَرَجِ مِنْ مَوْعِدِ الْإِفْطَارِ. يقول: وَصَلْنَا إِلَى بَيْتِهِ، فَإِذَا هُوَ غُرْفَةٌ وَمَطْبَخٌ وَفَنَاءٌ صَغِيرٌ مَكْشُوفٌ عَلَى سَطْحٍ اشْتَرَاهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَهُ مَدْخَلٌ وَدَرَجٌ خَاصٌ مِنَ الْخَشَبِ لَا يَحْتَمِلُ صُعُودَ شَخْصَيْنِ، فَخَشَبَاتِهِ تَسْتَغِيثُ مِنْ وَهْنٍ خَلَفَهُ بِهَا الْفَقْرُ وَالْقَدَمُ. كَانَتْ السَّعَادَةُ تَمَلَأُ قَلْبَ الرَّجُلِ، وَعِبَارَاتُ الشُّكْرِ وَالْامْتِنَانِ تَتَدَفَّقُ مِنْ شَفْتَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا الْبَيْتُ مِلْكِي (وَالْمَلِكُ لِلَّهِ) لَا أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا لَهُ عِنْدِي قَرَشٌ، انْظُرْ يَا سَيِّدِي، الشَّمْسُ تَشْرِقُ عَلَى غُرْفَتِي الصَّبْحَ، وَتَغْرُبُ مِنَ الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ، وَهَنَا أَقْرَأُ الْقُرْآنَ عِنْدَ الْفَجْرِ وَقَبْلَ الْمَغِيبِ، وَاللَّهُ يَا سَيِّدِي كَأَنِّي أَسْكُنُ فِي الْجَنَّةِ^(١).

يتابع الشيخ: كُلُّ هَذَا يَجْرِي عَلَى مَسَامِعِي وَأَنَا أَصْعَدُ عَلَى الدَّرَجِ بِحَذَرٍ. وَصَلْنَا الْغُرْفَةَ، وَذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لَزَوْجَتِهِ بِصَوْتٍ خَافَتْ: جَهَّزِي الْفُطُورَ، الشَّيْخُ سَيَفْطِرُ عِنْدِي الْيَوْمَ، وَصَوْتُ زَوْجَتِهِ تَقُولُ لَهُ: وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا غَيْرُ فُولٍ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى أَذَانِ الْمَغْرَبِ إِلَّا نَصْفُ سَاعَةٍ، وَلَا شَيْءَ عِنْدَنَا نَطْبُخُهُ.

(١) ذَلِكَ أَنَّ الْغَنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى، قَالَ ﷺ: «لَيْسَ الْغَنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغَنَى غِنَى النَّفْسِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٤٦)، وَمُسْلِمٌ (١٠٥١).

يقول الشيخ: سمعت هذا الحوار كله، فلما جاء صاحب الدار قلت له: يا أخي، لي عندك شرط؟ أنا أفطر مع أذان المغرب على ماء ومعي التمر، ولا آكل إلا بعد نصف ساعة من الأذان، بعد ما أهضم التمر والماء، وأصلي وأُنبّي ورّدي اليومي، ولا آكل إلا فول مدّمس وبطاطس. فقال الرجل: أمرك.

يقول الشيخ: لقد اخترت البطاطس لأنها زادت الفقراء، وأحسبها عندهم، وقد خرجت وكلي سعادةً وبهجة، وقد أحببت الدنيا من لسان هذا الرجل الذي خرجت من فمه عباراتُ الثناء والحمد على نعم الله بهذا البيت الذي ملّكه الله إيّاه، وهذه الحياة الجميلة التي يتغنّى بها.

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياك عن أسباب ديانا
يقول الشيخ: ثم دُعيت بعد أيام مع مجموعةٍ من الوجهاء على الإفطار عند أحد التجّار، وكان ممن أنعم الله عليهم بالمال، والجاه، والأولاد، والحسب، والنسب. وكانت الدعوة في مزرعةٍ فخمة فيها مما لذّ وطاب، يتوسّطها منزل أقرب ما يكون للقصر، يطلُّ على مسبحٍ ومرَبَط خيل فيه نوادر الخيل الأصيلة. أفطرنا عند الرجل، وأثناء المغادرة انفرد بي، وشكى لي من ضيق الحياة، وهموم التجارة، وسوء طباع زوجته، وطمع من حوله، وكثرة المصاريف لإرضاء الجميع، وسأّمه من هذه الحياة، ورغبته بالموت!

يقول الشيخ: من باب المنزل إلى باب سيارتي، سوّد هذا الرجل الدنيا في عيوني، وأطبق عليّ صدري وأنفاسي. فنظرتُ إلى السماء بعد أن ركبتُ بسيّارتي وأنا أقول في قلبي: الحمد لله على نعمة الرضا، فليست السعادة بكثيرٍ ندفع

ثمنه، ولكن السعادة حُسْنُ صَلَةٍ بِاللَّهِ، ورضًا بما قسم لنا عز وجل». أ.هـ. ومن
عيون شعر الخطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكنَّ التقي هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزادِ ذخراً وعند الله للأتقى مزيدُ
وما لا بدَّ أن يأتي قريبٌ ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

قال علي الوردي: «يتوهم الإنسان أن الوظيفة ستجعله سعيداً، ثم يتوهم أن الزواج سيجعله سعيداً، ثم يتوهم أن الأطفال سيجعلونه سعيداً، وسيظل يتوهم ويتوهم حتى يموت». قلت: هذا وهم من لم يوفق لحلاوة الإيمان، أما من ذاقها بلسان قلبه، وهشت له روحه، واستضاء منها قلبه؛ فهو في جنة من الآخرة عجلت له، نسأل الله الكريم من فضله، أرأيتك^(١) يا صاحبي ترى السعادة في المال وتوابعه أم في الإيمان والتقوى؟ قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، ويعني بهدي الأئمة: أئمة الدين:

فإن كنت في هدي الأئمة راغباً فوطن على أن تتحيك الوقائع
بنفسٍ وقدرٍ عند كل ملّة وقلب صبورٍ وهو في الصور مانع
لسانك مخزونٌ وطرفك ملجمٌ وسرك مكتومٌ لدى الربّ ذائعٌ

(١) أرأيتك بمعنى: أخبرني، تبقى تاؤه على حالها في الأفراد والتثنية والجمع، ويسلّط التغير على الكاف: أرأيتك، أرأيتكما، أرأيتكم.

وَذِكْرُكَ مَغْمُورٌ وَبِأُلكَ مُغْلَقٌ وَتَعْرُكَ بَسَامٌ وَبَطْنُكَ جَائِعٌ
وَقَلْبُكَ مَجْرُوحٌ وَسُوقُكَ كَاسِدٌ وَفَضْلُكَ مَدْفُونٌ وَطَيْفُكَ شَائِعٌ
وَفِي كُلِّ نَوْمٍ أَنْتَ جَارِعٌ غَصَّةٌ مِنْ الدَّهْرِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَلْبِ طَائِعٌ
مَهَارُكَ شُغْلٌ وَالنَّاسُ مِنْ غَيْرِ مَنَّةٍ وَلَيْلُكَ شَوْقٌ غَابَ عَنْهُ الطَّلَائِعُ
فَدُونُكَ هَذَا اللَّيْلُ خُذْهُ ذَرِيعَةً لِيَوْمٍ عَبُوسٍ عَزَّ فِيهِ الذَّرَائِعُ

ومن النساء الراضيات بالله تعالى الصابرات على البلاء الشاكرات على النعماء مزنة المحمد البسام رحمها الله تعالى، فقد كانت رحمها الله تعالى قدوة في الرضا بالله تعالى والحمد والشكر. وهي مزنة بنت محمد بن حمد البسام، فجدّها حمد قد نزل عنيزة قادماً من بلدة حرّمة، اما والدها فهو صاحب ثراء واسع وصاحب إحسان، وقد توفي والدها حاجاً عام ١٢٤٦هـ بمكة المكرمة. زوّجها والدها في حياته ابن أخيه حمد سليمان البسام، وكان يعلم أنه ليس صاحب مال، ولكنه لم يبلغه ولم يتحقق أن الحاجة بلغت معه الواقع الذي هو عليه.

فلما رحلت اليه في منزله وعلمت حاله كتبت ذلك حتى عن أمها وأبيها، وصارت تنفق ما عندها من أبيها حتى نفذ. وكان منزلها خالياً من كل شيء ذي بال، فصارت تخفي أمرها عن الناس، ولا تمكّن أحداً من دخول وسط المنزل حتى لا تُخرج زوجها بفاقته. وجعلت لها مكاناً من مقدّمة البيت تستقبل

به من يزورها من نساء أقاربها، ولا تمكّنهم من رؤية المنزل والاطلاع على ما فيه حتى والدتها.

وقد كانت هي الشابة الناعمة المترفة، التي عاشت حياتها في بيت والدها صاحب الثراء الواسع، فزارتها والدتها في ساعة لم تكن تزورها فيها في عاداتها مما مكّنها من دخول وسط المنزل. وإذا به خالٍ من كل شيء من مقومات الحياة، فلامتها على هذا التستر، وعلى هذا الصبر الطويل، وقالت لها: إنّ والدك بخير كبير، وأنت ابنته، وزوجك ابن أخيه، وإحسانه شامل للبعيد، فكيف بكما وأنتما ولداه؟! فأجابتها بأنه لم يقصّر عليها بشيء، وقالت: لا داعي لإظهار أمرنا إلاّ الله تعالى.

إذا المرء لم يأخذ من الصبر حظّه تقطّع من أسبابه كلّ مُبرم
فلما علم والدها محمد البسام بالأمر طلب ابن أخيه ولامه وعاتبه، وأعطاه مبلغاً جيداً من النقود ليعمل به مضاربة مع عمه حمد السليمان، يتجر بجلب البضائع من سوق الشيوخ في أطراف العراق إلى القصيم، ففعل حتى نَمَى الله تعالى المال بيده، فصار صاحب رأس مال كبير. وصار من بعض أعماله التجارية أن يشتري ثمار النخيل من الفلاحين بطريق بيع السّلم، فإذا استلمه منهم في حينه أيام الجذاذ يكتزّه في حياض كبار تسمى (الصوبة) ثم يبيعه في أوان بيعه، وهكذا.

وفي إحدى السنين سافر للتجارة إلى الخميسية وسوق الشيوخ، وكان هذا السوق هو ميناء أهل نجد في ذلك الزمان، وطالت سفرته، فلما عاد إلى وطنه عنيزة قابله في الطريق بعض التجار والموردون فصار يسأله عن أخبار البلاد.

فكان مما أخبروه أن نجدًا أصابتها مجاعة شديدة، وأن الناس أصابهم ضرر بالغ فيها. فقال: عسى لنا فيها حظّ ونصيب؟ فأجابه رجل منهم: بأن لك يا أبا سليمان أكبر الحظ والنصيب، فزوجتك تصدّقت بجميع ما ادخرته من حياض التمر. فسّر بذلك، وحمد الله عليه، وسأله القبول.

فلما قدم عنيزة واستراح من وعثاء السفر، جاءته زوجته مزنة بزنبيل مليء بالريالات الفرنسية التي قيل إنها تبلغ ستة آلاف ريال، وهو مبلغ كبير جدًا في ذلك الزمان، وقالت له: هذا قيمة التمر، وبسبب الحاجة زادت قيمته زيادة كبيرة، فبعناه وهذه قيمته تفضل بقبضها.

فقال: أخبريني بالحقيقة. وبعد إلحاح أخبرته أنها تصدقت به كله في هذه المسغبة، وأن هذه النقود هي ثمن مصاغها، باعتها لأنّها تصدّقت محتسبة ذلك منها. فقال لها: الأجر الذي تريدينه إن شاء الله تعالى أنه صدقة مقبولة مني. فقالت له: وأنا شريكة في الأجر معك؟ فقال: وأنت شريكة إن شاء الله تعالى^(١).

والبرّ لا يبلى، والإحسان لا يُنسى، والمعروف لا يُنكر، والله شكور حميد كريم برّ لطيف، سبحانه وبحمده.

(١) الخزائن النجدية (٣/ ٥١)

وبين أيدينا في هذا الباب الحنون وصية رائعة نفيسة، خطتها يراعة الأستاذ فهد بن إبراهيم العمرو رحمه الله تعالى، كتبها قبيل وفاته بأمريكا، وقد نشرت بعد وفاته رحمه الله تعالى، وفيها من نسائم الرضا، وأنوار التسليم، ومناجح السكينة، ومفائض الفرح، ومفاتيح التوفيق، ومكارم الإيمان شيئاً كثيراً، فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، وهذا نصها: «الحمد لله الذي ينعم بلطفه كيفما شاء، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء، وبعد:

الموت، تلك المحطة التي ستنتهي عندها مسيرة الجميع، دون موعد مسبق، ولا موقع محدد، ولا ترتيب عمري، ولأسباب متنوعة، غير أن الله وأجزم أنه أحب لي الخير ابتلاني بأشدّ الأمراض فتكاً بأقوى الأجساد، لكنه أنعم علي بالبصيرة أن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، ثم زاد فضله علي أن ألبسني لباس الرضا والتسليم، وأحلّ علي صبراً وتجلداً لست أبالغ حين أقول: أنني معه أعيش أجمل أشهر حياتي، وأكثرها شعوراً بحلاوة الإيمان.

تحولت معها أنات الوجع لتسييح خاشع، ومرارة الصبر لتسليم مائع، وحلقة الغربة لنور ساطع، أبصرت بها أكثر الطرق المؤدية للقرب من اللطيف، تلذذت بمناجاته بصورة أشعرتني أن الله منحني فرصة أكبر لتصحيح مساري، والانكسار بين يديه، ليغفر زلاتي، ويضاعف حسناتي، وأن يلهمني رشدي، لأقف عند محطتي في خاتمة حسنة.

كان طول المرض وتنامي شدته ساعة بعد ساعة ملهماً لي أن الحياة الدنيا فانية، لا تستحق أن أبذر ما تبقى لي فيها من أيام في مزيد غفلة، فأعانني مولاي على طول القيام، وأجرى لساني يلهج بذكره وشكره على ما أنعم به علي من

فرصة تقويم واستدراك، استعد به لما أمامي من رحيل له ما بعده من حساب ومفارقة أحباب.

تأملت ما جرى للكثير من الراحلين الذين تخطفهم الموت فجأة، وقد كانوا صحاح الأبدان في ريعان أعمارهم؛ فأيقنت أن مرضي هدية من ربي لأقدم عليه تائبًا راضيًا، وتدبرت حال الغافلين عن صالح الأعمال، اللاهثين خلف سراب السعادة الدنيا، المنشغلين أحيانًا بتوافه الأمور عن عظيم ما أمامهم يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ فأيقنت أن اشتداد ما أصابني، وتنامي انتشاره في جسدي حتى أنهكه؛ إنما أيقظ قلبي، وأنار طريقي، وأذقني لذة الصبر على أقدار الله، والتسليم لما قضاه، والرضا بحكمته، بل والفرح بها.

عشت أشهري الأخيرة في نعيم روحي لا أملك له وصفًا، كلما أشعري الفريق الطبي بانتشار المرض في جزء جديد في جسدي؛ هتف بي إيماني أنني نجحت في تجاوز مرحلة من المصابرة، فترقيت لمنزلة أعلى، حتى هان عليّ كل خبر يصلني منهم، وغدت عينا فكري لا تتطلع إلا ليوم لقاء ربي الذي أحبني فابتلاني، وباعدني عن وطني وأسرتي ليقربني إليه أكثر، ولا أدري متى أودعكم لألقاه، لكنني على يقين أن أجلي قد اقترب، وساعتي أوشكت أن تحين لتتوقف عقاربها، وأعود إليكم لتروني ولا أراكم، وتودعوني ولا أودعكم، وتقبلوني ولا أقبلكم، رغم شوقي العظيم لكل واحد منكم، وخاصة والدي الذي يتراءى لي في كل لحظة غربة، وكلّ آنّة وجع، غير أن ما يسكن معه قلبي، ويطمئن إليه وجدي: أنني على ثقة برسوخ إيمانه، ومعرفته بالله، ويقينه بلطفه.

ولأنّي قد لا أتمكّن من محادثكم على الصورة التي أملها مع هجمة الأوجاع حتى على أحرفي التي أشعر أنها بدأت تتمنّع عن قلبي ولساني، ولأنّ رسالتي لن تبلغكم إلا بعد رحيلي، أوصيكم وصية مودع محب، هي رجوع صدى لوصية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: الصلاة الصلاة، ولأنّ كلّ منّا يتناوشه التقصير؛ فاحرصوا على النوافل، وتلذّذوا بمناجاة اللطيف حين يناديكم في الثلث الآخر من الليل: هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه. فقد تُلاقي باب إجابة مفتوح، فوالله إنها السعادة التي لم أجدها في كل أبواب الدنيا، فالموت أمرٌ محتوم لا شك في هجمته، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وأختم كلماتي: بالتماسٍ منكم جميعاً أن تصفحوا عني، وتشملوني بعفوكم عن كل زلل أو خطأ أو تقصير في حق أيّ منكم، ثم أشهدكم جميعاً أنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحمد لله على ما مضى وما هو آت. محبكم: أبو عبد الله فهد بن إبراهيم العمرو - بوسطن.

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَتَنِي عَلَى كَبِيدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدَمُّعَا
بَكَتْ عَيْنِي الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلْتَا مَعَا
اللَّهُمَّ رِضَاكَ وَالْجَنَّةَ، إِلَهَ الْحَقِّ.



قالوا عن الرُّضَا بِاللَّهِ تَعَالَى

إن المؤمن يصبح ويمسي وهو يقول بقلبه وقاله: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، فلا غرو أن يكون الرضا للمؤمن ملء السمع والبصر والفؤاد.

وإن أمرًا بهذه العظمة والجمال غير مُستغرب أن يُشارك في ذكره ووصفه والترغيب فيه أولو الحِجَى وأربابُ الهمم وسادةُ السُّلوك. وآثارُ سيرهم على هذه الجادة الرسولية شهيرة، وأقوالهم في هذا الباب كثيرة، وإشاراتهم لمن خلفهم غزيرة، ولكن نكتفي ببعض الإلماحات، ونورد شيئًا من تلك الإشارات، علَّ الله تعالى أن يقدر بها في قلوبنا أزندة الاعتبار والادِّكار، ويُشيد بها في نفوسنا أبنية الموعظة والافتكار، فالسعيد من اهتبل فرص النصح، وقبض براحته على ما اسطاع من مفاتيح المأثور، المُستقى من ينبوع الوحي وضيائه السَّنيِّ، واستبق به أبواب العمل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، سبحانه وبحمده. فجميل أن يكون لحياتك معنى وهدف تسعى لتحقيقه، والأجل أن يكون الهدف مرضاة الله تعالى، فلتحي بالله ولله. ويا أيها الراضي: واجِهِ البلاءَ بابتسامٍ.

قال لقمان لابنه: «أوصيك بخصال تقربك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وأن ترضى بقدر الله فيما أحبت وكرهت»^(١).

(١) نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢٢٩)

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»^(١). وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء». وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء»^(٢).

إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَكُلْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيكَ
وقال الربيع بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره، وعلامة الدين: الإخلاص لله في السر والعلانية، وعلامة الشكر: الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه»^(٣).

وفي المقارنة بين الغني الشاكر والفقر الصابر فقد رجح ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح بلوغ المرام منزلة الغني الشاكر على الفقير الصابر بناء على حديث: «ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى».. الحديث، وفيه: فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٤). وأظنه قصد إن استويا في التقوى، فلدى الشاكر أبواب

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٥)

(٢) الإحياء، للغزالي (٣/ ٣٤٦)

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٧)

(٤) وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» فقالوا: يُصَلُّونَ كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال

للخير ليست عند الفقير الصابر. أما مذهب ابن تيمية فهو أن أفضلهما ألقاهما على كل حال.

قلت: وليس بينهما اختلاف على الحقيقة، لأن الأتقى هو الأفضل مطلقاً، لكن إن استويا في التقوى فمن عنده تقوى مع فُرصٍ خير فهو الأفضل؛ لأنه لن يدخر جهداً في حصد أجور الآخرة لتحصيل مرضي ربه تعالى، كما أنه محتاج لصبر كذلك، وقد يكون صبر الغني أشق في أحوال كثيرة من صبر الفقير الذي كثيراً من صبره اضطرار، وليس الاختيار كالاضطرار، وإن كان الفقر في الأغلب أسلم من الآفات. وقد ابتلى الله تعالى أيوب الصابر وسليمان الشاكر عليهما السلام، وقد أثنى عليهما بنفس الثناء فقال عن كلٍّ منهما: ﴿تَعَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وعلى كل حال فالرضا هو حال المؤمن الذي يرضى تدبير مولاه له، ويفرح به، ويعيش عليه، ويأطر نفسه على ذلك إن أوشكت أن يززعها عن

=

رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». رواه البخاري ٢١٣/١ - ٢١٤ (٨٤٣)، ومسلم ٩٧/٢ (٥٩٥) (١٤٢) وهذا لفظ مسلم، والدثور: الأموال الكثيرة.

منزل الرضا العالي المنيف عارض ضعيف، أو هبوب هلع، أو وارد طمع، أو حطم جزع، والمحفوظ من حفظه مولاه.

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: بلغني أن رجلاً من بعض الفقهاء كتب إلى ابن الزبير رضي الله عنهما يقول: «ألا إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم: من رضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وشكر على النعماء، وصدق باللسان، ووفى بالوعد والعهد، وذلل لأحكام القرآن. وإنما الإمام سوق من الأسواق، فإن كان من أهل الحق حمل إليه أهل الحق حقهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم»^(١).

وقال عبد الله بن المبارك: قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: «يا بني، إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاتته»^(٢).

وقال الفيروز آبادي: «رضا العبد عن الله على ألا يكره ما يجري به قضاءؤه، والرضوان الرضا الكبير. ولما كان أعظم الرضا رضا الله؛ خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى»^(٣).

(١) جامع الأصول (١١/٧٠٣، ٧٠٤)

(٢) الدر المشور، للسيوطي (١/٦٢)

(٣) بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (٣/٧٧)

والراضي بربه سعيد مسرور بعطاءه، ساكنٌ رخيّ البال في ابتلائه، يرى المنع عطاءً، لأنه في الحقيقة كذلك، لكن لا تبصرها نون العين، بل نون البصيرة، وقد قال المتنبي في عيوب الناس فكيف بكمال تدبير الإله:

وعينُ الرّضا عن كلّ عيب كليله كما أن عين السُّخط تُبدي المساويا
والموفق الرشيد هو من رضي بربه ولم يرض نفسه لربه، كما قال كشاجم:

لم أرض عن نفسي مخافةً سُخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضاؤها
ولو أنني عنها رضيتُ لقصرتُ عما تزيد بمثله آدابها
وتبيّنت آثار ذاك فأكثرْتُ عذلي عليه فطال فيه عتابها
ولو أنني عنها رضيتُ لقصرتُ عما تزيد بمثله آدابها
وتبيّنت آثار ذاك فأكثرْتُ عذلي عليه فطال فيه عتابها

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: قال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله».

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللهُ: «إن لم تصبر على تقدير الله؛ لم تصبر على تقدير نفسك».

وقال عبد العزيز بن أبي رَوّاد رَحِمَهُ اللهُ: «ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخلّ، ولا في لبس الصوف والشَّعر، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل».

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأنَّ الحَسَّ جَمْرَةٌ أُحْرِقَتْ مَا أُحْرِقَتْ وَأَبْقَتْ مَا أَبْقَتْ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَقُولَ لشيءٍ كَانَ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لشيءٍ لَمْ يَكُنْ: لَيْتَهُ كَانَ».

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ. فقال: «إني لأرحمك من هذه القرحة»، فقال: «إني لأشكر الله منذ خرجت، إذ لم تخرج في عيني».

وروي في الإسرائيليات: أن عابداً عبد الله دهرًا طويلاً فأري في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة؛ فسأل عنها إلى أن وجدها، فسألها فلم تذكر كثير عمل، ولكنها قالت: «خُصِيْلَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ فِيَّ؛ إِنْ كُنْتُ فِي شِدَّةٍ لَمْ أَتَمَنَّ أَنْ أَكُونَ فِي رِخَاءٍ، وَإِنْ كُنْتُ فِي مَرَضٍ لَمْ أَتَمَنَّ أَنْ أَكُونَ فِي صِحَّةٍ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الشَّمْسِ لَمْ أَتَمَنَّ أَنْ أَكُونَ فِي الظِّلِّ». فوضع العابد يده على رأسه وقال: «أهذه خُصِيْلَةٌ؟ هذه والله خُصْلَةٌ عَظِيمَةٌ يَعْجِزُ عَنْهَا الْعِبَادُ». علمًا أنَّ الرضا التام لا يمنع دفع القدر المؤلم بالقدر المشروع كما أسلفنا. ولعلها قصدت إن لم تقدر على دفعه، أو لما يترتب على مدافعته من فوات مصلحة شرعية أرجى، فهذا حال الموفقين، والله أعلم.

إذا ما الخيام البيض لاحَتْ لَدَى مَنْى فَعَرَّجْ فَإِنَّا بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ

وعن بعض السلف: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا قَضَى فِي السَّمَاءِ قَضَاءً أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَرْضُوا بِقَضَائِهِ». وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذُرْوَةُ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ لِلْحَكْمِ وَالرِّضَا بِالْقَدْرِ». وقال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُظُّ الْعَبِيدِ مِنَ

اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل»^(١). أي: بأحوال قلوبهم مع ربهم تبارك وتعالى.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي إذا رجعتُ إلى أهلي على أيِّ حال أراهم بخيرٍ أو بشرٍ، وما أصبحت على حالة فتمنيتُ أني على سواها»^(٢).

وقيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الفقر أحبُّ إلي من الغنى، والسَّقم أحبُّ إلي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من أتكل على حسن اختيار الله له؛ لم يتمنَّ أن يكون في غير الحالة التي اختار الله له. وهذا حدُّ الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء»^(٣).

وقال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا باب الله الأعظم، وجَنَّة الدنيا، ومُستراح العابدين». وربما رضي المُبتلى حتى لم يَعُدَّ يشعر بالألم، كما أنشدوا:

عذابُـه فيكَ عَذْبٌ وُبُعْدُـه فيكَ قَرَبٌ

أي: بُعْدُهُ عن أحبابه من الناس بسبب قيامه في دين الله تعالى هو في حقيقته قَرَبٌ من الله تعالى، وزلْفى لديه، ومدرج رَضًا بين يديه له، ومن كان في الله تَلَفُهُ كان على الله خَلْفُهُ، والنعيم لا يُدرك بالنعيم، ومن كانت بداياته

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٨-٤٣٩) باختصار.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٨٦)

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٤، ٢٠٥)، وابن عساكر (١٣/ ٢٥٣)

مُحرقة كانت نهاياته مشرقة، والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات، والله المستعان تبارك وتعالى.

ونقل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ قوله: «يا بني؛ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: حُسْنُ توكله على الله فيما نابه، وحُسْنُ رضاه فيما آتاه، وحُسْنُ زهده فيما فاتَه»^(١).

وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لابنه عمر: «يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن لم تكن لك قناعة فليس يُغنيكَ مالٌ»^(٢).

والنفس راغبة إذا رَغَبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قليل تَقْنَعُ
وقيل لبعض العُباد: قد نلت الغنى؟ قال: «إنما نال الغنى من أعتق من رقِّ الدنيا»^(٣).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: «القناعة أوّل الرضا»^(٤).

وقال بكر المزني رَحِمَهُ اللهُ: «يكفيك من الدنيا ما قنعت به ولو كفّ تمر، وشربة ماء، وظلّ خباء. وكلّمّا انفتح لك من الدنيا شيء، ازدادت نفسك به تعباً»^(٥). وقال أعرابي في الرِّضا والقناعة:

(١) الدر المنثور (١/٦٢)

(٢) عيون الأخبار (٣/١٨٧)

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/١٣٢)

(٤) تهذيب الحلية (٣/١٨٣)

(٥) موسوعة ابن أبي الدنيا (٤/١١٩)

عَلَامَ سُؤَالِ النَّاسِ وَالرِّزْقُ وَأَنْتَ صَحِيحٌ لَمْ تَخْنُكَ الْأَصَابِعُ
وَلِلْعَيْشِ أَوْكَارٌ وَفِي الْأَرْضِ عَرِيضٌ وَبَابُ الرِّزْقِ فِي الْأَرْضِ
فَكُنْ طَالِبًا لِلرِّزْقِ مِنْ رَازِقٍ وَخَلِّ سُؤَالِ النَّاسِ فَاللَّهُ صَانِعُ
وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ:

أَقُولُ لِمَ أَفُونِ الْبَدِيهَةِ طَائِرٌ مَعَ الْحَرْصِ لَمْ يَغْنَمْ وَلَمْ يَتَمَوَّلِ
سَلَ النَّاسِ إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَصَائِنٌ عَرَضِي عَنْ فَلَانٍ وَعَنْ قُلٍ^(١)
قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِيُّ وَقَدْ أَجَادَ وَأَحْسَنَ أَيُّمَا إِحْسَانٍ فِي بَيَانِ طَبْعِ النَّفْسِ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنْ مِنْ رَأْسِ التَّوَاضُعِ أَنْ تَرْضَى بِالْأَدُونِ
مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مِنْ لَقِيْتِ، وَأَنْ تَكْرَهَ مِنَ الْمَدْحَةِ

(١) ديوان مسلم بن الوليد (٢٦) والعقد الفريد (٥ / ٣٥٥) وقوله: «وعن قُلٍ» ترخيم جميل أملتة القافية، ولا يكون إلا عند النداء خلا ما أملتة الحاجة كالوزن والقافية، وهذا كثير عند العرب، كعائش من عائشة، وفاطم من فاطمة، ومال من مالك، وسُعا من سُعاد، وحر من حارث ونحو هذا، ولا يجوز الترخيم في المنادى إلا إذا كان مؤنثًا بالهاء علمًا أو غير علم، أما إذا كان غير مؤنث بالهاء فلا يُرَخَّم إلا إذا كان رباعيًا فأكثر. ويشابه الترخيم النحت في الاختزال، والنحت هو نزع كلمة من كلمتين أو أكثر، فهو نوع من الاختزال قد يكون نحتًا للكلمتين، وقد يكون لأكثر، كالبسملة من بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله من الحمد لله، والحوقة والاسترجاع ونحو ذلك.

والسمعة والرياء بالبر». وجاء في كتب أهل الكتاب، في وصف أمة أحمد صلى الله عليه وسلم: «علماء، حكماء، أبرار، أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء. يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم اليسير من العمل. يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله»^(١).

واعلم - رحماني الله وإياك - أن لجثمانك حدٌ ينتهي منه للموت، ولا يعود صالحًا في هذه الدنيا لحمل الروح، وهذا هو عمرك، ومستودع حياتك في ميدان الابتلاء ودار الفناء، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلّهم من يجوز ذلك»^(٢).

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم (٣٢٠/٦). واعلم أن لمفتاح الجنة شروطًا لا بدّ من اجتماعها، وهي علم ينافي الجهل، ويقين ينافي الشك، وقبول ينافي الردّ، وإخلاص ينافي الشرك، وانقياد ينافي الشرك، وصدق ينافي الكذب، ومحبة تنافي البغض. وقد نظمها بعضهم بقوله:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مع	محبةٌ وانقيادٌ والقبول لها
وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله بقوله:	
العلم واليقين والقبول	والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة	وفّقك الله لما أحبّه

(٢) الترمذي (٢٤٤٧)، وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

فَعُمُرُكَ الْاِفْتِرَاضِي هُوَ مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَثَلَاثَةُ قَرَابَةِ الْإِثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ عَامًا، وَالثَّانِي إِلَى أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَمَا بَعْدَهُ فَهُوَ الثَّلَاثُ الْآخِرُ، وَقَدْ تَزِيدُ سَنِيًّا فَوْقَهَا، وَقَدْ يَخْتَرِمُكَ الْمَنُونُ قَبْلَهَا، فَالْسَّعِيدُ مِنْ هَيَّا دَارِهِ بِالصَّالِحَاتِ قَبْلَ النَّقْلَةِ إِلَيْهَا، وَأَلَّا نَفَرَاشَهُ بِالْقُرْبَاتِ قَبْلَ طَوْلِ الرَّقْدَةِ فِي الْقَبْرِ، وَأَنْتَقِلَ مِيزَانُهُ بِالْبَاقِيَاتِ قَبْلَ تَطَايُرِ الصَّحَائِفِ وَاشْتِدَادِ الْمَخَافِ وَطِيَشِ كِفَافِ الْمَوَازِينِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

وَأُبَشِّرُ يَا عَبْدَ اللَّهِ بِأَمَانِ اللَّهِ لَكَ فِي قَبْرِكَ إِنْ أَطَعْتَهُ، فَلَا فَرْعَ وَلَا خَوْفَ وَلَا وَحْشَةَ حِينَ يُدْبِرُ عَنْكَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ، فَعَمَلُكَ أَنْيُسُكَ، وَشَوْقُكَ لِلْجَنَّةِ ضَجِيعُكَ، وَمَنْشَوْرُ نَجَاتِكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانًا، فَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِهِ فَإِنَّهُ عِنْدَ ظَنِّكَ بِهِ، وَثِقْ بِرَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ وَبِرِهِ وَلَطْفِهِ، وَارْجِهْ رَجَاءَ الْعَامِلِينَ التَّوَابِينَ الصَّادِقِينَ، فَإِنَّهُ لَا يُخَيِّبُ مَنْ رَجَاهُ، وَلَا يَرُدُّ مَنْ دَعَاهُ، وَلَا يُخَسِّرُ مَنْ عَامَلَهُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَرْعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيُفَرَّجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ. ثُمَّ يُفَرَّجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا

وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويُقال له: على اليقين كنت، وعليه مُت، وعليه بُعث إن شاء الله..»^(١).

وعن ابن الصلاح رَحِمَهُ اللهُ، أنه قال: أخبرني الشيخ الصالح علي بن الرّواس، قدّس الله روحه، قال: «أُلهِمْتُ في النوم هذه الكلمات: ادفع المسألة ما وجدتَ التَّجَمُّلَ يمكنك، فإن لكل يوم رزقًا جديدًا، والإلحاح في الطلب يذهب البهاء، وما أحسن الصنيع إلى الملهوف، وربما كانت الغيرة نوعًا من أدب الله تعالى، والحظوظُ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تُدرَك، فإنك ستناولها في أوانها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعًا ويغشاك القنوط»^(٢).

وما أبلغ ما قال الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «ما أشبه النكبة بالبيضة، تُحَسَّبُ سَجَنًا لما فيها، وهي تحوطه وتربيّه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تفقس البيضة، فيخرج خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته»^(٣).

أَمَّا السَّفِينَةُ، وَأَمَّا الْغُلَامُ، وَأَمَّا الْجِدَارُ.. اللَّهُمَّ صَبِرًا على ما لم نُحِطْ به خُبْرًا، ورضا يبلغ بنا رضوانك، وشكرًا يحبنا إليك، وحمدًا تباهي بنا

(١) ابن ماجه (٤٢٦٨) وصححه الألباني.

(٢) وفيات الأعيان، لابن خلكان (٢٤٥/٣)

(٣) وحي القلم، للرافعي (٩٧/٢)

ملائكتك، ودينًا واصبًا وعبوديةً لك حتى يأتينا اليقين، وفرحًا تامًّا كاملاً بك،
إله الحق.

أيا غافر الذنب العظيم وساتره ويا من له ذلت رقاب الجبابرة
فعلت بنا من أول الأمر كله جميلاً فأتبع أول الأمر آخره

اللهم يا واسع الفضل، يا عظيم المن، يا كبير المعروف، يا قديم الإحسان،
يا ربنا يا الله، نحن عبيدك وإماؤك، الفقراء إليك، المنكسرون بين يديك،
الوجلون المشفقون الراغبون الراهبون عظمتك، المكبرون لكبرك وكبريائك،
المنطرحون لسطوة جلالك، المشتاقون لرؤية جمالك، المكتفون بكمالك،
المحبونك، الواثقون بكرمك، المؤمنون مغفرتك، المتطلعون لعفوك، الراجون
رحمتك، الموقنون المؤمنون الشاهدون بحقك، المتوكلون عليك، المسبحون
الذاكرون الأوأبون الراكعون الساجدون الحامدون لك.

إلهنا؛ عبيدك سوانا كثير، وليس لنا رب سواك ندعوه، ولا إله نصمد
إليه، ولا ملجأ نعتصم به، فررنا منك إليك، وعُدنا برضاك من سخطك،
وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، وابتهلنا إليك من ذنوبنا وخطايانا
وسيئاتنا وعجزنا وقصورنا وكسلنا وتقصيرنا وضعفنا وانقطاعنا، وما عبدناك
حقَّ عبادتك، ولا قدرناك حقَّ قدرك، ولا شكرناك حقَّ شكرك. هذه نواصينا
الخاطئة وجباهنا الظالمة وقلوبنا التائبة خاضعة بين يديك، عزَّ جارك، وجلَّ
ثناؤك، ولا إله غيرك.

اللَّهُمَّ نَسْأَلُكَ بِوَجْهِكَ الْأَكْرَمِ وَاسْمِكَ الْأَعْظَمِ وَأَسْمَائِكَ الْحَسَنِي
وَصِفَاتِكَ الْعَلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ
بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَوَالِدِينَا وَوَالِدَيْهِمْ وَأَهْلِينَا وَذُرَارِينَا وَأَقَارِبَنَا وَجِيرَانَنَا
وَمُشَايِخَنَا وَأَحْبَابَنَا، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
فَإِنْ تَمَادَيْتُ فَاغْفِرْ إِنِّي بَشَرٌ وَإِنْ غَفَرْتَ فَاجْزُلْ إِنَّكَ اللَّهُ
وَكَلْنَا عَابِرُونَ، وَإِلَى الْآخِرَةِ رَاكِلُونَ، وَإِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ، اللَّهُمَّ حُسْنَ
الْعَاقِبَةِ، وَمَجَاوِرَةَ لِنَبِيِّكَ ﷺ فِي دَارِ النِّعَمِ، وَجَوَارًا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ
الْآخِرَةِ، إِلَهَ الْحَقِّ.

هذا؛ وخلاصة الكتاب - فاعلم -: لا تستبدل أحدًا بالله الأحد.

وانتهى الأمر ربنا بحمدك كما ابتدأ بحمدك، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الحجّية: ٣٦ - ٣٧].

وَصَلِّ إِلَهَنَا فِي كُلِّ حِينٍ عَلَى مَنْ كَانَ لِلْمَسْكِ الْخِتَامَا



حمدٌ وتسبيحٌ وابتهاال

مَنْ ثَوَّرَ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بَعْلُوْ هَمَّةٍ، وَقُوَّةَ نِيَّةٍ، وَخُلُوصَ قَصْدٍ، وَصَفَاءَ ذَهْنٍ، وَحُسْنَ اسْتِقْبَالٍ وَافِدِ الْهُدَى، وَرَافِدِ التَّدْبِيرِ لِمُبَاشَرَةِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ بِالْعَيْنِ وَالْفَمِ وَالْإِذْنِ وَالْجَنَانِ؛ لَمْ يَشْبَعْ مِنْ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَرْغَبْ عَنْ فَوَائِدِهِ، إِذْ فَطَمَتْهُ فَرَائِدُهُ، فَقَدْ حَوَى عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَهَدَايَاتِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَوَاصِّ ذَخَائِرِ الْخَيْرِ لَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَصُولُ الْهُدَى وَالْعِلْمِ وَالنُّورِ وَالسَّعَادَةِ بِأَزْمَتِهَا بَيْنَ دِفْتَيْهِ، فَهُوَ مِنْهَلٌ لَا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ، وَمَنْجَمٌ لَا تَفْنَى كُنُوزُهُ، وَبَحْرٌ لَا سَاحِلَ لِنَهَايَاتِ مَكَارِمِهِ، وَغِيثٌ لَا مَتْنَهَى لِبَرَكَاتِهِ، وَالنَّاسُ فِي شَأْنِهِ مَا بَيْنَ مُعْرِضٍ عَنْهُ أَوْ مُسْتَقِلٍّ مِنْهُ أَوْ مُسْتَكْثَرٍ.

فَهُوَ غَنِيْمَةُ الْغَنَائِمِ بِحَقِّ لِكُلِّ رَاغِبٍ إِلَى الْهُدَى، صَادِقٍ فِي الطَّلَبِ، مُفْتَقِرٍ لِلْمَوْلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، فَمَا مِنْ مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ، أَوْ إِشْكَالِيَّةٍ فِقْهِيَّةٍ، أَوْ حَيْرَةٍ فِكْرِيَّةٍ، أَوْ هَمٍّ قَلْبِيٍّ، أَوْ غَمٍّ رُوحِيٍّ، أَوْ خَوْفٍ، أَوْ قَلْقٍ، أَوْ قَسْوَةٍ، أَوْ غَفْلَةٍ، أَوْ ضِيَاعٍ، أَوْ حَيْرَةٍ، أَوْ قَلْقٍ، أَوْ جَهْلٍ، أَوْ عَطَشٍ رُوحٍ، أَوْ جَوْعَةٍ قَلْبٍ، أَوْ نَفْثَةٍ صَدْرٍ، إِلَّا وَفَى الْقُرْآنُ شِفَاؤَهُ وَغَنَاءَهُ وَغِذَاؤَهُ وَدَوَاءَهُ وَكِفَايَتَهُ، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [٨٩: النحل].

وَقَبْلَ الرِّحِيلِ لَنَا وَقْفَةٌ عَلَى سَاحِلِ تَدْبِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فَتَدَبَّرْ - أَسْعِدْكَ اللَّهُ - خَوْفَ الْمَلَائِكَةِ رَبِّهِمُ الْعَظِيمِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَيْسَتْ فِيهِمْ غَرِيزَةُ الْعَصِيَانِ أَصْلًا، إِذْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ مُسْتَغْرَقُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَعْظِيمِهِ سُبْحَانَهُ

وبحمده، ومع هذا كله فقد وصفهم الله تعالى بالخوفِ منه جلّ جلاله، وهو خوف الخشية لعلمهم بالله جلّ جلاله، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠] أي: يسجدون خائفين وجليّن من الربّ عزّ وجل، مع أنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦﴾ [التحریم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فهم مثابرون على طاعة الله تعالى، وامثال أوامره، واجتناب مناهيه؛ فما سرُّ تلك الخشية الملائكية؟!

إنّ العلم بالله تعالى، فمن كان بالله أعلم كان منه أخوف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ونبينا ﷺ كان أتقى الناس وأخشاهم لله تعالى، وأشدّهم خوفاً منه مع أنه كان مغفور الذنوب متقدّمها ومتأخّرها؛ لأنه كان أعلمهم بالله تعالى، فله صفات الجلال والجمال وكمال الأفعال، وكلّ ما لله كمال، تبارك وتعالى وجلّ وعزّ وتقدّس، فلئن كانت الملائكة تخشى الله وهي الطائفة العابدة القانتة؛ فكيف بالإنسان العاصي المذنب الخطّاء الغافل، اللهم رحماك رحماك، وسترک، ومغفرتك إله الحق.

روى الإمام مسلم^(١) بسنده عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أردفني رسول الله ﷺ فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ شَعْرِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٍ؟» قَالَ:

(١) مسلم (٢٢٥٥)

نعم. قَالَ: «هيه». قَالَ: فَأَنْشَدْتَهُ بَيْتًا فَقَالَ: «هيه». قَالَ: فَأَنْشَدْتَهُ حَتَّى بَلَغْتَ مِئَةَ بَيْتٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنْشَدْتَ النَّبِيَّ ﷺ مِئَةَ قَافِيَةٍ مِنْ قَوْلِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ كُلِّ ذَلِكَ يَقُولُ: «هيه، هيه». ثُمَّ قَالَ: «إِنْ كَادَ فِي شَعْرِهِ لِيُسْلِمَ». وَمَا يُنسَبُ لِأُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْمُلْكُ رَبَّنَا	فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ مَجْدًا وَأَعْجَدُ
مَلِيكَ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيَّمِنٌ	لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوَجُوهَ وَتَسْجُدُ
عَلَيْهِ حِجَابُ النُّورِ وَالنُّورُ حَوْلُهُ	وَأَنْهَارُ نُّورٍ حَوْلَهُ تَتَوَقَّدُ
فَلَا بَصَرٌ يَسْمُو إِلَيْهِ بِطَرْفِهِ	وَدُونَ حِجَابِ النُّورِ خَلَقَ مُؤَيَّدُ
مَلَائِكَةً أَقْدَامُهُمْ تَحْتَ عَرْشِهِ	وَلَوْ لَا إِلَهُ الْخَلْقِ كَلَّوْا وَأَبْلَدُوا
قِيَامٌ عَلَى الْأَقْدَامِ عَانِينَ تَحْتَهُ	فَرَائِصُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ تُرْعَدُ
وَسِبْطٌ صُفُوفٌ يَنْظُرُونَ قَضَاءَهُ	يُصِيخُونَ بِالْإِسْمَاعِ لِلْوَحْيِ رُكَّدُ
أَمِينَ لَوْحِي الْقُدْسِ جِبْرِيلُ فِيهِمْ	وَمِيكَالُ ذُو الرُّوحِ الْقَوِيِّ الْمُسَدَّدُ
وَحُرَّاسُ أَبْوَابِ السَّمَوَاتِ دُونَهُمْ	قِيَامٌ عَلَيْهِمُ بِالْمَقَالِيدِ رُصَّدُ
فَنِعْمَ الْعِبَادُ الْمُصْطَفَوْنَ لِأَمْرِهِ	وَمِنْ دُونِهِمْ جُنْدٌ كَثِيفٌ مُجَنَّدُ
مَلَائِكَةٌ لَا يَفْتَرُونَ عِبَادَةً	كَرُوبِيَّةٌ مِنْهُمْ رُكُوعٌ وَسُجَّدُ
فَسَاجِدُهُمْ لَا يَرْفَعُ الدَّهْرَ رَأْسَهُ	يُعْظَمُ رَبًّا فَوْقَهُ وَيُمَجَّدُ
وَرَاكِعُهُمْ يَعْنُو لَهُ الدَّهْرُ خَاشِعًا	يُرَدِّدُ آلَاءَ الْإِلَهِ وَيَحْمَدُ

وَمِنْهُمْ مُلَفٌّ فِي الْجَنَاحِينَ رَأْسُهُ
مِنَ الْخَوْفِ لَا ذُو سَامَةٍ بِعِبَادَةٍ
وَدُونَ كَثِيفِ الْمَاءِ فِي غَامِضِ الْهَوَا
وَبَيْنَ طِبَاقِ الْأَرْضِ تَحْتَ بُطُونِهَا
فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَلْقُ قَدْرَهُ
وَمَنْ لَمْ تُنَازِعْهُ الْخَلَائِقُ مُلْكَهُ
مَلِكُ السَّمَوَاتِ الشِّدَادِ وَأَرْضِهَا
هُوَ اللَّهُ بَارِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ
وَأَنْتَى يَكُونُ الْخَلْقُ كَالْخَالِقِ الَّذِي
وَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ الدَّهْرِ جِدَّةٌ
وَتَفْنَى وَلَا يَبْقَى سِوَى الْوَاحِدِ
تُسَبِّحُهُ الطَّيْرُ الْجَوَانِحُ فِي الْخَفَى
وَمِنْ خَوْفِ رَبِّي سَبَّحَ الرِّعْدُ فَوْقَنَا
وَسَبَّحَهُ النَّيْنَانُ وَالْبَحْرُ زَاخِرًا
أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمُقِيمُ عَلَى الْهَوَى
عَنِ الْحَقِّ كَالْأَعْمَى الْمُحِيطِ عَنِ
وَحَالَاتِ دُنْيَا لَا تَدُومُ لِأَهْلِهَا
يَكَادُ لِذِكْرِ رَبِّهِ يَتَفَصَّدُ
وَلَا هُوَ مِنْ طَوْلِ التَّعَبُّدِ يَجْهَدُ
مَلَائِكَةٌ تَنْحَطُّ فِيهِ وَتَصْعَدُ
مَلَائِكَةٌ بِالْأَمْرِ فِيهَا تَرْدُدُ
وَمَنْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ
وَإِنْ لَمْ تُفَرِّدْهُ الْعِبَادُ فَمُفَرَّدُ
وَلَيْسَ بِشَيْءٍ عَنِ قَضَائِهِ تَأْوُدُ
إِمَاءٌ لَهُ طَوْعًا جَمِيعًا وَأَعْبُدُ
يَدُومُ وَيَبْقَى وَالْخَلِيقَةُ تَنْفَدُ
وَمَنْ ذَا عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ يَحْلُدُ
يُمِيتُ وَيُحْيِي دَائِبًا لَيْسَ يَهْمُدُ
وَإِذْ هِيَ فِي جَوْ السَّاءِ تُصْعَدُ
وَسَبَّحَهُ الْأَشْجَارُ وَالْوَحْشُ أَبَدُ
وَمَا طَمَّ مِنْ شَيْءٍ وَمَا هُوَ مُقْلِدُ
إِلَى أَيِّ حِينٍ مِنْكَ هَذَا التَّصَدُّدُ
وَلَيْسَ يَرُدُّ الْحَقُّ إِلَّا مُفْنِنْدُ
فَبَيْنَا الْفَتَى فِيهَا مَهِيْبٌ مُسَوَّدُ

إِذْ انْقَلَبْتَ عَنْهُ وَزَالَ نَعِيمُهَا وَأَصْبَحَ مِنْ تَرْبِ الْقُبُورِ يُوسَّدُ
 وَفَارَقَ رَوْحًا كَانَ بَيْنَ جَنَانِهِ وَجَاوَرَ مَوْتِي مَا لَهُمْ مُتَرَدَّدُ
 فَأَيُّ فَتَى قَبْلِي رَأَيْتَ مُحَلَّدًا لَهُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ مَا يَتَوَدَّدُ
 وَمَنْ يَتَلِيهِ اللَّهُ مِنْهُ بِعَشْرَةٍ سَيَكْبُو لَهَا وَالنَّائِبَاتِ تَرَدَّدُ
 فَلَمْ تَسَلَمْ الدُّنْيَا وَإِنْ ظَنَّ أَهْلُهَا بِصِحَّتِهَا وَالدَّهْرُ قَدْ يَتَجَرَّدُ
 أَلَسْتَ تَرَى فِيهَا مَضَى لَكَ عِبْرَةً فَمَهْ لَا تُكُنْ يَا قَلْبُ أَعْمَى يُلَدَّدُ
 فَكُنْ خَائِفًا لِلْمَوْتِ وَالْبَعْثِ بَعْدَهُ وَلَا تَكُ مِمَّنْ غَرَّهُ الْيَوْمُ أَوْ غَدُ
 فَإِنَّكَ فِي دُنْيَا غُرُورٍ لِأَهْلِهَا وَفِيهَا عَدُوٌّ كَاشِحُ الصَّدْرِ يُوقِدُ
 وَسَاكِنُ أَقْطَارِ الرِّقِيعِ عَلَى الْهَوَا وَمَنْ دُونَ عِلْمِ الْغَيْبِ كُلِّ مُسَهَّدُ
 وَلَوْلَا وَثَاقُ اللَّهِ ضَلَّ ضَالُّنَا وَقَدْ سَرَّنا أَنَّا تُتْلُ فَنُؤَادُ
 تَرَى فِيهِ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَأَخْبَارَ غَيْبِ فِي الْقِيَامَةِ تَنْجُدُ
 وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرِّقِيمُ مُجَاوِرًا وَصِيدُهُمُ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمْدُ

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

١٤ - الثقة بالله تعالى.	١ - مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب.
١٥ - الافتقار إلى الله تعالى.	٢ - الإخلاص والتوحيد.
١٦ - الاستغناء بالله تعالى.	٣ - العبودية.
١٧ - التعلّق بالله تعالى.	٤ - الصدق والتّصديق.
١٨ - الالتجاء إلى الله تعالى.	٥ - محبة الله تعالى.
١٩ - الاعتصام بالله تعالى.	٦ - الشّوق إلى لقاء الله تعالى.
٢٠ - سلامة الصدر.	٧ - الأنس بالله تعالى.
٢١ - العفاف.	٨ - الإرادة.
٢٢ - الصّبر.	٩ - العزم.
٢٣ - الرّضا بالله تعالى.	١٠ - الرّجاء.
٢٤ - شكر الله تعالى.	١١ - الرّغبة.
٢٥ - حمد الله تعالى.	١٢ - التّوكّل على الله تعالى.
٢٦ - الفرح بالله تعالى.	١٣ - حُسن الظّنّ بالله تعالى.
٢٧ - ...	

سلسلة: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾

- ١ - محمد رسول الله ﷺ.
- ٢ - هل انتشر الإسلام بالسيف؟
- ٣ - كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة.
- ٤ - النصرانية من التوحيد إلى الوثنية.
- ٥ - أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام.
- ٦ - يا سائلاً عن بني إسرائيل.
- ٧ - المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب.
- ٨ - سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ.
- ٩ - أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ.
- ١٠ - نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البيبل).
- ١١ - العقائد النصرانية في الميزان.
- ١٢ - ربح محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام.

كتب متنوعة

- ١ - (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
- ٢ - حديث الإفك (عبرات وعبر).
- ٣ - لله درك يا كعب.
- ٤ - إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمر.
- ٥ - كفاءة النسب وزیوف الجاهلية.
- ٦ - صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
- ٧ - (ويكون الدين كله لله).
- ٨ - نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
- ٩ - المدهشات. (منتخبات من المدهش).
- ١٠ - تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً.
- ١١ - متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
- ١٢ - وقد يجمع الله الشيتين.
- ١٣ - دموع على سفح الفؤاد.
- ١٤ - نظرات في أعماق النفس الإنسانية.
- ١٥ - أزمة الفكر المادي.
- ١٦ - السلفية محض الإسلام العتيق.
- ١٧ - إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
- ١٨ - رقائق المتقين.
- ١٩ - شعاع الفكر (١) مقالات شرعية.
- ٢٠ - شعاع الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبية.
- ٢١ - مختارات من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميحي رَحْمَةُ اللَّهِ (تحقيق).
- ٢٢ - من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ محمد الدميحي رَحْمَةُ اللَّهِ (تحقيق).
- ٢٣ - الحنيفية، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام.
- ٢٤ - من سير الراجلين.
- ٢٥ - انفساخ العزائم وانتقاض الدعائم.
- ٢٦ - مقدمة الحموية، طلع الصباح فأطفؤا القنديلاً.

- ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجّاناً بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمل مجّاناً مؤلفات إبراهيم الدميحي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى.

- ٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة النفوس).
- ٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ في القَدَر.
- ٢٩- من هو الماهر بالقرآن.
- ٣٠- مباحث فقهية.
- ٣١- معالم التوحيد والحنيفية في سيرة خير البرية ﷺ.
- ٣٢- إرشاد الحفّاظ في متشابه الألفاظ للقرآن الكريم.
- ٣٣- الإعجاز الربّاني في اليهود.
- ٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ.
- ٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفات، (على شرحي الإمامين النووي وابن حجر للصحيحين).

الصف والتنسيق: لميس الغديري

@Lamees_Majeed



٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩٩